سورة الأعراف

قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] الآية.

[٤١١] روى مسلم عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية وهي عريانة وعلى فرجها خرقة وهي تقول: اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله، فنزلت **﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾**(١) ونزلت **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾**(٢) الآيتين.

ك. . قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤] الآية.

[٤١٢] أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي [ﷺ] قام على الصفا فدعا قريشاً فجعل يدعوهم فخذاً فخذاً: يا بني فلان يا بني فلان، يحذرهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يَهوتُ إلى الصباح فأنزل الله: **﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾**(٣)

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] الآية.

[٤١٣] أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال: قال حمل بن أبي قشير وسموأل بن زيد لرسول الله [ﷺ]: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإنا نعلم ما هي؟ فأنزل الله **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾**(٤) الآية. وأخرج أيضاً عن قتادة قال: قالت قريش فذكر نحوه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] الآية.

---

[٤١١] (١) سورة الأعراف: الآية (٣١).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٣٢) ـ والحديث رواه أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص (١٢٩) عن ابن عباس من وجهين وطريقين مختلفين بنحو ما ذكر.
[٤١٢] (٣) سورة الأعراف: الآية (١٨٤).
[٤١٣] (٤) سورة الأعراف: الآية (١٨٧).

[٤١٤] أخرج ابن أبي حاتم وغيره[١] عن أبي هريرة قال: نزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[٢] في رفع الأصوات في الصلاة خلف النبي [ﷺ].

[٤١٥] وأخرج أيضاً عنه قال: كانوا يتكلمون في الصلاة، فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾[٣] الآية. وأخرج عن عبدالله بن مغفل نحوه وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله.

[٤١٦] وأخرج عن الزهري قال: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار كان رسول الله [ﷺ] كلما قرأ شيئاً قرأه.

[٤١٧] وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب قال: كانوا يتلقفون من رسول الله [ﷺ] إذا قرأ شيئاً قرؤا معه حتى نزلت هذه الآية التي في الأعراف: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[٤]. قلت ظاهر ذلك أن الآية مدنية.

* * *

---

[٤١٤] (١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٣١).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٠٣).
[٤١٥] (٣) سورة الأعراف: الآية (٢٠٣).
[٤١٧] (٤) سورة الأعراف: الآية (٢٠٣).

(٧) سُورَةُ الأعْرَافِ مَكِّيَّة وآياتها ستٌّ ومائتان

سورةُ الأعراف من أطول السور المكية ، وهي تعرض لدعوة القرآن في إجمال ، ولنتائج الإعراض عن دعوة الله – كرسالة إلهية – جاءت لإنقاذ البشرية من ظلمات الجهل والضلال ، وهي أولُ سورة عرضتْ للتفصيل في قصص الأنبياء ، ومهمتها كمهمة السور المكية : تقرير أصول الدعوة الإسلامية بالإيمان والتوحيد ، وتقريرُ البعث والجزاء ، وتقريرُ الوحي والرسالة . سُميت بسورة الأعراف لورود اسم « الأعراف » فيها وهو سُورٌ مضروبٌ بين الجنة والنار يحولُ بين أهلهما ، ويُسمَّى أهلُه أصحاب الأعراف ، وهم قومٌ استوتْ حسناتُهم وسيئاتُهم ، فليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار ، يُحبسون هناك على السور حتى يقضي الله سبحانه في أمرهم ، فيكونوا من أهل اليمين أو من أهل الشمال ، لأنه ليس في الآخرة إلا داران : دارُ النعيم ، ودارُ الجحيم . تعرَّضت السورة الكريمة – في البدء – للقرآن العظيم معجزة محمد ﷺ الخالدة ، وقرَّرت أن هذا القرآن نعمةٌ من الرحمن على الإنسانية بأسرها ، وأنَّ عليهم أن يتمسكوا بتوجيهاتِه وإرشاداتِه ليفوزوا بسعادة الدارين ، ثم لفتت الآيات أنظارَ البشر إلى نعمةِ خلقهم من أب واحد ، وإلى تكريم الله جلَّ وعلا لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أب البشر « آدم » عليه السلام الذي خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له « ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم

ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكنْ من الساجدين » وحذَّرت الآياتُ من كيد الشيطان ذلك العدوّ المتربّصِ الذي قعد على طريق الناس ليصدَّهم عن الهُدَى ، ويُبعدهم عن خالقهم ، وقد ذكر تعالى قصة آدم مع إبليس ، ثم خروجَه من الجنة ، وهبوطَه إلى الأرض كنموذج للصراع الدائم بين الخير والشر ، والحقِ والباطل ، والهدى والضلال ، ولهذا وجَّه الله تعالى إلى أبناء آدمَ – بعد أن بيَّن لهم عداوة إبليس لأبيهم – أربعة نداءات متتالية بوصف البنوة لآدم « يا بني آدم » وهو نداءٌ خاصٌ بهذه السورة لم يأت في غيرها من سور القرآن ، حذَّرهم فيها من عدوهم إبليس اللعين ، الذي نشأ على عداوتهم من الزمن القديم ، حين وسوس لأبيهم آدم حتى أوقعه في الزلَّةِ والمخالفةِ لأمر الله ﴿ يا بني آدمَ لا يفتننَّكمُ الشيطانُ كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليُرِيَهُما سَوْآتِهما .. ﴾ ﴿ يا بني آدمَ قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سوآتِكم وريشاً ولباسُ التقوى ذلك خيرٌ .. ﴾ ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد .. ﴾ ﴿ يا بني آدمَ إمَّا يأتينَّكُم رسلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي .. ﴾ وقد تناولت السورة الكريمة مشهداً حسياً من مشاهد القيامة ، تبدو فيه ألوانٌ جديدة من صور المحاورة والمناظرة ، وفي هذا المشهد تجري المحادثة بين فِرَق ثلاث : فرقةِ المؤمنين أصحاب الجنة ، أهلِ الهدى والإيمان ، وفرقةِ الكافرين أصحابِ النار ، أهلِ الضلال والبهتان ، وفرقة ثالثة هم أصحاب الأعراف الذين استوت حسناتُهم وسيئاتُهم ، فإذا رأوا أصحابَ الجنةِ طمعوا ، وإذا رأوا أصحاب النار فزعوا ﴿ وبينهما حجابٌ وعلى الأعرافِ رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم ، ونادَوْا أصحابَ الجنَّةِ أن سلامٌ عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صُرفتْ أبصارُهم تلقاءَ أصحاب النار قالوا ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ مشهدٌ لا بدَّ أن تشهدَه البشريةُ على

الحقيقةِ دون تمثيلٍ أو تخييل ، يظهر فيه شماتةُ أهلِ الحق بأهل الباطل ، وينطلق صوتٌ علويٌ يسجِّل على المكذبين المجرمين اللعنَة والطرد والحرمان ، وقد أحرقتْ النارُ أكبادَهم ، وشَوَتْ وجوهَهم ، فيفزعون للاستغاثة بأهل الجنة أن يُسعفوهم بجرعةٍ من ماء ﴿ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنةِ أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكمُ الله ، قالوا إنَّ الله حرمهما على الكافرين﴾ .

وبعد هذا تعودُ الآياتُ فتلفتُ الأنظار إلى بعض الأدلة الكونية في الأنفسِ والآفاق ، وتحذّر من الإفساد في الأرض ، وتضرب مثلاً للنفوسِ الطيبة ، والنفوس الخبيثة ، بالأرض السَّهلةِ والأرض السَّبْخةِ ، فالأرضُ الكريمةُ التربةِ يخرج النبات فيها حسناً غزيرَ النفع ، والأرض الخبيثةُ التربةِ لا يخرجُ النباتُ فيها إلا تافهاً حقيراً بعسر ومشقة ﴿والبلدُ الطيّبُ يخرجِ نباتُه بإذنِ ربّهِ ، والذي خُبثَ لا يَخْرُجِ إلا نَكِداً ، كذلكَ نصرِّفُ الآياتِ لقومٍ يشكرون﴾ . وتناولت السورة بعد ذلك « قَصَص الأنبياء » بإسهاب ، فتحدثت عن شيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام ، ثم عن هودٍ ، وصالحٍ ، ولوط ، وشعيب ، وموسي ، عليهم من الله أفضلُ الصلاةِ وأزكى السلام ولما كانت قصة الكليم موسي عليه السلامِ مع الطاغيةِ فرعون مملوءةً بالعِبَر والعظات ، تناولت السورةُ الحديثَ عنهم بالتفصيل ، فتحدثت عما حلَّ بقوم فرعون من البلايا والنكبات وما أصابهم من القحط والجدب ، والطوفان والجراد نتيجةً لتكذيبهم بآيات الله ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجرادَ ، والقُمَّلَ ، والضفادعَ ، والدَّمَ آياتٍ مفصَّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين.﴾ . وتناولت السورة كذلك « علماءَ السَّوْء » والمثلَ المخزي لهم ، وصوَّرتهم بأقبح وأشنع تصوير ، بصورة الكلب اللاهث الذي لا يكفُّ عن اللَّهث سواءً زجرتَه وطردته أو أحسنت إليه

وأكرمته ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخَ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه ، فمثلُه كمثل الكلب إن تحمِلْ عليه يلهثْ أو تتركْه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقْصُصِ القَصَصَ لعلهم يتفكرون﴾ وهذه لَعْمرُ الحقِ أقبحُ صورةٍ لمن لم ينتفع بعلمه ، وجعل العلم سبيلاً لجمع حُطام الحياة الفانية فكان خزياً ووبالاً عليه ، وقد ختمت السورة الكريمة بالتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، من دون الله ، واتخذوا الأوثان والأصنام شركاء مع الله ﴿ ألهم أرجلٌ يمشون بها ؟ أمْ لهم أيدٍ يبطِشون بها ؟ أم لهم أعينٌ يبصرون بها ؟ أم لهم آذانٍ يسمعون بها ؟ قيل ادعوا شركاءكم ثم كيدونِ فلا تنظرون﴾ وهكذا تختم السورة بالدعوة إلى التوحيد كما بدأت بالتوحيد ، فكانت دعوة إلى الإيمان في البدء والختام .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

قيل:[1] إنها مكية. بسم الله الرحمن الرحيم.[2]

﴿الٓمٓصٓ﴾ [١]

الحمد لله العليم بخلقه، اللطيف لرشد عباده، ضرب لهم الآيات والبيان، لينقلهم بحكمته وتدبيره من الجهالة إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدى، ووصّى به رسوله أن يدعو[3] عباده إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، فبعث محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافّة، وأنزل إليه الكتاب. تلا فيه ما في الكتب الأولى ليبيّن لأهل الكتاب والمشركين أن النبي الأمّي العربي لم يَعلم ما في الكتب[4] الأعجمية[5] إلا من عند الله، ليكون ذلك أوضح لهم في الحجة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة معروفا عند الفريقين أنه لم يَتْلُ[6] كتابا ولا خَطَّه بيمينه،[7] ولا كان عندهم من شعرائهم، ولا المعروف [بعلم] أنسابهم،[8] وعِلم أنبائهم،[9] وذلك أبلغ في البرهان. فأنبأ فيه علم الغيوب، وفَرَض الفرائض، وحَكَم فيه الأحكام، وأنزل فيه الحجج بتأليفٍ يَعجز[10] عنه مَن دون الله، ليبين لهم أنه[11] من عند الله

[1] ع: وقيل.
[2] ع + وبه.
[3] م: أن يدعوا.
[4] ك ن: ما في كتب؛ ع م: في الكتب.
[5] ع: العجمية.
[6] ك: يتلو.
[7] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وما كنتَ تتلو مِن قَبْله من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذًا لارتاب المُبْطِلون﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٨).
[8] جميع النسخ: بأنسابهم. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٣ظ.
[9] ن: بأنبائهم.
[10] ع م: يعجزه.
[11] ع: اية.

فأَنِف قومه وأبَوا أن يستمعوه واستكبروا عليه، وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ،[١] وقالوا: لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ.[٢] فأتاهم العليم الخبير مِن قِبَل أَنَفِهم[٣] وكِبْرهم، فأنزل في الكتاب كلاما افتتح به السورة لم يكن من كلام قومه، فلما سمعوا ظنوا أنه بديعٌ ابتدعه[٤] محمد كابتداعهم البلاغات والأوابِد،[٥] وأَنِفوا أن يكون محمد يقدر من ذلك على ما لا يقدرون، فتدبّروا الكتاب ليعلموا صدوره بما بعده من الكلام،[٦] فسمعوا كلاما مجيدا حكيما،[٧] ونبأ عظيما، وحُججا نيّرة، ومواعظ شافية، فدخل أكثرهم في الإسلام، وقعد عنه رجلان: معاند متعمّد، وجاهل مقلّد لا يَنظر. وفيما أنزل مما وُصف قوله: كهيعص،[٨] وطسم،[٩] **والمص**، والمر،[١٠] وما أشبهها. فقال: **المص**، ليعطف بها[١١] على النظر فيما بعدها.*

ويحتمل أن تكون[١٢] هذه الحروف المقطّعة خطابا[١٣] خاطب الله بها رسله يفهمونها لا يفهمها[١٤] غيرهم، على ما يكون لملوك الأرض بينهم وبين خواصّهم إشارات[١٥] يفهمها خواصّهم ولا يفهمها غيرهم.[١٦] هذا متعارف فيما بين الخلق أن يكون لهم فيما بينهم وبين خواصهم[١٧] ماذكرنا.

---

[١] سورة الزخرف، ٣١/٤٣.

[٢] سورة فصلت، ٢٦/٤١.

[٣] جميع النسخ: أنفسهم. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٢٨٣ظ.

[٤] جميع النسخ: ابتدع.

[٥] الآبِدة: الكلمة أو الفعلة الغريبة، وجاء فلان بآبدة: أي بداهية يبقى ذكرها على الأبد، ويقال للشوارد من القوافي: الأوابد (*لسان العرب* لابن منظور، «أبد»).

[٦] أي ليعلموا ما جاء في صدر الكلام في القرآن من الحروف المقطعة بالنظر إلى ما جاء فيما بعده من الآيات.

[٧] ك – حكيما.

[٨] سورة مريم، ١/١٩.

[٩] سورة الشعراء، ١/٢٦؛ وسورة القصص، ١/٢٨.

[١٠] سورة الرعد، ١/١٣.

[١١] ن ع م: لتعطف بها.

* وقعت هنا قطعة من تفسير الآية متقدمة على موضعها، فنقلناها إلى هنالك. انظر: ورقة ٢٣٩و/سطر ٢٢-٣١.

[١٢] ن ع م: أن يكون.

[١٣] ك: خطاب.

[١٤] ن – لا يفهمها.

[١٥] ع: إشاراة.

[١٦] ك – على ما يكون لملوك الأرض بينهم وبين خواصهم إشارات يفهمها خواصهم ولا يفهمها غيرهم.

[١٧] ن – إشارات يفهمها خواصهم ولا يفهمها غيرهم هذا متعارف فيما بين الخلق أن يكون لهم فيما بينهم وبين خواصهم.

فعلى ذلك يحتمل أن تكون[١] هذه الحروف المقطّعة خطابات من الله خاطب بها رسله، وهم خواصّه يفهمونها ولا يفهمها[٢] غيرهم. ثم وَجْهُ فَهْمِهِم يكون لوجهين. يخبرهم[٣] فيقول: إني[٤] إذا أنزلت إليكم كذا فمرادي من ذلك كذا. أو كان[٥] البيان والمراد منها مقرونا بها وقت إنزالها، فهموا المراد منها بما أفهمه الله وأراهم ما لم يُرِ ذلك غيرَهم، كقوله: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ،[٦] أرى رسله أشياء[٧] لم يُرِ ذلك غيرَهم ولا أَطْلَعَهم على ذلك، فهي[٨] من المتشابه على غيرهم، وأما على الرسل فليس من المتشابه.

وقال الفراء: يحتمل أن تكون[٩] هذه الحروف المقطّعة المتفرّقة التي أنزلها من ا ب ت ث إلى آخرها كأنه قال: إني جمعت هذه الحروف المتفرّقة فجعلتها كتابا،[١٠] / فأنزلتها من نحو **المص**، [٢٣٩ظ]
و الٓمٓ اللهُ،[١١] والٓمٓ ذٰلِكَ الْكِتَابُ،[١٢] والمر،[١٣] ونحوه. والله أعلم بما أراد به ذلك. وقد ذكرنا هذا في صدر الكتاب مقدار[١٤] ما حفظنا وفهمنا من أقاويل أهل العلم في ذلك.[١٥]

﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]

[٢٣٩و س٢٢] *ثم ابتدأ فقال: **كتاب أنزل إليك**، يقول: **كتاب** من ربك **لتنذر به** عباده. **فلا يكن في صدرك حرج منه**، يقول: فلا يَضيقَنّ[١٦] **صدرك** عن الذي فرض الله عليك فيه من البلاغ إلى قومك،

---

[١] ن ع م: أن يكون.
[٢] ع م: ولا يفهمون.
[٣] «أحدها أن يخبرهم الله بوحي غير متلو على لسان الملك فيقول...» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٣ظ).
[٤] ع م: الي.
[٥] ع: وكان.
[٦] سورة النساء، ١٠٥/٤.
[٧] م: شيئا.
[٨] ع م: فهم.
[٩] ع م: أن يكون.
[١٠] *معاني القرآن* للفراء، ٢٤٨/١.
[١١] سورة آل عمران، ٣/١-٢.
[١٢] سورة البقرة، ٢/١-٢.
[١٣] سورة الرعد، ١/١٣.
[١٤] ن + هذا.
[١٥] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ١/٢.
[١٦] ن ع م: فلا تضيقن.

وبما فرض عليك من البراءة منهم ومما يعبدون من دون الله. فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يخاف ما خافت الرسل من بين يديه، فقال موسى: فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ،[1] وقد كان يَعرف قومه[2] بالتسرّع إلى القتل فيما ليس مثل ما يأتيهم به، فأمّنه الله منهم بقوله: وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ،[3] وقال في آخر هذه السورة: ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ،[4] ليفهموا أنها[5] عن الله تعالى، فإنها من أعظم آيات الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، أعلمه أنهم لا يَصِلون إلى ما يخاف منهم. وفي الأثر أن الله تعالى لما أرسله إلى قومه فقال: «أي رب، إذًا يَثْلَغُوا[6] رأسي فيَذَرُوه مثل خُبزة».[7] فأمّنه الله تعالى من ذلك فقال: **فلا يكن في صدرك حرج من البلاغ**، ولا يَضِيقنّ صدرك عما فرض الله عليك من العبادة والحكم الذي تخالف فيه قومك. ثم وصف الكتاب فقال: **وذكرى للمؤمنين**، يقول: يتذكرون بما فيه ويتدبرونه، فيعلمون به[8] الحق من الباطل،
٢٣٩و س٣١] ويذكرون به ما فرض[9] عليهم.*

وقوله عز وجل: **فلا يكن في صدرك حرج منه**، قيل: الحرج هو الضيق في الصدر. ثم يحتمل ضيق الصدر وجوها. يحتمل ضيق الصدر ما يحمل عليه في ذلك من الشدائد والخطرات[10] بتبليغه إلى الكفرة الذين نشئوا على الكفر والشرك، وخاصّةً الفراعنة والملوك الذين هِمّتهم القتل والإهلاك لمن استقبلهم بالخلاف. أو أن يوسوس في صدره الشيطان أنه ليس من عند الله. أو أن يقول له: إنه من أساطير الأولين، على ما قال أولئك الكفرة:

---

[1] سورة الشعراء، ٢٦/١٤.
[2] أي كان يعرف محمد صلى الله عليه وسلم قريشا.
[3] سورة المائدة، ٥/٦٧.
[4] سورة الأعراف، ٧/١٩٥.
[5] ك: يفهموها؛ ن ع م: يفهمونها.
[6] ثَلَغَه بالعصا: ضربه ... وثَلَغَ الشيءَ يَثْلَغُه ثَلْغا: شَدَخه، وثَلَغَ رأسَه يَثْلَغه ثَلْغا: هَشَمه وشَدَخه. وقيل: الثَّلْغ في الرَّطْب خاصة. وفي الحديث: «إذًا يَثْلَغُوا رأسي كما تُثْلَغ الخبزة»، الثَّلْغ: الشَّدْخ، وقيل: هو ضَرْبُك الشيء الرَّطْب بالشيء اليابس حتى يَنشدِخ (*لسان العرب* لابن منظور، «ثلغ»).
[7] ورد ذلك خلال حديث طويل: «... وإن الله أمرني أن أحرق قريشا. فقلت: رب إذًا يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خُبْزَة. قال: اِسْتَخْرِجْهم كما استخرجوك، واغزُهم نُغْزِك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك...» (*مسند أحمد بن حنبل*، ٤/١٦٢؛ وصحيح *مسلم*، الجنة ٦٣).
[8] ع – به.
[9] ك ن + الله.
* وقعت ما بين النجمتين من تفسير الآية متقدما على موضعه، فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٢٣٩و/سطر ٢٢-٣١.
[10] ك م: الحظرات.

مَا هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.[1] ثم يحتمل قوله: **فلا يكن في صدرك حرج منه**، على النهي، أي لا يكن[2] في صدرك[3] منه حرج، أي لا يَضيقنّ صدرُك ممّا حُمل عليك. وقال بعضهم: **فلا يكن في صدرك حرج**، أي شك أنه من عند الله نزل. وقد ذكرنا أن العصمة لا تمنع[4] النهي،[5] لأنه بالنهي ما يكون[6] عصمة.[7] ويحتمل ليس على النهي، ولكن على أن لا تَحْمِلْ على نفسك ما فيه هلاكك، كقوله: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ،[8] وكقوله: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ،[9] ليس على النهي، ولكن على أن لا تحمل[10] على نفسك ما فيه هلاكك، فعلى ذلك هذا.[11] ***والله أعلم.***

ثم إن الله عز وجل أمّنه عما كان يخاف من أولئك بقوله: وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ،[12] وأمّنه من وساوس الشيطان على ما روي في الخبر أنه قيل له:[13] ألك شيطان؟ فقال: «كان، ولكن أُعِنتُ عليه فأسلم».[14] أمّن عز وجل رسوله عن ذلك كله لما ذكرنا.

وقوله عز وجل: **لِتُنذر به**، يحتمل أنه أمره أن ينذر به الكفرة ويبشر به المؤمنين،[15] كقوله: لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ،[16] فعلى ذلك قوله: **لتنذر به** الكفرة، **وذكرى للمؤمنين**،

---

[1] ك – على ما قال أولئك الكفرة ما هذا إلا أساطير الأولين. سورة الأحقاف، ١٧/٤٦.
[2] جميع النسخ: لا يكون.
[3] ع م: في درك.
[4] ع م: لا يمنع.
[5] انظر تفسير الآية من سورة الأنعام، ٣٥/٦.
[6] ما مصدرية وليست نافية.
[7] وعبارة السمرقندي هكذا: «وقد ذكرنا أن العصمة لا تزيل المحنة والنهي، بل النهي مما يقرر العصمة» (*شرح التأويلات*، ورقة ٢٨٤و).
[8] سورة النمل، ٧٠/٢٧.
[9] سورة فاطر، ٨/٣٥.
[10] م: أن لا يتحمل.
[11] ن – فعلي ذلك هذا.
[12] سورة المائدة، ٦٧/٥.
[13] ع م – له.
[14] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قَرينُه من الجنّ». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير» (*صحيح مسلم*، صفة القيامة ٦٩). وانظر لروايات قريبة المعنى: *سنن الترمذي*، الرضاع ١٦؛ و*سنن النسائي*، ٤.
[15] م – المؤمنين.
[16] سورة الأحقاف، ١٢/٤٦.

أي بشرى على ما ذكرنا. ويكون في الإنذار بشرى، لأنه إذا أنذر فقَبِل الإنذار فهو له بشرى. ويحتمل قوله: **لتنذر به**، أي الكل الموافق والمخالف جميعا، كقوله: لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا.[1] **وذكرى للمؤمنين**، أي الذي[2] ينتفع به المؤمنون.

﴿اِتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[٣]

وقوله عز وجل: **اتبعوا**، الآية، لا تتبعوا أولئك في التحليل والتحريم وفي الأمر والنهي، لأنه ليس إلى الخلق التحليل والتحريم. وقوله: **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم**، أمر المؤمنين أن يتّبعوا ما أنزل[3] إليهم من ربهم على ما أمر رسوله أن يتّبع ما أنزل إليه من ربه، كقوله: اِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ،[4] ليُعلم أن ما أنزل إلى رسول الله هو منزل إلى المؤمنين جميعا.[5] وقوله عز وجل: **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم**، فيما ذُكر وما يُحِلّ وما يُحرِّم وما يأمر وما ينهى.[6] **ولا تتبعوا من دونه أولياء**، قيل: أربابا،[7] أي لا تتبعوا من دونه **أولياء** فيما يُحِلّون ويُحرِّمون ويأمرون وينهون؛ أي إنما عليهم اتباع ما حرّم عليهم واستحلال ما أحلّ لهم، و أما إنشاء[8] التحليل والتحريم فلا. وقال بعض أهل التأويل: **أولياء**، أي[9] الأصنام والأوثان. ولكن لا يحتمل ههنا، ولكن ما ذكرنا أنهم كانوا يتّبعون عُظَماءهم في التحليل والتحريم، كقوله: اِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّٰهِ،[10] وكانوا لا يتخذون أولئك الأحبار أربابا في الحقيقة، ولكن كانوا يتّبعونهم فيما يحلّون ويحرّمون ويُضلّون[11] آراءهم، فسُمّوا بذلك لشدة اتّباعهم أولئك في التحليل والتحريم. ***والله أعلم.***

---

[1] ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ سورة الفرقان، ١/٢٥.
[2] ع م: أي الذين.
[3] ن + الله.
[4] سورة الأنعام، ١٠٦/٦.
[5] م – جميعا.
[6] ن ع م: وما يؤمر وينهى.
[7] ك: اباؤنا.
[8] ك ع: وأما انشأ.
[9] ع م – أي.
[10] سورة التوبة، ٣١/٩.
[11] جميع النسخ: ويصدون.

وقوله عز وجل: **قليلا ما تذكّرون**، قال أهل التأويل: يعني بالقليل المؤمنين.[١] ولكن يحتمل قوله: **قليلا ما تذكّرون**، أي لا تتذكرون[٢] [أصلا و]رأسا، لأن الخطاب جرى به[٣] لأولئك الكفرة، وفيهم نزلت الآية.[٤]

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾[٤]

وقوله عز وجل: **وكم من قرية أهلكناها**، قال أهل التأويل:[٥] يخوّف [الله عز وجل] أهل مكة بتكذيبهم الرسول بإهلاكه الأمم الخالية بتكذيبهم الرسل بقوله: **وكم من قرية أهلكناها** بتكذيبهم الرسل، فأنتم يا أهل مكة تُهْلَكون بتكذيبكم[٦] الرسول،[٧] وإن كانوا لا يعرفون هم إهلاك الأمم الماضية أنه إنما أهلكوا بتكذيبهم الرسل، غير أنهم وإن كانوا لا يعرفون هم ذلك بأنفسهم لما ليس[٨] عندهم كتاب لكن يَصِلون[٩] إلى علم ذلك بمن عندهم الكتب، وهم أهل[١٠] الكتاب، فيلزمهم الحجة. كالعجم وإن كانوا لا يعرفون الكتاب الذي أنزل بلسان العرب فإن الحجة تلزمهم[١١] بذلك لما كان لهم سبيل الوصول إلى علم ذلك بالعرب. فعلى ذلك هؤلاء وإن لم يكن عندهم علم بإهلاك أولئك فتلزمهم الحجة بإعلام أهل الكتاب إياهم. وفي الآية دلالة إثبات رسالة[١٢] محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه أخبر عن إهلاك الأمم الخالية بتكذيبهم الرسل وهو لم ينظر في كتبهم ولا اختلف إليهم ليعلموه عن ذلك، ثم أخبرهم بذلك، فدل أنه إنما عرف ذلك بالله عز وجل.

وقوله عز وجل: **فجاءها بأسنا بَياتًا أو هم قائلون**، قال أبو بكر الكيساني: البأس[١٣]

---

[١] أي عدد من يتذكر من الناس قليل، وهم المؤمنون، والكفار الذين لا يتذكرون عددهم أكثر.
[٢] ن ع م: لا يتذكرون.
[٣] ع م: جرى فيه.
[٤] وانظر لأقوال أخرى تفسير الآية رقم ١٠.
[٥] ن ع م + كان.
[٦] م: بتكذيبهم.
[٧] ن: الرسل.
[٨] ع: ما ليس.
[٩] ع: كتاب لا يصلون.
[١٠] ع م – أهل.
[١١] ع: يلزمهم.
[١٢] ن + نبينا.
[١٣] م: الناس.

هو كل أمر مُعضِل شديد من المرض والجرح وغيره، ويقول: روي عن[1] عمر أنه لما طُعن[2] قيل له: لا بأس عليك،[3] فقال: إن كان في القتل بأس فَبِي ذلك.[4] وأما غيره من أهل التأويل فقالوا: البأس العذاب، **وبأسنا** عذابنا.

[٢٤٠و] وقوله عز وجل: / **بياتا أو هم قائلون**، البيات بالليل،[5] والقيلولة بالنهار عند الظهيرة، وهما وقتا الغفلة أو وقتا الأمن. أخبر أنه إنما يأتيهم عذابه في حال الغفلة أو في حال الأمن لئلا يكونوا غافلين عن أمره ولا يكونوا آمنين عذابه.[6]

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[٥]

وقوله عز وجل: **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا**، أي ما كان دعواهم قبل نزول العذاب إلا أنهم قالوا: نحن على الحق، وإن غيرهم على الباطل، فإذا جاءهم بأسنا اعترفوا بظلمهم كقوله: **إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين**. وقال بعضهم: **فما كان دعواهم**، حين نزول العذاب،

[٢٤٠و س٨] **إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين**،* كقوله:[7] فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ،[8] الآية.*

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[٦]

وقوله عز وجل: **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين**، يذكر في هذه الآية أنه يسألهم جميعا الرسل والمرسلين إليهم،[9] وقال في آية أخرى: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ،[10] وقال: لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ.[11] ولكن قوله: لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ،

[1] ع م: – عن.
[2] جميع النسخ: لما طعن له.
[3] ن – عليك.
[4] ن ع م: بذلك. *السنن الكبرى* للبيهقي، ٨/٤٨.
[5] البيات: كل أمر في جوف الليل. يقال: أتاهم الأمر بياتا، أي أتاهم في جوف الليل (*لسان العرب* لابن منظور، «بيت»).
[6] ك ن: عن عذابه.
[7] ع – كقوله.
[8] سورة المؤمن، ٤٠/٨٤.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٢٤٠و/س ٨–٩.
[9] ع: والمرسل إليهم؛ م: والمرسل عليهم.
[10] سورة الرحمن، ٥٥/٣٩.
[11] سورة الأنبياء، ٢١/٢٣.

أي لا يسأل عما فعل وعن نفس ما ارتكب:[١]* ما أذنبت[٢] وما فعلت؟[٣] ولكن يُسأل: لماذا فعلت؟ يسأل عن الحجة: لم أذنبت[٤] ولم فعلت ذا؟ أوأن يسأل في وقت و لا يسأل في وقت آخر.[٥] وقال بعضهم: لا يسأل عن ذنبه غيره،[٦] وإنما يسأل صاحبه وفاعله. يخبر -والله أعلم-[٧] أن أمر الآخرة على خلاف أمر الدنيا، لأن في الدنيا قد يؤاخذ[٨] غيره بذنبِ آخرَ[٩] ربما، ويسأل[١٠] إحضار قريبه. وأما في الآخرة فإنه لا يؤاخذ غيره بذنب آخر، لذلك[١١] كان ما ذكرنا. أو أن يكون قوله: لَا يُسْأَلُ، عما أظهر وأبدى، ولكن يسأل عما أسرّ وأخفى، لأن الملائكة قد يكتبون ما أبدوه وأظهروه، كقوله: مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ،[١٢] فيقع السؤال[١٣] عما أسرّوا على التقرير، ولا يسأل بعد ذلك.

وقوله: **فلنسألنّ الذين أُرسل إليهم ولنسألن المرسلين**، قال بعض أهل التأويل: يسأل الرسل عن تبليغ الرسالة إلى الأمم، ويسأل قومهم هل بلغ الرسل إليهم الرسالة، ويكون سؤالهم للرسل[١٤] سؤال شهادة، كقوله: لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ،[١٥] الآية، أنه قد بلغ الرسالة.

---

[١] ك: ما ارتكبت؛ م: وعن نفس ارتكب.

* وقعت هنا عبارة: «كقوله فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده الآية». وهي تناسب تفسير الآية السابقة. فوضعناها هنالك. انظر: ورقة ٢٤٠و/سطر ٨-٩.

[٢] جميع النسخ: لم أذنبت.

[٣] يقول علاء الدين السمرقندي: «أراد نفي السؤال عن نفس الفعل. أي لا يسأل عن عين ما فعل وعن نفس ما ارتكب» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٤ظ).

[٤] ع: عن الحجة أذنبت.

[٥] «... فإنه قيل: إنه يسأل في أول البعث» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٤ظ).

[٦] ع: غير.

[٧] م - أعلم.

[٨] ك: يؤاخذ.

[٩] ن + وإنما يسأل.

[١٠] ك - ويسأل.

[١١] ع م: كذلك.

[١٢] سورة ق، ١٨/٥٠.

[١٣] ن - عما أسر وأخفى لأن الملائكة قد يكتبون ما أبدوه و أظهروه كقوله ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد فيقع السؤال.

[١٤] ك ع م: الرسل.

[١٥] ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ (سورة البقرة، ١٤٣/٢).

وقال بعضهم: يسأل الملائكة عن تبليغ الرسالة إلى الأنبياء، ويسأل الأنبياء عليهم السلام عن تبليغ الملائكة إليهم.[1] وأمكن أن يكون السؤال للرسل عما أجيبوا، وكان سؤال الأمم عما أجابوا الرسل، كقوله: يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ،[2] وكقوله: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ.[3] أو أن يكون سؤال القوم سؤال تقرير عندهم وإقرار لما كانوا ينكرون التبليغ إليهم، كقوله: وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ،[4] هذا السؤال سؤال تقرير وتعيير لا غير، لأنه كان يعلم أنه لم يكن قال لهم ذلك، لكنه يسألهم سؤال تقرير ليقروا[5] بذلك، لئلا يقولوا: هو قال لهم ذلك، لأنهم ادعوا أن[6] عيسى هو الذي قال لهم ذلك، فعلى ذلك الأول.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾[٧]

وقوله عز وجل: **فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين**، عن عملهم وصنيعهم، ولكن يسألون لما ذكرنا. ***والله أعلم***. يشبه أن يكون **فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين**، ذكر هذا لما يحتمل أن يُظَنّ به الخفاء عليه[7] لما ذكر من المسألة لهم، والسؤال هو[8] الاستخبار عما يُسَرّ ويُضمَر ليظهر ذلك، هذا هو معنى السؤال في الشاهد والاستخبار، فأخبر عز وجل بقوله: **فلنقصن عليهم بعلم**، على أن سؤاله ليس بسؤال استخبار واستظهار له، ولكن سؤال توبيخ وتقرير أو سؤال شهادة. وعلى هذا يخرج الابتلاء منه والامتحان لتقرير الأمر والنهي، لا لإظهار شيء خفي عليه، وإن كان في الشاهد يكون لذلك، أو أن يصير ما قد خفي عليهم باديا ظاهرا عندهم، فسمي ذلك الأمر منه والنهي ابتلاء وامتحانا لما عند الخلق ابتلاء وامتحان، وإن كان عند الله لا يحتمل ذلك، فسمي بالذي فيما بينهم. ***والله أعلم***.

---

[1] ن + إليهم.
[2] سورة المائدة، ١٠٩/٥.
[3] سورة القصص، ٦٥/٢٨.
[4] سورة المائدة، ١١٦/٥.
[5] ع: لقروا.
[6] ع – ادعوا أن؛ م: قالوا.
[7] ع: عليهم.
[8] جميع النسخ: وهو.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٨] ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[٩]

وقوله عز وجل: **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك** كذا، قال الحسن: يكون ميزانا له كفّتان يوزن فيه الحسنات والسيئات، **فمن ثقلت موازينه** دخل الجنة، **ومن خفت موازينه** دخل النار.[1] وقال غيره من أهل التأويل: يريد بالموازين الحسنات والسيئات نفسها، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار. إلى هذا[2] ذهب[3] أكثر أهل التأويل. ولا يحتمل ما قالوا. أما قول الحسن: ميزان له كفتان توزن[4] فيه الحسنات والسيئات، لا يحتمل، لأنه قال: **فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون**، إذا ثقل إحدى الكفتين[5] خفت الأخرى، وإذا خفت إحداهما ثقلت الأخرى، فكل واحد منهما ممن يثقل[6] موازينه ويخفّ، وقد أخبر في الآية أن من **ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم**. ولا يحتمل / أيضا ما قال غيره من [٢٤٠ظ] أهل التأويل أنه أراد بالموازين الحسنات والسيئات، لأن الآية في المؤمنين والكافرين، فلا سيئة ترجح في المؤمن مع إيمانه، ولا حسنة ترجح في الكافر مع شركه، إلا أن يقال: أن توزن[7] حسناته وتقابل[8] بسيئاته دون إيمانه، وكذلك الكافر تقابل[9] سيئاته بحسناته دون الشرك،[10] فتذهب[11] حسناتهم التي كانت لهم في الدنيا بما أنعم عليهم في الدنيا، فقد عجل لهم جزاء حسناتهم التي عملوا في الدنيا بما أنعم عليهم في الدنيا. وأما المؤمن فيتجاوز عن سيئاته،

---

[1] أخرج ابن المنذر واللالكائي عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: ذُكِر الميزان عند الحسن، فقال: له لسان وكفّتان (*الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٤١٨).

[2] ع م: إلى هذه.

[3] ك: يذهب.

[4] ن ع م: يوزن.

[5] ع م: الكفتان.

[6] ن ع م: فمن يثقل.

[7] ن ع م: أن يوزن.

[8] ن ع م: ويقابل.

[9] ن ع م: يقابل.

[10] ن + إلا أن يقال أن يوزن حسناته ويقابل بسيئاته دون إيمانه وكذلك الكافر يقابل سيئاته بحسناته دون الشرك.

[11] جميع النسخ: فذهب.

ويتقبل عنه[1] أحسن ما عمل، كقوله: أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ.[2] أو أن يكون ما ذكر من الميزان[3] هو الكتاب الذي ذكر[4] في آية أخرى، بقوله:[5] فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا... وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ،[6] الآية، كما[7] قال: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ،[8] وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ.[9] وقال بعضهم: الوزن هو العدل، كقوله: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ،[10] لم يقل: نضع الموازين بالقسط، ولكن قال: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ، والقسط هو العدل، فهو إخبار عن العدل أنه يعدل بينهم يومئذ. وقال بعضهم: **والوزن يومئذ الحق**، أي الجزاء يومئذ الحق، يجزي[11] للطاعة الحسنة والثواب، وللسيئة العقاب والعذاب،[12] فهو حق. وقال بعضهم: قوله: **والوزن يومئذ الحق**، أي الطاعة حق كل مطيع[13] يومئذ، فهو حق.[14] ويحتمل أن يكون الوزن الحدود والتقدير، كقوله: وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ،[15] أي محدود مقدر، فعلى ذلك قوله: **والوزن يومئذ الحق**، أي الحد يومئذ الحق، لا يزاد على السيئات ولا ينقص من الحسنات التي عملوا في الدنيا. والله أعلم بما أراد بالوزن.

---

[1] ع: ويتقبل منهم؛ م: ويتقبل عنهم.
[2] سورة الأحقاف، ١٦/٤٦.
[3] ع: في الميزان.
[4] ن - ذكر.
[5] ن ع م: لقوله.
[6] ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثُبورا ويَصْلَى سعيرا﴾ (سورة الانشقاق، ٨٤/٧-١٢).
[7] ك ن ع + وكما.
[8] سورة الحاقة، ١٩/٦٩.
[9] سورة الحاقة، ٢٥/٦٩. يقول السمرقندي: «وإنما ذكر الوزن والميزان عبارة عن الكتاب بطريقة المجاز لما أن كل واحد منهما يسبب العلم. والله أعلم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٥و).
[10] سورة الأنبياء، ٤٧/٢١.
[11] ع: تجري.
[12] جميع النسخ: عقاب وعذاب.
[13] ك: كل يطيع.
[14] قال السمرقندي: «وقال بعضهم: قوله: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾، أي الطاعة حق كل مطيع يومئذ، فمن كانت طاعته مقبولة فهي التي أي حق وثابتة يومئذ، وما لم يكن بثابتة يومئذ فقد حبطت وصارت هدرا، فلا يكون طاعة. والله أعلم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٥و).
[15] سورة الحجر، ١٩/١٥.

*ويشبه أن يكون قوله: **فمن ثقلت موازينه، ومن خفت موازينه**، على التمثيل، ليس [٢٤٠ظ س ٣٠
على تحقيق الميزان والخفة، ولكن على الوصف بالعظم لأعمال المؤمنين، وبالخفة والتلاشي لأعمال الكافرين؛ لأن الله عز وجل ضرب لأعمال المؤمنين المَثَل بالشيء الثابت والطيب، ووصف أعمالهم بالثبات والقرار فيه، وضرب لأعمال الكافرين المَثَل وشبّهها بالشيء التافه التالف، ووصفها بالبطلان والتلاشي، كقوله: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ،[1] ووصف[2] أعمالهم بالطِّيب والثبات والقرار؛ ووصف أعمال الكافرين بالخُبث والتلاشي والبطلان، كقوله: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ،[3] وقال في آية أخرى: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا،[4] وقال: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا،[5] وكقوله: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ،[6] ونحوه من الآيات. وصف أعمال المؤمنين بالثبات / والقرار، وأعمال الكفرة [٢٤١و]
بالذهاب والبطلان، فعلى ذلك قوله: **فمن ثقلت موازينه**، وَصْفٌ بالعظم والقرار والثبات، **ومن خفت موازينه**، وصف بالبطلان والتلاشي، أن لا يكون لهم من الخيرات شيء ينتفعون بها في الآخرة. ***والله أعلم***.* ٢٤١و س٣]

ثم قال أهل التأويل في قوله: **فأولئك الذين خسروا أنفسهم**، أي غُبِنوا. وذلك أنه ما من أحد من مؤمن وكافر إلا وله في الجنة والنار منزل وأهل، فيرث المؤمن المنزل الذي كان للكافر في الجنة، ويرث الكافر المنزل الذي للمؤمن في النار، فذلك الخسران الذي خسروا. لكن هذا لا يحتمل: أن يكون الله تعالى يجعل للكافر[7] في الجنة منزلا وأهلا مع علمه أنه لا يؤمن ويختم على كفره. ويحتمل الخسران الذي ذكر هو أنهم خسروا في الدنيا والآخرة لما فات عنهم النعم التي كانت لهم في الدنيا ولم يصلوا إلى نعيم الآخرة، فذلك هو الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

---

[1] سورة إبراهيم، ٢٤/١٤.
[2] ك ن: وصف.
[3] سورة إبراهيم، ٢٦/١٤.
[4] سورة الأعراف، ٥٨/٧.
[5] سورة النور، ٣٩/٢٤.
[6] سورة الرعد، ١٧/١٣.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٤٠ظ/سطر ٣٠ - ٢٤٢و/سطر ٣.
[7] ك: الكافر.

وقوله عز وجل: **بما كانوا بآياتنا يظلمون،**[1] قال الحسن: **بآياتنا** ديننا يكذّبون. ولكن **بآياتنا** حججنا، **يظلمون** أي يضعونها[2] في غير موضعها، وهو ما ذكر من ظلمهم الآيات، لأن الظلم هو[3] وضع الشيء غير موضعه.

ثم المسألة فيمن ارتكب كل كبيرة[4] في حال كفره عمرَه ثم آمن في آخره، صار ما كان ارتكب في حال كفره من الكبائر مغفورا[5] معفوا عنه غير مؤاخذ بها، ومن ارتكب ذلك في حال إيمانه وخُتم على الإيمان لم يعمل الإيمان في تكفيره وكان مؤاخذا[6] به. وذلك[7] -والله أعلم- لوجهين. أحدهما أن ليس على الكافر أنفس أفعال الطاعات وأعينها، إنما عليه قبول تلك الأعمال.[8] فإذا أسلم فقد قبلها، ولم يكن عليه في ذلك الوقت إلا القبول، لذلك لم يؤاخذ بما كان منه من الأعمال.[9] وأما المؤمن فعليه أنفس أفعال تلك الطاعات وتلك الأعمال، وقد كان منه القبول، فأُخذ[10] بما كان[11] منه التفريط في تلك الأعمال.

والثاني أن الكافر إذا أسلم بعد ما ارتكب من الكبائر لم يَجرَح[12] إيمانه ولا أدخل فيه نقصا، فلا يؤاخذ[13] بما كان منه لما قَدِم على[14] ربه بإيمان كامل. وأما المؤمن إذا ارتكب كبائر فقد جرح[15] الإيمان وأدخل فيه[16] النقصان بعمله[17] الذي يخالف الإيمان ولا يوافقه، لذلك افترقا.*

---

[1] ن + الآية.
[2] ع: أي يضعون.
[3] ن ع م – هو.
[4] ك ع م: كل ذنب وكبيرة؛ ن: كل ذنب صغير وكبيرة. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٥ظ.
[5] م: مغفور.
[6] م: وكان مؤاخذ.
[7] ع م – وذلك.
[8] ع م – الأعمال.
[9] ع: من الايمان.
[10] ك ن: أخذ.
[11] ع م – فأخذ بما كان.
[12] ع م: لم يخرج. أي لم يجرح ما ارتكب الكافر من الكبائر إيمانه.
[13] ك ن: فلم يؤاخذ.
[14] ع م + قدم.
[15] م: فقد خرج.
[16] ع م – فيه.
[17] م: بعلمه.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٤٠ظ/سطر ٣٠ - ٢٤١و/سطر ٣.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[١٠]

وقوله عز وجل: **ولقد مكناكم في الأرض**، قال أبو بكر الكيساني: **مكناكم**، أي ملّكناكم في الأرض،[1] **وجعلنا لكم فيها معايش**، تتعيشون[2] بها. يذكّرهم نعمه ومننه بما ملّكهم في الأرض وجعل لهم منافع ليشكروا له عليها. وقال الحسن: **مكناكم**، أي جعلناكم مستخلفين[3] عمن تقدمكم[4] بمكانهم. يذكّرهم عز وجل أيضا نعمه عليهم بما جعلهم خلفاء الأولين وجعل لهم **معايش**، ويخوّفهم زوال ذلك عنهم بما صار ذلك لهم بزوالها عن الأولين. وأمكن أن يكون[5] يذكّرهم هذا بما جعل لهم [الأرض] مكان القرار وموضع الانتشار والتقلّب والتعيّش، والبشر لا بد له من ذلك. وكله يرجع إلى واحد. كقوله: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا، أي جعلنا الحرم مأمنا لكم بحيث تأمنون فيه وتتقلّبون وتتعيّشون[6] فيه، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ،[7] يذكّرهم عظيم نعمه ومننه التي جعلها لهم. هذا إذا كان الخطاب به لأهل[8] مكة. وإن كان الخطاب به للناس[9] كافة فيخرج على تذكير النعم لهم، حيث جعل الأرض لهم بحيث يَقِرّون فيها ويتقلّبون فيها.

وقوله عز وجل: **قليلا ما تشكرون**، يحتمل وجوها. وكذلك قوله: قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ.[10] أحدها أنهم كانوا يُقرون أنه خالقهم بقوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ،[11] كانوا يقرون بألوهيته ويصرفون العبادة إلى غيره، فلذلك قال: **قليلا ما تشكرون**. والثاني أي لا تشكرونه ولا تذكرونه ألبتة. و[الثالث] يحتمل **قليلا ما تشكرون**، أي المؤمنين، [فإنهم] يشكرون ولا يشكر أولئك، والمؤمنون قليل وهم أكثر.

---

[1] ع م + وجعلنا في الأرض.
[2] ن ع م: يتعيشون.
[3] ن: مخلفين.
[4] جميع النسخ: تقدمهم.
[5] م – يكون.
[6] ن – وتتعيشون.
[7] ﴿أولم يروا أنّا جعلنا حَرَما آمنا ويُتَخطَّف الناس مِن حَولِهِم﴾ (سورة العنكبوت، ٦٧/٢٩).
[8] جميع النسخ: أهل.
[9] جميع النسخ: الناس.
[10] سورة الأعراف، ٣/٧.
[11] سورة لقمان، ٢٥/٣١.

والرابع أي ليس في وسعهم القيام بشكر جميع ما أنعم عليهم، لكثرة نعمه لا يتهيأ لهم القيام بشكر واحدة منها،[1] فكيف بشكر[2] الجميع، فذلك الشكر قليل.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[١١]

وقوله عز وجل: **ولقد خلقناكم ثم صورناكم**، قال الحسن: قوله: **خلقناكم ثم صورناكم**، أراد آدم خاصة، لأنه قال: **خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**، أخبر أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم بعد الخلق، ولو كان المراد منه نحن لكان السجود[3] بعد خلْقِنا،[4] وقد كان السجود قبل ذلك. وقال غيره: المراد[5] منه البشر كله، لأنه قال: **ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**، ولو كان المراد لآدم بقوله: **خلقناكم ثم صورناكم** خاصة لكان لا يذكر آدم ثانيا، فدل أنه[6] أراد ذريته. وقال[7] بعضهم: **خلقناكم**: آدم، **ثم صورناكم**: في أرحامكم. ويحتمل ما قال الحسن، ويحتمل وجها آخر؛ وهو أن قوله: **ولقد خلقناكم**، أي قدّرناكم من ذلك الأصل[8] وهو نفس آدم، لأن الخلق هو التقدير، كما تقول: أنا خلقته، أي قدّرته. يقول -والله أعلم- **خلقناكم**، أي قدرناكم جميعا من ذلك الأصل والكيان، ومنه **صورناكم ثم قلنا للملائكة**، أي وقد **قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**؛ وذلك جائز في اللغة. وقد يقول بعض أهل الكلام: إن النطفة هي إنسان بقوة ثم تصير[9] إنسانا بفعل. ويقول بعضهم: هي كيان الإنسان، فجائز أن يكون أضافنا إلى ذلك الطين لما هو كيان وأصل لنا.

---

[1] ك - منها.

[2] ع م - جميع ما أنعم عليهم لكثرة نعمه لا يتهيأ لهم القيام بشكر واحدة منها فكيف بشكر.

[3] ن ع - السجود.

[4] ع: خلقناكم ثم صورناكم؛ م - أراد آدم خاصة لأنه قال خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم أخبر أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم بعد الخلق ولو كان المراد منه نحن لكان السجود بعد خلقنا.

[5] م: والمراد.

[6] ع م - أنه.

[7] ع: قال.

[8] ن - وهو نفس آدم لأن الخلق هو التقدير كما تقول أنا خلقته أي قدرته يقول والله أعلم خلقناكم أي قدرناكم جميعا من ذلك الأصل.

[9] ن ع م: ثم يصير.

وقوله: **فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين**، قال الحسن: إبليس لم يكن من الملائكة؛[١] وذلك أن الله عز و جل وصف الملائكة جملة بالطاعة له[٢] والخضوع بقوله: لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ،[٣] وقال: لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ،[٤] وغيره من الآيات، و لم يكن من إبليس إلا كل شر. وقال أيضا: خلق الملائكة من نور وإبليس من نار على ما ذكر، والنار ليست من جوهر النور؛ دلّ أنه ليس من الملائكة. وقال في قوله: **فسجدوا إلا إبليس** مثل هذا. يجوز أن[٥] يقال: دخل[٦] هذه الدار أهل البصرة إلا رجل من أهل الكوفة؛ دل الاستثناء "إلّا" [على] أنْ دخل هنالك[٧] أهل الكوفة، فعلى ذلك يدل استثناء إبليس على أنْ كان[٨] هنالك أمر بالسجود لآدم لغير الملائكة أيضا. ولكن ليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة أنه كان من الملائكة أومن غيره، إنما علينا أن نعرف أنه عدو لنا. وقد ذكرنا هذه فيما تقدم.[٩]

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[١٢]

وقوله عز وجل: **ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك**، قيل: قوله: **ما منعك ألّا تسجد**،[١٠] أي مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ،[١١] على ما ذكر في آية أخرى، و"لا"[١٢] زائدة.

وقوله عز وجل: **أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**. بم علم عدو الله أن المخلوق من النار خير من المخلوق بالطين؟ إلا أن يقال بأن النار جعلت لمصالح[١٣] الأغذية، فمن هنا وقع له ذلك أنها خير من الطين. فيقال: إن النار وإن جعلت لإصلاح[١٤] الأغذية فالطين[١٥] جعل لوجود الأغذية،

---

[١] *تفسير الطبري*، ١/٢٢٦.
[٢] ع م – له.
[٣] سورة الأنبياء، ٢١/٢٧.
[٤] سورة التحريم، ٦٦/٦.
[٥] ن + يكون.
[٦] ع م – دخل.
[٧] ك: هناك.
[٨] ع م: قال.
[٩] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٢/٣٤.
[١٠] ن + أن لا تسجد.
[١١] ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديّ أاستكبرت أم كنت من العالين﴾ (سورة ص، ٣٨/٧٥).
[١٢] ك ن ع: وألا.
[١٣] ن ع م: لصالح.
[١٤] ع: الإصلاح.
[١٥] ن: والطين.

فالذي جعل لوجود الشيء هو أنفع وأكبر من الذي جعل لمصالحه، ولعل الأغذية تصلح للأكل بغيرها، بالشمس وغيرها. وبعد فإن الطين مما يقوم للنار ويطفؤها[1] ويتلفها، والنار لا تقوم للطين ولا تتلفه؛ فإذا كان كذلك فلا يجوز أن يقع من هذا الوجه أنها أفضل وأخير من الطين.

[٢٤١ظ] ثم اختلف في الجهة التي / كفر عدو[2] الله إبليس [منها]. قال بعضهم: إن إبليس عدو الله لم ير لله على نفسه[3] طاعة بأمر السجود لآدم، لذلك كفر. وقال آخرون: إنما كفر عدو الله لما لم ير الأمر [من الله تعالى لمن له علو مرتبة] بالخضوع والطاعة[4] لمن [هو][5] دونه حكمة، فكفر لما لم ير أنه[6] وضع الأمر بالسجود موضعه، بل رآه -لعنه الله- واضعا أمره غير موضعه. وقال غيرهم: كفر عدو الله بالاستكبار والتكبر على آدم لا لمعنى آخر.[7] وقيل: أول من أخطأ في القياس وزلّ فيه إبليس لعنه الله.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[١٣]

وقوله عز وجل: **قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها**، اختلف فيه. قال بعضهم: قوله: **اهبط منها**، يعني من السماء، لأنه -لعنه الله- كان في السماء، فأمر بالهبوط منها لما جعل السماء مَعدِنا ومكانا للخاضعين المتواضعين، فأمر بالهبوط منها إلى مكان جعل ذلك المكان مكان الخاضعين والمتكبرين جميعا، وهي الأرض، إذ الأرض معدن الفريقين جميعا. وقال بعضهم: الأمر[8] بالهبوط منها أمر بالخروج من الأرض إلى جزائر البحور، لأن الأرض هي قرار أهلها، وجزائر البحور ليست مكان قرار لأحد، ليكون فيها على الخوف أبدا.[9] ألا ترى أنه قال: وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ،[10] والبحار مما لا تميد[11] بأهلها.

---

[1] ع: ويطيفها.

[2] ع: وعدو.

[3] ع م: لم ير لنفسه.

[4] جميع النسخ + من فوقه.

[5] الزيادتان من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٦و.

[6] أي الله تعالى.

[7] «... والتكبر عليه تكبر على من أمره بذلك حيث لم يقبل أمره، والتكبر على الله كفر» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٦و).

[8] ع: الأمور.

[9] «... يقرر هذا أن ذكر الأرض مطلقا لا يقع على البحار...» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٦و).

[10] سورة الأنبياء، ٢١/٣١.

[11] ع: مما لا يمتد.

وأمكن أن يكون الأمر بالهبوط منها أمرا بالخروج من الصورة التي كان فيها إلى صورة أخرى، لا يُعرَف أبدا ولا يُرَى عقوبة له لتركه أمر الله وارتكابه نهيه. **فما يكون لك أن تتكبر فيها،** في تلك الصورة أو في[1] تلك الأرض حتى لا يَقِرّ أبدا ويكون على خوف أبدا. ويحتمل في السماء لما ذكرنا.

وقوله عز وجل: **فاخرج إنك من الصاغرين،** وَجْهُ[2] صَغارِه أنه ما من أحد ذكره إلا وقد لعنه ودعا عليه باللعن، فذلك صَغاره. وأمكن أن يكون صغاره لما صيره بحال يغيب عن الأبصار ولا يقع عليه البصر، أو لما طرده عن رحمة الله.

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١٤] ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾[١٥]

وقوله عز وجل: **قال أنظرني إلى يوم يبعثون،** اختلف[3] فيه. قال بعضهم: أنظره إلى النفخة الأولى ليذوق[4] الموتَ[5] فلا يتصلَ[6] حياة الدنيا بحياة الآخرة، وهو ما ذكر في آية أخرى: فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ.[7] وقال بعضهم:[8] أنظره إلى يوم البعث. وظاهر ما خرج من الخطاب أن يكون أنظره إلى يوم البعث، لأنه سأل ربه أن ينظره إلى يوم البعث حيث[9] **قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين،** خرج ذلك جوابا لسؤاله،[10] وما[11] ذكر من الوقت المعلوم في آية أخرى يجيء أن يكون هو ذلك اليوم. وقال غيره: أنظره ولم يبين له ذلك الوقت الذي[12] أنظره إلى ذلك الوقت، حتى يكون أبدا على خوف ووجل؛

[1] ع م: وفي.
[2] ك ن: ووجه.
[3] ك: اخلف.
[4] جميع النسخ: لئلا يذوق.
[5] م – الموت.
[6] جميع النسخ: فيتصل. والتصحيحان من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٦ظ.
[7] سورة الحجر، ١٥/٣٧-٣٨.
[8] ع – أنظره إلى النفخة الأولى لأن لا يذوق الموت فيتصل حياة الدنيا بحياة الآخرة وهو ما ذكر في آية أخرى فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم وقال بعضهم.
[9] ع م – وظاهر ما خرج من الخطاب أن يكون أنظره إلى يوم البعث لأنه سأل ربه أن ينظره إلى يوم البعث حيث.
[10] ن: لسؤال.
[11] م: وهو ما.
[12] ن – الذي.

ألا ترى أنه قال: فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ،[1] لو كان الوقت [الذي] أنظره [إليه] معلوما عنده لكان لا يخاف الهلاك بدون ذلك الوقت؛ دلّ أنه كان غير معلوم عنده.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[١٦]

وقوله عز وجل: **قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم**، قال الحسن: قوله: **فبما أغويتني**، أي بما لعنتني، والإغواء هو اللعن، كقوله: قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ،[2] أي من الملعونين، فعلى ذلك قوله: **أغويتني** أي لعنتني. وقال أبو بكر الكيساني: أضاف الإغواء إلى نفسه لما كان سبب ذلك منه، وهو الأمر الذي أمره بالسجود لآدم والخضوع له؛ ويجوز أن يضاف مثل ذلك لما كان منه السبب، نحو قوله: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي،[3] سأل منه الإذن بالقعود و[قال]: لا تكلفني بما لا أقوم[4] [له] فتفتنيّ[5] بذلك،[6] وقال: إنما أضاف ذلك إليه لما كان منه سبب ذلك الافتتان، فعلى ذلك هذا. وقال بعض المعتزلة: هذا قول إبليس: **فبما أغويتني**، وقد كذب عدو الله، لم يغوه الله. فيقال لهم: فإن كان إبليس عدو الله قد كذب في قوله: **فبما أغويتني**، فتقولون[7] بأن نوحا صلوات الله عليه قد كذب حيث قال: وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ،[8] أضاف الإغواء إليه. دلّ هذا على أن إبليس لم يكذب بإضافة الإغواء إلى الله.

---

[1] يقول الله تعالى عن إغواء الشيطان للمشركين في غزوة بدر: ﴿وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ (سورة الأنفال، ٨/٤٨).

[2] سورة الحجر، ١٥/٣٤.

[3] سورة التوبة، ٩/٤٩.

[4] ن + بما لا أقوم.

[5] ن ع م: فتفتني.

[6] روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم وهو في جهازه [لغزوة تبوك] للجَدّ بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جَدُّ العامَ في جِلاد بني الأصفر؟»، فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشدّ عُجْبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «أذنت لك» (*تفسير الطبري*، ١٠/١٤٧-١٤٨؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٢١٣).

[7] ن ع م: فيقولون.

[8] سورة هود، ١١/٣٤.

ولكن عندنا أنه أضاف الإغواء إلى نفسه لما خلق منه[١] فعل الغواية والضلال على ما ذكرنا في غير موضع، ليس كما قال هؤلاء: إنه أضيف إليه لمكان ما كان منه سبب ذلك؛ لأنه لو جاز أن يضاف فعل الإغواء إليه لسبب[٢] الإغواء لجاز أن يضاف ذلك[٣] إلى الرسل والأنبياء، لأنه كان منهم الأمر لقومهم والدعاء إلى توحيد الله، ثم كُذّبوا في ذلك، فكان سبب إغواء أولئك هم الرسلُ، فذلك بعيد.[٤] وكذلك لو كان[٥] الإغواء هو اللعن لكان كل لاعن عليه فهو مغويه. وقال بعضهم: **أغويتني**، أي خذلتني. والوجه فيه ما ذكرنا أنه خلق منه[٦] فعل الغواية والضلال، وكذلك من كل كافر خذله، لما علم منه أنه يختار الغواية والضلال.

وقوله عز و جل: **لَأَقْعُدَنَّ لهم [صراطك المستقيم]**، ليس على حقيقة القعود، ولكن على المنع عن السلوك في الطريق، أو على التلبيس عليهم الطريق **المستقيم** والستر عليهم، لأن من قعد في[٧] الطريق منع الناس عن السلوك فيه.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[١٧]

وقوله عز وجل: **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم**، الآية، قال الحسن: **من بين أيديهم**، مِن قِبَل الآخرة[٨] تكذيبا بالبعث والجنة والنار، **ومن خلفهم**، قال: / مِن قِبَل دنياهم يُزيّنها [٢٤٢و]
لهم ويُشهّيها[٩] إليهم. **وعن أيمانهم**، قال: مِن قِبَل الحسنات يُبَطِّؤهم عنها. **وعن شمائلهم**، قال: من قبل السيئات يأمرهم[١٠] بها ويحثّهم عليها ويُزيّنها في أعينهم.[١١] وعن مجاهد:

---

[١] ن ع م: فيه.
[٢] ك: كسبب.
[٣] ع م – ذلك.
[٤] ك – لقومهم والدعاء إلى توحيد الله ثم كذبوا في ذلك فكان سبب إغواء أولئك هم الرسل فذلك بعيد.
[٥] م: لكان.
[٦] ن ع م: فيه.
[٧] ن: على.
[٨] ك: الآخر.
[٩] م: ويشبهها.
[١٠] ع م: يأمر.
[١١] رويت في هذا المعنى روايات كثيرة عن ابن عباس وغيره، و لم أجده عن الحسن. انظر: *تفسير الطبري*، ١٣٦/٨؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٤٢٦/٣-٤٢٧.

ثم لآتينهم من بين أيديهم، قال: من حيث يبصرون، **ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم**، من حيث لا يبصرون.[1] و قيل: **مِن بين أيديهم**، مِن قِبَل آخرتهم، فلأخبرنهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث على ما ذكر الحسن، **ومِن خلفهم**، مِن قِبَل دنياهم؛ آمرهم[2] بجمع[3] الأموال فيها لمن بعدهم من ذراريهم، وأُخوّف عليهم الضَّيْعة، فلا يَصِلون في أموالهم رَحِما ولا يعطون لها حقا. **وعن أيمانهم**، مِن قِبَل دينهم فأُزيّن لكل قوم ما كانوا يعبدون، فإن كانوا على ضلالة زينتها لهم، وإن كانوا على هدى شبّهته عليهم حتى أخرجهم منه. **وعن شمائلهم**، مِن قِبَل اللّذّات والشهوات فأُزيّنها لهم. هذا الذي ذكر أهل التأويل يحتمل. ثم ذُكر الأمام والخلف وعن أيمان وعن شمائل[4] ولم يذكر فوق ولا تحت، فيحتمل أن يدخل ما فوق وما تحت[5] بذكر الأمام[6] واليمين والشمال والخلف، كقوله تعالى: أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ،[7] دخل ما فوق بذكر ما بين أيديهم، ودخل ما تحت[8] بذكر الخلف؛ فعلى ذلك هذا، يدخل ما تحت وما فوق بذكر ما ذكر، فيصير كأنه قال: فيأتيكم من كل وجه. ويحتمل أنه لم يذكر هذا لما أنه لا سلطان له على منع الأرزاق والبركات؛ لأن أرزاق الخلق والبركات[9] مما ينزل من السماء من المطر ويخرج من الأرض [من] النبات، فليس له سلطان على منع إنزال المطر وإخراج[10] النبات من الأرض، وله سلطان على غير ذلك. أو يكون لما يشغلهم ويُشقّيهم **من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم** من اللّذّات والشهوات؛ لما إذا رأى [الإنسان][11] شيئا أعجبه أتبع النظر إليه واحدا بعد واحد من أمام ووراء ويمين وشمال،

---

[1] عن مجاهد قول الله: ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم﴾، قال: حيث يبصرون، ﴿ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾، حيث لا يبصرون. انظر: *تفسير الطبري*، ٨/١٣٧.
[2] جميع النسخ: يأمرهم.
[3] ع: بجميع.
[4] جميع النسخ: وعن شمال.
[5] ن – وما تحت.
[6] جميع النسخ: أمام.
[7] سورة سبأ، ٣٤/٩.
[8] ع م: ودخل تحت.
[9] م: ووالبركات.
[10] ن: أخرج.
[11] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٧و.

ولا كذلك من تحت ولا من فوق. أو أن يكون لما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه إذا تلا هذه الآية قال: إن[١] الله منعه من أن يأتيهم من فوقهم، ولو كان ذلك لما نجا أحد، فأعمالهم تصعد إلى الله ورحمته تنزل عليهم.[٢] وقال قتادة: أتاك اللّعين من كل نحوٍ يا ابن آدم، غير أنه لا يستطيع أن يَحُول بينك و بين رحمة ربك، إنما تأتيك[٣] الرحمة من فوقك.[٤] والذي ذكرنا أنه على التمثيل أنه يأتيه[٥] من كل جانب أشبه.

وقوله عز و جل: **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم،** يخرج على وجهين. أحدهما ليس على إرادة بين [الأيدي] وخلف وأيمان وشمائل،[٦] ولكن على إرادة الجهات كلها، كأنه يقول: لآتينهم من كل جهة. والثاني ما ذكر الحسن وأهل التأويل: **من بين أيديهم،** الآخرة تكذيبا بها، **ومن خلفهم،** الدنيا تزيينا بها عليهم، **وعن أيمانهم،** الحسنات، **وعن شمائلهم،** السيئات.

وقوله عز و جل: **ولا تجد أكثرهم شاكرين،** هذا من عدو لله ظَنٌّ ظَنَّه، لا قاله حقيقة، لكن الله عز و جل[٧] أخبر أنه صدق ظنه بقوله: وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ.[٨]

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١٨]

وقوله عز و جل: **قال اخرج منها،** يحتمل **منها،** من السماء، ويحتمل من الأرض،[٩] ويحتمل من الصورة التي كان فيها على ما قلنا في قوله: فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا.[١٠] وقيل: الجنة.

وقوله عز وجل: **مَذْءُوما مَدْحُورا،** قيل: مذموما ملوما، أي مذموم ملوم عند الخلق جميعا؛

---

[١] ع م – إن.

[٢] عن ابن عباس في قوله: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾، و لم يقل: من فوقهم، لأن الرحمة تنزل من فوقهم. انظر: *تفسير الطبري*، ١٣٧/٨.

[٣] ك: إنما يأتيك.

[٤] *تفسير الطبري*، ١٣٦/٨.

[٥] ن: أن يأتيه.

[٦] جميع النسخ: وشمال.

[٧] ع م + أنه.

[٨] ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين﴾ (سورة سبأ، ٢٠/٣٤).

[٩] ن – ويحتمل من الأرض.

[١٠] سورة الأعراف، ١٣/٧.

مدحورا، قيل: مَقصيًا مُبعَدا من كل خير. قال أبو عَوْسَجَة: مذءوم[١] ومذموم[٢] واحد؛ **ومدحورا**، مباعدا مطرودا.

وقوله: **اخرج منها مذءوما مدحورا لَمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين**، أخبر الله عز وجل أنه يملأ جهنم من إبليس ومن تبعه و أطاعه؛ لأنهم إنما[٣] يتبعونه ويطيعونه في الكفر والشرك بالله. تعلق الخوارج بظاهر قوله: **لمن تبعك منهم**، وكل مرتكب معصيةٍ تابع له، لذلك استوجب الخلود. وقالت المعتزلة: كل مرتكب كبيرةٍ [مخاطَب] بوعيد هذه الآية، لأنه تابع له.[٤] وعندنا ليس لهم في الآية حجة في تخليد من ذكروا في النار؛ لأنها[٥] إنما ذكرت على أثر نقض الدين وردّ التوحيد، فكأنه قال: **لمن تبعك** في نقض الدين ورد التوحيد **لأملأن جهنم منكم أجمعين**.

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١٩]

و قوله عز وجل: **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما**، كان السكون في موضع من القرار فيه والأمن، كقوله: جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ،[٦] لتقروا فيه وتأمنوا. فقوله لآدم: **اسكن أنت وزوجك الجنة**، أَسْكَنَهما عز وجل ليقروا فيها ويأمنوا من كل ما ينقصهما[٧] تلك النعَم التي أنعم عليهما؛[٨] لأن الخوف مما ينقص النعم ويذهب بلذّتها. فلمّا أسكنهما عز وجل الجنة أمّنهما عن ذلك كله. ثم فيه أن أول المحنة والابتلاء من الله لعباده
[٢٤٢ظ] إنما يكون بالإنعام والإفضال / عليهم ثم بالجزاء والعدل بسوء ما ارتكبوا؛ لأنه عز وجل امتحن آدم أولا بالإفضال والإنعام عليه حيث أسْجَد ملائكته له وأَسْكَن جنته ووسّع[٩] عليه نعمه، ثم امتحنه بالشدائد وأنواع المشقة جزاء ما ارتكب[١٠] من التناول من الشجرة التي نهاه عن قِربانها،

---

[١] ع م – مذءوم.
[٢] ع م: مذموم.
[٣] م – إنما.
[٤] أي للشيطان.
[٥] جميع النسخ: لأنه.
[٦] سورة يونس، ٦٧/١٠.
[٧] ع: من كل ينقصهما؛ م: من كل ينقصها.
[٨] م: عليها.
[٩] ع م: وسع.
[١٠] جميع النسخ: ما ارتكبوا.

فهو ما ذكرنا أنَّ شَرْطَ امتحانِ عبادِه في الإبتداء يكون بالإفضال والإنعام ثم بالعدل والجزاء لسوء صنيعهم. ألا ترى[١] أنه قال: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ،[٢] أخبر أن ما يصيبنا هو من كسب أيدينا[٣] وهو جزاء ما كسبنا. وفيها[٤] وفي غيرها من القِصص التي[٥] ذكرت[٦] [في القرآن] دليل[٧] إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته؛ لأنه أخبر عما[٨] كان من غير أن اختلف إلى أحد ممن[٩] يعرف ذلك، ولا نظر في الكتب التي فيها ذكرها،[١٠] دلّ أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى.

ثم اختلف أهل التأويل في الجنة التي أسكن عز وجل آدم فيها وزوجته. قال بعضهم: هي الجنة التي يكون عَوْد أهل الإسلام إليها في الآخرة، ولهم وَعَد عز وجل تلك. وقال بعضهم: هي جنة أنشأها لآدم ليسكن فيها في السماء. ولكن لا ندري ما تلك الجنة، وليس لنا إلى معرفة تلك الجنة حاجة، إنما الحاجة إلى ما ذكر من المحن. واختلف أيضا في الشجرة التي نهي آدم عن قِربانها. قال بعضهم: هي شجرة العلم. وقال[١١] بعضهم: هي شجرة الحنطة. وقد ذكرنا أقاويل أهل التأويل واختلافهم في صدر الكتاب قدر ما حفظناه.[١٢]*

وقوله عز و جل: **ولا تقربا هذه الشجرة**، لم يرد به الدُّنُوّ منها، ولكن أراد الذوق و الأكل منها؛ ألا ترى أنه قال: فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ،[١٣] دلّ أن النهي لم يكن[١٤] للدنو منها، ولكن للذوق والأكل منها. وفيه أن الامتحان من الله مرة يكون بالحل ومرة[١٥] بالحرمة؛

---

[١] ك: ألا يرى.
[٢] سورة الشورى، ٤٢/٣٠.
[٣] ع: من هو كسب أيدينا.
[٤] جميع النسخ: وفيه.
[٥] ع م – التي.
[٦] ك ن: الذي ذكر؛ ع م: الذكر.
[٧] ك: دليله.
[٨] م: أخبر هما.
[٩] م: من.
[١٠] ع م – ذكرها.
[١١] ن: قال.
[١٢] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٢/٣٥.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية التالية، فنقلناه إلى هنالك. انظر ورقة ٢٤٢ظ/سطر ١١-١٤.
[١٣] سورة الأعراف، ٧/٢٢.
[١٤] ع + لله.
[١٥] ك + يكون.

لأنه أذن له التناول مما فيها[1] من أنواع النعم، وحرم عليه التناول من واحدة منها، فذلك محنة منه.

ثم النهي عن التناول عن الشيء يخرج على وجوه. أحدها ينهى بحق الحرمة لنفسه، وينهى بحق إيثار الغير عليه، وينهى عن التناول منه لداء فيه وآفة، ويُنْهَى لما يخرج التناول منه[2] بحق الجزاء، فلم يكن بعدُ وقت الجزاء له.[3]

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[٢٠]

[وقوله عز وجل: **فوسوس لهما الشيطان**].

[٢٤٢ظ س ١١ *وكذلك اختلفوا في وسوسة الشيطان لآدم وحواء أنه كيف وسوس إليه ومن أين كان. وهذا أيضا قد ذكرناه في تلك القصة.[4] والحسن يقول: إنما وسوس إليهما من الدنيا، لا أنْ كان

٢٤٢ظ س ١٤] دخل الجنة. وقال بعضهم: وسوس إليهما من رأس الحية[5] ومِن فِيها[6] يكلمهما.*

وقوله عز وجل: **[لِيُبْدِيَ لهما] ما وُورِي عنهما من سوءاتهما**، وقوله: **ما وُورِي**، أي سُتِر وغُطِي، **وسوءاتِهما**، عورتهما. والسوأة العورة في اللغة. وفيه أنه يجب أن نكون[7] على حذر من شر إبليس اللعين لأن لا يجد فرصة علينا، فإنه أَبَدًا على سَلْبِ نعمةٍ[8] أنعمها **الله** على عباده، حيث[9] احتال كلَّ حيلة حتى أبدى **لهما ما وُورِي** وسُتِر عنهما من العورة،

---

[1] م: ما فيها.

[2] جميع النسخ: منها.

[3] قال الشارح السمرقندي رحمه الله تعالى: «ثم النهي عن التناول عن الشيء يخرج على وجوه. أحدها ينهى بحق الحرمة لنفسه، فيكون حراما بعينه. ومنها بحق إيثار الغير عليه، فيكون الحرمة بحق الغير، لا أن عين ذلك الفعل حرام. ومنها ما ينهى لداء فيما يتناوله، فيكون نهي شفقة لما يتضرر به... ومنها ما ينهى عن التناول لمكان التناول منه بحق الجزاء في دار الجزاء، ودار الدنيا ليست بدار الجزاء، نحو الذهب والفضة والحرير في حق الرجال، والتناول من أواني الذهب والفضة ونحوها. فيجوز أن يكون النهي عن تلك الشجرة لآدم عليه السلام لما كانت معدة للتناول بطريق الجزاء في الآخرة. والله أعلم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٧ظ؛ ونسخة المدينة، ورقة ٣١٩و).

[4] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٢/٣٥.

[5] ك: الجنة.

[6] ن ع: فيهما. ومن فيها: أي ومن فمها.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية السابقة، فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٢٤٢ظ/سطر ١١-١٤.

[7] جميع النسخ: أن يكونوا.

[8] ك ن + التي.

[9] ع م: وحيث.

وعمل في إخراجهما من النعم[1] واللّذات وأوقعهما في الشدائد والمشقة. و فيه أنه ليس حالٌ عليه أشدّ مِن أنْ رأى أحدا في النعم والسعة.

وقوله عز وجل: **وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلِكَين أو تكونا من الخالدين**، قد ذكرنا معنى هذا أيضا في صدر الكتاب.[2]

[٢٤٢ظ س٢٩ *وقرأ بعضهم قوله: **إلا أن تكونا مَلِكَين**، بكسر اللام من المُلك،[3] ذهب في ذلك إلى ما قال: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى.[4] وقراءة العامة الظاهرة: **إلا أن تكونا ملكين**، بنصب اللام من الملائكة. وقد ذكرنا جهة رغبة آدم في أن يصير مَلَكًا حيث تناول منها في صدر الكتاب على قدر ما حفظنا.[5]* ٢٤٢ظ س٣٢]

[٢٤٣ظ س١٠ *وفائدة تغرير[6] آدم وحواء أن يكونا من الملائكة لأن الملك ما ذكر أنه لا يَفْتُر عن العبادة، ولا يعصي ربه، ولا يحتاج إلى شئ من المؤنة.[7] ومن قرأ "مَلِكَين"، لأن المَلِك يكون نافذ الأمر والقول في مملكته، وذلك مما يرغب فيه. أو أن يكون أراد[8] بذلك لِيَشغلهما عن نهي ربهما حتى يَنْسَيا ذلك فيتناولا من تلك[9] الشجرة على ما فعلا. وفيما ذكر الخلود، لأنه ليس بشيء[10] ألذ ولا أشهى من الحياة. والأشبه أن يقال: إنه[11] لم ينسيا نهي الله إياهما عن التناول منها، ولكن نسيا[12] قوله: فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ،[13] لِذلك تناولا، ولو ذكرا قوله: فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، ما تناولا. *والله أعلم*.* ٢٤٣ظ س١٥]

---

[1] ك: النعيم.

[2] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٣٦/٢.

[3] رويت هذه القراءة عن ابن عباس ويحيى بن أبي كثير، وهي قراءة شاذة. انظر: تفسير *الطبري*، ١٤٠/٨.

[4] سورة طه، ١٢٠/٢٠.

[5] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٣٦/٢.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٢٤٢ظ/سطر ٢٩-٣٢.

[6] ك: تقرير.

[7] ن: المعونة.

[8] ع م - أراد.

[9] ك ع م: عن تلك.

[10] ك ن: شيء.

[11] الهاء ضمير الشأن.

[12] جميع النسخ: نسي.

[13] سورة الأعراف، ١٩/٧.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية رقم ٢٣، فقدّمناه إلى هنا. انظر: ورقة ٢٤٣ظ/سطر ١٠-١٥.

﴿**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾[٢١]

وقوله عز وجل: **وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين**، قال الحسن: **قاسمهما** في وسوسته إياهما **إني لكما لمن الناصحين**. وهذا الذي يقول الحسن يومئ إلى أن[١] آدم قد علم أنه الشيطان. وقال أبو بكر الكيساني: إنه قد[٢] وقع عند آدم أن الشجرة التي نهاه ربه أن يتناول منها هي المفضَّلة على جميع الشجر،[٣] فلما وسوس إليه الشيطان وقال له ما قال: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى، فوافق ظنه قول اللعين وما دعاهما[٤] إليه، ثم اشتغل [آدم بأمر آخر][٥] فنسي ذلك، فتناول[٦] على النسيان. والنسيان[٧] على وجهين: نسيان الترك على العمد، ونسيان السهو. ولا يحتمل أن يكون آدم ترك ذلك[٨] عمدا، فهو على نسيان السهو. إلى هذا يذهب أبو بكر الأصم، أو كلام نحوه.*

﴿**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾[٢٢]

وقوله عز وجل: **فدلّاهما بغرور**، وقال أبو عَوْسَجَة:[٩] **فدلّاهما بغرور**، أي أوردهما، يقال: دَلّاني فلان بحبل غرور، أي إنه زيّن لك[١٠] القبيح حتى تَرْكَبه؛[١١] وأصل التدلية من الدَّلْو،

[١] ع م – أن.

[٢] ع: وقد.

[٣] ك: الشجرة.

[٤] م: وما دعاها.

[٥] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٧ظ.

[٦] ع: فيتناول.

[٧] ع م – والنسيان.

[٨] ع م – ذلك.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فنقلناه إلى هنالك. انظر: ورقة ٢٤٢ظ/سطر ٢٩-٣٢.

[٩] ن – وقال أبو عوسجة.

[١٠] ع م – لك.

[١١] وعبارة الشارح هكذا: «أي أوردهما إلى الشجرة حتى تناولا منها على التغرير لهما. وقيل: أي زين لهما التناول من تلك الشجرة، يقال: دَلّاني فلان بحبل غرور...» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٨و). يقال: رَكِب الذنب أو القبيح: فعله واقترفه (*المعجم الوسيط*، «ركب»).

وهو من الدعاء،[١] أي دعاهما **بغرور**. ودعاؤه إياهما بغرور هو[٢] قوله: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى،[٣] وقوله عز وجل: إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ.[٤]

وقوله عز وجل: **بدت لهما سوءاتهما**.

فإن قيل: كيف خص السَّوءة بالذكر، ومِنَّتُه في اللباس في كل البدن لا في السوءة خاصة، وكذلك قوله: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ،[٥] ذكر مِنّته فيما أنعم علينا من ستر العورة[٦] وفي غيره من البدن في دفع البرد والحر[٧] وغير ذلك؟

قيل: لأن كشف العورة مستقبح في الطبع والعقل جميعا، وأما كشف غيره من البدن فليس هو بمستقبح[٨] في الطبع ولا في العقل، وربما يبدي المرء غيره من البدن سوى العورة عند الحاجة، ويستر / عند غير الحاجة.[٩] وأما العورة[١٠] فإنها لا تبدي[١١] إلا في حال الضرورة؛ [٢٤٣و] لذلك كان ما ذكر.[١٢] أو أن[١٣] يقال: إن المفروض من الستر هو قدر[١٤] الضرورة،[١٥] والآخر يلبسه[١٦] إما بحق التجمّل وإما بحق دفع البرد والحر والأذى، لذلك كان[١٧] تخصيصه[١٨] بالذكر؛ وإلا المِنّة والنعمة عظيمة في لباس غيره من البدن.

---

[١] قارن: *لسان العرب* لابن منظور، «دلو».
[٢] م: وهو.
[٣] سورة طه، ٢٠/١٢٠.
[٤] سورة الأعراف، ٧/٢٠.
[٥] سورة الأعراف، ٧/٢٦.
[٦] ك ن + وذلك في العورة.
[٧] م: في دفع الحر والبرد.
[٨] م: هو مستقبح.
[٩] ن – ويستر عند غير الحاجة.
[١٠] ن: وأمّا العورة.
[١١] جميع النسخ: فإنه لا يبدي.
[١٢] م: ما ذكروا.
[١٣] ع: وأن.
[١٤] م: هو قدرة.
[١٥] ك ن: العورة؛ ع: الضورة.
[١٦] م: يليه.
[١٧] ع م – كان.
[١٨] ع: تخصيه.

فإن قيل: إن الله كنىَ عن الجماع مرة باللمس ومرة بالغشيان، وعن الخلاء بالغائط، وهو المكان الذي يقضى فيه الحوائج، وكذلك جميع ما لا يستحسن ذكره مصرحا فإنما ذكره بالكناية، وهاهنا ذكر السَّوءة في العورة؟

قيل: السوءة والعورة هما كناية، لأنه[1] لم يذكر الفرج ولا الذكر ولا الدبر،[2] فهو كناية. والثاني في ذكر تخصيص السوءة؛ وذلك أنّ قَصْد الشيطان إنما كان إلى إبداء عورتهما لا غير؛ ألا ترى[3] أنه[4] لم يجعل لغير البشر عورةٌ تُستَر، ولذلك خُصّ بالستر[5] بالقبر، إذا مات يُقبَر لأجل عورته، ولا يُقبَر غيره من الدواب إذا هلك، ولا يُستَر في حال حياته. فخرج ذكر تخصيص[6] السوءة لما ذكرنا أن اللعين قصد بذلك قَصْدَ إبداءِ عورتهما لا غير؛ ألا ترى أنه قال: لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا،[7] كان قصده إلى ذلك.

وقوله عز وجل: **وطفقا يخصفان**، قال أبو عَوْسَجَة: **طفقا**، أي أخذا،[8] تقول:[9] طفقت أفعل كذا، أي أخذت. والخَصْف الخياطة في النعل والخُفّ، وهو مستعار هاهنا. وقال مجاهد: **يخصفان**، أي يَرْقَعان كهيئة الثوب.[10] وقيل: **يخصفان**، يغطّيان. ثم قوله: **وطفقا يخصفان**

[٢٤٣و س١٦ **عليهما من ورق الجنة**، إما حياء أحدهما من الآخر، أو حياء من الله،* أو لما وقع[11] بصر

٢٤٣و س١٧] كل واحد منهما على عورته،[12] فذلك يكره أيضا أن ينظر المرء إلى فرجه.* ولهذا نقول: إنه يكره للرجل في الخلوة أن يكشف عورته ويبديها. وعلى ذلك[13] روي في الخبر أنه قال:

---

[1] ع م – لأنه.
[2] ن ع م: والدبر.
[3] ك: ألا يري.
[4] جميع النسخ: أن ذلك.
[5] جميع النسخ: الستر.
[6] ع: التحصيص.
[7] سورة الأعراف، ٧/٢٠.
[8] م: أي أخذ.
[9] ن ع: بقول.
[10] *تفسير الطبري*، ٨/١٤٢.
[11] ن + أو لما وقع.
[12] أي عورة نفسه.
* وقع ما بين النجمتين عقب قول المؤلف: «... والمرأة إلى فرج زوجها» بعد أسطر. انظر: ورقة ٢٤٣و/ سطر ١٦-١٧.
[13] ك: هذا.

«فالله أحق أن يُستَحيا [منه]».[1] أو حياء أحدهما من الآخر لما بدت لكل واحد منهما عورة صاحبه. ولهذا كره أبو حنيفة رحمه الله أن ينظر الرجل إلى فرج[2] زوجته، والمرأة إلى فرج زوجها.* ألا ترى[3] أنه قال: لِيُبْدِيَ لَهُمَا،[4] ولم يقل: ليبديهما، فهذا يدلّ على أنه لا ينبغي أن ينظر إلى فرج زوجته ولا الزوجة[5] إلى فرجه.

وقوله عز وجل: **وناداهما ربهما ألم أنهكُمَا عن تلكما الشجرة**، الآية، يحتمل قوله: **وناداهما ربهما**، وحيًا أوحي إليهما على يدَيْ ملك، كقوله: فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا،[6] أضاف إلى نفسه لما يُنفخ فيه بأمره، فعلى ذلك هذا. أو إلهاما ألهمهما، كقوله: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ،[7] وقوله: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ،[8] وكقوله:[9] وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ،[10] ونحوه، وإنما هو إلهام.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢٣]

وقوله عز وجل: **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا**، حيث أوقعناها[11] في الشدائد وكَدّ[12] العيش. والظلم هو وضع الشيء في[13] غير موضعه.[14] وقوله عز وجل: **ربنا ظلمنا أنفسنا**، قال الحسن:

---

[1] روى بَهْز بن حَكِيم عن أبيه عن جده قال: قلت: يا نبي الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نَذَر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»، قلت: يا رسول الله، إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يراها»، قال: قلت: يا نبي الله، إذا كان أحدنا خاليا؟ قال: «فالله أحق أن يُستَحيا منه من الناس» (*سنن أبي داود*، الحمام ٢؛ و*سنن الترمذي*، الأدب ٢٢). وحسّنه الترمذي. وعلّقه البخاري؛ انظر: *صحيح البخاري*، الغسل ٢٠.

[2] م – إلى فرج.

* وقعت هنا عبارة ليست في محلها، فنقلناها إلى موضعها المناسب قبل أسطر. انظر: ورقة ٢٤٣و/سطر ١٦-١٧.

[3] ك: ألا يري.

[4] سورة الأعراف، ٢٠/٧.

[5] ع: ولا الزوج.

[6] ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ (سورة التحريم، ١٢/٦٦).

[7] سورة القصص، ٧/٢٨.

[8] سورة طه، ٣٨/٢٠-٣٩.

[9] م – وكقوله.

[10] سورة النحل، ٦٨/١٦.

[11] ك: أوقعنا؛ ع: أوقعناهما. أي أوقعنا أنفسنا.

[12] ع: وكذا.

[13] ك ع – في.

[14] ن – وقوله عز وجل قالا ربنا ظلمنا أنفسنا حيث أوقعناها في الشدائد وكد العيش والظلم هو وضع الشيء غير موضعه.

هن الكلمات التي[1] تلقّاها آدم من ربه، كقوله:[2] ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾،[3] قال آدم ما ذكر في الآية.[4] وكذلك قال نوح، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾،[5] وقال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾،[6] وقال نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾.[7] بعضه خرج على الأمر، وبعضه على السؤال، وكله على الدعاء والسؤال ليس على الأمر وإن خرج ظاهره مخرج[8] الأمر، لأن الأمر ممن هو دونه لمن فوقه دعاء وسؤال، وممن هو فوقه لمن دونه[9] أمر. لو أن ملكا من الملوك إذا أمر[10] بعض خَدَمِه بأمر أو بعض رعيّته فهو أمر، وإذا أمر[11] بعضُ خَدَمِه أو رعيّته الأميرَ شيئا فهو ليس بأمر، لكنه[12] سؤال ودعاء؛ فعلى ذلك دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ربهم.

فإن قيل: إن الرسل سألوا ربهم المغفرة لزلّاتهم، فلا يخلو[13] إما أن أجيبوا في ذلك أو لم يجابوا،[14] فإن لم يجابوا فيما سألوا فهو عظيم، فإن أجيبوا في ذلك[15] -والمغفرة في اللغة الستر- كيف ذُكرت زلّاتهم في الملأ إلى يوم القيامة؟

قيل: لوجوه. أحدها[16] أنهم لما ارتكبوا تلك الزلّات عَظُم ذلك عليهم واشتغلت قلوبهم بذلك لعظم[17] ما ارتكبوا عندهم؛ [و]لم يخطر ببالهم عند سؤالهم المغفرة ستر ذلك على الناس وكتمانها عنهم بعد أن أجاب الله بالتجاوز عنهم في ذلك. أو أن يقال:

---

[1] ن – التي.
[2] ك: بقوله.
[3] سورة البقرة، ٢/٣٧.
[4] أخرجه عبد بن حميد؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٤٣٢-٤٣٣.
[5] سورة هود، ١١/٤٧.
[6] سورة إبراهيم، ١٤/٤١.
[7] سورة نوح، ٧١/٢٨.
[8] ع: فخرج.
[9] ع م – دعاء وسؤال وممن هو فوقه لمن دونه.
[10] م: إذا أمره.
[11] ع م – بعض خدمه بأمر أو بعض رعيته فهو أمر وإذا أمر.
[12] ك ن: ولكنه.
[13] ن ع: فلا يخلوا.
[14] ن: أو أن يجابوا.
[15] ع – أولم يجابوا فإن لم يجابوا فيما سألوا فهو عظيم فإن أجيبوا في ذلك.
[16] ن – أحدها.
[17] ع م: لعظيم.

أراد بإفشاء ذلك وإظهارها إيقاظ غيرهم وتنبيهًا[١] في ذلك، ليعلموا أن الرسل مع جليل قدرهم وعظيم[٢] منزلتهم عند الله لم يُحَابِهم[٣] في العتاب والتوبيخ بما ارتكبوا؛ فمَن دونهم أحق في ذلك. أو أن ذكر[٤] ذلك ليعلموا أنه ليس بغافل عن ذلك، ولا يخفى عليه شيء. ***والله أعلم بذلك.***

وقوله: **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا**، وقال: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى،[٥] وقال: فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا،[٦] فأعلمنا الله عز وجل أن آدم نسي أمر ربه. فقال قوم من أهل العلم: أكل آدم من الشجرة وهو ناسٍ لنهي[٧] الله إياه عن أكلها، وكان أكله منها ظلما منه لنفسه وعصيانا لربه وإن كان فعل[٨] ذلك ناسيا. ثم إن الله تفضّل على أمة محمد فرفع عنهم في الخطأ والنسيان[٩] وما استُكرهوا عليه.[١٠] وقال قوم: معنى قوله: فَنَسِيَ، أي ترك أمر ربه من غير نسيان، وقالوا: هذا / كقول الله: [٢٤٣ظ] نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ.[١١] ولا ندري كيف كان ذلك.

وقال بعض أهل العلم: إن الخطأ والنسيان في الأحكام موضوع[١٢] بهذا الحديث.[١٣] فيقال لهم:[١٤] فما تقولون في قتل الخطأ، هل فيه الدية والكفارة؟ وما تقولون في رجل أفسد متاع رجل وأحرقه ناسيا أو مخطئا؟ فإن قالوا: ذلك لازم عليه، فكيف قلتم: إن الحديث جاء في الأحكام، وأنتم توجبون الضمان؟ وقال بعضهم: وجه الحديث عندنا أن الأمم قبل أمتنا كانت مأخوذة بالخطأ والنسيان فيما بينها[١٥] وبين ربها،[١٦] فرفع الله تعالى الحرج عن هذه الأمة في ذلك

---

[١] ن + على أن.
[٢] ن: وعظم.
[٣] جميع النسخ: لم يحابهم.
[٤] م: أو أن يكون.
[٥] سورة طه، ١٢١/٢٠.
[٦] سورة طه، ١١٥/٢٠.
[٧] ك: نهي.
[٨] ع م: فعلي.
[٩] ع م: والعصيان.
[١٠] عن ابن عباس، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» (*سنن ابن ماجه*، الطلاق ١٦؛ وصحيح *ابن حبان*، ٢٠٢/١٦).
[١١] سورة التوبة، ٦٧/٩.
[١٢] أي مرفوعة نتائجها، ولا يعتد بها.
[١٣] ك: لهذا الحديث.
[١٤] ع م – لهم.
[١٥] ع م: بينهما.
[١٦] ع: ربهما.

تفضُّلاً منه علينا[1] من بين الأمم، فأما الغرامات والضمانات في الأحكام التي بين الناس **فهي** لازمة لهم، خطأ فعلوا أو عمدا.[2] ***والله أعلم***.

وفي قوله: **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا**،[3] دلالة النقض[4] على المعتزلة، لأنهم يقولون: الصغائر مغفورة باجتناب الكبائر. ثم من قولهم:[5] إن الرسل والأنبياء معصومون عن الكبائر، فزلّة آدم لا شك أنها صغيرة لما ذكرنا، ثم قال: **وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**،[6] فإذ لم يكن له أن يعذبه فيصير كأنه[7] قال:[8] إن جُرْتَ وظلمت علينا **لنكونن من الخاسرين**.[9]*

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٢٤]

وقوله عز وجل: **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو**، عن ابن عباس[10] رضي الله عنه قال: آدم وحواء وإبليس والحية.[11] وقال الحسن: آدم ووسوسة الشيطان؛[12] لأن من قوله: إن الشيطان لم يكن في السماء، إنما وسوس آدم وحواء مِن بُعد، فالأمر بالهبوط لوسوسته، ولذلك بقيت في أولاده إلى يوم القيامة. وقال بعضهم: دلّ قوله: **ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين**، على أن الأمر بالهبوط إنما كان من السماء، وكانوا[13] في السماء. ثم قوله: **اهبطوا بعضكم لبعض عدو**، كان[14] الأمر بالهبوط لم يكن معا، لأن إبليس أمر بالهبوط حين أبى السجود،

[1] ن – أن الأمم قبل أمتنا كانت مأخوذة بالخطأ والنسيان فيما بينها وبين ربها فرفع الله تعالى الحرج عن هذه **الأمة** في ذلك تفضلا منه علينا.

[2] ن م: عمدوا.

[3] ك ن + إلى آخره.

[4] ع: النفس.

[5] ع م: من قوله.

[6] م – وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

[7] ك: وكأنه.

[8] م + وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

[9] م + إن جرت وظلمت علينا لنكونن من الخاسرين.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية رقم ٢٠، فقدمناه إلى هنالك. انظر: ورقة ٢٤٣ظ/سطر ١٠-١٥.

[10] ن: وعن ابن عباس.

[11] *تفسير الطبري*، ١/٢٤٠؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ١/١٣٤.

[12] ع + لأن من قوله إن الشيطان لم يكن في وسوسة الشيطان.

[13] ن: كانوا.

[14] ن: وكان.

وآدم وحواء حين تناولا من الشجرة، ثم جمعهم في الأمر بالهبوط ليُعلَم أنْ ليس في الجمع[1] بالذكر دلالة وجوب الحكم والأمر مجموعا.

وقوله عز وجل: **اهبطوا**، لا يُفهَم منه الهبوط من الأعلى؛ ألا ترى أنه قال في آية أخرى: اِهْبِطُوا مِصْرًا،[2] أي انزلوا فيه. وقوله: **عدو**، وهو[3] عدو لنا إما بالكفر وإما بما يسعى في هلاكنا، وكل من يسعى في هلاكنا فهو عدو لنا ونحن أعداء له.

وقوله عز وجل: **ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين**، قيل: إلى منتهى آجالكم، وإبليس إلى النفخة الأولى. ويشبه أن يكون هذا ليس على التوقيت، ولكن على الدوام والقرار فيها.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[٢٥]

وقوله عز وجل: **قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**، قيل: في الأرض تعيشون، **وفيها تموتون** عند انقضاء آجالكم، **ومنها تخرجون** في القيامة.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[٢٦]

وقوله عز وجل: **يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم**، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن: أنزل ماء القَراح[4] من السماء ليُتَّخَذ منه اللباس ما يواري عورتهم، ويُتَّخَذ منه الطعام والأشياء التي بها قوام أنفسهم.[5] ويحتمل قوله: **قد أنزلنا عليكم لباسا**، أنزل الماء والأسباب التي بها يتخذ اللباس والأطعمة والأشربة والعلم في ذلك؛ لأنه لولا[6] ما أنزل من السماء ذلك[7] الماء والأسباب والعلم بذلك وإلّا ما عرف الخلق أنْ كيف يُتَّخَذ ذلك لباسا والأطعمة والأشربة. وفيه دليل إثبات الرسالة، لأنهم لم يعرفوا ذلك إلا بوحي من السماء. أو أن يكون قوله: **قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا**،

---

[1] ن: ليس الجمع.

[2] سورة البقرة، ٦١/٢.

[3] ن – عدو وهو.

[4] القَراح: الماء الخالص الذي لا يخالطه شيء (*المعجم الوسيط*، «قرح»).

[5] ذكره الآلوسي عن الحسن؛ انظر: *روح المعاني* للآلوسي، ١٠٣/٨.

[6] ن ع م: لو.

[7] ع م – لأنه لو ما أنزل من السماء ذلك.

أي جعل لكم وأنشأ لكم ما تتخذون[1] منه اللباس والطعام والشراب، ليس على الإنزال ولكن على أن جعل لكم ذلك، كقوله: جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ،[2] وقوله: جَعَلَ لَكُمْ -أي أنشأ لكم- سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ،[3] وهو أن خلق لنا ذلك. وفيه دليل خلق أفعال الخلق؛ لأنه إنما صار لباسا وطعاما ومالا بفعل من العباد،[4] لا[5] أنه أنزل من السماء هكذا، ثم أخبر أنه جعل ذلك لنا، دلّ أنه خَلَق فِعل الخَلْق فيه.

وقوله: **وريشا**، قال بعضهم: مالا، وقال بعضهم: معاشا. وقال القُتَبي: الريش والرياش ما ظهر من اللباس، وريش الطائر ما ستر به.[6]

وقوله: **ولباس التقوى**، في حرف ابن مسعود رضي الله عنه **ولباسُ التقوى**، بالرفع على الابتداء، أي لباسُ التقوى خيرٌ، ومَن نَصَبَه أيضا فإنما ينصبه على الجواب لما تقدم،[7] وإلا الحق فيه الرفع.[8]

[٢٤٤و] ثم اختلف فيه أهل التأويل. قال[9] الحسن: **لباس التقوى** / الدين. وقال أبو بكر الأصم: القرآن. وقيل: العفاف، وقيل: الحياء، وقيل: الإيمان؛ فكله واحد.[10] أي كل ما ذكر من **لباس التقوى خير** من اللباس[11] الذي ذكر؛ لأن الدين والإيمان والقرآن[12] والحياء يزجره ويمنعه عن المعاصي، فهو خير؛ لأنه لباس في الدنيا والآخرة؛ لأن المؤمن التقي العفيف الحَيِيّ[13] لا يبدو له عورة وإن كان عاريا من الثياب، وإن الفاجر لا يزال يبدو منه عورته وإن كان[14] كاسيا من الثياب،[15]

---

[1] ع م: ما يتخذون.

[2] سورة المؤمن، ٤٠/٧٩.

[3] سورة النحل، ١٦/٨١.

[4] ع: من العبادة.

[5] ع م - لا.

[6] أي ما ستره الله به. انظر: *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٦٦.

[7] أي على العطف على "وريشا".

[8] قرأ من الأئمة السبعة ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزة ﴿ولباسُ التقوى﴾ رفعا، وقرأ نافع وابن عامر والكسائي: ﴿ولباس التقوى﴾ نصبا؛ انظر: *كتاب السبعة في القراءات* لابن مجاهد، ٢٨٠.

[9] م: وقال.

[10] ع: واحدا.

[11] ن: من لباس.

[12] ن - والقرآن.

[13] ك: الحييئ؛ ن ع: الحي؛ م:الحيء.

[14] م - كان.

[15] ن: من الثواب.

لا يتحفّظ في لباسه، فالتقوى[١] خير. وهو كقوله: فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى.[٢] هذا التأويل للقراءة التي تقرأ[٣] بالرفع: **لباسُ التقوى**، على الابتداء. وأما من قرأ[٤] بالنصب فهو ردّه إلى قوله: **قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا**، ثم أنزلنا عليكم أيضا لباسا تتقون به الحر والبرد والأذى، فيكون فيه ذكر لباس لسائر[٥] البدن، وفي الأول ذكر لباس العورة.

وقوله عز وجل: **ذلك من آيات الله**، يحتمل قوله: **ذلك**، الذي اتخذ منه اللباس والأطعمة والأشربة من آيات الرسالة؛ لأن كل ذلك إنما عرف بالرسل بوحي من السماء. وهو ما ذكرنا أن فيه دليل إثبات الرسالة. ويحتمل **ذلك من آيات الله**، أي[٦] **من آيات** وحدانية **الله** وربوبيته، لما جعل منافع السماء متصلة بمنافع الأرض مع بعد ما بينهما، دلّ ذلك أن منشئهما ومدبرهما واحد، لأنه لو كان تدبير اثنين ما اتّسق تدبيرهما لاتصال[٧] منافع أحدهما بالآخر.

وقوله عز وجل: **لعلهم يذكّرون**، أي **لعلهم** يُوَفَّقون[٨] للتذكير –و لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ،[٩] أي لعلهم يوفّقون للتقوى– ولعلهم يوفّقون للشكر، لأنه حرف شك،[١٠] هذا يحسن أن يقال. ***والله أعلم***. أو نقول: لكي يلزمهم التذكّر والشكر.[١١]

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢٧]

وقوله عز وجل: **يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة**، قال بعضهم: خاطب به أهل مكة في تكذيبهم رسول الله ومخالفتهم أمره في أن لا يخرجكم من الأمن والسعة كما أخرج أبويكم من دار الأمن والسعة. وقال بعضهم: قوله: **لا يفتننكم الشيطان**،

---

١ ك: فلباس التقوي؛ ن: فلبس التقوي.
٢ سورة البقرة، ١٩٧/٢.
٣ ك: التي تقرأه.
٤ ك: وقرأه.
٥ م: سائر.
٦ م – أي.
٧ ك + المنافع.
٨ ع م – يوفقون.
٩ سورة البقرة، ١٨٧/٢؛ وسورة الأنعام، ٥١/٦، ٦٩؛ وسورة الأعراف، ١٦٤/٧؛ وسورة طه، ١١٣/٢٠؛ وسورة الزمر، ٢٨/٣٩.
١٠ ن: شكر. وعبارة الشارح هكذا: «لأنه حرف ترجية» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٨٩و).
١١ ع م: والتشكر.

أي[1] احذروا دعاءه إلى ما يدعوكم إليه، فإنه يمنع عنكم في الآخرة الكرامة والثواب كماأخرج أبويكم من دار الكرامة والمنزلة. وقال أهل التأويل: **لا يفتننّكم الشيطان**، أي لا يضلنّكم الشيطان ويغويكم كما فعل بأبويكم،[2] أخرجهما من الجنة. وقال آخرون: قوله: **لا يفتننكم الشيطان**، بما تَهْوَى به أنفسكم ومالت[3] إلى شهواتها وأمانيها، **كما أخرج أبويكم من الجنة**، بما هوته[4] أنفسهما[5] واشتهتها،[6] يحذّرهم اتّباع هوى النفس وشهواتها وأمانيها، فإن السبب[7] الذي به كان إخراجهما هو هوى[8] النفس وأمانيها.

وقوله عز وجل: **ينزع عنهما لباسهما**، يحتمل قوله: **ينزع**، أي نزع[9] **عنهما لباسهما**، وهذا في القرآن كثير يفعل بمعنى فعل. ويحتمل على الإضمار، كأنه قال: أراد أن **ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما**. وقد ذكرنا[10] أن المفروض من الستر هو ستر العورة لا غير، احتيج إليه أولم يحتج. وأما غيره من الستر فإنما هو لدفع الأذى من الحر والبرد أو للتجمل.[11] والمفتون بالشيء هو المشغوف به والمُولَع به. يقول: لا يمنعكم عن دخول الجنة **كما أخرج أبويكم من الجنة**،[12] وكان قصده ما ذكر من نزع اللباس و إبداء العورة، وهو ما ذكر.

وقوله عز وجل: **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم**، قيل: **قبيله**،[13] جنوده وأعوانه؛ حذّرنا إبليسَ وأعوانَه بما يروننا ولا نراهم.[14]

---

[1] ع م: أن.
[2] ع م: أبويكم.
[3] ك ع م: وامالت.
[4] ك ن: بما هوت به.
[5] ن: أنفسهم؛ ع: أنفسها.
[6] م: واشتهائها.
[7] ك: فإن سبب.
[8] ع: هو هي.
[9] م – أي نزع.
[10] ع: وقد ذكر.
[11] ع م – أو للتجمل.
[12] م + هو.
[13] ع: قبيلة.
[14] ع: ولا يرونهم.

فإن قيل: كيف كلّفنا[١] محاربته وهو بحيث لا نراه وهو يرانا، ومثله في غيره من الأعداء لا يكلفنا محاربة من لا نراه أو لا نقدر[٢] [على] القيام بمحاربته، وليس في وسعنا القيام بمحاربة من لا نراه؟

قيل:[٣] إنه لم يكلفنا محاربة[٤] أنفسهم،[٥] إذ لم يجعل[٦] له[٧] السلطان على أنفسنا وإفساد مطاعمنا[٨] ومشاربنا وملابسنا، ولو جعل[٩] لهم ذلك[١٠] لأهلكوا[١١] أنفسنا وأفسدوا غذاءنا. إنما جعل له السلطان في الوساوس فيما يوسوس في صدورنا، وقد جعل لنا السبيل إلى معرفة وساوسه بالنظر والتفكر، نحو قوله: وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ،[١٢] الآية، وقوله تعالى: وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ،[١٣] وقوله: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا.[١٤] عَلَّمَنا ما به ندفع وساوسه وهمزاته، وجعل لنا الوصول إلى دفع وساوسه بحجج وبأسبابٍ جَعَلَ لنا. فهذا يدل على أن الله يجوز أن يكلّفنا بأشياء لم يعطنا أسباب تلك الأشياء بعد أن جعل في وسعنا الوصول إلى تلك الأسباب وإن لم يكن وقت التكليف تلك الأسباب، من نحو الأمر بالصلاة وإن لم نكن[١٥] على الطهارة، إذ جعل في وسعنا الوصول إلى الطهارة، ونحوِ الأمر بأداء الزكاة وإن لم يكن وقت الأمر من يؤدَّى إليه حاضرا، ونحو الأمر بالحج[١٦] وغيره من العبادات وإن كان لا يصل إلى أداء ما افترض عليه إلا بعد أوقات مع احتمال الشدائد.

[١] ع: كلنا.
[٢] ك: أو لا يقدر.
[٣] ن – قيل.
[٤] م: محاربته.
[٥] ع م – أنفسهم.
[٦] ن ع م: لم نجعل.
[٧] أي لإبليس.
[٨] ع: مطاعنا.
[٩] ك: وإن جعل.
[١٠] ع م – ذلك.
[١١] ع: لا أهلكوا.
[١٢] سورة الأعراف، ٧/٢٠٠؛ وسورة فصلت، ٤١/٣٦.
[١٣] سورة المؤمنون، ٢٣/٩٧.
[١٤] سورة الأعراف، ٧/٢٠١.
[١٥] جميع النسخ: لم يكن.
[١٦] ك ع: بالحجج.

وهذا يرد أيضا على من يقول:[1] لا يلزم الأوامر والمناهي مَن جَهِلها، ولا يُكلَّف إلا بعد العلم بها، لأنه يتكلف حتى لا يلزمه فرض من فرائض الله وعبادة من عباداته، لأنه لا يكتسب[2] أسباب العلم بها لئلا يلزم ذلك؛ فهذا بعيد محال، والوجه فيه ما ذكرنا. **والله أعلم**.

[٢٤٤ظ] /وقوله عز وجل: **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**. اختلف أهل الاعتزال فيه. قال أبو بكر الأصم: الجعل من الله تعالى على وجوه. أحدها السبب أي[3] أعطينا لهم السبب[4] الذي به صاروا أولياء لهم، كما يقول[5] الرجل لآخر: جعلت لك الدار والعبيد والمال، وهو لم يجعل له ذلك، ولكن أعطاه ما به صار ذلك، وهو إنما أعطاه سبب ذلك، فيضاف ذلك إليه؛ فعلى ذلك ما أضاف الجعل إليه لما أعطاه السبب. وقال جعفر بن حرب:[6] الجعل هو التخلية، خلّى بينهم وبين أولئك، فأضاف ذلك إليه[7] بالجعل، كما يقال للرجل: جعلت عبدك قَتَّالا ضَرَّابا، إذا خلّى بينه وبين ما يفعله، وهو قادر على منعه عن ذلك. فعلى ذلك فيما أضاف الجعل[8] إلى نفسه، هو أن خلّى بينهم وبين أولئك يعملون ما شاءوا. وقال الحسن: مِن حُكم الله أنّ من عصى يكون عدوا له، ومن أطاعه[9] يكون وليا له، ومن أطاع الشيطان فهو وليه، ومن عصاه يكون عدوا له. فكذا[10] حكم الله تعالى في كل من أطاعه يكون وليا له، ومن عصاه يكون عدوا له. وقال غيرهم من المعتزلة: قوله: **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**، أي وجدناهم كذلك أولياء لهم. ولكن لو جاز إضافة ذلك إلى الله تعالى لِما ذُكر هؤلاء لجاز إضافة ذلك إلى الأنبياء، لأنه قد كان منهم التخلية في ذلك والتسمية لهم بذلك والحكم -على ما قال الحسن- والوجود. فإذا لم يجز[11] إضافة ذلك إليهم دل أنه قد كان من الله في ذلك صنع لم يكن ذلك من الأنبياء،

---

[1] ك ع م + أن.
[2] ن ع م: لا يكسب.
[3] ن ع م: الذي.
[4] ع - أي أعطينا لهم السبب.
[5] ك: كما تقول.
[6] أبو الفضل جعفر بن حرب الهمذاني المعتزلي العابد، (ت. ٢٣٦هـ/٨٥٠م). له كتاب *متشابه القرآن*، وكتاب *الاستقصاء*، وكتاب *الرد على أصحاب الطبائع*، وكتاب *الأصول*. انظر: *سير أعلام النبلاء* للذهبي، ١٠/٥٤٩-٥٥٠.
[7] ن: فأضاف إليه ذلك.
[8] م: الجهل.
[9] م: ومن أطاع.
[10] ك: هذا.
[11] ن ع م: فإذ لم يجز.

وهو أنْ خلَق منهم فعل الولاية لهم[١] لما علم منهم أنهم[٢] يختارون ولايتهم ويتولّونهم، كقوله: إنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ.[٣] *وبالله العصمة والنجاة.*

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢٨]

وقوله عز و جل: **وإذا فعلوا فاحشة**، قال ابن عباس رضي الله عنه: كل معصية فاحشة.[٤] والفاحشة كل ما عَظُم فيه النهي، فإذا ارتكبوا ذلك فهو فاحشة. وقال مجاهد: فاحشتهم أنهم كانوا يطوفون بالبيت عُراة.[٥] وقال غيره من أهل التأويل: الفاحشة هو ما حَرموا من الحرث والأنعام والنبات[٦] وغيره من نحو السائبة والحامي وغيره.[٧] لكن الفاحشة ما ذكرنا من[٨] أن كل ما عظم[٩] النهي فيه والزجر فهو فاحشة. والفاحشة هو ما عَظُم فيه الأمر. يُعرَف ذلك بوجهين؛ أحدهما يَعظُم ذلك في العقل، والثاني في السمع[١٠] يَرِد فيه.

وقوله عز وجل: **والله أمرنا بها**، ادَّعَوْا في ذلك أمر الله ورضاه فيه، ويقولون: لو لم يرض بذلك ولم يأمر[١١] لكان يُنَكِّلهم وينتقم منهم، يعنون آباءهم. فاستدلوا بتركهم وما فعلوا على أن الله قد كان رضي بذلك وأمرهم إذا فعلوا ذلك،[١٢] فدل تركه إياهم على ذلك على أنه قد أمرهم بذلك ورضي عنهم؛ كمن يخالف في الشاهد ملكا من الملوك في أمره ونهيه،

---

[١] ن – لهم.

[٢] ن: لما علم أنهم منهم.

[٣] سورة النحل، ١٦/١٠٠.

[٤] روى الطبري عن ابن عباس أنه فسر الفاحشة بالمعصية في قوله تعالى: ﴿ياأيها النبي إذا طلّقتم النساء فطلّقوهن لعِدَّتهن وأَحْصُوا العِدَّة واتقوا الله ربكم لا تُخرِجوهن من بيوتهن ولا يَخْرُجْنَ إلّا أنْ يأتين بفاحشة مبيِّنة﴾ (سورة الطلاق، ٦٥/١). انظر: *تفسير الطبري*، ٢٨/١٣٣.

[٥] عن مجاهد ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ قال: كانوا يطوفون بالبيت عُراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على قُبلها النِّسعَةَ أو الشيء فتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله، فما بدا منه فلا أُحِلّه. انظر: *تفسير الطبري*، ٨/١٥٤. والنسعة سَيْر مَضفور يجعل زماما للبعير (*لسان العرب* لابن منظور، «نسع»).

[٦] ك – والنبات.

[٧] انظر تفسير الآيات من سورة المائدة، ٥/١٠٣؛ وسورة الأنعام، ٦/١٣٦، ١٣٨-١٣٩.

[٨] ك ع م – من.

[٩] ع: ما أعظم.

[١٠] ن ع م: بالسمع.

[١١] جميع النسخ: لم يأمر.

[١٢] ك ن: بذلك.

فإنه يُنَكِّله على ذلك وينتقم منه إذ كان قادرا على ذلك، فإذا لم يفعل ذلك به دلّ ذلك منه على الرضا به؛ فعلى ذلك الله لما لم ينتقم منهم و لم ينكلهم، دل ذلك على الرضا والأمر به. والثاني كأنهم أخذوا ذلك من المسلمين لما سمعوا من المسلمين قالوا: ما شاء الله كان، ظنوا أن ما كان من آبائهم كان بأمر[1] من الله ورضاه؛ لم يفصلوا بين المشيئة والأمر. المشيئة والإرادة هي[2] صفة فعل كل فاعل يفعله على الاختيار، نحو أن يقال: شاء فعل كذا أو أراد[3] أمر كذا، ولا يجوز أن يقال: أمر نفسه بكذا أو نهى نفسه عن كذا. وأما قولهم: إنه لم ينكّل آباءهم و لم ينتقم منهم بما فعلوا، دل أنه رضي بذلك. فيقال: إن فيهم من فعل على خلاف فعلهم وغير صنيعهم ضد ما فعل أولئك. ثم لم يفعل بهم ذلك، فهل دل ذلك على الرضا منه بذلك؟ فإن قلتم: بلى، فإذن[4] رضي بفعلين متضادّين، وإن قلتم: لا، كيف دل ذلك في أولئك على الرضا والأمر و لم يدل فيمن فعلوا بخلاف فعلهم؟ فذا تناقض. وقد ذكرنا فيما تقدم.[5] *والله أعلم*.

قل، لهم يا محمد، **إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون**، إن الله أمر بهذا وحرم هذا. وقوله عز و جل: **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء**، الفحشاء[6] هو ما ذكرنا، ما عَظُم النهي فيه، أو كل ما يشتدّ فيه النهي ويغلظ أو يكثر هو الفحشاء؛ ألا ترى أنه يقال لكل شيء يكثر: فَحُش، من نحو الكلام وغيره أنه إذا أخرج من حده وجاوز يقال: فَحُش؛ فعلى ذلك الفحشاء هاهنا هو ما جاوز حده في القبح، أو جاوز الحد من الكثرة، وهم قد أكثروا الافتراء على الله. وقوله: **أتقولون على الله ما لا تعلمون**، قال بعضهم: بل **تقولون على الله ما لا تعلمون**،[7] إنه أمر بذلك. وقيل: قوله: **أتقولون على الله**، أي تعلمون أنكم **تقولون على الله ما لا تعلمون**؛ لأنهم[8] لم يكونوا يؤمنون[9] بالرسل ولا كان لهم كتاب، فكيف تعلمون أن الله أمركم بذلك. وهو كقوله: قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؛[10]

---

[1] ع + الله.
[2] ك – هي.
[3] ك: أو أرادا.
[4] ن ع م: فإذا.
[5] انظر تفسير الآية من سورة الأنعام، ١٤٨/٦.
[6] ن ع م – الفحشاء.
[7] ن – قال بعضهم بل تقولون على الله ما لا تعلمون.
[8] ع: أنهم.
[9] ن: لو يؤمنون.
[10] سورة يونس، ١٨/١٠.

لا يجوز أن لا يعلم الله، ولكن على النفي لذلك؛ ليس كما تقولون وتنبئون، ولكن يعلم خلاف ذلك وضده، ويكون في نفي ذلك إثبات غيره. فعلى ذلك يعلمون[١] أنهم يقولون على الله ما لا يعلمون. وأسباب العلم [في] هذا إما الرسل يخبرون عن الله ذلك، أو الكتاب[٢] يجدون فيه / مكتوبا فيعلمون، [٢٤٥و]
فيسع[٣] الشهادة بذلك. وهم قوم لا يصدقون الرسل ولا يؤمنون بخبرهم، وليس لهم[٤] كتاب أيضا يقرءونه، فما بقي إلا وحي الشيطان إليهم، كقوله: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ.[٥]

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[٢٩]

وقوله عز وجل: **قل أمر ربي بالقسط**، والقسط هو العدل في كل شيء في القول والفعل وغيره، كقوله:[٦] وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا،[٧] وكقوله تعالى: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ.[٨] وأصل العدل هو محافظة الشيء على الحد[٩] الذي جُعل له، ووَضْعُه[١٠] موضعه.

وقوله عز وجل: **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد**، اختلف فيه. قيل:[١١] **أقيموا**، أي[١٢] سَوُّوا وجوهكم نحو الكعبة، **عند كل مسجد**، أي في كل[١٣] مكان تكونون فيه، وهو كقوله: وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً،[١٤] أي اجعلوا بيوتكم نحو الكعبة، كقوله تعالى: وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ.[١٥] وقيل: **أقيموا وجوهكم**، أي اجعلوا عبادتكم لله ولا تشركوا فيها غيره، و"الوجه" يكون كناية عن العبادة، وهما واحد. وقيل: **أقيموا وجوهكم**،

[١] م: لا يعلمون.
[٢] جميع النسخ: والكتاب.
[٣] ع م: فيتسع.
[٤] ع م – لهم.
[٥] سورة الأنعام، ١٢١/٦.
[٦] ع: وكقوله.
[٧] سورة الأنعام، ١٥٢/٦.
[٨] سورة النساء، ١٣٥/٤.
[٩] ع م: عن الحد.
[١٠] ك: وضعه.
[١١] ع – قيل.
[١٢] ك – أي.
[١٣] ن – كل.
[١٤] ع + أي اجعلوا بيوتكم. سورة يونس، ٨٧/١٠.
[١٥] سورة البقرة، ١٤٤/٢، ١٥٠.

أي دينكم لله لا تشركوا فيه غيره،[1] كقوله: **وادعوه مخلصين له الدين**. ويشبه أن يكون الوجه كناية وعبارة[2] عن الأنفس، كأنه قال: **أقيموا** أنفسكم لله ولا تشركوا فيها لأحد شركا، كقوله: وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ،[3] أي يجعل[4] نفسه لله سالما.

وقوله عز وجل: **وادعوه مخلصين له الدين**، يحتمل الدعاء نفسه، أي **ادعوه** ربا خالقا ورحمانا، **مخلصين له الدين** بالوحدانية والألوهية والربوبية. ويحتمل قوله: **ادعوه** أي اعبدوه **مخلصين له** العبادة، ولا تشركوا غيره فيها. ويحتمل أي دِينُوا بدينه الذي دعاكم إلى[5] ذلك وأمركم به.

وقوله عز وجل: **كما بدأكم تعودون**، قال قائلون: هو[6] صلة قوله: فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ،[7] كأنهم سألوا مِمَّ[8] يعودون إذا بُعثوا؟ فقال: **كما بدأكم**، خلقكم، **تعودون** مثله. ويحتمل أن يكون هو صلة قوله: فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ،[9] تعودون كما كنتم[10] في البَدْأَة: الكافر كافرا والمؤمن مؤمنا. وقوله عز وجل: **كما بدأكم تعودون**، هو من الدائمة، ليس من الابتداء، لأنه لا يجوز أن يقال لصبي: كافر أو مؤمن، وهو الدوام والمُقام فيه إلى وقت الموت وهو في البَدْأَة، وفي الآخرة الإعادة.[11] وهو كقوله: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ،[12] وقوله: يبدأ، ليس يريد ابتداء نشأة، ولكن كونه في الدنيا.[13] فعلى ذلك قوله: **كما بدأكم تعودون**، الآية تخرج على وجهين. أحدهما أي كما كنتم في الدنيا **تعودون** في الآخرة كذلك، المؤمن مؤمن والكافر كافر على كفره. والثاني كما أنشأكم في الدنيا لا من شيء فعلى ذلك يبعثكم كذلك،[14] لا يعجزه شيء.

---

[1] ع م – والوجه يكون كناية عن العبادة وهما واحد وقيل أقيموا وجوهكم أي دينكم لله لا تشركوا فيه غيره.
[2] ن ع: وعبادة.
[3] سورة لقمان، ٢٢/٣١.
[4] ع م: أني يجعل.
[5] ن – إلى.
[6] ع م: هم.
[7] سورة الأعراف، ٢٥/٧.
[8] ن ع م: مما.
[9] سورة التغابن، ٢/٦٤.
[10] جميع النسخ: كانوا.
[11] أي تعودون كما كنتم تدومون على حياتكم في الدنيا إلى وقت موتكم، هذا هو المقصود بالبداية، وليس المقصود بداية الخلق، فإن الإنسان لا يكون مؤمنا أو كافرا في بداية عمره وهو صبي.
[12] سورة الروم، ٢٧/٣٠.
[13] ع + فعلى ذلك كونه في الدنيا.
[14] ن ع م: لذلك.

﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٣٠]

وقوله عز وجل: **فريقا هدى**، بما هداهم الله بفضله، **وفريقا حق عليهم الضلالة**، بما اختاروا من فعل الضلالة،[١] فأضلهم الله، كقوله: يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ،[٢] وقوله: مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ.[٣]

وقوله عز وجل: **ويحسبون أنهم مهتدون**، فيه دلالة[٤] لزوم الحجة والدليل في حال الحسبان والظن[٥] إذا كان بحيث الإدراك والوصول إليه، لأنه قال: **ويحسبون أنهم مهتدون**؛ فيه أنهم عند أنفسهم **مهتدون**، ولم يكونوا، ثم عوقبوا على ذلك. دل أن الدليل والحجة قد تلزم وإن لم تُعرَف،[٦] بعد أن يكون سبيل الوصول إلى ذلك. وهذا يرد قول من يقول بأن فرائض الله لا تلزم[٧] إلا بعد العلم بها والمعرفة.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٣١]

وقوله عز وجل: **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد**، يحتمل أن يكون الخطاب وإن خرج مخرج الأمر بأخذ الزينة واللباس فهو على النهي عن نزعها، لأن الناس يكونون آخذين الزينة وساترين عوراتهم غير بادين بها،[٨] فإذا كان كذلك فهو على النهي عن نزع لباسهم وإبداء عوراتهم. وهو ما ذكر في بعض القصة أن أهل الشرك كانوا إذا طافوا بالبيت نزعوا ثيابهم ويقولون: لا نطوف في ثيابنا التي أذنبنا فيها.[٩] فإن كان التأويل ما قال[١٠] ابن عباس وهؤلاء فيكون فيه إضمار، كأنه قال: **خذوا زينتكم**، عند هذا المسجد كما تأخذون،

---

[١] م: الضلال.

[٢] سورة النحل، ٩٣/١٦؛ وسورة فاطر، ٨/٣٥.

[٣] سورة الأعراف، ١٨٦/٧.

[٤] ع م - دلالة.

[٥] ك: في الظن.

[٦] جميع النسخ: قد يلزم وإن لم يعرف.

[٧] ك: لا يلزم.

[٨] ك ن: بادين لها. أي غير مبدين وغير مظهرين عوراتهم.

[٩] روي في ذلك الكثير؛ ومن أقربها إلى ما هنا ما روي عن قتادة قال: كان حي من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجا أو معتمرا يقول: لا ينبغي أن أطوف في ثوب قد دَنِسْت فيه، فيقول من يُعيرني مئزرا؟ فإن قدر على ذلك وإلا طاف عريانا، فأنزل الله فيه ما تسمعون: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾. انظر: *تفسير الطبري*، ١٦١/٨.

[١٠] م: قال.

عند كل مسجد، سِواه.[1] وإلاّ خرج[2] تأويل الآية على وجوه.[3] أحدها يقول: صلوا في كل مسجد؛[4] ذكر هذا لمن لا يرى الصلاة إلا في مسجده، على ما روي أنْ «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد».[5] والثاني يقول:[6] صلوا بكل مسجد وبكل مكان، كقوله عليه السلام: «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا».[7] والثالث يجعل الزينة العبادة نفسها بقول:[8] **خذوا زينتكم**. ويحتمل ما ذكره أهل التأويل: كانوا يستعيرون من أهل مكة ثيابا يطوفون فيها، فإن لم يجدوا بها طافوا[9] عُراةً باديةً[10] عوراتهُم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وقال: **خذوا زينتكم عند كل مسجد**، أي لا تنزعوا ثيابكم التي على عوراتكم، فهو على النهي عن نزع الثياب وإبداء العورة.

وكذلك[11] قوله:[12] **وكلوا واشربوا**، يخرج على النهي عما حرّموا على أنفسهم من أنواع المنافع والنعم التي أحل الله لهم من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، ومن نحو ما حرّموا من الزرع[13] والطعام،[14] وكقوله: وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا،[15] الآية. خرج قوله: **وكلوا واشربوا**، على النهي عما حرّموا مما أحل لهم، لا على الأمر بالأكل والشرب، لأن كل أحد يأكل ويشرب[16] ولا يدع ذلك، فدل أنه خرج على النهي لما حرّموا، كأنه قال: لا تحرّموا ما تحرّمون،[17] ولكن كلوا واشربوا وانتفعوا بها.

---

[1] ع: سواء.
[2] ن ع: والإخراج.
[3] ع: علي وجوها.
[4] ن + وبكل مكان كقوله.
[5] رواه الدارقطني والحاكم وغيرهما مرفوعا من طرق ضعيفة، وقد صح من قول علي رضي الله عنه؛ انظر: *سنن الدارقطني*، ١/٤٢٠؛ و*المستدرك* للحاكم، ١/٣٧٣؛ و*الدراية في تخريج أحاديث الهداية* لابن حجر، ٢/٢٩٣.
[6] ع م – يقول.
[7] *صحيح البخاري*، الصلاة ٥٦؛ و*سنن الترمذي*، السير ٥.
[8] ك ن: يقول.
[9] ع م + فيها.
[10] جميع النسخ: بادين.
[11] ع – وكذلك.
[12] ع: وكقوله.
[13] ك ن: من الزروع.
[14] انظر تفسير الآيات من سورة المائدة، ٥/١٠٣؛ وسورة الأنعام، ٦/١٣٦، ١٣٨–١٣٩.
[15] سورة الأنعام، ٦/١٣٨.
[16] ك – لأن كل أحد يأكل ويشرب.
[17] ك: مما تحرمون؛ ع م – ما تحرمون. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٠و. أي ما تحرمون أنتم على أنفسكم.

فإن كان على ابتداء[١] الأمر / بأخذ الزينة فهو -والله أعلم- أمر بأخذ الزينة[٢] والتجمّل [٢٤٥ظ] عند كل مسجد. والمسجد هو مكان كل عبادة ونسك، على ما يكون[٣] في غير ذلك من الأوقات تتزيّنون وتتجمّلون[٤] عند اجتماع الناس، فعلى ذلك تكونون[٥] في مكان العبادة والنسك. أو أن يكون لما[٦] في المسجد اجتماع الناس للعبادة[٧] فأُمروا بستر عوراتهم في ذلك. ويكون قوله: **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**، أي **كلوا واشربوا** واحفظوا الحد في ذلك ولا تجاوزوا، وهو نهي عن الكثرة. أو ما[٨] ذكرنا أنه نهاهم عن التحريم[٩] وترك الانتفاع بها، وفي تحريم ما أحل الله وترك الانتفاع بها إسراف. **إنه لا يحب المسرفين**، لأنه لا يحب الإسراف. وقد ذكرنا أن المفروض من الستر هو ما يستر[١٠] به العورة، وأما غيره فإنما هو على دفع الأذى والتجمل؛ ألا ترى أنه قال: يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا،[١١] وقال: يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ.[١٢] مَنَّ علينا بما أنزل[١٣] مما نستر[١٤] به عوراتنا وإن كانت تلك[١٥] المِنة في الكل، وذلك أيضا[١٦] قبيح في الطبع أن ينظر أحد[١٧] إلى عورة آخر. وعلى ذلك جاءت الآثار في الأمر بستر العورة. روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك». فقيل: يا رسول الله، فإن كان بعضنا في بعض؟

[١] ك ن ع: علي الابتداء.
[٢] ع - فهو والله أعلم أمر بأخذ الزينة.
[٣] ك ن: علي ما يكونون.
[٤] ع م: ويتجملون.
[٥] ن ع م: يكونون.
[٦] جميع النسخ: كما. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٠و.
[٧] م: العبادة.
[٨] ع م: وما.
[٩] ع م: عن التحريك.
[١٠] ك: هو ما ستر.
[١١] سورة الأعراف، ٢٧/٧.
[١٢] سورة الأعراف، ٢٦/٧.
[١٣] ع: بما نزل.
[١٤] ك: مما يستر.
[١٥] ع - تلك؛ م: له.
[١٦] ع م - أيضا.
[١٧] ك: أحدا.

فقال: «إن استطعت أن لا تظهر عورتك فافعل». فقيل:[1] فإذا كان أحدنا خاليا؟ فقال: «فالله أحق أن يُستَحيا منه».[2] وعنه صلى الله عليه وسلم قال: «لا ينظر الرجل[3] إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة».[4] ومثله كثير، وفيما ذكرنا كفاية. وعلى ذلك يخرج الأمر بالإقبار لستر العورة؛ ألا ترى أنه قال تعالى: فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ،[5] الآية، لأن لا يرى عورته، لأنه يكون[6] جفاء.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٣٢]

وقوله عز وجل: **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**، قال أبو بكر الأصم: الزينة هاهنا هو اللباس، لأنه ذكر على إثر ذكر[7] اللباس، وهو قوله: خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ،[8] **والطيباتِ من الرزق** ما حرموا مما[9] أحل الله لهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغير ذلك مما كانوا[10] يحرمون الانتفاع به، كقوله: وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ.[11] وقال الحسن: **زينةَ الله**، هو المَرْكَب كقوله: وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً،[12] جعل الله ما يُركَب زينة للخلق، وهم كانوا يحرمون الركوب والانتفاع بها، فقال: **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده**، وقال:[13] **والطيباتِ من الرزق** ألبانها ولحومها. وقال غيره[14] من أهل التأويل: **زينةَ الله** ههنا النبات وما يخرج من الأرض مما هو رزق للبشر والدواب جميعا، كقوله: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ،[15] الآية،

---

[1] ن – فقيل.

[2] م: عنه. والحديث روي بمعناه. قال الترمذي: هذا حديث حسن. انظر: *سنن أبي داود*، الحمام ٢؛ وسنن *الترمذي*، الأدب ٢٢؛ وعلّقه البخاري؛ انظر: صحيح *البخاري*، الغسل ٢٠.

[3] ع م – الرجل.

[4] صحيح *مسلم*، الحيض ٧٤؛ وسنن *الترمذي*، الأدب ٣٨.

[5] ﴿فبعث اله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه﴾ (سورة المائدة، ٣١/٥).

[6] ع: لا يكون.

[7] ك ع م: ذلك.

[8] الآية السابقة.

[9] م – مما.

[10] م: ما كانوا.

[11] سورة الأنعام، ١٣٨/٦.

[12] سورة النحل، ٨/١٦.

[13] ع – وقال. أي وقال الحسن.

[14] ع: وغيره.

[15] سورة الكهف، ٧/١٨.

وكقوله: حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ،[١] سمى لنا ما أخرج من الأرض زينة.

[٢٤٥ظ س٢٩ *وفي قوله تعالى: **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**، دليل إباحة الزينة والتناول من الطيبات. وقد يحتمل أن يكون خرج على النهي والإنكار، على ما كان يفعله أهل الشرك من نحو تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة، فقال: **قل من حرم** ما حرمتم إذا لم يحرمه الله؛ ألا ترى[٢] أنه قال: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ،[٣] يقول، والله أعلم: لم يحرم ما حرمتموه من هذه الأشياء، ولكن حرم الفواحش وما ذكر. ولم يذكر جوابهم أنهم ماذا يقولون.[٤] فهو يخرج على وجهين؛ إنْ قالوا: حرّم الله، فيقال لهم: من حرّم وأنتم قوم لا تؤمنون[٥] بالرسل والكتب؟ فإن قالوا: حرّم فلان، فقيل: كيف صدّقتم فلانا في تحريم ذلك ولا تصدّقون[٦] الرسل فيما يخبرون[٧] عن الله تعالى مع ظهور صدقهم؟ يذكر سفههم في ذلك. وقوله عز وجل: **قل من حرم زينة الله**، كأنه يقول: ليس لأحد تحريم ما ذكرنا، إنما التحريم إلى الله، وإنما حرم ما ذكر. وقد يحتمل ما ذكرنا من نزعهم[٨] الثياب عند الطواف ويطوفون[٩] عراة على ما ذكر في القصة، وإلى هذا يذهب ابن عباس والحسن وقتادة وعامة أهل التأويل.[١٠] وعلى ذلك يخرج ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:[١١] «ألا لا يطوفن بهذا البيت عريان ولا محدث».[١٢]* ٢٤٥ظ س٣٩]

---

[١] سورة يونس، ٢٤/١٠.

[٢] ك: ألا يري.

[٣] سورة الأعراف، ٣٣/٧.

[٤] أي لم يذكر في القرآن جواب الكفار على السؤال في قوله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾.

[٥] ع م: لا يؤمنون.

[٦] ع: ولا تصدقوا.

[٧] ك: بما يخبرون.

[٨] ك: من ترغيبهم.

[٩] م: ويطوف.

[١٠] روي ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرهما، و لم أجده عن الحسن؛ انظر: *تفسير الطبري*، ١٥٩/٩-١٦٠، ١٦١؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤٣٩/٣.

[١١] ك + حيث قال.

[١٢] لم أجده بهذا اللفظ، لكن روي عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر الصديق في الحجّة التي أمّره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. انظر: صحيح *البخاري*، الصلاة ١٠؛ وصحيح *مسلم*، الحج ٤٣٥.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٤٥ظ/سطر ٢٩-٣٩.

[٢٤٦و س ٢ *وقوله: **قل من حرم زينة الله**، أنه إذا لم يُفهَم من **زينة الله** ما يُفهَم من زينة الخلق -لأن زينة الخلق[1] ما يتزيّنون[2] به ويتجمّلون-[3] لا يجب أن يُفهَم من استوائه استواء الخلق ولا من مجيئه مجيء الخلق، لأن استواء[4] الخلق هو انتقال من حال إلى حال، ولا يجوز أن يُفهَم منه ذلك على ما لم يفهم من **زينة الله**.[5]* ٢٤٦و س ٥]

وقوله عز وجل: **قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**، اختلف فيه. قال الحسن: **هي**، يعني الطيبات **خالصةً** للمؤمنين في الآخرة، لا يشاركهم الكفرة فيها، فأما في الدنيا فقد شاركوهم.[6] فالتأويل الأول يخرج على التقديم والتأخير، كأنه قال: قل هي للذين آمنوا خالصة يوم القيامة، وفي الحياة[7] الدنيا لهم جميعا، بقوله: قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ.[8] ويحتمل قوله: **قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا**، لأنهم لم يحرموا[9] الطيبات التي أحل الله لهم بل انتفعوا بها، وحرّم أولئك ولم ينتفعوا بها، فكانت **هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا** لما انتفعوا بها في الدنيا وتزودوا بها للآخرة، وكانت لهم[10] **خالصة يوم القيامة**. وإنما كان خالصا لهم يوم القيامة لما لا يكون لأهل[11] الشرك ذلك لما لم يتزودوا للمعاد، وقد[12] كانت لهم في الدنيا لو لم يحرموها وانتفعوا بها.*

[٢٤٦و] /وقوله[13] عز وجل: **كذلك نفصل الآيات**، أي نبين **الآيات**، **لقوم يعلمون**، أي **لقوم** ينتفعون بعلمهم. أو نقول: **كذلك نفصل الآيات**، أي **كذلك نفصل** حكم آية من حكم آية أخرى، نفصل هذا من هذا وهذا من هذا.*

---

[1] ع – لأن زينة الخلق.
[2] م: ما تتزينون.
[3] ع م: ويتجملوا.
[4] ع: لأن الاستواء.
[5] أي كما لم يفهم من إضافة لفظ الزينة إلى الله ما يفهم من زينة الخلق باتفاق المفسرين كذلك لا ينبغي أن يفهم من إضافة لفظ الاستواء إلى الله ما يفهم من استواء الخلق. وفي هذا رد على المجسمة والمشبهة.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه خلال تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٤٦و/سطر ٢-٥.
[6] *تفسير الطبري*، ١٦٥/٨.
[7] ن: في الحياة.
[8] سورة البقرة، ١٢٦/٢.
[9] ع: لا يحرموا.
[10] ع م – لهم.
[11] ع: أهل.
[12] م: قد.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٤٥ظ/سطر ٢٩-٣٩.
[13] ن: قوله.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٤٦و/سطر ٢-٥.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣٣]

وقوله عز و جل: **قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق**، يشبه أن تكون[١] هذه الآية مقابل قوله: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، كما خرج آخر الآية، وهو قوله: وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ،[٢] مقابل الأول، وهو قوله: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ.[٣] والنهي هناك[٤] نهي[٥] تحريم كالتنصيص على التحريم هاهنا.[٦] ويكون[٧] الفحشاء الذي ذكر في تلك[٨] الآية **الفواحش** التي ذكرت[٩] في هذه،[١٠] والمنكر الذي ذكر هناك[١١] هو **الإثم** الذي ذكر في هذه.[١٢] وذكر **البغي** هاهنا، وهنالك البغي. ثم الفحشاء هو الذي ظهر قبحه في العقل والسمع، والمنكر هو الذي ظهر الإنكار فيه على مرتكبه.[١٣] **والإثم** هو الذي يأثم المرء فيه، **والبغي** هو من مظالم الناس بظلم[١٤] بعضهم على بعض. وقال بعضهم: **الفواحش** هن الكبائر، **والإثم** هو الصغائر، **والبغي** هو أخذ[١٥] ما عُصم من مال أو نفس بعقد الإسلام، على ما روي عن نبي[١٦] الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها».[١٧]

---

[١] ن ع م: أن يكون.
[٢] سورة النحل، ٩٠/١٦.
[٣] ك ن ع – كما خرج آخر الآية وهو قوله وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي مقابل الأول وهو قوله إن الله يأمر بالعدل والإحسان.
[٤] ك ن ع: هاهنا.
[٥] ك ن – النهي.
[٦] ك ن – كالتنصيص على التحريم هاهنا؛ ع – نهي تحريم كالتنصيص على التحريم هاهنا.
[٧] ن ع م: وتكون.
[٨] جميع النسخ: في هذه.
[٩] جميع النسخ: ذكر.
[١٠] جميع النسخ: في ذاك.
[١١] جميع النسخ: هاهنا.
[١٢] جميع النسخ: في ذلك.
[١٣] ك: على مرتكبيه.
[١٤] ك ن: يظلم.
[١٥] ع م: ما أخذ.
[١٦] ن: عن رسول.
[١٧] *صحيح البخاري*، الاعتصام ٢٨؛ وصحيح *مسلم*، الإيمان ٣٤.

فكل ما صار معصوما بالإسلام من مال أو نفس فأَخذ ذلك بغي وظلم إلا ما ذكر: "بحقها". وأصل **البغي** هو المجاوزة عن الحد الذي جعل له. وقال أهل التأويل: **الفواحش** هو الزنا ما ظهر منها علانية وما بطن منها سرا. لكن **الفواحش** ما ذكرنا: أنّ[1] ما قَبُح في العقل والسمع وفَحُش فيهما فهي الفاحشة. وأصل المنكر كل ما لا يعرف،[2] كقول إبراهيم: إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ،[3] والمنكر ما أنكره العقل والسمع أيضا.

وقوله عز وجل: **وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا**، أي وحَرَم أيضا **أن تشركوا بالله**. وقوله عز وجل: **ما لم ينزل به سلطانا**، ليس على أنه ينزّل سلطانا[4] على الإشراك[5] بحال، ولكن على أنهم يشركون بالله من غير حجج وسلطان، لأن أهل الإسلام هم الذين يدينون بدين ظهر بالحجج والآيات، وهم يدينون بدين لا يظهر بالحجج والآيات، ولكن بما هوت به أنفسهم واشتهت. ويحتمل قوله: **ما لم ينزل به سلطانا**، أي عذرا، لأنه [لا] يجوز أن يُعذَر المرء بحال في إجراء كلمة الكفر على لسانه [إلا] عند الإكراه، ولا يصير به كافرا إذا كان قلبه مطمئنا بالإسلام منشرحا به، كقوله: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ،[6] أي تشركون بالله من غير أن يَنزِل بكم[7] حال[8] عذر.[9]

وقوله عز وجل: **وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**، أي حرّم عليكم **أن تقولوا على الله ما لا تعلمون**.[10] والثاني أي تعلمون أنكم تقولون[11] **على الله ما لا تعلمون**، أنه حرّم كذا وأمر بكذا. فقوله:[12] **وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**، يحتمل وجهين؛

---

[1] ك ن ع + ما ظهر قبحه في العقل وفحشه في السمع فهو فاحشة والفواحش هو ما ذكرنا أن.
[2] ع م: ما يعرف.
[3] سورة الحجر، ٦٢/١٥.
[4] ن - ليس على أنه ينزل سلطانا.
[5] ن + بالله.
[6] سورة النحل، ١٠٦/١٦.
[7] جميع النسخ: بهم.
[8] ن - حال.
[9] ك: ما أعذر.
[10] ك + يحتمل وجهين أحدهما أنكم تعلمون أنكم تقولون على الله ما لا تعلمون؛ ع م - أي حرم عليكم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون.
[11] جميع النسخ: أنهم يقولون.
[12] ن ع م: وقوله.

أحدهما أنكم تعلمون أنكم تقولون **على الله ما لا تعلمون**؛ والثاني تقولون **على الله ما لا تعلمون**؛[1] هذا على الجهل، والأول على العلم، كقوله: أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ،[2] أي تنبئون[3] الله بما يعلم أنه ليس مما تقولون.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٣٤]

وقوله عز وجل: **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**، اختلف فيه. قال بعضهم: **لكل أمة أجل**، هو بعث الرسل إليهم،[4] أي لا يهلكون ولا يعذبون إلا بعد بعث الرسل إليهم،[5] فإذا أتاهم الرسول فكذبوه وعاندوا فعند ذلك يهلكون. وهو كقوله: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا،[6] وقوله: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا.[7] ويحتمل أن لكل أمة أجلا لا تهلك قبل بلوغ أجلها، لا تستأخر ولا تستقدم.[8] فهذا يرد على المعتزلة، لأنهم يقولون: إن من قُتِل إنما هلك قبل بلوغ أجله، ويجعلون القاتل[9] مستقدما لأجل ذلك المقتول، والله تعالى يقول: **لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**. وقوله عز وجل: **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**، [يعني] إذا جاء لا يستأخرون، وإذا لم يجئ لا يستقدمون.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣٥]

وقوله عز وجل: **يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم**، قال أهل التأويل: قوله: **إما يأتينكم**، أي سيأتيكم[10] **رسل منكم**، أو سوف يأتيكم. **يقصون عليكم**، ثم يحتمل قوله:

---

[1] ك – والثاني أي تعلمون أنكم تقولون على الله ما لا تعلمون أنه حرم كذا وأمر بكذا فقوله وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون يحتمل وجهين أحدهما أنكم تعلمون أنكم تقولون على الله ما لا تعلمون والثاني تقولون على الله ما لا تعلمون؛ ع م – يحتمل وجهين أحدهما أنكم تعلمون أنكم تقولون على الله ما لا تعلمون والثاني تقولون على الله ما لا تعلمون.

[2] ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (سورة يونس، ١٠/١٨).

[3] ع م: أي تنسون.

[4] ك ن: الرسول إليها.

[5] ع م – أي لا يهلكون ولا يعذبون إلا بعد بعث الرسل إليهم.

[6] سورة الإسراء، ١٧/١٥.

[7] سورة القصص، ٢٨/٥٩.

[8] ك: لا يستأخر ولا يستقدم؛ ن: لا يستأخرون ولا يستقدمون.

[9] جميع النسخ + منه.

[10] ع م: أي سيأتينكم.

يقصون عليكم[1] **آياتي،**[2] أي هداي، كقوله: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى،[3] وقوله: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ؛[4] فعلى ذلك قوله:[5] **يقصون عليكم آياتي،** أي هداي، **فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.** ويحتمل الآيات الحجج والبراهين التي يضطر[6] أهلها إلى قبولها إلا من عاند وكابر. **فمن اتقى:** **اتقى** الشرك، **وأصلح:** وآمن بالله وعمل صالحا، **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.** وقوله: [٢٤٦ظ] **فمن اتقى،** يحتمل **اتقى** ما نهى الرسل،[7] أو **اتقى** المهالك، **وأصلح** فيما أمر به الرسل، / أو **أصلح** أمره وعمله،[8] **فلا خوف عليهم،** في ذهاب ما أكرمهم به مولاهم ولا فوته، لأن خوف الفوت مما ينقص النعم،[9] **ولا هم يحزنون،** [على] تَبِعاته وآفاته. يخبر أن نعيم الآخرة على خلاف نعيم الدنيا.[10]

وفي قوله: **يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم،**[11] [بيان أن الله تعالى جعل][12] على خلقه مِنَنا[13] كثيرة ونعمة عظيمة حيث بعث الرسل من جنس المرسل إليهم. أحدها أن كل ذي جنس وجوهر مستأنس بجنسه وجوهره ويستوحش بغيره، فمَنّ عليهم حيث بعث الرسل[14] من جنسهم وجوهرهم يستأنس بعضهم ببعض ويألف[15] بعضهم بعضا، فذلك آخَذُ للقلوب[16] وأدْعَى إلى الاتباع والإجابة.

---

[1] ع م – ثم يحتمل قوله يقصون عليكم.
[2] ن + ثم يحتمل قوله يقصون عليكم آياتي.
[3] سورة طه، ١٢٣/٢٠.
[4] سورة البقرة، ٣٨/٢.
[5] ن ع م – قوله.
[6] ك: تضطر.
[7] ع: الرسول.
[8] ع – وعمله.
[9] ك ن ع – النعم.
[10] جميع النسخ + وقوله عز وجل والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ظاهر تأويلها وقد ذكرنا في غير موضع حتى لم يأخذوا على أحد منهم.
[11] جميع النسخ + به.
[12] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩١و.
[13] جميع النسخ: منن.
[14] ن – من جنس المرسل إليهم أحدها أن كل ذي جنس وجوهر مستأنس بجنسه وجوهره ويستوحش بغيره فمن عليهم حيث بعث الرسل.
[15] ن: وتألف؛ ع م: وتأليف.
[16] ن ع م: أخذ القلوب.

والثاني بَعَث الرسل من قومهم الذين نشئوا بين أظهرهم وعرفوا صدقهم وأمانتهم، ليعلموا أنهم صادقين فيما يدّعون من الرسالة، حيث لم يظهر منهم الكذب والخيانة قط،[١] حتى لم يأخذوا على أحد منهم الكذب.

والثالث أن الرسل لو كانوا من غير جنسهم وغير جوهرهم لم يعرفوا ما أوتوا[٢] من الآيات والبراهين أنها آيات وحجج، كما[٣] لا يعلمون[٤] أنّ وُسْعَهم لا يبلغ هذا وطَوْقَهم لا يصل إلى ذلك، وإذا كانوا منهم يعرفون ذلك إذا أُتُوا[٥] بشيء خرج عن وسعهم أنها آيات.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣٦]

وقوله عز وجل: **والذين كذبوا بآياتنا**، قال الحسن: ديننا. ويحتمل **بآياتنا** حججنا، أي **كذبوا** بحججنا.[٦] فإذا كذبوا بحججه كفروا به، لأنه عز وجل لا يُعرف من طريق الحسّ والعيان، ولكن إنما يُعرف من طريق الحجج والآيات والدلائل، فيكون الكفر بآياته وحججه كفرا به. ويشبه أن يكون آياته آيات الرسالة وحججها. ويحتمل آياته هاهنا رسله،[٧] أي **كذبوا** برسلنا. سمى رسله آياته، لأن أنفس الرسل كانت آيات للخلق تدلهم على وحدانية الله ورسالتهم من أعلام جُعِلت من أنفسهم من صدقهم وأمانتهم.[٨] **واستكبروا عنها**، أي استكبروا [عن] التدبر[٩] فيها والنظر. **أولئك أصحاب النار**، لأنهم يصحبون النارَ والسببَ الذي يُوجِب لهم النارَ أبدًا، فسُمُّوا **أصحاب النار** بذلك، كما يقال: صاحب الدار، وصاحب الدابة، لأنه[١٠] هو يصحبها دائما؛ فعلى ذلك هؤلاء سُمُّوا **أصحاب النار**، لما هم يصحبونها دائما أبدا. ***والله أعلم***.

[١] ن ع: فقط.
[٢] ك: ما أتوا.
[٣] جميع النسخ: لما. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ٢٩١و.
[٤] ك: لما يعلمون؛ ع: ما لا يعلمون.
[٥] ن ع م: إذا أوتوا.
[٦] ك – أي كذبوا بحججنا.
[٧] م + أي كذبوا رسله.
[٨] م: وأماناتهم. قال السمرقندي رحمه الله تعالى: «... لأن الخبر الصدق دليل على وجود المخبَر به؛ وقد أقام في أنفسهم أعلاما وأمارات تدل على صحة دعواهم الرسالة من صدق اللهجة وأداء الأمانة والتبرئة عن التزوير والخيانة ونحو ذلك. والرسالة دليل صدق الخبر بيقين. فدل أن الرسل عليهم السلام من آيات الوحدانية. والله الموفق» (*شرح التأويلات*، ورقة ٢٩١و).
[٩] ع: التدبير.
[١٠] ك – لأنه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[٣٧]

وقوله عز وجل: **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته**، قد ذكرنا فيما تقدم[١] أن قوله: **فمن أظلم**، إنما هو حرف استفهام وسؤال لم يخرج له جواب، لكن أهل التأويل عرفوا ذلك، فقالوا:[٢] لا أحد **أظلم ممن افترى على الله كذبا**، أجابوا على ما عرفوا من السؤال، وإلّا ليس قوله: لا أحد **أظلم**، تفسير[٣] قوله: **فمن أظلم**. [وقوله عز وجل: **فمن أظلم**] أي لا أحد أفحش ظلما ولا أقبح ظلما **ممن افترى على الله كذبا**، مع علمه أنه خالقه وأنه متقلّب في نِعَمه وأحاطت به أياديه وإحسانه.[٤]

وقوله: **افترى على الله كذبا**، قيل: الافتراء هو اختراع الكذب من نفسه من غير أن سبق له أحد في ذلك، كقوله: يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ،[٥] وأما الكذب[٦] قد يكون مما أنشأه[٧] هو ومما[٨] قد سبق له أحد فسمع منه.[٩] ثم[١٠] افتراؤهم على الله أنواع،[١١] يكون بما قالوا: إن له ولدا، وبما قالوا[١٢] بأن له[١٣] شريكا وصاحبة، وبما عبدوا غير الله وقالوا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[١٤] و هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[١٥] ويكون بما قالوا:[١٦]

---

[١] انظر تفسير الآية من سورة الأنعام، ٢١/٦.
[٢] ع: فقال.
[٣] م: نفسه.
[٤] ك ن + وقوله عز وجل فمن أظلم أي لا أحد أفحش ظلما ولا أقبح ظلما ممن افترى على الله كذبا؛ ع + وقوله عز وجل فمن أظلم أي لا أفحش ظلما وأقبح ظلما ممن افترى على الله كذبا؛ م + وقوله عز وجل فمن أظلم أي لا أفحش ظلما ولا أقبح ظلما ممن افترى على الله كذبا.
[٥] ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ (سورة الممتحنة، ١٢/٦٠).
[٦] ع م – الكذب.
[٧] جميع النسخ: مما أنشأ.
[٨] جميع النسخ: وما.
[٩] ن + أحد.
[١٠] ع م – ثم.
[١١] ن + الكذب.
[١٢] ك ن ع: وقالوا.
[١٣] ك: أن له.
[١٤] سورة الزمر، ٣/٣٩.
[١٥] سورة يونس، ١٨/١٠.
[١٦] ك ن ع: ما قالوا.

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا،[١] ويكون[٢] بما حرموا[٣] من أشياء على أنفسهم فأضافوا ذلك إلى الله، ونحو ذلك من الافتراء.

وقوله عز وجل: **أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب**، اختلف فيه. قال الحسن:[٤] إن[٥] من أطاع الله في أمره ونهيه وأطاع رسله فقد كتبت له الجنة خالدا[٦] فيها أبدا،[٧] فذلك نصيبه وحظه من الكتاب الذي كتب[٨] له؛ ومن عصى الله وخالف رسله كتب له النار خالدا فيها أبدا،[٩] فهو نصيبه من الكتاب. وقال أبو بكر الكيساني: قوله: **أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب**، أي حظهم من الجزاء والعقاب في الآخرة، وهو قول القُتَبي.[١٠] ويحتمل[١١] وجهين آخرين غير هذين. أحدهما ما حرّفوا من الكتب وغيروها ثم أضافوا ذلك ونسبوه[١٢] إلى الله، كقوله: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ،[١٣] وقوله عز وجل: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ،[١٤] فصار ما حرّفوا هم[١٥] وغيروه سنة منهم يعملون[١٦] بها إلى يوم القيامة، فينالون هم جزاء ذلك يوم القيامة. والثاني قوله: **ينالهم نصيبهم**، مما كتب[١٧] لهم من الرزق والنعمة، يستوفون ذلك المكتوب لهم ثم يموتون.

---

[١] سورة الأعراف، ٢٨/٧.
[٢] ع – ويكون.
[٣] ك ن ع: ما حرموا.
[٤] ك + إن.
[٥] ن ع م – إن.
[٦] ع: خالدين.
[٧] ع – أبدا.
[٨] م: الذي كتبت.
[٩] ع م – خالدا فيها أبدا.
[١٠] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٦٧.
[١١] ع م: يحتمل.
[١٢] ك: ونسبوها.
[١٣] سورة البقرة، ٧٩/٢.
[١٤] سورة آل عمران، ٧٨/٣.
[١٥] م: حرفوهم.
[١٦] م: يعلمون.
[١٧] ن: مما كتبت.

ثم قوله: **حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم**، على هذا التأويل، **جاءتهم** الرسل تقبض[1] أرواحهم، وهو ظاهر. وعلى تأويل من حمل ذلك على الجزاء في الآخرة فهو يجعل التَّوَفِّيَ[2] [٢٤٧و] النارَ[3] لشدة العذاب وإن كانوا لا يموتون، وهو كقوله: وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا / هُوَ بِمَيِّتٍ،[4] أي يأتيه أسباب الموت. وعلى تأويل من يجعل قوله: **أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب**، في الدنيا في استيفاء الرزق وما كتب لهم يكون قوله: **حتى**، على الإثبات؛ وعلى تأويل من يقول بأن ذلك في الآخرة فيجيء أن يكون على الصلة والإسقاط.[5]

وقوله عز وجل: **أين ما كنتم تدعون من دون الله**، تقول[6] لهم الملائكة [هذا القول] في النار على تأويل هؤلاء؛ وعلى[7] تأويل أولئك عند قبض أرواحهم أو بعد قبض أرواحهم.[8] وقوله: **أين ما كنتم تدعون من دون الله**، أي تعبدون **من دون الله**، وتقولون:[9] هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[10] وتقولون:[11] مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[12] أو الأكابر التي ذكر بقوله: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا،[13] **أين** أولئك الذين **كنتم تعبدون من دون الله. قالوا ضلوا عنا**، أي **ضلوا عنا** وهلكوا، أي بطلت[14] عبادتنا التي عبدناهم؛ ألا ترى أنه قال في آية أخرى: أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ،[15] أي هلكنا وبطلنا؛

---

[1] ك ع م: بقبض.

[2] جميع النسخ: المتوفى.

[3] ك ن ع: في النار. أي على هذا التأويل يكون هناك تشبيه لشدة عذاب النار بالتوفي وسكرات الموت.

[4] سورة إبراهيم، ١٧/١٤.

[5] قال السمرقندي: «فحرف "حتى" يكون صلة وزائدة على تأويل من جعل النصيب هو الجزاء في الآخرة، كأنه قال: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم. وعلى تأويل من يقول بأن المراد النصيب المكتوب في الدنيا من الرزق يكون حرف إثبات ليس بصلة ولا زائدة ويكون للغاية، ومعناه: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب إلى أن جاءتهم رسلنا. والله أعلم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩١ظ).

[6] جميع النسخ: يقول.

[7] م: على.

[8] ع – أو بعد قبض أرواحهم.

[9] ن ع م: ويقولون.

[10] سورة يونس، ١٨/١٠.

[11] جميع النسخ: وقولهم. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩١ظ.

[12] سورة الزمر، ٣/٣٩.

[13] سورة الأنعام، ١٢٣/٦.

[14] جميع النسخ: أي بطل.

[15] ﴿وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد﴾ (سورة السجدة ١٠/٣٢).

وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. فإن كان [المراد] بقوله:[1] **أين ما كنتم تدعون من دون الله**، الكبراءَ منهم والرؤساءَ يكون قوله: **قد ضلوا عنا**، أي شُغِلوا بأمرهم عنا، وإن كان الأصنامَ يكون[2] قوله: **ضلوا عنا**، أي بطل ما كنا نطمع من عبادتنا[3] إياهم، وهو قولهم:[4] شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣٨]

وقوله عز وجل: **قال ادخلوا في أمم**، قوله: **في أمم**، يحتمل مع أمم، وذلك جائز في اللغة، يقال: جاء فلان في جنده. **قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار**، أي[5] المتبوعين والأتباع جميعا معا. والعرب تضع حروف الخفض بعضها في موضع بعض، كقوله: فَادْخُلِي فِي عِبَادِي،[6] قيل: مع عبادي. ويحتمل في موضع[7] "في"[8] [حقيقة]،[9] كان المتبوعون[10] دخلوا[11] النار قبل الأتباع، فقيل[12] لهؤلاء[13] الأتباع:[14] **ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار**. وفيه دليل أن الكفار من الجن يُعذَّبون كما يُعذَّب الكفّار من الإنس.

وقوله عز وجل: **كلما دخلت أمة لعنت أختها**، لعن الأتباع المتبوعين لما هم دَعَوهم إلى ذلك وهم صرفوهم[15] عن دين الله، كقولهم: إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا،[16]

---

[1] جميع النسخ: قوله. والزيادة مع التصحيح مستفادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩١ظ.
[2] ع م: تكون.
[3] ن: عن عبادتنا.
[4] م: وهو قوله.
[5] ع م - أي.
[6] سورة الفجر، ٢٩/٨٩.
[7] م: في موضعه.
[8] ع م - في.
[9] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩١ظ.
[10] جميع النسخ: المتبوعين.
[11] جميع النسخ: يدخلون.
[12] ع م - فقيل.
[13] ع م: بهؤلاء.
[14] م - الاتباع.
[15] م: وهم صرفوا.
[16] سورة سبأ، ٣٣/٣٤.

وكقوله: يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا،[1] وغير ذلك من الآيات؛ ولعن المتبوعون[2] الأتباع لما يزداد لهم العذاب بكثرة الأتباع وبقدرهم، فيلعن بعضهم بعضا. وفيه دلالة[3] أن أهل الكفر وإن اختلفوا في مذاهبهم فهم إخوة وأخوات بعضهم لبعض، كالمؤمنين بعضهم إخوة وأخوات لبعض.

وقوله عز وجل: **حتى إذا ادَّارَكُوا فيها جميعا**، قال بعضهم: هو من التدارك، أي **حتى إذا** تَدَارَكُوا وتتابعوا **فيها**. وقيل: هو من الدرك، لأن النار دركات، لا يزال أهل النار يهوون فيها لا قرار لهم في ذلك، إذ في القرار بعض التسلّي والراحة، فلا يزالون يهوون فيها دركا فدركا؛ وقيل: ولذلك سُمِّي هَاوِيَة.[4] وقيل: **حتى إذا ادَّارَكُوا فيها جميعا**، أي اجتمعوا فيها، فعند ذلك يتلاوم بعضهم بعضا. فإن كان على التدارك فهو كقوله: اُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ،[5] وإن كان على الاجتماع[6] فهو للتضييق،[7] كقوله: وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ،[8] الآية، ويجتمعون يلعن بعضهم بعضا.

وقوله عز وجل: **قالت أخراهم لأولاهم**، يحتمل قوله: **أخراهم**، الذين كانوا[9] في آخر الزمان، و **أولاهم**،[10] الذين شرعوا لهم ذلك الدين، **ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار**. ويحتمل قوله: **أخراهم**، الذين دخلوا النار أخيرا، وهم الأتباع، **لأولاهم**، الذين دخلوا النار أولا، وهم القادة والمتبوعون؛ **ربنا هؤلاء**، يعني القادة والسادة، **أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار**؛ كقوله: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا.[11] ويشبه أن يكون قوله: **قالت أخراهم لأولاهم**، ليس على القول بعضهم لبعض، ولكن على الدعاء عليهم واللعن، كقوله: وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا.[12]

---

[1] ﴿يقول الذين استُضعِفوا للذين استكبروا لولا أنتم لَكُنّا مؤمنين﴾ (سورة سبأ، ٣٤/٣١).
[2] جميع النسخ: المتبوعين.
[3] ك: وفيه دليل.
[4] سورة القارعة، ١٠١/٩.
[5] ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٢٢-٢٣).
[6] ن- الاجتماع.
[7] ك ع م: للتضيق.
[8] ﴿وإذا أُلقُوا منها مكانا ضيقا مُقَرَّنين دعوا هنالك ثبورا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/١٣).
[9] ع م - كانوا.
[10] ك ن: أولاهم.
[11] ﴿يوم تُقَلَّب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا. وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكُبَراءنا فأضلّونا السبيلا. ربنا آتهم ضِعفَين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٦٦-٦٨).
[12] سورة الأحزاب، ٣٣/٦٨.

وقوله: **فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكلٍ ضِعف**، قال بعضهم: **لكلٍ ضِعف**، النار، لأنها [لا] تزال[١] تزداد وتَعظُم وتَكبُر، فذلك الضِّعْف،[٢] وذلك للأتباع والمتبوعين[٣] جميعا. وقال بعضهم: قوله: **لكلٍ ضِعف**، أي للمتبوعين والقادة ضِعف، قال لهم [ذلك] ملَك أو خَزَنَة [جهنم] أومن كان، ليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة، بعد أن يقال لهم ذلك. وقوله عز وجل: **ولكن لا تعلمون**، في الدنيا أن لكم ضِعفا منها. وقيل: **لكل ضعف ولكن لا تعلمون**، للحال بأن لكل ضعفا من النار.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[٣٩]

وقوله تعالى: **وقالت أولاهم لأخراهم**، يحتمل **أولاهم**، ما ذكرنا: الذين شرعوا[٤] لهم ذلك الدين وسَنُّوا لهم، **لأخراهم**، الذين كانوا في آخر الزمان. ويحتمل **أولاهم**، الذين دخلوا النار[٥] أولا، **لأخراهم**، الذين[٦] دخلوا النار أخيرا، وهم الأتباع. **فما كان لكم علينا من فضل**، قيل فيه بوجهين. يحتمل **فما كان لكم علينا من فضل**، في شيء، فقد ضللتم كما ضللنا، أي لم يكن لنا عليكم فضل سلطان، ولا كان معنا حجج وآيات قهرناكم عليها،[٧] إنما دعوناكم إلى ذلك فاستجبتم لنا، وقد كان بُعِث إليكم / الرسل مع حجج وآيات فلم تجيبوهم؛ [٢٤٧ظ] وهو كخطبة إبليس حيث قال: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ،[٨] الآية، فيقول هؤلاء القادة للأتباع مثل قول الشيطان لحملتهم. وقيل: قوله: **فما كان لكم علينا من فضل**، يعني [في] تخفيف العذاب، أي نحن وأنتم في العذاب سواء، لا فضل لكم علينا من تخفيف العذاب في شيء. أحد[٩] التأويلين في قوله: **فما كان لكم علينا من فضل**،

---

[١] ع م + أن.
[٢] ع: الضعيف.
[٣] جميع النسخ: والمتبوع.
[٤] ك: خزعوا.
[٥] ك ن ع – النار.
[٦] ن م: للذين.
[٧] جميع النسخ: عليه.
[٨] ﴿وقال الشيطان لَمَّا قُضِي الأمر إن الله وعدكم وَعْدَ الحق ووعدتُكم فأخلفتُكم وما كان لِيَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمُصْرِخِكم وما أنتم بمُصْرِخِيَّ إني كفرت بما أشركتمونِ مِن قَبْلُ إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٢٢).
[٩] ن ع: أخذ.

يرجع إلى الآخرة، والآخر إلى[1] الدنيا.[2] وقوله تعالى: **فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون،** من الشرك والتكذيب لآيات الله، وكذلك جزاء بما كانوا يكسبون ويعملون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾[٤٠]

وقوله عز وجل: **إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها،** هذا قد ذكرنا فيما تقدم.[3] وقوله عز وجل: **لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء،** قال بعضهم: يعني بأبواب السماء أبواب الجنان، لأن الجنان تكون في السماء، فسمي **أبواب السماء** لما الجنان فيها؛ ألا ترى أنه قال: وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ،[4] وما يوعد لنا هو الجنة، ثم أخبر أنها في السماء؛ ألا ترى[5] أنه قال: **ولا يدخلون الجنة،** كأنه قال: **لا تفتح لهم أبواب** الجنان، **ولا يدخلون الجنة**[6] أيضا. وقال آخرون: **أبواب السماء،** هو أبواب السماء؛ وذلك أن أعمال المؤمنين تُرفَع إلى السماء وتصعد[7] إليها أرواحهم، وأعمال الكفرة وأرواحهم تُرَدّ[8] إلى أسفل السافلين، كقوله: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ،[9] وقال في الكافر: ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ؛[10] فإذا كانت أعمال[11] المؤمنين وأرواحهم تُرفَع إلى السماء وتَصعُد إليها أخبر[12] أنه **لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء** ولا لأعمالهم، ولكن تُرَدّ إلى السِّجّين.[13] وأمكن أن يكون على التمثيل، ليس على تحقيق السماء، ولكن ذُكر السماء لما أن السماء هي مكان الطيبات من الأشياء وقرارها، لا مكان الخبائث والأقذار، والأرض هي مكان ذلك.

[1] ك ن ع: والآخرة في.
[2] «... فالتأويل الأول يرجع إلى الدنيا والثاني إلى الآخرة» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٢و).
[3] انظر تفسير الآية ٣٦.
[4] سورة الذاريات، ٢٢/٥١.
[5] ك: ألا يري.
[6] ع م - كأنه قال لا تفتح لهم أبواب الجنان ولا يدخلون الجنة.
[7] ك ن: ويصعد؛ ع م: يصعد.
[8] ن م: يرد؛ ع: يروا.
[9] سورة فاطر، ١٠/٣٥.
[10] سورة التين، ٩٥/٥-٦.
[11] ن: لعمال.
[12] ك ن: وأخبر.
[13] ﴿كلا إنّ كتاب الفُجّار لفي سِجّين. وما أدراك ما سِجّين. كتاب مَرْقوم﴾ (سورة المطففين، ٨٣/٧-٩).

وأعمال الكفرة خبيثة، فكنىٰ عن أعمالهم الخبيثة بالأرض لما أن الأرض[١] هي معدِن الخبائث والأنجاس. وكنىٰ[٢] عن أعمال المؤمنين الطيبة بالسماء؛ وهو كما ضرب مَثَل الإيمان بالشجرة[٣] الطيبة الثابتة[٤] وفرعها في السماء؛ وضرب مَثَل الكفر[٥] بالشجرة الخبيثة[٦] المجتثّة من فوق الأرض.[٧] ليس على أن يكون قوله: فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، على تحقيق السماء، ولكن على[٨] الوصف بالطيب والقبول؛ فعلى ذلك الأول. وقوله عز وجل: **لا تُفَتَّح أبواب السماء،** لا يستقيم مِثله على الابتداء إلا على نوازل تسبق،[٩] خرج ذلك جوابا لها، نحو قوله: وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى،[١٠] الآية، أو أنْ ذكروا أعمال أنفسهم أنهم يعملون كذا، فقال: **لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة.**

فإن قيل: كيف[١١] خوّفهم بما ذكر مِن سدِّ الأبواب عليهم وجَعْلِ النار لهم مِهادا وغَوَاشِي،[١٢] وهم لا يؤمنون بذلك كله، فكيف خُوّفوا به؟

قيل: إن المرء[١٣] إذا[١٤] خُوّف بشيء فإنه يخاف ويهاب[١٥] ذلك وإن لم يتيقن بذلك[١٦] ولا تحقّق عنده ما خُوّف به، حتى [إنه] يستعدُّ لذلك[١٧] ويتهيأُ[١٨] وإن كان على شك من ذلك وظن.

---

[١] ع م – لما أن الأرض.
[٢] ع: كني.
[٣] م: الشجرة.
[٤] ع + بالأرض لما أن الأرض هي معدن الخبائث والأنجاس كني عن أعمال المؤمنين الطيبات بالسماء وهو كما ضرب مثل الإيمان بالشجرة الطيبة الثابتة.
[٥] ن م: الكفرة.
[٦] ن – الخبيثة.
[٧] ألم تَرَ كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعها في السماء. تؤتي أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومَثَل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٢٤-٢٦).
[٨] ع: ولكن عني.
[٩] م: تستبق.
[١٠] سورة البقرة، ٢/١١١.
[١١] ن – كيف.
[١٢] جميع النسخ: وغواشا. انظر الآية التالية.
[١٣] ع: إن المراد.
[١٤] ع – إذا.
[١٥] جميع النسخ + له.
[١٦] ع – بذلك.
[١٧] ع: كذلك؛ م: ذلك.
[١٨] جميع النسخ: ويهيء.

فعلى ذلك هؤلاء خُوّفوا بالنار وأنواع[1] العذاب وإن كانوا شاكّين في ذلك غير مصدّقين لما يجوز أن يَهابوا[2] ذلك. أو أنْ يُخَوِّفُ[3] بذلك المؤمنين، كقوله: وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ،[4] وقوله: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ.[5] أو أن يكون التخويف[6] لمن آمن منهم بالبعث، لأن[7] منهم من قد آمن بالبعث والجزاء والثواب.

وقوله عز وجل: **ولا يدخلون الجنة حتى يَلِج الجَمَل في سَمّ الخِياط**، هذا على الإياس أنهم لا يدخلون أبدا الجنة، كما لا يدخل ما ذكر[8] في **سَمّ الخِياط**، فهو[9] لا يدخل أبدا. ثم قوله: **حتى يلج الجمل في سم الخياط**،[10] قال بعضهم: **حتى** يدخل البعير في خَرْق[11] الإبرة. وقال ابن عباس رضى الله عنه: **حتى** يدخل الحبل[12] الذي يُشَدّ به السفينة في خَرْق[13] الإبرة.[14] وقال أبو عَوْسَجَة: يعني خَرْق[15] الإبرة أو المِسَلَّة[16] و **الجمل** الحبل،[17] و **الخياط** الإبرة أو المِسَلَّة. وقال ابن عباس رضى الله عنه: ليس بالجمل ذي القوائم،[18] ولكنه الجُمَّل،[19] يعني القَلْس.[20]

---

[1] ك ن: وألوان.
[2] جميع النسخ: أن يهابهم.
[3] جميع النسخ: أن يخوفهم.
[4] سورة آل عمران، ١٣١/٣.
[5] سورة الذاريات، ٥٥/٥١.
[6] ك ع م: التخفيف.
[7] ك – لأن.
[8] ك: ماكر.
[9] جميع النسخ: وهو.
[10] ع م – هذا على الإياس أنهم لا يدخلون أبدا الجنة كما لا يدخل ما ذكر في سم الخياط فهو لا يدخل أبدا ثم قوله حتى يلج الجمل في سم الخياط.
[11] ن: في خزق.
[12] ع م: الجمل.
[13] ن: في خزق.
[14] *تفسير الطبري*، ١٨٠/٨.
[15] ن: خزق.
[16] ن: والمسلة. المسلة هي إبرة الخياطة العظيمة (*لسان العرب* لابن منظور، «سل»).
[17] الجَمَل والجُمَّل والجُمَل والجُمْل و الجُمُل يأتي بمعنى الحبل الغليظ (*لسان العرب* لابن منظور، «جمل»).
[18] جميع النسخ: ذو القوائم.
[19] م – ولكنه الجمل. روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يقرأها بضم الجيم وتشديد الميم: الجُمَّل، وهذه قراءة شاذة؛ كما رويت عنه الموافقة للقراءة المتواترة: الجَمَل. انظر: *تفسير الطبري*، ١٧٩/٨–١٨٠.
[20] ك: التلس. انظر: المصدر السابق. والقَلْس حبل ضخم من ليف أو خُوص، وقيل: هو حبل غليظ من حبال السفن (*لسان العرب* لابن منظور، «قلس»).

وقال ابن مسعود: هو الجمل ذو القوائم الأربع.[١] *والله أعلم*.[٢]

وقوله عز وجل: **وكذلك نجزي المجرمين**، أي **كذلك نجزي** كل مجرم.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادُ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[٤١]

وقوله عز وجل: **لهم من جهنم مهاد**، قيل: الفَرْش، **ومن فوقهم غواش**، هي اللُّحُف.[٣] والغواشي[٤] ما يتغشّاهم فيه النار، تحيط بهم من تحت ومن فوق وأمام وخلف، كقوله: أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،[٥] أي لا يتقي[٦] لما يحيط بهم العذاب، وهو كقوله تعالى: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ،[٧] الآية، أخبر أن النار تحيط بهم، فعلى ذلك الأول. *والله أعلم*.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٤٢]

وقوله عز وجل: **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها**، قال أبو بكر الكيساني: قوله: **لا نكلف نفسا إلا وسعها**، ليس من جنس ما ذكر من قوله: **آمنوا وعملوا الصالحات**، لكنه صلة قوله: يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ،[٨] يقول: فيما تقدم ذكره **لا نكلف نفسا إلا وسعها**. وأما عندنا فإنه يستقيم أن يُجعَل صلة ما تقدم، أي **لا نكلف نفسا** من الأعمال الصالحات **إلا وسعها**، بل نكلف[٩] دون وسعها ودون طاقتها، **أولئك أصحاب الجنة / هم فيها خالدون**. وقال [٢٤٨و] الحسن: قوله: **لا نكلف نفسا إلا [وسعها**، أي إلا] ما يَسَع[١٠] ويَحِلّ؛[١١] وهو صلة قوله:

---

[١] *تفسير الطبري*، ١٧٨/٨.
[٢] ك ن ع + بما أراد.
[٣] جمع لِحاف.
[٤] م: أو الحواشي.
[٥] سورة الزمر، ٢٤/٣٩.
[٦] ن: لا تبقي.
[٧] سورة الزمر، ١٦/٣٩.
[٨] سورة الأعراف، ٣٥/٧.
[٩] جميع النسخ: بل كلف.
[١٠] ن: ما تسع؛ ع: ما يتسع.
[١١] م: ويحتمل.

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا [وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا]، يقول: **لا نكلف نفسا إلا** ما يَسَع[1] ويَحِلّ، لا ما لا يَسَع[2] ولا يَحِلّ.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤٣]

وقوله عز وجل: **ونزعنا ما في صدورهم من غل**، قال القُتَبي: الغِلّ الحسد والعداوة.[3] وقيل: الغِلّ والغِشّ واحد، وهو ما يُضمِر بعضُهم لبعض من العداوة والحقد. وقيل: الغِلّ[4] الحقد. ثم اختلف فيه؛ قال بعضهم: قوله: **ونزعنا ما في صدورهم من غل**، في الدنيا ينزع الله عز وجل من قلوبهم الغِلّ، يعني من[5] قلوب المؤمنين، ويجعلهم إخوانا بالإيمان، كقوله: إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا،[6] الآية؛ أخبر أنهم كانوا أعداء فألف بين قلوبهم بالإيمان الذي أكرمهم به حتى صاروا إخوانا بعد ما كانوا أعداء. وقال[7] الحسن: ليس في قلوب أهل الجنة الغِلّ[8] والحسد، إذ هما يُهِمّان ويُحْزِنان، إنما فيها[9] الحب. وقال[10] بعضهم: هذا في الآخرة، ينزع الله تعالى من قلوبهم الغِلّ الذي كان فيما بينهم في الدنيا، ويصيرون جميعا إخوانا، كقوله: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ.[11] وروي عن علي رضي الله عنه قال: إني[12] لأرجو[13] أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير[14] من الذين قال الله تعالى:

---

[1] ن ع: ما تسع.
[2] ك ع: لا ما يسع؛ ن: ما لا يسع
[3] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٦٨.
[4] ن – الحسد والعداوة وقيل الغل والغش واحد وهو ما يضمر بعضهم لبعض من العداوة والحقد و قيل الغل.
[5] م – من.
[6] سورة آل عمران، ١٠٣/٣.
[7] م: قال.
[8] ع: والغل.
[9] م: إن فيها.
[10] ع م: قال.
[11] سورة الحجر، ٤٧/١٥.
[12] ع م – إني.
[13] ك: لأرجوا؛ ع: لا أرجوا.
[14] ع: زبير.

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ.[١] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت في علي وأبي بكر وعمر[٢] وعثمان وطلحة والزبير[٣] وابن مسعود وعمار وسلمان وأبي ذر رضوان الله عليهم أجمعين،[٤] فيُنزَع في الآخرة ما كان في قلوبهم من غِشّ بعضهم لبعض في الدنيا من العداوة والقتل الذي كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر الذي اختلفوا فيه، فيدخلون الجنة. هذا -والله أعلم- لأن الذي كان بينهم من الاختلاف والقتال كان دنيويا،[٥] لم يكن بحيث الدين، فذلك يرتفع[٦] في الآخرة ويزول. وأما العداوة التي هي بيننا وبين الكفرة فهي لا تزول أبدا في الدنيا والآخرة، لأنها عداوة الدين والمذهب، فذلك[٧] لا يرتفع[٨] أبدا. ويشبه أن يكون قوله: **ونزعنا**، على ابتداء[٩] النزع، لا على أن كانوا فيه، كقوله تعالى: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، و مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ،[١٠] على ابتداء[١١] المنع، أي لولا إخراجه إياهم من ذلك وإلا كانوا فيه؛ فعلى ذلك قوله: **ونزعنا**، أي لم نجعل في قلوبهم الغِلّ رأسا، ولو تركهم على ما هم عليه لكان فيهم ذلك. وفيه دلالة أن لله[١٢] في فعل العباد صنعا، لأن الغِشّ والغِلّ[١٣] من فعل العباد، يُذَمُّون على ذلك، ثم أخبر أنه نزع ذلك من قلوبهم، واستأدى منهم الشكر بذلك بقوله: **وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا**، الآية،

---

[١] *تفسير الطبري*، ١٨٣/٨.

[٢] ع م - وعمر.

[٣] ع: زبير.

[٤] أخرج ابن مردويه من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله:﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾، الآية، قال: نزلت في علي وطلحة والزبير. وأخرج الشيرازي في الألقاب وابن مردويه وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾، قال: نزلت في عشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود. انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٨٥/٥.

[٥] جميع النسخ: دنيوية.

[٦] ع: يرفع.

[٧] ك: فهذا.

[٨] ع: فذلك يرتفع.

[٩] م: علي الابتداء.

[١٠] ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ (سورة البقرة، ٢٥٧/٢).

[١١] م: علي الابتداء

[١٢] ع: أن الله.

[١٣] ع م - والغل.

وقد ذمّ من طلب الحمد على ما لم يفعل،[1] فدلّ طلب الحمد منهم على أن له فيه صنعا، بذلك طلب منهم الحمد. *والله الموفق*.

وقوله عز وجل: **تجري من تحتهم الأنهار**، ذكر هذا -والله أعلم- لما علم عز وجل من طباع الخلق الرغبة في هذه الأنهار الجارية في الدنيا فيما يقع عليها الأبصار، فرغّبهم في الآخرة بما كانت طباعهم وأنفسهم تميل إلى ذلك في الدنيا، ليرغبوا فيما أمر[2] وينتهوا[3] عما نهى. وكذلك جميع ما ذكر في[4] القرآن من القصور والخيام والجواري والغلمان والأكواب والأباريق وغير ذلك مما ترغب[5] طباع الخلق في ذلك في الدنيا وتميل أنفسهم إلى ذلك، وعد لهم في الآخرة ترغيبا منه لهم في ذلك. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا**، قال الحسن وغيره: **هدانا**، دلنا لهذا، **وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**. وأما عندنا ليس هو هداية الدلالة والبيان، ولكن الهداية التي أكرمهم الله بها بفضله ولطفه، وهو توفيقه إياهم على الهدى، لأنه خرج[6] مخرج الامتنان والفضل، ولو كان دلالة وبيانا لكان لا معنى لذلك المنة والفضل، لأن عليه الدلالة والبيان. والثاني أنه[7] لو كان على الدلالة والبيان لكان ذلك على كل أحد، على الرسل وغيرهم، لأن عليهم البيان والدلالة، فدلّ أنه ليس على الدلالة والبيان، ولكن غيره.[8] والثالث أنه لا أحد عند نفسه أنه يزيغ ويضل وقت ما هداه الله ووفّقه، وقد يجوز أن يكون ذلك في الدلالة والبيان، دل أنه لم يحتمل ما قال أولئك من الدلالة والبيان. *والله الموفق*. وقال بعض الناس: إن المعتزلة خالفوا الله عما أخبر،[9] وخالفوا الرسل عما أخبروا عن الله تعالى، وخالفوا أهل الجنة والنار، وخالفوا إبليس. أمّا مخالفتهم الله قوله: **وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**، ونحوه،

---

[1] م: ما يفعل. ﴿لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم﴾ (سورة ال عمران، ١٨٨/٣).

[2] ع: فيها أمر.

[3] ك: وينهوا؛ ن: وينهي.

[4] ك: ما في.

[5] جميع النسخ: يرغب.

[6] م: إنه خرج.

[7] ع م - أنه.

[8] ك ن ع: غير.

[9] م: أخبروا.

[و]أما مخالفتهم الرسل قوله: وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ،[1] الآية، وقول أهل النار: قَالُوا[2] لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ،[3] وقول إبليس: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي،[4] فهو أعلم بالله من المعتزلة.[5]

وقوله عز وجل: **لقد جاءت رسل ربنا بالحق**، يحتمل وجوها. يحتمل جاءوا **بالحق**، أي بالدين الذي هو حق، أو جاءوا بالأعمال التي من عمل بها كان صوابا ورشدا، وكل حق هو صواب ورشد. ويحتمل **جاءت رسل ربنا بالحق**، أي بالصدق ونحوه. **بالحق**، له وجهان؛ أحدهما **بالحق** الذي استحقه الله[6] على عباده، والثاني أنهم جاءوا بالذي هو حق في العقول وصواب.

وقوله عز وجل: **ونودوا أن تلكم الجنة**، وقوله: **تلكم**، إنما يتكلم عن غائب، وهم فيها، لكن تأويله / -والله أعلم- أنْ **تلكم الجنة** التي كنتم وُعدتم في الدنيا وأُخبرتم عنها[7] هذه، [٢٤٨ظ]
أُورِثتموها بما كنتم تعملون، أي أورثكم أعمالُكم[8] [الجنة]. وفيه دلالة أن الإيمان من جملة أعمالهم، حيث قال: **أورثتموها بما كنتم تعملون**، وإنما يُورَث ذلك بالإيمان، وسائر الأعمال[9] إنما تصح[10] بالإيمان. ذكر أنهم أورثوا الجنة بما عملوا، وإن كانوا ينالونها بفضل الله، جزاء وشكرا لقولهم الذي قالوا: **ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**.

---

[1] ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يُغْوِيَكم﴾ (سورة هود، ٣٤/١١). وهو من قول نوح عليه السلام.
[2] ن - قالوا.
[3] سورة إبراهيم، ٢١/١٤.
[4] سورة الحجر، ٣٩/١٥.
[5] قال السمرقندي رحمه الله تعالى: «قال بعض أهل العلم بأن المعتزلة خالفوا الله تعالى فيما أخبر، وخالفوا الرسل عليهم السلام فيما أخبروا عن الله تعالى، وخالفوا أهل الجنة والنار، وخالفوا إبليس أيضا؛ أما مخالفتهم الله تعالى ومخالفة أهل الجنة فإن الله تعالى أخبر عن أهل الجنة أنهم قالوا: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾، ترغيبا لنا بأن نقول ذلك في الدنيا، ودعانا إلى ذلك، والمعتزلة تقول: ما هدانا الله، ولكنا نخلق ونحدث الهداية في أنفسنا باختيارنا لا بصنع الله تعالى في ذلك. وأما مخالفتهم الرسل عليهم السلام قوله: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾، وهم يقولون: إن الله تعالى لا يريد الإغواء. وأما مخالفة أهل النار فإنهم قالوا: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾، وهم لا يقولون بذلك. وأما مخالفة إبليس قال: ﴿رب بما أغويتني﴾، فهو أعلم من المعتزلة (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٣و؛ ونسخة المدينة، ورقة ٢٢٥و)».
[6] ع م - الله.
[7] ع: منها.
[8] م - أعمالكم.
[9] ك ن ع + بل.
[10] ن ع م: إنما يصح.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٤٤]

وقوله عز وجل: **ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم**، وما وعد المؤمنين عز وجل [هو] الجنة[١] وما فيها من النعيم واللذات والشهوات، بقوله: وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ،[٢] وقولِه: لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ،[٣] هذا الذي وعد للمؤمنين. ووعد الكفار النار وما فيها[٤] من الشدائد وأنواع العذاب، فأقروا أنهم قد وجدوا ما وعد لهم ربهم.[٥] وقوله عز وجل: **فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا**، إن [كان] المرادُ بالحق الذي ذكر الوعدَ الذي وعدهم[٦] فتفسير[٧] الحق الصدق، وإن كان الموعودَ فتأويله: وجدتموه كائنا حاضرا، وهو ما ذكرنا في قوله: لِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا،[٨] كذا.[٩]

فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين، أي وجبت **لعنة الله على الظالمين** الذين وُعدوا في الدنيا. وقوله عز وجل: **فأذن مؤذن بينهم**، يحتمل [**مؤذن**] الملَك، ويحتمل غيره، وليس يُعرَف ذلك إلا بالخبر، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة.

فإن قيل: يُذكَر في الآية نداءُ أهلِ الجنة أهلَ النار، وأهلِ النار أهلَ الجنة، ونداءُ بعضِهم بعضا لا يكون إلا بحيث يكون بعضهم قريبا من بعض؛ وقد جاء في الأخبار مِن وصف الجنة وسَعتها[١٠]

---

[١] ع م – الجنة.
[٢] سورة الزخرف، ٤٣/٧١.
[٣] ﴿يطاف عليهم بكأس من مَعِين. بيضاءَ لذةٍ للشاربين﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٤٥-٤٦)؛ ويقول عز وجل: ﴿وأنهارٌ مِن خمر لذةٍ للشاربين﴾ (سورة محمد، ٤٧/١٥).
[٤] م: وفيها.
[٥] ع: ربكم.
[٦] ك: وعد.
[٧] جميع النسخ: وتفسير.
[٨] ﴿... وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٤٠).
[٩] قال السمرقندي رحمة الله عليه: «ثم قوله: ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا﴾، إن كان المرادُ بالحق الذي ذكره الوعدَ الذي وعدهم فتفسيره الصدق، أي يكون وعده صدقا؛ وإن كان المراد بالحق هو الموعودَ من الجنة ونعيمها فتأويله: وجدتم كائنا حاضرا كما علمتم يقينا بالخبر، وهو كما ذكرنا في قوله: ﴿ليعلم الله الذين آمنوا﴾، أي ليعلمه حاضرا كما علمه معدوما» (شرح *التأويلات*، ٢٩٣و).
[١٠] ع: وسفها.

ما رُوي أن أقل ما يكون لواحد من الجنة مثل عَرْض الدنيا،[١] وما ذُكر أن الحور العين لو نظرت نظرة إلى الدنيا لامتلأت الدنيا من ضوئها ونورها وكذلك من ريحها وعطرها؛[٢] وقد جاء في وصف النار أن شَرارة منها[٣] لو[٤] وقعت في الدنيا لأحرقتها،[٥] أو كلام نحو هذا. فإذا كان بعضهم من بعض بحيث يسمعون بعضهم نداء بعض ألا يتأذّى أهل الجنة بالنار، ولا ينتفع أهل النار بنعيم الجنة، وكيف يُعرَف ذلك؟

قيل -والله أعلم- ذلك[٦] أن الله[٧] قادر[٨] أن يُوقِع[٩] نداءَ هؤلاء بمسامع أولئك،[١٠] ونداءَ أولئك بمسامع هؤلاء، مع بُعد ما بينهما، فيسمع كل فريق[١١] نداء الفريق[١٢] الآخر؛ أو أن يكون[١٣] الله تعالى ينقض بنية هذا الخلق وينشئهم في الآخرة على غير هذه البنية مع ارتفاع الآفات[١٤] والحُجُب، فيسمع بعضهم من بعض[١٥] مِن بُعدٍ الذي ذكر، وينظر بعضهم بعضا،

---

١ ورد ذلك في حديث طويل، وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا... فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها... ذاك أدنى أهل الجنة منزلة» (*صحيح البخاري*، الرقاق ٥١؛ وصحيح *مسلم*، الإيمان ٣٠٨.

٢ عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «... ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحا...» قال الترمذي: هذا حديث صحيح (*سنن الترمذي*، فضائل الجهاد ١٧).

٣ ن: من النار.

٤ ع م - لو.

٥ ك ع م: لأحرقته. لم أجده بهذا اللفظ. لكن خرج الطبراني من طريق تمام بن نجيح عن الحسن عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «... ولو أن شَرارة من شرار جهنم بالمشرق لوَجد حرّها مَن بالمغرب»؛ وتمام بن نجيح تُكُلِّم فيه. وخرج أيضا من طريق عدي بن عدي سنان عن عمر أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: والذي بعثك بالحق لو أن قدر ثقب إبرة فتح من جهنم لمات من في الأرض كلهم جميعا من حره؛ وإسناده ضعيف. انظر: *التخويف من النار* لابن رجب الحنبلي، ٣٨، ٧٠. وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أن قطرة من الزقّوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (*سنن الترمذي*، صفة جهنم ٤).

٦ ك ن: وذلك.

٧ ع م - ذلك أن الله.

٨ ع م: وقادر.

٩ م: أن يوضع.

١٠ ن: هؤلاء.

١١ ك + من.

١٢ ع + الفريق.

١٣ ع م: وأن يكون.

١٤ ك: الآفاق.

١٥ ن: عن بعض.

لأن في الدنيا الآفات والحُجُب[1] هي[2] التي تمنع ذلك، فإذا ارتفع ذلك كان ما ذكر. *والله أعلم*. أو يقرّب [الله عز وجل] الجنة من النار والنار من الجنة بحيث يسمع بعضهم من بعض ما ذكر من النداء. أو يجعل ذلك في مسامعهم بما شاء وكيف شاء كتسبيح الجبال وخطاب النمل وجوابه.[3]

﴿اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾[٤٥]

وقوله عز وجل: **الذين يصدون عن سبيل الله**، الصد يكون مَنْعَ غيرٍ، ويكون[4] مَنْعَ[5] نفسِه. وقوله عز وجل: **سبيل الله**، قيل: دين الله. قال الحسن: **سبيل الله**، دين الله الذي ارتضى لعباده وأمرهم بذلك وإلى ذلك دعاهم رسله. وقوله عز وجل: **ويبغونها عوجا**، أي يبغون الدين الذي فيه عوج، وهو دين الشيطان، كقوله: وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ،[6] فالعوج هو التفرّق الذي ذكر في تلك الآية. وأمكن أن يكون قوله: **يبغونها عوجا**، أي طعنا في دين الله، وقد كانوا يبغون طعنا في دين الله.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾[٤٦]

وقوله عز وجل: **وبينهما حجاب**، يشبه أن يكون ما ذكر من الحجاب ما ذكر في آية أخرى، وهو قوله: فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ،[7] فأمكن أن يكون[8] الحجاب المذكور بينهما هو السور الذي ذكر. *والله أعلم*.

---

[1] ع م – فيسمع بعضهم من بعض من بعد الذي ذكر وينظر بعضهم بعضا لأن في الدنيا الآفات والحجب.
[2] ن – هي.
[3] ﴿وسخرنا مع داود الجبال يُسَبِّحن والطير﴾ (سورة الأنبياء، ٧٩/٢١)؛ ويقول عز وجل: ﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ (سورة النمل، ١٨/٢٧).
[4] ن: ويكن.
[5] ك – منع.
[6] سورة الأنعام، ١٥٣/٦.
[7] ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ (سورة الحديد، ١٣/٥٧).
[8] ن: أن يكن.

وقوله عز وجل: **وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم**، قال بعضهم: هم[١] قوم استوت حسناتهم بسيئاتهم، لم يُبَشَّروا بالجنة حتى لا يخافوا[٢] عقوبته ولا أُيْئِسوا حتى لا يطمعوا ولا يرجوا[٣] دخولهم فيها. وقال آخرون: هم أهل كرامة الله، أكرمهم الله بذلك، يرفعهم على ذلك السور لينظروا إلى حكم الله في الخلق وعدله[٤] فيهم، وينظرون إلى إحسان الله فيمن يحسن إليه، وعدله فيمن يعاقبهم. وقيل: هم الأنبياء. والأشبه أن يكونوا[٥] الأنبياء، يكونون **على الأعراف**، يشهدون على الأمم، كقوله: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلَاءِ شَهِيدًا.[٦] وقال قائلون: هم الملائكة؛ لكن ملائكة الله ما يُسَمَّوْن[٧] رجالا،[٨] ولم نسمع[٩] بذلك. ***والله أعلم بذلك.***

ثم اختلف فيه؛ قيل: سُمُّوا[١٠] أصحابَ الأعراف، وهو سور بين الجنة والنار، سُمِّي بذلك لارتفاعه،[١١] وكل مرتفع عند العرب أعراف؛ وهو قول[١٢] القُتَبي.[١٣] وقال غيره: **الأعراف** هو [جمع] عُرْف، كعُرْف الديك والفرس، وهو أيضا من الارتفاع. وقال الحسن: هم أصحاب التعريف، يُعَرِّفون أهل النار عدل الله فيهم وحكمه وأنّ ما حَلّ بهم من الشدائد وأنواع العذاب إنما[١٤] حَلّ بهم مما كان منهم في الدنيا مِن صَدِّهم الناس عن سبيل الله[١٥] واستكبارهم على الرسل، يُعَرِّفونهم أنّ ما نزل بهم إنما نزل[١٦] بعدل منه؛ ويُعَرِّفون أهل الجنة فضل الله وإحسانه إليهم

[١] ك ع م: هو.
[٢] جميع النسخ: لا يخافون.
[٣] ك ن م: لا يطمعون ولا يرجون؛ ع: لا يطعمون ولا يرجون.
[٤] م: وعدلهم.
[٥] ك: أن يكون.
[٦] سورة النساء، ٤١/٤.
[٧] ع: ما يسمعون.
[٨] ع م: رجلا.
[٩] ن: ولم يسمع؛ ع: لم نسمع.
[١٠] ك: هموا.
[١١] ع: لارتفاع.
[١٢] ع – قول.
[١٣] تفسير غريب *القرآن* لابن قتيبة، ١٦٨.
[١٤] ع: إن.
[١٥] ع – الله.
[١٦] م – إنما نزل.

أنّ ما نالوا هم[1] إنما نالوا بفضل منه وإحسان.[2] أو [هم] قوم نَصَبهم الله لمحاجّة أهل النار،
[٢٤٩و] كقوله: مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ،[3] / فهذه هي المحاجّة التي يحاجّون بها أهل النار. أو أن يقال: هم قوم نُصِبوا يُتَرْجِمون بين أهل الجنة وأهل النار، يؤدّون كلام بعضهم إلى بعض، ويُنْهُون[4] مخاطبات بعضهم[5] إلى بعض، من ذلك قوله: وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ،[6] وقوله: وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ،[7] ونحوه. والله أعلم مَن هم.

وقوله عز وجل: **يعرفون كلا بسيماهم**، قيل: المؤمن يُعرَف ببياض وجهه، والكافر بسواد وجهه. ويحتمل ما قال الحسن: هو أن يُعرَفوا بالمنازل والأماكن.

وقوله تعالى: **ونادوا أصحاب الجنة**، يعني نادى أصحابُ الأعراف **أصحابَ الجنة أن سلام عليكم**. قوله: **أن سلام عليكم**،[8] ليس أن يقولوا: **سلام عليكم** باللسان خاصة، ولكن [ذلك] في كل[9] كلام سديد وقول حسن وصواب، كقوله: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا،[10] أي سديدا صوابا؛ وكذلك قوله:[11] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا،[12] ليس على أن يقولوا: سلام عليكم، ولكن يقولون لهم قولا صوابا مُحْكَما؛ فعلى ذلك الأول.

وقوله عز وجل: **لم يدخلوها وهم يَطمعون**، اختلف فيه؛ قال عامة أهل التأويل: هم أصحاب الأعراف، لم يدخلوا[13] الجنة[14] و **يطمعون**[15] دخولها. وقيل: هم كفار أهل النار،

---

[1] ن ع م: نالوهم.
[2] ع: وإن حسان.
[3] ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾ (سورة الأعراف، ٤٨/٧).
[4] أي يبلغون ويوصلون.
[5] ع م: بعض.
[6] سورة الأعراف، ٥٠/٧.
[7] سورة الأعراف، ٤٤/٧.
[8] ك ع م – قوله أن سلام عليكم.
[9] ع – كل.
[10] سورة مريم، ٦٢/١٩.
[11] م – قوله.
[12] سورة الفرقان، ٦٣/٢٥.
[13] ع م: لم يدخلوها.
[14] ع م – الجنة.
[15] م: وهم يطمعون.

يطمعون أن ينالوا منها، كقوله: أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ،[١] إلى هذا الوقت كانوا **يطمعون**[٢] دخولها والنيل منها، ثم أيسوا بهذا. وقال بعضهم: هم أهل الجنة، **يطمعون**[٣] دخولها قبل أن يدخل أهل الجنة الجنة[٤] وقبل أن يدخل أهل النار النار.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٤٧]

وقوله: **وإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار**، قيل: **وإذا صُرفت** أبصار[٥] أصحاب الأعراف إلى أهل النار، **قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين**، من شدة ما يرون من العذاب وما نزل بهم. وقيل: **وإذا صُرفت** أبصار[٦] أهل الجنة **تلقاء أصحاب النار** قالوا ذلك. وفي حرف أُبيّ: **وإذا قُلِبت**[٧] **أبصارهم** نحو **أصحاب النار قالوا:**[٨] [إنّا] عائذون[٩] بك[١٠] أن تجعلَنا ربَّنا **مع القوم الظالمين.**[١١] وقوله عز وجل: **ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين**، إن كان ذلك الدعاء من الأنبياء أو من أهل كرامة الله الذين كانوا على الأعراف فذلك منهم شهادة أنهم[١٢] ظلمة وكفرة. ومعنى التعوذ منهم[١٣] من[١٤] النار لأنهم لم يدخلوا الجنة بعد، فيخافونها[١٥] لقصورٍ كان منهم في شكر المنعم، أو بالطبع، يتعوذون لما يتعوذ كل أحد إذا رأى أحدا في البلاء.[١٦] ***والله أعلم.***

---

[١] ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ (سورة الأعراف، ٧/٥٠).

[٢] ع: يطعمون.

[٣] ع: يطعمون.

[٤] ع م - الجنة.

[٥] ع: أبصارهم.

[٦] ع: أبصارهم.

[٧] ن: قلب؛ ع: قبلت.

[٨] ك - قالوا.

[٩] ك ن ع: عائذ.

[١٠] م- بك.

[١١] قال الآلوسي: «وقرأ الأعمش: وإذا قُلِبت أبصارهم؛ وعن ابن مسعود وسالم مثل ذلك» (*روح المعاني* للآلوسي، ١٢٥/٨).

[١٢] أي أصحاب النار.

[١٣] م: عنهم.

[١٤] م - من.

[١٥] م: فيخافون.

[١٦] ن: البلاد.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٤٨]

وقوله عز وجل: **ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم**، قال عامة أهل التأويل: يُعرَفون بسواد الوجوه وزُرْقة العيون.[١] ولكن أمكن أن يُعرَفوا بالأعلام التي كانت لهم في الدنيا سِوى سواد الوجوه، لأنهم يخاطبونهم بقوله: **قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون،** فلو لم يعرفوهم[٢] بآثارٍ كانت لهم في الدنيا لم يكونوا يعاتبونهم[٣] بجمع الأموال والاستكبار في الدنيا، ولا يقال للفقراء ذلك، إنما يقال ذلك[٤] للأغنياء، لأنهم هم الذين يجمعون الأموال وهم المستكبرون على الخلق؛ كقوله: وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.[٥] ويشبه أن[٦] يخاطَب الكل، وفيهم من قد جمع واستكبر، وذلك جائز. هذا على تأويل من يجعل أصحاب الأعراف الذين استوت حسناتهم بسيئاتهم.

﴿أَهٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[٤٩]

وقوله عز وجل: **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة**، قال عامة أهل التأويل: أقسم[٧] أهل النار أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة ولكن[٨] يدخلون النار معهم، فتقول[٩] الملائكة لأهل النار: **هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة. ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون**. ويحتمل أن يكون القسم الذي ذكر في الآية كان منهم في الدنيا، كانوا[١٠] يقسمون أن لا يدخل[١١] هؤلاء الجنة، يعنون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛

---

[١] ك ن: العين.
[٢] ن: يعرفوا؛ م: يعرفهم.
[٣] ك: يعاتبوهم.
[٤] م – ذلك.
[٥] سورة سبأ، ٣٤/٣٥.
[٦] ن + يكون.
[٧] ن ع م: أقسمتم.
[٨] م + ولكن.
[٩] ك: فيقول.
[١٠] جميع النسخ: قالوا.
[١١] ك ن ع: لا يدخلون؛ م: يدخلون.

كقوله: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ،[1] كانوا يقولون: إن الذي هم عليه لو كان خيرا لنالوا هم[2] ذلك، إذ نالوا هم[3] كل خير في الدنيا، يعنون أنفسهم، فعلى ذلك ينالون في الآخرة مثله، ونحو ذلك من الكلام الذي[4] يقولون في الدنيا، فيقولون لهم في الآخرة: **هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة**. وأمكن أن يكون قوله: **ادخلوا الجنة**، لأهل الجنة قبل أن يدخلوها.

وقوله عز وجل: **لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون**، قال الأصم: يكون الحزن في فوت كل محبوب، والخوف في نيل كل مكروه، كقول يعقوب: إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ،[5] ذكر الحزن عند فوت محبوبه والخوف عند نيل المكروه. ولكن عندنا الحزن إنما يكون بفوت الموجود من المحبوب، والخوف[6] بما سيصيبه من المكروه.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٥٠]

وقوله عز وجل: **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله**، قال الحسن: الماء مما رزقهم الله،[7] ولكن مكرر مَثْنَى. وقال أبو بكر [الأصم]: طلبوا الماء ليدفعوا عن أنفسهم ما اشتد بهم من الظمأ والعطش، ثم تقع لهم الحاجة إلى الطعام، لأن الرجل إذا اشتد به العطش والظمأ لا يتهيأ له الأكل. / ولكن يشبه أن يكون طَلَبَ [٢٤٩ظ]
بعضُهم الماءَ وبعضُهم الطعامَ الذي رزقهم الله. وهذا جائز وإن لم يُذكَر، كقوله: وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى،[8] لم يكن هذا القول من الفريقين، ولكن كان من اليهود [قولهم]: إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، و[كان] من النصارى: أَوْ نَصَارَى؛ فعلى ذلك هذا. *والله أعلم*.

---

[1] ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه﴾ (سورة الأحقاف، ١١/٤٦).
[2] م: نالوهم.
[3] م: لنالوهم.
[4] ن: الذين.
[5] سورة يوسف، ١٣/١٢.
[6] ك - والخوف.
[7] أي مما رزق الله أصحاب النار.
[8] سورة البقرة، ١١١/٢.

وقوله عز وجل: **إن الله حرّمهما على الكافرين**، قيل: هذا مقابل قولهم في الدنيا للمؤمنين: أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ،[1] قال لهم المؤمنون في الآخرة مقابل ما قالوا لهم في الدنيا: **إن الله حرّمهما على الكافرين**. وهذا[2] -والله أعلم- ليس على التحريم، ولكن على المنع، لأن الكفرة لا يُبالون[3] بعد أن نالوا ذلك حراما كان أو حلالا، ولكن على المنع، كقوله: وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ،[4] ليس هو تحريمَ حرمةِ أكلٍ، ولكن [تحريم] منعٍ. ويشبه أن يكون ذلك محرّما على المؤمنين: إطعام الكافرين من ذلك.[5]

﴿اَلَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٥١]

وقوله عز وجل: **الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا**، قال الحسن: **اتخذوا دينهم**، الذي كُلِّفوا به[6] وأُمِروا أن يأتوا به، **لهوا ولعبا**. وجائز أن يكون قوله: **اتخذوا دينهم لهوا ولعبا**، أي اتخذوا[7] دينهم الملاهي التي كانوا يَلهُون بها[8] ويلعبون، كقوله: وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً.[9] أي **اتخذوا دينهم**، الذي دانوا[10] به، **لهوا ولعبا**؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث،[11] وفي إنكارهم البعث[12] إنكار الجزاء للحسنات والسيئات، وفي الحكمة إيجاب ذلك. فمن لم ير ذلك فهو لاه ولاعب. واللهو واللعب هو الذي لا عاقبة له، وكل من عمل عملا لا عاقبة له فهو لعب ولهو، وكل من يعمل لعاقبة فهو ليس بلعب ولا لهو، وهم كانوا يعملون لا لعاقبة، لذلك كان لهم[13] **لهوا ولعبا**.

---

[1] ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ (سورة يس، ٣٦/٤٧).

[2] ن: هذا.

[3] جميع النسخ: لا ينالون.

[4] سورة القصص، ٢٨/١٢.

[5] وعبارة السمرقندي هكذا: «ويحتمل أن يكون المراد تحريم الإطعام على المؤمنين للكافرين من طعام الجنة ونعيمها» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٤و).

[6] ك – به.

[7] ك – اتخذوا.

[8] ك ن ع: به؛ م – به.

[9] ن– أي اتخذوا دينهم الملاهي التي كانوا يلهون بها ويلعبون كقوله وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء. والآية في سورة الأنفال، ٨/٣٥.

[10] ك: كانوا.

[11] ن + بعد الموت.

[12] ن + بعد الموت.

[13] ك – لهم.

وقوله عز وجل: **وغرتهم الحيوة الدنيا،** قال بعضهم: إن الحياة الدنيا لا تَغُرّ[١] أحدا، ولكن أضيف إليها[٢] التغرير لما كانت[٣] سببا من أسباب الاغترار بها، فأضيف إليها، كقوله: فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا،[٤] أضاف[٥] الفرار إلى الدعاء؛ وقد[٦] يضاف الشيء إلى سببه، كقوله: وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا،[٧] أي يُبصَر به. وقال بعضهم: أضيف ذلك إليها لما كان منها من السبب من [حيث] الهيئة ما لو كان ذلك[٨] من ذي العقل والتمييز كان ذلك تغريرا[٩] من نحو التزيين وغيره. وجائزٌ إضافةُ التغرير إليها على إرادة أهلها، أي غرّهم أهلها، وهم القادة والرؤساء.

وقوله[١٠] عز وجل: **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا،** لا يجوز أن يضاف النسيان إلى الله تعالى بحال، ولكن يجوز أن يقال: إنه[١١] يجزيهم جزاء نسيانهم، فسُمّي الثاني باسم الأول وإن لم يكن الثاني نسيانا؛ نحو قوله: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا،[١٢] والثانية[١٣] ليست بسيئة ولكن جزاء السيئة، لكنه سماها باسم السيئة لما هي جزاء لها، فعلى ذلك هذا؛ وكقوله: فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ،[١٤] والثاني ليس باعتداء ولكنه جزاء الاعتداء، فسماه باسم الاعتداء لما هو جزاؤه، فعلى ذلك سمي الثاني نسيانا لأنه جزاء النسيان، وإن كان الله لا يجوز أن ينسى أو يسهو عن شيء أو يغفل،[١٥] ولأن في النسيان تركا، وكل مَنسِي متروك، فيتركهم في العذاب والهوان كما تركوا هم[١٦] أمر الله ونهيه في الدنيا.

---

[١] ع م: لا تغرن.
[٢] جميع النسخ: إليه.
[٣] ع م: كان.
[٤] ﴿قال ربِّ إني دعوت قومي ليلا ونهارا. فلم يزدهم دعائي إلا فرارا﴾ (سورة نوح، ٧١/٥-٦).
[٥] ن + الدعاء.
[٦] ك: قد.
[٧] ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ (سورة يونس، ١٠/٦٧).
[٨] ن – ذلك.
[٩] جميع النسخ: غرورا.
[١٠] ك: كقوله.
[١١] ع م – إنه.
[١٢] سورة الشورى، ٤٢/٤٠.
[١٣] ع: والثاني.
[١٤] ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ (سورة البقرة، ٢/١٩٤).
[١٥] ع: يعقل.
[١٦] ع م: تركوهم.

وقال الحسن: إن الله لا ينسى شيئا ولا يسهو،[1] ولكن الكفرة يكونون[2] عن[3] الكرامة والرحمة والمنزلة[4] [بمَعْزِل] كالشيء المنسي، وعن العذاب والهوان[5] لا [يكونون كذلك]، أو كلام نحو هذا.

وقوله عز وجل: **وما كانوا بآياتنا يجحدون**، قال بعضهم: "ما" هاهنا صلة، كأنه قال: وكانوا **بآياتنا**. وقال بعضهم: هو على ما ذكر، أي اليوم **ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا**، وكما **كانوا بآياتنا يجحدون**.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٥٢]

وقوله عز وجل: **ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه**، يحتمل قوله: **فصّلناه**، بيّناه، والتفصيل التبيين. ويحتمل قوله: **فصلناه**، أي فَرَقْناه في إنزاله، لم ننزله[6] جملة واحدة، كقوله: وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ،[7] أي فرقناه في الإنزال على قدر النوازل بهم، ليعرفوا[8] حكم كل آية نزلت بالنوازل التي وقعت بهم، لا تقع لهم الحاجة إلى معرفة ما في كل آية نزلت عليهم على حدة، بل يعرفون ذلك بالنوازل. أو أنزله مفرَّقا[9] [لأن][10] معرفة ما فيه من الأحكام[11] إذا كان مُنَزَّلا بالتفاريق أهون وأيسر على الطباع من[12] معرفة ما فيه إذا أنزل[13] جملة. ثم قوله: **فصّلناه على علم**، يحتمل وجوها. يحتمل **فصلناه**، أي بيّناه بالحجج والبراهين، **على علم** منه أن الخلائق لا تقوم بإتيان مثله، ليُعلَم أنه من عنده نزل. أو أنزله مفصّلا **على علم** منه بمن يصدقه ويتبعه وبمن يكذبه ولا يتبعه. أو **على علم** منه بمصالح الخلق أن إنزاله أصلح[14] للخلق.

---

[1] م: يسهوه.
[2] ن – يكونون.
[3] ع م: على.
[4] ك – والمنزلة.
[5] ك: والعوان.
[6] ك: لم ينزل؛ ن: لم ننزل.
[7] ﴿وقرآنا فَرَقْناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزلناه تنزيلا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٠٦).
[8] ع م: ليعلموا.
[9] جميع النسخ + أو أن يكون.
[10] التصحيح والزيادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٤و.
[11] ك + مما.
[12] ع م: عن.
[13] ن ع م: إذا نزل.
[14] ع م: صلح.

أو[1] **على علم** منه بمعاملة القوم إياه أنزله، لأن المنفعة في إنزاله للمنزَل عليهم لا للمرسِل والمنزِل،[2] فضرر[3] الرد والمنفعة لهم.

وقوله: **هدى ورحمة لقوم يؤمنون**، قال أبو بكر: هو **هدى** للكل، للمؤمن[4] والكافر جميعا، **ورحمة** للمؤمنين خاصة. وأما عندنا فهو هدى للمؤمنين وعَمى على الكافرين على ما ذكر: وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى.[5] خص المؤمنين بالهدى لهم، لأنهم هم المخصوصون بالانتفاع به دون / أولئك، [٢٥٠و] وعلى أولئك عمى ورجس على ما ذكر، وصار للمؤمنين حجة على أولئك، كقوله:[6] فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ، هذا للكافرين، وقال للمؤمنين: فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا.[7]

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[٥٣]

وقوله عز وجل: **هل ينظرون إلا تأويله**، أي ما **ينظرون إلا** وقوع ما وعد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من نزول بأس الله بهم، أي لا يؤمنون إلا بعد[8] وقوع البأس[9] بهم، لكن لا ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت. **يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل**، والتأويل هو ما ينتهي إليه الأمر ويئول وما يقع بهم من البأس الموعود لهم وإيمانهم [على] ما ذكر من قولهم: **قد جاءت رسل ربنا بالحق**، يعني **بالحق** الواقع بهم من بأس الله الذي كانت الرسل تَعِد لهم، أي أن ما وَعَدوا من وقوع البأس بنا كان حقا. ويحتمل قوله: **قد جاءت رسل ربنا بالحق**، أي بالتوحيد، أي إن الذي جاءت به الرسل في الدنيا من التوحيد كان حقا؛ أو إن الذي أخبر الرسل عن هذا[10] اليوم كان حقا.

---

[1] جميع النسخ: أي؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٤و.
[2] ع م: والمرسل.
[3] م: فضر.
[4] ك - للمؤمن.
[5] ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وَقْر وهو عليهم عَمى﴾ (٤٤/٤١).
[6] جميع النسخ: وقوله.
[7] ﴿وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (سورة التوبة، ١٢٤/٩-١٢٥).
[8] ن - بعده، صح هـ.
[9] ع: الإلباس.
[10] ع م: من هذا.

وقوله عز وجل: **فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا**، كأنهم[1] إذا حلّ بهم ووقع ما أوعد لهم الرسول من البأس تمنوا عند ذلك الشفعاء الذي كانوا يعبدونهم في الدنيا، كقولهم: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ؛[2] أو طلبوا الشفعاء كما كانوا يطلبون في الدنيا **شفعاء** إذا بدا لهم أمر[3] عظيم، فيُشَفِّع بعضهم بعضا ويعين بعضهم بعضا في هذه الدنيا، فعلى ما كان لهم في الدنيا تمنوا في الآخرة ذلك. فإذا أيسوا عن ذلك وأيقنوا أنْ لا شفيعَ يشفع لهم فعند ذلك قالوا: **أو نُرَدُّ فنعملَ غير الذي كنا نعمل**، لا أنهم قالوا ذلك مجموعا؛ كقوله:[4] يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا -إلى قوله- لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ؛[5] قال[6] بعضهم: لَوْ رُدُّوا في الدنيا لَعَادُوا[7] إلى مَا نهُوا عَنْهُ؛ وقال آخرون: لَوْ رُدُّوا إلى المحنة، إلى الأمر والنهي، لصاروا إلى العمل الذي كانوا يعملونه. ثم أخبر أنهم **قد خسروا أنفسهم**، بعملهم الذي عملوا في الدنيا وبعبادتهم[8] غير الله، **وضل عنهم ما كانوا يفترون**، أي بطل **عنهم ما كانوا يفترون**، أن هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ، وقولهم:[9] مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[10] وغير ذلك من الافتراء؛ ذلك كله قد بطل عنهم، فبقوا حيارى، وانقطع رجاؤهم وأملهم الذي طمعوا. قوله: **قد خسروا أنفسهم**، من رحمة[11] الله؛ وقيل: مما وُعِدوا لو أطاعوا؛ وقيل: أهلكوها.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٥٤]

وقوله عز وجل: **إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام**،

---

[1] ك: كأنه.

[2] ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ (سورة يونس، ١٠/١٨).

[3] ك: من.

[4] ن: كقولهم.

[5] ﴿ولو ترى إذ وُقِفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدّ ولا نُكذّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بَدَا لهم ما كانوا يُخفون من قبل ولو رُدُّوا لعادوا لما نهُوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ (سورة يونس، ١٠/٢٧-٢٨).

[6] جميع النسخ: وقال.

[7] م – في الدنيا لعادوا.

[8] م: وبعباداتهم.

[9] ع م: وقوله.

[10] سورة الزمر، ٣٩/٣.

[11] جميع النسخ: عن رحمة؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٤ظ.

وذكر "ما بينهما" في مواضع،[١] و لم يذكر في مواضع،[٢] وذلك داخل في ذلك على ما جرى التفسير في ذلك[٣] بقوله: قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الذي صنع[٤] ذلك، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا، ثم جمع اليومين الأولين مع هذا الذي ذكر[٥] ذا[٦] فيه وقال: فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ، ليُعلَم أن ذا[٧] خُلق في يومين، ثم قال: ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ -إلى قوله- فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ،[٨] فتصير[٩] ستة أيام[١٠] التي أبهمها في غير ذلك.[١١] *والله أعلم*.

ثم قد بين عز وجل فساد[١٢] قول[١٣] كل[١٤] مَن عبد[١٥] غيره، وعَجْزَ كلٍّ ذلك عمّا له يُعبَد وجهلَه بمعنى العبادة وخروجه عن الاستحقاق، بما فيه من آثار[١٦] التدبير، وعليه من دلالة التقدير، واستحقاقِ جميع معاني الخلقة، ودخوله تحت الصنعة، وحاجته إلى من احتاج إليه كلٌّ، مما هي التي تبعث على العبادة، وتوجب إظهار الذلة[١٧] والخضوع لمن هو كذلك في الخلقة والجوهر.

---

[١] سورة الفرقان، ٢٥/٥٩؛ وسورة السجدة، ٣٢/٤؛ وسورة ق، ٥٠/٣٨.
[٢] سورة يونس، ١٠/٣؛ وسورة هود، ١١/٧؛ وسورة الحديد، ٥٧/٤.
[٣] ع م – على ما جرى التفسير في ذلك.
[٤] ع: منع.
[٥] ع: ذكروا.
[٦] ع – ذا.
[٧] ك: ماذا.
[٨] ﴿قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهنّ سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماءٍ أمرَها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحِفظًا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ (سورة فصلت، ٤١/٩-١٢).
[٩] ك: فيصير.
[١٠] ك ن م: الأيام.
[١١] قال الشارح: «... فيصير الجملة ستة أيام؛ فقد ذكر في الستة على التفاريق خلق السماوات والأرض وما بينهما من الرواسي والأقوات وغيرها، فدل أن ذلك داخل في الستة التي ذكرها في بعض المواضع» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٤ظ).
[١٢] ك: معاد.
[١٣] ن: قيل؛ ع: غير.
[١٤] ك – كل.
[١٥] ن ع: من عند.
[١٦] ع م: عن آثار.
[١٧] ن: الذل.

فألزمهم الفزع إلى من يدلهم إلى الرب الحق، ويدعوهم إلى المعبود المتعالي عن الأشباه والأضداد بما يوجب الشَّبَه المشاكَلة،[١] وفي وجوب ذلك[٢] دليلُ[٣] جاعلٍ أخذ له شكلا،[٤] وذلك آية الصنعة ودلالة الحدث. وفي تحقيق الضد خوف ذهاب وفساد،[٥] فتضمحلّ[٦] الألوهية، وتستوجب[٧] حق الدخول تحت التقدير، والقيام على ما[٨] شاء من له التدبير، جلّ الله سبحانه عن توهم ذلك. فأكرم مَن بَعثته[٩] الحاجة إلى معرفته[١٠] ورَفَعته[١١] الخلقةُ إلى العلم بمن أنعم عليه، واختصّه مِن بين كثير مِن خلقه بما ركّب فيه ما به يدبر أمر غيره، وبه يَعرف قدر النعم عليه لمن أكرمه به، ليشكر له فيما أَوْلاه، ويحمده على ما[١٢] أعطاه. فمنّ بإظهار ذلك على لسان رسوله الذي عرفه[١٣] خلقه بما نصب من أدلة صدقه، وأثار[١٤] مِن حُجج عصمتِه عن الكذب صِدقَه[١٥] فيما يُنبئ، وإصابتَه فيما يخبر، فقال: **إن ربكم الله الذي**، لا رب لكم[١٦] سواه ولا لأحد من الخلائق، هو الله الذي لا إله غيره، ليوجهوا إليه العبادة في الحقيقة، وليؤدوا إليه شكر ما أنعم عليهم، وإن كانت نعمه أعظم من أن يَجزيها العباد، وحقه أجلّ مِن أن يقوم به العباد. ولو لا[١٧] أن الله سبحانه لم يَرِد من البيان على ربوبيته

---

[١] م: والمشاكلة.
[٢] ن – ذلك، صح هـ.
[٣] ع – دليل.
[٤] أي الرب الحق والمعبود الحقيقي يكون منزها عن الشبه، إذ الشبه يوجب أن يكون له مثلا. فإذا تصورنا أن له مثلا فيجب أن يكون هناك خالق آخر جعل له مثلا.
[٥] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لَذَهَب كل إله بما خلق ولَعَلَا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٩١)، وقوله: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لَفَسَدَتَا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٢٢).
[٦] جميع النسخ: فيضمحل.
[٧] ع: يستوجب؛ م: تستوجب.
[٨] ع – ما.
[٩] ك ن ع: من يبعثهم.
[١٠] ع: معرفة.
[١١] ن ع: ورفعة.
[١٢] ع م – ما.
[١٣] جميع النسخ: عرف.
[١٤] ك ع: وأنا؛ ن: وأنار.
[١٥] م – صدقه.
[١٦] ع م: غيركم.
[١٧] م: لو لا.

والدليل على ألوهيته[1] سِوى ما أنطق به[2] لسانَ رسوله -بعد الإيضاح أنه لا ينطق إلا بالحق ولا يقول إلا الصدق- لكان ذلك بيانا شافيا، لكنه بفضل رحمته بيّن الأدلة التي تُحقق ذلك وتُعلم أنه كما جاء به[3] رسوله إلا أن يُعانَد الحقُّ ويُكابَر العقلُ، / فقال عز وجل: **الذي خلق السماوات والأرض**، إلى آخر ما ذكر من دلالة[4] خلق ما ذكر، فيما ذكر[5] من آثار التدبير وعجيب التقدير الذي به قوام كلٍ ممن يحتمل المنافع والمضار، واتصالِ[6] ما بين السماء والأرض -على تباعد بعضٍ مِن بعضٍ- في المنافع. مع جمع الأضداد التي مِن طَبْعها التنافر في أصل ما ذكر، حتى صارت كالأشكال، بعد أن كانت السماوات والأرض مُستبهِمة[7] لا تَشعُر بما فيها من الحكمة، ولا بالذي فيها[8] مِن أنّه مِن أيّ وجهٍ يقضي الحاجة، ليدل أن مدبر الكل واحد، وأنه عليم حكيم وَضَع كل شيء موضعه،[9] ودل كلَّ ذي عقل على الوجه الذي يظفر بحاجته ويقيم به أَوَدَه[10] ويصل إلى بُغيته. وسخر الذي ذكر،[11] فصيّر كلا من ذلك جاريا دائبا بما لا ينتفع هو[12] به ولا مضرّة عليه فيه، ليُعلَم أنه لغيره قدّر، ولحاجات[13] غيره سُيّر. وكذلك الذي جبل على القرار[14] وأمسك عن الزوال[15] من غير أن كان[16] له في حقيقة أحد الوجهين نفع أو ضرر ليُعلَم أن تدبير ذلك جرى لا له ولكن لأهله[17] الممتحنين الذين بهم يظهر العز والشرف، [٢٥٠ظ]

---

[1] ك ن: على آلهيته.
[2] ن ع م + على.
[3] جميع النسخ: كما اجابه؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٤ظ.
[4] م: ذكر دلالة.
[5] م - فيما ذكر.
[6] ك ن ع: وايصال.
[7] جميع النسخ: مشتبهة؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، نسخة المدينة، ورقة ٣٢٧و.
[8] جميع النسخ: فيه.
[9] سقط من نسخة كوبريلي ابتداء من هنا مقدار ما يزيد على صفحة. انظر: نسخة ك، ورقة ٣٢٥و/سطر ٨؛ ونسخة م، ورقة ٢٥٠ظ/سطر ٥ - ٢٥١و/سطر ١٣.
[10] آده الأمر يئوده أَوْدا: بلغ منه المجهود والمشقة... وأقام أَوَدَه: أي عِوَجه (*لسان العرب* لابن منظور، «أود»).
[11] أي الشمس والقمر والنجوم كما ذكر في الآية.
[12] ع - هو.
[13] ع م: ولحاجة.
[14] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٦٤).
[15] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٤١).
[16] ن: أنه كان.
[17] م: لأهل.

ويُنال[1] الجود والكرم، ويَعظُم الملك والسلطان، إذ عندهم تمييز الأحوال وتفريق الأمور وتوجيه كلٍ إلى حقه وإعطاء كل ذي فضل فضله، ليَعلم[2] مَن هذا وَصْفُه أنه لم ينشأ عبثا ولا خُلِق باطلا؛ [لأنه] إذ به يَعظُم قَدْر[3] كل خلق ويَشْرُف جلالة كل جليل لم يجز إهمال[4] مثله، فيكون خلق الجميع لغير شيء. مع ما في ذلك مِن فنائِه وتبدُّدِه الذي في الحكمة قَصْدُ مثلِه في العقل يوجب العبث، ثبت أنه خُلق للمحنة ولدار البقاء. لكن جعل البقاء جزاء والفناء محنة ليكون البقاء هو المنتهي. [ولو أنه جعل الدنيا دار بقاء وهي دار محنة أبدا بطل القول بالجزاء، لأن الجزاء يكون بعد الفراغ من العمل، وإذا كانت المحنة باقية كان العمل واجبا أبدا، لا يمكن القول بالجزاء، فيبطل الجزاء،][5] فيعظم القصد في الابتداء،[6] إذ فاسد أن يجعل المحنة للبقاء فيدل على حاجة الممتحن، مع ما في ذلك زوال الجزاء، إذ محال تقديمه على ما له الجزاء. *والله الموفق*.

ثم الأصل أن الله سبحانه جعل العقل جزءا[7] من عالمَه، وجعله دليلا لأهله في معرفة المساوي والمحاسن، وعَلَما للتمييز بين الحكمة والسفه وبين الإتقان والعبث، وجعله بالذي يعرف المحمود من المذموم، والمرغوب فيه من المزجور[8] عنه، فلم يجز أن يكون إنشاء[9] كل العالم على غير الحكمة، لأنه سفه، وهو بالذي[10] [هو][11] جزء من العالم[12] يُعلَم به الذميم[13] من الحميد،

---

[1] ن ع: وينيل؛ م: ونيل.

[2] ع م: فيعلم.

[3] ع + قدر.

[4] ن ع م: إمهال؛ والتصحيح مستفاد من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٥و.

[5] الزيادة من شرح *التأويلات*، ويبدو أنها سقطت من النسخ. وزاد الشارح موضحا: «أي إذا جعل دار الدنيا للامتحان على سبيل الدوام يكون خَلْقُها لحاجة الممتحِن أراد به نفسه، كمن يأمر عبده في الشاهد التكليف والمحنة أبدا لحاجته إلى ذلك، والله تعالى غني بذاته عن الحاجات» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٥و؛ ونسخة المدينة، ورقة ٣٢٧و-٣٢٧ظ).

[6] لعله يريد: فكأنه يخرج أمر الله تعالى بالعمل مخرجا لا يوصف بالحكمة.

[7] ع م: جزء.

[8] ع: فيه والمزجور.

[9] ع م: أنشأ.

[10] ن: وهو الذي.

[11] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٥و.

[12] ع م: من المعالم.

[13] ن: يعلم بالذميم.

ثبت أنه أُنشِئ للحكمة. وعلى ذلك تقدير كل عاقل، على احتمال ما يضره وينفعه بحق الجزاء والمحنة، فثبت أن ذلك[١] للمحنة. وإن المحنة[٢] ثم الهلاك بلا جزاء ولا نفع[٣] للممتحَن عبث أيضا وسفه، فلزم به القول بالبعث، وإثبات دارين. مع ما كان لكل شاهدٍ دليلُ غائب يُحمَد عليه أو يُذَمّ، فكذا[٤] فِعلُ كلِ ذي عقل إنما هو لعاقبةٍ يُحمَد عليها[٥] أو يَغفل عنها[٦] فيُذَمّ[٧] عليها،[٨] فعلى ذلك أَمْر تدبير هذه الدار من الأخرى.[٩] ولا يجوز[١٠] أن يخلي الجملة عن الدلالة، ولا يخلو كل جزء منها أو جملة[١١] الأفعال عن العواقب،[١٢] والواحد منها إذا خرج يصير عبثا وسفها. فثبت بالذي ذكرت القول بالتوحيد وبالدارين وبالرسالة، إذ بها يُعرَف العواقب بما هي غائبة، وحقائق كل غائب يُعرَف[١٣] بالإخبار عنها والدلالة عليها، ثم لا دلالة على مائية[١٤] الجزاء ولا الشكر ولا العبادة، إنما الدلالة من حيث التدبير على العلم بها جملة، فلزم[١٥] القول بالرسل. ***ولا قوة إلا بالله***.

ثم قوله:[١٦] **في ستة أيام**، يحتمل وجهين. أحدهما خَلْق[١٧] أصول الأشياء التي يكون غيرها بحق التولّد عن ذلك والانقلاب؛ ويحتمل أن يكون على خَلْق كلية كل شيء[١٨] مما عليه تركيب هذا العالم إلى أن يُبدّل بعالم آخر لا يَبيد ولا يَفنى. فإن كان على الأول

[١] أي ثبت أن إنشاء العالم إنما هو للامتحان.
[٢] ن: للمحنة.
[٣] ن ع: ولا ينفع.
[٤] ن ع م: وكذا.
[٥] ن ع م: عليه.
[٦] ن ع م: عنه.
[٧] م: عنه فيلزم.
[٨] ن ع م: عليه.
[٩] ن ع م: من أخرى.
[١٠] ع م: فلا يجوز.
[١١] ن: وجملة.
[١٢] ع: من العواقب.
[١٣] ع م: تعرف.
[١٤] م: على ما في.
[١٥] ن ع م: لزم.
[١٦] ن: وقوله؛ ع: ثم وقوله.
[١٧] ن – خلق.
[١٨] لعل المؤلف يريد "بخلق كلية كل شيء" سنة الله في خلق هذا العالم وتدبيره.

فهو **ستة** من السبعة التي عليها مدار[1] المُدَد والأزمنة،[2] إذ جعل جل ثناؤه جميع ما ذكر من الخلائق تحت الأزمنة والأوقات، ويزول بزوال[3] مددها؛[4] وكذلك عندنا كل الحوادث، إذ لكل منها بَدْء يصير ذلك وقت ابتدائه. وذلك ينقض على الباطنية قولهم: المبدَع الأول لا يقع في الزمان[5] والمكان، وأنه لا يبيد ولا يفنى. ولو كان كذلك لم يكن مبدَعا ولكن كان قديما لا يقع عليه الإبداع، فلما وُقِّت ثبت له البدء، فيجب وصفه[6] بالوقت من حيث الابتداء. وهو أيضا معلول عندهم، وعلته فيه، وهو الإبداع، مما لو زالت علته لباد.[7] وإذا ثبت[8] أنه معلول ثبت أن علةً أوجبته وأحدثته بعد أن لم يكن، فوجب له وقت به كان[9] أو كان فيه. ***والله أعلم.***

ثم على هذا كان إنشاء ما ذكر[10] في الأيام الستة، ولم يذكر في ذلك ممتحَنا. فيشبه أن يكون وقت كون الممتحَنين يوم السابع، وبهم تمّ ظهور الملك، و **استوى على العرش**،وهو المُلْك، إذ لم يكن[11] قبل ذلك مَن له التمييز. ومعرفة المُلْكِ والسلطانِ وقَدْرِ العلمبالمحامد والمعالي وأضداد ذلك إنما يكون بأولئك الذين رُكِّب فيهم العقول وأُكرِموا بالتمييز، ولأمثالهم جعل[12] العالَم، وهم المقصودون من الإنشاء. لذلك جُعِل كل من سواهم مسخّرا لمنافعهم داخلا[13] تحت أفهامهم مما يحتمل أكثرَ ذلك تدبيرٌ،[14] ليُعلَم أنهم قُصِدوا لأنفسهم أو لمعرفة ما عليهم من شكر المنعِم[15] والعبادة. فكان بهم ظهور تمام المُلْك وبلوغه النهاية، فأَخبر بالاستواء؛

[1] ع م: عليهما مدار.

[2] أي المقصود بالأيام هو الأيام المعروفة عند البشر، وهي سبعة أيام في كل أسبوع. وابتدأ الله تعالى خلق العالم في تلك الأيام، ولكن لم يكمل الخلق بل خلق أصول الأشياء، وجعل عملية الخلق تستمر على مرور الأزمان. والله أعلم.

[3] ع: زوال.

[4] ع م: مدارها.

[5] ن ع م: عن الزمان.

[6] ع: وضعه.

[7] ع: لبادر.

[8] ع: إذا ثبت.

[9] م – كان.

[10] ن ع م: من ذكر.

[11] ن ع م: إذا لم يكن.

[12] ن م: ومما لهم يجعل؛ ع: ومحالهم يجعل. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٥و.

[13] ن ع م: داخلة.

[14] أي أكثر المخلوقات تحتمل تدبير الإنسان لها وتصرفه فيها على ما يفهم من خصائص الأشياء.

[15] ن ع: النعم.

إذ هو وصف العلوّ والرفعة ووصف التمام في الرتبة والقَدْر،[١] كقوله: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا،[٢] وذلك في[٣] معنى الاستواء **على العرش** من حيث ظهور المُلْك وبيان الحجة والربوبية للمستدلين والمعتبرين.

/وإن كان التأويل هو الثاني[٤] يخرج على وجهين. أحدهما ما قال بعض أهل التفسير: [٢٥١و] إن[٥] كل يوم من أيام الآخرة وذلك ألف سنة،[٦] لم يبين[٧] لنا مقدار ذلك. فجائز أن يكون منتهى تدبير هذا العالم إلى ذلك، [يعني] **ستة أيام**، بمعنى ستة آلاف سنة على القدر الذي قدره الله، ثم يكون اليوم السابع هو يوم القيامة لا يبيد أبدا ولا ينقضي. فيه يُبَدَّل[٨] العالَم، ويُقِرّ كل ممتحَن له بالملك والجلال وإن كان[٩] كذلك في الأزل، ففي ذلك اتفاق القول من طريق الاختيار والعلم بذلك من كل جبّار وغيره، على نحو[١٠] ما قيل: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ،[١١] وقيل: وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا،[١٢] وقيل: وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ،[١٣] ونحو ذلك. على أن له الملك أبدا، وكذلك لم يكن يخفى عليه شيء، لكن ذلك مما يَعلم كلٌّ أنه كذلك، فبذلك يتم ظهور كل معنى من ذلك وإن كانت حقيقته موجودة قبل ذلك.[١٤] وعلى ذلك القول: حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ،[١٥] ونحو ذلك، أنه إذ ذلك[١٦] يظهر لكلٍ معلوما[١٧] فأضيف إليه بحرف الابتداء وهو عن ذلك متعالٍ.

---

[١] ن: والعذر.
[٢] سورة القصص، ٢٨/١٤.
[٣] ن – في.
[٤] وهو أن يحتمل قوله تعالى: ﴿في ستة أيام﴾ أن يكون على خلق كلية كل شيء مما عليه تركيب هذا العالم إلى يبدل بعالم آخر لا يبيد ولا يفنى، كما قد سبق قريبا.
[٥] ن + ان.
[٦] ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تَعُدّون﴾ (سورة الحج، ٢٢/٤٧).
[٧] ن: لم تبين.
[٨] ن ع م: تبدل.
[٩] ن: وأنه كان.
[١٠] م: وعلي نحو.
[١١] ﴿يومَ هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/١٦).
[١٢] ﴿وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنا لكم تَبَعًا فهل أنتم مُغْنُون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواءٌ علينا أَجَزِعْنا أم صبرنا ما لنا من مَحِيص﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٢١).
[١٣] ﴿يومَ لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ (سورة الانفطار، ٨٢/١٩).
[١٤] ن: قل ذلك.
[١٥] ﴿ولَنَبْلُوَنَّكُم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخباركم﴾ (سورة محمد، ٤٧/٣١).
[١٦] ع: ذ ذلك.
[١٧] ن ع م: معلومة.

فعلى هذا جميع ما بينا، وبذلك ظهور تمام شرائط الملك، والاعتراف من الكل بذلك.[1] **والله أعلم.**

والثاني أن تكون[2] تلك الأيام الستة على ما في علم الله تعالى تقديرها، لا يعلم أحد سواه [ذلك] إلا من طريق الجملة التي[3] أدى،[4] وقد بيّن يوما كخمسين ألف سنة،[5] ويوما كألف سنة حَدَّه،[6] لا يعلم غيره [ذلك]، ثم كان اليوم السابع يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ،[7] وتقع العقوبة والمثوبة، وهو المقصود من خلق[8] العالم[9] الأول، فيكون ما ذكرت[10] من تمام الظهور.[11] **والله الموفق.**

وعلى هذا لو قيل: بم قيل:[12] يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ،[13] وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ؟[14]

قيل: ليس أن المراد[15] من هذا العرش[16] الأول، وجائز أن يكون هذا هو السرير المعروف، مُنشَأً من النور ومما شاء، ليكرم به أولياءه يوم القيامة، والأول هو المُلْك الذي ظهر تمامه وعلوّه على ما بينا. ثم لو كان العرش الذي قال عز وجل: اَلرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى،[17] هو ما فهمه أهل التشبيه من المكان[18] لم يكن لِيجب أن يُفهَم من الاستواء[19] عليه الاستقرار[20]

---

[1] أي يكون هذا هو معنى الاستواء على العرش على هذا التأويل، وهو اعتراف العالمين بالملك لله عز وجل يوم القيامة.

[2] ن ع م: أن يكون.

[3] ع – التي.

[4] أي أداه الله تعالى في كلامه وأخبره.

[5] ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ (سورة المعارج، ٤/٧٠).

[6] م: حدة.

[7] سورة الطارق، ٨٦/٩.

[8] ع: من الخلق.

[9] ن ع + العالم.

[10] ينتهي السقط الواقع في نسخة كوبريلي هنا، وذلك بمقدار ما يزيد على صفحة. انظر: نسخة ك، ورقة ٣٢٥و/سطر ٨؛ ونسخة م، ورقة ٢٥٠ظ/سطر ٥ – ٢٥١و/سطر ١٣.

[11] ويكون هذا هو معنى الاستواء على هذا الوجه، أي تمام ظهور أعمال العباد ووقوع الثواب والعقاب عليها.

[12] جميع النسخ: بما قيل.

[13] سورة المؤمن، ٤٠/٧.

[14] سورة الحاقة، ٦٩/١٧. أي إذا كان العرش بمعنى المُلْك فبأي سبب قيل: ﴿يحملون العرش﴾، ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾، ومعلوم أنه لا يمكن حمل المُلْك؟

[15] ن: أنه المراد.

[16] م – العرش.

[17] سورة طه، ٢٠/٥.

[18] جميع النسخ: من مكان.

[19] ن: منه الاستواء.

[20] ع: على الاستقرار.

أو أن يكون[1] لله مكان يوصف بالكون فيه وعليه؛ لأنه ليس في كون أحد في مكان –وإن جلّ قدره وعظم خطره– رفعة ولا نباهة فيما يُتعارف من أمر الملوك والأجلّة، بل كلّ منسوبٍ إلى مكان من جهة التمكين فيه والقرار منسوب إلى استعانة وحاجة منه إليه؛ جَلّ عن[2] ذلك. على أنه[3] إما أن يكون مثله أو أعظَمَ منه، فيكون[4] له[5] عَدِيلا بالعظمة؛ أو دونه. ومن السُّخْف الجلوسُ على مكان لا يطمئن به أو يقصر عنه، إذ قد يجوز أن يُزاد فيه فيكون أعظم منه، جل الله عن هذا[6] الوصف وتعالى. بل كان ولا مكان، فهو على ما كان، يتعالى عن الاستحالة والتغير،[7] إذ هو أثر الحدث وأمارة الكون بعد أن لم يكن. ***ولا قوة إلا بالله.***

ثم الأصل أنه لو كان فهو بإضافة الله إلى العلو عليه تعظيم له. وعلى ذلك في كل شيء[8] يضاف إلى[9] الله أو [يضاف] الله إليه[10] من جهة الخصوص[11] فهو على تعظيم ذلك، لا على أن يُفهَم منه ما يُفهَم مثله من الخلائق، نحو القول بأن المساجد لله،[12] و ناقة الله،[13] وزينة الله،[14] وحدود الله،[15] ونحو ذلك. فما بال المشبهة فهمت من إضافة الاستواء على العرش المعنى المكروه على احتمال الاستواء معاني[16] سوى الذي ذكروا؛ إذ يقال: استوى: تمّ،

---

[1] ع م: وأن يكون.
[2] ع – عن.
[3] ع م: وعلي أنه.
[4] جميع النسخ: لكان.
[5] ع – له.
[6] ع: على هذا.
[7] ك ن ع: والتغيير.
[8] م – شيء.
[9] ع – إلى.
[10] ن – أو الله إليه.
[11] ك: الخضوع.
[12] سورة الجن، ١٨/٧٢.
[13] سورة الأعراف، ٧٣/٧؛ وسورة هود، ٦٤/١١؛ وسورة الشمس، ١٣/٩١.
[14] م – الله. وانظر: سورة الأعراف، ٣٢/٧.
[15] سورة البقرة، ١٨٧/٢، ٢٢٩، ٢٣٠؛ وسورة النساء، ١٣/٤؛ وسورة التوبة، ١١٢/٩؛ وسورة المجادلة، ٤/٥٨؛ وسورة الطلاق، ١/٦٥.
[16] ك ع: معانيا؛ ن: معاينا.

واستوى: قصد،[1] واستوى: علا، واستوى: استقرّ، واستوى: استولى.[2] فإذا كان معناه[3] يتوجّه إلى هذه الوجوه لم يحتمل أن يكون أحد يُقدِّر من ذلك أَذَمّ ما يتوجه[4] إليه ويعتمد عليه لو لا الجهل به.[5] ثم الأصل أن الإضافات إلى الأشياء يفترق المقصود بها وإن كان في ظاهر المخرج واحدا[6] باختلاف مَن إليه القصد بالإضافة[7] والاصابة[8] جميعا. يقال: جاء الحق، وجاء فلان؛ وبيت فلان، وبيت الله؛ وقيل في الملائكة: وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً،[9] وقال في الفسقة: أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ،[10] ونحو ذلك، لا على الجمع في المعنى؛ فالاستواء الذي يتوجه إلى وجوه أحق بذلك. **والله الموفق**.

ثم قد قيل في قوله: **ثم استوى على العرش**، بوجوه: أحدها ما قال أبو بكر الأصم: هو على[11] التقديم والتأخير، كأنه قال: إن ربكم الله الذي استوى على العرش ثم خلق ما ذكر، فيكون معناه: خلق كذا وقد **استوى على العرش**؛ كقوله: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا،[12] بمعنى: وقد جعل منها زوجها. وعلى هذا ليس في[13] قوله: **إن ربكم الله الذي** استوى على العرش[14] الشبهة التي في الأول، كما لم يكن في قوله: وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ،[15] إذا صُرِف[16] إلى "عِنْد" شبهة؛ فيكون وقد **استوى [على العرش**، أي] خَلَق **العرش**؛ كقوله: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ،[17] بمعنى ثم خَلَق السماء، أو قَصَد خَلْقَه، ونحو ذلك.

---

[1] ع: قصدوا.
[2] انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «سوى».
[3] ك – معناه.
[4] ن: وما يتوجه.
[5] ن – به.
[6] جميع النسخ: واحد.
[7] م: بالإضافات.
[8] جميع النسخ: والاضافة؛ والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٥ظ.
[9] سورة المدثر، ٣١/٧٤.
[10] انظر على سبيل المثال: سورة البقرة، ٣٩/٢، ٨١، ٢١٧، ٢٥٧، ٢٧٥.
[11] م – على.
[12] سورة الزمر، ٦/٣٩.
[13] ن + في.
[14] ك + ثم خلق ما ذكر فيكون معناه خلق كذا وقد استوى على العرش؛ ن + كقوله ثم استوي.
[15] سورة الأنعام، ٣٠/٦.
[16] أي كلمة على.
[17] سورة فصلت، ١١/٤١.

وقال الحسن: **ثم استوى على العرش،** أي **استوى** عليه أَمْرُه وصُنْعُه، أي لم يختلف عليه صُنْعُ **العرش** وأَمْرُه وإن جلّ أمر غيره وصنعه، كقوله: مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ،[١] على استواء[٢] الأمر في التدبير والصنع. وقال الحسين:[٣] معناه استولى[٤] **على العرش،** كما يقال: استوى فلان على بغداد، / بمعنى استولى. وقال قوم:[٥] معناه استولى[٦] عليه وهو فوق كل شيء [٢٥١ظ] في القدرة والعظمة تعظيما له، على غير اختلاف عليه في التحقيق بينه وبين غيره، كالذي ذكر بأن الأمر كله يوم القيامة له،[٧] والمساجد له،[٨] على التفضيل دون تخصيص له في ذاته من حيث ذلك.[٩] وقال قوم: إذ كان **العرش** فوق كل شيء في تقدير المعارف فقال: هو عَلَاه بمعنى لا يوصف في الخلق، ولكن على ما كان ولا خَلْق.

ونحن نقول وبالله التوفيق: قد ثبت من طريق التنزيل القول[١٠] بأنه **استوى على العرش،** وقد لزم القول بأنه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ،[١١] وعلى ذلك اتفاق القول أنْ لا يُقَدَّر كلامه بما عُرف من كلام الخلق، ولا فعله به،[١٢] ولا علمه، ولا ما قيل: هو رب كذا أو مالك كذا، لا يراد به المفهوم من الخلق، لكن الوجه الذي يليق به وما يوجبه حق الربوبية، فمثله في الأول. ثم يلزم تسليم المراد لما عنده إذ لم يبينه لنا، وقد ثبت نفي ما يُفهَم من غيره.

وبعد، فإن القول فيه بالمكان يَفسُد بالذي به يُحتَج، بوجوه. أحدها أن قوله: **ثم استوى على العرش،** إخبار عن فعله الذي في التحقيق يضاف إليه في خلق الخلق على اختلاف المخرج في القول،

---

[١] سورة لقمان، ٢٨/٣١.
[٢] ع: على استوى.
[٣] ك: الحسن. لعله أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد اله النجار (ت نحو ٢٣٠هـ/٨٣٥م)، كما يذكره المؤلف بنفس الاسم في *كتاب التوحيد* (ص ١٥٥). وهو من كبار المتكلمين في القرن الثالث الهجري، وله مناظرات مع النَّظَّام. ومن كتبه *إثبات الرسل*، و*كتاب القضاء والقدر*، و*كتاب اللطف والتأييد*، و*كتاب الإرادة الموجبة*، وغير ذلك. انظر: سير *أعلام النبلاء* للذهبي، ٥٥٤/١٠.
[٤] ع: استوى.
[٥] ن – قوم.
[٦] ك ن ع: استوى.
[٧] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ (سورة الانفطار، ١٩/٨٢).
[٨] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ (سورة الجن، ١٨/٧٢).
[٩] ن: قال.
[١٠] ع م – القول.
[١١] سورة الشورى، ١١/٤٢.
[١٢] ع م + وما يوجبه.

نحو أنْ ذَكَر مرةً أبدع، ومرةً فطر، وجعل، وأنزل، وأثبت،[1] وكتب، ونفخ،[2] وأعطى، وأنشأ، وغير ذلك من الألفاظ؛ حقيقةُ ذلك أنه خَلَق، إذ ذلك معنى فِعله في الحقيقة. وعلى ذلك كَوَّن، وفَعَل، وأَمَر في بعض المواضع. ثم يجب توجيه كلٍ مِن ذلك إلى الوجه الذي يليق[3] فيه القول بخَلَق. وكذا في هَدَى، وأَضَلّ، وزَيَّن، وأتقن، وأحكم، ونحو ذلك؛ فكذلك في قوله: **ثم استوى على العرش**، يجب أن يُقابَل ذلك[4] بخَلَق،[5] إذ هو إضافة إلى فعله. ثم يخرج على وجهين. أحدهما **ثم** خلق **العرش** ورفعه وأعلاه بعد أن كان العرش على الماء،[6] كقوله: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ.[7] وليس "ثُمَّ" تَنَقُّل من حال إلى حال؛ إذ لو[8] كان كذلك لكان يصير حيث "ثُمَّ" ينتقل مِن خَلْق إلى خَلْق فيما يخلق، فيكون في الوقت الذي يصير إلى العرش صائرا إلى الثَّرى،[9] وفي الوقت الذي يُحدِث[10] خَلْق ما في[11] الأرض وما في السماء منتقلا من ذا إلى ذا، وذلك تناقض فاسد. وفي ذلك بطلان معنى القول بالاستواء **على العرش**، بل يكون أبدا غيرَ مستوٍ[12] عليه حتى يفرغ من خلق جميع ما يكون أبدا،[13] [إذ هو في الانتقال بعد]،[14] وذلك متناقض فاسد، جلّ الله عن هذا[15] التوهم. ***وبالله التوفيق***. والثاني أن يكون[16] قوله: **ثم استوى على العرش**، أي إلى العرش في خلقه ورفعه وإتمامه. دليل احتمال "على" ذلك[17] أن "على"[18] من حروف الخفض،

---

[1] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويُثبِت﴾ (سورة الرعد، ١٣/٣٩).
[2] ع م – ونفخ.
[3] ع: تليق.
[4] جميع النسخ: بذلك. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٦و.
[5] ن ع: يخلق.
[6] ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾ (سورة هود، ١١/٧).
[7] سورة فصلت، ٤١/١١.
[8] ن: ولو.
[9] ع: على الثرى.
[10] ك ع: يجدد؛ ن: يجد.
[11] ن: ما في خلق.
[12] ن ع م: مستوى.
[13] ع + غير مستوى عليه حتى يفرغ من خلق جميع ما يكون أبدا.
[14] من *شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٦و.
[15] ن: عن ذلك؛ ع: عن هذه.
[16] م – أن يكون.
[17] ن + على ذلك.
[18] ع م – على.

وقد يوضع بعض[١] موضع بعض، كقوله: إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ،[٢] بمعنى عن الناس، وقوله: إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ،[٣] بمعنى عند ربهم. مع ما قال الله: إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ، [أي إلينا بيانه، وقال:][٤] وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ،[٥] بمعنى إليه. وعلى ذلك **ثم استوى على العرش،** أي[٦] إلى العرش، وهو[٧] على الماء كما ذكر، فرفعه وأتمه،[٨] كما قال: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ، فخلق ما ذكر. ***والله أعلم.***

والوجه الثاني[٩] [هو] المذكور في الآية من اسم الرب وخَلْق ما ذكر[١٠] وتسخير الذي وصف، ثم لم يَتوهم[١١] في شيء من ذلك المعنى الذي يضاف إلى الخلق أنه ربّ كذا أو سخّر كذا أو صنع كذا ملحدٌ ولا موحّدٌ، فكيف احتمل قلب المشبّه[١٢] في قوله: الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى،[١٣] لو لا[١٤] جهله به وتقديره بالذي عليه أمر[١٥] نفسه. ***والله الموفق.***

والثالث أن الناس في خلق الله الخلق مختلفون.[١٦] فمنهم من جعله[١٧] الخَلْق نفسه، دون أن يكون الله بذاته يلحقه[١٨] وصف سوى إضافة الخلق إليه في أن كان به. فعلى ذلك قوله:

---

[١] م – بعض.
[٢] سورة المطففين، ٨٣/٢.
[٣] سورة الأنعام، ٦/٣٠.
[٤] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦و.
[٥] سورة النحل، ١٦/٩.
[٦] ع م – أي.
[٧] ن: هو.
[٨] ن: دايمة.
[٩] أي من وجوه إبطال المكان لله تعالى. وقد سبق ذكر الوجه الأول في صفحة ٣٧٤.
[١٠] ن ع م – ما ذكر.
[١١] فاعل "لم يتوهم" هو "ملحد" في آخر الجملة.
[١٢] ك ن ع: المشبهي؛ م: المشبهين.
[١٣] سورة طه، ٢٠/٥.
[١٤] ع م – لا.
[١٥] م: عليه أو.
[١٦] جميع النسخ: مختلفين.
[١٧] أي المخلوق كما قال الشارح في شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦و.
[١٨] ك ن: يلحق.

ثم استوى على العرش، إنما هو ما ذكر من غير أن كان سبحانه يلحقه وصف لم يكن له.[1] ومنهم من يراه[2] خالقا بذاته، ليكون جميع الخلائق إلى الأبد بتكوينه الذي يعبّر عنه بقوله: كُنْ،[3] من غير أن كان ثَمّ كاف أو نون، على كون كل شيء عليه به، من غير تغير[4] عليه[5] ولا زوال عما كان عليه، إذ لا شيء غيره. فكل معنى لو حُقّق أوجب تغيرا[6] أو زوالا أو قرارا أو نحو[7] ذلك فالله يجلّ عنه ويتعالى، إذ ذلك عَلَم الحدث[8] وأمارة التغير به.[9] *ولا قوة إلا بالله*.

والرابع هو [أن] الذي يرى فعله على ما عليه فعل الخلق من التحرك والزوال والسكون والقرار يكون[10] إضافته من ذلك[11] وصفه[12] بمكان[13] دون مكان وحال دون حال، [وذلك] محال فاسد.[14] لذلك بطل القول بالمكان في جميع الأقاويل. وأيّد الذي ذكرت ما ختم به الآية من قوله:

---

[1] قال الشارح: «والثالث أن الناس في خلق الله مختلفون، فمنهم من جعل خَلْق الله تعالى هو نفس المخلوق، دون أن يكون لله تعالى بذاته يلحقه وصف سوى إضافة الخلق إليه في أن كان به، أو لم يكن خالقا فصار خالقا؛ لأنه ليس بوصف له حتى يكون صفة حادثة يقوم به بعد أن لم يكن، وإنما يحدث إضافتنا المخلوق إليه. فعلى ذلك قوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾، إنما هو ما ذكر من غير أن كان الله تعالى يلحقه وصف لم يكن له، فيجب إنكاره لما يتضمن حدوث الاستواء الذي هو صفته، إذ الاستواء ليس غير المستوَى عليه، فلا يؤدي إلى القول بحدوث صفته وتغيره وتبدله من حال إلى حال» (*شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٦و).

[2] م: من يره.

[3] انظر مثلا قوله تعالى: ﴿بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كُن فيكون﴾ (سورة البقرة، ٢/١١٧).

[4] م: تغيير.

[5] أي إن حصول كل شيء بحقيقته التي هو عليها يكون بالله تعالى من غير حصول أي تغير فيه عز وجل.

[6] ك: تغيره.

[7] ع: ونحو.

[8] م: الحديث.

[9] جميع النسخ: الغيرية؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، نسخة المدينة، ورقة ٣٢٨ظ.

[10] ك ن: فمعنى؛ ع م – يكون؛ والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٦و.

[11] م: عن ذلك.

[12] ن: وصف.

[13] جميع النسخ: إلى مكان.

[14] وعبارة الشارح هكذا: «والرابع وهو أن الذي يرى فعله على ما عليه فعل الخلق من التحرك والزوال والسكون والقرار يكون إضافة العرش إليه بمعنى الاستقرار وتخصيصه بمكان دون مكان وحال دون حال محالا فاسدا» (*شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٦و). أي إن الذي يشبه الله تعالى بخلقه في أنه يتحرك ويزول من مكان إلى مكان لا يمكن أن يصف الله بالاستواء على العرش بمعنى الاستقرار عليه، لأن الذي يفهم حديث النزول مثلا على أن الله ينزل إلى السماء الدنيا مثل المخلوقين يلزمه أن يكون الله غير مستقر على العرش في ذلك الوقت، فمن المحال أن يكون الشيء في مكانين في وقت واحد.

تبارك الله رب العالمين، وَصَف ذاته بالربوبية [و] بالتعالي من جميع معاني المربوبين، إذ من حيث التشاكل يوجب خروجه من أن يكون ربا، والآخر[١] من أن يكون[٢] مربوبا، فإذا ثبت[٣] أن كل شيء من كل جهة مربوب[٤] ثبت سُبحانيّته[٥] من ذلك الوجه. ***والله الموفق.***

ثمّ[٦] قوله:[٧] **خلق السماوات والأرض في ستة أيام**، هو على وجهين. أحدهما إضمار[٨] "ما بينهما" على ما جرى الذكر به في غيره. والثاني أنْ ذَكر مِن وقت ابتداء الكون إلى الانتهاء لا[٩] على تحقيق ذلك في كل وقت، كما يقال: كان كذا في شهر كذا، لا على إحاطة كلية أجزاء الشهر به، / فمثله معنى **ستة أيام**. ومعنى التوقيت ليس على حاجة[١٠] إلى ذلك، إذ الوقت داخل فيما خلق. لكن [ذكر الوقت يخرج][١١] على وجوه وإن كان الله سبحانه قادرا على إنشاء جميع ما ذكر بدفعة. وجهان ما ذكرتُ من معنى الأيام لِمَدار مُدَد الخلق وأصول[١٢] ما عليه تَفنى[١٣] الأعمار؛ والثاني على بيان منتهى العالم.[١٤] والثالث على إدخال[١٥] كل ذلك[١٦] [تحت قهر الزمان][١٧] مع علوّ درجات كثير[١٨] منها وجلالة أقدارها في الأعين، حتى لا أحد ينظر إليها إلا بعين التعظيم،[١٩] وحتى [إنه] بكثير[٢٠] منها قام[٢١] تدبيرُ العالم، [٢٥٢و]

---

[١] ك ن: أو الآخر.
[٢] ع م – من أن يكون.
[٣] ك: فإذ ثبت.
[٤] جميع النسخ: مربوبا.
[٥] ك: سبحانية.
[٦] ن – ثم.
[٧] ن ع: وقوله.
[٨] ع: إضما.
[٩] ع – لا.
[١٠] م: لي حاجة.
[١١] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦و.
[١٢] جميع النسخ: وأطول؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦و.
[١٣] جميع النسخ: يفنى.
[١٤] هذان الوجهان ذكرهما المؤلف في تفسير الآية أعلاه.
[١٥] ع: على أدخل.
[١٦] ع: لكل ذلك.
[١٧] مستفاد من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦و.
[١٨] ك ن: كثيرة.
[١٩] ع م: إلا بالتعظيم.
[٢٠] ك ن ع: يكثر.
[٢١] ن: فأقام.

وحتى عُبدت[1] دون الله تعظيما، وإن كان في ذلك دلالة خروجه عن الاستحقاق. فصيّرها الله داخلة تحت الأزمنة والمُدَد مقهورة[2] بها، حتى لو أُريد بكل جهد وحِيَل إخراج شيء من ذلك أو تخليص الجبابرة من ذلك[3] لما تهيأ لهم، ليُعلَم ذلة الخلق[4] وأمارات[5] الحدث وعلامة الحاجة. ثم كانت الأوقات مترادفة متتابعة لو أُسقِطت[6] عنها الأولية لبطل الكل، ولما جاوز الحساب عن الواحد،[7] ولما انتهى إلى ما هو بَعْدَ لِمَا مضى[8] ليُعلَم به أولية كل شيء من العالم وحدثه. مع ما جُعلت الأيام تدور على أمر واحد بها [حاجة][9] لجميع[10] المحتاجين ممن ذكرت، فثُبِّتَ لذلك[11] بأسماء معروفة أمكن قصد كل منها على الإشارة إليه باسمه المعروف،[12] ليُحفَظ فيه المواعيد ويُعلَم به ما يجب من الحقوق ويطل. ***والله أعلم.***

ثم الأصل إذ جُعلت هذه الدار دار المحنة –والمحنة[13] إنما تكون بمختلف الأحوال– جُعلت الأحوال مختلفة نحو موت وحياة وصحة وسقم وغنى وفقر. وفي جمع[14] الخلق على حالة منها الجهلُ بأضدادها، وفي ذلك الجهل باللذات والآلام، فيجب بذلك اختلاف الأحوال. وعلى ذلك جرى أمر خلق الخلائق، وعلى ذلك أمر الأرزاق وغير ذلك. فعلى ذلك أَمْرُ خَلْقِ ما ذكر في أيام مختلفة. ثم يُجمَع في[15] البعث بمرة، وفي حالٍ [واحدة] مِن حال اللذة[16] أو التعب[17] بمرة.[18]

---

[1] جميع النسخ: عبد.
[2] ك ن ع: مقهور.
[3] ك ن: عن ذلك.
[4] م: الخلقة.
[5] ع: وأماراة.
[6] ع: لو سقطت.
[7] جميع النسخ: بالواحد؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦ظ.
[8] ع: لما لمعنى.
[9] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦ظ.
[10] ع م: بها بجميع.
[11] ن – لذلك.
[12] ك + به.
[13] ك – والمحنة.
[14] ك ن ع: وفي جميع.
[15] ن + ذلك.
[16] م: اللذات.
[17] م: والتعب.
[18] وعبارة الشارح هكذا: «ثم يجمع الكل في البعث بمرة واحدة، وفي حالٍ واحدة، إما حال اللذة إن كان من أهل الجنة، وإما حال الشدة والتعب إن كان من أهل النار، دون اختلاف الحالين في حق كل فريق كما في الدنيا، إذ ليس ذلك وقت الامتحان، إنما هو وقت المجازاة» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦ظ).

مع ما كان اختلاف الأحوال أقرب إلى الدلالة وأوضح للحجة؛ فلذلك جُعل في هذه الدار إلزام الحجة وإظهار المحنة والكُلفة. **والله الموفق.**

والأصل أن العقول[١] أُنشئت متناهية تقصر عن الإحاطة بكلية الأشياء، والأفهام متقاصرة[٢] عن بلوغ غاية الأمور، إذ هنّ من أجزاء العالم الذي هو بكليته[٣] متناهٍ، وأسباب الإدراك التي يُدرَك بها [هي] بإدراك[٤] المشاعر التي تعجز عن كنه ما تقع[٥] عليها من الظواهر فضلا عما استتر منها. وإذا كان هذا وصف ما يُدرَك به مبلغ[٦] الحكمة فهي قاصرة عن الإحاطة بالحكمة الموضوعة[٧] في البشر.[٨] فمن رام الإحاطة بها أو بلوغ حكمة الربوبية من غير إشارة منه فهو يظلم العقل ويحمل عليه ما يعلم عجزه عنه. ومعلوم أن [في][٩] المذكور من الأيام في خلق ما ذكر حكمة بالغة وإن قصرت العقول عن الإحاطة؛ إذ الذي قدّرها هو الذي حَمَد الحكمة، وأوجب لأهل العقل[١٠] ذمّ السفه وأهله، فأوجب ذلك تحقيق الحكمة لذلك وإن لم يبلغها إلا مقدار ما يكرم به. **والله الموفق.** *

*وقوله[١١] عز وجل: **يُغشي الليلَ النهارَ**، يُذهِب بضوء النهار ظلمةَ الليل، وضوءَ[١٢] النهار بظلمة الليل، إذا جاء هذا ذهب[١٣] سلطان الآخر. **يطلبه حثيثا**، قيل: سريعا؛ وهو أن الله عز وجل يُظهِر النور في ابتداء النهار في طَرَف من أطراف السماء، والظلمة في أول الليل، ثم ينشر ذلك في جميع أطراف السماء والأرض وما بينهما من جميع[١٤] الآفاق[١٥] والجوانب في قدر لحظة بصر وطرفة عين، [٢٥٢ظ س١٣

[١] ن – أن العقول.
[٢] ك ع م: متناقصة؛ ن: متناقضة؛ والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٦ظ.
[٣] م: هو بكلية.
[٤] ن ع م: بأداء.
[٥] ك ن م: لما يقع؛ ع: لا يقع.
[٦] ن: يبلغ.
[٧] ع: الموضوع.
[٨] ك ن: بين البشر؛ ع م: من البشر؛ والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٦ظ.
[٩] من *شرح التأويلات*، ورقة ٢٩٦ظ.
[١٠] ك ن ع + في.
* وقع هنا مقطع متقدم على موضعه من تفسير الآية، فأخرناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٥٢و/سطر ٢٣-٣١.
[١١] ك – وقوله.
[١٢] ك: وبضوء.
[١٣] م + هذا.
[١٤] ع: من جمع.
[١٥] ك ع: الآفات؛ م: الأوقات.

مما لو أريد[1] تقدير ذلك بجميع ما في الخلق من المقادير ما قدروا عليه، ليُعلَم أن الله على ما يشاء قدير، وأنه لو أراد أن يخلق جميع ما ذكر أنه خَلَق في ستة أيام لكان قادرا[2] أن يخلق [ذلك] في طرفة عين،[3] لكنه خلق في ستة أيام[4] لحكمة في ذلك. وقوله عز وجل: **يطلبه حثيثا**، لا يكون مما ذكر طلبٌ حقيقةً، لكن ذكر الطلب لأن ما كان[5] من كل واحد[6] منهما[7] للآخر لو كان ممن[8] يكون له الطلب كان طلبا وهربا من غلبة كل واحد منهما صاحبه، وهو ما ذكرنا في قوله تعالى: وَغَرَّتْهُمُ
٢٥٢ظ س ٢١] الْحَيَاةُ الدُّنْيَا،[9] أنها أُنشئت على هيئة وجهة لو كان ذلك ممن يكون منه التغرير كان تغريرا.[10]*

ثم من عجيب قدرته سبحانه في قوله: **يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا**، أن الله تعالى يظهر النور في ابتداء النهار من طرف من أطراف[11] السماء، والظلمةَ في أول الليل، ثم ينشر ذلك ويبسطه في جميع أطراف السماء والأرض وما بينهما من جميع الأقطار والجوانب في قَدْر لحظةِ بصرٍ وطَرْفة العين، مما لو أريد تقدير[12] ذلك بالهندسة وبجميع ما في الخلق من المقادير لما أحيط بالذي انبسط [مِن] ذلك النور والظلام، ليُعلَم أن الله على ما يشاء قدير، وأنه لو أراد لخلق[13] جميع ما ذكر في أدقّ مدة وألطف وقت، وأنه القادر على البعث وجميع ما جاءت بالخبر عنه الرسل. على أنه بالذي ذكرت يُلبِس وجوهَ كليةِ الأشياءِ السِترَ[14] ويُجلّيها بطَرْفة[15] عين بالتدبير والعلم الذي له[16] بما يوجب ذلك،

---

[1] ن: ما لو أريد.
[2] جميع النسخ: أيام لقادر. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦ظ.
[3] ع – مما لو أريد تقدير ذلك بجميع ما في الخلق من المقادير ما قدروا عليه ليعلم أن الله على ما يشاء قدير وأنه لو أراد أن يخلق جميع ما ذكر أنه خلق في ستة أيام لقادر أن يخلق في طرفة عين.
[4] ع: اياه.
[5] ك: الطلب لما كان.
[6] ع: أحد.
[7] ك – منهما.
[8] ك: مملي.
[9] سورة الأنعام، ٦/٧٠، ١٣٠؛ وسورة الأعراف، ٧/٥١.
[10] جميع النسخ: غرورا؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦ظ.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٥٢ظ/سطر ١٣-٢١.
[11] م – من أطراف.
[12] ن: تدبر.
[13] ن – لخلق.
[14] م – الستر.
[15] ن ع م: بطرف.
[16] ع م – له.

مما يعجز عن توهم مثله جميع الحكماء فضلاً[1] عن إدراكه، ليُعلَم أنه عليم لا يجهل، عزيز لا يعجزه شيء، حكيم لا يتفاوت صنعه ولا يتناقض تدبيره. *ولا قوة إلا بالله*. وقريب[2] من ذلك ما جُعل في جوهر الإنسان من البصر الذي يُبصِر بأول أحوال الفتح[3] قدر خمسمائةِ سَنةٍ،[4] والفكرِ الذي يبلغ به من غير أن يزول / عن مكانه منتهى مرجع الخلق من الجنة [٢٥٢ظ] والنار، ويبصر به المعاد والمعاش. والعقل [هو] الذي يعرف حقائق مَن غاب عنه وحضر[5] مما له صورة وطِينة أو أحدهما وما ليس له واحد من الأمرين، على قصور الحواس عن إدراك صورة شيء لا طينة له، ليُعلَم أن الذي قدر على تقدير مثله[6] في جوهر[7] واحد وعَلِم كيف يصنع[8] فيه ليعمل ذلك العمل[9] قادر على كل شيء حكيم عليم. وهذا معنى ما قيل: إن الإنسان هو العالَم الصغير، بمعنى أنه يوجد[10] فيه لكل أمر من أمور العالَم الكبير مثال.[11] *ولا قوة إلا بالله*.

*وقوله: **[والشمسَ والقمرَ والنجومَ مُسَخَّراتٍ]**،[12] فكذلك سخرهن بالسير فيما [٢٥٢و س٢٣] يرجع إلى منافع الخلق، وجعل فيهن آية لولا العيان لم يكن يصدق به أحد ممن يجحد البعث والرسل ونحوهم؛ إذ الخبر عن سير جوهر واحد في اليوم الواحد مسيرة أكثر من ألف سنة،[13]

---

[1] جميع النسخ: فضل.

[2] جميع النسخ: وقريبا. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦ظ.

[3] أي بأول فتح بصره.

[4] لو فرضنا أن الإنسان يمشي في اليوم مسافة ثلاثين كيلومترا على الأقل فإن مسافة خمسمائة سنة والتي ذكرها المؤلف تبلغ أكثر من خمسة ملايين كيلومتر. ولعل المؤلف نظر إلى الروايات التي تذكر أن المسافة بين السماء والأرض خمسمائة عام، واستنتج أن النجوم التي ترى بالعين تقع على بُعد هذه المسافة.

[5] م: خص.

[6] ك: مثل.

[7] ع: من جوهر.

[8] جميع النسخ: يضع.

[9] م: ذلك العلم.

[10] ك: لا يوجد.

[11] ك ن ع: من الأمور للعالم الكبير فيه مثالا؛ م: من الأمور المعالم الكبير فيه مثالا؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٦ظ.

[12] جميع النسخ: وقوله وسخر ما ذكر.

[13] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يَعرُج إليه في يومٍ كان مقداره ألف سنة مما تَعُدّون﴾ (سورة السجدة، ٣٢/٥).

وتَوَلُّدُ جواهر بمعونة من يبعد عنه مقدار خمسمائة عام،[1] ونُضْج كل شيء وصلاحه به أبعد عن احتمال القبول من إعادة[2] شيء[3] بعد الفناء[4] أو إرسال الرسل بإعلام ما خفي من المصالح والأمور؛ إذ ذلك أَمْر مُتعارَف[5] في صنع الخلق، مُعايَنٌ[6] ذلك فيما به تقلّب الزمان من الليل والنهار.[7] لكن[8] الله[9] سبحانه أظهر لهم من قدرته وعظيم[10] حكمته [عيانا] بما بسط لهم [الأرض][11] بغِلَظها وسَعَتها، ورَفَع عليها السماء بغير عَمَدٍ يُرَى، فأقرّ كلا من ذلك لحاجة أهلها إلى قرارها، وسَيَّر فيها بالتسخير[12] ما ذكر لحاجة الأهل في تسيير ذلك، ليُعلَم أن لا يعجزه شيء ولا يخفى عليه أمر ولا يدخل في تدبيره عِوَج والا في خلقه تفاوت. وإن الذي أظهر إذا قوبل بالذي وعد[13] يضاعف عليه بوجوه له.
٢٥٢و س٣١] مع ما كان الذي أظهر هو إبداع على غير احتذاء، وإنشاء[14] الإعادة[15] لا [كذلك]. **والله الموفق**.*

وقوله: **بأمره**، قال أبو بكر: يحتمل وجهين. أحدهما أنه أمْره[16] كما يقال: أتاه أمر الله، أي الموت والعذاب ونحو ذلك، على إرادة ذلك الذي نزل[17] به. والثاني أن يَطلُعن[18] ويَغْرُبن بأمرٍ

[1] لعله يشير إلى المسافة التي بين السماء والأرض، كما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿وفُرُشٍ مرفوعة﴾ (سورة الواقعة، ٥٦/٣٤)، قال: «ارتفاعها كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمس مائة عام»؛ قال الترمذي: هذا حديث غريب (*سنن الترمذي*، التفسير ٥٦).
[2] ع م: عن إعادة.
[3] م – شيء.
[4] جميع النسخ: عند الفناء.
[5] جميع النسخ: متعالم؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٧و.
[6] ن ع: معاني؛ م: معما في.
[7] قال الشارح: «... إذ ذاك أَمْر مُتعارَف في صنيع الخلق مُعايَن، وذلك أنه يبعث بعضهم بعضا بالرسل لإحراز مقاصدهم وأغراضهم، ومُعايَنٌ عَوْدُ الليل والنهار بعد الانقضاء والفناء» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٧و).
[8] ع م: ولكن.
[9] ن – الله.
[10] ك: وعظم.
[11] الزيادتان من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٧و.
[12] ك: فيها بالسخير.
[13] ع: وضع.
[14] ك ن – وإنشاء.
[15] ك ن: والإعادة.
* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه من تفسير الآية، فأخرناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٥٢و/سطر ٢٣-٣١.
[16] ع: أنه أمر.
[17] ع م: تركت.
[18] ك: أن يطامن.

بتوحيد الله والإيمان به[١] بما فيهن[٢] من عجيب الحكمة ورفيع[٣] التقدير. وقال الحسن: **بأمره** الذي به كوّن الأشياء مِن قوله: "كُن". فالقول الأول هو قول من لا يرى خلق الخلق غير الخلق. والثاني قول من يرى "كُن" عبارة عن التكوين الذي يكون به الخلق أبد الآبدين من غير أن كان ثَمّ[٤] في الحقيقة كاف أو نون، لكنه أقصر[٥] ما يُفهَم به المراد من الكلام، يُراد في ذلك نفي الصعوبة عنه وتيسير الأمر عليه. وذلك يكون[٦] في الحقيقة غير الخلق؛ إذ أخبر[٧] في الخلق أنه كان به، وكل شيء يكون بشيء في المتعارف من القول يكون غيره. وكذلك قوله: **ألا له الخلق والأمر**. **والأمر**[٨] فيه وجهان. أحدهما الإخبار عن تكوين الخلق الذي هو له. والثاني عن **الأمر** في خلقه بما[٩] شاء، ولا يُرَدّ شيء من أمره عن الوجه الذي أمر. ***والله أعلم***.*

وقوله[١٠] عز وجل: **مسخَّراتٍ بأمره**، قال بعضهم: **بأمره**، أي بتكوينه، أي أنشأها[١١] وكوّنها **مسخرات** لهم. وقال[١٢] بعضهم: **بأمره** ينفعن البشر.

وقوله[١٣] عز وجل: **ألا له الخلق والأمر**، قال بعضهم: **الأمر** هاهنا هو التكوين. وقيل: **ألا له الخلق** والتدبير في الخلق. وقيل: له **الأمر** في الخلق.[١٤]

وقوله عز وجل: **تبارك الله رب العالمين**، تعالى الله عما فهمت المشبّهة من قوله:[١٥] **ثم استوى على العرش**.

---

[١] ك ن ع: فيه.
[٢] ع م: بما هو فيهن.
[٣] جميع النسخ: ورفع.
[٤] ن: ثمه.
[٥] ع – أقصر؛ م: جاء.
[٦] ع م: عليه ويكون.
[٧] ع: إذا أخبر.
[٨] ك: وللأمر؛ ع م – والأمر.
[٩] جميع النسخ: بم.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٥٢ظ/سطر ١٣-٢١.
[١٠] ك – قوله.
[١١] م: أي إنشاءها.
[١٢] ع م: قال.
[١٣] ك – قوله.
[١٤] ن – وقوله عز وجل ألا له الخلق والأمر قال بعضهم الأمر هاهنا هو التكوين وقيل ألا له الخلق والتدبير في الخلق وقيل له الأمر في الخلق.
[١٥] ع م: ثم قوله.

﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٥٥]

وقوله: **ادعوا ربكم**، قال بعضهم: **ادعوا**، أي اعبدوا **ربكم**؛ كقوله: أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي،[١] ذكر في الابتداء الدعاء[٢] وفي آخره[٣] العبادة، فكان الأمر بالدعاء أمرا بالعبادة. وقال بعضهم: الدعاء هاهنا هو الدعاء. وقد جاء في الخبر[٤] أن «الدعاء مُخّ العبادة»؛[٥] لأن العبادة[٦] قد تكون بالتقليد، والدعاء لا يحتمل التقليد،[٧] ولكن إنما يكون عند الحاجة لما رأى في نفسه من الحاجة إليه[٨] والعجز عن القيام بذلك، فعند ذلك يفزع[٩] إلى ربه، فهو مخ العبادة من هذا الوجه. وقال بعض أهل التأويل في قوله: **ادعوا ربكم**، أي وحّدوا **ربكم**. **تضرعا وخفية**، قيل: [**تضرعا**]: خضوعا، **وخفية**: إخلاصا. وقيل: **تضرعا**: ظاهرا، **وخفية**: سرا. وأصله أن اعبدوا ربكم في كل وقت وكل ساعة، أو **ادعوا** خاضعين مخلصين.

وقوله عز وجل: **إنه لا يحب المعتدين**، قيل: المجاوزين الحد بالإشراك بالله. وقيل: **لا يحب** الاعتداء في الدعاء، نحو أن يقول: اللهم اجعلني نبيا أو ملكا، أو أنزلني في الجنة منزل كذا وموضع كذا. وروي عن عبد الله بن مُغَفَّل[١٠] [أنه] سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك الفردوس وأسألك كذا، فقال له عبد الله: سل الله الجنة وتعوّذ به من النار، فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «سيكون قوم يعتدون في[١١] الدعاء والطُّهور».[١٢] ويحتمل الاعتداء في الدعاء

[١] سورة المؤمن، ٤٠/٦٠.
[٢] ك + الدعاء.
[٣] ع: وفي الآخره.
[٤] ك ع م – في الخبر.
[٥] عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدعاء مخ العبادة»؛ قال الترمذي: هذا حديث غريب (*سنن الترمذي*، الدعوات ٢). وروي عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾»؛ قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (*سنن أبي داود*، الوتر ٢٣؛ و*سنن الترمذي*، الدعوات ٢).
[٦] ع – لأن العبادة.
[٧] ن: بالتقليد.
[٨] ع م – إليه.
[٩] م: لفزع.
[١٠] ن: معقل.
[١١] م – في.
[١٢] ن ع: والظهور. والحديث في *مسند أحمد بن حنبل*، ٤/٨٦؛ و*سنن أبي داود*، الطهارة ٤٥؛ و*صحيح ابن حبان*، ١٥/١٦٦.

هو أن يسأل ربه ما ليس هو بأهل له، نحو أن يسأل كرامة الأخيار والرسل. وأصل الاعتداء هو المجاوزة عن الحد الذي جعل له. وعن الحسن قال في قوله: **ادعوا ربكم تضرعا وخفية**، علّمكم كيف تدعون ربكم، وقال[1] للعبد الصالح حيث[2] رضي دعاءه: إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا.[3] وقال أنس: قال[4] رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عمل البر كله نصف العبادة، والدعاء نصف العبادة».[5] ومنهم من صرف قوله: **ادعوا ربكم تضرعا وخفية**، إلى الدعاء، وقال: يكره للرجل أن يرفع صوته في الدعاء. ويروون على ذلك حديثا / عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمع قوما يرفعون أصواتهم [٢٥٣و]
في الدعاء، فقال: «أيها الناس، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا، ولكن[6] [تدعون سميعا بصيرا]».[7]

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٥٦]

وقوله:[8] **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**، قال بعضهم: قوله: **بعد إصلاحها**، بعد ما بعث الرسل بإصلاحها من الدعاء إلى عبادة الله والطاعة، ويأمرون بالحلال وينهون عن الحرام. وقال بعضهم: **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**، بعد ما خلقها طاهرة عن جميع أنواع المعاصي والفواحش وسفك الدماء وغير ذلك. ويقال: **بعد إصلاحها**،[9] بعد ما أعطاكم أسبابا تقدرون [بها] على الإصلاح[10] وما به تملكون إصلاحها. وجائز أن يكون المراد بإصلاح الأرض أهلَها، أي **لا تفسدوا** أهلها؛ وهو كقوله: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا،[11] والقرية لا توصف بالعُتُوّ، ولكن أهلها.

---

[1] ك: قال.

[2] ك ن ع – حيث.

[3] سورة مريم، ١٩/٣. روي ذلك عن الحسن بمعناه؛ انظر: *تفسير الطبري*، ٨/٢٠٦-٢٠٧؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٤٧٦.

[4] ع + قال.

[5] *الفردوس بمأثور الخطاب* للديلمي، ٣/٤٠. والفردوس معروف باحتوائه على الأحاديث الضعيفة، لا سيما فيما انفرد به. وروي عن ثابت قال: قلت لأنس: يا أبا حمزة، أ بلغك أن الدعاء نصف العبادة؟ قال: لا، بل هو العبادة كلها؛ انظر: *تفسير الطبري*، ٢٤/٧٩.

[6] جميع النسخ + كذا.

[7] مسند *أحمد بن حنبل*، ٤/٤٠٣؛ وصحيح *البخاري*، الدعوات ٥٠؛ وسنن *أبي داود*، الوتر ٢٦.

[8] ك – قوله.

[9] ن – بعد ما خلقها طاهرة عن جميع أنواع المعاصي والفواحش وسفك الدماء وغير ذلك ويقال بعد إصلاحها.

[10] ع: على الإصطلاح.

[11] سورة الطلاق، ٦٥/٨.

وقوله عز وجل: **وادعوه خوفا وطمعا**، قال بعضهم: **خوفا** لما كان في العبادة من التقصير، **وطمعا** في التجاوز والقبول؛ لأنه لا أحد يقدر أن يعبد ربه حق عبادته[1] لا تقصير في ذلك.[2] وعلى ذلك روي عن رسول[3] الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يدخل أحد الجنة[4] إلا برحمته». قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته».[5] وعلى ذلك ما روي أن الملائكة يقولون يوم القيامة: ما عبدناك[6] حق عبادتك.[7] ويجب على كل مؤمن أن يكون في كل فعل الخير خائفا راجيا، الخوف للتقصير والرجاء للقبول. وقال بعضهم: **خوفا** من عذابه ونقمته، **وطمعا** في جنته.

إن رحمة الله قريب من المحسنين، قال بعض[8] أهل التأويل: إن الجنة **قريب من المحسنين**، ويقولون: أراد[9] بالقريب الوقوع فيها والنزول. ويحتمل أن يكون المراد بالرحمة صفته، فيكون تأويله: **إن** منفعة **رحمة الله قريب من المحسنين**. وقال الحسن: **إن رحمة الله**، وهي الجنة، **قريب من** الخائفين. وقال بعضهم في قوله: **إن رحمة الله قريب**، أي إجابة الله **قريب** إلى من استجاب دعاءه. ويحتمل ما ذكرنا من منفعة رحمته، أي منفعة[10] **رحمة الله قريب** إلى من ذكر.[11] ثم **المحسنين**، يحتمل **المحسنين** إلى أنفسهم، أو **المحسنين** إلى خلقه، أو **المحسنين** إلى نعم الله؛ أي أَحْسَنوا صحبة نعمه بالقيام[12] لشكرها واجتناب الكفران بها. أو يريد الموحّدين.

---

[1] م: عبادة.
[2] ن: في عبادته.
[3] ك: عن نبي.
[4] م: الجنة أحد.
[5] صحيح *البخاري*، الرقاق ١٨؛ وصحيح *مسلم*، صفة القيامة ٧٢.
[6] ع: ما عبادناك.
[7] ك ن: العبادة؛ م: عبادك. عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم وملك راكع أو ملك ساجد، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعا: سبحانك، ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنّا لم نشرك بك شيئا» (*المعجم الأوسط* للطبراني، ٤/٤٤؛ و*المعجم الكبير* له، ٢/١٨٤). «وفيه عروة بن مروان، قال الدارقطني: ليس بقوي في الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح» (*مجمع الزوائد* للهيثمي، ١٠/٣٥٨).
[8] ن ع م – بعض.
[9] م: أرادم.
[10] ن م – رحمته أي منفعة.
[11] ع: ما ذكر.
[12] جميع النسخ: القيام.

وبعد فإن إعادة الشيء في عقول الخلق أهون وأيسر من ابتداء[1] الإنشاء؛ ألا ترى أن الدهرية والثَّنَوِيّة وهؤلاء قد أنكروا الإنشاء لا من شيء، ورأوا وجود الأشياء وخروجها وإعادتها[2]
٢٥٣ظ س ٤] عن أصل وكيان؛ وهو ما ذكر: وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ،[3] أي في عقولكم.*

وقوله عز وجل: **وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته**، يذكّرهم عز وجل في هذا حكمته وقدرته ونعمه ليحتج بها عليهم على البعث.[4] أما حكمته فيما يرسل الرياح والأمطار ويسوقها إلى المكان الذي يريد أن تمطر[5] فيه [فهو] ما لم يعاينوا ذلك و[ما] شاهدوه [و]ما عرفوا أن كيف يرسل المطر من السماء وكيف يرسل الريح ويسوق السحاب، ففي ذلك تذكير حكمته إياهم. وأما نعمه فهو ما يسوق السحاب بالريح إلى المكان[6] الذي فيه حاجة إلى المطر، فيرسل على ذلك المكان المطر. وذلك من عظيم[7] نعمه عليهم[8] ليُعلَم أن ذلك كان برحمته، لا أنهم كانوا مستوجبين لذلك. وأما ما ذكّرهم من قدرته هو ما ذكر من إحياء الأرض بعد ما كانت[9] ميتة ليُعلَم أن الذي قدر على إحياء الأرض وإخراج النبات والثمر [منها] بعد ما كانت ميتة[10] لقادر على إحياء الموتى وبعثهم بعد موتهم، على ما قدر على إحياء الأرض بالنبات وإحياء النخل بالثمار بعد ما كان[11] علم كل أن لا نبات فيها ولا ثمار فيها.[12] فإذا خرج النبات منها والثمار من النخيل على ما خرج في العام الأول دل ذلك على وحدانيته[13] وقدرته على إحياء الموتى وبعثهم بعد ما ماتوا وصاروا ترابا على ما[14] قدر على[15] ما ذكرنا. *والله أعلم*.

[1] ع: في ابتداء.
[2] ك ن + لا.
[3] ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ (سورة الروم، ٣٠/٢٧).
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ٢٥٣و/سطر ٣٣ - ٢٥٣ظ/سطر ٤.
[4] جميع النسخ: بالبعث.
[5] ع م: أن يمطر.
[6] ع: إلى مكان.
[7] ن: من عظم.
[8] م - عليهم.
[9] ع م: ما كان.
[10] جميع النسخ: كان ميتا.
[11] ك ن - كان.
[12] جميع النسخ: فيه.
[13] م: وحدانية.
[14] ن ع م - ما.
[15] ع م - على.

وفي قوله: **بين يدي رحمته**، دلالة أن لا نفهم[١] من اليدين الجارحتين على ما يُفهَم[٢] من الخلق، كما لم يفهم أحد بذكر اليد في المطر الجارحة، لأنه لا جارحة له؛ فعلى ذلك لا يُفهَم من ذكر اليد له الجارحة من قوله: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ.[٣] وكذلك قوله: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ،[٤] لم يُفهَم من قوله: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، الجارحة، لأنه لا جارحة[٥] للقرآن؛ فعلى ذلك لا يُفهَم مما ذكر من[٦] [اليدين المضافتين إلى الله عز وجل][٧] الجارحة، ومن فهم ذلك فإنما يفهم لفساد في اعتقاده. وكذلك ما ذكر من الاستواء على العرش والاستواء إلى السماء لا يُفهَم منه ما يُفهَم[٨] من استواء الخلق، لأنه بريء عن جميع مَشَابِهِ[٩] الخلق ومعانيهم، وهو ما وصف[١٠] [نفسه] حيث قال: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.[١١]*

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[٥٨]

وقوله عز وجل: **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خَبُث لا يخرج إلا نَكِدا**، ذكر المَثَل ولم يذكر المضروب به،[١٢] وأهل التأويل قالوا: ضرب المثل للمؤمن والكافر. ثم يحتمل ضرب المثل وجوها. أحدها أنه وَصَف الأرض التي **يخرج** منها[١٣] النبات بالطيب،[١٤] ووصف الأرض التي **لا يخرج** منها النبات بالخبث. فعلى ذلك المؤمن لِما كان منه من الأعمال من الطاعة لربه والائتمار لأمره موصوف هو بالطيب[١٥] وجَعَلَه من جوهر الطيب،

---

[١] ن ع: لأنفسهم.
[٢] ن ع م: على ما تفهم.
[٣] ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلَّت أيديهم ولُعِنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ (سورة المائدة، ٥/٦٤).
[٤] ﴿لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ (سورة فصلت، ٤١/٤٢).
[٥] م – لأنه لا جارحة.
[٦] جميع النسخ + بين يديه.
[٧] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٧ظ.
[٨] ع م – منه ما يفهم.
[٩] مَشَابِه جمع شَبَه على غير قياس (*لسان العرب* لابن منظور، «شبه»).
[١٠] ن م: ما وصف؛ ع: ما صف.
[١١] سورة الشورى، ٤٢/١١.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ٢٥٣و/سطر ٣٣ – ٢٥٣ظ/سطر ٤.
[١٢] ن ع م – به.
[١٣] ع: بها.
[١٤] ك: الطيب.
[١٥] ن: به بالطيب.

والكافر لِما يكون منه الأعمال الخبيثة ولا يكون له من الأعمال الصالحة من الطاعة لربه خبيث، كما أن الأرض التي **يخرج** منها النبات الذي يُنتفَع به موصوف بطِيب الأصل والجوهر، والتي **لا يخرج** منها[1] النبات ولا يُنتفَع به موصوف بخُبْث[2] الأصل. وأمكن أن يكون من وجه آخر، وهو أن الله تعالى جعل هذا القرآن مباركا شفاء للخلق على ما وصفه الله تعالى في غير موضع من الكتاب، ووصف الماء الذي ينزل من السماء بالبركة والرحمة. فإذا نزل ذلك[3] الماء المبارك في الأرض الطيبةِ الجوهرِ خرج منها النبات والأَنْزال[4] [التي] يُنتفَع بها. وإذا[5] نزل في الأرض السَّبِخَة[6] الخبيثة الجوهرِ لم يخرج لخبث[7] أصلها. فعلى ذلك هذا القرآن هو مباركٌ شفاءٌ، فيسمعه[8] المؤمن فيتبعه ويعمل به، والكافر يسمعه ولا يتبعه ولا يعمل به. فصار مثل المؤمن الذي يسمع هذا القرآن و يتبعه ويعمل بما فيه كمثل[9] الماء الذي يدخل في الأرض فيخرج منه النبات لطيب جوهرها وأصلها، والكافر مَثَل الأرض[10] التي لا يخرج منها[11] النبات لخبث أصلها وجوهرها. وأصله أنه ضَرَبُ مَثَل الذي هو مُستحسَن بالعقل بالذي[12] هو مُستحسَن بالطبع، لأن ما حَسُن في الطبع فإنما معرفته حِسِّي، وما حَسُن في العقل فإنما يُعرَف حُسنه بالدلائل، وهو غائب. فضرب مَثَل [ما] معرفةُ حُسنِه بالعقل[13] وهو غائب بالذي معرفةُ حُسنِه بالحِسِّ والمشاهدة.[14] فالإيمان حُسنه غائب، ضرب مثله بالذي طريقُ معرفةِ حُسنِه[15] بالحِسّ[16] والمشاهدة،

---

[1] ن: منه.

[2] ع م: بخبيث.

[3] ن – ذلك.

[4] الأنزال جمع نُـزُل، وهو ما يُهيأ للنَّزيل أي الضيف، ويستعمل بمعنى القوت والغذاء (*لسان العرب* لابن منظور، «نزل»).

[5] م: وإنا.

[6] ن ع: السنحة. السبخة هي الأرض المالحة التي لا تنبت (*لسان العرب* لابن منظور، «سبخ»).

[7] ع: لخبيث.

[8] جميع النسخ: فيسمع.

[9] ك ن ع: فمثل.

[10] ك ن ع: والكافر بالأرض.

[11] ع: منه.

[12] ع: الذي.

[13] ن: العقل.

[14] ك ن: حسي ومشاهدة.

[15] ع – بالعقل وهو غائب بالذي معرفة حسنه بالحس والمشاهدة فالإيمان حسنه غائب ضرب مثله بالذي طريق معرفة حسنه؛ م – وهو غائب بالذي معرفة حسنه بالحس والمشاهدة فالإيمان حسنه غائب ضرب مثله بالذي طريق معرفة حسنه.

[16] ن ع م: بالحسن.

وهو ما ذكر[١] من النبات الذي يخرج من الأرض، وذلك يدل على طيب أصلها وجوهرها، والذي لا يُخرِج شيئا هو[٢] لخبث جوهرها وأصلها؛ فعلى ذلك المؤمن والكافر. ثم حُسْن عمل هذا وطِيبه وقُبح عمل الآخر وخُبثه إنما يظهر في الآخرة، وذلك يوجب البعث؛[٣] لأنهما[٤] جميعا استويا في هذه الدنيا، فدل أن[٥] هنالك دارا أخرى فيها يظهر الطيّب من الخبيث. طاب عمل المؤمن وجميع ما يكون منه حُسْنا لطيب أصله، وخَبُث عمل الكافر وقَبُح ما يكون منه لخبث أصله كالأرض التي ذكر.

وقوله عز وجل: **بإذن ربه**، يحتمل: بعلمه وتكوينه. وقوله[٦] عز وجل: **إلا نَكِدا**، قال الحسن: خبيثا، أي **لا يخرج إلا** خبيثا. وقال أبو بكر: **نَكِدا**، أي لا منفعة فيه. وقيل: إلا عسيرا؛[٧] وقيل: إلا قليلا؛ وهو واحد. وقوله[٨] عز وجل: **كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون**، أي **لقوم** ينتفعون بالآيات.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٥٩]

وقوله[٩] عز وجل: **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه**، كما أرسلناك إلى قومك، ولست أنت بأول رسول؛ كقوله: قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ.[١٠] وفيه دلالة أن الإيمان بالأنبياء والرسل يصح[١١] وإن لم يُعرَف[١٢] أنسابهم؛ لأن الله عز وجل ذكر الأنبياء والرسل بأساميهم ولم يذكر أنسابهم، دل ذلك أن الإيمان يكون بهم إيمانا[١٣] وإن لم يُعرَف أنسابهم.

---

[١] ع: وهو ما ذكرنا.
[٢] ع م - هو.
[٣] ع م: البعض.
[٤] ع م: أنهما.
[٥] ن - أن.
[٦] ك - قوله.
[٧] ك ن: إلا عسرا.
[٨] ك - قوله.
[٩] ك - قوله.
[١٠] سورة الأحقاف، ٤٦/٩.
[١١] جميع النسخ: يصح بالأنبياء والرسل.
[١٢] ن: إن لم يعرف.
[١٣] ع م - إيمانا.

وكذلك يصح الإيمان وإن لم يُعرَف أسماؤهم، لأن من[1] الأنبياء من لا يُعرَف اسمه، فيصح الإيمان بجملة الأنبياء وإن لم يُعرَف أسماؤهم. وفي ذلك دلالة إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه أخبر عن رسالة نوح، فدل أنه بالله عرف ذلك.

وقوله عز وجل: **[فقال يا قوم] اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**، قيل: قوله: **اعبدوا الله**، أي وحّدوا الله، سَمَّوا العبادة توحيدا،[2] لأن العبادة[3] لا تكون ولا تصح إلا بالتوحيد فيها لله خالصا، سُمِّي بذلك مجازا. ويجوز[4] أن تكون[5] العبادة[6] عبادة. وقوله عز وجل: **ما لكم من إله غيره**، أي **ما لكم من** الإله[7] الحق الذي ثبتت[8] ألوهيته وربوبيته بالدلائل والبراهين[9] **من إله غيره**.

وقوله عز وجل: **إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**، قال بعضهم: **إني أخاف**، أي إني أعلم أن ينزل **عليكم عذاب يوم عظيم** إن مُتُّم على هذا. وقال بعضهم: الخوف هو الخوف، وهو خوف إشفاق. وذلك يحتمل أن يكون في الوقت الذي كان يطمع إيمان قومه، ثم آيسه الله عن إيمان قومه بقوله: لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ.[10] وقوله عز وجل: **عذابَ يومٍ عظيم**، هو يوم عظيم للخلق، كقوله: لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ،[11] وهو عظيم للخلق على ما وصف.

﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[٦٠]

وقوله عز وجل: **قال الملأ من قومه**، هم أشراف قومه وسادتهم، كقوله: إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا،[12] الآية. وكانوا هم أضداد الأنبياء والرسل، / لأنهم كانوا يدعون الناس [٢٥٤و]
إلى ما يوحي إليهم الشياطين، والرسل كانوا يدعون إلى ما يوحي إليهم الله وينزل عليهم.

---

[1] ع م – من.
[2] م: التوحيد عبادة.
[3] ع – توحيدا لأن العبادة.
[4] م – ويجوز.
[5] ن ع م: أن يكون.
[6] ع م – العبادة.
[7] ك ن ع: من إله.
[8] ع م: ثبت.
[9] ع م – والبراهين.
[10] ﴿وأُوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تَبتَئِسْ بما كانوا يفعلون﴾ (سورة هود، ١١/٣٦).
[11] سورة المطففين، ٨٣/٥-٦.
[12] ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكُبَراءنا فأضلّونا السبيلا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٦٧).

لذلك قالوا: **إنا لنراك في ضلال مبين**؛ لأنهم ظنوا أن ما أوحى[١] إليهم الشيطان هو الحق، وأن ما يدعو[٢] إليه الرسل هو ضلال وباطل.

*ويحتمل قوله: **إنا لنراك في ضلال مبين**، أي لفي خطأ **مبين**. ثم يخرج على وجهين. [٢٥٤و س٥
أحدهما نسبوه إلى الخطأ لما رأوه خالف[٣] الفراعنة والجبابرة الذين كانت همتهم القتل لمن خالفهم.
والثاني نسبوه إلى الخطأ لأنه ترك[٤] دين آبائه وأجداده. ***والله أعلم***.* ٢٥٤و س٧]

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٦١]

وقوله عز وجل: **قال يا قوم ليس بي ضلالة**، أي لست[٥] أنا بضال؛ لأنه[٦] إذا نفى الضلال عنه نفى أن يكون ضالا. وهو حَرْفُ رِفْق ولِين؛ وعلى ذلك أمر الأنبياء والرسل أن يعاملوا قومهم، لأن ذلك أنجع في القلوب وإلى القبول[٧] أقرب. **ولكني رسول من رب العالمين**، والعالم هو جوهر الكل.*

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٦٢]

وقوله عز وجل: **أبلّغكم رسالات ربي**، رسالته التي أمرني بتبليغها إليكم، قَبِلتم أو رددتم، أَوْعَدتم أو وَعَدتم،[٨] لأني أبلغها على أي حال استقبلتموني. أو يقول: **أبلغكم رسالات ربي**، رسالته[٩]
التي أرسلها إليّ. *ثم أخبر أنه يبلغهم **رسالات** ربه،[١٠] و لم يبيّن فيما ذا: في كتاب أنزله عليه أو بوحي[١١] [٢٥٤و س١٣
في غير كتاب يوحي إليه؟ وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة سوى[١٢] التصديق له فيما يبلغ إليهم.* ٢٥٤و س١٤]

---

[١] ن ع: انما اوحى.
[٢] جميع النسخ: ما يدعون.
[٣] ع: مخالف.
[٤] ن: نزل؛ ع م – ترك.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٥٤و/سطر ٥-٧.
[٥] ع م: ليست.
[٦] ع: أنه.
[٧] ك: وإلى القلوب.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٥٤و/سطر ٥-٧.
[٨] ع م – أو عدتم أو وعدتم.
[٩] ن ع: رسالة.
[١٠] جميع النسخ: ربي.
[١١] ع: أو يوحي.
[١٢] ن – سوى.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٥٤و/سطر ١٣-١٤.

وقوله عز وجل: **وأنصح لكم**، يحتمل قوله: **أنصح لكم**، أي أدعوكم وآمُركم إلى ما فيه صلاحكم، وأنهاكم عما فيه فسادكم. والنصيحة[١] هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد. ويكون النصيحة لهم ولجميع المؤمنين. روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [أنه] قال: «ألا إن الدين النصيحة». قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله [ولكتابه] ولرسوله [ولأئمة المسلمين وعامتهم]».[٢] قال الشيخ أبو القاسم الحكيم[٣] رحمه الله: النصيحة هي النهاية مِن صِدق العناية.[٤]*

وقوله عز وجل: **وأعلم من الله ما لا تعلمون**، قد أتاه من الله العلم بأشياء[٥] ما لم يأت أولئك[٦] مثله، وهو كقول إبراهيم صلوات الله عليه لأبيه: يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي.[٧] ويحتمل قوله: **وأعلم من الله**، من العذاب أنه ينزل بكم **ما لا تعلمون** أنتم إذا دمتم على ما أنتم عليه.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٦٣]

وقوله: **أَوَعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم [على رجل منكم]**، أي تعجبون بما **جاءكم ذكر من** الله **على** يدي **رجل منكم** ما لا أقدر[٨] أنا ولا تقدرون أنتم على مثله. كانوا يعجبون وينكرون أن يكون[٩] رسل الله من البشر بقولهم: مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً،[١٠] ونحو[١١] هذا. كانوا ينكرون رسالة البشر.

---

[١] ك: والتصبحة.

[٢] *صحيح مسلم*، الإيمان ٩٥؛ *وسنن أبي داود*، الأدب ٤٩؛ *وسنن الترمذي* البر والصلة ١٧.

[٣] لعله أبو القاسم الحكيم إسحاق بن محمد بن إسماعيل السمرقندي، من أبرز أصحاب وتلاميذ الإمام الماتريدي، ومن أوائل علماء الماتريدية. تولى القضاء في سمرقند مدة طويلة. له مؤلفات في قضايا العقيدة وكلام كثير من الحكمة. توفي سنة ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م. انظر: *تبصرة الأدلة* للنسفي، ٣٥٧/١-٣٥٨؛ *الجواهر المضية* للقرشي، ٣٧١/١-٣٧٢.

[٤] م: الغاية.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٥٤و/سطر ١٣-١٤.

[٥] م: بأنباء.

[٦] ك ن: بأولئك.

[٧] سورة مريم، ٤٣/١٩.

[٨] ع – أقدر.

[٩] م: أني يكون.

[١٠] سورة المؤمنون، ٢٤/٢٣.

[١١] م + ذلك.

وما ينبغي لهم أن ينكروا ذلك؛ لأنهم قد كانوا رأوا تفضيل بعض البشر على بعض، وفي وَضْعِ الرسالة فيهم، أعني في الرسل، تفضيلُهم، وذلك قد رأوا فيما بينهم. ولله تفضيل بعضهم على بعض؛ إذ له[١] الخلق والأمر، ولكل[٢] ذي مُلك وسلطان أن يصنع في ملكه ما شاء من تفضيل بعض على بعض وغيره. أو يقول: قد **عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على** يدي **رجل منكم**، ولو كان جاء الذكر على من هو من غير جوهركم كان في ذلك لَبْس واشتباه عليكم.

وقوله[٣] عز وجل: **لينذركم**، عذاب الله، **ولتتقوا**، معاصيه، **ولعلكم تُرحَمون**، إن اتقيتم ما نهيتكم[٤] عنه،[٥] أو كان في قومه من يجوز أن يُرحَم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾[٦٤]

وقوله عز وجل: **فكذبوه**، يعني نوحا فيما[٦] دعاهم إلى عبادة الله ووحدانيته[٧] ونهاهم عن عبادة غير الله. أو كذّبوه فيما أتاهم من آيات نبوته ورسالته.[٨]

وقوله[٩] عز وجل: **فأنجيناه**، يعني نوحا، **والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا**، إذا كان إهلاك[١٠] القوم إهلاك[١١] تعذيب وعقوبة يُنجي أولياءه، ويُبقيهم[١٢] إلى الآجال التي قدّر لهم، ويكون ذلك نجاة لهم من ذلك العذاب الذي حلّ بالأعداء.

وقوله[١٣] عز وجل: **كذبوا بآياتنا، أي بآياتنا**[١٤] التي جعلناها[١٥] لإثبات رسالته ونبوته.[١٦]

---

[١] ع: أذلة.
[٢] ك - ولكل.
[٣] ك - قوله.
[٤] ك: ما نهاكم.
[٥] ك - عنه.
[٦] ع م - فيما.
[٧] ع: ووحدانية.
[٨] م: ورسالاته.
[٩] ك - قوله.
[١٠] ن: هلاك.
[١١] ع - إهلاك؛ م - القوم إهلاك.
[١٢] ن: ويبقي.
[١٣] ك - قوله.
[١٤] م - أي بآياتنا.
[١٥] جميع النسخ: جعلناه.
[١٦] ن + ويحتمل كذبوا بآياته أي بآياتنا التي جعلناه لإثبات رسالته ونبوته.

ويحتمل **كذبوا بآياتنا**، التي أعطيناه[1] لوحدانية الله وألوهيته. **إنهم كانوا قوما عمين**، عَمُوا عن الحق.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ﴾[٦٥]

وقوله[2] عز وجل: **وإلى عاد أخاهم هودا**، أي أرسلنا **هودا** إلى عاد.[3] وهو على ما ذكر في نوح، وهو قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ،[4] فعلى ذلك قوله: **وإلى عاد أخاهم هودا**، أي **إلى عاد** أرسلنا **هودا**. ثم تحتمل[5] الأخوّة وجوها أربعة: أخوّة النسب، وأخوّة الجوهر -وهو [كما][6] يقال: هذا أخو[7] هذا[8] إذا كان من جوهره، ولا يقال ذلك في غير جوهره-[9] وأخوّة المودة والمحبة، وأخوّة الدين. ثم لم يكن بين هود وقومه أخوّة الدين ولا أخوّة المودة؛ لكن يحتمل أخوّة النسب، لأن البشر على بُعْدٍ مِن آدم كلهم أولاده. فإذا كانوا كذلك فهم فيما بينهم بعضُهم إخوةُ بعضٍ، كأولاد رجل واحد يكون بعضُهم إخوةَ بعضٍ. أو أخوّة الجوهر على ما ذكرنا، يقال: هذا أخو[10] هذا، إذا كان من جنسه وجوهره. فهذين الوجهين[11] يحتمل،[12] والوجهان الآخران لا.

وقوله[13] عز وجل: **قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**، أي **اعبدوا الله**، الذي يستحق العبادة، و **ما لكم**[14] **من إله غيره**، أي ليس لكم مِن معبودٍ سِواه، وهو المعبود في الحقيقة. وقوله[15] عز وجل: **أفلا تتقون**، عبادة غير الله. أو **أفلا تتقون** الله في عبادتكم غيره وفي تكذيبكم هودا. أو أن يقول: **أفلا تتقون**، عذاب الله ونقمته عليكم بمخالفتكم إياه.

---

[1] م: أعطينا.
[2] ك - قوله.
[3] ع: أي عاد.
[4] سورة الأعراف، ٥٩/٧.
[5] ن ع م: ثم يحتمل.
[6] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٨ظ.
[7] ن ع: أخ؛ م - أخو.
[8] ن ع م - هذا.
[9] ك - وأخوة الجوهر وهو كما يقال هذا أخو هذا إذا كان من جوهره ولا يقال ذلك في غير جوهره.
[10] جميع النسخ: أخ.
[11] ع: فهذه الوجهين.
[12] ك: تحتمل.
[13] ك - قوله.
[14] م: ما لكم.
[15] ك - قوله.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٦٦]

وقوله عز وجل: **قال الملأ الذين كفروا من قومه**، قد ذكرنا قوله: ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ،[١] أي أشراف / قومه وسادته.[٢] **إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين**، ذكر[٣] هاهنا [٢٥٤ظ] ظنهم في تكذيبهم الرسول، وفي موضع[٤] آخر قطعوا في التكذيب، وهو قوله: إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ،[٥] فكان قوله: **وإنا لنظنك من الكاذبين**، في ابتداء ما دعاهم[٦] إلى عبادة الله ووحدانيته. كانوا على ظَنٍّ فيه لما كان عندهم صَدوقا أمينا قبل دعائهم إلى ما دعاهم. فلما أن أقام عليهم آيات الرسالة والنبوة، وأظهر عندهم عيب ما عبدوا غير الله وأبطله، وتحقّق ذلك عندهم، عند ذلك قالوا: إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ؛ ليُعلَم أنهم عن عنادٍ كذّبوا الرسل.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٦٧]

قال يا قوم ليس بي سفاهة؛ إن الرسل صلوات الله عليهم كانوا أُمروا أن يعاملوا الخلق بأحسن معاملة،[٧] وهو على ما أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ،[٨] الآية،[٩] وقال له:[١٠] اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ،[١١] ونحوه.[١٢] فعلى ذلك الرسل الذين كانوا مِن قَبْل كانوا مأمورين بذلك؛ لذلك[١٣] قال لهم هود لمّا تلقّوه بالتكذيب والتسفيه، **قال ليس بي** ما تقولون[١٤] وتنسبوني إليه، **ولكني رسول من رب العالمين**.

[١] سورة الأعراف، ٦٠/٧.
[٢] ع: وساداته.
[٣] ن – ذكر.
[٤] م: في موضع.
[٥] سورة المؤمنون، ٣٨/٢٣.
[٦] ن ع م: ما ادعاهم.
[٧] ع: معاملة.
[٨] ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (سورة الأعراف، ١٩٩/٧).
[٩] ن ع م – الآية.
[١٠] ك – قال له؛ ن ع م: وقوله.
[١١] سورة المؤمنون، ٩٦/٢٣.
[١٢] ع: نحوه.
[١٣] ن – لذلك.
[١٤] ن: بي سفاهة.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[٦٨]

أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين، أي أدعوكم إلى وحدانية الله وعبادته والتمسّك بالدين الذي به نجاتكم. وكلُّ مَن دعا آخرَ إلى ما به نجاته فهو **ناصح** له. أو يحتمل[1] قوله: **وأنا لكم ناصح أمين**، أي كنت ناصحا[2] لكم قبل هذا، أمينا[3] فيكم، فكيف تكذّبونني وتنسبونني[4] إلى السَّفَه، وأنا **أمين** على الرسالة والوحي الذي وضع الله عندي. وقوله عز وجل: **أبلغكم رسالات ربي**،[5] شئتم أو أبيتم.[6] أو يقول: **أبلغكم رسالات ربي**، خوّفتموني أو لم تخوّفوني، قبلتم عني أو لم تقبلوا.[7] أو يقول:[8] **أبلغكم رسالات ربي**، فكيف تنسبونني إلى السَّفَه والافتراء على الله.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٦٩]

وقوله عز وجل: **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح**، يحتمل قوله: **اذكروا إذ جعلكم خلفاء**، وجوها. أحدها أنه **جعلكم خلفاء** قومٍ أهلكهم بتكذيبهم[9] الرسول، ولم يُهلككم،[10] فاحذروا أنتم هلاككم بتكذيبكم الرسول كما أهلك أولئك بتكذيبهم الرسول.[11] أو أن يقال: **جعلكم خلفاء** قومٍ صدّقوا رسولا من البشر، وهو نوح، فكيف كذّبتموني في دعواي[12] الرسالة –لأنيّ بشر– ودعائي[13] إلى عبادة الله ووحدانيته؟ هذا تناقض.

والثاني أن **اذكروا** نوحا، وهو كان رسولا من البشر، فكيف تنكرون أن يكون الرسول من البشر، وكان الرسل جميعا من البشر؟[14]

---

[1] م: ويحتمل.
[2] ع: منصحا.
[3] جميع النسخ: أمين.
[4] ك: وتكسبونني.
[5] ك – إلى السفه وأنا أمين على الرسالة والوحي الذي وضع الله عندي وقوله عز وجل أبلغكم رسالات ربي.
[6] ع: شئتم أوتيتم.
[7] ن: ولم تقبلوا.
[8] ع: أو يقولوا.
[9] ك: تكذيبهم.
[10] ك: ولم يهلكهم.
[11] ن ع: الرسل.
[12] جميع النسخ: دعوى؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٨ظ.
[13] ع: ودعاني.
[14] ع – من البشر.

والثالث أن **اذكروا** نعمه[١] التي أنعمها عليكم من السعة في المال والقوة في الأنفس وحسن الخِلقة والقامة. وكان لِعَادٍ ذلك كلُّه، كقوله: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ،[٢] الآية، هذا في السعة في المال. وأما القوة[٣] في الأنفس والقامة ما ذكر في قوله: فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ؛[٤] وقوله: كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ.[٥] فيه وصف لهم بالقوة وطول القامة. وعلى ذلك فسّر بعض أهل التأويل[٦] قولَه:[٧] **وزادكم في الخلق بسطة**، يعني قوة وقدرة. وقال غيره: هو الطُّول والعِظَم في الجسم. ذكر الله تعالى في عاد أشياء ثلاثة،[٨] خَصَّهم بها مِن بين غيرهم. أحدها العِظَم في النفس، كقوله: **وزادكم في الخلق بسطة**؛ والقوة، بقوله:[٩] مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؛[١٠] والسعةُ في الأموال، بقوله: [أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ] بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ؛ وفَضْلُ[١١] العِلم[١٢] بقوله: وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ.[١٣]

وقوله عز وجل: **فاذكروا آلاء الله**، قال بعضهم: الآلاء هو في دفع البلايا، والنَّعْماء هو في سَوْق النَّعماء إليه. ولكن هما واحد، لأنه ما من بلاء يُدفع عنه إلا وفي ذلك سَوْقُ نعمةٍ أُخرى[١٤] إليه؛ ولأن الله تعالى [عِندما] ذكر في سورة الرحمن الآلاء في جميع[١٥] ما ذكر

---

[١] م: نعمته.

[٢] ﴿أَلَم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يُخلَق مثلها في البلاد﴾ (سورة الفجر، ٦/٨٩-٨).

[٣] ك: وأما في القوة.

[٤] ﴿وأما عادٌ فأُهلكوا بريح صَرصَرٍ عاتية. سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حُسُوما فترى القوم فيها صَرعَى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ (سورة الحاقة، ٦/٦٩-٧).

[٥] ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صَرصَرا في يومِ نَحسٍ مُستمِرّ. تَنزِعُ الناس كأنهم أعجازُ نخلٍ مُنقَعِر﴾ (سورة القمر، ١٩/٥٤-٢٠).

[٦] ن: أهل التفسير.

[٧] ن ع م: وقوله.

[٨] ذكر المؤلف أربع صفات لقوم عاد، ولكن الصفة الرابعة وهي فضل العلم ليست خاصة بهم، لأن الآية ذكرت قوم ثمود أيضا معهم.

[٩] ن ع م: فقوله.

[١٠] ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة﴾ (سورة فصلت، ١٥/٤١).

[١١] ع: فضل.

[١٢] ك - العلم.

[١٣] ﴿وعادًا وثمودَ وقد تبيّن لكم مِن مَساكنهم وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل وكانوا مُستبصِرين﴾ (سورة العنكبوت، ٣٨/٢٩).

[١٤] جميع النسخ: اجرى؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٨ظ.

[١٥] جميع النسخ: بجميع.

إنما ذكر على سَوْق النعم إليه بقوله:[1] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.[2] حيث قال: اَلرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ،[3] إلى آخر[4] ما ذكر[5] من السورة، وهو ذِكْرُ[6] في سَوْق النعم لا في دفع البلايا.

وقوله عز وجل: **لعلكم تفلحون**، أي **تفلحون** إن ذكرتم نعمه وشكرتم له عليها و لم تصرفوا عبادتكم وشكركم إلى غيره. أو يقول: لكي يلزمكم الفلاح. أو حتى تكونوا من أهل الفلاح.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٧٠]

وقوله عز وجل: **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا**، هذا[7] يدل[8] أن رسالته التي يبلّغها إليهم في دعائه إياهم إلى عبادة الله وحده[9] وتركِهم عبادةَ[10] مَن دونه، حيث **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا**، ولا شك[11] أنه إنما جاءهم ليعبدوا الله وحده، وجاءهم ليذروا ما كان يعبد آباؤهم. ثم في فعلهم تناقض، لأنهم كانوا ينكرون أن يكون من البشر رسولٌ[12] بقولهم: مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ[13] مِمَّا تَشْرَبُونَ،[14] لم يرضوا برسالة البشر ورضوا بإلٰهية الأحجار والخشب. ثم يقلّدون آباءهم في عبادتهم غير الله، وفي آبائهم مَن يَعبد الله لا يعبد غيره، وهم الذين نجوا[15] مع نوح،

[1] ك ع م: قوله.
[2] سورة الرحمن، ١٣/٥٥. وقد تكررت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن.
[3] سورة الرحمن، ١/٥٥-٤.
[4] م - آخر.
[5] ن - على سوق النعم إليه بقوله فبأي آلاء ربكما تكذبان حيث قال الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان إلى آخر ما ذكر.
[6] م: ما ذكر.
[7] ن - هذا.
[8] ع - يدل.
[9] ك - وحده.
[10] ن: عبادت.
[11] ك - ولا شك.
[12] ك ن: رسولا.
[13] ع م - رسولا بقولهم ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب.
[14] سورة المؤمنون، ٣٣/٢٣.
[15] م - نجوا.

فكيف لم يقلّدوا مَن نجا منهم و لم يعبدوا غير الله دون أن قلّدوا الذين عبدوا غير الله؟ فذلك تناقض حيث اتّبعوا من هلك منهم بتكذيبهم الرسول[١] وعبادتهم غير الله،[٢] و لم يتّبعوا من نجا منهم. يَذكر عز وجل سَفَههم وتناقضهم في القول في إنكارهم الرسول من البشر، ولكن ذَكَر سَفَههم وتناقضهم بالتعريض / لا بالتصريح. وكذلك عامة ما ذكر في كتابه مِن سَفَههم إنما ذكر بالتعريض. [٢٥٥و]

وقوله عز وجل: **فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**، أنه كان يَعِدهم[٣] العذاب إن لم يصدّقوه فيما يدعوهم[٤] إليه ويتركوا[٥] تقليدهم آباءهم في عبادتهم غير الله.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[٧١]

وقوله عز وجل: **قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب**، قال بعضهم: الرجس العذاب، أي قد وجب[٦] عليكم العذاب بتكذيبكم[٧] هودا أو تقليدكم آباءكم في عبادتكم غير الله. **وغضب**، وهو العذاب أيضا. وجائز أن يكون الرجس هاهنا الخذلان وحرمان التوفيق والمعونة، أي **قد وقع عليكم** ووجب الخذلان وحرمان التوفيق باختياركم ما اخترتم. وقال بعضهم: الرجس هو الإثم والخبث، كقوله تعالى: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ،[٨] وقوله: رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ،[٩] وقوله [صلى الله عليه وسلم]: «اللهم إني أعوذ بك من الرجس النَّجِس الخبيث المُخْبِث[١٠] الشيطان الرجيم».[١١]

---

[١] ع م: الرسل.
[٢] ع – غير الله.
[٣] ع م: يعد.
[٤] ن – فيما يدعوهم.
[٥] ك ن م: وترك؛ ع: وتر؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٩و.
[٦] ك: قد وقع؛ ع م: وقد وجب.
[٧] م: بتكذيبهم.
[٨] سورة الحج، ٣٠/٢٢.
[٩] ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ (سورة المائدة، ٩٠/٥).
[١٠] جميع النسخ + من.
[١١] روي ذلك مرفوعا من عدة طرق على أنه دعاء يقرأ قبل دخول الخلاء؛ انظر: *سنن ابن ماجة*، الطهارة ٩؛ و*المراسيل* لأبي داود، ٧٢؛ و*المستدرك على الصحيحين* للحاكم، ٢٩٧/١. وروي موقوفا على ابن مسعود وحذيفة رضي الله عنهما؛ انظر: *المصنف* لابن أبي شيبة، ١١/١.

وقوله عز وجل: **أتجادلونني في أسماءٍ سَمَّيتموها**، ومجادلتهم ما قالوا: أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ.[1] ويحتمل **في أسماء**، أي بأسماء **سميتموها**.

وقوله عز وجل: **ما نزّل الله بها من سلطان**، قيل: حجة، أي لم ينزّل لهم حجة في عبادتهم غير الله. وقيل: السلطان هاهنا العذر،[2] أي لم ينزل لهم عذرا في ذلك. وقوله عز وجل: **فانتظروا**، أي انتظروا أنتم وعد الشيطان، **إني معكم من المنتظرين**، وَعْدَ الرحمن.

وقوله عز وجل: **ما نزّل الله بها من سلطان**، أي من حجة في تسميتهم الأصنام التي عبدوها دون الله ما سمّوها آلهة وشفعاء ونحوه. كأنهم إنما جادلوه في تسميتهم آلهة وشفعاء، وأنْ ليس[3] لهم حجة ولا عذر في عبادتهم غير الله، ولا في إشراكهم غيره في العبادة والألوهية. **فانتظروا**، قال الحسن: انتظروا أنتم مَواعِد الشيطان، **إني معكم من المنتظرين**، لمواعد الله.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٧٢]

وقوله عز وجل: **فأنجيناه**، يعني هودا، **والذين معه برحمة منا**، أنَّ[4] مِن حُكم[5] الله أنه إذا أهلك[6] قوما إهلاك تعذيب استأصلهم وأنجى أولياءه ونصرهم. وقوله عز وجل: **برحمة منا**، يحتمل[7] برحمته[8] التي [بها] هَداهم عز وجل، ولو لا رحمته ما اهتدوا، لكنه رحمهم فهداهم، فبرحمته اهتدوا. ويحتمل أنه إنما[9] أنجاهم من العذاب برحمة منه، وإلا كانت لهم ذنوب وخطايا يستحقون بها العذاب، لكنه أنجاهم برحمته[10] وفضله.[11] *والله أعلم*. وفيه أنّ من[12] نُجّي إنما نُجّي[13] برحمته وفضله وإن كان رسولا،[14]

---

[1] الآية السابقة.
[2] جميع النسخ: عذر.
[3] ك: أو أن ليس.
[4] أي لأن.
[5] ع: أي من حكم.
[6] م: إذا هلك.
[7] ك + قوله برحمة منا؛ ن – يحتمل؛ ع م + قوله.
[8] ك: برحمة.
[9] ع م – إنما.
[10] ك: برحمة منه؛ ن: برحمة.
[11] ك ن ع: وفضل.
[12] ع – من.
[13] م – إنما نجي.
[14] ك: وإن كان هو.

لا[1] باستيجاب النجاة منه.[2] وهو ما روي حيث قال: «لا يدخل أحد الجنة[3] إلا برحمة الله». قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته».[4]

وقوله عز وجل: **وقَطَعْنا دابر الذين كذّبوا بآياتنا**، قيل: **دابر الذين كذبوا**، أي أواخر **الذين كذبوا** آياته. أي استأصلهم فلم يَبْقَ منهم أحد. وقيل: **دابر الذين كذبوا**،[5] أي أصل **الذين كذبوا بآياتنا**. و لم يبين لنا آياته[6] التي أعطاها[7] هودا، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة[8] سوى ما أخبر أنّ ما حلّ بهم من العذاب إنما حلّ بتكذيبهم الرسول، وذلك كان سُنّته وحُكمه[9] في الأمم السالفة.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٧٣]

وقوله عز وجل: **وإلى ثمود أخاهم صالحا**، قد ذكرنا[10] أنه صلة قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ،[11] كأنه قال: و أرسلنا **إلى ثمود أخاهم صالحا**. وقوله عز وجل: **أخاهم**، قد ذكرنا[12] أنه[13] تحتمل[14] الأخوّة وجوها أربعة: أخوة النسب، وأخوة الجوهر والشكل –على ما يقال: هذا أخو هذا،[15] إذا كان من جوهره وشكله– وأخوة المودة والخُلّة، وأخوة الدين.

---

[1] م – لا.
[2] ك ن م: منه النجاة؛ ع: من النجاة.
[3] م: الجنة أحد.
[4] *صحيح البخاري*، الرقاق ١٨؛ وصحيح *مسلم*، صفة القيامة ٧٢.
[5] ع م – قيل دابر الذين كذبوا أي أواخر الذين كذبوا آياته أي استأصلهم فلم يبق منهم أحد وقيل دابر الذين كذبوا.
[6] ع: آية.
[7] ن ع م: أعطى.
[8] ع – حاجة.
[9] ن ع م: سنة وحكمة.
[10] لعله يقصد ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ (سورة الأعراف، ٦٥/٧)، فالأسلوب واحد في الآيتين.
[11] سورة الأعراف، ٥٩/٧.
[12] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٦٥/٧.
[13] الهاء ضمير الشأن.
[14] ن ع م: يحتمل.
[15] ن: أخو بذ.

ثم يحتمل أن يكون ما ذكر من أخوة صالح[1] في النسب أو في الجوهر على ما ذكرنا في هود، ولا يحتمل أن يكون في المودة والدين. وأما أخوة النسب فإنه يحتمل[2] لما ذكرنا[3] أن بني آدم كلهم إخوة وإن بَعُدوا، لأنهم كلهم من أولاد آدم.

وقوله عز وجل: **قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**، قد ذكرنا[4] أن الرسل بأجمعهم صلوات الله عليهم إنما بُعِثوا ليدعوا الخلق إلى وحدانية الله والعبادة له، وأنْ لا[5] معبودَ سواه يستحق العبادة من الخلق.

وقوله عز وجل: **قد جاءتكم بينة من ربكم**، قيل فيه بوجهين. قيل: **بينة من ربكم**، ما ذكر من الناقة التي جعلها الله[6] آية لرسالة صالح؛ وهو قوله:[7] **هذه ناقة الله لكم آية**. وقيل: **بينة من ربكم**، آيات ظهرت لهم على لسان صالح وجَرَت على يديه مما يدل[8] على رسالة صالح ونبوته، لكنهم كابروا تلك الآيات في التكذيب وعاندوا.

وقوله عز وجل: **هذه ناقة الله لكم آية**، وَجْه تخصيص إضافة تلك الناقة إلى الله يحتمل وجوها وإن كانت النُّوق كلها لله في الحقيقة. أحدها لِما خُصَّت تلك بتذكير عبادة[9] الله[10] تعالى إياهم ووحدانيته[11] تعظيما لها. على ما خُصّت المساجد بالإضافة إليه بقوله: وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ،[12] لِما جُعلت تلك البقاع لإقامة عبادة الله، فخُصّت بالإضافة إليه تعظيما لتلك البقاع. فعلى ذلك هذه الناقة قد[13] خُصّت بالإضافة إليه[14] لِما جعلها الله آية من آياته خارجةً عن غيرها[15] مِن النُّوق،

---

[1] ن ع م + كان أخوهم.
[2] ك: محتمل.
[3] ك ع م + لما.
[4] ك: وقد ذكرنا. وانظر: الموضع السابق.
[5] ع م: أن لا.
[6] ك ن - الله.
[7] م - قوله.
[8] جميع النسخ: ما يدل.
[9] ن ع م: عبادته.
[10] ع م - الله.
[11] م: ووحدانية.
[12] سورة الجن، ١٨/٧٢.
[13] ك - قد.
[14] ع م - تعظيما لتلك البقاع فعلي ذلك هذه الناقة قد خصت بالإضافة إليه.
[15] ع م: من غيرها.

مخالفةً بُنيتُها بُنيةَ غيرها، إما خِلقةً وإما في ابتداء إحداثها وإنشائها[١] أو في أي شيء كان، فأضافها إليه لذلك. *والله أعلم.*[٢]

ثم لا يجب أن يُتكلَّف المعنى[٣] الذي له جعل الناقة آية، لأنه جل وعلا لم يبين لنا ذلك المعنى، فلو تُكُلِّف ذِكرُ ذلك فلعله يخرج / على خلاف ما كان في الكتب الماضية. فهذه القصص[٤] وأخبار [٢٥٥ظ] الأمم الماضية إنما ذُكرت في القرآن لتكون آية لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فلو ذُكرت على خلاف ما كان لكان[٥] لهم في ذلك مقال. ويحتمل معنى الإضافة إليه وجها آخر؛ وهو أنه لم يجعل منافع هذه الناقة لهم، ولا جعل عليهم مؤنتها،[٦] بل أخبر أنْ **ذَرُوهَا تأكل في أرض الله**، جعل مؤنتها فيما يخرج[٧] من الأرض، ليست كسائر النوق التي جعل مؤنتها عليهم ومنافعها لهم بإزآء ما جعل عليهم من المؤن؛ فمعنى التخصيص بالإضافة إليه لما لم يُشرِك فيها أحدا[٨] ولا في منافعها. *والله تعالى أعلم.*

وقوله عز وجل: **فذروها تأكل في أرض الله**، [فيه] دلالة أنّ تلك الناقة كان غذاؤها مثل غذاء سائر النُّوق وإن كانت خارجة عن طباع سائر النُّوق من جهة[٩] الآية، ليُعلَم أنها وإن كانت آية لرسالته ودلالة لنبوته[١٠] فتَشابهُها[١١] لسائر النُّوق في هذه الجهة لا[١٢] يُخرجها عن حكم الآية.

---

[١] ع: وإفشائها. زاد الشارح: «... حيث خلقها بلا أصل حيواني يتولد منه على خلاف سائر الحيوانات» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٩و).

[٢] وقد زاد الشارح علاء الدين السمرقندي رحمه الله في بيان وجوه تخصيص إضافة تلك الناقة إلى الله تعالى قائلا: «والثاني يجوز أن يكون تخصيص هذه الناقة بالإضافة إليه أنه جعلها آية من آياته خارجةً عن غيره من النُّوق مخالِفةً بنيتُها بنيةَ غيرها، إمّا خِلقةً، وإما في ابتداء إحداثها وإنشائها حيث خلقها بلا أصل حيواني يتولّد منه، على خلاف سائر الحيوانات، لذلك أضافها إليه. والله أعلم. ويحتمل الإضافة إليه وجها آخر؛ وهو أنه لم يجعل منافع هذه الناقة لهم، ولا جعل عليهم مؤنتها، بل أخبر أنْ ذَرُوها تأكل في أرض الله، جعل مؤنتها مما يخرج من الأرض، ليست كسائر النُّوق التي جعل مؤنتها عليهم ومنافعها لهم. يعني التخصيص بالإضافة إليه لما هي خالص لله تعالى، لم يجعل للعباد فيها حقًا ولا مِلكا ولا في منافعها» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٩و-ظ).

[٣] ع: معنى.

[٤] ع: فهو القصص.

[٥] ع م - لكان.

[٦] ك: لهم مؤنتها.

[٧] ك: مما يخرج.

[٨] ك: فيهما أحدا.

[٩] ع - جهة.

[١٠] م: النبوة.

[١١] ع: فتشابههما.

[١٢] ن - لا.

فعلى ذلك الرسل وإن كانوا ساوَوا غيرَهم من الناس في المطعم والغذاء لا يمنع ذلك من أن يكونوا رسلا. *والله أعلم بذلك*.[1]

وقوله عز وجل: **ولا تمسوها بسوء**، يحتمل لا تتعرضوا لها قتلا ولا قطعا ولا عَقْرا، لما ليست هي لهم. **فيأخذكم عذاب أليم**، وفي موضع[2] آخر: فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ؛[3] فهذا يدل على أنه إنما أراد بالعذاب الأليم عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة؛ لأنه قد يأخذهم عذاب الآخرة بكفرهم، فالوعيد بأخذ العذاب لهم عذاب الدنيا. *والله أعلم*.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٧٤]

وقوله عز وجل: **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد**، قد ذكرنا تأويله في قصة هود.[4] **وبوّأكم في الأرض**، قيل: أنزلكم فيه. **تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا**، يُذكّرهم عز وجل ما أنعم عليهم من سعة المال وبَسْط الرزق لهم وما خصّهم من اتخاذ البيوت من الجبال[5] دون غيرهم من الناس. خصّ هؤلاء بسعة الرزق وبسط الأموال، وقومَ هود بالقوة والبطش، بقوله:[6] وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً،[7] وقال في آية أخرى: وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً،[8] وقال: وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ.[9] كان خصّهم بفضل القوة[10] والبَطْش والطَّوْل مِن بينِ[11] غيرهم، وهؤلاء بسعة الأرزاق لهم وبسط الأموال. **فاذكروا آلاء الله**، من السعة في الأموال والبسط، وبما **جعلكم خلفاء من بعد عاد**، وبما أَقْدَرَكم على اتخاذ[12] البيوت **من الجبال**. لم يَقْدِر على مثله أحد لأن غيرهم من الخلائق إنما ينتفعون بالجبال على ما هي عليها،

---

[1] ع: كذلك.
[2] م: وفي مواضع.
[3] سورة هود، ٦٤/١١.
[4] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٦٩/٧؛ وانظر تفسير الآيات من سورة هود، ٦١/١١-٦٨.
[5] ع: والجبال.
[6] ك: لقوله.
[7] سورة الأعراف، ٦٩/٧.
[8] سورة فصلت، ١٥/٤١.
[9] سورة الشعراء، ١٣٠/٢٦.
[10] ك: للقوة.
[11] ك - بين.
[12] ن ع م: من اتخاذ.

وأما هم فقد مكّن لهم على نَحْتها[١] واتخاذها بيوتا. **ولا تعثوا في الأرض مفسدين**، أي اذكروا نعمه[٢] ولا تشركوا في عبادتكم غيره.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[٧٥]

وقوله عز وجل: **قال الملأ الذين استكبروا من قومه**، قد ذكرنا[٣] أن الملأ من قومه هم كبراؤهم وسادتهم، استكبروا عليه لما رأوه دون أنفسهم في أمر الدنيا، فلم يتبعوه. وقوله عز وجل: **للذين استضعفوا لمن آمن منهم**، فيه دلالة أن من المستضعفين من قومه من لم يكن آمن، حيث خصّ **لمن آمن منهم**. وفيه أن أول من اتبع الرسل هم الضعفاء، وكذلك كان الأتباع للرسل جميعا الضعفاء. وقولهم: **أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون**، قول هؤلاء الذين آمنوا بصالح عليه السلام وصدّقوه في رسالته لم يخرج في الظاهر جوابَ ما سألوا؛ لأنهم قالوا: **أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه**، إنما سألوهم عن علمهم برسالته،[٤] لم يسألوهم عن إيمانهم به، فهم إنما أجابوا عن غير[٥] ما سألوا في الظاهر. لكن يجوز أن يكنى بالعلم عن الإيمان،[٦] فكأنهم[٧] قالوا لهم: أتؤمنون بصالح وتصدّقونه؟ لأن العلم بالشيء قد[٨] يقع بلا صنع،[٩] والإيمان لا يكون إلا بصنع منهم، فكأنهم إنما سألوهم عن الإيمان به. لذلك قالوا: **إنا بما أرسل به مؤمنون**. والثاني كأنهم قالوا: بل علمنا أنه[١٠] مرسل من ربه، و **إنا بما أرسل به مؤمنون**. وفيه دلالة أنّ مَن مُكّن له من العلم بأسباب جُعِلت له يصل[١١] بها إلى العلم[١٢] لم يُعذَر[١٣] بجهله في ذلك بعد ما أُعطِي أسبابَ العلم، حيث قالوا: **أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه**، أي لا تعلمون.[١٤]

---

[١] ع: على تحتها.
[٢] ن ع م: نعمته.
[٣] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٧/٦٠؛ وانظر أيضا تفسير الآيات من سورة هود، ١١/٦١-٦٨.
[٤] ع: رسالته.
[٥] ع م: عن غيرها.
[٦] ك ن ع: بالعلم الإيمان.
[٧] ع م: فكأنها.
[٨] ن ع م - قد؛ ع م + فيه.
[٩] ع + والإيمان لا يكون إلا بصنع.
[١٠] ن + إلا بصنع منهم فكأنهم إنما سألوهم عن الإيمان به لذلك قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون.
[١١] ك: يصله.
[١٢] ك ع م + به.
[١٣] ع م: لم يقدر.
[١٤] يعني أنه استفهام إنكاري.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[٧٦]

وقوله عز وجل: **قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون**، فيه دلالة أن[١] الإيمان هو التصديق في اللغة. والتكذيب هو ضد ما يكون به التصديق، حيث أجابوا بالتكذيب لإيمانهم به، لقولهم: إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ.[٢] فهؤلاء لم يعرفوا جميع الطاعات إيمانا على ما عرفوه[٣] بعض الناس، إنما عرفوه تصديقا.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٧٧]

وقوله عز وجل: **فعقروا الناقة**، أضاف هاهنا العَقْر إليهم جميعا، وفي موضع آخر أضاف إلى الواحد بقوله:[٤] فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ،[٥] وفي سورة وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا،[٦] كذلك أضاف إلى الواحد: إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا.[٧] لكن فيما كان مضافا إليهم جميعا يحتمل أنْ تَوَلَّى واحدٌ منهم عَقْرَها بمشورتهم[٨] جميعا ومعونتهم وتدبيرهم وتراضيهم على ذلك؛ فأضيف[٩] إليهم ذلك[١٠] لاجتماعهم على ذلك، وإلى الواحد فيما تَولَّى جَرْحَها ومَنْعَها عن السير. ففيه دلالة لمذهب أصحابنا أنّ قُطَّاع الطريق إذا تولَّى بعضهم القتل وأَخْذَ الأموال ولم يتولَّ بعضهم يُشاركون جميعا -مَن تولَّى منهم ومن لم يتولَّ- في حكم قُطَّاع الطريق بعد أن يكون بعضهم عَوْنا / لبعض. [٢٥٦و] وكذلك إذا اجتمع قوم على قتل واحد فتولَّى بعضهم القتل ولم يتولَّ بعض -بعد أن كانوا في عَوْن أولئك- فإنهم يُقتَلون جميعا. وعلى ذلك يخرج قول عمر رضي الله عنه حيث قال: لو تَمَالأَ عليه أهلُ صَنْعَاءَ لقَتَلْتُهم،[١١] وأهل صنعاء إذا اجتمعوا لا سبيل للكل أن يتولَّوا قَتْله،

---

[١] ع م – أن.

[٢] الآية السابقة.

[٣] م: على ما عرفوا.

[٤] ك: لقوله.

[٥] سورة القمر، ٢٩/٥٤.

[٦] سورة الشمس، ١/٩١.

[٧] سورة الشمس، ١٢/٩١.

[٨] ك: بمشعرتهم.

[٩] ع م + على ذلك.

[١٠] جميع النسخ: لذلك.

[١١] م: لقتلهم. روي عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قَتَل نَفَرا خمسة أو سبعة برجلٍ واحدٍ قَتَلوه قَتْلَ غِيلَة، وقال عمر: لو تَمالأ عليه أهلُ صَنْعَاء لقتلتُهم جميعا (*الموطأ* للمالك، العقول ١٣؛ وصحيح *البخاري*، الديات ٢١؛ و*الدراية* لابن حجر، ٢٧٠/٢). وتمالأ القوم أي تعاونوا وتناصروا (*لسان العرب* لابن منظور، «ملأ»). والغِيلة الخديعة (المصدر السابق، «غيل»).

فدل أنه على العون والنصر بعضهم لبعض،[1] فيشاركون جميعا في القصاص على ما شارك أولئك جميعا في العذاب -مَن تولّى عقْرَها ومن لم يتولَّ- بعد أن كان[2] ذلك العَقْر بمعونتهم وبتراضيهم[3] على ذلك. **والله أعلم.**

[٢٥٦و س٧ * وقوله عز وجل: **وعَتَوْا عن أمر ربهم**، العُتُوّ هو النهاية في التمرّد والخلاف لأمره على العلم منهم بالخلاف لا على الغفلة والجهل.* ٢٥٦و س٨]

وقوله عز وجل: **وقالوا يا صالح ائتنا بما تَعِدُنا إن كنت من المرسلين** فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ،[4] إنما أخذهم العذاب لما استعجلوا منه العذاب وكذّبوه فيما يُوعِدهم العذاب ويَعِدهم.*

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[٧٨]

وقوله عز وجل: **فأخذتهم الرجفة**، قيل: الزلزلة، وقيل: الصيحة. وقال في آية أخرى: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ،[5] وقال في آية أخرى: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ،[6] والقصة في ذلك[7] كله واحدة،[8] فجائز أن يكون[9] ذلك واحدا[10] وإن اختلفت[11] الألفاظ؛[12] وهو عبارة عن العذاب. وجائز أن تكون[13] الصيحةُ لَمّا صِيحَت[14] بهم صَعِقوا جميعا فماتوا؛ وهو واحد.

---

[1] جميع النسخ: لبعضهم بعضا. وقد وقع في شرح *التأويلات* ما يلي: «... كأنّ هذا غلط من الكاتب، فإن الجرح من من كل واحد شرط لوجوب القصاص عليهم. أمّا (أي لكن) لا يجب على الرِّدْء (أي المساعد) عندنا قصاص، إنما يجب في قطع الطريق، إذ كان لهذا (أي للقصاص) رواية منصوصة أن الجرح شرط. وإلا فالصحيح ما ذكر هاهنا أنه يجب على الرِّدْء (أي في قطع الطريق)» (شرح *التأويلات*، ورقة ٢٩٩ظ-٣٠٠و؛ ونسخة المدينة، ورقة ٣٣٣و). وانظر لتفصيل المسألة في الفقه: *الهداية* للمرغيناني، ١٣٣/٢؛ *ولسان الحكام* لابن الشحنة، ٣٩٠.

[2] ع: بعد كان.

[3] ك: وتراضيهم.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن محله من تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٥٦و/سطر ٧-٨.

[4] الآية التالية.

* وقعت هنا جملة من تفسير الآية متأخرة عن محلها، فقدمناها إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٥٦و/سطر ٧-٨.

[5] ع م - وقال في آية أخرى فأخذتهم الصيحة. والآية في سورة الحجر، ٨٣/١٥.

[6] سورة الذاريات، ٤٤/٥١.

[7] ع: في في ذلك.

[8] جميع النسخ: واحد.

[9] ع م: أن تكون.

[10] جميع النسخ: واحد.

[11] جميع النسخ: وإن اختلف.

[12] م: ألفاظ.

[13] ك ن: أن يكون.

[14] جميع النسخ: لما صيح.

وقوله عز وجل: **فأصبحوا في دارهم جاثمين**، قيل: ميتين، وقيل:[1] لازقين بالأرض، قد ماتوا وذهبوا. ويقال: جَثَم الطائر، إذا لَزِق بالأرض.[2] يقال: أَجْثمتُه، أي ألزقته بالأرض. والمُجَثَّمَة، يقال: طائر يُشَدّ جناحاه ورجلاه ثم يوضع بالأرض ثم يُرمَى بالنَّبْل حتى يموت. يقال: جَثَّمْتُ الطائر، أي شددت رجليه وجناحيه. يقال: جَثَم يجثِم[3] جُثُوما[4] وجَثْما، إذا فعل ما ذكرنا.[5]

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[٧٩]

وقوله عز وجل: **فتولى عنهم**، أي أعرض عنهم وخرج من بينهم حين علم أن العذاب ينزل[6] بهم. **وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم**، والنصيحة ما ذكرنا[7] أنّ كلّ مَن دلّ آخر على ما به نجاته وسعى على دفع البلاء والهلاك[8] عنه فهو ناصح له. فعلى ذلك صالح وغيره من الرسل قد دلّوا قومهم على ما به نجاتهم وسعوا على دفع الهلاك عنهم، لكنهم[9] لم يقبلوا النصيحة منهم.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[٨٠]

وقوله عز وجل: **ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة**؛ ذُكِر في غيره من الأنبياء دعاؤُهم قومَهم إلى عبادة الله ووحدانيته، على ما قال نوح: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ،[10] وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء، ولم يذكر في لوط ذلك ههنا. ولا يحتمل[11] أن لم يكن منه الدعاء إلى ما كان من غيره من الأنبياء إلى توحيد الله وعبادته قبل النهي عن الفواحش[12] والتعيير عليها.

---

[1] م – قيل.
[2] ك: بالطائرض.
[3] ن – يجثم، صح هـ.
[4] ع م – جثوما.
[5] انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «جثم».
[6] ع: تنزل.
[7] انظر تفسير الآيتين من سورة الأعراف، ٦٢/٧، ٦٨.
[8] ك: الهلاك والبلاء.
[9] ن – لكنهم.
[10] سورة الأعراف، ٥٩/٧.
[11] ك: ولم يحتمل.
[12] ن: من الفواحش.

وهو ما ذكر في آية أخرى: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ؛[1] لأنه[2] كان من الأنبياء صلوات الله عليهم دعاءُ قومهم إلى عبادة الله ووحدانيته[3] أولا، ثم النهي عما ارتكبوا من الفواحش والمعاصي والتعيير عليها.[4]

وقوله عز وجل: **أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين**؛ قوله:[5] **ما سبقكم بها من أحد**، يحتمل أن يكون منهم ما كان من سائر الأقوام [مِن] تقليد الآباء في العبادة لغير الله، كقولهم: أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا،[6] وقولهم:[7] وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ، و مُقْتَدُونَ،[8] وقولهم:[9] بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ،[10] ونحوِ ما قالوا؛ فعلى ذلك [كان] من قوم لوط لِلوطِ لمّا دعاهم إلى عبادة الله ووحدانيته، فأجابوه بما أجاب الأقوامُ لأنبيائهم مِن التقليد لآبائهم، فقال: **أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين**، أي تعملون[11] أنتم أعمالا لم يعملها[12] آباؤكم، ولا تقلّدون آباءكم في تركها مِن نحو ما ذُكر من إتيان الفاحشة. وقال:[13] **ما سبقكم بها من أحد من العالمين**، يُعيّرهم ويُسفّه أحلامهم في إتيان ما يأتون من **الفاحشة** التي لم يسبقهم **أحد**[14] **من العالمين** على علمٍ منهم أنّ ذلك **الفاحشة**؛ ألا ترى أنهم[15] قالوا: إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ.[16] ذكر هذا القول منهم[17] على أن ما يأتون من الفواحش

---

[1] سورة الشعراء، ٢٦/١٦٠-١٦٣.
[2] ن ع م: الاية.
[3] ع م: ووحدانية.
[4] ن – عليها.
[5] جميع النسخ: وقوله.
[6] سورة الأعراف، ٧/٧٠.
[7] ك: وقوله.
[8] ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنا على آثارهم مُهتَدون. وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مُترَفُوها إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنا على آثارهم مُقْتَدون﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/٢٢-٢٣).
[9] ك ع م: وقوله.
[10] سورة الشعراء، ٢٦/٧٤.
[11] م: أي تعلمون.
[12] م: أعمالا يعملها.
[13] ن ع م: فقال.
[14] ع: أحدهم.
[15] ع م – أنهم.
[16] سورة الأعراف، ٧/٨١.
[17] ن ع م – منهم.

يأتون على علمٍ منهم[1] أنها فواحش، حيث قالوا: إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ.

ثم قوله: فاحشة لما في العقل [أن] هذا فاحش محرَّم، والفاحش [على] ما ذكرنا[2] [أنه] كل قبيح في[3] العقل والشرع؛ لأن ما حرّم من المحرّمات على الخلق وأحلّ [من] المحلّلات محنة منه لهم على ذلك. ثم جُعل فيما أحلّ لهم من الأطعمة والأشربة والاستمتاع بالنساء والجواري دوامٌ لهذا العالم؛ لأنهم لو تركوا التناول من ذلك لهلكوا، فإذا هلكوا انقطع هذا العالم لما ينقطع نسلهم. ثم ركّب فيهم الشهوات والحاجات التي تبعثهم على التناول مما أحلّ لهم ليدوم هذا العالم، لا أنه أحلّ لهم للشهوة خاصة، ولكن لما ذكرنا. فأخبر أن ما يأتون هم هو فاحشة لما ليس إتيانهم إياها[4] إلا لنفس قضاء الشهوة، إذ ليس في ذلك دوام العالم وبقاؤه، فهو في العقل فاحش محرّم وإن لم يَرِد فيه النهي. *والله أعلم*.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[٨١]

وقوله عز وجل: **بل أنتم قوم مسرفون**. الإسراف هو الإكثار من الشيء والمجاوزة عن الحد؛ كقوله: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَامًا.[5] القَتْر هو التضييق، والإسراف هو الإكثار، حيث قال: وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَامًا. فإذا كان الإسراف هو الإكثار من الشيء فكان لوط سماهم مسرفين لما / أكثروا من ذلك النوع من الفواحش [٢٥٦ظ] وجاوزوا الحد. *والله أعلم*. ويحتمل قوله: **مسرفون**، وجوها ثلاثة. أحدها ما ذكرنا من إكثار الفعل. والثاني **مسرفون**، لما ضيّعوا ما أنعم الله عليهم، حيث أعطى لهم الأزواج فضلاً[6] منه ونعمة، حيث أخبر: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا،[7] وكقوله:[8] وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا،[9] ونحوه. [ذكر] ما جعل لهم من الأزواج،

---

[1] ن – أن ذلك الفاحشة ألا ترى أنهم قالوا إنهم أناس يتطهرون ذكر هذا القول منهم على أن ما يأتون من الفواحش يأتون على علم منهم.

[2] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٢٨/٧.

[3] ع م – العقل هذا فاحش محرم والفاحش ما ذكرنا كل قبيح في.

[4] ع: إياهم؛ م: آباءهم.

[5] سورة الفرقان، ٦٧/٢٥.

[6] ك: وفضلا.

[7] سورة الروم، ٢١/٣٠.

[8] ك: وقوله.

[9] سورة النحل، ٧٢/١٦.

ثم هم لم يشكروه على ما أنعم عليهم، بل ضيّعوها وجعلوها في غير ما جَعَل[1] هو[2] لهم، فذلك إسراف منهم. والثالث[3] الإسراف هو المجاوزة عن الحد الذي جعل لهم، فهم قد جاوزوه.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[٨٢]

وقوله عز وجل: **وما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**؛ قوله: **وما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا** كذا، كان من قومه أجوبةٌ ليس على أنه لم يكن منهم مِن أول الأمر إلى آخره إلا هذا،[4] ولكن لم يكن من جواب قومه وقتَ ما نهاهم عمّا ارتكبوا من الفواحش وعَيّرَهم[5] عليها إلا ما ذكر: **أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهّرون،** لما ينهاهم ويعيّرهم على ذلك. ويحتمل ما قال أهل التأويل: **يتطهرون** من أدبار الرجال. وقيل: يتحرّجون عن ذلك ويَعِيبون عليهم في ذلك. والثاني **ما كان جواب قومه**، لبعضهم، **إلا أن قالوا أخرجوهم**؛ وأما لِلوط كان منهم له أجوبة،[6] كقوله: **وما كان جواب قومه إلا أن قالوا** كذا، وقال في آية[7] أخرى: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ،[8] هذا فيما بينهم وبين لوط، والأول[9] فيما بينهم، قال بعضهم لبعض: **أخرجوهم**. أو لاختلاف المَشاهد[10] والمَجالس.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[٨٣]

وقوله[11] عز وجل: **فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين**، الغابر الغائب،[12] يقال: غَبَرت أي غِبْت،[13] أي **كانت من** الغائبين عن لوط وأهله وقت العذاب. وقيل: **من الغابرين**، أي من الباقين في العذاب.

---

[1] ك: بما جعل.
[2] ن - هو.
[3] ك: والثالثة.
[4] ع م: آخره هذا.
[5] ن ع م: وغيرهم.
[6] ع م: عنهم لأجوبة.
[7] ك - آية.
[8] سورة العنكبوت، ٢٩/٢٩.
[9] ع م: الأول.
[10] ع: المشاهدة.
[11] ن: قوله.
[12] غَبَر الشيء يَغْبُر غُبُورا مكث وذهب، وغَبَر الشيء يَغْبُر أي بقي، والغابر: الباقي، والغابر: الماضي، وهو من الأضداد (*لسان العرب* لابن منظور، «غبر»).
[13] ن ع م: أي غيبت.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[٨٤]

وقوله عز وجل: **وأمطرنا عليهم مطرا**، اختلف فيه؛ قال بعضهم: قُلِبت[١] قَرَيَات لوط وجُعِل عالِيُهَا سافلَها، على ما ذكر في الآية: جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا،[٢] ثم أُمطِر على من كان غاب منهم الحجارة. وقال بعضهم: قُلِبت القَرَيَات فأُمطِرت على أهلها كالمطر. وقال آخرون: قُلِبت الأرض وأُمطِر عليها حجارة من سِجِّيل تُسَوِّى الأرض، أو كلام نحو هذا.

ثم العذاب في الأمم لم يأتهم في الدنيا بنفس الكفر، ولكن لِما كان منهم من استحلال أشياء حُرِّمت[٣] عليهم، ومِن قَتْلِ الأنبياء وأذاهم، والمكابَرات التي كانت[٤] منهم، بعد علمهم أنهم على باطل وعناد.

وقوله عز وجل: **فانظر كيف كان عاقبة المجرمين**، هذا الخطاب جائز أنه ليس[٥] لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، ولكن لكل أحدٍ أُمِر بالنظر فيما حلّ بالأمم السالفة بتكذيبهم الرسل وعنادهم، ليكونوا على حَذَر من صنيعهم[٦] لِأَن لا يحلّ بهم ما حلّ بأولئك. وجائز أن يكون الخطاب لرسوله خاصة. فإن كان له فكأنه أمره أن ينظر في **عاقبة المجرمين** ليرحمهم ولا يدعو عليهم بالهلاك والعذاب.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٨٥]

وقوله عز وجل: **وإلى مَدْيَنَ أخاهم شعيبا**، هو ما ذكرنا فيما تقدم،[٧] أي أرسلنا شعيبا إلى مَدْيَنَ رسولا. وقوله: **أخاهم**، قد ذكرنا فيما تقدم[٨] الأخوة[٩] أنها تكون لوجوه:

---

[١] ن: فليست.
[٢] سورة هود، ٨٢/١١.
[٣] جميع النسخ: حرم.
[٤] ع م: كان.
[٥] م: أن ليس.
[٦] ك ع م: عن صنيعهم.
[٧] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٦٥/٧.
[٨] انظر: نفس الموضع.
[٩] ع: والأخوة؛ م – الأخوة.

أخوة النسب وأخوة الجوهر وأخوة المودة والخُلّة،[1] وأخوة الدين. فلا تحتمل[2] أخوةُ الأنبياء أولئك أخوةَ الدين والمودة، لكن تحتمل[3] أخوة الجوهر والنسب.

وقوله عز وجل: **قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**، قد ذكرنا[4] أيضا أن الرسل إنما جاءوا وبُعِثوا بالدعاء إلى توحيد الله والعبادة له وأن لا معبود يستحق العبادة سواه.

وقوله عز وجل: **قد جاءتكم بينة من ربكم**، قال بعضهم: كانت نَفْسُ شعيبٍ بينة وحجة لقومه، لكنا لا نعلم ذلك، غَيْرَ أَنَّا نَعلم أنه كانت معه آيات وبراهين، لكن الله لم يبيّن لنا ذلك. ونَفْس محمد عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات كانت حجة وبينة[5] بالأعلام[6] التي جَعل له في نفسه؛ مِن ذلك الخَتْم الذي كان بين كتفيه،[7] والنورُ الذي كان في وجه مَن كان هو[8] في صُلْبِه وقت كونه فيه،[9] والضوءُ[10] الذي روي أنه كان وقت ولادته،[11] والغَمامُ الذي أَظَلَّه وقت غَيْبته عن أهله،[12] وحِفظُه نَفْسَه عن جميع ما كان يتعاطاه قومه من عبادتهم[13] الأصنام وتَعاطِيهم الفواحش،[14] فهو صلى الله عليه وسلم كان بريئا من ذلك كله،

---

[1] ك: الخلة والمودة.

[2] ن ع م: فلا يحتمل.

[3] ن ع: لكن يحتمل.

[4] ع: وقد ذكرنا. وانظر: نفس الموضع.

[5] ك: بينة وحجة.

[6] جميع النسخ: بأعلام.

[7] *صحيح البخاري*، المناقب ٢٢؛ و*صحيح مسلم*، الفضائل ١١١.

[8] ن ع م - هو.

[9] *السيرة النبوية* لابن هشام، ١/٢٩٢-٢٩٣.

[10] م: والضراء.

[11] عن العرباض بن سارية السلمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لَمُنجَدِل في طِينَتِه، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين» (*مسند أحمد بن حنبل*، ٤/١٢٨). وله شاهد آخر؛ انظر: (*مسند أحمد بن حنبل*، ٤/١٨٤؛ و*سنن الدارمي*، المقدمة ٣).

[12] *السيرة النبوية* لابن هشام، ١/٣٢٠؛ و*سنن الترمذي*، المناقب ٣؛ وحسنه الترمذي.

[13] ك: من عبادة.

[14] *السيرة النبوية* لابن هشام، ١/٣٢٣. من ذلك ما روي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينقل معهم الحجارة للكعبة، وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي، لو حَلَلْت إزارك فجعلت على منكبيك دون الحجارة؟ -قال- فحَلَّه فجعله على منكبيه، فسقط مَغْشِيّا عليه، فما رُئِي بعد ذلك عُريانا صلى الله عليه وسلم. انظر: *صحيح البخاري*، الصلاة ٨؛ و*صحيح مسلم*، الحيض ٧٧.

وما لم يؤخذ عليه[1] كذبٌ قط[2] وقد كان نشأ بين أظهرهم، وغير ذلك من الأعلام التي كانت في نفسه ظاهرةً لقومه. فلو لم يكن له آياتٌ غيرُها لكانت واحدة منها كافية لمن لم يكابر. فكيف وقد كانت له آيات حسية وعقلية سوى ما ذكرنا مما يَقهَر[3] المنصفين على قبولها. ويحتمل قوله: **قد جاءتكم بينة من ربكم**، أي حجة في أنه رسول، أو على توحيد الله.

وقوله[4] عز وجل: **فأوفوا الكيل والميزان**، وذكر في [سورة] هود في قصته: وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ.[5] وليس في قوله: **فأوفوا الكيل والميزان**، أنهم كانوا لا يوفون، ولا[6] فيما ذكر[7] [هنا، و] في سورة هود:[8] **ولا تبخسوا الناس أشياءهم**.[9] ودل قوله: **ولا تبخسوا الناس أشياءهم**، أن الأشياء مِلكٌ لهم وإن كان في قبض[10] أولئك وفي أيديهم.[11] ثم يحتمل الأمر [٢٥٧و] بإيفاء الكيل والميزان وجوها.[12] أحدها لِما كانوا / أُمَناء، لأن لا تَذهب[13] عنهم تلك الأمانةُ التي كانت لهم في قومهم.[14] والثاني لأن لا يظلموا[15] الناس في منع حقوقهم وأموالهم. والثالث للربا، كان ما منعوا منهم من الكيلي والوزني ربا لهم. يدل [على] ذلك قوله: بِالْقِسْطِ، ذَكَر العدل.

[1] ما مصدرية، أي وعدم مؤاخذة الناس عليه.
[2] م: فظ.
[3] ك ن ع: ما يقهر؛ م: يقهر.
[4] ن: قوله.
[5] سورة هود، ٨٥/١١.
[6] ك ن: ولكن.
[7] ع م – ولا فيما ذكر.
[8] الآية المذكورة.
[9] وعبارة السمرقندي رحمه الله هكذا: «[ليس] في قوله: ﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾، أنهم كانوا لا يوفون، لأن الأمر بالشيء لا يدل على مباشرة ضده من المأمور قبل الأمر، وكذا النهي عن الشيء لا يدل على مباشرة المنهي من المنهي عنه، إنما يدل على التصور لا غير. ولكن إنما عرفنا ذلك في سياق قوله: ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾، حيث قال خبرا عنهم: ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ (سورة هود، ٨٧/١١)، الآية» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٠ظ-٣٠١و).
[10] ك + الباعه.
[11] قال الشارح: «إنما سماها أشياء لهم لأن بالشراء صار ملكا لهم، فإن كان قَبْضُ الباعة بَعْدُ في أيديهم فمتى لم يوفوا الكيل والوزن عند التسليم فقد نقصوا حقهم ومنعوا بعض مِلكهم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٠ظ).
[12] ن ع م: وجوه.
[13] ن ع م: لأن لا يذهب.
[14] م: في قومه.
[15] ع: لأن لا يظلمون.

فلو كان يجوز تلك الزيادة والنقصان إذا طابت أنفسهم بالزيادة والنقصان لكان لا معنى لذكر القسط فيه؛ لأن من زاد آخر على حقه لم يُمنع عن ذلك ولم يُذمّ. دل النهي عن ذلك على أنه للربا ما مُنِعوا عن ذلك.[١] *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**، أي بعد أن جعلها لكم صالحة لمعاشكم ومُقامكم فيها. أو بعد ما أمر وبيّن لكم ما به صلاحكم وصلاح دينكم. أو بعد ما أرسل من الرسل ما بهم صلاح[٢] الأرض وأهلها. **ذلكم خير لكم**، قال بعض أهل التأويل: قوله: **ذلكم**، أي وفاء الكيل والميزان، **خير لكم**، من النقصان لما ينمو ذلك الباقي ويزداد، فذلك **خير لكم**، من النقصان الذي تمنعون فلا ينمو[٣] شيئا. وهو كقوله: بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ.[٤] ويحتمل **ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين**، أي أَمْنُكم في الآخرة **خير لكم** من نقصان الكيل والميزان في الدنيا. *والله أعلم.*

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[٨٦]

وقوله عز وجل: **ولا تَقعدوا بكل صراطٍ تُوعِدون [وتَصدّون عن سبيل الله]**، يحتمل ما قاله[٥] أهل التأويل: إن كُبَراء أهل الشرك ورؤساءهم كانوا يُقعِدون في الطرق أُناسا[٦] يَصدّون الذين كانوا[٧] يأتون[٨] شعيبا للإيمان[٩] من الآفاق والنواحي. ويكون معنى[١٠] قوله: **من آمن به**، على هذا التأويل، أي من أراد أن يؤمن به. ويحتمل قوله: **ولا تقعدوا**، ليس على القعود نفسه، ولكن على المنع من إقامة[١١] الشرائع التي شرع الله لشعيب، كقول إبليس:

---

[١] ع م – عن ذلك.
[٢] ك: إصلاح.
[٣] ع م: فلا ينموا.
[٤] سورة هود، ٨٦/١١.
[٥] م: ما قال.
[٦] ع م: أناس.
[٧] م – كانوا.
[٨] ع: يؤتون.
[٩] م + من الإيمان.
[١٠] ك – معنى.
[١١] ك: من أقام.

لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ[1] ليس هو على القعود نفسه، ولكن على المنع، يمنعهم عن صراطه المستقيم. فعلى ذلك[2] قوله: **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون**، كانوا يمنعون **من آمن به** عن إقامة الشرائع والعبادات[3] التي دُعُوا إلى إقامتها، ويُوعِدون على ذلك ويخوّفونهم. فعلى هذا التأويل يكون معنى قوله: **من آمن به**، على وجود الإيمان، وعلى التأويل الأول يكون من أراد[4] أن يؤمن به. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **وتبغونها عوجا**، قيل: تلتمسون لها[5] أهل الزيغ. وقيل: تبغون هلاكا للإسلام وإبطالا. وقيل: تبغون السبيل[6] **عوجا** عن الحق. وكله واحد.

وقوله عز وجل: **واذكروا إذ كنتم قليلا فكَثَّركم**، يحتمل وجهين. يحتمل[7] **إذ كنتم قليلا** في العدد، فكَثَّر عددكم زمن لوط؛ كأنهم إنما توالدوا من بقيّة آل لوط. ويحتمل **إذ كنتم قليلا** في الأموال والسعة في الدنيا، **فكَثَّركم**، أي كَثَّر لكم الأموال ووسّع عليكم الدنيا.

وقوله عز وجل: **وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين**، أمرٌ بالنظر فيما حلّ بالأمم الخالية بإفسادهم في الأرض وتكذيبهم الرسل؛ لأن من نظر[8] في ذلك وتفكّر ما حلّ بهم منعه ذلك عن الإفساد[9] في الأرض والتكذيب للرسل، إذ علم أن ما حلّ بهم إنما حلّ بهم[10] لما ذكر. ***والله أعلم***. كأنه أمر بالنظر في الأسباب التي صار [بها] مَن تقدّمهم أهلَ فسادٍ ونَزَل بهم الهلاك، لينزجروا عن مثل صنيعهم، وإلا كانوا عند أنفسهم أهلَ صلاح لا أهلَ فساد.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[٨٧]

وقوله عز وجل: **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أُرسِلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا،**

---

[1] سورة الأعراف، ١٦/٧.
[2] ن ع م – ذلك.
[3] ع: والعباداة.
[4] ن: معني أراد.
[5] ن: تلتمسون بها.
[6] ك: للسبيل.
[7] ك – يحتمل؛ م – وجهين يحتمل.
[8] ع: لا من نظر.
[9] م: عن الفساد.
[10] ن ع – إنما حل بهم.

ئقال ابن عباس رضي الله عنه: كان قوم شعيب قليلا حين أدرك ذلك شعيب[١] وقوم آخرون معه، يقول لهم[٢] ذلك شعيب عليه السلام: **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا**، يا معشر المؤمنين، **حتى يحكم الله بيننا**، يقضي عليهم بالهلاك، و لم يكن شعيب أُمِر بالقتال. وقال بعضهم: قوله: **وإن كان طائفة منكم**، يعني المؤمنين، **آمنوا بالذي أُرسِلت به**، من العذاب، **وطائفة**، يعني الكفار، **لم يؤمنوا**، بالعذاب، **فاصبروا**، يا معشر الكفار، **حتى يحكم الله بيننا**، في أمر العذاب في الدنيا، **وهو خير الحاكمين**. ويحتمل غير هذا، وذلك أنهم كانوا يعبدون الأصنام ويقولون: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[٣] ويقولون: الله أمرهم بذلك[٤] في أشياء يفعلون، ويقول هؤلاء: إن الذي نحن عليه هو الذي أمرنا الله بذلك، فيقول لهم: **اصبروا حتى يحكم الله بيننا**، بأنه بماذا أمر، بالذي عليه الكفار أو الذي نحن عليه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾[٨٨]

وقوله عز وجل: **قال الملأ الذين استكبروا**، قد ذكرنا[٥] في غير موضع أن الملأ من قومه هم كبراؤهم ورؤساؤهم. وقوله:[٦] عز وجل: **استكبروا**، أي **استكبروا** عن الخضوع والطاعة لمن هو دونهم عندهم، لأنهم كانوا يُضَعِّفون[٧] شعيبا فيما بينهم ويَزْدَرُونه،[٨] كقولهم له: وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ.[٩] ثم لم يروا الأمر بالخضوع لمن هو دونهم في أمر الدنيا عدلا، وهم إنما أخذوا من إبليس اللعين، وإياه قلّدوا، حيث قال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ،[١٠] حين أُمِر بالسجود لآدم، و لم ير[١١] اللعين الأمر بالخضوع[١٢] لآدم من الله عدلا.

---

[١] ع م – شعيب.
[٢] ع: يقولهم.
[٣] سورة الزمر، ٣/٣٩.
[٤] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ (سورة الأعراف، ٢٨/٧).
[٥] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٦٠/٧.
[٦] ن: قوله.
[٧] أي يرونه ضعيفا (*لسان العرب* لابن منظور، «ضعف»).
[٨] ع: ويزودونه. يزدرونه أي يستصغرونه (*لسان العرب* لابن منظور، «زرى»).
[٩] سورة هود، ٩١/١١.
[١٠] انظر مثلا: سورة الأعراف، ١٢/٧.
[١١] ك: أم لم ير؛ ن: لم ير.
[١٢] م + والطاعة.

فعلى ذلك هؤلاء لم يروا الخضوع لمن دونهم عندهم عدلا، فاستكبروا عليه،[1] فكفروا لذلك.

وقوله عز وجل: **لَنُخرجنك يا شعيب**، قال الحسن: **لَنُخرجنك**، أي[2] لنقتلنك، **والذين آمنوا معك من قريتنا**. وقال غيره:[3] **لَنُخرجنك**، الإخراج نفسه، أي **لَنُخرجنك**[4] ومن معك من المؤمنين **من قريتنا** إن لم تتبع ديننا. وقد كان منهم للأنبياء المَعْنِيِّين جميعا التوعُّدُ بالقتل والإخراج / جميعا، كما قالوا: وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ، وكقول[5] قوم لوط لِلوط:[6] لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ،[7] وكقول[8] قوم نوح: لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ،[9] وما أخبر عن قول هؤلاء لرسولنا حيث قال: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا.[10] قد كان من القوم إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام المَعْنِيِّين جميعا التوعُّدُ بالقتل والإخراج جميعا، فعلى ذلك يحتمل ذلك من قوم[11] شعيب لشعيب[12] [على] ما ذكرنا. *والله أعلم*. وكذلك[13] كانوا يقولون للرسل جميعا، حيث قال:[14] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ،[15] الآية. هكذا[16] كانت عادة جميع الكفرة أنهم[17] كانوا يخوّفون الرسل بالإخراج مرة وبالقتل ثانيا.[18] [٢٥٧ظ]

---

[1] ك: علي.
[2] ن – أي.
[3] ك + هم.
[4] ن ع م: نخرجنك.
[5] ع: وكقوله.
[6] ك + ودل كل ذي عقل علي الوجه الذي يظفر بحاجته ويقيم به أوده ويصل إلي بغيته وسحر الذي ذكر.
[7] سورة الشعراء، ١٦٧/٢٦.
[8] ع: وكقوله.
[9] سورة الشعراء، ١١٦/٢٦.
[10] ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوك أو يقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ (سورة الأعراف، ٣٠/٨).
[11] م: عن قوم.
[12] ع م – لشعيب.
[13] ن: ولذلك.
[14] ك ع م: قالوا.
[15] ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنُخرِجَنّكم مِن أرضنا أو لتعودُنّ في ملّتنا فأوحى إليهم ربهم لَنهلكنّ الظالمين﴾ (سورة إبراهيم، ١٣/١٤).
[16] ن ع م: هذا.
[17] ع م – أنهم.
[18] ن: مرة.

وقوله عز وجل: **أو لَتَعودُنّ في مِلّتنا**، يحتمل قوله: **أو لتعودن في ملتنا**، لما عندهم أنه كان على دينهم الذي هم عليه، لما لم يروا[١] منه عبادته لله فيما يعبده[٢] سرا، فقالوا: **لتعودن في ملتنا**،[٣] على ما كان[٤] عندهم أنه على ذلك. وهو كما قالوا لصالح: قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا،[٥] كان عندهم أنه كان[٦] على دينهم قبل ذلك.[٧] فعلى ذلك يحتمل قول[٨] هؤلاء: **لتعودن**، مِن العَود[٩] إلى ما كان عندهم أنه على ذلك. ويحتمل على ابتداء[١٠] الدخول فيها والاختيار، كقوله: **يخرجهم من الظلمات إلى النور**، على مَنْع الدخول فيها، لا أنهم[١١] كانوا فيها ثم أخرجهم، فعلى ذلك الأول.

وقوله عز وجل: **قال أَوَلَوْ كنّا كارهين**، يقول: لَتـعُودَنّ في ملتكم وإن **كنا كارهين**؟ أي قد تأبى[١٢] عقولنا وتكره طباعنا عن الدخول في ملتكم، فكيف نعود فيها؟

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[٨٩]

قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها، يحتمل قوله: **إن عدنا في ملتكم**، وجوها ثلاثة. أحدها أن ذلك منه إخبار عن قومه، لا عن نفسه، أي افتروا **على الله كذبا إن** عادوا **في ملتكم بعد إذ** نجاهم **الله منها** وما يجوز لهم أن يعودوا فيها.

---

[١] ن: لما يروا.

[٢] ع م: فيما بعده.

[٣] ك - لما عندهم أنه كان على دينهم الذي هم عليه لما لم يروا منه عبادته لله فيما يبعده سرا فقالوا لتعودن في ملتنا.

[٤] ن: ما كانوا.

[٥] سورة هود، ٦٢/١١.

[٦] ن ع م - كان.

[٧] ك: قبل هذا.

[٨] ك ع م: قوله.

[٩] ك ع: من العدو.

[١٠] ن ع م: على الابتداء.

[١١] ع: لأنهم.

[١٢] ع م: أي تأبى.

وأما هو فإنما أجابهم عن نفسه بما ذكر[1] في سورة هود: وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ،[2] أجاب هو قومه كما أجاب غيره من الرسل قومهم حين أَوْعَدُوهم[3] بالقتل والعقوبة، كما قال رسول الله[4] صلى الله عليه وسلم: ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ،[5] وكما قال هود:[6] [وَاشْهَدُوا] أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ،[7] ونحو ذلك من الجوابات التي[8] كانت من الأنبياء صلوات الله عليهم لأقوامهم. ويحتمل أن يكون على الابتداء من غير أن كان فيها، كقوله: رَفَعَ السَّمَاوَاتِ،[9] رَفَعها ابتداءً مِن غير أن كانت موضوعة، وكقوله: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ،[10] إخراج ابتداء، لا أن كانوا فيها ثم أخرجهم. ويحتمل ما ذكرنا أنه[11] أجابهم على ما عندهم أنه كان على دينهم، فأجاب لهم على ما عندهم أنه على ذلك. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وما يكون لنا أن نعود فيها**، أي **ما** يجوز **لنا أن نعود فيها**. وقول شعيب: **قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم**، تعريضُ تسفيهٍ منه إياهم، [أي] إنكم[12] قد افتريتم **على الله كذبا**، لا تصريح، حيث لم يقل: قد افتريتم[13] أنتم **على الله كذبا**، ولكن قال: **قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم**، وذلك منه تَلَطُّف بهم وتَرَفُّق.

وقوله عز وجل: **إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما**، اختلف في تأويله. قال الحسن: مِن حُكم الله عز وجل أنّ مَن[14] قَبِل دينه وأطاع رسوله أن يكون وليّا له وسُمِّي مؤمنا،

---

[1] جميع النسخ: ما ذكر.
[2] سورة هود، ١١/٩٣.
[3] ع م: أوعدوا هم.
[4] ك - رسول الله؛ ن: النبي.
[5] سورة الأعراف، ٧/١٩٥.
[6] ع: هو.
[7] ك - وكما قال هود اني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون. وانظر: سورة هود، ١١/٥٤-٥٥.
[8] م - التي.
[9] ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ سورة الرعد، ١٣/٢.
[10] ﴿ الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٧).
[11] ن: أنهم.
[12] ع م: إنهم.
[13] ع + على الله كذبا لا تصريح حيث لم يقل قد افتريتم.
[14] ع: وجل من.

ومَن ردّ دينه وعصى رسوله يتخذه عدوًا له ويكون كافرا.[١] وقال أبو بكر الكيساني: قوله: **إلا أن يشاء الله**، أن يتعبّدنا ويمتحننا ببعض ما كانوا يتقرّبون به، ويشرع لهم مما يحلّ ويَسَع، لم يُرد به الدين الذي[٢] هم عليه. لكن[٣] هذا لا يحتمل، لأن سؤالهم كان العَود إلى ملّتهم، فعلى ذلك خرج الثُّنيا.[٤] وقال جعفر[٥] بن حرب: قوله: **إلا أن يشاء الله**، **إلا أن** يأمرنا **الله**، بما يُؤْيِسُهم[٦] بذلك،[٧] على الإياس وقطع الرجاء، أي لا يشاء الله ألبتّة ذلك، كما يقال: كان كذا إن صعدت السماء، وكقوله: حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ،[٨] وفعلت كذا مما يعلم أنه[٩] لا يكون، فعلى ذلك هذا.

لكن هذا كلّه بعيدٌ مُحال. أما قول الحسن: إن من حكم الله[١٠] أنه من ردّ دينه وعصى رسوله أنه يكون من الكافرين، ومن قبل دينه وأطاع رسوله يكون من المؤمنين، فليس فيه سوى أنه[١١] يقول: أنه يعلم من كفر به ومن آمن به، فلا معنى للاستثناء هاهنا[١٢] لو كان التأويل ما ذكر.[١٣] وأما قول أبي بكر أنه يتعبّدهم ويمتحنهم بما يتقرّبون به في دينهم وملّتهم

---

[١] قال الشارح: «والآية حجة لنا على المعتزلة في أن الله تعالى شاء وجود الكفر من الكافر قبيحا، حيث اعتقد شعيب عليه السلام ذلك، واستثنى حال المشيئة. معناه ما ينبغي لنا أن نعود في ملتكم في حال من الأحوال إلا أن يشاء الله ذلك منا، فدلّ أن الكفر يدخل تحت مشيئة الله تعالى، فيكون حجة على المعتزلة. واختلف أهل التأويل. قال الحسن... فيكون قوله: ﴿إلا أن يشاء الله﴾، إلا أن يحكم الله، أي ما ينبغي أن نعود في ملتكم ونشرك بالله باختيارنا ومشيئتنا دون مشيئة الله تعالى، إلا أن يحكم الله تعالى أن يتخذنا عدوا ونكون من أعدائه ويعلم ذلك منا، فيعطي لنا قدرة ذلك حتى نكفر باختيارنا؛ ألا يُرى أنه قال على أثره: ﴿وسع ربنا كل شيء علما﴾، أي لا نعلم إلى ماذا يصير عاقبة أمرنا في علم الله تعالى وماذا حكمه علينا، الولاية أو العداوة» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٠١ظ؛ ونسخة المدينة، ورقة ٣٣٥و).

[٢] ك – الذي.

[٣] ن: ولكن.

[٤] م: الثناء.

[٥] ع م: أبو جعفر.

[٦] ن: يؤسهم؛ ع: يؤتيهم.

[٧] ع م: على ذلك.

[٨] ﴿إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ (سورة الأعراف، ٧/٤٠).

[٩] ع: لأنه.

[١٠] ك + الله.

[١١] ك: أن؛ ع – أنه.

[١٢] ع م – هاهنا.

[١٣] قال الشارح: «... ولأن الاستثناء ينصرف إلى صدر الكلام، وهو العود إلى ملتهم إلا أن يشاء الله. لو صار المراد إلا أن يحكم الله أو إلا أن يعلم الله لكان قبيحا، لأن العود إلى الكفر حرام لا ينبغي ذلك ولا يجوز شرعا وإنْ عَلِم الله تعالى وجود ذلك أو حَكَم بوجوده» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٠١ظ).

مما يجوز أن يأذن[1] في ذلك، فذلك[2] لا يحتمل، لأنه ذكر الملّة التي كانوا هم عليها، فإليه يرجع[3] الثُّنيا، لا يجوز أن تصرف الثُّنيا[4] إلى غيره. وأما قول من يقول بالإياس وقطع الطمع عن ذلك، فذلك أيضا بعيد، لأن الإياس إنما يكون فيما يُعلَم أنه لا يكون ألبتّة من نحو ما ذكر من قوله: وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ، ونحوه، وأما مثل هذا فإنهم لا يفهمون منه الإياس وقطع الرجاء، بل كانوا يأتون بالفواحش[5] ويقولون: الله أمرهم بذلك،[6] فأنى يقع لهم الإياس بذلك؟

وأما عندنا فإنه على حقيقة المشيئة، وذلك أنّ مَن عَلم الله منه أنه يختار فعل[7] الكفر ويؤثر ذلك على فعل الإيمان والطاعة يشاء ذلك له على ما علم أنه يختار، ومَن عَلم منه [٢٥٨و] أنه لا يختار ذلك لا يشاء، إذ لا يجوز أن يعلم منه[8] غير الذي يكون، أو أن يشاء / غير الذي علم أنه يكون منه، لأنه جهل وعجز. وأصله أن شعيبا خاف أنْ تَسبِق[9] منه زلّة، أو تقصير يقع[10] منه الاختيار لذلك، فيشاء الله بذلك [له] الزيغ والضلال. وكذلك[11] جميع الأنبياء خافوا ذلك، كقول إبراهيم عليه السلام حيث قال: وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا،[12] وقول يوسف حيث قال: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ.[13] كان خوف الأنبياء عليهم السلام[14] أكثر من خوف غيرهم.

---

[1] ع + يأذن.
[2] م – فذلك.
[3] ك: ترجع.
[4] م – أن تصرف الثنيا.
[5] ع: الفاحشة.
[6] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمَرَنا بها﴾ (سورة الأعراف، ٢٨/٧).
[7] م – يختار فعل.
[8] م: عنه.
[9] ك ن: أن يسبق؛ ع م: أن سبق.
[10] ع م – يقع.
[11] م – وكذلك.
[12] سورة الأنعام، ٨٠/٦.
[13] ﴿فبَدَأ بِأَوْعِيَتِهم قبل وِعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كِدْنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾ (سورة يوسف، ٧٦/١٢). وانظر تفسير المؤلف لهذه لآية.
[14] ن ع م + كان.

وقوله عز وجل: **وسع ربنا كلّ شيء عِلما**، معناه -والله أعلم- أنه لا نعلم إلى ماذا يصير[١] عاقبة أمرنا في علم[٢] الله. وقوله[٣] عز وجل: **على الله توكّلْنا**، قيل: **على الله** اعتمدنا فيما تخوّفوننا[٤] من الإخراج، وإليه نلجأ في سلطانه وملكه، وبه نَثِق في وعده بما يَعِدنا من النصر والظفر على الأعداء.

وقوله عز وجل: **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق**، قيل: قوله: **افتح**، أي احكم، **بيننا وبين قومنا بالحق**. روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ما كنت أعلم ما معنى الفتح في الآية حتى تزوجت امرأة من بني كذا، فوقعت بيننا مخاصمة، فقالت لي: تعال[٥] حتى أُفاتحك إلى فلان، فعند ذلك[٦] عرفت[٧] أن المفاتحة هي المحاكمة.[٨] وقوله: **بالحق**، قيل: هو العذاب الذي كان وعد لهم أنه ينزل[٩] عليهم بتكذيبهم[١٠] شعيبا وبأذاهم إياه.

ثم للمعتزلة أدنى تعلُّق بقوله:[١١] **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق**، يقولون: هو الدعاء والسؤال وإن كان لا يحكم إلا بالحق، فعلى ذلك يقولون في قوله: رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ،[١٢] ونحوه، فكذلك يقولون في قوله:[١٣] **إلا أن يشاء الله**.[١٤] لكن عندنا يخرج قوله: احْكُمْ بِالْحَقِّ،

---

[١] ك: تصير.
[٢] م: أمرنا علم.
[٣] ن + وقوله.
[٤] ك: تخوفونا؛ ن ع م: يخوفونا.
[٥] م: تعالي.
[٦] ك – فعند ذلك.
[٧] ك: فعلمت.
[٨] روي عن ابن عباس قال: ما كنت أدري ما قوله: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾، حتى سمعت ابنة ذي يَزَن تقول: تعال أُفاتحك، يعني أُقاضيك (*تفسير الطبري*، ٩/٢؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٥٠٣).
[٩] ع م: أن ينزل.
[١٠] ن: بتكذيب.
[١١] ع م – بقوله.
[١٢] سورة الأنبياء، ٢١/١١٢.
[١٣] م + إلا في قوله.
[١٤] قال الشارح: «ثم للمعتزلة أدنى تعلُّق بقوله: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾، الآية، في دفع سؤالٍ ألزمناهم في مسألة الأصلح واللّطف أن الأنبياء عليهم السلام والأخيار يقولون على سبيل الدعاء والسؤال من الله تعالى: اللهم اعصمنا، وأصلح ديننا؛ ولو كان أعطاهم ذلك كله ويبقى في مقدوره ما هو صلاح لهم لم يكن للسؤال معنى، ويكون ذلك سؤال الامتناع عن الجور، كأنهم قالوا: اللهم لا تَجُر علينا. فيقولون علينا على سبيل الاحتجاج: إن الله تعالى قال خبرا عنه صلوات الله عليه: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾، ولا يؤدي إلى ما قلتم، لأنه يخرج السؤال على ترك الجور والامتناع عنه، أي لا تَجُر علينا، وكذلك قال في آية أخرى: ﴿احكم بالحق﴾، ونحوه (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٠٢و).

و **افتح بيننا وبين قومنا بالحق**، على وجوه، أحدها يقول: **ربنا افتح بيننا** بحكمك وهو الحق. والثاني يقول: رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ، في حادث الوقت كما حكمت في الوقت الماضي، وهو كقوله: اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ،[1] وهو النبوة والهداية. والثالث على استعجال العذاب.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[٩٠]

وقوله عز وجل: **وقال الملأ الذين كفروا من قومه**، قد ذكرنا[2] أن الملأ هم كبراؤهم[3] وسادتهم، يقولون للأتباع والسَّفَلة: **لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون**، قال أبو بكر: لجاهلون. ثم يحتمل قوله: **إنكم إذا لخاسرون**، وجوها. أحدها أن شعيبا كان يحذّر قومه من التطفيف[4] في الكيل والوزن، ويأمرهم بوفاء[5] حقوق الناس بقوله: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا كذا،[6] وقوله عز وجل: وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ.[7] فيقول الكبراء والرؤساء للسفلة: **لئن اتبعتم شعيبا**، في دينه وما يأمركم به من وفاء الحق للناس، فإنكم **إذا لخاسرون** للأرباح.

والثاني أنه كان يحذّرهم ويمنعهم عن عبادة الأصنام والأوثان، ويدعوهم إلى عبادة الله ويرغّبهم في ذلك. وهم كانوا يعبدون تلك الأصنام لتقرّبهم[8] عبادتهم إياها[9] إلى الله زلفى، ويكونَ لهم شفعاء في الآخرة، فقالوا: **لئن اتبعتم شعيبا** فيما يدعوكم إليه وينهاكم عنه لكنتم من الخاسرين، لا شفعاء لكم في الآخرة.

والثالث أنهم كانوا يُوعِدون شعيبا بالإخراج بقولهم:[10] لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ،[11] فقالوا: **لئن اتبعتم شعيبا**، وهو[12] يُخرَج لا محالة، فتخرجون أنتم، فصِرْتُم من الخاسرين. ***والله أعلم.***

---

[1] الفاتحة، ١/٦.
[2] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٧/٦٠.
[3] ن: كبراءهم؛ ع م: كبراء.
[4] جميع النسخ: بالتطفيف.
[5] ك: بوفايهما.
[6] ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المُخسِرين﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/١٨١).
[7] سورة هود، ١١/٨٥.
[8] جميع النسخ: ليقرب.
[9] ك: إليها.
[10] ك: بقوله.
[11] سورة الأعراف، ٧/٨٨.
[12] ع م: وهى.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[٩١]

وقوله عز وجل: **فأخذتهم الرجفة**، قيل: الصيحة، وقيل: الزلزلة. قيل: أصابهم حرّ شديد، فرُفِعت لهم سحابة، فخرجوا إليها يطلبون الرَّوْح[١] تحتها. فلما كانوا تحتها[٢] سال عليهم العذاب ورجفت بهم الأرض، فهلكوا. وهو ما ذكر في آية أخرى: عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ.[٣] *والله أعلم*.

وقوله[٤] عز وجل: **فأصبحوا في دارهم جاثمين**، قد ذكرنا قوله:[٥] **جاثمين**، فيما تقدم.[٦]

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[٩٢]

وقوله عز وجل: **الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين**، هو -والله[٧] أعلم- مقابل قولهم: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ،[٨] وجواب لهم. يقول:[٩] **الذين كذبوا شعيبا** هم الخاسرون، لا الذين اتبعوه.

وقوله عز وجل: **كأن لم يَغْنَوْا فيها**، قيل:[١٠] **كأن** لم يعيشوا **فيها**، و لم يَنْعَمُوا قط. وقيل: **كأن لم** يقيموا **فيها**.[١١] قال القُتَبي: يقال: غَنِينا بمكان كذا وكذا، أي أقمنا، ويقال للمنازل: مَغَانٍ، واحدها مَغْنًى.[١٢] ويقال: **كأن لم يَغْنَوا فيها**، أي **كأن لم** يكونوا **فيها** قط، وهو -والله أعلم- [جزاء] لما كانوا يستقلّون[١٣] نعم الله عليهم ويستحقرونها. حتى قالوا:[١٤] لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ،[١٥]

---

[١] الرَّوْح بمعنى الراحة والبرد (*لسان العرب* لابن منظور، «راح»).
[٢] ع م - فلما كانوا تحتها.
[٣] ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظُّلَّة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ (سورة الشعراء، ١٨٩/٢٦).
[٤] ن: قوله.
[٥] ع: وقوله.
[٦] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٧٨/٧.
[٧] م: الله.
[٨] سورة الأعراف، ٩٠/٧.
[٩] ن م: بقول.
[١٠] ن - قيل.
[١١] ن - فيها.
[١٢] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٠.
[١٣] م: يستقبلون.
[١٤] أي يقولون يوم القيامة بأنهم لم يقيموا في الدنيا شيئا يُذكَر.
[١٥] ﴿قال كم لَبِثتم في الأرض عَدَدَ سِنِين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادِّين﴾ (سورة المؤمنون، ١١٢/٢٣-١١٣).

وقال[1] [عنهم]: كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ،[2] ونحوه. وكلّه إخبار عن قطع آثارهم أنه لم يَبق منهم أحدٌ يحزن عليهم أو يبكي عليهم.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[٩٣]

[٢٥٨و س٣٧ *وقوله: **فتولّى عنهم**، حين رآهم هَلْكَى. وقوله: **يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم**، قد ذكرنا هذا.[3] فقال: **فكيف آسى على قوم**، أي كيف[4] أحزن **على قوم**

٢٥٨و س٣٩] قد كذّبوني واختاروا عداوتي وصاروا[5] عليّ أعداء، **فكيف**[6] أحزن عليهم بالهلاك وهم أعدائي؟*

حتى قال شعيب: **فكيف آسى على قوم كافرين**، وجائز أن يكون قول شعيب حيث قال: **فكيف آسى على قوم كافرين**، حين علم أنهم يهلكون وينزل بهم العذاب، أي لا أحزن وعَمَلُهم[7] ما ذُكر. وقال بعضهم: هو على التقديم والتأخير، قال ذلك في الوقت الذي قال: وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ،[8] يقول:[9] كيف أحزن **على قوم** وعَمَلُهم ما ذُكر.*

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[٩٤]

[٢٥٨ظ] وقوله عز وجل: **وما أرسلنا / في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء**، في الآية إضمار -والله أعلم- من وجهين. أحدهما قوله: **وما أرسلنا في قرية من نبي**، فكذّبوه، **إلا أخذنا أهلها**، المكذّبين له، **بالبأساء** وما ذكر. وإلاّ لا يحتمل أن يرسل إليهم رسولا ثم يأخذهم بما ذكر من غير[10] أنْ كان منهم ردٌّ وتكذيبٌ[11] له.

---

[1] جميع النسخ: وقوله.
[2] ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾ (سورة يونس، ٤٥/١٠).
[3] ن ع م - هذا. وانظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٧٩/٧.
[4] ن + آخرون.
[5] ع - وصاروا.
[6] ك: كيف.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ وكذلك وقع تقديم وتأخير فيما بين النجمتين؛ انظر: ورقة ٢٥٨و/سطر ٣٧-٣٩.
[7] جميع النسخ: عليهم؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٢ظ.
[8] سورة الأعراف، ٨٦/٧.
[9] ن - يقول، صح هـ.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٥٨و/سطر ٣٧-٣٩.
[10] ع م: من غيرهم.
[11] جميع النسخ: ردا وتكذيبا.

والثاني **وما أرسلنا في قرية**، أهلكنا، **من نبي إلا أخذنا أهلها**، قبل الهلاك، **بالبأساء والضراء لعلهم يضّرّعون.** ثم لم يأخذ الله قوما بالهلاك قبل أن يبعث إليهم الرسول وقبل[١] أن يغيروا هم[٢] ما أنعم عليهم بأنفسهم، كقوله: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ[٣] فِي أُمِّهَا رَسُولاً،[٤] الآية، وقوله: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً،[٥] وقال: إِنَّ اللّٰهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ،[٦] وقال: وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ،[٧] وغير ذلك من الآيات. أخبر أنه لا يأخذهم بالعذاب والهلاك إلا بعد قطع العذر لهم من جميع الوجوه. وإن كان له الإهلاك قبل أن يبعث إليهم[٨] الرسول لما ركّب فيهم من العقول السليمة مما بها يُوصَل إلى فهم كل ما جعل فيهم من آثار وحدانيته[٩] وآيات ربوبيته، وما جعل لهم من السمع والنطق ما به يُوصَل إلى سمع كل ما غاب، والنطقِ بكل ما يريدون، ما لم يجعل ذلك لغيرهم من البهائم، وما أنعم عليهم من أحسن[١٠] الصور ما لم يتمنّ أحد تحويله[١١] منها إلى غيرها من الصور. لكنه لا يهلكهم[١٢] إلا بعد بعث الرسل إليهم، لما أن الخلق على مراتب.[١٣] منهم[١٤] من يفهم بالعقل، لا يحتاج إلى معونة[١٥] السمع، وهم الحكماء والعلماء الذين يدركون الأشياء بالبديهة. ومنهم من لا يدرك إلا بمعونة السمع،[١٦] وهم كالصبيان، أنهم[١٧] لا يدركون إلا بالسمع وفضل التنبيه.

---

[١] ن: وقيل.

[٢] ن م: أن يغيروهم.

[٣] ك – إليهم الرسول وقبل أن يغيروا هم ما أنعم عليهم بأنفسهم كقوله وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث.

[٤] سورة القصص، ٥٩/٢٨.

[٥] سورة الإسراء، ١٥/١٧.

[٦] سورة الرعد، ١١/١٣.

[٧] هذا دوام الآية المذكورة آنفا، يقول الله تعالى: ﴿وما كان ربك مُهلِك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مُهلِكِي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ (سورة القصص، ٥٩/٢٨).

[٨] ك: عليهم.

[٩] م: وحدانية.

[١٠] جميع النسخ: من تصوير؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٢ظ.

[١١] ك ع م: تاويله.

[١٢] م: لا يهلككم.

[١٣] ع: علي مراتبهم.

[١٤] م: عنهم.

[١٥] م: إلي مؤنة.

[١٦] ك: إلا بالسمع.

[١٧] أي لأنهم.

ومنهم من[1] لا يدرك بالعقل ذلك ولا بالسمع حتى تصيبهم[2] الشدائد والغِيَر[3] في أنفسهم وفيما أنعم عليهم، وهم كالبهائم التي[4] لا عقل لهم ولا سمع، ولكن يعرفون الشدائد وما يصيبهم من البلايا. فعلى ذلك يمتحنهم عز وجل ويبتليهم بالشدائد والبلايا[5] أولا، فإن رجعوا عن ذلك وعرفوا نعمه[6] وإلاّ أهلكهم بعد ذلك، فعند ذلك ينتهون[7] ويتذكّرون. وذلك قوله: فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ.[8]

وقوله: **بالبأساء والضراء**، قد ذكرنا في صدر الكتاب.[9] وقوله: **لعلهم يضّرّعون**، أي لكي يكون عليهم التضرّع، أو لكي يلزمهم التضرّع والتذكّر.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٩٥]

وقوله: **ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة**، وهو [على] ما ذكر[10] أهل التأويل السعة والرخاء بعد الشدة والقحط وما حل بهم من البلايا. **حتى عَفَوْا**، قيل: جَمُّوا[11] وكَثُرُوا.[12] أي كشف عنهم ذلك حتى كَثُروا، فعند ذلك أهلكهم **بغتة**؛ لأن الهلاك في حال الشدة والبلاء لا يكون أخذا ببغتة، لأن كل من حل به بلاء وشدة يخاف فيه الهلاك، فإذا أهلك في تلك الحال لم يكن أخذا بالهلاك **بغتة**. ألا ترى أنه سُمي الموتُ الذي يموته[13] المرء من غير مرض حلّ به موتَ فجأة،[14]

[1] ع – من.
[2] ن ع م: حتى يصيبهم.
[3] ك: والغيرة. والغِيَر الاسم مِن قولك: غَيّرت الشيء فتغيّر، وغِيَرُ الدهر أحواله المتغيّرة ودواهيه، وورد في حديث الاستسقاء: «من يَكفُر اللهَ يَلْقَ الغِيَر»، أي تَغيُّر الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد (*لسان العرب* لابن منظور، «غار»).
[4] جميع النسخ: الذين.
[5] ع – البلايا فعلى ذلك يمتحنهم عز وجل ويبتليهم بالشدائد والبلايا.
[6] ك: نعمته.
[7] ن: يتنبهون.
[8] سورة الأنعام، ٤٢/٦.
[9] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ١٧٧/٢؛ و سورة الأنعام، ٤٢/٦.
[10] ن: وما ذكر أهل التأويل.
[11] م: جمعوا. جَمّ بمعنى كَثُر واجتمع (*لسان العرب* لابن منظور، «جمم»).
[12] م: وأكثروا.
[13] جميع النسخ: يموت.
[14] ع: فجاءة.

والذي يموت[1] بمرضٍ يتقدّم الموتَ لا.[2] وإن الموت في الوجهين جميعا لا يَعلم بحلوله، لكنه إذا لم يتقدّم مرض فهو[3] لا يخاف منه، وإذا كان به مرض خاف به فلم يكن فجأة. فعلى ذلك إذا أُخِذوا في حال الشدة لم يكن أَخذا[4] بالبغتة، لما يخافون فيه الهلاك؛ وإذا كانوا في سعة ورخاء لا يخافون، فيؤخذون في تلك الحال، فذلك أَخذ ببغتة. وقال: **حتى عَفَوْا**، قيل: كان أهلك بعضهم وترك بعضا **حتى عَفَوْا**، أي كثُروا من ذلك البعض. ولكن الوجه فيه ما ذكرنا من البأساء والضراء والشدائد والقحط، ثم كشف ذلك عنهم فكثُروا، ثم أهلكهم. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء**، قالوا: إن آباءنا قد كان[5] ينزل ذلك[6] بهم ويصيبهم مرةً شدةٌ ومرةً نعمةٌ، فلم يكن ذلك بعقوبة لهم، فعلى ذلك ما يصيبنا من الشدائد والبلايا ليس ذلك بعقوبة لنا؛ ولكن دَوَرانُ الدهر وتَصرُّفه على الشدة والبلاء مرة، ومرة على الخصب والسعة. ثم أخبر أنه أخذهم **بغتة** بعد قولهم: **قد مس آباءنا الضراء والسراء**.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٩٦]

وقوله عز وجل: **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا**، قيل: **آمنوا واتقوا**[7] قبل أن يهلكوا[8] بعد ما أصابهم من الشدائد والبلايا، **لفتحنا عليهم بركات**، الآية، أي لأُعطُوا كل خير يُنال **من السماء والأرض**، والبركة ما يُنال من كل خير على غير[9] مؤنة. البركة كل شيء يُنال بلا تَبِعة عليه ولا شدة. ذكر هاهنا أنه يفتح **عليهم بركات من السماء والأرض**[10] لو آمنوا واتقوا،

---

[1] ع م – يموت.
[2] أي لا يسمى موت فجأة.
[3] ك: هو.
[4] ن ع م: أخذ.
[5] ن – كان.
[6] م – ذلك.
[7] ك – قيل آمنوا واتقوا.
[8] ع: قبل يهلكوا.
[9] ع: لا غير.
[10] ن – والبركة ما ينال من كل خير على غير مؤنة البركة كل شيء ينال بلا تبعة عليه ولا شدة ذكر هاهنا أنه يفتح عليهم بركات من السماء والأرض.

وذكر إذا لم يؤمنوا ونَسُوا ما ذُكِّرُوا به أنه[1] يفتح عليهم أبواب كل شيء،[2] و لم يذكر البركة، ففيما لم يذكر البركة[3] يُنقِصهم[4] مما فتح[5] عليهم من كل شيء ويَسُوءهم، وفيما ذكر فيه البركة[6] بعد الإيمان لا يلحقهم من ذلك تَبِعة ولا غُرْم. *والله أعلم*.

وقوله[7] عز وجل: **ولكن كذّبوا**، الرسل، **فأخذناهم بما كانوا يكسبون**. ويحتمل قوله: **ولكن كذّبوا**، النعم التي أنعمها عليهم، أي الرسل،[8] **فأخذناهم بما كانوا يكسبون**، من التكذيب. *والله أعلم*.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[٩٧] ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[٩٨]

[٢٥٩و] وقوله[9] عز وجل: **أفأمن أهل القرى أن يأتيهم / بأسنا بياتا وهم نائمون**، خرج هذا في الظاهر مخرج الاستفهام، ولكن في الحقيقة على الإيجاب، كقوله: أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ،[10] الآية؛ هذا في الظاهر وإن خرج مخرج الشك والارتياب فهو في الحقيقة على الإيجاب، كأنه قال: في قلوبهم مرض وارتابوا وخافوا أنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ.[11] فعلى ذلك قوله: **أَفَأَمِن أهل القرى... أَوَأَمِن أهل القرى**، على الإيجاب، كأنه قال: قد **أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا... وأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى**، الآية. ثم اختلف في قوله:[12] **أَفَأَمِن أهل القرى... أَوَأَمِن أهل القرى**، إلى آخر[13] ما ذكر. قال الحسن:

---

[1] ع – أنه.

[2] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فلمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مُبْلِسون﴾ (سورة الأنعام، ٤٤/٦).

[3] ن – ففيما لم يذكر البركة.

[4] ن: ينفعهم.

[5] جميع النسخ: ما فتح.

[6] ك ن: من البركة.

[7] ع – وقوله.

[8] ك – أي الرسل. يعني أن النعم التي أنعمها الله عليهم هي رسالات الرسل.

[9] ك: قوله.

[10] ﴿أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يَحِيف اللهُ عليهم ورسولُه﴾ (سورة النور، ٥٠/٢٤).

[11] الحَيف هو الجور والظلم (*لسان العرب* لابن منظور، «حاف»).

[12] ع: فيه.

[13] ع + إلى.

هذه الآيات[١] في الأمم السالفة، أخبر عن أَمْنِهم نزولَ[٢] بأسِ الله وعذابِه بهم، لكن[٣] ذكره[٤] في هذه الأمة[٥] ليكونوا على حذر عن مثل[٦] صنيعهم.[٧] وقال الآخرون: هذه الآيات في قرى هذه الأمة[٨] لا في الأمم السالفة، يقول: أَمِن هؤلاء من بأسنا[٩] كما أَمِن أولئك[١٠] منه.[١١] فإنهم إذا صنعوا مثل صنيعهم ينزل بهم في الآخرة من العذاب مثل ما نزل[١٢] بأولئك في الدنيا من العذاب. وقوله: **بأسُنا بياتا وهم نائمون**، و **ضحى وهم يلعبون**، أخبر أن العذاب إنما نزل بهم في حال الأمن، وهو وقت النوم واللعب، لأنه هو[١٣] وقت الغفلة والسهو، وآمَنُ ما يكون الإنسان إنما يكون في حال النوم. وإنما نزل[١٤] بهم في وقت الغفلة والسهو[١٥] [حتى] يُذَكِّر بهذا[١٦] -والله أعلم- أهل مكة وغيرهم من الكفرة[١٧] بتكذيبهم رسول الله، لأن لا يكونوا آمنين عن بأس الله[١٨] أبدا في وقت من الأوقات. ***والله أعلم.***

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٩٩]

وقوله عز وجل: **أ فأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**؛ المكر في الشاهد هو أن يراقب من عدوه حال غفلة لينتقم منه وينتصر، فإذا كان ما ذكرنا فسمي ما ينزل[١٩] بهم من العذاب في حال الغفلة مكرا. وعلى ذلك الامتحان فيما بين الخلق

---

[١] ع: هذه الآية.
[٢] جميع النسخ: بنزول.
[٣] ع: ولكن.
[٤] جميع النسخ: ذكر.
[٥] ن: هذه الآية.
[٦] ك: من مثل.
[٧] ن + ينزل بهم.
[٨] ع م: هذه الآية.
[٩] ع م: هؤلاء بأسنا.
[١٠] ع: بأولئك.
[١١] م: عنه.
[١٢] ع م: ما أنزل.
[١٣] ك – هو.
[١٤] ع: أنزل.
[١٥] ن – والسهو.
[١٦] ك: هذا.
[١٧] ع – وغيرهم من الكفرة.
[١٨] ع م – الله.
[١٩] ع: أن ينزل.

هو استظهار ما خفي على بعضهم من بعض، فيأمرون بذلك وينهون، فسمى الله تعالى ذلك امتحانا لمعنى[١] الأمر والنهي وإن كانت الخَفِيَات عن الخلق ظاهرةً له باديةً عنده.[٢]

[٢٥٨و س٢٠ *وقوله: **أفأمنوا مكر الله**، أي جزاء[٣] مكرهم. سُمِّي جزاءُ المكر مكرا كما[٤] سُمِّي جزاءُ السيئة سيئةً،[٥] وجزاءُ الاعتداء اعتداء،[٦] وإن لم يكن الثاني اعتداء ولا سيئة. فعلى ذلك تسمية جزاء المكر مكرا وإن لم يكن الثاني مكرا. *والله أعلم*. ألا ترى أنه لم يجز أن يُسَمَّى مَكَّارا، ولو كان على حقيقة المكر لَسُمِّي[٧] بذلك، دل أنه جزاء. وجائز أن يكون المراد من مكره جزاء مكرهم.

٢٥٨و س٢٤] سُمِّي الجزاء باسم المكر لأنه جزاؤه، كقوله: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا،[٨] والثانية ليست بسيئة.*

وقوله عز وجل: **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**، فالآية على المعتزلة، لأنهم يأمنون[٩] مكر الله في الصغائر حيث قالوا: الصغائر[١٠] مغفورة، ليس له أن يعذبهم عليها، فهو أمن من مكره. وييأسون من رحمته لقولهم في الكبائر أنْ ليس له أن يعفو عنهم، وقد أخبر: إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ،[١١] وهم قد أَيِسوا من رحمة الله في الكبائر وأَمِنوا مكرَه في الصغائر.[١٢] فهاتان الآيتان على المعتزلة.*

---

[١] ع: بمعنى.

[٢] قال الشارح رحمه الله تعالى: «المكر في الشاهد هو أن يُراقِب مِن عدوِّه حالَ غفلةٍ لينتقم منه وينتصر، لكن في حق الله تعالى لا حاجة إلى المراقبة لقدرته على الانتقام منه في أي حالٍ شاء. لكن سُمِّي ما ينزل بهم في حال الغفلة مكرا بطريق المجاز، لوجود بعض ما في الحقيقة، وهو اعتبار حال الغفلة، وعدم وصف المراقبة. وهذا طريق المجاز في اللغة، هو المشابهة في بعض ما في الحقيقة. ونظير ما قلنا لفظة الامتحان والابتلاء تُستعملان في حق الله تعالى، وإن كان الامتحان والابتلاء فيما بين الخلق هو استظهار ما خفي عليهم بعضهم من بعض، فيأمرون بذلك وينهون ليظهر لهم ما خفي عليهم. فأُطلِق لفظة الابتلاء والامتحان على الأمر والنهي من الله تعالى -وإن كان ما خفي على الخلق من الخفيات ظاهرا في حقه- بطريق المجاز لما في الامتحان من الأمر والنهي» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٣و).

[٣] م: أو جزاء.

[٤] م - كما.

[٥] ن ع م: السيئة. وانظر الآية الآتية.

[٦] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ (سورة البقرة، ٢/١٩٤).

[٧] ن ع م: يسمى.

[٨] سورة الشورى، ٤٢/٤٠.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه من تفسير الآية، فنقلناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٥٩و/سطر ٢٠-٢٤.

[٩] م: يأمنوا.

[١٠] م - حيث قالوا الصغائر.

[١١] سورة يوسف، ١٢/٨٧.

[١٢] ن ع م: عن الصغائر.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فنقلناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٥٩و/سطر ٢٠-٢٤.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [١٠٠]

وقوله عز وجل: **أَوَلم يَهد لِلذين يرثون الأرض مِن بَعد أهلها**، على تأويل من يجعل الآية في الأمم السالفة يقول: **أَوَلم** يُوفَّقوا[١] و لم يُهدَوا للصواب[٢] بهلاك أمة[٣] بعد أمة وقوم بعد قوم. وعلى تأويل من يقول بأن الآية في هذه الأمة يقول: **أَوَلم** يُبَيَّن[٤] لهؤلاء[٥] الذين ورثوا **الأرض من بعد** هلاك **أهلها أن لو نشاء أصبناهم** بعذابٍ[٦] **بذنوبهم،**[٧] كما أصاب أولئك العذاب بذنوبهم. وقوله: **أَوَلم يَهد لِلذين يرثون الأرض مِن بَعد أهلها**، أي **من بعد** هلاك **أهلها**.

وقوله: **أَوَلم يهد**، على إسقاطِ الواو والألف، أي **لم يَهد لِلذين يرثون الأرض**. ثم يحتمل وجهين.[٨] يحتمل قوله: **لم يهد لهم**، أي لم[٩] يتفكّروا بما[١٠] أهلك الأولين وما حلّ بهم بتكذيبهم الرسل[١١] أنهم[١٢] إذا تركوا التفكّر والنظر فيهم وما نزل بهم لم يهد لهم. والثاني قد هداهم، لكن نفى ذلك عنهم لما لم ينتفعوا به، وهو [على] ما نفى عنهم من السمع والبصر والعقل[١٣] لما لم ينتفعوا به.

---

[١] ك ن: ألم يوفقوا.
[٢] ع: و لم يهد وللصواب.
[٣] ع: أمته.
[٤] ك ن: ألم يبين
[٥] ك – لهؤلاء؛ ن: لهم.
[٦] ك – بعذاب.
[٧] ك + أي لو نشاء أصبناهم بعذاب بذنوبهم.
[٨] ع م – يحتمل وجهين.
[٩] جميع النسخ: أو لم.
[١٠] ك: إذ لم يتفكروا بها؛ ن: إذ لم يتفكروا بما.
[١١] ع: الرسول.
[١٢] ع – أنهم؛ ع م + كانوا. أي لأنهم إذا تركوا...
[١٣] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون﴾ (سورة البقرة، ٢/١٧١).

ويحتمل على غير[1] إسقاطِ **أَوَ**، كأنه قال: **أَوَلَم يَهد لِلذين يرثون الأرض**، أولم يهدهم[2] الرسول قدرةَ الله في إهلاك الأمم الخالية، فعلى ذلك هو قادر على إهلاك **الذين يرثون الأرض مِن بَعد أهلها**. يحتمل هذه الوجوه التي ذكرنا. *والله أعلم*. أو يقول: **أَوَلَم يَهد لهم** وِراثةُ **الأرض مِن بَعد** هلاك **أهلها** أنهم بم أُهلِكوا، حتى يرتدعوا ويمتنعوا عن مثله.

وقوله: **أَوَلَم يَهد لِلذين يرثون الأرض**، يخرج[3] على وجهين. أحدهما قد هداهم وبيّن لهم أنّ مَن تقدّمهم إنما هلكوا بما أصابوا من ذنوبهم من التكذيب والعناد، لكن لم يهتدوا لعنادهم.[4] والثاني لم يهدهم لما لم يتفكّروا فيها[5] ولم ينظروا. على التلاوة[6] قُرِئت [الآية] بإسقاط الواو.[7]

وقوله:[8] **أَنْ لو نشاء أصبناهم بذنوبهم**، فإن كانت في الأمم السالفة فقوله: **أن لو نشاء أصبنا** قوما بعد قوم **بذنوبهم**. وإن كانت في المتأخرين فيكون قوله: **أن لو نشاء** أصبنا هؤلاء[9] **بذنوبهم**، على ما أصاب أولئك بذنوبهم. **ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون**، / والطبع يحتمل الختم، أي ختم[10] **على قلوبهم**. ويحتمل الطبع ظلمة الكفر، أي ستر **قلوبهم** بظلمة الكفر،[11] [٢٥٩ظ]

---

[1] ن - غير.

[2] ع: أو لم يهد لهم.

[3] ن - يخرج.

[4] ع: العنادهم.

[5] ن - فيها.

[6] أي من حيث التلاوة.

[7] ن ع م - الواو.   أي من حيث التلاوة... لكن الشارح رحمه الله يقول: «ثم قوله: ﴿أَوَلم يهد لِلذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ قرئ على إسقاطِ الألف والواو، لم يَهد لِلذين يرثون الأرض وقرئ على إثبات الألف والواو أَوَلم يهد لِلذين يرثون الأرض. فمن قرأ بالإسقاط فقراءته يحتمل وجوها. أحدها على التقرير والإثبات أي قد هداهم وبيّن لهم أنّ مَن تقدّمهم إنما هلكوا لما أصابوا من ذنوبهم من التكذيب والعناد، لكن لم يهتدوا لعنادهم. والثاني أي لم يهد لهم لما لم يتفكّروا ولم ينظروا فيما أهلك الأولين وما حلّ بهم بتكذيبهم الرسل عليهم السلام أنهم إذا تركوا التفكّر والتأمل. والثالث يحتمل لم يهد لهم، أنهم لم ينتفعوا به وإن هداهم فكأنه لم يهد لهم وهو كما نفى عنهم السمع والبصر والعقل مع الوجود حقيقة لما لم ينتفعوا بها، فهذا مثله. وأما القراءة بإثبات الألف والواو معناه أولم يبين لهم الرسل عليهم السلام قدرةَ الله تعالى في إهلاك الأمم الماضية، ليعلموا أنه قادر على إهلاك الذين يرثون الأرض مِن بَعد أهلها. ويحتمل أَوَلم يَهد لهم وراثةُ الأرض مِن بَعد هلاك أهلها أنهم أُهلِكوا حتى يرتدعوا ويمتنعوا عن مثله. والله أعلم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٣و).

[8] ن: أو قوله.

[9] ك ن م: أصبناهم لا؛ ع: أصبناهم؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٣و.

[10] ك: أي وختم.

[11] جميع النسخ + كقوله.

وكل شيء ستر شيئا وتغشاه فهو طَبْع.[١] **فهم لا يسمعون**، يحتمل وجهين.[٢] يحتمل **لا يسمعون** لما لا ينتفعون به. ويحتمل **لا يسمعون**، أي لا يجيبون، كقوله [عليه السلام]: «سمع الله لمن حمده»،[٣] قيل: أجاب الله لمن حمده، أي دعاءه.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[١٠١]

وقوله عز وجل: **تلك القرى نقص عليك من أنبائها**، قوله: **نقص عليك**، أي قصصنا عليك، مما قصّ[٤] عليه من الأنباء. يخبر رسوله أنّ القرى التي كانت من قبل قد سألوا رسلهم الآيات فجاءوا بها ولم يصدّقوها[٥] فعلى ذلك هؤلاء، أنك[٦] لو أتيت بما سألوك[٧] من الآيات لم يؤمنوا بها ولم يصدّقوها؛ يخبره عن تعنّتهم ومكابرتهم وعنادهم. والثاني يذكر أن الآيات ليس يجب أن يأتوا بها من الجهة التي يريدون، إنما يجب أن يأتوا بما هو[٨] حجة.

وقوله عز وجل: **ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات**، يحتمل وجوها.[٩] يحتمل الأنباء التي أنبأت الرسل أقوامهم من نزول العذاب بهم بالتكذيب والكفر بها. ويحتمل **البينات** الآيات[١٠] التي تدل على صدق الرسل بما يقولون ويخبرون بعد ما سألوهم الآيات، لكن ردّوها ردّ عناد ومكابرة بعد ما عرفوا أنها حق.

وقوله عز وجل: **فما كانوا ليؤمنوا**، قيل: يحتمل قوله: **فما كانوا ليؤمنوا**[١١] **بما كذّبوا من قبل**، أي **ما كانوا ليؤمنوا** لَمّا رأوا بأسنا **بما كذبوا من قبل**، أي لا ينفعهم إيمانهم عند رؤيتهم بأس الله،

---

[١] انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «طبع».
[٢] ن + أحدهما.
[٣] صحيح *البخاري*، الأذان ١٢٤؛ وصحيح *مسلم*، الصلاة ٧١.
[٤] ك: بما قص.
[٥] ك: ولم يصدقوبها.
[٦] أي لأنك لو أتيت...
[٧] جميع النسخ + ما سألوك.
[٨] جميع النسخ: ما هو.
[٩] م - يحتمل وجوها.
[١٠] ن ع م - الآيات.
[١١] ع م - قيل يحتمل قوله فما كانوا ليؤمنوا.

كقوله: لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ.[١] ويحتمل **ما كانوا ليؤمنوا** بسؤالهم الآيات إذا أتاهم الآيات[٢] **بما كذّبوا من قبل**، لأن تركهم[٣] الإيمان وتكذيبهم الرسل ليس لما لم يكن لهم الآيات، ولكن للتعنّت. فأخبر أنهم وإن سألوا الآيات فإنهم[٤] لا يؤمنون. والثالث **ما كانوا ليؤمنوا** بما يخبرهم[٥] الرسول من إتيان العذاب بهم **بما كذّبوا من قبل** من[٦] الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[١٠٢]

وقوله عز وجل: **وما وجدنا لأكثرهم من عهد**، يحتمل العهد المذكور وجوها ثلاثة. أحدها **عهد** الخلقة،[٧] لما في خلقة[٨] كل أحد الشهادة بالوحدانية له والألوهية، فلم يوفوا بتلك العهود، بل نقضوها. والثاني العهد الذي أخذ الله عليهم على ألسُن الرسل، كقوله: وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي،[٩] الآية، فلم يوفوا بذلك. والثالث ما أعطوهم[١٠] من أنفسهم من العهد، كقول فرعون[١١] لموسى: يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ،[١٢] فلم يوفوا بما أعطوهم من العهود.

وقوله عز وجل: **وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين**، أي[١٣] وقد **وجدنا أكثرهم فاسقين**، بنقض العهد. ***والله أعلم***.

---

[١] ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٥٨).

[٢] ع + إذا هم الآيات.

[٣] ع: إلا أن تركهم.

[٤] ك: إنهم.

[٥] ك: بما أخبرهم.

[٦] ع م – من.

[٧] ع: عند الخلقة.

[٨] ك – خلقة، صح، هـ.

[٩] ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نَقِيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرنّ عنكم سيئاتكم﴾ (سورة المائدة، ٥/١٢).

[١٠] م: ما أعطواهم.

[١١] ن – فرعون، صح، هـ.

[١٢] سورة الزخرف، ٤٣/٤٩.

[١٣] ع م – أي.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[١٠٣]

وقوله عز وجل: **ثم بعثنا من بعدهم موسى**، يحتمل قوله: **ثم بعثنا من بعد** هلاك قرون كثيرة **موسى** رسولا. **بآياتنا إلى فرعون ومَلَئِه**، يحتمل قوله: **بآياتنا**، حججنا. ثم يحتمل حجج وحدانية الله وألوهيته، ويحتمل آيات رسالته ونبوته. وعلى قول الحسن **بآياتنا** ديننا. وعلى ذلك يتناول جميع الآيات التي ذكرت في القرآن.

وقوله عز وجل: **إلى فرعون ومَلَئِه**؛ إنّ موسى كان مبعوثا إليهم جميعا، **إلى فرعون** والملأ والأتباع[١] جميعا، لا أنه كان مبعوثا **إلى فرعون ومَلَئِه** خاصة دون الأتباع. وكذلك ذكر في مكان آخر: إِلَى فِرْعَوْنَ،[٢] خاصة. وهو بعث إليهم جميعا. لكن يخرج تخصيص ما[٣] ذَكَر هؤلاء القادة -والله أعلم- لما أن الذي ينازع الأنبياء والرسل هم الكُبَراء والرؤساء دون الأتباع والسَّفَلةِ، والأتباعُ هم الذين يَصدُرون لآراء الكُبَراء ويتبعونهم[٤] فيما يدعونهم إليه، وعلى ذلك سُمُّوا الكبراء والرؤساء[٥] أضداد الرسل، وإلا كان موسى مبعوثا إليهم جميعا، الوضيعِ منهم والرفيعِ.[٦]

وقوله عز وجل: **فظلموا بها**، قال بعضهم: قوله: **فظلموا بها**، أي ظلموا الآيات والحجج التي أتى[٧] بها موسى فرعون[٨] وقومه. سُمِّي ظلما لأنهم سَمَّوا تلك الآيات سحرا بعدما عرفوا أنها منزلة من الله، فوضعوها غير موضعها، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. وقال قائلون: قوله: **فظلموا بها**، أي ظلموا نعم[٩] الله التي أنعمها عليهم حيث عبدوا غيره، فصرفوا[١٠] شكر تلك النعم إلى غير الذي أنعمها عليهم، فذلك ظُلمٌ. شَكَروا من لم ينعم عليهم وصرفوا عمن أنعم عليهم. *والله أعلم*.

---

[١] م: الأتباع.
[٢] ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا﴾ (سورة المزمل، ١٥/٧٣).
[٣] ك – ما.
[٤] ع: ويتبقونهم.
[٥] ن م – والرؤساء.
[٦] ع + والله أعلم.
[٧] ن ع – أتي.
[٨] م: موسى إلى فرعون.
[٩] ع: أنعم.
[١٠] ع: فضربوا.

ويحتمل **ظلموا** الأتباعَ بتلك الآيات، حيث منعوهم عن اتباع الرسول واستتبعوهم.[1] أو يقول: ظلموا بها[2] أنفسهم حيث تركوا اتباعها.

وقوله عز وجل: **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**، هذا الخطاب في الظاهر[3] لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان المراد بالخطاب غيره. أَمَر كُلًّا بالنظر في **عاقبة المفسدين** لما حلّ بهم بفسادهم، لأن من نظر في **عاقبة** ما حلّ بغيره بمعصية أو فساد يمتنع[4] عن مثله. وأمكن أن يكون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لوجهين. أحدهما لما له -بما حلّ بهم- بعضُ التسلّي لأذاهم إياه، لأن مَن توهّم حلول الهلاك على عدوه في العاقبة صبر على أذاه، ويكون له بعض التسلّي في ذلك. والثاني[5] يذكّرهم وينبّئهم بما يحلّ بهم في العاقبة[6] ليمتنعوا / عما ارتكبوا من المعاصي، لأن ذلك أزجر. [٢٦٠و]

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٠٤]

وقوله عز وجل: **وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين**. فإن قيل: كيف قال: **إني رسول** الله، وذلك يخرج في الظاهر مخرج الامتداح والتزكية، وقد نُهينا[7] عن ذلك،[8] لأنه أخبر بمحل الذي يوضع الرسالة فيه وأنه أهل لها؟

قيل: ليس فيه امتداح نفسه ولا تزكية له، لأنه إنما يَذكر منّة الله تعالى أنه جعله بحيث[9] يوضع فيه الرسالة، وجعله أهلا لها. والتزكية والامتداح إنما يقع فيما هو فعله حقيقة، لا فعل الله. أو إن كان تزكية وامتداحا[10] فهو قد أمر بذلك، فجاز ذلك بالأمر. أو أراد[11] بذلك تعريفه،

---

[1] أي طلبوا منهم أن يتبعوهم.
[2] ع م: لها.
[3] ع: هو الظاهر.
[4] ك: يمنع.
[5] ع م - والثاني.
[6] ن - ذلك والثاني يذكرهم وينبئهم بما يحل بهم في العاقبة.
[7] ع م: وقد نبهنا.
[8] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّةٌ في بطون أمهاتكم فلا تُزَكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ (سورة النجم، ٣٢/٥٣).
[9] ع: حيث.
[10] ك ن ع: وامتداح.
[11] ن: وأراد.

لما كان من عادة الملوك أنهم إذا بعث بعضهم إلى بعض رسولا فإنهم لا يستقبلون الرسل بالمكروه والشر، بل يعظّمون الرسل ويكرمونهم وإن كان[١] بينهم معاداة؛ فذكر أنه **رسول من رب العالمين** لئلا يُستقبَل بالمكروه.

وقوله: **من رب العالمين**، قيل: العالم هو جوهر الكل، وهو قول الفلاسفة. وقال أبو بكر الأصم: **رب العالمين**، أي مليك الخلائق.

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[١٠٥]

وقوله عز وجل: **حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق**، قال أهل التأويل: إن موسى لما قال لفرعون: إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ،[٢] فقال له: كذبت، فعند ذلك قال له موسى: **حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق**. وأمكن أن يكون ذلك منه على غير تكذيب القول من فرعون، ولكنه قال ذلك له موسى[٣] لما أنه[٤] **حقيق على** كل أحدٍ أكرمه الله بالرسالة واختاره لها **أن لا** يقول **على الله إلا الحق**. أو أن يقول: إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ،[٥] **حقيق على** ما أكرمني بالرسالة **أن لا أقول على الله إلا الحق**. وقوله: **حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق**، قد ذكرنا أن لا يصح الإبتداء بهذا إلا بعد أن يسبق من فرعون[٦] كلام خَرَج[٧] ذلك الكلام من موسى جوابا لما كان منه. وهو ما قال[٨] أهل التأويل: أنْ قال له لما قال: إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[٩] إليك: كذبت، لم يرسلك إلينا، أو كلام نحو هذا. فعند ذلك قال:[١٠] **حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق**، أي ما كان ينبغي لي أن **أقول على الله** الكذب. وهو كما قال عيسى: سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ،[١١]

---

[١] ك: إن كان.
[٢] مر آنفا.
[٣] ك ع م – له موسى.
[٤] ك ن ع – أنه.
[٥] مر آنفا.
[٦] ك ن + اللعين.
[٧] ن: يخرج.
[٨] ع: ما يقال.
[٩] الآية السابقة.
[١٠] ك + فعند ذلك قال.
[١١] سورة المائدة، ١١٦/٥.

لما قال له:[1] أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ.[2] كان ذلك القول من عيسى بعد[3] ما ادعى قومه[4] على عيسى أنه قال لهم ذلك. وكذلك قول الملائكة: سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، بعد ما قال لهم: أَهٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ،[5] فعند ذلك قالوا: سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، خرج ذلك القول منهم جواب ما تقدم. فعلى ذلك قول موسى: **حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق**، خرج على تقدُّم قولٍ كان منهم. ***والله أعلم***. ومن قرأ: **حقيق عَلَى أن لا أقول على الله إلا الحق**،[6] فتأويله مُحَقُوق[7] **على أن لا أقول على الله إلا الحق**. ومَن قرأ[8] بتشديد "عَلَيَّ"[9] فتأويله: **حق عَلَيَّ أن لا أقول على الله إلا الحق**.

وقوله عز وجل: **قد جئتكم ببينة من ربكم**، يحتمل **ببينة من ربكم**،[10] ما يُبين وحدانية الله وألوهيته. ويحتمل بينة الرسالة،[11] ما يُبين أني رسول[12] رب العالمين غير كاذب عليه ولا مُفترٍ. وقوله عز وجل: **فأرسل معي بني إسرائيل**، أي لا تستعبدهم، فإنهم ليسوا بعبيد. لم يُرِد إرسالهم[13] معه، ولكن طلب استنقاذهم من العُبودَة، كقوله: أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.[14]

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[١٠٦]

وقوله عز وجل: **قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين**، دل قول فرعون:

---

[1] ن – له.

[2] ﴿وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ (سورة المائدة، ٥/١١٦).

[3] ع م – بعد.

[4] م – قومه.

[5] ﴿ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾ (سورة سبأ، ٣٤/٤٠-٤١).

[6] ك م – خرج على تقدم قول كان منهم والله أعلم ومن قرأ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق.

[7] جميع النسخ: للحقوق؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٤و.

[8] م: ومن قرأه.

[9] قرأ نافع من الأئمة العشرة بتشديد الياء مفتوحة: عَلَيَّ، وقرأ الباقون بدون تشديد: عَلَى؛ انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

[10] ع – يحتمل ببينة من ربكم.

[11] ع م: الرسل له.

[12] ع + من.

[13] ع: إسالهم.

[14] ﴿وتلك نعمة تَمُنُّها عليّ أنْ عَبدتَ بني إسرائيل﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٢٢).

إن كنت جئت بآية، أن موسى أراد بقوله: قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ،[١] الآية. ودل قوله: **إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين**، أنه قد كان عرف أنه ليس بإله، وعرف عُبودَة نفسه، حيث طلب منه الآية على صدق ما ادعى من الرسالة، ولو كان عنده أنه إله لكان قال لموسى: أنا الإله، فمتى أرسلتك؟ و لم يطلب منه الآية.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾[١٠٧]

وقوله عز وجل: **فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين**، قال أبو عَوْسَجَة: الثعبان الحية. قال: كل حية تسمى ثعبانا،[٢] والثعابين[٣] جماعة. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: الثعبان هي الحية[٤] الذكر.[٥] وقوله: **مبين**، أي مبيّن أنها حية. وهو كما ذكر:[٦] فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى.[٧] **مبين**، لا يشك أحد أنها ليست بحية. ويحتمل **مبين**، أي **مبين** أن ذلك التغيير والتحويل لا يكون إلا من الله.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[١٠٨]

وقوله عز وجل: **ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين**، ذكر **نَزَع يده**، ولم يذكر مما ذا؟ فهو ما ذكر في آية أخرى: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ،[٨] أي من غير أذى ولا آفة.[٩] وقال أهل التأويل: من غير بَرَص. ولكن عندنا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، أي[١٠] من غير أن تُستقبَح أو تُستقذَر؛[١١] لأن خروج الشيء عن خلقته وجوهره مما يُستقذَر، فأخبر أنه لم يكن كذلك.

---

[١] الآية السابقة.
[٢] ع: ثعبان.
[٣] م: أو الثعابين.
[٤] ك ن: هو الحية.
[٥] *تفسير الطبري*، ١٥/٩.
[٦] م: كما ذكرنا.
[٧] سورة طه، ٢٠/٢٠.
[٨] سورة النمل، ١٢/٢٧.
[٩] ك: وآفة.
[١٠] ع م - أي.
[١١] ع: أن يستقبح أو يستقذر.

فإن قيل لنا: ما الحكمة في إدخال يده جيبه على ما هي عليها وإخراجه إياها **بيضاء** من غير أن كانت كذلك قبل أن يدخلها، وكذلك صيرورة العصا حية بعد ما طرحها على الأرض دون أن تصير[1] حية وهي في يده؟

[٢٦٠ظ] قيل: ذلك / -والله أعلم- أنه[2] إنما أراهم آية بعد ما أخرج العصا عن سلطانه وتدبيره، لِيُعلَم أنها إنما صارت حية[3] لا بتدبيره وتغييره، ولكن بالله[4] عز وجل. وكذلك اليد صيّرها آية بعد ما غيّبها عن بصره وتدبيره لِيُعلَم أنها صارت كذلك لا به، ولكن بالله[5] عز وجل. والآية[6] هي التي تخرج عن وسع الخلق وتدبيرهم.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[١٠٩]

وقوله عز وجل: **قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم**، وقال في آية أخرى: قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ،[7] يحتمل أن يكون فرعون قال للملأ: إِنَّ هَٰذَا كذا، ثم **قال الملأ** لقومه **إن هذا لساحر عليم**. أراد -والله أعلم- تلبيس ما أتى به موسى من الآية على قومه. وأراد بقوله: يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ،[8] إغراء قومه عليه. والسحر عندنا هو من آيات الرسالة، ولو كان ما أتى به[9] موسى سحرا كان ذلك من آيات رسالته ونبوته، لأنه لا يستفاد إلا بعلم من السماء وخبر منها. وكذلك هذه الحِرَف والمكاسب التي تُكتسَب في الخَلْق، لأنه لا يُعلَم إلا بالوحي من السماء، لكنه ليس بآية على الإشارة.[10] ولو كان ما أتى به سحرا لكان له آية، لأنه نشأ بين أظهرهم، لم يروه اختلف إلى ساحر قط،

[1] م: أن يصير.
[2] أي لأنه...
[3] ع م - حية.
[4] ك: ولكن الله.
[5] ك: ولكن الله
[6] م: الآية.
[7] سورة الشعراء، ٣٤/٢٦.
[8] سورة الشعراء، ٣٥/٢٦. أما الآية التالية هنا فليس فيها قوله: ﴿بسحره﴾.
[9] ع م - به.
[10] قال الشارح: «... لكنه ليس بآية على الإشارة والتعيين. أعني أنه ليس بآية في حق كل شخص واحد، لأنه قد يوجد من الشخص بطريق التعليم من غيره إلى أن ينتهي إلى الوحي بالحرف والمكاسب سواء. وهذا طريق معتاد. والآية ما خرجت على نقض العادة. وإنما يكون آية بوصف خاص، وهو أن توجد منه في حق من يعرف أنه لم يحصله بالتعليم، فيتعين في حقه الوحي، وهو خلاف العادة» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٠٤و).

ولا عُرِف[1] أنه تعلّم ذلك من أحد، فدل ذلك أنه من الآية. لكنه أخرج ذلك عما عرفوا من السحر لِما لا كلُّ أحدٍ يَعرف أنه لم يختلف في ذلك ولا تعلّم من أحد، فأخرجه عن وُسع السحرة وتدبيرهم ليعرف كل أحد أنه آية[2] رسالته ونبوته، لا السحر. *والله أعلم*.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[١١٠]

وقوله عز وجل: **يريد أن يخرجكم من أرضكم**، كان موسى لا يريد أن يخرجهم من أرضهم، ولكن -والله[3] أعلم- كأنه قال فرعون لقومه: لو اتبعتم موسى وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه لأخرجتُكم من أرضكم،[4] لكن أضاف ذلك إلى موسى لما كان هو سبب إخراجهم. *والله أعلم*. أو يقول: **يريد أن** يذهب بعيشكم الطيب وراحتكم وتلذذكم بأنواع التلذّذ؛ لأنهم كانوا يستعبدون بني إسرائيل ويستخدمونهم[5] ويستريحون هم[6] ويَنعمون. فيقول للقبط: **يريد أن** يذهب بذلك كله عنكم. وجائز أن يكون موسى لم يكن **يريد أن** يخرجهم من أرضهم، ولكن **يريد أن** يخرجهم من دينهم الذي كانوا عليه، ولكنه كان يغري قومه عليه.

وقوله: **فماذا تأمرون**، دل هذا القول من فرعون أنه كان يعرف أنه ليس بإله ولا رب، لأنه لو كان كما يقول:[7] أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى،[8] لكان لا يطلب من قومه الأمر والإشارة في ذلك، دل ذلك أنه كان يعرف عجزه وضَعْفه، لكنه يكابر ويُلَبِّس على قومه ويُمَوِّه بقوله: إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ،[9] وقوله: **يريد أن يخرجكم من أرضكم**. هذا الحرف حرف إغراء وتحريش عليه. وقوله: **فماذا تأمرون**، هو حرف تقريب، حيث جعل إليهم الأمر والإشارة، وجعلهم من أهل مشورته.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾[١١١]

وقوله: **قالوا أرجه وأخاه**، هذا الحرف لا يقال ابتداء، إلا أن يكون هنالك تقدّم شيء.

---

[1] ع م: لا عرف.
[2] جميع النسخ: آيات.
[3] ع م: الله.
[4] م - من أرضكم.
[5] ك: ويستخدمو، صح، هـ.
[6] ن: ويستريحونهم.
[7] جميع النسخ: ما يقول.
[8] سورة النازعات، ٢٤/٧٩.
[9] الآية السابقة.

فكأنه همّ بقتله، كقوله: ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ،[1] فقالوا له: **أرجه**، أي أَخِره واحبسه ولا تقتله، ليتبين سحره عند الخلق جميعا، كانوا يمنعون فرعون عن قتله. ألا ترى أنه قال: ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى، لو لم يكن منهم[2] مَنْع عن قتله لم يكن ليقول لهم: ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى. وقوله: **قالوا أرجه وأخاه**، قال القُتَبي: **أرجه وأخاه** هارون، يقول: احبسه، أي أَخِره، ومنه قوله: تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ،[3] ومنه سُمِّيت المُرْجِئة.[4] وقال ابن عباس رضي الله عنه: **أرجه وأخاه**، ولا تقتلهما، **وأرسل في المدائن حاشرين**، أي **أرسل** إلى **المدائن**[5] الشُّرَط، فأتوه من **المدائن حاشرين**، أي يحشرون عليك السحرة والناس؛ إلى هذا يذهب ابن عباس رضي الله عنه.[6]

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[١١٢]

وقوله: **يأتوك بكل ساحر عليم**، لا تقتلوه حتى **يأتوك بكل ساحر عليم**،[7] أي ليجتمع كل أنواع السحر ليتبيّن سحره، وإلا كان ساحر واحد كافيا،[8] ولكن أرادوا –والله أعلم– بقوله: **يأتوك بكل ساحر عليم**، ليجتمع جميع[9] أنواع السحر[10] عنده ليتبيّن سحره.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[١١٣] ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[١١٤]

وقوله عز وجل: **وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين**، في المنزلة والقدر عندي. هذا يدل أن هِمّة الساحر ليس إلا الدنيا،

---

[1] سورة المؤمن، ٢٦/٤٠.

[2] ك: معهم.

[3] ﴿تُرجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء﴾ (سورة الأحزاب، ٥١/٣٣). والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أي تؤخر من تشاء من أزواجك في القَسْم... وهناك أقوال أخرى.

[4] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٠. والإرجاء التأخير، ومنه سُمِّيَت المُرْجِئة، والمرجئة صنف من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، كأنهم قدّموا القول وأرجئوا العمل، أي أخروه، لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجاهم إيمانهم (*لسان العرب* لابن منظور، «رجأ»).

[5] ع + حاشرين.

[6] *تفسير الطبري*، ١٧/٩، ١٨.

[7] ع – لا تقتلوه حتى يأتوك بكل ساحر عليم.

[8] ع م: كاف.

[9] م: جمع.

[10] ك ن – ليتبين سحره وإلا كان ساحر واحد كاف ولكن أرادوا والله أعلم بقوله يأتوك بكل ساحر عليم ليجتمع جميع أنواع السحر.

لأنهم طلبوا من فرعون الأجر والقدر والمنزلة عنده إن كانوا هم الغالبين، ولا يجوز مَن هِمّته[1] هذه[2] الدنيا[3] وما ذكر أن يكون له الرسالة بحالٍ، وهِمّة الأنبياء كانت الدين وطلبَ الآخرة.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾[١١٥]

وقوله عز وجل: **قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين**، هذا ليس على إلقاء هذا وترك أولئك الإلقاءَ،[4] لأنه لو كان على إلقاء أحدهما لكان لا يتبين السحر من الآية، لكن إلقاء الأوّل. كأنهم **قالوا يا موسى إما أن تلقي** أوّلا أو **نحن** الملقون أول مرة. وهو كما ذكر في آية أخرى: إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى.[5]

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[١١٦]

وقول موسى: **ألقوا**، كأنه أمره ربه أن يأمر بذلك. **قال** موسى **ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم**، هذا يدل أن السحر إنما يأخذ الأبصار على غير حقيقة كانت له،[6] وهو كالسراب الذي يُرَى مِن بُعد،[7] كقوله: يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً،[8] الآية؛ فعلى ذلك السحر يأخذ الأبصار ظاهرا،[9] فإذا هو في الحقيقة باطل لا شيء، وكالخيال في القلوب لا حقيقة له. وكان قصدهم بالسحر استرهاب الناس وتخويفهم به؛ ألا ترى أنه[10] ذكر في آية أخرى: / فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى.[11] وقد ذكرنا[12] أن ما جاء به الرسل لو كان سحرا في الحقيقة [٢٦١و] لكان ذلك حجة لهم في إثبات الرسالة، لأن قومهم لم يروهم اختلفوا إلى ساحر قط، فيدل ذلك أنهم إنما عرفوا ذلك بالله تعالى. وهو كالأنباء التي أتى بها رسول الله صلى الله على وسلم.[13]

---

[1] ن ع: همه.
[2] ع م – هذه.
[3] ك – لأنهم طلبوا من فرعون الأجر والقدر والمنزلة عنده إن كانوا هم الغالبين ولا يجوز من همته هذه الدنيا.
[4] ن ع: الإلقى.
[5] سورة طه، ٦٥/٢٠.
[6] ك: له كانت.
[7] ع م: من بعيد.
[8] ﴿والذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بِقِيعةٍ يحسبه الظَّمْآن ماء﴾ (سورة النور، ٣٩/٢٤).
[9] ع: ظاهر.
[10] م – أنه.
[11] سورة طه، ٦٧/٢٠.
[12] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ١٠٩/٧.
[13] لعله يشير إلى مثل قوله تعالى: ﴿تلك مِن أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنتَ تَعلمها أنت ولا قومُك مِن قَبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (سورة هود، ٤٩/١١).

وقوله: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى، يخرج على وجهين. أحدهما أخذ سحرُهم بصره[1] كما أخذ **أعين الناس**. والثاني خاف أنّ سحرهم يمنع أولئك عن رؤية[2] حقيقة ما جاء به. وقوله: **سحروا أعين الناس**، أي حيّروا، كقوله: مَسْحُورُونَ،[3] أي مأخوذٌ أعينُكم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[١١٧]

وقوله عز وجل: **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك**، فيه أن موسى كان لا يلقي[4] عصاه إلا بعد الأمر بالإلقاء. وكذلك قوله: اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ،[5] و أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ،[6] ونحوه. كان لا يضرب بالعصا ولا يلقي إلا بعد الأمر بالإلقاء والضرب، لِيُعلَم أن في ذلك امتحانا[7] لموسى فيما يأمر بالإلقاء على الأرض لتصير[8] حية، وفيما يأمره بالضرب بها الحجر والبحر. ولله أن يمتحن عبده بما شاء من أنواع المحن، وإلا كان قادرا أن يَفلِق البحر على غير الأمر بالضرب بالعصا، وكذلك يفجر الحجر ويشق على غير ضرب بالعصا، وكذلك تصير[9] تلك العصا حية وهي في يده؛ ولكن[10] أمره بذلك كله -والله أعلم- امتحانا منه إياه وابتلاء، إذ هي دار محنة وابتلاء. إذ في زمن[11] موسى كان السحر هو الظاهر، وكان الناس وقتئذ يعملون بالسحر. فجاء موسى من الآيات على رسالته بنوع ما كانوا يعملون به ومن جنس ذلك، ليعرفوا بخروجه[12] عن وسعهم أن ذلك ليس بسحر،[13] ولكن آية سماوية. وكذلك ما جاء [به] عيسى من الآيات، جاء بنوع ما كان يعمله قومه،[14]

[1] م – بصره.
[2] ن: عن رؤيته.
[3] ﴿ولو فَتَحنا عليهم بابا من السماء فظَلُّوا فيه يَعرُجون. لقالوا إنما سُكِّرَت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ (سورة الحجر، ١٥/١٥).
[4] م: لما يلقي.
[5] سورة البقرة، ٢/٦٠.
[6] سورة الشعراء، ٢٦/٦٣.
[7] جميع النسخ: امتحان.
[8] ك: ليصير.
[9] ك: وكذلك يصير.
[10] ك: ولكنه.
[11] ك ع: أن في زمن.
[12] جميع النسخ: خروجه.
[13] ع م: بسحرهم.
[14] ع: قوم.

وهو الطب،[١] فجاء بنوع الطب،[٢] ليعلموا أنه بالله عرف ذلك.

وقوله عز وجل: **فإذا هي تَلْقَف ما يَأفِكون**، قال القُتَبي: **تلقف** تَلْتهم[٣] وتَلْقَم،[٤] اشتقاقه من التَّقُم والابتلاع.[٥] وقوله: **ما يأفكون**، قيل: ما يكذبون. قال الحسن: **تلقف ما يأفكون**، حبالهم وعِصِيَّهم.[٦] وقيل: **تلقف ما يأفكون**، ما جاءوا به من الكذب.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١١٨]

وقوله[٧] عز وجل: **فوقع الحق**، قيل: أي ظهر **الحق**. **وبطل ما كانوا يعملون**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما **بطل ما كانوا يعملون**، أي **بطل** ما عملوا من السحر. والثاني **بطل ما كانوا يعملون**، أي ترك[٨] السحرة العمل بالسحر إذ ظهر[٩] الحق لهم. **والله *أعلم***.

﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾[١١٩]

وقوله عز وجل: **فغُلِبوا هنالك**، أي عند ذلك غلب السحرة، لأنهم قالوا لفرعون في الابتداء: إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ،[١٠] فذكر هاهنا أنهم **غُلِبوا** عند ظهور الحق، لا أنهم صاروا غالبين. وقوله: **فغلبوا هنالك**، ليس غلبة القهر والقسر، ولكن غلبة بالحجج[١١] والبراهين، أي **غُلبوا** بالآيات والحجج.

وقوله عز وجل: **وانقلبوا صاغرين**، قال بعض أهل التأويل: رجع السحرة لما غُلبوا **صاغرين** مُذَلِّين. لكن نقول: رجع فرعون وقومه إلى منازلهم مُذَلِّين، لا السحرة، لأن السحرة قد آمنوا، فلا يحتمل أن يوصفوا بالرجوع **صاغرين** مُذَلِّين وقد رجعوا مع الإيمان.

---

[١] ك ن ع: الطير.
[٢] ك ن ع: الطير.
[٣] جميع النسخ: تلتقم؛ ع + وتلتقم. والتصحيح من *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٠.
[٤] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٠.
[٥] لَقِفْت الشيء ألقَفُه لَقْفا، إذا أخذته فأكلته أو ابتلعته، وفي التنزيل العزيز: ﴿فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾. ولَقِم والتَقَم أيضا في هذا المعنى (*لسان العرب* لابن منظور، «لقف، لقم»).
[٦] *تفسير الطبري*، ٢١/٩.
[٧] ن: قوله.
[٨] ن ع م: أي تلك.
[٩] جميع النسخ: إذا ظهر.
[١٠] سورة الأعراف، ١١٣/٧.
[١١] ع: بالحج.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾[١٢٠]

وقوله عز وجل: **وألقي السحرة ساجدين**، اختلف فيه. قال بعضهم: قوله:[١] **ألقي**، أي أُمروا بالسجود فسجدوا. وقال آخرون: قوله: **ألقي**، أي لسرعة ما سجدوا كأنهم أُلقوا. والآية ترد[٢] على المعتزلة، لأنهم ينكرون أن يكون لله في فعل العباد صنع، وهاهنا قد أضيف الفعل إلى غيرهم بقوله: **وألقي السحرة ساجدين**، دل أن لله[٣] في فعل العباد صنعا،[٤] وهو أنْ خَلَق فعل السجود[٥] منهم.[٦] وقال جعفر بن حرب:[٧] يجوز أن يضاف الفعل إلى غير وإن لم يكن لذلك الغير في ذلك الفعل صنع، نحو ما يقال في السفر: إن هؤلاء خَلَّفوا أولئك، وهم لم يُخَلِّفوا أولئك في الحقيقة، ولا صنع لهم في التخليف،[٨] ثم أضيف إليهم فعل التخليف،[٩] فعلى ذلك[١٠] هذا. يقال: إن لهم في ذلك صنع، وهو[١١] أنهم إذا لم ينتظروهم[١٢] فقد خَلَّفوهم، ولهم في ذلك صنع، فأضيف إليهم. أو أن يقال: إنهم لا يملكون تخليف هؤلاء، فأما الله سبحانه قادر أن يُلقيهم، أي[١٣] يخلق منهم فعل السجود، فأضيف الفعل إليه لذلك.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٢١] ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[١٢٢]

وقوله عز وجل: **قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون**، قال بعض أهل التأويل: إنهم لما **قالوا آمنا برب العالمين**، قال لهم[١٤] فرعون: إياي تَعنُون؟ فعند ذلك قالوا:

---

[١] ك – قوله.
[٢] ك ن – ترد؛ ع م: يرد.
[٣] ن ع: أن الله.
[٤] جميع النسخ: صنع.
[٥] م: السجو.
[٦] ك: فيهم.
[٧] أبو الفضل جعفر بن حرب الهمذاني المعتزلي العابد. له *كتاب متشابه القرآن*، و*كتاب الاستقصاء*، و*كتاب الرد على أصحاب الطبائع*، و*كتاب الأصول*. وتوفي سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م. انظر: *سير أعلام النبلاء* للذهبي، ٥٤٩/١٠–٥٥٠.
[٨] ن ع م: في التخلف.
[٩] ك: التأخير.
[١٠] ن – ذلك.
[١١] جميع النسخ: وهم.
[١٢] ع: ينتظرون.
[١٣] ع م + بما.
[١٤] ك + موسى.

لا، ولكن[1] **ربِّ موسى وهارون**. ولكن لا ندري هذا، وموسى أولَ ما جاء فرعون ودعاه إلى دينه قال له: إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ،[2] فلا يحتمل أن يُشكل عليه قولهم: **آمنا برب العالمين**، أنهم إياه عنوا بذلك. وجائز أن يكون **آمنا برب العالمين** الذي أرسل موسى وهارون رسولا.

﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾[١٢٣]

وقوله: **قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم**، هذا يدل على أن[3] الإيمان[4] هو التصديق لا غير، لأنه[5] لما قال السحرة: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ،[6] **قال** لهم **فرعون آمنتم به**، وهم لم يأتوا[7] بسوى التصديق، دل على أن[8] الإيمان هو التصديق الفرد لا غير.[9]

وقوله عز وجل: **إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها**، هذا من فرعون نوع من التمويه على قومه، كما قلنا في الابتداء: إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ،[10] هو حرف التمويه والتلبيس على قومه، فعلى ذلك قوله: **إن هذا لمكر مكرتموه**. وهو تمويه منه وتلبيس على قومه لئلا يؤمنوا كما آمن السحرة برب موسى. وقوله: **إن هذا لمكر مكرتموه**،[11] أي شيء صنعتموه فيما بينكم وبين موسى، وهو كما قال في آية أخرى: / إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ.[12] [٢٦١ظ]

---

[1] ع: لا ويكن.
[2] سورة الأعراف، ١٠٤/٧.
[3] ن ع: يدل أن.
[4] ع + هل.
[5] ن ع م: لأنهم.
[6] الآية قبل السابقة.
[7] ع + هم.
[8] ك ن ع: دل أن.
[9] ك ن: لا غيره؛ ع: ولا غيره.
[10] سورة الأعراف، ١٠٩/٧.
[11] ن ع م – في المدينة لتخرجوا منها أهلها هذا من فرعون نوع من التمويه على قومه كما قلنا في الابتداء إن هذا لساحر عليم هو حرف التمويه والتلبيس على قومه فعلي ذلك قوله إن هذا لمكر مكرتموه وهو تمويه منه وتلبيس على قومه لئلا يؤمنوا كما آمن السحرة برب موسى وقوله إن هذا لمكر مكرتموه.
[12] سورة طه، ٧١/٢٠؛ وسورة الشعراء، ٤٩/٢٦.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٢٤]

وقوله عز وجل: **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف**، هذا لجهله[١] بأشد العقوبة والنكال، وإلا لم يوعدهم بقطع الأيدي والأرجل **من خلاف**، إذ ذلك أيسر وأقل في العقوبة من القطع من جانب. والقطع من جانب أشدّ وأنْكل من القطع **من خلاف**، إذ القطع[٢] **من خلاف** لا يمنع القيام ببعض المنافع، ولا يعمل في إتلاف النفس. إذ جُعل ذلك حدّا في بعض العقوبات، ولم يُجعَل القطع من جانب عقوبة بحال، دل أنه أشدّ و أنْكل ويعمل في إهلاك النفس، والقطع **من خلاف** لا يعمل،[٣] دل أنه لجهله ما قال. أو أنْ اختار[٤] القطع **من خلاف** ليكون مؤنة الصَّلْب[٥] عليهم لا عليه، لأن المقطوع **من خلاف** قد يمكن له الصعود على الخشبة، والثاني لا. ***والله أعلم***.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [١٢٥]

وقوله: **قالوا إنا إلى ربنا منقلبون**، وقال في موضع آخر: لَا ضَيْرَ.[٦] هذا –والله أعلم– يخرج على وجهين. أحدهما[٧] على الإقرار منهم بالبعث والإيمان به. والثاني وعيد منهم لفرعون،[٨] حيث أوعدهم بقطع الأيدي والأرجل والصَّلْب وغير ذلك من العقوبات، فقالوا: **إنا** وأنت **إلى ربنامنقلبون**، فتُجزَى وتُعاقَب جزاء صنيعك بنا.[٩]

﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[١٢٦]

وقوله عز وجل: **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا**، قيل بوجهين.[١٠] قيل: قوله: **وما تنقم منا**، أي **وما** تعيب علينا[١١] وتطعن، **إلا**[١٢] بما كان منا من الإيمان **بآيات ربنا لما جاءتنا**،

---

[١] ع: هذه الجملة.
[٢] ع م: إذا القطع.
[٣] م – ولا يعمل في إتلاف النفس إذ جعل ذلك حدا في بعض العقوبات ولم يجعل القطع من جانب عقوبة بحال دل أنه أشد و أنكل ويعمل في إهلاك النفس والقطع من خلاف لا يعمل.
[٤] ك: أو أن اختيار.
[٥] جميع النسخ: الطلب؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٥ظ.
[٦] ﴿قالوا لا ضَيْرَ إنا إلى ربنا منقلبون﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٥٠).
[٧] ع م – أحدهما.
[٨] ك + لعنه الله.
[٩] م: ربنا.
[١٠] ن ع م: لوجهين.
[١١] ك: وما يعيب عليه.
[١٢] ع م: الإيمان.

وهو ما جاءهم من الآيات. وقيل: **وما تعاقبنا** وتنتقم[١] **منا إلا أن آمنا بآيات ربنا**، وكان الحق عليك[٢] أن تؤمن بها كما آمنا نحن.

وقوله عز وجل: **ربنا أفرغ علينا صبرا**، قوله: **أفرغ**، قيل: أنزل **علينا صبرا**، وقيل: أتمم لنا **صبرا**، وقيل: أَصْبُبْ علينا صبرا. وهو كله واحد. ثم يحتمل سؤالهم الصبر لما لعله إذا فعل بهم ما أوعد[٣] من العقوبات لم يقدروا على الصبر[٤] على ذلك،[٥] فيتركون الإيمان، لذلك[٦] سألوا ربهم الصبر على ذلك لِيَتثبّتوا على الإيمان به.[٧] **وتوفنا مسلمين**، سألوا ربهم أيضا التوفي على الإسلام. وهكذا كان دعاء الأنبياء، كما قال يوسف: تَوَفَّنِي مُسْلِمًا،[٨] الآية. وكذلك كان[٩] أوصى إبراهيم بَنيه حيث قال: إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.[١٠] وهكذا الواجب على كل مؤمن ومسلم[١١] أن يتضرع إلى الله في كل وقت، ويبتهل[١٢] إليه في كل ساعة، لئلا يسلب الإيمان منه[١٣] لكسبٍ يكتسبه؛ إذ الأنبياء[١٤] والرسل صلوات الله عليهم مع عصمتهم كانوا يخافون ذلك، لِيُعلَم أن العصمة لا تُسقِط الخوف ولا تُؤمِن عن[١٥] الزلات.

و[في] قوله: **ربنا أفرغ علينا صبرا**، دلالة على أنهم علموا أنه[١٦] إذا أفرغ عليهم الصبر صبروا، إذ لو لم يعلموا ذلك لم يكن لسؤالهم الصبر معنى. فهذا على المعتزلة في قولهم

---

[١] ن: وينتقم؛ ع م: وما ينتقم.
[٢] ك + وعلينا؛ ن ع م: علينا وعليك.
[٣] ن: لما أوعد؛ ع م: بما أوعد.
[٤] ع م: على التصبر.
[٥] ع م – على ذلك.
[٦] ع: كذلك.
[٧] ن – به.
[٨] سورة يوسف، ١٢/١٠١.
[٩] ك – كان.
[١٠] سورة البقرة، ٢/١٣٢.
[١١] ك: مسلم ومؤمن.
[١٢] ع: ويبهل.
[١٣] ع م – منه.
[١٤] ع: إذا الأنبياء.
[١٥] ك – عن.
[١٦] ك ع م: أنهم.

أنه يُفرغ ولا يصبرون،[1] وأنه قد أعطاهم غاية ما يصلح[2] في الدين. فدلّ سؤالهم ذلك على أنه لم يعطهم، وأن عنده مَزِيداً[3] لو أعطى لهم ذلك كان.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[١٢٧]

وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وقوله: **ليفسدوا في الأرض**،[4] قال بعضهم: في إخراجكم من أرض[5] مصر، وإفسادهم[6] العيش عليكم. أو ما ذكروا من ترك عبادة فرعون وخدمته.[7] **ويَذَرَك وآلهتك**، وقد قرئ: و إلَاهَتَك، فمن[8] قرأ بِ"إلَاهَتَك" حمله على العبادة، أي **يذرك** وعبادتك.[9] ومن قرأ بِ"**آلهتك**" -وهو قول ابن عباس ومجاهد-[10] فقالوا:[11] إن فرعون[12] قد كان جعل لقومه آلهة[13] يعبدونها، ليتقرّبوا بعبادتهم تلك الأصنام إلى فرعون، على ما كان يعبد أهل الشرك الأصنام دون الله، ويقولون: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[14] فقالوا:[15] **وَيَذَرَكَ وآلهتك** التي جعلت لهم. وقال آخرون: إن فرعون كان يعبد الأصنام والأوثان على ما عبد غيره. وقال غيرهم: لا يحتمل أن يكون عبد[16] هو[17] الأصنام،

[1] جميع النسخ: ولا يصبر.
[2] ن + لهم.
[3] جميع النسخ: مزيد.
[4] ع م – وقوله ليفسدوا في الأرض.
[5] ع: في أرض.
[6] ن: وإفساد؛ ع م: وإفسادكم.
[7] ع: وخدمته.
[8] ك + حملها.
[9] نسبت هذه القراءة الشاذة إلى ابن عباس ومجاهد؛ انظر: *تفسير الطبري*، ٩/٢٥.
[10] القراءة المتواترة المتفق عليها عند جميع القراء المعروفين هي: وآلهتك، لكن نسبت القراءة بِ"إلاهتك" إلى ابن عباس ومجاهد كما ذكرنا، فلعل المذكور في المتن خطأ من الناسخين. والله أعلم.
[11] جميع النسخ: وقالوا.
[12] ك + لعنه الله.
[13] ك: له لهة.
[14] سورة الزمر، ٣٩/٣.
[15] ع م – فقالوا.
[16] ع م – عبد.
[17] ك: هو عبد.

ولكن جعل[١] لقومه الأصنام على ما ذكرنا؛ ألا ترى أنه قال: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى.[٢]

ثم قال:[٣] **سَنُقَتِّلِ أبناءهم ونستحيي نساءهم،** قال بعضهم: قوله: **سنقتل أبناءهم،** يعني رجالهم، **ونستحيي نساءهم،** أي نترك **نساءهم،**[٤] لأنه[٥] لا يحتمل قتل الأبناء ولم يكن منهم إليه[٦] صنع، إنما كان ذلك من[٧] الرجال. وقال بعضهم: قد كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل في العام الذي قيل له: إنه يولد مولود يذهب بملكك ويغيّر دين أهل الأرض، فلم يزل يقتل[٨] في ذلك العام[٩] الأبناء، ويترك[١٠] البنات، فذلك[١١] قوله: **سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم.** *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **وإنا فوقهم قاهرون،** قيل: مسلّطون عليهم.

فإن قيل لنا: ما الحكمة في ذكر هذه القِصص والأنباء السالفة في القرآن؟

قيل: لوجوه. *والله أعلم.* أحدها[١٢] أن فيها دليل إثبات رسالة[١٣] محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته؛ لأن هذه القصص والأنباء كانت في كتبهم[١٤] ثابتة[١٥] مُبَيَّنة، وقد علموا[١٦] أن لسانه كان على غير ما كانت كتبهم، وعرفوا أنه لم يختلف إلى أحد ممن يعرف ذلك ليتعلم منه، ولا سمع عن أحد منهم، ثم أنبأهم[١٧] على ما كانت، دل أنه إنما عرف ذلك بمن يعلم علم الغيب.

[١] ع م – جعل.
[٢] سورة النازعات، ٧٩/٢٤.
[٣] ك + اللعين.
[٤] ع م – أي نترك نساءهم.
[٥] ع: أنه.
[٦] ن – إليه.
[٧] ك: صنع.
[٨] جميع النسخ: يقتلهم.
[٩] ك + الذي قيل له أنه يولد مولود.
[١٠] ع: وينزل.
[١١] ن: وذلك.
[١٢] ع م – أحدها.
[١٣] ن + نبينا.
[١٤] أي في كتب اليهود والنصارى، وهي التوراة والإنجيل.
[١٥] ع م – ثابتة.
[١٦] م – علموا.
[١٧] ع: من أنبائهم؛ م: ثم أنبائهم.

والثاني أن البشر جُبِلوا على حب السماع إلى الأخبار[1] والأحاديث، وحُبِّب[2] ذلك في قلوبهم، حتى أن واحدا منهم يولّد أحاديث وينشئها من ذات نفسه لأنْ يستمعوا في ذلك إليه[3] ويسمعوا[4] منه. فذكر لهم[5] هذه الأنباء والقصص ليكون استماعهم إليها وسماعهم لها. وذلك أحسن وأوفق، إذ أخبر أن ذلك أحسن القصص بقوله: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ [٢٦٢و] أَحْسَنَ / الْقَصَصِ.[6]

والثالث ذكر لهم هذا ليعلموا ما حل بهم في العاقبة من الهلاك والاستئصال وأنواع العذاب بفسادهم[7] وتكذيبهم الرسل، وما عاقبة المفسد منهم والمصلح، ليكون ذلك زجرا لهم عن صنيع[8] مثلهم.

والرابع ذكر ذلك ليعرفوا كيف كانت معاملة الأنبياء والرسل أعداءهم ومعاملة الأعداء الرسل، ليعاملوا أعداءهم بمثل معاملتهم.

والخامس أنهم كانوا ينكرون أن يكون[9] من البشر رسول،[10] فأخبر أن الرسل الذين كانوا من قبل كانوا[11] كلهم من البشر.

والسادس أنهم كانوا يعبدون هذه الأصنام والأوثان، ويقولون: بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ،[12] وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ،[13] فأخبر أنْ كان في آبائهم السعداء -وهم الأنبياء- والأشقياء، فكيف اقتديتم أنتم بالأشقياء منهم، وهلّا اتبعتم السعداء[14] دون الأشقياء؟

[1] ك: للأخبار.
[2] ع: وجب.
[3] ن - إليه.
[4] جميع النسخ: وسمعوا.
[5] ك: فذكروا لهم.
[6] سورة يوسف، ٣/١٢.
[7] ك: لفسادهم.
[8] ك: عن صنع.
[9] ع: أن ينكرون.
[10] جميع النسخ: رسولا.
[11] ن - كانوا.
[12] سورة الشعراء، ٧٤/٢٦.
[13] سورة الزخرف، ٢٣/٤٣.
[14] جميع النسخ: بالسعداء.

والسابع فيها أنْ كيف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عَرَّفَنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن يأمر به ومن ينهى عنه. وأيضا[١] أن فيه ذكر الصالحين منهم بعد ما ماتوا وانقرضوا، فصاروا[٢] بالذكر كالأحياء.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٢٨]

وقوله[٣] عز وجل: **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا**، يحتمل قوله: **استعينوا بالله**، على أداء طاعته، ربما تتقرّبون[٤] به إلى الله ويكون لكم[٥] زُلْفَى لديه.[٦] أو أنْ يقولُ[٧] لهم: **استعينوا بالله**، [ليعين][٨] بالنصر[٩] لكم والظفر، **واصبروا** على أذاهم والبلاء. **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده**، يحتمل[١٠] هذا وجهين. يحتمل أن يخرج[١١] ذلك من موسى مخرج الوعد لهم بالنصر والظفر على الأعداء، وجَعْل الأرض لهم[١٢] من بعد إهلاك[١٣] العدو. وهو كما ذكر[١٤] في موضع آخر: وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ،[١٥] الآية. ويحتمل أن يخرج[١٦] ذلك منه مخرج التصبير على الرضاء بقضاء الله تعالى، أن الأرض له يُصيِّرها لمن يشاء، فاصبروا أنتم على البلايا، وارضوا بقضائه.

---

[١] ك: وأيضه.
[٢] ع م: فكانوا.
[٣] ك: قوله.
[٤] ك: وبما يتقربون؛ ن: وبما تتقربون.
[٥] جميع النسخ: لهم.
[٦] أي بعد استعانتكم بالله على أداء طاعته اصبروا وداوموا على أداء الطاعات حتى تتقربوا إلى الله فينجيكم بسبب قربكم إلى الله من ظلم فرعون. والله أعلم.
[٧] ن: وأن يقولوا؛ ع م: أو أن يقولوا.
[٨] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢٠٦و.
[٩] ك ع م - بالنصر.
[١٠] ن: ويحتمل.
[١١] ع: إذ يخرج.
[١٢] ك: لهم الأرض.
[١٣] ك ن ع: وإهلاك.
[١٤] ك: وهو كما وضع؛ ن: وكما ذكر.
[١٥] ﴿ونُمَكِّنَ لهم في الأرض ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ (سورة القصص، ٢٨/٥-٦).
[١٦] ن: أن تخرج.

والعاقبة للمتقين، قال الحسن: **العاقبة** أي الآخرة **للمتقين** خاصة، وأما الدنيا فإنها بالشركة بين أهل الكفر وأهل الإسلام، يكون لهؤلاء ما لأولئك، وأما الآخرة فليست للكفار،[1] إنما هي للمؤمنين خاصة. وهو ما ذكر في آية أخرى: وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ،[2] الآية. فعلى ذلك هذا. *والله أعلم*. وقال غيره: **والعاقبة للمتقين**، أي عاقبة الأمر بالنصر والظفر **للمتقين** على أعدائهم، وإن كان في الدفعة[3] الأولى عليهم.

[٢٦٢و س٣٥] *وقوله: **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا**، أمرهم -والله أعلم- بطلب المعونة من الله تعالى على قضاء جميع حوائجهم دينا ودنيا. ويحتمل أن يكون على طلب التوفيق لما أمر به، والعصمة عما حذره عنه. وكذلك الأمر[4] البيّن في الخَلْق من طلب التوفيق والمعونة عن الله والعصمة عن المنهي عنه، جَرَت به سنة الأخيار. *وبالله المعونة*.[5] ثم لا يصح ذلك على قول المعتزلة، لأن الدعاء بالمعونة على أداء ما كلّف، وقد أعطى. إذ على قولهم لا يجوز [٢٦٢ظ] أن يكون مكلّفا [و]قد بقي شيء / مما به أداءُ ما كُلِّف عند الله. وطَلَبُ ما أعطى كتمان للعطية. وكتمان العطية[6] كفران. فيصير كأن الله أمر بكفران نعمه وكتمانها، وبطلبها منه تعنُّتا. وظَنُّ مثلِه بالله كُفْر. ثم لا يخلو[7] من أن يكون عند الله ما يطلب، فلم يعط التمام إذًا. أو ليس[8] عنده، فيكون طَلَبُه استهزاءً به، إذ مَن طلب إلى آخر ما يعلم أنه ليس عنده فهو هازئ[9] به في العرف.[10] مع ما كان الذي يطلب إما أن يكون لله أن لا يعطيه مع التكليف، فيبطل قولهم: لا يجوز أن يكلّف وعنده ما به الصلاح في الدين فلا يعطي. أو ليس له أن لا يعطي،[11] فكأنه قال: اللهم لا تَجُرْ ولا تظلم. ومَن هذا عِلمُه بربه فالإسلام أولى به.[12]

---

[1] ع: الكفار.

[2] ﴿لبيوتهم سُقُفا من فضّة ومعارج عليها يَظهَرون. ولبيوتهم أبوابا وسُرُرا عليها يتكئون. وزُخرُفا وإنْ كلُّ ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/٣٣-٣٥).

[3] ع: بالدفعة.

[4] ك: لا من.

[5] ك: وبالله التوفيق.

[6] ع – وكتمان العطية.

[7] ك: لا يخ؛ ن ع م: لا يخلوا.

[8] ك: إذن وليس.

[9] ع: فهو هاوي.

[10] ع: من العرف.

[11] ع – أن لا يعطي؛ م: أن يعطي.

[12] أي من يعتقد هذا فعليه اعتناق الإسلام من جديد.

فهذا مع ما لا يدعو[١] اللهَ أحدٌ بالمعونة إلا[٢] ويطمئن قلبه أنه لا يَزِلُّ عند المعونة ولا يزيغ عند العصمة. وليس مِثلَه يَملك الله عند المعتزلة. *ولا قوة إلا بالله*.* [٢٦٢ظ س٧]

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[١٢٩]

وقوله عز وجل: **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**، يخرج هذا على وجهين. أحدهما أن يخرج مخرج استبطاء النصر والظفر لهم، كأنهم استبطئوا النصر وإهلاك العدو والظفر عليهم، فقال لهم موسى عند ذلك: **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض**. والثاني أن يخرج ذلك منهم مخرج الاعتذار لموسى لما خطر ببال موسى أنهم يقولون: إن[٣] ما أصابهم من البلايا والشدائد إنما كان لسببه ولمكانه، فقالوا ذلك له[٤] اعتذارا منهم له أنْ قد أصابنا ذلك[٥] **من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**، لئلا يوهم أنهم يقولون ذلك، أو يخطر ببالهم ذلك. *والله أعلم*. وجائز أن يكونوا قالوا ذلك على التعيير[٦] له[٧] والتوبيخ، يقولون: لم يزل يصيبنا[٨] من الأذى لسببك ولأجلك، **من قبل أن تأتينا**، من الاستخدام، **ومن بعد ما جئتنا**، من أنواع الضرر.* وقال بعض أهل التأويل في قوله: **أوذينا** بسببك[٩] [٢٦٢و س٢٩ **من قبل أن تأتينا** بالرسالة، يعنون بالأذى قتل الأبناء[١٠] واستخدام النساء، **ومن بعدما جئتنا** بالرسالة من الشدائد التي أصابتهم من بعد. لكن الأول أقرب وأشبه.* ٢٦٢و س٣١]

وقوله عز وجل: [قال] **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم**، والعسى من الله واجب. فوعد لهم إهلاك العدو واستخلافهم **في الأرض**.*

---

[١] ع: ما لا يدعوهم.
[٢] جميع النسخ: بالمعونة وإلا.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٦٣و/سطر ٣٥ - ٢٦٣ظ/سطر ٧.
[٣] ع - إن.
[٤] ن - له.
[٥] جميع النسخ + نحن.
[٦] ن ع م: على التغيير.
[٧] ن - له.
[٨] م: يصيبننا.
[٩] جميع النسخ: في سببك.
[١٠] ن: الأنبياء.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فنقلناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٦٢و/سطر ٢٩-٣١.
* وقع هنا المقطع المشار إليه في الحاشية السابقة.

وقوله عز وجل: **فينظر كيف تعملون**، يحتمل هذا أيضا وجهين. أحدهما أنْ يجعلُ لكم الأرض ويوسع عليكم الرزق،[١] يمتحنكم في ذلك ويبتليكم، لا أنه يجعل لكم ذلك على غير امتحان تعملون ما شئتم في ذلك. والثاني يمتحنكم بالشدائد والبلايا لينظر كيف[٢] تصبرون على ذلك. ويحتمل وجها آخر، وهو أن يقول لهم: **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف** تشكرون ربكم فيما أنعم عليكم. و[يحتمل] قوله: **فينظر كيف**، الواقع لكم من الجزاء والثواب[٣] [بسبب العمل].[٤]*

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[١٣٠]

وقوله عز وجل: **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونَقْصٍ من الثمرات**، عن ابن مسعود رضي الله عنه: **بالسنين**، قال: بالجوع، وقيل: بالقحط. ومجاهد **بالسنين** قال: بالجوائح،[٥] **ونَقْصٍ من الثمرات**، دون ذلك.[٦] وقال القُتَبي: **بالسنين**، بالجدب،[٧] يقال: أصاب الناس سنة، أي[٨] جدب.[٩]

فإن قيل: ذكر أنه أخذ **آل فرعون**، وكان فيهم بنو[١٠] إسرائيل، فما معنى التخصيص؟

قيل: يحتمل أن يكون ذلك لهم[١١] خاصة دون بني إسرائيل وإن كانوا[١٢] فيهم، على ما ذكر في بعض القصة أن القبط كانوا يشربون الدم وبنو[١٣] إسرائيل الماء. أو كان الجدب[١٤]

---

[١] ن: الأرض.

[٢] ك + تعملون.

[٣] ك: من الثواب والجزاء.

[٤] الزيادتان من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٦و.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٦٣و/سطر ٣٥ - ٢٦٣ظ/سطر ٧.

[٥] ن ع م: بالجوائج. الجوائح جمع جائحة، وسنة جائحة: جدبة، والجائحة: الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة... جاحتهم السنة تجوحا وجياحة وأجاحتهم واجتاحتهم: استأصلت أموالهم، وهي تَجُوحهم جَوحا وجياحة... (*لسان العرب* لابن منظور، «جوح»).

[٦] انظر للأقوال المذكورة: *تفسير الطبري*، ٩/٢٨-٢٩.

[٧] ن: بالجذب.

[٨] م - أي.

[٩] ك: أي جذب. *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧١

[١٠] ك: بنوا.

[١١] ن - لهم.

[١٢] جميع النسخ: وإن كان؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٦و.

[١٣] ك ع: وبنوا.

[١٤] ن: الجذب.

والنقص[١] **من الثمرات** يضر **آل فرعون** ولا يضر بني إسرائيل، لما أنهم كانوا يأكلون للشهوة،[٢] وبنو[٣] إسرائيل للحاجة. فمن يأكل للحاجة كان أقل حاجة إلى الطعام ممن يأكل[٤] للشهوة، فإذا لم يجدوا ما يأكلون للشهوة كان ذلك[٥] أَضَرّ بهم. ألا ترى أنه قيل: «يأكل المؤمن في مِعًى[٦] واحد والكافر في سبعة[٧] أمعاء».[٨] أو خرج تخصيص ذلك لهم لما أن في عَقْد[٩] بني إسرائيل أن لله[١٠] أن يمتحنهم بجميع أنواع المحن، مرة بالشدة ومرة بالسعة، ومن عَقْد القبط لا، فأضيف إليهم ذلك لما لم يكن في عَقْدهم ذلك وإن كانوا جميعا في ذلك.

وقوله عز وجل: **لعلهم يَذَّكَّرون**، أي يتعظون.[١١] ولعل[١٢] من الله واجب. قد اتعظوا، لكنهم عاندوا وكابروا، وإلا قد لزمهم الاتعاظ.

﴿فَإِذَا جَاءَ تْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَ لَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٣١]

وقوله عز وجل: **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه**، أي الخصب والسعة، **قالوا لنا هذه**، أي هذا ما كنا نعرفه أبدا، وما جرينا على اعتياده. أو أن يقولوا: **لنا هذه** بفرعون وبعبادتنا له. **وإن تصبهم سيئة**، قيل: الضيق والقحط، **يطّيّروا بموسى**، وقالوا بشؤمه.

[٢٦٢ظ س٢٩] * وقوله عز وجل: **يَطّيّروا**، من الطِّيَـرَة، وهو من التشاؤم. يقال: تشاءمت بفلان، أي قلت: هو غير مبارك. وتطيّرت بفلان، أيضا[١٣] مثله. ويقال: تبرّكت به، إذا قلت: هو مبارك.

---

[١] ع: والنقض.
[٢] جميع النسخ: لشهوة.
[٣] ك ع: وبنوا.
[٤] م: فمن يأكل.
[٥] ع م: لهم.
[٦] ك: في مغي؛ ع: في مع.
[٧] جميع النسخ: لسبعة.
[٨] *صحيح البخاري*، الأطعمة ١٢؛ و*صحيح مسلم*، الأشربة ١٨٤. «واختلف في معنى الحديث؛ فقيل: ليس المراد به ظاهره، وإنما هو مَثَل ضُرب للمؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها، فكأن المؤمن لتقلّله من الدنيا يأكل في معى واحد والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء...» (*فتح الباري بشرح صحيح البخاري* لابن حجر، ٥٣٧/٩). وفي معنى الحديث أقوال أخرى كثيرة ذكرها ابن حجر.
[٩] أي في اعتقاد...
[١٠] ع م: أن الله.
[١١] ن- فأضيف إليهم ذلك لما لم يكن في عقدهم ذلك وإن كانوا جميعا في ذلك قوله لعلهم يذكرون أي يتعظون، صح هـ.
[١٢] ك: ولل.
[١٣] ك: أيضه.

ويقال: تطيّرت واطّيّرت منه وبه.[1] **ألا إنما طائرهم**، أي شؤمهم ذاك الذي يخافون منه
٢٦٢ظ س٣٢] هو من **عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون**، أنه[2] من عند الله كان بتكذيبهم موسى.* وهذا كما قالت[3] العرب لمحمد [كما أخبر تعالى عنهم بقوله]:[4] وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ، كانوا يضيفون ما يصيبهم من الحسنة إلى الله، لأنهم كانوا يقرون[5] بالله، والقبط لا، فيقولون:[6] ذلك[7] لنا من فرعون أو على الاعتياد. فقال: قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ.[8] فعلى ذلك قال هاهنا: **ألا إنما طائرهم عند الله**. ثم يحتمل هذا وجوها. قيل: جزاء تَطَيُّرِهم **عند الله** في الآخرة. وقيل: **طائرهم** وشؤمهم الذي كانوا تطيّروا بموسى كان بتكذيبهم موسى. أضاف ذلك إلى ما عنده من الآيات، لأنهم بنزول[9] تلك الآيات وإرسالها عليهم تطيّروا[10] بموسى، [و]بتلك الآيات تَجَدَّدَ[11] تطيُّرهم وتشاؤمهم.[12] وقال بعضهم قوله: **إنما طائرهم عند الله**، أي حظّهم **عند الله**. وكذلك قال في قوله: أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ.[13] وهو كما ذكر: فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ،[14] لما كذّبوا تلك الآيات زاد ما نزل[15] من الآيات مِن بَعدُ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ. فعلى ذلك شؤمهم و **طائرهم** الذي كان بتكذيبهم موسى.*

---

[1] ك: به ومنه.

[2] ك + كان؛ م: بأنه.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٦٢ظ/سطر ٢٩-٣٢.

[3] ع م: كما قال.

[4] الزيادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٦٠ظ.

[5] ع: يقرؤن.

[6] ع م: لا يقولون.

[7] ع م + بل يقولون.

[8] ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله﴾ (سورة النساء، ٧٨/٤).

[9] ع: نزول.

[10] ع: يطيروا.

[11] ع م: تجذو.

[12] ن: وتشئامهم.

[13] ﴿وكلَّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ (سورة الإسراء، ١٣/١٧).

[14] ﴿وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيُّكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (سورة التوبة، ١٢٤/٩-١٢٥).

[15] ك + بهم؛ ع: ما ترك.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٦٢ظ/سطر ٢٩-٣٢.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[١٣٢]

وقوله عز وجل: **وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**، قال أبو بكر الكيساني: تأويله كلما تأتينا[١] به تزعم أنه[٢] **آية تريد أن تسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**. وقال ابن عباس والحسن:[٣] أي **ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها**، الآية، وقوله: مَهْ، زيادة. وهو قول القُتَبي. ومعناه أي ما **تأتنا**. وقال الخليل:[٤] هو في الأصل "ما ما"، إحداهما زيادة، فطرحت الألف وأبدلت مكانها هاء طَلَبًا للتخفيف.[٥] وقال سيبويه النحوي:[٦] قوله: **مهما تأتنا به من آية**، أي مَهْ،[٧] كأنهم قالوا له: مَهْ، أي اسكت، كما يقول الرجل لآخر: مَهْ، أي اسكت،[٨] **ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**. والسحر هو التحيير[٩] وأخذ الأبصار، ولا حقيقة له. كقوله: إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا،[١٠] أي متحيّرا،[١١] وقولِه: سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ.[١٢] ثم دل قولهم: **مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**، أنّ ما قالوا: إن هذا ساحر، وإنه سحر، عن علم بالآية والنبوة له قالوا ذلك[١٣] / لا عن جهل وغفلة. [٢٦٣و]

---

[١] جميع النسخ: تأتنا.

[٢] ع م - أنه.

[٣] جميع النسخ + وهؤلاء.

[٤] هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفَرَاهِيدِي البصري، كان رأسا في لسان العرب، وهو منشيء علم العَروض، وكان متواضعا ورعا متعبدا، أخذ عنه النحو سيبويه وغيره، وله *كتاب العين* في اللغة، توفي سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م. انظر: *سير أعلام النبلاء* للذهبي، ٤٢٩/٧-٤٣١.

[٥] «وأما مهما فإن أصلها "ما ما" ولكن أبدلوا من الألف الأولى هاء ليختلف اللفظ. فـ"ما" الأولى هي ما الجزاء، و"ما" الثانية هي التي تزاد تأكيدا لحروف الجزاء مثل أينما ومتى ما وكيفما...» (*كتاب العين* للخليل بن أحمد، ٣٥٨/٣).

[٦] هو أبو بِشْر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي البصري، ولقبه سِيبَوَيْه، إمام النحو، وقد طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية فبرع وساد أهل العصر، وألف فيها كتابه الكبير. قيل: عاش اثنتين وثلاثين سنة، وقيل: نحو الأربعين. توفي سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م. انظر: *سير أعلام النبلاء* للذهبي، ٣٥١/٨-٣٥٢.

[٧] ك + أي

[٨] ذكر ابن منظور هذا القول ولم ينسبه إلى أحد، ونسب القول الأول إلى سيبويه. انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «مهه».

[٩] ع: هو التخيير.

[١٠] ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا﴾ (سورة الإسراء، ١٠١/١٧).

[١١] ع: أي متحيزا.

[١٢] سورة الأعراف، ١١٦/٧.

[١٣] ك: قالوا له ذلك.

حيث قالوا: **مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**، ذلك منهم إياس عن الإيمان به وقبول الآيات، لأنهم[1] أخبروا أنهم لا يقبلون[2] الآيات ولا يصدقونه في ذلك.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[١٣٣]

وقوله عز وجل: **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد**، إلى آخر ما ذكر، قال أهل التأويل: لما[3] قالوا ذلك أرسل الله بعد السنين ونقص[4] الثمرات **الطوفان** والآيات التي ذكر. ويحتمل أن يكون هذا وإن كان مؤخّرا في الذكر فهو مقدَّم لما قال: وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ.[5] **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد**، إلى آخره، **لعلهم يذكّرون**، أي يتعظون. ثم اختلف أهل التأويل في **الطوفان**، قال بعضهم: **الطوفان**[6] الماء والمطر حتى خافوا الهلاك، وهو قول ابن عباس.[7] وعن عائشة[8] قالت: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الطوفان، فقال: «الموت».[9] فإن ثبت فهو هو. وقيل: **الطوفان** هو أنواع العذاب. **والجراد** هو المعروف. **والقُمَّل**، قال بعضهم: هو بنات الجراد، يقال[10] [لها] الدَّبَا.[11] وقيل: هو الجراد[12] الصغار التي لا أجنحة لها. **والضفادعَ والدم آياتٍ مُفَصَّلات**، قيل: **مُفَصَّلات**، أي مُفَرَّقات واحدا بعد واحد، لم يرسل آية إلا بعد ذهاب أخرى، بعضها على إثر بعض. وقيل: **مُفَصَّلات**، أي بيّنات واضحات مما علم[13] كل أحد

---

[1] ن ع م: لا أنهم.
[2] ع: لا يقبلو.
[3] ع م – لما.
[4] ع: ونقض.
[5] سورة الأعراف، ٧/١٣٠.
[6] ك – الطوفان.
[7] *تفسير الطبري*، ٩/٣٠-٣١. وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٥٢٠.
[8] ع: وعائشة.
[9] *تفسير الطبري*، ٩/٣١. وأخرجه كذلك ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٥١٩. وقال ابن كثير: «حديث غريب» (*تفسير ابن كثير*، ٢/٢٤١). وذكر ابن حجر أنه رواه ابن مردويه بإسنادين ضعيفين؛ انظر: *فتح الباري بشرح صحيح البخاري* لابن حجر، ٨/٣٠٠.
[10] ع: ويقال.
[11] الدَّبا هو الجراد قبل أن يطير، وقيل: الدَّبا أصغر ما يكون من الجراد والنمل (*لسان العرب* لابن منظور، «دبى»).
[12] ن: هو جراد.
[13] جميع النسخ: ما علم.

أنه ليس[١] من عمل السحر، ولكن آية سماوية؛ إذ لو[٢] كان سحرا لتكلّفوا في دفعه،[٣] واشتغلوا بالسحر على ما اشتغلوا[٤] بسحر العِصِيّ والحبال،[٥] فإذا لم[٦] يتكلّفوا في ذلك ولم[٧] يشتغلوا بدفع ذلك بل فزعوا إلى موسى ليكشف ذلك عنهم ووعدوا له الإيمان به[٨] وإرسال بني إسرائيل معه دلّ فزعهم إليه في كشف ذلك عنهم[٩] على أنهم قد عرفوا أنه ليس بسحر، ولكنه آية. وقد[١٠] أقروا بها أنها ليست بسحر وأنها آيات، لأنهم[١١] فزعوا عند ذلك إلى موسى.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[١٣٤]

*وقوله عز وجل: **ولما وقع عليهم الرجز**، قيل: **الرجز** ألوان العذاب الذي كان نزل بهم [٢٦٣و س١٩
من الطوفان والجراد والقمل والضفادع[١٢] والدم وما ذكر.[١٣]* فقالوا:[١٤] **ادْعُ لنا ربَّك بما عَهِد عندك** ٢٦٣و س٢١]
لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك ولنرسلنّ معك بني إسرائيل، ووعدوا له الإيمان به وبَعْثَ بني إسرائيل معه إن كشف عنهم الرجز. وقوله عز وجل: **بما عهد عندك**، اختلف فيه. قال بعضهم: **بما عهد عندك**، ما عهد لك أنك متى دعوته أجابك. وقيل: **بما عهد عندك**، أنَّا متى آمنا بك وصدّقناك كشف عنا الرجز. فقالوا له:[١٥] **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل.***

---

١ ع م + من أحد وليس.
٢ ع م: إن لو.
٣ ع م: في وقعة.
٤ ع - بالسحر على ما اشتغلوا.
٥ ع: والجبال.
٦ ك ع: فإذ لم.
٧ ن ع م: لم.
٨ ن - به.
٩ ن - عنهم.
١٠ ع م - وقد.
١١ جميع النسخ: الا انهم.
١٢ ن ع م - والضفادع.
١٣ ن: وما ذكرنا.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٦٣و/سطر ١٩-٢١.
١٤ م: فقال.
١٥ ك ع م - له.
وقع هنا مقطع من في تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٦٤و/سطر ١٩-٢١.

قالوا: **لئن كشفت عنا الرجز**، يحتمل أن يكون كلما حلّ[1] بهم نوع من العذاب فسألوا أن يكشف عنهم فقالوا: **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل**، فلما كشف عنهم الرجز نكثوا ذلك، وعادوا إلى ما كانوا من قبل. ويحتمل أن يكون[2] قولهم لموسى: **ادْعُ لنا ربَّك بما عَهِد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك**، بعد ما حلّ بهم أنواع العذاب. عند ذلك قالوا: **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك**. فلما كشف ذلك[3] عنهم نكثوا عهدهم، وهو قولهم: **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك**، وعادوا إلى ما كانوا، فعند ذلك كان ما ذكر من قوله: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ.[4]

وقوله: **لنؤمننّ لك**، بما تدعي بأنك رسول، **ولنرسلن معك بني إسرائيل**، أمكن أن يكون ليس على نفس الإرسال، ولكن على ترك الاستعباد، أي[5] لا نستعبدهم بعد هذا، لأنهم كانوا يستعبدون بني إسرائيل.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾[١٣٥]

وقوله عز وجل: **فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون**، قال الحسن: قوله: **كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه**، لو أطاعوا[6] وَوَفَوْا[7] بالعهد الذي عهدوا، لكنهم لما نكثوا ذلك انتقم منهم. وهذا الحرف يؤدي إلى مذهب الاعتزال، لأنهم يقولون: إن من قُتِل أو عُذِّب تعذيبَ إهلاك إنما هلك قبل أجله، وأجله الموت. لكن هذا يصلح ممن يجهل العواقب. فأما الله[8] سبحانه يتعالى عن ذلك أن يجعل له أجلين، أحدهما الموت، والآخر القتل. ولكن جَعَل أجلَ من في علمه أنه يُقتَل القتلَ، ومن يموت حَتْفَ أنفِه الموتَ. وكذلك[9] ما روي في الخبر أن «صلة الرحم تزيد في العمر»،[10]

---

[1] ن: كلما أحل.

[2] م + كلما حل بهم نوع من العذاب أن يكون.

[3] ع م – ذلك.

[4] سورة الأعراف، ١٣٦/٧.

[5] ن – أي.

[6] ن ع م: ولو أطاعوا.

[7] م: وأوفوا.

[8] م: وأما الله.

[9] ن – وكذلك.

[10] روي بهذا اللفظ عن أبي أمامة وغيره مرفوعا؛ انظر: *المعجم الكبير* للطبراني، ٢٦١/٨؛ و*كشف الخفاء* للعجلوني، ٢٩/٢. وحسن الهيثمي إسناد حديث أبي أمامة؛ انظر: *مجمع الزوائد* للهيثمي، ١١٥/٣. وروي في هذا المعنى أحاديث عديدة، منها ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا: «من أحب أن يُبسَط له في رزقه ويُنسَأ له في أثَره فليَصِل رحمه» (*صحيح البخاري*، الأدب ١٢؛ و*صحيح مسلم*، البر والصلة ٢١). وورد في بعض الروايات: «... وأن يمد في أجله...» (*مسند أحمد بن حنبل*، ١٥٦/٣). وهو يفسر الرواية السابقة.

أي من علم منه أنه يصل رحمه جعل عمره أزْيَد ممن يعلم أنه لا يصل رحمه، لا أنه يجعل عمره إلى وقت، ثم إذا وصل رحمه زاد، لما ذكرنا أن ذلك أَمْرُ من يجهل العواقب، وأما من يعلم ما كان وما يكون أنه لو كان كيف يكون فلا.[١]

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[١٣٦]

وقوله عز وجل: **فانتقمنا منهم**، يحتمل أن يكون قوله: **فانتقمنا منهم**، ما ذكر على إثره من الغرق: **فأغرقناهم في اليم**. ويحتمل أن يكون قوله: **فانتقمنا منهم**،[٢] بالطوفان[٣] وأنواع[٤] العذاب الذي كان حل بهم، ثم كان[٥] الإغراق من بعد. وقوله عز وجل: **بأنهم كذبوا بآياتنا**، يحتمل الآيات التي جاء بها موسى على وحدانية الله تعالى وربوبيته، وهي الحجج. أو الآيات[٦] التي تقدم ذكرها من الطوفان والجراد والقمل / وما ذكر. وقال[٧] الحسن: **بآياتنا** ديننا. وقوله: [٢٦٣ظ]
وكانوا عنها غافلين، قيل: معرضين مكذبين بها، لا أنهم كانوا على غفلة وسهو عنها، لكنهم أعرضوا عنها معاندين مكابرين[٨] كأنهم[٩] غافلون[١٠] عنها. وجائز أن يكونوا[١١] **غافلين** عما يحل بهم من العقوبة بتكذيبهم.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[١٣٧]

وقوله عز وجل: **وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعَفون مشارق الأرض ومغاربها**،

---

[١] جميع النسخ: لا.
[٢] ن – ما ذكر على إثره من الغرق فأغرقناهم في اليم ويحتمل أن يكون قوله فانتقمنا منهم.
[٣] جميع النسخ: من الطوفان.
[٤] ن: ووأنواع.
[٥] ن + بهم.
[٦] م: والآيات.
[٧] ع: قال.
[٨] ع م: مكابرين معاندين.
[٩] ن – كأنهم.
[١٠] جميع النسخ: غافلين.
[١١] م: أن يكون.

هو ما سبق من الوعد لهم بوراثة الأرض[1] وإنزالهم[2] فيها، وهو قوله: عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ،[3] وكقوله: وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ.[4] كان وعد لهم الاستخلاف والإنزال في أرض عدوهم، ثم أخبر أنه أنزلهم وأورثهم
على ما وعد[5] لهم بقوله: **وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعَفون** باستعبادهم.* وقيل في قوله:[6] [٢٦٣ظ س٢٤
كانوا يُستَضعَفون، يعني بالاستضعاف قتل الأبناء واستحياء النساء بأرض مصر. ورّثهم الله ذلك.* ٢٦٣ظ س٢٥]

وقوله:[7] **مشارقَ الأرض ومغاربها**، قيل فيه بوجوه. قيل: **مشارق الأرض ومغاربها** مملكة فرعون، مصر ونواحيها، ما يلي ناحية الشرق وناحية الغرب. وقيل: كان في بني إسرائيل من بلغ ملكه **مشارق الأرض ومغاربها**[8] من نحو ذي القرنين وداود وسليمان. وقيل: **مشارقَ الأرض ومغاربها** أن فُضِلُوا[9] على أهل **مشارق الأرض ومغاربها**، كقوله: وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ.[10] قيل:[11] عالمي ذلك الزمان.[12] ثم تفضيله إياهم على البهائم بالجوهر والخلقة، وعلى الجن بالرسالة والنبوة والمنافع، وعلى جوهرهم من بني آدم بالرسالة والحكمة والملك، كقوله: وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.[13]

وقوله عز وجل: **التي باركنا فيها**، قيل: أرض الشام. وقيل: أرض مصر[14] ونواحيها. وقيل: سماها مباركة[15] لأنها مكان الأنبياء عليهم السلام. وقيل: مباركة لكثرة[16] أنزالها وسعتها.

---

[1] م + فيها.
[2] ع – وإنزالهم.
[3] سورة الأعراف، ١٢٩/٧.
[4] سورة القصص، ٥/٢٨.
[5] ع: ما عد.
[6] ع – أي أهلكنا وأفسدنا يعرشون يعرش ويعرش يعني يبنون من البيوت والكروم والأشجار وقيل في قوله.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٦٣ظ/سطر ٢٤-٢٥.
[7] ع م – وقوله.
[8] ع م + كقوله وفضلناهم على العالمين قيل عالمي زمانهم.
[9] م: أن نصلوا.
[10] سورة الجاثية، ١٦/٤٥.
[11] ك + على.
[12] ع م: عالمي زمانهم.
[13] سورة المائدة، ٢٠/٥.
[14] م: لمصر.
[15] جميع النسخ: سماه مباركا.
[16] ن: لكثر.

وقوله عز وجل: **وتمت كلمة ربك الحسنى**، قيل:[١] هي الجنة، أي **تمت** لهم الجنة **بما صبروا**. وقيل: **وتمت كلمة ربك الحسنى**، بما كان وعد لهم أنه ينزلهم فيها ويستخلفهم، تم ذلك[٢] الوعد لهم.[٣] وهو كما قال:[٤] وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ، تم ما[٥] وعد لهم أن يمنّ عليهم. وقوله عز وجل: **بما صبروا**، يحتمل **بما صبروا**[٦] على أذى فرعون. ويحتمل **بما صبروا** على أداء[٧] ما أوجب[٨] عليهم. *والله أعلم*.* وقيل في قوله:[٩] **وتمت كلمة** [٢٦٣ظ س٢٦
ربك الحسنى: هي النعم[١٠] التي أنعم، **على بني إسرائيل بما صبروا**، على البلاء حين كُلِّفوا ما لا يطيقون من استعباد فرعون إياهم، والكلمة [هي] التي ذكر ما ذكر في القصص من قوله: وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ.* ٢٦٣ظ س٢٨]

وقوله عز وجل: **ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يَعرِشون**، قال بعضهم: قوله: **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه**، على الوقف على قومه،[١١] **وما كانوا يعرشون**، معطوفا على قوله: **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها**[١٢]... **وما كانوا يعرشون**، وهو من العرش الذي يتخذه الملوك. وقيل: **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** أيضا، أي أهلكنا **ما كانوا يعرشون**. قال القُتَبي: **يعرشون** أي يبنون،[١٣] والعَرْش: البيت،[١٤] والعَرْش: السقف.[١٥] وقال أبو عَوْسَجة:

---

[١] ن: فقيل.
[٢] ن: ثم ذلك.
[٣] ع م – لهم.
[٤] ن ع م: ما قال.
[٥] ن: ثم ما.
[٦] ع – يحتمل بما صبروا.
[٧] جميع النسخ: من أداء.
[٨] ك: ما وجب.
[٩] ن + في قوله.
[١٠] ك م: وهي النعمة؛ ن ع: وهي النعم.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٦٣ظ/سطر ٢٦-٢٨.
[١١] ع – على قومه.
[١٢] ن: ونواحيها.
[١٣] ن ع: أي يبنون.
[١٤] جميع النسخ: بيوت.
[١٥] جميع النسخ: سقوف. *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٢.

ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه، أي أهلكنا وأفسدنا؛ **يعرشون**، يَعرِش ويَعرُش[1] يعني يبنون من البيوت والكُرُوم والأشجار.[2]*

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[١٣٨]

وقوله عز وجل: **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر**، دل هذا على أن لله[3] في فعل العباد صُنعا وفعلا،[4] حيث أضاف ونسب المجاوزة إلى نفسه، وهم الذين جاوزوا البحر، دل أن له في فعلهم صُنعا.[5] وهذا ينقض على المعتزلة، حيث أنكروا خلق أفعال العباد. *وبالله المعونة والعصمة.*

وقوله عز وجل: **فأتوا على قوم يَعْكُفون على أصنام لهم**، العُكُوف هو المُقام والدوام. وقوله: **يَعْكُفون على أصنام لهم**، أي وجدوهم[6] عُكُوفا على عبادة الأصنام مقيمين على ذلك.

وقوله: **قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**، يشبه أن يكون سؤالهم **إلها** يعبدونه لا على الكفر بربهم والتكذيب لرسوله، ولكن لما لم يروا أنفسهم أهلا لعبادة الله[7] والخدمة له، لما رأوا في الشاهد أنه لا يخدم[8] الملوك إلا الخواصّ لهم والمقرّبون[9] إليهم، ومَن بَعُد منهم يخدم خواصّهم. فعلى ذلك هؤلاء سألوا موسى **إلها** يعبدونه لما لم يروا أنفسهم أهلا لعبادة الله والخدمة له، لتقرّبهم[10] عبادة تلك الأصنام إلى الله. ويخرج ذلك مخرج التعظيم لله والتبجيل، لا على الكفر وصرف العبادة عنه إلى غيره. وكذلك كان عادة العرب أنهم كانوا يعبدون الأصنام لتقرّبهم عبادتها إلى الله زُلْفَى.[11] وكذلك ما ذكر في بعض القصة أن فرعون كان يتخذ لقومه أصناما يعبدونها[12] لتقرّبهم عبادة تلك الأصنام إليه زُلْفَى.[13]

---

[1] م: ويغرس.
[2] انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «عرش».
* وقع هنا مقطعان من تفسير الآية متأخرين عن موضعهما، فقدمناهما إلى موضعهما المناسب؛ انظر: ورقة ٢٦٣ظ/سطر ٢٤-٢٨.
[3] ك: أن الله.
[4] جميع النسخ: صنع وفعل.
[5] جميع النسخ: صنع.
[6] ن ع م: أي وجدهم.
[7] ن ع م: للعبادة لله.
[8] ك ن ع: لم يخدم.
[9] ك ن ع: والمقربين.
[10] ك: ليقربهم.
[11] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نَعْبُدُهم إلا لِيُقَرِّبُونا إلى الله زُلْفَى﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٣).
[12] ن: يعبدون.
[13] ع – وكذلك ما ذكر في بعض القصة أن فرعون كان يتخذ لقومه أصناما يعبدونها لتقربهم عبادة تلك الأصنام إليه زلفى.

فعلى ذلك سؤال هؤلاء لموسى **اجعل لنا إلها**. *والله أعلم*. أو كان سؤالهم ذلك لما لم يروا في الشاهد أحدا يُخدَم إلا لحاجة تقع له إلى ذلك، فرأوا أن الله / يتعالى[1] عن[2] أن يُعبَد ويُخدَم للحاجة؛ ويخدمون القادةَ [٢٦٤و]
والرسلَ ويعبدونهم لما رأوا [أنهم] ينالون من النعم وأنواع المنافع من الرؤساء والكبراء، لذلك كانوا يخدمونهم.[3] وأما أهل التوحيد فإنهم لا يرون العبادة لغير الله، لأنه ما من أحد وإن بَعُد منزلته ومحله إلا وآثار نعم الله عليه ظاهرة حتى عرف ذلك كل أحد، حتى لو بُذِل له جميع حُطام الدنيا أو أُوعِد بكل أنواع الوعيد[4] ليترك[5] الدين الذي[6] هو عليه ما ترك[7] البَتَّة.* ويحتمل أن يكون سؤالهم **إلها** يعبدونه[8] لما أن أهل الكفر قالوا لهم: إن الرسل هم الذين أمروهم بعبادة الأصنام، كقوله: وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا؛[9] فعلى ما قالوا: إن الرسل هم الذين أمروهم بذلك، سألوا موسى أن يجعل لهم **إلها**[10] **كما لهم آلهة**.

[٢٦٤و س٤ **[قال إنكم قوم تجهلون]**.* وفي أمر موسى صلوات الله عليه خصلتان. أحدهما[11] أن يُعلَم أنْ كيف يأمر[12] بالمعروف وينهى عن المنكر، وكيف يعامل مرتكب الفسق[13] والمنكر. يعامل على ما عامل[14] موسى قومه باللين والشفقة وإن استقبلوه[15] بالعظيم من الأمر والمناكير. والثانية...[16]* ٢٦٤و س٧]

---

[1] ك: تعالى.

[2] م – عن.

[3] قال الشارح: «ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾، لم يريدوا بذلك جعل الأصنام لهم آلهة يعبدونها، لكن أرادوا أن يجعل لهم قادة ورؤساء يخدمونهم ويعظمونهم، فيكونون سُفَراء بينهم وبين موسى، وليكون لهم من أولئك الرؤساء النعم وأنواع المنافع، كما رأوا قوما ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾، أي رأوا قوما يقيمون على خدمة رؤسائهم وعظمائهم، ونالوا منهم النعم وأنواع المنافع، فتمنوا ذلك، لا أنهم سألوا منه أن يعبدوا غير الله تعالى...» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٧ظ).

[4] ك: العذاب.

[5] ع: لينزل.

[6] م – الذي.

[7] ع: ما نزل.

* وقع هنا مقطع متقدم على موضعه من تفسير الآية، فأخرناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٦٤و/سطر ٤-٧.

[8] ن: يعبدون.

[9] ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ (سورة الأعراف، ٢٨/٧).

[10] ك: إلها لهم.

[11] م: إحديهما.

[12] ك م: يؤمر.

[13] ن + ألبتة.

[14] ن: ما عمل.

[15] م: وإن استقبلواه.

[16] جميع النسخ هكذا. وفي هامش نسخة ك: "في الأصل هكذا بياض." وترك في المتن بياض بمقدار سطر تقريبا.

* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه من تفسير الآية، فأخرناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٦٥و/سطر ٤-٧.

﴿إِنَّ هٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١٣٩]

وقوله: **إن هؤلاء مُتَبَّر ما هم فيه**، أي إن عبادتهم لهؤلاء **مُتَبَّر**، أي مُهلكهم ومُفسدهم،[1] **وباطل ما كانوا يعملون**، أي **باطل ما**[2] يأملون بعبادتهم هؤلاء. وقال القُتَبي: التبار الهلاك.[3] وقال أبو عَوْسَجَة: المُتَبَّر المفسَد، يقال: تبّرت الشيء، أي أفسدته، ويقال: رجل **مُتَبَّر**، أي مفسَد.[4]

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١٤٠]

وقوله عز وجل: **قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضّلكم على العالمين**، يحتمل قوله: **فَضَّلكم على العالمين**، بما هداكم ووفّقكم للهداية بما لم يوفق و لم يهد[5] أحدا[6] من عالمي زمانكم. ويحتمل قوله: **أبغيكم إلها**، دونه وقد **فَضَّلكم** بما استنقذكم من استخدام فرعون وقَهْرِه إياكم، وأخرجكم من يده، وأعطاكم رسولا يبيّن لكم عبادة إلهكم الحق. وقوله: **أَغَيْرَ الله أَبْغيكم إلها وهو فَضَّلكم على العالمين**، يقول: أما تستحيون ربكم أن تسألوا[7] **إلها**[8] تعبدونه دونه، وقد **فَضَّلكم**[9] بما ذكر من أنواع النعم التي ذكر.[10] *والله أعلم*.

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[١٤١]

وهو[11] ما ذكر في قوله:[12] **وإذ أنجيناكم من آل فرعون**، الآية، يذكّرهم نعمه عليهم بما استنقذهم من فرعون وآله وأهلكهم.[13] وقوله عز وجل: **يسومونكم**، قيل:[14] يعذبونكم،

[1] «أي إن هؤلاء مفسد ما هم فيه، أي من العبادة لغير الله تعالى واتخاذهم الأصنام آلهة وإن عبادتهم لغير الله مهلكهم ومفسدهم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٧ظ).
[2] ن + كانوا.
[3] تفسير غريب *القرآن* لابن قتيبة، ١٧٢.
[4] انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «تبر».
[5] ع: و لم يوفق.
[6] ع – أحدا؛ م + من العالمين.
[7] ع: لا تسألوا.
[8] ن – إلها.
[9] ن: وفضلكم؛ م: وهو فضلكم.
[10] م – التي ذكر.
[11] إشارة إلى الآية السابقة، أي ما ذكر الله من النعم التي فضلهم بها على العالمين هو...
[12] ن م: من قوله.
[13] ع: وأهلكم.
[14] ن – قيل.

سوء العذاب، قتل الأبناء واستحياء النساء.[١] فذلك قوله: **يُقَتِّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم**، قيل: في ذلك، يعني فيما أنجاكم من آل فرعون، **بلاء من ربكم عظيم**، يعني نعمة **من ربكم عظيم**. ويقال: البلاء بالمد هو النعمة، وبغير المد مقصورا[٢] الشدة.[٣]

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١٤٢]

وقوله عز وجل: **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر**، ذكر هاهنا **ثلاثين ليلة**، ثم ذكر التمام بالعشرة، وذكر في السورة التي فيها[٤] ذكر البقرة[٥] أربعين ليلة بقوله: وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.[٦] وهو واحد، كان الميعاد[٧] له أربعين ليلة.[٨] لكنه يحتمل ذكر **ثلاثين** مرة وعشرا [بعد ذلك] وجهين. أحدهما[٩] أن **ثلاثين ليلة** كان لأمر،[١٠] وعَشْرًا[١١] كان لأمر آخر، فذكر متفرقا[١٢] لما كان لأمرين مختلفين. والثاني أنه كان[١٣] في وقتين، كان هذا في وقت والآخر في وقت، والقصة واحدة والميعاد واحد؛ فذكر التمام بعشر كقوله: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ،[١٤] أي[١٥] وإن كان في وقتين. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **فتَمّ ميقات ربه أربعين ليلة**، قيل: تم الميعاد الذي وعد له **أربعين ليلة**.

---

[١] ن ع: البنات.
[٢] ك ن ع: مقصور.
[٣] ولكن المعروف أن البلاء يستعمل في الخير والشر؛ انظر: (*لسان العرب* لابن منظور، «بلو»).
[٤] م – فيها.
[٥] ن: في البقرة.
[٦] سورة البقرة، ٢/٥١.
[٧] م: كالمعياد.
[٨] ع – وهو واحد كان الميعاد له أربعين ليلة.
[٩] ع: أحدها.
[١٠] ن: كان الأمر.
[١١] ن ع م: وعشر.
[١٢] م: متفرقة.
[١٣] ع: أن كان.
[١٤] سورة البقرة، ٢/١٩٦. والآية في كفارة المحصَر في الحج.
[١٥] ن ع م + ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة.

وقوله عز وجل: **وقال موسى لأخيه هارون اخلُفْني في قومي**. فإن قيل: ما معنى قول **موسى لأخيه هارون اخلُفْني في قومي**، وهو كان مبعوثا معه رسولا[١] إلى فرعون مشتركا[٢] في تبليغ الرسالة إلى فرعون، كقوله: وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي،[٣] وقوله: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ،[٤] وقوله: فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ،[٥] وقوله: وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا؛[٦] فإذا كان هو رسولا كموسى في تبليغ الرسالة كيف احتاج إلى أن يقول له[٧] موسى: **اخلُفْني في قومي**، وهما شرعًا سواءٌ في الرسالة؟

قيل: يحتمل هذا وجهين. يحتمل[٨] أن يكونا كما ذكر رسولين، لكن من ولّى اثنين أمرا لم يكن لواحد منهما أن يتفرد به إلا بأمر الآخر؛ فعلى ذلك هذا، كأنه قال له: **اخلفني** في الحكم بينهم، **وأصلح** ذات بينهم، **ولا تتبع** من دعاك إلى **سبيل المفسدين**. أو يحتمل أن يكون موسى كان هو الرسول إذًا، وكان إليه الحكم، وهارون كان دَخِيلا في أمره رِدْءًا له على ما قال: فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي،[٩] وإلا موسى كان هو المأمور بها أولا والمبعوث إليهم دونه. ألا ترى أنه كان هو المناجي ربه دون هارون، وكان هو المعطَى الألواح دون هارون، كقوله: وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ،[١٠] وهو الذي قال: إِنِّي آنَسْتُ نَارًا،[١١] وهو الذي نودي[١٢] بالبركة دون هارون،[١٣] وغير ذلك من الآيات. فإذا كان كذلك استخلفه موسى في قومه.

[١] جميع النسخ: رسولان.
[٢] ن: شركا؛ ع: شركاء.
[٣] سورة طه، ٢٠/٣٢.
[٤] ﴿فَأْتِيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/١٦).
[٥] سورة طه، ٢٠/٤٧.
[٦] سورة القصص، ٢٨/٣٤.
[٧] ك ع م – له.
[٨] ك ن ع – يحتمل.
[٩] الردء: العون والناصر (*لسان العرب* لابن منظور، «ردأ»).
[١٠] سورة الأعراف، ٧/١٤٥.
[١١] سورة طه، ٢٠/١٠؛ وسورة النمل، ٢٧/٧؛ وسورة القصص، ٢٨/٩.
[١٢] ع – نودي.
[١٣] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فلما جاءها نُودِيَ أنْ بُورِكَ مَن في النار ومَن حولها وسبحان الله رب العالمين﴾ (سورة النمل، ٢٧/٨).

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٤٣]

وقوله عز وجل: **ولما جاء موسى لميقاتنا**، أي لميعادنا الذي وعدناه. **وكلّمه ربه**؛ لا يجوز لنا أن نصف كيفية الكلام ومائيته، سوى أنه[١] أنشأ كلاما وصوتا أسمعه[٢] / موسى كيف شاء [٢٦٤ظ] بما شاء[٣] بكلام مخلوق وصوت مخلوق.

قال ربّ أَرِني أَنظرْ إليك قال لن تراني، الآية. قال قائلون: إن موسى لم يسأل ربه الرؤية لنفسه، ولكنه سأل لقومه لسؤال القوم له، كقوله: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً.[٤] لكن هذا بعيد،[٥] لأنه لو كان سؤاله إياه لسؤال قومه لكان لا يقول: **رب أرني أنظر إليك**، ولكن يقول:[٦] أرهم ينظروا[٧] إليك،[٨] فدل أنه لم يكن لذلك. وقال قائلون: لم يكن سؤالُه ربَّه رؤيةَ الرب، ولكن سأل ربَّه رؤيةَ الآيات[٩] والأعلام والأدلة التي بها يُرَى. وذلك جائزٌ:[١٠] سؤالُ رؤيةِ الآيات والأعلام. وذلك[١١] أيضا[١٢] بعيد، لأنه قد كان[١٣] أعطاه من الآيات والأعلام ما لم يكن له الحاجة إلى غيرها من الآيات، من نحو العصا التي كان يضرب بها الحجر فتَفَجَّر[١٤] منه اثنتا عشرة[١٥] عينا، وما كان من فَرْق البحر وإهلاك العدو واليد البيضاء وغير ذلك من الآيات. فإذا بطل ذلك دل أنه سأل حقيقة الرؤية.

---

[١] ن – أنه.
[٢] ن: سمعه.
[٣] ع: بمشاء.
[٤] سورة البقرة، ٢/٥٥.
[٥] ع: يعبد.
[٦] ن – يقول.
[٧] جميع النسخ: ينظرون.
[٨] ع: أولئك.
[٩] م + رؤية الآيات.
[١٠] جميع النسخ + سؤال الرؤية.
[١١] م: فذلك.
[١٢] ع م – أيضا.
[١٣] ع م – كان.
[١٤] ك: فينفجر.
[١٥] ن: اثنتا عشر.

والقول بها لازم عندنا في الآخرة وحَقٌّ، من غير إدراك ولا تفسير.[1] والدليل على ذلك قوله: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ،[2] ولو كان لا يُرَى لم يكن لنفي الإدراك حكمة، إذ لا يُدرَك غيرُه بغير الرؤية. فموضع[3] نَفْيِ الإدراك[4] -وغيرُه من الخلق لا يُدرَك إلا بالرؤية- لا معنى له. **والله الموفق**. وأيضا قول موسى: **رب أرني أنظر إليك**، الآية، ولو كان لا يجوز الرؤية لكان منه جهل بربه، ومن يجهله لا يحتمل أن يكون موضعا لرسالته، أمينا على وحيه. وبعد، فإنه[5] لم ينهه ولا آيَسَه.[6] وبدون ذلك قد نهى نوحا،[7] وعاتب[8] آدم وغيرهما[9] من الرسل. ولو[10] كان لا يجوز لبلغ الكفر. ثم قال: **فإن استقر مكانه فسوف تراني**.[11]

فإن قيل: لعله سأل[12] آية يَعلم بها[13] [ربه].

قيل: لا يحتمل ذا لوجوه. أحدها أنه قال: **لن تراني**، وقد أراه الآية. وأيضا إن طلب الآيات يخرج مخرج التعنُّت، إذ قد أراه الآيات على ما ذكرنا،[14] وذلك صنيع الكفرة، أنهم لا يزالون يطلبون الآيات وإن كانت الكفاية قد ثبتت[15] لهم، فمثله ذلك.[16] وأيضا إنه قال: **فإن استقر مكانه فسوف تراني**، والآية التي يستقر معها الجبل هي دون التي لا يستقر معها. ثبت أنه لم يرد بذلك الآية.

---

[1] ك: ولا تغيير.
[2] سورة الأنعام، ١٠٣/٦.
[3] ع م: فوضع.
[4] أي الإدراك بهذه القوة المخصوصة بإدراك الأشياء.
[5] ع: فإن.
[6] ن ع: ولا اياسة.
[7] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عَمَلٌ غير صالح فلا تسألنِ ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ (سورة هود، ٤٥/١١-٤٦).
[8] ع: وعابت.
[9] جميع النسخ: وغيره.
[10] ن ع م: وذلك لو.
[11] أي وهذا يدل على جواز الرؤية، لأن استقرار الجبل أمر جائز.
[12] ك: سألت.
[13] ك - بها.
[14] ع: ما ذكر.
[15] ن ع: قد ثبت.
[16] م + أيضا.

وأيضا محاجّة إبراهيم عليه السلام قومه في النجوم وما ذكر بالأُفول والغَيبة، ولم يحاجّهم بأنْ لا أحبّ[١] ربا يُرَى، ولكن حاجّهم بأنْ لا أحبّ[٢] ربا يأفُل،[٣] إذ هو دليل عدم الدوام. **ولا قوة إلا بالله**.

وأيضا قوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ،[٤] ثم لا يحتمل ذلك الانتظارَ [لثواب الله][٥] لوجوه. أحدها أن الآخرة[٦] ليست بوقت للانتظار،[٧] إنما هي الدنيا. وهي دار الوقوع والوجود إلا في وقت الفزع وقبل أن يعاينوا في أنفسهم ما له حق الوقوع.

والثاني[٨] قوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، وذلك وقوع الثواب.[٩]

والثالث قوله: إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ، و"إلى" حرف يستعمل في النظر إلى الشيء، لا في الانتظار.

والرابع أن القول به يخرج[١٠] مخرج البِشارة لعظيم ما نالوه من النعم، والانتظار ليس منه. مع ما كان الصرف عن حقيقة المفهوم قضاءً على الله.

فيلزم القول بالنظر إلى الله كما قال، على نفي جميع معاني الشَّبه عن الله سبحانه، على مثل ما أضيف[١١] إليه من الكلام والفعل والقدرة والإرادة. إنه يجب الوصف به على نفي جميع معاني الشَّبه، وكذلك القول بالهَسْتِيّة.[١٢] فمن زعم أن الله لا يقدر أن يكرم أحدا[١٣] بالرؤية فهو يُقَدِّر في الرؤية التي فهمها من الخلق. وإذا كان القول بـ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى،[١٤]

---

[١] جميع النسخ: لا نحب.

[٢] ك ن: لا نحب.

[٣] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ (سورة الأنعام، ٧٦/٦).

[٤] سورة القيامة، ٢٢/٧٥-٢٣.

[٥] من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٨ظ.

[٦] ع م: أن الآخر.

[٧] ن: الانتظار.

[٨] ع + في.

[٩] وعبارة الشارح هكذا: «... أحدها أن الآخرة ليست بوقت الانتظار، إنما هي الدنيا، أما الآخرة هي دار وقوع الثواب ووجود الجزاء إلا في وقت الفزع. ولأنه قال ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، ونضرة الوجوه من باب وقوع ووجود الجزاء إلا في وقت الفزع. ولأنه قال ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾، ونضرة الوجوه من باب وقوع الثواب. وفي وقت وقوع الثواب لا معنى للانتظار» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٠٨ظ).

[١٠] ك: خرج.

[١١] ن ع – أضيف.

[١٢] م: بالشبه. و الهَسْتِيّة كلمة فارسية بمعنى وجود الشيء في الخارج.

[١٣] م: أحد.

[١٤] سورة طه، ٥/٢٠.

وغير ذلك من الآيات لا يجب[1] دَفْعُها بالعَرْض على المفهوم من الخَلْق، بل يحقّق ذلك على نفي الشَّبه، فمثله خبر الرؤية.

وأيضا[2] قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ،[3] وجاء في غير خبر [أن الزيادة في] النظر إلى الله.[4] وقد يحتمل غير ذلك مما جاء فيه التفسير، لكنه لولا أن القول بالرؤية كان أمرا ظاهرا لم يحتمل صرفُ ظاهرٍ لم يجيء فيها إليها،[5] ويُدفَع به الخبر.[6] *والله أعلم*.

وأيضا ما جاء عن رسول الله صلى الله وسلم في غير خبر أنه قال: «سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، لا تُضَامُون [في رؤيته]».[7] وسئل: هل رأيت ربك؟ فقال: «بقلبي[8] فبلى»،[9] فلم ينكر على السائل[10] السؤال. وقد عَلِم السائل[11] رؤية القلب، إذ هي عِلْم قد عَلِمه، وإنه لم يَسأل عن ذلك. وقد حذّر الله المؤمنين عن السؤال عن أشياء[12]

---

[1] ع م: لا يجوز.

[2] ع: أيضا.

[3] سورة يونس، ١٠/٢٦.

[4] عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: إن لكم عند الله موعدا، قالوا: ألم يُبَيِّض وجوهنا ويُنْجِنا من النار ويُدخِلْنا الجنة؟ قالوا: بلى -قال- فينكشف الحجاب -قال- فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه (صحيح *مسلم*، الإيمان ٢٩٧؛ وسنن *الترمذي*، صفة الجنة ١٦). وانظر للأحاديث والآثار مجموعة: *الدر المنثور* للسيوطي، ٣٥٦/٤-٣٦٠.

[5] ع - إليها.

[6] ك: بها الخبر. أي إن لم تكن رؤية الله عند الصحابة والتابعين ومن بعدهم من جمهور العلماء حقيقة واضحة لم يمكن حمل نص لم يرد في شأن الرؤية على الرؤية، حتى أنه كان من الممكن أن يترك الخبر الدال على أن الزيادة بمعنى الرؤية. قارن: *كتاب التوحيد* للمؤلف، ١٢٤.

[7] ع م: لا يضامون. وانظر للحديث: صحيح *البخاري*، التوحيد ٢٤؛ وصحيح *مسلم* الإيمان ٢٩٩-٣٠٠. يُروَى هذا الحديث بالتشديد "لا تُضَامُّون" من الضَمّ أي الاجتماع، والتخفيف "لا تُضَامُون" من الضَّيْم أي الظلم، فالتشديد معناه لا ينضمّ بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت النظر إليه، ويجوز ضم التاء وفتحها على تَفاعَلون وتُفاعَلون، ومعنى التخفيف لا ينالكم ضَيْم في رؤيته فيراه بعضكم دون بعض، والضَّيْم الظلم (*لسان العرب* لابن منظور، «ضمم، ضيم»).

[8] ع: فقلبي.

[9] ع: قبلي؛ م: قلبي. لم أجده بهذا اللفظ. لكن روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال في قوله عز وجل: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ (سورة النجم، ١١/٥٣): رأى محمد ربه عز وجل بقلبه مرتين (*مسند أحمد بن حنبل*، ٢٢٣/١؛ وصحيح *مسلم*، الإيمان ٢٨٥؛ وسنن *الترمذي*، التفسير سورة ٥٣). وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ قال: «نورٌ، أَنَّى أَرَاه؟» (صحيح *مسلم*، الإيمان ٢٩١). وفي رواية لابن خزيمة عن أبي ذر قال: رآه بقلبه، ولم يره بعينه. انظر: فتح *الباري* لابن حجر، ٦٠٨/٨.

[10] م: عن السائل.

[11] ك + أن.

[12] ع م: عن الأشياء.

قد كُفُّوا عنها[١] بقوله: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ.[٢] فكيف يحتمل أن يكون السؤال عن مثله يجيء -وذلك كفر في الحقيقة عند قوم- ثم لا ينهاهم عن ذلك ولا يُوَبِّخُهم في ذلك، بل يُلَيِّن[٣] القول في ذلك، ويرى[٤] أن ذلك ليس ببعيد؟[٥] ***والله الموفق.***

وأيضا إن الله وعد أن يجزي [المؤمنين] أحسن ما عملوا[٦] به في الدنيا.[٧] ولا شيء أحسن من التوحيد، وأرفع قدرا من الإيمان به،[٨] إذ هو المستحسن بالعقول. والثواب الموعود من جوهر الجنة حُسْنُه حُسْنُ الطبع، وذلك دون حسن العقل. إذ لا يجوز أن يكون[٩] شيءٌ حسنٌ في العقول لا يستحسنه ذو عقل. / وجائزٌ [أن يكون] ما استحسنه الطبع[١٠] [أنْ] لا يتلذّذ به [طبع آخر]، كطبع[١١] الملائكة، ومِثلُه في العقوبة. لذلك[١٢] لزم القول بالرؤية، لتكون كرامةً تَبلغ في الجلالة ما أُكرِموا به، وهو أن يَصير لهم المعبود بالغيب شُهودا، كما صار المطلوب من الثواب حُضورا. ***ولا قوة إلا بالله.*** [٢٦٥و]

ولا يحتمل [أن تكون الرؤية بمعنى] العلم؛ لأن كُلًّا[١٣] يُجْمِع على العلم بالله في الآخرة العِلمَ الذي لا يعتريه الوسواس، وذلك علم العيان، لا علم الاستدلال. وكثرة الآيات لا تحقِّق علم الحق الذي لا يعتريه[١٤] ذلك.[١٥] دليله قوله: وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ،[١٦] الآية،

---

[١] أي مُنِعوا عنها.

[٢] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤكم﴾ (سورة المائدة، ١٠١/٥).

[٣] جميع النسخ: يليق. والتصحيح من *كتاب التوحيد* للماتريدي، ١٢٥.

[٤] ع م: ويروى.

[٥] ك ن م: ببديع؛ ع: بديع. والتصحيح من *كتاب التوحيد* للماتريدي، ١٢٥. أي إذا لم تكن رؤية الله جائزة كيف يسمح الرسول بسؤال الصحابي عن ذلك، ويراه سؤالا لائقا، وأن ذلك ليس بشيئ مُحْدَث في الدين؟

[٦] ك ن م: مما عملوا.

[٧] لعله يشير إلى مثل قوله تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنُحْيِيَنّه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (سورة النحل، ٩٧/١٦).

[٨] ن - به.

[٩] ن + أن يكون. ويكون هنا تامة، بمعنى يوجَد، أي لا يجوز أن يوجَد...

[١٠] جميع النسخ + طبعا.

[١١] ع: لطبع.

[١٢] ع: وكذلك.

[١٣] ع: لأن الكلام.

[١٤] جميع النسخ: لا يعتري.

[١٥] أي الوسواس.

[١٦] ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ (سورة الأنعام، ١١١/٦).

وما ذكر من استعانة الكفرة بالتكذيب في الآخرة وإنكار الرسل،[1] وقولهم: لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ،[2] وغير ذلك. وبعد، فإنه إذ[3] لا يجوز أن يصير علمُ العيان[4] نحوَ[5] علم الاستدلال لم يجز أن يصير علمُ الاستدلال نحوَ[6] علمِ[7] العيان،[8] فثبت أن الرؤية توجب ذلك. وبعد، فإن في ذلك العلم[9] يستوي الكافر والمؤمن، والبِشارة بالرؤية خُصّ بها المؤمن. *ولا قوة إلا بالله*.

ولا نقول بالإدراك، بقوله: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ،[10] فقد امتدح بنفي الإدراك، لا بنفي الرؤية. وهو كقوله: وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا.[11] كان في ذلك إيجاب العلم ونَفْيُ الإحاطة، فمِثلُه في حق الإدراك. *وبالله التوفيق*. وأيضا إن الإدراك إنما هو الإحاطة بالمحدود، والله يتعالى عن وصف الحد، إذ هو نهاية وتقصير عما هو أعلى منه. على أنه وَاحِدِيّ الذات[12] -والحد وَصْفُ المتصل الأجزاء حتى ينقضي- مع إحالة القول بالحد، إذ كان[13] ولا ما يُحَدّ[14] أو به يُحَدّ[15] فهو على ذلك، لا يتغيّر. على أن لكل شيء حدا[16] يُدرَك بسببه[17] نحو الطعم واللون والذوق والرائحة[18]

---

[1] م + عليهم. يقول الشارح رحمه الله تعالى: «... وكذلك ما ذكر في استعانة الكفرة بالتكذيب للرسل عليهم السلام في الآخرة والإنكار عليهم التبليغ، كقوله تعالى خبرا عنهم: ﴿[قالوا والله] ربنا ما كنا مشركين﴾ (سورة الأنعام، ٢٣/٦)، يقسمون بالله كذبا في الآخرة مع معاينتهم الدلائل» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٠٨ظ).

[2] ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ (سورة الأحقاف، ٣٥/٤٦).

[3] ع – إذ.

[4] ع: البيان.

[5] ك ن ع: بحق.

[6] ك ن ع: بحق.

[7] ع – الاستدلال لم يجز أن يصير علم الاستدلال بحق علم.

[8] ع: البيان.

[9] أي العلم بوجود الله بالمنهج الاستدلالي.

[10] سورة الأنعام، ١٠٣/٦.

[11] سورة طه، ١١٠/٢٠.

[12] أي الذي لا ينقسم.

[13] م: إذا كان.

[14] ك: كلا ما يحد؛ ع: ولا ما يجد.

[15] أي كان الله في الأزل ولم يُحَدّ، وكذلك لم يكن هناك شيء يحده...

[16] جميع النسخ: حد. أي لكل شيء وَصْفٌ مميِّز له عن الأشياء الأخرى.

[17] جميع النسخ: سبيله.

[18] جميع النسخ: والحد. والتصحيحان من *كتاب التوحيد* للماتريدي، ١٢٥.

وغير ذلك من حدود[١] خاصية الأشياء، جعل الله[٢] لكل شيء[٣] من ذلك وجها يُدرَك ويحاط به، حتى العقول والأعراض. فأخبر الله تعالى أنه ليس بذي حدود وجهات مِن طُرُق[٤] إدراكه بالأسباب الموضوعة لتلك الجهات. وعلى ذلك القول بالرؤية والعلم جميعا. **ولا قوة إلا بالله**.

وبعد فإن القول بالرؤية يقع على وجوه، لا يُعلَم حقيقة كل وجه من ذلك إلا بالعلم بذلك الوجه، حتى إذا عُبّر عنه بالرؤية صُرِف إلى ذلك، وما لا يُعرَف له الوجه بدون ذكر الرؤية لزم الوقف[٥] في مائيتها على تحقيقها.[٦] وأما الإدراك إنما هو معنى الوقوف على حدود الشيء؛ ألا ترى أن الظل في التحقيق يُرَى، لكنه لا يُدرَك إلا بالشمس، وإلا كان مرئيا على ما يُرَى لوقت نسخ الشمس، ولكن لا يُدرَك بالرؤية إلا بما يتبين له الحد.[٧] وكذلك ضوء النهار يُرَى، لكن حده لا يُعرَف بذاته. وكذلك الظُّلْمة، لأن طرفها لا يُرَى فيُدرَك ويحاطَ به، وبالحدود يُدرَك الشيء وإن كان يُرَى لا بها. ولذلك ضرب المثل بالقمر،[٨] أنه[٩] لا يُعرَف حده ولا سعته ليُوقَف [عليه] ويحاط به، و[لكنه] يُرَى بيقين. **ولا قوة إلا بالله**. والأصل فيه القول بذلك على قدر ما جاء، ونفي كل معنى من معاني الخلق، ولا يُفسّر لما لم يجئ. **والله الموفق**.

ثم زعم الكَعْبي[١٠] أن الغائب إذ لم يخرج عن الوجوه التي بها يُعلَم فكذلك لا يُرَى إلا بالوجوه التي بها يُرَى من المبايَنة للمَرْئي -ولما حلّ فيه المَرْئي- بالمسافة والمقابلة واتصال الهواء والصغر وعدم الصغر والبُعد، ولو جازت الرؤية بخلاف هذا[١١] لجاز العلم به.[١٢]

---

[١] ك: من الحدود.

[٢] ك + الأشياء.

[٣] ع - حد يدرك سبيله نحو الطعم واللون والذوق والحد وغير ذلك من حدود خاصية الأشياء جعل الله لكل شيء.

[٤] م: هي طرق.

[٥] ك: التوقف.

[٦] أي مع قبول وقوعها.

[٧] ن + ولكنه.

[٨] أي في الحديث السابق الذي شُبّهت فيه رؤية الله تعالى في الآخرة برؤية القمر ليلة البدر.

[٩] ع م: لأنه.

[١٠] أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي الكعبي الخراساني، من شيوخ المعتزلة، صاحب التصانيف. توفي سنة ٣٢٧هـ/٩٤١م. انظر: *سير أعلام النبلاء*، ١٥/٢٥٥.

[١١] ع: هذه.

[١٢] وعبارة الشارح هكذا: «ثم زعم الكلبي أن الغائب إذا لم يخرج عن الوجوه التي يُعلَم بها في الشاهد لمعنى الضرورة والاكتساب فكذا يجب أن لا يُرَى في الغائب إلا بالوجوه التي يُرَى في الشاهد من المبايَنة للمَرْئي والمسافة والمقابلة واتصال الهواء وعدم الصغر، ولو جازت الرؤية بخلاف هذا لجاز العلم بخلاف الوجوه التي في الشاهد (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٠٨ظ-٣٠٩و).

{قال الشيخ رحمه الله:} وهذا خطأ، لأنه قدّر[١] برؤية[٢] جوهره. وقد عُلِم أنّ غير جوهره جواهر[٣] يَرون من الوجه الذي لا يَقدر [الإنسان] على الإحاطة بجوهره، فضلا عن إدراك بصره،[٤] نحو الملائكة والجن وغيرهم، مما يَروننا[٥] من حيث لا نراهم، و[كذلك] الجثة الصغيرة نحو البَق ونحو ذلك مما يَرى، لما[٦] لو توهم مثل ذلك البصر لما احتمل الإدراك. ويَرى الملك الذي يكتب جميع أفعالنا ويسمع جميع أقوالنا، على ما لو أردنا[٧] تقدير ذلك بما عليه جُبِلْنا للزم إنكار ذلك كله، وذلك عظيم. وكذلك ما ذكر مِن نُطق الجلود وغيرها مما لو امتُحِن بمثلها أمْرُ الشاهد لوُجِد عظيما.[٨] وبعد، فإنه في الشاهد يُفضَل بين البصرين في الرؤية والتمييز على قدر تفاوتهما بما اعتراهما من الحُجُب،[٩] مما لو قابل أحدَهما بحال[١٠] الآخر على حاله وجده[١١] مستنكرا. وإذا كان كذلك بطل التقدير بالذي ذكر. *والله الموفق*.

وأيضا[١٢] إنه في الشاهد بكل أسباب العلم لا يَعلم غير العَرَض[١٣] والجسم. ثم جائز العلم بالغائب خارجا منه، فمثله الرؤية.

والثالث ما ذكرنا من رؤية الظل والظلمة والنور من غير شيء من تلك الوجوه.

والرابع أنه قد يجوز وجود تلك المعاني كلها مع عدم الرؤية، إما بالحجب[١٤] أو بالجوهر، فجاز تحقيق الرؤية على نفي تلك المعاني. نحو ما أجيب القائل بالجسم عند معارضته بالفاعل والعالِم: إذ وُجِد[١٥] جسم لا كذلك فيجوز وجود ذلك ولا جسم، فمثله في الرؤية.

---

[١] يقول الماتريدي في *كتاب التوحيد* (١٢٨): «وقد أخطأ في هذا الفصل بوجوه. أحدها أنه قدر...».

[٢] ع م: رؤية.

[٣] ك ع م: جوهر؛ ن – جواهر.

[٤] م: ببصره.

[٥] ع: مما يرونه.

[٦] ك: لنا.

[٧] ك ن ع: ما أردنا.

[٨] لعله يشير إلى مثل قوله تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أ نطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه تُرجَعون﴾ (سورة فصلت، ٢١/٤١). وانظر أيضا: سورة يس، ٦٥/٣٦.

[٩] ع م: في الحجب.

[١٠] جميع النسخ: حال.

[١١] م: وجد.

[١٢] أي ثاني وجوه أخطاء الكعبي.

[١٣] م: غير العضو.

[١٤] إما لحجب.

[١٥] م: إذا وجد.

على أن البُعد[١] الذي يحجبنا والدِقّة[٢] يجوز أن يبلغه بصر غيرنا، فصار ارتفاع الرؤية بالحجاب، فإذا ارتفع جاز. **ولا قوة إلا بالله**.

وبعد، فإن الذي يقوله[٣] تقدير برؤية الأجسام، ولم يمتحن بصره بغير الأجسام والأعراض أنْ كيف سبيل الرؤية له. وبعد، فإن كل جسم / يُرَى، وإن كانت الدّقّة والبُعد يحجبان، [٢٦٥ظ] فيجوز ارتفاعهما عن بصر غيرٍ[٤] فيُرَى. على ما يَرى ملك الموت مَن بأطراف الأرض ووسطها مما لو اعتُبِر ذلك ببصر البشر لما احتمل الإدراك. فثبت أن الذي قدّر به ليس هو سبب تعريف ما يبصره،[٥] ولكن سبب تعريف ما يُحجب به البصر، فإذا ارتفع رأى. مع ما كان المنفي[٦] رؤيته لذاته عَرَض، وإلّا فكل جسم يُرَى. فإن لزم إنكار الرؤية لما ليس بجسم أو لما لا يُرَى إلا بما ذكر ليلزم الإقرار به،[٧] لأن الذي لا يُرَى لذاته هو العَرَض، وإلّا فكلُّ غَيْرٍ يُرَى. **ولا قوة إلا بالله**.

وعارض[٨] بأمر الدنيا. ولا يُحَالُ ذلك، لكن يُسقِط[٩] المحنة ويرفع[١٠] الكُلفَة، والدنيا[١١] لهما [خلقت].

ثم ذَكر[١٢] في أمر موسى أن ذلك على علم الإحاطة بالآيات. وقد بيّنّا فساد ذلك. وما ذلك العلم بالذي يَسأل وهو رسول بُعِث إلى ما به نجاة الخلق. وذلك لا يكون بغير الممتحن، إذ هو تبليغ الرسالة والدعاء إلى العبادة، وهي محنة.[١٣] بل سأل الرؤية ليجلّ قدره وليعرف[١٤] عظيم محله عند الله. أو أن يكون الله أمره به ليعلم الخلق جواز ذلك. **وبالله التوفيق**.

---

[١] ع: أن العبد.
[٢] م: والرؤية.
[٣] ع: بقوله. أي الذي يقوله الكعبي.
[٤] ك: من غير بصر.
[٥] ك: ما يبصر.
[٦] ك + به.
[٧] أي ينبغي القول بإمكان الرؤية نظريا.
[٨] جميع النسخ: وعورض. أي عارض الكعبي بأنه تعالى لا يرى في الدنيا.
[٩] م: الدنيا ومحال العرض بذلك لا يسقط.
[١٠] ك: وترفع.
[١١] ك ن م + هي.
[١٢] أي الكعبي.
[١٣] قال الشارح: «وذَكر في أمر موسى عليه السلام [أنه] رسول بُعِث إلى ما به نجاة الخلق من الدعاء إلى التوحيد والعبادة لله تعالى، وهو مكلف ممتحن بتبليغ الرسالة إليهم، وهذا النوع من العلم الضروري مما يُسقِط المحنة والابتلاء، أي لا يبقى الخطرات واعتراء الشبهة ليؤمر بالدفع بالاستدلال بالآيات، فدل أن سؤال هذا النوع من العلم في دار المحنة لا يجوز...» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٠٩و؛ ونسخة المدينة، ورقة ٣٤٤و).
[١٤] ع م: ليعرف.

ثم استدل بأنه[1] لم يُرَ من يعقل، إنما أُرِيَ الجبلَ، والجبل لا يعقل ليعلمه وليراه.

فيقال له: ولو كانت[2] آية[3] فالجبل لا يراها ولا يعقل. وإذا كان كذلك فالآية إذًا صار انْدِكَاك الجبل وانشقاقه، لا أنْ أراه الآية ليندكَّ[4] بها. وفي هذا[5] أنه[6] قد أَرَى موسى الآية، وهو اندكاك الجبل، والله يقول: **لن تراني**، وحَمَلْتَه على الآية، وقد رآها. ***ولا قوة إلا بالله***.

فإن قيل: ما معنى توبته [في قوله: **فلمّا أفاق قال سبحانك تُبتُ إليك وأنا أول المؤمنين**]، لو كان سؤاله على الأمر؟

قيل: على العادة في الخَلْق مَن يُحْدِثها[7] عند الأهوال بلا حدوث ذنب. أو لما رأى من جلال الله وعظمته فزع إلى التوبة وإحداث الإيمان به، وإن لم يكن ما يوجب ذلك، وذلك متعارف في الخلق. ويحتمل أن يكون [لِ]قوله: **لن تراني**، وكان عنده[8] جواز الرؤية في الشاهد، واحتمال وسعة ذلك بما وعد الله في الآخرة، [فـ]رجع عما كان عنده، وآمن بالذي قال: **لن تراني**، وإن كان في أصل إيمانه داخلا. على نحو إحداث المؤمنين الإيمان[9] بكل آية تنزل، وبكل فريضة تتجدّد، وإن كانوا في الجملة[10] مؤمنين بالكل.[11] ***والله الموفق***. وقد بينا ما قالوا في قوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ.[12]

والأصل في الكلام أنه إذا كان على أمر معهود أو يُقرَن به المقصود إليه صُرِف[13] عن حقيقته، وإلا لا. وذلك نحو قوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ،[14] و أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ.[15]

---

[1] ع - بأنه. بأنه: أي الله تعالى.

[2] أي الرؤية.

[3] م: الآية.

[4] م: يستدل.

[5] م: وفي هذ.

[6] جميع النسخ: اية.

[7] جميع النسخ: من يحدثه. أي من يجدد التوبة.

[8] ن: عقده.

[9] ك: الإيمان المؤمنين.

[10] ك: في الجحا.

[11] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ (سورة الأنفال، ٨/٢).

[12] سورة القيامة، ٧٥/٢٢-٢٣.

[13] ن: وإليه طرف.

[14] سورة الفرقان، ٢٥/٤٥.

[15] سورة الفيل، ١٠٥/١.

وأصله أنّ مَن قال: رأيت فلانا، أو نظرت إلى فلان، لم يحتمل غير ذاته، وإذا قال: رأيته يقول كذا، ويفعل كذا، أنه لا يريد به رؤية ذاته. فمثله أمر قصة موسى وهذه الآية. وروي عن ضرار بن عمرو[١] أنه أتى البصرة فقال: يا أهل البصرة، إمّا أنْ كان موسى مُشَبِّهيًّا، وإما أنْ كان الله يُرَى، لأنه لو كان بالذي لا يُرَى فسأل هو[٢] رؤيته كان جاهلا به مُشبها[٣] خَلْقَه به، فدل أنه يُرَى.

ثم الأصل أن من[٤] تأمل الذي[٥] ذكره الكَعْبي عرف أنه مُشَبِّهيّ المذهب،[٦] لأنه لم يذكر المعنى الذي له يجب أن يكون الرؤية بتلك الشرائط،[٧] إنما أخبر أنه كذلك وُجِد، وهو قول المشبّهة أنه وُجِد كلُّ فاعل في الشاهد جسما، وكذا كل عالم، فيجب مثله في الغائب. ثم ذكر معنى رؤية الجسم ولم يذكر معنى رؤية غير الجسم حتى يكون له دليلا. وبعد، فإنه نَفَى[٨] بالدِّقّة والبُعد، وهما زائلان عن الله تعالى. ثم احتج بامتداح الله تعالى: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ،[٩] وقال: لا يجوز أن يزول. فمثله عليه في قوله: خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ،[١٠] وقوله:[١١] وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،[١٢] فلا يجوز أن يزول. ثم قد وُصف اللهَ بالرؤية على إسقاط ما ذكر. فثبت أن ذلك طريق لا يؤدي عن كُنْهِ ما به الرؤية.[١٣]

---

[١] ضِرار بن عمرو من رءوس المعتزلة. له تصانيف كثيرة تدل على كثرة اطلاعه على الملل والنحل، مات قبل ٢٠٠هـ/٨١٦م؛ انظر: *سير أعلام النبلاء* للذهبي، ١٠/٥٤٤-٥٤٥.

[٢] ع م: ربه.

[٣] ك ن ع: مشبهيا.

[٤] ع: إن ما من.

[٥] ن - الذي.

[٦] أي إن قوله يؤدي إلى ذلك، وإلا فالكعبي من المعتزلة.

[٧] ك - الشرائط، صح هـ.

[٨] ك: فإن نفى.

[٩] سورة الأنعام، ٦/١٠٣.

[١٠] سورة الأنعام، ٦/١٠٢.

[١١] ن - وقوله؛ ع - خالق كل شيء وقوله.

[١٢] سورة المائدة، ٥/١٢٠.

[١٣] قال الشارح: «ثم احتج أيضا بامتداح الله تعالى بنفي الإدراك بقوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾، وقال: لا يجوز أن يزول معنى التمدّح، وإذا قلتم: يُرى في الآخرة، وأراد بنفي الإدراك الرؤية، فلا يتكامل معنى التمدّح، بل يكون في وقت دون وقت. ويَرِد عليه مثله في قوله: ﴿خالق كل شيء﴾، وقوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾، يجب أن لا يزول لأنه تمدّح به، وهو قد قال: إنه ليس بخالق في الأزل، إنما يصير خالقا بعد الخلق، وكذلك لم يصف الله تعالى بالقدرة على خلق أفعال العباد منهم بطريق الاختيار. ثم إنما يَرِد هذا على قول من يجعل الإدراك والرؤية واحدا، وهو قول بعض أهل السنة من أصحاب الحديث، فأما نحن فقد ذكرنا أن الإدراك لا يتحقق في حق الله تعالى على لا في الدنيا ولا في الآخرة، فلا يلزمنا هذا الكلام. والله الموفق. ثم سلّم الكعبي أن الله رأى جميع المرئيات بدون ما ذكر من المشابهة والمقابلة ونحو ذلك، ليجوز أن يكون مرئيا بدون ما ذكر، وبهذا يتبيّن أن ما ذكر لا يؤدي عن كيفية مائية الرؤية» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٠٩ظ).

فإن قيل: كيف يُرَى؟

قيل: بلا كيف، إذ الكيفية تكون لذي صورة.[1] بل يُرَى بلا وصف قيام وقعود واتِّكاء وتعلُّق واتِّصال وانفصال ومقابلة ومُدابَرة وقصير وطويل ونور وظُلْمَة وساكن ومتحرِّك ومُمَاسّ ومُبَايِن وخارج وداخل، ولا معنى يأخذه الوهم أو يُقَدِّره[2] العقل، لِتَعَالِيه عن ذلك.[3]

وقوله عز وجل: **فلما تجلَّى ربه للجبل جعله دَكًّا**، الآية، قال أبو بكر الأصم: **تجلَّى** بالآيات والأعلام[4] التي بها يُرَى، لا رؤية الذات.[5] وكذلك قال في قوله: **رب أرني أنظر إليك**: إنه إنما سأل ربه الآيات والأعلام التي بها[6] يُرَى، لا رؤية الذات. وقد بيّنا بُعدَه وإحالتَه لما قد أعطاه من الآيات والأعلام ما له[7] غُنْيَة عن غيرها، [فـ]لا يحتاج إلى غيرها.

وقال الحسن: إن موسى سأل ربه الرؤية في غير وقت الرؤية. وهو يقر بالرؤية، لكنه يقول: سألها في الدنيا، وبنية هذا العالم لا تحتمل[8] ذلك. ألا ترى أنه قال: **فإن استقر مكانه فسوف تراني**، أخبر أن الجبل لا يستقر له، فكيف[9] تستقر أنت؟ لكنه ينشئ بنية تحتمل[10] ذلك. وقال:[11] لذلك قال موسى: **إني تبت إليك وأنا أول المؤمنين**، أنْ ليس في الدنيا الرؤية. إلى نحو هذا يذهب الحسن. وقد ذكرنا نحن الوجه على قدر ما حضر لنا.[12]

وقال أهل التأويل: قوله: **تجلى ربه للجبل**، أي ظَهَر، لكن لا يُفهَم[13] من ظهوره ما يُفهَم [٢٦٦و] من ظهور الخلق. على ما ذكرنا / في قوله: اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ،[14] وقوله: وَجَاءَ رَبُّكَ،[15]

---

[1] ع: الذي صورة.
[2] ع: أو يقدر.
[3] تجدر الإشارة هنا إلى أنه اعتبارا من قول المؤلف: «والقول بها لازم عندنا في الآخرة وحق من غير إدراك ولا تفسير...» (ص ٤٦) إلى هنا موجود بفروق طفيفة جدا في *كتاب التوحيد* للمؤلف، ١٢٠-١٣٤.
[4] ك: بالأعلام والآيات.
[5] ن ع م - لا رؤية الذات.
[6] ع م - بها.
[7] ن: وما له؛ م - وما له.
[8] ن: لا يحتمل.
[9] ك: لكيف.
[10] ن: يحتمل.
[11] ن ع م + الحسن.
[12] ذكر الآلوسي معنى هذا الكلام وقال بأنه نُسِب إلى الحسن رحمه الله، واستغربه منه؛ انظر: *روح المعاني* للآلوسي، ٤٧/٩.
[13] ك: لا نفهم.
[14] سورة الأعراف، ٥٤/٧؛ وسورة يونس، ٣/١٠؛ وغيرها.
[15] سورة الفجر، ٢٢/٨٩.

وغيره من الآيات، لا يُقَدَّر استواؤه باستواء الخلق، وكذلك مجيئه، فعلى ذلك ظهوره. *وبالله العصمة*. وروي أن في التوراة أنه جاء من طور سيناء، وظهر من جبل ساعورا،[١] واطّلع من جبل فاران.[٢] وتأويله: جاء وحيه على موسى في طور سيناء، وظهر على عيسى في جبل ساعورا، واطّلع على محمد في جبل فاران.

ثم العجب أنْ كيف اجترأ موسى بالسؤال بسؤال مثله: **أرني أنظر إليك**؟ لكنه يحتمل وجوها. أحدها على الأمر بالسؤال عن ذلك،[٣] ليُعلَم أنه يُرَى ويعتقدوا ذلك. أو على الظن منه لما رأى أنه أعطاه أشياء[٤] لا يكون مثلها في الدنيا، إنما يكون في الآخرة، [و]خُصَّ بها من نحو انفجار العيون من الحجر من غير مؤنة تكون لهم في ذلك من حفر الأنهار و إصلاحها وأنواع المؤن، ونحو ما أعطاهم من اللباس الذي[٥] ينمو ويزداد على قدر قامتهم وطولهم، ومن نحو[٦] ما أعطاهم من المَنّ والسَّلْوَى على غير مؤنة ولا جهد. وذلك كله وصف الجنة. فلما رأى ذلك ظنّ أن الرؤية أيضا تكون[٧] في الدنيا على ما كانت له من أشياء لم يكن مثلها لأحد في الدنيا. أو لما رأى أنه سمع كلام ربه وألقى في مَسامعه[٨] كلامه لا من مكان ولا من قريب ولا من بعيد[٩] ولا من أسفل[١٠] ولا من أعلى ولا من فوق ولا من تحت، لكنه أسمعه[١١] بما شاء وكيف شاء بلطفه، فعلى ذلك ظن[١٢] أنه يجوز له أن يسأل ربه الرؤية، فيُريه بما شاء وكيف[١٣] شاء بلطفه كما أسمع كلامه بلطفه[١٤] كما ذكرنا.[١٥]

---

[١] وقد وردت تسميته في *تفسير القرطبي* و*تفسير ابن كثير*: ساعِير، وهو جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى عليه السلام؛ انظر: *تفسير القرطبي*، ١٣/١٥٩؛ و*تفسير ابن كثير*، ٤/٥٢٧-٥٢٨.

[٢] فاران اسم عبراني لجبال مكة المكرمة (*لسان العرب* لابن منظور، «فأر»).

[٣] جميع النسخ: على ذلك.

[٤] ك: شيأ.

[٥] ن + كان.

[٦] ك: من نحو.

[٧] ك: تكون أيضا؛ ن ع م: يكون.

[٨] ع م: وألقى مسامعه.

[٩] ن ع م: ولا بعيد.

[١٠] ك: لا من أسفل.

[١١] ع: سمعه؛ م: سمع.

[١٢] ع م: فعلى ظن.

[١٣] ع م: كيف.

[١٤] م - كما أسمع كلامه بلطفه.

[١٥] ك: لما ذكرنا.

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[١٤٤]

وقوله عز وجل: **قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي**. سمى الله عز وجل موسى وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه بأسماء الجوهر موسى وعيسى ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وسمى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا، وذلك يدل على تفضيله. وكذلك سمى سائر الأمم المتقدمة: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ،[١] و يَا بَنِي آدَمَ،[٢] وسمى أمة محمد صلى الله عليه وسلم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا،[٣] وقال: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ،[٤] ونحوه، فذلك يدل أيضا على تفضيل أمة محمد على غيرها من الأمم. وقوله: **إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي**، كان مصطفى[٥] ومفضّلا بالكلام على الناس كافّة، الأنبياء وغيرهم، لأن الله تعالى لم يكلم أحدا من الرسل إلا بسفير سوى موسى، فإنه كلمه ولم يكن بينهما سفير. وأما قوله: **اصطفيتك على الناس برسالاتي**، على ناس[٦] زمانه[٧] وأهله خاصة.[٨] ويحتمل **برسالاتي**[٩] التي بَيْن موسى وبَيْن الله تعالى. وهذا ينقض على المعتزلة قولهم: إن الله تعالى لا يرسل رسولا إلا وهو يستحق الرسالة. ولو كان طريقه الاستحقاق لا الإفضال والإحسان لم يكن للامتنان معنى، دل أن طريقة الإفضال[١٠] والإحسان، لا الاستحقاق. *والله أعلم*. وعلى قول المعتزلة لا يكون الله مُصطفِيًا[١١] موسى ولا غيره من الأنبياء، ولكن هم الذين اصطفَوْا أنفسهم.

وقوله عز وجل: **فخذ ما آتيتك**، يخرج[١٢] على وجهين. أحدهما القبول، أي اقبل ما أعطيتك.

---

[١] انظر مثلا: سورة البقرة، ٢/٤٠.
[٢] انظر مثلا: سورة الأعراف، ٧/٢٦.
[٣] انظر مثلا: سورة البقرة، ٢/١٧٢.
[٤] سورة آل عمران، ٣/١١٠.
[٥] ك: مططفي.
[٦] ع: على أناس.
[٧] ك: زماله.
[٨] ن: خاصته.
[٩] ك: برسالتي.
[١٠] م + والاحا.
[١١] ك: مصفيا؛ ن + على؛ م: مصطفا.
[١٢] م: تخرج.

كقوله:[١] خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً.[٢] ويحتمل قوله: **فخذ ما آتيتك**، أي اعمل بما آتيتك[٣] بأحسن العمل. **وكن من الشاكرين**، لنعمه[٤] التي أنعمها عليك[٥] من التكليم والرسالة وغيره من النعم.[٦] *والله الموفق*.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[١٤٥]

وقوله عز وجل: **وكتبنا له في الألواح من كل شيء**، يحتمل[٧] قوله:[٨] **وكتبنا له في الألواح**، وجهين. أحدهما أنه إنما أضاف ذلك إلى نفسه لما تولَّى كتابتَها الملائكةُ البَرَرَة الكِرام، أضاف ذلك[٩] إلى نفسه تفضيلا لهم وتعظيما؛ على ما ذكر في الكتاب في غير موضع، من نحو قوله: فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا،[١٠] وقوله: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ،[١١] أخبر أن طاعة الرسول له طاعة، وغير ذلك، فكذلك هذا. *والله أعلم*. أو أضاف ذلك إلى نفسه لما كان ويكون إلى يوم القيامة إنما يكون بـ"كُنْ" الذي كان منه في الأوقات التي أراد أن يكون. فعلى ذلك كتابته[١٢] تلك الألواح[١٣] كان تحت ذلك الـ"كُنْ". وإن كان أضاف بعض تلك الأشياء إلى نفسه [بطريق الخصوص]،[١٤] كقوله: جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ،[١٥] و جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا،[١٦] و أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً،[١٧]

---

[١] م: كقولهم.
[٢] سورة التوبة، ٩/١٠٣.
[٣] ن + أي اعمل.
[٤] م: لنعمته؛ ع: لنعمة.
[٥] ع م: عليها.
[٦] م: من النعيم.
[٧] ن - يحتمل.
[٨] ع - قوله.
[٩] ع - ذلك.
[١٠] سورة التحريم، ٦٦/١٢.
[١١] سورة النساء، ٤/٨٠.
[١٢] ك ع م: كتبته؛ ن: كتبة.
[١٣] ع: ذلك الألواح؛ م: ذلك في الألواح.
[١٤] من *الشرح*، ورقة ٢١٠و.
[١٥] سورة القصص، ٢٨/٧٣.
[١٦] سورة يونس، ١٠/٥.
[١٧] جميع النسخ + كذا. والآية في سورة النمل، ٢٧/٦٠.

و خَلَقَ لَكُمْ كذا،[1] و جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ،[2] ونحو ذلك، فذلك كله كان[3] تحت قوله: كُنْ، فكانت على ما أراد أن تكون في الأوقات التي أراد أن تكون. *والله أعلم*. وقوله: **وكتبنا له في الألواح من كل شيء**، يحتمل قوله: **من كل شيء** مما يقع للعباد الحاجة إليه. ويحتمل **من كل شيء** من أمره ونهيه وحلاله[4] وحرامه.

وقوله عز وجل: **موعظة**، {قال:} الموعظة هي التي تحمل القلوب على القبول، والجوارح على العمل. وقال[5] بعضهم: الموعظة هي التي تنهى عما لا يحل. وقال[6] أبو بكر: الموعظة هي التي تُلين القلوب القاسية، وتُدمع العيون الجامدة، وتُصلح الأعمال الفاسدة. {قال الشيخ رحمه الله:} وعندنا الموعظة هي التي[7] تُذكِّر العواقب، وتحمله على العمل بها.[8]

وقوله عز وجل: **وتفصيلا لكل شيء**، قيل: **تفصيلا** لما أُمِروا به ونهُوا عنه. وقيل: بيانا لكل ما يُحتاج إليه.

[٢٦٦ظ] وقوله: **فخذها**،[9] يحتمل أيضا[10] / وجهين. يحتمل قوله: **فخذ**، أي اقبل، على ما ذكرنا في قوله: فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ.[11] ويحتمل اعمل بما فيها. وقوله عز وجل: **بقوة**، قال أهل التأويل: بجِدّ ومواظبة. ولكن قوله: **فخذها بقوة**، القوة المعروفة. وعلى قول المعتزلة لا يكون أخذا بقوة -وقد أخبر أنْ نَأخُذْها[12] بقوة- لأنهم يقولون: إن القوة تكون قبل الفعل، ثم يقولون: إنها لا تبقى وقتين. فيكون في الحاصل -لو كانت قبل الفعل- أخذا بغير قوة. دل أنها مع الفعل. وتقول المعتزلة: دل قوله: **فخذها بقوة**، على أن القوة قد تقدمت الأمر بالأخذ. لكن لا يكون ما ذكروا، لأنه أمر بأَخْذٍ[13] بقوة، دل أنها تُقارن الفعل، لا تتقدّم.

[1] ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ (سورة البقرة، ٢٩/٢).
[2] سورة النحل، ٧٨/١٦؛ وسورة السجدة، ٩/٣٢؛ وسورة الملك ٢٣/٦٧.
[3] م: كانت.
[4] م: وحله.
[5] ع م: قال.
[6] م: قال.
[7] ع م – التي.
[8] ك: العمل لها.
[9] م: فخذ.
[10] ن – أيضا.
[11] الآية السابقة.
[12] ن: أخذهما؛ م: أخذها.
[13] ع: وبأخذ.

وقوله عز وجل: **وأمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها**، يحتمل قوله: **يأخذوا**، ما ذكرنا من الوجهين: القبول أو العمل. أي مُرْهُم يَقبلوا بأحسن القبول. ويحتمل مُرْهُم يعملوا بأحسن ما فيها من الأمر[1] والنهي والحلال والحرام. ويحتمل قوله: **بأحسنها**، أي بما هو أحكم وأتقن. أو بأحسن مما عمل به الأولون، إذ فيه أخبار الأولين.

وقوله عز وجل: **سأريكم دار الفاسقين**، قال بعض أهل التأويل: قال ذلك لبني إسرائيل: **سأريكم دار الفاسقين**، يعني سنة **الفاسقين**، وهو الهلاك. كقوله تعالى: فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ.[2] وسنته في أهل[3] الفسق والكفر الهلاك.[4] وقال ابن عباس[5] رضي الله عنه: **سأريكم دار الفاسقين**، يعني[6] جهنم. وأمكن أن يكون الخطاب للفَسَقة: **سأريكم** يا أهل الفسق **دار الفاسقين**.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[١٤٦]

وقوله عز وجل: **سأصرف عن آياتي**، الآية، يخرج هذا على وجهين. أحدهما[7] سأصرفهم عن قبولها[8] وتصديقها، إذ لم يستقبلوها بالتعظيم لها، بل استهزءوا[9] بها واستخفّوا بها على علم منهم أنها آيات من الله وحجة. والثاني سأصرفهم[10] عن وجود الطعن والقدح فيها والكيد لها. ثم إن كل واحد من هذين الوجهين يتوجّه على وجهين. قال الحسن:[11] إن للكفر حدا[12] إذا بلغ الكافر ذلك الحد يُطبَع عليه، فلا يَقبل ولا يُصدِّق آياته بعد ذلك.

---

[1] ع: فيها الأمر.
[2] ﴿قُل للذين كفروا إن يَنتهوا يُغفَرْ لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٨).
[3] ع: وسنة أهل.
[4] ع: والهلاك.
[5] ك + قال.
[6] ك ع م – يعني.
[7] ك ن + سأصرف عن آياتي أي.
[8] ع: عن قولها.
[9] ع م: بل استهزاء.
[10] جميع النسخ: سأصرف.
[11] «أما أحد الوجه الأول ما قاله الحسن» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣١٠ظ).
[12] ع م: لكفر حد.

والثاني أنهم كانوا يتعنّتون في آياته ويُكابِرون في ردها[1] مع علمهم أنها آيات وحجج من الله، فإذا تعنّتوا[2] صَرَفهم عن قبولها وتصديقها. وهو كقوله تعالى: ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ،[3] وقوله: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ،[4] أي خلق منهم فعل الزيغ وفعل الانصراف.[5] وهكذا كل من يختار عداوة الله فالله لا يختار له ولايته، ولكن يختار له ما اختار هو. وأما قوله: **سأصرف**،[6] عن وجود الطعن[7] فيها والقدح، فذلك[8] أن الله عز وجل جعل للرسل والأنبياء أضدادا[9] من كُبَراء الكفرة وعظمائهم، وكانوا يطعنون في الآيات ويقدحون فيها، فأخبر أنه يصرفهم عن وجود الطعن فيها والقدح والكيد لها، أي لا يجدون فيها مطعنا ولا قدحا. والثاني قوله: **سأصرف عن آياتي**، الهلاك والإبطال، بل هم[10] المهلَكون، والآيات هي الباقية. ثم اختلف في الآيات. قال الحسن: **آياتي** ديني. وتأويله ما ذكرنا أنهم إذا بلغوا ذلك الحد صرفهم عنها. وقال غيره:[11] آياته حججه وبراهينه.

وقوله عز وجل: **الذين يتكبّرون في الأرض بغير الحق**، كانوا يتكبّرون هم على الرسل لما لم يروهم أمثالا لأنفسهم وأشكالا. وهكذا كل من تكبر على آخر إنما[12] يتكبر لما لم يره مِثْلا لنفسه ولا شكلا، أو يتكبر لما يرى نفسه سليمة عن العيوب ويرى في غيره عيوبا، أو يرى لنفسه حقوقا عليه فيتكبر. فإذا كان التكبر[13] لهذا فالخلق كلهم أكفاء بعضهم لبعض، لأنهم أمثال[14] وأشكال، وفيهم العيوب والحاجات، فلا يسع لأحد التكبر[15] على أحد.

---

[1] ك: في ردنا.

[2] جميع النسخ: فإذا تعانتوا؛ والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ٣١٠ظ.

[3] ﴿وإذا ما أُنزلت سورةٌ نَظَر بعضهم إلى بعض هل يَراكم مِن أحدٍ ثم انصرفوا صَرَف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (سورة التوبة، ١٢٧/٩).

[4] ع م – وقوله فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم. والآية في سورة الصف، ٥/٦١.

[5] ك: الانحراف.

[6] «وأما أحد الوجه الثاني أي سأصرف» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣١٠ظ).

[7] ن + في الآيات.

[8] جميع النسخ: وذلك.

[9] ع م: أضداد.

[10] ع م – هم.

[11] ن – غيره.

[12] م – إنما.

[13] م – فإذا كان التكبر.

[14] ن: مثال.

[15] م: الكبر.

وإنما التكبر لله تعالى فله يليق، لما لا مثل له ولا شكل، [وهو] منزه عن العيوب كلها والحاجات، لذلك كان هو الموصوف بالكبرياء والعظمة. وقوله عز وجل: **بغير الحق**، أي ليسوا هم بأهل[١] للكبر.[٢]

وقوله: **وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها**، أمكن أن يكون قوله: **يروا**، أي وإن علموا أنه آية لا يؤمنون بها[٣] أبدا. هذا في قومٍ عَلِم الله أنهم لا يؤمنون أبدا. **وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا**، أي وإن علموا أنه **سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا** ولا يتبعوه مخافة أن تذهب رئاستهم ومَآكلتهم. **وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا**،[٤] أي وإن علموا أن ذلك هو[٥] **سبيل الغي** والباطل **يتخذوه سبيلا**.

وقوله: **ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا**، يحتمل قوله: **ذلك**،[٦] الصرف الذي ذكر عن آياته، لما كذبوا الآيات بعد علمهم أنها آيات من الله، **وكانوا عنها غافلين**، غفلة الإعراض والعناد، لا غفلة الجهل والسهو.[٧]

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١٤٧]

وقوله: **والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة**، أي الذين كذبوا بالآيات والبعث بعد الموت. وقوله: **حبطت أعمالهم**، يحتمل هذا[٨] وجهين. يحتمل أنهم كانوا مؤمنين من قبل، فكذبوا الآيات وكفروا[٩] بها، فحبطت الأعمال التي كانت لهم في حال الإيمان، وبطلت. ويحتمل **حبطت أعمالهم**، المعروف الذي[١٠] كانوا يفعلون[١١] في حال الكفر من نحو صلة الرحم والصدقات وغيره من المعروف والخيرات التي عملوا بها، حَبِط[١٢] ثواب ذلك كله إذا لم يأتوا بالإيمان.

---

[١] ع + الكبر.
[٢] م: الكبر.
[٣] م: به.
[٤] ع م – أي وإن علموا أنه سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ولا يتبعوه مخافة أن تذهب رئاستهم ومآكلتهم وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا.
[٥] ن + على.
[٦] ن – ذلك.
[٧] ن ع م: والسوء.
[٨] ك: هذا يحتمل.
[٩] م: فكفروا.
[١٠] ع: الذين.
[١١] ك: يعملون.
[١٢] م: حبطت.

وقوله عز وجل: **هل يُجْزَون إلا ما كانوا يعملون**، أي ما **يجزون إلا ما كانوا يعملون**، من الاستهزاء بالآيات والاستخفاف.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾[١٤٨]

وقوله عز وجل: **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا**. وقوله: **واتخذ قوم**
[٢٦٧و] **موسى**؛ كيفية[1] وصف اتخاذ العجل ما ذكر في سورة طه بقوله: فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا / لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ،[2] الآية. وصف الله عز وجل قوم موسى بعضهم بالهداية والعدالة واتباع الحق بقوله: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ،[3] وبعضهم[4] وصفهم بالسَّفاهة وقلة الفهم والضعف في الدين بقولهم: اِجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ،[5] وقال[6] هاهنا إنهم[7] اتخذوا العجل إلها عبدوه. يذكر[8] هذا –والله أعلم– لما لم يعرفوا نعم الله ولم يتفكروا في آياته وحججه، يذكر هذا لنا لننظر في آياته وحججه، ولنتفكر[9] في نعمه فنؤدي شكرها، ونتدبر في آياته وحججه لنتبعها ولا نضيعها على ما ضيع[10] قوم موسى. وقوله: **من بعده**، أي من بعد مفارقة موسى قومه. وقوله: **من حُلِيِّهم**، وقال في موضع آخر: أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ،[11] وكانت تلك الحلي عارية عندهم[12] من قوم فرعون،[13] وأضاف هاهنا إلى قوم موسى بقوله: **من حليهم**، دل أن العارية يجوز[14] أن تُنسَب إلى المستعير.

---

[1] ن: كيفته.
[2] سورة طه، ٨٨/٢٠.
[3] سورة الأعراف، ١٥٩/٧.
[4] ن + وبعضهم.
[5] سورة الأعراف، ١٣٨/٧.
[6] ن ع م: وقالوا.
[7] ع م – إنهم.
[8] ع: بذكر.
[9] ن ع م: وللتفكر.
[10] ع م: ما صنع.
[11] ﴿ولكِنّا حُمِلْنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري﴾ (سورة طه، ٨٧/٢٠).
[12] ن: عند، صح هـ.
[13] جميع النسخ + بقوله أوزارا من زينة القوم أضاف إلى فرعون. وهي غير موجودة في شرح *التأويلات*، ورقة ٣١٠ظ.
[14] ن: تجوز.

وفيه[١] دلالة أن من حلف[٢] لا يدخل دار فلان، فدخل دارا له عارية عنده، يَحْنَث.

وقوله: **عجلا جسدا**، قال بعضهم: صورته كانت صورة عجل، ولم يكن عجلا في جوهره. وقيل: الجسد هو الذي لا تدبير له ولا تمييز[٣] ولا بيان،[٤] [ألا ترى إلى][٥] قوله: **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا**. لكنه كأنه قال: **عجلا** له **جسد**. يذكر سفههم أنهم عبدوا من لا تدبير له ولا كلام ولا سبب الذي يعبّر به إذا دعاهم،[٦] واختاروا إلهيّة مَن وَصْفُه ما ذكر.

وقوله: **له خُوَار**، قيل: إن السامري قد أخذ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ،[٧] فألقى ذلك القبضة في الحلي الذي ألقوه[٨] في النار، فصار شبه عجل **له خوار**. وقال بعضهم: صاغ من حليهم عجلا، فنفخ فيه من تلك القبضة، فخار خُوَارا.[٩] وقال بعضهم: إن السامري كان هيّأ ذلك العجل الذي اتخذه بحالٍ حتى إذا مسّه وحرّكه خار. وقال بعضهم: كان وُضِع في مَهَبّ الريح فيدخل الريح[١٠] في دبره ويخرج مِن فِيه، فعند ذلك يخور.[١١] ***والله أعلم***.

وقوله: **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا**، ذكر **أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا**،[١٢] وفي سورة طه: وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.[١٣] ليس فيه أنه إن كان يكلمهم أو يملك لهم ضرا ونفعا[١٤] يجوز أن يُعبَد، ليُعلَم أنّ ذِكر حظر الحكم في حال لا يوجب إباحة ذلك في حال أخرى.

---

[١] ع م: فيه.
[٢] ع: من أحلف.
[٣] ع: وتمييز.
[٤] جميع النسخ + لكنه ذكر فيه هذا ما لا يحتاج إلى هذا وهو.
[٥] من *الشرح*، ورقة ٣١١و.
[٦] ك م: او دعا؛ ن: او دعاء؛ ع: ودعا؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣١١و. أي وليس له لسان يعبر به ويدعوهم إلى عبادته. والله أعلم.
[٧] ﴿قال فما خطبُك يا سامِريّ. قال بَصُرتُ بما لم يَبْصُرُوا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سَوَّلَتْ لي نفسي﴾ (سورة طه، ٢٠/٩٦).
[٨] ع: القوة.
[٩] ن ع م: خوار.
[١٠] ن – فيدخل الريح.
[١١] ع: يجوز.
[١٢] ك م – ذكر أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا.
[١٣] ﴿أفلا يَرون ألّا يَرجِع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا﴾ (سورة طه، ٢٠/٨٩).
[١٤] م: ولا نفعا.

وفيه أنّ امتناع العلة عن اطّرادها يوجب نقضها، وإن كان اطرادها في الابتداء في معلولاتها لم يدل على صحتها. وفي قوله: **لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا**، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفعًا، ذكر سفههم بعبادتهم[1] شيئا لا يملك لهم ضرا ولا نفعا.[2]

[٢٦٧و س٢٦ *وفي قوله: **ألم يروا أنه لا يكلمهم**، بعد قوله: **له خُوار**، دلالة أن الكلام هو ما يُفهَم منه المراد، ليست الحروف نفسها، لأنه أخبر أن **له خُوار**، ثم أخبر أنه كان[3] **لا يكلمهم**، دل أن الصوت وإن كان ذا هجاء وحروف ليس بكلام. وذلك يدل لأصحابنا في مسئلة

إذا حلف أن لا يكلم فلانا، ثم خاطبه بشيء لا يفهم مراده، أن ذلك ليس بكلام ولا يحنث.* ٢٦٧و س٢٩]

وقوله: **اتخذوه**، أي **اتخذوه** إلها[4] عبدوه، **وكانوا ظالمين**، في عبادتهم العجل، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، والإلهية في غير موضعها.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١٤٩]

وقوله عز وجل: **ولما سُقِط في أيديهم**، هذا حرف تستعمله[5] العرب عند وقوع الندامة وحلولها. وتأويله: لما رأوا أنهم قد ضلّوا **سُقِط في أيديهم**، أي ندموا على ما كان منهم.

وقوله عز وجل: **لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا**، أي **لئن لم يرحمنا ربنا**، ويوفقنا للهداية والعبادة له،[6] **ويغفر لنا**، ما كان[7] منا من العبادة للعجل والتفريط في العصيان، **لنكوننَ من الخاسرين**. ويحتمل قوله: **لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا**، ابتداء سبب الرحمة والمغفرة، كقوله: وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ،[8] الآية.[9] ويحتمل التجاوز لما كان منهم والعفو.*

---

[1] ك: لعبادتهم.
[2] ع: ضرا نفعا.
[3] ن – كان.
* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٦٧و/سطر ٢٦-٢٩.
[4] ع م – أي اتخذوه إلها.
[5] ك: يستعمله.
[6] جميع النسخ: الهداية والعبادة لك.
[7] ك ن م: لما كان.
[8] ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾ (سورة هود، ٩٠/١١).
[9] أي لئن لم يوفقنا الله للاستغفار والتوبة التي هي سبب الرحمة والمغفرة لكنا من الخاسرين.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٦٧و/سطر ٢٦-٢٩.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١٥٠]

وقوله عز وجل: **ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أَسِفا**، الأسف هو النهاية في الحزن والغضب. كقوله: يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ،[١] هو النهاية في الحزن، والأسف في موضع الغضب [في] قوله: فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنهُمْ،[٢] أي أغضبونا. لكن الغضب يكون على من دونه، والأسف والحزن على من فوقه. وقوله عز وجل: **غضبان**، أي لله على قومه لعبادتهم العجل وتركهم عبادة الله، حَزِنا[٣] على قومه لما يلحقهم بعبادتهم[٤] العجل من العقوبة. وهكذا الواجب على من رأى المنكر أنه يغضب لله على مرتكب ذلك المنكر لمعاينته[٥] المنكر، ويأسف عليه لما يلحقه من العقوبة والهلاك[٦] رحمة منه له ورأفة، ويلزم الشكر لربه لما عصمه عن مثله. وكذلك وصف رسوله عليه السلام بالأسف والحزن لتكذيبهم إياه، حتى كادت نفسه تَهلِك حُزنا عليهم حيث قال: لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ،[٧] وقوله: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ.[٨] ذكر هذه القصة لنا لنعرف أنْ كيف نعامل[٩] أهل المناكير[١٠] وقت ارتكابهم المنكر.

وقوله عز وجل: **قال بئسما خلفتموني من بعدي**، يخرج هذا على وجهين. أحدهما **بئسما خلفتموني، بئسما** اخترتم[١١] من عبادتكم العجل على عبادة الله. والثاني[١٢] **بئسما خلفتموني** باتباعكم السامري إلى ما دعاكم إليه بعد اتباعكم إياي وأخي رسول الله وما أمركم به / ودعاكم إلى عبادة الله. *والله أعلم*. [٢٦٧ظ]

---

[١] ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ (سورة يوسف، ١٢/٨٤).

[٢] سورة الزخرف، ٤٣/٥٥.

[٣] حَزِن وحَزِين بنفس المعنى (*لسان العرب* لابن منظور، «حزن»).

[٤] ك: بعبادة.

[٥] م: لمعاينة.

[٦] ن – والهلاك.

[٧] سورة الشعراء، ٢٦/٣.

[٨] سورة فاطر، ٣٥/٨.

[٩] ن – نعامل.

[١٠] م: المناكر.

[١١] ع: أخبرتم.

[١٢] ع: عبادة والثاني.

وقوله عز وجل: **أَعَجِلتم أمر ربكم**، اختلف فيه. قال بعضهم: **أَعَجِلتم** ميعاد **ربكم**، كقوله: أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا،[1] أي أَعَجِلتم الوعد الحسن الذي وعد لكم ربكم، وهو قوله: وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً.[2] وقال آخرون: قوله:[3] **أمرَ ربكم**، أي عذاب ربكم وغضبه بعبادتكم العجل واتخاذكم [إياه][4] إلها. وقد سمى الله تعالى الأمر في غير موضع من القرآن عذابا، كقوله: أَتَى أَمْرُ اللهِ،[5] ونحوه جَاءَ أَمْرُ اللهِ.[6]

وقوله عز وجل: **وألقى الألواح**، قال أكثر أهل التأويل: **ألقى الألواح**،[7] أي طرح **[الألواح]** على الأرض غضبا منه، فرُفِع منها كذا وكذا وبقي كذا.[8] لكن لا يجوز أن يُفهَم من قوله: **ألقى الألواح**، طرحها لا غير؛ ألا ترى أنه قال: وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ،[9] ليس يُفهَم منه الطرح والإلقاء، لكن إنما فهم منه الوضع. فعلى ذلك قوله: **وألقى الألواح**، أي وضع[10] **[الألواح]**؛ لأنه أخذ رأسه ولحيته، أعني رأس أخيه هارون، ولا سبيل له إلى أن يأخذ رأسه ولحيته والألواح في يديه، فوضعها على الأرض، ثم أخذ رأسه ولحيته **يجرّه إليه**. وعلى ما ذكر في سورة طه حيث قال: يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي،[11] دل هذا أنه كان[12] أخذ رأسه ولحيته جميعا، لشدة غضبه لله على صنيع قومه. وفي الآية دلالة العمل بالاجتهاد،

---

[1] سورة طه، ٢٠/٨٦.

[2] سورة الأعراف، ٧/١٤٢.

[3] ك - قوله.

[4] من *الشرح*، ورقة ٣١١و.

[5] ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (سورة النحل، ١٦/١).

[6] ﴿فإذا جاء أمر الله قُضِي بالحق وخسِر هنالك المُبْطِلون﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٧٨)؛ ويقول تعالى: ﴿وغرّتكم الأمانيُّ حتى جاء أمر الله﴾ (سورة الحديد، ٥٧/١٤).

[7] ن - ألقى الألواح.

[8] قيل: إن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى موسى الألواح تكسّرت، فرُفِع منها ستة أسباعها، وكان فيما رُفِع تفصيل كل شيء الذي قال الله: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٤٥)، وبقي الهدى والرحمة في السُّبع الباقي. وروي نحو ذلك عن ابن عباس وغيره. انظر: *تفسير الطبري*، ٩/٦٦؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٥٦٤-٥٦٥.

[9] سورة النحل، ١٦/١٥؛ وسورة لقمان، ٣١/١٠.

[10] م: أي وضعه.

[11] ﴿قال يا ابن أُمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرّقتَ بين بني إسرائيل و لم ترْقُبْ قَوْلِي﴾ (سورة طه، ٢٠/٩٤).

[12] م: إن كان.

لأنه قال: لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي، ولا يحتمل أن يكون موسى يأخذ رأسه بالوحي[١] والأمر من الله[٢] ثم يقول له هارون: لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِكذا، ولا تفعل كذا. وفيه أيضا أن هارون لما قال له: لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ، إنما قال ذلك[٣] بالاجتهاد،[٤] حيث قال: إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لأنه لو كان يقول له بالوحي أو بالأمر لم يكن ليعتذر إليه بقوله:[٥] **فلا تُشمِت بِيَ الأعداء.**

وقوله: **وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه**، فيه دلالة أنه إنما أخذ شعر رأسه، لأنه لو كان أخذ رأسه لكان لا يحتاج إلى أن **يجره إليه**، دل أنه كان أخذ بشعر رأسه. وكذلك قوله: لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي. وفيه دلالة لأصحابنا[٦] أن من مسح[٧] رأسه ثم أزال شعره لم يسقط عنه حكم المسح، وإذا مسح على لحيته ثم سقط زال عنه[٨] حكمه ولزم غَسلُ ذَقَنِه، لما سَمَّى الشعر رأسا، وسمى اللحية لحية، وسقوطها يُسقط حكم المسح، وسقوط شعر الرأس لا. *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني**، خرج هذا صلة قول موسى لهارون لما قال له: يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي،[٩] فقال عند ذلك: **إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تُشمِتْ بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين.**

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[١٥١]

وقوله عز وجل: **قال رب اغفر لي ولأخي**، قال بعضهم: إنما خصّ أخاه بسؤال المغفرة، لأنهم جميعا قد عبدوا العجل سوى أخيه هارون، لذلك خصّه بسؤال المغفرة.[١٠] وقال بعضهم: إنما قال[١١] ذلك جوابا مما قال هارون: فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ،[١٢] الآية.

---

[١] ك - بالوحي.
[٢] ك: ولا من الله.
[٣] ن - ذلك.
[٤] ن + ذلك.
[٥] ك: لقوله.
[٦] ع: أصحابنا.
[٧] ك + سعر.
[٨] ن - عنه.
[٩] سورة طه، ٢٠/٩٢-٩٣.
[١٠] أي خص موسى نفسه وأخاه هارون بسؤال المغفرة وطلب الرحمة من الله ولم يشرك قومه في ذلك، لأنهم...
[١١] ع - قال.
[١٢] الآية السابقة.

ويحتمل أن يكون تخصيص السؤال له بالمغفرة لما سأل ربه أن يجعل هارون له وزيرا بقوله: وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي.[1] لما سأل ربه أن يشركه في أمره[2] ويشدّ به[3] أَزْرَه فعلى ذلك خصّه بسؤال[4] المغفرة. *والله أعلم*. وقوله عز وجل: **وأنت أرحم الراحمين**، لأن كل من يَرحم دونه إنما يَرحم برحمته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[١٥٢]

وقوله: **إن الذين اتخذوا العجل**، أي عبدوا العجل،[5] **سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا**، قال بعضهم: **غضب من ربهم**، عذاب في الآخرة لمن مات منهم على ذلك، **وذلة في الحياة الدنيا**، القتل والهلاك في الدنيا. وقال[6] بعضهم: قوله: **غضب من ربهم**، القتل والهلاك، **وذلة في الحياة الدنيا**، الجزية والأسر[7] والقهر. ويحتمل قوله تعالى: **وذلة في الحياة الدنيا**، ذِكرَ الذم[8] بصنيعهم، وثناءَ الشر على ما كان. وبصنيع[9] الخير المَحْمَدةُ في الدنيا وثناءُ الخير.[10]

وقوله: **سينالهم غضب من ربهم**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما أي قد نالهم **غضب من ربهم**،[11] وما ذكر. والثاني أن يكون هذا مذكورا في كتبهم أن من اتخذ العجل معبودا **سينالهم غضب من ربهم**.[12] فإن كان هذا خبرا عما في كتبهم فسينالهم على الوعد،[13] وإلا على الخبر أنْ قد نالهم.[14] **وكذلك نجزي المفترين**، أي كذلك نجزي كل مفتر[15] على الله تعالى.

[1] سورة طه، ٢٠/٢٩-٣٢.
[2] ع – أن يشركه في أمره.
[3] م – ويشد به.
[4] ع: بسؤاله.
[5] م – أي عبدوا العجل.
[6] ن: قال.
[7] ع: والأمر؛ م: والسبي.
[8] ك: الذمة.
[9] م: بصنيع.
[10] ك ن ع: الحسن.
[11] ع – هذا يحتمل وجهين أحدهما أي قد نالهم غضب من ربهم.
[12] ن – غضب من ربهم وما ذكر والثاني أن يكون هذا مذكورا في كتبهم أن من اتخذ العجل معبودا سينالهم غضب من ربهم.
[13] جميع النسخ + صحيح.
[14] م: أي قد نالهم.
[15] ن: كل مفترى.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١٥٣]

وقوله عز وجل: **والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا**، قال أهل التأويل: قوله: **والذين عملوا السيآت**، يعني الذين[1] عبدوا العجل، **ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم**، وهو في كل من عمل السيئات أيَّ سيئة كانت، إذا تاب عنها وندم عليها وطلب من الله المغفرة غفر له.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[١٥٤]

وقوله: **ولما سكت عن موسى الغضب**، [أي] الغضب[2] الذي غضب لله على قومه بعبادتهم[3] العجل. ولا يحتمل ما قاله أبو بكر الأصم: إن الغضب عقوبة وشَتْم، لأن الغضب معروف لا يجوز أن يُتَأَوَّل [على] ما قال هو. وقوله: **أخذ الألواح**، يعني الألواح[4] التي وضعها على الأرض.

وقوله: **وفي نسختها هدى ورحمة [للذين هم لربهم يَرْهَبون]**، قال بعضهم: يعني في نسخة الألواح، لما كانت نُسِخت[5] من اللوح المحفوظ. وقال بعضهم: قوله: **وفي نسختها**، أي الكتب التي انتسخها بنو[6] إسرائيل من تلك / الألواح. وقوله: **هدى ورحمة**، أي **هدى** [٢٦٨و] من كل ضلالة، وبيان من كل عمى وشبهة، **ورحمة** من كل سخطة وغضب. **للذين هم لربهم يَرْهَبون**، أي للذين يخشون ربهم فيعملون به.[7]

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾[١٥٥]

وقوله عز وجل: **واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا**، قال بعضهم: قوله: **لميقاتنا**،

---

[1] ن – الذين.
[2] ع م – الغضب.
[3] ك: لعبادتهم.
[4] م – يعني الألواح.
[5] ك: نسخة.
[6] ك: بنوا.
[7] م – به.

أي لتمام الموعدة التي وعد، وهو الأربعون[1] الذي وعد. ولكن لا ندري ما ذلك الميقات الذي ذكر.
وقوله: **واختار موسى قومه**، قال بعضهم: [يعني] السبعين الذين اختارهم[2] موسى ليكونوا مع هارون، فعبدوا[3] العجل في أَفْنِيَتهم،[4] فلم ينكروا ولم يغيّروا[5] عليهم، فأخذتهم الرجفة. وقال الحسن: إنهم[6] جميعا قد عبدوا العجل إلا هارون. فالرجفة[7] التي أخذتهم إنما أخذتهم[8] عقوبة لما عبدوا العجل. ولسنا ندري من أولئك السبعين الذين اختارهم موسى. وأمكن أن يكون موسى اختار السبعين ليخرجوا معه، فيكونوا شهداء له على إنزال[9] التوراة عليه وكلام ربه. وقيل: هم الذين تركهم في أصل الجبل، فلما جاءهم موسى بالتوراة قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً،[10] فأخذتهم الصاعقة وهلكوا لقولهم ذلك. وقد ذكرنا أنّا لا ندري من كانوا. وقيل: اختارهم موسى ليتوبوا إلى الله مما عمل قومهم.

وقوله: **فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاي**، قال بعض أهل التأويل: لو شئت أَمَتَّهم، **وإيّاي** بقتل القبطي.[11] وقال آخرون: **لو شئت أهلكتهم**، على نفس الإهلاك، **وإيّاي**؛ على القدرة، أي تقدر على إهلاكي، ولكن لا تهلكني[12] لما لم يكن ما يستحق[13] ذلك. ويشبه أن يكون قوله: **لو شئت أهلكتهم**، إهلاك فتنة، **وإياي**.[14]

وقوله عز وجل: **[لو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاي] أتهلكنا بما فعل السفهاء منا**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما يقول[15] –والله أعلم– لك أن تهلكنا ابتداء إهلاك، و السفهاء بما فعلوا.

---

[1] ك ن ع: وهو الأربعين.
[2] م: الذي اختارهم.
[3] ك: فعبد.
[4] فِناء الدار ما امتدّ من جوانبها، والجمع أَفْنِيَة (*لسان العرب* لابن منظور، «فني»).
[5] ن ع م: ولم يفتروا.
[6] م: إنه.
[7] ن – هي.
[8] م – إنما أخذتهم.
[9] م: على إنزاله.
[10] سورة البقرة، ٢/٥٥.
[11] أي قَتْل موسى عليه السلام للقبطي، وقد ذكر في قوله تعالى: ﴿قال رب إني قَتلتُ منهم نفسا فأخاف أن يَقتلونِ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٣٣)، وغير ذلك.
[12] ن: لا تهلكه؛ ع م: لا تهلكنا.
[13] جميع النسخ: ما يستحقه.
[14] ن – وإياي.
[15] ك: نقول؛ م: بقول.

والثاني يقول:[١] لو شئت[٢] أهلكتهم وإياي مِن قبل، فلا تُهلكْنا الآن،[٣] لأن موسى [خاف إن][٤] أتى قومه وأخبرهم أنهم أُهلِكوا بسبب كذا لم يُصدّقه[٥] قومه بذلك، ولكنهم يتّهمونه ويقولون: أنت قتلتهم. على ما ذكر في بعض القصة أنه[٦] خرج بهارون إلى بعض الجبال، فمات هارون هنالك،[٧] فأخبر قومه بذلك، فكذّبوه وقالوا:[٨] أنت قتلته. فعلى ذلك جائز أن يكون هاهنا خاف أن يتّهمه قومه في أولئك، ولا يُصدّقوه[٩] فيما حلّ بهم. *والله أعلم*.

وقوله: **أتهلكنا بما فعل السفهاء منا**،[١٠] يحتمل هذا[١١] وجوها. يحتمل [أن] يُراد به التقرير. ويحتمل الإنكار والرد. ويحتمل الإيجاب. أما الإنكار فيكون معناه: **أتهلكنا بما فعل السفهاء منا**،[١٢] أي لا تفعل، ولا **تهلكنا بما فعل السفهاء منا**.[١٣] ومثل هذا قد يقال، يقول الرجل لآخر: أتفعل أنت كذا؟ على الإنكار،[١٤] أي لا تفعل. فعلى ذلك هذا. *والله أعلم*. ويُراد به الإيجاب، كأنه قال: لك أن **تهلكنا**[١٥] **بما فعل السفهاء منا، وما هي إلا فتنتك**، أنْ يكون ذلك امتحانا وابتلاءً ابتداءً، أي تفعله امتحانا وابتلاء لا تعذيبا. ويحتمل أن يكون على الاستفهام، لكن لم يخرج له الجواب، كقوله: أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ،[١٦] وقوله: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى،[١٧] ونحوه، مما لم يخرج له جواب. فعلى[١٨] ذلك هذا.

---

[١] ك: نقول؛ م: بقول.

[٢] ع – لو شئت.

[٣] ك: و لم تهلكنا قومنا؛ ن: و لم تهلكنا قوما؛ ع م: وما تهلكنا قومنا. والتصحيح مستفاد من *شرح التأويلات*، ورقة ٣١١ظ.

[٤] من *شرح التأويلات*، ورقة ٣١١ظ.

[٥] ع م: لم يصدقوا.

[٦] ن + ذكر.

[٧] م: هناك.

[٨] ن: فقالوا.

[٩] ع: ولا يصدقوة.

[١٠] ن + ومثل هذا.

[١١] ن – هذا.

[١٢] ع م – منا.

[١٣] ن – أي لا تفعل ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا.

[١٤] ك: كذا الإنكار.

[١٥] م: أتهلكنا.

[١٦] سورة الرعد، ٣٣/١٣.

[١٧] سورة الأنعام، ٢١/٦، ٩٣؛ وغير ذلك.

[١٨] ع م: فعل.

ويجوز أن يكون إهلاكه إياهم محنة بتفريطٍ كان من بعضهم، وإن كان بعضهم بُرَآء من ذلك. على ما كان من أهل المَرْكَز[1] من العصيان،[2] وكان الفشل والهزيمة عليهم محنة منه إياهم، كقوله: إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ،[3] الآية. فعلى ذلك هذا.

وقوله عز وجل: **إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء**[4] **وتهدي من تشاء**، قال أبو بكر: **تضل بها**، أي تنهى **من تشاء** نهيا ما لولا ذلك النهي لم يكن الفعل فعل الضلال، **وتهدي من تشاء**، أي تأمره أمرا ما لولا ذلك الأمر لم يكن الفعل[5] فعل الاهتداء. لكن حرف "مَن" إنما يُعبَّر به عن الأشخاص[6] دون الأفعال، فلو كان على ما ذكر هو لقال: تضل به ما تشاء، فإذ لم يقل[7] ذا ثبت أنه ليس على ما ذكر. وتأويله عندنا أنه يخلق فعل الضلال ممن يعلم أنه يختار ذلك، ويخلق فعل الهدى ممن يعلم أنه يختار ذلك، وهو خالق كل شيء. وأصل ذلك أن جميع ما يضاف إلى الله من طريق الأفعال -على اختلاف الإضافة باختلاف[8] وجوهها- حقيقةُ ذلك [أنه] من الله خَلْقُ ما أضيف إليه من الوجه الذي يَحِقّ وَصْفُه بأنه خالقه؛ فعلى ذلك قوله: **تهدي و تضل**. ويحتمل تُوفِّق[9] وتَخْذُل.[10]

وقوله عز وجل: **أنت ولينا**، أي **أنت** أولى بنا. ويحتمل **أنت** ولي هدايتنا. أو **أنت** ولي نعمتنا. **فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، وأنت خير** الراحمين، لأن كل أحد دونه إنما يَرحم ويَغفر برحمته.

---

[1] مركز الجند هو الموضع الذي أُمروا أن يَلزموه وأن لا يبرحوه (*لسان العرب* لابن منظور، «ركز»).

[2] أي في غزوة أحد عندما ترك الرُّماة مواقعهم على الجبل.

[3] ﴿ولقد صَدَقَكم الله وَعْدَه إذ تَحُسُّونهم بإذنه حتى إذا فَشِلتم وتَنازعتم في الأمر وعَصَيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صَرَفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٥٢). وتحسونهم أي تقتلونهم.

[4] ن + أي تأمره.

[5] ع م – تشاء نهيا ما لولا ذلك النهي لم يكن الفعل فعل الضلال وتهدي من تشاء أي تأمره أمرا ما لولا ذلك الأمر لم يكن الفعل.

[6] ك ن ع: به الأشخاص.

[7] ع م: فإن لم يقل.

[8] ن – أنه يختار ذلك وهو خالق كل شيء وأصل ذلك أن جميع ما يضاف إلى الله من طريق الأفعال على اختلاف الإضافة باختلاف؛ ع م: بالاختلاف.

[9] ن ع م: وتوفق.

[10] ك: ويخذل.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[١٥٦]

وقوله عز وجل: **واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة**، يحتمل الكتابة[١] الإيجاب، أي أوجب **لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة**؛ أو الإثبات، أي أثبت لنا وأعطنا **في هذه الدنيا حسنة**؛ ويكون [بمعنى] قوله: آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً.[٢] وقال بعضهم: قوله: **واكتب لنا**، أي وفّق لنا[٣] العمل الذي نستوجب به الحسنة في الدنيا والآخرة. ويحتمل **اكتب لنا في** الدنيا الحسنات، ولا تكتب علينا السيئات. *والله أعلم*. وقوله: **في هذه الدنيا حسنة**، تُختَم بها الدنيا وتَنقضي بها، وإلا ما من مسلم إلا وله في هذه[٤] الدنيا حسنة آتاها إياه. وعلى ذلك يخرج قوله: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، أنهم[٥] إنما سألوا حسنة أنْ يُختَموا[٦] عليها.[٧] ويكون كقوله: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ كذا.[٨] والله أعلم بذلك.[٩]

وقوله عز وجل: **إنّا هُدْنا إليك**، قال بعض أهل التأويل:[١٠] قوله: **هدنا إليك**، أي مِلْنا إليك. / وقال غيرهم: **إنا هدنا إليك**، أي تُبنا إليك. وقيل: ولذلك سَمّت اليهود أنفسهم [٢٦٨ظ] يهودا، أي تائبين إلى الله. لكن لو كان كما ذكر كان قوله: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا،[١١]

---

[١] ع: الكتاب.
[٢] ن – ويكون قوله آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة؛ ع م – أو الإثبات أي أثبت لنا وأعطنا في هذه الدنيا حسنة ويكون قوله آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. والآية في سورة البقرة، ٢/٢٠١.
[٣] ع: أي وفقلنا.
[٤] م – هذه.
[٥] ك – أنهم.
[٦] ن ع م: أن يختمون.
[٧] ن: علينا.
[٨] ﴿من جاء بالحسنة فله عَشرُ أمثالِها﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٦٠)؛ ﴿من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها﴾ (سورة النمل، ٢٧/٨٩؛ وسورة القصص، ٢٨/٨٤).
[٩] ن – وقوله عز وجل في هذه الدنيا حسنة آتاها إياه وعلى ذلك يخرج قوله ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة أنهم إنما سألوا حسنة أن يختموا عليها ويكون كقوله من جاء بالحسنة فله كذا والله أعلم بذلك.
[١٠] ن ع – أهل التأويل.
[١١] ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾ (سورة آل عمران، ٣/٦٧).

أي تائبا، وذلك بعيد. ولكن إن كان لذلك[1] سُمُّوا فهو -والله أعلم- مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا، أي لم يكن إبراهيم[2] على المذهب الذي عليه اليهود،[3] وكذلك لم يكن على المذهب الذي ادعت النصارى أنه كان عليه، وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا.

وقوله عز وجل: **قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء [فسأكتبها للذين يتقون]**، قال الحسن: شاء[4] أن يصيب عذابه من كفر بالله وكذّب رسله، وشاء من أطاع الله وصدّق رسله أن يصيب رحمته. ودل قوله: **عذابي أصيب به من أشاء**، أنه لما شاء أن يصيبهم عذابه شاء العمل والفعل الذي كان به يصيبهم، لأن حرف "مَن" إنما يُعبَّر به عن بني آدم، ولا جائز أن يشاء لهم الإيمان ثم يشاء لهم أن يصيبهم عذابه، ولكن إذا علم[5] منهم أنهم لا يؤمنون[6] ويختارون فعل الضلال على فعل الهدى شاء لهم ما اختاروا. وقوله: **ورحمتي وسعت كل شيء**، ما من أحد من مسلم وكافر إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا،[7] بها يَتعيّشون ويُؤاخون ويُوادّون، وفيها يتقلّبون، لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة، لا حظ للكافر فيها. وذلك قوله: **فسأكتبها للذين يتقون**، معصية الله والخلاف له، **ويؤتون الزكاة**. وكقوله: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ،[8] جعل طيبات الدنيا ونعيمها مشتركة بين المسلم والكافر، خالصة للذين آمنوا يوم القيامة، لا حظ للكافر فيها. فعلى ذلك رحمته نالت كل أحد في هذه الدنيا، لكنها[9] للذين آمنوا واتقوا الشرك خاصة في الآخرة. ويحتمل قوله -والله أعلم- **واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة**، أنهم إنما سألوا الرحمة، فقال: **سأكتبها للذين يتقون**، معاصي الله ومخالفته. ***والله أعلم***.

وقوله: **ويؤتون الزكاة**، يحتمل **يؤتون الزكاة** المعروفة. ويحتمل تزكية النفس، كقوله:

---

[1] ع م - لذلك.
[2] ن ع م - إبراهيم.
[3] ك: اليهود عليه.
[4] م: يشاء.
[5] ع م: إذ علم.
[6] ك: ألا يومنون.
[7] ك: في من الدنيا.
[8] سورة الأعراف، ٣٢/٧.
[9] ن - لكنها.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا،[١] ومعلوم أنه لم يرد به زكاة المال، ولكن زكاة النفس بالتوحيد والتقوى. وكذلك قوله: وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا،[٢] هو ذلك الزكاة، لا الزكاة[٣] المعروفة: زكاة المال. فعلى[٤] ذلك الأول. **والله أعلم**. وإن كان على الزكاة المعروفة فذلك في قومٍ ثَقُل عليهم واشتدّ إخراج الزكاة من أموالهم، كقوله: الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ،[٥] كذا.

وقوله عز وجل: **والذين هم بآياتنا يؤمنون**، قد ذكرنا في غير موضع[٦] أن من آمن بآيات الله وصدّقها فقد آمن[٧] بالله وبرسله، ومن كذّب بآياته كذّب بالله وخالف رسله، لأن طريق معرفة الله ورسله إنما هو من طريق الآيات والحجج، ليس من طريق المشاهدات والمحسوسات، لذلك كان الإيمان بالآيات إيمانا بالله وبرسله، والتكذيب بها كفرا[٨] بالله ورسله.

﴿ اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٥٧]

وقوله عز وجل: **الذين يتبعون الرسول النبيَّ**، أي يَقفُون أثر الرسول في كل سيرته وفي كل أمره ونهيه ويطيعونه. سماه رسولا ونبيا بقوله: **الرسول النبي**، و **الرسول** كالمبعوث على تبليغ الرسالة والمأمور بها على كل حال، و **النبي** كالمنبئ لهم أشياء عند السؤال والاستخبار. و **الرسول** هو المأمور بالتبليغ، سألوه أولم يسألوا، شاءوا أو أبوا. وكان لمحمد صلى الله عليه وسلم كلاهما الإنباء والتبليغ، كقوله: بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ،[٩] وقوله: إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ.[١٠]

---

[١] سورة الشمس، ٩١/٩-١٠.
[٢] سورة النور، ٢٤/٢١.
[٣] ن - لا الزكاة.
[٤] ك: وعلى ذلك.
[٥] يقول الله تعالى: ﴿الذين لا يُؤْتُون الزكاة وَهُمْ بالآخرة هم كافرون﴾ (سورة فصلت، ٤١/٧).
[٦] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٧/٣٦.
[٧] ع - آمن.
[٨] جميع النسخ: وبالتكذيب بها كفر.
[٩] سورة المائدة، ٥/٦٧.
[١٠] سورة الشورى، ٤٢/٤٨.

وقوله عز وجل: **الأُمِّيَّ الذي يجدونه مكتوبا، الأمي** ما ذكر في آية أخرى، وهو قوله: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ،[1] الآية. **الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة**، أي **يجدونه مكتوبا** في التوراة[2] أنه رسول نبي وأنه أمي. قوله: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ، لئلا يقولوا: إنك أخذت هذا من الكتب المتقدمة ومن علومها وحكمتها، وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، لئلا يقولوا: إنه من تأليفك، ويعلموا أنه من عند الله جاء به،[3] لا من ذات نفسه.

[٢٦٩و س١٧ *وفي هذه الآية دلالة إثبات رسالة محمد صلى الله عله وسلم، لأنه أخبر أنه أمي، والأمي ما ذكر في قوله: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، كان لا يتلو ولا يخطه بيده،[4] ثم أخبر على ما كان في كتبهم من غير أنْ عَرَف ما في كتبهم أو نَظَر فيها وعَرَف

٢٦٩و س٢٠] لسانهم، دل أنه إنما عرف ذلك[5] بالله تعالى.*

وفي قوله: **يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**، إلى آخر ما ذكر،[6] دلالة إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن أولئك لم يأتوا بالتوراة والإنجيل فيقولوا:[7] لا نجد ما تذكر في التوراة والإنجيل، دل ذلك منهم على أنهم وجدوه كذلك. *والله أعلم*.

وقوله: **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**، أي **يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة**، أنه يأمر بما أمر الله به وينهى عما نهى الله عنه، **ويحل لهم الطيبات**، ما أحل الله لهم، **ويحرم عليهم الخبائث**، ما حرم الله عليهم. يجدونه في التوراة أنه لا يأمر بشيء ولا ينهى عن شيء ولا يحل شيئا ولا يحرم إلا بأمر من الله له، لكنهم ينكرونه إنكار عناد ومكابرة، كقوله تعالى: يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ،[8] وغيره. ويحتمل قوله: **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**، الآية،

---

[1] يقول الله تعالى: ﴿وما كنتَ تتلو مِنْ قَبْلِهِ من كتاب ولا تَخُطُّهُ بيمينك إذًا لارتاب المبطلون﴾ (سورة العنكبوت، ٤٨/٢٩).

[2] ن – أي يجدونه مكتوبا في التوراة.

[3] ك: جابه.

[4] ك: بيمينه.

[5] ن – ذلك.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٦٩و/سطر ١٧-٢٠.

[6] ن – ما ذكر.

[7] جميع النسخ: فيقولون.

[8] سورة البقرة، ١٤٦/٢؛ وسورة الأنعام، ٢٠/٦.

أي **يأمرهم** بما هو معروف في العقل وشهادة الخلقة، وهو التوحيد. وكذلك **ينهاهم** عما هو في العقل وشهادة الخلقة منكر، وهو الكفر وجميع المعاصي. **ويحل لهم الطيبات**، أي **يحل** ما هو طيب في العقل والطبع، **ويحرم** ما هو خبيث في العقل / والطبع جميعا. لأن من الأشياء ما هو مستخبث [٢٦٩و]
في الطبع لم يجعل غذاء البشر فيه، وإنما جعل غذاؤهم[١] فيما هو مستطاب في الطبع، بلغ غايته في الطِّيب، ولا كذلك جعل غذاء البهائم والأنعام، هذا محتمل.[٢] *والله أعلم*. والثالث يحتمل...[٣] ثم **المعروف والطيبات**، لو تُركت العقول والطباع على ما هي عليها لكانت لا حاجة تقع إلى رسول يخبر أن هذا معروف وأن هذا طيب أو خبيث أو منكر، ولكان[٤] تَعرف العقول والطباع ذلك كله،[٥] لكن تَعترض[٦] العقولَ من الشُّبَه فتمنعها عن معرفة ذلك، فاحتاجت إلى رسول الله[٧] يخبرها[٨] عن ذلك.

وقوله عز وجل: **ويضع عنهم إصرهم**، قيل: ما غلّظوا على أنفسهم[٩] من الشدائد. وقيل: **إصرهم**، شدة من العبادة والعمل. وقيل: **إصرهم**، عهدهم. وقيل: **إصرهم**، أي الثقل[١٠] الذي كان بنو[١١] إسرائيل أُلزِموه.[١٢] وقال القُتَبي: **ويضع عنهم إصرهم**، أي ذنبهم الذي كانوا يذنبون،[١٣] أي عقوبة الذنب الذي أذنبوا في الدنيا.

وقوله عز وجل: **والأغلال التي كانت عليهم**، قال الحسن: إن اليهود قالوا: يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ،[١٤] أي محبوسة عن عقوبتنا، فقال[١٥] عز وجل: غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا،

---

[١] ع: غذاهم؛ م:غذائهم.
[٢] ن: هذا يحتمل.
[٣] م – والثالث يحتمل. وفي نُسَخ ك ن بياض بمقدار عدة كلمات. وفي هامش نسخة ك: كذا بالأصل بياض. ولا توجد هذه الزيادة أو أي كلام آخر في *الشرح*، ورقة ٣١٢ظ.
[٤] جميع النسخ: ولكن.
[٥] ن – كله.
[٦] ك: لكن يعترض؛ م: لكن تعرض.
[٧] ك ع – الله.
[٨] ن ع م: يخبر.
[٩] ن: في أنفسهم.
[١٠] م: إصرهم الثقل.
[١١] ك: بنوا.
[١٢] وهوقول ابن قتيبة. انظر: *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٣.
[١٣] ن: يذنبوا. لعل المؤلف رحمه الله أخطأ في نسبة هذا القول إلى ابن قتيبة. قارن: *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٣.
[١٤] ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم ولُعِنوا بما قالوا﴾ (سورة المائدة، ٦٤/٥).
[١٥] ن + الله.

أي غُلّت أيديهم إلى أعناقهم في النار، فأخبر أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لما آمنوا به وصدّقوه رفع تلك **الأغلال التي**[1] **كانت**[2] **عليهم** عن هذه الأمة بطاعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: **الأغلال التي كانت عليهم**، الشدائد **التي كانت عليهم**، من نحو ما لا يجوز[3] لهم العفو عن الدم العمد،[4] ولا أَخذُ الدية، وما لا يجوز غَسلُ النجاسات إلا القَطْع،[5] وغير ذلك من الأشياء التي لم تُحَلَّ لهم، فأُحلّت لهذه الأمة. ويحتمل أن يكون الإصر[6] **والأغلال التي كانت عليهم** من نحو ما حُرِمت من أشياء بظلم كان منهم، وتحريم،[7] نحو قوله: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ،[8] وقوله: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ -إلى قوله- ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ.[9] حُرِمت تلك الأشياء عليهم عقوبة لبغيهم وظلمهم الذي كان منهم. أخبر أنه وضع عن هؤلاء ذلك، لم يحرّم ذلك عليهم.*

وقوله: **فالذين آمنوا به**، أي صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، **وعزّروه**، قيل: أعانوه بأموالهم، **ونصروه**، بأيديهم بالسيف. وقال الحسن: قوله: **وعزّروه ونصروه**، إنما هو كلام مَثْنى، وهو إعانة. وقيل: **عزّروه**، أطاعوه، **ونصروه**، أعانوه. وقيل: **عزّروه**،[10] أي عظّموه.

وقوله عز وجل: **واتبعوا النور الذي أنزل معه**، يعني القرآن، سماه نورا لما ينير[11] الأشياء عن[12] حقائقها بالعقول، لأن النور في الشاهد هو الذي يكشف عن الأشياء سواترها، فعلى ذلك القرآن هو نور[13] لما يَرفع الشُّبَه عن القلوب ويكشف عن سواترها. وقال بعضهم: سمي نورا لما ينير الأشياء ويعرف به ما غاب وما شهد، فيصير الغائب به كالشاهد.[14]

---

[1] ع - التي.
[2] ك ن ع - كانت.
[3] ك: ما يجوز.
[4] ك: والعمد.
[5] ع: إلا انقطع.
[6] ك: الإصرار.
[7] بسبب تحريمهم، أي هم حرموا بعض الأشياء عليهم.
[8] سورة النساء، ٤/١٦٠.
[9] يقول الله تعالى: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظُفُرٍ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حمَلت ظهورهما أو الحَوَايَا أو ما اختلط بعَظْم ذلك جزيناهم ببغيهم﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٤٦).
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٦٩و/سطر ١٧-٢٠.
[10] ن ع م - أطاعوه ونصروه أعانوه وقيل عزروه.
[11] ن م: لما تنير.
[12] م + حقا.
[13] ع م: وهو نور.
[14] ن ع م: به له كالشاهد.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١٥٨]

وقوله عز وجل: **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**، فيه دلالة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى الناس كافّة. وكذلك روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود».[١] وسائر الأنبياء بُعِثوا إلى أقوام خاصة، وإلى البلدان والقرى المعروفة المحدودة.[٢] وفيه أنه لما خاطبه أن يقول للناس:[٣] **إني رسول الله إليكم**، أنه[٤] لا سبيل له إلى أن يخاطب الناس والخلق جميعا فيقول: **إني رسول الله إليكم جميعا**، ولكن إنما يكون بِبَعث الرسل إليهم، فيُنَزَّل قول الرسول: إنه[٥] رسول الله إليكم، منزلةَ قول نفسه: **إني رسول الله إليكم**. فانتشر ذكره بتبليغ الرسل إليهم، كأنه[٦] هو بلّغ ذلك، وقال لهم: **إني رسول الله**[٧] **إليكم**. أو إن الله عز وجل سخّر الخلق حتى بلّغ بعضهم بعضا رسالته، حتى فشا خبره وانتشر ذكره في جميع آفاق[٨] الأرض شرقا وغربا. وذلك من عظيم آيات نبوته ورسالته.

ثم بيّن أنه رسول من الله، فقال[٩] [بأنه] رسول **الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت**. وذكر تخصيص السماوات والأرض وإن كان له ملك الكل لما هما النهاية في ملك البشر عند البشر.[١٠] أو ذكر هذا ليعلموا أن من في السماوات والأرض له، [وهم] عبيده وإماؤه. أو ذكر هذا ليعلموا أن التدبير فيهما جميعا لواحد، حيث اتّصل منافع السماء بمنافع الأرض على بُعد ما بينهما.

---

[١] مسند أحمد بن حنبل، ٣/٣٠٤؛ وصحيح مسلم، المساجد ٣.
[٢] ك: المعدودة.
[٣] ن: الناس.
[٤] ن: لأنه.
[٥] ع: إني.
[٦] ن + كأنه.
[٧] م – إنما يكون ببعث الرسل إليهم فينزل قول الرسول إنه رسول الله إليكم منزلة قول نفسه إني رسول الله إليكم فانتشر ذكره بتبليغ الرسل إليهم كأنه هو بلغ ذلك وقال لهم إني رسول الله.
[٨] م: الآفاق.
[٩] ك ن: رسول من فقال.
[١٠] ع م – عند البشر.

وقوله عز وجل: **لا إله إلا هو**، ذكر هذا لأن العرب سمّت كل معبود إلها، وهم كانوا يعبدون الأصنام دونه ويسمّونها آلهة، فنفى الألوهية عمن يعبدونهم[١] دونه، وأثبتها له. وأخبر أنه هو المستحق لاسم الألوهية والعبادة لا غير، لأنه **يحي ويميت**، ومن يعبدون دونه[٢] لا يملك الإحياء ولا الإماتة. وذكر[٣] -والله أعلم- الحياة والموت، لأنه ليس شيء[٤] أَلَذّ وأشهى في الشاهد من الحياة، ولا أَمَرّ ولا أشدّ من الموت، ليرغبوا في أَلَذّ ما غاب عنهم، ويَنفِروا عن الأَمَرّ والأَكْرَه[٥] مما غاب عنهم. ***والله أعلم***. أو ذكر أنه هو[٦] **يحيي ويميت** ليدل أنه فعلُ واحدٍ لا عَدَد.

وقوله عز وجل: **فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله**، كان صلى الله [٢٦٩ظ] / عليه وسلم هو السابق إلى كل خير، فعلى ذلك دعا الخلق إليه[٧] كقوله: وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ،[٨] وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ.[٩] فعلى ذلك إنما أمر بالإيمان به[١٠] بعد ما آمن هو. وجائز أن يكون قوله: **يؤمن بالله وكلماته**، أي آمن رسول الله **بالله وكلماته**، التي كانت في الكتب الماضية، فأخبر بها[١١] على ما في كتبهم ليعرفوا أنه إنما عرفها بالله تعالى.

وقوله تعالى: **وكلماتِه**، اختلف فيه. قال عامة أهل التأويل: **كلماته**، القرآن. وذكر في بعض القراءات: وَكَلِمَتِه، بلا ألف.[١٢] فصُرِف التأويل إلى عيسى، كأنه قال: آمنوا بالله وبمحمد وبعيسى. ويحتمل أن يكون قوله: **وكلماته**، ما أعطاه من الحلال والحرام والأمر والنهي[١٣] والحكمة والأحكام التي أمر بها[١٤] وشرعها لنا، على ما ذكر في إبراهيم أنه ابتلاه بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ.[١٥] ***والله أعلم***.

---

[١] ن ع: يعبدون هم.
[٢] ن: ومن يعبدونه.
[٣] ن ع م + هذا.
[٤] ك - شيء.
[٥] ع: والإكراه.
[٦] ك ع ن - هو.
[٧] ع م - إليه.
[٨] سورة الأعراف، ١٤٣/٧. وذلك قول موسى عليه السلام.
[٩] سورة الأنعام، ١٦٣/٦.
[١٠] ع م - به.
[١١] ك: فأخبرونا.
[١٢] *روح المعاني* للآلوسي، ٨٣/٩. وهي قراءة شاذة.
[١٣] ن - والنهي.
[١٤] ع: أمرها.
[١٥] ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن﴾ (سورة البقرة، ١٢٤/٢).

وقوله عز وجل: **واتبعوه لعلكم تهتدون**، قد ذكرنا[1] الاتباع له،[2] فإذا اتّبعوه اهتدوا.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[١٥٩]

وقوله عز وجل: **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق**، قيل: **أمة** يدعون إلى سبيل الحق، **وبه يَعدِلون**، أي به يعملون، وهو كقوله: أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ،[3] فعلى ذلك يَحمل[4] الأول على إضمار[5] الدعاء إلى سبيل الحق. وقال الحسن: **يهدون بالحق**، أي يعملون[6] بالحق، **وبه يعدلون**، فيما بينهم. لكن الأول أقرب. *والله أعلم*. ثم قوله: **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق**، جائز أن يكون الأمة التي أكْرَم **مِن قوم موسى** كان في زمنهم، يدعون الناس إلى الإيمان برسول الله. أو أن يكون الأمةُ من قومه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بَقِيّةً **من قوم موسى** مؤمنين به، يدعون الناس إليه، وبه يعملون.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١٦٠]

وقوله عز وجل: **وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطا أُمَما**، قال ابن عباس رضي الله عنه: هو ما ذكر:[7] وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا،[8] أي جماعات.[9] وقيل: **وقطّعناهم**، أي جعلناهم، **اثنتي عشرة أسباطا**، فِرَقا. وقال غيرهم: قوله: **وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطا أُمَما**، أي جاوزنا بهم البحر، وجعلنا لهم **اثنتي عشرة أسباطا**. قال[10] أبوعَوْسَجَة: الأسباط الأفخاذ، والسِبْط واحد.

---

[1] ن: قد ذكر.
[2] انظر: الآية السابقة.
[3] سورة النحل، ١٦/١٢٥.
[4] ن: يحتمل.
[5] ك: على الإضمار.
[6] ع م – وهو كقوله ادع إلى سبيل ربك بالحكمة فعلى ذلك يحمل الأول على إضمار الدعاء إلى سبيل الحق وقال الحسن يهدون بالحق أي يعملون.
[7] ع: وهو ماذكرنا؛ م: هو ماذكره.
[8] سورة الأعراف، ٧/١٦٨.
[9] جميع النسخ: أي جماعة.
[10] ع: وقال.

وقال القُتَبي: الأسباط القبائل، واحدها سِبْط.[1] وقيل: الأسباط لهم كالقبائل للعرب.[2] وقيل: الفخذ دون القبيلة. وقيل: إن أولاد إسحاق تُسَمَّى **أسباطا**، وأولاد[3] إسماعيل قبائل وأفخاذا.[4] ولذلك[5] يقال للعرب: قبيلةُ كذا وفخذ كذا. ولسنا ندري كيف هو. وقيل: سِبْط الرجل ولد ولده،[6] على ما رُوي أن الحسن والحسين سِبْطا رسول الله صلى الله عليه وسلم.[7]

وقوله عز وجل: **وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه**، قيل: دل[8] قوله:[9] **إذ استسقاه قومه**، أنهم كانوا في المَفَازَة لا في البلدان والقرى، لأنهم لو كانوا[10] في القرى فالقرى[11] لا تخلو[12] عن أنهار تجري فيها أو عيون.[13] ألا ترى أنه قال: **وظللنا عليهم الغمام**، دل أنهم كانوا في المفازة، لأنه[14] هنالك تقع الحاجة إلى الغمام، وأما في القرى فلا.

وقوله: **فانبجست منه اثنتا عشرة عينا**، قال بعضهم: انفجرت، على ما ذكر في سورة أخرى.[15] وقيل: إن هذه الكلمة بلسانهم لا بلسان العرب. وقوله عز وجل: **قد علم كل أُناس مَشْرَبهم**، قال بعضهم: تعبّدهم عز وجل بمعرفة كل منهم مَشْرَبه.[16] وقال بعضهم: لا، ولكن لئلا يزدحموا في ذلك فيقع[17] في أولادهم التقاتل[18] والإفساد والتنازع والاختلاف.

---

[1] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٣.
[2] ع م – وقيل الأسباط لهم كالقبائل للعرب.
[3] ك: والأولاد.
[4] ك م: وأفخاذ.
[5] ع: وكذلك.
[6] انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «سبط».
[7] لم أجده بهذا اللفظ. لكن عن يَعْلَى بن مُرَّة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحسن والحسين سِبْطان من الأسباط» رواه الطبراني، وإسناده حسن. انظر: *مجمع الزوائد* للهيثمي، ١٨١/٩.
[8] ن – دل.
[9] ع م – قوله.
[10] ن: لأنهم كانوا.
[11] جميع النسخ: والقرى.
[12] ك: لا تخ؛ ن م: لا تخلوا.
[13] ع م + الأرض.
[14] ن: لأنهم.
[15] ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ (سورة البقرة، ٢/٦٠).
[16] ع: مشربة. وعبارة السمرقندي هكذا: «تعبّدهم الله تعالى بمعرفة كل منهم مَشْرَبه لئلا يتجاوز عنه إلى مشرب صاحبه، وكانوا مكلفين ذلك بطريق الابتلاء والامتحان» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣١٣و–ظ).
[17] جميع النسخ: ليقع.
[18] ن ع م: التقابل.

وقوله عز وجل: **وظلّلنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى**، فيه أن جميع مؤنتهم[١] كانت من السماء بلا مؤنة ولا تعب على أنفسهم.

وقوله عز وجل: **كلوا من طيبات ما رزقناكم**، ما ذكر من **المنّ والسلوى** وغيره. **وما ظلمونا**، لا أحد يقصد قَصْدَ ظلم الله، ولكن إذا تَعدّوا حدود الله التي جعل لهم وجاوزوها فقد ظلموا أنفسهم لما رجع ضرر ذلك التعدي إليهم. وهذه النعم التي ذكر لهم جل وعلا إنما جعلها لهم في حال العقوبة والابتلاء من **المنّ والسلوى** والعيون والغمام. ويدل هذا على أن عقوبات الدنيا قد يشوبها لذة ونعمة. وكذلك لذات الدنيا قد يُمازِجها شدائد وهموم، فإنما تَخلُص وتصفو[٢] هذه النعم في الآخرة، وكذلك العقوبة هنالك تَخْلُص وتفارق اللّذّات.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٦١]

وقوله عز وجل: **وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية**، قال عامة أهل التأويل: قوله: **اسكنوا هذه القرية**، بيت المقدس. وأمكن أن تكون **القرية** التي ذكر هاهنا هي الأرض التي ذكرت في سورة المائدة، وهو قوله: ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ،[٣] أمرهم بالدخول فيها، ونهاهم عن الارتداد على أدبارهم.[٤] فأمرهم[٥] هاهنا[٦] بالسكون فيها وأباح لهم التناول منها مما[٧] شاءوا.[٨]

وقوله عز وجل: **وقولوا حِطّة**، أي ارجعوا إلى السبب الذي يحطّ الأوزار، لا قولهم: حُطَّ[٩] عنا كذا. وهو ما قال هود عليه السلام: وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ،[١٠] أي ائتوا بالسبب الذي به يغفر،[١١] وهو التوحيد.

---

[١] ك: مؤنهم.
[٢] ع: وتصفوا.
[٣] سورة المائدة، ٢١/٥.
[٤] ع م: عن أدبارهم.
[٥] ن: وأمرهم.
[٦] ك ن ع – هاهنا.
[٧] ن – مما.
[٨] م: مم شايوا.
[٩] ع: خط.
[١٠] سورة هود، ٩٠/١١.
[١١] ن: هو يغفر.

وادخلوا الباب سُجَّدا، الآية،[1] قد مضى ذكر هذا في السورة التي فيها ذكر[2] البقرة.[3]

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾[١٦٢]

وقوله عز وجل: **فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون**، هذا أيضا ذكرنا فيها، سوى أنه ذكر هاهنا: **فأرسلنا عليهم**، وذكر في سورة البقرة: فَأَنْـزَلْنَا،[4] والقصة واحدة، لِيُعلَم أن اختلاف الألفاظ لا يوجب اختلاف المعاني والأحكام ولا تغييرها. وذكر هاهنا:[5] **بما كانوا يظلمون**، وهنالك:[6] بِمَا كَانُوا
[٢٧٠و] يَفْسُقُونَ. والفسق / هو الخروج عن الأمر، والظلم هو وضع الشيء غير موضعه. وقد كان منهم الأمران جميعا، الخروج عن أمر الله، ووضع الشيء[7] في غير موضعه. أكرم الله عز وجل هذه الأمة كرامات، من الطاعة[8] لرسولها[9] والخضوع له[10] والتعظيم له حتى لم يخطر ببال أحد الخلاف له بعدما اتبعه وآمن به، وما أكرمهم[11] أيضا من الفهم والحكمة والفقه حتى ذكر كأنهم من الفقه أنبياء،[12] وقوم موسى عليه السلام وغيره من الأمم لم يكونوا مثل ذلك. ألا ترى أن قوم موسى قد خالفوه في أشياء أمرهم موسى بها.

---

[1] ع – الآية.

[2] ن – ذكر.

[3] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٥٨/٢.

[4] ﴿فبدّل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ (سورة البقرة، ٥٩/٢).

[5] ن – وذكر هاهنا.

[6] ك: وذكر هنالك.

[7] ن ع م + أيضا.

[8] ك: من الطاعات.

[9] ن: لرسوله.

[10] ن – له.

[11] م: وأكرمهم.

[12] لعله يشير إلى ما روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «... وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا دينارا ولا درهما، وَرَّثُوا العلم، فمن أخذه أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» (سنن *أبي داود*، العلم ١؛ وسنن *الترمذي*، العلم ١٩؛ وصحيح *ابن حبان*، ٢٨٩/١). وللحديث طُرق وشواهد؛ انظر: *كشف الخفاء* للعجلوني، ٨٣/٢. أما العبارة المشهورة: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"، فهي من الأخبار الموضوعة، انظر: *المصنوع* لعلي القاري، ١٢٣؛ و*كشف الخفاء* للعجلوني، ٨٣/٢.

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[١٦٣]

وقوله عز وجل: **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر**، قال بعض أهل التأويل: **القرية التي كانت حاضرة البحر**، هي[١] أَيْلَة. وقال آخرون: أَرِيحَا. ولسنا ندري ما تلك القرية، وليس لنا إلى معرفة تلك القرية حاجة، إذ لا منفعة لنا في معرفتها، ولو كانت لنا[٢] حاجة إليها[٣] لبيّن لنا عز وجل. وقوله: **واسألهم عن القرية التي كانت** كذا، أمره بالسؤال عنها، ثم كان[٤] هو المبيّنَ لهم بقوله: **إذ يَعْدُون في السبت**. والسؤال هو الاستخبار، والإخبار أبدا إنما يلزم المسئول دون المستخبر؛ لكن الاستخبار يكون من وجهين. أحدهما ابتداء[٥] إخبار. والثاني طلب التصديق. فهاهنا لم يحتمل ابتداء الخبر، وهو على طلب التصديق. كأنه قال: ألم يكن كذا؟ فيقولون: نعم، يصدقونه بما يقول لهم. وقال قائلون: لم يأمره بالسؤال حقيقة، ولكنه على التمثيل، كأنه قال: لو سألتهم يقولون لك كذا، كقوله: سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ،[٦] ليس على الأمر أن يسألهم،[٧] ولكن لو سألتهم كان كذا وأجابوك بكذا، فعلى ذلك هذا.

وقوله عز وجل: **إذ يَعْدُون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم**، عن ابن عباس رضي الله عنه قال:[٨] ابتدعوا السبت فعظموه،[٩] فابتُلوا فيه، فحُرِمت عليهم فيه الحيتان.[١٠] وقال مجاهد: حُرِمت عليهم الحيتان يوم السبت، فكانت تأتيهم يوم السبت **شُرَّعًا** بلا مؤنة ولا تكلّف،[١١] ابتُلُوا به، ولا تأتيهم في غيره مثله.[١٢] وقال أبو عَوْسَجَة: قوله: **شُرَّعًا**، هي[١٣] التي قد دنت من الشَّطّ، والواحد[١٤] شارع.

---

[١] ن – هي.
[٢] ك + بها.
[٣] ك – إليها.
[٤] ن: ثم قال.
[٥] ن – ابتداء.
[٦] سورة البقرة، ٢/٢١١.
[٧] ن ع م: أن سألهم.
[٨] ك – قال.
[٩] ك ن ع: فعملوه.
[١٠] *تفسير الطبري*، ٩/٩٣؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٣/٥٨٨.
[١١] ن ع م: وتكلف.
[١٢] رواه مجاهد عن ابن عباس؛ انظر: *تفسير الطبري*، ٩/٩٥.
[١٣] ع م – هي.
[١٤] ن: الواحد.

وقوله: **لا يَسبِتون**، أي لا يدخلون في السبت، كما يقال: لا يُربِعون ولا يَخمِسون،[1] أي لا يدخلون فيه. و **يَسبِتون** أي يدخلون فيه، وكذلك يربعون ويخمسون. وقال القُتَبي: **شُرَّعًا**، أي شوارع.[2] **إذ يعدون**، أي يتعدّون الحق، ويقال: عدوت على فلان إذا ظلمته. وقال الكسائي: يُقرأ يُسبِتون بالرفع،[3] ويُقرأ بالفتح، فمن قرأها يَسبِتون بالفتح أراد سَبَتوا أي عَظَّموا، يقال: سَبَت يَسبِت سَبْتا وسُبُوتا، إذا عَظَّم. ومن قرأها برفع الياء أراد أنهم[4] دخلوا في السبت. وقال قائلون: قوله: **شُرَّعًا**، أي كثيرة، أي تكثر لهم الحيتان يوم السبت، وهو اليوم الذي حرّم عليهم الحيتان، وتَقِلّ[5] في غير ذلك. وقال بعضهم: ابتلاهم الله بتحريم السمك في السبت، ليرى الخَلْق المطيع منهم من العاصي. وقال قائلون: ابتلاهم بذلك لما كانوا يَفسُقون في السر، ليكون فسقهم وتَعَدِّيهم ظاهرا عند الخلق، كما كان عند الله، لئلا يقولوا عند التعذيب: إنهم عُذِّبوا بلا ظلم ولا تَعَدٍّ.[6] ***والله أعلم***. وذلك قوله: **كذلك نبلوهم بما كانوا يَفسُقون**. وقال قائلون في قوله: **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر**، إنما أمره أن يسألهم أمَا عذّبهم الله بذنوبهم، ثم أخبر عن ذنوبهم، فقال: **إذ يعدون في السبت**، أي يعتدون[7] في السبت. وقوله: **شُرَّعًا**، أي شارعات مِن غَمْرَة[8] الماء، أي خارجات.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١٦٤]

وقوله عز وجل: **وإذ قالت أُمّة منهم لِمَ تعظون قوما الله مهلكهم أو معذّبهم عذابا شديدا**، ذكر في الأول[9] أنهم كانوا ثلاث فِرَق، فريق عَدَوْا وتركوا أمر الله وارتكبوا ما نُهُوا[10] عنه،

---

[1] لم أجد هذا الاستعمال بمعنى الدخول في يوم الأربعاء أو الخميس. انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «ربع»؛ *والقاموس المحيط* للفيروزآبادي، «ربع».

[2] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٤.

[3] ذكرت هذه القراءة عن الحسن البصري، وهي شاذة. انظر: *تفسير الطبري*، ٩/٩٢.

[4] ع م – يسبتون بالفتح أراد سبتوا أي عظموا يقال سبت يسبت سبتا وسبوتا إذا عظم ومن قرأها برفع الياء أراد أنهم.

[5] جميع النسخ: وقل.

[6] ن: ولا تعدد.

[7] م: أي يتعدون.

[8] ك: من غمر.

[9] أي ذكر في ابتداء الآيات. انظر: شرح *التأويلات*، ورقة ٣١٤و.

[10] ع: عما نهوا.

وفريق نَهَوا أولئك الذين اعتدوا وانتهكوا حُرُم الله، وفريق قيل: لم يعتدوا ولم يرتكبوا نهيه ولا نَـهَوا أولئك الذين اعتدوا، وهم الذين قالوا: **لم تعظون قوما**، الآية. وكذلك روي عن ابن عباس رضى الله عنه قال: هم كانوا[١] ثلاث فرق، فرقة وَعَظَت، وفرقة مَوعُوظة،[٢] وفرقة ثالثة، وهم الذين قالوا: **لم تعظون قوما الله مهلكهم.**[٣] وهو ما ذكرنا أنه ذكرهم في الابتداء ثلاث فرق. وذكر في آخر[٤] الحال فرقتين. فرقة هي التي هلكت بالاعتداء، وفرقة هي التي نَـهَت ونجَت. ثم اختلف أهل التأويل في الفرقة الثالثة. قال بعضهم: كانوا في الفرقة التي هلكت لوجهين. أحدهما لما لم ينهوا أولئك الذين اعتدوا، وكان فُرِض عليهم[٥] النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، فإذا لم ينهوا أولئك هلكوا وشَرِكوا في العذاب، كقوله: لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ،[٦] الآية. والثاني كانوا معهم لما نهوا الناهين بقوله: **وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم**. وقال قائلون: كانوا في الناجين. قال الحسن: لأنهم كانوا نهوا أولئك عن الاعتداء والظلم الذي كان[٧] منهم، وكان قولهم: **لم تعظون قوما**، بعد ما نهوهم ووعظوهم[٨] فلم يتعظوا، فإنما قالوا لأولئك: **لم تعظون قوما**، بعد ما نهوا ووعظوا، فقالوا: كيف تعظون قوما لا يتعظون ولا ينتهون، فإنما قالوا ذلك بعدما نهوا. وقال قائلون: هذا القول منهم نهي، لأنهم / أتوا بوعيد شديد بقولهم: **لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا**، [٢٧٠ظ] فنفس هذا القول منهم نهي وزجر عما ارتكبوا، حيث[٩] أتوا بالنهاية من الوعيد، وهو الهلاك والعذاب الشديد. ولكنا لسنا نعلم أنهم كانوا في الهَلْكَى أو في الناجين، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة، ولو كان لنا حاجة إلى ذلك لبين[١٠] لنا عز وجل و لم يترك[١١] ذلك إلى رأينا،[١٢]

---

[١] ن – كانوا.
[٢] ن ع م: موعظة.
[٣] روي بمعنى ذلك؛ انظر: *تفسير الطبري*، ٩/٩٢-٩٥؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٥٩٠.
[٤] جميع النسخ: الآخر.
[٥] ك – عليهم.
[٦] سورة المائدة، ٥/٦٣.
[٧] ن م: كانوا.
[٨] م: بعد ما نهوا هم وعظوهم.
[٩] ن: وحيث.
[١٠] ع م: ليبين.
[١١] ع م: ولم ينزل.
[١٢] ك ع م: لا رأينا؛ ن: إلا رأينا.

سوى أنه بيّن من نجّى[1] منهم بالنهي عن الظلم والعدوان، وبيّن من أهلك وعذّب بالظلم والعدوان، بقوله: أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.[2]

وقوله عز وجل: **قالوا مَعْذِرة إلى ربكم**، قرئ[3] بالرفع والنصب أيضا: **معذرةٌ**،[4] فمن قرأ بالرفع أضمر[5] فيه "هذه"، كأنهم قالوا: هذه[6] **معذرة إلى ربكم**، كقوله: سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا،[7] قيل: هذه سورة أنزلناها. ومن قرأ بالنصب قال: **معذرةً**، أي اعتذارا[8] منهم إلى ربهم، **لعلهم يتقون** عما نهوا.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[١٦٥]

وقوله عز وجل: **فلما نَسوا ما ذُكِّروا به**، أي تركوا وأعرضوا عن **ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئِيس**، قال القُتَبي: شديد.[9] وكذلك قال أبو عَوْسَجَة. وقال غيره: أي مُوجِع. وهو واحد. وقال الحسن: **وأخذنا الذين ظلموا بعذاب**، على الوقف، ثم قال: بِئْسَ **بما كانوا يفسقون**.[10]

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[١٦٦]

وقوله عز وجل: **فلما عتوا عما نهُوا عنه**، قال أبو عَوْسَجَة: قوله: **عتوا**، أي استكبروا،

---

[1] م: من ينجي.

[2] الآية التالية.

[3] ع: قرأ.

[4] هما قراءتان متواترتان؛ فروى حفص عن عاصم: معذرةً بالنصب؛ وقرأ الباقون جميعهم بالرفع: معذرةٌ؛ انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢/ ٢٧٢.

[5] ك: أضمير.

[6] ك + هذه.

[7] سورة النور، ٢٤/١.

[8] م: أي اعتذار.

[9] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٤.

[10] رويت هذه القراءة عن الحسن. انظر: *تفسير القرطبي*، ٧/٣٠٩. وأما القراءات المتواترة فهي أربعة: بِيسٍ، وهي قراءة نافع وأبي جعفر؛ بِئْسٍ، وهي قراءة ابن عامر؛ بَيْئَسٍ، وهي رواية أبي بكر عن عاصم؛ بَئِيسٍ، وهي قراءة الباقين من الأئمة. انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢/ ٢٧٢-٢٧٣.

يقال: عَتَا يَعْتُو[1] عُتُوًا، وكأن العتو هو النهاية في اليُبْس،[2] فلذلك قيل[3] في قوله: عِتِيًّا،[4] يابسا، لكن سمي مرة قساوة ومرة استكبارا.[5]

وقوله عز وجل: **قلنا لهم كونوا قردة خاسئين**، قال بعضهم: حُوِّلت صورتهم وجسدهم صورة القردة،[6] وكانت عقولهم على حالها عقول البشر لم تحوّل، ليعلموا تعذيب الله إياهم[7] وما أصابهم بهتكهم حُرُم الله. وقال قائلون: حَوَّل طباعهم طباع القردة،[8] وأما الصورة والجسد على حاله. وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة. وقوله: **خاسئين**، قال بعضهم: هو من خسأ الكلب، صار قاصيا مُبْعَدا، يقال: خسأته. وقال أبو عوسجة: **خاسئين**، مبعدين. وكذلك قال في قوله: اخْسَئُوا فِيهَا،[9] أي ابعُدُوا فيها وارجعوا فيها، يقال: أخسأت فلانا وخسأته،[10] أي باعدته، فخسأ، أي تباعد. وقيل: الخاسئ الذليل.[11]

وفي قوله: وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ...،[12] إلى آخر ما ذكر من القصة وجهان. أحدهما دليل إثبات الرسالة والنبوة له،[13] حيث أخبر على ما كان من غير نظر له في كتبهم ولا اختلاف[14] إلى أحد ممن له علم في ذلك، دل أنه إنما عرف بالله تعالى. والثاني إنباء عن عواقب الظَّلَمة والفَسَقة وما حلّ بهم بظلمهم وانتهاكهم حُرُم الله، ليكون ذلك به زجرا لنا عن ارتكاب مثله.

---

[1] ع: يعتوا.

[2] ن ع م: في البئس.

[3] ع: وقيل.

[4] ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكِبَر عِتِيا﴾ (سورة مريم، ٨/١٩)؛ ﴿ثم لَنَنزِعَنّ من كل شِيعةٍ أيُّهم أشدّ على الرحمن عِتِيا﴾ (سورة مريم، ٦٩/١٩).

[5] عَتَا يَعْتُو عُتُوًا وعِتِيا: استكبر وجاوز الحد... وعتا الشيخ عُتِيا وعَتِيا بفتح العين: أسَنّ وكبر... وقيل: كل شيء قد انتهى فقد عَتَا يَعْتُو عِتِيا وعُتُوًا، وعَسَا يَعْسُو عُسُوًا وعُسِيا (*لسان العرب* لابن منظور، «عتو، عسو»؛ و*القاموس المحيط* للفيروزآبادي، «عتو، عسو»). وفُسِّرت كلمة العُتُوّ في التفاسير مرة بمعنى القساوة ومرة بمعنى الاستكبار حسب السياق الذي يرد فيه. انظر: *تفسير القرطبي*، ٨٤/١١. وهناك تشابه في المعنى بين عتا وعسا، وعسا بمعنى يبس. انظر: المصادر السابقة. وروي عن ابن مسعود ومجاهد أنهما قرآ: عُسِيّا، بضم العين وبالسين مكسورة، وهو من عَسَا العُود يَعْسُو إذا يَبِس؛ انظر: *روح المعاني* للآلوسي، ٦٧/١٦.

[6] ك: القرد.

[7] ن: عليهم.

[8] ك ن ع: القرد.

[9] ﴿قال اخسَئوا فيها ولا تُكلِّمونِ﴾ (سورة المؤمنون، ١٠٨/٢٣). أي قال الله تعالى لأصحاب النار...

[10] ن ع م: خسأت فلانا وأخسأته.

[11] انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «خسأ».

[12] سورة الأعراف، ١٦٤/٧-١٦٦.

[13] ن – له.

[14] ع: ولا اختلافهم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٦٧]

وقوله عز وجل: **وإذ تأذن ربك**، قيل:[١] **تأذن**، أي قال **ربك ليبعثن**. وقيل: أمر **ربك**.[٢] وقال أبو عَوْسَجَة: **وإذ تأذن**، هو من الأذان، أي أعلم **ربك**. وقوله: **وإذ تأذن ربك**، الآية، قال[٣] [بعضهم]:[٤] نزلت هذه الآية بمكة في شأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الكفار كانوا يمنعون من أراد[٥] الإسلام واتباع محمد عليه الصلوة والسلام، فوعدهم الله **ليبعثن عليهم** من يقاتلهم ويأخذ منهم الجزية **إلى يوم القيامة**، جزاءً ما كانوا[٦] يمنعون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم والإجابة له فيما يدعو[٧] إليه. وقال قائلون: هو في بني إسرائيل، وهو ما قال: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ -إلى قوله- عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا،[٨] أخبر إن عادوا عُدْنَا، و لم يبيّن إن عادوا عُدْنَا بماذا، ثم بيّن في هذه الآية بقوله: **لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**. وقال قائلون: هذا إنما كان في هؤلاء الذين سبق ذكرهم في قوله:[٩] أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ.[١٠] قال أبو بكر الأصم: الآية لا تحتمل[١١] في هؤلاء، لأن من آمن منهم لم يحتمل[١٢] ذلك،[١٣] ومن صار منهم قرودا[١٤] لم يحتمل[١٥] أيضا بعدما صاروا قرودا. فهو[١٦] -والله أعلم- على الوجهين اللذين ذكرناهما.

[١] ع م – قيل.
[٢] ع م – ليبعثن وقيل أمر ربك.
[٣] ن ع م: قالت.
[٤] من شرح *التأويلات*، ورقة ٢١٤و.
[٥] ع: من دار.
[٦] ع: بما كانوا.
[٧] ع: فيما يدعون.
[٨] سورة الإسراء، ١٧/٤-٨.
[٩] ع م: في قولهم.
[١٠] سورة الأعراف، ٧/١٦٥.
[١١] ع م: لا يحتمل.
[١٢] ك: لا يحتمل.
[١٣] ن – ذلك.
[١٤] ك: قردا.
[١٥] ن – لم يحتمل.
[١٦] ن – فهو.

وقوله عز وجل: **إن ربك لَسريع العقاب**، يأخذهم في حال أمنهم، ليس كما يأخذ ملوك الأرض قومهم بعدما يتقدم[١] منهم إليهم[٢] تخويف، فعند ذلك يأخذهم بالعذاب.[٣] أو أن يقال: **لَسريع العقاب**، أي عن سريعٍ يأخذهم عقابُه. وقوله: **لسريع العقاب**، لمن كفر وكذّب، **لغفور رحيم**، لمن آمن وصدّق بالله ورسوله.

﴿**وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنهُمْ دُونَ ذٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[١٦٨]

وقوله عز وجل: **وقطعناهم في الأرض أمما**، يحتمل فرّقناهم في وقت بعدما كانوا مجموعين. ثم يحتمل الجمع وجوها.[٤] كانوا مجموعين ثم تفرّقوا فصار بعضهم كفارا وبعضهم مؤمنين. أو كانوا مجموعين في المكان والمعاش والماء والكلأ ثم تفرقوا فصاروا متفرقين في المكان والمعاش وغيره. أو كانوا في الدين واحدا [ثم] صاروا أصحاب أهواء. ويحتمل قوله عز وجل: **وقطعناهم في الأرض أمما**، أي أمة بعد أمة، وجماعة بعد جماعة، بعضهم[٥] خلفاء لبعض على ما ذكر: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ.[٦]

وقوله عز وجل: **منهم الصالحون ومنهم دون ذلك**، فإن كان قوله: **وقطعناهم في الأرض**، في الدين والمذهب، فيكون تأويله: **منهم الصالحون** المؤمنون، **ومنهم دون ذلك** الكفار، ويكون قوله: **دون ذلك**، أي غير ذلك، كقوله: تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ،[٧] أي غير الله. وإن كان في المعاش فبعضهم دون بعض / في المعاش. وسّع على بعض المعاش وشدّد على بعض وضيق، [٢٧١و]
فيكون بعضهم دون بعض في المعاش[٨] والرزق. أو بعضهم دون بعض في الدين، بعضهم على الصلاح، وبعضهم أصحاب أهواء. ***والله أعلم***.[٩]

---

[١] م: يقدم.
[٢] ك: إليهم منهم.
[٣] ك: العذاب.
[٤] جميع النسخ: وجهين؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣١٤ظ.
[٥] ن – بعضهم.
[٦] الآية التالية.
[٧] انظر مثلا: سورة الأنبياء، ٩٨/٢١.
[٨] ع – وسع على بعض المعاش وشدد على بعض وضيق فيكون بعضهم دون بعض في المعاش.
[٩] ن – والله أعلم.

وقوله عز وجل: **وبلوناهم بالحسنات والسيئات**، ابتَلَى بعضهم بالخصب والسعة، وبعضَهم بالشدة والضيق، ليذكّرهم الموعود من الثواب والموعود من العقاب، [أو] ليرغّبهم الموعود من الثواب[1] في الحسنات،[2] ويزجرهم الموعود من العقاب عن السيئات. **لعلهم يرجعون**، يتوبون ويرجعون عن ذلك.

وقوله عز وجل: **وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون**، فهو يخرج على وجوه. أحدها **بلوناهم** بالنعم والخصب والسعة، ليعرفوا فضل الله وإحسانه، فيرجعوا إليه بالشكر والثناء، **والسيئات**، أي بالبلايا في أنفسهم والمصائب والضيق، ليعرفوا قدرة الله وسلطانه، فيرجعوا[3] إليه بالشكر[4] والتضرع[5] والفزع والدعاء والتوبة.

والثاني معناه أي **بلوناهم بالحسنات والسيئات**، ليتقرّر عندهم أن غيرهم[6] أملك بهم من أنفسهم، فيرجعوا إليه بتسليم[7] النفس لأمره وحكمه.

والثالث **بلوناهم بالحسنات والسيئات**، المؤمنَ منهم والكافرَ، حتى إذا رأوا الاستواء في الدنيا -وفي الحكمة التفريق بينهم- فيضطر الجميع إلى الإيمان بالبعث، إذ خروجهم من الدنيا على سواء.

والرابع أنه إنما جعل النعيم في الدنيا ليعرفوا لذة الموعود في الآخرة، وكذلك الشدة، فابتلاهم بالأمرين جميعا ليستعدوا للرجوع[8] إلى الموعود لهم في الآخرة. ***والله أعلم***.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١٦٩] ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[١٧٠]

[٢٧١و س٣٦ وقوله عز وجل: **فخلف من بعدهم خَلْف**؛* وقال القُتَبي: الخَلْف الرديء من الناس
٢٧١و س٣٧] ومن الكلام، يقال: هذا **خَلْف** من القول.[9]* قال قائلون: هو صلة قوله: مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ

[1] ك: في الثواب؛ ع م - والموعود من العقاب ليرغبهم الموعود في الثواب.
[2] ك: من الحسنات.
[3] ع م: فيرجعون.
[4] ك ع م - بالشكر.
[5] ك ع م: بالتضرع.
[6] ن: أن غيره.
[7] ع م - بتسليم.
[8] م: الرجوع.
[9] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٤.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٧١و/سطر ٣٦-٣٧.

وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ،[١] والصالحون[٢] هم الذين آمنوا بالله، وحفظوا[٣] حدوده وحلاله وحرامه. **فخلف من بعدهم**، يعني الصالحين،[٤] **خَلْف**، من لم يحفظوا[٥] حدوده ومحارمه. وقال قائلون: هو صلة ما تقدم من ذكر الأنبياء والرسل، كأنه أخبر أنه **خَلَفَ من بعدهم خَلْف**، يعني خلَف الرسل والأنبياء، **وَرِثوا الكتاب**. وهو كما ذكر في سورة مريم، وهو قوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ،[٦] وإنما ذكر هذا من بعد ذكر الأنبياء والرسل.[٧] ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **ورثوا الكتاب**، وعلموا ما فيه، **يأخذون عَرَض هذا الأدنى**؛ إن أهل الكتاب كانوا يأخذون الدنيا على أحد وجوه ثلاثة. منهم من كان يأخذها مستحلّا لها، كقوله تعالى: أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، وكقوله: إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ.[٨] ومنهم من كان يأخذها بالتبديل، أعني تبديل[٩] الكتاب، كقوله: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ،[١٠] الآية، وقوله: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.[١١] ومنهم من كان تناول على ما تناول أهل الإسلام على قدر الحاجة. وهاهنا لا يحتمل الأخذ إلا أخذ[١٢] الاستحلال أو التبديل. والأخذ بالاستحلال هاهنا أقرب. كانوا **يأخذون عَرَض هذا الأدنى**، مستحلين له.[١٣]* قال بعضهم: قوله: **يأخذون عرض هذا الأدنى**، قال: يأخذونه[١٤] إن كان [٢٧١و س٣٣
حلالا أو حراما، **وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه**. وقال: قوله:[١٥] **فخلف من بعدهم خلف**، سوء،

---

[١] الآية السابقة.
[٢] ع: الصالحون.
[٣] ع: وحفظو.
[٤] ع: الصالحون.
[٥] ك: ولم يحفظوا.
[٦] سورة مريم، ٥٩/١٩.
[٧] يقول الله تعالى قبل الآية المذكورة: ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم...﴾ (سورة مريم، ٥٨/١٩).
[٨] سورة التوبة، ٣٤/٩.
[٩] ع م: بتبديل.
[١٠] سورة آل عمران، ٧٨/٣.
[١١] سورة البقرة، ٧٩/٢.
[١٢] ن – إلا أخذ، صح هـ.
[١٣] ن – له.
[١٤] ن: يأخذونها.
[١٥] ع: قومه.

ورثوا الكتاب، بعد أنبيائهم، وَرَّثهم الله الكتاب وعهد إليهم، [كما قال] في سورة مريم: فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، **يأخذون عرض هذا الأدنى**.

[٢٧١و س٣٦] وهو ما ذكرنا.*

ويقولون سيغفر لنا، يحتمل هذا وجوها. يحتمل ما قالوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ،[١] فيغفر لنا. كانوا يستحلون[٢] أموال الناس ويأخذونها، ثم **يقولون سيغفر لنا**، لأنّا من أبناء الله وأحبائه. والثاني يحتمل أنهم قالوا **سيغفر لنا** مع علمهم أنه لا يغفر لهم، لما كان في كتابهم أن لا يغفر لهم إذا تناولوا[٣] مستحلين. أو أنهم إذا عوتبوا على ما فعلوا قالوا **سيغفر لنا**.

وقوله عز وجل: **ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحقَّ ودرسوا ما فيه**، يحتمل قوله: **ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب**، أنهم إذا استحلوا ذلك أضافوا ذلك إلى الله،[٤] فقالوا: الله[٥] أمرنا بذلك، فقال الله:[٦] **ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق**، أي لا يضيفون إلى الله ما استحلوا. أو أن يقال: أخذ عليهم أن لا يقولوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ. وقال بعضهم: قوله: **ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق**، فيما يوجبون على الله من مغفرة ذنوبهم التي لا يزالون يعودون لها ولا يتوبون عنها.*

وقوله عز وجل: **ودرسوا ما فيه**، أي قرءوا ما فيه وعلموه. **والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا** يعقلون،[٧] أي **يتقون** الشرك، أو **يتقون** مخالفة الله ومعاصيه، أفلا يعقلون ما في كتابهم

[٢٧١ظ] أن ترك مخالفة الله **خير** في الآخرة. ثم أخبر عن المؤمنين فقال: **والذين / يُمَسِّكون بالكتاب**، ما فيه من الحلال والحرام، **وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين**.

---

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٧١و/سطر ٣٣-٣٦.

[١] سورة المائدة، ١٨/٥.

[٢] ع: ويستحلون.

[٣] م: إذا تناولو.

[٤] ن – إلى الله.

[٥] م – فقالوا الله.

[٦] ع م – الله.

* وقع هنا مقطعان من تفسير الآية متأخرين عن موضعهما، فقدمناهما إلى موضعهما؛ انظر: ورقة ٢٧١و/سطر ٣٣-٣٧.

[٧] ع م: تعقلون. أفلا يَعقلون و أفلا تَعقلون، قراءتان متواترتان؛ فقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بالخطاب مثل رواية حفص عن عاصم؛ وقرأ الباقون بالغيب؛ انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢/ ٢٥٧.

*وقيل: **فخلف من بعد** بني إسرائيل **خَلف** السوء، وهم اليهود، **ورثوا الكتاب**، قيل: [٢٧١ظ س١١
التوراة عن آبائهم وأوائلهم، **يأخذون عرض هذا الأدنى**، قالوا:[١] رشوة، **ويقولون سيغفر لنا**، وكانوا يرتشون ويقولون: يغفر لنا، لأنهم زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، **وإن يأتهم عرض مثله**، قيل: رشوة مثله، أخذوها. وقوله عز وجل: **ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب**، قالوا: لقد أخذ عليهم في التوراة أن لا يستحلوا محرما و **لا يقولوا على الله إلا الحق**، في التوراة،[٢] **ودرسوا ما فيه**. وقوله: **والدار الآخرة خير للذين يتقون** استحلال المحارم وأكلهم الحرام. وقوله عز وجل: **يمسكون بالكتاب**، قيل: بالتوراة،[٣] ولا يحرفونه عن مواضعه ولا يستحلون محرما، **وأقاموا الصلوة إنا لا نضيع أجر المصلحين**.* ٢٧١ظ س١٧]

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١٧١]

وقوله عز وجل: **وإذ نَتَقْنا الجبل فوقهم كأنه ظُلّة**، قيل: رفعنا **الجبل**، كقوله: **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ**.[٤] وقيل: نَتَق قَلَع.[٥] وقال بعضهم: حَرْف أُخِذ من كتبهم. فلا ندري كيف كان.[٦] وقيل: حرّكنا. وهو قول القُتَبي.[٧] وقال أبو عُبَيد:[٨] كل شيء قلعته من موضعه فرميت به.

ذكر هذا –والله أعلم– ليصبر[٩] رسول الله على سفه قومه، لأن قوم موسى مع كثرة ما عاينوا

---

[١] ع م: قال.

[٢] ن – في التوراة.

[٣] ك: التوراة.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٧١ظ/سطر ١١-١٧.

[٤] سورة النساء، ١٥٤/٤.

[٥] ك ع: قطع وقطع؛ ن: قطع قطع؛ م: قطع. والتصحيح مستفاد من *لسان العرب* لابن منظور، «نتق»، ومن المعاجم ومصادر التفسير.

[٦] ك ن ع – كان.

[٧] يقول ابن قتيبة: «﴿وإذ نتقنا الجبل﴾ أي زعزعناه. ويقال نَتَقْتَ السِقاء إذا نفَضْته لتقتلع الزبدة منه. وكان نتْقُ الجبل أنه قُطع منه شيء على قدر عسكر موسى فأظل عليهم. وقال لهم موسى إما ان تقبلو التوراة وإما أن يسقط عليكم» (*تفسير غريب القرآن*، ١٧٤).

[٨] هو أبو عُبيد القاسم بن سَلّام البغدادي، الإمام المشهور، ذو التصانيف، له كتب في معاني القرآن وغريب الحديث والفقه وغير ذلك. وكان ثقة علامة. مات سنة ٢٢٤هـ/٨٣٩م. انظر: *سير أعلام النبلاء* للذهبي، ٤٩٠/١٠-٥٠٩؛ و*تقريب التهذيب* لابن حجر، ٤٥٠.

[٩] ك: يصبر.

من الآيات التي جرت على يدي موسى، وعظيم[1] ما كان لهم من موسى من النعم، من استنقاذه[2] إياهم من استرقاق فرعون وإخراجه [إياهم] من يده، وفَرْق البحر لهم[3] ومجاوزته بهم، وتفجير الأنهار من الحجر، وإنزال المن والسلوى لهم، فـ[مع] جميع ما كان لهم من موسى [على] ما ذكرنا لم يقبلوا التوراة و لم يُقرّوا[4] به إلا بعد رفع الجبل عليهم والإرسال،[5] فعند ذلك قبلوا. يُصبّر رسولَنا لئلا يضجر على مخالفة قومه إياه وكثرة سفههم.

ثم يحتمل أن يكون ما ذكر من رفع الجبل فوقهم وجهين.[6] أحدهما أنهم لما عاينوا ذلك آمنوا به[7] وقبلوا الكتاب. لكن ذلك منهم إيمان دفع، إذ ذلك قهر، ولا يكون في حال القهر إيمان. والثاني صيّر ذلك آية عظيمة وحجة واضحة معجزة، فقبلوها، وحققوا الإيمان به، ثم تركوا ذلك. يدل على ذلك[8] ما ذكر في السورة[9] الأولى حيث قال: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ.[10]*

وقوله: **وظنوا أنه واقع بهم**، أي أيقنوا أنهم إن لم يقبلوا **[أنه] واقع بهم**.

وقوله عز وجل: **خذوا ما آتيناكم بقوة**، قد[11] ذكرنا هذا فيما تقدم.[12] قوله: **خذوا ما آتيناكم بقوة**، يحتمل وجهين. أحدهما **خذوا**، أي اقبلوا ما فيه. والثاني اعملوا بما فيه. وفيه دلالة كون القوة[13] مع الفعل.[14]

وقوله: **واذكروا ما فيه**، قيل: اعملوا بما فيه من الحلال والحرام، **لعلكم تتقون**، العقوبة والمعصية.

---

[1] ن: وعظم.
[2] ن: واستنقاذه.
[3] ك – لهم.
[4] ع: ولم يقرءوا.
[5] أي والتهديد بإرسال الجبل عليهم.
[6] ك – وجهين.
[7] ع م – به.
[8] ك: يدل ذلك؛ ن ع: بدل ذلك.
[9] جميع النسخ: في سورة.
[10] سورة البقرة، ٢/٦٤.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٧١ظ/سطر ١١-١٧.
[11] ن – قد.
[12] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٢/٦٣؛ وسورة الأعراف، ٧/١٤٥.
[13] م: الفعل.
[14] وهي مسألة خلافية مع المعتزلة؛ انظر لإيضاح المسألة تفسير سورة الأعراف، ٧/١٤٥.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ﴾[١٧٢] ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[١٧٣]

تكلم الناس في تأويل قوله: **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم**، الآية. فمنهم من[١] يقول: ذلك عندما خلق آدم أخرج مَن يكون مِن ذريته مثل الذَّر، فعرض عليهم قوله: **ألست بربكم، قالوا بلى.**[٢] لكنهم اختلفوا. فمنهم من يقول: جُعِلوا[٣] بالمبلغ[٤] الذي يجري على مثله القلم،[٥] وهو قول الحسن.[٦] ومنهم من يقول: عرض ذلك على الأرواح[٧] دون ذلك. ومنهم من يقول -بلا عَرْض- أنه خلق صنفين، فقال: «هؤلاء للجنة[٨] ولا أُبالي،[٩]

---

[١] ك: الآية فمن.

[٢] روي ذلك مرفوعا وموقوفا من طرق كثيرة وبألفاظ مختلفة. فعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنَعْمَان -يعني عَرَفَة- فأخرج مِن صُلْبِه كل ذريةٍ ذَرَأها، فنَثَرهم بين يديه كالذَّر، ثم كلّمهم قِبَلا، قال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ (*مسند أحمد بن حنبل*، ٢٧٢/١؛ و*تفسير الطبري*، ١١١/٩) وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح» (*مجمع الزوائد*، ٢٥/٧). وانظر لمجموع الروايات: *تفسير الطبري*، ١١١/٩-١١٨؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٥٩٨/٣-٦٠٨. ولكن قال ابن كثير بعد استعراض الأحاديث والروايات: «فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صُلْبه، وميّز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث... ابن عباس وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم. ومِن ثَمّ قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد... أي أَوْجَدَهم شاهدين بذلك قائلين له حَالاً» (*تفسير ابن كثير*، ٢٦٥/٢). ووفق بعضهم بين القولين بأن الله أرسل الرسل ونصب الأدلة العقلية والنقلية لتذكير الناس بذلك العهد المأخوذ منهم؛ انظر: *روح المعاني* للآلوسي، ١٠٤/٩. وهناك نقاش طويل حول تفسير الآية؛ فانظر للتفصيل: *روح المعاني* للآلوسي، ٩٩/٩-١٠٩.

[٣] ع م: جعل.

[٤] ع: بالبلغ.

[٥] أي جعل ذرية آدم كلهم كأنهم وصلوا إلى سن البلوغ الذي يجري على من كان مثله الخطاب الإلهي.

[٦] لم أجده هكذا، لكن أخرج ابن أبي الدنيا في *الشُّكْر* وأبو الشيخ والبيهقي في *الشُّعَب* عن الحسن قال: لما خلق الله آدم عليه السلام، وأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فدَبُّوا على وجه الأرض، منهم الأعمى والأصم والأبرص والمُقْعَد والمبتلَى بأنواع البلاء، فقال آدم: يا رب، ألا سوّيت بين ولدي؟ قال: يا آدم، إني أردت أن أُشْكَر، ثم ردّهم في صُلبه (*الدر المنثور* للسيوطي، ٦٠٣/٣).

[٧] م + دون الأجساد.

[٨] م: في الجنة.

[٩] ع م - ولا أبالي.

وهؤلاء للنار ولا أُبالي». [1] ومنهم من يقول: عرض الكل على ما عليه أحوالهم وآجالهم في الدنيا. والله [2] أعلم كيف كانت القصة، أو كيف يرى أحوال الفقر والغناء في الذَّرّ، [3] أو كيف قال: [4] هؤلاء في كذا ولا أُبالي. مع اجتماعهم على القول بِبَلى لما عرض عليهم في قوله: **ألست بربكم**. وقد رأينا في تلك الأخبار ما كان الحفظ -ولخاصّةٍ [5] حِفظُ العوام وأهل الضعف- عن تبليغها ألزمَ وأعظم في النفع، وأبعد عن الشُّبَه من روايتها وتَكلُّف الكشف عنها. فنسأل الله العصمة عما به الهلاك، والتوفيقَ للنصح بما به نجاة [6] كل سامع، ودفع كل شبهة وحيرة. فإنه لا قوة إلا بالله. [7]

ومنهم من ذهب في تأويل الآية إلى المعروف مِن أَمْر [8] ذرية آدم والأخذ عن الأصلاب والإنشاء في الأرحام على ما كان ويكون [9] إلى يوم القيامة، على ما قال الله سبحانه وتعالى: فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ -إلى قوله- يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، [10] وقال: إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ، [11] الآية،

[1] عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله عز وجل خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: "هؤلاء في الجنة، ولا أُبالي، وهؤلاء في النار، ولا أبالي"» (*مسند أحمد بن حنبل*، ١٨٦/٤؛ وصحيح *ابن حبان*، ٥٠/٢). وعن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فأخرج منه ذرية، فقال: "خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون"، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: "خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون"»، فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ -قال- فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله الله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله الله النار» (*سنن أبي داود*، السنة ١٦؛ و*سنن الترمذي*، التفسير ٧)؛ وذكر الترمذي أن في هذا الإسناد رجلا مجهولا. وانظر ما نقلناه عن ابن كثير آنفا.

[2] ك: فالله.

[3] ك: في الذار.

[4] ع – قال.

[5] ك: والخاصة؛ م: ما كان الكف عما له المراد ومخاصة.

[6] ن: فيه نجاة؛ ع: به نجا.

[7] ك ن: إلا به.

[8] م – أمر.

[9] ن – ويكون.

[10] ﴿فلينظر الإنسان مِمّ خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب﴾ سورة الطارق، ٨٦/٥-٧.

[11] ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة لنبيّن لكم ونُقِرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفّى ومنكم من يُرَدّ إلى أَرْذَل العُمُر لكيلا يعلم مِن بعدِ علمٍ شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربَت وأنبتت من كل زوجٍ بَهيج﴾ (سورة الحج، ٥/٢٢).

وقال: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ،[١] الآية، وقال: مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا،[٢] الآية،[٣] وغير ذلك مما احتج الله به من أول ما جرى به تدبير البشر إلى آخر ما ينتهي به أمره، مما يعجز عن تقديره وُسْع الخَلْق ويستتر عن عقولهم كيفية بَدْء ذلك وما عليه تَنَقُّلُه من حال إلى حال في كل طَرْف عين ولَحْظ بصر.[٤] مع ما فيه من عجيب التدبير وحسن التقويم الذي لو تكلّف[٥] الخلق تصوير[٦] مثله بكل أنواع الحيل[٧] من الأصول الظاهرة بحيث يبصره كل بصر لكان يعجز عنه، فكيف في الظلمات الثلاث.[٨] مع ما ركّب[٩] فيه من العقل والسمع والبصر، وما جعل في كل ما أنشأ فيه ومنه مما لا يبلغه[١٠] الأوهام، فضلا عن الإحاطة[١١] بما في ذلك من الحكمة. ولذلك قال الله: وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ.[١٢] فكان ذلك هو العهد إلى جميع الذرية، وإشهاد أنفسهم عليهم بِتَعالي مَن دبّرهم على ذلك وأنشأهم على ما فيهم عن أن يكون له كفوا[١٣] أو يُقَدِّر / أحد قَدْره.[١٤] فذلك هو معنى إشهادهم **على أنفسهم**، أي جعلهم [٢٧٢و] **على أنفسهم**[١٥] شهودا، أن يعلموا أنّ مدبّرهم هو ربهم، لا رب لهم غيره، وأنه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.[١٦] مع ما في جَعْل ذلك ذريةً يعرف كلٌ بما يرى مِن عَجْزه عن تدبير[١٧] ولده

---

[١] ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/١٢-١٤).

[٢] ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارًا وقد خلقكم أطوارا﴾ (سورة نوح، ٧١/١٣-١٤).

[٣] ن: وقالوا.

[٤] ع: وبصر.

[٥] ك: الذي تكلف.

[٦] ك: تصويرا.

[٧] ن ع: الجبل.

[٨] أي في رحم الأم كما يقول الله تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٦).

[٩] ن: مع ركب.

[١٠] ع م: لا يبلغ.

[١١] ن ع م: من الإحاطة.

[١٢] سورة الذاريات، ٥١/٢١.

[١٣] أي شركاء أو أولاد أو بنات كما يقول المشركون.

[١٤] ع: على قدره.

[١٥] ن - أي جعلهم على أنفسهم.

[١٦] سورة الشورى، ٤٢/١١.

[١٧] م: عجزه تدبير.

وجهلِه بأحواله في حال كونه في رَحِم أبويه[1] بيان على أنه لا كان[2] بآبائه وأمهاته علمٌ، ولكن برب العالمين. وذلك المعنى[3] هو الذي يمنعهم عن القول بالغفلة[4] عن ذلك، إذ قد علمه كل منهم، لا حال كونهم في الوقت الذي لا يذكره[5] أحد.

والذي يبين أن هذا التأويل أحق من الأول ما دل عليه سياق الآية. من ذلك قوله[6] عز وجل: **وإذ أخذ ربك من بني آدم**، وأقاويل من ذكرتُ على الأخذ من ظهر آدم. والثاني قوله: **من ظهورهم**، وفي قولهم: من ظهر آدم.[7] والثالث قوله: **أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**، وفي التأويل: أن لا تقولوا؛ فكيف يحذّرهم عن القول بذلك، وقد علم أنهم كذلك ليس أحد منهم يذكر ذلك، ولا مما يتقرّر عنده لو نُبِّه بكل أنواع التنبيه. والرابع قوله: **أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم**، ما في ذلك العرض مما يمنع عن هذا القول.[8] وأيضا أنه ذُكر في ذلك[9] القول بأن «هؤلاء[10] في النار ولا أُبالي»، وفي القرآن الجمع بينهم في القول بِبَلى،[11] وذلك عُدَّ توحيدا منهم. مع ما في القرآن: وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا،[12] الآية، و قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ،[13] الآية. وفي إثبات[14] ذلك

---

[1] الرحم للأم وليس للأب، لكن قد يكون سمى صُلْب الأب رحما تغليبا، كما يقال: القمران، للشمس والقمر تغليبا. والله أعلم.

[2] ن: إلا كان.

[3] ع م – المعنى.

[4] م: بالفضلة.

[5] ع – لا يذكره.

[6] ن ع م: وقوله.

[7] وعبارة السمرقندي هكذا: «والثاني قوله: ﴿من ظهورهم﴾، وعلى ما قالوا يكون: من ظهر آدم. وهو خلاف الظاهر أيضا» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣١٥ظ).

[8] قال الشارح: «والرابع قوله: ﴿إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾، وفيه وجهان. أحدهما ليس في ذلك العرض ما يمنعهم عن هذا القول، إذ لم يكن عندهم بذلك [علم]. و[الثاني] لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم قالوا: كنا ذرية من بعدهم وقد أشرك آباؤنا من قبل، ولم يَرُدّ عليهم: إنكم كنتم ذرية من قبل أنْ أَشْرَك آباؤكم، فإنكم كنتم ذرية بعد وجود آدم عليه السلام. دل أن التأويل الثاني أحق (*شرح التأويلات*، ورقة ٣١٥ظ؛ ونسخة المدينة، ورقة ٣٥١ظ)».

[9] م: في بعض ذلك.

[10] ك ن ع: القول بهؤلاء.

[11] ن – في القول ببلى.

[12] ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ (سورة البقرة، ٢٨/٢).

[13] ﴿قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروجٍ مِن سبيل﴾ (سورة المؤمن، ١١/٤٠).

[14] ك ن ع: وفي ثبات؛ م: وفي بيان.

إثبات الموت والحياة أكثر من العدد الذي[1] جاء به القرآن في الكل.[2] *ولا قوة إلا بالله*.

ثم قد يتوجه التأويل الثاني في قوله:[3] **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى،** إلى أوجه. فأما ابتداء الآية فهو ذلك عند التحقيق، لأنه ذكر الأخذ **من بني آدم**، ثم[4] **من ظهورهم**، والمأخوذ **من بني آدم ثم من ظهورهم**[5] هو النُّطَف، وهو الماء الدافق الذي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ.[6] **وأشهدهم على أنفسهم**، أعلمهم ما منه أنشأهم وقَلَّبهم من حال إلى حال، إلى أن تمت النَّسَمة[7] وظهرت البشرية. على ما عَلِم[8] كلٌّ في[9] ذريته خروجَ بَدْئِه مِن تدبير والديه، وقيامه على ما عليه مداره وقراره بتدبير[10] من لا يعجزه شيء ولا يخفى عليه أمر؛ ليقولوا أن الذي ذكر هذا هو ربهم الذي ربّاهم على ذلك، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.[11] فكان ذلك إعلاما[12] من الله إياهم على أنفسهم، وشهادةً منها بالخلقة أنه ربهم الذي ربّاهم[13] ومَلَّكهم[14] على ما جرى فيهم من تدبير الله جل ثناؤه، ولئلا يقولوا غدا أنهم [كانوا] **عن هذا غافلين**؛ إذ قد عرف ذا كل ذي عقل، وعرف أنه كان بالله سبحانه وتعالى، لا بوالديه، ليجعلوا شرك الآباء والأمهات لأنفسهم حجة من حيث كانوا منهم. *والله أعلم*.

---

[1] ن - الذي.

[2] قال الشارح: «والخامس أنهم قالوا: إنه جعل الذَّر قسمين، فقال: "هؤلاء في النار ولا أبالي، وهؤلاء في الجنة ولا أبالي"، وفي القرآن الجمع بينهم جميعا في القول ببلى، حيث قال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾، ليس فيه أنه أمر البعض دون البعض، وذلك عُدَّ توحيدا منهم، فكيف قال: "هؤلاء في النار ولا أبالي". والسادس في القرآن: ﴿ربنا أمَتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾، ذكر الموت والحياة مرتين، وعلى ما قال هؤلاء يكون إثبات الحياة والموت أكثر من العدد الذي جاء به القرآن في الكل (شرح *التأويلات*، ورقة ٣١٥ظ)».

[3] م - في قوله.

[4] م - ثم.

[5] ن + والمأخوذ من بني آدم ثم من ظهورهم؛ ع - والمأخوذ من بني آدم ثم من ظهورهم.

[6] ﴿خُلِق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾ (سورة الطارق، ٨٦/٦-٧).

[7] النسمة تأتي بمعنى الرُّوح والإنسان والنَّفَس (*لسان العرب* لابن منظور، «نسم»).

[8] جميع النسخ: ما اعلم.

[9] ع: في كل.

[10] ع م: وبتدبير.

[11] سورة الشورى، ٤٢/١١.

[12] ن ع: إعلام.

[13] ك - على ذلك ليس كمثله شيء فكان ذلك إعلاما من الله إياهم على أنفسهم وشهادة منها بالخلقة أنه ربهم الذي رباهم.

[14] ن + الذي.

والثاني أن يكون الله **أشهدهم على أنفسهم** بما أراهم من أحوال ذريتهم في الانتقال على أحوال، على أن أنفسهم كذلك كانت، [و]دَخل كلُّ مَن بجوهرهم في ذلك[1] التدبير، ليعلموا أن الذي[2] دبّرهم[3] على ذلك دبّر[4] الكل،[5] فيزول عنهم شُبَه[6] الكون بغير الرب الذي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.[7] فيزول عنهم به عذر الغفلة، وعلاقة الشبهة بكفر الوالدين[8] من حيث حق التبعيّة، أو سَفَه[9] التقليد، بما يُعلَم خروج الجميع من التدبير،[10] ورجوع التدبير إلى غير، ليكون موضع الاستدلال بما أراهم هو ودعاهم إليه، لا بما أمرهم به الآباء والأمهات.

ثم القول **بِبَلَى** يكون نُطْقا ويكون خِلْقَة، ويكون جواب الفطرة بحق التأمل. فالنطق[11] أنه لا يُسأل أحد قبل التلقين إلا وهو يقول بالرب والخالق. وعلى ذلك قوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ.[12] والخِلْقَة بما كان من حاجته إلى مُقيم وإلى مُدبِّر، على شركة كل [شيء] في ذلك إقرار له بالربوبية. وذلك معنى نَفْي التفاوت عن خَلْقِه[13] وفطرته، بما يُقلِّبه على أحوالٍ[14] لو تأمّل الخلائق إدراك كل حال منها ووجه التنقّل[15] وقَدْر التغيُّر في كل حالٍ لَمَا تهيأ لهم. لِيُعلَم[16] أن في الفطرة شهادة بالتوحيد. وهذا معنى ما روي عن رسول لله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»،[17]

---

[1] ع: وذلك.
[2] ك ن ع: أن الله.
[3] م: ذكرهم.
[4] ع – على ذلك دبر.
[5] ع: لكل.
[6] ك + الكل.
[7] سورة الشورى، ١١/٤٢.
[8] أي ويزول عنهم عذر التعلّق بشبهة كفر الوالدين...
[9] ن ع: أو سعة.
[10] ك: التدبير من الجميع.
[11] ن: وفالنطق.
[12] سورة لقمان، ٢٥/٣١؛ وسورة الزمر، ٣٨/٣٩.
[13] ع: عن خلقته. لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ما تَرَى في خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُت﴾ (سورة الملك،٣/٦٧).
[14] م: عن أحوال.
[15] ن: التنقبل.
[16] م – ليعلم.
[17] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه» (*صحيح البخاري*، الجنائز ٩٣؛ وصحيح *مسلم*، القدر ٢٢).

أي على حالٍ لو تُركت العقول والفِكَر فيها لشهدت بالتوحيد. وذلك معنى[١] قوله: **بَلَى**، لا أن ثمّة[٢] قولُ لسانٍ، بل نُطْق حالٍ، كما قال الحكيم: كل صامت ناطق؛ لأن صَمْته دليل تدبيرِ آخَر، فهو ناطق باللسان[٣] عن الواحد العزيز. ***ولا قوة إلا بالله***.

وقد يحتمل الإشهاد أنْ جَعَلهم شهداء **على أنفسهم** بالعُبُودَة لله، وأنه ربهم والمالك عليهم، والقول بِ**بَلَى** بما يُلزِم ذلك بالتأمل، فكأنه قال.[٤] ***والله أعلم***.

وفي الآية دلالة إثبات خلق الله فعل الخلق لما بهم الدَّفْق،[٥] وقد أخبر الله أنه أخذ ذلك. ***والله أعلم***.

فإن قيل: على ماذا يخرج تأويل السلف؟

قيل: لعلهم وجدوا فيه خبرا ظنّوا أن الآية تخرج عليه، فأوّلوها على ذلك. فإذا أُرِيد تسويةُ ذلك[٦] بالآية لا بُدّ مِن زيادات تُلحَق بها أو تُخرَج عنها، وإلا لا يُخرَج[٧] من ذلك. مِن[٨] [ذلك] أنْ يقول: **وإذ أخذ ربك من بني آدم**، أن يجعل "مِن" صلة، كأنه قال: وإذ أخذ ربك[٩] بني آدم، وقد يكون[١٠] كقوله: وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِن سَيِّئَاتِكُمْ.[١١] وبنو[١٢] آدم[١٣] يُؤخَذون[١٤] من ظهر آدم، كما يؤخذ ابنُ كلٍّ من ظهره،[١٥] أي أصل ابنِ كلٍّ من ظهره. وذَكَر **ظهورهم** لما كان منسوبا إليهم، وإن كان لو طرح حرف الصلة يزول الشُّبَه. فحفظ / في ذِكْرهم حقّ الوصل وإن كان حقُّه الإسقاط، [٢٧٢ظ]

---

[١] ن ع م – معنى.
[٢] ك م: لا أن ثم.
[٣] جميع النسخ: بالبيان؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٣١٥ظ. فهو ناطق باللسان: أي لسان الحال.
[٤] أي فكأنه قال: بلى، باللسان، وإن كان المقصود هو الإفادة بلسان الحال لا المقال.
[٥] م – لما بهم الدفق. لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مِمَّ خُلِق. خُلِق من ماء دافق. يخرج مِن بَيْنِ الصُّلْب والتَّرَائِب﴾ (سورة الطارق، ٨٦/٥-٧).
[٦] ك: ذاك.
[٧] م: وإلا يخرج.
[٨] ن ع – من.
[٩] ك ع م + من.
[١٠] ن م: وقد تكون.
[١١] سورة البقرة، ٢/٢٧١. وانظر تأويل هذه الآية.
[١٢] ن ع: وبنوا.
[١٣] ك ن ع – آدم.
[١٤] جميع النسخ: يؤخذ.
[١٥] م: من ظهورهم.

كقوله: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ،[1] الآية، وغير ذلك، مما كنيَ عن أهل القرية باسمها، وعلى ذلك أجرى ذِكْر الفعل وإن لم يكن[2] لها في[3] الحقيقة فعل. فعلى ذلك هذا. فيصير في التحصيل كأنه قال: وإذ أخذ ربك[4] بني آدم من ظهره. ثم يكون المأخوذ الذي عرض عليه مجعولا على حدٍّ يَعقِل الخطاب، ومعنى قوله: **ألست بربكم**، فأجاب بالذي ذكر. والخبر الذي فيه القسمة[5] إما أن كان لا في هذا، فوُصِل به؛ أو كان في الآية ذِكْر إجابةِ أحدِ الفريقين؛ أو كان بين الجميع اتفاق في هذا الحرف، واختلاف فيما جاوز هذا، فالقسمة لما عدا [ذلك]. وقد يوجد في هذا القدر أيضا اتفاق.[6]

ثم قوله: **أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**، على إضمار بَعْث الرسل وإنزال الكتب[7] بالإخبار عن ذلك، لئلا يَدَّعُوا الغفلة بما قد كانت[8] منهم عن ذلك،[9] بما أُوقِظوا[10] ونُبِّهوا،[11] أو لا يحتجوا[12] بما اعترضهم من الغفلة، إذ قد قطع عذرهم بغير ذلك من الأدلة والرسل. ***والله أعلم.***

أو لا تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل، أي بَعَث الرسل وأنزل الكتب لقطع هذا النوع من الشُّبَه على الوجهين اللذَيْن ذكرت، كقوله:[13] وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ،[14] الآية،

---

[1] سورة الطلاق، ٦٥/٨.

[2] ع - يكن.

[3] ك + الفعل.

[4] ع + من.

[5] أي قسمة المأخوذين من ظهر آدم عليه السلام إلى قسمين، أهل الجنة وأهل النار.

[6] قال الشارح: «وأما الخبر الذي فيه القسمة: "هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي"، كأنه ورد لا في هذه الحادثة، لكن وصل تأخر حديث القدر، فيظن أنه قد ورد فيه. ولإن كان في حديث الذر فمحتمل أن يكون في الآية ذكر إجابة أحد الفريقين بقوله: ﴿قالوا بلى﴾، أريد به البعض الذي قال فيهم: "هؤلاء في الجنة ولا أبالي"، ويحتمل أن يكون بين الجميع اتفاق في هذا الحرف، وقالوا بأجمعهم: بلى، جوابا لقوله: ألست بربكم، لكن وقع الإختلاف بينهم فيما جاوز أصل الإقرار بالألوهية والربوبية، فالقسمة لما عدا الإقرار بالربوبية، وصاروا فريقين للإختلاف بينهم في أشياء أخر. وقد يوجد في هذا القدر اتفاق بين عامة الكفرة وأهل الإسلام وإن كان بينهم اختلاف فيما وراءه، ويثبت لهم... الكفر لما أنكروا دون ما أقروا (شرح التأويلات، ورقة ٣١٥ظ-٣١٦و)».

[7] ك ع م: الكتاب.

[8] م ع: بما كانت.

[9] م: منهم ذلك.

[10] ك: أوقضعا.

[11] ع: وتنهوا؛ م: أو انبهوا.

[12] ك ن ع: أو بما لا يحتجوا؛ م: أو بما لا يحتجون.

[13] ع م - كقوله.

[14] ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (سورة طه، ١٣٤/٢٠).

وقوله: وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ،[١] الآية، وقوله: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ،[٢] الآية. ويكون في التأويل[٣] الأول ظهور أمر الذرية للأولاد في الخروج عن تدبير الآباء والأمهات بقطع[٤] الحجاج بهذين الحرفين. وفي الثاني تزول الكتب وإرسال الرسل مع ما أمكن جعل هذا في التأويلين[٥] جميعا. *والله أعلم*.

[٢٧٢ظ س ١٥] *وقوله: **أفتهلكنا بما فعل المبطلون**، يخرج على وجوه. أحدها أن يكون ذلك الإهلاك ليس هو التعذيب، لكنه[٦] الإماتة، كقوله تعالى: إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ.[٧] أي لك أن[٨] تميتنا، إذ فعل السفهاء ما فعل، وأن لا تُبقيهم[٩] لما يُرجَى من التوبة أو يُحْدِث مِن التوبة[١٠] منهم مَن لم يَسْفَه. والإضافة إلى الجملة بوجهين. أحدهما[١١] على إرادة من سَفِه منهم. والثاني على الكل، إذ الموت حق مكتوب على جميع البشر، لا على[١٢] التعذيب.

والثاني على التعذيب،[١٣] على معنى لا تفعل أنت لذلك، كما يقول الرجل: أنا أفعل هذا؟ أو أنت تفعل هذا؟ على التَّبَرِّي والتَّبرِئة. وقوله: إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ،[١٤] أي تفعله ابتلاء لا تعذيبا.

والثالث أن يكون على الإيجاب بجمعهم في ذلك -وإن كان الذي استحق بعضهم- بحق[١٥] المحنة،

---

[١] ﴿ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدّمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتّبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ (سورة القصص، ٤٧/٢٨).
[٢] ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ (سورة الإسراء، ١٥/١٧).
[٣] م: في تأويل.
[٤] ك: لقطع.
[٥] ع م: في التأويل.
[٦] ن: ولكنه.
[٧] سورة النساء، ١٧٦/٤.
[٨] ع م - لك أن.
[٩] ك ن ع: لا تنقصهم؛ م: لا يبقيهم.
[١٠] ك ع م - من التوبة.
[١١] م - أحدهما.
[١٢] ع م: إلا على.
[١٣] ع م - والثاني على التعذيب.
[١٤] ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ (سورة الأعراف، ١٥٥/٧).
[١٥] ع م: في حق.

إذ له ذلك ابتداء، وذلك نحو أَمْر أُحُد،[1] بما ابتلاهم وإن لم يكن منهم جميعا المعصية. وعلى ذلك أمر جميع أنواع المصائب،[2] يجمع فيها بين أهل الخير والشر بحق المحنة لا العقوبة، ٢٧٢ظ س٢٣] وإن كان ذلك[3] في بعضهم عقوبة. *والله أعلم*.*

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١٧٤]

وقوله: **وكذلك نُفَصِّل الآيات**، على وجهين. أحدهما على البيان، أن نبيّن ما يكشف العَمَه[4] ويُزيل الشُّبَه.[5] والثاني أن نفرّقها[6] ونضع كل واحدة منها في أحقّ مواضعه وأولى ذلك، لقطع العذر ودفع العلل.

وقوله: **ولعلهم يرجعون**، أن تأمّلوا ما هم[7] عليه من الباطل. *والله أعلم*.*

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[١٧٥]

وقوله عز وجل: **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها**، اختلف أهل التأويل في نبأ[8] هذا. قال بعضهم: كان هذا نبيا، **فانسلخ منها**، يعني من النبوة وكفر بها. لكن هذا بعيد محال: أن يجعل الله الرسالة فيمن يعلم أنه يكفر به، أو يختاره لوحيه وهو يعلم أنه ليس هو بأهل لها، بقوله:[9] اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.[10] وقال بعضهم: كان بَلْعَم بن[11] باعورا، أعطاه الله تعالى آيات، فكفر بها و **انسلخ منها**. وقيل: أُعطِي الاسم المخزون،

[1] لعل المقصود هو ما حصل من انهزام المسلمين يوم أحد بسبب ترك الرماة منازلهم التي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يبرحوها، وهم لم يكونوا جميع المحاربين، وإنما كانوا بعضهم.

[2] ن + بجمع أنواع المصائب.

[3] ع م - ذلك.

* وقع ما بين النجمتين بعد تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٧٢ظ/سطر ١٥-٢٣.

[4] ع م: النعمة.

[5] ع م: الشبهة.

[6] ع م: أن نفرق.

[7] ن م: عما هم؛ ع: أعمالهم.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٧٢ظ/سطر ١٥-٢٣.

[8] ع م - نبأ.

[9] م: بقول.

[10] سورة الأنعام، ١٢٤/٦.

[11] ك ع: ابن.

كان يستجاب له به[1] جميع ما يسأل ربه.[2] وقال بعضهم: كان أميّة بن أبي الصَّلْت،[3] على ما قيل عنه[4] عليه السلام أنه[5] «آمن شِعْرُه وكفر قلبه».[6] وقال بعضهم: نزلت الآية في منافقي أهل الكتاب، قد كان أعطاهم الله الآيات، فكفروا بها وكذّبوها. ولكن لا ندري فيمن نزلت، وهو في جميع مكذِّبي الآيات، ليس يجب أن تَنُصّ واحدا، أو يُشار إلى واحد أنه[7] نزل فيه، ولكن نقول: إنها في جميع[8] مكذِّبي الآيات. وقوله: **فانسلخ منها**، قيل:[9] خرج منها، وقيل:[10] نزع منها، وقيل: تركها. وكله واحد. ثم يحتمل قوله: **فانسلخ منها**، أي كانوا قبلوها مرة، ثم ردّوها من بعد القبول. ويحتمل أن لم يقبلوها في الابتداء[11] فيخرجوا منها،[12] وكذّبوها.

---

[1] ك - به.

[2] أي أعطي الاسم الأعظم المخزون علمه عن الناس؛ وانظر لما روي في ذلك عن ابن مسعود وغيره من الصحابة والتابعين: *تفسير الطبري*، ٩/١١٩-١٢١.

[3] وهو مروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه؛ انظر: *تفسير الطبري*، ٩/١٢١-١٢٢. وهو أمية بن أبي الصَّلْت الثَّقَفي الشاعر المشهور. كان أمية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها، وتَعَبّد بذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرّم الخمر وتجنّب الأوثان. وطمع في النبوة، لأنه قرأ في الكتب أن نبيا يبعث بالحجاز. ورثى أمية بن أبي الصلت قتلى بدر بقصيدته المشهورة، لأنه كان من رءوس من قُتِل بها عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس وهما ابنا خاله. فلم يُسلِم حتى مات بالطائف سنة ٩هـ/٦٣٠م. انظر: *الإصابة* لابن حجر، ١/٢٥٠.

[4] ك - عنه.

[5] ن - أنه.

[6] قال العَجْلوني: «رواه أبو بكر بن الأنباري في كتاب المصاحف والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس. قال المُناوي ما حاصله: وسند الحديث ضعيف. ورواه أيضا عن ابن عباس الفاكِهي وابن منده. وسبب ذِكْره أن الفارِعة بنت أبي الصَّلْت أخت أمية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنشدته مِن شِعْر أمية أخيها، فذَكَره» (*كشف الخفاء*، ١/١٩). عن عمرو بن الشَّرِيد عن أبيه قال: رَدِفْت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم. قال: «هِيه»، فأنشدته بيتا، فقال: «هِيه»، ثم أنشدته بيتا، فقال: «هِيه»، حتى أنشدته مائة بيت؛ وفي رواية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن كاد ليُسلِم في شِعْره» (*صحيح مسلم*، الشعر ١؛ و*سنن ابن ماجة*، الأدب ٤١).

[7] ن م - أنه.

[8] ن - جميع.

[9] م - قيل.

[10] ع م - وقيل.

[11] م: في ابتداء.

[12] أي لم يخرجوا منها حقيقة، لأنهم لم يدخلوا فيها ابتداء، ولكن سمي ذلك انسلاخا وخروجا على سبيل المجاز؛ انظر: *شرح التأويلات*، ورقة ٣١٦و.

[٢٧٣و س١٠ *وقال الحسن في قوله: **فأتبعه الشيطان**، الآية، قال: حال الشيطان بينه وبين أن يصحب الهدى
٢٧٣و س١١] بما مَنّاه وزيّن له.*

وقوله عز وجل: **فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين**، فيه دلالة أن الله لا يُتبع[1] الشيطانَ أحدا ولا يُزيغه إلا بعد أن كان منه الاختيار للضلال والميل إليه، حيث قال: **فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين**، إنما أتبع الشيطان بعد ما كان منه الانسلاخ والنَّزْع. وقوله: **فكان من الغاوين**، قيل: **كان** في علم الله أن يكون في ذلك الوقت **من الغاوين**.[2] وقيل: **كان من الغاوين**، أي صار من الغاوين إذا انسلخ منها وخرج. والغاوي: الضالّ.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١٧٦]

[٢٧٣و س٦ وقوله: **ولو شئنا لرفعناه بها**؛* قال قتادة: قوله: **لو شئنا لرفعناه بها**، يقول: **لو شئنا لرفعناه**، بإيتائه[3] الهدى، فلم يكن للشيطان عليه سبيل، ولكن يبتلي من عباده[4]
٢٧٣و س٧] من يشاء.[5]* يحتمل قوله: **لرفعناه بها**، عصمناه[6] حتى لا ينسلخ منها ولا يُكذّب بها، أي **لو شئنا** لوفّقناه لها[7] حتى يعمل بها. أو أن يقال: **لو شئنا** لعصمناه حتى لا يختار ما اختار، لكنه إذ علم[8] منه أنه يختار ذلك ويميل إليه شاء أن لا يعصمه ولا يوفّقه. فكيف ما كان فهو على المعتزلة، لأنه أخبر أنه[9] لو شاء لرفعه[10] بها، وكان له مشيئةُ الرفع،

---

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٧٣و/سطر ١٠-١١.
[1] ع م: لا يتبعه.
[2] ن + إنما اتبع الشيطان بعد ما كان منه الانسلاخ.
[3] ك ن م: من إيتائه؛ ع: من إتيانه.
[4] ع: من عبادة.
[5] ك: من يشاء من عباده. أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٦١٠.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٧٣و/سطر ٦-٧.
[6] ع: أصمناه.
[7] ن ع م: بها.
[8] ع: إذا علم.
[9] ع م – أنه.
[10] ع: لرفع.

ثم أخبر أنه[1] لم يرفع، ولو رفعه[2] بها كان أصلح له في الدين، دلّ أنه قد يفعل به ما ليس هو بأصلح في الدين. وهم يقولون: إن[3] المشيئة هاهنا مشيئة / القهر والقَسْر، لا مشيئة الاختيار. [٢٧٣و] لكن ما ذكرنا[4] أنّ الإيمان في حال الاضطرار والقهر لا يكون إيمانا، فلا معنى لذلك، ولا يكون ذلك رفعا، فيبطل قولهم.

وقوله عز وجل: **ولكنه أخلد إلى الأرض**، وهو ما ذكرنا، لمّا علم منه أنه يُخْلِد إلى الأرض ويميل إليها[5] لم يعصمه ولم يرفعه. والإخلاد **إلى الأرض**،[6] قال الحسن: سكن إلى الأرض. وكذلك قال الكسائي: إن[7] الإخلاد في كلامهم السكون إلى الشيء والركون إليه. وقال أبو عبيدة: هو اللزوم للشيء.[8] وفي قوله:[9] **ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه**، دلالة أن الإزاغة من الله وترك العصمة له، لما يكون من[10] العبد الميل والركون[11] إلى مخالفته[12] وترك الائتمار له واتباع الهوى.[13]*

وقوله: **أخلد إلى الأرض**، ذكر الأرض يحتمل أن يكون كناية عن الدنيا،[14] كقوله:[15] وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا.[16] ويحتمل أن يكون كناية عن الذلّ والهوان، لأن كل خير وبركة إنما يُطلَب من السماء، وهم إذا اختاروا ذلك اختاروا الذلّ والهوان.*

---

[1] ن – أنه.
[2] ع: ولو رفع.
[3] ن ع م – إن.
[4] ن: ما ذكر.
[5] ن: إليه.
[6] جميع النسخ: في الأرض.
[7] ع م – إن.
[8] *مجاز القرآن* لأبي عبيدة، ٢٣٣/١.
[9] ع م: في قوله.
[10] ن + العصمة.
[11] ع: الركون.
[12] م: إلى مخافة.
[13] أي إذا كان من العبد الميل إلى مخالفة الله وترك الائتمار له واتباع الهوى فعند ذلك يكون من الله الإزاغة وترك العصمة.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٧٣و/سطر ٦-٧.
[14] ع م: من الدنيا.
[15] ك: كقولهم.
[16] سورة الأنعام، ٧٠/٦، ١٣٠؛ وسورة الأعراف، ٥١/٧.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٧٣و/سطر ١٠-١١.

واتّبع هواه فمثله كمثل الكلب، قال [الحسن]: هذا مَثَل الكافر أُمِيت فؤادُه كما أُمِيت فؤادُ[1] الكلب، قال: سَاءَ مَثَلاً،[2] صَدَق الله،[3] ولبئس[4] المَثَل، **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**، فتدبّروا وتفكّروا[5] في أمثال الله التي ضَرَب واعقلوها، إلى هذا ذهب الحسن.* [٢٧٣و س٢١] وقال قتادة: هذا مَثَل الكافر، ميت الفؤاد كما أُمِيت فؤادُ الكلب.[6]* وقال غيره:[7] وَجْه ضَرْب مَثَل الذي كذّب بالآيات بالكلب[8] هو[9] أن الكلب[10] من عادته أن يَذِلّ ويخضع لكل أحد، لما يطمع أن ينال[11] منه أدنى شيء، ولا يُبالي ما يصيبه من الذلّ والهوان في ذلك بعد أن ينال منه بشيء. فعلى ذلك الكافر والمكذِّب بالآيات لا يُبالي ما يلحقه من الذلّ والهوان بعد أن يصيب من الدنيا شيئا.[12] ويشبه أن يكون وَجْه ضَرْب المَثَل بالكلب لما أنّ من عادة الكلاب أنها إذا ظفرت بالجِيَف تَنْكَبّ لها، حتى إذا يُنادَى لها وتُدعَى[13] لا تكترث[14] إليه ولا تلتفت. فعلى ذلك هذا الكافر، يَنْكَبّ لكل جيفة ويخضع، ولا يلتفت إلى ما نُودي ودُعي إليه.

وقوله عز وجل: **إن تحمل عليه يلهث**، أي يخرج لسانه ويتنفّس تنفّسا شديدا،[15] **أو تتركه يلهث**، ومعناه -والله أعلم- أن الكلب إذا أصابه العطش والجوع لَهَث وإذا لم يصبه لَهَث[16] أيضا.

---

[1] ك ن ع + هذا.
[2] الآية التالية.
[3] ن: والله؛ ع - الله.
[4] م: وبئس.
[5] م: فتفكروا.
[6] *تفسير الطبري*، ٩/١٢٩.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٧٣و/سطر ٢١.
[7] ن - وقال غيره.
[8] ن - بالكلب.
[9] ك ن م: وهو.
[10] ع - هو أن الكلب.
[11] ك: أنه ينال.
[12] ك: شئ.
[13] ن: ويدعي.
[14] ع م: وتكثرت.
[15] ع م - شديدا.
[16] ع: لهثه.

فعلى ذلك الكافر يميل إلى ذلك ويختار، أصابه[١] شدة أو لم تُصِبْه،[٢] أو كلام[٣] نحو هذا.*

ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، ضرب الله عز وجل[٤] مَثَل الكافر مرة بالكلب، ومرة[٥] بالميت، ومرة بالأعمى، ومرة بالتراب، ومرة بالأنعام،[٦] ونحو هذا، وذلك لما فيه من معاني ما ذكر.

وقوله: **فاقصص القصص لعلهم** كذا، وهو قوله: **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا**، أمر رسوله ليقصّ أنباء الأمم السالفة على هؤلاء، ليكون زجرا وتحذيرا للكفار، ليعلموا ما حلّ بأولئك بصنيعهم، ليحذروا عن مثل صنيعهم، ويكون عظة وتذكيرا للمؤمنين،[٧] كقوله: وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ.[٨]

﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾[١٧٧]

وقوله عز وجل: **ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا**، الآية، وقد ذكرنا في غير موضع[٩] أن آياته قيل:[١٠] دينه، وقيل: حججه[١١] وبراهينه. وقوله: **ساء مثلا، أي ساء مثل**[١٢] الأفعال التي ضرب الله مثلها بالذي[١٣] ذكر في القرآن.

﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[١٧٨]

وقوله عز وجل: **من يهد الله فهو المهتدي**، شهد الله تعالى أن[١٤] من هداه **فهو المهتدي**،

---

[١] ن: اصابة.

[٢] ع: أو ألم تصبه؛ م: أو ألم تصيبه.

[٣] ع: وكلام.

* وقع هنا سطر من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٧٣و/سطر ٢١.

[٤] ن + مرة بالكلب.

[٥] ك – ومرة.

[٦] ﴿إنك لا تُسمِع الموتى ولا تُسمِع الصُمَّ الدعاء إذا وَلَّوْا مُدبِرين﴾ (سورة النمل، ٢٧/٨٠)؛ ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكّرون﴾ (سورة هود، ١١/٢٤)؛ ﴿والبلد الطيب يَخرُج نَباتُه بإذن ربه والذي خَبُثَ لا يَخرُج إلا نَكِدا كذلك نُصَرِّف الآيات لقوم يشكرون﴾ (سورة الأعراف، ٧/٥٨)؛ ﴿أولئك كالأنعام بل هم أَضَلّ أولئك هم الغافلون﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٧٩).

[٧] م: وللمؤمنين.

[٨] ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات ومَثَلاً مِن الذين خَلَوْا مِن قَبلكم وموعظةً للمتقين (سورة النور، ٢٤/٣٤).

[٩] انظر مثلا تفسير الآية من سورة النساء، ٤/٥٦.

[١٠] ن – قيل.

[١١] ع م: حجته.

[١٢] ن: مثلا.

[١٣] ك: الذي.

[١٤] ع م – أن.

أي من هداه الله في الدنيا **فهو المهتدي**[1] في الآخرة، **ومن يضلل**، في الدنيا فهو الخاسر في الآخرة. فلو كانت[2] الهداية البيان والأمر والنهي على ما ذكره قوم لكان الكافر والمؤمن في ذلك سواءً، إذ كان البيان والأمر والنهي للكافر[3] على ما كان للمؤمن فلم يهتد. فدل أن في ذلك من الله زيادة معنى للمؤمن[4] لم يكن ذلك منه إلى الكافر، وهو التوفيق والعصمة والمعونة.[5] ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى[6] المؤمن. ولو كان بيانا لكان ذلك البيان من الرسل وغيرهم[7] على قولهم. وكذلك قوله: **ومن يضلل**، الله، **فأولئك هم الخاسرون**، أخبر أن من أضله فقد خسر، دل أنه كان منه زيادة معنى، وهو الخذلان والترك، أو خلق فعل الضلال منه.[8] وليس على ما يقوله المعتزلة أنه قد هداهم جميعا لكن لم يهتدوا. فيقال لهم: أنتم أعلم أم الله، كما قال لليهود: قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ.[9] فظاهر الآية على خلاف ما يقولون ويذهبون.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١٧٩]

وقوله عز وجل: **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس**، قالت المعتزلة: لم يخلقهم الله تعالى **لجهنم**، ولكن خلقهم وذرأهم وأعطاهم من القوة ما يكسبون الجنة، غير أنهم عملوا أعمالا استوجبوا بها النار، فصاروا للنار بما عملوا من الأعمال، لا أن خلقهم **لجهنم**. ثم اختلفوا في تأويل[10] قوله: **ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس**، قال بعضهم:

---

[1] ع – أي من هداه الله في الدنيا فهو المهتدي.
[2] ك ع م: فلو كان.
[3] ك: وللكافر.
[4] ن: بمعنى المؤمن.
[5] ن: والمؤنة.
[6] م – كما اهتدى.
[7] جميع النسخ: وغيره. وعبارة السمرقندي هكذا: «ولو كان بيانا لكان ذلك البيان من الرسل عليهم السلام وغيرهم من الخلفاء والعلماء رحمهم الله» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣١٦ظ).
[8] ع م – منه.
[9] ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله﴾ (سورة البقرة، ٢/١٤٠).
[10] ع م: في تأويله.

ذكر بما إليه آلَ عاقبةُ أمرهم، كقوله: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا،[١] هم[٢] / لم يلتقطوه [٢٧٣ظ] ليكون لهم عدوا،[٣] ولكن إنما التقطوه ليكون لهم ما ذكر، كقوله: عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا،[٤] لهذا التقطوه، لكنه صار لهم ما ذكر، أخبر عما إليه آلَ أمره، فعلى ذلك هذا. وكما يقال: لِدُوا للموت وابْنُوا للخراب،[٥] ولا أحد يَلِد[٦] للموت ولا يبني للخراب، ولكنه إنباء عما يؤول[٧] إليه عاقبة أمره من الموت والخراب، إلى هذا يذهب عامة المعتزلة. وقال أبو بكر الأصم: الآية على التقديم والتأخير، كأنه قال: **ولقد ذرأنا**[٨]... **كثيرا من الجن والإنس، هم قلوب لا يفقهون بها وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها،** أولئك **لجهنم،** و **أولئك كالأنعام**. لكن هذا بعيد، لأنه لو جاز هذا في هذا[٩] لجاز مثله في جميع القرآن، أن يُجعل أول الآية في آخرها وآخرها في أولها، فهذا محال فاسد.[١٠] وأما قولهم: إنه إخبار عما آل إليه[١١] عاقبة أمرهم، واستشهادهم بقوله: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ كذا، فهو يصلح[١٢] لمن يجهل عواقب الأمور، يخرج ذلك منه على التنبيه والإيقاظ لما لم يعرفوا عاقبة ما صار[١٣] إليه الأمر. فأما الله سبحانه عالم السر والعلانية، وما كان ويكون في الأوقات التي يكون، لا يحتمل ذلك. وقول الناس: لِدُوا للموت وابْنُوا للخراب، فهو: إنما يذكرون هذا عند التنبيه والإيقاظ لجهلهم بعواقب الأمور، وإن كانوا[١٤] لا يبنون ولا يَلِدون للموت والخراب، ولا قصدوا[١٥] له.

[١] سورة القصص، ٢٨/٨.
[٢] م – هم.
[٣] ك ع م: لهم ما ذكر.
[٤] سورة القصص، ٢٨/٩.
[٥] روي مرفوعا وموقوفا بسند ضعيف، وقال الشاعر: له مَلَك ينادي كل يوم: لِدُوا للموت وابنوا للخراب؛ انظر: كشف *الخفاء* للعجلوني، ٢/١٨٣-١٨٤.
[٦] ك: يبني.
[٧] ن: عما يؤل؛ ع م: ما يؤل.
[٨] ع + لجهنم.
[٩] ع + في هذا.
[١٠] ع م + فاسد.
[١١] ن ع م: إليه آل.
[١٢] جميع النسخ + هذا.
[١٣] ك ن ع: ما به صار.
[١٤] ك: وإن كان.
[١٥] ع: وأما قصدوا؛ م: وما قصدوا.

وأما التأويل عندنا على ما ذكر في ظاهر الآية، أنه خلق **لجهنم كثيرا من الجن والإنس،** لما علم[1] في الأزل أنهم يختارون فعل الكفر والأعمال الخبيثة التي يستوجبون بها النار، خلقهم **لجهنم** لما علم منهم ذلك في الأزل أنهم يختارون فعل الكفر[2] والأعمال[3] الخبيثة،[4] فذرأهم على ما علم[5] منهم أنهم يختارون ويكون منهم. وكذلك خلق المؤمنين للجنة، لما علم في الأزل أنهم يختارون فعل الهدى ويعملون أعمالا طيبة يستوجبون بها الجنة، خلقهم للجنة، لا أنْ خَلَقَهم للجنة مُرسَلاً[6] أو خلقهم لجهنم مرسلا،[7] ولكن[8] لما ذكرنا. ***والله أعلم.***

وأما قوله: وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ،[9] إنما خلق منهم للعبادة من علم أنه يعبده ويطيعه، وأما من علم أنه يكفر به ويعصيه فهو إنما خلقه لما علم أنه[10] يكون منه. فمن كان علم منه في الأزل أنه يكون منه العبادة خلقه للعبادة،[11] ومن كان علم منه أنه يكون منه الكفر خلقه لذلك، لأنه لا يجوز أن يعلم منه المعصية وفعل الكفر فيخلقه على خلاف ذلك. دل أنه على ما ذكرنا.[12] ***والله أعلم.*** [وعلى هذا ينصرف][13] قوله: وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، [إلى] الفريق[14] الذي علم منهم[15] العبادة لا الكل، دليله قوله: **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس،** ولم يقل: ذرأنا[16] الكل، فهذه في فريق، وهذه في فريق آخر.

---

[1] ع م: لما أعلم.
[2] ع م – فعل الكفر.
[3] ع م: الأعمال.
[4] ن – التي يستوجبون بها النار خلقهم لجهنم لما علم منهم ذلك في الأزل أنهم يختارون فعل الكفر والأعمال الخبيثة.
[5] ع م: ما عمل.
[6] أي بلا سبب يوجب ذلك.
[7] ك – أو خلقهم لجهنم مرسلا.
[8] ع – ولكن.
[9] سورة الذاريات، ٥١/٥٦.
[10] ع م + خلقه.
[11] ع – خلقه للعبادة.
[12] ع م: على ما ذكرناه.
[13] جميع النسخ + أو أن يقال. والتصحيح مع الزيادة من شرح *التأويلات*، ورقة ٣١٧و.
[14] ك: لفريق.
[15] ع م: منه.
[16] ن +لجهنم كثيرا.

وهذا التأويل يرجع إلى الخصوص؛ ألا ترى[١] أن الصبيان والمجانين لم يدخلوا فيه. أو أن يكون قوله: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، أي إلا لأكلّفهم العبادة وآمرهم بها، فإن كان هذا فهي على الكل، على الكافر والمؤمن جميعا. *والله أعلم*. ويحتمل: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، أي ما خلقت الجن والإنس إلا لتشهد خلقتهم على وحدانية[٢] الله وصرف العبادة إليه، وقد شهد خلقة[٣] كل كافر ومؤمن على وحدانية الله وألوهيته.

وقوله عز وجل: **لهم قلوب لا يفقهون بها**، الفقه هو[٤] معرفة الشيء بمعناه الدال على نظيره، أو معرفة الشيء بمعناه الدال على مدبّره. فهؤلاء الكفرة لم يفقهوا لِمَا لم ينظروا إلى الأشياء لمعناها وحقائقها، إنما نظروا إلى الأشياء لظواهرها. وكذلك قوله: **ولهم أعين لا يبصرون بها**، لما نظروا[٥] إلى ظواهرها، لم ينظروا إلى معانيها وحقيقتها ليدلهم على تدبير منشئها وحكمته. وكذلك قوله: **ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام**، لما كانت للأنعام قلوب وأعين وآذان لكن لا يفقهون معناها وحقيقتها وإن كانوا يسمعون النداء وينظرون ظواهر الأشياء، فعلى ذلك[٦] هؤلاء[٧] الكفار وإن كانوا يسمعون ويبصرون ما ذكرنا بعد أن لم يفقهوا معانيها وتدبير مدبرها، فهم **كالأنعام**. وأصله أنهم لَمَّا لم يستعملوا تلك الحواس فيما جعلت لهم – وإنما جعلت لهم[٨] لمعرفة حقائق الأشياء وما أدرج فيها من المعاني والحكمة– صاروا[٩] في الحقيقة كمن لا حواس له، إذ لم ينتفعوا[١٠] بها انتفاع من لهم تلك،[١١] لذلك[١٢] نَفى عنهم. *والله أعلم*. وقال قائلون: نفى عنهم هذه الحواس لما لم ينتفعوا بها[١٣] انتفاع من لهم تلك،

[١] ن: ألا ألا ترى.
[٢] ك: على واحدانية.
[٣] ن: خلقته.
[٤] ع: وهو.
[٥] ع: لما نظرا.
[٦] ع + ظواهر الأشياء فعلى ذلك.
[٧] ع – هؤلاء.
[٨] ع م – وإنما جعلت لهم.
[٩] جميع النسخ: فصاروا.
[١٠] ع م: أو لم ينتفعوا.
[١١] ع + بل كانوا كمن ليس لهم تلك لذهاب؛ م + بل كانوا كمن ليس لهم تلك.
[١٢] ن: ولذلك؛ ع – لذلك.
[١٣] ك – بها.

بل كانوا كمن ليس لهم تلك الحواس [لعدم استعمالهم لها] في المعنى الذي جعلت تلك الحواس [له].[1] فهم **كالأنعام بل هم أضل**، لأن هؤلاء[2] إذا ضلوا الطريق فهُدُوا وأُرشِدوا لا يهتدون ولا يرجعون عن ذلك، والدواب إذا ضلوا الطريق فهُدُوا[3] اهتدوا وعرفوا الحق[4] ومالوا إليه، فهم **أضل** من الأنعام لما ذكرنا.[5] *والله أعلم*.

وقوله: **بل هم أضل**، لأن بنية الأنعام لا تحتمل[6] فهم[7] ذلك، وبنية هؤلاء تحتمل،[8] إذ جعل لهم عقولا تُميّز وتعرف حكمة مدبرها ومنشئها، لكنهم ضيعوها، و لم يكن من الأنعام تضييع،[9]

[٢٧٤و] لذلك كان أولئك أضل. قال ابن عباس / رضي الله عنه: قوله: **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها**، لِمَا ختم الله على قلوبهم كقوله: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ،[10] فمن ثم[11] لم تفقه[12] قلوبهم و لم تبصر[13] أعينهم و لم تسمع آذانهم، وقال: ثم ضرب لهم مثلا فقال: **أولئك كالأنعام**، في الأكل، لأن همتهم ليست[14] إلا الأكل والشرب، كهمة الأنعام والبهائم ليست همتهم إلا الأكل والشرب وقضاء الشهوة، فهي تسمع النداء ولا تعقل، فعلى ذلك الكافر.

وقوله: **أولئك كالأنعام**، في فهم[15] ما ألقي إليهم، **بل هم أضل**، لأنهم أُعطُوا سبب فَهْم ذلك، والأنعام لا. وقوله عز وجل: **بل هم أضل**، لأن الأنعام تَعرف ربها وتوحّده وتَذكره،

---

[1] الزيادتان مستفادتان من شرح *التأويلات*، ورقة ٣١٧و. والعبارة فيها تكرار، لكن قد يكون ذلك لاختلاف القائلين والزيادة التي توجد في دوام القول الأخير.
[2] ع + هؤلاء.
[3] ك – وأرشدوا لا يهتدون ولا يرجعون عن ذلك والدواب إذا أضلوا الطريق فهدوا.
[4] ن ع م – الحق.
[5] م: لما ذكر.
[6] ن ع م: لا يحتمل.
[7] ك – فهم، صح هـ.
[8] ن ع م: يحتمل.
[9] ع: تضيع.
[10] سورة البقرة، ٢/٧.
[11] ن م: فمن ثمة.
[12] ن ع م: لم يفقه.
[13] ع م: ولم يبصر.
[14] م: ليس.
[15] ع: في فيهم.

لقول الله[1] تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ،[2] الآية، وكقوله: كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ،[3] وهؤلاء لا يعرفونه ولا يوحّدونه،[4] فهم **أضل**. أو أن يقال: **هم أضل**، لأنهم[5] لا يهتدون وإن هُدُوا ودُعُوا، والأنعام تهتدي. أو **هم**[6] **أضل**، لأنهم يَضلون ويُضلون غيرهم، والأنعام لا. أو **هم أضل**، لأنهم[7] لا يُنتفَع بهم، والأنعام يُنتفَع بها.

وقوله عز وجل: **أولئك هم الغافلون**، عن فهم ما أُلقي إليهم وأُمروا به. أو غافلون[8] عما أُوعدوا.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١٨٠]

وقوله عز وجل: **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**، يحتمل هذا وجهين. يحتمل أنهم قد ظنوا أن في إثبات عدد الأسماء إيجاب إثبات عدد من الذات، فأخبر أنْ ليس في إثبات عدد الأسماء إثبات أعداد من الذات، إذ قد يسمَّى الشيء الواحد بأسماء مختلفة، ثم لا يوجب ذلك إثبات عدد ذلك[9] ولا تجزئته، من نحو ما يسمَّى الحركةُ حركةً، عَرَضا، شيئا، خَلْقا، من غير أنْ أَوْجب ذلك إثبات عدد الحركة أو تجزئته. وكذلك في جميع الأشياء. فعلى ذلك يخبر أنه ليس في إثبات عدد الأسماء إثبات عدد من الذات على ما ذكرنا. ويحتمل أن يكون خرج هذا مقابل قولٍ كان منهم، وهو أنْ وصفوا الله بشيء لا يَحْسُن أن يوصف به، وأضافوا إليه أشياء لا يصلح أن تضاف،[10] من نحو[11] قولهم: يا خالق الخنازير، ويا خالق الخبائث، ويا إله القِرْد، ونحوه.

---

[1] ن: لقوله.
[2] سورة الإسراء، ٤٤/١٧.
[3] سورة النور، ٤١/٢٤.
[4] ع: ولا يوجدونه.
[5] ع م – لأنهم.
[6] م: وهم.
[7] ن – لا يهتدون وإن هدوا ودعوا والأنعام تهتدي أو هم أضل لأنهم يضلون ويضلون غيرهم والأنعام لا أو هم أضل لأنهم.
[8] م: وغافلون.
[9] ن – عدد ذلك.
[10] ع: أن يضاف.
[11] ع م – نحو.

فأخبر أن ادعوه بالأسماء الحسنى مما ثبت عند الخلق[1] أنه مسمى بها،[2] من نحو ما أعطاهم، يقال: يا هادي، يا مرشد، ونحوه. ويقال بما[3] أعطاهم من النعم: يا كريم، يا جواد، يا لطيف، ونحوه. ويقال: يا خالق، يا رازق،[4] يا الله، يا رحمن، يا رحيم، لما ظهر[5] في أنفسهم من ألوهيته وربوبيته. فقال: لا تدعوا بكذا، ولكن ادعوا بالأسماء التي ثبت عند الخلق تحقيقها، وأنه مسمّى[6] بها،[7] وهو ما ذكرنا. *والله أعلم*. وقد روي على المعنى [الأول][8] خبر.[9] روي أن رجلا دعا[10] في صلاته، فقال: يا الله، ويا رحمن، ويا رحيم. فقال رجل من المشركين: أليس يزعم **محمد** وأصحابه أنهم يعبدون إلها واحدا، فما بال هذا يدعو[11] ربين اثنين؟ فأنزل الله تعالى: **ولله الأسماء الحسنى.**[12] ويحتمل قوله: **ولله الأسماء الحسنى**، أي له **الأسماء الحسنى**، لا للأصنام التي تعبدونها، من[13] نحو ما سموها آلهة وأربابا، فقال: هذه الأسماء التي تدعون[14] بها الأصنام لله، **فادعوه بها**، ولا تدعوا[15] الأصنام.

وقوله عز وجل: **وذروا الذين يلحدون في أسمائه**، يحتمل: أي لا تكافئهم بصنيعهم ولا تُجازِهم بأذاهم إياك، فإن الله هو المكافئ لهم والمجازي بصنيعهم. ألا ترى أنه قال في آخره: **سيجزون ما كانوا يعملون**. وقوله: **يلحدون في أسمائه**، قيل: الإلحاد هو الجور والميل عن الحق والوضعُ في غير موضعه. وهم سُمُّوا ملحدين لما سَمَّوا غيره بأسمائه، أو لإشراك غيره في أسمائه.

---

[1] م: عنه الخلق.
[2] جميع النسخ: به.
[3] ع – ويقال بما؛ م: ويقال ما.
[4] ن: ويا رازق.
[5] ع: لما أظهر.
[6] ع م: يسمى.
[7] جميع النسخ: به.
[8] جميع النسخ: على هذا المعنى؛ والتصحيح مع الزيادة من *شرح التأويلات*، ورقة ٣١٧ظ.
[9] ك ن: خبرا؛ ع م – خبر.
[10] م: دعى.
[11] ع: يدعوا.
[12] ذكره القرطبي وعزاه إلى مقاتل؛ انظر: *تفسير القرطبي*، ٣٢٥/٧.
[13] ع م – اثنين فأنزل الله تعالى ولله الأسماء الحسنى ويحتمل قوله ولله الأسماء الحسنى أي له الأسماء الحسنى لا للأصنام التي تعبدونها من.
[14] ك: يدعون.
[15] ن: ولا تدعوا بها.

أو سُمُّوا بذلك لما صرفوا شكر نعمه إلى غيرٍ، وعبدوا دونه مع علمهم أنه لم يكن منهم إليه[١] شيء من ذلك، إنما كان ذلك لهم[٢] من الله. قال ابن عباس: الإلحاد الميل في جميع القرآن. وقيل: الإلحاد[٣] التكذيب. قال القُتَبي: **يلحدون**، أي يجورون عن الحق ويَعدِلون،[٤] وأصله[٥] الجور والميل.

وقوله[٦] عز وجل: **سيجزون ما كانوا يعملون**، قيل:[٧] هذه بشارة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر له والظفر[٨] على أعدائه في الدنيا. وقال قائلون: هو حرف[٩] وعيد، أوعدهم عز وجل بأذاهم رسول الله.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[١٨١]

وقوله: **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق**، أي **يهدون** الخلق **بالحق** الذي عندهم، وهو القرآن والكتب التي عندهم. وأمكن أن يكون **الحق** هو رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، به يهدون الناس وبه يعملون. وجائز أن يكون قوله: **يهدون**[١٠] **بالحق**، أي يدعون[١١] الخلق إلى سبيل الله، على ما ذكر في آية[١٢] أخرى حيث قال: أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.[١٣] ويحتمل[١٤] **الحق** هاهنا هو الله، كقوله: [وَيَعْلَمُونَ] أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ.[١٥] وقوله: **وبه يعدلون**، أي بالحق الذي يهدون يعملون، كقوله: وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ،[١٦] الآية.

[١] ن ع م: إليهم.
[٢] ك - ذلك لهم.
[٣] ك: إلحاد.
[٤] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٥.
[٥] ع: وأصل.
[٦] م - وقوله.
[٧] جميع النسخ: قال.
[٨] ع: بالنصر والظفر.
[٩] ع: حروف.
[١٠] ن - قوله يهدون.
[١١] ن ع م: أي يهدون.
[١٢] ن: في سورة.
[١٣] سورة النحل، ١٢٥/١٦.
[١٤] ع: يحتمل.
[١٥] سورة النور، ٢٥/٢٤.
[١٦] سورة هود، ٨٨/١١.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٨٢]

وقوله: **والذين كذبوا بآياتنا**، قد ذكرنا هذا في غير موضع.[1] وقوله عز وجل: **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**، قال قائلون: هو[2] صلة قوله: سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا،[3] الآية. وقال بعضهم: فيه الوعد لرسول الله بالنصر له والظفر على أعدائه. والاستدراج هو الأخذ في حال الغفلة من حيث أَمْنُ الرجلِ بغتة، كقوله: فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.[4] وقال قائلون: الاستدراج [٢٧٤ظ] المكر، لكن معنى ما يضاف / الاستدراج والمكر إلى الخلق غير المعنى الذي يضاف إلى الله، والجهةُ التي تضاف إلى الله[5] غير الجهة التي تضاف إلى الخلق؛ والجهةُ التي تضاف إلى الخلق[6] مذمومة،[7] والجهة التي تضاف إلى الله محمودة.[8] وكذلك ما أضيف إلى الله[9] من المكر والخداع والاستهزاء ونحوه هو[10] ما ذكرنا على اختلاف[11] الجهات. والمعنى في الجهة التي تضاف إلى الله غير الجهة التي تضاف إلى الخلق، لأن الله تعالى يأخذهم بما يستوجبون[12] ويستحقون[13] بحق الجزاء والمكافأة،[14] فلا يلحقه في ذلك ذم. وأما الخلق فيما بينهم يمكرون ويكيدون لا على الاستحقاق والجزاء. وعن الحسن في قوله: **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**، قال: كلما جدّدوا[15] لله[16] معصية[17] جدّد الله[18] لهم نعمة،[19]

---

[1] انظر مثلا تفسير الآية من سورة النساء، ٤/٥٦.

[2] ع م: هذا.

[3] سورة الأعراف، ٧/١٧٧.

[4] سورة الأعراف، ٧/٩٥.

[5] ن – إلى الله.

[6] ك ع – والجهة التي تضاف إلى الخلق.

[7] جميع النسخ: مذموم.

[8] جميع النسخ: محمود.

[9] ع + محمود وكذلك ما أضيف إلى الله.

[10] ع م: وهو.

[11] ع: عن اختلاف.

[12] ع م: مما يستوجبون.

[13] ن: ويستحقونه.

[14] ن ع م: والمكافات.

[15] م: جدوا.

[16] ع – لله.

[17] ع: المعصية.

[18] م – معصية جدد الله.

[19] ن – نعمة.

ليستهزئوا ويَأْشَروا ويَبْطَروا[١] ثم يهلكهم. وقال بعضهم: يُظهر لهم النعم ويُنسيهم الشكر. وجائز أن يكون ما ذكر من الاستدراج والمكر والكيد عبارة عن العذاب، أي إن أخذي إياهم وعذابي شديد، حيث قال: إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ،[٢] أي عقوبتي شديدة.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[١٨٣]

وقوله عز وجل: **وأملي لهم إن كيدي متين**، أي كيدوه أنتم، وأُمهلهم وأَكِيد لهم، كقوله:[٣] إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا،[٤] الآية. فيخرج قوله: أَكِيدُ لهم مخرج جزاء كيدهم. وكذلك قوله: وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا،[٥] أي جزيناهم جزاء مكرهم. وكذلك[٦] قوله: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ،[٧] أي نجزيهم جزاء استدراجهم وكيدهم. وأمكن أن يكون قوله: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ، وقوله: **وأملى لهم إن كيدي متين**، أي نفعل بهم ما هو عندهم[٨] استدراج وما هو عندهم كيد. وكذلك نفعل بهم ما هو عندهم مكر وخداع وإن لم يكن من الله مكرا وخداعا، كقوله: وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ،[٩] أي إعادة الشيء عندكم أهون من الابتداء وإن كان الإعادة والابتداء على الله سواء.[١٠] فعلى ذلك قوله: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ، و **كيدي متين**، ونحوه، أي نفعل بكم ما هو استدراج وكيد[١١] عندكم. ***والله أعلم***.

ودل قوله: **وأملي لهم**، على أنه لم ينشئهم[١٢] لحاجة له إليهم أو لمنفعة له فيهم، ولكن أنشأهم لحوائج أنفسهم ولمنافع ترجع إليهم، حتى إن عملوا نفعوا[١٣] أنفسهم، وإن تركوا ضَرّوا أنفسهم. وقوله: **متين**، قيل: شديد، أي عقوبتي شديدة. والمتين هو[١٤] المحكم القوي.

---

[١] أَشِر يأشَر أشَرا بمعنى المرح، وبطِر يبطَر بطَرا بمعنى الطغيان عند النعمة (*لسان العرب* لابن منظور، «أشر، بطر»).

[٢] الآية التالية.

[٣] ك – كقوله.

[٤] سورة الطارق، ٨٦/١٥-١٦.

[٥] سورة النمل، ٢٧/٥٠.

[٦] م: ولذلك.

[٧] الآية السابقة.

[٨] ع م – استدراجهم وكيدهم وأمكن أن يكون قوله سنستدرجهم وقوله وأملي لهم إن كيدي متين أي نفعل بهم ما هو عندهم.

[٩] ﴿وهو الذي يَبدأ الخلق ثم يُعيده وهو أهون عليه﴾ (سورة الروم، ٣٠/٢٧).

[١٠] م: سواء على الله.

[١١] ن: وكيدي.

[١٢] ع: لم ينسيهم.

[١٣] ع: أنفعوا.

[١٤] ع م – هو.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[١٨٤]

وقوله عز وجل: **أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة**، إن الكفرة كانوا ينسبون رسول الله إلى الجنون أحيانا. والذي حملهم على ذلك -والله أعلم- لأنهم كانوا أهل العز والشرف في الدنيوية،[١] وكان لا يخالفهم أحد، ولا يستقبلهم بالمكروه إلا أحد رجلين:[٢] رجل ذو هيبة وقوة[٣] وله أعوان وأنصار، أو رجل به جنون، لأنهم كانوا يقتلون من يخالفهم في شيء من الأمر. فلما رأوا رسول الله خالفهم واستقبلهم بما كانوا يكرهون[٤] و لم يروا معه أنصارا ولا أعوانا ظنوا أنه لا يخالفهم[٥] إلا بجنون فيه، فنسبوه[٦] إلى الجنون لذلك. *والله أعلم*. ويحتمل أن يكون نسبتهم إياه إلى الجنون لما حرّم عليهم عبادة الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها، وهم قد رأوا العقلاء منهم قد عبدوا الأصنام[٧] و لم يحرّموا ذلك. فلما حرّم ذلك عليهم[٨] ظنوا أنه إنما حرّم ذلك لآفة فيه، فذلك[٩] حملهم على نسبته[١٠] إلى الجنون. *والله أعلم*.

ثم عاتبهم بتركهم التفكّر فيه بقوله: **أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جِنَّة**، ليتبين لهم أنه ليس به جنون. وذلك يحتمل وجهين. إنهم لو تفكّروا في رسول الله بما أخبر لهم من المرغوب والمرهوب والمحذور في كتابهم[١١] على لسانهم[١٢] و[من غير][١٣] اختلاف منه[١٤] إلى أحد منهم ولا تعلّم لعلموا[١٥] أنه رسول، وأن ما أخبر[١٦] إنما أخبر بالله.[١٧] أو أن يكون[١٨] قوله:

[١] ن ع م: في الدنياوية.
[٢] ع – رجلين.
[٣] ك: ذو قوة وهيبة.
[٤] ك م: بما يكرهون.
[٥] ع م: ولا أعوانا أنهم لا يخلفهم.
[٦] ع: فينسبون.
[٧] ن: الصنم.
[٨] ن: عليهم ذلك.
[٩] جميع النسخ: لذلك.
[١٠] جميع النسخ: بالنسبة.
[١١] أي الكتاب الذي أرسل إليهم، وهو القرآن
[١٢] جميع النسخ: على غير لسانهم.
[١٣] من شرح *التأويلات*، ورقة ٣١٨و.
[١٤] ع: منهم.
[١٥] جميع النسخ: ليعلموا.
[١٦] م: وأنما ما أخبر.
[١٧] ع – إنما أخبر بالله.
[١٨] ع م: وأن يكون.

أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة، أي قد تفكّروا فيه وعرفوا أنْ ليس به[١] جنون. وكذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾،[٢] الآية، أي قد تفكّروا في ذلك[٣] وعرفوا أن مثل هذا[٤] لم يُخلَق عبثا باطلا، كما يقال: أولم تفعل كذا، أي قد فعلت، لكنهم عاندوا وكابروا آياته وجحجه. وأمكن أن يكون قوله: **أولم يتفكروا**، أي[٥] في أنفسهم وفي أولئك الذين عبدوا من الأصنام والأوثان لِيَظهر لهم أنهم على باطل وسفه، وليتبين لهم أن الحق هو ما يدعوهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم، لا ما كانوا هم عليه. وفيه دلالة أن الحق يَلزم وإن كان لا يُعلَم[٦] ذلك إلا بالتفكّر والتدبّر[٧] لما لحق هؤلاء من الوعيد الشديد والعقاب العظيم لما تركوا هم التفكّر، وكان لهم سبيلُ الوصول إلى معرفة ذلك. وقوله: **أولم يتفكروا**، في صاحبهم أن[٨] ليس له **جِنة**، هذا جواب من الله. ويحتمل: لو تفكروا في صاحبهم لعرفوا أنه ليس به جنة. ثم أخبر أنه **نذير مبين**، ليس كما يقولون: إنه مجنون، إذ معه آيات وبراهين، فهو **نذير مبين**.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[١٨٥]

وقوله: **أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض**، الآية، يحتمل هذا على الابتداء. ويحتمل على الصلة بالأول،[٩] وهو أنهم إذا تفكروا **في ملكوت السماوات والأرض** عرفوا ألوهية[١٠] الله وربوبيته، لما يرون من اتصال منافع بعض ببعض على بُعْد ما بينهما واتساق التدبير في ذلك، فعرفوا أن ذلك كله مسخّر لمن له التمييز، وأن المقصود في خلقه أهل التمييز. فإذا عرفوا ذلك عرفوا أنهم يحتاجون إلى من يُعَرِّفهم ذلك، ويُعَلِّمهم ما يحتاجون في ذلك.

---

[١] ك: فيه.
[٢] الآية التالية.
[٣] ن: تفكروا ذلك.
[٤] ك: مثل ذلك.
[٥] ع – أي.
[٦] ع + لا يعلم.
[٧] م: والتدبير.
[٨] ع م: ما بصاحبهم أنه.
[٩] ك: للأول.
[١٠] ع: ألوهيته.

[٢٧٥ر] ويحتمل على ابتداء الأمر بالتفكر **في ملكوت السماوات / والأرض وما خلق الله من شيء**، ليدلهم على وحدانية[١] الله[٢] وربوبيته.

وقوله عز وجل: **وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم**، كان هذا نزل[٣] فيمن عَرف صِدقَه لكنه عاند في تكذيبه، فقال: **وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم**، يحذِّرهم ليرجعوا إلى تصديقه مخافة الخروج من الدنيا على ما هم عليه.

وقوله عز وجل: **فبأي حديث بعده يؤمنون**، هذا يتوجّه وجهين. أحدهما أنكم ممن تقبلون الأخبار[٤] والحديث، فإذا لم تقبلوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وخبره ولم تصدقوه **فبأي حديث بعده** تقبلون وتصدّقون، ومعه حجج وبراهين. ***والله أعلم***.

والثاني أن يكون قوله: **فبأي حديث بعده يؤمنون**، يعني[٥] **بعد** القرآن **يؤمنون**، وهو كما وصفه: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ،[٦] الآية، وقال: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ،[٧] فإذا لم تقبلوا هذا ولم تصدقوه وهو بالوصف الذي ذكر وأنتم ممن يقبلون[٨] الحديث **فبأي حديث**[٩] تقبلون **بعده**. وجائز أن يكون قوله: **فبأي حديث بعده يؤمنون**، يريد به في الآخرة، يقول: إذا **اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون**، أي لا **حديث بعده يؤمنون**، والتأويل الآخر[١٠] في الدنيا.

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[١٨٦]

وقوله عز وجل: **من يضلل الله فلا هادي له**، وفي موضع آخر: وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ،[١١] ولو كان الهداية الأمر والبيان على ما قاله قوم لكان ذلك من غير، وكذلك

---

[١] ع: وعلى وحدانية.
[٢] م – الله.
[٣] م: ترك.
[٤] ك: بالأخبار.
[٥] م – يعني.
[٦] سورة فصلت، ٤١/٤٢.
[٧] سورة الإسراء، ١٧/٨٨.
[٨] ك ع م: تقبلون.
[٩] م + بعده.
[١٠] ن – الآخر.
[١١] سورة الزمر، ٣٩/٣٧.

لو كان الإضلال والإزاغة والنهي هو التخليةَ لكان ذلك يكون من غيره، وكل من أراد الله أن يهديه أضله غيره، وكل من أضلّه الله هداه غيره، فذلك محال. مع ما في كل ما أضاف الله الإضلال إلى الخلق ذمّه، وفيما أضاف الهداية إليه مدحه، ثم أضافهما جميعا[1] إلى نفسه، دل أن هنالك زيادة معنى ليس ذلك في الإضافة إلى الخلق، وهو ما ذكرنا[2] في غير موضع،[3] إما خلق فعل الضلال من الكافر وخلق فعل الاهتداء والإيمان من المؤمن، أو كان منه التوفيق والمعونة في الهدى والخذلان في الكفر. وهذان الوجهان اللذان ذكرناهما لا يكونان من الخلق إنما يكونان من الله، لذلك كان معنى الإضافة إليه. وإنما يكون[4] من الخلق الدعاء وغيره، لا ما قاله[5] المعتزلة من البيان والأمر والنهي والتخلية، إذ يكون ذلك من الخلق. ***وبالله العصمة.***

وقوله عز وجل: **من يضلل الله فلا هادي له**، أي من أهانه الله بالضلال[6] فلا أحد يملك إكرامه بالهدى.

وقوله عز و جل: **و يذرهم في طغيانهم يعمهون**، ولا ضرر يلحقه في طغيانهم، لذلك تركهم فيه. ودل ذلك على أنه لم ينشئهم[7] لحاجة نفسه ولا لدفع مضرة[8] نفسه، ولكن لحاجة أنفسهم، كقوله. سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ،[9] وكقوله: إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ،[10] وهو حرف الوعيد.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٨٧]

وقوله عز وجل: **يسألونك عن الساعة أيان مرساها**، قيل: **أيان**، متى قيامها. وقال القُتَبي:

---

[1] ن – ثم أضافهما جميعا، صح هـ.
[2] ع م: ما ذكر.
[3] انظر مثلا تفسير الآية من سورة الفاتحة، ٦/١.
[4] جميع النسخ: يكونان.
[5] ع م: ما قالته.
[6] ع م: بالضلالة.
[7] ع: لم ينشهم.
[8] ع م: ضرر.
[9] سورة الأعراف، ١٨٢/٧.
[10] سورة الأعراف، ١٨٣/٧.

أيان مرساها، أي متى ثبوتها، يقال: رَسَا[1] في الأرض إذا ثبت، ورَسَا في الماء. ويقال للجبال رواسي[2] لثبوتها.[3] ثم اختلف في السؤال ممّ[4] كان. قال بعضهم: كان السؤال عن الفناء، فناء الخلق وهلاكهم، لأنه قال في آخره: **لا تأتيكم إلا بغتة**، ونحوه، وكقوله: مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً،[5] الآية،[6] وذلك يكون في الدنيا. وقال قائلون: كان السؤال عن البعث[7] وقيام الساعة إنكارا منهم إياها[8] واستعجالا للعذاب، كقوله: وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا،[9] وقولهم: أَإِذَا مِتْنَا،[10] الآية، وغير ذلك من الآيات. يدل على أن السؤال كان عن الساعة.[11] وليس قوله: **لا تأتيكم إلا بغتة**، أنه كان عن الفناء،[12] إذ كانوا[13] يعاينون الفناء، فلا يحتمل[14] أن يكون السؤال عن ذلك. ثم يحتمل بعد[15] هذا وجهين. أحدهما أن كان السؤال من المكذب[16] لها، فهو سؤال استهزاء واستعجال لما ذكرنا. وإن كان من المصدّق[17] فهو سؤال[18] استعلام وإشفاق، ليتأهّبوا لها ويستعدّوا، كقوله: وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا.[19] لمّا سمعوا من الآيات ما يُقَرِّب وقوعها،

---

[1] ك ن: رسى.
[2] ن ع م: رواس.
[3] م – لثبوتها. تفسير *غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٥؛ وانظر: *لسان العرب* لابن منظور، «رسو».
[4] ك: عم.
[5] ﴿ويقولونَ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يَخِصِّمون﴾ (سورة يس، ٣٦/٤٨-٤٩).
[6] ك – الآية.
[7] ع: على البعث.
[8] ن – إياها.
[9] سورة الشورى، ٤٢/١٧-١٨.
[10] ﴿قالوا أإذا مِتنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٨٢).
[11] ن: من الساعة.
[12] ن: من الفناء.
[13] ن: إذ لو كانوا.
[14] ع م: ولا يحتمل.
[15] ع: بعده.
[16] جميع النسخ: عن المكذب.
[17] جميع النسخ: عن المصدق.
[18] ك – سؤال.
[19] ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب. يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ (سورة الشورى، ٤٢/١٧-١٨).

كقوله: اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ[1] وقوله: اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ،[2] وقوله: أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ،[3] ونحوه من الآيات، وما سمعوا من رسول الله: «أنا والساعة كهاتين»،[4] وفي بعض الأخبار قال:[5] «كادت الساعة أن تَسبِقني»،[6] وغير ذلك من الأخبار، حملهم ذلك على السؤال عنها، ليتأهبوا لها ويستعدّوا.[7]

ثم أمره أن يقول: **إنما**[8] **علمها عند ربي لا يُجلّيها لوقتها إلا هو**، أي لا يكشفها ولا يظهر[9] وقتها إلا هو، ليس كالأمور التي تجري على أيدي الخلق ويكون لغيره فيه[10] تدبير، من إخراج[11] الثمار والنبات والأمطار وغير ذلك من الأمور[12] التي تجري على أيدي الخلق ويكون لهم فيها تدبير، أعني الملائكة الذين سُلّطوا على حفظ المطر والنبات؛ وأما الساعة[13] فإنها تقوم من غير أن كان لأحد من الخلائق تدبير فيها أو علم. وهو ما وصفها الله عز وجل: وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ / إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ.[14] أخبر أن أمر الساعة خارج عن تدبير الخلق، بل تقوم [٢٧٥ظ] بتدبير الله من غير أن يُجريها على يدي[15] أحد من الخلق.[16] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **ثَقُلت في السماوات والأرض**، قيل: **ثقلت** على أهل **السماوات والأرض**. ثم اختلف فيه. قال قائلون: قوله: **ثقلت**، أي خفيت على أهل **السماوات والأرض**،

---

[1] ع + الآية. سورة القمر، ١/٥٤.

[2] سورة الأنبياء، ١/٢١.

[3] سورة النحل، ١/١٦.

[4] عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بُعِثْتُ أنا والساعة كَهَاتَيْن»، قال: وضَمَّ السَّبَّابَة والوُسْطى (*صحيح البخاري*، الرقاق ٣٩؛ وصحيح *مسلم*، الفتن ١٣٣).

[5] ك – قال.

[6] عن بُرَيدة رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «بُعثتُ أنا والساعة جميعا، إنْ كادت لتسبقني» (مسند *أحمد بن حنبل*، ٣٤٨/٥). وقال الهيثمي: «رجال أحمد رجال الصحيح» (مجمع *الزوائد*، ٣١١/١٠).

[7] ع: ليتأهبوا ويستعدوا.

[8] جميع النسخ: ان.

[9] ك: ويظهر.

[10] ن – فيه.

[11] ع م: عن إخراج.

[12] ن: فمن الأمور.

[13] ن: فأما الساعة.

[14] سورة النحل، ٧٧/١٦.

[15] ع م: على يد.

[16] ك ع م – من الخلق.

فذَكَر الثقل لأن كل من خفي عليه شيء ثقل عليه،[1] فذكر أنها ثقيلة عليهم لخفائها عليهم. وقال قائلون: ثقل وقوعها على أهل **السماوات والأرض**، لكثرة أهوالها وشدة وقوعها. وأمكن أن يكون[2] قوله: **ثقلت في السماوات والأرض**، على نفس **السماوات والأرض**، على ما ذكر في قوله: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ،[3] الآية، وذلك من شدة هولها. ولكن إن كان على نفس **السماوات والأرض**، أي لو كانت هي بحيث تعرف[4] وتميّز وبِنيتها بنية من يعرف ثِقَل شيء لثَقُلَت. وهو ما قلنا في قوله: وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا،[5] والدنيا[6] لا تغر أحدا،[7] أي ما كان منها لو كان ممن يكون منه التغرير لكان تغريرا، فعلى ذلك الأول.

وقوله عز وجل: **يسألونك كأنك حَفِيّ عنها**، اختلف فيه. قال قائلون: قوله: **كأنك حَفِيّ عنها**، أي مُكَرَّم مُشَرَّف عنده، ذو منزلة، فيُعلمك عنها. وكذلك قيل في قوله: إِنَّـهُ كَانَ بِي حَفِيًّا،[8] قيل: بارّا رحيما. وقال قائلون: **كأنك حَفِيّ عنها**، أي عالم بها.[9] وقال قتادة: **كأنك حفي** بهم، كأنك تحب[10] أن يسألوك[11] عنها.[12] وقال غيره: هو على التقديم والتأخير، يسألونك عنها كأنك حَفِيّ، يعني كأنك[13] استَحْفَيت عنها[14] السؤال[15] حتى علمتها.

---

[1] ن – شيء ثقل عليه.

[2] ع: أن يقول.

[3] سورة مريم، ١٩/٩٠.

[4] ك: بحيث لو تعرف.

[5] سورة الأنعام، ٦/٧٠.

[6] ك – والدنيا.

[7] ع: أحد.

[8] ﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حَفِيّا﴾ (سورة مريم، ١٩/٤٧).

[9] ع – اختلف فيه قال قائلون قوله كأنك حفي عنها أي مكرم مشرف عنده ذو منزلة فيعلمك عنها وكذلك قيل في قوله إنه كان بي حفيا قيل بارا رحيما وقال قائلون كأنك حفي عنها أي عالم بها.

[10] ن ع: يجب؛ م: يحب.

[11] ن ع م: أن يسألونك.

[12] عن قتادة: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾، أي حَفِيّ بهم، قال: قالت قريش: يا محمد، أَسِرّ إلينا علم الساعة لما بيننا وبينك من القرابة لقرابتنا منك. انظر: *تفسير الطبري*، ٩/١٤٠.

[13] ع م – حفي يعني كأنك.

[14] ن – عنها.

[15] م: استحفيت السؤال عنها. والمعنى أي أكثرت في السؤال عنها «*لسان العرب* لابن منظور، «حفو»).

ثم قال: **قل**، ما لي بها من علم، و **إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون**، أنها كائن. ويحتمل **ولكن أكثر الناس لا يعلمون**، أنك لا تعلم أنها متى تكون، أو **لا يعلمون** ما عليهم وما لهم.

وقال الحسن في قوله: **ثقلت في السماوات والأرض**، إذا جاءت **ثقلت** على أهل **السماوات والأرض**،[١] وكبرت عليهم.[٢] وقال بعضهم: ثقل ذكرها على أهل **السماوات والأرض**. وقال قتادة: ثقل علمها على أهل **السماوات والأرض**.[٣] وأصله ما ذكرنا، أي خفي علمها على أهل السماء والأرض،[٤] وإذا خفي الشيء ثقل. وقوله: **كأنك حفي عنها**، ما ذكرنا من التأويل. ***والله أعلم***. وعلى قول بعضهم: الحَفِيّ الخبير العالم. وقالوا: هو المُشَرَّف[٥] المُكَرَّم البارّ الذي لا يستخفي[٦] منه شيء ولا يُلَبَّس عليه.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١٨٨]

وقوله عز وجل: **قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا**، قال بعض أهل التأويل: قوله: **لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا**،[٧] [أي] الهدى والضلالة. وقال قائلون من أهل التأويل: **لا أملك** جرّ النفع[٨] إلى نفسي، ولا دفع الضرّ عنها، **إلا ما شاء الله**، أي إلا إن أقدرني الله على ذلك فأملك ذلك. ويشبه أن يكون قوله: **لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا**، قال[٩] ذلك لئلا يتخذوه معبودا، أولا ينسبوه[١٠] إلى الله بالذي لا يليق[١١] النسبة به، نحو[١٢] ما قالت النصارى: المسيح ابن الله،

---

[١] ع - إذا جاءت ثقلت على أهل السماوات والأرض.
[٢] *تفسير الطبري*، ٩/١٣٩؛ و*الدر المنثور* للسيوطي ٣/٦٢١.
[٣] أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي ٣/٦٢٠-٦٢١.
[٤] ك - وقال قتادة ثقل علمها على أهل السماوات والأرض وأصله ما ذكرنا أي خفي علمها على أهل السماء والأرض.
[٥] ع: هو الشرف.
[٦] ك ن ع: لا يستحق.
[٧] ن - قال بعض أهل التأويل قوله لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا.
[٨] ن + جر النفع.
[٩] م: أو قال.
[١٠] ع م: ولا ينسبوه.
[١١] ك: لا تليق.
[١٢] ع م - نحو.

وقالت[1] اليهود: عُزَيْر ابن الله،[2] وقال[3] مشركو[4] العرب: الملائكة بنات الله،[5] لعظيم ما وقع عندهم[6] من محل هؤلاء وقدرهم، فقال: **لا أملك لنفسي نفعا ولا ضَرا**، لئلا ينسبوه إلى الله من الوجه الذي نسب أولئك. أظهر من نفسه العجز والعُبُودَة،[7] وهو ما قال عيسى حيث قال:[8] إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ،[9] الآية.[10] وقال ابن عباس في قوله: **قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضَرا**، وذلك أن[11] أهل مكة قالوا: ألا يخبرك[12] ربك يا محمد[13] بالتجارة المُربِحة فنَتَّجِر فيها فنربح، أَوَلا يخبرك لسنة القحط والجُدُوبة، أو يخبرك بوقت السَّعة[14] والخِصْب، فقال عند ذلك: **ولو كنت أعلم الغيب**، من جُدُوبة الأرض والقحط،[15] **لاستكثرت من الخير**، يقول: لتهيّأت[16] لذلك،[17] **وما مسني السوء**، من الضر والشدة.[18] إلى هذا ذهب عامة أهل التأويل، وقالوا في قوله: **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير**. وقال بعضهم: **لو كنت أعلم الغيب**، متى أموت، **لاستكثرت من الخير**، يعني[19] من العمل الصالح.

---

[1] ع: وقال.
[2] ﴿وقالت اليهود عُزَيْر ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ (سوروة التوبة، ٣٠/٩).
[3] ن ع م: وقالت.
[4] جميع النسخ: مشركوا.
[5] ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ (سورة النحل، ٥٧/١٦).
[6] ع: عنهم.
[7] ع م: والعبادة.
[8] ع م – حيث قال.
[9] سورة مريم، ٣٠/١٩.
[10] ن – الآية.
[11] ن – أن.
[12] ع م: لا يخبرك.
[13] ن – يا محمد.
[14] ن – السعة.
[15] ك ن ع: وقحط.
[16] ن م: لهيأت.
[17] ع: لهيأت لك.
[18] أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾، قال: لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه، فلا أبيع شيئا إلا ربحت فيه، ﴿وما مسني السوء﴾، قال: ولا يصيبني الفقر. انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٦٢٢/٣. وروي عن الكَلْبي أن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا تخبرنا بالسعر الرخيص قبل أن يغلو، فنشتري فنربح، وبالأرض التي تريد أن تُجدِب، فنرتحل منها إلى ما قد أَخصَب، فنزلت. انظر: *روح المعاني* للآلوسي، ١٣٦/٩.
[19] ك – يعني.

ولكن الوجه فيه غير ما ذهبوا إليه، لأنه إن كان لا يعلم متى يموت لا يستكثر من الخير ومن العمل[١] الصالح.[٢] أو لو كان يعلم الغيب لاستكثر المال، على ما قال بعضهم. هذا بعيد. ولكن التأويل -والله أعلم- أن يجعل قوله: **قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا**، أي لا أعلم لكم **نفعا ولا ضرا**،[٣] **ولو كنت أعلم**، لكم، **الغيب لاستكثرت من الخير**، عند الله، أي **لو كنت أعلم** لكم ذلك لصدّقتموني وآمنتم بي، **لاستكثرت من الخير** عند الله بإيمانكم بالله وتصديقكم إياي. أو أن يقال: **لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ولو كنت**، أملك لكم ذلك، **لاستكثرت من الخير**، لأنكم إذا رأيتموني أملك لكم نَفْع ما غاب عنكم ودَفْع ضرّ ما غاب[٤] لآمنتم بي وصدقتموني، فأنا بذلك أستوجب[٥] عند الله خيرا كثيرا، يجعل قوله: **لو كنت أعلم الغيب**، جواب ما تقدم من الكلام. *والله أعلم*. وقال[٦] بعضهم: قوله: **لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا**، أي لا أعلم[٧] الغيب إلا قدر ما أوحي[٨] إليّ، **ولو كنت أعلم** أكثر مما أوحي إليّ[٩] **لاستكثرت من الخير**. وقال بعضهم: لا أعلم الغيب قبل أن أوحي إليّ، **ولو كنت أعلم**[١٠] ذلك **لاستكثرت من الخير** بذلك.

وحاصل التأويل في قوله: **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير**، ما ذكرنا، بتصديقكم إياي وإيمانكم بي. أو ما ذكرنا / من السّعة والخِصْب في الدنيا لأهله ولأصحابه. أو ما ذكرنا، [٢٧٦و]
أي **لو كنت** أملك لكم نفع ما غاب عنكم ودفع ضرر ما غاب أيضا لآمنتم بي وصدقتموني، فأنا بذلك أستوجب[١١] عند الله خيرا كثيرا. وجائز أن يكون قوله: **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير**، أي **لو كنت أعلم**، مَن المصدّق ومن المكذّب **لاستكثرت من الخير**، لأنه لا يشتغل بمن يعلم أنه يَرُدّ ولا يجيب، وإنما يشتغل بمن يعلم منه أنه يجيب[١٢] ولا يكذّب، فيستكثر أتْباعَه والمطيعين لله.

[١] م: من العمل.
[٢] ك - ولكن الوجه فيه غير ما ذهبوا إليه لأنه إن كان لا يعلم متى يموت لا يستكثر من الخير ومن العمل الصالح.
[٣] ع - أي لا أعلم لكم نفعا ولا ضرا.
[٤] ك - ودفع ضر ما غاب.
[٥] ك ن ع: استوجبت؛ ن + بذلك.
[٦] ع: قال.
[٧] ن ع م: أو لا أعلم.
[٨] ك: ما يوحي.
[٩] ع م - ولو كنت أعلم أكثر مما أوحي إلي.
[١٠] ك - أكثر مما أوحي إلي لاستكثرت من الخير وقال بعضهم لا أعلم الغيب قبل أن أوحي إلي ولو كنت أعلم.
[١١] ك ن ع: استوجبت.
[١٢] ع - وإنما يشتغل بمن يعلم منه أنه يجيب.

وقال بعضهم: قوله:[1] **وما مَسَّنِيَ السوء**، هو صلة قوله:[2] أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ،[3] كانوا يقولون: إن به جنونا،[4] فقال: **وما مسني السوء**، من النسبة إلى الجنون. أو يقول:[5] **ما مسني السوء** منكم، سوء ردّ وتكذيب، لأنه لو علم الذي يجيبه ويصدّقه[6] مِن الذي لا يجيبه ولا يصدّقه لم يمسّه منه سوء[7] الرد والأذى، لأنه لا يشتغل به بعد ما أقام عليه الحجة مَن المجيب منكم ومَن الرادّ.[8]

وقوله[9] عز وجل: **إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون**.[10]

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[١٨٩] ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١٩٠]

وقوله: **هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا**، الآية، قال عامة أهل التأويل: إن آدم وحوى لما أُهبِطا **تَغَشّاها** آدم فحملت. فأتاها إبليس، فقال: يا حوى، ما هذا الذي في بطنك؟ قالت: لا أدري. قال: لعله بهيمة من هذه البهائم، ناقة أو شاة أو بقرة. قالت: لا أدري. فأعرض عنها. **فلما أَثْقلتْ** أتاها، فقال:[11] كيف تَجِدِينَكِ؟ قالت: إني لأخاف[12] أن يكون الذي ذكرت، ما أستطيع القيام[13] إذا قعدت إلا بجهد. قال: أفرأيت[14] إن دعوت الله [أن] يجعله إنسانا مثلكِ ومثل آدم أتُسمّينه بي؟

---

[1] ع م – قوله.
[2] ن – قوله.
[3] سورة الأعراف، ١٨٤/٧.
[4] جميع النسخ: جنون.
[5] م: ويقول.
[6] م: ويصدق.
[7] جميع النسخ: سوء منه.
[8] ع م: ومن الرد.
[9] ن: قوله.
[10] لا يوجد تفسير لهذه الجملة من الآية في جميع النسخ ولا في شرح *التأويلات*.
[11] ك: قال.
[12] ن ع م: لا أخاف.
[13] ن: القيا.
[14] ك: أرأيت.

قالت: نعم. فانصرف عنها. وقالت لآدم: لقد أتاني آتٍ فخوّفني بكذا، وإني لأخاف[١] مما ذكر. فدعوا الله في ذلك. فذلك قوله: **دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا**، يقول:[٢] جعلتَه إنسانا، **لنكوننّ من الشاكرين**، فكان هذا دعاءهما[٣] قبل أن تلد. فلما ولدت أتاها إبليس، وقال: ألا تسمّينه بي[٤] كما وعدتِني؟ قالت: نعم، ما اسمك؟ قال: اسمي الحارث. فسمّته عبد الحارث.[٥] فذلك قوله: **فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما**.[٦] على هذا حمل أهل التأويل الآية، وإلى آدم[٧] وحوى صرفوها. وذلك وَحْش من القول، قبيح في آدم وحوى ذلك. ولو ثبت ما قالوا: إنهما سمّيا ولدهما[٨] باسمه ونسبا إليه، لم يكن في ذلك إشراك، إذ لو كان في مثله إشراك لكان فيما أضاف العبيد والمماليك إلى الخلق إشراك في ألوهيته.

ثم التأويل عندنا على غير ما ذهبوا إليه –والله أعلم– وهو أن قوله: **هو الذي خلقكم من نفس واحدة**، يعني من آدم، **وجعل منها زوجها**، حوى، أنْ خَلَق الذكور كلهم من آدم، وخلق الإناث كلهن من حوى، كقوله: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا،[٩] أخبر أن الأزواج خلقهن من أنفس[١٠] الأزواج، فلما أضاف الزوجات إلى أنفس[١١] الأزواج[١٢] وأنهن[١٣] من أنفسهم[١٤] خُلِقن كان قوله: **خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها**،

---

[١] ع م: لا أخاف.

[٢] م: بقوله.

[٣] م: دعاؤهما.

[٤] ع: في.

[٥] ع – فسمته عبد الحارث.

[٦] أخرج نحوه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير. انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٦٢٤/٣. وقد روي عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما وَلدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سَمِّيه عبد الحارث، فإنه يعيش، فسمَّته عبد الحارث، فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» (*مسند أحمد بن حنبل*، ١١/٥؛ و*سنن الترمذي*، التفسير ٧). والحديث ضعيف كما بين ذلك الحافظ ابن كثير. انظر: *تفسير ابن كثير*، ٢٧٥/٢-٢٧٦.

[٧] م: إلى آدم.

[٨] م – ولدهما.

[٩] سورة الروم، ٢١/٣٠.

[١٠] ع م: من نفس.

[١١] ع م: إلى نفس.

[١٢] جميع النسخ: الزوج.

[١٣] ك: والتي.

[١٤] ع م: من أنفسهن.

[أنّ] كل زوجة وزوج إذا **تغشّاها** وحملت [يكون كأنه] دَعَا[1] آدم وحوى: **لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين**، إذ جميع الأولاد أولادهما، [فهما] يدعوان[2] الله في ذلك ليكون **صالحا**، فمن كان مسلما منهم[3] كان بدعائهما.[4] فعلى هذا التأويل يحصل[5] دعاؤهما لأولادهما الذين يولدون إلى يوم القيامة، لأنهما أب وأم، وقد يدعو[6] الوالدان لأولادهما بالصلاح والخير.[7] على هذا يجوز أن يخرج تأويل الآية. وأما ما قاله أولئك فهو بعيد محال. *والله أعلم*.

وقال بعضهم: إن العرب كان إذا وُلد لهم أولاد ذكور ينسبون إلى الأصنام التي يعبدونها ويضيفون إليها، تعظيما لها، يقولون: ابن اللّات وابن العُزّى وابن المَنَاة ونحو ذلك. وكانوا يقتلون البنات. وكان إذا أصابتهم الشدة يفزعون إلى الله ويتضرعون إليه،[8] كقوله: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ،[9] وكقوله: وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ،[10] الآية،

---

[1] ن: دعاء.

[2] ع م: يدعون.

[3] جميع النسخ: منهما.

[4] ك: يدعا بهما.

[5] ن – يحصل.

[6] ع: وقد يدعوا.

[7] لكن الشارح يقول: «وهو أن قوله: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾، يعني آدم عليه السلام، ﴿وجعل منها زوجها﴾، أي حواء وغيرها من أزواج أولاده إلى يوم القيامة، أخبر أنه خلق بني آدم وبناته من نفس آدم عليه السلام، كأنه في كل نفس جزء منه، قد اجتمعت الأجزاء كلها في آدم عليه السلام، فيكون الجملة نفسا واحدة. ثم جعل من تلك النفس زوجها، وزوجة كل واحد من بنيه إلى قيام الساعة، إذ الكل أجزاؤه منه، فيصير في التقدير كأنه خلق الزوجات كلها من أنفس الأزواج. وهو كقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها﴾، الآية، أخبر أن الأزواج خلقهن من أنفس الأزواج، فإنهن من أنفسهم خُلِقن. فينصرف قوله: ﴿خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾، إلى كل زوج وزوجة. وإذا ثبت [هذا] كان قوله: ﴿فلما تغشّاها حملت حملا خفيفا﴾، ينصرف إلى كل زوجة حملت من زوج من أولاد آدم وحواء عليهما السلام. ﴿فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين﴾، يمكن أن يصرف إلى كل زوج وزوجة يدعون عند ظهور الحمل بالمرأة بالصلاح والخير لأولادهما الذين يولدون إلى يوم القيامة، فمن كان مسلما من أولادهما كان بدعائهما، إذهما أب وأم، ويدعو الوالدان للأولاد بالصلاح والخير (*شرح التأويلات*، ورقة ٣١٩و-ظ).

[8] ن – إليه.

[9] ﴿فإذا ركبوا في الفُلْك دَعَوا الله مُخلِصين له الدين فلما نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٦٥).

[10] ﴿وإذا مسّ الإنسان ضُرٌّ دعا ربّه مُنِيبًا إليه ثم إذا خوّله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا لِيُضِلّ عن سبيله قل تمتّع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٨).

[وكقوله:] وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ،[١] الآية.[٢] فلما ذهب ذلك عنهم وانجلى عادوا إلى ما كانوا من قبل، كقوله: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ، وقوله: ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ، الآية. فإذا كان من عادة العرب ما ذكرنا كان إذا حملت زوجة أحد[٣] منهم وثَقُل ما في بطنها جعلا يدعوان **الله ربهما لئن آتيتنا صالحا**، ذَكَرًا وسَلِمَت من الولادة، **لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا**، يعني ذَكَرا، **جعلا له شركاء فيما آتاهما**، أي **جعلا** لله[٤] **شركاء** في الولد الذي وُلد لهما، وينسبونه إلى الأصنام التي كانوا يعبدونها، فذلك قوله: **جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون**. *والله أعلم بذلك*.

وقال الحسن: الآية في مشركي العرب، إلا قوله: **خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها**، فإن ذلك في آدم وحوى؛ ألا ترى أنه قال: أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ،[٥] دل[٦] أنه ما ذكرنا.[٧] وقال أبو بكر الأصم: قوله: **هو الذي خلقكم من نفس واحدة**، وهو نفس آدم، **وجعل منها زوجها**، أي خلق كل نفس منكم من تلك النفس، وجعل لكل نفس منكم زوجة من تلك / النفس، **ليسكن إليها**. فعلى هذا التأويل يصرف آخر الآية [٢٧٦ظ] إلى غير آدم وحوى.

وقال القُتَبي: قوله: **فمرت به**، أي[٨] استمرت بالحمل.[٩]

وقوله: **هو الذي خلقكم من نفس واحدة**، إن العرب كانت تعبد الأصنام تقليدا لآبائهم وسلفهم؛ فيذكر سفههم أن النفس التي خُلِقتم[١٠] منها لم تقلّد[١١] أحدا ولم تشرك أحدا،

[١] ﴿وإذا غَشِيَهُمْ موج كالظُّلَل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البرّ فمنهم مُقتصِد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختَّارٍ كفور﴾ (سورة لقمان، ٣١/٣٢).

[٢] ن - الآية.

[٣] ع م - أحد.

[٤] م: الله.

[٥] سورة الأعراف، ٧/١٩١.

[٦] ن - دل.

[٧] لم أجده بهذا اللفظ، لكن روي عن الحسن أنه قال: عُني بهذا ذرية آدم مَن أشرك منهم بعده. وفي رواية أخرى أنه قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم. وفي رواية أخرى: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادا، فهوّدوا ونصّروا. انظر: *تفسير الطبري*، ٩/١٤٨؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٦٢٦.

[٨] ع م - أي.

[٩] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٥.

[١٠] ع م - خلقتم.

[١١] ك: لم تقلدا.

إنما اتبعت ما في العقل حُسْنُه أو ما في السمع من الأمر. فكيف لا اتبعتم[١] أنتم النفس التي خُلِقتم منها وهي لم تتبع إلا ما ذكرنا دون ما اتبعتم في الإشراك له آباءكم؟ ولو كانت القصة في آدم على ما يقوله[٢] أهل التأويل لكان[٣] للعرب تعلق واقتداء به،[٤] فيقولون: إنه أشرك، ونحن نشرك.[٥] فدل أنه ليس على ما قالوا، ولكن على الوجوه التي ذكرنا.

وفي قوله: **خلقكم من نفس واحدة**، دلالة أنْ ليس لأحد من البشر على آخر فضل[٦] من جهة الخلقة والنسبة، إذ كلهم إنما خلقوا **من نفس واحدة**، وهم إخوة وأخوات. وإن كان لأحد فضل على آخر فإنما يكون لأعمال يكتسبها وأخلاق محمودة ومحاسن يختارها، وأما من جهة الخلقة فلا فضل لبعض على بعض، كقوله: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ.[٧]

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[١٩١]

وقوله عز وجل: **أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون**، يذكر سفههم أنهم يشركون في عبادته وألوهيته من يعلمون أنه لم يخلقهم، وإنما خلقهم الله سبحانه، وهم مخلوقون، فصرف العبادة إلى غير الذي خلقهم سفه وجور.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾[١٩٢]

وقوله عز وجل: **ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون**، يُسَفِّههم أيضا أن في الشاهد لا يخضع أحد لأحد[٨] ولا يشكر له إلا مجازاة[٩] لما سبق منه إليه[١٠] من النعمة، أو لما يأمل في العاقبة من المنفعة. وأنتم تعبدون هذه الأصنام ولم يسبق منها إليكم شيء[١١] ولا لكم رجاء يقع في العاقبة، فكيف تعبدون؟ أو **لا يستطيعون** لكم **نصرا**، يدفعون عنكم الضر،

---

[١] م: فكيف اتبعتم.
[٢] م: على ما يقول.
[٣] ع م – لكان.
[٤] ع م – به.
[٥] ك + به.
[٦] م – فضل.
[٧] سورة الحجرات، ١٣/٤٩.
[٨] جميع النسخ: أحدا.
[٩] ع: إلا مجازات.
[١٠] ن –إليه.
[١١] ع: شيئا.

ولا أنفسهم ينصرون، أي ولا مَن قصد قصدهم بالكسر والإتلاف يملكون دفعه عن أنفسهم.[١] *والله أعلم*.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾[١٩٣]

وقوله عز وجل: **وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتّبعوكم**، يحتمل هذا وجهين. يحتمل **وإن تدعوهم**، يعني الأصنام، **إلى الهدى**، ليهتدوا، **لا يتبعوكم**، أي لا يجيبوكم ولا هم يهتدون. والثاني **وإن تدعوهم إلى** ما لكم إليه من حاجة، **لا يتبعوكم**، لا يقضون ولا يملكون ذلك. [و]يحتمل أن يكون الخطاب للمسلمين، يقول: **وإن تدعوهم**، أهل مكة، **إلى الهدى لا يتبعوكم**، أي لا يجيبوكم. وجائز أن يكون يخاطب به أهل مكة، يقول: وإن تدعوا[٢] الأصنام التي تعبدونها، **إلى الهدى**، لا يملكون إجابتكم. يُسَفِّههم في عبادتهم مَن حاله[٣] ما وصف.

وقوله عز وجل: **سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون**، أمكن أن[٤] تكون الآية في قومٍ علم الله أنهم لا يؤمنون أبدا، كقوله: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.[٥] وقال بعضهم:[٦] قوله: **وإن تدعوهم**، يعني المشركين، **إلى الهدى لا يتبعوكم**، فعلى ذلك يخرج قوله: **سواء عليكم أدعوتموهم**. وأمكن أن يكون قوله: **سواء عليكم أدعوتموهم**، في الأصنام. *والله أعلم*.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١٩٤]

وقوله عز وجل: **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم**، يحتمل قوله: **تدعون**، أي تعبدون **من دون الله**، وقد كانوا يعبدون من دون الله أصناما وأوثانا. ويحتمل **تدعون**، أي تسمونهم **من دون الله** آلهة. وقوله: **عباد أمثالكم**، في الخلقة والدلالة على وحدانية[٧] الله، وفي التدبير[٨] دونهم،

---

[١] ع م: من أنفسكم.
[٢] ن: وإن تدعو.
[٣] ك ن ع: من حال.
[٤] م: أم أن.
[٥] سورة البقرة، ٦/٢.
[٦] ن – بعضهم.
[٧] م: على حدانية.
[٨] ع م: في التدبير.

لِما قال: أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا،[1] إلى آخر ما ذكر، أي ليس لهم ما ذكر، فهم[2] دونهم في التدبير والمعونة. ويحتمل قوله: [إن الذين] **تدعون من دون الله عباد أمثالكم**، الملائكة[3] الذين عبدتموهم،[4] **عباد أمثالكم**، فلا تسمّوهم[5] آلهة، أي لا تعبدوا عبادا **أمثالكم**،[6] ولكن اعبدوا من لا مثل له ولا نظير له. وإن كان[7] قوله: **عباد أمثالكم**، الملائكة، فقوله: أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا، الآية، هو منه مقطوع منصرف إلى الأصنام.[8]

وقوله عز وجل: **فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين**، ذكر الدعاء والاستجابة ولم يبين فيما ذا يستجيبونهم، ولا يجب[9] أن تُفسَّر[10] الاستجابة في الشفاعة أو في التقريب[11] إلى الله أو في غيره، إلا أن يُعلَم أنهم كانوا يدعونهم بكذا ويطلبون منهم كذا. وقوله: **إن كنتم صادقين**، أنهم آلهة على ما تزعمون. أو **إن كنتم صادقين**، فيما تزعمون أن عبادتكم إياها تقرّبكم إلى الله زُلْفَى.[12]

---

[1] الآية التالية.
[2] م: ما ذكرتم.
[3] ك: الملئكة.
[4] ك ن: عبدوهم هم؛ ع م: عبدوهم.
[5] جميع النسخ: فلا تسمونهم.
[6] ن ع: مثالكم.
[7] جميع النسخ: أو إن كان.
[8] قال الشارح رحمه الله تعالى: «وعلى هذين التأويلين جواب إشكال أورده الملحدة في هذه الآية. فقالت: فيها تناقض، لأنه قال: ﴿عباد أمثالكم﴾، ثم قال في آخرها: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾، الآية، فإذا لم يكن لِما تعبدون هذه الأشياء فكيف تكون أمثالا لهم؟ فعلى التأويل الأول المراد هو المماثلة في أصل الخلقة والحديثة والحاجة إلى الخالق والمُحدِث وإن كان بينهم تفاوت في الصورة والتدبير والمعونة ونحوها. وعلى الثاني المراد بهم الملائكة، وبينهم تماثل فيما ذكر من الأيدي والأرجل والآذان والأعين ونحوها. وإن كان المراد هو التأويل الأول فقوله: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾، مبني على قوله: ﴿عباد أمثالكم﴾. وإن كان المراد هو الملائكة فقوله: ﴿ألهم رجل يمشون بها﴾، الآية، مقطوع عن الأول مُنصرِف إلى الأصنام. والله أعلم. وبعضهم أجابوا عن هذا لإشكال وقالوا: إن قوله: ﴿عباد أمثالكم﴾، ذكر على الاستفهام، أي أعباد أمثالكم؟ على حذف حرف الاستفهام، أي ليسوا عبادا أمثالكم. لذلك قال: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾، الآية، أي ليس لهم ذلك، حَقَّق نَفْيَ المماثلة وسَفَّهَهم بعبادة من ليس بمثل لهم. والله أعلم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٢٠و؛ ونسخة المدينة، ورقة ٣٥٦ظ).
[9] ع: ولا يجيب.
[10] ن ع م: أن يفسر.
[11] م: إلى التقريب.
[12] ع م- وقوله إن كنتم صادقين أنهم آلهة على ما تزعمون أو إن كنتم صادقين فيما تزعمون أن عبادتكم إياها تقربكم إلى الله زلفى. ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليُقرِّبونا إلى الله زُلْفَى﴾ (سورة الزمر، ٣/٣٩).

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾[١٩٥]

وقوله: **ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها**، يُسفِّه عقولهم بعبادتهم الأصنام التي لا **أرجل** لهم **يمشون بها**، يهربون [مِن] مَن يقصدهم بالسوء، أو يقصدون هُم[1] قَصْد مَن أراد[2] الضر بهم والسوء. وكذلك يعبدون[3] ما لا أيدي لهم **يبطشون [بها]**، يدفعون عن أنفسهم من أراد السوء بهم،[4] أو يأخذون من يقصدهم. وكذلك قوله: **أم لهم أعين يبصرون بها**، يبصرون[5] من يقصدهم بالسوء. **أم لهم آذان يسمعون [بها]** من يشتمهم ويَذكرهم بالسوء. يُسَفِّههم في عبادتهم من لا يملك دفع من يقصده بالسوء، إما هربا منه، وإما قصدا منه إليه بالسوء، فإذا كانوا لا يملكون ذلك كيف تعبدونه؟[6] وهو كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا،[7] فإذا كانوا لا يملكون[8] / دفع ما يحل بهم كيف يملكون جر النفع إليكم أو دفع الضر عنكم؟ [٢٧٧ر]

وقوله عز وجل: **قل ادعوا شركاءكم**، قال بعض أهل التأويل: خاطب به كفار مكة بقوله: **قل ادعوا شركاءكم**، الذين[9] تزعمون أنهم آلهة دون الله. ويحتمل قوله: **شركاءكم**، أي ادعوا من شاركوكم في عبادة من دونه، **ثم كِيدونِ**. ويحتمل أن يكون الخطاب لجميع الكفار الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله، قال ذلك لهم رسول الله بين ظهرانيهم: **ثم كيدون فلا تنظرون**، فلم يقدر[10] أحد [على] الكيد به والضرر[11] مع قوتهم وعُدّتهم بالكثرة والأعوان،

---

[1] ك ن م: يقصدون بهم؛ ع: يقصدوهم.
[2] ع: من إرادة.
[3] ك +بها.
[4] ع م – بهم.
[5] م: يبصر.
[6] ك ع م: تعبدون.
[7] سورة مريم، ٤٢/١٩.
[8] ن – ذلك كيف تعبدون وهو قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا فإذا كانوا لا يملكون.
[9] ك: التي.
[10] ن: ثم لا يقدر؛ ع م: ثم لم يقدر.
[11] ك: والقهر.

وضَعْف رسول الله وقلة أعوانه. دل عجزهم عن ذلك أنه كان آية في نفسه، وأنه بالله تعالى ينتصر، وبه قَوِي[1] على أعدائه. وذلك من عظيم[2] آياته،[3] لأنه قال ذلك لمن كانت همتهم القتل والإهلاك لمن خالفهم فيما هم فيه، ثم لم يقدر أحد[4] منهم [على] الضرر به، دل أنه كان بالله حِفْظُه. وكذلك سائر الأنبياء صلوات الله عليهم، حيث قالوا بين ظهراني قومهم من نحو هود ونوح وهؤلاء، [حيث قال هود عليه السلام:] فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ،[5] وقول[6] نوح: قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ،[7] الآية.

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[١٩٦]

وقوله عز وجل: **إن وليي الله الذي نزل الكتاب**، الآية، ذكر هذا على إثر قوله: ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ،[8] كما ذكر هود:[9] إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ،[10] وكما قال نوح: إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ،[11] فَزِعوا إلى الله عز وجل عند وعيد قومهم بالإهلاك، وعليه اعتمدوا، وبه وَثِقوا، فعلى ذلك رسول الله قال: **إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين**، أي هو وليي[12] يحفظني، **وهو يتولى** حفظ **الصالحين**، أي يَتَوَلّيه صَلَحُوا. أو **يتولى**[13] ويحفظ **الصالحين**، مقابل قول[14] من ذكرنا من الرسل لقومهم.[15]

---

[1] ك: وإنه قوي.
[2] ن: من عظم.
[3] ع: آية.
[4] ع: أحدا.
[5] سورة هود، ٥٥/١١.
[6] م: وقال.
[7] سورة هود، ٣٨/١١.
[8] الآية السابقة.
[9] ن ع: هودا.
[10] سورة هود، ٥٤/١١-٥٦.
[11] سورة يونس، ٧١/١٠.
[12] ع: ولي.
[13] ك: ويتولى.
[14] ع م: قوله.
[15] جميع النسخ: قومهم.

ثم قوله: **وليي الله**، يحتمل حافظي وناصري، أو ولي[١] تدبيري **الله الذي نزل الكتاب**، أو ولي أمري، أو أولى بي، **الله الذي نزل الكتاب**، الذي عجزت الخلائق عن إتيان مثله، **وهو يتولى الصالحين**.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾[١٩٧]

وقوله عز وجل: **والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون**، يذكر[٢] سفههم بعبادتهم مَن عَجَز عن دفع الضرر عن نفسه، فضلا أنْ يَدفع ذلك عنهم، أو يجروا إلى أنفسهم منفعة.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[١٩٨]

وأخبر عن جهلهم أنهم يعبدون من لا يملك دفع ضرّ ولا جرّ نفع، بقوله: **وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**، الهدى. هذا يخرج على وجهين. أحدهما يخاطب به المؤمنين بقوله: **وإن تدعوهم**،[٣] [أي] وإن تدعوا أهل مكة،[٤] **إلى الهدى لا يسمعوا**، أي لا يجيبوا.[٥] **وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**، أي لا ينتفعون[٦] به، أو لشدة تَعنُّتهم **لا يبصرون**. وجائز أن يكون يقول: وإن تدعوا[٧] الأصنام التي تعبدون[٨] **إلى الهدى لا يسمعوا**، أي لا يجيبوا، ولا يملكون الإجابة. ويحتمل **لا يسمعوا**، حقيقة السمع. **وتراهم ينظرون إليك**، على التمثيل، أي كأنهم **ينظرون إليك وهم لا يبصرون**، حقيقة.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[١٩٩]

وقوله: **خذ العفو**، يتوجه وجهين. أحدهما على حقيقة الأخذ. والثاني على العمل بالعفو. فإن كان على الأخذ فهو على وجهين. يحتمل أنْ **خذ**، الفضل الذي لا حق فيه، وهو القليل من ذلك واليسير. والثاني أنْ **خذ**، ما يفضل من أنفسهم وحوائجهم من غير مسألة،

---

[١] ن: وولي؛ ع: أو وليي.
[٢] ع م: ويذكر.
[٣] ن ع م – وإن تدعوهم.
[٤] ك – وإن تدعوا أهل مكة.
[٥] ع م: أي يجيبوا.
[٦] ع: أي ينتفعون.
[٧] م: وإن تدعو.
[٨] ن: التي تعبدونها.

أي اقبل منهم ما أعطوك، ولا تُلِحّ في المسألة، كقوله: وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا،[1] الآية، أخبر إنْ يَسْأَلْهم أموالهم حملهم ذلك على البخل. وإن كان على العمل فهو على وجوه. أي اعف عن الظلمة[2] عن ظلمهم، وأعرض عن السفهاء، واحْلُم معهم. أُمِر رسول الله[3] أن يعامل الخلق بأشياء ثلاثة. أُمِر أن يعفو عن الظلمة عن ظلمهم [وأن] لا يُكافِئهم[4] بظلمهم، وأُمِر أن يعرض عن السفهاء و الجهّال ويَحْلُم معهم،[5] وأُمِر أن يعامل المؤمنين باللين والرفق. وكذلك[6] وصفه بالرحمة والرأفة، بقوله: بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ.[7] وروي عن عبد الله بن الزبير قال: **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**، قال:[8] ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس.[9] وعن قتادة قال:[10] **خذ العفو وأمر بالعرف**، قال: خُلُق حسن أمر الله به نبيه، ودعاه إليه.[11] إلى هذا ذهب بعض أهل التأويل، وإلى ذلك[12] صَرَف تأويل الآية. وقال بعضهم: هو أخذ الفَضْل من المال على ما ذكرنا؛ فهو منسوخ بآية الزكاة. وروي في حرف ابن مسعود وأُبَيّ: **خذ العفو وأمر** بالمعروف[13] وانه عن المنكر **وأعرض عن الجاهلين**، وفيه دلالة أنه[14] أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمعروف هو اسم كل خير. وأمره بأن يأخذ بالعفو عن الظلمة على ما ذكرنا، وعلى ذلك روي عن عائشة قالت: كان رجل يشتم رسول الله ويؤذيه، فدخل على رسول الله، فأوسع له وأدناه ورحّب به. قالت: فقلت: يا رسول الله، أليس هذا كان يشتمك؟

---

[1] سورة محمد، ٤٧/٣٦-٣٧.
[2] ك: اعف الظلمة.
[3] ن: رسوله.
[4] جميع النسخ: لا تكافهم.
[5] ن + معهم.
[6] ك: ولذلك.
[7] ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ (سورة التوبة، ٩/١٢٨).
[8] ع م + خلق حسن.
[9] *صحيح البخاري*، التفسير ٧/٥؛ وسنن *أبي داود*، الأدب ٤؛ و*تفسير الطبري*، ٩/١٥٤. ورواه غيرهم؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٦٢٨.
[10] ك م – قال.
[11] *تفسير الطبري*، ٩/١٥٦. وأخرجه كذلك عبد بن حميد؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٦٢٩.
[12] ن: وإلى هذا.
[13] ن ع م: بالعرف.
[14] ك – أنه.

/ قال: «بلى يا عائشة، إن من شرار الناس الذين يُكرَمون اتّقاءَ شرورهم[١] وألسنتهم».[٢] إلى مثل[٣] [٢٧٧ظ] هذا دُعِي رسول الله بالعفو والصفح عن الظَّلَمة وترك المكافأة.

وقوله: **وأمر بالعرف**، أي مُر الناس **بالعرف**، وهو ما تَشهَد[٤] [به] خِلقتُك وتأمرك به. [وهي] أشياءُ ثلاثةٌ؛ اثنان منها[٥] فيما بينه وبين ربه، والواحد فيما بينه وبين الناس.[٦] أما الاثنان اللذان فيما بينه وبين ربه[٧] أحدهما تأْمُر خِلقَتُه وتشهد على وحدانية الله والدلالة على ألوهيته. والثاني تشهد على نعم الله إليه، فتدعوه[٨] إلى الشكر له فيما أنعم[٩] عليه. وأما الوجه الذي تدعو[١٠] [إليه] خِلقتُه فيما بينه وبين الناس هو[١١] ما تَرغَب[١٢] نفسُه في كل المَحَاسِن[١٣] و[كل] مَرغُوبٍ فيه، وتَنفِر[١٤] نفسُه عن كل أذى وسوء. فأُمِر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعامل الخلق بما تَرغَب[١٥] نفسُه وتطمع[١٦] في المحاسن، وتَنفِر عنه وتكره، [أي] يفعل[١٧] إليهم كل[١٨] ما تَرغَب نفسه فيه وتطمع،[١٩] ويمتنع عن كل أذى وسوء. ***والله أعلم***.

---

[١] ع م: شرهم.

[٢] لم أجده بهذا اللفظ، لكن روي عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بئس أخو العشيرة»، فلما دخل انبسط إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلّمه، فلما خرج قلت: يا رسول الله، لما استأذن قلت: «بئس أخو العشيرة»، فلما دخل انبسطت إليه، فقال: «يا عائشة، إن الله لا يحب الفاحش المتفحّش» وفي رواية أخرى زاد: «يا عائشة، إن مِن شِرار الناس الذين يُكرَمون اتقاء ألسنتهم» (*صحيح البخاري*، الأدب ٨٢؛ وصحيح *مسلم*، البر ٧٣؛ وسنن *أبي داود*، الأدب ٥). واللفظ لأبي داود.

[٣] ع: على مثل.

[٤] ن ع م: ما يشهد.

[٥] ن ع م – منها.

[٦] ع – الناس.

[٧] ن – والواحد فيما بينه وبين الناس أما الاثنان اللذان فيما بينه وبين ربه، صح، هـ.

[٨] جميع النسخ: فيدعوه.

[٩] م + الله.

[١٠] جميع النسخ: يدعو.

[١١] ك: وهو.

[١٢] جميع النسخ: ما يرغب.

[١٣] جميع النسخ: محاسن.

[١٤] جميع النسخ: وينفر.

[١٥] ن ع م: بما يرغب.

[١٦] ع م: وطمع.

[١٧] ن ع م: تفعل.

[١٨] جميع النسخ: إليهم في كل.

[١٩] ع م: وطمع.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢٠٠]

وقوله عز وجل: **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ**، قال بعضهم: النزغة هي أدنى أفعال المعصية.
[٢٧٧ظ س٢٦ وكذلك فسره ابن عباس رضي الله عنه. يقول: إذا أذنبت[١] ذنبا فاستعذ بالله.* فإن كان[٢] على هذا فهو يخرج على النهي عن ذلك، فهو كالمخاطبات التي خاطب بها رسول الله، كقوله: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،[٣] فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ،[٤] فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ،[٥] وإن كان يعلم أنه لا يشك ولا يجهل ولا يُشرِك غيرَه في أمره. فعلى ذلك هذا الخطاب الذي خاطبه بقوله: **ينزغنك من الشيطان**. وإن كان ما ذكر هو من أدنى ذنب يرتكبه فهو يخرج[٦] ذلك على تعليمه أمّته
٢٧٧ظ س٣٠] أن كيف يفعلون إذا اعترض لهم ذلك.[٧] *والله أعلم*.* وقال القُتَبي: **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ**، أي يستخفنّك، ويقال: نزغ شيئا، إذا أفسد.[٨] وقال أبو عَوْسَجَة: النزغ التحريك للفساد.[٩] وقال بعضهم: قوله: **ينزغنك من الشيطان نزغ**، أي يوسوسك الشيطان وسوسة، **فاستعذ بالله**.

ثم في الاستعاذة[١٠] وجهان. أحدهما أمره بالفزع إلى الله عندما يوسوسه الشيطان، والالتجاءِ[١١] إليه لما رأى نفسه عاجزة عن دفع ما يوسوس إليه وردِّه، ليكون[١٢] هو الدافع عنه ذلك وهو الرادّ. وقال[١٣] الخليل: أعوذ بالله، أي ألجأ إلى الله تعالى، وكذلك قوله: أستعيذ[١٤] بالله، ومعاذ الله، معناه أعوذ بالله، ومنه الإعاذة والتعوّذ والتعويذ.[١٥] وقال غيره: أعوذ بالله، أي أمتنع بالله.

---

[١] ع: يقول أذنبت.
[٢] ع م: وإن كان.
[٣] سورة الأنعام، ١٤/٦؛ وسورة يونس، ١٠٥/١٠؛ وسورة القصص، ٨٧/٢٨.
[٤] سورة الأنعام، ٣٥/٦.
[٥] سورة البقرة، ١٤٧/٢؛ وسورة يونس، ٩٤/١٠.
[٦] ن: ويخرج.
[٧] ن + على تعليمه أن كيف.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٢٧٧ظ/سطر ٢٦-٣٠.
[٨] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٧٦.
[٩] ن: بالتحريك الفساد.
[١٠] ع: ثم الاستعاذة.
[١١] ك ن ع: والتجا؛ م: والتجاء.
[١٢] ع م: ورد ما يكون.
[١٣] ع: قال.
[١٤] ن ع م: استعذ.
[١٥] قال الخليل: «أعوذ بالله، أي ألجأ إلى الله، عَوْذا وعِياذا. ومَعَاذ الله معناه أعوذ بالله، ومنه العَوْذة والتعويذ» (*كتاب العين*، ٢٢٩/٢).

وقيل: أعوذ بالله، أي أتحصّن بالله. و[الثاني] قيل: الاستعاذة هو الاستغاثة بالله تعالى لدفع ما اعترض له من الشيطان. وكلّه قريب بعضه من بعض.

ثم الحكمة فيما جعل عدوهم من غير جنسهم من حيث لا يرونه ويراهم وجهان. أحدهما ليكونوا أبدا على التيقّظ والانتباه، غير غافلين عنه. والثاني ليكونوا أبدا فَزِعين[١] إلى الله تعالى متضرّعين إليه مبتهلين، ليكون هو الحافظ لهم والدافع عنهم شرّه ووسواسه.

وفيما أمر بالفزع إلى الله والاستعاذة به عند نزغ الشيطان نَقْض على المعتزلة، لأنهم يقولون: قد أعطاهم جميع ما يدفعون به وساوسه ونَزَغاتِه حتى لم يَبق عنده شيء يُعِيذه. فعلى قولهم يخرج طلب الإعاذة مخرج كتمان النعمة، أو مخرج الهُزْء به. [أما كتمان النعمة فلأنه إذا كان ذلك عنده فيكون السؤال كتمانا، وفي ذلك كفراتها]،[٢] وأما الهُزْء[٣] به لأنه يسأله ما يعلم أنه ليس ذلك عنده.[٤]

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[٢٠١]

وقوله عز وجل: **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان**، وقيل: طَيْفٌ[٥] **من الشيطان**، فمن قرأ طَيْف قال: اللَّمة.[٦] [وقيل:][٧] الخَطْرة، [و]الشيء يَغشاك؛ وقال: وأما الطائف فهو من الطواف. وقيل: الطيف الوسوسة. وقيل: الطيف ما يأتيك من الشيطان. وقيل: الطائف والطيف سواء. وعن ابن عباس **إذا مسهم** طيف **من الشيطان**، قال: إذا أذنبوا ذنبا، **تذكّروا فإذا هم مبصرون**، يقول: **تذكّروا** ذنوبهم فتابوا منها.[٨] وكذلك قال في قوله: يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ،[٩] هو أدنى ذنب يرتكبه.*

---

[١] ع: افزعين.

[٢] مستفاد من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٢٠ظ.

[٣] ك ن م: أما الهزء.

[٤] أي عند الله على قول المعتزلة.

[٥] قراءة متواترة قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب؛ انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢/٢٧٥.

[٦] اللَّمَة واللَّمَم كلاهما الطائف من الجنّ، وكذلك اللَّمَّة: الهَمّة والخَطْرَة تقع في القلب (*لسان العرب* لابن منظور، «لمم»).

[٧] من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٢٠ظ.

[٨] روي بمعناه، وفسر على قراءة "طائف". انظر: *تفسير الطبري*، ٩/١٥٨، ١٥٩؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٣/٦٣٣.

[٩] الآية السابقة.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٧٧ظ/سطر ٢٦-٣٠.

وقوله: **إن الذين اتقوا إذا مسهم** كذا، يحتمل أن يكون[1] قوله: **اتقوا** مكايد الشيطان، إذا أصابهم شيء من ذلك **تذكروا** ذلك، فعرفوا أنه من الشيطان، **فإذا هم مبصرون**، أي أبصروا أنه من الشيطان. أو أن يقال: أي هم من أهل البصر، يبصرون عما **اتقوا** به أنه من الشيطان. ويحتمل قوله:[2] **إن الذين اتقوا**، المعاصي إذا أصابهم وسوسة من الشيطان، **تذكروا** ذلك. وقال بعض أهل التأويل: قوله: **إن الذين اتقوا**، أي **اتقوا** الشرك. لكن لا كل من اتقى الشرك يكون كما ذكر.

وقوله: **إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا**، الآية، يحتمل وجوها. أحدها **إذا مسهم** بذلك فأَبَوْا عما كان منهم، كقوله: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً،[3] الآية. والثاني **تذكروا**، وجوه حيل[4] دفع وساوسه. والثالث **تذكروا**، استعاذوا به حيث[5] أمرهم بالاستعاذة[6] عند النزغة.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[٢٠٢]

وقوله عز وجل: **وإخوانهم يَمُدُّونهم في الغي ثم لا يُقصِرون**، قال بعض أهل التأويل: قوله: **وإخوانهم**، يعني إخوان الكفار الشياطين، **يَمُدُّونهم في الغي**، قالوا: في الشرك والمعصية، **ثم لا يُقْصِرون** عنها،
[٢٧٨و] أي لا ينتهون عنها ولا يبصرونها[7] كما أبصر الذين اتقوا عنها حين / أبصروها. ويحتمل أن يكون قوله: **وإخوانهم**، يعني أصحاب الذين اتقوا وهم شياطينهم من الإنس، يدعونهم إلى دينهم، لكنْ هم[8] لا يجيبونهم ولا يطيعونهم فيما يدعون إليه. إذ يجوز أن يكون لكل مؤمن شيطان من الإنس[9] وشيطان من الجن، كقوله: وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ،[10] فقد دعا أولئك شياطينُ الجن فتذكروا فلم يجيبوهم،[11] ثم دعاهم شياطين[12] الإنس أيضا فلا يجيبونهم. *والله أعلم*.

[1] ك – أن يكون.
[2] ن – قوله.
[3] ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ (سورة آل عمران، ٣/٣٥).
[4] ن ع: جبل.
[5] جميع النسخ: حين.
[6] ع م: بالاستعانة به.
[7] ك: ولا يبصرون.
[8] ع – هم.
[9] ن – يدعونهم إلى دينهم لكن هم لا يجيبونهم ولا يطيعونهم فيما يدعون إليه إذ يجوز أن يكون لكل مؤمن شيطان من الإنس.
[10] سورة الأنعام، ٦/١١٢.
[11] ن ع: ولم يجيبوهم.
[12] ع: ثم دعا سيلطين.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢٠٣]

وقوله عز وجل: **وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها**، ظاهر الآية في سؤال أهل الكفر رسول الله الآية. فإنهم[١] كانوا إذا أتى بهم آية[٢] استهزءوا بها وتعنّتوا، وإذا لم يأتهم بها سألوه الآية سؤال المستهزئين المتعنِّتين. وإذا لم يأتهم بها **قالوا لولا اجتبيتها**، لولا ابتدعتها وأحدثتها وأنشأتها، وهلاّ أنبأتها مِن قِبَل نفسك؟ فقال: **قل إنما أتّبع ما يوحى إليّ من ربي**، أي لا أفتعلها ولا أنشئها من نفسي، **إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي**. وأمكن أن يكون سؤال الآية من المؤمنين، فإن كان منهم فهو سؤال الاسترشاد لما يزداد لهم بكل آية تنزل عليهم يقينا وقوة في دينهم، كقوله: وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا،[٣] الآية، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا،[٤] الآية، وكقوله:[٥] فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ،[٦] الآية. فإذا كان السؤال من المؤمنين فهو سؤال الاسترشاد وطلب زيادة الهدى، وإن كان من الكفار فهو سؤال الاستهزاء والتعنُّت. ثم أخبر أنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه. ثم أخبر أنه **بصائر من ربكم**، قيل: بيان، أي هذا القرآن[٧] بيان[٨] **من ربكم**، يُبصِر به من لم يعاند ولم يكابِر عقلَه كل ما له وكل ما عليه،[٩] وإنه البيان من الحق والباطل، **وهدى**، من الضلالة، **ورحمة لقوم يؤمنون**، أي ورحمة من العذاب.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢٠٤]

وقوله: **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا**، الآية، أمر الله تعالى بالاستماع إلى هذا القرآن

---

[١] جميع النسخ: إنهم.
[٢] ن – آية.
[٣] ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون﴾ (سورة التوبة، ١٢٤/٩).
[٤] ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (سورة التوبة، ١٢٥/٩).
[٥] ع م: كقوله.
[٦] ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلت سورة فإذا أُنزِلت سورة مُحْكَمَة وذُكِر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المَغْشِيّ عليه من الموت﴾ (سورة محمد، ٢٠/٤٧).
[٧] ن – أي هذا القرآن.
[٨] ك ن – بيان.
[٩] ن ع م: وما عليه.

والإنصات له[1] إذا قرئ.[2] وإن كان في العقل أن من خاطب آخر بمخاطبات[3] يلزمه الاستماع إلى ما يخاطبه ويشافهه، فالله سبحانه إذا خاطب بخطابٍ أولى أن يستمع له. مع ما ذكر في غير موضع من القرآن آيات ما يوجب في العقل الاستماع إليه، كقوله: هٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ،[4] وقوله: اِتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ،[5] وغير ذلك من الآيات. ولا سبيل إلى أن يعرف أنه بصائر وأنه هدى وما ذكر إلا بالاستماع[6] إليه والتفكر فيه. فدل أن الاستماع لازمٌ في العقل مَن له أدنى عقلٍ على ما ذكرنا من المخاطبات. لكنه ذكر هاهنا الاستماع إليه -والله أعلم- لوجهين. أحدهما مقابل ما كانوا يقولون: لَا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ،[7] أمر عز وجل المؤمنين بالاستماع إليه مكان قولهم: لَا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ، وأمر بالإنصات مكان ما يقولون: وَالْغَوْا فِيهِ.

والثاني يجوز أن يكون أمر بالاستماع إليه في الصلاة على ما قاله[8] بعض أهل التأويل: إنه في الصلاة. وقال بعضهم: في حال الخطبة. لِما يسبق إلى أوهامهم أنه لما اشتغلوا بغيرها من العبادات ولزمهم أنواع القُرَب أن يسقط عنهم حق الاستماع، فأمر بالاستماع إليه والإنصات له ليعلموا أن حق الاستماع لازم في كل حال. ثم الاستماع إليه يكون لتفهُّم ما أودع فيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد وغيره، والإنصاتُ للتعظيم له والتبجيل. ثم الاستماع له لم يلزم لنفس التلاوة، ولكن إنما يلزم لما أودع فيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد وغيره، ليفهموا ما فيه ويقبلوا ويقوموا بوفاء ذلك. وأما سائر الأذكار إنما صار عبادة لنفسها، لذلك لم يلزم الاستماع إلى سائر الأذكار، ولزم لتلاوة القرآن. ولأن القرآن[9] كلام الله وكتابه، ومن الجفاء[10] والاستخفاف أن يكتب إنسان إلى أخيه كتابا لا ينظر فيه ولا يستمع له،

[1] ك: إليه.
[2] ن: وإذا قرئ.
[3] ك: بخطابات.
[4] الآية السابقة.
[5] سورة الأعراف، ٣/٧.
[6] ع م: ذكر بالاستماع.
[7] سورة فصلت، ٢٦/٤١.
[8] ن ع: على ما قالوا؛ م: على ما قال.
[9] ع: ولزم التلاوة والقرآن ولا القرآن.
[10] ع: من الجفاء.

فترك الاستماع إلى كتاب الله أعظم في الجفاء والاستخفاف. ولأن القرآن يُجهَر [به]، وسائر الأذكار لا تُجهَر [بها]، فإن كانت تُجهَر فيستمع لها[١] كما يستمع إلى القرآن.[٢] *والله أعلم.*

وذكر[٣] في بعض القصة أن الآية نزلت في الصلاة، لأن رسول الله إذا قرأ في صلاته كانوا يقولون مثل ما قال،[٤] فنزلت الآية بالنهي عن ذلك والأمر بالاستماع إليه والإنصات له.[٥] وذكر أنهم كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار، فنزلت الآية لذلك.[٦] فلا ندري كيف كانت القصة وفيم كانت، وقد يحتمل ما ذكرنا آنفا. ثم إن كانت الآية في الصلاة ففيه دلالة النهي عن القراءة خلف الإمام، لأنه أمر بالاستماع إليه والإنصات له. وعلى ذلك جاءت[٧] الأخبار. روي عن أبي العالية قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قرأ أصحابه أجمعون خلفه حتى نزل:[٨] **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا**، فسكتوا.[٩] وعن علي بن[١٠] أحمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاة الفجر الواقعة، وقرأها رجل خلفه، فلما فرغ من الصلاة قال: «من الذي ينازعني في هذه السورة؟» فقال رجل: أنا يا رسول الله، فأنزل الله: **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا**. وغير ذلك من الأخبار. / فقال قوم: [٢٧٨ظ] إن الإنصات الذي أمر به المُؤتَمّ معناه أن لا يجهر بقراءته، وليس فيه نهي عن أن[١١] يقرأ في نفسه. وزعم بعضهم أن القارئ خَفِيًا يسمى نَاصِتا مُنْصِتا.[١٢] واستدل بما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان[١٣] رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبّر سكت بين التكبير والقراءة، قلت له:[١٤]

[١] ع م: بها.
[٢] ك: للقرآن.
[٣] ن: أو ذكر.
[٤] ع م: مثل ذلك.
[٥] روي هذا المعنى عن ابن عباس وغيره؛ انظر: *تفسير الطبري*، ١٦٣/٩، ١٦٥؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٦٣٤/٣.
[٦] أخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبي؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٦٣٧/٣.
[٧] ن – جاءت.
[٨] م – نزل.
[٩] أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ؛ انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٦٣٥/٣.
[١٠] ع: علي ابن.
[١١] م: نهي أن.
[١٢] ك – منصتا؛ م: ومنصتا. قارن: *لسان العرب* لابن منظور، «نصت».
[١٣] ع م – كان.
[١٤] ع م – له.

بأبي أنت، أرأيتَ إسكاتَك[1] بين التكبير والقراءة، أخبرني ما تقول؟ قال:«أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي[2] كما باعدت بين المشرق والمغرب»،[3] وغير ذلك من الدعوات. فقال هذا القائل: قد سمى النبي القارئ مخفيا ساكتا، والصامت مثل الساكت، فيجوز أن يسمى صامتا، وهو أن يقرأ مخفيا كما يسمى ساكتا. قال القُمِّي:[4] غلط هذا القائل في تشبيه الصامت بالساكت، لأن الأسماء لا تقاس، وإنما يطلق في كل واحد منهما ما أطلقته اللغة فيه. ومما يبين غلطه أن الله يقول: **فاستمعوا له وأنصتوا**، فلو كان القارئ مخفيا يسمى صامتا ناصتا ما كان مستمعا، وإنما يكون مستمعا صامتا إذا صمت فلم يقرأ، فمن أطلق له أن يقرأ والإمام يقرأ[5] فلم يستمع ولا أنصت. ومما يدل على غلطه أيضا أن العلماء جميعا[6] ينهون المؤتم عن القراءة وإمامه يجهر بالقراءة. وإنما يأمره[7] من يأمره بالقراءة خلف الإمام أن يقرأ إذا سكت إمامه، ويأمر هؤلاء الإمام أن يقف ساعة إذا فرغ من قراءته[8] حتى يقرأ المؤتَمُّون. فلو كانوا يجعلون القارئ في نفسه – والإمام يقرأ جهرا– صامتا ما أمروه[9] بتأخير القراءة حتى يفرغ إمامه من القراءة. فهذا يبين غلط المستدل بحديث أبي هريرة في استدلاله. ومما يدل أن المؤتم[10] منهي عن أن يقرأ والإمام يجهر ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بهم صلاة، –نظنّ[11] أنها الصبح–[12] فلما سلم أقبل على الناس وقال:[13] هل يقرأ منكم أحد؟[14] فقال رجل: أنا، فقال النبي:

---

[1] جميع النسخ: سكاتك.

[2] ك: خطاي.

[3] ع م: بين المغرب والمشرق. صحيح *البخاري*، الأذان ٨٩؛ وصحيح *مسلم*، المساجد ١٤٧.

[4] لعله علي بن موسى بن يَزداد –وقيل: يزيد– القُمِّي، صاحب *أحكام القرآن*، إمام الحنفية في عصره، سمع محمد بن حُمَيد الرازي وغيره، روى عنه أبو الفضل أحمد بن أحمد الكاغدي وغيره، وتوفي سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م. انظر: *الجواهر المضية في طبقات الحنفية* للقرشي، ٣٨٠/١؛ وسير *أعلام النبلاء* للذهبي، ٢٣٦/١٤.

[5] ع – والإمام يقرأ.

[6] ن – جميعا.

[7] م: يأمر.

[8] ك: من القراءة.

[9] جميع النسخ: ما أمره.

[10] م: وما يدل على أن المؤتم منهم.

[11] جميع النسخ: فظن.

[12] هذا من كلام الراوي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[13] ع م: قال.

[14] م: أحد منكم.

«إني أقول: ما لي أُنازَع القرآنَ»، قال أبو هريرة: فانتهى الناس عن القراءة فيما يجهر فيه النبي.[١] فقال قوم: إن أبا هريرة قال: انتهى الناس عن القراءة خلف النبي فيما جهر فيه. فيقال: إن أبا هريرة لم يرو ذلك عن النبي. ثم مما يدل على أن[٢] المؤتم لا يقرأ[٣] -جهر الإمام أو خافت- قول النبي: «ما لي أُنازَع القرآن»، وقد علمنا أن المؤتم لم يجهر بقراءته فيتأولَ متأولٌ منازعته النبي[٤] عليه السلام على أنه شُغِل، فلا وجه لقوله: «ما لي أنازع القرآن»، إلا بنهيه[٥] المؤتم عن أن يقرأ، جهَرَ إمامه أو خافت. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يبين النهي عن القراءة خلف الإمام فيما جهر[٦] فيه أو خافت. [من ذلك] ما روي عن عِمْران أن النبي[٧] صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه الظهر، فلما قضى صلاته قال: «أيكم قرأ[٨] بسَبِّحِ[٩] اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى؟»،[١٠] فقال بعض الناس: أنا يا رسول الله، فقال: «قد عرفت أن بعضكم خالَجَنِيها»،[١١] فبيّن عِمْران بن حُصَين أن الرجل خافت بقراءته، ودل أن النهي الذي رواه أبو هريرة لم يكن في حال جهر الإمام دون مخافتته، وأن المؤتم منهي عن القراءة خلف الإمام في كل الصلوات.[١٢] وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنهي عن القراءة خلف الإمام أحاديث كثيرة. [منها] ما روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعمران بن حصين عنه،[١٣] وما روي عن عبد الله قال:[١٤] كنا نقرأ خلف النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله[١٥] صلى الله عليه وسلم: «خَلَطتم عليّ القرآن».[١٦]

---

[١] سنن *أبي داود*، الصلاة ١٣٢-١٣٣؛ وسنن *الترمذي*، الصلاة ١١٦ وحسّنه الترمذي.
[٢] م: مما يدل أن.
[٣] م: لا يجهر يقرأ.
[٤] ن: النهي.
[٥] ن ع: إلا بنهية.
[٦] م: فيما يجهر.
[٧] ن - ما يبين النهي عن القراءة خلف الإمام فيما جهر فيه أو خافت ما روي عن عمران أن النبي.
[٨] ع - قرأ
[٩] ك: سبح.
[١٠] سورة الأعلى، ١/٨٧.
[١١] صحيح *مسلم*، الصلاة ٤٧؛ وسنن *أبي داود*، الصلاة ١٣٣-١٣٤ وخالج أي نازع (*لسان العرب* لابن منظور، «خلج»).
[١٢] ع: الصلوة.
[١٣] ع - عنه.
[١٤] ع م - قال.
[١٥] ك ن: النبي.
[١٦] مسند *أحمد بن حنبل*، ٤٥١/١؛ إلا أنه قال: كانوا يقرءون... وقال الهيثمي: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح» (*مجمع الزوائد*، ١١٠/٢).

فإن قيل: لعلهم كانوا يجهرون بالقرآن،[1] فنهي عن الجهر؟

قيل له: لم يُنقَل لنا[2] في شيء من الأخبار أن المؤتمين كانوا يقرءون جهرا، ولو كانوا[3] يقرءون جاهرين لأُدِيَ ذلك إلينا كما أُدِيَ أنهم كانوا يقرءون.[4] وفي ذلك وجه آخر، أنه لم يكن النهي عن الجهر خاصة، ولكن عن القراءة نفسها.[5] روي[6] عن أبي وائل قال: سألت عبد الله بن مسعود[7] عن القراءة خلف الإمام، فقال: أنصت، فإن في الصلاة شغلا، وسيكفيك ذلك الإمام.[8] وعن عبد الله بن[9] شدّاد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة».[10] وعن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى[11] ورجل خلفه يقرأ، فنهاه رجل من أصحاب النبي عن القراءة في الصلاة، فتنازعا فيه حتى ذكر للنبي عليه السلام، فقال:[12] «من صلى خلف إمام فقراءة الإمام له قراءة».[13] وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «وإذا قرأ الإمام فأنصتوا».[14] وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:[15] «إنما جعل الإمام ليؤتم به،[16] فإذا كبر فكبروا،

---

[1] ك: القرآن.

[2] جميع النسخ: لم ينقلنا.

[3] ع: ولو كان.

[4] ن – في شيء من الأخبار أن المؤتمين كانوا يقرءون جهرا ولو كانوا يقرءون جاهرين لأدي ذلك إلينا كما أدي أنهم كانوا يقرءون.

[5] جميع النسخ: للقراءة نفسه.

[6] جميع النسخ: ما روي.

[7] ع: عبد الله مسعود.

[8] *المصنف* لعبد الرزاق، ١٣٨/٢؛ و*المصنف* لابن أبي شيبة، ٣٣٠/١؛ و*المعجم الكبير* للطبراني، ٢٦٤/٩؛ وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله مُوَثَّقون» (*مجمع الزوائد*، ١١١/٢).

[9] ك م: عبد الله ابن.

[10] روي مرسلا عن عبد الله بن شداد، وروي عن عبد الله بن شداد عن جابر رضي الله عنه موصولا؛ انظر: *المصنف* لابن أبي شيبة، ٣٣٠/١، ٣٣١؛ وسنن *ابن ماجة*، إقامة الصلاة ١٣؛ وسنن *الدارقطني*، ٣٢٣/١. والحديث فيه كلام طويل، وله طرق يشد بعضها بعضا؛ انظر للتفصيل: *نصب الراية* للزيلعي، ٦/٢-١١.

[11] م – صلى.

[12] ن ع – فقال.

[13] أخرجه ابن عدي؛ انظر: *نصب الراية* للزيلعي، ١٠٩/٢.

[14] سنن *ابن ماجة*، إقامة الصلاة ١٣؛ وسنن *أبي داود*، الصلاة ١٧٧-١٧٨.

[15] ن ع + قال.

[16] ن – به.

وإذا قرأ فأنصتوا»،[١] وغير ذلك من الأحاديث. وأكثر ما يحتج به المخالف لعلمائنا رحمهم الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن»،[٢] يرويه عبادة بن الصامت. قال سفيان: هذا عندنا فيمن يصلي وحده.[٣] فذلك[٤] محتمل. والأحاديثُ التي جاءت مفسّرةً في النهي عن القراءة خلف الإمام.

فإن قال: يترك المؤتم القراءة فيما يجهر فيه إمامه بحديث أبي هريرة، ويقرأ فيما يُخافِت بحديث عبادة بن الصامت، ليصلح حديث أبي هريرة وحديث عبادة جميعا.

قيل له: فهلّا جعلته في المصلي وحده ليصح حديث عبادة وحديث / عمران بن حصين، [٢٧٩و] لأن حديث عمران بن حصين[٥] ينهى عن القراءة[٦] خلف الإمام[٧] فيما خافت، وحديث أبي هريرة عن القراءة فيما جهر به.[٨] فإن جعلت حديث[٩] أبي هريرة خارجا عن عموم[١٠] حديث عبادة فذلك يوجب أن لا يقرأ المؤتم فيما جهر[١١] فيه إمامه أو خافت.[١٢] ويقال له: هل رأيت فرضا من فرائض الصلاة بمسقَط عن المؤتم في حال، ويجب عليه في حال؟ فإن قال: لا، قيل: ففي إسقاطك تلك القراءة عنه في حال الجهر ما أوجب عليك أن تسقطها عنه في حال المخافتة.[١٣]

[١] سنن ابن ماجة، إقامة الصلاة ١٣؛ وسنن أبي داود، الصلاة ٦٨.

[٢] صحيح البخاري، الأذان ٩٥؛ وصحيح مسلم، الصلاة ٣٦.

[٣] انظر: سنن أبي داود، الصلاة ١٣١-١٣٢. والقائل هو سفيان بن عيينة أبو محمد الهلالي مولاهم، الكوفي، أحد الأعلام، من حفاظ الحديث المشهورين، وهو من فقهاء المحدثين. قال سفيان: دخلت الكوفة و لم يتم لي عشرون سنة، فقال أبو حنيفة لأصحابه ولأهل الكوفة: جاءكم حافظٌ عِلمِ عمرو بن دينار، قال: فجاء الناس يسألوني عن عمرو بن دينار، فأول من صيّرني محدثا أبو حنيفة. مات سنة ١٩٨هـ/٨١٣م. انظر: *الجواهر المضية في طبقات الحنفية* للقرشي، ١/٢٥٠؛ وسير *أعلام النبلاء* للذهبي، ٨/٤٥٤-٤٧٥؛ وتقريب *التهذيب* لابن حجر، ٢٤٥.

[٤] ن + فذلك.

[٥] ع م - بن حصين.

[٦] ع: عن القرآن.

[٧] ع م - خلف الإمام.

[٨] ن: جهر فيه؛ ع م: يجهر فيه.

[٩] ن: جعلت.

[١٠] ك: من عموم.

[١١] ك + به؛ ع م: فيما يجهر.

[١٢] ع: إمامة وخافت؛ م: وخافت.

[١٣] ع م: المخافة.

وقد احتج بعض أصحابنا في ذلك بأن قالوا: وجدنا الرجل إذا جاء إلى الإمام وهو راكع فكبر ودخل في صلاته ولم يقرأ فكلٌّ يُجمِع أن صلاته تجزئه، فدل ذلك على أن[1] القراءة غير فرض عليه. فإن قال: إنما أطلق له ذلك للضرورة، قيل: لو جاء إلى الإمام وهو ساجد لم يعتدّ بتلك الركعة، والضرورة قائمة، فلو كانت الضرورة تزيل فرضا لأزالت الركوع عمّن لحق إمامه وهو ساجد، فهي لا تزيل فرض القراءة عمن لحق إمامه راكعا،[2] ولكن لا يلزمه[3] القراءة خلف الإمام، فلذلك أَجْزَتْه صلاتُه،[4] لا للضرورة[5] التي ذكرت. *والله أعلم*.

وقد روي عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنهم قالوا: لا قراءة على من تَخلْفَ الإمام، منهم علي وابن مسعود وجابر وسعد[6] وأبو سعيد وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت[7] رضي الله عنهم. أما عن علي رضي الله عنه قال: من قرأ خلف الإمام فقد أخطأ الفطرة. وعن عبد الله قال:[8] من قرأ خلف الإمام مُلِئَ فُوه ترابا. وعن زيد بن[9] ثابت قال: من قرأ خلف الإمام فلا صلاة له. وعن سعد قال: وَدِدت أن الذي يقرأ خلف الإمام في فمه جمرةٌ. وعن ابن عمر [أنه] كان إذا سئل[10] هل يقرأ أحد خلف الإمام قال: لا، فإذا صلى أحدكم وحده فليقرأ. وكان ابن عمر لا يقرأ خلف الإمام.[11] وعن أبي سعيد أنه سئل عن القراءة خلف الإمام، قال: يكفيك ذلك الإمام. وعن ابن عباس أن رجلا سأله: أقرأ خلف الإمام؟ قال: لا.[12] إلى مثل هذه الأحاديث ذهب أصحابنا، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة.[13] *وبالله التوفيق*.

---

[1] ع م: ذلك أن.
[2] ع م - راكعا.
[3] ع: لا يلزم.
[4] ن - وهو ساجد فهي لا تزيل فرض القراءة عمن لحق إمامه راكعا ولكن لا يلزمه القراءة خلف الإمام فلذلك أجزته صلاته.
[5] م: صلاته للضرورة.
[6] ع م - وسعد.
[7] ع - وزيد بن ثابت.
[8] ك - قال.
[9] م: زيد ابن.
[10] ن + عن ابن عمر.
[11] *الموطأ* للإمام مالك، الصلاة ٤٣.
[12] انظر للآثار المذكورة مجموعة: *المصنف* لابن أبي شيبة، ١/٣٣٠-٣٣١؛ وشرح *معاني الآثار* للطحاوي، ١/٢١٩-٢٢٠؛ ونصب *الراية* للزيلعي، ٢/١٢-١٣.
[13] روي عن عدد من الصحابة خلاف ذلك، فقد قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «وإنما يثبت ذلك [أي عدم القراءة] عن ابن عمر وجابر وزيد بن ثابت وابن مسعود، وجاء عن سعد وعمر وابن عباس وعلي... وقد أثبت البخاري عن عمر وأبي بن كعب وحذيفة وأبي هريرة وعائشة وعبادة وأبي سعيد في آخرين القراءة خلف الإمام» (*الدراية في تخريج أحاديث الهداية* لابن حجر، ١/١٦٤).

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[٢٠٥]

وقوله عز وجل: **واذكر ربك في نفسك تضرُّعا وخِيفة ودون الجهر من القول بالغُدُوّ والآصال**، اختلف أهل التأويل في الذكر الذي ذكر في الآية. منهم من صرف التأويل إلى كل ذكر. ومنهم من صرف إلى التلاوة. فإن كان ذكر **الغدو والآصال** كناية عن الليل والنهار[١] فهو ذكر أحواله.[٢] يَذكُر اللهَ عز وجل بنعمه[٣] وإحسانه، وذِكْرُه بنِعَمِه شُكْرُه. أو يَذكُره[٤] بقدرته وسلطانه، وذلك يحمله[٥] على الخضوع له والتواضع. أو يَذكُر أمره ونهيه ووعده ووعيده، وذلك يوجب الإقرار بالتقصير والخوف لعقوبته والرغبةَ في وعده. كأنه قال: **واذكر ربك** في كل[٦] حال من الليل والنهار، [فهو] إما شكر نعمته[٧] وإحسانِه، وإما الإقرار بالتقصير في أمره ونهيه، وإما الخوف لوعيده، والرغبة[٨] لوعده. فكأنه قال: اذكر ربك **تضرُّعا**، متواضعا،[٩] **وخِيفة**، مع الخوف. وإن كان تأويل **الغدو والآصال** كناية عن الغداة والعشي، فهو كناية عن التلاوة. وهو ما سبق من ذكر التلاوة من قوله: وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ،[١٠] وقوله: هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ.[١١] وهو كقوله: وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا.[١٢] وتأويله -والله أعلم- وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ، في بعض صلاتك، وَلَا تُخَافِتْ في بعضها. أو أن يقال: لا تجهر جهر العالي، ولا تخافت غاية المخافتة، ولكن بين ذلك. أو أن يقول: لا تشتغل بالجهر ولا بالمخافتة، ولكن اقرأ لما فيه. فعلى ذلك قوله:[١٣] **واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال.**

---

[١] ع: والنها.
[٢] وعبارة الشارح هكذا: «فإن كان ذكر الغدو والآصال كناية عن الليل والنهار فهو أمر بأن يذكر الله تعالى في جميع أحواله» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٢١ظ).
[٣] ن: وبنعمه.
[٤] جميع النسخ: أو يذكر.
[٥] ع م: يحتمله.
[٦] ك – كل.
[٧] جميع النسخ: النعمة.
[٨] جميع النسخ: وإما الرغبة؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ٣٢٢و.
[٩] ع م: وتواضعا.
[١٠] الآية السابقة.
[١١] سورة الأعراف، ٢٠٣/٧.
[١٢] ﴿ولا تَجْهَرْ بصلاتك ولا تُخافت بها وابتَغِ بين ذلك سبيلا﴾ (سورة الإسراء، ١١٠/١٧).
[١٣] ك – قوله.

وقرأ بعضهم: وخُفْيَة،[1] وهو من الإخفاء، حيث قال: **واذكر ربك في نفسك**. وأما ظاهر القراءة فهو: **خِيفة**،[2] وهو من الخوف. وقال مجاهد: رخص الله أن تذكره **في نفسك تضرعا وخيفة** وأنت خلف الإمام تسمع قراءته. **والآصالِ**، قال أبو عَوْسَجة: العَشِيّات، الواحد أُصُل وأَصِيل.[3]

وقوله عز وجل: **ولاتكن من الغافلين**، معلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن من الغافلين في حال، ولكن على النهي لأمته، كقوله: فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ،[4] وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،[5] ونحوه. نهاه أن لا يكوننّ[6] ما ذكر لما ذكرنا نَهْيًا لغيره. ***والله أعلم***.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[٢٠٦]

وقوله عز وجل: **إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته**، قالت المشبهة: لو لم يكن بين الله وبين الملائكة قُرب الذات لكانوا هم والبشر بقوله: **عند ربك**، سواء، [و]لكان[7] لا معنى لتخصيص الملائكة بذلك. لكن التأويل عندنا في قوله: **عند ربك**، في الطاعة له[8] والخضوع، أو في الكرامة والمنزلة. ليس على قرب الذات، ولكن على ما وصف عز وجل: لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ،[9] وقوله: لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ،[10] وصفهم بالطاعة له والخضوع. فعلى ذلك الأول، ليس على قرب الذات، ولكن على ما ذكر
[٢٧٩ظ] من الطاعة والخضوع. ألا ترى أنه / قال: وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ،[11] ليس على أنه في الأرض يقترب[12] منه إذا سجد. وأصل ما يضاف إلى الله من جزئية[13] الأشياء يخرج مخرج تعظيم تلك الجزئيات،[14]

[1] ن ع م: وخيفة. وهي قراءة شاذة.
[2] أي القراءة المعروفة المتواترة هي: خِيفَة.
[3] انظر: *لسان العرب* لابن منظور، «أصل».
[4] سورة البقرة، ١٤٧/٢؛ وسورة يونس، ٩٤/١٠.
[5] سورة الأنعام، ١٤/٦؛ وسورة يونس، ١٠٥/١٠؛ وسورة القصص، ٨٧/٢٨.
[6] ع م: أن يكونن.
[7] م: لكن.
[8] ن ع م – له.
[9] سورة التحريم، ٦/٦٦.
[10] سورة الأنبياء، ١٩/٢١–٢٠.
[11] سورة العلق، ١٩/٩٦.
[12] ك: يقرب.
[13] ك: من جروية؛ ن: من جزوية.
[14] ن: الجزوية؛ ع: الجزويات.

كقوله: وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ،[١] خصّ المساجد بالإضافة إليه وإن كانت[٢] البقاع كلها له تعظيما لها. وكذلك قولهم:[٣] الكعبة بيت الله، وإن كانت البيوت كلها له، ونحو ذلك مما أضاف ذلك إلى نفسه من جزئيات[٤] الأشياء تعظيما لذلك وإجلالا. فعلى ذلك الأول، أضافهم إلى نفسه إما لطاعتهم إياه وخضوعهم له،[٥] وإما للكرامة[٦] لهم والمنزلة. وإضافة كلية الأشياء إلى الله تخرج[٧] مخرج تعظيم الرب. من ذلك قوله: لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ،[٨] وقوله: وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،[٩] وقوله: خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.[١٠]

ومن الناس من استدل بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية. لكنا[١١] نقول: إن الأفضل عند الله الأطوعُ له[١٢] والأخضع والأتقى والأقوم لأمره ونهيه على ما ذكر:[١٣] إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ،[١٤] [و]لا تشير [الآية] إلى أن هؤلاء أفضل من هؤلاء. وقد ذكرنا الوجه في ذلك فيما تقدم.[١٥]

وتأويل الآية –والله أعلم– في قوله: **إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته**، الآية، أي إنهم وإن لم يكن لهم حاجة إلى المأكل والمشرب وأنواع الحاجات **لا يستكبرون عن عبادته**، فأنتم مع حاجتكم إلى الأكل والشرب وأنواع الحوائج أحرى وأولى أن لا تستكبروا[١٦] عن عبادته. أو أن يقول: إن الذين تعبدون[١٧] من الملائكة **لا يستكبرون عن عبادته**، فأنتم أحق[١٨] أن لا تستكبروا عن عبادته، لأن من الناس من يعبد الملائكة، فخرج هذا[١٩] جواب ذلك. ***والله أعلم.***

[١] سورة الجن، ١٨/٧٢.
[٢] م: وإن وإن كانت.
[٣] جميع النسخ: قوله؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٣٢٢و.
[٤] ن ع: من جزويات.
[٥] ك ن م: لطاعة لهم إياه والخضوع؛ ع: الطاعة لهم إياه والخضوع.
[٦] ع: الكرامة؛ م: لكرامة.
[٧] م: يخرج.
[٨] سورة الأعراف، ٥٤/٧.
[٩] سورة المائدة، ١٢٠/٥؛ وغيرها.
[١٠] سورة الأنعام، ١٠٢/٦؛ وغيرها.
[١١] م: لكن.
[١٢] ن – له.
[١٣] ع م: ما ذكرنا.
[١٤] سورة الحجرات، ١٣/٤٩.
[١٥] انظر تفسير الآية من سورة النساء ١٧٢/٤.
[١٦] ع: لا تستكبرون.
[١٧] ع م: يعبدون.
[١٨] م – أحق.
[١٩] ن + ذلك.

وقوله عز وجل: **ويسبحونه**، التسبيح هو وصف الرب عز وجل بالرفعة والعظمة والجلال والتعالي عن الأشباه والأمثال وعما وصفه الملحدون. والتسبيح هو تنزيه الرب وتبرئته عن جميع معاني الخلق.

وقوله عز وجل: **وله يسجدون**، السجود[1] هو الخضوع في الغاية.

وليس في الآية دليل وجوب السجدة على من تلاها أو سمعها، إنما فيها الإخبار عن الساجدين أنهم سجدوا غير مستكبرين، وفي ذلك ترغيب في السجود. إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم رُوي عنه[2] أنه سجد، وسجد من معه. وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ علينا السورة فيها السجدة فيسجد، ونسجد حتى ما يجد أحدنا موضعا يسجد فيه.[3] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال:[4] رأيت النبي[5] صلى الله عليه وسلم سجد في ص.[6] وفي بعض الأخبار عن ابن عمر قال: كان رسول الله يقرأ القرآن في غير صلاة فيسجد، ونسجد معه.[7] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد فيها، ولم يبق معه أحد إلا سجد، إلا شيخ كبير من قريش، أَخذ كفّا من حَصىً[8] فرفع إلى جبهته، فلقد رأيته قُتِل كافرا.[9] وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه ذكر سجود القرآن أو عَدّ فقال: الأعراف والرعد والنحل وبنو إسرائيل[10] ومريم والحج سجدة واحدةً، والفرقان وطس[11] والم تنزيل[12] وص وحم تنزيل،[13]

---

[1] ن ع م – السجود.

[2] م – عنه.

[3] صحيح *البخاري*، سجود القرآن ٩؛ وصحيح *مسلم*، المساجد ١٠٣.

[4] ع م – قال.

[5] ن – يقرأ علينا السورة فيها السجدة فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحدنا موضعا يسجد فيه وعن ابن عباس رضي الله عنه قال رأيت النبي.

[6] صحيح *البخاري*، الأنبياء ٣٩؛ وسنن *أبي داود*، سجود القرآن ٥؛ وسنن *الترمذي*، الجمعة ٥٣.

[7] انظر مصادر الحديث المروي عن ابن عمر قبل قليل.

[8] ك ع م: من جص؛ ن: من حص.

[9] صحيح *البخاري*، سجود القرآن ١؛ وصحيح *مسلم*، المساجد ١٠٥.

[10] جميع النسخ: وبني إسرائيل. أي سورة الإسراء.

[11] أي سورة النمل.

[12] ك – تنزيل. أي سورة السجدة.

[13] ع م – تنزيل. أي سورة فصّلت.

وقال: وليس في المُفَصَّل[١] سجود.[٢] وعن ابن مسعود قال في السورة يكون في آخرها السجدة نحو الأعراف والنجم: إن شئت فاسجد ثم قم فاقرأ، وإن شئت فاركع.[٣] وعن ابن مسعود [أنه] كان يسجد في الأعراف وفي بني إسرائيل والنجم و إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ،[٤] و اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ.[٥] واحتج بعض مشايخنا [على] أن السجود على من تلا آية السجدة واجب بما أجمع[٦] أهل العلم أن على المصلي إذا تلا الآية فيها السجدة أن يسجد في صلاته، فلو كان السجود تطوعا ما كان لأحد أن يزيد في صلاته ما ليس منها، فدل ذلك على أن السجود واجب في الصلاة، وإذا كان في الصلاة واجبا[٧] فهو على كل حال واجب. ومن الحجة لنا أيضا ما روي[٨] أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ آيات فسجد فيها، فكان السجود بها واجبا، كما أنه لمّا صلى صلاة العيدين كانت واجبة.[٩]

---

[١] المُفَصَّل قصار السور، سمي مفصلا لكثرة الفصول التي بين السور ببسم الله الرحمن الرحيم، وقيل: لقلة المنسوخ فيه. وآخره سورة الناس، وفي أوله اثنا عشر قولا، أشهرها أنه سورة ق (٥٠)، أو سورة الحجرات (٤٩)، وقيل غير ذلك. انظر: *البرهان في علوم القرآن* للزركشي، ١/٢٤٥؛ و*الإتقان في علوم القرآن* للسيوطي، ١/١٣٩.

[٢] *المصنف* لابن أبي شيبة، ١/٣٧٧. وروي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحوّل إلى المدينة. انظر: *سنن أبي داود*، سجود القرآن ٢.

[٣] روي بمعناه؛ انظر: *المصنف* لابن أبي شيبة، ١/٣٨٠.

[٤] سورة الانشقاق، ٨٤/١.

[٥] سورة العلق، ٩٦/١. وانظر: *المصنف* لابن أبي شيبة، ١/٣٧٧.

[٦] جميع النسخ: ما أجمع.

[٧] م: واجبا في الصلاة.

[٨] ع: أيضا روي.

[٩] «إذ مواظبته على الشيء دليل الوجوب» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٢٢و).

سورة الأعراف

مكية إلا من آية: ١٦٣ إلى غاية آية ١٧٠، فمدنية وآياتها ٢٠٦ نزلت بعد ص

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: (المص) أنا الله أُفصِّل، وعنه أيضًا: أنا الله أَعْلَم وأُفَصِّل، قال الواحدي: وعلى هذا التفسير فهذه الحروف واقعة في موضع جمل، والجمل إذا كانت ابتداء وخبرًا فقط لا موضع لها من الإعراب، فقوله: أنا الله أعلم، لا موضع لها من الإعراب، فقوله: (أنا) مبتدأ وخبره قوله: (الله) وقوله: (أعلم) خبر بعد خبر، وإذا كان المعنى (المص) أنا الله أعلم كان إعرابها كإعراب الشيء الذي هو تأويل لها، وقال السدي: (المص) على هجاء قولنا في أسماء الله تعالى أنه المصور. قال القاضي: ليس هذا اللفظ على قولنا: أنا الله أفصل، أولى من حمله على قوله: أنا الله أصلح، أنا الله أمتحن، أنا الله الملك، لأنه إن كانت العبرة بحرف الصاد فهو موجود في قولنا أنا الله أصلح، وإن كانت العبرة بحرف الميم، فكما أنه موجود في العلم فهو أيضًا موجود في الملك والامتحان، فكان حمل قولنا: (المص) على ذلك المعنى بعينه محض التحكم، وأيضًا فإن جاء تفسير الألفاظ بناء على ما فيها من الحروف، من غير أن تكون تلك اللفظة موضوعة في اللغة لذلك المعنى، انفتحت طريقة الباطنية في تفسير سائر ألفاظ القرآن بما يشاكل هذا الطريق. وأما قول بعضهم: إنه من أسماء الله تعالى فأبعد، لأنه ليس جعله اسمًا لله تعالى، أولى من جعله اسمًا لبعض رسله من الملائكة، أو الأنبياء، لأن الاسم إنما يصير اسمًا للمسمى بواسطة الوضع والاصطلاح، وذلك مفقود ههنا، بل الحق أن قوله: (المص) اسم لقب لهذه السورة، وأسماء الألقاب لا تفيد فائدة في المسميات، بل هي قائمة مقام الإشارات، ولله تعالى أن يسمي هذه السورة بقوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ كما أن الواحد منا إذا حدث له ولد فإنه يسميه بمحمد.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره، وقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ صفة لذلك الخبر. أي السورة المسماة بقولنا: ﴿الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ .

فإن قيل: الدليل الذي دل على صحة نبوة محمد ﷺ هو أن الله تعالى خصه بإنزال هذا القرآن عليه، فما لم نعرف هذا المعنى لا يمكننا أن نعرف نبوته، وما لم نعرف نبوته، لا يمكننا أن نحتج بقوله، فلو أثبتنا كون هذه السورة نازلة عليه من عند الله بقوله: لزم الدور.

قلنا: نحن بمحض العقل نعلم أن هذه السورة كتاب أنزل إليه من عند الله. والدليل عليه أنه عليه الصلاة والسلام ما تلمذ لأستاذ، ولا تعلم من معلم، ولا طالع كتابًا ولم يخالط العلماء والشعراء وأهل الأخبار، وانقضى من عمره أربعون سنة، ولم يتفق له شيء من هذه الأحوال، ثم بعد انقضاء الأربعين ظهر عليه هذا الكتاب العزيز المشتمل على علوم الأولين والآخرين، وصريح العقل يشهد بأن هذا لا يكون إلا بطريق الوحي من عند الله تعالى. فثبت بهذا الدليل العقلي أن ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتاب أنزل على محمد ﷺ من عند ربه وإلهه.

المسألة الثانية: احتج القائلون بخلق القرآن بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قالوا إنه تعالى وصفه بكونه منزلاً، والإنزال يقتضي الانتقال من حال إلى حال، وذلك لا يليق بالقديم، فدل على أنه محدث.

وجوابه: أن الموصوف بالإنزال والتنزيل على سبيل المجاز هو هذه الحروف، ولا نزاع في كونها محدثة مخلوقة، والله أعلم.

فإن قيل: فهب أن المراد منه الحروف، إلا أن الحروف أعراض غير باقية، بدليل أنها متوالية، وكونها متوالية يشعر بعدم بقائها، وإذا كان كذلك، فالعرض الذي لا يبقى زمانين، كيف يعقل وصفه بالنزول؟

والجواب: أنه تعالى أحدث هذه الرقوم والنقوش في اللوح المحفوظ، ثم إن الملك يطالع تلك النقوش، وينزل من السماء إلى الأرض، ويعلم محمدًا تلك الحروف والكلمات، فكان المراد بكون تلك الحروف نازلة، هو أن مبلغها نزل من السماء إلى الأرض بها.

المسألة الثالثة: الذين أثبتوا لله مكانًا تمسكوا بهذه الآية فقالوا: إن كلمة (من) لابتداء الغاية. وكلمة (إلى) لانتهاء الغاية. فقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يقتضي حصول مسافة مبدؤها هو الله تعالى وغايتها محمد، وذلك يدل على أنه - تعالى- مختص بجهة فوق، لأن النزول هو الانتقال من فوق إلى أسفل.

وجوابه: لما ثبت بالدلائل القاهرة أن المكان والجهة على الله تعالى محال وجب حمله على التأويل الذي ذكرناه، وهو أن الملك انتقل به من العلو إلى أسفل.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾.

وفي تفسير الحرج قولان:

الأول: الحرج: الضيق، والمعنى: لا يضيق صدرك بسبب أن يكذبوك في التبليغ. والثاني: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي شك منه، كقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] وسمي الشك حرجًا، لأن الشاك ضيق الصدر حرج الصدر، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسح القلب.

ثم قال تعالى:﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ هذه (اللام) بماذا تتعلق؟ فيه أقوال: الأول: قال الفراء: إنه متعلق بقوله: ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ على التقديم والتأخير، والتقدير: كتاب أنزل إليك لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج منه.

فإن قيل: فما فائدة هذا التقديم والتأخير؟

قلنا: لأن الإقدام على الإنذار والتبليغ لا يتم ولا يكمل إلا عند زوال الحرج عن الصدر، فلهذا السبب أمره الله تعالى بإزالة الحرج عن الصدر، ثم أمره بعد ذلك بالإنذار والتبليغ. الثاني: قال ابن الأنباري: اللام ههنا بمعنى: كي. والتقدير: فلا يكن في صدرك شك كي تنذر غيرك. الثالث: قال صاحب (النظم): اللام ههنا: بمعنى: أن. والتقدير: لا يضق صدرك ولا يضعف عن أن تنذر به، والعرب تضع هذه اللام في موضع (أن) قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]وفي موضع آخر ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ [الصف: ٨]وهما بمعنى واحد. والرابع: تقدير الكلام: إن هذا الكتاب أنزله الله عليك، وإذا علمت أنه تنزيل الله تعالى، فاعلم أن عناية الله معك، وإذا علمت هذا فلا يكن في صدرك حرج، لأن من كان الله حافظًا له وناصرًا، لم يخف أحدًا، وإذا زال الخوف والضيق عن القلب، فاشتغل بالإنذار والتبليغ والتذكير اشتغال الرجال الأبطال، ولا تبال بأحد من أهل الزيغ والضلال والإبطال.

ثم قال:﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد مواعظ للمصدقين. قال الزجاج: وهو اسم في موضع المصدر. قال الليث: الذكرى اسم للتذكرة، وفي محل ذكرى من الإعراب وجوه قال الفراء: يجوز أن يكون في موضع نصب على معنى: لتنذر به ولتذكر، ويجوز أن يكون رفعًا بالرد على قوله: ﴿ كِتَٰبٌ﴾ والتقدير: كتاب حق وذكرى، ويجوز أيضًا أن يكون التقدير، وهو ذكرى، ويجوز أن يكون خفضًا، لأن معنى لتنذر به، لأن تنذر به فهو في موضع خفض، لأن المعنى للإنذار والذكرى.

فإن قيل: لم قيد هذه الذكرى بالمؤمنين؟

قلنا: هو نظير قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]والبحث العقلي فيه أن النفوس البشرية على قسمين: نفوس بليدة جاهلة، بعيدة عن عالم الغيب، غريقة في طلب اللذات الجسمانية، والشهوات الجسدانية ونفوس شريفة مشرقة بالأنوار الإلهية مستعدة بالحوادث الروحانية، فبعثة الأنبياء والرسل في حق القسم الأول، إنذار وتخويف، فإنهم لما غرقوا في نوم الغفلة ورقدة الجهالة، احتاجوا إلى موقظ يوقظهم، وإلى منبه ينبههم. وأما في حق القسم الثاني فتذكير وتنبيه، وذلك لأن هذه النفوس بمقتضى جواهرها الأصلية مستعدة للانجذاب إلى عالم القدس والاتصال بالحضرة الصمدية، إلا أنه ربما غشيها غَوَاشٍ من عالم الجسم، فيعرض لها نوع ذهول وغفلة، فإذا سمعت دعوة الأنبياء واتصل بها أنوار أرواح رسل الله تعالى، تذكرت مركزها وأبصرت منشأها، واشتاقت إلى ما حصل هنالك من الروح والراحة والريحان، فثبت أنه

تعالى إنما أنزل هذا الكتاب على رسوله ليكون إنذارًا في حق طائفة، وذكرى في حق طائفة أخرى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ ﴾

اعلم أن أمر الرسالة إنما يتم بالمُرْسِل وهو الله سبحانه وتعالى والمُرْسَل وهو الرسول، والمُرْسَل إليه، وهو الأمة، فلما أمر في الآية الأولى الرسول بالتبليغ والإنذار مع قلب قوي، وعزم صحيح أمر المرسل إليه. وهم الأمة بمتابعة الرسول. فقال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الحسن: يا ابن آدم، أمرت باتباع كتاب الله وسنة رسوله.

واعلم أن قوله: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ يتناول القرآن والسنة.

فإن قيل: لماذا قال: ﴿ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ ﴾ وإنما أنزل على الرسول.

قلنا: إنه منزل على الكل بمعنى أنه خطاب للكل.

إذا عرفت هذا فنقول: هذه الآية تدل على أن تخصيص عموم القرآن بالقياس لا يجوز لأن عموم القرآن منزل من عند الله تعالى. والله تعالى أوجب متابعته، فوجب العمل بعموم القرآن ولما وجب العمل به امتنع العمل بالقياس، وإلا لزم التناقض.

فإن قالوا: لما ورد الأمر بالقياس في القرآن. وهو قوله: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ ﴾ [الحشر: ٢] كان العمل بالقياس عملاً بما أنزل الله.

قلنا: هب أنه كذلك إلا أنا نقول: الآية الدالة على وجوب العمل بالقياس إنما تدل على الحكم المثبت بالقياس، لا ابتداء بل بواسطة ذلك القياس. وأما عموم القرآن، فإنه يدل على ثبوت ذلك الحكم ابتداء لا بواسطة، ولما وقع التعارض كان الذي دل عليه ما أنزله الله ابتداء أولى بالرعاية من الحكم الذي دل عليه ما أنزله الله بواسطة شيء آخر، فكان الترجيح من جانبنا. والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ ﴾ قالوا معناه ولا تتولوا من دونه أولياء من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع. ولقائل أن يقول: الآية تدل على أن المتبوع إما أن يكون هو الشيء الذي أنزله الله تعالى أو غيره.

أما الأول: فهو الذي أمر الله باتباعه.

وأما الثاني: فهو الذي نهى الله عن اتباعه، فكان المعنى أن كل ما يغاير الحكم الذي أنزله الله تعالى فإنه لا يجوز اتباعه.

إذا ثبت هذا فنقول: إن نفاة القياس تمسكوا به في نفي القياس. فقالوا الآية تدل على أنه لا

يجوز متابعة غير ما أنزل الله تعالى والعمل بالقياس متابعة لغير ما أنزله الله تعالى، فوجب أن لا يجوز.

فإن قالوا: لما دل قوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾ [الحشر: ٢] على العمل بالقياس كان العمل بالقياس عملاً بما أنزله الله تعالى أجيب عنه بأن العمل بالقياس، لو كان عملاً بما أنزله الله تعالى، لكان تارك العمل بمقتضى القياس كافرًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وحيث أجمعت الأمة على عدم التكفير علمنا أن العمل بحكم القياس ليس عملاً بما أنزله الله تعالى، وحينئذ يتم الدليل.

وأجاب عنه مثبتو القياس: بأن كون القياس حجة ثبت بإجماع الصحابة والإجماع دليل قاطع وما ذكرتموه تمسك بظاهر العموم، وهو دليل مظنون والقاطع أولى من المظنون.

وأجاب: الأولون بأنكم أثبتم أن الإجماع حجة بعموم قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] وعموم قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وعموم قوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وبعموم قوله عليه الصلاة والسلام: «لاَ تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى الضَّلاَلَةِ»(١) وعلى هذا فإثبات كون الإجماع حجة، فرع عن التمسك بالعمومات، والفرع لا يكون أقوى من الأصل.

فأجاب مثبتو القياس: بأن الآيات والأحاديث والإجماع لما تعاضدت في إثبات القياس قويت القوة وحصل الترجيح. والله أعلم.

المسألة الثالثة: الحشوية الذين ينكرون النظر العقلي والبراهين العقلية، تمسكوا بهذه الآية وهو بعيد لأن العلم بكون القرآن حجة موقوف على صحة التمسك بالدلائل العقلية، فلو جعلنا القرآن طاعِنًا في صحة الدلائل العقلية لزم التناقض وهو باطل.

المسألة الرابعة: قرأ ابن عامر (قليلاً ما يتذكرون) بالياء تارة والتاء أخرى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالتاء وتخفيف الذال، والباقون بالتاء وتشديد الذال. قال الواحدي رحمه الله: تذكرون أصله تتذكرون فأدغم تاء تفعل في الذال لأن التاء مهموسة، والذال مجهورة والمجهور أزيد صوتًا من المهموس، فحسن إدغام الأنقص في الأزيد، وما موصولة بالفعل وهي معه بمنزلة المصدر. فالمعنى: قليلاً تَذَكُّرُكم، وأما قراءة ابن عامر

---

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٣٠٣)، حديث رقم (٣٩٥٠) من طريق الوليد بن مسلم حدثنا معان بن رفاعة السلامي حدثني أبو خلف الأعمى قال سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول... فذكره، وفي (مصباح الزجاجة) (٤/ ١٦٩).

قال: هذا إسناد ضعيف لضعف أبي خلف الأعمى واسمه حازم بن عطار رواه عبد بن حميد ثنا يزيد بن هارون أنبأ بقية بن الوليد بن معاذ فذكره ورواه أبو يعلى الموصلي ثنا داود بن رشيد ثنا الوليد فذكره بإسناده ومتنه وقد روى هذا الحديث من حديث أبي ذر وأبي مالك الأشعري وابن عمر وأبي نصرة وقدامة بن عبد الله الكلابي وفي كلها نظر قاله شيخنا العراقي رحمه الله وضعفه الألباني في (ضعيف ابن ماجه) (٨٥٦).

(يتذكرون) بياء وتاء فوجهها أن هذا خطاب للنبي ﷺ أي قليلاً ما يتذكر هؤلاء الذين ذكروا بهذا الخطاب، وأما قراءة حمزة والكسائي وحفص، خفيفة الذال شديدة الكاف، فقد حذفوا التاء التي أدغمها الأولون، وذلك حسن لاجتماع ثلاثة أحرف متقاربة والله أعلم. قال صاحب (الكشاف): وقرأ مالك بن دينار ولا تبتغوا من الابتغاء من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالإنذار والتبليغ، وأمر القوم بالقبول والمتابعة ذكر في هذه الآية ما في ترك المتابعة والإعراض عنها من الوعيد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: موضع كم رفع بالابتداء وخبره أهلكناها. قال: وهو أحسن من أن يكون في موضع نصب لأن قولك زيد ضربته أجود من قولك زيدا ضربته، والنصب جيد عربي أيضًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

المسألة الثانية: قيل: في الآية محذوف والتقدير: وكم من أهل قرية ويدل عليه وجوه: أحدها: قوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ والبأس لا يليق إلا بالأهل. وثانيها: قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ فعاد الضمير إلى أهل القرية. وثالثها: أن الزجر والتحذير لا يقع للمكلفين إلا بإهلاكهم. ورابعها: أن معنى البيات والقائلة لا يصح إلا فيهم.

فإن قيل: فلماذا قال أهلكناها؟ أجابوا بأنه تعالى رد الكلام على اللفظ دون المعنى كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ﴾ [الطلاق: ٨] فرده على اللفظ. ثم قال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [الطلاق: ١٠] فرده على المعنى دون اللفظ، ولهذا السبب قال الزجاج: ولو قال فجاءهم بأسنا لكان صوابًا، وقال بعضهم: لا محذوف في الآية والمراد إهلاك نفس القرية لأن في إهلاكها بهدم أو خسف أو غيرهما إهلاك من فيها، ولأن على هذا التقدير يكون قوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ محمولاً على ظاهره ولا حاجة فيه إلى التأويل.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ يقتضي أن يكون الإهلاك متقدمًا على مجيء البأس وليس الأمر كذلك، فإن مجيء البأس مقدم على الإهلاك والعلماء أجابوا عن هذا السؤال من وجوه: الأول: المراد بقوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي حكمنا بهلاكها فجاءها بأسنا. وثانيها: كم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وثالثها: أنه لو قال وكم من قرية أهلكناها فجاءهم إهلاكنا لم يكن السؤال واردًا فكذا ههنا لأنه تعالى عبر عن ذلك الإهلاك بلفظ البأس. فإن

قالوا: السؤال بَاقٍ، لأن الفاء في قوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ فاء التعقيب، وهو يوجب المغايرة. فنقول: الفاء قد تجيء بمعنى التفسير كقوله عليه الصلاة والسلام: «**لاَ يَقْبَلُ اللَّه صَلاَة أحدكم حَتَّى يَضَعَ الطَّهُورَ مَوَاضِعَهُ، فَيَغْسِلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ**» (١)فالفاء في قوله: (فيغسل) للتفسير، لأن غسل الوجه واليدين كالتفسير لوضع الطهور مواضعه. فكذلك ههنا البأس جارٍ مجرى التفسير، لذلك الإهلاك، لأن الإهلاك، قد يكون بالموت المعتاد، وقد يكون بتسليط البأس والبلاء عليهم، فكان ذكر البأس تفسيرًا لذلك الإهلاك. الرابع: قال الفراء: لا يبعد أن يقال البأس والهلاك يقعان معًا كما يقال: أعطيتني فأحسنت، وما كان الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله، وإنما وقعا معًا فكذا ههنا، وقوله: ﴿بَيَٰتًا﴾ قال الفراء يقال: بات الرجل يبيت بيتًا، وربما قالوا بياتًا قالوا: وسمي البيت بيتًا لأنه يبات فيه. قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿بَيَٰتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى بائتين وقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾

فيه بحثان:

البحث الأول: أنه حال معطوفة على قوله: ﴿بَيَٰتًا﴾ كأنه قيل: فجاءها بأسنا بائتين أو قائلين. قال الفراء: وفيه واو مضمرة، والمعنى: أهلكناها فجاءها بأسنا بياتًا أو وهم قائلون، إلا أنهم استثقلوا الجمع بين حرفي العطف، ولو قيل: كان صوابًا، وقال الزجاج: إنه ليس بصواب لأن واو الحال قريبة من واو العطف، فالجمع بينهما يوجب الجمع بين المثلين وأنه لا يجوز، ولو قلت: جاءني زيد راجلاً وهو فارس لم يحتج فيه إلى واو العطف.

البحث الثاني: كلمة (أو) دخلت ههنا بمعنى أنهم جاءهم بأسنا مرة ليلاً ومرة نهارًا، وفي القيلولة قولان: قال الليث: القيلولة نومة نصف النهار. وقال الأزهري: القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر، وإن لم يكن مع ذلك نوم، والدليل عليه: أن الجنة لا نوم فيها والله تعالى يقول: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]ومعنى الآية أنهم جاءهم بأسنا وهم غير متوقعين له، إما ليلاً وهم نائمون، أو نهارًا وهم قائلون، والمقصود: أنهم جاءهم العذاب على حين غفلة منهم من غير تقدم أمارة تدلهم على نزول ذلك العذاب، فكأنه قيل: للكفار لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة والفراغ، فإن عذاب الله إذا وقع، وقع دفعة من غير سبق أمارة فلا تغتروا بأحوالكم.

ثم قال تعالى:﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ قال أهل اللغة: الدعوى اسم يقوم مقام الادعاء، ومقام الدعاء. حكى سيبويه: اللهم أشركنا في صالح دعاء المسلمين، ودعوى المسلمين. قال ابن عباس: فما كان تضرعهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا: إنا كنا ظالمين فأقروا على أنفسهم بالشرك. قال ابن الأنباري: فما كان قولهم إذ جاءهم بأسنا إلا الاعتراف بالظلم والإقرار

(١)ذكره ابن حجر في (تلخيص الحبير) (١/ ٥٩)، حديث رقم (٦٢)، وقال: لم أجده بهذا اللفظ.

بالإساءة وقوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ الاختيار عند النحويين أن يكون موضع (أن) رفعًا بكان ويكون قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ نصبًا كقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٦] وقوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: ١٧] وقوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن﴾ [الجاثية: ٢٥] قال: ويجوز أن يكون أيضًا على الضد من هذا بأن يكون الدعوى رفعًا، و﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ نصبًا كقوله تعالى: (لَيْسَ البِرُّ أَن تُوَلُّوا) [البقرة: ١٧٧] على قراءة من رفع البر، والأصل في هذا الباب أنه إذا حصل بعد كلمة كان معرفتان فأنت بالخيار في رفع أيهما شئت، وفي نصب الآخر كقولك كان زيد أخاك وإن شئت كان زيدًا أخوك. قال الزجاج: إلا أن الاختيار إذا جعلنا قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ في موضع رفع أن يقول: (فَمَا كانت دَعْواهُم) فلما قال: (كان) دل على أن الدعوى في موضع نصب، ويمكن أن يجاب عنه بأنه يجوز تذكير الدعوى، وإن كانت رفعًا فتقول: كان دعواه باطلاً، وباطلة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في تقرير وجه النظم وجهان:

الوجه الأول: أنه تعالى لما أمر الرسل في الآية المتقدمة بالتبليغ، وأمر الأمة بالقبول والمتابعة، وذكر التهديد على ترك القبول والمتابعة بذكر نزول العذاب في الدنيا، أتبعه بنوع آخر من التهديد، وهو أنه تعالى يسأل الكل عن كيفية أعمالهم يوم القيامة.

الوجه الثاني: أنه تعالى لما قال: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥] أتبعه بأنه لا يقع يوم القيامة الاقتصار على ما يكون منهم من الاعتراف بل ينضاف إليه أنه تعالى يسأل الكل عن كيفية أعمالهم، وبين أن هذا السؤال لا يختص بأهل العقاب بل هو عام في أهل العقاب وأهل الثواب.

المسألة الثانية: ﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ هم الأمة، والمرسلون هم الرسل، فبين تعالى أنه يسأل هذين الفريقين، ونظير هذه الآية قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

ولقائل أن يقول: المقصود من السؤال أن يخبر المسؤول عن كيفية أعماله، فلما أخبر الله عنهم في الآية المتقدمة أنهم يقرون بأنهم كانوا ظالمين، فما الفائدة في ذكر هذا السؤال بعده؟ وأيضًا قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ فإذا كان يقصه عليهم بعلم، فما معنى هذا السؤال؟

والجواب: أنهم لما أقروا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين، سئلوا بعد ذلك عن سبب ذلك الظلم

والتقصير، والمقصود منه التقريع والتوبيخ.

فإن قيل: فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بأنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة؟

قلنا: لأنهم إذا أثبتوا أنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة التحق التقصير بكليته بالأمة، فيتضاعف إكرام الله في حق الرسل لظهور براءتهم عن جميع موجبات التقصير، ويتضاعف أسباب الخزي والإهانة في حق الكفار، لما ثبت أن كل التقصير كان منهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ والمراد أنه تعالى يكرر ويبين للقوم ما أعلنوه وأسروه من أعمالهم، وأن يقص الوجوه التي لأجلها أقدموا على تلك الأعمال، ثم بين تعالى أنه إنما يصح منه أن يقص تلك الأحوال عليهم لأنه ما كان غائبًا عن أحوالهم بل كان عالمًا بها؟ وما خرج عن علمه شيء منها، وذلك يدل على أن الإلهية لا تكمل إلا إذا كان الإله عالمًا بجميع الجزئيات، حتى يمكنه أن يميز المطيع عن العاصي، والمحسن عن المسيء، فظهر أن كل من أنكر كونه تعالى عالمًا بالجزئيات، امتنع منه الاعتراف بكونه تعالى آمرًا ناهيًا مثيبًا معاقبًا، ولهذا السبب فإنه تعالى أينما ذكر أحوال البعث والقيامة بين كونه عالمًا بجميع المعلومات.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ يدل على أنه تعالى عالم بالعلم، وأن قول من يقول: إنه لا علم لله قول باطل.

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وبين قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] وقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

قلنا فيه وجوه: أحدها: أن القوم لا يسألون عن الأعمال، لأن الكتب مشتملة عليها ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال، وعن الصوارف التي صرفتهم عنها. وثانيها: أن السؤال قد يكون لأجل الاسترشاد والاستفادة، وقد يكون لأجل التوبيخ والإهانة، كقول القائل ألم أعطك، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [يس: ٦٠] قال الشاعر:

أَلَسْتُمْ خيرَ من رَكِبَ المَطَايَا[1]

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى لا يسأل أحدًا لأجل الاستفادة والاسترشاد، ويسألهم لأجل توبيخ الكفار وإهانتهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] ثم قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فإن الآية الأولى تدل على أن المسألة الحاصلة بينهم إنما كانت على سبيل أن بعضهم يلوم بعضًا، والدليل عليه قول: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠] وقوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] معناه أنه لا يسأل بعضهم بعضًا على سبيل الشفقة واللطف، لأن النسب يوجب الميل والرحمة والإكرام.

(١) البيت لابن نباتة وقد تقدمت ترجمته.

والوجه الثالث: في الجواب: أن يوم القيامة يوم طويل ومواقفها كثيرة، فأخبر عن بعض الأوقات بحصول السؤال، وعن بعضها بعدم السؤال.

المسألة الرابعة: الآية تدل على أنه تعالى يحاسب كل عباده، لأنهم لا يخرجون عن أن يكونوا رسلاً أو مرسلاً إليهم، ويبطل قول من يزعم أنه لا حساب على الأنبياء والكفار.

المسألة الخامسة: الآية تدل على كونه تعالى متعاليًا عن المكان والجهة، لأنه تعالى قال: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ ولو كان تعالى على العرش لكان غائبًا عنا.

فإن قالوا: نحمله على أنه تعالى ما كان غائبًا عنهم بالعلم والإحاطة.

قلنا: هذا تأويل والأصل في الكلام حمله على الحقيقة.

فإن قالوا: فأنتم لما قلتم أنه تعالى غير مختص بشيء من الأحياز والجهات، فقد قلتم أيضًا بكونه غائبًا.

قلنا: هذا باطل لأن الغائب هو الذي يعقل أن يحضر بعد غيبة، وذلك مشروط بكونه مختصًا بمكان وجهة، فأما الذي لا يكون مختصًا بمكان وجهة وكان ذلك محالاً في حقه، امتنع وصفه بالغيبة والحضور، فظهر الفرق والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن من جملة أحوال القيامة السؤال والحساب، بين في هذه الآية أن من جملة أحوال القيامة أيضًا وزن الأعمال.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ مبتدأ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف له و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر المبتدأ، ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الخبر و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة للوزن، أي والوزن الحق، أي العدل يوم يسأل الله الأمم والرسل.

المسألة الثانية: في تفسير وزن الأعمال قولان: الأول: في الخبر أنه تعالى ينصب ميزانًا له لسان وكفتان يوم القيامة يوزن به أعمال العباد خيرها وشرها، ثم قال ابن عباس: أما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة، فتوضع في كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته، فذلك قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون قال وهذا كما قال في سورة الأنبياء: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧] وأما كيفية وزن الأعمال على هذا القول ففيه وجوه: أحدهما: أن أعمال المؤمن تتصور بصورة حسنة، وأعمال الكافر بصورة قبيحة، فتوزن تلك الصورة كما ذكره ابن عباس. والثاني: أن الوزن يعود إلى الصحف التي تكون فيها أعمال العباد مكتوبة، وسئل رسول الله ﷺ عما يوزن يوم القيامة فقال: (الصحف)

وهذا القول مذهب عامة المفسرين في هذه الآية، وعن عبد الله بن سلام، أن ميزان رب العالمين ينصب بين الجن والإنس يستقبل به العرش إحدى كفتي الميزان على الجنة، والأخرى على جهنم، ولو وضعت السموات والأرض في إحداهما لوسعتهن، وجبريل آخذ بعموده ينظر إلى لسانه، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤتى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلى الميزان ويؤتى له بتسعة وتسعين سِجلاً، كل سِجِلٍّ منها مدُّ البَصَرِ فيها خطاياه وذنوبه فتوضع في كفة الميزان ثم يخرج له قرطاس كالأنملة فيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله يوضع في الأخرى فترجح**»[(١)] وعن الحسن: بينما الرسول ﷺ ذات يوم واضع رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها قد أغفى فسالت الدموع من عينها فقال: «**مَا أَصَابَكِ مَا أَبْكَاكِ؟**» فقالت: ذكرت حشر الناس وهل يذكر أحد أحدًا، فقال لها: «**يُحْشَرُونَ حُفاة عُرَاة غُرْلا**» ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: ٣٧][(٢)] لا يذكر أحد أحدًا عند الصحف، وعند وزن الحسنات والسيئات، وعن عبيد بن عمير يؤتى بالرجل العظيم الأكول الشروب فلا يكون له وزن بعوضة.

والقول الثاني: وهو قول مجاهد والضحاك والأعمش، أن المراد من الميزان العدل والقضاء وكثير من المتأخرين ذهبوا إلى هذا القول، وقالوا حمل لفظ الوزن على هذا المعنى سائغ في اللغة والدليل عليه فوجب المصير إليه. وأما بيان أن حمل لفظ الوزن على هذا المعنى جائز في اللغة، فلأن العدل في الأخذ والإعطاء، لا يظهر إلا بالكيل والوزن في الدنيا فلم يبعد جعل الوزن كناية عن العدل، ومما يقوي ذلك أن الرجل إذا لم يكن له قدرة ولا قيمة عند غيره يقال: إن فلانًا لا يقيم لفلان وزنًا قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[الكهف: ١٠٥] ويقال أيضًا فلان استخف بفلان، ويقال هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه، أي يعادله ويساويه مع أنه ليس هناك وزن في الحقيقة قال الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا قوة عندي لكل مخاصم ميزانه

أراد عندي لكل مخاصم كلام يعادل كلامه فجعل الوزن مثلاً للعدل.

إذا ثبت هذا فنقول: وجب أن يكون المراد من هذه الآية هذا المعنى فقط والدليل عليه أن الميزان، إنما يراد ليتوصل به إلى معرفة مقدار الشيء، ومقادير الثواب والعقاب لا يمكن إظهارها بالميزان، لأن أعمال العباد أعراض وهي قد فنيت وعدمت، ووزن المعدوم محال، وأيضًا فبتقدير بقائها كان وزنها محالاً، وأما قولهم الموزون صحائف الأعمال أو صور مخلوقة

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٤)، حديث رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٤٣٧)، حديث رقم (٤٣٠٠)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢١٣)، حديث رقم (٦٩٩٤)، جميعًا من طريق أبي عبد الرحمن المعافري عن عبد الله بن عمرو بن العاص... به، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢٥٦٣) وقال: صحيح.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق)، باب: (الحشر) (١١/ ٣٨٥)، حديث رقم (٦٥٢٥) من طريق عمرو بن دينار... به، ومسلم في كتاب (الجنة)، باب: (فناء الدنيا وبيان الحشر) (٤/ ٥٧/ ٢١٩٤) من طريق عمرو بن دينار... به. كلاهما (عمرو، المغيرة) عن سعيد بن جبير... به.

على حسب مقادير الأعمال. فنقول: المكلف يوم القيامة، إما أن يكون مقرًّا بأنه تعالى عادل حكيم أو لا يكون مقرًّا بذلك فإن كان مقرًّا بذلك، فحينئذ كفاه حكم الله تعالى بمقادير الثواب والعقاب في علمه بأنه عدل وصواب وإن لم يكن مقرًّا بذلك لم يعرف من رجحان كفة الحسنات على كفة السيئات أو بالعكس حصول الرجحان لاحتمال أنه تعالى أظهر ذلك الرجحان لا على سبيل العدل والإنصاف فثبت أن هذا الوزن لا فائدة فيه ألبتة، أجاب الأولون وقالوا إن جميع المكلفين يعلمون يوم القيامة أنه تعالى منزه عن الظلم والجور، والفائدة في وضع ذلك الميزان أن يظهر ذلك الرجحان لأهل القيامة، فإن كان ظهور الرجحان في طرف الحسنات، ازداد فرحه وسروره بسبب ظهور فضله وكمال درجته لأهل القيامة وإن كان بالضد فيزداد غمه وحزنه وخوفه وفضيحته في موقف القيامة، ثم اختلفوا في كيفية ذلك الرجحان، فبعضهم قال يظهر هناك نور في رجحان الحسنات، وظلمة في رجحان السيئات، وآخرون قالوا بل بظهور رجحان في الكفة.

المسألة الثالثة: الأظهر إثبات موازين في يوم القيامة لا ميزان واحد والدليل عليه قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال في هذه الآية: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان آخر. قال الزجاج: إنما جمع الله الموازين ههنا، فقال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ولم يقل ميزانه لوجهين: الأول: أن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد. فيقولون: خرج فلان إلى مكة على البغال. والثاني: أن المراد من الموازين ههنا جمع موزون لا جمع ميزان وأراد بالموازين الأعمال الموزونة ولقائل أن يقول هذان الوجهان يوجبان العدول عن ظاهر اللفظ، وذلك إنما يصار إليه عند تعذر حمل الكلام على ظاهره ولا مانع ههنا منه فوجب إجراء اللفظ على حقيقته فكما لم يمتنع إثبات ميزان له لسان وكفتان فكذلك لا يمتنع إثبات موازين بهذه الصفة، فما الموجب لترك الظاهر والمصير إلى التأويل.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

اعلم أن هذه الآية فيها مسائل:

المسألة الأولى: أنها تدل على أن أهل القيامة فريقان منهم من يزيد حسناته على سيئاته، ومنهم من يزيد سيئاته على حسناته، فأما القسم الثالث وهو الذي تكون حسناته وسيئاته متعادلة متساوية فإنه غير موجود.

المسألة الثانية: قال أكثر المفسرين المراد من قوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الكافر والدليل عليه القرآن والخبر والأثر. أما القرآن فقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] ولا معنى لكون الإنسان ظالمًا بآيات الله إلا كونه كافرًا بها منكرًا لها، فدل هذا على أن المراد من هذه الآية أهل الكفر، وأما الخبر فما روي أنه إذا خفت حسنات المؤمن

أخرج رسول الله ﷺ من حجرته بطاقة كالأنملة فيلقيها في كفة الميزان اليمنى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي ﷺ بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك وأحسن خلقك فمن أنت؟ فيقول: «أنا نَبِيُّكَ مُحَمَّد، وهذه صَلَواتكَ الَّتِي كُنْتَ تُصَلِّيها عَلَيَّ، وقَدْ وَفَيْتُكَ أَحْوَجَ ما تكُونُ إِلَيْهَا»، وهذا الخبر رواه الواحدي في (البسيط)، وأما جمهور العلماء فرووا ههنا الخبر الذي ذكرناه من أنه تعالى يلقى في كفة الحسنات الكتاب المشتمل على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. قال القاضي: يجب أن يحمل هذا على أنه أتى بالشهادتين بحقهما من العبادات، لأنه لو لم يعتبر ذلك لكان من أتى بالشهادتين يعلم أن المعاصي لا تضره، وذلك إغراء بمعصية الله تعالى.

ولقائل أن يقول: العقل يدل على صحة ما دل عليه هذا الخبر، وذلك أن العمل كلما كان أشرف وأعلى درجة، وجب أن يكون أكثر ثوابًا، ومعلوم أن معرفة الله تعالى ومحبته أعلى شأنًا، وأعظم درجة من سائر الأعمال، فوجب أن يكون أوفى ثوابًا، وأعلى درجة من سائر الأعمال. وأما الأثر فلأن ابن عباس وأكثر المفسرين حملوا هذه الآية على أهل الكفر.

وإذا ثبت هذا الأصل فنقول: إن المرجئة الذين يقولون: المعصية لا تضر مع الإيمان تمسكوا بهذه الآية وقالوا إنه تعالى حصر أهل موقف القيامة في قسمين: أحدهما: الذين رجحت كفة حسناتهم وحكم عليهم بالفلاح. والثاني: الذين رجحت كفة سيئاتهم، وحكم عليهم بأنهم أهل الكفر الذين كانوا يظلمون بآيات الله، وذلك يدل على أن المؤمن لا يعاقب ألبتة. ونحن نقول في الجواب: أقصى ما في الباب أنه تعالى لم يذكر هذا القسم الثالث في هذه الآية إلا أنه تعالى ذكره في سائر الآيات فقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦] والمنطوق راجح على المفهوم، فوجب المصير إلى إثباته، وأيضًا فقال تعالى في هذا القسم: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ ونحن نسلم أن هذا لا يليق إلا بالكافر وأما العاصي المؤمن فإنه يعذب أياما ثم يعفى عنه، ويتخلص إلى رحمة الله تعالى، فهو في الحقيقة ما خسر نفسه بل فاز برحمة الله أبد الآباد من غير زوال وانقطاع والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما أمر الخلق بمتابعة الأنبياء عليهم السلام، وبقبول دعوتهم ثم خوفهم بعذاب الدنيا، وهو قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف: ٤] ثم خوفهم بعذاب الآخرة من وجهين: أحدهما: السؤال؛ وهو قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٦] والثاني: بوزن الأعمال، وهو قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] رغبهم في قبول دعوة

الأنبياء عليهم السلام في هذه الآية بطريق آخر وهو أنه كثرت نعم الله عليهم، وكثرة النعم توجب الطاعة، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَيِشَ﴾ فقوله: ﴿مَكَّنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا ومكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها وجعلنا لكم فيها معايش، والمراد من المعايش: وجوه المنافع وهي على قسمين، منها ما يحصل بخلق الله تعالى ابتداء مثل خلق الثمار وغيرها، ومنها ما يحصل بالاكتساب وكلاهما في الحقيقة إنما حصل بفضل الله وإقداره وتمكينه، فيكون الكل إنعامًا من الله تعالى، وكثرة الإنعام لا شك أنها توجب الطاعة والانقياد، ثم بيّن تعالى أنه مع هذا الإفضال والإنعام عالم بأنهم لا يقومون بشكره كما ينبغي، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وهذا يدل على أنهم قد يشكرون والأمر كذلك، وذلك لأن الإقرار بوجود الصانع كالأمر الضروري اللازم لجبلة عقل كل عاقل، ونعم الله على الإنسان كثيرة، فلا إنسان إلا ويشكر الله تعالى في بعض الأوقات على نعمه، إنما التفاوت في أن بعضهم قد يكون كثير الشكر، وبعضهم يكون قليل الشكر.

المسألة الثانية: روى خارجة عن نافع أنه همز (معائش) قال الزجاج: جميع النحويين البصريين يزعمون أن همز (معائش) خطأ، وذكروا أنه إنما يجوز جعل الياء همزة إذا كانت زائدة نحو صحيفة وصحائف، فأما معايش فمن العيش، والياء أصلية، وقراءة نافع لا أعرف لها وجهًا، إلا أن لفظة هذه الياء التي هي من نفس الكلمة أسكن في معيشة فصارت هذه الكلمة مشابهة لقولنا صحيفة، فجعل قوله: (معائش) شبيهًا لقولنا صحائف فكما أدخلوا الهمزة في قولنا: صحائف فكذا في قولنا معائش على سبيل التشبيه، إلا أن الفرق ما ذكرناه أن الياء في معيشة أصلية وفي صحيفة زائدة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى رغب الأمم في قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام بالتخويف أولاً ثم بالترغيب ثانيًا على ما بيناه، والترغيب إنما كان لأجل التنبيه على كثرة نعم الله تعالى على الخلق، فبدأ في شرح تلك النعم بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَيِشَ﴾ [الأعراف: ١٠] ثم أتبعه بذكر أنه خلق أبانا آدم وجعله مسجودًا للملائكة، والإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات، ونظيره أنه تعالى قال في أول سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فمنع تعالى من المعصية بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ وعلل ذلك المنع بكثرة نعمه على الخلق، وهو أنهم كانوا أمواتًا فأحياهم، ثم خلق لهم ما في الأرض جميعًا من المنافع، ثم أتبع تلك المنفعة بأن جعل آدم

خليفة في الأرض مسجودًا للملائكة، والمقصود من الكل تقرير أن مع هذه النعم العظيمة لا يليق بهم التمرد والجحود فكذا في هذه السورة ذكر تعالى عين هذا المعنى بغير هذا الترتيب فهذا بيان وجه النظم على أحسن الوجوه:

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى ذكر قصة آدم عليه السلام مع قصة إبليس في القرآن في سبعة مواضع: أولها: في سورة البقرة، وثانيها: في هذه السورة، وثالثها: في سورة الحجر، ورابعها: في سورة بني إسرائيل، وخامسها: في سورة الكهف، وسادسها: في سورة طه، وسابعها: في سورة ص.

إذا عرفت هذا فنقول: في هذه الآية سؤال، وهو أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ يفيد أن المخاطب بهذا الخطاب نحن.

ثم قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وكلمة (ثم) تفيد التراخي، فظاهر الآية يقتضي أن أمر الملائكة بالسجود لآدم وقع بعد خلقنا وتصويرنا، ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك، فلهذا السبب اختلف الناس في تفسير هذه الآية على أربعة أقوال: الأول: أن قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم آدم وصورناكم، أي صورنا آدم ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وهو قول الحسن ويوسف النحوي وهو المختار، وذلك لأن أمر الملائكة بالسجود لآدم تأخر عن خلق آدم وتصويره، ولم يتأخر عن خلقنا وتصويرنا أقصى ما في الباب أن يقال: كيف يحسن جعل خلقنا وتصويرنا كناية عن خلق آدم وتصويره؟ فنقول: إن آدم عليه السلام أصل البشر، فوجب أن تحسن هذه الكناية نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣] أي ميثاق أسلافكم من بني إسرائيل في زمان موسى عليه السلام، ويقال: قتلت بنو أسد فلانًا، وإنما قتله أحدهم. قال عليه السلام: ثم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتيل، وإنما قتله أحدهم، وقال تعالى مخاطبًا لليهود في زمان محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٤١] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢] والمراد من جميع هذه الخطابات أسلافهم، فكذا ههنا. الثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ آدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي صورنا ذرية آدم عليه السلام في ظهره، ثم بعد ذلك قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، وهذا قول مجاهد. فذكر أنه تعالى خلق آدم أولاً، ثم أخرج أولاده من ظهره في صورة الذر، ثم بعد ذلك أمر الملائكة بالسجود لآدم.

الوجه الثالث: خلقناكم ثم صورناكم ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فهذا العطف يفيد ترتيب خبر على خبر، ولا يفيد ترتيب المخبر على المخبر.

والوجه الرابع: أن الخلق في اللغة عبارة عن التقدير، كما قررناه في هذا الكتاب، وتقدير الله عبارة عن علمه بالأشياء ومشيئته لتخصيص كل شيء بمقداره المعين فقوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ إشارة إلى حكم الله وتقديره لإحداث البشر في هذا العالم. وقوله: ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ إشارة إلى أنه تعالى أثبت في اللوح المحفوظ صورة كل شيء كائن محدث إلى قيام الساعة على

ما جاء في الخبر أنه تعالى قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فخلق الله عبارة عن حكمه ومشيئته، والتصوير عبارة عن إثبات صور الأشياء في اللوح المحفوظ، ثم بعد هذين الأمرين أحدث الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له وهذا التأويل عندي أقرب من سائر الوجوه.

المسألة الثالثة: ذكرنا في سورة البقرة أن هذه السجدة فيها ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد منها مجرد التعظيم لا نفس السجدة. وثانيها: أن المراد هو السجدة، إلا أن المسجود له هو الله تعالى، فآدم كان كالقبلة. وثالثها: أن المسجود له هو آدم، وأيضًا ذكرنا أن الناس اختلفوا في أن الملائكة الذين أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم هل هم ملائكة السماوات والعرش أو المراد ملائكة الأرض، ففيه خلاف، وهذه المباحث قد سبق ذكرها في سورة البقرة.

المسألة الرابعة: ظاهر الآية يدل على أنه تعالى استثنى إبليس من الملائكة، فوجب كونه منهم وقد استقصينا أيضًا هذه المسألة في سورة البقرة، وكان الحسن يقول: إبليس لم يكن من الملائكة لأنه خلق من نار والملائكة من نور، والملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ولا يعصون، وليس كذلك إبليس، فقد عصى واستكبر، والملائكة ليسوا من الجن، وإبليس من الجن، والملائكة رسل الله، وإبليس ليس كذلك، وإبليس أول خليقة الجن وأبوهم، كما أن آدم ﷺ أول خليقة الإنس وأبوهم. قال الحسن: ولما كان إبليس مأمورًا مع الملائكة استثناه الله تعالى، وكان اسم إبليس شيئًا آخر، فلما عصى الله تعالى سماه بذلك وكان مؤمنًا عابدًا في السماء حتى عصى ربه فأهبط إلى الأرض.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود فإن ذلك الأمر قد تناول إبليس، وظاهر هذا يدل على أن إبليس كان من الملائكة، إلا أن الدلائل التي ذكرناها تدل على أن الأمر ليس كذلك وأما الاستثناء فقد أجبنا عنه في سورة البقرة.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يقتضي أنه تعالى، طلب من إبليس ما منعه من ترك السجود، وليس الأمر كذلك. فإن المقصود طلب ما منعه من السجود، ولهذا الإشكال حصل في الآية قولان:

القول الأول: وهو المشهور أن كلمة لا صلة زائدة، والتقدير: ما منعك أن تسجد؟! وله نظائر في القرآن كقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١] معناه: أقسم. وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ

أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[الأنبياء: ٩٥] أي يرجعون. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الحديد: ٢٩] أي ليعلم أهل الكتاب. وهذا قول الكسائي، والفراء، والزجاج، والأكثرين.

والقول الثاني: أن كلمة ﴿أَلَّا﴾ ههنا مفيدة وليست لغوًا وهذا هو الصحيح، لأن الحكم بأن كلمة من كتاب الله لغو لا فائدة فيها مشكل صعب، وعلى هذا القول ففي تأويل الآية وجهان: الأول: أن يكون التقدير: أي شيء منعك عن ترك السجود؟! ويكون هذا الاستفهام على سبيل الإنكار ومعناه: أنه ما منعك عن ترك السجود؟! كقول القائل لمن ضربه ظلمًا: ما الذي منعك من ضربي، أدينك، أم عقلك، أم حياؤك؟! والمعنى: أنه لم يوجد أحد هذه الأمور، وما امتنعت من ضربي. الثاني: قال القاضي: ذكر الله المنع وأراد الداعي فكأنه قال: ما دعاك إلى أن لا تسجد؟ لأن مخالفة أمر الله تعالى حالة عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعي إليها.

المسألة الثالثة: احتج العلماء بهذه الآية على أن صيغة الأمر تفيد الوجوب، فقالوا: إنه تعالى ذم إبليس بهذه الآية على ترك ما أمر به ولو لم يفد الأمر الوجوب لما كان مجرد ترك المأمور به موجبًا للذم.

فإن قالوا: هب أن هذه الآية تدل على أن ذلك الأمر كان يفيد الوجوب، فلعل تلك الصيغة في ذلك الأمر كانت تفيد الوجوب. فلم قلتم إن جميع الصيغ يجب أن تكون كذلك؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ يفيد تعليل ذلك الذم بمجرد ترك الأمر، لأن قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ مذكور في معرض التعليل، والمذكور في قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ هو الأمر من حيث إنه أمر لا كونه أمرًا مخصوصًا في صورة مخصوصة، وإذا كان كذلك، وجب أن يكون ترك الأمر من حيث إنه أمر موجب للذم، وذلك يفيد أن كل أمر فإنه يقتضي الوجوب وهو المطلوب.

المسألة الرابعة: احتج من زعم أن الأمر يفيد الفور بهذه الآية قال: إنه تعالى ذم إبليس على ترك السجود في الحال، ولو كان الأمر لا يفيد الفور لما استوجب هذا الذم بترك السجود في الحال.

المسألة الخامسة: اعلم أن قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ طلب الداعي الذي دعاه إلى ترك السجود، فحكى تعالى عن إبليس ذكر ذلك الداعي، وهو أنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ومعناه: أن إبليس قال إنما لم أسجد لآدم، لأني خير منه، ومن كان خيرًا من غيره فإنه لا يجوز أمر ذلك الأكمل بالسجود لذلك الأدون! ثم بيَّن المقدمة الأولى وهو قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ بأن قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ والنار أفضل من الطين والمخلوق من الأفضل أفضل، فوجب كون إبليس خيرًا من آدم. أما بيان أن النار أفضل من الطين، فلأن النار مشرق علوي لطيف خفيف حار يابس مجاور لجواهر السماوات ملاصق لها، والطين مظلم سفلي كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السماوات، وأيضًا فالنار قوية التأثير والفعل، والأرض ليس لها إلا القبول والانفعال. والفعل أشرف من الانفعال، وأيضًا فالنار مناسبة

للحرارة الغريزية وهي مادة الحياة، وأما الأرضية والبرد واليبس فهما مناسبان الموت. والحياة أشرف من الموت، وأيضًا فنضج الثمار متعلق بالحرارة، وأيضًا فسن النمو من النبات لما كان وقت كمال الحرارة كان غاية كمال الحيوان حاصلاً في هذين الوقتين، وأما وقت الشيخوخة، فهو وقت البرد واليبس المناسب للأرضية، لا جرم كان هذا الوقت أردأ أوقات عمر الإنسان، فأما بيان أن المخلوق من الأفضل أفضل فظاهر، لأن شرف الأصول يوجب شرف الفروع. وأما بيان أن الأشرف لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدون فلأنه قد تقرر في العقول أن من أمر أبا حنيفة والشافعي وسائر أكابر الفقهاء بخدمة فقيه نازل الدرجة كان ذلك قبيحًا في العقول، فهذا هو تقرير لشبهة إبليس. فنقول: هذه الشبهة مركبة من مقدمات ثلاثة: أولها: أن النار أفضل من التراب، فهذا قد تكلمنا فيه في سورة البقرة. وأما المقدمة الثانية: وهي أن من كانت مادته أفضل فصورته أفضل، فهذا هو محل النزاع والبحث، لأنه لما كانت الفضيلة عطية من الله ابتداء لم يلزم من فضيلة المادة فضيلة الصورة. ألا ترى أنه يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر، والنور من الظلمة والظلمة من النور، وذلك يدل على أن الفضيلة لا تحصل إلا بفضل الله تعالى لا بسبب فضيلة الأصل والجوهر. وأيضًا التكليف إنما يتناول الحي بعد انتهائه إلى حد كمال العقل، فالمعتبر بما انتهى إليه لا بما خلق منه، وأيضًا فالفضل إنما يكون بالأعمال وما يتصل بها لا بسبب المادة. ألا ترى أن الحبشي المؤمن مفضل على القرشي الكافر.

المسألة السادسة: احتج من قال: إنه لا يجوز تخصيص عموم النص بالقياس بأنه لو كان تخصيص عموم النص بالقياس جائزًا لما استوجب إبليس هذا الذم الشديد والتوبيخ العظيم، ولما حصل ذلك دل على أن تخصيص عموم النص بالقياس لا يجوز، وبيان الملازمة أن قوله تعالى للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] خطاب عام يتناول جميع الملائكة. ثم إن إبليس أخرج نفسه من هذا العموم بالقياس. وهو أنه مخلوق من النار والنار أشرف من الطين، ومن كان أصله أشرف فهو أشرف، فيلزم كون إبليس أشرف من آدم عليه السلام، ومن كان أشرف من غيره، فإنه لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدون الأدنى. والدليل عليه أن هذا الحكم ثابت في جميع النظائر، ولا معنى للقياس إلا ذلك، فثبت أن إبليس ما عمل في هذه الواقعة شيئًا إلا أنه خصص عموم قوله تعالى للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ بهذا القياس، فلو كان تخصيص النص بالقياس جائزا لوجب أن لا يستحق إبليس الذم على هذا العمل: وحيث استحق الذم الشديد عليه، علمنا أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز، وأيضًا ففي الآية دلالة على صحة هذه المسألة من وجه آخر، وذلك لأن إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] فوصف تعالى إبليس بكونه متكبرًا بعد أن حكى عنه ذلك القياس الذي يوجب تخصيص النص، وهذا يقتضي أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبر على الله، ولما دلت هذه الآية على أن تخصيص عموم النص بالقياس تكبر على الله، ودلت هذه الآية على أن

التكبر على الله يوجب العقاب الشديد والإخراج من زمرة الأولياء والإدخال في زمرة الملعونين، ثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز. وهذا هو المراد مما نقله الواحدي في (البسيط)، عن ابن عباس أنه قال: كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس، فعصى ربه وقاس، وأول من قاس إبليس، فكفر بقياسه، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس. هذا جملة الألفاظ التي نقلها الواحدي في (البسيط) عن ابن عباس.

فإن قيل: القياس الذي يبطل النص بالكلية باطل، أما القياس الذي يخصص النص في بعض الصور فلم قلتم إنه باطل؟

وتقريره أنه لو قبح أمر من كان مخلوقًا من النار بالسجود لمن كان مخلوقًا من الأرض، لكان قبح أمر من كان مخلوقًا من النور المحض بالسجود لمن كان مخلوقًا من الأرض أولى وأقوى، لأن النور أشرف من النار، وهذا القياس يقتضي أن يقبح أمر أحد من الملائكة بالسجود لآدم، فهذا القياس يقتضي رفع مدلول النص بالكلية وأنه باطل.

وأما القياس الذي يقتضي تخصيص مدلول النص العام، لم قلتم: إنه باطل؟ فهذا سؤال حسن أوردته على هذه الطريقة وما رأيت أحدًا ذكر هذا السؤال ويمكن أن يجاب عنه، فيقال: إن كونه أشرف من غيره يقتضي قبح أمر من لا يرضى أن يلجأ إلى خدمة الأدنى الأدون، أما لو رضي ذلك الشريف بتلك الخدمة لم يقبح، لأنه لا اعتراض عليه في أنه يسقط حق نفسه، أما الملائكة فقد رضوا بذلك، فلا بأس به، وأما إبليس فإنه لم يرض بإسقاط هذا الحق، فوجب أن يقبح أمره بذلك السجود، فهذا قياس مناسب، وأنه يوجب تخصيص النص ولا يوجب رفعه بالكلية ولا إبطاله فلو كان تخصيص النص بالقياس جائزًا، لما استوجب الذم العظيم، فلما استوجب استحقاق هذا الذم العظيم في حقه علمنا أن ذلك إنما كان لأجل أن تخصيص النص بالقياس غير جائز. والله أعلم.

المسألة السابعة: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ لا شك أن قائل هذا القول هو الله لأن قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لا يليق إلا بالله سبحانه.

وأما قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ فلا شك أن قائل هذا القول هو إبليس.

وأما قوله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ فلا شك أن قائل هذا القول هو الله تعالى، ومثل هذه المناظرة بين الله سبحانه وبين إبليس مذكور في سورة (ص) على سبيل الاستقصاء.

إذا ثبت هذا فنقول: إنه لم يتفق لأحد من أكابر الأنبياء عليهم السلام مكالمة مع الله مثل ما اتفق لإبليس، وقد عظم الله تشريف موسى بأن كلمه حيث قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] فإن كانت هذه المكالمة تفيد الشرف العظيم فكيف حصلت على أعظم الوجوه لإبليس؟ وإن لم توجب الشرف العظيم، فكيف ذكره الله تعالى في معرض التشريف الكامل لموسى عليه السلام؟

والجواب: أن بعض العلماء قال: إنه تعالى قال لإبليس على لسان من يؤدي إليه من الملائكة ما منعك من السجود؟ ولم يسلم أنه تعالى تكلم مع إبليس بلا واسطة. قالوا: لأنه ثبت أن غير الأنبياء لا يخاطبهم الله تعالى إلا بواسطة، ومنهم من قال: إنه تعالى تكلم مع إبليس بلا واسطة، ولكن على وجه الإهانة بدليل أنه تعالى قال له: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ وتكلم مع موسى ومع سائر الأنبياء عليهم السلام على سبيل الإكرام ألا ترى أنه تعالى قال لموسى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [طه: ١٣] وقال له ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] وهذا نهاية الإكرام.

المسألة الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ قال ابن عباس: يريد من الجنة، وكانوا في جنة عدن وفيها خلق آدم. وقال بعض المعتزلة: إنه إنما أمر بالهبوط من السماء، وقد استقصينا الكلام في هذه المسألة في سورة البقرة. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي في السماء. قال ابن عباس: يريد أن أهل السماوات ملائكة متواضعون خاشعون فاخرج إنك من الصاغرين، والصغار الذلة. قال الزجاج: إن إبليس طلب التكبر فابتلاه الله تعالى بالذلة والصغار تنبيهًا على صحة ما قاله النبي ﷺ: «**مَن تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ الله، ومَن تَكَبَّر وَضَعَه الله**»(١) وقال بعضهم: لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يدل على أنه طلب الإنظار من الله تعالى إلى وقت البعث وهو وقت النفخة الثانية حين يقوم الناس لرب العالمين ومقصوده أنه لا يذوق الموت فلم يعطه الله تعالى ذلك بل قال إنك من المنظرين ثم ههنا قولان: الأول: أنه

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٣/ ١٦٠)، حديث رقم (٩١٤) من طريق محمد بن داود البرمكي حدثنا عبد الصمد بن حسان حدثنا خارجة بن مصعب عن عبد الله بن سوار بن نويرة التميمي عن هند بن أبي هند بن أبي هالة عن أبيه عن أوس بن خولي . . . به، وفي إسناده خارجة بن مصعب وهو ضعيف. وأورده ابن حجر في (الإصابة) (١/ ١٣٤/ ١٣٥).

وقال: في إسناده خارجة بن مصعب وهو ضعيف وفيه من لا يعرف أيضًا، وابن الجوزي في (الموضوعات) (٣/ ١٩) من طريق علي بن عبد الله بن مبشر حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي حدثنا نعيم بن مودع حدثنا هشام بن عروة عن عائشة قالت: . . . فذكره. وقال: تفرد به نعيم.

قال ابن عدي: كان يسرق الحديث، وعامة ما يرويه غير محفوظ، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال ابن حبان: يروى عن الثقات العجائب لا يجوز الاحتجاج به بحال. وأورده الألباني في (ضعيف الترغيب) (١٩١٠)، وقال: ضعيف جدًا.

تعالى أنظره إلى النفخة الأولى لأنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨] والمراد منه اليوم الذي يموت فيه الأحياء كلهم، وقال آخرون: لم يوقت الله له أجلاً بل قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ وقوله في الأخرى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ المراد منه. الوقت المعلوم في علم الله تعالى. قالوا: والدليل على صحة هذا القول أن إبليس كان مكلفًا والمكلف لا يجوز أن يعلم أن الله تعالى أخر أجله إلى الوقت الفلاني لأن ذلك المكلف يعلم أنه متى تاب قبلت توبته فإذا علم أن وقت موته هو الوقت الفلاني أقدم على المعصية بقلب فارغ، فإذا قرب وقت أجله تاب عن تلك المعاصي فثبت أن تعريف وقت الموت بعينه يجري مجرى الإغراء بالقبيح، وذلك غير جائز على الله تعالى.

وأجاب الأولون: بأن تعريف الله عز وجل كونه من المنظرين إلى يوم القيامة لا يقتضي إغراءه بالقبيح لأنه تعالى كان يعلم منه أنه يموت على أقبح أنواع الكفر والفسق سواء أعلمه بوقت موته أو لم يعلمه بذلك، فلم يكن ذلك الإعلام موجبًا إغراءه بالقبيح، ومثاله أنه تعالى عرف أنبياءه أنهم يموتون على الطهارة والعصمة، ولم يكن ذلك موجبًا إغراءهم بالقبيح لأجل أنه تعالى علم منهم سواء عرفهم تلك الحالة أو لم يعرفهم هذه الحالة أنهم يموتون على الطهارة والعصمة فلما كان لا يتفاوت حالهم بسبب هذا التعريف لا جرم ما كان ذلك التعريف إغراء بالقبيح فكذا ههنا، والله أعلم.

المسألة الثانية: قول إبليس: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ يدل على أنه أضاف إغواءه إلى الله تعالى، وقوله في آية أخرى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] يدل على أنه أضاف إغواء العباد إلى نفسه. فالأول: يدل على كونه على مذهب الجبر. والثاني: يدل على كونه على مذهب القدر، وهذا يدل على أنه كان متحيرًا في هذه المسألة، أو يقال: أنه كان يعتقد أن الإغواء لا يحصل إلا بالمغوي فجعل نفسه مغويا لغيره من الغاوين، ثم زعم أن المغوي له هو الله تعالى قطعًا للتسلسل، واختلف الناس في تفسير هذه الكلمة، أما أصحابنا فقالوا: الإغواء إيقاع الغي في القلب، والغي هو الاعتقاد الباطل وذلك يدل على أنه كان يعتقد أن الحق والباطل إنما يقع في القلب من الله تعالى. أما المعتزلة فلهم ههنا مقامان: أحدهما: أن يفسروا الغي بما ذكرناه. والثاني: أن يذكروا في تفسيره وجهًا آخر.

أما الوجه الأول: فلهم فيه أعذار.

الأول: أن قالوا هذا قول إبليس فهب أن إبليس اعتقد أن خالق الغي والجهل والكفر هو الله تعالى، إلا أن قوله ليس بحجة.

الثاني: قالوا: إن الله تعالى لما أمر بالسجود لآدم فعند ذلك ظهر غيه وكفره فجاز أن يضيف ذلك الغي إلى الله تعالى بهذا المعنى، وقد يقول القائل: لا تحملني على ضربك أي لا تفعل ما أضربك عنده.

الثالث: (قال رب[١] بما أغويتني لأقعدن لهم) والمعنى: إنك بما لعنتني بسبب آدم فأنا لأجل هذه العداوة ألقى الوساوس في قلوبهم. الرابع: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾[الحجر: ٣٩] أي خيبتني من جنتك عقوبة على عملي لأقعدن لهم.

الوجه الثاني: في تفسير الإغواء الإهلاك ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩] أي هلاكًا وويلاً، ومنه أيضًا قولهم: غوى الفصيل يغوي غوىً إذا أكثر من اللبن حتى يفسد جوفه، ويشارف الهلاك والعطب، وفسروا قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[هود: ٣٤] إن كان الله يريد أن يهلككم بعنادكم الحق، فهذه جملة الوجوه المذكورة.

واعلم أنا لا نبالغ في بيان أن المراد من الإغواء في هذه الآية الإضلال، لأن حاصله يرجع إلى قول إبليس وأنه ليس بحجة، إلا أنا نقيم البرهان اليقيني على أن المغوي لإبليس هو الله تعالى، وذلك لأن الغاوي لا بد له من مُغْوٍ، كما أن المتحرك لا بد له من محرك، والساكن لا بد له من مسكن، والمهتدي لا بد له من هاد. فلما كان إبليس غاويًا فلا بد له من مُغْوٍ، والمغوي له إما أن يكون نفسه أو مخلوقًا آخر أو الله تعالى، والأول: باطل. لأن العاقل لا يختار الغواية مع العلم بكونها غواية. والثاني: باطل وإلا لزم إما التسلسل وإما الدور. والثالث: هو المقصود. والله أعلم.

المسألة الثالثة: الباء في قوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ فيه وجوه: الأول: أنه باء القسم أي بإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم أي، بقدرتك علي ونفاذ سلطانك في لأقعدن لهم على الطريق المستقيم الذي يسلكونه إلى الجنة، بأن أزين لهم الباطل، وما يكسبهم المآثم، ولما كانت (الباء) باء القسم كانت (اللام) جواب القسم (وما) بتأويل المصدر و ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ صلتها. والثاني: أن قوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم، والمراد إنك لما أغويتني فأنا أيضًا أسعى في إغوائهم. الثالث: قال بعضهم: (ما) في قوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ للاستفهام كأنه قيل: بأي شيء أغويتني ثم ابتدأ وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ وفيه إشكال، وهو أن إثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على (ما) الاستفهامية قليل.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لا خلاف بين النحويين أن (على) محذوف والتقدير: لأقعدن لهم على صراطك المستقيم. قال الزجاج: مثاله قولك ضرب زيد الظهر والبطن، والمعنى على الظهر والبطن وإلقاء كلمة (على) جائز، لأن الصراط ظرف في المعنى: فاحتمل ما يحتمله لليوم والليلة، في قولك آتيك غدًا وفي غد.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

فيه أبحاث:

البحث الأول: المراد منه أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها، ولهذا المعنى ذكر

(١) لفظة (رب) غير واردة في الآية المفسرة هنا.

القعود لأن من أراد أن يبالغ في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال فيمكنه إتمام المقصود ومواظبته على الإفساد هي مواظبته على الوسوسة حتى لا يفتر عنها.

والبحث الثاني: أن هذه الآية تدل على أنه كان عالمًا بالدين الحق والمنهج الصحيح، لأنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وصراط الله المستقيم هو دينه الحق.

البحث الثالث: الآية تدل على أن إبليس كان عالمًا بأن الذي هو عليه من المذهب والاعتقاد هو محض الغواية والضلال، لأنه لو لم يكن كذلك لما قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ وأيضًا كان عالمًا بالدين الحق، ولولا ذلك لما قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ .

وإذا ثبت هذا فكيف يمكن: أن يرضى إبليس بذلك المذهب مع علمه بكونه ضلالاً وغواية وبكونه مضادًّا للدين الحق ومنافيًا للصراط المستقيم فإن المرء إنما يعتقد الفاسد إذا غلب على ظنه كونه حقا، فأما مع العلم بأنه باطل وضلال وغواية يستحيل أن يختاره ويرضى به ويعتقده.

واعلم أن من الناس من قال: إن كفر إبليس كفر عناد لا كفر جهل لأنه متى علم أن مذهبه ضلال وغواية، فقد علم أن ضده هو الحق، فكان إنكاره إنكارًا بمحض اللسان، فكان ذلك كفر عناد، ومنهم من قال لا بل كفره كفر جهل وقوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يريد به في زعم الخصم، وفي اعتقاده، والله أعلم.

المسألة الخامسة: احتج أصحابنا بهذه الآية في بيان أنه لا يجب على الله رعاية مصالح العبد في دينه ولا في دنياه وتقريره أن إبليس استمهل الزمان الطويل فأمهله الله تعالى، ثم بين أنه إنما استمهله لإغواء الخلق وإضلالهم وإلقاء الوساوس في قلوبهم، وكان تعالى عالمًا بأن أكثر الخلق يطيعونه ويقبلون وسوسته كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠] فثبت بهذا أن إنظار إبليس، وإمهاله هذه المدة الطويلة يقتضي حصول المفاسد العظيمة والكفر الكبير، فلو كان تعالى مراعيًا لمصالح العباد لامتنع أن يمهله، وأن يمكنه من هذه المفاسد فحيث أنظره وأمهله علمنا أنه لا يجب عليه شيء من رعاية المصالح أصلًا، ومما يقوي ذلك أنه تعالى بعث الأنبياء دعاة إلى الخلق، وعلم من حال إبليس أنه لا يدعو إلا إلى الكفر والضلال، ثم إنه تعالى أمات الأنبياء الذين هم الدعاة للخلق، وأبقى إبليس وسائر الشياطين الذين هم الدعاة للخلق إلى الكفر والباطل ومن كان يريد مصالح العباد امتنع منه أن يفعل ذلك. قالت المعتزلة: اختلف شيوخنا في هذه المسألة. فقال الجبائي: إنه لا يختلف الحال بسبب وجوده وعدمه، ولا يضل بقوله أحد إلا من لو فرضنا عدم إبليس لكان يضل أيضًا، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٢، ١٦٣] ولأنه لو ضل به أحد لكان بقاؤه مفسدة. وقال أبو هاشم: يجوز أن يضل به قوم، ويكون خلقه جاريًا مجرى خلق زيادة الشهوة، فإن هذه الزيادة من الشهوة لا توجب فعل القبيح إلا أن الامتناع منها يصير أشق، ولأجل تلك الزيادة من المشقة تحصل الزيادة في الثواب، فكذا ههنا بسبب إبقاء

إبليس يصير الامتناع من القبائح أشد وأشق، ولكنه لا ينتهي إلى حد الإلجاء والإكراه.

والجواب: أما قول أبي علي فضعيف، وذلك لأن الشيطان لا بد وأن يزين القبائح في قلب الكافر ويحسنها إليه، ويذكره ما في القبائح من أنواع اللذات والطيبات، ومن المعلوم أن حال الإنسان مع حصول هذا التذكير والتزيين لا يكون مساويًا لحاله عند عدم هذا التذكير، وهذا التزيين والدليل عليه العرف، فإن الإنسان إذا حصل له جلساء يرغبونه في أمر من الأمور ويحسنونه في عينه ويسهلون طريق الوصول إليه ويواظبون على دعوته إليه، فإنه لا يكون حاله في الإقدام على ذلك الفعل كحاله إذا لم يوجد هذا التذكير والتحسين والتزيين والعلم به ضروري، وأما قول أبي هاشم فضعيف أيضًا لأنه إذا صار حصول هذا التذكير والتزيين حاصلاً للمرء على الإقدام على ذلك القبيح كان ذلك سعيًا في إلقائه في المفسدة، وما ذكره من خلق الزيادة في الشهوة، فهو حجة أخرى لنا في أن الله تعالى لا يراعي المصلحة، فكيف يمكنه أن يحتج به؟ والذي يقرره غاية التقرير: أن لسبب حصول تلك الزيادة في الشهوة يقع في الكفر وعقاب الأبد، ولو احترز عن تلك الشهوة فغايته أنه يزداد ثوابه من الله تعالى بسبب زيادة تلك المشقة وحصول هذه الزيادة من الثواب شيء لا حاجة إليه ألبتة، أما دفع العقاب المؤبد فإليه أعظم الحاجات، فلو كان إله العالم مراعيًا لمصالح العباد لاستحال أن يهمل الأهم الأكمل الأعظم لطلب الزيادة التي لا حاجة إليها ولا ضرورة، فثبت فساد هذه المذاهب وأنه لا يجب على الله تعالى شيء أصلاً، والله أعلم بالصواب.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في ذكر هذه الجهات الأربع قولان:

القول الأول: أن كل واحد منها مختص بنوع من الآفة في الدين. والقائلون بهذا القول ذكروا وجوها: أحدها: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يعني أشككهم في صحة البعث والقيامة ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ ألقي إليهم أن الدنيا قديمة أزلية. وثانيها: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ والمعنى أفترهم عن الرغبة في سعادات الآخرة ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني أقوي رغبتهم في لذات الدنيا وطيباتها وأحسنها في أعينهم، وعلى هذين الوجهين فالمراد من قوله: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآخرة لأنهم يردون عليها ويصلون إليها، فهي بين أيديهم، وإذا كانت الآخرة بين أيديهم كانت الدنيا خلفهم لأنهم يخلفونها. وثالثها: وهو قول الحاكم والسدي ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يعني الدنيا ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ الآخرة، وإنما فسرنا ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بالدنيا، لأنها بين يدي الإنسان يسعى فيها ويشاهدها، وأما الآخرة فهي تأتي بعد ذلك. ورابعها: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ في تكذيب الأنبياء والرسل الذين يكونون حاضرين ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ في تكذيب من تقدم من الأنبياء والرسل.

وأما قوله: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ ففيه وجوه: أحدها: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ في الكفر والبدعة

﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ في أنواع المعاصي. وثانيها: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ في الصرف عن الحق ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ في الترغيب في الباطل. وثالثها: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ يعني أفترهم عن الحسنات ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ أقوى دواعيهم في السيئات. قال ابن الأنباري: وقول من قال: الأيمان كناية عن الحسنات والشمائل عن السيئات قول حسن، لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، يريد اجعلني من المقدمين عندك ولا تجعلني من المؤخرين. وروى أبو عبيد عن الأصمعي أنه يقال: هو عندنا باليمين أي بمنزلة حسنة، وإذا خبثت منزلته قال: أنت عندي بالشمال، فهذا تلخيص ما ذكره المفسرون في تفسير هذه الجهات الأربع. أما حكماء الإسلام فقد ذكروا فيها وجوهًا أخرى: أولها: وهو الأقوى الأشرف أن في البدن قوى أربعًا، هي الموجبة لقوات السعادات الروحانية، فإحداها: القوة الخالية التي يجتمع فيها مثل المحسوسات وصورها وهي موضوعة في البطن المقدم من الدماغ، وصور المحسوسات إنما ترد عليها من مقدمها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾.

والقوة الثانية: القوة الوهمية التي تحكم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة للمحسوسات، وهي موضوعة في البطن المؤخر من الدماغ، وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾.

والقوة الثالثة: الشهوة وهي موضوعة في الكبد وهي من يمين البدن.

والقوة الرابعة: الغضب، وهو موضوع في البطن الأيسر من القلب، فهذه القوى الأربع هي التي تتولد عنها أحوال توجب زوال السعادات الروحانية والشياطين الخارجة ما لم تستعن بشيء من هذه القوى الأربع، لم تقدر على إلقاء الوسوسة، فهذا هو السبب في تعيين هذه الجهات الأربع، وهو وجه حقيقي شريف. وثانيها: أن قوله: ﴿لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ المراد منه الشبهات المبنية على التشبيه. أما في الذات والصفات مثل شبه المجسمة. وأما الأفعال: مثل شبه المعتزلة في التعديل والتخويف والتحسين والتقبيح ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ المراد منه الشبهات الناشئة عن التعطيل، وإنما جعلنا قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لشبهات التشبيه، لأن الإنسان يشاهد هذه الجسمانيات وأحوالها، فهي حاضرة بين يديه، فيعتقد أن الغائب يجب أن يكون مساويًا لهذا الشاهد، وإنما جعلنا قوله: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ كناية عن التعطيل، لأن التشبيه عين التعطيل، فلما جعلنا قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ كناية عن التشبيه وجب أن نجعل قوله: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ كناية عن التعطيل. وأما قوله: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ فالمراد منه الترغيب في ترك المأمورات ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ الترغيب في فعل المنهيات. وثالثها: نقل عن شقيق رحمه الله أنه قال: ما من صباح إلا ويأتيني الشيطان من الجهات الأربع، من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي. أما من بين يدي فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم. فأقرأ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [طه: ٨٢] وأما من خلفي: فيخوفني من وقوع أولادي في الفقر، فأقرأ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ

رِزْقُهَا﴾[هود: ٦] وأما من قبل يميني: فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣] وأما من قبل شمالي: فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[سبأ: ٥٤].

والقول الثاني: في هذه الآية أنه تعالى حكى عن الشيطان ذكر هذه الوجوه الأربعة، والغرض منه أنه يبالغ في إلقاء الوسوسة، ولا يقصر في وجه من الوجوه الممكنة البتة. وتقدير الآية: ثم لآتينهم من جميع الجهات الممكنة بجميع الاعتبارات الممكنة. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنَّ الشَّيطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِطَرِيقِ الإِسْلام فقَالَ: تدع دِينَ آبَائِكَ فَعَصَاهُ فأسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرةِ فقالَ لَهُ: تَدَعُ دِيَارَكَ وتَتَغرَّبُ! فَعَصَاهُ وهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيق الجِهَادِ فقال له: تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فيقْسمُ مَالُكَ وتُنْكَحُ امْرَأتك فَعَصَاهُ فقاتَلَ**»(١)، وهذا الخبر يدل على أن الشيطان لا يترك جهة من جهات الوسوسة إلا ويلقيها في القلب.

فإن قيل: فلم لم يذكر مع الجهات الأربع من فوقهم ومن تحتهم.

قلنا: أما في التحقيق فقد ذكرنا أن القوى التي يتولد منها ما يوجب تفويت السعادات الروحانية، فهي موضوعة في هذه الجوانب الأربعة من البدن. وأما في الظاهر: فيروى أن الشيطان لما قال هذا الكلام رقت قلوب الملائكة على البشر، فقالوا: يا إلهنا كيف يتخلص الإنسان من الشيطان مع كونه مستوليًا عليه من هذه الجهات الأربع، فأوحى الله تعالى إليهم أنه بقي للإنسان جهتان: الفوق والتحت، فإذا رفع يديه إلى فوق في الدعاء على سبيل الخضوع، أو وضع جبهته على الأرض على سبيل الخشوع غفرت له ذنب سبعين سنة. والله أعلم.

المسألة الثانية: أنه قال: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ فذكر هاتين الجهتين بكلمة (من).

ثم قال: ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ فذكر هاتين الجهتين بكلمة (عن) ولا بد في هذا الفرق من فائدة. فنقول: إذا قال القائل جلس عن يمينه، معناه أنه جلس متجافيًا عن صاحب اليمين غير ملتصق به.

قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[ق: ١٧] فبين أنه حضر على هاتين الجهتين ملكان، ولم يحضر في القدام والخلف ملكان، والشيطان يتباعد عن الملك، فلهذا المعنى خص اليمين والشمال بكلمة ﴿عَن﴾ لأجل أنها تفيد البعد والمباينة، وأيضًا فقد ذكرنا أن المراد من قوله: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الخيال، والوهم، والضرر الناشئ منهما هو حصول العقائد الباطلة، وذلك هو حصول الكفر، وقوله: ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ الشهوة، والغضب، والضرر الناشئ منهما هو حصول الأعمال الشهوانية والغضبية، وذلك هو المعصية، ولا شك أن الضرر الحاصل من

---

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي في كتاب (الجهاد)، باب: (ما لمن أسلم وهاجر وجاهد) (٣/ ٣٢٣)، حديث رقم (٣١٣٤)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٤٨٣)، وابن حبان في (صحيحه موارد) (٥/ ١٨٣)، حديث رقم (١٦٠١) من طريق أبي خيثمة... به، جميعًا (أحمد بن حنبل، أبو خيثمة، إبراهيم بن يعقوب) قالوا: حدثنا هاشم بن القاسم... به.

الكفر لازم، لأن عقابه دائم. أما الضرر الحاصل من المعصية فسهل لأنه عقابه منقطع، فلهذا السبب خص هذين القسمين بكلمة (عن) تنبيهًا على أن هذين القسمين في اللزوم والاتصال دون القسم الأول. والله أعلم بمراده.

المسألة الثالثة: قال القاضي: هذا القول من إبليس كالدلالة على بطلان ما يقال: إنه يدخل في بدن ابن آدم ويخالطه، لأنه لو أمكنه ذلك لكان بأن يذكره في باب المبالغة أحق.

ثم قال تعالى حكاية عن إبليس أنه قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ وفيه سؤال: وهو أن هذا من باب الغيب فكيف عرف إبليس ذلك فلهذا السبب اختلف العلماء فيه فقال بعضهم كان قد رآه في اللوح المحفوظ، فقال له على سبيل القطع واليقين.

وقال آخرون: إنه قاله على سبيل الظن لأنه كان عازمًا على المبالغة في تزيين الشهوات وتحسين الطيبات، وعلم أنها أشياء يرغب فيها غلب على ظنه أنهم يقبلون قوله فيها على سبيل الأكثر والأغلب ويؤكد هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾ [سبا: ٢٠] والعجب أن إبليس قال للحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ فقال الحق ما يطابق ذلك ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبا: ١٣] وفيه وجه آخر وهو أنه حصل للنفس تسع عشرة قوة، وكلها تدعو النفس إلى اللذات الجسمانية. والطيبات الشهوانية فخمسة منها هي الحواس الظاهرة، وخمسة أخرى هي الحواس الباطنة، واثنان الشهوة والغضب، وسبعة هي القوى الكامنة، وهي الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغاذية، والنامية، والمولدة فمجموعها تسعة عشر وهي بأسرها تدعو النفس إلى عالم الجسم وترغبها في طلب اللذات البدنية، وأما العقل فهو قوة واحدة، وهي التي تدعو النفس إلى عبادة الله تعالى وطلب السعادات الروحانية ولا شك أن استيلاء تسع عشرة قوة أكمل من استيلاء القوة الواحدة لا سيما وتلك القوى التسعة عشر تكون في أول الخلقة قوية ويكون العقل ضعيفًا جدًا وهي بعد قوتها يعسر جعلها ضعيفة مرجوحة فلما كان الأمر كذلك، لزم القطع بأن أكثر الخلق يكونون طالبين لهذه اللذات الجسمانية معرضين عن معرفة الحق ومحبته فلهذا السبب قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أن إبليس لما وعد بالإفساد الذي ذكره، خاطبه الله تعالى بما يدل على الزجر والإهانة فقال: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو من السماء ﴿مَذْءُومًا﴾ قال الليث: ذأمت الرجل فهو مذءوم أي محقور والذم الاحتقار، وقال الفراء: ذأمته إذا عبته يقولون في المثل لا تعدم الحسناء ذامًّا. وقال ابن الأنباري: المذءوم المذموم قال ابن قتيبة: مذءومًا مذمومًا بأبلغ الذم قال أمية:

وقال لإبليس رب العباد   أن اخرج دحيرًا لعينًا ذءوما (١)

وقوله:﴿ مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ الدحر: في اللغة الطرد والتبعيد، يقال دحره دحرًا ودحورًا إذا طرده وبعده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ﴾ [الصافات: ٨-٩]وقال أمية:

وبإذنه سجدوا لآدم كلهم   إلا لعينًا خاطئًا مدحورًا (٢)

وقوله:﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ اللام فيه لام القسم، وجوابه قوله: ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ﴾ قال صاحب (الكشاف) روى عصمة عن عاصم: ﴿ لِّمَن تَبِعَكَ﴾ بكسر اللام بمعنى ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ هذا الوعيد وهو قوله: ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ وقيل: إن لأملأن في محل الابتداء ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ﴾ خبره، قال أبو بكر الأنباري: الكناية في قوله: ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ عائد على ولد آدم لأنه حين قال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف: ١١]كان مخاطبًا لولد آدم فرجعت الكناية إليهم. قال القاضي: دلت هذه الآية على أن التابع والمتبوع معنيان في أن جهنم تملأ منهما ثم إن الكافر تبعه، فكذلك الفاسق تبعه فيجب القطع بدخول الفاسق النار، وجوابه أن المذكور في الآية أنه تعالى يملأ جهنم ممن تبعه، وليس في الآية أن كل من تبعه فإنه يدخل جهنم فسقط هذا الاستدلال، ونقول هذه الآية تدل على أن جميع أصحاب البدع والضلالات يدخلون جهنم لأن كلهم متابعون لإبليس، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩﴾

اعلم أن هذه الآية مشتملة على مسائل:

أحدها:أن قوله: ﴿ ٱسۡكُنۡ﴾ أمر تعبد أو أمر إباحة وإطلاق من حيث إنه لا مشقة فيه فلا يتعلق به التكليف. وثانيها: أن زوج آدم هو حواء، ويجب أن نذكر أنه تعالى كيف خلق حواء، وثالثها: أن تلك الجنة كانت جنة الخلد، أو جنة من جنان السماء أو جنة من جنان الأرض. ورابعها: أن قوله: ﴿ فَكُلَا﴾ أمر إباحة لا أمر تكليف. وخامسها: أن قوله: ﴿ وَلَا تَقۡرَبَا﴾ نهي تنزيه أو نهي تحريم. وسادسها: أن قوله: ﴿ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ المراد شجرة واحدة بالشخص أو النوع. وسابعها: أن تلك الشجرة أي شجرة كانت. وثامنها: أن ذلك الذنب كان صغيرًا أو كبيرًا. وتاسعها: أنه ما المراد من قوله: ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهل يلزم من كونه ظالمًا بهذا القربان الدخول تحت قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] وعاشرها: أن هذه الواقعة وقعت قبل نبوة آدم عليه السلام أو بعدها، فهذه المسائل العشرة قد سبق تفصيلها وتقريرها في سورة البقرة فلا نعيدها، والذي بقي علينا من هذه الآية حرف واحد، وهو أنه تعالى قال في سورة البقرة: ﴿وَكُلَا

(١)أمية تقدمت ترجمته.

(٢)انظر سابقه.

مِنْهَا رَغَدًا﴾[البقرة: ٣٥] بالواو، وقال ههنا: ﴿فَكُلَا﴾ بالفاء فما السبب فيه، وجوابه من وجهين: الأول: أن الواو تفيد الجمع المطلق، والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب، فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو، ولا منافاة بين النوع والجنس، ففي سورة البقرة ذكر الجنس وفي سورة الأعراف ذكر النوع.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾

يقال: وسوس إذا تكلم كلامًا خفيًّا يكرره، وبه سمي صوت الحلي وسواسًا وهو فعل غير متعد كقولنا: ولولوت المرأة، وقولنا: وعوع الذئب، ورجل مُوسوِس بكسر الواو ولا يقال مُوسوَس بالفتح، ولكن موسوس له وموسوس إليه، وهو الذي يلقي إليه الوسوسة، ومعنى وسوس له فعل الوسوسة لأجله ووسوس إليه ألقاها إليه، وههنا سؤالات:

السؤال الأول: كيف وسوس إليه وآدم كان في الجنة وإبليس أخرج منها؟.

والجواب: قال الحسن: كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله تعالى له، وقال أبو مسلم الأصفهاني: بل كان آدم وإبليس في الجنة لأن هذه الجنة كانت بعض جنات الأرض، والذي يقوله بعض الناس من أن إبليس دخل في جوف الحية ودخلت الحية في الجنة فتلك القصة الركيكة مشهورة، وقال آخرون: إن آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة، وكان إبليس واقفًا من خارج الجنة على بابها، فيقرب فيقرب أحدهما من الآخر وتحصل الوسوسة هناك.

السؤال الثاني: أن آدم عليه السلام كان يعرف ما بينه وبين إبليس من العداوة فكيف قبل قوله.

والجواب: لا يبعد أن يقال إن إبليس لقي آدم مرارًا كثيرة ورغبه في أكل الشجرة بطرق كثيرة فلأجل المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلامه في آدم عليه السلام.

السؤال الثالث: لم قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

والجواب: معنى وسوس له أي فعل الوسوسة لأجله والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ في هذا اللام قولان: أحدهما: أنه لام العاقبة كما في قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: ٨] وذلك لأن الشيطان لم يقصد بالوسوسة ظهور عورتهما، ولم يعلم أنهما إن أكلا من الشجرة بدت عوراتهما، وإنما كان قصده

أن يحملهما على المعصية فقط. الثاني: لا يبعد أيضًا أن يقال: إنه لام الغرض ثم فيه وجهان: أحدهما: أن يجعل بدو العورة كناية عن سقوط الحرمة وزوال الجاه، والمعنى: أن غرضه من إلقاء تلك الوسوسة إلى آدم زوال حرمته وذهاب منصبه. والثاني: لعله رأى في اللوح المحفوظ أو سمع من بعض الملائكة أنه إذا أكل من الشجرة بدت عورته، وذلك يدل على نهاية الضرر وسقوط الحرمة، فكان يوسوس إليه لحصول هذا الغرض، وقوله: ﴿مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ فيه مباحث:

البحث الأول: ما وري مأخوذ من المواراة يقال: واريته أي سترته. قال تعالى: ﴿يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]. وقال النبي ﷺ لعلي لما أخبره بوفاة أبيه: «اذْهَبْ فَوَارِهِ».

البحث الثاني: السوأة: فرج الرجل والمرأة، وذلك لأن ظهوره يسوء الإنسان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كأنهما قد ألبسا ثوبًا يستر عورتهما، فلما عصيا زال عنهما ذلك الثوب فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

البحث الثالث: دلت هذه الآية على أن كشف العورة من المنكرات وأنه لم يزل مستهجنًا في الطباع مستقبحًا في العقول وقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ يمكن أن يكون هذا الكلام ذكره إبليس بحيث خاطب به آدم وحواء، ويمكن أيضًا أن يكون وسوسة أوقعها في قلوبهما، والأمران مرويان إلا أن الأغلب أنه كان ذلك على سبيل المخاطبة بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ومعنى الكلام أن إبليس قال لهما في الوسوسة: إلا أن تكون ملكين وأراد به أن تكونا بمنزلة الملائكة إن أكلتما منها أو تكونا من الخالدين إن أكلتما، فرغبهما بأن أوهمهما أن من أكلها صار كذلك وأنه تعالى إنما نهاهما عنها لكي لا يكونا بمنزلة الملائكة ولا يخلدا، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: كيف أطمع إبليس آدم في أن يكون ملكًا عند الأكل من الشجرة مع أنه شاهد الملائكة متواضعين ساجدين له معترفين بفضله. والجواب من وجوه: الأول: أن هذا المعنى أحد ما يدل على أن الملائكة الذين سجدوا لآدم هم ملائكة الأرض. أما ملائكة السماوات وسكان العرش والكرسي والملائكة المقربون فما سجدوا ألبتة لآدم، ولو كانوا سجدوا له لكان هذا التطميع فاسدًا مختلاً. وثانيها: نقل الواحدي عن بعضهم أنه قال: إن آدم علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة، ولم يعلم ذلك لنفسه فعرض عليه إبليس أن يصير مثل الملك في البقاء، وأقول: هذا الجواب ضعيف، لأن على هذا التقدير المطلوب من الملائكة هو الخلود وحينئذ لا يبقى فرق بين قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ وبين قوله: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

والوجه الثاني: قال الواحدي: كان ابن عباس يقرأ مَلِكَين ويقول: ما طمعا في أن يكونا مَلَكَين لكنهما استشرفا إلى أن يكونا مَلِكَين، وإنما أتاهما الملعون من جهة المُلْكِ، ويدل على هذا قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ٢٠] وأقول هذا الجواب أيضًا ضعيف،

وبيانه من وجهين: الأول: هب أنه حصل الجواب على هذه القراءة: فهل يقول ابن عباس: إن تلك القراءة المشهورة باطلة أو لا يقول ذلك؟ والأول باطل، لأن تلك القراءة قراءة متواترة، فكيف يمكن الطعن فيها، وأما الثاني: فعلى هذا التقدير الإشكال باق. لأن على تلك القراءة يكون بالتطميع قد وقع في أن يصير بواسطة ذلك الأكل من جملة الملائكة وحينئذ يعود السؤال.

والوجه الثاني: أنه تعالى جعل سجود الملائكة والخلق له في أن يسكن الجنة، وأن يأكل منها رغدًا كيف شاء وأراد، ولا مزيد في الملك على هذه الدرجة.

السؤال الثاني: هل تدل هذه الآية على أن درجة الملائكة أكمل وأفضل من درجة النبوة.

والجواب من وجوه: الأول: أنا إذا قلنا: إن هذه الواقعة كانت قبل النبوة لم يدل على ذلك؛ ولأن آدم حين طلب الوصول إلى درجة الملائكة ما كان من الأنبياء، وعلى هذا التقدير فزال الاستدلال. والثاني: أن بتقدير (أن) تكون هذه الواقعة وقعت في زمان النبوة فلعل آدم عليه السلام رغب في أن يصير من الملائكة في القدرة والقوة والشدة أو في خلقة الذات بأن يصير جوهرًا نورانيًا، وفي أن يصير من سكان العرش والكرسي، وعلى هذا التقدير يسقط الاستدلال.

السؤال الثالث: نقل أن عمرو بن عبيد قال للحسن في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ وفي قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ قال عمرو: وقلت للحسن: فهل صَدَّقاه في ذلك. فقال الحسن: معاذ الله لو صدقاه لكانا من الكافرين، ووجه السؤال: أنه كيف يلزم هذا التكفير بتقدير: أن يصدقا إبليس في ذلك القول.

والجواب: ذكروا في تقرير ذلك التكفير أنه عليه السلام لو صدق إبليس في الخلود لكان ذلك يوجب إنكار البعث والقيامة، وأنه كفر. ولقائل أن يقول: لا نسلم أنه يلزم من ذلك التصديق حصول الكفر؟ وبيانه من وجهين: الأول: أن لفظ الخلود محمول على طول المكث لا على الدوام، وعلى هذا الوجه يندفع ما ذكروه.

الوجه الثاني: هب أن الخلود مفسر بالدوام، إلا أنا نسلم أن اعتقاد الدوام يوجب الكفر وتقريره أن العلم بأنه تعالى هل يميت هذا المكلف أو لا يميته، علم لا يحصل إلا من دليل السمع فلعله تعالى ما بيّن في وقت آدم عليه السلام أنه يميت الخلق، ولما لم يوجد ذلك الدليل السمعي كان آدم عليه السلام يجوز دوام البقاء، فلهذا السبب رغب فيه، وعلى هذا التقدير: فالتكفير غير لازم.

السؤال الرابع: ثبت بما سبق أن آدم وحواء لو صدقا إبليس فيما قال لم يلزم تكفيرهما، فهل يقولون إنهما صدقاه فيه قطعًا؟ وإن لم يحصل القطع فهل يقولون إنهما ظنا أن الأمر كما قال؟ أو ينكرون هذا الظن أيضًا.

والجواب: أن المحققين أنكروا حصول هذا التصديق قطعًا وظنًّا، بل الصواب أنهما إنما أقدما على الأكل لغلبة الشهوة، لا أنهما صدقاه علمًا أو ظنًّا كما نجد أنفسنا عند الشهوة نقدم

على الفعل إذا زين لنا الغير ما نشتهيه، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال.

السؤال الخامس: قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ هذا الترغيب والتطميع وقع في مجموع الأمرين أو في أحدهما.

والجواب: قال بعضهم: الترغيب كان في مجموع الأمرين، لأنه أدخل في الترغيب. وقيل: بل هو على ظاهره على طريقة التخيير.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي وأقسم لهما إني لكما لمن الناصحين.

فإن قيل: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك. تقول: قاسمت فلانًا أي حالفته، وتقاسما: تحالفا، ومنه قوله تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩].

قلنا: فيه وجوه:

الأول: التقدير أنه قال: أقسم لكما إني لكما لمن الناصحين. وقالا له: أتقسم بالله إنك لمن الناصحين؟ فجعل ذلك مقاسمة بينهم. والثاني: أقسم لهما بالنصيحة، وأقسما له بقبولها. الثالث: أنه أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة، لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم.

إذا عرفت هذا فنقول: قال قتادة: حلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، وقوله: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي قال إبليس: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم أحوالاً كثيرة من المصالح والمفاسد لا تعرفانها فامتثلا قولي أرشدكما.

ثم قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ وذكر أبو منصور الأزهري لهذه الكلمة أصلين: أحدهما: أصل الرجل العطشان يدلي رجليه في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء، فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه. فيقال: دلاه إذا أطمعه. الثاني: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي أجرأهما إبليس على أكل الشجرة بغرور، والأصل فيه دللهما من الدل، والدالة وهي الجرأة.

إذا عرفت هذا فنقول: قال ابن عباس: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي غرهما باليمين، وكان آدم يظن أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا. وعن ابن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه، فكان عبيده يفعلون ذلك طلبًا للعتق. فقيل له: إنهم يخدعونك، فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ﴾ وذلك يدل على أنهما تناولا اليسير قصدًا إلى معرفة طعمه، ولولا أنه تعالى ذكر في آية أخرى أنهما أكلا منها، لكان ما في هذه الآية لا يدل على الأكل، لأن الذائق قد يكون ذائقًا من دون أكل.

ثم قال تعالى: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي ظهرت عوراتهما، وزال النور عنهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ قال الزجاج: معنى طفق: أخذ في الفعل ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أي يجعلان ورقة على ورقة. ومنه قيل للذي يرقع النعل خصاف، وفيه دليل على أن كشف العورة قبيح من لدن آدم، ألا ترى أنهما كيف بادرا إلى الستر لما تقرر في عقلهما من قبح كشف العورة ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ قال عطاء:

بلغني أن الله ناداهما أفرارًا مني يا آدم قال: بل حياء منك يا رب ما ظننت أن أحدًا يقسم باسمك كاذبًا، ثم ناداه ربه أما خلقتك بيدي، أما نفخت فيك من روحي، أما أسجدت لك ملائكتي، أما أسكنتك في جنتي في جواري!

ثم قال: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢] قال ابن عباس: بيَّن العداوة حيث أبى السجود وقال: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أن هذه الآية مفسرة في سورة البقرة، وقد ذكرنا هناك أن هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم من آدم عليه السلام، إلا أنا نقول: هذا الذنب إنما صدر عنه قبل النبوة. وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أن هذا الذي تقدم ذكره هو آدم، وحواء، وإبليس، وإذا كان كذلك فقوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ يعني العداوة ثابتة بين الجن والإنس لا تزول ألبتة. وقوله: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾ الكناية عائدة إلى الأرض في قوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والمراد في الأرض تعيشون وفيها تموتون ومنها تخرجون إلى البعث والقيامة. قرأ حمزة والكسائي (تَخْرُجُون) بفتح التاء وضم الراء، وكذلك في الروم والزخرف والجاثية، وقرأ ابن عامر ههنا، وفي الزخرف بفتح التاء، وفي الروم والجاثية بضم التاء، والباقون جميع ذلك بضم التاء.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

في نظم الآية وجهان:

الوجه الأول: أنه تعالى لما بيَّن أنه أمر آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض، وجعل الأرض لهما مستقرًا بيَّن بعده أنه تعالى أنزل كل ما يحتاجون إليه في الدين والدنيا، ومن جملتها اللباس الذي

يحتاج إليه في الدين والدنيا .

الوجه الثاني: أنه تعالى لما ذكر واقعة آدم في انكشاف العورة أنه كان يخصف الورق عليها، أتبعه بأن بيَّن أنه خلق اللباس للخلق ليستروا بها عورتهم، ونبه به على المنة العظيمة على الخلق بسبب أنه أقدرهم على التستر .

فإن قيل: ما معنى إنزال اللباس؟

قلنا: إنه تعالى أنزل المطر، وبالمطر تتكون الأشياء التي منها يحصل اللباس، فصار كأنه تعالى أنزل اللباس، وتحقيق القول أن الأشياء التي تحدث في الأرض لما كانت معلقة بالأمور النازلة من السماء صار كأنه تعالى أنزلها من السماء . ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وأما قوله: ﴿وَرِيشًا﴾ .

ففيه بحثان:

البحث الأول: الريش: لباس الزينة، استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباسًا يواري سوآتكم، ولباسًا يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح كما قال: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦] .

البحث الثاني: روي عن عاصم رواية غير مشهورة (ورياشًا) وهو مروي أيضًا عن عثمان رضي الله عنه، والباقون ﴿وَرِيشًا﴾ واختلفوا في الفرق بين الرِّيش والرِّياش فقيل: رياش جمع ريش، وكذِياب وذِيب، وقِداح وقِدْح، وشِعَاب وشِعْب، وقيل: هما واحد، كلِباس ولِبْس وجلال وجل، روى ثعلب عن ابن الأعرابي قال: كل شيء يعيش به الإنسان من متاع أو مال أو مأكول فهو رِيش ورِيَاش، وقال ابن السِّكِّيت: الرياش مختص بالثياب والأثاث، والريش قد يطلق على سائر الأموال وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾

فيه بحثان:

البحث الأول: قرأ نافع وابن عامر والكسائي (ولباسَ) بالنصب عطفًا على قوله: (لباسًا) والعامل فيه أنزلنا وعلى هذا التقدير فقوله: (ذلك) مبتدأ وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾ خبره، والباقون بالرفع وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ مبتدأ وقوله: (ذلك) صفة أو بدل أو عطف بيان وقوله ﴿خَيْرٌ﴾ خبر لقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ومعنى قولنا صفة أن قوله: (ذلك) أشير به إلى اللباس كأنه قيل ولباس التقوى المشار إليه خير .

البحث الثاني: اختلفوا في تفسير قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ والضابط فيه أن منهم من حمله على نفس الملبوس ومنهم من حمله على غيره .

أما القول الأول: ففيه وجوه: أحدها: أن المراد أن اللباس الذي أنزله الله تعالى ليواري سوآتكم هو لباس التقوى، وعلى هذا التقدير فلباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده الله لأجل أن

يخبر عنه بأنه خير لأن جماعة من أهل الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب في الطواف بالبيت فجرى هذا في التكرير مجرى قول القائل: قد عرفتك الصدق في أبواب البر، والصدق خير لك من غيره. فيعيد ذكر الصدق ليخبر عنه بهذا المعنى. وثانيها: أن المراد من لباس التقوى ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقي به في الحروب. وثالثها: المراد من لباس التقوى الملبوسات المعدة لأجل إقامة الصلوات.

والقول الثاني: أن يحمل قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على المجازات ثم اختلفوا فقال قتادة والسدي وابن جريج: لباس التقوى الإيمان. وقال ابن عباس: لباس التقوى العمل الصالح، وقيل: هو السمت الحسن، وقيل: هو العفاف والتوحيد، لأن المؤمن لا تبدو عورته وإن كان عاريًا من الثياب. والفاجر لا تزال عورته مكشوفة وإن كان كاسيًا، وقال معبد: هو الحياء. وقيل هو ما يظهر على الإنسان من السكينة والإخبات والعمل الصالح، وإنما حملنا لفظ اللباس على هذه المجازات لأن اللباس الذي يفيد التقوى، ليس إلا هذه الأشياء أما قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قال أبو علي الفارسي: معنى الآية ولباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله تعالى مما خلق من اللباس والرياش الذي يتجمل به. قال: وأضيف اللباس إلى التقوى كما أضيف إلى الجوع في قوله: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ﴾ معناه من آيات الله الدالة على فضله ورحمته على عباده يعني إنزال اللباس عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفون عظيم النعمة فيه.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم وبيَّن فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده أتبعها بأن حذر أولاد آدم من قبول وسوسة الشيطان فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيده ولطف وسوسته وشدة اهتمامه إلى أن قدر على إلقاء آدم في الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة فبأن يقدر على أمثال هذه المضار في حق بني آدم أولى. فبهذا الطريق حذر تعالى بني آدم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان فقال: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فيترتب عليه أن لا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم، فترتب عليه خروجهما منها وأصل الفتون عرض الذهب على النار وتخليصه من الغش. ثم أتى في القرآن بمعنى المحنة.

وههنا بحثان:

البحث الأول: قال الكعبي: هذه الآية حجة على من نسب خروج آدم وحواء وسائر وجوه

المعاصي إلى الشيطان وذلك يدل على أنه تعالى بريء منها. فيقال له: لم قلتم أن كون هذا العمل منسوبًا إلى الشيطان يمنع من كونه منسوبًا إلى الله تعالى؟ ولم لا يجوز أن يقال: إنه تعالى لما خلق القدرة والداعية الموجبتين لذلك العمل، كان منسوبًا إلى الله تعالى؟ ولما أجرى عادته بأنه يخلق تلك الداعية بعد تزيين الشيطان، وتحسينه تلك الأعمال عند ذلك الكافر، كان منسوبًا إلى الشيطان.

البحث الثاني: ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما أخرج آدم وحواء من الجنة، عقوبة لهما على تلك الزلة، وظاهر قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يدل على أنه تعالى خلقهما لخلافة الأرض وأنزلهما من الجنة إلى الأرض لهذا المقصود. فكيف الجمع بين الوجهين؟

وجواب: أنه ربما قيل حصل لمجموع الأمرين، والله أعلم.

ثم قال: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾

وفيه مباحث:

البحث الأول: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حال، أي أخرجهما نازعًا لباسهما وأضاف نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يتول ذلك لأنه كان بسبب منه، فأسند إليه كما تقول أنت فعلت هذا؟ لمن حصل منه ذلك الفعل بسبب وإن لم يباشره، وكذلك لما كان نزع لباسهما بوسوسة الشيطان وغروره أسند إليه.

البحث الثاني: اللام في قوله: ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ لام العاقبة كما ذكرنا في قوله: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] قال ابن عباس رضي الله عنهما: يرى آدم سوأة حواء وترى حواء سوأة آدم.

البحث الثالث: اختلفوا في اللباس الذي نزع منهما فقال بعضهم: إنه النور، وبعضهم التقى، وبعضهم اللباس الذي هو ثياب الجنة، وهذا القول أقرب لأن إطلاق اللباس يقتضيه والمقصود من هذا الكلام، تأكيد التحذير لبني آدم، لأنه لما بلغ تأثير وسوسة الشيطان في حق آدم مع جلالة قدره إلى هذا الحد فكيف يكون حال آحاد الخلق؟ ثم أكد تعالى هذا التحذير بقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ يعني إبليس ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أعاد الكناية ليحسن العطف كقوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

البحث الثاني: قال أبو عبيدة عن أبي زيد: (القبيل) الجماعة: يكونون من الثلاثة فصاعدًا من قوم شتي، وجمعه قُبُل. والقبيلة: بنو أب واحد. وقال ابن قتيبة: قبيله أصحابه وجنده، وقال الليث: ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أي هو ومن كان من نسله.

البحث الثالث: قال أصحابنا: إنهم يرون الأنس لأنه تعالى خلق في عيونهم إدراكًا والإنس لا

يرونهم لأنه تعالى لم يخلق هذا الإدراك في عيون الإنس، وقالت المعتزلة: الوجه في أن الإنس لا يرون الجن، رقة أجسام الجن ولطافتها. والوجه في رؤية الجن للإنس، كثافة أجسام الإنس، والوجه في أن يرى بعض الجن بعضًا، أن الله تعالى يقوي شعاع أبصار الجن ويزيد فيه، ولو زاد الله في قوة أبصارنا لرأيناهم كما يرى بعضنا بعضًا، ولو أنه تعالى كثف أجسامهم وبقيت أبصارنا على هذه الحالة لرأيناهم، فعلى هذا كون الإنس مبصرًا للجن موقوف عند المعتزلة إما على زيادة كثافة أجسام الجن، أو على زيادة قوة أبصار الإنس.

البحث الرابع: قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ يدل على أن الإنس لا يرون الجن لأن قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ يتناول أوقات الاستقبال من غير تخصيص، قال بعض العلماء: ولو قدر الجن على تغيير صور أنفسهم بأي صورة شاءوا وأرادوا، لوجب أن ترتفع الثقة عن معرفة الناس، فلعل هذا الذي أشاهده وأحكم عليه بأنه ولدي أو زوجتي جني صور نفسه بصورة ولدي أو زوجتي وعلى هذا التقدير فيرتفع الوثوق عن معرفة الأشخاص، وأيضًا فلو كانوا قادرين على تخبيط الناس وإزالة العقل عنهم مع أنه تعالى بيَّن العداوة الشديدة بينهم وبين الإنس، فلم لا يفعلون ذلك في حق أكثر البشر؟ وفي حق العلماء والأفاضل والزهاد، لأن هذه العداوة بينهم وبين العلماء والزهاد أكثر وأقوى، ولما لم يوجد شيء من ذلك ثبت أنه لا قدرة لهم على البشر بوجه من الوجوه. ويتأكد هذا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢] قال مجاهد: قال إبليس: أعطينا أربع خصال: نَرى ولا نُرى، ونخرج من تحت الثرى، ويعود شيخنا فتى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فقد احتج أصحابنا بهذا النص على أنه تعالى هو الذي سلط الشيطان الرجيم عليهم حتى أضلهم وأغواهم، قال الزجاج: ويتأكد هذا النص بقوله تعالى: ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] قال القاضي: معنى قوله: ﴿جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ هو أنا حكمنا بأن الشيطان ولي لمن لا يؤمن، قال ومعنى قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] هو أنا خلينا بينهم وبينهم، كما يقال فيمن يربط الكلب في داره ولا يمنعه من التوثب على الداخل؛ إنه أرسل عليه كلبه.

والجواب: أن القائل إذا قال: إن فلانًا جعل هذا الثوب أبيض أو أسود، لم يفهم منه أنه حكم به، بل يفهم منه أنه حصل السواد أو البياض فيه، فكذلك ههنا وجب حمل الجعل على التأثير والتحصيل، لا على مجرد الحكم، وأيضًا فهب أنه تعالى حكم بذلك، لكن مخالفة حكم الله تعالى توجب كونه كاذبًا وهو محال، فالمفضي إلى المحال محال، فكون العبد قادرًا على خلاف ذلك، وجب أن يكون محالاً. وأما قوله أن قوله تعالى: ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] أي خلينا بينهم وبين الكافرين فهو ضعيف أيضًا، ألا ترى أن أهل السوق يؤذي بعضهم بعضًا، ويشتم بعضهم بعضًا، ثم إن زيدًا وعمرًا إذا لم يمنع بعضهم عن البعض. لا يقال: إنه

أرسل بعضهم على البعض، بل لفظ الإرسال إنما يصدق إذا كان تسليط بعضهم على البعض بسبب من جهته، فكذا ههنا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن في الناس من حمل الفحشاء على ما كانوا يحرمونه من البحيرة والسائبة وغيرهما، وفيهم من حمله على أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، والأولى أن يحكم بالتعميم، والفحشاء عبارة عن كل معصية كبيرة، فيدخل فيه جميع الكبائر، واعلم أنه ليس المراد منه أن القوم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش. ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها، فإن ذلك لا يقوله عاقل. بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسها فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات، وأن الله أمرهم بها، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين: أحدهما: أنا وجدنا عليها آباءنا. والثاني: أن الله أمرنا بها.

أما الحجة الأولى: فما ذكر الله عنها جوابًا، لأنها إشارة إلى محض التقليد، وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة، لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة، فلو كان التقليد طريقًا حقًّا للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقًّا ومعلوم أنه باطل، ولما كان فساد هذا الطريق ظاهرًا جليًّا لكل أحد لم يذكر الله تعالى الجواب عنه.

وأما الحجة الثانية: وهي قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقد أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ والمعنى أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكرة قبيحة، فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها؟ وأقول للمعتزلة أن يحتجوا بهذه الآية على أن الشيء إنما يقبح لوجه عائد إليه، ثم إنه تعالى نهى عنه لكونه مشتملاً على ذلك الوجه، لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ إشارة إلى أنه لما كان ذلك موصوفًا في نفسه بكونه من الفحشاء امتنع أن يأمر الله به، وهذا يقتضي أن يكون كونه في نفسه من الفحشاء مغايرًا لتعلق الأمر والنهي به، وذلك يفيد المطلوب.

وجوابه: يحتمل أنه لما ثبت بالاستقراء أنه تعالى لا يأمر إلا بما يكون مصلحة للعباد، ولا ينهي إلا عما يكون مفسده لهم، فقد صح هذا التعليل لهذا المعنى. والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

وفيه بحثان:

البحث الأول: المراد منه أن يقال: إنكم تقولون: إن الله أمركم بهذه الأفعال المخصوصة فعِلْمُكُم بأن الله أمركم بها حصل لأنكم سمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة، أو عرفتم ذلك بطريق الوحي إلى الأنبياء؟

أما الأول: فمعلوم الفساد بالضرورة.

وأما الثاني: فباطل على قولكم، لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء على الإطلاق، لأن هذه المناظرة وقعت مع كفار قريش، وهم كانوا ينكرون أصل النبوة، وإذا كان الأمر كذلك، فلا طريق لهم إلى تحصيل العلم بأحكام الله تعالى، فكان قولهم: إن الله أمرنا بها قولاً على الله تعالى بما لا يكون معلومًا. وأنه باطل.

البحث الثاني: نفاة القياس قالوا: الحكم المثبت بالقياس مظنون وغير معلوم، وما لا يكون معلومًا لم يجز القول به لقوله تعالى في معرض الذم والسخرية: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وجواب مثبتي القياس عن أمثال هذه الدلالة قد ذكرناه مرارًا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أمر الأمر بالفحشاء بيَّن تعالى أنه يأمر بالقسط والعدل، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ يدل على أن الشيء يكون في نفسه قسطًا لوجوه عائدة إليه في ذاته، ثم إنه تعالى يأمر به لكونه كذلك في نفسه، وذلك يدل أيضًا على أن الحسن إنما يحسن لوجوه عائدة إليه، وجوابه ما سبق ذكره.

المسألة الثانية: قال عطاء، والسدي (بالقسط): بالعدل وبما ظهر في المعقول كونه حسنًا صوابًا. وقال ابن عباس: هو قول لا إله إلا الله، والدليل عليه قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] وذلك القسط ليس إلا شهادة أن لا إله إلا الله. فثبت أن القسط ليس إلا قول لا إله إلا الله.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى أمر في هذه الآية بثلاثة أشياء. أولها: أنه أمر بالقسط، وهو قول: لا إله إلا الله. وهو يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وأفعاله وأحكامه، ثم على معرفة أنه واحد لا شريك له. وثانيها: أنه أمر بالصلاة وهو قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: أنه لقائل أن يقول: ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ خبر وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أمر وعطف الأمر على الخبر لا يجوز. وجوابه التقدير: قل أمر ربي بالقسط. وقل: أقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين.

البحث الثاني: في الآية قولان: أحدهما: المراد بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ هو استقبال القبلة.

والثاني: أن المراد هو الإخلاص، والسبب في ذكر هذين القولين، أن إقامة الوجه في العبادة قد تكون باستقبال القبلة، وقد تكون بالإخلاص في تلك العبادة، والأقرب هو الأول، لأن الإخلاص مذكور من بعد، ولو حملناه على معنى الإخلاص، صار كأنه قال: وأخلصوا عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين، وذلك لا يستقيم.

فإن قيل: يستقيم ذلك، إذا علقت الإخلاص بالدعاء فقط.

قلنا: لما أمكن رجوعه إليهما جميعًا، لم يجز قصره على أحدهما، خصوصًا مع قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فإنه يعم كل ما يسمى دينًا.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ اختلفوا في أن المراد منه زمان الصلاة أو مكانه والأقرب هو الأول، لأنه الموضع الذي يمكن فيه إقامة الوجه للقبلة، فكأنه تعالى بين لنا أن لا نعتبر الأماكن، بل نعتبر القبلة، فكان المعنى: وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة إلى الكعبة، وقال ابن عباس: المراد إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه، ولا يقولن أحدكم، لاأصلي إلا في مسجد قومي.

ولقائل أن يقول: حمل لفظ الآية على هذا بعيد، لأن لفظ الآية يدل على وجوب إقامة الوجه في كل مسجد، ولا يدل على أنه لا يجوز له العدول من مسجد إلى مسجد.

وأما قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فاعلم أنه تعالى لما أمر في الآية الأولى بالتوجه إلى القبلة، أمر بعده بالدعاء، والأظهر عندي أن المراد به أعمال الصلاة، وسماها دعاء، لأن الصلاة في أصل اللغة عبارة عن الدعاء، ولأن أشرف أجزاء الصلاة هو الدعاء والذكر، وبيّن أنه يجب أن يؤتى بذلك الدعاء مع الإخلاص، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة: ٥] ثم قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

وفيه قولان:

القول الأول: قال ابن عباس: (كما بدأكم) خلقكم مؤمنًا أو كافرًا (تعودون) فيبعث المؤمن مؤمنًا، والكافر كافرًا، فإن من خلقه الله في أول الأمر للشقاوة، أعمله بعمل أهل الشقاوة، وكانت عاقبته الشقاوة، وان خلقه للسعادة أعمله بعمل أهل السعادة، وكانت عاقبته السعادة.

والقول الثاني: قال الحسن ومجاهد: (كما بدأكم) خلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئًا، كذلك تعودون أحياء، فالقائلون بالقول الأول: احتجوا على صحته بأنه تعالى ذكر عقيبه قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ وهذا يجري مجرى التفسير لقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ وذلك يوجب ما قلناه. قال القاضي: هذا القول باطل، لأن أحدًا لا يقول: إنه تعالى بدأنا مؤمنين أو كافرين، لأنه لا بد في الإيمان والكفر أن يكون طارئًا وهذا السؤال ضعيف، لأن جوابه أن يقال: كما بدأكم بالإيمان، والكفر، والسعادة، والشقاوة، فكذلك يكون الحال عليه يوم القيامة.

واعلم أنه تعالى أمر في الآية أولاً بكلمة (القسط) وهي كلمة لا إله إلا الله، ثم أمر بالصلاة ثانيًا،

ثم بيّن أن الفائدة في الإتيان بهذه الأعمال، إنما تظهر في الدار الآخرة، ونظيره قوله تعالى في (طه) لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: ١٤، ١٥].

ثم قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾

وفيه بحثان:

البحث الأول: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهدى والضلال من الله تعالى. قالت المعتزلة: المراد فريقًا هدى إلى الجنة والثواب، وفريقًا حق عليهم الضلالة، أي العذاب والصرف عن طريق الثواب. قال القاضي: لأن هذا هو الذي يحق عليهم دون غيرهم، إذ العبد لا يستحق، لأن يضل عن الدين، إذ لو استحق ذلك لجاز أن يأمر أنبياءه بإضلالهم عن الدين، كما أمرهم بإقامة الحدود المستحقة، وفي ذلك زوال الثقة بالنبوات.

واعلم أن هذا الجواب ضعيف من وجهين: الأول: أن قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ إشارة إلى الماضي وعلى التأويل الذي يذكرونه يصير المعنى إلى أنه تعالى سيهديهم في المستقبل، ولو كان المراد أنه تعالى حكم في الماضي بأنه سيهديهم إلى الجنة، كان هذا عدولاً عن الظاهر من غير حاجة، لأنا بينّا بالدلائل العقلية القاطعة أن الهدى والضلال ليسا إلا من الله تعالى. والثاني: نقول هب أن المراد من الهداية والضلال حكم الله تعالى بذلك، إلا أنه لما حصل هذا الحكم امتنع من العبد صدور غيره، وإلا لزم انقلاب ذلك الحكم كذبًا، والكذب على الله محال، والمفضي إلى المحال محال، فكان صدور غير ذلك الفعل من العبد محالاً، وذلك يوجب فساد مذهب المعتزلة من هذا الوجه. والله أعلم.

البحث الثاني: انتصاب قوله: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ بفعل يفسره ما بعده، كأنه قيل: وخذل فريقًا حق عليهم الضلالة، ثم بيّن تعالى أن الذي لأجله حقت على هذه الفرقة الضلالة، هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله فقبلوا ما دعوهم إليه، ولم يتأملوا في التمييز بين الحق والباطل.

فإن قيل: كيف يستقيم هذا التفصيل مع قولكم، بأن الهدى والضلال إنما يحصل بخلق الله تعالى ابتداء. فنقول: عندنا مجموع القدرة والداعي يوجب الفعل، والداعية التي دعتهم إلى ذلك الفعل، هي: أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ قال ابن عباس: يريد ما بيّن لهم عمرو بن لحي، وهذا بعيد، بل هو محمول على عمومه، فكل من شرع في باطل، فهو يستحق الذم والعذاب سواء حسب كونه حقًّا، أو لم يحسب ذلك، وهذا الآية تدل على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين، بل لا بد فيه من الجزم والقطع واليقين، لأنه تعالى عاب الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين، ولولا أن هذا الحسبان مذموم، وإلا لما ذمهم بذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾

اعلم أن الله تعالى لما أمر بالقسط في الآية الأولى، وكان من جملة القسط أمر اللباس وأمر المأكول والمشروب، لا جرم أتبعه بذكرهما، وأيضًا لما أمر بإقامة الصلاة في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٢٩] وكان ستر العورة شرطًا لصحة الصلاة لا جرم أتبعه بذكر اللباس.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى، طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة. وقالوا: لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب، ومنهم من يقول: نفعل ذلك تفاؤلاً حتى نتعرى عن الذنوب كما تعرينا عن الثياب، وكانت المرأة منهم تتخذ سترًا تعلقه على حقويها، لتستتر به عن الحمس، وهم قريش، فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك، وكانوا يصلون في ثيابهم، ولا يأكلون من الطعام إلا قوتًا، ولا يأكلون دسمًا، فقال المسلمون: يا رسول الله فنحن أحق أن نفعل ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، أي: البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدسم واشربوا ولا تسرفوا.

المسألة الثانية: المراد من الزينة لبس الثياب، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] يعني الثياب، وأيضًا فالزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات، ولذلك صار التزيين بأجود الثياب في الجُمَع والأعياد سنة، وأيضًا أنه تعالى قال في الآية المتقدمة: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: ٢٦] فبين أن اللباس الذي يواري السوأة من قبيل الرياش والزينة، ثم إنه تعالى أمر بأخذ الزينة في هذه الآية، فوجب أن يكون المراد من هذه الزينة هو الذي تقدم ذكره في تلك الآية فوجب حمل هذه الزينة على ستر العورة، وأيضًا فقد أجمع المفسرون على أن المراد بالزينة ههنا لبس الثوب الذي يستر العورة، وأيضًا فقوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ أمر والأمر للوجوب، فثبت أن أخذ الزينة واجب، وكل ما سوى اللبس فغير واجب، فوجب حمل الزينة على اللبس عملاً بالنص بقدر الإمكان.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ أمر، وظاهر الأمر للوجوب، فهذا يدل على وجوب ستر العورة عند إقامة كل صلاة.

وههنا سؤالان:

السؤال الأول: أنه تعالى عطف عليه قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ولا شك أن ذلك أمر إباحة فوجب أن يكون قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أمر إباحة أيضًا.

وجوابه: أنه لا يلزم من ترك الظاهر في المعطوف تركه في المعطوف عليه، وأيضًا فالأكل والشرب قد يكونان واجبين أيضًا في الحكم.

السؤال الثاني: أن هذه الآية نزلت في المنع من الطواف حال العري.

والجواب: أنا بينا في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يقتضي وجوب اللبس التام عند كل صلاة لأن اللبس التام هو الزينة. ترك العمل به في القدر الذي لا يجب ستره من الأعضاء، إجماعًا، فبقي الباقي داخلاً تحت اللفظ، وإذا ثبت أن ستر العورة واجب في الصلاة، وجب أن تفسد الصلاة عند تركه، لأن تركه يوجب ترك المأمور به، وترك المأمور به معصية، والمعصية توجب العقاب على ما شرحنا هذه الطريقة في الأصول.

المسألة الثالثة: تمسك أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية في مسألة إزالة النجاسة بماء الورد. فقالوا: أمرنا بالصلاة في قوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] والصلاة عبارة عن الدعاء، وقد أتى بها، والإتيان بالمأمور به يوجب الخروج عن العهدة، فمقتضى هذا الدليل أن لا تتوقف صحة الصلاة على ستر العورة، إلا أنا أوجبنا هذا المعنى عملاً بقوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ولبس الثوب المغسول بماء الورد على أقصى وجوه النظافة أخذ الزينة، فوجب أن يكون كافيًا في صحة الصلاة.

وجوابنا: أن الألف واللام في قوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] ينصرفان إلى المعهود السابق، وذلك هو عمل الرسول ﷺ، لم قلتم أن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى في الثوب المغسول بماء الورد؟ والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ فاعلم أنا ذكرنا أن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من الطعام في أيام حجهم إلا القليل، وكانوا لا يأكلون الدسم، يعظمون بذلك حجهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية لبيان فساد تلك الطريقة.

والقول الثاني: أنهم كانوا يقولون أن الله تعالى حرم عليهم شيئًا مما في بطون الأنعام فحرم عليهم البحيرة والسائبة، فأنزل الله تعالى هذه الآية بيانًا لفساد قولهم في هذا الباب.

واعلم أن قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مطلق يتناول الأوقات والأحوال، ويتناول جميع المطعومات والمشروبات، فوجب أن يكون الأصل فيها هو الحل في كل الأوقات، وفي كل المطعومات والمشروبات إلا ما خصه الدليل المنفصل، والعقل أيضًا مؤكد له، لأن الأصل في المنافع الحل والإباحة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾

ففيه قولان:

القول الأول: أن يأكل ويشرب بحيث لا يتعدى إلى الحرام، ولا يكثر الإنفاق المستقبح ولا يتناول مقدارًا كثيرًا يضره ولا يحتاج إليه.

والقول الثاني: وهو قول أبي بكر الأصم: أن المراد من الإسراف، قولهم بتحريم البحيرة والسائبة، فإنهم أخرجوها عن ملكهم، وتركوا الانتفاع بها، وأيضًا أنهم حرموا على أنفسهم في وقت الحج أيضًا أشياء أحلها الله تعالى لهم، وذلك إسراف.

واعلم أن حمل لفظ الإسراف على الاستكثار، مما لا ينبغي أولى من حمله على المنع مما لا يجوز وينبغي.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وهذا نهاية التهديد، لأن كل من لا يحبه الله تعالى بقي محرومًا عن الثواب، لأن معنى محبة الله تعالى العبد إيصاله الثواب إليه، فعدم هذه المحبة عبارة عن عدم حصول الثواب، ومتى لم يحصل الثواب، فقد حصل العقاب، لانعقاد الإجماع على أنه ليس في الوجود مكلف، لا يثاب ولا يعاقب.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن هذه الآية ظاهرها استفهام، إلا أن المراد منه تقرير الإنكار، والمبالغة في تقرير ذلك الإنكار، وفي الآية قولان:

القول الأول: أن المراد من الزينة في هذه الآية اللباس الذي تستر به العورة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وكثير من المفسرين.

والقول الثاني: أنه يتناول جميع أنواع الزينة، فيدخل تحت الزينة جميع أنواع التزيين، ويدخل تحتها تنظيف البدن من جميع الوجوه، ويدخل تحتها المركوب، ويدخل تحتها أيضًا أنواع الحلي، لأن كل ذلك زينة، ولولا النص الوارد في تحريم الذهب والفضة والإبريسم على الرجال لكان ذلك داخلاً تحت هذا العموم، ويدخل تحت الطيبات من الرزق، كل ما يستلذ ويشتهي من أنواع المأكولات والمشروبات، ويدخل أيضًا تحته التمتع بالنساء وبالطيب. وروي عن عثمان بن مظعون: أنه أتى الرسول ﷺ، وقال: غلبني حديث النفس، عزمت على أن أختصي، فقال: «**مَهلاً يا عُثْمَانُ، فَإِنَّ إِخْصَاءَ أُمَّتِي الصِّيَامُ**» قال: فإن نفسي تحدثني بالترهب. قال: «**إِنَّ تَرَهُّبَ أُمَّتِي القُعُودُ في المساجِدِ لانتظار الصلاة فقال: تُحَدِّثُني نَفْسي بالسِّياحَةِ**» فقال: «**سياحَةُ أُمَّتِي الغَزْوُ والحجُ والعُمْرَةُ**» فقال: إن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك، فقال: «**الأَوْلَى أَنْ تَكْفِي نَفْسَكَ وعيالَكَ، وأَنْ تَرحم اليتيم، والمساكِينَ، فتُعْطِيَهُ أفضل مِنْ ذلك**» فقال: إن نفسي

تحدثني أن أطلق خولة فقال: «إنَّ الهِجْرَةَ في أُمَّتِي هِجْرَةُ ما حرَّم الله» قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها. قال: «إن المُسْلِمُ إذا غشي أهْلَه أو ما مَلَكَتْ يَمِينُهُ، فإنْ لَم يُصِبْ من وقْعَتِهِ تِلْكَ وَلَدًا كان لَهُ وصيفٌ في الجَنةِ، وإذا كان لَهُ وَلَدٌ مات قَبْلَهُ أو بَعْدَهُ كَانَ لَهُ قُرَّةَ عَيْنٍ وفرحًا يَوْمَ القيامةِ، وإن مات قَبْلَ أن يَبْلُغَ الحنث كان لَهُ شَفِيعًا ورَحْمَةً يَوْمَ القيامةِ» قال: فإن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم قال: «مَهْلاً إني آكُلُ اللحم إذا وَجَدْتُهُ ولو سألت الله أن يطعمنيه كل يوم فعله» قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب. قال: «مَهلاً فإن جِبْرِيلَ أمَرَنِي بالطِّيب غبًا وقال: لا تَتْرُكه يوْمَ الجُمعَةِ» ثم قال: «يا عُثْمَانُ: لا تَرْغَبْ عَنْ سُنَّتِي فإنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَمَاتَ قبل أنْ يتُوبَ صَرَفَت الملائكةُ وجْهَهُ عَنْ حَوْضِي»(١).

واعلم أن هذا الحديث يدل على أن هذه الشريعة الكاملة تدل على أن جميع أنواع الزينة مباح مأذون فيه، إلا ما خصه الدليل، فلهذا السبب أدخلنا الكل تحت قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾.

المسألة الثانية: مقتضى هذه الآية أن كل ما تزين الإنسان به، وجب أن يكون حلالاً، وكذلك كل ما يستطاب وجب أن يكون حلالاً، فهذه الآية تقتضي حل كل المنافع، وهذا أصل معتبر في كل الشريعة، لأن كل واقعة تقع، فإما أن يكون النفع فيها خالصًا، أو راجحًا أو الضرر يكون خالصًا أو راجحًا، أو يتساوى الضرر والنفع، أو يرتفعا. أما القسمان الأخيران، وهو أن يتعادل الضرر والنفع، أو لم يوجدا قط ففي هاتين الصورتين، وجب الحكم ببقاء ما كان على ما كان، وإن كان النفع خالصًا، وجب الإطلاق بمقتضى هذه الآية، وإن كان النفع راجحًا والضرر مرجوحًا يقابل المثل بالمثل، ويبقى القدر الزائد نفعًا خالصًا، فيلتحق بالقسم الذي يكون النفع فيه خالصًا، وإن كان الضرر خالصًا، كان تركه خالص النفع، فيلتحق بالقسم المتقدم، وإن كان الضرر راجحًا بقي القدر الزائد ضررًا خالصًا، فكان تركه نفعًا خالصًا، فبهذا الطريق صارت هذه الآية دالة على الأحكام التي لا نهاية لها في الحل والحرمة، ثم إن وجدنا نصًا خالصًا في الواقعة، قضينا في النفع بالحل، وفي الضرر بالحرمة، وبهذا الطريق صار جميع الأحكام التي لا نهاية لها داخلاً تحت النص ثم قال نفاة القياس. فلو تعبدنا الله تعالى بالقياس، لكان حكم ذلك القياس. إما أن يكون موافقًا لحكم هذا النص العام، وحينئذ يكون ضائعًا، لأن هذا النص مستقل به. وإن كان مخالفًا كان ذلك القياس مخصصًا لعموم هذا النص، فيكون مردودًا لأن

---

(١) **إسناده ضعيف**: وابن بشكوال في (الذيل) (١/ ١٤٩)، حديث رقم (٧٧) من طريق صالح بن محمد عن حماد عن عبد الرحمن قال أخبرنا إدريس بن صبيح الأودي عن سعيد بن المسيب قال سعيد جاء عثمان بن مظعون إلى رسول الله ﷺ فقال... فذكره.

والبغوي في (شرح السنة) (١/ ٣٦٤) من طريق عبد الله بن المبارك عن رشدين بن سعد حدثني ابن أنعم عن سعد بن مسعود أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أتى النبي ﷺ... فذكره، وابن المبارك في (الزهد) (١/ ٣٩١)، حديث رقم (١١٠٦) من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم... به، وفي إسناده ابن أنعم الأفريقي وهو ضعيف.

العمل بالنص أولى من العمل بالقياس . قالوا : وبهذا الطريق يكون القرآن وحده وافيًا ببيان كل أحكام الشريعة ، ولا حاجة معه إلى طريق آخر ، فهذا تقرير قول من يقول : القرآن واف ببيان جميع الوقائع . والله أعلم .

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى : تفسير الآية هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا غير خالصة لهم ، لأن المشركين شركاؤهم فيها خالصة يوم القيامة ، لا يشركهم فيها أحد .

فإن قيل: هلا قيل للذين آمنوا ولغيرهم؟

قلنا: فهم منه التنبيه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة ، وأن الكفرة تبع لهم ، كقوله تعالى : ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٢٦] والحاصل : أن ذلك تنبيه على أن هذه النعم إنما تصفوا عن شوائب الرحمة يوم القيامة أما في الدنيا فإنها تكون مكدرة مشوبة .

المسألة الثانية : قرأ نافع (خالصةٌ) بالرفع والباقون بالنصب ، قال الزجاج : الرفع على أنه خبر بعد خبر ، كما تقول : زيد عاقل لبيب ، والمعنى : قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . قال أبو علي : ويجوز أن يكون قوله : (خالصة) خبر المبتدأ وقوله : ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ متعلقًا بخالصة . والتقدير : هي خالصة للذين آمنوا في الحياة الدنيا وأما القراءة بالنصب ، فعلى الحال والمعنى : أنها ثابتة للذين آمنوا في حال كونها خالصة لهم يوم القيامة .

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ومعنى تفصيل الآيات قد سبق وقوله : ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم يمكنهم النظر به والاستدلال حتى يتوصلوا به إلى تحصيل العلوم النظرية ، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

في الآية مسألتان:

المسألة الأولى : أسكن حمزة الياء من ﴿رَبِّىَ﴾ والباقون فتحوها .

المسألة الثانية : اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الذي حرموه ليس بحرام بيَّن في هذه الآية أنواع المحرمات ، فحرم أولاً الفواحش ، وثانيًا الإثم ، واختلفوا في الفرق بينهما على وجوه : الأول : أن الفواحش عبارة عن الكبائر ، لأنه قد تفاحش قبحها أي تزايد والإثم عبارة عن الصغائر فكان معنى الآية : أنه حرم الكبائر والصغائر ، وطعن القاضي فيه ، فقال : هذا يقتضي أن

يقال: الزنا، والسرقة، والكفر ليس بإثم وهو بعيد.

القول الثاني: أن الفاحشة اسم لا يجب فيه الحد، والإثم اسم لما يجب فيه الحد، وهذا وإن كان مغايرًا للأول إلا أنه قريب منه، والسؤال فيه ما تقدم.

والقول الثالث: أن الفاحشة اسم للكبيرة، والإثم: اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيرًا أو صغيرًا. والفائدة فيه: أنه تعالى لما حرم الكبيرة أردفها بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم أن التحريم مقصور على الكبيرة وعلى هذا القول اختيار القاضي.

والقول الرابع: أن الفاحشة وإن كانت بحسب أصل اللغة اسمًا لكل ما تفاحش وتزايد في أمر من الأمور، إلا أنه في العرف مخصوص بالزيادة. والدليل عليه أنه تعالى قال في الزنا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] ولأن لفظ الفاحشة إذا أطلق لم يفهم منه إلا ذلك، وإذا قيل فلان فحّاش: فهم أنه يشتم الناس بألفاظ الوقاع، فوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا فقط.

إذا ثبت هذا فنقول: في قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ على هذا التفسير وجهان: الأول: يريد سر الزنا، وهو الذي يقع على سبيل العشق والمحبة، وما ظهر منها بأن يقع علانية. والثاني: أن يراد بما ظهر من الزنا الملامسة والمعانقة ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الدخول. وأما الإثم فيجب تخصيصه بالخمر، لأنه تعالى قال في صفة الخمر: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] وبهذا التقدير: فإنه يظهر الفرق بين اللفظين.

النوع الثالث: من المحرمات قوله: ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فنقول: أما الذين قالوا: المراد بالفواحش جميع الكبائر، وبالإثم جميع الذنوب. قالوا: إن البغي والشرك لا بد وأن يكونا داخلين تحت الفواحش وتحت الإثم، إلا أن الله تعالى خصهما بالذكر تنبيهًا على أنهما أقبح أنواع الذنوب، كما في قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، وأما الذين قالوا الفاحشة مخصوصة بالزنا والإثم بالخمر، قالوا: البغي والشرك على هذا التقرير غير داخلين تحت الفواحش والإثم فنقول: البغي لا يستعمل إلا في الإقدام على الغير نفسًا، أو مالاً، أو عرضًا، وأيضًا قد يراد بالبغي الخروج على سلطان الوقت.

فإن قيل: البغي لا يكون إلا بغير الحق، فما الفائدة في ذكر هذا الشرط.

قلنا إنه مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣] والمعنى: لا تقدموا على إيذاء الناس بالقتل والقهر، إلا أن يكون لكم فيه حق، فحينئذ يخرج من أن يكون بغيًا.

والنوع الرابع: من المحرمات قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وفيه سؤال: وهو أن هذا يوهم أن في الشرك بالله ما قد أنزل به سلطانًا، وجوابه: المراد منه أن الإقرار بالشيء الذي ليس على ثبوته حجة، ولا سلطان ممتنع، فلما امتنع حصول الحجة والتنبيه على

صحة القول بالشرك، فوجب أن يكون القول به باطلاً على الإطلاق، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل.

والنوع الخامس: من المحرمات المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقد سبق تفسير هذه الآية في هذه السورة عند قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨] وبقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: كلمة (إنما) تفيد الحصر، فقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ كذا وكذا يفيد الحصر، والمحرمات غير محصورة في هذه الأشياء.

والجواب: إن قلنا: الفاحشة محمولة على مطلق الكبائر، والإثم على مطلق الذنب دخل كل الذنوب فيه، وإن حملنا الفاحشة على الزنا، والإثم على الخمر قلنا: الجنايات محصورة في خمسة أنواع: أحدها: الجنايات على الأنساب، وهي إنما تحصل بالزنا، وهي المراد بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وثانيها: الجنايات على العقول، وهي شرب الخمر، وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ وثالثها: الجنايات على الأعراض. ورابعها: الجنايات على النفوس وعلى الأموال، وإليهما الإشارة بقوله: ﴿وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وخامسها: الجنايات على الأديان وهي من وجهين: أحدها: الطعن في توحيد الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾ وثانيها: القول في دين الله من غير معرفة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلما كانت أصول الجنايات هي هذه الأشياء، وكانت البواقي كالفروع والتوابع، لا جرم جعل تعالى ذكرها جاريًا مجرى ذكر الكل، فأدخل فيها كلمة (إنما) المفيدة للحصر.

السؤال الثاني: الفاحشة والإثم هو الذي نهى الله عنه، فصار تقدير الآية: إنما حرم ربي المحرمات، وهو كلام خال عن الفائدة؟ والجواب: كون الفعل فاحشة هو عبارة عن اشتماله في ذاته على أمور باعتبارها يجب النهي عنه، وعلى هذا التقدير: فيسقط السؤال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما بيَّن الحلال والحرام وأحوال التكليف، بين أن لكل أحد أجلاً معينًا لا يتقدم ولا يتأخر، وإذا جاء ذلك الأجل مات لا محالة، والغرض منه التخويف ليتشدد المرء في القيام بالتكاليف كما ينبغي.

المسألة الثانية: اعلم أن الأجل، هو الوقت الموقت المضروب لانقضاء المهلة، وفي هذه الآية قولان:

القول الأول: وهو قول ابن عباس، والحسن ومقاتل أن المعنى أن الله تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين، وهو تعالى لا يعذبهم إلى أن يُنظَروا ذلك الوقت الذي يصيرون

فيه مستحقين لعذاب الاستئصال، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة.

والقول الثاني: أن المراد بهذا الأجل العمر، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه، والقول الأول: أولى، لأنه تعالى قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولم يقل: ولكل أحد أجل، وعلى القول الثاني: إنما قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولم يقل لكل أحد لأن الأمة هي الجماعة في كل زمان، ومعلوم من حالها التقارب في الأجل، لأن ذكر الأمة فيما يجري مجرى الوعيد أفحم، وأيضًا فالقول الأول: يقتضي أن يكون لكل أمة من الأمم وقت معين في نزول عذاب الاستئصال عليهم وليس الأمر كذلك لأن أمتنا ليست كذلك.

المسألة الثالثة: إذا حملنا الآية على القول الثاني: لزم أن يكون لكل أحد أجل، لا يقع فيه التقديم والتأخير فيكون المقتول ميتًا بأجله، وليس المراد منه أنه تعالى لا يقدر على تبقيته أزيد من ذلك، ولا أنقص، ولا يقدر على أن يميته في ذلك الوقت لأن هذا يقتضي خروجه تعالى عن كونه قادرًا مختارًا، وصيرورته كالموجب لذاته، وذلك في حق الله تعالى ممتنع بل المراد أنه تعالى أخبر أن الأمر يقع على هذا الوجه.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ المراد أنه لا يتأخر عن ذلك الأجل المعين لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة إلا أنه تعالى ذكر الساعة لأن هذا اللفظ أقل أسماء الأوقات.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإن عند حضور الأجل امتنع عقلاً وقوع ذلك الأجل في الوقت المتقدم عليه.

قلنا: يحمل قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ على قرب حضور الأجل. تقول العرب: جاء الشتاء، إذا قارب وقته، ومع مقاربة الأجل يصح التقدم على ذلك تارة، والتأخر عنه أخرى.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أحوال التكليف وبين أن لكل أحد أجلاً معينًا لا يتقدم ولا يتأخر بيَّن أنهم بعد الموت كانوا مطيعين فلا خوف عليهم ولا حزن وإن كانوا متمردين وقعوا في أشد العذاب وقوله: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هي (إن) الشرطية ضُمَّت إليها (ما) مؤكدة لمعنى الشرط ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء، وهو قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ وإنما قال رسل وإن كان خطابًا للرسول عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء عليه وعليهم السلام لأنه تعالى أجرى الكلام على ما يقتضيه سنته في الأمم، وإنما قال: ﴿مِّنكُمْ﴾ لأن كون الرسول منهم أقطع لعذرهم وأبين للحجة عليهم من جهات:

أحدها: أن معرفتهم بأحواله وبطهارته تكون متقدمة.

وثانيها: أن معرفتهم بما يليق بقدرته تكون متقدمة فلا جرم لا يقع في المعجزات التي تظهر عليه شك وشبهة في أنها حصلت بقدرة الله تعالى لا بقدرته فلهذا السبب قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩].

وثالثها: ما يحصل من الألفة وسكون القلب إلى أبناء الجنس، بخلاف ما لا يكون من الجنس، فإنه لا يحصل معه الألفة.

وأما قوله: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ فقيل تلك الآيات هي القرآن وقيل: الدلائل، وقيل: الأحكام والشرائع، والأولى دخول الكل فيه، لأن جميع هذه الاشياء آيات الله تعالى لأن الرسل إذا جاءوا فلا بد وأن يذكروا جميع هذه الأقسام، ثم قسم تعالى حال الأمة فقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ وجمع هاتين الحالتين مما يوجب الثواب لأن المتقي هو الذي يتقي كل ما نهى الله تعالى عنه، ودخل في قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أنه أتى بكل ما أمر به.

ثم قال تعالى في صفته: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي بسبب الأحوال المستقبلة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي بسبب الأحوال الماضية لأن الإنسان إذا جوز وصول المضرة إليه في الزمان المستقبل خاف وإذا تفكر فعلم أنه وصل إليه بعض ما لا ينبغي في الزمان الماضي، حصل الحزن في قلبه، لهذا السبب والأولى في نفي الحزن أن يكون المراد أن لا يحزن على ما فاته في الدنيا، لأن حزنه على عقاب الآخرة يجب أن يرتفع بما حصل له من زوال الخوف، فيكون كالمعاد وحمله على الفائدة الزائدة أولى فبيَّن تعالى أن حاله في الآخرة تفارق حاله في الدنيا، فإنه في الآخرة لا يحصل في قلبه خوف ولا حزن ألبتة، واختلف العلماء في أن المؤمنين من أهل الطاعات هل يلحقهم خوف، وحزن عند أهوال يوم القيامة فذهب بعضهم إلا أنه لا يلحقهم ذلك، والدليل عليه هذه الآية، وأيضًا قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وذهب بعضهم إلى أنه يلحقهم ذلك الفزع لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢] أي من شدة الخوف.

وأجاب هؤلاء عن هذه الآية: بأن معناه أن أمرهم يئول إلى الأمن والسرور، كقول الطبيب للمريض: لا بأس عليك، أي أمرك يئول إلى العافية والسلامة، وإن كان في الوقت في بأس من علته، ثم بيَّن تعالى أن الذين كذبوا بهذه الآيات التي يجيء بها الرسل ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أن أنفوا من قبولها وتمردوا عن التزامها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وقد تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن الفاسق من أهل الصلاة، لا يبقى مخلدًا في النار، لأنه تعالى بيَّن أن المكذبين بآيات الله والمستكبرين عن قبولها، هم الذين يبقون مخلدين في النار، وكلمة (هم) تفيد الحصر، فذلك يقتضي أن من لا يكون موصوفًا بذلك التكذيب والاستكبار، لا يبقى مخلدًا في النار، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ يرجع إلى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ [الأعراف: ٣٦] وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي فمن أعظم ظلمًا ممن يقول على الله مالم يقله أو كذب ما قاله. والأول: هو الحكم بوجود ما لم يوجد. والثاني: هو الحكم بإنكار ما وجد، والأول دخل فيه قول من أثبت الشريك لله سواء كان ذلك الشريك عبارة عن الأصنام أو عن الكواكب أو عن مذهب القائلين بيزدان وأهرمن. ويدخل فيه قول من أثبت البنات والبنين لله تعالى، ويدخل فيه قول من أضاف الأحكام الباطلة إلى الله تعالى. والثاني: يدخل فيه قول من أنكر كون القرآن كتابًا نازلاً من عند الله تعالى وقول من أنكر نبوة محمد ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ واختلفوا في المراد بذلك النصيب على قولين: أحدهما: أن المراد منه العذاب، والمعنى ينالهم ذلك العذاب المعين الذي جعله نصيبًا لهم في الكتاب، ثم اختلفوا في ذلك العذاب المعين. فقال بعضهم: هو سواد الوجه وزرقة العين، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] وقال الزجاج: هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤] وفي قوله: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧] وفي قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ﴾ [غافر: ٧١] فهذه الأشياء هي نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم في كفرهم.

والقول الثاني: أن المراد من هذا النصيب شيء سوى العذاب، واختلفوا فيه فقيل: هم اليهود والنصارى يجب لهم علينا إذا كانوا أهل ذمة لنا أن لا نتعدى عليهم وأن ننصفهم وأن نذب عنهم فذلك هو معنى النصيب من الكتاب وقال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب أي ما سبق لهم في حكم الله وفي مشيئته من الشقاوة والسعادة، فإن قضى الله لهم بالختم على الشقاوة، أبقاهم على كفرهم، وإن قضى لهم بالختم على السعادة نقلهم إلى الإيمان والتوحيد، وقال الربيع وابن زيد يعني: ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال والأعمار، فإذا فنيت وانقرضت وفرغوا منها ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ واعلم أن هذا الاختلاف إنما حصل، لأنه تعالى قال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ولفظ (النصيب) مجمل محتمل لكل الوجوه المذكورة وقال بعض المحققين: حمله على العمر والرزق أولى، لأنه تعالى بيَّن أنهم وإن بلغوا في الكفر ذلك المبلغ العظيم، إلا أن ذلك ليس بمانع من أن ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر تفضلاً من الله تعالى، لكي يصلحوا ويتوبوا، وأيضًا فقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ

رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يدل على أن مجيء الرسل للتوفي، كالغاية لحصول ذلك النصيب، فوجب أن يكون حصول ذلك النصيب متقدمًا على حصول الوفاة، والمتقدم على حصول الوفاة، ليس إلا العمر والرزق.

أما قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الخليل وسيبويه: لا يجوز إمالة (حتى) و(ألا) و(أما) وهذه ألفات ألزمت الفتح، لأنها أواخر حروف جاءت لمعان يفصل بينها وبين أواخر الأسماء التي فيها الألف، نحو: حبلى وهدى إلا أن (حتى) كتبت بالياء لأنها على أربعة أحرف فأشبهت سكرى. وقال بعض النحويين: لا يجوز إمالة (حتى) لأنها حرف لا يتصرف، والإمالة ضرب من التصرف.

المسألة الثانية: قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾

فيه قولان:

القول الأول: المراد هو قبض الأرواح، لأن لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى. قال ابن عباس الموت قيامة الكافر، فالملائكة يطالبونهم بهذه الأشياء عند الموت على سبيل الزجر والتوبيخ والتهديد، وهؤلاء الرسل هم ملك الموت وأعوانه.

والقول الثاني: وهو قول الحسن، وأحد قولي الزجاج أن هذا لا يكون في الآخرة ومعنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكة العذاب ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي يتوفون مدتهم عند حشرهم إلى النار على معنى أنهم يستكملون عدتهم، حتى لا ينفلت منهم أحد.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ معناه أين الشركاء الذين كنتم تدعونهم وتعبدونهم من دون الله. ولفظة (ما) وقعت موصولة بأين في خط المصحف. قال صاحب (الكشاف): وكان حقها أن تفصل، لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون.

ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: بطلوا وذهبوا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين عند معاينة الموت.

واعلم أن على جميع الوجوه فالمقصود من الآية زجر الكفار عن الكفر، لأن التهويل بذكر هذه الأحوال مما يحمل العاقل على المبالغة في النظر والاستدلال والتسدد في الاحتراز عن التقليد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ

رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

اعلم أن هذه الآية من بقية شرح أحوال الكفار وهو أنه تعالى يدخلهم النار.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟﴾

ففيه قولان:

الأول: إن الله تعالى يقول ذلك. والثاني: قال مقاتل: هو من كلام خازن النار، وهذا الاختلاف بناء على أنه تعالى هل يتكلم مع الكفار أم لا؟ وقد ذكرنا هذه المسألة بالاستقصاء.

أما قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾

ففيه وجهان:

الوجه الأول: التقدير: ادخلوا في النار مع أمم، وعلى هذا القول ففي الآية إضمار ومجاز أما الإضمار فلأنا أضمرنا فيها قولنا: في النار. وأما المجاز، فلأنا حملنا كلمة (في) على (مع) لأنا قلنا معنى قوله: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي مع أمم.

والوجه الثاني: أن لا يلتزم الإضمار ولا يلتزم المجاز، والتقدير: ادخلوا في أمم في النار، ومعنى الدخول في الأمم، الدخول فيما بينهم وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي تقدم زمانهم زمانكم، وهذا يشعر بأنه تعالى لا يدخل الكفار بأجمعهم في النار دفعة واحدة، بل يدخل الفوج بعد الفوج، فيكون فيهم سابق ومسبوق، ليصح هذا القول، ويشاهد الداخل من الأمة في النار من سبقها وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ والمقصود أن أهل النار يلعن بعضهم بعضًا فيتبرأ بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] والمراد بقوله: ﴿أُخْتَهَا﴾ أي في الدين، والمعنى: أن المشركين يلعنون المشركين، وكذلك اليهود، تلعن اليهود، والنصارى النصارى، وكذا القول في المجوس، والصابئة وسائر أديان الضلالة. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي تداركوا، بمعنى تلاحقوا، واجتمعوا في النار، وأدرك بعضهم بعضًا، واستقر معه ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسير الأولى والأخرى قولان: الأول: قال مقاتل: أخراهم يعني آخرهم دخولاً في النار، لأولاهم دخولاً فيها. والثاني: أخراهم منزلة، وهم الأتباع والسفلة، لأولاهم منزلة وهم القادة والرؤساء.

المسألة الثانية: (اللام) في قوله: ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ لام أجل، والمعنى: لأجلهم ولإضلالهم

إياهم قالوا: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ وليس المراد أنهم ذكروا هذا القول لأولاهم، لأنهم ما خاطبوا أولاهم، وإنما خاطبوا الله تعالى بهذا الكلام.

أما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ فالمعنى: أن الأتباع يقولون: إن المتقدمين أضلونا، واعلم أن هذا الإضلال يقع من المتقدمين للمتأخرين على وجهين: أحدهما: بالدعوة إلى الباطل، وتزيينه في أعينهم، والسعي في إخفاء الدلائل المبطلة لتلك الأباطيل.

والوجه الثاني: بأن يكون المتأخرون معظمين لأولئك المتقدمين، فيقلدونهم في تلك الأباطيل والأضاليل التي لفقوها ويتأسون بهم، فيصير ذلك تشبيهًا بإقدام أولئك المتقدمين على الإضلال.

ثم حكى الله تعالى عن هؤلاء المتأخرين أنهم يدعون على أولئك المتقدمين بمزيد العذاب وهو قوله: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وفي الضعف، قولان:

القول الأول: قال أبو عبيدة (الضِّعف) هو مثل الشيء مرة واحدة. وقال الشافعي رحمه الله: ما يقارب هذا - فقال في رجل أوصى فقال اعطوا فلانا ضعف نصيب ولدي - قال: يعطي مثله مرتين.

والقول الثاني: قال الأزهري: (الضِّعف) في كلام العرب المثل إلى ما زاد وليس بمقصور على المثلين، وجائز في كلام العرب أن تقول: هذا ضعفه، أي مثلاه وثلاثة أمثاله، لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة، والدليل عليه: قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبا: ٣٧] ولم يرد به مثلا ولا مثلين، بل أولى الأشياء به أن يجعل عشرة أمثاله، لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فثبت أن أقل الضعف محصور وهو المثل وأكثره غير محصور إلى ما لا نهاية له.

وأما مسألة الشافعي رحمه الله: فاعلم أن التركة متعلقة بحقوق الورثة، إلا أنا لأجل الوصية صرفنا طائفة منها إلى الموصى له، والقدر المتيقن في الوصية هو المثل، والباقي مشكوك، فلا جرم أخذنا المتيقن وطرحنا المشكوك، فلهذا السبب حملنا الضعف في تلك المسألة على المثلين.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ أبو بكر عن عاصم (يَعْلَمُون) بالياء على الكناية عن الغائب، والمعنى: ولكن لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر، فيحمل الكلام على كل، لأنه وإن كان للمخاطبين فهو اسم ظاهر موضوع للغيبة، فحمل على اللفظ دون المعنى، وأما الباقون فقرؤوا بالتاء على الخطاب والمعنى: ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون، ما لكل فريق منكم من العذاب، ويجوز ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا ما مقدار ذلك.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: إن كان المراد من قوله: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي حصل لكل أحد من العذاب ضعف ما يستحقه، فذلك غير جائز لأنه ظلم، وإن لم يكن المراد ذلك، فما معنى كونه ضعفًا؟

والجواب: أن عذاب الكفار يزيد، فكل ألم يحصل فإنه يعقبه حصول ألم آخر إلى غير نهاية فكانت تلك الآلام متضاعفة متزايدة لا إلى آخر، ثم بيَّن تعالى أن أخراهم كما خاطبت أولاهم، فكذلك تجيب أولاهم أخراهم، فقال: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي في ترك الكفر والضلال، وإنا متشاركون في استحقاق العذاب.

ولقائل أن يقول: هذا منهم كذب، لأنهم لكونهم رؤساء وسادة وقادة، قد دعوا إلى الكفر وبالغوا في الترغيب فيه، فكانوا ضالين ومضلين، وأما الأتباع والسفلة، فهم وإن كانوا ضالين، إلا أنهم ما كانوا مضلين، فبطل قولهم أنه لا فضل للأتباع على الرؤساء في ترك الضلال والكفر.

وجوابه: أن أقصى ما في الباب أن الكفار كذبوا في هذا القول يوم القيامة، وعندنا أن ذلك جائز، وقد قررناه في سورة الأنعام في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

أما قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فهذا يحتمل أن يكون من كلام القادة، وأن يكون من قول الله تعالى لهم جميعًا. واعلم أن المقصود من هذا الكلام التخويف والزجر، لأنه تعالى لما أخبر عن الرؤساء والأتباع أن بعضهم يتبرأ عن بعض، ويلعن بعضهم بعضًا، كان ذلك سببًا لوقوع الخوف الشديد في القلب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

اعلم أن المقصود منه إتمام الكلام في وعيد الكفار، وذلك لأنه تعالى قال في الآية المتقدمة ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦] ثم شرح تعالى في هذه الآية كيفية ذلك الخلود في حق أولئك المكذبين المستكبرين بقوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بالدلائل الدالة على المسائل التي هى أصول الدين، فالدهرية ينكرون دلائل إثبات الذات والصفات، والمشركون ينكرون دلائل التوحيد، ومنكرو النبوات يكذبون الدلائل الدالة على صحة النبوات ومنكرو نبوة محمد ينكرون الدلائل الدالة على صحة نبوته، ومنكرو المعاد ينكرون الدلائل الدالة على صحة المعاد، فقوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يتناول الكل، ومعنى الاستكبار طلب الترفع بالباطل وهذا اللفظ في حق البشر يدل على الذم قال تعالى في صفة فرعون: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩].

أما قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو (لاَ تُفْتَحُ) بالتاء خفيفة، وقرأ حمزة والكسائي بالياء خفيفة والباقون بالتاء مشددة. أما القراءة بالتشديد فوجهها قوله تعالى: (فَتَّحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) [الأنعام: ٤٤](ففتَّحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ) [القمر: ١١]وأما قراءة حمزة والكسائي فوجهها أن الفعل متقدم.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أقوال. قال ابن عباس: يريد لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم ولا لشيء مما يريدون به طاعة الله، وهذا التأويل مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]ومن قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]وقال السدي وغيره: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، وتفتح لأرواح المؤمنين، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي في حديث طويل: أن روح المؤمن يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال مرحبًا بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ويقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة، ويستفتح لروح الكافر فيقال لها: ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء.

والقول الثالث: أن الجنة في السماء فالمعنى: لا يؤذن لهم في الصعود إلى السماء ولا تطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة.

والقول الرابع: لا تنزل عليهم البركة والخير، وهو مأخوذ من قوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١]وأقول هذه الآية تدل على أن الأرواح إنما تكون سعيدة إما بأن ينزل عليها من السماء أنواع الخيرات، وإما بأن يصعد أعمال تلك الأرواح إلى السماوات وذلك يدل على أن السماوات موضع بهجة الأرواح، وأماكن سعادتها، ومنها تنزل الخيرات والبركات، وإليها تصعد الأرواح حال فوزها بكمال السعادات، ولما كان الأمر كذلك كان قوله: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ من أعظم أنواع الوعيد والتهديد.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: (الولوج) الدخول. و﴿ الْجَمَلُ﴾ مشهور، و(السم) بفتح السين وضمها ثقب الإبرة قرأ ابن سيرين (سُم) بالضم، وقال صاحب (الكشاف): يروي (سُم) بالحركات الثلاث، وكل ثقب في البدن لطيف فهو (سم) وجمعه سموم، ومنه قيل: السم القاتل. لأنه ينفذ بلطفه في مسام البدن حتى يصل إلى القلب، و﴿ الْخِيَاطِ﴾ ما يخاط به. قال الفراء: ويقال خياط ومخيط، كما يقال إزار ومئزر ولحاف وملحف، وقناع ومقنع، وإنما خص الجمل من بين سائر

الحيوانات، لأنه أكبر الحيوانات جسمًا عند العرب. قال الشاعر:

جسم الجمال وأحلام العصافير(١)

فجسم الجمل أعظم الأجسام، وثقب الإبرة أضيق المنافذ، فكان ولوج الجمل في تلك الثقبة الضيقة محالاً، فلما وقف الله تعالى دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط، وكان هذا شرطًا محالاً، وثبت في العقول أن الموقوف على المحال محال، وجب أن يكون دخولهم الجنة مأيوسًا منه قطعًا.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قرأ ابن عباس (الجُمَّلُ) بوزن القُمَّل، وسعيد بن جبير (الجُمَل) بوزن النُغَر. وقرئ (الجُمْل) بوزن القُفْل، و(الجَمَل) بوزن النَّصَب، و(الجَمْل) بوزن الحَبْل، ومعناها: القلس الغليظ، لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى أحسن تشبيهًا من أن يشبه بالجمل. يعني: أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة، والبعير لا يناسبه. إلا أنا ذكرنا الفائدة فيه.

المسألة الثالثة: القائلون بالتناسخ احتجوا بهذه الآية، فقالوا: إن الأرواح التي كانت في أجساد البشر لما عصت وأذنبت، فإنها بعد موت الأبدان ترد من بدن إلى بدن، ولا تزال تبقى في التعذيب حتى إنها تنتقل من بدن الجمل إلى بدن الدودة التي تنفذ في سم الخياط، فحينئذ تصير مطهرة عن تلك الذنوب والمعاصي، وحينئذ تدخل الجنة وتصل إلى السعادة واعلم أن القول بالتناسخ باطل وهذا الاستدلال ضعيف، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ومثل هذا الذي وصفنا نجزي المجرمين، والمجرمون والله أعلم ههنا هم الكافرون، لأن الذي تقدم ذكره من صفتهم هو التكذيب بآيات الله، والاستكبار عنها.

واعلم أنه تعالى لما بين من حالهم أنهم لا يدخلون الجنة ألبتة بين أيضًا أنهم يدخلون النار، فقال ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: (المِهَاد) جمع مهد، وهو الفراش. قال الأزهري: أصل المهد في اللغة الفرش، يقال للفِرَاش مهاد لمُوَاتاته، والغواشي جمع غاشية، وهي كل ما يغشاك، أي يجلِّلك، وجهنم لا تنصرف لاجتماع التأنيث فيها والتعريف، وقيل اشتقاقها من الجهمة، وهي الغلظ، يقال: رجل جهم الوجه غليظه، وسميت بهذا لغلظ أمرها في العذاب قال المفسرون: المراد من هذه الآية الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب، فلهم منها غطاء ووطاء، وفراش ولحاف.

(١) هذا البيت للشاعر الصحابي حسان بن ثابت والبيت هكذا:

لا عَيبَ بِالقَومِ مِن طولٍ وَلا عِظَمٍ جُسمُ البِغالِ وَأَحلامُ العَصافيرِ

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: إن غَواشٍ، على وزن فواعل، فيكون غير منصرف، فكيف دخله التنوين؟ وجوابه على مذهب الخليل وسيبويه إن هذا جمع، والجمع أثقل من الواحد، وهو أيضًا الجمع الأكبر الذي تتناهى الجموع إليه، فزاده ذلك ثقلاً، ثم وقعت الياء في آخره وهي ثقيلة، فلما اجتمعت فيه هذه الأشياء خففوها بحذف يائه، فلما حذفت الياء نقص عن مثال فواعل، وصار غواشٍ بوزن جَنَاحٍ، فدخله التنوين لنقصانه عن هذا المثال.

أما قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد الذين أشركوا بالله واتخذوا من دونه إلهًا وعلى هذا التقدير: فالظالمون ههنا هم الكافرون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما استوفى الكلام في الوعيد أتبعه بالوعد في هذه الآية، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن أكثر أصحاب المعاني على أن قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر والتقدير والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون وإنما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر، لأنه من جنس هذا الكلام، لأنه لما ذكر عملهم الصالح، ذكر أن ذلك العمل في وسعهم غير خارج عن قدرتهم، وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم محلها يوصل إليها بالعمل السهل من غير تحمل الصعب. وقال قوم: موضعه خبر عن ذلك المبتدأ والعائد محذوف، كأنه قيل: لا نكلف نفسًا منهم إلا وسعها، وإنما حذف العائد للعلم به.

المسألة الثانية: معنى الوسع ما يقدر الإنسان عليه في حال السعة والسهولة لا في حال الضيق والشدة، والدليل عليه: أن معاذ بن جبل قال في هذه الآية إلا يسرها لا عسرها. وأما أقصى الطاقة يسمى جهدًا لا وسعًا، وغلط من ظن أن الوسع بذل المجهود.

المسألة الثالثة: قال الجبائي: هذا يدل على بطلان مذهب المجبرة في أن الله تعالى كلف العبد بما لا يقدر عليه، لأن الله تعالى كذبهم في ذلك، وإذا ثبت هذا الأصل بطل قولهم في خلق الأعمال، لأنه لو كان خالق أعمال العباد هو الله تعالى، لكان ذلك تكليف ما لا يطاق، لأنه تعالى إن كلفه بذلك الفعل حال ما خلقه فيه، فذلك تكليفه بما لا يطاق، لأنه أمر بتحصيل الحاصل، وذلك غير مقدور، وإن كلفه به حال ما لم يخلق من ذلك الفعل فيه كان ذلك أيضًا

تكليف ما لا يطاق، لأن على هذا التقدير: لا قدرة للعبد على تكوين ذلك الفعل وتحصيله، قالوا: وأيضًا إذا ثبت هذا الأصل ظهر أن الاستطاعة قبل الفعل إذ لو كانت حاصلة مع الفعل، والكافر لا قدرة له على الإيمان مع أنه مأمور به، فكان هذا تكليف ما لا يطاق، ولما دلت هذه الآية على نفي التكليف بما لا يطاق، ثبت فساد هذين الأصلين.

والجواب: أنا نقول: وهذا الإشكال أيضًا وارد عليكم، لأنه تعالى يكلف العبد بإيجاد الفعل، حال استواء الدواعي إلى الفعل والترك، أو حال رجحان أحد الداعيين على الآخر والأول باطل، لأن الإيجاد ترجيح لجانب الفعل، وحصول الترجيح حال حصول الاستواء محال، والثاني باطل، لأن حال حصول الرجحان كان الحصول واجبًا، فإن وقع الأمر بالطرف الراجح كان أمرًا بتحصيل الحاصل، وإن وقع بالطرف المرجوح كان أمرًا بتحصيل المرجوح حال كونه مرجوحًا، فيكون أمرًا بالجمع بين النقيضين وهو محال، فكل ما تجعلونه جوابًا عن هذا السؤال، فهو جوابنا عن كلامكم، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ فاعلم أن نزع الشيء قلعه عن مكانه، والغل: الحقد. قال أهل اللغة: وهو الذي يغل بلطفه إلى صميم القلب، أي يدخل، ومنه الغلول وهو الوصول بالحيلة إلى الذنوب الدقيقة، ويقال: انغل في الشيء، وتغلغل فيه: إذا دخل فيه بلطافة، كالحب يدخل في صميم الفؤاد.

إذا عرفت هذا فنقول: لهذه الآية تأويلان:

القول الأول: أن يكون المراد أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا، ومعنى نزع الغل: تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ومنعها من أن ترد على القلوب، فإن الشيطان لما كان في العذاب لم يتفرغ لإلقاء الوساوس في القلوب، وإلى هذا المعنى أشار علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [(١)].

والقول الثاني: أن المراد منه أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقصان، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى إن صاحب الدرجة النازلة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة. قال صاحب (الكشاف): هذا التأويل أولى من الوجه الأول، حتى يكون هذا في مقابلة ما

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبراني في (الكبير) (١/ ٧٩)، حديث رقم (١١١) من طريق عبد المنعم بن بشير الأنصاري حدثنا علي بن غراب المحاربي عن عبد الله بن سعيد عن أبيه... فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ٩٧)، وقال: رواه الطبراني وفيه عبد المنعم بن بشير ولا يحل الاحتجاج به، ورواه الخلال في (السنة) (٢/ ٣٩٠)، حديث رقم (٥٥٥) من طريق شعبة عن حبيب بن الزبير قال سمعت عبد الرحمن بن الشرود قال سمعت عليًا يخطب فقال... فذكره.

وقال: وإسناده ضعيف لأن فيه مجهول.

ذكره الله تعالى من تبري بعض أهل النار من بعض، ولعن بعضهم بعضًا، ليعلم أن حال أهل الجنة في هذا المعنى أيضًا مفارقة لحال أهل النار.

فإن قالوا: كيف يعقل أن يشاهد الإنسان النعم العظيمة، والدرجات العالية، ويرى نفسه محروما عنها عاجزًا عن تحصيلها، ثم إنه لا يميل طبعه إليها، ولا يغتم بسبب الحرمان عنها، فإن عقل ذلك، فلم لا يعقل أيضًا أن يعيدهم الله تعالى، ولا يخلق فيهم شهوة الأكل، والشرب والوقاع، ويغنيهم عنها؟

قلنا: الكل ممكن، والله تعالى قادر عليه، إلا أنه تعالى وعد بإزالة الحقد والحسد عن القلوب، وما وعد بإزالة شهوة الأكل والشرب عن النفوس، فظهر الفرق بين البابين.

ثم إنه تعالى قال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والمعنى: أنه تعالى كما خلصهم من ربقة الحقد والحسد والحرص على طلب الزيادة فقد أنعم عليهم باللذات العظيمة، وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من رحمة الله وفضله وإحسانه، وأنواع المكاشفات والسعادات الروحانية.

ثم حكى تعالى عن أهل الجنة أنهم قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ وقال أصحابنا: معنى ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أنه أعطى القدرة، وضم إليها الداعية الجازمة، وصير مجموع القدرة وتلك الداعية موجبًا لحصول تلك الفضيلة فإنه لو أعطى القدرة، وما خلق تلك الداعية لم يحصل الأثر، ولو خلق الله الداعية المعارضة أيضًا لسائر الدواعي الصارفة، لم يحصل الفعل أيضًا. أما لما خلق القدرة، وخلق الداعية الجازمة، وكان مجموع القدرة مع الداعية المعينة موجبًا للفعل كانت الهداية حاصلة في الحقيقة بتقدير الله تعالى، وتخليقه وتكوينه. وقالت المعتزلة: التحميد إنما وقع على أنه تعالى أعطى العقل ووضع الدلائل، وأزال الموانع، وعند هذا يرجع إلى مباحث الجبر والقدر على سبيل التمام والكمال.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر (ما كنا) بغير واو، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام، والباقون بالواو، والوجه في قراءة ابن عامر أن قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ جارٍ مجرى التفسير لقوله: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ فلما كان أحدهما عين الآخر، وجب حذف الحرف العاطف.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ دليل على أن المهتدي من هداه الله، وإن لم يهده الله لم يهتد، بل نقول: مذهب المعتزلة أن كل ما فعله الله تعالى في حق الأنبياء عليهم السلام، والأولياء من أنواع الهداية والإرشاد، فقد فعله في حق جميع الكفار والفساق وإنما حصل الامتياز بين المؤمن والكافر، والمحق والمبطل بسعي نفسه، واختيار نفسه فكان يجب عليه أن يحمد نفسه، لأنه هو الذي حصَّل لنفسه الإيمان، وهو الذي أوصل نفسه إلى درجات الجنان، وخلصها من دركات النيران، فلما لم يحمد نفسه البتة، وإنما حمد الله فقط.

علمنا أن الهادي ليس إلا الله سبحانه.

ثم حكى تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا من قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عيانًا، وقالوا: لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

ثم قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ذلك النداء إما أن يكون من الله تعالى، أو أن يكون من الملائكة، والأولى أن يكون المنادي هو الله سبحانه.

المسألة الثانية: ذكر الزجاج في كلمة (أن) ههنا وجهين: الأول: أنها مخففة من الثقيلة، والتقدير: أنه والضمير للشأن، والمعنى: نودوا بأنه تلكم الجنة أي نودوا بهذا القول. والثاني: قال: وهو الأجود عندي أن تكون (أن) في معنى تفسير النداء، والمعنى: ونودوا. أي تلكم الجنة، والمعنى: قيل لهم تلكم الجنة كقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ﴾ [ص: ٦] يعني أي امشوا. قال: إنما قال: (تلكم) لأنهم وعدوا بها في الدنيا. فكأنه قيل لهم: هذه تلكم التي وعدتم بها وقوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾.

فيه قولان:

القول الأول: وهو قول أهل المعاني أن معناه: صارت إليكم كما يصير الميراث إلى أهله، والإرث قد يستعمل في اللغة، ولا يراد به زوال الملك عن الميت إلى الحي كما يقال: هذا العمل يورثك الشرف، ويورثك العار أي يُصَيِّرُك إليه، ومنهم من يقول: إنهم أعطوا تلك المنازل من غير تعب في الحال فصار شبيهًا بالميراث.

والقول الثاني: أن أهل الجنة يورثون منازل أهل النار. قال ﷺ: **«لَيسَ مِنْ كَافِرٍ وَلاَ مُؤْمِنٍ إلاَّ وَلَهُ فِي الْجَنَّة وَالنَّار مَنْزِل. فَإِذَا دَخَلَ أَهْل الْجَنَّة الْجَنَّة وَأَهْل النَّار النَّار، رُفِعَتْ الْجَنَّة لِأَهْلِ النَّار فَنَظَرُوا إِلَى مَنَازِلهمْ فِيهَا، فَقِيلَ لَهُمْ: هَذِهِ مَنَازِلكُمْ لَوْ عَمِلْتُمْ بِطَاعَةِ اللَّه، ثُمَّ يُقَال: يَا أَهْل الْجَنَّة رِثُوهُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ! فَيُقْسَم بَيْن أَهْل الْجَنَّة مَنَازِلهمْ»**(١).

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: تعلق من قال: العمل يوجب هذا الجزاء بهذه الآية فإن الباء في قوله: ﴿بِمَا

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٢/ ٤٤٣)، حديث رقم (١٤٦٦٧)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٦/ ٤٢)، كلاهما من طريق أحمد بن المفضل قال حدثنا أسباط عن السدى... فذكره، وفي إسناده ضعف وإرسال أحمد بن المفضل القرشي قال الحافظ: صدوق شيعي في حفظه شيء وشيخه أسباط من نصر الهمداني صدوق كثير الخطأ يغرب والسدى أرسله.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تدل على العلية، وذلك يدل على أن العمل يوجب هذا الجزاء، وجوابنا: أنه علة للجزاء لكن بسبب أن الشرع جعله علة له، لا لأجل أنه لذاته موجب لذلك الجزاء، والدليل عليه أن نعم الله على العبد لا نهاية لها، فإذا أتى العبد بشيء من الطاعات وقعت هذه الطاعات في مقابلة تلك النعم السالفة فيمتنع أن تصير موجبة للثواب المتأخر.

المسألة الثانية: طعن بعضهم فقال: هذه الآية تدل على أن العبد إنما يدخل الجنة بعمله، وقوله عليه السلام: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجنة بِعَمِلِهِ، وإنَّمَا يَدْخُلُونَهَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تعالى**» وبينهما تناقض، وجواب ما ذكرنا: أن العمل لا يوجب دخول الجنة لذاته، وإنما يوجبه لأجل أن الله تعالى بفضله جعله علامة عليه ومعرفة له، وأيضًا لما كان الموفي للعمل الصالح هو الله تعالى كان دخول الجنة في الحقيقة ليس إلا بفضل الله تعالى.

المسألة الثالثة: قال القاضي: قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] خطاب عام في حق جميع المؤمنين، وذلك يدل على أن كل من دخل الجنة فإنما يدخلها بعمله، وإذا كان الأمر كذلك امتنع قول من يقول: إن الفساق يدخلون الجنة تفضلاً من الله تعالى.

إذا ثبت هذا فنقول: وجب أن لا يخرج الفاسق من النار لأنه لو خرج لكان إما أن يدخل الجنة أو لا يدخلها. والثاني: باطل بالإجماع، والأول: لا يخلو إما أن يدخل الجنة على سبيل التفضل أو على سبيل الاستحقاق، والأول باطل، لأنا بينا أن هذه الآية تدل على أن أحدًا لا يدخل الجنة بالتفضل، والثاني أيضًا باطل لأنه لما دخل النار وجب أن يقال: إنه كان مستحقًّا للعقاب فلو أدخل الجنة على سبيل الاستحقاق لزم كونه مستحقًّا للثواب، وحينئذ يلزم حصول الجمع بين استحقاق الثواب واستحقاق العقاب وهو محال لأن الثواب منفعة دائمة خالصة عن شوائب الضرر والعقاب مضرة دائمة خالصة عن شوائب المنفعة والجمع بينهما محال. وإذا كان كذلك كان الجمع بين حصول استحقاقهما محالاً.

والجواب: هذا بناء على أن استحقاق الثواب والعقاب لا يجتمعان. وقد بالغنا في إبطال هذا الكلام في سورة البقرة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح وعيد الكفار وثواب أهل الإيمان والطاعات أتبعه بذكر المناظرات التي تدور بين الفريقين وهي الأحوال التي ذكرها في هذه الآية.

واعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة قوله: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف: ٤٣]

دل ذلك على أنهم استقروا في الجنة في وقت هذا النداء فلما قال بعده: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ دل ذلك على أن هذا النداء إنما حصل بعد الاستقرار، قال ابن عباس: وجدنا ما وعدنا ربنا في الدنيا من الثواب حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العقاب حقًّا؟ والغرض من هذا السؤال إظهار أنه وصل إلى السعادات الكاملة وإيقاع الحزن في قلب العدو.

وههنا سؤالات:

السؤال الأول: إذا كانت الجنة في أعلى السموات والنار في أسفل الأرضين فمع هذا البعد الشديد كيف يصح هذا النداء؟

والجواب: هذا يصح على قولنا: لأنا عندنا البعد الشديد والقرب الشديد ليس من موانع الإدراك، والتزم القاضي ذلك وقال: إن في العلماء من يقول في الصوت خاصية إن البعد فيه وحده لا يكون مانعًا من السماع.

السؤال الثاني: هذا النداء يقع من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض؟

والجواب: أن قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ يفيد العموم والجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد، وكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في الدنيا.

السؤال الثالث: ما معنى ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾.

والجواب: أنه يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، وأن تكون مفسرة كالتي سبقت في قوله: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ [الأعراف: ٤٣] وكذلك في قوله: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

السؤال الرابع: هلا قيل: (ما وعدكم ربكم حقًّا) كما قيل: ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾.

والجواب: قوله: ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ يدل على أنه تعالى خاطبهم بهذا الوعد، وكونهم مخاطبين من قبل الله تعالى بهذا الوعد يوجب مزيد التشريف. ومزيد التشريف لائق بحال المؤمنين، أما الكافر فهو ليس أهلاً لأن يخاطبه الله تعالى، فلهذا السبب لم يذكر الله تعالى أنه خاطبهم بهذا الخطاب بل ذكر تعالى أنه بيَّن هذا الحكم.

أما قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الآية تدل على أن الكفار يعترفون يوم القيامة بأن وعد الله ووعيده حق وصدق ولا يمكن ذلك إلا إذا كانوا عارفين يوم القيامة بذات الله وصفاته.

فإن قيل: لما كانوا عارفين بذاته وصفاته، وثبت أن من صفاته أنه يقبل التوبة عن عباده، وعلموا بالضرورة أن عند قبول التوبة يتخلصون من العذاب، فلم لا يتوبون ليخلصوا أنفسهم من العذاب؟ وليس لقائل أن يقول: إنه تعالى إنما يقبل التوبة في الدنيا لأن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] عام في الأحوال كلها، وأيضًا فالتوبة اعتراف

بالذنب وإقرار بالذلة والمسكنة واللائق بالرحيم الحكيم التجاوز عن هذه الحالة سواء كان في الدنيا أو في الآخرة.

أجاب المتكلمون: بأن شدة اشتغالهم بتلك الآلام الشديدة يمنعهم عن الإقدام على التوبة ولقائل أن يقول: إذا كانت تلك الآلام لا تمنعهم عن هذه المناظرات، فكيف تمنعهم عن التوبة التي بها يتخلصون عن تلك الآلام الشديدة؟

واعلم أن المعتزلة الذين يقولون يجب على الله قبول التوبة لا خلاص لهم عن هذا السؤال. أما أصحابنا لما قالوا: إن ذلك غير واجب عقلاً قالوا لله تعالى أن يقبل التوبة في الدنيا، وأن لا يقبلها في الآخرة، فزال السؤال. والله أعلم.

المسألة الثانية: قال سيبويه: (نعم) عدة وتصديق، وقال الذين شرحوا كلامه معناه: أنه يستعمل تارة عدة، وتارة تصديقًا، وليس معناه: أنه عِدَة وتصديق معًا ألا ترى أنه إذا قال: أتعطيني؟ وقال نعم كان عدة ولا تصديق فيه، وإذا قال: قد كان كذا وكذا. فقلت: نعم فقد صدقت ولا عدة فيه، وأيضًا إذا استفهمت عن موجب كما يقال: أيقوم زيد؟ قلت: نعم ولو كان مكان الإيجاب نفيًا لقلت: بلى ولم تقل نعم فلفظة نعم مختصة بالجواب عن الإيجاب، ولفظة بلى مختصة بالنفي كما في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[الأعراف: ١٧٢].

المسألة الثالثة: قرأ الكسائي (نَعِمْ) بكسر العين في كل القرآن. قال أبو الحسن: هما لغتان قال أبو حاتم: الكسر ليس بمعروف، واحتج الكسائي بأنه روى عن عمر أنه سأل قومًا عن شيء فقالوا: نَعِم. فقال عمر: أما النَّعِم فالإبل. قال أبو عبيدة: هذه الرواية عن عمر غير مشهورة.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: معنى التأذين في اللغة النداء والتصويت بالإعلام، والأذان للصلاة إعلام بها وبوقتها، وقالوا في: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد أسمع الفريقين. قال ابن عباس: وذلك المؤذن من الملائكة وهو صاحب الصور.

المسألة الثانية: قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون ظرفًا لقوله: ﴿فَأَذَّنَ﴾ والتقدير: أن المؤذن أوقع ذلك الأذان بينهم، وفي وسطهم، ويحتمل أن يكون صفة لقوله: ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ والتقدير: أن مؤذنًا من بينهم أذن بذلك الأذان، والأول أولى والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم (أن) مخففة (لعنةُ) بالرفع، والباقون مشددة (لعنةَ) بالنصب. قال الواحدي رحمه الله: من شدد فهو الأصل، ومن خفف (أن) فهي مخففة

من الشديدة على إرادة إضمار القصة والحديث تقديره أنه لعنة الله، ومثله قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] التقدير: أنه، ولا تخفف أن إلا ويكون معها إضمار الحديث والشأن. ويجوز أيضًا أن تكون المخففة هي التي للتفسير كأنها تفسير لما أذنوا به كما ذكرناه في قوله: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ وروى صاحب (الكشاف) أن الأعمش قرأ (أن لعنة الله) بكسر (إن) على إرادة القول، أو على إجراء (أذن) مجرى (قال).

المسألة الثانية: اعلم أن هذه الآية تدل على أن ذلك المؤذن، أوقع لعنة الله على من كان موصوفًا بصفات أربعة.

الصفة الأولى: كونهم ظالمين. لأنه قال: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال أصحابنا المراد منه المشركون، وذلك لأن المناظرة المتقدمة إنما وقعت بين أهل الجنة وبين الكفار، بدليل أن قول أهل الجنة هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ لا يليق ذكره إلا مع الكفار.

وإذا ثبت هذا فقول المؤذن بعده ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يجب أن يكون منصرفًا إليهم، فثبت أن المراد بالظالمين ههنا، المشركون، وأيضًا أنه وصف هؤلاء الظالمين بصفات ثلاثة. هي مختصة بالكفار وذلك يقوي ما ذكرناه، وقال القاضي المراد منه، كل من كان ظالمًا سواء كان كافرًا أو كان فاسقًا تمسكًا بعموم اللفظ.

الصفة الثانية: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومعناه: أنهم يمنعون الناس من قبول الدين الحق، تارة بالزجر والقهر، وأخرى بسائر الحيل.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ والمراد منه إلقاء الشكوك والشبهات في دلائل الدين الحق.

والصفة الرابعة: قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ واعلم أنه تعالى لما بيّن أن تلك اللعنة إنما أوقعها ذلك المؤذن على الظالمين الموصوفين بهذه الصفات الثلاثة، كان ذلك تصريحًا بأن تلك اللعنة ما وقعت إلا على الكافرين، وذلك يدل على فساد ما ذكره القاضي من أن ذلك اللعن يعم الفاسق والكافر، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ يعني: بين الجنة والنار، أو بين الفريقين، وهذا الحجاب هو المشهور المذكور في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ [الحديد: ١٣].

فإن قيل: وأي حاجة إلى ضرب هذا السور بين الجنة والنار؟ وقد ثبت أن الجنة فوق السماوات وأن الجحيم في أسفل السافلين.

قلنا: بعد إحداهما عن الأخرى لا يمنع أن يحصل بينهما سور وحجاب، وأما الأعراف فهو جمع عرف وهو كل مكان عالٍ مرتفع، ومنه عرف الفرس وعرف الديك، وكل مرتفع من الأرض عرف، وذلك لأنه بسبب ارتفاعه يصير أعرف مما انخفض منه.

إذا عرفت هذا فنقول: في تفسير لفظ الأعراف قولان:

القول الأول: وهو الذي عليه الأكثرون أن المراد من الأعراف أعالي ذلك السور المضروب بين الجنة والنار، وهذا قول ابن عباس. وروي عنه أيضًا أنه قال: الأعراف: شرف الصراط.

والقول الثاني: وهو قول الحسن وقول الزجاج في أحد قوليه أن قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي وعلى معرفة أهل الجنة والنار رجال يعرفون كل أحد من أهل الجنة والنار بسيماهم. فقيل للحسن: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فضرب على فخذيه ثم قال: هم قوم جعلهم الله تعالى على تعرف أهل الجنة وأهل النار يميزون البعض من البعض، والله لا أدري لعل بعضهم الآن معنا! أما القائلون بالقول الأول فقد اختلفوا في أن الذين هم على الأعراف من هم؟ ولقد كثرت الأقوال فيهم وهي محصورة في قولين: أحدهما: أن يقال: إنهم الأشراف من أهل الطاعة وأهل الثواب، الثاني: أن يقال إنهم أقوام يكونون في الدرجة السافلة من أهل الثواب أما على التقدير الأول ففيه وجوه: أحدها: قال أبو مجلز: هم ملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار، فقيل له: يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ وتزعم أنهم ملائكة؟ فقال: الملائكة ذكور لا إناث.

ولقائل أن يقول: الوصف بالرجولية إنما يحسن في الموضع الذي يحصل في مقابلة الرجل من يكون أنثى ولما امتنع كون المَلَك أنثى امتنع وصفهم بالرجولية. وثانيها: قالوا: إنهم الأنبياء عليهم السلام أجلسهم الله تعالى على أعالي ذلك السور تمييزًا لهم عن سائر أهل القيامة، وإظهارًا لشرفهم، وعلو مرتبتهم وأجلسهم على ذلك المكان العالي ليكونوا مشرفين على أهل الجنة، وأهل النار مطلعين على أحوالهم ومقادير ثوابهم وعقابهم. وثالثها: قالوا: إنهم هم الشهداء، لأنه تعالى وصف أصحاب الأعراف بأنهم يعرفون كل واحد من أهل الجنة وأهل النار، ثم قال قوم: إنهم يعرفون أهل الجنة بكون وجوههم ضاحكة مستبشرة، وأهل النار بسواد وجوههم وزرقة عيونهم، وهذا الوجه باطل، لأنه تعالى خص أهل الأعراف بأنهم يعرفون كل واحد من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، ولو كان المراد ما ذكروه لما بقي لأهل الأعراف اختصاص بهذه المعرفة، لأن كل أحد من أهل الجنة ومن أهل النار يعرفون هذه الأحوال من أهل الجنة ومن أهل النار، ولما بطل هذا الوجه ثبت أن المراد بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ هو أنهم كانوا يعرفون في الدنيا أهل الخير والإيمان والصلاح، وأهل الشر والكفر والفساد وهم كانوا في الدنيا شهداء الله على أهل الإيمان والطاعة وعلى أهل الكفر والمعصية، فهو تعالى يجلسهم على الأعراف، وهي الأمكنة العالية الرفيعة ليكونوا مطّلعين على الكل يشهدون على

كل أحد بما يليق به، ويعرفون أن أهل الثواب وصلوا إلى الدرجات، وأهل العقاب إلى الدركات.

فإن قيل: هذه الوجوه الثلاثة باطلة، لأنه تعالى قال في صفة أصحاب الأعراف أنهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء، والملائكة والشهداء.

أجاب الذاهبون إلى هذا الوجه بأن قالوا: لا يبعد أن يقال: إنه تعالى بيَّن من صفات أصحاب الأعراف أن دخولهم الجنة يتأخر، والسبب فيه أنه تعالى ميزهم عن أهل الجنة وأهل النار، وأجلسهم على تلك الشرفات العالية والأمكنة المرتفعة ليشاهدوا أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار فيلحقهم السرور العظيم بمشاهدة تلك الأحوال، ثم إذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فحينئذ ينقلهم الله تعالى إلى أمكنتهم العالية في الجنة، فثبت أن كونهم غير داخلين في الجنة لا يمنع من كمال شرفهم وعلو درجتهم. وأما قوله: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فالمراد من هذا الطمع اليقين ألا ترى أنه تعالى قال حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وذلك الطمع كان طمع يقين، فكذا ههنا. فهذا تقرير قول من يقول إن أصحاب الأعراف هم أشراف أهل الجنة.

والقول الثاني: وهو قول من يقول أصحاب الأعراف أقوام يكونون في الدرجة النازلة من أهل الثواب والقائلون بهذا القول ذكروا وجوهًا: أحدها: أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلا جرم ما كانوا من أهل الجنة ولا من أهل النار فأوقفهم الله تعالى على هذه الأعراف لكونها درجة متوسطة بين الجنة وبين النار ثم يدخلهم الله تعالى الجنة بفضله ورحمته وهم آخر قوم يدخلون الجنة، وهذا قول حذيفة وابن مسعود رضي الله عنهما واختيار الفراء، وطعن الجبائي والقاضي في هذا القول واحتجوا على فساده بوجهين: الأول: أن قالوا: إن قوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] يدل على أن كل من دخل الجنة فإنه لا بد وأن يكون مستحقًا لدخولها، وذلك يمنع من القول بوجود أقوام لا يستحقون الجنة ولا النار، ثم إنهم يدخلون الجنة بمحض التفضل لا بسبب الاستحقاق. وثانيهما: أن كونهم من أصحاب الأعراف يدل على أنه تعالى ميزهم من جميع أهل القيامة بأن أجلسهم على الأماكن العالية المشرفة على أهل الجنة، وأهل النار، وذلك تشريف عظيم، ومثل هذا التشريف لا يليق إلا بالأشراف ولا شك أن الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم فدرجتهم قاصرة، فلا يليق بهم ذلك التشريف.

والجواب عن الأول: أنه يحتمل أن يكون قوله: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ خطاب مع قوم معينين، فلم يلزم أن يكون لكل أهل الجنة كذلك.

والجواب عن الثاني: أنا لا نسلم أنه تعالى أجلسهم على تلك المواضع على سبيل التخصيص بمزيد التشريف والإكرام، وإنما أجلسهم عليها لأنها كالمرتبة المتوسطة بين الجنة والنار، وهل

النزاع إلا في ذلك؟ فثبت أن الحجة التي عولوا عليها في إبطال هذا الوجه ضعيفة.

الوجه الثاني: من الوجوه المذكورة في تفسير أصحاب الأعراف قالوا: المراد من أصحاب الأعراف أقوام خرجوا إلى الغزو بغير إذن آبائهم فاستشهدوا فحبسوا بين الجنة والنار.

واعلم أن هذا القول داخل في القول الأول؛ لأن هؤلاء إنما صاروا من أصحاب الأعراف لأن معصيتهم ساوت طاعتهم بإجهاد، فهذا أحد الأمور الداخلة تحت الوجه الأول وبتقدير أن يصح ذلك الوجه فلا معنى لتخصيص هذه الصورة وقصر لفظ الآية عليها.

والوجه الثالث: قال عبد الله بن الحارث: إنهم مساكين أهل الجنة.

والوجه الرابع: قال قوم: إنهم الفساق من أهل الصلاة يعفو الله عنهم ويسكنهم في الأعراف فهذا كله شرح قول من يقول: الأعراف عبارة عن الأمكنة العالية على السور المضروب بين الجنة وبين النار. وأما الذين يقولون: الأعراف عبارة عن الرجال الذين يعرفون أهل الجنة وأهل النار؛ فهذا القول أيضًا غير بعيد إلا أن هؤلاء الأقوام لا بد لهم من مكان عال يشرفون منه على أهل الجنة، وأهل النار وحينئذ يعود هذا القول إلى القول الأول، فهذه تفاصيل أقوال الناس في هذا الباب. والله أعلم، ثم إنه تعالى أخبر أن أصحاب الأعراف يعرفون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم واختلفوا في المراد بقوله: ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ على وجوه.

فالقول الأول: وهو قول ابن عباس: أن سيما الرجل المسلم من أهل الجنة بياض وجهه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وكون وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة، وكون كل واحد منهم أغر محجلًا من آثار الوضوء، وعلامة الكفار سواد وجوههم، وكون وجوههم عليها غبرة ترهقها قترة، وكون عيونهم زُرْقًا.

ولقائل أن يقول: إنهم لما شاهدوا أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فأي حاجة إلى أن يستدل على كونهم من أهل الجنة بهذه العلامات؟ لأن هذا يجري مجرى الاستدلال على ما علم وجوده بالحس، وذلك باطل. وأيضًا فهذه الآية تدل على أن أصحاب الأعراف مختصون بهذه المعرفة، ولو حملناه على هذا الوجه لم يبق هذا الاختصاص، لأن هذه الأحوال أمور محسوسة، فلا يختص بمعرفتها شخص دون شخص.

والقول الثاني: في تفسير هذه الآية أن أصحاب الأعراف كانوا يعرفون المؤمنين في الدنيا بظهور علامات الإيمان والطاعات عليهم ويعرفون الكافرين في الدنيا أيضًا بظهور علامات الكفر والفسق عليهم، فإذا شاهدوا أولئك الأقوام في محفل القيامة ميزوا البعض عن البعض بتلك العلامات التي شاهدوها عليهم في الدنيا، وهذا الوجه هو المختار.

أما قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فالمعنى إنهم إذا نظروا إلى أهل الجنة سلموا على أهلها، وعند هذا تم كلام أهل الأعراف.

ثم قال: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ والمعنى أنه تعالى أخبر أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة،

ومع ذلك فهم يطمعون في دخولها، ثم إن قلنا: إن أصحاب الأعراف هم الأشراف من أهل الجنة فقد ذكرنا أنه تعالى إنما أجلسهم على الأعراف وأخر إدخالهم الجنة ليطلعوا على أحوال أهل الجنة والنار، ثم إنه تعالى ينقلهم إلى الدرجات العالية في الجنة كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتِهِمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ مِنْهُمْ» (١) وتحقيق الكلام أن أصحاب الأعراف هم أشراف أهل القيامة، فعند وقوف أهل القيامة في الموقف يجلس الله أهل الأعراف في الأعراف، وهي المواضع العالية الشريفة فإذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نقلهم إلى الدرجات العالية في الجنة، فهم أبدًا لا يجلسون إلا في الدرجات العالية. وأما إن فسرنا أصحاب الأعراف بأنهم الذين يكونون في الدرجة النازلة من أهل النجاة قلنا إنه تعالى يجلسهم في الأعراف وهم يَطْمَعُون من فضل الله وإحسانه أن ينقلهم من تلك المواضع إلى الجنة. وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ فقال الواحدي رحمه الله: التلقاء جهة اللقاء، وهي جهة المقابلة، ولذلك كان ظرفًا من ظروف المكان يقال فلان تلقاءك كما يقال هو حذاءك، وهو في الأصل مصدر استعمل ظرفًا، ثم نقل الواحدي رحمه الله بإسناده عن ثعلب عن الكوفيين والمبرد عن البصريين أنهما قالا: لم يأت من المصادر على تِفْعَال (إلا) حرفانْ تِبْيان وتِلْقَاء، فإذا تركت هذين استوى ذلك القياس، فقلت في كل مصدر تَفْعَال بفتح التاء، مثل تَسْيَار وتَرْسَال. وقلت في كل اسم تِفْعَال بكسر التاء، مثل تِمْثَال وتِقْصَار، ومعنى الآية: أنه كلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النار تضرعوا إلى الله تعالى في أن لا يجعلهم من زمرتهم. والمقصود من جميع هذه الآيات التخويف، حتى يقدم المرء على النظر والاستدلال، ولا يرضى بالتقليد ليفوز بالدين الحق، فيصل بسببه إلى الثواب المذكور في هذه الآيات، ويتخلص عن العقاب المذكور فيها.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٤٩﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا﴾ [الأعراف: ٤٧] أتبعه أيضًا بأن

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أبو داود في كتاب (الحروف والقراءات) (٤/ ١٧١٢)، حديث رقم (٣٩٨٧)، والترمذي في كتاب (المناقب)، باب: (مناقب أبي بكر رضي الله عنه) (٥/ ٥٦٧)، حديث رقم (٣٦٥٨)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وابن ماجه في كتاب (المقدمة)، باب: (فضائل أصحاب النبي ﷺ) (١/ ٣٧/ ٩٦) من طريق عطية العوفي... به، وإسناده ضعيف لضعف العوفي، أخرجه الآجري في (الشريعة) (٣/ ٤٦٨)، حديث رقم (١٣٠٥) من طريق خالد بن عبد الله الطحان عن ابن أبي ليلى عن عطية عن أبي سعيد... به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢٦)، حديث رقم (١١٢٢٤)، وأيضًا في (٣/ ٦١)، حديث رقم (١١٦٠٩)، كلاهما من طريق مجالد قال حدثني أبو الوداك... فذكره، وفي إسناده مجالد بن سعيد وهو ضعيف.

أصحاب الأعراف ينادون رجالاً من أهل النار، واستغنى عن ذكر أهل النار لأجل أن الكلام المذكور لا يليق إلا بهم، وهو قولهم: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ وذلك لا يليق إلا بمن يبكت ويوبخ، ولا يليق أيضًا إلا بأكابرهم، والمراد بالجمع، إما جمع المال، وإما الاجتماع والكثرة ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ والمراد: استكبارهم عن قبول الحق، واستكبارهم على الناس المحقين. وقرئ (تَسْتَكْثِرُون) من الكثرة، وهذا كالدلالة على شماتة أصحاب الأعراف بوقوع أولئك المخاطبين في العقاب، وعلى تبكيت عظيم يحصل لأولئك المخاطبين بسبب هذا الكلام، ثم زادوا على هذا التبكيت، وهو قولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ فأشاروا إلى فريق من أهل الجنة، كانوا يستضعفونهم ويستقلون أحوالهم، وربما هزؤوا بهم، وأنفوا من مشاركتهم في دينهم، فإذا رأى من كان يدعي التقدم حصول المنزلة العالية، لمن كان مستضعفًا عنده قَلِقَ لذلك وعَظُمت حسرته وندامته على ما كان منه في نفسه.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ فقد اختلفوا فيه. فقيل: هم أصحاب الأعراف، والله تعالى يقول لهم ذلك أو بعض الملائكة الذين يأمرهم الله تعالى بهذا القول. وقيل: بل يقول بعضهم لبعض والمراد أنه تعالى يحث أصحاب الأعراف بالدخول في الجنة، واللحوق بالمنزلة التي أعدها الله تعالى لهم، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ من كلام أصحاب الأعراف. وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ من كلام الله تعالى، ولا بد ههنا من إضمار، والتقدير: فقال الله لهم هذا كما قال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ﴾[الأعراف: ١١٠] وانقطع ههنا كلام الملأ. ثم قال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾[الأعراف: ١١٠] فاتصل كلامه بكلامهم من غير إظهار فارق، فكذا ههنا.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن ما يقوله أصحاب الأعراف لأهل النار، أتبعه بذكر ما يقوله أهل النار لأهل الجنة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار بفرج بعد اليأس فقالوا: يا رب إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فأمر الله الجنة فتزحزحت، ثم نظر أهل جهنم إلى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فعرفوهم، ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم، وقد اسودت وجوههم وصاروا خلقًا آخر، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وقالوا: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ

﴿ٱلْمَآءِ﴾ وإنما طلبوا الماء خاصة لشدة ما في بواطنهم من الاحتراق واللهيب بسبب شدة حر جهنم. وقوله: ﴿أَفِيضُواْ﴾ كالدلالة على أن أهل الجنة أعلى مكانًا من أهل النار.

فإن قيل: أسألوا مع الرجاء، والجواز، ومع اليأس؟

قلنا: ما حكيناه عن ابن عباس يدل على أنهم طلبوا الماء مع جواز الحصول. وقال القاضي: بل مع اليأس، لأنهم قد عرفوا دوام عقابهم وأنه لا يفتر عنهم، ولكن الآيس من الشيء قد يطلبه كما يقال في المثل: الغريق يتعلق بالزبد، وإن علم أنه لا يغيثه. وقوله: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ قيل: إنه الثمار، وقيل: إنه الطعام، وهذا الكلام يدل على حصول العطش الشديد، والجوع الشديد لهم، عن أبي الدرداء أن الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يزداد عذابهم، فيستغيثون فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع. ثم يستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، ثم يذكرون الشراب ويستغيثون فيدفع إليهم الحميم والصديد بكلاليب الحديد فيقطع ما في بطونهم، ويستغيثون إلى أهل الجنة كما في هذه الآية فيقول أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ويقولون لمالك: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فيجيبهم على ما قيل بعد ألف عام، ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فيجيبهم ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فعند ذلك ييأسون من كل خير، ويأخذون في الزفير والشهيق. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ذكر في صفة أهل الجنة أنهم يرون الله عز وجل كل جمعة، ولمنزل كل واحد منهم ألف باب، فإذا رأوا الله تعالى، دخل من كل باب ملك معه الهدايا الشريفة وقال: إن نخل الجنة خشبها الزمرد، وترابها الذهب الأحمر، وسعفها حلل وكسوة لأهل الجنة، وثمرها أمثال القلال أو الدلاء، أشد بياضًا من الفضة وألين من الزبد وأحلى من العسل، لا عجم له، فهذا صفة أهل الجنة، وصفة أهل النار، ورأيت في بعض الكتب: أن قارئًا قرأ قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ في تذكرة الأستاذ أبي علي الدقاق، فقال الأستاذ: هؤلاء كانت رغبتهم وشهوتهم في الدنيا في الشرب والأكل، وفي الآخرة بقوا على هذه الحالة، وذلك يدل على أن الرجل يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه، ثم بيَّن تعالى أن هؤلاء الكفار لما طلبوا الماء والطعام من أهل الجنة قال أهل الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولا شك أن ذلك يفيد الخيبة التامة، ثم إنه تعالى وصف هؤلاء الكفار بأنهم اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، وفيه وجهان:

الوجه الأول: أن الذي اعتقدوا فيه أنه دينهم، تلاعبوا به، وما كانوا فيه مجدين.

والوجه الثاني: أنهم اتخذوا اللهو واللعب دينًا لأنفسهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد المستهزئين المقتسمين. ثم قال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو مجاز لأن الحياة الدنيا لا تغر في الحقيقة بل المراد أنه حصل الغرور عند هذه الحياة الدنيا، لأن الإنسان يطمع في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال، وقوة الجاه فلشدة رغبته في هذه الأشياء يصير محجوبًا عن

طلب الدين. غرقًا في طلب الدنيا، ثم لما وصف الله تعالى أولئك الكفار بهذه الصفات قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾.

وفي تفسير هذا النسيان قولان:

القول الأول: أن النسيان هو الترك. والمعنى: نتركهم في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، وهذا قول الحسن ومجاهد والسدي والأكثرين.

والقول الثاني: أن معنى ننساهم كما نسوا أي نعاملهم معاملة من نسي نتركهم في النار كما فعلوا هم في الإعراض بآياتنا، وبالجملة فسمى الله جزاء نسيانهم بالنسيان كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والمراد من هذا النسيان أنه لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم، ثم بيَّن تعالى أن كل هذه التشديدات إنما كان لأنهم كانوا بآياتنا يجحدون في هذه الآية لطيفة عجيبة وذلك لأنه تعالى وصفهم بكونهم كانوا كافرين ثم بيَّن من حالهم أنهم اتخذوا دينهم لهوًا أولاً، ثم لعبًا ثانيًا، ثم غرتهم الحياة الدنيا ثالثًا، ثم صار عاقبة هذه الأحوال والدرجات أنهم جحدوا بآيات الله، وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة كما قال عليه الصلاة والسلام: «حُبُّ الدُّنيا رَأسُ كُلِّ خَطِيئةٍ»(١) وقد يؤدي حب الدنيا إلى الكفر والضلال.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل الجنة، وأهل النار، وأهل الأعراف، ثم شرح الكلمات الدائرة بين هؤلاء الفرق الثلاث على وجه يصير سماع تلك المناظرات حاملاً للمكلف على الحذر والاحتراز وداعيًا له إلى النظر والاستدلال، بيَّن شرف هذا الكتاب الكريم ونهاية منفعته فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ وهو القرآن ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي ميزنا بعضه عن بعض، تمييزًا يهدي إلى الرشد ويؤمن عن الغلط والخبط، فأما قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فالمراد أن ذلك التفصيل والتمييز إنما حصل مع العلم التام بما في كل فصل من تلك الفصول من الفوائد المتكاثرة، والمنافع المتزايدة، وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ قال الزجاج: (هدى) في موضع نصب أي فصلناه هاديًا وذا رحمة وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يدل على أن القرآن جعل هدى لقوم مخصوصين، والمراد أنهم هم الذين اهتدوا به دون غيرهم فهو كقوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]

---

(١) تقدم تخريجه.

واحتج أصحابنا بقوله: ﴿ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على أنه تعالى عالم بالعلم، خلافًا لما يقوله المعتزلة من أنه ليس لله علم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن إزاحة العلة بسبب إنزال هذا الكتاب المفصل الموجب للهداية والرحمة، بيَّن بعده حال من كذَّب فقال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ والنظر ههنا بمعنى الانتظار والتوقع.

فإن قيل: كيف يتوقعون وينتظرون مع جحدهم له وإنكارهم؟

قلنا: لعل فيهم أقوامًا تشككوا وتوقفوا، فلهذا السبب انتظروه وأيضًا إنهم وإن كانوا جاحدين إلا أنهم بمنزلة المنتظرين من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لا محالة، وقوله: ﴿ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ قال الفراء الضمير في قوله: ﴿ تَأْوِيلَهُۥ﴾ للكتاب يريد عاقبة ما وعدوا به على ألسنة الرسل من الثواب والعقاب. والتأويل مرجع الشيء ومصيره من قولهم آل الشيء يئول وقد احتج بهذه الآية من ذهب إلى قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] أي ما يعلم عاقبة الأمر فيه إلا الله وقوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ يريد يوم القيامة، قال الزجاج قوله: ﴿ يَوْمَ﴾ نصب بقوله: ﴿ يَقُولُ﴾ وأما قوله: ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ معناه أنهم صاروا في الإعراض عنه بمنزلة من نسيه، ويجوز أن يكون معنى (نسوه) أي تركوا العمل به والإيمان به وهذا كما ذكرنا في قوله: ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١] ثم بيَّن تعالى أن هؤلاء الذين نسوا يوم القيامة يقولون: ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ والمراد أنهم أقروا بأن الذي جاءت به الرسل من ثبوت الحشر، والنشر، والبعث، والقيامة، والثواب، والعقاب، كل ذلك كان حقًا، وإنما أقروا بحقيقة هذه الأشياء لأنهم شاهدوها وعاينوها، وبيَّن الله تعالى أنهم لما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ والمعنى أنه لا طريق لنا إلى الخلاص مما نحن فيه من العذاب الشديد إلا أحد هذين الأمرين. وهو أن يشفع لنا شفيع فلأجل تلك الشفاعة يزول هذا العذاب أو يردنا الله تعالى إلى الدنيا حتى نعمل غير ما كنا نعمل يعني نوحد الله تعالى بدلاً عن الكفر ونطيعه بدلاً عن المعصية.

فإن قيل: أقالوا هذا الكلام مع الرجاء أو مع اليأس؟ وجوابنا عنه مثل ما ذكرناه في قوله: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ثم بيَّن تعالى بقوله: ﴿ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أن الذي طلبوه، لا يكون لأن ذلك المطلوب لو حصل لما حكم الله عليهم بأنهم قد خسروا أنفسهم.

ثم قال: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يريد أنهم لم ينتفعوا بالأصنام التي عبدوها في الدنيا ولم

ينتفعوا بنصرة الأديان الباطلة التي بالغوا في نصرتها، قال الجبائي: هذه الآية تدل على حكمين

الحكم الأول: قال: الآية تدل على أنهم كانوا في حال التكليف قادرين على الإيمان والتوبة فلذلك سألوا الرد ليؤمنوا ويتوبوا ولو كانوا في الدنيا غير قادرين كما يقوله المجبرة لم يكن لهم في الرد فائدة ولا جاز أن يسألوا ذلك.

الحكم الثاني: أن الآية تدل على بطلان قول المجبرة والذين يزعمون أن أهل الآخرة مكلفون لأنه لو كان كذلك لما سألوا الرد إلى حال وهم في الوقت على مثلها بل كانوا يتوبون ويؤمنون في الحال، فبطل ما حكي عن النجار وطبقته من أن التكليف باق على أهل الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

اعلم أنا بينا أن مدار أمر القرآن على تقدير هذه المسائل الأربع، وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر، ولا شك أن مدار إثبات المعاد على إثبات التوحيد والقدرة والعلم، فلما بالغ الله تعالى في تقرير أمر المعاد عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على التوحيد، وكمال القدرة، والعلم، لتصير تلك الدلائل مقررة لأصول التوحيد، ومقررة أيضًا لإثبات المعاد وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: حكى الواحدي عن الليث أنه قال: الأصل في الست والستة سدس وسدسة أبدل السين تاء، ولما كان مخرج الدال والتاء قريبًا أدغم أحدهما في الآخر واكتفى بالتاء، عليه أنك تقول في تصغير ستة سديسة، وكذلك الأسداس وجميع تصرفاته يدل عليه. والله أعلم.

المسألة الثانية: (الخلق) التقدير على ما قررناه فخلق السموات والأرض إشارة إلى تقدير حالة من أحوالهما، وذلك التقدير يحتمل وجوهًا كثيرة: أولها: تقدير ذواتهما بمقدار معين مع أن العقل يقضي بأن الأزيد منه والأنقص منه جائز، فاختصاص كل واحد منهما بمقداره المعين لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص، وذلك يدل على افتقار خلق السموات والأرض إلى الفاعل المختار. وثانيها: أن كون هذه الأجسام متحركة في الأزل محال، لأن الحركة انتقال من حال إلى حال، فالحركة يجب كونها مسبوقة بحالة أخرى، والأزل ينافي المسبوقية فكان الجمع بين الحركة وبين الأزل محالاً.

إذا ثبت هذا فنقول: هذه الأفلاك والكواكب إما أن يقال: أن ذواتها كانت معدومة في الأزل ثم وجدت، أو يقال: إنها وإن كانت موجودة لكنها كانت واقفة ساكنة في الأزل، ثم ابتدأت بالحركة، وعلى التقديرين فتلك الحركات ابتدأت بالحدوث والوجود في وقت معين مع جواز حصولها قبل ذلك الوقت وبعده، وإذا كان كذلك كان اختصاص ابتداء تلك الحركات بتلك

الأوقات المعينة تقديرًا وخلقًا، ولا يحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر ومختار. وثالثها: أن أجرام الأفلاك والكواكب والعناصر مركبة من أجزاء صغيرة، ولا بد وأن يقال: إن بعض تلك الأجزاء حصلت في داخل تلك الأجرام وبعضها حصلت على سطوحها فاختصاص حصول كل واحدة من تلك الأجزاء بحيزه المعين ووضعه المعين لا بد وأن يكون لتخصيص المخصص القادر المختار. ورابعها: أن بعض الأفلاك أعلى من بعض، وبعض الكواكب حصل في المنطقة وبعضها في القطبين، فاختصاص كل واحد منهما بموضعه المعين لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص قادر مختار. وخامسها: أن كل واحد من الأفلاك متحرك إلى جهة مخصوصة، وحركة مختصة بمقدار معين مخصوص من البطء والسرعة، وذلك أيضًا خلق وتقدير ويدل على وجود المخصص القادر. وسادسها: أن كل واحد من الكواكب مختص بلون مخصوص مثل كمودة زحل، ودرية المشتري، وحمرة المريخ، وضياء الشمس، وإشراق الزهرة، وصفرة عطارد، وزهور القمر، والأجسام متماثلة في تمام الماهية فكان اختصاص كل واحد منها بلونه المعين خلقًا وتقديرًا ودليلاً على افتقارها إلى الفاعل المختار. وسابعها: أن الأفلاك والعناصر مركبة من الأجزاء الصغيرة، وواجب الوجود لا يكون أكثر من واحد فهي ممكنة الوجود في ذواتها، فكل ما كان ممكنًا لذاته فهو محتاج إلى المؤثر، والحاجة إلى المؤثر لا تكون في حال البقاء، وإلا لزم تكون الكائن فتلك الحاجة لا تحصل إلا في زمان الحدوث، أو في زمان العدم وعلى التقديرين فيلزم كون هذه الأجزاء محدثة ومتى كانت محدثة كان حدوثها مختصًا بوقت معين وذلك خلق وتقدير ويدل على الحاجة إلى الصانع القادر المختار. وثامنها: أن هذه الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهما محدثان، وما لا يخلو عن المحدث فهو محدث، فهذه الأجسام محدثة، وكل محدث فقد حصل حدوثه في وقت معين، وذلك خلق وتقدير ولا بد له من الصانع القادر المختار. وتاسعها: أن الأجسام متماثلة فاختصاص بعضها بالصفات التي لأجلها كانت سموات وكواكب، والبعض الآخر بالصفات التي لأجلها كانت أرضًا أو ماء أو هواء أو نارًا لا بد وأن يكون أمرًا جائزًا، وذلك لا يحصل إلا بتقدير مقدر وتخصيص مخصص وهو المطلوب. وعاشرها: أنه كما حصل الامتياز المذكور بين الأفلاك والعناصر فقد حصل أيضًا مثل هذا الامتياز بين الكواكب وبين الأفلاك وبين العناصر، بل حصل مثل هذا الامتياز بين كل واحد من الكواكب، وذلك يدل على الافتقار إلى الفاعل القادر المختار.

واعلم أن الخلق عبارة عن التقدير، فإذا دللنا على أن الأجسام متماثلة وجب القطع بأن كل صفة حصلت لجسم معين، فإن حصول تلك الصفة ممكن لسائر الأجسام، وإذا كان الأمر كذلك كان اختصاص ذلك الجسم المعين بتلك الصفة المعينة خلقًا وتقديرًا فكان داخلاً تحت قوله سبحانه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، والله أعلم.

المسألة الثالثة: لسائل أن يسأل فيقول: كون هذه الأشياء مخلوقة في ستة أيام لا يمكن جعله دليلاً على إثبات الصانع؟ وبيانه من وجوه: الأول: أن وجه دلالة هذه المحدثات على وجود الصانع هو حدوثها أو إمكانها أو مجموعهما فأما وقوع ذلك الحدوث في ستة أيام أو في يوم واحد فلا أثر له في ذلك ألبتة. والثاني: أن العقل يدل على أن الحدوث على جميع الأحوال جائز، وإذا كان كذلك فحينئذ لا يمكن الجزم بأن هذا الحدوث وقع في ستة أيام إلا بإخبار مخبر صادق، وذلك موقوف على العلم بوجود الإله الفاعل المختار، فلو جعلنا هذه المقدمة مقدمة في إثبات الصانع لزم الدور. والثالث: أن حدوث السموات والأرض دفعة واحدة أدل على كمال القدرة والعلم من حدوثها في ستة أيام.

إذا ثبت ما ذكرناه من الوجوه الثلاثة فنقول: ما الفائدة في ذكر أنه تعالى إنما خلقها في ستة أيام في إثبات ذكر ما يدل على وجود الصانع؟ والرابع: أنه ما السبب في أنه اقتصر ههنا على ذكر السموات والأرض، ولم يذكر خلق سائر الأشياء؟

السؤال الخامس: اليوم إنما يمتاز عن الليلة بسبب طلوع الشمس وغروبها فقبل خلق الشمس والقمر كيف يعقل حصول الأيام؟

والسؤال السادس: أنه تعالى قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وهذا كالمناقض لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

والسؤال السابع: أنه تعالى خلق السموات والأرض في مدة متراخية، فما الحكمة في تقييدها وضبطها بالأيام الستة؟ فنقول: أما على مذهبنا فالأمر في الكل سهل واضح، لأنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا اعتراض عليه في أمر من الأمور، وكل شيء صنعه ولا علة لصنعه. ثم نقول:

أما السؤال الأول: فجوابه أنه سبحانه ذكر في أول التوراة أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، والعرب كانوا يخالطون اليهود والظاهر أنهم سمعوا ذلك منهم فكأنه سبحانه يقول: لا تشتغلوا بعبادة الأوثان والأصنام فإن ربكم هو الذي سمعتم من عقلاء الناس أنه هو الذي خلق السموات والأرض على غاية عظمتها ونهاية جلالتها في ستة أيام.

وأما السؤال الثالث: فجوابه أن المقصود منه أنه سبحانه وتعالى وإن كان قادرًا على إيجاد جميع الأشياء دفعة واحدة لكنه جعل لكل شيء حدًّا محدودًا ووقتًا مقدرًا، فلا يدخله في الوجود إلا على ذلك الوجه، فهو وإن كان قادرًا على إيصال الثواب إلى المطيعين في الحال، وعلى إيصال العقاب إلى المذنبين في الحال، إلا أنه يؤخرهما إلى أجل معلوم مقدر، فهذا التأخير ليس لأجل أنه تعالى أهمل العباد بل لما ذكرنا أنه خص كل شيء بوقت معين لسابق مشيئته فلا يفتر عنه، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة (ق): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨، ٣٩] بعد أن قال قبل هذا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم

﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦، ٣٧] فأخبرهم بأنه قد أهلك من المشركين به والمكذبين لأنبيائه من كان أقوى بطشًا من مشركي العرب، إلا أنه أمهل هؤلاء لما فيه من المصلحة، كما خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام متصلة لا لأجل لغوب لحقه في الإمهال، ولما بيَّن بهذا الطريق أنه تعالى إنما خلق العالم لا دفعة لكن قليلاً قليلاً قال بعده: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٩] من الشرك والتكذيب ولا تستعجل لهم العذاب بل توكل على الله تعالى وفوض الأمر إليه، وهذا معنى ما يقوله المفسرون من أنه تعالى إنما خلق العالم في ستة أيام ليعلم عباده الرفق في الأمور والصبر فيها ولأجل أن لا يحمل المكلف تأخر الثواب والعقاب على الإهمال والتعطيل. ومن العلماء من ذكر فيه وجهين آخرين:

الوجه الأول: أن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة ثم انقطع طريق الإحداث فلعله يخطر ببال بعضهم أن ذلك إنما وقع على سبيل الاتفاق، أما إذا حدثت الأشياء على التعاقب والتواصل مع كونها مطابقة للمصلحة والحكمة، كان ذلك أقوى في الدلالة على كونها واقعة بإحداث محدث قديم حكيم، وقادر عليم رحيم.

الوجه الثاني: أنه قد ثبت بالدليل أنه تعالى يخلق العاقل أولاً ثم يخلق السموات والأرض بعده، ثم إن ذلك العاقل إذا شاهد في كل ساعة وحين حدوث شيء آخر على التعاقب والتوالي، كان ذلك أقوى لعلمه وبصيرته، لأنه يتكرر على عقله ظهور هذا الدليل لحظة بعد لحظة، فكان ذلك أقوى في إفادة اليقين.

وأما السؤال الرابع: فجوابه أن ذكر السموات والأرض في هذه الآية يشتمل أيضًا على ذكر ما بينهما، والدليل عليه أنه تعالى ذكر سائر المخلوقات في سائر الآيات فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤] وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الفرقان: ٥٨، ٥٩] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨].

وأما السؤال الخامس: فجوابه أن المراد أنه تعالى خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام وهو كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] والمراد على مقدار البكرة والعشي في الدنيا لأنه لا ليل ثم ولا نهار.

وأما السؤال السادس: فجوابه أن قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] محمول على إيجاد كل واحد من الذوات وعلى إعدام كل واحد منها، لأن إيجاد الذات الواحدة وإعدام الموجود الواحد لا يقبل التفاوت فلا يمكن تحصيله إلا دفعة واحدة، وأما الإمهال والمدة فذاك لا يحصل إلا في المدة.

وأما السؤال السابع: وهو تقدير هذه المدة بستة أيام، فهو غير وارد لأنه تعالى لو أحدثه في مقدار آخر من الزمان لعاد ذلك السؤال، وأيضًا قال بعضهم لعدد السبعة شرف عظيم، وهو مذكور في تقرير أن ليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين، وإذا ثبت هذا قالوا: فالأيام الستة في تخليق العالم واليوم السابع في حصول كمال الملك والملكوت وبهذا الطريق حصل الكمال في الأيام السبعة انتهى.

المسألة الرابعة: في هذه الآية بشارة عظيمة للعقلاء لأنه قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والمعنى أن الذي يربيكم ويصلح شأنكم ويوصل إليكم الخيرات ويدفع عنكم المكروهات هو الذي بلغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته إلى حيث خلق هذه الأشياء العظيمة وأودع فيها أصناف المنافع وأنواع الخيرات، ومن كان له مُرَبٌّ موصوف بهذه الحكمة والقدرة والرحمة، فكيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات أو يُعَوِّل على غيره في تحصيل السعادات؟ ثم في الآية دقيقة أخرى فإنه لم يقل أنتم عبيده بل قال هو ربكم، ودقيقة أخرى وهي أنه تعالى لما نسب نفسه إلينا سمى نفسه في هذه الحالة بالرب، وهو مشعر بالتربية وكثرة الفضل والإحسان، فكأنه يقول: من كان له مُرَبٌّ مع كثرة هذه الرحمة والفضل، فكيف يليق به أن يشتغل بعبادة غيره؟

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فاعلم أنه لا يمكن أن يكون المراد منه كونه مستقرًّا على العرش ويدل على فساده وجوه عقلية، ووجوه نقلية. أما العقلية فأمور: أولها: أنه لو كان مستقرًّا على العرش لكان من الجانب الذي يلي العرش متناهيًا وإلا لزم كون العرش داخلاً في ذاته وهو محال، وكل ما كان متناهيًا فإن العقل يقضي بأنه لا يمنع أن يصير أزيد منه أو أنقص منه بذرة والعلم بهذا الجواز ضروري، فلو كان الباري تعالى متناهيًا من بعض الجوانب لكانت ذاته قابلة للزيادة والنقصان، وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بذلك المقدار المعين لتخصيص مخصص وتقدير مقدر، وكل ما كان كذلك فهو محدث، فثبت أنه تعالى لو كان على العرش لكان من الجانب الذي يلي العرش متناهيًا، ولو كان كذلك لكان محدثًا وهذا محال فكونه على العرش يجب أن يكون محالاً. وثانيها: لو كان في مكان وجهة لكان إما أن يكون غير مُتَنَاهٍ من كل الجهات، وإما أن يكون متناهيًا في كل الجهات. وإما أن يكون متناهيًا من بعض الجهات دون البعض والكل باطل فالقول بكونه في المكان والحيز باطل قطعًا.

بيان فساد القسم الأول: أنه يلزم أن تكون ذاته مخالطة لجميع الأجسام السفلية والعلوية، وأن تكون مخالطة للقاذورات والنجاسات، وتعالى الله عنه، وأيضًا فعلى هذا التقدير: تكون السموات حالة في ذاته، وتكون الأرض أيضًا حالة في ذاته.

إذا ثبت هذا فنقول: الشيء الذي هو محل السموات، إما أن يكون هو عين الشيء الذي هو محل الأرضين أو غيره، فإن كان الأول لزم كون السموات والأرضين حالتين في محل واحد من

غير امتياز بين محليهما أصلاً، وكل حالين حلاً في محل واحد، لم يكن أحدهما ممتازًا عن الآخر، فلزم أن يقال: السموات لا تمتاز عن الأرضين في الذات، وذلك باطل، وإن كان الثاني: لزم أن تكون ذات الله تعالى مركبة من الأجزاء والأبعاض وهو محال. والثالث: وهو أن ذات الله تعالى إذا كانت حاصلة في جميع الأحياز والجهات، فإما أن يقال: الشيء الذي حصل فوق هو عين الشيء الذي حصل تحت، فحينئذ تكون الذات الواحدة قد حصلت دفعة واحدة في أحياز كثيرة، وإن عقل ذلك فلم لا يعقل أيضًا حصول الجسم الواحد في أحياز كثيرة دفعة واحدة؟ وهو محال في بديهة العقل. وأما إن قيل: الشيء الذي حصل فوق غير الشيء الذي حصل تحت، فحينئذ يلزم حصول التركيب والتبعيض في ذات الله تعالى وهو محال.

وأما القسم الثاني: وهو أن يقال: أنه تعالى مُتَنَاهٍ من كل الجهات. فنقول: كل ما كان كذلك فهو قابل للزيادة والنقصان في بديهة العقل، وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بالمقدار المعين، لأجل تخصيص مخصص، وكل ما كان كذلك فهو محدث، وأيضًا فإن جاز أن يكون الشيء المحدود من كل الجوانب قديمًا أزليًا فاعلاً للعالم، فلم لا يعقل أن يقال: خالق العالم هو الشمس، أو القمر، أو كوكب آخر، وذلك باطل باتفاق.

وأما القسم الثالث: وهو أن يقال: أنه مُتناهٍ من بعض الجوانب، وغير مُتَنَاهٍ من سائر الجوانب، فهذا أيضًا باطل من وجوه: أحدها: أن الجانب الذي صدق عليه كونه متناهيًا غير ما صدق عليه كونه غير متناه، وإلا لصدق النقيضان معًا وهو محال. وإذا حصل التغاير لزم كونه تعالى مركبًا من الأجزاء والأبعاض، وثانيها: أن الجانب الذي صدق حكم العقل عليه بكونه متناهيًا، إما أن يكون مساويا للجانب الذي صدق حكم العقل عليه بكونه غير متناه، وإما أن لا يكون كذلك، والأول باطل، لأن الأشياء المتساوية في تمام الماهية كل ما صح على واحد منها صح على الباقي، وإذا كان كذلك: فالجانب الذي هو غير متناه يمكن أن يصير متناهيًا، والجانب الذي هو متناه يمكن أن يصير غير متناه، ومتى كان الأمر كذلك كان النمو والذبول والزيادة والنقصان والتَّفَرُّق والتَّمَزُّق على ذاته ممكنًا، وكل ما كان كذلك فهو محدث، وذلك على الإله القديم محال، فثبت أنه تعالى لو كان حاصلاً في الحيز والجهة، لكان إما أن يكون غير متناه من كل الجهات وإما أن يكون متناهيًا من كل الجهات، أو كان متناهيًا من بعض الجهات، وغير متناه من سائر الجهات، فثبت أن الأقسام الثلاثة باطلة، فوجب أن نقول القول بكونه تعالى حاصلاً في الحيز والجهة محال.

والبرهان الثالث: لو كان الباري تعالى حاصلاً في المكان والجهة، لكان الأمر المسمى بالجهة إما أن يكون موجودًا مشارًا إليه، وإما أن لا يكون كذلك، والقسمان باطلان، فكان القول بكونه تعالى حاصلاً في الحيز والجهة باطلاً.

أما بيان فساد القسم الأول: فلأنه لو كان المسمى بالحيز والجهة موجودًا مشارًا إليه، فحينئذ

يكون المسمى بالحيز والجهة بعدًا وامتدادًا، والحاصل فيه أيضًا يجب أن يكون له في نفسه بعد وامتداد، وإلا لامتنع حصوله فيه، وحينئذ يلزم تداخل البعدين، وذلك محال للدلائل الكثيرة، المشهورة في هذا الباب، وأيضًا فيلزم من كون الباري تعالى قديمًا أزليًا كون الحيز والجهة أزليين، وحينئذ يلزم أن يكون قد حصل في الأزل موجود قائم بنفسه سوى الله تعالى، وذلك بإجماع أكثر العقلاء باطل.

وأما بيان فساد القسم الثاني: فهو من وجهين: أحدهما: أن العدم نفي محض، وعدم صرف، وما كان كذلك امتنع كونه ظرفًا لغيره وجهة لغيره. وثانيهما: أن كل ما كان حاصلاً في جهة فجهته ممتازة في الحس عن جهة غيره، فلو كانت تلك الجهة عدمًا محضًا لزم كون العدم المحض مشارًا إليه بالحس، وذلك باطل، فثبت أنه تعالى لو كان حاصلاً في حيز وجهة لأفضى إلى أحد هذين القسمين الباطلين، فوجب أن يكون القول به باطلاً.

فإن قيل: فهذا أيضًا وارد عليكم في قولكم: الجسم حاصل في الحيز والجهة.

فنقول: نحن على هذا الطريق لا نثبت للجسم حيزًا ولا جهة أصلاً ألبتة، بحيث تكون ذات الجسم نافذة فيه وسارية فيه، بل المكان عبارة عن السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي، وهذا المعنى محال بالاتفاق في حق الله تعالى، فسقط هذا السؤال.

البرهان الرابع: لو امتنع وجود الباري تعالى إلا بحيث يكون مختصًا بالحيز والجهة، لكانت ذات الباري مفتقرة في تحققها ووجودها إلى الغير، وكل ما كان كذلك فهو ممكن لذاته ينتج أنه لو امتنع وجود الباري إلا في الجهة والحيز، لزم كونه ممكنًا لذاته، ولما كان هذا محالاً كان القول بوجوب حصوله في الحيز محالاً.

بيان المقام الأول: هو أنه لما امتنع حصول ذات الله تعالى، إلا إذا كان مختصًا بالحيز والجهة. فنقول: لا شك أن الحيز والجهة أمر مغاير لذات الله تعالى، فحينئذ تكون ذات الله تعالى مفتقرة في تحققها إلى أمر يغايرها، وكل ما افتقر تحققه إلى ما يغايره، كان ممكنًا لذاته. والدليل عليه: أن الواجب لذاته هو الذي لا يلزم من عدم غيره عدمه، والمفتقر إلى الغير هو الذي يلزم من عدم غيره عدمه، فلو كان الواجب لذاته مفتقرًا إلى الغير لزم أن يَصْدُقَ عليه النقيضان، وهو محال. فثبت أنه تعالى لو وجب حصوله في الحيز لكان ممكنا لذاته، لا واجبا لذاته، وذلك محال.

والوجه الثاني: في تقرير هذه الحجة: هو أن الممكن محتاج إلى الحيز والجهة. أما عند من يثبت الخلاء. فلا شك أن الحيز والجهة تتقرر مع عدم التمكن، وأما عند من ينفي الخلاء فلا، لأنه وإن كان معتقدًا أنه لا بد من متمكن يحصل في الجهة، إلا أنه لا يقول بأنه لابد لتلك الجهة من متمكن معين، بل أي شيء كان فقد كفى في كونه شاغلاً لذلك الحيز. إذا ثبت هذا فلو كان

ذات الله تعالى مختصة بجهة وحيز لكانت ذاته مفتقرة إلى ذلك الحيز، وكان ذلك الحيز غنيًّا تحققه عن ذات الله تعالى وحينئذ يلزم أن يقال: الحيز واجب لذاته غني عن غيره وأن يقال ذات الله تعالى مفتقرة في ذاتها واجبة بغيرها وذلك يقدح في قولنا: الإله تعالى واجب الوجود لذاته.

فإن قيل: الحيز والجهة ليس بأمر موجود حتى يقال ذات الله تعالى مفتقرة إليه ومحتاجة إليه.

فنقول: هذا باطل قطعًا لأن بتقدير أن يقال: إن ذات الله تعالى مختصة بجهة فوق فإنما نميز بحسب الحس بين تلك الجهة وبين سائر الجهات وما حصل فيه الامتياز بحسب الحس كيف يعقل أن يقال إنه عدم محض ونفي صرف؟ ولو جاز ذلك لجاز مثله في كل المحسوسات وذلك يوجب حصول الشك في وجود كل المحسوسات، وذلك لا يقوله عاقل.

البرهان الخامس: في تقرير أنه تعالى يمتنع كونه مختصًّا بالحيز والجهة نقول: الحيز والجهة لا معنى له إلا الفراغ المحض، والخلاء الصرف، وصريح العقل يشهد أن هذا المفهوم مفهوم واحد لا اختلاف فيه ألبتة. وإذا كان الأمر كذلك كانت الأحياز بأسرها متساوية في تمام الماهية.

وإذا ثبت هذا فنقول: لو كان الإله تعالى مختصًّا بحيز، لكان محدثًا، وهذا محال؛ فذاك محال. وبيان الملازمة: أن الأحياز لما ثبت أنها بأسرها متساوية، فلو اختص ذات الله تعالى بحيز معين لكان اختصاصه به، لأجل أن مخصصًا خصصه بذلك الحيز وكل ما كان فعلاً لفاعل مختار، فهو محدث فوجب أن يكون اختصاص ذات الله بالحيز المعين محدثًا، فإذا كانت ذاته ممتنعة الخلو عن الحصول في الحيز، وثبت أن الحصول في الحيز محدث، وبديهة العقل شاهدة بأن ما لا يخلو عن المحدث فهو محدث، لزم القطع بأنه لو كان حاصلاً في الحيز لكان محدثًا، ولما كان هذا محالاً كان ذلك أيضًا محالاً.

فإن قالوا: الأحياز مختلفة بحسب أن بعضها علو وبعضها سفل، فلم لا يجوز أن يقال ذات الله تعالى مختصة بجهة علو؟ فنقول: هذا باطل، لأن كون بعض تلك الجهات علو، وبعضها سفلاً، أحوال لا تحصل، إلا بالنسبة إلى وجود هذا العالم، فلما كان هذا العالم محدثًا كان قبل حدوثه لا علو ولا سفل ولا يمين ولا يسار، بل ليس إلا الخلاء المحض، وإذا كان الأمر كذلك، فحينئذ يعود الإلزام المذكور بتمامه، وأيضًا لو جاز القول بأن ذات الله تعالى مختصة ببعض الأحياز على سبيل الوجوب؟ فلم لا يعقل أيضًا أن يقال: إن بعض الأجسام اختص ببعض الأحياز على سبيل الوجوب؟ وعلى هذا التقدير، فذلك اسم لا يكون قابلاً للحركة والسكون، فلا يجري فيه دليل حدوث الأجسام، والقائل بهذا القول، لا يمكنه إقامة الدلالة على حدوث كل الأجسام بطريق الحركة والسكون، والكرامية وافقونا على أن تجويز هذا يوجب الكفر والله أعلم.

البرهان السادس: لو كان الباري تعالى حاصلاً في الحيز والجهة لكان مشارًا إليه بحسب الحس

وكل ما كان كذلك، فإما أن لا يقبل القسمة بوجه من الوجوه وإما أن يقبل القسمة.

فإن قلنا: إنه تعالى يمكن أن يشار إليه بحسب الحس، مع أنه لا يقبل القسمة المقدارية ألبتة، كان ذلك نقطة لا تنقسم، وجوهرًا فردًا لا ينقسم، فكان ذلك في غاية الصغر والحقارة، وهذا باطل بإجماع جميع العقلاء، وذلك لأن الذين ينكرون كونه تعالى في الجهة ينكرون كونه تعالى كذلك، والذين يثبتون كونه تعالى في الجهة ينكرون كونه تعالى في الصغر والحقارة مثل الجزء الذي لا يتجزأ، فثبت أن هذا بإجماع العقلاء باطل، وأيضًا فلو جاز ذلك، فلم لا يعقل أن يقال: إله العالم جزء من ألف جزء من رأس إبرة، أو ذرة ملتصقة بذنب قملة، أو نملة؟ ومعلوم أن كل قول يفضي إلى مثل هذه الأشياء، فإن صريح العقل يوجب تنزيه الله تعالى عنه.

وأما القسم الثاني: وهو أنه يقبل القسمة، فنقول: كل ما كان كذلك، فذاته مركبة وكل مركب فهو ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فهو مفتقر إلى الموجد والمؤثر، وذلك على الإله الواجب لذاته محال.

البرهان السابع: أن نقول: كل ذات قائمة بنفسها مشارًا إليها بحسب الحس فهو منقسم وكل منقسم ممكن فكل ذات قائمة بنفسها مشار إليها بحسب الحس فهو ممكن. فما لا يكون ممكنًا لذاته بل كان واجبًا لذاته امتنع كونه مشارًا إليه بحسب الحس.

أما المقدمة الأولى: فلأن كل ذات قائمة بالنفس مشار إليها بحسب الحس فلا بد وأن يكون جانب يمينه مغايرًا لجانب يساره وكل ماهو كذلك فهو منقسم.

وأما المقدمة الثانية: وهي أن كل منقسم ممكن فإنه يفتقر إلى كل واحد من أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره، وكل منقسم فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته.

واعلم أن المقدمة الأولى من مقدمات هذا الدليل إنما تتم بنفي الجوهر الفرد.

البرهان الثامن: لو ثبت كونه تعالى في حيز لكان إما أن يكون أعظم من العرش أو مساويًا له أو أصغر منه فإن كان الأول كان منقسمًا لأن القدر الذي منه يساوي العرش يكون مغايرًا للقدر الذي يَفضُل على العرش وإن كان الثاني كان منقسمًا لأن العرش منقسم والمساوي للمنقسم منقسم وإن كان الثالث، فحينئذ يلزم أن يكون العرش أعظم منه وذلك باطل بإجماع الأمة أما عندنا فظاهر، وأما عند الخصوم فلأنهم ينكرون كون غير الله تعالى أعظم من الله تعالى، فثبت أن هذا المذهب باطل.

البرهان التاسع: لو كان الإله تعالى حاصلاً في الحيز والجهة لكان إما أن يكون متناهيًا من كل الجوانب. وإما أن لا يكون كذلك والقسمان باطلان، فالقول بكونه حاصلاً في الحيز والجهة باطل أيضًا. أما بيان أنه لا يجوز أن يكون متناهيًا من كل الجهات، فلأن على هذا التقدير يحصل فوقه أحياز خالية، وهو تعالى قادر على خلق الجسم في ذلك الحيز الخالي، وعلى هذا التقدير لو خلق هناك عالمًا آخر لحصل هو تعالى تحت العالم وذلك عند الخصم محال وأيضًا فقد كان

يمكن أن يخلق من الجوانب الستة لتلك الذات أجسامًا أخرى، وعلى هذا التقدير فتحصل ذاته في وسط تلك الأجسام محصورة فيها ويحصل بينه وبين الأجسام الاجتماع تارة والافتراق أخرى، وكل ذلك على الله تعالى محال.

وأما القسم الثاني: وهو أن يكون غير مُتَناهٍ من بعض الجهات فهذا أيضًا محال، لأنه ثبت بالبرهان أنه يمتنع وجود بُعْدٍ لا نهاية له، وأيضًا فعلى هذا التقدير لا يمكن إقامة الدلالة على أن العالم متناه لأن كل دليل يذكر في تناهي الأبعاد، فإن ذلك الدليل ينتقض بذات الله تعالى فإنه على مذهب الخصم بعد لا نهاية له، وهو وإن كان لا يرضى بهذا اللفظ إلا أنه يساعد على المعنى، والمباحث العقلية مبنية على المعاني، لا على المشاحة في الألفاظ.

البرهان العاشر: لو كان الإله تعالى حاصلاً في الحيز والجهة لكان كونه تعالى هناك إما أن يمنع من حصول جسم آخر هناك أو لا يمنع، والقسمان باطلان فبطل القول بكونه حاصلاً في الحيز.

أما فساد القسم الأول: فلأنه لما كان كونه هناك مانعًا من حصول جسم آخر هناك كان هو تعالى مساويًا لسائر الأجسام في كونه حجمًا متحيزًا ممتدًا في الحيز والجهة مانعًا من حصول غيره في الحيز الذي هو فيه، وإذا ثبت حصول المساواة في ذلك المفهوم بينه وبين سائر الأجسام فإما أن يحصل بينه وبينها مخالفة من سائر الوجوه أو لا يحصل، والأول باطل لوجهين: الأول: أنه إذا حصلت المشاركة بين ذاته تعالى وبين ذوات الأجسام من بعض الوجوه، والمخالفة من سائر الوجوه كان ما به المشاركة مغايرًا لما به المخالفة، وحينئذ تكون ذات الباري تعالى مركبة من هذين الاعتبارين، وقد دللنا على أن كل مركب ممكن فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته هذا خُلْف. والثاني: وهو أن ما به المشاركة وهو طبيعة البعد والامتداد. إما أن يكون محلاً لما به المخالفة. وإما أن يكون حالاً فيه وإما أن يقال: إنه لا محل له ولا حالاً فيه. أما الأول: وهو أن يكون محلاً لما به المخالفة، فعلى هذا التقدير طبيعة البعد والامتداد هي الجوهر القائم بنفسه، والأمور التي حصلت بها المخالفة أعراض وصفات، وإذا كانت الذوات متساوية في تمام الماهية فكل ما صح على بعضها وجب أن يصح على البواقي، فعلى هذا التقدير كل ما صح على جميع الأجسام، وجب أن يصح على الباري تعالى وبالعكس، ويلزم منه صحة التفرق والتمزق والنمو والذبول والعفونة والفساد على ذات الله تعالى وكل ذلك محال.

وأما القسم الثاني: وهو أن يقال: ما به المخالفة محل وذات، وما به المشاركة حال وصفة فهذا محال، لأن على هذا التقدير تكون طبيعة البعد والامتداد صفة قائمة بمحل، وذلك المحل إن كان له أيضًا اختصاص بحيز وجهة، وجب افتقاره إلى محل آخر لا إلى نهاية، وإن لم يكن كذلك فحينئذ يكون موجودًا مجردًا لا تعلق له بالحيز والجهة والإشارة الحسية ألبتة، وطبيعة البعد والامتداد واجبة الاختصاص بالحيز والجهة والإشارة الحسية، وحلول ما هذا شأنه في ذلك المحل يوجب الجمع بين النقيضين وهو محال.

وأما القسم الثالث: وهو أن لا يكون أحدهما حالاً في الآخر ولا محلاً له فنقول: فعلى هذا التقدير يكون كل واحد منهما متباينًا عن الآخر، وعلى هذا التقدير فتكون ذات الله تعالى مساوية لسائر الذوات الجسمانية في تمام الماهية، لأن ما به المخالفة بين ذاته وبين سائر الذوات ليست حالة في هذه الذوات، ولا محالاً لها بل أمور أجنبية عنها فتكون ذات الله تعالى مساوية لذوات الأجسام في تمام الماهية، وحينئذ يعود الإلزام المذكور، فثبت أن القول: بأن ذات الله تعالى مختصة بالحيز والجهة بحيث يمنع من حصول جسم آخر في ذلك الحيز يفضي إلى هذه الأقسام الثلاثة الباطلة فوجب كونه باطلاً.

وأما القسم الثاني: وهو أن يقال: إن ذات الله تعالى وإن كانت مختصة بالحيز والجهة، إلا أنه لا يمنع من حصول جسم آخر في ذلك الحيز والجهة، فهذا أيضًا محال لأنه يوجب كون ذاته مخالطة سارية في ذات ذلك الجسم الذي يحصل في ذلك الجنب والحيز وذلك بالإجماع محال، ولأنه لو عقل ذلك فلم لا يعقل حصول الأجسام الكثيرة في الحيز الواحد؟ فثبت أنه تعالى لو كان حاصلاً في حيز لكان إما أن يمنع حصول جسم آخر في ذلك الحيز أو لا يمنع، وثبت فساد القسمين، فكان القول بحصوله تعالى في الحيز والجهة محالاً باطلاً.

البرهان الحادي عشر: على أنه يمتنع حصول ذات الله تعالى في الحيز والجهة هو أن نقول: لو كان مختصًا بحيز وجهة لكان إما أن يكون بحيث يمكنه أن يتحرك عن تلك الجهة أو لا يمكنه ذلك، والقسمان باطلان، فبطل القول بكونه حاصلاً في الحيز.

أما القسم الأول: وهو أنه يمكنه أن يتحرك فنقول: هذه الذات لا تخلو عن الحركة والسكون وهما محدثان، لأن على هذا التقدير السكون جائز عليه والحركة جائزة عليه، ومتى كان كذلك لم يكن المؤثر في تلك الحركة ولا في ذلك السكون ذاته، وإلا لامتنع طريان ضده والتقدير: هو تقدير أنه يمكنه أن يتحرك وأن يسكن، وإذا كان كذلك كان المؤثر في حصول تلك الحركة، وذلك السكون هو الفاعل المختار وكل ما كان فعلا لفاعل مختار فهو محدث، فالحركة والسكون محدثان وما لا يخلو عن المحدث فهو محدث فيلزم أن تكون ذاته تعالى محدثة وهو محال.

وأما القسم الثاني: وهو أنه يكون مختصًا بحيز وجهة مع أنه لا يقدر أن يتحرك عنه فهذا أيضًا محال لوجهين: الأول: أن على هذا التقدير يكون كالزَّمِن المقعد العاجز، وذلك نقص، وهو على الله محال. والثاني: أنه لو لم يمتنع فرض موجود حاصل في حيز معين بحيث يكون حصوله فيه واجب التقرر ممتنع الزوال لم يبعد أيضًا فرض أجسام أخرى مختصة بأحياز معينة بحيث يمتنع خروجها عن تلك الأحياز، وعلى هذا التقدير فلا يمكن إثبات حدوثها بدليل الحركة والسكون، والكرامية يساعدون على أنه كفر. والثالث: أنه تعالى لما كان حاصلاً في الحيز والجهة كان مساويًا للأجسام في كونه متحيزًا شاغلاً للأحياز، ثم نقيم الدلالة المذكورة

على أن المتحيزات لما كانت متساوية في صفة التحيز وجب كونها متساوية في تمام الماهية، لأنه لو خالف بعضها بعضًا لكان ما به المخالفة إما أن يكون حالاً في المتحيز أو محلاً له أو لا حالاً ولا محلاً، والأقسام الثلاثة باطلة على ما سبق. وإذا كانت متساوية في تمام الماهية فكما أن الحركة صحيحة على هذه الأجسام وجب القول بصحتها على ذات الله تعالى وحينئذ يتم الدليل.

الحجة الثانية عشرة: لو كان تعالى مختصًا بحيز معين لكنا إذا فرضنا وصول إنسان إلى طرف ذلك الشيء وحاول الدخول فيه فإما أن يمكنه النفوذ والدخول فيه أو لا يمكنه ذلك، فإن كان الأول كان كالهواء اللطيف، والماء اللطيف، وحينئذ يكون قابلاً للتفرق والتمزق وإن كان الثاني كان صلبًا كالحجر الصلد الذي لا يمكنه النفوذ فيه، فثبت أنه تعالى لو كان مختصًا بمكان وحيز وجهة لكان إما أن يكون رقيقًا سهل التفرق والتمزق كالماء والهواء، وإما أن يكون صلبًا جاسئًا كالحجر الصلد، وقد أجمع المسلمون على أن إثبات هاتين الصفتين في حق الإله تعالى كفر وإلحاد في صفته، وأيضًا فبتقدير أن يكون مختصًا بمكان وجهة، لكان إما أن يكون نورانيًا وظلمانيًا، وجمهور المشبهة يعتقدون أنه نور محض، لاعتقادهم أن النور شريف والظلمة خسيسة، إلا أن الاستقراء العام دل على أن الأشياء النورانية رقيقة لا تمنع النافذ من النفوذ فيها، والدخول فيما بين أجزائها، وعلى هذا التقدير فإن ذلك الذي ينفذ فيه يمتزج به ويفرق بين أجزائه ويكون ذلك الشيء جاريًا مجرى الهواء الذي يتصل تارة وينفصل أخرى. ويجتمع تارة ويتمزق أخرى، وذلك مما لا يليق بالمسلم أن يصف إله العالم به، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال: إن خالق العالم هو بعض هذه الرياح التي تهب؟ أو يقال إنه بعض هذه الأنوار والأضواء التي تشرق على الجدران؟ والذين يقولون: إنه لا يقبل التفرق والتمزق ولا يتمكن النافذ من النفوذ فإنه يرجع حاصل كلامهم إلى أنه حصل فوق العالم جبل صلب شديد وإله هذا العالم هو ذلك الجبل الصلب الواقف في الحيز العالي، وأيضًا فإن كان له طرف وحَدٌّ ونهاية فهل حصل لذلك الشيء عمق وثخن أو لم يحصل؟ فإن كان الأول فحينئذ يكون ظاهره غير باطنه وباطنه غير ظاهره، فكان مؤلفًا مركبًا من الظاهر والباطن مع أن باطنه غير ظاهره وظاهره غير باطنه، وإن كان الثاني فحينئذ يكون ذاته سطحًا رقيقًا في غاية الرقة مثل قشرة الثوم بل أرق منه ألف ألف مرة، والعاقل لا يرضى أن يجعل مثل هذا الشيء إله العالم، فثبت أن كونه تعالى في الحيز والجهة يفضي إلى فتح باب هذه الأقسام الباطلة الفاسدة.

الحجة الثالثة عشرة: العالم كُرَة، وإذا كان الأمر كذلك امتنع أن يكون إله العالم حاصلاً في جهة فوق.

أما المقام الأول: فهو مستقصى في علم الهيئة إلا أنا نقول: إنا إذا اعتبرنا كسوفًا قمريًا حصل في أول الليل بالبلاد الغربية كان عين ذلك الكسوف حاصلاً في البلاد الشرقية في أول النهار، فعلمنا

أن أول الليل بالبلاد الغربية هو بعينه أول النهار بالبلاد الشرقية، وذلك لا يمكن إلا إذا كانت الأرض مستديرة من المشرق إلى المغرب، وأيضًا إذا توجهنا إلى الجانب الشمالي فكلما كان توغلنا أكثر، كان ارتفاع القطب الشمالي أكثر وبمقدار ما يرتفع القطب الشمالي ينخفض القطب الجنوبي وذلك يدل على أن الأرض مستديرة من الشمال إلى الجنوب، ومجموع هذين الاعتبارين يدل على أن الأرض كرة.

وإذا ثبت هذا فنقول: إذا فرضنا إنسانين وقف أحدهما على نقطة المشرق والآخر على نقطة المغرب صار أخمص قدميهما متقابلين، والذي هو فوق بالنسبة إلى أحدهما يكون تحت بالنسبة إلى الثاني، فلو فرضنا أن إله العالم حصل في الحيز الذي فوق بالنسبة إلى أحدهما، فذلك الحيز بعينه هو تحت بالنسبة إلى الثاني، وبالعكس فثبت أنه تعالى لو حصل في حيز معين لكان ذلك الحيز تحتًا بالنسبة إلى أقوام معينين، وكونه تعالى تحت أهل الدنيا محال بالاتفاق، فوجب أن لا يكون حاصلاً في حيز معين، وأيضًا فعلى هذا التقدير أنه كلما كان فوق بالنسبة إلى أقوام كان تحت بالنسبة إلى أقوام آخرين، وكان يمينًا بالنسبة إلى ثالث، وشمالاً بالنسبة إلى رابع، وقدام الوجه بالنسبة إلى خامس، وخلف الرأس بالنسبة إلى سادس، فإن كون الأرض كرة يوجب ذلك إلا أن حصول هذه الأحوال بإجماع العقلاء محال في حق إله العالم إلا إذا قيل إنه محيط بالأرض من جميع الجوانب فيكون هذا فلكًا محيطًا بالأرض وحاصله يرجع إلى أن إله العالم هو بعض الأفلاك المحيطة بهذا العالم، وذلك لا يقوله مسلم، والله أعلم.

الحجة الرابعة عشرة: لو كان إله العالم فوق العرش لكان إما أن يكون مماسًّا للعرش، أو مباينًا له بِبُعْدٍ مُتناهٍ أو بِبُعْدٍ غير متناه، والأقسام الثلاثة باطلة، فالقول بكونه فوق العرش باطل.

أما بيان فساد القسم الأول: فهو أن بتقدير أن يصير مماسًّا للعرش كان الطرف الأسفل منه مماسا للعرش، فهل يبقى فوق ذلك الطرف منه شيء غير مماس للعرش أو لم يبق؟ فإن كان الأول فالشيء الذي منه صار مماسًّا لطرف العرش غير ما هو منه غير مماس لطرف العرش، فيلزم أن يكون ذات الله تعالى مركبًا من الأجزاء والأبعاض فتكون ذاته في الحقيقة مركبة من سطوح متلاقية موضوعة بعضها فوق بعض، وذلك هو القول بكونه جسمًا مركبًا من الأجزاء والأبعاض وذلك محال، وإن كان الثاني فحينئذ يكون ذات الله تعالى سطحًا رقيقًا لا ثخن له أصلاً، ثم يعود التقسيم فيه، وهو أنه إن حصل له تمدد في اليمين والشمال والقدام والخلف كان مركبًا من الأجزاء والأبعاض، وإن لم يكن له تمدد ولا ذهاب في الأحياز بحسب الجهات الستة كان ذرة من الذرات وجزءًا لا يتجزأ مخلوطًا بالهباءات، وذلك لا يقوله عاقل.

وأما القسم الثاني: وهو أن يقال بينه وبين العالم بُعْد متناه، فهذا أيضًا محال، لأن على هذا التقدير لا يمتنع أن يرتفع العالم من حيزه إلى الجهة التي فيها حصلت ذات الله تعالى إلى أن يصير العالم مماسًّا له، وحينئذ يعود المحال المذكور في القسم الأول.

وأما القسم الثالث: وهو أن يقال أنه تعالى مباين للعالم بينونة غير متناهية، فهذا أظهر فسادًا من كل الأقسام لأنه تعالى لما كان مباينًا للعالم كانت البينونة بينه تعالى وبين غيره محدودة بطرفين وهما ذات الله تعالى وذات العالم، ومحصورًا بين هذين الحاصرين، والبعد المحصور بين الحاصرين والمحدود بين الحدين والطرفين يمتنع كونه بُعْدًا غير متناه.

فإن قيل: أليس أنه تعالى متقدم على العالم من الأزل إلى الأبد، فتقدمه على العالم محصور بين حاصرين ومحدود بين حدين وطرفين أحدهما: الأزل، والثاني: أول وجود العالم ولم يلزم من كون هذا التقدم محصورًا بين حاصرين أن يكون لهذا التقدم أول وبداية، فكذا ههنا، وهذا هو الذي عول عليه محمد بن الهيثم في دفع هذا الإشكال عن هذا القسم.

والجواب: أن هذا هو محض المغالطة، لأنه ليس الأزل عبارة عن وقت معين وزمان معين حتى يقال: إنه تعالى متقدم على العالم من ذلك الوقت إلى الوقت الذي هو أول العالم، فإن كل وقت معين يفرض من ذلك الوقت إلى الوقت الآخر يكون محدودًا بين حدين ومحصورًا بين حاصرين، وذلك لا يعقل فيه أن يكون غير متناه بل الأزل عبارة عن نفي الأولية من غير أن يشار به إلى وقت معين ألبتة.

إذا عرفت هذا فنقول: إما أن نقول: إنه تعالى مختص بجهة معينة، وحاصل في حيز معين وإما أن لا نقول ذلك، فإن قلنا بالأول كان البعد الحاصل بين ذينك الطرفين محدودًا بين ذينك الحدين والبعد المحصور بين الحاصرين لا يعقل كونه غير متناه، لأن كونه غير متناه عبارة عن عدم الحد والقطع والطرف، وكونه محصورًا بين الحاصرين معناه إثبات الحد والقطع والطرف والجمع بينهما يوجب الجمع بين النقيضين، وهو محال. ونظيره ما ذكرناه أنا متى عينا قبل العالم وقتًا معينًا كان البعد بينه وبين الوقت الذي حصل فيه أول العالم بعدًا متناهيًا لا محالة.

وأما إن قلنا بالقسم الثاني: وهو أنه تعالى غير مختص بحيز معين وغير حاصل في جهة معينة، فهذا عبارة عن نفي كونه في الجهة. لأن كون الذات المعينة حاصلة لا في جهة معينة في نفسها قول محال، ونظير هذا قول من يقول: الأزل ليس عبارة عن وقت معين بل إشارة إلى نفي الأولية والحدوث، فظهر أن هذا الذي قاله ابن الهيثم تخييل خال عن التحصيل.

الحجة الخامسة عشرة: أنه ثبت في العلوم العقلية أن المكان: إما السطح الباطن من الجسم الحاوي وإما البعد المجرد والفضاء الممتد، وليس يعقل في المكان قسم ثالث.

إذا عرفت هذا فنقول: إن كان المكان هو الأول فنقول: ثبت أن أجسام العالم متناهية، فخارج العالم الجسماني لا خلاء ولا ملاء ولا مكان ولا جهة، فيمتنع أن يحصل الإله في مكان خارج العالم، وإن كان المكان هو الثاني، فنقول طبيعة البعد طبيعة واحدة متشابهة في تمام الماهية، فلو حصل الإله في حيز لكان ممكن الحصول في سائر الأحياز، وحينئذ يصح عليه الحركة والسكون وكل ما كان كذلك كان محدثًا بالدلائل المشهورة المذكورة في علم الأصول، وهي

مقبولة عند جمهور المتكلمين، فيلزم كون الإله محدثًا، وهو محال. فثبت أن القول بأنه تعالى حاصل في الحيز والجهة قول باطل على كل الاعتبارات.

الحجة السادسة عشرة: وهي حجة استقرائية اعتبارية لطيفة جدًّا، وهي أنا رأينا أن الشيء كلما كان حصول معنى الجسمية فيه أقوى وأثبت، كانت القوة الفاعلية فيه أضعف وأنقص، وكلما كان حصول معنى الجسمية فيه أقل وأضعف، كان حصول القوة الفاعلية أقوى وأكمل، وتقريره أن نقول: وجدنا الأرض أكثف الأجسام وأقواها حجمية، فلا جرم لم يحصل فيها إلا خاصة قبول الأثر فقط، فأما أن يكون للأرض الخالصة تأثير في غيره فقليل جدًّا. وأما الماء فهو أقل كثافة وحجمية من الأرض، فلا جرم حصلت فيه قوة مؤثرة، فإن الماء الجاري بطبعه إذا اختلط بالأرض أثر فيها أنواعًا من التأثيرات. وأما الهواء، فإنه أقل حجمية وكثافة من الماء، فلا جرم كان أقوى على التأثير من الماء، فلذلك قال بعضهم: إن الحياة لا تكمل إلا بالنفس، وزعموا أنه لا معنى للروح إلا الهواء المستنشق. وأما النار، فإنها أقل كثافة من الهواء، فلا جرم كانت أقوى الأجسام العنصرية على التأثير فبقوة الحرارة يحصل الطبخ والنضج، وتكون المواليد الثلاثة أعني المعادن والنبات والحيوان. وأما الأفلاك، فإنها ألطف من الأجرام العنصرية، فلا جرم كانت هي المستولية على مزاج الأجرام العنصرية بعضها البعض، وتوليد الأنواع والأصناف المختلفة من تلك التمزيجات، فهذا الاستقراء المطرد يدل على أن الشيء كلما كان أكثر حجمية وجرمية وجسمية كان أقل قوة وتأثيرًا وكلما كان أقوى قوة وتأثيرًا كان أقل حجمية وجرمية وجسمية، وإذا كان الأمر كذلك أفاد هذا الاستقراء ظنًّا قويًّا أنه حيث حصل كمال القوة والقدرة على الإحداث والإبداع لم يحصل هناك ألبتة معنى الحجمية والجرمية والاختصاص بالحيز والجهة، وهذا وإن كان بحثًا استقرائيًّا إلا أنه عند التأمل التام شديد المناسبة للقطع بكونه تعالى منزهًا عن الجسمية والموضع والحيز. وبالله التوفيق. فهذه جملة الوجوه العقلية في بيان كونه تعالى منزهًا عن الاختصاص بالحيز والجهة.

أما الدلائل السمعية فكثيرة: أولها: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فوصفه بكونه أحدًا والأحد مبالغة في كونه واحدًا. والذي يمتلئ منه العرش ويفضل عن العرش يكون مركبًا من أجزاء كثيرة جدًّا فوق أجزاء العرش، وذلك ينافي كونه أحدًا ورأيت جماعة من الكرامية عند هذا الإلزام يقولون إنه تعالى ذات واحدة، ومع كونها واحدة حصلت في كل هذه الأحياز دفعة واحدة. قالوا: فلأجل أنه حصل دفعة واحدة في جميع الأحياز امتلأ العرش منه. فقلت: حاصل هذا الكلام يرجع إلى أنه يجوز حصول الذات الشاغلة للحيز والجهة في أحياز كثيرة دفعة واحدة والعقلاء اتفقوا على أن العلم بفساد ذلك من أجلِّ العلوم الضرورية، وأيضًا فإن جوزتم ذلك فلم لا تجوزون أن يقال: إن جميع العالم من العرش إلى ما تحت الثرى جوهر واحد وموجود واحد إلا أن ذلك الجزء الذي لا يتجزأ حصل في جملة هذه الأحياز، فيظن أنها أشياء

كثيرة، ومعلوم أن من جوزه، فقد التزم منكرًا من القول عظيمًا.

فإن قالوا: إنما عرفنا ههنا حصول التغاير بين هذه الذوات لأن بعضها يفنى مع بقاء الباقي وذلك يوجب التغاير، وأيضًا فنرى بعضها متحركًا، وبعضها ساكنًا والمتحرك غير الساكن، فوجب القول بالتغاير، وهذه المعاني غير حاصلة في ذات الله، فظهر الفرق، فنقول: أما قولك: بأنا نشاهد أن هذا الجزء يبقى مع أنه يفنى ذلك الجزء الآخر، وذلك يوجب التغاير. فنقول: لا نسلم أنه فني شيء من الأجزاء بل نقول: لم لا يجوز أن يقال: إن جميع أجزاء العالم جزء واحد فقط؟ ثم إنه حصل ههنا وهناك، وأيضًا حصل موصوفًا بالسواد والبياض وجميع الألوان والطعوم، فالذي يفنى إنما هو حصوله هناك، فأما أن يقال إنه فني في نفسه، فهذا غير مسلم، وأما قوله: نرى بعض الأجسام متحركًا وبعضها ساكنًا، وذلك يوجب التغاير، لأن الحركة والسكون لا يجتمعان. فنقول: إذا حكمنا بأن الحركة والسكون لا يجتمعان لاعتقادنا أن الجسم الواحد لا يحصل دفعة واحدة في حيزين، فإذا رأينا أن الساكن بقي هنا، وأن المتحرك ليس هنا قضينا أن المتحرك غير الساكن. وأما بتقدير أن يجوز كون الذات الواحدة حاصلة في حيزين دفعة واحدة، لم يمتنع كون الذات الواحدة متحركة ساكنة معًا، لأن أقصى ما في الباب أن بسبب السكون بقي هنا، وبسبب الحركة حصل في الحيز الآخر، إلا أنا لما جوزنا أن تحصل الذات الواحدة دفعة واحدة في حيزين معًا لم يبعد أن تكون الذات الساكنة هي عين الذات المتحركة، فثبت أنه لو جاز أن يقال: إنه تعالى في ذاته واحد لا يقبل القسمة، ثم مع ذلك يمتلئ العرش منه، لم يبعد أيضًا أن يقال: العرش في نفسه جوهر فرد وجزء لا يتجزأ، ومع ذلك فقد حصل في كل تلك الأحياز، وحصل منه كل العرش ومعلوم أن تجويزه يفضي إلى فتح باب الجهالات. وثانيها: أنه تعالى قال: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[الحاقة: ١٧] فلو كان إله العالم في العرش، لكان حامل العرش حاملاً للإله، فوجب أن يكون الإله محمولاً حاملاً، ومحفوظًا حافظًا، وذلك لا يقوله عاقل. وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾[محمد: ٣٨] حكم بكونه غنيًا على الإطلاق، وذلك يوجب كونه تعالى غنيًا عن المكان والجهة. ورابعها: أن فرعون لما طلب حقيقة الإله تعالى من موسى عليه السلام ولم يزد موسى عليه السلام على ذكر صفة الخلاقية ثلاث مرات، فإنه لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٢٣] ففي المرة الأولى قال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[الدخان: ٧] وفي الثانية قال: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[الشعراء: ٢٦] وفي المرة الثالثة: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[الشعراء: ٢٨] وكل ذلك إشارة إلى الخلاقية، وأما فرعون لعنه الله فإنه قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[غافر: ٣٦-٣٧] فطلب الإله في السماء، فعلمنا أن وصف الإله بالخلاقية، وعدم وصفه بالمكان والجهة دين موسى، وسائر جميع الأنبياء، وجميع وصفه تعالى بكونه في السماء دين فرعون وإخوانه من الكفرة. وخامسها: أنه تعالى قال في هذه

الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وكلمة (ثم) للتراخي وهذا يدل على أنه تعالى إنما استوى على العرش بعد تخليق السموات والأرض، فإن كان المراد من الاستواء الاستقرار، لزم أن يقال: إنه ما كان مستقرًا على العرش، بل كان معوجًا مضطربًا، ثم استوى عليه بعد ذلك، وذلك يوجب وصفه بصفات سائر الأجسام من الاضطراب والحركة تارة، والسكون أخرى، وذلك لا يقوله عاقل. وسادسها: هو أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه إنما طعن في إلهية الكوكب والقمر والشمس بكونها آفلة غاربة فلو كان إله العالم جسمًا، لكان أبدًا غاربًا آفلا. وكان منتقلاً من الاضطراب والاعوجاج إلى الاستواء والسكون والاستقرار، فكل ما جعله إبراهيم عليه السلام طعنًا في إلهية الشمس والكوكب والقمر يكون حاصلاً في إله العالم، فكيف يمكن الاعتراف بإلهيته. وسابعها: أنه تعالى ذكر قبل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ شيئًا وبعده شيئًا آخر. أما الذي ذكره قبل هذه الكلمة فهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وقد بينا أن خلق السموات والأرض يدل على وجود الصانع وقدرته وحكمته من وجوه كثيرة. وأما الذي ذكره بعد هذه الكلمة فأشياء: أولها: قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ وذلك أحد الدلائل الدالة على وجود الله، وعلى قدرته وحكمته. وثانيها: قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ وهو أيضًا من الدلائل الدالة على الوجود والقدرة والعلم. وثالثها: قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وهو أيضًا إشارة إلى كمال قدرته وحكمته.

إذا ثبت هذا فنقول: أول الآية إشارة إلى ذكر ما يدل على الوجود والقدرة والعلم، وآخرها يدل أيضًا على هذا المطلوب، وإذ كان الأمر كذلك فقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وجب أن يكون أيضًا دليلاً على كمال القدرة والعلم، لأنه لو لم يدل عليه بل كان المراد كونه مستقرًا على العرش كان ذلك كلامًا أجنبيًا عما قبله وعما بعده، فإن كونه تعالى مستقرًا على العرش لا يمكن جعله دليلاً على كماله في القدرة والحكمة وليس أيضًا من صفات المدح والثناء، لأنه تعالى قادر على أن يجلس جميع أعداد البق والبعوض على العرش وعلى ما فوق العرش، فثبت أن كونه جالسًا على العرش ليس من دلائل إثبات الصفات والذات ولا من صفات المدح والثناء، فلو كان المراد من قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كونه جالسًا على العرش لكان ذلك كلامًا أجنبيًا عما قبله وعما بعده، وهذا يوجب نهاية الركاكة، فثبت أن المراد منه ليس ذلك، بل المراد منه كمال قدرته في تدابير الملك والملكوت حتى تصير هذه الكلمة مناسبة لما قبلها ولما بعدها وهو المطلوب.

وثامنها: أن السماء عبارة عن كل ما ارتفع وسما وعلا، والدليل عليه أنه تعالى سمى السحاب سماء حيث قال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١] وإذا كان الأمر كذلك، فكل ماله ارتفاع وعلو وسمو كان سماء، فلو كان إله العالم موجودًا فوق العرش، لكان ذات الإله تعالى سماء لساكني العرش. فثبت أنه تعالى لو كان فوق العرش لكان سماء والله تعالى

حكم بكونه خالقًا لكل السموات في آيات كثيرة منها هذه الآية وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فلو كان فوق العرش سماء لسكان أهل العرش لكان خالقًا لنفسه وذلك محال.

وإذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ آية محكمة دالة على أن قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ من المتشابهات التي يجب تأويلها، وهذه نكتة لطيفة، ونظير هذا أنه تعالى قال في أول سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣] ثم قال بعده بقليل: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢] فدلت هذه الآية المتأخرة على أن كل ما في السموات، فهو ملك لله فلو كان الله في السموات لزم كونه ملكًا لنفسه، وذلك محال فكذا ههنا، فثبت بمجموع هذه الدلائل العقلية والنقلية أنه لا يمكن حمل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز، وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان: الأول: أن نقطع بكونه تعالى متعاليًا عن المكان والجهة ولا نخوض في تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله، وهو الذي قررناه في تفسير قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه.

والقول الثاني: أن نخوض في تأويله على التفصيل، وفيه قولان ملخصان: الأول: ما ذكره القفال رحمة الله عليه فقال: ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملوك، ثم جعل العرش كناية عن نفس الملك، يقال: ثُلَّ عرشُه أي انتقض ملكه وفسد. وإذا استقام له ملكه واطرد أمره وحكمه قالوا: استوى على عرشه، واستقر على سرير ملكه، هذا ما قاله القفال. وأقول: إن الذي قاله حق وصدق وصواب، ونظيره قولهم للرجل الطويل: فلان طويل النجاد وللرجل الذي يكثر الضيافة كثير الرماد، وللرجل الشيخ فلان اشتعل رأسه شيبًا، وليس المراد في شيء من هذه الألفاظ إجراؤها على ظواهرها، إنما المراد منها تعريف المقصود على سبيل الكناية فكذا ههنا يذكر الاستواء على العرش، والمراد نفاذ القدرة وجريان المشيئة، ثم قال القفال رحمه الله تعالى: والله تعالى لما دل على ذاته وعلى صفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم ورؤسائهم استقر في قلوبهم عظمة الله وكمال جلاله، إلا أن كل ذلك مشروط بنفي التشبيه، فإذا قال: إنه عالم فهموا منه أنه لا يخفى عليه تعالى شيء، ثم علموا بعقولهم أنه لم يحصل ذلك العلم بفكرة ولا روية ولا باستعمال حاسة، وإذا قال: قادر علموا منه أنه متمكن من إيجاد الكائنات، وتكوين الممكنات، ثم علموا بعقولهم أنه غني في ذلك الإيجاد، والتكوين عن الآلات والأدوات، وسبق المادة والمدة والفكرة والروية، وهكذا القول في كل صفاته، وإذا أخبر أن له بيتًا يجب على عباده حجه فهموا منه أنه نصب لهم موضعًا يقصدونه لمسألة ربهم وطلب حوائجهم كما يقصدون بيوت الملوك والرؤساء لهذا المطلوب،

ثم علموا بعقولهم نفي التشبيه، وأنه لم يجعل ذلك البيت مسكنًا لنفسه، ولم ينتفع به في دفع الحر والبرد بعينه عن نفسه، فإذا أمرهم بتحميده وتمجيده فهموا منه أنه أمرهم بنهاية تعظيمه، ثم علموا بعقولهم أنه لا يفرح بذلك التحميد والتعظيم ولا يغتم بتركه والإعراض عنه.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إنه تعالى أخبر أنه خلق السموات والأرض كما أراد وشاء من غير منازع ولا مدافع، ثم أخبر بعده أنه استوى على العرش، أي حصل له تدبير المخلوقات على ما شاء وأراد، فكان قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي بعد أن خلقها استوى على عرش الملك والجلال. ثم قال القفال: والدليل على أن هذا هو المراد قوله في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣] فقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ جرى مجرى التفسير لقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وقال في هذه الآية التي نحن في تفسيرها: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وهذا يدل على أن قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إشارة إلى ما ذكرناه.

فإن قيل: فإذا حملتم قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على أن المراد: استوى على الملك، وجب أن يقال: الله لم يكن مستويًا قبل خلق السموات والأرض.

قلنا: إنه تعالى إنما كان قبل خلق العوالم قادرًا على تخليقها وتكوينها وما كان مكونًا ولا مُوجِدًا لها بأعيانها بالفعل، لأن إحياء زيد، وإماتة عمرو، وإطعام هذا وإرواء ذلك لا يحصل إلا عند هذه الأحوال، فإذا فسرنا العرش بالملك والملك بهذه الأحوال، صح أن يقال: إنه تعالى إنما استوى على ملكه بعد خلق السموات والأرض بمعنى أنه إنما ظهر تصرفه في هذه الأشياء وتدبيره لها بعد خلق السموات والأرض، وهذا جواب حق صحيح في هذا الموضع.

والوجه الثاني: في الجواب أن يقال: استوى بمعنى استولى، وهذا الوجه قد أطلنا في شرحه في سورة طه فلا نعيده هنا.

والوجه الثالث: أن نفسر العرش بالملك ونفسر استوى بمعنى: علا واستعلى على الملك فيكون المعنى: أنه تعالى استعلى على الملك بمعنى أن قدرته نفذت في ترتيب الملك والملكوت، واعلم أنه تعالى ذكر قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في سور سبع: إحداها: ههنا. وثانيها: في يونس. وثالثها: في الرعد. ورابعها: في طه. وخامسها: في الفرقان. وسادسها: في السجدة. وسابعها: في الحديد، وقد ذكرنا في كل موضع فوائد كثيرة، فمن ضم تلك الفوائد بعضها إلى بعض كثرت وبلغت مبلغًا كثيرًا وافيًا بإزالة شبه التشبيه عن القلب والخاطر.

أما قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص ﴿يُغْشِى﴾ بتخفيف الغين وفي الرعد هكذا، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم برواية أبي بكر بالتشديد، وفي

الرعد هكذا. قال الواحدي رحمه الله: الإغشاء والتغشية إلباس الشيء بالشيء، وقد جاء التنزيل بالتشديد والتخفيف، فمن التشديد قوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾[النجم: ٥٤] ومن اللغة الثانية قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يس: ٩] والمفعول الثاني محذوف على معنى فأغشيناهم العمى وفقد الرؤية.

المسألة الثانية: قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ يحتمل أن يكون المراد يلحق الليل بالنهار، وأن يكون المراد النهار بالليل، واللفظ يحتملهما معًا وليس فيه تغيير، والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس (يَغْشَى الليلَ النَّهارُ) بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار أي يدرك النهار الليل ويطلبه قال القفال رحمه الله: أنه سبحانه لما أخبر عباده باستوائه على العرش عن استمرار أصعب المخلوقات على وفق مشيئته، أراهم ذلك عيانًا فيما يشاهدونه منها ليضم العيان إلى الخبر، وتزول الشبه عن كل الجهات، فقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ لأنه تعالى أخبر في هذا الكتاب الكريم بما في تعاقب الليل والنهار من المنافع العظيمة، والفوائد الجليلة، فإن بتعاقبهما يتم أمر الحياة، وتكمل المنفعة والمصلحة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ قال الليث: الحث: الإعجال، يقال: حثثت فلانًا فاحتث، فهو حثيث ومحثوث، أي مُجِدٌّ سريع.

واعلم أنه سبحانه وصف هذه الحركة بالسرعة والشدة، وذلك هو الحق، لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة، وأكملها شدة، حتى إن الباحثين عن أحوال الموجودات. قالوا: الإنسان إذا كان في العدو الشديد الكامل، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل، وإذا كان الأمر كذلك كانت تلك الحركة في غاية الشدة والسرعة، فلهذا السبب قال تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠] فشبه ذلك السير وتلك الحركة بالسباحة في الماء، والمقصود: التنبيه على سرعتها وسهولتها وكمال إيصالها.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر (والشَّمسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ) بالرفع على معنى الابتداء والباقون بالنصب على معنى وجعل الشمس والقمر، قال الواحدي: والنصب هو الوجه لقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧] فكما صرح في هذه الآية أنه سخر الشمس والقمر كذلك يجب أن يحمل على أنه خلقها في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ وهذا النصف على الحال أي خلق هذه الأشياء حال كونها موصوفة بهذه الصفات والآثار والأفعال وحجة ابن عامر قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣] ومن جملة ما في السماء الشمس والقمر فلما أخبر أنه تعالى سخرها حسن الإخبار عنها بأنها مسخرة كما أنك إذا قلت ضربت زيدًا استقام أن تقول: زيد مضروب.

المسألة الثانية: في هذه الآية لطائف: فالأولى: أن الشمس لها نوعان من الحركة:

أحد النوعين: حركتها بحسب ذاتها وهي إنما تتم في سنة كاملة وبسبب هذه الحركة تحصل السنة.

والنوع الثاني: حركتها بسبب حركة الفلك الأعظم وهذه الحركة تتم في اليوم بليلة.

إذا عرفت هذا فنقول: الليل والنهار لا يحصل بسبب حركة الشمس وإنما يحصل بسبب حركة السماء الأقصى التي يقال لها العرش فلهذا السبب لما ذكر العرش بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ربط به قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ تنبيهًا على أن سبب حصول الليل والنهار هو حركة الفلك الأقصى لا حركة الشمس والقمر وهذه دقيقة عجيبة. والثانية: أنه تعالى لما شرح كيفية تخليق السموات. قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] فدلت تلك الآية على أنه سبحانه خص كل ذلك بلطيفة نورانية ربانية من عالم الأمر.

ثم قال بعده: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وهو إشارة إلى أن كل ما سوى الله تعالى إما من عالم الخَلْق أو من عالم الأمر، أما الذي هو من عالم الخلق، فالخلق عبارة عن التقدير، وكل ما كان جسمًا أو جسمانيًا كان مخصوصًا بمقدار معين، فكان من عالم الخلق، وكل ما كان بريئًا عن الحجمية والمقدار كان من عالم الأرواح ومن عالم الأمر، فدل على أنه سبحانه خص كل واحد من أجرام الأفلاك والكواكب التي هي من عالم الخلق بملك من الملائكة، وهم من عالم الأمر والأحاديث الصحيحة مطابقة لذلك، وهي ما روي في الأخبار أن لله ملائكة يحركون الشمس والقمر عند الطلوع وعند الغروب، وكذا القول في سائر الكواكب، وأيضًا قوله سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] إشارة إلى أن الملائكة الذين يقومون بحفظ العرش ثمانية، ثم إذا دققت النظر علمت أن عالم الخلق في تسخير الله وعالم الأمر في تدبير الله واستيلاء الروحانيات على الجسمانيات بتقدير الله فلهذا المعنى قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

ثم قال بعده: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والبركة لها تفسيران: أحدهما: البقاء والثبات، والثاني: كثرة الآثار الفاضلة والنتائج الشريفة وكلا التفسيرين لا يليق إلا بالحق سبحانه، فإن حملته على الثبات والدوام، فالثابت والدائم هو الله تعالى لأنه الموجود الواجب لذاته العالم لذاته القائم بذاته الغني في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه عن كل ما سواه، فهو سبحانه مقطع الحاجات ومنهى الافتقارات وهو غني عن كل ما سواه في جميع الأمور وأيضًا إن فسرنا البركة بكثرة الآثار الفاضلة فالكل بهذا التفسير من الله تعالى، لأن الموجود إما واجب لذاته وإما ممكن لذاته والواجب لذاته ليس إلا هو، وكل ما سواه ممكن، وكل ممكن فلا يوجد إلا بإيجاد الواجب

لذاته وكل الخيرات منه وكل الكمالات فائضة من وجوده وإحسانه، فلا خير إلا منه ولا إحسان إلا من فيضه، ولا رحمة إلا وهي حاصلة منه، فلما كان الخلق والأمر ليس إلا منه، لا جرم كان الثناء المذكور بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] لا يليق إلا بكبريائه وكمال فضله ونهاية جوده ورحمته.

المسألة الثالثة: كون الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه يحتمل وجوهًا: أحدها: أنا قد دللنا في هذا الكتاب العالي الدرجة أن الأجسام متماثلة ومتى كان كذلك، كان اختصاص جسم الشمس بذلك النور المخصوص والضوء الباهر والتسخير الشديد والتأثير القاهر والتدبيرات العجيبة في العالم العلوي والسفلي، لا بد وأن يكون لأجل أن الفاعل الحكيم والمقدر العليم خص ذلك الجسم بهذه الصفات وهذه الأحوال، فجسم كل واحد من الكواكب والنيرات كالمسخر في قبول تلك القوى والخواص، عن قدرة المدبر الحكيم، الرحيم العليم. وثانيها: أن يقال: إن لكل واحد من أجرام الشمس والقمر والكواكب، سيرًا خاصًا بطيئًا من المغرب إلى المشرق وسيرًا آخر سريعًا بسبب حركة الفلك الأعظم، فالحق سبحانه خص جرم الفلك الأعظم بقوة سارية في أجرام سائر الأفلاك باعتبارها صارت مستولية عليها، قادرة على تحريكها على سبيل القهر من المشرق إلى المغرب فأجرام الأفلاك والكواكب صارت كالمسخرة لهذا القهر والقسر ولفظ الآية مشعر بذلك لأنه لما ذكر العرش بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ رتب عليه حكمين: أحدهما: قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ تنبيهًا على أن حدوث الليل والنهار إنما يحصل بحركة العرش. والثاني: قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ تنبيهًا على أن الفلك الأعظم الذي هو العرش يحرك الأفلاك والكواكب على خلاف طبعها من المشرق إلى المغرب وأنه تعالى أودع في جرم العرش قوة قاهرة باعتبارها قوى على قهر جميع الأفلاك والكواكب وتحريكها على خلاف مقتضى طبائعها، فهذه أبحاث معقولة ولفظ القرآن مشعر بها والعلم عند الله. وثانيها: أن أجسام العالم على ثلاثة أقسام، منها ما هي متحركة إلى الوسط وهي الثقال. ومنها ما هي متحركة عن الوسط، وهي الخفاف، ومنها ما هي متحركة عن الوسط، وهي الأجرام الفلكية الكوكبية، فإنها مستديرة حول الوسط فكون الأفلاك والكواكب مستديرة حول مركز الأرض لا عنه ولا إليه، لا يكون إلا بتسخير الله وتدبيره، حيث خص كل واحد من هذه الأجسام بخاصة معينة وصفة معينة وقوة مخصوصة فلهذا السبب قال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ورابعها: أن الثوابت تتحرك في كل ستة وثلاثين ألف سنة دورة واحدة، فهذه الحركة تكون في غاية البطء. ثم ههنا دقيقة أخرى وهي أن كل كوكب من الكواكب الثابتة، كان أقرب إلى المنطقة كانت حركته أسرع، وكل ما كان أقرب إلى القطب كانت حركته أبطأ، فالكواكب التي تكون في غاية القرب من القطب مثل كوكب الجدي وهو الذي تقول العوام: إنه هو القطب، يدور في دائرة في غاية الصغر، وهو إنما يتمم تلك الدائرة

الصغيرة جدًّا في مدة ستة وثلاثين ألف سنة. فإذا تأملت علمت أن تلك الحركة بلغت في البطء إلى حيث لا توجد حركة في العالم تشاركها في البطء، فذلك الكوكب اختص بأبطأ حركات هذا العالم وجرم الفلك الأعظم اختص بأسرع حركات العالم، وفيما بين هاتين الدرجتين درجات لا نهاية لها في البطء والسرعة، وكل واحد من الكواكب والدوائر والحوامل والممثلات يختص بنوع من تلك الحركات، وأيضًا فلكل واحد من تلك الكواكب مدارات مخصوصة، فأسرعها هو المنطقة وكل ما كان أقرب إليه فهو أسرع حركة مما هو أبعد منه، ثم إنه سبحانه رتب مجموع هذه الحركات على اختلاف درجاتها وتفاوت مراتبها سببًا لحصول المصالح في هذا العالم. كما قال في أول سورة البقرة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾[البقرة: ٢٩] أي سواهن على وفق مصالح هذا العالم، وهو بكل شيء عليم، أي هو عالم بجميع المعلومات. فيعلم أنه كيف ينبغي ترتيبها وتسويتها حتى تحصل مصالح هذا العالم، فهذا أيضًا نوع عجيب في تسخير الله تعالى هذه الأفلاك والكواكب، فتكون داخلة تحت قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ﴾ وربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم، وذلك على خلاف المعتاد! فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته، وتقريره من وجوه: الأول: أن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها، والتأمل في أحوالها جائزًا لما ملأ الله كتابه منها.

والثاني: أنه تعالى قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[ق: ٦] فهو تعالى حث على التأمل في أنه كيف بناها ولا معنى لعلم الهيئة إلا التأمل في أنه كيف بناها وكيف خلق كل واحد منها. والثالث: أنه تعالى قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[غافر: ٥٧] فبيَّن أن عجائب الخلقة وبدائع الفطرة في أجرام السموات أكثر وأعظم وأكمل مما في أبدان الناس، ثم إنه تعالى رغب في التأمل في أبدان الناس بقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١] فما كان أعلى شأنًا وأعظم برهانًا منها أولى بأن يجب التأمل في أحوالها ومعرفة ما أودع الله فيها من العجائب والغرائب. والرابع: أنه تعالى مدح المتفكرين في خلق السموات والأرض فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[آل عمران: ١٩١] ولو كان ذلك ممنوعًا منه لما فعل. والخامس: أن من صنف كتابًا شريفًا مشتملاً على دقائق العلوم العقلية والنقلية بحيث لا يساويه كتاب في تلك الدقائق، فالمعتقدون في شرفه وفضيلته فريقان: منهم من يعتقد كونه كذلك على سبيل الجملة من غير أن يقف على ما فيه من الدقائق واللطائف على سبيل التفصيل والتعيين، ومنهم من وقف على تلك

الدقائق على سبيل التفصيل والتعيين، واعتقاد الطائفة الأولى وإن بلغ إلى أقصى الدرجات في القوة والكمال إلا أن اعتقاد الطائفة الثانية يكون أكمل وأقوى وأوفى. وأيضًا فكل من كان وقوفه على دقائق ذلك الكتاب ولطائفه أكثر كان اعتقاده في عظمة ذلك المصنف وجلالته أكمل.

إذا ثبت هذا فنقول: من الناس من اعتقد أن جملة هذا العالم محدث وكل مُحدَث فله مُحْدِث، فحصل له بهذا الطريق إثبات الصانع تعالى وصار من زمرة المستدلين، ومنهم من ضم إلى تلك الدرجة البحث عن أحوال العالم العلوي والعالم السفلي على سبيل التفصيل فيظهر له في كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة وأسرار عجيبة، فيصير ذلك جاريًا مجرى البراهين المتواترة والدلائل المتوالية على عقله، فلا يزال ينتقل كل لحظة ولمحة من برهان إلى برهان آخر، ومن دليل إلى دليل آخر، فلكثرة الدلائل وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين وإزالة الشبهات. فإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار لا لتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية عن الفوائد والحكايات الفاسدة، ونسأل الله العون والعصمة.

المسألة الرابعة: الأمر المذكور في قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ قد فسرناه بما سبق ذكره، وأما المفسرون فلهم فيه وجوه: أحدها: المراد نفاذ إرادته لأن الغرض من هذه الآية تبيين عظمته وقدرته، وليس المراد من هذا الأمر الكلام، ونظيره في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ومنهم من حمل هذا الأمر على الأمر الثاني الذي هو الكلام، وقال: إنه تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة.

المسألة الخامسة: أن الشمس والقمر من النجوم فذكرهما ثم عطف على ذكرهما ذكر النجوم والسبب في إفرادهما بالذكر أنه تعالى جعلهما سببًا لعمارة هذا العالم، والاستقصاء في تقريره لا يليق بهذا الموضع، فالشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، والشمس تأثيرها في التسخين والقمر تأثيره في الترطيب، وتولد المواليد الثلاثة أعني المعادن والنبات والحيوان لا يتم ولا يكمل إلا بتأثير الحرارة في الرطوبة. ثم إنه تعالى خص كل كوكب بخاصة عجيبة وتدبير غريب لا يعرفه بتمامه إلا الله تعالى، وجعله معينًا لهما في تلك التأثيرات والمباحث المستقصاة في علم الهيئة تدل على أن الشمس كالسلطان، والقمر كالنائب، وسائر الكواكب كالخدم، فلهذا السبب بدأ الله سبحانه بذكر الشمس وثنى القمر ثم أتبعه بذكر سائر النجوم.

أما قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا موجد ولا مؤثر إلا الله سبحانه والدليل عليه أن كل من أوجد شيئًا وأثّر في حدوث شيء فقد قدر على تخصيص ذلك الفعل بذلك الوقت فكان خالقًا، ثم الآية دلت على أنه لا خالق إلا الله لأنه قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وهذا يفيد

الحصر بمعنى أنه لا خالق إلا الله، وذلك يدل على أن كل أمر يصدر عن فلك أو ملك أو جني أو إنسي، فخالق ذلك الأمر في الحقيقة هو الله سبحانه لا غير. وإذا ثبت هذا الأصل تفرعت عليه مسائل: إحداها: أنه لا إله إلا الله إذ لو حصل إلهان لكان الإله الثاني خالقًا ومدبرًا، وذلك يناقض مدلول هذه الآية في تخصص الخلق بهذا الواحد. وثانيها: أنه لا تأثير للكواكب في أحوال هذا العالم، وإلا لحصل خالق سوى الله، وذلك ضد مدلول هذه الآية. وثالثها: أن القول بإثبات الطبائع، وإثبات العقول والنفوس على ما يقوله الفلاسفة وأصحاب الطلسمات باطل، وإلا لحصل خالق غير الله. ورابعها: خالق أعمال العباد هو الله، وإلا لحصل خالق غير الله. وخامسها: القول بأن العلم يوجب العالمية والقدرة توجب القادرية باطل وإلا لحصل مؤثر غير الله، ومقدر غير الله، وخالق غير الله، وإنه باطل.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن كلام الله قديم. قالوا: إنه تعالى ميز بين الخلق وبين الأمر، ولو كان الأمر مخلوقًا لما صح هذا التمييز. أجاب الجبائي عنه بأنه لا يلزم من إفراد الأمر بالذكر عقيب الخلق أن لا يكون الأمر داخلاً في الخلق فإنه تعالى قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾[الحجر: ١] وآيات الكتاب داخلة في القرآن وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[النحل: ٩٠] مع أن الإحسان داخل في العدل وقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[البقرة: ٩٨] وهما داخلان تحت الملائكة. وقال الكعبي: إن مدار هذه الحجة على أن المعطوف يجب أن يكون مغايرًا للمعطوف عليه، فإن صح هذا الكلام بطل مذهبكم لأنه تعالى قال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾[الأعراف: ١٥٨] فعطف الكلمات على الله فوجب أن تكون الكلمات غير الله وكل ما كان غير الله فهو محدث مخلوق، فوجب كون كلمات الله محدثة مخلوقة. وقال القاضي: أطبق المفسرون على أنه ليس المراد بهذا الأمر كلام التنزيل، بل المراد به نفاذ إرادة الله تعالى لأن الغرض بالآية تعظيم قدرته، وقال آخرون: لا يبعد أن يقال: الأمر وإن كان داخلاً تحت الخلق إلا أن الأمر بخصوص كونه أمرًا يدل على نوع آخر من الكمال والجلال فقوله: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ معناه: له الخلق والإيجاد في المرتبة الأولى، ثم بعد الإيجاد والتكوين فله الأمر والتكليف في المرتبة الثانية، ألا ترى أنه لو قال له الخلق وله التكليف وله الثواب والعقاب، كان ذلك حسنًا مفيدًا مع أن الثواب والعقاب داخلان تحت الخلق فكذا ههنا. وقال آخرون: معنى قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ هو أنه إن شاء خلق وإن شاء لم يخلق فكذا قوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ يجب أن يكون معناه: أنه إن شاء أمر وإن شاء لم يأمر، وإذا كان حصول الأمر متعلقًا بمشيئته لزم أن يكون ذلك الأمر مخلوقًا كما أنه لما كان حصول المخلوق متعلقًا بمشيئته كان مخلوقًا، أما لو كان أمر الله قديمًا لم يكن ذلك الأمر بحسب مشيئته، بل كان من لوازم ذاته. فحينئذ لا يصدق عليه أنه إن شاء أمر وإن شاء لم يأمر، وذلك ينفي ظاهر الآية.

والجواب: أنه لو كان الأمر داخلاً تحت الخلق كان إفراد الأمر بالذكر تكريرًا محضًا، والأصل عدمه. أقصى ما في الباب أنا تحملنا ذلك في صور لأجل الضرورة، إلا أن الأصل عدم التكرير. والله أعلم.

المسألة الثالثة: هذه الآية تدل على أنه ليس لأحد أن يلزم غيره شيئًا إلا الله سبحانه.

وإذا ثبت هذا فنقول: فعل الطاعة لا يوجب الثواب، وفعل المعصية لا يوجب العقاب، وإيصال الألم لا يوجب العوض وبالجملة فلا يجب على الله لأحد من العبيد شيء ألبتة، إذ لو كان فعل الطاعة يوجب الثواب لتوجه على الله من العبد مطالبة ملزمة وإلزام جازم، وذلك ينافي قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

المسألة الرابعة: دلت هذه الآية على أن القبيح لا يجوز أن يُقبَّح لوجه عائد إليه، وأن الحسن لا يجوز أن يُحسَّن لوجه عائد إليه لأن قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ يفيد أنه تعالى له أن يأمر بما شاء كيف شاء، ولو كان القبيح يقبح لوجه عائد إليه لما صح من الله أن يأمر إلا بما حصل منه ذلك الوجه، ولا أن ينهي إلا عما فيه وجه القبح فلم يكن متمكنًا من الأمر والنهي كما شاء وأراد مع أن الآية تقتضي هذا المعنى.

المسألة الخامسة: دلت هذه الآية على أنه سبحانه قادر على خلق عوالم سوى هذا العالم كيف شاء وأراد وتقريره: أنه قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ والخلق إذا أطلق أريد به الجسم المقدر أو ما يظهر تقديره في الجسم المقدر. ثم بيَّن في آية أخرى أنه أوحى في كل سماء أمرها وبيَّن في هذه الآية أنه تعالى خصص كل واحد من الشمس والقمر والنجوم بأمره، وذلك يدل على أن ما حدث بتأثير قدرة الله تعالى فتميز الأمر والخلق، ثم قال بعد هذا التفصيل والبيان ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ يعني له القدرة على الخلق وعلى الأمر على الإطلاق، فوجب أن يكون قادرًا على إيجاد هذه الأشياء وعلى تكوينها كيف شاء وأراد، فلو أراد خلق ألف عالم بما فيه من العرش والكرسي والشمس والقمر والنجوم في أقل من لحظة ولمحة لقدر عليه لأن هذه الماهيات ممكنة والحق قادر على كل الممكنات ولهذا قال المعري في قصيدة طويلة له:

يـأيـهـا الـنـاسُ كَـمْ لـلـهِ مِـنْ فَـلَـكِ ... تَجْري النجومُ به والشمسُ والقمرُ [1]

ثم قال في أثناء هذه القصيدة:

هـنـا عَـلَـى الـلـه مَـاضِـيـنَـا وغـابـرُنـا ... فَـمَـا لـنـا فـي نَـواحِـي غـيـرِه خَـطَـرُ

المسألة السادسة: قال قوم: ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ صفة من صفات الله وهو غير المخلوق، واحتجوا عليه بالآية والمعقول. أما الآية فقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ قالوا: وعند أهل السنة

---

(١) أبو العلاء المعري تقدمت ترجمته.

﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ لله لا بمعنى كونه مخلوقًا له، بل بمعنى كونه صفة له فكذلك يجب أن يكون ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾ لله لا بمعنى كونه مخلوقًا له بل بمعنى كونه صفة له، وهذا يدل على أن الخلق صفة قائمة بذات الله تعالى. وأما المعقول فهو أنا إذا قلنا: لم حدث هذا الشيء ولم وجد بعد أن لم يكن؟ فنقول: في جوابه لأنه تعالى خلقه وأوجده فحينئذ يكون هذا التعليل صحيحًا، فلو كان كونه تعالى خالقًا له نفس حصول ذلك المخلوق لكان قوله: إنه إنما حدث لأنه تعالى خلقه وأوجده جاريًا مجرى قولنا: إنه إنما حدث لنفسه ولذاته لا لشيء آخر، وذلك محال باطل، لأن صدق هذا المعنى ينفي كونه مخلوقًا من قبل الله تعالى فثبت أن كونه تعالى خالقًا للمخلوق مغايرًا لذات ذلك المخلوق، وذلك يدل على أن الخلق غير المخلوق وجوابه: لو كان الخلق غير المخلوق لكان أن كان قديمًا لزم من قِدَمه قدم المخلوق، وإن كان حادثًا افتقر إلى خلق آخر ولزم التسلسل وهو محال.

المسألة السابعة: ظاهر الآية يقتضي أنه كما لا خلق إلا لله، فكذلك لا أمر إلا لله، وهذا يتأكد بقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] وقوله: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢] وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم: ٤] إلا أنه مشكل بالآية والخبر. أما الآية فقوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] وأما الخبر فقوله عليه السلام: «**إذَا أَمَرتُكُم بِشَيءٍ فأْتُوا مِنهُ ما اسْتطعْتُمْ**»(١).

والجواب: أن أمر رسول الله ﷺ يدل على أن أمر الله قد حصل، فيكون الموجب في الحقيقة هو أمر الله لا أمر غيره، والله أعلم.

المسألة الثامنة: قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ يدل على أن لله أمرًا ونهيًا على عباده، وأن له تكليفًا على عباده، والخلاف مع نفاة التكليف. واحتجوا عليه بوجوه: أولها: أن المكلف به إن كان معلوم الوقوع كان واجب الوقوع. فكان الأمر به أمرًا بتحصيل الحاصل وأنه محال، وإن كان معلوم اللاوقوع كان ممتنع الوقوع، فكان الأمر به أمرًا بما يمتنع وقوعه وهو محال، وثانيها: أنه تعالى إن خلق الداعي إلى فعله، كان واجب الوقوع، فلا فائدة في الأمر، وإن لم يخلق الداعي إليه كان ممتنع الوقوع، فلا فائدة في الأمر به. وثالثها: أن أمر الكافر والفاسق لا يفيد إلا الضرر المحض، لأنه لما علم الله أنه لا يؤمن ولا يطيع، امتنع أن يصدر عنه الإيمان والطاعة، إلا إذا صار علم الله جهلاً، والعبد لا قدرة له على تجهيل الله، وإذا تعذر اللازم تعذر الملزوم فوجب أن يقال: لا قدرة للكافر والفاسق على الإيمان والطاعة أصلاً، وإذا كان كذلك

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحج)، باب: (فرض الحج مرة في العمر) (٢/ ٤١٢/ ٩٧٥) عن طريق الربيع بن مسلم... به، والنسائي في كتاب (مناسك الحج)، باب: (وجوب الحج) (٣/ ٧٣)، حديث رقم (٢٦١٨)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٤٤٧) عن طريق حماد... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ١٢٩)، حديث رقم (٢٥٠٨) عن طريق الربيع بن مسلم... به، كلاهما (الربيع بن مسلم، حماد) قالا حدثنا محمد بن زياد... به.

لم يحصل من الأمر به إلا مجرد استحقاق العقاب، فيكون هذا الأمر والتكليف إضرارًا محضًا من غير فائدة ألبتة، وهو لا يليق بالرحيم الحكيم، ورابعها: أن الأمر والتكليف إن لم يكن لفائدة فهو عبث، وإن كان لفائدة عائدة إلى المعبود فهو محتاج وليس بإله، وإن كان لفائدة عائدة إلى العابد. فجميع الفوائد منحصرة في تحصيل النفع، ودفع الضرر، والله تعالى قادر على تحصيلها بالتمام والكمال من غير واسطة التكليف، فكان توسيط التكليف إضرارًا محضًا من غير فائدة، وأنه لا يجوز.

واعلم أنه تعالى بيَّن في هذه الآية أنه يحسن منه أن يأمر عباده، وأن يكلفهم بما شاء واحتج عليه بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ يعني لما كان الخلق منه ثبت أنه هو الخالق لكل العبيد، وإذا كان خالقا لهم كان مالكًا لهم، وإذا كان مالكًا لهم حسن منه أن يأمرهم وينهاهم، لأن ذلك تصرف من المالك في ملك نفسه، وذلك مستحسن، فقوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ يجري مجرى الدليل القاطع على أنه يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بما شاء كيف شاء.

المسألة التاسعة: دلت الآية على أنه يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بما شاء بمجرد كونه خالقًا لهم لا كما يقوله المعتزلة من كون ذلك الفعل صلاحًا، ولا كما يقولونه أيضًا من حيث العوض والثواب، لأنه تعالى ذكر أن الخلق له أولاً، ثم ذكر الأمر بعده، وذلك يدل على أن حسن الأمر معلل بكونه خالقًا لهم موجدًا لهم، وإذا كانت العلة في حسن الأمر والتكليف، هذا القدر سقط اعتبار الحسن، والقبح، والثواب، والعقاب في اعتبار حسن الأمر والتكليف.

المسألة العاشرة: دلت هذه الآية على أنه تعالى متكلم آمر نَاهٍ مخبر مستخبر، وكان من حق هذه المسألة تقدمها على سائر المسائل، إلا أنها إنما خطرت بالبال في هذا الوقت، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فدل ذلك على أن له الأمر، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون له النهي، والخبر، والاستخبار، ضرورة أنه لا قائل بالفرق.

المسألة الحادية عشرة: أنه تعالى بيَّن كونه تعالى خالقًا للسماوات، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم.

ثم قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي لا خالق إلا هو.

ولقائل أن يقول: لا يلزم من كونه تعالى خالقًا لهذه الأشياء أن يقال: لا خالق على الإطلاق إلا هو، فلم رتب على إثبات كونه خالقًا لتلك الأشياء إثبات أنه لا خالق إلا هو على الإطلاق؟ فنقول: الحق أنه متى ثبت كونه تعالى خالقًا لبعض الأشياء، وجب كونه خالقًا لكل الممكنات، وتقريره: أن افتقار المخلوق إلى الخالق لإمكانه، والإمكان واحد في كل الممكنات، وهذا الإمكان إما أن يكون علة للحاجة إلى مؤثر متعين، أو إلى مؤثر غير متعين والثاني باطل، لأن كل ما كان موجودًا في الخارج فهو متعين في نفسه، فيلزم منه أن ما لا يكون متعينًا في نفسه لم يكن موجودًا في الخارج وما لا وجود له في الخارج امتنع أن يكون علة لوجود غيره في الخارج،

فثبت أن الإمكان علة للحاجة إلى موجد ومعين، فوجب أن يكون جميع الممكنات محتاجًا إلى ذلك المعين. فثبت أن الذي يكون مؤثرًا في وجود شيء واحد، هو المؤثر في وجود كل الممكنات.

أما قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما بيَّن كونه خالقًا للسموات، والأرض، والعرش، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم وبيَّن كون الكل مسخرًا في قدرته وقهره ومشيئته، وبين أن له الحكم والأمر والنهي والتكليف، بيَّن أنه يستحق الثناء والتقديس والتنزيه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد تقدم تفسير ﴿تَبَارَكَ﴾ فلا نعيده.

واعلم أنه تعالى بدأ في أول الآية: رب السموات والأرضين، وسائر الأشياء المذكورة، ثم ختم الآية بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والعالم كل موجود سوى الله تعالى، فبين كونه ربًّا وإلهًا وموجودًا ومحدثًا لكل ما سواه، ومع كونه كذلك فهو رب ومُرَبٍّ ومحسن ومتفضل، وهذا آخر الكلام في شرح هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على كمال القدرة والحكمة والرحمة، وعند هذا تم التكليف المتوجه إلى تحصيل المعارف النفسانية، والعلوم الحقيقية، أتبعه بذكر الأعمال اللائقة بتلك المعارف وهو الاشتغال بالدعاء والتضرع، فإن الدعاء مخ العبادة، فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ فيه قولان: قال بعضهم: اعبدوا، وقال آخرون: هو الدعاء، ومن قال بالأول عقل من الدعاء أنه طلب الخير من الله تعالى، وهذه صفة العبادة، لأنه يفعل تقرُّبًا، وطلبًا للمجازاة لأنه تعالى عطف عليه قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ والمعطوف ينبغي أن يكون مغايرًا للمعطوف عليه. والقول الثاني هو الأظهر، لأن الدعاء مغاير للعبادة في المعنى.

إذا عرفت هذا فنقول: اختلف الناس في الدعاء، فمنهم من أنكره واحتج على صحة قوله بأشياء: الأول: أن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع كان واجب الوقوع لامتناع وقوع التغيير في علم الله تعالى، وما كان واجب الوقوع لم يكن في طلبه فائدة، وإن كان معلوم اللاوقوع كان ممتنع الوقوع فلا فائدة أيضًا في طلبه. الثاني: أنه تعالى إن كان قد أراد في الأزل

إحداث ذلك المطلوب، فهو حاصل سواء حصل هذا الدعاء أو لم يحصل، وإن كان قد أراد في الأزل أن لا يعطيه فهو ممتنع الوقوع فلا فائدة في الطلب، وإن قلنا: إنه ما أراد في الأزل إحداث ذلك الشيء لا وجوده ولا عدمه، ثم إنه عند ذلك الدعاء، صار مريدًا له لزم وقوع التغير في ذات الله وفي صفاته، وهو محال. لأن على هذا التقدير: يصير إقدام العبد على الدعاء علة لحدوث صفة في ذات الله تعالى، فيكون العبد متصرفًا في صفة الله بالتبديل والتغيير، وهو محال. والثالث: أن المطلوب بالدعاء إن اقتضت الحكمة والمصلحة إعطاءه، فهو تعالى يعطيه من غير هذا الدعاء لأنه منزه عن أن يكون بخيلاً وإن اقتضت الحكمة منعه، فهو لا يعطيه سواء أقدم العبد على الدعاء أو لم يقدم عليه. والرابع: أن الدعاء غير الأمر، ولا تفاوت بين البابين إلا كون الداعي أقل رتبة، وكون الآمر أعلى رتبة وإقدام العبد على أمر الله سوء أدب، وإنه لا يجوز. الخامس: الدعاء يشبه ما إذا أقدم العبد على إرشاد ربه وإلهه إلى فعل الأصلح والأصوب، وذلك سوء أدب أو أنه ينبه الإله على شيء ما كان متنبهًا له، وذلك كفر وأنه تعالى قصَّر في الإحسان والفضل فأنت بهذا تحمله على الإقدام على الإحسان والفضل، وذلك جهل. السادس: إن الإقدام على الدعاء يدل على كونه غير راض بالقضاء إذ لو رضي بما قضاه الله عليه لترك تصرف نفسه، ولما طلب من الله شيئًا على التعيين وترك الرضا بالقضاء أمر من المنكرات. السابع: كثيرًا ما يظن العبد بشيء كونه نافعًا وخيِّرًا، ثم إنه عند دخوله في الوجود يصير سببًا للآفات الكثيرة والمفاسد العظيمة، وإذا كان كذلك كان طلب الشيء المعين من الله غير جائز، بل الأولى طلب ما هو المصلحة والخير، وذلك حاصل من الله تعالى سواء طلبه العبد بالدعاء أو لم يطلبه. فلم يبق في الدعاء فائدة. الثامن: أن الدعاء عبارة عن توجه القلب إلى طلب شيء من الله تعالى، وتوجه القلب إلى طلب ذلك الشيء المعين يمنع القلب من الاستغراق في معرفة الله تعالى، وفي محبته، وفي عبوديته، وهذه مقامات عالية شريفة، وما يمنع من حصول المقامات العالية الشريفة كان مذمومًا. التاسع: روي أنه عليه الصلاة والسلام. قال حاكيًا عن الله سبحانه: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائلينَ**» وذلك يدل على أن الأولى ترك الدعاء. العاشر: أن علم الحق محيط بحاجة العبد، والعبد إذا علم أن مولاه عالم باحتياجه، فسكت ولم يذكر تلك الحاجة كان ذلك أدخل في الأدب، وفي تعظيم المولى مما إذا أخذ يشرح كيفية تلك الحالة، ويطلب ما يدفع تلك الحاجة، وإذا كان الحال على هذا الوجه في الشاهد، وجب اعتبار مثله في حق الله سبحانه، ولذلك يقال أن الخليل عليه السلام لما وضع في المنجنيق ليرمى إلى النار. قال جبريل عليه السلام: ادع ربك. فقال الخليل عليه السلام: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فهذه الوجوه هي المذكورة في هذا الباب.

واعلم أن الدعاء نوع من أنواع العبادة والأسئلة المذكورة واردة في جميع أنواع العبادات، فإنه يقال: إن كان هذا الإنسان سعيدًا في علم الله فلا حاجة إلى الطاعات والعبادات، وإن كان

شقيا في علمه فلا فائدة في تلك العبادات، وأيضًا يقال وجب أن لا يقدم الإنسان على أكل الخبز وشرب الماء لأنه إن كان هذا الإنسان شبعان في علم الله تعالى فلا حاجة إلى أكل الخبز، وإن كان جائعًا فلا فائدة في أكل الخبز، وكما أن هذا الكلام باطل ههنا، فكذا فيما ذكروه، بل نقول الدعاء يفيد معرفة ذلة العبودية ويفيد معرفة عزة الربوبية، وهذا هو المقصود الأشرف الأعلى من جميع العبادات وبيانه أن الداعي لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه كونه محتاجًا إلى ذلك المطلوب وكونه عاجزًا عن تحصيله وعرف من ربه وإلهه أنه يسمع دعاءه، ويعلم حاجته وهو قادر على دفع تلك الحاجة وهو رحيم تقتضي رحمته إزالة تلك الحاجة، وإذا كان كذلك فهو لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف كونه موصوفًا بالحاجة وبالعجز وعرف كون الإله سبحانه موصوفًا بكمال العلم والقدرة والرحمة، فلا مقصود من جميع التكاليف إلا معرفة ذل العبودية وعز الربوبية، فإذا كان الدعاء مستجمعًا لهذين المقامين لا جرم كان الدعاء أعظم أنواع العبادات.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إشارة إلى المعنى الذي ذكرناه لأن التضرع لا يحصل إلا من الناقص في حضرة الكامل فما لم يعتقد العبد نقصان نفسه وكمال مولاه في العلم والقدرة والرحمة لم يقدم على التضرع، فثبت أن المقصود من الدعاء ما ذكرناه، فثبت أن لفظ القرآن دليل عليه والذي يقوي ما ذكرناه ما روي أنه عليه السلام قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعاءِ والدُّعَاءُ هُوَ العِبادَةُ»[1] ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وتمام الكلام في حقائق الدعاء مذكور في سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] والله أعلم.

المسألة الثانية: في تقرير شرائط الدعاء.

اعلم أن المقصود من الدعاء أن يصير العبد مشاهدًا لحاجة نفسه ولعجز نفسه ومشاهدًا لكون مولاه موصوفًا بكمال العلم والقدرة والرحمة، فكل هذه المعاني دخلت تحت قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ ثم إذا حصلت هذه الأحوال على سبيل الخلوص، فلا بد من صونها عن الرياء المبطل لحقيقة الإخلاص، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ والمقصود من ذكر التضرع تحقيق الحالة الأصلية المطلوبة من الدعاء والمقصود من ذكر الإخفاء صون ذلك الإخلاص عن شوائب الرياء، وإذا عرفت هذا المعنى ظهر لك أن قوله سبحانه: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ مشتمل على كل ما يراد تحقيقه وتحصيله في شرائط الدعاء، وأنه لا يزيد عليه البتة بوجه من الوجوه، وأما

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ٣٦٢)، حديث رقم (٨٧٣٣)، وابن حبان في (صحيحه) (٣/ ١٥١)، حديث رقم (٨٧٠)، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٢٤٩)، حديث رقم (٧١٢)، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٦٦٦)، حديث رقم (١٨٠١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والطبراني في (الأوسط) (٤/ ١٠١)، حديث رقم (٣٧٠٦)، وأبو زرعة في (الفوائد المعللة) (١/ ١٤)، حديث رقم (١٦٣)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٨)، حديث رقم (١١٠٦)، جميعًا من طريق قتادة عن سعيد بن الحسن عن أبي هريرة... به، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

تفصيل الكلام في تلك الشرائط، فقد بالغ في شرحها الشيخ سليمان الحليمي رحمة الله عليه في كتاب المنهاج فليطلب من هناك.

المسألة الثالثة: (التضرع) التذلل والتخشع، وهو إظهار ذل النفس من قولهم: ضرع فلان لفلان، وتضَرَّع له إذا أظهر الذل له في معرض السؤال (والخفية) ضد العلانية. يقال: أخفيت الشيء إذا سترته، ويقال: (خِفْية) أيضًا بالكسر، وقرأ عاصم وحده في رواية أبي بكر عنه (خفية) بكسر الخاء ههنا وفي الأنعام، والباقون بالضم، وهما لغتان:

واعلم أن الإخفاء معتبر في الدعاء، ويدل عليه وجوه: الأول: هذه الآية فإنها تدل على أنه تعالى أمر بالدعاء مقرونًا بالإخفاء، وظاهر الأمر للوجوب، فإن لم يحصل الوجوب، فلا أقل من كونه ندبًا.

ثم قال تعالى بعده: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ والأظهر أن المراد أنه لا يحب المعتدين في ترك هذين الأمرين المذكورين، وهما التضرع والإخفاء، فإن الله لا يحبه ومحبة الله تعالى عبارة عن الثواب، فكان المعنى أن من ترك في الدعاء التضرع والإخفاء، فإن الله لا يثيبه ألبتة، ولا يحسن إليه، ومن كان كذلك كان من أهل العقاب لا محالة، فظهر أن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ كالتهديد الشديد على ترك التضرع والإخفاء في الدعاء.

الحجة الثانية: أنه تعالى أثنى على زكريا فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] أي أخفاه عن العباد وأخلصه لله وانقطع به إليه.

الحجة الثالثة: ما روى أبو موسى الأشعري، أنهم كانوا في غزاة فأشرفوا على واد فجعلوا يكبرون ويهللون رافعي أصواتهم فقال عليه السلام: «**ارْفقوا على أنفُسِكُمْ فإنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ، ولا غَائِبًا، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وإنَّهُ لَمَعَكُمْ**»(١).

الحجة الرابعة: قوله عليه السلام: «**دَعْوَةُ السِّرِّ تَعْدِلُ سَبعِيْنَ دَعْوَة في العَلانِيَةِ**»(٢) وعنه عليه السلام: «**خَيْرُ الذِّكْرِ الخَفِيُّ وخيرُ الرِّزْقِ ما يَكْفِي**»(٣) وعن الحسن أنه كان يقول: إن الرجل كان

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد)، باب: (ما يكره من رفع الصوت في التكبير) (٣/ ١٠٩١)، حديث رقم (٢٨٣٠)، قال: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم عن أبي عثمان عن أبي موسى. . . به، وفي كتاب (المغازي)، باب: (غزوة خيبر) (٤/ ١٥١٤)، حديث رقم (٣٩٦٨)، قال: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد عن عاصم. . . به، ومسلم في كتاب (الذكر والدعاء)، باب: (استحباب خفض الصوت بالذكر) (٤/ ٢٠٧٦/ ٢٧٠٤)، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضل وأبو معاوية عن عاصم عن أبي عثمان. . . به.

(٢) عبد الرزاق في (المصنف) (١٠/ ٤٤٢)، حديث رقم (١٩٦٤٥) من طريق معمر عمن سمع الحسن يقول فذكره موقوفًا وهذا الإسناد منقطع، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٣٥٩٨)، وقال: ضعيف جدًا.

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ١٧٢)، حديث رقم (١٤٧٧)، وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٧٦)، حديث رقم (١٣٧)، وابن حبان في (صحيحه) (٣/ ٩١)، حديث رقم (٨٠٩)، والقضاعي في (مسند

يجمع القرآن وما يشعر به جاره، يفقه الكثير وما يشعر به الناس، ويصلي الصلاة الطويلة في ليله وعنده الزائرون وما يشعرون به ولقد أدركنا أقوامًا كانوا يبالغون في إخفاء الأعمال، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع صوتهم إلا همسًا، لأن الله تعالى قال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ وذكر الله عبده زكريا فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣].

الحجة الخامسة: المعقول وهو أن النفس شديدة الميل عظيمة الرغبة في الرياء والسمعة، فإذا رفع صوته في الدعاء امتزج الرياء بذلك الدعاء فلا يبقى فيه فائدة ألبتة فكان الأولى إخفاء الدعاء ليبقى مصونًا عن الرياء وههنا مسائل عظم اختلاف أرباب الطريقة فيها، وهي: أنه هل الأولى إخفاء العبادات أم إظهارها؟ فقال بعضهم: الأولى إخفاؤها صونًا لها عن الرياء وقال آخرون: الأولى إظهارها ليرغب الغير في الاقتداء به في أداء تلك العبادات. وتوسط الشيخ محمد بن عيسى الحكيم الترمذي فقال: إن كان خائفًا على نفسه من الرياء الأولى الإخفاء صونًا لعمله عن البطلان، وإن كان قد بلغ في الصفاء وقوة اليقين إلى حيث صار آمنًا عن شائبة الرياء كان الأولى في حقه الإظهار لتحصُل فائدة الاقتداء.

المسألة الرابعة: قال أبو حنيفة رحمه الله: إخفاء التأمين أفضل. وقال الشافعي رحمه الله: إعلانه أفضل، واحتج أبو حنيفة على صحة قوله، قال: في قوله: (آمين) وجهان: أحدهما: أنه دعاء. والثاني: أنه من أسماء الله، فإن كان دعاء وجب إخفاؤه لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ وإن كان اسمًا من أسماء الله تعالى وجب إخفاؤه لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فإن لم يثبت الوجوب فلا أقل من الندبية ونحن بهذا القول نقول:

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أجمع المسلمون على أن المحبة صفة من صفات الله تعالى، لأن القرآن نطق بإثباتها في آيات كثيرة. واتفقوا على أنه ليس معناها شهوة النفس وميل الطبع وطلب التلذذ بالشيء، لأن كل ذلك في حق الله تعالى محال بالاتفاق، واختلفوا في تفسير المحبة في حق الله تعالى على ثلاثة أقوال:

فالقول الأول: أنها عبارة عن إيصال الله الثواب والخير والرحمة إلى العبد.

والقول الثاني: أنها عبارة عن كونه تعالى مريدًا لإيصال الثواب والخير إلى العبد. وهذا الاختلاف بناء على مسألة أخرى وهي: أنه تعالى هل هو موصوف بصفة الإرادة أم لا؟ قال

الشهاب) (٢/ ٢١٧)، حديث رقم (١٢١٨)، جميعًا من طريق أسامة بن زيد الليثي قال الحافظ: صدوق يهم كذا في التقريب وقال النسائي وغيره: ليس بالقوي كذا بالكاشف للذهبي وشيخه ابن أبي لهيعة قال الحافظ: ضعيف كثير الإرسال وقال ابن معين: ليس بشيء، وضعفه الألباني في (ضعيف الجامع) (٦٦٣٢).

الكعبي وأبو الحسين: إنه تعالى غير موصوف بالإرادة ألبتة، فكونه تعالى مريدًا لأفعال نفسه أنه موجد لها وفاعل لها، وكونه تعالى مريدًا لأفعال غيره كونه آمرًا بها ولا يجوز كونه تعالى موصوفًا بصفة الإرادة. وأما أصحابنا ومعتزلة البصرة فقد أثبتوا كونه تعالى موصوفًا بصفة المريدية، إذا عرفت هذا فمن نفى الإرادة في حق الله تعالى فسر محبة الله بمجرد إيصال الثواب إلى العبد ومن أثبت الإرادة لله تعالى فسر محبة الله بإرادته لإيصال الثواب إليه.

والقول الثالث: أنه لا يبعد أن تكون محبة الله تعالى للعبد صفة وراء كونه تعالى مريدًا لإيصال الثواب إليه، وذلك لأنا نجد في الشاهد أن الأب يحب ابنه فيترتب على تلك المحبة إرادة إيصال الخير إلى ذلك الابن فكانت هذه الإرادة أثرًا من آثار تلك المحبة وثمرة من ثمراتها وفائدة من فوائدها. أقصى ما في الباب أن يقال: إن هذه المحبة في الشاهد عبارة عن الشهوة وميل الطبع ورغبة النفس وذلك في حق الله تعالى محال، إلا أنا نقول: لم لا يجوز أن يقال محبة الله تعالى صفة أخرى، سوى الشهوة وميل الطبع يترتب عليها إرادة إيصال الخير والثواب إلى العبد؟ أقصى ما في الباب، أنا لا نعرف أن تلك المحبة ما هي وكيف هي؟ إلا أن عدم العلم بالشيء لا يوجب العلم بعدم ذلك الشيء ألا ترى أن أهل السنة يثبتون كونه تعالى مرئيًا، ثم يقولون: إن تلك الرؤية مخالفة لرؤية الأجسام والألوان، بل هي رؤية بلا كيف، فلم لا يقولون ههنا أيضًا أن محبة الله للعبد محبة منزهة عن ميل الطبع وشهوة النفس بل هي محبة بلا كيف؟ فثبت أن جزم المتكلمين بأنه لا معنى لمحبة الله إلا إرادة إيصال الثواب ليس لهم على هذا الحصر دليل قاطع. بل أقصى ما في الباب أن يقال: لا دليل على إثبات صفة أخرى سوى الإرادة فوجب نفيها، لكنا بينا في كتاب نهاية العقول أن هذه الطريقة ضعيفة ساقطة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي المجاوزين ما أمروا به. قال الكلبي وابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء.

المسألة الثالثة: اعلم أن كل من خالف أمر الله تعالى ونهيه، فقد اعتدى وتعدى فيدخل تحت قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وقد بينا أن من لا يحبه الله فإنه يعذبه، فظاهر هذه الآية يقتضي أن كل من خالف أمر الله ونهيه، فإنه يكون معاقبًا، والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق، وقالوا: لا يجوز أن يقال المراد منه الاعتداء في رفع الصوت بالدعاء وبيانه من وجهين: الأول: أن لفظ (المعتدين) لفظ عام دخله الألف واللام، فيفيد الاستغراق غايته أنه إنما ورد في هذه الصورة لكنه ثبت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. الثاني: أن رفع الصوت بالدعاء ليس من المحرمات بل غايته أن يقال الأولى تركه، وإذا لم يكن من المحرمات لم يدخل تحت هذا الوعيد.

والجواب المستقصى ما ذكرناه في سورة البقرة أن التمسك بهذه العمومات لا يفيد القطع بالوعيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ معناه: ولا تفسدوا شيئًا في الأرض، فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل، وإفساد الأديان بالكفر والبدعة، وإفساد الأنساب بسبب الإقدام على الزنا واللواطة وسبب القذف، وإفساد العقول بسبب شرب المسكرات، وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة: النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول. فقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ منع عن إدخال ماهية الإفساد في الوجود، والمنع من إدخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه، فيتناول المنع من الإفساد في هذه الأقسام الخمسة، وأما قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيحتمل أن يكون المراد بعد أن أصلح خلقتها على الوجه المطابق لمنافع الخلق والموافق لمصالح المكلفين، ويحتمل أن يكون المراد بعد إصلاح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب كأنه تعالى قال: لما أصلحت مصالح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب وتفصيل الشرائع فكونوا منقادين لها، ولا تقدموا على تكذيب الرسل وإنكار الكتب والتمرد عن قبول الشرائع، فإن ذلك يقتضي وقوع الهرج والمرج في الأرض، فيحصل الإفساد بعد الإصلاح، وذلك مستكره في بداهة العقول.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار الحرمة والمنع على الإطلاق.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصًا خاصًا دل على جواز الإقدام على بعض المضار قضينا به تقديمًا للخاص على العام وإلا بقي على التحريم الذي دل عليه هذا النص.

واعلم أنا كنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المنافع واللذات الإباحة والحل، ثم بينا أنه لما كان الأمر كذلك دخل تحت تلك الآية جميع أحكام الله تعالى، فكذلك في هذه الآية أنها تدل على أن الأصل في المضار والآلام الحرمة.

وإذا ثبت هذا كان جميع أحكام الله تعالى داخلًا تحت عموم هذه الآية، وجميع ما ذكرناه من المباحث واللطائف في تلك الآية فهي موجودة في هذه الآية، فتلك الآية دالة على أن الأصل في المنافع الحِل، وهذه الآية دالة على أن الأصل في جميع المضار الحرمة، وكل واحدة من هاتين الآيتين مطابقة للأخرى مؤكدة لمدلولها مقررة لمعناها، وتدل على أن أحكام جميع الوقائع داخلة تحت هذه العمومات، وأيضًا هذه الآية دالة على أن كل عقد وقع التراضي عليه بين الخصمين، فإنه انعقد وصح وثبت، لأن رفعه بعد ثبوته يكون إفسادًا بعد الإصلاح، والنص دل على أنه لا يجوز.

إذا ثبت هذا فنقول: أن مدلول هذه الآية من هذا الوجه متأكد بعموم قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾

[المائدة: ١]وبعموم قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]وتحت قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨ المعارج: ٣٢] وتحت سائر العمومات الواردة في وجوب الوفاء بالعهود والعقود.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصًا دالاً على أن بعض العقود التي وقع التراضي به من الجانبين غير صحيح، قضينا فيه بالبطلان تقديمًا للخاص على العام، وإلا حكمنا فيه بالصحة رعاية لمدلول هذه العمومات. وبهذا الطريق البين الواضح ثبت أن القرآن وافٍ ببيان جميع أحكام الشريعة من أولها إلى آخرها.

ثم قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

وفيه سؤالات:

السؤال الأول: قال في أول الآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ ثم قال: ﴿وَادْعُوهُ﴾ وهذا يقتضي عطف الشيء على نفسه وهو باطل.

والجواب: أن الذين قالوا في تفسير قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ أي اعبدوه إنما قالوا ذلك خوفًا من هذا الإشكال. فإن قلنا بهذا التفسير فقد زال السؤال، وإن قلنا المراد من قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ هو الدعاء كان الجواب أن قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يدل على أن الدعاء لا بد وأن يكون مقرونًا بالتضرع وبالإخفاء، ثم بيّن في قوله ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أن فائدة الدعاء هو أحد هذين الأمرين، فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء، والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء ومنفعته.

السؤال الثاني: إن المتكلمين اتفقوا على أن من عبد ودعا لأجل الخوف من العقاب والطمع في الثواب لم تصح عبادته، وذلك لأن المتكلمين فريقان: منهم من قال: التكاليف إنما وردت بمقتضى الإلهية والعبودية، فكونه إلهًا لنا وكوننا عبيدًا له يقتضي أن يحسن منه أن يأمر عبيده بما شاء كيف شاء، فلا يعتبر منه كونه في نفسه صلاحًا وحسنًا، وهذا قول أهل السنة. ومنهم من قال: التكاليف إنما وردت لكونها في أنفسها مصالح؛ وهذا هو قول المعتزلة.

إذا عرفت هذا فنقول: أما على القول الأول: فوجه وجوب بعض الأعمال، وحرمة بعضها مجرد أمر الله بما أوجبه ونهيه عما حرمه، فمن أتى بهذه العبادات صحت. أما من أتى بها خوفًا من العقاب، أو طمعًا في الثواب، وجب أن لا يصح، لأنه ما أتى بها لأجل وجه وجوبها، وأما على القول الثاني: فوجه وجوبها هو كونها في أنفسها مصالح، فمن أتى بها للخوف من العقاب، أو للطمع في الثواب فلم يأت بها لوجه وجوبها، فوجب أن لا تصح، فثبت أن على كلا المذهبين من أتى بالدعاء وسائر العبادات لأجل الخوف من العقاب، والطمع في الثواب، وجب أن لا يصح.

إذا ثبت هذا فنقول: ظاهر قوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ يقتضي أنه تعالى أمر المكلف بأن يأتي بالدعاء لهذا الغرض، وقد ثبت بالدليل فساده، فكيف طريق التوفيق بين ظاهر هذه الآية وبين ما ذكرناه من المعقول.

والجواب: ليس المراد من الآية ما ظننتم، بل المراد: وادعوه مع الخوف من وقوع التقصير، في بعض الشرائط المعتبرة في قبول ذلك الدعاء، ومع الطمع في حصول تلك الشرائط بأسرها، وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل؟

السؤال الثالث: هل تدل هذه الآية على أن الداعي لا بد وأن يحصل في قلبه هذا الخوف والطمع؟

والجواب: أن العبد لا يمكنه أن يقطع بكونه آتيًا بجميع الشرائط المعتبرة في قبول الدعاء، ولأجل هذا المعنى يحصل الخوف، وأيضًا لا يقطع بأن تلك الشرائط مفقودة، فوجب كونه طامعًا في قبولها فلا جرم.

قلنا: بأن الداعي لا يكون داعيًا إلا إذا كان كذلك فقوله: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ أي أن تكونوا جامعين في نفوسكم بين الخوف والرجاء في كل أعمالكم، ولا تقطعوا أنكم وإن اجتهدتم فقد أديتم حق ربكم. ويتأكد هذا بقوله: ﴿يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن الرحمة عبارة عن إيصال الخير والنعمة أو عن إرادة إيصال الخير والنعمة، فعلى التقدير الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال، وعلى هذا التقدير الثاني تكون من صفات الذات، وقد استقصينا هذه المسألة في تفسير ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١].

المسألة الثانية: قال بعض أصحابنا: ليس لله في حق الكافر رحمة ولا نعمة. واحتجوا بهذه الآية، وبيانه: أن هذه الآية تدل على أن كل ما كان رحمة فهي قريبة من المحسنين، فيلزم أن يكون كل ما لا يكون قريبًا من المحسنين، أن لا يكون رحمة، والذي حصل في حق الكافر غير قريب من المحسنين، فوجب أن لا يكون رحمة من الله ولا نعمة منه.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن رحمة الله قريب من المحسنين، فلما كان كل هذه الماهية حصل للمحسنين وجب أن لا يحصل منها نصيب لغير المحسنين، فوجب أن لا يحصل شيء من رحمة الله في حق الكافرين، والعفو عن العذاب رحمة، والتخلص من النار بعد الدخول فيها رحمة، فوجب أن لا يحصل ذلك لمن لم يكن من المحسنين، والعصاة وأصحاب الكبائر ليسوا محسنين، فوجب أن لا يحصل لهم العفو عن العقاب، وأن لا يحصل لهم الخلاص من النار.

الجواب: أن من آمن بالله وأقر بالتوحيد والنبوة، فقد أحسن بدليل أن الصبي إذا بلغ وقت الضحوة، وآمن بالله ورسوله واليوم الآخر ومات قبل الوصول إلى الظهر فقد أجمعت الأمة على أنه دخل تحت قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] ومعلوم أن هذا الشخص لم يأت بشيء من الطاعات سوى المعرفة والإقرار، لأنه لما بلغ بعد الصبح لم تجب عليه صلاة الصبح، ولما مات قبل الظهر لم تجب عليه صلاة الظهر، وظاهره أن سائر العبادات لم تجب عليه. فثبت أنه محسن، وثبت أنه لم يصدر منه إلا المعرفة والإقرار، فوجب كون هذا القدر إحسانًا، فيكون فاعله محسنًا.

إذا ثبت هذا فنقول: كل من حصل له الإقرار والمعرفة كان من المحسنين، ودلت هذه الآية على أن رحمة الله قريب من المحسنين، فوجب بحكم هذه الآية أن تصل إلى صاحب الكبيرة من أهل الصلاة رحمة الله، وحينئذ تنقلب هذه الآية حجة عليهم.

فإن قالوا: المحسنون هم الذين أتوا بجميع وجوه الإحسان. فنقول: هذا باطل، لأن المحسن من صدر عنه مسمى الإحسان وليس من شرط كونه محسنًا أن يكون آتيًا بكل وجوه الإحسان كما أن العالم هو الذي له العلم وليس من شرطه أن يُحصِّلَ جميع أنواع العلم، فثبت بهذا أن السؤال الذي ذكروه ساقط وأن الحق ما ذهبنا إليه.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: مقتضى علم الإعراب أن يقال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين فما السبب في حذف علامة التأنيث؟ وذكروا في الجواب عنه وجوهًا: الأول: أن الرحمة تأنيثها ليس بحقيقي وما كان كذلك فإنه يجوز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة. الثاني: قال الزجاج: إنما قال: ﴿قَرِيبٌ﴾ لأن الرحمة والغفران والعفو والإنعام بمعنى واحد فقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بمعنى إنعام الله قريب وثواب الله قريب فأجرى حكم أحد اللفظين على الآخر. الثالث: قال النضر بن شميل: الرحمة مصدر ومن حق المصادر التذكير كقوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥] فهذا راجع إلى قول الزجاج؛ لأن الموعظة أريد بها الوعظ، فلذلك ذَكَّرَه قال الشاعر:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُروءَةَ ضُمِّنا ... قَبرًا بمَرو عَلى الطَّريقِ الواضِحِ[1]

قيل: أراد بالسماحة السخاء وبالمروءة الكرم. والرابع: أن يكون التأويل إن رحمة الله ذات مكان قريب من المحسنين كما قالوا: حائضٌ ولابِنٌ وتامِرٌ أي ذات حيض ولبن وتمر. قال الواحدي: أخبرني العروضي عن الأزهري عن المنذري عن الحراني عن ابن السكيت قال: تقول العرب: هو قريب مني وهما قريب مني وهم قريب مني وهي قريب مني، لأنه في تأويل

(١) البيت لزياد الأعجم وهو زياد بن سليمان أو سليم الأعجم، أبو أمامة العبدي، مولى بني عبد القيس. ؟ - ١٠٠هـ/ ؟ - ٧١٨م. من شعراء الدولة الأموية وأحد فحول الشعر العربي بخراسان، كانت في لسانه عجمة فلقب بالأعجم، ولد ونشأ في أصفهان وانتقل إلى خراسان، فسكنها وطال عمره ومات فيها.

هو في مكان قريب مني، وقد يجوز أيضًا قريبة وبعيدة تنبيهًا على معنى قربت وبعدت بنفسها.

المسألة الخامسة: تفسير هذا القرب هو أن الإنسان يزداد في كل لحظة قربًا من الآخرة، وبُعدًا من الدنيا، فإن الدنيا كالماضي، والآخرة كالمستقبل، والإنسان في كل ساعة ولحظة ولمحة يزداد بعدًا عن الماضي، وقربًا من المستقبل. ولذلك قال الشاعر:

فَلَا زالَ مَا تَهواهُ أقْرَبَ من غَدِ ولا زال مَا تخشاهُ أبْعَدَ من أَمسِ (١)

ولما ثبت أن الدنيا تزداد بعدا في كل ساعة، وأن الآخرة تزداد قربًا في كل ساعة، وثبت أن رحمة الله إنما تحصل بعد الموت، لا جرم ذكر الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بناء على هذا التأويل.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

اعلم أن في كيفية النظم وجهين: الأول: أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية. وكمال العلم، والقدرة من العالم العلوي، وهو السموات والشمس والقمر والنجوم، أتبعه بذكر الدلائل من بعض أحوال العالم السفلي. واعلم أن أحوال هذا العالم محصورة في أمور أربعة: الآثار العلوية، والمعادن، والنبات، والحيوان، ومن جملة الآثار العلوية الرياح، والسحاب، والأمطار ويترتب على نزول الأمطار أحوال النبات، وذلك هو المذكور في هذه الآية.

الوجه الثاني: في تقرير النظم أنه تعالى لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم، أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة ليحصل بمعرفة هاتين الآيتين كل ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ والمعاد، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (الريح) على لفظ الواحد، والباقون (الرياح) على لفظ الجمع، فمن قرأ (الرياح) بالجمع حسن وصفها بقوله: ﴿بُشْرًا﴾ فإنه وصف الجمع بالجمع، ومن قرأ (الرِّيح) واحدة قرأ (بُشرًا) جمعًا لأنه أراد بالريح الكثرة كقولهم كثير الدرهم والدينار والشاة والبعير وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

---

(١) هذا البيت لدراج القسطلي وهو أحمد بن محمد بن العاصي بن دراج القسطلي الأندلسي أبو عمر. ٣٤٧ - ٤٢١ هـ/ ٩٥٨ - ١٠٣٠ م، شاعر كاتب من أهل (قسطلّة درّاج) قرية غرب الأندلس، منسوبة إلى جده. كان شاعر المنصور أبي عامر، وكاتب الإنشاء في أيامه. قال الثعالبي: كان بالأندلس كالمتنبي بالشام.

[العصر: ٣] فلما كان المراد بالريح الجمع وصفها بالجمع وأما قوله: ﴿بُشْرًا﴾ ففيه قراءات: إحداها: قراءة الأكثرين (نُشُرًا) بضم النون والشين، وهو جمع نُشُور مثل رُسُل ورَسُول، والنُّشُور بمعنى المُنْشَر كالرُّكُوب بمعنى المركوب، فكان المعنى رياح منشرة أي مفرقة من كل جانب والنشر: التفريق، ومنه نشر الثوب، ونشر الخشبة بالمنشار. وقال الفراء: النشر من الرياح الطيبة اللينة التي تنشر السحاب واحدها نشور وأصله من النشر، وهو الرائحة الطيبة ومنه قول امرئ القيس ونشر العطر.

والقراءة الثانية: قرأ ابن عامر (نُشْرًا) بضم النون وإسكان الشين، فخفف العين كما يقال كُتْب ورُسْل.

والقراءة الثالثة: قرأ حمزة (نَشْرًا) بفتح النون وإسكان الشين والنشر مصدر نشرت الثوب ضد طويته ويراد بالمصدر ههنا المفعول والرياح كأنها كانت مطوية، فأرسلها الله تعالى منشورة بعد انطوائها، فقوله: (نَشْرًا) مصدر هو حال من الرياح والتقدير: أرسل الرياح منشرات، ويجوز أيضًا أن يكون النشر هنا بمعنى الحياة من قولهم: أنشر الله الميت فنشر. قال الأعشى:

يا عَجَبا لِلمَيِّتِ الناشِرِ

فإذا حملته على ذلك وهو الوجه. كان المصدر مرادًا به الفاعل كما تقول: أتاني ركضًا أي راكضًا، ويجوز أيضًا أن يقال: أن أرسل ونشر متقاربان، فكأنه قيل: وهو الذي ينشر الرياح نشرا.

والقراءة الرابعة: حكى صاحب (الكشاف) عن مسروق (نَشْرا) بمعنى منشورات فعل بمعنى مفعول كنقض وحسب ومنه قولهم: ضم نشره.

والقراءة الخامسة: قراءة عاصم (بُشْرًا) بالباء المنقطة بالمنطقة الواحدة من تحت جمع بشيرا على بشر من قوله تعالى: ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] أي تبشر بالمطر والرحمة، وروى صاحب (الكشاف) (بُشُرًا) بضم الشين وتخفيفه و(بَشْرًا) بفتح الباء وسكون الشين مصدر من بشره بمعنى بشره أي باشرات وبشرى.

المسألة الثانية: اعلم أن قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ثم نقول: حد الريح أنه هواء متحرك فنقول: كون هذا الهواء متحركًا ليس لذاته ولا للوازم ذاته، وإلا لدامت الحركة بدوام ذاته فلا بد وأن يكون لتحريك الفاعل المختار وهو الله جل جلاله. قالت الفلاسفة: ههنا سبب آخر وهو أنه يرتفع من الأرض أجزاء أرضية لطيفة تسخنه تسخينًا قويًّا شديدًا فبسبب تلك السخونة الشديدة ترتفع وتتصاعد، فإذا وصلت إلى القرب من الفلك كان الهواء الملتصق بمقعر الفلك متحركًا على استدارة الفلك بالحركة المستديرة التي حصلت لتلك الطبقة من الهواء فيمنع هذه الأدخنة من الصعود بل يردها عن سمت حركتها، فحينئذ ترجع تلك الأدخنة وتتفرق في الجوانب، وبسبب

ذلك التفرق تحصل الرياح، ثم كلما كانت تلك الأدخنة أكثر، وكان صعودها أقوى كان رجوعها أيضًا أشد حركة فكانت الرياح أقوى وأشد. هذا حاصل ما ذكروه، وهو باطل، ويدل على بطلانه وجوه: الأول: أن صعود الأجزاء الأرضية إنما يكون لأجل شدة تسخينها، ولا شك أن ذلك التسخن عَرَضٌ لأن الأرض باردة يابسة بالطبع، فإذا كانت تلك الأجزاء الأرضية متصعدة جدًّا كانت سريعة الانفعال، فإذا تصاعدت، ووصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء امتنع بقاء الحرارة فيها بل تبرد جدًّا، وإذا بردت امتنع بلوغها في الصعود إلى الطبقة الهوائية المتحركة بحركة الفلك، فبطل ما ذكروه.

الوجه الثاني: هب أن تلك الأجزاء الدخانية صعدت إلى الطبقة الهوائية المتحركة بحركة الفلك لكنها لما رجعت، وجب أن تنزل على الاستقامة، لأن الأرض جسم ثقيل، والثقيل إنما يتحرك بالاستقامة والرياح ليست كذلك، فإنها تتحرك يمنة ويسرة.

الوجه الثالث: وهو أن حركة تلك الأجزاء الأرضية النازلة لا تكون حركة قاهرة، فإن الرياح إذا أحضرت الغبار الكثير، ثم عاد ذلك الغبار، ونزل على السطوح لم يحس أحد بنزولها، وترى هذه الرياح تقلع الأشجار وتهدم الجبال وتموج البحار.

والوجه الرابع: أنه لو كان الأمر على ما قالوه، لكانت الرياح كلما كانت أشد، وجب أن يكون حصول الأجزاء الغبارية الأرضية أكثر، لكنه ليس الأمر كذلك لأن الرياح قد يعظم عصوفها وهبوبها في وجه البحر، مع أن الحس يشهد أنه ليس في ذلك الهواء المتحرك العاصف شيء من الغبار والكدرة فبطل ما قالوه، وبطل بهذا الوجه العلة التي ذكروها في حركة الرياح.

قال المنجمون: إن قوى الكواكب هي التي تحرك هذه الرياح وتوجب هبوبها، وذلك أيضًا بعيد لأن الموجب لهبوب الرياح إن كان طبيعة الكواكب وجب دوام الرياح بدوام تلك الطبيعة، وإن كان الموجب هو طبيعة الكوكب بشرط حصوله في البرج المعين والدرجة المعينة وجب أن يتحرك هواء كل العالم، وليس كذلك، وأيضًا قد بينا أن الأجسام متماثلة باختصاص الكوكب المعين والبرج المعين فالطبيعة التي لأجلها اقتضت ذلك الأثر الخاص، لا بد وأن تكون بتخصيص الفاعل المختار. فثبت بهذا البرهان الذي ذكرناه أن محرك الرياح هو الله سبحانه وتعالى. وثبت بالدليل العقلي صحة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ .

المسألة الثالثة: قوله: (نُشُرًا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ) فيه فائدتان: إحداهما: أن قوله: (نُشُرًا) أي منشرة متفرقة، فجزء من أجزاء الريح يذهب يمنة، وجزء آخر يذهب يسرة، وكذا القول في سائر الأجزاء، فإن كل واحد منها يذهب إلى جانب آخر فنقول: لا شك أن طبيعة الهواء طبيعة واحدة ونسبة الأفلاك والأنجم والطبائع إلى كل واحد من الأجزاء التي لا تتجزأ من تلك الريح نسبة واحدة، فاختصاص بعض أجزاء الريح بالذهاب يمنة والجزء الآخر بالذهاب يسرة وجب أن لا يكون ذلك إلا بتخصيص الفاعل المختار.

والفائدة الثانية: في الآية أن قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي بين يدي المطر الذي هو رحمته والسبب في حسن هذا المجاز أن اليدين يستعملهما العرب في معنى التقدمة على سبيل المجاز يقال: إن الفتن تحدث بين يدي الساعة، يريدون قبيلها، والسبب في حسن هذا المجاز، أن يدي الإنسان متقدماته فكل ما كان يتقدم شيئًا يطلق عليه لفظ اليدين على سبيل المجاز لأجل هذه المشابهة فلما كانت الرياح تتقدم المطر، لا جرم عبر عنه بهذا اللفظ.

فإن قيل: فقد نجد المطر ولا تتقدمه الرياح فنقول: ليس في الآية أن هذا التقدم حاصل في كل الأحوال، فلم يتوجه السؤال، وأيضًا فيجوز أن تتقدمه هذه الرياح وإن كنا لا نشعر بها.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ يقال: أقلَّ فلان الشيء إذا حمله قال صاحب (الكشاف): واشتقاق الإقلال من القلة، لأن من يرفع شيئًا فإنه يرى ما يرفعه قليلاً، وقوله: ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي بالماء جمع سحابة، والمعنى حتى إذا حملت هذه الرياح سحابًا ثقالاً بما فيها من الماء والمعنى أن السحاب الكثيف المستطير للمياه العظيمة إنما يبقى معلقًا في الهواء لأنه تعالى دبر بحكمته أن يحرك الرياح تحريكًا شديدًا، فلأجل الحركات الشديدة التي في تلك الرياح تحصل فوائد: إحداها: أن أجزاء السحاب ينضم بعضها إلى البعض ويتراكم وينعقد السحاب الكثيف الماطر. وثانيها: أن بسبب تلك الحركات الشديدة التي في تلك الرياح يمنة ويسرة يمتنع على تلك الأجزاء المائية النزول، فلا جرم يبقى متعلقًا في الهواء. وثالثها: أن بسبب حركات تلك الرياح ينساق السحاب من موضع إلى موضع آخر وهو الموضع الذي علم الله تعالى احتياجهم إلى نزول الأمطار وانتفاعهم بها. ورابعها: أن حركات الرياح تارة تكون جامعة لأجزاء السحاب موجبة لانضمام بعضها إلى البعض حتى ينعقد السحاب الغليظ، وتارة تكون مفرقة لأجزاء السحاب مبطلة لها. وخامسها: أن هذه الرياح تارة تكون مقوية للزروع والأشجار مكملة لما فيها من النشوّ والنماء وهي الرياح اللواقح، وتارة تكون مبطلة لها كما تكون في الخريف. وسادسها: أن هذه الرياح تارة تكون طيبة لذيذة موافقة للأبدان، وتارة تكون مهلكة إما بسبب ما فيها من الحر الشديد كما في السَّموم أو بسبب ما فيها من البرد الشديد كما في الرياح الباردة المهلكة جدًا. وسابعها: أن هذه الرياح تارة تكون شرقية، وتارة تكون غربية وشمالية وجنوبية. وهذا ضبط ذكره بعض الناس وإلا فالرياح تهب من كل جانب من جوانب العالم ولا ضبط لها، ولا اختصاص لجانب من جوانب العالم بها. وثامنها: أن هذه الرياح تارة تصعد من قعر الأرض فإن من ركب البحر يشاهد أن البحر يحصل غليان شديد فيه بسبب تولد الرياح في قعر البحر إلى ما فوق البحر، وحينئذ يعظم هبوب الرياح في وجه البحر، وتارة ينزل الريح من جهة فوق فاختلاف الرياح بسبب هذه المعاني أيضًا عجيب، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: الرياح ثمان: أربع منها عذاب، وهو القاصف، والعاصف، والصرصر، والعقيم، وأربعة منها رحمة: الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات، وعن

النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»(١) والجنوب من ريح الجنة، وعن كعب: لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لأنتن أكثر الأرض، وعن السدي: أنه تعالى يرسل الرياح فيأتي بالسحاب ثم إنه تعالى يبسطه في السماء كيف يشاء ثم يفتح أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك، ورحمته هو المطر.

إذا عرفت هذا فنقول: اختلاف الرياح في الصفات المذكورة، مع أن طبيعة الهواء واحدة، وتأثيرات الطبائع والأنجم والأفلاك واحدة، يدل على أن هذه الأحوال لم تحصل إلا بتدبير الفاعل المختار سبحانه وتعالى.

ثم قال تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ والمعنى أنا نسوق ذلك السحاب إلى بلد ميت لم ينزل فيه غيث ولم ينبت فيه خضرة.

فإن قيل: السحاب إن كان مذكرًا يجب أن يقول: حتى إذا أقلت سحابًا ثقيلاً، وإن كان مؤنثًا يجب أن يقول سقناه فكيف التوفيق؟!

والجواب: أن السحاب لفظه مذكر وهو جمع سحابة فكان ورود الكناية عنه على سبيل التذكير جائزًا، نظرًا إلى اللفظ، وعلى سبيل التأنيث أيضًا جائزًا، نظرًا إلى كونه جمعًا، أما (اللام) في قوله: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ﴾ ففيه قولان: قال بعضهم: هذه (اللام) بمعنى إلى يقال هديته للدين وإلى الدين. وقال آخرون: هذه (اللام) بمعنى من أجل، والتقدير سقناه لأجل بلد ميت ليس فيه حيًّا يسقيه. وأما البلد فكل موضع من الأرض عامر أو غير عامر، خال أو مسكون فهو بلد والطائفة منه بلدة والجميع البلاد والفلاة تسمى بلدة قال الأعشى:

وَبَلْدَةٍ مِثْلِ ظَهرِ التُرسِ موحِشَةٍ ... لِلجِنِّ بِاللَيلِ في حافاتِها زَجَلُ(٢)

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ اختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ إلى ماذا يعود؟ قال الزجاج وابن الأنباري: جائز أن يكون فأنزلنا بالبلد الماء، وجائز أن يكون فأنزلنا بالسحاب الماء، لأن السحاب آلة لإنزال الماء.

ثم قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الكناية عائدة إلى الماء، لأن إخراج الثمرات كان بالماء. قال الزجاج: وجائز أن يكون التقدير فأخرجنا بالبلد من كل الثمرات، لأن البلد ليس يخص به هنا بلد دون بلد، وعلى القول الأول، فالله تعالى إنما يخلق الثمرات بواسطة الماء. وقال أكثر المتكلمين: إن الثمار غير متولدة من الماء، بل الله تعالى أجرى عادته بخلق النبات ابتداء عقيب اختلاط الماء بالتراب، وقال جمهور الحكماء: لا يمتنع أن يقال إنه تعالى أودع في الماء قوة

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في (صحيحه) (١/ ٣٥٠)، حديث رقم (٩٨٨)، ومسلم في (صحيحه) (٢/ ٦١٧/ ٩٠٠)، كلاهما من طريق عن مجاهد عن ابن عباس... به، الصبا: هي الريح الشرقية. والدبور: مقابلها أي من الغرب. ا.هـ بتصرف. (الفتح) (٦/ ٣٠١).

(٢) الأعشى تقدمت ترجمته.

طبيعية، ثم إن تلك القوة الطبيعية توجب حدوث الأحوال المخصوصة عند امتزاج الماء بالتراب وحدوث الطبائع المخصوصة. والمتكلمون احتجوا على فساد هذا القول، بأن طبيعة الماء والتراب واحدة. ثم إنا نرى أنه يتولد في النبات الواحد أحوال مختلفة مثل العنب فإن قشره بارد يابس، ولحمه وماؤه حار رطب، وعجمه بارد يابس، فتولد الأجسام الموصوفة بالصفات المختلفة من الماء والتراب، يدل على أنها إنما حدثت بإحداث الفاعل المختار لا بالطبع والخاصة.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وفيه قولان: الأول: أن المراد هو أنه تعالى كما يخلق النبات بواسطة إنزال الأمطار، فكذلك يحيي الموتى بواسطة مطر ينزله على تلك الأجسام الرميمة. وروي أنه تعالى يمطر على أجساد الموتى فيما بين النفختين مطرًا كالمني أربعين يومًا، وإنهم ينبتون عند ذلك ويصيرون أحياء. قال مجاهد: إذا أراد الله أن يبعثهم أمطر السماء عليهم حتى تنشق عنهم الأرض كما ينشق الشجر عن النور والثمر، ثم يرسل الأرواح فتعود كل روح إلى جسدها.

والقول الثاني: أن التشبيه إنما وقع بأصل الأحياء بعد أن كان ميتًا، والمعنى: أنه تعالى كما أحيا هذا البلد بعد خرابه، فأنبت فيه الشجر وجعل فيه الثمر، فكذلك يحيي الموتى بعد أن كانوا أمواتًا، لأن من يقدر على إحداث الجسم، وخلق الرطوبة والطعم فيه، فهو أيضًا يكون قادرًا على إحداث الحياة في بدن الميت، والمقصود منه إقامة الدلالة على أن البعث والقيامة حق.

واعلم أن الذاهبين إلى القول الأول إن اعتقدوا أنه لا يمكن بعث الأجساد إلا بأن يمطر على تلك الأجساد البالية مطرًا على صفة المني، فقد أبعد، ولأن الذي يقدر على أن يحدث في ماء المطر الصفات التي باعتبارها صار المني منيًا ابتداء، فلم لا يقدر على خلق الحياة والجسم ابتداء؟ وأيضًا فهب أن ذلك المطر ينزل إلا أن أجزاء الأموات غير مختلطة، فبعضها يكون بالمشرق، وبعضها يكون بالمغرب، فمن أين ينفع إنزال ذلك المطر في توليد تلك الأجساد؟

فإن قالوا: إنه تعالى بقدرته وبحكمته يخرج تلك الأجزاء المتفرقة فلم لم يقولوا: إنه بقدرته وحكمته يخلق الحياة في تلك الأجزاء ابتداء من غير واسطة ذلك المطر؟ وإن اعتقدوا أنه تعالى قادر على إحياء الأموات ابتداء، إلا أنه تعالى إنما يحييهم على هذا الوجه كما أنه قادر على خلق الأشخاص في الدنيا ابتداء، إلا أنه أجرى عادته بأنه لا يخلقهم إلا من الأبوين فهذا جائز.

ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى: أنكم لما شاهدتم أن هذه الأرض كانت مزينة وقت الربيع والصيف بالأزهار والثمار، ثم صارت عند الشتاء ميتة عارية عن تلك الزينة، ثم إنه تعالى أحياها مرة أخرى، فالقادر على إحيائها بعد موتها يجب كونه أيضًا قادرًا على إحياء الأجساد بعد موتها، فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ المراد منه تذكر أنه لما لم يمتنع هذا المعنى في إحدى الصورتين وجب أن لا يمتنع في الصورة الأخرى.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في هذه الآية قولان:

القول الأول: وهو المشهور أن هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر بالأرض الخيرة والأرض السبخة، وشبه نزول القرآن بنزول المطر، فشبه المؤمن بالأرض الخيرة التي نزل عليها المطر فيحصل فيها أنواع الأزهار والثمار، وأما الأرض السبخة فهي وإن نزل المطر عليها لم يحصل فيها من النبات إلا النزر القليل، فكذلك الروح الطاهرة النقية عن شوائب الجهل والأخلاق الذميمة إذا اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع من الطاعات والمعارف والأخلاق الحميدة، والروح الخبيثة الكدرة وإن اتصل به نور القرآن لم يظهر فيه من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل.

والقول الثاني: أنه ليس المراد من الآية تمثيل المؤمن والكافر، وإنما المراد أن الأرض السبخة يقل نفعها وثمرتها، ومع ذلك فإن صاحبها لا يهمل أمرها بل يتعب نفسه في إصلاحها طمعًا منه في تحصيل ما يليق بها من المنفعة. فمن طلب هذا النفع اليسير بالمشقة العظيمة، فلأن يطلب النفع العظيم الموعود به في الدار الآخرة بالمشقة التي لا بد من تحملها في أداء الطاعات، كان ذلك أولى.

المسألة الثانية: هذه الآية دالة على أن السعيد لا ينقلب شقيًّا وبالعكس، وذلك لأنها دلت على أن الأرواح قسمان: منها ما تكون في أصل جوهرها طاهرة نقية مستعدة لأن تعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ومنها ما تكون في أصل جوهرها غليظة كدرة بطيئة القبول للمعارف الحقيقية، والأخلاق الفاضلة، كما أن الأراضي منها ما تكون سبخة فاسدة، وكما أنه لا يمكن أن يتولد في الأراضي السبخة تلك الأزهار والثمار التي تتولد في الأرض الخيرة، فكذلك لا يمكن أن يظهر في النفس البليدة والكدرة الغليظة من المعارف اليقينية والأخلاق الفاضلة مثل ما يظهر في النفس الطاهرة الصافية، ومما يقوي هذا الكلام أنا نرى النفوس مختلفة في هذه الصفات فبعضها مجبولة على حب عالم الصفاء والإلهيات منصرفة عن اللذات الجسمانية كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ﴾ [المائدة: ٨٣] ومنها قاسية شديدة القسوة والنفرة عن قبول هذه المعاني كما قال: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ [البقرة: ٧٤] ومنها ما تكون شديدة الميل إلى قضاء الشهوة متباعدة عن أحوال الغضب، ومنها ما تكون شديدة الميل إلى إمضاء الغضب، وتكون متباعدة عن أعمال الشهوة بل نقول: من النفوس ما تكون عظيمة الرغبة في المال دون الجاه، ومنهم من يكون بالعكس، والراغبون في طلب المال منهم من يكون عظيم الرغبة في العقار وتفضل رغبته في النقود، ومنهم من تعظم رغبته في تحصيل النقود ولا يرغب في الضِّيَاع والعقار، وإذا تأملت في

هذا النوع من الاعتبار تيقنت أن أحوال النفوس مختلفة في هذه الأحوال اختلافًا جوهريًا ذاتيًا لا يمكن إزالته ولا تبديله، وإذا كان كذلك امتنع من النفس الغليظة الجاهلة المائلة بالطبع إلى أفعال الفجور أن تصير نفسًا مشرقة بالمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة، ولما ثبت هذا كان تكليف هذه النفس بتلك المعارف اليقينية والأخلاق الفاضلة جاريًا مجرى تكليف ما لا يطاق فثبت بهذا البيان: أن السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه، وأن النفس الطاهرة يخرج نباتها من المعارف اليقينية والأخلاق الفاضلة بإذن ربها، والنفس الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكدًا قليل الفائدة والخير، كثير الفضول والشر.

والوجه الثاني: من الاستدلال بهذه الآية في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ وذلك يدل على أن كل ما يعمله المؤمن من خير وطاعة لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى.

المسألة الثالثة: قرئ (يُخْرِجُ نَبَاتَهُ) أي يخرجه البلد وينبته.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ قال الفراء: يقال: خبث الشيء يخبث خبثًا وخباثة. وقوله: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ النكد: العَسِر الممتنع من إعطاء الخير على جهة البخل. وقال الليث: النكد: الشؤم واللؤم وقلة العطاء، ورجل أنكد ونكد قال:

وَأَعطِ ما أعطيتَهُ طَيِّبًا ... لا خَيرَ في المَنكودِ وَالناكِدِ(١)

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ صفة للبلد ومعناه والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكدًا، فحذف المضاف الذي هو النبات، وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى ذلك البلد مقامه، إلا أنه كان مجرورًا بارزًا فانقلب مرفوعًا مستكنًا لوقوعه موقع الفاعل، أو يقدر: ونبات الذي خبث، وقرئ (نَكَدًا) بفتح الكاف على المصدر أي ذا نكد.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ قرئ (يُصَرِّفُ) أي يصرفها الله، وإنما ختم هذه الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لأن الذي سبق ذكره هو أنه تعالى يحرك الرياح اللطيفة النافعة ويجعلها سببًا لنزول المطر الذي هو الرحمة ويجعل تلك الرياح والأمطار سببًا لحدوث أنواع النبات النافعة اللطيفة اللذيذة، فهذا من أحد الوجهين ذكر الدليل الدال على وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته، ومن الوجه الثاني تنبيه على إيصال هذه النعمة العظيمة إلى العباد، فلا جرم كانت من حيث إنها دلائل على وجود الصانع وصفاته آيات ومن حيث إنها نعم يجب شكرها، فلا جرم قال: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ وإنما خص كونها آيات بالقوم الشاكرين لأنهم هم المنتفعون بها، فهو كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

---

(١) هذا البيت لأعشى همدان وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث بن نظام بن جشم الهمداني؟ - ٨٣هـ/ ؟ - ٧٠٢م. شاعر اليمانيين، بالكوفة وفارسهم في عصره. ويعد من شعراء الدولة الأموية. كان أحد الفقهاء القراء، وقال الشعر فعرف به وكان من الغزاة أيام الحجاج، غزا الديلم وله شعر كثير في وصف بلادهم ووقائع المسلمين معهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة، وبينات قاهرة، وبراهين باهرة أتبعها بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، وفيه فوائد: أحدها: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات ليس من خواص قوم محمد عليه الصلاة والسلام بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة، والمصيبة إذا عمَّت خفَّت. فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم على الجهل والعناد يفيد تسلية الرسول عليه السلام وتخفيف ذلك على قلبه. وثانيها: أنه تعالى يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى الكفر واللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا والسعادة في الآخرة، وذلك يقوي قلوب المحقين ويكسر قلوب المبطلين. وثالثها: التنبيه على أنه تعالى وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ولكنه لا يهملهم بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه. ورابعها: بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، لأنه عليه السلام كان أميًّا وما طالع كتابًا ولا تلمذ أستاذًا، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله، وذلك يدل على صحة نبوته.

ولقائل أن يقول: الإخبار عن الغيوب الماضية لا يدل على المعجز، لاحتمال أن يقال: إن إبليس شاهد هذه الوقائع فألقاها إليه، أما الإخبار عن الغيوب المستقبلة فإنه معجز لأن علم الغيب ليس إلا لله سبحانه وتعالى.

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه السورة قصة آدم عليه السلام، وقد سبق ذكرها.

والقصة الثانية: قصة نوح عليه السلام وهي المذكورة في هذه الآية وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف.

فإن قالوا: ما السبب في أنهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام إلا مع قد، وذكر هذه اللام بدون قد نادر كقوله:

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حِلْفَةَ فَاجِرٍ ... لَنَامُوا ... ...(١)

(١) هذا البيت لامرئ القيس وتقدمت ترجمته.

قلنا: إنما كان كذلك لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيدًا للجملة المقسم عليها التي هي جوابها فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى (قد) عند استماع المخاطب كلمة القسم.

المسألة الثانية: قرأ الكسائي (غَيرِه) بكسر الراء على أنه نعت للإله على اللفظ والباقون بالرفع على أنه صفة للإله على الموضع لأن تقدير الكلام ما لكم إله غيره، وقال أبو علي: وجه من قرأ بالرفع قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢] فكما أن قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بدل من قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ كذلك قوله: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ يكون بدلاً من قوله: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ فيكون (غير) رفعًا بالاستثناء، وقال صاحب الكشاف: قرئ (غير) الحركات الثلاث، وذكر وجه الرفع والجر كما تقدم، قال وأما النصب فعلى الاستثناء بمعنى: ما لكم من إله إلا إياه كقولك ما في الدار من أحد إلا زيدًا وغير زيد.

المسألة الثالثة: قال الواحدي: في الكلام حذف، وهو خبر (ما) لأنك إذا جعلت (غيره) صفة لقوله: (إله) لم يبق لهذا المنفي خبر، والكلام لا يستقل بالصفة والموصوف، لأنك إذا قلت زيد العاقل وسكت، لم يفد ما لم تذكر خبره. ويكون التقدير: ما لكم من إله غيره في الوجود، أقول: اتفق النحويون على أن قولنا: لا إله إلا الله لا بد فيه من إضمار، والتقدير: لا إله في الوجود أو لا إله لنا إلا الله ولم يذكروا على هذا الكلام حجة، فإنا نقول: لم لا يجوز أن يقال دخل حرف النفي على هذه الحقيقة؟ وعلى هذه الماهية، فيكون المعنى أنه لا تحقق لحقيقة الإلهية إلا في حق الله، وإذا حملنا الكلام على هذا المعنى استغنينا عن الإضمار الذي ذكروه.

فإن قالوا: صرف النفي إلى الماهية لا يمكن لأن الحقائق لا يمكن نفيها، فلا يمكن أن يقال: لا سواد بمعنى ارتفاع هذه الماهية، وإنما الممكن أن يقال: إن تلك الحقائق غير موجودة ولا حاصلة، وحينئذ يجب إضمار الخبر.

فنقول: هذا الكلام بناء على أن الماهية لا يمكن انتفاؤها وارتفاعها، وذلك باطل قطعًا. إذ لو كان الأمر كذلك لوجب امتناع ارتفاع الوجود لأن الوجود أيضًا حقيقة من الحقائق وماهية فلم لا يمكن ارتفاع سائر الماهيات؟

فإن قالوا: إذا قلنا: لا رجل، وعنينا به نفي كونه موجودًا، فهذا النفي لم ينصرف إلى ماهية الوجود، وإنما انصرف إلى كون ماهية الرجل موصوفة بالوجود.

فنقول: تلك الموصوفية يستحيل أن تكون أمرًا زائدًا على الماهية وعلى الوجود، إذ لو كانت الموصوفية ماهية، والوجود ماهية أخرى، لكانت تلك الماهية موصوفة أيضًا بالوجود، والكلام فيه كما فيما قبله، فيلزم التسلسل، ويلزم أن لا يكون الموجود الواحد موجودًا واحدًا، بل موجودات غير متناهية وهو محال. ثم نقول: موصوفية الماهية بالوجود إما أن يكون أمرًا مغايرًا للماهية والوجود، وإما أن لا يكون كذلك. فإن لم يكن أمرًا مغايرًا لها فحينئذ يكون لذلك المغاير ماهية ووجود، وماهيته لا تقبل الارتفاع، وحينئذ يعود السؤال المذكور. فثبت بما ذكرنا

أن الماهية إن لم تقبل النفي والرفع، امتنع صرف حرف النفي إلى شيء من المفهومات، فإن كانت الماهية قابلة للنفي والرفع، فحينئذ يمكن صرف كلمة (لا) في قولنا: لا إله إلا الله إلى هذه الحقيقة، وحينئذ لا يحتاج إلى التزام الحذف والإضمار الذي يذكره النحويون، فهذا كلام عقلي صرف، وقع في هذا البحث الذي ذكره النحويون.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ فيه قولان: قال ابن عباس: بعثنا. وقال آخرون: معنى الإرسال أنه تعالى حمله رسالة يؤديها، فالرسالة على هذا التقدير تكون متضمنة للبعث، فيكون البعث كالتابع لا أنه الأصل، وهذا البحث بناء على مسألة أصولية، وهي أنه هل من شرط إرسال الرسول إلى قوم، أن يعرفهم على لسانه أحكامًا لا سبيل لهم إلى معرفتها بعقولهم، أوليس ذلك بشرط؟ بل يكون الغرض من بعثة الرسل مجرد تأكيد ما في العقول، وهذا الخلاف إنما يليق بتفاريع المعتزلة، ولا يليق بتفاريع مذاهبنا وأصولنا.

المسألة الخامسة: في الآية فوائد:

الفائدة الأولى: أنه تعالى حكى عن نوح في هذه الآية ثلاثة أشياء: أحدها: أنه عليه السلام أمرهم بعبادة الله تعالى. والثاني: أنه حكم أن لا إله غير الله، والمقصود من الكلام الأول إثبات التكليف، والمقصود من الكلام الثاني الإقرار بالتوحيد.

ثم قال عقيبه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ولا شك أن المراد منه إما عذاب يوم القيامة، وعلى هذا التقدير: فهو قد خوفهم بيوم القيامة، وهذا هو الدعوى الثالثة، أو عذاب يوم الطوفان، وعلى هذا التقدير: فقد ادعى الوحي والنبوة من عند الله، والحاصل أنه تعالى حكى عنه أنه ذكر هذه الدعاوى الثلاثة، ولم يذكر على صحة واحد منها دليلاً ولا حجة، فإن كان قد أمرهم بالإنذار بها على سبيل التقليد، فهذا باطل، لما أن القول بالتقليد باطل. وأيضًا فالله تعالى قد ملأ القرآن من ذم التقليد، فكيف يليق بالرسول المعصوم الدعوة إلى التقليد؟ وإن كان قد أمرهم بالإقرار بها مع ذكر الدليل، فهذا الدليل غير مذكور.

واعلم أنه تعالى ذكر في أول سورة البقرة دلائل التوحيد والنبوة، وصحة المعاد، وذلك تنبيه منه تعالى على أن أحدًا من الأنبياء لا يدعو أحدًا إلى هذه الأصول إلا بذكر الحجة والدليل. أقصى ما في الباب أنه تعالى ما حكى عن نوح تلك الدلائل في هذا المقام إلا أن تلك الدلائل لما كانت معلومة لم يكن إلى ذكرها حاجة في هذا المقام، فترك الله تعالى ذكر الدلائل لهذا السبب.

الفائدة الثانية: أنه عليه السلام ذكر أولاً قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وثانيًا قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ والثاني كالعلة للأول، لأنه إذا لم يكن لهم إله غيره كان كل ما حصل عندهم من وجوه النفع والإحسان والبر واللطف حاصلاً من الله، ونهاية الإنعام توجب نهاية التعظيم، فإنما وجبت عبادة الله لأجل العلم بأنه لا إله إلا الله، ويتفرع على هذا البحث مسألة وهي: أنا قبل العلم بأن

لا إله واحد أو أكثر من واحد لا نعلم أن المنعم علينا بوجوه النعم الحاصلة عندنا هو هذا أم ذاك؟ وإذا جهلنا ذلك فقد جهلنا من كان هو المنعم في حقنا. وحينئذ لا يحسن عبادته، فعلى هذا القول كان العلم بالتوحيد شرطًا للعلم بحسن العبادة.

الفائدة الثالثة: في هذه الآية أن ظاهر هذه الآية يدل على أنه الإله هو الذي يستحق العبادة لأن قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ إثبات ونفي، فيجب أن يتواردا على مفهوم واحد حتى يستقيم الكلام، فكان المعنى أعبدوا الله ما لكم من معبود غيره، حتى يتطابق النفي والإثبات، ثم ثبت بالدليل أن الإله ليس هو المعبود وإلا لوجب كون الأصنام آلهة، وأن لا يكون الإله إلهًا في الأزل لأجل أنه في الأزل غير معبود، فوجب حمل لفظ الإله على أنه المستحق للعبادة.

واعلم أنهم اختلفوا في معنى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ هل هو اليقين، أو الخوف بمعنى الظن والشك. قال قوم: المراد منه الجزم واليقين، لأنه كان جازمًا بأن العذاب ينزل بهم إما في الدنيا وإما في الآخرة إن لم يقبلوا ذلك الدين. وقال آخرون: بل المراد منه الشك وتقريره من وجوه: الأول: أنه إنما قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ لأنه جوَّز أن يؤمنوا كما جوز أن يستمروا على كفرهم، ومع هذا التجويز لا يكون قاطعًا بنزول العذاب، فوجب أن يذكره بلفظ الخوف.
والثاني: أن حصول العقاب على الكفر والمعصية أمر لا يعرف إلا بالسمع ولعل الله تعالى ما بيَّن له كيفية هذه المسألة فلا جرم بقي متوقفًا مجوزًا أنه تعالى هل يعاقبهم على ذلك الكفر أم لا؟
والثالث: يحتمل أن يكون المراد من الخوف الحذر كما قال في الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ [النحل: ٥٠] أي يحذرون المعاصي خوفًا من العقاب. الرابع: أنه بتقدير أن يكون قاطعًا بنزول أصل العذاب لكنه ما كان عارفًا بمقدار ذلك العذاب، وهو أنه عظيم جدًا أو متوسط، فكان هذا الشك راجعًا إلى وصف العقاب، وهو كونه عظيمًا أم لا، لا في أصل حصوله.

ثم إنه تعالى حكى ما ذكره في قومه، فقال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وقال المفسرون: ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء، والدليل عليه أن قوله ﴿مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ يقتضي أن ذلك الملأ بعض قومه، وذلك البعض لا بد وأن يكونوا موصوفين بصفة لأجلها استحقوا هذا الوصف، وذلك بأن يكونوا هم الذين يملؤون صدور المجالس، وتمتلئ القلوب من هيبتهم، وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم، وتتوجه العيون في المحافل إليهم، وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء، وذلك يدل على أن المراد من الملأ الرؤساء والأكابر. وقوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ هذه الرؤية لا بد وأن تكون بمعنى الاعتقاد والظن دون المشاهدة والرؤية. وقوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في خطأ ظاهر وضلال بيِّن، ولا بد وأن يكون مرادهم نسبة نوح إلى الضلال في المسائل الأربع التي بينا أن نوحًا عليه السلام ذكرها، وهي التكليف والتوحيد والنبوة والمعاد، ولما ذكروا هذا الكلام. أجاب نوح عليه السلام بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾.

فإن قالوا: إن القوم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فجوابه أن يقال: ليس بي ضلال، فلم ترك هذا الكلام، وقال: ليس بي ضلالة؟

قلت: لأن قوله: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ أي ليس بي نوع من أنواع الضلالة ألبتة، فكان هذا أبلغ في عموم السلب، ثم إنه عليه السلام لما نفى عن نفسه العيب الذي وصفوه به، ووصف نفسه بأشرف الصفات وأجلها، وهو كونه رسولاً إلى الخلق من رب العالمين. ذكر ما هو المقصود من الرسالة، وهو أمران: الأول: تبليغ الرسالة. والثاني: تقرير النصيحة. فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو (أُبْلِغكم) بالتخفيف، من أَبلَغ، والباقون بالتشديد. قال الواحدي: وكلا الوجهين جاء في التنزيل، فالتخفيف قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ [هود: ٥٧] والتشديد ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

المسألة الثانية: الفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة معناه: أن يعرفهم أنواع تكاليف الله وأقسام أوامره ونواهيه، وأما النصيحة: فهو أنه يرغبه في الطاعة، ويحذره عن المعصية، ويسعى في تقرير ذلك الترغيب والترهيب لأبلغ وجوه، وقوله: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ يدل على أنه تعالى حمله أنواعًا كثيرة من الرسالة. وهي أقسام التكاليف من الأوامر والنواهي، وشرح مقادير الثواب والعقاب في الآخرة، ومقادير الحدود والزواجر في الدنيا، وقوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ قال الفراء: لا تكاد العرب تقول: نصحتك، إنما تقول: نصحت لك، ويجوز أيضًا نصحتك. قال النابغة:

نَصَحتُ بَني عَوفٍ فَلَم يَتَقَبَّلوا … رسُولي وَلَم تَنجَح لَدَيهِم رَسائِلي[(١)]

وحقيقة النصح الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه، والمعنى: أني أبلغ إليكم تكاليف الله، ثم أرشدكم إلى الأصوب الأصلح، وأدعوكم إلى ما دعاني، وأحب إليكم ما أحبه لنفسي.

ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفيه وجوه:

الأول: وأعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان.

الثاني: وأعلم أنه يعاقبكم في الآخرة عقابًا شديدًا خارجًا عما تتصوره عقولكم.

الثالث: يجوز أن يكون المراد: وأعلم من توحيد الله وصفات جلاله ما لا تعلمون ويكون المقصود من ذكر هذا الكلام: حمل القوم على أن يرجعوا إليه في طلب تلك العلوم.

---

(١) تقدمت ترجمة النابغة.

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟﴾ يدل على أن مراد القوم من قولهم لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأعراف: ٦٠] هو أنهم نسبوه في ادعاء النبوة إلى الضلال، وذلك من وجوه: أحدها: أنهم استبعدوا أن يكون لله رسول إلى خلقه، لأجل أنهم اعتقدوا أن المقصود من الإرسال هو التكليف. والتكليف لا منفعة فيه للمعبود لكونه متعاليًا عن النفع والضرر، ولا منفعة فيه للعابد، لأنه في الحال يوجب المضرة العظيمة، وكل ما يرجى فيه من الثواب ودفع العقاب، فالله قادر على تحصيله بدون واسطة التكليف، فيكون التكليف عبثًا، والله متعال عن العبث، وإذا بطل التكليف بطل القول بالنبوة. وثانيها: أنهم وإن جوزوا التكليف إلا أنهم قالوا: ما عُلِمَ حسنه بالعقل فعلناه، وما عُلِمَ قبحه تركناه، وما لا نعلم فيه لا حسنه ولا قبحه، فإن كنا مضطرين إليه فعلناه، لعلمنا أنه متعال عن أن يكلف عبده ما لا طاقة له به، وإن لم نكن مضطرين إليه تركناه للحذر عن خطر العقاب، ولما كان رسول العقل كافيًا فلا حاجة إلى بعثة رسول آخر. وثالثها: أن بتقدير: أنه لا بد من الرسول؛ فإن إرسال الملائكة أولى، لأن مهابتهم أشد، وطهاراتهم أكمل، واستغناءهم عن المأكول والمشروب أظهر، وبعدهم عن الكذب والباطل أعظم. ورابعها: أن بتقدير: أن يبعث رسولاً من البشر، فلعل القوم اعتقدوا أن من كان فقيرًا، ولم يكن له تبع ورياسة فإنه لا يليق به منصب الرسالة، ولعلهم اعتقدوا أن الذي ظن نوح عليه السلام أنه من باب الوحي، فهو من جنس الجنون والعته وتخييلات الشيطان، فهذا هو الإشارة إلى مجامع الوجوه التي لأجلها أنكر الكفار رسالة رجل معين، فلهذه الأسباب حكموا على نوح بالضلالة، ثم إن نوحًا عليه السلام أزال تعجبهم وقال: إنه تعالى خالق الخلق فله بحكم الإلهية أن يأمر عبيده ببعض الأشياء وينهاهم عن بعضها، ولا يجوز أن يخاطبهم بتلك التكاليف من غير واسطة، لأن ذلك ينتهي إلى حد الإلجاء، وهو ينافي التكليف، ولا يجوز أن يكون ذلك الرسول واحدًا من الملائكة لما ذكرناه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾[الأنعام: ٩] فبقي أن يكون إيصال تلك التكاليف إلى الخلق بواسطة إنسان، وذلك الإنسان إنما يُبَلِّغهم تلك التكاليف لأجل أن ينذرهم ويحذرهم، ومتى أنذرهم اتقوا مخالفة تكليف الله، ومتى اتقوا مخالفة تكليف الله استوجبوا رحمة الله، فهذا هو المراد من قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية.

أما قوله: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ﴾ فالهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم أن جاءكم؟ أي عجبتم أن جاءكم ذكر. وذكروا في تفسير هذا الذكر وجوهًا. قال الحسن: إنه الوحي الذي جاءهم به. وقال آخرون: المراد بهذا الذكر المعجز، ثم ذلك المعجز يحتمل وجهين: أحدهما: أنه تعالى كان قد أنزل عليه كتابًا، وكان ذلك الكتاب معجزًا، فسماه الله تعالى ذكرًا، كما سمى القرآن بهذا الاسم، وجعله معجزة لمحمد ﷺ. والثاني: أن ذلك المعجز كان شيئًا آخر سوى الكتاب. وقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ قال الفراء: ﴿عَلَىٰ﴾ ههنا بمعنى مع كما تقول: جاء بالخبر على وجهه ومع وجهه، كلاهما جائز. وقال ابن قتيبة: أي على لسان رجل منكم، كما قال ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] أي على لسان رسلك. وقال آخرون: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ منزل على رجل، وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أي تعرفون نسبه فهو منكم نسبًا، وذلك لأن كونه منهم يزيل التعجب، لأن المرء بمن هو من جنسه أعرف، وبطهارة أحواله أعلم، وبما يقتضي السكون إليه أبصر، ثم بيَّن تعالى ما لأجله يبعث الرسول، فقال: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ وما لأجله ينذر، فقال: ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ وما لأجله يتقون، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهذا الترتيب في غاية الحسن، فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى، الفوز بالرحمة في دار الآخرة. قال الجبائي والكعبي والقاضي: هذه الآية دالة على أنه تعالى أراد من الذين بعث الرسل إليهم، التقوى والفوز بالرحمة، وذلك يبطل قول من يقول: إنه تعالى أراد من بعضهم الكفر والعناد، وخلقهم لأجل العذاب والنار.

وجواب أصحابنا أن نقول: إن لم يتوقف الفعل على الداعي لزم رجحان الممكن لا لمرجح، وإن توقف لزم الجبر، ومتى لزم ذلك وجب القطع، فإنه تعالى أراد الكفر من الكافر، وذلك يبطل مذهبكم. ثم بيَّن تعالى أنهم مع ذلك كذبوه في ادعاء النبوة وتبليغ التكاليف من الله وأصروا على ذلك التكذيب، ثم إنه تعالى أنجاه في الفلك وأنجى من كان معه من المؤمنين وأغرق الكفار والمكذبين. وبيَّن العلة في ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤] قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد، قال أهل اللغة: يقال رجل عمٍّ في البصيرة وأعمى في البصر ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ [القصص: ٦٦] وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤] قال زهير:

وَأَعلَمُ عِلمَ اليَومِ وَالأَمسِ قَبلَهُ ... وَلَكِنَّني عَن عِلمِ ما في غَدٍ عَمي[1]

قال صاحب (الكشاف): قرئ (عَامِينَ) والفرق بين العمي والعامي أن العمي يدل على عمى ثابت. والعامي على عمى حادث، ولا شك أن عماهم كان ثابتًا راسخًا، والدليل عليه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

---

(١) تقدمت ترجمة زهير.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثانية، وهي قصة هود مع قومه.

أما قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾

ففيه أبحاث:

البحث الأول: انتصب قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ بقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في أول الكلام، والتقدير ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا.

البحث الثاني: اتفقوا على أن هودًا ما كان أخًا لهم في الدين. واختلفوا في أنه هل كان أخًا قرابة قريبة أم لا؟ قال الكلبي: إنه كان واحدًا من تلك القبيلة، وقال آخرون: إنه كان من بني آدم ومن جنسهم لا من جنس الملائكة فكفي هذا القدر في تسمية هذه الأخوة، والمعنى أنا بعثنا إلى عاد واحدًا من جنسهم وهو البشر ليكون إلفهم والأنس بكلامه وأفعاله أكمل. وما بعثنا إليهم شخصا من غير جنسهم مثل ملك أو جني.

البحث الثالث: أخاهم: أي صاحبهم ورسولهم، والعرب تسمي صاحب القوم أخا القوم، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] أي صاحبتها وشبيهتها. وقال عليه السلام: «إِنَّ أَخَا صَدَاء قد أَذَّنَ، وَإِنَّمَا يُقِيمُ مَنْ أَذَّنَ» يريد صاحبهم.

البحث الرابع: قالوا نسب هود هذا: هود بن شالخ، بن أرفخشذ، بن سام، بن نوح. وأما عاد فهم قوم كانوا باليمن بالأحقاف، قال ابن إسحاق: والأحقاف، الرمل الذي بين عمان إلى حضرموت.

البحث الخامس: اعلم أن ألفاظ هذه القصة موافقة للألفاظ المذكورة في قصة نوح عليه السلام إلا في أشياء: الأول: في قصة نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٥٩] وفي قصة هود: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والفرق أن نوحًا عليه السلام كان مواظبًا على دعواهم وما كان يؤخر الجواب عن شبهاتهم لحظة واحدة. وأما هود فما كانت مبالغته إلى هذا الحد فلا جرم جاء (فاء التعقيب) في كلام نوح دون كلام هود. والثاني: أن في قصة نوح ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال في هذه القصة: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢] والفرق بين الصورتين أن قبل نوح عليه السلام لم يظهر في العالم مثل تلك الواقعة العظيمة وهي الطوفان العظيم، فلا جرم أخبر نوح عن تلك الواقعة فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وأما واقعة هود عليه السلام فقد كانت مسبوقة بواقعة نوح وكان عند الناس علم بتلك الواقعة قريبًا، فلا جرم اكتفى هود بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله ولم يطيعوه نزل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا فكان قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المتقدمة المشهورة في الدنيا.

والفرق الثالث: قال تعالى في قصة نوح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٦٠] وقال في قصة هود: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ والفرق أنه كان في أشراف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن سعد، أسلم وكان يكتم إيمانه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن.

والفرق الرابع: أنه تعالى حكى عن قوم نوح أنهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وحكى عن قوم هود أنهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ والفرق بين الصورتين أن نوحًا عليه السلام كان يخوف الكفار بالطوفان العام وكان أيضًا مشتغلاً بإعداد السفينة وكان يحتاج إلى أن يتعب نفسه في إعداد السفينة، فعند هذا القوم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] ولم يظهر شيء من العلامات التي تدل على ظهور الماء في تلك المفازة، أما هود عليه السلام فما ذكر شيئًا إلا أنه زيف عبادة الأوثان ونسب من اشتغل بعبادتها إلى السفاهة وقلة العقل فلما ذكر هود هذا الكلام في أسلافهم قابلوه بمثله ونسبوه إلى السفاهة ثم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ادعاء الرسالة واختلفوا في تفسير هذا الظن فقال بعضهم: المراد منه القطع والجزم، وورود الظن بهذا المعنى في القرآن كثير قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] وقال الحسن والزجاج: كان تكذيبهم إياه على الظن لا على اليقين فكفروا به ظانين لا متيقنين، وهذا يدل على أن حصول الشك والتجويز في أصول الدين يوجب الكفر.

والفرق الخامس: بين القصتين أن نوحًا عليه السلام قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢] وأما هود عليه السلام فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فنوح عليه السلام قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وهو صيغة الفعل وهود عليه السلام قال: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ وهو صيغة اسم الفاعل ونوح عليه السلام قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهود عليه السلام لم يقل ذلك، ولكنه زاد فيه كونه أمينًا، والفرق بين الصورتين أن الشيخ عبد القاهر النحوي ذكر في كتاب دلائل الإعجاز أن صيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة، وأما صيغة اسم الفاعل فإنها دالة على الثبات والاستمرار على ذلك الفعل.

وإذا ثبت هذا فنقول: إن القوم كانوا يبالغون في السفاهة على نوح عليه السلام، ثم إنه في اليوم

الثاني كان يعود إليهم ويدعوهم إلى الله، وقد ذكر الله تعالى عنه ذلك فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥] فلما كان من عادة نوح عليه السلام العود إلى تجديد تلك الدعوة في كل يوم وفي كل ساعة لا جرم ذكره بصيغة الفعل، فقال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وأما هود عليه السلام فقوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ يدل على كونه مثبتًا في تلك النصيحة مستقرًّا فيها. أما ليس فيها إعلام بأنه سيعود إلى ذكرها حالاً فحالاً ويومًا فيومًا، وأما الفرق الآخر في هذه الآية وهو أن نوحًا عليه السلام قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهودًا وصف نفسه بكونه أمينًا. فالفرق أن نوحًا عليه السلام كان أعلى شأنًا وأعظم منصبًا في النبوة من هود، فلم يبعد أن يقال: إن نوحًا كان يعلم من أسرار حكم الله وحكمته ما لم يصل إليه هود، فلهذا السبب أمسك هود لسانه عن ذكر تلك الكلمة، واقتصر على أن وصف نفسه بكونه أمينًا: ومقصود منه أمور: أحدها: الرد عليهم في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وثانيها: أن مدار أمر الرسالة والتبليغ عن الله على الأمانة فوصف نفسه بكونه أمينًا تقريرًا للرسالة والنبوة. وثالثها: كأنه قال لهم: كنت قبل هذه الدعوى أمينًا فيكم، ما وجدتم مني غدرًا ولا مكرًا ولا كَذِبًا، واعترفتم لي بكوني أمينًا فكيف تنسبتموني الآن إلى الكذب؟

واعلم أن الأمين هو الثقة، وهو فعيل من أمن يأمن أمنًا فهو آمن وأمين بمعنى واحد.

واعلم أن القوم لما قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ فهو لم يقابل سفاهتهم بالسفاهة بل قابلها بالحلم والإغضاء ولم يزد على قوله: ﴿لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ وذلك يدل على أن ترك الانتقام أولى كما قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

أما قوله: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو مدح للنفس بأعظم صفات المدح. وإنما فعل ذلك لأنه كان يجب عليه إعلام القوم بذلك، وذلك يدل على أن مدح الإنسان نفسه إذا كان في موضع الضرورة جائز.

والفرق السادس: بين القصتين أن نوحًا عليه السلام قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣] وفي قصة هود أعاد هذا الكلام بعينه إلا أنه حذف منه قوله: ﴿وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والسبب فيه أنه لما ظهر في القصة الأولى أن فائدة الإنذار هي حصول التقوى الموجبة للرحمة لم يكن إلى إعادته في هذه القصة حاجة، وأما بعد هذه الكلمة فكله من خواص قصة هود عليه السلام وهو قوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]. واعلم أن الكلام في الخلفاء والخلائف والخليفة قد مضى في مواضع، والمقصود منه أن تذكُّر النعم العظيمة يوجب الرغبة والمحبة وزوال النفرة والعداوة، وقد ذكر هود عليه السلام ههنا نوعين من الأنعام: الأول: أنه تعالى جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وذلك بأن أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وما يتصل بها من المنافع والمصالح. والثاني: قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: ﴿ٱلْخَلْقِ﴾ في اللغة عبارة عن التقدير، فهذا اللفظ إنما ينطلق على الشيء الذي له مقدار وجثة وحجمية، فكان المراد حصول الزيادة في أجسامهم، ومنهم من حمل هذا اللفظ على الزيادة في القوة، وذلك لأن القُوَى والقدر متفاوتة، فبعضها أعظم وبعضها أضعف.

إذا عرفت هذا فنقول: لفظ الآية يدل على حصول الزيادة واعتداد تلك الزيادة، فليس في اللفظ ألبتة ما يدل عليه إلا أن العقل يدل على أن تلك الزيادة يجب أن تكون زيادة عظيمة واقعة على خلاف المعتاد، وإلا لم يكن لتخصيصها بالذكر في معرض الإنعام فائدة. قال الكلبي: كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعًا، وقال آخرون: تلك الزيادة هي مقدار ما تبلغه يدا إنسان إذا رفعهما، ففضلوا على أهل زمانهم بهذا القدر، وقال قوم: يحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ كونهم من قبيلة واحدة متشاركين في القوة والشدة والجلادة، وكون بعضهم محبًّا للباقين ناصرًا لهم وزوال العداوة والخصومة من بينهم، فإنه تعالى لما خصهم بهذه الأنواع من الفضائل والمناقب فقد قرر لهم حصولها، فصح أن يقال: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ ولما ذكر هود هذين النوعين من النعمة قال: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ وفيه بحثان:

البحث الأول: لا بد في الآية من إضمار، والتقدير: واذكروا آلاء الله واعملوا عملاً يليق بتلك الإنعامات لعلكم تفلحون. وإنما أضمرنا العمل لأن الصلاح الذي هو الظفر بالثواب لا يحصل بمجرد التذكر بل لا بد له من العمل، واستدل الطاعنون في وجوب الأعمال الظاهرة بهذه الآية وقالوا: إنه تعالى رتب حصول الصلاح على مجرد التذكر، فوجب أن يكون مجرد التذكر كافيًا في حصول الصلاح. وجوابه ما تقدم من أن سائر الآيات ناطقة بأنه لا بد من العمل، والله أعلم.

البحث الثاني: قال ابن عباس: (آلاء الله) أي نعم الله عليكم. قال الواحدي: واحد الآلاء أَلَى وإِلْيٌ وإِلَى. قال الأعشى:

أَبـيـضُ لا يَـرهَـبُ الـهُـزالَ وَلا ... يَـقـطَـعُ رِحـمًـا وَلا يَـخـونُ إِلا[١]

قال نظير الآلاء الآناء، واحدها: أَنًا وإِنْيٌ وإِنْي، وزاد صاحب (الكشاف) في الأمثلة فقال: ضلع وأضلاع، وعنب وأعناب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا

(١) تقدمت ترجمة الأعشى.

﴿مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أن هودًا عليه السلام دعا قومه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالدليل القاطع، وذلك لأنه بيَّن أن نعم الله عليهم كثيرة عظيمة، وصريح العقل يدل على أنه ليس للأصنام شيء من النعم على الخلق لأنها جمادات، والجماد لا قدرة له على شيء أصلاً، وظاهر أن العبادة نهاية التعظيم. ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله، وأن لا يعبدوا شيئًا من الأصنام، ومقصود الله تعالى من ذكر أقسام إنعامه على العبيد، هذه الحجة التي ذكرها ثم إن هودًا عليه السلام لما ذكر هذه الحجة اليقينية لم يكن من القوم جواب عن هذه الحجة التي ذكرها إلا التمسك بطريقة التقليد. فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ثم قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ وذلك لأنه عليه السلام قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]فقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مشعر بالتهديد والتخويف بالوعيد فلهذا المعنى قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون كونه كاذبًا بدليل أنهم قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]فلما اعتقدوا كونه كاذبًا قالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ والغرض أنه إذا لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذبًا، وإنما قالوا ذلك لأنهم ظنوا أن الوعد لا يجوز أن يتأخر، فلا جرم استعجلوه على هذا الحد.

ثم حكى الله تعالى عن هود عليه السلام أنه قال عند هذا الكلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا الذي أخبر الله عنه بأنه وقع لا يجوز أن يكون هو العذاب، لأن العذاب ما كان حاصلاً في ذلك الوقت وقد اختلفوا فيه قال القاضي: تفسير هذه الآية على قولنا ظاهر، إلا أنا نقول: معناه أنه تعالى أحدث إرادة في ذلك الوقت، لأن بعد كفرهم وتكذيبهم حدثت هذه الإرادة. واعلم أن هذا القول عندنا باطل، بل عندنا في الآية وجوه من التأويلات: أحدها: أنه تعالى أخبره في ذلك الوقت بنزول العذاب عليهم، فلما حدث الإعلام في ذلك الوقت، لا جرم قال هود في ذلك الوقت: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ وثانيها: أنه جعل التوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع. ونظيره قولك لمن طلب منك شيئًا، قد كان ذلك بمعنى أنه سيكون، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]بمعنى: سيأتي أمر الله. وثالثها: أنا نحمل قوله: ﴿وَقَعَ﴾ على معنى وَجَد وحصل، والمعنى: إرادة إيقاع العذاب عليكم حصلت من الأزل إلى الأبد، لأن قولنا: حصل لا إشعار له بالحدوث بعد ما لم يكن.

المسألة الثانية: الرجس لا يمكن أن يكون المراد منه العذاب لأن المراد من الغضب

العذاب، فلو حملنا الرجس عليه لزم التكرير، وأيضًا الرجس ضد التزكية والتطهير. قال تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال في صفة أهل البيت: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] والمراد التطهر من العقائد الباطلة والأفعال المذمومة، وإذا كان كذلك، وجب أن يكون الرجس عبارة عن العقائد الباطلة والأفعال المذمومة.

إذا ثبت هذا فقوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ يدل على أنه تعالى خصهم بالعقائد المذمومة والصفات القبيحة، وذلك يدل على أن الخير والشر من الله تعالى، قال القفال: يجوز أن يكون الرجس هو الازدياد في الكفر بالرين على القلوب كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] أي قد وقع عليكم من الله رين على قلوبكم عقوبة منه لكم بالخذلان لإلفكم الكفر وتماديكم في الغي.

واعلم أنا قد دللنا على أن هذه الآية تدل على أن كفرهم من الله، فهذا الذي قاله القفال إن كان المراد منه ذلك. فقد جاء بالوفاق. إلا أنه شديد النفرة عن هذا المذهب وأكثر تأويل الآيات الدالة على هذا المذهب تدل على أنه لا يقول بهذا القول وإن كان المراد منه الجواب عما شرحناه، فهو ضعيف لأنه ليس فيه ما يوجب رفع الدليل الذي ذكرناه، والله أعلم.

وحاصل الكلام في الآية: أن القوم لما أصروا على التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفرًا، وهو المراد من قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ ثم خصهم بمزيد الغضب، وهو قوله: ﴿وَغَضَبٌ﴾.

ثم قال: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ والمراد منه: الاستفهام على سبيل الإنكار، وذلك لأنهم كانوا يسمون الأصنام بالآلهة، مع أن معنى الإلهية فيها معدوم، وسموا واحدًا منها بالعزى مشتقًا من العز، والله ما أعطاه عزًا أصلاً، وسموا آخر منها باللات، وليس له من الإلهية شيء. وقوله: ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ عبارة عن خلو مذاهبهم عن الحجة والبينة، ثم إنه عليه السلام ذكر لهم وعيدًا مجددًا فقال: ﴿فَانتَظِرُوا﴾ ما يحصل لكم من عبادة هذه الأصنام ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾، ثم إنه تعالى أخبر عن عاقبة هذه الواقعة فقال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ إذ كانوا مستحقين للرحمة بسبب إيمانهم، وقطعنا دابر الذين كذبوا بالآيات التي جعلناها معجزة لهود، والمراد أنه تعالى أنزل عليهم عذاب الاستئصال الذي هو الريح، وقد بيّن الله كيفيته في غير هذا الموضع، وقطع الدابر: هو الاستئصال، فدل بهذا اللفظ أنه تعالى ما أبقى منهم أحدًا، ودابر الشيء آخره.

فإن قيل: لما أخبر عنهم بأنهم كانوا مكذبين بآيات الله لزم القطع بأنهم ما كانوا مؤمنين، فما الفائدة في قوله بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

قلنا: معناه أنهم مكذبون، وعلم الله منهم أنهم لو بقوا لم يؤمنوا أيضًا، ولو علم تعالى أنهم سيؤمنون لأبقاهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة، وهو قصة صالح.

أما قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ فالمعنى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾[الأعراف: ٥٩] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف: ٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[هود: ٦١].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمودًا لقلة مائها من الثمد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى، وقيل سميت ثمود لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

المسألة الثانية: قرئ (وإلى ثمودَ) بمنع الصَّرْف بتأويل القبيلة (وإلى ثمودٍ) بالصرف بتأويل الحي أو باعتبار الأصل لأنه اسم أبيهم الأكبر، وقد ورد القرآن بهما صريحًا. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[هود: ٦٨].

واعلم أنه تعالى حكى عنه أنه أمرهم بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غير الله كما ذكره من قبله من الأنبياء.

ثم قال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهذه الزيادة مذكورة في هذه القصة، وهي تدل على أن كل من كان قبله من الأنبياء كانوا يذكرون الدلائل على صحة التوحيد والنبوة، لأن التقليد وحده لو كان كافيًا لكانت تلك البينة ههنا لغوًا، ثم بيَّن أن تلك البينة هي الناقة فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا أنه تعالى لما أهلك عادًا قام ثمود مقامهم، وطال عمرهم وكثر تنعمهم، ثم عصوا الله، وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحًا وكان منهم، فطالبوه بالمعجزة. فقال: ما تريدون. فقالوا: تخرج معنا في عيدنا، ونخرج أصنامنا وتسأل إلهك ونسأل أصنامنا، فإذا ظهر أثر دعائك اتبعناك، وإن ظهر أثر دعائنا اتبعتنا، فخرج معهم فسألوه أن

يخرج لهم ناقة كبيرة من صخرة معينة، فأخذ مواثيقهم أنه إن فعل ذلك آمنوا فقبلوا، فصلى ركعتين ودعا الله فتمخضت تلك الصخرة كما تتمخض الحامل، ثم انفرجت وخرجت الناقة من وسطها، وكانت في غاية الكبر وكان الماء عندهم قليلاً فجعلوا ذلك الماء بالكلية شِرْبًا لها في يوم، وفي اليوم الثاني شِرْبًا لكل القوم، قال السدي: وكانت الناقة في اليوم التي تشرب فيه الماء تمر بين الجبلين فتعلوهما ثم تأتي فتشرب فتحلب ما يكفي الكل، وكأنها كانت تصب اللبن صبًّا، وفي اليوم الذي يشربون الماء فيه لا تأتيهم وكان معها فصيل لها. فقال لهم صالح: يولد في شهركم هذا غلام يكون هلاككم على يديه، فذبح تسعة نفر منهم أبناءهم، ثم ولد العاشر فأبى أن يذبحه أبوه، فنبت نباتًا سريعًا، ولما كبر الغلام جلس مع قوم يصيبون من الشراب، فأرادوا ماء يمزجونه به، وكان يوم شرب الناقة فما وجدوا الماء، واشتد ذلك عليهم، فقال الغلام: هل لكم في أن أعقر هذه الناقة؟ فشد عليها، فلما بصرت به شدت عليه، فهرب منها إلى خلف صخرة فأحاشوها عليه، فلما مرت به تناولها فعقرها فسقطت. فذلك قوله: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] وأظهروا حينئذ كفرهم وعتوا من أمر ربهم، فقال لهم صالح: إن آية العذاب أن تصبحوا غدًا حُمرًا، واليوم الثاني صُفْرًا، واليوم الثالث سُودًا، فلما صبحهم العذاب تحنطوا واستعدوا.

إذا عرفت هذا فنقول: اختلف العلماء في وجه كون الناقة آية فقال بعضهم: إنها كانت آية بسبب خروجها بكمالها من الصخرة. قال القاضي: هذا إن صح فهو معجز من جهات: أحدها: خروجها من الجبل، والثانية: كونها لا من ذكر وأنثى، والثالثة: كمال خلقها من غير تدريج.

والقول الثاني: أنها إنما كانت آية لأجل أن لها شِرْب يوم، ولجميع ثمود شِرْب يوم، واستيفاء ناقة شِرْب أمة من الأمم عجيب، وكانت مع ذلك تأتي بما يليق بذلك الماء من الكلأ والحشيش.

والقول الثاني: أن وجه الإعجاز فيها أنهم كانوا في يوم شربها يحلبون منها القدر الذي يقوم لهم مقام الماء في يوم شربهم. وقال الحسن: بالعكس من ذلك، فقال: إنها لم تحلب قطرة لبن قط، وهذا الكلام مناف لما تقدم.

والقول الرابع: أن وجه الإعجاز فيها أن يوم مجيئها إلى الماء كان جميع الحيوانات تمتنع من الورود على الماء، وفي يوم امتناعها كانت الحيوانات تأتي.

واعلم أن القرآن قد دل على أن فيها آية، فأما ذكر أنها كانت آية من أي الوجوه فهو غير مذكور والعلم حاصل بأنها كانت معجزة من وجه ما لا محالة والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ فقوله: ﴿ءَايَةً﴾ نصب على الحال أي أشير إليها في حال كونها آية، ولفظة (هذه) تتضمن معنى الإشارة، و (آية) في معنى دالة. فلهذا جاز أن تكون حالاً.

فإن قيل: تلك الناقة كانت آية لكل أحد، فلماذا خص أولئك الأقوام بها؟ فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾.

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنهم عاينوها وغيرهم أخبروا عنها، وليس الخبر كالمعاينة. وثانيها: لعله يثبت سائر المعجزات، إلا أن القوم التمسوا منه هذه المعجزة نفسها على سبيل الاقتراح، فأظهرها الله تعالى لهم، فلهذا المعنى حسن هذا التخصيص.

فإن قيل: ما الفائدة في تخصيص تلك الناقة بأنها ناقة الله؟

قلنا: فيه وجوه: قيل أضافها إلى الله تشريفًا وتخصيصًا كقوله: بيت الله، وقيل: لأنه خلقها بلا واسطة، وقيل: لأنها لا مالك لها غير الله. وقيل: لأنها حجة الله على القوم.

ثم قال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من إنباتكم، ولا تمسوها بسوء ولا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوا منها شيئًا من أنواع الأذى عن النبي ﷺ أنه قال: «**يا علي أشقى الأوَّلِينَ عَاقِرُ نَاقَةِ صالح، وأشقى الآخرِينَ قَاتِلُكَ**»(1).

ثم قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ قيل إنه تعالى لما أهلك عادًا عمَّر ثمود بلادها، وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمروا أعمارًا طوالاً.

ثم قال: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنزلكم، والمبوأ: المنزل من الأرض، أي في أرض الحجر بين الحجاز والشام.

ثم قال: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي تبوؤن القصور من سهولة الأرض، فإن القصور إنما تبنى من الطين واللبن والآجر، وهذه الأشياء إنما تتخذ من سهولة الأرض ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ يريد تنحتون بيوتًا من الجبال تسقفونها.

فإن قالوا: علام انتصب بيوتًا؟

قلنا: على الحال كما يقال: خط هذا الثوب قميصًا وأبر هذه القصبة قلمًا، وهي من الحال المقدرة، لأن الجبل لا يكون بيتًا في حال النحت، ولا الثوب والقصبة قميصًا، وقلما في حال الخياطة والبري. وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء، وهذا يدل على أنهم كانوا متنعمين مترفهين.

ثم قال: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ يعني قد ذكرت لكم بعض أقسام ما آتاكم الله من النعم، وذكر الكل طويل فاذكروا أنتم بعقولكم ما فيها ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قيل المراد منه: النهي عن عقر الناقة، والأولى أن يحمل على ظاهره وهو المنع عن كل أنواع الفساد.

---

(1) والبزار في (مسنده) (٤/ ٢٥٤)، حديث رقم (١٤٢٤) من طريق موسى بن عبيدة عن عبد الله بن عبيدة عن عمار... به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

اعلم أنا ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين تمتلئ القلوب من هيبتهم، ومعنى الآية قال الملأ وهم الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا، يريد المساكين الذين آمنوا به، وقوله: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ لأنهم المؤمنون. واعلم أنه وصف أولئك الكفار بكونهم مستكبرين، ووصف أولئك المؤمنين بكونهم مستضعفين، وكونهم مستكبرين فعل استوجبوا به الذم، وكون المؤمنين مستضعفين معناه: أن غيرهم يستضعفهم ويستحقرهم، وهذا ليس فعلاً صادرًا عنهم بل عن غيرهم، فهو لا يكون صفة ذم في حقهم، بل الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم ويستضعفونهم. ثم حكى تعالى أن هؤلاء المستكبرين سألوا المستضعفين عن حال صالح فقال المستضعفون نحن موقنون مصدقون بما جاء به صالح. وقال المستكبرون: بل نحن كافرون بما جاء به صالح، وهذه الآية من أعظم ما يحتج به في بيان أن الفقر خير من الغنى، وذلك لأن الاستكبار إنما يتولد من كثرة المال والجاه، والاستضعاف إنما يحصل من قلتهما، فبيَّن تعالى أن كثرة المال والجاه حملهم على التمرد، والإباء، والإنكار، والكفر وقلة المال والجاه حملهم على الإيمان، والتصديق والانقياد، وذلك يدل على أن الفقير خير من الغني.

ثم قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ قال الأزهري: العقر عند العرب، كشف عرقوب البعير، ولما كان العقر سببا للنحر أطلق العقر على النحر إطلاقًا لاسم السبب على المسبب. واعلم أنه أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة العظيمة: أنتم فعلتم كذا مع أنه ما فعله إلا واحد منهم.

ثم قال: ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يقال: عتا يعتو عتوًا، إذا استكبر. ومنه يقال: جبار عَاتٍ قال مجاهد: العتو: الغلو في الباطل وفي قوله: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وجهان: الأول: معناه استكبروا عن امتثال أمر ربهم وذلك الأمر هو الذي أوصله الله إليهم على لسان صالح عليه السلام وهو قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] الثاني: أن يكون المعنى وصدر عتوهم عن أمر ربهم، فكان أمر ربهم بتركها صار سببًا في إقدامهم على ذلك العتو، كما يقال: الممنوع متبوع

﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وإنما قالوا ذلك، لأنهم كانوا مكذبين له في كل ما أخبر عنه من الوعد والوعيد.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ قال الفراء والزجاج: هي الزلزلة الشديدة. قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] قال الليث: يقال: رجف الشيء يرجف رجفا ورجفانا، كرجفان البعير تحت الرحل، وكما يرجف الشجر إذا أرجفته الريح.

ثم قال: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ يعني في بلدهم ولذلك وحد الدار، كما يقال: دار الحرب ومررت بدار البزازين، وجمع في آية أخرى فقال: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ [هود: ٩٤] لأنه أراد بالدار ما لكل واحد منهم من منزله الخاص به. وقوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ قال أبو عبيدة: الجثوم للناس والطير، بمنزلة البروك للإبل، فجثوم الطير هو وقوعه لاطئًا بالأرض في حال سكونه بالليل، والمعنى: أنهم أصبحوا جاثمين خامدين لا يتحركون موتى، يقال: الناس جثم أي قعود لا حراك بهم ولا يحسون بشيء، ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها، وهي البهيمة التي تربط لترمى، فثبت أن الجثوم عبارة عن السكون والخمود، ثم اختلفوا، فمنهم من قال: لما سمعوا الصيحة العظيمة تقطعت قلوبهم وماتوا جاثمين على الركب، وقيل بل سقطوا على وجوههم، وقيل: وصلت الصاعقة إليهم فاحترقوا وصاروا كالرماد. وقيل: بل عند نزول العذاب عليهم سقط بعضهم على بعض، والكل متقارب. وههنا سؤالات:

السؤال الأول: أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ والفاء للتعقيب وهذا يدل على أن الرجفة أخذتهم عقيب ما ذكروا ذلك الكلام وليس الأمر كذلك، لأنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: ٦٥].

والجواب: أن الذي يحصل عقيب الشيء بمدة قليلة قد يقال فيه: إنه حصل عقيبه فزال السؤال.

السؤال الثاني: طعن قوم من الملحدين في هذه الآيات بأن ألفاظ القرآن قد اختلفت في حكاية هذه الواقعة، وهي الرجفة والطاغية والصيحة، وزعموا أن ذلك يوجب التناقض.

والجواب: قال أبو مسلم: الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده سواء كان حيوانًا أو غير حيوان وألحق الهاء به للمبالغة، فالمسلمون يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت. وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧] ويقال: طغى طغيانًا وهو طاغ وطاغية. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١] وقال في غير الحيوان: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] أي غلب وتجاوز عن الحد، وأما الرجفة، فهي الزلزلة في الأرض، وهي حركة خارجة عن المعتاد، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها، وأما الصيحة، فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة وأما الصاعقة، فالغالب أنها الزلزلة وكذلك الزجرة قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ

﴿زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]فبطل ما قاله الطاعن.

السؤال الثالث: أن القوم قد شاهدوا خروج الناقة عن الصخرة وذلك معجزة قاهرة تقرب حال المكلفين عند مشاهدة هذه المعجزة من الإلجاء، وأيضًا شاهدوا أن الماء الذي كان شِرْبًا لكل أولئك الأقوام في أحد اليومين، كان شِربًا لتلك الناقة الواحدة في اليوم الثاني، وذلك أيضًا معجزة قاهرة، ثم إن القوم لما نحروها، وكان صالح عليه السلام قد توعدهم بالعذاب الشديد إن نحروها، فلما شاهدوا بعد إقدامهم على نحرها آثار العذاب، وهو ما يروى أنهم احمروا في اليوم الأول، ثم اصفروا في اليوم الثاني، ثم اسودوا في اليوم الثالث، فمع مشاهدة تلك المعجزات القاهرة في أول الأمر، ثم شاهدوا نزول العذاب الشديد في آخر الأمر، هل يحتمل أن يبقى العاقل مع هذه الأحوال مصرًّا على كفره غير تائب منه؟

والجواب الأول أن يقال: إنهم قبل أن شاهدوا تلك العلامات كانوا يكذبون صالحًا في نزول العذاب، فلما شاهدوا العلامات خرجوا عند ذلك عن حد التكليف، وخرجوا عن أن تكون توبتهم مقبولة.

ثم قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ وفيه قولان: الأول: أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا، والدليل عليه أنه تعالى قال: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ والفاء تدل على التعقيب، فدل على أنه حصل هذا التولي بعد جثومهم، والثاني: أنه عليه السلام تولى عنهم قبل موتهم، بدليل: أنه خاطب القوم. وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وذلك يدل على كونهم أحياء من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ والأموات لا يوصفون بالقوم، لأن اشتقاق لفظ القوم من الاستقلال بالقيام، وذلك في حق الميت مفقود. والثاني: أن هذه الكلمات خطاب مع أولئك وخطاب الميت لا يجوز. والثالث: أنه قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فيجب أن يكونوا بحيث يصح حصول المحبة فيهم، ويمكن أن يجاب عنه فنقول: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه، فلم يقبل تلك النصيحة حتى ألقى نفسه في الهلاك، يا أخي منذ كم نصحتك، فلم تقبل وكم منعتك فلم تمتنع، فكذا ههنا، والفائدة في ذكر هذا الكلام إما لأن يسمعه بعض الأحياء فيعتبر به وينزجر عن مثل تلك الطريقة. وإما لأجل أنه احترق قلبه بسبب تلك الواقعة. فإذا ذكر ذلك الكلام فرجت تلك القضية عن قلبه. وقيل: يخف عليه أثر تلك المصيبة، وذكروا جوابًا آخر، وهو: أن صالحًا عليه السلام خاطبهم بعد كونهم جاثمين، كما أن نبينا عليه الصلاة والسلام خاطب قتلى بدر. فقيل: تتكلم مع هؤلاء الجيف فقال: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُم، ولكنْ لا يَقْدِرُونَ على الجوابِ**»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (صحيحه) (١/ ٤٦٢)، حديث رقم (١٣٠٤) من طريق نافع عن ابن عمر... به.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة. قال النحويون: إنما صرِّف لوط ونوح لخفته، فإنه مركب من ثلاثة أحرف، وهو ساكن الوسط ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أتفعلون السيئة المتمادية في القبح؟ وفي قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفيه بحثان:

البحث الأول: قال صاحب (الكشاف): ﴿مِن﴾ الأولى زائدة لتوكيد النفي، وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبعيض. فإن قيل: كيف يجوز أن يقال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مع أن الشهوة داعية إلى ذلك العمل أبدًا؟

والجواب: أنا نرى كثيرًا من الناس يستقذر ذلك العمل، فإذا جاز في الكثير منهم استقذاره لم يبعد أيضًا انقضاء كثير من الأعصار بحيث لا يقدم أحد من أهل تلك الأعصار عليه، وفيه وجه آخر، وهو أن يقال: لعلهم بكليتهم أقبلوا على ذلك العمل، والإقبال بالكلية على ذلك العمل مما لم يوجد في الأعصار السابقة. قال الحسن: كانوا ينكحون الرجال في أدبارهم، وكانوا لا ينكحون إلا الغرباء. وقال عطاء عن ابن عباس: استحكم ذلك فيهم حتى فعل بعضهم ببعض.

البحث الثاني: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم﴾ يجوز أن يكون مستأنفًا في التوبيخ لهم، ويجوز أن يكون صفة الفاحشة، كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧] وقال الشاعر:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني

ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وحفص عن عاصم (إنكم) بكسر الألف ومذهب نافع أن يكتفي بالاستفهام بالأولى من الثاني في كل القرآن. وقرأ ابن كثير (أئنكم) بهمزة غير ممدودة وبيَّن الثانية، وقرأ أبو عمرو بهمزة ممدودة بالتخفيف، وبين الثانية. والباقون بهمزتين على الأصل. قال الواحدي: من استفهم كان هذا استفهامًا معناه الإنكار لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠] وكل واحد من الاستفهامين جملة مستقلة لا تحتاج في تمامها إلى شيء.

المسألة الثانية: قوله: (شهوة) مصدر. قال أبو زيد: شهى يشهي شهوة وانتصابها على المصدر، لأن قوله: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ معناه أتشتهون شهوة؟ وإن شئت قلت إنها مصدر وقع موقع الحال.

المسألة الثالثة: في بيان الوجوه الموجبة لقبح هذا العمل.

اعلم أن قبح هذا العمل كالأمر المقرر في الطباع، فلا حاجة فيه إلى تعديد الوجوه على التفصيل ثم نقول موجبات القبح فيه كثيرة: أولها: أن أكثر الناس يحترزون عن حصول الولد، لأن حصوله يحمل الإنسان على طلب المال وإتعاب النفس في الكسب، إلا أنه تعالى جعل الوقاع سببًا لحصول اللذة العظيمة، حتى إن الإنسان بطلب تلك اللذة يقدم على الوقاع، وحينئذ يحصل الولد شاء أم أبى، وبهذا الطريق يبقى النسل ولا ينقطع النوع، فوضع اللذة في الوقاع، كشبه الإنسان الذي وضع الفخ لبعض الحيوانات، فإنه لا بد وأن يضع في ذلك الفخ شيئًا يشتهيه ذلك الحيوان حتى يصير سببًا لوقوعه في ذلك الفخ، فوضع اللذة في الوقاع يشبه وضع الشيء الذي يشتهيه الحيوان في الفخ، والمقصود منه إبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع.

إذا ثبت هذا فنقول: لو تمكن الإنسان من تحصيل تلك اللذة بطريق لا تفضي إلى الولد، لم تحصل الحكمة المطلوبة، ولأدى ذلك إلى انقطاع النسل، وذلك على خلاف حكم الله، فوجب الحكم بتحريمه قطعًا، حتى تحصل تلك اللذة بالطريق المفضي إلى الولد.

والوجه الثاني: وهو أن الذكورة مظنة الفعل، والأنوثة مظنة الانفعال، فإذا صار الذكر منفعلاً، والأنثى فاعلاً، كان ذلك على خلاف مقتضى الطبيعة، وعلى عكس الحكمة الإلهية.

والوجه الثالث: الاشتغال بمحض الشهوة تشبه بالبهيمة، وإذا كان الاشتغال بالشهوة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة، فليكن قضاء الشهوة من المرأة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة، وهو حصول الولد وإبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع فأما قضاء الشهوة من الذكر فإنه لا يفيد إلا مجرد قضاء الشهوة، فكان ذلك تشبهًا بالبهائم، وخروجًا عن الغريزة الإنسانية، فكان في غاية القبح.

والوجه الرابع: هب أن الفاعل يلتذ بذلك العمل، إلا أنه يبقى في إيجاب العار العظيم، والعيب الكامل بالمفعول على وجه لا يزول ذلك العيب عنه أبد الدهر، والعاقل لا يرضى لأجل لذة خسيسة منقضية في الحال، إيجاب العيب الدائم الباقي بالغير.

والوجه الخامس: أنه عمل يوجب استحكام العداوة بين الفاعل والمفعول، وربما يؤدي ذلك إلى إقدام المفعول على قتل الفاعل لأجل أنه ينفر طبعه عند رؤيته، أو على إيجاب إنكائه بكل طريق يقدر عليه. أما حصول هذا العمل بين الرجل والمرأة، فإنه يوجب استحكام الألفة والمودة وحصول المصالح الكبيرة، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

والوجه السادس: أنه تعالى أودع في الرحم قوة شديدة الجذب للمني فإذا واقع الرجل المرأة قوي الجذب، فلم يبق شيء من المني في المجاري إلا وينفصل. أما إذا واقع الرجل فلم يحصل في ذلك العضو المعين من المفعول قوة جاذبة للمني، وحينئذ لا يكمل الجذب، فيبقى شيء من أجزاء المني في تلك المجاري، ولا ينفصل، ويعفن ويفسد ويتولد منه الأورام الشديدة والأسقام

العظيمة وهذه فائدة لا يمكن معرفتها إلا بالقوانين الطبية، فهذه هي الوجوه الموجبة لقبح هذا العمل ورأيت بعض من كان ضعيفًا في الدين يقول: إنه تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦] وذلك يقتضي حل وطء المملوك مطلقًا سواء كان ذكرًا أو أنثى قال: ولا يمكن أن يقال: إنا نخصص هذا العموم بقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥] وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] قال: لأن هاتين الآيتين كل واحد منهما أعم من الأخرى من وجه، وأخص من وجه، وذلك لأن المملوك قد يكون ذكرًا، وقد يكون أنثى، وأيضًا الذكر قد يكون مملوكًا، وقد لا يكون مملوكًا، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن تخصيص إحداهما بالأخرى أولى من العكس، والترجيح من هذا الجانب، لأن قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ شرع محمد، وقصة لوط، شرع سائر الأنبياء، وشرع محمد عليه الصلاة والسلام أولى من شرع من تقدمه من الأنبياء، وأيضًا الأصل في المنافع والملاذ الحل، وأيضًا الملك مطلق للتصرف. فقل له الاستدلال إنما يقبل في موضع الاحتمال، وقد ثبت بالتواتر الظاهر من دين محمد حرمة هذا العمل، والمبالغة في المنع منه، والاستدلال إذا وقع في مقابلة النقل المتواتر، كان باطلاً.

ثم قال تعالى حكاية عن لوط أنه قال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ والمعنى كأنه قال لهم: أنتم مسرفون في كل الأعمال، فلا يبعد منكم أيضًا إقدامكم على هذا الإسراف.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾

والمراد منه أخرجوا لوطًا وأتباعه، لأنه تعالى في غير هذه السورة قال: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] ولأن الظاهر أنهم إنما سعوا في إخراج من نهاهم عن العمل الذي يشتهونه ويريدونه، وذلك الناهي ليس إلا لوطًا وقومه، وفي قوله: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ وجوه: الأول: أن ذلك العمل تصرف في موضع النجاسة، فمن تركه فقد تطهر. والثاني: أن البعد عن الإثم يسمى طهارة فقوله: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتباعدون عن المعاصي والآثام. الثالث: أنهم إنما قالوا: ﴿أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ على سبيل السخرية بهم وتطهرهم من الفواحش، كما يقول الشيطان من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد.

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٨٣ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾

اعلم أن قوله ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يحتمل أن يكون المراد من أهله أنصاره وأتباعه الذين قبلوا

دينه ويحتمل أن يكون المراد المتصلين به بالنسب. قال ابن عباس: المراد ابنتاه. وقوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ أي زوجته. يقال: امرأة الرجل بمعنى زوجته. ويقال: رجل المرأة بمعنى زوجها لأن الزوج بمنزلة المالك لها، وليست المرأة بمنزلة المالك للرجل، فإذا أضيفت إلى الرجل بالاسم العام، عرفت الزوجية. وملك النكاح، والرجل إذا أضيف إلى المرأة بالاسم العام، تعرف الزوجية. وقوله: ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ يقال: غبر الشيء يغبر غبورًا، إذا مكث وبقي. قال الهذلي:

فَغَبَرتُ بَعدَهُمُ بِعَيشٍ ناصِبٍ وَإِخالُ أَنّي لاحِقٌ مُستَتبَعُ[1]

يعني بقيت فمعنى الآية: أنها كانت من الغابرين عن النجاة أي من الذين بقوا عنها ولم يدركوا النجاة يقال فلان غبر هذا الأمر أي لم يدركه، ويجوز أن يكون المراد أنها لم تسر مع لوط وأهله، بل تخلفت عنه وبقيت في ذلك الموضع الذي هو موضع العذاب.

ثم قال: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾ يقال: مطرت السماء وأمطرت، والأول أفصح، وأمطرهم، مطرًا وعذابًا، وكذلك أمطر عليهم، والمراد أنه تعالى أمطر عليهم حجارة من السماء بدليل أنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

ثم قال: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ظاهر هذا اللفظ وإن كان مخصوصًا بالرسول عليه السلام إلا أن المراد سائر المكلفين ليعتبروا بذلك فينزجروا.

فإن قيل: كيف يعتبرون بذلك، وقد أمنوا من عذاب الاستئصال؟

قلنا: إن عذاب الآخرة أعظم وأدوم من ذلك، فعند سماع هذه القصة يذكرون عذاب الآخرة مؤنبة على عذاب الاستئصال، ويكون ذلك زجرًا وتحذيرًا.

المسألة الثانية: مذهب الشافعي رضي الله عنه: أن اللواطة توجب الحد. وقال أبو حنيفة: لا توجبه. وللشافعي رحمه الله: أن يحتج بهذه الآية من وجوه: الأول: أنه ثبت في شريعة لوط عليه السلام رجم اللوطي، والأصل في الثابت البقاء، إلا أن يظهر طريان الناسخ، ولم يظهر في شرع محمد عليه الصلاة والسلام ناسخ هذا الحكم، فوجب القول ببقائه. الثاني: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] قد بينا في تفسير هذه الآية أنها تدل على أن شرع من قبلنا حجة علينا. والثالث: أنه تعالى قال: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ والظاهر أن المراد من هذه العاقبة ما سبق ذكره وهو إنزال الحجر عليهم ومن المجرمين، الذين يعملون عمل قوم لوط، لأن ذلك هو المذكور السابق فينصرف إليه، فصار تقدير الآية: فانظر

(١) تقدمت ترجمة الهذلي.

كيف أمطر الله الحجارة على من يعمل ذلك العمل المخصوص، وذكر الحكم عقيب الوصف المناسب، يدل على كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم، فهذه الآية تقتضي كون هذا الجرم المخصوص علة لحصول هذا الزاجر المخصوص، وإذا ظهرت العلة، وجب أن يحصل هذا الحكم أينما حصلت هذه العلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة الخامسة، وقد ذكرنا أن التقدير: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبًا وذكرنا أن هذه الأخوة كانت في النسب لا في الدين، وذكرنا الوجوه فيه، واختلفوا في مدين فقيل: إنه اسم البلد، وقيل: إنه اسم القبيلة بسبب أنهم أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام، ومدين صار اسمًا للقبيلة، كما يقال: بكر وتميم وشعيب من أولاده، وهو: شعيب بن نويب بن مدين بن إبراهيم خليل الرحمن.

واعلم أنه تعالى حكى عن شعيب أنه أمر قومه في هذه الآية بأشياء: الأول: أنه أمرهم بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غير الله، وهذا أصل معتبر في شرائع جميع الأنبياء. فقال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ والثاني: أنه ادعى النبوة فقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ويجب أن يكون المراد من البينة ههنا المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئًا لا نبيًا، فهذه الآية دلت على أنه حصلت له معجزة دالة على صدقه. فأما أن تلك المعجزة من أي الأنواع كانت فليس في القرآن دلالة عليه، كما لم يحصل في القرآن الدلالة على كثير من معجزات رسولنا. قال صاحب (الكشاف): ومن معجزات شعيب أنه دفع إلى موسى عصاه، وتلك العصا حاربت التنين، وأيضًا قال لموسى: إن هذه الأغنام تلد أولادًا فيها سواد وبياض، وقد وهبتها منك، فكان الأمر كما أخبر عنه. ثم قال: وهذه الأحوال كانت معجزات لشعيب عليه السلام، لأن موسى في ذلك الوقت ما ادعى الرسالة.

واعلم أن هذا الكلام بناء على أصل مختلف بين أصحابنا، وبين المعتزلة وذلك لأن عندنا أن الذي يصير نبيًا ورسولاً بعد ذلك، يجوز أن يظهر الله عليه أنواع المعجزات قبل إيصال الوحي، ويسمى ذلك إرهاصًا للنبوة، فهذا الإرهاص عندنا جائز، وعند المعتزلة غير جائز، فالأحوال التي حكاها صاحب (الكشاف) هي عندنا إرهاصات لموسى عليه السلام، وعند المعتزلة معجزات لشعيب لما أن الإرهاص عندهم غير جائز.

والثالث: أنه قال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

واعلم أن عادة الأنبياء عليهم السلام إذا رأوا قومهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالا أكثر من إقبالهم على سائر أنواع المفاسد بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع، وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف، فلهذا السبب بدأ بذكر هذه الواقعة فقال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ وههنا سؤالان:

السؤال الأول: الفاء في قوله: ﴿فَأَوْفُوا﴾ توجب أن تكون للأمر بإيفاء الكيل كالمعلول والنتيجة عما سبق ذكره وهو قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فكيف الوجه فيه؟

والجواب: كأنه يقول البخس والتطفيف عبارة عن الخيانة بالشيء القليل. وهو أمر مستقبح في العقول، ومع ذلك قد جاءت البينة والشريعة الموجبة للحرمة، فلم يبق لكم فيه عذر ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، ولم يقل ﴿الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤] كما في سورة هود؟

والجواب: أراد بالكيل آلة الكيل، وهو المكيال، أو يسمى ما يكال به بالكيل، كما يقال العيش لما يعاش به.

والرابع: قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ والمراد أنه لما منع قومه من البخس في الكيل والوزن منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص بجميع الوجوه، ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقة، وأخذ الرشوة، وقطع الطريق وانتزاع الأموال بطريق الحيل. والخامس: قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وذلك لأنه لما كان أخذ أموال الناس بغير رضاها يوجب المنازعة والخصومة، وهما يوجبان الفساد، لا جرم قال بعده: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وقد سبق تفسير هذه الكلمة، وذكروا فيه وجوهًا فقيل: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بأن تقدموا على البخس في الكيل والوزن، لأن ذلك يتبعه الفساد. وقيل: أراد به المنع من كل ما كان فسادًا حملاً للفظ على عمومه. وقيل: قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ منع من مفاسد الدنيا وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ منع من مفاسد الدين حتى تكون الآية جامعة للنهي عن مفاسد الدنيا والدين، واختلفوا في معنى ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ قيل: بعد أن صلحت الأرض بمجيء النبي بعد أن كانت فاسدة بخلوها منه، فنهاهم عن الفساد، وقد صارت صالحة. وقيل: المراد أن لا تفسدوا بعد أن أصلحها الله بتكثير النعم فيهم، وحاصل هذه التكاليف الخمسة يرجع إلى أصلين التعظيم لأمر الله، ويدخل فيه الإقرار بالتوحيد والنبوة، والشفقة على خلق الله، ويدخل فيه ترك البخس، وترك الإفساد، وحاصلها يرجع إلى ترك الإيذاء، كأنه تعالى يقول: إيصال النفع إلى الكل متعذر. وأما كف الشر عن الكل فممكن، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الخمسة. قال: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ وهو إشارة إلى هذه الخمسة، والمعنى: خير

لكم في الآخرة إن كنتم مؤمنين بالآخرة، والمراد: أترك البخس وترك الإفساد خير لكم في طلب المال في المعنى لأن الناس إذا علموا منكم الوفاء والصدق والأمانة، رغبوا في المعاملات معكم، فكثرت أموالكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مصدقين لي في قولي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

اعلم أن شعيبًا عليه السلام ضم إلى ما تقدم ذكره من التكاليف الخمسة أشياء: فالأول: أنه منعهم من أن يقعدوا على طرق الدين ومناهج الحق، لأجل أن يمنعوا الناس عن قبوله وفي قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ قولان: الأول: يحمل الصراط على الطريق الذي يسلكه الناس. روي أنهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من آمن بشعيب عليه السلام. والثاني: أن يحمل الصراط على مناهج الدين، قال صاحب (الكشاف): ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي ولا تقتدوا بالشيطان في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] قال: والمراد بالصراط كل ما كان من مناهج الدين، والدليل على أن المراد بالصراط ذلك قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ يقال قعد له بمكان كذا وعلى مكان كذا، وفي مكان كذا، وهذه الحروف تتعاقب في هذه المواضع لتقارب معانيها، فإنك إذا قلت قعد بمكان كذا، فالباء للإلصاق، وهو قد التصق بذلك المكان.

وأما قوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ فمحله ومحل ما عطف عليه النصب على الحال، والتقدير: ولا تقعدوا موعدين ولا صادين عن سبيل الله ولا أن تبغوا عوجًا في سبيل الله، والحاصل: أنه نهاهم عن القعود على صراط الله حال الاشتغال بأحد هذه الأمور الثلاثة. واعلم أنه تعالى لما عطف بعض هذه الثلاثة على البعض. وجب حصول المغايرة بينها فقوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ يحصل بذلك إنزال المضار بهم وأما الصد، فقد يكون بالإيعاد بالمضار، وقد يكون بالوعد بالمنافع بما لو تركه، وقد يكون بأن لا يمكنه من الذهاب إلى الرسول ليسمع كلامه.

أما قوله: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ فالمراد إلقاء الشكوك والشبهات والمراد من الآية أن شعيبًا منع القوم من أن يمنعوا الناس من قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاثة. وإذا تأملت علمت أن أحدًا لا يمكنه منع غيره من قبول مذهب أو مقالة إلا بأحد هذه الطرق الثلاثة.

ثم قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ والمقصود منه أنهم إذا تذكروا كثرة إنعام الله

عليهم فالظاهر أن ذلك يحملهم على الطاعة والبعد عن المعصية، قال الزجاج: وهذا الكلام يحتمل ثلاثة أوجه، كثّر عددكم بعد القلة، وكثّركم بالغنى بعد الفقر، وكثركم بالقدرة بعد الضعف، ووجه ذلك أنهم إذا كانوا فقراء أو ضعفاء فهم بمنزلة القليل، في أنه لا يحصل من وجودهم قوة وشوكة. فأما تكثير عددهم بعد القلة؛ فهو أن مدين بن إبراهيم تزوج رئيا بنت لوط، فولدت حتى كثر عددهم.

ثم قال بعده: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ والمعنى تذكروا عاقبة المفسدين وما لحقهم من الخزي والنكال، ليصير ذلك زاجرًا لكم عن العصيان والفساد، فقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ المقصود منه أنهم إذا تذكروا نعم الله عليهم انقادوا وأطاعوا، وقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ المقصود منه أنهم إذا عرفوا أن عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الخزي والنكال، احترزوا عن الفساد والعصيان وأطاعوا، فكان المقصود من هذين الكلامين حملهم على الطاعة بطريق الترغيب أولاً والترهيب ثانيًا.

ثم قال: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ﴾ والمقصود منه تسلية قلوب المؤمنين وزجر من لم يؤمن، لأن قوله: ﴿فَٱصْبِرُواْ﴾ تهديد، وكذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ والمراد إعلاء درجات المؤمنين، وإظهار هوان الكافرين، وهذه الحالة قد تظهر في الدنيا فإن لم تظهر في الدنيا فلا بد من ظهورها في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ يعني أنه حاكم منزه عن الجور والميل والحيف، فلا بد وأن يخص المؤمن التقي بالدرجات العالية، والكافر الشقي بأنواع العقوبات، ونظيره قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

اعلم أن شعيبًا لما قرر تلك الكلمات قال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ وأنفوا من تصديقه وقبول قوله لا بد من أحد أمرين: إما أن نخرجك ونخرج أتباعك من هذه القرية وإما أن تعود إلى ملتنا، والإشكال فيه أن يقال: إن قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ يدل على أنه عليه السلام كان على ملتهم التي هي الكفر، فهذا يقتضي أنه عليه السلام كان كافرًا قبل ذلك، وذلك في غاية الفساد، وقوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ يدل أيضًا على هذا المعنى.

والجواب من وجوه: الأول: أن أتباع شعيب كانوا قبل دخولهم في دينه كفارًا فخاطبوا شعيبًا بخطاب أتباعه وأجروا عليه أحكامهم. الثاني: أن رؤساءهم قالوا ذلك على وجه التلبيس على العوام يوهمون أنه كان منهم، وأن شعيبًا ذكر جوابه على وفق ذلك الإيهام. الثالث: أن شعيبًا في أول أمره كان يخفي دينه ومذهبه، فتوهموا أنه كان على دين قومه. الرابع: لا يبعد أن يقال: إن شعيبًا كان على شريعتهم، ثم إنه تعالى نسخ تلك الشريعة بالوحي الذي أوحاه إليه. الخامس: المراد من قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ أي لتصيرن إلى ملتنا فوقع العود بمعنى الابتداء. تقول العرب: قد عاد إلي من فلان مكروه، يريدون قد صار إلي منه المكروه ابتداء. قال الشاعر:

فإنْ تكُنِ الأيامُ أحسنَّ مُدَّةً إلي فقَدْ عادَتْ لهُنَّ ذنُوبُ[1]

أراد فقد صارت لهن ذنوب، ولم يرد أن ذنوبا كانت لهن قبل الإحسان، ثم إنه تعالى بيّن أن القوم لما قالوا ذلك أجاب شعيب عليه السلام عن كلامهم بوجهين: الأول: قوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الهمزة للاستفهام، والواو واو الحال. تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، ومع كوننا كارهين: الثاني: قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ﴾ والجواب الأول يجري مجرى الرمز في أنه لا يعود إلى ملتهم، وهذا الجواب الثاني تصريح بأنه لا يفعل ذلك فقال: إنه إن فعلنا ذلك فقد افترينا على الله. وأصل الباب في النبوة والرسالة صدق اللهجة، والبراءة عن الكذب، فالعود في ملتكم يبطل النبوة، ويزيل الرسالة. وقوله: ﴿إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ﴾ فيه وجوه: الأول: معنى ﴿إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ﴾ علمنا قبحه وفساده، ونصب الأدلة على أنه باطل. الثاني: أن المراد أن الله نجى قومه من تلك الملة، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم، وإن كان بريئًا منه إجراء للكلام على حكم التغليب. والثالث: أن القوم أوهموا أنه كان على ملتهم، أو اعتقدوا أنه كان كذلك. فقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ﴾ أي حسب معتقدكم وزعمكم.

أما قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

فاعلم أن أصحابنا يتمسكون بهذه الآية على أنه تعالى قد يشاء الكفر، والمعتزلة يتمسكون بها على أنه تعالى لا يشاء إلا الخير والصلاح. أما وجه استدلال أصحابنا بهذه، فمن وجهين: الأول: قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ﴾ يدل على أن المنجي من الكفر هو الله تعالى، ولو كان الإيمان يحصل بخلق العبد، لكانت النجاة من الكفر تحصل للإنسان من نفسه، لا من الله تعالى، وذلك على خلاف مقتضى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ﴾ الثاني: أن معنى الآية أنه ليس لنا أن نعود إلى ملتكم إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إلى تلك الملة، ولما كانت تلك الملة

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي وقد تقدمت ترجمته.

كفرًا، كان هذا تجويزًا من شعيب عليه السلام أن يعيدهم إلى الكفر، فكاد هذا يكون تصريحًا من شعيب بأنه تعالى قد شاء رد المسلم إلى الكفر، وذلك غير مذهبنا. قال الواحدي: ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر. ألا ترى إلى قول الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وكثيرًا ما كان محمد عليه الصلاة والسلام يقول: «يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ والأبْصارِ ثَبِّتْ قُلُوبَنا عَلى دِينِكَ وطاعَتِكَ» (١) وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١] أجابت المعتزلة عنه من وجوه: الأول: أن قوله ليس لنا أن نعود إلى تلك الملة إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إليها قضية شرطية، وليس فيها بيان أنه تعالى شاء ذلك أو ما شاء. والثاني: أن هذا مذكور على طريق التبعيد، كما يقال: لا أفعل ذلك إلا إذا ابيض القار، وشاب الغراب: فعلق شعيب عليه السلام عوده إلى ملتهم على مشيئته. ومن المعلوم أنه لا يكون نفيًا لذلك أصلاً، فهو على طريق التبعيد، لا على وجه الشرط. الثالث: أن قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ليس فيه بيان أن الذي شاءه الله ما هو، فنحن نحمله على أن المراد إلا أن يشاء الله ربنا بأن يظهر هذا الكفر من أنفسنا إذا أكرهتمونا عليه بالقتل، وذلك لأن عند الإكراه على إظهار الكفر بالقتل يجوز إظهاره، وما كان جائزًا كان مرادًا لله تعالى، وكون الضمير أفضل من الإظهار، لا يخرج ذلك الإظهار من أن يكون مراد الله تعالى، كما أن المسح على الخفين مراد الله تعالى وإن كان غسل الرجلين أفضل. الرابع: أن قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ المراد الإخراج عن القرية، فيحمل قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي القرية، لأنه تعالى قد كان حرم عليه إذا أخرجوه عن القرية، أن يعود فيها إلا بإذن الله ومشيئته. الخامس: أن نقول يجب حمل المشيئة ههنا على الأمر، لأن قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ معناه: أنه إذا شاء كان لنا أن نعود فيها. وقوله: ﴿لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي يكون ذلك العود جائزًا، والمشيئة عند أهل السنة لا يوجب جواز الفعل، فإنه تعالى يشاء الكفر من الكافر عندهم، ولا يجوز له فعله، إنما الذي يوجب الجواز هو الأمر. فثبت أن المراد من المشيئة ههنا الأمر، فكان التقدير: إلا أن يأمر الله بعودنا في ملتكم فإنا نعود إليها، والشريعة التي صارت منسوخة، لا يبعد أن يأمر الله بالعمل بها مرة أخرى، وعلى هذا التقدير يسقط استدلالكم.

والوجه السادس: للقوم في الجواب ما ذكره الجبائي، فقال: المراد من الملة الشريعة التي يجوز اختلاف العبادة فيها بالأوقات، كالصلاة والصيام وغيرهما، فقال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ﴾ ﴿فِى مِلَّتِكُم﴾ ولما دخل في ذلك كل ما هم عليه، وكان من الجائز أن يكون بعض تلك الأحكام والشرائع باقيًا غير منسوخ، لا جرم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ والمعنى: إلا أن يشاء الله إبقاء بعضها فيدلنا عليه، فحينئذ نعود إليها فهذا الاستثناء عائد إلى الأحكام التي يجوز دخول

(١) تقدم تخريجه.

النسخ والتغيير فيها، وغير عائد إلى ما لا يقبل التغير ألبتة فهذه أسئلة القوم على هذه الطريقة وهي جيدة، وفي الآيات الدالة على صحة مذهبنا كثرة، ولا يلزم من ضعف استدلال أصحابنا بهذه الآية دخول الضعف في المذهب. وأما المعتزلة فقد تمسكوا بهذه الآية على صحة قولهم من وجهين:

الوجه الأول: لما قالوا ظاهر قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ يقتضي أنه لو شاء الله عودنا إليها لكان لنا أن نعود إليها، وذلك يقتضي أن كل ما شاء الله وجوده، كان فعله جائزًا مأذونًا فيه، ولم يكن حرامًا. قالوا: وهذا عين مذهبنا أن كل ما أراد الله حصوله، كان حسنًا مأذونًا فيه، وما كان حرامًا ممنوعًا منه لم يكن مرادًا لله تعالى.

والوجه الثاني: لهم أن قالوا: إن قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لا وجه للفصل بين هذين القسمين على قول الخصم، لأن على قولهم خروجهم من القرية بخلق الله وعودهم إلى تلك الملة أيضًا بخلق الله، وإذا كان حصول القسمين بخلق الله، لم يبق للفرق بين القسمين فائدة.

واعلم أنه لما تعارض استدلال الفريقين بهذه الآية وجب الرجوع إلى سائر الآيات في هذا الباب.

أما قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق هذا الكلام بالكلام الأول وجوه: قال القاضي: قد نقلنا عن أبي علي الجبائي أن قول شعيب: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ معناه: إلا أن يخلق المصلحة في تلك العبادات، فحينئذ يكلفنا بها، والعالم بالمصالح ليس إلا من وسع علمه كل شيء، فلذلك أتبعه بهذا القول. وقال أصحابنا: وجه تعلق هذا الكلام بما قبله، هو أن القوم لما قالوا لشعيب: إما أن تخرج من قريتنا وإما أن تعود إلى ملتنا، فقال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فربما كان في علمه حصول قسم ثالث، وهو أن نبقى في هذه القرية من غير أن نعود إلى ملتكم بل يجعلكم مقهورين تحت أمرنا ذليلين خاضعين تحت حكمنا، وهذا الوجه أولى مما قاله القاضي، لأن قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لائق بهذا الوجه، لا بما قاله القاضي.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يدل على أنه تعالى كان عالمًا في الأزل بجميع الأشياء، لأن قوله: ﴿وَسِعَ﴾ فعل ماض، فيتناول كل ماض. وإذا ثبت أنه كان في الأزل عالمًا بجميع المعلومات وثبت أن تغير معلومات الله تعالى محال، لزم أنه ثبتت الأحكام وجفت الأقلام والسعيد من سعد في علم الله، والشقي من شقي في علم الله.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يدل على أنه علم الماضي، والحال والمستقبل وعلم المعدوم أنه لو كان كيف كان يكون، فهذه أقسام أربعة، ثم كل واحد من هذه

الأقسام الأربعة يقع على أربعة أوجه. أما الماضي: فإنه عَلِم أنه لما كان ماضيًا، فإنه كيف كان. وعلم أنه لو لم يكن ماضيًا، بل كان حاضرًا، فإنه كيف يكون وعلم أنه لو كان مستقبلاً كيف يكون. وعلم أنه لو كان عدمًا محضًا كيف يكون، فهذه أقسام أربعة بحسب الماضي، واعتبر هذه الأقسام الأربعة بحسب الحال، وبحسب المستقبل، وبحسب المعدوم المحض، فيكون المجموع ستة عشر، ثم اعتبر هذه الأقسام الستة عشر بحسب كل واحد من الذوات والألوان والطعوم والروائح، وكذا القول في سائر المفردات من أنواع الأعراض وأجناسها، فحينئذ يلوح لعقلك من قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ بحر لا ينتهي مجموع عقول العقلاء إلى أول خطوة من خطوات ساحله.

المسألة الرابعة: قال الواحدي: قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ منصوب على التمييز.

واعلم أنه عليه الصلاة والسلام ختم كلامه بأمرين: الأول: بالتوكل على الله. فقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فهذا يفيد الحصر، أي عليه توكلنا لا على غيره، وكأنه في هذا المقام عزل الأسباب، وارتقى عنها إلى مسبب الأسباب. والثاني: الدعاء. فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة، والسدي: احكم واقض. وقال الفراء: أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح لأنه يفتح مواضع الحق، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما كنت أدري قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لزوجها: تعال أفاتحك أي أحاكمك. قال الزجاج: وجائز أن يكون قوله: ﴿ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي أظهر أمرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف، والمراد منه: أن ينزل عليهم عذابًا يدل على كونهم مبطلين، وعلى كون شعيب وقومه محقين، وعلى هذا الوجه فالفتح يراد به الكشف والتبيين.

ثم قال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ والمراد منه الثناء على الله. واحتج أصحابنا بهذا اللفظ على أنه هو الذي يخلق الإيمان في العبد، وذلك لأن الإيمان أشرف المحدثات، ولو فسرنا الفتح بالكشف والتبيين، فلا شك أن الإيمان كذلك.

إذا ثبت هذا فنقول: لو كان الموجد للإيمان هو العبد، لكان خير الفاتحين هو العبد، وذلك ينفي كونه تعالى خير الفاتحين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى بيَّن عظم ضلالتهم بتكذيب شعيب ثم بيَّن أنهم لم يقتصروا على ذلك، حتى

أضلوا غيرهم، ولاموهم على متابعته فقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ واختلفوا فقال بعضهم: خاسرون في الدين وقال آخرون: خاسرون في الدنيا، لأنه يمنعكم من أخذ الزيادة من أموال الناس، وعند هذا المقال كمل حالهم في الضلال أولاً وفي الإضلال ثانيًا، فاستحقوا الإهلاك فلهذا قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ وهي الزلزلة الشديدة المهلكة، فإذا انضاف إليها الجزاء الشديد المخوف على ما ذكره الله تعالى من قصة الظلمة، كان الهلاك أعظم، لأنه أحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ أي في مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي خامدين ساكنين بلا حياة وقد سبق الاستقصاء في تفسير هذه الألفاظ.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾

وفيه بحثان:

البحث الأول: في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ قولان: أحدهما: يقال غني القوم في دارهم إذا طال مقامهم فيها. والثاني: المنازل التي كان بها أهلوها واحدها مغنى. قال الشاعر:

ولَقد غَنوا فيها بأنعَم عيشةٍ ... في ظلِّ مُلكٍ ثابت الأوتادِ[1]

أراد: أقاموا فيها، وعلى هذا الوجه كان قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ كأن لم يقيموا بها ولم ينزلوا فيها.

والقول الثاني: قال الزجاج: كأن لم يغنوا فيها، كأن لم يعيشوا فيها مستغنين، يقال: غني الرجل يغنى إذا استغنى، وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر.

وإذا عرفت هذا فنقول: على التفسيرين شبه الله حال هؤلاء المكذبين بحال من لم يكن قط في تلك الديار. قال الشاعر[2]:

كأن لم يكن بين الحَجُونِ إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يَسمُر بمكَّةَ سامِرُ
بلى نحنُ كنا أهلَها فأزالَنا ... صُروفُ الليالي والجُدودُ العواثرُ

البحث الثاني: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ الذين يدل على أن ذلك العذاب كان مختصًا بأولئك المكذبين، وذلك يدل على أشياء: أحدها: أن ذلك العذاب إنما حدث

---

(١) البيت للشاعر الأسود بن يعفر النهشلي وهو الأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي، أبو نهشل. ؟ - ٢٣ق. هـ/ ؟ - ٦٠٠م، شاعر جاهلي، من سادات تميم، من أهل العراق، كان فصيحًا جوادًا، نادم النعمان بن المنذر، ولما أسن كفّ بصره ويقال له: أعشى بني نهشل.

(٢) هذان البيتان للحماني الكوفي وبينهما بيت وهو

فقلتُ لها والقلبُ مني كأنّما ... تَخَلَّبه بين الجناحين طائرُ

والحماني هو يحيى بن عبد الحميد بن عبد الرحمن الحماني الكوفي أبو زكرياء. ؟ - ٢٢٨هـ/ ؟ - ٨٤٣م، أول من صنف المسند في الكوفة وهو من حفاظ الحديث الرحالين كان يحفظ ١٠٠٠٠ حديث يسردها سردًا. واختلفوا في الثقة بروايته. مات بسر من رأى.

بتخليق فاعل مختار، وليس ذلك أثر الكواكب والطبيعة، وإلا لحصل في أتباع شعيب، كما حصل في حق الكفار. والثاني: يدل على أن ذلك الفاعل المختار، عالم بجميع الجزئيات، حتى يمكنه التمييز بين المطيع والعاصي. وثالثها: يدل على المعجز العظيم في حق شعيب، لأن العذاب النازل من السماء لما وقع على قوم دون قوم مع كونهم مجتمعين في بلدة واحدة، كان ذلك من أعظم المعجزات.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وإنما كرر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا﴾ لتعظيم المذلة لهم وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم، والعرب تكرر مثل هذا في التفخيم والتعظيم، فيقول الرجل لغيره: أخوك الذي ظلمنا، أخوك الذي أخذ أموالنا، أخوك الذي هتك أعراضنا، وأيضًا أن القوم لما قالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ بيَّن تعالى أن الذين لم يتبعوه وخالفوه هم الخاسرون.

ثم قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ واختلفوا في أنه تولى بعد نزول العذاب بهم أو قبل ذلك، وقد سبق ذكر هذه المسألة. قال الكلبي: خرج من بين أظهرهم، ولم يعذب قوم نبي حتى أخرج من بينهم.

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ الأسى: شدة الحزن. قال العجاج:

وَانحَلَبَت عَيناهُ مِن فَرطِ الأَسى[1]

إذا عرفت هذا فنقول: في الآية قولان:

القول الأول: أنه اشتد حزنه على قومه، لأنهم كانوا كثيرين، وكان يتوقع منهم الاستجابة للإيمان، فلما أن نزل بهم ذلك الهلاك العظيم، حصل في قلبه من جهة الوصلة والقرابة والمجاورة وطول الألفة. ثم عزى نفسه وقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب إصرارهم على الكفر.

والقول الثاني: أن المراد لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حل بكم، فلم تسمعوا قولي، ولم تقبلوا نصيحتي فكيف آسى عليكم يعني أنهم ليسوا مستحقين بأن يأسى الإنسان عليهم. قال صاحب (الكشاف): وقرأ يحيى بن وثاب (فكيف إيسى) بكسر الهمزة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عرفنا أحوال هؤلاء الأنبياء، وأحوال ما جرى على أممهم، كان من الجائز أن يظن أنه تعالى ما أنزل عذاب الاستئصال، إلا في زمن هؤلاء الأنبياء فقط، فبيَّن في هذه الآية

---

(١) تقدمت ترجمة العجاج.

أن هذا الجنس من الهلاك قد فعله بغيرهم، وبيَّن العلة التي بها يفعل ذلك: قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وإنما ذكر القرية لأنها مجتمع القوم الذين إليهم يبعث الرسل، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة، لأنها مجتمع الأقوام وقوله: ﴿مِّن نَّبِىٍّ﴾ فيه حذف وإضمار، والتقدير: من نبي فكذب أو كذبه أهلها، إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء. قال الزجاج: البأساء كل ما نالهم من الشدة في أحوالهم، والضراء ما نالهم من الأمراض. وقيل على العكس، ثم بيَّن تعالى أنه يفعل ذلك لكي يضرعوا، معناه: يتضرعوا، والتضرع هو الخضوع والانقياد لله تعالى، ولما علمت أن قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لا يمكن حمله على الشك في حق الله تعالى، وجب حمله على أن المراد أنه تعالى فعل هذا الفعل لكي يتضرعوا. قالت المعتزلة: وهذا يدل على أنه تعالى أراد من كل المكلفين الإيمان والطاعة. وقال أصحابنا: لما ثبت بالدليل أن تعليل أفعال الله وأحكامه محال وجب حمل الآية على أنه تعالى فعل، ما لو فعله غيره لكان ذلك شبيهًا بالعلة والغرض، ثم بيَّن تعالى أن تدبيره في أهل القرى لا يجري على نمط واحد، وإنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب فقال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ لأن ورود النعمة في البدن والمال بعد البأساء والضراء، يدعو إلى الانقياد والاشتغال بالشكر، ومعنى الحسنة والسيئة ههنا الشدة والرخاء. قال أهل اللغة: (السيئة) كل ما يسوء صاحبه، و (الحسنة) ما يستحسنه الطبع والعقل، والمعنى: أنه تعالى أخبر أنه يأخذ أهل المعاصي بالشدة تارة، وبالرخاء أخرى. وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ قال الكسائي: يقال: قد عفا الشعر وغيره، إذا كثر، يعفو فهو عاف ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ يعني كثروا، ومنه ما ورد في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام، أمر أن تحف الشوارب، وتعفى اللحى يعني توفر وتكثر وقوله: ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ فالمعنى: أنهم متى نالهم شدة قالوا: ليس هذا بسبب ما نحن عليه من الدين والعمل وتلك عادة الدهر، ولم يكن ما مسنا من البأساء والضراء عقوبة من الله وهذه الحكاية تدل على أنهم لم ينتفعوا بما دبرهم الله عليه من رخاء بعد شدة، وأمن بعد خوف، بل عدلوا إلى أن هذه عادة الزمان في أهله، فمرة يحصل فيهم الشدة والنكد، ومرة يحصل لهم الرخاء والراحة، فبيَّن تعالى أنه أزال عذرهم وأزاح علتهم، فلم ينقادوا ولم ينتفعوا بذلك الإمهال، وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ والمعنى: أنهم لما تمردوا على التقديرين، أخذهم الله بغتة أينما كانوا، ليكون ذلك أعظم في الحسرة. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي يرون العذاب والحكمة في حكاية هذا المعنى أن يحصل الاعتبار لمن سمع هذه القصة وعرفها.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى

وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن في الآية الأولى أن الذين عصوا وتمردوا أخذهم الله بغتة، بيَّن في هذه الآية أنهم لو أطاعوا لفتح الله عليهم أبواب الخيرات فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا﴾ أي آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما نهى الله عنه وحرمه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بركات السماء بالمطر، وبركات الأرض بالنبات والثمار، وكثرة المواشي والأنعام، وحصول الأمن والسلامة، وذلك لأن السماء تجري مجرى الأب، والأرض تجري مجرى الأم، ومنهما يحصل جميع المنافع والخيرات بخلق الله تعالى وتدبيره. وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ يعني الرسل ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ بالجدوبة والقحط ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعصية.

ثم إنه تعالى أعاد التهديد بعذاب الاستئصال فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار عليهم، والمقصود أنه تعالى خوفهم بنزول ذلك العذاب عليهم في الوقت الذي يكونون فيه في غاية الغفلة، وهو حال النوم بالليل، وحال الضحى بالنهار؛ لأنه الوقت الذي يغلب على المرء التشاغل باللذات فيه. وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يحتمل التشاغل بأمور الدنيا، فهي لعب ولهو، ويحتمل خوضهم في كفرهم، لأن ذلك كاللعب في أنه لا يضر ولا ينفع. قرأ أكثر القراء ﴿أَوَ أَمِنَ﴾ بفتح الواو، وهو حرف العطف دخلت عليه همزة الاستفهام، كما دخل في قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾[يونس: ٥١] وقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا﴾[البقرة: ١٠٠] وهذه القراءة أشبه بما قبله وبعده، لأن قبله ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ وما بعده ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾[الأعراف: ٩٩] ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾[الأعراف: ١٠٠] وقرأ ابن عامر (أَوْ أَمِنَ) ساكنة الواو، واستعمل على ضربين: أحدهما: أن تكون بمعنى أحد الشيئين، كقوله: زيد أو عمرو جاء، والمعنى أحدهما جاء.

والضرب الثاني: أن تكون للإضراب عما قبلها، كقولك: أنا أخرج أو أقيم، أضربت عن الخروج، وأثبت الإقامة، كأنك قلت: لا بل أقيم. فوجه هذه القراءة أنه جعل (أو) للإضراب لا على أنه أبطل الأول، وهو ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ﴾ [السجدة: ١-٣] فكان المعنى من هذه الآية استواء هذه الضروب من العذاب، وإن شئت جعلت (أو) ههنا التي لأحد الشيئين، ويكون المعنى: أفأمنوا إحدى هذه العقوبات، وقوله: ﴿ضُحًى﴾ الضحى صدر النهار، وأصله الظهور من قولهم: ضحا للشمس إذا ظهر لها.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ وقد سبق تفسير المكر في اللغة، ومعنى المكر في حق الله تعالى في سورة آل عمران عند قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٥٤] ويدل

قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ أن المراد أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون. قاله على وجه التحذير، وسمي هذا العذاب مكرًا توسعًا، لأن الواحد منا إذا أراد المكر بصاحبه، فإنه يوقعه في البلاء من حيث لا يشعر به، فسمي العذاب مكرًا لنزوله بهم من حيث لا يشعرون، وبيَّن أنه لا يأمن من نزول عذاب الله على هذا الوجه ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وهم الذين لغفلتهم وجهلهم لا يعرفون ربهم، فلا يخافونه، ومن هذه سبيله، فهو أخسر الخاسرين في الدنيا والآخرة، لأنه أوقع نفسه في الدنيا في الضرر، وفي الآخرة في أشد العذاب.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين فيما تقدم من الآيات حال الكفار الذين أهلكهم الله بالاستئصال مجملاً ومفصلاً أتبعه ببيان أن الغرض من ذكر هذه القصص حصول العبرة لجميع المكلفين في مصالح أديانهم وطاعاتهم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلف القراء فقرأ بعضهم ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ بالياء المعجمة من تحتها، وبعضهم بالنون، قال الزجاج: إذا قرئ بالياء المعجمة من تحت كان قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ مرفوعًا بأنه فاعله بمعنى: أو لم يهد للذين يخلفون أولئك المتقدمين ويرثون أرضهم وديارهم، وهذا الشأن وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين، إذا قرئ بالنون فهو منصوب، كأنه قيل: أولم نهد للوارثين هذا الشأن بمعنى أو لم نبين لهم أن قريشا أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم؟

المسألة الثانية: المعنى أو لم نبين للذين نبعثهم في الأرض بعد إهلاكنا من كان قبلهم فيها فنهلكهم بعدهم؟ وهو معنى لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، أي عقاب ذنوبهم، وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي إن لم نهلكهم بالعقاب نطبع على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يقبلون، ولا يتعظون، ولا ينزجرون وإنما قلنا: إن المراد إما الإهلاك وإما الطبع على القلب، لأن الإهلاك لا يجتمع مع الطبع على القلب، فإنه إذا أهلكه يستحيل أن يطبع على قلبه.

المسألة الثالثة: استدل أصحابنا على أنه تعالى قد يمنع العبد عن الإيمان بقوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والطبع والختم والرين والكنان والغشاوة والصد والمنع واحد على ما قررناه في آيات كثيرة. قال الجبائي: المراد من هذا الطبع أنه تعالى يَسِمُ قلوب الكفار بسمات

وعلامات تعرف الملائكة بها أن أصحابها لا يؤمنون، وتلك العلامة غير مانعة من الإيمان. وقال الكعبي: إنما أضاف الطبع إلى نفسه لأجل أن القوم إنما صاروا إلى ذلك الكفر عند أمره وامتحانه فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦].

واعلم أن البحث عن حقيقة الطبع والختم قد مر مرارًا كثيرة فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ هل هو منقطع عما قبله أو معطوف على ما قبله. فيه قولان:

القول الأول: أنه منقطع عن الذي قبله، لأن قوله: (أصبنا) ماض وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستقبل وهذا العطف ليس بمستحسن، بل هو منقطع عما قبله، والتقدير: ونحن نطبع على قلوبهم.

والقول الثاني: أنه معطوف على ما قبله، قال صاحب (الكشاف): هو معطوف على ما دل عليه معنى ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ كأنه قيل يغفلون عن الهداية، ونطبع على قلوبهم أو معطوف على قوله: ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ ثم قال: ولا يجوز أن يكون معطوفًا على ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ لأنهم كانوا كفارًا وكل كافر فهو مطبوع على قلبه، فقوله بعد ذلك: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يجري مجرى تحصيل الحاصل وهو محال، هذا تقرير قول صاحب (الكشاف) على أقوى الوجوه وهو ضعيف، لأن كونه مطبوعًا عليه إنما يحصل حال استمراره وثباته عليه، فهو يكفر أولاً، ثم يصير مطبوعًا عليه في الكفر، فلم يكن هذا منافيًا لصحة العطف.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ قوله: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ صفة و﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ خبر، والمراد بتلك القرى قرى الأقوام الخمسة الذين وصفهم فيما سبق، وهم: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، نقص عليك من أخبارها كيف أهلكت. وأما أخبار غير هؤلاء الأقوام، فلم نقصها عليك، وإنما خص الله أنباء هذه القرى لأنهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم فتوهموا أنهم على الحق، فذكرها الله تعالى تنبيهًا لقوم محمد عليه الصلاة والسلام عن الاحتراز من مثل تلك الأعمال.

ثم عزاه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يريد الأنبياء الذين أرسلوا إليهم وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ فيه قولان: الأول: قال ابن عباس والسدي: فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا به يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم، فآمنوا كرهًا، وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب. الثاني: قال الزجاج: (فما كانوا ليؤمنوا) بعد رؤية المعجزات بما كذبوا به قبل رؤية تلك المعجزات. الثالث: ما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل إهلاكهم، ونظيره قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] الرابع: قبل مجيء الرسول كانوا مصرين على الكفر، فهؤلاء ما كانوا ليؤمنوا بعد مجيء الرسل أيضًا. الخامس: ليؤمنوا في الزمان المستقبل.

ثم إنه تعالى بيّن السبب في عدم هذا القبول فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

قال الزجاج: والكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب، والمعنى: مثل ذلك الذي طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية، يطبع على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم أن لا يؤمنوا أبدًا والله أعلم بحقائق الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

فيه أقوال: الأول: قال ابن عباس: يريد الوفاء بالعهد الذي عاهدهم الله وهم في صلب آدم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[الأعراف: ١٧٢] فلما أخذ الله منهم هذا العهد وأقروا به، ثم خالفوا ذلك، صار كأنه ما كان لهم عهد، فلهذا قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ والثاني: قال ابن مسعود: العهد هنا الإيمان، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧] يعني آمن وقال لا إله إلا الله، والثالث: أن العهد عبارة عن وضع الأدلة الدالة على صحة التوحيد والنبوة، وعلى هذا التقدير فالمراد ما وجدنا لأكثرهم من الوفاء بالعهد.

ثم قال: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة، صارفين عن الدين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة السادسة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وذكر في هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر في سائر القصص، لأجل أن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات سائر الأنبياء، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام.

واعلم أن الكناية في قوله: ﴿مِن بَعْدِهِم﴾ يجوز أن تعود إلى الأنبياء الذين جرى ذكرهم، ويجوز أن تعود إلى الأمم الذين تقدم ذكرهم بإهلاكهم وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾

فيه مباحث:

البحث الأول: هذه الآية تدل على أن النبي لا بد له من آية ومعجزة بها يمتاز عن غيره، إذ لو لم يكن مختصًا بهذه الآية لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره.

والبحث الثاني: هذه الآية تدل على أنه تعالى آتاه آيات كثيرة، ومعجزات كثيرة.

والبحث الثالث: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول آياته العصا ثم اليد، ضرب بالعصا باب فرعون، ففزع منها فشاب رأسه، فاستحيا فخضب بالسواد، فهو أول من خضب. قال: وآخر الآيات الطمس. قال: وللعصا فوائد كثيرة منها ما هو مذكور في القرآن كقوله: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[طه: ١٨] وذكر الله من تلك المآرب في القرآن قوله: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[البقرة: ٦٠] وذكر ابن

عباس أشياء أخرى منها: أنه كان يضرب الأرض بها فتنبت، ومنها: أنه كانت تحارب اللصوص والسباع التي كانت تقصد غنمه، ومنها: أنها كانت تشتعل في الليل كاشتعال الشمعة، ومنها: أنها كانت تصير كالحبل الطويل فينزح به الماء من البئر العميقة.

واعلم أن الفوائد المذكورة في القرآن معلومة، فأما الأمور التي هي غير مذكورة في القرآن فكل ما ورد به خبر صحيح فهو مقبول وما لا فلا، وقوله: إنه كان يضرب بها الأرض فتخرج النبات ضعيف، لأن القرآن يدل على أن موسى عليه السلام، كان يفزع إلى العصا في الماء الخارج من الحجر، وما كان يفزع إليها في طلب الطعام.

أما قوله: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي فظلموا بالآيات التي جاءتهم، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه فلما كانت تلك الآيات قاهرة ظاهرة، ثم إنهم كفروا بها فوضعوا الإنكار في موضع الإقرار والكفر في موضع الإيمان، كان ذلك ظلمًا منهم على تلك الآيات.

ثم قال: ﴿فَانظُرْ﴾ أي بعين عقلك ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وكيف فعلنا بهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه كان يقال لملوك مصر: الفراعنة، كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة، فكأنه قال: يا ملك مصر، وكان اسمه قابوس، وقيل: الوليد بن مصعب بن الريان.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه إشارة إلى ما يدل على وجود الإله تعالى. فإن قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدل على أن العالم موصوف بصفات لأجلها افتقر إلى رب يربيه، وإله يوجده ويخلقه.

ثم قال: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ والمعنى أن الرسول لا يقول إلا الحق، فصار نظم الكلام. كأنه قال: أنا رسول الله، ورسول الله لا يقول إلا الحق، ينتج أني لا أقول إلا الحق، ولما كانت المقدمة الأولى خفية، وكانت المقدمة الثانية جلية ظاهرة، ذكر ما يدل على صحة المقدمة الأولى، وهو قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي المعجزة الظاهرة القاهرة. ولما قرر رسالة نفسه فرَّع عليه تبليغ الحكم، وهو قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولما سمع فرعون هذا الكلام قال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ واعلم أن دليل موسى عليه السلام كان مبنيًّا على مقدمات: إحداها: أن لهذا العالم إلهًا قادرًا عالمًا حكيمًا. والثانية: أنه أرسله إليهم بدليل أنه أظهر المعجز على وفق دعواه، ومتى كان الأمر كذلك،

وجب أن يكون رسولاً حقًا. والثالثة: أنه متى كان الأمر كذلك كان كل ما يبلغه من الله إليهم، فهو حق وصدق. ثم إن فرعون ما نازعه في شيء من هذه المقدمات إلا في طلب المعجزة، وهذا يوهم أنه كان مساعدًا على صحة سائر المقدمات، وقد ذكرنا في سورة طه أن العلماء اختلفوا في أن فرعون هل كان عارفًا بربه أم لا؟ ولمجيب أن يجيب، فيقول: إن ظهور المعجزة يدل أولاً على وجود الإله القادر المختار، وثانيا: على أن الإله جعله قائمًا مقام تصديق ذلك الرسول، فلعل فرعون كان جاهلاً بوجود الإله القادر المختار، وطلب منه إظهار تلك البينة حتى أنه إن أظهرها وأتى بها كان ذلك دليلاً على وجود الإله أولاً، وعلى صحة نبوته ثانيًا، وعلى هذا التقدير: لا يلزم من اقتصار فرعون على طلب البينة، كونه مقرًّا بوجود الإله الفاعل المختار.

المسألة الثالثة: قرأ نافع (حَقِيقٌ عَلِيَّ) مشدد الياء والباقون بسكون الياء والتخفيف. أما قراءة نافع (فحَقِيقٌ) يجوز أن يكون بمعنى فاعل. قال الليث: حق الشيء معناه وجب، ويحق عليك أن تفعل كذا، وحقيق علي أن أفعله، بمعنى فاعل. والمعنى: واجب علي ترك القول على الله إلا بالحق، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول، وضع فعيل في موضع مفعول. تقول العرب: حق علي أن أفعل كذا وإني لمحقوق على أن أفعل خيرًا، أي حق عليَّ ذلك بمعنى استحق.

إذا عرفت هذا فنقول: حجة نافع في تشديد الياء أن حق يتعدى بعلى. قال تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ [الصافات: ٣١] وقال: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦] فحقيق يجوز أن يكون موصولا بحرف (على) من هذا الوجه، وأيضًا فإن قوله: ﴿حَقِيقٌ﴾ بمعنى واجب، فكما أن وجب يتعدى بعلى، كذلك حقيق إن أريد به وجب، يتعدى بعلى. وأما قراءة العامة ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ﴾ بسكون الياء. ففيه وجوه:

الأول: أن العرب تجعل الباء في موضع (علي) تقول: رميت على القوس وبالقوس، وجئت على حال حسنة، وبحال حسنة. قال الأخفش: وهذا كما قال: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦] فكما وقعت الباء في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ موضع (علي) كذلك وقعت كلمة (علي) موقع الباء في قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ يؤكد هذا الوجه قراءة عبدالله (حقيق بأن لا أقول) وعلى هذه القراءة فالتقدير: أنا حقيق بأن لا أقول، وعلى قراءة نافع يرتفع بالابتداء، وخبره ﴿أَن لَّآ أَقُولَ﴾.

الثاني: أن الحق هو الثابت الدائم، والحقيق مبالغة فيه، وكان المعنى: أنا ثابت مستمر على أن لا أقول إلا الحق.

الثالث: الحقيق ههنا بمعنى المحقوق، وهو من قولك: حققت الرجل إذا ما تحققته وعرفته على يقين، ولفظة ﴿عَلَىٰٓ﴾ ههنا هي التي تقرن بالأوصاف اللازمة الأصلية، كقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وتقول: جاءني فلان على هيئته وعادته، وعرفته وتحققته على كذا وكذا من الصفات، فمعنى الآية: أني لم أعرف ولم أتحقق إلا على قول الحق. والله أعلم.

أما قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أطلق عنهم وخلهم، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقة، مثل ضرب اللَّبِن ونقل التراب، فعند هذا الكلام قال فرعون: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أن لقائل أن يقول: كيف قال له ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ بعد قوله: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾.

وجوابه: إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فاتني بها وأحضرها عندي، ليصح دعواك ويثبت صدقك.

والبحث الثاني: أن قوله: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جزاء وقع بين شرطين، فكيف حكمه؟ وجوابه أن نظيره قوله: إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيدًا. وههنا المؤخر في اللفظ يكون متقدمًا في المعنى، وقد سبق تقرير هذا المعنى فيما تقدم.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

اعلم أن فرعون لما طالب موسى عليه السلام بإقامة البينة على صحة نبوته بيَّن الله تعالى أن معجزته كانت قلب العصا ثعبانًا، وإظهار اليد البيضاء، والكلام في هذه الآية يقع على وجوه:

الأول: أن جماعة الطبيعيين ينكرون إمكان انقلاب العصا ثعبانًا. وقالوا: الدليل على امتناعه أن تجويز انقلاب العصا ثعبانًا يوجب ارتفاع الوثوق عن العلوم الضرورية وذلك باطل، وما يفضي إلى الباطل فهو باطل. إنما قلنا: إن تجويزه يوجب ارتفاع الوثوق على العلوم الضرورية، وذلك لأنا لو جوزنا أن يتولد الثعبان العظيم من العصا الصغيرة لجوزنا أيضًا أن يتولد الإنسان الشاب القوي عن التبنة الواحدة والحية الواحدة من الشعير، ولو جوز ذلك لجوزناه في هذا الإنسان الذي نشاهده الآن أنه إنما حدث الآن دفعة واحدة لا من الأبوين، ولجوزنا في زيد الذي نشاهده الآن أنه ليس هو زيد الذي شاهدناه بالأمس، بل هو شخص آخر حدث الآن دفعة واحدة، ومعلوم أن من فتح على نفسه أبواب هذه التجويزات فإن جمهور العقلاء يحكمون عليه بالخبل والعته والجنون، ولأن لو جوزنا ذلك لجوزنا أن يقال: إن الجبال انقلبت ذهبًا ومياه البحار انقلبت دمًا، ولجوزنا في التراب الذي كان في مزبلة البيت أنه انقلب دقيقًا، وفي الدقيق الذي كان في البيت أنه نقلب ترابًا وتجويز أمثال هذه الأشياء مما يبطل العلوم الضرورية ويوجب دخول الإنسان في السفسطة، وذلك باطل قطعًا فما يفضي إليه كان أيضًا باطلاً.

فإن قال قائل: تجويز أمثال هذه الأشياء مختص بزمان دعوة الأنبياء، وهذا الزمان ليس كذلك

فقد حصل الأمان في هذا الزمان عن تجويز هذه الأحوال.

فالجواب عنه من وجوه: الأول: أن هذا التجويز إذا كان قائمًا في الجملة كان تخصيص هذا التجويز بزمان دون زمان مما لا يعرف إلا بدليل غامض فكان يلزم أن يكون الجاهل بذلك الدليل الغامض جاهلاً باختصاص ذلك التجويز بذلك الزمان المعين فكان يلزم من جمهور العقلاء الذين لا يعرفون ذلك الدليل الغامض أن يجوزوا كل ما ذكرناه من الجهات وأن لا يكونوا قاطعين بامتناع وقوعها، وحيث نراهم قاطعين بامتناع وقوعها علمنا أن ما ذكرتموه فاسد. والثاني: أنا لو جوزنا أمثال هذه الأحوال في زمان دعوة النبوة فإنه يبطل أيضًا به القول بصحة النبوة، فإنه إذا جاز أن تنقلب العصا ثعبانًا، جاز في الشخص الذي شاهدناه أنه ليس هو الشخص الأول، بل الله أعدم الشخص الأول دفعة واحدة، وأوجد شخصًا آخر يساويه في جميع الصفات. وعلى هذا التقدير فلا يمكننا أن نعلم أن هذا الذي نراه الآن هو الذي رأيناه بالأمس وحينئذ يلزم وقوع الشك في الذين رأوا موسى وعيسى ومحمدًا عليهم السلام أن ذلك الشخص هل هو الذي رأوه بالأمس أم لا؟ ومعلوم أن تجويزه يوجب القدح في النبوة والرسالة. والثالث: وهو أن هذا الزمان وإن لم يكن زمان جواز المعجزات إلا أنه زمان جواز الكرامات عندكم فيلزمكم تجويزه، فهذا جملة الكلام في هذا المقام.

واعلم أن القول بتجويز انقلاب العادات عن مجاريها صعب مشكل، والعقلاء اضطربوا فيه وحصل لأهل العلم فيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول من يجوز ذلك على الإطلاق وهو قول أصحابنا، وذلك لأنهم جوزوا تولد الإنسان وسائر أنواع الحيوان والنبات دفعة واحدة من غير سابقة مادة ولا مدة ولا أصل ولا تربية وجوزوا في الجوهر الفرد أن يكون حيًّا عالمًا قادرًا عاقلاً قاهرًا من غير حصول بنية ولا مزاج ولا رطوبة ولا تركيب، وجوزوا في الأعمى الذي يكون بالأندلس أن يبصر في ظلمة الليل البقعة التي تكون بأقصى المشرق، مع أن الإنسان الذي يكون سليم البصر لا يرى الشمس الطالعة في ضياء النهار، فهذا هو قول أصحابنا.

والقول الثاني: قول الفلاسفة الطبيعيين وهو أن ذلك ممتنع على الإطلاق، وزعموا أنه لا يجوز حدوث هذه الأشياء ودخولها في الوجود إلا على هذا الوجه المخصوص والطريق المعين. وقالوا: وبهذا الطريق دفعنا عن أنفسنا التزام الجهالات التي ذكرناها والمحالات التي شرحناها، واعلم أنهم وإن زعموا أن ذلك غير لازم لهم، إلا أنهم في الحقيقة يلزمهم ذلك لزومًا لا دافع له، وتقريره أن هذه الحوادث التي تحدث في عالمنا هذا إما أن تحدث لا لمؤثر أو لمؤثر، وعلى التقديرين: فالقول الذي ذكرناه لازم أما على القول بأنها تحدث لا عن مؤثر، فهذا القول باطل في صريح العقل، إلا أن مع تجويزه فالإلزام المذكور لازم لأنا إذا جوزنا حدوث الأشياء لا عن مؤثر ولا عن موجد، فكيف يكون الأمان من تجويز حدوث إنسان لا عن الأبوين،

ومن تجويز انقلاب الجبل ذهبًا والبحر دمًا؟ فإن تجويز حدوث بعض الأشياء لا عن مؤثر ليس أبعد عند العقل من تجويز حدوث سائر الأشياء لا عن مؤثر، فثبت على هذا التقدير أن الإلزام المذكور لازم. أما على التقدير الثاني وهو إثبات مؤثر ومدبر لهذا العالم فذلك المؤثر إما أن يكون موجبًا بالذات وأما أن يكون فاعلاً بالاختيار. أما على التقدير الأول فالإلزامات المذكورة لازمة، وتقريره: أنه إذا كان مؤثرًا ومرجحه موجبًا بالذات وجب الجزم بأن اختصاص كل وقت معين بالحادث المعين الذي حدث فيه إنما كان لأجل أنه بحسب اختلاف الأشكال الفلكية تختلف حوادث هذا العالم إذ لو لم يعتبر هذا المعنى لامتنع أن تكون العلة القديمة الدائمة سببًا لحدوث المعلول الحادث المتغير.

وإذا ثبت هذا فنقول: كيف الأمان من أن يحدث في الفلك شكل غريب يقتضي حدوث إنسان دفعة واحدة لا عن الأبوين وانتقال مادة الجبل من الصورة الجبلية إلى الصورة الذهبية أو للصورة الحيوانية؟ وحينئذ تعود جميع الإلزامات المذكورة. وأما على التقدير الثاني وهو أن يكون مؤثر العالم ومرجحه فاعلاً مختارًا، فلا شك أن جميع الأشياء المذكورة محتملة لأنه لا يمتنع أن يقال إن ذلك الفاعل المختار يخلق بإرادته إنسانًا دفعة واحدة لا عن الأبوين وانتقال مادة الجبل ذهبًا والبحر دمًا، فثبت أن الأشياء التي ألزموها علينا واردة على جميع التقديرات وعلى جميع الفرق وأنه لا دافع لها ألبتة.

والقول الثالث: وهو قول المعتزلة فإنهم يجوزون انخراق العادات وانقلابها عن مجاريها في بعض الصور دون بعض، فأكثر شيوخهم يجوزون حدوث الإنسان دفعة واحدة لا عن الأبوين، ويجوزون انقلاب الماء نارًا وبالعكس، ويجوزون حدوث الزرع لا عن سابقة بذر. ثم قالوا: إنه لا يجوز أن يكون الجوهر الفرد موصوفًا بالعلم والقدرة والحياة، بل صحة هذه الأشياء مشروطة بحصول بنية مخصوصة ومزاج مخصوص، وزعموا أن عند كون الحاسة سليمة وكون المرئي حاضرًا وعدم القرب القريب والبعد البعيد يجب حصول الإدراك وعند فقدان أحد هذه الشروط يمتنع حصول الإدراك، وبالجملة فالمعتزلة في بعض الصور لا يعتبرون مجاري العادات ويزعمون أن انقلابها ممكن وانخراقها جائز، وفي سائر الصور يزعمون أنها واجبة ويمتنع زوالها وانقلابها، وليس لهم بين الناس قانون مضبوط ولا ضابط معلوم، فلا جرم كان قولهم أدخل الأقاويل في الفساد.

إذا عرفت هذه التفاصيل فنقول: ذوات الأجسام متماثلة في تمام الماهية وكل ما صح على الشيء صح على مثله، فوجب أن يصح على كل جسم ما صح على غيره، فإذا صح على بعض الأجسام صفة من الصفات وجب أن يصح على كلها مثل تلك الصفة، وإذا كان كذلك كان جسم العصا قابلاً للصفات التي باعتبارها تصير ثعبانًا، وإذا كان كذلك كان انقلاب العصا ثعبانًا أمرًا ممكنًا لذاته، وثبت أنه تعالى قادر على جميع الممكنات، فلزم القطع بكونه تعالى قادرًا على قلب

العصا ثعبانًا، وذلك هو المطلوب، وهذا الدليل موقوف على إثبات مقدمات ثلاث: إثبات أن الأجسام متماثلة في تمام الذات، وإثبات أن حكم الشيء حكم مثله، وإثبات أنه تعالى قادر على كل الممكنات ومتى قامت الدلالة على صحة هذه المقدمات الثلاثة فقد حصل المطلوب التام والله أعلم. قوله: ﴿ فَإِذَا هِيَ﴾ أي العصا وهي مؤنثة، والثعبان الحية الضخمة الذكر في قول جميع أهل اللغة. فأما مقدارها فغير مذكور في القرآن، ونقل عن المفسرين في صفتها أشياء، فعن ابن عباس: إنها ملأت ثمانين ذراعًا ثم شدت على فرعون لتبتلعه فوثب فرعون عن سريره هاربًا وأحدث، وانهزم الناس ومات منهم خمسة وعشرون ألفًا. وقيل: كان بين لحييها أربعون ذراعا ووضع لحيها الأسفل على الأرض، والأعلى على سور القصر، وصاح فرعون يا موسى خذها فأنا أومن بك، فلما أخذها موسى عادت عصًا كما كانت، وفي وصف ذلك الثعبان بكونه مبينًا وجوه: الأول: تمييز ذلك عما جاءت به السحرة من التمويه الذي يلتبس على من لا يعرف سببه، وبذلك تتميز معجزات الأنبياء من الحيل والتمويهات. والثاني: في المراد أنهم شاهدوا كونه حية لم يشتبه الأمر عليهم فيه. الثالث: المراد أن ذلك الثعبان أبان قول موسى عليه السلام عن قول المدعي الكاذب.

وأما قوله: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ فالنزع في اللغة عبارة عن إخراج الشيء عن مكانه فقوله: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي أخرجها من جيبه أو من جناحه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢]وقوله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢]وقوله: ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ قال ابن عباس: وكان لها نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض.

واعلم أنه لما كان البياض كالعيب بيّن الله تعالى في غير هذه الآية أنه كان من غير سوء.

فإن قيل: بم يتعلق قوله: ﴿ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

قلنا: يتعلق بقوله: ﴿ بَيْضَآءُ﴾ والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضًا عجيبًا خارجًا عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب. وبقي ههنا مباحث: فأولها: أن انقلاب العصا ثعبانًا، من كم وجه يدل على المعجز؟ والثاني: أن هذا المعجز كان أعظم أم اليد البيضاء؟ وقد استقصينا الكلام في هذين المطلوبين في سورة طه. والثالث: أن المعجز الواحد كان كافيًا، فالجمع بينهما كان عبثًا.

وجوابه: أن كثرة الدلائل توجب القوة في اليقين وزوال الشك، ومن الملحدين من قال: المراد بالثعبان وباليد البيضاء شيء واحد، وهو أن حجة موسى عليه السلام كانت قوية ظاهرة قاهرة، فتلك الحجة من حيث إنها أبطلت أقوال المخالفين، وأظهرت فسادها، كانت كالثعبان العظيم الذي يتلقف حجج المبطلين، ومن حيث كانت ظاهرة في نفسها، وصفت باليد البيضاء، كما يقال في العرف: لفلان يد بيضاء في العلم الفلاني. أي قوة كاملة، ومرتبة ظاهرة. واعلم أن حمل هذين المعجزين على هذا الوجه يجري مجرى دفع التواتر وتكذيب الله ورسوله. ولما بينا

أن انقلاب العصا حية أمر ممكن في نفسه، فأي حامل يحملنا على المصير إلى هذا التأويل؟ ولما ذكر الله تعالى أن موسى عليه السلام أظهر هذين النوعين من المعجزات. حكى عن قوم فرعون أنهم قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وذلك لأن السحر كان غالبًا في ذلك الزمان، ولا شك أن مراتب السحرة كانت متفاضلة متفاوتة، ولا شك أنه يحصل فيهم من يكون غاية في ذلك العلم ونهاية فيه فالقوم زعموا أن موسى عليه السلام لكونه في النهاية من علم السحر، أتى بتلك الصفة، ثم ذكروا أنه إنما أتى بذلك السحر لكونه طالبًا للملك والرياسة.

فإن قيل: قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ حكاه الله تعالى في سورة الشعراء أنه قاله فرعون لقومه، وحكى ههنا أن قوم فرعون قالوه، فكيف الجمع بينهما؟ وجوابه من وجهين: الأول: لا يمتنع أنه قد قاله هو وقالوه هم، فحكى الله تعالى قوله ثم، وقولهم ههنا. والثاني: لعل فرعون قاله ابتداء فتلقنه الملأ منه فقالوه لغيره أو قالوه عنه لسائر الناس على طريق التبليغ، فإن الملوك إذا رأوا رأيا ذكروه للخاصة وهم يذكرونه للعامة، فكذا ههنا.

وأما قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فقد ذكر الزجاج فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن كلام الملأ من قوم فرعون تم عند قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] ثم عند هذا الكلام قال فرعون مجيبًا لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ واحتجوا على صحة هذا القول بوجهين: أحدهما: أن قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خطاب للجمع لا للواحد، فيجب أن يكون هذا كلام فرعون للقوم. أما لو جعلناه كلام القوم مع فرعون لكانوا قد خاطبوه بخطاب الواحد لا بخطاب الجمع. وأجيب عنه: بأنه يجوز أن يكونوا خاطبوه بخطاب الجمع تفخيمًا لشأنه، لأن العظيم إنما يكنى عنه بكناية الجمع كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح: ١] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

والحجة الثانية: أنه تعالى لما ذكر قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ قال بعده: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾ ولا شك أن هذا كلام القوم، وجعله جوابًا عن قولهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فوجب أن يكون القائل لقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ غير الذي قالوا أرجه، وذلك يدل على أن قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ كلام لغير الملأ من قوم فرعون. وأجيب عنه: بأنه لا يبعد أن القوم قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ثم قالوا لفرعون ولأكابر خدمه ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ثم أتبعوه بقولهم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ فإن الخدم والأتباع يفوضون الأمر والنهي إلى المخدوم والمتبوع أولاً، ثم يذكرون ما حضر في خواطرهم من المصلحة.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من بقية كلام القوم، واحتجوا عليه بوجهين: الأول: أنه منسوق على كلام القوم من غير فاصل، فوجب أن يكون ذلك من بقية كلامهم. والثاني: أن الرتبة معتبرة في الأمر، فوجب أن يكون قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خطابًا من الأدنى مع الأعلى، وذلك يوجب أن يكون هذا من بقية كلام فرعون معه.

وأجيب عن هذا الثاني: بأن الرئيس المخدوم قد يقول للجمع الحاضر عنده من رهطه ورعيته

ماذا تأمرون؟ ويكون غرضه منه تطييب قلوبهم وإدخال السرور في صدورهم وأن يظهر من نفسه كونه معظمًا لهم ومعتقدًا فيهم، ثم إن القائلين بأن هذا من بقية كلام قوم فرعون ذكروا وجهين: أحدهما: أن المخاطب بهذا الخطاب هو فرعون وحده، فإنه يقال للرئيس المطاع ما ترون في هذه الواقعة؛ أي ما ترى أنت وحدك، والمقصود أنك وحدك قائم مقام الجماعة. والغرض منه التنبيه على كماله ورفعة شأنه وحاله. والثاني: أن يكون المخاطب بهذا الخطاب هو فرعون وأكابر دولته وعظماء حضرته، لأنهم هم المستقلون بالأمر والنهي، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع والكسائي (أَرْجِهِ) بغير همز وكسر الهاء والإشباع، وقرأ عاصم وحمزة (أَرْجِهْ) بغير الهمز وسكون الهاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (أرجئهُ) بالهمز وضم الهاء، ثم إن ابن كثير أشبع الهاء على أصله والباقون لا يشبعون. قال الواحدي: رحمه الله ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ﴾ مهموز وغير مهموز لغتان يقال أرجأت الأمر وأرجيته إذا أخرته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ﴾ [التوبة: ١٠٦] و﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] قرئ في الآيتين باللغتين، وأما قراءة عاصم وحمزة بغير الهمز، وسكون الهاء فقال الفراء: هي لغة العرب يقفون على الهاء المكني عنها في الوصل إذا تحرك ما قبلها وأنشد.

فيصلح اليوم ويفسده غدا(١)

قال وكذلك يفعلون بهاء التأنيث فيقولون: هذه طلحة قد أقبلت، وأنشد.

لما رأى أن لا دعه ولا شبع

ثم قال الواحدي: ولا وجه لهذا عند البصريين في القياس. وقال الزجاج: هذا شعر لا نعرف قائله، ولو قاله شاعر مذكور لقيل له أخطأت.

المسألة الثانية: في تفسير قوله: ﴿أَرۡجِهۡ﴾ قولان: الأول: الإرجاء التأخير فقوله: ﴿أَرۡجِهۡ﴾ أي

(١) هذا البيت لدويد القضاعي وهو دويد بن زيد بن نهد بن زيد بن حوتكة بن أسلم القضاعي ٣٥٢ق. هـ-؟هـ/ ٢٨٠-؟م، شاعر جاهلي، معمّر، لقب بـ(ذُويد) وقيل هو (جذيمة بن صبح بن زيد بن نهد!)، وذكر السجستاني أنه عاش ٤٥٦ سنة. وروي في القاموس المحيط أنه أدرك الإسلام. وهو ابن أخ الشاعر خزيمة بن نهد بن زيد.

وساق الشريف المرتضى في أماليه وصيته لبنيه لما حضرته الوفاة ومنها قوله: (أوصيكم بالناس شرًا لا ترحموا لهم عبرة، ولا تقيلوهم عثرة، قصرُّوا الأعنة وطوّلوا الأسنة، واطعنوا شزرًا، واضربوا هبرًا، إذا أردتم المحاجزة فقبل المناجزة، والمرء يعجز لا محالة. وقد رويت هذه الوصية أو بعضها لجده نهد بن زيد.

أخره. ومعنى أخره: أي أخر أمره ولا تعجل في أمره بحكم، فتصير عجلتك حجة عليك، والمقصود أنهم حاولوا معارضة معجزته بسحرهم، ليكون ذلك أقوى في إبطال قول موسى عليه السلام.

والقول الثاني: وهو قول الكلبي وقتادة (أرجه) احبسه. قال المحققون: هذا القول ضعيف لوجهين: الأول: أن الإرجاء في اللغة هو التأخير لا الحبس، والثاني: أن فرعون ما كان قادرا على حبس موسى بعد ما شاهد حال العصا.

أما قوله: ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذه الآية تدل على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان وإلا لم يصح قوله: ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ويدل على أن في طباع الخلق معرفة المعارضة، وإنها إذا أمكنت فلا نبوة، وإذا تعذرت فقد صحت النبوة، وأما بيان أن السحر ما هو وهل له حقيقة أم لا بل هو محض التمويه، فقد سبق الاستقصاء فيه في سورة البقرة.

المسألة الثانية: نقل الواحدي عن أبي القاسم الزجاجي: أنه قال: اختلف أصحابنا في المدينة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها فعيلة لأنها مأخوذة من قولهم مدن بالمكان يمدن مدونا إذا أقام به، وهذا القائل يستدل بإطباق القراء على همز المدائن، وهي فعائل كصحائف وصحيفة وسفائن وسفينة والياء إذا كانت زائدة في الواحد همزت في الجمع كقبائل وقبيلة، وإذا كانت من نفس الكلمة لم تهمز في الجمع نحو معايش ومعيشة.

والقول الثاني: أنها مفعلة، وعلى هذا الوجه، فمعنى المدينة المملوكة من دانه يدينه، فقولنا مدينة من دان، مثل معيشة من عاش، وجمعها مداين على مفاعل. كمعايش، غير مهموز، ويكون اسمًا لمكان والأرض التي دانهم السلطان فيها أي ساسهم وقهرهم.

والقول الثالث: قال المبرد: مدينة أصلها مديونة من دانه إذا قهره وساسه، فاستثقلوا حركة الضمة على الياء فسكنوها ونقلوا حركتها إلى ما قبلها، واجتمع ساكنان الواو المزيدة التي هي واو المفعول، والياء التي هي من نفس الكلمة، فحذفت الواو لأنها زائدة، وحذف الزائد أولى من حذف الحرف الأصلي، ثم كسروا الدال لتسلم الياء، فلا تنقلب واوًا لانضمام ما قبلها فيختلط ذوات الواو بذوات الياء، وهكذا القول في المبيع والمخيط والمكيل، ثم قال الواحدي: والصحيح أنها فعيلة لاجتماع القراء على همز المدائن.

المسألة الثالثة: ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يريد وأرسل في مدائن صعيد مصر رجالاً يحشروا إليك ما فيها من السحرة. قال ابن عباس: وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد، ونقل القاضي عن ابن عباس، أنهم كانوا سبعين ساحرًا سوى رئيسهم، وكان الذي يعلمهم رجلا

مجوسيًا من أهل نينوى بلدة يونس عليه السلام، وهي قرية بالموصل. وأقول هذا النقل مشكل، لأن المجوس أتباع زرادشت، وزرادشت إنما جاء بعد مجيء موسى عليه السلام.

أما قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي بكل سحار، والباقون بكل ساحر، فمن قرأ سحار فحجته أنه قد وصف بعليم، ووصفه به يدل على تناهيه فيه وحذقه به، فحسن لذلك أن يذكر بالاسم الدال على المبالغة في السحر، ومن قرأ ساحر فحجته قوله: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الأعراف: ١٢٠] و﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ [الشعراء: ٤٠] والسحرة جمع ساحر مثل كَتَبة وكَاتب وفَجَرة وفَاجِر. واحتجوا أيضًا بقوله: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] واسم الفاعل من سحروا ساحر.

المسألة الثانية: الباء في قوله: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى مع، ويحتمل أن تكون باء التعدية، والله أعلم.

المسألة الثالثة: هذه الآية تدل على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان، وهذا يدل على صحة ما يقوله المتكلمون، من أنه تعالى يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالبًا على أهل ذلك الزمان فلما كان السحر غالبًا على أهل زمان موسى عليه السلام كانت معجزته شبيهة بالسحر وإن كان مخالفًا للسحر في الحقيقة، ولما كان الطب غالبًا على أهل زمان عيسى عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب، ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان محمد عليه الصلاة والسلام لا جرم كانت معجزته من جنس الفصاحة.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع، وابن كثير، وحفص عن عاصم، (إن لنا لأجرًا) بكسر الألف على الخبر والباقون على الاستفهام، ثم اختلفوا، فقرأ أبو عمرو بهمزة ممدودة على أصله والباقون بهمزتين قال الواحدي رحمه الله: الاستفهام أحسن في هذا الموضع، لأنهم أرادوا أن يعلموا هل لهم أجر أم لا؟ ويقطعون على أن لهم الأجر ويقوي ذلك إجماعهم في سورة الشعراء على الهمز للاستفهام وحجة نافع وابن كثير على أنهما أرادا همزة الاستفهام، ولكنهما حذفا ذلك من اللفظ وقد تحذف همزة الاستفهام من اللفظ، وإن كانت باقية في المعنى كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء: ٢٢] فإنه يذهب كثير من الناس إلى أن معناه أو تلك بالاستفهام، وكما في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨] والتقدير أهذا ربي، وقيل: أيضًا المراد أن السحرة أثبتوا لأنفسهم أجرًا عظيمًا، لأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتنكير للتعظيم كقول العرب: إن له لإبلاً، وإن

له لغنمًا، يقصدون الكثرة.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: هلا قيل: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ﴾.

وجوابه: هو على تقدير: سائل سأل: ما قالوا إذ جاءوه.

فأجيب بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ أي جعلا على الغلبة.

فإن قيل: قوله: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ معطوف، وما المعطوف عليه؟

وجوابه: أنه معطوف على محذوف، سد مسده حرف الإيجاب، كأنه قال إيجابًا لقولهم: إن لنا لأجرًا، نعم إن لكم لأجرًا، وإنكم لمن المقربين. أراد أني لا أقتصر بكم على الثواب، بل أزيدكم عليه، وتلك الزيادة إني أجعلكم من المقربين عندي. قال المتكلمون: وهذا يدل على أن الثواب إنما يعظم موقعه إذا كان مقرونًا بالتعظيم، والدليل عليه أن فرعون لما وعدهم بالأجر قرن به ما يدل على التعظيم، وهو حصول القربة.

المسألة الثالثة: الآية تدل على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبدًا ذليلاً مهينًا عاجزًا، وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة في دفع موسى عليه السلام، وتدل أيضًا على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان، وإلا لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال من فرعون، لأنهم لو قدروا على قلب الأعيان، فلم لم يقلبوا التراب ذهبًا، ولم لم ينقلوا ملك فرعون إلى أنفسهم ولِمَ لم يجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساء الدنيا، والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدقائق، وأن لا يغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الفراء والكسائي: في باب (أما، وإما) إذا كنت آمرًا أو ناهيًا أو مخبرًا فهي مفتوحة وإذا كانت مشترطًا أو شاكًا أو مخيرًا فهي مكسورة تقول في المفتوحة أما الله فاعبدوه وأما الخمر فلا تشربوها وأما زيد فقد خرج.

وأما النوع الثاني: فتقول: إذا كنت مشترطًا، إما تعطين زيدًا فإنه يشكرك، قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ﴾ [الأنفال: ٥٧] وتقول في الشك: لا أدري من قام إما زيد وإما عمرو، وتقول في التخيير، لي بالكوفة دار فإما أن أسكنها، وإما أن أبيعها والفرق بين، أما إذا أتت للشك وبين أو، أنك إذا قلت: جاءني زيد أو عمرو فقد يجوز أن تكون قد بنيت كلامك على اليقين ثم

أدركك الشك فقلت: أو عمرو فصار الشك فيهما جميعًا، فأول الاسمين في (أو) يجوز أن يكون بحيث يحسن السكوت عليه ثم يعرض الشك فتستدرك بالاسم الآخر، ألا ترى أنك تقول: قام أخوك وتسكت، ثم تشك فتقول: أو أبوك، وإذا ذكرت إما فإنما تبني كلامك من أول الأمر على الشك وليس يجوز أن تقول: ضربت إما عبد الله وتسكت، وأما دخول ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ وسقوطها من قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] فقال الفراء: أدخل (أن) في (إما) في هذه الآية لأنها في موضع أمر بالاختيار وهي في موضع نصب، كقول القائل: اختر ذا أو ذا، كأنهم قالوا: اختر أن تلقي أو نلقي، وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ليس فيه أمر بالتخيير. ألا ترى أن الأمر لا يصلح ههنا، فلذلك لم يكن فيه (أن)، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ يريد عصاه ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ أي ما معنا من الحبال والعصي فمفعول الإلقاء محذوف وفي الآية دقيقة أخرى وهي أن القوم راعوا حسن الأدب حيث قدموا موسى عليه السلام في الذكر، وقال أهل التصوف: إنهم لما راعوا هذا الأدب لا جرم رزقهم الله تعالى الإيمان ببركة رعاية هذا الأدب ثم ذكروا ما يدل على رغبتهم في أن يكون ابتداء الإلقاء من جانبهم، وهو قولهم: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ لأنهم ذكروا الضمير المتصل وأكدوه بالضمير المنفصل وجعلوا الخبر معرفة لا نكرة.

واعلم أن القوم لما راعوا الأدب أولاً وأظهروا ما يدل على رغبتهم في الابتداء بالإلقاء قال موسى عليه السلام: ألقوا ما أنتم ملقون، وفيه سؤال: وهو أن إلقاءهم حبالهم وعصيهم معارضة للمعجزة بالسحر وذلك كفر والأمر بالكفر كفر، وحيث كان كذلك فكيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول ألقوا؟

والجواب عنه من وجوه:

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام إنما أمرهم بشرط أن يعلموا في فعلهم أن يكون حقًّا فإذا لم يكن كذلك فلا أمر هناك، كقول القائل منا لغيره: اسقني الماء من الجرة فهذا الكلام إنما يكون أمرًا بشرط حصول الماء في الجرة، فأما إذا لم يكن فيها ماء فلا أمر ألبتة كذلك ههنا. الثاني: أن القوم إنما جاءوا لإلقاء تلك الحبال والعصي، وعلم موسى عليه السلام أنهم لا بد وأن يفعلوا ذلك وإنما وقع التخيير في التقديم والتأخير، فعند ذلك أذن لهم في التقديم ازدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بما وعده الله تعالى به من التأييد والقوة، وأن المعجزة لا يغلبها سحر أبدًا. الثالث: أنه عليه الصلاة والسلام كان يريد إبطال ما أتوا به من السحر، وإبطاله ما كان يمكن إلا بإقدامهم على إظهاره، فأذن لهم في الإتيان بذلك السحر ليمكنه الإقدام على إبطاله. ومثاله أن من يريد سماع شبهة ملحد ليجيب عنها ويكشف عن ضعفها وسقوطها؛ يقول له: هات، وقل، واذكرها، وبالغ في تقريرها، ومراده منه أنه إذا أجاب عنها بعد هذه المبالغة فإنه يظهر لكل أحد ضعفها وسقوطها، فكذا ههنا، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] واحتج به القائلون بأن السحر محض التمويه. قال القاضي: لو كان السحر حقًّا، لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم؟ فثبت أن المراد أنهم تخيلوا أحوالاً عجيبة مع أن الأمر في الحقيقة ما كان على وفق ما تخيلوه. قال الواحدي: بل المراد سحروا أعين الناس، أي قلبوها عن صحة أدراكها بسبب تلك التمويهات، وقيل: إنهم أتوا بالحبال والعصي ولطخوا تلك الحبال بالزئبق، وجعلوا الزئبق في دواخل تلك العصي، فلما أثر تسخين الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض وكانت كثيرة جدًّا، فالناس تخيلوا أنها تتحرك وتلتوي باختيارها وقدرتها.

وأما قوله: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ فالمعنى: أن العوام خافوا من حركات تلك الحبال والعصي. قال المبرد: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أرهبوهم، والسين زائدة. قال الزجاج: استدعوا رهبة الناس حتى رهبهم الناس، وذلك بأن بعثوا جماعة ينادون عند إلقاء ذلك: أيها الناس احذروا، فهذا هو الاسترهاب. وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه خيل إلى موسى عليه السلام أن حبالهم وعصيهم حيات مثل عصا موسى، فأوحى الله عز وجل إليه ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧] قال المحققون: إن هذا غير جائز، لأنه عليه السلام لما كان نبيًّا من عند الله تعالى كان على ثقة ويقين من أن القوم لم يغالبوه، وهو عالم بأن ما أتوا به على وجه المعارضة فهو من باب السحر والباطل، ومع هذا الجزم فإنه يمتنع حصول الخوف.

فإن قيل: أليس أنه تعالى قال: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧].

قلنا: ليس في الآية أن هذه الخيفة إنما حصلت لأجل هذا السبب، بل لعله عليه السلام خاف من وقوع التأخير في ظهور حجة موسى عليه السلام على سحرهم.

ثم إنه تعالى قال في صفة سحرهم: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ روي أن السحرة قالوا قد علمنا سحرًا لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمرًا من السماء، فإنه لا طاقة لنا به. وروي أنهم كانوا ثمانين ألفًا. وقيل: سبعين ألفًا. وقيل: بضعة وثلاثين ألفًا. واختلفت الروايات، فمن مقل ومن مكثر، وليس في الآية ما يدل على المقدار والكيفية والعدد.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ يحتمل أن يكون المراد من هذا الوحي حقيقة الوحي. وروى الواحدي عن ابن عباس: أنه قال: يريد وألهمنا موسى أن ألق عصاك.

ثم قال: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فيه حذف وإضمار، والتقدير ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ .

المسألة الثانية: قرأ حفص عن عاصم (تلقف) ساكنة اللام خفيفة القاف، والباقون بتشديد القاف مفتوحة اللام. وروي عن ابن كثير (تلقّف) بتشديد القاف. وعلى هذا الخلاف في طه والشعراء. أما من خفف فقال ابن السكيت: اللقف مصدر لقفت الشيء ألقفه لقفًا إذا أخذته،

فأكلته أو ابتلعته، ورجل لقف سريع الأخذ، وقال اللحياني: ومثله ثقف يثقف ثقًا وثقيف كلقيف بين الثقافة واللقافة، وأما القراءة بالتشديد فهو من تلقف يتلقف، وأما قراءة ابن كثير فأصلها تتلقف أدغم إحدى التاءين في الأخرى.

المسألة الثالثة: قال المفسرون: لما ألقى موسى العصا صارت حية عظيمة حتى سدت الأفق ثم فتحت فكها فكان ما بين فكيها ثمانين ذراعًا وابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، فلما أخذها موسى صارت عصًا كما كانت من غير تفاوت في الحجم والمقدار أصلاً. واعلم أن هذا مما يدل على وجود الإله القادر المختار وعلى المعجز العظيم لموسى عليه السلام، وذلك لأن ذلك الثعبان العظيم لما ابتلعت تلك الحبال والعصي مع كثرتها ثم صارت عصًا كما كانت فهذا يدل على أنه تعالى أعدم أجسام تلك الحبال والعصي، أو على أنه تعالى فرق بين تلك الأجزاء وجعلها ذرات غير محسوسة وأذهبها في الهواء بحيث لا يحس بذهابها وتفرقها وعلى كلا التقديرين، فلا يقدر على هذه الحالة أحد إلا الله سبحانه وتعالى.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ فيه وجهان: الأول: معنى الإفك في اللغة: قلب الشيء عن وجهه، ومنه قيل للكذب إفك لأنه مقلوب عن وجهه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ يريد يكذبون، والمعنى: أن العصا تلقف ما يأفكونه أي يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزورونه وعلى هذ التقدير فلفظة (ما) موصولة، والثاني: أن يكون (ما) مصدرية، والتقدير: فإذا هي تلقف إفكهم تسمية للمأفوك بالإفك.

ثم قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ قال مجاهد والحسن: ظهر. وقال الفراء: فتبين الحق من السحر. قال أهل المعاني: الوقوع: ظهور الشيء بوجوده نازلاً إلى مستقره، وسبب هذا الظهور أن السحرة قالوا: لوكان ما صنع موسى سحرًا لبقيت حبالنا وعصينا ولم تفقد، فلما فقدت ثبت أن ذلك إنما حصل بخلق الله سبحانه وتعالى وتقديره، لا لأجل السحر، فهذا هو الذي لأجله تميز المعجز عن السحر. قال القاضي قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ يفيد قوة الثبوت والظهور بحيث لا يصح فيه البطلان كما لا يصح في الواقع أن يصير لا واقعًا.

فإن قيل: قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ يدل على قوة هذا الظهور، فكان قوله: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تكريرًا من غير فائدة!

قلنا: المراد أن مع ثبوت هذا الحق زالت الأعيان التي أفكوها وهي تلك الحبال والعصي، فعند ذلك ظهرت الغلبة، فلهذا قال تعالى: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ لأنه لا غلبة أظهر من ذلك ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ لأنه لا ذل ولا صغار أعظم في حق المبطل من ظهور بطلان قوله وحجته، على وجه لا يمكن فيه حيلة ولا شبهة أصلاً قال الواحدي: لفظة (ما) في قوله: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يجوز أن تكون بمعنى (الذي) فيكون المعنى بطل الحبال والعصي الذي عملوا به السحر أي زال وذهب بفقدانها ويجوز أن تكون بمعنى المصدر كأنه قيل بطل عملهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال المفسرون: إن تلك الحبال والعصي كانت حِمْل ثلثمائة بعير، فلما ابتلعها ثعبان موسى عليه السلام وصارت عصًا كما كانت قال بعض السحرة لبعض هذا خارج عن السحر، بل هو أمر إلهي، فاستدلوا به على أن موسى عليه السلام نبي صادق من عند الله تعالى، قال المتكلمون: وهذه الآية من أعظم الدلائل على فضيلة العلم، وذلك لأن أولئك الأقوام كانوا عالمين بحقيقة السحر واقفين على منتهاه، فلما كانوا كذلك ووجدوا معجزة موسى عليه السلام خارجة عن حد السحر، علموا أنه من المعجزات الإلهية، لا من جنس التمويهات البشرية ولو أنهم ما كانوا كاملين في علم السحر لما قدروا على ذلك الاستدلال، لأنهم كانوا يقولون: لعله أكمل منا في علم السحر، فقدر على ما عجزنا عنه، فثبت أنهم كانوا كاملين في علم السحر. فلأجل كمالهم في ذلك العلم انتقلوا من الكفر إلى الإيمان. فإذا كان حال علم السحر كذلك، فما ظنك بكمال حال الإنسان في علم التوحيد.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بقوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ قالوا: دلت هذه الآية على أن غيرهم ألقاهم ساجدين، وما ذاك إلا الله رب العالمين فهذا يدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى. قال مقاتل: ألقاهم الله تعالى ساجدين. وقال المعتزلة: الجواب عنه من وجوه: الأول: أنهم لما شاهدوا الآيات العظيمة والمعجزات القاهرة لم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين؛ فصار كأن ملقيًا ألقاهم. الثاني: قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا صاروا كأنهم ألقاهم غيرهم لأنهم لم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين. الثالث: أنه ليس في الآية أنه ألقاهم ملق إلى السجود، إلا أنا نقول: إن ذلك الملقي هو أنفسهم.

والجواب: أن خالق تلك الداعية في قلوبهم هو الله تعالى، وإلا لافتقروا في خلق تلك الداعية الجازمة إلى داعية أخرى ولزم التسلسل وهو محال. ثم إن أصل تلك القدرة مع تلك الداعية الجازمة تصير موجبة للفعل. وخالق ذلك الموجب هو الله تعالى فكان ذلك الفعل والأثر مسندًا إلى الله تعالى، والله أعلم.

المسألة الثالثة: أنه تعالى ذكر أولاً أنهم صاروا ساجدين، ثم ذكر بعده أنهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فما الفائدة فيه مع أن الإيمان يجب أن يكون متقدمًا على السجود؟ وجوابه من وجوه: الأول: أنهم لما ظفروا بالمعرفة سجدوا لله تعالى في الحال، وجعلوا ذلك السجود شكرًا لله تعالى على الفوز بالمعرفة والإيمان، وعلامة أيضًا على انقلابهم من الكفر إلى الإيمان، وإظهار

الخضوع والتذلل لله تعالى فكأنهم جعلوا ذلك السجود الواحد علامة على هذه الأمور الثلاثة على سبيل الجمع .

الوجه الثاني : لا يبعد أنهم عند الذهاب إلى السجود قالوا : ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل ، والوجه الصحيح هو الأول .

المسألة الرابعة : احتج أهل التعليم بهذه الآية فقالوا : الدليل على أن معرفة الله لا تحصل إلا بقول النبي : أن أولئك السحرة لما قالوا : ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لم يتم إيمانهم فلما قالوا : ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ تم إيمانهم وذلك يدل على قولنا .

وأجاب العلماء عنه: بأنهم لما قالوا : ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال لهم فرعون : إياي تعنون فلما قالوا : ﴿رَبِّ مُوسَىٰ﴾ قال : إياي تعنون لأني أنا الذي ربيت موسى فلما قالوا : ﴿وَهَٰرُونَ﴾ زالت الشبهة ، وعرف الكل أنهم كفروا بفرعون وآمنوا بإله السماء ، وقيل إنما خصهما بالذكر بعد دخولهما في جملة العالمين لأن التقدير آمنا برب العالمين ، وهو الذي دعا إلى الإيمان به موسى وهارون . وقيل : خصهما بالذكر تفضيلاً وتشريفًا كقوله : ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة : ٩٨] .

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى : قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ءَامَنتُم﴾ بهمزة واحدة على لفظ الخبر وكذلك في طه والشعراء وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي (أأمنتم) بهمزتين في جميع القرآن ، وقرأ الباقون بهمزة واحدة ممدودة في جميعه على الاستفهام . قال الفراء : أما قراءة حفص ﴿ءَامَنتُم﴾ بلفظ الخبر من غير مد ، فالوجه فيها أنه يخبرهم بإيمانهم على وجه التقريع لهم والإنكار عليهم ، وأما القراءة بالهمزتين فأصله (أأمنتم) على وزن أفعلتم .

المسألة الثانية : اعلم أن فرعون لما رأى أن أعلم الناس بالسحر أقر بنبوة موسى عليه السلام عند اجتماع الخلق العظيم خاف أن يصير ذلك حجة قوية عند قومه على صحة نبوة موسى عليه السلام فألقى في الحال نوعين من الشبهة إلى أسماع العوام ، لتصير تلك الشبهة مانعة للقوم من اعتقاد صحة نبوة موسى عليه السلام .

فالشبهة الأولى: قوله : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ والمعنى : أن إيمان هؤلاء بموسى عليه

السلام ليس لقوة الدليل، بل لأجل أنهم تواطئوا مع موسى أنه إذا كان كذا وكذا فنحن نؤمن بك ونقر بنبوتك، فهذا الإيمان إنما حصل بهذا الطريق.

والشبهة الثانية: أن غرض موسى والسحرة فيما تواطئوا عليه إخراج القوم من المدينة وإبطال ملكهم، ومعلوم عند جميع العقلاء أن مفارقة الوطن والنعمة المألوفة من أصعب الأمور فجمع فرعون اللعين بين الشبهتين اللتين لا يوجد أقوى منهما في هذا الباب. وروى محمد بن جرير عن السدي في حديث عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم: أن موسى وأمير السحرة التقيا فقال موسى عليه السلام: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به الحق؟ قال الساحر: لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك، وفرعون ينظر إليهما ويسمع قولهما، فهذا هو قول فرعون ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ واعلم أن هذا يحتمل أنه كان قد حصل، ويحتمل أيضًا أن فرعون ألقى هذا الكلام في البين، ليصير صارفًا للعوام عن التصديق بنبوة موسى عليه السلام. قال القاضي: وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ دليل على مناقضة فرعون في ادعاء الإلهية، لأنه لو كان إلهًا لما جاز أن يأذن لهم في أن يؤمنوا به مع أنه يدعوهم إلى إلهية غيره، ثم قال: وذلك من خذلان الله تعالى الذي يظهر على المبطلين.

أما قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لا شبهة في أنه ابتداء وعيد، ثم إنه لم يقتصر على هذا الوعيد المجمل، بل فسره فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقطع اليد والرجل من خلاف معروف المعنى، وهو أن يقطعهما من جهتين مختلفتين، أما من اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو من اليد اليسرى والرجل اليمنى، وأما الصلب فمعروف فتوعدهم بهذين الأمرين العظيمين، واختلفوا في أنه هل وقع ذلك منه؟ وليس في الآية ما يدل على أحد الأمرين. واحتج بعضهم على وقوعه بوجوه:

الأول: أنه تعالى حكى عن الملأ من قوم فرعون أنهم قالوا له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ولو أنه ترك أولئك السحرة وقومه أحياء وما قتلهم، لذكرهم أيضًا ولحذرهم عن الإفساد الحاصل من جهتهم. ويمكن أن يجاب عنه بأنهم دخلوا تحت قومه فلا وجه لإفرادهم بالذكر.

والثاني: أن قوله تعالى حكاية عنهم ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يدل على أنه كان قد نزل بهم بلاء شديد عظيم، حتى طلبوا من الله تعالى أن يصبرهم عليه. ويمكن أن يجاب عنه بأنهم طلبوا من الله تعالى الصبر على الإيمان وعدم الالتفات إلى وعيده.

الثالث: ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه فعل ذلك وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وهذا هو الأظهر مبالغة منه في تحذير القوم عن قبول دين موسى عليه السلام. وقال آخرون: إنه لم يقع من فرعون ذلك، بل استجاب الله تعالى لهم الدعاء في قولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ لأنهم سألوه تعالى أن يكون توفيهم من جهته لا بهذا القتل والقطع وهذا الاستدلال قريب.

ثم حكى تعالى عن القوم ما لا يجوز أن يقع من المؤمن عند هذا الوعيد أحسن منه، وهو قولهم لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ فبينوا أن الذي كان منهم لا يوجب الوعيد ولا إنزال النقمة بهم، بل يقتضي خلاف ذلك، وهو أن يتأسى بهم في الإقرار بالحق والاحتراز عن الباطل عند ظهور الحجة والدليل. يقال: نقمت أنقم إذا بالغت في كراهية الشيء، وقد مر عند قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ [المائدة: ٥٩] قال ابن عباس: يريد ما أتينا بذنب تعذبنا عليه إلا أن آمنا بآيات ربنا. والمراد: ما أتى به موسى عليه السلام من المعجزات القاهرة التي لا يقدر على مثلها إلا الله تعالى.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ معنى الإفراغ في اللغة الصب. يقال: درهم مُفرَّغ إذا كان مصبوبًا في قالبه وليس بمضروب، وأصله من إفراغ الإناء وهو صب ما فيه حتى يخلو الإناء وهو من الفراغ، فاستعمل في الصبر على التشبيه بحال إفراغ الإناء. قال مجاهد: المعنى صب علينا الصبر عند الصلب والقطع، وفي الآية فوائد:

الفائدة الأولى: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أكمل من قوله: أنزل علينا صبرًا، لأنا ذكرنا أن إفراغ الإناء هو صب ما فيه بالكلية، فكأنهم طلبوا من الله كل الصبر لا بعضه.

والفائدة الثانية: أن قوله ﴿صَبْرًا﴾ مذكور بصيغة التنكير، وذلك يدل على الكمال والتمام، أي صبرا كاملاً تامًا كقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] أي على حياة كاملة تامة.

والفائدة الثالثة: إن ذلك الصبر من قبلهم ومن أعمالهم، ثم إنهم طلبوه من الله تعالى، وذلك يدل على أن فعل العبد لا يحصل إلا بتخليق الله وقضائه. قال القاضي: إنما سألوه تعالى الألطاف التي تدعوهم إلى الثبات والصبر، وذلك معلوم في الأدعية.

والجواب: هذا عدول عن الظاهر، ثم الدليل يأباه، وذلك لأن الفعل لا يحصل إلا عند حصول الداعية الجازمة وحصولها ليس إلا من قبل الله عز وجل، فيكون الكل من الله تعالى.

وأما قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فمعناه توفنا على الدين الحق الذي جاء به موسى عليه السلام.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا على أن الإيمان والإسلام لا يحصل إلا بخلق الله تعالى، ووجه الاستدلال به ظاهر. والمعتزلة يحملونه على فعل الألطاف والكلام عليه معلوم مما سبق.

المسألة الثانية: احتج القاضي بهذه الآية على أن الإيمان والإسلام واحد. فقال: إنهم قالوا أولاً ﴿ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ ثم قالوا ثانيًا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فوجب أن يكون هذا الإسلام هو ذاك الإيمان، وذلك يدل على أن أحدهما هو الآخر، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

اعلم أن بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرض فرعون لموسى ولا أخذه ولا حبسه، بل خلى سبيله فقال قومه له: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

واعلم أن فرعون كان كلما رأى موسى خافه أشد الخوف، فلهذا السبب لم يتعرض له إلا أن قومه لم يعرفوا ذلك، فحملوه على أخذه وحبسه. وقوله: ﴿ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يفسدوا على الناس دينهم الذي كانوا عليه، وإذا أفسدوا عليهم أديانهم توسلوا بذلك إلى أخذ الملك.

أما قوله: ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ فالقراءة المشهورة فيه ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ بالنصب. وذكر صاحب (الكشاف): فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون قوله: ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ عطفًا على قوله: ﴿ لِيُفْسِدُوا۟ ﴾ لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم، كان ذلك مؤديا إلى تركه وترك آلهته، فكأنه تركهم لذلك. وثانيها: أنه جواب للاستفهام بالواو، وكما يجاب بالفاء مثل قول الحطيئة:

أَلَمْ أَكُ جارَكُمْ ويكُونَ بَيْنِي   وبَيْنَكُمُ المَوَدَّةُ والإخاءُ؟[1]

والتقدير: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض فيذرك وآلهتك. قال الزجاج: والمعنى أيكون منك أن تذر موسى وأن يذرك موسى؟ وثالثها: النصب بإضمار أن تقديره: أتذر موسى وقومه ليفسدوا وأن يذرك وآلهتك؟ قال صاحب (الكشاف): وقرئ (ويذرُك وءالهتك) بالرفع عطفا على (أتذر) بمعنى أتذره ويذرك؟ أي انطلق له، وذلك يكون مستأنفا أو حالا على معنى أتذره وهو يذرك وإلهتك؟ وقرأ الحسن (ويذرْك) بالجزم، وقرأ أنس (ونذرك) بالنون والنصب، أي يصرفنا عن عبادتك فنذرها.

وأما قوله: ﴿ وَءَالِهَتَكَ ﴾ قال أبو بكر الأنباري: كان ابن عباس ينكر قراءة العامة، ويقرأ (وإلاهتك) أي عبادتك، ويقول إن فرعون كان يُعبَد ولا يعبُد، قال ابن عباس: أما قراءة العامة (وآلهتك) فالمراد جمع إله، وعلى هذا التقدير: فقد اختلفوا فيه. فقيل إن فرعون كان قد وضع لقومه أصنامًا صغارًا، وأمرهم بعبادتها. وقال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] ورب هذه الأصنام،

---

(١) الحُطَيئة هو: جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة. ؟ - ٤٥هـ/ ؟ - ٦٦٥م، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجاءً عنيفًا، لم يكد يسلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه. وأكثر من هجاء الزبرقان بن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس.

فذلك قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقال الحسن: كان فرعون يعبد الأصنام. وأقول: الذي يخطر ببالي إن فرعون إن قلنا: إنه ما كان كامل العقل لم يجز في حكمة الله تعالى إرسال الرسول إليه، وإن كان عاقلاً لم يجز أن يعتقد في نفسه كونه خالقًا للسموات والأرض، ولم يجز في الجمع العظيم من العقلاء أن يعتقدوا فيه ذلك لأن فساده معلوم بضرورة العقل. بل الأقرب أن يقال: إنه كان دهريًا ينكر وجود الصانع، وكان يقول: مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب، وأما المجدي في هذا العالم للخلق، ولتلك الطائفة والمربي لهم فهو نفسه، فقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] أي مربيكم والمنعم عليكم والمطعم لكم. وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] أي لا أعلم لكم أحدًا يجب عليكم عبادته إلا أنا، وإذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن يقال إنه كان قد اتخذ أصنامًا على صور الكواكب، ويعبدها ويتقرب إليها على ما هو دين عبدة الكواكب وعلى هذا التقدير: فلا امتناع في حمل قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ على ظاهره، فهذا ما عندي في هذا الباب، والله أعلم.

واعلم أن على جميع الوجوه والاحتمالات فالقوم أرادوا بذكر هذا الكلام حمل فرعون على أخذ موسى عليه السلام، وحبسه، وإنزال أنواع العذاب به، فعند هذا لم يذكر فرعون ما هو حقيقة الحال وهو كونه خائفًا من موسى عليه السلام. ولكنه قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير (سنَقْتُل) بفتح النون والتخفيف، والباقون بضم النون والتشديد على التكثير. يعني أبناء بني إسرائيل ومن آمن بموسى عليه السلام.

المسألة الثانية: أن موسى عليه السلام إنما يمكنه الإفساد بواسطة الرهط والشيعة فنحن نسعى في تقليل رهطه وشيعته، وذلك بأن نقتل أبناء بني إسرائيل ونستحيي نساءهم. ثم بيَّن أنه قادر على ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ والمقصود منه ترك موسى وقومه، لا من عجز وخوف، ولو أراد به البطش لقدر عليه، كأنه يوهم قومه أنه إنما لم يحبسه ولم يمنعه لعدم التفاته إليه ولعدم خوفه منه. واختلف المفسرون، فمنهم من قال: كان يفعل ذلك كما فعله ابتداء عند ولادة موسى، ومنهم من قال بل منع منه، واتفق المفسرون على أن هذا التهديد وقع في غير الزمان الأول ثم حكى تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ وهذا يدل على أن الذي قاله الملأ لفرعون، والذي قاله فرعون لهم قد عرفه موسى عليه السلام ووصل إليه، فعند ذلك قال لقومه ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهنا أمرهم بشيئين وبشَّرهم بشيئين. أما اللذان أمر موسى عليه السلام بهما؛ فالأول: الاستعانة بالله تعالى. والثاني: الصبر على بلاء الله. وإنما أمرهم أولا بالاستعانة بالله وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله تعالى انشرح صدره بنور

معرفة الله تعالى وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره. واستعداده بمشاهدة قضاء الله، خفف عليه أنواع البلاء، وأما اللذان بشر بهما؛ فالأول: قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهذا إطماع من موسى عليه السلام قومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه، وذلك معنى الإرث، وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف. والثاني: قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فقيل: المراد أمر الآخرة فقط، وقيل: المراد أمر الدنيا فقط وهو: الفتح، والظفر، والنصر على الأعداء، وقيل المراد مجموع الأمرين، وقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

اعلم أن قوم موسى عليه السلام، لما سمعوا ما ذكره فرعون من التهديد والوعيد خافوا وفزعوا، وقالوا قد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، وذلك لأن بني إسرائيل كانوا قبل مجيء موسى عليه السلام مستضعفين في يد فرعون اللعين، فكان يأخذ منهم الجزية ويستعملهم في الأعمال الشاقة ويمنعهم من الترفه والتنعم ويقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، فلما بعث الله تعالى موسى عليه السلام قوي رجاؤهم في زوال تلك المضار والمتاعب، فلما سمعوا أن فرعون أعاد التهديد مرة ثانية عظم خوفهم وحزنهم، فقالوا هذا الكلام.

فإن قيل: أليس هذا القول يدل على أنهم كرهوا مجيء موسى عليه السلام وذلك يوجب كفرهم؟

والجواب: أن موسى عليه السلام لما جاء، وعدهم بزوال تلك المضار فظنوا أنها تزول على الفور. فلما رأوا أنها ما زالت، رجعوا إليه في معرفة كيفية ذلك الوعد فبيَّن موسى عليه السلام أن الوعد بإزالتها لا يوجب الوعد بإزالتها في الحال، وبيَّن لهم أنه تعالى سينجز لهم ذلك الوعد في الوقت الذي قدره له، والحاصل أن هذا ما كان بنفرة عن مجيء موسى عليه السلام بالرسالة، بل استكشافًا لكيفية ذلك الوعد، والله أعلم.

واعلم أن القوم لما ذكروا ذلك قال موسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ قال سيبويه: (عسى) طمع وإشفاق. قال الزجاج: وما يطمع الله تعالى فيه فهو واجب.

ولقائل أن يقول: هذا ضعيف لأن لفظ (عسى) ههنا ليس كلام الله تعالى بل هو حكاية عن كلام موسى عليه السلام، إلا أنا نقول مثل هذا الكلام إذا صدر عن رسول ظهرت حجة نبوته عليه الصلاة والسلام بالمعجزات الباهرة أفاد قوة النفس وأزال ما خامرها من الانكسار والضعف فقوَّى موسى عليه السلام قلوبهم بهذا القول وحقق عندهم الوعد ليتمسكوا بالصبر ويتركوا

الجزع المذموم ثم بيَّن بقوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ ما يجري مجرى الحث لهم على التمسك بطاعة الله تعالى.

واعلم أن النظر قد يراد به النظر الذي يفيد العلم. وهو على الله محال، وقد يراد به تقليب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته. وهو أيضًا على الله محال، وقد يراد به الانتظار. وهو أيضًا على الله محال، وقد يراد به الرؤية، ويجب حمل اللفظ ههنا عليها. قال الزجاج: أي يرى ذلك بوقوع ذلك منكم لأن الله تعالى لا يجازيهم على ما يعلمه منهم، وإنما يجازيهم على ما يقع منهم.

فإن قيل: إذا حملتم هذا النظر على الرؤية لزم الإشكال، لأن الفاء في قوله: ﴿فَيَنظُرَ﴾ للتعقيب فيلزم أن تكون رؤية الله تعالى لتلك الأعمال متأخرة عن حصول تلك الأعمال، وذلك يوجب حدوث صفة الله تعالى.

قلنا: تعلق رؤية الله تعالى بذلك الشيء نسبة حادثة والنسب والإضافات لا وجود لها في الأعيان فلم يلزم حدوث الصفة الحقيقية في ذات الله تعالى. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣١﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٢٩] لا جرم بدأ ههنا بذكر ما أنزله بفرعون وبقومه من المحن حالاً بعد حال، إلى أن وصل الأمر إلى الهلاك تنبيهًا للمكلفين على الزجر عن الكفر والتمسك بتكذيب الرسل، خوفًا من نزول هذه المحن بهم. فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: السنين جميع السنة، قال أبو علي الفارسي: السنة على معنيين: أحدهما: يراد بها الحول والعام، والآخر يراد بها الجدب وهو خلاف الخصب فمما أريد به الجدب هذه الآية وقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ، اجْعَلْهَا عَلَيهِمْ سِنِينًا كَسِنِين يُوسُفَ**»(١) وقول عمر رضي الله عنه: إنا لا نقع في عام السنة، فلما كانت السنة يعني بها الجدب، اشتقوا منها كما يشتق من الجدب. ويقال: أسنتوا، كما يقال: أجدبوا. قال الشاعر:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير)، باب: (سورة آل عمران)، باب: (ليس لك من الأمر شيء) (٨/ ٧٤)، حديث رقم (٤٥٦٠) من طريق إبراهيم بن سعد... به، ومسلم في كتاب (المساجد)، باب: (استحباب القنوت في جميع الصلاة) (١/ ٢٩٤/ ٤٦٦/ ٤٦٧) من طريق يونس... به، كلاهما (إبراهيم بن سعد، يونس) عن الزهري... به.

وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ[1]

قال أبو زيد: بعض العرب تقول: هذه سنين ورأيت سنينًا، فتعرب النون. ونحوه. قال الفراء: ومنه قول الشاعر:

دعاني من نجد فإن سنينه ... لعِبْنَ بنا وشيبننا مردا[2]

قال الزجاج: السنين في كلام العرب الجدوب، يقال: مستهم السنة ومعناه: جدب السنة. وشدة السنة.

إذا عرفت هذا فنقول: قال المفسرون: ﴿أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ يريد الجوع والقحط عاما بعد عام، فالسنون لأهل البوادي ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لأهل القرى.

ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ظاهر الآية أنه تعالى إنما أنزل عليهم هذه المضار لأجل أن يرجعوا عن طريقة التمرد والعناد إلى الانقياد والعبودية، وذلك لأن أحوال الشدة ترقق القلب وترغب فيما عند الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧] وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[فصلت: ٥٤].

المسألة الثانية: قال القاضي: هذه الآية تدل على أنه تعالى فعل ذلك إرادة منه أن يتذكروا، لا أن يقيموا على ما هم عليه من الكفر.

أجاب الواحدي عنه: بأنه قد جاء لفظ الابتلاء والاختبار في القرآن، لا بمعنى أنه تعالى يمتحنهم، لأن ذلك على الله تعالى محال، بل بمعنى أنه تعالى عاملهم معاملة تشبه الابتلاء والامتحان، فكذا ههنا، والله أعلم.

ثم بيّن تعالى أنهم عند نزول تلك المحن عليهم يقدمون على ما يزيد في كفرهم ومعصيتهم فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ قال ابن عباس: يريد بالحسنة العشب والخصب والثمار والمواشي والسعة في الرزق والعافية والسلامة ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي نحن مستحقون على العادة التي جرت من كثرة نعمنا وسعة أرزاقنا، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروه عليه ويقوموا بحق النعمة فيه. وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يريد القحط والجدب والمرض والضر والبلاء ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي يتشاءموا به. ويقولوا إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه،

---

(١) هذا البيت لابن الزيدي وتقدمت ترجمته.

(٢) البيت للشاعر الصمة القشيري وهو الصمة بن عبد الله بن الطفيل بن قرة القشيري، من بني عامر بن صعصعة، من مضر. ؟ - ٩٥هـ/ ؟ - ٧١٣م، شاعر غزل بدوي، من شعراء العصر الأموي، ومن العشاق المتيمين، كان يسكن بادية العراق، وانتقل إلى الشام. ثم خرج غازيًا يريد بلاد الديلم، فمات في طبرستان.

والتطير التشاؤم في قول جميع المفسرين وقوله: ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ هو في الأصل يتطيروا، أدغمت التاء في الطاء، لأنهما من مكان واحد من طرف اللسان وأصول الثنايا وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الطائر قولان:

القول الأول: قال ابن عباس: يريد شؤمهم عند الله تعالى أي من قبل الله أي إنما جاءهم الشر بقضاء الله وحكمه، فالطائر ههنا الشؤم. ومثله قوله تعالى في قصة ثمود: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧].

قال الفراء: وقد تشاءمت اليهود بالنبي ﷺ بالمدينة، فقالوا: غلت أسعارنا وقلت أمطارنا مذ أتانا، قال الأزهري: وقيل للشؤم طائر وطير وطيرة، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها، ونعيق غربانها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيرًا وطائرًا وطيرة لتشاؤمهم بها.

ثم أعلم الله تعالى على لسان رسوله أن طيرتهم باطلة، فقال: «لاَ طِيَرَةَ وَلاَ هَام» (١) وكان النبي ﷺ يتفاءل، ولا يتطير (٢). وأصل الفأل الكلمة الحسنة، وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد، فأثبت النبي ﷺ الفأل وأبطل الطيرة قال محمد الرازي رحمه الله: ولا بد من ذكر فرق بين البابين. والأقرب أن يقال: إن الأرواح الإنسانية أصفى وأقوى من الأرواح البهيمية والطيرية. فالكلمة التي تجري على لسان الإنسان يمكن الاستدلال بها بخلاف طيران الطير، وحركات البهائم، فإن أرواحها ضعيفة، فلا يمكن الاستدلال بها على شيء من الأحوال.

القول الثاني: في تفسير الطائر قال أبو عبيدة: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي حظهم. وهو ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنما طائرهم ما قضي عليهم وقدر لهم والعرب تقول: أطرت المال وطيرته بين القوم فطار لكل منهم سهمه. أي حصل له ذلك السهم.

واعلم أن على كلا القولين، المعنى: أن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله تعالى وبتقديره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الكل من الله تعالى، وذلك لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وتقديره، والحق أن الكل من الله، لأن كل موجود، فهو إما واجب الوجود لذاته أو ممكن لذاته، والواجب واحد وما سواه ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، وبهذا الطريق يكون الكل من الله فإسنادها إلى غير الله يكون جهلاً بكمال الله تعالى.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١١٧١)، حديث رقم (٣٥٣٩)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٦٩)، حديث رقم (٢٤٢٥) من طريق سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ. . . به، وانظر: الصحيحة للألباني (٧٨٢).

(٢) حديث كان يحب الفأل تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى حكى عنهم في الآية الأولى أنهم لجهلهم أسندوا حوادث هذا العالم لا إلى قضاء الله تعالى وقدره، فحكى عنهم في هذه الآية نوعًا آخر من أنواع الجهالة والضلالة، وهو أنهم لم يميزوا بين المعجزات وبين السحر، وجعلوا جملة الآيات مثل انقلاب العصا حية من باب السحر منهم. وقالوا لموسى: إنا لا نقبل شيئًا منها ألبتة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في كلمة (مهما) قولان: الأول: أن أصلها (ماما) الأولى هي (ما) الجزاء، والثانية هي التي تزاد توكيدًا للجزاء، كما تزاد في سائر حروف الجزاء، كقولهم: إما ومما وكيفما قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وهو كقولك: إن تثقفنهم، ثم أبدلوا من ألف (ما) الأولى (ها) كراهة لتكرار اللفظ، فصار (مهما) هذا قول الخليل والبصريين. والثاني: وهو قول الكسائي الأصل (مه) التي بمعنى الكف، أي اكفف دخلت على (ما) التي للجزاء كأنهم قالوا اكفف ما تأتنا به من آية فهو كذا وكذا.

المسألة الثانية: قال ابن عباس: أن القوم لما قالوا لموسى: مهما أتيتنا بآية من ربك، فهي عندنا من باب السحر، ونحن لا نؤمن بها ألبتة، وكان موسى عليه السلام رجلاً حديدًا، فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله له، فأرسل عليهم الطوفان الدائم ليلاً ونهارًا سبتًا إلى سبت، حتى كان الرجل منهم لا يرى شمسًا ولا قمرًا ولا يستطيع الخروج من داره وجاءهم الغرق، فصرخوا إلى فرعون واستغاثوا به، فأرسل إلى موسى عليه السلام وقال: اكشف عنا العذاب فقد صارت مصر بحرًا واحدًا، فإن كشفت هذا العذاب آمنا بك، فأزال الله عنهم المطر وأرسل الرياح فجففت الأرض، وخرج من النبات ما لم يروا مثله قط. فقالوا: هذا الذي جزعنا منه خير لنا لكنا لم نشعر. فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل فنكثوا العهد، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل النبات وعظم الأمر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس، ووقع بعضها على بعض في الأرض ذراعًا، فأكلت النبات، فصرخ أهل مصر، فدعا موسى عليه السلام فأرسل الله تعالى ريحًا فاحتملت الجراد فألقته في البحر، فنظر أهل مصر إلى أن بقية من كلئهم وزرعهم تكفيهم. فقالوا: هذا الذي بقي يكفينا ولا نؤمن بك. فأرسل الله بعد ذلك عليهم القمل، سبتًا إلى سبت، فلم يبق في أرضهم عود أخضر إلا أكلته، فصاحوا وسأل موسى عليه السلام ربه، فأرسل الله عليها ريحًا حارة فأحرقتها، واحتملتها الريح فألقتها في البحر،

فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع بعد ذلك فخرج من البحر مثل الليل الدامس ووقع في الثياب والأطعمة، فكان الرجل منهم يسقط وعلى رأسه ذراع من الضفادع، فصرخوا إلى موسى عليه السلام، وحلفوا بإلهه لئن رفعت عنا هذا العذاب لنؤمنن بك، فدعا الله تعالى فأمات الضفادع، وأرسل عليها المطر فاحتملها إلى البحر، ثم أظهروا الكفر والفساد، فأرسل الله عليهم الدم فجرت أنهارهم دمًا فلم يقدروا على الماء العذب، وبنو إسرائيل يجدون الماء العذب الطيب حتى بلغ منهم الجهد، فصرخوا وركب فرعون وأشراف قومه إلى أنهار بني إسرائيل فجعل يدخل الرجل منهم النهر فإذا اغترف صار في يده دمًا ومكثوا سبعة أيام في ذلك لا يشربون إلا الدم. فقال فرعون: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] إلى آخر الآية، فهذا هو القول المرضي عند أكثر المفسرين، وقد وقع في أكثرها اختلافات. أما الطوفان، فقال الزجاج: الطوفان من كل شيء ما كان كثيرًا محيطًا مطبقًا بالقوم كلهم، كالغرق الذي يشمل المدن الكثيرة، فإنه يقال له طوفان، وكذلك القتل الذريع طوفان، والموت الجارف طوفان. وقال الأخفش: هو فعلان من الطوف، لأنه يطوف بالشيء حتى يعم. قال: وواحده في القياس طوفانه. وقال المبرد: الطوفان مصدر مثل «الرُّجْحَان والنُّقْصَان» فلا حاجة إلى أن يطلب له واحدًا.

إذا عرفت هذا فنقول: الأكثرون على أن هذا الطوفان هو المطر الكثير على ما رويناه عن ابن عباس، وقد روى عطاء عنه أنه قال: الطوفان هو الموت، وروى الواحدي رحمه الله بإسناده خبرًا عن النبي ﷺ أنه قال: «**الطُّوفَانُ هُوَ الْمَوْتُ**» وهذا القول مشكل لأنهم لو أميتوا لم يكن لإرسال سائر أنواع العذاب عليهم فائدة، بل لو صح هذا الخبر لوجب حمل لفظ الموت على حصول أسباب الموت، مثل المطر الشديد والسيل العظيم وغيرهما، وأما الجراد، فهو معروف والواحدة جرادة، ونبت مجرود قد أكل الجراد ورقه. وقال اللحياني: أرض جردة ومجرودة قد لحسها الجراد، وإذا أصاب الجراد الزرع قيل جرد الزرع وأصل هذا كله من الجرد، وهو أخذك الشيء عن الشيء على سبيل النحت والسحق، ومنه يقال للثوب الذي قد ذهب وبره جرد وأرض جردة لا نبات فيها، وأما القمل، فقد اختلفوا فيه. فقيل هو الدبى الصغار الذي لا أجنحة له، وهي بنات الجراد، وعن سعيد بن جبير كان إلى جنبهم كثيب أعفر فضربه موسى عليه السلام بعصاه فصار قملاً. فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم، ولزم جلودهم كأنه الجدري، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرُفِعَ عنهم، فقالوا: قد تيقنا الآن أنك ساحر عليم. وعزة فرعون لا نؤمن بك أبدًا، وقرأ الحسن (والقَمْلَ) بفتح القاف، وسكون الميم. يريد القمل المعروف. وأما الدم فما ذكرناه. ونقل صاحب (الكشاف) أنه قيل: سلط الله عليهم الرعاف. وروي أن موسى عليه السلام مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات.

وأما قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ ففيه وجوه: أحدها: ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ أي مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وثانيها: ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ أي فصل بين بعضها وبعض بزمان يمتحن فيه أحوالهم وينظر أيقبلون الحجة؟ والدليل: أو يستمرون على الخلاف والتقليد. قال المفسرون: كان العذاب يبقى عليهم من السبت إلى السبت، وبين العذاب إلى العذاب شهر، فهذا معنى قوله: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ قال الزجاج: وقوله: ﴿ءَايَٰتٖ﴾ منصوبة على الحال. وقوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ يريد عن عبادة الله ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ مصرين على الجرم والذنب. ونقل أيضًا أن هذه الأنواع المذكورة من العذاب كانت عند وقوعها مختصة بقوم فرعون، وكان بنو إسرائيل منها في أمان وفراغ، ولا شك أن كل واحد منها فهو في نفسه معجز، واختصاصه بالقبطي دون الإسرائيلي معجز آخر.

فإن قال قائل: لما علم الله تعالى من حال أولئك الأقوام أنهم لا يؤمنون بتلك المعجزات، فما الفائدة في تواليها وإظهار الكثير منها؟ وأيضًا فقوم محمد ﷺ طلبوا المعجزات فما أجيبوا فما الفرق.

والجواب: أما على قول أصحابنا فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، وأما على قول المعتزلة في رعاية الصلاح، فلعله علم من قوم موسى أن بعضهم كان يؤمن عند ظهور تلك المعجزات الزائدة، وعلم من قوم محمد ﷺ أن أحدًا منهم لا يزداد بعد ظهور تلك المعجزات الظاهرة إلا كفرًا وعنادًا، فظهر الفرق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾

اعلم أنا ذكرنا معنى الرجز عند قوله: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩] في سورة البقرة وهو اسم للعذاب، ثم إنهم اختلفوا في المراد بهذا الرجز فقال بعضهم: إنه عبارة عن الأنواع الخمسة المذكورة من العذاب الذي كان نازلاً بهم. وقال سعيد بن جبير (الرجز) معناه: الطاعون وهو العذاب الذي أصابهم فمات به من القبط سبعون ألف إنسان في يوم واحد، فتركوا غير مدفونين، واعلم أن القول الأول أقوى لأن لفظ ﴿ٱلرِّجۡزُ﴾ لفظ مفرد محلي بالألف واللام فينصرف إلى المعهود السابق، وههنا المعهود السابق هو الأنواع الخمسة التي تقدم ذكرها، وأما غيرها فمشكوك فيه، فحمل اللفظ على المعلوم أولى من حمله على المشكوك فيه.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى بيّن ما كانوا عليه من المناقضة القبيحة، لأنهم تارة يكذبون موسى عليه السلام، وأخرى عند الشدائد يفزعون إليه فزع الأمة إلى نبيها ويسألونه أن يسأل ربه رفع ذلك العذاب عنهم، وذلك يقتضي أنهم سلموا إليه كونه نبيًّا مجاب الدعوة، ثم بعد زوال

تلك الشدائد يعودون إلى تكذيبه والطعن فيه، وأنه إنما يصل إلى مطالبه بسحره، فمن هذا الوجه يظهر أنهم يناقضون أنفسهم في هذه الأقاويل.

وأما قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ فقال صاحب (الكشاف): ما في قوله: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ مصدرية والمعنى: بعهده عندك وهو النبوة، وفي هذه الباء وجهان:

الوجه الأول: أنها متعلقة بقوله: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ والتقدير ﴿ٱدۡعُ لَنَا﴾ متوسلاً إليه بعهده عندك.

والوجه الثاني: في هذه الباء أن تكون قسمًا وجوابها قوله: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ أي أقسمنا بعهد الله عندك ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ وقوله: ﴿وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كانوا قد أخذوا بني إسرائيل بالكد الشديد فوعدوا موسى عليه السلام على دعائه بكشف العذاب عنهم الإيمان به والتخلية عن بني إسرائيل وإرسالهم معه يذهب بهم أين يشاء. وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ المعنى أنا ما أزلنا عنهم العذاب مطلقًا، وما كشفنا عنهم الرجز في جميع الوقائع، بل إنما أزلنا عنهم العذاب إلى أجل معين، وعند ذلك الأجل لا نزيل عنهم العذاب بل نهلكهم به وقوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ هو جواب لما يعني فلما كشفنا عنهم فاجئوا النكث وبادروه ولم يؤخروه كما كشفنا عنهم نكثوا.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾

واعلم أن المعنى أنه تعالى، لما كشف عنهم العذاب من قبل مرات وكرات ولم يمتنعوا عن كفرهم وجهلهم، ثم بلغوا الأجل المؤقت انتقم منهم بأن أهلكهم بالغرق، والانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب، واليم: البحر، قال صاحب (الكشاف): اليم البحر الذي لا يدرك قعره، وقيل: هو لجة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم، لأن المستقين به يقصدونه وبيَّن تعالى بقوله: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أن ذلك الانتقام هو لذلك التكذيب. وقوله: ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ اختلفوا في الكناية في عنها فقيل إنها عائدة إلى النقمة التي دل عليها قوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ والمعنى وكانوا عن النقمة قبل حلولها غافلين، وقيل الكناية عائدة إلى الآيات وهو اختيار الزجاج. قال: لأنهم كانوا لا يعتبرون بالآيات التي تنزل بهم.

فإن قيل: الغفلة ليست من فعل الإنسان ولا تحصل باختياره فكيف جاء الوعيد على الغفلة.

قلنا: المراد بالغفلة هنا الإعراض عن الآيات وعدم الالتفات إليها، فهم أعرضوا عنها حتى صاروا كالغافلين عنها.

فإن قيل: أليس قد ضموا إلى التكذيب والغفلة معاصٍ كثيرة؟ فكيف يكون الانتقام لهذين دون غيرهما.

قلنا: ليس في الآية بيان أنه تعالى انتقم منهم لهذين معًا دلالة على نفي ما عداه، والآية تدل

على أن الواجب في الآيات النظر فيها، ولذلك ذمهم بأن غفلوا عنها، وذلك يدل على أن التقليد طريق مذموم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

اعلم أن موسى عليه السلام كان قد ذكر لبني إسرائيل قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف: ١٢٩] فههنا لما بيَّن تعالى إهلاك القوم بالغرق على وجه العقوبة، بيَّن ما فعله بالمؤمنين من الخيرات، وهو أنه تعالى أورثهم أرضهم وديارهم فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ والمراد من ذلك الاستضعاف أنه كان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ويأخذ منهم الجزية ويستعملهم في الأعمال الشاقة، واختلفوا في معنى مشارق الأرض ومغاربها، فبعضهم حمله على مشارق أرض الشام. ومصر ومغاربها، لأنها هي التي كانت تحت تصرف فرعون لعنه الله، وأيضًا قوله: ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ المراد باركنا فيها بالخصب وسعة الأرزاق وذلك لا يليق إلا بأرض الشام.

والقول الثاني: المراد جملة الأرض وذلك لأنه خرج من جملة بني إسرائيل داود وسليمان وقد ملك الأرض، وهذا يدل على أن الأرض ههنا اسم الجنس. وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قيل المراد من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[القصص: ٥] إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[القصص: ٦] والحسنى تأنيث الأحسن صفة للكلمة، ومعنى تمت على بني إسرائيل، مضت عليهم واستمرت، من قولهم تم عليك الأمر إذا مضى عليك. وقيل: معنى تمام الكلمة الحسنى إنجاز الوعد الذي تقدم بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض، وإنما كان الإنجاز تمامًا للكلام لأن الوعد بالشيء يبقى كالشيء المعلق. فإذا حصل الموعود به فقد تم لك الوعد وكمل وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي إنما حصل ذلك التمام بسبب صبرهم، وحسبك به حاثًا على الصبر، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن الله له الفرج، وقرأ عاصم في رواية (وَتَمَّتْ كَلِماتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ) ونظيره ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[النجم: ١٨] وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ قال الليث: الدمار الهلاك التام. يقال: دمر القوم يدمرون دمارًا أي هلكوا، وقوله: ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ قال ابن عباس: يريد الصانع ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ قال الزجاج: يقال عرش يعرش ويعرش إذا بني، قيل: وما كانوا يعرشون من الجنات، ومنه قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾[الأنعام: ١٤١] وقيل: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء، كصرح هامان وفرعون. وقرئ ﴿يَعْرِشُونَ﴾ بالكسر والضم، وذكر اليزيدي أن الكسر أفصح،

قال صاحب (الكشاف): وبلغني أنه قرأ بعض الناس (يغرسون) من غرس الأشجار وما أحسبه إلا تصحيفًا منه، وهذا آخر ما ذكره الله تعالى من قصة فرعون وقومه وتكذيبهم بآيات الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن أنواع نعمه على بني إسرائيل بأن أهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم أتبع ذلك بالنعمة العظمى، وهي أن جاوز بهم البحر مع السلامة، ولما بيَّن تعالى في سائر السور كيف سيرهم في البحر مع السلامة، وذلك بأن فلق البحر عند ضرب موسى البحر بالعصا وجعله يبسًا بيَّن أن بني إسرائيل لما شاهدوا قومًا يعكفون على عبادة أصنامهم، جهلوا وارتدوا وقالوا لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، ولا شك أن القوم لما شاهدوا المعجزات الباهرة التي أظهرها الله تعالى لموسى على فرعون، ثم شاهدوا أنه تعالى أهلك فرعون وجنوده، وخص بني إسرائيل بأنواع السلامة والكرامة ثم إنهم بعد هذه المواقف والمقامات يذكرون هذا الكلام الفاسد الباطل كانوا في نهاية الجهل وغاية الخلاف.

أما قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ يقال: جاوز الوادي. إذا قطعه وخلَّفه وراءه وجاوز بغيره، عبر به وقرئ (وجوَّزنا) بمعنى: أجزنا. يقال: أجاز المكان وجوَّزه بمعنى: جازه ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قال الزجاج: يواظبون عليها ويلازمونها. يقال: لكل من لزم شيئًا وواظب عليه، عَكَف يَعكِف ويَعكُف، ومن هذا قيل لملازم المسجد متعكف. وقال قتادة: كان أولئك القوم من لخم، وكانوا نزولاً بالريف. قال ابن جريج: كانت تلك الأصنام تماثيل بقر وذلك أول بيان قصة العجل.

ثم حكى تعالى عنهم أنهم ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ واعلم أن من المستحيل أن يقول العاقل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة وخالقًا ومدبرًا، لأن الذي يحصل بجعل موسى وتقديره: لا يمكن أن يكون خالقًا للعالم ومدبرًا له، ومن شك في ذلك لم يكن كامل العقل والأقرب أنهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يعين لهم أصنامًا وتماثيل يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى، وهذا القول هو الذي حكاه الله تعالى عن عبدة الأوثان حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

إذا عرفت هذا فلقائل أن يقول: لم كان هذا القول كفرًا؟ فنقول: أجمع كل الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى كفر، سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلهًا للعالم، أو اعتقدوا فيه أن عبادته تقربهم إلى الله تعالى لأن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام والإكرام.

فإن قيل: فهذا القول صدر من كل بني إسرائيل أو من بعضهم؟

قلنا: بل من بعضهم، لأنه كان مع موسى عليه السلام السبعون المختارون وكان فيهم من يرتفع عن مثل هذا السؤال الباطل.

ثم إنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه أجابهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وتقرير هذا الجهل ما ذكر أن العبادة غاية التعظيم، فلا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام، وهي بخلق الجسم والحياة والشهوة والقدرة والعقل، وخلق الأشياء المنتفع بها، والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى، فوجب أن لا تليق العبادة إلا به.

فإن قالوا: إذا كان مرادهم بعبادة تلك الأصنام التقرُّب بها إلى تعظيم الله تعالى، فما الوجه في قبح هذه العبادة؟

قلنا: فعلى هذا التقدير: لم يتخذوها آلهة أصلاً وإنما جعلوها كالقبلة، وذلك ينافي قولهم ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ واعلم أن (ما) في قوله: ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ يجوز أن تكون مصدرية أي كما ثبت لهم آلهة، ويجوز أن تكون موصولة، وفي قولهم: (لهم) ضمير يعود إليه، و (آلهة) بدل من ذلك الضمير تقديره: كالذي هو لهم آلهة.

ثم حكى تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ قال الليث: التبار الهلاك. يقال: تبر الشيء يتبر تبارًا والتتبير: الإهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٩] ويقال للذهب المنكسر المتفتت: التبر فقوله: ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي مهلك مدمر، وقوله: ﴿وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قيل: البطلان عدم الشيء، إما بعدم ذاته أو بعدم فائدته ومقصوده، والمراد من بطلان عملهم: أنه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا دفع ضرر، وتحقيق القول في هذا الباب أن المقصود من العبادة أن تصير المواظبة على تلك الأعمال سببًا لاستحكام ذكر الله تعالى في القلب حتى تصير تلك الروح سعيدة بحصول تلك المعرفة فيها. فإذا اشتغل الإنسان بعبادة غير الله تعالى، تعلق قلبه بغير الله ويصير ذلك التعلق سببًا لإعراض القلب عن ذكر الله تعالى؛ وإذا ظهر هذا التحقيق ظهر أن الاشتغال بعبادة غير الله متبر وباطل، وضائع وسعي في تحصيل ضد هذا الشيء ونقيضه، لأنا بينا أن المقصود من العبادة رسوخ معرفة الله تعالى في القلب، والاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفة الله عن القلب، فكان هذا ضدًّا للغرض ونقيضًا للمطلوب والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنهم لما قالوا له: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فهو عليه السلام ذكر في الجواب وجوهًا: أولها: أنه حكم عليهم بالجهل فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وثانيها: أنه قال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي سبب للخسران والهلاك. وثالثها:

أنه قال: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي هذا العمل الشاق لا يفيدهم نفعًا في الدنيا والدين.
ورابعها: ما ذكره في هذه الآية من التعجب منهم على وجه يوجب الإنكار والتوبيخ فقال: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ والمعنى: أن الإله ليس شيئًا يطلب ويلتمس ويتخذ، بل الإله هو الله الذي يكون قادرًا على الإنعام بالإيجاد وإعطاء الحياة وجميع النعم، وهو المراد من قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهذا الموجود هو الإله الذي يجب على الخلق عبادته، فكيف يجوز العدول عن عبادته إلى عبادة غيره. قال الواحدي رحمه الله: يقال: بغيت فلانًا شيئًا وبغيت له. قال تعالى: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾[التوبة: ٤٧] أي يبغون لكم، وفي انتصاب قوله: ﴿إِلَٰهٗا﴾ وجهان:

أحدهما: الحال كأنه قيل: أطلب لكم غير الله معبودًا، ونصب (غير) في هذا الوجه على المفعول به.

الثاني: أن ينصب (إلهًا) على المفعول به (وغير) على الحال المقدمة التي لو تأخرت كانت صفة كما تقول: أبغيكم إلهًا غير الله. وقوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه قولان:

الأول: المراد أنه تعالى فضلهم على عالمي زمانهم.

الثاني: أنه تعالى خصهم بتلك الآيات القاهرة ولم يحصل مثلها لأحد من العالمين، وإن كان غيرهم فضلهم بسائر الخصال، ومثاله: رجل تعلم علمًا واحدًا وآخر تعلم علومًا كثيرة سوى ذلك العلم، فصاحب العلم الواحد مفضل على صاحب العلوم الكثيرة بذلك الواحد، إلا أن صاحب العلوم الكثيرة مفضل على صاحب العلم الواحد في الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾

واعلم أن هذه الآية مفسرة في سورة البقرة، والفائدة في ذكرها في هذا الموضع أنه تعالى هو الذي أنعم عليكم بهذه النعمة العظيمة، فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غير الله تعالى والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو: (وعدنا) بغير ألف، والباقون (واعدنا) بالألف على المفاعلة، وقد مر بيان هذه القراءة في سورة البقرة.

المسألة الثانية: اعلم أنه روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر: إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فهذه الآية في بيان كيفية نزول التوراة، واعلم أنه تعالى قال في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] وذكر تفصيل تلك الأربعين في هذه الآية.

فإن قيل: وما الحكمة ههنا في ذكر الثلاثين ثم إتمامها بعشر؟ وأيضًا فقوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ كلام عار عن الفائدة، لأن كل أحد يعلم أن الثلاثين مع العشر يكون أربعين.

قلنا: أما الجواب عن السؤال الأول فهو من وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى أمر موسى عليه السلام بصوم ثلاثين يومًا وهو شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأوحى الله تعالى إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك[١]، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لهذا السبب.

والوجه الثاني: في فائدة هذا التفصيل أن الله أمره أن يصوم ثلاثين يومًا وأن يعمل فيها ما يقربه إلى الله تعالى، ثم أنزلت التوراة عليه في العشر البواقي، وكلمه أيضًا فيه. فهذا هو الفائدة في تفصيل الأربعين إلى الثلاثين وإلى العشرة.

والوجه الثالث: ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني في سورة طه ما دل على أن موسى عليه السلام بادر إلى ميقات ربه قبل قومه، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ [طه: ٨٣، ٨٤] فجائز أن يكون موسى أتى الطور عند تمام الثلاثين، فلما أعلمه الله تعالى خبر قومه مع السامري، رجع إلى قومه قبل تمام ما وعده الله تعالى، ثم عاد إلى الميقات في عشرة أخرى، فتم أربعون ليلة.

والوجه الرابع: قال بعضهم: لا يمتنع أن يكون الوعد الأول حضره موسى عليه السلام وحده، والوعد الثاني حضر المختارون معه ليسمعوا كلام الله تعالى، فصار الوعد مختلفًا لاختلاف حال الحاضرين والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثاني: أنه تعالى إنما قال: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ إزالة التوهم أن ذلك العشر من الثلاثين لأنه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين، كأنه كان عشرين، ثم أتمه بعشر، فصار ثلاثين، فأزال هذا الإيهام.

أما قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

ففيه بحثان:

البحث الأول: الفرق بين الميقات وبين الوقت، أن الميقات ما قدر فيه عمل من الأعمال،

(١) لم أجد مسندًا أو في كتب السنن بل هو عند التفسير بغير إسناد.

والوقت وقت للشيء قَدَّرة مقدر أو لا.

والبحث الثاني: قوله: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نصب على الحال أي تم بالغًا هذا العدد.

وأما قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ فقوله: ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان لأخيه وقرئ بالضم على النداء ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم ﴿وَأَصْلِحْ﴾ وكن مصلحًا أو ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه.

فإن قيل: إن هرون كان شريك موسى عليه السلام في النبوة، فكيف جعله خليفة لنفسه، فإن شريك الإنسان أعلى حالاً من خليفته ورد الإنسان من المنصب الأعلى إلى الأدون يكون إهانة.

قلنا: الأمر وإن كان كما ذكرتم، إلا أنه كان موسى عليه السلام هو الأصل في تلك النبوة.

فإن قيل: لما كان هارون نبيًا والنبي لا يفعل إلا الإصلاح، فكيف وصاه بالإصلاح.

قلنا: المقصود من هذا الأمر التأكيد كقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى بيَّن الفائدة التي لأجلها حضر موسى عليه السلام الميقات وهي أن كلمه ربه، وفي الآية مسائل شريفة عالية من العلوم الإلهية:

المسألة الأولى: دلت الآية على أنه تعالى كلم موسى عليه السلام والناس مختلفون في كلام الله تعالى فمنهم من قال: كلامه عبارة عن الحروف المؤلفة المنتظمة، ومنهم من قال: كلامه صفة حقيقية مغايرة للحروف والأصوات. أما القائلون بالقول الأول فالعقلاء المحصلون، اتفقوا على أنه يجب كونه حادثًا كائنًا بعد أن لم يكن.

وزعمت الحنابلة والحشوية أن الكلام المركب من الحروف والأصوات قديم، وهذا القول أخس من أن يلتفت العاقل إليه، وذلك أني قلت يومًا إنه تعالى إما أن يتكلم بهذه الحروف على الجمع أو على التعاقب والتوالي، والأول: باطل لأن هذه الكلمات المسموعة المفهومة إنما تكون مفهومة إذا كانت حروفها متوالية فأما إذا كانت حروفها توجد دفعة واحدة فذاك لا يكون مفيدًا ألبتة، والثاني: يوجب كونها حادثة، لأن الحروف إذا كانت متوالية فعند مجيء الثاني ينقضي الأول، فالأول حادث لأن كل ما ثبت عدمه امتنع قدمه، والثاني حادث، لأن كل ما كان وجوده متأخرًا عن وجود غيره فهو حادث، فثبت أنه بتقدير أن يكون كلام الله تعالى عبارة عن

مجرد الحروف والأصوات محدث.

إذا ثبت هذا فنقول للناس ههنا مذهبان: الأول: أن محل تلك الحروف والأصوات الحادثة هو ذات الله تعالى، وهو قول الكرامية. الثاني: أن محلها جسم مباين لذات الله تعالى كالشجرة وغير، وهو قول المعتزلة.

أما القول الثاني: وهو أن كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات، فهذا قول أكثر أهل السنة والجماعة. وتلك الصفة قديمة أزلية. والقائلون بهذا القول اختلفوا في الشيء الذي سمعه موسى عليه السلام. فقالت الأشعرية: إن موسى عليه السلام سمع تلك الصفة الحقيقية الأزلية قالوا: وكما لا يتعذر رؤية ذاته، مع أن ذاته ليست جسمًا ولا عرضًا، فكذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه لا يكون حرفًا ولا صوتًا. وقال أبو منصور الماتريدي: الذي سمعه موسى عليه السلام أصوات مقطعة وحروف مؤلفة قائمة بالشجرة، فأما الصفة الأزلية التي ليست بحرف ولا صوت فذاك ما سمعه موسى عليه السلام ألبتة، فهذا تفصيل مذاهب الناس في سماع كلام الله تعالى.

المسألة الثانية: اختلفوا في أنه تعالى كلم موسى وحده أو كلمه مع أقوام آخرين وظاهر الآية يدل على الأول. لأن قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ يدل على تخصيص موسى عليه السلام بهذا التشريف والتخصيص بالذكر يدل على نفي الحكم عما عداه، وقال القاضي: بل السبعون المختارون للميقات سمعوا أيضًا كلام الله تعالى. قال: لأن الغرض بإحضارهم أن يخبروا قوم موسى عليه السلام عما يجري هناك، وهذا المقصود لا يتم إلا عند سماع الكلام وأيضًا فإن تكليم الله تعالى موسى عليه السلام على هذا الوجه معجز، وقد تقدمت نبوة موسى عليه السلام فلا بد من ظهور هذا المعنى لغيره.

المسألة الثالثة: قال أصحابنا هذه الآية تدل على أنه سبحانه يجوز أن يرى وتقريره من أربعة أوجه: الأول: أن الآية دالة على أن موسى عليه السلام سأل الرؤية، ولا شك أن موسى عليه السلام يكون عارفًا بما يجب ويجوز ويمتنع على الله تعالى، فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها، وحيث سألها؛ علمنا أن الرؤية جائزة على الله تعالى. قال القاضي: الذي قاله المحصلون من العلماء في ذلك أقوال أربعة: أحدها: ما قاله الحسن وغيره: أن موسى عليه السلام ما عرف أن الرؤية غير جائزة على الله تعالى، قال: ومع الجهل بهذا المعنى قد يكون المرء عارفًا بربه وبعدله وتوحيده، فلم يبعد أن يكون العلم بامتناع الرؤية وجوازها موقوفًا على السمع. وثانيها: أن موسى عليه السلام سأل الرؤية على لسان قومه، فقد كانوا جاهلين بذلك يكررون المسألة عليه يقولون: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فسأل موسى الرؤية لا لنفسه، فلما ورد المنع منها ظهر أن ذلك لا سبيل إليه، وهذه طريقة أبي علي وأبي هاشم. وثالثها: أن موسى عليه السلام سأل ربه من عنده معرفة باهرة باضطرار وأهل هذا التأويل

مختلفون، فمنهم من يقول سأل ربه المعرفة الضرورية. ومنهم من يقول: بل سأله إظهار الآيات الباهرة التي عندها تزول الخواطر والوساوس عن معرفته، وإن كانت من فعله، كما نقوله في معرفة أهل الآخرة، وهو الذي اختاره أبو القاسم الكعبي. ورابعها: المقصود من هذا السؤال أن يذكر تعالى من الدلائل السمعية ما يدل على امتناع رؤيته حتى يتأكد الدليل العقلي بالدليل السمعي. وتعاضد الدلائل أمر مطلوب للعقلاء، وهو الذي ذكره أبو بكر الأصم فهذا مجموع أقوال المعتزلة في تأويل هذه الآية. قال أصحابنا أما الوجه الأول، فضعيف ويدل عليه وجوه: الأول: إجماع العقلاء على أن موسى عليه السلام ما كان في العلم بالله أقل منزلة ومرتبة من أراذل المعتزلة، فلما كان كلهم عالمين بامتناع الرؤية على الله تعالى وفرضنا أن موسى عليه السلام لم يعرف ذلك، كانت معرفته بالله أقل درجة من معرفة كل واحد من أراذل المعتزلة، وذلك باطل بإجماع المسلمين. الثاني: أن المعتزلة يدعون العلم الضروري، بأن كل ما كان مرئيًا، فإنه يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل. فإما أن يقال إن موسى عليه السلام حصل له هذا العلم أو لم يحصل له هذا العلم. فإن كان الأول كان تجويزه لكونه تعالى مرئيًا، يوجب تجويز كونه تعالى حاصلاً في الحيز والجهة، وتجويز هذا المعنى على الله تعالى يوجب الكفر عند المعتزلة، فيلزمهم كون موسى عليه السلام كافرًا، وذلك لا يقوله عاقل. وإن كان الثاني فنقول: لما كان العلم بأن كل مرئي يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل علما بديهيًا ضروريًا، ثم فرضنا أن هذا العلم ما كان حاصلاً لموسى عليه السلام، لزم أن يقال إن موسى عليه السلام لم يحصل فيه جميع العلوم الضرورية، ومن كان كذلك فهو مجنون، فيلزمهم الحكم بأنه عليه السلام، ما كان كامل العقل بل كان مجنونًا وذلك كفر بإجماع الأمة، فثبت أن القول بأن موسى عليه السلام، ما كان عالمًا بامتناع الرؤية مع فرض أنه تعالى ممتنع الرؤية يوجب أحد هذين القسمين الباطلين، فكان القول به باطلاً والله أعلم.

وأما التأويل الثاني: وهو أنه عليه السلام إنما سأل الرؤية لقومه لا لنفسه، فهو أيضًا فاسد ويدل عليه وجوه: الأول: أنه لو كان الأمر كذلك لقال موسى: أرهم ينظروا إليك، ولقال الله تعالى: لن يروني، فلما لم يكن كذلك، بطل هذا التأويل. والثاني: أنه لو كان هذا السؤال طلبًا للمحال، لمنعهم عنه كما أنهم لما قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] منعهم عنه بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] والثالث: أنه كان يجب على موسى إقامة الدلائل القاطعة على أنه تعالى لا تجوز رؤيته، وأن يمنع قومه بتلك الدلائل عن هذا السؤال، فأما أن لا يذكر شيئًا من تلك الدلائل ألبتة، مع أن ذكرها كان فرضًا مضيقًا، كان هذا نسبة لترك الواجب إلى موسى عليه السلام، وأنه لا يجوز. والرابع: أن أولئك الأقوام الذين طلبوا الرؤية، إما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى عليه السلام. أو ما آمنوا بها، فإن كان الأول كفاهم في الامتناع عن ذلك السؤال الباطل، مجرد قول موسى عليه السلام، فلا حاجة إلى هذا السؤال الذي ذكره

موسى عليه السلام، وإن كان الثاني لم ينتفعوا بهذا الجواب لأنهم يقولون له لا نسلم أن الله منع من الرؤية، بل هذا قول افتريته على الله تعالى، فثبت أن على كلا التقديرين لا فائدة للقوم في قول موسى عليه السلام ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

وأما التأويل الثالث: فبعيد أيضًا ويدل عليه وجوه: الأول: أن على هذا التقدير يكون معنى الآية أرني أمرًا أنظر إلى أمرك، ثم حذف المفعول والمضاف، إلا أن سياق الآية يدل على بطلان هذا، وهو قوله: ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فسوف تراني ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ ولا يجوز أن يحمل جميع هذا على حذف المضاف. الثاني: أنه تعالى أراه من الآية ما لا غاية بعدها كالعصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وإظلال الجبل، فكيف يمكن بعد هذه الأحوال طلب آية ظاهرة قاهرة. والثالث: أنه عليه السلام كان يتكلم مع الله بلا واسطة. ففي هذه الحالة كيف يليق به أن يقول: أظهر لي آية قاهرة ظاهرة تدل على أنك موجود؟ ومعلوم أن هذا الكلام في غاية الفساد. الرابع: أنه لو كان المطلوب آية تدل على وجوده، لأعطاه تلك الآية كما أعطاه سائر الآيات ولكان لا معنى لمنعه عن ذلك، فثبت أن هذا القول فاسد.

وأما التأويل الرابع: وهو أن يقال: المقصود منه إظهار آية سمعية تقوي ما دل العقل عليه، فهو أيضًا بعيد، لأنه لو كان المراد ذلك، لكان الواجب أن يقول: أريد يا إلهي أن يقوى امتناع رؤيتك بوجوه زائدة على ما ظهر في العقل، وحيث لم يقل ذلك بل طلب الرؤية. علمنا أن هذه التأويلات بأسرها فاسدة.

الحجة الثانية: من الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على أنه تعالى جائز الرؤية وذلك لأنه تعالى لو كان مستحيل الرؤية لقال: لا أرى ألا ترى أنه لو كان في يد رجل حجر فقال له إنسان ناولني هذا لآكله، فإنه يقول له هذا لا يؤكل، ولا يقول له لا تأكل. ولو كان في يده بدل الحجر تفاحة، لقال له: لا تأكلها أي هذا مما يؤكل، ولكنك لا تأكله. فلما قال تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولم يقل: لا أرى، علمنا أن هذا يدل على أنه تعالى في ذاته جائز الرؤية.

الحجة الثالثة: من الوجوه المستنبطة من هذه الآية، أنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز، والمعلق على الجائز جائز، فيلزم كون الرؤية في نفسها جائزة. إنما قلنا: إنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز، لأنه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ واستقرار الجبل أمر جائز الوجود في نفسه. فثبت أنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز الوجود في نفسه.

إذا ثبت هذا وجب أن تكون رؤيته جائزة الوجود في نفسها، لأنه لما كان ذلك الشرط أمرًا جائز الوجود، لم يلزم من فرض وقوعه محال، فبتقدير حصول ذلك الشرط، إما أن يترتب عليه الجزاء الذي هو حصول الرؤية أو لا يترتب، فإن ترتب عليه حصول الرؤية لزم القطع بكون

الرؤية جائزة الحصول، وإن لم يترتب عليه حصول الرؤية قدح هذا في صحة قوله، إنه متى حصل ذلك الشرط حصلت الرؤية، وذلك باطل.

فإن قيل: إنه تعالى علق حصول الرؤية على استقرار الجبل حال حركته، واستقرار الجبل حال حركته محال. فثبت أن حصول الرؤية معلق على شرط ممتنع الحصول، لا على شرط جائز الحصول، فلم يلزم صحة ما قلتموه؟ والدليل على أن الشرط هو استقرار الجبل حال حركته أن الجبل إما أن يقال: إنه حال ما جعل استقراره شرطًا لحصول الرؤية كان ساكنًا أو متحركًا، فإن كان الأول، لزم حصول الرؤية بمقتضى الاشتراط، وحيث لم تحصل علمنا أن الجبل في ذلك الوقت ما كان مستقرًّا، ولما لم يكن مستقرًّا كان متحركًا. فثبت أن الجبل حال ما جعل استقراره شرطًا لحصول الرؤية، كان متحركًا لا ساكنًا. فثبت أن الشرط هو كون الجبل مستقرًّا حال كونه ساكنًا فثبت أن الشرط الذي علق الله تعالى على حصوله حصول الرؤية، هو كون الجبل مستقرًّا حال كونه متحركًا، وأنه شرط محال.

والجواب: هو أن اعتبار حال الجبل من حيث هو مغاير لاعتبار حاله من حيث إنه متحرك أو ساكن، وكونه ممتنع الخلو عن الحركة والسكون لا يمنع اعتبار حاله من حيث إنه متحرك أو ساكن ألا ترى أن الشيء لو أخذته بشرط كونه موجودًا كان واجب الوجود، ولو أخذته بشرط كونه معدومًا كان واجب العدم، فلو أخذته من حيث هو هو مع قطع النظر عن كونه موجودًا أو كونه معدومًا كان ممكن الوجود فكذا ههنا الذي جعل شرطًا في اللفظ هو استقرار الجبل، وهذا القدر ممكن الوجود فثبت أن القدر الذي جعل شرطًا أمر ممكن الوجود جائز الحصول، وهذا القدر يكفي لبناء المطلوب عليه والله أعلم.

الحجة الرابعة: من الوجوه المستنبطة من هذه الآية في إثبات جواز الرؤية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ وهذا التجلي هو الرؤية، ويدل عليه وجهان: الأول: إن العلم بالشيء يجلي لذلك الشيء، وإبصار الشيء أيضًا يجلي لذلك الشيء. إلا أن الإبصار في كونه مجليًا أكمل من العلم به وحمل اللفظ على المفهوم الأكمل أولى. الثاني: أن المقصود من ذكر هذه الآية تقرير أن الإنسان لا يطيق رؤية الله تعالى بدليل أن الجبل مع عظمته لما رأى الله تعالى اندك وتفرقت أجزاؤه ولولا أن المراد من التجلي ما ذكرناه وإلا لم يحصل هذا المقصود. فثبت أن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ هو أن الجبل لما رأى الله تعالى اندكت أجزاؤه، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أنه تعالى جائز الرؤية أقصى ما في الباب أن يقال: الجبل جماد والجماد يمتنع أن يرى شيئًا، إلا أنا نقول: لا يمتنع أن يقال: إنه تعالى خلق في ذات الجبل الحياة والعقل والفهم، ثم خلق فيه رؤية متعلقة بذات الله تعالى، والدليل عليه أنه تعالى قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وكونه مخاطبًا بهذا الخطاب مشروط بحصول الحياة والعقل فيه فكذا ههنا، فثبت بهذه الوجوه الأربعة دلالة هذه الآية على أنه تعالى جائز الرؤية. أما

المعتزلة فقالوا: إنه ثبت بالدلائل العقلية والسمعية أنه تعالى تمتنع رؤيته فوجب صرف هذه الظواهر إلى التأويلات.

أما دلائلهم العقلية فقد بينا في الكتب العقلية ضعفها وسقوطها، فلا حاجة هنا إلى ذكرها.

وأما دلائلهم السمعية فأقوى ما لهم في هذا الباب التمسك بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قد سبق في سورة الأنعام ما في هذه الآية من المباحث الدقيقة واللطائف العميقة.

واعلم أن القوم تمسكوا بهذه الآية على عدم الرؤية من وجوه: الأول: التمسك بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وتقرير الاستدلال أن يقال: إن هذه الآية تدل على أن موسى عليه السلام لا يرى الله ألبتة لا في الدنيا ولا في القيامة، ومتى ثبت هذا ثبت أن أحدًا لا يراه ألبتة ومتى ثبت هذا ثبت أنه تعالى يمتنع أن يرى، فهذه مقدمات ثلاثة.

أما المقدمة الأولى: فتقريرها من وجوه: الأول: ما نقل عن أهل اللغة أن كلمة (لن) للتأبيد. قال الواحدي رحمه الله: هذه دعوى باطلة على أهل اللغة، وليس يشهد بصحته كتاب معتبر، ولا نقل صحيح. وقال أصحابنا: الدليل على فساده قوله تعالى في صفة اليهود ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة. والثاني: أن قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ يتناول الأوقات كلها بدليل صحة استثناء أي وقت أريد من هذه الكلمة، ومقتضى الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل تحت اللفظ وهذا أيضًا ضعيف، لأن تأثير الاستثناء في صرف الصحة لا في صرف الوجوب على ما هو مقرر في أصول الفقه. الثالث: أن قوله لن أفعل كذا، يفيد تأكيد النفي، ومعناه أن فعله ينافي حالته كقوله تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] وهذا يدل على أن الرؤية منافية للإلهية، والجواب: أن ﴿لَن﴾ لتأكيد نفي ما وقع السؤال عنه، والسؤال إنما وقع عن تحصيل الرؤية في الحال. فكان قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ نفيًا لذلك المطلوب، فأما أن يفيد النفي الدائم فلا. فهذه جملة الكلام في تقرير هذه المسألة.

أما المقدمة الثانية: فقالوا: القائل اثنان: قائل يقول: إن المؤمنين يرون الله وموسى أيضًا يراه، وقائل ينفي الرؤية عن الكل، أما القول بإثباته لغير موسى ونفيه عن موسى فهو قول خارق للإجماع وهو باطل.

وأما المقدمة الثالثة: فهي أن كل من نفى الوقوع نفى الصحة، فالقول بثبوت الصحة مع نفي الوقوع قول على خلاف الإجماع وهو باطل. واعلم أن بناء هذه الدلالة على صحة المقدمة الأولى، فلما ثبت ضعفها سقط هذا الاستدلال بالكلية.

الحجة الثانية للقوم: أنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه خر صعقًا، ولو كانت الرؤية جائزة. فلم خر عند سؤالها صعقًا؟

والحجة الثالثة: أنه عليه السلام لما أفاق قال سبحانك، وهذه الكلمة للتنزيه، فوجب أن يكون المراد منه تنزيه الله تعالى عما تقدم ذكره، والذي تقدم ذكره هو رؤية الله تعالى، فكان

قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا له عن الرؤية فثبت بهذا أن نفي الرؤية تنزيه الله تعالى وتنزيه الله إنما يكون عن النقائص والآفات، فوجب كون الرؤية من النقائص والآفات، وذلك على الله محال. فثبت أن الرؤية على الله ممتنعة.

والحجة الرابعة: قوله تعالى حكاية عن موسى لما أفاق أنه قال: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ ولولا أن طلب الرؤية ذنب لما تاب منه، ولولا أنه ذنب ينافي صحة الإسلام لما قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

واعلم أن أصحابنا قالوا: الرؤية كانت جائزة، إلا أنه عليه السلام سألها بغير الإذن وحسنات الأبرار سيئات المقربين، فكانت التوبة توبة عن هذا المعنى لا عما ذكروه، فهذا جملة الكلام في هذه الآية. والله أعلم بالصواب.

المسألة الرابعة: في البحث عن هذه الآية. نقل عن ابن عباس أنه قال: جاء موسى عليه السلام ومعه السبعون وصعد موسى الجبل وبقي السبعون في أسفل الجبل، وكلم الله موسى وكتب له في الألواح كتابًا وقربه نجيًّا، فلما سمع موسى صرير القلم عظم شوقه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ قال صاحب (الكشاف): ثاني مفعولي (أرني) محذوف، أي (أرني) نفسك (أنظر إليك) وفي لفظ الآية سؤالات:

السؤال الأول: النظر: إما أن يكون عبارة عن الرؤية أو عن مقدمتها وهي تقليب الحدقة السليمة إلى جانب المرئي التماسًا لرؤيته، وعلى التقدير الأول: يكون المعنى أرني حتى أراك، وهذا فاسد، وعلى التقدير الثاني: يكون المعنى أرني حتى أقلب الحدقة إلى جانبك وهذا فاسد لوجهين: أحدهما: أنه يقتضي إثبات الجهة لله تعالى. والثاني: أن تقليب الحدقة إلى جهة المرئي مقدمة للرؤية فجعله كالنتيجة عن الرؤية وذلك فاسد.

والجواب: أن قوله: (أرنى) معناه اجعلني متمكنًا من رؤيتك حتى أنظر إليك وأراك.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولم يقل لن تنظر إلي، حتى يكون مطابقًا لقوله: ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

والجواب: أن النظر لما كان مقدمة للرؤية كان المقصود هو الرؤية لا النظر الذي لا رؤية معه.

والسؤال الثالث: كيف اتصل الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ بما قبله؟

والجواب: المقصود منه تعظيم أمر الرؤية وأن أحدًا لا يقوى على رؤية الله تعالى إلا إذا قواه الله تعالى بمعونته وتأييده، ألا ترى أنه لما ظهر أثر التجلي والرؤية للجبل اندك وتفرق، فهذا من هذا الوجه يدل على تعظيم أمر الرؤية.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ فقال الزجاج: (تجلى) أي ظهر وبان، ومنه يقال جلوت العروس إذا أبرزتها، وجلوت المرآة والسيف إذا أزلت ما عليهما من الصدأ، وقوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ قال الزجاج: يجوز (دكًا) بالتنوين و(دكاء) بغير تنوين أي جعله مدقوقًا مع الأرض

يقال: دككت الشيء إذا دققته أدكه دكًا، والدكاء والدكاوات: الروابي التي تكون مع الأرض ناشزة. فعلى هذا، الدك مصدر، والدكاء اسم. ثم روى الواحدي بإسناده عن الأخفش في قوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أنه قال: دكه دكًّا مصدر مؤكد، ويجوز جعله ذا دك. قال ومن قرأ (دكاء) ممدودًا أراد جعله دكاء أي أرضًا مرتفعة، وهو موافق لما روي عن ابن عباس أنه قال: جعله ترابًا. وقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ قال الليث: الصعق مثل الغشي يأخذ الإنسان، والصعقة الغشية. يقال: صَعِقَ الرجل وصُعِقَ، فمن قال صَعِق فهو صَعِقٌ. ومن قال صُعِقَ فهو مصعوق. ويقال أيضًا: صَعِقَ إذا مات، ومنه قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] فسروه بالموت. ومنه قوله: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥] أي يموتون. قال صاحب (الكشاف): صعق أصله من الصاعقة، ويقال لها: الصاقعة من صقعه إذا ضربه على رأسه.

إذا عرفت هذا فنقول: فسر ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ بالغشي، وفسره قتادة بالموت، والأول أقوى، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ قال الزجاج: ولا يكاد يقال للميت: قد أفاق من موته، ولكن يقال للذي يغشى عليه: أنه أفاق من غشيه، لأن الله تعالى قال في الذين ماتوا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦].

أما قوله: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهًا لك عن أن يسألك غيرك شيئًا بغير إذنك، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ وفيه وجهان: الأول: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من سؤال الرؤية في الدنيا. الثاني: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من سؤال الرؤية بغير إذنك ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنك لا ترى في الدنيا، أو يقال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنه لا يجوز السؤال منك إلا بإذنك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

اعلم أن موسى عليه السلام لما طلب الرؤية ومنعه الله منها، عدد الله عليه وجوه نعمه العظيمة التي له عليه، وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له إن كنت قد منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا، فلا يضيق صدرك بسبب منع الرؤية، وانظر إلى سائر أنواع النعم التي خصصتك بها واشتغل بشكرها. والمقصود تسلية موسى عليه السلام عن منع الرؤية، وهذا أيضًا أحد ما يدل على أن الرؤيا جائزة على الله تعالى، إذ لو كانت ممتنعة في نفسها لما كان إلى ذكر هذا القدر حاجة، واعلم أن الاصطفاء استخلاص الصفوة فقوله: ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ أي اتخذتك صفوة على الناس، قال ابن عباس: يريد فضلتك على الناس، ولما ذكر أنه تعالى اصطفاه ذكر الأمر الذي به حصل هذا الاصطفاء فقال: ﴿بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ قرأ ابن كثير ونافع (برسالتي) على الواحد والباقون ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾ على الجمع، وذلك أنه تعالى أوحى إليه مرة بعد أخرى، ومن قرأ (برسالتي) فلأن الرسالة تجري مجرى المصدر، فيجوز إفرادها في موضع الجمع، وإنما قال:

﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل على الخلق، لأن الملائكة قد تسمع كلام الله من غير واسطة كما سمعه موسى عليه السلام.

فإن قيل: كيف اصطفاه على الناس برسالاته مع أن كثيرًا من الناس قد ساواه في الرسالة؟

قلنا: إنه تعالى بيَّن أنه خصه من دون الناس بمجموع الأمرين، وهو الرسالة مع الكلام بغير واسطة، وهذا المجموع ما حصل لغيره، فثبت أنه إنما حصل التخصيص ههنا لأنه سمع ذلك الكلام بغير واسطة، وإنما كان الكلام بغير واسطة سببًا لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر، لأن من سمع كلام الملك العظيم من فاق فيه كان أعلى حالاً وأشرف مرتبة ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب، ولما ذكر هذين النوعين من النعمة العظيمة. قال: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ يعني فخذ هذه النعمة، ولا يضيق قلبك بسبب منعك الرؤية، واشتغل بشكر الفوز بهذه النعمة والاشتغال بشكرها إنما يكون بالقيام بلوازمها علمًا وعملاً والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن أنه خص موسى -عليه السلام- بالرسالة ذكر في هذه الآية تفصيل تلك الرسالة فقال: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾ نقل صاحب (الكشاف) عن بعضهم: أن موسى خر صعقًا يوم عرفة. وأعطاه الله تعالى التوراة يوم النحر، وذكروا في عدد الألواح، وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح. وقيل: سبعة. وقيل إنها كانت من زمردة جاء بها جبريل عليه السلام. وقيل من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء. وقال الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء. وقال وهب: كانت من صخرة صماء لينها الله لموسى عليه السلام، وأما كيفية الكتابة. فقال ابن جريج: كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور.

واعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح، وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوي، وجب القول به وإلا وجب السكوت عنه.

وأما قوله: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فلا شبهة فيه أنه ليس على العموم، بل المراد من كل ما يحتاج إليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام والمحاسن والمقابح.

وأما قوله: ﴿مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ فهو كالبيان للجملة التي قدمها بقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ وذلك لأنه تعالى قسمه إلى ضربين: أحدهما: (موعظة) والآخر (تفصيلاً) لما يجب أن يعلم من الأحكام، فيدخل في الموعظة كل ما ذكره الله تعالى من الأمور التي توجب الرغبة في الطاعة والنفرة عن المعصية، وذلك بذكر الوعد والوعيد، ولما قرر ذلك أولاً أتبعه بشرح أقسام الأحكام وتفصيل الحلال والحرام، فقال: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ ولما شرح ذلك، قال لموسى: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ أي بعزيمة قوية ونية صادقة، ثم أمره الله تعالى أن يأمر قومه بأن

يأخذوا بأحسنها، وظاهر ذلك أن بين التكليفين فرقًا، ليكون في هذا التفصيل فائدة، ولذلك قال بعض المفسرين: إن التكليف كان على موسى عليه السلام أشد، لأنه تعالى لم يرخص له ما رخص لغيره، وقال بعضهم: بل خصه من حيث كلفه البلاغ والأداء. وإن كان مشاركًا لقومه فيما عداه، وفي قوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾. سؤال: وهو أنه تعالى لما تعبد بكل ما في التوراة وجب كون الكل مأمورًا به، وظاهر قوله ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ يقتضي أن فيه ما ليس بأحسن، وإنه لا يجوز لهم الأخذ به، وذلك متناقض وذكر العلماء في الجواب عنه وجوها: الأول: أن تلك التكاليف منها ما هو حسن ومنها ما هو أحسن، كالقصاص، والعفو، والانتصار، والصبر، أي فمرهم أن يحملوا أنفسهم على الأخذ بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب كقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ [الزمر: ٥٥] وقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

فإن قالوا: فلما أمر الله تعالى بالأخذ بالأحسن، فقد منع من الأخذ بذلك الحسن، وذلك يقدح في كونه حسنًا فنقول يحمل أمر الله تعالى بالأخذ بالأحسن على الندب حتى يزول هذا التناقض.

الوجه الثاني: في الجواب قال قطرب ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بحسنها وكلها حسن لقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقول الفرزدق:

بَيتًا دعائِمُهُ أعَزُّ وأطوَلُ[1]

الوجه الثالث: قال بعضهم: الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح، وأحسن هذه الثلاثة الواجبات والمندوبات.

وأما قوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾

ففيه وجهان:

الأول: أن المراد التهديد والوعيد على مخالفة أمر الله تعالى، وعلى هذا التقدير: فيه وجهان: الأول: قال ابن عباس والحسن ومجاهد: دار الفاسقين هي جهنم، أي فليكن ذكر جهنم حاضرًا في خاطركم لتحذروا أن تكونوا منهم. والثاني: قال قتادة: سأدخلكم الشام وأريكم منازل الكافرين الذين كانوا متوطنين فيها من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها وما صاروا إليه من النكال. وقال الكلبي: ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ هي المساكن التي كانوا يمرون عليها إذا سافروا، من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله تعالى.

والقول الثاني: أن المراد الوعد والبشارة بأنه تعالى سيورثهم أرض أعدائهم وديارهم والله أعلم.

---

(١) الفرزدق تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] ذكر في هذه الآية ما يعاملهم به فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يمنع عن الإيمان ويصد عنه وذلك ظاهر، وقالت المعتزلة: لا يمكن حمل الآية على ما ذكرتموه ويدل عليه وجوه:

الوجه الأول: قال الجبائي: لا يجوز أن يكون المراد منه أنه تعالى يصرفهم عن الإيمان بآياته لأن قوله: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ يتناول المستقبل وقد بيّن تعالى أنهم كفروا فكذبوا من قبل هذا الصرف، لأنه تعالى وصفهم بكونهم متكبرين في الأرض بغير الحق وبأنهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً، فثبت أن الآية دالة على أن الكفر قد حصل لهم في الزمان الماضي، فهذا يدل على أنه ليس المراد من هذا الصرف الكفر بالله.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مذكور على وجه العقوبة على التكبر والكفر، فلو كان المراد من هذا الصرف هو كفرهم، لكان معناه أنه تعالى خلق فيهم الكفر عقوبة لهم على إقدامهم على الكفر، ومعلوم أن العقوبة على الكفر بمثل ذلك الفعل المعاقب عليه لا يجوز، فثبت أنه ليس المراد من هذا الصرف الكفر.

الوجه الثالث: أنه لو صرفهم عن الإيمان وصدهم عنه فكيف يمكن أن يقول مع ذلك ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠]، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الإسراء: ٩٤، الكهف: ٥٥] فثبت أن حمل الآية على هذا الوجه غير ممكن فوجب حملها على وجوه أخرى.

فالوجه الأول: قال الكعبي وأبو مسلم الأصفهاني: إن هذا الكلام تمام لما وعد الله موسى عليه السلام به من إهلاك أعدائه، ومعنى صرفهم إهلاكهم فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها ولا على منع المؤمنين من الإيمان به، وهو شبيه بقوله: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧] فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى عليه السلام من إيذائه ومنعه من القيام بما يلزمه في تبليغ النبوة والرسالة.

والوجه الثاني: في التأويل ما ذكره الجبائي فقال: سأصرف هؤلاء المتكبرين عن نيل ما في آياتي من العز والكرامة المعدين للأنبياء والمؤمنين، وإنما يصرفهم عن ذلك بواسطة إنزال الذل والإذلال بهم، وذلك يجري مجرى العقوبة على كفرهم وتكبرهم على الله.

والوجه الثالث: أن من الآيات آيات لا يمكن الانتفاع بها إلا بعد سبق الإيمان. فإذا كفروا فقد صيروا أنفسهم بحيث لا يمكنهم الانتفاع بتلك الآيات، فحينئذ يصرفهم الله عنها.

والوجه الرابع: أن الله تعالى إذا علم من حال بعضهم أنه إذا شاهد تلك الآيات فإنه لا يستدل بها بل يستخف بها ولا يقوم بحقها، فإذا علم الله ذلك منه، صح من الله تعالى أن يصرفه عنها.

والوجه الخامس: نقل عن الحسن أنه قال: إن من الكفار من يبالغ في كفره وينتهي إلى الحد الذي إذا وصل إليه مات قلبه، فالمراد من قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ هؤلاء. فهذا جملة ما قيل في هذا الباب، وظهر أن هذه الآية ليس فيها دلالة قوية على صحة ما يقول به في مسألة خلق الأعمال. والله أعلم.

المسألة الثانية: معنى يتكبرون: أنهم يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم وهذه الصفة أعني التكبر لا تكون إلا لله تعالى، لأنه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد فلا جرم يستحق كونه متكبرًا، وقال بعضهم: التكبر: إظهار كبر النفس على غيرها. وصفة التكبر صفة ذم في جميع العباد، وصفة مدح في الله جل جلاله، لأنه يستحق إظهار ذلك على من سواه لأن ذلك في حقه حق. وفي حق غيره باطل.

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لأن إظهار الكبر على الغير قد يكون بالحق، فإن للمحق أن يتكبر على المبطل، وفي الكلام المشهور: التكبر على المتكبر صدقة.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

ففيه مباحث:

البحث الأول: قرأ حمزة والكسائي: (الرشد) بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين. وفرق أبو عمرو بينهما فقال: (الرشد) بضم الراء الصلاح لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي: صلاحًا، و(الرشد) بفتحهما الاستقامة في الدين. قال تعالى: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]. وقال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد، مثل الحَزَن والحُزْن، والسَّقَم والسُّقْم، وقيل: (الرشد) بالضم الاسم، وبالفتحتين المصدر.

البحث الثاني: ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ عبارة عن سبيل الهدى والدين الحق والصواب في العلم والعمل و ﴿سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾ ما يكون مضادًا لذلك، ثم بيّن تعالى أن هذا الصرف إنما كان لأمرين: أحدهما: كونهم مكذبين بآيات الله. والثاني: كونهم غافلين عنها، والمراد أنهم واظبوا على الإعراض عنها حتى صاروا بمنزلة الغافل عنها والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما لأجله صرف المتكبرين عن آياته بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦] بيَّن حال أولئك المكذبين، فقد كان يجوز أن يظن أنهم يختلفون في باب العقاب لأن فيهم من يعمل بعض أعمال البر، فبيَّن تعالى حال جميعهم سواء كان متكبرًا أو متواضعًا أو كان قليل الإحسان، أو كان كثير الإحسان، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعني بذلك جَحْدهم للميعاد وجرأتهم على المعاصي، فبيَّن تعالى أن أعمالهم محبطة، والكلام في حقيقة الإحباط قد تقدم في سورة البقرة على الاستقصاء فلا فائدة في الإعادة.

ثم قال تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وفيه حذف والتقدير: هل يجزون إلا بما كانوا يعملون؟ أو على ما كانوا يعملون. واحتج أصحابنا بهذه الآية على فساد قول أبي هاشم في أن تارك الواجب يستحق العقاب بمجرد أن لا يفعل الواجب، وإن لم يصدر منه فعل عند ذلك الواجب قالوا: هذه الآية تدل على أنه لا جزاء إلا على العمل، وليس ترك الواجب بعمل، فوجب أن لا يجازي عليه، فثبت أن الجزاء إنما حصل على فعل ضده. وأجاب أبو هاشم: بأني لا أسمي ذلك العقاب جزاء فسقط الاستدلال.

وأجاب أصحابنا عن هذا الجواب: بأن الجزاء إنما سمي جزاء لأنه يجزي ويكفي في المنع من النهي، وفي الحث على المأمور به فإن ترتب العقاب على مجرد ترك الواجب كان ذلك العقاب كافيًا في الزجر عن ذلك الترك فكان جزاء، فثبت أنه لا سبيل إلى الامتناع من تسميته جزاء والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

اعلم أن المراد من هذه الآية قصة اتخاذ السامري العجل.

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي: (حِلِيهم) بكسر الحاء واللام وتشديد الياء للاتباع كدلي. والباقون: ﴿حُلِيِّهِمْ﴾ بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء جمع حلي كثدي وثدِي، وقرأ بعضهم: (مِن حَلْيِهم) على التوحيد، والحلي اسم ما يتحسن به من الذهب والفضة.

المسألة الثانية: قيل: إن بني إسرائيل كان لهم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلي فاستعاروا حلي القبط لذلك اليوم، فلما أغرق الله القبط بقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل، فجمع السامري تلك الحلي وكان رجلاً مطاعًا فيهم ذا قدر وكانوا قد سألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه، فصاغ السامري عجلاً. ثم اختلف الناس، فقال قوم: كان قد أخذ كفًّا من تراب حافر فرس جبريل عليه السلام فألقاه في جوف ذلك العجل فانقلب لحمًا ودمًا وظهر منه الخوار مرة واحدة. فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى، وقال أكثر المفسرين من المعتزلة: إنه كان قد جعل ذلك العجل مجوفًا ووضع في جوفه أنابيب على شكل مخصوص،

وكان قد وضع ذلك التمثال على مهب الرياح، فكانت الريح تدخل في جوف الأنابيب ويظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل، وقال آخرون: إنه جعل ذلك التمثال أجوف، وجعل تحته في الموضع الذي نصب فيه العجل من ينفخ فيه من حيث لا يشعر به الناس فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار. قال صاحب هذا القول والناس قد يفعلون الآن في هذه التصاوير التي يجرون فيها الماء على سبيل الفوارات ما يشبه ذلك، فبهذا الطريق وغيره أظهر الصوت من ذلك التمثال، ثم ألقى إلى الناس أن هذا العجل إلههم وإله موسى. بقي في لفظ الآية سؤالات:

السؤال الأول: لم قيل: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ والمتخذ هو السامري وحده؟.

والجواب: فيه وجهان: الأول: أن الله نسب الفعل إليهم، لأن رجلاً منهم باشره كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا، والقائل والفاعل واحد. والثاني: أنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به، فكأنهم اجتمعوا عليه.

السؤال الثاني: لم قال: ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ ولم يكن الحلي لهم، وإنما حصل في أيديهم على سبيل العارية؟.

والجواب: أنه تعالى لما أهلك قوم فرعون بقيت تلك الأموال في أيديهم، وصارت ملكًا لهم كسائر أملاكهم بدليل قوله تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ [الدخان: ٢٥]، ﴿وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ [الشعراء: ٥٨]، ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٧، ٢٨].

السؤال الثالث: هؤلاء الذين عبدوا العجل هم كل قوم موسى أو بعضهم؟.

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا﴾ يفيد العموم. قال الحسن: كلهم عبدوا العجل غير هارون. واحتج عليه بوجهين: الأول: عموم هذه الآية، والثاني: قول موسى عليه السلام في هذه القصة ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: ١٥١] قال خص نفسه وأخاه بالدعاء، وذلك يدل على أن من كان مغايرًا لهما ما كان أهلاً للدعاء ولو بقوا على الإيمان لما كان الأمر كذلك، وقال آخرون: بل كان قد بقي في بني إسرائيل من ثبت على إيمانه فإن ذلك الكفر إنما وقع في قوم مخصوصين، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

السؤال الرابع: هل انقلب ذلك التمثال لحمًا ودمًا على ما قاله بعضهم أو بقي ذهبًا كما كان قبل ذلك؟.

والجواب: الذاهبون إلى الاحتمال الأول احتجوا على صحة قولهم بوجهين: الأول: قوله تعالى: ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ والجسد اسم للجسم الذي يكون من اللحم والدم، ومنهم من نازع في ذلك وقال بل الجسد اسم لكل جسم كثيف، سواء كان من اللحم والدم أو لم يكن كذلك.

الحجة الثانية: أنه تعالى أثبت له خوارًا، وذلك إنما يتأتى في الحيوان. وأجيب عنه: بأن

ذلك الصوت لما أشبه الخوار لم يبعد إطلاق لفظ الخوار عليه، وقرأ علي رضي الله عنه: (جؤار) بالجيم والهمزة، من جأر إذا صاح فهذا ما قيل في هذا الباب.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا المذهب والمقالة احتج على فساد كون ذلك العجل إلهًا بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ وتقرير هذا الدليل أن هذا العجل لا يمكنه أن يكلمهم ولا يمكنه أن يهديهم إلى الصواب والرشد، وكل من كان كذلك كان إما جمادًا وإما حيوانًا عاجزًا، وعلى التقديرين فإنه لا يصلح للإلهية، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن من لا يكون متكلمًا ولا هاديًا إلى السبيل لم يكن إلهًا لأن الإله هو الذي له الأمر والنهي، وذلك لا يحصل إلا إذا كان متكلمًا، فمن لا يكون متكلمًا لم يصح منه الأمر والنهي، والعجل عاجز عن الأمر والنهي فلم يكن إلهًا. وقالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أن شرط كونه إلهًا أن يكون هاديًا إلى الصدق والصواب، فمن كان مضلاً عنه وجب أن لا يكون إلهًا.

فإن قيل: فهذا يوجب أنه لو صح أن يتكلم ويهدي، يجوز أن يتخذ إلهًا، وإلا فإن كان إثبات ذلك كنفيه في أنه لا يجوز أن يتخذ إلهًا فلا فائدة فيما ذكرتم.

والجواب من وجهين:

الأول: لا يبعد أن يكون ذلك شرطًا لحصول الإلهية، فيلزم من عدمه عدم الإلهية وإن كان لا يلزم من حصوله حصول الإلهية.

الثاني: أن كل من قدر على أن يكلمهم وعلى أن يهديهم إلى الخير والشر فهو إله، والخلق لا يقدرون على الهداية، إنما يقدرون على وصف الهداية، فأما على وضع الدلائل ونصبها فلا قادر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

واعلم أنه ختم الآية بقوله: ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي: كانوا ظالمين لأنفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى واشتغلوا بعبادة العجل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝١٤٩﴾

اعلم أنهم اتفقوا على أن المراد من قوله: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أنه اشتد ندمهم على عبادة العجل واختلفوا في الوجه الذي لأجله حسنت هذه الاستعارة.

فالوجه الأول: قال الزجاج: معناه سقط الندم في أيديهم، أي: في قلوبهم كما يقال: حصل في يديه مكروه، وإن كان من المحال حصول المكروه الواقع في اليد، إلا أنهم أطلقوا على المكروه الواقع في القلب والنفس كونه واقعًا في اليد، فكذا ههنا.

والوجه الثاني: قال صاحب (الكشاف): إنما يقال لمن ندم سقط في يده لأن من شأن من

اشتد ندمه أن يعض يده غمًّا، فيصير ندمه مسقوطًا فيها، لأن فاه قد وقع فيها.

والوجه الثالث: أن السقوط عبارة عن نزول الشيء من أعلى إلى أسفل، ولهذا قالوا: سقط المطر، ويقال: سقط من يدك شيء وأسقطت المرأة، فمن أقدم على عمل فهو إنما يقدم عليه لاعتقاده أن ذلك العمل خير وصواب، وأن ذلك العمل يورثه شرفًا ورفعة، فإذا بان له أن ذلك العمل كان باطلاً فاسدًا فكأنه قد انحط من الأعلى إلى الأسفل وسقط من فوق إلى تحت، فلهذا السبب يقال للرجل إذا أخطأ: كان ذلك منه سقطة، شبهوا ذلك بالسقطة على الأرض، فثبت أن إطلاق لفظ السقوط على الحالة الحاصلة عند الندم جائز مستحسن، بقي أن يقال: فما الفائدة في ذكر اليد؟ فنقول: اليد هي الآلة التي بها يقدر الإنسان على الأخذ والضبط والحفظ، فالنادم كأنه يتدارك الحالة التي لأجلها حصل له الندم ويشتغل بتلافيها، فكأنه قد سقط في يد نفسه من حيث أن بعد حصول ذلك الندم اشتغل بالتدارك والتلافي.

والوجه الرابع: حكى الواحدي عن بعضهم: أن هذا مأخوذ من السقيط وهو ما يغشى الأرض بالغدوات شبه الثلج. يقال: منه سقطت الأرض كما يقال: من الثلج ثلجت الأرض وثلجنا أي أصابها الثلج، ومعنى سقط في يده أي: وقع في يده السقيط، والسقيط يذوب بأدنى حرارة ولا يبقى، فمن وقع في يده السقيط لم يحصل منه على شيء قط فصار هذا مثلاً لكل من خسر في عاقبته ولم يحصل من سعيه على طائل، وكانت الندامة آخر أمره.

والوجه الخامس: قال بعض العلماء: النادم إنما يقال له سقط في يده، لأنه يتحير في أمره ويعجز عن أعماله والآلة الأصلية في الأعمال في أكثر الأمر هي اليد. والعاجز في حكم الساقط فلما قرن السقوط بالأيدي علم أن السقوط في اليد إنما حصل بسبب العجز التام ويقال في العرف لمن لا يهتدي لما يصنع، ضلت يده ورجله.

والوجه السادس: إن من عادة النادم أن يطأطئ رأسه ويضعه على يده معتمدًا عليه وتارة يضعها تحت ذقنه، وشطر من وجهه على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه فكانت اليد مسقوط فيها لتمكن السقوط فيها ويكون قوله سقط في أيديهم بمعنى سقط على أيديهم، كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي: قد تبينوا ضلالهم تبيينًا كأنهم أبصروه بعيونهم قال القاضي: يجب أن يكون المؤخر مقدمًا لأن الندم والتحير إنما يقطعان بعد المعرفة فكأنه تعالى قال: ولما رأوا أنهم قد ضلوا سقط في أيديهم لما نالهم من عظيم الحسرة، ويمكن أن يقال إنه لا حاجة إلى هذا التقديم والتأخير، وذلك لأن الإنسان إذا صار شاكًا في أن العمل الذي أقدم عليه هل هو صواب أو خطأ؟ فقد يندم عليه من حيث أن الإقدام على ما لا يعلم كونه صوابًا أو خطأ فاسدًا أو باطلاً غير جائز، فعند ظهور هذه الحالة يحصل الندم، ثم بعد ذلك يتكامل العلم ويظهر أنه كان خطأ وفاسدًا وباطلاً فثبت أن على هذا التقدير لا حاجة إلى التزام التقديم

والتأخير. ثم بيَّن تعالى أنهم عند ظهور هذا الندم وحصول العلم بأن الذي عملوه كان باطلاً أظهروا الانقطاع إلى الله تعالى فـ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهذا كلام من اعترف بعظيم ما أقدم عليه وندم على ما صدر منه ورغب إلى ربه في إقالة عثرته، ثم صدقوا على أنفسهم كونهم من الخاسرين إن لم يغفر الله لهم، وهذا الندم والاستغفار إنما حصل بعد رجوع موسى عليه السلام إليهم، وقرئ: (لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا) بالتاء و﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على النداء، وهذا كلام التائبين كما قال آدم وحواء عليهما السلام: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ لا يمنع من أن يكون قد عرف خبرهم من قبل في عبادة العجل، ولا يوجب ذلك لجواز أن يكون عند الرجوع ومشاهدة أحوالهم صار كذلك، فلهذا السبب اختلفوا فيه فقال قوم: إنه عند هجومه عليهم عرف ذلك. وقال أبو مسلم: بل كان عارفًا بذلك من قبل، وهذا أقرب، ويدل عليه وجوه: الأول: أن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ يدل على أنه حال ما كان راجعًا كان غضبان أسفًا، وهو إنما كان راجعًا إلى قومه قبل وصوله إليهم، فدل هذا على أنه عليه السلام قبل وصوله إليهم كان عالمًا بهذه الحالة. الثاني: أنه تعالى ذكر في سورة طه أنه أخبره بوقوع تلك الواقعة في الميقات.

المسألة الثانية: في الأسف قولان: الأول: أن الأسف الشديد الغضب، وهو قول أبي الدرداء وعطاء، عن ابن عباس واختيار الزجاج. واحتجوا بقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي: أغضبونا. والثاني: وهو أيضًا قول ابن عباس والحسن والسدي، إن الأسف هو الحزين. وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن أبا بكر رجل أسيف [(١)]

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأذان) باب: (إنما جُعل الإمام ليؤتم به) (١/ ٢٠٣) حديث رقم/ ٦٨٧ حدثنا أحمد بن يونس... به. ومسلم في كتاب (الصلاة) باب (استخلاف الإمام إذا عرض له عذر) (١/ ٩٠/ ٣١١) حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس... به. كلاهما من طريق أحمد بن يونس حدثنا زائدة... به.

أي حزين. قال الواحدي: والقولان متقاربان، لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت. فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنًا والأخرى غضبًا، فعلى هذا كان موسى غضبان على قومه لأجل عبادتهم العجل، أسفًا حزينًا، لأن الله تعالى فتنهم. وقد كان تعالى قال له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥].

أما قوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ﴾ فمعناه بئسما قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي وهذا الخطاب إنما يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه أو لوجوه بني إسرائيل، وهم: هارون عليه السلام والمؤمنون معه، ويدل عليه قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾[الأعراف: ١٤٢] وعلى التقدير الأول يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، وعلى هذا التقدير الثاني، يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى، وههنا سؤالات:

السؤال الأول: أين ما يقتضيه (بئس) من الفاعل، والمخصوص بالذم.

والجواب: الفاعل مضمر يفسره قوله: ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم.

السؤال الثاني: أي معنى لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ بعد قوله: ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾.

والجواب: معناه من بعد ما رأيتم مني من توحيد الله تعالى، ونفي الشركاء عنه وإخلاص العبادة له أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وأمنعهم من عبادة البقر حين قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ ومن حق الخلفاء أن يسيروا سيرة المستخلفين.

وأما قوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ فمعنى العجلة التقدم بالشيء قبل وقته، ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة، لأن معناها عمل الشيء في أول أوقاته. هكذا قاله الواحدي.

ولقائل أن يقول: لو كانت العجلة مذمومة، فلم قال موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] قال ابن عباس: المعنى ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يعني ميعاد ربكم فلم تصبروا له؟ وقال الحسن: وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين، وذلك لأنهم قدروا أنه لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة، فقد مات. وقال عطاء: يريد أعجلتم سخط ربكم؟ وقال الكلبي: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم، ولما ذكر تعالى أن موسى رجع غضبان ذكر بعده ما كان ذلك الغضب موجبًا له، وهو أمران: الأول: أنه قال: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ يريد التي فيها التوراة، ولما كانت تلك الألواح أعظم معاجزه، ثم أنه ألقاها دل ذلك على شدة الغضب، لأن المرء لا يقدم على مثل هذا العمل إلا عند حصول الغضب المدهش. روي أن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح تكسرت، فرفع منها ستة أسباعها وبقي سبع واحد. وكان فيما رفع تفصيل كل شيء، وفيما بقي الهدى والرحمة، وعن النبي ﷺ أنه قال: «يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَة

لقد أخبره الله تعالى بفتنة قومه فعرف أن ما أخبره به حق وأنه على ذلك متمسك بما في يده»[(١)].

ولقائل أن يقول: ليس في القرآن إلا أنه ألقى الألواح فأما أنه ألقاها بحيث تكسرت، فهذا ليس في القرآن وأنه لجراءة عظيمة على كتاب الله، ومثله لا يليق بالأنبياء عليهم السلام.

والأمر الثاني: من الأمور المتولدة عن ذلك الغضب.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ وفي هذا الموضع سؤال لمن يقدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام ذكرناه في سورة طه مع الجواب الصحيح، وبالجملة فالطاعنون في عصمة الأنبياء يقولون: إنه أخذ برأس أخيه يجره إليه على سبيل الإهانة والاستخفاف، والمثبتون لعصمة الأنبياء قالوا إنه جر رأس أخيه إلى نفسه ليساره ويستكشف منه كيفية تلك الواقعة.

فإن قيل: فلماذا قال ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾؟

قلنا: الجواب عنه أن هارون عليه السلام خاف أن يتوهم جهال بني إسرائيل أن موسى عليه السلام غضبان عليه كما أنه غضبان على عبدة العجل، فقال له: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ وما أطاعوني في ترك عبادة العجل، وقد نهيتهم ولم يكن معي من الجمع ما أمنعهم بهم عن هذا العمل، فلا تفعل بي ما تشمت أعدائي به فهم أعداؤك فإن القوم يحملون هذا الفعل الذي تفعله بي على الإهانة لا على الإكرام.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ فاعلم أنه قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ٱبْنَ أُمِّ﴾ بكسر الميم، وفي طه مثله على تقدير (أمي) فحذف ياء الإضافة لأن مبنى النداء على الحذف وبقي الكسر على الميم ليدل على الإضافة، كقوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ والباقون بفتح الميم في السورتين، وفيه قولان: أحدهما: أنهما جعلا اسمًا واحدًا وبنى لكثرة أصطحاب هذين الحرفين فصار بمنزلة اسم واحد نحو حضرموت وخمسة عشر. وثانيهما: أنه على حذف الألف المبدلة من ياء الإضافة، وأصله يا ابن أما كما قال الشاعر:

يا ابنَةَ عَمّا لا تَلومي وَاهجَعي[(٢)]

---

(١) هذا الحديث بهذا اللفظ لم أجده إلا عند بعض أهل التفسير وبدون إسناد ولكن له أصل في السنة. إما قوله: (يرحم الله أخي موسى) قالها النبي ﷺ حينما قال له رجل: إن هذه لقسمة ما أُريدَ بها وجه الله، فقال النبي ﷺ: (يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر) أخرجه البخاري في (صحيحه) (٣/ ١٢٤٩) حديث (رقم/ ٣٢٢٤)، ومسلم في (صحيحه) (٢/ ٧٣٩/ ١٠٦٢) كلاهما من طريق أبي وائل عن عبد الله... به. وأما قوله: (ليس الخبر كالمعاينة) فقد جاء الحديث بهذا اللفظ في نفس الموضوع أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٢٧١) حديث (رقم/ ٢٤٤٧)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٥١) حديث (رقم/ ٣٢٥٠). كلاهما من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ثم ليس الخبر كالمعاينة إن الله عز وجل أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت» واللفظ لأحمد في المسند. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وصححه الألباني في (صحيح الجامع) (٥٥٠٥) وقال: صحيح.

(٢) هذا البيت للشاعر أبو النجم العجلي هو الأسعر بن الحارث بن معاوية الجعفي. شاعر جاهلي، وردت له قصيدة في كتب التراث وردت في الأصمعيات والوحشيات وحماسة البحتري، وكان قد قرضها يعرض فيها بإخوته لأبيه

وقوله: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ أي: لم يلتفتوا إلى كلامي وكادوا يقتلونني، فلا تشمت بي الأعداء يعني أصحاب العجل ولا تجعلني مع القوم الظالمين، الذين عبدوا العجل أي: لا تجعلني شريكًا لهم في عقوبتك لهم على فعلهم، فعند هذا قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي: فيما أقدمت عليه من هذا الغضب والحدة ﴿وَلِأَخِي﴾ في تركه التشديد العظيم على عبدة العجل ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

واعلم أن تمام هذه السؤالات والجوابات في هذه القصة مذكور في سورة طه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية شرح حال من عبد العجل.

واعلم أن المفعول الثاني من مفعولي الاتخاذ محذوف، والتقدير: اتخذوا العجل إلهًا ومعبودًا ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨] وللمفسرين في هذه الآية طريقان: الأول: أن المراد بالذين اتخذوا العجل هم الذين باشروا عبادة العجل، وهم الذين قال فيهم: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وعلى هذا التقدير ففيه سؤال، وهو أن أولئك الأقوام تاب الله عليهم بسبب أنهم قتلوا أنفسهم في معرض التوبة عن ذلك الذنب، وإذا تاب الله عليهم فكيف يمكن أن يقال في حقهم أنه ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟

والجواب عنه: أن ذلك الغضب إنما حصل في الدنيا لا في الآخرة، وتفسير ذلك الغضب هو أن الله تعالى أمرهم بقتل أنفسهم، والمراد بقوله: ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هو أنهم قد ضلوا فذلوا.

فإن قالوا: السين في قوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ للاستقبال، فكيف يحمل هذا على حكم الدنيا؟

قلنا: هذا الكلام حكاية عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل، فأخبره في ذلك الوقت أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، فكان هذا الكلام سابقًا على وقوعهم في القتل وفي الذلة، فصح هذا التأويل من هذا الاعتبار.

والطريق الثاني: أن المراد بالذين اتخذوا العجل أبناؤهم الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، وعلى هذا التقدير:

الذين لم يثأروا لمقتل أبيهم وقبلوا الدية من قاتليه وباعوا فرسه وأكلوا ثمنها ولما شب وقوي ساعده ثأر لأبيه واستعاد خيله ووصفها وآثرها على غيرها... وتفاخر ببطولاته على صهواتها.

ففي الآية وجهان:

الوجه الأول: أن العرب تعير الأبناء بقبائح أفعال الآباء كما تفعل ذلك في المناقب. يقولون للأبناء: فعلتم كذا وكذا، وإنما فعل ذلك من مضى من آبائهم، فكذا ههنا وصف اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ باتخاذ العجل، وإن كان آباؤهم فعلوا ذلك، ثم حكم عليهم بأنه ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ كما قال تعالى في صفتهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١].

والوجه الثاني: أن يكون التقدير ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي الذين باشروا ذلك ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ أي سينال أولادهم، ثم حذف المضاف بدلالة الكلام عليه.

أما قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ﴾ فالمعنى أن كل مفتر في دين الله فجزاؤه غضب الله والذلة في الدنيا، قال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلا ويجد فوق رأسه ذلة،(١) ثم قرأ هذه الآية، وذلك لأن المبتدع مفتر في دين الله.

أما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا﴾ فهذا يفيد أن من عمل السيئات فلا بد وأن يتوب عنها أولاً، وذلك بأن يتركها أولاً ويرجع عنها، ثم يؤمن بعد ذلك. وثانيًا: يؤمن بالله تعالى، ويصدق بأنه لا إله غيره ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه الآية تدل على أن السيئات بأسرها مشتركة في أن التوبة منها توجب الغفران، لأن قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ﴾ يتناول الكل. والتقدير: أن من أتى بجميع السيئات ثم تاب فإن الله يغفرها له، وهذا من أعظم ما يفيد البشارة والفرح للمذنبين، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين لنا ما كان منه مع الغضب بين في هذه الآية ما كان منه عند سكوت الغضب.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أقوال:

القول الأول: أن هذا الكلام خرج على قانون الاستعارة كأن الغضب كان يقويه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا وكذا، وألق الألواح وخذ برأس أخيك إليك، فلما زال الغضب، صار كأنه سكت.

---

(١) رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (٥/ ٤٤٧) من طريق السراج قال سمعت سوار بن عبد الله الغزي سمعت أبي يقول قال مالك بن أنس... فذكره.

والقول الثاني: وهو قول عكرمة، أن المعنى: سكت موسى عن الغضب وقلب كما قالوا: أدخلت القلنسوة في رأسي، والمعنى: أدخلت رأسي في القلنسوة.

القول الثالث: المراد بالسكوت السكون والزوال، وعلى هذا جاز ﴿سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ ولا يجوز صمت لأن (سكت) بمعنى سكن، وأما صمت فمعناه سد فاه عن الكلام، وذلك لا يجوز في الغضب.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أنه عليه السلام لما عرف أن أخاه هارون لم يقع منه تقصير وظهر له صحة عذره، فعند ذلك سكن غضبه. وهو الوقت الذي قال فيه: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: ١٥١] وكما دعا لأخيه منبهًا بذلك على زوال غضبه، لأن ذلك أول ما تقدم من أمارات غضبه على ما فعله من الأمرين، فجعل ضد ذينك الفعلين كالعلامة لسكون غضبه.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ المراد منه الألواح المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وظاهر هذا يدل على أن شيئًا منها لم ينكسر ولم يبطل، وأن الذي قيل من أن ستة أسباع التوراة رفعت إلى السماء ليس الأمر كذلك وقوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ النسخ عبارة عن النقل والتحويل فإذا كتبت كتابًا عن كتاب حرفًا بعد حرف. قلت: نسخت ذلك الكتاب، كأنك نقلت ما في الأصل إلى الكتاب الثاني.

قال ابن عباس: لما ألقى موسى عليه السلام الألواح تكسرت فصام أربعين يومًا، فأعاد الله تعالى الألواح وفيها عين ما في الأولى، فعلى هذا قوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي: وفيما نسخ منها. وأما إن قلنا إن الألواح لم تتكسر وأخذها موسى بأعيانها بعد ما ألقاها، ولا شك أنها كانت مكتوبة من اللوح المحفوظ فهي أيضًا تكون نسخًا على هذا التقدير وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي ﴿هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يريد الخائفين من ربهم.

فإن قيل: التقدير للذين يرهبون ربهم فما الفائدة في اللام في قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾.

قلنا فيه وجوه:

الأول: أن تأخير الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفًا فدخلت اللام للتقوية، ونظيره قوله: ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

الثاني: أنها لام الأجل والمعنى: للذين هم لأجل ربهم يرهبون لا رياء ولا سمعة.

الثالث: أنه قد يزاد حرف الجر في المفعول، وإن كان الفعل متعديًا كقولك قرأت في السورة وقرأت السورة، وألقى يده وألقى بيده، وفي القرآن ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وفي موضع آخر ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ فعلى هذا قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ اللام صلة وتأكيد كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] وقد ذكرنا مثل هذا في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: الاختيار: افتعال من لفظ الخير يقال: اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره، وأصل اختار: اختير، فلما تحركت الياء وقبلها فتحة قُلبت ألفًا نحو قال وباع، ولهذا السبب استوى لفظ الفاعل والمفعول فقيل فيهما: مختار، والأصل مختير ومختير فقلبت الياء فيهما ألفًا فاستويا في اللفظ. وتحقيق الكلام فيه أن نقول: إن الأعضاء السليمة بحسب سلامتها الأصلية صالحة للفعل والترك، وصالحة للفعل ولضده، وما دام يبقى على هذا الاستواء امتنع أن يصير مصدرًا لأحد الجانبين دون الثاني، وإلا لزم رجحان الممكن من غير مرجح، وهو محال، فإذا حكم الإنسان بأن له في الفعل نفعًا زائدًا وصلاحًا راجحًا، فقد حكم بأن ذلك الجانب خير له من ضده. فعند حصول هذا الاعتقاد في القلب يصير الفعل راجحًا على الترك، فلولا الحكم بكون ذلك الطرف خيرًا من الطرف الآخر امتنع أن يصير فاعلاً، فلما كان صدور الفعل عن الحيوان موقوفًا على حكمه بكون ذلك الفعل خيرًا من تركه، لا جرم سمى الفعل الحيواني فعلاً اختياريًا والله أعلم.

فإن قيل: إن الإنسان قد يقتل نفسه وقد يرمي نفسه من شاهق جبل مع أنه يعلم أن ذلك ليس من الخيرات بل من الشرور.

فنقول: إن الإنسان لا يقدم على قتل نفسه إلا إذا اعتقد أنه بسبب ذلك القتل يتخلص عن ضرر أعظم من ذلك القتل، والضرر الأسهل بالنسبة إلى الضرر الأعظم يكون خيرًا لا شرًا. وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل والله أعلم.

المسألة الثانية: قال جماعة النحويين: معناه واختار موسى من قومه سبعين. فحذفت كلمة (من) ووصل الفعل فنسب، يقال: اخترت من الرجال زيدًا واخترت الرجال زيدًا، وأنشدوا قول الفرزدق:

ومِنَّا الذي اختيار الرِّجالَ سَماحَةً وجُودًا إذا هَبَّ الرِّياحُ الزَّعازِعُ[1]

قال أبو علي: والأصل في هذا الباب أن من الأفعال ما يتعدى إلى المفعول الثاني بحرف

(١) هذا البيت من البحر الطويل للشاعر الفرزدق وقد تقدمت ترجمته.

واحد، ثم يتسع فيحذف حرف الجر فيتعدى الفعل إلى ألمفعول الثاني، من ذلك قولك اخترت من الرجال زيدًا ثم يتسع فيقال اخترت الرجال زيدًا وقولك أستغفر الله من ذنبي وأستغفر الله ذنبي قال الشاعر:

أستغفر الله ذنبًا لست أحصيه

ويقال أمرت زيدًا بالخير وأمرت زيدًا الخير قال الشاعر:

امرتُكَ الخَيرَ فَافعل ما أُمرتَ بِهِ(١)

والله أعلم.

وعندي فيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير: واختار موسى قومه لميقاتنا وأراد بقومه المعتبرين منهم إطلاقًا لاسم الجنس على ما هو المقصود منهم وقوله: ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ عطف بيان وعلى هذا الوجه فلا حاجة إلى ما ذكروه من التكلفات.

المسألة الثالثة: ذكروا أن موسى عليه السلام اختار من قومه اثني عشر سبطًا من كل سبط ستة، فصاروا اثنين وسبعين، فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاجروا، فقال إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع. وروى أنه لم يجد إلا ستين شيخًا، فأوحى الله إليه أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخًا فأمرهم أن يصوموا ويتطهروا، ويطهروا ثيابهم ثم خرج بهم إلى الميقات.

المسألة الرابعة: هذا الاختيار هل هو للخروج إلى الميقات الذي كلم الله تعالى موسى فيه وسأل موسى من الله الرؤية أو هو للخروج إلى موضع آخر؟ فيه أقوال للمفسرين:

القول الأول: إنه لميقات الكلام والرؤية قالوا: إنه عليه السلام خرج بهؤلاء السبعين إلى طور سيناء، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام، حتى أحاط بالجبل كله ودنا موسى عليه السلام. ودخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، فدنوا، حتى إذا دخلوا الغمام وقعوا سجدًا، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل. ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤية وقالوا ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] وهي المراد من الرجفة المذكورة في هذه الآية، فقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ فالمراد منه قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

والقول الثاني: أن المراد من هذا الميقات ميقات مغاير لميقات الكلام وطلب الرؤية، وعلى هذا القول فقد اختلفوا فيه على وجوه: أحدها: أن هؤلاء السبعين وإن كانوا ما عبدوا العجل إلا أنهم ما فارقوا عبدة العجل عند اشتغالهم بعبادة العجل. وثانيها: أنهم ما بالغوا في النهي عن عبادة العجل. وثالثها: أنهم لما خرجوا إلى الميقات ليتوبوا دعوا ربهم وقالوا أعطنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا، ولا تعطيه أحدًا بعدنا، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك الكلام فأخذتهم الرجفة. واحتج

(١) هذا البيت من البحر البسيط وهو لعمرو الزبيدي وقد تقدمت ترجمته.

القائلون بهذا القول على صحة مذهبهم بأمور: الأول: أنه تعالى ذكر قصة ميقات الكلام وطلب الرؤية ثم أتبعها بذكر قصة العجل ثم أتبعها بهذه القصة، وظاهر الحال يقتضي أن تكون هذه القصة مغايرة للقصة المتقدمة التي لا ينكر أنه يمكن أن يكون هذا عودًا إلى تتمة الكلام في القصة الأولى إلا أن الأليق بالفصاحة إتمام الكلام في القصة الواحدة في موضع واحد. ثم الانتقال منها بعد تمامها إلى غيرها، فأما ما ذكر بعض القصة، ثم الانتقال منها إلى قصة أخرى، ثم الانتقال منها بعد تمامها إلى بقية الكلام في القصة الأولى، فإنه يوجب نوعًا من الخبط والاضطراب، والأولى صون كلام الله تعالى عنه. الثاني: أن في ميقات الكلام وطلب الرؤية لم يظهر هناك منكر، إلا أنهم ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فلو كانت الرجفة المذكورة في هذه الآية إنما حصلت بسبب ذلك القول لوجب أن يقال: أتهلكنا بما يقوله السفهاء منا؟ فلما لم يقل موسى كذلك بل قال: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ علمنا أن هذه الرجفة إنما حصلت بسبب إقدامهم على عبادة العجل لا بسبب إقدامهم على طلب الرؤية. الثالث: أن الله تعالى ذكر في ميقات الكلام والرؤية أنه خر موسى صعقًا وأنه جعل الجبل دكًا، وأما الميقات المذكور في هذه الآية، فإن الله تعالى ذكر أن القوم أخذتهم الرجفة، ولم يذكر أن موسى عليه السلام أخذته الرجفة، وكيف يقال أخذته الرجفة، وهو الذي قال: لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي؟ واختصاص كل واحد من هذين الميقاتين بهذه الأحكام يفيد ظن أن أحدهما غير الآخر. واحتج القائلون بأن هذا الميقات هو ميقات الكلام وطلب الرؤية بأن قالوا: إنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]فدلت هذه الآية على أن لفظ الميقات مخصوص بذلك الميقات، فلما قال في هذه الآية: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ وجب أن يكون المراد بهذا الميقات هو عين ذلك الميقات.

وجوابه:أن هذا الدليل ضعيف، ولا شك أن الوجوه المذكورة في تقوية القول الأول أقوى. والله أعلم.

والوجه الثالث: في تفسير هذا الميقات ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: إن موسى وهارون عليهما السلام انطلقا إلى سفح جبل، فنام هارون فتوفاه الله تعالى، فلما رجع موسى عليه السلام قالوا إنه هو الذي قتل هارون، فاختار موسى قومه سبعين رجلًا وذهبوا إلى هارون فأحياه الله تعالى وقال ما قتلني أحد، فأخذتهم الرجفة هنالك، فهذا جملة ما قيل في هذا الباب. والله أعلم.

المسألة الخامسة: اختلفوا في تلك الرجفة فقيل: إنها رجفة أوجبت الموت. قال السدي: قال موسى: يا رب كيف أرجع إلى بني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم ولم يبق معي منهم واحد؟ فماذا أقول لبني إسرائيل وكيف يأمنوني على أحد منهم بعد ذلك؟ فأحياهم الله تعالى. فمعنى قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ أن موسى عليه السلام خاف أن يتهمه بنو إسرائيل على

السبعين إذا عاد إليهم ولم يصدقوا أنهم ماتوا، فقال لربه: لو شئت أهلكتنا قبل خروجنا للميقات، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني.

والقول الثاني: أن تلك الرجفة ما كانت موتًا، ولكن القوم لما رأوا تلك الحالة المهيبة أخذتهم الرعدة ورجفوا حتى كادت تبين منهم مفاصلهم، وتنقصم ظهورهم، وخاف موسى عليه السلام الموت، فعند ذلك بكى ودعا فكشف الله عنهم تلك الرجفة.

أما قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ فقال أهل العلم: إنه لا يجوز أن يظن موسى عليه السلام أن الله تعالى يهلك قومًا بذنوب غيرهم، فيجب تأويل الآية، وفيه بحثان: الأول: أنه استفهام بمعنى الجحد، وأراد أنك لا تفعل ذلك. كما تقول: أتهين من يخدمك؟ أي لا تفعل ذلك. الثاني: قال المبرد: هو استفهام استعطاف، أي لا تهلكنا.

وأما قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ فقال الواحدي رحمه الله: الكناية في قوله: ﴿هِيَ﴾ عائدة إلى الفتنة كما تقول: إن هو إلا زيد وإن هي إلا هند. والمعنى: أن تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنتك أضللت بها قومًا فافتتنوا، وعصمت قومًا عنها فثبتوا على الحق، ثم أكد بيان أن الكل من الله تعالى، فقال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ ثم قال الواحدي: وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر. قالت المعتزلة: لا تعلق للجبرية بهذه الآية لأنه تعالى لم يقل: تضل بها من تشاء من عبادك عن الدين، ولأنه تعالى قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: بالرجفة، ومعلوم أن الرجفة لا يضل الله بها، فوجب حمل هذه الآية على التأويل. فأما قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ فالمعنى: امتحانك وشدة تعبدك، لأنه لما أظهر الرجفة كلفهم بالصبر عليها.

وأما قوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ ففيه وجوه: الأول: تهدي بهذا الامتحان إلى الجنة والثواب بشرط أن يؤمن ذلك المكلف ويبقى على الإيمان، وتعاقب من تشاء بشرط أن لا يؤمن، أو إن آمن لكن لا يصبر عليه. والثاني: أن يكون المراد بالإضلال الإهلاك، والتقدير: تهلك من تشاء بهذه الرجفة وتصرفها عمن تشاء. والثالث: أنه لما كان هذا الامتحان كالسبب في هداية من اهتدى، وضلال من ضل، جاز أن يضافا إليه.

واعلم أن هذه التأويلات متسعة، والدلائل العقلية دالة على أنه يجب أن يكون المراد ما ذكرناه، وتقريرها من وجوه: الأول: أن القدرة الصالحة للإيمان والكفر لا يترجح تأثيرها في أحد الطرفين على تأثيرها في الطرف الآخر، إلا لأجل داعية مرجحة، وخالق تلك الداعية هو الله تعالى، وعند حصول تلك الداعية يجب الفعل وإذا ثبتت هذه المقدمات ثبت أن الهداية من الله تعالى وأن الإضلال من الله تعالى. الثاني: أن أحدًا من العقلاء لا يريد إلا الإيمان والحق والصدق، فلو كان الأمر باختياره وقصده لوجب أن يكون كل واحد مؤمنًا محقًّا، وحيث لم يكن الأمر كذلك ثبت أن الكل من الله تعالى. الثالث: أنه لو كان حصول الهداية والمعرفة

بفعل العبد فما لم يتميز عنده الاعتقاد الحق عن الاعتقاد الباطل، امتنع أن يخص أحد الاعتقادين بالتحصيل والتكوين، لكن علمه بأن هذا الاعتقاد هو الحق وأن الآخر هو الباطل، يقتضي كونه عالمًا بذلك المعتقد أولاً كما هو عليه، فيلزم أن تكون القدرة على تحصيل الاعتقاد مشروطة بكون ذلك الاعتقاد الحق حاصلاً، وذلك يقتضي كون الشيء مشروطًا بنفسه وأنه محال، فثبت أنه يمتنع أن يكون حصول الهداية والعلم بتخليق العبد، وأما الكلام في إبطال تلك التأويلات فقد سبق ذكره في هذا الكتاب غير مرة والله أعلم.

ثم حكى تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال بعد ذلك: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ واعلم أن قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ يفيد الحصر، ومعناه: أنه لا ولي لنا ولا ناصر ولا هادي إلا أنت، وهذا من تمام ما سبق ذكره من قوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ وقوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ المراد منه أن إقدامه على قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ جراءة عظيمة، فطلب من الله غفرانها والتجاوز عنها وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ معناه: أن كل من سواك فإنما يتجاوز عن الذنب إما طلبًا للثناء الجميل أو للثواب الجزيل، أو دفعًا للربقة الخسيسة عن القلب، وبالجملة فذلك الغفران يكون لطلب نفع أو لدفع ضرر، أما أنت فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوض وغرض، بل لمحض الفضل والكرم، فوجب القطع بكونه ﴿خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

اعلم أن هذا من بقية دعاء موسى ﷺ عند مشاهدة الرجفة. فقوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ معناه أنه قرر أولاً أنه لا ولي له إلا الله تعالى وهو قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ثم إن المتوقع من الولي والناصر أمران: أحدهما: دفع الضرر. والثاني: تحصيل النفع، ودفع الضرر مقدم على تحصيل النفع، فلهذا السبب بدأ بطلب دفع الضرر، وهو قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ ثم أتبعه بطلب تحصيل النفع وهو قوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وقوله: ﴿وَاكْتُبْ﴾ أي: وجب لنا والكتابة تذكر بمعنى الإيجاب وسؤاله الحسنة في الدنيا والآخرة كسؤال المؤمنين من هذه الأمة حيث أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

واعلم أن كونه تعالى وليًا للعبد يناسب أن يطلب العبد منه دفع المضار وتحصيل المنافع ليظهر آثار كرمه وفضله وإلهيته، وأيضًا اشتغال العبد بالتوبة والخضوع والخشوع يناسب طلب هذه الأشياء، فذكر السبب الأول أولاً، وهو كونه تعالى وليًا له وفرع عليه طلب هذه الأشياء، ثم ذكر بعده السبب الثاني، وهو اشتغال العبد بالتوبة والخضوع فقال: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ قال

المفسرون: ﴿هُدْنَآ﴾ أي: تبنا ورجعنا إليك، قال الليث: (الهود) التوبة، وإنما ذكر هذا السبب أيضًا لأن السبب الذي يقتضي حسن طلب هذه الأشياء ليس إلا مجموع هذين الأمرين كونه إلهًا وربًّا ووليًّا، وكوننا عبيدًا له تائبين خاضعين خاشعين، فالأول: عهد عزة الربوبية. والثاني: عهد ذلة العبودية، فإذا حصلا واجتمعا فلا سبب أقوى منهما. ولما حكى الله تعالى دعاء موسى عليه السلام ذكر بعده ما كان جوابًا لموسى عليه السلام، فقال تعالى قال: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ معناه إني أعذب من أشاء وليس لأحد علي اعتراض لأن الكل ملكي، ومن تصرف في خالص ملكه فليس لأحد أن يعترض عليه، وقرأ الحسن (من أساء) من الإساءة، واختار الشافعي هذه القراءة وقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فيه أقوال كثيرة. قيل المراد من قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ هو أن رحمته في الدنيا عمت الكل، وأما في الآخرة فهي مختصة بالمؤمنين وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وقيل: الوجود خير من العدم، وعلى هذا التقدير فلا موجود إلا وقد وصل إليه رحمته وأقل المراتب وجوده، وقيل الخير مطلوب بالذات، والشر مطلوب بالعرض وما بالذات راجح غالب، وما بالعرض مرجوح مغلوب، وقال المعتزلة: الرحمة عبارة عن إرادة الخير، ولا حي إلا وقد خلقه الله تعالى للرحمة واللذة والخير لأنه إن كان منتفعًا أو متمكنًا من الانتفاع فهو برحمة الله من جهات كثيرة وإن حصل هناك ألم فله الأعواض الكثيرة، وهي من نعمة الله تعالى ورحمته فلهذا السبب قال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وقال أصحابنا قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من العام الذي أريد به الخاص، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

أما قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فاعلم أن جميع تكاليف الله محصورة في نوعين: الأول: التروك، وهي الأشياء التي يجب على الإنسان تركها، والاحتراز عنها والاتقاء منها، وهذا النوع إليه الإشارة بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ والثاني: الأفعال وتلك التكاليف إما أن تكون متوجهة على مال الإنسان أو على نفسه.

أما القسم الأول: فهو الزكاة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وأما القسم الثاني: فيدخل فيه ما يجب على الإنسان علمًا وعملاً أما العلم فالمعرفة، وأما العمل فالإقرار باللسان والعمل بالأركان ويدخل فيها الصلاة وإلى هذا المجموع الإشارة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ونظيره قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٢-٣].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ

﴿لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن من صفة من تكتب له الرحمة في الدنيا والآخرة التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بالآيات، ضم إلى ذلك أن يكون من صفته اتباع ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ واختلفوا في ذلك فقال بعضهم: المراد بذلك أن يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة، إذ لا يجوز أن يتبعوه في شرائعه قبل أن يبعث إلى الخلق، وقال في قوله: ﴿وَٱلْإِنجِيلِ﴾ أن المراد سيجدونه مكتوبًا في الإنجيل، لأن من المحال أن يجدوه فيه قبل ما أنزل الله الإنجيل، وقال بعضهم: بل المراد من لحق من بني إسرائيل أيام الرسول فبيّن تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم رحمة الآخرة إلا إذا اتبعوا الرسول النبي الأمي. والقول الثاني أقرب، لأن اتباعه قبل أن بعث ووجد لا يمكن. فكأنه تعالى بيّن بهذه الآية أن هذه الرحمة لا يفوز بها من بني إسرائيل إلا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بالدلائل في زمن موسى، ومن هذه صفته في أيام الرسول إذا كان مع ذلك متبعًا للنبي الأمي في شرائعه.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى وصف محمدًا ﷺ في هذه الآية بصفات تسع.

الصفة الأولى: كونه رسولاً، وقد اختص هذا اللفظ بحسب العرف بمن أرسله الله إلى الخلق لتبليغ التكاليف.

الصفة الثانية: كونه نبيًا، وهو يدل على كونه رفيع القدر عند الله تعالى.

الصفة الثالثة: كونه أميًا. قال الزجاج: معنى ﴿ٱلْأُمِّىَّ﴾ الذي هو على صفة أمة العرب. قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ»(١) فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرءون والنبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه أميًا. قال أهل التحقيق وكونه أميًا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه: الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظومًا مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد وأن يزيد فيها وأن ينقص عنها بالقليل والكثير، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير. فكان ذلك من المعجزات وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[الأعلى: ٦]، والثاني: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهمًا في أنه ربما طالع كتب

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الصوم) باب (قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحتسب) (٤/ ١٥١) حديث رقم/ ١٩١٣ من طريق شعبة. ومسلم في كتاب (الصيام) باب (وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال) (٢/ ١٥/ ٧٦١) من طريق شعبة. كلاهما (شعبة، سفيان) عن الأسود. . . به.

الأولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة، كان ذلك من المعجزات وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، الثالث: أن تعلم الخط شيء سهل فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم، ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر، ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهمًا، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريًا مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجار مجرى المعجزات.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل، لأن ذلك لو لم يكن مكتوبًا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفِّرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول قوله، فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكورًا في التوراة والإنجيل وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال الزجاج: يجوز أن يكون قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ استئنافًا، ويجوز أن يكون المعنى ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وأقول مجامع الأمر بالمعروف محصورة في قوله عليه الصلاة والسلام: «التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ»(١) وذلك لأن الموجود إما واجب الوجود لذاته وإما ممكن الوجود لذاته. أما الواجب لذاته فهو الله جل جلاله، ولا معروف أشرف من تعظيمه وإظهار عبوديته وإظهار الخضوع والخشوع على باب عزته والاعتراف بكونه موصوفًا بصفات الكمال مبرأ عن النقائص والآفات منزهًا عن الأضداد والأنداد، وأما الممكن لذاته فإن لم يكن حيوانًا، فلا سبيل إلى إيصال الخير إليه لأن الانتفاع مشروط بالحياة، ومع هذا فإنه يجب النظر إلى كلها بعين التعظيم من حيث أنها مخلوقة لله تعالى، ومن حيث أن كل ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلاً قاهرًا وبرهانًا باهرًا على توحيده وتنزيهه فإنه يجب النظر إليه بعين الاحترام. ومن حيث إن الله تعالى في كل ذرة من ذرات المخلوقات أسرارًا عجيبة وحكمًا خفية فيجب النظر إليها بعين الاحترام، وأما إن كان ذلك المخلوق من جنس الحيوان فإنه يجب إظهار الشفقة عليه بأقصى ما يقدر الإنسان عليه، ويدخل فيه بر الوالدين وصلة الأرحام وبث المعروف فثبت أن

---

(١) لم أجده.

قوله عليه الصلاة والسلام: «التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ» كلمة جامعة لجميع جهات الأمر بالمعروف.

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ والمراد منه أضداد الأمور المذكورة وهي عبادة الأوثان، والقول في صفات الله بغير علم، والكفر بما أنزل الله على النبيين، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين.

الصفة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الناس من قال: المراد بالطيبات الأشياء التي حكم الله بحلها وهذا بعيد لوجهين: الأول: أن على هذا التقدير تصير الآية ويحل لهم المحللات وهذ محض التكرير. الثاني: أن على هذا التقدير تخرج الآية عن الفائدة، لأنا لا ندري أن الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي؟ بل الواجب أن يكون المراد من الطيبات الأشياء المستطابة بحسب الطبع وذلك لأن تناولها يفيد اللذة، والأصل في المنافع الحل فكانت هذه الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل إلا لدليل منفصل.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ قال عطاء عن ابن عباس، يريد الميتة والدم وما ذكر في سورة المائدة إلى قوله: ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣] وأقول: كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس كان تناوله سببًا للألم، والأصل في المضار الحرمة، فكان مقتضاه أن كل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه الحرمة إلا لدليل منفصل. وعلى هذا الأصل: فرع الشافعي رحمه الله تحريم بيع الكلب، لأنه روى عن ابن عباس عن النبي ﷺ في كتاب الصحيحين أنه قال: «الكَلْبُ خَبِيثٌ، وخَبِيثٌ ثَمَنُهُ»(١) وإذا ثبت أن ثمنه خبيث وجب أن يكون حرامًا لقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، وأيضًا الخمر محرمة لأنها رجس بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿رِجْسٌ﴾ [المائدة: ٩٠] والرجس خبيث بدليل إطباق أهل اللغة عليه، والخبيث حرام لقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

الصفة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر وحده (آصارهم) على الجمع، والباقون ﴿إِصْرَهُمْ﴾ على الواحد. قال أبو علي الفارسي: الإصر: مصدر يقع على الكثرة مع إفراد لفظه يدل على ذلك

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (المساقاة) باب (تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن) (٣/ ٤١/ ١١٩٩) من طريق الأوزاعي... به. وأبو داود في كتاب (البيوع) باب (في كسب الحجام) (٣/ ٢٦٣) حديث (رقم/ ٣٤٢١) من طريق أبان... به. والترمذي في كتاب (البيوع) باب (ما جاء في ثمن الكلب) (٣/ ٥٧٤) حديث (رقم/ ١٢٧٥) من طريق معمر... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد في (مسنده) (٣/ ٤٦٤)، والدارمي في كتاب (البيوع) باب (في النهي عن كسب الحجام) (٢/ ١٤٦) حديث (رقم/ ٢٦٢١) جميعًا عن يحيى... به. بلفظ: (ثمن الكلب خبيث ومهر البغي خبيث وكسب الحجام خبيث) اللفظ لمسلم.

إضافته، وهو مفرد إلى الكثرة، كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠] ومن جمع، أراد ضروبًا من العهود مختلفة، والمصادر قد تجمع إذا اختلفت ضروبها كما في قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

المسألة الثانية: الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه، أي: يحبسه من الحراك لثقله، والمراد منه: أن شريعة موسى عليه السلام كانت شديدة. وقوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ المراد منه: الشدائد التي كانت في عباداتهم كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم وجعلها الله أغلالاً، لأن التحريم يمنع من الفعل، كما أن الغل يمنع عن الفعل، وقيل: كانت بنو إسرائيل إذا قامت إلى الصلاة لبسوا المسوح، وغلوا أيديهم إلى أعناقهم تواضعًا لله تعالى، فعلى هذا القول الأغلال غير مستعارة.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار أن لا تكون مشروعة، لأن كل ما كان ضررًا كان إصرًا وغلاًّ، وظاهر هذا النص يقتضي عدم المشروعية، وهذا نظير لقوله عليه الصلاة والسلام: «**لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ فِي الإِسْلاَمِ**»(١)، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**بُعِثْتُ بالحنيفيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ**»(٢) وهو أصل كبير في الشريعة.

واعلم أنه لما وصف محمدًا عليه الصلاة والسلام بهذه الصفات التسع. قال بعده: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ قال ابن عباس: يعني من اليهود ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ يعني: وقروه. قال صاحب (الكشاف): أصل التعزير المنع ومنه التعزير وهو الضرب دون الحد، لأنه منع من معاودة القبيح.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦٦) حديث (رقم/ ٢٣٤٥) من طريق عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه... به. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه. وابن ماجه في (سننه) (٢/ ٧٨٤) حديث (رقم/ ٢٣٤٠) من طريق موسى بن عقبة حدثنا إسحاق بن يحيى بن الوليد عن عبادة بن الصامت... به. وأحمد في (مسنده) (١/ ٣١٣) حديث (رقم/ ٢٨٦٧) من طريق معمر عن جابر عن عكرمة عن ابن عباس... به. وأيضا في (٥/ ٣٢٦) حديث (رقم/ ٢٢٨٣٠) من طريق موسى بن عقبة عن إسحاق بن يحيى بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن عبادة بن الصامت... به. والشيباني في (الآحاد والمثاني) (٤/ ٢١٥) حديث (رقم/ ٢٢٠٠) من طريق صفوان بن سليم عن ثعلبة بن أبي مالك رضي الله عنه... به. والبيهقي في (سننه الكبرى) (٦/ ٦٩) حديث (رقم/ ١١١٦٦)، والدارقطني في (سننه) (٣/ ٧٧) حديث (رقم/ ٢٨٨) كلاهما من طريق عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن عمرو بن يحي المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري... به. وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢٥٠) وصححه.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ٢٦٦) حديث (رقم/ ٢٢٣٤٥) من طريق علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة... به. والروياني في (مسنده) (٢/ ٣١٧) حديث (رقم/ ١٢٧٩). والطبراني في (الكبير) (٨/ ١٧٠) حديث (رقم/ ٧٧١٥) كلاهما من طريق عفير بن معدان أخبرنا سليم بن عامر عن أبي أمامة... به. وأيضا في (٨/ ٢١٦) حديث (رقم/ ٧٨٦٨) من طريق علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة... به. والخطيب في (تاريخ بغداد) (٧/ ٢٠٩) من طريق سفيان بن عيينة عن أبي الزبير عن جابر... به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٤/ ٣٠٢): وقال: رواه الطبراني وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف وكذلك في (٥/ ٢٧٩) وقال: رواه أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي: على عدوه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن. وقيل: الهدى والبيان والرسالة. وقيل الحق الذي بيانه في القلوب كبيان النور.

فإن قيل: كيف يمكن حمل النور ههنا على القرآن؟ والقرآن ما أنزل مع محمد، وإنما أنزل مع جبريل.

قلنا: معناه إنه أنزل مع نبوته لأن نبوته ظهرت مع ظهور القرآن.

ثم أنه تعالى لما ذكر هذه الصفات قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ثم بيّن تعالى أن من شرط حصول الرحمة لأولئك المتقين، كونهم متبعين للرسول النبي الأمي، حقق في هذه الآية رسالته إلى الخلق بالكلية. فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

وفي هذه الكلمة مسألتان:

المسألة الأولى: هذه الآية تدل على أن محمدًا عليه الصلاة والسلام مبعوث إلى جميع الخلق. وقال طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية وهم أتباع عيسى الأصفهاني: أن محمدًا رسول صادق مبعوث إلى العرب. وغير مبعوث إلى بني إسرائيل. ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآية. لأن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب يتناول كل الناس.

ثم قال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وهذا يقتضي كونه مبعوثًا إلى جميع الناس، وأيضًا فما يعلم بالتواتر من دينه، أنه كان يدعي أنه مبعوث إلى كل العالمين. فأما أن يقال: إنه كان رسولاً حقًا أو ما كان كذلك، فإن كان رسولاً حقًا، امتنع الكذب عليه. ووجب الجزم بكونه صادقًا في كل ما يدعيه، فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدعي كونه مبعوثًا إلى جميع الخلق، وجب كونه صادقًا في هذا القول، وذلك يبطل قول من يقول: إنه كان مبعوثًا إلى العرب فقط، لا إلى بني إسرائيل.

وأما قول القائل: إنه ما كان رسولاً حقًا، فهذا يقتضي القدح في كونه رسولاً إلى العرب وإلى غيرهم، فثبت أن القول بأنه رسول إلى بعض الخلق دون بعض كلام باطل متناقض.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ من الناس من قال إنه عام دخله التخصيص، ومنهم من أنكر ذلك، أما الأولون فقالوا: إنه دخله التخصيص من وجهين: الأول: أنه رسول إلى الناس إذا كانوا من جملة المكلفين، فأما إذا لم يكونوا من جملة

المكلفين لم يكن رسولاً إليهم، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ»(١)، والثاني: أنه رسول الله إلى كل من وصل إليه خبر وجوده وخبر معجزاته وشرائعه، حتى يمكنه عند ذلك متابعته، أما لو قدرنا حصول قوم في طرف من أطراف العالم لم يبلغهم خبر وجوده ولا خبر معجزاته، فهم لا يكونون مكلفين بالإقرار بنبوته ومن الناس من أنكر القول بدخول التخصيص في الآية من هذين الوجهين:

أما الأول: فتقريره أن قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب وهذا الخطاب لا يتناول إلا المكلفين وإذا كان كذلك فالناس الذين دخلوا تحت قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ليسوا إلا المكلفين من الناس، وعلى هذا التقدير فلم يلزم أن يقال: إن قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عام دخله التخصيص.

وأما الثاني: فلأنه يبعد جدًا أن يقال: حصل في طرف من أطراف الأرض قوم لم يبلغهم خبر ظهور محمد عليه الصلاة والسلام، وخبر معجزاته وشرائعه، وإذا كان ذلك كالمستبعد لم يكن بنا حاجة إلى التزام هذا التخصيص.

المسألة الثانية: هذه الآية وإن دلت على أن محمدًا عليه الصلاة والسلام مبعوث إلى كل الخلق فليس فيها دلالة على أن غيره من الأنبياء عليهم السلام ما كان مبعوثًا إلى كل الخلق، بل يجب الرجوع في أنه هل كان في غيره من الأنبياء من كان مبعوثًا إلى كل الخلق أم لا؟ إلى سائر الدلائل. فنقول: تمسك جمع من العلماء في أن أحدًا غيره ما كان مبعوثًا إلى كل الخلق لقوله عليه الصلاة والسلام: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: أرسلت إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَد، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَنُصِرْتُ على عَدوي بِالرُّعبِ يرعب مني مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وأُطعِمت الغَنِيمَة دُونَ مَنْ قَبْلِي. وَقِيلَ لِي: سَلْ تُعْطَهُ فَاخْتَبَأْتُهَا شَفَاعَة لِأُمَّتِي»(٢).

ولقائل أن يقول: هذا الخبر لا يتناول دلالته على إثبات هذا المطلوب، لأنه لا يبعد أن يكون المراد مجموع هذه الخمسة من خواص رسول الله ﷺ، ولم يحصل لأحد سواه ولم يلزم من

---

(١) **صحيح:** أخرجه أبو داود كتاب (الحدود) باب (في المجنون يسرق أو يصيب حدًا) (٤/ ١٣٧) حديث (رقم/ ١٣٩٨) من طريق يزيد بن هارون... به. والنسائي في كتاب (الطلاق) باب (من لا يقع طلاقه من الأزواج) (٦/ ٤٦٨) حديث (رقم/ ٣٤٣٢) من طريق عبد الرحمن بن مهدي... به. وابن ماجه في كتاب (الطلاق) باب (طلاق المعتوه والصغير والنائم) (١/ ٦٥٨) حديث (رقم/ ٢٠٤١) من طريق عبد الرحمن بن مهدي... به. وأحمد في (مسنده) (٦/ ١٠٠) من طريق عفان... به. والدارمي في كتاب (الحدود) باب (رُفع القلم عن ثلاث) (٢/ ١٩) حديث (رقم/ ٢٢٩٦)، جميعًا عن حماد بن سلمة... به.

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (التيمم) أول باب فيه (١/ ٥١٩) حديث رقم/ ٣٣٥ قال: حدثنا محمد بن سنان وسعيد بن النضر. ومسلم في كتاب (المساجد) أول باب فيه (١/ ٣/ ٣٧٠/ ٣٧١) قال: حدثنا يحيى بن حيي وأبو بكر بن أبي شيبة... به. جميعا (محمد بن سنان، يحيى، ابن أبي شيبة، ويحيى بن حسان) عن هشيم... به.

كون هذا المجموع من خواصه كون واحد من آحاد هذا المجموع من خواصه، وأيضًا قيل إن آدم عليه السلام كان مبعوثًا إلى جميع أولاده، وعلى هذا التقدير فقد كان مبعوثًا إلى جميع الناس، وأن نوحًا عليه السلام لما خرج من السفينة، كان مبعوثًا إلى الذين كانوا معه، مع أن جميع الناس في ذلك الزمان ما كان إلا ذلك القوم.

اما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فاعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بأن يقول للناس كلهم إني رسول الله إليكم أردفه بذكر ما يدل على صحة هذه الدعوى.

واعلم أن هذه الدعوى لا تتم ولا تظهر فائدتها إلا بتقرير أصول أربعة.

الأصل الأول: إثبات أن للعالم إلهًا حيًّا عالمًا قادرًا. والذي يدل عليه ما ذكره في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وذلك لأن أجسام السموات والأرض، تدل على افتقارها إلى الصانع الحي العالم القادر، من جهات كثيرة مذكورة في القرآن العظيم، وشرحها وتقريرها مذكور في هذا التفسير، وإنما افتقرنا في حسن التكليف وبعثة الرسل إلى إثبات هذا الأصل، لأن بتقدير أن لا يحصل للعالم مؤثر يؤثر في وجوده، أو إن حصل له مؤثر، لكن كان ذلك المؤثر موجبًا بالذات لا فاعلاً بالاختيار لم يكن القول ببعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام ممكنًا.

والأصل الثاني: إثبات أن إله العالم واحد منزه عن الشريك والضد والند، وإليه الإشارة بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وإنما افتقرنا في حسن التكليف وجواز بعثة الرسل إلى تقرير هذا الأصل، لأن بتقدير أن يكون للعالم إلهان، وأرسل أحد الإلهين نبيًّا إلى الخلق فلعل هذا الإنسان الذي يدعوه الرسول إلى عبادة هذا الإله ما كان مخلوقًا له، بل كان مخلوقًا للإله الثاني، وعلى هذا التقدير فإنه يجب على هذا الإنسان عبادة هذا الإله وطاعته، فكان بعثة الرسول إليه، وإيجاب الطاعة عليه ظلمًا وباطلاً. أما إذا ثبت أن الإله واحد، فحينئذ يكون جميع الخلق عبيدًا له، ويكون تكليفه في الكل نافذًا وانقياد الكل لأوامره ونواهيه لازمًا، فثبت أن ما لم يثبت كون الإله تعالى واحدًا لم يكن إرسال الرسل وإنزال الكتب المشتملة على التكاليف جائزًا.

والأصل الثالث: إثبات أنه تعالى قادر على الحشر والنشر والبعث والقيامة، لأن بتقدير أن لا يثبت ذلك، كان الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية عبثًا ولغوًا، وإلى تقدير هذا الأصل الإشارة بقوله: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ لأنه لما أحيا أولاً، ثبت كونه قادرًا على الإحياء ثانيًا، فيكون قادرًا على الإعادة والحشر والنشر، وعلى هذا التقدير يكون الإحياء الأول إنعامًا عظيمًا، فلا يبعد منه تعالى أن يطالبه بالعبودية، ليكون قيامه بتلك الطاعة قائمًا مقام الشكر عن الإحياء الأول، وأيضًا لما دل الإحياء الأول على قدرته على الإحياء الثاني، فحينئذ يكون قادرًا على إيصال الجزاء إليه.

واعلم أنه لما ثبت القول بصحة هذه الأصول الثلاثة. ثبت أنه يصح من الله تعالى إرسال

الرسل ومطالبة الخلق بالتكاليف، لأن على هذا التقدير الخلق كلهم عبيده ولا مولى لهم سواه، وأيضًا إنه منعم على الكل بأعظم النعم، وأيضًا إنه قادر على إيصال الجزاء إليهم بعد موتهم، وكل واحد من هذه الأسباب الثلاثة سبب تام، في أنه يحسن منه تكليف الخلق، أما بحسب السبب الأول، فإنه يحسن من المولى مطالبة عبده بطاعته وخدمته، وأما بحسب السبب الثاني فلأنه يحسن من المنعم مطالبة المنعم عليه بالشكر والطاعة، وأما بحسب السبب الثالث فلأنه يحسن من القادر على إيصال الجزاء التام إلى المكلف أن يكلفه بنوع من أنواع الطاعة، فظهر أنه لما ثبتت الأصول الثلاثة بالدلائل التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، فإنه يلزم الجزم بأنه يحسن من الله إرسال الرسل، ويجوز منه تعالى أن يخصهم بأنواع التكاليف، فثبت أن الآيات المذكورة دالة على أن للعالم إلهًا حيًا عالمًا قادرًا، وعلى أن هذا الإله واحد، وعلى أنه يحسن منه إرسال الرسل وإنزال الكتب.

واعلم أنه تعالى لما أثبت هذه الأصول المذكورة بهذه الدلائل المذكورة في هذه الآية ذكر بعده قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهذا الترتيب في غاية الحسن، وذلك لأنه لما بين أولاً أن القول ببعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام أمر جائز ممكن، أردفه بذكر أن محمدًا رسول حق من عند الله لأن من حاول إثبات مطلوب وجب عليه أن يبين جوازه أولاً، ثم حصوله ثانيًا، ثم إنه بدأ بقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ لأنا بينا أن الإيمان بالله أصل، والإيمان بالنبوة والرسالة فرع عليه، والأصل يجب تقديمه. فلهذا السبب بدأ بقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾.

واعلم أن هذا إشارة إلى ذكر المعجزات الدالة على كونه نبيًا حقًا، وتقريره: أن معجزات رسول الله ﷺ كانت على نوعين:

النوع الأول: المعجزات التي ظهرت في ذاته المباركة، وأجلها وأشرفها أنه كان رجلاً أميًا لم يتعلم من أستاذ، ولم يطالع كتابًا، ولم يتفق له مجالسة أحد من العلماء، لأنه ما كانت مكة بلدة العلماء، وما غاب رسول الله عن مكة غيبة طويلة يمكن أن يقال إن في مدة تلك الغيبة تعلم العلوم الكثيرة، ثم إنه مع ذلك فتح الله عليه باب العلم والتحقيق وأظهر عليه هذا القرآن المشتمل على علوم الأولين والآخرين، فكان ظهور هذه العلوم العظيمة عليه، مع أنه كان رجلاً أميًا لم يلق أستاذًا ولم يطالع كتابًا من أعظم المعجزات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾.

والنوع الثاني: من معجزاته الأمور التي ظهرت من مخارج ذاته مثل انشقاق القمر، ونبوع الماء من بين أصابعه. وهي تسمى بكلمات الله تعالى، ألا ترى أن عيسى عليه السلام، لما كان حدوثه أمرًا غريبًا مخالفًا للمعتاد، لا جرم سماه الله تعالى كلمة. فكذلك المعجزات لما كانت أمورًا غريبة خارقة للعادة لم يبعد تسميتها بكلمات الله تعالى، وهذا النوع هو المراد بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أي يؤمن بالله وبجميع المعجزات التي أظهرها الله عليه، فبهذا الطريق

أقام الدليل على كونه نبيًا صادقًا من عند الله .

واعلم أنه لما ثبت بالدلائل القاهرة التي قررناها بنبوة محمد ﷺ، وجب أن يذكر عقيبه الطريق الذي به يمكن معرفة شرعه على التفصيل، وما ذاك إلا بالرجوع إلى أقواله وأفعاله وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ .

واعلم أن المتابعة تتناول المتابعة في القول وفي الفعل. أما المتابعة في القول فهو أن يمتثل المكلف كل ما يقوله في طرفي الأمر والنهي والترغيب والترهيب. وأما المتابعة في الفعل فهي عبارة عن الإتيان بمثل ما أتى المتبوع به سواء كان في طرف الفعل أو في طرف الترك، فثبت أن لفظ ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ يتناول القسمين. وثبت أن ظاهر الأمر للوجوب فكان قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ دليلاً على أنه يجب الانقياد له في كل أمر ونهي، ويجب الاقتداء به في كل ما فعله إلا ما خصه الدليل، وهو الأشياء التي ثبت بالدليل المنفصل أنها من خواص الرسول ﷺ.

فإن قيل: الشيء الذي أتي به الرسول يحتمل أنه أتى به على سبيل أن ذلك كان واجبًا عليه، ويحتمل أيضًا أنه أتى به على سبيل أن ذلك كان مندوبًا، فبتقدير أنه أتى به على سبيل أن ذلك كان مندوبًا، فلو أتينا به على سبيل أنه واجب علينا، كان ذلك تركًا لمتابعته، ونقضًا لمبايعته. والآية تدل على وجوب متابعته، فثبت أن إقدام الرسول على ذلك الفعل لا يدل على وجوبه علينا.

قلنا: المتابعة في الفعل عبارة عن الإتيان بمثل الفعل الذي أتى به المتبوع، بدليل أن من أتى بفعل ثم إن غيره وافقه في ذلك الفعل، قيل: إنه تابعه عليه. ولو لم يأت به. قيل: إنه خالفه فيه. فلما كان الإتيان بمثل فعل المتبوع متابعة، ودلت الآية على وجوب المتابعة لزم أن يجب على الأمة مثل فعل الرسول ﷺ. بقي ههنا أنا لا نعرف أنه عليه السلام أتى بذلك على قصد الوجوب أو على قصد الندب. فنقول: حال الدواعي والعزائم غير معلوم، وحال الإتيان بالفعل الظاهر والعمل المحسوس معلوم، فوجب أن لا يلتفت إلى البحث عن حال العزائم والدواعي، لكونها أمورًا مخفية عنا، وأن نحكم بوجوب المتابعة في العمل الظاهر. لكونها من الأمور التي يمكن رعايتها، فزالت هذه الشبهة، وتقريره: أن هذه الآية دالة على أن الأصل في كل فعل فعله الرسول أن يجب علينا لإتيان بمثله إلا إذا خصه الدليل.

إذا عرفت هذا فنقول: إنا إذا أردنا أن نحكم بوجوب عمل من الأعمال، قلنا: إن هذا العمل فعله أفضل من تركه، وإذا كان الأمر كذلك: فحينئذ نعلم أن الرسول قد أتى به في الجملة، لأن العلم الضروري حاصل بأن الرسول لا يجوز أن يواظب طول عمره على ترك الأفضل، فعلمنا أنه عليه السلام قد أتى بهذا الطريق الأفضل. وأما أنه هل أتى بالطرف الأحسن فهو مشكوك، والمشكوك لا يعارض المعلوم، فثبت أنه عليه السلام أتى بالجانب الأفضل. ومتى ثبت ذلك وجب أن يجب علينا ذلك لقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ فهذا أصل شريف، وقانون كلي

في معرفة الأحكام، دال على النصوص لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] فوجب علينا مثله لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾.

وأما قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

ففيه بحثان:

أحدهما: أن كلمة (لعل) للترجي، وذلك لا يليق بالله، فلا بد من تأويله.

والثاني: أن ظاهره يقتضي أنه تعالى أراد من كل المكلفين الهداية والإيمان على قول المعتزلة، والكلام في تقرير هذين المقامين قد سبق في هذا الكتاب مرارًا كثيرة، فلا فائدة في الإعادة.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩﴾

واعلم أنه تعالى لما وصف الرسول، وذكر أنه يجب على الخلق متابعته، ذكر أن من قوم موسى عليه السلام من اتبع الحق وهدى إليه، وبيّن أنهم جماعة، لأن لفظ الأمة ينبئ عن الكثرة، واختلفوا في أن هذه الأمة متى حصلت، وفي أي زمان كانت؟ فقيل: هم اليهود الذين كانوا في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام، وأسلموا مثل عبد الله بن سلام، وابن صوريا والاعتراض عليه بأنهم كانوا قليلين في العدد، ولفظ الأمة يقتضي الكثرة، يمكن الجواب عنه بأنه لما كانوا مختلفين في الدين، جاز إطلاق لفظ الأمة عليهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] وقيل: إنهم قوم مشوا على الدين الحق الذي جاء به موسى ودعوا الناس إليه وصانوه عن التحريف والتبديل في زمن تفرق بني إسرائيل وإحداثهم البدع، ويجوز أن يكونوا أقاموا على ذلك إلى أن جاء المسيح فدخلوا في دينه، ويجوز أن يكونوا هلكوا قبل ذلك، وقال السدي وجماعة من المفسرين: إن بني إسرائيل لما كفروا وقتلوا الأنبياء، بقي سبط في جملة الاثني عشر فما صنعوا وسألوا الله أن ينقذهم منهم، ففتح الله لهم نفقًا في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين ثم هؤلاء اختلفوا، منهم من قال: إنهم بقوا متمسكين بدين اليهودية إلى الآن، ومنهم من قال إنهم الآن على دين محمد ﷺ يستقبلون الكعبة، وتركوا السبت وتمسكوا بالجمعة، لا يتظالمون ولا يتحاسدون ولا يصل إليهم منا أحد ولا إلينا منهم أحد. وقال بعض المحققين: هذا القول ضعيف لأنه إما أن يقال: وصل إليهم خبر محمد ﷺ، أو ما وصل إليهم هذا الخبر.

فإن قلنا: وصل خبره إليهم، ثم إنهم أصروا على اليهودية فهم كفار، فكيف يجوز وصفهم بكونهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون؟ وإن قلنا بأنهم لم يصل إليهم خبر محمد ﷺ، فهذا بعيد، لأنه لما وصل خبرهم إلينا، مع أن الدواعي لا تتوفر على نقل أخبارهم، فكيف يعقل أن لا يصل إليهم خبر محمد عليه الصلاة والسلام مع أن الدنيا قد امتلأت من خبره وذكره؟

أليس إن يأجوج ومأجوج قد وصل خبرهم إلينا ولم يصل خبرنا إليهم؟

قلنا: هذا ممنوع، فمن أين عرف أنه لم يصل خبرنا إليهم، فهذا جملة ما قيل في هذا الباب.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يدعون الناس إلى الهداية بالحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال الزجاج: العدل الحكم بالحق. يقال: هو يقضي بالحق ويعدل؛ وهو حكم عادل، ومن ذلك قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ١٢٩] وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية، شرح نوعين من أحوال بني إسرائيل: أحدهما: أنه تعالى جعلهم اثني عشر سبطًا، وقد تقدم هذا في سورة البقرة، و المراد أنه تعالى فرق بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة، لأنهم كانوا من اثني عشر رجلاً من أولاد يعقوب، فميزهم وفعل بهم ذلك لئلا يتحاسدوا فيقع فيهم الهرج والمرج. وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي: صيرناهم قطعًا أي: فرقًا وميزنا بعضهم من بعض وقرئ (وقَطَعناهم) بالتخفيف وههنا سؤالان:

السؤال الأول: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعًا، وهلا قيل: اثني عشر سبطًا؟

والجواب: المراد وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط، فوضع أسباطًا موضع قبيلة.

السؤال الثاني: قال: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ مع أن السبط مذكر لا مؤنث.

الجواب قال الفراء: إنما قال ذلك، لأنه تعالى ذكر بعده ﴿أُمَمًا﴾ فذهب التأنيث إلى الأمم.

ثم قال: ولو قال: اثني عشر لأجل أن السبط مذكر كان جائزًا. وقال الزجاج: المعنى ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ فرقة ﴿أَسْبَاطًا﴾ فقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ نعت لموصوف محذوف، وهو الفرقة. وقال أبو علي الفارسي: ليس قوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ تمييزًا، ولكنه بدل من قوله: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾.

وأما قوله: ﴿أُمَمًا﴾ قال صاحب (الكشاف): هو بدل من ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ بمعنى: وقطعناهم أممًا لأن كل سبط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد، وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى ولا تكاد تأتلف. وقرئ (اثنتي عشِرة) بكسر الشين.

النوع الثاني: من شرح أحوال بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ وهذه القصة أيضًا قد تقدم ذكرها في سورة البقرة. قال الحسن: ما كان إلا حجرًا اعترضه وإلا عصًا أخذها.

واعلم أنهم كانوا ربما احتاجوا في التيه إلى ماء يشربونه، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه الحجر. وكانوا يريدونه مع أنفسهم فيأخذوا منه قدر الحاجة، وقوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ قال الواحدي: فانبجس الماء وانبجاسه انفجاره. يقال: بجس الماء يبجس وانبجس وتبجس إذا تفجر، هذا قول أهل اللغة، ثم قال: والانبجاس والانفجار سواء، وعلى هذا التقدير فلا تناقض بين الانبجاس المذكور ههنا وبين الانفجار المذكور في سورة البقرة، وقال آخرون: الانبجاس خروج الماء بقلة، والانفجار خروجه بكثرة، وطريق الجمع: أن الماء ابتدأ بالخروج قليلاً، ثم صار كثيرًا، وهذا الفرق مروي عن أبي عمرو بن العلاء، ولما ذكر تعالى أنه كيف كان يسقيهم، ذكر ثانيًا أنه ظلل الغمام عليهم، وثالثا: أنه أنزل عليهم المن والسلوى، ولا شك أن مجموع هذه الأحوال نعمة عظيمة من الله تعالى، لأنه تعالى سهل عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه ودفع عنهم مضار الشمس.

ثم قال: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ والمراد قصر أنفسهم على ذلك المطعوم وترك غيره.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ وفيه حذف، وذلك لأن هذا الكلام إنما يحسن ذكره لو أنهم تعدوا ما أمرهم الله به، وذلك إما بأن تقول إنهم ادخروا مع أن الله منعهم منه، أو أقدموا على الأكل في وقت منعهم الله عنه، أو لأنهم سألوا غير ذلك مع أن الله منعهم منه، ومعلوم أن المكلف إذا ارتكب المحظور فهو ظالم لنفسه، فلذلك وصفهم الله تعالى به ونبّه بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وذلك أن المكلف إذا أقدم على المعصية فهو ما أضر إلا نفسه حيث سعى في صيرورة نفسه مستحقة للعقاب العظيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

اعلم أن هذه القصة أيضًا مذكورة مع الشرح والبيان في سورة البقرة.

بقي أن يقال: إن ألفاظ هذه الآية تخالف ألفاظ الآية التي في سورة البقرة من وجوه: الأول: في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨] وههنا قال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ والثاني: أنه قال في سورة البقرة (فكلوا) بالفاء وههنا ﴿وَكُلُوا۟﴾ بالواو. والثالث: أنه

قال في سورة البقرة ﴿رَغَدًا﴾ وهذه الكلمة غير مذكورة في هذه السورة. والرابع: أنه قال في سورة البقرة: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]وقال ههنا على التقديم والتأخير. والخامس: أنه قال في البقرة ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ وقال ههنا: ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾، والسادس: أنه قال في سورة البقرة: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وههنا حذف حرف الواو. والسابع: أنه قال في سورة البقرة: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [البقرة: ٥٩]وقال ههنا: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾، والثامن: أنه قال في سورة البقرة: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ وقال ههنا: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ واعلم أن هذه الألفاظ متقاربة ولا منافاة بينها البتة، ويمكن ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة.

أما الأول: وهو أنه قال في سورة البقرة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ وقال ههنا: ﴿ ٱسْكُنُوا۟﴾ فالفرق أنه لا بد من دخول القرية أولاً، ثم سكونها ثانيًا.

وأما الثاني: فهو أنه تعالى قال في البقرة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟﴾ [البقرة: ٥٨]بالفاء. وقال ههنا: ﴿ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟﴾ بالواو والفرق أن الدخول حالة مخصوصة، كما يوجد بعضها ينعدم. فإنه إنما يكون داخلاً في أول دخوله، وأما ما بعد ذلك فيكون سكونًا لا دخولاً.

إذا ثبت هذا فنقول:الدخول حالة منقضية زائلة وليس لها استمرار. فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده، فلهذا قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨]وأما السكون فحالة مستمرة باقية. فيكون الأكل حاصلاً معه لا عقيبه فظهر الفرق.

وأما الثالث: وهو أنه ذكر في سورة البقرة ﴿رَغَدًا﴾ وما ذكره هنا فالفرق الأكل عقيب دخول القرية يكون ألذ، لأن الحاجة إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم، ولما كان ذلك الأكل ألذ لا جرم ذكر فيه قوله: ﴿رَغَدًا﴾ وأما الأكل حال سكون القرية، فالظاهر أنه لا يكون في محل الحاجة الشديدة ما لم تكن اللذة فيه متكاملة، فلا جرم ترك قوله: ﴿رَغَدًا﴾ فيه.

وأما الرابع: وهو قوله في سورة البقرة: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]وفي سورة الأعراف على العكس منه، فالمراد التنبيه على أنه يحسن تقديم كل واحد من هذين الذكرين على الآخر، إلا أنه لما كان المقصود منهما تعظيم الله تعالى، وإظهار الخضوع والخشوع لم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير.

وأما الخامس: وهو أنه قال في سورة البقرة: ﴿خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]وقال ههنا: ﴿ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ فهو إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة، فهي مغفورة عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرع.

وأما السادس: وهو أنه تعالى قال في سورة البقرة: ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ [البقرة: ٥٨]بالواو وههنا حذف الواو فالفائدة في حذف الواو أنه استئناف، والتقدير: كأن قائلاً قال: وماذا حصل بعد الغفران؟ فقيل له: ﴿ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وأما السابع: وهو الفرق بين قوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾ وبين قوله: ﴿ أَرْسَلْنَا﴾ فلأن الإنزال لا يشعر

بالكثرة، والإرسال يشعر بها، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل، ثم جعله كثيرًا، وهو نظير ما ذكرناه في الفرق بين قوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ وبين قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ .

وأما الثامن: وهو الفرق بين قوله: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ وبين قوله: ﴿يَفۡسُقُونَ﴾ فذلك لأنهم موصوفون بكونهم ظالمين، لأجل أنهم ظلموا أنفسهم، وبكونهم فاسقين، لأجل أنهم خرجوا عن طاعة الله تعالى، فالفائدة في ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الأمرين، فهذا ما خطر بالبال في ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة، وتمام العلم بها عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾

اعلم أن هذه القصة أيضًا مذكورة في سورة البقرة.

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾ المقصود تعرف هذه القصة من قبلهم، لأن هذه القصة قد صارت معلومة للرسول من قبل الله تعالى، وإنما المقصود من ذكر هذا السؤال أحد أشياء: الأول: أن المقصود من ذكر هذا السؤال تقرير أنهم كانوا قد أقدموا على هذا الذنب القبيح والمعصية الفاحشة تنبيهًا لهم على أن إصرارهم على الكفر بمحمد ﷺ وبمعجزاته ليس شيئًا حدث في هذا الزمان، بل هذا الكفر والإصرار كان حاصلاً في أسلافهم من الزمان القديم.

والفائدة الثانية: أن الإنسان قد يقول لغيره هل هذا الأمر كذا وكذا؟ ليعرف بذلك أنه محيط بتلك الواقعة، وغير ذاهل عن دقائقها، ولما كان النبي ﷺ رجلاً أميًا لم يتعلم علمًا، ولم يطالع كتابًا، ثم أنه يذكر هذه القصص على وجهها من غير تفاوت ولا زيادة ولا نقصان، كان ذلك جاريًا مجرى المعجز.

المسألة الثانية: الأكثرون على أن تلك القرية أيلة. وقيل: مدين. وقيل: طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية، وعن أبي عمرو بن العلاء: ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج يعني رجلين من أهل المدن، وقوله: ﴿كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ يعني: قريبة من البحر وبقربه وعلى شاطئه والحضور نقيض الغيبة كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقوله: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ يعني: يجاوزون حد الله فيه، وهو اصطيادهم يوم السبت وقد نهوا عنه، وقرئ (يعدّون) بمعنى يعتدون أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين و(يُعِدُّون) من الأعداد وكانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة و(السبت) مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها

فقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ معناه يعدون في تعظيم هذا اليوم، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت، ويدل عليه قوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ ويؤكده أيضًا قراءة عمر بن عبد العزيز (يوم أسباتهم) وقرئ (لا يسبتُون) بضم الباء، وقرأ علي رضي الله عنه ﴿لَا يُسْبِتُونَ﴾ بضم الياء من أسبتوا، وعن الحسن ﴿لَا يُسْبَتُونَ﴾ على البناء للمفعول، وقوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ نصب بقوله: ﴿يَعْدُونَ﴾ والمعنى: سلهم إذ عدوا في وقت الإتيان، وقوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: ظاهرة على الماء وشرع جمع شارع وشارعة وكل شيء دانٍ من شيء فهو شارع، ودار شارعة أي: دنت من الطريق، ونجوم شارعة أي: دنت من المغيب. وعلى هذا فالحيتان كانت تدنو من القرية بحيث يمكنهم صيدها، قال ابن عباس ومجاهد: إن اليهود أمروا باليوم الذي أمرتم به، يوم الجمعة، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله به وحرم عليهم الصيد فيه وأمروا بتعظيمه، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر. فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل. وذلك بلاء ابتلاهم الله به، فذلك معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم، وذلك يدل على أن من أطاع الله تعالى خفف الله عنه أحوال الدنيا والآخرة ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء والمحن، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى لا يجب عليه رعاية الصلاح والأصلح لا في الدين ولا في الدنيا وذلك لأنه تعالى علم أن تكثير الحيتان يوم السبت ربما يحملهم على المعصية والكفر، فلو وجب عليه رعاية الصلاح والأصلح، لوجب أن لا يكثر هذه الحيتان في ذلك اليوم صونًا لهم عن ذل الكفر والمعصية. فلما فعل ذلك ولم يبال بكفرهم ومعصيتهم علمنا أن رعاية الصلاح والأصلح غير واجبة على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ وحكمه حكمه في الإعراب وقوله: ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظة أولئك الصيادين حتى أيسوا من قبولهم لأقوام آخرين ما كانوا يقلعون عن وعظهم. وقوله: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مخترمهم ومطهر الأرض منهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لتماديهم في الشر، وإنما قالوا ذلك لعلمهم أن الوعظ لا ينفعهم.

وقوله: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾

فيه بحثان:

البحث الأول: قرأ حفص عن عاصم (معذرة) بالنصب والباقون بالرفع، أما من نصب ﴿مَعْذِرَةً﴾ فقال الزجاج معناه: نعتذر معذرة، وأما من رفع فالتقدير: هذه معذرة أو قولنا معذرة وهي خبر لهذا المحذوف.

البحث الثاني: المعذرة مصدر كالعذر، وقال أبو زيد: عذرته أعذره عذرًا ومعذرة، ومعنى عذره في اللغة أي: قام بعذره، وقيل: عذره، يقال: من يعذرني؟ أي: يقوم بعذري، وعذرت فلانًا فيما صنع أي: قمت بعذره، فعلى هذا معنى قوله: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: قيام منا بعذر أنفسنا إلى الله تعالى، فإنا إذا طولنا بإقامة النهي عن المنكر. قلنا: قد فعلنا فنكون بذلك معذورين، وقال الأزهري: المعذرة اسم على مفعلة من عذر يعذر وأقيم مقام الاعتذار. كأنهم قالوا: موعظتنا اعتذار إلى ربنا. فأقيم الاسم مقام الاعتذار، ويقال: اعتذر فلان اعتذارًا وعذرًا ومعذرة من ذنبه فعذرته، وقوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: وجائز عندنا أن ينتفعوا بهذا الوعظ فيتقوا الله ويتركوا هذا الذنب.

إذا عرفت هذا فنقول: في هذه الآية قولان:

القول الأول: أن أهل القرية منهم من صاد السمك وأقدم على ذلك الذنب ومنهم من لم يفعل ذلك، وهذا القسم الثاني صاروا قسمين: منهم من وعظ الفرقة المذنبة، وزجرهم عن ذلك الفعل، ومنهم من سكت عن ذلك الوعظ، وأنكروا على الواعظين وقالوا لهم: لم تعظوهم، مع العلم بأن الله مهلكهم أو معذبهم؟ يعني: أنهم قد بلغوا في الإصرار على هذا الذنب إلى حد لا يكادون يمنعون عنه، فصار هذا الوعظ عديم الفائدة عديم الأثر، فوجب تركه.

والقول الثاني: أن أهل القرية كانوا فرقتين: فرقة أقدمت على الذنب، وفرقة أحجموا عنه ووعظوا الأولين، فلما اشتغلت هذه الفرقة بوعظ الفرقة المذنبة المتعدية المقدمة على القبيح، فعند ذلك قالت الفرقة المذنبة للفرقة الواعظة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ بزعمكم؟ قال الواحدي: والقول الأول أصح، لأنهم لو كانوا فرقتين وكان قوله: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ خطابًا من الفرقة الناهية للفرقة المعتدية لقالوا: (وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

أما قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ يعني: أنهم لما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه، أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الظالمين المقدمين على فعل المعصية.

واعلم أن لفظ الآية يدل على أن الفرقة المتعدية هلكت، والفرقة الناهية عن المنكر نجت.

أما الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ فقد اختلف المفسرون في أنهم من أي الفريقين كانوا؟ فنقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه توقف فيه. ونقل عنه أيضًا: هلكت الفرقتان ونجت الناهية، وكان

ابن عباس إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: إن هؤلاء الذين سكتوا عن النهي عن المنكر هلكوا، ونحن نرى أشياء ننكرها، ثم نسكت ولا نقول شيئًا. قال الحسن: الفرقة الساكتة ناجية، فعلى هذا نجت فرقتان وهلكت الثالثة.

واحتجوا عليه بأنهم لما قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ دل ذلك على أنهم كانوا منكرين عليهم أشد الإنكار، وأنهم إنما تركوا وعظهم لأنه غلب على ظنهم أنهم لا يلتفتون إلى ذلك الوعظ ولا ينتفعون به.

فإن قيل: إن ترك الوعظ معصية، والنهي عنه أيضًا معصية، فوجب دخول هؤلاء التاركين للوعظ الناهين عنه تحت قوله: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

قلنا: هذا غير لازم، لأن النهي عن المنكر إنما يجب على الكفاية. فإذا قام به البعض سقط عن الباقين، ثم ذكر أنه تعالى أخذهم بعذاب بئيس، والظاهر أن هذا العذاب غير المسخ المتأخر ذكره. وقوله: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي: شديد وفي هذه اللفظة قراءات: أحدها: (بئيس) بوزن فعيل. قال أبو علي: وفيه وجهان: الأول: أن يكون فعيلاً من بؤس يبؤس بأسًا إذا اشتد. والآخر: ما قاله أبو زيد، وهو أنه من البؤس وهو الفقر يقال: بئس الرجل يبأس بؤسًا وبأسًا وبئيسًا إذا افتقر فهو بائس، أي فقير. فقوله: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي: ذي بؤس. والقراءة الثانية (بِئْسَ) بوزن حذر. والثالثة: (بيس) على قلب الهمزة ياء، كالذيب في ذئب، والرابعة: (بيئس) على فيعل. والخامسة: (بيس) كوزن ريس على قلب همزة بئيس ياء وإدغام الياء فيها. والسادسة: (بيس) على تخفيف بيس كهين في هين، وهذه القرآت نقلها صاحب (الكشاف). ثم بين تعالى أنهم مع نزول هذا العذاب بهم تمردوا.

فقال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

وفيه مباحث:

البحث الأول: العتو عبارة عن الإباء والعصيان، وإذا عتوا عما نهوا عنه فقد أطاعوا، لأنهم أبوا عما نهوا عنه، ومعلوم أنه ليس المراد ذلك فلا بد من إضمار، والتقدير: فلما عتوا عن ترك ما نهوا عنه، ثم حذف المضاف، وإذا أبوا ترك المنهي كان ذلك ارتكابًا للمنهى.

البحث الثاني: من الناس من قال: إن قوله: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ ليس من المقال، بل المراد منه: أنه تعالى فعل ذلك. قال: وفيه دلالة على أن قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] هو بمعنى الفعل لا الكلام. وقال الزجاج: أمروا بأن يكونوا كذلك بقول سمع فيكون أبلغ.

واعلم أن حمل هذا الكلام على هذا بعيد، لأن المأمور بالفعل يجب أن يكون قادرًا عليه، والقوم ما كانوا قادرين على أن يقلبوا أنفسهم قردة.

البحث الثالث: قال ابن عباس: أصبح القوم وهم قردة صاغرون، فمكثوا كذلك ثلاثًا فرآهم الناس ثم هلكوا. ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن شباب القوم صاروا قردة، والشيوخ خنازير، وهذا القول على خلاف الظاهر. واختلفوا في أن الذين مسخوا هل بقوا قردة؟ وهل هذه القردة من نسلهم أو هلكوا، وانقطع نسلهم، ولا دلالة في الآية عليه، والكلام في المسخ وما فيه من المباحثات قد سبق بالاستقصاء في سورة البقرة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح ههنا بعض مصالح أعمال اليهود وقبائح أفعالهم ذكر في هذه الآية أنه تعالى حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة، قال سيبويه: أذن أعلم. وأذن نادى وصاح للإعلام ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٤] وقوله: ﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى أذن أي أعلم. ولفظة تفعل، ههنا ليس معناه أنه أظهر شيئًا ليس فيه، بل معناه فعل فقوله: ﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى: أذن كما في قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] معناه: علا وارتفع لا بمعنى أنه أظهر من نفسه العلو، وإن لم يحصل ذلك فيه.

وأما قوله ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾.

ففيه بحثان:

البحث الأول: أن اللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ جواب القسم لأن قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ جار مجرى القسم في كونه جازمًا بذلك الخبر.

البحث الثاني: الضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يقتضي أن يكون راجعًا إلى قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦] لكنه قد علم أن الذين مسخوا لم يستمر عليهم التكليف. ثم اختلفوا فقال بعضهم: المراد نسلهم والذين بقوا منهم. وقال آخرون: بل المراد سائر اليهود فإن أهل القرية كانوا بين صالح وبين متعد فمسخ المتعدي وألحق الذل بالبقية، وقال الأكثرون: هذه الآية في اليهود الذين أدركهم الرسول ﷺ ودعاهم إلى شريعته، وهذا أقرب. لأن المقصود من هذه الآية تخويف اليهود الذين كانوا في زمان الرسول ﷺ وزجرهم عن البقاء على اليهودية، لأنهم إذا علموا بقاء الذل عليهم إلى يوم القيامة انزجروا.

البحث الثالث: لا شبهة في أن المراد اليهود الذين ثبتوا على الكفر واليهودية، فأما الذين آمنوا بمحمد ﷺ فخارجون عن هذا الحكم.

أما قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فهذا تنصيص على أن ذلك العذاب ممدود إلى يوم القيامة وذلك

يقتضي أن ذلك العذاب إنما يحصل في الدنيا، وعند ذلك اختلفوا فيه فقال بعضهم: هو أخذ الجزية. وقيل: الاستخفاف والإهانة والإذلال لقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١١٢] وقيل: القتل والقتال. وقيل: الإخراج والإبعاد من الوطن، وهذا القائل جعل هذه الآية في أهل خيبر وبني قريظة والنضير، وهذه الآية نزلت في اليهود على أنه لا دولة ولا عز، وأن الذل يلزمهم، والصغار لا يفارقهم. ولما أخبر الله تعالى في زمان محمد عن هذه الواقعة. ثم شاهدنا بأن الأمر كذلك كان هذا أخبارًا صدقًا عن الغيب، فكان معجزًا، والخبر المروي في أن أتباع الدجال هم اليهود إن صح، فمعناه أنهم كانوا قبل خروجه يهودًا ثم دانوا بإلهيته، فذكروا بالاسم الأول ولولا ذلك لكان في وقت اتباعهم الدجال قد خرجوا عن الذلة والقهر، وذلك خلاف هذه الآية. واحتج بعض العلماء على لزوم الذل والصغار لليهود بقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٢] إلا أن دلالتها ليست قوية لأن الاستثناء المذكور في هذه الآية يمنع من القطع على لزوم الذل لهم في كل الأحوال. أما الآية التي نحن في تفسيرها لم يحصل فيها تقييد ولا استثناء، فكانت دلالتها على هذا المعنى قوية جدًّا.
واختلفوا في أن الذين يلحقون هذا الذل بهؤلاء اليهود من هم، فقال بعضهم: الرسول وأمته وقيل: يحتمل دخول الولاة الظلمة منهم، وإن لم يؤمروا بالقيام بذلك إذا أذلوهم. وهذا القائل حمل قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ على نحو قوله: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] فإذا جاز أن يكون المراد بالإرسال التخلية، وترك المنع، فكذلك البعثة، وهذا القائل. قال: المراد بختنصر وغيره إلى هذا اليوم، ثم أنه تعالى ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ والمراد التحذير من عقابه في الآخرة مع الذلة في الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب من الكفر واليهودية، ودخل في الإيمان بالله وبمحمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

واعلم أن قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ أحد ما يدل على أن الذي تقدم من قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٧] المراد جملة اليهود، ومعنى ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ أي: فرقناهم تفريقًا شديدًا. فلذلك قال بعده: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ وظاهر ذلك أنه لا أرض مسكونة إلا ومنهم فيها أمة، وهذا هو الغالب من حال اليهود، ومعنى قطعناهم، فإنه قلما يوجد بلد إلا وفيه طائفة منهم.

ثم قال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ قيل: المراد القوم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام لأنه كان فيهم أمة يهدون بالحق. وقال ابن عباس ومجاهد: يريد الذين أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ومنهم قوم دون ذلك، والمراد من أقام على اليهودية.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون قوله: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ من يكون صالحًا إلا أن صلاحه كان

دون صلاح الأولين لأن ذلك إلى الظاهر أقرب .

قلنا: أن قوله بعد ذلك : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يدل على أن المراد بذلك من ثبت على اليهودية وخرج من الصلاح .

أما قوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي : عاملناهم معاملة المبتلى المختبر بالحسنات ، وهي النعم والخصب والعافية ، والسيئات هي الجدب والشدائد ، قال أهل المعاني : وكل واحد من الحسنات والسيئات يدعو إلى الطاعة ، أما النعم فلأجل الترغيب ، وأما النقم فلأجل الترهيب . وقوله : ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يريد كي يتوبوا .

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾

اعلم أن قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ ظاهره أن الأول ممدوح . والثاني مذموم ، وإذا كان كذلك ، فيجب أن يكون المراد : فخلف من بعد الصالحين منهم الذين تقدم ذكرهم خلف . قال الزجاج : الخلف ما أخلف عليك مما أخذ منك ، فلهذا السبب يقال للقرن الذي يجيء في إثر قرن : خلف ، ويقال فيه أيضًا : خلف ، وقال أحمد بن يحيى : الناس كلهم يقولون خلف صدق وخلف سوء ، وخلف للسوء لا غير . وحاصل الكلام : أن من أهل العربية من قال الخلف والخلف قد يذكر في الصالح وفي الرديء ، ومنهم من يقول الخلف مخصوص بالذم قال لبيد :

وبَقيتُ في خَلفٍ كَجِلدِ الأَجرَبِ(١)

ومنهم من يقول: الخلف المستعمل في الذم مأخوذ من الخلف ، وهو الفساد ، يقال للرديء من القول خلف ، ومنه المثل المشهور سكت ألفًا ونطق خلفًا ، وخلف الشيء يخلف خلوفًا وخلفًا إذا فسد وكذلك الفم إذا تغيرت رائحته . وقوله : ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ قال أبو عبيدة : جميع متاع الدنيا عرَض بفتح الراء ، يقال : الدنيا عرَض حاضر يأكل منها البر والفاجر ، وأما العرْض بسكون الراء فما خالف العين ، أعني الدراهم والدنانير وجمعه عروض ، فكان كل عرض عرضًا

(١) هذا الشطر الثاني من البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل والبيت هكذا :

ذَهَبَ الَّذينَ يُعاشُ في أَكنافِهِم وبَقَيتُ في خَلَفٍ كَجِلدِ الأَجرَبِ

ولبيد قد تقدمت ترجمته .

وليس كل عرض عرضًا، والمراد بقوله: ﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: حطام هذا الشيء الأدنى يريد الدنيا وما يتمتع به منها، وفي قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ تخسيس وتحقير، و ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ إما من الدنو بمعنى: القرب لأنه عاجل قريب، وإما من دنو الحال وسقوطها وقلتها. والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلام. ثم حكى تعالى عنهم أنهم يستحقرون ذلك الذنب ويقولون: سيغفر لنا.

ثم قال: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ والمراد الإخبار عن إصرارهم على الذنوب. وقال الحسن: هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وأنهم لا يستمتعون منها. ثم بيّن تعالى قبح فعلهم فقال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ قيل المراد منعهم عن تحريف الكتاب وتغيير الشرائع لأجل أخذ الرشوة، وقيل: المراد أنهم قالوا سيغفر لنا هذا الذنب مع الإصرار، وذلك قول باطل.

فإن قيل: فهذا القول يدل على أن حكم التوراة هو أن صاحب الكبيرة لا يغفر له.

قلنا: أنهم كانوا يقطعون بأن هذه الكبيرة مغفورة، ونحن لا نقطع بالغفران بل نرجو الغفران، ونقول: إن بتقدير أن يعذب الله عليها فذلك العذاب منقطع غير دائم.

ثم قال تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ أي: فهم ذاكرون لما أخذ عليهم لأنهم قد قرءوه ودرسوه.

ثم قال: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ من تلك الرشوة الخبيثة المحقرة (أفلا يعقلون).

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يقال: مسكت بالشيء وتمسكت به واستمسكت به وامتسكت به، وقرأ أبو بكر عن عاصم (يمسكون) مخففة والباقون بالتشديد. أما حجة عاصم فقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤] قال الواحدي: والتشديد أقوى، لأن التشديد للكثرة وههنا أريد به الكثرة، ولأنه يقال: أمسكته، وقلما يقال أمسكت به.

إذا عرفت هذا فنقول: في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ **قولان:**

القول الأول: أن يكون مرفوعًا بالابتداء وخبره ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ والمعنى: إنا لا نضيع أجرهم وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] وهذا الوجه حسن لأنه لما ذكر وعيد من ترك التمسك بالكتاب أردفه بوعد من تمسك به.

والقول الثاني: أن يكون مجرورًا عطفًا على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩] ويكون قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ زيادة مذكورة لتأكيد ما قبله.

فإن قيل: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة فكيف أفردت بالذكر؟

قلنا: إظهارًا لعلو مرتبة الصلاة، وأنها أعظم العبادات بعد الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

قال أبو عبيدة: أصل النتق قلع الشيء من موضعه، والرمي به. يقال: نتق ما في الجراب إذا رمى به وصبه. وامرأة ناتق ومنتاق إذا كثر ولدها لأنها ترمي بأولادها رميًا فمعنى ﴿نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ أي: قلعناه من أصله وجعلناه فوقهم وقوله: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ قال ابن عباس: كأنه سقيفة والظلة كل ما أظلك من سقف بيت أو سحابة أو جناح حائط، والجمع ظلل وظلال، وهذه القصة مذكورة في سورة البقرة ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ قال المفسرون: علموا وأيقنوا. وقال أهل المعاني: قوي في نفوسهم أنه واقع بهم إن خالفوه، وهذا هو الأظهر في معنى الظن، ومضى الكلام فيه عند قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] روي أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم، وكان فرسخًا في فرسخ، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خر كل واحد منهم ساجدًا على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى خوفًا من سقوطه، فلذلك لا ترى يهوديًا يسجد إلا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى، ويقولون هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة.

ثم قال تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: وقلنا خذوا ما آتيناكم أو قائلين: خذوا ما آتيناكم من الكتاب بقوة وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي، أي: واذكروا ما فيه من الثواب والعقاب، ويجوز أن يراد: خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة، إن كنتم تطيقونه كقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣] واذكروا ما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة لعلكم تتقون ما أنتم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع توابعها على أقصى الوجوه ذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تقرير الحجة على جميع المكلفين، وفي تفسير هذه الآية قولان: الأول: وهو مذهب المفسرين وأهل الأثر ما روى مسلم بن يسار الجهني أن عمر رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «إنَّ الله سبحانه

وتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هؤلاء لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ. ثُمَّ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هؤلاء لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ» فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الله تَعَالَى إِذا خَلَقَ العَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ. وَإِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ النَّارَ»(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة من ذريته إلى يوم القيامة»(٢) وقال مقاتل: إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر تتحرك ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه الذر سوداء كهيئة الذر فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك.

ثم قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ فقال للبيض: هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين، وقال للسود: هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ثم أعادهم جميعًا في صلب آدم، فأهل القبول محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال، وأرحام النساء. وقال تعالى فيمن نقض العهد الأول: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: ١٠٢] وهذا القول قد ذهب إليه كثير من قدماء المفسرين كسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعكرمة، والكلبي، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه أبصر آدم في ذريته قومًا لهم نور. فقال: يا رب من هم؟ فقال: الأنبياء، ورأى واحدًا هو أشدهم نورًا فقال: من هو؟ قال: داود، قال: فكم عمره؟ قال: سبعون سنة قال آدم: هو قليل قد وهبته من عمري أربعين سنة، وكان عمر آدم ألف سنة، فلما تم عمر آدم تسعمائه وستين سنة أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فقال: بقي من أجلي أربعون سنة، فقال: ألست قد وهبته من ابنك داود؟ فقال: ما كنت لأجعل لأحد من أجلي شيئًا، فعند ذلك كتب لكل نفس أجلها(٣). أما المعتزلة: فقد أطبقوا على أنه لا يجوز تفسير هذه الآية بهذا الوجه. واحتجوا على فساد هذا القول بوجوه.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة) باب (في القدر) (٤/ ٢٠١٠) حديث رقم/ ٤٧٠٣، والترمذي في كتاب (التفسير) باب (سورة الأعراف) (٥/ ٤٤٨) حديث رقم/ ٣٠٧٥، والنسائي في كتاب (التفسير) (٦/ ٣٤٧) حديث رقم/ ١١١٩٠، وأحمد في (مسنده) (١/ ٤٤/ ٤٥)، وأحمد شاكر (١/ ٢٨٩): أسانيده صحاح وإن كان ظاهره الانقطاع، وابن أبي عاصم في (السنة) (ص٨٧) وفي إسناده انقطاع بين مسلم بن يسار وعمر بن الخطاب وبينهما رجل يدعى نعيم بن ربيعة كما هو مبين في الظلال برقم/ ٢٠١ ولكن نعيم بن ربيعة هذا مجهول.

(٢) انظر سابقه.

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٦٧) حديث رقم/ ٣٠٧٦ من طريق زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة. . . به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأيضا في (٥/ ٤٥٣) حديث رقم/ ٣٣٦٨ من طريق الحارث بن عبد الرحمن عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة. . . به. وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ثم أشار إلى طريق الحديث السابق. وأبو يعلي في (مسنده) (١١/ ٤٥٣) حديث رقم/ ٦٥٨٠ من طريق إسماعيل بن رافع عن المقبري عن أبي هريرة. . . به.

الحجة الأولى: لهم قالوا: قوله: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ لا شك أن قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ بدل من قوله: ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فيكون المعنى: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم. وعلى هذا التقدير: فلم يذكر الله تعالى أنه أخذ من ظهر آدم شيئًا.

الحجة الثانية: أنه لو كان المراد أنه تعالى أخرج من ظهر آدم شيئًا من الذرية لما قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ بل كان يجب أن يقول: من ظهره، لأن آدم ليس له إلا ظهر واحد، وكذلك قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ لو كان آدم لقال ذريته.

الحجة الثالثة: أنه تعالى حكى عن أولئك الذرية أنهم قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ وهذا الكلام يليق بأولاد آدم، لأنه عليه السلام ما كان مشركًا.

الحجة الرابعة: أن أخذ الميثاق لا يمكن إلا من العاقل، فلو أخذ الله الميثاق من أولئك الذر لكانوا عقلاء، ولو كانوا عقلاء وأعطوا ذلك الميثاق حال عقلهم لوجب أن يتذكروا في هذا الوقت أنهم أعطوا الميثاق قبل دخولهم في هذا العالم؛ لأن الإنسان إذا وقعت له واقعة عظيمة مهيبة فإنه لا يجوز مع كونه عاقلاً أن ينساها نسيانًا كليًا لا يتذكر منها شيئًا لا بالقليل ولا بالكثير، وبهذا الدليل يبطل القول بالتناسخ. فإنا نقول لو كانت أرواحنا قد حصلت قبل هذه الأجساد في أجساد أخرى لوجب أن نتذكر الآن أنا كنا قبل هذا الجسد في جسد آخر، وحيث لم نتذكر ذلك كان القول بالتناسخ باطلاً. فإذا كان اعتمادنا في إبطال التناسخ ليس إلا على هذا الدليل وهذا الدليل بعينه قائم في هذه المسألة، وجب القول بمقتضاه، فلو جاز أن يقال: إنا في وقت الميثاق أعطينا العهد والميثاق مع أنا في هذا الوقت لا نتذكر شيئًا منه، فلم لا يجوز أيضًا أن يقال إنا كنا قبل هذا البدن في بدن آخر مع أنا في هذا البدن لا نتذكر شيئًا من تلك الأحوال. وبالجملة فلا فرق بين هذا القول وبين مذهب أهل التناسخ فإن لم يبعد التزام هذا القول لم يبعد أيضًا التزام مذهب التناسخ.

الحجة الخامسة: أن جميع الخلق الذين خلقهم الله من أولاد آدم عدد عظيم وكثرة كثيرة، فالمجموع الحاصل من تلك الذرات يبلغ مبلغًا عظيمًا في الحجمية والمقدار وصلب آدم على صغره يبعد أن يتسع لذلك المجموع.

الحجة السادسة: أن البنية شرط لحصول الحياة والعقل والفهم، إذ لو لم يكن كذلك لم يبعد في كل ذرة من ذرات الهباء أن يكون عاقلاً فاهمًا مصنفًا للتصانيف الكثيرة في العلوم الدقيقة. وفتح هذا الباب يفضي إلى التزام الجهالات. وإذا ثبت أن البنية شرط لحصول الحياة، فكل واحد من تلك الذرات لا يمكن أن يكون عالمًا فاهمًا عاقلاً؛ إلا إذا حصلت له قدرة من البنية واللحمية والدمية، وإذا كان كذلك فمجموع تلك الأشخاص الذين خرجوا إلى الوجود من أول تخليق آدم إلى آخر قيام القيامة لا تحويهم عرصة الدنيا، فكيف يمكن أن يقال: إنهم بأسرهم حصلوا دفعة واحدة في صلب آدم عليه السلام؟

الحجة السابعة: قالوا: هذا الميثاق إما أن يكون قد أخذه الله منهم في ذلك الوقت ليصير حجة عليهم في ذلك الوقت، أو ليصير حجة عليهم عند دخولهم في دار الدنيا. والأول باطل لانعقاد الإجماع على أن بسبب ذلك القدر من الميثاق لا يصيرون مستحقين للثواب والعقاب والمدح والذم ولا يجوز أن يكون المطلوب منه أن يصير ذلك حجة عليهم عند دخولهم في دار الدنيا لأنهم لما لم يذكروا ذلك الميثاق في الدنيا فكيف يصير ذلك حجة عليهم في التمسك بالإيمان؟

الحجة الثامنة: قال الكعبي: إن حال أولئك الذرية لا يكون أعلى في الفهم والعلم من حال الأطفال، ولما لم يكن توجيه التكليف على الطفل، فكيف يمكن توجيهه على أولئك الذوات؟

وأجاب الزجاج عنه فقال: لما لم يبعد أن يؤتى الله النمل العقل كما قال: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨] وأن يعطي الجبل الفهم حتى يسبح كما قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وكما أعطى الله العقل للبعير حتى سجد للرسول، وللنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت فكذا ههنا.

الحجة التاسعة: أن أولئك الذر في ذلك الوقت إما أن يكونوا كاملي العقول والقدر أو ما كانوا كذلك، فإن كان الأول كانوا مكلفين لا محالة وإنما يبقون مكلفين إذا عرفوا الله بالاستدلال ولو كانوا كذلك لما امتازت أحوالهم في ذلك الوقت عن أحوالهم في هذه الحياة الدنيا، فلو افتقر التكليف في الدنيا إلى سبق ذلك الميثاق لافتقر التكليف في وقت ذلك الميثاق إلى سبق ميثاق آخر ولزم التسلسل وهو محال. وأما الثاني: وهو أن يقال إنهم في وقت ذلك الميثاق ما كانوا كاملي العقول ولا كاملي القدر، فحينئذ يمتنع توجيه الخطاب والتكليف عليهم.

الحجة العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦] ولو كانت تلك الذرات عقلاء فاهمين كاملين، لكانوا موجودين قبل هذا الماء الدافق ولا معنى للإنسان إلا ذلك الشيء فحينئذ لا يكون الإنسان مخلوقًا من الماء الدافق وذلك رد لنص القرآن.

فإن قالوا: لم لا يجوز أن يقال إنه تعالى خلقه كامل العقل والفهم والقدرة عند الميثاق ثم أزال عقله وفهمه وقدرته؟ ثم إنه خلقه مرة أخرى في رحم الأم وأخرجه إلى هذه الحياة.

قلنا: هذا باطل لأنه لو كان الأمر كذلك لما كان خلقه من النطفة خلقًا على سبيل الابتداء بل يجب أن يكون خلقًا على سبيل الإعادة. وأجمع المسلمون على أن خلقه من النطفة هو الخلق المبتدأ فدل هذا على أن ما ذكرتموه باطل.

الحجة الحادية عشرة: هي أن تلك الذرات إما أن يقال هي عين هؤلاء الناس أو غيرهم والقول الثاني باطل بالإجماع، بقي القول الأول. فنقول: إما أن يقال إنهم بقوا فهماء عقلاء قادرين حال ما كانوا نطفة وعلقة ومضغة أو ما بقوا كذلك والأول باطل ببديهة العقل. والثاني: يقتضي أن يقال الإنسان حصل له الحياة أربع مرات: أولها وقت الميثاق، وثانيها في الدنيا، وثالثها في القبر، ورابعها في القيامة. وأنه حصل له الموت ثلاث مرات. موت بعد الحياة

الحاصلة في الميثاق الأول، وموت في الدنيا، وموت في القبر، وهذا العدد مخالف للعدد المذكور في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[غافر: ١١].

الحجة الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[المؤمنين: ١٢] فلو كان القول بهذا الذر صحيحًا لكان ذلك الذر هو الإنسان لأنه هو المكلف المخاطب المثاب المعاقب، وذلك باطل. لأن ذلك الذر غير مخلوق من النطفة، والعلقة، والمضغة، ونص الكتاب دليل على أن الإنسان مخلوق من النطفة والعلقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾[عبس: ١٧- ١٩] فهذه جملة الوجوه المذكورة في بيان أن هذا القول ضعيف.

والقول الثاني: في تفسير هذه الآية قول أصحاب النظر وأرباب المعقولات: أنه تعالى أخرج الذرية وهم الأولاد من أصلاب آبائهم وذلك الإخراج أنهم كانوا نطفة فأخرجها الله تعالى في أرحام الأمهات، وجعلها علقة، ثم مضغة، ثم جعلهم بشرًا سويًا، وخلقًا كاملاً ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته، وعجائب خلقه، وغرائب صنعه. فبالإشهاد صاروا كأنهم قالوا بلى، وإن لم يكن هناك قول باللسان، ولذلك نظائر منها قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت: ١١] ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل: ٤٠] وقول العرب:

قال الجدار للوتد لم تشقني ... قال سل من يدقني
فإن الذي ورايي ما خلاني ورايي

وقال الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قطني

فهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور في الكلام، فوجب حمل الكلام عليه، فهذا هو الكلام في تقرير هذين القولين، وهذا القول الثاني لاطعن فيه البتة، وبتقدير أن يصح هذا القول لم يكن ذلك منافيًا لصحة القول الأول: إنما الكلام في أن القول الأول هل يصح أم لا؟

فإن قال قائل: فما المختار عندكم فيه؟

قلنا: ههنا مقامان: أحدهما: أنه هل يصح القول بأخذ الميثاق عن الذّر؟ والثاني: أن بتقدير أن يصح القول به، فهل يمكن جعله تفسيرًا لألفاظ هذه الآية؟

أما المقام الأول: فالمنكرون له قد تمسكوا بالدلائل العقلية التي ذكرناها وقررناها، ويمكن الجواب عن كل واحد منها بوجه مقنع.

أما الوجه الأول: من الوجوه العقلية المذكورة، وهو أنه لو صح القول بأخذ هذا الميثاق لوجب أن نتذكره الآن.

قلنا: خالق العلم بحصول الأحوال الماضية هو الله تعالى لأن هذه العلوم عقلية ضرورية.

والعلوم الضرورية خالقها هو الله تعالى، وإذا كان كذلك صح منه تعالى أن يخلقها.

فإن قالوا: فإذا جوزتم هذا، فجوزوا أن يقال: إن قبل هذا البدن كنا في أبدان أخرى على سبيل التناسخ وإن كنا لا نتذكر الآن أحوال تلك الأبدان!

قلنا: الفرق بين الأمرين ظاهر وذلك لأنا إذا كنا في أبدان أخرى، وبقينا فيها سنين ودهورًا، امتنع في مجرى العادة نسيانها، أما أخذ هذا الميثاق إنما حصل في أسرع زمان، وأقل وقت فلم يبعد حصول النسيان فيه، والفرق الظاهر حاكم بصحة هذا الفرق، لأن الإنسان إذا بقي على العمل الواحد سنين كثيرة يمتنع أن ينساه، أما إذا مارس العمل الواحد لحظة واحدة فقد ينساه، فقد ظهر الفرق.

وأما الوجه الثاني: وهو أن يقال: مجموع تلك الذرات يمتنع حصولها بأسرها في ظهر آدم عليه السلام. قلنا: عندنا البنية ليست شرطًا لحصول الحياة، والجوهر الفرد الذي لا يتجزأ، قابل للحياة والعقل، فإذا جعلنا كل واحد من تلك الذرات جوهرًا فردًا، فلم قلتم إن ظهر آدم عليه السلام لا يتسع لمجموعها؟ إلا أن هذا الجواب لا يتم إلا إذا قلنا: الإنسان جوهر فرد. وجزء لا يتجزأ في البدن. على ما هو مذهب بعض القدماء، وأما إذا قلنا: الإنسان هو النفس الناطقة، وإنه جوهر غير متحيز، ولا حالٌّ في المتحيز فالسؤال زائل.

وأما الوجه الثالث: وهو قوله فائدة أخذ الميثاق هي أن تكون حجة في ذلك الوقت أو في الحياة الدنيا؟

فجوابنا أن نقول: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، وأيضًا أليس أن من المعتزلة إذا أرادوا تصحيح القول بوزن الأعمال، وإنطاق الجوارح قالوا: لا يبعد أن يكون لبعض المكلفين في إسماع هذه الأشياء لطف؟ فكذا ههنا لا يبعد أن يكون لبعض الملائكة في تمييز السعداء من الأشقياء في وقت أخذ الميثاق لطف. وقيل أيضًا إن الله تعالى يذكرهم ذلك الميثاق يوم القيامة وبقية الوجوه ضعيفة والكلام عليها سهل هين.

وأما المقام الثاني: وهو أن بتقدير أن يصح القول بأخذ الميثاق من الذر. فهل يمكن جعله تفسيرًا لألفاظ هذه الآية؟ فنقول الوجوه الثلاثة المذكورة أولاً دافعة لذلك لأن قوله: ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فقد بينا أن المراد منه، وإذا أخذ ربك من ظهور بني آدم، وأيضًا لو كانت هذه الذرية مأخوذة من ظهر آدم لقال من ظهره ذريته ولم يقل من ظهورهم ذريتهم. أجاب الناصرون لذلك القول: بأنه صحت الرواية عن رسول الله ﷺ أنه فسر هذه الآية بهذا الوجه والطعن في تفسير رسول الله غير ممكن. فنقول: ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أخرج الذر من ظهور بني آدم فيحمل ذلك على أنه تعالى يعلم أن الشخص الفلاني يتولد منه فلان وذلك الفلان فلان آخر، فعلى الترتيب الذي علم دخولهم في الوجود يخرجهم ويميز بعضهم من بعض، وأما أنه تعالى يخرج كل تلك الذرية من صلب آدم، فليس في لفظ الآية ما يدل على ثبوته

وليس في الآية أيضًا ما يدل على بطلانه، إلا أن الخبر قد دل عليه، فثبت إخراج الذرية من ظهور بني آدم بالقرآن، وثبت إخراج الذرية من ظهر آدم بالخبر، وعلى هذا التقدير: فلا منافاه بين الأمرين ولا مدافعة، فوجب المصير إليهما معًا. صونًا للآية والخبر عن الطعن بقدر الإمكان، فهذا منتهى الكلام في تقرير هذا المقام.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو (ذرياتهم) بالألف على الجمع والباقون (ذريتهم) على الواحد. قال الواحدي: الذرية تقع على الواحد والجمع. فمن أفرد فإنه قد استغنى عن جمعه وبوقوعه على الجمع فصار كالبشر فإنه يقع على الواحد كقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] وعلى الجمع كقوله: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وكما لم يجمع بشر بتصحيح ولا تكسير كذلك لا يجمع الذرية ومن جمع قال: إن الذرية وإن كان واحدًا فلا إشكال في جواز الجمع فيه، وإن كان جمعًا فجمعه أيضًا حسن، لأنك قد رأيت الجموع المكسرة قد جمعت. نحو الطرقات والجدرات، وهو اختيار يونس أما قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ فنقول: أما على قول من أثبت الميثاق الأول فكل هذه الأشياء محمولة على ظواهرها، وأما على قول من أنكره قال: إنها محمولة على التمثيل، والمعنى: أنه تعالى نصب لهم الأدلة على ربوبيته، وشهدت بها عقولهم، فصار ذلك جاريًا مجرى ما إذا أشهدهم على أنفسنا وإقرارنا بوحدانيته.

أما قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾.

ففيه قولان:

القول الأول: أنه من كلام الملائكة، وذلك لأنهم لما قالوا ﴿بَلَىٰ﴾ قال الله للملائكة: اشهدوا فقالوا شهدنا، وعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ لأن كلام الذرية قد انقطع ههنا وقوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ تقريره: أن الملائكة قالوا شهدنا عليهم بالإقرار، لئلا يقولوا ما أقررنا، فأسقط كلمة (لا) كما قال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] يريد لئلا تميد بكم، هذا قول الكوفيين، وعند البصريين تقريره: شهدنا كراهة أن يقولوا.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ من بقية كلام الذرية، وعلى هذا التقرير، فقوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ والتقدير: وأشهدهم على أنفسهم بكذا وكذا، لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أو كراهية أن يقولوا ذلك وعلى هذا التقدير، فلا يجوز الوقف عند قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ لأن قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ متعلق بما قبله وهو قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ فلم يجز قطعه منه. واختلف القراء في قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ أو تقولوا: فقرأ أبو عمرو بالياء جميعًا، لأن الذي تقدم من الكلام على الغيبة وهو قوله: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقرأ الباقون بالتاء، لأنه قد جرى في الكلام

خطاب وهو قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ وكلا الوجهين حسن، لأن الغائبين هم المخاطبون في المعنى.

أما قوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ قال المفسرون: المعنى أن المقصود من هذا الإشهاد أن لا يقول الكفار إنما أشركنا، لأن آباءنا أشركوا، فقلدناهم في ذلك الشرك، وهو المراد من قوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ والحاصل: أنه تعالى لما أخذ عليهم الميثاق امتنع عليهم التمسك بهذا القدر. وأما الذين حملوا الآية على أن المراد منه مجرد نصب الدلائل. قالوا: معنى الآية إنا نصبنا هذه الدلائل، وأظهرناها للعقول كراهة أن يقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ فما نبهنا عليه منبه أو كراهة أن يقولوا إنما أشركنا على سبيل التقليد لأسلافنا، لأن نصب الأدلة على التوحيد قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه، والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء.

ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ والمعنى: أن مثل ما فصلنا وبينا في هذه الآية، بينا سائر الآيات ليتدبروها فيرجعوا إلى الحق ويعرضوا عن الباطل، وهو المراد من قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقيل: أي ما أخذ عليهم من الميثاق في التوحيد، وفي الآية قول ثالث؛ وهو أن الأرواح البشرية موجودة قبل الأبدان، والإقرار بوجود الإله من لوازم ذواتها وحقائقها، وهذا العلم ليس يحتاج في تحصيله إلى كسب وطلب، وهذا البحث إنما ينكشف تمام الانكشاف بأبحاث عقلية غامضة، لا يمكن ذكرها في هذا الكتاب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد رحمهم الله: نزلت هذه الآية في بلعم بن باعوراء، وذلك لأن موسى عليه السلام قصد بلده الذي هو فيه، وغزا أهله وكانوا كفارًا، فطلبوا منه أن يدعو على موسى عليه السلام وقومه، وكان مجاب الدعوة، وعنده اسم الله الأعظم فامتنع منه، فما زالوا يطلبونه منه حتى دعا عليه فاستجيب له ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه، فقال موسى: يا رب بأي ذنب وقعنا في التيه. فقال: بدعاء بلعم. فقال: كما سمعت دعاءه علي، فاسمع دعائي عليه، ثم دعا موسى عليه أن ينزع منه اسم الله الأعظم والإيمان، فسلخه الله مما كان عليه ونزع منه المعرفة. فخرجت من صدره كحمامة

بيضاء فهذه قصته. ويقال أيضًا: إنه كان نبيًّا من أنبياء الله، فلما دعا عليه موسى انتزع الله منه الإيمان وصار كافرًا. وقال عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم، وأبو روق: نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب، وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو، فلما أرسل الله محمدًا عليه الصلاة والسلام حسده، ثم مات كافرًا، ولم يؤمن بالنبي ﷺ، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ»(١) يريد أن شعره كشعر المؤمنين، وذلك أنه يوحد الله في شعره، ويذكر دلائل توحيده من خلق السموات والأرض، وأحوال الآخرة، والجنة والنار. وقيل: نزلت في أبي عامر الراهب الذي سماه النبي ﷺ الفاسق كان يترهب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام وأمر المنافقين باتخاذ مسجد ضرار، وأتى قيصر واستنجده على النبي ﷺ، فمات هناك طريدًا وحيدًا(٢)، وهو قول سعيد بن المسيب. وقيل: نزلت في منافقي أهل الكتاب، كانوا يعرفون النبي ﷺ، عن الحسن والأصم وقيل: هو عام فيمن عرض عليه الهدى فأعرض عنه، وهو قول قتادة، وعكرمة، وأبي مسلم.

فإن قال قائل: فهل يصح أن يقال: إن المذكور في هذه الآية كان نبيًّا، ثم صار كافرًا؟

قلنا: هذا بعيد، لأنه تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وذلك يدل على أنه تعالى لا يشرف عبدًا من عبيده بالرسالة، إلا إذا علم امتيازه عن سائر العبيد بمزيد الشرف، والدرجات العالية، والمناقب العظيمة، فمن كان هذا حاله، فكيف يليق به الكفر؟

أما قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾.

ففيه قولان:

القول الأول: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني: علمناه حجج التوحيد، وفهمناه أدلته، حتى صار عالمًا بها ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: خرج من محبة الله إلى معصيته، ومن رحمة الله إلى سخطه، ومعنى انسلخ: خرج منها. يقال لكل من فارق شيئًا بالكلية: انسلخ منه.

والقول الثاني: ما ذكره أبو مسلم رحمه الله، فقال قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أي بيناها فلم يقبل وعرى منها، وسواء قولك: انسلخ، وعرى، وتباعد، وهذا يقع على كل كافر لم يؤمن بالأدلة،

---

(١) أخرجه الفاكهني في (أخبار مكة) (٥/ ١٨٦) حديث رقم/ ١٩٠١ من طريق علي بن الصباح قال: حدثنا هشام بن الكلبي عن أبيه قال... فذكره. وأورده ابن حجر في (الفتح) (٧/ ١٥٣/ ١٥٤) وقال: وروي الفاكهني وابن منده من حديث بن عباس ان الفارعة بنت أبي الصلت أخت أمية اتت النبي ﷺ فأنشدته من شعره فقال (آمن شعره وكفر قلبه)، وروى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت النبي ﷺ فقال: (هل معك من شعر أمية؟) قلت: نعم فأنشدته مائة بيت فقال: (لقد كاد أن يسلم في شعره).

(٢) ذكره السيوطي في (الخصائص الكبرى) (١/ ٤٩) وقال: أخرج أبو نعيم من طريق ابن إسحاق عن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم... فذكره بنحوه وفي إسناده ابن إسحاق وقد عنعنه.

وأقام على الكفر، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧] وقال في حق فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦] وجائز أن يكون هذا الموصوف فرعون، فإنه تعالى أرسل إليه موسى وهارون، فأعرض وأبى، وكان عاديًا ضالاً متبعًا للشيطان.

واعلم أن حاصل الفرق بين القولين: هو أن هذا الرجل في القول الأول، كان عالمًا بدين الله وتوحيده، ثم خرج منه، وعلى القول الثاني لما آتاه الله الدلائل والبينات امتنع من قبولها، والقول الأول أولى، لأن قوله انسلخ منها يدل على أنه كان فيها ثم خرج منها، وأيضًا فقد ثبت بالأخبار أن هذه الآية إنما نزلت في إنسان كان عالمًا بدين الله تعالى، ثم خرج منه إلى الكفر والضلال.

أما قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾.

ففيه وجوه:

الأول: أتبعه الشيطان كفار الإنس وغواتهم، أي: الشيطان جعل كفار الإنس أتباعًا له.

والثاني: قال عبد الله بن مسلم ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي: أدركه. يقال: أتبعت القوم. أي: لحقتهم. قال أبو عبيدة: ويقال: أتبعت القوم، مثال: أفعلت إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم. ويقال: ما زلت أتبعهم حتى أتبعتهم. أي: حتى أدركتهم. وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: أطاع الشيطان فكان من الظالمين. قال أهل المعاني: المقصود منه بيان أن من أوتي الهدى، فانسلخ منه إلى الضلال والهوى والعمى، ومال إلى الدنيا، حتى تلاعب به الشيطان كان منتهاه إلى البوار والردى، وخاب في الآخرة والأولى، فذكر الله قصته ليحذر الناس عن مثل حالته. وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا﴾ قال أصحابنا معناه: ولو شئنا رفعناه للعمل بها، فكان يرفع بواسطة تلك الأعمال الصالحة منزلته، ولفظة (لَوْ) تدل على انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فهذا يدل على أنه تعالى قد لا يريد الإيمان، وقد يريد الكفر. وقالت المعتزلة: لفظ الآية يحتمل وجوهًا أخرى سوى هذا الوجه. فالأول: قال الجبائي معناه: ولو شئنا لرفعناه بأعماله، بأن نكرمه، ونزيل التكليف عنه، قبل ذلك الكفر حتى نسلم له الرفعة، لكنا رفعناه بزيادة التكليف بمنزلة زائدة، فأبى أن يستمر على الإيمان. الثاني: لو شئنا لرفعناه، بأن نحول بينه وبين الكفر، قهرًا وجبرًا، إلا أن ذلك ينافي التكليف. فلا جرم تركناه مع اختياره.

والجواب عن الأول: أن حمل الرفعة على الإماتة بعيد، وعن الثاني: أنه تعالى إذا منعه منه قهرًا، لم يكن ذلك موجبًا للثواب والرفعة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال أصحاب العربية: أصل الإخلاد اللزوم على الدوام، وكأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومنه يقال: أخلد فلان بالمكان، إذا لزم الإقامة به. قال مالك بن سويد:

بِأَبناءِ حَيٍّ مِن قَبائِلِ مالِكٍ وَعَمرِو بنُ يَربوعٍ أَقاموا فَأَخلَدوا[1]

قال ابن عباس: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد: مَالَ إلى الدنيا، وقال مقاتل: بالدنيا، وقال الزجاج: سكن إلى الدنيا. قال الواحدي: فهؤلاء فسروا الأرض في هذه الآية بالدنيا، وذلك لأن الدنيا هي الأرض، لأن ما فيها من العقار والضياع وسائر أمتعتها من المعادن والنبات والحيوان مستخرج من الأرض، وإنما يقوى ويكمل بها، فالدنيا كلها هي الأرض، فصح أن يعبر عن الدنيا بالأرض، ونقول: لو جاء الكلام على ظاهره لقيل لو شئنا لرفعناه، ولكنا لم نشأ، إلا أن قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ لما دل على هذا المعنى لا جرم أقيم مقامه قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ معناه: أنه أعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات واتبع الهوى، فلا جرم وقع في هاوية الردى، وهذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم، وذلك لأنه تعالى بعد أن خص هذا الرجل بآياته وبيناته، وعلمه الاسم الأعظم، وخصه بالدعوات المستجابة، لما اتبع الهوى انسلخ من الدين وصار في درجة الكلب، وذلك يدل على أن كل من كانت نعم الله في حقه أكثر، فإذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى، كان بعده عن الله أعظم، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «من ازدادَ من اللَّهِ عِلْمًا ولَمْ يزددْ هُدًى لم يَزْددْ مِنَ اللَّهِ إلاَّ بُعْدًا»[2] أو لفظ هذا معناه.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ قال الليث: اللهث هو أن الكلب إذا ناله الإعياء عند شدة العدو وعند شدة الحر، فإنه يدلع لسانه من العطش.

واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مشبهًا بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث، وفي تقرير هذا التمثيل وجوه: الأول: أن كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث في حال الإعياء، وفي حال الراحة، وفي حال العطش، وفي حال الري، فكان ذلك عادة

---

(١) هذا البيت لمالك بن نويرة وهو مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي، أبو حنظلة. ؟- ١٢ هـ/ ؟- ٦٣٤ م فارس شاعر، من أرداف الملوك في الجاهلية، يقال له: (فارس ذي الخمار) وذو الخمار فرسه، وفي أمثالهم: فتى ولا كمالك، وكانت فيه خيلاء، وله لمة كبيرة، أدرك الإسلام وأسلم وولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه (بني يربوع) ولما صارت الخلافة إلى أبي بكر اضطرب مالك في أموال الصدقات وفرقها، وقيل: ارتد، فتوجه إليه خالد بن الوليد وقبض عليه في البطاح، وأمر ضرار بن الأزور الأسدي، فقتله.

(٢) إسناده ضعيف: رواه الديلمي في (مسند الفردوس) (٣/ ٦٠٢) حديث رقم/ ٥٨٨٧ عن علي بن أبي طالب... موقوفا عليه. والعجلوني في (كشف الخفا والإلباس) (٢/ ٣٠٤) حديث رقم/ ٢٤٠٢ وقال: رواه الديلمي عن علي رفعه وسنده ضعيف كما قال العراقي وقال السخاوي وفي لفظ: (ثم ازداد للدنيا حبًا ازداد من الله غضبًا، وقال المناوي: ورواه الأزدي في الضعفاء من حديث علي بلفظ: (من ازداد علما ثم ازداد للدنيا حبا ازداد من الله عليه غضبا.

منه وطبيعة، وهو مواظب عليه كعادته الأصلية، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، فكذلك من آتاه الله العلم والدين أغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقي نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة. وطبيعته الخسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة. والثاني: أن الرجل العالم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا، فذاك إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها، ولا شك أنه عند ذكر تلك الكلمات، وتقرير تلك العبارات يدلع لسانه، ويخرجه لأجل ما تمكن في قلبه من حرارة الحرص وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبدًا من غير حاجة ولا ضرورة، بل بمجرد الطبيعة الخسيسة، والثالث: أن الكلب اللاهث لا يزال لهثة البتة، فكذلك الأنسان الحريص لا يزال حرصه البتة.

أما قوله تعالى: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ فالمعنى أن هذا الكلب إن شد عليه وهيج لهث وإن ترك أيضًا لهث، لأجل أن ذلك الفعل القبيح طبيعة أصلية له، فكذلك هذا الحريص الضال إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال لأجل أن ذلك الضلال والخسارة عادة أصلية وطبيعية ذاتية له.

فإن قيل: ما محل قوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾؟

قلنا: النصب على الحال، كأنه قيل كمثل الكلب ذليلاً لاهثًا في الأحوال كلها.

ثم قال تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فعم بهذا التمثيل جميع المكذبين بآيات الله قال ابن عباس: يريد أهل مكة كانوا يتمنون هاديًا يهديهم وداعيًا يدعوهم إلى طاعة الله، ثم جاءهم من لا يشكون في صدقه وديانته فكذبوه، فحصل التمثيل بينهم وبين الكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث لأنهم لم يهتدوا لما تركوا ولم يهتدوا لما جاءهم الرسول فبقوا على الضلال في كل الأحوال مثل هذا الكلب الذي بقي على اللهث في كل الأحوال.

ثم قال: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ يريد: قصص الذين كفروا وكذبوا أنبياءهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يريد: يتعظون.

قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال بعد تمثيلهم بالكلب: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وزجر بذلك عن الكفر والتكذيب أكده في باب الزجر بقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الليث: ساء يسوء فعل لازم ومتعد يقال: ساءت الشيء يسوء فهو سيئ

إذا قبح وساءه يسوءه مساءة. قال النحويون: تقديره ساء مثلاً، مثل القوم انتصب مثلاً على التمييز لأنك إذا قلت ساء جاز أن تذكر شيئًا آخر سوى مثلاً، فلما ذكرت نوعًا، فقد ميزته من سائرالأنواع وقولك القوم ارتفاعه من وجهين: أحدهما: أن يكون مبتدأ ويكون قولك ساء مثلاً خبره، والثاني: أنك لما قلت ساء مثلاً. قيل لك: من هو؟ قلت: القوم، فيكون رفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف. وقرأ الجحدري: (ساء مثل القوم).

البحث الثاني: ظاهر قوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ يقتضي كون ذلك المثل موصوفًا بالسوء، وذلك غير جائز، لأن هذا المثل ذكره الله تعالى، فكيف يكون موصوفًا بالسوء، وأيضًا فهو يفيد الزجر عن الكفر والدعوة إلى الإيمان، فكيف يكون موصوفًا بالسوء، فوجب أن يكون الموصوف بالسوء ما أفاده المثل من تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم عنها، حتى صاروا في التمثيل بذلك بمنزلة الكلب اللاهث.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ فإما أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾ فيدخل حينئذ في حيز الصلة بمعنى الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم، وإما أن يكون كلامًا منقطعًا عن الصلة بمعنى وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب، وإما تقديم المفعول، فهو للاختصاص كأنه قيل وخصوا أنفسهم بالظلم وما تعدى أثر ذلك الظلم عنهم إلى غيرهم.

قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

في الآية مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما وصف الضالين بالوصف المذكور وعرف حالهم بالمثل المذكور بين في هذه الآية أن الهداية من الله، وأن الضلال من الله تعالى، وعند هذه اضطربت المعتزلة، وذكروا في التأويل وجوهًا كثيرة: الأول: وهو الذي ذكره الجبائي وارتضاه القاضي أن المراد من يهده الله إلى الجنة والثواب في الآخرة، فهو المهتدي في الدنيا، السالك طريقة الرشد فيما كلف، فبين الله تعالى أنه لا يهدي إلى الثواب في الآخرة إلا من هذا وصفه، ومن يضلله عن طريق الجنة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، والثاني: قال بعضهم: إن في الآية حذفًا، والتقدير: من يهده الله فقبل وتمسك بهداه فهو المهتدي، ومن يضلل بأن لم يقبل فهو الخاسر. الثالث: أن يكون المراد من يهده الله بمعنى أن من وصفه الله بكونه مهتديًا فهو المهتدي، لأن ذلك كالمدح ومدح الله لا يحصل إلا في حق من كان موصوفًا بذلك الوصف الممدوح، ومن يضلل أي ومن وصفه الله بكونه ضالاً ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والرابع: أن يكون المراد من يهده الله بالألطاف وزيادة الهدى فهو المهتدي ومن يضلل عن ذلك لما تقدم منه من سوء اختياره، فأخرج لهذا السبب بتلك الألطاف من أن يؤثر فيه فهو من الخاسرين.

واعلم أنا بينا أن الدلائل العقلية القاطعة، قد دلت على أن الهداية والإضلال لا يكونان إلا من الله من وجوه: الأول: أن الفعل يتوقف على حصول الداعي وحصول الداعي ليس إلا من الله فالفعل ليس إلا من الله. الثاني: أن خلاف معلوم الله ممتنع الوقوع، فمن علم الله منه الإيمان لم يقدر على الكفر وبالضد. الثالث: أن كل أحد يقصد حصول الإيمان والمعرفة، فإذا حصل الكفر عقيبه علمنا أنه ليس منه بل من غيره، ثم نقول:

أما التأويل الأول: فضعيف لأنه حمل قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ على الهداية في الآخرة إلى الجنة وقوله: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ على الاهتداء إلى الحق في الدنيا، وذلك يوجب ركاكة في النظم، بل يجب أن تكون الهداية والاهتداء راجعين إلى شيء واحد، حتى يكون الكلام حسن النظم.

وأما الثاني: فإنه التزام لإضمار زائد، وهو خلاف اللفظ، ولو جاز فتح باب أمثال هذه الإضمارات لانقلب النفي إثباتًا والإثبات نفيًا، ويخرج كلام الله عز وجل من أن يكون حجة، فإن لكل أحد أن يضمر في الآية ما يشاء، وحينئذ يخرج الكل عن الإفادة.

وأما الثالث: فضعيف لأن قول القائل فلان هدى فلانًا لا يفيد في اللغة البتة أنه وصفه بكونه مهتديًا، وقياس هذا على قوله فلان ضلل فلانًا وكفره، قياس في اللغة وأنه في نهاية الفساد والرابع: أيضًا باطل لأن كل ما في مقدور الله تعالى من الألطاف، فقد فعله عند المعتزلة في حق جميع الكفار، فحمل الآية على هذا التأويل بعيد، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ يجوز إثبات الياء فيه على الأصل، ويجوز حذفها طلبًا للتخفيف كما قيل في بيت الكتاب:

فطِرتُ بمُنصُلي في يَعمَلاتٍ ... دَوامي الأَيدِ يَخبُطنَ السَريحا (١)

ومن أبياته أيضًا:

كخوف ريش حمامة نجدية ... مسحت بماء البين عطف الأثمد (٢)

قال أبو الفتح الموصلي يريد كخواف محذوف الياء.

وأما قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يريد ومن يضلله الله ويخذله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي خسروا الدنيا والآخرة.

---

(١) هذا البيت من البحر الوافر وهو للشاعر يزيد بن الطثرية وهو يزيد بن سلمة بن سمرة، أبو الكشوح، ابن الطثرية. ؟- ١٢٦ هـ/ ؟- ٧٤٣ م شاعر أموي من بني قشير بن كعب، له شرف وقدر في قومه، كان حسن الشعر، حلو الحديث، شريفًا، متلافًا للمال، صاحب غزل وظرف وشجاعة وفصاحة. جمع علي بن عبد الله الطوسي ما تفرق من شعره في ديوان. قتله بنو حنيفة في موقعة لهم يوم الفلج من نواحي اليمامة.

(٢) البيت هكذا:

كَنَواح ريشِ حَمامَة نَجدِيَّةٍ ... وَمَسَحت بِاللِثَتَينِ عَصفَ الأَثمَدِ

وهو الخفاف بن ندبة السلمي وقد تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

هذه الآية هي الحجة الثانية في هذا الموضع على صحة مذهبنا في مسألة خلق الأفعال وإرادة الكائنات وتقريره من وجوه: الأول: أنه تعالى بين باللفظ الصريح أنه خلق كثيرًا من الجن والإنس لجهنم، ولا مزيد على بيان الله. الثاني: أنه تعالى لما أخبر عنهم بأنهم من أهل النار، فلو لم يكونوا من أهل النار انقلب علم الله جهلاً وخبره الصدق كذبًا وكل ذلك محال والمفضي إلى المحال محال، فعدم دخولهم في النار محال، ومن علم كون الشيء محالاً امتنع أن يريده، فثبت أنه تعالى يمتنع أن يريد أن لا يدخلهم في النار، بل يجب أن يريد أن يدخلهم في النار، وذلك هو الذي دل عليه لفظ الآية. الثالث: أن القادر على الكفر إن لم يقدر على الإيمان، فالذي خلق فيه القدرة على الكفر، فقد أراد أن يدخله في النار، وإن كان قادرًا على الكفر وعلى الإيمان معًا امتنع رجحان أحد الطرفين على الآخر لا لمرجح، وذلك المرجح إن حصل من قبله لزم التسلسل، وإن حصل من قبله تعالى، فلما كان هو الخالق للداعية الموجبة للظفر، فقد خلقه للنار قطعًا. الرابع: أنه تعالى لو خلقه للجنة وأعانه على اكتساب تحصيل ما يوجب دخول الجنة، ثم قدرنا أن العبد سعى في تحصيل الكفر الموجب للدخول في النار، فحينئذ حصل مراد العبد، ولم يحصل مراد الله تعالى، فيلزم كون العبد أقدر وأقوى من الله تعالى، وذلك لا يقوله عاقل، والخامس: أن العاقل لا يريد الكفر والجهل الموجب لاستحقاق النار، وإنما يريد الإيمان والمعرفة الموجبة لاستحقاق الثواب والدخول في الجنة، فلما حصل الكفر والجهل على خلاف قصد العبد وضد جهده واجتهاده، وجب أن لا يكون حصوله من قبل العبد، بل يجب أن يكون حصوله من قبل الله تعالى.

فإن قالوا: العبد إنما سعى في تحصيل ذلك الاعتقاد الفاسد الباطل، لأنه اشتبه الأمر عليه وظن أنه هو الاعتقاد الحق الصحيح.

فنقول: فعلى هذا التقدير: إنما وقع في هذا الجهل لأجل ذلك الجهل المتقدم، فإن كان إقدامه على ذلك الجهل السابق لجهل آخر لزم التسلسل وهو محال، وإن انتهى إلى جهل حصل ابتداء لا لسابقة جهل آخر، فقد توجه الإلزام وتأكد الدليل والبرهان، فثبت أن هذه البراهين العقلية ناطقة بصحة ما دل عليه صريح قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ قالت المعتزلة: لا يمكن أن يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم، لأن كثيرًا من الآيات دالة على أنه أراد من الكل الطاعة. والعبادة والخير والصلاح. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الفتح: ٨، ٩] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ

بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠]وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩]وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]وقال: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠]وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]وأمثال هذه الآيات كثيرة، ونحن نعلم بالضرورة أنه لا يجوز وقوع التناقض في القرآن، فعلمنا أنه لا يمكن حمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ على ظاهره.

الوجه الثاني: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ وهو تعالى إنما ذكر ذلك في معرض الذم لهم، ولو كانوا مخلوقين للنار، ولما كانوا قادرين على الإيمان ألبتة وعلى هذا التقدير فيقبح ذمهم على ترك الإيمان.

الوجه الثالث: وهو أنه تعالى لو خلقهم للنار لما كان له على أحد من الكفار نعمة أصلاً، لأن منافع الدنيا بالقياس إلى العذاب الدائم، كالقطرة في البحر، وكان كمن دفع إلى إنسان حلوًا مسمومًا فإنه لا يكون منعمًا عليه، فكذا ههنا. ولما كان القرآن مملوأ من كثرة نعمة الله على كل الخلق، علمنا أن الأمر ليس كما ذكرتم.

الوجه الرابع: أن المدح والذم، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب يبطل هذا المذهب الذي ينصرونه.

الوجه الخامس: لو أنه تعالى خلقهم للنار، لوجب أن يخلقهم ابتداء في النار، لأنه لا فائدة في أن يستدرجهم إلى النار بخلق الكفر فيهم.

الوجه السادس: أن قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ متروك الظاهر، لأن جهنم اسم لذلك الموضع المعين، ولا يجوز أن يكون الموضع المعين مرادًا منه، فثبت أنه لا بد وأن يقال: إن ما أراد الله تعالى بخلقهم منهم محذوف، فكأنه قال: ولقد ذرأنا لكي يكفروا فيدخلوا جهنم، فصارت الآية على قولهم متروكة الظاهر، فيجب بناؤها على قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]لأن ظاهرها يصح دون حذف.

الوجه السابع: أنه إذا كان المراد أنه إذا ذرأهم لكي يكفروا فيصيروا إلى جهنم، عاد الأمر في تأويلهم إلى أن هذه اللام للعاقبة، لكنهم يجعلونها للعاقبة مع أنه لا استحقاق للنار، ونحن قد قلناها على عاقبة حاصلة مع استحقاق النار، فكان قولنا أولى، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل هذه الآية على ظاهرها، فوجب المصير فيه إلى التأويل، وتقريره: أنه لما كانت عاقبة كثير من الجن والإنس، هي الدخول في نار جهنم، جائز ذكر هذه اللام بمعنى العاقبة، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن والشعر: أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]ومعلوم أنه تعالى ما صرفها ليقولوا ذلك، لكنهم لما قالوا ذلك، حسن ورود هذا اللفظ، وأيضًا قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا

عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨] وأيضًا قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهم ما التقطوه لهذا الغرض إلا أنه لما كانت عاقبة أمرهم ذلك، حسن هذا اللفظ، وأما الشعر فأبيات قال:

وللموت تغذوا الوالدات سخالها كما لخراب الدهر تبنى المساكن(١)

وقال:

أموالُنا لِذوي المِيراثِ نَجمَعُها ودُورُنا لِخَرَابِ الدَّهرِ نَبنيها(٢)

وقال:

لَهُ مَلَكٌ يُنادي كُلَّ يَومٍ لدوا لِلموتِ وَابنوا لِلخَرابِ(٣)

وقال:

وأم سماك فلا تجزعي فللموت ما تلد الوالدة(٤)

هذا منتهى كلام القوم في الجواب.

واعلم أن المصير في التأويل إنما يحسن إذا ثبت بالدليل امتناع العقلي حمل هذا اللفظ على ظاهره، وأما لما ثبت بالدليل أنه لا حق إلا ما دل عليه ظاهر اللفظ، كان المصير إلى التأويل في مثل هذا المقام عبثًا. وأما الآيات التي تمسكوا بها في إثبات مذهب المعتزلة، فهي: معارضة بالبحار الزاخرة المملوءة من الآيات الدالة على مذهب أهل السنة، ومن جملتها ما قبل هذه الآية وهو قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨] وهو صريح مذهبنا، وما بعد هذه الآية وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣] ولما كان ما قبل هذه الآية وما بعدها ليس، إلا ما يقوي قولنا ويشيد مذهبنا، كان كلام المعتزلة في وجوب تأويل هذه الآية ضعيفًا جدًا.

أما قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في خلق الأعمال فقالوا: لا شك

---

(١) البيت لسابق بن عبد الله البربري وهو سابق بن عبد الله البربري الرقي. ؟- ١٣٢ هـ/ ؟- ٧٤٩ م فقيه ومحدث وأحد شعراء الزهد في العهد الأموي أخذ الشعر عنه وتتلمذ له أبو العتاهية، من أهل خراسان، سكن الرقة، عرف بأبي أمية البربري وقد صحف الزبيدي صاحب تاج العروس اسمه بقوله (سابق بن عبد الله البرقي المعروف بالبربري) وترجم ابن عساكر لسابق البربري المحدث وسابق البربري الزاهد وتوهم أنهما اثنان بينما هما شخص واحد.

(٢) البيت للشاعر سابق بن عبد الله وتقدمت ترجمته في البيت السابق.

(٣) انظر سابقه.

(٤) انظر سابقه أيضًا.

أن أولئك الكفار كانت لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا، ولا شك أنه كانت لهم أعين يبصرون بها المرئيات، وآذان يسمعون بها الكلمات، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية تقييدها بما يرجع إلى الدين، وهو أنهم ما كانوا يفقهون بقلوبهم ما يرجع إلى مصالح الدين، وما كانوا يبصرون ويسمعون ما يرجع إلى مصالح الدين.

وإذا ثبت هذا فنقول: ثبت أنه تعالى كلفهم بتحصيل الدين مع أن قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ما كانت صالحة لذلك، وهو يجري مجرى المنع عن الشيء والصد عنه مع الأمر به، وذلك هو المطلوب قالت المعتزلة: لو كانوا كذلك، لقبح من الله تكليفهم، لأن تكليف من لا قدرة له على العمل قبيح غير لائق بالحكيم. فوجب حمل الآية على أن المراد منه أنهم بكثرة الإعراض عن الدلائل وعدم الالتفات إليها صاروا مشبهين بمن لا يكون له قلب فاهم ولا عين باصرة ولا أذن سامعة.

والجواب: أن الإنسان إذا تأكدت نفرته عن شيء، صارت تلك النفرة المتأكدة الراسخة مانعة له عن فهم الكلام الدال على صحة الشيء، ومانعة عن إبصار محاسنه وفضائله، وهذه حالة وجدانية ضرورية يجدها كل عاقل من نفسه. ولهذا السبب قالوا في المثل المشهور: (حبك الشيء يعمي ويصم)(١).

إذا ثبت هذا فنقول: إن أقوامًا من الكفار بلغوا في عداوة الرسول عليه الصلاة والسلام وفي بغضه وفي شدة النفرة عن قبول دينه والاعتراف برسالته هذا المبلغ وأقوى منه، والعلم الضروري حاصل بأن حصول البغض والحب في القلب ليس باختيار الإنسان، بل هو حاصل في القلب شاء الإنسان أم كره.

إذا ثبت هذا فنقول: ظهر أن حصول هذه النفرة والعداوة في القلب ليس باختيار العبد، وثبت أنه متى حصلت هذه النفرة والعداوة في القلب، فإن الإنسان لا يمكنه مع تلك النفرة الراسخة والعداوة الشديدة تحصيل الفهم والعلم، وإذا ثبت هذا ثبت القول بالجبر لزومًا لا محيص عنه.

ونقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خطبة في تقرير هذا المعنى وهو في غاية الحسن.

روى الشيخ أحمد البيهقي في كتاب (مناقب الشافعي) رضي الله تعالى عنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال: وأعجب ما في الإنسان قلبه فيه مواد من الحكمة وأضدادها، فإن سنح له الرجاء أولهه الطمع، وإن هاج له الطمع أهلكه الحرص، وإن أهلكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن سعد بالرضا شقي بالسخط، وإن ناله الخوف شغله الحزن وإن أصابته المصيبة قتله الجزع، وإن وجد مالاً أطغاه الغنى، وإن

(١) هذا ليس مثلًا إنما هو حديث نُسب إلى النبي ﷺ وإسناده ضعيف أخرجه أبو داود في كتاب (الأدب) باب (في الهوى) (٤/ ٥١٣٠ ٢١٨٤) حديث رقم/ ٥١٣٠، وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٩٤) والبخاري في كتاب (التاريخ الكبير) (٢/ ١٠٧) من طريق بلال بن أبي الدرداء... به. وفيه أبو بكر بن أبي مريم. ضعيف.

عضته فاقة شغله البلاء، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف، فكل تقصير به مضر وكل إفراط له مفسد وأقول: هذا الفصل في غاية الجلالة والشرف، وهو كالمطلع على سر مسألة القضاء والقدر، لأن أعمال الجوارح مربوطة بأحوال القلوب، وكل حالة من أحوال القلب فإنها مستندة إلى حالة أخرى حصلت قبلها، وإذا وقف الإنسان على هذه الحالة علم أنه لا خلاص من الاعتراف بالجبر، وذكر الشيخ الغزالي رحمه الله في كتاب -الإحياء- فصلاً في تقرير مذهب الجبر.

ثم قال فإن قيل: إني أجد من نفسي أني إن شئت الفعل فعلت، وإن شئت الترك تركت، فيكون فعلي حاصلاً بي لا بغيري ثم قال: وهب أنك وجدت من نفسك ذلك إلا أنا نقول: وهل تجد من نفسك أنك إن شئت أن تشاء شيئًا شئته، وإن شئت أن لا تشاء لم تشأه، ما أظنك أن تقول ذلك، وإلا لذهب الأمر فيه إلى ما لا نهاية له: بل شئت أو لم تشأ فإنك تشاء ذلك الشيء، وإذا شئته فشئت أو لم تشأ فعلته، فلا مشيئتك به ولا حصول فعلك بعد حصول مشيئتك بك فالإنسان مضطر في صورة مختار.

المسألة الثانية: احتج العلماء بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ على أن محل العلم هو القلب، لأنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم في معرض الذم، وهذا إنما يصح لو كان محل الفهم والفقه هو القلب، والله أعلم.

أما قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فتقريره أن الإنسان وسائر الحيوانات متشاركة في قوى الطبيعة الغاذية والنامية والمولدة، ومتشاركة أيضًا في منافع الحواس الخمس الباطنة والظاهرة وفي أحوال التخيل والتفكر والتذكر، وإنما حصل الامتياز بين الإنسان وبين سائر الحيوانات في القوة العقلية والفكرية التي تهديه إلى معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به: فلما أعرض الكفار عن اعتبار أحوال العقل والفكر ومعرفة الحق والعمل بالخير كانوا كالأنعام.

ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الحيوانات لا قدرة لها على تحصيل هذه الفضائل، والإنسان أعطي القدرة على تحصيلها، ومن أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخص حالاً ممن لم يكتسبها مع العجز عنها. فلهذا السبب قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وقال حكيم الشعراء:

الروح عند إله العرش مبدؤه ... وتربة الأرض أصل الجسم والبدن
قد ألف الملك الحنان بينهما ... ليصلحا لقبول الأمر والمحن
فالروح في غربة والجسم في وطن ... فاعرف ذمام الغريب النازح الوطن

وقيل في تفسير قوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وجوه أخرى فقيل: لأن الأنعام مطيعة لله تعالى والكافر غير مطيع، وقال مقاتل: هم أخطأ طريقًا من الأنعام، لأن الأنعام تعرف ربها وتذكره، وهم لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه. وقال الزجاج: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها

فتسعى في تحصيل منافعها وتحترز عن مضارها، وهؤلاء الكفار وأهل العناد أكثرهم يعلمون أنهم معاندون ومع ذلك فيصرون عليه، ويلقون أنفسهم في النار وفي العذاب، وقيل: إنها تفر أبدًا إلى أربابها، ومن يقوم بمصالحها، والكافر يهرب عن ربه وإلهه الذي أنعم عليه بنعم لا حد لها. وقيل: لأنها تضل إذا لم يكن معها مرشد، فأما إذا كان معها مرشد قلما تضل، وهؤلاء الكفار قد جاءهم الأنبياء وأنزل عليهم الكتب وهم يزدادون في الضلال ثم إنه تعالى ختم الآية فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ قال عطاء: عما أعد الله لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٨٠﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف المخلوقين لجهنم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ أمر بعده بذكر الله تعالى فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ وهذا كالتنبيه على أن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله. والمخلص عن عذاب جهنم هو ذكر الله تعالى وأصحاب الذوق والمشاهدة يجدون من أرواحهم أن الأمر كذلك فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله، وأقبل على الدنيا وشهواتها وقع في باب الحرص وزمهرير الحرمان، ولا يزال ينتقل من رغبة إلى رغبة ومن طلب إلى طلب، ومن ظلمة إلى ظلمة، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله ومعرفة الله تخلص عن نيران الآفات وعن حسرات الخسارات، واستشعر بمعرفة رب الأرض والسموات وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ مذكور في سور أربعة: أولها: هذه السورة. وثانيها: في آخر سورة بني إسرائيل في قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وثالثها: في أول طه وهو قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨]، ورابعها: في آخر الحشر وهو قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحشر: ٢٤].

إذا عرفت هذا فنقول: الأسماء ألفاظ دالة على المعاني فهي إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال، وهي محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره، وثبوت افتقار غيره إليه.

واعلم أن لنا في تفسير أسماء الله كتابًا كبيرًا كثير الدقائق شريف الحقائق سميناه بـ (لوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات)، من أراد الاستقصاء فيه فليرجع إليه، ونحن نذكر ههنا لمعًا ونكتًا منها. فنقول: إن أسماء الله يمكن تقسيمها من وجوه كثيرة.

الوجه الأول: أن نقول: الاسم إما أن يكون اسمًا للذات، أو لجزء من أجزاء الذات، أو لصفة خارجة عن الذات قائمة بها. أما اسم الذات فهو المسمى بالاسم الأعظم، وفي كشف

الغطاء عما فيه من المباحثات أسرار. وأما اسم جزء الذات فهو في حق الله تعالى محال، لأن هذا إنما يفعل في الذات المركبة من الأجزاء، وكل ما كان كذلك فهو ممكن، فواجب الوجود يمتنع أن يكون له جزء.

وأما اسم الصفة فنقول: الصفة إما أن تكون حقيقية أو إضافية أو سلبية، أو ما يتركب عن هذه الثلاثة، وهي أربعة، لأنه إما أن يكون صفة حقيقية مع إضافة أو مع سلب أو صفة سلبية مع إضافة أو مجموع صفة حقيقية وإضافة وسلبية. أما الصفة الحقيقية العارية عن الإضافة فكقولنا موجود عند من يقول: الوجود صفة، أو قولنا واحد، عند من يقول: الوحدة صفة ثانية، وكقولنا حي، فإن الحياة صفة حقيقية عارية عن النسب والإضافات، وأما الصفة الإضافية المحضة فكقولنا: مذكور ومعلوم، وأما الصفة السلبية، فكقولنا: القدوس السلام. وأما الصفة الحقيقية مع الإضافة، فكقولنا: عالم وقادر، فإن العلم صفة حقيقية، وله تعلق بالمعلوم والقادر، فإن القدرة صفة حقيقية، ولها تعلق بالمقدور، وأما الصفة الحقيقية مع السلبية. فكقولنا: قديم أزلي، لأنه عبارة عن موجود لا أول له. وأما الصفة الإضافية مع السلبية، فكقولنا: أول. فإنه هو الذي سبق غيره وما سبقه غيره، وأما الصفة الحقيقية مع الإضافة والسلب، فكقولنا: حكيم، فإنه هو الذي يعلم حقائق الأشياء، ولا يفعل ما لا يجوز فعله فصفة العلم صفة حقيقية، وكون هذه الصفة متعلقة بالمعلومات، نسب وإضافات، وكونه غير فاعل لما لا ينبغي سلب.

إذا عرفت هذا فنقول: السلوب، غير متناهية، والإضافات أيضًا غير متناهية، فكونه خالقًا للمخلوقات صفة إضافية، وكونه محييًا ومميتًا إضافات مخصوصة، وكونه رازقًا أيضًا إضافة أخرى مخصوصة. فيحصل بسبب هذين النوعين من الاعتبارات أسماء لا نهاية لها لله تعالى، لأن مقدوراته غير متناهية، ولما كان لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته، وإنما السبيل إلى معرفته بمعرفة أفعاله فكل من كان وقوفه على أسرار حكمته في مخلوقاته أكثر، كان علمه بأسماء الله أكثر. ولما كان هذا بحرًا لا ساحل له ولا نهاية له، فكذلك لا نهاية لمعرفة أسماء الله الحسنى.

النوع الثاني: في تقسيم أسماء الله ما قاله المتكلمون: وهو أن صفات الله تعالى ثلاثة أنواع: ما يجب، ويجوز، ويستحيل على الله تعالى. ولله تعالى بحسب كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة أسماء مخصوصة.

والنوع الثالث: في تقسيم أسماء الله أن صفات الله تعالى إما أن تكون ذاتية، أو معنوية، أو كانت من صفات الأفعال.

والنوع الرابع: في تقسيم أسماء الله تعالى إما أن يجوز إطلاقها على غير الله تعالى، أو لا يجوز. أما القسم الأول: فهو كقولنا: الكريم الرحيم العزيز اللطيف الكبير الخالق، فإن هذه الألفاظ يجوز إطلاقها على العباد، وإن كان معناها في حق الله تعالى مغايرًا لمعناها في حق

العباد. وأما القسم الثاني فهو كقولنا: الله الرحمن. أما القسم الأول: فإنها إذا قيدت بقيود مخصوصة صارت بحيث لا يمكن إطلاقها إلا في حق الله تعالى كقولنا: يا أرحم الراحمين، ويا أكرم الأكرمين، ويا خالق السموات والأرضين.

النوع الخامس: في تقسيم أسماء الله أن يقال: من أسماء الله ما يمكن ذكره وحده، كقولنا: يا الله يا رحمن يا حي يا حكيم، ومنها ما لا يكون كذلك، كقولنا: مميت وضار، فإنه لا يجوز إفراده بالذكر، بل يجب أن يقال: يا محيي يا مميت يا ضار يا نافع.

النوع السادس: في تقسيم أسماء الله تعالى أن يقال: أول ما يعلم من صفات الله تعالى كونه محدثًا للأشياء مرجحًا لوجودها على عدمها، وذلك لأنا إنما نعلم وجوده سبحانه بواسطة الاستدلال بوجود الممكنات عليه، فإذا دل الدليل على أن هذا العالم المحسوس ممكن الوجود والعدم لذاته، قضى العقل بافتقاره إلى مرجح يرجح وجوده على عدمه، وذلك المرجح ليس إلا الله سبحانه، فثبت أن أول ما يعلم منه تعالى هو كونه مرجحًا ومؤثرًا، ثم نقول ذلك المرجح إما أن يرجح على سبيل الوجوب أو على سبيل الصحة والأول باطل، وإلا لدام العالم بدوامه، وذلك باطل، فبقي أنه إنما رجح على سبيل الصحة وكونه مرجحًا على سبيل الصحة، ليس إلا كونه تعالى قادرًا، فثبت أن المعلوم منه بعد العلم بكونه مرجحًا، هو كونه قادرًا. ثم إنا بعد هذا نستدل بكون أفعاله محكمة متقنة على كونه عالمًا، ثم إنا إذا علمنا كونه تعالى قادرًا عالمًا، وعلمنا أن العالم القادر يمتنع أن يكون إلا حيًا، علمنا من كونه قادرًا عالمًا، كونه حيًا. فظهر بهذا أنه ليس العلم بصفاته تعالى وبأسمائه واقعًا في درجة واحدة، بل العلم بها علوم مترتبة يستفاد بعضها من بعض.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يفيد الحصر، ومعناه أن الأسماء الحسنى ليست إلا لله تعالى، والبرهان العقلي قد يدل على صحة هذا المعنى، وذلك لأن الموجود إما واجب الوجود لذاته، وإما ممكن لذاته، والواجب لذاته ليس إلا الواحد وهو الله سبحانه، وأما ما سوى ذلك الواحد، فهو ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته، فهو محتاج في ماهيته وفي وجوده وفي جميع صفاته الحقيقية والإضافية والسلبية إلى تكوين الواجب لذاته، ولولاه لبقي على العدم المحض والسلب الصرف، فالله سبحانه كامل لذاته، وكمال كل ما سواه فهو حاصل بجوده وإحسانه، فكل كمال وجلال وشرف، فهو له سبحانه بذاته ولذاته وفي ذاته، ولغيره على سبيل العارية، والذي لغيره من ذاته، فهو الفقر والحاجة والنقصان والعدم، فثبت بهذا البرهان البين أن الأسماء الحسنى ليست إلا لله، والصفات الحسنى ليست إلا لله، وأن كل ما سواه، فهو غرق في بحر الفناء والنقصان.

المسألة الثالثة: دلت هذه الآية على أن أسماء الله ليست إلا لله، والصفات الحسنى ليست إلا لله، فيجب كونها موصوفة بالحسن والكمال فهذا يفيد أن كل اسم لا يفيد في المسمى صفة

كمال وجلال فإنه لا يجوز إطلاقه على الله سبحانه، وعند هذا نقل عن جهم بن صفوان أنه قال: لا أطلق على ذات الله تعالى اسم الشيء. قال: لأن اسم الشيء يقع على أخس الأشياء وأكثرها حقارة وأبعدها عن درجات الشرف، وإذا كان كذلك وجب القطع بأنه لا يفيد في المسمى شرفًا ورتبة وجلالة.

وإذا ثبت هذا فنقول: ثبت بمقتضى هذه الآية أن أسماء الله يجب أن تكون دالة على الشرف والكمال، وثبت أن اسم الشيء ليس كذلك فامتنع تسمية الله بكونه شيئًا. قال: ومعاذ الله أن يكون هذا نزاعًا في كونه في نفسه حقيقة وذاتًا وموجودًا، إنما النزاع وقع في محض اللفظ، وهو أنه هل يصح تسميته بهذا اللفظ أم لا؟ فأما قولنا إنه منشئ الأشياء، فهو اسم يفيد المدح والجلال والشرف، فكان إطلاق هذا الاسم على الله حقًّا، ثم أكد هذه الحجة بأنواع أخر من الدلائل.

فالأول: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] معناه: ليس مثل مثله شيء، ولا شك أن عين الشيء مثل لمثل نفسه. فلما ثبت بالعقل أن كل شيء فهو مثل مثل نفسه، ودل الدليل القرآني على أن مثل مثل الله ليس بشيء، كان هذا تصريحًا بأنه تعالى غير مسمى باسم الشيء، وليس لقائل أن يقول (الكاف) في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ [الشورى: ١١] حرف زائد لا فائدة فيه، لأن حمل كلام الله على اللغو والعبث وعدم الفائدة بعيد.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢، الرعد: ١٦، غافر: ٦٢] ولو كان تعالى داخلاً تحت اسم الشيء لزم كونه تعالى خالقًا لنفسه وهو محال. لا يقال هذا عام دخله التخصيص، لأنا نقول هذا كلام لا بد من البحث عنه فنقول: ثبت بحسب العرف المشهور أنهم يقيمون الأكثر مقام الكل، ويقيمون الشاذ النادر مقام العدم.

إذا ثبت هذا فنقول: إنه إذا حصل الأكثر الأغلب وكان الغالب الشاذ الخارج نادرًا، ألحقوا ذلك الأكثر بالكل، وألحقوا ذلك النادر بالمعدوم، وأطلقوا لفظ الكل عليه، وجعلوا ذلك الشاذ النادر من باب تخصيص العموم.

وإذا عرفت هذا فنقول: إن بتقدير أن يصدق على الله تعالى اسم الشيء كان أعظم الأشياء هو الله تعالى، وإدخال التخصيص في مثل هذا المسمى يكون من باب الكذب، فوجب أن يعتقد أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء حتى لا يلزمنا هذا المحذور.

الحجة الثالثة: هذا الاسم ما ورد في كتاب الله ولا سنة رسوله، وما رأينا أحدًا من السلف قال في دعائه: يا شيء، فوجب الامتناع منه، والدليل على أنه غير وارد في كتاب الله أن الآية التي يتوهم اشتمالها على هذا الاسم قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] وقد بينا في سورة الأنعام أن هذه الآية لا تدل على المقصود، فسقط الكلام فيه.

فإن قال قائل: فقولنا: موجود ومذكور وذات ومعلوم، ألفاظ لا تدل على الشرف والجلال فوجب أن تقولوا إنه لا يجوز إطلاقها على الله تعالى. فنقول: الحق في هذا الباب التفصيل،

وهو أنا نقول: ما المراد من قولك: إنه تعالى شيء، وذات، وحقيقة؟ إن عنيت أنه تعالى في نفسه ذات وحقيقة وثابت وموجود وشيء، فهو كذلك من غير شك ولا شبهة، وإن عنيت به أنه هل يجوز أن ينادى بهذه الألفاظ أم لا؟ فنقول لا يجوز. لأنا رأينا السلف يقولون: يا الله يا رحمن يا رحيم إلى سائر الأسماء الشريفة، وما رأينا ولا سمعنا أن أحدًا يقول: يا ذات يا حقيقة يا مفهوم ويا معلوم، فكان الامتناع عن مثل هذه الألفاظ في معرض النداء والدعاء واجبًا لله تعالى. والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ يدل على أنه تعالى حصلت له أسماء حسنة، وأنه يجب على الإنسان أن يدعو الله بها، وهذا يدل على أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية. ومما يؤكد هذا أنه يجوز أن يقال: يا جواد، ولا يجوز أن يقال: يا سخي، ولا أن يقال يا عاقل يا طبيب يا فقيه. وذلك يدل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية.

المسألة الخامسة: دلت الآية على أن الاسم غير المسمى لأنها تدل على أن أسماء الله كثيرة لأن لفظ الأسماء لفظ الجمع، وهي تفيد الثلاثة فما فوقها، فثبت أن أسماء الله كثيرة ولا شك أن الله واحد، فلزم القطع بأن الاسم غير المسمى وأيضًا قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يقتضي إضافة الأسماء إلى الله، وإضافة الشيء إلى نفسه محال. وأيضًا فلو قيل: ولله الذوات لكان باطلاً. ولما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ كان حقًّا وذلك يدل على أن الاسم غير المسمى.

المسألة السادسة: قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ يدل على أن الإنسان لا يدعو ربه إلا بتلك الأسماء الحسنى، وهذه الدعوة لا تتأتى إلا إذا عرف معاني تلك الأسماء، وعرف بالدليل أن له إلهًا وربًّا خالقًا موصوفًا بتك الصفات الشريفة المقدسة، فإذا عرف بالدليل ذلك فحينئذ يحسن أن يدعو ربه بتلك الأسماء والصفات، ثم إن لتلك الدعوة شرائط كثيرة مذكورة بالاستقصاء في كتاب (المنهاج) لأبي عبد الله الحليمي، وأحسن ما فيه أن يكون مستحضرًا لأمرين: أحدهما: عزة الربوبية. والثانية: ذلة العبودية. فهناك يحسن ذلك الدعاء ويعظم موقع ذلك الذكر. فأما إذا لم يكن كذلك كان قليل الفائدة، وأنا أذكر لهذا المعنى مثالاً، وهو أن من أراد أن يقول في تحريمة صلاته الله أكبر، فإنه يجب أن يستحضر في النية جميع ما أمكنه من معرفة آثار حكمة الله تعالى في تخليق نفسه وبدنه وقواه العقلية والحسية أو الحركية، ثم يتعدى من نفسه إلى استحضار آثار حكمة الله في تخليق جميع الناس، وجميع الحيوانات، وجميع أصناف النبات والمعادن، والآثار العلوية من الرعد والبرق والصواعق التي توجد في كل أطراف العالم، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى في تخليق الأرضين والجبال والبحار والمفاوز، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى في تخليق طبقات العناصر السفلية والعلوية، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى في تخليق أطباق السموات على سعتها وعظمها، وفي تخليق أجرام النيرات من الثوابت والسيارات، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى في تخليق الكرسي وسدرة المنتهى، ثم

يستحضر آثار قدرته في تخليق العرش العظيم المحيط بكل هذه الموجودات، ثم يستحضر آثار قدرته في تخليق الملائكة من حملة العرش والكرسي وجنود عالم الروحانيات، فلا يزال يستحضر من هذه الدرجات والمراتب أقصى ما يصل إليه فهمه وعقله وذكره وخاطره وخياله، ثم عند استحضار جميع هذه الروحانيات والجسمانيات على تفاوت درجاتها وتباين منازلها ومراتبها، ويقول الله أكبر، ويشير بقوله الله إلى الموجود الذي خلق هذه الأشياء وأخرجها من العدم إلى الوجود، ورتبها بما لها من الصفات والنعوت، وبقوله أكبر أي: أنه لا يشبه لكبريائه وجبروته وعزه وعلوه وصمديته هذه الأشياء بل هو أكبر من أن يقال: إنه أكبر من هذه الأشياء. فإذا عرفت هذا المثال الواحد فقس الذكر الحاصل مع العرفان والشعور، وعند هذا ينفتح على عقلك نسمة من الأسرار المودعة تحت قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ ووافقه عاصم والكسائي في النحل. قال الفراء: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ و ﴿يَلْحَدُونَ﴾ لغتان: يقال: لحدت لحدًا وألحدت، قال أهل اللغة: معنى الإلحاد في اللغة الميل عن القصد. قال ابن السكيت: الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه. يقال: قد ألحد في الدين ولحد، وقال أبو عمرو من أهل اللغة: الإلحاد: العدل عن الاستقامة والانحراف عنها. ومنه اللحد الذي يحفر في جانب القبر. قال الواحدي رحمه الله: والأجود قراءة العامة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ [الحج: ٢٥] والإلحاد أكثر في كلامهم لقولهم: ملحد، ولا تكاد تسمع العرب يقولون لاحد.

المسألة الثانية: قال المحققون: الإلحاد في أسماء الله يقع على ثلاثة أوجه: الأول: إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله، مثل أن الكفار كانوا يسمون الأوثان بآلهة، ومن ذلك أنهم سموا أصنامًا لهم باللات والعزى والمناة، واشتقاق اللات من الإله، والعزى من العزيز، واشتقاق مناة من المنان. وكان مسيلمة الكذاب لقب نفسه بالرحمن. والثاني: أن يسموا الله بما لا يجوز تسميته به، مثل تسمية من سماه أبًا للمسيح. وقول جمهور النصارى: أب، وابن، وروح القدس، ومثل أن الكرامية يطلقون لفظ الجسم على الله سبحانه ويسمونه به، ومثل أن المعتزلة قد يقولون في أثناء كلامهم، لو فعل تعالى كذا وكذا لكان سفيهًا مستحقًّا للذم، وهذه الألفاظ مشعرة بسوء الأدب. قال أصحابنا: وليس كل ما صح معناه جاز إطلاقه باللفظ في حق الله، فإنه ثبت بالدليل أنه سبحانه هو الخالق لجميع الأجسام، ثم لا يجوز أن يقال: يا خالق الديدان والقرود والقردان، بل الواجب تنزيه الله عن مثل هذه الأذكار، وأن يقال: يا خالق الأرض والسموات يا مقيل العثرات يا راحم العبرات إلى غيرها من الأذكار الجميلة الشريفة. والثالث: أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه ولا يتصور مسماه، فإنه ربما كان مسماه أمرًا

غير لائق بجلال الله، فهذه الأقسام الثلاثة هي الإلحاد في الأسماء.

فإن قال قائل: هل يلزم من ورود الأول في إطلاق لفظه على الله تعالى أن يطلق عليه سائر الألفاظ المشتقة منه على الإطلاق؟

قلنا: الحق عندي أن ذلك غير لازم لا في حق الله تعالى، ولا في حق الملائكة والأنبياء وتقريره: أن لفظ (علم) ورد في حق الله تعالى في آيات منها قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣] ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥] ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢] ثم لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى يا معلم، وأيضًا ورد قوله: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] ثم لا يجوز عندي أن يقال يا محب. وأما في حق الأنبياء، فقد ورد في حق آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] ثم لا يجوز أن يقال إن آدم كان عاصيًا غاويًا، وورد في حق موسى عليه السلام ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ [القصص: ٢٦] ثم لا يجوز أن يقال إنه عليه السلام كان أجيرًا، والضابط أن هذه الألفاظ الموهمة يجب الاقتصار فيها على الوارد، فأما التوسع بإطلاق الألفاظ المشتقة منها فهي عندي ممنوعة غير جائزة.

ثم قال تعالى: ﴿ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فهو تهديد ووعيد لمن ألحد في أسماء الله. قالت المعتزلة: الآية قد دلت على إثبات العمل للعبد، وعلى أن الجزاء مفرع على عمله وفعله.

قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ۞ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فأخبر أن كثيرًا من الثقلين مخلوقون للنار أتبعه بقوله: ﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ ليبين أيضًا أن كثيرًا منهم مخلوقون للجنة. واعلم أنه تعالى ذكر في قصة موسى قوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] فلما أعاد الله تعالى هذا الكلام ههنا حمله أكثر المفسرين على أن المراد منه قوم محمد ﷺ روى قتادة وابن جريج عن النبي ﷺ أنها هذه الأمة وروى أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**هذه فيهم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها**» وعن الربيع بن أنس أنه قال: قرأ النبي ﷺ هذه الآية فقال: «**إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَنْزِلَ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ**» (١) وقال ابن عباس يريد أمة محمد عليه الصلاة والسلام المهاجرين والأنصار.

قال الجبائي: هذه الآية تدل على أنه لا يخلو زمان البتة عمن يقوم بالحق ويعمل به ويهدي إليه وأنهم لا يجتمعون في شيء من الأزمنة على الباطل، لأنه لا يخلو إما أن يكون المراد زمان وجود محمد ﷺ وهو الزمان الذي نزلت فيه هذه الآية. أو المراد أنه قد حصل زمان من

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٦/٢٩٣) حديث رقم/ ٩٣٥٥ من طريق مهران عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس. . . به. في إسناده إعضال أو إرسال فالربيع بن أنس من صغار التابعين فهو إلى الإعضال أقرب.

الأزمنة حصل فيه قوم بالصفة المذكورة، أو المراد ما ذكرنا أنه لا يخلو زمان من الأزمنة عن قوم موصوفين بهذه الصفة والأول باطل. لأنه قد كان ظاهرًا لكل الناس أن محمدًا وأصحابه على الحق، فحمل الآية على هذا المعنى يخرجه عن الفائدة، والثاني باطل أيضًا، لأن كل أحد يعلم بالضرورة أنه قد حصل زمان ما في الأزمنة الماضية حصل فيه جَمْعٌ من المحقين، فلم يبق إلا القسم الثالث. وهو أدل على أنه ما خلا زمان عن قوم من المحقين وأن إجماعهم حجة، وعلى هذا التقدير فهذا يدل على أن إجماع سائر الأمم حجة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الأمة الهادية العادلة، أعاد ذكر المكذبين بآيات الله تعالى، وما عليهم من الوعيد، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهذا يتناول جميع المكذبين، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: المراد أهل مكة، وهو بعيد، لأن صفة العموم يتناول الكل، إلا ما دل الدليل على خروجه منه.

وأما قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ فالاستدراج الاستفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال، درجة بعد درجة، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب طواه شيئًا بعد شيء ودرج القوم، مات بعضهم عقيب بعضهم، ويحتمل أن يكون هذا اللفظ مأخوذ من الدرج وهو لف الشيء وطيه جزأ فجزأ.

إذا عرفت هذا فالمعنى سنقربهم إلى ما يهلكهم، ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، وذلك لأنهم كلما أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم بابًا من أبواب النعمة والخير في الدنيا، فيزدادون بطرًا وانهماكًا في الفساد وتماديًا في الغي، ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف تلك النعم، ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرتهم أغفل ما يكون، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما حمل إليه كنوز كسرى: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَكُونَ مُسْتَدْرَجًا فَإِنِّي أَسْمَعُكَ تَقُول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾».

ثم قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ الإملاء في اللغة الإمهال وإطالة المدة ونقيضه الإعجال والملى زمان طويل من الدهر ومنه قوله: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي: طويلاً. ويقال: مَلوة ومُلوة وملاوة من الدهر أي زمان طويل، فمعنى ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ أي: أمهلهم وأطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا في المعاصي ولا أعاجلهم بالعقوبة على المعصية ليقلعوا عنها بالتوبة والإنابة. وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قال ابن عباس: يريد إن مكري شديد، والمتين من كل شيء هو القوي يقال متن متانة.

واعلم أن أصحابنا احتجوا في مسألة القضاء والقدر بهذه الألفاظ الثلاثة، وهي الاستدراج

والإملاء والكيد المتين، وكلها تدل على أنه تعالى أراد بالعبد ما يسوقه إلى الكفر والبعد عن الله تعالى، وذلك ضد ما يقوله المعتزلة.

أجاب أبو علي الجبائي، بأن المراد من الاستدراج، أنه تعالى استدرجهم إلى العقوبات حتى يقعوا فيها من حيث لا يعلمون، استدراجًا لهم إلى ذلك حتى يقعوا فيه بغتة، وقد يجوز أن يكون هذا العذاب في الدنيا كالقتل والاستئصال، ويجوز أن يكون عذاب الآخرة. قال: وقد قال بعض المجبرة المراد: سنستدرجهم إلى الكفر من حيث لا يعلمون. قال: وذلك فاسد، لأن الله تعالى أخبر بتقدم كفرهم، فالذي يستدرجهم إليه فعل مستقبل، لأن السين في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ يفيد الاستقبال، ولا يجب أن يكون المراد: أن يستدرجهم إلى كفر آخر لجواز أن يميتهم قبل أن يوقعهم في كفر آخر، فالمراد إذن ما قلناه، ولأنه تعالى لا يعاقب الكافر بأن يخلق فيه كفرًا آخر، والكفر هو فعله، وإنما يعاقبه بفعل نفسه.

وأما قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ فمعناه: أني أبقيهم في الدنيا مع إصرارهم على الكفر، ولا أعاجلهم بالعقوبة لأنهم لا يفوتونني ولا يعجزونني، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ لأن كيده هو عذابه، وسماه كيدًا لنزوله بالعباد من حيث لا يشعرون.

والجواب عنه من وجهين:

الأول: أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ معناه: ما ذكرنا أنهم كلما زادوا تماديًا في الذنب والكفر، زادهم الله نعمة وخيرًا في الدنيا، فيصير فوزهم بلذات الدنيا سببًا لتماديهم في الإعراض عن ذكر الله وبعدًا عن الرجوع إلى طاعة الله، هذه حالة نشاهدها في بعض الناس، وإذا كان هذا أمرًا محسوسًا مشاهدًا فكيف يمكن إنكاره.

الثاني: هب أن المراد منه الاستدراج إلى العقاب، إلا أن هذا أيضًا يبطل القول بأنه تعالى ما أراد بعبده إلا الخير والصلاح، لأنه تعالى لما علم أن هذا الاستدراج، وهذا الإمهال مما قد يزيد به عتوًّا وكفرًا وفسادًا واستحقاق العقاب الشديد، فلو أراد به الخير لأماته قبل أن يصير مستوجبًا لتلك الزيادات من العقوبة بل لكان يجب في حكمته ورعايته للمصالح أن لا يخلقه ابتداء صونًا له عن هذا العقاب، أو أن يخلقه لكنه يميته قبل أن يصير في حد التكليف، أو أن لا يخلقه إلا في الجنة، صونًا له عن الوقوع في آفات الدنيا وفي عقاب الآخرة، فلما خلقه في الدنيا وألقاه في ورطة التكليف. وأطال عمره ومكنه من المعاصي مع علمه بأن ذلك لا يفيد إلا مزيد الكفر والفسق واستحقاق العقاب، علمنا أنه ما خلقه إلا للعذاب وإلا للنار، كما شرحه في الآية المتقدمة، وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وأنا شديد التعجب من هؤلاء المعتزلة، فإنهم يرون القرآن كالبحر الذي لا ساحل له مملوأ من هذه الآيات والدلائل العقلية القاهرة القاطعة مطابقة لها، ثم إنهم يكتفون في تأويلات هذه الآيات بهذه

الوجوه الضعيفة والكلمات الواهية، إلا أن علمي بأن ما أراده الله كائن يزيل هذا التعجب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما بالغ في تهديد المعرضين عن آياته، الغافلين عن التأمل في دلائله وبيناته، عاد إلى الجواب عن شبهاتهم. فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ والتفكر طلب المعنى بالقلب وذلك لأن فكرة القلب هو المسمى بالنظر، والتعقل في الشيء والتأمل فيه والتدبر له، وكما أن الرؤية بالبصر حالة مخصوصة من الانكشاف والجلاء، ولها مقدمة وهي تقليب الحدقة إلى جهة المرئي: طلبًا لتحصيل تلك الرؤية بالبصر، فكذلك الرؤية بالبصيرة، وهي المسماة بالعلم واليقين، حالة مخصوصة في الانكشاف والجلاء، ولها مقدمة وهي تقليب حدقة العقل إلى الجوانب، طلبًا لذلك الانكشاف والتجلي، وذلك هو المسمى بنظر العقل وفكرته، فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ أمر بالفكر والتأمل والتدبر والتروي لطلب معرفة الأشياء كما هي عرفانًا حقيقيًا تامًا، وفي اللفظ محذوف. والتقدير: أولم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم من جنة، والجنة حالة من الجنون، كالجلسة والركبة ودخول (من) في قوله: ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ يوجب أن لا يكون به نوع من أنواع الجنون.

واعلم أن بعض الجهال من أهل مكة كانوا ينسبونه إلى الجنون لوجهين: الأول: أن فعله عليه السلام كان مخالفًا لفعلهم، وذلك لأنه عليه السلام كان معرضًا عن الدنيا مقبلاً على الآخرة، مشتغلاً بالدعوة إلى الله، فكان العمل مخالفًا لطريقتهم، فاعتقدوا فيه أنه مجنون. قال الحسن وقتادة: أن النبي ﷺ قام ليلاً على الصفا يدعو فخذًا فخذًا من قريش. فقال: يا بني فلان يا بني فلان[(١)]، وكان يحذرهم بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، واظب على الصياح طول هذه الليلة، فأنزل الله تعالى هذه الآية وحثهم على التفكر في أمر الرسول عليه السلام، ليعلموا أنه إنما دعا للإنذار لا لما نسبه إليه الجهال. الثاني: أنه عليه السلام كان يغشاه حالة عجيبة عند نزول الوحي فيتغير وجهه ويصفر لونه، وتعرض له حالة شبيهة بالغشي، فالجهال كانوا يقولون إنه جنون فالله تعالى بين في هذه الآية أنه ليس به نوع من أنواع الجنون، وذلك لأنه عليه السلام كان يدعوهم إلى الله، ويقيم الدلائل القاطعة والبينات الباهرة، بألفاظ فصيحة بلغت في الفصاحة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضتها، وكان حسن الخلق، طيب العشرة، مرضي الطريقة نقي السيرة، مواظبًا على أعمال حسنة صار بسببها قدوة للعقلاء العالمين، ومن المعلوم بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون، وإذا

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري في (تفسيره) (٦/ ١٣٦) من طريق سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ . . . فذكره. وهذا من مراسيل قتادة وفيه انقطاع يقول قتادة ذكر لنا. . . الحديث.

ثبت هذا ظهر أن اجتهاده على الدعوة إلى الدين إنما كان لأنه نذير مبين، أرسله رب العالمين لترهيب الكافرين، وترغيب المؤمنين، ولما كان النظر في أمر النبوة مفرعًا على تقرير دلائل التوحيد، لا جرم ذكر عقيبه ما يدل على التوحيد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ واعلم أن دلائل ملكوت السماوات والأرض على وجود الصانع الحكيم القديم كثيرة، وقد فصلناها في هذا الكتاب مرارًا وأطوارًا فلا فائدة في الإعادة.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ والمقصود التنبيه على أن الدلائل على التوحيد غير مقصورة على السماوات والأرض. بل كل ذرة من ذرات عالم الأجسام والأرواح فهي برهان باهر، ودليل قاهر على التوحيد، ولنقرر هذا المعنى بمثال. فنقول: إن الضوء إذا وقع على كوة البيت ظهر الذرات والهباآت، فلنفرض الكلام في ذرة واحدة من تلك الذرات فنقول: إنها تدل على الصانع الحكيم من جهات غير متناهية، وذلك لأنها مختصة بحيز معين من جملة الأحياز التي لا نهاية لها في الخلاء الذي لا نهاية له، وكل حيز من تلك الأحياز الغير المتناهية، فرضنا وقوع تلك الذرة فيه كان اختصاصها بذلك الحيز المعين من الممكنات والجائزات، والممكن لا بد له من مخصص ومرجح وذلك المخصص إن كان جسمًا عاد السؤال فيه، وإن لم يكن جسمًا فهو الله سبحانه، وأيضًا فتلك الذرة لا تخلو عن الحركة والسكون، وكل ما كان كذلك فهو محدث، وكل محدث فإن حدوثه لا بد وأن يكون مختصًا بوقت معين مع جواز حصوله قبل ذلك وبعده، فاختصاصه بذلك الوقت المعين الذي حدث فيه، لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص قديم فإن كان ذلك المخصص جسمًا عاد السؤال فيه، وإن لم يكن جسمًا فهو الله سبحانه وتعالى، وأيضًا أن تلك الذرة مساوية لسائر الأجسام في التحيز والحجمية. ومخالفة لها في اللون والشكل والطبع والطعم وسائر الصفات. واختصاصها بكل تلك الصفات التي باعتبارها خالفت سائر الأجسام، لا بد وأن يكون من الجائزات، والجائز لا بد له من مرجح، وذلك المرجح إن كان جسمًا عاد البحث الأول فيه، وإن لم يكن جسمًا فهو الله سبحانه، فثبت أن تلك الذرة دالة على وجود الصانع من جهات غير متناهية، واعتبارات غير متناهية، وكذا القول في جميع أجزاء العالم الجسماني والروحاني، مفرداته ومركباته وسفلياته وعلوياته وعند هذا يظهر لك صدق ما قال الشاعر:

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ [(١)]

(١) البيت لأبي العتاهية وتقدمت ترجمته.

وإذا عرفت هذا فحينئذ ظهرت الفائدة لك من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ ولما نبه الله تعالى على هذه الأسرار العجيبة والدقائق اللطيفة، أردفه بما يوجب الترغيب الشديد في الإتيان بهذا النظر والتفكر فقال: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ ولفظة (أن) في قوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ هي المخففة من الثقيلة تقديره: وأنه عسى، والضمير ضمير الشأن، والمعنى: لعل آجالهم قربت فهلكوا على الكفر ويصيروا إلى النار، وإذا كان هذا الاحتمال قائمًا وجب على العاقل المسارعة إلى هذه الفكرة، والمبادرة إلى هذه الرؤية، سعيًا في تخليص النفس من هذا الخوف الشديد والخطر العظيم، ولما ذكر تعالى هذه البيانات الجلية والدلائل العقلية قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لأنهم إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن مع ما فيه من هذه التنبيهات الظاهرة والبينات الباهرة، فكيف يرضى منهم الإيمان بغيره. واعلم أن هذه الآية دالة على مطالب كثيرة.

المطلب الأول: أن التقليد غير جائز ولا بد من النظر والاستدلال، والدليل على أن الأمر كذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ .

والمطلب الثاني: أن أمر النبوة متفرع على التوحيد، والدليل عليه أنه لما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أتبعه بذكر ما يدل على التوحيد، ولولا أن الأمر كذلك، لما كان إلى هذا الكلام حاجة.

والمطلب الثالث: تمسك الجبائي والقاضي بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ على أن القرآن ليس قديمًا قالوا: لأن الحديث ضد القديم، وأيضًا فلفظ الحديث يفيد من جهة العادة حدوثه عن قرب، ولذلك يقال: إن هذا الشيء حديث، وليس بعتيق فيجعلون الحديث ضد العتيق الذي طال زمان وجوده، ويقال: في الكلام إنه حديث، لأنه يحدث حالاً بعد حال على الأسماع.

وجوابنا عنه: أنه محمول على الألفاظ من الكلمات ولا نزاع في حدوثها.

المطلب الرابع: أن النظر في ملكوت السموات والأرض لا يكون إلا بعد معرفة أقسامها وتفصيل الكلام في شرح أقسامها، أن يقال كل ما سوى الله تعالى، فهو إما أن يكون متحيزًا أو حالاً في المتحيز أو لا متحيزًا، ولا حالاً في المتحيز، أما المتحيز فإما أن يكون بسيطًا، وإما أن يكون مركبًا، أما البسائط فهي إما علوية وإما سفلية، أما العلوية فهي الأفلاك والكواكب، ويندرج فيما ذكرناه العرش والكرسي، ويدخل فيه أيضًا الجنة والنار، والبيت المعمور، والسقف المرفوع واستقص في تفصيل هذه الأقسام، وأما السفلية فهي: طبقات العناصر الأربعة، ويدخل فيها البحار والجبال والمفاوز، وأما المركبات فهي أربعة الآثار العلوية والمعادن والنبات والحيوان، واستقص في تفصيل أنواع هذه الأجناس الأربعة، وأما الحال في المتحيز وهي الأعراض، فيقرب أجناسها من أربعين جنسًا، ويدخل تحت كل جنس أنواع

كثيرة، ثم إذا تأمل العاقل في عجائب أحكامها ولوازمها وآثارها ومؤثراتها فكأنه خاض في بحر لا ساحل له.

وأما القسم الثالث: وهو أن الموجود لا يكون متحيزًا ولا حالاً في المتحيز، فهو قسمان، لأنه إما أن يكون متعلقًا بأجسام بالتدبير والتحريك، وهو المسمى بالأرواح، وإما أن لا يكون كذلك، وهي الجواهر القدسية المبرأة عن علائق الأجسام. أما القسم الأول فأعلاها وأشرفها الأرواح الثمانية المقدسة الحاملة للعرش، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] ويتلوها الأرواح المقدسة المشارة إليها بقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥] ويتلوها سكان الكرسي، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ويتلوها الأرواح المقدسة في طبقات السموات السبع. وإليهم الإشارة بقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١-٣] ومن صفاتهم، أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

واعلم أن هذا الذي ذكرناه وفصلناه من ملك الله وملكوته كالقطرة في البحر فلعل الله سبحانه له ألف ألف عالم وراء هذا العالم، وله في كل واحد منها عرش أعظم من هذا العرش، وكرسي أعلى من هذا الكرسي، وسموات أوسع من هذه السموات، وكيف يمكن إحاطة عقل البشر بكمال ملك الله وملكوته، بعد أن سمع قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] فإذا استحضر الإنسان هذه الأقسام في عقله وأراد الخوض في معرفة أسرار حكمته وإلهيته فهم قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] ونعم ما قال أبو العلاء المعري[(١)]:

يا أيها الناس كم لله من فلك ... تجري النجوم به والشمس والقمر
هنا على الله ماضينا وغابرنا ... فما لنا في نواحي غيره خطر

قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٨٦﴾

اعلم أنه تعالى عاد في هذه الآية مرة أخرى إلى نعت أحوال الضالين المكذبين فقال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ واعلم أن استدلال أصحابنا بهذه الآية على أن الهدى والضلال من الله مثل ما سبق في الآية السالفة، وتأويلات المعتزلة، وجوابنا عنها مثل ما تقدم فلا فائدة في

(١) تقدم ترجمة أبي العلاء المعري.

في الإعادة، وقوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ رفع بالاستئناف وهو مقطوع عما قبله، وقرأ أبو عمرو (ويذرهم) بالياء ورفع الراء لتقدم اسم الله سبحانه، وقرأ حمزة والكسائي بالياء والجزم، ووجه ذلك فيما يقول سيبويه: إنه عطف على موضع الفاء وما بعدها من قوله: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ لأن موضع الفاء وما بعدها جزم لجواب الشرط، فحمل (ويذرهم) على موضع الذي هو جزم.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

اعلم أن في نظم الآية وجهين:

الأول: أنه تعالى لما تكلم في التوحيد والنبوة والقضاء والقدر أتبعه بالكلام في المعاد، لما بينا أن المطالب الكلية في القرآن ليست إلا هذه الأربعة.

الثاني: أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾[الأعراف: ١٨٥] باعثًا بذلك عن المثابرة إلى التوبة والإصلاح قال بعده: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ ليتحقق في القلوب أن وقت الساعة مكتوم عن الخلق، فيصير ذلك حاملاً للمكلفين على المسارعة إلى التوبة وأداء الواجبات.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن ذلك السائل من هو؟ قال ابن عباس: إن قومًا من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت هذه الآية، وقال الحسن وقتادة: إن قريشًا قالوا: يا محمد بيننا وبينك قرابة، فاذكر لنا متى الساعة؟

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): الساعة من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة، أو لأن حساب الخلق يقضي فيها في ساعة واحدة فسمي بالساعة لهذا السبب أو لأنها على طولها كساعة واحدة عند الخلق.

المسألة الثالثة: (أيان) معناه الاستفهام عن الوقت الذي يجيء، وهو سؤال عن الزمان وحاصل الكلام أن (أيان) بمعنى: متى، وفي اشتقاقه قولان: المشهور أنه مأخوذ من الأين وأنكره ابن جني وقال: ﴿أَيَّانَ﴾ سؤال عن الزمان، و(أين) سؤال عن المكان، فكيف يكون أحدهما مأخوذًا من الآخر. والثاني: وهو الذي اختاره ابن جني أن اشتقاقه من (أي) فعلان منه، لأن معناه أي وقت ولفظة أي فعل من أويت إليه، لأن البعض آو إلى مكان الكل متساندًا إليه هكذا. قال ابن جني: وقرأ السلمي (إيان) بكسر الهمز.

المسألة الرابعة: مرساها (المرسي) ههنا مصدر بمعنى الإرساء لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] أي: إجراؤها وإرساؤها، والإرساء الإثبات يقال رسى يرسوا؛ إذا ثبت. قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢] فكان الرسو ليس اسمًا لمطلق الثبات، بل هو اسم لثبات الشيء إذا كان ثقيلاً ومنه إرساء الجبل، وإرساء السفينة، ولما كان أثقل الأشياء على الخلق هو الساعة، بدليل قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا جرم سمى الله تعالى وقوعها وثبوتها بالإرساء.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: لا يعلم الوقت الذي فيه يحصل قيام القيامة إلا الله سبحانه ونظيره قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ وقال: مَتَى السَّاعَةُ فقال عليه السلام: «ليس الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(١) قال المحققون: والسبب في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون، كانوا على حذر منها، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى فقال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ التجلية إظهار الشيء والتجلي ظهوره، والمعنى: لا يظهرها في وقتها المعين ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يقدر على إظهار وقتها المعين بالإعلام والإخبار إلا هو.

ثم قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمراد وصف الساعة بالثقل ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧] وأيضًا وصف الله تعالى زلزلة الساعة بالعظم فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] ووصف عذابها بالشدة فقال: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

إذا عرفت هذا فنقول: للمفسرين في تفسير قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وجوه: قال الحسن: ثقل مجيئها على السموات والأرض، لأجل أن عند مجيئها شققت السموات وتكورت الشمس والقمر وانتثرت النجوم وثقلت على الأرض لأجل أن في ذلك اليوم تبدل الأرض غير الأرض، وتبطل الجبال والبحار، وقال أبو بكر الأصم: إن هذا اليوم ثقيل جدًّا على أهل السماء والأرض، لأن فيه فناءهم وهلاكهم وذلك ثقيل على القلوب. وقال قوم: إن هذا اليوم عظيم الثقل على القلوب بسبب أن الخلق يعلمون أنهم يصيرون بعدها إلى البعث والحساب والسؤال والخوف من الله في مثل هذا اليوم شديد. وقال السدي: ﴿ثَقُلَتْ﴾ أي: خفيت في السموات

(١) هذا حديث مشهور وهو حديث جبريل الذي سئل فيه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان. صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الإيمان) باب (بيان الإيمان الإسلام) (١/ ١/ ٣٦/ ٣٧)، وأبو داود في كتاب (السنة) باب (في القدر) (٤/ ٢٠٠٥) حديث رقم/ ٤٦٩٥، والترمذي في كتاب (الإيمان) باب (ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ) (٥/ ٦ ٨٠٦) حديث رقم/ ٢٦١٠، والنسائي في كتاب (الإيمان) باب (نعت الإسلام) (٨/ ٤٧٢) حديث رقم/ ٥٠٠٥، وابن ماجه في (المقدمة) باب (في الإيمان) (١/ ٢٤) حديث رقم/ ٦٣ جميعًا من طريق كهمس بن الحسين. . . به.

والأرض ولم يعلم أحد من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين متى يكون حدوثها ووقوعها. وقال قوم: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ثقل تحصيل العلم بوقتها المعين على أهل السموات والأرض، وكما يقال في المحمول الذي يتعذر حمله أنه قد ثقل على حامله، فكذلك يقال في العلم الذي استأثر الله تعالى به أنه يثقل عليهم.

ثم قال: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ وهذا أيضًا تأكيد لما تقدم وتقرير لكونها بحيث لا تجيء إلا بغتة فجأة على حين غفلة من الخلق. وعن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الساعة تفجأ الناس، فالرجل يصلح موضعه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم بسلعته في سوقه. والرجل يخفض ميزانه ويرفعه**»(١) وروى الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده لتقومن الساعة وإن الرجل ليرفع اللقمة إلى فيه حتى تحول الساعة بينه وبين ذلك**»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الحفي وجوه: الأول: الحفي البار اللطيف قال ابن الأعرابي: يقال حفى بي حفاوة وتحفى بي تحفيًا، والحفي الكلام واللقاء الحسن، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي: بارًا لطيفًا يجيب دعائي إذا دعوته، فعلى هذا التقدير يسألونك كأنك بار بهم لطيف العشرة معهم وعلى هذا قول الحسن وقتادة والسدي، ويؤيد هذا القول ما روي في تفسيره إن قريشًا قالت لمحمد عليه السلام: إن بيننا وبينك قرابة، فاذكر لنا متى الساعة. فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: كأنك صديق لهم بار بمعنى أنك لا تكون حفيًا بهم ما داموا على كفرهم.

والقول الثاني: ﴿حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفتها، وعلى هذا القول ﴿حَفِيٌّ﴾ فعيل من الإحفاء وهو الإلحاح والإلحاف في السؤال، ومن أكثر السؤال والبحث عن الشيء علمه، قال أبو عبيدة هو من قولهم تحفى في المسألة، أي استقصى. فقوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: كأنك أكثرت السؤال عنها وبالغت في طلب علمها. قال صاحب (الكشاف): هذا الترتيب يفيد المبالغة ومنه إحفاء الشارب، وإحفاء البقل استئصاله، وأحفى في المسألة إذا ألحف، وحفى بفلان وتحفى به بالغ في البر به، وعلى هذا التقدير: فالقولان الأولان متقاربان.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ وجهان: الأول: أن يكون فيه تقديم وتأخير والتقدير: يسألونك عنها كأنك حفي بها ثم حذف قوله: (بها) لطول الكلام ولأنه معلوم لا يحصل

---

(١) مرسل: رواه الطبراني في (تفسيره) (٢٣/ ١٣) من طريق سعيد عن قتادة... فذكره. وهذا إسناد مرسل ضعيف من مراسيل قتادة ومراسيله ضعيفة.

(٢) إسناده ضعيف: الحسن البصري أرسله ومراسيله كلها ضعيفة.

الالتباس بسبب حذفه. والثاني: أن يكون التقدير: يسألونك كأنك حفي بهم لأن لفظ الحفي يجوز أن يعدى تارة بالباء وأخرى بكلمة عن ويؤكد هذا الوجه بقراءة ابن مسعود ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ سؤال عن وقت قيام الساعة وقوله ثانيًا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ سؤال عن كنه ثقل الساعة وشدتها ومهابتها، فلم يلزم التكرار: **أجاب عن الأول بقوله**: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾.

وأجاب عن الثاني بقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ والفرق بين الصورتين أن السؤال الأول كان واقعًا عن وقت قيام الساعة. والسؤال الثاني كان واقعًا عن مقدار شدتها ومهابتها، وأعظم أسماء الله مهابة وعظمة هو قوله عند السؤال عن مقدار شدة القيامة الاسم الدال على غاية المهابة، وهو قولنا الله ثم إنه تعالى ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفيه وجوه: أحدها: ولكن أكثر الناس لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفيت معرفة وقته المعين عن الخلق.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه: الأول: أن قوله: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: أنا لا أدعي علم الغيب إن أنا إلا نذير وبشير، ونظيره قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٨، ٤٩] الثاني: روي أن أهل مكة قالوا: يا محمد ألا يخبرك ربك بالرخص والغلاء حتى نشتري فنربح، وبالأرض التي تجدب لنرتحل إلى الأرض الخصبة. فأنزل الله تعالى هذه الآية: الثالث: قال بعضهم: لما رجع عليه الصلاة والسلام من غزوة بني المصطلق جاءت ريح في الطريق ففرت الدواب منها، فأخبر النبي ﷺ بموت رفاعة بالمدينة(١) وكان فيه غيظ للمنافقين. وقال: (انظروا أين ناقتي)، فقال عبد الله بن أبي مع قومه ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته. فقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ نَاسًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ. قالوا كيت وكيت وَنَاقَتِي فِي هَذَا الشِّعْبِ قَدْ تَعَلَّقَ زِمَامُهَا بِشَجَرَةٍ**»(٢) فوجدها على ما

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بدون إسناد.

(٢) رواه الواقدي في (المغازي) (١/ ٤٢١) قال: حدثني عبد الحميد بن جعفر عن أبيه رومان ومحمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة... به. وهذا إسناد مرسل مع أن الواقدي متروك الحديث.

قال، فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ .

المسألة الثانية: اعلم أن القوم لما طالبوه بالإخبار عن الغيوب وطالبوه بإعطاء الأموال الكثيرة والدولة العظيمة ذكر أن قدرته قاصرة وعلمه قليل، وبين أن كل من كان عبدًا كان كذلك والقدرة الكاملة والعلم المحيط ليسا إلا لله تعالى، فالعبد كيف يحصل له هذه القدرة، وهذا العلم؟ واحتج أصحابنا في مسألة خلق الأعمال بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ والإيمان نفع والكفر ضر، فوجب أن لا يحصلا إلا بمشيئة الله تعالى، وذلك يدل على أن الإيمان والكفر لا يحصلان إلا بمشيئة الله سبحانه، وتقريره ما ذكرناه مرارًا أن القدرة على الكفر إن لم تكن صالحة للإيمان، فخالق تلك القدرة يكون مريدًا للكفر، وإن كانت صالحة للإيمان، فخالق تلك القدرة يكون مريدًا للكفر، وإن كانت صالحة للإيمان امتنع صدور الكفر عنها بدلاً عن الإيمان إلا عند حدوث داعية جازمة، فخالق تلك الداعية الجازمة يكون مريدًا للكفر، فثبت أن على جميع التقادير: لا يملك العبد لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله.

أجاب القاضي عنه بوجوه: الأول: أن ظاهر قوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وإن كان عامًّا بحسب اللفظ إلا أنا ذكرنا أن سبب نزوله هو أن الكفار قالوا: يا محمد ألايخبرك ربك بوقت السعر الرخيص قبل أن يغلو، حتى نشتري الرخيص فنربح عليه عند الغلاء، فيحمل اللفظ العام على سبب نزوله، والمراد بالنفع: تملك الأموال وغيرها، والمراد بالضر وقت القحط، والأمراض وغيرها. الثاني: المراد لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًّا فيما يتصل بعلم الغيب، والدليل على أن المراد ذلك قوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ الثالث: المراد: لا أملك لنفسي من الضر والنفع إلا قدر ما شاء الله أن يقدرني عليه ويمكنني منه، والمقصود من هذا الكلام بيان أنه لا يقدر على شيء إلا إذا أقدره الله عليه.

واعلم أن هذه الوجوه بأسرها عدول عن ظاهر اللفظ، وكيف يجوز المصير إليه مع أنا أقمنا البرهان القاطع العقلي على أن الحق ليس إلا ما دل عليه ظاهر لفظ هذه الآية، والله أعلم.

المسألة الثالثة: احتج الرسول ﷺ على عدم علمه بالغيب بقوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ واختلفوا في المراد من هذا الخير. فقيل المراد منه: جلب منافع الدنيا وخيراتها، ودفع آفاتها ومضراتها، ويدخل فيه ما يتصل بالخصب والجدب والأرباح والأكساب.

وقيل: المراد منه ما يتصل بأمر الدين، يعني: لو كنت أعلم الغيب كنت أعلم أن الدعوى إلى الدين الحق تؤثر في هذا ولا تؤثر في ذاك، فكيف اشتغل بدعوة هذا دون ذاك.

وقيل: المراد منه: ما يتصل بالجواب عن السؤالات، والتقدير: لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير.

والجواب: عن هذه المسائل التي سألوه عنها مثل السؤال عن وقت قيام الساعة وغيره.

أما قوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ .

ففيه قولان:

القول الأول: قال الواحدي رحمه الله: تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي ليس بي جنون، وذلك لأنهم نسبوه إلى الجنون كما ذكرنا في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤] وهذا القول عندي بعيد جدًّا ويوجب تفكك نظم الآية.

والقول الثاني: إنه تمام الكلام الأول، والتقدير: ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير، ولاحترزت عن الشر حتى صرت بحيث لا يمسني سوء. ولما لم يكن الأمر كذلك ظهر أن علم الغيب غير حاصل عندي، ولما بين بما سبق أنه لا يقدر إلا على ما أقدر الله عليه، ولا يعلم إلا ما أعطاه الله العلم به قال: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ والنذير مبالغة في الإنذار بالعقاب على فعل المعاصي وترك الواجبات، والبشير مبالغة في البشارة بالثواب على فعل الواجبات وترك المعاصي وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه نذير وبشير للمؤمنين والكافرين إلاأنه ذكر إحدى الطائفتين وترك ذكر الثانية لأن ذكر إحداهما، يفيد ذكر الأخرى كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والثاني: أنه عليه الصلاة والسلام وإن كان نذيرًا وبشيرًا للكل إلا أن المنتفع بتلك النذارة والبشارة هم المؤمنون. فلهذا السبب خصهم الله بالذكر، وقد بالغنا في تقرير هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى رجع في هذه الآية إلى تقرير أمر التوحيد وإبطال الشرك.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المروي عن ابن عباس ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي نفس آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء خلقها الله من ضلع آدم عليه السلام من غير أذى ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: ثقل الولد في بطنها أتاها إبليس في صورة رجل وقال: ما هذا يا حواء إني أخاف أن يكون كلبًا أو بهيمة وما يدريك من أين يخرج؟ أمن دبرك فيقتلك أو ينشق بطنك؟ فخافت حواء، وذكرت ذلك لآدم عليه السلام، فلم يزالا في هم من ذلك، ثم أتاها وقال: إن سألت الله أن يجعله صالحًا سويًّا مثلك ويسهل خروجه من

بطنك تسميه عبد الحرث، وكان اسم إبليس في الملائكة الحرث فذلك قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ أي: لما آتاهما الله ولدًا سويًا صالحًا جعلا له شريكًا أي: جعل آدم وحواء له شريكًا، والمراد به الحرث هذا تمام القصة.

واعلم أن هذا التأويل فاسد ويدل عليه وجوه: الأول: أنه تعالى قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وذلك يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة. الثاني: أنه تعالى قال بعده: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١] وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، وما جرى لإبليس اللعين في هذه الآية ذكر. الثالث: لو كان المراد إبليس لقال: (أيشركون من لا يخلق شيئًا)، ولم يقل (ما لا يخلق شيئًا)، لأن العاقل إنما يذكر بصيغة (من) لا بصيغة (ما)، الرابع: أن آدم عليه السلام كان أشد الناس معرفة بإبليس، وكان عالمًا بجميع الأسماء كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] فكان لا بد وأن يكون قد علم أن اسم إبليس هو الحرث فمع العداوة الشديدة التي بينه وبين آدم ومع علمه بأن اسمه هو الحرث كيف سمى ولد نفسه بعبد الحرث؟ وكيف ضاقت عليه الأسماء حتى أنه لم يجد سوى هذا الاسم؟ الخامس: أن الواحد منا لو حصل له ولد يرجو منه الخير والصلاح، فجاءه إنسان ودعاه إلى أن يسميه بمثل هذه الأسماء لزجره وأنكر عليه أشد الإنكار. فآدم عليه السلام مع نبوته وعلمه الكثير الذي حصل من قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وتجاربه الكثيرة التي حصلت له بسبب الزلة التي وقع فيها لأجل وسوسة إبليس، كيف لم يتنبه لهذا القدر وكيف لم يعرف أن ذلك من الأفعال المنكرة التي يجب على العاقل الاحتراز منها. السادس: أن بتقدير أن آدم عليه السلام، سماه بعبد الحرث، فلا يخلو إما أن يقال إنه جعل هذا اللفظ اسم علم له، أو جعله صفة له، بمعنى أنه أخبر بهذا اللفظ أنه عبد الحرث ومخلوق من قبله. فإن كان الأول لم يكن هذا شركًا بالله لأن أسماء الأعلام والألقاب لا تفيد في المسميات فائدة، فلم يلزم من التسمية بهذا اللفظ حصول الإشراك، وإن كان الثاني كان هذا قولاً بأن آدم عليه السلام اعتقد أن لله شريكًا في الخلق والإيجاد والتكوين وذلك يوجب الجزم بتكفير آدم، وذلك لا يقوله عاقل. فثبت بهذه الوجوه أن هذا القول فاسد ويجب على العاقل المسلم أن لا يلتفت إليه.

إذا عرفت هذا فنقول: في تأويل الآية وجوه صحيحة سليمة خالية عن هذه المفاسد.

التأويل الأول: ما ذكره القفال فقال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنسانًا يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدًا صالحًا سويًا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك. فلما آتاهما الله ولدًا صالحًا

سويًا، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام.

ثم قال تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله عن ذلك الشرك، وهذا جواب في غاية الصحة والسداد.

التأويل الثاني: بأن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصي، والمراد من قوله: (هو الذى خلقكم من نفس) قصي (وَجعل من) جنسها (زوجها) عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد اللات، وجعل الضمير في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك.

التأويل الثالث: أن نسلم أن هذه الآية وردت في شرح قصة آدم عليه السلام وعلى هذا التقدير ففي دفع هذا الإشكال وجوه: الأول: أن المشركين كانوا يقولون إن آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام، ويرجع في طلب الخير ودفع الشر إليها، فذكر تعالى قصة آدم وحواء عليهما السلام، وحكى عنهما أنهما قالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أي ذكرا أنه تعالى لو آتاهما ولدًا سويًا صالحًا لاشتغلوا بشكر تلك النعمة، ثم قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ فقوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار والتبعيد، والتقرير: فلما آتاهما صالحًا أجعلا له شركاء فيما آتاهما؟ ثم قال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم عليه السلام، ونظيره أن ينعم رجل على رجل بوجوه كثيرة من الأنعام، ثم يقال لذلك المنعم: أن ذلك المنعم عليه يقصد ذمك وإيصال الشر إليك، فيقول ذلك المنعم: فعلت في حق فلان كذا وأحسنت إليه بكذا وكذا وأحسنت إليه بكذا وكذا، ثم إنه يقابلني بالشر والإساءة والبغي؟ على التبعيد فكذا ههنا.

الوجه الثاني: في الجواب أن نقول: أن هذه القصة من أولها إلى آخرها في حق آدم وحواء ولا إشكال في شيء من ألفاظها إلا قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ فنقول: التقدير، فلما آتاهما ولدًا صالحًا سويًا جعلا له شركاء أي: جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذا فيما آتاهما، أي: فيما آتى أولادهما ونظيره قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: واسأل أهل القرية.

فإن قيل: فعلى هذا التأويل ما الفائدة في التثنية في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾.

قلنا: لأن ولده قسمان ذكر وأنثى فقوله: ﴿جَعَلَا﴾ المراد منه الذكر والأنثى مرة عبر عنهما بلفظ التثنية لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الوجه الثالث: في الجواب سلمنا أن الضمير في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ عائد إلى آدم وحواء عليهما السلام، إلا أنه قيل: إنه تعالى لما آتاهما الولد الصالح عزما على أن يجعلاه وقفًا على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق. ثم بدا لهم في ذلك، فتارة كانوا ينتفعون به في مصالح الدنيا ومنافعها، وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله وطاعته. وهذا العمل وإن كان منا قربة وطاعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فلهذا قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمراد من هذه الآية ما نقل عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال حاكيًا عن الله سبحانه: **«أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه»**(١) وعلى هذا التقدير: فالإشكال زائل.

الوجه الرابع: في التأويل أن نقول: سلمنا صحة تلك القصة المذكورة، إلا أنا نقول: إنهم سموا بعبد الحرث لأجل أنهم اعتقدوا أنه إنما سلم من الآفة والمرض بسبب دعاء ذلك الشخص المسمى بالحرث، وقد يسمى المنعم عليه عبدًا للمنعم. يقال في المثل: أنا عبد من تعلمت منه حرفًا، ورأيت بعض الأفاضل كتب على عنوان: كتابة عبد وده فلان. قال الشاعر:

وَإِنِّي لَعَبدُ الضَّيفِ ما دامَ ثاوِيًا ... ولا شيمة لي بعدها تشبه العبدا

فآدم وحواء عليهما السلام سميا ذلك الولد بعبد الحرث تنبيهًا على أنه إنما سلم من الآفات ببركة دعائه، وهذا لا يقدح في كونه عبد الله من جهة أنه مملوكه ومخلوقه، إلا أنا قد ذكرنا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فلما حصل الاشتراك في لفظ العبد لا جرم صار آدم عليه السلام معاتبًا في هذا العمل بسبب الاشتراك الحاصل في مجرد لفظ العبد، فهذا جملة ما نقوله في تأويل هذه الآية.

المسألة الثانية: في تفسير ألفاظ الآية.

وفيها مباحث:

البحث الأول: قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ المشهور أنها نفس آدم وقوله: (وخلق منها زوجها) المراد حواء. قالوا: ومعنى كونها مخلوقة من نفس آدم، أنه تعالى خلقها من ضلع من أضلاع آدم. قالوا: والحكمة فيه أن الجنس إلى الجنس أميل، والجنسية علة الضم، وأقول هذا الكلام مشكل لأنه تعالى لما كان قادرًا على أن يخلق آدم ابتداء فما الذي حملنا على أن نقول أنه تعالى خلق حواء من جزء من أجزاء آدم؟ ولم لا نقول: إنه تعالى خلق حواء أيضًا ابتداء؟ وأيضًا الذي يقدر على خلق إنسان من عظم واحد فلم لا يقدر على خلقه ابتداء،

(١) أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٥)، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٤٠٥) حديث رقم/ ٤٢٠٢ وأحمد في (مسنده) (٢/ ٤٣٥) حديث رقم/ ٩٦١٧ جميعًا من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة. . . به.

وأيضًا الذي يقال: إن عدد أضلاع الجانب الأيسر أنقص من عدد أضلاع الجانب الأيمن فيه مؤاخذة تنبي عن خلاف الحس والتشريح. بقي أن يقال: إذا لم نقل بذلك، فما المراد من كلمة (من) في قوله: (وخلق منها زوجها) فنقول: قد ذكرنا أن الإشارة إلى الشيء تارة تكون بحسب شخصه، وأخرى بحسب نوعه قال عليه الصلاة والسلام: «هَذَا وُضُوءٌ لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلاَةَ إِلاَّ بِهِ»(١) وليس المراد ذلك الفرد المعين بل المراد ذلك النوع. وقال عليه الصلاة والسلام في يوم عاشوراء: «هَذَا هُو الْيَوْمُ الَّذِي أَظْهَرَ اللَّهُ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ»(٢) والمراد خلق من النوع الإنساني زوجة آدم، والمقصود التنبيه على أنه تعالى جعل زوج آدم إنسانًا مثله قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامعها، والغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشاها وتغشاها إذا علاها، وذلك لأنه إذا علاها فقد صار كالغاشية لها، ومثله يجللها، وهو يشبه التغطي واللبس. قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٨٧] وقوله: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ قالوا يريد النطفة والمني والحمل بالفتح ما كان في البطن أو على رأس الشجر، والحمل بكسر الحاء ما حمل على ظهر أو على الدابة. وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمرت بالماء والحمل على سبيل الخفة، والمراد أنها كانت تقوم وتقعد وتمشي من غير ثقل. قال صاحب (الكشاف): وقرأ يحيى بن يعمر (فمرت به) بالتخفيف وقرأ غيره (فمارت به) من المرية، كقوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾[النجم: ١٢] وفي قراءة أخرى (أفتمارونه) معناه وقع في نفسها ظن الحمل وارتابت فيه ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت إلى حال الثقل ودنت ولادتها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعني آدم وحواء ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: ولدًا سويًّا مثلنا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لآلائك ونعمائك ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الله ﴿صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ والكلام في تفسيره قد مر بالاستقصاء قرأ ابن كثير وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم، في رواية حفص (عَنْهُ شُرَكَاء) بصيغة الجمع وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر (عَنْهُ) بكسر الشين وتنوين الكاف ومعناه جعلا له نظراء ذوي شرك وهم الشركاء، أو يقال: معناه أحدثا لله إشراكًا في الولد ومن قرأ (شركاء) فحجته قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟﴾[الرعد: ١٦] وأراد بالشركاء في هذه الآية إبليس لأن من أطاع إبليس فقد أطاع جميع الشياطين، هذا إذا حملنا هذه الآية على القصة المشهورة، أما إذا لم نقل به فلا حاجة إلى التأويل والله أعلم.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (١/ ١٤٥) حديث رقم/ ٤١٩ من طريق مرحوم بن عبد العزيز العطار حدثني عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن معاوية بن قرة عن ابن عمر... به. وفي إسناده زيد العمي ضعيف، وضعفه الألباني في الإرواء وضعيف ابن ماجه وأورده ابن حجر في (الفتح) (١/ ٢٣٣) وقال: هذا حديث ضعيف.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (مناقب الأنصار) باب (إتيان اليهود النبي) (٧/ ٣٢١) حديث رقم/ ٣٩٤٣، ومسلم في كتاب (الصوم) باب (صوم يوم عاشوراء) (٢/ ٧٩٥/ ١٢٧) كلاهما من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس... به.

قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

اعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه ليس المراد بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما ذكره من قصة إبليس إذ لو كان المراد ذلك لكانت هذه الآية أجنبية عنها بالكلية، وكان ذلك غاية الفساد في النظم والترتيب، بل المراد ما ذكرناه في سائر الأجوبة من أن المقصود من الآية السابقة الرد على عبدة الأوثان.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: المقصود من هذه الآية إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للإلهية فقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ معناه: أيعبدون ما لا يقدر على أن يخلق شيئًا؟ وهم يخلقون. أي: وهم مخلوقون يعني الأصنام.

فإن قيل: كيف وحد ﴿يَخْلُقُ﴾ ثم جمع فقال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وأيضًا فكيف ذكر الواو والنون في جمع غير الناس؟

والجواب عن الأول: أن لفظ (ما) تقع على الواحد والاثنين والجمع، فهذه من صيغ الوحدان بحسب ظاهر لفظها. ومحتملة للجمع فالله تعالى اعتبر الجهتين فوحد قوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ رعاية لحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ رعاية لجانب المعنى.

والجواب عن الثاني: وهو أن الجمع بالواو والنون في غير من يعقل كيف يجوز؟ فنقول: لما اعتقد عابدوها أنها تعقل وتميز فورد هذا اللفظ بناء على ما يعتقدونه ويتصورونه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن العبد غير موجد ولا خالق لأفعاله، قالوا: لأنه تعالى طعن في إلهية الأجسام بسبب أنها لا تخلق شيئًا وهذا الطعن إنما يتم لو قلنا إن بتقدير أنها كانت خالقة لشيء لم يتوجه الطعن في إلهيتها، وهذا يقتضي أن كل من كان خالقًا كان إلهًا، فلو كان العبد خالقًا لأفعال نفسه كان إلهًا ولما كان ذلك باطلاً، علمنا أن العبد غير خالق لأفعال نفسه.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ يريد أن الأصنام لا تنصر من أطاعها ولا تنتصر ممن عصاها. والنصر: المعونة على العدو والمعنى أن المعبود يجب أن يكون قادرًا على إيصال النفع

ودفع الضرر وهذه الأصنام ليست كذلك. فكيف يليق بالعاقل عبادتها؟

ثم قال: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي: ولا يدفعون عن أنفسهم مكروهًا فإن من أراد كسرهم لم يقدروا على دفعه.

ثم قال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ واعلم أنه تعالى لما أثبت بالآية المتقدمة أنه لا قدرة لهذه الأصنام على أمر من الأمور، بين بهذه الآية أنه لا علم لها بشيء من الأشياء، والمعنى أن هذا المعبود الذي يعبده المشركون معلوم من حاله أنه كما لا ينفع ولا يضر، فكذا لا يصح فيه إذا دعى إلى الخير الأتباع. ولا يفصل حال من يخاطبه ممن يسكت عنه، ثم قوى هذا الكلام بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ وهذا مثل قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] وذكرنا ما فيه من المباحث في تلك الآية إلا أن الفرق في تلك الآية عطف الفعل على الفعل، وههنا عطف الاسم على الفعل، لأن قوله: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ جملة فعلية: وقوله: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ جملة اسمية.

واعلم أنه ثبت أن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز إلا لفائدة وحكمة، وتلك الفائدة هي أن صيغة الفعل مشعرة بالتجدد والحدوث حالاً بعد حال، وصيغة الاسم مشعرة بالدوام والثبات والاستمرار.

إذا عرفت هذا فنقول: إن هؤلاء المشركين كانوا إذا وقعوا في مهم وفي معضلة تضرعوا إلى تلك الأصنام، وإذا لم تحدث تلك الواقعة بقوا ساكتين صامتين، فقيل لهم: لا فرق بين إحداثكم دعاءهم وبين أن تستمروا على صمتكم وسكوتكم، فهذا هو الفائدة في هذه اللفظة، ثم أكد الله بيان أنها لا تصلح للإلهية، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ وفيه سؤال: وهو أنه كيف يحسن وصفها بأنها عباد مع أنها جمادات؟ وجوابه من وجوه: الأول: أن المشركين لما ادعوا أنها تضر وتنفع، وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة، فلا جرم وردت هذه الألفاظ على وفق معتقداتهم، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ولم يقل فادعوهم فليستجبن لكم وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ ولم يقل التي.

والجواب الثاني: أن هذا اللغو أورد في معرض الاستهزاء بهم أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم ولا فضل لهم عليكم، فلم جعلتم أنفسكم عبيدًا وجعلتموها آلهة وأربابًا؟ ثم أبطل أن يكونوا عبادًا أمثالكم. فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥] ثم أكد هذا البيان بقوله: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ومعنى هذا الدعاء طلب المنافع وكشف المضار من جهتهم واللام في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ لام الأمر على معنى التعجيز والمعنى أنه لما ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة ظهر أنها لا تصلح للمعبودية، ونظيره قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في ادعاء أنها آلهة ومستحقة للعبادة، ولما ثبت بهذه الدلائل الثلاثة

اليقينية أنها لا تصلح للمعبودية، وجب على العاقل أن لا يلتفت إليها، وأن لا يشتغل إلا بعبادة الإله القادر العالم الحي الحكيم الضار النافع.

قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من الدليل في بيان أنه يقبح من الإنسان العاقل أن يشتغل بعبادة هذه الأصنام. وتقريره أنه تعالى ذكر في هذه الآية أعضاء أربعة، وهي الأرجل والأيدي والأعين والآذان، ولا شك أن هذه الأعضاء إذا حصل في كل واحدة منها ما يليق بها من القوى المحركة والمدركة تكون أفضل منها إذا كانت خالية عن هذه القوى، فالرجل القادرة على المشي واليد القادرة على البطش أفضل من اليد والرجل الخاليتين عن قوة الحركة والحياة، والعين الباصرة والأذن السامعة أفضل من العين والأذن الخاليتين عن القوة الباصرة والسامعة، وعن قوة الحياة، وإذا ثبت هذا ظهر أن الإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام، بل لا نسبة لفضيلة الإنسان إلى فضل هذه الأصنام البتة، وإذا كان كذلك فكيف يليق بالأفضل الأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذي لا يحس منه فائدة البتة، لا في جلب المنفعة ولا في دفع المضرة. هذا هو الوجه في تقرير هذا الدليل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية، وقد تعلق بعض أغمار المشبهة وجهًا لهم بهذه الآية في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى. فقالوا: إنه تعالى جعل عدم هذه الأعضاء لهذه الأصنام دليلاً على عدم إلهيتها، فلو لم تكن هذه الأعضاء موجودة لله تعالى لكان عدمها دليلاً على عدم الإلهية وذلك باطل، فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء لله تعالى. والجواب عنه من وجهين:

الوجه الأول: أن المقصود من هذه الآية: بيان أن الإنسان أفضل وأكمل حالاً من الصنم، لأن الإنسان له رجل ماشية، ويد باطشة، وعين باصرة، وأذن سامعة، والصنم رجله غير ماشية، ويده غير باطشة، وعينه غير مبصرة، وأذنه غير سامعة، وإذا كان كذلك كان الإنسان أفضل وأكمل حالاً من الصنم، واشتغال الأفضل الأكمل بعبادة الأخس الأدون جهل، فهذا هو المقصود من ذكر هذا الكلام، لا ما ذهب إليه وهم هؤلاء الجهال.

الوجه الثاني: في الجواب أن المقصود من ذكر هذا الكلام: تقرير الحجة التي ذكرها قبل هذه الآية وهي قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢] يعني كيف تحسن عبادة من لا يقدر على النفع والضرر، ثم قرر تعالى ذلك بأن هذه الأصنام لم يحصل لها أرجل ماشية، وأيد باطشة، وأعين باصرة، وآذان سامعة، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن قادرة على الإنفاع والإضرار، فامتنع كونها آلهة. أما إله العالم تعالى وتقدس فهو وإن كان متعاليًا عن

هذه الجوارح والأعضاء إلا أنه موصوف بكمال القدرة على النفع والضرر وهو موصوف بكمال السمع والبصر فظهر الفرق بين البابين.

أما قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ قال الحسن: إنهم كانوا يخوفون الرسول عليه السلام بآلهتهم، فقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ ليظهر لكم أنه لا قدرة لها على إيصال المضار إلي بوجه من الوجوه، وأثبت نافع وأبو عمرو الياء في (كيدوني) والباقون حذفوها ومثله في قوله: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ قال الواحدي، والقول فيه أن الفواصل تشبه القوافي، وقد حذفوا هذه اليآت إذا كانت في القوافي كقوله:

يَلْمَسُ الأَحْلاسَ فِي مَنْزِلِهِ بِيَدَيهِ كَاليَهُودِيِّ المُمِل[1]

والذين أثبتوها فلأن الأصل هو الإثبات، ومعنى قوله: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تمهلوني واعجلوا في كيدي أنتم وشركاؤكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

اعلم أنه لما بين في الآيات المتقدمة أن هذه الأصنام لا قدرة لها على النفع والضر بين بهذه الآية أن الواجب على كل عاقل عبادة الله تعالى، لأنه هو الذي يتولى تحصيل منافع الدين ومنافع الدنيا أما تحصيل منافع الدين، فبسبب إنزال الكتاب، وأما تحصيل منافع الدنيا، فهو المراد بقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي رحمه الله: قرأ القراء (وليي) بثلاث يآت، الأولى ياء فعيل وهي ساكنة، والثانية لام الفعل وهي مكسورة، قد أدغمت الأولى فيها فصار ياء مشددة، والثالثة ياء الإضافة، وروي عن أبي عمرو: (ولي الله) بياء مشددة، ووجه ذلك أنه حذف الياء التي هي لام فعيل، كما حذف اللام من قولهم فاماليت به فاله، ثم أدغمت ياك فعيل في ياء الإضافة، فقيل ولي الله وهذه الفتحة فتحة ياء الإضافة، وأما الباقون فأجازوا اجتماع ثلاث ياءات، والله أعلم.

المسألة الثانية: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ أي الذي يتولى حفظي ونصرتي هو الله الذي أنزل الكتاب المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة في الدين ويتولى الصالحين ينصرهم، فلا تضرهم عداوة من عاداهم، وفي ذلك يأمن المشركين من أن يضره كيدهم. وسمعت أن عمر بن عبد

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري وقد تقدمت ترجمته.

العزيز ما كان يدخر لأولاده شيئًا، فقيل له فيه فقال: ولدي إما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين، فإن كان من الصالحين فوليه الله ومن كان الله له وليًا فلا حاجة له إلى مالي، وإن كان من المجرمين فقد قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] ومن رده الله لم أشتغل بإصلاح مهماته.

أما قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

ففيه قولان:

القول الأول: أن المراد منه وصف الأصنام بهذه الصفات.

فإن قالوا: فهذه الأشياء قد صارت مذكورة في الآيات المتقدمة فما الفائدة في تكريرها؟ فنقول: قال الواحدي: إنما أعيد هذا المعنى لأن الأول مذكور على جهة التقريع وهذا مذكور على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة، وبين من لا تجوز، كأنه قيل: الإله المعبود يجب أن يكون بحيث يتولى الصالحين، وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تكن صالحة للإلهية.

والقول الثاني: أن هذه الأحوال المذكورة صفات لهؤلاء المشركين الذين يدعون غير الله، يعني أن الكفار كانوا يخوفون رسول الله ﷺ وأصحابه فقال تعالى: إنهم لا يقدرون على شيء. بل إنهم قد بلغوا في الجهل والحماقة إلى أنك لو دعوتهم وأظهرت أعظم أنواع الحجة والبرهان لم يسمعوا بعقولهم ذلك البتة.

فإن قيل: لم يتقدم ذكر المشركين، وإنما تقدم ذكر الأصنام فكيف يصح ما ذكر؟

قلنا: قد تقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] أما قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فإن حملنا هذه الصفات على الأصنام. قلنا: المراد من كونها ناظرة كونها مقابلة بوجهها وجوه القوم من قولهم: جبلان متناظران أي: متقابلان، فإن حملناها على المشركين فالمعنى: أنهم وإن كانوا ينظرون إلى الناس إلا أنهم لشدة إعراضهم عن الحق لم ينتفعوا بذلك النظر والرؤية، فصاروا كأنهم عمي، وهذه الآية تدل على أن النظر غير الرؤية، لأنه تعالى أثبت النظر ونفي الرؤية، وذلك يدل على التغاير، وأجيب عن هذا الاستدلال فقيل: معناه تحسبهم أنهم ينظرون إليك مع أنهم في الحقيقة لا ينظرون، أي تظن أنهم ينظرونك مع أنهم لا يبصرونك، والرؤية بمعنى الحسبان واردة قال تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج: ٢].

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الله هو الذي يتولاه، وأن الأصنام وعابديها لا يقدرون على الإيذاء والإضرار، بين في هذه الآية ما هو المنهج القويم والصراط المستقيم في معاملة الناس فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قال أهل اللغة: العفو الفضل وما أتي من غير كلفة.

إذا عرفت هذا فنقول: الحقوق التي تستوفى من الناس وتؤخذ منهم، إما أن يجوز إدخال المساهلة والمسامحة فيها، وإما أن لا يجوز.

أما القسم الأول: فهو المراد بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ويدخل فيه ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية؛ ويدخل فيه أيضًا التخلق مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلظة والفظاظة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف، كما قال تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، والعرف، والعارفة، والمعروف هو كل أمر عرف أنه لا بد من الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه، وذلك لأن في هذا القسم لو اقتصر على الأخذ بالعفو ولم يأمر بالعرف ولم يكشف عن حقيقة الحال، لكان ذلك سعيًا في تغيير الدين وإبطال الحق وأنه لا يجوز، ثم إنه إذا أمر بالعرف ورغب فيه ونهى عن المنكر ونفر عنه، فربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء فلهذا السبب قال تعالى في آخر الآية: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣] وقال في صفة أهل الجنة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥] وإذا أحاط عقلك بهذا التقسيم، علمت أن هذه الآية مشتملة على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان مع الغير.

قال عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: «**يا جبريل ما هذا؟ قال: يا محمد إن ربك يقول: هو أنَّ تصلَ مَنْ قطعك، وتُعْطي مَنْ حَرَمكَ، وتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمكَ**»[1] قال أهل العلم: تفسير جبريل مطابق للفظ الآية لأنك لو وصلت من قطعك، فقد عفوت عنه، وإذا آتيت من حرمك فقد آتيت بالمعروف، وإذا عفوت عمن ظلمك فقد أعرضت عن الجاهلين، وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، وللمفسرين في تفسير هذه الآية طريق آخر فقالوا: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: ما عفا لك من أموالهم، أي ما أتوك به عفوًا فخذه، ولا تسأل عما وراء ذلك. قالوا: كان هذا قبل فريضة الصدقة فلما نزلت آية وجوب الزكاة صارت هذه الآية منسوخة إلا قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بإظهار الدين الحق، وتقرير دلائله ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ أي: المشركين قالوا: وهذا منسوخ بآية السيف فعلى هذه الطريقة جميع الآية منسوخة إلا قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١٦/ ٢٤٨) حديث رقم/ ٥١٣٤ من طريق عبادة بن مسلم عن العلاء بن بدر عن قيس بن سعد بن عبادة... به. والطبري في (تفسيره) (١٣/ ٣٣٠) حديث رقم/ ١٥٥٤٨، وعبد الرزاق في (تفسيره) (٧/ ٤٥٥) حديث رقم/ ٩٤٤، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٦/ ٣٢٠) جميعًا من طريق ابن عيينة عن أبي المرادي قال: بلغني... فذكره.

واعلم أن تخصيص قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ بما ذكره تقييد للمطلق من غير دليل، وأيضًا فهذا الكلام إذا حملناه على أداء الزكاة لم يكن إيجاب الزكاة بالمقادير المخصوصة منافيًا لذلك، لأن آخذ الزكاة مأمور بأن لا يأخذ كرائم أموال الناس ولا يشدد الأمر على المزكى فلم يكن إيجاب الزكاة سببًا لصيرورة هذه الآية منسوخة.

وأما قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فالمقصود منه أمر الرسول ﷺ بأن يصبر على سوء أخلاقهم، وأن لا يقابل أقوالهم الركيكة ولا أفعالهم الخسيسة بأمثالها، وليس فيه دلالة على امتناعه من القتال، لأنه لا يمتنع أن يؤمر عليه السلام بالإعراض عن الجاهلين مع الأمر بقتال المشركين فإنه ليس من المتناقض أن يقال الشارع لا يقابل سفاهتهم بمثلها؟ ولكن قاتلهم وإذا كان الجمع بين الأمرين ممكنًا فحينئذ لا حاجة إلى التزام النسخ، إلا أن الظاهرية من المفسرين مشغوفون بتكثير الناسخ والمنسوخ من غير ضرورة ولا حاجة.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو زيد: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال النبي ﷺ: (كيف يا رب والغضب؟) فنزل قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾.

المسألة الثانية: اعلم أن نزغ الشيطان، عبارة عن وساوسه ونخسه في القلب بما يسول للإنسان من المعاصي، عن أبي زيد نزغت بين القوم إذا أفسدت ما بينهم، وقيل: النزغ الإزعاج، وأكثر ما يكون عند الغضب، وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشر، وتقرير الكلام أنه تعالى لما أمره بالعرف فعند ذلك ربما يهيج سفيه ويظهر السفاهة فعند ذلك أمره تعالى بالسكوت عن مقابلته فقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ولما كان من المعلوم أن عند إقدام السفيه على السفاهة يهيج الغضب والغيظ ولا يبقى الإنسان على حالة السلامة وعند تلك الحالة يجد الشيطان مجالاً في حمل ذلك الإنسان على ما لا ينبغي، لا جرم بين تعالى ما يجري مجرى العلاج لهذا الغرض فقال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ والكلام في تفسير الاستعاذة قد سبق في أول الكتاب على الاستقصاء.

المسألة الثالثة: احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية وقالوا: لولا أنه يجوز من الرسول الإقدام على المعصية أو الذنب، وإلا لم يقل له: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

والجواب عنه من وجوه:

الأول: أن حاصل هذا الكلام أنه تعالى قال له: إن حصل في قلبك من الشيطان نزغ، كما أنه

تعالى قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]ولم يدل ذلك على أنه أشرك. وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]ولم يدل ذلك على أنه حصل فيهما آلهة.

الثاني: هب أنا سلمنا أن الشيطان يوسوس للرسول عليه السلام، إلا أن هذا لا يقدح في عصمته، إنما القادح في عصمته لو قبل الرسول وسوسته، والآية لا تدل على ذلك. عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلا وَمَعَهُ شَيْطَانٌ**» قالوا: وأنت يا رسول الله قال: «**وأنا ولكنه أسلم بعون الله، فلقد أتاني فَأَخَذْتُ بِحَلْقِهِ، ولولا دعوة سليمان لأصبح في المسجد طريحًا**» (١) وهذا كالدلالة على أن الشيطان يوسوس إلى الرسول ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]. **الثالث**: هب أنا سلمنا أن الشيطان يوسوس. وأنه عليه الصلاة والسلام يقبل أثر وسوسته، إلا أنا نخص هذه الحالة بترك الأفضل والأولى. قال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ واللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً**» (٢).

المسألة الرابعة: الاستعاذة بالله عند هذه الحالة أن يتذكر المرء عظيم نعم الله عليه وشديد عقابه فيدعوه كل واحد من هذين الأمرين إلى الإعراض عن مقتضى الطبع والإقبال على أمر الشرع.

المسألة الخامسة: هذا الخطاب وإن خص الله به الرسول إلا أنه تأديب عام لجميع المكلفين لأن الاستعاذة بالله على السبيل الذي ذكرناه لطف مانع من تأثير وساوس الشيطان، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩]إذا ثبت بالنص أن لهذه الاستعاذة أثرًا في دفع نزع الشيطان،

---

(١) بهذا اللفظ لم أجده إنما هو حديث مركب الشطر الأول (إن لكل إنسان قرين من الجن أو الشيطان) فهو في الصحيح. صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (صفات المنافقين) باب (تحريش الشيطان وبعثه سراياه) (٤/ ٢١٦٧/ ٢٨١٤) قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم قال إسحاق: أخبرنا وقال عثمان: حدثنا جرير عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ. . . الحديث. وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٨٥) حديث رقم/ ٣٦٤٨ من طريق سفيان قال: حدثني منصور. . . به. والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (ما من أحد إلا ومعه قرينه من الجن) (٢/ ٣٩٦) حديث رقم/ ٢٧٣٤ جميعًا من طريق منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد وُكل به قرينه من الجن) قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: (وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير) اللفظ لمسلم. وأما الشطر الثاني وهو اعتراض الشيطان للنبي ﷺفي الصلاة أخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (١/ ١٩٦) حديث رقم/ ٥٥٠ من طريق الزهري عن سعيد عن أبي هريرة. . . به. وأيضًا في الحديث رقم/ ٥٥١، وابن حبان في (صحيحه) (٦/ ١١٣) حديث رقم/ ٢٣٤٩، وأبو يعلي في (مسنده) (١٠/ ٥٠٥) حديث رقم/ ٦١٢٢ جميعًا من طريق محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة. . . به. وإسناده حسن.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الذكر) باب (استحباب الاستغفار والاستكثار فيه) (٤/ ٢٠٧٥/ ٤١)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢١١) وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (في الاستغفار) (٢/ ٦٥٤) حديث رقم/ ١٥١٥ جميعًا من طريق حماد. . . به وفيه لفظ (مائة مرة).

وجبت المواظبة عليه في أكثر الأحوال.

المسألة السادسة: قوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك فإني عليم بما في ضميرك، وفي الحقيقة القول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى بين في الآية الأولى أن الرسول ﷺ قد ينزغه الشيطان وبين أن علاج هذه الحالة الاستعاذة بالله، ثم بين في هذه الآية أن حال المتقين يزيد على حال الرسول في هذا الباب، لأن الرسول لا يحصل له من الشيطان إلا النزغ الذي هو كالابتداء في الوسوسة، وجوز في المتقين ما يزيد عليه وهو أن يمسهم طائف من الشيطان، وهذا المس يكون لامحالة أبلغ من النزغ.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (طيف) بغير ألف، والباقون (طائف) بالألف. قال الواحدي رحمه الله: اختلفوا في الطيف فقيل إنه مصد، وقال أبو زيد يقال: طاف يطوف طوفًا وطوافًا إذا أقبل وأدبر. وأطاف يطيف إطافة إذا جعل يستدير بالقوم ويأتيهم من نواحيهم، وطاف الخيال يطيف طيفًا إذا ألم في المنام. قال ابن الأنباري: وجائز أن يكون طيف أصله طيف. إلا أنهم استثقلوا التشديد، فحذفوا إحدى الياءين وأبقوا ياء ساكنة، فعلى القول الأول هو مصدر، وعلى ما قاله ابن الأنباري هو من باب هيّن وهيْن وميّت وميْت، ويشهد لصحة قول ابن الأنباري قراءة سعيد بن جبير (إذا مسهم طَيِّف) بالتشديد. هذا هو الأصل في الطيف، ثم سمى الجنون والغضب والوسوسة طيفًا، لأنه لمة من لمة الشيطان تشبه لمة الخيال. قال الأزهري: الطيف في كلام العرب الجنون، ثم قيل للغضب طيف، لأن الغضبان يشبه المجنون. وأما الطائف فيجوز أن يكون بمعنى الطيف، مثل العافية والعاقبة ونحو ذلك مما جاء المصدر فيه على فاعل وفاعلة. قال الفراء في هذه الآية: الطائف والطيف سواء، وهو ما كان كالخيال الذي يلم بالإنسان، ومنهم من قال: الطيف كالخطرة والطائف كالخاطر.

المسألة الثالثة: اعلم أن الغضب إنما يهيج بالإنسان إذا استقبح من المغضوب عليه عملاً من الأعمال، ثم اعتقد في نفسه كونه قادرًا، واعتقد في المغضوب عليه كونه عاجزًا عن الدفع، فعند حصول هذه الاعتقادات الثلاثة إذا كان واقعًا في ظلمات عالم الأجسام فيغتروا بظواهر الأمور، فأما إذا انكشف له نور من عالم الغيب زالت هذه الاعتقادات الثلاثة من جهات كثيرة.

أما الاعتقاد الأول: وهو استقباح ذلك الفعل من المغضوب عليه، فإذا انكشف له أنه إنما أقدم على ذلك العمل، لأنه تعالى خلق فيه داعية جازمة راسخة، ومتى خلق الله فيه تلك الداعية امتنع منه أن لا يقدم على ذلك العمل، فإذا تجلى هذا المعنى زال الغضب، وأيضًا فقد يخطر ببال الإنسان أن الله تعالى علم منه هذه الحالة، ومتى كان كذلك فلا سبيل له إلى تركها، فعند ذلك يفر غضبه، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: **«من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب»**(١) وأما الاعتقاد الثاني والثالث: وهو اعتقاده في نفسه كونه قادرًا، وكون المغضوب عليه عاجزًا، فهذان الاعتقادان أيضًا فاسدان من وجوه: أحدها: أنه يعتقد أنه كم أساء في العمل، والله كان قادرًا عليه، وهو كان أسيرًا في قبضة قدرة الله تعالى، ثم إنه تجاوز عنه. وثانيها: أن المغضوب عليه كما أنه عاجز في يد الغضبان، فكذلك الغضبان عاجز بالنسبة إلى قدرة الله. وثالثها: أن يتذكر الغضبان ما أمره الله به من ترك إمضاء الغضب والرجوع إلى ترك الإيذاء والإيحاش. ورابعها: أن يتذكر أنه إذا أمضى الغضب وانتقم كان شريكًا للسباع المؤذية والحيات القاتلة، وإن ترك الانتقام واختار العفو كان شريكًا لأكابر الأنبياء والأولياء. وخامسها: أن يتذكر أنه ربما انقلب ذلك الضعيف قويًا قادرًا عليه، فحينئذ ينتقم منه على أسوأ الوجوه، أما إذا عفا كان ذلك إحسانًا منه إليه، وبالجملة فالمراد من قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ ما ذكرناه من الاعتقادات الثلاثة، والمراد من قوله: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ ما ذكرناه من الوجوه التي تفيد ضعف تلك الاعتقادات وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ معناه أنه إذا حضرت هذه التذكرات في عقولهم، ففي الحال يزول مس طائف الشيطان، ويحصل الاستبصار والانكشاف والتجلي ويحصل الخلاص من وسوسة الشيطان.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ معنى (إِذَا) ههنا للمفاجأة، كقولك خرجت فإذا زيد وإذا في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ يستدعي جزاء، كقولك: آتيك إذا احمر البسر.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن الكناية في قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ إلى ماذا تعود على قولين.

القول الأول: وهو الأظهر أن المعنى: وإخوان الشياطين يمدون الشياطين في الغي، وذلك لأن شياطين الإنس إخوان لشياطين الجن، فشياطين الإنس يغوون الناس، فيكون ذلك إمدادًا منهم لشياطين الجن على الإغواء والإضلال.

والقول الثاني: أن إخوان الشياطين هم الناس الذين ليسوا بمتقين، فإن الشياطين يكونون مددًا لهم فيه، والقولان مبنيان على أن لكل كافر أخًا من الشياطين.

(١) لم أجده إلا في كتب التفسير بغير إسناد.

المسألة الثانية: تفسير الإمداد تقوية تلك الوسوسة والإقامة عليها وشغل النفس عن الوقوف على قبائحها ومعايبها.

المسألة الثالثة: قرأ نافع (يُمِدونهم) بضم الياء وكسر الميم من الإمداد، والباقون ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بفتح الياء وضم الميم، وهما لغتان مد يَمُدُّ وأمد يُمِدُّ، وقيل مد معناه جذب، وأمد معناه من الإمداد.

قال الواحدي: عامة ما جاء في التنزيل مما يحمد ويستحب أمددت على أفعلت، كقوله: ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥] وقوله ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢] وقوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦] وما كان بخلافه فإنه يجيء على مددت قال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥] فالوجه ههنا قراءة العامة وهي فتح الياء ومن ضم الياء استعمل ما هو الخير لضده كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الإنشقاق: ٢٤] وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال الليث: الإقصار الكف عن الشيء، قال أبو زيد: أقصر فلان عن الشر يقصر إقصارًا إذا كف عنه وانتهى، قال ابن عباس: ثم لا يقصرون عن الضلال والإضلال، أما الغاوي ففي الضلال وأما المغوي ففي الإضلال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى: لما بين في الآية الأولى أن شياطين الجن والإنس لا يقصرون في الإغواء والإضلال بين في هذه الآية نوعًا من أنواع الإغواء والإضلال وهو أنهم كانوا يطلبون آيات معينة ومعجزات مخصوصة على سبيل التعنت كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] ثم أعاد: أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يأتيهم، فعند ذلك قالوا: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ قال الفراء: تقول العرب اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا افتعلته من قبل نفسك، والمعنى: لولا تقولتها وافتعلتها وجئت بها من عند نفسك لأنهم كانوا يقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [سبأ: ٤٣] أو يقال هلا اقترحتها على إلهك ومعبودك إن كنت صادقًا في أن الله يقبل دعاءك ويجيب التماسك وعند هذا أمر رسوله أن يذكر الجواب الشافي، وهو قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ ومعناه: ليس لي أن أقترح على ربي في أمر من الأمور، وإنما أنتظر الوحي فكل شيء أكرمني به قلته، وإلا فالواجب السكوت وترك الاقتراح، ثم بين أن عدم الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحها لا يقدح في الغرض، لأن ظهور القرآن على وفق دعواه معجزة بالغة باهرة، فإذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة كانت كافية في تصحيح النبوة، فكان طلب الزيادة من باب التعنت، فذكر في وصف القرآن ألفاظًا ثلاثة: أولها: قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أصل البصيرة الإبصار، ولما كان القرآن سببًا لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، أطلق عليه لفظ البصيرة، تسمية للسبب باسم المسبب. وثانيها: قوله: ﴿وَهُدًى﴾ والفرق بين هذه المرتبة وما قبلها أن الناس في معارف التوحيد والنبوة والمعاد

قسمان: أحدهما: الذين بلغوا في هذه المعارف إلى حيث صاروا كالمشاهدين لها وهم أصحاب عين اليقين. والثاني: الذين ما بلغوا إلى ذلك الحد إلا أنهم وصلوا إلى درجات المستدلين: وهم أصحاب علم اليقين، فالقرآن في حق الأولين وهم السابقون بصائر، وفي حق القسم الثاني وهم المقتصدون هدى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة، ولما كانت الفرق الثلاث من المؤمنين لا جرم قال: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ ﴿٢٠٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عظم شأن القرآن بقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] أردفه بقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ . وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الإنصات السكوت والاستماع، يقال: نصت، وأنصت، وانتصت، بمعنى واحد.

المسألة الثانية: لا شك أن قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ أمره، وظاهر الأمر للوجوب، فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبًا، وللناس فيه أقوال.

القول الأول: وهو قول الحسن وقول أهل الظاهر أنا نجري هذه الآية على عمومها ففي أي موضع قرأ الإنسان القرآن وجب على كل أحد استماعه والسكوت، فعلى هذا القول يجب الإنصات لعابري الطريق، ومعلمي الصبيان.

والقول الثاني: أنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة. قال أبو هريرة رضي الله عنه: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت هذه الآية، وأمروا بالإنصات [(١)]، وقال قتادةُ: كان الرَّجُلُ يأتي وهُم في الصَّلاةِ، فيسألهم: كم صلَّيتم وكم بقي؟ وكانُوا يتكلَّمون في الصَّلاةِ بحوائجهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية [(٢)].

والقول الثالث: أن الآية نزلت في ترك الجهر بالقراءة وراء الإمام. قال ابن عباس قرأ رسول الله ﷺ فِي الصَلَاَة المكتوبة وَقَرَأَ وَرَاءَهُ أَصْحَابه فَخَلَّطُوا عَلَيْهِ، فنزلت هذه الآية [(٣)]. وهو قول أبي حنيفة وأصحابه.

---

(١) أخرجه الطبراني في (تفسيره) (١٣/ ٣٤٥) حديث رقم/ ١٥٥٨٣، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٢/ ١٥٥) حديث رقم/ ٢٧٠٧، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (٢/ ٢٢٥) حديث رقم/ ٨٢٨٠ جميعًا من طريق إبراهيم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة. . . به. وفي إسناده إبراهيم الهجري. قال الحافظ: لين الحديث رفع الموقوفات.

(٢) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٣/ ٣٤٨) حديث رقم/ ١٥٥٩٩، وعبد الرزاق في (تفسيره) (٢/ ٤٥٨) حديث رقم/ ٩٤٧، والبيهقي في (القراءة خلف الإمام) (١/ ٢٨٢) حديث رقم/ ٢٤٥ جميعًا من طريق محمد بن ثور عن معمر عن قتادة. . . به.

(٣) أخرجه الطبري في (تفسيره) (٩/ ١٦٥) والبيهقي في (القراءة خلف الإمام) (١/ ١٠٩) حديث رقم/ ٢٥٥ كلاهما من طريق ابن المبارك عن ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن ابن عباس. . . به. وفي إسناده ابن لهيعة مدلس وقد عنعنه.

والقول الرابع: أنها نزلت في السكوت عند الخطبة، وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وهذا القول منقول عن الشافعي رحمه الله، وكثير من الناس قد استبعد هذا القول، وقال اللفظ عام وكيف يجوز قصره على هذه الصورة الواحدة. وأقول: هذا القول في غاية البعد لأن لفظة إذا تفيد الارتباط، ولا تفيد التكرار، والدليل عليه أن الرجل إذا قال لامرأته إذا دخلت الدار فأنت طالق، فدخلت الدار مرة واحدة طلقت طلقة واحدة، فإذا دخلت الدار ثانيًا لم تطلق بالاتفاق لأن كلمة ﴿وَإِذَا﴾ لا تفيد التكرار.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ لا يفيد إلا وجوب الإنصات مرة واحدة، فلما أوجبنا الاستماع عند قراءة القرآن في الخطبة، فقد وفينا بموجب اللفظ ولم يبق في اللفظ دلالة على ما وراء هذه الصورة، سلمنا أن اللفظ يفيد العموم إلا أنا نقول بموجب الآية، وذلك لأن عند الشافعي رحمه الله: يسكت الإمام، وحينئذ يقرأ المأموم الفاتحة في حال سكتة الإمام كما قال أبو سلمة: للإمام سكتتان، فاغتنم القراءة في أيهما شئت، وهذا السؤال أورده الواحدي في (البسيط).

ولقائل أن يقول: سكوت الإمام إما أن نقول: إنه من الواجبات أو ليس من الواجبات والأول باطل بالإجماع والثاني يقتضي أن يجوز له أن لا يسكت. فبتقدير: أن لا يسكت يلزم أن تحصل قراءة المأموم مع قراءة الإمام، وذلك يفضي إلى ترك الاستماع، وإلى ترك السكوت عند قراءة الإمام، وذلك على خلاف النص، وأيضًا فهذا السكوت ليس له حد محدود ومقدار مخصوص والسكتة للمأمومين مختلفة بالثقل والخفة، فربما لا يتمكن المأموم من إتمام قراءة الفاتحة في مقدار سكوت الإمام، وحينئذ يلزم المحذور المذكور، وأيضًا فالإمام إنما يبقى ساكتًا ليتمكن المأموم من إتمام القراءة، وحينئذ ينقلب الإمام مأمومًا، والمأموم إمامًا، لأن الإمام في هذا السكوت يصير كالتابع للمأموم، وذلك غير جائز، فثبت أن هذا السؤال الذي أورده الواحدي غير جائز، وذكر الواحدي سؤالاً ثانيًا على التمسك بالآية. فقال: إن الإنصات هو ترك الجهر والعرب تسمي تارك الجهر منصتًا، وإن كان يقرأ في نفسه إذا لم يسمع أحدًا.

ولقائل أن يقول: إنه تعالى أمره أولاً بالاستماع واشتغاله بالقراءة يمنعه من الاستماع، لأن السماع غير، والاستماع غير، فالاستماع عبارة عن كونه بحيث يحيط بذلك الكلام المسموع على الوجه الكامل، قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] والمراد ما ذكرناه، وإذا ثبت هذا وظهر أن الاشتغال بالقراءة مما يمنع من الاستماع علمنا أن الأمر بالاستماع يفيد النهي عن القراءة.

السؤال الثالث: وهو المعتمد أن نقول: الفقهاء أجمعوا على أنه يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد فهب أن عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ يوجب سكوت المأموم عند قراءة الإمام، إلا أن قوله عليه الصلاة والسلام: «لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ

الكِتَابِ»(١) وقوله: «لا صَلاةَ إلاَّ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»(٢) أخص من ذلك العموم، وثبت أن تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد لازم فوجب المصير إلى تخصيص عموم هذه الآية بهذا الخبر، وهذا السؤال حسن.

والسؤال الرابع: أن نقول: مذهب مالك وهو القول القديم للشافعي أنه لا يجوز للمأموم أن يقرأ الفاتحة في الصلوات الجهرية، عملاً بمقتضى هذا النص، ويجب عليه القراءة في الصلوات السرية، لأن هذه الآية لا دلالة فيها على هذه الحالة، وهذا أيضًا سؤال حسن، وفي الآية قول خامس وهو أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ خطاب مع الكفار في ابتداء التبليغ وليس خطابًا مع المسلمين، وهذا قول حسن مناسب وتقريره أن الله تعالى حكى قبل هذه الآية أن أقوامًا من الكفار يطلبون آيات مخصوصة ومعجزات مخصوصة، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يأتيهم بها قالوا لولا اجتبيتها، فأمر الله رسوله أن يقول جوابًا عن كلامهم إنه ليس لي أن أقترح على ربي، وليس لي إلا أن أنتظر الوحي، ثم بين تعالى أن النبي ﷺ إنما ترك الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحوها في صحة النبوة، لأن القرآن معجزة تامة كافية في إثبات النبوة وعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] فلو قلنا إن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ المراد منه قراءة المأموم خلف الإمام لم يحصل بين هذه الآية وبين ما قبلها تعلق بوجه من الوجوه، وانقطع النظم، وحصل فساد الترتيب، وذلك لا يليق بكلام الله تعالى، فوجب أن يكون المراد منه شيئًا آخر سوى هذا الوجه وتقريره أنه لما ادعى كون القرآن بصائر وهدى ورحمة، من حيث إنه معجزة دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، وكونه كذلك لا يظهر إلا بشرط مخصوص، وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا قرأ القرآن على أولئك الكفار استمعوا له وأنصتوا حتى يقفوا على فصاحته، ويحيطوا بما فيه من العلوم الكثيرة، فحينئذ يظهر لهم كونه معجزًا دالاًّ على صدق محمد ﷺ، فيستعينوا بهذا القرآن على طلب سائر المعجزات، ويظهر لهم صدق قوله في صفة القرآن: إنه بصائر وهدى ورحمة فثبت أنا إذا حملنا الآية على هذا الوجه استقام النظم وحصل الترتيب الحسن المفيد، ولو حملنا الآية على منع المأموم من القراءة خلف الإمام فسد النظم واختل الترتيب، فثبت أن حمله على ما ذكرناه أولى، وإذا ثبت هذا ظهر أن قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ خطاب مع الكفار عند قراءة الرسول عليهم القرآن في معرض الاحتجاج بكونه معجزًا على صدق نبوته، وعند هذا يسقط استدلال الخصوم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأذان) باب (وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلاة) (٢/ ٢٧٦) حديث رقم/ ٧٥٦ من طريق سفيان... به. ومسلم في كتاب (الصلاة) باب (وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (١/ ٣٥) حديث رقم/ ٢٩٥ من طريق يونس... به. كلاهما (سفيان، يونس) عن الزهري... به.

(٢) انظر سابقه.

بهذه الآية من كل الوجوه، ومما يقوى أن حمل الآية على ما ذكرناه أولى، وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فلما حكى عنهم ذلك ناسب أن يأمرهم بالاستماع والسكوت، حتى يمكنهم الوقوف على ما في القرآن من الوجوه الكثيرة البالغة إلى حد الإعجاز.

والوجه الثاني: أنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فحكم تعالى بكون هذا القرآن رحمة للمؤمنين على سبيل القطع والجزم.

ثم قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولو كان المخاطبون بقوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ هم المؤمنون لما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لأنه جزم تعالى قبل هذه الآية بكون القرآن رحمة للمؤمنين قطعًا فكيف يقول بعده من غير فصل لعل استماع القرآن يكون رحمة للمؤمنين؟ أما إذا قلنا: إن المخاطبين بقوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ هم الكافرون، صح حينئذ قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لأن المعنى: فاستمعوا له وأنصتوا فلعلكم تطلعون على ما فيه من دلائل الإعجاز، فتؤمنوا بالرسول فتصيروا مرحومين، فثبت أنا لو حملناه على ما قلناه حسن قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولو قلنا إن الخطاب خطاب مع المؤمنين لم يحسن ذكر لفظ (لعل) فيه. فثبت أن حمل الآية على التأويل الذي ذكرناه أولى، وحينئذ يسقط استدلال الخصم به من كل الوجوه، لأنا بينا بالدليل أن هذا الخطاب ما يتناول المؤمنين، وإنما تناول الكفار في أول زمان تبليغ الوحي والدعوة.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] أعلم أن قارئًا يقرأ القرآن بصوت عال حتى يمكنهم استماع القرآن، ومعلوم أن ذلك القارئ ليس إلا الرسول عليه السلام، فكانت هذه الآية جارية مجرى أمر الله محمدًا ﷺ بأن يقرأ القرآن على القوم بصوت عال رفيع، وإنما أمره بذلك ليحصل المقصود من تبليغ الوحي والرسالة، ثم إنه تعالى أردف ذلك الأمر، بأن أمره في هذه الآية بأن يذكر ربه في نفسه، والفائدة فيه: أن انتفاع الإنسان بالذكر إنما يكمل إذا وقع الذكر بهذه الصفة، لأنه بهذا الشرط أقرب إلى الاخلاص والتضرع.

المسألة الثانية: أنه تعالى أمر رسوله بالذكر مقيدًا بقيود.

القيد الأول: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ والمراد بذكر الله في نفسه كونه عارفًا بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه مستحضرًا لصفات الكمال والعز والعلو والجلال والعظمة، وذلك لأن الذكر

باللسان إذا كان عاريًا عن الذكر بالقلب كان عديم الفائدة . ألا ترى أن الفقهاء أجمعوا على أن الرجل إذا قال : بعت واشتريت مع أنه لا يعرف معاني هذه الألفاظ ولا يفهم منها شيئًا ، فإنه لا ينعقد البيع والشراء ، فكذا ههنا ويتفرع على ما ذكرنا أحكام :

الحكم الأول: سمعت أن بعض الأكابر من أصحاب القلوب كان إذا أراد أن يأمر واحدًا من المريدين بالخلوة والذكر ، أمره بالخلوة والتصفية أربعين يومًا ، ثم عند استكمال هذه المدة وحصول التصفية التامة ، يقرأ عليه الأسماء التسعة والتسعين ، ويقول لذلك المريد اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الأسماء ، فكل اسم وجدت قلبك عند سماعه قوي تأثره وعظم شوقه ، فاعرف أن الله إنما يفتح أبواب المكاشفات عليك بواسطة المواظبة على ذكر ذلك الاسم بعينه ، وهذا طريق حسن لطيف في هذا الباب .

الحكم الثاني: قال المتكلمون : هذه الآية تدل على إثبات كلام النفس لأنه تعالى لما أمر رسوله بأن يذكر ربه في نفسه وجب الاعتراف بحصول الذكر النفساني ولا معنى لكلام النفس إلا ذلك .

فإن قالوا: لم لا يجوز أن يكون المراد من الذكر النفساني العلم والمعرفة؟

قلنا: هذا باطل لأن الإنسان لا قدرة له على تحصيل العلم بالشيء ابتداء لأنه إما أن يطلبه حال حصوله أو حال عدم حصوله . والأول باطل لأنه يقتضي تحصيل الحاصل وهو محال . والثاني باطل لأن ما لا يكون متصورًا ، كان الذهن غافلاً عنه والغافل عن الشيء يمتنع كونه طالبًا له فثبت أنه لا قدرة للإنسان على تحصيل التصورات ، فامتنع ورود الأمر به ، والآية دالة على ورود الأمر بالذكر النفساني ، فوجب أن يكون الذكر النفساني معنى مغايرًا للمعرفة والعلم والتصور ، وذلك هو المطلوب .

الحكم الثالث: أنه تعالى قال : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ ولم يقل : واذكر إلهك ولا سائر الأسماء ، وإنما سماه في هذا المقام باسم كونه ربًا ، وأضاف نفسه إليه ، وكل ذلك يدل على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والإحسان ، والمقصود منه ، أن يصير العبد فرحًا مبتهجًا عند سماع هذا الاسم ، لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل ، وعند سماع هذا الاسم يتذكر العبد أقسام نعم الله عليه ، وبالحقيقة لا يصل عقله إلى أقل أقسامها ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فعند انكشاف هذا المقام في القلب يقوى الرجاء ، فإذا سمع بعد ذلك قوله : ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ عظم الخوف ، وحينئذ تحصل في القلب موجبات الرجاء وموجبات الخوف ، وعنده يكمل الإيمان على ما قال عليه السلام : «لَوْ وُزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ لاعتدَلا» [(١)] إلا أن هنا دقيقة ، وهي أن سماع لفظ الرب يوجب الرجاء وسماع لفظ التضرع والخيفة يوجب الخوف ، فلما وقع الابتداء بما يوجب الرجاء ، علمنا أن جانب الرجاء أقوى .

---

(١) أورده السيوطي في (الدرر المنتثرة) (١/ ١٦) وقال : لاأصل له والفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ١١) وقال : لاأصل له مرفوعًا وإنما هو عن بعض السلف .

القيد الثاني: من القيود المعتبرة في الذكر حصول التضرع، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا﴾ وهذا القيد معتبر، ويدل عليه القرآن، والمعقول. أما القرآن فقوله في سورة الأنعام ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] وأما المعقول: فلأن كمال حال الإنسان إنما يحصل بانكشاف أمرين: أحدهما: عزة الربوبية، وهذا المقصود، إنما يتم بقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ الثاني: بمشاهدة ذلة العبودية وذلك إنما يكمل بقوله: ﴿تَضَرُّعًا﴾ فالانتقال من الذكر إلى التضرع يشبه النزول من المعراج، والانتقال من التضرع إلى الذكر يشبه الصعود، وبهما يتم معراج الأرواح القدسية وههنا بحث وهو أن معرفة الله من لوازمها التضرع، والخوف، والذكر القلبي يمتنع انفكاكه عن التضرع والخوف، فما الفائدة في اعتبار هذا التضرع والخوف؟ وأجيب عنه بأن المعرفة لا يلزمها التضرع والخوف على الإطلاق، لأنه ربما استحكم في عقل الإنسان أنه تعالى لا يعاقب أحدًا لأن ذلك العقاب إيذاء للغير، ولا فائدة للحق فيه. وإذا كان كذلك لا يعذب فإذا اعتقد هذا، لم يكمل التضرع والخوف. فلهذا السبب نص الله تعالى على أنه لا بد منه وأجيب عنه بأن الخوف على قسمين: الأول: خوف العقاب، وهو مقام المبتدين. والثاني: خوف الجلال وهو مقام المحققين، وهذا الخوف ممتنع الزوال وكل من كان أعرف بجلال الله كان هذا الخوف في قلبه أكمل، وأجيب عن هذا الجواب بأن لأصحاب المكاشفات مقامين: مكاشفة الجمال، ومكاشفة الجلال، فإذا كشفوا بالجمال عاشوا، وإذا كوشفوا بالجلال طاشوا، ولا بد في مقام الذكر من رعاية الجانبين.

القيد الثالث: قوله: ﴿وَخِيفَةً﴾ وفي قراءة أخرى (وخفية) وقال الزجاج: أصلها (خوفة) فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، أقول هذا الخوف يقع على وجوه: أحدها: خوف التقصير في الأعمال. وثانيها: خوف الخاتمة. والمحققون خوفهم من السابقة، لأنه إنما يظهر في الخاتمة ما سبق الحكم به في الفاتحة، ولذلك كان عليه السلام يقول: «**جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ**» وثالثها: خوف أني كيف أقابل نعمة الله التي لا حصر لها ولا حد بطاعاتي الناقصة وأذكاري القاصرة؟ وكان الشيخ أبو بكر الواسطي يقول: الشكر شرك، فسألوني عن هذه الكلمة فقلت: لعل المراد والله أعلم أن من حاول مقابلة وجوه إحسان الله بشكره فقد أشرك. لأن على هذا التقدير يصير كأن العبد يقول: منك النعمة ومني الشكر، ولا شك أن هذا شرك، فأما إذا أتى بالشكر مع خوف التقصير ومع الاعتراف بالذل والخضوع، فهناك يشم فيه رائحة العبودية.

وأما القراءة الثانية: وهو قوله: (وخفية) فالإخفاء في حق الميتدين يراد لصون الطاعات عن شوائب الرياء والسمعة، وفي حق المنتهين المقربين منشؤه الغيرة، وذلك لأن المحبة إذا استكملت أوجبت الغيرة، فإذا كمل هذا التوغل وحصل الفناء، وقع الذكر في حين الإخفاء بناء على قوله عليه السلام: «**مَنْ عَرَفَ اللّه، كَلَّ لِسَانُهُ**».

القيد الرابع: قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ والمراد منه أن يقع ذلك الذكر بحيث يكون

متوسطًا بين الجهر والمخافتة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]وقال عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]قال ابن عباس: وتفسير قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ المعنى أن يذكر ربه على وجه يسمع نفسه، فإن المراد حصول الذكر اللساني، والذكر اللساني إذا كان بحيث يسمع نفسه، فإنه يتأثر الخيال من ذلك الذكر، وتأثر الخيال يوجب قوة في الذكر القلبي الروحاني، ولا يزال يتقوى كل واحد من هذه الأركان الثلاثة، وتنعكس أنوار هذه الأذكار من بعضها إلى بعض، وتصير هذه الانعكاسات سببًا لمزيد القوة والجلاء والانكشاف والترقي من حضيض ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار مدبر النور والظلام.

والقيد الخامس: قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

وههنا مسائل:

المسألة الأولى: في لفظ (الغدو) قولان:

القول الأول: أنه مصدر يقال غدوت أغدو غدوًّا غدوا، ومنه قوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]أي: غدوها للسير، ثم سمى وقت الغدو غدوًّا، كما يقال: دنا الصباح أي: وقته، ودنا المساء أي: وقته.

القول الثاني: أن يكون الغدو جمع غدوة، قال الليث: الغدو جمع مثل الغدوات وواحد الغدوات غدوة، وأما ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ فقال الفراء: واحدها أصل وواحد الأصل الأصيل. قال يقال جئناهم مؤصلين أي: عند الآصال، ويقال الأصيل مأخوذ من الأصل واليوم بليلته، إنما يبتدأ بالشروع من أول الليل وآخر نهار كل يوم متصل بأول ليل اليوم الثاني، فسمى آخر النهار أصيلاً، لكونه ملاصقًا لما هو الأصل لليوم الثاني.

المسألة الثانية: خص الغدو والآصال بهذا الذكر، والحكمة فيه أن عند الغدوة انقلب الإنسان من النوم الذي هو كالموت إلى اليقظة التي هي كالحياة، والعالم انقلب من الظلمة التي هي طبيعة عدمية إلى النور الذي هو طبيعة وجودية. وأما عند الآصال فالأمر بالضد لأن الإنسان ينقلب فيه من الحياة إلى الموت، والعالم ينقلب فيه من النور الخالص إلى الظلمة الخالصة، وفي هذين الوقتين يحصل هذان النوعان من التغيير العجيب القوي القاهر ولا يقدر على مثل هذا التغيير إلا الإله الموصوف بالحكمة الباهرة والقدرة الغير المتناهية، فلهذه الحكمة العجيبة خص الله تعالى هذين الوقتين بالأمر بالذكر. ومن الناس من قال: ذكر هذين الوقتين والمراد مداومة الذكر والمواظبة عليه بقدر الإمكان. عن ابن عباس أنه قال في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]لو حصل لابن آدم حالة رابعة سوى هذه الأحوال لأمر الله بالذكر عندها والمراد منه أنه تعالى أمر بالذكر على الدوام.

والقيد السادس: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ والمعنى أن قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ دا

أن الذكر القلبي يجب أن يكون دائمًا، وأن لا يغفل الإنسان لحظة واحدة عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية والقوة الإنسانية، وتحقيق القول، أن بين الروح وبين البدن علاقة عجيبة، لأن كل أثر حصل في جوهر الروح نزل منه أثر إلى البدن، وكل حالة حصلت في البدن صعدت منها نتائج إلى الروح، ألا ترى أن الإنسان إذا تخيل الشيء الحامض ضرّس سنه، وإذا تخيل حالة مكروهة وغضب سخن بدنه، فهذه آثار تنزل من الروح إلى البدن، وأيضًا إذا واظب الإنسان على عمل من الأعمال وكرر مرات وكرات حصلت ملكة قوية راسخة في جوهر النفس فهذه آثار صعدت من البدن إلى النفس.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا حضر الذكر اللساني بحيث يسمع نفسه، حصل أثر من ذلك الذكر اللساني في الخيال، ثم يصعد من ذلك الأثر الخيالي مزيد أنوار وجلايا إلى جوهر الروح، ثم تنعكس من تلك الإشراقات الروحانية آثار زائدة إلى اللسان ومنه إلى الخيال، ثم مرة أخرى إلى العقل، ولا يزال تنعكس هذه الأنوار من هذه المرايا بعضها إلى بعض، ويتقوى بعضها ببعض ويستكمل بعضها ببعض، ولما كان لا نهاية لتزايد أنوار المراتب، لا جرم لا نهاية لسفر العارفين في هذه المقامات العالية القدسية وذلك بحر لا ساحل له، ومطلوب لا نهاية له.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ وإن كان ظاهره خطابًا مع النبي عليه السلام، إلا أنه عام في حق كل المكلفين ولكل أحد درجة مخصوصة ومرتبة معينة بحسب استعداد جوهر نفسه الناطقة كما قال في صفة الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لما رغب الله رسوله في الذكر وفي المواظبة عليه ذكر عقيبه ما يقوي دواعيه في ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ والمعنى: أن الملائكة مع نهاية شرفهم وغاية طهارتهم وعصمتهم وبراءتهم عن بواعث الشهوة والغضب، وحوادث الحقد والحسد، لما كانوا مواظبين على العبودية والسجود والخضوع والخشوع، فالإنسان مع كونه مبتلى بظلمات عالم الجسمانيات ومستعدًا للذات البشرية والبواعث الإنسانية أولى بالمواظبة على الطاعة، ولهذا السبب قال عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] وقال لمحمد عليه السلام: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

المسألة الثانية: المشبهة تمسكوا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وقالوا لفظ ﴿عِندَ﴾ مشعر بالمكان والجهة. وجوابه أنا ذكرنا البراهين الكثيرة العقلية والنقلية في هذه السورة عند تفسير قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤، يونس: ٣] على أنه يمتنع كونه تعالى حاصلاً في المكان والجهة.

وإذا ثبت هذا فنقول: وجب المصير إلى التأويل في هذه الآية وبيانه من وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] ولا شك أن هذه المعية بالفضل والرحمة لا بالجهة فكذا ههنا، وأيضًا جاء في الأخبار الربانية أنه تعالى قال: (أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي) ولا خلاف أن هذه العندية ليست لأجل المكان والجهة، فكذا ههنا.

والوجه الثاني: إن المراد القرب بالشرف. يقال: للوزير قربة عظيمة من الأمير، وليس المراد منه القرب بالجهة، لأن البواب والفراش يكون أقرب إلى الملك في الجهة والحيز والمكان من الوزير، فعلمنا أن القرب المعتبر هو القرب بالشرف لا القرب بالجهة.

والوجه الثالث: أن هذا تشريف للملائكة بإضافتهم إلى الله من حيث إنه أسكنهم في المكان الذي كرمه وشرفه وجعله منزل الأنوار ومصعد الأرواح والطاعات والكرامات.

والوجه الرابع: إنما قال تعالى في صفة الملائكة: ﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ لأنهم رسل الله إلى الخلق كما يقال: إن عند الخليفة جيشًا عظيمًا، وإن كانوا متفرقين في البلد، فكذا ههنا والله أعلم.

المسألة الثانية: تمسك أبو بكر الأصم رحمه الله بهذه الآية في إثبات أن الملائكة أفضل من البشر، لأنه تعالى لما أمر رسوله بالعبادة والذكر قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ والمعنى فأنت أولى وأحق بالعبادة، وهذا الكلام إنما يصح لو كانت الملائكة أفضل منه.

المسألة الرابعة: ذكر من طاعاتهم أولاً كونهم يسبحون، وقد عرفت أن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى من كل سوء، وذلك يرجع إلى المعارف والعلوم، ثم لما ذكر التسبيح أردفه بذكر السجود، وذلك يرجع إلى أعمال الجوارح، وهذا الترتيب يدل على أن الأصل في الطاعة والعبودية أعمال القلوب، ويتفرع عليها أعمال الجوارح. وأيضًا قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ يفيد الحصر ومعناه: أنهم لا يسجدون لغير الله.

فإن قيل: فكيف الجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠، ص: ٧٣] والمراد أنهم سجدوا لآدم؟

والجواب: قال الشيخ الغزالي: الذين سجدوا لآدم ملائكة الأرض. فأما عظماء ملائكة السموات فلا. وقيل أيضًا: إن قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ يفيد أنهم ما سجدوا لغير الله، فهذا يفيد العموم. وقوله: فسجدوا لآدم خاص، والخاص مقدم على العام.

واعلم أن الآيات الدالة على كون الملائكة مستغرقين في العبودية كثيرة، كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦] وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥] والله أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الأعراف

وهي مكيةٌ، إلا ثمان آيات، وهي قولُه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [الآية:١٦٣] إلى قوله: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾ [الآية: ١٧١](١).

وروى النَّسائيّ عن عائشةَ أن رسولَ الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فَرَّقها في ركعتين(٢). صحَّحه أبو محمد عبد الحقّ(٣).

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾ تقدَّم في أوَّل «البقرة»(٤)، وموضِعُه رفعٌ بالابتداء. و﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرُه. كأنه قال: «المص» حروف ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾. وقال الكسائيّ:

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٢ ، وزاد المسير ٣/ ١٦٤ وفيهما أن الآيات المدنية من قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [الآية:١٦٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الآية:١٧٢]. ونسبا هذا القول لمقاتل، وأورد ابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة أنها مكية إلا خمس آيات أولها قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، وأخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ (٥٠٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سورة الأعراف نزلت بمكة.

(٢) سنن النسائي ٢/ ١٧٠ ، وأخرج البخاري (٧٦٤)، وأبو داود (٨١٢)، والنسائي ٢/ ١٧٠ ، عن مروان ابن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: مالَك تقرأُ في المغربِ بقِصارٍ، وقد سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأ بطُولى الطُّولَيين. زاد أبو داود: قال: قلت: ما طُولَى الطُّوليين، قال: الأعراف، والأخرى: الأنعام. ونحو هذه الزيادة عند النسائي. وينظر فتح الباري ٢/ ٢٤٧ .

(٣) في الأحكام الصغرى ١/ ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٤) ١/ ٢٣٧ .

أي: هذا كتابٌ[١].

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضِيقٌ؛ أي: لا يضيقُ صدرُك بالإبلاغ؛ لأنه رُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إني أخافُ أن يَثْلَغُوا رأسي فيَدَعُوه خُبزَةً». الحديث. خرَّجه مسلم[٢].

قال الكيا[٣]: فظاهرُه النهي، ومعناهُ نَفْي[٤] الحَرَج عنه؛ أي: لا يضيقُ صدرُك ألّا يؤمنوا به، فإنما عليك البلاغُ، وليس عليك سوى الإنذار به من شيء من إيمانهم أو كُفرهم، ومثلُه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الآية [الكهف:٦]. وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

ومذهبُ مجاهد وقتادة أنَّ الحرجَ هنا الشَّكّ[٥]، وليس هذا شَكَّ الكُفر، إنما هو شَكُّ الضِّيق. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:٩٧].

وقيل: الخِطابُ للنبيِّ ﷺ والمُرادُ أُمَّتُه. وفيه بُعْدٌ.

والهاء في «مِنْهُ» للقرآن. وقيل: للإنذار، أي: أُنزل إليك الكتابُ لِتُنذِرَ به فلا يكن في صدرك حَرَجٌ منه. فالكلامُ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ. وقيل: للتكذيب الذي يُعطيه قوّة الكلام. أي: فلا يكنْ في صدرك ضِيقٌ من تكذيبِ المُكذِّبين له[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٧٢. والقول الأول للفرَّاء، وقد ردَّه الزجَّاج.

(٢) (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المُجَاشعي ﷺ، ولفظه: «...وإن الله أَمَرني أنْ أُحرِّق قريشاً، فقلت: ربِّ، إذاً يَثْلَغوا رأسي...» وهو عند أحمد (١٧٤٨٤). قوله: «يثلغوا»، قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٩٨: أي: يشدخوه ويَشجُّوه كما يُشدخ الخبز، أي: يكسر.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٣١.

(٤) في (د) و(ظ): رفع، والمثبت من (ز) و(م).

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٤ - ٥٥.

(٦) تفسير الطبري ١٠/ ٥٥ - ٥٦، وتفسير أبي الليث ١/ ٥٣٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٧٢، وزاد المسير ٣/ ١٦٥ - ١٦٦.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يجوزُ أن يكونَ في موضع رَفْع ونَصْب وخَفْض. فالرفع من وجهين؛ قال البصريون: هي رفعٌ على إضمارِ مبتدأ. وقال الكسائيّ: عطفٌ على «كتاب». والنصبُ من وجهين؛ على المصدر، أي: وذَكَّر به ذِكْرى؛ قاله البصريون. وقال الكسائي: عطفٌ على الهاء في «أنزلناه»[1]. والخَفْضُ حَمْلاً على موضع «لِتُنْذِرَ به». والإنذارُ للكافرين، والذِّكْرى للمؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني الكتابَ والسنة. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقالت فرقةٌ: هذا أمرٌ يعمُّ النبيَّ ﷺ وأُمَّتَه. والظاهرُ أنه أمرٌ لجميع الناس دونَه[2]. أي: اتَّبعوا مِلَّةَ الإسلام والقرآن، وأَحِلُّوا حلالَه وحَرِّموا حرامَه، وامتثلوا أَمْرَه، واجتنبوا نَهْيَه[3].

ودَلَّت الآيةُ على ترك اتِّباع الآراء مع وجود النصِّ فيه[4].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ «مِنْ دونه»: من غيره. والهاء تعودُ على الربِّ سبحانه، والمعنى: لا تعبدوا معه غيرَه، ولا تَتَّخِذوا مَنْ عدَلَ عن دين الله وَلِيًّا، وكلُّ من رَضِيَ مذهباً فأهلُ ذلك المَذْهب أولياؤه.

ورُوي عن مالك بن دِينار أنه قرأ: «ولا تَبْتَغُوا مِنْ دُونهِ أولياءَ» أي: ولا

(١) يعني ـ والله أعلم ـ على تقدير قوله تعالى: «كتاب أُنزل» ـ وهو لفظ الآية ـ بـ «أنزلناه» ـ وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٤، وينظر الدر المصون ٥/ ٢٤٤.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣ دون لفظة: دونه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٦٦.

(٤) لفظ: فيه، من (د) و(ز).

تطلُبوا[(١)].

ولم ينصرفْ «أولياء» لأنَّ فيه ألفَ التأنيث.

وقيل: تعود[(٢)] على «ما» من قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ «ما» زائدة. وقيل: تكونُ مع الفعل مصدراً[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾: «كم» للتكثير، كما أنَّ «رُبَّ» للتقليل. وهي في موضع رَفْعٍ بالابتداء، و«أهلكنا» الخبر. أي: وكثيرٌ مِن القُرى ـ وهي مواضعُ اجتماع الناس ـ أهلكناها. ويجوزُ النصب بإضمارِ فعلٍ بعدَها، ولا يُقدَّر قبلَها؛ لأنَّ الاستفهامَ لا يعملُ فيه ما قبلَه[(٤)]. ويُقوِّي الأوّلَ قولُه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء:١٧]. ولولا اشتغالُ «أَهْلكنا» بالضمير لانتصبَ به موضعُ «كم».

ويجوز أن يكونَ «أَهْلَكْنَا» صفةً للقرية، و«كَمْ» في المعنى هي القرية، فإذا وصفتَ القريةَ فكأنَّك قد وصفتَ «كَمْ». يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٦]، فعاد الضميرُ على «كَمْ» على المعنى، إذْ كانت الملائكةَ في المعنى. فلا يصحُّ على هذا التقديرِ أن تكون «كَمْ» في موضع نَصْبٍ بإضمار فِعْلٍ بعدَها.

﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ فيه إشكالٌ للعطف بالفاء. فقال الفرّاء: الفاءُ بمعنى الواو، فلا

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٩، وقراءة مالك بن دينار أوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٢ وزاد نسبتها للجحدري، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣ لمجاهد.

(٢) أي: الهاء، من قوله تعالى: «من دونه». ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٤، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٢٨١ - ٢٨٢.

يَلزمُ الترتيب[١]. وقيل: أي: وكم من قريةٍ أردنا إهلاكَها، فجاءها بأسُنا، كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨][٢]. وقيل: إنَّ الهلاكَ واقعٌ ببعض القوم، فيكون التقدير: وكم من قريةٍ أهلكنا بعضَها فجاءها بأسُنا، فأهلكنا الجميعَ. وقيل: المعنى: وكم من قريةٍ أهلكناها في حُكمنا فجاءها بأسُنا. وقيل: أهلكناها بإرسالنا ملائكةَ العذابِ إليها فجاءها بأسُنا، وهو الاستئصال[٣]. والبأسُ: العذابُ الآتي على النفس. وقيل: المعنى: أهلكناها، فكان إهلاكُنا إيَّاهم في وقت كذا، فمجيءُ البأسِ على هذا هو الإهلاك. وقيل: البأسُ غيرُ الإهلاك؛ كما ذكرنا.

وحكى الفرّاء أيضاً أنه إذا كان معنى الفِعلين واحداً، أو كالواحد؛ قدَّمتَ أيَّهما شئت؛ فيكون المعنى: وكم من قريةٍ جاءها بأسُنا فأهلكناها؛ مثل: دَنَا فقَرُب، وقَرُبَ فَدَنا، وشَتمني فأساء، وأساء فَشَتمني؛ لأنَّ الإساءةَ والشَّتْمَ شيء واحدٌ[٤]. وكذلك قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]. المعنى ـ والله أعلم ـ انشقَّ القمرُ فاقتربتِ[٥] الساعةُ. والمعنى واحد.

﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلاً، ومنه البيت، لأنه يُبات فيه. يقال: باتَ يبِيتُ بَيْتاً وبَيَاتاً.

﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي: أو وهم قائلون، فاستثقلوا، فحذَفوا الواو؛ قاله الفرّاء[٦].

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧١ - ٣٧٢ ، وضعَّف هذا القول السمين في الدر المصون ٥/ ٢٤٨ .

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٢٨٢ .

(٣) النكت والعيون ٢/ ٢٠٠ ، ومجمع البيان للطبرسي ٨/ ١٠ .

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧١ ولفظه فيه: أن الهلاك والبأس يقعان معاً، كما تقول: أعطيتني فأحسنت، فلم يكن الإحسان بعد العطاء ولا قبله، وإنما وقعا معاً، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٥٩ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٧٤ ، والدر المصون ٥/ ٢٤٩ .

(٥) في (ظ): واقتربت.

(٦) في معاني القرآن ١/ ٣٧٢ .

وقال الزجاج[١]: هذا خطأٌ، إذا عادَ الذكرُ استُغْنيَ عن الواو، تقول: جاءني زيدٌ راكباً أو هو ماشٍ، ولا يحتاج إلى الواو.

قال المهدويّ: ولم يَقُلْ: بياتاً أو وهم قائلون؛ لأن في الجملة ضميراً يرجعُ إلى الأوّل، فاستغنى عن الواو. وهو معنى قولِ الزجّاج سواء.

وليس «أو» للشكّ، بل للتفصيل؛ كقولك: لَأُكْرِمَنَّك منصفاً لي أو ظالماً. وهذه الواو تُسمَّى عند النحويين واو الوقت[٢].

و«قَائِلُونَ» من القائلة، وهي القَيْلُولة؛ وهي نومُ نصف النهار. وقيل: الاستراحةُ نصفَ النهار إذا اشتدَّ الحرُّ وإنْ لم يكن معها نومٌ. والمعنى: جاءهم عذابُنا وهم غافلون إمّا ليلاً وإمّا نهاراً[٣].

والدعوى: الدُّعاء، ومنه قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ [يونس: ١٠]. وحكى النحويون: اللهمّ أَشْرِكْنا في دعوى صالح مَن دعاك. وقد تكون الدَّعوى بمعنى الادّعاء. والمعنى: أنهم لم يحصلوا[٤] عند الإهلاك إلا على الإقرارِ بأنهم كانوا ظالمين.

و﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ في موضع نصبِ خبرُ كان، واسمُها ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾، نظيرُه ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٦] ويجوزُ أن تكونَ الدَّعوى رفعاً، و«أنْ قالوا» نصباً؛ كقوله تعالى: ﴿ليس الْبِرُّ أن تُوَلُّوا﴾ [البقرة: ١٧٧] برفع «البرّ»[٥]،

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٤.

(٢) قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط (باب الألف اللينة): وتقرُب من واو الحال.

(٣) تهذيب اللغة ٩/ ٣٠٩، وتفسير البغوي ٢/ ١٤٨.

(٤) في النسخ: لم يخلصوا، والمثبت من معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٠، والكلام منه.

(٥) هي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية شعبة والكسائي. وسلف ذكرها ٣/ ٥٣ - ٥٤. وينظر تفسير الرازي ١٤/ ٢١.

وقوله: ﴿ثمَّ كانَ عاقبةُ الذين أساؤوا السوأى أنْ كذَّبوا﴾ [الروم: ١٠] برفع «عاقبة»[١].

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ⦃٦⦄ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ⦃٧⦄﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أنّ الكفارَ يُحاسبون[٢]. وفي التنزيل: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦]. وفي سورة القصص: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [٧٨]، يعني إذا استقرُّوا في العذاب[٣].

والآخرةُ مَواطنُ: مَوْطِنٌ يُسألون فيه للحساب، ومَوْطِنٌ لا يُسألون فيه، وسؤالُهم سؤال تقرير وتوبيخ وإفضاح، وسؤالُ الرُّسل سؤال استشهادٍ بهم وإفصاح، أي: عن جوابِ القوم لهم[٤]. وهو معنى قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨][٥] على ما يأتي.

وقيل: المعنى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: الأنبياء، ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الملائكة الذين أُرسلوا إليهم[٦].

واللام في «فلنسألنَّ» لام القَسَم، وحقيقتُها التوكيد. وكذا ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾[٧]. قال ابن عباس: ينطقُ عليهم[٨]. ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ أي: كنَّا شاهدين لأعمالهم. ودلَّت الآيةُ على أن الله تعالى عالم بعلم[٩].

---

(١) هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. السبعة ص٥٠٦ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٥ .

(٣) في تفسير هذه الآية أقوال ذكرها المصنف في موضعها.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٦٦ ، وتفسير الرازي ١٣/ ٢٣ ، ومجمع البيان ٨/ ١٤ - ١٥ .

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٥٣١ .

(٦) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٦٧ - ٦٨ لعبد بن حُميد.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٥ .

(٨) أخرجه الطبري بنحوه ١٠/ ٦٤ - ٦٥ و ٦٧ .

(٩) في (د) و(ظ): يعلم، وينظر تفسير الرازي ١٣/ ٢٣ والبحر المحيط ٤/ ٢٧٠ .

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ ابتداءٌ وخبر. ويجوزُ أن يكونَ «الحقُّ» نَعْتَه، والخبرُ: «يومئذ». ويجوز نصبُ «الحقّ» على المصدر[(١)].

والمرادُ بالوزن وزن أعمال العباد بالميزان. قال ابن عمر: تُوزَنُ صحائفُ أعمالِ العِباد[(٢)]. وهذا هو الصحيحُ، وهو الذي وردَ به الخبرُ على ما يأتي.

وقيل: الميزانُ: الكتاب الذي فيه أعمالُ الخَلْق. وقال مجاهد: الميزانُ: الحسناتُ والسيئاتُ بأعيانها. وعنه أيضاً والضحَّاك والأعمش: الوزنُ والميزانُ بمعنى العَدْل والقضاء[(٣)]، وذِكْر الوزن ضربُ مَثَلٍ؛ كما تقول: هذا الكلامُ في وَزْن هذا وفي وِزانه، أي: يُعادِلُه ويُساويه وإنْ لم يكن هناكَ وَزْنٌ.

قال الزجاج[(٤)]: هذا سائغٌ من جِهة اللِّسان، والأولى أن يُتَّبعَ ما جاء في الأسانيد الصِّحاح من ذِكْر الميزان. قال القشيرِيّ: وقد أحسنَ فيما قال، إذْ لو حُمِلَ الميزانُ على هذا فَلْيحمل الصراطُ على الدِّين الحقّ، والجنةُ والنار على ما يَرِدُ على الأرواح دون الأجساد، والشياطينُ والجِنُّ على الأخلاق المذمومة، والملائكةُ على القُوى المَحمودة. وقد أجمعتِ الأمةُ في الصَّدر الأوّل على الأَخْذِ بهذه الظواهر من غير تأويل. وإذا أجمعوا على مَنْع التأويل؛ وَجَبَ الأخذُ بالظاهر، وصارتْ هذه الظواهرُ نصوصاً.

قال ابن فُورَك: وقد أنكرتِ المعتزلةُ الميزانَ بناءً منهم على أن الأعراضَ يستحيلُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٥ .

(٢) النكت والعيون ٢/ ٢٠١ .

(٣) تفسير الرازي ١٣/ ٢٥ .

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٩ .

وَزْنُها، إذْ لا تقومُ بأنفُسها[١]. ومن المُتكلِّمين من يقول: إنَّ الله تعالى يَقْلِب الأعراضَ أجساماً فيزنُها يومَ القيامة. وهذا ليس بصحيح عندنا، والصحيحُ أنَّ الموازين تَثقُل بالكُتب التي فيها الأعمالُ مكتوبة، وبها تَخِفُّ. وقد رُوي في الخبر ما يُحقِّق ذلك، وهو أنه رُوي «أنَّ ميزانَ بعضِ بني آدمَ كاد يَخِفُّ بالحسنات، فيُوضَعُ فيه رَقٌّ مكتوبٌ فيه: لا إله إلا الله، فيثقُل»[٢]. فقد عُلِمَ أن ذلك يَرجِعُ إلى وزن ما كُتب فيه الأعمال، لا نفس الأعمال، وأن الله سبحانه يُخفِّفُ الميزانَ إذا أراد، ويُثقِّلُه إذا أراد؛ بما يُوضَع في كفَّتيه من الصُّحف التي فيها الأعمال.

وفي «صحيح» مسلم عن صفوان بن مُحْرِز قال: قال رجلٌ لابن عمر: كيف سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول في النَّجْوَى؟ قال: سمعتُه يقول: «يُدْنَى المؤمنُ من ربِّه يومَ القيامة حتى يَضَعَ عليه كَنَفَه، فيُقَرِّرُه بذنوبه فيقول: هل تعرِفُ؟ فيقول: أي ربِّ أعرِفُ، قال: فإني قد سَتَرتُها عليك في الدنيا، وإني أَغْفِرُها لك اليومَ. فيُعْطَى صحيفةَ حسناته، وأما الكُفَّار والمنافقون؛ فيُنادَى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كَذَبوا على الله»[٣]. فقوله: «فيُعطَى صحيفةَ حسناته» دليلٌ على أن الأعمالَ تُكتَبُ في الصُّحف وتُوزَن.

وروى ابنُ ماجه من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُصاحُ برجلٍ من أُمَّتي يومَ القيامة على رؤوس الخلائق، فيُنْشَرُ عليه تسعةٌ وتسعون سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مدَّ البصر، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل تُنكِرُ من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: أَظَلَمَتْكَ كتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا، ثم يقول: ألكَ عُذْرٌ، ألك

---

(١) زاد المسير ٣/ ١٧٠.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وسيذكر المصنف نحوه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وقوله: رَقّ: وهو ما يُكتب فيه، وهو جلد رقيق. مختار الصحاح (رقق).

(٣) صحيح مسلم (٢٧٦٨)، وأخرجه أحمد (٥٤٣٦)، والبخاري (٢٤٤١). وقوله: «كنفه»، قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٧/ ٨٧: هو ستره وعفوه.

حسنةٌ؟ فيَهابُ الرجلُ فيقول: لا، فيقول: بلى إنَّ لك عندنا حسنةً[١]، وإنه لا ظُلْمَ عليك اليوم، فتُخرج له بِطاقةٌ فيها: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، فيقول: يا ربِّ[٢]، ما هذه البِطاقة مع هذه السِّجِلّات؟ فيقول: إنك لا تُظلَم. فتوضع السِّجِلّات في كِفَّة والبطاقةُ في كِفَّة، فطاشَتِ السِّجِلاتُ وثَقُلَتِ البطاقة»[٣]. زاد الترمذيّ: «فلا يَثْقُل مع اسمِ الله شيء» وقال: حديثٌ حسنٌ غريب[٤]. وسيأتي لهذا البابِ مزيدُ بيان في «الكهف» و«الأنبياء» إن شاء الله تعالى[٥].

قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

«مَوَازِينُهُ» جمعُ ميزان، وأصله: مِوْزان، قُلِبت الواو ياءً لكسرة ما قبلَها[٦].

وقيل: يجوزُ أن يكون هناك موازينُ للعامل الواحد؛ يُوزَن بكل ميزان منها صِنفٌ من أعماله. ويمكن أن يكونَ ذلك ميزاناً واحداً عُبِّر عنه بلفظ الجمع؛ كما تقول: خرج فلانٌ إلى مكةَ على البِغال، وخرج إلى البصرة في السُّفن، وفي التنزيل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وإنما هو رسولٌ واحدٌ في أحد التأويلين.

وقيل: المَوازين جمعُ مَوْزون، لا جمعَ ميزان. أراد بالموازين الأعمالَ المَوْزونة[٧]. «وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ» مِثْلُه.

وقال ابن عباس: تُوزَنُ الحسناتُ والسيئاتُ في ميزانٍ له لسانٌ وكِفَّتان؛ فأما

---

(١) في (م) وهامش (خ): حسنات.

(٢) قوله: يا رب، من (م) ومصادر الحديث.

(٣) سنن ابن ماجه (٤٣٠٠)، وأخرجه أحمد (٦٩٩٤).

(٤) سنن الترمذي (٢٦٣٩).

(٥) عند تفسير الآية (١٠٥) من الكهف، والآية (٤٧) من الأنبياء.

(٦) الصحاح (وزن).

(٧) تفسير الرازي ١٣/ ٢٦ .

المؤمنُ فَيُؤتَى بعمله في أحسن صورة، فَيُوضَع في كِفَّة الميزان، فتثقلُ حسناتُه على سيئاته؛ فذلك قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ويُؤتَى بعمل الكافر في أقبحِ صورة، فَيُوضَع في كِفَّة الميزان، فَيَخِفُّ وَزْنُه حتى يقعَ في النار[١].

وما أشار إليه ابنُ عباس قريبٌ مما قيل: يخلُق اللهُ تعالى كلَّ جُزء من أعمال العباد جوهراً، فيقع الوزنُ على تلك الجواهر. وردَّه ابن فُورَك وغيره.

وفي الخبر: إذا خَفَّتْ حسناتُ المؤمن؛ أخرجَ رسولُ الله ﷺ بِطاقةً كالأَنْمَلة، فَيُلقيها في كِفَّة الميزان اليُمنى التي فيها حسناتُه، فترجحُ الحسناتُ، فيقول ذلك العبدُ المؤمن للنبيِّ ﷺ: بأبي أنتَ وأُمِّي، ما أحسنَ وجهك، وما أحسنَ خَلْقَك، فمن أنت؟! فيقول: «أنا محمدٌ نبيُّك، وهذه صلواتُك التي كنتَ تُصلِّي عليَّ؛ قد وَفَّيتُكَ أحوجَ ما تكونُ إليها». ذكره القشيرِيّ في «تفسيره»[٢]؛ وذكر أن البطاقة ـ بكسر الباء ـ رُقعةٌ فيها رَقْم المَتاع بلغة أهل مصر. وقال ابن ماجه: قال محمدُ بن يحيى[٣]: البِطاقة الرُّقعة، وأهلُ مصر يقولون لِلرُّقْعة: بِطاقة.

وقال حذيفة: صاحبُ الموازين يومَ القيامة جبريلُ عليه السلام، يقول الله تعالى: «يا جبريلُ، زِنْ بينهم، فَرُدَّ من بعضٍ على بعض». قال: وليس ثَمَّ ذهبٌ ولا فِضَّةٌ؛ فإنْ كان للظالم حسناتٌ أُخِذَ من حسناته فَرُدَّ على المظلوم، وإن لم تكنْ له حسناتٌ أُخِذَ من سيئات المظلوم؛ فَتُحمَلُ على الظالم؛ فيرجِع الرجلُ وعليه مثلُ الجبال[٤].

---

(١) أورده الواحدي في الوسيط ٢/ ٣٥٠ ،وأخرجه بنحوه البيهقي في الشعب (٢٨٢)، وفي إسناده الكلبي، وهو مُتَّهم بالكذب كما في تقريب التهذيب ص٤١٥ .

(٢) وأورده الرازي في تفسيره ١٣/ ٢٧ ، وعزاه للواحدي في البسيط.

(٣) الذهلي، أبو عبد الله النيسابوري الحافظ، وهو شيخ ابن ماجه الذي روى عنه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما (٤٣٠٠) السالف قريباً. وقوله هذا ذكره ابن ماجه عقب الحديث.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٩ ، وفي إسناده عبد العزيز بن أبان الأموي، تركه أحمد، وقال فيه ابن معين: كذاب خبيث يضع الحديث، كما في تهذيب التهذيب ٢/ ٥٨١ . =

ورُوي عن النبيّ ﷺ: «أنَّ اللهَ تعالى يقول يومَ القيامة: يا آدمُ، أُبْرُزْ إلى جانب الكُرسيّ عند الميزان، وانظُرْ ما يُرفَعُ إليك من أعمالِ بَنِيكَ، فمن رَجَح خيرُه على شرِّه مِثْقالَ حَبَّة فله الجنةُ، ومَن رَجَح شرُّه على خيره مِثْقالَ حبَّة فله النار، حتى تَعْلمَ أنِّي لا أُعذِّبُ إلا ظالماً»[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

أي: جعلناها لكم قَراراً ومِهاداً، وَهيَّأْنا لكم فيها أسبابَ المعيشة. والمَعايشُ جمع مَعيشة، أي: ما يُتعيَّش به من المَطْعم والمَشْرَب وما تكون به الحياة. يقال: عاش يَعِيش عَيْشاً ومَعاشاً ومَعِيشاً ومَعِيشةً وعِيشَةً.

وقال الزجاج[٢]: المَعِيشة ما يُتوصَّل به إلى العَيْش. ومَعيشة في قول الأخفش وكثيرٍ من النَّحْويين: مَفْعِلة[٣].

وقرأ الأعرج: «مَعَائِشَ» بالهمز. وكذا روى خارجةُ بن مُصْعَب عن نافع[٤].

قال النحاس[٥]: والهمزُ لحنٌ لا يجوز؛ لأنَّ الواحدةَ معيشة، أصلُها مَعْيِشة،

= والصحيح في باب رد المظالم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مَظْلِمةٌ لأحد من عِرْضه أو شيء فَلْيتحلَّله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إنْ كان له عملٌ صالح أُخِذَ منه بِقَدْر مَظْلِمته، وإن لم تكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتِ صاحبه فَحُمِلَ عليه». أخرجه أحمد (٩٦١٥) والبخاري (٢٤٤٩)، وسلف ٢/ ٧٦. وحديثُ المُفْلس المشهور أخرجه أحمد (٨٠٢٩)، ومسلم (٢٥٨١) وسلف ٤/ ٢٧٣.

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٥٦) بنحوه مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٧، وقال: فيه الفضل بن عيسى الرَّقاشي، وهو كذاب. وقال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب ص٣٨٢: منكر الحديث، رُمي بالقدر. وينظر التذكرة للمصنف ص٣٠٩ وما بعدها.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٢٠ - ٣٢١.

(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥١١ - ٥١٢، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨٣.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٢. وهذه القراءة عن نافع ليست المشهورة عنه، وقراءته لهذه اللفظة كقراءة الجماعة.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ١١٥.

فَزِيدَتْ ألفُ الجمع[١]، وهي ساكنةٌ والياءُ ساكنة، فلابدَّ من تحريكٍ؛ إذْ لا سبيلَ إلى الحَذْف، والألفُ لا تُحرَّك، فَحُرِّكت الياء بما كان يجب لها في الواحد. ونظيرُه من الواو: مَنارة ومَناوِر، ومَقام ومَقاوِم؛ كما قال الشاعر:

وإنِّي لَقَوَّامٌ مَقاوِمَ لم يكن جريرٌ ولا مَوْلى جريرٍ يَقُومُها[٢]

وكذا: مُصيبة ومَصَاوِب. هذا الجيد، ولغة شَاذَّة: مصائب. قال الأخفش[٣]: إنما جاز مصائب؛ لأنَّ الواحدةَ مُعْتَلَّةٌ. قال الزجَّاج[٤]: هذا خطأٌ يلزمه عليه أن يقول: مقائم. ولكن القول أنه مِثْل: وِسادة وإِسادة.

وقيل: لم يَجُزِ الهمزُ في مَعايِشَ لأنَّ المعيشةَ مَفْعِلة؛ فالياء أصليةٌ، وإنما يُهمَزُ إذا كانت الياء زائدةً؛ مثل مدينة ومدائن[٥]، وصحيفة وصحائف، وكريمة وكرائم، ووصيفة ووصائف[٦]، وشِبهه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ لما ذكَر نِعَمَه؛ ذكَر ابتداء خَلْقه. وقد تقدَّم معنى الخَلْق في غير موضع[٧]. «ثم صوَّرْناكم» أي: خلقناكم نُطَفاً، ثم صوَّرناكم، ثم إنَّا نُخبركم أنا قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم. وعن ابن عباس والضحَّاك

---

(١) في النسخ: ألف الوصل، والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) البيت للأخطل، وهو في ديوانه ص١٢٣ .

(٣) معاني القرآن ٢/ ٥١٢ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٢٠ .

(٥) هذا على رأي من جعل مدائن من مَدَنَ، وأما من جعلها من دانَ يدِينُ فلم يهمز لأن الياء حينئذ أصلية. ينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥١٢ والحجة للقراء السبعة ٤/ ٨ - ٩ .

(٦) في (م): ووظيفة ووظائف.

(٧) ينظر ١/ ٣٤١ و ٣٧٦ .

وغيرهما: المعنى: خلقنا آدمَ، ثم صوَّرناكم في ظَهْره[١].

وقال الأخفش: «ثم» بمعنى الواو[٢].

وقيل: المعنى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ» يعني آدم عليه السلام، ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدمَ، ثم صوَّرناكم؛ على التقديم والتأخير.

وقيل: «ولقد خَلَقْناكُم» يعني آدم؛ ذُكِرَ بلفظ الجمع؛ لأنه أبو البشر، «ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ» راجعٌ إليه أيضاً. كما يقال: نحن قتلناكم؛ أي: قتلنا سيِّدَكم. «ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم». وعلى هذا لا تقديمَ ولا تأخير. عن ابن عباس أيضاً[٣].

وقيل: المعنى: ولقد خلقناكم، يريدُ آدمَ وحوَّاء؛ فآدم من التراب؛ وحوّاء من ضِلَعٍ من أضلاعه، ثم وقعَ التصوير بعد ذلك. فالمعنى: ولقد خَلَقْنا أبَوَيْكم، ثم صوَّرناهما[٤]. قاله الحسن.

وقيل: المعنى: خَلَقْناكم في ظَهْر آدمَ، ثم صوَّرناكم حين أخَذْنا عليكم المِيثاق. هذا قولُ مجاهد. رواه عنه ابن جُريج وابن أبي نَجيح[٥]. قال النحاس: وهذا أحسنُ الأقوال. يذهبُ مجاهدٌ إلى أنه خَلَقهم في ظهر آدم، ثم صوَّرهم حين أخَذَ عليهم المِيثاق، ثم كان السجودُ بعدُ. ويقوِّي هذا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، والحديث «أنه أخرجَهم أمثالَ الذَّرِّ، فأخَذَ عليهم المِيثاقَ»[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٧٥ - ٧٧ .

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥١٢ ، وخطَّأه الزجاج في معاني القرآن له ٢/ ٣٢١ ، والنحاس في معاني القرآن له ٣/ ١٢ .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٥٠ .

(٤) ذكر الزجاج نحوه في معاني القرآن ٢/ ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٧٨ بلفظ: قال مجاهد: «ولقد خلقناكم» قال: آدم، «ثم صورناكم» قال: في ظهر آدم.

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٥٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٢٧) من حديث ابن عباس ﷺ.

وقيل: «ثم» للإخبار، أي: ولقد خَلَقْناكم، يعني في ظَهْر آدمَ ﷺ، ثم صوَّرناكم أي: في الأرحام. قال النحاس: هذا صحيحٌ عن ابن عباس[١].

قلت: كلُّ هذه الأقوال مُحتمِل، والصحيحُ منها ما يَعْضُدُه التنزيل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] يعني آدم. وقال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، ثم قال: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: جَعَلْنا نَسْلَه وذُرِّيَّته ﴿نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ الآية [المؤمنون: ١٣]. فآدمُ خُلِق من طين، ثم صُوِّر وأُكْرِمَ بالسجود، وذُرِّيَّته صُوِّروا في أرحام الأُمَّهات بعد أن خُلِقوا فيها وفي أصلاب الآباء.

وقد تقدَّم في أوّل سورة الأنعام[٢] أن كلَّ إنسان مخلوقٌ من نُطفة وتُرْبَة؛ فتأمَّلْه.

وقال هنا: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾، وقال في آخر «الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الآية: ٢٤]. فذكَر التصويرَ بعد البَرْء. وسيأتي بيانُ ذلك إن شاء الله تعالى.

وقيل: معنى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: خَلَقْنا الأرواحَ أوّلاً، ثم صوَّرنا الأشباحَ آخراً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ استثناءٌ من غير الجنس. وقيل: من الجنس[٣]. وقد اختلفَ العلماء: هل كان من الملائكةِ أمْ لا؟ كما سبق بيانُه في «البقرة»[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٢ - ١٣، وأثر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٠/ ٧٥.

(٢) ٨/ ٣١٨ - ٣١٩.

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٢٨٤.

(٤) ١/ ٤٣٨.

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ «ما» في موضع رَفْع بالابتداء؛ أي: أيُّ شيء مَنعَكَ؟ وهذا سؤالُ توبيخ. ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ في موضع نَصْب، أي: مِنْ أنْ تَسجُدَ. و«لا» زائدة[١]. وفي «ص»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [الآية: ٧٥]، وقال الشاعر:

أَبَى جُودُه لا البخلَ فاستعجلَتْ به نَعَمْ من فَتًى لا يمنعُ الجودَ نائِلَه[٢]

أراد: أَبَى جودُه البُخْلَ، فزاد «لا».

وقيل: ليست بزائدة؛ فإنَّ المَنْعَ فيه طرفٌ من القول والدعاء، فكأنه قال: مَن قال لك ألّا تسجُد؟ أو مَن دعاك إلى ألّا تسجُدَ؟ كما تقول: قد قلتُ لك ألّا تفعل كذا.

وقيل: في الكلام حذفٌ، والتقدير: ما منعكَ من الطاعة وأحوجَك إلى ألّا تسجد[٣].

قال العلماء: الذي أحوجَه إلى تَرْكِ السجود هو الكِبْرُ والحسَدُ؛ وكان أضمرَ ذلك في نفسه إذا أُمِرَ بذلك. وكان أمره مِن قبل خَلْقِ آدمَ؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]. فكأنه دَخلَه أمرٌ عظيم من قوله: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾. فإنَّ في الوقوع توضيعَ الواقعِ وتشريفاً لمن وُقِعَ له؛ فأضمرَ في نفسه ألّا يسجدَ إذا أمره في ذلك الوقت. فلما نَفَخَ فيه الروحَ؛ وقعتِ الملائكةُ سُجَّداً، وبَقِيَ هو قائماً بين أَظْهُرِهم؛ فأظهرَ بقيامه وتَرْكِ السجود ما في ضميره، فقال الله تعالى: ﴿ما منعك ألّا تسجد﴾ أي: ما منعكَ من الانقياد

---

(١) مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٨٣ ، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٣ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٣٧ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٧٨ ، واللسان (نعم)، وشرح شواهد المغني للسيوطي ٢/ ٦٣٤ ، وعندهم: قاتله، بدل: نائله. وعند الطبري والزجاج وابن منظور: الجوع، بدل: الجود.

قال السيوطي: قوله: لا يمنع الجودَ قاتِلَه: أراد: الجود وإن قتله لا يمنعه، فقاتله منصوب على الحال، أي: لا يمنع الجود في حال قتله إياه، لأن الجود يُفقره، ويجوز أن ينتصب قاتله على أنه مفعول، أي أنه لا يمنع مَن يريد أن يقتله الجود بذلك عليه.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٨٢ - ٨٤ ، وزاد المسير ٣/ ١٧٤ .

لأمري؟ فأخرج سِرَّ ضميره فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ يدلُّ على ما يقوله الفقهاءُ من أنَّ الأمرَ يقتضي الوجوبَ بمطلقه من غير قَرِينَة؛ لأنَّ الذَّمَّ عُلِّق على تَرْكِ الأمر المُطْلَق الذي هو قوله عزَّ وجلَّ للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وهذا بيِّنٌ[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي: منعني من السجود فَضْلي عليه. فهذا من إبليسَ جوابٌ على المعنى. كما تقول: لمن هذه الدار؟ فيقول المخاطَب: مالِكُها زيدٌ. فليس هذا عينَ الجواب، بل هو كلامٌ يرجِعُ إلى معنى الجواب[٢].

﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فرأى أن النارَ أشرفُ من الطين؛ لِعُلوِّها وصُعودها وخِفَّتها، ولأنها جوهرٌ مُضِيءٌ.

قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أوَّلُ مَن قاسَ إبليسُ، فأخطأ القياسَ. فمن قاسَ الدينَ برأيه قَرَنَه اللهُ مع إبليس. قال ابن سيرين: وما عُبِدتِ الشمسُ والقمرُ إلا بالمقاييس.

وقالت الحكماء: أخطأ عدوُّ الله من حيث فَضَّلَ النار على الطين، وإنْ كانا في درجة واحدةٍ من حيث هي جمادٌ مخلوق[٣]. فإنَّ الطينَ أفضلُ من النار من وجوه أربعة:

أحدها: أن من جوهر الطين الرَّزانةَ والسُّكونَ، والوَقَارَ والأناةَ، والحِلْمَ والحياءَ، والصبرَ. وذلك هو الدَّاعي لآدمَ عليه السلام بعد السعادة التي سبقتْ له إلى التوبة والتواضع والتضرُّع، فأورثه المغفرةَ والاجتباء والهداية. ومن جوهر النار الخِفَّة والطَّيْش، والحِدَّة والارتفاع، والاضطراب. وذلك هو الدَّاعي لإبليس بعد الشَّقاوة التي سبقتْ له إلى الاستكبارِ والإصْرار؛ فأورثه الهلاكَ والعذابَ واللعنة

(١) أحكام القرآن للكيا الهراسي ٣/ ١٣٢ .
(٢) الكلام بنحوه في معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٥ ، وزاد المسير ٣/ ١٧٤ .
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٦ ، وتفسير البغوي ٢/ ١٥٠ وأخرج الأقوال السالفة الطبري ١٠/ ٨٧ .

والشَّقاء[١]؛ قاله القَفَّال.

الثاني: أنَّ الخبرَ ناطقٌ بأن ترابَ الجنة مِسْكٌ أذفر[٢]، ولم ينطِق الخبرُ بأن في الجنة ناراً وأن في النار تراباً.

الثالث: أن النارَ سببُ العذاب، وهي عذابُ الله لأعدائه؛ وليس الترابُ سبباً للعذاب.

الرابع: أن الطينَ مستغنٍ عن النار، والنارُ مُحتاجةٌ إلى المكان، ومكانُها التراب[٣].

قلت: ويحتمِل قولاً خامساً: وهو أن الترابَ مسجدٌ وطَهورٌ؛ كما جاء في صحيح الحديث[٤]. والنار تخويفٌ وعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال ابن عباس: كانت الطاعةُ أولى بإبليسَ من القِياس، فعصَى ربَّه، وهو أوَّلُ من قاسَ برأيه. والقياسُ في مُخالفةِ النصِّ مردودٌ[٥].

الرابعة: واختلف الناسُ في القِياس إلى قائل به، ورادٍّ له؛ فأما القائلون به فهم الصحابة والتابعون، وجمهور من بعدهم، وأن التعبُّد به جائز عقلاً واقع شرعاً، وهو

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٠/٨٦، وتفسير البغوي ٢/ ١٥٠ - ١٥١.

(٢) أخرج مسلم (١٦٣) عن أنس بن مالك ﷺ ـ ضمن حديث الإسراء ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «...ثم أُدخِلْتُ الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». وأخرج أحمد (١٢٥٤٢)، والبخاري (٦٥٨١) عنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «بينما أنا أسيرُ في الجنة إذا أنا بنهر حافَّتاه قِباب الدُّرّ المُجَوَّف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربُّك، فإذا طينُه مِسْكٌ أذفر». والمِسْك الأَذْفر: هو الطَّيِّب الريح. النهاية (ذفر).

(٣) ذكر نحو هذه المعاني وغيرها في فضل الطين على النار ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٧٤.

(٤) كما في قوله ﷺ: «...جُعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً...» أخرجه أحمد (١٤٢٦٤) والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر ﷺ.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٥٣٢ - ٥٣٣، وقول ابن عباس رضي الله عنهما سلف قريباً.

الصحيح. وذهب القَفَّالُ من الشافعية وأبو الحسين البصريّ[١] إلى وجوب التعبُّد به عقلاً[٢]. وذهب النَظَّام إلى أنه يَستحيلُ التعبُّد به عقلاً وشرعاً، وردَّه بعضُ أهل الظاهر[٣]. والأوّلُ الصحيحُ. قال البخارِي في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: المعنى: لا عِصْمةَ لأحدٍ إلا في كتاب الله، أو سنة نبيِّه، أو في إجماع العلماء؛ إذا وُجِدَ فيها الحكمُ، فإنْ لم يُوجَدْ فالقياس[٤]. وقد ترجَم على هذا: باب مَن شَبَّه أصلاً معلوماً بأصلٍ مبيَّن قد بيَّن اللهُ حكمهما[٥] ليفهمَ السائل. وترجَم بعد هذا: باب الأحكام التي تُعرف بالدَّلائل، وكيف معنى الدَّلالة وتفسيرها[٦].

وقال الطبريّ: الاجتهادُ والاستنباطُ من كتاب الله وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ وإجماعِ الأُمة هو الحقُّ الواجب، والفرضُ اللازمُ لأهل العلم، وبذلك جاءت الأخبارُ عن النبيِّ ﷺ، وعن جماعةِ الصحابة والتابعين.

وقال أبو تمام المالكيّ[٧]: أجمعتِ الأمةُ على القياس؛ فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياسِ الذهب والوَرِق في الزكاة. وقال أبو بكر: أَقِيلُوني بيعتي. فقال عليٌّ: واللهِ، لا نُقيلُكَ ولا نَستقيلُك[٨]، رَضِيَكَ رسولُ الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاكَ

---

(١) محمد بن علي بن الطيِّب، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف الكلامية، له كتاب المعتمد في أصول الفقه. توفي سنة (٤٣٦هـ). السير ١٧/ ٥٨٧ .

(٢) المحصول في علم أصول الفقه للرازي ٥/ ٢٢ .

(٣) وكذا نسب ابن قدامة المقدسي في روضة الناظر ٣/ ٨٠٦ رَدَّ القياس العقلي والشرعي للنظَّام وأهل الظاهر، لكن الجويني نسب ذلك في البرهان ٢/ ٤٩٠ - ٤٩١ لأهل الظاهر فقط، وذكر أن مذهب النظَّام هو القول بالقياس العقلي وجَحْد القياس الشرعي.

(٤) أشار البخاري رحمه الله إلى كتابه الاعتصام بإثر الحديث (٧٢٧١) حيث قال: ينظر في أصل كتاب الاعتصام. وقد أورد الحافظ ابن حجر في الفتح ١٣/ ٢٤٦ نحو كلام البخاري أعلاه، ونسبه لابن بطال.

(٥) في (د) و(ز) و(م): حكمها، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري في ترجمة الحديث (٧٣٥٦).

(٦) ترجمة الحديث (٧٣٥٦).

(٧) لعله علي بن محمد بن أحمد المصري، صاحب الأبهري، له مختصر في الخلاف يُسمَّى نكت الأدلة وكتابٌ في أصول الفقه. الديباج المذهب ١/ ١٠٠ .

(٨) قوله: ولا نستقيلك، من (م).

لدنيانا[(١)]؟! فقاسَ الإمامةَ على الصلاة. وقاسَ الصدِّيقُ الزكاةَ على الصلاة، وقال: والله لا أفرِّق بين ما جمع الله[(٢)]. وصرَّح عليٌّ بالقياس في شارب الخمر بمحضَرٍ من الصحابة، وقال: إنه إذا سَكِرَ هَذَى، وإذا هَذَى افترى فحدَّه حَدَّ القاذف[(٣)]. وكتبَ عمرُ إلى أبي موسى الأشعري كتاباً فيه: الفَهْمَ الفَهْمَ فيما يَختلِجُ في صدرك مما لم يَبلُغْكَ في الكتاب والسنة، اِعرِف الأمثالَ والأشباه، ثم قِسِ الأمورَ عند ذلك، فاعمِدْ إلى أحبِّها إلى الله تعالى وأشبهها بالحقِّ فيما تَرى. الحديثَ بطوله. ذكره الدارقطنيّ[(٤)]. وقد قال أبو عُبيدة لعمر رضي الله عنهما في حديث الوَبَاء، حين رَجَعَ عمرُ من سَرْغ[(٥)]: نَفِرُّ[(٦)] من قَدَر الله؟ فقال عمرُ: نعم، نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله. ثم قال له عمر: أرأيتَ[(٧)]. فقايسَه وناظرَه بما يُشبه من مسألته بمحضَرِ المهاجرين والأنصار، وحَسْبُك.

وأما الآثارُ وآيُ القرآن في هذا المعنى فكثير، وهو يدلُّ على أن القياس أصلٌ من أصول الدين، وعِصْمةٌ من عِصَمِ المسلمين، يرجِعُ إليه المجتهدون، ويَفْزَعُ إليه العلماءُ العاملون، فيستنبطون به الأحكام، وهذا قولُ الجماعة الذين هم الحُجَّة، ولا يُلتفَتُ إلى من شذَّ عنها. وأما الرأي المذمومُ والقياسُ المُتكلَّف المَنْهيُّ عنه فهو ما لم

---

(١) سلف ١/٤٠٦ - ٤٠٧.

(٢) أخرجه أحمد (٦٧)، والبخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، بلفظ: قال أبو بكر ﷺ: والله، لأُقاتِلَنَّ من فَرَّق بين الصلاة والزكاة.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٨٤٢ عن ثور بن زيد الدِّيلي، أن عمر ﷺ استشار في الخمر يشربها الرجل، فقال له علي ﷺ: نرى أن تجلده ثمانين... وذكره. قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير ٤/ ٧٥ : هو منقطع؛ لأن ثوراً لم يلحق عمر بلا خلاف، لكن وصله النسائي في الكبرى [٥٢٦٩] من وجه آخر عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس. وينظر فتح الباري ١٢/ ٦٩ .

(٤) برقم (٤٤٧١).

(٥) مدينة افتتحها أبو عُبيدة، وهي واليرموك والجابية مُتَّصِلات. فتح الباري ١٠/ ١٨٤ .

(٦) في (ظ): أفرار، وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم (والحديث فيهما كما سيأتي): أَفِراراً.

(٧) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) مطولاً، وهو في مسند أحمد (١٦٨٣) مختصراً.

يكن على هذه الأصولِ المذكورة؛ لأن ذلك ظنٌّ ونزْغٌ[١] من الشيطان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكلُّ ما يُورِدُه المُخالِفُ من الأحاديثِ الضعيفة والأخبارِ الواهية في ذمِّ القياس؛ فهي محمولةٌ على هذا النوع من القياس المذموم؛ الذي ليس له في الشرع أصلٌ معلوم. وتَتميمُ هذا البابِ في كتب الأصول[٢].

قــولــه تــعــالــى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنَّ أهلَها الملائكةُ المتواضعون. ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: من الأذلِّين. ودلَّ هذا أنَّ مَنْ عصَى مولاه فهو ذليلٌ. وقال أبو رَوْق والبَجَليُّ: «فاهبِطْ منها» أي: من صُورتك التي أنت فيها[٣]؛ لأنه افتخرَ بأنه من النار، فَشُوِّهتْ صورتُه بالإظلام وزوالِ إشراقه.

وقيل: «فاهبِطْ منها» أي: انتقلْ من الأرض إلى جزائر البحار، كما يقال: هَبَطنا أرضَ كذا، أي: انتقلنا إليها من مكانٍ آخر، فكأنَّه أُخرِجَ من الأرض إلى جزائر البحار، فسلطانُه فيها، فلا يدخلُ الأرضَ إلا كهيئة السارقِ؛ يخافُ فيها حتى يخرجَ منها[٤]. والقولُ الأوَّلُ أظهرُ، وقد تقدَّم في «البقرة»[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾

سأل النَّظرةَ والإمهالَ إلى يوم البعث والحساب؛ طلبَ ألّا يموتَ؛ لأن يومَ

---

(١) في (د) و(ز): وبعد.

(٢) البرهان للجويني ٢/ ٤٨٧ وما بعدها، والمحصول للرازي ٥/ ٥ وما بعدها.

(٣) أورد نحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥١٥، وذكر أن الثعلبي حكاه عن الحسن وأبي العالية. أبو روق: هو عطية بن الحارث الهَمْداني. والبَجَلي: هو الحسين بن الفضل، أبو علي الكوفي المفسِّر.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث ١/ ٥٣٣، وتفسير البغوي ٢/ ١٥١.

(٥) ١/ ٤٨٦.

البَعْثِ لا موتَ بعده، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾. قال ابن عباس والسُّدّي وغيرهما: أَنْظَرهُ إلى النَّفخة الأُولى حيث يموتُ الخلقُ كلُّهم. وكان طلبُ الإنظار إلى النَّفخة الثانية حيث يقومُ الناسُ لربِّ العالمين، فأبى اللهُ ذلك عليه[1].

وقال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ولم يتقدَّم ذِكْرُ مَنْ يُبعث؛ لأنَّ القصة في آدمَ وذُرِّيَّته، فدلَّت القرينةُ على أنَّهم هم المبعوثون.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الإغْواءُ: إيقاعُ الغَيِّ في القلب، أي: فبما أوقعتَ في قلبي من الغَيِّ والعِناد والاستكبار. وهذا لأنَّ كفرَ إبليسَ ليس كفرَ جَهْل، بل هو كفرُ عِنادٍ واستكبار. وقد تقدَّم في «البقرة»[2].

قيل: معنى الكلامِ القَسَمُ، أي: فبإغوائِكَ إيَّايَ لأقعُدنَّ لهم على صراطك، أو في صراطك، فحذف. دليلُ هذا القولِ قولُه في «ص»: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الآية: ٨٢]، فكأنَّ إبليسَ أعظمَ قَدْرَ إغْواءِ الله إيَّاه لِمَا فيه من التسليطِ على العباد، فأقسمَ به إعظاماً لِقَدْرِه عنده.

وقيل: الباء بمعنى اللَّام، كأنَّه قال: فلإغوائِكَ إيَّاي. وقيل: هي بمعنى مع، والمعنى: فمع إغوائكَ إيَّاي. وقيل: هو استفهامٌ، كأنَّه سأل بأيِّ شيء أغواه؟. وكان ينبغي على هذا أن يكون: فبمَ أغويتني؟ وقيل: المعنى: فبما أهلكتَني بِلَعْنِكَ إيَّاي.

والإغواءُ: الإهلاكُ، قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] أي: هلاكاً. وقيل: فبما أَضْلَلْتَني ـ والإغواءُ: الإضلالُ والإبعادُ ـ قاله ابن عباس[3]. وقيل:

---

(١) أورده بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٩، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ١/ ٤٤٤.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٩١.

خيَّبتني من رحمتك[١]، ومنه قولُ الشاعر:

ومَنْ يَغْوِ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائما[٢]

أي: مَن يَخِبْ.

وقال ابن الأعرابيِّ: يقال: غَوَى الرجلُ يَغْوِي غَيًّا: إذا فسدَ عليه أمرُه، أو فسدَ هو في نفسِه، وهو أحدُ معاني قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، أي: فسدَ عَيْشُهُ في الجنَّة. ويقال: غَوِيَ الفَصِيلُ: إذا لم يَدُرَّ لبنُ أمِّه[٣].

الثانية: مذهبُ أهلِ السُّنةِ أن الله تعالى أضلَّه وخلقَ فيه الكفر، ولذلك نسبَ الإغواءَ في هذا إلى الله تعالى، وهو الحقيقة، فلا شيءَ في الوجود إلَّا وهو مخلوقٌ له، صادرٌ عن إرادته تعالى.

وخالفَ الإماميةُ والقَدَرية وغيرُهما شيخَهم إبليسَ الذي طاوعوه في كلِّ ما زيَّنه لهم، ولم يُطاوعوه في هذه المسألة، ويقولون: أخطأ إبليسُ، وهو أهلٌ للخطأ، حيث نسبَ الغَوايةَ إلى ربِّه، تعالى الله عن ذلك.

فيقال لهم: وإبليس؛ وإنْ كان أهلاً للخطأ، فما تصنعون في نبيٍّ مُكرَّمٍ معصوم، وهو نوحٌ عليه السلام حيث قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤] [هود: ٣٤]. وقد رُوي أنَّ طاوساً جاءه رجلٌ في المسجد الحرام، وكان مُتَّهماً بالقدَر، وكان من الفقهاء الكبار، فجلس إليه، فقال له طاوس: تقومُ أو تُقام؟ فقيل لطاوس: تقول هذا لرجل فقيه؟! فقال: إبليسُ

---

(١) تنظر هذه المعاني في المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٠، والنكت والعيون ٢/ ٢٠٦، وتفسير البغوي ٢/ ١٥١، وزاد المسير ٣/ ١٧٦، وتفسير الرازي ١٣/ ٣٨.

(٢) قائله المُرقِّش الأصغر، وصدره: فمن يلقَ خيراً يحمدِ الناسُ أمْرَه. وهو في المفضليات ص٢٤٧، والشعر والشعراء ١/ ٢١٥.

(٣) تهذيب اللغة ٨/ ٢١٨ بنحوه.

(٤) حَزّ الغلاصم لشيث بن إبراهيم ص٢٨.

أفقهُ منه، يقول إبليسُ: ربِّ بما أغويتَني، ويقول هذا: أنا أُغْوِي نفسي[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: بالصَّدِّ عنه، وتَزيين الباطل حتى يَهْلِكوا كما هَلَكَ، أو يضلُّوا كما ضلَّ، أو يُخيَّبوا كما خُيِّب؛ حَسْبَ ما تقدَّم من المعاني الثلاثة في «أَغْويتَنِي»[٢].

والصراط المستقيم: هو الطريقُ الموصِلُ إلى الجنة. و«صِراطَكَ» منصوبٌ على حذف على أو في من قوله: «صِراطَكَ المستقيم»؛ كما حكَى سيبويه[٣] «ضُرِبَ زيدٌ الظهرَ والبطنَ». وأنشد:

لَـدْنٌ بِـهَـزِّ الـكَـفِّ يَـعْـسِـلُ مَـتْـنُـه فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثَّعلبُ[٤]

ومن أحسنِ ما قيل في تأويل: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي: لأَصُدَّنَّهم عن الحقِّ، وأُرَغِّبُهُم في الدنيا، وأُشكِّكُهم في الآخرة[٥]. وهذا غايةٌ في الضلالة، كما قال: ﴿ولأُضِلَّنَّهم﴾ [النساء: ١١٩] حسب ما تقدَّم[٦].

وروى سفيان، عن منصور، عن الحكم بن عُتَيْبة قال: «مِن بين أَيْدِيهم»: من دنياهم، «ومِن خَلْفِهم»: من آخرتهم، «وعن أَيْمانهم» يعني حسناتِهم، «وعن شمائِلهم» يعني سيئاتِهم[٧].

---

(١) ذكرها الزمخشري في كشافه ٢/ ٧٠، وجعلها من تكاذيب المجبّره وردَّ عليه ابن المنير في الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال.
وللتوسُّع في مسألة خلق الأفعال ينظر الإنصاف للباقلاني ص١٤٤ والإرشاد للجويني ص١٧٣.

(٢) في المسألة الأولى.

(٣) الكتاب ١/ ٣٦ و١٥٨ و٢١٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٧، والبيت لساعدة بن جُؤَيَّة الهذلي، يصف فيه رُمحه، وهو في شرح ديوان الهذليين ٣/ ١١٢٠. وفيه: لذٍّ، بدل: لدنٌ. قال شارحه: قوله: لذٍّ، أي: تلَذُّ الكفُّ بهزِّه. وقوله: يعسل متنُه فيه، أي: في كفِّه، يعسل، أي: يضطرب. كما عسل الطريقَ الثعلبُ، أي: في الطريق، وهو اضطرابه.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٩٩ بنحوه من قول الحكم والسدي.

(٦) ٧/ ١٣٥.

(٧) أخرجه الطبري ١٠/ ٩٨.

قال النحاس[١]: وهذا قولٌ حسنٌ، وشرحُه: أن معنى «ثم لآتينَّهم مِن بين أيْديهم»: من دنياهم؛ حتى يُكذِّبوا بما فيها من الآياتِ وأخبار الأُمم السالفة، «ومِنْ خَلْفهم»: من آخرتهم؛ حتى يُكذِّبوا بها، «وعن أيْمانهم»: من حسناتهم وأمورِ دينِهم. ويدلُّ على هذا قولُه: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٣٨]، «وعن شَمَائلهم» يعني سيئاتِهم، أي: يتَّبعون الشهواتِ، لأنه يُزيِّنُها لهم.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ أي: مُوحِّدين طائِعين؛ مُظهرين الشكرَ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة. ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾. «مَذْؤوماً» أي: مذموماً، والذَّأْمُ: العيب[٢]، بتخفيف الميم. قال ابن زيد: مذؤوماً ومذموماً سواءٌ[٣]؛ يقال: ذَأَمْته، وذَمَمته، وذِمْته؛ بمعنًى واحد.

وقرأ الأعمش: «مَذُوماً»[٤]، والمعنى واحدٌ؛ إلا أنه خفَّف الهمزة. وقال مجاهدٌ: المَذْؤُوم: المنفيُّ. والمعنيان مُتقاربان. والمدحور: المُبْعَد المطرودُ[٥]؛ عن مجاهدٍ وغيره. وأصلُه الدَّفع.

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ اللّام لامُ القسَم، والجوابُ: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ». وقيل: «لَمَنْ تَبِعَكَ» لامُ توكيدٍ. «لأَمْلأَنّ» لامُ قَسَم، والدليلُ على هذا أنَّه يجوزُ في غير القرآن[٦] حذفُ اللّام الأولى، ولا يجوزُ حذفُ الثانية. وفي الكلامِ

(١) في معاني القرآن ٣/ ١٦ - ١٧ ، وما قبله منه.

(٢) الصحاح (ذأم)، قال الجوهري: يُهمز ولا يُهمز.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ١٠٤ .

(٤) القراءات الشاذة ص٤٢ ، والمحتسب ١/ ٢٤٣ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢١ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٠/ ١٠٣ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): القراءة، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٧ - ١١٨ ، والكلام منه.

معنى الشرطِ والمُجازاة، أي: مَن تبعك عذَّبته. ولو قلتَ: مَنْ تَبِعكَ أُعذِّبه، لم يَجُزْ، إلا أنْ تريدَ: لأُعَذِّبَنَّهُ.

وقرأ عاصمٌ من رواية أبي بكر بن عَيَّاش[١]: «لِمن تَبِعكَ منهم» بكسرِ اللام. وأنكره بعضُ النحويين. قال النحاس[٢]: وتقديرُه ـ والله أعلم ـ: مِنْ أجلِ مَنْ تَبِعك، كما يقال: أكرمتُ فلاناً لك. وقد يكون المعنى: الدَّحْرُ لِمَن تبعك.

ومعنى ﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: منكم ومن بني آدمَ؛ لأنَّ ذِكْرَهم قد جرى، إذْ قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] خاطبَ ولدَ آدمَ.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

قال لآدمَ بعد إخراجِ إبليسَ من موضِعه من السماء: اسكُنْ أنت وحوّاءُ الجنَّةَ. وقد تقدَّم في البقرة[٣] معنى الإسكانِ، فأغنى عن إعادته. وتقدَّم معنى ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ هناك[٤]. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: إليهما. قيل: داخِلَ الجنة بإدخال الحية إيَّاه. وقيل: من خارج، بالسَّلْطنة التي جُعلت له. وقد مضى هذا في «البقرة»[٥].

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٢، والكشاف ٢/ ٧١، والبحر المحيط ٤/ ٧٧، والقراءة المشهورة عن أبي بكر ابن عياش ـ وهو شعبة ـ عن عاصم كقراءة الجماعة.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ١١٧، وما قبله منه.

(٣) ١/ ٤٤٥.

(٤) ١/ ٤٥٢ وما بعدها.

(٥) ١/ ٤٦٤ وما بعدها، وسلف الكلام أن ذكر الحية من الإسرائيليات.

والوَسْوَسَةُ: الصوتُ الخَفِيّ، والوَسْوَسَةُ: حديثُ النفس؛ يقال: وَسْوَسَتْ إليه نفسُه وَسْوَسَةً ووِسْواساً، بكسر الواو. والوَسْواسُ؛ بالفتح: الاسم، مثل الزِّلْزال والزَّلْزال[1]. ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصواتِ الحَلْي: وَسْوَاس. قال الأعشى:

تَسْمعُ للحَلْيِ وَسْوَاساً إذا انصرفَتْ كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

والوَسْواسُ: اسمُ الشيطان[2]، قال الله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤].

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي: ليُظهِرَ لهما. واللَّام لامُ العاقبة، كما قال: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وقيل: لامُ كي.

و﴿وُۥرِيَ﴾ أي: سُتِرَ وغُطِّي عنهما[3]. ويجوز في غير القرآن: أُورِيَ، مثل: أُقِّتَتْ[4].

و﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ من عوراتهما. وسُمِّي الفرجُ عورةً لأن إظهارَه يسوءُ صاحبَه. ودلَّ هذا على قُبْحِ كَشْفِها، فقيل: إنما بدتْ سوءاتُهما لهما لا لِغيرهما؛ كان عليهما نَوْرٌ؛ لا تُرى عوراتهما، فزال النَّوْر[5]. وقيل: ثوبٌ؛ فتهافت، والله أعلم.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ «أن» في موضع نصب، بمعنى: إلَّا كراهيةَ أنْ؛ فحذف

---

(١) لفظ: والزَّلزال، ليس في (د) و(م).

(٢) الصحاح (وسوس)، والبيت في ديوان الأعشى ص١٠٥ ، وهو من معلقته. قال النحاس في شرح القصائد المشهورات ٢/ ١٣١ : قوله: إذا انصرفت: يريد إذا انقلبت إلى فراشها، قال الأصمعي: العِشْرِق: شُجيرة مقدار ذراع؛ لها أكمام فيها حبٌّ صغار، إذا جفَّت فمرَّت به الريح تحرَّك الحبُّ، فشبَّه صوت الحَلْي بخشخشته على الحصى.اهـ. وفي اللسان (زجل): نبت زَجِلٌ: صَوَّتت فيه الريح.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٥٢ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٨ .

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ١١٤ بنحوه من قول وهب بن منبِّه، وصحَّح إسناده ابن كثير في تفسيره ٣/ ٣٩٨ . والنَّوْر: الزَّهْر، أو الأبيض منه. القاموس المحيط (نور).

المضاف. هذا قول البصريين. والكوفيون يقولون: لئلّا تكونا. وقيل: أي: إلا أنْ لا تكونا مَلَكَيْنِ تَعْلَمانِ الخيرَ والشرَّ[١].

وقيل: طَمِع آدمُ في الخُلود؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ الملائكةَ لا يموتون إلى يوم القيامة[٢].

قال النحاس: وبيَّن الله عزَّ وجلَّ فَضْلَ الملائكة على جميع الخَلْق في غير موضع من القرآن؛ فمنها هذا، وهو: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، ومنه: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]، ومنه: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال الحسن: فضَّلَ اللهُ الملائكةَ بالصُّوَرِ والأجنحةِ والكرامة. وقال غيره: فضَّلهم جلَّ وعزَّ بالطاعة وتَرْكِ المعصية، فبهذا[٣] يقع التفضيل في كلِّ شيء[٤].

وقال ابن فُورك[٥]: لا حُجَّةَ في هذه الآية؛ لأنَّه يَحتمِلُ أن يُريد مَلَكَيْن في أنْ لا يكونَ لهما شهوةٌ في طعام.

واختيارُ ابن عباس والزجَّاج[٦] وكثيرٍ من العلماء تفضيلُ المؤمنين على الملائكة، وقد مضى في «البقرة»[٧].

وقال الكلبيُّ: فُضِّلوا على الخلائق كلِّهم، غيرَ طائفة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت؛ لأنَّهم من جُملة رُسُلِ الله. وتمسَّك كلُّ فريق بظواهرَ من الشريعة، والفَضْلُ بيد الله.

وقرأ ابن عباس: «مَلِكَيْن» بكسرِ اللَّام، وهي قراءةُ يحيى بن أبي كثير

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥.

(٢) ذكر نحوه الرازي في تفسيره ١٤/ ٤٧.

(٣) في (م): فلهذا.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٨ - ١١٩، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٢٩١).

(٥) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥.

(٦) في معاني القرآن للزجاج ٢/ ١٣٦: والملائكة - والله أعلم - أكرم من النبيِّين، ألا ترى أن نوحاً عليه السلام قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١].

(٧) ١/ ٤٣٠ - ٤٣١ و ٤٣٦.

الضحَّاك[١]. وأنكرَ أبو عمرو بن العلاء كسرَ اللَّام، وقال: لم يكنْ قبلَ آدمَ ﷺ مَلِكٌ فيصيرا مَلِكَيْن. قال النحَّاس[٢]: ويجوز على هذه القراءة إسكانُ اللَّام، ولا يجوز على القراءة الأُولى لخِفَّة الفتحة.

قال ابن عباس: أتاهما الملعونُ من جِهة المُلْك؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وزعَم أبو عُبيد أنَّ احتجاجَ يحيى بن أبي كثير بقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ حُجَّة بيِّنةٌ، ولكن الناس على تَرْكها، فلهذا تركناها.

قال النحاس[٣]: «إلَّا أنْ تكونا مَلِكَيْن» قراءةٌ شاذَّة. وقد أُنكِرَ على أبي عُبيد هذا الكلامُ، وجُعِل من الخطأ الفاحش. وهل يجوز أن يَتوهَّم آدمُ عليه السلام أنه يَصِلُ إلى أكثر من ملك الجنة، وهي غاية الطالبين. وإنما معنى «وَمُلْك لا يبلى»: المُقام في مُلك الجنة، والخلودُ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي: حلفَ لهما؛ يقال: أقسمَ إقساماً، أي: حلفَ. قال الشاعر:

وقاسَمَها بالله جَهْداً لأنتمُ[٤] ... ألَذُّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُها[٥]

وجاء «فاعلت» من واحد، وهو يردُّ على مَن قال: إنَّ المُفاعلةَ لا تكون إلا من اثنين، وقد تقدَّم في «المائدة»[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥، وأخرجها الطبري ١٠/ ١٠٨.

(٢) معاني القرآن ٣/ ٢٠ - ٢١.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ١١٨ وما قبله منه.

(٤) في النسخ الخطية: وقاسمهما بالله جهداً لأنتما. والمثبت من (م) والمصادر.

(٥) البيت لخالد بن زهير الهُذَلي، وقوله: السلوى: العسل. ونشورها، أي: نجتنيها، وسلف ٢/ ١١٩.

(٦) ٨/ ١٢٦، وينظر ١/ ٢٧ - ٢٨.

﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ليس «لكما» داخلاً في الصِّلة، والتقدير: إنِّي ناصحٌ لكما لمن الناصحين، قاله هشام النَّحْويّ[١]. وقد تقدَّم مثلُه في «البقرة»[٢]. ومعنى الكلام: اتَّبِعاني أُرشِدْكما، ذكره قتادة[٣].

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾: أوقعهما في الهلاك. قال ابن عباس: غَرَّهما باليمين. وكان يظنُّ آدمُ أنه لا يحلفُ أحدٌ بالله كاذباً[٤]، فغرَّهما بوسوسته وقَسَمِه لهما. وقال قتادة: حلف بالله لهما حتى خدَعهما، وقد يُخدعُ المؤمنُ بالله. كان بعضُ العلماء يقول: مَن خادعنا بالله خَدَعنا[٥]. وفي الحديث عنه ﷺ: «المؤمنُ غِرٌّ كريم، والفاجرُ خِبٌّ لَئيم»[٦]. وأنشد نفطويه:

إنَّ الكريمَ إذا تَشاءُ خَدَعْتَهُ وترى اللئيمَ مُجرِّباً لا يُخْدَعُ[٧]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٩ . وهشام النحوي: هو ابن معاوية.

(٢) ٢/ ٤٠٦ .

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ١٠٩ .

(٤) زاد المسير ٢/ ١٨٠ ، وأخرجه الطبري ١٠/ ١١١ - ١١٢ بنحوه مطولاً.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ١٠٩ - ١١٠ .

(٦) أخرجه أحمد (٩١١٨)، وأبو داود (٤٧٩٠)، والترمذي (١٩٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقوله: «غِرٌّ كريم»: قال ابن الأثير في النهاية (غرر): أي: ليس بذي نُكر فهو ينخدع لانقياده ولينه، وهو ضدُّ الخَبّ. يريد أن المؤمن المحمود مِن طبعه الغَرارة وقِلَّةُ الفِطْنة للشرِّ، وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلاً، ولكنه كرمٌ وحسنُ خلق. وقوله: «خبّ» قال ابن الأثير في النهاية (خبب): الخَبّ ـ بالفتح ـ: الخدَّاع، وقد تكسر خاؤه، فأما المصدر فبالكسر لا غير.

(٧) لم نقف عليه.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ يقال: أَدْلَى دَلْوَه: أرسلَها. ودَلَاها: أخرجَها. وقيل: «دَلَّاهُمَا» أي: دَلَّلهما، من الدَّالَّة، وهي الجُرْأَة. أي جرَّأهما على المعصية، فخرجا من الجنة[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: أكلا منها. وقد مضى في «البقرة»[(٢)] الخلافُ في هذه الشجرة، وكيف أكلَ آدمُ منها. ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أكلتْ حوَّاءُ أوَّلاً فلم يُصِبْها شيء، فلما أكل آدمُ حلَّت العقوبةُ؛ لأنَّ النَّهيَ ورد عليهما كما تقدَّم في «البقرة»[(٣)]. قال ابنُ عباس: تقلَّص النَّورُ الذي كان لباسَهما، فصار أظفاراً في الأيدي والأرجل[(٤)].

الثانية: ﴿وَطَفِقَا﴾ ويجوز إسكانُ الفاء[(٥)]. وحكى الأخفش[(٦)]: طَفَق يَطْفِق، مثل ضَرَبَ يَضْرِب؛ يقال: طَفِقَ، أي: أخذ في الفعل.

﴿يَخْصِفَانِ﴾ قرأ الحسن بكسر الخاء وشدِّ الصاد[(٧)]، والأصلُ: «يَخْتَصِفَانِ»

---

(١) ينظر تهذيب اللغة ١٤/ ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) ١/ ٤٥٤ - ٤٥٥ .

(٣) ١/ ٤٥٧ - ٤٥٨ .

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٣٠٠) عنه ﷺ قال: لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالاً من الظفر، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال، فبقي في أطراف أصابعه. و(٨٣٤٥) بلفظ: كان لباس آدم عليه السلام الظفر بمنزلة الريش على الطير، فلما عصى سقط عنه لباسه، وتركت الأظفار زينة ومنافع. في إسناد الأول الحسن بن أبي جعفر الجُفري، قال فيه البخاري: منكر الحديث، وضعَّفه أحمد والنسائي، كما في تهذيب الكمال ٦/ ٧٣ . وفي إسناد الثاني النضر بن عبد الرحمن أبو عمر الخزَّاز، ضعَّفه أحمد وقال: ليس بشيء، وقال ابن معين: لا يحل لأحد أن يروي عنه، وقال البخاري: منكر الحديث، كما في تهذيب التهذيب ٤/ ٢٢٥ .

(٥) يعني في غير القرآن، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٩ ، ولعله يريد بجواز إسكان الفاء طلب الخِفَّة، فقد ذكر نحوه النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٩٩ في قوله تعالى: «إلا مَنْ ظُلِم» [النساء:١٤٨] فقال: يجوز إسكان اللام. وسلف نحوه قريباً في الآية (٢٠) في قوله: «مَلْكَيْن».

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٥١٥ .

(٧) المحتسب ١/ ٢٤٥ .

فأدغم، وكُسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وقرأ ابنُ بُريدة ويعقوبُ بفتح الخاء، ألقيا حركةَ التاء عليها. ويجوز: «يُخَصِّفانِ» بضم الياء، من خَصَّف يُخصِّف[١]. وقرأ الزُّهرِيُّ: «يُخْصِفانِ» مِن أَخْصَف[٢]، وكلاهما منقولٌ بالهمز أو التضعيف.

والمعنى: يقطعان الورقَ ويَلزقانِه لِيستترا به، ومنه خَصَف النَّعل. والخَصَّاف الذي يُرقِّعها، والمِخْصَف: المِثْقَب[٣].

قال ابن عباس: وهو ورقُ التين[٤]. ويُروى أنَّ آدمَ عليه السلام لما بدتْ سوأتُه وظهرَتْ عورتُه طاف على أشجار الجنة يَسُلُّ[٥] منها ورقةً يُغطي بها عورتَه؛ فزجرته أشجارُ الجنَّة حتى رَحِمتْه شجرةُ التِّين فأعطتْه ورقةً. فـ «طَفِقَا» يعني: آدم وحواء «يَخْصِفانِ عليهما مِنْ وَرَقِ الجنَّة»، فكافأ اللهُ التينَ بأنْ سوَّى ظاهرَه وباطنَه في الحلاوة والمنفعة، وأعطاه ثمرتين في عامٍ واحد، مرتين[٦].

الثالثة: وفي الآية دليلٌ على قُبْحِ كَشْف العورة، وأنَّ الله أوجب عليهما السترَ؛ ولذلك ابتدرا إلى سَتْرِها[٧]، ولا يمتنع أنْ يُؤمرا بذلك في الجنة، كما قيل لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾. وقد حكى صاحب «البيان»[٨] عن الشافعي[٩] أن مَن لم يجد

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٩ . وقراءة : «يَخَصِّفان» بفتح الخاء ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٢ ، ونسبها للزهري، وذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٢٤٥ دون نسبة. وقراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

وقراءة: «يُخَصِّفان» بضم الياء، نسبها ابن جني لابن بُريدة والحسن والزهري والأعرج.

(٢) المحتسب ١/ ٢٤٥ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦ .

(٣) تهذيب اللغة ٧/ ١٤٧ .

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ١١٣ . وصحَّحه إليه ابن كثير في تفسيره ٣/ ٣٩٨ .

(٥) في (د) وعرائس المجالس ص٣٣ (والخبر فيه): يسأل.

(٦) لفظ: مرتين، ليس في عرائس المجالس، وسلف نحو هذا الخبر ١/ ٤٦٥ ، وهو من الإسرائيليات.

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٥٣٤ ، وتفسير الرازي ١٤/ ٤٩ .

(٨) هو يحيى بن أبي الخير بن سالم العِمراني اليماني، توفي سنة (٥٥٨هـ). طبقات الشافعية ٧/ ٣٣٦ .

(٩) الأم ١/ ٧٩ .

ما يستُرُ به عورتَه إلا ورقَ الشجر؛ لَزِمَه أن يستَتِر بذلك؛ لأنه سُترةٌ ظاهرةٌ يُمكنه التسترُ بها، كما فعل آدمُ في الجنة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: قال لهما: ألم أنهكما؟ قالا: «رَبَّنَا» نداءٌ مضاف. والأصل: يا ربَّنا. وقيل: إنَّ في حذف «يا» معنى التعظيم(١). فاعترفا بالخطيئة وتابا، وقد مضَى في «البقرة»(٢). ومعنى قوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ تقدَّم أيضاً إلى آخر الآية(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الضمائر كلُّها للأرض، ولم يذكرِ الواوَ في «قال»، ولو ذكرها لجاز أيضاً، وهو كقولك: قال زيدٌ لعمرٍو كذا، قال له كذا.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ قال كثيرٌ من العلماء: هذه الآية دليلٌ على وجوب سَتر العَورة؛ لأنَّه قال: ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾. وقال قوم: إنَّه ليس فيها دليلٌ على ما ذكروه، بل فيها دَلالةٌ على الإنعام فقط(٤).

قلت: القول الأوَّل أصحُّ، ومن جُملة الإنعام سَتْرُ العَورة، فبيَّن أنَّه سبحانه

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٩ . وقال مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨٥ : وذلك أن النداء فيه طرف من معنى الأمر، لأنك إذا قلت: يا زيد، فمعناه: تعال يا زيد، أدعوك يا زيد، فحذفت «يا» من نداء الربّ ليزول معنى الأمر وينقص، لأن «يا» تؤكّده وتُظهر معناه.

(٢) ١/ ٤٨١ - ٤٨٢ .

(٣) ١/ ٤٧٤ وما بعدها.

(٤) أحكام القرآن للكيا الهراسي ٣/ ١٣٤ .

وتعالى جعل لذرِّيته ما يستُرون به عوراتِهم، ودلَّ على الأمر بالتستُّر.

ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العَورة عن أَعْيُن الناس.

واختلفوا في العورة ما هي؟ فقال ابن أبي ذِئب: هي من الرَّجل الفَرْجُ نفسُه؛ القُبُلُ والدُّبُر دون غيرهما، وهو قول داود، وأهل الظاهر، وابن عُلَيَّة[1] والطبري؛ لقوله تعالى: ﴿لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف:٢٦]، ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢]، ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف:٢٧]، وفي البخاريِّ عن أنس: فَأجرَى رسولُ الله ﷺ في زُقاق خيبرَ. وفيه: ثم حَسَرَ الإزارَ عن فَخِذِه؛ حتى إنِّي أنظرُ إلى بياضِ فَخِذِ نبيِّ الله ﷺ[2].

وقال مالك: السُّرَّة ليست بعورة، وأكره للرجل أن يكشفَ فَخِذَه بحضرة زوجته[3]. وقال أبو حنيفة: الرُّكْبَة عورة، وهو قول عطاء. وقال الشافعِيُّ: ليست السرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح، وحكى أبو حامد الترمذيُّ[4] أن للشافعيِّ في السُّرة قولين.

وحُجَّة مالك قولُه عليه الصلاة والسلام لجَرْهد: «غَطِّ فَخِذَك، فإنَّ الفَخِذَ عورةٌ»، خرَّجه البخاريُّ تعليقاً وقال: حديثُ أنس أسندُ، وحديثُ جَرْهدٍ أحوطُ حتى يُخرَجَ مِن اختلافهم[5]. وحديث جَرْهَد هذا يدلُّ على خلافِ ما قال أبو حنيفة. ورُوِيَ أنَّ أبا هريرةَ قبَّلَ سُرَّةَ الحسن بن عليٍّ وقال: أُقبِّل منك ما كان رسول الله ﷺ يُقَبِّل منك[6]، فلو كانت السُّرة عورةً ما قبَّلها أبو هريرةَ، ولا مكَّنه الحسنُ منها.

---

(١) في (د) و(م): ابن أبي عبلة، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق للتمهيد ٦/ ٣٨٠ ، والاستذكار ٥/ ٤٣٩ ، والكلام منهما.

(٢) صحيح البخاري (٣٧١)، وأخرجه أحمد (١١٩٩٢)، ومسلم ٢/ ١٠٤٣ (١٣٦٥) (كتاب النكاح).

(٣) قال ابن عبد البر في الاستذكار ٥/ ٤٣٩ : وهذا ما لا أعلم أن أحداً قاله غيره.

(٤) في الاستذكار: ابن حامد، ولم نعرفه.

(٥) صحيح البخاري (قبل الحديث: ٣٧١)، وأخرجه أحمد (١٥٩٣٢). وجرهد: هو ابن خويلد بن بُجرة، كان من أهل الصُّفَّة، مات آخر خلافة يزيد. الإصابة ٢/ ٧٤ .

(٦) أخرجه أحمد (٧٤٦٢).

وأمَّا المرأةُ الحُرَّة، فعورةٌ كلُّها إلَّا الوجهَ والكفَّين، على هذا أكثرُ أهلِ العلم[١]. وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَن أرادَ أن يتزوَّجَ امرأةً فَلْينظُرْ إلى وَجْهِها وكفَّيْها»[٢]، ولأنَّ ذلك واجبٌ كشفُه في الإحرام.

وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: كلُّ شيء من المرأة عورةٌ حتى ظُفرها. ورُويَ عن أحمد بن حنبل نحوه.

وأما أمُّ الولد؛ فقال الأثرَم: سمعتُه ـ يعني أحمد بنَ حنبل ـ يُسأل عن أمِّ الولد: كيف تُصلِّي؟ فقال: تُغطِّي رأسَها وقدمَيْها؛ لأنَّها لا تُباع، وتُصلِّي كما تصلِّي الحُرَّة[٣].

وأمَّا الأَمَة؛ فالعَورة منها ما تحت ثدييها[٤] ولها أن تُبديَ رأسَها ومِعصَمَيْها، وقيل: حُكمها حُكم الرجل، وقيل: يُكره لها كشفُ رأسها وصدرها، وكان عمرُ ﷺ يضرِبُ الإماءَ على تغطيتهن رؤوسَهنَّ، ويقول: لا تَشبَّهن بالحرائر[٥].

وقال أصبغ: إن انكشف فخذُها أعادت الصلاة في الوقت[٦].

---

(١) التمهيد ٦/ ٣٧٩ - ٣٨١ و ٣٦٤، والاستذكار ٥/ ٤٣٨ - ٤٣٩.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج أحمد (١٤٥٨٦) عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدُكم المرأةَ، فإن استطاع أن ينظرَ منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»، وقال النبي ﷺ للمغيرة بن شعبة ﷺ: «اذهبْ فانظر إليها...» أخرجه أحمد (١٨١٣٧)، وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً خطب امرأة، فقال النبي ﷺ: «انظر إليها، فإن في أعين الأنصار شيئاً»، أخرجه أحمد (٧٨٤٢)، ومسلم (١٤٢٤). وترجم البخاري: باب النظر إلى المرأة قبل التزويج. وذكر حديث سهل بن سعد ﷺ (٥١٢٦)، أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله فصعَّد النظر إليها وصوَّبه...

(٣) التمهيد ٦/ ٣٦٤ - ٣٦٦، والاستذكار ٥/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٤) في (خ): بدنها، وفي (ظ): يديها، وفي (ز) و(م): ثديها، والمثبت من المفهم ١/ ٥٩٧، والكلام منه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٠٦٤)، وابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٢٣١.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧١.

وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: كلُّ شيء من الأمَة عورة حتى ظُفرها[١].

وهذا خارجٌ عن أقوال الفقهاء؛ لإجماعهم على أنَّ المرأةَ الحرَّة لها أن تصلِّيَ المكتوبةَ ويداها ووجهُها مكشوفٌ ذلك كلُّه، تُباشر الأرضَ به[٢]، فالأمَة أولى، وأمُّ الولد أغلظُ حالاً من الأمة. والصبيُّ الصغير لا حُرمةَ لعورته. فإذا بلغت الجاريةُ إلى حَدٍّ تأخذُها العين، وتُشْتَهى سترتْ عورتها.

وحُجَّة أبي بكر بن عبد الرحمن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩]، وحديثُ أمِّ سلمة أنها سُئلت: ماذا تصلِّي فيه المرأة من الثياب؟ فقالت: تُصلِّي في الدِّرع والخِمار السابغ الذي يُغَيِّب ظُهورَ قدميها، وقد رُوي مرفوعاً، والذين أوقفوه على أمِّ سلمة أكثرُ وأحفظُ، منهم مالك[٣] وابن إسحاق وغيرهما. قال أبو داود: ورفعه عبد الرحمن بن عبد الله بنِ دينار، عن محمد بن زَيْد، عن أُمِّه، عن أمِّ سلمة، أنَّها سألت رسولَ الله ﷺ[٤]. قال أبو عمر[٥]: عبد الرحمن هذا ضعيفٌ عندهم، إلَّا أنَّه قد خرَّج البخاريُّ بعضَ حديثه، والإجماعُ في هذا الباب أقوى من الخبر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ يعني: المطرَ الذي يُنبت القطن والكَتَّان، ويُقيم البهائم الذي منها الأصواف والأَوْبَار والأشعار[٦]، فهو مجاز مثل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦] على ما يأتي.

وقيل: هذا الإنزالُ إنزالُ شيء من اللباس مع آدم وحوّاء؛ ليكون مثالاً لغيره.

---

(١) المفهم ١/٥٩٨ . وسلف القول نفسه في المرأة.

(٢) التمهيد ٦/ ٣٦٥ ، وذكر ابن عبد البر هذا الكلام تعقُّباً على القول الأول لأبي بكر بن عبد الرحمن.

(٣) الموطأ ١/١٤٢ ، ومن طريق مالك أخرجه أبو داود (٦٣٩).

(٤) سنن أبي داود (٦٤٠).

(٥) في التمهيد ٦/٣٦٨ وما قبله منه.

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ١/٢٨٦ .

وقال سعيد بن جبير: «أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ» أي: خلقنا لكم؛ كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: خلق. على ما يأتي. وقيل: ألهمناكم كيفيةَ صَنْعته[1].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ قرأ أبو عبد الرحمن والحسنُ وعاصمٌ من رواية المُفَضَّل الضبِّي، وأبو عمرو من رواية الحسين بن علي الجُعْفِيّ: «ورِياشاً». ولم يَحْكِه أبو عُبيد إلا عن الحسن، ولم يُفسِّر معناه[2].

وهو جمع ريشٍ. وهو ما كان من المال واللِّباس. وقال الفرَّاء[3]: رِيشٌ ورياش، كما يقال: لِبس ولِباس. وريشُ الطائر: ما سَتره اللهُ به. وقيل: هو الخِصْب ورَفاهِيَةُ العيش[4].

والذي عليه أكثرُ أهل اللغة أن الرِّيشَ ما سَتَر من لباس أو معيشة. وأنشد سيبويه:

فريشي منكمُ وهَواي مَعْكُمْ ... وإنْ كانت زيارتُكم لِماما[5]

وحكى أبو حاتم عن أبي عُبيدة: وهبتُ له دابَّةً بريشها؛ أي: بكسوتها وما عليها من اللِّباس[6].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ بيَّن أن التقوى خيرُ لباس؛ كما قال:

إذا المرءُ لم يلبَسْ ثياباً من التُّقَى ... تقلَّبَ عُرياناً وإن كان كاسيا

وخيرُ لِباسِ المرءِ طاعةُ ربِّه ... ولا خيرَ فيمن كان لله عاصيا[7]

---

(١) زاد المسير ٣/ ١٨١، ومجمع البيان ٨/ ٣٦ - ٣٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٠، وذكر هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٣، وابن جني في المحتسب ١/ ٢٤٦. والقراءة المتواترة عن عاصم وأبي عمرو بن العلاء كقراءة الجماعة.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٣٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٠.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ١٢٣.

(٥) الكتاب ٣/ ٢٨٧، ونسبه سيبويه للراعي، وليس في ديوانه، وهو في ديوان جرير ١/ ٢٢٥، وصدره فيه: وريشي منكم وهواي فيكم.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٣، وينظر مجاز القرآن ١/ ٢١٣.

(٧) البيت الأول لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص٤٣٤، ولم نقف على البيت الثاني.

وروى قاسم بن مالك، عن عوف، عن مَعْبَد الجُهَنِيّ قال: «لِباسُ التَّقوى» الحَياء[١]. وقال ابن عباس: «لِباسُ التَّقوى» هو العمل الصالح. وعنه أيضاً: السَّمْتُ الحسَن في الوجه[٢]. وقيل: ما علَّمه عزَّ وجلَّ وهدى به، وقيل: «لِبَاسُ التَّقْوَى»: لُبْس الصوف والخَشِن من الثياب؛ مما يُتواضع به لله تعالى ويُتعبَّد له خيرٌ من غيره[٣]، وقال زيد بن عليّ: «لِباسُ التَّقوى»: الدِّرع والمِغْفَر، والساعدان[٤]، والساقان؛ يُتَّقى بهما في الحرب[٥]، وقال عروة بن الزبير: هو الخشيةُ لله، وقيل: هو استشعارُ تقوى الله تعالى فيما أَمَر به ونَهى عنه[٦].

قلت: وهو الصحيح، وإليه يَرجِع قولُ ابن عباس وعروة، وقولُ زيدِ بن عليّ حَسَنٌ؛ فإنَّه حَضٌّ على الجهاد.

وقال ابن زيد: هو ستر العَورة[٧]، وهذا فيه تَكْرار؛ إذ قال أوَّلاً: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾. ومن قال: إنَّه لُبْس الخَشِن من الثياب فإنَّه أقربُ إلى التواضع وترك الرُّعُونات، فدَعْوَى؛ فقد كان الفضلاءُ من العلماء يَلْبَسون الرفيعَ من الثياب مع حصول التقوى، على ما يأتي مبيَّناً إن شاء الله تعالى[٨].

وقرأ أهلُ المدينة والكسائيُّ: «ولِباسَ» بالنَّصب[٩] عطفاً على «لِبَاساً» الأوَّل، وقيل: انتصب بفعل مُضْمَر، أي: وأنزلنا لباسَ التقوى.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٤ ، وأخرجه الطبري ١٠/ ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) أخرجهما الطبري ١٠/ ١٢٦ - ١٢٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٠ .

(٤) في (ظ): والساعد.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ١٥٥ .

(٦) تفسير الطبري ١٠/ ١٢٧ و ١٣٠ .

(٧) أخرجه الطبري ١٠/ ١٢٨ بنحوه.

(٨) ص٢٠٣ وما بعدها من هذا الجزء.

(٩) وقرأ بها ابن عامر الشامي أيضاً، كما في السبعة ص٢٨٠ ، والتيسير ص١٠٩ .

والباقون بالرفع على الابتداء، و«ذلك» نعته، و«خَيْرٌ» خبر الابتداء. والمعنى: ولباسُ التقوى المُشار إليه، الذي عَلِمتموه، خيرٌ لكم من لُبْس الثياب التي تُوارِي سوءاتِكم، ومن الرِّياش الذي أنزلنا إليكم، فالبَسوه. وقيل: ارتفع بإضمار هو، أي: وهو لباسُ التقوى، أي: وهو ستر العَورة، وعليه يُخرَّج قولُ ابن زيد. وقيل: المعنى: ولباسُ التقوى هو خيرٌ، فـ«ذلك» بمعنى هو، والإعرابُ الأوَّل أحسنُ ما قيل فيه[1].

وقرأ الأعمش: «ولباسُ التقوى خيرٌ»، ولم يقرأ: «ذلك»[2]، وهو خلافُ المصحف.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: مما يدلُّ على أنَّ له خالقاً[3].

و«ذلك»[4] رفع على الصِّفة، أو على البدل، أو عطف بَيان.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ أي: لا يَصْرِفَنَّكم الشيطانُ عن الدِّين كما فَتَن أبويكم بالإخراج من الجنَّة. «أبٌ» للمذكَّر، و«أبةٌ» للمؤنَّث، فعلى هذا قيل: أبوَان.

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ في موضع نصب على الحال، ويكون مستأنفاً فيُوقَف على «مِنَ الجنَّةِ».

---

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٤ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٣ ، ونسبها لابن مسعود ﷺ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢١ .

(٤) يعني في قوله: «ذلك خير». مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨٦ ، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٦١ .

﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ نصب بلام كي. ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ الأصل: «يَرْأَاكم»، ثم خُفِّفت الهمزة، «وَقَبِيلُهُ» عطف على المُضمر، و«هو» توكيدٌ لِيحسنَ العطف، كقوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]، وهذا يدلُّ على أنَّه يَقبُح رأيتُك وعمرٌو، وأنَّ المُضمَر كالمُظهَر[١].

وفي هذا أيضاً دليلٌ على وجوب ستر العَورة؛ لقوله: «يَنْزِعُ عنهما لِباسَهما»، قال الآخرون: إنما فيه التحذيرُ من زوال النعمة كما نزل بآدمَ ﷺ، هذا أنْ لو ثبت أنَّ شرعَ آدم يلزمُنا، والأمر بخلاف ذلك[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ «قَبِيلُهُ»: جنوده، قال مجاهد: يعني الجنَّ والشياطين. ابن زيد: «قبيله»: نَسْلُه، وقيل: جِيلُه[٣].

﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

قال بعض العلماء[٤]: في هذا دليلٌ على أنَّ الجنَّ لا يُرَوْنَ؛ لقوله: «مِنْ حيث لا تَرونَهم». وقيل: جائزٌ أن يُرَوْا؛ لأنَّ الله تعالى إذا أراد أن يُرِيَهم كشفَ أجسامَهم حتى تُرى.

قال النحاس[٥]: «مِنْ حيث لا تَرونَهم» يدلُّ على أنَّ الجنَّ لا يُرَون إلَّا في وقت نبيٍّ؛ ليكونَ ذلك دَلالةً على نبوَّته؛ لأنَّ الله جلَّ وعزَّ خَلَقهم خَلْقاً لا يُرَون فيه، وإنما يُرون إذا نُقِلوا عن صورهم، وذلك من المعجزات التي لا تكون إلَّا في وقت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢١ ، وفيه: وأنه ليس المضمر كالمظهر.

(٢) أحكام القرآن للكيا الهراسي ٣/ ١٣٤ .

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/ ١٣٦ ، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢١٣ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٤ ، والنكت والعيون ٢/ ٢١٦ . وقوله: جيله، يعني جنسه، كما في اللسان (جيل)، ووقع في (د) و(ز): خَيْله.

(٤) الكشاف ٢/ ٧٤ - ٧٥ ، ومجمع البيان ٨/ ٣٨ .

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ١٢١ .

قال القشيريُّ: أجرى اللهُ العادةَ بأنَّ بني آدم لا يَرون الشياطين اليوم.

وفي الخبر: «إنَّ الشيطان يجري من ابن آدمَ مَجرى الدَّم»[(١)]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ للملَك لَمَّةً وللشيطانِ لَمَّة ـ أي: بالقلب ـ فأما لَمَّة الملَك: فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحق، وأما لَمَّةُ الشيطان: فإيعادٌ بالشرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ». وقد تقدَّم في «البقرة»[(٢)].

وقد جاء في رؤيتهم أخبارٌ صحيحة، وقد خرَّج البخاريُّ عن أبي هريرة قال: وكَّلني رسولُ الله ﷺ بحفظ زكاةِ رمضان، وذكر قصَّةً طويلة؛ ذكَر فيها أنَّه أخذ الجِنِّيَّ الذي كان يأخذ التمر، وأنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «ما فعلَ أسيرُكَ البارحةَ»، وقد تقدَّم في «البقرة»[(٣)]. وفي «صحيح» مسلم أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «والله لولا دعوةُ أخي سليمانَ لأصبحَ مُوثَقاً يلعبُ به وِلدان أهلِ المدينة»[(٤)]؛ في العِفريت الذي تَفَلَّت عليه. وسيأتي في «ص» إن شاء الله تعالى[(٥)].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: زيادةً في عقوبتهم، وسوَّينا بينهم في الذهاب عن الحقِّ[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

الفاحشة هنا في قول أكثرِ المفسرين: طوافُهم بالبيت عُراةً، وقال الحسن: هي

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٩٢)، ومسلم (٢١٧٤) من حديث أنس ﷺ، وسلف ١/٤٤٩، وأخرجه البخاري (٢٠٣٥) من حديث صفية رضي الله عنها.

(٢) ٤/٣٥٥، واللَّمَّة: الخَطرة تقع في القلب، أراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه. النهاية (لمم).

(٣) ٤/٢٦٤، والحديث في صحيح البخاري (٢٣١١).

(٤) صحيح مسلم (٥٤٢) وهو من حديث أبي الدرداء ﷺ، وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ﷺ أخرجه أحمد (١١٧٨٠)، وعن أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (٤٦١).

(٥) عند تفسير الآية (٣٥) منها.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٢٩ - ٣٣٠.

الشِّرك والكفر[١]. واحتجُّوا على ذلك بتقليدهم أسلافَهم، وبأنَّ الله أمرهم بها. وقال الحسن: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ قالوا: لو كَرِه الله ما نحن عليه لَنقلنا عنه[٢].

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ بيَّن أنهم مُتحكِّمون، ولا دليلَ لهم على أنَّ الله أمرهم بما ادَّعَوا. وقد مضى ذمُّ التقليد وذمُّ كثير من جَهالاتهم[٣]. وهذا منها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ قال ابنُ عبَّاس: لا إله إلَّا الله[٤]، وقيل: القِسْط: العَدْل[٥]، أي: أمر بالعدل فأطيعوه، ففي الكلام حذفٌ. ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: توجَّهوا إليه في كلِّ صلاة إلى القبلة. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: في أيِّ مسجدٍ كنتم. ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: وحِّدوه ولا تُشرِكوا به.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ نظيره: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقد تقدَّم[٦]. والكاف في موضع نصب، أي: تعودون كما بدأكم، أي: كما خلقَكم أوَّل مرَّة يُعيدُكم. وقال الزجَّاج: هو متعلِّق بما قبلَه، أي: ومنها تُخرَجون كما بدأكم تعودون[٧].

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ «فريقاً» نصبٌ على الحال من المضمَر في «تَعُودُونَ» أي: تعودون فريقين: سعداء وأشقياء، يُقوِّي هذا قراءةُ أُبَيٍّ: «تعودون فريقينِ فريقاً هدَى وفريقاً

---

(١) أورده الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢١٦ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٨٥ .

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٨/ ٣٩ .

(٣) ٣/ ١٥ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٥٦ ، وتفسير الرازي ١٤/ ٥٧ .

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ١٣٩ من قول مجاهد والسدي.

(٦) ٨/ ٤٦٢ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٢ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣١ .

حقَّ عليهِم الضلالة»، عن الكسائي[(١)].

وقال [محمد بن] كعب القُرظيُّ في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: مَن ابتدأ اللهُ خَلْقَه للضلالة صيَّره إلى الضلالة وإنْ عَمِلَ بأعمال أهل الهُدى[(٢)]، ومَن ابتدأ اللهُ خَلْقَه على الهُدى صيَّره إلى الهدى وإنْ عَمِل بأعمال الضلالة، ابتدأ اللهُ خَلْقَ إبليس على الضلالة، وعَمِل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم ردَّه اللهُ إلى ما ابتدأ عليه خَلْقَه، قال: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤][(٣)].

وفي هذا ردٌّ واضحٌ على القدرية ومن تابعهم.

وقيل: «فَرِيقاً» نُصِبَ بـ «هَدَى»، «وفَرِيقاً» الثاني نُصِبَ بإضمار فعل، أي: وأضلَّ فريقاً، وأنشد سيبويه[(٤)]:

أصبحتُ لا أحملُ السِّلاحَ ولا ... أملِكُ رأسَ البعيرِ إنْ نَفَرا
والذِّئبَ أخشاه إن مررتُ به ... وحدي وأخشَى الرياحَ والمطرا

قال الفرَّاء[(٥)]: ولو كان مرفوعاً لجاز.

﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وقرأ عيسى بن عمر: «أنهم» بفتح الهمزة، بمعنى لأنَّهم[(٦)].

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

فيه سبع مسائل:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٢، وينظر مشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٢٨٧ - ٢٨٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢، وقراءة أُبيّ ﷺ ذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ١/ ٣٧٦.

(٢) في (ز): السعادة.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ١٤٣، وابن أبي حاتم (٨٣٦٧) وما بين حاصرتين منهما.

(٤) في الكتاب ١/ ٨٩ ونسبهما للربيع بن ضَبُع الفزاري، وأوردهما أبو علي القالي في أماليه ٢/ ١٨٥.

(٥) في معاني القرآن ١/ ٣٧٦.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٢ - ١٢٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢.

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ هو خطابٌ لجميع العالَم، وإنْ كان المقصودُ بها مَن كان يطوفُ مِن العرب بالبيتِ عُرياناً، فإنَّه عامٌّ في كلِّ مسجد للصلاة؛ لأنَّ العِبْرَةَ للعُمومِ لا للسَّبب. ومِن العلماءِ مَن أنكرَ أنْ يكونَ المرادُ به الطوافَ؛ لأنَّ الطوافَ لا يكونُ إلَّا في مسجدٍ واحد، والذي يعمُّ كلَّ مسجد هو الصلاة، وهذا قولُ مَن خَفِيَ عليه مقاصدُ الشريعة.

وفي «صحيح» مسلم[١] عن ابن عبَّاس قال: كانت المرأةُ تطوفُ بالبيت وهي عُرْيانة وتقولُ: مَن يُعِيرُني تِطْوَافاً؟ تجعلُه على فَرْجِها، وتقولُ:

اليومَ يَبْدُو بعضُه أو كلُّهُ ... وما بَدَا منه فلا أُحِلُّهُ

فنزلتْ هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٢]. التِّطْواف بكسر التاء، وهذه المرأةُ هي ضُباعة بنتُ عامر بن قُرْط، قاله القاضي عياض[٣].

وفي «صحيح» مسلم[٤] أيضاً عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: كانت العربُ تطوفُ بالبيتِ عُراةً إلَّا الحُمْسَ ـ والحُمْسُ: قريشٌ وما ولدَت ـ كانوا يطوفون بالبيت عُراةً إلَّا أنْ تُعطيَهم الحُمْسُ ثياباً، فيُعطِي الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ، وكانت الحُمْسُ لا يَخْرجون من المُزْدلِفة، وكان الناس كلُّهم يَقِفُون[٥] بعرفات.

في غير مسلم[٦]: ويقولون: نحن أهلُ الحَرَمِ، فلا ينبغي لأحد مِن العربِ أنْ يطوفَ إلَّا في ثيابنا، ولا يأكلَ إذا دخلَ أرضَنا إلَّا مِن طعامنا. فمن لم يكنْ له مِن

---

(١) الحديث (٣٠٢٨).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٦٧ و ٧٦٩ .

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة المفهم لأبي العباس القرطبي ٧/ ٣٤٦ ، وينظر إكمال المعلم للقاضي عياض ٨/ ٥٨٩ .

(٤) الحديث (١٢١٩): (١٥٢)، وهو في صحيح البخاري (١٦٦٥) بنحوه.

(٥) في صحيح مسلم: يبلغون عرفات. وسُمُّوا الحمس لأنهم شدَّدوا على أنفسهم، وكانوا إذا أهلوا بحجٍّ أو عمرة لا يأكلون لحماً، ولا يضربون وبراً ولا شعراً. فتح الباري ٣/ ٥١٦ .

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٦٧ - ٧٦٨ ، والكلام منه إلا آخر المسألة.

العربِ صديقٌ بمكَّة يُعيرُه ثوباً، ولا يَسارٌ يَستأجِرُهُ به؛ كان بين أحدِ أمرَين: إمَّا أنْ يطوفَ بالبيت عُرياناً، وإمَّا أنْ يطوفَ في ثيابه، فإذا فَرَغَ مِن طوافِهِ ألقى ثوبَه عنه؛ فلم يمسَّه أحدٌ، وكان ذلك الثوبُ يُسمَّى اللَّقَى، قال قائلٌ مِن العرب:

كفى حَزَناً كَرِّي عليه كأنَّه لَقًى بين أيدي الطائفين حَرِيمُ[1]

فكانوا على تلك الجهالةِ والبدعةِ والضلالةِ حتى بعثَ الله نبيَّه محمداً ﷺ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ الآية، وأذَّنَ مؤذِّنُ رسولِ الله ﷺ: «ألَا لا يطوفُ بالبيتِ عُرْيَانٌ»[2].

قلت: ومَن قال بأنَّ المرادَ الصلاةُ؛ فزينتُها النِّعالُ، لِمَا رواه كُرْز بن وَبْرَة، عن عطاء، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال ذاتَ يوم: «خذُوا زينةَ الصلاة»، قيل: وما زينةُ الصلاة؟ قالَ: «اِلبَسُوا نِعالَكُم فصَلُّوا فيها»[3].

الثانية: دلَّت الآيةُ على وُجوبِ سَتْرِ العَورة كما تقدَّم[4]، وذهبَ جُمهورُ أهلِ العلمِ إلى أنَّها فرضٌ مِن فروضِ الصلاة، وقال الأبهريُّ: هي فرضٌ في الجملةِ، وعلى الإنسان أنْ يستُرَها عن أعينِ الناس في الصلاةِ وغيرِها، وهو الصحيحُ؛ لقولِه عليه الصلاة والسلام لِلمِسْوَر بن مَخْرَمَة: «اِرْجِعْ إلى ثوبِكَ فخذْهُ، ولا تَمْشُوا عُراةً»، أخرجه مسلم[5]. وذهبَ إسماعيلُ القاضي إلى أنَّ سَتْرَ العَورةِ مِن سُنَنِ الصلاة،

---

(١) أورده أبو العباس في المفهم ٧/ ٣٤٦ ، وابن منظور في اللسان (حرم).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٧٧)، والبخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٧١ ، وفي إسناده محمد بن الفضل بن عطية قال ابن معين: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه، وقال النسائي: متروك الحديث، فيما ذكره ابن عدي. وأخرجه أيضاً في الكامل ٥/ ١٨٢٩ من طريق آخر عن أبي هريرة ﷺ، وفيه علي بن أبي علي القرشي، قال ابن عدي: مجهول ومنكر الحديث. وأورده ابن أبي حاتم في العلل ١/ ١٤٩ ، وقال: قال أبي: هذا حديث منكر. وسيذكر المصنف في المسألة الثالثة أنه مروي عن أنس ﷺ، وقال: لم يصح.

(٤) ص١٨١ من هذا الجزء.

(٥) الحديث (٣٤١).

واحتجَّ بأنَّه لو كان فرضاً في الصلاةِ لكان العُريانُ لا يجوزُ له أنْ يُصلِّيَ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ من فروضِ الصلاة يجبُ الإتيانُ به مع القُدرةِ عليه، أو بدلِهِ مع عدمِهِ، أو تسقطُ الصلاةُ جملةً، وليس كذلك[١].

قال ابن العربيِّ: وإذا قلنا: إنَّ سَتْرَ العورةِ فرضٌ في الصلاة، فسقَطَ ثوبُ إمام، فانكشَفَ دُبُرُه وهو راكعٌ، فرفعَ رأسَه فغطَّاهُ؛ أجزأَهُ؛ قالَه ابنُ القاسم. وقال سُحْنون: وكلُّ مَن نظَرَ إليه مِن المأمومين أعادَ. ورُوي عن سحنون أيضاً: أنَّه يُعيدُ ويُعيدون؛ لأنَّ سَتْرَ العَورةِ شرطٌ مِن شروطِ الصلاة، فإذا ظهَرَتْ بطَلَتِ الصلاةُ. أصلُهُ الطهارَةُ.

قال القاضي ابن العربيِّ[٢]: أمَّا مَن قال: إنَّ صلاتَهم لا تبطُلُ؛ فإنَّهم لم يَفقِدُوا شرطاً، وأمَّا مَن قال: إنْ أخَذَهُ مكانَه صَحَّتْ صلاتُهُ، وتبطلُ صلاةُ مَن نظَرَ إليه؛ فصحيفةٌ يجبُ مَحْوُها، ولا يجوزُ الاشتِغالُ بها.

وفي البخاريِّ والنسائيِّ: عن عمرو بن سلمة قال: لمَّا رَجَعَ قومي مِن عندِ النبيِّ ﷺ قالوا: قال: «لِيؤمَّكُم أكثرُكم قراءةً للقرآن»، قال: فدعَوني، فعلَّموني الركوعَ والسجودَ، فكنتُ أُصلِّي بهم، وكانت عليَّ بُرْدةٌ مفتوقَةٌ، وكانوا يقولون لأبي: ألا تُغَطِّي عنَّا استَ ابنِكَ. لفظ النسائي[٣].

وثبتَ عن سهل بن سعد قال: لقد كانت الرجالُ عاقِدي أُزُرِهم في أعناقِهم مِن ضِيقِ الأُزُرِ خلفَ رسولِ الله ﷺ في الصلاةِ كأمثالِ الصِّبْيان، فقال قائلٌ: يا معشرَ النِّساء، لا ترفَعْنَ رؤوسَكُنَّ حتى يرفعَ الرجالُ. أخرجَه البخاريُّ والنسائيُّ وأبو داود[٤].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٢ ، والتمهيد ٦/ ٣٧٦ - ٣٧٩ ، والاستذكار ٥/ ٤٣٧ ، والمنتقى ١/ ٢٤٧ ، وعقد الجواهر الثمينة ١/ ١٥٨ .

(٢) في أحكام القرآن ٢/ ٧٧٠ .

(٣) في المجتبى ٢/ ٧١ ، وصحيح البخاري (٤٣٠٢). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٣٣٣).

(٤) صحيح البخاري (٣٦٢)، والمجتبى ٢/ ٧٠ ، وسنن أبي داود (٦٣٠). وأخرجه أيضاً أحمد (١٥٥٦٢)، ومسلم (٤٤١).

الثالثة: واختلفوا إذا رأى عَورةَ نفسِه، فقال الشافعيُّ: إذا كان الثوبُ ضيِّقاً؛ يزرُّه أو يخلِّله بشيء؛ لئلَّا يتجافَى القميصُ فيرى من الجيب العورة، فإنْ لم يفعَلْ ورأى عَورةَ نفسِه؛ أعادَ الصلاةَ، وهو قولُ أحمدَ. ورخَّصَ مالكٌ في الصلاةِ في القميصِ محلولِ الأزرارِ[1]، ليس عليه سراوِيلُ، وهو قولُ أبي حنيفةَ وأبي ثور. وكان سالِمٌ يُصلِّي محلولَ الأزرارِ[2]. وقال داودُ الطائي[3]: إذا كان عظيمَ اللِّحية فلا بأسَ به، وحكَى معناه الأثرمُ عن أحمدَ.

فإنْ كان إماماً فلا يُصلِّي إلَّا بردائِه؛ لأنَّه مِن الزِّينة.

وقيل: مِن الزينةِ الصلاةُ في النَّعلَين، رواهُ أنسٌ عن النبيِّ ﷺ، ولم يصحَّ[4].

وقيل: زينةُ الصَّلاةِ رفعُ الأيدي في الركوعِ وفي الرفعِ منه. قال ابن عمر[5]: لكلِّ شيءٍ زينةٌ، وزينةُ الصَّلاةِ التكبيرُ ورفعُ الأيدي.

وقال عمرُ ﷺ: إذا وَسَّعَ الله عليكم فأوسِعُوا على أنفسِكُم، جمَعَ رجلٌ عليه ثيابَه؛ صلَّى في إزارٍ ورِداء، في إزارٍ وقميص، في إزار وقَبَاء، في سَراوِيلَ ورِداء، في سَراوِيلَ وقميص، في سَراوِيلَ وقَبَاء، وأحسِبُهُ قال: في تُبَّانٍ وقميص، في تُبَّانٍ ورِداء، في تُبَّانٍ وقَبَاء. رواه البخاريُّ والدارقطني[6].

---

(١) في (خ) و(ز) والتمهيد ٦/ ٣٧٥ (والكلام منه): الإزار، والمثبت من (د) و(ظ) و(م)، وهو الموافق للاستذكار ٥/ ٤٣٦ - ٤٣٧ (والكلام منه أيضاً).

(٢) في (ز) والتمهيد: الإزار، والمثبت من (خ) و(د) و(ظ) و(م) والاستذكار.

(٣) داود بن نُصير، أبو سليمان الكوفي، كان من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة. توفي سنة (١٦٢هـ)، وقيل: (١٦٥هـ). السير ٧/ ٤٢٢ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧٠ ، وأخرجه العُقيلي في الضعفاء ٣/ ١٤٣ ، وفي إسناده عبَّاد بن جويرية، كذَّبه أحمد والبخاري. ميزان الاعتدال ٢/ ٣٦٥ . وسلف نحوه في المسألة الأولى.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): قال أبو عمر، وفي (ظ): قاله ابن عمر، والمثبت من التمهيد ٧/ ٨٣ و ٩/ ٢٢٥ .

(٦) صحيح البخاري (٣٦٥)، وسنن الدارقطني (١٠٩١) واللفظ له. وقوله: وأحسبه، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١/ ٤٧٥ : قائل ذلك أبو هريرة (وهو راوي الحديث) والضمير في أحسبه راجع إلى عمر .اهـ. والقَبَاء من الثياب، سمي به لاجتماع أطرافه، وهو في الغالب من لباس الأعاجم، ويعرف اليوم عندنا بالقنباز. معجم متن اللغة (قبي). والتبان: سراويل صغير يستر العورة المُغَلَّظة فقط، النهاية (تبن).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ قال ابن عباس: أحلَّ الله في هذه الآيةِ الأكلَ والشُّربَ ما لم يكُنْ سَرَفاً أو مَخِيلةً[١].

فأمَّا ما تدعو الحاجةُ إليه ـ وهو ما سدَّ الجَوْعةَ وسكَّنَ الظَّمأ ـ فمندوبٌ إليه عَقْلاً وشرعاً؛ لما فيه مِن حِفْظِ النفْسِ، وحِراسةِ الحواسِّ، ولذلك وردَ الشرعُ بالنهي عن الوِصال[٢]؛ لأنَّه يُضعِفُ الجسدَ، ويُميتُ النفْسَ، ويُضعِفُ عن العبادةِ، وذلك يمنَعُ منه الشرعُ ويدفعُهُ العقلُ. وليس لمن مَنَعَ نفسَهُ قَدْرَ الحاجَةِ حظٌّ مِن بِرٍّ، ولا نصيبٌ مِن زُهد؛ لأنَّ ما حرَمَها مِن فِعلِ الطاعةِ بالعَجْزِ والضَّعْفِ أكثرُ ثواباً وأعظمُ أجراً[٣].

وقد اختُلِفَ في الزائدِ على قدْرِ الحاجةِ على قولين؛ فقيل: حرام، وقيل: مكروه، قال ابن العربيِّ[٤]: وهو الصحيح؛ فإنَّ قَدْرَ الشِّبَعِ يختلِفُ باختِلافِ البُلْدانِ والأزمانِ والأسنانِ والطُّعمانِ.

ثمَّ قيل: في قِلَّةِ الأكلِ منافِعُ كثيرةٌ؛ منها أنْ يكونَ الرجلُ أصحَّ جسماً، وأجودَ حِفْظاً، وأذكى[٥] فَهْماً، وأقلَّ نوماً، وأخفَّ نَفَساً. وفي كَثْرةِ الأكلِ كَظُّ المعدةِ، ونَتْنُ التُّخَمَةِ، ويتولَّدُ منه الأمراضُ المختلفَة، فيَحتاجُ مِن العلاجِ أكثرَ ممَّا يَحتاجُ إليه القليلُ الأكل.

وقال بعضُ الحكماء: أكبرُ الدواءِ تقديرُ الغِذاءِ[٦]. وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ هذا المعنَى بياناً شافياً يُغني عن كلامِ الأطباءِ فقال: «ما مَلأَ آدميٌّ وِعاءً شَرًّا مِن بَطْن، بحسْبِ ابنِ آدمَ لُقيماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه، فإنْ كان لا مَحالةَ؛ فثُلثٌ لِطعامِهِ، وثُلثٌ لشرابِهِ، وثُلثٌ

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ١٥٥ ، والبيهقي في الشعب (٦٥٧٢).

(٢) سلفت أحاديث النهي عن الوصال ٣/ ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي ص٣١٩ .

(٤) في أحكام القرآن ٢/ ٧٧١ .

(٥) في (د) و(م): أزكى، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ).

(٦) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين ص٣٢٠ .

لِنفَسِهِ». خرَّجَه الترمذي مِن حديثِ المِقْدام بن مَعْدِي كَرِب[١].

قال علماؤنا: لو سمِعَ بُقراطُ هذه القِسْمةَ لَعَجبَ مِن هذه الحكمة[٢].

ويُذكرُ أنَّ الرشيدَ كان له طبيبٌ نصرانِيٌّ حاذِقٌ، فقال لعليِّ بن الحسين[٣]: ليس في كتابِكُم مِن عِلْم الطِّبِّ شيءٌ، والعلمُ عِلْمان: علمُ الأديانِ وعلمُ الأبدان؟ فقال له عليٌّ: قد جَمَعَ الله الطِّبَّ كلَّه في نِصْفِ آيةٍ مِن كتابنا، فقال له: ما هي؟ قال: قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾. فقال النصرانِيُّ: ولا يُؤثَرُ عن رسولِكم شيءٌ مِن الطِّبِّ؟ فقال عليٌّ: جَمَعَ رسولُ الله ﷺ الطِّبَّ في ألفاظٍ يسيرة، قال: ما هي؟ قال: «المَعِدَةُ بيتُ الأدواء، والحِمْيَةُ رأسُ كلِّ دواء، وأعطِ كلَّ جسدٍ ما عوَّدتَه». فقال النصرانِيُّ: ما تركَ كتابُكم ولا نبيُّكم لجالينوس طِبًّا[٤].

قلت: ويُقال: إنَّ معالجةَ المريضِ نصفان: نصفٌ دواءٌ، ونصف حِمْيةٌ، فإن اجتمعا، فكأنَّك بالمريض قد بَرِئَ وصَحَّ بإذن الله تعالى[٥]، وإلَّا فالحِمْيةُ به أولى، إذْ لا ينفَعُ دواءٌ مع تركِ الحِمْية، ولقد[٦] تنفَعُ الحمْيةُ مع تَرْكِ الدواء، ولقد قال

---

(١) سنن الترمذي (٢٣٨٠)، وأخرجه أحمد (١٧١٨٦) وفيهما: أُكلات، بدل: لُقيمات. وأُكلات، بالضم: جمع أُكلة، كَلُقمة، لفظاً ومعنى. قاله السندي في حاشية المسند.

(٢) تلبيس إبليس ص٢٠٨ ، وبقراط: هو ابن إبراقلس، سيد الطبيعيين في عصره، كان قبل الاسكندر بنحو مئة سنة، له في الطب تآليف شريفة. أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص٦٤ .

(٣) علي بن الحسين بن واقد، أبو الحسن المروزي، المحدث، مولى أمير خراسان عبد الله بن عامر بن كريز القرشي، توفي سنة (٢١١هـ)، السير ١٠/ ٢١١ .

(٤) ذكر هذه القصة الزمخشري في الكشاف ٢/ ٧٦ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٨٨ ، وقال: هكذا نُقلت هذه الحكاية، إلا أن الحديث المذكور فيها عن النبي ﷺ لا يثبت .اهـ. وقال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٣٨٩ : لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره. وجالينوس: هو الحكيم الفيلسوف الطبيعي اليوناني، إمام الأطباء في عصره، مؤلف الكتب الجليلة في صناعة الطب وغيرها، قال المسعودي: كان جالينوس بعد المسيح بنحو مئتي سنة وبعد بقراط بنحو ست مئة سنة. أخبار العلماء للقفطي ص٨٦ .

(٥) قوله: بإذن الله تعالى، من (ظ).

(٦) في (ظ): وقد، وفي (خ) و(د) و(ز): ولعمري، والمثبت من (م).

رسولُ الله ﷺ: «أصلُ كلِّ دواءِ الحِمْية»[١]، والمَعنيُّ بها - والله أعلم - أنَّها تُغني عن كلِّ دواء، ولذلك يُقال: إنَّ الهندَ جُلُّ معالجتِهم الحِميةُ، يَمتنِعُ المريضُ عن الأكلِ والشُّربِ والكلامِ عدَّةَ أيَّام، فيبرأُ ويصحُّ.

الخامسة: روى مسلم عن ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الكافرُ يأكُلُ في سَبْعة أَمْعاء، والمؤمنُ يأكُلُ في مِعًى واحدٍ»[٢]. وهذا منه ﷺ حضٌّ على التقليلِ مِن الدنيا والزُّهدِ فيها والقناعَةِ بالبُلْغَة. وقد كانت العربُ تَمتدِحُ بقلَّةِ الأكلِ وتَذُمُّ بكَثْرتِه، كما قال قائلُهم:

تَكْفِيهِ فِلْذةُ كِبْدٍ إنْ أَلَمَّ بها مِن الشِّواءِ ويُرْوِي شُرْبَهُ الغُمَرُ[٣]

وقالت أمُّ زَرْع في ابن أبي زَرْع: ويُشبِعُهُ ذِراعُ الجَفْرَة[٤]. وقال حاتِمٌ الطائي يَذُمُّ بكثرةِ الأكل:

فإنَّكَ إنْ أعطيتَ بطنَكَ سُؤْلَهُ وفرجَك نالا مُنتهى الذَّمِّ أجمَعَا[٥]

وقال الخَطَّابِيُّ[٦]: معنَى قوله ﷺ: «المؤمنُ يأكُلُ في مِعًى واحد» أنَّه يتناوَلُ دونَ شِبَعِهِ، ويُؤثِرُ على نفسِه، ويُبقي مِن زادِه لغيرِه، فَيُقنِعُه ما أكلَ.

والتأويلُ الأوَّلُ أَولى، والله أعلم.

وقيل في قوله عليه الصلاة والسلام: «والكافرُ يأكُلُ في سبعةِ أمعاءٍ»: ليس على

(١) قطعة من الحديث الذي سلف الكلام عليه.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٦٠)، وأخرجه أحمد (٤٧١٨)، والبخاري (٥٣٩٣).

(٣) البيت لأعشى باهلة من قصيدة يرثي بها المُنتشر بن وهب الباهلي، وهو في الكامل ١/ ٤٥٩ و٣/ ١٤٣١، والغُمر: هو القدح الصغير. اللسان (غمر).

(٤) قطعة من حديث أم زرع الطويل الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها، أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨). والجفرة: الأنثى من ولد المَعْز، إذا كان ابن أربعة أشهر وفُصل عن أمه وأخذ في الرعي. فتح الباري ٩/ ٢٧٠.

(٥) ديوان حاتم ص٦٨، وصدره فيه: وإنك مهما تعط بطنك سؤله.

(٦) أعلام الحديث ٣/ ٢٠٤٥.

عمومِه؛ لأنَّ المُشاهدَةَ تدفعُهُ، فإنَّه قد يوجدُ كافرٌ أقلُّ أكلاً مِن مؤمن، ويُسلِمُ الكافرُ فلا يَقِلُّ أكلُه ولا يزيدُ.

وقيل: هو إشارةٌ إلى معيَّن؛ ضافَ النبيَّ ﷺ ضيفٌ كافرٌ - يقال: إنَّه الجَهْجَاهُ الغِفاريُّ، وقيل: ثُمَامة بن أُثَال، وقيل: نَضْلة بن عمرو الغِفَاريُّ، وقيل: بَصْرة بن أبي بصرة الغِفارِيُّ[(١)] - فشربَ حِلَابَ سبع شياهٍ، ثم إنَّه أصبحَ فأسلمَ، فشَرِبَ حِلابَ شاةٍ، فلم يَستتمَّهُ، فقال النبيُّ ﷺ ذلك[(٢)]. فكأنَّه قال: هذا الكافر. والله أعلم.

وقيل: إنَّ القلبَ لمَّا تنوَّر بنورِ التوحيدِ نظرَ إلى الطعامِ بعينِ التقوّي على الطاعة، فأخذَ منه قَدْرَ الحاجة، وحين كان مُظلِماً بالكفرِ كان أكلُهُ كالبهيمَةِ ترتَعُ حتى تَثْلِطَ[(٣)].

واختُلِفَ في هذه الأمعاء، هل هي حقيقةٌ أمْ لا؟ فقيل: حقيقةٌ، ولها أسماءٌ معروفةٌ عندَ أهلِ العلمِ بالطبِّ والتشريحِ[(٤)]. وقيل: هي كناياتٌ عن أسبابٍ سبعةٍ يأكُلُ بها النَّهِم[(٥)]: يأكُلُ للحاجةِ، وللخَبَرِ، والشمِّ، والنظر، واللَّمس، والذوق، ويزيدُ استغناماً[(٦)]. وقيل: المعنَى أنْ يأكلَ أكلَ مَن له سبعةُ أمعاء، والمؤمِنُ بخفَّة أكلِه يأكلُ أكلَ مَن ليس له إلَّا مِعًى واحدٌ، فيشارِكُ الكافرَ بجزءٍ مِن أجزاءِ أكلِهِ، ويزيدُ الكافرُ

---

(١) المفهم ٥/ ٣٤٣ .

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٢٤ ، ومسلم (٢٠٦٣)، والترمذي (١٨١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ دون تعيين الرجل. وقد أخرجه الطبراني في الكبير (٢١٥٢) من حديث جهجاه الغفاري، وأحمد (١٨٩٦٢) من حديث نضلة بن عمرو الغفاري، وأخرجه أحمد أيضاً (٢٧٢٢٦) من حديث أبي بصرة الغفاري، و هؤلاء الثلاثة ﷺ هم أصحاب القصة، وذكر ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/ ٦٣٨) من حديث أبي هريرة أن ثُمامة بن أثال لما أسر ثم أسلم وقعت له قصة تشبه قصة جهجاه، فيجوز أن يُفسَّر الضيف بثمامة فيما ذكره الحافظ ابن حجر، وقوّى أن تكون القصة متعددة. وينظر فتح الباري ٩/ ٥٣٨ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧١ . وقوله: تثلط: ثلط البعير إذا ألقى بعره رقيقاً. الصحاح (ثلط).

(٤) الكلام بنحوه في إكمال المعلم ٦/ ٥٥٧ .

(٥) في النسخ الخطية: البهيم، والمثبت من (م).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧١ .

عليه بسبعةِ أمثالِه. والمِعَى في هذا الحديث هو المِعِدَةُ[١].

السادسة: وإذا تقرَّرَ هذا فاعلمْ أنَّه يُستحبُّ للإنسانِ غَسْلُ اليدِ قبلَ الطعامِ وبعدَه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «الوضوءُ قبلَ الطعامِ وبعدَه بركَةٌ»، وكذا في التوراة، رواه زَاذَان عن سلمان[٢]، وكان مالك يكرَهُ غسلَ اليدِ النظيفة[٣]، والاقتداءُ بالحديثِ أَوْلى.

ولا يأكلُ طعاماً حتى يعرفَ أحارٌّ هو أم باردٌ؟ فإنَّه إنْ كان حارًّا فقد يتأذَّى. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «أَبْرِدُوا بالطعام، فإنَّ الحارَّ غيرُ ذِي بركَة». حديثٌ صحيحٌ[٤]، وقد تقدَّم في «البقرة»[٥]. ولا يَشَمُّهُ، فإنَّ ذلك مِن عَمَلِ البهائم، بل إنْ اشتهاهُ أكلَهُ، وإنْ كَرِهَه تركَه، ويُصغِّرُ اللُّقمةَ ويُكثِرُ مَضْغَها لئلَّا يُعَدَّ شَرِهاً.

ويُسمِّي الله تعالى في أوَّله ويحمَدُه في آخرِه. ولا يَنبغي أنْ يرفعَ صوتَه بالحَمْدِ إلَّا أنْ يكونَ جُلَساؤه قد فَرَغوا مِن الأكل؛ لأنَّ في رَفْعِ الصوتِ مَنْعاً لهم مِن الأكل. وآدابُ الأكلِ كثيرةٌ، هذه جملةٌ منها، وسيأتي بعضُها في سورةِ هود إنْ شاءَ الله تعالى[٦].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٥٤٠ : ونقل الكرماني عن الأطباء في تسمية الأمعاء السبعة أنها المعدة.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٧٣٢)، وأبو داود (٣٧٦١)، والترمذي (١٨٤٦) بلفظ: «بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده»، قال أبو داود: وهو ضعيف، وقال الترمذي: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث قيس بن الربيع، وقيس بن الربيع يضعَّف في الحديث. وسلمان: هو الفارسي ﷺ.

(٣) المفهم ٥/ ٣٠٠ .

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٢٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده عبد الله بن يزيد البكري، ضعَّفه أبو حاتم، وقال: ذاهب الحديث، كما في الجرح والتعديل ٥/ ٢٠١ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١١٨ . من حديث جابر ﷺ، وسكت عنه، وفي إسناده محمد بن عبيد الله العَرْزمي، قال البخاري: تركه ابن المبارك ويحيى، وقال ابن معين: ليس بشيء، ولا يُكتب حديثه. كما في تهذيب الكمال ٢٦/ ٤١ - ٤٣ . وينظر المقاصد الحسنة ص١١ ، وفيض القدير ١/ ٧٧ .

(٥) ٢/ ٣٦٦ ، وهو حديث أسماء رضي الله عنها؛ أنها كانت إذا ثردت غطَّته شيئاً حتى يذهب فَوْرُه، وتقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه أعظمُ للبركة».

(٦) عند تفسير الآية (٩٩) منها.

وللشَّرابِ[١] أيضاً آدابٌ معروفةٌ، تركنا ذِكرها لِشهرتِها. وفي «صحيح» مسلم[٢] عن ابن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أكلَ أحدُكم فَلْيأكُلْ بيمينهِ، وإذا شَرِبَ فَلْيشرَبْ بيمينهِ؛ فإنَّ الشيطانَ يأكُلُ بشمالِه ويشربُ بشمالِه».

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أي: في كَثْرةِ الأكلِ، وعنه يكونُ كَثْرةُ الشُّرب، وذلك يُثقِلُ المَعِدَةَ، ويُثبِّطُ الإنسانَ عن خدمةِ ربِّه والأخذِ بحظِّه مِن نوافلِ الخير، فإنْ تعدَّى ذلك إلى ما فوقَه ممَّا يمنعُه القيامَ بالواجبِ[٣]، حَرُمَ عليه، وكان قد أسرفَ في مَطْعَمِه ومَشْرِبه.

روى أسدُ بن موسى من حديث عون بن أبي جُحَيْفَةَ، عن أبيه قال: أكلتُ ثريداً بلحم سمين، فأتيتُ النبيَّ ﷺ وأنا أتَجشَّأ[٤]، فقال: «اكْفُفْ عليك من جُشائِك أبا جُحَيفةَ، فإنَّ أكثرَ الناسِ شِبَعاً في الدنيا أطولُهم جوعاً يومَ القيامةِ». فما أكلَ أبو جُحيفة بملءِ بَطْنِه حتى فارقَ الدنيا، وكان إذا تغدَّى لا يتَعشى، وإذا تعشَّى لا يتغدَّى[٥].

قلتُ: وقد يكونُ هذا معنَى قولِه عليه الصلاة والسلام: «المؤمنُ يأكلُ في مِعًى واحد» أي: التامُّ الإيمان؛ لأنَّ مَن حَسُنَ إسلامُه وكَمَلَ إيمانُه كأبي جُحيفة تفكَّرَ فيما يصيرُ إليه مِن أمرِ الموت وما بعدَه، فيمنعُهُ الخوفُ والإشفاقُ مِن تلك الأهوال مِن استيفاءِ شهواته، والله أعلم.

---

(١) في (ظ): وللشرب.

(٢) الحديث (٢٠٢٠)، وهو في مسند أحمد (٤٥٣٧).

(٣) بعدها في (خ) و(د) و(ز) و(م): عليه، والمثبت من (ظ).

(٤) في (خ) و(د): أتجشى، ولم تجوَّد في (ظ)، والمثبت من (ز)، وهو الموافق للمصادر.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٢٤)، والبيهقي في الشعب (٥٦٤٤) من طريق أسد بن موسى، وأخرجه ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٥٣٧، وفي إسناده الوليد بن عمرو بن ساج، قال ابن عدي: مع ضعفه يُكتَب حديثه. وأخرج المرفوع منه ـ دون ذكر أبي جُحيفة ـ الترمذي (٢٤٧٨)، وابن ماجه (٣٣٥٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال ابن زيد: معنى «ولا تُسْرِفُوا»: لا تأكلُوا حراماً[(١)]. وقيل: «مِنَ السَّرَفِ أنْ تأكلَ كلَّ ما اشتَهَيْتَ»، رواه أنسُ بن مالك عن النبيِّ ﷺ، خرَّجه ابنُ ماجه في «سننه»[(٢)]. وقيل: مِن الإسرافِ الأكلُ بعدَ الشِّبَع، وكلُّ ذلك محظورٌ[(٣)]. وقال لقمان لابنِه: يا بُنيَّ، لا تأكُلْ شِبَعاً فوقَ شِبَع، فإنَّكَ إنْ تَنبِذْهُ للكلبِ خيرٌ مِن أنْ تأكلَهُ[(٤)]. وسألَ سَمُرةُ بن جُنْدُب عن ابنه ما فعلَ. قالوا: بَشِمَ البارحةَ، قال: بَشِمَ! فقالوا: نعم، قال: أمَا إنَّه لو ماتَ ما صلَّيتُ عليه[(٥)]. وقيل: إنَّ العربَ في الجاهليةِ كانوا لا يأكلون دَسماً في أيَّام حجِّهم، ويكتفونَ باليسيرِ مِن الطعام، ويطوفون عُراةً، فقيل لهم: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أي: لا تُسرِفوا في تحريمِ ما لم يُحرَّمْ عليكم[(٦)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ بيَّن أنَّهم حَرَّموا مِن تلقاءِ أنفسِهم ما لم يُحرِّمْه الله عليهم. والزينةُ هنا: المَلْبَسُ الحسَنُ؛ إذا قدَرَ عليه صاحبُه، وقيل:

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ١٥٦.

(٢) الحديث (٣٣٥٢)، وفي إسناده نوح بن ذكوان، قال فيه أبو حاتم: ليس بشيء وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً. ميزان الاعتدال ٤/ ٢٧٧.

(٣) أحكام القرآن للكيا ٣/ ١٣٨.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٩٥٣٩)، وأحمد بن حنبل في الزهد ص٩٧، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٩١) و(٥٦٩٨) عن الحسن.

(٥) أخرجه أحمد في الزهد ص٢٤٨، وفي الورع ص١٠٢، والبغوي في الجعديات (٣٢٢١). والبَشَم: التُّخمة عن الدسم. النهاية (بشم).

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ١٥٥ عن السدي.

جميعُ الثياب، كما رُويَ عن عمر: إذا وسَّع الله عليكم فأوسِعُوا، وقد تقدَّم[١].

ورُوي عن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب شيخ مالك[٢] ﷺ أنَّه كان يلبَسُ كِساءَ خَزٍّ بخمسين ديناراً، يلبَسُه في الشتاء، فإذا كان في الصيف تصدَّقَ به، أو باعَهُ، فتصدَّقَ بثمنهِ، وكان يلبَسُ في الصيف ثوبينِ مِن مَتاعِ مِصرَ مُمَشَّقَيْن، ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾[٣].

الثانية: وإذا كان هذا فقد دلَّت الآيةُ على لباسِ الرفيع مِن الثياب، والتجمُّلِ بها في الجُمَع والأعياد، وعند لقاءِ الناسِ ومزاوَرةِ الإخوان، قال أبو العالِية: كان المسلمون إذا تزاوَروا تجمَّلوا[٤]، وفي «صحيح» مسلم مِن حديث عمر بن الخطاب أنَّه رأى حُلَّةَ سِيَرَاءَ تُباع عند بابِ المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريتَها ليومِ الجمعة وللوفودِ إذا قَدِموا عليك؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّما يَلبَسُ هذا مَن لا خَلاقَ له في الآخرَة»[٥]، فما أنكرَ عليه ذِكْرَ التجمُّل، وإنَّما أنكرَ عليه كونَها سِيَرَاءَ، وقد اشترى تميمٌ الدَّاريّ حُلَّةً بألفِ درهم كان يُصلِّي فيها، وكان مالك بن أنس[٦] يَلبَسُ الثيابَ العدَنيَّةَ الجيادَ، وكان ثوبُ أحمد بن حنبل يُشترَى بنحوِ الدينار.

---

(١) ٧/ ١٩١.

(٢) في هذا الكلام نظر فهو من شيوخ أشياخ مالك فقد ولد الإمام مالك سنة (٩٣هـ) كما في السير ٨/ ٤٩، وتوفي الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ (وهو الملقب بزين العابدين) في هذه السنة، وقيل: (٩٤هـ)، وقيل: (٩٢هـ)، وقيل: (١٠٠)، كما في التمهيد ٩/ ١٥٨، والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٥/ ٢١٨، وابن عبد البر في التمهيد ٩/ ١٥٨ - ١٥٩. وقوله: ممشقين: المَشْق: المَغرة، وهو صبغ أحمر، وثوب ممشوق وممشَّق: مصبوغ بالمشق. اللسان (مشق). ووقع في الطبقات: أشمونيين بدل: ممشقين.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٧/ ١١٥، والبخاري في الأدب المفرد (٣٤٨/ ١).

(٥) صحيح مسلم (٢٠٦٨)، وأخرجه أحمد (٤٧١٣)، والبخاري (٨٨٦)، وقوله: حلة سِيَراء، أي: حلة حرير. النهاية ٢/ ٤٣٣.

(٦) في النسخ: مالك بن دينار، والمثبت من تلبيس إبليس ص١٩٣ (والكلام منه)، وطبقات ابن سعد (القسم المتمم) ١/ ٤٣٤، والسير ٨/ ٧٠.

أين هذا ممَّن يَرغبُ عنه ويُؤثِرُ لباسَ الخَشِنِ مِن الكَتَّانِ والصوفِ مِن الثياب، ويقول: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؟! هيهات! أتُرى مَن ذكرنا تركوا لباسَ التقوى، لا والله! بل هم أهلُ التقوى وأُولو المعرفةِ والنُّهَى، وغيرُهم أهلُ دَعْوَى، وقلوبُهم خاليةٌ مِن التقوى.

قال خالد بن شَوْذَب[1]: شَهِدْتُ الحسنَ وأتاهُ فَرْقَد، فأخذَه الحسنُ بكسائِه فمدَّه إليه وقال: يا فُرَيْقِدُ، يا ابنَ أُمِّ فُريقد، إنَّ البِرَّ ليس في هذا الكساء، إنَّما البِرُّ ما وَقَرَ في الصدرِ وصدَّقَه العمَلُ[2].

ودخَل أبو محمد ابن أخي معروف الكرخيّ على أبي الحسنِ بن بشار[3] وعليه جبَّةُ صوف، فقال له أبو الحسن: يا أبا محمد، صوَّفْتَ قلبَكَ أو جسمَك؟ صَوِّفْ قلبَكَ، والبَسِ القُوهِيَّ على القُوهِيِّ[4].

وقال رجلٌ للشِّبْليِّ: قد ورَدَ جماعةٌ مِن أصحابِكَ وهم في الجامع، فمضَى فرأى عليهم المُرقَّعاتِ والفُوَط، فأنشأ يقول:

أمَّا الخيامُ فإنَّها كخيامِهِم ... وأرَى نساءَ الحيِّ غيرَ نِسائِها[5]

قال أبو الفرج ابن الجوزيّ رحمه الله[6]: وأنا أكرَهُ لُبْسَ الفُوَطِ والمُرقَّعات لأربعة أوجه: أحدها: أنَّه ليس مِن لُبْسِ السَّلَف، وإنَّما كانوا يُرقِّعون ضرورةً. والثاني: أنَّه يتضمَّنُ ادِّعاءَ الفقر، وقد أُمِرَ الإنسانُ أنْ يُظهِرَ نعمةَ[7] الله عليه.

---

(١) أبو عبد الرحمن الجشمي البصري، الجرح والتعديل ٣/ ٣٣٦ .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٢٧ ، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص١٨٩ .

(٣) في (د) و(ز): يسار، والكلام في تلبيس إبليس ص١٩٢ . وأبو الحسن بن بشار هو علي بن محمد بن بشار الزاهد، توفي سنة (٣١٣هـ). طبقات الحنابلة ٢/ ٥٧ ، والقصة فيه.

(٤) القوهي: ضرب من الثياب بيض، فارسي منسوبة إلى قوهستان. اللسان (قوه).

(٥) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص١٨٤ . والبيت لأبي الحسن الفالي، كما في معجم الأدباء ١٢/ ٢٢٧ .

(٦) في تلبيس إبليس ص١٨٤ .

(٧) في (د) و(ز) و(م): أثر نعم، والمثبت من (خ) و(ظ)، وتلبيس إبليس.

والثالث: إظهارُ التزهُّد، وقد أُمِرنا بسَتْرِه. والرابع: أنَّه تشبُّهٌ بهؤلاء المُتزحزِحين عن الشريعة، ومَن تشبَّهَ بقومٍ فهو منهم.

وقال الطبريُّ[1]: ولقد أخطأ مَن آثرَ لباسَ الشعر والصوف على لباس القُطن والكَتَّان مع وُجود السبيلِ[2] إليه مِن حِلِّه، ومَن أكلَ البُقولَ والعدسَ واختارَهُ على خبز البُرِّ، ومَن تركَ أكلَ اللَّحم خوفاً مِن عارِض شهوةِ النساء.

وسُئل بِشْر بن الحارث[3] عن لُبْسِ الصوف، فشقَّ عليه، وتبيَّنَتِ الكراهةُ في وجهه، ثم قال: لُبْسُ الخزِّ والمُعَصْفَرِ أحبُّ إليَّ مِن لُبْسِ الصوف في الأمصار.

وقال أبو الفرج: وقد كان السلَفُ يَلبَسون الثيابَ المتوسِّطة، لا المُترفِّعة ولا الدُّونَ، ويتخيَّرون أجودَها للجُمعة والعيد وللقاءِ الإخوان، ولم يكُنْ تخيُّرُ[4] الأجودِ عندَهم قبيحاً. وأمَّا اللباسُ الذي يُزرِي بصاحبه فإنَّه يتضمَّنُ إظهارَ الزهد وإظهارَ الفقر، وكأنَّه لسانُ شكوى مِن الله تعالى، ويُوجب احتقارَ اللَّابس، وكلُّ ذلك مكروهٌ مَنهِيٌّ عنه.

فإنْ قال قائلٌ: تجويدُ اللباس هَوَى النفس، وقد أُمِرنا بمجاهدتِها، وتَزيُّنٌ للخلق، وقد أُمِرنا أنْ تكونَ أفعالُنا لله لا للخلق.

فالجوابُ: أنَّه ليس كلُّ ما تهواهُ النفسُ يُذَمُّ، وليس كلُّ ما يُتَزَيَّنُ به للناس يُكره، وإنَّما يُنْهَى عن ذلك إذا كان الشرعُ قد نهَى عنه، أو على وجهِ الرِّياء في باب الدِّين، فإنَّ الإنسانَ يُحبُّ[5] أنْ يُرى جميلاً، وذلك حظٌّ للنفس لا يُلامُ فيه، ولهذا يُسرِّحُ

---

(١) نقله المصنف عنه بواسطة ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص١٩٣، وسلف ٦/ ٢٦٢.

(٢) في النسخ الخطية: النيل، والمثبت من (م) وتلبيس إبليس.

(٣) أبو نصر المروزي، البغدادي، المحدث، كان رأساً في الورع والإخلاص توفي سنة (٢٢٧هـ). السير ١٠/ ٤٦٩.

(٤) في تلبيس إبليس ص١٩٣: ولم يكن غير.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ) و(م) ومطبوع تلبيس إبليس ص١٩٥: يجب، والمثبت من (خ).

شعرَهُ، وينظرُ في المرآة ويُسوِّي عِمامتَهُ، ويَلبَسُ بِطانَة الثوب الخَشِنةَ إلى داخل، وظِهَارَتَهُ الحسنةَ إلى خارج، وليس في شيء مِن هذا ما يُكره ولا يُذَمُّ.

وقد رَوى مكحول عن عائشة قالت: كان نفرٌ مِن أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونَهُ على الباب، فخرَجَ يريدُهم، وفي الدار رَكْوةٌ فيها ماء، فجعَلَ ينظرُ في الماء ويُسوِّي لحيتَه وشعرَهُ، فقلتُ: يا رسولَ الله، وأنتَ تفعلُ هذا؟! قال: «نَعَمْ، إذا خرَجَ الرجلُ إلى إخوانِهِ؛ فَلْيُهَيِّئ مِن نفسِهِ، فإنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ»(١).

وفي «صحيح» مسلم: عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يدخُلُ الجنَّةَ مَنْ كان في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ»، فقال رجلٌ: إنَّ الرجلَ يُحِبُّ أنْ يكون ثوبُه حَسناً، ونعلُه حَسنةً، قال: «إنَّ الله جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس»(٢). والأحاديثُ في هذا المعنَى كثيرةٌ، تدلُّ كلُّها على النظافة وحُسْنِ الهيئة.

وقد رَوى محمد بن سعد: أخبرنا الفَضْل بن دُكَيْن قال: حدَّثنا مَنْدل، عن ثور، عن خالد بن مَعْدان قال: كان رسولُ الله ﷺ يسافرُ بالمُشْطِ والمرآةِ، والدُّهنِ والسواكِ والكُحل. وعن ابن جُريج: مُشطُ عاجٍ يَمتَشِطُ به.

قال ابن سعد: وأخبرنا قَبيصة بن عقبة قال: حدَّثنا سفيان، عن ربيع بن صَبيح، عن يزيدَ الرَّقاشيِّ، عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ دَهْنَ رأسِهِ ويُسرِّحُ

---

(١) قوله منه: «إن الله جميل يحب الجمال» صحيح، وسيأتي بعده. وأما باقي الحديث فقد أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٦٨٧ من طريق أيوب بن مدرك، وأخرجه في تلبيس إبليس ص١٩٥ من طريق العلاء بن كثير الدمشقي، كلاهما عن مكحول عن عائشة رضي الله عنها، به. وأيوب بن مدرك كذَّبه ابن معين، وقال أبو حاتم والنسائي: متروك، وقال ابن حبان: روى أيوب عن مكحول بنسخة موضوعة. ولم يَرَهُ. ميزان الاعتدال ١/ ٢٩٣ . والعلاء بن كثير الدمشقي، قال فيه البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: له عن مكحول نسخ عن الصحابة كلها غير محفوظة. ومكحول لم يدرك عائشة رضي الله عنها. ينظر تنزيه الشريعة ٢/ ٢٧٨ .

(٢) صحيح مسلم (٩١)، وأخرجه أحمد (٣٧٨٩) بنحوه. قال أبو العباس القرطبي في المفهم ١/ ٢٨٨-٢٨٩ : بطر الحق: إبطاله. وغمط الناس: احتقارهم واستصغارهم.

لحيتَهُ بالماء، أخبرنا يزيدُ بن هارون، حدَّثنا عبَّاد بن منصور، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت لرسولِ الله ﷺ مُكْحُلةٌ يَكْتَحِلُ بها عند النومِ ثلاثاً في كلِّ عين[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ الطيِّباتُ: اسمٌ عامٌّ لِمَا طابَ كَسْباً وطَعْماً. قال ابن عباس وقتادة: يعني بالطيِّباتِ مِن الرِّزق: ما حَرَّمَ أهلُ الجاهلية من البحائرِ والسوائبِ والوَصائِلِ والحَوامي[٢]. وقيل: هي كلُّ مُستلَذٍّ من الطعام[٣].

وقد اختُلفَ في تركِ الطيِّباتِ والإعراضِ عن اللَّذات، فقال قومٌ: ليس ذلك مِن القُرباتِ، والفِعلُ والتركُ يستوي في المباحات. وقال آخرون: ليس قُرْبةً في ذاتِهِ، وإنَّما هو سبيلٌ إلى الزهدِ في الدنيا، وقِصَرِ الأملِ فيها، وترك التكلُّفِ لأجلِها، وذلك مندوبٌ إليه، والمندوبُ قُربةٌ. وقال آخرون: ونُقِلَ عن عمر بن الخطاب ﷺ قولُه: لو شئنا لاتَّخذنا صِلاءً وصَلائقَ وصِنَاباً، ولكنِّي سمعتُ الله تعالى يَذُمُّ أقواماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[٤] [الأحقاف: ٢٠]، ويُروى: صَرائق، بالراء، وهما جميعاً الجَرادقُ. والصَّلائقُ؛ باللام: ما يُصْلَقُ مِن اللُّحومِ والبُقولِ. والصِّلاءُ بكسر الصادِ والمدِّ: الشِّواءُ. والصِّنابُ: الخردَلُ بالزبيب[٥].

وفرَّقَ آخرون بين حضورِ ذلك كلِّه بكُلْفَةٍ وبغيرِ كُلفة، قال أبو الحسن عليّ بن المفضَّل المقدسيّ[٦] شيخُ أشياخنا: وهو الصحيحُ إنْ شاءَ الله عزَّ وجلَّ، فإنَّه لم يُنقلْ

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٤٨٤ وخبر خالد بن معدان مرسل، وحديث أنس ﷺ أخرجه البيهقي في الشعب (٦٤٦٣)، والترمذي بنحوه في الشمائل (٣٢)، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد (٣٣١٨)، والترمذي (٢٠٤٨)، وابن ماجه (٣٤٩٩).

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ١٥٨، وسلف شرح هذه الألفاظ ٦/ ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٢١٩.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٥٧٩)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٤٩ بنحوه.

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٦٤، والفائق ٢/ ٢٩٦ و ٣١١. والصلائق تروى أيضاً: السلائق، بالسين. والجرادق: جمع جردقة: الرغيف، فارسية معرَّبة، اللسان (جرق).

(٦) ثم الإسكندراني، برع في المذهب المالكي، وتوفي سنة (٦١١هـ). السير ٢٢/ ٦٦.

عن النبيّ ﷺ أنَّه امتنعَ مِن طعامٍ لأجلِ طِيبِهِ قطُّ، بل كان يأكُلُ الحلوى والعسلَ، والبِطّيخَ والرُّطَبَ[١]، وإنَّما يَكرهُ التكلُّف؛ لِما فيه مِن التشاغُلِ بشهواتِ الدنيا عن مهمَّات الآخرة، والله تعالى أعلم.

قلت: وقد كَرِهَ بعضُ الصوفيَّةِ أكلَ الطيِّبات، واحتجَّ بقولِ عمر ﷺ: إيَّاكم واللَّحمَ، فإنْ له ضَرَاوَةً كضَرَاوَةِ الخمر[٢]. والجواب: أنَّ هذا مِن عمر قولٌ خرجَ على مَن خُشِيَ منه إيثارُ التنعُّمِ في الدنيا، والمُداوَمةُ على الشهوات، وشِفاءُ النفس من اللَّذات، ونِسيانُ الآخرةِ، والإقبالُ على الدنيا، ولذلك كان يكتبُ[٣] إلى عُمَّالِهِ: إيَّاكم والتنعمَ وزِيَّ أهلِ العَجَم، واخشَوْشِنوا[٤]، ولم يُرِدْ ﷺ تحريمَ شيءٍ أحلَّه الله، ولا تحظيرَ ما أباحَهُ الله تباركَ اسمُه، وقولُ الله عزَّ وجلَّ أَوْلى ما امتُثِلَ واعتُمِدَ عليه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «سيِّدُ إدامِ الدنيا والآخرةِ اللَّحمُ»[٥]، وقد روى هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ كان يأكلُ الطِّبِّيخَ بالرُّطَبِ، ويقول: «يَكسِرُ حَرُّ هذا بَرْدَ هذا، وبَرْدُ هذا حَرَّ هذا»[٦]، والطِّبِّيخُ لغةٌ في البِطِّيخ، وهو مِن المقلوب، وقد مضى

---

(١) أخرج أحمد (٢٤٣١٦)، والبخاري (٥٦١٤)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحبُّ الحَلْواء والعسل... وسيأتي حديث أكله ﷺ البطيخ والرطب قريباً.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٥ .

(٣) بعدها في (د) و(م): عمر.

(٤) أخرجه أحمد (٩٢)، ومسلم (٢٠٦٩): (١٢)، وابن حبان (٥٤٥٤)، ولفظ: واخشوشنوا، عند ابن حبان وحده. وقد سلف نحوه ٥/ ٥٦ .

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٤٧٣) من حديث بُريدة ﷺ، وفي إسناده سعيد بن عنبسة الرازي، كذَّبه ابن معين وابن الجنيد، كما في لسان الميزان ٣/ ٣٩ . وأخرجه ابن ماجه (٣٣٠٥) من حديث أبي الدرداء ﷺ بلفظ: «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم»، وفيه سليمان بن عطاء الجزري، وهو منكر الحديث، فيما قاله الحافظ ابن حجر في تحرير التقريب ٢/ ٧٤ . وينظر المقاصد الحسنة ص٢٤٤ .

(٦) أخرجه أبو داود (٣٨٣٦)، وأخرجه الترمذي (١٨٤٣) مختصراً دون الطرف القولي منه. وفي الباب عن عبد الله بن جعفر ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ يأكل الرُّطب بالقِثَّاء. أخرجه أحمد (١٧٤١)، والبخاري (٥٤٤٧)، ومسلم (٢٠٤٣)، وينظر فتح الباري ٩/ ٥٧٣ .

في «المائدة»[١] الردُّ على مَن آثَرَ أكْلَ الخَشِنِ من الطعام، وهذه الآيةُ تردُّ عليه وغيرُها، والحمد لله.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: بحقِّها مِن توحيدِ الله تعالى والتصديقِ له، فإنَّ الله يُنعِم ويَرزُقُ، فإنْ وحَّدَه المنعَمُ عليه وصدَّقَه، فقد قامَ بحقِّ النعمةِ، وإنْ كَفَرَ فقد أمكَنَ الشيطانَ مِن نفسه. وفي صحيح الحديث: «لا أحدَ أصبرُ على أذًى مِن الله، يُعافِيهم ويَرزقُهم، وهم يَدْعونَ له الصاحبةَ والولدَ»[٢].

وتَمَّ الكلامُ على[٣]: «الحياةِ الدُّنيا». ثم قال: «خَالِصَةٌ» بالرفع، وهي قراءةُ ابن عباس[٤] ونافع[٥].

﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ القيامة﴾ أي: يخلصُ الله الطيِّباتِ في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيءٌ كما كان لهم في الدنيا مِن الاشتراكِ فيها. ومَجازُ الآية: قل: هي للذين آمنوا مُشتركَةٌ في الدنيا مع غيرِهم، وهي للمؤمنين خالصةٌ يوم القيامة[٦]، فـ«خالصةٌ» مستأنفٌ على خبر مبتدأ مضمر. وهذا قولُ ابن عباس والضحَّاك والحسن وقتادة والسدِّي وابن جُريج، وابن زيد[٧].

وقيل: المعنى: إنَّ هذه الطيِّباتِ المَوجوداتِ في الدنيا هي خالِصَةٌ يومَ القيامةِ

---

(١) ٨/١١٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧٢ - ٧٧٣ . والحديث أخرجه أحمد (١٩٥٨٩)، والبخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وليس عندهم قوله: «الصاحبة». وهي عند عبد الرزاق في المصنف (٢٠٢٥٠).

(٣) في (خ) و(د) و(ز): في، بدل: على، وليس فيها قوله: وتم الكلام. والمثبت من (ظ) و(م).

(٤) في (د) و(ز): ابن عامر، وهو خطأ، وفي (خ): أُبَيّ، والمثبت من (ظ) و(م)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٣ ، والكلام فيه بنحوه.

(٥) السبعة ص٢٨٠ ، والتيسير ص١٠٩ .

(٦) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٧ .

(٧) أخرجه الطبري ١٠/ ١٥٩ - ١٦١ .

للمؤمنينَ في الدنيا، وخُلوصُها أنَّهم لا يُعاقَبون عليها ولا يُعذَّبون، فقوله: «في الحياة الدُّنيا» متعلِّقٌ بـ «آمَنُوا»، وإلى هذا يُشيرُ تفسير سعيد بنُ جبير[١].

وقرأ الباقونَ بالنصبِ على الحال والقَطْع؛ لأنَّ الكلامَ قد تمَّ دونه، ولا يجوزُ الوقفُ على هذه القراءة على «الدُّنيا»؛ لأنَّ ما بعدَه متعلِّقٌ بقوله: «لِلَّذينَ آمَنُوا» حالاً منه، بتقديرِ: قُلْ هي ثابتَةٌ للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حالِ خُلوصِها لهم يومَ القيامة، قاله أبو عليٍّ. وخبرُ الابتداءِ: «لِلَّذين آمَنُوا»، والعامِلُ في الحال ما في اللَّام من معنى الفعلِ في قوله: «لِلَّذين»[٢]، واختارَ سيبويهِ النصبَ لتقدُّمِ الظرف[٣].

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: كالذي فصَّلْتُ لكم الحلالَ والحرامَ؛ أُفصِّلُ لكم ما تحتاجون إليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

فيه مسألة واحدة:

قال الكلبيُّ: لمَّا لَبِسَ المسلمون الثيابَ وطافوا بالبيت عيَّرهُم المشركون، فنزلَت هذه الآيةُ، والفواحشُ: الأعمالُ المُفرِطَةُ في القُبْح، ما ظهرَ منها وما بَطَن: روى رَوْحُ بن عُبادة، عن زكريا بن إسحاق، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد قال: «ما ظَهَرَ منها»: نِكاحُ الأُمَّهات في الجاهليةِ، «وما بَطَنَ»: الزنى. وقال قتادة: سرُّها وعلانيتُها[٤]. وهذا فيه نظرٌ؛ فإنَّه ذَكَرَ الإثْمَ والبغيَ، فدَلَّ أنَّ المراد بالفواحش بعضُها، وإذا كان كذلك فالظاهِرُ من الفواحش الزنى[٥]، والله أعلم.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٣ - ٣٩٤ ، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ١٠/ ١٦٢ .

(٢) الحجة للقراء السبعة ٤/ ١٥ - ١٧ ، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٣ ، وينظر الكتاب ٢/ ٩٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٨ - ٢٩ ، وأخرج الطبري قولي مجاهد وقتادة ٩/ ٥١٨ و ٥١٦ و ٦٦٠ و ٦٦١ .

(٥) أحكام القرآن للكيا ٣/ ١٣٩ .

﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾ قال الحسنُ: الخمرُ[١]، قال الشاعر:

شَرِبْتُ الإثْمَ حتى ضلَّ عقلي   كذاكَ الإثْمُ تَذْهبُ بالعُقولِ[٢]

وقال آخرُ:

نَشْربُ الإثْمَ بالصُّوَاعِ جِهارا   وتَرى المُتْكَ[٣] بينَنا مُسْتَعارَا

﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾: الظُّلم وتَجاوزُ الحدِّ فيه، وقد تقدَّمَ[٤]. وقال ثعلبٌ: البغيُ أنْ يَقَع الرجلُ في الرجل فيتكَّلمَ فيه، ويبغيَ عليه بغيرِ الحقِّ، إلَّا أنْ ينتصِرَ منه بحقٍّ. وأخرجَ الإثمَ والبغيَ مِن الفواحش، وهما منه، لِعظمِهما وفُحشهما، فنصَّ على ذِكرِهما تأكيداً لأمرِهما وقَصْداً للزَّجْرِ عنهما. وكذا: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ﴾، ﴿وَأَن تَقُولُواْ﴾، وهما في موضع نَصْب عطفاً على ما قَبْلُ[٥].

وقد أنكرَ جماعةٌ أنْ يكون الإثمُ بمعنى الخمر، قال الفرَّاء[٦]: الإثمُ: ما دون الحدِّ، و[البغي:] الاستطالةُ على الناسِ. قال النحاسُ: فأمَّا أنْ يكونَ الإثمُ الخمرَ، فلا يُعرَفُ ذلك، وحقيقةُ الإثمِ أنَّه جميعُ المعاصي، كما قال الشاعر:

إنِّي وَجَدتُ الأمرَ أرشَدُهُ   تَقْوَى الإلهِ وشَرُّهُ الإثْمُ[٧]

قلت: وأنكرَهُ ابن العربيِّ أيضاً وقال: ولا حُجَّةَ في البيت؛ لأنَّه لو قال: شَرِبْتُ

---

(١) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٩١ ، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٥ : وهذا قول مردود؛ لأن هذه السورة مكية، ولم تُعن الشريعة بتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحد.

(٢) سلف ٣/ ٤٤٦ .

(٣) في (م): المسك، والبيت في تهذيب اللغة ١٥/ ١٦١ ، وزاد المسير ٣/ ١٩١ دون ذكر قائله. قال الأزهري: المُتْك: الأترجّ، أي: نتعاوره بأيدينا، نشمّه.

(٤) ٣/ ٤٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٤ .

(٦) في معاني القرآن ١/ ٣٧٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٣ ، وما سيرد بين حاصرتين منهما.

(٧) قائله المُخَبَّل السعدي، وهو في المفضليات ص١١٣ ، ومنتهى الطلب ١/ ٣٧٦ .

الذَّنبَ، أو شَرِبتُ الوِزْرَ؛ لكان كذلك، ولم يُوجِبْ قولُهُ أنْ يكون الذنبُ والوِزْرُ اسماً مِن أسماءِ الخمر، كذلك الإثمُ، والذي أوجبَ التكلُّمَ بمثل هذا الجهلُ باللُّغةِ وبطريقِ الأدلَّةِ في المعاني[١].

قلت: وقد ذكرناه عن الحسنِ، وقال الجوهريّ في «الصحاح»[٢]: وقد يُسمَّى الخمرُ إثماً، وأنشدَ: شَرِبتُ الإثمَ، البيتَ

وأنشدَهُ الهرويُّ في «غَرِيبَيْه» على أنَّ الخمرَ الإثمُ. فلا يَبعدُ أنْ يكون الإثمُ يَقَعُ على جميعِ المعاصي، وعلى الخمرِ أيضاً لُغَةً، فلا تَناقُضَ. والبغي: التجاوُزُ في الظلْمِ، وقيل: الفسادُ.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

فيه مسألة واحدة:

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: وَقْتٌ مُؤَقَّتٌ .﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: الوقتُ المعلومُ عند الله عزَّ وجلَّ. وقرأ ابن سيرين: جاءَ آجالُهم[٣]، بالجمع.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ساعةً ولا أقلَّ من ساعة، إلَّا أنَّ الساعةَ خُصَّتْ بالذِّكْر، لأنَّها أقلُّ أسماءِ الأوقات، وهي ظرفُ زمانٍ[٤]، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، فدَلَّ بهذا على أنَّ المقتولَ إنَّما يُقتَلُ بأجلِهِ[٥]، وأَجَلُ الموتِ هو وقتُ الموت، كما أنَّ أجلَ الدَّين هو وقتُ حُلولِهِ، وكلُّ شيءٍ وُقِّتَ به شيءٌ فهو أجلٌ له، وأجلُ الإنسان هو الوقتُ الذي

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧٤ .

(٢) مادة (أثم).

(٣) القراءات الشاذة ص٤٤ ، والمحتسب ١/ ٢٤٦ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٤ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٤ .

يَعلَمُ اللهُ أنَّه يَموتُ الحيُّ فيه لا محالةَ، وهو وقتٌ لا يَجوزُ تأخِيرُ مَوْتِهِ عنه، لا مِن حيث إنَّه ليس مقدُوراً تأخِيرُهُ.

وقال كثيرٌ مِن المعتزلة ـ إلَّا مَن شذَّ منهم ـ: إنَّ المقتولَ ماتَ بغيرِ أجلهِ الذي ضُرِبَ له، وأنَّه لو لم يُقتَلْ لَحيِيَ.

وهذا غَلَطٌ؛ لأنَّ المقتولَ لم يَمُتْ من أجلِ قَتْلِ غيرهِ له، بل من أجل ما فعلَهُ اللهُ من إزهاق نفسِه عند الضربِ له[1].

فإنْ قيل: فإنْ ماتَ بأجلِهِ؛ فلِمَ تقتلُون ضارِبَهُ وتقتصُّون منه؟ قيل له: نقتلُهُ لِتعدِّيه وتصَرُّفِهِ فيما ليس له أنْ يتصَرَّفَ فيه، لا لموتِهِ وخروجِ الروح، إذْ ليس ذلك مِن فعلِهِ، ولو تُرِكَ الناسُ والتعدِّي مِن غير قِصاص، لأدَّى ذلك إلى الفسادِ ودَمارِ العباد، وهذا واضحٌ.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ﴾ شرطٌ، ودخلَتِ النونُ توكيداً لدخولِ «ما»[2]، وقيل: «ما» صلةٌ، أي: إنْ يأتِكُم[3]، أخبرَ أنَّه يُرسِلُ إليهم الرسلَ منهم؛ لتكون إجابتُهم أقرب. والقَصَصُ: اتباعُ الحديثِ بعضِهِ بعضاً.

﴿ءَايَٰتِي﴾ أي: فرائِضِي وأحكامي[4].

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ شرطٌ، وما بعدَهُ جوابُه، وهو جوابُ الأوَّل، أي: وأصلح

---

(١) تمهيد الأوائل للباقلاني ١/ ٣٧٤ - ٣٧٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٤.

(٣) في النسخ الخطية: يأتيكم، والمثبت من (م).

(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٥٨، ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

منكم ما بيني وبينه. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ المؤمنين يوم القيامةِ لا يخافون ولا يحزنون، ولا يلحقُهم رُعْبٌ ولا فَزَعٌ[١]، وقيل: قد يلحقُهم أهوالُ يوم القيامة، ولكنْ مآلُهم الأمنُ[٢]. وقيل: جوابُ «إمّا يأتِيَنَّكُمْ» ما دلَّ عليه الكلامُ، أي: فأطيعُوهم، فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ[٣]، والقولُ الأوَّلُ قولُ الزجّاج[٤].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المعنى: أيُّ ظلم أشنعُ[٥] من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بآياته؟. ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي: ما كُتب لهم من رزق وعُمر وعمل. عن ابن زيد. ابنُ جبير: من شقاء وسعادة. ابنُ عباس: من خير وشرٍّ. الحسنُ وأبو صالح: من العذاب بقَدْر كفرهم[٦].

واختيارُ الطبري أن يكون المعنى: ما كُتب لهم، أي: ما قُدِّر لهم من خير وشر، ورزق وعمل وأجَل، على ما تقدم عن ابن زيد وابن عباس وابن جبير. قال: ألا ترى أنه أتْبَع ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾[٧] يعني رُسلَ ملَك الموت.

وقيل: «الكتاب» هنا القرآنُ؛ لأنَّ عذاب الكفار مذكورٌ فيه. وقيل: «الكتاب» اللوح المحفوظ[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٤ .

(٢) تفسير الرازي ١٤/ ٦٩ .

(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥١٦ .

(٤) معاني القرآن له ٢/ ٣٣٤ .

(٥) في (خ): أي ذنب أشنع، وفي (د): أي أظلم أشنع، وفي (ظ): أي شيء أظلم وأشنع، والمثبت من (ز) و(م).

(٦) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/ ١٦٨ و ١٦٩ و ١٧٣ و ١٧٥ .

(٧) تفسير الطبري ١٠/ ١٧٥ .

(٨) زاد المسير ٣/ ١٩٣ .

ذكر الحسن بنُ علي الحُلْواني[١] قال: أمْلَى عليَّ عليُّ بنُ المَدِيْني قال: سألت عبد الرحمن بنَ مهدي عن القَدَر، فقال لي: كلُّ شيء بقَدَر، والطاعة والمعصية بقَدَر. قال[٢]: وقد أعظم الفِرْيَةَ مَنْ قال: إنَّ المعاصي ليست بقَدَر. قال علي: وقال لي عبد الرحمن بنُ مهدي: العلم والقَدَر والكتاب سواءٌ. ثم عرضتُ كلام عبد الرحمن ابن مهدي على يحيى بن سعيد، فقال: لم يبقَ بعد هذا قليلٌ ولا كثيرٌ[٣].

وروى يحيى بن معين: حدثنا مروان الفَزَاري، حدثنا إسماعيل بنُ سُمَيْع، عن بُكير الطويل، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال: قومٌ يعملون أعمالاً لابدَّ لهم من أنْ يعملوها[٤].

و«حتى» ليست غايةً، بل هي ابتداءُ خبرٍ عنهم. قال الخليل وسيبويه: «حتى» و«إمّا» و«إلا» لا يُمَلْنَ؛ لأنهنَّ حروفٌ، فَفُرق بينها وبين الأسماء نحو: حُبْلَى وسَكْرَى.

قال الزجَّاج[٥]: تُكتب حتى بالياء؛ لأنها أشبهت سَكْرى[٦]، ولو كُتبت «إلا» بالياء لأشبهت إلى. ولم تُكتب «إمّا» بالياء؛ لأنها «إنْ» ضُمَّت إليها «ما».

﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سؤال توبيخ. ومعنى «تَدْعُونَ»: تعبدون. ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: بَطَلوا وذهبوا. قيل: يكون هذا في الآخرة. ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي: أقرُّوا بالكُفر على أنفسهم[٧].

---

(١) أبو محمد الهُذَلي، المجاور بمكة، الحافظ، الصدوق، توفي سنة (٢٤٢هـ). السير ١١/ ٣٩٨ .

(٢) لفظ: قال، من (خ) و(ز) و(ظ).

(٣) التمهيد ٦/ ٦٧ ، ويحيى بن سعيد، هو القطان.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٤٣٩) من طريق إسماعيل بن سميع، به. وأخرجه الطبري ١٠/ ١٧١ من طريق مروان الفزاري، لكن من قول مجاهد.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٥ ، ونقله المصنف عنه، مع ما قبله بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٥ وينظر كتاب سيبويه ٤/ ١٣٥ .

(٦) يعني لأنها على أربعة أحرف، كما قال الزجاج.

(٧) الوسيط ٢/ ٣٦٦ ، وزاد المسير ٣/ ١٩٤ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ أي: مع أُمم، فـ «في» بمعنى مع. وهذا لا يمتنع؛ لأنَّ قولك: زيدٌ في القوم، أي: مع القوم. وقيل: هي على بابها[١]، أي: أُدخلوا في جملتهم. والقائل قيل: هو الله عزَّ وجلَّ، أي: قال الله أُدخلوا. وقيل: هو مالكٌ خازنُ النار[٢].

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي: التي سبقَتها إلى النار، وهي أختُها في الدِّيْن والمِلَّة[٣]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾ أي: اجتمعوا.

وقرأ الأعمش: «تداركوا» وهو الأصل، ثم وقع الإدغام، فاحتِيْج إلى ألف الوصل. وحكاها المهدوي عن ابن مسعود[٤].

النحاس: وقرأ ابن مسعود: «حتى إذا أدْرَكوا» أي: أدرك بعضهم بعضاً[٥]. وعِصْمَةُ[٦] عن أبي عمرو: «حتى إذا ادَّاركوا» بإثبات الألف[٧] على الجمع بين

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٢ ، وينظر التصاريف ليحيى بن سلام ص٢٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٤/ ٧٢ .

(٣) الوسيط ٢/ ٣٦٦ ، وزاد المسير ٣/ ١٩٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٥ ، والمحتسب ١/ ٢٤٧ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٩ .

(٥) إعراب القرآن ٢/ ١٢٥ ، وفيه مجاهد، بدل: ابن مسعود. ولم نقف على من نسبها لابن مسعود ﷺ.

(٦) عصمة بن عروة، أبو نجيح الفقيمي البصري، روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء وعاصم بن أبي النجود. غاية النهاية ١/ ٥١٢ .

(٧) يعني ألف «إذا»، ونسب ابن جني في المحتسب ١/ ٢٤٧ هذه القراءةَ لمجاهد وحُميد ويحيى وإبراهيم. وقراءة أبي عمرو المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

الساكنين. وحُكي: هذان عبدا الله. و: له ثلثا المال. وعن أبي عمرو أيضاً: «إذا إدَّاركوا» بقطع ألف الوصل[١]؛ فكأنَّه سكت على «إذا» للتذكُّر، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمُبتدِئ بها. وقد جاء في الشعر قَطْعُ ألف الوصل نحو قوله:

يا نفسُ صبراً كلُّ حيٍّ لاقِ ... وكلُّ إثنينِ إلى افتراقِ[٢]

وعن مجاهد وحُميد بن قيس: «حتى إذَ ادَّركوا» بحذف ألف «إذا» لالتقاء الساكنين، وحَذْفِ الألف التي بعد الدال[٣]. «جَمِيعاً» نصب على الحال.

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي: آخرهم دخولاً، وهم الأتباع، لأُوْلاهم وهم القادة: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾[٤]. فاللام في «لأُوْلاهم» لام أجْل؛ لأنهم لم يخاطِبوا أُوْلاهم، ولكنْ قالوا في حقِّ أُوْلاهم: ربَّنا هؤلاء أضلُّونا[٥].

والضِّعف: المِثْلُ الزائد على مِثْله مرةً أو مرات. وعن ابن مسعود أنَّ الضِّعف هاهنا الأفاعي والحيات[٦]. ونظيرُ هذه الآية: ﴿ربَّنا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ والْعَنْهُمْ لَعْنًا كثيرًا﴾[٧] [الأحزاب: ٦٨]. وهناك يأتي ذِكْر الضِّعف بأشبعَ من هذا، وما يترتب عليه من الأحكام، إنْ شاء الله تعالى.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: للتابع والمتبوع[٨]. ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ على قراءة مَنْ قرأ

(١) المحتسب ١/ ٢٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٩.

(٢) المحتسب ١/ ٢٤٧ - ٢٤٨، والبيت فيه وفي الخصائص ٢/ ٤٧٥ دون نسبة.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٤.

(٤) الوسيط ٢/ ٣٦٦.

(٥) تفسير الرازي ١٤/ ٧٣، وينظر الكشاف ٢/ ٧٨.

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ١٧٩.

(٧) قرأ بها السبعة ما عدا عاصم فقرأ: «كبيراً»، وستأتي في موضعها.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٧، والوسيط ٢/ ٣٦٦.

بالياء[١]، أي: لا يعلم كلُّ فريق ما بالفريق الآخر، إذ لو علم بعضُ مَنْ في النار أنَّ عذابَ أحد فوق عذابه، لكان نوعَ سَلْوة له.

وقيل: المعنى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء، أي: ولكنْ لا تعلمون أيُّها المخاطبون ما يجدون من العذاب. ويجوز أنْ يكون المعنى: ولكنْ لا تعلمون يا أهلَ الدنيا مقدارَ ما هم فيه من العذاب[٢].

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فليس تستحقون تخفيفاً من العذاب ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[٣]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لأرواحهم. جاءتْ بذلك أخبارٌ صِحاحٌ ذكرناها في كتاب «التذكرة»[٤] منها حديث البَراء بن عازِب، وفيه في قَبْض روح الكافر قال: «ويَخرجُ منها[٥] ريحٌ كأنْتَنِ جِيْفة وُجدت على وجه الأرض، فيصعَدون بها، فلا يمرُّون على مَلأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الرُّوح الخبيثة. فيقولون: فلان بنُ فلان؛ بأقبحِ أسمائه التي كان يُسمَّى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيَستفتحون، فلا يُفتَح لهم». ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: «﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾» الآية[٦].

(١) هي قراءة عاصم في رواية شعبة، وقرأها الباقون بالتاء. السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١١٠ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٥ .

(٤) ص١١٩ .

(٥) في (خ) و(ز) و(ظ): معها.

(٦) قطعة من حديث البراء الطويل؛ أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، وفيه: «ما هذا الرُّوح الخبيث» بدل: «ما هذه الرُّوح الخبيثة».

وقيل: لا تُفتح لهم أبوابُ السماء إذا دَعَوا. قاله مجاهد والنخعي[١]. وقيل: المعنى: لا تُفتح لهم أبوابُ الجنة؛ لأنَّ الجنة في السماء[٢]. ودلَّ على ذلك قولُه: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، والجَمَلُ لا يَلِجُ، فلا يدخلونها البَتَّةَ، وهذا دليلٌ قطعيٌّ لا يجوز العفو عنهم، وعلى هذا أجمعَ المسلمون[٣] الذين لا يجوز عليهم الخطأ أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يغفِرُ لهم ولا لأحدٍ منهم.

قال القاضي أبو بكر بنُ الطَّيِّب[٤]: فإنْ قال قائل: كيف يكون هذا إجماعاً من الأمة، وقد زَعَم قومٌ من المتكلِّمين بأنَّ مُقلِّدةَ اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ليسوا في النار؟ قيل له: هؤلاء قومٌ أنكروا أنْ يكون المقلِّدُ كافراً؛ لِشُبهة دخلتْ عليهم، ولم يزعُموا أنَّ المقلِّد كافرٌ، وأنه مع ذلك ليس في النار، والعلم بأنَّ المقلِّدَ كافرٌ أو غير كافر طريقُه النظرُ دون التوقيف والخبر.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «لَا يُفْتَحُ» بالياء مضمومةً على تذكير الجمع. وقرأ الباقون بالتاء على تأنيث الجماعة[٥]، كما قال: ﴿مُفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] فأنَّث. ولمَّا كان التأنيثُ في الأبواب غيرَ حقيقي جاز تذكيرُ الجمع. وهي قراءةُ ابن عباس بالياء[٦].

وخفَّف أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ، على معنى أنَّ التخفيفَ يكون للقليل والكثير، والتشديد للتكثير والتكرير مرَّةً بعد مرَّة لا غير، والتشديد هنا أَوْلَى؛ لأنه على الكثير أدلُّ[٧].

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ١٨٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٧.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): إجماع المسلمين.

(٤) في تمهيد الأوائل ص٤٠٣.

(٥) مع التخفيف لأبي عمرو، والتشديد لنافع وابن كثير وابن عامر وعاصم. السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١١٠.

(٦) لم نقف على من نسبها لابن عباس، ونسبها النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٢٥ للأعمش.

(٧) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٥، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٦٢.

والجَمَلُ من الإبل. قال الفرَّاء[١]: الجَمَلُ زوجُ الناقة. وكذا قال عبد الله بن مسعود لمَّا سُئل عن الجمل، فقال: هو زوجُ الناقة![٢] كأنه استجهلَ مَنْ سأله عمَّا يعرفه الناس جميعاً[٣].

والجمع: جِمَالٌ وأجمال وجِمَالات وجَمَائل، وإنما يُسمَّى جملاً إذا أرْبَعَ[٤].

وفي قراءة عبد الله: «حتى يلِجَ الجَملُ الأصفر في سَمِّ الخِيَاط». ذكره أبو بكر الأنباري: حدَّثنا أبي، حدَّثنا نصر بنُ داودَ، حدَّثنا أبو عبيد، حدَّثنا حجَّاج، عن ابن جُريج، عن ابن كثير، عن مجاهد قال في قراءة عبد الله، فذكره[٥].

وقرأ ابن عباس: «الجُمَّل»[٦] بضمِّ الجيم وفَتْح الميم وتشديدها. وهو حَبْل السفينة الذي يُقال له: القَلْس، وهو حبال مجموعة[٧]، جمع جُملة؛ قالَه أحمدُ بن يحيى ثعلب[٨]. وقيل: الحبلُ الغليظُ مِن القُنَّبِ. وقيل: الحبلُ الذي يُصعَدُ به في النخل[٩].

ورُوِيَ عنه[١٠] أيضاً، وعن سعيد بن جُبير: «الجُمَل» بضمِّ الجيمِ وتخفيفِ الميم، قيل: هو القَلْسُ أيضاً والحبلُ، على ما ذكرنا آنفاً. ورُوِيَ عنه أيضاً: «الجُمُل» بضمَّتين جمعُ جَمَل؛ كأسَد وأُسُد، و«الجُمْل» مثل: أَسَد وأُسْد. وعن أبي السمَّال:

(١) في معاني القرآن ١/ ٣٧٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ١٨٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٥.

(٤) الصحاح (جمل).

(٥) المصاحف لابن الأنباري كما في الدر المنثور ٣/ ٨٤، وهو في فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٧٢.

(٦) القراءات الشاذة ص٤٣، والمحتسب ١/ ٢٤٩، وأخرجها الطبري ١٠/ ١٩٢.

(٧) الصحاح (جمل).

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٥ - ٣٦.

(٩) أخرجه الطبري ١٠/ ١٩٣ من قول عكرمة.

(١٠) يعني عن ابن عباس رضي الله عنهما. القراءات الشاذة ص٤٣، والمحتسب ١/ ٢٤٩.

«الجَمْل» بفتحِ الجيمِ وسكونِ الميم؛ تخفيفُ «جَمَل»[(١)].

وسَمُّ الخِيَاط: ثَقْبُ الإبرة، عن ابن عباس وغيره[(٢)]. وكلُّ ثَقْبٍ لطيفٍ في البدن يُسمَّى سَمًّا وسُمًّا، وجمعُه: سُمومٌ. وجمعُ السمِّ القاتل: سِمَام[(٣)]. وقرأ ابن سِيرين: «في سُمِّ» بضمِّ السين[(٤)]. والخِيَاط: ما يُخاط به، يقال: خِياطٌ ومِخْيَط، مثل: إزَارٍ ومِئْزَرٍ، وقِنَاعٍ ومِقْنَع[(٥)].

والمِهَادُ: الفِراش. و«غواشٍ» جمعُ غاشية، أي: نيرانٌ تَغشاهُم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني الكفَّار[(٦)]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ كلامٌ مُعترِضٌ، أي: والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ أولئك أصحابُ الجنَّةِ هم فيها خالدون[(٧)].

ومعنى ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾[(٨)] أي: إنَّه لم يُكلِّفْ أحداً مِن نفقاتِ الزوجاتِ إلَّا ما وَجَدَ وتمكَّنَ منه، دونَ ما لا تنالُهُ يدُه، ولم يُرِدْ إثباتَ الاستطاعةِ قبل الفعل، قاله ابن الطيب، نظيرُه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧][(٩)].

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٣، والمحتسب ١/ ٢٤٩، ويعني بالتخفيف إسكان الميم.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ١٩٦.

(٣) كذا قال، وكلاهما يجمع على سُموم وسِمام. ينظر الصحاح (سمم).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٣ لأبي السمّال.

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٩.

(٦) الكلام بنحوه في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٦ - ٣٧.

(٧) تفسير الرازي ١٤/ ٧٨.

(٨) في النسخ الخطية، وتمهيد الأوائل ص٣٢٨، والكلام منه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(٩) ومعنى الآية أن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيء لا يطاق، فلا تكلف نفس إلا طاقتها وما لا تحرج فيه ولا تضييق عليه. ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٠١، وتفسير البغوي ٢/ ١٦٠.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيما يُنعِمُ به على أهلِ الجنَّةِ نزعَ الغِلِّ مِن صدورِهم.

والنَّزْعُ: الاستخراجُ. والغِلُّ: الحِقدُ الكامِنُ في الصدر، والجمعُ: غِلالٌ[(١)]، أي: أذهبنا في الجنَّةِ ما كان في قلوبِهم مِن الغِلِّ في الدنيا، قال النبيُّ ﷺ: «الغِلُّ على بابِ الجنَّةِ كمَبارِكِ الإبلِ قد نزعَهُ الله مِن قلوبِ المؤمنين»[(٢)]. ورُوِيَ عن عليٍّ ﷺ أنَّه قال: أرجو أنْ أكونَ أنا وعثمانُ وطلحة والزبير مِن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[(٣)].

وقيل: نزعُ الغِلِّ في الجنَّةِ ألَّا يَحسُد بعضُهم بعضاً في تفاضُلِ منازلِهم[(٤)]. وقد قيل: إنَّ ذلك يكون عن شرابِ الجنَّة، ولهذا قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي: يُطهِّرُ الأوْضارَ من الصدور، على ما يأتي بيانُه في سورة الإنسان والزمر إن شاء الله تعالى[(٥)].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ أي: لهذا الثوابِ؛ بأنْ أرشدَنا وخلَقَ لنا الهدايةَ، وهذا ردٌّ على القَدَرِيَّة.

﴿وَمَا كُنَّا﴾ قراءةُ ابن عامر بإسقاطِ الواو، والباقون بإثباتها[(٦)]. ﴿لِنَهْتَدِيَ﴾ لامُ نفي[(٧)]. ﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ في موضعِ رفع.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٦ .

(٢) لم نقف عليه، ونقله المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠١ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٢٩ ، والطبري ١٠/ ١٩٩ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧ .

(٥) سورة الإنسان، الآية (٢١)، وسورة الزمر، الآية (٧٣).

(٦) السبعة ص٢٨٠ ، والتيسير ص١١٠ .

(٧) في النسخ الخطية و(م): كي، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٦ ، والكلام منه، ولام النفي: هي اللام التي تأتي بعد كان المنفية، ويسميها أكثرهم لام الجحود. قال ابن هشام في المغني ص٢٧٨ : قال النحاس: والصواب تسميتها لام النفي؛ لأن الجحد في اللغة إنكار ما تعرفه، لا مطلق الإنكار.

﴿وَنُودُوٓاْ﴾ أصلُه: نُودِيوا. ﴿أَن﴾ في موضعِ نصبٍ مخفَّفةٌ مِن الثقيلة، أي: بأنَّه ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾. وقد تكون تفسيراً لما نُودوا به؛ لأنَّ النداءَ قولٌ، فلا يكون لها موضعٌ، أي: قيل لهم: «تِلكُمُ الجَنَّةُ»؛ لأنَّهم وُعِدوا بها في الدنيا، أي: قيل لهم: تلكُمُ[1] الجنَّةُ التي وُعِدتم بها، أو يقال لهم ذلك قبل الدخولِ حين عايَنوها مِن بُعْدٍ[2]. وقيل: «تِلكُم» بمعنى هذه[3].

ومعنى ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: وَرِثتُم منازلَها بعمَلِكُم، ودخولكم إيَّاها برحمةِ الله وفضلِه، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٠]، وقال: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥].

وفي «صحيح» مسلم: «لن يُدخِلَ أحداً منكم عَمَلُهُ الجنَّةَ»، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟! قال: «ولا أنا، إلَّا أنْ يتغمَّدَنيَ اللهُ برحْمَةٍ منه وفَضْلٍ»[4]. وفي غيرِ الصحيحِ: ليس من كافر ولا مؤمن إلَّا وله في الجنَّة والنَّار منزلٌ، فإذا دخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ رُفِعَت الجنَّةُ لأهلِ النَّارِ، فنظروا إلى منازِلِهم فيها، فقيل لهم: هذه منازِلُكم لو عملتُم بطاعَةِ الله، ثم يقال: ياأهلَ الجنَّةِ، رِثُوهم بما كنتُمْ تعملون، فتُقْسَمُ بين أهلِ الجنَّةِ منازِلُهم[5].

قلت: وفي «صحيح» مسلم: «لا يموتُ رجلٌ مسلمٌ إلَّا أدخَلَ اللهُ مكانَه في النَّارِ يهوديًّا أو نصرانيًّا»[6]، فهذا أيضاً ميراثٌ، نَعَّم[7] بفضلِه مَن شاءَ، وعذَّبَ بعدلِه مَن

(١) في النسخ غير (ظ): هذه تلكم. والظاهر أن لفظة هذه، نسخة للفظة: تلكم، أُقحمت في النصّ.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٦، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٨.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٥٤٢.

(٤) صحيح مسلم (٢٨١٦) (٧٥)، وأخرجه أحمد (٧٥٨٧)، والبخاري (٥٦٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٠٢ من قول السدّي. وفي باب رؤية العبد مقعده من الجنة أو النار عند الموت عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند أحمد (١١٠٠٠) وينظر حديث أنس رضي الله عنه عند مسلم (٢٨٧٠).

(٦) صحيح مسلم (٢٧٦٧) (٥٠)، وأخرجه أحمد (١٩٤٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٧) في (ز) و(ظ): يعم.

شاءَ. وبالجملَةِ؛ فالجنَّة ومنازلُها لا تُنالُ إلَّا برحمتِهِ، فإذا دخلُوها بأعمالِهم فقد وَرِثوها برحمتِهِ، ودخلُوها برحمتِهِ، إذْ أعمالُهم رحمةٌ منه لهم وتفضُّلٌ عليهم. وقُرِئَ: «أُورِثْتُموها» مِن غيرِ إدغام، وقُرِئَ بإدغامِ الثاءِ في التاء[١].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هذا سؤالُ تَقْريعٍ وتَعْيير.

﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ مثل: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: إنَّه قد وَجَدْنا، وقيل: هو نفسُ النِّداء[٢].

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي: نادَى وصوَّتَ؛ يعني مِن الملائكَةِ، «بينَهم» ظرفٌ، كما تقولُ: أعْلَم وسطَهم.

وقرَأَ الأعمشُ والكِسائيُّ: «نَعِم» بكسرِ العين، وتجوزُ على هذه اللُّغةِ بإسكانِ العين[٣]. قال مكيّ[٤]: مَن قال: «نَعِم» بكسر العين أرادَ أنْ يُفرِّقَ بينَ «نَعَم» التي هي جوابٌ، وبينَ «نَعَم» التي هي اسمٌ للإبلِ والبقرِ والغنمِ. وقد رُوِي عن عمرَ إنكارُ «نَعَم» بفتحِ العينِ في الجوابِ، وقال: قُلْ نَعِم[٥].

ونَعَم ونَعِم لغتانِ؛ بمعنى العِدَةِ والتصديق، فالعِدَةُ إذا استفهمْتَ عن موجِبٍ، نحوُ قولكَ: أيقومُ زيدٌ؟ فيقول: نَعَمْ. والتصديقُ إذا أخبرْتَ عمَّا وقَعَ، تقول: قد كان

---

(١) قرأ بإدغام (أُورِثُّموها) أبو عمرو وابن عامر من رواية هشام، وحمزة والكسائي، والباقون من غير إدغام. السبعة ص٢٨١ ، والتيسير ص٤٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٧ ، وقراءة الكسائي في السبعة ص٢٨١ ، والتيسير ص١١٠ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٦٢ - ٤٦٣ .

(٥) وذكر هذه القصة أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٣ . قال السمين في الدر المصون ٥/ ٣٢٦ : ولم نرَ العرب يعرفون ما رَوَوْه عن عمر، ونراه مُوَلَّداً. ثم قال: هذا طَعْن في المتواتر فلا يُقبل.

كذا وكذا، فيقول: نَعَمْ. فإذا استفهمْتَ عن منفيٍّ فالجواب: بلى، نحو قولكَ: ألم أُكرِمْكَ؟ فيقول: بلى.

فنَعَمْ لجوابِ الاستفهام الداخل على الإيجابِ كما في هذه الآية. وبلَى لجوابِ الاستفهامِ الداخلِ على النفي، كما قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقرأ البَزِّيُّ وابنُ عامر وحمزة والكِسائيُّ: «أنَّ لعنةَ الله»، وهو الأصلُ. وقرأ الباقون بتخفيف «أنْ» ورَفْعِ اللَّعنةِ على الابتداء[١]، فـ «أن» في موضعِ نصب على القراءتَين على إسقاط الخافض. ويَجوزُ في المخفَّفةِ ألَّا يكون لها موضعٌ من الإعراب، وتكون مفسِّرةً كما تقدَّم[٢]. وحُكِيَ عن الأعمش أنَّه قرأ: «إنَّ لعنةَ اللهِ» بكسرِ الهمزة، فهذا على إضمارِ القول كما قرأ الكوفيون: ﴿فَنَادَاهُ[٣] الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إنَّ[٤] الله﴾[٥] [آل عمران: ٣٩].

ويُروى أنَّ طاوساً دخَل على هشام بن عبد الملك فقال له: اتَّقِ اللهَ واحذَرْ يومَ الأذان، فقال: وما يومُ الأذان؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. فصَعِقَ هشام، فقال طاوسٌ: هذا ذُلُّ الصِّفةِ، فكيف ذُلُّ المعايَنة[٦].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في موضعِ خفض لـ «الظالمينَ» على النَّعت، ويَجوزُ الرفعُ والنصبُ على إضمارِ: هُمْ، أو: أعني[٧]، أي: الذين كانوا

---

(١) السبعة ص٢٨١ ، والتيسير ص١١٠ .

(٢) في تفسير الآية السابقة، عند قوله تعالى: (أن تلكم).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي، مع الإمالة، وقرأ الباقون: «فنادَتْه» كما سلف ٥/ ١١٢ .

(٤) قرأ بها ابن عامر وحمزة، وقرأ الباقون: «أن» بفتح الهمزة، وسلفت ٥/ ١١٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٧ .

(٦) وذكر هذه القصة الذهبي في الكبائر ص١٧٩ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٧ .

يصدُّون في الدنيا النَّاسَ عن الإسلام، فهو مِن الصَّدِّ الذي هو المَنعُ، أو يصدُّون بأنفسِهم عن سبيلِ اللهِ، أي: يُعرِضون، وهذا مِن الصُّدود.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يطلُبون اعوجاجَها، ويذمُّونَها فلا يؤمنون بها، وقد مضَى هذا المعنى[١].

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وكانوا بها كافِرينَ، فحذفَ، وهو كثيرٌ في الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين النَّار والجنَّة ـ لأنَّه جرَى ذِكْرهما ـ حاجزٌ[٢]، أي: سُورٌ، وهو السُّورُ الذي ذَكرَهُ الله في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي: وعلى أعرافِ السُّور، وهي: شُرَفُه، ومنه عُرفُ الفرس[٣]، وعُرفُ الديك. روى عُبيدُ الله[٤] بن أبي يزيد عن ابن عباس أنَّه قال: الأعراف: الشيءُ المُشْرِفُ. وروى مجاهد عن ابن عباس أنَّه قال: الأعرافُ: سورٌ له عُرفٌ كعُرْفِ الديك[٥].

والأعرافُ في اللُّغة: المكانُ المُشْرفُ، جَمعُ عُرْف. قال يحيى بن آدم[٦]: سألتُ الكسائيَّ عن واحدِ الأعراف، فسكَتَ، فقلتُ: حدَّثنا إسرائيل، عن جابر، عن

---

(١) ٥/ ٢٣٣.

(٢) في (ظ): حجاب.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٧.

(٤) في النسخ: عبد الله، والمثبت من تفسير الطبري ١٠/ ٢٠٩ - ٢١٠، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٠ والكلام منه. وهو من رجال التهذيب.

(٥) أخرجهما الطبري ١٠/ ٢١٠ - ٢١١.

(٦) أبو زكريا الأموي، الكوفي، الحافظ صاحب «الخَراج»، توفي سنة (٢٠٣هـ). السير ٩/ ٥٢٢.

مجاهد، عن ابن عباس قال: الأعرافُ سُورٌ له عُرفٌ كعُرفِ[١] الدِّيك، فقال: نعم والله، واحده يعني، وجماعتُهُ أعرافٌ، يا غلام، هاتِ القِرطاسَ فكتَبَهُ.

وهذا الكلامُ خَرَجَ مَخرجَ المدح؛ كما قال فيه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

وقد تكلَّم العلماءُ في أصحابِ الأعرافِ على عشرةِ أقوال: فقال عبد الله بنُ مسعود وحُذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبيُّ والضحاك وابن جُبير: هم قَومٌ استوَتْ حسناتُهم وسيئاتُهم[٢].

قال ابن عطية[٣]: وفي مسندِ خَيْثمةَ بنِ سليمان[٤] في آخرِ الجزءِ الخامسَ عشرَ حديثٌ عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تُوضَعُ الموازينُ يومَ القيامةِ، فتُوزَنُ الحسناتُ والسيئاتُ، فمن رجحَتْ حسناتُه على سيئاتِهِ مثقالَ صُؤابَةٍ دخلَ الجنَّةَ، ومَن رجَحَتْ سيئاتُه على حسناته مثقالَ صُؤابَةٍ دخلَ النَّارَ». قيل: يا رسولَ الله، فمن استوَتْ حسناتُه وسيئاتُه؟ قال: «أولئكَ أصحابُ الأعرافِ، لم يدخلُوها وهم يَطْعمون»[٥]. وقال مجاهد: هم قومٌ صالحون فقهاءُ علماء[٦]. وقيل: هم الشهداءُ. ذَكره المهدوي[٧]. وقال القشيريُّ: وقيل: هم فُضَلاءُ المؤمنين والشهداء، فرَغوا مِن شُغلِ أنفسِهِم، وتفرَّغوا لمطالعةِ حال النَّاس، فإذا رأَوا أصحابَ النَّار تعوَّذوا بالله أنْ يُرَدُّوا إلى النَّار، فإنَّ في قُدرةِ الله كلَّ شيء، وخلافُ المعلوم مقدورٌ.

---

(١) في (خ) و(ز)، و(ظ): مثل عرف.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٢١٣ - ٢١٧ .

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤ .

(٤) القرشي، محدِّث الشام، مصنِّف «فضائل الصحابة». توفي سنة (٣٤٣هـ). السير ١٥/ ٤١٢ .

(٥) وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥/ ١٢١ ، وأبو الشيخ وابن مردويه فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٨٧ . وقوله: «صؤابة»: هي بيضة القملة. الصحاح (صأب).

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٢١٩ .

(٧) نقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ٤٠٤ .

فإذا رأَوا أهلَ الجنَّة وهم لم يدخلُوها بعدُ يَرجونَ لهم دخولَها.

وقال شُرَحْبيل بنُ سعد: هم المُستشهِدون في سبيلِ الله، الذين خرجوا عصاةً لآبائهِم[١]، وذكرَ الطبريُّ في ذلك حديثاً عن النبيِّ ﷺ، وأنَّه تعادلَ عُقوقُهم واستشهادُهم[٢]. وذكرَ الثعلبيُّ بإسنادِهِ عن ابن عباس في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ قال: الأعرافُ: موضعٌ عالٍ على الصراط، عليه العباس وحمزة وعليّ بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين ، يعرِفونَ مُحبِّيهم ببياضِ الوجوه، ومُبْغضيهم بسوادِ الوجوه[٣].

وحكَى الزَّهراويُّ أنَّهم عدولُ القيامةِ الذين يشهدونَ على النَّاس بأعمالِهم، وهم في كلِّ أمَّة[٤]. واختارَ هذا القولَ النحاسُ[٥]، وقال: وهو مِن أحسنِ ما قيل فيه، فهم على السُّورِ بين الجنَّةِ والنَّار. وقال الزجَّاج[٦]: هم قومٌ أنبياءُ. وقيل: هم قومٌ كانت لهم صغائرُ لم تُكفَّرْ عنهم بالآلامِ والمصائبِ في الدنيا، وليست لهم كبائرُ، فيُحبَسون عن الجنَّة لينالَهم بذلك غَمٌّ فيقعَ في مقابلةِ صغائرِهم.

وتمنَّى سالم مولَى أبي حُذيفة أنْ يكونَ من أصحاب الأعراف[٧]؛ لأنَّ مذهبَهُ أنَّهم مذنبون. وقيل: هم أولادُ الزِّنَى، ذكرَهُ القشيريُّ عن ابن عباس[٨].

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٢١٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤ ، والحديث الذي ذكره الطبري ١٠/ ٢١٨ فيه أبو مَعْشَر، وهو ضعيف، وقد اضطرب فيه فيما ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٣٠ ، وينظر كلام الشيخ أحمد شاكر في تفسير الطبري ١٢/ ٤٥٨ (طبعته).

(٣) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٨/ ٦٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤ .

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ١٢٧ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٤٣ .

(٧) أخرجه أحمد في الزهد ص٢٤٩ ، وابن أبي الدنيا في كتابه المُتمنِّين ص٣١ .

(٨) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٠٥ .

وقيل: هم ملائكةٌ موكَّلون بهذا السُّور، يُميِّزون الكافرين مِن المؤمنين قبلَ إدخالِهم الجنَّةَ والنَّارَ. ذكرَهُ أبو مِجْلَز. فقيل له: لا يُقال للملائكةِ رجالٌ؟ فقال: إنَّهم ذكورٌ وليسوا بإناث[١]، فلا يَبعدُ إيقاعُ لفظِ الرجال عليهم، كما أُوقِعَ على الجنِّ في قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[٢] [الجن: ٦]. فهؤلاءِ الملائكةُ يَعرفون المؤمنين بعلاماتِهم، والكفَّارَ بعلاماتِهم، فيُبشِّرون المؤمنين قبلَ دخولِهم الجنَّةَ وهم لم يدخلُوها بَعْدُ، فيطمعون فيها. وإذا رأوا أهلَ النَّارِ دَعَوْا لأنفسِهم بالسلامةِ من العذاب.

قال ابن عطيَّة[٣]: واللَّازِمُ من الآية أنَّ على الأعراف رجالاً من أهل الجنَّة يتأخَّرُ دخولُهم، ويقعُ لهم ما وُصِفَ من الاعتبار في الفريقين. و﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ أي: بعلامتِهم[٤]، وهي بياضُ الوجوهِ وحسنُها في أهلِ الجنَّة، وسوادُها وقبحُها في أهلِ النَّار، إلى غير ذلك من معرفةِ حَيِّزِ هؤلاء وحَيِّز[٥] هؤلاء.

قلت: فوقفَ عن التعيين لاضطرابِ الأثر والتفصيل، واللهُ بحقائق الأمور عليمٌ.

ثم قيل: الأعرافُ جمعُ عُرْف، وهو كل عالٍ مُرتفِع؛ لأنَّه بظهورِهِ أعرفُ مِن المُنخفض، قال ابن عباس: الأعرافُ شُرَف الصراط[٦].

وقيل: هو جَبلُ أُحُد يُوضَعُ هناك، قال ابن عطية[٧]: وذكرَ الزَّهْرَاوِيُّ حديثاً أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أُحُداً جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه، وإنَّه يومَ القيامَةِ يمثلُ بين الجنَّةِ

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٢١٩ - ٢٢١ .

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤ .

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٤) في (د) و(م): بعلاماتهم.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): خبر (في الموضعين). والمثبت من (خ) و(م) وهو الموافق للمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥ ، والكلام منه.

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ١٤/ ٨٧ .

(٧) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤ .

والنَّار يُحبَسُ عليه أقوامٌ يَعرِفون كلًّا بسيماهُمْ، هم إنْ شاء الله مِن أهلِ الجنَّة»(١)، وذكرَ حديثاً آخرَ عن صفوان بن سُلَيم أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أُحداً على ركنٍ مِن أركان الجنَّة»(٢).

قلت: وذكرَ أبو عمر عن أنس بن مالك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه، وإنَّه لعلى تُرْعَةٍ مِن تُرَعِ الجنَّةِ»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: نادَى أصحابُ الأعرافِ أصحابَ الجنَّة، ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قالوا لهم: سلامٌ عليكم.

وقيل: المعنى سَلِمتم مِن العقوبَة، ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: لم يَدْخُلِ الجنَّةَ أصحابُ الأعراف، أي: لم يدخلُوها بَعْدُ، «وهم يَطمعونَ» على هذا التأويلِ بمعنى: وهم يعلمون أنَّهم يَدْخلونَها، وذلك معروفٌ في اللُّغة أنْ يكونَ طَمِعَ بمعنى عَلِمَ، ذَكَره النحَّاس(٤). وهذا قولُ ابن مسعود وابن عباس وغيرِهما؛ أنَّ المُرادَ أصحابُ الأعراف(٥). وقال أبو مِجْلَز: هم أهلُ الجنَّة، أي قال لهم أصحابُ الأعراف: سلامٌ عليكم، وأهلُ الجنَّةِ لم يدخلُوا الجنَّةَ بَعْدُ، وهم يطمعونَ في دخولِها للمؤمنينَ

(١) لم نقف عليه بهذا السياق، وقوله فيه: «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه» أخرجه أحمد (١٢٤٢١) والبخاري (٤٠٨٣)، ومسلم (١٣٩٣) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٣٦٠٤)، والبخاري (٤٤٢٢)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حُميد الساعدي ﷺ.

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٨٣ من حديث داود بن الحُصَين، وأخرجه أبو يعلى (٧٥١٦)، والطبراني في الكبير (٥٨١٣) من حديث سهل بن سعد ﷺ، ولفظه: «أُحد ركن من أركان الجنة»، وفي إسناده عبد الله بن جعفر بن نجيح، والد علي بن المديني، متفق على ضعفه، قال يحيى: ليس بشيء، وقال ابن المديني: أبي ضعيف، وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً، ميزان الاعتدال ٢/ ٤٠١ .

(٣) التمهيد ٢٢/ ٣٣٠ ، وأخرجه ابن ماجه (٣١١٥)، وفيه محمد بن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنعن. وقوله منه: «أُحُد جبلٌ يحبنا ونحبه» صحيح، وسلف قريباً.

وقوله: «تُرعة»: الترعة في الأصل: الروضة على المكان المرتفع خاصة، فإذا كانت في المطمئن فهي روضة، النهاية (ترع).

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ١٢٧ - ١٢٨ .

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٢٦ .

المارِّينَ على أصحابِ الأعراف[١].

والوقفُ على قوله: «سَلامٌ عليكم». وعلى قوله: «لم يَدْخُلُوها». ثم يَبتدِئ: «وهم يَطمَعونَ» على معنَى: وهم يَطمعونَ في دخولِها. ويَجوزُ أنْ يكونَ «وهم يَطمعونَ» حالاً، ويكون المعنَى: لم يدخلْها المؤمنون المارُّونَ على أصحابِ الأعراف طامعين، وإنَّما دخلُوها غيرَ طامعينَ في دخولها، فلا يُوقَفُ على «لم يدخلُوها»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: جهةَ اللقاءِ، وهي جهةُ المقابلَةِ[٣]. ولم يأتِ مصدرٌ على تِفْعال غيرُ حرفين: تِلقاء وتِبيان، والباقي بالفتح، مثلُ تَسْيار وتَهمام وتَذكار. وأمَّا الاسم بالكسرِ فيه فكثيرٌ، مثلُ تِقصار وتِمثال[٤].

﴿قَالُواْ﴾ أي: قال أصحابُ الأعرافِ. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سألوا الله ألَّا يجعلَهم معَهم، وقد علموا أنَّه لا يجعلُهم معَهم، فهذا على سبيلِ التذلُّلِ، كما يقولُ أهلُ الجنَّة: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:٨]، ويقولونَ: الحمدُ لله، على سبيلِ الشكرِ لله عزَّ وجلَّ، ولهم في ذلك لَذَّةٌ[٥].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: مِن أهلِ النَّارِ. ﴿قَالُواْ

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٢٧ بنحوه.

(٢) المكتفى في الوقف والابتدا ص٢٧١، ومنار الهدى للأشموني ص١٠٩.

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٣٧١.

(٤) تفسير الرازي ١٤/ ٩٠ - ٩١، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ١٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٨.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: للدنيا، واستكبارُكُمْ عن الإيمان. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى قومٍ مِن المؤمنينَ الفقراءِ، كبلال وسلمان وخبَّاب وغيرِهم. ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ في الدنيا، ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الآخرَة، ﴿بِرَحْمَةٍ﴾؛ يُوبِّخونَهم بذلك، وزِيدُوا غمّاً وحسرةً بأنْ قالُوا لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾.

وقرأ عكرمة: «دَخلُوا الجنَّةَ» بغيرِ ألفٍ، والدالُ مفتوحَةٌ، وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «أُدْخِلُوا الجنَّةَ» بكسرِ الخاءِ على أنَّه فعلٌ ماضٍ[(١)].

ودلَّتْ الآيةُ على أنَّ أصحابَ الأعرافِ ملائكةٌ أو أنبياءُ؛ فإنَّ قولَهم ذلكَ إخبارٌ عن الله تعالَى. ومَن جَعَلَ أصحابَ الأعرافِ المذنبينَ كانَ آخرَ قولِهم لأصحابِ النَّارِ «وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ»، ويكونُ «أهؤلاءِ الذينَ» إلى آخرِ الآيةِ مِن قولِ الله تعالَى لأهلِ النَّارِ توبيخاً لهم على ما كان مِن قولِهم في الدنيا، ورُوي عن ابن عباس[(٢)]، والأوَّلُ عن الحسَن. وقيل: هو مِن كلامِ الملائكةِ الموكَّلين بأصحابِ الأعراف، فإنَّ أهلَ النَّارِ يحلِفونَ أنَّ أصحابَ الأعرافِ يدخلونَ معهم النَّارَ، فتقول الملائكةُ لأصحابِ الأعراف: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ **فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ قيل: إذا صَارَ أهلُ الأعرافِ إلى الجنَّةِ طَمِعَ أهلُ النارِ فقالوا: يا ربَّنا إنَّ لنا قَراباتٍ في الجنة؛ فأْذَنْ لنا حتى نراهم ونُكلِّمَهم. وأهلُ الجنة لا يعرِفونهم لسواد وجوهِهم، فيقولون: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٨، وينظر القراءات الشاذة ص٤٤، والمحتسب ١/ ٢٤٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٣١.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٦٣.

﴿ٱللَّهُ﴾[1] فبيَّن أن ابن آدم لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب[2].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني طعامَ الجنة وشرابها. والإفاضة: التوسعة[3]، يقال: أفاضَ عليه نِعمَه.

الثانية: في هذه الآيةِ دليلٌ على أن سَقْيَ الماء من أفضلِ الأعمال. وقد سُئل ابنُ عباس: أيُّ الصدقةِ أفضل؟ فقال: الماء، ألم ترَوْا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾[4]؟.

وروى أبو داود أنَّ سعداً أتى النبيَّ ﷺ فقال: أيُّ الصدقة أعجبُ إليك؟ قال: «الماء». وفي رواية: فحفَرَ بئراً فقال: «هذه لأمِّ سعد»[5].

وعن أنس قال: قال سعدٌ: يا رسولَ الله، إنَّ أُمَّ سعد كانت تحبُّ الصدقةَ، أفينفعها أن أتصدَّقَ عنها؟ قال: «نعم، وعليكَ بالماء»[6]. وفي روايةٍ: أن النبيَّ ﷺ أمر سعدَ بنَ عُبادةَ أن يسقيَ عنها الماء.

فدلَّ على أن سَقْيَ الماء من أعظم القُرُبات عند الله تعالى.

وقد قال بعض التابعين: من كَثُرتْ ذُنوبُه فعليه بِسَقْيِ الماء. وقد غفر اللهُ ذنوبَ الذي سقَى الكلبَ، فكيف بمن سقَى رجلاً مؤمناً موحِّداً وأَحياه[7].

روى البخاريُّ عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «بَيْنا رجلٌ يمشي بطريق،

(١) زاد المسير ٣/ ٢٠٨ .

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٥٤٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢٣٥ .

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٦٧٣)، والطبراني في الأوسط (١٠١٥)، وفي إسناده موسى بن المغيرة، وهو مجهول وشيخه الذي روى عنه الأثر لا يعرف. قاله الذهبي في الميزان ٤/ ٢٢٤ . ثم أورد هذا الأثر.

(٥) سنن أبي داود (١٦٧٩) و(١٦٨١)، وهو عند أحمد (٢٢٤٥٩). وسعد: هو ابن عُبادة ﷺ.

(٦) أخرجه ضياء الدين المقدسي في المختارة (٢٠٥٦).

(٧) لم نقف عليه، وذكره العيني في عمدة القاري ١٢/ ٢٠٨ .

اشتدَّ عليه العطشُ، فنزل بئراً فشَرِب منها، ثم خَرَج؛ فإذا كلبٌ [يلهثُ] يأكُل الثَّرَى من العطَشِ، فقال: لقد بلَغ هذا الكلبَ مثلُ الذي بلغ بي، فملأ خُفَّه ثمَّ أمسَكَه بفِيه، ثم رَقِيَ، فسقى الكلبَ، فشكر اللهُ له فَغَفَر له». قالوا: يا رسولَ الله، وإنَّ لنا في البهائم أجراً؟ قال. «في كل كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجرٌ»(١).

وعكسُ هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «عُذِّبتِ امرأةٌ في هِرَّة سَجَنَتْها حتى ماتت، فدخلتْ فيها النارَ، لا هي أطعمَتْها وسقتْها إذ هي حَبَستها، ولا هي تركتها تأكلُ من خَشاشِ الأرض»(٢).

وفي حديث عائشةَ عن النبيِّ ﷺ: «ومن سَقَى مسلماً شَربةً من ماءٍ حيث يوجد الماءُ، فكأنما أعتَقَ رَقَبةً، ومن سَقَى مسلماً شربةً من ماءٍ حيث لا يوجد الماء، فكأنَّما أَحْيَاها». خرَّجه ابنُ ماجه في «السُّنَن»(٣).

الثالثة: وقد استدلَّ بهذه الآية مَن قال: إنَّ صاحب الحوض والقِرْبة أحقُّ بمائه، وأنَّ له مَنْعَه ممن أراده، لأنَّ معنى قولِ أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: لا حَقَّ لكم فيهما. وقد بَوَّبَ البخارِيُّ رحمه اللهُ على هذا المعنى: باب: مَن رأى أنَّ صاحِبَ الحَوْضِ والقِربة أحقُّ بمائه. وأدخل في الباب: عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «والَّذي نفسي بيده، لَأذودَنَّ رِجالاً عن حوضي، كَما تُذادُ الغَريبةُ مِن الإبلِ عن الحوضِ»(٤). قال المُهلّب: لا خلافَ أن صاحبَ الحوض أحقُّ

---

(١) صحيح البخاري (٢٣٦٣)، وأخرجه أحمد (٨٨٧٤)، ومسلم (٢٢٤٤)، وما بين حاصرتين منها. ووقع في (م): لأجراً... و: «في كل ذات كبدٍ...». وهي عند البخاري (٢٤٦٦).

(٢) صحيح مسلم (٢٢٤٢)، وأخرجه البخاري (٣٤٨٢). وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٧٨٤٧)، ومسلم (٢٢٤٣). وقوله: «خشاش الأرض»: أي: هوامّها وحشراتها. النهاية (خشش).

(٣) الحديث (٢٤٧٤)، وفي إسناده زهير بن مرزوق، عن علي بن زيد بن جُدعان، قال البخاري في زهير: منكر الحديث. وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف أيضاً. ميزان الاعتدال: ٢/ ٨٥ - ٨٦ و ٣/ ١٢٧ . وينظر تنزيه الشريعة ٢/ ١٣٦ .

(٤) صحيح البخاري (٢٣٦٧). وأخرجه أحمد (٧٩٦٨)، ومسلم (٢٣٠٢).

بمائه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لأذودنَّ رجالاً عن حوضي»[١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

«الذين» في مَوْضع خفض نعتٌ للكافرين. وقد يكون رفعاً ونصباً بإضمار[٢]. قيل: هو من قولِ أهل الجنة. ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ أي: نتركُهم في النار. ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: تركوا العملَ له[٣] وكذَّبوا به. و«ما» مصدرية، أي: كَنَسْيهم. ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ عطفٌ عليه، أي: وجَحْدهم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ يعني القرآن. ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي: بيَّنَّاه حتى يَعرِفَه مَن تدبَّره. وقيل: «فَصَّلْناهُ»: أنزلناه متفرِّقاً. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنَّا به، لم يَقَعْ فيه سهوٌ ولا غَلَط.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، قال الزجَّاج: أي: هادياً وذا رَحمة، فجعله حالاً من الهاء التي في «فصَّلناه». قال الزجاج: ويجوز: هدًى ورحمةٌ، بمعنى هو هدًى ورحمةٌ[٥]. وقيل: يجوز: هدًى ورحمةٍ، بالخفض على البدل من كتاب[٦].

وقال الكسائيُّ والفرّاء[٧]: ويجوز: هدًى ورحمةٍ بالخَفْض على النعت لكتاب.

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٥/ ٣١ ، ونسبه لابن بطال.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٩ .

(٣) من (د) و(ز) و(م): به، والمثبت من (خ) و(ظ).

(٤) الوسيط ٢/ ٣٧٤ ، والبيان ١/ ٣٦٤ .

(٥) معاني القرآن ٢/ ٣٤١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٩ .

(٦) نسب ذلك مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٩٣ للفراء والكسائي. وجواز الرفع والخفض هنا يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٧) معاني القرآن له ١/ ٣٨٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٩ .

قال الفرّاء: مثل ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خُصَّ المؤمنون لأنهم المُنتفعون به.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ بالهمز، مِنْ «آلَ». وأهلُ المدينة يُخفِّفون الهمزةَ. والنَّظر: الانتظار، أي: هل ينتظرون إلا ما وُعِدوا به في القرآن من العِقاب والحساب. وقيل: «ينظرون» من النَّظر إلى يوم القيامة[1]، فالكناية في «تأويله» تَرْجِعُ إلى الكتاب، وعاقبةُ الكتاب ما وَعَدَ اللهُ فيه من البعث والحساب[2]. وقال مجاهد: «تأويله»: جزاؤه، أي: جزاءُ تكذيبهم بالكتاب. قال قتادة: «تأويله»: عاقبته[3]. والمعنى مُتَقَارِبٌ.

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: تبدو عواقبُه يومَ القيامة. و«يوم» نصب بـ «يقول»[4]، أي: يقول الذين نَسُوه مِنْ قبلُ يومَ يأتي تأويلُه: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ استفهامٌ فيه معنى التمنّي. ﴿فَيَشْفَعُوا۟﴾ نصب؛ لأنه جوابُ الاستفهام. ﴿لَنَآ أَوْ نُرَدُّ﴾ قال الفرّاء[5]: المعنى: أو هل نُردُّ ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾. قال الزجّاج[6]: نردُّ عطف على المعنى، أي: هل يشفع لنا أحدٌ أو نردُّ. وقرأ ابن [أبي]

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) من قوله: وعاقبة الكتاب... إلى هنا، لعل حقَّه أن يأتي بعد قول قتادة الآتي.

(٣) أخرجهما الطبري ١٠/ ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٠ .

(٥) في معاني القرآن ١/ ٣٨٠ .

(٦) لم نقف عليه في معاني القرآن له.

إسحاق: «أو نُرَدَّ فنعملَ»، بالنصب فيهما[(١)]، والمعنى: إلا أن نُرَدَّ فنعملَ[(٢)]؛ كما قال:

فقلتُ له لا تَبْكِ عينُك إنما نُحاول مُلْكاً أو نموتَ فنُعْذَرا[(٣)]

وقرأ الحسن: «أو نردُّ فنعملُ» برفعهما جميعاً.

﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: فلم ينتفعوا بها، وكلُّ مَن لم ينتفع بنفْسه فقد خَسِرها[(٤)]. وقيل: خَسِروا النِّعَم وحَظَّ أنفسهم منها. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: بَطَل ما كانوا يقولون من أنَّ مع الله إلهاً آخر[(٥)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ بَيَّنَ أنه المنفردُ بقدرة الإيجاد، فهو الذي يَجِبُ أن يُعْبَد.

وأصل «ستة»: سِدْسة، فأرادوا إدغامَ الدالِ في السين، فالتقيا عندَ مَخْرَجِ التاء؛ فغلبتْ عليهما ـ وإنْ شئت قلت: أبدل من إحدى السينين تاء وأدغم في الدال ـ لأنك تقول في تصغيرها: سُدَيْسة، وفي الجمع: أسداس، والجمع والتصغير يَرُدَّان الأسماءَ إلى أصولها. ويقولون: جاء فلانٌ سادساً وسادياً وساتاً؛ فمن قال: سادياً أبدل من السين ياءً[(٦)].

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٤، والمحتسب ١/ ٢٥١، وما بين حاصرتين منهما ومن إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٣٠، وعنه نقل المصنف قولي الفراء والزجاج السالفين.

(٢) قوله: فنعمل، من (ظ).

(٣) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ٥/ ٣٠٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٠، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٤٤.

(٥) الوسيط ٢/ ٣٧٥.

(٦) وقع في النسخ: سادتا، أبدل من السين تاءً، والمثبت من تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٢، وينظر المخصص ١٧/ ١١٢، والدر المصون ٥/ ٣٣٩.

واليوم: من طُلوع الشمس إلى غُروبها. فإن لم يكن شمسٌ فلا يوم؛ قاله القشيريُّ. وقال: ومعنى «في ستَّةِ أيَّام» أي: من أيام الآخرة، كلُّ يوم ألفُ سنة؛ لتفخيم الأمر في[١] خلق السماوات والأرض. وقيل: من أيام الدنيا. قال مجاهد وغيره: أوّلها الأحدُ وآخرُها الجمعة[٢].

وذكر هذه المُدَّةَ، ولو أرادَ خَلْقَها في لحظةٍ لَفعل؛ إذ هو القادرُ على أن يقول لها: كوني، فتكون. ولكنه أرادَ أن يُعَلِّم عبادَه الرِّفقَ والتثبُّتَ في الأمور، ولِتظهرَ قدرتُه للملائكة شيئاً بعد شيء[٣]. وهذا عند مَن يقول: خلق اللهُ الملائكةَ قبل خلق السماوات والأرض.

وحكمةٌ أُخرى: خلقَها في ستة أيام؛ لأنَّ لكل شيء عنده أجلاً. وبَيَّنَ بهذا تركَ معاجلةِ العُصاة بالعقاب؛ لأنَّ لكل شيء عنده أجلاً. وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق:٣٨-٣٩]. بعد أن قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾[٤] [ق:٣٦].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هذه مسألةُ الاستواء، وللعلماء فيها كلامٌ وإجزاء[٥]. وقد بيَّنَّا أقوالَ العلماء فيها في «الكتاب الأسنى في شرح أسماءِ الله الحسنى وصفاتِهِ العُلى»[٦] وذكرنا فيها هناك أربعةَ عشرَ قولاً. والأكثرُ من المتقدِّمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيهُ الباري سبحانه عن الجهة والتحيُّز، فمن ضرورة ذلك ولَواحقِهِ اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدِّمين وقادتهم من المتأخرين، تنزيهُهُ تبارك وتعالى عن الجهة، فليس بجهة فوق عندهم؛ لأنه يلزم من ذلك عندهم متى

---

(١) قوله: الأمر في، ليس في (م).

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٤٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣١.

(٤) تفسير الرازي ١٤/ ٩٩.

(٥) في (م): وإجراء.

(٦) ص١٨٧ وما بعدها.

اختصَّ بجهةٍ أن يكون في مكانٍ أو حيِّز، ويَلزم على المكانِ والحَيِّزِ الحركةُ والسكونُ للمتحيِّزِ، والتغيرُ والحدوث. هذا قولُ المتكلمين.

وقد كان السلف الأوَّل ﷺ لا يقولون بنفي الجهة ولا يَنْطِقون بذلك، بل نَطَقوا هم والكافَّةُ بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابُه وأخبرتْ رسلُه.

ولم يُنكر أحدٌ من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً. وخَصَّ العرشَ بذلك لأنه أعظمُ مخلوقاته. وإنما جَهِلوا كيفيةَ الاستواء، فإنه لا تُعلم حقيقته، كما قال مالكٌ رحمه الله: الاستواءُ معلومٌ ـ يعني في اللغة ـ والكَيْفُ مجهولٌ، والسؤالُ عن هذا بِدعةٌ(١). وكذا قالت أمُّ سلمة رضي اللهُ عنها(٢). وهذا القَدْرُ كافٍ، ومَن أراد زيادةً عليه فَلْيقِفْ عليه في موضعه من كُتب العلماء.

والاستواءُ في كلام العرب هو العُلُوُّ والاستقرار. قال الجوهريُّ: واستوى مِن اعوجاجٍ، واستوى على ظَهْر دابَّته، أي: استقرَّ. واستوى إلى السماء، أي: قَصَد. واستوى، أي: استولى وظَهر. قال:

قد استوى بِشْرٌ على العِراق ... من غير سيفٍ ودمٍ مُهْراقِ

واستوى الرجلُ، أي: انتهى شبابُه. واستوى الشيءُ: إذا اعتدل(٣).

وحكى أبو عمر بن عبد البَرّ عن أبي عُبيدة(٤) في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] قال: علا. وقال الشاعر:

فأَوْرَدْتُهم ماءً بفَيْفَاءَ قَفْرَةٍ ... وقد حَلَّق النجمُ اليمانِيُّ فاستَوَى

أي: علا وارتفعَ(٥).

---

(١) سلف ١/ ٣٨١.

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٦٦٣).

(٣) الصحاح (سوى). والبيت للأخطل، وقد سلف ١/ ٣٨٢.

(٤) في مجاز القرآن ٢/ ١٥.

(٥) التمهيد ٧/ ١٣١، وسلف البيت ١/ ٣٨١.

قلت: فعلوُّ الله تعالى وارتفاعُه عبارةٌ عن علوِّ مَجْدِه وصفاتِه ومَلَكوتِه، أي: ليس فوقَه فيما يجب له من معاني الجلال أحدٌ، ولا معه مَن يكون العلوُّ مُشتركاً بينه وبينه، لكنه العَليُّ بالإطلاق سبحانه.

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾، العَرْش[١]: لفظٌ مُشترك يُطلق على أكثر من واحد. قال الجوهري[٢] وغيره: العرش: سرير المَلِك. وفي التنزيل ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ [النمل: ٤١]، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. والعَرْش: سَقْفُ البيت. وعرشُ القَدَم: ما نَتأ في ظَهرها، وفيه الأصابع. وعرشُ السِّماك: أربعةُ كواكبَ صِغارٍ أسفلَ[٣] من العَوَّاء[٤]، يقال: إنها عَجُز الأسد. وعرشُ البئر: طَيُّها بالخشب، بعد أن يُطْوَى أسفلُها بالحجارة قدرَ قامَة؛ فذلك الخشب هو العَرْشُ، والجمع عُروش. والعَرْش: اسمُ لمكة[٥]. والعَرْش: المُلك والسُّلطان. يقال: ثُلَّ عرشُ فلان: إذا ذهبَ مُلْكُه وسُلطانه وعِزُّه. قال زهير:

تَداركتُما عَبْساً وقد ثُلَّ عَرْشُها ... وذُبْيَانَ إذْ زَلَّتْ[٦] بأقدامها النَّعلُ

وقد يُؤَوَّل[٧] العرشُ في الآية بمعنى المُلْك، أي: ما استوى المُلْك إلا له جلَّ وعزَّ. وهو قولٌ حَسَن[٨]، وفيه نَظَرٌ، وقد بيَّنَّاه في جملة الأقوال في كتابنا. والحمد لله[٩].

(١) قوله: العرش، من (د) و(ز).

(٢) الصحاح (عرش).

(٣) في (ز): أصغر.

(٤) العوَّاء: منزل للقمر خمسة كواكب، أو أربعة. القاموس المحيط (عرش) (عوى).

(٥) في النسخ الخطية: اسم الملك، والمثبت من (م). وقال المصنف في كتابه الأسنى ص١٨٦: ويقال: إن العرشَ اسمُ الملك، لرفعته وعُلوِّ منزلته.

(٦) في (م): ذلَّت. ورواية الديوان ص١٠٩:

تداركتما الأحلاف قد ثُلَّ عرشها ... وذبيانَ قد زلَّت بأقدامها النعل

(٧) في النسخ الخطية: تأول، والمثبت من (م).

(٨) بل هو قول بعض المعتزلة، وقد رده المحققون من السلف، والاستواء عند أهل السنة بمعنى العلو والاستقرار والارتفاع.

(٩) الأسنى ص١٨٦ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يجعلُه كالغِشاء[١]، أي: يذهب نورُ النهارِ لِيتمَّ قِوامُ الحياةِ في الدنيا بِمجيء الليل. فالليلُ للسكون، والنهارُ للمَعَاش.

وقُرئ: «يُغَشِّي» بالتشديد، ومثله في «الرعد» [الآية:٣]. وهي قراءةُ أبي بكر عن عاصم، وحمزةَ والكسائي. وخفَّف الباقون[٢]. وهما لغتان: أغْشَى وغَشَّى. وقد أجمعوا على: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم:٥٤] مشدَّداً، وأجمعوا على: «فأَغْشيناهم» [يس:٩]، فالقراءتان متساويتان، وفي التشديد معنى التكرير والتكثير[٣]. والتغشية والإغشاء: إلباسُ الشيء الشيءَ.

ولم يَذكُر في هذه الآية دخولَ النهار على الليل، فاكتفى بأحدهما عن الآخر، مثل ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾[٤] [النحل:٨١]. ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ [آل عمران:٢٦].

وقرأ حميد بن قيس: «يَغْشَى الليلَ النهارُ»[٥] ومعناه: أن النهارَ يَغْشَى الليلَ.

﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ أي: يطلبه دائماً من غير فتور[٦]. و«يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ» في موضع نصب على الحال. والتقدير: استوى على العرش مُغْشِياً الليلَ النهارَ. وكذا «يَطْلُبُهُ» حال من الليل، أي: يُغشي الليلَ النهارَ طالباً له. ويَحتمل أن تكون الجملةُ مستأنفةً ليست بحال. «حَثِيثاً» بدل من طالب المقدَّر، أو نعتٌ له، أو نعتٌ لمصدر محذوف، أي: يطلبه طلباً سريعاً[٧]. والحثُّ: الإعجالُ والسرعة. ووَلَّى حثيثاً، أي: مُسرعاً.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾، قال الأخفش[٨]: هي معطوفةٌ على

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣١ .

(٢) السبعة ص٢٨٢ ، والتيسير ص١١٠ .

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٣٧٦ .

(٥) المحتسب ١/ ٢٥٣ .

(٦) الوسيط ٢/ ٣٧٦ .

(٧) ويعرب أيضاً: حال. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣١ ، والبيان ١/ ٣٦٤-٣٦٥ ، والدر المصون ٥/ ٣٤٢ ، وغيرها.

(٨) معاني القرآن ٢/ ٥١٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣١ .

السماوات؛ أي: وخلَق الشمسَ[(١)]. ورُوي عن عبد الله بن عامر بالرفع فيها كلِّها[(٢)] على الابتداء والخبر.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: صِدْقُ الله في خبره، فله الخلقُ وله الأمرُ، خَلَقَهم وأمَرَهم بما أحبَّ. وهذا الأمرُ يقتضي النهي. قال ابن عُيينة: فَرّق بين الخَلْق والأمر؛ فَمَنْ جَمع بينهما فقد كَفَر[(٣)].

فالخَلْق المَخلوق، والأمرُ كلامُه الذي هو غيرُ مَخلوق، وهو قوله: ﴿كُن﴾[(٤)]. ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٥)] [النحل: ٤٠].

وفي تَفْرقته بين الخَلْق والأمرِ دليلٌ بيِّنٌ على فسادِ قول مَن قال بخلق القرآن، إذ لو كان كلامُه ـ الذي هو أمرٌ ـ مخلوقاً لكان قد قال: ألا له الخلقُ والخلقُ. وذلك عِيٌّ من الكلام ومُستهجَنٌ ومُسْتَغَثٌّ. والله يتعالى عن التكلُّم بما لا فائدةَ فيه. ويدلُّ عليه قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾. فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمةٌ بأمره، فلو كان الأمرُ مخلوقاً لافتقرَ إلى أمرٍ آخرَ يقوم به، وذلك الأمرُ إلى أمرٍ آخر، إلى ما لا نهايةَ له. وذلك مُحالٌ. فثبتَ أنَّ أمره الذي هو كلامُه قديمٌ أزَليٌّ غيرُ مخلوق؛ لِيصحَّ قيامُ المخلوقات به.

ويدلُّ عليه أيضاً قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾

---

(١) في النسخ: السماوات، والمثبت من (م).

(٢) السبعة ص٢٨٢، والتيسير ص١١٠.

(٣) علَّقه البخاري قبل الحديث (٧٥٥٥) بنحوه، وأورده بهذا اللفظ العيني في عمدة القاري ٢٥/ ١٤٤. ووصله ابن أبي حاتم في كتاب الرد على الجهمية كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ١٣/ ٥٣٢.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣.

(٥) في (م): ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق للإنصاف للباقلاني، والكلام فيه بنحوه كما سيأتي.

[الحجر: ٨٥]، وأخبر تعالى أنه خَلَقهما بالحقّ، يعني القول، وهو قوله للمكوَّنات: «كن». فلو كان الحقُّ مخلوقاً لَمَا صحَّ أن يخلقَ به المخلوقات؛ لأن الخَلْقَ لا يُخلَقُ بالمخلوق. يدلُّ عليه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]. وهذا كلُّه إشارةٌ إلى السَّبق في القول في القِدَم، وذلك يُوجب الأزَل في الوجود. وهذه النُّكتة كافيةٌ في الردِّ عليهم.

ولهم آياتٌ احتجُّوا بها على مَذْهبهم؛ مثلُ قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ الآية [الأنبياء: ٢]، ومثلُ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. و﴿مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وما كان مِثْلَه.

قال القاضي أبو بكر[1]: معنى ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ أي: من وَعْظٍ من النبيِّ ﷺ ووَعْدٍ وتخويف ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]؛ لأنَّ وعظَ الرُّسل صلواتُ الله عليهم وسلامُه وتحذيرَهم ذِكْرٌ؛ قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، ويقال: فلانٌ في مَجْلس الذِّكر.

ومعنى ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ و﴿مَفْعُولًا﴾ أراد سبحانه عقابَه وانتقامَه من الكافرين، ونصرَه للمؤمنين، وما حكَم به وقدَّره من أفعاله. ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٤٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] يعني به شأنه وأفعالَه وطرائقَه. قال الشاعر:

لها أمرُها حتى إذا ما تبوَّأتْ　　　بأخفافها مَرْعًى تبوّأ مضجَعا[2]

الثانية: وإذا تقرَّرَ هذا فاعلَمْ أن الأمرَ ليس مِن الإرادة في شيء. والمعتزلةُ تقول: الأمرُ نفسُ الإرادة. وليس بصحيح، بل يأْمُر بما لا يُريد، ويَنهى عما يُريد. ألا ترى أنه

---

(١) في الإنصاف ص٧٤ – ٧٥ ، وينظر الكلام الذي قبله فيه ص٧١ وما بعدها، وفي تمهيد الأوائل ١/ ٢٧١ .

(٢) أورده أبو علي القالي في أماليه ٢/ ١٤٠ وذكر أن جندل بن الراعي أنشده من شعر أبيه الراعي. وعنده: لأخفافها، بدل: بأخفافها.

أَمَرَ إبراهيمَ بذبح ولده ولم يُرِدْه منه؟ وأمر نبيَّه أن يُصلِّيَ مع أُمَّته خمسين صلاة، ولم يُرِدْ منه إلا خمسَ صلوات[١]. وقد أراد شهادةَ حمزةَ حيث يقول: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وقد نَهى الكفارَ عن قَتْله، ولم يَأْمُرْهم به. وهذا صحيحٌ نفيسٌ في بابه، فتأمَّله.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، «تبارك» تفاعل، من البركة وهي[٢] الكَثْرةُ والاتِّساع. يقال: بُورك الشيء وبُورك فيه؛ قاله ابن عرفة.

وقال الأزهري[٣]: «تبارك»: تعالى وتعاظمَ وارتفَع. وقيل: إنَّ باسمه يُتَبَرَّك ويُتَيَمَّن. وقد مضَى في «الفاتحة» معنى ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ هذا أمرٌ بالدعاء وتعبُّدٌ به. ثم قَرَنَ جلَّ وعزَّ بالأمر صفاتٍ تَحسُن معه، وهي الخشوعُ والاستكانةُ والتضرُّع.

ومعنى «خُفْيَةً» أي: سِرًّا في النفس لِيبعدَ عن الرِّياء؛ وبذلك أثنَى على نبيِّه زكريا عليه السلام إذ قال مُخبراً عنه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[٥] [مريم: ٣]. ونحوه قولُ النبيِّ ﷺ: «خيرُ الذِّكر الخَفِيُّ، وخيرُ الرزق ما يَكفِي»[٦].

والشريعة مُقرِّرةٌ أن السرَّ فيما لم يُفترَضْ[٧] من أعمال البِرّ أعظمُ أجراً من الجَهْر.

---

(١) سلف ٤/ ٤٩٣.

(٢) في النسخ: وهو، والمثبت من (م).

(٣) تهذيب اللغة ١٠/ ٢٣٠.

(٤) ١/ ٢١١ وما بعدها.

(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٢٤٨.

(٦) أخرجه أحمد (١٤٧٧) من حديث سعد بن مالك ﷺ.

(٧) في (د) و(م) والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٠ (والكلام منه): يعترض، والمثبت من (ز) و(ظ). وعبارة (خ): والشريعة مقرّرة أنْ ليس فيما تفترض...

وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[١]. قال الحسنُ بنُ أبي الحسن: لقد أدْركنا أقواماً ما كان على الأرض عملٌ يقدِرون على أن يكون سرًّا فيكون جَهْراً أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يُسمع لهم صوتٌ، إنْ هو إلا الهَمْس بينهم وبين ربِّهم. وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. وذَكَر عبداً صالحاً رضي فعلَه فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[٢] [مريم:٣].

وقد استدل أصحابُ أبي حنيفة بهذا على أن إخفاء «آمين» أولى من الجَهْر بها؛ لأنه دعاء[٣]. وقد مضى القولُ فيه في «الفاتحة»[٤].

وروى مسلم عن أبي موسى قال: كُنَّا مع النبيِّ ﷺ في سَفَر ـ وفي رواية: في غَزَاةٍ ـ فجعل الناسُ يجهرون بالتكبير ـ وفي رواية: فجعل رجلٌ كلما عَلَا ثَنِيَّةً قال: لا إله إلا الله ـ فقال رسولُ الله ﷺ: «أيها[٥] الناس، اِرْبَعُوا على أنفسكم، إنكم لستُم تدعون أصَمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم». الحديث[٦].

الثانية: واختلف العلماءُ في رفع اليدين في الدعاء، فكرهه طائفةٌ؛ منهم جُبير بن مُطْعِم[٧]، وسعيد بن المسيِّب[٨]، وسعيد بنُ جبير. ورأى شُريحٌ رجلاً رافعاً يديه فقال: مَن تتناول بهما، لا أُمَّ لك[٩]! وقال مسروق لقوم رفَعوا أيديَهم: قَطَعَها الله[١٠]. واختاروا إذا دعا اللهَ في حاجةٍ أن يُشِيرَ بأصبعه السبابة، ويقولون: ذلك

---

(١) ٤/ ٣٥٩ وما بعدها.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠ .

(٣) أحكام القرآن للكيا ٣/ ١٤٠ .

(٤) ١/ ١٩٥ وما بعدها.

(٥) في النسخ الخطية: يا أيها، والمثبت من (م)، وهو الموافق لصحيح مسلم.

(٦) صحيح مسلم (٢٧٠٤): (٤٤) و(٤٦)، وأخرجه أحمد (١٩٥٢٠)، والبخاري (٦٣٨٤).

(٧) ذكره عنه الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ١٤٣ ، وعزاه للطبري.

(٨) أخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف (٣٢٥١).

(٩) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ١٤٣ ، وعزاه للطبري.

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٤٧ .

الإخلاصُ[١]. وكان قتادةُ يُشير بأصبعه ولا يرفع يدَيْه. وكَرِهَ رفعَ الأيدي عطاءٌ، وطاوس[٢]، ومجاهد وغيرُهم.

ورُوي جوازُ الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين، وروي عن النبيِّ ﷺ ـ ذكره البخاريُّ ـ قال أبو موسى الأشعريّ: دعا النبيُّ ﷺ، ثم رَفَعَ يدَيْه، ورأيتُ بياضَ إِبْطيه. ومثلُه عن أنس. وقال ابن عمر: رَفَع النبيُّ ﷺ يدَيْه وقال: «اللهم إني أَبْرَأُ إليك مما صَنَعَ خالد»[٣].

وفي «صحيح» مسلم[٤] من حديث عمرَ بنِ الخطاب قال: لما كان يومُ بَدْر نَظَرَ رسولُ الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاث مئة وسبعةَ عشر رجلاً[٥]، فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلةَ مادًّا يَدَيْه، فجعل يَهتِفُ بربِّه. وذكر الحديث.

وروى الترمذيُّ عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا رَفَع يدَيْه لم يَحُطَّهما حتى يمسحَ بهما وجهَه. قال: هذا حديثٌ صحيح غريب[٦].

وروى ابن ماجه عن سلمان، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ ربَّكم حَيِيٌّ كريمٌ، يَستحيي من عبده أن يرفعَ يدَيْهِ إليه فيردَّهُما صِفراً [أو قال:] خائبتين»[٧].

احتجَّ الأوّلون بما رواه مسلم عن عُمارةَ بنِ رُوَيبة ورأى بِشْرَ بن مَرْوان[٨] على

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٢٤٧) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٤٧ .

(٣) أخرج البخاري (٦٣٤١) حديث أنس ﵁، وعلَّق قبله حديثي أبي موسى وابن عمر ﵁، ووصل حديث أبي موسى برقم (٤٣٢٣)، وحديث ابن عمر برقم (٤٣٣٩).

(٤) الحديث (١٧٦٣)، وسلف ٥/ ٢٩٦ .

(٥) في صحيح مسلم: تسعة عشرة رجلاً، ورواية المصنف هي رواية المفهم ٣/ ٥٧٢ .

(٦) سنن الترمذي (٣٣٨٦).

(٧) سنن ابن ماجه (٣٨٦٥)، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أبو داود (١٤٨٨) وأخرجه أحمد (٢٣٧١٤) عن سلمان الفارسي ﵁. موقوفاً، وصححه عنه مرفوعاً ابن حبان (٨٨٠)، والحاكم ١/ ٥٣٥ .

(٨) هو أخو عبد الملك بن مروان، وَلِي العراقين بعد مقتل مصعب، مات سنة (٧٥هـ). السير ٤/ ١٤٥ .

المنبر رافعاً يديه فقال: قبَّحَ اللهُ هاتين اليدين، لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ما يَزيد على أن يقولَ بيده هكذا. وأشار بإصبعه المُسبِّحة[١]. وبما روى سعيدُ بن أبي عَروبة، عن قتادة أن أنس بن مالك حَدَّثه أن النبيَّ ﷺ كان لا يرفعُ يدَيْه في شيءٍ من الدعاء إلا عند الاستسقاء، فإنه كان يرفعُهما حتى يُرَى بياضُ إبْطَيْه.

والأوّل أصحُّ طُرُقاً وأثبتُ من حديث سعيد بن أبي عَروبة؛ فإن سعيداً كان قد تغيَّر عقلُه في آخر عمره[٢]. وقد خالفه شعبةُ في روايته عن قتادة، عن أنس بن مالك، فقال فيه: كان رسولُ الله ﷺ يرفع يدَيْه حتى يُرى بياضُ إبْطَيْه[٣].

وقد قيل: إنه إذا نزلتْ بالمسلمين نازلةٌ أن الرفعَ عند ذلك جميلٌ حسن؛ كما فعل النبيُّ ﷺ في الاستسقاء، ويوم بَدْر.

قلت: والدعاءُ حَسَن كيفما تيسَّر، وهو المطلوب من الإنسان لإظهار مَوْضِع الفقر والحاجة إلى الله عزَّ وجلَّ، والتذلُّلِ له والخُضوع. فإن شاء استَقْبَلَ القبلةَ ورفع يدَيْه فحسنٌ، وإن شاء فلا، فقد فَعَلَ ذلك النبيُّ ﷺ حَسبَما وَرَدَ في الأحاديث. وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]. ولم يُرِد صفةً مِن رفع يدين وغيرها. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، فمدَحهم ولم يشترطْ حالةً غيرَ ما ذكر. وقد دَعَا النبيُّ ﷺ في خُطبته يومَ الجمعة وهو غيرُ مستقبل القِبلة[٤].

---

(١) صحيح مسلم (٨٧٤)، وهو في مسند أحمد (١٧٢١٩).

(٢) اختلاط سعيد ليس بعلة في هذا الحديث، فقد رواه عنه جماعة قبل اختلاطه، ثم إن حديثه هذا أخرجه أحمد (١٢٨٦٧)، والبخاري (١٠٣١)، ومسلم (٨٩٥).

(٣) لم نقف على هذا اللفظ من طريق شعبة عن قتادة عن أنس ﷺ. إنما أخرجه من هذه الطريق أبو نعيم في أخبار أصبهان ١/ ١٤١ بلفظ حديث سعيد الذي ساقه المصنف، وأخرجه مسلم (٨٩٥): (٥) من طريق شعبة، عن ثابت، عن أنس ﷺ قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى يُرى بياضُ إبطيه. ثم إن مسلماً رحمه الله قد أورد هذين اللفظين في باب رفع اليدين في الدعاء في الاستسقاء، فليس ثمة اختلاف بين الروايتين كما ذكر المصنف!.

(٤) أخرجه أحمد (١٣٠١٦)، والبخاري (٦٣٤٢)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس ﷺ. وقد ترجم له البخاري: باب الدعاء غير مستقبل القبلة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ يُرِيد في الدعاء وإنْ كان اللفظُ عامًّا، إلى هذا هي الإشارة[١]. والمُعتدي هو المجاوزُ للحدِّ ومُرتكِبُ الحظر، وقد يتفاضل بحَسَب ما اعتدى فيه. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «سيكون قومٌ يعتَدُون في الدعاء». أخرجه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، حدّثنا عفّان، حدَّثنا حماد بنُ سلمة، أخبرنا سعيدٌ الجُرَيرِيّ، عن أبي نَعامة، أن عبد الله بن مُغفَّل سَمِع ابنه يقول: اللهمَّ إني أسألك القصرَ الأبيضَ عن يمين الجنة إذا دخلتُها. فقال: أيْ بُنيَّ، سَلِ اللهَ الجنةَ، وعُذْ بِه مِن النار، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء»[٢].

والاعتداءُ في الدعاء على وجوه: منها الجهرُ الكثير والصِّياح، كما تقدَّم[٣].

ومنها أن يدعوَ الإنسانُ في أن تكونَ له منزلةُ نبيٍّ، أو يدعوَ في مُحال، ونحو هذا من الشَّطط[٤].

ومنها أن يدعوَ طالباً معصيةً وغير ذلك[٥].

ومنها أن يدعوَ بما ليس في الكتاب والسنَّة، فيتخيَّر ألفاظاً مُفَقَّرة، وكلماتٍ مُسجَّعة[٦]، قد وجدَها في كراريسَ لا أصلَ لها ولا معوَّل عليها، فيجعلها شعارَه ويترك ما دعا به رسولُه عليه الصلاة والسلام. وكلُّ هذا يمنعُ من استجابة الدعاء، كما تقدم في «البقرة» بيانُه[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠ .

(٢) سنن ابن ماجه (٣٨٦٤)، وأخرجه أحمد (١٦٨٠١) وأبو داود (٩٦) وعندهما: . . في الدعاء والطهور.

(٣) في المسألة الأولى.

(٤) في (خ) و(ز): التشطط.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠ .

(٦) أخرج البخاري (٦٣٣٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ...فانظر السَّجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عَهِدتُ رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب.

(٧) ٣/ ١٧٩ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ **فيه مسألةٌ واحدة**، وهو أنه سبحانه نهى عن كلِّ فساد قلَّ أو كَثُر بعد صلاحٍ قلَّ أو كَثُر. فهو على العموم على الصحيح من الأقوال. وقال الضحاكُ: معناه: لا تُعَوِّروا[1] الماءَ المَعِين، ولا تقطعوا الشجرَ المُثمِرَ ضِراراً. وقد وَرَد: قَطْعُ الدنانيرِ من الفساد في الأرض. وقد قيل: تجارة الحُكّام من الفساد في الأرض[2].

وقال القُشَيرِيُّ: المرادُ: ولا تُشْركوا، فهو نهي عن الشرك وسفكِ الدماء والهَرْجِ في الأرض، وأمرٌ بلزوم الشرائع بعدَ إصلاحها، بعد أن أصلَحَها اللهُ ببعثه[3] الرسلَ، وتقرير الشرائع ووضوح مِلَّة محمد ﷺ. قال ابن عطية[4]: وقائلُ هذه المقالة قَصَدَ إلى أكبر[5] فساد بعد أعظم صلاحٍ، فخصَّه بالذِّكر.

قلت: وأمَّا ما ذَكَره الضحاكُ؛ فليس على عمومه، وإنما ذلك إذا كان فيه ضررٌ على المؤمن، وأما ما يعود ضررُه على المشركين فذلك جائزٌ؛ فإن النبيَّ ﷺ قد عوَّر[6] ماءَ قَلِيبِ بدرٍ، وقطعَ شَجَرَ الكافرين[7]. وسيأتي الكلام في قطع الدنانير في «هود» إن شاء اللهُ تعالى[8].

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): لا تغوروا، والمثبت من (خ) و(م). وجاء في اللسان (عور): عوَّرت عيون المياه: إذا دفنتها وسددتها.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠ .

(٣) في (خ) و(ظ): ببعثة، وفي (د): يبعث.

(٤) في المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠ .

(٥) في (ظ): أكثر.

(٦) في النسخ: غور، والمثبت من (م)، وسلف معناها.

(٧) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٢٠ ، ٢/ ١٩١ .

(٨) في تفسير الآية (٨٦) منها.

قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَمَرَ بأن يكون الإنسانُ في حالة تَرَقُّبٍ وتخوُّف وتأميلٍ لله عزَّ وجلَّ، حتى يكون الرجاءُ والخوف للإنسان كالجناحين للطائر؛ يَحْمِلَانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدُهما هَلَكَ الإنسان[١]، قال الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]. فرجَّى وخوَّف. فيدعو الإنسانُ خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]. وسيأتي القولُ فيه. والخوفُ: الانزعاجُ لما لا يُؤْمَن مِن المَضَارِّ. والطَّمع: توقعُ المحبوب، قاله القشيريُّ.

وقال بعض أهل العلم: ينبغي أن يغلبَ الخوفُ الرجاءَ طولَ الحياة، فإذا جاء الموتُ غَلَب الرجاءُ[٢]. قال النبيُّ ﷺ: «لا يَمُوتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ بالله». صحيحٌ، أخرجه مسلم[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل: قريبةٌ. ففيه سبعةُ أوجه: أوّلها أن الرَّحْمةَ والرُّحم واحدٌ، وهي بمعنى العفو والغفران؛ قاله الزجاجُ، واختاره النحاس[٤]. وقال النَّضْرُ بنُ شُمَيْل: الرحمة مصدرٌ، وحقُّ المصدر التذكير؛ كقوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة:٢٧٥]. وهذا قريبٌ من قول الزجاج؛ لأنَّ الموعظة بمعنى الوعظِ[٥]. وقيل: أراد بالرَّحْمة الإحسانَ؛ ولأنَّ ما لا يكونُ تأنيثُه حقيقيًّا جازَ تذكيره، ذكره الجوهريُّ[٦]. وقيل: أَرَادَ بالرحمةِ هنا المَطَرَ؛ قاله الأخفش[٧]. قال: ويجوزُ أن يُذكَّر كما يذكَّر بعْضُ المؤنث. وأنشد:

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤١١ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) الحديث (٢٨٧٧)، وهو في مسند أحمد (١٤١٢٥) من حديث جابر ﷺ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣١ .

(٥) تفسير الرازي ١٤/ ١٣٧ .

(٦) في الصحاح (قرب).

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٥١٩ .

فـــلا مُـــزْنَـــةٌ وَدَقَـــت وَدْقَـــهـــا ولا أَرْضَ أَبْـــقَـــلَ إِبْـــقَـــالَـــهـــا[(١)]

وقال أبو عبيدة[(٢)]: ذُكِّر «قَرِيبٌ» على تذكير المكان، أي: مكاناً قريباً. قال عليُّ ابنُ سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال؛ لَكَان «قَرِيبٌ» منصوباً في القرآن، كما تقول: إن زيداً قريباً منك.

وقيل: ذُكِّر على النسب، كأنه قال: إنَّ رحمةَ اللهِ ذاتُ قُرْبٍ، كما تقول: امرأةٌ طالقٌ وحائضٌ[(٣)].

وقال الفَرَّاءُ: إذا كان القريبُ في معنى المسافة يُذَكَّر ويُؤنَّث، وإذا[(٤)] كان في معنى النسب يؤنثُ بلا اختلافٍ بينهم. تقول: هذه المرأةُ قريبتي، أي: ذاتُ قرابتي، ذكرهُ الجوهريُّ[(٥)].

وذكر غيره عن الفرَّاء: يقالُ في النسب: قريبةُ فلان، وفي غير النَّسَبِ يجوز التذكيرُ والتأنيث، يقال: دارُكَ مِنَّا قريبٌ، وفلانةُ منا قريبٌ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقال مَن احتجَّ له: كذا كلامُ العرب، كما قال امرؤ القيس:

لَـهُ الـوَيْـلُ إنْ أَمْـسَـى ولا أُمَّ هـاشـمٍ قَـرِيبٌ ولا الـبَـسْـبَـاسَـةُ ابـنـةُ يَـشْـكُـرا[(٦)]

قال الزجاج[(٧)]: وهذا خطأ؛ لأن سبيلَ المذكَّر والمؤنَّث أنْ يجريا على أفعالهما.

---

(١) البيت لعامر بن جوين الطائي، وهو في الكتاب ٢/ ٤٦ ، ومجاز القرآن ٢/ ٦٧ ، وخزانة الأدب ١/ ٤٥ . والمُزنة: واحدة المُزْن، وهي السحابة البيضاء. والوَدَق: المطر. وأبقلَ: أي: نبت بقلُه. خزانة الأدب.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٢١٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٢ .

(٤) في (م): وإن.

(٥) في الصحاح (قرب)، وينظر معاني الفراء ١/ ٣٨٠ - ٣٨١ .

(٦) سلف ٣/ ٤١٣ .

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٣٤٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣١ - ١٣٢ . وما قبله منه، وقول الفراء السالف في معاني القرآن له ١/ ٣٨٠ - ٣٨١ .

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾. ذكر شيئاً آخرَ من نِعَمه، ودَلَّ على وحدانيته وثبوتِ إلَهيَّتِه. وقد مضَى الكلامُ في الريح في «البقرة»[1]. ورياح جمعُ كَثْرة، وأرواح جمع قِلَّة. وأصل ريح: رِوح. وقد خطِئ مَن قال في جمع القلة: أرياح.

﴿بُشْرًۢا﴾ فيه سبع قراءات:

قرأ أهلُ الحرمين وأبو عمرو: «نُشُراً» بضم النون والشين[2]؛ جمع ناشِر على معنى النسب، أي: ذات نُشُر، فهو مثلُ: شاهد وشُهُد. ويجوز أن يكون جمع نَشُور؛ كرَسُول ورُسُل. يقال: ريح النشور: إذا أتت من هاهنا وهاهنا. والنَّشُور بمعنى المنشور؛ كالرَّكوب بمعنى المركوب. أي: وهو الذي يُرسل الرِّياح مُنْشَرة.

وقرأ الحسن وقتادة: «نُشْراً» بضم النون وإسكان الشين[3] مخفَّفاً من نُشُر؛ كما يقال: كُتْب ورُسْل.

وقرأ الأعمش وحمزة: «نَشْراً» بفتح النون وإسكان الشين على المصدر[4]، أعمل فيه معنى ما قبله، كأنه قال: وهو الذي يَنشر الرِّياح نَشْراً. نَشَرْتُ الشيءَ فانتشر، فكأنَّها كانت مطوية فنُشرت[5] عند الهُبُوب. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال من الرياح؛ كأنه قال: يرسل الرياح مُنْشِرة[6]، أي: مُحيية؛ من أنْشَر اللهُ الميتَ

(١) ٢/ ٢٩٨ عند تفسير الآية ١٩٧ منها.

(٢) يعني هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. السبعة ص٢٨٣، والتيسير ص١١٠.

(٣) وهي قراءة ابن عامر من السبعة.

(٤) وهي قراءة الكسائي أيضاً.

(٥) في (خ) و(ز): فتنتشر. وفي (ظ): تنشر. والمثبت من (م).

(٦) في (ظ): منتشرة.

فنَشَر[١]، كما تقول: أتانا رَكْضاً، أي: راكضاً. وقد قيل: إن نَشْراً ـ بالفتح ـ من النَّشْر الذي هو خلاف الطَّيِّ، على ما ذكرنا. كأن الريح في سكونها كالمطويَّة، ثم تُرسل من طَيِّها ذلك، فتصير كالمنفتحة. وقد فسره أبو عبيدة[٢] بمعنى: متفرِّقة في وجوهها، على معنى ينشرها هاهنا وهاهنا.

وقرأ عاصم: «بُشْراً» بالباء وإسكان الشين والتنوين؛ جمع بشير، أي: الرياح تُبَشِّر بالمطر، وشاهده قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم:٤٦]. وأصل الشين الضمُّ، لكن سُكِّنت[٣] تخفيفاً؛ كرسُل[٤] ورُسْل. ورُوي عنه «بَشْراً» بفتح الباء[٥]. قال النحاس: ويَقرأ: «بُشْراً»، و«بَشْراً»[٦]؛ مصدر بشَرَه يبشره بمعنى بشَّره. فهذه خمس قراءات. وقرأ اليمانِي: «بُشْرَى»[٧]، على وزن حُبْلَى. وقراءة سابعة: «بُشُراً»[٨] بضم الباء والشين.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ السحاب يُذَكَّر ويُؤَنَّث، وكذا كلُّ جمع بينه وبين واحدته هاء. ويجوز نعتُه بواحد؛ فتقول: سحابٌ ثقيلٌ وثقيلة[٩]. والمعنى: حملت الريحُ سَحاباً ثِقَالاً بالماء، أي: استقلت[١٠] بحمله. يقال: أقلَّ

---

(١) في (ظ): ينشره.

(٢) في (خ) و(ز) و(م): أبو عبيد. والمثبت من (ظ). وكلامه بنحوه في مجاز القرآن ١/ ٢١٧ .

(٣) في (ظ): وأسكنت.

(٤) في النسخ الخطية: كرسول. والمثبت من (م).

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٤ لعصمة عن عاصم. ونسبها ابن جني في المحتسب ١/ ٢٥٥ لأبي عبد الرحمن، والقراءة المتواترة عن عاصم هي التي ذكرها عنه أولاً.

(٦) ينظر إعراب القرآن ١/ ١٣٣ . وقوله: يقرأ، يعني عاصم.

(٧) القراءات الشاذة ص٤٤ ، والمحتسب ١/ ٢٥٥ ، وزادا نسبتها لابن قطيب.

(٨) في (م): بُشْرى. والمثبت موافق لإعراب القرآن. والقراءة نسبها ابن جني في المحتسب ١/ ٢٥٥ لابن عباس والسلمي بخلاف، وعاصم بخلاف.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٣ .

(١٠) في (م): أثقلت.

فلان الشيءَ، أي: حَمَله.

﴿سُقْنَهُ﴾ أي السحاب. ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي ليس فيه نبات. يقال: سقتُه لبلد كذا، وإلى بلد كذا. وقيل: لأجل بلد ميت؛ فاللام لام أَجْل.

والبلدُ: كلُّ موضع من الأرض عامرٍ أو غيرِ عامر، خالٍ أو مسكون[١].

والبلدة والبلد: واحد البلاد والبُلْدان.

والبَلَد: الأثر، وجَمْعه: أبلاد. قال الشاعر[٢]:

مِن بعدِ ما شَمِلَ البِلَى أبلادَها

والبلد: أُدْحِيُّ النَّعام[٣]. يقال: هو أَذَلُّ من بَيْضَة البلد؛ أي: من بيضة النعام التي يتركها.

والبلدة: الأرض؛ يقال: هذه بلدتنا، كما يقال: بَحْرَتُنا.

والبَلْدَة: من منازل القمر، وهي ستَّةُ أنْجُم من القوس، تنزلها الشمس في أقصر يوم في السَّنَة[٤].

والبلدة: الصَّدر؛ يقال: فلان واسع البلدة؛ أي: واسع الصدر؛ قال الشاعر:

أُنِيخَتْ فألقتْ بَلْدَةً فوقَ بلدةٍ قليلٍ بها الأصواتُ إلَّا بُغَامُها[٥]

يقول: بَرَكَتِ الناقةُ، فألقت صدرها على الأرض.

والبُلْدة؛ بفتح الباء وضمها: نقاوة ما بين الحاجبين[٦]؛ فهما من الألفاظ المشتركة.

---

(١) تهذيب اللغة ١٤/ ١٢٧.

(٢) هو ابن الرقاع، كما في الصحاح (بلد) ـ وعنه نقل المصنف ـ وتهذيب اللغة ١٤/ ١٢٩، واللسان (بلد).

(٣) هو موضعها الذي تفرِّخ فيه.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٤/ ١٢٨.

(٥) قائله ذو الرمة، والبيت في ديوانه ٢/ ١٠٠٤ (شرح الأصمعي). وقوله: بُغامها؛ بغام الناقة: صوت لا تفصح به. الصحاح (بغم).

(٦) الصحاح (بلد)، وما قبله منه.

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي: بالبلد. وقيل: أنزلنا بالسحاب الماء؛ لأن السحاب آلةٌ لإنزال الماء. ويحتمل أن يكون المعنى: فأنزلنا منه الماء، كقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] أي: منها.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الكاف في موضع نصب، أي: مثل ذلك الإخراج يحيي الموتى. وخرج البيهقيُّ وغيرُه: عن أبي رَزِين[1] العُقَيْلي قال: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُعيد اللهُ الخلقَ، وما آيةُ ذلك في خلقه؟ قال: «أمَا مَرَرْتَ بوادِي قومِك جَدْباً، ثم مَرَرْتَ به يَهْتَزُّ خَضِراً؟» قال: نعم، قال: «فتلكَ آيةُ اللهِ في خَلْقِهِ»[2].

وقيل: وجهُ التشبيه أنَّ إحياءَهم من قبورهم يكون بمطر يبعثُه اللهُ على قبورهم، فتنشقُّ عنهم القبورُ، ثم تعودُ إليهم الأرواحُ.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبيِّ ﷺ: «ثم يرسلُ اللهُ ـ أو قال: يُنزِلُ اللهُ ـ مَطَراً كأنه الطَّلُّ، فتَنْبُتُ منه أجسادُ الناس، ثم يقال: يا أيها الناسُ، هَلُمُّوا[3] إلى ربكم، وقِفُوهم إنَّهم مَسْؤولون». وذكر الحديث[4]. وقد ذكرناه بكماله في كتاب التذكرة[5] والحمد لله، فدَلَّ على البعث والنشور، وإلى الله ترجع الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾

---

(١) في النسخ الخطية: ابن رزين، والمثبت من (م). واسمه لقيط بن عامر.

(٢) هو عند البيهقي في الاعتقاد ص١٤٥ ، وفي الأسماء والصفات (١٠٦٩) و(١٠٧٠). وأخرجه أيضاً أحمد في مسنده (١٦١٩٣)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٦٠ .

(٣) في صحيح مسلم: هلم.

(٤) صحيح مسلم (٢٩٤٠). وأخرجه أيضاً أحمد (٦٥٥٥).

(٥) ص١٦٥ باب انقراض هذا الخلق وذكر هذا النفخ.

أي: التُّربة الطيِّبة. والخَبِيثُ: الذي في تربته حجارة أو شوك؛ عن الحسن. وقيل: معناه التشبيه، شبَّه تعالى السريعَ الفَهْم بالبلد الطَّيِّب، والبَلِيدَ بالذي خَبُثَ؛ عن النحاس[١]. وقيل: هذا مَثَلٌ للقلوب؛ فقلبٌ يقبل الوعظَ والذِّكْرى، وقلبٌ فاسقٌ يَنْبُو عن ذلك؛ قاله الحسن أيضاً. وقال قتادة: مَثَلٌ للمؤمن يعمل محتسِباً متطوِّعاً، والمنافق غير محتسب[٢]. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو يَعْلَمُ أحدُهم أنه يَجِدُ عَظْماً سَميناً، أو مِرْمَاتَيْن حَسَنَتَين لشَهِدَ العِشاء»[٣].

﴿نَكِدًا﴾ نصب على الحال، وهو العَسِرُ الممتنع من إعطاء الخير. وهذا تمثيل. قال مجاهد: يعني أن في بني آدم الطيب والخبيث[٤].

وقرأ طلحة: «إلَّا نَكْداً»[٥] حذف الكسرة لثقلها. وقرأ ابن القَعْقَاع: «نَكَداً» بفتح الكاف[٦]، فهو مصدر بمعنى: ذا نكد؛ كما قال:

فـإنَّـمَـا هِـيَ إقْـبَـالٌ وإدْبَـار[٧]

وقيل: «نَكَداً» بنصب الكاف وخفضها بمعنًى؛ كالدَّنَف والدَّنِف، لغتان[٨].

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: كما صَرَّفنا من الآيات - وهي الحجج والدِّلالات - في إبطال الشرك؛ كذلك نُصرِّف الآيات[٩] في كلِّ ما يحتاج إليه الناس. ﴿لِقَوْمٍ

---

(١) ينظر إعراب القرآن له ٢/ ١٣٤ .

(٢) أخرج نحوه الطبري ١٠/ ٢٥٩ .

(٣) أخرجه أحمد (٧٣٢٨)، والبخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقوله: مرماتين؛ المِرْماة: ظِلْفُ الشاة، وقيل: ما بين ظِلْفَيها، وتكسر ميمه وتفتح. النهاية (رمى).

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٥) القراءات الشاذة ص٤٤ .

(٦) ابن القعقاع هو أبو جعفر، من العشرة، وقراءته في النشر ٢/ ٢٧٠ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٤ . والبيت للخنساء وهو في ديوانها ص٤٨ ، وصدره: ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت، وسلف ٣/ ٥٤ .

(٨) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٢ .

(٩) قوله: الآيات، من (م).

﴿يَشۡكُرُونَ﴾ وخصَّ الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك.

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ لما بَيَّن أنه الخالق القادر على الكمال؛ ذَكَر أقاصيصَ الأمم وما فيها من تحذير الكفَّار. واللام في «لقد» للتأكيد المنبِّه على القسم. والفاء دالَّة على أنَّ الثاني بعد الأوَّل. ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ نداء مضاف، ويجوز: «يا قومي» على الأصل[1].

ونوحٌ أوَّلُ الرُّسل إلى الأرض بعد آدم عليهما السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات. قال النحاس[2]: وانصرف لأنه على ثلاثة أحرف، وقد يجوز أن يُشتقَّ من ناح ينوح؛ وقد تقدَّم في «آل عمران»[3] هذا المعنى وغيره فأغنَى عن إعادته.

قال ابن العربيّ: ومَن قال من المؤرِّخين: إنَّ إدْرِيسَ كان قبله[4]؛ فقد وَهِم. والدليلُ على صحة وهمِه الحديثُ الصحيحُ في الإسراء[5]، حين لقيَ النبيُّ ﷺ آدمَ وإدريس، فقال له آدم: «مَرْحَباً بالنبيِّ الصَّالحِ، والابنِ الصَّالح»، وقال له إدْرِيسُ: «مَرْحَباً بالنبيِّ الصَّالح، والأخِ الصالح» فلو كان إدريس أباً لنوح [على صلب محمد] لقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح، والابن الصالح. فلمَّا قال له: والأخ الصالح؛ دَلَّ ذلك على أنه يجتمع معه في نوح، صلوات الله عليهم أجمعين. ولا كلام لمنصف بعد هذا.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٤.

(٢) في إعراب القرآن ١/ ٣٦٨.

(٣) ٥/ ٩٤ عند الآية (٣٣).

(٤) في النسخ: ومن قال إن إدريس كان قبله من المؤرخين. والمثبت من أحكام القرآن ٢/ ٧٧٥. وما بين حاصرتين منه.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﷺ. وينظر حديث أبي بن كعب في مسند أحمد (٢١٢٨٨).

قال القاضي عياض[١]: وجاء جواب الآباء هاهنا؛ كنوح وإبراهيم وآدم: «مَرْحَباً بالابنِ الصَّالح»، وقال عن إدريس: «بالأخ الصالح» كما ذكر عن موسى وعيسى ويوسف وهارون ويحيى ممن ليس بِأبٍ ـ باتِّفاق ـ للنبيِّ ﷺ.

وقال المازرِيُّ[٢]: قد ذكر المؤرِّخون أنَّ إدريس جدُّ نوح عليهما السلام، فإن قام الدليلُ على أنَّ إدريس بُعِثَ أيضاً؛ لم يصحَّ قولُ النسَّابين: إنه قبل نوح؛ لِمَا أخبر عليه الصلاة والسلام من قول آدم: إنَّ نوحاً أوَّلُ رسول بُعث، وإنْ لم يقم دليلٌ جاز ما قالوا، وصحَّ أنْ يُحمل أنَّ إدريس كان نبيًّا غيرَ مرسل.

قال القاضي عياض[٣]: قد يُجمع بين هذا بأن يقال: اختصَّ بعثُ نوح لأهل الأرض ـ كما قال في الحديث[٤] ـ كافَّة؛ كنبيِّنا عليه الصلاة والسلام، ويكون إدريس لقومه كموسى وهود وصالح ولوط وغيرهم. وقد استدلَّ بعضهم على هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٣-١٢٤]. وقد قيل: إنَّ إلياسَ هو إدريسُ، وقد قُرِئ: «سلام على إدْرَاسِين»[٥].

قال القاضي عياض[٦]: وقد رأيت أبا الحسن ابنَ بَطَّال ذهب إلى أنَّ آدم ليس برسول؛ ليَسلم من هذا الاعتراض. وحديثُ أبي ذَرٍّ الطويل يدلُّ على أنَّ آدمَ وإدريس رسولان.

---

(١) في إكمال المعلم ١/ ٥٠٢ .

(٢) في المعلم ١/ ٣٤١ . ونقل المصنف عنه بواسطة إكمال المعلم ١/ ٥٧٥ .

(٣) في إكمال المعلم ١/ ٥٧٥ - ٥٧٦ .

(٤) حديث الشفاعة عند أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٨ لابن مسعود، وزاد ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٢٤ نسبتها ليحيى والأعمش والمنهال والحكم بن عيينة، وقال: فيجب أن يكون من تحريف العرب الكلم الأعجمي؛ لأنه ليس من لغتها.

(٦) إكمال المعلم ١/ ٥٧٦ .

قال ابن عطية[1]: ويجمع ذلك بأنْ تكون بعثةُ نوح مشهورةً لإصلاحِ الناس وحملِهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان؛ فالمراد أنه أوَّل نبيٍّ بُعث على هذه الصفة. والله أعلم. ورُوي عن ابن عباس: أنَّ نوحاً عليه السلام بُعث ابن[2] أربعين سنة. قال الكلبيُّ: بعد آدم بثمان مئة سنة.

وقال ابنُ عباس: وبقي في قومه يدعوهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً؛ كما أخبر التنزيل[3]، ثم عاش بعد الطوفان ستِّين سنة، حتى كثُر الناس وفَشَوْا[4]. وقال وهب: بُعث نوحٌ وهو ابنُ خمسين سنة[5]. وقال عَوْن بن شدَّاد: بُعث نوحٌ وهو ابنُ ثلاث مئة وخمسين سنة[6].

وفي كثير من كتب الحديث؛ الترمذيِّ وغيرِه: أنَّ جميعَ الخلق الآن من ذرِّيَّة نوحٍ عليه السلام[7].

وذكر النَّقَّاشُ عن سليمان بن أَرْقَم عن الزُّهريِّ: أنَّ العربَ وفارسَ والرومَ وأهلَ الشام وأهل اليمن من ولد سَامِ بن نوح. والسند والهند والزِّنج والحبشة والزُّطّ والنُّوبة، وكلُّ جلد أسود من ولد حَامِ بن نوح. والترك وبَرْبَرْ ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصقالبة؛ كلُّهم من ولد يَافِثَ بن نوح. والخلق كلُّهم ذرية نوح[8].

---

(١) في المحرر الوجيز ٢/ ٤١٦ . وحديث أبي ذرّ الذي أشار إليه المصنف سلف ذكره قريباً.

(٢) في (م): وهو ابن.

(٣) في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤].

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٦٠ - ٦١ موقوفاً. وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٤٥ - ٥٤٦ مرفوعاً.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٦ .

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٠ .

(٧) أخرج نحوه البزار (٢١٨) (زوائد) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وقال: لا نعلم أسنده عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة بهذا الإسناد... ورواه غيره مرسلاً، وإنما جعله من قول سعيد [بن المسيب] . اهـ . وأخرجه الحاكم ٤/ ٤٦٣ موقوفاً على سعيد بن المسيب وحديث الترمذي في التعليق التالي.

(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٦ . وأخرج الترمذي (٣٢٣٠) عن سمرة، عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧] قال: «حام وسام ويافث». وقال: حديث حسن غريب. =

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ برفع «غَيْرُهُ» قراءةُ نافع وأبي عمرو وعاصم وحمزة[١]؛ أي: ما لكم إلهٌ غيرُه؛ نعتٌ على الموضع. وقيل: «غير» بمعنى إلا؛ أي: ما لكم من إله إلا الله. قال أبو عمرو: ما أعرف الجرَّ ولا النصبَ. وقرأ الكسائيُّ بالخفض على الموضع. ويجوز النصب على الاستثناء، وليس بكثير؛ غير أنَّ الكسائي والفراءَ أجازا نصبَ «غير» في كل موضع يحسن فيه «إلّا»؛ تَمَّ الكلامُ أو لم يتمّ. فأجازا: ما جاءني غيرَك[٢].

قال الفراء[٣]: هي لغةُ بعضِ بني أَسَد وقُضَاعَة. وأنشد:

لم يَمْنَعِ الشُّرْبَ منها غيرَ أنْ هَتَفَتْ حمامةٌ في سَحُوقٍ ذاتِ أَوْقَالِ[٤]

قال الكسائيُّ: ولا يجوز: جاءني غيرَك، في الإيجاب؛ لأن إلا لا تقع هاهنا. قال النحاس[٥]: لا يجوز عند البصريين نصبُ «غير» إذا لم يتمَّ الكلام، وذلك عندهم من أقبح اللَّحن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

«المَلأُ»: أشراف القوم ورؤساؤهم، وقد تقدَّم بيانه في «البقرة»[٦].

= وأخرجه أيضاً (٣٢٣١) عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم». وهو في مسند أحمد (٢٠٠٩٩).

(١) وهي أيضاً قراءة ابن كثير وابن عامر. السبعة ص٢٨٤ ، والتيسير ص١١٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٤ - ١٣٥ وجواز نصب «غيره» يعني في اللغة لا في القراءة.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٣٨٢ . ونقل عنه المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٥ .

(٤) نسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٢٩ لكناني، ونُسب في شرح شواهد المغني ١/ ٤٥٨ وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٨٠ لأبي قيس بن رفاعة. وذكره في اللسان (وقل) دون نسبة، وقال: السحوق: ما طال من الدَّوْم (وهو ضِخام الشجر)، وأوقاله: ثماره.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ١٣٥ وما قبله منه.

(٦) ٤/ ٢٢٨ عند الآية ٢٤٦ .

والضَّلَالُ والضَّلَالَةُ: العُدول عن طريق الحقّ والذهاب عنه، أي: إنَّا لَنراك في دعائنا إلى إله واحد في ضلال عن الحقّ.

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بالتشديد من التبليغ، وبالتخفيف من الإبلاغ(١). وقيل: هما بمعنًى واحد لغتان؛ مثلُ كرَّمه وأكرمه.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ النُّصح: إخلاصُ النية من شَوائب الفساد في المعاملة، بخلاف الغِشّ. يقال: نصحتُه، ونصحتُ له، نَصيحةً ونَصاحة ونُصْحاً، وهو باللام أفصح؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾. والاسم: النصيحة. والنَّصِيح: الناصِحُ، وقوم نُصحاء. ورجل ناصح الجَيْب، أي: نقيُّ القلب. قال الأصمعيُّ: الناصح: الخالصُ من العسل وغيرِه، مثلُ الناصع. وكلُّ شيء خَلَص فقد نَصَح. وانتَصَح فلان، أي: قَبِل النصيحة(٢). يقال: انْتَصِحْني إنني لك ناصح. والناصح: الخياط. والنِّصاح: السلك يُخاط به. والنِّصاحات أيضاً: الجلود. قال الأعشى(٣):

فتَرَى الشَّرْبَ(٤) نَشَاوَى كُلَّهُمْ ... مِثْلَ ما مُدَّتْ نِصاحاتُ الرُّبَحْ

الرُّبَحُ لغةٌ في الرُّبَع؛ وهو الفَصِيل. والرُّبَح أيضاً طائر. وسيأتي لهذا زيادة معنًى في براءة [الآية: ٩٢] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ فُتحت الواو لأنها واو عطف، دخلت عليه ألف

(١) قرأ أبو عمرو: «أُبْلِغُكم» بالتخفيف، وقرأ باقي السبعة بالتشديد. السبعة ص٢٨٤، والتيسير ص١١١.

(٢) في النسخ: وانتصح فلان أقبل على النصيحة. والمثبت من الصحاح (نصح) والكلام منه.

(٣) ديوانه ص٤١.

(٤) في الصحاح (نصح)، وتهذيب اللغة ٤/ ٢٤٩: القوم. والشَّرْبُ: القوم يشربون. القاموس (شرب).

الاستفهام للتقرير. وسبيل الواو أن تدخلَ على حروف الاستفهام، إلا الألف لقوَّتها[١]. ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ أي: وَعْظٌ من ربكم. ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: على لسان رجل. وقيل: «على» بمعنى «مَعَ»، أي: مع رجل. وقيل: المعنى: أن جاءكم ذكرٌ من ربكم، مُنَزَّلٌ على رجل منكم، أي: تعرفون نسبه، أو[٢]: على رجل من جنسكم. ولو كان مَلَكاً؛ فربما كان في اختلاف الجنس تنافرُ الطبع. و«الفُلْك» يكون واحداً، ويكون جمعاً. وقد تقدَّم في «البقرة»[٣].

و﴿عَمِينَ﴾ أي: عن الحقّ؛ قاله قتادة. وقيل: عن معرفة الله تعالى وقدرته؛ يقال: رجلٌ عَمٍ بكذا، أي: جاهل[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال ابن عباس: أي: ابن أبيهم[٥]. وقيل: أخاهم في القبيلة. وقيل: أي: بَشَراً من بني أبيهم آدم. وفي مصنف أبي داود أن أخاهم هوداً؛ أي: صاحبهم[٦].

وعاد من ولد سام بن نوح؛ قال ابن إسحاق: وعاد هو ابن عَوْص بن إرم بن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) في (م): أي.

(٣) ٢/ ٢٩٤ عند تفسير الآية ١٦٤ منها.

(٤) تفسير الواحدي ٢/ ٣٨٠ - ٣٨١ .

(٥) ذكره الواحدي في تفسيره ٢/ ٣٨١ دون نسبة.

(٦) لم نقف عليه.

شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام[١].

وهود: هو هود بن عبد الله بن رباح بن الخُلُود[٢] بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح؛ بعثه الله إلى عاد نبيًّا، وكان من أوسطهم نَسَباً، وأفضلهم حَسَباً[٣].

و«عاد» مَن لم يصرفْه جعله اسماً للقبيلة، ومَن صرفه جعله اسماً للحيِّ. قال أبو حاتم: وفي حرف أبيٍّ وابن مسعود: «عاد الأولى» بغير ألف[٤].

و«هود» أعجمي، وانصرف لخفته؛ لأنه على ثلاثة أحرف، وقد يجوز أن يكون عربياً مشتقًّا من هاد يهود، وانتصب[٥] على البدل. وكان بين هود ونوح ـ فيما ذكر المفسرون ـ سبعة آباء. وكانت عادٌ فيما رُوِيَ ثلاثَ عشرةَ قبيلة، ينزلون الرمال؛ رملَ عالج[٦]، وكانوا أهلَ بساتينَ وزروع وعِمارة، وكانت بلادهم أخصبَ البلاد، فسخط الله عليهم؛ فجعلها مفاوز، وكانت ـ فيما رُوِيَ ـ بنواحي حضرموت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام. ولحق هودٌ حين أُهلك قومُه بمن آمن معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا[٧].

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي: في حُمق وخِفَّة عقل. قال:

مَشَيْنَ كما اهتزَّتْ رِماحٌ تَسَفَّهتْ أعالِيَها مَرُّ الرياحِ النَّوَاسِمِ[٨]

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٦٨، وليس فيه: ابن شالخ بن أرفخشد. ولم ترد كذلك في المحبَّر ص٣٨٤. والمنتظم ١/ ٢٥٢، وعرائس المجالس ص٦٢.

(٢) في (خ) و(د) و(م): الجلود. وفي (ز): الحلود. والمثبت من (ظ). وهو الموافق لتاريخ الطبري ١/ ٢١٦، وعرائس المجالس ص٦٣، والمنتظم ١/ ٢٥٢ وقال: بضم الخاء واللام، كذلك رأيته... ويقال: بالجيم المكسورة واللام المفتوحة.

(٣) عرائس المجالس ص٦٣.

(٤) ذكرها الرازي في تفسيره ٢٩/ ٢٣ دون نسبة، وهي من الآية (٥٠) في سورة النجم.

(٥) في (م): والنصب.

(٦) في مجمع البيان ٣/ ٩٦: الأحقاف، وهي رمال يقال لها: رمل عالج.

(٧) تفسير الطبري ١٠/ ٢٦٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٨، ومجمع البيان ٣/ ٩٦.

(٨) قائله ذو الرمة. وتقدم ١/ ٣١١.

وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة» [الآية:١٣].

والرؤية هنا وفي قصة نوح قيل: هي من رؤية البصر. وقيل: يجوز أن يراد بها الرأيُ؛ الذي هو أغلبُ الظَّنِّ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ «خلفاء» جمع خليفة على التذكير والمعنى، وخلائف على اللفظ[١]؛ مَنَّ عليهم بأن جعلهم سُكَّان الأرض بعد قوم نوح[٢].

﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ ويجوز «بصطة» بالصاد؛ لأنَّ بعدها طاء[٣]، أي: طولاً في الخلق وعِظم الجسم. قال ابن عباس: كان أطولُهم مئةَ ذراع، وأقصرُهم ستِّين ذراعاً[٤]. وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم. وقيل: على خلق قوم نوح. قال وهب: كان رأسُ أحدِهم مثلَ قبَّة عظيمة، وكان عينُ الرجل يفرخ فيها السِّبَاع، وكذلك مناخرهم[٥].

ورَوَى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: إنْ كان الرجلُ من قوم عادٍ ليتخذ[٦] المِصراعين من حجارة، لو اجتمع عليها خمس مئة[٧] من هذه الأمَّة لم يطيقوه، وإنْ كان أحدُهم ليغمِزُ بقدمه[٨] الأرضَ فتدخل فيها[٩].

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نِعَم الله، واحدها: إِلًى وإِلْيٌ وإِلْوٌ وأَلًى؛ كالآناء؛

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٦ .

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٦٦ عن السدي وابن إسحاق. وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤١٧ .

(٣) قرأ قنبل وحفص وهشام وأبو عمرو وحمزة بخلاف عن خلاد بالسين، وباقي السبعة بالصاد، وهو الوجه الثاني لخلَّاد. السبعة ص١٨٥ - ١٨٦ ، والتيسير ص٨١ .

(٤) ذكره أبو الليث في تفسيره ١/ ٥٥٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٢٢ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ١٧٠ ، وهذه الأخبار من الإسرائيليات.

(٦) في (م): يتخذ. والمثبت من النسخ الخطية موافق لتفسير الطبري ٢٢/ ١٣٧ .

(٧) في (د) و(ز) و(م): خمس مئة رجل. والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لتفسير الطبري.

(٨) في (د) و(ز) و(م): برجله. والمثبت من (خ) و(ظ).

(٩) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٣٧ - ١٣٨ . وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد. وشهر بن حوشب كثير الإرسال والأوهام؛ كما ذكر الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب.

واحدها: إِنَى وإِنْيٌ وإِنْوٌ وأَنَى. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تقدَّم[(١)].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

طلبوا العذاب الذي خوَّفهم به وحذَّرهم منه، فقال لهم: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾. ومعنى وقع، أي: وجب. يقال: وَقَع القولُ والحُكم، أي: وجب، ومثله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ [الأعراف: ١٣٤] أي: نزل بهم. ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢]. والرِّجْسُ: العذابُ. وقيل: عُني بالرجس الرَّيْنُ على القلب بزيادة الكفر. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ يعني الأصنامَ التي عبدوها، وكان لها أسماءٌ مختلفة. ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حُجَّة لكم في عبادتها، فالاسم هنا بمعنى المسمَّى، نظيره: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤]. وهذه الأسماء مثل العُزّى من العِزّ والأعزّ، واللّات، وليس لها من العزّ والإلهية شيء. ﴿دَابِرَ﴾: آخِر، وقد تقدَّم[(٢)]، أي: لم يبقَ لهم بقية.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

وهو ثمود بن عاد[(٣)] بن إرم بن سام بن نوح. وهو أخو جَدِيس، وكانوا في سَعَةٍ

---

(١) ١/ ٢٧٧.

(٢) ٦/ ٤٢٧.

(٣) كذا في الأصول الخطية و(م) والعرائس ص٦٨، وعنه نقل المصنف. وفي تاريخ الطبري ١/ ٢٢٦، وفي تفسيره ١٠/ ٢٨٢، والمحبّر لابن حبيب ص٣٨٤، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٤٦٢: جاثر. وفي الكشاف ٢/ ٨٩، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٣: عابر. وفي المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٠: غاثر.

من معايشهم، فخالفوا أمرَ الله، وعبدوا غيرَه، وأفسدوا في الأرض، فبعث الله إليهم صالحاً نبيًّا؛ وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح[١] بن عبيد بن حاذر[٢] بن ثمود، وكانوا قوماً عُرْباً، وكان صالحٌ من أوسطهم نَسَباً، وأفضلهم حَسَباً، فدعاهم إلى الله تعالى حتى شَمِط[٣]، ولا يتبعه منهم إلا قليلٌ مستضعَفون[٤].

ولم ينصرف «ثمود» لأنه جُعل اسماً للقبيلة. وقال أبو حاتم: لم ينصرف لأنه أعجمي[٥]. قال النحاس[٦]: وهذا غلط؛ لأنه مشتق من الثَّمَد، وهو الماء القليل. وقد قرأ القراء: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾[٧] [هود: ٦٨] على أنه اسم للحيّ.

وكانت مساكنُ ثمود الحِجرَ بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. وهم من ولد سام بن نوح.

وسُمِّيت ثمودَ لقلة مائها[٨]. وسيأتي بيانه في «الحجر»[٩] إن شاء الله تعالى.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أخرج لهم الناقةَ حين سألوه من حَجَر صَلْد، فكان لها يومٌ تشرب فيه ماءَ الوادي كلَّه، وتسقيهم مثلَه لَبَناً؛ لم يُشْرَب قطُّ ألذُّ وأحلى منه، وكان بقدر حاجتهم على كثرتهم؛ قال الله تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ

(١) في (خ) و(ز): ما اسخ. وفي تاريخ الطبري ١/ ٢٢٦ : ماسخ. وفي (م): كاشح. وسقطت من (د). والمثبت من (ظ) وهو الموافق للعرائس ص٦٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٣ .

(٢) في (خ) و(ز) و(ظ): حادر. وفي تاريخ الطبري ١/ ٢٢٦ ، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٣ : خادر. والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق للعرائس ص٦٨ .

(٣) الشَّمَط: بياض شعر الرأس يخالط سواده. مختار الصحاح (شمط).

(٤) عرائس المجالس ص٦٨ . وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٦ .

(٥) في (د) و(م): اسم أعجمي.

(٦) في إعراب القرآن، وما قبله منه.

(٧) قرأ حفص وحمزة: «ثمود» بغير تنوين، والباقون بالتنوين. السبعة ص٣٣٧ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٨) نسب هذا القول البغوي ٢/ ١٧٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٢٣ ، والثعلبي في العرائس ص٦٨ لأبي عمرو بن العلاء.

(٩) عند تفسير الآية (٨٠) منها.

﴿مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وأُضيفت الناقةُ إلى الله عزَّ وجلَّ على جهة إضافةِ الخلق إلى الخالق، وفيه معنى التشريف والتخصيص[١].

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس عليكم رزقُها ومؤونتُها[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه محذوف، أي: وبوأكم في الأرض منازل. ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون القصور بكلِّ موضع[٣]. ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم؛ فإنَّ السقوف والأبنية كانت تَبلى قبل فَناء أعمارهم[٤].

وقرأ الحسن بفتح الحاء، وهي لغة، وفيه حرف من حروف الحلق؛ فلذلك جاء على فَعَل يفْعَل[٥].

الثانية: استدلَّ بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها، وبقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ذُكر أنَّ ابناً لمحمد ابن سِيرين بَنَى داراً، وأنفق فيها مالاً كثيراً؛ فذُكر ذلك لمحمد بن سِيرين فقال: ما أَرَى بأساً أن يبنيَ الرجلُ بناءً ينفعه.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢١ ، وتفسير الرازي ١٤/ ١٦٣ .

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٣٨٣ .

(٣) نسب الواحدي ٢/ ٣٨٣ هذا القول لابن عباس.

(٤) الواحدي ٢/ ٣٨٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٧ . وزاد ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٤ نسبة القراءة للأعرج.

ورُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا أَنْعَمَ اللهُ على عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يُرَى أثرُ النِّعْمَةِ عليه»(١). ومن آثار النعمة البناء الحسن، والثياب الحسنة، ألا تَرى أنه لو اشترَى جاريةً جميلةً بمالٍ عظيم؛ فإنه يجوز، وقد يكفيه دون ذلك؛ فكذلك البناء.

وكَرِه ذلك آخرون، منهم الحسنُ البصريُّ وغيرُه، واحتجُّوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أَرَادَ اللهُ بعبدٍ شرّاً أَهْلَكَ مالَهُ في الطِّينِ واللَّبِنِ»(٢)، وفي خبر آخر عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ بَنَى فوقَ ما يَكْفيه؛ جاءَ به يومَ القيامةِ يحملُهُ على عُنُقِه»(٣).

قلت: بهذا أقول؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «وما أنفقَ المؤمنُ من نَفَقة، فإنْ

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٢٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أيضاً أحمد (٦٧٠٨)، والترمذي (٢٨١٩) من حديث عبد الله بن عمرو، وقال الترمذي: حديث حسن. وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٩٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٢٠٠) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢/(١٧٥٥)، وفي الأوسط (٩٣٦٥)، وفي الصغير (١١٢٧)، ومن طريقه الخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ٣٨١ من حديث جابر ﷺ، ولفظه: «إذا أراد الله بعبد شرّاً خضّر له في اللَّبن والطين حتى يبني» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٦٩ : رجاله رجال الصحيح خلا شيخ الطبراني؛ ولم أجد من ضعّفه. وجوَّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب عقب (٢٧٩٤).
وأخرجه بنحوه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٠٧١ من حديث أنس ﷺ، وفي إسناده أبو يحيى الوقار المصري، قال ابن عدي: كان يضع الحديث ويوصلها.
وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٣٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٢٠) من حديث محمد بن بشر الأنصاري، بنحوه وقال: لا يروى إلا بهذا الإسناد.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/(١٠٢٨٧)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٨٤، وابن جميع الصيداوي في معجم الشيوخ ص١١٥ ، وأبو نعيم في الحلية ٢٤٦/٨ و ٢٥٢ ، والبيهقي في الشعب (١٠٧١١) من حديث ابن مسعود ﷺ مرفوعاً. قال ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ١١٥ - ١١٦ : حديث باطل لا أصل له بهذا الإسناد. وقال المنذري في الترغيب والترهيب عقب (٢٧٩٦): رواه الطبراني في الكبير من رواية المسيب بن واضح، وهذا الحديث مما أنكر عليه، وفي سنده انقطاع. وقال الذهبي في الميزان ٤/ ١١٦ : هذا حديث منكر.

خَلَفَها على الله عزَّ وجلَّ؛ [فالله] ضامن[١]، إلَّا ما كان في بُنيانٍ أو مَعْصية». رواه جابر بن عبد الله، وخرَّجه الدَّارَقُطْني[٢]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «ليس لابنِ آدمَ حَقٌّ في سِوَى هذه الخِصال: بيتٍ يَسكُنُه، وثوبٍ يوارِي عورتَه، وجِلْفِ الخبزِ والماءِ» أخرجه الترمِذي[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نِعَمَه. وهذا يدلُّ على أنَّ الكفار مُنْعَمٌ عليهم. وقد مضى في «آل عمران»[٤] القولُ فيه.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ تقدَّم في البقرة[٥]. والعِثِيُّ والعُثُوُّ لغتان. وقرأ الأعمش: «تِعْثَوا» بكسر التاء، أخذه من عَثِيَ يَعْثَى، لا من عَثا يَعْثو[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ الثاني بدلٌ من الأوَّل، لأنَّ المستضعفين هم المؤمنون. وهو بدلُ البعضِ من الكلِّ.

---

(١) ما بين حاصرتين من المستدرك للحاكم ٢/ ٥٠، ولفظ «ضامن» من (ظ).

(٢) في سننه (٢٨٩٥) وأوله: «كل معروف صدقة، وما أنفق الرجل على أهله ونفسه؛ كتب له صدقة، وما وقى الرجل به عرضه؛ كتب له به صدقة...». وأخرجه بتمامه أبو يعلى في مسنده (٢٠٤٠)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٠ .

(٣) في سننه (٢٣٤١) من حديث عثمان بن عفان ﷺ، وأخرجه أيضاً أحمد (٤٤٠)، وهو حديث لا يصح كما سلف الكلام ٥/ ٥٧ .

(٤) ٥/ ٤٨٢ .

(٥) ٢/ ١٤٢ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٧ وقد كسر التاء في المضارع، لأن ماضيه مكسور العين، وهي لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز. الكتاب ٤/ ١١٠ ، وانظر تفسير الآية (١١٧) الآتي. عند قوله: تلقف ما يأفكون. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦ قراءة الأعمش (في سورة البقرة الآية ٦٠).

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ العَقْر: الجَرْح. وقيل: قَطْعُ عضوٍ يؤثِّر في النفس. وعَقَرْتُ الفرسَ: إذا ضربتَ قوائمَه بالسيف. وخيل عَقْرَى[١]. وعقرتُ ظهرَ الدابة: إذا أدْبَرْتَه.

قال امرؤ القيس:

تقولُ وقدْ مالَ الغَبِيطُ بنا معاً عَقَرْتَ بعِيري يا امرأَ القَيْسِ فانْزِلِ[٢]

أي: جَرَحتَه وأدْبَرتَه. قال القشيريُّ: العَقْر كسف[٣] عُرْقوب البعير، ثم قيل للنحر: عَقْر؛ لأن العَقْر سببُ النحر في الغالب.

وقد اختُلف في عاقر الناقة على أقوال؛ أصحُّها ما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن زَمْعَة قال: خَطَبَ رسولُ الله ﷺ فذَكَرَ النَّاقة، وذَكَرَ الذي عَقَرَها، فقال: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢]؛ انبعثَ لها رَجُلٌ عزيزٌ عارِمٌ مَنِيعٌ في رَهْطِهِ مِثْلُ أبي زَمْعة» وذكر الحديث[٤].

وقيل في اسمه: قُدار بن سالف.

وقيل: إنَّ مُلْكَهم كان إلى امرأة يقال لها: ملكا، فحسدت صالحاً لمَّا مال إليه

---

(١) في النسخ الخطية: عقارى. والمثبت من (م)، وهو الموافق لمجمل اللغة ٢/ ٦٢١ والكلام منه.

(٢) ديوان امرئ القيس ص١١ . والغبيط: الرَّحْل، وهو للنساء، يشدُّ عليه الهودج، واللسان (غبط).

(٣) في (ظ): كسر، وكذا في فتح القدير ٢/ ٢٢٠ . وفي (م): كشف؛ وينظر تهذيب اللغة ١/ ٢١٥ . قال في اللسان (كسف): الكسف: قطع العرقوب... وكسف عرقوبه: قطع عصبته دون سائر الرِّجل.

(٤) صحيح مسلم (٢٨٥٥). وأخرجه أيضاً البخاري (٤٩٤٢)، وأحمد (١٦٢٢٢) والعارم: الخبيث الشرير. النهاية (عرم). وأبو زَمْعَةَ المذكور: هو الأسود بنُ المطلب بن أسد، أحد المستهزئين، مات على كفره بمكة، وهو جدُّ عبد الله بن زمعة راوي الحديث. الفتح ٨/ ٧٠٦ .

الناس، وقالت لامرأتين كان لهما خليلان يعشقانِهما: لا تطيعاهما، واسألاهما عَقْرَ الناقة، ففعلتا. وخرج الرجلان وألجآ الناقة إلى مَضِيق، ورماها أحدُهما بسهم، وقتلاها. وجاء السَّقْبُ ـ وهو ولدها ـ إلى الصخرة التي خرجت الناقة منها فرَغَا ثلاثاً، وانفرجت(١) الصخرة، فدخل فيها؛ فيقال: إنه الدَّابة التي تخرج في آخر الزمان على الناس؛ على ما يأتي بيانه في النمل(٢).

وقال ابن إسحاق: اتبع السَّقْبَ أربعةُ نَفَر ممن كان عَقَر الناقة، مِصْدَع وأخوه ذُؤَاب، فرماه مصدع بسَهْم فانتظم قلبَه، ثم جرَّه برجله فألحقه بأمِّه، وأكلوه معها(٣). والأوّل أصحُّ. وإنَّ صالحاً قال لهم: إنه بَقِيَ من عمركم ثلاثة أيام، ولهذا رَغَا ثلاثاً. وقيل: عقرها عاقرُها ومعه ثمانية رجال، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل:٤٨] على ما يأتي بيانه في «النمل»(٤). وهو معنى قولِه: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩]. وكانوا يشربون، فأعوزهم الماءُ ليمزجوا شرابهم، وكان يوم لبن الناقة، فقام أحدهم وترصد الناقة(٥) وقال: لأرِيحَنَّ الناسَ منها، فعقرها.

قوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا. عَتَا يَعْتُو عُتُوًّا، أي: استكبر. وتَعَتَّى فلان: إذا لم يُطِعْ. والليل العاتِي: الشديد الظلمة؛ عن الخليل(٦).

﴿وَقَالُوا يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من العذاب. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة(٧). وقيل: كانت صيحةً شديدةً خَلعتْ قلوبَهم؛ كما في سورة هود في

---

(١) في (م): انفجرت.

(٢) عند تفسير الآية (٨٢) منها. وينظر عرائس المجالس ص٧١ .

(٣) العرائس ص٧٢ .

(٤) عند تفسير الآية (٤٨) منها.

(٥) في (خ): للناس. وفي (ز) و(م): الناس، ولم تجود في (د) والمثبت من (ظ).

(٦) كتاب العين ٢/ ٢٢٦ .

(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٣٥٠ .

قصة ثمود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [٦٧][١]. يقال: رَجَف الشيءُ، يرْجُف رَجْفاً وَرَجَفَاناً. وأرجفت الريحُ الشجرَ: حرَّكته[٢]. وأصلُه: حركة مع صوت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات:٦]. قال الشاعر:

ولـمَّـا رأيـتُ الـحـجَّ قـد آنَ وَقـتُـه   وظَلَّتْ مَطايا القومِ بالقوم تَرْجُفُ[٣]

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ أي: بلدهم. وقيل: وُحِّد على طريق الجنس، والمعنى: في دورهم. وقال في موضع آخر: ﴿فِى دِيَٰرِهِمْ﴾ [هود:٦٧و٩٤] أي: في منازلهم.

﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي: لاصقين بالأرض على رُكَبهم ووجوههم؛ كما يجْثُم الطائر، أي: صاروا خامدين من شدَّة العذاب. وأصل الجُثُوم للأرنب وشبهها، والموضع مَجْثَم. قال زهير:

بـهـا الـعِـيْـنُ والآرَامُ يَـمْـشِـيـنَ خِـلْـفَـةً   وأطلاؤها يَنْهَضْنَ مِن كُلِّ مَجْثَمِ[٤]

وقيل: احترقوا بالصاعقة فأصبحوا مَيِّتين، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله؛ فلمَّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه[٥].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: عـنـد الـيـأس مـنـهـم .﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم، ويحتمل أنه قاله بعد موتهم؛ كقوله

---

(١) في النسخ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾. وهي من سورة الحجر الآية (٨٣)، وليست في سورة هود.

(٢) تهذيب اللغة ١١/ ٤٢ - ٤٣ .

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وذكر نحوه السمين في الدر المصون ٥/ ٣٦٨ ونسبه لابن أبي ربيعة؛ ولم نقف عليه في ديوانه، وينظر البحر المحيط ٤/ ٣١٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ . والبيت في ديوان زهير ص٥ ، وقال ثعلب شارحه: «العِين»: البقر، الواحدة عيناء، والذكر أعين. و«الآرام»: الظباء البيض الخوالص البياض. و«خِلْفة»: إذا مضى فوج جاء آخر. و«الطَّلا»: ولد البقرة، وولد الظبية الصغير. وقوله: «ينهضن من كل مجثم»: أراد أنهن يُنِمْنَ أولادهن إذا أرضعنهن، ثم يَرعَين، فإذا ظننَّ أنَّ أولادهن قد أنفدن ما في أجوافهن من اللبن؛ صوَّتن بأولادهن، فينهضن للأصوات ليشربن.

(٥) أخرجه أحمد (١٤١٦٠) من حديث جابر مرفوعاً، وأبو داود (٣٠٨٨) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً. والرجل هو أبو رغال.

عليه الصلاة والسلام لِقَتْلَى بَدْر: «هَلْ وَجدتُم ما وَعَدَ رَبُّكم حَقّاً؟» فقيل: أتُكلِّم هؤلاء الجِيفَ؟! فقال: «ما أنتم بأسْمَعَ منهم، ولكنَّهم لا يَقْدِرونَ على الجَوابَ»[1].

والأوَّل أظهر؛ يدلُّ عليه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: لم تقبلوا نُصْحِي.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الفرَّاء: لوطٌ مشتقٌّ من قولهم: هذا أَلْيَطُ بقلبي، أي: أَلصق[2]. وقال النحاس[3]: قال الزجاج[4]: زعم بعضُ النحويين - يعني الفرَّاءَ - أنَّ لوطاً يجوز أن يكونَ مشتقًّا من لُطْتُ الحوض: إذا ملَّسته بالطين. قال: وهذا غلط؛ لأن الأسماءَ الأعجمية لا تُشتقّ، كإسحاق، فلا يقال: إنه من السُّحق، وهو البُعد.

وإنما صُرف «لوط» لخِفَّته؛ لأنه على ثلاثة أحرف، وهو ساكنُ الوسط[5].

قال النقَّاش: «لوط» من الأسماء الأعجميَّةِ، وليس من العربية.

فأما لُطْتُ الحوضَ، وهذا أَلْيَطُ بقلبي من هذا، فصحيح. ولكن الاسمَ أعجميٌّ، كإبراهيم وإسحاق[6].

---

(١) أورده بهذا اللفظ الواحدي في الوسيط ٢/ ٣٨٥ . وأخرجه بنحوه أحمد (١٨٢)، ومسلم (٢٨٧٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ. وأخرجه أيضاً أحمد (٤٨٦٤)، والبخاري (١٣٧٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٠٢٠)، ومسلم (٢٨٧٤) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٦٣٦١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) لم نقف عليه في معاني القرآن للفراء، وذكره النحاس والزجاج، كما سيأتي.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ١٣٧ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٥) الصحاح (لوط)، وتفسير الرازي ١٤/ ١٦٨ .

(٦) هذا الكلام للزجاج، وهو تتمة كلامه السابق.

قال سيبويه[١]: نُوحٌ ولُوطٌ أسماءٌ أعجمية، إلَّا أنها خفيفة؛ فلذلك صُرِفت.

بعثه اللهُ تعالى إلى أُمَّةٍ تُسمَّى سَدُوم، وكان ابنَ أخي إبراهيم[٢]. ونَصْبُه إما بـ«أرْسَلْنا» المتقدِّمةِ[٣] فيكونُ معطوفاً. ويجوز أن يكونَ منصوباً بمعنى: واذكُر[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعني: إتْيَانَ الذُّكور. ذكرها اللهُ باسم الفاحشة ليبيِّنَ أنها زِنًى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢].

واختلف العلماءُ فيما يجب على مَن فعل ذلك، بعد إجماعِهم على تحريمه، فقال مالك: يُرْجَم؛ أَحْصَن أو لم يُحصن. وكذلك يُرجم المفعولُ به إن كان محتلِماً. ورُوي عنه أيضاً: يُرجم إن كان مُحْصَناً، ويُحبس ويُؤدَّب إن كان غيرَ مُحصَن. وهو مذهب عطاءٍ والنخعيِّ وابنِ المسيَّب وغيرهم[٥]. وقال أبو حنيفة: يُعَزَّر المُحصَنُ وغيره؛ وروي عن مالك. وقال الشافعيّ: يحدُّ حَدَّ الزِّنَى قياساً عليه.

احتجَّ مالكٌ بقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]. فكان ذلك عقوبةً لهم وجزاءً على فِعْلهم.

فإن قيل: لا حُجَّة فيها لوجهين: أحدهما: أنَّ قوم لوطٍ إنما عُوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم. الثاني: أنَّ صغيرَهم وكبيرَهم دخل فيها؛ فدلَّ على خروجها من باب الحدود.

قيل: أمَّا الأوَّل فَغلَطٌ؛ فإنَّ الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصٍ فأخذهم بها؛ منها هذه. وأمَّا الثاني؛ فكان منهم فاعلٌ، وكان منهم راضٍ، فعُوقب

---

(١) الكتاب ٣/ ٢٣٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤ ، وينظر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٤ .

(٣) عند قوله تعالى: «لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه...» الآية (٥٩).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٧ .

(٥) نقل عنهم ابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٧٧٦ أن مذهبهم: الرجم أحصن أو يحصن.

الجميعُ؛ لسكوت الجماهير عليه. وهي حكمةُ الله وسُنَّته في عباده. وبَقِيَ أمرُ العقوبةِ على الفاعلين مستمِرًّا. والله أعلم.

وقد رَوَى أبو داود وابنُ ماجه والترمِذيُّ والنسائيُّ والدَّارَقُطْنيُّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن وجدتُموه يعمل عملَ قومِ لوط، فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ به». لفظ أبي داود وابنِ ماجه[1]. وعند الترمِذيِّ: «أَحْصَنا أوْ لم يُحصنا»[2].

وروى أبو داود والدارقطنيُّ عن ابن عباس في البِكر يُوجد على اللُّوطية، قال: يُرجَم[3].

وقد رُوي عن أبي بكر الصدِّيق ﷺ أنه حرَّق رجلاً يُسمَّى الفُجاءَةَ حين عَمِلَ عَمَلَ قومِ لوطٍ بالنار[4]. وهو رأيُ عليِّ بن أبي طالب، فإنه لمَّا كتب خالدُ بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك، جمع أبو بكر أصحابَ النبيِّ ﷺ واستشارهم فيه، فقال عليٌّ: إنَّ هذا الذنبَ لم تَعْصِ به أُمَّةٌ من الأُمم إلَّا أمَّةٌ واحدة؛ صنعَ اللهُ بها ما عَلمتم، أرى أن يُحرقَ بالنار. فاجتمع رأيُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ أن يُحرقَ بالنار. فكتب أبو بكر إلى خالد بنِ الوليد أن يَحرقَه بالنار، فأحرقه[5]. ثم أحرقهم ابنُ الزبير في زمانه[6]. ثم

---

(١) سنن أبي داود (٤٤٦٢)، وسنن ابن ماجه (٢٥٦١)، وسنن الترمذي (١٤٥٦)، وسنن النسائي الكبرى (٧٢٩٧)، وسنن الدارقطني (٣٢٣٤)، وهو في مسند أحمد (٢٧٣٢) كلهم من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به. ولفظ النسائي: «لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط» ثلاثاً. قال البخاري ـ كما في العلل الكبير للترمذي ٢/ ٦٢٢ ـ: عمرو بن أبي عمرو صدوق، ولكن روى عن عكرمة مناكير. قال الترمذي: ولم يذكر في شيء من ذلك أنه سمع من عكرمة. وقال ابن معين: عمرو ثقة، يُنكر عليه حديث عكرمة، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «اقتلوا الفاعل والمفعول به» ميزان الاعتدال ٣/ ٢٨٢ . وينظر الكلام السالف في هذه المسألة في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧٧ .

(٢) لم نقف على هذا اللفظ عند الترمذي، وأخرجه البزار من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه عاصم بن عمر العمري، فيما ذكره الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ٥٥ ، وقال: لا يصح، وعاصم متروك.

(٣) سنن أبي داود (٤٤٦٣)، وسنن الدارقطني (٣٢٣٥)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٧٢٩٨).

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٥ .

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٣٢ .

(٦) ذكره ابن المنذر في الإشراف ٢/ ٣٦ .

أحرقهم هشام بنُ الوليد. ثم أحرقهم خالدٌ القَسْريُّ بالعراق[١].

ورُوي أنَّ سبعةً أُخذوا في زمن ابنِ الزبير في لِوَاط، فسأل عنهم، فوجد أربعةً قد أُحْصِنوا، فأمر بهم، فخرجوا بهم[٢] من الحرم، فرُجِموا بالحجارة حتى ماتوا، وحدَّ الثلاثة؛ وعنده ابنُ عباس وابنُ عمر فلم يُنكِرا عليه[٣]. وإلى هذا ذهب الشافعيّ[٤].

قال ابن العربيّ: والذي صار إليه مالكٌ أحقُّ، وهو أصحُّ سنداً وأقوى مُعتَمَداً. وتعلَّق الحنفيون بأنْ قالوا: عقوبةُ الزِّنَى معلومة، فلمَّا كانت هذه المعصيةُ غيرَها، وجب ألَّا تُشاركَها في حدِّها، ويأثُرون في هذا حديثاً: «مَن وضع حدًّا في غير حَدٍّ، فقد تعدَّى وظَلَم»[٥]. وأيضاً فإنه وَطِئ[٦] في فَرْجٍ لا يتعلَّق به إحلالٌ ولا إحصان، ولا وجوبُ مهر ولا ثُبوتُ نسب، فلم يتعلَّق به حدّ[٧].

الثالثة: فإنْ أتى بهيمةً، فقد قيل: لا يُقتلُ هو ولا البهيمة. وقيل: يقتلان؛ حكاه ابنُ المُنذِر[٨] عن أبي سلمةَ بنِ عبد الرحمن. وفي الباب حديثٌ رواه أبو داود والدَّارقطنيُّ عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن وقع على بهيمةٍ فاقتلوه واقتلوا البهيمةَ معه». فقلنا لابن عباس: ما شأنُ البهيمة؟ قال: ما أُراه قال ذلك إلَّا أنه كَرِه أن يُؤكل لحمُها وقد عُمل بها ذلك العمل[٩].

---

(١) المحلى ١١/ ٣٨١ . وخالد القسري: هو خالد بن عبد الله الدمشقي، أبو الهيثم، أمير العراقين لهشام ابن الوليد، توفي سنة (١٢٦هـ). السير ٥/ ٤٢٥ .

(٢) في النسخ: فخرج بهم، والمثبت من (م).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٣٣ .

(٤) لم نقف عليه، وسلف أن الشافعي يقول فيمن فعل ذلك: يُحَد حدَّ الزاني، وهو كذلك في الإشراف ٢/ ٣٦ ، والاستذكار ٢٤/ ٧٨ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧٦ .

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٣٢٧ ، وقال: المحفوظ هذا الحديث مرسل.

(٦) في (م): وطء.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧٦ -٧٧٧ .

(٨) في الإشراف ٢/ ٣٧ .

(٩) سنن أبي داود (٤٤٦٤)، وسنن الدارقطني (٣٢٣٧)، وأخرجه الترمذي (١٤٥٥)، والنسائي في الكبرى (٧٣٠٠). والمرفوع منه عند أحمد (٢٤٢٠).

قال ابن المنذر[١]: إنْ يَكُ الحديثُ ثابتاً، فالقولُ به يجب، وإن لم يثبُت، فليستغفر اللهَ مَن فعلَ ذلك كثيراً، وإن عزَّره الحاكمُ كان حسناً. والله أعلم.

وقد قيل: إنَّ قَتْلَ البهيمة لئلَّا تُلْقيَ خَلْقاً مُشَوَّهاً؛ فيكونُ قتلُها مصلحةً لهذا المعنى مع ما جاء من السنَّة. والله أعلم.

وقد روى أبو داود عن ابن عباس قال: ليس على الذي زنى بالبهيمة حدٌّ. قال أبو داود: وكذا قال عطاء. وقال الحَكَم: أرى أنْ يجلدَ ولا يبلغَ به الحدّ. وقال الحسن: هو بمنزلة الزاني[٢].

وقال الزُّهريّ: يُجلد مئة؛ أحصَن أو لم يُحصن. وقال مالك والثَّوريُّ وأحمدُ وأصحاب الرأي: يعزَّر. ورُوي عن عطاء والنَّخعيِّ والحكَم. واختلفت الروايات[٣] عن الشافعيّ، وهذا أشبه على مذهبه في هذا الباب[٤]. وقال جابر بنُ زيد: يُقام عليه الحدّ، إلَّا أن تكونَ البهيمةُ له.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «مِن» لاستغراق الجِنس، أي: لم يكن اللِّواطُ في أمَّة قبل قومِ لوط. والمُلحِدون يزعمون أنَّ ذلك كان قبلَهم. والصِّدقُ ما ورد به القرآن.

وحكى النقَّاشُ أنَّ إبليس كان أصْلَ عملهم، بأنْ دعاهم إلى نفسه لعنه الله، فكان ينكح بعضُهم بعضاً. قال الحسن[٥]: كانوا يفعلون ذلك بالغُرَباء[٦]، ولم يكن يفعله بعضُهم ببعض.

---

(١) في الإشراف ٢/ ٣٧ - ٣٨.

(٢) سنن أبي داود (٤٤٦٥)، وأخرجه الترمذي (١٤٥٥).

(٣) في (م): الرواية.

(٤) في الإشراف ٢/ ٣٧ (والكلام منه): واشتبه عليَّ مذهب الشافعي في هذا الباب، لأن الروايات قد اختلفت عنه. اهـ.

(٥) في (ز) و(د): النحاس.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤.

وروى ابن ماجه عن جابر بنِ عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أخاف على أُمَّتي عملُ قومِ لوط»[(١)]. وقال محمد بنُ سِيرين: ليس شيء من الدوابِّ يعمل عملَ قوم لوطٍ إلَّا الخنزيرَ والحمار[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ﴾ قرأ نافع وحفصٌ على الخبر بهمزةٍ واحدة مكسورة، تفسيراً للفاحشة المذكورة، فلم يحسُن إدخالُ الاستفهام عليه؛ لأنه يقطع ما بعده ممَّا قبله. وقرأ الباقون بهمزتين على لفظ الاستفهامِ[(٣)] الذي معناه التوبيخ، وحسُن ذلك؛ لأن ما قبلَه وبعده كلامٌ مستقِلّ.

واختار الأوَّلَ أبو عبيد والكِسائيُّ وغيرهما؛ واحتجُّوا بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ولم يقل: أفَهُم؟ وقال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ولم يقل: أنقلبتم؟ وهذا من أقبح الغَلَط؛ لأنهما شبَّها شيئين بما لا يشتبهان؛ لأن الشَّرط وجوابَه بمنزلة شيءٍ واحد، كالمبتدأ والخبر؛ فلا يجوز أنْ يكونَ فيهما استفهامان. فلا يجوز: أفإنْ مِتَّ أفهم؟ كما لا يجوز: أزيدٌ أمنطلق؟ وقصةُ لوطٍ عليه السلامُ فيها جملتان، فلك أن تستفهمَ عن كلٍّ واحدةٍ منهما. هذا قولُ الخليل وسيبويه، واختاره النحاس ومكِّي وغيرهما[(٤)].

﴿شَهْوَةً﴾ نصب على المصدر، أي: تشتهونهم شهوةً. ويجوز أن يكونَ مصدراً في موضع الحال[(٥)].

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٥٦٣)، وأخرجه أحمد (١٥٠٩٣)، والترمذي (١٤٥٧) وقال: حديث حسن غريب.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص١٣٢. وسلف ٧/ ١١٩.

(٣) السبعة ص٢٨٥، والتيسير ص١١١.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٧ - ١٣٨، وينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٦٨.

(٥) تفسير الرازي ١٤/ ١٦٨.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ نظيره: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] في جمعكم إلى الشِّرك هذه الفاحشةَ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم﴾ أي: لوطاً وأتباعَه. ومعنى «يَتَطهَّرُونَ» عن الإتيان في هذا المَأْتَى. يقال: تطهَّر الرجل، أي: تنزَّه عن الإثم. قال قتادة: عابوهم ـ واللهِ ـ بغير عَيْب[1].

﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في عذاب الله، قاله ابنُ عباس وقتادة[2]. غَبَرَ الشيءُ إذا مَضَى، وغَبَرَ إذا بَقي، وهو من الأضداد. وقال قوم: الماضي: عابر، بالعين غير مُعْجَمة. والباقي: غابر، بالغين معجمة. حكاه ابنُ فارسٍ في «المجمَل»[3].

وقال الزَّجاج[4]: «مِنَ الغابرين» أي: من الغائبين عن النجاة، وقيل: لطول عمرها.

قال النحاس: وأبو عُبيدةَ يذهب إلى أنَّ المعنى: من المُعَمَّرين؛ أي: إنها قد هَرِمتْ. والأكثرُ في اللغة أنْ يكونَ الغابرُ الباقي، قال الراجز:

فما وَنَى محمدٌ مُذْ أنْ غَفَرْ   لـه الإلـهُ ما مضى وما غَبَرْ[5]

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾

سَرَى لُوطٌ بأهله كما وصفَ اللهُ: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]، ثم أمر جبريلَ

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٠٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٠٩.

(٣) ٣/ ٦٩٠.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٥٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥١، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢١٨. والرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص٦٧. قال شارحه الأصمعي: فما وَنى: فما فتر.

عليه السلام، فأدخل جناحَه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سَمِعَ أهلُ السماء صياحَ الدِّيَكَةِ ونُباحَ الكلاب، ثم جعل عاليَها سافلَها، وأُمطرت عليهم حجارةٌ من سِجِّيل، قيل: على مَن غاب منهم. وأدرك امرأةَ لوط ـ وكانت معه ـ حجرٌ فقتلها. وكانت ـ فيما ذُكر ـ أربعَ قُرًى. وقيل: خمس، فيها أربع مئة ألف[1]. وسيأتي في سورة هودٍ[2] قصةُ لوط بأبينَ من هذا، إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ قيل في «مَدْين»: اسمُ بلدٍ وقُطْر. وقيل: اسم قبِيلة، كما يقال: بَكْر وتَمِيم. وقيل: هم من ولد مَدْيَن بنِ إبراهيم الخليل عليه السلام. فمن رأى أنَّ «مدين» اسمُ رجل لم يَصرِفْه؛ لأنه معرفةٌ أعجميّ. ومن رآه اسماً للقبيلة أو الأرض، فهو أحْرَى بأن لا يصرفَه. قال المهدويّ: ويروى أنه كان ابنَ بنتِ لوط. وقال مكيّ: كان زوجَ بنت لوط[3].

---

(١) عرائس المجالس ص١٠٧ - ١٠٨، والمحرر الوجيز ٢/٤٢٦. وما ذكره المصنف رحمه الله عن اقتلاع جبريل لمدائنهم ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة... ليس فيه نص صحيح.

(٢) عند تفسير الآيات (٧٧ - ٨٣).

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٢٦.

واختُلف في نَسبه، فقال عطاء وابنُ إسحاق وغيرهما: وشعيب: هو ابن ميكيل ابنِ يشجر بن مدين بن إبراهيمَ عليه السلام. وكان اسمه بالسُّريانية: يثرون[١]. وأمُّه ميكائيل بنتُ لوط. وزعم الشَّرْقيُّ بن قُطامي[٢] أنَّ شعيباً: ابنُ عَيْفَا بنِ يَوْيَبَ[٣] بن مَدْين بن إبراهيم. وزعم ابنُ سمعان[٤] أن شعيباً: ابن جزى بنِ يشجر[٥] بن لاوِي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وشُعيب تصغير شَعْب أو شِعْب[٦]. وقال قتادة: هو شُعيب بنُ يَوْيَبَ. وقيل: شعيب بنُ صيفون[٧] بنِ عيفا بن ثابت بن مَدْين بن إبراهيم. والله أعلم. وكان أعمى؛ ولذلك قال قومه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾[٨] [هود: ٩١]. وكان يقال له: خطيبُ الأنبياء، لحُسْن مُراجعته قومَه[٩]. وكان قومُه أهلَ كفرٍ بالله وبَخسٍ للمكيال والميزان.

---

(١) في النسخ: بيروت، والمثبت من تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٤ (تحقيق الشيخ محمود شاكر رحمه الله)، والكامل لابن الأثير ١/ ١٥٧ ، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٤٢٧ (وفي مطبوعه: بثرون) وقال: وفي هذا نظر.

(٢) الوليد بن الحصين، والشرقي لقبه، له نحو عشرة أحاديث فيها مناكير، كان عالماً بالنسب وافر الأدب، ضم المنصور إليه المهديَّ ليأخذ من أدبه. ميزان الاعتدال ٢/ ٢٦٨ .

(٣) في (خ): ثويب، وفي معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠١ (والكلام منه): نويب، والمثبت من (ز) و(ظ) و(م)، وكذلك قيَّدها السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٠٢ فقال: يوبب بوزن جعفر، أوله مثّاة تحتيَّة وبعد الواو موحدتان.

(٤) عبد الله بن زياد بن سليمان بن سمعان المخزومي، أبو عبد الرحمن المدني، مولى أم سلمة، كذَّبه مالك، وقال أحمد: متروك. تهذيب التهذيب ٢/ ٣٣٦ .

(٥) في (ز) و(ظ): حره بن يسحر، وفي (خ): جزه بن يسحر، والمثبت من (م) ومعاني القرآن للنحاس.

(٦) في تكملة الصحاح وتاج العروس (شعب): قال الصاغاني: شُعيب يمكن أن يكون تصغير شَعْب أو أشعب.

(٧) في النسخ: صفوان، والمثبت من تاريخ الطبري ١/ ٣٢٥ ، وعرائس المجالس ص١٦٧ .

(٨) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٦٨ من قول ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٩) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٣٢٧ والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٦٨ مرسلاً. وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٤٢٩ من حديث ابن عباس، وفيه إسحاق بن بشر، وهو متروك.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بيان، وهو مجيءُ شعيب بالرسالة. ولم يُذكر له معجزةٌ في القرآن[١]. وقيل: معجزته - فيما ذكر الكِسائيُّ - في قصص الأنبياء.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ البَخْس: النقص. وهو يكون في السِّلعة بالتعييب والتزهيدِ فيها، أو المُخادعةِ عن القيمة، والاحتيالِ في التزيُّد في الكيل والنُّقصانِ منه[٢]. وكلُّ ذلك مِن أكل المالِ بالباطل، وذلك مَنْهيٌّ عنه في الأُمم المتقدِّمة والسالفةِ على ألسنة الرسلِ صلواتُ الله وسلامُه على جميعهم، وحسبُنا اللهُ ونعم الوكيل.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ عطف على «ولا تبخسوا». وهو لفظٌ يعمُّ دقيقَ الفساد وجليلَه.

قال ابن عباس: كانت الأرضُ قبل أن يبعثَ اللهُ شعيباً رسولاً يُعمل فيها بالمعاصي، وتُسْتَحَلُّ فيها المحارمُ، وتُسفكُ فيها الدماء. قال: فذلك فسادُها. فلمَّا بعث الله شعيباً ودعاهم إلى الله؛ صلَحت الأرض. وكلُّ نبيٍّ بُعث إلى قومه فهو صلاحُهم[٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ نهاهم عن القُعود بالطُّرق والصَّدِّ عن الطريق الذي يؤدِّي إلى طاعة الله، وكانوا يُوعِدون العذابَ مَن آمن.

واختلف العلماء في معنى قعودِهم على الطريق[٤] على ثلاثة مَعان: قال ابن عباس وقتادة ومجاهدٌ والسُّدِّي: كانوا يقعدون على الطُّرقات المُفضِية إلى شعيب، فيتَوعَّدون من أراد المجيءَ إليه ويَصُدُّونه ويقولون: إنه كذابٌ فلا تذهبْ إليه، كما

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧٨ .

(٣) لم نقف عليه، وذكر أبو الليث في تفسيره ١/ ٩٦ نحوه ، وسلف ١/ ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٤) في (م): الطرق.

كانت قريشٌ تفعله مع النبيِّ ﷺ. وهذا ظاهرُ الآية.

وقال أبوهريرة: هذا نهيٌ عن قطع الطريق، وأخذِ السَّلَب، وكان ذلك مِن فِعْلهم[١]. ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «رأيتُ ليلةَ أُسريَ بي خشبةً على الطريق، لا يمرُّ بها ثوبٌ إلَّا شقَّتْه، ولا شيءٌ إلا خرقته، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا مَثَلٌ لقومٍ من أمَّتك يقعدون على الطريق، فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾» الآية[٢]. وقد مضى القولُ في اللصوص والمحارِبين[٣]، والحمد لله.

وقال السُّدِّيُّ أيضاً كانوا عَشَّارين متقبلين[٤].

قال علماؤنا[٥]: ومِثْلُهم اليومَ هؤلاء المكَّاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يَلزَمُهم شرعاً من الوظائف الماليَّةِ بالقهر والجَبْر؛ فضمَّنوا ما لا يجوز ضمانُ أصله من الزكوات[٦] والمواريثِ والملاهي، والمترتِّبون في الطرق، إلى غير ذلك مما قد كثر في الوجود، وعُمل به في سائر البلاد. وهو من أعظمِ الذنوب وأكبرِها وأفحشِها؛ فإنه غَصْبٌ وظُلْم وعَسْفٌ على الناس، وإذَاعَةٌ للمنكر وعملٌ به، ودوامٌ عليه وإقرارٌ له، وأعظمُه تضمينُ الشرع والحُكم للقضاء، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لم يبقَ من الإسلام إلا رَسْمُه، ولا من الدِّين إلا اسمُه. يَعْضُد هذا التأويلَ ما تقدَّم من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والبَخْس.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ الضمير في «به» يَحتمل أن يعودَ على اسم اللهِ تعالى، وأن يعودَ على[٧] شعيب في قول مَن رأى القعودَ على الطريق للصدّ، وأن

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٧ ، والأقوال السالفة أخرجها الطبري ١٠/ ٣١٣ - ٣١٤ .

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٣١٤ ، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) ٦/ ١٤٨ .

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٣١٤ ، دون قوله: متقبلين.

(٥) قوله: قال علماؤنا، ليس في (م).

(٦) في (م): الزكاة.

(٧) في (م): إلى.

يعودَ على السبيل. ﴿عِوَجًا﴾ قال أبو عُبيدة والزجَّاج: كسرُ العين في المعاني، وفتحُها في الأجرام[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي: كثَّر عددَكم، أو كثَّركم بالغِنى بعد الفقر. أي: كنتم فقراءَ فأغناكم.

﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ ليس هذا أمراً بالمُقام على الكفر، ولكنه وعيدٌ وتهديدٌ[(٢)]. وقال: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ فذكَّر على المعنى، ولو راعى اللفظَ قال: كانت[(٣)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ تقدَّم معناه[(٤)]. ومعنى «أو لَتَعُودُنَّ في مِلَّتنا» أي: لَتَصِيرُنَّ إلى مِلَّتنا. وقيل: كان أتباعُ شعيبٍ قبل الإيمانِ به على الكفر، أي: لَتعودُنَّ إلينا كما كنتم من قبل[(٥)].

قال الزجَّاج[(٦)]: يجوز أن يكونَ العَودُ بمعنى الابتداء؛ يقال: عاد إليَّ[(٧)] من فلان

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٧، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢١٩ - ٢٢٠، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٤.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٩.

(٤) تقدم معنى الملأ ٤/ ٢٢٨، ومعنى الاستكبار ١/ ٤٤١ - ٤٤٢.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ١٨١.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٥٥، وينظر زاد المسير ٣/ ٢٣١.

(٧) في معاني القرآن للزجاج وزاد المسير: عليَّ.

مكروه، أي: صار، وإن لم يكن سبقه مكروهٌ قبل ذلك، أي: لَحِقني ذلك منه. فقال لهم شعيب: «أَوَ لو كُنَّا كارهين» أي: ولو كنا كارهين تُجبروننا عليه؟! أي: على الخروج من الوطن، أو العَوْدِ في مِلَّتكم. أي: إنْ فعلتم هذا أتيتم عظيماً.

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ إياسٌ من العَود إلى مِلَّتهم. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ قال أبو إسحاق الزجَّاج[1]: أي: إلَّا بمشيئة الله عزَّ وجلَّ، قال: وهذا قول أهلِ السُّنَّة أي: وما يقع منَّا العَوْدُ إلى الكفر إلا أنْ يشاءَ اللهُ ذلك. فالاستثناءُ منقطع[2].

وقيل: الاستثناء هنا على جِهة التسليم لله عزَّ وجلَّ؛ كما قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود:٨٨]. والدليل على هذا أنَّ بعده ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾[3].

وقيل: هو كقولك: لا أُكلِّمك حتى يَبْيَضَّ الغراب، وحتى يلجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاط. والغرابُ لا يَبْيَضُّ أبداً، والجمل لا يلجُ في سَمِّ الخِياط[4].

قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: عَلِم ما كان وما يكون. «عِلْماً» نصب على التمييز.

وقيل: المعنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾ أي: في القرية بعد أنْ كرهتم مجاورَتنا، بل نخرجُ من قريتكم مُهاجرين إلى غيرها. «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ» رَدَّنا إليها[5]. وفيه بُعد؛ لأنه يقال: عاد للقرية، ولا يقال: عاد في القَرْية.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٥٥، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٩.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٩٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٥.

(٤) قوله: في سمِّ الخياط، من (م). وذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٨، وقال: هذا تأويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله تعالى، فلا يترتب هذا التأويل إلا عندهم، وهذا تأويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه.

(٥) تفسير الرازي ١٤/ ١٧٨، ومجمع البيان ٩/ ١١٨ - ١١٩.

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: اعتمدنا. وقد تقدَّم في غير موضع[١]. ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ قال قتادة: بعثه اللهُ إلى أُمَّتَيْن: أهلِ مدينِ وأصحابِ الأَيْكَة[٢].

قال ابن عباس: وكان شعيبٌ كثيرَ الصلاة، فلما طال تمادي قومِه[٣] في كُفرهم وغيِّهم، ويَئِسَ من صلاحهم، دعا عليهم فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾. فاستجابَ اللهُ دعاءَه، فأهلكهم بالرَّجْفة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: قالوا لِمَن دونهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: هالكون. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزَّلْزلة، وقيل: الصَّيحة. وأصحابُ الأَيْكَة أُهلِكوا بالظُّلَّة، على ما يأتي[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ قال الجُرجانيّ: قيل: هذا كلامٌ مستأنَف؛ أي: الذين كذَّبوا شعيباً صاروا كأنهم لم يزالوا موتى. و«يَغْنَوْا»: يقيموا؛ يقال: غَنِيتُ بالمكان: إذا أقمت به. وغَنِيَ القومُ في دارهم، أي: طال

---

(١) ٥/ ٢٩٠ - ٢٩٢.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٣٢٧، وأخرجه في التفسير ١٠/ ٣٢٢ من قول السدي. قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٤٣٨: ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أُمَّة أخرى غير أهل مدين فقولُه ضعيف.

(٣) في (خ): فلما طال تماديهم.

(٤) عرائس المجالس ص١٦٧ - ١٦٨.

(٥) في تفسير الآيات (١٧٦ - ١٨٩) من سورة الشعراء.

مُقامُهم فيها. والمَغْنَى: المنزل، والجمع المَغَاني[1]. قال لَبِيد[2]:

وغَنِيتُ سَبْتاً[3] قبلَ مَجْرى دَاحِسٍ ... لو كان للنَّفْس اللَّجُوجِ خُلودُ[4]

وقال حاتمُ طَيِّىء:

غَنِينا[5] زماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى ... [كما الدَّهرُ في أيامه العُسرُ واليُسرُ]

[كَسَيْنا صُروفَ الدَّهْر لِيناً وغِلْظَةً] ... وكلًّا سقاناه بكأسيهما[6] الدهرُ

فما زادنا بأواً[7] على ذي قرابة ... غِنَانَا ولا أَزْرَى بأحسابنا الفَقْرُ

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ابتداءُ خطاب، وهو مبالغةٌ في الذمِّ والتوبيخ، وإعادةٌ لتعظيم الأمر وتفخيمِه. ولمَّا قالوا: من اتَّبع شعيباً خاسر، قال الله: الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول. ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أي: أحزن. أَسِيتُ على الشيء آسَى أَسًى، وأنا آسٍ[8].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ فيه إضمارٌ، وهو: فكذَّب أهلُها إلَّا

---

(١) تهذيب اللغة ٨/ ٢٠٢، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٢.

(٢) في ديوانه ص٣٥.

(٣) في (ز) و(ظ) و(م): ستًّا، وفي (خ): بيتاً، وهو تحريف، والمثبت من الديوان ومصادر البيت.

(٤) قال الطوسي شارح الديوان: غنيتُ: عِشْتُ. سبتاً: دهراً. ويقال: إن السبت ثمانون سنة. داحس: فرس. اللَّجوج: العاصية.

(٥) في الديوان المطبوع ص٥١: غُنينا، وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٦) في (م): بكأسهما.

(٧) في النسخ: بغياً، والمثبت من الديوان، والبَأْو: الكِبْر والفخر. ينظر الخزانة ٤/ ٢١٣ - ٢١٤.

(٨) مجمل اللغة ١/ ٩٦.

أخذناهم .﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ تقدَّم القولُ فيه[١].

﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ أي: أبدلناهم بالجَدْب خِصْباً[٢]. ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: كثُروا، عن ابن عباس[٣]. وقال ابن زيد: كثُرت أموالُهم وأولادهم[٤]. وعفا: من الأضداد. عفا: كَثُر. وعفا: دَرَس[٥]. أعلم اللهُ تعالى أنَّه أخذهم بالشِّدَّة والرَّخاءِ فلم يزدجِروا ولم يَشكروا. ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ فنحن مثلُهم. ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ أي: فجأة؛ ليكون أكثرَ حسْرةً.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ يقال للمدينة: قرية؛ لاجتماع الناسِ فيها. مِن: قَرَيْتُ الماء: إذا جمعتَه. وقد مضى في «البقرة» مستوفًى[٦]. ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ أي: الشِّرك. ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: المطرَ والنبات[٧]. وهذا في أقوامٍ على الخصوص جرى ذِكْرُهم. إذ قد يُمتحن المؤمنون بضيق العيشِ، ويكونُ تكفيراً لذنوبهم. ألا ترى أنه أخبر عن نوحٍ إذ قال لقومه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ [نوح: ١٠-١١]. وعن هود: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ [هود: ٥٢]. فوعدهم المطرَ والخِصْبَ على التخصيص. يدلُّ عليه: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي: كذَّبوا الرُّسُل، والمؤمنون صدَّقوا، ولم يُكذِّبوا.

---

(١) ٣/ ٦٢ - ٦٣ .

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٦ - ٥٥٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٣٠ .

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٣٠ من قول مجاهد.

(٥) الأضداد لابن الأنباري ص٨٦ .

(٦) ٢/ ١٢٢ .

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٥٥٧ ، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٣ .

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الاستفهامُ للإنكار، والفاءُ للعطف[١]، نظيره: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

والمراد بالقُرى مكةُ وما حولَها؛ لأنهم كذَّبوا محمداً ﷺ. وقيل: هو عامٌّ في جميع القُرى. ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابُنا. ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾[٢].

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ قرأ[٣] الحِرْمِيَّان وابنُ عامر بإسكان الواو للعطف[٤]، على معنى الإباحة؛ مثل: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، جالِس الحسنَ أو ابنَ سِيرين. والمعنى: أو أمنوا هذه الضُّروبَ من العقوبات، أي: إنْ أمنتم ضرباً منها لم تأمَنوا الآخَر. ويجوز أنْ يكونَ «أو» لأحد الشيئين، كقولك: ضربت زيداً أو عَمْراً. وقرأ الباقون بفتحها بهمزةٍ بعدَها. جَعَلها واوَ العطف دَخلتْ عليها ألفُ الاستفهام، نظيره ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾ [البقرة: ١٠٠].

ومعنى ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: وهم فيما لا يُجدي عليهم؛ يقال لكلِّ مَن كان فيما يَضُرُّه ولا يُجدي عليه: لاعب، ذَكَره النحاس[٥].

وفي الصحاح: اللَّعِب معروف، واللِّعْب مثلُه، وقد لعِب يلعَب. وتَلَعَّبَ: [لَعِبَ]

---

(١) قال الزمخشري في كشافه ٢/ ٩٨: فإن قلتَ: ما المعطوف عليه، ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلتُ: المعطوف عليه قوله: «فأخذناهم بغتةً»، وقوله: «ولو أن أهل القُرى» إلى «يكسبون» وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطف بالفاء؛ لأن المعنى: فعلوا وصنعوا، فأخذناهم بغتة، أبَعْدَ ذلك أَمِنَ أهل القُرى أن يأتيهم بأسُنا بياتاً، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحًى؟.

(٢) الوسيط ٢/ ٣٨٩، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٣.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): قرأه.

(٤) الحِرْميّان: ابن كثير ونافع، وقرأ ورش على أصله بإلقاء حركة الهمزة على الواو. السبعة ص٢٨٦-٢٨٧، والتيسير ص١١١، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٦٨ - ٤٦٩.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٥٨.

مرَّةً بعد أخرى. ورجلٌ تِلْعابة: كثير اللَّعِب، والتَّلْعاب ـ بالفتح ـ المصدر. وجارية لَعُوبٌ[١].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابه وجزاءه على مَكْرِهم. وقيل: مَكْرُه: استدراجُه بالنعمة والصِّحة[٢].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي: يُبيِّن. ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ يريد كفَّار مكةَ ومَنْ حولهم. ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ أي: أخذناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بِكُفرهم وتكذيبهم. ﴿وَنَطْبَعُ﴾ أي: ونحن نَطبع؛ فهو مستأنَف. وقيل: هو معطوفٌ على أصبنا، أي: نُصيبهم ونَطبع؛ فوقع الماضي مَوْقعَ المستقبل[٣].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: هذه القُرى التي أهلكناها، وهي قُرى [قوم] نُوح وعادٍ ولُوط وهُودٍ[٤] وشُعَيْبٍ المُتقدِّمةُ الذِّكر. ﴿نَقُصُّ﴾ أي: نتلو. ﴿عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾

---

(١) الصحاح (لعب)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) الوسيط ٢/ ٣٩٠، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٤.

(٣) الوسيط ٢/ ٣٩٠، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٦١.

(٤) كذا في النسخ: هود، ولعل الصواب: وثمود. وينظر تفسير البغوي ٢/ ١٨٤، وتفسير الرازي ١٤/ ١٨٨، وما بين حاصرتين منهما.

أي: مِن أخبارها. وهي تسليةٌ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام والمسلمين.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: فما كان أولئك الكفارُ لِيؤمنوا بعد هلاكِهم لو أحْيَيناهم؛ قاله مجاهد. نظيره: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقال ابن عباس والرَّبيع: كان في عِلْم اللهِ تعالى يومَ أخذ عليهم المِيثاقَ أنهم لا يؤمنون بالرُّسُل.

﴿بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ يريدُ يومَ المِيثاق حين أخرجهم من ظَهْر آدمَ، فآمنوا كَرْهاً لا طَوعاً. قال السُّدِّيّ: آمَنوا يومَ أخذ عليهم الميثاقَ كَرْهاً، فلم يكونوا لِيؤمنوا الآنَ حقيقةً. وقيل: سألوا المعجزات، فلمَّا رَأَوْها ما كانوا لِيؤمنوا بما كذَّبوا به من قبلِ رؤيةِ المعجزات[1]. نظيرُه: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[2] [الأنعام: ١١٠].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مثلَ طَبْعِه على قلوب هؤلاء المذكورين، كذلك يطبعُ اللهُ على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ[3].

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾:

«مِن» زائدة، وهي تدلُّ على معنى الجِنس؛ ولولا «مِن» لجاز أن يُتوهَّمَ أنه واحدٌ في المعنى[4]. قال ابن عباس: يريد العهدَ المأخوذَ عليهم وقتَ الذَّرِّ. ومَن نقضَ العهدَ قيل له: إنه لا عهدَ له، أي: كأنه لم يعهدْ. وقال الحسن: العهدُ الذي عُهِدَ إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً[5]. وقيل: أراد أنَّ الكفارَ مُنقسمون، فالأكثرون منهم مَن لا أمانةَ له ولا وفاء، ومنهم مَن له أمانةٌ مع كُفره وإنْ قلُّوا، رُوي

(١) في (م): المعجزة.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٣٦، وتفسير الرازي ١٤/ ١٨٨، وأخرج الأقوال السالفة بنحوها الطبري ١٠/ ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٨٤ - ١٨٥.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٦٠.

(٥) أورد هذين القولين ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٣٦.

عن أبي عُبيدة[١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. ﴿مُّوسَىٰ﴾ أي: موسى بن عمران. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بمعجزاتنا. ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: كفروا ولم يصدِّقوا بالآيات[٢]. والظلم: وضعُ الشيء في غير موضعه.

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: آخِرُ أمرِهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

«حَقِيقٌ عَلَيَّ» أي: واجب. ومَن قرأ «عَلَى أن لا»، فالمعنى: حريصٌ على ألَّا أقول[٣]. وفي قراءة عبدِ الله: «حقيقٌ أنْ لا أقول» بإسقاط «على»[٤]. وقيل: «على» بمعنى الباء، أي: حقيقٌ بأنْ لا أقول. وكذا في قراءة أُبَيٍّ والأعمش: «بأنْ لا

---

(١) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٢٣: مجازه: وما وجدنا لأكثرهم عهداً، أي: وفاءً ولا حفيظة. و«مِنْ» من حروف الزوائد. وينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٦٠.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٣٤١.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٢٢٤، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤١. والقراءة الأولى لنافع، والثانية للباقين. السبعة ص٢٨٧، والتيسير ص١١١.

(٤) الكشاف ٢/ ١٠٠، والبحر المحيط ٤/ ٣٥٦.

أقول»[١]. كما تقول: رميتُ بالقوس وعلى القوس. فـ «حَقِيقٌ» على هذا بمعنى محقوق[٢].

ومعنى ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خَلِّهم. وكان يستعملُهم في الأعمال الشاقَّة. ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ يُستعمل في الأجسام والمعاني، وقد تقدَّم[٣]. والثعبان: الحيَّة الضَّخم، الذَّكَر، وهو أعظم الحيَّات[٤]. ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: حَيَّةٌ لا لَبْسَ فيها.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: أخرجَها وأظْهَرها. قيل: من جَيْبه أو من جناحه؛ كما في التنزيل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النحل: ١٢] أي: من غير بَرَص. وكان موسى أسمرَ شديدَ السُّمرة، ثم أعاد يدَه إلى جَيْبه فعادتْ إلى لونها الأوَّل. قال ابن عباس: كان لِيَدِه نورٌ ساطع يُضيء ما بين السماءِ والأرض[٥]. وقيل: كانت تخرج يدُه بيضاءَ كالثلج تَلُوح، فإذا ردَّها عادت إلى مِثْل سائرِ بَدَنِه[٦]. ومعنى ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بالسحر. ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: من مُلْكِكم معاشِرَ القِبْط، بتقديمه بني إسرائيلَ عليكم[٧].

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: قال فرعون: فماذا تأمرون؟ وقيل: هو من قولِ المَلأ، أي: قالوا لفرعون وحدَه: فماذا تأمرون؟ كما يُخاطَب الجبَّارون والرؤساء: ما تَرَوْن في كذا. ويجوز أن يكونَ: قالوا له ولأصحابه[٨]. و«ما» في موضع رفع، على أنَّ «ذا» بمعنى الذي. وفي موضع نصب، على أنَّ «ما» و«ذا» شيءٌ واحد[٩].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ١٨٥، ونسب الفراء في معاني القرآن ١/ ٣٨٦ وابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٥ هذه القراءة لابن مسعود ﷺ.

(٢) تفسير الرازي ١٤/ ١٩١ - ١٩٢.

(٣) ٥/ ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٤) الوسيط ٢/ ٣٩٢.

(٥) ذكره الرازي في تفسيره ١٤/ ١٩٦.

(٦) تفسير الطبري ١٠/ ٣٤٦ - ٣٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٣٦.

(٧) الوسيط ٢/ ٣٩٢ - ٣٩٣.

(٨) زاد المسير ٣/ ٢٣٨، وتفسير الرازي ١٤/ ١٩٧.

(٩) مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٩٨.

«قالوا أرْجِهِ» قرأ أهل المدينة وعاصمٌ والكِسائيُّ بغير همز[١]، إلَّا أنَّ وَرْشاً والكسائيَّ أَشْبعا كسرةَ الهاء. وقرأ أبو عمرو بهمزةٍ ساكنة والهاءُ مضمومةٌ. وهما لغتان؛ يقال: أرجأْته وأرجَيْتُه، أي: أخَّرته. وكذلك قرأ ابنُ كَثير وابن مُحَيْصِن وهشام؛ إلَّا أنهم أشبعوا ضَمَّةَ الهاء. وقرأ سائرُ أهلِ الكوفة: «أَرْجِهْ» بإسكان الهاء[٢]. قال الفراء[٣]: هي لغةٌ للعرب، يَقِفُون على الهاء المَكنيِّ عنها في الوصل إذا تحرَّكَ ما قبلَها، وكذا: هذه طلحهْ قد أقبلت. وأنكر البصريُّون هذا[٤].

قال قتادة: معنى «أرْجِه»: إحْبِسْهُ. وقال ابن عباس: أَخِّره[٥]. وقيل: «أرجِهِ» مأخوذٌ من رجا يرجو؛ أي: أَطْمِعْه ودَعْه يرجو؛ حكاه النحاسُ[٦] عن محمد بن يزيد؛ وكسرُ الهاء على الإتباع. ويجوز ضَمُّها على الأصل. وإسكانُها لَحْنٌ لا يجوز إلَّا في شذوذٍ من الشِّعر[٧].

﴿وَأَخَاهُ﴾ عطف على الهاء. ﴿حَٰشِرِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿يَأْتُوكَ﴾ جزم؛ لأنه جوابُ الأمر، ولذلك حُذفت منه النون. قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً: «بِكُلِّ سَحَّار». وقرأ سائرُ الناس: «ساحر»[٨]. وهما متقاربان، إلَّا أنَّ فَعَّالاً أشدُّ مبالغة.

---

(١) كذا نقل المصنف عن النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٤٢ - ١٤٣ ، والقراءة المشهورة عن عاصم: «أَرْجِهْ» بإسكان الهاء، وستأتي. وينظر السبعة ص٢٨٧ ، والتيسير ص١١١ .

(٢) قرأ بها عاصم وحمزة من أهل الكوفة، وتقدمت قراءة الكسائي (وهو كوفي أيضاً).

(٣) في معاني القرآن ١/ ٣٨٨ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٦٥ ، وتفسير الرازي ١٤/ ١٩٨ .

(٥) أخرج هذين القولين الطبري ١٠/ ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٦) في إعراب القرآن ٢/ ١٤٣ ، والكلام منه إلى آخر تفسير الآية.

(٧) لكن قرأ بإسكان الهاء عاصمٌ وحمزة كما سلف. قال السمين في الدر المصون ٥/ ٤٠٩ : في هذه الكلمة (أرجه) ست قراءات في المشهور المتواتر، ولا التفات إلى من أنكر بعضها ولا لمن أنكر على راويها.

(٨) السبعة ص٢٨٩ ، والتيسير ص١١٢ .

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ وحُذف ذِكْرُ الإرسال لِعلم السامع[١].

قال ابنُ عبدِ الحكم: كانوا اثني عشرَ نَقِيباً، مع كلّ نقِيبٍ عشرون عَرِيفاً، تحت يدي كلِّ عريفٍ ألفُ ساحر. وكان رئيسهم شمعون في قول مقاتل بنِ سليمان[٢]. وقال ابن جُريج: كانوا تسع مئة، من العَرِيش والفيُّوم والإسكندرية، أثلاثاً[٣]. وقال ابن إسحاق: كانوا خمسةَ عشَرَ ألف ساحر، وروي عن وهب. وقيل: كانوا اثني عشرَ ألفاً. وقال ابن المنكدر: ثمانين ألفاً. وقيل: أربعة عشر ألفاً. وقيل: كانوا ثلاث مئة ألفِ ساحرٍ من الرِّيف، وثلاثَ مئة ألف ساحر من الصَّعيد، وثلاثَ مئة ألف ساحرٍ من الفيّوم وما والاها. وقيل: كانوا سبعين رجلاً. وقيل: ثلاثة وسبعين؛ فالله أعلم[٤]. وكان معهم فيما رُوي حِبالٌ وعِصِيٌّ يحملها ثلاث مئة بعير. فالتقمت الحيَّةُ ذلك كلَّه.

قال ابن عباس والسُّدِّي: كانت إذا فتحتْ فاها صار شِدْقُها ثمانين ذراعاً؛ واضعةً فكَّها الأسفلَ على الأرض، وفكَّها الأعلى على سُور القصر[٥]. وقيل: كان سَعةُ فمِها أربعين ذراعاً، فالله أعلم. فقصدَتْ فرعونَ لِتبتلعَه، فوثَبَ من سريره، فهرب منها واستغاثَ بموسى، فأخذها، فإذا هي عَصاً كما كانت. قال وهب: ماتَ من خوف العَصا خمسةٌ وعشرون ألفاً[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٣.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ١٨٧.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٠٦ ونسبه لأبي الشيخ.

(٤) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/ ٣٥٤ - ٣٥٥، وعرائس المجالس ص١٨٨، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٣٨، وزاد المسير ٣/ ٢٤٠ - ٢٤١. قال ابن عطية: وهذه الأقوال ليس لها سندٌ يوقَف عنده.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٤٤ بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٤٥. وهذه الأخبار من الإسرائيليات.

﴿قَالُوا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: جائزةً ومالاً. ولم يقل: فقالوا، بالفاء؛ لأنه أراد: لمَّا جاؤوا قالوا[1]. وقُرئ: «إِنَّ لَنا» على الخبر، وهي قراءة نافعٍ وابنِ كَثير[2]. ألزَموا فِرعونَ أن يجعلَ لهم مالاً إن غَلَبُوا؛ فقال لهم فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: لَمِن أهل المنزلةِ الرفيعة لدينا، فزادهم على ما طلبوا. وقيل: إنهم إنما قَطَعوا ذلك لأنفسهم في حكمهم إنْ غَلبوا. أي قالوا: يجب لنا الأجرُ إنْ غَلبنا.

وقرأ الباقون بالاستفهام على جِهة الاستخبار؛ استخبَروا فرعون؛ هل يجعل لهم أجراً إن غَلَبوا أو لا؟ فلم يقطعوا على فرعون بذلك، إنما استخبروه هل يفعل ذلك؛ فقال لهم: «نعم» لكم الأجرُ والقُرْبُ إنْ غَلَبتم[3].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

تأدَّبوا مع موسى عليه السلام، فكان ذلك سببَ إيمانهم[4]. و«أنْ» في موضع نصبٍ عند الكِسائيِّ والفرَّاء، على معنى: إمَّا أنْ تفعلَ الإلقاء. ومثلُه قولُ الشاعر:

قالوا الرُّكوبَ فقلنا تلك عادتُنا[5]

﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ قال الفراء: في الكلام حذف. والمعنى: قال لهم موسى: إنكم لن تَغْلِبوا ربَّكم ولن تُبطِلوا آياتِه. وهذا مِن مُعجز القرآنِ الذي لا يأتي مثلُه في كلام

(١) مجمع البيان ٣/ ١٤٤ .

(٢) وقرأ بها عاصم من رواية حفص. وقرأ الباقون من السبعة بالاستفهام على جهة الاستخبار - كما سيذكر المصنف - كل على مذهبه؛ فقرأ ابن عامر وعاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي بهمزتين محقَّقتين، غير أن هشاماً (راوي ابن عامر) أدخل بينهما ألفاً، وقرأ أبو عمرو بهمزتين الأولى محقَّقة والثانية مُسهَّلة وأدخل بينهما ألفاً. السبعة ص٢٨٩ ، والتيسير ص١١٢ .

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٤/ ٢٠٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٣ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٢٩٨ ، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٩ . والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١١٣ ، وعجزه: أو تنزلون فإنا معشرٌ نُزُل.

الناس، ولا يقدِرون عليه؛ يأتي اللفظُ اليسير بجمع المعاني الكثيرة[١].

وقيل: هو تهديد[٢]. أي: ابتدِئوا بالإلقاء، فَستَرَون ما يَحُلُّ بكم من الافتضاح، إذْ لا يجوز على موسى أنْ يأمرَهم بالسِّحر. وقيل: أمرهم بذلك ليبيِّنَ كَذِبَهم وتمويهَهم.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا﴾ أي: الحِبالَ والعِصِيّ. ﴿سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: خَيَّلوا لهم، وقَلَبوها عن صِحَّة إدراكها، بما يُتخيَّلُ من التَّمويه الذي جرى مَجرى الشَّعوذةِ وخِفَّةِ اليد، كما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[٣]. ومعنى ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: عندهم؛ لأنه كان[٤] كثيراً، وليس بعظيم على الحقيقة[٥].

قال ابن زيد: كان الاجتماعُ بالإسكندرية، فبلغ ذَنَبُ الحيَّة وراءَ البُحيرة[٦]. وقال غيره: وفتحتْ فاها، فجعلت تَلقف ـ أي: تلتقم ـ ما أَلقَوْا مِن حِبالهم وعِصِيِّهم. وقيل: كان ما ألقَوا حبالاً من أَدَم، فيها زئبق، فتحركت وقالوا: هذه حَيَّات[٧].

وقرأ حَفْص: «تَلْقَفُ» بإسكان اللام والتخفيف[٨]؛ جعله مستقبلَ لَقِف يَلْقَف ـ قال النحاس[٩]: ويجوز على هذه القراءة «تِلْقَف»؛ لأنه من لَقِف[١٠] ـ وقرأ الباقون بالتَّشديد وفتحِ اللام؛ جعلوه مستقبَلَ تَلَقَّفُ، فهي تَتَلَقَّف[١١]. يقال: لَقِفت الشيءَ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٤ .

(٢) مجمع البيان ٩/ ١٤٤ .

(٣) ٢/ ٢٧٢ وما بعدها. وينظر الوسيط ٢/ ٣٩٤ .

(٤) في (ظ): لأنهم كانوا.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٤ .

(٦) تفسير البغوي ٢/ ١٨٧ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٣٩ .قال ابن عطية: وهذا قول بعيد من الصواب مفرط الإغراق، لا ينبغي أن يُلتفت إليه.اهـ. والبُحيرة: كورة من نواحي الإسكندرية بمصر، تشتمل على قرى كثيرة. معجم البلدان ١/ ٣٥١ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٤ ، وتفسير الرازي ١٤/ ٢٠٣ .

(٨) السبعة ص٢٩٠ ، والتيسير ص١١٢ .

(٩) في إعراب القرآن ٢/ ١٤٤ .

(١٠) يعني كسر أوائل الأفعال المضارعة إذا كان عين الماضي مكسوراً، قال سيبويه في كتابه ٤/ ١١٠ : وذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز، وذلك قولهم: أنت تِعْلم، وأنا إعلم...

(١١) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٧٣ .

وتلقَّفته: إذا أخذتَه أو بَلِعتَه[١]. تَلْقَف وتَلْقَم وتَلْهَم بمعنًى واحد.

قال أبو حاتم: وبلغني في بعض القراءات: «تَلَقَّم» بالميم والتشديد[٢]. قال الشاعر:

أنت عصا موسى التي لم تزلْ تَلْقَمُ ما يأفِكُه السَّاحرُ[٣]

ويُروى: تَلْقَف.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يكذبون؛ لأنهم جاؤوا بحبال، وجعلوا فيها زِئْبَقاً حتى تحرَّكتْ.

قوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ قال مجاهد: أي: فظهرَ الحقُّ[٤]. ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ نصب على الحال. والفعلُ منه صَغُرَ يَصْغُرُ صِغَراً وصُغْراً وصَغَاراً[٥]. أي: انقلبَ قومُ فرعونَ ـ وفرعونُ معهم ـ أذِلَّاءَ مَقْهُورين مَغْلوبين. فأما السَّحَرةُ فقد آمنوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ إنكارٌ منه عليهم. ﴿إِنَّ هَٰذَا

---

(١) مجمل اللغة ٣/٨١٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/٦٣.

(٣) النكت والعيون ٢/٢٤٦، وأورده الزجاج في معاني القرآن ٢/٣٦٦، وفيه: تلقف بدل: تلقم. وذكرها المصنف بعده.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/٣٦٠ - ٣٦١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٤٤. وصغر، من باب كرم وفرح. تاج العروس (صغر).

﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي: جرتْ بينكم وبينه مُواطأةٌ في هذا لِتستولوا على مصر؛ أي: كان هذا منكم في مدينة مصرَ قبلَ أن تبرُزوا إلى هذه الصحراء[١]. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ لهم.

قال ابن عباس: كان فرعونُ أوّلَ مَنْ صَلَب، وقَطَع الأيديَ والأرْجُل من خِلاف[٢]. الرِّجلُ اليُمْنى واليدُ اليسرى، واليدُ اليمنى والرِّجل اليسرى؛ عن الحسن[٣].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ قرأ الحسنُ بفتح القاف. قال الأخفش[٤]: هي لغة. يقال: نَقَمتُ الأمرَ ونَقِمته: أنكرته[٥]. أي: لستَ تكره منَّا سوى أنَّا[٦] آمنَّا بالله، وهو الحقّ. ﴿لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ آياته وبيِّناته.

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الإفراغ: الصَّبّ، أي: أُصْبُبْه علينا عند القَطْع والصَّلْب. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فقيل: إنَّ فرعون أخذ السَّحرةَ وقَطَّعهم على شاطئ النهر[٧]، وإنه آمنَ بموسى عند إيمان السحرةِ ستُّ مئة ألف[٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوٓا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَالْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي:

---

(١) الوسيط ٢/ ٣٩٦، والكشاف ٢/ ١٠٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٣٦٣.

(٣) مجمع البيان ٩/ ١٤٩.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٥٣٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٤٤. وقراءة الحسن ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٥، ونسبها ليحيى وإبراهيم وأبي حيوة.

(٥) مجمل اللغة ٤/ ٨٨٠.

(٦) في (م): أن.

(٧) تفسير البغوي ٢/ ١٨٨.

(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.

بإيقاع الفُرقةِ وتَشتيتِ الشَّمل. ﴿وَيَذَرَكَ﴾ بنصبِ الراء، جوابُ الاستفهام، والواو نائبةٌ عن الفاء[(١)]. ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ قال الحسن: كان فرعونُ يعبدُ الأصنام[(٢)]، فكان يَعْبُد ويُعْبَد. قال سليمانُ التَّيميّ: بلغني أنَّ فرعونَ كان يعبدُ البقرَ. قال التيميّ: فقلت للحسن: هل كان فرعون يعبد شيئاً؟ قال: نعم، إنْ كان لَيعبد شيئاً قد[(٣)] جَعَلَه في عُنُقه[(٤)].

وقيل: معنى «وآلهتك» أي: وطاعتَك؛ كما قيل في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]: إنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم؛ فصار تمثيلاً[(٥)].

وقرأ نُعيم بنُ مَيْسرة[(٦)]: «وَيَذَرُكَ» بالرفع على تقدير: وهو يَذَرُكَ. وقرأ الأشْهَبُ العُقَيليّ: «ويَذَرْك» مجزوماً مخفَّف: «يذَرْك»؛ لثِقَل الضمَّة. وقرأ أنس بنُ مالك: «ونَذَرُكَ» بالرفع والنون[(٧)]. أخبَروا عن أنفسهم أنهم يتركون عبادَتَه إنْ تَركَ موسى حيًّا.

وقرأ عليُّ بن أبي طالب وابنُ عباس والضحَّاك: «وإلَاهتَك». ومعناه: وعبادتَك[(٨)]. وعلى هذه القراءةِ كان يُعْبَد ولا يَعْبُد، أي: ويتركُ عبادتَه لك.

قال أبو بكرٍ الأنباريّ: فمِن مَذْهب أصحابِ هذه القراءة أنَّ فرعونَ لمّا قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، و: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]،

(١) الوسيط ٢/ ٣٩٦ .

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ١٤/ ٢١١ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٣٦٧ .

(٣) في (م): إنه كان يعبد شيئاً كان قد..

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٥٣٨ (٨٨٢٣).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٦) أبو عمرو الكوفي النحوي نزل الري، ويُروى عنه حروف شواذ من اختياره، توفي سنة (١٧٤هـ). غاية النهاية ٢/ ٣٤٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١ ، وينظر القراءات الشاذة ص٤٥ ، والمحتسب ١/ ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٨) القراءات الشاذة ص٤٥ ، والمحتسب ١/ ٢٥٦ .

نَفَى أنْ يكونَ له ربٌّ وإِلَاهةٌ، فقيل له: ويذرَك وإِلاهتَك؛ بمعنى: ويتركَك وعبادة الناسِ لك.

وقراءةُ العامة: «وَآلهتَكَ» كما تقدَّم، وهي مَبْنِيَّةٌ على أنَّ فرعون ادَّعَى الرُّبُوبيَّةَ في ظاهر أمرِه، وكان يعلم أنه مَرْبُوب[1]. دليلُ هذا قولُه عند حضور الحِمَام[2]: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]. فلم يُقْبلْ هذا القولُ منه، لمَّا أتى به بعد إغلاق بابِ التوبة. وكان قبلَ هذه الحالِ له إلهٌ يعبدُه سِرًّا دونَ ربِّ العالمين جلَّ وعزَّ؛ قاله الحسنُ وغيره[3].

وفي حرف أُبَيّ: «أَتَذَر موسى وقومَهُ لِيُفْسِدُوا في الأرض وقد تَرَكُوكَ أن يعبدُوك»[4].

وقيل: «وآلِهتَك» قيل: كان يعبدُ بقرةً، وكان إذا استحسنَ بقرةً أَمَرَ بعبادتها، وقال: أنا ربُّكم وربُّ هذه. ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [طه: ٨٨]. ذكره ابنُ عباس والسُّدِّي[5]. قال الزجاج[6]: كان له أصنامٌ صِغار يعبدُها قومُه تقرُّباً إليه، فنُسبتْ إليه؛ ولهذا قال: «أنا رَبُّكم الأعْلى». قال إسماعيلُ بنُ إسحاق: قول فرعون: «أنا ربُّكُم الأعْلَى» يدُلُّ على أنهم كانوا يعبدُون شيئاً غيره.

وقد قيل: إنَّ المُرادَ بالإلاهة على قراءة ابنِ عباس البقرةُ التي كان يعبدُها. وقيل: أرادوا بها الشمسَ، وكانوا يعبدُونها. قال الشاعر:

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٢١١.

(٢) الحِمَام: قضاء الموت وقدره. القاموس المحيط (حمم).

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٤ - ١٤٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤١، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٦.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٧، والآية المذكورة في السامري، والمعنى ـ والله أعلم ـ: أنه لما كان فرعون يعبد ما يستحسن من البقر أخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار، وقال: هذا إلهكم وإلهُ موسى. ينظر النكت والعيون ٢/ ٢٤٨.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٧.

وأعْـجَـلْـنَـا الإلاهـةَ أن تَـؤُوبـا[١]

ثم آنسَ قومَه فقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بالتخفيف؛ قراءةُ نافع وابن كَثير. والباقون بالتشديد على التكثير[٢]. ﴿وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ﴾ [: نتركهنَّ أحياءً][٣]. أي: لا تخافوا جانبَهم. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ آنسَهم بهذا الكلام. ولم يقُلْ: سَنقتلُ موسى؛ لِعْلمِه أنه لا يَقدِرُ عليه[٤]. وعن سعيد بنِ جُبير[٥] قال: كان فرعونُ قد مُلِىءَ من موسى رُعْباً، فكان إذا رآه بالَ كما يبولُ الحمار.

ولما بلغ قومَ موسى من فرعونَ هذا، قال لهم موسى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ﴾ أطْمَعهم في أنْ يُورِثَهم اللهُ أرضَ مصر. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الجنةُ لمن اتَّقى[٦]. وعاقبةُ كلِّ شيء: آخرُه، ولكنها إذا أُطْلِقتْ فقيل: العاقبة لفلان، فُهِمَ منه في العُرْف الخيرُ.

قـولـه تـعـالـى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ أي: في ابتداء ولادتِك بقتل الأبناء واسترقاقِ النساء. ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي: والآن أُعِيدَ علينا ذلك؛ يَعْنون الوعيدَ الذي كان من فرعون. وقيل: الأذى مِن قبلُ: تَسْخيرُهم لِبني إسرائيلَ في أعمالهم إلى نصف النهار، وإرسالُهم بَقيَّتَه لِيَكْتسبوا لِأنفسهم. والأذى من بعدُ: تسخيرُهم جميعَ

(١) قائلته ميَّةُ بنت عتيبة بن الحارث اليربوعي، وصدره: تروَّحنا من اللَّعباء قصراً. وهو في تفسير الطبري ١٠/ ٣٦٩ ، والمحتسب ٢/ ١٢٣ ، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٩ .

(٢) السبعة ص٢٩٢ ، والتيسير ص١١٢ .

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير البغوي ٢/ ١٨٩ ، وهو المعنى الذي ذكره المفسرون، ولم يذكره المصنف.

(٤) زاد المسير ٣/ ٢٤٥ .

(٥) في (ظ): سعيد بن المسيب، والأثر أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٩١١) من قول مجاهد.

(٦) الوسيط ٢/ ٣٩٧ ، وزاد المسير ٣/ ٢٤٥ .

النهارِ كلّه بلا طعامٍ ولا شراب؛ قاله جُوَيْبر. وقال الحسن: الأذى مِن قبلُ ومِن بعدُ واحد، وهو أخذُ الجزْية[١].

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ «عسى» من الله واجبٌ؛ جدَّد[٢] لهم الوعدَ وحقَّقه. وقد استُخْلِفوا في مصر في زمان داودَ وسليمانَ عليهما السَّلام، وفتَحُوا بيتَ المقدس مع يُوشَعَ بنِ نُون[٣]؛ كما تقدَّم[٤].

ورُوي أنهم قالوا ذلك حين خرجَ بهم موسى وتَبِعَهم فرعون، فكان وراءَهم، والبحرُ أمامَهم[٥]، فحقَّق اللهُ الوعيدَ؛ بأنْ غرَّق فرعونَ وقومَه وأنجاهم.

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ تقدَّم نظائره. أي يَرى ذلك العملَ الذي يجبُ به الجَزاء؛ لأن اللهَ لا يُجازِيهم على ما يَعلَمُه منهم، إنما يُجازيهم على ما يقعُ منهم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ يعني: الجُدُوب. وهذا معروفٌ في اللغة، يقال: أصابتهم سَنَةٌ، أي: جَدْب. وتقديره: جَدْبُ سنة. وفي الحديث: «اللهمَّ اجْعَلْها عليهم سِنينَ كَسِني يوسُفَ»[٧].

---

(١) النكت والعيون ٢/٢٤٩، وزاد المسير ٣/ ٢٤٥.

(٢) في (ز): حدد، وفي (ظ): جرد.

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٤٢.

(٤) ٤/٢٢٨ وما بعدها.

(٥) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢، ثم قال: وبالجملة هو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل؛ من اضطرابهم على أنبيائهم، وقلَّة يقينهم وصبرهم على الدِّين. واستعطافُ موسى بقوله: «عسى ربكم أن يُهلك عدوَّكم» ووعدُه لهم بالاستخلاف في الأرض يدلّ على أنه يستدعي نفوساً نافرة. ويقوّي هذا الظنّ في بني إسرائيل سلوكهم هذه السبيل في غير قصة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٦٧.

(٧) أخرجه البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٦/ ٢.

ومن العرب مَن يُعْرِب النُّونَ في السنين، وأنشد الفراء:

أرَى مَرَّ السِّنينِ أخَذْنَ مِنِّي ... كما أخَذَ السِّرارُ من الهلالِ(١)

قال النحَّاس(٢): وأنشد سيبويه هذا البيتَ بفتح النون، ولكن أنشدَ في هذا ما لا يجوز غيرُه، وهو قوله:

وقد جاوَزْتُ رأسَ الأربعينِ(٣)

وحكى الفراءُ عن بني عامر أنهم يقولون: أقمتُ عنده سِنِيناً يا هذا؛ مصروفاً. قال: وبنو تميمٍ لا يَصْرِفون، ويقولون: مَضَتْ له سنينُ يا هذا.

وسنين: جمعُ سَنَة، والسَّنة هنا بمعنى الجَدْب، لا بمعنى الحَوْل. ومنه أَسْنَتَ القومُ، أي: أجدبوا. قال عبدُ الله بنُ الزِّبَعْرى:

عمرو العُلَا هَشَمَ الثَّريدَ لقومه ... ورجالُ مكَّةَ مُسْنِتُون عِجَافُ(٤)

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: ليتَّعظوا وترِقَّ قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ أي: الخِصْبُ والسَّعة. ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: أُعْطيناها باستحقاق. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: قَحْطٌ ومرض، وهي

---

(١) قائله جرير، وهو في ديوانه ٢/ ٥٤٦، وفيه رأت، بدل: أرى. والسِّرار (بفتح السين وكسرها): الليلة التي يستسرُّ فيها القمر آخر الشهر، أي: يختفي. اللسان (سرر).

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ١٤٥، وما قبله منه.

(٣) قائله سُحيم بن وَثِيل الرِّياحي، وصدره: وماذا يدَّري الشعراء مني. وهو في طبقات فحول الشعراء ١/ ٧٢، والمقتضب ٣/ ٣٣٢، وشرح المفصل ٥/ ١١، والخزانة ١/ ٢٦٠.

(٤) ديوان عبد الله بن الزِّبَعرى ص٥٣، وعمرو هو هاشم بن عبد مناف، وهو أول من أطعم الثريد بمكة، وإنما كان اسمه عمراً، فما سُمِّي هاشماً إلا بهشمه الخبز بمكة لقومه. السيرة النبوية ١/ ١٣٦.

المسألة:

الثانية: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ﴾ أي: يتشاءموا به. نظيره: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء:٧٨]. والأصل: «يتطيَّروا»؛ أُدغمت التاءُ في الطاء. وقرأ طلحة: «تطيَّروا» على أنه فعلٌ ماض[(١)]. والأصل في هذا من الطِّيَرَةِ وزَجْرِ الطَّير، ثم كَثُرَ استعمالُهم حتى قيل لكلِّ مَن تشاءم: تَطَيَّر[(٢)].

وكانت العربُ تَتيمَّن بالسَّانح: وهو الذي يأتي من ناحية اليمين. وتتشاءم بالبارح: وهو الذي يأتي من ناحية الشِّمال[(٣)]. وكانوا يتطيَّرون أيضاً بصوت الغراب، ويتأوَّلونه البَيْن. وكانوا يَستدِلُّون بِمُجاوَبات الطيور بعضِها بعضاً على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودةِ على مِثْل ذلك. وهكذا الظِّباءُ إذا مضَتْ سانحةً أو بارحة، ويقولون إذا بَرَحت: مَن لي بالسَّانح بعد البارح[(٤)]. إلَّا أنَّ أقوى ما عندَهم كان يقعُ في جميع الطير، فسمَّوا الجميعَ تَطَيُّراً من هذا الوجه.

وتطيّر الأعاجم إذا رأوا صَبِيًّا يُذهب به إلى المُعَلِّم بالغَداة، ويَتيمَّنون برؤية صبيٍّ يَرجِع مِن عندِ المعلِّم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السَّقَّاءِ على ظَهْره قِرْبةٌ مملوءةٌ مشدودة، ويَتيمَّنون برؤيته[(٥)] فارغَ السِّقَاءِ مفتوحةً قِرْبَتُه[(٦)]؛ ويتشاءمون بالحمَّال المُثْقَل بالحِمْل، والدابَّةِ المُوْقَرة، ويَتيمَّنون بالحَمَّال[(٧)] الذي وضع حِمْلَه، وبالدَّابَّة يُحَطُّ عنها ثِقْلُها.

فجاء الإسلامُ بالنَّهْي عن التَّطيُّر والتشاؤمِ بما يُسمَعُ من صوتِ طائر ما كان،

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٤) الأمثال للقاسم بن سلّام ص٢٤٥ .

(٥) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): برؤية، والمثبت من (خ).

(٦) لفظة: قربته، من (م).

(٧) في (د) و(ظ): بالجمال، في الموضعين.

وعلى أيِّ حالٍ كان، فقال عليه الصلاة والسلام: «أَقِرُّوا الطيرَ على مَكِناتها»[(١)]. وذلك أنَّ كثيراً من أهل الجاهليةِ كان إذا أراد الحاجةَ، أتى الطيرَ في وَكْرها فنفَّرها، فإذا أخذتْ ذاتَ اليمينِ مضَى لحاجته، وهذا هو السانحُ عندهم. وإن أخذتْ ذاتَ الشِّمالِ رَجَع، وهذا هو البارحُ عندهم. فنهى النبيُّ ﷺ عن هذا بقوله: «أَقِرُّوا الطيرَ على مَكِناتها» هكذا في الحديث[(٢)]. وأهلُ العربيةِ يقولون: وُكُناتها. قال امرؤُ القيس:

وقد أَغْتَدي والطَّيْرُ في وُكُناتها[(٣)]

والوُكْنة: اسمٌ لكلِّ وَكْرٍ وعُشّ. والوَكْن: موضعُ الطائر الذي يَبيض فيه ويُفْرِخ، وهو الخَرْقُ في الحيطان والشجر. ويقال: وَكَن الطائر يَكِن وكُوناً: إذا حَضَنَ بيضَه[(٤)].

وكان أيضاً مِن العرب مَن لا يرى التطيُّر شيئاً، ويمدحون من كذَّب به. قال المُرَقِّش:

ولقد غَدَوْتُ وكنتُ لا … أغدُو على وَاقٍ وحاتِمْ
فإذا الأشائِمُ كالأيا … مِنِ والأيامِنُ كالأشائمْ[(٥)]

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧١٣٩) وأبو داود (٢٨٣٥) من حديث أم كُرْز الكعبية رضي الله عنها، وفي إسناده سباع بن ثابت، قال الذهبي في الميزان ٢/ ١١٥ سباع بن ثابت عن أم كرز لا يكاد يعرف. والمكنات في الأصل: بيض الضِّباب، واحدتها مَكِنة، بكسر الكاف، وقد تفتح. يقال: مَكِنت الضَّبة وأَمْكَنت. قال أبو عبيد: جائز في الكلام أن يُستعار مَكْنُ الضِّباب فيجعل للطير. وقيل: المكنات بمعنى الأمكنة، وقيل: المكنة من التمكُّن، يعني: أَقِرُّوها على كل مَكِنَة ترونها عليها، ودعوا التطير بها. النهاية (مكن). وينظر غريب الحديث لأبي عبيد ٢/ ١٣٥ .

(٢) ينظر السنن للشافعي ٢/ ٦٢ - ٦٤ .

(٣) سلف ٥/ ٣٨٢ .

(٤) في النسخ: على بيضه، والمثبت من (م).

(٥) البيتان في كتاب الحيوان ٣/ ٤٣٦ ، وتأويل مختلف الحديث ص١٠٦ - ١٠٧ وعيون الأخبار ١/ ١٤٥ ، والتمهيد ٩/ ٢٨٧ والواقي: هو الصُّرَد: وهو طائر فوق العصفور، يصيد العصافير. والحاتم: الغراب الأسود. اللسان (صرد) (حتم) (وقى). وثمَّة مُرَقِّشان؛ الأكبر: وهو ربيعة بن سعد، ويقال: بل هو عمرو ابن سعد. والأصغر: وهو ربيعة بن سفيان من بني سعد بن مالك، وهو ابن أخي المرقِّش الأكبر، وهو أشعرُ من الأكبر وأطول عمراً. ينظر الشعر والشعراء ١/ ٢١٠ و ٢١٤ .

وقال عكرمة: كنتُ عند ابنِ عباس، فمرَّ طائرٌ يصيح، فقال رجلٌ من القوم: خير، خير. فقال ابنُ عباس: ما عند هذا لا خيرٌ ولا شرٌّ[(١)].

قال علماؤنا: وأما أقوالُ الطير، فلا تعلُّقَ لها بما يُجعل دَلالةً عليه، ولا لها علمٌ بكائنٍ فضلاً عن مستقبلٍ فَتُخبِرَ به، ولا في الناس مَن يعلم منطقَ الطير؛ إلَّا ما كان اللهُ تعالى خصَّ به سليمانَ ﷺ من ذلك، فالتحق التطيُّرُ بجملة الباطل. والله أعلم.

وقال ﷺ: «ليس مِنَّا مَنْ تحلَّمَ، أو تكهَّنَ، أو ردَّه عن سفره تطيُّرٌ»[(٢)].

وروى أبو داودَ عن عبد الله بنِ مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: «الطِّيَرة شِرْك» ثلاثاً، وما مِنَّا إلَّا، ولكنَّ اللهَ يُذهِبه بالتوكُّل[(٣)].

وروى عبد الله بنُ عمرو بنِ العاص عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رجَّعتْه الطِّيرةُ عن حاجته فقد أشرك». قيل: وما كفَّارةُ ذلك يا رسولَ الله؟ قال: «أنْ يقولَ أحدُهم: اللهمَّ لا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ، ولا خَيْرَ إلَّا خَيْرُكَ، ولا إله غيرُك، ثم يَمضي لحاجته»[(٤)].

وفي خبرٍ آخر: «إذا وَجد ذلك أحدُكم فلْيقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت،

---

(١) أورده ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص١٠٨ ، وابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١٩٤ ، والحافظ ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢١٥ وعزاه للطبري.

(٢) لم نقف عليه بهذا السياق، وأخرج الطبراني في الأوسط (٢٦٨٤)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ١٧٤ ، والخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٢٠١ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧١١ عن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه لم يسكن الدرجاتِ العُلا، ولا أقول لكم الجنة: من تكهن، أو استقسم، أو ردَّه من سفر تطيُّرٌ». وفي إسناده محمد بن الحسن الهمداني، كذَّبه ابن معين وأبو داود، وقال أحمد: ما أراه يسوى شيئاً. ميزان الاعتدال ٣/ ٥١٤ .

(٣) سنن أبي داود (٣٩١٠)، وأخرجه أحمد (٣٦٨٧)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وقوله: وما منَّا إلا.. من قول ابن مسعود ﷺ، أُدرج في الخبر، وقد بيَّنه سليمان بن حرب شيخ البخاري فيما حكاه الترمذي عن البخاري عنه. فتح الباري ١٠/ ٢١٣ ومعنى: وما منَّا إلَّا، أي: إلا من يعتريه التطيُّر، ويسبق إلى قلبه الكراهة فيه، فحذف اختصاراً للكلام واعتماداً على فهم السامع. معالم السنن ٤/ ٢٣٢ .

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٢٠١ ، وفيه: «من حاجته» بدل: «عن حاجته»، وأخرجه أحمد (٧٠٤٥) بنحوه.

ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بك»[١]. ثم يذهب متوكِّلاً على الله، فإنَّ اللهَ يَكفيه ما وَجد في نفسه مِن ذلك، وكفَاهُ اللهُ تعالى ما يُهِمُّه.

وقد تقدَّم في «المائدة» الفرقُ بين الفأل والطِّيَرة[٢].

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقرأ الحسنُ: «طَيْرُهم»؛ جمعُ طائر، أي: ما قُدِّر لهم وعليهم. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ما لَحِقَهم من القَحْط والشَّدائدِ إنما هو مِن عند الله عزَّ وجلَّ بذنوبهم، لا من عند موسى وقومِه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي: قال قومُ فرعونَ لموسى: «مهما». قال الخليل[٤]: الأصل ما ما، الأُولى للشَّرط، والثانيةُ زائدة، توكيدٌ للجزاء، كما تزاد في سائر الحروف، مثلُ: إمَّا وحيثما وأينما وكيفما. فكَرِهوا حرفين لفظهما واحد؛ فأبدَلوا من الألفِ الأولى هاءً، فقالوا: مهما. وقال الكِسائيّ: أصله: مَهْ، أي: اُكْفُف ما تأتينا به مِن آية. وقيل: هي كلمة مُفرَدة[٥]، يُجازَى بها ليُجزَم ما بعدَها على تقدير: إنْ. والجواب: «فما نحن لك بمؤمنين».

﴿لِتَسْحَرَنَا﴾: لِتَصْرِفَنا عمَّا نحن عليه. وقد مضى في «البقرة» بيانُ هذه اللفظة[٦].

قيل: بقي موسى في القِبط بعد إلقاء السحَرةِ سُجَّداً عشرين سنة يُريهم الآياتِ إلى أنْ أغرق اللهُ فرعون، فكان هذا قولَهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٩) من حديث عروة بن عامر القرشي. قال المنذري في مختصره ٥/ ٣٧٩ : قال أبو القاسم الدمشقي: لا صحبة له تصحّ. وذكر البخاري وغيره أنه سمع من ابن عباس. فعلى هذا يكون الحديث مرسلاً . اهـ.

(٢) ٧/ ٢٩٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٦ ، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٤٥ .

(٤) في العين ٣/ ٣٥٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٦ .

(٥) إملاء ما منَّ به الرحمن، للعكبري (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٥٥ .

(٦) ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣ .

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: روى إسرائيلُ عن سِمَاك، عن نَوْفٍ الشاميِّ قال: مَكَثَ موسى ﷺ في آل فرعونَ بعد ما غَلب السَّحَرةَ أربعين عاماً. وقال محمد بنُ عثمان بنِ أبي شيبة عن مِنْجاب: عشرين سنة؛ يُريهم الآيات: الجراد والقُمَّل والضفادع والدَّم[1].

الثانية: قوله تعالى: ﴿الطُّوفَانَ﴾ أي: المطر الشديد حتى عامُوا فيه. وقال مجاهدٌ وعطاء: الطوفان: الموت[2]. قال الأخفش[3]: واحدتُه طُوْفانة. وقيل: هو مصدرٌ كالرُّجْحان والنُّقْصان، فلا يُطلَبُ له واحد[4]. قال النحاس[5]: الطُّوفان في اللغة ما كان مُهْلِكاً من موتٍ أو سَيْل؛ أي: ما يُطيف بهم فيُهلِكُهم.

وقال السُّدِّي: ولم يُصِبْ بني إسرائيل قطرةٌ من ماء، بل دخل بيوتَ القِبْطِ حتى قاموا في الماء إلى تَرَاقِيهم، ودام عليهم سبعةَ أيام. وقيل: أربعين يوماً. فقالوا: ٱدْعُ لنا ربَّكَ يَكْشِفْ عنا فنؤمنَ بك، فدعا ربَّه، فرفع عنهم الطُّوفان، فلم يؤمنوا. فأنبتَ اللهُ لهم في تلك السَّنة، ما لم يُنبتْه قبل ذلك من الكلأ والزرع، فقالوا: كان ذلك الماءُ نعمةً، فبعث اللهُ عليهم الجراد - وهو الحيوانُ المعروف، جمع جرادة في المذكَّر والمؤنَّث، فإنْ أردتَ الفصلَ نعتَّ فقلت: رأيتُ جرادةً ذكراً[6] - فأكلَ زروعَهم وثمارَهم، حتى إنها كانت تأكلُ السُّقوف والأبوابَ حتى تَنهدِمَ[7] ديارُهم.

(١) أخرجهما أبو نعيم في الحلية ٦/ ٥٠ .

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٨٠ .

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٥٣١ .

(٤) تهذيب اللغة ١٤/ ٣٣ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٦٩ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٦ .

(٧) في (خ): تهدمت، وفي (د): تهدم.

ولم يدخلْ دُورَ بني إسرائيلَ منها شيء[١].

الثالثة: واختلف العلماءُ في قَتْل الجرادِ إذا حَلَّ بأرض قومٍ[٢] فأفسد، فقيل: لا يُقتل. وقال أهلُ الفِقْه كلُّهم: يُقتل.

احتجَّ الأوَّلون بأنه خَلْقٌ عظيم مِنْ خَلْق الله، يأكل مِن رزق الله، ولا يَجْري عليه القلم. وبما رُوي: «لا تقتلوا الجرادَ؛ فإنه جندُ اللهِ الأعظمُ»[٣].

واحتجَّ الجمهور بأنَّ في تَرْكها فسادَ الأموال، وقد رخَّص النبيُّ ﷺ بقتال[٤] المسلمِ إذا أراد أخذَ ماله؛ فالجرادُ إذا أرادتْ فسادَ الأموال، كانت أولى أنْ يجوزَ قتلُها. ألَا ترى أنهم قد اتَّفقوا على أنه يجوز قتلُ الحيةِ والعقرب؛ لأنهما يُؤذيان الناس؟ فكذلك الجراد.

روى ابنُ ماجه عن جابرٍ وأنس بنِ مالك أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال: «اللَّهُمَّ أَهلكْ كِبارَه، واقتُل صِغارَه، وأفسِدْ بيضَه، واقطَعْ دابرَه، وخُذْ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقِنا، إنك سميعُ الدعاء». قال رجلٌ: يا رسولَ الله، كيف تدعو على جُندٍ من أجناد الله بِقَطْعِ دابره؟ قال: «إنَّ الجرادَ نَثْرةُ الحوتِ في البحر»[٥].

الرابعة: ثبت في «صحيح» مسلم[٦] عن عبد الله بنِ أبي أَوْفَى قال: غَزَوْنا مع رسول الله ﷺ سبعَ غَزَوات كنا نأكلُ الجراد معه.

ولم يختلف العلماءُ في أكله على الجملة، وأنه إذا أُخذ حيًّا وقطعت رأسُه أنه

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣٨٦ وما بعدها، وعرائس المجالس ص١٩٤ .

(٢) كلمة: قوم، من (د) و(ز).

(٣) حديث ضعيف، وسلف ١/ ١٩٦ ، ومن الواضح أن القول الأول ظاهر الفساد.

(٤) في (ظ): بقتل.

(٥) سنن ابن ماجه (٣٢٢١)، وأخرجه الترمذي (١٨٢٣)، وفي إسناده موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، قال فيه يحيى: ليس بشيء ولا يكتب حديثه، وقال البخاري: عنده مناكير. ميزان الاعتدال ٤/ ٢١٨ . وقوله: «نثرة الحوت»: أي: عطسته. النهاية (نثر).

(٦) الحديث (١٩٥٢)، وهو في صحيح البخاري (٥٤٩٥)، وسلف ٣/ ٢٤ - ٢٥ .

حلالٌ باتفاق. وأنَّ ذلك يتنزَّل منه منزلةَ الذَّكاةِ فيه. وإنما اختلفوا: هل يحتاج إلى سببٍ يموت به إذا صِيدَ أم لا؟ فعامَّتُهم على أنه لا يحتاج إلى ذلك، ويؤكل كيفما مات. وحكمُه عندهم حكمُ الحِيتان، وإليه ذهب ابنُ نافعٍ[١] ومُطَرِّف.

وذهب مالكٌ إلى أنه لابُدَّ له من سببٍ يموت به؛ كقطع رؤوسه أو أرجُلِه أو أجنحته؛ إذا مات مِن ذلك، أو يُصْلقُ[٢] أو يطرح في النار؛ لأنه عنده من حَيَوان البَرِّ، فمِيْتَتُه محرَّمة.

وكان اللَّيثُ يكره أكلَ ميِّتِ الجراد، إلَّا ما أُخذ حيًّا ثم مات؛ فإنَّ أَخْذَه ذكاة. وإليه ذهب سعيد بنُ المسيب.

وروى الدَّارَقُطْنيُّ عن ابن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أُحِلَّ لنا ميتتان: الحُوتُ والجراد، ودمان: الكَبِدُ والطِّحَال»[٣].

وقال ابن ماجه: حدَّثنا أحمد بنُ مَنيع، حدَّثنا سفيان بن عُيينة، عن أبي سعد[٤]، سمع أنس بنَ مالكٍ يقول: كُنَّ أزواجُ النبيِّ ﷺ يتهادَيْنَ الجرادَ على الأطباق[٥]. ذكره ابنُ المنذر أيضاً[٦].

الخامسة: روى محمد بنُ المنكدر عن جابر بنِ عبد الله، عن عمر بنِ الخطاب ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ تعالى خلق ألفَ أُمَّة: ستُّ مئة منها في البحر، وأربع مئة في البَرِّ، وإنَّ أوَّلَ هلاكِ هذه الأممِ الجراد، فإذا هلكت الجرادُ تتابعت الأممُ مثلَ نظامِ السِّلكِ إذا انقطع». ذكره الترمذيُّ الحكيم في «نوادر

(١) في المفهم ٥/ ٢٣٧ - ٢٣٨ (والكلام منه): ابن عبد الحكم.

(٢) أي: يُشوى. اللسان (صلق).

(٣) سنن الدارقطني (٤٧٣٢)، وسلف ٣/ ٢٤ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): أبي سعيد. وأبو سعد: هو سعيد بن المَرْزُبان البقَّال. قال البخاري: منكر الحديث وضعَّفه النسائي، كما في تهذيب الكمال ١١/ ٥٢ .

(٥) سنن ابن ماجه (٣٢٢٠).

(٦) في الإشراف ٢/ ٣٤١ .

الأصول»[١] وقال: وإنما صار الجرادُ أوَّلَ هذه الأممِ هلاكاً؛ لأنه خُلق من الطِّينة التي فَضَلت من طينة آدم. وإنما تَهلِكُ الأممُ لهلاك الآدميِّين؛ لأنها مُسَخَّرةٌ لهم.

رَجَعنا إلى قصة القِبْط: فعاهدوا موسى أنْ يؤمنوا لو كُشِف عنهم الجراد، فدعا فكُشف، وكان قد بَقِيَ من زُروعهم شيء، فقالوا: يَكفينا ما بَقِيَ؛ ولم يؤمنوا، فبعثَ اللهُ عليهم القُمَّل - وهو صِغارُ الدَّبَى؛ قاله قتادة. والدَّبَى: الجرادُ قبل أنْ يَطير، الواحدة دَبَاة، وأرضٌ مَدْبِيَّة: إذا أكلَ الدَّبَى نباتَها[٢]. وقال ابن عباس: القُمَّل: السُّوس الذي في الحِنْطة. وقال ابن زيد: البراغيث. وقال الحسن: دوابُّ سُودٌ صِغار[٣]. وقال أبو عُبيدة[٤]: الحَمْنان، وهو ضربٌ من القُرَاد، واحدُها حَمْنانة - فأكلتْ دوابَّهم وزُروعَهم، ولَزِمتْ جلودَهم كأنها الجُدَرِيُّ عليهم، وَمَنَعَهم النومَ والقَرار.

وقال حبيبُ بنُ أبي ثابت: القُمَّل: الجِعْلان[٥]. والقُمَّل عند أهل اللغة: ضربٌ من القِرْدان. قال أبو الحسن الأعرابيُّ العدويُّ[٦]: القُمَّل: دوابُّ صِغارٌ مِن جنس القِردان، إلَّا أنها أصغرُ منها، واحدتها قُمَّلة. قال النحاس[٧]: وليس هذا بناقضٍ لِمَا قاله أهلُ التفسير؛ لأنه يجوز أن تكونَ هذه الأشياءُ كلُّها أُرْسِلتْ عليهم، وهي أنها

---

(١) ص١٣١ ، وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ٢٥٦ - ٢٥٧ ، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٩٩٠ ، قال ابن حبان: وهذا شيء لا شك أنه موضوع ليس هذا من كلام رسول الله ﷺ. قلنا: في إسناده محمد ابن عيسى بن كيسان، قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو زرعة: لا ينبغي أن يُحدَّث عنه، وقال ابن حبان: يروي عن محمد بن المنكدر العجائب. ينظر ميزان الاعتدال ٣/ ٦٧٧ .

(٢) الصحاح (دبى).

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/ ٣٨٣ - ٣٨٥ .

(٤) في مجاز القرآن ١/ ٢٢٦ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٧٤)، والجِعلان: جمع جُعَل، حشرة كالخُنْفَساء يكثر في المواضع النديَّة. المعجم الوسيط (جعل).

(٦) لم نعرفه.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٧٠ . وما قبله منه.

كلُّها تجتمع في أنها تُؤذيهم.

وذكر بعضُ المفسرين أنه كان بِعَيْن شمس كَثِيبٌ مِن رمل، فضربه موسى بعصاه فصار قُمَّلاً[(١)]. وواحدُ القُمَّلِ قُمَّلة. وقيل: القُمَّلُ: القَمْلُ، قاله عطاءٌ الخُراسانِيّ[(٢)]. وفي قراءة الحسن: «والقَمْلَ» بفتح القاف وإسكان الميم[(٣)]. فتضرَّعوا، فلمَّا كُشِفَ عنهم لم يؤمنوا، فأرسل اللهُ عليهم الضَّفادع، جمع ضِفْدِع، وهي المعروفةُ التي تكون في الماء، وقد ورد النهيُ عن قتلها[(٤)]، أخرجه أبو داود وابنُ ماجه بإسنادٍ صحيح؛ أخرجه أبو داود عن أحمد بن حنبل، عن عبد الرزاق. وابنُ ماجه عن محمد ابنِ يحيى النيسابوريّ الذُّهْليّ، عن أبي هريرة قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن قَتْل الصُّرَدِ[(٥)] والضِّفدِع والنَّملة والهدهد[(٦)].

وخرَّج النَّسائيُّ عن عبد الرحمن بنِ عثمان، أنَّ طبيباً ذَكرَ ضِفْدَعاً في دواءٍ عند النبيِّ ﷺ، فنهاه النبيُّ ﷺ عن قَتْله[(٧)]. صحَّحه أبو محمدٍ عبدُ الحق[(٨)].

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٩٥ من قول سعيد بن جبير والحسن.

(٢) أورده البغوي في تفسيره ٢/ ١٩٢ ، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣٩٧ من قول زيد بن أسلم.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٥ ، والمحتسب ١/ ٢٥٧ .

(٤) في (خ) و(ظ) و(م): وفيه مسألة واحدة، وهي أن النهي ورد عن قتلها.

(٥) الصُّرَد: هو طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم، نصفه أبيض ونصفه أسود. النهاية (صرد).

(٦) كذا ذكر المصنف حديثي أبي داود وابن ماجه، وهو وهم منه رحمه الله، فالذي رواه أبو داود (٥٢٦٧) عن أحمدَ بنِ حنبل، وابنُ ماجه (٣٢٢٤) عن محمد بنِ يحيى النيسابوري (وهو الذي ذكره المصنف أعلاه)، كلاهما (أحمد ومحمد) عن عبد الرزاق... بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدوابّ: النملة، والنحلة، والهُدهد، والصُّرَد. (وليس فيه ذكر الضِّفدِع). وأما الحديث الذي أورده المصنف أعلاه، فقد رواه ابن ماجه وحده (٣٢٢٣) عن محمد بن بشار وعبد الرحمن بن عبد الوهَّاب (وليس عن محمد بن يحيى)... بإسنادهما إلى أبي هريرة... باللفظ الذي ذكره المصنف وأما حديث النهي عن قتل الضِّفدِع عند أبي داود فهو الآتي بعده. وانظر تحفة الأشراف ٥/ ٦٩ و ٩/ ٤٦٨ .

(٧) المجتبى ٧/ ٢١٠ ، وأخرجه أحمد (١٥٧٥٧)، وأبو داود (٥٢٦٩).

(٨) في الأحكام الوسطى ٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠ ، والأحكام الصغرى ٢/ ٨٤٨ - ٨٤٩ .

وعن أبي هريرة قال: الصُّرَد أوَّلُ طيرٍ صام، ولَمَّا خرج إبراهيمُ عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت، كانت السَّكِينةُ[(١)] معه والصُّرَد؛ فكان الصُّرَدُ دليلَه إلى الموضع، والسَّكِينةُ مِقدارَه. فلمَّا صار إلى البُقعة[(٢)]، وقعت السَّكِينةُ على موضع البيت ونادت: اِبْنِ يا إبراهيمُ على مِقدار ظِلِّي. فنهى النبيُّ ﷺ عن قَتْل الصُّرَد؛ لأنه كان دليلَ إبراهيمَ على البيت، وعن الضِّفدِع؛ لأنها كانت تصبُّ الماءَ على نار إبراهيم[(٣)]. ولمَّا تسلَّطت على فرعون، جاءتْ فأخذت الأمكنةَ كلَّها، فلمَّا صارتْ إلى التَّنُّور، وَثَبَتْ فيها وهي نارٌ تُسعَّر؛ طاعةً لله. فجعل اللهُ نقِيقَها تسبيحاً. يقال: إنها أكثرُ الدوابِّ تسبيحاً. قال عبد الله بنُ عمرو: لا تقتلوا الضِّفدِعَ؛ فإنَّ نقيقَه الذي تسمعون تسبيح[(٤)]. فرُوي أنها مَلأتْ فُرُشَهم وأَوعيتهم وطعامَهم وشرابَهم؛ فكان الرجلُ يجلِسُ إلى ذَقنه في الضفادع، وإذا تكلَّم وَثَبَ الضِّفدِعُ في فيه. فشكَوْا إلى موسى وقالوا: نتوبُ؛ فكشف اللهُ عنهم ذلك، فعادوا إلى كُفرهم، فأرسل اللهُ عليهم الدَّمَ، فسال النيلُ عليهم دَماً. وكان الإسرائيليُّ يغترفُ منه الماء، والقِبْطيُّ الدَّم. وكان الإسرائيليُّ يَصُبُّ الماءَ في فمِ القبطيِّ فيصيرُ دَماً، والقبطيُّ يَصُبُّ الدَّمَ في فم الإسرائيليِّ فيصيرُ ماءً زُلالاً[(٥)].

﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: مُبيَّنات ظاهرات؛ عن مجاهد[(٦)]. قال الزجاج[(٧)]: «آياتٍ مُفَصَّلات»: نصب على الحال. ويُروى أنه كان بين الآية والآية ثمانيةُ أيام. وقيل: أربعون يوماً. وقيل: شهر[(٨)]؛ فلهذا قال: «مُفَصَّلات». ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي: ترفَّعوا عن الإيمان بالله تعالى.

---

(١) السكينة: ريح سريعة الممر. النهاية (سكن).
(٢) في (ظ): الحرم.
(٣) نوادر الأصول ص١٣٢ .
(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨٤١٨)، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٢٨) عنه مرفوعاً. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ١١٧ : صوابه موقوف.
(٥) عرائس المجالس ص١٩٦ . وليس في هذه المبالغات التي أوردها المفسرون نصٌّ صحيح.
(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٩٨ بنحوه.
(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٠ .
(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٤ - ٤٤٥ .

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: العذاب. وقُرئ بضمِّ الراء[١]؛ لغتان. قال ابن جُبير: كان طاعوناً، مات به من القِبْط في يومٍ واحد سبعون ألفاً[٢]. وقيل: المرادُ بالرِّجز ما تقدَّم ذِكْرُه مِن الآيات.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ «ما» بمعنى الذي، أي: بما استودَعكَ من العلم، أو: بما اختصَّك به فنبَّأك. وقيل: هذا قَسَمٌ، أي: بعهده عندك إلَّا ما دعوتَ لنا؛ فـ«ما» صِلَة[٣].

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ أي: بدعائك لإلهك حتى يكشفَ عنَّا. ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ أي: نصدِّقك بما جئتَ به. ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وكانوا يَستخدمونهم؛ على ما تقدَّم[٤].

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ يعني: أجلَهم[٥] الذي ضَرَبَ لهم في التغريق. ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: يَنقُضون ما عَقَدُوه على أنفسهم.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ واليَمُّ: البحر. «وكانوا عنها» أي: عن النِّقمة؛ دلَّ عليها: «فانتقمنا». وقيل: عن الآيات، أي: لم يعتبروا بها حتى صاروا كالغافلين عنها.

(١) قرأ بها مجاهد وابن محيصن كما في القراءات الشاذة ص٤٥ .

(٢) أخرجه الطبري ١٠/٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٣) الصواب أنها مصدرية، ينظر الكشاف ٢/١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) ٦/٢٦٣ .

(٥) في النسخ الخطية: آجالهم، والمثبت من (م).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾ يريدُ بني إسرائيل. ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ أي: يُسْتَذَلُّون بالخِدمة. ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ زَعَم الكِسائيُّ والفرَّاء أنَّ الأصل: في مشارق الأرض ومغارِبها، ثم حذفَ «في» فنصب[1]. والظاهرُ أنهم وَرِثوا أرضَ القِبْط. فهما نصبٌ على المفعول الصريح؛ يقال: وَرِثْتُ المالَ وأورثتُه المالَ؛ فلما تعدَّى الفعلُ بالهمزة نَصَبَ مفعولَين.

والأرض: هي أرضُ الشامِ ومصر. ومشارقُها ومغاربُها: جِهاتُ الشرقِ والغربِ بها، فالأرض مخصوصة، عن الحسن وقَتادةَ وغيرِهما. وقيل: أراد جميعَ الأرض؛ لأنَّ مِن بَني إسرائيل داودَ وسليمانَ، وقد مَلَكا الأرضَ[2]. ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: بإخراج الزُّروعِ والثِّمار والأنهار.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هي قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[3] [القصص: ٥]. ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: بِصَبْرِهم على أَذَى فرعون، وعلى أمرِ الله بعد أنْ آمنوا بموسى.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[4] يقال: عَرَش يَعْرِش: إذا بَنى. قال ابن عباس ومجاهد: أي: ما كانوا يَبنون من القُصور وغيرِها[5]. وقال الحسن: هو تعريشُ الكَرْم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٧، وقول الفراء في معاني القرآن له ١/ ٣٩٧.

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦ وتفسير الرازي ١٤/ ٢٢١، وقول الحسن وقتادة أخرجه الطبري ١٠/ ٤٠٦ - ٤٠٧ دون ذكر مصر.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦، ونسبه للمهدوي.

(٤) وقع في (خ) و(ز) و(ظ) بدل هذه الآية قوله: ويعرشون يبنون، والمثبت من (د) و(م).

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٠٧.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «يَعْرُشون» بضمِّ الراء[(١)]. قال الكسائيّ: هي لغةُ تميم[(٢)]. وقرأ إبراهيم بنُ أبي عَبْلَةَ: «يُعرِّشون» بتشديد الراء وضمِّ الياء[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قرأ حمزةُ والكِسائيُّ بكسر الكاف، والباقون بضمِّها[(٤)]. يقال: عَكَف يَعْكِف ويَعْكُف، بمعنى: أقام على الشيء ولَزِمه. والمصدر منهما على فُعُول[(٥)]. قال قتادة: كان أولئك القومُ من لَخْم، وكانوا نزولاً بالرقَّة[(٦)]. وقيل: كانت أصنامُهم تماثيلَ بَقَر؛ ولهذا أخرج لهم السامِريُّ عجلاً[(٧)].

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ نظيره قولُ جُهَّالِ الأعراب ـ وقد رأوا شجرةً خضراءَ للكفار، تُسَمَّى ذاتَ أنْواط[(٨)]، يعظِّمونها في كل سنةٍ يوماً ـ: يا رسولَ الله، اِجعل لنا ذاتَ أنْواط كما لهم ذاتُ أنْواط. فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهُ أكبرُ. قُلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قال قومُ موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لَتركَبُنَّ سَنَنَ مَن قبلَكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة[(٩)]، حتى إنهم لو

---

(١) السبعة ص٢٩٢، والتيسير ص١١٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٧.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٧، وهي قراءة شاذة.

(٤) السبعة ص٢٩٢، والتيسير ص١١٣.

(٥) تهذيب اللغة ١/ ٣٢١، والصحاح (عكف).

(٦) تفسير البغوي ٢/ ١٩٤، وأخرجه الطبري ١٠/ ٤٠٩ - ٤١٠ دون قوله: وكانوا نزولاً بالرقة.

(٧) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٠٩ من قول ابن جريج.

(٨) سميت بذلك لأنهم كانوا ينوطون بها سلاحهم، أي: يعلِّقونه بها. النهاية (نوط).

(٩) القذة: ريشة السهم، جمعها: قُذَذ. أي: كما تُقدَّر كل واحدة منهما على قدر صاحبتها وتُقطع. يضرب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان. النهاية (قذذ).

دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه»[١]. وكان هذا في مَخْرَجِه إلى حُنَين، على ما يأتي بيانُه في «براءة» إن شاء الله تعالى[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مُهْلَك، والتَّبار: الهلاك. وكلُّ إناءٍ مُكَسَّر: مُتَبَّرٌ، وأمر مُتَبَّر. أي: إنَّ العابد والمعبود مُهْلَكان. وقوله: ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ أي: ذاهبٌ مُضْمَحِلّ. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «كانوا» صِلَةٌ زائدة.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي: أَطلبُ لكم إلهاً غيرَ اللهِ تعالى؟ يقال: بَغَيْتُه وبَغَيْت له. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالَمِي زمانِكم. وقيل: فضَّلهم بإهلاك عدوِّهم وبما خصَّهم به من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

ذَكَّرهم مِنَّتَه. وقيل: هو خطابٌ ليهود عصرِ النبيِّ ﷺ. أي: واذكُروا إذ أنجينا أسلافكم[٣]؛ حَسَبَ ما تقدَّم بيانُه في سورة البقرة[٤].

---

(١) وقع لفظ هذا الحديث (كما أورده المصنف) في أكثر من حديث، فقد أخرجه أحمد (٢١٨٩٧)، والترمذي (٢١٨٠) من حديث أبي واقد الليثي ﷺ، دون قوله: «حذو القُذَّة بالقُذَّة...» إلى آخر الحديث. وقولُه: «حذو القُذّة بالقُذّة» وقع في حديث شداد بن أوس ﷺ، أخرجه أحمد (١٧١٣٥)، وقوله: «حتى إنهم لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه» وقع في حديثِ أبي هريرة ﷺ، أخرجه أحمد (٨٣٤٠)، وحديثِ أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه أحمد (١١٨٠٠)، والبخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) في تفسير الآية (٢٥) منها.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٤١٣.

(٤) ٢/ ٨٠ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ ذكر أنَّ ممَّا كرَّم اللهُ به موسى ﷺ هذا. فكان وعده المناجاة إكراماً له.

﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾، قال ابن عباس ومجاهدٌ ومسروق ﷺ: هي ذو القَعْدة وعشرٌ من ذي الحِجَّة[1]. أمره أن يصومَ الشهرَ وينفردَ فيه بالعبادة، فلمَّا صامَه؛ أنكر خُلُوفَ فَمِه، فاستاك. قيل: بعود خَرْنُوب، فقالت الملائكة: إنَّا كنَّا نستنشقُ من فيكَ رائحةَ المِسْك، فأفسدتَه بالسِّواك. فَزِيْدَ عليه عشرُ ليالٍ من ذي الحِجَّة.

وقيل: إنَّ الله تعالى أَوْحَى إليه لمَّا استاك: يا موسى، لا أُكلِّمك حتى يعودَ فُوك إلى ما كان عليه قبلُ، أَمَا علمتَ أنَّ رائحةَ الصائم أحبُّ إليَّ من ريح المِسْك. وأمره بصيام عَشْرةِ أيام[2].

وكان كلامُ الله تعالى لموسى ﷺ غداةَ النَّحْرِ حين فَدَى إسماعيلَ من الذَّبح، وأكمل لمحمدٍ ﷺ الحجَّ[3].

وحُذفت الهاءُ من عشر؛ لأنَّ المعدود مؤنَّث.

والفائدة في قوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد عُلم أنَّ ثلاثين وعشرة

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/٤١٤ - ٤١٥، وابن أبي حاتم ٥/١٥٥٦ (٨٩٢٠).

(٢) الوسيط ٢/٤٠٥، وزاد المسير ٣/٢٥٥، وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/١٥٥٦ (٨٩١٨) بنحوه من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/٧٨١.

أربعون، لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المراد: أتممنا الثلاثين بعشرٍ منها؛ فبيَّن أنَّ العشر سوى الثلاثين[١]. فإن قيل: فقد قال في «البقرة»: «أربعين» [الآية: ٥١]، وقال هنا: «ثلاثين»، فيكونُ ذلك من البَدَاء[٢]. قيل: ليس كذلك، فقد قال: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ والأربعون، والثلاثون والعشرة؛ قولٌ واحد ليس بمختلف. وإنما قال القولين على تفصيلٍ وتأليف، قال: «أربعين» في قولٍ مؤلَّف، وقال: «ثلاثين» يعني: شهراً متتابعاً وعشراً. وكلُّ ذلك أربعون؛ كما قال الشاعر: عشر وأربع[٣]

يعني: أربعَ عَشْرَةَ، ليلةَ البدر. وهذا جائزٌ في كلام العرب.

الثانية: قال علماؤنا: دلَّت هذه الآيةُ على أن ضَرْب الأجل للمواعَدة سُنَّةٌ ماضية، ومعنًى قديمٌ أسَّسه اللهُ تعالى في القضايا، وحَكَم به للأُمم، وعرَّفهم به مقاديرَ التأنِّي في الأعمال. وأوَّلُ أجلٍ ضربه اللهُ تعالى الأيامُ السِّتة التي خلق فيها جميعَ المخلوقات[٤]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]. وقد بيَّنَّا معناه فيما تقدَّم في هذه السورة من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٥٤].

قال ابن العربيّ[٥]: فإذا ضُرِب الأجلُ لمعنًى يحاوَل فيه تحصيلُ المؤجَّل، فجاء الأجلُ ولم يتيسَّر، زِيدَ فيه تبصرةً ومعذرةً. وقد بيَّن اللهُ تعالى ذلك لموسى عليه السلام، فضرب له أجلاً ثلاثين ثم زاده عشراً تتمةَ أربعين. وأبطأ موسى عليه السلام في هذه العشرِ على قومه، فما عَقَلوا جوازَ التأنِّي والتأخُّرِ حتى قالوا: إنَّ موسى ضَلَّ أو نَسِي، ونكثوا عهدَه وبدَّلوا بعده، وعبدوا إلهاً غيرَ الله.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٤٨ ، وتفسير الرازي ١٤/٢٢٦ .

(٢) يقال: بَدَا له في هذا الأمر بَدَاءٌ ـ بالمدّ ـ أي: نشأ له فيه رأي. الصحاح (بدو).

(٣) قائله أبو نواس، وهو في ديوانه ص٢٢٣ ، وهو بتمامه:

كالبدر ليلة عشر ... وأربع لِسُعوده

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٠ .

(٥) في أحكام القرآن ٢/ ٧٨٠ .

قال ابن عباس: إنَّ موسى قال لقومه: إنَّ ربي وعدني ثلاثين ليلةً أنْ ألقاه، وأُخلِّف فيكم هارون، فلما فَصَل[١] موسى إلى ربه زاده اللهُ عشراً، فكانت فتنتُهم في العشر الذي زاده اللهُ[٢]، بما فعلوه مِن عبادة العجل، على ما يأتي بيانه[٣].

ثم الزيادةُ التي تكون على الأجل تكون مقدَّرة، كما أنَّ الأجل مقدَّر. ولا يكون إلَّا باجتهادٍ[٤] من الحاكم بعد النظر إلى المعاني المتعلِّقةِ بالأمر؛ مِن وقتٍ وحالٍ وعمل، فيكون مثل ثُلث المدَّةِ السالفة، كما أجَّل اللهُ لموسى. فإنْ رأى الحاكمُ أنْ يَجمعَ له الأصلَ في الأجل والزيادة في مدَّةٍ واحدةٍ جاز، ولكن لابدَّ من التربُّص بعدها لِما يطرأ من العذر على البشر، قاله ابنُ العربيّ.

روى البخاريُّ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «أعْذَر اللهُ إلى امرئ أخَّر أجَلَه حتى بلَغ سِتِّين سَنة»[٥].

قلت: وهذا أيضاً أصلٌ لإعذار الحُكَّام إلى المحكوم عليه مرَّةً بعد أخرى. وكان هذا لُطفاً بالخَلْق، ولينفِّذَ القُيَّامُ عليهم بالحقّ. يقال: أعْذَرَ في الأمر، أي: بالغ فيه[٦]، أي: أعذر غايةَ الإعذار الذي لا إعذارَ بعده.

وأكبرُ الإعذارِ إلى بَني آدم بِعْثةُ الرسل إليهم؛ لِتتِمَّ حُجَّتُه عليهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] قيل: هم

---

(١) أي: خرج، الصحاح (فصل).

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٥، عزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ص٣٣٣ من هذا الجزء.

(٤) عبارة أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨١ (والكلام منه): الزيادة التي تكون على الأجل غير مقدَّرة، كما أن الأجل غير مقدَّر، وإنما يكون ذلك باجتهاد...

(٥) صحيح البخاري (٦٤١٩)، وهو عند أحمد (٧٧١٣). قال الحافظ ابن حجر ١١/ ٢٤٠: المعنى: أنه لم يبق له اعتذار، كأن يقول: لو مُدَّ لي في الأجل لَفعلتُ ما أُمرت به.

(٦) الصحاح (عذر).

الرسل. ابن عباس: هو الشَّيب[(١)]. فإنه يأتي في سِنِّ الاكتهال، فهو علامةٌ لمفارقة سِنِّ الصِّبا.

وجَعَل الستين غايةَ الإعذار؛ لأن الستين قريبٌ من مُعترَك العباد[(٢)]، وهو سِنُّ الإنابةِ والخشوع والاستسلام لله، وترقُّبِ المَنِيَّة ولقاءِ الله، ففيه إعذارٌ بعد إعذار[(٣)]؛ الأوَّلُ بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، والثاني بالشَّيب، وذلك عند كمالِ الأربعين، قال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. فذكر عزَّ وجلَّ أنَّ مَن بلغ أربعين، فقد آنَ له أن يعلمَ مِقدارَ نِعَمِ اللهِ عليه وعلى والديه ويَشْكرَها.

قال مالك: أدركت أهلَ العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا ويُخالطون الناس، حتى يأتيَ لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتَتْ عليهم؛ اعتزلوا الناس.

الثالثة: ودلَّت الآيةُ أيضاً على أنَّ التاريخ يكون بالليالي دون الأيام؛ لقوله تعالى: «ثلاثِين ليلةً»، لأن اللياليَ أوائلُ الشهور. وبها كانت الصحابةُ ﷺ تُخْبر عن الأيام، حتى رُوي عنها أنها كانت تقول: صُمْنا خمساً مع رسول الله ﷺ. والعجم تخالف في ذلك، فتحسُب بالأيام؛ لأن معوَّلها على الشمس. ابن العربيّ[(٤)]: وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك؛ ولهذا قال: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾. يقال: أَرَّخت تأريخاً، وورَّخت توريخاً، لغتان[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ المعنى: وقال موسى ـ حين أراد المُضِيَّ للمناجاة والمَغيبَ فيها ـ لأخيه هارون: كن خليفتي[(٦)]،

---

(١) أخرجه البيهقي ٣/ ٣٧٠.

(٢) في (د) و(ز): العبادة. وسيذكر المصنف هذا المعنى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة فاطر، وفيه: معترك المنايا، بدل: معترك العباد.

(٣) ذكر هذا الكلام الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٢٤٠ ونسبه لابن بطَّال.

(٤) في أحكام القرآن ٢/ ٧٨١، وما قبله منه.

(٥) الصحاح (أرخ).

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠.

فدلَّ على النِّيابة.

وفي «صحيح» مسلم: عن سعد بن أبي وقَّاص قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لعليٍّ حين خلَّفه في بعض مغازيه: «أمَا تَرْضى أن تكونَ مني بمنزلةِ هارونَ من موسى، إلاَّ أنه لا نبيَّ بعدي»(١).

فاستدلَّ بهذا الروافضُ والإماميَّةُ وسائرُ فِرَقِ الشِّيعة على أنَّ النبيَّ ﷺ استخلف عليًّا على جميع الأُمّة، حتى كفَّر الصحابةَ الإماميةُ ـ قبَّحهم الله ـ لأنهم عندهم تركوا العملَ الذي هو النصُّ على استخلاف عليّ، واستخلفوا غيرَه بالاجتهاد منهم. ومنهم من كفَّر عَلِيًّا إذ لم يَقُم بطلب حقِّه. وهؤلاء لا شكَّ في كُفرهم وكُفرِ مَن تَبِعهم على مَقالتهم(٢). ولم يعلموا أنَّ هذا استخلافٌ في حياة ـ كالوَكالة التي تنقضي بعزل الموكِّلِ أو بموته ـ لا يقتضي أنه مُتمادٍ بعد وفاته، فينْحَلُّ على هذا ما تعلَّق به الإماميةُ وغيرهم(٣). وقد استخلف النبيُّ ﷺ على المدينة ابنَ أمِّ مكتومٍ وغيرَه(٤)، ولم يَلْزم من ذلك استخلافُه دائماً بالاتّفاق. على أنه قد كان هارونُ شُرِّك مع موسى في أصل الرسالة، فلا يكونُ لهم فيه على ما رامُوه دلالة(٥). والله الموفِّق للهداية.

قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ أمرٌ بالإصلاح. قال ابنُ جُريج: كان من الإصلاح أن يزجرَ السامِريَّ ويُغيِّر عليه(٦). وقيل: أي: أُرْفُقْ بهم، وأَصْلِحْ أمرَهم، وأَصلِحْ نفسَك، أي: كُن مُصلحاً. ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: لا تَسلُكْ سبيلَ العاصِين، ولا تكن عوناً للظالمين.

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٠٤)، وهو عند أحمد (١٥٨٣) و(١٦٠٨)، والبخاري (٤٤١٦). وقد سلف ١/ ٣٩٨.

(٢) المفهم ٦/ ٢٧٣.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠.

(٤) سلف ١/ ٤٠٠.

(٥) المفهم ٦/ ٢٧٣.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠، وأخرجه الطبري ١٠/ ٤١٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي: في الوقت الموعود. ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي: أسمعَه كلامَه من غير واسطة. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ سأل النَّظرَ إليه، واشتاقَ إلى رؤيته لمَّا أسمعَه كلامَه. فـ ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ أي: في الدنيا.

ولا يجوز الحَمْلُ على أنه أراد: أرني آيةً عظيمةً لأنظرَ إلى قُدرتك؛ لأنه قال: «إليكَ» وقال: «لن تراني». ولو سأل آيةً لأعطاه اللهُ ما سأل، كما أعطاه سائرَ الآيات. وقد كان لموسى عليه السلام فيها مَقْنَعٌ عن طلب آيةٍ أُخرى، فبطل هذا التأويل[1].

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ ضرَبَ له مِثالاً ممَّا هو أقوى مِن بِنْيَته وأثبتُ، أي: فإنْ ثَبَتَ الجبلُ وسكن؛ فسوف تراني، وإنْ لم يَسكن؛ فإنك لا تُطيق رؤيتي؛ كما أنَّ الجبل لا يُطيق رؤيتي.

وذكر القاضي عِياضٌ[2] عن القاضي أبي بكرِ بنِ الطَّيِّب ما معناه: أنَّ موسى عليه السلام رأى اللهَ، فلذلك خرَّ صَعِقاً، وأنَّ الجبل رأى ربَّه، فصار دكًّا بإدراكٍ خلقَه اللهُ له. واستَنْبط ذلك من قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾. ثم قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ و«تجلَّى» معناه: ظهر، مِن قولك: جَلَوْتُ العروسَ، أي: أبرزتُها. وجَلَوْتُ السيف: أبرزتُه من الصَّدأ، جِلاءً فيهما. وتجلَّى الشيء: انكشفَ[3]. وقيل: تجلَّى أمرُه وقدرته؛ قاله قُطْرُبٌ وغيره.

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٢٣٠.

(٢) في الشفا ١/ ٣٨٥.

(٣) الصحاح (جلو).

وقراءة أهلِ المدينة وأهلِ البصرة: «دَكًّا»[(١)]، يدلُّ على صِحَّتها ﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، وأنَّ الجبل مذكَّر. وقرأ أهلُ الكوفة: «دَكَّاءَ»[(٢)]، أي: جعله مِثْلَ أرضٍ[(٣)] دكَّاءَ، وهي الناتئة لا تبلُغُ أن تكونَ جبلاً. والمذكَّر: أَدَكُّ، وجمع دَكَّاء: دكَّاوات ودُكٌّ، مثل: حَمْراوات وحُمْر[(٤)]. قال الكِسائيّ: الدُّكُّ من الجبال: العِراض، واحدها: أَدَكُّ. غيرُه: والدَّكَّاوات جمع دَكَّاء: رَوَابٍ من طينٍ ليست بالغِلاظ. والدَّكْداكُ كذلك من الرمل: ما التبدَ بالأرض فلم يرتفع. وناقة دَكَّاء: لا سَنامَ لها[(٥)].

وفي التفسير: فساخ الجبلُ في الأرض، فهو يذهب فيها حتى الآن. وقال ابن عباس: جعله تراباً. عَطِيَّةُ العَوْفي: رملاً هائلاً.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: مَغْشِيًّا عليه، عن ابن عباس والحسنِ وقتادة. وقيل: ميتاً[(٦)]؛ يقال: صَعِق الرجل فهو صَعِقٌ. وصُعِق فهو مصعوق[(٧)]. وقال قتادة والكَلْبيّ: خَرَّ موسى صَعِقاً يومَ الخميس يومَ عَرَفة، وأُعطي التوراةَ يوم الجمعةِ يومَ النَّحر[(٨)].

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: من مسألة الرؤيةِ في الدنيا[(٩)]. وقيل: سأل مِن غير استئذان؛ فلذلك تاب[(١٠)]. وقيل: قاله على جهة الإنابة إلى الله

(١) قرأ بها نافع المدني وأبو عمرو البصري، ووافقهما ابن كثير المكي وابن عامر الشامي وعاصم الكوفي. السبعة ص٢٩٣، والتيسير ص١١٣.

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي من أهل الكوفة، وأما عاصم الكوفي فقرأ: «دكًّا»، كما سلف.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): الأرض.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٨، وينظر معاني القرآن له ٣/ ٧٥.

(٥) مجمل اللغة ١/ ٣١٨.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ١٩٧ - ١٩٨، وتنظر هذه الآثار في تفسير الطبري ١٠/ ٤٢٧ - ٤٢٨.

(٧) تهذيب اللغة ١/ ١٧٨.

(٨) تفسير البغوي ٢/ ١٩٨ عن الكلبي.

(٩) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٣٤.

(١٠) الوسيط ٢/ ٤٠٨.

والخشوعِ له عند ظهور الآيات[١].

وأجمعت الأمةُ على أنَّ هذه التوبةَ ما كانت عن معصية، فإنَّ الأنبياءَ معصومون. وأيضاً عند أهل السنَّة والجماعةِ الرؤيةُ جائزةٌ. وعند المُبتدِعة سأل لأجل القوم لِيبيِّنَ لهم أنها غيرُ جائزة[٢]، وهذا لا يَقتضي التوبة. فقيل: أي: تبتُ إليك من قتل القِبْطي. ذكره القشيريّ. وقد مضى في «الأنعام»[٣] بيانُ أنَّ الرؤيةَ جائزة.

قال عليُّ بن مَهْديٍّ الطبريّ[٤]: لو كان سؤال موسى مستحيلاً، ما أقدم عليه مع معرفته بالله، كما لم يَجُزْ أن يقولَ له: يا ربِّ، ألَكَ صاحبةٌ وولد؟. وسيأتي في «القيامة»[٥] مذهبُ المعتزلة والردُّ عليهم، إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: مِن قومي. وقيل: من بني إسرائيلَ في هذا العصر. وقيل: بأنك لا تُرَى في الدنيا؛ لِوعدك السابقِ في ذلك[٦].

وفي الحديث الصحيح من حديث أبي هريرة وغيرِه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تُخيِّروا بين الأنبياء، فإنَّ الناسَ يَصْعَقون يومَ القيامة، فأرفع رأسي، فإذا أنا بموسى آخِذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أَصَعِقَ فيمن صَعِقَ فأفاقَ قبلي، أو حُوسِبَ بِصَعْقته الأُولى»، أو قال: «كَفَتْه صَعْقتُه الأُولى»[٧].

---

(١) مجمع البيان ٩/ ١٧ - ١٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢ .

(٣) ٨/ ٤٨٢ - ٤٨٥ .

(٤) علي بن محمد بن مهدي، أبو الحسن، تلميذ أبي الحسن الأشعري، كان من المُبرِّزين في علم الكلام، له كتاب «تأويل الأحاديث المشكلات الواردات في الصفات»، وهو من طبقة القفَّال الشاشي. طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٤٦٦ .

(٥) في تفسير الآيتين (٢٢ و ٢٣).

(٦) تفسير الطبري ١٠/ ٤٣٤ - ٤٣٥ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢ .

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٢٦ ـ واللفظ له ـ وأحمد (١١٢٨٦)، والبخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٥٨٦)، والبخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ. وسلفت القطعة الأولى منه ٤/ ٢٥٣ .

وذكر أبو بكر بنُ أبي شيبة[١] عن كعب قال: إنَّ الله تبارك وتعالى قَسَمَ كلامَه ورؤيتَه بين محمدٍ وموسى صلى الله وسلم عليهما، فكلَّمه موسى مرَّتين، ورآه محمدٌ ﷺ مرَّتين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ الاصطفاء: الاجتباء، أي: فضَّلتك. ولم يقل: على الخَلْق؛ لأنَّ مِن هذا الاصطفاءِ أنه كلَّمه، وقد كلَّم الملائكة، وأرسله وأرسلَ غيره[٢]. فالمراد: «على النَّاسِ» المُرسَلِ إليهم.

وقرأ: «برسالتي» على الإفراد نافعٌ وابنُ كثير. والباقون بالجمع[٣]. والرسالة مصدر، فيجوز إفرادُها. ومَن جَمَعَ على أنه أُرسِل بضروبٍ من الرِّسالات[٤] فاختلفت أنواعها، فجمع المصدرُ لاختلاف أنواعه، كما قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩]، فجمَعَ لاختلاف أجناسِ الأصوات واختلافِ المُصوِّتين، ووَحَّد في قوله: «لَصَوْتُ» لمَّا أراد به جنساً واحداً من الأصوات[٥]. ودلَّ هذا على أنَّ قومه لم يُشاركه في التَّكليم ولا واحد من السبعين، كما بيَّنَّاه في «البقرة»[٦].

قوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ إشارةٌ إلى القناعة، أي: اِقنع بما أعطيتُك[٧]. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: من المُظهِرين لإحساني إليك وفَضْلي عليك، يقال: دابَّةٌ

---

(١) في المصنف ١١/٥٢٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٤/٢٣٦ .

(٣) السبعة ص٢٩٣ ، والتيسير ص١١٣ .

(٤) في (م): الرسالة.

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/٤٧٦ .

(٦) ٢/ ١١٤ .

(٧) في (د) و(ز) و(ظ): آتيتك.

شَكُور: إذا ظهَر عليها من السِّمَن فوق ما تُعْطى من العَلَف[١]. والشاكر معرَّضٌ للمزيد كما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ويُروى أنَّ موسى عليه السلام مكثَ بعد أن كلَّمه اللهُ تعالى أربعين ليلةً لا يراه أحدٌ إلَّا مات مِن نور الله عزَّ وجلَّ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد التوراة. ورُوي في الخبر أنه قبضَ عليه جبريلُ عليه السلام بجناحه، فمرَّ به في العُلَا حتى أدناه، حتى سَمِع صَرِيفَ القلم حين كتب اللهُ له الألواح، ذكره التِّرمِذيُّ الحكيم[٣].

وقال مجاهد: كانت الألواح من زُمُرُّدةٍ خضراء. ابن جُبير: من ياقوتةٍ حمراء. أبو العالية: من زَبَرْجَد. الحسن: من خشب، نزلَتْ من السماء. وقيل: من صخرةٍ صمَّاء، لَيَّنها اللهُ لموسى عليه السلام، فقطَعها بيده، ثم شَقَّها بأصابعه، فأطاعته كالحديد لداود. قال مقاتل: أي: كتبنا له في الألواح كنَقْش الخاتم. الربيع بنُ أنس: نزلت التوراةُ، وهي سبعون وِقْرَ بعير. وأضافَ الكتابةَ إلى نفسه على جِهة التشريف، إذ هي مكتوبةٌ بأمره، كتبها جبريلُ بالقلم الذي كتَبَ به الذِّكر. واستُمِدَّ من نهر النور[٤]. وقيل: هي كتابةٌ أظهرها اللهُ وخلَقَها في الألواح.

وأصل اللَّوح: اللَّمْع[٥] بفتح اللام. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ

---

(١) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ١٠/ ١٢ ، ومجمل اللغة ١/ ٥١٠.

(٢) أخرج هذا القول ابن عدي في الكامل ٤/ ١٦١٨ ، والحاكم ٢/ ٥٧٦ من قول عبد الرحمن بن معاوية أبي الحويرث قال الذهبي في تلخيص المستدرك: إسناده ليِّن.

(٣) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول، وأخرج الطبري ١/ ٦٦٧ نحوه من قول أبي العالية.

(٤) تنظر هذه الأقوال في تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٢ - ١٥٦٣ ، والنكت والعيون ٢/ ٢٥٩ - ٢٦٠ ، والوسيط ٢/ ٤٠٨ - ٤٠٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ١٩٩ .

(٥) في (ظ) و(م): لوح، والمثبت من (خ) و(د) و(ز). وينظر معجم مقاييس اللغة ٥/ ٢٢٠ .

مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. فكأن اللَّوحَ تلوح فيه المعاني[(١)]. ويُروى أنها لوحان، وجاء بالجمع؛ لأنَّ الاثنينِ جَمْع[(٢)]. ويقال: رجلٌ عظيم الألواح، إذا كان كبيرَ عَظْمِ اليدين والرِّجلين[(٣)].

ابنُ عباس: وتكسَّرت الألواحُ حين ألقاها، فرُفعت إلَّا سُدسَها. وقيل: بقيَ سُبُعُها ورُفعت سِتَّةُ أسباعِها. فكان في الذي رُفع تفصيلُ كلِّ شيء، وفي الذي بقيَ الهدى والرحمة[(٤)]. وأسند أبو نعيمٍ الحافظُ عن عمرو بنِ دِينار قال: بلغني أنَّ موسى ابنَ عِمرانَ نبيَّ اللهِ ﷺ صام أربعين ليلة، فلمَّا ألقى الألواحَ تكسَّرت، فصام مثلَها فرُدَّت إليه[(٥)].

ومعنى «مِنْ كُلِّ شيء»: مما يُحتاج إليه في دينه من الأحكام وتبيينِ الحلال والحرام[(٦)]، عن الثوريِّ وغيره. وقيل: هو لفظٌ يُذكر تفخيماً ولا يُراد به التعميم؛ تقول: دخلت السُّوقَ فاشتريتُ كلَّ شيء. وعند فلانٍ كلُّ شيء. و﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]. وقد تقدَّم[(٧)].

﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لكل شيءٍ أُمِروا به من الأحكام، فإنه لم يكن عندهم اجتهادٌ، وإنما خصَّ بذلك أُمَّةَ محمد ﷺ.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام حَذْفٌ، أي: فقلنا له: خُذْها بقوَّة؛ أي: بجِدٍّ ونشاط. نظيره: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] وقد تقدَّم[(٨)].

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٦٠ .

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٥٨ .

(٣) تهذيب اللغة ٥/ ٢٤٨ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٥) حلية الأولياء ٣/ ٣٤٩ .

(٦) النكت والعيون ٢/ ٢٦٠ ، وزاد المسير ٢/ ٢٥٨ .

(٧) ١/ ٣٣٨ .

(٨) ٢/ ١٦٥ .

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ﴾ أي: يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهي، ويتدبَّروا الأمثالَ والمواعظ. نظيره: ﴿وَاتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر:٥٥]. وقال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر:١٨]. والعَفْوُ أحسنُ من الاقتصاص، والصبرُ أحسنُ من الانتصار. وقيل: أحسنُها الفرائض والنوافل، وأدْوَنُها المباح[١].

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، قال الكلبيّ: «دارَ الفاسقين» ما مَرُّوا عليه إذا سافروا من منازل عادٍ وثمود، والقرونِ الذين[٢] أُهلكوا. وقيل: هي جهنم؛ عن الحسن ومجاهد. أي: فَلْتكُن منكم على ذِكْر، فاحْذَرُوا أن تكونوا منها. وقيل: أراد بها مصرَ، أي: سأريكم ديار القِبط ومساكنَ فرعونَ خاليةً عنهم؛ عن ابن جُبير. قتادة: المعنى: سأُريكم منازلَ الكفارِ التي سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لِتعتبروا بها، يعني الشام[٣]. وهذان القولان يدلُّ عليهما ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾ [الأعراف:١٣٧] الآية. ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٥] الآيةَ، وقد تقدَّم[٤]. وقرأ ابن عباسٍ وقَسَامةُ بنُ زهير: «سأُورِثكم»[٥] مِن «ورث». وهذا ظاهر.

وقيل: الدار: الهلاك، وجمعه أدوار. وذلك أنَّ الله تعالى لمَّا أغرقَ فرعون، أَوْحى إلى البحر أن اقذِف بأجسادهم إلى الساحل، قال: ففعل، فنظرَ إليهم بنو إسرائيل، فأَراهم هلاكَ الفاسقين[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٠، وزاد المسير ٣/ ٢٥٩.

(٢) في (خ) و(د) و(ز) و(م): التي، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لتفسير البغوي ٢/ ٢٠٠ والكلام منه.

(٣) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٢/ ٢٦١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٣، والوسيط ٢/ ٤٠٩ - ٤١٠، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٠، وزاد المسير ٣/ ٢٦٠.

(٤) ص٣١٦ من هذا الجزء.

(٥) القراءات الشاذة ص٤٦. قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ١١٧: هي قراءة حسنة، يصححها قوله: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ وينظر البحر ٤/ ٣٨٩. وقسامة بن زهير: المازني التميمي البصري، روى عن أبي موسى الأشعري وأبي هريرة رضي الله عنهما، توفي بعد الثمانين. تهذيب التهذيب ٣/ ٤٤٠.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٦ (٨٩٨٠).

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قال قتادة: سأمنعُهم فَهْمَ كتابي، وقاله سفيانُ بن عُيينة. وقيل: سأصْرِفهم عن الإيمان بها(١). وقيل: سأصْرِفهم عن نَفْعها(٢)، وذلك مُجازاةً على تكبُّرِهم؛ نظيرُه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٦١]. والآياتُ على هذا: المعجزاتُ، أو الكُتب المُنزلة. وقيل: خَلقُ السماواتِ والأرض، أي: أَصْرِفُهم عن الاعتبارِ بها(٣). ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: يَرَوْنَ أنَّهم أفضلُ الخلق، وهذا ظنٌّ باطل، فلهذا قال: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فَلا يتَّبعون نَبِيًّا، ولا يُصْغُون إليه لتكبُّرِهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ يعني: هؤلاء المُتكبِّرين. أخبر عنهم أنَّهم يتركون طريقَ الرَّشاد، ويتَّبِعون سبيلَ الغيِّ والضلال؛ أي: الكفر؛ يتَّخذوه دِيناً. ثم علَّل فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ذلك الفعلُ الذي فعلْتُه بهم بتكذيبهم. ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: كانوا في تَرْكهم تدبُّرَ الحقِّ كالغافلين. ويَحتمِلُ أنْ يكونوا غافلين عما يُجازَوْن به؛ كما يقال: ما أغفلَ فلاناً عمَّا يُرادُ به(٤).

وقرأ مالك بنُ دِينار: «وإنْ يُروا» بضمِّ الياءِ في الحرفين؛ أي: يُفْعَل ذلك بهم(٥).

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٦٠، وقول سفيان أخرجه الطبري ١٠/ ٤٤٣.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٢/ ٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٤٣ من قول ابن جريج.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٧٩، وزاد المسير ٣/ ٢٦١.

(٥) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ١١٧، وابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.

وقرأ أهلُ المدينة وأهلُ البصرةِ: «سَبِيل الرُّشْد» بضمِّ الراء وإسكان الشين[١]. وأهلُ الكوفةِ إلا عاصماً: «الرَّشَد» بفتح الراء والشين.

قال أبو عُبيد: فرَّق أبو عمرو بينَ الرُّشْد والرَّشَد فقال: الرُّشْد في الصَّلاح. والرَّشَد في الدِّين.

قال النحاس[٢]: سيبويه يذهبُ إلى أنَّ الرُّشْد والرَّشَد مثلُ السُّخْط والسَّخَط، وكذا قال الكسائي.

والصحيحُ عن أبي عمرو غيرُ ما قال أبو عُبيد؛ قال إسماعيلُ بن إسحاق: حدَّثنا نصرُ بن عليّ، عن أبيه، عن أبي عمرِو بن العلاء قال: إذا كان الرُّشْد وسطَ الآية فهو مُسكَّن، وإذا كانَ رأسَ الآيةِ فهو محرَّك.

قال النحاس: يعني برأسِ الآية نحو ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، فهما عنده لغتان بمعنًى واحد؛ إلَّا أنَّه فتحَ هذا لِتتفقَ الآيات. ويقال: رَشَد يَرْشُد، ورَشِدَ يَرْشَدُ. وحكى سيبويه رَشد يَرشد[٣]. وحقيقة الرُّشْد والرَّشَد في اللغة: أن يظفَر الإنسان بما يُريد، وهو ضدُّ الخَيْبة.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد خروجه إلى الطُّور. ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ هذه قراءةُ أهلِ المدينة وأهلِ البصرة[٤]. وقرأ أهلُ الكوفة إلَّا عاصماً: «من

---

(١) قرأ بها من أهل المدينة نافع، ومن أهل البصرة أبو عمرو، وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي وابن عامر الشامي، وعاصم من الكوفيين. السبعة ص٢٩٣ ، والتيسير ص١١٣ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ١٤٩ - ١٥٠ ، وما قبله منه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) قرأ بها من أهل المدينة نافع، ومن أهل البصرة أبو عمرو، وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي وابن عامر الشامي وعاصم الكوفي. السبعة ص٢٩٤ ، والتيسير ص١١٣ .

حِلِيِّهمْ» بكسر الحاء. وقرأ يعقوبُ: «من حَلْيِهِم» بفتح الحاءِ والتخفيف[١]. قال النحاس[٢]: جمعُ حَلْيٍ: حُلِيٌّ وحِلِيٌّ؛ مثلُ ثَدْيٍ وثُدِيٌّ وثِدِيٌّ. والأصلُ: حُلُوي، ثم أدغمت الواو في الياء، فانكسرت اللام لمجاورتها الياء، وتكسرُ الحاءُ لكسرةِ اللام، وضَمُّها على الأصل.

﴿عِجْلًا﴾ مفعول. ﴿جَسَدًا﴾ نعتٌ أو بدل. ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ رفع بالابتداء. يقال: خار يَخُور خُواراً: إذا صاح. وكذلك جَار يَجْأَر جُؤاراً[٣]. ويقال: خَوِرَ يَخْوَرُ خَوَراً: إذا جَبُن وضَعُف.

ورُوي في قصص العجل[٤]: أنَّ السّامِرِيَّ - واسمه موسى بن ظَفَر - ينسب إلى قريةٍ تدعى سَامِرة. وُلد عام قَتْل الأبناء، وأَخفته أمُّه في كهف جبلٍ فغذَّاه جبريلُ؛ فعرفَه لذلك، فأَخذ - حين عبرَ البحر على فرسٍ وَدِيق[٥] ليتقدَّم فرعونَ في البحر - قبضةً من أثر حافر الفرس. وهو معنى قوله ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦].

وكان موسى وعد قومَه ثلاثين يوماً، فلما أبطأ في العشر الزائد، ومضت ثلاثون ليلةً قال لبني إسرائيل - وكان مطاعاً فيهم -: إنَّ معكم حُلِيًّا من حُلِيِّ آل فرعون - وكان لهم عيدٌ يتزينون فيه، ويستعيرون مِنَ القِبْط الحُلِيّ، فاستعاروا لذلك اليوم، فلمَّا أخرجهم الله من مصر، وغرّق القِبْطَ، بَقِيَ ذلك الحُلِيُّ في أيديهم - فقال لهم السَّامِرِيّ: إنَّه حرامٌ عليكم؛ فهاتوا ما عندكم فنحرقَه.

وقيل: هذا الحُلِيّ ما أخذَه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق، وأنَّ هارون قال لهم: إن الحُلِيّ غنيمةٌ، وهي لا تَحِلّ لكم؛ فجمعها في حُفْرةٍ حَفَرها، فأخذَها السَّامِرِيُّ.

---

(١) ويعقوب من العشرة. النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٧٢ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ١٥٠ ، وما قبله منه.

(٣) في النسخ خار يخار خواراً، والمثبت من (م) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥١ والكلام منه.

(٤) تنظر هذه القصص في تفسير الطبري ١/ ٦٦٩ وما بعدها، وعرائس المجالس ص٢١٠ - ٢١١ .

(٥) هي التي تشتهي الفحل. النهاية (ودق).

وقيل: استعاروا الحُلِيَّ ليلةَ أرادوا الخروجَ من مصر، وأوهموا القِبْطَ أنَّ لهم عرساً أو مجتمعاً، وكان السَّامِرِيّ سَمِعَ قولَهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وكانت تلكَ الآلهةُ على مِثال البقر؛ فصاغ لهم عجلاً جسداً، أي: مُصْمَتاً، غيرَ أنهم كانوا يسمعون منه خُواراً.

وقيل: قَلَبه الله لحماً ودماً[١]. وقيل: إنَّه لمَّا ألقى تلك القبضةَ من التراب في النار على الحُلِيِّ؛ صار عجلاً له خُوار، فخارَ خَوْرَةً واحدةً ولم يُثْنِّ[٢]، ثم قال للقوم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه:٨٨]. يقول: نَسِيَه هاهنا وذهب يَطلبه فَضَلَّ عنه، فتعالَوْا نعبدُ هذا العجل. فقال الله لموسى وهو يُناجيه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه:٨٥]. فقال موسى: يا ربّ، هذا السَّامريُّ أخرج لهم عجلاً من حُلِيِّهم، فمن جعل له جسداً؟ ـ يريد اللَّحم والدَّم ـ ومَن جعل له خُواراً؟ فقال الله سبحانه: أنا، فقال: وعِزَّتك وجلالك، ما أضلَّهم غيرُك. قال: صدقتَ يا حكيمَ الحُكَماء[٣]. وهو معنى قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

وقال القَفّال: كان السامِريُّ احتالَ بأن جوَّف العجل، وكان قابلَ به الرِّيح، حتى جاء من ذلك ما يُحاكي الخُوار، وأَوْهَمهم أنَّ ذلك إنَّما صار كذلك لمّا طرح في الجسدِ من التراب الذي كان أخذَه من تراب قوائم فرس جبريل. وهذا كلامٌ فيه تهافتٌ، قاله القُشَيريّ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بيَّن أنَّ المعبودَ يجب أن يتَّصف بالكلام. ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى حُجَّة[٤]. ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أي: إلهاً. ﴿وَكَانُوا۟

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٣٦ عن قتادة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٥٦٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ١/ ٦٧١ عن السدي بنحوه، وينظر عرائس المجالس ص٢١٢ . وهذه الأخبار من الإسرائيليات. قال الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير ٩/ ١١٠ : ما وقع في القصص أنه كان لحماً ودماً ويأكل ويشرب؛ فهو من وضع القصاصين.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٨ .

﴿ظَٰلِمِينَ﴾ أي: لأنفسهم فيما فعلوا من اتِّخاذه. وقيل: وصاروا ظالمين، أي: مشركين[١] لجعلهم العجل إلهاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بعد عَوْدِ موسى من المِيقات. يقال للنادم المُتحيِّر: قد سُقِطَ في يده.

قال الأخفش[٢]: يقال: سُقط في يده، وأُسْقِط. ومَن قال: «سَقَطَ في أيديهم» على بناء الفاعل[٣]؛ فالمعنى عنده: سَقط الندم؛ قاله الأزهريُّ والنحاس وغيرهما[٤].

والندمُ يكون في القلب، ولكنَّه ذكَرَ اليدَ؛ لأنَّه يقال لمن تحصَّل على شيءٍ: قد حصل في يده أمرُ كذا؛ لأنَّ مباشرةَ الأشياء في الغالب باليد، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. وأيضاً: الندمُ وإنْ حَلَّ بالقلب[٥] فأثره يظهرُ في البدن[٦]؛ لأنَّ النادم يَعَضُّ يده، ويضرب إحدى يديه على الأُخرى، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] أي: ندِمَ. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أي: من النَّدَم. والنادمُ يضعُ ذَقنَه في يده[٧].

وقيل: أصلُه من الاستئسار، وهو أنْ يضربَ الرجلُ الرجلَ، أو يصرعَه، فيرميَ به من يَدَيْه إلى الأرض ليأْسِرَه أو يَكْتِفَه؛ فالمَرْمِيُّ مسقوطٌ به في يدِ الساقط[٨].

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٤١١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٥٣٢، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥١.

(٣) قرأ بها ابن السميفع. القراءات الشاذة ص٤٦.

(٤) تهذيب اللغة ٨/ ٣٩٢، وإعراب القرآن ٢/ ١٥١، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٨.

(٥) في (م): في القلب.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٨.

(٧) مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٣١.

(٨) تفسير الطبري ١٠/ ٤٤٨.

﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ أي: انقلبوا بمعصية الله.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أخذوا في الإقرار بالعبودية والاستغفار. وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «لئن لم تَرْحَمنا ربَّنا وتَغْفِرْ لنا» بالتاء على الخطاب، وفيه معنى الاستغاثة والتضرُّع والابتهال في السُّؤال والدُّعاء. «ربَّنا» بالنصب على حَذْفِ النداء، وهو أيضاً أبلغُ في الدُّعاء والخُضوع، فقراءتُهما أبلغُ في الاستكانة والتضرُّع، فهي أَوْلى[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ لم ينصرف «غَضْبانَ» لأنَّ مؤنَّثه غَضْبَى، ولأنَّ الألف والنونَ فيه بمنزلة ألفي[2] التَّأنيث في قولك: حمراء. وهو نصب على الحال.

و«أَسِفاً»: شديدَ الغضب. قال أبو الدَّرداء: الأَسَفُ منزلةٌ وراء الغضب أشدُّ من ذلك[3]. وهو أَسِفٌ وأَسِيفٌ وأَسْفانٌ وأَسُوفٌ. والأَسِيفُ أيضاً: الحزين.

ابن عباس والسُّدِّي: رجع حزيناً من صنيع قومه[4]. وقال الطبريّ: أخبره الله عزَّ وجلَّ قبل رجوعه أنَّهم قد فُتِنوا بالعجل؛ فلذلك رجع وهو غضبان[5].

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٧٧ ، وينظر السبعة ص٢٩٤ ، والتيسير ص١١٣ .

(٢) في (ظ): ألف والكلام في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥١ .

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٥٠ .

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٥٠ .

(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٤٤٩ .

ابن العربيّ: وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضباً، لكنَّه كان سريع الفَيْئة؛ فتِلك بتلك. قال ابن القاسم: سمعتُ مالكاً يقول: كان موسى عليه السلام إذا غَضِب طلع الدُّخَان من قَلَنْسُوَتِه، ورفعَ شعرُ بدنه جُبَّتَه[(١)]. وذلك أنَّ الغضب جَمْرة تتوقّد في القلب؛ ولأجله أمرَ النبيُّ ﷺ مَن غَضب أن يضطجع، فإنْ لم يذهب غضبُه اغتسل[(٢)]؛ فيُخْمِدُها اضطجاعُه ويطفئها اغتساله[(٣)]. وسُرْعةُ غضبه كان سبباً لصَكّه مَلَكَ الموت ففقأ عينَه. وقد تقدَّم في «المائدة»[(٤)] ما للعلماء في هذا.

وقال الترمِذيُّ الحكيم[(٥)]: وإنما استجازَ موسى عليه السلام ذلك لأنَّه كليمُ الله؛ كأنَّه رأى أنَّ مَنِ اجترأ عليه أو مدَّ إليه يداً بأذًى فقد عظم الخطب فيه. ألا ترى أنه احتجَّ عليه فقال: من أين تنزِعُ روحي؟ أمن فمِي وقد ناجيتُ به ربي! أمْ مِن سمعي وقد سمعت به كلام ربِّي! أم مِن يدي وقد قبضتُ منه[(٦)] الألواح! أم مِن قدمي وقد قمتُ بين يديه أكلِّمه بالطُّور! أمْ مِن عيني وقد أشرقَ وجهي لنوره. فرجعَ إلى ربّه مُفْحَماً.

وفي «مُصَنّف» أبي داود عن أبي ذرٍّ قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غَضِبَ أحدُكم وهو قائمٌ فَلْيجلِسْ، فإنْ ذهبَ عنه الغضبُ؛ وإلا فَلْيضطجع»[(٧)]. ورَوَى أيضاً عن أبي وائل القاصّ قال: دخلنا على عروةَ بنِ محمد السّعدِيّ[(٨)] فكلَّمه رجلٌ

(١) سلف ٧/ ٤٠٧، وهو من الإسرائيليات.

(٢) لم نقف عليه بهذا السياق، والقسم الأول منه سيرد قريباً، والقسم الثاني أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٣٠ من حديث معاوية ﷺ، وفي إسناده ياسين بن معاذ الزيات. قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي وابن الجنيد: متروك. ميزان الاعتدال ٤/ ٣٥٨. وتحرف في مطبوع الحلية: ياسين (يعني ابن معاذ) عن عبد الله، إلى: ياسين بن عبد الله.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٢ - ٧٨٣.

(٤) ٦/ ١٣١.

(٥) في نوادر الأصول ص٤٣.

(٦) في (ظ): بها.

(٧) سنن أبي داود (٤٧٨٢)، وهو في مسند أحمد (٢١٣٤٨).

(٨) عامل عمر بن عبد العزيز على اليمن، وكان من صالح العُمّال، ينظر تهذيب الكمال ٢٠/ ٣٢.

فأغضبَه؛ فقامَ، ثم رجعَ وقد توضأ، فقال: حدّثني أبي عن جدّي عطيَّة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الغضبَ من الشيطان، وإنَّ الشيطانَ خُلِقَ مِن النار، وإنما تُطْفَأُ النارُ بالماء، فإذا غَضِبَ أحدُكُم فَلْيتوضَّأْ»[1].

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ ذَمٌّ منه لهم، أي: بئس العملُ عَمِلتُم[2] بعدي. يقال: خَلَفَه، بما يكره، ويقال في الخير أيضاً؛ يقال منه: خَلَفَه بخير أو بِشَرٍّ في أهله وقومه بعد شُخوصه[3].

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: سبقتموه. والعَجَلة: التقدُّم بالشيء قبلَ وقته، وهي مذمومة. والسرعةُ: عَمَلُ الشيء في أوَّل أوقاته، وهي محمودة[4]؛ قال يعقوب: يقال: عَجِلتُ الشيءَ: سبقته، وأعجلتُ الرجلَ: استعجلته[5]، أي: حملتُه على العَجَلة. ومعنى «أَمْرَ رَبِّكم» أي: مِيعادَ ربِّكم، أي: وَعْدَ أربعينَ ليلة. وقيل: أي: تعجَّلتم سَخط ربِّكم. وقيل: أَعَجِلتُم بعبادة العجل قبل أن يأتيَكم أَمْرُ ربِّكم[6].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي: ممَّا اعتراه من الغضب والأَسَف حين أشرفَ على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، وعلى أخيه في إهمال أمرهم؛ قاله سعيد بن جُبير[7]. ولهذا قيل: «ليسَ الخبرُ كالمعاينة»[8]. ولا التفاتَ لما

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٨٤)، وهو في مسند أحمد (١٧٩٨٥) وإسناده ضعيف.

(٢) في (خ): عملكم، وفي (ظ): عملتموه.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٢ . وقوله: شخوصه؛ في القاموس: شخص من بلد إلى بلد: ذهب.

(٤) تفسير الرازي ١٥/ ١١ ، وعزاه للواحدي.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥١ .

(٦) في (خ) و(م): من ربكم. وينظر تفسير الرازي ١٥/ ١١ .

(٧) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٥١ ، من قول سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) هو حديث عن النبي ﷺ؛ أخرجه أحمد (١٨٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وسلف ٤/ ٣٠٩ .

رُوي عن قتادة - إنْ صحَّ عنه، ولا يصحُّ - أنَّ إلقاءَه الألواحَ إنَّما كان لِمَا رأى فيها من فضيلةِ أمة محمد ﷺ، ولم يكن ذلك لأُمَّته[١]. وهذا قول رديءٌ لا ينبغي أنْ يُضاف إلى[٢] موسى ﷺ[٣].

وقد تقدَّم عن ابن عباس ﷺ أنَّ الألواحَ تكسَّرت، وأنه رُفع منها التفصيل وبَقِيَ فيها الهدى والرحمة[٤].

الثانية: وقد استدلَّ بعضُ جُهّال المتصوّفة بهذا على جواز رَمْي الثياب إذا اشتدَّ طَرَبُهم على المَغْنَى. ثم منهم من يَرمِي بها صحاحاً، ومنهم مَن يَخْرِقها ثم يرمي بها؛ قال: هؤلاء في غَيْبةٍ فلا يُلامون؛ فإنَّ موسى عليه السلام لمَّا غلب عليه الغمُّ بعبادةِ قومه العجلَ، رمَى الألواحَ فكسرها، ولم يدرِ ما صنع.

قال أبو الفرج الجوزيّ[٥]: مَن يصحِّح عن موسى عليه السلام أنه رماها رَمْيَ كاسر؟ والذي ذكر في القرآن: إلقاءها، فمن أين لنا أنها تكسَّرت؟ ثم لو قيل: تكسَّرت؛ فمن أين لنا أنَّه قصدَ كسرَها؟ ثم لو صحَّحنا ذلك عنه قلنا: كان في غيبةٍ، حتى لو كان بين يديه بحرٌ مِنْ نار لَخاضه. ومَن يُصحِّح لهؤلاء غَيْبتهم وهم يعرفون المُغنِّي من غيره، ويحذَرون من بئر لو كانت عندهم. ثم كيف تُقاسُ أحوالُ الأنبياء على أحوال هؤلاء السفهاء.

وقد سُئِل ابنُ عَقيل[٦] عن تواجدِهم وتخريق ثيابهم فقال: خطأ وحرام، وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن إضاعة المال[٧]. فقال له قائلٌ: فإنَّهم لا يعقلون ما يفعلون. فقال:

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٥٢. قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٧٧ : كأنه تلقَّاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذَّابون ووضّاعون وأفّاكون وزنادقة.

(٢) في (خ) و(د) و(ز): يوصف إلى.

(٣) قاله ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧.

(٤) تقدم ص٣٢٩ من هذا الجزء.

(٥) في تلبيس إبليس ص٢٥١.

(٦) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل، أبو الوفا البغدادي الحنبلي، توفي سنة (٥١٣هـ). السير ١٩/ ٤٤٣.

(٧) سلف ٤/ ٤٨٢.

إنْ حضَروا هذه الأمكنَة مع عِلْمهم أنَّ الطَّرب يغلِبُ عليهم فيزيلُ عقولهم، أَثِمُوا بما أدخلوه على أنفسهم مِنَ التخريق وغيره ممَّا أفسدوا[١]، ولا يَسقطُ عنهم خطابُ الشرع؛ لأنَّهم مُخاطبون قبل الحضور بتجنُّب هذا الموضع الذي يُفضِي إلى ذلك. كما هم مَنهِيُّون عن شُرب المسكر، كذلك هذا الطَّرَب الذي يُسمِّيه أهلُ التصوف وَجْداً إِنْ صدقوا فيه أنه[٢] سُكْرُ طبع، وإنْ كَذَبوا أفسدوا مع الصَّحْو، فلا سلامةَ فيه مع الحالين، وتجنُّبُ مواضعِ الرِّيَب واجبٌ[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ أي: بلحيته وذؤابته. وكانَ هارونُ أكبرَ من موسى صلوات الله وسلامه عليهما بثلاثِ سنين، وأحبَّ إلى بني إسرائيل من موسى؛ لأنَّه كان لَيِّنَ الغضب[٤].

وللعلماء في أخذ موسى برأس أخيه أربع تأويلات:

الأوَّل: أنَّ ذلك كان متعارَفاً عندهم؛ كما كانت العرب تفعله مِنْ قبض الرجل على لحيةِ أخيه وصاحبه إكراماً وتعظيماً، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال[٥].

الثاني: أنَّ ذلك إنما كان[٦] ليُسِرَّ إليه نزولَ الألواح عليه؛ لأنَّها نزلت عليه في هذه المناجاة، وأراد أن يُخفيَها عن بني إسرائيل قبل التوراة. فقال له هارون: لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي؛ لئلَّا يشتبه سِرارُه على بني إسرائيل بإذلَاله[٧].

الثالث: إنما فعل ذلك به؛ لأنَّه وقع في نفسه أنَّ هارونَ مائلٌ مع بني إسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل. ومثلُ هذا لا يجوز على الأنبياء.

---

(١) في النسخ: يفسدوا، والمثبت من (م).

(٢) في (خ) و(ظ): إن فيه، وفي (م): أن فيه.

(٣) تلبيس إبليس ص٢٥٢ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٢ .

(٥) النكت والعيون ٢/ ٢٦٤ .

(٦) في (ظ): إنما كان ذلك.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧ .

الرابع: ضَمَّ إليه أخاه ليعلم ما لديه؛ فكره ذلك هارون لئلَّا يظنَّ بنو إسرائيل أنَّه أهانه؛ فبيَّن له أخوه أنَّهم استضعفوه، يعني عبَدَة العجل، وكادوا يقتلونه، أي قاربوا[١]. فلما سمع عذره قال: ربِّ اغفر لي ولأخي؛ أي: اغفر لي ما كان من الغضب الذي ألقيتُ من أجله الألواحَ، ولأخي؛ لأنَّه ظنَّه مُقصِّراً في الإنكار عليهم، وإنْ لم يقع منه تقصير، أي: اغفِرْ لأخي إنْ قصَّر. قال الحسن: عبدَ كلُّهم العجلَ غير هارون، إذ لو كان ثَمَّ مؤمن غير موسى وهارون لَمَا اقتصر على قوله: ربِّ اغفِرْ لي ولأخي، ولَدَعَا لِذلك المؤمن أيضاً[٢]. وقيل: استغفر لنفسه من فِعْله بأخيه، فعلَ ذلك لِمَوْجِدته عليه؛ إذْ لم يَلحقْ به فيعرِّفَه ما جرى لِيرجع فيتلافاهم؛ ولهذا قال: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ الآية[٣] [طه:٩٢و٩٣]. فبيَّن هارونُ أنَّه إنما أقامَ خوفاً على نفسه من القتل. فدلَّت الآيةُ على أنَّ لمن خَشِيَ القتلَ على نفسه عندَ تغيير المُنكر أن يَسْكُت. وقد تقدَّم بيانُ هذا في «آل عمران»[٤].

ابنُ العربيّ[٥]: وفيها دليلٌ على أنَّ الغضبَ لا يغيِّر الأحكام كما زعم بعضُ الناس، فإنَّ موسى عليه السلام لم يغيِّر غضبُه شيئاً من أفعاله، بل اطَّردت على مجراها من إلقاء لوح، وعتابِ أخ، وصكِّ مَلَك.

المَهْدَوِيّ: لأنَّ غضبه كان لله عزَّ وجلَّ، وسكوتَه عن بني إسرائيل خوفاً أن يتحاربوا ويتفرَّقوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ وكان ابنَ أُمّه وأبيه. ولكنها كلمةُ لِين وعطف.

قال الزَّجاج[٦]: قيل: كان هارونُ أخا موسى لأمِّه لا لأبيه.

---

(١) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٣ .

(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٦ .

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٠/ ٤٥٧ .

(٤) ٥/ ٧٥ .

(٥) في أحكام القرآن ٢/ ٧٨٣ ، وما قبله منه.

(٦) لم نقف عليه في معاني القرآن له، وقال هذا القولَ النحاسُ في إعراب القرآن ٢/ ١٥١ .

وقُرِئ بفتح الميم وكسرها[١]؛ فمن فتح جعل «ابنَ أُمَّ» اسماً واحداً كخمسةَ عشرَ، فصار كقولك: يا خمسةَ عشرَ أقبلوا. ومن كسر الميم جعلَه مضافاً إلى ضمير المتكلم، ثم حذفَ ياء الإضافة؛ لأنَّ مبنى النداء على الحذف، وأبقى الكسرة في الميم لتدلَّ على الإضافة، كقوله: «يا عِبَادِ»[٢]. يدلُّ عليه قراءةُ ابن السَّمَيْفَع: «يا ابنَ أمِّي» بإثبات الياء على الأصل[٣].

وقال الكسائي والفرّاء وأبو عُبيد: «يا ابن أمَّ» بالفتح، تقديره: يا ابنَ أُمَّا[٤]. وقال البصريون: هذا القولُ خطأ؛ لأنَّ الألفَ خفيفةٌ لا تحذف، ولكن جعلَ الاسمين اسماً واحداً. وقال الأخفش وأبو حاتم: «يا ابنَ أمِّ» بالكسر كما تقول: يا غلامَ غلامِ أقبل، وهي لغةٌ شاذّة والقراءة بها بعيدة[٥]. وإنَّما هذا فيما يكون مضافاً إليك؛ فأمَّا المضاف إلى مضافٍ إليك فالوجهُ أن تقول: يا غلامَ غلامي، ويا ابنَ أخي. وجوَّزوا: يا ابنَ أمِّ، يا ابنَ عمِّ، لِكَثْرتها في الكلام[٦]. قال الزَّجَّاج والنحَّاس: ولكن لها وجهٌ حسنٌ جيّد، يجعلُ الابنَ مع الأمِّ ومع العَمِّ اسماً واحداً؛ بمنزلة قولك: يا خمسةَ عشرِ أقبلوا، فَحُذفت الياءُ كما حُذِفت من: يا غلامِ[٧].

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾: استذلُّوني وعدُّوني ضعيفاً. ﴿وَكَادُوا۟﴾ أي: قاربوا.

---

(١) قرأ بالفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص، وقرأ بالكسر ابن عامر وعاصم - في رواية أبي بكر - وحمزة والكسائي. السبعة ص٢٩٥، والتيسير ص١١٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٢، وتفسير الرازي ١٥/ ١٢.

(٣) ذكرها الزمخشري في كشافه ٢/ ١١٩، وأبو حيان في البحر ٤/ ٣٩٦ دون نسبة.

(٤) في (م): أمَّاه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٢، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٤، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٣٣. وقوله: وهي لغة شاذة من كلام النحاس؛ قال: لأن الثاني ليس بمنادى، فلا ينبغي أن تحذف منه الياء.

(٦) أمالي ابن الشجري ٢/ ٢٩٥.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٨، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٢. وينظر أمالي ابن الشجري ٢/ ٢٩٦.

﴿يَقْتُلُونَنِي﴾ بنونين؛ لأنه فعلٌ مستقبل. ويجوزُ الإدغام في غير القرآن[(١)]. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ أي: لا تَسُرَّهم.

والشَّماتةُ: السرور بما يُصيب أخاك من المصائب في الدِّين والدنيا، وهي مُحرَّمةٌ مَنْهِيٌّ عنها. وفي الحديث عن النبيّ ﷺ: «لا تُظهر الشَّماتةَ بأخيك؛ فيعافيَه اللهُ ويَبتليَك»[(٢)]. وكان رسولُ الله ﷺ يتعوَّذُ منها ويقول: «اللهمَّ إني أعوذُ بك من سوءِ القضاء، ودَرْكِ الشقاء، وشَماتةِ الأعداء». أخرجه البخاريّ وغيره[(٣)]. وقال الشاعر:

إذا ما الدّهرُ جرَّ على أُناسٍ ... كَلاكِلَهُ أناخَ بآخرينا

فقل للشَّامتين بِنا أَفِيقُوا ... سَيَلقَى الشامتون كما لَقِينا[(٤)]

وقرأ مجاهد ومالك بن دِينار: «تَشْمَتْ»؛ بالنصب في التاء وفتح الميم، «الأعداءُ» بالرفع[(٥)]. والمعنى: لا تفعل بي ما تَشْمَتُ من أجله[(٦)] الأعداءُ، أي: لا يكون ذلك منهم لفعلٍ تفعلُه أنت بي. وعن مجاهد أيضاً: «تَشْمَتْ» بالفتح فيهما؛ «الأعداءَ» بالنصب[(٧)]. قال ابن جِنّي: المعنى: فلا تشمت بي أنتَ يا ربّ. وجاز هذا كما قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ونحوه. ثم عاد إلى المراد، فأضمر فعلاً

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٢ .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع بلفظ: «لا تُظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك». وقال: حديث حسن غريب.

(٣) صحيح البخاري (٦٣٤٧)، وأخرجه أحمد (٧٣٥٥)، ومسلم (٢٧٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) نسب هذين البيتين ابن قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ١١٤ للفرزدق ونسبه ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٤٧ ، والأصفهاني في الأغاني ٢١/ ٣٩٦ للعلاء بن قرظة خالِ للفرزدق، ونسبه البغدادي في خزانة الأدب ٥/ ٢٨٧ لذي الإصبع العدواني. وقوله: كلاكله ـ وفي الخزانة: شراشره، ومعناها: الثِّقَل ـ: الكلكل من الفرس: ما بين محزمه إلى ما مسَّ الأرض منه إذا ربض، وقد يستعار لما ليس بجسم، فيجعل للدهر كلكل. اللسان (كلل).

(٥) القراءات الشاذة ص٤٦ ، والمحتسب ١/ ٢٥٩ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٢ .

(٦) في (ز) و(ظ): يشمت مني بأجله، وفي (د): يشمت مني لأجله.

(٧) القراءات الشاذة ص٤٦ ، والمحتسب ١/ ٢٥٩ .

نَصبَ به الأعداء؛ كأنَّه قال: ولا تُشْمِت بي الأعداءَ[١].

قال أبو عُبيد: وحُكيت عن حُميد: «فلا تَشْمِت» بكسر الميم[٢]. قال النحاس[٣]: ولا وجه لهذه القراءة؛ لأنَّه إن كان مِنْ شَمِت؛ وجب أن يقول: تَشْمَت. وإن كانَ من أَشْمَتَ؛ وجب أن يقول: تُشْمِت.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال مجاهد: يعني الذين عبدوا العجل[٤]. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الغضبُ من الله: العقوبة. ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لأنهم أُمِروا بقتلِ بعضهم بعضاً. وقيل: الذِّلَّة: الجِزْية. وفيه بُعْدٌ؛ لأنَّ الجِزية لم تُؤخَذ منهم، وإنَّما أُخِذت من ذريَّاتهم[٥].

ثم قيل: هذا من تمام[٦] كلام موسى عليه السلام؛ أخبر الله عزَّ وجلَّ به عنه، وتمَّ الكلام. ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[٧]. وكان هذا القولُ من موسى عليه السلام قبل أنْ يتوبَ القومُ بقتلهم أنفسَهم؛ فإنَّهم لمَّا تابوا وعفا اللهُ عنهم بعد أنْ جرى القَتْلُ العظيم ـ كما تقدَّم بيانُه في «البقرة»[٨] ـ أخبرهم أنَّ من مات منهم

---

(١) المحتسب ١/ ٢٥٩ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص٤٦ .

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ١٥٢ ، وعنه نقل المصنف قول أبي عُبيد السالف.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٦١ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٨٤ .

(٦) قوله: تمام، من (م).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٣ .

(٨) ٢/ ١١٠ .

قتيلاً فهو شهيد، ومن بَقِيَ حيًّا فهو مغفورٌ له(١).

وقيل: كان ثَمَّ طائفةٌ أُشْرِبوا في قلوبهم العجل ـ أي: حُبَّه ـ فلم يتوبوا؛ فهم المَعنِيُّون بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾.

وقيل: أراد مَنْ مات منهم قبل رجوع موسى من المِيقات(٢)، وقيل: أراد أولادَهم، وهو ما جرى على قُرَيظة والنَّضِير، أي: سينالُ أولادَهم(٣). والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ أي: مثلَ ما فعلنا بهؤلاء نفعلُ بالمفترين.

وقال مالكُ بن أنس رحمة الله عليه: ما مِن مُبْتَدِعٍ إلَّا وتَجد فوقَ رأسه ذِلَّة، ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ حتى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ أي: المبتدِعين(٤).

وقيل: إنَّ موسى أُمِرَ بذبح العجل، فجرى منه دَمٌ؛ وبَرَدَه بِالمِبْرد وألقاه مع الدَّم في اليَمِّ، وأمرهم بالشرب من ذلك الماء؛ فمن عَبَدَ ذلك العجلَ وأُشْرِبَه ظهر ذلك على أطراف فَمِه، فبذلك عرفَ عَبَدة العجل. وقد مضى هذا في «البقرة»(٥).

ثم أخبر الله تعالى أنَّ الله يقبل توبةَ التائب من الشرك وغيره. وقد مضى هذا في غير موضع.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الكفر والمعاصي .﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد فعلها .﴿وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ أي: سكن. وكذلك قرأها معاويةُ

---

(١) عرائس المجالس ص٢١٣ .

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٦٢ عن ابن جريج.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٢ ، وزاد المسير ٣/ ٢٦٦ .

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٦٦ ، والرازي في تفسيره ١٥/ ١٣ .

(٥) ٢/ ٢٥٦ .

ابن قُرَّة: «سكن» بالنون[١].

وأصل السُّكوت: السكونُ والإمساك، يقال: جرى الوادي ثلاثاً ثم سكن، أي: أمسكَ عن الجَرْي.

وقال عكرمة[٢]: سكتَ موسى عن الغضب؛ فهو مِنَ المقلوب، كقولك: أدخلتُ الإصبع في الخاتم، وأدخلتُ الخاتم في الإصبع. وأدخلت القَلَنْسُوةَ في رأسي، وأدخلت رأسي في القَلَنْسوة.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها. ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: «هُدًى» من الضلالة، «وَرَحْمَةٌ» أي: من العذاب.

والنَّسخُ: نَقْل ما في كتابٍ إلى كتابٍ آخر. ويقال للأصل الذي كتبتَ منه: نُسخة، وللفرع: نسخة.

فقيل: لما تكسَّرت الألواحُ؛ صام موسى أربعين يوماً، فرُدَّت عليه وأُعيدَت له تلك الألواحُ في لوحين، ولم يَفقِدْ منها شيئاً، ذكره ابن عباس[٣]. قال القُشيريّ: فعلى هذا «وفي نُسْخَتها» أي: وفيما نُسِخ من الألواح المُتكسِّرة، ونُقل إلى الألواح الجديدة هدًى ورحمةٌ.

وقال عطاء: وفيما بقي منها[٤]. وذلك أنه لم يَبْقَ منها إلا سُبْعُها، وذهب ستَّةُ أَسباعها[٥]. ولكنْ لم يذهب من الحدود والأحكام شيء.

وقيل: المعنى: «وفي نُسْختها» أي: وفيما نُسخ له منها من اللوح المحفوظ هُدًى.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٦.

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ١٥/ ١٤. وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٩.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٢٠٣، والرازي في تفسيره ١٥/ ١٥.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٢٠٣.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٦٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه الطبري ١٠/ ٤٥٦، وفيه: فَرُفِعَتْ إلا سُدسها.

وقيل: المعنى: وفيما كُتب له فيها هدًى ورحمةٌ، فلا يحتاج إلى أصلٍ يُنقل عنه. وهذا كما يقال: انسخْ ما يقول فلان، أي: أَثبته في كتابك.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: يخافون. وفي اللام ثلاثةُ أقوال: قولُ الكوفيين هي زائدة. قال الكسائيّ: حدَّثني من سَمِع الفرزدق يقول: نقدتُ لها مئةَ درهم، بمعنى نقدتُها. وقيل: هي لامُ أَجْل، المعنى: والذين هم من أجل ربِّهم يرهبون؛ لا رياءَ ولا سُمعةً؛ عن الأخفش. وقال محمد بن يزيد: هي متعلقة بمصدر[1]، المعنى: للذين هم رَهْبتُهم لربِّهم. وقيل: لمَّا تقدَّم المفعولُ حَسُن دخولُ اللام، كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]. فلمَّا تقدَّم المعمولُ ـ وهو المفعولُ ـ ضَعُف عملُ الفعل، فصار بمنزلة ما لا يتعدَّى[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾: مفعولان، أحدهما: حُذفت منه مِنْ، وأنشد سيبويه:

مِنَّا الذي اخْتِير الرِّجالَ سَماحةً ... وبِرًّا إذا هَبَّ الرِّياحُ الزَّعازِعُ[3]

وقال الراعي يمدح رجلاً:

اخترتُك الناسَ إذ رَثَّت خلائقُهم ... واختلَّ مَن كان يُرجَى عنده السُّولُ[4]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٤، وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٥٣٥. ومحمد بن يزيد هو المبرِّد.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩، وتفسير الرازي ١٥/ ١٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٤، وينظر كتاب سيبويه ١/ ٣٩، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤١٨، وفيه: وخيراً، بدل: وبرًّا.

(٤) ديوان الراعي النميري ص١٩٤، وفيه: واعتلَّ، بدل: واختلَّ.

يريد: اخترتُك من الناس. وأصلُ اختار: اخْتَيَر؛ فلما تحرَّكت الياء وقبلها فتحةٌ قلبت ألفاً، نحو: قال وباع.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: ماتوا. والرَّجفة في اللُّغة: الزَّلْزلة الشديدة. ويُروى أنهم زُلزِلوا حتى ماتوا[(١)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ أي: أَمَتَّهم؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ [النساء:١٧٦]. «وإيَّايَ» عطف. والمعنى: لو شئت أمَتَّنا مِنْ قبلِ أن نخرجَ إلى المِيقات بمحضَر بني إسرائيل حتى لا يتَّهموني[(٢)].

أبو بكر بن أبي شيبة[(٣)]: حدّثنا يحيى بن سعيد القَطّان، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عُمارة بن عبد، عن عليٍّ ﷺ قال: انطلق موسى وهارون صلى الله عليهما، وانطلق شَبَّر وشَبير ـ هما ابنا هارون ـ فانتهَوْا إلى جبلٍ فيه سرير، فنام[(٤)] عليه هارون فقبض روحه. فرجَع موسى إلى قومه، فقالوا: أنت قتلتَه، حسدتَنا على لِينه وعلى خُلُقه، أو كلمةً نحوها ـ الشكُّ من سفيان ـ فقال: كيف أقتلُه ومعي ابناه! قال: فاختاروا مَنْ شئتم، فاختاروا من كل سِبْطٍ عشرةً. قال: فذلك قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ فانتهَوْا إليه، فقالوا: مَن قتلك يا هارون؟ قال: ما قتلني أحد، ولكنَّ الله توفَّاني. قالوا: يا موسى، ما تُعْصَى[(٥)]. فأخذتْهم الرَّجْفةُ، فجعلَ يتردد[(٦)] يميناً وشمالاً، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾. قال: فدعا اللهَ فأحياهم، وجَعَلهم أنبياءَ كلَّهم[(٧)].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٨٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٤.

(٣) في المصنف ١١/ ٥٢٩ - ٥٣٠، وهو عنده من طريق آخر عن سفيان. وأخرجه الطبري ١٠/ ٤٧٠.

(٤) في (خ) و(د) و(ز) و(م): فقام، والمثبت من (ظ) وهو الموافق للمصادر.

(٥) عند الطبري: يا موسى لن تُعصى بعد اليوم.

(٦) في النسخ: فجعلوا يترددون، والمثبت من مصنف ابن أبي شيبة. وعند الطبري: فجعل موسى يرجع...

(٧) ذكره ابن كثير في التفسير، وقال: هذا أثر غريب جداً.

وقيل: أخذتهم الرجفةُ لقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[١] [النساء:١٥٣]؛ لما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة:٥٥]. على ما تقدَّم بيانُه في «البقرة»[٢]. وقال ابن عباس: إنَّما أخذتهم الرجفةُ لأنَّهم لم ينهَوْا مَنْ عَبَدَ العجل، ولم يرضَوْا عبادته[٣]. وقيل: هؤلاء السبعون غيرُ من قالوا أرنا اللهَ جهرة.

وقال وهب: ما ماتوا، ولكنْ أخذتهم الرجفةُ من الهَيْبة حتى كادتْ أن تَبِين مفاصلُهم، وخاف موسى عليهم الموت[٤]. وقد تقدَّم في «البقرة» عن وهب أنهم ماتوا يوماً وليلة[٥]. وقيل غيرُ هذا في معنى سبب أخذهم بالرجفة. والله أعلم بصحة ذلك.

ومقصود الاستفهام في قوله: «أَتُهْلِكُنَا» الجَحْد، أي: لست تفعلُ ذلك. وهو كثيرٌ في كلام العرب. وإذا كان نَفْياً كان بمعنى الإيجاب، كما قال:

ألستمْ خيرَ مَنْ ركبَ المَطايا ... وأنْدَى العالمينَ بُطونَ راحِ[٦]

وقيل: معناهُ الدعاء والطلب؛ أي: لا تهلكنا، وأضاف إلى نفسه. والمراد: القوم الذين ماتوا من الرجفة. وقال المبرِّد: المرادُ بالاستفهام: استفهامُ استعطاف[٧]، كأنَّه يقول: لا تُهلكنا، وقد عَلِم موسى أنَّ الله لا يُهلكُ أحداً بذنبِ غيرِه؛ ولكنَّه كقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة:١١٨].

وقيل: المُراد بالسفهاء السبعون[٨]. والمعنى: أَتُهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩ .

(٢) ٢/ ١١٣ وما بعدها.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٧٢ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٣ .

(٥) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٢١٤ ، ولم نقف عليه في «البقرة».

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٤ ، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٨٩ .

(٧) في (خ) و(د) و(ز) و(م): استعظام، وفي (ظ): إعظام، والمثبت من الوسيط للواحدي ٢/ ٤١٥ ، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٤ ، وتفسير الرازي ١٥/ ١٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٠ .

السفهاء في قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ما هذا إلا اختبارُك وامتحانُك. وأضاف الفتنةَ إلى الله عزَّ وجلَّ، ولم يُضِفْها إلى نفسه؛ كما قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأضاف المرضَ إلى نفسه، والشفاءَ إلى الله تعالى. وقال يُوشع: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وإنَّما استفادَ ذلك موسى عليه السلام من قوله تعالى له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥]. فلما رَجَع إلى قومه، ورأى العجلَ منصوباً للعبادة وله خُوار قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: بالفتنة. ﴿مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ وهذا رَدٌّ على القدرية[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: وفِّقْنا للأعمال الصالحة التي تكتبُ لنا بها الحسنات. ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: جزاءً عليها. ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تُبْنا؛ قاله مجاهد وأبو العالِيَة وقَتادة[2]. والهَوْد: التوبة؛ وقد تقدَّم في «البقرة»[3].

قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ أي: المستحقِّين له، أي: هذه الرجفةُ والصاعقة عذابٌ مِنِّي أُصيبُ به من أشاء. وقيل: المعنى: «من أشاء»، أي: مَن أشاء أنْ أُضِلَّه.

قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ عموم[4]، أي: لا نهايةَ لها؛ أي: مَنْ دخلَ فيها لم تعجِز عنه. وقيل: وَسِعت كلَّ شيء مِنَ الخَلْق حتى إنَّ البهيمةَ لها رحمةٌ وعطفٌ على ولدها.

---

(١) حَزّ الغلاصم لشيث بن إبراهيم ١/ ٢٦ .
(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٨٨ ، وأخرجه الطبري ١٠/ ٤٨١ .
(٣) ٢/ ١٥٨ .
(٤) في (ظ): من الخلق، بدل: عموم.

قال بعض المفسرين: طَمِع في هذه الآية كلُّ شيءٍ حتى إبليس، فقال: أنا شيء، فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. فقالت اليهودُ والنصارى: نحن متَّقون، فقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية. فخرجت الآيةُ عن العموم، والحمد لله[١].

روى حمادُ بن سلمة، عن عطاء بن السَّائب، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: كتبها الله عزَّ وجلَّ لهذه الأمَّة[٢]. والحمد لله[٣].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: روى يحيى بن أبي كثير، عن نَوْف البِكَاليّ الحِمْيَريّ: لما اختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقات ربِّه قال الله تعالى لموسى: أنْ أجعل لكم الأرضَ مسجداً وطَهوراً؛ تصلُّون حيث أدركتكم[٤] الصَّلاة إلّا عند مِرحاض أو حمَّام أو قبر، وأجعل السَّكينة في قلوبكم، وأجعلكم تقرؤون التوراةَ عن ظَهْر قلوبكم، يقرأُها الرجلُ منكم والمرأة والحرُّ والعبد والصغير والكبير. فقال ذلك موسى لقومه، فقالوا: لا نُريد أن نصلِّيَ إلّا في الكنائس، ولا نستطيعُ حملَ السَّكينة في قلوبنا، ونُريد أن تكون كما كانت في التابوت، ولا نستطيعُ أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا، ولا نريدُ أن نقرأها إلّا نظراً. فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾. فجعلها

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٨٤ عن ابن جريج.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٨٨ - ٨٩، وأخرجه الطبري ١٠/ ٤٨٣.

(٣) قوله: والحمد لله، من (ظ).

(٤) في (د) و(ز): أدركتكم، وفي (ظ): أدركتم.

لهذه الأمَّة. فقال موسى: يا ربّ، اجعلني نبيَّهم. فقال: نبيُّهم منهم. قال: ربِّ اجعلني منهم[(١)]. قال: إنَّك لن تُدرِكَهم. فقال موسى: يا ربّ، أتيتُك بوفد بني إسرائيل، فجعلتَ وِفادتَنا لغيرنا. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]. فرَضِيَ موسى. قال نَوْف: فاحمَدوا اللهَ الذي جعل وِفادةَ بني إسرائيلَ لكم[(٢)].

وذكر أبو نُعيم[(٣)] أيضاً هذه القِصَّة من حديث الأوزاعِيّ قال: حدَّثنا يحيى بن أبي عمرو السَّيْبانيّ قال: حدثني نَوْف البِكاليّ[(٤)] - إذا افتتح موعظةً - قال: ألا تحمدون ربَّكم الذي حَضَر[(٥)] غَيْبَتَكم، وأخذ[(٦)] سهمَكم، وجعل وِفادةَ القوم لكم؛ وذلك أنَّ موسى عليه السلام وفَد ببني إسرائيل، فقال الله لهم: إني قد جعلتُ لكم الأرضَ مسجداً؛ حيثما صلَّيتم منها[(٧)] تُقُبِّلت صلاتُكم إلَّا في ثلاثِ مواطنَ، من صلَّى فيهنَّ لم أقبلْ صلاته: المقبرة، والحمَّام، والمِرحاض. قالوا: لا، إلَّا في كنيسة. قال: وجعلتُ لكم الترابَ طَهوراً إذا لم تجدوا الماء. قالوا: لا، إلَّا بالماء. قال: وجعلتُ لكم حيثُما صلَّى الرجلُ فكان وحده تُقُبِّلتْ صلاتُه. قالوا: لا، إلَّا في جماعة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ هذه الألفاظُ كما ذكرنا أخرجت اليهودَ والنصارى من الاشتراك الذي يظهرُ في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ

---

(١) في (ظ): ربِّ أخِّرني حتى تجعلني منهم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٣٨ ، والطبري ١٠/ ٤٩٠ . قال ابن حجر في تقريب التهذيب: كذَّب ابنُ عباس ما رواه نوف عن أهل الكتاب.

(٣) في حلية الأولياء ٦/ ٤٨ . والخبر عن نوف، وسلف الكلام عليه.

(٤) بعدها في (ز) و(ظ) والحلية: قال: كان عمرو البكالي. ولعل صوابها: أبو عمرو البكالي، فقد قيل في كنية نوف: أبو عمرو. ينظر تهذيب الكمال ٣٠/ ٦٥ .

(٥) في (م): حفظ، والمثبت من النسخ الخطية موافق للحلية.

(٦) بعدها في (م): لكم بعد.

(٧) في (د) و(ز) و(م): فيها، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للحلية.

يَتَّقُونَ﴾، وخَلَصت هذه العِدَّة لأُمَّة محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس وابن جُبير وغيرهما[١]. و«يَتَّبِعُونَ» يعني في شَرْعه ودِينه وما جاء به.

والرسولُ والنبيُّ اسمانِ لمعنيين؛ فإنَّ الرسول أخصُّ من النبيِّ. وقدَّم الرسولَ اهتماماً بمعنى الرسالة، وإلّا فمعنى النبوَّة هو المتقدِّم؛ ولذلك ردَّ رسولُ الله ﷺ على البَرَاء حين قال: وبرسولك الذي أرسلتَ. فقال له: «قل: آمنتُ بنبيِّكَ الذي أرسلتَ» خرَّجه في الصحيح[٢]. وأيضاً فإنَّ في قوله: «وبرسولك الذي أرسلتَ» تكريرَ الرسالة، وهو معنًى واحد[٣]، فيكون كالحشو الذي لا فائدةَ فيه. بخلاف قوله: «ونبيكَ الذي أرسلتَ» فإنَّهما لا تَكرار فيهما.

وعلى هذا فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً؛ لأنَّ الرسولَ والنبيَّ قد اشتركا في أمرٍ عامٍّ، وهو النَّبأ، وافترقا في أمرٍ خاصٍّ، وهي الرسالة. فإذا قلت: محمدٌ رسولٌ من عند الله تضمَّن ذلك أنَّه نبيٌّ ورسول[٤] وكذلك غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿الْأُمِّيَّ﴾ هو منسوبٌ إلى الأُمَّةِ الأُمِّيَّة، التي هي على أصل وِلادتها، لم تتعلَّمِ الكتابةَ ولا قراءتها؛ قاله ابن عُزيز[٥].

وقال ابن عباس ﷺ: كان نبيُّكم ﷺ أُمِّيًّا لا يكتبُ ولا يقرأ ولا يَحسُب[٦]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨]. ورُوي في الصحيح عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّا أمَّةٌ أُمِّيَّة لا نَكتب ولا

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٢، وأخرجه الطبري ١٠/ ٤٨٣ و ٤٩٠.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٨٨)، والبخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٢.

(٤) بعدها في (ز) و(ظ) و(م): الله. والكلام من المفهم ٧/ ٤٠.

(٥) في نزهة القلوب ص١١٢.

(٦) أورده البغوي في تفسيره ٢/ ٢٠٥.

نحسُب». الحديثَ[١]. وقيل: نسبَ النبيَّ ﷺ إلى مكةَ أمِّ القرى، ذكره النحاس[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ روى البخاريّ قال: حدّثنا محمد بن سِنان قال: حدَّثنا فُلَيح قال: حدّثنا هلالٌ، عن عطاء ابن يَسار قال: لَقِيتُ عبدَ الله بن عمرو بن العاص قلت: أَخْبِرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لَموصوفٌ في التوراة ببعض صِفته في القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] وحِرْزاً للأُمِّيين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتُكَ المتوكِّل، ليس بفَظٍّ ولا غليظ ولا سَخَّاب[٣] في الأسواق، ولا يدفعُ بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يَقبِضَه الله تعالى حتى يُقيمَ به المِلَّةَ العَوْجَاءَ بأنْ يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أَعْيُناً عُمْياً، وآذاناً صُمًّا، وقلوباً غُلْفاً[٤].

في غير البخاري: قال عطاء: ثم لَقِيتُ كَعْباً، فسألتُه عن ذلك، فما اختلفا حرفاً، إلَّا أنَّ كعباً قال بِلُغَتِه: قلوباً غُلُوفِيا، وآذناً صُموميا، وأعيناً عُموميا[٥]. قال ابن عطية[٦]: وأظنُّ هذا وهماً وعُجمةً[٧]. وقد رُوي عن كعب أنَّه قالها: قلوباً غُلوفى، وآذاناً صُمومى، وأعيناً عُمومى[٨]. قال الطبري: هي لغةٌ حِميَرِية[٩]. وزاد كعبٌ في صفةِ النبيِّ ﷺ قال: مولدُه بمكَّة، وهجرته بطابة، وملكه بالشام، وأمَّته الحامدون؛

---

(١) أخرجه أحمد (٥٠١٧)، والبخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠): (١٥).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٨٩ .

(٣) في (ظ) و(م): صخَّاب، وكلاهما بمعنى.

(٤) صحيح البخاري (٢١٢٥). وهو في مسند أحمد (٦٦٢٢).

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٩٢ .

(٦) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٣ .

(٧) في (خ) و(ظ) و(م): أو عجمة، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق للمحرر الوجيز.

(٨) هذه رواية الإمام أحمد (٦٦٢٢).

(٩) تفسير الطبري ١٠/ ٤٩٢ .

يحمَدون اللهَ على كلِّ حال وفي كلِّ منزل، يُوضِّئون أطرافَهم، ويأْتَزِرون إلى أنصاف ساقهم، رعاةُ الشمس، يصلُّون الصلواتِ حيثما أدركتهم ولو على ظَهر الكُناسة[١]، صفُّهم في القتال مثلُ صفِّهم في الصلاة. ثمَّ قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٢] [الصف: ٤].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ قال عطاء: «يأْمُرُهُم بالمعروف» بخلعِ الأنداد، ومكارمِ الأخلاق، وصِلةِ الأرحام. «ويَنْهاهُم عن المُنكر» عبادة الأصنام، وقَطْع الأرحام[٣].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مذهبُ مالك أنَّ الطَّيِّبات هي المُحلَّلات؛ فكأنَّه وصفَها بالطِّيِّب؛ إذْ هي لفظةٌ تتضمَّن مدحاً وتشريفاً. وبحسَبِ هذا يقول في الخبائث: إنَّها المحرَّمات. وكذلك[٤] قال ابن عباس: الخبائث هي لحم الخنزير والرِّبا وغيره[٥]. وعلى هذا حلَّل مالكٌ المتقذِّرات، كالحيَّات، والعقارب، والخنافس ونحوها.

ومذهب الشافعي رحمه الله أنَّ الطَّيبات هي من جِهة الطَّعم، إلا أنَّ اللفظةَ عنده ليست على عمومها؛ لأنَّ عُمومَها بهذا الوجه من الطَّعم يقتضي تحليلَ الخمر والخنزير، بل يراها مختصةً فيما حلَّلَه الشَّرع. ويرى الخبائثَ لفظاً عاماً في المحرَّمات بالشرع وفي المتقذِّرات؛ فيحرِّم العقاربَ، والخنافس، والوَزَغ، وما جرى هذا المَجرى. والناسُ على هذين القولين[٦]، وقد تقدَّم في «البقرة» هذا المعنى[٧].

---

(١) الكُناسة: مُلقَى القُمام. اللسان (كنس).

(٢) أخرجه الدارمي (٥) و(٧) و(٨)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٨٧، والبغوي في تفسيره ٢/ ٢٠٥، وعندهم: الحمَّادون، بدل: الحامدون. وإسناده ضعيف، وهو موقوف على كعب.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٥.

(٤) في (د) و(ز) و(م): لذلك.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٩٣.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٣.

(٧) ٣/ ١١.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الإصْرُ: الثِّقل؛ قاله مجاهد وقتادة وابن جبير. والإصْرُ أيضاً: العَهْد؛ قاله ابن عباس والضحَّاك والحسن. وقد جَمَعَتْ هذه الآيةُ المعنيين، فإنَّ بني إسرائيل قد كان أُخِذ عليهم عهدٌ أنْ يقوموا بأعمالٍ ثِقال؛ فَوُضِع عنهم بمحمدٍ ﷺ ذلك العهد، وثِقَلُ تلك الأعمال[1]؛ كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسةِ الحائض، ومُؤاكلتها ومضاجعتها؛ فإنَّهم كانوا إذا أصابَ ثوبَ أحدِهم بولٌ قرضَه، ورُوي: جِلْدُ أحدهم[2]. وإذا جمعوا الغنائمَ نزلتْ نارٌ من السماء فأكلتها[3]، وإذا حاضت المرأةُ لم يقربوها[4]، إلى غير ذلك مما ثبتَ في الحديث الصحيح وغيره.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فالأغلال: عبارةٌ مستعارةٌ لتلك الأثقال. ومن الأثقال تركُ الاشتغال يوم السبت، فإنه يُروى أنَّ موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قَصَباً، فضربَ عنقه[5]. هذا قول جمهور المفسرين. ولم يكن فيهم الدِّيَة، وإنَّما كان القِصاص[6]. وأُمِروا بقتل أنفسهم علامةً لتوبتهم؛ إلى غير ذلك. فَشُبِّه ذلك بالأغلال، كما قال الشاعر:

فليس كعهدِ الدَّار يا أمَّ مالك ... ولكنْ أحاطتْ بالرِّقابِ السلاسلُ
وعادَ الفتى كالكَهْل ليس بقائلٍ ... سوى العدلِ شيئاً فاستراحَ العواذلُ[7]

فشبَّه حدودَ الإسلام وموانِعَه عن التخطّي إلى المحظورات بالسلاسل المُحيطات

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٣ . وأخرج الأقوال السالفة الطبري ١٠/ ٤٩٣ - ٤٩٤ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦) بالرواية الأولى، ومسلم (٢٧٣): (٧٤) بالرواية الثانية من قول أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٨٥) من حديث أبي هريرة ﷺ. وسلف ٦/ ١٣٠ .

(٤) أخرجه أحمد (١٣٥٧٦)، ومسلم (٣٠٢) من قول أنس بن مالك ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٢٩ من قول أبي مالك أو سعيد بن جبير.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤ .

(٧) البيتان لأبي خِراش الهذلي. وهما في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٠ .

بالرِّقاب. ومن هذا المعنى قولُ أبي أحمد بن جحش[١] لأبي سفيان:

إذهبْ بها إذهبْ بها طُوِّقتَها طوقَ الحمامه

أي: لَزِمَكَ عارُها. يقال: طُوِّقَ فلانٌ كذا إذا لَزِمَه[٢].

التاسعة: إن قيل: كيف عطفَ الأغلال وهو جمعٌ على الإِصْر وهو مفرد؟ فالجواب أنَّ الإصرَ مصدرٌ يقع على الكَثْرة.

وقرأ ابنُ عامر: «آصارهم» بالجمع، مثل: أعمالهم. فجمعه لاختلاف ضُروب المآثم. والباقون بالتوحيد[٣]؛ لأنَّه مصدرٌ يقعُ على القليل والكثير من جنسه مع إفرادِ لفظه. وقد أجمعوا على التوحيد في قوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وهكذا كلُّ ما يَرِدُ عليك من هذا المعنى، مثل: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]. و﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]. كلُّه بمعنى الجمع[٤].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: وقَّروه ونصروه. قال الأخفش: وقرأ الجَحْدَرِيُّ وعيسى: «وَعَزَرُوه»؛ بالتخفيف[٥]. وكذا: «وَعَزَرْتُمُوهُمْ» [المائدة: ١٢]. يقال: عزَرَه يَعْزِرُه ويُعَزِّرُه[٦].

و﴿ٱلنُّورَ﴾ القرآن. والفَلَاحُ: الظَّفَر بالمطلوب. وقد تقدَّم هذا[٧].

---

(١) الأسدي، وهو أخو أمّ المؤمنين زينب رضي الله عنهما، اسمه: عبد: بغير إضافة، كان ضريراً، شهد بدراً والمشاهد، عدا أبو سفيان على داره لما هاجر إلى المدينة، ولما فتحت مكة قال أبياتاً لأبي سفيان منها البيت الذي ذكره المصنف. السيرة النبوية ١/ ٤٩٩ - ٥٠٠ ، والإصابة ٦/١١ .

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤ .

(٣) السبعة ص٢٩٥ ، والتيسير ص١١٣ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٧٩ .

(٥) القراءات الشاذة ص٤٦ ، والمحتسب ١/ ٢٦١ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٥ - ١٥٦ . وعنه نقل المصنف قول الأخفش.

(٧) ١/ ٢٧٨ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

ذكر أنَّ موسى بَشَّر به، وأنَّ عيسى بَشّر به. ثم أمره أن يقول بنفسه: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. و﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ كلماتُ الله تعالى كُتبُه من التوراة والإنجيل والقرآن.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

أي: يدعون الناسَ إلى الهداية. و﴿يَعْدِلُونَ﴾ معناه في الحكم.

وفي التفسير: إنَّ هؤلاء قومٌ من وراء الصين، من وراء نهر الرَّمل، يعبدون الله بالحقِّ والعدل، آمنوا بمحمدٍ وتركوا السبت، يستقبلون قِبلتَنا، لا يَصِلُ إلينا منهم أحدٌ، ولا منَّا إليهم أحدٌ. فروي أنَّه لمَّا وقع الاختلافُ بعد موسى كانت منهم أُمةٌ يهدون بالحقّ، ولم يَقدِروا أن يكونوا بين ظَهْراني بني إسرائيل حتى أخرجهم الله إلى ناحيةٍ من أرضه[1] في عُزلة من الخَلْق، فصار لهم سَرَبٌ في الأرض، فمشَوْا فيه سنةً ونصفَ سنة حتى خرجوا وراء الصين، فهم على الحقِّ إلى الآن. وبين النَّاس وبينهم بحرٌ لا يُوصلُ إليهم بسببه[2].

ذهب جبريلُ بالنبيِّ ﷺ إليهم ليلةَ المعراج فآمنوا به، وعلَّمهم سُوَراً من القرآن، وقال لهم: «هل لكم مِكيالٌ وميزان؟» فقالوا: لا، قال: «فمن أين مَعاشُكم؟» قالوا: نخرج إلى البرِّية فنزرع، فإذا حَصَدنا وضعناه هناك، فإذا احتاج أحدُنا إليه يأخذ حاجتَه، قال: «وأين نساؤكم؟» قالوا: في ناحية منَّا، فإذا احتاج أحدُنا لزوجته صار إليها في وقت الحاجة. قال: «فيكذِبُ أحدكم في حديثه؟» قالوا: لو فعلَ ذلك أحدُنا أخذته لظًى، إنَّ النارَ تنزل فتحرقه. قال: «فما بالُ بيوتكم مستوية؟» قالوا: لئلَّا يعلوَ

(١) في (د) و(ز): اليمن.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/٥٠١ ـ ٥٠٢ بنحوه من قول ابن جريج وابن عباس رضي الله عنهما. وذكر ابن كثير في تفسيره ٣/٤٩٢ أنه خبر عجيب.

بعضُنا على بعض. قال: «فما بالُ قبوركم على أبوابكم؟» قالوا: لئلا نغفُلَ عن ذِكْر الموت. ثم لمَّا رَجَعَ رسولُ الله ﷺ إلى الدنيا ليلةَ الإسراء أُنزل عليه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[1] [الأعراف: ١٨١]. يعني أمة محمد عليه الصلاة والسلام. يُعلمه أن الذي أعطيتُ موسى في قومه أعطيتُك في أمتك. وقيل: هم الذين آمنوا بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب[2]. وقيل: هم قومٌ من بني إسرائيل تمسَّكوا بشرع موسى قبل نَسْخه، ولم يُبدِّلوا، ولم يقتلوا الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَۖ فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَادْخُلُوا۟ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ عدَّدَ نِعَمَه على بني إسرائيل، وجعلَهم أسباطاً ليكون أمرُ كلِّ سِبْطٍ معروفاً من جِهة رئيسهم، فيَخِفَّ الأمرُ على موسى. وفي التنزيل: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ﴾ [المائدة: ١٢] وقد تقدَّم. وقوله: «اثْنَتَيْ عَشْرَةَ» والسِّبْط مذكَّر؛ لأن بعده «أُمماً»، فذهب التأنيثُ إلى الأُمم. ولو قال: اثني عَشَر، لتذكير السِّبط جاز، عن الفرّاء[3]. وقيل: أراد بالأسباط القبائلَ والفِرَق؛ فلذلك أنَّث العددَ. قال الشاعر:

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٧٠ مطولاً من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ١٥/ ٣١ .

(٣) معاني القرآن ١/ ٣٩٧ . وزاد المسير ٣/ ٢٧٥ .

وإنَّ قريشاً كلَّها عَشْرُ أبْطُنٍ   وأنت بريءٌ من قبائلها العَشْرِ[(١)]

فذهب بالبَطْن إلى القَبِيلة والفَصيلة؛ فلذلك أنَّثها. والبَطن مُذكَّر؛ كما أنَّ الأسباطَ جمع مذكَّر[(٢)]. الزجاج[(٣)]: المعنى: قطَّعناهم اثنتي عشرة فِرقةً.

﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من «اثنتي عَشْرةَ»، ﴿أُمَمًا﴾ نعتٌ للأسباط.

وروى المُفضَّل عن عاصم: «وقَطَعناهم» مُخفَّفاً[(٤)].

«أسْبَاطاً» الأسباطُ في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيلَ عليهما السلام. والأسباط مأخوذٌ من السَّبَط، وهو شجرٌ تُعلَفُه الإبل[(٥)]. وقد مضى في «البقرة»[(٦)] مستوفًى.

وروى مَعْمَر، عن همَّام بنِ مُنَبِّه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ «قالوا: حَبَّةٌ في شَعَرة. وقيل لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ فدخلوا متورِّكين على أستاهِهِم»[(٧)].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ مرفوع؛ لأنه فعلٌ مستقبل، وموضعُه نصبٌ. و«ما» بمعنى المصدر، أي: بظلمهم[(٨)]. وقد مَضَى في «البقرة» ما في هذه الآيةِ من المعاني

---

(١) قائله النواح الكلابي فيما ذكره العيني في شرح الشواهد الكبرى (على هامش الخزانة) ٤/ ٤٨٤، وهو في الكتاب ٣/ ٥٦٥، والكامل ٢/ ٨٠٢، والخصائص ٢/ ٤١٧، وصدره عندهم: وإن كلاباً هذه عشر أبطن.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٥٠٣.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٣٨٢.

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥، ونسباها لأبي حيوة، وذكر ابن عطية أن أبان رواها عن عاصم. وقراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٩٢، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٨٢.

(٦) ٢/ ٤١٧.

(٧) أخرجه أحمد (٨١١٠)، والبخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥)، وسلف ٢/ ١٢٥.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٦.

والأحكام[١]. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: عن أهل القرية؛ فعبَّر عنهم بها لمَّا كانت مستقَرًّا لهم، أو سببَ اجتماعهم، نظيره: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «اهتزَّ العرشُ لموت سعد بن معاذ»[٢] يعني: أهل العرش من الملائكة، فرحاً واستبشاراً بقدومه ﷺ[٣].

أي: واسأل اليهودَ الذين هم جيرانُك عن أخبار أسلافهم، وما مسخَ اللهُ منهم قِردةً وخنازير. وهذا سؤال تقرير وتوبيخ. وكان ذلك علامةً لصدق النبيِّ ﷺ؛ إذ أطلعه اللهُ على تلك الأمور من غير تعلُّم[٤].

وكانوا يقولون: نحن أبناءُ الله وأحباؤه؛ لأنَّا من سِبْطِ خليله إبراهيم، ومن سِبط إسرائيل وهم بِكْر الله[٥]، ومن سِبْط موسى كَليم الله، ومن سِبْط وَلَدِه عُزير، فنحن من أولادهم. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّه: سَلْهم يا محمد عن القرية، أما عذَّبتهم[٦]

(١) ٢/ ١٢١ وما بعدها.

(٢) أخرجه أحمد (١٤١٥٣)، والبخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦) من حديث جابر ﷺ. وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند أحمد (١١١٨٤)، وعن أنس ﷺ عند أحمد (١٣٤٥٤)، ومسلم (٢٤٦٧).

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): به، أي: بقدومه والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٥ - ٧٨٦ .

(٤) الوسيط ٢/ ٤١٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٨ .

(٥) سلف ٧/ ٣٨٨ نحوه من قول السدي.

(٦) في النسخ الخطية: عذبهم، والمثبت من (م).

بذنوبهم، وذلك بتغيير فَرْع من فروع الشريعة(١).

واختلف في تعيين هذه القرية، فقال ابن عباس وعِكرمة والسُّدِّيُّ: هي أَيْلة. وعن ابن عباس أيضاً أنها مَدْين، بين أَيْلَة والطور. الزُّهْرِيّ: طَبَرِيّة. قتادة وزيد بن أسلم: هي ساحلٌ من سواحل الشام، بين مَدْين وعَيْنون، يقال لها: مَقْناة(٢).

وكان اليهودُ يكتُمون هذه القصةَ لِما فيها من السُّبَّة عليهم.

﴿ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: كانت بقُرب البحر، تقول: كنت بحضرة الدار، أي: بقُربها(٣).

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يصيدون الحِيتان، وقد نُهوا عنه. يقال: سَبَت اليهودُ: تركوا العمل في سَبْتهم. وسُبِت الرجل - للمفعول - سُباتاً: أخذَه ذلك، مثل الخَرَس. وأسبتَ: سَكَن فلم يتحرَّكْ. والقومُ: صاروا في السبت. واليهودُ: دخلوا في السبت، وهو اليوم المعروف. وهو من الراحة والقَطْع. ويُجمع أَسْبُت وسُبُوت(٤) وأسبات(٥).

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «مَن احتجَمَ يومَ السبت، فأصابَه بَرَصٌ، فلا يَلُومَنَّ إلا نفسَه»(٦). قال علماؤنا: وذلك لأن الدَّمَ يَجمُد يومَ السبت، فإذا مَددته لِتستخرجه، لم يَجْرِ وعاد بَرَصاً(٧).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٥ .

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/ ٥٠٧ - ٥٠٩ ، وينظر النكت والعيون ٢/ ٢٧١ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧ .

(٣) وقال أبو حيان في البحر ٤/ ٤١٠ : ويحتمل أن يريد معنى الحاضرة على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرة في قرى البحر.

(٤) تهذيب اللغة ١٢/ ٣٨٦ ، والصحاح (سبت).

(٥) لم نقف على هذا الجمع.

(٦) أخرجه البزار (٣٠٢٢) (زوائد)، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣٤٠ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده سليمان بن أرقم، قال الدارقطني: متروك، وقال ابن معين: ليس بشيء، ميزان الاعتدال ٢/ ١٩٦ . وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٩٨١٦) عن الزهري مرسلاً، وهو المحفوظ فيما قاله البيهقي.

(٧) كلام غير صحيح مستند إلى خبر باطل.

وقراءة الجماعة: «يَعْدُون». وقرأ أبو نَهِيك: «يُعِدّون» بضمِّ الياء وكسر العين وشدِّ الدال[١]. الأُولى من الاعتداء، والثانية من الإعداد، أي: يُهيِّئون الآلةَ لأَخْذها. وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «في الأسبات» على جمع السبت[٢]. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ وقُرِئ: «إسباتهم»[٣].

﴿شُرَّعًا﴾ أي: شوارعَ ظاهرةً على الماء كثيرة[٤]. وقال اللّيث: حيتان شُرَّعٌ رافعةٌ رؤوسَها. وقيل: معناه أن حيتان البحر كانت تَرِدُ يوم السبت عَنَقاً[٥] من البحر فتزاحمُ[٦] أَيْلة. أَلهمها اللهُ تعالى أنها لا تُصاد يوم السبت؛ لِنَهْيِه تعالى اليهودَ عن صيدها. وقيل: إنها كانت تَشْرَعُ على أبوابهم كالكِباش البيض رافعةً رؤوسها ـ حكاه بعضُ المتأخرين ـ فتعدَّوا، فأخذوها في السبت، قاله الحسن[٧]. وقيل: يوم الأحد، وهو الأصحُّ على ما يأتي بيانه.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: لا يفعلون السبت. يقال: سَبَتَ يَسْبِتُ إذا عظَّم السبت. وقرأ الحسن: «يُسْبِتون» بضم الياء[٨]، أي: يدخلون في السبت؛ كما يقال: أجمعنا، وأظهرنا، وأشهرنا، أي: دخلنا في الجمعة والظهر والشهر[٩].

---

(١) هي في تفسير الرازي ١٥/ ٣٧، والبحر ٤/ ٤١٠ دون نسبة، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦، وابن جني في المحتسب ١/ ٢٦٤ وابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧ أن أبا نهيك قرأ: «يَعَدُّون». قال ابن جني: أراد يعتدون، فأسكن التاء ليدغمها في الدال، ونقل فتحتها إلى العين فصار يَعَدُّون.

(٢) لم نقف عليها عند غير المصنف، وسلف أننا لم نقف على أن السبت يُجمع على أسبات.

(٣) يعني مصدر «أسبت» كما في البحر المحيط ٤/ ٤١١، وهي قراءة عمر بن عبد العزيز ﷺ كما في القراءات الشاذة ص٤٧. ووقع في (م): «أسباتهم».

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٥٠٩.

(٥) أي: مسرعة، ينظر النهاية (عنق).

(٦) في تهذيب اللغة ١/ ٤٢٨ (والكلام منه) واللسان (شرع): يتاخم.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٢٧٢.

(٨) القراءات الشاذة ص٤٧.

(٩) تفسير الطبري ١٠/ ٥١٠.

﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: حيتانُهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: نُشدِّد عليهم في العبادة ونَختبرهم. والكاف في موضع نَصب. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بِفِسْقهم[1]. وسُئل الحسين بن الفضل: هل تجدُ في كتاب الله: الحلالُ لا يأتيك إلا قوتاً، والحرامُ يأتيك جَزْفاً جَزْفاً[2]؟ قال: نعم، في قصة داود وأيلة: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

ورُوي في قَصص هذه الآيةِ أنها كانت في زمن داود عليه السلام[3]، وأنَّ إبليس أَوْحَى إليهم فقال: إنما نُهيتم عن أَخْذها يومَ السبت، فاتَّخِذوا الحياض؛ فكانوا يَسوقون الحيتان إليها يومَ الجمعة فتبقى فيها، فلا يُمكنها الخروج منها لِقلَّة الماء، فيأخذونها يوم الأحد[4].

وروى أشهبُ عن مالك قال: زَعَم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجلُ خيطاً ويضع[5] فيه وَهَقة[6]، وألقاها في ذَنَب الحوت، وفي الطَّرف الآخر من الخيط وَتِد، وتركَه كذلك إلى الأحد، ثم تطرَّق الناس حين رأوا مَن صنع هذا لا يُبْتَلى حتى كثُرَ صيدُ الحوت، ومُشيَ به في الأسواق، وأعلن الفَسَقةُ بصيده، فقامت فِرقةٌ من بني إسرائيل ونَهت، وجاهرت بالنهي واعتزلتْ.

وقيل: إنَّ الناهين قالوا: لا نُساكِنُكم، فقسموا القريةَ بجدار. فأصبح الناهون ذاتَ يوم في مَجالسهم ولم يخرجْ من المعتدين أحدٌ، فقالوا: إن للناس لشأناً، فعلَوْا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٧ .

(٢) الجَزْف: الأخذ بالكَثْرة، وجَزَفَ له في الكيل: أكثر. اللسان (جزف).

(٣) عرائس المجالس ص٢٩٠ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٨ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٦ .

(٥) في (خ): وجعل، وفي المحرر الوجيز (والكلام منه) ٢/ ٤٦٧ - ٤٦٨ : ويصنع. وهذا الأثر أخرجه الطبري ١٠/ ٥١٩ مطولاً.

(٦) في القاموس: الوَهَق، محركة ويُسكَّن: الحبل يُرمى في أُنشوطة، فتؤخذ به الدابة. . .

على الجدار فنظروا فإذا هم قِرَدة؛ ففتحوا البابَ ودخلوا عليهم، فعرَفت القِردةُ أنسابَها من الإنس، ولم تعرِف الإنسُ أنسابَهم من القِردة؛ فجعلت القِردة تأتي نَسيبها من الإنس فَتشَمُّ ثيابَه وتبكي، فيقول: ألم نَنْهكم؟! فتقول برأسها نعم. قال قتادة: صار الشبان قردةً والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نَهوا، وهلك سائرهم[١].

فعلى هذا القول إن بني إسرائيل لم تفترقْ إلا فرقتين. ويكون المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: قال الفاعلون للواعظين حين وَعظوهم: إذا عَلِمتم أن اللهَ مُهلِكنا، فَلِمَ تَعِظوننا؟ فمسَخَهم الله قِردةً. ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً[٢] إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: قال الواعظون: موعظتُنا إياكم معذرةٌ إلى ربّكم، أي: إنما يجب علينا أنْ نَعِظَكم لعلَّكم تتقون. أسند هذا القولَ الطَّبريُّ عن ابن الكلبيّ[٣].

وقال جمهور المفسرين: إنَّ بني إسرائيل افترقت ثلاثَ فِرَق، وهو الظاهر من الضمائر في الآية: فرقة عَصَتْ وصادَتْ، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً. وفرقة نَهَتْ واعتزلتْ، وكانوا اثنَيْ عشر ألفاً. وفرقة اعتزلَتْ ولم تَنْهَ ولم تَعْصِ، وأن هذه الطائفة قالت للناهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ تُريد العاصيةَ. ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ على غلبة الظنّ، وما عُهِدَ من فعل الله تعالى حينئذ بالأُمَم العاصية. فقالت الناهية: موعظتُنا معذرةٌ إلى الله لعلَّهم يتَّقون. ولو كانوا فرقتين لقالت الناهيةُ للعاصية: ولعلَّكم تتقون، بالكاف.

ثم اختُلف بعد هذا؛ فقالت فرقة: إنَّ الطائفةَ التي لم تَنْهَ ولم تَعْصِ هَلَكتْ مع العاصية عقوبةً على تَرْك النَّهي؛ قاله ابن عباس. وقال أيضاً: ما أَدري ما فُعل بهم

(١) عرائس المجالس ص٢٩٠ - ٢٩١، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٨، وأخرجه الطبري ١٠/ ٥١٥ - ٥١٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً. وسلف هذا الكلام ٢/ ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) قرأ حفص: «معذرةً» بالنصب، والباقون بالرفع، كما سيأتي.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٥٢١، والكلام في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٨.

وهو الظاهر من الآية(١).

وقال عكرمة: قلت لابن عباس لمّا قال: ما أدري ما فُعِلَ بهم: ألا تَرى أنهم قد كَرِهوا ما هم عليه وخالفوهم، فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ فلم أَزَلْ به حتى عرَّفته أنهم قد نَجَوْا، فكسَاني حُلَّةً(٢). وهذا مذهب الحسن(٣).

ومما يدلُّ على أنه إنما هَلَكت الفرقةُ العادِيَة لا غير قولُه: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقولُه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥] الآية.

وقرأ عيسى وطلحة: «معذِرةً» بالنصب. ونصبُه عند الكسائيّ من وجهين: أحدهما على المصدر. والثاني على تقدير: فعلنا ذلك معذرةً. وهي قراءة حَفْص عن عاصم. والباقون بالرفع(٤)، وهو الاختيار؛ لأنهم لم يُريدوا أن يعتذروا اعتذاراً مستأنَفاً من أمر لِيمُوا عليه، ولكنهم قيل لهم: لِم تَعظون؟ فقالوا: موعظتُنا مَعْذرةٌ. ولو قال رجلٌ لرجل: مَعْذرة إلى الله وإليك من كذا، يُريد اعتذاراً، لَنَصبَ. هذا قول سيبويه(٥).

ودلَّت الآيةُ على القول بسدِّ الذَّرائع(٦). وقد مضَى في «البقرة». ومضَى فيها الكلامُ في الممسوخ هل يَنْسُل أم لا، مبيَّناً(٧). والحمد لله.

ومضَى في «آل عمران» و«المائدة» الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر(٨). ومضى في «النساء»(٩) اعتزال أهلِ الفساد ومُجانبتُهم، وأنَّ من جالَسَهم كان مِثْلَهم؛ فلا معنى للإعادة.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٨ ، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩ ، والكشاف ٢/ ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥١٤ .

(٣) ذكره البغوي ٢/ ٢٠٩ .

(٤) السبعة ص٢٩٦ ، والتيسير ص١١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٧ - ١٥٨ ، وينظر الكتاب ١/ ٣٢٠ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٧ .

(٧) ٢/ ١٦٨ وما بعدها.

(٨) ٥/ ٧٣ و ٦/ ٢٥٣ .

(٩) ٧/ ١٨٥ .

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

والنِّسيان يُطلَق على الساهي والعامدِ التارك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوه عن قَصْد[1]، ومنه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

ومعنى ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد. وفيه إحدى عشرةَ قراءة:

الأُولى: قراءة أبي عمرو وحمزة والكِسائيِّ: «بَئِيسٍ» على وزن فَعِيل[2].

الثانية: قراءة أهلِ مكة: «بِئِيسٍ» بكسر الباء والوزنُ واحد[3].

والثالثة: قراءةُ أهلِ المدينة: «بِيْسٍ» الباء مكسورة، بعدها ياءٌ ساكنة، بعدها سينٌ مكسورة منوَّنة[4]. وفيها قولان. قال الكسائي: الأصلُ فيه: «بَيِيس» خفيفة الهمزة، فالتقتْ ياءان، فحُذفتْ إحداهُما وكُسر أوَّلُه، كما يُقال: رِغِيف وشِهِيد. وقيل: أراد «بَئِس» على وزن فَعِل، فكسرَ أوَّلَه، وخفَّف الهمزةَ، وحذفَ الكسرةَ، كما يقال: رَحِم ورِحْم.

الرابعة: قراءة الحسن: الباء مكسورة، بعدها همزة ساكنة، بعدها سين مفتوحة[5].

الخامسة: قرأ أبو عبد الرحمن المقرئ: «بَئِسٍ» الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مكسورة منوَّنة[6].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٧.

(٢) وأيضاً هي قراءة ابن كثير وعاصم في رواية حفص. السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤.

(٣) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩، وأبو حيان في البحر ٤/ ٤١٣، وقال: هي لغة تميم. وقراءة ابن كثير المكي هي بفتح الباء كما سلف.

(٤) قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر ٢/ ٢٧٢.

(٥) ذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٢٦٧.

(٦) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩، وأبو حيان في البحر ٤/ ٤١٣.

السادسة: قال يعقوب القارئ: وجاء عن بعض القراء: «بعذاب بَئِسَ» الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مفتوحة[١].

السابعة: قراءة الأعمش: «بَيْئِسٍ» على وزن فَيْعِلٍ[٢]. ورُوي عنه: «بَيْأَسٍ» على وزن فَيْعَل[٣]. ورُوي عنه: «بَئِّسٍ» بباء مفتوحة وهمزة مُشدَّدة مكسورة، والسين في كلِّه مكسورة منوَّنة، أعني قراءةَ الأعمش[٤].

العاشرة: قراءة نصر بنِ عاصم: «بعذاب بَيِّسٍ» الباء مفتوحة، والياء مشدّدة بغير همز[٥].

قال يعقوبُ القارئ: وجاء عن بعض القُرَّاء: «بِئْيَسٍ» الباء مكسورة، وبعدها همزة ساكنة، وبعدها ياء مفتوحة[٦]. فهذه إحدى عشرةَ قراءةً ذكَرها النحاسُ[٧].

قال عليُّ بن سليمان: العرب تقول: جاء ببناتِ بِيْسٍ، أي: بشيء رديء. فمعنى «بِعَذَابٍ بِيْسٍ»: بعذاب رديء.

وأما قراءةُ الحسن، فزعَم أبو حاتم أنه لا وجهَ لها، قال: لأنه لا يُقال: مررتُ برجلٍ بِئْسَ، حتى يُقال: بِئْسَ الرجل، أو بِئْسَ رجلاً.

قال النحاس: وهذا مردودٌ من كلامِ أبي حاتم، حكى النَّحْويون: إنْ فعلتَ كذا وكذا فَبِها ونِعْمَتْ. يُريدون[٨]: فبها ونعمتِ الخَصْلة. والتقديرُ على قراءة الحسن:

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٤/ ٤١٢ ، وقيَّدها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩ بتشديد الهمزة.

(٢) قال ابن عطية: وهذا شاذٌّ، لأنه لا يوجد فَيْعِل في الصحيح، وإنما يوجد في المعتل، مثل سيِّد وميِّت. وكذلك قال السمين في الدر المصون ٥/ ٤٩٨ .

(٣) وهي رواية شعبة بخلف عنه.

(٤) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠ .

(٥) القراءات الشاذة ص٤٧ ، والمحتسب ١/ ٢٦٥ .

(٦) ذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٢٦٧ دون نسبة، ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٠ نسبتها للحسن والأعمش.

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ١٥٨ - ١٥٩ . وينظر الدر المصون ٥/ ٤٩٦ - ٤٩٨ .

(٨) في النسخ الخطية: يريد، والمثبت من (م) وإعراب القرآن للنحاس.

بعذاب بِئْسَ العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: فلما تجاوزوا في معصية الله. ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ﴾ يقال: خَسَأته فَخسأ، أي: باعَدْتُه وطَردته[١]. وقد تقدَّم في «البقرة»[٢]. ودلَّ على أن المعاصي سببُ النِّقمة وهذا لا خَفَاء به. فقيل: قال لهم ذلك بكلام يُسمع، فكانوا كذلك. وقيل: المعنى: كوَّنَّاهم قِردةً[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

أي: أعلم أسلافَهم أنهم إنْ غيَّروا ولم يُؤمنوا بالنبيِّ الأُمِّيِّ بعثَ اللهُ عليهم مَن يُعذِّبُهم. وقال أبو عليّ: «آذَنَ» بالمدّ: أعلم. و«أذَّن» بالتشديد: نادى. وقال قوم: آذن وأذَّن بمعنى أعلم، كما يقال: أيقن وتيقَّن[٤]. قال زهير:

فقلتُ تَعَلَّمْ أن للصيد غِرَّةً ... فإلّا تُضَيِّعها فإنك قاتِلُهْ[٥]

وقال آخر:

تَعَلَّمْ أنَّ شرَّ الناس حيٌّ ... يُنادَى في شِعارِهُمُ يَسارُ[٦]

أي: اِعلَمْ.

ومعنى ﴿يَسُومُهُمْ﴾: يُذيقُهم، وقد تقدَّم في «البقرة»[٧]. قيل: المراد بُخْتَنصر[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٠ .

(٢) ٢/ ١٧٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٠ .

(٤) الحجة للقراء السبعة ٢/ ٤٠٤ و ٤١٠ ، وحكى هذا الكلام عن سيبويه، وهو في كتابه ٤/ ٦٢ .

(٥) ديوان زهير ص١٣٤ .

(٦) قائله زهير أيضاً، وهو في ديوانه ص٣٠٠ .

(٧) ٢/ ٨٤ .

(٨) ذكره الرازي في تفسيره ١٥/ ٤٢ .

وقيل: العرب. وقيل: أُمَّة محمد ﷺ، وهو أظهرُ؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة. والله أعلم. قال ابن عباس: «سُوءَ العذابِ» هنا أخذُ الجِزْية[١]. فإنْ قيل: فقد مُسِخوا، فكيف تُؤخَذ منهم الجِزية؟ فالجواب أنها تُؤخَذ من أبنائهم وأولادهم، وهم أذلُّ قوم، وهم اليهود[٢]. وعن سعيد بن جُبير: «سُوءَ الْعَذَابِ» قال: الخَراج، ولم يَجْبِ نبيٌّ قطُّ الخَراج إلا موسى عليه السلام، هو أوَّلُ من وضعَ الخَراج، فجبَاه ثلاثَ عشرةَ سنةً، ثم أمسكَ، ونبيُّنا عليه الصلاة والسلام[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي: فرَّقناهم في البلاد. أراد به تشتيتَ أمرهم، فلم تجتمع[٤] لهم كلمةٌ. ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ رَفْعٌ على الابتداء. والمراد: مَن آمنَ بمحمد عليه الصلاة والسلام، ومن لم يُبدِّل منهم ومات قبل نَسْخ شَرْع موسى. أوْ هم الذين وراء الصين، كما سبق[٥].

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ منصوبٌ على الظرف. قال النحاس: ولا نعلم أحداً رَفَعه[٦]. والمراد الكفارُ منهم. ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أي: اختبرناهم. ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ أي: بالخِصْب والعافية. ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: الجَدْب والشدائد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لِيرجعوا عن كُفْرهم[٧].

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/ ٥٣٠ - ٥٣١ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٩٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٣٢ .

(٤) في (د) و(م): تجمع، والكلام في تفسير البغوي ٢/ ٢٠٩ .

(٥) ٧/ ٣٠٢ ، وينظر الكشاف ٢/ ١٢٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٠ .

(٧) الوسيط ٢/ ٤٢٢ .

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ يعني أولاد الذين فرَّقهم في الأرض. قال أبو حاتم: «الخَلْف» بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجميع فيه سواء. «والخَلَف» بفتح اللام: البَدَل، ولداً كان أو غريباً. وقال ابن الأعرابيّ: «الخَلَفُ» بالفتح الصالح، وبالجزم الطالح[1]. قال لَبِيد:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافِهم   وبَقِيتُ في خَلْفٍ كجِلْد الأجْربِ[2]

ومنه قيل للرَّديء من الكلام: خَلْف، ومنه المثل السائر: سَكَت ألْفاً ونطق خَلْفاً[3]. فَخلْفٌ في الذَّمّ، بالإسكان، وخَلَفٌ بالفتح في المدح. هذا هو المستعملُ المشهور. قال ﷺ: «يَحمِلُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلَفٍ عُدولُه»[4]. وقد يُستعمل كلُّ واحدٍ منهما موضعَ الآخر. قال حسان بن ثابت:

لنا القَدَمُ الأولَى إليكَ وخَلْفُنا   لِأَوَّلنا في طاعةِ الله تابعُ[5]

وقال آخر:

إنَّا وجدنا خَلَفاً بئسَ الخَلَفْ   أغلقَ عنَّا بابَه ثم حَلَفْ
لا يُدخِل البَّوابُ إلَّا مَن عرفْ   عبداً إذا ما ناء بالحِمْل وَقَفْ[6]

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢١٠.

(٢) سلف ٦/ ٤٢٢.

(٣) الصحاح (خلف)، وينظر كتاب الأمثال للقاسم بن سلام ص٥٥، ومجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٣٠.

(٤) سلف ١/ ٦٣.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٢، والبيت في ديوان حسان ﷺ ص١٤٨.

(٦) الرجز في الكامل عن الرياشي لأعرابيٍّ يذمُّ رجلاً اتخذ وليمةً ٣/ ١٣١١. وفي اللسان (خضف) باختلاف في ترتيبه، وفيه: خضف، بدل: وقف.

ويُروى: خَضَف، أي: رَدَم[١]. والمقصود من الآية الذَّم.

﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، قال المفسرون: هم اليهود، وَرِثوا كتابَ اللهِ فقرؤوه وعَلِموه، وخالفوا حُكمَه وأتَوْا محارمَه مع دِراستهم له[٢]. فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يَعرِض لهم من مَتَاع الدنيا لِشدَّة حِرْصهم ونَهَمِهم[٣]. ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم لا يتوبون. ودلَّ على أنَّهم لا يتوبون قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ والعَرَض: مَتَاعُ الدنيا، بفتح الراء. وبإسكانها: ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير[٤].

والإشارةُ في هذه الآية إلى الرُّشا والمكاسبِ الخبيثة.

ثم ذمَّهم باغترارهم في قولهم: «سيُغفَرُ لنا»، وأنَّهم بحالٍ إذا أمكنتهم ثانيةً ارتكبوها، فقطَعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مُصِرُّون، وإنما يقول: سيُغفَر لنا؛ مَنْ أَقْلَع ونَدِم[٥].

قلت: وهذا الوصفُ الذي ذمَّ اللهُ تعالى به هؤلاء موجودٌ فينا. أسند الدارميُّ أبو محمد: حدَّثنا محمد بن المبارك، حدّثنا صَدَقَةُ بن خالد، عن ابن جابر، عن شيخٍ يُكنى أبا عمرو[٦]، عن معاذ بن جبلٍ ﷺ قال: سَيَبْلَى القرآنُ في صدور أقوامٍ كما يَبْلَى الثّوبُ فيتهافتَ، يقرؤونه لا يجدون له شهوةً ولا لَذَّةً، يَلْبَسون جلودَ الضَّأنِ على قلوب الذِّئاب، أعمالُهم طمعٌ لا يُخالطه خوفٌ، إنْ قصَّروا قالوا: سنبلُغ، وإنْ أساؤوا قالوا: سَيُغفَرُ لنا؛ إنَّا لا نُشرك بالله شيئاً[٧].

(١) قوله: ردم: أي: ضرط. اللسان (ردم).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٢١٠ .

(٣) في (ظ): ونهمتهم.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٠٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٢ .

(٦) في النسخ الخطية: أبا عمر، والمثبت من (م)، وسنن الدارمي، وإتحاف المهرة ١٣/ ٣٠٥ .

(٧) سنن الدارمي (٣٣٤٦)، وإسناده ضعيف.

وقيل: إنَّ الضميرَ في «يَأْتِهِم» ليهود المدينة، أي: وإنْ يأْتِ يهودَ يَثْرِبَ الذين كانوا على عهد النبيِّ ﷺ عَرَضٌ مِثْلُه يأخذوه كما أخذه أسلافُهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يريد التوراة. وهذا تشديدٌ في لُزوم قول الحقِّ في الشرع والأحكام، وألَّا يميلَ الحكامُ بالرُّشَا إلى الباطل[١].

قلت: وهذا الذي لَزِمَ هؤلاء وأُخِذَ عليهم به الميثاقُ في قول الحقِّ لازمٌ لنا على لسان نبيِّنا ﷺ وكتابِ رَبِّنا، على ما تقدَّم بيانُه في «النساء»[٢]. ولا خلافَ فيه في جميع الشرائع، والحمد لله.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي: قرؤوه، وهم قَرِيبو عهدٍ به[٣]. وقرأ أبو عبد الرحمن: «وادَّارسوا ما فيه» فأدغم التاء في الدال[٤].

قال ابن زيد: كان يأتيهم المُحِقُّ برِشوة، فيُخرجون له كتابَ الله فيحكمون له به، فإذا جاء المُبطِلُ أخذوا منه الرِّشوةَ، وأخرجوا له كتابَهم الذي كتبوه بأيديهم وحَكَموا له.

وقال ابن عباس: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وقد قالوا الباطلَ في غُفران ذنوبهم الذي يُوجبونه ويقطعون به[٥]. وقال ابن زيد: يعني في الأحكام التي يحكمون بها، كما ذكرنا.

وقال بعض العلماء: إن معنى «ودَرَسُوا ما فيه» أي: مَحَوْه بترك العمل به والفَهْم له[٦]، من قولك: دَرَسَتِ الريحُ الآثارَ: إذا مَحَتْها[٧]. وخطٌّ دارسٌ، ورَبْع دارس: إذا

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٢.

(٢) ٧/ ٢٠٧ وما بعدها.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٠٠.

(٤) المحتسب ١/ ٢٦٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٠.

(٥) أخرجهما الطبري ١٠/ ٥٣٩ و ٥٤٠.

(٦) النكت والعيون ٢/ ٢٧٥.

(٧) تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٩.

امَّحى وعفا أثرُه. وهذا المعنى مُواطِئ ـ أي: موافق ـ لقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٠١] الآية. وقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:١٨٧] حسب ما تقدَّم بيانُه في «البقرة»[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: بالتوراة، أي: بالعمل بها، يقال: مَسَّك به وتَمسَّك به، أي: استمسك به[٢]. وقرأ أبو العالِية وعاصم في رواية أبي بكر «يُمْسِكُونَ»[٣] بالتخفيف من أمْسَك يُمسِك. والقراءةُ الأُولى أوْلى؛ لأنَّ فيها معنى التكرير والتكثير للتمسُّك بكتاب الله تعالى وبدينه، فبذلك يُمدحون. فالتمسُّك بكتاب الله والدِّين يحتاجُ إلى المُلازمة والتكرير لفعل ذلك[٤]. وقال كعب بن زهير ـ فجاء به على طبعه ـ يذمُّ بكثرة نقض العهد[٥].

فما تُمسِّك بالعهد الذي زَعمتْ ... إلَّا كما تُمسِكُ الماءَ الغَرابِيلُ[٦]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ «نَتَقنا» معناه: رَفَعنا. وقد تقدَّم بيانُه في «البقرة». ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي: كأنَّه ـ لارتفاعه ـ سحابةٌ تُظِلّ. ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجِدٍّ. وقد مضى في «البقرة» إلى آخر الآية[٧].

---

(١) ٢/ ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) الصحاح (مسك).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٠ ، وقراءة أبي بكر في السبعة ص٢٩٧ ، والتيسر ص١١٤ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٨٢ .

(٥) من قوله: فجاء به... إلى هذا الموضع، وقع في (م) بعد البيت، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦١ (والكلام منه).

(٦) ديوان كعب ص٨٥ ، وصدر البيت فيه: وما تمسّك بالوصل...

(٧) تقدم ما ذكره المصنف في الموضعين ٢/ ١٦٤ - ١٦٥ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ أي: واذكُر لهم مع ما سَبق من تذكير المواثيق في كتابهم ما أخذتُ من المواثيق من العباد يوم الذَّرّ. وهذه آيةٌ مُشكِلة، وقد تكلَّم العلماء في تأويلها وأحكامها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقَفْنا عليه:

فقال قوم: معنى الآية أنَّ الله تعالى أخرجَ مِن ظهور بني آدم بعضَهم مِن بعض.

قالوا: ومعنى ﴿أشهَدَهُم على أنفسهم أَلَسْتُ بربِّكم﴾ دلَّهم بخلقه على توحيده؛ لأنَّ كلَّ بالغٍ يعلم ضرورةً أنَّ له ربًّا واحداً، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: قال[(١)]. فقام ذلك مقامَ الإشهاد عليهم والإقرارِ منهم، كما قال تعالى في السماوات والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]. ذهب إلى هذا القَفّالُ وأطنبَ[(٢)].

وقيل: إنَّه سبحانه أخرجَ الأرواحَ قبل خلقِ الأجساد، وأنَّه جعلَ فيها مِن المَعْرفة ما عَلِمَتْ به ما خاطَبها[(٣)].

قلت: وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ غيرُ هذين القولين، وأنَّه تعالى أخرجَ الأشباح فيها الأرواحُ مِن ظهر آدم عليه السلام. روى مالكٌ في «موطَّئه»[(٤)] أن عمر بن الخطاب ﷺ سُئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦١ .

(٢) ذكر نحو هذا الكلام الرازي في تفسيره ١٥/ ٥٠ .

(٣) النكت والعيون ٢/ ٢٧٧ .

(٤) ٢/ ٨٩٨ - ٨٩٩ ، ومن طريقه أخرجه أحمد (٣١١)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٢٦) كلهم من طريق مسلم بن يسار عن عمر ﷺ.

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ فقال عمر ﷺ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُسأل عنها، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى خلقَ آدمَ، ثم مسحَ ظهرَه بيمينه، فاستخرجَ منه ذُرِّيةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنَّة وبعملِ أهل الجنَّة يعملون، ثم مسحَ ظهرَه، فاستخرجَ منه ذُرِّيةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للنَّار وبعملِ أهل النَّار يعملون». فقال رجل: ففيم العملُ؟ قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ إذا خلق العبدَ للجنَّة استعملَه بعملِ أهل الجنَّة حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل الجنَّة، فيُدخلَه الجنَّة، وإذا خلقَ العبدَ للنَّار، استعملَه بعملِ أهل النَّار حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل النَّار، فيدخلَه الله النَّار».

قال أبو عمر(١): هذا حديثٌ منقطع الإسناد؛ لأنَّ مسلمَ بن يسار لم يَلْقَ عمر(٢). وقال فيه يحيى بن معين: مسلم بن يسار لا يُعرف، بينه وبين عمر نُعَيمُ بن ربيعة، ذكره النسائيّ(٣)، ونُعيم غير معروف بحمل العلم. لكن معنى هذا الحديث قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ ثابتةٍ كثيرة من حديث عمر بن الخطاب ﷺ وعبدِ الله بن مسعود وعليّ بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين وغيرِهم(٤).

روى الترمذيّ وصحَّحه عن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لمَّا خلقَ اللهُ آدمَ مسحَ ظهرَه، فسقطَ مِن ظهره كلُّ نَسَمةٍ هو خالقُها [من ذُرِّيته] إلى يوم القيامة، وجعلَ بين عَيْنَي كلِّ رجل منهم وَبِيصاً مِن نُور، ثم عرضَهم على آدم، فقال: يا ربِّ

---

(١) في التمهيد ٦/ ٣ - ٧ ، والاستذكار ٢٦/ ٩٠ .

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٠٣ - ٥٠٤ : الظاهر أن الإمام مالكاً إنما أسقط ذكر نُعيم بن ربيعة عمداً لما جهل حاله ولم يعرفه، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم، ولهذا يُرسل كثيراً من المرفوعات، ويقطع كثيراً من الموصولات.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٤ - ٥ من طريق النسائي، وليس هو في سننه من هذه الطريق، إنما فيه من طريق أخرى (١١١٢٦) وينظر تحفة الأشراف ٨/ ١١٣ .

(٤) حديث عمر ﷺ أخرجه أحمد (١٩٦)، والترمذي (٢١٣٥) و(٣١١١). وحديث ابن مسعود ﷺ سلف ١/ ٢٩٦ . وحديث علي ﷺ أخرجه أحمد (٦٢١)، والبخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧). وحديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (١٠٢٨٦)، ومسلم (٢٦٥١).

مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيَّتُك. فرأى رجلاً منهم فأعجبَه وَبِيصُ ما بين عينَيه، فقال: أي ربِّ، مَن هذا؟ فقال: هذا رجلٌ مِن آخرِ الأمم مِن ذُرِّيَّتك يُقال له: داود، فقال: ربِّ، كم جعلتَ عُمُرَه؟ قال: ستِّين سنةً، قال: أي رَبِّ، زِدْه مِن عُمري أربعين سنةً، فلمّا انقضى عُمر آدمَ عليه السلام، جاءه مَلَكُ الموت فقال: أَو لم يبقَ مِن عُمري أربعون سنةً؟ قال: أوَ لم تُعطِها ابنَك داود؟ قال: فَجحَد آدمُ، فجحدَت ذرِّيَّتُه، ونَسِيَ آدمُ، فَنَسِيَتْ ذرِّيَّته»[(١)].

في غير الترمذي: «فحينئذٍ أمر بالكتابِ والشهودِ»[(٢)] في رواية: «فرأى فيهم الضعيفَ والغني والفقير[(٣)]، والمبتلى والصحيح. فقال له آدمُ: يا ربِّ، ما هذا؟! ألا سوَّيتَ بينهم؟! قال: أردتُ أن أشكرَ»[(٤)].

وروى عبد الله بن عمرو[(٥)] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أُخِذوا من ظَهْره كما يُؤخذ بالمُشْط مِن الرأس»[(٦)]. وجعل اللهُ لهم عقولاً كنملة سليمان، وأخذَ عليهم العهدَ بأنَّه ربُّهم، وأن لا إله غيرُه. فأقرُّوا بذلك والتزموه، وأَعْلَمهم بأنَّه سيبعثُ إليهم الرُّسلَ، فشهد بعضُهم على بعض. قال أُبَيُّ بن كعب: وأَشهدَ عليهم السماواتِ السَّبعَ، فليس مِن أحدٍ يُولد إلى يوم القيامة إلَّا وقد أُخِذ عليه العهد[(٧)].

---

(١) قوله: آدم، ليس في النسخ الخطية، وأثبتناه من (م)، وسنن الترمذي (٣٠٧٦) وما سلف بين حاصرتين منه وسلفت هذه القطعة ١/ ٢٩٤ .

(٢) هو عند الترمذي أيضاً (٣٣٦٨)، وأخرجه ابن حبان (٦١٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) بعدها في (د) و(ز) و(ظ): والذليل.

(٤) أخرج هذه الرواية أبو يعلى في مسنده (٦٣٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأوردها باللفظ الذي ذكره المصنف ابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٧٨٩ . وقوله: «أردت أن أشكر» قال السندي (كما في حاشية المسند ٣٥/ ١٥٧): أي: ولا يحصل منهم الشكر على النعمة إلا إذا عرفوها بضدِّها.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): عمر، والمثبت من (خ) و(م).

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٥٢ ، وأورده ابن كثير ٣/ ٥٠٢ ، وضعَّف رفعه، وذكر أن وقفَه على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أصحّ.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤ ، وقول أُبَيّ ﷺ أخرجه أحمد (٢١٢٣٢).

واختُلف في الموضع الذي أُخذ فيه الميثاقُ حين أُخرِجوا، على أربعة أقوال: فقال ابن عباس: ببطن نَعْمان، وادٍ إلى جَنْب عَرفة[١]. ورُوي عنه أنَّ ذلك بِدَهْنا[٢] ـ أرضٍ بالهند ـ الذي هبط فيه آدم عليه السلام.

وقال يحيى بن سلَّام: قال ابن عباس في هذه الآية: أهبط اللهُ آدمَ بالهند، ثم مسحَ على ظهره، فأخرج منه كلَّ نَسَمةٍ هو خالقُها إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[٣] قال يحيى: قال الحسن: ثم أعادهم في صُلب آدمَ عليه السلام[٤]. وقال الكلبيّ: بين مكة والطائف[٥].

وقال السُّدِّيّ: في السماء الدنيا حين أُهبط من الجنة إليها، مسحَ على ظهره، فأخرج من صفحةِ ظَهره اليُمنى ذُرِّيَّةً بيضاءَ مثل اللؤلؤ، فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي. وأخرج من صفحةِ ظهره اليُسرى ذُرِّيَّةً سوداءَ وقال لهم: ادخلوا النارَ ولا أُبالي[٦]. قال ابن جُريج: خرجَتْ كلُّ نفس مخلوقةٍ للجنة بيضاءَ، وكلُّ نفس مخلوقةٍ للنار سوداء[٧].

الثانية: قال ابن العربيّ رحمه الله[٨]: فإنْ قيل: فكيف يجوز أنْ يُعذِّبَ الخلقَ وهم لم يُذنبوا، أو يُعاقبَهم على ما أرادَه منهم، وكتبَه عليهم، وساقَهم إليه[٩]؟ قلنا:

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٥٠.

(٢) في النسخ: برهبا، والمثبت من تفسير الطبري ١٣/ ٢٢٥ (طبعة الشيخ محمود شاكر رحمه الله)، وتفسير البغوي ٢/ ٢١٢، والكلام فيه.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/٥٤٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٥٥ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٢١٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٦٠.

(٧) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٥٦ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) في أحكام القرآن ٢/ ٧٩١.

(٩) في النسخ الخطية: وساقه إليهم، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

ومن أين يمتنعُ ذلك، أعقلاً أم شرعاً؟ فإن قيل: لأنَّ الرحيم الحكيم مِنَّا لا يجوزُ أنْ يفعلَ ذلك. قلنا: لأنَّ فوقه آمِراً يأمرُه وناهِياً يَنهاه[١]، وربُّنا تعالى لا يُسأل عمَّا يفعلُ وهم يُسألون، ولا يجوزُ أنْ يُقاسَ الخلقُ بالخالق، ولا تُحملَ أفعالُ العباد على أفعال الإله[٢]. وبالحقيقة الأفعال كلُّها لله جلَّ جلاله، والخلقُ بأجمعهم له[٣]، صَرَّفهم كيف شاء، وحَكَم بينهم بما أراد[٤]، وهذا الذي يَجِدُه الآدميُّ إنَّما تبعثُ عليه رِقَّة الجِبِلَّة[٥]، وشفقةُ الجنسيَّة، وحبُّ الثناء والمدح؛ لما يتوقَّعُ في ذلك مِن الانتفاع، والباري تعالى متقدِّسٌ عن ذلك كلِّه[٦] فلا يجوزُ أنْ يُعتبرَ به.

الثالثة: واختُلف في هذه الآية؛ هل هي خاصَّة أو عامَّة؟ فقيل: الآية خاصَّة؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾. فخرجَ مِن هذا مَنْ كان من ولد آدمَ لِصُلْبه. وقال جلَّ وعزَّ: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، فخرج منها كلُّ مَن لم يكن له آباءٌ مشركون. وقيل: هي مخصوصةٌ فيمن أُخِذَ عليه العهد على أَلْسنة الأنبياء.

وقيل: بل هي عامَّةٌ لجميع الناس؛ لأن كلَّ أحدٍ يعلم أنه كان طفلاً فغُذِّي ورُبِّيَ، وأن له مُدبِّراً وخالقاً. فهذا معنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

ومعنى ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: إنَّ ذلك واجبٌ عليهم[٧]. فلما اعترف الخلقُ لله سبحانه بأنَّه الربُّ ثم ذَهَلوا عنه، ذكَّرهم بأنبيائه، وخَتَم الذِّكر بأفضل أصفيائه؛ لتقومَ حجتُه عليهم، فقال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]. ثم مكَّنه من الصيطرة، وآتاه السلطنةَ، ومكَّن له دينَه في الأرض.

---

(١) في النسخ الخطية: أمراً أمره وناهيا نهاه، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.
(٢) في أحكام القرآن: ولا يجوز أن يقاس الخالق بالمخلوق، ولا تحمل أفعال الإله على أفعال العباد.
(٣) لفظة: له، من (م) وأحكام القرآن.
(٤) في (خ): حكم فيهم ما أراد، وفي أحكام القرآن: حكم فيهم كما أراد.
(٥) في النسخ الخطية: الجبلية، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.
(٦) قوله: كله، من (م).
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٢ .

قال الطُّرْطُوشي: إنَّ هذا العهدَ يلزمُ البَشرَ وإنْ كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة، كما يلزم الطلاقُ مَن شُهد عليه به وقد نَسِيَه[١].

الرابعة: وقد استدلَّ بهذه الآية مَن قال: إنَّ من مات صغيراً دخل الجنةَ؛ لإقراره في الميثاق الأوَّل. ومَن بلغ العقل لم يُغنه الميثاقُ الأوّل. وهذا القائل يقول: أطفالُ المشركين في الجنة، وهو الصحيح في الباب.

وهذه المسألة اختُلف فيها لاختلافِ الآثار، والصحيح ما ذكرناه[٢]. وسيأتي الكلامُ في هذا في «الرُّوم» إن شاء الله[٣]. وقد أتينا عليها في كتاب «التَّذكرة» والحمد لله[٤].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل اشتمال من قوله: «مِنْ بَنِي آدَمَ». وألفاظُ الآية تقتضي أنَّ الأخذَ إنما كان من بني آدم، وليس لآدم في الآية ذِكْر بحسب اللَّفظ[٥].

ووجه النَّظم[٦] على هذا: وإذْ أَخذ ربُّك من ظُهور بني آدم ذرِّيتَهم. وإنما لم يذكُرْ ظهرَ آدم لأن المعلومَ أنهم كلَّهم بَنُوه، وأنهم أُخرِجوا يومَ الميثاق من ظَهْره، فاستغنى عن ذكره لقوله: «مِنْ بَنِي آدَمَ»[٧].

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ الكوفيون وابنُ كَثير بالتوحيد وفتح التاء[٨]، وهي تقع للواحد

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٥ .

(٢) المفهم ٦/ ٦٧٧ - ٦٧٨ .

(٣) في تفسير الآية (٣٠) منها.

(٤) ص٥١١ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤ .

(٦) في (ظ): النظر.

(٧) تفسير البغوي ٢/ ٢١٢ .

(٨) السبعة ص٢٩٨ ، والتيسير ص١١٤ ، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٨٣ ، والكلام منه إلى نهاية المسألة.

والجمع، قال الله تعالى: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، فهذا للواحد؛ لأنه إنما سأل هِبةَ ولدٍ، فبُشِّر بيحيى. وأجمع القراءُ على التوحيد في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ [مريم: ٥٨]، ولا شيءَ أكثرُ من ذُرِّية آدمَ، وقال: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣] فهذا للجمع. وقرأ الباقون «ذُرِّيَّاتِهِمْ» بالجمع، لأنَّ الذُّرِّية لمَّا كانت تقعُ للواحد؛ أتى بلفظٍ لا يقع للواحد، فجمعَ لتخلص الكلمةُ إلى معناها المقصود إليه لا يَشْرَكُها فيه شيء، وهو الجمع؛ لأنَّ ظهورَ بني آدم استُخرج منها ذُرِّياتٌ كثيرةٌ متناسبة، أعقابٌ بعد أعقاب، لا يعلم عددَهم إلَّا اللهُ، فجمع لهذا المعنى.

السادسة: قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ تقدَّم القولُ فيها في «البقرة» عند قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [الآية: ٨١]، مستوفًى، فتأمَّلْه هناك[(١)].

«أنْ يَقولوا»، «أوْ يقولوا»: قرأ أبو عمرو بالياء فيهما[(٢)]، ردَّهما على لفظ الغَيْبة المُتكرِّر قبلَه، وهو قوله: ﴿من بني آدم من ظهورهم ذُرِّيَّاتِهم وأشْهَدَهُم على أنفسهم﴾، وقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أيضاً لفظ غَيْبة. وكذا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾، ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ فحملَه على ما قبلَه وما بعده مِن لفظ الغَيْبة.

وقرأ الباقون بالتاء فيهما، ردُّوه[(٣)] على لفظ الخِطاب المتقدِّم في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾. ويكون: «شَهِدنا»، من قول الملائكة. لمَّا قالوا: «بلى» قالت الملائكة: «شَهِدنا أنْ تقولوا» «أوْ تقولوا» أي: لئلا تقولوا.

وقيل: معنى ذلك: أنهم لمَّا قالوا: «بلى»، فأقرُّوا له بالرُّبوبيَّة، قال الله تعالى للملائكة: اشهدوا، قالوا: شَهِدنا بإقراركم لئلا تقولوا، أو تقولوا. وهذا قولُ مجاهد

---

(١) ٢/ ٢٢٦.

(٢) السبعة ص٢٩٨، والتيسير ص١١٤.

(٣) في النسخ الخطية: ردَّه، والمثبت من (م)، وهو الموافق للكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٨٤، والكلام منه.

والضحَّاك والسُّدِّيّ[(١)].

وقال ابنُ عباس وأُبَيُّ بن كعب: قوله: «شَهِدنا» هو مِن قول بني آدم، والمعنى: شَهِدنا أنك ربُّنا وإلهُنا[(٢)]، وقال ابن عباس: أشهدَ بعضَهم على بعض، فالمعنى على هذا: قالوا: بلى شَهِدَ بعضُنا على بعض[(٣)].

فإذا كان ذلك من قول الملائكة؛ فيوقَف على «بلى»، ولا يحسنُ الوقفُ عليه إذا كان من قول بني آدم[(٤)]؛ لأنَّ «أنْ» متعلِّقة بما قبل «بلى» من قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ لئلا يقولوا. وقد روى مجاهد عن ابن عمرو[(٥)] أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أخذَ ربُّك مِن بني آدم مِن ظُهورهم ذريَّاتِهم، كما يُؤخذ بالمُشط مِن الرأس، فقال لهم: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى، قالت الملائكة: شَهِدنا أنْ تقولوا». أي: شَهِدنا عليكم بالإقرار بالرُّبوبية؛ لئلا تقولوا، فهذا يدلُّ على التاء. قال مكِّيّ: وهو الاختيارُ لِصحَّة معناه، ولأنَّ الجماعةَ عليه.

وقد قيل: إنَّ قوله: «شَهِدنا» من قول الله تعالى والملائكة. والمعنى: فَشَهِدنا على إقراركم؛ قاله أبو مالك، ورُوي عن السُّدِّي أيضاً[(٦)]. ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: اقتدَيْنا بهم. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ بمعنى: لست تفعل هذا. ولا عذر للمقلِّد في التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ١٧٥﴾

ذكَرَ أهلَ الكتاب قصَّةَ عَرَفوها في التوراة. واختُلف في تعيين الذي أُوتيَ الآيات،

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٥٢، و ٥٦١.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٥٦ - ٥٥٧.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢١٢.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٦، وينظر تفسير الرازي ١٥/ ٥٢.

(٥) في النسخ والكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٨٤، والكلام منه: عمر وسلف في المسألة الأولى.

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٦٣.

فقال ابن مسعود وابن عباس: هو بِلْعَامُ بن باعُورَاء[١]، ويقال: باعر[٢]، مِن بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، وكان بحيث إذا نظرَ رأى العرش، وهو المعنيُّ بقوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ ولم يَقُلْ: آية، وكان في مجلسِهِ اثنتا عشرةَ ألف مِحْبَرة للمتعلِّمين الذين يكتبون عنه، ثم صار بحيث إنَّه كان أوَّلَ مَن صنَّفَ كتاباً أنَّ ليس للعالم صانعٌ.

قال مالك بن دينار: بُعِثَ بِلعام بن باعوراء إلى مَلِك مَدْيَن ليدعوَه إلى الإيمان، فأعطاه وأقطعَه فاتَّبعَ دينَه، وتركَ دينَ موسى، ففيه نزلَتْ هذه الآياتُ[٣].

روى[٤] المعتمر بنُ سليمان عن أبيه قال: كان بِلعام قد أُوتِي النُّبوَّة[٥]، وكان مُجابَ الدَّعوة، فلمّا أقبلَ موسى في بني إسرائيل يريدُ قتالَ الجبَّارين، سألَ الجبَّارون بِلعام بن باعوراء أنْ يدعُوَ على موسى، فقام ليدعُوَ، فتحوَّلَ لسانُهُ بالدعاء على أصحابه، فقيل له في ذلك، فقال: لا أقدِرُ على أكثرَ ممَّا تسمعون، واندلَعَ لسانُه على صدرِهِ، فقال: قد ذهبَتْ منِّي الآنَ الدنيا والآخرة، فلم يَبْقَ إلَّا المَكْرُ والخديعَةُ والحيلَةُ، وسأمكرُ لكم، فإنِّي أرى أنْ تُخرجوا إليهم فَتَياتِكم، فإنَّ الله يُبغِضُ الزِّنى، فإنْ وقعوا فيه هلَكوا، ففعلوا، فوقَعَ بنو إسرائيل في الزِّنى، فأرسلَ الله عليهم الطاعونَ، فماتَ منهم سبعون ألفاً. وقد ذكَرَ هذا الخبرَ بكماله الثعلبيُّ وغيرُه[٦].

ورُوِيَ أنَّ بِلعامَ بن باعوراء دعا ألَّا يدخُلَ موسى مدينةَ الجبَّارين، فاستُجيبَ له وبقيَ في التِّيه، فقال موسى: يا ربِّ، بأيِّ ذنبٍ بَقِينا في التِّيه؟ فقال: بدعاء بِلعام،

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/٥٦٦ - ٥٦٨ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): باعم، وفي (م): ناعم، والمثبت من (خ).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/١٦١٨ .

(٤) قوله: روى، من (م).

(٥) قوله: أوتي النبوة، مردود، كما سيرد.

(٦) عرائس المجالس ص٢٣٩ - ٢٤١ ، وأخرجه الطبري ١٠/٥٧٦ عن سيَّار.

قال: فكما سمعتَ دعاءَه عليَّ فاسمَعْ دعائي عليه، فدعا موسى أنْ يَنْزِعَ اللهُ عنه الاسمَ الأعظمَ، فسلخَهُ الله ما كان عليه[١].

وقال أبو حامد في آخِرِ كتابِ «منهاج العارفين» له: وسمعتُ بعضَ العارفين يقول: إنَّ بعضَ الأنبياء سألَ الله تعالى عن أمرِ بِلعام وطردِهِ بعدَ تلك الآيات والكرامات، فقال الله تعالى: لم يشكُرْني يوماً مِن الأيامِ على ما أعطيتُهُ، ولو شكرَني على ذلك مرَّةً لما سلبتُه.

وقال عكرمة: كان بِلعام نبيًّا وأُوتِيَ كتاباً، وقال مجاهد: إنَّه أُوتي النبوَّةَ، فرشاهُ قومُهُ على أنْ يسكتَ ففعلَ وتركَهم على ما هم عليه[٢]. قال الماوردِيُّ: هذا غيرُ صحيح؛ لأنَّ الله تعالى لا يَصطفي لنبوَّتِه إلَّا مَن يعلمُ[٣] أنَّه لا يَخرجُ عن طاعتِهِ إلى معصيتِه[٤].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم: نزلَتْ في أمَيَّة بن أبي الصَّلْت الثَّقفيّ، وكان قد قرأ الكُتُبَ وعَلِمَ أنَّ الله مرسِلٌ رسولاً في ذلك الوقت، وتمنَّى أنْ يكونَ هو ذلك الرسولَ، فلمّا أرسلَ الله محمداً ﷺ حسدَهُ وكفرَ به[٥]. وهو الذي قال فيه رسولُ الله ﷺ: «آمنَ شِعْرُه وكَفَر قلبُهُ»[٦].

وقال سعيد بن المسيَّب: نزلَتْ في أبي عامر بن صيفي، وكان يَلبَسُ المُسُوحَ في

---

(١) عرائس المجالس ص٢٤١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٢١٤ ، وهذه الأخبار كلها من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٧٣ - ٥٧٤ .

(٣) في (م): علم.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٧٩ ، وردَّه أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٦ وقال: وهذا قول مردود لا يصحّ عن مجاهد.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٢٢٣ ، وأخرجه مختصراً الطبري ١٠/ ٥٧٠ - ٥٧١ من قول عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٧ بهذا اللفظ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج أحمد (١٩٤٥٧)، ومسلم (٢٢٥٥) من حديث الشريد بن سويد ﷺ أن النبي ﷺ استنشده من شعر أمية بن أبي الصلت فأنشده... فقال النبي ﷺ: «فلقد كاد يُسلِمُ في شعره».

الجاهليَّةِ، فكفَر بالنبيِّ ﷺ، وذلك أنَّه دخَلَ على النبيِّ ﷺ المدينةَ، فقال: يا محمد، ما هذا الذي جئتَ به؟ قال: «جئتُ بالحنيفيَّةِ دينِ إبراهيم»، قال: فإنِّي عليها، فقال النبيُّ ﷺ: «لستَ عليها، لأنَّك أدخلتَ فيها ما ليس منها»، فقال أبو عامر: أماتَ الله الكاذبَ منَّا طريداً وحيداً، فقال النبيُّ ﷺ: «نَعَمْ، أماتَ الله الكاذبَ منَّا كذلك»، وإنَّما قال هذا يُعرِّضُ برسول الله ﷺ حيث خَرجَ مِن مكَّةَ. فخرَجَ أبو عامر إلى الشَّام، ومَرَّ إلى قيصر، وكتَبَ إلى المنافقين: استعدُّوا، فإنِّي آتيكُمْ مِن عند قيصرَ بجند لِنُخرِجَ محمداً مِن المدينة، فماتَ بالشام وحيداً(١)، وفيه نزل: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧]، وسيأتي في «براءة».

وقال ابن عباس في روايةٍ: نزلَتْ في رجلٍ كان له ثلاثُ دَعَوات يُستجابُ له فيها، وكانت له امرأةٌ يُقال لها: البَسُوس، وكان له منها ولدٌ، فقالت: اجعَلْ لي منها دعوةً واحدةً، فقال: لك واحدةٌ، فما تأمُرِين؟ قالت: ادْعُ الله أنْ يجعلَني أجملَ امرأةٍ في بني إسرائيل، فلمّا علمَتْ أنَّه ليس فيهم مثلُها رَغِبَتْ عنه، فدعا الله عليها أنْ يجعلَها كلبةً نبَّاحةً. فذهبَ فيها دعوتان، فجاءَ بنوها وقالوا: لا صبرَ لنا عن هذا، وقد صارَتْ أُمُّنا كلبةً يُعيِّرنا الناسُ بها، فادعُ الله أنْ يردَّها كما كانت(٢)، فدعا الله فعادَتْ إلى ما كانت، وذهبَتْ الدعواتُ فيها(٣). والقولُ الأوَّلُ أشهرُ، وعليه الأكثرُ.

قال عبادة بن الصامت: نزلَتْ في قريشٍ، آتاهم الله آياتهِ التي أنزلَها الله تعالى على محمد ﷺ، فانسلخوا منها، ولم يقبلُوها(٤). قال ابن عباس: كان بِلعام مِن مدينةِ الجبَّارين، وقيل: كان مِن اليمن(٥).

---

(١) عرائس المجالس ص٢٤٢، ومجمع البيان ٩/ ٦٥ - ٦٦.

(٢) في (خ) و(ظ): إلى مثل ما كانت عليه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٦١٧، وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٢٣ - ٢٢٤ وأورده ابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٠٧ - ٥٠٨، وقال: غريب.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) أخرجهما الطبري ١٠/ ٥٦٨ - ٥٦٩ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: مِن معرفةِ الله تعالى، أي: نُزِعَ منه العلمُ الذي كان يعلمُه، وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «العلمُ علمان: علمٌ في القلبِ، فذلك العلمُ النَّافِعُ، وعلمٌ على اللِّسان، فذلك حُجَّةُ الله تعالى على ابنِ آدم»[(١)]، فهذا مثلُ علمِ بِلْعام وأشباهِهِ، نعوذُ بالله منه، ونسألُه التوفيقَ والمماتَ على التحقيق.

والانسلاخُ: الخروجُ، يُقال: انسلخَتِ الحيَّةُ مِن جلدِها، أي: خرجَتْ منه[(٢)]، وقيل: هذا مِن المقلوب، أي: انسلخَتِ الآياتُ منه.

﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: لَحِقَ به، يُقال: أتبعت القوم، أي: لحقتهم.

وقيل: نزلَتْ في اليهودِ والنَّصارى، انتظروا خُروجَ محمدٍ ﷺ فكفروا به[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ يريدُ بِلعامَ، أي: لو شِئنا لأمتناهُ قبلَ أنْ يعصيَ، فرفعناهُ إلى الجنَّة، ﴿بِهَا﴾ أي: بالعمَلِ بها[(٤)]. ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: رَكَنَ إليها، عن ابن جبير والسّدي. مجاهد: سَكَنَ إليها[(٥)]، أي: سَكَنَ إلى لذَّاتِها، وأصلُ الإخلادِ اللُّزومُ، يُقال: أخلَدَ فلانٌ بالمكانِ: إذا أقامَ به ولزِمَهُ، قال زهير:

لِمَنِ الدِّيارُ غَشِيتَها بالفَدْفَدِ ... كالوَحْي في حَجَرِ المَسِيلِ المُخْلِدِ[(٦)]

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ٢٣٥، والدارمي في سننه (٣٦٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١١٥٠) عن الحسن مرسلاً. وأخرجه الدارمي (٣٦٤) من قول الحسن.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٥.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢١٥، وتفسير الرازي ١٥/ ٥٤ - ٥٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٣.

(٥) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/ ٥٨٤.

(٦) ديوان زهير ص٢٦٨، ووقع في النسخ: بالغرقد، والمثبت من الديوان، وهو الصواب فيما قاله =

يعني: المُقيم، فكأنَّ المعنى: لزِمَ لذَّاتِ الأرض، فعبَّر عنها بالأرض، لأنَّ متاعَ الدنيا على وجهِ الأرض.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ أي: ما زيَّنَ له الشيطان. وقيل: كان هواه مع الكفَّار[1]. وقيل: اتَّبع رِضا زوجتِه[2]، وكانت رغِبَتْ في أموالٍ حتى حملَتْه على الدعاء على موسى.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ ابتداءٌ وخبر، ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ شرطٌ وجوابُه، وهو في موضعِ الحال، أي: فمثلُه كمثلِ الكلب لاهِثاً، والمعنى: أنَّه على شيءٍ واحدٍ لا يَرعَوي عن المعصية، كمثلِ الكلبِ الذي هذه حالُه[3]، فالمعنى: أنَّه لاهِثٌ على كلِّ حال، طردتَه أو لم تطردْه. قال ابنُ جُريج: الكلبُ منقطعُ الفؤاد، لا فؤادَ له، إنْ تَحمل عليه يَلهثْ أو تتركْه يَلهثْ، كذلك الذي يتركُ الهدى لا فؤادَ له، وإنَّما فؤادُه منقطعٌ[4]. قال القتبيّ: كلُّ شيءٍ يَلهثُ فإنَّما يَلهثُ مِن إعْياءٍ أو عطش، إلَّا الكلبَ فإنَّه يَلهثُ في حال الكَلالِ وحال الراحةِ، وحال المرضِ وحال الصحَّةِ، وحال الريِّ وحال العطش، فضربَه الله مثلاً لمن كذَّبَ بآياتِه فقال: إن وعظتَه ضلَّ، وإنْ تركتَه ضلَّ، فهو كالكلبِ إنْ تركْتَه لهثَ، وإنْ طردْتَه لهثَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾[5] [الأعراف: ١٩٣].

قال الجوهريّ: لَهَثَ الكلبُ؛ بالفتحِ؛ يَلهَثُ لَهْثاً ولُهاثاً؛ بالضمِّ: إذا أخرجَ لسانَهُ مِن التَّعبِ أو العَطَش، وكذلك الرجُلُ إذا أعْيَى. وقولُه: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ لأنَّك إذا حملْتَ على الكلبِ نَبَحَ وولَّى هارباً، وإنْ تركتَهُ شدَّ عليك ونَبَحَ،

= الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تفسير الطبري (طبعته) ١٣/ ٢٧٠ .

قال ثعلب شارح الديوان: الفدفد: المرتفع فيه صلابة وحجارة. كالوحي: كالكتاب.

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٨٥ من قول ابن زيد.

(٢) ذكره أبو الليث ١/ ٥٨٣ .

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): حالته، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٣ ، والكلام منه.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٨٦ - ٥٨٧ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ص٢٨٦ .

فيُتْعِبُ نفسَهُ مُقبِلاً عليك ومُدبِراً عنك، فيعترِيه عند ذلك ما يعترِيه عند العَطشِ مِن إخراجِ اللِّسانِ[1]. قال الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[2]: إنَّما شبَّهه بالكلبِ مِن بين السِّباع؛ لأنَّ الكلبَ ميتُ الفؤاد، وإنَّما لُهاثُه[3] لموتِ فؤادِه. وسائرُ السباعِ ليست كذلك، فلذلك لا يَلْهثْنَ. وإنَّما صارَ الكلبُ كذلك؛ لأنَّه لمَّا نزلَ آدمُ ﷺ إلى الأرضِ شَمِتَ به العدوُّ، فذهبَ إلى السِّباعِ فأشلاهم[4] على آدم، فكان الكلبُ مِن أشدِّهم طَلباً، فنزلَ جبريلُ بالعصا التي صُرِفَتْ إلى موسى بمدين، وجعلَها آيةً له إلى فرعونَ وملئِه، وجعلَ فيها سلطاناً عظيماً، وكانت مِن آسِ الجنَّة، فأعطاها آدمَ ﷺ يومئذ لِيطردَ بها السِّباعَ عن نفسِه، وأمرَه فيما رُوِي أنْ يدنوَ مِن الكلبِ ويضعَ يدَه على رأسِه، فمِن ذلك أَلِفَه الكلبُ، وماتَ الفؤادُ منه لسلطانِ العصا، وأَلِفَ به وبولدِه إلى يومنا هذا؛ لوضعِ يدِه على رأسِه، وصار حارساً مِن حُرَّاسِ ولدِه. وإذا أُدِّبَ وعُلِّمَ الاصطيادَ تأدَّبَ وقَبِلَ التعليم، وذلك قولُه: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤].

السديّ: كان بِلعام بعد ذلك يلهثُ كما يلهثُ الكلب[5]. وهذا المَثَلُ في قول كثير مِن أهل العلم بالتأويل عامٌّ في كلِّ مَن أُوتي القرآن فلم يعمل به. وقيل: هو في كلِّ مُنافق. والأوَّل أصحُّ.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: إنْ تحمِلْ عليه بدابَّتك أو برِجلك يلهَثْ، أو تتركْه يلهَثْ، وكذلك مَن يقرأُ الكتابَ ولا يعملُ بما فيه. وقال غيرُه: هذا شرُّ تمثيل؛ لأنه مثَّله في أنَّه قد غلَبَ عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضَرًّا ولا نفعاً بكلب لاهثٍ أبداً،

---

(١) الصحاح (لهث).

(٢) قوله: في نوادر الأصول، من (م) ولم نقف عليه في المطبوع منه، وهذا الخبر الذي أورده المصنف منه باطل.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): إلهاثه، وسقطت العبارة من (د)، والمثبت من (م).

(٤) أي: دعاهم، وأشليتُ الكلب على الصيد مثل: أغريته، وزناً ومعنًى. المصباح المنير (شلو).

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٨٨ .

حُمِل عليه أو لم يُحمَلْ عليه، فهو لا يملك لنفسه تركَ اللَّهَثان(١).

وقيل: مِن أخلاق الكلب الوقوعُ بمن لم يُخِفْه على جِهة الابتداء بالجَفاء، ثم تهدأُ طائشتُه بنَيْل كلِّ عِوَضٍ خَسيس. ضربَه الله مَثَلاً للذي قَبِلَ الرِّشوة في الدِّين حتى انسلخَ مِن آيات ربِّه.

فدلَّت الآيةُ لمن تدبَّرها على ألَّا يغترَّ أحدٌ بِعَمَلِهِ ولا بِعِلْمِه، إذْ لا يدري بما يُختم له. ودلَّت على منع أخذ الرِّشوة لإبطال حَقٍّ أو تغييرِه، وقد مضى بيانُه في «المائدة»(٢).

ودلَّت أيضاً على مَنْع التقليد لعالم إلَّا بحجَّة يُبيِّنها؛ لأنَّ الله تعالى أخبرَ أنَّه أعطى هذا آياتِه فانسلخَ منها، فوجب أنْ يُخافَ مثلُ هذا على غيره، وألَّا يقبل منه إلَّا بحجَّة(٣).

قوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أي: هو مثلُ جميع الكفار.

وقولُه: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ يُقال: ساءَ الشيءُ: قَبُح، فهو لازمٌ، وساءه يَسوؤه مَساءةً، فهو مُتعَدٍّ، أي: قَبُح مَثَلُهم، وتقديرُه: ساء مَثَلاً مَثَلُ القوم، فحذف المضاف، ونصب «مَثَلاً» على التمييز(٤).

قال الأخفش(٥): فجُعِل المَثَلُ القومَ مجازاً. والقومُ مرفوعٌ بالابتداء، أو على إضمار مبتدأ، التقديرُ: ساء المَثَلُ مَثَلاً هو مَثَلُ القوم. وقدَّره أبو عليّ: ساءَ مَثَلاً مَثَلُ القوم(٦). وقرأ عاصمٌ الجَحْدَريّ والأعمشُ: «ساءَ مَثَلُ القوم»: رفعَ مَثَلاً بـ «ساء»(٧).

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٠٦، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٠/ ٥٨٦.
(٢) ٦/ ١٨٣.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٤.
(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٥/ ٥٧.
(٥) في معاني القرآن ٢/ ٥٣٧ - ٥٣٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٦٤.
(٦) وهو قول الزجاج كما في معاني القرآن ٢/ ٣٩١.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٤، وقراءة عاصم الجحدري في القراءات الشاذة ص٤٧.

قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

تقدَّم معناه في غير موضع. وهذه الآيةُ تردُّ على القدريَّة كما سبق، وتردُّ على مَن قال: إنَّ الله تعالى هدَى جميع المُكلَّفين، ولا يجوز أن يُضِلَّ أحداً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

أخبر تعالى أنَّه خلقَ للنَّار أهلاً بعَدْله، ثم وصفَهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: هم[1] بمنزلة مَن لا يفقهُ؛ لأنَّهم لا ينتفعون بها[2]، ولا يعقِلون ثواباً ولا يخافون عقاباً. و﴿أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الهدى. و﴿ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ المواعظَ، وليس الغرضُ نفيَ الإدراكات عن حواسّهم جملةً كما بيَّنَّاه في «البقرة»[3].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنَّهم لا يهتدون إلى ثواب، فهم كالأنعام، أي: هِمَّتهم الأكلُ والشرب، وهم أضلُّ؛ لأنَّ الأنعامَ تُبصِر مَنافعَها ومَضارَّها وتَتْبعُ مالكَها، وهم بخلاف ذلك[4]. وقال عطاء: الأنعامُ تعرفُ الله، والكافرُ لا يعرفُه. وقيل: الأنعامُ مُطيعةٌ لله تعالى، والكافرُ غيرُ مُطيع[5].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي: تركوا التدبُّر، وأعرضوا عن الجنَّة والنَّار.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فيه ستُّ مسائل:

---

(١) لفظة «هم» ليست في (م).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٤ .

(٣) ١/ ٣٢٤ .

(٤) الوسيط ٢/ ٤٣٠ .

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٥٨٤ ، وتفسير الرازي ١٥/ ٦٥ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أمرَ بإخلاص العبادةِ لله، ومجانبةِ[(١)] المشركين والمُلحِدين.

قال مقاتل وغيرُه مِن المفسرين: نزلَت الآيةُ في رجل من المسلمين، كان يقول في صلاته: يا رحمن يا رحيم. فقال رجل مِن مشركي مكة: أليس يزعمُ محمدٌ وأصحابُه أنَّهم يعبدون ربًّا واحداً، فما بالُ هذا يدعو ربَّين اثنين؟ فأنزلَ الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[(٢)].

الثانية: جاء في كتاب الترمذيّ و«سنن» ابن ماجه[(٣)] وغيرهما حديثٌ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ نَصَّ فيه: «تسعةً وتسعينَ اسماً»، وفي أحدهما ما ليس في الآخر. وقد بيَّنَّا ذلك في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[(٤)].

قال ابن عطية[(٥)] ـ وذكرَ حديثَ الترمذيّ ـ: وذلك الحديثُ ليس بالمتواتر ـ وإنْ كان قد قال فيه أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفُه إلَّا مِن حديث صفوان بن صالح، وهو ثقةٌ عند أهل الحديث ـ وإنَّما المتواترُ منه قولُه ﷺ: «إنَّ لله تسعةً وتسعينَ اسماً، مئةً إلَّا واحداً مَنْ أحْصَاها دَخَلَ الجنَّةَ»[(٦)]، ومعنى «أحصاها»: عدَّها وحَفِظَها.

وقيل غير هذا مما بيَّنَّاه في كتابنا[(٧)]. وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذيّ[(٨)]، وذكرنا مِن الأسماء ما اجتُمِع عليه وما اختُلف فيه مما وقفنا عليه في كُتب أئمتنا ما

---

(١) في (ظ): واجتناب.
(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٢١٧ .
(٣) سنن الترمذي (٣٥٠٧)، وسنن ابن ماجه (٣٨٦١).
(٤) ص٨٠ وما بعدها.
(٥) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٨١ .
(٦) أخرجه أحمد (٧٥٠٢)، والبخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٧) الأسنى ص٣٢ .
(٨) الأسنى ص٨٣ .

يُنيِّف على مئتي اسم[١]. وذكرنا قبل تعيينها في مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلاً فيما يتعلَّق بأحكامها، فمن أراده وقفَ عليه هناك أو في غيرِه مِن الكُتبِ الموضوعةِ في هذا الباب. والله الموفِّقُ للصَّواب، لا ربَّ سِواه.

الثالثة: واختلفَ العلماءُ مِن هذا الباب في الاسم والمسمَّى، وقد ذكرنا ما للعلماء مِن ذلك في «الكتاب الأسنى»[٢]. قال ابن الحصار: وفي هذه الآية وقوعُ الاسم على المسمَّى ووقوعُه على التسمية. فقولُه: «ولله» وقع[٣] على المسمَّى، وقولُه: «الأسماءُ» ـ وهو جمعُ اسم ـ واقعٌ على التَّسميات، يدلُّ على صحَّة ما قلناه قولُه: «فادعوهُ بها»، والهاء في قوله: «فادعوهُ» تعود على المسمَّى سبحانه وتعالى، فهو المدعوّ، والهاء في قوله: «بها» تعود على الأسماء، وهي التسميات التي يُدعَى بها لا بغيرها، هذا الذي يَقتضيه لسانُ العرب. ومثلُ ذلك قول رسول الله ﷺ: «لي خمسةُ أسماءٍ؛ أنا محمدٌ، وأحمدُ» الحديثَ[٤]. وقد تقدَّم في «البقرة» شيء من هذا[٥].

والذي يَذْهبُ إليه أهلُ الحقِّ أنَّ الاسمَ هو المسمَّى، أو صفةٌ له تتعلَّقُ به، وأنَّه غيرُ التسمية.

قال ابن العربيّ عند كلامِه على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٦]: فيه ثلاثة أقوال:

قال بعض علمائنا: في ذلك دليلٌ على أنَّ الاسمَ المسمَّى؛ لأنَّه لو كان غيرَه لوجبَ أنْ تكونَ الأسماء لغير الله تعالى.

---

(١) الأسنى ص٩٦ وما بعدها.

(٢) ص٥٩ وما بعدها.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): واقع.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٧٣٤)، والبخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جُبير بن مطعم ﵁.

(٥) ١/ ٤٢٠.

(٦) لم نقف عليه في أحكام القرآن. وذكره المصنف أيضاً في الأسنى ص٦٠ - ٦٣.

الثاني: قال آخرون: المرادُ به التسميات؛ لأنَّه سبحانه واحدٌ، والأسماءُ جمعٌ.

قلت: ذكرَ ابن عطية في «تفسيره» أنّ الأسماءَ في الآية بمعنى التَّسميات إجماعاً مِن المتأوِّلين لا يجوز غيره[1].

وقال القاضي أبو بكر في كتاب «التمهيد[2]»: وتأويلُ قول النبيِّ ﷺ: «لله تسعةٌ وتسعون اسماً، مَن أحصاها دخلَ الجنَّة»، أي: إنَّ له تسعةً وتسعين تسميةً بلا خلاف، وهي عباراتٌ عن كون الله تعالى على أوصافٍ شتَّى، منها ما يستحقُّه لنفسه، ومنها ما يستحقُّه لصفةٍ تتعلَّق به، وأسماؤه العائدةُ إلى نفسه هي هو، وما تعلَّق بصفةٍ له فهي أسماءٌ له، ومنها صفاتٌ لذاته، ومنها صفاتُ أفعال. وهذا هو تأويلُ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي: التسمياتُ الحُسنى.

الثالث: قال آخرون منهم: ولله الصفات.

الرابعة: سمَّى اللهُ سبحانه أسماءَه بالحُسنى؛ لأنَّها حسنةٌ في الأسماعِ والقلوب، فإنَّها تدلُّ على توحيده وكرمه وجُوده ورحمته وإفضاله. و«الحُسنى» مصدرٌ وُصِف به. ويجوز أنْ يقدَّر «الحُسنى» فُعلى، مؤنَّث الأحسن، كالكُبرى تأنيثُ الأكبر، والجمعُ الكُبَر والحُسَن. وعلى الأوَّلِ أُفرِد كما أُفرِد وصفُ ما لا يعقل، كما قال تعالى: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، و﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾[3] [سبأ: ١٠].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي: اطلبوا منه بأسمائه، فيُطلَب بكلِّ اسم ما يليقُ به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكُمْ لي، يا رزَّاق ارزقني، يا هادي اهدني، يا فتَّاح افتح لي، يا توَّاب تُبْ عليَّ، هكذا فإنْ دعوتَ باسم عامٍّ؛ قلتَ: يا مالكُ ارحمني، يا عزيزُ احكُمْ لي، يا لطيف ارزقني. وإنْ دعوتَ بالاسم[4] الأعظم،

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٠ .

(٢) تمهيد الأوائل ص٢٦٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٠ .

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): بالأعم. والمثبت من (خ) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٠٥ ، والكلام منه.

فقلتَ: يا الله، فهو متضمِّنٌ لكلِّ اسم. ولا تقول: يا رزَّاق اهدني، إلَّا أنْ تريدَ: يا رزَّاق ارزُقني الخير[١].

قال ابن العربيّ: وهكذا، رتِّبْ دعاءَك تكنْ مِن المُخلصين[٢]. وقد تقدَّمَ في «البقرة»[٣] شرائطُ الدعاء، وفي هذه السورة أيضاً[٤]، والحمد لله.

السادسة: أدخل القاضي أبو بكر بن العربيّ عدَّةً مِن الأسماء في أسمائه سبحانه، مثل: مُتِمُّ نوره، وخيرُ الوارثين، وخيرُ الماكرين، ورابعُ ثلاثة، وسادسُ خمسة، والطَّيِّبُ، والمعلِّم، وأمثال ذلك[٥]. قال ابن الحصار: واقتدى في ذلك بابن بَرَّجان[٦]، إذ ذكرَ في الأسماء «النظيفَ» وغيرَ ذلك مما لم يَرِد في كتابٍ ولا سنَّة.

قلت: أمَّا ما ذكرَ مِن قوله: مما لم يَرِدْ في كتاب ولا سنَّة، فقد جاء في «صحيح مسلم»: «الطيِّب»[٧]. وخرَّج الترمذيّ: «النظيف»[٨]. وخرَّج عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول في دعائه: «ربِّ أَعِنِّي ولا تُعِن عليَّ، وانصُرْني ولا تَنصر عليَّ، وامكُرْ لي

---

(١) في أحكام القرآن: الهدى.

(٢) في أحكام القرآن: وهكذا رتِّب دعاءك على اعتقادك تكن من المحسنين.

(٣) ٣/ ١٨٢ وما بعدها.

(٤) ص٢٤٤ من هذا الجزء.

(٥) أحكام القرآن ٢/ ٧٩٦ - ٧٩٧ و ٧٩٩ و ٨٠٤ . ولم نقف على ذكر المعلم من أسمائه تعالى. ولعله في كتابه «الأمد الأقصى» الذي أشار إليه في أحكام القرآن ٢/ ٨٠٣ .

(٦) عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال، أبي الحكم اللخمي المغربي، ثم الأندلسي الإشبيلي، كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث، له تصانيف مفيدة، توفي سنة (٥٣٦هـ). السير ٢٠/ ٧٢ .

(٧) الحديث (١٠١٥) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيِّب، لا يقبل إلا طيِّباً...» وسلف ٣/ ٢١ .

(٨) الحديث (٢٧٩٩) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ مرفوعاً، وفيه «..إن الله طيب يحب الطَّيِّب، نظيفٌ يحب النظافة..». وفي إسناده خالد بن إلياس، قال البخاري: ليس بشيء، وقال أحمد والنسائي: متروك. ميزان الاعتدال ١/ ٦٢٧ .

ولا تمكُر عليَّ» الحديثَ، وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. فعلى هذا جائزٌ أنْ يُقال: يا خيرَ الماكرين امكُر لي ولا تمكُر عليَّ. والله أعلم.

وقد ذكرنا «الطيِّب، والنظيف» في كتابنا[٢] وغيره مما جاء ذكره في الأخبار، وعن السلفِ الأخيار، وما يجوزُ أنْ يُسمَّى به ويُدعى، وما يجوزُ أنْ يُسمَّى به ولا يُدعى، وما لا يجوزُ أنْ يُسمَّى به ولا يُدعى. حسبَ ما ذكرَه الشيخ أبو الحسن الأشعريّ. وهناك يتبيَّن لك ذلك إن شاء الله تعالى[٣].

قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: «يُلحِدون» الإلحاد: الميلُ وتركُ القصد، يقال: لحدَ[٤] الرجل في الدين، وألْحدَ: إذا مال. ومنه اللَّحدُ في القبر؛ لأنَّه في ناحيته[٥]. وقُرِئ: «يَلْحَدون»[٦] لغتان.

والإلحادُ يكون بثلاثة أوجه: أحدها: بالتغييرِ فيها كما فعلَه المشركون، وذلك أنَّهم عدَلوا بها عما هي عليه، فسمَّوا بها أوثانَهم، فاشتقوا اللَّاتَ مِن الله، والعُزَّى مِن العزيز، ومَناةَ مِن المنَّان، قاله ابن عباس وقتادة[٧]. الثاني: بالزِّيادةِ فيها. الثالث: بالنُّقصانِ منها، كما يفعلُه الجُهَّال الذين يخترعون أدعيةً يُسمُّون فيها اللهَ تعالى بغيرِ أسمائه، ويذكرونَه بغير صفاته و[٨]ما يذكر مِن أفعاله، إلى غير ذلك مما لا يَليق به.

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٥١)، وسلف ٥/ ١٥٢ .

(٢) الأسنى ص٢٣٥ و ٢٣٩ ، والكلام السالف فيه ص٤٢ - ٤٣ .

(٣) الأسنى ص٣٩ - ٤٠ وعزاه المصنف لكتاب الإيجاز لأبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

(٤) في (د) و(م): ألحد.

(٥) في النسخ الخطية: ناحية، والمثبت من (م). وينظر مجمل اللغة ٣/ ٨٠٣ .

(٦) قرأ بها حمزة. السبعة ص٢٩٨ ، والتيسير ص١١٤ .

(٧) تفسير البغوي ٢/ ٢١٨ ، وأخرجه الطبري ١٠/ ٥٩٧ بنحوه.

(٨) قوله: صفاته و، من (ظ).

قال ابن العربيّ[١]: فحَذَارِ منها، ولا يدعوَنَّ أحدُكم إلّا بما في كتاب الله والكتُب الخمسة، وهي البخاريّ ومسلم والترمذيّ وأبو داود والنسائي، فهذه الكُتب التي يدورُ الإسلامُ عليها، وقد دخل فيها ما في «الموطأ» الذي هو أصلُ التصانيف، وذَرُوا ما سواها، ولا يقولَنَّ أحدُكم: أختار دعاءَ كذا وكذا؛ فإنَّ الله قد اختار له، وأرسل بذلك إلى الخَلْق رسولَه ﷺ.

الثانية: معنى الزيادةِ في الأسماء التشبيهُ، والنُّقصانِ التعطيلُ. فإنَّ المُشبِّهةَ وصفوه بما لم يأذَنْ فيه، والمُعطِّلةَ سلبوه ما اتَّصف به، ولذلك قال أهلُ الحقِّ: إنَّ دينَنا طريقٌ بين طريقين، لا بتشبيهٍ ولا بتعطيل. وسُئل الشيخ أبو الحسن البوشَنْجيّ[٢] عن التوحيد فقال: إثباتُ ذاتٍ غيرِ مشبَّهة بالذوات، ولا معطَّلة مِن الصِّفات.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ معناه: اتركوهم ولا تُحاجُّوهم ولا تَعرَّضوا لهم. فالآية على هذا منسوخةٌ بالقتال، قاله ابن زيد[٣].

وقيل: معناه الوعيد، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾[٤] [الحجر: ٣]. وهو الظاهِرُ مِن الآية؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

في الخبر أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «هُمْ هذه الأُمَّةُ»[٥]. ورُوي أنَّه قال: «هذه لكم، وقد أعطى الله قومَ موسى مثلَها»، وقرأ هذه الآيةَ[٦]. وقال: «إنَّ مِن أمَّتي قوماً على الحقِّ

---

(١) في أحكام القرآن ٢/ ٨٠٥، وما قبله منه.

(٢) علي بن أحمد بن سهل، من أعلم مشايخ وقته بعلوم التوحيد وعلوم المعاملات، كان ذا خلق، متديِّناً. مات سنة (٣٤٨هـ). طبقات الصوفية ص٤٥٨. وقوله هذا في الرسالة القشيرية ١/ ٤٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٩٩.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨١.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٠٠ عن ابن جريج مرسلاً.

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٠٠ عن قتادة بنحوه مرسلاً.

حتى ينزلَ عيسى ابنُ مريم»[١]. فدلَّت الآيةُ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُخْلي الدنيا في وقتٍ مِن الأوقاتِ مِن داعٍ يدعُو إلى الحقِّ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾

أخبر تعالى عمن كذَّب بآياته أنَّه سيستدرجُهم من حيث لا يعلمون[٣]. قال ابن عباس: هم أهلُ مكَّة[٤]. والاستدراجُ هو الأخذُ بالتدريج، منزلةً بعدَ منزلة. والدَّرْج: لَفُّ الشيء، يُقال: أدرجتُه ودَرَجتُه. ومنه أُدرِج الميتُ في أكفانه[٥]. وقيل: هو مِن الدَّرَجة، فالاستدراجُ أنْ يُحَطَّ درجةً بعدَ درجةٍ إلى المقصود[٦].

قال الضحاك: كلما جدَّدوا لنا معصيةً جدَّدنا لهم نعمة[٧]. وقيل لذي النون: ما أقصى ما يُخدع به العبد؟ قال: بالألطاف والكرامات؛ لذلك[٨] قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٩]؛ نُسبغُ عليهم النعمَ، ونُنْسيهم[١٠] الشكر، وأنشدوا:

أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذْ حَسُنَتْ ... ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٢٣ (٨٥٨٩) عن الربيع بن أنس مرسلاً. وأخرج أحمد (١٩٨٥١) من حديث عمران بن حصين ﷺ مرفوعاً بلفظ: «لا تزال طائفةٌ من أُمتي على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يأتيَ أمرُ الله وينزلَ عيسى ابن مريم». وفي الباب عن المغيرة بن شعبة، أخرجه أحمد (١٨١٣٥)، والبخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٥ .

(٣) قوله: من حيث لا يعلمون، من (ظ).

(٤) زاد المسير ٣/ ٢٩٤ .

(٥) تهذيب اللغة ١٠/ ٦٤٢ .

(٦) الكلام بنحوه في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٢٦ ، وتفسير الرازي ١٥/ ٧٢ .

(٧) الوسيط للواحدي ٢/ ٤٣١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٢١٨ .

(٨) في النسخ الخطية: كذلك، والمثبت من (م).

(٩) أورده المُناوي في فيض القدير ١/ ٣٥٥ .

(١٠) في (د) و(ظ): يُسبع . . . ينسيهم (بالياء).

وسالَمَتْكَ اللَّيالي فاغترزْتَ بها وعند صَفْوِ اللَّيالي يحدثُ الكَدَرُ[(١)]

قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أُطيل لهم المُدَّة، وأُمهِلُهم وأُؤَخِّرُ عقوبتَهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ أي: مَكْرِي. ﴿مَتِينٌ﴾ أي: شديدٌ قويٌّ. وأصلُه مِن المَتْنِ، وهو اللَّحمُ الغليظُ الذي عن جانبِ الصُّلب[(٢)]. قيل: نزلَتْ في المُستهزئين مِن قريش، قتلَهم الله في ليلةٍ واحدة بعد أنْ أمهلَهم مدَّة[(٣)]. نظيرُه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقد تقدَّم[(٤)].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أي: فيما جاءَهم به محمدٌ ﷺ. والوقفُ على «يتفكَّروا» حسنٌ[(٥)]. ثم قال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ ردٌّ لقولِهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وقيل: نزلَتْ بسببِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ ليلةً على الصَّفا يدعو قريشاً، فَخِذاً فَخِذاً، فيقول: «يا بني فلان»، يُحذِّرُهم بأسَ الله وعقابَه، فقال قائلُهم: إنَّ صاحبَكم[(٦)] هذا لمجنونٌ، بات يُصوِّتُ حتى الصَّباح[(٧)].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ **فيه أربعُ مسائل:**

---

(١) نسبهما الأبشيهي في المستطرف ٢/ ١٣٤ للإمام الشافعي.

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٩/ ٧٣.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢١٨، وزاد المسير ٣/ ١٩٤.

(٤) ٦/ ٤٢٦.

(٥) ذكر أبو بكر ابن الأنباري في الإيضاح ٢/ ٦٧١، وأبو عمرو الداني في المكتفى ص٢٨١ أنه وقفٌ تامٌّ.

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(م): صاحبهم، والمثبت من (ظ).

(٧) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٠٢ عن قتادة مرسلاً.

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ عَجِبَ مِن إعراضِهم عن النَّظَرِ في آياتِه؛ لِيعرِفُوا كمالَ قُدرتِه، حسب ما بيَّنَّاه في سورةِ «البقرة»[1]. والمَلَكوتُ مِن أبنيةِ المبالغةِ، ومعناه: المُلكُ العظيمُ، وقد تقدَّم[2].

الثانية: استدلَّ بهذه الآيةِ ـ وما كان مثلها مِن قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق:٦]، وقولِه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧] الآية، وقوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١] ـ مَن قال بوجوبِ النظرِ في آياتِهِ والاعتبارِ بمخلوقاتِهِ. قالوا: وقد ذمَّ الله تعالَى مَن لم يَنظرْ، وسَلَبَهُم الانتفاعَ بحواسِّهم، فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩] الآية.

وقد اختلفَ العلماءُ في أوَّلِ الواجبات؛ هل هو النَّظَرُ والاستدلالُ، أو الإيمانُ الذي هو التصديقُ الحاصلُ في القلبِ الذي ليس مِن شرطِ صحَّتِه المعرِفَةُ؟ فذهبَ القاضي[3] وغيرُه إلى أنَّ أوَّلَ الواجباتِ النَّظرُ والاستدلالُ؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى لا يُعلَمُ ضرورةً، وإنَّما يُعلَمُ بالنَّظرِ والاستدلالِ[4] بالأدلَّةِ التي نصبَها لمعرفتِه، وإلى هذا ذهبَ البخاريُّ رحمه الله حيث بوَّبَ في كتابه: بابُ العلمِ قبلَ القَولِ والعملِ؛ لقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[5] [محمد:١٩]. قال القاضي: مَن لم يكنْ عالماً بالله؛ فهو جاهلٌ، والجاهلُ به كافرٌ.

قال ابنُ رُشْد في «مقدماته»[6]: وليس هذا بالبيِّنِ؛ لأنَّ الإيمانَ يصحُّ باليقينِ الذي قد يحصلُ لمن هداهُ الله بالتقليدِ، وبأوَّلِ وهلةٍ مِن الاعتبارِ بما أرشدَ الله إلى

---

(١) ٢/ ٥٠٥ .

(٢) ٧/ ٢٣ .

(٣) هو أبو بكر الباقلاني، كما في مقدمات ابن رشد ١/ ٣٧ ، والكلام منه.

(٤) من قوله: لأن الله تبارك وتعالى.. إلى هذا الموضع، من (خ) و(م).

(٥) صحيح البخاري بعد الحديث (٦٧)، ينظر فتح الباري ١/ ١٥٩ .

(٦) ١/ ٣٧ - ٣٨ .

الاعتبارِ به في غيرِ ما آيةٍ. قال: وقد استدلَّ الباجيُّ على مَن قال: إنَّ النَّظرَ والاستدلالَ أوَّلُ الواجباتِ بإجماعِ المسلمينَ في جميعَ الأعصارِ على تسميةِ العامَّةِ والمُقلِّدِين[١] مؤمنين؛ قال: فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً لَما صحَّ أنْ يُسمَّى مؤمناً إلَّا مَن عندَه علمٌ بالنَّظرِ والاستدلال. قال: وأيضاً؛ فلو كان الإيمانُ لا يصحُّ إلَّا بعد النَّظرِ والاستدلالِ لجازَ للكفَّارِ إذا غلبَ عليهم المسلمونَ أنْ يقولوا لهم: لا يَحِلُّ لكم قتلُنا؛ لأنَّ مِن دينِكم أنَّ الإيمانَ لا يصحُّ إلَّا بعد النَّظرِ والاستدلالِ، فأخِّرونا حتى ننظرَ ونستدلَّ، قال: وهذا يؤدِّي إلى تركِهم على كفرِهم، وألَّا يُقتلوا حتى يَنظرُوا ويَستدِلُّوا.

قلت: هذا هو الصحيحُ في الباب، قال رسولُ الله ﷺ: «أُمِرتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ويُؤمنوا بي وبما جئتُ به، فإذا فعلُوا ذلك عصمُوا مِنِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحقِّها، وحسابُهم على اللهِ»[٢].

وترجَمَ ابنُ المنذر في كتاب «الإشراف»[٣]: ذِكرُ صفةِ كمالِ الإيمان: أجمعَ كلُّ مَن يُحفظُ عنه من أهلِ العلم على أنَّ الكافرَ إذا قال: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، وأنَّ كلَّ ما جاءَ به محمدٌ حقٌّ، وأتبرَّأُ[٤] مِن كلِّ دينٍ يُخالفُ دينَ الإسلام، وهو بالغٌ صحيحُ العقل؛ أنَّه مسلمٌ، وإنْ رَجَعَ بعد ذلك وأظهرَ الكفرَ؛ كان مرتدّاً يجبُ عليه ما يجبُ على المرتدِّ.

وقال أبو حفص الزَّنْجانيّ[٥]: وكان شيخُنا القاضي أبو جعفر أحمدُ بن محمد

---

(١) في النسخ: والمقلَّد، والمثبت من مقدمات ابن رشد.

(٢) سلف ١/ ٢٠٤ مختصراً، وينظر تخريجه ثمة.

(٣) ٢/ ٢٦٠ - ٢٦١.

(٤) في (د) و(ز): وتبرأ، وفي (م): وأبرأ، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق للإشراف.

(٥) عمر بن علي بن أحمد، قرأ الكلام على أبي جعفر السِّمناني، وسمع منه الحديث، توفي سنة (٤٥٩هـ). طبقات الشافعية ٥/ ٣٠٢.

السِّمْنانيّ[١] يقول: أوّلُ الواجبات الإيمانُ بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به، ثم النظرُ والاستدلالُ المُؤدِّيان إلى معرفة الله تعالى. فيتقدَّم وجوبُ الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله. قال: وهذا أقربُ إلى الصواب، وأرفقُ بالخَلْق؛ لأنَّ أكثرَهم لا يعرفون حقيقةَ المعرفة والنَّظر والاستدلال.

فلو قلنا: إنَّ أوّلَ الواجبات المعرفةُ بالله؛ لأدَّى إلى تكفير الجَمِّ الغفير والعدد الكثير، وألَّا يدخلَ الجنَّة إلَّا آحادُ الناس، وذلك بعيدٌ؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ قطعَ بأنَّ أكثرَ أهل الجنَّة أمَّتُه، وأنَّ أُمَمَ الأنبياء كلِّهم صفٌّ واحدٌ[٢]، وأمَّتَه ثمانون صفًّا. وهذا بيِّنٌ لا إشكالَ فيه، والحمد لله.

الثالثة: ذهبَ بعضُ المتأخِّرين والمتقدِّمين مِن المتكلِّمين إلى أنَّ مَن لم يعرف الله تعالى بالطُّرق التي طَرقوها، والأبحاثِ التي حرَّروها لم يصحَّ إيمانُه، وهو كافر، فيلزمُ على هذا تكفيرُ أكثر المسلمين، وأوّلُ مَن يُبدأُ بتكفيره آباؤه وأسلافُه وجيرانُه. وقد أُورِدَ على بعضهم هذا فقال: لا تُشنِّع عليَّ بكثرة أهل النَّار، أو كما قال[٣].

قلت: وهذا القولُ لا يصدُر إلَّا مِن جاهلٍ بكتاب الله وسنَّة نبيِّه؛ لأنَّه ضيَّقَ رحمةَ الله الواسعة على شِرذِمة يسيرة مِن المتكلِّمين، واقتحموا في تكفير عامَّة المسلمين. أين هذا مِن قول الأعرابي الذي كشفَ عن فرجه لِيبولَ، وانتهَره أصحابُ النبيِّ ﷺ: اللهمَّ ارحمني ومحمداً، ولا ترحَمْ معنا أحداً، فقال النبيُّ ﷺ: «لقد حَجَّرتَ واسِعاً».

---

(١) كذا سمَّاه المصنف رحمه الله وياقوت الحموي في معجم البلدان ٣/ ١٥٢ و ٢٥٢، والسبكي في طبقات الشافعية ٥/ ٣٠٢. وسمَّاه الخطيب البغدادي في تاريخه ١/ ٣٥٥، والذهبي في السير ١٧/ ٦٥١، واللكنوي في الفوائد البهية ص٢٦٢: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمود السِّمناني، الحنفي، العراقي، قاضي الموصل، يعتقد مذهب الأشعري، له تصانيف.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله ولم نقف على من ذكر (صف واحد)، وأخرج أحمد (٢٢٩٤٠)، والترمذي (٢٥٤٦) من حديث بُريدة الأسلمي ﵁ مرفوعاً بلفظ: «أهلُ الجنة عشرون ومئةُ صفٍّ، ثمانون منها من هذه الأُمَّة».

(٣) المفهم ٦/ ٦٩٣.

خرَّجه البخاري والترمذي وغيرُهما مِن الأئمة[١].

أترى هذا الأعرابيّ عَرَفَ اللهَ بالدليل والبرهان والحُجَّة والبَيان؟! وأنَّ رحمتَه وَسِعَتْ كلَّ شيء، وكم مِن مثله محكومٌ له بالإيمان. بل اكتفى ﷺ مِن كثير ممن أسلمَ بالنُّطق بالشهادتين، وحتى إنَّه اكتفى بالإشارة في ذلك، ألا تراه أنه لمَّا قال للسوداء: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «مَن أنا؟» قالت: أنت رسولُ الله، قال: «أَعْتِقْها، فإنَّها مُؤمنةٌ»[٢]، ولم يكن هناك نَظَرٌ ولا استدلالٌ، بل حَكَمَ بإيمانهم مِن أوَّل وَهْلة، وإنْ كان هناك عن النَّظر والمعرفة غَفْلة. والله أعلم.

الرابعة: ولا يكون النَّظر أيضاً والاعتبارُ في الوجوه الحِسان مِن المُرْد والنِّسوان. قال أبو الفرج الجوزي[٣]: قال أبو الطَّيِّب طاهر بن عبد الله الطبريّ: بلغني عن هذه الطائفةِ التي تسمعُ السَّماعَ أنَّها تُضيف إليه النظرَ إلى وجه الأمْرد، وربما زيَّنَتْه بالحُلِيِّ والمُصبغات مِن الثياب، وتزعمُ أنَّها تقصِدُ به الازديادَ في الإيمان بالنَّظرِ والاعتبار، والاستدلال بالصَّنعة على الصانع. وهذه النهايةُ في متابعةِ الهوى ومُخادعةِ العقل ومُخالفةِ العلم.

قال أبو الفرج: وقال الإمام أبو الوفاء ابن عَقيل: لم يُحِلَّ اللهُ النَّظرَ إلَّا على صورٍ لا ميلَ للنفس إليها، ولا حظَّ للهوى فيها، بل عبرةٌ لا يُمازجُها شهوة، ولا يُقارنُها[٤] لذَّة. ولذلك ما بعثَ الله سبحانه امرأةً بالرسالة، ولا جعلَها قاضياً ولا إماماً ولا مُؤذِّناً، كلُّ ذلك لأنَّها محلُّ شهوةٍ وفتنة. فمن قال: أنا آخذُ[٥] مِن الصور المُستحسنة عِبَراً؛ كذَّبناه، وكلُّ مَن ميَّز نفسَه بطبيعة تُخرجه عن طباعنا كذَّبناه، وإنَّما هذه خُدَعُ الشيطان للمُدَّعين.

---

(١) صحيح البخاري (٦٠١٠)، وسنن الترمذي (١٤٧)، وهو عند أحمد (٧٢٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) سلف ٥/١٢٣ .

(٣) في تلبيس إبليس ص٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٤) في (ظ): يقاربها، وفي تلبيس إبليس: تعتريها.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م) وتلبيس إبليس: أجد، والمثبت من (ظ).

وقال بعضُ الحكماء: كلُّ شيء في العالم الكبير له نظيرٌ في العالم الصغير، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقد بيَّنَّا وجهَ التمثيل في أوَّلِ «الأنعام»[١].

فعلى العاقل أنْ ينظرَ إلى نفسه، ويتفكَّرَ في خَلْقه؛ مِن حينِ كونهِ ماءً دافقاً إلى كونه خلقاً سَويًّا، يُعان بالأغذية ويُربَّى بالرِّفق، ويُحفَظُ باللِّين حتى يكتسِبَ القُوَى ويبلغَ الأشُدَّ. وإذا هو قد قال: أنا، وأنا، ونَسِيَ حين أتى عليه حينٌ مِن الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وسيعودُ مقبوراً، فيا ويحه إنْ كان محسوراً، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦]. فينظرُ أنَّه عبدٌ مربوبٌ مكلَّفٌ، مخوَّفٌ بالعذاب إنْ قصَّر، مُرَجًّى[٢] بالثواب إن ائتمَر، فيُقبِل على عبادةِ مولاه، فإنَّه[٣] وإنْ كان لا يراه؛ يراه، ولا يخشى[٤] النَّاس، واللهُ أحقُّ أنْ يَخشاه، ولا يتكبَّر على أحدٍ مِن عبادِ الله؛ فإنَّه مُؤَلَّفٌ مِن أقذار، صائرٌ إلى جنَّة ـ إنْ أطاعَ ـ أو إلى نار. وقال ابن العربيِّ[٥]: وكان شيوخُنا يَستحبُّون أنْ ينظرَ المرءُ في الأبياتِ الحكميةِ التي جمعَتْ هذه الأوصافَ العلميَّة:

كيف يَزْهُو مَنْ رَجِيعُهْ أبدَ الدَّهرِ ضَجِيعُهْ
هو[٦] منهُ وإليهِ وأخوهُ ورَضِيعُهْ

---

(١) ٨/ ٣١٨.

(٢) في (د) و(ز) و(م): مرتجياً، وفي (ظ): يرجى، والمثبت من (خ)، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٠٧، والكلام منه، وما سيرد بين حاصرتين منه أيضاً.

(٣) لفظة: فإنه، من أحكام القرآن لابن العربي.

(٤) في النسخ: ويخشى، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٥) في أحكام القرآن ٢/ ٨٠٧.

(٦) في (د) و(ز) و(ظ) و(م) وأحكام القرآن: فهو، والمثبت من (خ) وهو الموافق لديوان ابن الرومي ٤/ ١٥٥٢، والأبيات له.

وهو يدعوه[١] إلى الحَشّ[٢] بصُغرٍ فيطيعُهْ

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ معطوفٌ على ما قبلَه، أي: وفيما خلقَ الله مِن الأشياء. ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: وفي آجالِهم التي عسى أنْ تكون قد قَرُبت، فهو في موضعِ خفض، معطوفٌ على ما قبله[٣]. وقال ابن عباس: أرادَ باقترابِ الأجلِ يومَ بَدْرٍ ويوم أُحُد[٤]. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بأيِّ قرآنٍ غيرِ ما جاءَ به محمدٌ ﷺ يُصدِّقون؟[٥].

وقيل: الهاءُ للأجَل، على معنى: بأيِّ حديثٍ بعدَ الأجَلِ يؤمنون حين لا ينفعُ الإيمان؟ لأنَّ الآخرةَ ليست بدارِ تكليف[٦].

قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

بيَّنَ أنَّ إعراضَهم لأنَّ الله أضلَّهم، وهذا ردٌّ على القدريَّة. ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ بالرفع على الاستئناف[٧]. وقُرِئ بالجزمِ حَمْلاً على موضعِ الفاءِ وما بعدَها[٨]. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتحيَّرون، وقيل: يتردَّدون، وقد مضى في أوَّلِ «البقرة» مُستوفًى[٩].

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ «أيَّانَ» سؤالٌ عن الزمان، مثل: متى.

---

(١) في الديوان: ثم يُلجيه.

(٢) الحشّ: (بفتح الحاء وضمها): موضع قضاء الحاجة، وأصله من الحَشّ: البستان؛ لأنهم كانوا كثيراً ما يتغوَّطون في البساتين. النهاية (حشش).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٥ .

(٤) لم نقف عليه.

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٤٣٢ .

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٣ .

(٧) قرأ بها أبو عمرو وعاصم. السبعة ص٢٩٩ ، والتيسير ص١١٥ .

(٨) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٤٨٥ ، وقرأ بها حمزة والكسائي، وقرأ الباقون: ونَذَرُهم.

(٩) ١/ ٣١٧ - ٣١٨ .

قال الراجز:

أَيَّانَ تَقْضِي حاجَتي أيَّانَا أما تَرى لِنُجْحِها أوَانَا[١]

وكانت اليهودُ تقول للنبيِّ ﷺ: إنْ كنت نبيًّا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم[٢]. ورُوِيَ أنَّ المشركين قالوا ذلك لفَرط الإنكار[٣].

و«مُرساها» في موضع رَفْع بالابتداء عند سيبويه[٤]، والخبرُ: «أيَّان»، وهو ظرفٌ مبنيٌّ على الفتح؛ بُني لأنَّ فيه معنى الاستفهام[٥].

و«مُرساها» بضم الميم، مِن: أرساها الله، أي: أثبتها، أي: متى مُثْبَتُها، أي: متى وقوعُها. وبفتح الميم مِن: رَسَتْ، أي: ثبتَتْ ووقفَتْ، ومنه: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]. قال قتادة: أي: ثابتات[٦].

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ابتداءٌ وخبر[٧]، أي: لم يُبيِّنها لأحد، حتى يكونَ العبدُ أبداً على حذَر ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أي: لا يُظهرها ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ أي: في وقتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾، والتَّجلِيةُ: إظهارُ الشيء، يُقال: جلا لي فلانٌ الخبرَ: إذا أظهرَه وأوضحَه.

ومعنى ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَفِيَ علمُها على أهل السماوات والأرض. وكلُّ ما خَفِيَ علمُه فهو ثقيلٌ على الفؤاد[٨]. وقيل: كبُرَ مجيئُها على أهل السماوات

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٨٤، وهو في مجاز القرآن لأبي عُبيدة ١/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ١٠/ ٦٠٦، واللسان (أبن) وفيها: إِيَّانا، بدل: أوانا، قال ابن منظور: إِيَّان كل شيء: وقته وحِينه الذي يكون فيه.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٠٤ عن قتادة بنحوه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٦.

(٥) مشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٣٠٦.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٦.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٠ - ١١١.

والأرض، عن الحسن وغيره. ابن جُريج والسُّدِّي: عظُمَ وصفُها على أهل السماوات والأرض. وقال قتادة وغيره: المعنى: لا تُطيقُها السماواتُ والأرضُ لِعِظَمها؛ لأنَّ السماءَ تنشقُّ، والنجومَ تتناثرُ، والبحارَ تنضُبُ[١]. وقيل: المعنى: ثقُلَت المسألة عنها[٢]. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً، مصدرٌ في موضعِ الحال[٣].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالِمٌ بها، كثيرُ السؤالِ عنها. قال ابن فارس[٤]: الحَفِيُّ: العالِمُ بالشيء، والحَفِيُّ: المُستَقصي في السؤال. قال الأعشى[٥]:

فإنْ تَسْألِي عنِّي فيَا رُبَّ سَائِلٍ حَفِيٌّ عن الأعشَى به حيثُ أصْعَدَا

يقال: أحفى في المسألة وفي الطلب، فهو مُحْفٍ، وحَفِيٌّ على التكثير، مثل مُخْصِبٍ وخَصيب. قال محمد بن يزيد: المعنى: يسألونَك كأنَّك حَفِيٌّ بالمسألةِ عنها، أي: مُلِحٌّ، يذهب إلى أنَّه ليس في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ[٦].

وقال ابن عباس وغيره: هو على التقديمِ والتأخير، والمعنى: يسألونَك عنها كأنَّك حَفِيٌّ بهم، أي: حَفِيٌّ ببرِّهم وفَرِحٌ بسؤالهم، وذلك لأنَّهم قالوا: بيننا وبينك قرابةٌ، فأَسِرَّ إلينا بوقتِ الساعة[٧].

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ليس هذا تكريراً، ولكنْ أحدُ العِلْمَين لوقوعها، والآخرُ لِكُنهها[٨].

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٦٠٨ - ٦٠٩، والنكت والعيون ٢/ ٢٨٥.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٦.

(٤) في مجمل اللغة ١/ ٢٤٣.

(٥) ديوانه ص١٨٥.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٦، ومحمد بن يزيد: هو المبرِّد.

(٧) تفسير الطبري ١٠/ ٦١١ - ٦١٢، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ١١١ - ١١٢.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٦.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا أملكُ أنْ أجلبَ إلى نفسي خيراً، ولا أدفعَ عنها شرًّا؛ فكيف أملكُ عِلْمَ الساعة[١]. وقيل: لا أملكُ لنفسي الهُدى والضلال[٢].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ في موضعِ نصبٍ بالاستثناء، والمعنى: إلّا ما شاء الله أنْ يُملِّكني ويُمكِّنني منه، وأنشد سيبويه:

مـهـمـا شـاءَ بـالـنَّـاسِ يَـفـعَـلِ[٣]

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ المعنى: لو كنت أعلمُ ما يُريد الله عزَّ وجلَّ مني مِن قبل أنْ يُعرِّفَنيه؛ لفعلتُه. وقيل: لو كنت أعلمُ متى يكونُ لي النصرُ في الحرب لقاتلْتُ فلم أُغلَب[٤].

وقال ابن عباس: لو كنت أعلمُ سنةَ الجدْبِ لهيَّأتُ لها في زمن الخِصب ما يَكفِيني[٥]. وقيل: المعنى لو كنت أعلمُ التجارةَ التي تَنفُقُ لاشتريتُها وقتَ كسادها[٦]. وقيل: المعنى: لو كنتُ أعلمُ متى أموتُ لاستكثرتُ مِن العملِ الصالح، عن الحسن وابن جُريج[٧]. وقيل: المعنى: لو كنتُ أعلمُ الغيبَ لأجبْتُ عن كل ما أُسألُ عنه[٨].

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٨٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٦١٦ عن ابن جريج.

(٣) من بيت للأسود بن يَعفُرَ كما في كتاب سيبويه ٢/ ٢٤٦ ، ونوادر أبي زيد ص١٥٩ ، وتمامه:

ألا هـل لـهـذا الـدَّهـر مـن مُـتَـعـلَّـلِ عن الناس مهما شاء بالناس يفعلِ

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٦ - ١٦٧ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٢ ، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥ .

(٦) أورده بنحوه أبو الليث في تفسيره ١/ ٥٨٧ ، والماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٨٥ .

(٧) النكت والعيون ٢/ ٢٨٥ ، وأخرجه الطبري ١٠/ ٦١٦ من قول ابن جريج ومجاهد.

(٨) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٩/ ٧٩ .

وكلُّه مُراد، والله أعلم.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ هذا استئنافُ كلام، أي: ليس بي جنونٌ؛ لأنَّهم نَسبوهُ إلى الجنون. وقيل: هو متَّصلٌ، والمعنى: لو علمتُ الغيبَ لما مسَّني سوءٌ ولَحذِرتُ[1]. ودلَّ على هذا قولُه تعالى: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ قال جمهورُ المفسرين: المرادُ بالنفسِ الواحدةِ آدمُ [عليه السلام]. ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ يعني: حوَّاء. ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾: ليأنسَ بها ويطمئنَّ، وكان هذا كلُّه في الجنَّة. ثم ابتدأ بحالةٍ أُخرى هي في الدنيا بعدَ هبوطِهما، فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ كنايةٌ عن الوِقاع[2]. ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾، كلُّ ما كان في بطنٍ أو على رأسِ شجرةٍ؛ فهو حَمْلٌ؛ بالفتح. وإذا كان على ظهرٍ أو على رأسٍ؛ فهو حِمْلٌ؛ بالكسر. وقد حكَى يعقوب في حَمْل النخلةِ الكَسْر[3].

وقال أبو سعيد السيرافيُّ[4]: يُقال في حَمْلِ المرأةِ: حَمْل وحِمْل، يُشبَّه مرَّةً

(١) تفسير الرازي ١٥/ ٨٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٧، ويعقوب: هو ابن السِّكِّيت. وينظر إصلاح المنطق له ص٣، وتهذيب اللغة ٥/ ٩٠.

(٤) الحسن بن عبد الله بن المَرْزُبان، نحويٌّ بغداد، تصدر لإقراء القراءات واللغة، وقرأ القرآن على ابن مجاهد، جوَّد شرح كتاب سيبويه، وله «ألفات القطع والوصل». توفي سنة (٣٦٨هـ). السير ١٦/ ٢٤٧.

لاستبطانِه بحَمْل المرأة، ومرَّةً لبُروزِه وظهورِه بِحِمْلِ الدَّابَّة[١]. والحَمْلُ أيضاً مصدرُ حَمَل عليه يَحمِل حَملاً: إذا صالَ.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ يعني المَنِيَّ، أي: استمرَّتْ بذلك الحَمْلِ الخفيف، يقول: تقومُ وتقعدُ وتَقَلَّبُ، ولا تكترِثُ بحملِه إلى أنْ ثَقُلَ، عن الحسن ومجاهد وغيرِهما[٢].

وقيل: المعنى: فاستمرَّ بها الحملُ، فهو مِن المقلوب، كما تقول: أدخلْتُ القَلَنْسُوةَ في رأسي. وقرأ عبدُ الله بن عمرو[٣]: «فَمَارَتْ به» بألفٍ والتخفيف، مِن: مَارَ يَمُورُ: إذا ذهبَ وجاءَ وتصرَّفَ. وقرأ ابن عباس ويحيى بن يَعْمَر: «فَمَرَتْ به»[٤] خفيفةً مِن المِرْيَة، أي: شكَّتْ فيما أصابَها، هل هو حَملٌ أو مرضٌ، أو نحو ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ صارَتْ ذاتَ ثِقَل، كما تقول: أثمرَ النخلُ[٥]. وقيل: دخلَتْ في الثِّقَل، كما تقول: أصبحَ وأمسَى.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ الضميرُ في «دَعَوَا» عائدٌ على آدمَ وحوَّاء. وعلى هذا القولِ ما رُوي في قَصصِ هذه الآية أنَّ حوَّاءَ لمَّا حملَتْ أوَّلَ حَملٍ لم تَدْرِ ما هو ـ وهذا يُقوِّي قراءةَ مَن قرأ: «فَمَرَتْ به» بالتخفيف ـ فجزِعَتْ لذلك، فوجدَ إبليسُ السبيلَ إليها[٦].

قال الكلبيُّ: إنَّ إبليسَ أتى حوَّاءَ في صورةِ رجلٍ لمَّا أثقلَتْ في أوَّلِ ما حملَتْ فقال: ما هذا الذي في بطنِك؟ قالت: ما أدري! قال: إنِّي أخافُ أنْ يكون بهيمةً. فقالت ذلك لآدمَ عليه السلام. فلم يزالا في هَمٍّ مِن ذلك. ثم عاد إليها فقال: هو مِن الله بمنزلة، فإنْ دعوتُ الله فولَدْتِ إنساناً، أفتسمِّينه[٧] بي؟ قالت: نعم. قال: فإنِّي

---

(١) اللسان (حمل).

(٢) أخرجه الطبري ١٠/٦١٨ بنحوه، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/٣٩٥.

(٣) في النسخ: عبد الله بن عمر، والمثبت من المحرر الوجيز ٢/٤٨٦، والكلام منه. والمحتسب ١/٢٧٠.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٧، والمحتسب ١/٢٦٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٦٧.

(٦) المحرر الوجيز ٢/٤٨٦.

(٧) في (خ) و(ز) و(ظ): فتسمِّيه، وفي (د): فسمِّيه باسمي، والمثبت من (م).

أدعو الله. فأتاها وقد ولَدَتْ، فقال: سمِّيه باسمي. فقالت: وما اسمُكَ؟ قال: الحارثُ ـ ولو سمَّى لها نفسَه لَعرفَتْهُ ـ عبدَ الحارث[١].

ونحو هذا مذكورٌ في[٢] ضعيفِ الحديث، في الترمذي[٣] وغيرِه.

وفي الإسرائيلياتِ كثيرٌ ليس لها ثباتٌ، فلا يُعوِّلُ عليها مَن له قَلْبٌ، فإنَّ آدمَ وحوَّاءَ عليهما السلام وإنْ غرَّهما بالله الغَرُورُ؛ فلا يُلدغُ المؤمنُ مِن جُحْرٍ مرَّتين، على أنَّه قد سُطِّر وكُتبَ، قال[٤] رسولُ الله ﷺ: «خدعَهما مرَّتين: [خدعَهما] في الجنَّة، وخدعَهما في الأرض»[٥]. وعُضِدَ هذا بقراءةِ السلميّ: «أتُشرِكون» بالتاء[٦].

ومعنى ﴿صَٰلِحًا﴾ يريدُ: ولداً سويًّا[٧].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾. واختلَفَ العلماءُ في تأويلِ الشِّركِ المضافِ إلى آدمَ وحوَّاء، وهي:

الثالثة: قال المفسرون: كان شِرْكاً في التسمية والصفة، لا في العبادةِ والربوبيَّة[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢٢١، وهو ضعيف ـ كما سيذكر المصنف ـ ولا يلتفت إليه.

(٢) في (خ) و(ظ) و(م): من، والمثبت من (د) و(ز)، وهو موافق لأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٠٩، والكلام منه.

(٣) الحديث (٣٠٧٧)، وأخرجه أحمد (٢٠١١٧)، والطبري ١٠/ ٦٢٣ من طريق عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب ﷺ مرفوعاً. وعمر بن إبراهيم، قال: فيه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٠٠: يروي عن قتادة ما لا يوافق عليه. والحسن البصري مشهور بالتدليس، ولم يثبت سماعه من سمرة إلا حديث العقيقة، كما في مراسيل ابن أبي حاتم ص٣٢، وجامع التحصيل للعلائي ص١٩٨. وقد أعلَّ ابن كثير هذا الحديث في تفسيره وقال: إن الحسن البصري نفسه فسَّر الآية بغير هذا، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً؛ لما عدلَ عنه.

(٤) تكرر لفظ: قال في (خ) و(د) و(ز) و(م)، والمثبت موافق لـ (ظ).

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٣٣، وابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٦٣٥ (٨٦٦٤) ـ وما بين حاصرتين منهما ـ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، مرسلاً. ووقع عند ابن أبي حاتم: قال رسول الله ﷺ: خدعهما مرتين، قال زيد: خدعهما في الجنة، وخدعهما في الأرض.

(٦) في الآية التالية، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٨.

(٧) تفسير البغوي ٢/ ٢٢١.

(٨) تفسير الطبري ١٠/ ٦٢٩.

وقال أهلُ المعاني: إنَّهما لم يذهبَا إلى أنَّ الحارثَ ربُّهما بتسمِيتِهما ولدَهما عبدَ الحارث، لكنَّهما قَصَدَا إلى أنَّ الحارثَ كان سببَ نجاةِ الولدِ، فسمَّياه به كما يُسمِّي الرجلُ نفسَه عبدَ ضَيْفِه على جهةِ الخُضوعِ له، لا على أنَّ الضيفَ ربُّه[1]، كما قال حاتم:

وإنِّي لَعبدُ الضَّيفِ ما دام ثاوِياً ... وما فيّ إلَّا تِيكَ مِن شيمةِ العَبدِ[2]

وقال قومٌ: إنَّ هذا راجعٌ إلى جنسِ الآدميين، والتبيينِ عن حالِ المشركين مِن ذرِّيةِ آدمَ عليه السلام، وهو الذي يُعوَّل عليه. فقولُه: «جَعَلَا له» يعني الذَّكَرَ والأنثى: الكافرِين، ويُعنى به الجنسان، ودلَّ على هذا: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولم يَقُل: يُشركان، وهذا قولٌ حَسَنٌ.

وقيل: المعنى ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: مِن هيئةٍ واحدة وشكل واحد، «وجَعَلَ منها زوجَها» أي: مِن جنسِها، «فلمَّا تَغشَّاها» يعني الجنسين. وعلى هذا القولِ لا يكون لآدمَ وحوَّاءَ ذِكرٌ في الآية[3]، فإذا آتاهما الولدَ صالحاً سليماً سويًّا كما أراداهُ؛ صرفاهُ عن الفِطرةِ إلى الشِّرك، فهذا فعلُ المشركين[4]. قال ﷺ: «ما مِن مولودٍ إلَّا يُولدُ على الفطرة ـ في روايةٍ: على هذه المِلَّة ـ أبواهُ يُهَوِّدانِه ويُنَصِّرانِه ويُمَجِّسانِه»[5].

قال عكرمة: لم يخصَّ بها آدمَ، ولكنْ جعلَها عامَّةً لجميعِ الخلقِ بعدَ آدم[6]. وقال الحسين بن الفضل: وهذا أعجبُ إلى أهلِ النَّظر من القول الأول[7]؛ لِمَا في القولِ

(١) وهذا كلام مستند إلى خبر باطل، فلا يعوَّل عليه.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٤٣٥، وتفسير البغوي ٢/ ٢٢١، وتفسير الرازي ١٥/ ٨٨، والبيت في ديوان حاتم الطائي ص٤٤، وفيه: إلا تلك، بدل: إلا تيك.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٧.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦.

(٥) سلف ٧/ ١٤٨.

(٦) أورده النحاس في معاني القرآن ٣/ ١١٦، والبغوي في تفسيره ٢/ ٢٢٢.

(٧) قوله: من القول الأول، من (ظ).

الأوَّلِ مِن المضافِ مِن العظائمِ بِنبيِّ الله آدم.

وقرأ أهلُ المدينةِ وعاصم: «شِرْكاً» على التوحيد(١). وأبو عمرو وسائرُ أهلِ الكوفة بالجمع(٢)، على مثل: فُعَلاء، جمعُ شريك. وأنكرَ الأخفشُ سعيدٌ القراءةَ الأُولى(٣)، وهي صحيحةٌ على حذفِ المضاف، أي: جعلا له ذا شِرْك، مثل: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، فيرجعُ المعنى إلى أنَّهم جعلوا له شُركاء.

الرابعة: ودلَّت الآيةُ على أنَّ الحملَ مرضٌ مِن الأمراض. روى ابنُ القاسم ويحيى عن مالك قال: أوَّلُ الحملِ بِشْرٌ(٤) وسرورٌ، وآخرُه مرضٌ مِن الأمراض. وهذا الذي قالَه مالك: إنَّه مرضٌ مِن الأمراض يُعطيهِ ظاهرُ قوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ وهذه الحالُ مُشاهَدَةٌ في الحوامل(٥)، ولأجلِ عِظَمِ الأمرِ وشدَّةِ الخطبِ جُعِلَ موتُها شهادةً، كما وردَ في الحديث(٦).

وإذا ثبتَ هذا مِن ظاهرِ الآية؛ فحالُ الحاملِ حالُ المريضِ في أفعاله. ولا خلافَ بين علماءِ الأمصارِ أنَّ فعلَ المريضِ فيما يَهَبُ أو يُحابِي في ثُلُثِه.

---

(١) قرأ بها نافع وأبو جعفر المدنيان وعاصم في رواية شعبة. السبعة ص٢٩٩، والتيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٣.

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وأبو عمرو البصري وابن كثير المكي وابن عامر الشامي. السبعة ص٢٩٩ والتيسير ص١١٥.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٥٣٩ - ٥٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٧-١٦٨، وما قبله وما بعده منه.

(٤) في (ز) و(ظ) و(م): يسر، والمثبت من (خ) و(د)، وهو الموافق للموطأ ٢/ ٧٦٤، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٠٩، والكلام منه.

(٥) في النسخ: الحُمَّال، ولم نقف على هذا الجمع، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٦) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٢٣٣ - ٢٣٤، وأحمد (٢٣٧٥٣)، وأبو داود (٣١١١)، والنسائي ٤/ ١٤ من حديث جابر بن عتيك ﷺ مرفوعاً بلفظ: «الشهادةُ سبعٌ سوى القتل في سبيل الله..» وذكَر: «المرأة تموت بجُمع شهيدة». وقوله: تموت بجُمع، أي: الميِّتة في النِّفاس وولدها في بطنها لم تَلِدْه وقد تمَّ خلقه. كما في حاشية السندي على مسند أحمد.

وقال أبو حنيفة والشافعيّ: إنَّما يكونُ ذلك في الحاملِ بحالِ الطَّلْق، فأمَّا قبلَ ذلك فلا. واحتجُّوا بأنَّ الحملَ عادةٌ، والغالبُ فيه السلامة. قلنا: كذلك أكثرُ الأمراضِ غالبُه السلامةُ، وقد يموتُ مَن لم يَمرَضْ[١].

الخامسة: قال مالك: إذا مضَتْ للحاملِ ستَّةُ أشهر مِن يومَ حملَتْ؛ لم يَجزْ لها قضاءٌ في مالِها إلَّا في الثُّلث[٢]. ومَن طلَّق زوجتَه وهي حاملٌ طلاقاً بائناً؛ فلمَّا أتى عليها ستَّةُ أشهر، فأرادَ ارتجاعَها؛ لم يكنْ له ذلك؛ لأنَّها مريضةٌ، ونكاحُ المريضةِ لا يَصِحُّ[٣].

السادسة: قال يحيى: وسمعتُ مالكاً يقول في الرجلِ يحضرُ القتالَ: إنَّه إذا زحفَ في الصفِّ للقتالِ؛ لم يَجُزْ له أنْ يقضيَ في مالِه شيئاً إلَّا في الثُّلث، وإنَّه بمنزلةِ الحاملِ والمريضِ المَخُوفِ عليه ما كان بتلك الحال[٤]. ويلتحقُ بهذا المحبوسُ للقتلِ في قِصاص. وخالفَ في هذا أبو حنيفة والشافعيُّ وغيرهما.

قال ابن العربيّ[٥]: وإذا استوعبْتَ النَّظرَ لم تَرْتَبْ في أنَّ المحبوسَ على القتلِ أشدُّ حالاً مِن المريض، وإنكارُ ذلك غفلةٌ في النَّظر؛ فإنَّ سببَ الموتِ موجودٌ عندهما، كما أنَّ المرضَ سببُ الموت، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]. وقال رُوَيشد الطائيّ:

يا أيُّها الراكبُ المُزْجِي مَطِيَّتَهُ ... سائِلْ بني أسَدٍ ما هذه الصَّوْتُ
وقلْ لهم بادِروا بالعُذْرِ والتَمِسوا ... قَولاً يُبَرِّئُكم إنِّي أنا المَوْتُ[٦]

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨١٠ .

(٢) الموطأ ٢/ ٧٦٥ .

(٣) النوادر والزيادات ٤/ ٥٦٠ .

(٤) الموطأ ٢/ ٧٦٥ .

(٥) في أحكام القرآن ٢/ ٨١٠ ، وما قبله منه.

(٦) سلف البيتان ٣/ ٩١ .

وممَّا يدلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. فكيف يقول الشافعيّ وأبو حنيفة: الحالُ الشديدةُ إنَّما هي المبارزةُ، وقد أخبرَ الله عزَّ وجلَّ عن مقاومةِ العدوِّ وتَداني الفريقَين بهذه الحالةِ العُظمى مِن بلوغِ القلوبِ الحناجر، ومِن سوءِ الظنونِ بالله، ومِن زَلْزلةِ القلوبِ واضطرابِها؛ هل هذه حالة تُرى على المريض أم لا؟ هذا ما لا يشكُّ فيه مُنصِفٌ، وهذا لمن ثبتَ في اعتقاده، وجاهد في الله حقَّ جهاده، وشاهدَ الرسولَ وآياته، فكيف بنا؟!

السابعة: وقد اختلَف علماؤنا في راكب البحر وقتَ الهَوْل، هل حكمُه حكمُ الصَّحيح أو الحامل؟

فقال ابن القاسم: حكمُه حكمُ الصَّحيح. وقال ابن وهب وأشهب: حكمُه حكمُ الحامل إذا بلغَتْ ستَّة أشهر. قال القاضي أبو محمد: وقولُهما أقيسُ؛ لأنَّها حالةُ خوفٍ على النفس كإثقالِ الحَمْل[(١)].

قال ابن العربيّ[(٢)]: وابنُ القاسم لم يركَب البحرَ، ولا رأى دوداً[(٣)] على عود، ومَن أرادَ أن يوقنَ بالله أنَّه الفاعلُ وحدَه لا فاعلَ معه، وأنَّ الأسبابَ ضعيفةٌ لا تعلُّق لموقنٍ بها، ويتحقَّقَ التوكُّلَ والتفويضَ، فليركَبِ البحرَ.

قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ أي: أيعبدون ما لا يقدر على خلق شيء. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: الأصنام مخلوقة. وقال: «يُخْلَقُونَ» بالواو والنون؛ لأنهم اعتقدوا

---

(١) عقد الجواهر الثمينة لابن شاس ٣/ ٤٠٥، والمعونة لعبد الوهاب البغدادي ٣/ ١٦٤١.

(٢) أحكام القرآن ٢/ ٨١١. والكلام السابق فيه إلا قول القاضي أبي محمد.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: ولا أرى أنهم دود.

أنَّ الأصنام تضرُّ وتنفع، فأجريت مُجرى الناس؛ كقوله: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي: إنَّ الأصنام، لا تَنصرُ ولا تنتصر.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ قال الأخفش: أي: وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ قال أحمد بن يحيى: لأنه رأس آية، يريد أنه قال: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ ولم يقل: أم صَمَتُّم. وصامتون وصَمَتُّم عند سيبويه واحد(١). وقيل: المراد مَن سبق في علم الله أنه لا يؤمن.

وقُرئ: «لَا يَتْبَعُوكُمْ» مشدَّداً ومخفَّفاً(٢)، لغتان بمعنًى. وقال بعض أهل اللغة: «أَتْبَعَهُ» مخفَّفاً: إذا مضى خلفه ولم يدركه. و«اتَّبَعَهُ» مشدَّداً: إذا مضى خلفه فأدركه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ حاجَّهم في عبادة الأصنام. «تَدْعُونَ»: تعبدون. وقيل: تدعونها آلهة. «مِنْ دُونِ اللهِ» أي: من غير الله. وسُمِّيت الأوثان عِباداً؛ لأنها مملوكةٌ لله مسخَّرة.

الحسن: المعنى: أن الأصنام مخلوقة أمثالكم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/١٦٨ . وأحمد بن يحيى: هو ثعلب.

(٢) قرأ نافع: «يَتْبَعوكم»، وقرأ الباقون: «يَتَّبِعوكم». السبعة ص٢٩٩ ، والتيسير ص١١٥ .

ولمَّا اعتقد المشركون أنَّ الأصنامَ تضرُّ وتنفع؛ أجراها مجرى الناس، فقال: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾، ولم يقل: فادعوهنّ. وقال: «عِبَادٌ»، وقال: «إنَّ الَّذِينَ»، ولم يقل: إنَّ التي. ومعنى «فَادْعُوهُمْ» أي: فاطلبوا منهم النفع والضرَّ. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ عبادة الأصنام تنفع. وقال ابن عباس: معنى فادعوهم: فاعبدوهم.

ثم وَبَّخهم الله تعالى، وسَفَّه عقولَهم فقال: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ الآية. أي: أنتم أفضل منهم، فكيف تعبدونهم؟ والغرضُ بيانُ جهلِهم؛ لأنَّ المعبود يتصف بالجوارح.

وقرأ سعيد بن جبير: «إنِ الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالَكم» بتخفيف «إن» وكسرها لالتقاء الساكنين، ونصب «عباداً» بالتنوين، «أمثالَكم» بالنصب[1]. والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالَكم، أي: هي حجارة وخشب؛ فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه.

قال النحاس[2]: وهذه قراءةٌ لا ينبغي أنْ يُقرأ بها من ثلاث جهات: أحدها: أنها مخالفة للسَّواد. والثانية: أنَّ سيبويه يختار الرفعَ في خبر «إنْ» إذا كانت بمعنى «ما»، فيقول: إنْ زيدٌ منطلق؛ لأنَّ عمل «ما» ضعيف، و«إنْ» بمعناها، فهي أضعف منها. والثالثة: إنَّ الكسائيَّ زعم أنَّ «إنْ» لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى «ما»، إلا أن يكون بعدها إيجاب؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠].

«فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ» الأصل أن تكون اللام مكسورة، فحذفت الكسرة لثقلها. ثم قيل: في الكلام حذف، المعنى: فادعوهم إلى أن يتَّبعوكم، فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين أنهم آلهة.

وقرأ أبو جعفر وشيبة: ﴿أم لهم أيدٍ يبطُشون بها﴾ بضم الطاء[3]، وهي لغة. واليد

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧٠.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ١٦٨ - ١٦٩ وما قبله منه.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة، النشر ٢/ ٢٧٤.

والرِّجل والأذن مؤنَّثات يُصَغَّرْن بالهاء. وتزاد في اليد ياء في التصغير، تردُّ إلى أصلها فيقال: يُدَيَّة؛ بالتشديد؛ لاجتماع الياءين.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي الأصنام. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وهي. ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: فلا تؤخِّرون. والأصل: «كِيدُونِي» حذفت الياء لأنَّ الكسرة تدلُّ عليها. وكذا: «فَلَا تُنظِرونِ»[١]. والكيد: المكر. والكيد: الحرب؛ يقال: غزا فلم يلقَ كيداً.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: الذي يتولَّى نصرتي[٢] وحفظي اللهُ. ووليُّ الشيءِ: الذي يحفظه، ويمنع منه[٣] الضرر. والكتاب: القرآن.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: يحفظهم. وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ جِهاراً غيرَ سِرٍّ يقول: «ألَا إنَّ آل أبي ـ يعني فلاناً ـ ليسوا لي بأولياءَ، إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين»[٤].

وقال الأخفش: وقُرِئَ: «إنَّ وليَّ اللهِ الذي نَزَّل الكتابَ» يعني جبريل. النحاس: هي قراءة عاصم الجَحْدَرِيّ[٥]. والقراءة الأولى أبيَن؛ لقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ كرَّره ليبيِّن أنَّ ما يعبدونه لا ينفعُ ولا يضرُّ.

---

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «كيدوني» بإثبات الياء وصلاً، ويعقوب وهشام بخلف عنه وصلاً ووقفاً. وقرأ يعقوب: «تنظروني» بالحالين. السبعة ص٢٩٩ - ٣٠٠ ، والتيسير ص١١٥ ، والنشر ٢/ ١٨١ و ١٨٤ .

(٢) في (م): نصري.

(٣) في (م): عنه. والكلام في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٩ .

(٤) صحيح مسلم (٢١٥). وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٨٠٤)، والبخاري (٥٩٩٠). قال القاضي عياض في إكمال المعلم ١/ ٦٠٠ : «يعني فلاناً» هي كناية عن قوم كره الراوي تسميتهم لما يقع في نفوس ذراريهم... وقيل: إن المكنى عنه الحكم بن العاص.

(٥) إعراب القرآن ٢/ ١٦٩ . ونسب القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٨ للحسن وشيبة وضعَّف هذه القراءة أبو حاتم فيما نقله عنه أبو حيان في البحر ٤/ ٤٤٦ .

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾ شرط، والجواب: ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾. ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ مستأنف. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في موضع الحال. يعني الأصنامَ. ومعنى النظر: فتح العينين إلى المنظور إليه، أي: وتراهم كالناظرين إليك. وخبَّر عنهم بالواو - وهي جمادٌ لا تُبصِر - لأن الخبر جَرَى على فِعْلِ مَن يعقل[1]. وقيل: كانت لهم أعين من جواهر مصنوعة، فلذلك قال: «وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ». وقيل: المراد بذلك المشركون، أخبر عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم.

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمَّنت قواعدَ الشريعة في المأمورات والمنهيات[2]. فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلةُ القاطعين، والعفوُ عن المذنبين، والرفقُ بالمؤمنين، وغيرُ ذلك من أخلاق المطيعين. ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلةُ الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغَضُّ الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحَضُّ على التعلُّقِ بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزُّه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة.

قلت: هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسولُ الله ﷺ لجابر بن سُلَيم. قال جابر بن سُلَيم أبو جُرَيّ: ركبتُ قَعودي[3]، ثم أتيتُ إلى مكة، فطلبتُ رسولَ الله ﷺ، فأَنَختُ قَعودي بباب المسجد، فدَلُّوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس؛ عليه بُرْد من صوف؛ فيه طرائقُ حُمر، فقلت: السلام عليكَ يا رسولَ الله. فقال: «وعليكَ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٠.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨١٥.

(٣) القَعود من الدوابّ: ما يقتعد الرجل للركوب والحمل... ومن الإبل: ما أمكن أن يركب، وأدناه أن يكون له سنتان. النهاية (قعد).

السلام». فقلت: إنَّا معشرَ أهل[(١)] البادية، قومٌ فينا الجفاءُ، فعلِّمني كلماتٍ ينفعني الله بها. قال: «ادْنُ» ثلاثاً، فدنَوْت، فقال: «أعِدْ عليَّ»، فأعدت عليه، فقال: «اتقِ اللهَ، ولا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً، و[لو] أنْ تلقَى أخاكَ بوجهٍ مُنْبَسِطٍ، و[لو] أنْ تُفْرِغَ من دَلْوكَ في إناء المستقي، وإنِ امرؤٌ سبَّكَ بما[(٢)] يعلمُ منك؛ فلا تسُبَّهُ بما تعلم فيه، فإنَّ اللهَ جاعلٌ لكَ أجراً وعليه وِزْراً، ولا تسبَّنَّ شيئاً مما خَوَّلك الله تعالى». قال أبو جُرَيّ: فوالذي نفسي بيده، ما سبَبْتُ بعدَه شاةً ولا بعيراً. أخرجه أبو بكر البزار في «مسنده» بمعناه[(٣)].

ورَوَى أبو سعيد المَقْبُرِيّ، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنكم لا تَسَعُونَ الناسَ بأموالكم، ولكن يسعُهم منكم بسطُ الوجهِ وحُسْنُ الخُلق»[(٤)].

ورَوَى البخاريُّ[(٥)] من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاقِ الناس.

ورَوَى سفيان بن عُيَيْنَة، عن الشعبيّ أنه قال: إنَّ جبريلَ نَزَلَ على النبيِّ ﷺ، فقال له النبيُّ ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟»، فقال: «لا أدري حتى أسألَ العالِم». في رواية: «لا أدري حتى أسألَ ربي». فذهب فمَكَثَ ساعةً، ثم رجع فقال: «إنَّ الله تعالى يأمركَ أن تعفوَ عمَّن ظَلَمَك، وتعطيَ مَن حَرَمَك، وتَصِلَ مَن قَطَعَك»[(٦)]. فنظمه بعض

---

(١) لفظة أهل، من (م).

(٢) في النسخ: بما لا. والمثبت موافق لأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨١٢ - ٨١٣، ومصادر التخريج.

(٣) لم نقف عليه في مطبوع مسند البزار. وأخرجه أحمد (٢٠٦٣٢)، وأبو داود (٤٠٨٤)، والترمذي (٢٧٢١)، والنسائي في الكبرى (٩٦١١). وما بين حاصرتين منها.

(٤) أخرجه البزار (١٩٧٧) و(١٩٧٨) (زوائد)، وأبو يعلى (٦٥٥٠)، والحاكم ١/ ١٢٤ وقال: حديث صحيح. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢: فيه عبد الله بن سعيد المقبري، وهو ضعيف.

(٥) في صحيحه (٤٦٤٣) و(٤٦٤٤). ووقع في النسخ غير (ظ) قبل ذلك قوله: وقال ابن الزبير: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس. وهو تكرار لما سيورده المصنف من صحيح البخاري، والمثبت من (ظ).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨١٢. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٢٤٦، والطبري ١٠/ ٦٤٣ و ٦٤٤، وأبو الليث في تفسيره ١/ ٥٩٠.

الشعراء فقال:

مَكارمُ الأخلاقِ في ثلاثة ... مَنْ كَمُلَتْ فيه فذاك[1] الفَتَى
إعطاءُ مَنْ تَحرِمُه ووَصلُ مَنْ ... تَقْطَعُهُ والعفوُ عَمَّنِ اعتدَى

وقال جعفر الصادق: أَمَر اللهُ نبيَّه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آيةٌ أجمعَ لمكارم الأخلاق من هذه الآية[2]. وقال ﷺ: «بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق»[3]. وقال الشاعر:

كُلُّ الأمورِ تَزولُ عنكَ وتنقضي ... إلَّا الثَّناءَ فإنَّهُ لَكَ باقي
ولو انني خُيِّرتُ كلَّ فضيلةٍ ... ما اخترتُ غيرَ مكارم الأخلاقِ[4]

وقال سهلُ بنُ عبد الله: كلَّم اللهُ موسى بطُور سَيْنَاء. قيل له: بأيِّ شيء أوصاك؟ قال: بتسعة أشياء، الخشيةِ في السِّرِّ والعلانية، وكلمةِ الحقِّ في الرِّضا والغضب، والقصدِ في الفقر والغِنَى، وأمرني أنْ أصلَ مَنْ قطعني، وأُعطيَ مَنْ حَرَمني، وأعفوَ عمَّن ظلمني، وأنْ يكونَ صَمْتي تَفَكُّراً، وقَوْلي ذِكْراً[5]، ونظري عِبْرة.

قلت: وقد رُوي عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: «أمرني ربي بتسعٍ: الإخلاصِ في السِّرِّ والعلانية، والعدلِ في الرِّضا والغضب، والقصدِ في الغنَى والفقر، وأنْ أعفوَ عمَّنْ ظلمني، وأَصِلَ مَنْ قطعني، وأُعطيَ مَنْ حَرَمني، وأنْ يكون نطقي ذكراً، وصمتي فِكْراً، ونظري عِبْرة»[6].

---

(١) في (م): فذلك.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٢٢٤.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٢ من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وأخرجه أيضاً أحمد (٨٩٥٢) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

(٤) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (٥٧) وشعب الإيمان (٨٥١٠).

(٥) في (م): نطقي ذكراً، وصمتي فكراً.

(٦) لم نقف عليه بتمامه وأخرج بعضه القضاعي في الشهاب (١١٥٩) نحوه مختصراً من حديث ابن عائشة، عن أبيه. قال الذهبي في الميزان ٣/ ٥٥٠ : حديث معضل.

وقيل: المراد بقوله: «خُذِ الْعَفْو» أي: الزكاة؛ لأنها يسيرٌ من كثير. وفيه بُعدٌ؛ لأنه من عَفَا: إذا دَرَس. وقد يقال: خذ العفو منه، أي: لا تَنْقُصْ عليه وسامحْه[١]. وسبب النزول يردُّه، والله أعلم. فإنه لمَّا أمره بمحاجَّة المشركين؛ دلَّه على مكارم الأخلاق، فإنها سَبَبُ جرِّ المشركين إلى الإيمان. أي: اِقْبَلْ من الناس ما عفا لكَ من أخلاقهم وتَيَسَّر؛ تقول: أخذت حقِّي عَفْواً صَفْواً، أي: سهلاً.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف. وقرأ عيسى بن عمر: «بالعُرُف» بضمتين[٢]، مثل الحُلُم، وهما لغتان. والعُرْف والمَعْروف والعَارِفَة: كلُّ خَصْلَة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس.

قال الشاعر:

مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَه لا يَذْهَبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والناسِ[٣]

وقال عطاء: «وَأْمُرْ بالْعُرْفِ» يعني بلا إله إلا الله[٤].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: إذا أقمتَ عليهم الحجةَ، وأمرتَهم بالمعروف فجهلوا عليك؛ فأعرض عنهم؛ صيانة له[٥]، ورفعاً لقَدْرِه عن مجاوبتهم. وهذا وإن كان خِطاباً لنبيِّه عليه الصلاة والسلام؛ فهو تأديبٌ لجميع خلقه. وقال ابن زيد وعطاء: هي منسوخةٌ بآية السيف. وقال مجاهد وقتادة: هي مُحْكَمة؛ وهو الصحيح لما رواه البخاري[٦] عن عبد الله بن عباس قال: قَدِم عُيَيْنَةُ بنُ حِصن ابنِ حذيفةَ بنِ بَدْر، فنزل على ابن أخيه الحرِّ بنِ قَيْس بنِ حِصن، وكان من النَّفَر الذين يُدْنِيهم عُمَرُ، وكان القرّاءُ أصحابَ مَجْلِسِ[٧] عمرَ ومشاورتَه، كُهُولاً كانوا أو شُبّاناً.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٠ .
(٢) القراءات الشاذة ص٤٨ .
(٣) البيت للحطيئة، وهو في ديوانه ص٢٨٤ ، وتقدم ٧/ ١٢٦ .
(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٢٢٤ .
(٥) بعدها في (م): عليهم. وفي إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٠ ؛ وعنه نقل المصنف: عنهم.
(٦) في صحيحه (٧٢٨٦).
(٧) في (م): مجالس.

فقال عُيَيْنَة لابن أخيه: يا ابنَ أخي، هل لكَ وجهٌ عند هذا الأمير فتستأذنَ لي عليه؟ قال: سأستأذنُ لكَ عليه. فاستأْذَنَ لعُيَيْنَة. فلمّا دخلَ قال: يا ابنَ الخطّاب، واللهِ ما تُعطينا الجَزْلَ، ولا تحكمُ بيننا بالعدل. قال: فغضب عمر حتى هَمَّ بأنْ يَقَع به. فقال الحُرُّ: يا أمير المؤمنين، إنَّ اللهَ قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وإنَّ هذا منَ الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله عزَّ وجلَّ.

قلت: فاستعمال عمرَ ﷺ لهذه الآية واستدلالُ الحُرِّ بها يدلُّ على أنها مُحْكَمة لا منسوخة. وكذلك استعملها الحسنُ بنُ عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنهما؛ على ما يأتي بيانه[١]. وإذا كان الجَفَاء على السلطان تعمُّداً واستخفافاً بحقِّه؛ فله تعزيرُه. وإذا كان غير ذلك؛ فالإعراضُ والصَّفْحُ والعفو؛ كما فعل الخليفةُ العَدْل.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: لمَّا نَزَلَ قولُه تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال عليه الصلاة والسلام: «كيف يا ربِّ والغضب»؟ فنزلت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾[٢]. ونزغُ الشيطان: وساوسُه. وفيه لغتان: نَزَغ ونَغز، يقال: إيَّاكَ والنُّزَّاغ والنُّغَّاز، وهم المُوَرِّشُون[٣].

الزجاج[٤]: النَّزْغ أدْنَى حركة تكون، ومن الشيطان أدْنَى وَسْوَسَة. قال سعيد بن المسيِّب: شهدتُ عثمانَ وعليًا وكان بينهما نَزْغٌ من الشيطان، فما أبقَى واحدٌ منهما

---

(١) في المسألة الثانية بعد آية.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٠/٦٤٦ عن ابن زيد.

(٣) في (ظ): الموسوسون. وقال في اللسان (ورش): التوريش: التحريش؛ يقال: ورَّشت بين القوم وأرَّشت.

(٤) في معاني القرآن له ٢/٣٩٦.

لصاحبه شيئاً، ثم لم يَبْرَحا حتى استغفرَ كلٌّ واحدٍ منهما لصاحبه[١].

ومعنى ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: يُصيبَنَّكَ ويَعرض لكَ ـ أي[٢]: عند الغضب ـ وسوسةٌ بما لا يحلُّ. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: اطلبِ النجاةَ من ذلك بالله. فأمَر تعالى أنْ يدفعَ الوسوسةَ بالالتجاء إليه، والاستعاذة به، ولله المَثَلُ الأعلى؛ فلا يُستعاذ من الكِلاب إلَّا بربِّ الكِلاب. وقد حُكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنعُ بالشيطان إذا سَوَّل لك الخطايا؟ قال: أجاهدُه. قال: فإنْ عاد؟ قال: أجاهدُه. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهدُه. قال: هذا يطول، أرأيتَ لو مررتَ بغنمٍ فنبحكَ كلبُها، ومنعك[٣] من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأردُّ عليه[٤] جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استغِثْ بصاحب الغنم يكفَّه عنك.

الثانية: النَّغْزُ والنَّزْغ والهَمْز والوَسْوَسَة سواء، قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، وقال: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]. وأصلُ النزغ: الفسادُ؛ يقال: نَزَغ بيننا؛ أي: أفسد. ومنه قوله: ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: أفسد. وقيل: النزغ: الإغواء والإغراء، والمعنى متقارب.

قلت: ونظير هذه الآية ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول له: مَنْ خَلَقَ كذا وكذا؟ حتى يقول له: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فإذا بَلَغَ ذلك فليستعذْ بالله ولْيَنْتَهِ»[٥]. وفيه عن عبد الله قال: سُئل النبيُّ ﷺ عن الوسوسة قال: «تلكَ مَحْضُ الإيمانِ»[٦]. وفي حديث أبي هريرة: «ذلكَ صَرِيحُ الإيمانِ»[٧] والصريح: الخالص.

---

(١) أخرجه الخلّال في السنة (٧١٥)، والخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٢١٩ .

(٢) ليست في (م).

(٣) في النسخ: ومنع. والمثبت من (ظ).

(٤) في (م): وأرده.

(٥) صحيح مسلم (١٣٤): (٢١٤). وأخرجه أيضاً أحمد (٨٣٧٦)، والبخاري (٣٢٧٦).

(٦) صحيح مسلم (١٣٣). وعبد الله هو ابن مسعود.

(٧) صحيح مسلم (١٣٢). وأخرجه أحمد (٩١٥٦).

وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسُها هي الإيمان، لأنَّ الإيمانَ اليقينُ، وإنما الإشارةُ إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالى أنْ يعاقَبوا على ما وقع[1] في أنفسهم. فكأنَّه قال: جَزَعُكم من هذا هو محضُ الإيمان وخالصُه؛ لصحة إيمانكم، وعلمِكم بفسادها. فسمَّى الوسوسةَ إيماناً لمَّا كان دفعُها والإعراضُ عنها، والردَّ لها، وعدمُ قَبولها، والجزعُ منها؛ صادراً عن الإيمان.

وأمّا أمرُه بالاستعاذة؛ فلِكون تلك الوساوس من آثار الشيطان. وأمّا الأمرُ بالانتهاء؛ فعَن الركون إليها والالتفات نحوها. فمَن كان صحيحَ الإيمان، واستعمل ما أمره به ربُّه ونبيُّه؛ نفعَه وانتفعَ به. وأمَّا مَنْ خالجته الشبهةُ، وغَلَب عليه الحِسُّ، ولم يقدر على الانفكاك عنها؛ فلابُدَّ من مشافهته بالدليل العقليِّ؛ كما قال ﷺ للذي خالطته شبهةُ الإبل الجُرْب حين قال النبيُّ ﷺ: «لا عَدْوَى». فقال أعرابيٌّ: فما بالُ الإبلِ تكون في الرَّمْل كأنها الظِّباء، فإذا دخلَ فيها البعيرُ الأجرَبُ أجْربها. فقال ﷺ: «فَمَنْ أعْدَى الأوَّل؟»[2] فاستأصل الشبهة من أصلها[3]. فلمّا يئس الشيطانُ من أصحاب محمد ﷺ بالإغواء[4] والإضلال؛ أخذ يُشوِّش عليهم أوقاتهم بتلك الأُلقِيَّات[5]، والوساوسِ التُّرَّهَات، فنَفَرَتْ عنها قلوبُهم، وعَظُمَ عليهم وقوعُها عندهم، فجاؤوا ـ كما في الصحيح ـ فقالوا: يا رسول الله، إنَّا نَجِدُ في أنفسنا ما يَتَعاظم أحدُنا أنْ يتكلَّمَ به. قال: «أوَ قَدْ وجدتُموه؟». قالوا: نعم. قال: «ذلك صريحُ الإيمان»[6] رَغْماً للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

---

(١) قوله: وقع من (م)، وهو الموافق لإكمال المعلم ١/ ٤٢٨، وعنه نقل المصنف.

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٢٠)، والبخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) المفهم ١/ ٣٤٦.

(٤) في (م): بالإغراء.

(٥) الأُلْقِيَّات، جمع أُلْقِيَّة، وزن: أُغْنِيَّة، وهي ما أُلقي من التحاجي والألغاز. ينظر القاموس (لقى).

(٦) هو في صحيح مسلم (١٣٢) من حديث أبي هريرة، وسلف قريباً.

فالخواطر التي ليست بمستقِرة، ولا اجْتَلَبتْهَا الشبهةُ؛ فهي التي تُدفَع بالإعراض عنها، وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة[١]. والله أعلم. وقد مضى في آخر «البقرة»[٢] هذا المعنى، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يريد الشركَ والمعاصي. ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ هذه قراءة أهل البصرة وأهل مكة[٣]. وقرأ أهلُ المدينة وأهل الكوفة: «طَائِفٌ»[٤]. ورُوي عن سعيد بن جبير: «طَيِّفٌ» بتشديد الياء[٥]. قال النحاس[٦]: كلام العرب في مثل هذا: «طَيْفٌ» بالتخفيف؛ على أنه مصدر من طاف يَطِيفُ. قال الكسائيُّ: هو مخفَّفٌ من (طَيِّف»؛ مثل: مَيْتٌ ومَيِّتٌ. قال النحاس[٧]: ومعنى «طَيْف» في اللغة: ما يُتخيَّل في القلب، أو يُرَى في النوم؛ وكذا معنى طائف. وقال أبو حاتم: سألتُ الأَصْمَعِيَّ عن طَيِّف؛ فقال: ليس في المصادر فَيْعِل. قال النحاس[٨]: ليس هو بمصدر، ولكن يكون بمعنى طائف. والمعنى: إنَّ الذين اتقَوا

(١) إكمال المعلم ١/ ٤٢٩ .

(٢) ٤/ ٤٩٥ .

(٣) يعني قرأ بها أبو عمرو البصري وابن كثير المكي، وقرأ بها أيضاً الكسائي من أهل الكوفة. السبعة ص٣٠١ ، والتيسير ص١١٥ .

(٤) قرأ بها نافع المدني وعاصم وحمزة من أهل الكوفة، ووافقهم ابن عامر الشامي. وأما الكسائي من أهل الكوفة فقرأ: «طيف»، كما سلف.

(٥) القراءات الشاذة ص٤٨ .

(٦) في إعراب القرآن ٢/ ١٧١ . وما قبله منه.

(٧) المصدر السابق.

(٨) في إعراب القرآن ١/ ١٧١ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

المعاصيَ إذا لَحِقَهم شيءٌ [من الشيطان] تفكَّروا في قدرة الله عزَّ وجلَّ، وفي إنعامه عليهم، فتركوا المعصية. وقيل: الطَّيْفُ والطَّائِفُ معنيان مختلفان. فالأوَّل: التخيُّل، والثاني: الشيطانُ نفسه. فالأوَّل مصدر طاف الخيال يَطيف[1] طَيْفاً؛ ولم يقولوا من هذا: طائف في اسم الفاعل. قال السهيليّ[2]: لأنه تخَيُّلٌ لا حقيقةَ له. فأما قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم:١٩] فلا يقال فيه: طَيْفٌ؛ لأنه اسمُ فاعلٍ حقيقةً، ويقال: إنه جبريل.

قال الزجاج[3]: طُفْتُ عليهم أطوف، وطاف الخيالُ يَطيف.

وقال حسان[4]:

فَـدَعْ هـذا ولـكـن مَـن لِـطَـيْـفٍ ... يُـؤَرِّقُـنـي إذا ذهـبَ الـعِـشَـاء

مجاهد: الطَّيْف: الغضب[5]. ويُسمَّى الجنونُ والغضبُ والوسوسةُ طَيْفاً؛ لأنه لَمَّةٌ[6] من الشيطان تُشَبَّه بلَمَّة الخيال.

﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي: منتهون. وقيل: فإذا هم على بصيرة. وقرأ سعيد بن جبير: «تَذَّكَّرُوا» بتشديد الذال، ولا وجه له في العربية؛ ذكره النحاس[7].

الثانية: قال عِصام بن المُصْطَلِق: دخلتُ المدينةَ، فرأيت الحسن بن عليٍّ عليهما السلام، فأعجبني سَمْتُه وحُسنُ رُوائه، فأثار منِّي الحسدَ ما كان يُجِنُّه[8]

---

(١) في النسخ: يطوف. والمثبت من الروض الأنف ٤/ ١١٧ . قال في اللسان (طيف): طاف يطيف ويطوف طيفاً وطوفاً.

(٢) في الروض الأنف ٤/ ١١٧ ، وما قبله منه بنحوه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٦ .

(٤) ديوانه ص٧ .

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٤٨ .

(٦) اللَّمَّة: الخطرة تقع في القلب. النهاية (لمم).

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ١٧١ ، ونسب القراءة لمجاهد.

(٨) أي: يُكِنُّه.

صدري لأبيه من البُغْض، فقلت: أنتَ ابنُ أبي طالب؟ قال: نعم. فبالغتُ في شتمه وشتم أبيه، فنظر إليَّ نظرةَ عاطفٍ رَؤُوف، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فقرأ إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ ثم قال لي: خفِّض[١] عليك، أستغفرُ اللهَ لي ولك، إنك لو استعنتنا أعنَّاك، ولو استَرْفَدْتَنا[٢] أرفدناك، ولو استرشَدْتَنا أرشدناك. فتوسَّم فيَّ الندمَ على ما فَرَط منِّي، فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] أَمِنْ أهلِ الشام أنت؟ فقلت: نعم. فقال:

شِنْشِنَةٌ أعرِفُها من أخزمِ[٣]

حَيَّاك الله وبيَّاك[٤]، وعافاك وآداك[٥]، انبسط إلينا في حوائجك وما يَعرِض لكَ، تجدنا عند أفضل ظنِّك إن شاء الله. قال عصام: فضاقت عليَّ الأرضُ بما رَحُبَت، ووددت أنها ساخت بي، ثم انسلَلْتُ[٦] منه لِواذاً[٧]، وما على وجه الأرض أحبُّ إليَّ منه ومن أبيه[٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: المعنى: وإخوانُ الشياطين ـ وهم الفُجَّار من ضُلَّال الإنس ـ تَمدُّهم الشياطينُ في الغَيِّ. وقيل للفجار:

---

(١) أي: هوِّن.

(٢) الاسترفاد من الرفد، وهو العطاء والصلة.

(٣) قال في مجمع الأمثال ١/ ٣٦١: قال ابن الكلبي: إن الشعر لأبي أخزم الطائي، وهو جَدُّ أبي حاتم، أو جدُّ جدِّه، وكان له ابن يقال له: أخزم. وقيل: كان عاقًّا، فمات وترك بنين، فوثبوا على جدِّهم أبي أخزم فأدموه، فقال: إن بنيَّ ضرجوني بالدم... والشنشنة: الطبيعة والعادة.

(٤) بيَّاك: بوَّأك منزلاً. مختار الصحاح (بيا).

(٥) أي: أعانك. لسان العرب ٨/ ٢٦٨.

(٦) في (م): تسللت.

(٧) أي: تستُّراً.

(٨) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ١٣/ ٢٤٧.

إخوان الشياطين؛ لأنهم يقبلون منهم. وقد سبق في هذه الآية ذكر الشيطان. هذا أحسن ما قيل فيه، وهو قول قتادة[١] والحسن والضحاك. ومعنى «لَا يُقْصِرُونَ» أي: لا يتوبون ولا يرجعون. وقال الزجاج[٢]: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، وإخوانهم يمدُّونهم في الغيِّ؛ لأن الكفار إخوان الشياطين.

ومعنى الآية: إنَّ المؤمن إذا مَسَّهُ طَيْف من الشيطان تنبَّه عن قُرْب؛ فأما المشركون فيَمدُّهم الشيطان. و«لَا يُقْصِرُونَ» قيل: يرجع إلى الكفار على القولين جميعاً. وقيل: يجوز أن يرجع إلى الشيطان. قال قتادة: المعنى ثم لا يُقصِرون عنهم ولا يرحمونهم[٣]. والإقصار: الانتهاء عن الشيء، أي: لا تُقْصِر الشياطينُ في مَدِّهم الكفارَ بالغَيِّ.

وقوله: ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾ يجوز أن يكون متصلاً بقوله: «يَمُدُّونَهُمْ»، ويجوز أن يكون متصلاً بالإخوان[٤]. والغَيُّ: الجهلُ.

وقرأ نافع: «يُمِدُّونَهُمْ» بضم الياء وكسر الميم، والباقون بفتح الياء وضم الميم. وهما لغتان: مَدَّ وأَمَدَّ، ومَدَّ أكثر؛ بغير ألف؛ قاله مكيّ[٥].

النحاس[٦]: وجماعة من أهل العربية ينكرون قراءة أهل المدينة؛ منهم أبو حاتم وأبو عبيد، قال أبو حاتم: لا أعرف لها وجهاً، إلا أن يكون المعنى: يزيدونهم في

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٠/ ٦٥٢ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٧ ، ونقل عنه المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧١ - ١٧٢ وما قبله منه.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٥٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٢ .

(٥) في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٨٧ . وقراءة نافع في السبعة ص٣٠١ ، والتيسير ص١١٥ .

(٦) في إعراب القرآن ٢/ ١٧٢ .

الغَيِّ. وحَكَى جماعةٌ من أهل اللغة؛ منهم أبو عبيد؛ أنه يقال إذا كَثَّر شيءٌ شيئاً بنفسه: مَدَّه، وإذا كَثَّره[1] بغيره قيل: أَمَدَّه؛ نحو: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وحُكي عن محمد بن يزيد أنه احتجَّ لقراءة أهل المدينة قال: يقال: مَدَدْتُ له في كذا؛ أي: زَيَّنتُه له واستدعيتُه أن يفعله. وأمددته في كذا؛ أي: أعنتُه برأي أو غير ذلك.

قال مكيّ[2]: والاختيار الفتح؛ لأنه يقال: مددتُ في الشرِّ، وأمددتُ في الخير؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]. فهذا يدلُّ على قوَّة الفتح في هذا الحرف؛ لأنه في الشرِّ، والغَيُّ هو الشرُّ، ولأن الجماعة عليه.

وقرأ عاصم الجَحْدَرِيّ: «يُمَادُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ»[3].

وقرأ عيسى بن عمر: «يَقْصُرُونَ» بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف[4]. الباقون: «يُقْصِرُونَ» بضدِّه، وهما لغتان. قال امرؤ القيس:

سَمَا لَكَ شَوْقٌ بعد ما كان أَقْصَرَا[5]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: تقرؤها عليهم. ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ لولا بمعنى: هلّا، ولا يليها على هذا المعنى إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً[6]، وقد

---

(١) في النسخ: مدّه. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٢ ، والقراءات الشاذة ص٤٨ .

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٣ ، والقراءات الشاذة ص٤٨ .

(٥) صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: وحلَّت سليمى بطنَ قوٍّ فعَرْعَرا. وهو في ديوانه ص٥٦ : قال شارحه: سما لك الشوق أي: ارتفع وذهب بك كل مذهب؛ لبعد الأحبة عنك بعدما كان أقصر عنك وكفَّ بقرب من تحب دنوه منك، وقوّ وعرعر: موضعان.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٢ .

تقدَّم القولُ فيها في البقرة مستوفًى[(١)]. ومعنى «اجْتَبَيْتَهَا»: اختلقتها من نفسك. فأَعْلَمَهم أنَّ الآياتِ من قِبَلِ الله عزَّ وجلَّ[(٢)]، وأنّه لا يَقرأ عليهم إلا ما أنزله عليه.

يقال: اجْتَبَيْتُ الكلامَ، أي: ارتَجَلْتُه واختلقتُه واخترعتُه: إذا جئتَ به من عند نفسك[(٣)].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ أي: من عند الله، لا من عند نفسي.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني القرآن، جمع بصيرة، وهي الدلالة والعبرة، أي: هذا الذي دللتُكم به على أنَّ الله عزَّ وجلَّ واحدٌ بَصَائِرُ، أي: يُستبصَر بها.

وقال الزجاج[(٤)]: «بَصَائِرُ» أي: طُرُقٌ، والبصائر: طُرُقُ الدَّم[(٥)]. قال الجُعْفِيُّ[(٦)]:

راحوا بصائرُهم على أكتافهم ... وبَصيرتي يَعْدُو بها عَتِدٌ وَأَى[(٧)]

﴿وَهُدًى﴾: رُشد وبيان. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ونعمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

فيه مسألتان[(٨)]:

---

(١) ٢/ ٣٤٢.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٩٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٢١. ونسبه الرازي ١٥/ ١٠١، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٣١٢ للفراء.

(٤) معاني القرآن له ٢/ ٣٩٧.

(٥) في (م): الدين. وفي معاني الزجاج: طرائق الدم. قال في الصحاح (بصر): البصيرة من الدم: ما كان على الأرض. وقال الأصمعي: والبصيرة شيء من الدم يُستدل به على الرَّمِيَّة.

(٦) هو الأسعر (بالسين المهملة)، الشاعر الفارس المشهور، كما ذكر الآمدي في المؤتلف والمختلف ص٥٨، ونقل عن ابن الكلبي أن اسمه مرثد بن أبي حمران... سُمي بالأسعر لقوله:

فلا يَدْعُني قومي لسعد بن مالكٍ ... إذا أنا لم أَسْعَرْ عليهم وأُثْقِبِ

(٧) البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٣٨، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٢٩٧، والصحاح (بصر)، واللسان (عتد، بصر، وأى). وفيه: فرسٌ عَتِدٌ، بفتح التاء وكسرها أي: شديد تامّ الخلق، سريع الوثبة، مُعدّ للجري، ليس فيه اضطراب ولا رخاوة. وفيه أيضاً: الوَأَى من الدواب: السريع المشدد الخلق.

(٨) كذا في النسخ. ولكنه لم يذكر إلا مسألة واحدة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قيل: إنَّ هذا نزل في الصلاة؛ رُوي عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وجابر، والزُّهْرِيّ، وعبيد الله بن عمير، وعطاء بن أبي رَباح، وسعيد بن المسيِّب(١).

قال سعيد: كان المشركون يأتون رسولَ الله ﷺ إذا صَلَّى، فيقول بعضهم لبعض بمكة: لا تَسْمَعُوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه(٢)، فأنزل الله جلَّ وعزَّ جواباً لهم: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾(٣).

وقيل: إنها نزلت في الخطبة؛ قاله سعيد بن جُبير، ومجاهد، وعطاء، وعمرو بن دِينار، وزيد بن أسلم، والقاسم بن مُخَيْمِرة، ومسلم بن يَسَار، وشَهْر بن حَوْشَبْ، وعبد الله بن المبارك(٤). وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ القرآنَ فيها قليلٌ، والإنصاتُ يجب في جميعها؛ قاله ابن العربيّ(٥). النقاش: والآية مَكِّية، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة. وذكر الطبريُّ عن سعيد بن جبير أيضاً: أن هذا في الإنصات يوم الأَضحَى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يَجْهَر به الإمام، فهو عامٌّ(٦). وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميعَ ما أوجبته هذه الآيةُ وغيرُها من السُّنَّة في الإنصات(٧). قال النقاش: أجمعَ أهل التفسير أنَّ هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة.

النحاس(٨): وفي اللغة يجب أن يكون في كلِّ شيء، إلا أن يدلَّ دليلٌ على اختصاص شيء.

---

(١) أخرج هذا القول عنهم الطبري في تفسيره ١٠/ ٦٥٨ - ٦٦٠ .

(٢) حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٣١٢ . وسعيد هو ابن المسيب.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٦٦٤ ، والدر المنثور ٣/ ٣١٣ .

(٥) في أحكام القرآن ٢/ ٨١٧ .

(٦) تفسير الطبري ١٠/ ٦٦٦ ، ونقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٤ ، وما بعده منه.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٤ .

(٨) في إعراب القرآن ٢/ ١٧٣ .

وقال الزجاج: يجوز أن يكون ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾: اعملوا بما فيه، ولا تجاوِزوه[١].

والإنصات: السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة. أنْصَت يُنصت إنصاتاً؛ ونَصَت أيضاً؛ قال الشاعر:

قال الإمامُ عليكم أمْرَ سيّدكم فلم نُخالف وأنصتنا كما قالا[٢]

ويقال: أنصِتوه وأنصِتوا له؛ قال الشاعر:

إذا قالتْ حَذامِ فأنْصِتوها فإنَّ القولَ ما قالت حَذامِ[٣]

وقال بعضهم في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾: كان هذا لرسول الله ﷺ خاصّاً لِيَعِيَه عنه أصحابه[٤].

قلت: هذا فيه بعدٌ، والصحيح القول بالعموم؛ لقوله: «لَعَلكُمْ تُرْحَمُونَ»، والتخصيصُ يحتاج إلى دليل.

وقال عبد الجبار بن أحمد[٥] في «فوائد القرآن» له: إن المشركين كانوا يكثرون اللَّغط والشغَب تَعَنُّتاً وعِناداً؛ على ما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. فأمر اللهُ المسلمينَ حالة أداء الوَحْي أن يكونوا على خلاف هذه الحالة، وأن يستمعوا، ومدَح الجنَّ على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية[٦] [الأحقاف: ٢٩].

---

(١) معاني القرآن له ٢/ ٣٩٨، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٤.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) الصحاح (نصت). وقال: ويروى: «فصدقوها». والبيت نسبه في اللسان (نصت) للُجيم بن صعب. قال: وحذام اسم امرأة الشاعر، وهي بنت العتيك بن أسلم.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣.

(٥) القاضي أبو الحسن الهمذاني، شيخ المعتزلة، صاحب التصانيف، من كبار فقهاء الشافعية. ولي قضاء القضاة بالرَّي، مات سنة (٤١٥هـ)، من أبناء التسعين. السير ١٧/ ٢٤٤.

(٦) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ١٤٣ - ١٤٤.

وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ في الصلاة أجابه مَن وراءَه؛ إذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا مثل قوله، حتى يقضيَ فاتحة الكتاب والسُّورة. فلبِث بذلك ما شاء الله أن يلبث؛ فنزل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فأنصتُوا[1]. وهذا يدلُّ على أنَّ المعنيَّ بالإنصات تركُ الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله ﷺ.

وقال قتادة في هذه الآية: كان الرجل يأتي وهم في الصلاة، فيسألُهم: كم صلَّيتم؟ كم بَقِي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[2].

وعن مجاهد أيضاً: كانوا يتكلمون في الصلاة بحاجتهم؛ فنزل قوله تعالى: ﴿وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3].

وقد مضى في «الفاتحة» الاختلاف في قراءة المأموم خلف الإمام. ويأتي في الجمعة[4] حكم الخطبة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ نظيره: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقد تقدَّم[5].

قال أبو جعفر النحاس[6]: ولم يُختلف في معنى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ أنه في الدعاء.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٩٧٨) (تفسير)، بنحوه مختصراً، وابن أبي حاتم (٨٧٢٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٤٧ ، والطبري ١٠/ ٦٦٢ .

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ١٤٧ . وما قبله منه.

(٤) عند تفسير الآية ٩ منها، المسألة السابعة.

(٥) ٧/ ٢٢٣ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٢٣ .

قلت: قد رُوي عن ابن عباس أنه يعني بالذكر القراءةَ في الصلاة[1]. وقيل: المعنى: اقرأ القرآن بتأمُّلٍ وتدبُّر.

«تَضَرُّعاً» مصدر، وقد يكون في موضع الحال. «وَخِيفَةً» معطوف عليه، وجمع خيفة: خِوَفٌ؛ لأنه بمعنى الخَوْف؛ ذكره النحاس[2]. وأصل خِيفة: خِوْفَة؛ قُلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها. خاف الرجلُ يخاف خوفاً وخِيفة ومَخافة، فهو خائف، وقوم خُوَّفٌ على الأصل، وخُيَّف على اللفظ. وحكَى الفرّاء أنه يقال أيضاً في جمع خِيفة: خِيف[3]. قال الجوهري[4]: والخِيفةُ الخوفُ، والجمع خِيَف، وأصله الواو.

﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ أي: دون الرفع في القول. أي: أَسْمِعْ نفسَكَ؛ كما قال: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: بين الجهر والمُخافتة. ودلَّ هذا على أنَّ رفعَ الصوتِ بالذكر ممنوعٌ؛ على ما تقدَّم في غير موضع.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ قال قتادة وابن زيد: الآصال: العَشِيَّات. والغدوُّ جمع غُدْوة. وقرأ أبو مِجْلَز: «بِالْغُدُوِّ وَالْإِيصالِ» وهو مصدر آصلنا، أي: دخلنا في العَشِيِّ[5].

والآصال جمع أُصُل؛ مثل: طُنُب وأطْنَاب[6]؛ فهو جمع الجمع، والواحد أصيل، جُمِع على أُصُل؛ عن الزجاج[7]. الأخفش[8]: الآصال جمع أَصِيل؛ مثلُ يَمِين وأيْمَان. الفرّاء: أُصُل جمع أصيل، وقد يكون أُصُل واحداً، كما قال الشاعر:

---

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٤٤٠، والبغوي ٢/ ٢٢٦.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ١٧٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٣، ولم نقف على قول الفراء في معانيه.

(٤) في الصحاح (خوف).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٣. والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٨، وابن جني في المحتسب ١/ ٢٧١.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٣.

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٣٩٨.

(٨) معاني القرآن له ٢/ ٥٤١. ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٣.

ولا بأحسنَ منها إذْ دَنَا الأُصُلُ[١]

الجوهريُّ[٢]: الأصِيل الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أُصُلٌ وآصالٌ وأصائلُ؛ كأنه جمع أصِيلة؛ قال الشاعر[٣]:

لَعَمرِي لأنتَ البيْتُ أُكْرِمُ أهلَهُ وأَقعدُ في أفْيائِهِ بالأصائلِ

ويُجمع أيضاً على أُصْلان؛ مثل بَعير وبُعْران؛ ثم صغَّروا الجمعَ فقالوا: أُصَيْلَان، ثم أبدلوا من النون لَاماً فقالوا: أُصَيْلالٌ؛ ومنه قول النابغة[٤]:

وقفتُ فيها أُصَيْلَالاً أُسائِلُها عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبْعِ من أحدِ

وحكى اللِّحيانِيُّ: لقيتُه أُصَيْلَالاً.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: عن الذكر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكةَ بإجماع. وقال: «عِنْدَ رَبِّكَ» ـ والله تعالى بكلِّ مكان[٥] ـ لأنهم قريبون من رحمته، وكلُّ قريب من رحمة الله عزَّ وجلَّ فهو عنده؛ عن الزجاج[٦]. وقال غيره: لأنهم في موضع لا ينفُذُ فيه إلا حكم الله. وقيل: لأنهم رُسُل الله؛ كما يقال: عند الخليفة جيش كثير.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٣ . والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٧ . وصدر البيت: يوماً بأطيب منها نشر رائحة.

(٢) الصحاح (أصل).

(٣) هو أبو ذؤيب، والبيت في ديوان الهذليين ص١٤١ .

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص٣٠ ، وسلف ١/ ٤٦٠ .

(٥) العبارة موهمة، وأهل السنة يقولون: إن الله عز وجل فوق السماء وعلمه في كل مكان .

(٦) معاني القرآن له ٢/ ٣٩٨ . ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٣ ، وما بعده منه.

وقيل: هذا على جهة التشريف لهم، وأنهم بالمكان المكرم؛ فهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة[١].

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: ويعظِّمونه وينزِّهونه عن كل سوء. ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ قيل: يصلون. وقيل: يَذِلُّون، خلاف أهل المعاصي[٢].

الثانية: والجمهور من العلماء في أن هذا موضعُ سجود للقارئ. وقد اختلفوا في عدد سجود القرآن؛ فأقصى ما قيل: خمس عشرة؛ أوَّلها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العَلَق؛ وهو قولُ ابنِ حبيب وابنِ وهب - في رواية - وإسحاق. ومن العلماء مَن زاد سجدةَ الحِجْر؛ قوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [٩٨] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. فعلى هذا تكون ست عشرة. وقيل: أربع عشرة؛ قاله ابن وهب في الرواية الأخرى عنه، وأسقط ثانيةَ الحجِّ؛ وهو قولُ أصحابِ الرأي[٣]، والصحيحُ سقوطُها؛ لأنَّ الحديث لم يصحَّ بثبوتها؛ رواه ابن ماجه وأبو داود في سننهما عن عبد الله بن مُنَيْنٍ من بني عبد كُلال، عن عمرو بن العاص، أنَّ رسولَ الله ﷺ أَقْرَأَهُ خمسَ عَشْرَةَ سجدةً في القرآن؛ منها ثلاثٌ في المفصَّل، وفي الحجِّ سجدتان[٤]. وعبد الله بن مُنين لا يُحتجُّ به؛ قاله أبو محمد عبد الحق[٥].

وذكر أبو داود أيضاً من حديث عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، أفي سورة الحجِّ سجدتان؟ قال: «نَعَم، ومَنْ لم يَسْجُدْهما فلا يقرأهما»[٦]. في إسناده

(١) نحوه في المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٧٣ .

(٣) المفهم ٢/ ١٩٥ .

(٤) سنن ابن ماجه (١٠٥٧)، وسنن أبي داود (١٤٠١). وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٢٢٣ قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٩ : حسنه المنذري والنووي، وضعفه عبد الحق وابن القطان، وفيه عبد الله ابن مُنين وهو مجهول، والراوي عنه الحارث بن سعيد العتقي، وهو لا يعرف أيضاً.

(٥) في الأحكام الوسطى ٢/ ٩٢ .

(٦) سنن أبي داود (١٤٠٢). وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٣٦٤)، والترمذي (٥٧٨).

عبد الله بن لَهِيعة، وهو ضعيف جداً. وأثبتها[١] الشافعيُّ، وأسقط سجدة ص. وقيل: إحدى عشرة سجدة، وأسقط آخرةَ الحجّ وثلاثَ المفصَّل، وهو مشهور مذهب مالك، وروي عن ابن عباس وابن عمر وغيرهم.

وفي سنن ابن ماجه: عن أبي الدرداء قال: سجدتُ مع النبيِّ ﷺ إحدى عَشْرَةَ سجدةً، ليس فيها من المفصَّل شيءٌ: الأعراف، والرعد، والنحل، وبني إسرائيل، ومريم، والحجّ سجدة، والفرقان، وسليمان سورة النمل، والسجدة، وص، وسجدة الحواميم[٢].

وقيل: عشرة؛ وأسقط: آخرة الحجِّ، وص، وثلاث المفصل؛ ذُكر عن ابن عباس.

وقيل: إنها أربع: سجدة الم تنزيل، وحم تنزيل، والنجم، والعلق.

وسببُ الخلاف اختلافُ النقل في الأحاديث والعمل، واختلافُهم في الأمر المجرَّد بالسجود في القرآن؛ هل المرادُ به سجودُ التلاوة، أو سجود الفرض في الصلاة[٣]؟

الثالثة: واختلفوا في وجوب سجود[٤] التلاوة؛ فقال مالكٌ والشافعيُّ: ليس بواجب. وقال أبو حنيفة: هو واجب. وتعلَّق بأنَّ مطلقَ الأمر بالسجود على الوجوب، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا قَرَأَ ابنُ آدمَ سَجْدَةً؛ فَسَجَدَ؛ اعتزلَ الشيطانُ يبكي يقول: يا وَيْلَه - وفي رواية أبي كُرَيب: يا ويلي[٥] - أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ فَسَجَدَ؛ فَلَهُ

(١) يعني ثانية الحج، وفي (م): وأثبتهما (يعني سجدتي الحج).

(٢) سنن ابن ماجه (١٠٥٦). وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٦٩٢)، والترمذي (٥٦٨) مختصراً. قال أبو داود عقب (١٤٠١): روي عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ: إحدى عشرة سجدة. وإسناده واهٍ ١٠هـ. ووقع في مطبوع ابن ماجه: والحج وسجدة الفرقان. وهو خطأ.

(٣) المفهم ٢/ ١٩٥ . وما قبله منه.

(٤) في النسخ الخطية: سجدة. والمثبت من (م)، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٢٠ .

(٥) وقع بعدها في النسخ غير (ظ): وبقوله عليه السلام إخباراً عن إبليس لعنه الله. والصواب ما أثبتناه، فهو حديث واحد؛ رواه مسلم عن ابن أبي شيبة وأبي كُريب. ووقع في (ظ): وبقوله عليه السلام: أمر ابن آدم... الخ. سقط منها: إذا قرأ ابن آدم...

الجنَّةُ، وأُمِرْتُ بالسجودِ فأَبَيْتُ؛ فليَ النارُ». أخرجه مسلم[١]. ولأنَّ النبيَّ ﷺ كان يحافظ عليه. وعَوَّل علماؤنا على حديثِ عمرَ الثابتِ ـ خرَّجه البخاري[٢] ـ أنه قرأ سجدة[٣] على المِنبر، فنزل فسجد، وسجد الناس معه، ثم قرأها[٤] في الجمعة الأخرى، فتَهيَّأ الناسُ للسجود، فقال: أيها الناسُ، على رِسْلكم، إنَّ اللهَ لم يكتبْها علينا إلا أن نشاء. وذلك بمحضر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من الأنصار والمهاجرين، فلم يُنكر عليه أحد، فثبت الإجماعُ به في ذلك. وأما قوله: «أُمِر ابنُ آدم بالسجود» فإخبارٌ عن السجود الواجب، ومواظبةُ النبيِّ ﷺ تدلُّ على الاستحباب، والله أعلم.

الرابعة: ولا خلاف في أنَّ سجودَ القرآن يحتاجُ إلى ما تحتاجُ إليه الصلاةُ من طهارة حَدَثٍ ونجَس، ونيةٍ، واستقبالِ قبلة، ووقت[٥]. إلا ما ذكر البخاريُّ عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير طهارة[٦]. وذكره ابن المنذر عن الشعبيِّ[٧].

وعلى قول الجمهور هل يحتاج إلى تحريم ورفع يدين عنده وتكبير وتسليم؟ اختلفوا في ذلك؛ فذهب الشافعيُّ وأحمد وإسحاق إلى أنه يُكَبِّرُ ويرفعُ للتكبير لها[٨].

وقد رُويَ في الأثر عن ابن عمر: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا سجد كَبَّرَ، وكذلك إذا رفع كبَّر[٩].

---

(١) في صحيحه (٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أيضاً أحمد (٩٧١٣).

(٢) في صحيحه (١٠٧٧) بنحوه.

(٣) في (م): آية سجدة. والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٢٠ .

(٤) في صحيح البخاري وأحكام القرآن لابن العربي: قرأ بها.

(٥) المفهم ٢/١٩٦ ، وإكمال المعلم ٢/ ٥٢٣ .

(٦) ذكره البخاري تعليقاً قبل الحديث (١٠٧١)، ووصله ابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ ١٤ ، ومن طريقه ابن حجر في تغليق التعليق ٢/ ٤٠٨ .

(٧) ذكر ابن قدامة في المغني ٢/ ٣٥٨ عن الشعبي أن مَنْ سمع السجدة على غير وضوء سجد حيث كان وجهه.

(٨) المفهم ٢/١٩٦ .

(٩) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٢٠ . وأخرج نحوه أبو داود (١٤١٣) من طريق عبد الله بن عمر، =

ومشهور مذهب مالك أنه يُكبِّر لها في الخفض والرفع في الصلاة. واختُلف عنه في التكبير لها في غير الصلاة، وبالتكبير لذلك قال عامَّةُ الفقهاء.

ولا سلام لها عند الجمهور، وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يُسَلِّم منها. وعلى هذا المذهب يتحقق أن التكبير في أوَّلها للإحرام، وعلى قولِ مَنْ لا يُسَلِّم يكون للسجود فحسب. والأوَّلُ أَوْلى؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «مِفْتاحُ الصلاةِ الطُّهورُ، وتحريمُها التكبيرُ، وتحليلُها التسليم»[1]. وهذه عبادةٌ لها تكبير، فكان لها تحليلٌ كصلاة الجنازة، بل أَوْلى، لأنها فعل، وصلاةُ الجنازة قولٌ. وهذا اختيار ابن العربيِّ[2].

الخامسة: وأما وقته؛ فقيل: يسجد في سائر الأوقات مطلقاً؛ لأنها صلاةٌ لسبب. وهو قولُ الشافعيِّ وجماعة. وقيل: ما لم يُسْفِر الصبحُ، أو ما لم تَصْفَرَّ الشمسُ بعد العصر. وقيل: لا يسجد بعد الصبح، ولا بعد العصر. وقيل: يسجد بعد الصبح [ما لم يُسْفِر] ولا يسجد بعد العصر. وهذه الثلاثة الأقوال في مذهبنا. وسببُ الخلاف: معارضة ما يقتضيه سبب قراءة السجدة من السجود المرتَّب عليها؛ لعموم النهي عن الصلاة بعد العصر، وبعد الصبح، واختلافُهم في المعنى الذي لأجله نُهي عن الصلاة في هذين الوقتين، والله أعلم[3].

السادسة: فإذا سجد يقول في سجوده: اللَّهُمَّ احطط عنِّي بها وِزْراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً. رواه ابن عباس عن النبيِّ ﷺ؛ ذكره ابن ماجه[4].

= عن نافع، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا القرآن، فإذا مرَّ بالسجدة كبَّر وسجد، وسجدنا معه. والحديث أصله في البخاري (١٠٧٥)، ومسلم (٥٧٥) من طريق عبيد الله بن عمر، وليس فيه: كبَّر.

(١) أخرجه أحمد (١٠٠٦)، وأبو داود (٦١)، والترمذي (٣)، وابن ماجه (٢٧٥) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ. وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٣٨)، وابن ماجه (٢٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) في أحكام القرآن ٢/ ٨٢٠.

(٣) المفهم ٢/ ١٩٦، وما بين حاصرتين منه.

(٤) سنن ابن ماجه (١٠٥٣). وأخرجه أيضاً الترمذي (٥٧٦) و(٣٤٢٤) وفي إسناده حسن بن محمد بن =

السابعة: فإن قرأها في صلاة؛ فإنْ كان في نافلةٍ، سَجَدَ إنْ كان منفرداً أو في جماعة وأَمِنَ التخليطَ فيها. وإنْ كان في جماعة لا يأمنُ ذلك فيها؛ فالمنصوصُ جوازُه. وقيل: لا يسجد. وأما في الفريضة فالمشهور عن مالك النَّهيُ عنه فيها، سواء كانت صلاة سرٍّ أو جهر، جماعةً أو فُرادَى. وهو مُعَلَّل بكونها زيادة في أعداد سجود الفريضة. وقيل: مُعَلَّل بخوف التخليط على الجماعة؛ وهذا أشبه. وعلى هذا لا يُمنع منه الفُرادَى ولا الجماعة التي يأمن فيها التخليط[1].

الثامنة: رَوَى البخاريُّ عن أبي رافع قال: صَلَّيت مع أبي هريرة العَتَمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسجد؛ فقلت: ما هذه؟ قال: سجدتُ بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه. انفرد بإخراجه[2].

وفيه: وقيل لعمرانَ بن حُصينٍ: الرجلُ يَسمعُ السجدةَ ولم يَجْلِس لها؟ قال: أرأيتَ لو قعد لها؟ كأنه لا يُوجبه عليه. وقال سَلْمان: ما لهذا غَدَوْنا. وقال عثمان: إنما السجدةُ على مَنِ استمعها. وقال الزُّهريُّ: لا يسجدُ إلا أنْ يكونَ طاهراً، فإذا سجدتَ وأنت في حَضَر فاستقبل القبلة، فإنْ كنتَ راكباً فلا عليك حيث كان وجهك. وكان السائبُ [بن يزيد] لا يَسجدُ لسُجُودِ القاصِّ[3]. والله أعلم.

= عبيد الله، وهو مجهول، قال العقيلي في الضعفاء ١/ ٢٤٣ ، لا يُتابع على حديثه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث ابن عباس، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(١) المفهم ٢/ ١٩٦ .

(٢) صحيح البخاري (٧٦٦). ولم ينفرد بإخراجه؛ فقد أخرجه مسلم (٥٧٨): (١١٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧١٤٠)، وأبو داود (١٤٠٨)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٦٢ - ١٦٣ ، وفي الكبرى (١٠٤٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب سجود القرآن ـ قبل الحديث (١٠٧٧) وما بين حاصرتين منه. ووصل هذه الآثار ابن حجر في تغليق التعليق ٢/ ٤١١ - ٤١٢ .

سُورَةُ الأَعْرَافِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ثمانِ آياتٍ مِن قولِه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾[1].

مُحكَمٌ كلُّها، وقيلَ: إلَّا[2] قولَه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[3].

---

(١) هذا قول مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٢٧ ـ ٢٨). وقد اختلفت الروايات عن الأئمة في هذه السورة؛ فقد روي عن ابن عباس وابن الزبير أنها مكية كلها دون استثناء، رواه عن ابن عباس: ابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص: ٢٣)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤٤٥). وعن عبد الله بن الزبير رواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٢).

وفي «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٥٥): عن قتادة: مكية إلّا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ الآيَةَ، فإنَّها نزلت بالمدينة. وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٠٠): روى العوفي وابن أبي طلحة وأبو صالح عن ابن عباس أن سورة الأعراف من المكّيّ، وهذا قول الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة. وروي عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلّا خمس آيات أوَّلُها قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾.

(٢) في نسخة التفتازاني: «إلى»، وليس في نسخة الطبلاوي: «وقيل».

(٣) نسب القول بذلك لابن زيد، وقال ابن حزم: جميعها محكم غير آيتين:

أولاهنَّ: قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الآية نسخت بآية السيف.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، وهذه الآية من عجيب المنسوخ؛ لأنَّ أوَّلها منسوخ وآخرها منسوخ وأوسطها محكم، قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعني: الفضل من أموالهم، والأمر بالمعروف محكم، وتفسيره معروف، وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ منسوخ بآية السيف. انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص: ٤٤٨)، ولابن حزم (ص: ٣٨).

وآيُها مئتانِ وخمسٌ[(١)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ سبقَ الكلامُ في مثلِه.

(٢) ـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرُ مَحذوفٍ؛ أي: هـو كتابٌ[(٢)]، أو خبرُ ﴿الٓمٓصٓ﴾ والمرادُ به السُّورةُ أو القرآنُ.

﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ صِفتُه.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾؛ أي: شكٌّ؛ فإنَّ الشَّاكَّ حَرِجُ الصَّدرِ، أو: ضِيقُ قلبٍ من تبليغِه مخافةَ أن تُكذَّبَ فيه، أو تُقصِّرَ في القيامِ بحقِّه.

وتوجيهُ النَّهيِ إليه للمُبالغَةِ كقولِهم: «لا أَرَينَّكَ هاهنا»[(٣)]، والفاءُ تحتَمِلُ العطفَ والجوابَ؛ كأنَّه قيلَ: إذا أنزلَ إليك لتُنذِرَ به فلا يَحْرَجْ صدرُك منه.

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿أُنزِلَ﴾، أو بـ﴿لا يَكُنْ﴾[(٤)]؛ لأنَّه إذا أيْقَنَ أنَّه مِن عندِ اللهِ جَسَرَ على الإنذارِ، وكذا إذا لم يَخَفْهُم أو عَلِمَ أنَّه موفقٌ للقيامِ بتَبليغِه.

---

(١) مئتان وخمس آيات في البَصريّ والشامي، وست في المدني والمكي والكوفي. انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ١٥٥).

(٢) هذا مَبنيٌّ على المُختارِ من كونِ ألفاظِ التَّهجي على نمطِ التَّعديدِ فلا محلَّ لها من الإعراب، بخلاف ما بعده. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) هو من الكنايةِ، ظاهرُه يَقتَضِي أنَّ المُتكلِّمَ يَنهى نَفسَه عن أن يرى المُخاطبَ هنا، والمرادُ نَهيُ المُخاطَبِ؛ أي: لا تَكُن هاهنا حتى لا أراكَ فيه، فإنَّ كَينونَتَك هاهنا مُستلزِمةٌ لرُؤيَتي إيَّاك، المعنى: أنَّ الحرجَ لو كان مما يُنهى لَنهيناهُ عنكَ فانتَهِ عنه بتَركِ التَّعرُّضِ له. وقال: فالنَّهيُ من بابِ التَّهييجِ والإلهابِ ليُداوِمَ على اليَقينِ ويَزيدَ فيه. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣١٧).

(٤) في تَعليقِ المَجرورِ والظَّرفِ بـ«كان» الناقِصةِ خِلافٌ مبناه على أنَّها هل تدلُّ على حدثٍ أم لا؟ فمَن قال: «نَعَم» جوَّزَه، ومَن قال: «لا» مَنعه، كما قال أبو حيَّان في «البحر المحيط» (١٠/ ١٢).

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمِلُ النَّصبَ بإضمارِ فِعْلِها؛ أي: لتُنذِرَ وتُذكِّرَ ذِكرى، فإنَّها بمَعنى: التَّذكيرِ، والجرَّ عطفًا على محلِّ ﴿تُنذرَ﴾، والرَّفعَ عطفًا على ﴿كِتَٰبٌ﴾ أو خبرًا لمحذوفٍ[١].

(٣) ـ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يعُمُّ القُرآنَ والسُّنَّةَ؛ لقولِه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يُضِلُّونكُم مِن الجنِّ والإنسِ.

وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿مِن دونِهِ﴾ لِـ﴿مَآ أُنزِلَ﴾؛ أي: ولا تتَّبِعُوا من دونِ دينِ اللهِ دينَ أولياءٍ.

وقُرِئَ: «ولا تبتَغُوا»[٢].

﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تَذكُّرًا قليلًا ـ أو: زمانًا قليلًا ـ تذكَّرونَ، حيثُ تتركونَ دينَ اللهِ وتتَّبعونَ غيرَه.

و﴿مَّا﴾ مَزيدةٌ لتأكيدِ القِلَّةِ، وإن جُعِلَت مَصدريَّةً لم ينتصِب ﴿قَلِيلٗا﴾ بـ﴿تَذَكَّرُونَ﴾[٣].

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ عَن عاصمٍ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بحذفِ التَّاءِ، وابنُ عامرٍ: ﴿يتَذكَّرُونَ﴾[٤] على أنَّ الخطابَ بعدُ مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ١٥٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٩)، و«الكشاف» (٣/ ١٥٧)، عن مالك بن دينار، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٢) عن مجاهد.

(٣) لأنَّ معمولَ المصدرِ لا يتقدَّمُهُ، وقال أبو البَقاءِ: لا يجوزُ أن تكونَ ﴿مَّا﴾ مصدريَّةً لأن ﴿قَلِيلٗا﴾ لا يبقى لهُ ناصبٌ. انظر: «التبيان» لأبي البقاء العكبري (١/ ٩٠).

(٤) بياء تحتية ومثناة فوقية وذال مخففة وهي قراءة ابن عامر في المشهور عنه، وقرأ باقي السبعة بتاء فوقية وذال وكاف مشددتين. =

(٤) ـ ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ وكثيرًا مِن القُرى ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾: أرَدْنا إهلاكَ أهلِها، أو أهلكناهَا بالخذلانِ ﴿فَجَآءَهَا﴾: فجاءَ أهلَها ﴿بَأْسُنَا﴾: عذابُنا ﴿بَيَٰتًا﴾: بائتينَ كقومِ لوطٍ، مَصدرٌ وقعَ موقِعَ الحالِ ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ عطفٌ عليه؛ أي: قائلينَ[1] نصفَ النَّهارِ كقومِ شُعيبٍ، وإنَّما حُذِفَت واوُ الحالِ استثقالًا لاجتماعِ حَرْفَي عطفٍ؛ فإنَّها واوُ عطفٍ استُعيرَتْ للوَصلِ[2]، لا اكتفاءً بالضَّميرِ، فإنَّه غيرُ فَصيحٍ[3]، وفي التَّعبيرينِ[4] مُبالغةٌ في غفلَتِهم وأمنِهم عَن العَذابِ، ولذلك خصَّ الوقتَينِ، ولأنَّهُما وقتُ دَعَةٍ واستراحَةٍ، فيكونُ مَجيءُ العذابِ فيه أفظَعَ.

(٥) ـ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾؛ أي: دعاؤُهم واستغاثَتُهُم، أو: ما كانُوا يَدْعونَه مِن دينِهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إلَّا اعترافَهُم بظُلْمِهم فيما كانُوا عليه وبُطلانِه[5] تحسُّرًا عليه.

= وقول المؤلف: «﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف التاء» المراد به تخفيفُ الذال بحذف تاء الافتعال المدغمة فيها، وإن أراد حذف التاء من: (تتذكرون) بتاءين فوقيتين، فهي قراءة ذكرها ابن مجاهد عن ابن عامر، لكنها شاذة كما صرح الآلوسي، وأوردها ابن خالويه في الشواذ. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٢٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٠٨)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٧)، و«حاشية شيخ زاده» (٤/ ١٨٩)، و«روح المعاني» (٩/ ١٤).

(١) والقَيلولةُ: الرّاحةُ والدَّعةُ وسطَ النَّهارِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) هذا مبنيٌّ على قول الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٥٩)، وقد سبق إليه الفراء والأنباري، ولم يرتضه أبو حيّان، فقال: هذا التَّعليلُ ليس بصَحيحٍ؛ لأنَّ واوَ الحالِ ليسَت حرفَ عطفٍ فيلزَمُ من ذكرِها اجتماعُ حرفي عطفٍ. وناقش الحلبي أبا حيان في هذا. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ١٧)، و«الدر المصون» للحلبي (٥/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

(٣) هذا أيضًا مبني على قول الزمخشري الذي تبع فيه الفراء، ونقل أبو حيان أنه رجع عنه إلى مَذهَبِ الجَماعةِ. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ١٧ ـ ١٨).

(٤) أي: ﴿بَيَٰتًا﴾ وما بعده. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٧٥).

(٥) معطوف على «بظُلْمِهم». انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٧٥).

(٦) ـ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ عَن قبولِ الرِّسالةِ وإجابتِهم الرُّسلَ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عمَّا أُجيبُوا به، والمرادُ مِن هذا السُّؤالِ: تَوبيخُ الكفَرَةِ وتقريعُهُم، والمنفيُّ في قولِه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] سؤالُ الاستعلامِ[1]؛ أو الأوَّلُ في موقفِ الحسابِ، وهذا عندَ حُصولِهم على العُقوبَةِ.

(٧) ـ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾: على الرُّسُلِ حينَ يقولونَ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، أو على الرُّسُلِ والمرسَلِ إليهِم ما كانُوا عليه، ﴿بِعِلْمٍ﴾: عالِمِينَ بظَواهِرِهم وبواطِنِهِم، أو: بمَعلومِنا مِنْهُم[2].

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عَنْهُم، فيَخفى علينا شَيءٌ من أحوالِهم.

(٨) ـ ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾؛ أي: القَضاءُ، أو وزنُ الأعـمـالِ، وهو مقابَلَتُها بالجزاءِ، والجُمهورُ على أنَّ صحائفَ الأعمالِ توزَنُ بميزانٍ لهُ لسانٌ وكِفَّتانِ ينظرُ إليه الخلائقُ؛ إظهارًا للمَعْدَلَةِ وقطعًا للمَعذِرَةِ، كما[3] يسألُهم عَن أَعمالِهم فتعترفُ بها ألسنَتُهُم وتشهدُ بها جوارِحُهُم[4].

---

(١) في نسخة الخيالي: «سؤال الاستفهام».

(٢) والجارُّ والمجرورُ حالٌ من فاعلِ نقصُّ على الأوَّل، مُتعلِّقةٌ بـ«نَقصُّ» على الثاني. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة التفتازاني: «وكما».

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٨ و٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٤٤٠)، عن مجاهد: أن الوزن هو القضاء والحقَّ هو العدل. وروى عنه الطبري في قوله تعالى بعد هذا: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قال: حَسَناتُهُ. وقد ذكر الرازي هذا عن بعض السلف وعن كثير من المتأخرين، فقال: وهو قولُ مجاهدٍ والضَّحاكِ والأعمش، وكثيرٌ من المتأخِّرين ذهبوا إلى هذا القول، وقالوا: حملُ لفظ الوزنِ على هذا المعنى سائغٌ في اللُّغة، والدَّليلُ عليه، فوجبَ المصيرُ إليه. انظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٢٠٢)، وإلى هذا القول ذهب المعتزلة كما قال أبو حيان في «البحر» (١٠/ ٢٠)، =

ويؤيِّدُه ما رُوِيَ: أنَّ الرَّجلَ يُؤتَى به إلى الميزانِ فيُنشَرُ عليه تسعةٌ وتسعونَ سِجِلًّا[١] كلُّ سِجِلٍّ مدَّ البصرِ، فيُخْرَجُ له بطاقةٌ[٢] فيها كلمتا الشَّهادةِ، فتوضعُ السِّجلاتُ في كفَّةٍ والبطاقةُ في كفَّةٍ، فطاشَت السِّجلاتُ وثَقُلتِ البِطاقَةُ[٣].

= ومع ذلك فالزمخشري كان مجوِّزًا للأمرين. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٦١).

وقال الزجاج بعد ذكر هذه الأقوال: وهذا كله في باب اللغة والاحتجاج سائغ، إلا أن الأولَى من هذا أن يُتبَع ما جاء بالأسانيد الصحاح. انظر: «معاني القران للزجاج» (٢/ ٣١٩).

وقد رجَّح مكي مذهب الجمهور فقال: قال مجاهد: «ليس ثَمَّ ميزان، وإنما هو مَثَل ضُرِبَ»، وأكثر الناس على أن ثَمَّ ميزاناً توزن به أعمال العباد كيف شاء الله وعلى ما شاء، نقول كما قال، ونوجب ما أوجَب، ونؤمن بما في كتاب الله، ولا نتقدم بين يدي الله، ولا نعترض، ولا نكيِّف ما لا علم عندنا منه، ولا نَحُدُّه. انظر: «الهداية» (١٢/ ٨٤١٢).

ونقل القرطبي عن القشيري قوله: قد أجمعت الأُمةُ في الصدرِ الأولِ على الأخذِ بهذه الظواهِر من غيرِ تأويل، وإذا أجمعوا على منع التأويل وَجَب الأخذُ بالظّاهر، وصارت هذه الظواهرُ نصوصًا. انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ١٥٦).

(١) السِّجِلُّ: الكتابُ، وقيلَ: إنَّهُ مُعرَّبٌ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) هي في الأصل: رقعة صغيرة، تُجعَل في طيِّ الثوب، يكتب فيها ثمنه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٧٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٢٥)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٣٧)، وصححه، ووافقه الذهبي في «التلخيص»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢١٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ سيخلِّصُ رجلاً من أُمتي على رؤوس الخلائق يومَ القيامة فيَنشُرُ عليه تسعةً وتسعين سِجِلًّا كلُّ سِجِلٍّ مِثلَ مَدِّ البصر، ثُم يقول: أتُنكِرُ من هذا شيئًا؟ أظَلَمكَ كَتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفَلَكَ عذرٌ؟ قال: لا يا رب، فيقولُ: بَلَى، إنَّ لكَ عندنا حَسَنةً وإنَّه لا ظُلمَ عليكَ اليومَ، فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها: أشهدُ أن لا إلهَ إلّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: احضُر وَزنَكَ. فيقولُ: يا ربِّ ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجِلّاتِ؟ فيقولُ: إنَّك لا =

وقيلَ: توزَنُ الأشخاصُ؛ لِمَا رُوِيَ عنه عليه السَّلامُ: «إنَّه ليأتي العظيمُ السَّمينُ يومَ القيامةِ لا يَزِنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضَةٍ»[١].

﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ خبرُ المُبتدأِ الَّذي هو «الوَزنُ» ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ صِفتُه[٢]، أو خبرُ محذوفٍ، ومعناه: العدلُ السَّوِيُّ.

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: حسناتُه، أو ما يوزَنُ به حسناتُه، وجمعُه باعتبارِ اختلافِ الموزوناتِ وتعدُّدِ الوَزنِ، فهو جمعُ «مَوزونٍ» أو «مِيزانٍ».

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: الفائزونَ بالنَّجاةِ والثَّوابِ.

(٩) ـ ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ بتَضييعِ الفِطرَةِ السَّليمَةِ الَّتي فُطِرَتْ عليها، واقترافِ ما عرَّضَها للعذابِ.

﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ فيكذِّبونَ بدلَ التَّصديقِ[٣].

(١٠) ـ ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: مَكَّنَّاكُم مِن سُكناها وزرعِها والتَّصرُّفِ فيها ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾: أسبابًا تَعيشونَ بها، جمعُ «مَعيشَةٍ».

= تُظلَمُ، قال: فتُوضَعُ السجلّاتُ في كِفّةٍ والبطاقةُ في كِفّةٍ، فطاشتِ السجلّاتُ وثَقُلتِ البطاقةُ، فلا يَثقُلُ مع اسمِ الله شيء». وقد قيل: ليس المراد بـ«لا إله إلا الله» الإيمان، وإنَّما الذكر، وقد استشهد من يقول بهذا بأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عن قولِ: لا إله إلا الله، أَمِن الحسناتِ هي؟ فقال: «مِن أفضلِ الحَسَناتِ». رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٢) عن أبي ذر. انظر: «التذكرة» للقرطبي (ص: ٧٢٨ ـ ٧٢٩).

(١) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥) عن أبي هريرةَ.

(٢) أي: الوزنُ كائِنٌ يومَ إذ تُسألُ الرُّسلُ والمُرسَلُ إليهم، فحذفَ الجُملةَ وعوَّضَ عنها التَّنوينَ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) يريدُ أنَّ قولَه: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ ضُمِّنَ معنى التَّكذيبِ، فعُدِّيَ بالباءِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٣٢).

وعن نافعٍ أنَّه هَمَزَه تَشبيهًا بما الياءُ فيهِ زائدَةٌ كـ«صَحائِفَ»[١].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فيمَا صنعتُ إِلَيكُم.

(١١) ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾؛ أي: خلَقْنا أباكم آدمَ حينًا[٢] طينًا غيرَ مصوَّرٍ ثمَّ صوَّرْناهُ، نزَّلَ خلقَهُ وتَصويرَهُ مَنزِلَةَ خلقِ الكلِّ وتصويرِه.

أو: ابتدَأْنا خلقَكُم ثمَّ تَصويرَكُم بأَنْ خَلَقْنا آدمَ ثمَّ صَوَّرْناه، ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

وقيلَ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا﴾ لتأخيرِ الإخبارِ[٣].

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: ممَّن سَجَدَ لآدمَ.

(١٢) ـ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾؛ أي: أَنْ تسجُدَ، و«لا» صِلَةٌ[٤] مِثلُها في

---

(١) هي رواية خارجة عن نافع كما في «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٧٨)، و«النشر» (١/ ١٦). وقد عدَّ بعض النحويين هذه القراءة غلطًا، والصواب أنَّ لها وجهًا فقد قال الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٣٧٤): ربما همزت العرب هَذا وشبهه، يتوهمونَ أنها فعيلة؛ لشبهها بوزنها فِي اللفظ وعدّة الحروف، وقد همزت العرب «المصائب»، وواحدتها: مصيبة.

(٢) «حيناً» من نسخة الخيالي.

(٣) لَمّا كانَ أمرُ الملائِكة بالسُّجودِ مُقدَّمًا على خلقِنا وتصويرِنا، وقد عُطِفَ عليهِ بـ«ثمَّ»، اقتضى تأويلَهُ فأوَّلُوهُ بوجوهٍ، منها أن المراد خلق آدم، أو ابتداء خلقنا، أو أن «ثم» لتراخي الإخبار، وقال الطِّيبِيُّ: يمكنُ أن تُحملَ ﴿ثُمَّ﴾ على التَّراخِي في الرُّتبةِ؛ لأنَّ مقامَ الامتنانِ يَقتَضي أن يقال: إنَّ كونَ أبيهِم مَسجودًا للملائكةِ أرفَعُ درجةً من خَلقِهِم وتَصويرِهِم، وفيه تلويحٌ إلى شرفِ العلمِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٣٥)، و«حاشية الخفاجي».

(٤) أي: زائِدةٌ، فإنَّهُ يُعبرَّ عنِ الزّائِدِ في القرآنِ بالصِّلةِ تأدُّبًا؛ لأنَّ المنعَ إنَّما هوَ عنِ السُّجودِ لا عن تركِهِ، وهذا القول ذكر في «العين» المنسوب للخليل (٨/ ٣٤٩) وهو مختار الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٣٧٤)، والزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٦٥).

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩] مُؤكِّدَةٌ مَعنى الفعلِ الَّذي دخلَتْ عليه، ومُنبِّهَةٌ على أنَّ الموبَّخَ عليه تَركُ السُّجودِ.

وقيلَ: الممنوعُ مِن الشَّيءِ مُضطَرٌّ إلى خلافِه، فكأنَّه قيلَ: ما اضطرَّكَ إلى أَنْ لا تَسجُدَ[1].

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ دليلٌ على أنَّ مُطلقَ الأمرِ للوجوبِ والفَوْرِ[2].

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جوابٌ مِن حيثُ المعنى استأنفَ بِه استبعادًا لأَنْ يكونَ مِثلُه مأمورًا بالسُّجودِ لمثلِه[3]، كأنَّه قالَ: المانعُ أَنِّي خيرٌ مِنه، ولا يَحسُنُ للفاضِلِ أَنْ يَسجُدَ للمَفضولِ، فكيفَ يَحسُنُ أَنْ يُؤمَرَ به[4]؟! فهو الَّذي سَنَّ التَّكَبُّرَ وقالَ بالحُسْنِ والقُبحِ العَقْليَّيْنِ أوَّلًا[5].

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تعليلٌ لفضلِه عليه، وقد غَلِطَ في ذلك بأَنْ رَأى الفضلَ كُلَّهُ باعتبارِ العُنصُرِ، وغَفَلَ عمَّا يكونُ باعتبارِ الفاعلِ؛ كما أشارَ إليه

---

(١) فـ﴿مَنَعَكَ﴾ على هذا القول مجاز، والقرينة «لا»، وقريب منه ما ذهب إليه السكاكي والراغب. انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي (ص: ٣٦٧)، و«المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (ص: ٧٧٩).

(٢) ما ذكره البيضاوي هنا لا يتفق مع مذهبه الشافعي بالكامل، وقد ذكر الأنصاري أنَّ الأول مسلم، أما الثاني فأجاب عليه بأن الفور ليسَ من صيغةِ الأمرِ، بل بما دلَّ عليه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٧٨). وانظر: «الإبهاج في شرح المنهاج» للسبكي (٢/ ٢٨ و٦٠ ـ ٦١).

(٣) في نسخة الخيالي: «مأمورًا بمثله».

(٤) وعلى هذا يكون قد علم من كلام إبليس الجواب وزيادة، وهو ما ذهب إليه الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٦٥)، وذهب الطِّيبيُّ إلى أنَّ قول إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ جوابُ سؤال لم يُسأل عنه، وهو: أيكما خيرٌ؟ ولذلك عدَّه من الأُسلوبِ الأحمقِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٣٧).

(٥) في هذه العبارة ردٌّ على المعتزلة، وربَّما على الماتريدية أيضًا. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٣٤٤).

تعالى بقولِـه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ أي: بغيرِ واسِـطَةٍ وباعتبارِ الصُّـورَةِ؛ كمـا نبَّهَ عليـه بقولِـه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، وباعتبـارِ الغايَـةِ وهو مِلاكُهُ[1]، ولذلـك أمرَ الملائكةَ بسُـجودِهِ لمَّا بيَّنَ لَهُـم أنَّه أعلَمُ مِنْهُـم، وأنَّ لـه خَواصَّ ليسَـتْ لغَيْرِه.

والآيـةُ دليـلُ الكـونِ والفسـادِ[2]، وأنَّ الشَّـياطينَ كائنـةٌ[3]، ولعـلَّ إضافَةَ خلقِ الإنسـانِ إلـى الطِّينِ والشَّـيطانِ إلـى النَّارِ باعتبـارِ الجُـزءِ الغَالـبِ.

(١٣) ـ ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ مِن السَّماءِ، أو الجنَّةِ ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾: فما يصِحُّ ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصيَ، فإنَّها مكانُ الخاشعِ المطيعِ، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ التَّكبُّرَ لا يليقُ بأهلِ الجنَّةِ، وأنَّه تعالى إنَّما طردَه وأهبطَهُ لتَكبُّرِه، لا لِمُجرَّدِ عِصيانِه.

﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: ممَّنْ أهانَهُ اللهُ لكِبْرِه.

قالَ عليهِ السَّلامُ: «مَن تَواضعَ للهِ رفعَهُ اللهُ، ومَن تَكبَّرَ وضعَهُ اللهُ»[4].

(١٤) ـ ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: أمهِلْني إلى يـومِ القِيامَةِ فلا تُمِتْنِي، أو: لا تُعَجِّلْ عُقوبَتِي.

(١٥) ـ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ يَقتَضِـي الإجابـةَ إلـى مـا سـألَهُ ظاهـرًا، لكنَّـه

---

(١) قوله: «وهو ملاكه»؛ أي: ما يكون من الفضل باعتبار الغاية ـ كاختصاص آدم وتمييزه بشرف العلم ـ هو الذي يقوم به الفضل ويبنى عليه. وملاك الأمر وقوامه: ما يقوم به الأمر. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ١٩٦).

(٢) قوله: «دليل الكون والفساد»؛ أي: الوجودِ والعدمِ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٧٩).

(٣) أي: حادثة لا أرواح قديمة. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٩٠) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مطولًا. وروى مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

مَحمـولٌ علـى ما جاءَ مُقيَّـدًا بقولِه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾، وهـو النَّفخَةُ الأُولَى، أو وقـتٌ يعلَـمُ اللهُ انتهـاءَ أجلِـه فيه[١]، وفي إسـعافِه إليـه ابتـلاءُ العِبـادِ وتَعريضُهُم للثَّـوابِ بمُخالفَتِه[٢].

(١٦) ـ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾؛ أي: بعدَ أَنْ أَمْهَلْتَنِي لأجتَهِدَنَّ فـي إغوائِهِم بأَيِّ طَرِيقٍ يُمكِنُني بسببِ إغوائِكَ إيَّايَ بواسِطَتِهم؛ تَسميةً، أو حَمْلًا على الغيِّ، أو تكليفًا بما غَويتُ لأجلِه[٣].

والباءُ مُتعلِّقَةٌ بفعلِ القَسَمِ المَحذوفِ[٤]، لا بـ«أقعدن» فإنَّ اللّامَ تصدُّ عنهُ[٥]، وقيلَ: الباءُ للقَسمِ.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ ترصُّدًا بهم كما يقعدُ القُطَّاعُ للسَّابلَةِ ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: طريقَ الإسلامِ، ونصبُه على الظَّرفِ؛ كقولِه:

---

(١) فهو أرادَ أن يجدَ فسحةً في الإغواءِ ونجاةً مِنَ الموتِ، إذ لا موتَ بعدَ البَعثِ، فأجابَهُ إلى الأوَّلِ دونَ الثّاني. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) تبعَ فيهِ الزَّمخشريَّ، وهوَ مبنيٌّ على تعليلِ أفعالِهِ تعالى، وعدمِ إسنادِ القبائحِ والشُّرورِ إليهِ... والأولى أن لا يخوضَ العبدُ في أمثالِ هذهِ الأسرارِ، ويفوِّضَ حقيقتَها إلى الحكيمِ المُختارِ. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٦٦)، و«حاشية الخفاجي».

(٣) قوله: «تسمية...» إلى آخره، بيانٌ لعموم الطرق المذكورة بقوله: «بأي طريق يمكنني»، والمعنى: لأجتهدنَّ في إغوائهم بأن أُغويَهم بحيثُ يُسمَّوا غاوِينَ لارتكابهم الغَيَّ، أو: بأن أحمِلَهم على الغَيِّ؛ أي: أزيـِّنه لهم، أو: بأن أكلِّفَهم ـ أي: أُلزِمَهم ـ بفعلِ ما غَويتُ لأجلِه، وهو المعصيةُ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٧٩).

(٤) قدَّره الزمخشري: فبما أغويتَني أُقسمُ بالله لأقعدن. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٦٨).

(٥) وذلك لأنها تمنعُ ما بعدَها عن العملِ فيما قبلَها؛ لأنَّ لها صدرَ الكلام على الصَّحيحِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ[١]

وقيلَ: تَقديرُهُ: على صِراطِكَ؛ كقولِكَ[٢]: «ضُرِبَ زَيدٌ الظَّهرَ والبَطْنَ»[٣].

(١٧) ـ ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾؛ أي: مِن جميعِ الجهاتِ الأربَعِ، مَثَّلَ قَصْدَه إيَّاهُم بالتَّسويلِ[٤] والإضلالِ مِن أيِّ وجهٍ يمكنُه بإتيانِ العَدوِّ مِن الجهاتِ الأربَعِ، ولذلك لم يَقُل: مِن فَوقِهِم ومِن تحتِ أَرجُلِهِم.

وقيلَ: لم يَقُل: مِن فوقِهِم؛ لأنَّ الرَّحمةَ تنزلُ منه، ولم يَقُل: مِن تحتِهِم؛ لأنَّ الإتيانَ منه يُوحشُ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: مِن قِبَلِ الآخرةِ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ مِن قِبَلِ الدُّنيا ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ مِن جهَةِ حَسَناتِهِم وسَيِّئاتِهِم[٥].

---

(١) جزء من بيت لساعدةَ بن جُؤَيَةَ، وتمامه:

لَدنٍ بهزِّ الكَفِّ يعسلُ مَتنُه ... فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعلَبُ

انظر: «ديوان الهذليين» (١/ ١٦٧ ـ ١٦٨)، والبيت في «الكتاب» (١/ ٢١٤)، وهو دون نسبة في «الكامل» للمبرد (١/ ٢٨٩). ورواية الديوان: «لذٌّ بهزٍّ»، وقال شارحه: قوله: «لَذّ»؛ أي: تَلذُّ الكَفُّ بهزِّه، وقوله: «كما عَسَل الطريقَ الثعلبُ»؛ أي: في الطريق.

واستشكل الطيبي الاستشهاد بالبيت؛ لأنَّه شاذٌّ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٤٢).

(٢) في نسخة التفتازاني: «كقولهم».

(٣) أي: على الظهر والبطن. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٢٤).

(٤) التَّسويلُ: تَحسينُ الشَّيءِ وتَزيينُه للإنسانِ ليَفعلَهُ أو يقولَه. انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٤٢٥).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٢٤٥) بلفظ: «﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: أشككهم في الآخرة»، و(٨٢٥٠) بلفظ: «﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: من الآخرة»، و(٨٢٥٥) بلفظ: «﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: من قبل حسناتهم»، و(٨٢٥٨) بلفظ: «﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: من قبل سيائتهم»، ورواه (٨٢٤٤) بلفظ: «﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: من قبل الدنيا».

ويحتمِلُ أَنْ يُقالَ: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: مِـن حيثُ يعلمونَ ويَقْدِرونَ التَّحرُّزَ عنه، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: مِن حيثُ لا يَعلَمُونَ ولا يَقْدِرونَ، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: مِن جهَةٍ يَتيسَّرُ لهم أَنْ يعلَمُوا ويتَحرَّزُوا ولكن لم يَفعَلُوا لعدمِ تَيقُّظِهم واحتياطِهِم.

وإنَّما عُدِّيَ الفعلُ إلى الأوَّلَينِ بحرفِ الابتداءِ[١]؛ لأنَّه مِنهُما متوجِّهٌ إليهِم، وإلى الأخيرينِ بحرفِ المُجاوزَةِ[٢] فإنَّ الآتيَ مِنهُما كالمُنحَرِفِ عنهُم المارِّ على عُرضِهِم[٣]، ونظيرُه قولُهم: جلستُ عَن يمينِه.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾: مُطيعينَ، وإنَّما قالَه ظنًّا؛ لقولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] لمَّا رأى فيهم مبدأَ الشرِّ مُتعدِّدًا ومبدأَ الخيرِ واحدًا[٤]، وقيلَ: سمعَهُ مِن الملائكةِ.

(١٨) ـ ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومًا﴾: مَذمومًا، من «ذَأَمَه»: إذا ذمَّه.

وقُرِئَ: «مَذُومًا»[٥] ـ كـ«مَسُولٍ» في مَسؤُولٍ، أو كـ«مَكُولٍ» في مَكِيلٍ ـ مِن ذامَهُ يَذِيمُه ذيمًا[٦].

---

(١) وهو ﴿مِنۡ﴾.

(٢) وهو ﴿عن﴾.

(٣) قولـه: «المـار علـى عرضهـم»؛ أي: غيـر ملاصق لهـم فيتجـاوز عنهم. انظـر: «حاشـية القونوي» (٨/ ٣٥٢). والعُـرض: الجانـب. انظـر: «القامـوس» (مـادة: عرض).

(٤) قوله: «مبدأ الشَّرِّ»؛ أي: القوّة الشَّهويَّة والغضبيَّة، و«مبدأ الخيرِ»: العقلُ، أو: «مبدأ الشَّرِّ»: الشَّيطان والنَّفس والهوى، و«مبدأ الخيرِ»: المَلَك. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٨١)، و«حاشية الخفاجي».

(٥) انظـر: «المختصـر فـي شـواذ القـراءات» (ص: ٤٨)، و«المحتسـب» (١/ ٢٤٣)، عـن الزهـري والأعمـش.

(٦) قوله: «كـ«مسول»...» يعني: أن هذه القراءة تخرج على أحد وجهين:

الأول: أن يكون أصله: مذؤوم، فخففت الهمزة بإلقاء حركتها على الذال قبلها ثم حذفت، فصار =

﴿مَدْحُورًا﴾: مَطـرودًا ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ الـلَّامُ فيـه لتوطئـةِ القسـمِ، وجوابُـه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو سادٌّ مَسدَّ جوابِ الشَّرطِ.

وقُرِئَ «لِمَنْ» بكَسرِ اللَّامِ[1] على أنَّه خبرُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ على معنى: لِمَن تَبعكَ هذا الوعيدُ[2]، أو عِلَّةٌ لـ﴿ٱخْرُجْ﴾[3]، و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جوابُ قَسمٍ مَحذوفٍ[4].

= كـ«مسول» في مسؤول. والثاني: أن يكون اسم مفعول من «ذامه يذيمه» كـ«باعه يبيعه»، وكان حقه أن يقال: «مَذِيم» كمبيع، إلّا أنه أُبدلت الواو من الياء كما قالوا: «مكول» في مكيل مع أنه من الكيل. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٢٠١).

(١) وهي قراءة الجحدري، وعصمة عن أبي بكر عن عاصم في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٢٤٣)، و«الكشاف» للزمخشري (٣/ ١٧٢).

(٢) هذا معنى ما ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٧٢)، ولفظه: ورَوى عصمةُ عن عاصم: «لِـمَن تَبِعَك» بكسر اللامِ، بمعنى: لِـمَن تَبِعكَ منهم هذا الوعيدُ، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ على أنَّ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ في محلِّ الابتداء، و«لِـمَن تَبِعكَ» خبرُه. وقد أنكر أبو حيان في «البحر المحيط» (١٠/ ٣٩ ـ ٤٠) صلاحية هذه الجملة للابتداء، أما الحلبي فأجازها، وقال: يكون هذا الجارُّ خبراً مقدماً، والمبتدأ محذوف تقديره: لمن تبعك منهم هذا الوعيدُ، ودلَّ على قوله: «هذا الوعيد» قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾؛ لأن هذا القسمَ وجوابَه وعيدٌ، وهذا أراده الزمخشري. انظر: «الدر المصون» للسمين الحلبي (٥/ ٢٧٤)، وهو قريب من كلام أصحاب الحواشي. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٨١)، و«حاشية شيخ زاده» (٤/ ٢٠١)، و«حاشية ابن التمجيد» (٥/ ٣٥٣).

قلت: ويحتمل أن يكون الزمخشري قصد أن جملة ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ محكية، فهذا القول مبتدأ خبره الجار والمجرور، ويقوي هذا ما ذُكر من أن هذا القول هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، والله أعلم.

(٣) قوله: «أو علة لـ﴿ٱخْرُجْ﴾»؛ أي: اخرج لأجل من تبعك منهم. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (٨/ ٢٠١).

(٤) قوله: «و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب قسم محذوف»؛ أي: على الوجهين المذكورين في هذه القراءة.

ومَعنى ﴿مِنكُمْ﴾: منكَ ومِنهم، فغُلِّبَ المُخاطبُ.

(١٩) ـ ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ﴾؛ أي: وقُلْنا: يا آدمُ[1] ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وقُرِئَ: «هـذي الشَّـجرةَ»[2] وهو الأصلُ لتَصغيرِه على: ذَيَّا، والهاءُ بدلٌ مِن الياءِ[3].

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّـٰلِمِينَ﴾ فتَصيرا مِن الَّذينَ ظَلَموا أنفسَهُم، و«تكونا» يحتمِلُ الجزمَ على العطفِ، والنَّصبَ على الجوابِ[4].

(٢٠) ـ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَـٰنُ﴾؛ أي: فعلَ الوَسوَسَةَ لأجلِهما، وهي في الأصلِ: الصَّوتُ الخفيُّ كـ«الهَيْنَمَةِ» و«الخَشْخَشَةِ»، ومنهُ: وَسْوَسَ الحُلِيُّ. وقد سبقَ في البقرةِ كيفيَّةُ وَسوسَتِه.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾: ليُظْهِرَ لَهُما، واللَّامُ للعاقبةِ، أو للغرضِ على أنَّه أرادَ أيضًا بوَسْوَسَتِه أَنْ يَسوءَهُما بانكشافِ عَورَتِهما، ولذلك عبَّرَ عَنْهُما بالسَّوأةِ[5]، وفيه دليلٌ على أنَّ كشفَ العَوْرةِ في الخلوةِ وعندَ الزَّوجِ من غيرِ حاجةٍ قبيحٌ مستهجَنٌ في الطِّباعِ[6].

---

(١) إنما قدَّرَ: قلنا؛ ليؤذِنَ بأنَّ هذه القصَّة بتَمامِها مَعطوفةٌ على مِثلها، وهي قولُه: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا﴾. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٤٧ـ٣٤٨).

(٢) هي قراءة ابن محيصن. انظر: «المحتسب» (١/ ٢٤٤).

(٣) أي: الياء هي أصل الهاء في كلمة «هذه». انظر: «المحتسب» (١/ ٢٤٤).

(٤) جواب النَّهي منصوب على إضمار «أن» عند الخليل وسيبويه، وزعم الجرميُّ: أنَّ الفاء هي الناصبة. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٦).

(٥) أي: لِكونِ كشفِ الفَرجِ يسوءُ صاحبَهُ سمَّتهُ العربُ: سَوءةً. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٦) تبعَ فيه صاحبَ «الكشاف» (٣/ ١٧٣)، وقد قال ابنُ المُنيِّر: إنَّ فيه مَيلاً إلى الاعتزالِ، وأنَّ العَقلَ يُقبِّحُ ويُحسِّنُ. قال: وهذا اللفظُ لو صَدَرَ من السُّنِّيِّ كانَ تأويلُه أنَّ العَقلَ أدركَ المعنى الذي لأجلِه حسَّنَ الشَّرعُ السَّترَ وقبَّحَ الكَشفَ. انظر: «حاشية السيوطي» (٦/ ٢٩١)، ولم نقف عليه في مطبوع «الانتصاف».

﴿مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ما غُطِّيَ عَنْهُما مِن عَوراتِهِما، وكانا لا يَريانِها مِن أنفُسِهما ولا أحدُهُما مِن الآخرِ، وإنَّما لم تُقلَبِ الواوُ المضمومةُ همزةً في المَشهورِ كما قُلِبَ في «أُوَيصِلٍ» تصغيرِ واصِلٍ[(١)]؛ لأنَّ الثَّانيَةَ مدةٌ.

وقُرِئَ: «سَوَاتِهِمَا» بحذفِ الهمزةِ وإلقاءِ حركتِها علـى الواوِ[(٢)]، و: «سَوَّاتِهِما» بقلبِها واوًا وإدغامِ الواوِ السَّاكنةِ فيها[(٣)].

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا﴾: إلَّا كراهةَ أَنْ تكونا ﴿مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾: الَّذينَ لا يموتونَ، أو: يخلدونَ في الجنةِ.

واستُدِلَّ بـه على فضلِ الملائكـةِ على الأنبيـاءِ، وجوابُه: أنَّه كانَ مِـن المَعلومِ أنَّ الحَقائـقَ لا تَنقلِـبُ، وإنَّما كانَـتْ رَغبَتُهُما في أن يحصلَ لهمـا أيضًا ما للملائكَةِ مِـن الكمـالاتِ الفِطريَّـةِ والاستغناءِ عَن الأطعمَـةِ والأَشـرِبَةِ، وذلك لا يـدلُّ على فَضلِهِـم مُطلَقًا[(٤)].

(٢١) ـ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ أي: أقسَـمَ لهـما عـلـى ذلـك، وأخـرَجَه[(٥)] على زِنَةِ المُفاعَلَةِ للمُبالغَةِ، وقيلَ: أقسَمَا له بالقَبولِ[(٦)].

---

(١) وأصله: وُوَيصِل، وقد قُلبت الأولى همزة لأنَّ الثّانية مُتحرِّكة. انظر: «المقتضب» للمبرد (١/ ٩٥).

(٢) انظر: «التبيان» للعكبري (١/ ٥٦٠)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٢).

(٣) نسبت للزهري والحسن وأبي جعفر وشيبة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨)، و«المحتسب» (١/ ٢٤٣).

(٤) وقيل: إنَّ كلام إبليس من جملة الغرور الذي دلاهما به، فلا اعتداد به. انظر: «الانتصاف» لابن المنير بهامش «الكشاف» للزمخشري (٢/ ٩٤).

(٥) في نسخة الخيالي: «وإنما أخرجه».

(٦) يعني مع قسمه لهما بالنصح، فصار ما بينهم مقاسمة.

وقيلَ: أقسَمَا عليه باللهِ إنَّه لَمِنَ النَّاصحينَ، وأقسَمَ لهما، فجُعِلَ ذلك مُقاسمةً[١].

(٢٢) ـ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: فنزَّلَهما إلى الأكلِ من الشَّجرةِ[٢]، نبَّه به على أنَّه أهبطَهُما بذلك مِن دَرجةٍ عاليةٍ إلى رُتبةٍ سافلَةٍ، فإنَّ «التَّدلِيَةَ» و«الإدلاءَ» إرسالُ الشَّيءِ مِن أعْلى إلى أَسْفلَ.

﴿بِغُرُورٍ﴾: بما غرَّهما به مِن القَسَمِ؛ فإنَّهما ظنَّا أنَّ أحدًا لا يحلفُ باللهِ كاذبًا[٣]، أو: مُلْتَبِسَينِ بغرورٍ.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾؛ أي: فلمَّا وجدَا طعمَها آخذَينَ في الأكلِ مِنها أخذَتْهُما العقوبةُ وشؤمُ المعصيةِ، فتهافتَ عَنْهُما لباسُهُما وظهرَتْ لَهُما عوراتِهِما.

واختُلفَ في أنَّ الشَّجرةَ كانَت السُّنبلةَ، أو الكَرْمَ، أو غيرَهُما، وأنَّ اللباسَ كانَ نورًا[٤]، أو حُلَّةً، أو ظُفرًا[٥].

---

(١) انظر: «الانتصاف» لابن المنير بهامش «الكشاف» للزمخشري (٢/ ٩٥)، و«الإنصاف» لعلم الدين العراقي (١/ ٣٧٨)، و«فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٥٣).

(٢) وعن الأزهريِّ أنَّ أصلَهُ من تدليةِ العَطشانِ شيئًا في البئرِ، فلا يجدُ فيها ما يشفي غليلَهُ. انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٢٢).

(٣) هذا مذكور عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «الوسيط» للواحدي (٢/ ٣٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ١٨٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١١٤) عن وهب.

(٥) كون اللباس كان ظفرًا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ولا يصح، فقد رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٥٢ و١٤٥٩) عنه من طريقين: الأول فيه الحسن بن أبي جعفر الجُفري، قال عنه البخاري: منكر الحديث، وضعفه أحمد والنسائي. انظر: «تهذيب الكمال» (٦/ ٧٣). وفي الثاني النضر بن عبد الرحمن أبو عمر الخزاز، قال عنه أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: لا يحل لأحد أن يروي عنه، وقال البخاري: منكر الحديث. انظر: «تهذيب التهذيب» (٤/ ٢٢٥).

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾: أخذا يَرْقَعانِ[١] ويلزقانِ ورقةً فوقَ ورقةٍ ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيلَ: كانَ ورقَ التِّينِ[٢].

وقُرِئَ: «يُخْصِفانِ» من أخصَفَ؛ أي: يُخْصِفَانِ أنفُسَهُما، و: «يُخَصِّفَانِ» مِن خَصَّفَ، و: «يَخِصِّفَانِ»[٣] وأصلُه: يختَصِفانِ.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عتابٌ على مُخالفةِ النَّهيِ، وتوبيخٌ على الاغترارِ بقولِ العَدوِّ، وفيه دليلٌ على أنَّ مُطلقَ النَّهيِ للتَّحريمِ[٤].

(٢٣) ـ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾: ضَرَرْناها[٥] بالمعصيةِ والتَّعريضِ للإخراجِ عَن الجنَّةِ.

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الصَّغائرَ معاقبٌ عليها إن لم تُغفَر.

وقالت المعتزلةُ: لا تَجوزُ المُعاقبَةُ عليها مع اجتنابِ الكبائرِ، ولذلك قالُوا: إنَّما

---

(١) إشارةٌ إلى أنَّ طَفِقَ من أفعالِ الشُّروعِ الدّالَّةِ على الأخذِ في الفعلِ، ولذا لا تدخلُ أن على خبرِها وهيَ بكسرِ الفاءِ في الأفصحِ، وقد تُفتَحُ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) رواه الطبري (١٠/ ١١١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تنظر القراءات الثلاث مع مَن قرأ بكل منها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨)، و«المحتسب» (١/ ٢٤٥)، و«الكشاف» (٣/ ١٧٦).

(٤) قال الشهاب في «حاشيته»: أجابَ المُصنِّفُ عنهُ في البقرةِ بأنَّهُ للتَّنزيهِ، وأنَّ ندمَهُما واستغفارَهُما لتركِ الأولى، فكيفَ ذكرَ هُنا أنَّهُ دليلٌ على التَّحريمِ معَ احتمالِ التَّنزيهِ؟! وانظر في المسألة: «تقويم الأدلة في أصول الفقه» للدبوسي (ص: ٥٤)، و«تشنيف المسامع» للزركشي (٢/ ٦٣٤).

(٥) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «أضررناها».

قَالا ذلك على عادةِ المُقرَّبينَ في استعظامِ الصَّغيرِ مِن السَّيِّئاتِ واستحقارِ العَظيمِ مِن الحسناتِ[1].

(٢٤) ـ ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ ﴾ الخطابُ لآدمَ وحوَّاءَ وذُرِّيَّتِهِما، أو: لهما ولإبليسَ، كرَّرَ الأمرَ له تبعًا ليُعلمَ أنَّهم قرناءُ أبدًا، أو: أخبرَ عمَّا قالَ لهم مُفرَّقًا.

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ في مَوضعِ الحالِ؛ أي: مُتعادِينَ.

﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ ﴾: استقرارٌ، أو: موضعُ استقرارٍ[2]، ﴿ وَمَتَٰعٌ ﴾: وتمتُّعٌ ﴿إِلَىٰ حِينٖ ﴾: إلى تَقَضِّي آجالِكُم[3].

(٢٥) ـ ﴿ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾ للجزاءِ.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ ذَكْوانَ: ﴿ومنها تَخْرُجُونَ﴾، وفي ﴿كذلك تَخْرُجُونَ﴾ [الزخرف: ١١] بفتحِ التَّاءِ وضمِّ الرَّاءِ[4].

(٢٦) ـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا ﴾؛ أي: خلَقْناه[5] لكُم بتَدبيراتٍ سَماويَّةٍ وأسبابٍ نازلةٍ، ونظيرُه قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الزمر: ٦] وقولُه: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ الَّتي قصدَ الشَّيطانُ إبداءَها، ويُغنيكم عن خصفِ الورقِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٧٧).

(٢) أي: هوَ مصدرٌ مِيميٌّ على الأول، واسمُ مكانٍ على الثاني. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) هذا مبني على تعلُّق ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ بـ﴿متاعٌ﴾، ويجوز تعلُّقه بـ﴿مُسۡتَقَرّٞ﴾، ويفسِّر الحين عندها بوقت القيامة، كما مرَّ في البقرة. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ١٠٩).

(٥) في نسخة الخيالي: «خلقنا».

رُوِيَ: أنَّ العربَ كانُوا يَطوفونَ بالبيتِ عُراةً ويقولون: لا نَطوفُ في ثِيابٍ عَصَيْنَا اللهَ فيها، فنزَلَت(١).

ولعلَّه ذكرَ قِصَّةَ آدمَ تَقدِمَةً لذلك، حتَّى يُعلَمَ أنَّ انكشافَ العَورَةِ أوَّلُ سوءٍ أَصابَ الإنسانَ مِن الشَّيطانِ، وأنَّه أَغْواهُم في ذلك كمَا أَغْوَى أَبوَيْهِم.

﴿وَرِيشًا﴾: ولِباسًا تَتجمَّلُونَ به، والرِّيشُ: الجمالُ(٢). وقيلَ: مالًا، ومنه «تريَّشَ الرَّجلُ»: إذا تموَّلَ(٣).

وقُرِئَ: «رِيَاشًا»(٤) وهو جمعُ ريشٍ؛ كـ«شِعْبٍ» و«شِعَابٍ».

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: خشيةُ اللهِ، وقيلَ: الإيمانُ، وقيلَ: السَّمتُ الحَسَنُ، وقيلَ: لباسُ الحربِ، ورفعُه بالابتداءِ، وخبرُه: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، أو خبرٌ و﴿ذَٰلِكَ﴾ صِفَتُه؛ كأنَّه قيلَ: ولباسُ التَّقوى المُشارُ إليه خيرٌ(٥).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٥٣) وعبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٣٩)، عن سعيد بن جبير، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٥٦)، عن مجاهد.

وروى مسلم في «صحيحه» (٣٠٢٨) عن ابن عباس: «كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تطوافاً؟ تجعله على فرجها، وتقول:

اليومَ يَبدُو بعضُه أو كلُّهُ فما بدا منهُ فلا أُحِلُّه

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]».

(٢) قال الطِّيبيُّ: عطفَ ﴿رِيشًا﴾ على ﴿لِبَاسًا﴾ ليُؤذِنَ بأنَّ الزِّينةَ أيضًا غرضٌ صَحيحٌ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٥٨).

(٣) انظر: «الزاهر في معاني كلام الناس» للأنباري (١/ ٢٥٠).

(٤) نسبت لعثمان وابن عباس رضي الله عنهم وجمع من التابعين والقراء. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨)، و«المحتسب» (١/ ٢٤٦)، و«الكشاف» (٣/ ١٧٨)، و«البحر» (١٠/ ٥١).

(٥) وفي هذا الإعراب إشكال من جهة أنَّ اسم الإشارة أعرف من المعرف باللام، ولا يُوصف الشَّيء =

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ والكِسائيُّ: ﴿ولِباسَ﴾ بالنَّصبِ[1] عطفٌ على ﴿لِبَاسًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إنـزالُ اللِّبـاسِ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدَّالَّـةِ علـى فضلِـه ورَحمتِـه ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفونَ نِعمتَهُ، أو يتَّعِظُونَ فيتورَّعونَ عَن القَبائحِ.

(٢٧) - ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: لا يَمتَحِنَنَّكُم بأَنْ يَمنَعَكُم دخولَ الجنَّةِ بإغوائِكُم.

﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾: كما مَحَنَ أَبوَيْكُم بأَنْ أخرجَهُما مِنها[2]، والنَّهيُ في اللَّفظِ للشَّيطانِ، والمعنى: نَهيُهُم عَن اتِّباعِه والافتتانِ به.

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ حالٌ مِن ﴿أَبَوَيْكُم﴾، أو فاعلِ ﴿أَخْرَجَ﴾ وإسنادُ النَّزعِ إليهِ للتَّسبُّبِ.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، وتَأكيدٌ للتَّحذيرِ مِن فِتنتِه.

و«قبيلُه»: جنـودُه[3]، ورؤيتُهُم إيَّانا من حيثُ لا نراهُم في الجُملَةِ لا تَقتَضِي امتِناعَ رؤيَتِهِم وتَمثُّلِهُم لنا[4].

= بما هو أعرف منه. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٢٨)، و«التبيان» لأبي البقاء العكبري (١/ ٥٦٢)، و«فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٥٩).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٩).

(٢) أي: أوقعَهما في المحنِ والبلاءِ بسببِ الإخراجِ من الجنة. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) و«القبيلُ» في الأصل: الجماعةُ من قوم شتَّى، فإن كانُوا من أبٍ واحِدٍ فهُم قبيلةٌ. انظر: «الغريب المصنف» لأبي عبيد (١/ ٣٨١)، و«فقه اللغة وسر العربية» للثعالبي (ص: ١٥٥).

(٤) لأنَّه تَعالى أثبتَ أنَّهُم يرونَنا من جهةٍ لا نراهُم نحنُ مِنها، وهي الجِهةُ التي يَكونونَ فيها على أصلِ خِلقَتِهم من الأجسامِ اللَّطيفةِ. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ٥٦). وكلام البيضاوي ردٌّ على الزَّمخشريِّ وغيرِهِ مِنَ المُعتزلةِ المُنكِرينَ لِرؤيةِ الجنِّ، فإنه قال في «الكشاف» (٣/ ١٦٠): فيه =

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما أوجَدْنا بينَهُم مِن التَّناسُب، أو بإرسالِهم عليهِم، وتَمكينِهِم مِن خذلانِهم، وحَملِهِم على ما سَوَّلُوا لهم.

والآيةُ مَقصودُ القِصَّةِ وفذلَكَةُ[1] الحكايَةِ.

(٢٨) ـ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾: فعلةً مُتناهيَةً في القُبحِ كعبادَةِ الصَّنمِ وكشفِ العَورَةِ في الطَّوافِ.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ اعتذَرُوا واحتجُّوا بأمرينِ: تقليدِ الآباءِ، والافتراءِ على اللهِ، فأعرَضَ عَن الأوَّلِ لظُهورِ فَسادِه وردَّ الثَّانيَ بقولِه:

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ لأنَّ عادتَه تَعالى جرَتْ على الأمرِ بمَحاسنِ الأفعالِ والحثِّ على مكارمِ الخِصالِ.

ولا دلالةَ فيه على أنَّ قبحَ الفعلِ ـ بمَعنى ترتُّبِ الذَّمِّ عليه آجِلًا ـ عَقليٌّ؛ فإنَّ المُرادَ بالفاحشةِ: ما ينفرُ عنه الطَّبعُ السَّليمُ، ويَستنقِصُه العَقلُ المُستقيمُ.

وقيلَ: هما جوابَا سُؤالينِ مُترتِّبينِ؛ كأنَّه قيلَ لهم لَمَّا فَعلوها: لِمَ فَعَلْتم؟ فقالوا: وَجَدْنا عليها آباءَنا، فقيلَ: ومِن أينَ أخذَ آباؤُكُم؟ فقالوا: اللهُ أمرَنا بها.

وعلى الوَجهَيْنِ[2] يمتَنِعُ التَّقليدُ إذا قامَ الدَّليلُ على خلافِه، لا مُطلَقًا.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكارٌ يَتضمَّنُ النَّهيَ عَن الافتراءِ على اللهِ[3].

= دليلٌ بيِّنٌ أن الجنَّ لا يُرَون ولا يظهَرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسَهم ليس في استطاعتهم، وأن زَعمَ مَن يَدَّعي رؤيتَهم زُورٌ ومَخرقةٌ.

(١) الفذلكةُ: الإجمالُ.

(٢) كونه جوابًا، أو جوابين.

(٣) لأنَّ الافتراءَ تعمُّدُ الكذبِ فإذا أُنكِرَ القولُ من غيرِ علمٍ فإنكارُ ما عُلِمَ خلافُهُ يثبتُ بالطَّريقِ الأولى. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢٩) ـ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعـدلِ، وهو الوسطُ مِن كلِّ أمرٍ، المتجافي عَـن طرفي الإفـراطِ والتَّفريطِ.

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾: وتوجَّهُـوا إلـى عبادَتِـه مُستقيمينَ غيـرَ عادليـنَ إلـى غَيرِهـا، وأقيمُوها نحـوَ القِبلَـةِ ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: في كلِّ وَقتِ سُـجودٍ أو مَكانِه، وهـو الصَّلاةُ[١]، أو: في أيِّ مَسـجِدٍ حضرَتْكُـم الصَّلاةُ[٢] ولا تُؤخِّرُوهـا حتَّى تَعودُوا إلى مَسـاجِدِكُم.

﴿وَٱدْعُوهُ﴾: واعبدُوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: الطَّاعةَ، فإنَّ إليه مَصيرَكُم.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ كما أنشأَكُم ابتداءً ﴿تَعُودُونَ﴾ بإعادَتِه فيُجازيكُم على أعمالِكُم، وإنَّما شبَّهَ الإعادةَ بالإبداءِ تقريرًا لإمكانِها[٣] والقدرةِ عليها.

وقيلَ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ مِن التُّرابِ تَعودونَ إليه.

وقيلَ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ حُفاةً عُراةً غُرْلًا[٤] تَعودونَ.

وقيلَ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ مُؤمِنًا وكافرًا يعيدُكُم[٥].

---

(١) أي: ﴿مَسْجِدٍ﴾ مصدرٌ ميميٌّ، أو اسمُ مكانٍ كُنِّيَ به عن الصَّلاةِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٦٧).

(٢) قولُهُ: «أو في مسجدٍ حضَرَتكُم الصَّلاةُ» عطفٌ على قولِهِ: «في كلِّ وقتِ سجودٍ»، والمسجدُ على هذا بالمعنى المُصطلَحِ المعروف. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة التفتازاني: «لإمكانه».

(٤) أي: غير مختونين. انظر: «التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» للعسكري (ص: ٦٨).

(٥) روى الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٤٢) عنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قال: إنَّ الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا؛ كما قال جل ثناؤه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم؛ مؤمنًا وكافرًا. وروى عنه أيضًا أنَّه قال: يبعث المؤمن مؤمنًا، والكافر كافرًا.

(٣٠) ـ ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ بأَنْ وَفَّقَهُم للإيمانِ ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ بمُقتضَى القَضاءِ السَّابقِ[١]، وانتصابُه بفعلٍ يُفسِّرُه ما بعدَه؛ أي: وخَذَلَ فَريقًا[٢].

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تعليلٌ لخذلانِهم[٣]، أو تحقيقٌ لضَلالَتِهِم.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ يدلُّ على أنَّ الكافِرَ المُخطِئَ والمُعانِدَ سواءٌ في استحقاقِ الذَّمِّ[٤]، وللفارقِ أنْ يحملَهُ على المقصِّرِ في النَّظرِ.

(٣١) ـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾: ثيابَكُم لِمُواراةِ عَورَاتِكُم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ لطَوافٍ أو صَلاةٍ، ومِن السُّنَّةِ أن يأخذَ الرَّجلُ[٥] أحسنَ هيئَةٍ للصَّلاةِ، وفيه دليلٌ على وُجوبِ سترِ العورةِ في الصَّلاةِ.

---

(١) في هذا ردٌّ على المعتزلة فهم ينكرونَ القضاءَ في أفعالِ العبادِ الاختياريّةِ ويُثبِتُونَ علمَهُ بها، قال الزمخشريُّ في «الكشاف» (٣/ ١٨٣): ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾؛ أي: كلمةُ الضَّلالة، وعَلِمَ الله أنهم يَضلُّون. ثم قال: وهذا دليلٌ على أنَّ عِلمَ الله لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالُّون باختيارهم وتوَلِّيهم الشياطينَ دون الله.

(٢) تبع في هذا التقدير الزمخشري، وهو مبني عنده على الاعتزال، والظاهر أن يقدَّر: وأضلَّ فريقًا، ولكن يمكن أن يُحمل كلام البيضاوي على أنه قاله تأدبًا، لا ميلًا للاعتزال، ولا إشكال فيه على مذهب أهل السنة، فمن أضلَّه الله مخذول غير منصور. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٢١٠)، و«حاشية القونوي» (٨/ ٣٧٢).

(٣) قدَّمه لبيان رجحانه عنده، ولعل رجحانه لموافقته قراءة «أنَّهم اتخذوا» المروية عن سهل بن شعيب وعباس بن المفضل. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ١٨٥).

(٤) قال الشهاب في «حاشيته»: وجهُ الدَّلالةِ أنَّهُ ذكرَ أوَّلاً مَن والى الشَّياطِينَ عادلاً عنِ اللهِ وهُمُ المُعاندونَ، ثمَّ ذمَّ مَن ظَنَّ مِنهُم أنَّ ما هوَ عليهِ حقٌّ وهدًى.

(٥) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «الإنسان».

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ما طابَ لكُم، رُوِيَ أنَّ بني عامرٍ في أيَّامِ حَجِّهِم كانُوا لا يأكلونَ الطَّعامَ إلَّا قوتًا، ولا يأكلونَ دسمًا، يعظِّمونَ بذلك حجَّهُم، فهَمَّ المسلمونَ بهِ، فنزَلَت[1].

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتَحريمِ الحَلالِ، أو بالتَّعدِّي إلى الحرامِ، أو بإفراطِ الطَّعامِ والشَّرَهِ عليه.

وعَن ابنِ عبَّاسٍ: كُلْ ما شِئتَ والبَسْ ما شِئتَ ما أخطأَتْكَ خَصْلتانِ: سَرَفٌ ومَخِيْلَةٌ[2].

فقالَ عليُّ بنُ الحُسينِ بنُ واقدٍ: جمعَ اللهُ الطِّبَّ في نصفِ آيةٍ فقالَ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[3].

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لا يرتَضِي فِعلَهُم.

(٣٢) - ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ مِن الثِّيابِ وسائرِ ما يُتجمَّلُ به ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ مِن النَّباتِ كالقُطنِ والكَتَّانِ، والحيوانِ كالحَريرِ والصُّوفِ، والمعادنِ كالدُّروعِ ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾: المُستلَذَّاتُ مِن المآكلِ والمشاربِ.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٣٣٨) عن الكلبي، وهو في «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٢٦)، لكن أوله: (كان أهل الجاهلية...).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٤٨٧٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٤٤) إلى عبد بن حميد، وعلقه البخاري قبل الحديث (٥٧٨٣). والمَخِيلةُ: الكِبرُ.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٣٠)، و«غرائب التفسير» للكرماني (١/ ٤٠٢)، و«الكشاف» (٣/ ١٨٤)، و«زاد المسير» (٣/ ١٨٨). وقد ذكروه بأتم من هذا، وفيه قصة قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٦٤): لم أجد لها إسنادًا.

وفيه دليلٌ على أنَّ الأصلَ في المطاعمِ والملابسِ وأنواعِ التَّجمُّلاتِ الإباحةُ؛ لأنَّ الاستفهامَ في ﴿مَنْ﴾ للإنكارِ[1].

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالأصالةِ، والكفرةُ وإنْ شاركُوهُم فيها فتبَعٌ.

﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشارِكُهُم فيها غيرُهُم، وانتصابُها على الحالِ[2]. وقرأَ نافِعٌ بالرَّفعِ على أنَّها خبرٌ بعدَ خَبرٍ[3].

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: كتَفصيلِنَا هذا الحُكمَ نُفصِّلُ سائرَ الأحكامِ لهم.

(٣٣) ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: ما تزايدَ قبحُهُ، وقيلَ: ما يتعلَّقُ بالفُروجِ.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: جهرَها وسِرَّها.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾: وما يوجبُ الإثمَ، تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ، وقيلَ: شربُ الخمرِ[4].

﴿وَٱلْبَغْيَ﴾: الظُّلمَ، أو الكِبْرَ، أفردَه بالذِّكرِ للمُبالغَةِ.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بـ«البَغي» مؤكِّدٌ له مَعنًى.

---

(١) أي: لإنكارِ تحريمِها على وجهٍ بليغٍ؛ لأنَّ إنكارَ الفاعلِ يُوجبُ إنكارَ الفعلِ؛ لانعدامِ الفعل دونَ فاعلِهِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي (٤/ ١٥ ـ ١٧)، و«التبيان» لأبي البقاء العكبري (١/ ٥٦٥).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٩).

(٤) هذا منقولٌ عنِ الحسنِ البَصريِّ، والأخفش، وذكرَهُ أهلُ اللُّغةِ، وأنكره الكرماني في «لباب التفاسير» فقال: والصحيح أنَّ الخمر حُرمت بالمدينة، وهذه السورة مكية. انظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» للأنباري (٢/ ٢١)، و«مقاييس اللغة» (١/ ٦٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٢/ ٣٤٢).

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ تهكُّمٌ بالمُشركينَ[١]، وتَنبيهٌ على تحريمِ اتِّباعِ ما لم يدلَّ عليه برهانٌ.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحادِ في صِفاتِه والافتراءِ عليهِ؛ كقولِهم: اللهُ أمرَنا بها.

(٣٤) ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: مدَّةٌ أو وقتٌ لنزولِ العذابِ بهم، وهو وعيدٌ لأهلِ مكَّةَ.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾: انقرضَتْ مُدَّتُهم، أو حانَ وَقتُهم.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ أي: لا يَتأخَّرُونَ ولا يَتقدَّمونَ أقصرَ وقتٍ[٢]، أو لا يطلبونَ التَّقدُّمَ والتَّأخُّرَ لشدَّةِ الهولِ.

(٣٥ ـ ٣٦) ـ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ شرطٌ ذكرَهُ بحرفِ الشَّكِّ[٣] للتَّنبيهِ على أنَّ إتيانَ الرُّسُلِ أمرٌ جائزٌ غيرُ واجبٍ كما ظنَّه أهلُ التَّعليمِ[٤]، وضُمَّت إليه «ما» لتأكيدِ معنى الشَّرطِ، ولذلك أُكِّدَ فعلُها بالنُّونِ، وجوابُه:

---

(١) لأنه لا يجوز أن يُنزِل بُرهاناً بأن يُشرَك به غيرُه، كما قال الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٨٦)، ووجه التهكُّم أنه جُعل كأنَّ له سلطانًا إلا أن لم ينزل. انظر: «الانتصاف» لابن المنير بهامش «الكشاف» للزمخشري (٢/ ١٠١).

(٢) وذُكِرَت السّاعةُ لأنَّها أقلُّ أسماءِ الأوقاتِ، وهي ليس وقتٌ محدَّدًا. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٣٤).

(٣) وهو «إن» الشرطية؛ لأنَّ ﴿إِمَّا﴾ هي «إن» الشرطيةُ ضُمَّت إليها «ما» مؤكِّدةً لمعنى الشرط. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٨٦).

(٤) ذكر الشهاب أنهم الفلاسفة الذين أوجبوا على الله إرسال الرسل؛ لأنه يفعل الأصلح. وذكر القونوي أنهم الإسماعيلية، وهم طائفة من الشيعة ذهبوا إلى أن المعرفة لا تحصل بدون المعلِّم. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (٨/ ٣٧٧)، و«إيثار الحق على الخلق» لابن الوزير (ص: ٢٥).

﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والمعنى: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ التَّكذيبَ وأصلحَ عملَه مِنكُم، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ مِنْكُم، وإدخالُ الفاءِ في خبرِ الأوَّلِ دونَ الثَّاني[1] للمُبالغةِ في الوعدِ والمُسامحةِ في الوَعيدِ.

(٣٧) - ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾: فمَنْ تَقوَّلَ[2] على اللهِ ما لم يَقُلْه، أو كذَّبَ ما قالَه ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾: ممَّا كُتبَ لهم مِن الأرزاقِ والآجالِ.

وقيلَ: الكتابُ: اللَّوحُ المَحفوظُ؛ أي: ممَّا أُثبتَ لهم فيه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾؛ أي: يتوفونَ أرواحَهُم، وهو حالٌ مِن الرُّسلِ[3]، و﴿حَتَّىٰ﴾ غايةُ نَيلِهِم، وهي الَّتي يُبتدأُ بعدَها الكَلامُ[4].

﴿قَالُوا﴾ جوابُ ﴿إِذَا﴾: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: أينَ الآلهةُ الَّذينَ كنتُمْ تَعبدونَها؟ و﴿مَا﴾ وُصِلَت بـ﴿أَيْنَ﴾ في خطِّ المصحَفِ وحقُّها الفصلُ لأنَّها مَوصولَةٌ[5].

---

(١) الأول: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، والثاني: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

(٢) التَّقوُّل: تعمُّدُ الكذبِ مُطلقًا، ويدخل في التقوُّل عليه إثبات الشريك والصاحبة والولد له تعالى، وإسناد الأحكام الباطلة إليه تعالى. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٢١٦).

(٣) والمراد بالرسل الملائكة هنا.

(٤) ونوقش في دلالتها على الغاية، وفي كونها جارة. انظر: «الدر المصون» للحلبي (٣/ ٥٨٣).

(٥) كذا قال تبعًا للزمخشري في «الكشاف» (٣/ ١٨٧) وكذا تابعه أبو حيان في «البحر» (١٠/ ٨٣)، والآلوسي في «روح المعاني» (٩/ ٩٨)، وابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية، ولم يذكر غيرهم هذا الموضع من المواضع التي وصل فيها (ما) بـ(أين) في القرآن. انظر: «المقنع في رسم مصاحف الأمصار» للداني (ص: ٧٧)، و«البرهان» للزركشي (١/ ٤١٩).

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾: غابوا عنَّا ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ اعترفُوا بأنَّهم كانُوا ضَالِّينَ فيما كانُوا عليه[1].

(٣٨) ـ ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ﴾؛ أي: قالَ اللهُ لهم يومَ القيامةِ[2]، أو أحدٌ من الملائكةِ: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾؛ أي: كائنينَ في جملةِ أممٍ مصاحِبينَ لهم يومَ القيامةِ ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ يعني: كفَّارَ الأممِ الماضيةِ من النَّوعَينِ ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ﴾؛ أي: في النَّارِ ﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ الَّتي ضلَّتْ بالاقتداءِ بها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾؛ أي: تدارَكُوا[3] وتلاحقُوا في النَّارِ.

﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ دخولًا[4] أو منزلةً[5] ـ وهُم الأتْبَاعُ[6] ـ ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾؛ أي: لأجلِ أُولاهُم ـ إذ الخطابُ معَ اللهِ لا معَهُم ـ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾: سَنُّوا لنا الضَّلالَ فاقتدَيْنا بهِم ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾: مُضاعفًا؛ لأنَّهم ضَلُّوا وأَضلُّوا.

---

(١) وأوَّلَ الشَّهادةَ بالاعترافِ؛ لأنَّها إمّا للغيرِ أو على الغيرِ، لكنَّها التَّلفُّظُ بما يتحقَّقُهُ الشّاهدُ، فتجوَّزَ بهِ عن ذلكَ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) هذا على قول مَن أجاز أن يكلم الله الكفار بما يسوؤهم على ما مرَّ في تفسير البقرة، والثاني على قول من منعه.

(٣) قوله: «تدارَكُوا» تفسيرٌ لـ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ ببيانِ أصلِهِ: إذ أصلُهُ: تدارَكُوا، فأُدغِمَتِ التّاءُ في الدّالِ بعدَ قلبِها دالًا وتسكينِها، ثمَّ اجتُلِبَت همزةُ الوصلِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) «أُخرى» على هذا مؤنث «آخِر» المقابل للأوَّل.

(٥) «أُخرى» على هذا مؤنث «آخَر» اسم التفضيل.

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٦). والظاهر أن هذا على القولين السابقين، لا على الثاني فقط، فقد جاء في «تفسير مقاتل»: قالت أخراهم دخولًا النار وهم الأتباع، لأولاهم دخولًا النار وهم القادة.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾[١]: أمَّا القادةُ فبكُفرِهِم وتَضليلِهِم، وأمَّا الأتباعُ فبِكُفرِهِم وتَقليدِهِم[٢].

﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما لَكُم، أو: ما لِكُلِّ فريقٍ. وقرأ عاصِمٌ بالياءِ على الانفِصَالِ[٣].

(٣٩) ـ ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ عطفُوا كلامَهُم على جوابِ اللهِ لأُخراهم ورتَّبُوهُ عليه[٤]؛ أي: فقد ثبتَ أَنْ لا فضلَ لَكُم علينا، وأنَّا وإيَّاكُم مُتساوُونَ في الضَّلالِ واستحقاقِ العَذابِ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ مِن قولِ القادَةِ أو مِن قولِ الفَريقَيْنِ[٥].

(٤٠) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾؛ أي: عَنِ الإيمانِ بها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لأَدْعِيَتِهِم وأعمَالِهِم أو لأَرْوَاحِهِم؛ كما تُفتَّحُ لأعمالِ المؤمنينَ

---

(١) قال أبو عبيدة: «الضِّعفُ» مثلُ الشَّيءِ مرَّةً واحدةً، وقال الأزهريُّ: ما قالَهُ هوَ ما تستعملُهُ النَّاسُ في مجازِ كلامِهِم، وأمّا كلامُ اللهِ تعالى فيردُّ إلى كلامِ العربِ، و«الضِّعفُ» في كلامِ العربِ: المثلُ إلى ما زادَ، ولا يقتصرُ على مِثلَينِ، بل هوَ غيرُ محصورٍ أكثرُه، وأقلُّه محصور، وهو المثل. انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢١٤)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

(٢) قال في «الكشّافِ»: لأنَّ كُلاًّ مِنَ القادةِ والأتباعِ كانُوا ضالِّينَ مُضِلِّينَ. وقال الخفاجي في «حاشيته»: أمّا الأوَّلُ فظاهرٌ، وأمّا الثّاني فلأنَّ القادةَ زادُوا باتِّباعِهِم لهُم طغيانًا وثباتًا على الضَّلالِ وقوّةً على الإضلالِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

(٣) هي قراءة عاصم من رواية شعبة، وقرأ الباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١١٠). وقوله: «على الانفِصالِ»؛ أي: انفصالُ هذا الكلامِ عمّا قبلَهُ.

(٤) قوله: «ورتَّبُوهُ عليه» عطف تفسير على ما قبله. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٢١٦).

(٥) قال القونوي في «حاشيته» (٨/ ٣٨١): فيه نوع ركاكة، وذكر الخفاجي أنه في بعض النسخ: «أو من قولِ اللهِ للفريقَينِ»، قال: وهيَ أظهرُ مِنَ الأولى.

وأرواحِهِم لتتَّصِلَ بالمَلائكَةِ[1]، والتَّاءُ في ﴿تُفَتَّحُ﴾ لتأنيثِ الأبوابِ، والتَّشديدُ لكَثْرَتِها[2].

وقرأ أبو عمرٍو بالتَّخفيفِ، وحمزةُ والكسائيُّ به وبالياءِ؛ لأنَّ التَّأنيثَ غيرُ حَقيقيٍّ والفعلُ مقدَّمٌ[3].

وقُرِئَ على البناءِ للفاعلِ ونَصبِ الأبوابِ بالتَّاءِ على أنَّ الفعلَ للآياتِ، وبالياءِ على أنَّ الفعلَ للهِ[4].

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾؛ أي: حتَّى يدخلَ ما هو مَثَلٌ في عِظَمِ الجِرْمِ وهو البَعيرُ فيما هو مَثَلٌ في ضيقِ المسلكِ وهو ثقبَةُ الإبرةِ، وذلك ممَّا لا يكونُ، فكذا ما توقَّفَ عليه.

وقُرِئَ: «الجُمَّل» كالقُمَّل، و«الجُمَل» كالنُّغَر، و«الجُمْل» كالقُفْل، و«الجُمُل» كالنُّصُب، و«الجَمْل» كالحَبْل[5]، وهي الحبلُ الغليظُ مِن القِنَّبِ[6]، وقيلَ: حبلُ السَّفينَةِ.

---

(١) وهذا على الحقيقة لثبوته في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وكما روى الترمذي في «سننه» (٤٧٨) عبد الله بن السائب، أنَّ رسول الله ﷺ كان يصلِّي أربعًا بعد أن تزول الشمس قبل الظهر، وقال: «إنَّها ساعةٌ تفتح فيها أبوابُ السماء، وأحبُّ أن يصعدَ لي فيها عملٌ صالحٌ».

(٢) فالتَّضعيفُ لتكثيرِ المفعولِ لا الفعلِ؛ لعدمِ مُناسبةِ المقامِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٤) القراءتان في «الكشاف» (٣/ ١٨٩)، والأولى عن اليزيدي والثانية عن نعيم بن ميسرة في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ١٨٦).

(٥) انظر هذه القراءات الخمسة مع نسبتها لقائليها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨)، و«المحتسب» (١/ ٢٤٩)، و«الكشاف» (٣/ ١٨٩)، و«البحر» (١٠/ ٩٠).

(٦) القِنَّبُ والقُنَّب: نوعٌ من الكتَّانِ. انظر: «تاج العروس» (٤/ ٨١). وهذا التفسير على القراءات الخمسة.

و: «سمٍّ» بالضَّمِّ والكسرِ[١]، و: «في سمِّ المِخْيَطِ»[٢] وهوَ و«الخِياطُ»: ما يُخاطُ به كـ«الحِزَامِ» و«المِحْزَمِ».

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ومثلَ ذلك الجزاءِ الفظيعِ ﴿نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

(٤١) ـ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾: فِراشٌ ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾: أغطيَةٌ، والتَّنوينُ فيه للبدلِ عن الإعلالِ عندَ سيبويهِ[٣]، وللصَّرفِ عندَ غيرِه[٤].

وقُرِئَ: «غواشٌ» على إلغاءِ المَحذوفِ[٥].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عَبَّرَ عَنْهُم بالمُجرمينَ تارَةً وبالظَّالِمينَ أُخرى؛ إشعارًا بأنَّهُم بتكذيبِهِم الآياتِ اتَّصَفُوا بهذهِ الأَوْصافِ الذَّميمَةِ، وذكَرَ الجُرمَ مع الحرمانِ من الجنَّةِ والظُّلمَ مع التَّعذيبِ بالنَّارِ تنبيهًا على أنَّه[٦] أعظَمُ الإجرامِ.

---

(١) أي: وقرئ «سمٍّ» بالضم والكسر، ذكرهما ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩) عن أبي السمال، وزاد الكرماني في «شواذ القراءات» (ص: ١٨٦) ابن سيرين وأبي حيوة في قراءة الضم، ونسب قراءة الكسر لأبي حيوة ويزيد بن قطيب.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩)، و«الكشاف» (٣/ ١٩١)، عن ابن مسعود.

(٣) فهو غيرُ مُنصرفٍ عند سيبويه؛ لأنَّهُ على صيغةِ مُنتهى المجموعِ، والتَّنوينُ عوضٌ عن الحرفِ المحذوفِ، وهو الياء عند سيبويه، أو عن حركتِهِ عند أصحابه كأبي إسحاق الزجاج. انظر: «الكتاب» (٣/ ٣٠٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٣٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٥٣).

(٤) هو منصرف عندهم لزوال علّة المنع ـ وهي وزن «فواعل» ـ بحذف الياء، وصيرورته على وزن «فَعال». انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٩٣).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩) عن أبي رجاء.

(٦) الضمير يعود على الظلم، وقد ذكر بخصوصه بعد ذكر الجرم العام الذي يشمل الظلم وغيره، كما ذكر أن عقوبته التعذيب في النار، وهو يشمل الحرمان من الجنة وزيادة؛ للتنبيه على أن الظلم أعظم جرماً.

(٤٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على عادَتِه سُبحانَه وتَعالى في أَنْ يَشفَعَ[1] الوَعيدَ بالوَعْدِ[2].

و﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ اعتراضٌ بينَ المبتدَأِ وخبرِه[3] للتَّرغيبِ في اكتسابِ النَّعيمِ المُقيمِ بما يَسَعُهُ طاقَتُهُم ويسهُلُ عَلَيهِم[4].

وقُرِئَ: «لا تُكَلَّفُ نفسٌ»[5].

(٤٣) ـ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾؛ أي: نُخرِجُ مِن قُلوبِهِم أسبابَ الغلِّ، أو نُطهِّرُها منه حتَّى لا يكونَ بينَهُم إلَّا التَّوادُّ.

وعَن عليٍّ: إنِّي لأَرْجُو أَنْ أكونَ أنا وعُثمانُ وطَلحَةُ والزُّبَيرُ مِنْهُم[6].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ زيادةً في لذَّتِهم وسُرورِهِم.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾: لِمَا جزاؤُه هذا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا

---

(١) قوله: «يشفعَ» بمعنى: يقرنَهُ بهِ، ويجعلَهُ بهِ شفعًا. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني: «الوعد بالوعيد».

(٣) المبتدأ ﴿الذين آمنوا﴾ والخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. وفي نسخة الخيالي والتفتازاني: «والخبر».

(٤) أي: أنَّ الوسعَ ما يقدرُ الإنسانُ عليهِ في حال السَّعة ولسهولة، لا في حال الضِّيق والشِّدة، فإنَّ أقصى الطَّاقةِ يُسمَّى جهدًا لا وسعاً، وغلطَ مَن ظنَّ أنَّ الوسعَ بذلُ المجهودِ. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٢١٩). وانظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ١٣٦).

(٥) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٩١)، و«البحر» (١٠/ ٩٣)، عن الأعمش.

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠١)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٩٨ ـ ١٩٩). قال الخفاجي في «حاشيته»: وخصَّ هؤلاءِ لِما جرى في خلافةِ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ بينَهُما، ومُحاربةِ طلحةَ والزُّبيرِ رضيَ اللهُ عنهُما في وقعةِ الجَمَلِ.

﴿ٱللَّهُ﴾: لولا هِدايَةُ اللهِ وتَوفيقُه، واللَّامُ لتَوكيدِ النَّفيِ[(١)]، وجوابُ ﴿لَوْلَآ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿ما كُنَّا﴾ بغيرِ واوٍ[(٢)] على أنَّها مبيِّنةٌ للأُولَى.

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فاهتدَيْنا بإرشادِهم[(٣)]، يقولونَ ذلك اغتباطًا وتبجُّحًا[(٤)] بأنَّ ما عَلِمُوه يقينًا في الدُّنيا صارَ لَهُم عينَ اليَقينِ في الآخرةِ.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ إذا رَأَوْها مِن بَعيدٍ، أو بعدَ دُخولِها، والمنادَى له بالذَّاتِ[(٥)]:

---

(١) أي: اللام في ﴿لِنَهْتَدِيَ﴾، وهيَ اللاَّمُ الَّتي تُسمَّى لامَ الجحودِ، وتُزادُ بعدَ «كانَ» المنفيَّةِ للتَّأكيد، وقوله: «واللام لتوكيد النفي» اختيار لمذهب الكوفيين فيها، فهي عندهم زائدة، وعند البصريين جارة، ولكن الكوفيين يجعلون اللام وما بعدها خبرًا، أما الزمخشري فكلامه صريح في تقدير الخبر كما هو مذهب البصريين، ففي «الكشاف» (٣/ ١٨٩): وما كان يستقيمُ أن نكون مهتدين لولا هدايةُ الله وتوفيقُه؛ فالظاهر أن مذهبه مركب من المذهبين، وكذلك مذهب ابن مالك فيها. انظر: «اللامات» للزجاجي (ص: ٦٨)، و«الإنصاف في مسائل الخلاف» للأنباري (٢/ ٤٨٥)، و«الجنى الداني» للمرادي (ص: ١١٦ ـ ١٢١)، و«حاشية شيخ زاده» (٤/ ٢٢٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٣) في نسخة الخيالي: «لإرشادهم».

(٤) الاغتباط: السُّرور، والتَّبجُّح: الفرح. انظر: «معجم ديوان الأدب» للفارابي (٢/ ٤٤١)، و«الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة» لابن مالك (ص: ١١٨).

(٥) القولان لإيضاح مبرِّر دخول اسم الإشارة ﴿تِلْكُمُ﴾ الموضوعة في الأصل للبعيد، وقوله: «والمنادى له» مبتدأ خبره: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ و«بالذات»؛ أي: بالقصد، وإن كان المنادى له بحسب الظاهر ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾؛ أي: الذي نودوا له ليس نفس الجنة في الحقيقة وبالذات، بل المنادى له هو كونها موروثة لهم؛ لأنَّ نفعهم إنَّما هو فيه، ونفس الجنة وإن وقعت في الآية موقع المنادى له لكن كونها منادى له ليس بالذات بل بالعَرَض. انظر: «حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (٨/ ٣٨٦).

﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أُعْطِيتُمُوها بسببِ أَعمَالِكُم[1]، وهو حالٌ مِن ﴿الْجَنَّةُ﴾ والعامِلُ فيها مَعنى الإشارةِ، أو خبرٌ و﴿الْجَنَّةُ﴾ صِفَةُ ﴿تِلْكُمُ﴾، و﴿أَن﴾ في المواقعِ الخَمسَةِ[2] هي المخفَّفَةُ، أو المفسِّرَةُ لأنَّ المُناداةَ والتَّأذينَ من القولِ[3].

(٤٤) ـ ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إنَّما قالوهُ تَبجُّحًا بحالِهم وشَماتَةً بأصحابِ النَّارِ وتَحسيرًا لهم، وإنَّما لم يَقُل: ما وعدَكُم ـ كمَا قالَ: ﴿مَا وَعَدَنَا﴾ ـ لأنَّ ما ساءَهُم مِن الموعودِ لم يَكُن بأسرِهِ مَخصُوصًا وعدُه بِهِم كالبَعثِ والحِسابِ ونعيمِ أَهلِ الجنَّةِ[4].

---

(١) احتجَّ الزمخشري بهذه الآية لمذهب المعتزلة، وأنكر على أهل السنة قولهم بأن دخول الجنة بفضل الله ورحمته، ويشهد لأهل السنة ما رواه البخاري (٦٣٦٤) ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يُنَجِّيَ أحدًا منكم عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلّا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ، سَدِّدوا وقارِبوا». ونحوه عند البخاري (٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨)، من حديث عائشة، و(٢٨١٧) عند مسلم من حديث جابر.
وفي التعبير القرآني بلفظ ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ إشارة إلى أن هذا المعنى؛ فالنسب سبب للميراث، ولكن ليس بكسب الإنسان، والعمل الصالح سبب لدخول الجنة، ولكن ليس بكسب الإنسان، بل بفضل الله ورحمته، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) هيَ: ﴿أَن تِلْكُمُ﴾ و﴿أن وجدنا﴾ و﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ﴾ و﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ و﴿أَنْ أَفِيضُوا﴾. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٣٨٦).

(٣) هذا التعليل لجواز كونها مفسرة، فشرطها أن تقع بعد ما فيه معنى القول دون حروفه. انظر: «شرح الكافية الشافية» لابن مالك (٣/ ١٥٢٢).

(٤) هذا أحد وجهين ذكرهما في «الكشاف» (٣/ ١٩٤)، وحاصله أن حذف المفعول أفاد الشمول؛ فأهل النار وجدوا ما وعدهم الله من العذاب وما وعد المؤمنين من الثواب حقًّا، والوجه الثاني: أنه حذف تخفيفًا لدلالة ما سبقه عليه.

﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ وقرأ الكِسائيُّ: ﴿نَعِمْ﴾ بكسرِ العَينِ[١]، وهمَا لُغتانِ.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ﴾ قيلَ: هو صاحبُ الصُّورِ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: بينَ الفَرِيقَيْنِ ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقرأ ابنُ كَثيرٍ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿أنَّ لعنَةَ اللهِ﴾ بالتَّشديدِ والنَّصبِ[٢].

وقُرِئَ: «إنَّ» بالكسرِ على إرادةِ القَولِ[٣]، أو إجراءِ «أَذَّنَ» مُجرى: قالَ.

(٤٥) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صِفَةٌ لـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُقرِّرَةٌ[٤]، أو ذمٌّ مرفوعٌ أو منصوبٌ[٥].

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾: زيغًا ومَيْلًا عمَّا هو عليه، و«العِوَجُ» ـ بالكسرِ ـ في المعاني والأَعيانِ ما لم تَكُن مُنتَصِبَةً، وبالفتحِ ما كانَ[٦] في المنتصبَةِ كالحائطِ والرُّمحِ[٧]، ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

(٤٦) ـ ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾؛ أي: بينَ الفَريقَيْنِ؛ كقولِه: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾ [الحديد: ١٣]، أو بين الجنَّةِ والنَّارِ ليمنعَ وُصولَ أثرِ إحداهُما إلى الأخرى.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨١)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨١)، و«التيسير» (ص: ١١٠). وقراءة ابن كثير من رواية البزي.

(٣) نسبت للأعمش. انظر: «الكشاف» (٣/ ١٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٠٣)، و«البحر» (٤/ ٩٩).

(٤) قولُهُ: «صفةٌ للظّالمينَ مقرِّرةٌ» إنَّما كانَت صفةً مقررةً؛ لأنَّ الصَّدَّ عن سبيلِ اللهِ بمعنى: الإعراضِ عنهُ، لا منعِ الغيرِ، ولا يُوقفُ بينَهُما على هذا، وعلى القطعِ يصحُّ الوقفُ. انظر: «حاشية الخفاجي». وانظر: «منار الهدى في بيان الوقف والابتدا» للأشموني (١/ ٣٤٤).

(٥) على تقدير: هم اللذين، أو أذمُّ الذين.

(٦) «ما كان»: ليس في نسخة التفتازاني.

(٧) انظر: «الصحاح» (١/ ٣٣١)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص: ٣٧٩).

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾: وعلى أعرافِ الحِجَابِ؛ أي: أعاليهِ، وهو السُّورُ المَضروبُ بَينَهُما: جمعُ عُرْفٍ، مُستعارٌ مِن عُرْفِ الفرسِ.

وقيلَ: «العُرْفُ»: ما ارتفعَ مِن الشَّيءِ، فإنَّه يَكونُ بظُهورِه أعرفَ مِن غيرِه.

﴿رِجَالٌ﴾: طائفَةٌ مِن المُوحِّدِينَ قصَّرُوا في العملِ، فيُحبَسُونَ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ حتَّى يقضيَ اللهُ فيهِم ما يشاءُ.

وقيلَ: قومٌ علَتْ دَرَجاتُهُم كالأنبياءِ، أو الشُّهداءِ[1]، أو خِيارِ المُؤمنينَ وعُلَمَائِهِم، أو ملائكةٌ يُرَوْنَ في صورةِ الرِّجالِ.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ مِن أهلِ الجنَّةِ والنَّارِ ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: بعلامَتِهِم الَّتي أعلَمَهُم اللهُ بها كبياضِ الوَجهِ وسوادِهِ، «فِعْلَى» مِن «سامَ إبلَه»: إذا أرسلَها في المرعَى مُعْلَمَةً، أو مِن «وَسَمَ» على القلبِ[2]؛ كـ«الجاهِ» مِن الوَجْهِ، وإنَّما يَعرفونَ ذلك بالإلهامِ أو تَعليمِ المَلائكَةِ.

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ إذا نَظَروا[3] إليهم سَلَّموا عَلَيهِم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حالٌ مِن الواوِ على الوجهِ الأوَّلِ[4]، ومن الأَصحابِ على الوُجوهِ الباقيةِ[5].

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «والشهداء».

(٢) قوله: «على القلب»؛ أي: القلبِ المكانيِّ، وهو تقديمُ حرفٍ على آخر. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٩٥).

(٣) قال الطيبيُّ: إنَّما قدَّرَ «نَظرُوا» دونَ «صُرفت»؛ ليؤذِنَ بأنَّ النظرَ إلى أصحابِ الجنَّةِ وُجدَ مِنهُم على سبيلِ الرغبةِ وميلِ النَّفسِ، وإلى أصحابِ النَّارِ بخِلافِه. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٩٥).

(٤) قوله: «﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حال من الواو»؛ أي: من واو ﴿يَدْخُلُوهَا﴾ «على الوجه الأول»؛ أي: وهو أنَّ الرجالَ القائمين على الأعراف طائفةٌ من الموحِّدين قصَّروا في العمل. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٩٥).

(٥) «الباقية» من نسخة الخيالي، وفي نسخة الطبلاوي: «على الوجه الثاني».

(٤٧) ـ ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟﴾ تعوُّذًا باللهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: في النَّارِ.

(٤٨) ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾ مِن رُؤساءِ الكَفرةِ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾: كثرتُكُم، أو: جَمعُكُم المالَ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عَن الحقِّ، أو على الخلقِ[1].

وقُرِئَ: «تَسْتَكْثِرُونَ» مِن الكثرةِ[2].

(٤٩) ـ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ مِن تتمَّةِ قَولِهِم للرِّجالِ، والإشارةُ إلى ضُعفاءِ أهلِ الجنَّةِ الَّذينَ كانَت الكفرةُ يحتقرونَهُم في الدُّنيا ويحلفونَ أنَّ اللهَ لا يُدخِلُهُم الجنَّةَ.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾؛ أي: فالتفتُوا إلى أصحابِ الجنَّةِ وقالوا لَهُم: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾، وهو أوفقُ للوُجوهِ الأخيرةِ[3].

أو: فقيلَ لأَصحابِ الأعرافِ: ادخلُوا الجنَّةَ بفَضلِ اللهِ، بعدَ أَنْ حُبِسوا حتَّى أبصَرُوا الفَرِيقَيْنِ وعرَفُوهُم وقالوا لَهُم ما قالُوا.

وقيلَ: لَمَّا عَيَّرُوا أصحابَ النَّارِ، أقسَمُوا أنَّ أصحابَ الأعرافِ لا يَدخلونَ الجنَّةَ، فقالَ اللهُ أو بعضُ الملائكةِ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾.

وقُرِئَ: «أُدْخِلُوا»[4]......................................

---

(١) في نسخة الخيالي: «الحق».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٤٣)، و«تفسير أبي الليث» (١/ ٥١٨)، و«الكشاف» (٣/ ١٩٦).

(٣) وهو أنَّ أصحاب الأعراف قوم علت درجاتهم كالأنبياء، أو خيار المؤمنين، أو ملائكة على صورة رجال.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨)، و«المحتسب» (١/ ٢٤٩) عن طلحة بن مصرف.

و: «دَخلُوا»[١] على الاستئنافِ، وتَقديرُه: دَخلُوا الجنَّةَ مقولًا لهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾.

(٥٠) ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾؛ أي: صبُّوه، وهو دليلٌ على أنَّ الجنَّةَ فوقَ النَّارِ[٢].

﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مِن سائرِ الأَشرِبَةِ؛ ليلائِمَ الإفاضةَ[٣]، أو مِن الطَّعامِ[٤]؛ كقولِه:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا ومَاءً بَارِدًا[٥]

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: منعَهُما عنهم مَنْعَ المحرَّمِ عن المكلَّفِ[٦].

(٥١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ كتَحريمِ البَحيرَةِ والتَّصدِيَةِ[٧]

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨)، و«المحتسب» (١/ ٢٤٩)، عن عكرمة.

(٢) هو دليل بحسب الظاهر، ولا يريد أنه دليل قطعي؛ فلا وجه للبحث فيه. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٣٩٣).

(٣) لأن الأصل في الإفاضة أن تكون للماء وما شابهه من المائعات. انظر: «الدر المصون» للسمين الحلبي (٥/ ٣٣٤).

(٤) أي: على تضمينِ ﴿أَفِيضُوا۟﴾ معنى: ألقُوا. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ١١٠)، و«حاشية السيوطي» (٦/ ٣١٩).

(٥) صدر بيت أنشده الفراء لبعض بني دُبَير ـ قبيلة من أسد ـ يصف فرسه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٦٤)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣٣)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٤٩٩). وعجزه:

حَتَّى شَتَت هَمَّالةً عَيناها

(٦) يعني: أنَّ التَّحريمَ بمعنى المنعِ، فهو استعارة؛ لأنَّ الدَّارَ ليسَت بدارِ تكليفٍ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٧) التَّصدِيَةُ: التَّصفيقُ. انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٧٩).

حـولَ البَيتِ، و«اللَّهوُ»: صَرْفُ الهمِّ بما لا يَحْسُنُ أن يُصْرفَ به، و«اللَّعبُ»: طلبُ الفرحِ بما لا يَحْسُنُ أَنْ يُطلَبَ به[1].

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾: نفعَلُ بهم فعلَ النَّاسينَ[2]، فنتْرُكُهم في النَّارِ.

﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾ فلَمْ يُخْطِروهُ ببالِهم ولم يَستَعِدُّوا لَه.

﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: وكما كانُوا مُنكِرينَ أنَّها مِن عندِ اللهِ.

(٥٢) ـ ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ﴾: بيَّنَّا مَعانيَه مِن العَقائدِ والأحكامِ والمَواعظِ مُفصَّلَةً ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: عالِمِينَ بوجهِ تَفصيلِه حتَّى جاءَ حَكيمًا[3]، وفيه دَليلٌ على أنَّه تَعالى عالِمٌ بعِلْمٍ[4].

أو: مُشتَمِلًا على علمٍ، فيكونُ حالًا مِن المَفعولِ.

---

(١) «به» من نسخة التفتازاني. هذان التعريفان أقرب إلى تعاريف المتكلمين، وقد نقل نحو الأول منهما الكرماني في «لباب التفاسير» عن ابن عيسى في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾، وعرَّف «اللعب» بأنَّه فعل يدعو إليه الجهل يروق أوَّلُه ولا ثباتَ له، وانظر غير هذا في «الفروق اللغوية» للعسكري (ص: ٢٥٤)، و«الكليات» للكفوي (ص: ٧٩٩).

(٢) قال الطِّيبيُّ: يعني: أنَّه تَمثيلٌ؛ لأنَّه مُتعالٍ أن يَنسى شيئًا، لكن شبَّه مُعامَلتَه مَع هؤلاءِ المُتكبِّرينَ بمُعاملةِ مَن ينسى عبدَهُ من الخيرِ فلا يلتَفِتُ إليه. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٣٩٩).

(٣) فعلى هذا الوجه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال عن ضميرِ الفاعلِ في ﴿فَصَّلْنَـٰهُ﴾. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٠٠).

(٤) هذا من زياداته على «الكشاف»، وهو يريد أنَّهُ تعالى يعلمُ بصفةٍ زائدةٍ على الذّاتِ، وهيَ صفةُ العلمِ، خلافًا للمعتزلة الذين يقولون: يعلم بذاتِهِ، ولا يثبتون له صفة العلم. انظر: «الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٥١)، و«الانتصاف» لابن المنير (١/ ٥٦)، و«غاية المرام في علم الكلام» للآمدي (ص: ٧٦)، و«حاشية ابن التمجيد» (٨/ ٣٩٦).

وقُرِئَ: «فضَّلناه»[١]؛ أي: على سائرِ الكتبِ عالِمينَ بأنَّه حَقيقٌ بذلك.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ حالٌ مِن الهاءِ.

(٥٣) ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: هل يَنتَظِرونَ[٢] ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾: إلَّا ما يَؤولُ إليه أمرُهُ مِن تبيُّنِ صِدْقِه بظهورِ ما نطقَ به مِن الوَعدِ والوَعيدِ[٣].

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾: تركوهُ تركَ النَّاسِي: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: قد تبيَّنَ أنَّهم جاؤوا بالحَقِّ ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ اليومَ ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾: أو هل نردُّ إلى الدُّنيا، وقُرِئَ بالنَّصبِ[٤] عطفًا على ﴿فَيَشْفَعُوا﴾، أو لأنَّ ﴿أَوْ﴾ بمعنى: «إلى أن»؛ فعَلى الأوَّلِ المسؤولُ أحدُ الأمرينِ: الشَّفاعةُ، أو ردُّهم إلى الدُّنيا، وعلى الثَّاني: أن يكونَ لهم شُفَعاءُ إمَّا لأحدِ الأمرينِ، أو لأمرٍ واحدٍ وهو الرَّدُّ[٥].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩)، و«الكشاف» (٣/ ١٩٨)، عن ابن محيصن.

(٢) فالنَّظرُ في قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى: الانتظارِ، لا بمعنى: الرُّؤيةِ.

(٣) فالتأويل بمعنى: العاقبة، لا بمعنى: التفسير.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩)، و«المحتسب» (١/ ٢٥١)، و«الكشاف» (٣/ ١٩٩)، عن ابن أبي إسحاق.

(٥) الأول قراءة الرفع، وفيها تكون ﴿نُرَدُّ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿هل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ﴾ داخلة معها في حيِّز الاستفهام، فيكون المسؤول وجود الشفعاء أو الردِّ إلى الدنيا، أمّا الثاني فهو النصب، والمسؤول أن يكون لهم شفعاء، أما المطلوب من هؤلاء الشفعاء ففيه تفصيل:

ـ إن كان النصب على جواب الاستفهام فالمطلوب من الشفعاء أن يشفعوا للنجاة من العذاب أو الردِّ إلى الدنيا.

ـ إن كان النصب بـ«أو» التي بمعنى «إلى أن» فالمطلوب من الشفعاء أن يشفعوا للردِّ إلى الدنيا فقط. انظر: «حاشية ابن تمجيد» (٨/ ٣٩٧).

﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ جوابُ الاستفهامِ الثَّاني[1]. وقُرِئَ بالرَّفعِ[2]؛ أي: فنحنُ نعمَلُ.

﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرفِ أعمارِهم في الكفرِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: بَطَلَ عنهُم فلَمْ ينفعْهُم.

(٥٤) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: في ستَّةِ أوقاتٍ؛ كقولِه: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٦][3] أو: في مقدارِ ستَّةِ أيَّامٍ؛ فإنَّ المُتعارَفَ زمانُ طلوعِ الشَّمسِ إلى غُروبِها، ولم يَكُن حينئذٍ.

وفي خلقِ الأشياءِ مدرَّجًا مع القدرةِ على إيجادِه دفعةً دليلٌ للاختيارِ، واعتبارٌ للنُّظَّارِ، وحَثٌّ على التَّأنّي في الأُمورِ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: استوى أمرُه، أو: استَوْلَى[4].

وعَن أَصحابِنا: أَنَّ الاستواءَ على العرشِ صفَةٌ للهِ بلا كيفٍ، والمعنى: أنَّ له

---

(١) وهو: ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾، فهو بمعنى: أو هل نردُّ؟

(٢) انظر: «البحر» (١٠/ ١١٣)، وفيه: وقرأ الحسن فيما نقل الزمخشري بنصب الدال ورفع اللام، وقرأ الحسن فيما نقل ابن عطية وغيره برفعهما، عطَفَ «فَنَعمَلُ» على «نُرَدُّ».

وانظر القراءة برفعهما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٠٨)، وبنصب الأول ورفع الثاني في «الكشاف» (٣/ ١٩٩).

(٣) قوله: «كقولِه: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾»؛ استشهاد على جواز استعمال اليوم في معنى الوقت مجازًا، فإن المراد باليوم في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: الوقت؛ لأنَّ التوليَ لا يكون في طول اليوم بتمامه، بل في وقت من أوقات اليوم. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (٨/ ٣٩٨).

(٤) فعلى الأوَّلِ ـ وهو «استوى أمرُه» ـ ليسَ من صفاتِهِ تعالى، وعلى الثَّاني ـ وهو «استولى» ـ يرجعُ إلى صفةِ القدرةِ، وهذا القول نسبه الأشعري لبعض المعتزلة في «مقالات الإسلاميين» (١/ ١٦٨).

تَعالى استواءً على العَرشِ على الوجهِ الَّذي عنَاه مُنزَّهًا عن الاستقرارِ والتَّمكُّنِ[١].

والعَرشُ: الجسمُ المُحيطُ بسَائرِ الأَجسامِ[٢]، سُمِّيَ به لارتفاعِه أو للتَّشبيهِ بسَريرِ المُلْكِ؛ فإنَّ الأُمورَ والتَّدابيرَ تنزلُ منه. وقيلَ: المُلْكُ.

﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾: يُغَطِّيهِ به، ولم يذكُر عكسَه للعلمِ به، أو لأنَّ اللفظَ يَحتَمِلُهُما[٣]، ولذلكَ قُرِئَ: «يَغْشَى اللَّيلَ النهارُ» بنصبِ اللَّيلِ ورفعِ النَّهارِ[٤].

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ ويَعقوبُ وأبو بكرٍ عَن عاصمٍ بالتَّشديدِ فيه وفي الرَّعدِ[٥]؛ للدَّلالةِ على التَّكريرِ.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾: يَعْقبُه سَريعًا كالطَّالبِ له لا يَفْصِلُ بينَهُما شيءٌ، و«الحَثيثُ»: فَعِيلٌ مِن الحثِّ، وهو صفَةُ مَصدَرٍ مَحذوفٍ[٦]، أو حالٌ مِن الفاعلِ بمَعنى: حاثًّا، أو المفعولِ بمعنى: مَحثُوثًا[٧].

---

(١) هو أحد قولي الأشعري، والخلاف في المسألة قديم واسع. وانظر: «الرد على الجهمية» للدارمي (ص: ٤٠)، و«الإبانة» للأشعري (ص: ١٠٨)، و«التوحيد» للماتريدي (ص: ٧٤).

(٢) قال الآلوسي بعد أن نقل هذا التعريف: ولا تصل إلى حقيقة عِظَمه الأفهام والأوهام، وسمته الفلاسفة فلك الأفلاك ومحدد الجهات، وليس لهم على ذلك برهان ولا أثارة من علم. انظر: «ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة» للآلوسي (ص: ٤٩).

(٣) أي: يحتَمِلُ أن يكونَ النَّهارُ مُلحقًا باللَّيلِ وأن يكونَ الليلُ مُلحقًا بالنَّهارِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٠٤).

(٤) انظر: «المحتسب» (١/ ٢٥١)، «الكشاف» (٣/ ١٩٩)، عن حميد بن قيس.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٢)، و«التيسير» (ص: ١١٠)، و«النشر» (٢/ ٢٦٩).

(٦) فيُعرب مفعولاً مطلقًا. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٤٠١).

(٧) ذكر الوجوه الثلاثة العكبري في « التبيان في إعراب القرآن» (١/ ٥٧٤) مقدمًا الثاني.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ بقَضائِه وتَصريفِه[1]، ونصبُها بالعطفِ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ونصبُ ﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾ على الحالِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ كلَّها بالرَّفعِ على الابتداءِ والخبرِ[2].

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ فإنَّه الموجدُ والمُتصرِّفِ[3].

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: تَعالى بالوَحدانيَّةِ في الألوهيَّةِ، وتعظَّمَ بالتَّفرُّدِ في الرُّبوبيَّةِ[4].

وتحقيقُ الآيةِ ـ والله أعلم ـ: أنَّ الكافرينَ كانُوا مُتَّخذينَ أربابًا، فبيَّنَ لهم أنَّ المُستَحِقَّ للرُّبوبيَّةِ واحدٌ وهوَ اللهُ تَعالى؛ لأنَّه الَّذي له الخلقُ والأمرُ، فإنَّه تَعالى خلقَ العالمَ على تَرتيبٍ قَويمٍ وتَدبيرٍ حَكيمٍ، فأبدَعَ الأَفْلاكَ[5] ثمَّ زَيَّنَها بالكواكبِ؛ كمَا أشارَ إليهِ بقولِه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وعَمِدَ إلى اتِّخاذِ الأجرامِ السُّفْليَّةِ فخلَقَ جِسْمًا قابلًا للصُّوَرِ المُتبدِّلَةِ والهيئاتِ المُختَلِفَةِ[6]، ثمَّ قسَّمَها

---

(١) هذا مبني على التشبيه كما في «الكشاف» (٣/ ٢٠٠)، وقال الشهاب في «حاشيته»: ويصحُّ حملُهُ على ظاهرِهِ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] على تفسيرٍ؛ أي: هذهِ الأجرامُ العظيمةُ والمخلوقاتُ البديعةُ مذلَّلةٌ منقادةٌ لإرادتِهِ.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٢)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٣) فيهِ لفٌّ ونشرٌ مُرتَّبٌ، فالموجدُ راجعٌ للخلقِ والمتصرِّفُ للأمرِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) قيل: ذكر التوحيد هنا مستفاد من الحصر في ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾، وقيل: بل من مطلع الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، فهذا ختامٌ ملاحظٌ فيهِ مطلعُهُ، فلله درُّ المُصنِّفِ ـ رحمَهُ اللهُ تعالى ـ في دقَّةِ نظرِهِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥) قوله: «فأبدع الأفلاك...» كأنَّه مال إلى أن خلق السموات مقدم على الأرض، لكن نُقل إطباق المفسرين على أن الأرض خُلقت أوَّلًا. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٤٠٢).

(٦) قال الخفاجي في «حاشيته»: هوَ الهيولى. وهي: الأصل والمادة قبل تشكُّلها، كما في «تاج العروس» للزبيدي (٣١/ ١٧٤).

بصُوَرٍ نَوعِيَّةٍ مُتضادَّةِ الآثارِ والأَفعَالِ[1]، وأشارَ إليه بقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]؛ أي: ما في جهَةِ السُّفلِ في يومَينِ.

ثمَّ أنشأَ أنواعَ المواليدِ الثَّلاثةِ[2] بتَركيبِ موادِّها أوَّلًا، وتَصويرِها[3] ثانيًا؛ كمَا قالَ بعدَ قَولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠]؛ أي: مع اليومينِ الأوَّلينِ؛ لقولِه في سُورةِ السَّجدةِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: ٤].

ثمَّ لَمَّا تمَّ له عالَمُ الملكِ عمدَ إلى تدبيرِه كالمَلِكِ الجالسِ على عَرشِهِ لتَدبيرِ المَمْلَكَةِ، فدبَّرَ الأمرَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ بتَحريكِ الأَفلاكِ وتَسييرِ الكَواكبِ وتَكْويرِ[4] اللَّيالي والأيَّامِ.

ثمَّ صرَّحَ بمَا هو فَذلَكَةُ التَّقريرِ[5] ونتيجَتُه فقالَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[6].

---

(١) وهي العناصر الأربعة: الماء والنار والتراب والهواء. وقد زعم الفلاسفةُ أنَّ هذه العناصرَ صادرةٌ عن العقلِ العاشرِ من العقولِ العشرةِ، وربطوا الخلق بهذه العناصر. وقد بُولغ أحيانًا في ربط قضايا الغيب والخلق والحروف بهذه العناصر، وهذه المبالغة ناجمة عن التأثر بما نقل عن القدماء من غير المسلمين كأرسطو وزرادشت. وانظر: «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين» للراغب الأصفهاني (ص: ٢٥)، و«تاريخ ابن خلدون» (١/ ٦٦٥)، و«الفتاوى الحديثية» للهيتمي (ص: ٩١)، و«فيض القدير» للمناوي (٢/ ٣٣)، و«الأديان الوضعية» (ص: ٤٦٥).

(٢) أي: المعادن والنبات والحيوان. انظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٢٧٥).

(٣) في نسخة الخيالي: «ثم تصويرها».

(٤) في نسخة الخيالي: «وتكرير».

(٥) في نسخة الخيالي: «التصوير».

(٦) كلامه هذا مبني على مقالة أهل الهيئة، وهو مستفاد بجملته من «تفسير الرازي» (١٤/ ٢٧٢).

ثمَّ أمرَهُم بأَنْ يَدعوهُ مُتذَلِّلينَ مُخلِصينَ، فقالَ:

(٥٥) ـ ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾؛ أي: ذوي تَضرُّعٍ[١] وخُفيَةٍ فإنَّ الإخفاءَ دَليلُ الإخلاصِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: المُجاوزينَ ما أمرُوا به في الدُّعاءِ وغيرِه، نبَّه بِهِ على أنَّ الدَّاعيَ ينبَغِي أن لا يطلبَ ما لا يَليقُ به كرتبَةِ الأَنبياءِ والصُّعودِ إلى السَّماءِ.

وقيلَ: هو الصِّياحُ في الدُّعاءِ[٢] والإسهابُ ـ أي: الإطنابُ والتَّطويلُ[٣] ـ فيه.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «سيكونُ قَوْمٌ يعتدونَ في الدُّعاءِ، وحسبُ المرءِ أَنْ يقولَ: اللَّهمَّ إني أسأَلُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِن قَولٍ وعملٍ، وأعوذُ بك مِن النَّارِ وما قرَّبَ إليها مِن قَولٍ وعَمَلٍ» ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[٤].

(٥٦) ـ ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالكفرِ والمَعاصِي ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ ببعثِ الأَنبيَاءِ وشرعِ الأَحكامِ، ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ ذَوِي خَوفٍ[٥] مِنَ الردِّ لِقُصورِ

---

(١) التَّضرُّعُ: تفعُّلٌ من الضَّراعة، وهي الذُّلُّ. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٠٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٤٩) عن ابن جُريج.

(٣) «أي: الإطناب والتطويل» من نسخة التفتازاني. والإسهاب والإطناب والتطويل متقاربة المعاني في اللغة، ولها معان بلاغية اصطلاحية غير مرادة هنا، ولتنظر في: «البديع في نقد الشعر» لأسامة بن منقذ (ص: ١٨٢)، و«الإيضاح في علوم البلاغة» للقزويني (٣/ ١٧١ و١٧٥)، و«عروس الأفراح» للسبكي (١/ ٥٧٩)، و«الكليات» للكفوي (ص: ١٤١).

(٤) رواه أبو داود في «سننه» (١٤٨٠)، من حديث سعد بن أبي وقاص، ورواه ابن ماجه في «سننه» (٣٨٦٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٧٦٤)، والحاكم في «المستدرك» (٥٧٩)، وصححه، وقال الذهبي في «التلخيص»: فيه إرسال، ورواه أبو يعلى في «مسنده» (٧١٥) بنحوه، ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٨٣) من حديث سعد رضي الله عنه، كلاهما عن شعبة، عن زياد بن مخراق، قال: سمعت أبا نعامة، عن مولى لسعد، وهذا إسناد ضعيف لجهالة مولى سعد.

(٥) أي: ﴿خَوۡفٗا﴾ حال بمعنى: خائِفينَ، ويجوزُ أن يكون مفعولاً لأجلِهِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

أَعمالِكُـم وعـدمِ اسـتحقَاقِكُم، وطمـعٍ في إِجابَتِـه تَفَضُّلًا وإحسـانًا لفَـرطِ رَحمَتِه.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ترجيـحٌ للطَّمـعِ، وتَنبيـهٌ علـى مـا يُتوسَّـلُ بـه إلـى الإجابـةِ، وتذكيـرُ ﴿قَرِيبٌ﴾ لأنَّ الرَّحمةَ بمَعنـى: الرُّحـمِ، أو لأنَّه صفَـةُ محذوفٍ؛ أي: أمـرٌ قريبٌ، أو على تشـبيهِه بـ«فَعِيلٍ» الَّـذي بمعنى «مَفعولٍ»، أو الَّـذي هـو مَصـدرٌ كـ«النَّقيـضِ»[1]، أو للفَـرقِ بيـنَ «القريـبِ» مـن النَّسـبِ و«القَريـبِ» مِـن غيـرِه[2].

(٥٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقـرأ ابـنُ كثيـرٍ وحمـزَةُ والكِسـائيُّ: ﴿الرِّيحَ﴾ على الوحدَةِ[3].

﴿نُشُـرًا﴾: جَمعُ «نَشُـورٍ» بمَعنى: ناشـرٍ، وقرأ ابـنُ عامرٍ: ﴿نُشْـرًا﴾ بالتَّخفيفِ حيـثُ وقعَ، وحمـزَةُ والكِسَـائِيُّ: ﴿نَشْـرًا﴾ بفتحِ النُّـونِ حيثُ وقعَ علـى أنَّه مصدَرٌ فـي مَوقـعِ[4] الحالِ بمعنى: ناشـراتٍ، أو مفعولٌ مُطلَقٌ؛ فإنَّ «الإرسـالَ» و«النَّشْـرَ» مُتقاربـانِ، وعاصـمٌ: ﴿بُشْرًا﴾[5] وهو تخفيفُ «بُشُـرٍ» جمعُ بَشِـيرٍ، وقد قُـرِئَ به[6]،

---

(١) «النقيض»: صوت الأصابع والمفاصل والأضلاع، وصوت المحامل والرحال. انظر: «العين» (٥/ ٥١)، و«الصحاح» (٣/ ١١١١).

(٢) ذكر خمسة وجوه لتوجيهِ تذكيرِ ﴿قَرِيبٌ﴾ معَ أنَّهُ خبرٌ عن مُؤنَّثٍ، ولهُم في تأويلِهِ وجوهٌ تبلغُ خمسةَ عشرَ وجهاً. وقال الزَّجّاجُ عن هذا الوجهِ الأخير: هذا غلطٌ، كلُّ ما قَرُبَ من مَكانٍ أو نَسَبٍ يَجوزُ فيه التَّذكيرُ والتَّأنيثُ. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٤٥)، و«حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٣)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٤) في نسخة التفتازاني: «موضع».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٣)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٦) انظر: «المحتسب» (١/ ٢٥٥) عن ابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي بخلاف وعاصم بخلاف.

و: «بَشْـرًا» بفتحِ البَاءِ[١] مصدرُ بَشَـرَهُ بمعنى: باشِـرَاتٍ أو البِشَـارَةِ، و: «بُشْـرَى»[٢].

﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾: قُدَّامَ رحمَتِه، يعني: المطرَ[٣]؛ فإنَّ الصَّبَا تُثيرُ السَّحابَ، والشَّمالَ تَجمَعُه، والجَنوبَ تدرُّهُ، والدَّبورَ تُفَرِّقُه[٤].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾؛ أي: حَمَلَـتْ، واشـتِقاقُه مِـن «القِلَّـةِ»؛ فـإنَّ المُقِلَّ للشَّـيءِ يَستَقِلُّهُ[٥].

﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماءِ، جمَعَهُ[٦] لأنَّ «السَّحابَ» جمعٌ بمعنى: السَّحائبِ.

﴿سُقْنَٰهُ﴾؛ أي: السَّحابَ، وإفرادُ الضَّميرِ باعتبارِ اللَّفظِ[٧].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩) عن عاصم من رواية عصمة، و«المحتسب» (١/ ٢٥٥) عن أبي عبد الرحمن السلمي بخلاف.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩ ـ ٥٠)، و«المحتسب» (١/ ٢٥٥) عن ابن قطيب ومحمد بن السميفع اليماني.

(٣) انظر: «تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٤٨٥)، و«الأم» للشافعي (١/ ٢٩١)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٣٢٧)، وكذا نقله عنه الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٣٤٤).

(٤) قال القونوي في «حاشيته» (٨/ ٤٠٧): ولعل تخصيص بعض هذه الخواص ببعض الرياح بطريق الرواية، وأمّا القول بأنه بطريق الحسِّ والمشاهدة فبعيد.

قلت: الرواية فيه عن أبي بكر بن عيّاش أنه قال: لا ينزل من السماء قطرة حتّى يعمل فيها أربع رياح، فالصَّبا تهيّجه، والشمال تجمعه، والجنوب تدرّه، والدَّبُور تفرّقه. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٣٨٥).

(٥) أي: الحامل للشيء يعدُّه قليلاً. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٤٠٧).

(٦) أي: ﴿ثِقَالًا﴾.

(٧) أي: ضمير ﴿سَحَابًا﴾، وهو لفظ في اللفظ جمع في المعنى، وقال الزمخشري: ولو حُمل على المعنى كـ«الثقال» لأُنِّث. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٠٣).

﴿لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾: لأجلِهِ، أو لإحيائِهِ، أو لسَقيِهِ[١]. وقُرِئَ: ﴿مَيْتٍ﴾[٢].

﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾: بالـبـلدِ، أو بالسَّـحابِ، أو بالسَّوْقِ، أو بالرِّيحِ[٣]، وكذلك ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ ويُحتمَلُ فيه عَوْدُ الضَّميرِ إلى الماءِ، وإذا كانَ للبَلَدِ فالباءُ للإلصاقِ في الأوَّلِ[٤] وللظَّرفيَّةِ في الثَّاني، وإذا كانَ لغَيْرِه[٥] فهيَ للسَّببيَّةِ.

﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾: مِـن كُلِّ أنواعِها ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ الإشارةُ فيه إلـى إخراجِ الثَّمراتِ، أو إلى إحياءِ البَلَدِ الميتِ؛ أي: كما نُحْيِيه بإحداثِ القُوَّةِ النَّاميَةِ فيه وتَطْرِيَتِها بأنواعِ النَّباتِ والثَّمراتِ نخرجُ الموتى مِن الأَجداثِ ونُحيِيها بردِّ النُّفوسِ إلى موادِّ أبدانِها بعد جمعِها وتَطرِيَتِها بالقُوَى والحَواسِّ[٦].

﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلَمُونَ أنَّ مَن قَدَرَ على ذلك قَدَرَ على هذا.

(٥٨) ـ ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾: الأرضُ الكـريـمَـةُ التُّربَةِ ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾: بمشيئَتِه وتَيسيرِه، عبَّرَ به عَن كَثْرَةِ النَّباتِ وحُسْنِه وغَزارَةِ نَفعِه؛ لأنَّه أَوقعَه في مُقابَلَةِ:

---

(١) قال أبو حيّان: اللام في ﴿لِبَلَدٖ﴾ عندي لام التبليغ، وقال الزمخشري: «لأجل بلد»، فجعل اللام لام العلة. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ١٣٩).

(٢) وهي قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي عمرو. انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٣)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٣) قال الطيبي: الباء على الأول بمعنى: «في»، وعلى ما بعدها كما في قولك: «كتبت بالقلم». انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤١٣).

قلت: تجنَّبَ ما يُقال بأنها باء الاستعانة أو الآلة تأدُّبًا ومراعاة للمقام.

(٤) أي: الموضع الأول، وهو: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ﴾، والموضع الثاني: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾.

(٥) أي: لغير البلد من المذكورات بعده. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٠٢).

(٦) التطرية: التليين والتجديد، والمراد بالقوى: القوى الغضبية والنامية والعقلية وغيرها، والمراد بالحواس: السمع والبصر وغيرها. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٤٠٨).

﴿وَالَّذِي خَبُثَ﴾؛ أي: كالحَرَّةِ والسَّبْخَةِ[1] ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾: قليلًا عديمَ النَّفعِ، ونَصبُه على الحالِ، وتَقديرُ الكلامِ: والبَلدُ الَّذي خَبُثَ لا يَخرجُ نَباتُه إلَّا نكِدًا، فحُذِفَ المُضافُ وأُقيمَ المُضافُ إليه مقامَه فصارَ مَرْفوعًا مُستتِرًا.

وقُرِئَ: «يُخرِج»[2]؛ أي: يخرجُه البلدُ، فيكونُ ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ مَفعولًا.

و: ﴿نَكَدًا﴾ على المصدرِ[3]؛ أي: ذا نَكَدٍ.

و«نَكْدًا» بالإسكانِ للتَّخفيفِ[4].

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نُردِّدُها ونُكَرِّرُها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمةَ اللهِ فيَتفكَّرُونَ فيها ويَعتَبِرونَ بها.

والآيةُ مَثَلٌ لِمَن تَدبَّرَ الآياتِ وانتفعَ بها ولِمَن لَمْ يَرْفَع إليها رأسًا ولَمْ يَتأثَّرْ بِها.

(٥٩) - ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ جوابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، ولا تَكادُ تُطلَقُ هذه اللَّامُ إلَّا مع «قد» لأنَّها مَظِنَّةُ التَّوقُّعِ؛ فإنَّ المُخاطَبَ إذا سَمِعَها توقَّعَ وُقوعَ ما صُدِّرَ بها.

ونوحٌ: ابنُ لَمَكَ بنِ مَتُوشَلَخ بنِ إدريسَ، أوَّلُ نَبِيٍّ بعدَه، بُعثَ وهو ابنُ خمسينَ سنةً أو أربعينَ.

﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ أي: اعبدوهُ وحدَه؛ لقولِه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

---

(١) «الحَرَّةُ»: أرضٌ ذاتُ حجارةٍ سودٍ، و«السَّبخةِ» بفتح الباء وتسكينها: أرضٌ ذاتُ ملحٍ. انظر: «تاج العروس» (٧/ ٢٦٩) و(١٠/ ٥٧١).

(٢) انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ١٨٩) عن ابن يعمر وابن أبي عبلة.

(٣) هي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٠).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠) عن طلحة.

وقرأ الكِسائيُّ: ﴿غيرِه﴾ بالكسرِ نعتًا أو بدلًا على اللَّفظِ حيثُ وقعَ، إذا كانَ قبلَ ﴿إِلَٰهٍ﴾ ﴿مِّنْ﴾ الَّتي تَخفِضُ[1]، وقُرِئَ بالنَّصبِ على الاستثناءِ[2].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ إنْ لَمْ تُؤمِنُوا، وهو وَعيدٌ وبَيانٌ للدَّاعِي إلى عبادَتِه، واليومُ: يومُ القيامَةِ، أو يومُ نُزولِ الطُّوفانِ.

(٦٠) ـ ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾؛ أي: الأشرافُ، فإنَّهم يَملَؤُونَ العُيونَ رُوَاءً: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ﴾: زوالٍ عَن الحقِّ ﴿مُّبِينٖ﴾: بَيِّنٍ.

(٦١) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾؛ أي: شَيءٌ مِن الضَّلالِ، بالغَ في النَّفيِ كما بالَغُوا في الإثباتِ، وعرَّضَ لَهُم بهِ[3].

﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استدراكٌ باعتِبارِ ما يلزَمُه وهو كونُه على هُدًى؛ كأنَّه قالَ: ولكنِّي على هُدًى في الغايَةِ لأنِّي رَسولٌ مِن اللهِ.

(٦٢) ـ ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ صِفَاتٌ لـ﴿رَسُولٞ﴾، أو استئنافٌ، ومساقُها على الوَجهينِ لبَيانِ كونِه رَسولًا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٤)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٠٦)، وذكر ابن خالويه النصب في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠) على أنه لغة تميم.

(٣) «الضلال» و«الضلالة» إما أن يكونا مصدرين بمعنى، أو أن التاء للوحدة، فعلى الأول نفي «الضلالة» أبلغ؛ لما تقرر من أن زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، وعلى الثاني قالوا: نفي الوحدة أبلغ أيضا، قال صاحِبُ «المثلِ السّائرِ»: الأسماءُ المُفردةُ الواقعةُ على الجنسِ التي يكونُ بينَها وبين واحِدِها تاءُ التَّأنيثِ، فإنَّه مَتى أُريدَ النَّفيُ كان استعمالُ واحِدِها أبلغَ، ومتى أُريدَ الإثباتُ كان استِعمالُها أبلغَ كما في الآيةِ. وقد نوقش في صحة هذا، لكن أجيب بأنه أبلغ هنا؛ لأنه جاء في جواب كلامهم. انظر: «مجمل اللغة» لابن فارس (ص: ٥٦٠)، و«المثل السائر» لابن الأثير (٢/ ١٦٦)، و«الفلك الدائر» لابن أبي الحديد (٤/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧)، و«فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٢٠ ـ ٤٢٤).

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿أُبْلِغُكُم﴾ بالتَّخفيفِ[١].

وجمعُ الرِّسالاتِ لاختِلافِ أوقاتِها، أو لتنوُّعِ معانِيها كالعَقائدِ والمَواعظِ والأَحكامِ، أو لأنَّ المُرادَ بها: ما أوحيَ إليه وإلى الأنبياءِ قبلَه كصُحُفِ شيثٍ وإدريسَ.

وزيادةُ اللَّامِ في ﴿لَكُمْ﴾ للدَّلالَةِ على إمحاضِ النُّصحِ لهم.

وفي ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ تقريرٌ لِمَا أوعدَهُم[٢] به، فإنَّ مَعناهُ: أعلَمُ مِن قُدرَتِه وشِدَّةِ بطشِهِ أو مِن جِهَتِه بالوَحيِ أشياءَ لا عِلْمَ لَكُم بها.

(٦٣) ـ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزةُ للإنكارِ والواوُ للعطفِ على محذوفٍ؛ أي: أكذَّبْتُم وعَجِبْتُم ﴿أَن جَاءَكُمْ﴾: مِن أنْ جاءَكُم ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: رسالةٌ أو مَوعِظَةٌ ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾: على لسانِ رَجُلٍ ﴿مِّنكُمْ﴾: مِن جُملَتِكُم، أو: من جِنسِكُم؛ فإنَّهم كانُوا يَتعجَّبونَ مِن إرسالِ البَشرِ، ويقولونَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ عاقبةَ الكُفرِ والمعاصي ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ مِنهُما[٣] بسببِ الإنذارِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالتَّقوى، وفائدةُ حرفِ التَّرجِّي: التَّنبيهُ على أنَّ التَّقوى غيرُ موجِبٍ والتَّرحُّمُ مِن اللهِ تفضُّلٌ، وأنَّ المتَّقِيَ ينبَغِي أن لا يَعتمدَ على تَقواه، ولا يأمنَ مِن عذابِ اللهِ.

(٦٤) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وهُم مَن آمنَ به، وكانُوا أربعينَ رَجُلًا وأربعينَ امرأةً.

وقيلَ: تسعةٌ؛ بنوهُ: سامٌ وحامٌ ويافِثُ، وستةٌ ممَّنْ آمنَ به.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٤)، و«التيسير» (ص: ١١١).

(٢) في نسخة الخيالي: «وعدهم».

(٣) الضمير يعود للكفر والمعاصي. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿مَعَهُۥ﴾ أو بـ«أَنْجَينا»، أو حالٌ مِن الموصولِ أو مِن الضَّميرِ في ﴿مَعَهُۥ﴾.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالطُّوفانِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾: عُمْيَ القلوبِ غيرَ مُستبصِرينَ، وأصلُه: عَمِيِينَ، فخُفِّفَ، وقُرِئَ: «عامِينَ»[1]، والأوَّلُ أبلَغُ لدلالتِه على الثَّباتِ[2].

(٦٥) ـ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

﴿هُودًا﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿أَخَاهُمْ﴾، والمرادُ به الواحِدُ مِنْهُم؛ كقولِهم: «يا أخا العربِ»، فإنَّه هودُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ رَباحِ بنِ الخلودِ بن عادِ بنِ عوصِ بنِ إرمَ بنِ سامِ بنِ نُوحٍ.

وقيلَ: هودُ بنُ شَالَخَ بنِ أَرْفَخْشَذ بنِ سَامِ بنِ نوحٍ[3] ابنِ عمِّ أبي عادٍ[4]، وإنَّما جعلَ مِنْهُم لأنَّهم[5] أفهَمُ لقولِه، وأعرفُ بحالِه، وأرغَبُ في اقتفائِه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠) عن عيسى بن سليمان.

(٢) الأول هو قراءة العامة ﴿عَمِينَ﴾، وهي أبلغ لدلالةِ الصِّفةِ المُشبَّهةِ على الثُّبوتِ، أما القراءة الشاذة باسم الفاعل «عامين» فتدلُّ على عمى حادثٍ؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ دونَ الصفة المشبهة في الدلالةِ على الثُّبوتِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٣٣).

(٣) «ابن نوح» من نسخة الطبلاوي.

(٤) انظر: «تفسير أبي السعود» (٣/ ٢٣٩)، و«روح البيان» لإسماعيل حقي (٤/ ١٤٦)، و«البحر المديد» لابن عجيبة (٢/ ٢٣٠)، و«روح المعاني» (٩/ ١٨٣). ولفظ الآلوسي: هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وعليه محمد بن إسحاق. وبعض القائلين بهذا قالوا: إن نوحًا ابن عم أبي عاد.

(٥) في نسخة الخيالي: «لأنه».

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ استأنفَ بـه ولـم يعطف؛ كأنَّه جوابُ سائلٍ قالَ: فما قالَ لهم حينَ أُرسلَ؟ وكذلك جوابُهم[1].

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَ اللهِ.

وكأنَّ قومَه كانُوا أقربَ من قومِ نُوحٍ ولذلك قالَ: (٦٦) - ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ إذ كانَ مِن أَشْرافِهم مَن آمنَ به كمَرْثَد بنِ سَعدٍ ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾: مُتمكِّنًا في خفَّةِ عَقلٍ وراسِخًا فيها حيثُ فارقتَ دينَ قَومِك ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

(٦٧ ـ ٦٩) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ﴾ سبقَ تَفسيرُه، وفي إجابةِ الأنبياءِ الكَفرةَ عَن كلماتِهم الحمقاءِ بما أجابُوا والإعراضِ عن مُقابَلَتِهم كمالُ النُّصحِ والشَّفقةِ وهضمِ النَّفسِ وحُسْنِ المُجادلةِ، وهكذا يَنبغي لكلِّ ناصحٍ.

وفي قولِه: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ تنبيهٌ على أَنَّهم عَرَفوه بالأمرينِ[2].

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾؛ أي: فـي مَسـاكِنِهم، أو فـي الأرضِ بـأَنْ جَعَلَكـم مُلـوكًا، فـإنَّ شَـدَّادَ بنَ عـادٍ ممَّنْ ملـكَ مَعمـورةَ الأرضِ مِن

(١) قوله: «وكذلك جوابهم» هو قوله بعد: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/٦٠٦). وتوضيح ذلك أنَّ قِصّةَ هودٍ كانَت مَعطوفةً على قِصّةِ نُوحٍ، فيُمكِنُ أن يقعَ في خاطرِ السّامعِ: أقال هودٌ ما قال نوحٌ أم قال غَيرَه؟ فكانَ مَظِنَّةَ أن يُسأَلَ: ماذا قال هودٌ لقومِه؟ فقيل: قال ما قال نوح لقومِه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٣٤).

(٢) أي: النُّصحِ والأمانةِ.

رملِ عالجٍ[1] إلى شَحْرِ عُمانَ[2]، خوَّفَهُم من عقابِ اللهِ ثمَّ ذكَّرَهُم بإنعامِه.

﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً﴾: قامَةً وقوَّةً ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ تعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لكَيْ يُفضيَ بكم ذكرُ النِّعَمِ إلى شُكرِها المؤدِّي إلى الفَلاحِ.

(٧٠) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ استبعَدُوا اختِصاصَ[3] اللهِ بالعبادةِ والإعراضَ عمَّا أشركَ به آباؤُهم؛ انهماكًا في التَّقليدِ وحُبًّا لِمَا أَلِفُوه.

ومَعنى المجيءِ في ﴿أَجِئْتَنَا﴾: إمَّا المجيءُ مِن مكانٍ اعتزلَ به عَن قومِه، أو من السَّماءِ على التَّهكُّم، أو القصدُ على المجازِ؛ كقَوْلِهم: ذهبَ يَسُبُّنِي[4].

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِن العذابِ المدلولِ عليه بقولِه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه.

(٧١) ـ ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾: قد وجبَ أو حقَّ عَلَيْكُم أو نزلَ عليكُم، على أنَّ المُتوقَّعَ كالواقعِ.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذابٌ[5]، من «الارتجاسِ»، وهو الاضطرابُ ﴿وَغَضَبٌ﴾: إرادةُ انتقامٍ.

---

(١) عالجٌ: موضعٌ مشهورٌ بكثرةِ الرَّملِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قوله: «إلى شحر عمان» هو بفتح الشين المعجمة وكسرها وبالحاء المهملة: ساحلُ البحرِ بين عُمانَ وعَدَن. انظر: «الصحاح» (مادة: شحر)، و«حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٠٦).

(٣) في نسخة التفتازاني: «تخصيص».

(٤) سبب تأويل المجيء هنا؛ لأنه كان بين أظهرهم. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥) في نسخة الخيالي: «عقاب».

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾؛ أي: في أَشياءَ سَمَّيْتُموهَا آلهةً وليسَ فيها مَعنى الإلهيَّةِ؛ لأنَّ المستحِقَّ للعبادةِ بالذَّاتِ هو الموجِدُ للكلِّ، وأنَّها لو استحقَّت كانَ استحقاقُها بجعلِه تعالى: إمَّا بإنزالِ آيةٍ أو بنصبِ حُجَّةٍ.

بَيَّنَ أنَّ مُنتَهى حُجَّتِهم وسندِهم: أنَّ الأصنامَ تُسمَّى آلهةً مِن غيرِ دَليلٍ يدلُّ على تَحقُّقِ المسمَّى، وإسنادُ الإطلاقِ إلى مَن لا يُؤبَه بقولِه؛ إظهارًا(١) لغايةِ جَهالَتِهم وفَرْطِ غَباوَتِهم.

واستُدِلَّ به على أنَّ الاسمَ هو المسمَّى، وأنَّ اللُّغاتِ تَوقيفيَّةٌ(٢)؛ إذ لو لم يَكُن كذلك لم يتوجَّه الذَّمُّ والإبطالُ بأنَّها أسماءٌ مُخترعَةٌ لم يُنزل اللهُ بها سُلطانًا، وضعفُهُما ظاهِرٌ.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لمَّا وضحَ الحقُّ وأنتُم تُصرُّونَ على العنادِ نزولَ العَذابِ ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾.

(٧٢) - ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ في الدِّينِ ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ عليهم ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: استأصلناهُم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ تعريضٌ لِمَن آمَن منهم وتنبيهٌ على أنَّ الفارقَ بينَ مَن نجَا ومَن هلك هو الإيمانُ(٣).

رُوِيَ: أنَّهم كانُوا يَعبدونَ الأصنامَ، فبعثَ اللهُ إليهم هودًا فكذَّبوهُ وازدادُوا

---

(١) قوله: «وإسناد الإطلاق»؛ أي: إطلاق اسم الإله، «إظهارًا» بالنصب علة لقوله: «بيَّن». انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٤٢٤).

(٢) انظر: «الإبهاج في شرح المنهاج» للسبكي (٣/ ٤٩٠ - ٥١١).

(٣) قال الطِّيبيُّ: يَعني: إذا سمعَ المُؤمنُ أنَّ الهَلاكَ اختصَّ بالمُكذِّبينَ، وعلمَ أنَّ سببَ النَّجاةِ هو الإيمانُ يزيدُ رغبةً فيه، ويعظُمُ قدرُهُ عندَه. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٤٣).

عُتُوًّا، فأمسكَ اللهُ القَطْرَ عَنْهُم ثلاثَ سِنينَ حتَّى جهدَهُم، وكانَ النَّاسُ حينئذٍ مُسلمُهم ومُشرِكُهُم إذا نزلَ بهم بلاءٌ توجَّهُوا إلى البيتِ الحرامِ وطلَبُوا مِن اللهِ الفرجَ، فجهَّزوا إليه قيلَ بنَ عنزٍ ومَرْثدَ بنَ سعدٍ في سبعينَ مِن أعيانِهم، وكانَ إذ ذاكَ بمكَّةَ العمالقَةُ أولادُ عِمْليقَ بنِ لاوذَ بنِ سامٍ، وسَيِّدُهم معاويةُ بنُ بكرٍ، فلمَّا قَدِمُوا عليه وهو بظاهرِ مَكةَ أنزَلَهُم وأكرَمَهُم وكانُوا أخوالَه وأصهارَه، فلبثُوا عندَه شهرًا يشربونَ الخمرَ وتُغَنِّيهم الجرادتانِ ـ قَيْنَتانِ[1] له ـ فلمَّا رَأَى ذُهولَهُم باللَّهوِ عمَّا بُعثوا له أهمَّه ذلك واستحيَى أن يكلِّمَهُم فيه مخافةَ أن يظنُّوا به ثقلَ مَقامِهِم، فعَلَّم القَيْنَتَينِ:

أَلَا يَا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِم ... لَعَلَّ اللهَ يَسْقِينَا غَمَامَا

فَيَسْقِيَ أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَادًا ... قَدَ امْسَوْا لا[2] يُبِينُونَ الكَلَامَا[3]

حتى غَنَّتَا به، فأزعَجَهُم ذلك، فقالَ مَرثَد: واللهِ لا تُسقَوْنَ بدُعائِكُم ولكِنْ إنْ أَطَعْتُم نبيَّكُم وتبتُمْ إلى اللهِ سُقِيتُم، فقالوا لِمُعاويَةَ: احبسْه عنَّا لا يَقْدمنَّ مَعَنا مكَّةَ، فإنَّه قد اتَّبَعَ دينَ هودٍ وتركَ دينَنا، ثمَّ دَخَلوا مكَّةَ فقالَ قيلٌ: اللَّهمَّ اسقِ عادًا ما كنتَ تَسقيهِمْ، فأنشأَ اللهُ سحاباتٍ ثلاثًا بيضاءَ وحمراءَ وسَوْداءَ، ثمَّ ناداهُ مُنادٍ مِن السَّماءِ: يا قيلُ! اخترْ لنفسِكَ ولقومِكَ فقالَ: اخترتُ السَّوداءَ فإنَّها أكثرُهُنَّ ماءً، فخرجَتْ

---

(١) القَينةُ: الجاريةُ مُطلقًا، ويُرادُ بها الجاريةُ المُغنِّيةُ، وهوَ المُرادُ هُنا، وكانَ اسمُ إحداهُما وردةَ والأُخرى جرادةَ، فقيلَ لهُما: «جرادتانِ» على التَّغليبِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «ما».

(٣) نسب البيتان لمعاوية بن بكر في: «جمهرة أشعار العرب» للقرشي (ص: ٣١)، و«التيجان في ملوك حمير» لابن هشام (ص: ٣٤٦)، ولأبي الهجال في «التيجان في ملوك حمير» لابن هشام (ص: ٥١). و«هَينِم»: أمرٌ مِنَ الهينمةِ، وهيَ الصَّوتُ الخفيُّ، والمُرادُ: ادعُ.

على عادٍ مِن وادي المغيثِ فاستبشَرُوا بها وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فجاءَتْهُم منها ريحٌ عَقيمٌ فأهلَكَتْهُم[١].

ونجَا هودٌ والمؤمنونَ معه[٢] فأتَوْا مكَّةَ وعبدُوا اللهَ فيها حتَّى ماتوا[٣].

(٧٣) ـ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ قبيلةٌ أخرى من العربِ سُمُّوا باسمِ أبيهِم الأكبرِ ثمودَ بنِ عابَرَ بنِ إرمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ.

وقيلَ: سُمُّوا به لقلَّةِ مائِهِمْ، مِن «الثَّمَدِ»، وهو الماءُ القليلُ[٤].

وقُرِئَ مَصروفًا[٥] بتَأويلِ الحيِّ أو باعتبارِ الأصلِ.

وكانَتْ مَساكِنُهُم الحِجْرَ بين الحجازِ والشَّامِ إلى وادي القُرَى.

﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ صالحُ بنُ عبيدِ[٦] بنِ آسَفَ بنِ ماسحَ بنِ عبيدِ بنِ خادَرَ بنِ ثمودَ.

---

(١) رواه مطولاً الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٦٩ ـ ٢٧٤) عن ابن إسحاق.

(٢) في نسخة الخيالي: «هود ومن معه من المؤمنين».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٤٨) عن ابن سابط عن النبي ﷺ بلفظ: «وكان النبيُّ إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون أتاها هو ومن معه فعبدوا الله بها حتى يموتوا، فإنَّ قبر نُوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعَيب بين زَمزَم والرُّكن والمَقام». قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]: وهذا مرسل، وفي سنده ضعف.

(٤) انظر: «العين» (٨/ ٢٠)، و«الصحاح» (٢/ ٤٥١).

(٥) نسبت ليحيى بن وثاب والأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٢٠)، و«البحر» (١٠/ ١٦٣).

(٦) قوله: «ابن عبيد» كذا في النسخ، ومثله في مطبوعات «تفسير البيضاوي» وحواشيه التي بين أيدينا، لكن الطاهر بن عاشور قال في «التحرير والتنوير» (٨/ ٢١٦): هو «ابن عبيل» بلام في آخره وبفتح العين، قال: وفي بعض هذه الأسماء اختلاف في حروفها في كتب التاريخ وغيرها أحسبه من التحريف، وهي غير مضبوطة سوى «عبيل» فإنه مضبوط في سميِّه الذي هو جدُّ قبيلته؛ كما في «القاموس». انظر: «القاموس» (مادة: عبل).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾: معجزةٌ ظاهرةُ الدَّلالةِ على صحَّةِ نبوَّتي، وقولُه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ استئنافٌ لبيانِها، و﴿ءَايَةٗۖ﴾ نصبٌ على الحالِ والعامِلُ فيها مَعنى الإشارةِ، و﴿لَكُمۡ﴾ بيانٌ لِمَن هيَ لهُ آيةٌ.

ويجوزُ أَنْ تكونَ ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ بدلًا أو عطفَ بيانٍ، و﴿لَكُمۡ﴾ خبرًا عاملًا في ﴿ءَايَةٗۖ﴾، وإضافةُ النَّاقةِ إلى اللهِ لتَعظيمِهَا، ولأنَّها جاءَتْ من عندِه بلا وَسائطَ وأسبابٍ مَعهودةٍ، ولذلك كانَتْ آيةً.

﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ العشبَ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ نهيٌ عن المسِّ الَّذي هو مقدِّمةُ الإصابةِ بالسُّوءِ الجامعِ لأنواعِ الأذى مبالغةً في الأمرِ وإزاحةً للعُذرِ.

﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ جوابُ النَّهيِ(١).

(٧٤) ـ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أرضِ الحِجْرِ ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا﴾؛ أي: تَبْنونَ في سُهولِها، أو مِن سُهولةِ الأرضِ بما تعملونَ منها كاللَّبِنِ والآجُرِّ(٢).

﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾، وقُرِئَ: «تَنْحَتُونَ» بالفتحِ، و: «تَنْحَاتُونَ» بإشباعِ الفتحة(٣).

وانتصابُ ﴿بُيُوتٗاۖ﴾ على الحالِ المقدَّرةِ، أو المفعولِ على أنَّ التَّقديرَ: بيوتًا مِن الجبالِ، أو «تَنْحتونَ» بمعنى: تتَّخذونَ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «للنهي».

(٢) اللَّبِنُ: الطُّوبُ الَّذي لم يحرقْ، والآجرُّ: ما أُحرقَ منهُ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠) عن الحسن، وزاد في الأولى نسبتها للأعمش.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

(٧٥ ـ ٧٦) ـ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾؛ أي: عن الإيمانِ ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾؛ أي: للَّذين استضعفوهُمْ واستذلُّوهُم ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدلٌ من «الذين استُضْعِفُوا» بدلَ الكلِّ إن كانَ الضَّميرُ لـ﴿قَوْمِهِ﴾، وبدلَ البَعضِ إن كانَ لـ«الذينَ».

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قالوهُ على الاستهزاءِ.

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ عدلُوا به عَن الجوابِ السَّويِّ الَّذي هو «نعم» تَنبيهًا على أنَّ إرسالَه أظهرُ مِن أن يَشكَّ فيه عاقلٌ ويَخْفَى على ذي رأيٍ، وإنَّما الكلامُ فيمَن آمَنَ بهِ ومَن كفرَ، فلذلك قالَ: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ على المقابَلةِ، ووضعُوا ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ موضعَ «أُرسلَ به» ردًّا لِمَا جعلوه مَعلومًا مُسلَّمًا(١).

(٧٧) ـ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾: فنحرُوها، أسندَ إلى جميعِهِم فعلَ بعضِهِم للملابسةِ، أو لأنَّه كانَ برضاهُم ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: واستكبروا عن امتِثالِه(٢) ـ وهو ما بلَّغَهُم صالحٌ عليهِ السَّلامُ بقولِه: ﴿فَذَرُوهَا﴾ ـ ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

---

(١) قال ابنُ المُنيِّر: لو طابَقُوا لقالُوا: إنَّا بالذي أُرسِلَ به كافرونَ، لكن عَدَلوا عن ذلكَ لِما فيهِ من إثباتِ رَسالَتِه، وهم يَجحَدونَها، وقد ثبتَ مثل ذلك على وَجهِ التَّهكُّمِ في قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، لكن هؤلاء بالَغُوا في التَّحرُّزِ حذرًا من النُّطقِ بثُبوتِ الرِّسالةِ. انظر: «الانتصاف» لابن المنير بهامش «الكشاف» للزمخشري (٢/ ١٢٣).

(٢) فالأمر على هذا واحد «الأوامر»، وجوَّز في «الكشاف» (٣/ ٢٢٢) أن يكون أحد «الأمور» أيضًا.

(٧٨) ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾: الزَّلـزلةُ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾: خامدينَ ميِّتينَ.

رُوِيَ: أنَّهم بعدَ عادٍ عَمَرُوا بلادَهُم وخَلَفُوهُم، وكَثُرُوا وعُمِّرُوا أعمارًا طوالًا لا تَفِي بها الأبنيةُ، فنحتُوا البيوتَ من الجبالِ، وكانُوا في خِصْبٍ وسَعَةٍ، فعَتَوْا وأفسَدُوا في الأرضِ وعَبَدُوا الأصنامَ، فبعثَ اللهُ إليهم صالحًا من أشرافِهم فأنذرَهُم، فسألوهُ آيةً فقالَ: أيَّةَ آيةٍ تريدونَ؟ قالُوا: اخرُجْ مَعنا إلى عيدِنا فتدعو إلهكَ وندعو آلهتَنا، فمَن استُجيبَ له اتُّبِعَ، فخرجَ مَعَهُم فدعوا أصنامَهُم فلم تُجِبْهُم، ثمَّ أشارَ سيِّدُهُم جُنْدُعُ بن عَمرٍو إلى صخرةٍ مُنفردَةٍ يقالُ لها: الكاثبةُ، وقالَ له: أخرِجْ مِن هذه الصَّخرةِ ناقةً مُخترِجَةً جَوْفاءَ وَبْراءَ[1]، فإن فعلَتْ صَدَّقْنَاكَ، فأخذ عليهم صالحٌ مَواثِيقَهُم لئِنْ فعلتُ ذلكَ لتُؤمِنُنَّ؟ فقالوا: نَعَم، فصَلَّى ودَعا ربَّه، فتمخَّضَت الصَّخرةُ تمخُّضَ النَّتُوجِ بولدِها فانصدعَتْ عَن ناقةٍ عُشَرَاءَ جَوْفَاءَ وَبْرَاءَ ـ كما وصفُوا ـ وهُم ينظرونَ، ثمَّ نتجَتْ ولدًا مثلَها في العِظَمِ، فآمنَ به جُنْدُعٌ في جماعة، ومنعَ الباقينَ مِن الإيمانِ ذؤابُ بن عمرٍو، والحبابُ صاحبُ أوثانِهم، وربابٌ كاهِنُهم[2]، فمَكَثَت النَّاقةُ مع ولدِها ترعى الشَّجرَ وتَرِدُ الماءَ غِبًّا[3]، فما ترفعُ رأسَها مِن البئرِ حتَّى تَشْرَبَ كلَّ ما فيها، ثمَّ تَتفحَّجَ[4] فيحلبونَ ما شاؤوا حتَّى تَمتَلِئَ أوانِيهم فيشربون ويدَّخِرونَ، وكانَتْ تَصِيفُ بظهرِ الوادي فتهربُ مِنها أنعامُهُم إلى بطنِه، وتَشتُو ببطنِه فتهرُبُ

---

(١) مخترجة: أخرجَت على خلقةِ الجملِ، وقيلَ: تشاكلُ البُختَ. وجَوفاء: عظيمةُ البطنِ. ووَبراء: كثيرةُ الوبرِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «بن كاهنهم».

(٣) أي: يومًا بعدَ يومٍ.

(٤) التَّفحُّجُ: هو أن يفرجَ بينَ رِجلَيهِ. انظر: «الصحاح» للجوهري (١/ ٣٣٣).

مَواشيهِم إلى ظَهرِه، فشقَّ ذلك عليهِم، وزيَّنَتْ عقرَها لهم عُنَيزَةُ أمُّ غَنْمٍ وصدقةُ بنتُ المُختارِ، فعقَروها واقتَسَموا لحمَها، فرَقِيَ سَقْبُها[1] جبَلًا اسمُه: قارَة، فرَغَا ثلاثًا فقالَ صالِحٌ لهم: أدرِكُوا الفَصيلَ عَسَى أنْ يُرفعَ عَنْكُم العذابُ، فلَم يقدروا عليه إذ انفجَّتِ[2] الصَّخرةُ بعدَ رغائِه فدخلَها، فقالَ لهم: تصبحُ وُجوهُكُم غدًا مُصفرَّةً وبعدَ غدٍ مُحمرَّةً واليومَ الثَّالثَ مُسودَّةً، ثمَّ يصبِّحُكُم العَذابُ، فلمَّا رَأَوا العَلاماتِ طلبوا أن يقتلوهُ، فَأَنْجاهُ اللهُ إلى أرضِ فِلَسْطينَ، فلمَّا كانَ ضحوةُ اليومِ الرَّابعِ تحنَّطُوا وتكفَّنُوا بالأنطاعِ، فأتَتْهُم صيحةٌ مِن السَّماءِ فتَقطَّعَت قلوبُهُم فهلَكُوا[3].

(٧٩) ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ظاهِرُه أنَّ تولِّيَه عَنْهُم كانَ بعدَ أنْ أبصرَهُم جاثمينَ، ولعلَّه خاطبَهُم به بعدَ هلاكِهِم كما خاطبَ رسولُ اللهِ ﷺ أهلَ قَليبِ بدرٍ وقالَ: «إنَّا وَجَدْنا ما وعدَنا رَبُّنا حقًّا، فهل وَجَدْتُم ما وَعَدَكُم[4] ربُّكُم حقًّا؟»[5]، أو ذكرَ ذلك على سبيلِ التَّحسُّرِ عليهِم.

(٨٠) ـ ﴿وَلُوطًا﴾؛ أي: وأرسَلْنا لوطًا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: وقتَ قولِه لَهُم، أو: واذكُرْ لُوطًا و﴿إِذْ﴾ بدلٌ منه[6].

---

(١) السَّقبُ: الذَّكَرُ من أولادِ الإبلِ. انظر: «الصحاح» للجوهري (١/ ١٤٨).

(٢) أي: انشقَّت. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) رواه مطولاً الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٨٦ ـ ٢٩٥) عن ابن إسحاق بعضه، والبعض الآخر عن ابن إسحاق عن يعقوبَ بن عتبةَ بن المغيرة بن الأخنس.

(٤) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «ما وعد».

(٥) رواه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥)، من حديث أبي طلحة رضي الله عنه.

(٦) على تقدير: «وأرسَلنا لوطًا وقتَ قولِه» هو من عطف المفردات، وعلى تقدير: «واذكُر لُوطًا» و«إذ» بدلٌ هو من عطفِ القِصّةِ على القصّةِ، وهو أفيَدُ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨).

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ توبيخٌ وتَقريعٌ على تلك الفعلةِ المتماديَةِ في القبحِ.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ما فعلَهَا قَبلَكُم أحدٌ قَطُّ، والباءُ للتَّعدِيَةِ[1]، و﴿مِنْ﴾ الأولى لتأكيدِ النَّفيِ والاستغراقِ، والثَّانيةُ للتَّبعيضِ، والجملةُ استئنافٌ[2] مقرِّرةٌ للإنكارِ، كأنَّه وبَّخَهم أوَّلًا بإتيانِ الفاحشَةِ ثمَّ باختراعِها فإنَّه أسوَأُ.

(٨١) ـ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهو أبلَغُ في الإنكارِ والتَّوبيخِ.

وقرأ نافعٌ وحفصٌ: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الإخبارِ المُستأنَفِ[3].

و﴿شَهْوَةً﴾ مَفعولٌ له، أو مَصدرٌ في موقع[4] الحالِ. وفي التَّقييدِ بها: وصفُهُم بالبَهيميَّةِ الصِّرفَةِ، وتنبيهٌ على أنَّ العاقلَ يَنبَغِي أن يكونَ الدَّاعي له إلى المباشرةِ طلبَ الولدِ وبقاءَ النَّوعِ، لا قضاءَ الوطرِ.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضرابٌ عَن الإنكارِ إلى الإخبارِ عَن حالِهم الَّتي أدَّت بهم إلى ارتكابِ أمثالِها، وهي[5] اعتيادُ الإسرافِ في كلِّ شَيءٍ، أو عَن الإنكارِ عَلَيْها إلى الذَّمِّ على جميعِ معايبِهِم، أو عَن محذوفٍ مثلَ: لا عُذرَ لَكُم فيه بَلْ أَنْتُم قومٌ عادَتُكُم الإسرافُ.

---

(١) قال أبو حيّان: مَعنى التَّعدِيةِ هنا قَلِقٌ جدًّا. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ١٧٩).

(٢) قال الطِّيبيُّ: أي: مُبتدأةٌ، وهو الاستئنافُ اللُّغَويُّ لا الاصطِلاحِيُّ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٥٩).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٥)، و«التيسير» (ص: ١١١).

(٤) في نسخة التفتازاني: «موضع».

(٥) في نسخة التفتازاني: «وهو».

(٨٢) ـ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾؛ أي: ما جاؤوا بما يكونُ جوابًا عَن كلامِه، ولكنَّهُم قابَلُوا نصحَه بالأمرِ بإخراجِهِ فيمَن معَه مِن المؤمنينَ مِن قَرْيَتِهِم والاستهزاءِ بهم، فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ أي: من الفواحشِ.

(٨٣) ـ ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾؛ أي: مَن آمنَ به ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ واهلةَ[1]؛ فإنها كانَت تُسِرُّ الكفرَ.

﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: من الَّذينَ بَقُوا في ديارهم فهَلَكوا[2]، والتَّذكيرُ لتغليبِ الذكور.

(٨٤) ـ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾؛ أي: نوعًا من المطر عجيبًا، وهو مبيَّنٌ بقولِه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ رُوِيَ أنَّ لوطَ بنَ هارانَ بنِ تارخَ لمَّا هاجرَ مع عمِّه إبراهيمَ إلى الشَّامِ نزلَ بالأردنِّ، فأرسلَهُ اللهُ إلى أهلِ[3] سَدُومَ[4] ليدعُوَهُم إلى اللهِ ويَنْهاهُم عمَّا اخترعوهُ من الفاحشةِ، فلَمْ ينتَهُوا عنهَا، فأمطرَ اللهُ عليهم الحجارةَ فهَلَكُوا.

وقيلَ: خُسِفَ بالمقيمينَ مِنْهُم، وأُمْطِرت الحِجارَةُ على مُسافِرِيهِم.

---

(١) اسمُ امرأتِه. انظر: «المحبر» لأبي جعفر البغدادي (ص: ٣٨٣)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٤/ ٣١١).

(٢) ورُوِيَ أنَّها خرجَت معَهُم، فالتفتَت، فأصابَها الحجرُ وهلكَت. انظر: «تفسير عبد الرزاق» (١٢١٨).

(٣) في نسخة التفتازاني: «إلى أرض».

(٤) بفتح السينِ، وهي قريةُ قَومِ لوطٍ. انظر: «حاشية السيوطي» (٦/ ٣٥٥).

(٨٥) ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾؛ أي: وأرسَلْنا إليهِم ـ وهم أولادُ مدينَ بنِ إبراهيمَ ـ شُعيبَ بنَ ميكائيلَ بنِ يشجرَ بنِ مدينَ، وكانَ يقالُ له: خطيبُ الأنبياءِ(١)؛ لحسنِ مُراجعَتِه قومَه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريدُ: المعجزةَ الَّتي كانَت له، وليسَ في القرآنِ أنَّها ما هي(٢).

وما رُوِيَ مِن محاربةِ عصا مُوسى للتِّنِّينِ، وولادةِ الغنمِ الَّتي دفعَها الدُّرعَ خاصَّةً وكانت الموعودةَ له مِن أولادِها، ووقوعِ عصا آدمَ على يدِه في المرَّاتِ السَّبعِ(٣)= متأخِّرٌ عَن هذه المقاولةِ، ويحتمِلُ أن تكونَ كرامةً لِمُوسى أو إرهاصًا(٤) لنُبُوَّتِه.

﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾؛ أي: آلَةَ الكيلِ، على الإضمارِ أو إطلاقِ الكيلِ على المكيالِ؛ كـ«العيشِ» على المعاشِ؛ لقولِه: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ كما قالَ في سورةِ

---

(١) روى ابن عساكر عن ابن عباس كما في «الدر المنثور» (٣/ ٥٠٠ ـ ٥٠١) قال: كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذا ذكرَ شُعَيبًا قال: «ذاكَ خَطيبُ الأنبياءِ»، وذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٦٠) عن أبي إدريس الخولاني، وذكره ابن منظور في «مختصر تاريخ دمشق» (١٠/ ٣١٠) عن الأحنف، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤٠٧١)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٩٢١) عن ابن إسحاق مرسلاً.

(٢) قال الزَّجّاجُ: قال بعضُ النحويين: لم يكن لشعيبٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ آيةٌ إلا النُّبوّة، وهذا غلطٌ فاحش. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٥٣).

(٣) أورد هذه الأخبار الزمخشري، وزعم أنها من معجزات شعيب؛ لأن موسى لم يكن نبيًّا بعدُ، وقد خالفه المصنف فيما ذهب إليه، ولم نقف لهذه الأخبار على مستند يُعتمد عليه، فهي من جملة الإسرائيليات. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٢٩)، و«تفسير الآلوسي» (٩/ ٢٣٥).

(٤) هو أن يُظهِرَ اللهُ على يَدِ مَن سَيصيرُ نَبيًّا خوارقَ العاداتِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٦٥)، و«التعريفات» للجرجاني (ص: ١٦).

هـودٍ: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، أو: فأَوْفوا الكيلَ ووزنَ الميزانِ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ مصدرًا كـ«الميعادِ».

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾: ولا تَنقُصوهُم حقوقَهُم، وإنَّما قالَ: ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ للتَّعميمِ تنبيهًا على أنَّهُم كانُوا يبخسونَ الجليلَ والحقيرَ والقليلَ والكثيرَ.

وقيلَ: كانُوا مكَّاسينَ لا يَدَعونَ شيئًا إلَّا مَكَسُوه[1].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفرِ والحَيْفِ[2] ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: بعدما أصلحَ أمرَهَا وأهلَها الأنبياءُ وأتباعُهُم بالشَّرائعِ، أو: أصلَحُوا فيها، والإضافةُ إليها كالإضافةِ في ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣][3].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى العملِ بما أمرَهُم به ونهاهُم عنه، ومعنى الخيريَّةِ: إمَّا الزِّيادةُ مُطلقًا، أو في الإنسانيةِ وحسنِ الأُحدوثَةِ[4] وجمعِ المالِ.

(٨٦) ـ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾: بكلِّ طريقٍ مِن طرقِ الدِّينِ كالشَّيطانِ، وصِراطُ الحقِّ وإن كانَ واحِدًا لكنَّه يَتشعَّبُ إلى معارفَ[5] وحُدودٍ وأحكامٍ، وكانُوا إذا رأوا أحدًا يسعى فى شيءٍ منها مَنعوهُ.

---

(١) المكس: انتقاص الثمن، والظلم، والجباية. انظر: «تاج العروس» (١٦/ ٥١٤ ـ ٥١٥).

(٢) الحيف: الظلم. انظر: «مجمع بحار الأنوار» للكجراتي (١/ ٦١٨).

(٣) أي: الإضافة على معنى «في». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) أي: الذِّكر الجميل في الدنيا. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٢٥٩).

(٥) جمعُ معرفةٍ، والمُرادُ بها معرفةُ اللهِ وصفاتِهِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

وقيلَ: كانُوا يجلسونَ على المراصدِ فيقولونَ لِمَن يُريدُ شُعيبًا: إنَّه كذَّابٌ فلا يَفتِنَنَّكَ عن دينِكَ، ويُوْعِدونَ مَن آمَنَ به[١].

وقيلَ: كانُوا يقطعونَ الطَّريقَ.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الَّذي قعَدُوا عليه، فوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَ المُضمَرِ بيانًا لـ﴿كل صراط﴾، ودلالةً على عِظَمِ ما يصدُّونَ عنه، وتقبيحًا لِمَا كانُوا عليه. أو: الإيمانِ باللهِ.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾؛ أي: باللهِ، أو: بكلِّ صراطٍ على الأوَّلِ، و﴿مَنْ﴾ مفعولُ ﴿تَصدُّونَ﴾ على إعمالِ الأقربِ، ولو كانَ مفعولَ ﴿تُوعِدُونَ﴾ لقال: وتصدُّوهم.

و﴿تُوعِدُونَ﴾ بما عطفَ عليه في موضعِ الحالِ مِن الضَّميرِ في ﴿تَقْعُدُواْ﴾.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: وتطلبونَ لسبيلِ اللهِ عوجًا بإلقاءِ الشُّبهِ، أو وصفِها للنَّاسِ بأنَّها معوجَّةٌ.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ عَددُكم أو عُددُكم ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالبركةِ في النَّسلِ أو المالِ[٢].

﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مِن الأُمَمِ قبلَكُم واعتبِروا بهم.

(٨٧) ـ ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ﴾ فتربَّصُوا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾؛ أي: بينَ الفَريقينِ بنصرِ المُحِقِّينَ على المبطِلِينَ، فهوَ وعدٌ للمُؤمنينَ ووعيدٌ للكافرينَ.

---

(١) على القول الأول يكون القُعودُ على الصِّراطِ تمثيلاً، وعلى هذا حقيقةً، واستظهره أبو حيان، وهو مروي عن ابن عباس، وقتادة، والسدي. انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٣١٣ ـ ٣١٤)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ١٩٠ ـ ١٩٢)، و«فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٦٨).

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «والمال».

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا معقِّبَ لحُكْمِه[1] ولا حَيفَ فيه.

(٨٨) ـ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾؛ أي: ليكونَنَّ أحدُ الأمرينِ: إمَّا إخراجُكُم مِن القريةِ، أو عَوْدُكُم في الكفرِ، وشعيبٌ لم يَكُن في مِلَّتِهم قطُّ لأنَّ الأنبياءَ لا يَجُوزُ عليهِم الكفرُ مُطْلَقًا، لكنْ غلَّبوا الجماعةَ على الواحدِ فخُوطِبَ هو وَقومُهُ بخِطابِهِم[2]، وعلى ذلك أَجرى الجوابَ في قولِه:

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾؛ أي: كيفَ نَعودُ فيها ونحن كارهونَ لها؟! أو: أَتُعيدونَنا في حالِ كراهَتِنا؟!

(٨٩) ـ ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: قد اختلَقْنَا عليه ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ شرطٌ جَوابُهُ محذوفٌ دَليلُه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا﴾، وهو بمعنى المستقبلِ لأنَّه لم يَقَعْ، لكنَّه جُعلَ كالواقعِ للمُبالغَةِ، وأُدخلَ عليه ﴿قَدِ﴾ لتَقريبِه مِن الحالِ؛ أي: قَد افترَيْنَا الآنَ إنْ هَمَمْنا بالعودِ بعد الخلاصِ مِنْها حيثُ نَزْعُم أنَّ للهِ نِدًّا، وأنَّه[3] قد تبيَّنَ لنا أنَّ ما كُنَّا عليه باطلٌ وما أنتم عليه حقٌّ.

وقيلَ: إنَّه جوابُ قَسَمٍ وتقديرُه: واللهِ لقَد افترَيْنَا.

---

(١) أي: لا أحدَ يتعقَّبُهُ ويبحثُ عن فعلِهِ مِن قولِهِم: عقبَ الحاكمُ على حكمِ مَن قبلَهُ إذا تتبَّعَهُ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) هذا بناء على أنَّ «عادَ» بمعناه المعروف، وقال ابنُ المُنيِّرِ: وقَد يُستعمَلُ «عاد» من أخَواتِ «كانَ» بمَعنى: صارَ، فلا يَستَدعِي الرُّجوعَ إلى حالةٍ سابِقةٍ، بل عكس ذلك، وهو الانتقالُ من حالةٍ سابقةٍ إلى حالةٍ مُستأنفةٍ؛ كأنَّهُم قالوا: أو لتصيرُنَّ كُفَّارًا في مِلَّتِنا. انظر: «الانتصاف» لابن المنير بهامش «الكشاف» للزمخشري (٢/ ١٢٩).

(٣) في نسخة التفتازاني: «أو أنه».

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾: وما يَصِحُّ لنا[1] ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ خذلانَنا وارتِدادَنَا، وفيه دليلٌ على أنَّ الكُفْرَ بمَشيئَتِه[2].

وقيلَ: أرادَ به حسمَ طَمَعِهِم في العودِ بالتَّعليقِ على ما لا يَكونُ[3].

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾؛ أي: أحاطَ علمُه بكلِّ شيءٍ ممَّا كانَ وما يكونُ مِنَّا ومِنكُم.

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أنْ يُثبِّتَنا على الإيمانِ ويُخلِّصَنا من الأشرارِ.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾: احكُمْ بينَنا، و«الفَتَّاحُ»: القاضي، و«الفُتَاحَةُ»: الحكومَةُ[4].

أو: أظهِرْ أمرَنا حتَّى يَنكشِفَ ما بينَنا وبينَهُم، ويتميَّزَ المحقُّ مِن المبطِلِ، مِن «فتَحَ المُشكِلَ»: إذا بيَّنَه.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ على المعنيَيْن.

(٩٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وتَركْتُم دينَكُم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ لاستبدالِكُم ضَلالَتَهُ بهُداكُم، أو لفَواتِ ما يحصلُ لكم بالبَخْسِ والتَّطفيفِ، وهو سادٌّ مَسدَّ جَوابِ الشَّرطِ والقَسَمِ الموطِّأ باللَّامِ[5].

---

(١) قال الخفاجي: «لا يكونُ» في استعمالِ العربِ بمعنى: لا يصحُّ، ولا يقعُ، وتارةً بمعنى: لا ينبغي، ولا يليقُ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) هذا مذهب أهل السُّنة، والمعتزلة يؤولون هذه الآية وأمثالها. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٢٦١).

(٣) وهذا ردٌّ على الزَّمخشريِّ فيما تبعَ فيهِ الزَّجّاجَ، بأنَّ المُرادَ مِن ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ التَّأبيدُ. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦)، و«الكشاف» (٣/ ٢٣٥)، و«حاشية الخفاجي».

(٤) انظر: «المخصص» لابن سيده (٣/ ٤١٠).

(٥) أي: جوابٌ للقسمِ بدليلِ عدمِ اقترانِهِ بالفاءِ ومُغنٍ عن جوابِ الشَّرطِ، فكأنَّهُ جوابُهُ لإفادتِهِ معناهُ =

(٩١) ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾: الزَّلزلَةُ، وفي سورةِ الحجرِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣](1)، ولعلَّهَا كانَت مِن مَبادِئِها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ أي: في مَدينَتِهِم.

(٩٢) ـ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ مُبتدأٌ خبرُه: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ أي: استُؤْصِلُوا كأَنْ لَـمْ يُقيمُوا بهـا، و«المَغْنَى»: المنزِلُ(2).

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ دينًا ودُنيَا، لا الَّذينَ صدَّقوهُ واتَّبعوهُ ـ كما زَعَمُوا ـ فإنَّهُم الرَّابحونَ في الدَّارينِ، وللتَّنبيهِ على هذا والمبالغَةِ فيه كرَّرَ الموصولَ، واستأنَفَ بالجُملتَينِ(3)، وأتى بِهِمَا اسمِيَّتينِ(4).

= وسدِّهِ مسدَّهُ لا أنَّهُ جوابٌ لهُما معًا. انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) وقع سهو من البيضاوي رحمه الله في هذا الموضع؛ فالآية التي في سورة الحجر عن قوم صالح، والآية التي أراد هي التي في سورة هود، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤]. انظر: «حاشية الخفاجي».
وقال ابن التمجيد في «حاشيته» (٨/ ٤٤٩): فلعل المصنف كان قد كتب هذا التأويل في الرجفة الواقعة في قصة قوم صالح فيما قبل، لكن نقله الناسخون عن مواضعه.
قلت: حمل هذا على صنيع النساخ أمر مستبعد جدًّا، والسهو في مثل هذا لا يقدح بمن وقع فيه.

(٢) وهو في أصل معناه يعود إلى معنى الغِنى المعروف، قال الراغبُ: «غنِيَ في المكانِ»: طالَ مقامُهُ فيهِ مُستغنيًا بِهِ عن غيرِهِ. انظر: «المفردات» (ص: ٦١٦).

(٣) يعني: ذكرهما من غير عطف. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٤٧/ ب).

(٤) هذا لبيان وجه البلاغة والمبالغة في الآية، فهذا المعنى يمكن أن يعبَّر عنه بموصول واحد وجملتين معطوفتين فعليَّتين؛ كقولنا: الذين كذبوا شعيبًا لم يغنوا فيها وكانوا خاسرين، ولكن شتّان بين هذا والبيان القرآني المعجز، ويمكن أن يُلمح في الآيات أيضًا أن هؤلاء القوم لم يعد لهم شيء يذكرون به إلا أنهم كذبوا شعيبًا، فهم غير مستحقين للذكر باسمهم أو صفتهم السابقة، وكذلك يُلمح أن ما عاشوه وعمروه كان في حكم العدم أصلًا، وهم كانوا من أهل الخسار دائمًا.

(٩٣) ـ ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ قالَه تَأسُّفًا بهم لشدَّةِ حُزْنِه عليهِم، ثمَّ أنكرَ على نفسِه[1] فقالَ: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ ليسُوا أهلَ حُزنٍ؛ لاستحقَاقِهِم ما نزلَ عليهِم بكُفرِهِم.

أو قالـه اعتـذارًا عَـن عـدمِ شِـدَّةِ حُزنِـه عليهـم، والمعنـى: لقَـدْ بالغـتُ فـي الإبـلاغِ والإنـذارِ وبذَلْـتُ وُسـعي فـي النُّصْـحِ والإشـفاقِ فلَـمْ تُصَدِّقُـوا قولـي، فكيـفَ آسَـى عليكُـمْ؟

وقُرِئَ: «فكَيْفَ إِيْسَى» بإمالتينِ[2].

(٩٤) ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾: بالبؤسِ والضرِّ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾: كي يَتضرَّعُوا ويَتذلَّلُوا.

(٩٥) ـ ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾؛ أي: أعطيناهُـم بـدلَ مـا كانُـوا فيـه مـن البـلاءِ والشِّـدَّةِ السَّـلامَةَ والسَّـعَةَ ابتـلاءً لهـم بالأمرينِ.

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ كثـروا عَـددًا وعُـددًا، يُقالُ: «عفا النَّبـاتُ»: إذا كثُـرَ، ومنه: إعفاءُ اللِّحَى[3].

﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ كفرانًـا لنِعمَـةِ اللهِ، ونِسـيانًا لذكـرِه، واعتقـادًا بأنَّـه من عـادةِ الدَّهـرِ يُعاقبُ فـي النَّاسِ بيـن الضـرَّاءِ والسَّـرَّاءِ، وقد مسَّ آباءَنـا منه شـيءٌ مثـلُ ما مسَّـنا.

---

(١) قال الطِّيبيُّ: أي: جرَّدَ من نَفسِهِ شَخصًا وأنكرَ عليه حُزنَه على قَومٍ لا يَستَحِقُّونَه. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٨١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠). عن يحيى بن وثاب وطلحة. وهو ابن مصرف.

(٣) و«عفا» حرف من الأضداد. يقال: «عفا الشيءُ» إذا نقص ودَرَس، و«عفا» إذا زاد. انظر: «الأضداد» للأنباري (ص: ٨٦ ـ ٨٨).

﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾: فجأةً، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزولِ العقابِ[١].

(٩٦) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ﴾ يعني: القُرَى المدلولَ عليها بقولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ وقيلَ: مكَّةَ وما حولَها.

﴿ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ مكانَ كُفرِهم وعِصيانِهم.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾: لوَسَّعْنا عليهِم الخيرَ ويَسَّرْناه لهم من كلِّ جانبٍ[٢]، وقيلَ: المرادُ: المطرُ والنَّباتُ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿لَفَتَّحْنَا﴾ بالتَّشديدِ.

﴿وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفرِ والمعاصِي.

(٩٧) ـ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ، والمعنى: أَبَعْدَ ذلك أَمِنَ أَهلُ القُرى[٣]؟

﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا﴾: تبييتًا، أو: وقتَ بياتٍ، أو: مبيَّتًا، أو: مبيِّتينَ[٤]، وهو في الأصلِ مصدرٌ بمَعنى: البيتوتَةِ، ويجيءُ بمعنى: التَّبييتِ كـ«السَّلامِ» بمَعنى: التَّسليمِ.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِهم البارزِ، أو المستترِ في ﴿بَيَـٰتًا﴾.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «العذاب».

(٢) يعني: أنَّ ذكرَ السَّماءِ والأرضِ في الآيةِ لتَعميمِ الجِهاتِ. انظر: «حاشية السيوطي» (٦/ ٣٦٦).

(٣) قال الشَّيخُ سعدُ الدِّينِ: فإن قيل: هَلاَّ جَعَلَ المعطوفَ عليه ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فإنَّه أقرَبُ؟ قلنا: لأنَّ مَساقَ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ مساقُ التَّكريرِ والتَّأكيدِ بخِلافِ ما قبلَهُ؛ فإنَّه لبَيانِ حالِ القُرَى وقِصَّةِ هلاكِها قصدًا، فالعَطفُ عليه أنسَبُ وإن كانَ هذا أقربَ. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٤٨/ أ).

(٤) هذا لبيان وجوه المعنى المرتبطة بوجوه إعراب ﴿بَيَـٰتًا﴾، فهو مفعول مطلق أو ظرف أو حال من الفاعل أو من المفعول.

(٩٨) ـ ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿أَوْ﴾ بالسُّكونِ على التَّرديدِ[1].

﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾: ضَحْوةَ النَّهارِ، وهو في الأصلِ: ضَوءُ الشَّمسِ إذا ارتفعَتْ.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾: يَلْهُونَ مِن فرطِ الغَفْلَةِ، أو: يشتغلونَ بما لا ينفعُهُم.

(٩٩) ـ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ تقريرٌ لقولِه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾[2]، و﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ استعارةٌ لاستدراجِ[3] العبدِ وأخذِهِ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾: الَّذينَ خَسِرُوا بالكفرِ وتركِ النَّظرِ والاعتِبارِ.

(١٠٠) ـ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾؛ أي: يَخْلُفونَ مَن خَلَا قبلَهُم ويَرِثُون ديارَهُم، وإنَّما عُدِّيَ ﴿يهد﴾ باللَّامِ لأنَّه بمعنى: يُبيِّن[4].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٦)، و«التيسير» (ص: ١١١).

(٢) قال الطِّيبيُّ: الهمزةُ في قولِه: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ للتَّقريعِ والتَّوبيخِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٩٠).

(٣) الاستدراج ثابت في الكتاب والسنة، فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وروى الإمام أحمد (١٧٣١١) عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «إذا رَأَيتَ اللهَ يُعطِي العَبدَ مِنَ الدُّنيا عَلَى مَعاصِيهِ ما يُحِبُّ، فَإنَّما هُوَ استِدراجٌ». وله تعاريف منها: الدنوُّ إلى عذاب الله بالإمهال قليلًا قليلًا، وقد قيل بأن الاستدراج مناف لمذهب المعتزلة، لكن الزمخشري ذكره هنا، وإن كان تأوله في غير هذا الموضع. وانظر: «الكشاف» (٣/ ٢٤١)، و«التعريفات» للجرجاني (ص: ٢٠)، و«حاشية الخفاجي».

(٤) وذلك لأنَّ الفعل «يهدي» يتعدَّى إلى المفعولِ الأوَّلِ بنفسِه وإلى المفعولِ الثَّاني باللامِ أو بـ(إلى)، لكنَّه هنا عُدِّيَ إلى الأوَّلِ باللَّامِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٩١).

﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾: أنَّ الشأنَ لو نَشاءُ أَصَبْناهُم بجزاءِ ذُنوبِهِم كما أَصَبْنا مَن قَبْلَهُم، وهو فاعلُ ﴿يَهْدِ﴾، ومَن قَرأَهُ بالنُّونِ[١] جعَلَهُ مَفعولًا.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطفٌ على ما دلَّ عليهِ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾؛ أي: يغفلونَ عن الهدايةِ[٢]، أو منقطعٌ عنه بمعنى: ونحنُ نَطبَعُ[٣]، ولا يجوزُ عَطفُه على ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ على أنَّه بمَعنى: وطَبَعْنا؛ لإفضائِه إلى نفيِ الطَّبعِ عنهُم؛ لأنَّه في سياقِ جوابِ ﴿لَّوْ﴾[٤].

﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تَفهُّمٍ واعتِبارٍ.

---

(١) القراءة بالياء قراءة الجمهور، وبالنون تنسب لقتادة ومجاهد وأبي عبد الرحمن السلمي ويعقوب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٦٤ و١٤٠)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٦٠)، و«روح المعاني» (٩/ ٢٦٥).

(٢) استضعفَ هذا الوجه أبو حيّان ورجَّح ما بعده. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ٢١٨).

(٣) معنى الانقطاعِ في هذا الوَجهِ أنَّه استِئنافٌ وإعراضٌ. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٤٨/ ب).

(٤) تبع في هذا الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٢٤٢)، والزمخشري ردَّ به ما أجازه ابن الأنباري، وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٥٥)، وقد استند الزمخشري في ردِّه إلى أنَّ المعطوف على جواب «لو» له حكم الجواب، وجواب «لو» غير واقع، والإصابة بالذنوب غير واقعة، لكن الطبع واقع، فامتنع العطف، وقد نوقش الزمخشري في هذا بإمكان أن يكون المراد بالطبع نوعًا من الإصابة بالذنوب، أو يكون المراد بالطبع استمراره ودوامه، والطبع وإن كان واقعًا، لكن استمراره غير واقع. وانظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٣٢٣)، و«الانتصاف» (٢/ ١٣٤)، و«فتوح الغيب» (٦/ ٤٩١)، و«حاشية التفتازاني» (٢٤٨/ ب)، و«البحر» (١٠/ ٢١٦)، و«روح المعاني» (٩/ ٢٦٦). والضمير في قوله: «لأنه في سياق...» يعود إلى ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾. ووقع في نسخة التفتازاني تقديم وتأخير، فقد جاء فيها: «لأنه في سياق جواب لو لإفضائِه إلى نفي الطَّبعِ عنهُم». والمعنى واحد.

(١٠١) ـ ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: قُرَى الأُمَمِ المارِّ ذِكرُهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ حالٌ إن جعلَ ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ خبرًا، وتكونُ إفادَتُه بالتَّقييدِ بها، وخبرٌ إن جُعِلَت صِفَةً، ويجوزُ أَنْ يكونا خَبَرينِ(١).

و﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ؛ أي: نقصُّ بعضَ أنبائِها، ولها أنباءٌ غيرُها لا نقصُّهَا.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزاتِ ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ عندَ مجيئِهم بها ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾: بما كذَّبوهُ مِن قبلِ الرُّسلِ، بل كانوا مُستمرِّينَ على التَّكذيبِ.

أو: فما كانُوا ليؤمِنُوا مدَّةَ عُمرِهم بما كذَّبُوا به أوَّلًا حينَ جاءَتْهُم الرُّسُلُ، ولَمْ تُؤثِّرْ فيهِمْ قَطُّ دَعْوَتُهُم المتطاولَةُ والآياتُ المُتتابِعَةُ.

واللَّامُ لتأكيدِ النَّفيِ، والدَّلالةِ على أنَّهم ما صلحُوا للإيمانِ لِمُنافاتِه لحالِهم في التَّصميمِ على الكفرِ والطَّبعِ على قُلُوبِهِم.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تلينُ شكيمَتُهُم بالآياتِ والنُّذُرِ.

(١٠٢) ـ ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾: لأكثرِ النَّاسِ، والآيةُ اعتراضٌ، أو: لأكثرِ الأُمَمِ المَذكورينَ(٢).

﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾: مِن وَفاءِ عَهدٍ، فإنَّ أكثرَهُم نَقَضُوا ما عَهِدَ اللهُ إليهِم في الإيمانِ

---

(١) ذكر وجوهًا ثلاثة لإعراب ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ وجملة ﴿نَقُصُّ﴾، وقد تبع في ذلك الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٢٤٣)، ونوقش في تقييد الإفادة على الوجه الأول بالحال، ونظِّر بقولك: هذا خاتمك حديدًا، وقد أجازه سيبويه. وانظر: «الكتاب» (١/ ٣٩٦)، و«فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٩٤)، و«حاشية التفتازاني» (٢٤٨/ ب).

(٢) فلا يكون اعتراضًا على هذا، وإنَّما هو من تتمّةِ الكلامِ السّابقِ. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٤٨/ ب).

والتَّقوَى بإنزالِ الآياتِ ونصبِ الحُجَجِ، أو ما عَهِدُوا إليه حينَ كانُوا في ضُرٍّ ومَخافَةٍ مثل: ﴿لَئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ﴾؛ أي: عَلِمْناهُم ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ مِن: «وَجَدْتُ زَيْدًا ذا الحِفَاظِ[1]»، لِدُخولِ «إنْ» المخفَّفَةِ واللَّامِ الفارقَةِ، وذلك لا يَسُوغُ[2] إلَّا في المبتدأِ والخبرِ والأفعالِ الدَّاخلَةِ عليهِما، وعندَ الكوفِيِّينَ «إنْ» للنَّفيِ واللَّامُ بمَعنى «إلا»[3].

(١٠٣ ـ ١٠٥) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ الضَّميرُ للرُّسُلِ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ أو للأُمَمِ[4] ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني: المُعجزاتِ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ بأَنْ كفرُوا بها مكانَ الإيمانِ الَّذي هو مِن حقِّهَا لوُضوحِها، ولهذا المعنى وضعَ «ظَلَمُوا» موضِعَ: كَفرُوا.

وفرعونُ لقبٌ لِمَن ملكَ مِصرَ ككِسْرَى لملِكِ فارسَ، وكانَ اسمُه: قابوس، وقيلَ: الوليدَ بنَ مُصعبِ بنِ ريَّانَ.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليكَ، وقولُه: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ لعلَّه جوابٌ لتكذيبِه إيَّاه في دَعْوَى الرِّسالةِ، وإنَّما لَمْ يَذْكُره لدَلالةِ قولِه: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾

---

(١) يُقال: «إنَّه لذو حِفاظٍ، وذو مُحافظةٍ» إن كانَت له أَنَفةٌ. انظر: «الصحاح» للجوهري (٣/ ١١٧٢).

(٢) في نسخة التفتازاني: «لا يجوز».

(٣) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣٠١).

(٤) قال الطِّيبيُّ: الأَوَّلُ ـ وهو أن الضمير للرسل ـ أوفَقُ؛ لأنَّ تلك القِصَّةَ ذُكِرَت تَسليةً لرَسولِ الله ﷺ أصالةً. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٤٩٩).

عليه، وكانَ أصلُه: ﴿حقيقٌ عليَّ أنْ لا أقولَ﴾ كما قرأَهُ نافعٌ(١)، فقُلِبَ لأمنِ الإلباسِ(٢)؛ كقولِه:

وتَشْقَى الرِّمَاحُ بالضَّيَاطِرَةِ الحُمْرِ(٣)

أَوْ لأنَّ مَا لَزِمَكَ فقد لَزِمْتَه(٤).

أو للإغراقِ في وصفِ نفسِهِ(٥) بالصِّدقِ، والمعنى: أنَّه(٦) واجبٌ على القولِ الحقِّ أن أكونَ أنا قائلَه، لا يرضى إلَّا بمِثْلِي ناطِقًا به.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٧)، و«التيسير» (ص: ١١١).

(٢) لم يرتضِ هذا أبو حيّان فقال: أصحابُنا يخصُّونَ القلبَ بالضَّرورةِ، فيَنبَغِي أن يُنزَّهَ القُرآنُ. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦). وذكر ابن عصفور في «ضرائر الشعر» (ص: ٢٧١): أن أمثلة القلب في الشعر كثيرة، وهو وارد في الكلام، لكن ليس بتلك الكثرة، وذكر الحلبي أنَّ الناس بين مانع له ومجيز، ومفصِّل بين ما يفيد معنى بديعًا وما لا يفيد. انظر: «الدر المصون» للسمين الحلبي (٥/ ٥١٩).

(٣) عجز بيت لخداش بن زهير، وصدره:

وتَركَبَ خَيلٌ لا هَوادَةَ بَينَهَا

والضَّيطَرُ: الرَّجلُ الضَّخمُ الذي لا غناءَ عِندَه، وأراد بالحُمرِ: العَجَم؛ لأنَّ الشُّقرةَ غلَبَت علَيهِم. انظر: «ديوان خداش بن زهير» (ص: ٧٩)، و«مجاز القرآن» (٢/ ١١٠)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ١٤١)، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٢٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٩)، و«حاشية السيوطي» (٦/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣).

(٤) ذكر الطيبي أنه إيماء إلى أنَّ الأُسلوبَ من الكِنايةِ الإيمائيَّةِ، لا أنَّ ﴿حَقِيقٌ﴾ في هذا الوَجه بمَعنى: اللازمِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥٠٢).

(٥) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «في الوصف».

(٦) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «أنه حق».

أو ضُمِّنَ ﴿حَقِيقٌ﴾ مَعنى: «حريص»[١].

أو وُضعَ ﴿عَلَىٰٓ﴾ مكانِ الباءِ لإفادةِ التَّمكُّنِ؛ كقَولِهِم: رميتُ على القَوسِ، و: جئتُ على حالٍ حسنةٍ، ويؤيِّدُه قراءَةُ أُبيٍّ بالباءِ[٢]، وقُرِئَ: «حقيقٌ أَنْ لا أقولَ»[٣].

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: فخلِّهم حتَّى يَرجِعُوا معي إلى الأرضِ المقدسَةِ الَّتي هي وطنُ آبائِهم، وكانَ قَد استَعْبَدَهُم واستَخْدَمَهُم في الأعمالِ.

(١٠٦) ـ ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ مِن عندِ مَن أَرسلَكَ ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾: فأَحْضِرْها عندي؛ ليَثْبُتَ بها صِدْقُكَ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدَّعْوَى.

(١٠٧) ـ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهرٌ أمرُه لا يُشَكُّ في أنَّه ثعبانٌ، وهو الحيَّةُ العظيمةُ.

رُوِيَ: أنَّه لمَّا ألقاها صارتْ ثعباناً أَشْعَرَ[٤] فاغِرًا[٥] فاهُ بين لَحْيَيْه ثمانون ذراعًا، وضَعَ لَحْيَه الأسفلَ على الأرضِ والأعلى على سورِ القصرِ، ثُم توجَّهَ نحوَ فرعونَ فهَربَ منه وأَحْدَثَ، وانهَزمَ النَّاسُ مزدَحِمين، فماتَ منهم خمسةٌ وعشرون ألفًا،

---

(١) انظر: «حاشية السيوطي» (٦/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٦)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠)، كلاهما عن ابن مسعود رضي الله عنه. ونسبها في «الكشاف» (٣/ ٢٤٥) لأبي بن كعب رضي الله عنه.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٦٠)، و«الكشاف» (٣/ ٢٤٥)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) في النسخ الخطية التي بين أيدينا: «أشقر»، وهو اللون المعروف، والتصويب من «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٤٦١)، و«الكشاف» (٣/ ٢٤٨)، وتفسير البيضاوي المطبوع مع «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٢٧)، وشرحه الخفاجي والقونوي في «حاشيته» (٨/ ٤٦٣) بأنه كثير الشعر، وفي «حاشية الخفاجي»: وفي نسخةٍ: «أشعراني»، وهوَ بمعناهُ.

(٥) قوله: «فاغِرًا»؛ أي: فاتحًا. انظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٧٨٢).

فصاح فرعونُ: يا موسى، أَنْشُدُكَ بالَّذي أَرْسلكَ خُذْه وأنا أومنُ بك وأُرسِلُ معكَ بني إسرائيلَ، فأخذَه فعادَ عصًا(١).

(١٠٨) ـ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ مِن جَيبِه، أو مِن تحتِ إبطِه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾؛ أي: بيضاءُ بياضًا خارجًا عن العادةِ تجتمِعُ عليها النَّظَّارةُ، أو بيضاءُ للنُّظَّارِ، لا أنَّها كانَتْ بيضاءَ في جِبِلَّتِها.

رُوِيَ: أنَّ موسى كانَ آدمَ شَديدَ الأُدْمَةِ، فأدخلَ يدَهُ في جيبِهِ أو تحتَ إبطِهِ ثمَّ نزعَهَا فإذا هي بيضاءُ نُورانيَّةٌ غلبَ شُعاعُها شعاعَ الشَّمسِ(٢).

(١٠٩) ـ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ قيلَ: قالَه هو وأشرافُ قَومِهِ على سبيلِ التَّشاوُرِ في أمرِهِ، فحُكِيَ عنه في سُورَةِ الشُّعراءِ(٣) وعنهم هاهُنا.

(١١٠) ـ ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾: تُشيرونَ في أن نفعلَ.

(١١١ ـ ١١٢) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ كأنَّه اتَّفقَتْ عليه آراؤُهم، فأشاروا به إلى فرعونَ.

و«الإرجاءُ»: التَّأخيرُ؛ أي: أخِّرْ أمرَه، وأصلُه: ﴿أَرْجِئْه﴾ ـ كما قرأَ أبو بكرٍ وأبو عمرٍو ويعقوبُ ـ مِن أَرْجَأْتُ.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٦٣ ـ ٦٤) مطولاً عن وهب، وهو خبر فيه مبالغات كثيرة، ولا شك أن وهبًا قد أخذه من الإسرائيليات.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٤٦٢)، و«الكشاف» (٣/ ٢٤٨).

(٣) في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٤ ـ ٣٥]، ففرعون هو القائل، وهنا ذُكر أن الملأ هم القائلون، والقصة واحدة، فبيَّن وجه نسبته لهما.

وكذلك: ﴿أرجئهو﴾ على قراءةِ ابنِ كثيرٍ على الأصلِ في الضَّميرِ.

أو: ﴿أَرْجِهِي﴾ من أَرْجَيتُ؛ كما قرأَ نافعٌ في روايةِ ورشٍ وإسماعيلُ والكسائيُّ.

وأمَّا قراءَتُه في روايةِ قالونَ: ﴿أَرْجِهِ﴾ بحذفِ الياءِ فللاكتفاءِ بالكسرةِ عنها.

وقراءةُ حمزةَ وحفصٍ: ﴿أَرْجِهْ﴾ بسكونِ الهاءِ[1]، فلتَشبيهِ المُنفصِلِ بالمُتَّصلِ، وجعلِ «جِهْ و» كـ«إِبْل» في إسكانِ وَسطِه[2].

وأمَّا قراءةُ ابنُ عامرٍ: ﴿أَرَجِئْهِ﴾ بالهمزِ وكسرِ الهاءِ فلا يرتضيهِ النُّحاةُ؛ فإنَّ الهاءَ لا تُكسَرُ إلَّا إذا كانَ قبلَها كسرةٌ أو ياءٌ ساكنةٌ، ووجهُهُ: أنَّ الهمزةَ لَمَّا كانَتْ تُقلَبُ ياءً أُجْرِيَت مجراها[3].

وقرأَ حَمزةُ والكِسائيُّ: ﴿بكُلِّ سَحَّارٍ﴾[4] فيه وفي يونسَ، ويؤيِّدُه اتِّفاقُهُم عليه في الشُّعراءِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٧ ـ ٢٨٩)، و«التيسير» (ص: ١١١). واختصر الداني ما فيها من قراءات سبعية بقوله: قرأ ابن كثير وهشام هنا وفي الشُّعراء بالهمز وضم الهاء ووصلها بواو، وأبو عمرو بالهمز والضَّم من غير صلة، وابن ذكوان بالهمز وبكسر الهاء ولا يصلها بياء، وقالون بغير همز ويختلس الكسرة، وورش والكسائيّ بغير همز ويصلان الهاء بياء، وعاصم وحمزة بغير همز ويسكّنان الهاء.

(٢) قوله: «وجعلِ (جِه و) كـ«إبل» في إسكانِ وَسطِه» المراد: (جه) مع الواو من ﴿وَأَخَاهُ﴾، يعني: وجعل هاء الضمير في ﴿أَرْجِهْ﴾ الواقع في آخر الكلمة كالحرف الوسط في «إبل» في الإسكان، وأصل «إبل» بسكون الباء: «إبِل» بكسرها. انظر: «حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (٨/ ٤٦٦).

(٣) انظر: «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٤/ ٦٢).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٩)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

(١١٣) - ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعدما أرسلَ الشُّرَطَ في طَلَبِهم ﴿قَالُوٓاْ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ استأنفَ به كأنَّه جوابُ سائلٍ قالَ: ما قالُوا إذ جاؤُوا؟

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ ونافعٌ وحفصٌ: ﴿إِنَّ لَنَا ﴾[1] على الإخبارِ وإيجابِ الأجرِ؛ كأنَّهُم قالُوا: لا بُدَّ لَنا مِن أجرٍ، فالتَّنكيرُ للتَّعظيمِ.

(١١٤) - ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إنَّ لكُم أجرًا ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ عطفٌ على ما سدَّ مَسَدَّه ﴿نَعَمْ ﴾، وزيادةٌ على الجوابِ لتحريضِهِم.

(١١٥ - ١١٦) - ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ خيَّروا مُوسَى مُراعاةً للأَدَبِ أو إظهارًا للجَلادَةِ، ولكنْ كانَتْ رغبَتُهُم في أَنْ يُلْقُوا قبلَه[2]، فنبَّهوا عليها بتَغييرِ النَّظمِ إلى ما هو أبلَغُ، وتعريفِ الخبرِ، وتوسيطِ الفصلِ، أو تأكيدِ ضَميرِهِم المتَّصِلِ بالمُنفَصِلِ[3].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٩)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

(٢) في نسخة الخيالي: «يلقوا أوّلاً».

(٣) قوله: «فنبّهوا عليها بتغيير النظم..» تغييرُ النظم إذ لم يقولوا: وإمّا أن نلقي، ووجه كونه أبلغ تكرير الإسناد، و«تعريف الخبر» بالجرّ عطف على «ما هو أبلغ»، وقيل: إنه تفسير له، وقيل: إنه معطوف على «تغيير النظم»، والأوّل أولى، وقوله: «أو تأكيد ضميرهم المتصل» يعني: المستتر في ﴿نَّكُونَ ﴾ لأنّه في حكمه بل أشد، وهو معطوف على «توسيط الفصل». انظر: «حاشية الخفاجي».
وعبارة «الكشاف» (٣/ ٢٥١): «فيه ما يدلُّ على رغبتهم في أن يُلقوا قبلَه؛ من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريفِ الخبر وإقحام الفصل».
أمّا الفرق بين أن يكونَ الضَّميرُ مؤكِّدًا وبين أن يكونَ فَصلًا، فقال فيه الطِّيبِيُّ: التَّوكيدُ يرفَعُ التَّجوُّزَ عن المُسنَدِ إليه، فيلزَمُ التَّخصيصُ من تعريفِ الخَبرِ؛ أي: نحن نَفعَلُ الإلقاءَ ألبتَّةَ لا غيرُنا، والفَصلُ يُخصِّصُ الإلقاءَ بهم؛ لأنّه لتَخصيصِ المسنَدِ بالمُسنَدِ إليه، فيعرى عن التوكيدِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥١١).

فلذلك ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ كرمًا وتَسامُحًا، أو ازدراءً بهم ووُثوقًا على شأنِهِ[(١)] ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأنْ خيَّلوا إليها ما الحقيقةُ بخِلَافِه.

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: وأرْهَبوهم إرهابًا شديدًا؛ كأنَّهُم طلبوا رَهْبَتَهُم[(٢)].

﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في فنِّه.

رُوِيَ: أنَّهُم ألقوا حِبالًا غِلاظًا وخَشبًا طِوالًا كأنَّها حياتٌ مَلَأَت الوادِيَ وركِبَ بعضُها بعضًا[(٣)].

(١١٧) - ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارَتْ حيَّةً ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: ما يزوِّرونَه مِن الإفكِ، وهو الصَّرفُ وقلبُ الشَّيءِ عَن وَجهِهِ، ويجوزُ أَنْ تكونَ ﴿مَا﴾ مَصدريَّةً وهي مع الفعلِ بمعنى المفعولِ[(٤)].

رُوِيَ: أنَّها لَمَّا تَلقَّفَت حِبالَهُم وعِصِيَّهُم وابتلعَتْها بأسرِهَا أقبلَتْ على الحاضرينَ فهرَبُوا وازدَحمُوا حتَّى هلَكَ جَمْعٌ عَظيمٌ، ثمَّ أخذَهَا مُوسَى فصارَت عَصًا كمَا كانَتْ، فقالت السَّحَرَةُ: لو كانَ هذا سِحْرًا لبَقِيَت حِبالُنَا وعِصِيُّنَا[(٥)].

---

(١) أي: وثقةً بما كان بصدده من التأييد السماويِّ، وأن المعجزةَ لن يَغلِبها سحرٌ أبدًا. عبارة «الكشاف» (٣/ ٢٥١).

(٢) هذه عبارة الزمخشري، وهي تدلُّ على أنَّ «استفعل» بمعنى: «أفعل»، وقد أفادت المبالغة، وفيها توجيه لمعنى المبالغة المستفاد من صيغة «استفعل» التي تفيد الطلب غالبًا. ولم يستظهر ذلك أبو حيان. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٢٥٢)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ٢٤٠).

(٣) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٩/ ٢٨١). وفي نسخة الخيالي: «بعضها فوق بعض».

(٤) أي: تلقف إفكَهم، وإفكهم بمعنى: مأفوكهم. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٢٥٣).

(٥) آخره مروي عن الكلبي. انظر: «تفسير القرآن العزيز» لابن أبي زمنين (٢/ ١٣٦).

(١١٨) ـ ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾: فثبتَ لظُهورِ أَمرِه ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ مِن السِّحْرِ والمُعَارَضَةِ[1].

(١١٩) ـ ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾: صارُوا أَذِلَّاءَ مَبْهُوتِينَ، أو: رَجَعُوا إلى المدينَةِ مَقهُورِينَ، والضَّميرُ لِفرعونَ وقومِه.

(١٢٠) ـ ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ جعلَهُم مُلْقَيْنَ على وُجوهِهِم تَنبيهًا على أنَّ الحقَّ بهرَهُم واضْطرَّهُم إلى السُّجودِ بحيثُ لَمْ يبقَ لَهُم تمالكٌ، أو أنَّ اللهَ أَلهمَهُم ذلك وحملَهُم عليهِ حتَّى ينكسِرَ فِرعونُ بالَّذينَ[2] أرادَ بهم كسرَ مُوسَى عليهِ السَّلامُ وينقَلِبَ الأمرُ عليه، أو مُبالغةً في سرعةِ خُرورِهِم وشِدَّتِه[3].

(١٢١ ـ ١٢٢) ـ ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ أبدَلُوا الثَّانيَ مِنَ الأوَّلِ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّهُم أرادوا بهِ فِرعونَ.

(١٢٣) ـ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَآمَنتُم بِهِۦ ﴾: باللهِ، أو: بمُوسَى، والاستِفهامُ فيه للإنكارِ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ عَن عاصمٍ ورَوْحٌ عَنْ يَعقوبَ بتَحقيقِ الهمزتَينِ على الأصلِ، وقرأَ حَفْصٌ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ على الإخبارِ[4].

---

(١) قال الطِّيبِيُّ: استُعيرَ للثُّبوتِ الوقعُ؛ لأنَّه في مُقابلِ ﴿وَبَطَلَ﴾، والباطِلُ زائلٌ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥١٣).

(٢) ذكر الأنصاري في «حاشيته» (٢/ ٦٣١) أن الباء للمعية.

قلت: ولا يبعد أن تكون للآلة والاستعانة، فيكون المعنى: صارت الوسيلة المُعِينة على انكسار فرعون القوم الذين أراد أن يجعل منهم وسيلة مُعِينة على كسر موسى، والله أعلم.

(٣) يعني: أنَّه تمثيلٌ، شبَّهَ حالهم في سرعةِ الخرورِ وشدَّتِه بحالِ مَن أُلقِيَ. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٤٩/أ).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٠)، و«التيسير» (ص: ١١٢)، و«النشر» (١/ ٣٦٨ـ٣٦٩). وقرأ رويس =

﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ﴾؛ أي: إنَّ هذا الصَّنيعَ لحيلةٌ احتَلْتُمُوها أنتُم ومُوسى ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾: في مِصرَ قبلَ أَنْ تخرجوا للمِيعادِ ﴿لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ يعني: القِبْطَ، وتَخْلُصَ لَكُم ولِبَني إِسرائيلَ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبةَ ما فَعَلْتُم، وهو تهديدٌ مُجمَلٌ تفصيلُهُ:

(١٢٤) ـ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾: مِن كلِّ شقٍّ طرفًا ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ تفضيحًا لَكُم وتَنْكِيلًا لأَمْثالِكُم.

قيلَ: إنَّه أوَّلُ مَن سنَّ ذلك، فشَرَعَهُ اللهُ للقُطَّاعِ تعظيمًا لجُرْمِهِم، ولذلك سمَّاهُ مُحاربَةَ لله ورسولِه، ولكنْ على التَّعاقُبِ لفَرْطِ رَحمَتِه(١).

(١٢٥) ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ بالموتِ لا محالةَ، فلا نُبالِي بوعيدِكَ وإنَّا لَمُنقلِبُونَ إلى رَبِّنَا وثوابِه إن فعلتَ بِنا ذلك؛ كأنَّهم استَطابوهُ شَغَفًا على لقاءِ اللهِ، أو: مصيرُنا ومَصيرُكَ إلى ربِّنَا فيَحكُمُ بينَنَا.

(١٢٦) ـ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾: وما تُنكِرُ مِنَّا ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا﴾ وهو خيرُ الأَعْمالِ وأَصلُ المَناقِبِ ليسَ ممَّا يتأتَّى لنَا العدولُ عنه طلبًا لِمَرضاتِكَ.

ثُمَّ فزعُوا إلى اللهِ فقالوا:

= عن يعقوب كحفص. والإخبار هنا خرج إلى معنى التوبيخ والتقريع. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٢٥٣).

(١) قوله: «للقطاع»: جمع قاطع وهو من يقطع الطريق، وقوله: «ولذلك سماه»؛ أي: سمى قطع الطريق «محاربة الله» في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٣٣] والمعنى: يحاربون أولياء الله أو عباده لأنَّ أحدًا لا يحارب الله، وقوله: «على التعاقب» هو مذهبه، وإلَّا فقد يجمع بين بعضها وبعض كما يعلم من كتب الفقه فتدبر. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾: أَفِـضْ عَلَينـا صَبْـرًا يَغمُرُنا كمـا يُفْرغُ المـاءُ، أو: صُبَّ عَلَينـا مـا يُطهِّرُنَـا مِـن الآثامِ وهـو الصَّبـرُ على وعيـدِ فِرْعَـوْنَ[1] ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾: ثابتيـنَ على الإسـلامِ.

قيلَ: إنَّه فعلَ بهم ما أَوْعَدَهُم.

وقيـلَ: إنَّـه لـم يَقْـدِر عَلَيهِـم؛ لقولِـه تَعالـى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصـص: ٣٥][2].

(١٢٧) ـ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بتغييرِ النَّاسِ عليكَ ودَعْوَتِهم إلى مُخالَفَتِك.

﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطفٌ على «يُفْسِدوا» أو جوابٌ للاستفهامِ بالواوِ؛ كقولِ الحُطَيْئَةِ:

أَلَـمْ أَكُ جَارَكُـمْ وَيَكُـونَ بَينِي ... وَبَـيْـنَـكُمُ المَـوَدَّةُ وَالإِخَـاءُ[3]

على مَعنى: أيكونُ مِنْكَ تَركُ مُوسى ويكونُ تركُه إيَّاكَ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[4] عَلى أنَه عطفٌ على ﴿أَتَذَرُ﴾ أو استئنافٌ أو حالٌ[5].

---

(١) حمل الكلام على الاستعارة في الوجهين، لكنها تبعية على الوجه الأول، ووقعت في لفظ ﴿أَفۡرِغۡ﴾، وأصلية على الثاني، ووقعت في لفظ ﴿صَبۡرٗا﴾. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥١٦ ـ ٥١٧).

(٢) ومـن قـال: إنـه قـدر عليهم، حمـل آية القصـص علـى الغالبة بالحجـة. انظـر: «حاشـية القونوي» (٨/ ٤٧٤).

(٣) انظر: «ديوان الحطيئة» (ص: ١٠)، وفيه: «ألم أك محرماً...»، وانظر: «حلية المحاضرة» لابن المظفر الحاتمي (ص: ٦٣ ـ ٦٤).

(٤) نسبت لنعيم بن ميسرة والحسن. انظر: «المحتسب» (١/ ٢٥٦)، و«البحر» (١٠/ ٢٥٢).

(٥) كونه عطفًا على ﴿أَتَذَرُ﴾ معناه: أتذَرُه وأيذَرُك؛ أي: أتُطلِقُ له ذلك، وكونه حالاً على معنى: أتذَرُه وهو يَذَرُك وآلهتك. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٥٦).

وقُـرِئَ بالسُّكونِ[1]؛ كأنَّه قيلَ: يُفْسِدُوا ويَذَرْكَ؛ كقولِه: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون: ١٠][2].

﴿وَءَالِهَتَكَ﴾: مَعْبُودَاتِكَ، قيلَ: كانَ يَعْبُدُ الكواكِبَ.

وقيلَ: صنعَ لقَومِهِ أصنامًا وأمرَهُم أَنْ يَعْبُدُوهَا تَقَرُّبًا إليه، ولذلكَ قالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقُرِئَ: «وإِلَاهَتَكَ»[3]؛ أي: عِبادَتَكَ.

﴿قَالَ﴾ فرعونُ: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كما كُنَّا نفعلُ مِن قبلُ؛ ليُعلَمَ أنَّا على ما كُنَّا عليه من القَهرِ والغَلَبَةِ، ولا يُتوهَّمَ أنَّه المولودُ الَّذي حكَمَ المُنجِّمُونَ والكهَنَةُ بذهابِ مُلْكِنا على يدِه.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ: ﴿سَنَقْتُلُ﴾ بالتَّخفيفِ[4].

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ غالبونَ، وهُمْ مَقهُورُونَ تحتَ أَيدِينا[5].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠) عن أبي رجاء والحسن، و«المحتسب» (١/ ٢٥٦) عن الأشهب العقيلي.

(٢) قال التفتازانيُّ: يريدُ أنَّه من قَبيلِ العَطفِ على التَّوهُّمِ؛ فإنَّ جوابَ الاستِفهامِ كثيرًا ما يكونُ بالجَزمِ وتَركِ الفاءِ، فكأنَّهُ هنا كذلك، فعُطِفَ عليه «يذركَ» بالجَزمِ؛ كما جعلَ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ ـ بالنَّصبِ ـ في جَوابِ التَّحضيضِ مُنزَّلًا مَنزلةَ «أَصَّدَق» بالجَزمِ، فعُطِفَ عليه ﴿وَأَكُن﴾. انظر: «حاشية السيوطي» (٦/ ٣٩٧).

(٣) تنسب لابن مسعود وعلي وابن عباس وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠)، و«المحتسب» (١/ ٢٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤١)، و«البحر» (١٠/ ٢٥٤).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٢)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

(٥) جاء كلام فرعون بصيغة الجمع؛ فإما أن يكون لتعظيم نفسه، وإما أنَّه قصد نفسه وقومَه، وغلَّب المتكلم على الغائب. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٤٧٦).

(١٢٨) - ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ فِرْعَوْنَ وتَضجَّرُوا منه تسكينًا لَهُم: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ تَسلِيَةً لهُمْ وتَقريرًا للأمرِ بالاستعانَةِ باللهِ والتَّثبُّتِ في الأمرِ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وعدٌ لَهُم بالنُّصرَةِ، وتَذكيرٌ لِمَا وَعَدَهُم مِن إهلاكِ القِبْطِ وتَوريثِهِم ديارَهُم وتَحقيقٌ له.

وقُرِئَ: «والعاقبةَ» بالنَّصبِ[1] عطفًا على اسمِ «إنَّ».

واللَّامُ في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ تحتمِلُ العهدَ والجنسَ.

(١٢٩) - ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: بنو إسرائيلَ: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ بالرِّسالَةِ بقتلِ الأبناءِ ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ بإعادتِه.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تصريحًا بما كَنَى عنه أوَّلًا[2] لَمَّا رَأى أنَّهُم لم يَتَسَلَّوْا بذلك، ولعلَّه أتَى بفعلِ الطَّمَعِ[3] لعَدَمِ جَزْمِه بأنَّهُم المُستخلَفونَ[4] بأعيانِهم أو أولادُهم، وقَدْ رُوِيَ أنَّ مِصْرَ إنَّما فُتِحَ لهم في زمنِ دَاودَ عليهِ السَّلامِ.

﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾: فيرى ما تعمَلُونَ مِن شُكْرٍ وكُفْرانٍ وطَاعَةٍ وعِصْيَانٍ؛ ليجازِيَكُم على حَسَبِ ما يُوجَدُ مِنْكُم.

---

(١) نسبت لأبيٍّ وابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠)، و«الكشاف» (٣/ ٢٥٨)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٢)، و«البحر» (١٠/ ٢٥٥).

(٢) أي: بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٣٤).

(٣) أي: عسى.

(٤) في نسخة التفتازاني: «مستخلفون».

(١٣٠) ـ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾: بالجدوبِ لقِلَّةِ الأَمْطارِ والمياهِ، و«السَّنَةُ» غلَبَتْ عَلى عامِ القَحْطِ لكثرةِ ما يُذكرُ عنه ويُؤرَّخُ به، ثمَّ اشتُقَّ مِنْها فقيلَ: «أسنَتَ القَوْمُ» إذا أَقْحَطُوا[١].

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بكثرةِ العاهاتِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: لكي يَتنبَّهُوا على أنَّ ذلك بشُؤمِ كُفرِهم ومَعاصِيهم فيَتَّعِظُوا، أو ترقَّ[٢] قُلوبُهُم بالشَّدائدِ، فيفزَعُوا إلى اللهِ ويرغَبُوا فيما عندَه.

(١٣١) ـ ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ مِن الخصبِ والسَّعَةِ ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾: لأجلِنا ونحنُ مُستَحِقُّوهَا.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: جدبٌ وبَلاءٌ ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾: يتشاءَمُوا بهِم، ويقولونَ: ما أصابَتْنَا إلَّا بشُؤْمِهم، وهذا إغراقٌ في وَصفِهم بالغَباوَةِ والقَساوَةِ؛ فإنَّ الشَّدائدَ ترقِّقُ القُلوبَ وتذلِّلُ العَرائِكَ[٣] وتُزِيلُ التَّماسُكَ، سِيَّمَا بعدَ مُشاهدَةِ الآياتِ، وهم لَمْ تُؤثِّر فيهِم، بَلْ زادُوا عندَها عُتوًّا وانهِمَاكًا في الغيِّ.

وإنَّما عرَّفَ الحسنَةَ وذكَرَها مع أداةِ التَّحقيقِ[٤] لكثرةِ وُقوعِها وتَعلُّقِ الإرادةِ

(١) التاء في «السنة» منقلبة عن واو، يقالُ: «أسنَى النَّاسُ يُسنُونَ»: إذا لَبِثُوا في مَوضِعٍ سَنةٍ، و«أسنَتُوا»: إذا أصابَهُم الجدوبة، بقلبِ الواوِ تاءً للفَرقِ بينَهُما؛ فقال المازنيُّ: هذا شاذٌّ لا يُقاسُ عليه. وقال الفرّاءُ: تَوهَّمُوا أنَّ الهاءَ أصليَّةٌ إذا وَجدُوها ثالثةً فقَلَبُوها تاءً. انظر: «حاشية السيوطي» (٦/ ٤٠٠). وانظر: «الصحاح» للجوهري مادة: سنا (٦/ ٢٣٨٤) ومادة: سنت (١/ ٢٥٤).

(٢) في نسخة التفتازاني: «فيتعظوا به وترق».

(٣) جمع «عريكة»، وهي سنام الجمل، والنَّفس، ويُراد بها الطبيعة. انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (٤/ ٢٩٠)، و«المحكم» لابن سيده (١/ ٢٧١)، و«شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» للحميري (٧/ ٤٤٧٧).

(٤) وهي «إذا» الموضوعة لإفادة تحقق الشرط. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٤٧٩).

بِإحداثِهـا، ونكَّـرَ السَّـيِّئَةَ وأتـى بها مـع حرفِ الشَّـكِّ[١] لنُدورِهـا وعـدمِ القَصْدِ لها إلَّا بالتَّبَعِ.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: سببُ خَيْرِهـم وشَـرِّهم عندَه وهـو حكـمُهُ ومَشيئَتُه، أو: سببُ شُؤمِهم عندَ اللهِ وهو أَعمَالُهُم المكتوبةُ عندَه فإنَّها الَّتي ساقَتْ إليهِمْ ما يَسوؤُهُم[٢].

وقُرِئَ: «إنَّما طَيْرُهُم»[٣] وهو اسمُ الجَمْعِ، وقيلَ: هوَ جَمْعٌ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ[٤] ما يُصيبُهُم مِن اللهِ تَعالَى، أو مِن شُؤمِ أَعْمَالِهِم.

(١٣٢) - ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا﴾ أَصْلُها: «مـا» الشَّـرطِيَّةُ ضُمَّتْ إِلَيْهَا «ما» المزيدَةُ للتَّأكيدِ، ثمَّ قُلِبَت أَلِفُها هاءً استِثْقَالًا للتَّكريرِ[٥].

وقيلَ: مُرَكَّبَةٌ مِن «مه» الَّذي يُصوِّتُ به الكافُّ، و«ما» الجزائيَّةِ[٦].

---

(١) وهو «إن».

(٢) فهذا الوجه بناء على أنَّ «الطائر» يُطلَقُ على التَّشاؤُمِ وَحدَه، والأوَّل بناء على أنَّ يُطلَقُ على الحظِّ والنَّصيبِ سواءٌ كانَ خيرًا أو شرًّا. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥٣٠).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠)، و«المحتسب» (١/ ٢٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٣)، و«البحر» (١٠/ ٢٦٢).

(٤) في نسخة الخيالي: «أي».

(٥) هذا مذهب الخليل. انظر: «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي (٣/ ٣٥٨)، و«الكتاب» لسيبويه (٤/ ٣١٤).

(٦) هـذا مذهـب الأخفـش والزجـاج والبغداديـن، وأجـازه سـيبويه. انظر: «معانـي القـرآن» للزجاج (٢/ ٣٦٩)، و«الجنـى الدانـي» للمـرادي (ص: ٦١٢)، و«المسـاعد» لابـن عقيـل (٣/ ١٣٧). قلت: ثمة قول ثالث في «مهما»، وهو أنها بَسيطةٌ لا مُركَّبةٌ، وهو اختيار أبي حيان وابن هشام وغيرهم. انظر: «الارتشاف» لأبي حيان (٤/ ١٨٦٣)، و«مغني اللبيب» لابن هشام (ص: ٤١٣).

ومَحلُّهَا الرَّفعُ على الابتداءِ، أو النَّصبُ بفعلٍ يُفسِّرُه: ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ﴾؛ أي: أيَّما شيءٍ تُحْضِرْنَا تأْتِنَا بهِ.

﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ بيانٌ لـ﴿مَهْمَا﴾، وإنَّما سَمَّوْهَا آيةً على زَعْمِ مُوسَى لا لاعتقادِهِم، ولذلكَ قالُوا: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لتسحَرَ بها أعينَنا[١] وتُشبِّهَ علينَا، والضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ و﴿بِهَا﴾ لِـ﴿مَهْمَا﴾ ذكَّرَهُ قبل التَّبيينِ باعتبارِ اللَّفظِ، وأنَّثه باعتبارِ المَعْنَى[٢].

(١٣٣) ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ ماءٌ طافَ بهِمْ وغَشِيَ أماكِنَهُم وحروثَهُم مِن مَطَرٍ أو سيلٍ.

وقيلَ: الجدريُّ، وقيلَ: المُوتَانُ[٣]، وقيلَ: الطَّاعونُ.

﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ قيلَ: هو كِبارُ القِردانِ، وقيلَ: أولادُ الجَرادِ قبلَ نباتِ أجنِحَتِها.

﴿وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾.

رُوِيَ: أنَّهُم مُطِرُوا ثَمانيةَ أيَّامٍ في ظلمَةٍ شَديدَةٍ لا يقدرُ أحدٌ أنْ يخرجَ مِن بَيتِهِ، ودخلَ الماءُ بُيوتَهُم حتَّى قامُوا فيه إلى تَراقِيهِم، وكانَتْ بُيوتُ بَنِي إسرائيلَ مُشتبكَةً ببيوتِهِم ولم يَدْخُل فيهَا قطرةٌ، وركبَ على أراضيهِمْ فمَنَعَهُم مِن الحَرْثِ والتَّصرُّفِ

---

(١) كذا في نسخة الطبلاوي، وفي نسخة الخيالي والتفتازاني: «علينا».

(٢) اللَّطيفةُ فيه ـ كما قال الطيبيُّ ـ هي أنَّ الضَّميرَ الأوَّلَ لَمّا عادَ إلى (مهما) ولفظُهُ مُذكَّرٌ ذُكِّرَ، والضَّميرُ الثَّاني إنَّما رجعَ إليهِ بعدَ ما بُيِّنَ بقولِه: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾، فأُنِّثَ بهذا الاعتبارِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥٣٢).

(٣) يعني: كثرة الموت. انظر: «حاشية الخفاجي».

فيها، ودامَ ذلك عليهم أسبوعًا فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربَّكَ يَكْشِفْ عَنَّا ونَحْنُ نُؤمِنُ بِكَ، فدَعَا فكُشِفَ عَنْهُم ونبتَ لهم مِن الكَلَأِ والزَّرعِ ما لم يُعْهَد مِثْلُه ولم يُؤمِنُوا، فبعثَ اللهُ عليهِم الجرادَ فأكَلَت زُرُوعَهُم وثِمارَهُم، ثمَّ أخذَتْ تَأْكُلُ الأَبْوَابَ والسُّقوفَ والثِّيابَ، ففزعُوا إليه ثانيًا فدَعا وخرجَ إلى الصَّحراءِ وأشارَ بعَصاهُ نحو المَشرقِ والمغربِ فرجعَتْ إلى النَّواحي الَّتي جاءَتْ مِنْها فلَمْ يُؤمِنُوا، فسلَّطَ اللهُ عليهِم القُمَّلَ فأكلَ ما أبقاهُ الجَرادُ، وكانَ يقَعُ في أطعِمَتِهِم ويدخلُ بينَ أَثْوَابِهِم وجلودِهِم فيَمَصُّهَا، ففزعُوا إليه فرُفعَ عنهُم فقالوا: قد تَحقَّقْنَا الآنَ أَنَّكَ ساحِرٌ! ثمَّ أرسلَ اللهُ عليهِم الضَّفادعَ بحيثُ لا يُكشفُ ثوبٌ ولا طعامٌ إلَّا وُجِدَت فيه، وكانَتْ تَمْتَلِئُ منها مَضَاجِعُهُم وتَثِبُ إلى قُدورِهِم وهي تغلي وأَفْواهِهِم عندَ التَّكلُّمِ، ففزعُوا إليه وتضرَّعُوا، فأخذَ عليهِم العهودَ، ودَعا فكشفَ اللهُ عَنْهُم، ثمَّ نَقَضُوا العهدَ، ثمَّ أرسلَ اللهُ عليهِم الدمَ فصَارَت مياهَهُم دمًا حتَّى كانَ يجتمعُ القِبْطيُّ مع الإسرائيليِّ على إناءٍ فيكونُ ما يليه دمًا وما يلي الإسرائيليَّ ماءً، ويمصُّ الماءَ مِن فمِ الإسرائيليِّ فيصيرُ دَمًا في فيه(١).

وقيلَ: سلَّطَ عليهِم الرُّعافَ(٢).

﴿ءَايَٰتٍ﴾ نصبٌ على الحالِ ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مُبيِّنَاتٍ لا تُشكِلُ على عاقلٍ أنَّها آياتُ اللهِ ونِقمَتُه عليهِم، أو: منفصلاتٍ لامتِحانِ أَحْوَالِهِم إذ كانَ بينَ كُلِّ اثنينِ مِنْها شهرٌ، وكانَ امتِدادُ كلِّ واحدةٍ أسبوعًا.

---

(١) هذا مجموع وملخص من روايات متفرقة. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٦٤ - ٢٦٦)، وانظر أيضًا: «تفسير الطبري» (١٠/ ٣٨٩ و٣٩٣ و٣٩٤ و٣٩٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٢/ ٤٨٨)، و«درج الدرر» للجرجاني (٢/ ٧٩٧)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٢٧١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٤٩)، كلاهما عن زيد بن أسلم، وذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٢).

وقيلَ: إنَّ موسى عليه السَّلامُ لبثَ فيهِمْ بعدَما غُلِبَ السَّحَرَةُ عِشرينَ سنةً يُريهِم هذه الآياتِ على مَهَلٍ(١).

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمانِ ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

(١٣٤) - ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ يعني: العَذابَ المُفصَّلَ، أو الطَّاعونَ الَّذي أرسلَ اللهُ عليهِم بعدَ ذلك(٢) ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: بعهدِهِ عندكَ وهو النُّبوَّةُ، أو: بالَّذي عَهِدَه إليك أَنْ تدعوَهُ به فيجيبكَ كما أجابَكَ في آياتِكَ، وهو صِلَةُ ﴿ادْعُ﴾(٣)، أو حالٌ مِن الضَّميرِ فيه بمَعنى: ادعُ اللهَ مُتوسِّلًا إليه بما عَهِدَ عِنْدَكَ، أو مُتعلِّقٌ بفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه التِماسُهُم مثلَ: أَسْعِفْنَا إلى ما نطلبُ مِنْكَ بحقِّ ما عَهِدَ عِندَكَ، أو قَسَمٌ مُجابٌ بقولِه:

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي: أقسَمْنا بعَهْدِ اللهِ عِندَكَ لئِنْ كشَفْتَ الرِّجْزَ لنؤمِنَنَّ ولنُرْسِلَنَّ(٤).

(١٣٥) - ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ إلى حدٍّ مِن الزَّمانِ هُمْ بالِغُوه فمُعذَّبونَ فيه أو مُهلَكُون، وهو وقتُ الغرقِ أو الموتِ.

وقيلَ: إلى أجلٍ عَيَّنُوه لإيمانِهِم.

---

(١) أي: بغيرِ عجلةٍ، والخبر رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٤٩) عن نوف الشامي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٠٠) عن سعيد بن جبير وابن عباس، ويشهد لهذا ما روى الترمذي (١٠٦٥) عن أسامة بن زيد: أن النبي ﷺ ذكر الطاعون، فقال: «بَقِيَّةُ رِجزٍ، أو عَذابٍ أُرسِلَ عَلَى طائفةٍ مِن بني إسرائيل، فإذا وَقَعَ بِأرضٍ وَأنتُم بها فَلا تَخرُجُوا مِنها، وَإذا وَقَعَ بِأرضٍ وَلَستُم بِها فَلا تَهبِطُوا عَلَيها».

(٣) في نسخة التفتازاني: «هو صلة ادع».

(٤) في نسخة التفتازاني: «كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن».

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جـوابُ «لَمَّـا»؛ أي: فلَمَّـا كَشَـفْنا عَنْهُم فاجَـؤوا النَّكْثَ[١] مِن غيـرِ توقُّـفٍ وتأمُّلٍ فيه.

(١٣٦) ـ ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: فـأَرَدْنَا الانتقامَ مِنْهُم[٢] ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾؛ أي: البحرِ الَّذي لا يُدرَكُ قَعْرُه، وقيلَ: لُجَّتِه[٣].

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾؛ أي: كانَ إغراقُهُم بسببِ تَكذيبِهِم بالآياتِ وعدمِ فِكْرِهِم فيها حتَّى صارُوا كالغافِلينَ عَنْهَا.

وقيلَ: الضَّميرُ للنِّقمَةِ المَدلولِ عَلَيْها بقولِه: ﴿فَانتَقَمْنَا﴾.

(١٣٧) ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالاستعبادِ وذَبـحِ الأَبناءِ مِـن مُستَضْـعِفِيهِم ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ يعـني: أرضَ الشَّامِ مَلَكَها بنو إسرائيلَ بعدَ الفَراعنَةِ والعمالِقَةِ وتمكَّنُوا في نَواحِيها.

﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصبِ وسَعَةِ العَيشِ.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ومَضَتْ عَلَيهِم، واتَّصلَت بالإنجازِ

---

(١) تبع المصنفُ في تقدير «فاجؤوا» الزمخشريَّ في «الكشاف» (٣/ ٢٦٨)، وقد أفاده من معنى «إذا» الفجائية، وقدَّره ماضيًا ليصلح جوابًا لـ«لمّا»، وفيه نقاش ينظر في «حاشية السيوطي» (٦/ ٤٠٦). والنَّكثُ: النَّقضُ، وأصلُهُ نكثُ الصُّوفِ المغزولِ ليغزلَهُ ثانيًا، فاستعيرَ لنقضِ العهدِ بعدَ إبرامِهِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) إنَّما قدَّرَ «أردنا» لأنَّ ما يعقبُه الإغراقُ هو إرادةُ الانتقامِ، لا هُو بعينِه؛ فإنَّ الإغراقَ عينُ الانتقامِ، ومِنهم مَن يجعَلُ الفاءَ لِمُجرَّدِ التَّفسيرِ كقَولِه: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥٣٨)، و«حاشية التفتازاني» (٢٥٠/ أ).

(٣) وقيل: مطلق البحر، واختُلف فيه: هل هو عربي أو معرب. انظر: «المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب» للسيوطي (ص: ١٦٦)، و«حاشية الخفاجي».

عِدَتُه إيَّاهُم بالنَّصرِ والتَّمكينِ، وهـو قولُه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ إلى قولِه: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

وقُرِئَ: «كلماتُ ربِّك» لتعدُّدِ المَواعيدِ(١).

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾: بسببِ صَبرِهِم على الشَّدائدِ.

﴿وَدَمَّرْنَا﴾: وخرَّبْنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ مِن القُصورِ والعماراتِ ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ مِن الجنَّاتِ، أو ما كانُوا يرفعونَ مِن البُنيانِ كصرحِ هامانَ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ: ﴿يَعْرُشُونَ﴾ بالضَّمِّ(٢).

(١٣٨ ـ ١٤٠) ـ وهذا آخرُ قِصَّةِ فرعونَ وقومِه، وقولُه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ وما بعدَه ذكرُ ما أحدثَهُ بنو إسرائيلَ مِن الأمورِ الشَّنيعَةِ بعدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عليهِمْ بالنِّعَمِ الجِسَامِ، وأَراهُم مِن الآياتِ العِظَامِ، تَسليَةً لرَسُولِ اللهِ ﷺ ممَّا رَأى مِنْهُم، وإيقاظًا للمُؤمنينَ حتَّى لا يَغفُلُوا عَن مُحاسبَةِ أنفُسِهم ومُراقبَةِ أحوالِهم.

رُوِيَ: أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ عبَرَ بهم يومَ عاشُوراءَ بعدَ مَهلكِ فِرعونَ وقومِه فصامُوه شُكْرًا(٣).

﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: فمَرُّوا عليهِم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾: يُقيمونَ على عِبادَتِها، قيلَ: كانَتْ تماثيلَ بقَرٍ، وذلك أوَّلُ شأنِ العِجْلِ(٤).

---

(١) هي رواية عن عاصم على خلاف المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥١)، و«الكشاف» (٣/ ٢٦٩).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٢)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٣) عن الكلبي، وأصله في «البخاري» (٢٠٠٤)، و«مسلم» (١١٣٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٠٩) عن ابن جريج.

والقَومُ كانُوا مِن العَمالِقَةِ الَّذينَ أُمِرَ مُوسَى بِقِتالِهِم، وقيلَ: مِن لَخْمٍ[(١)].

وقرأ حَمزَةُ والكِسَائيُّ: ﴿يعكِفُونَ﴾ بالكسرِ[(٢)].

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾: مثالًا نعبدُهُ ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ يَعبُدونَها، و«ما» كافَّةٌ للكافِ.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وصفَهُم بالجَهلِ المُطلَقِ، وأكَّدَهُ لبُعدِ ما صدَرَ عنهُم ـ بعدَما رَأَوْا مِن الآياتِ الكُبرَى ـ عَن العَقلِ.

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارةٌ إلى القومِ ﴿مُتَبَّرٌ﴾: مُكسَّرٌ مُدمَّرٌ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ يعني: أنَّ اللهَ يهدِمُ دينَهُم الَّذي هُم عليهِ ويُحطِّمُ أصنامَهُم ويجعلُها رُضاضًا[(٣)].

﴿وَبَـٰطِلٌ﴾: مُضْمَحِلٌّ ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مِن عِبادَتِها وإِنْ قَصدُوا بها التَّقرُّبَ إلى اللهِ تَعالى.

وإنَّما بالغَ في هـذا الكلامِ بإيقاعِ ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ اسمَ ﴿إِنَّ﴾، والإخبارِ عمَّا هُم فيه بالتَّبارِ وعمَّا فَعَلُوا بالبُطلانِ، وتَقديمِ الخَبَرينِ في الجُملتينِ الواقِعَتَينِ خبرًا لـ﴿إِنَّ﴾[(٤)]= للتَّنبيهِ على أنَّ الدَّمارَ لاحقٌ لِمَا هُم فيهِ لا مَحالَةَ، وأنَّ الإحباطَ الكُلِّيَّ لازِبٌ[(٥)] لِمَا مَضَى عَنْهُم تنفيرًا وتَحذيرًا عَمَّا طَلَبُوا.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٠٩ ـ ٤١٠) عن قتادة، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٥٣) عن أبي عمران الجوني.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٢)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٣) رُضاضُ الشَّيءِ: فُتاتُه. انظر: «الصحاح» للجوهري (٣/ ١٠٧٨).

(٤) قال التفتازاني: ما ذكرَ من تَقديمِ الخَبرِ مَبنيٌّ على أنَّ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ مُبتدأٌ و﴿مُتَبَّرٌ﴾ خبرٌ له، وإن كانَ يحتَمِلُ احتمالًا مُساويًا أو راجِحًا أن يكونَ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ فاعِلَ ﴿مُتَبَّرٌ﴾. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٥٠/ أ)، وانظر أيضًا: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ٢٨١).

(٥) أي: لازم. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٤٩١).

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾: أطلُبُ لَكُم مَعْبودًا ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: والحالُ أنَّه خصَّكُم بنِعَمٍ لَمْ يُعْطِهَا غيرَكُم، وفيهِ تَنبيهٌ على سُوءِ مُقابلَتِهِم؛ حيثُ قابلُوا تَخصيصَ اللهِ إيَّاهُم مِن أَمْثالِهِم بمَا لَمْ يَستَحِقُّوهُ تفضُّلًا بأَنْ قصدُوا أَنْ يُشرِكُوا بهِ أَخَسَّ شَيءٍ مِن مَخْلوقَاتِه.

(١٤١) - ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: واذكُروا صَنيعَه[١] مَعكُم في هذا الوقتِ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿أنجاكم﴾[٢].

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ استئنافٌ لبَيَانِ ما أنجاهُمْ مِنهُ، أو حالٌ مِن المخاطبينَ أو مِن آلِ فِرعونَ أو مِنْهُما.

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ بدلٌ منه مُبيِّنٌ.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: وفي الإنجاءِ أَو العذابِ نعمَةٌ أو مِحنَةٌ عَظيمَةٌ.

(١٤٢) - ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ ذو القعدةَ. وقرأَ أبو عمرٍو ويَعقوبُ: ﴿ووَعَدْنا﴾[٣].

﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ مِن ذي الحِجَّةِ ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بالغًا أربَعِينَ.

رُوِيَ: أنَّه عليهِ السَّلامُ وعدَ بني إسرائيلَ بمِصرَ أَنْ يأتيَهُم بعدَ مَهْلِكِ فِرعونَ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «صنعة الله».

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١١٣).

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ٧٣)، و«النشر» (٢/ ٢١٢).

بكِتابٍ مِن اللهِ فيه بَيانُ ما يأتونَ ويَذَرونَ، فلمَّا هَلَكَ سألَه ربَّهُ[١] فأمرَهُ بصَوْمِ ثلاثينَ، فلَمَّا أتمَّ أنكرَ خُلوفَ فيهِ فتسوَّكَ، فقالَت المَلائِكَةُ: كنَّا نَشُمُّ منكَ رائحَةَ المسكِ فأفسدْتَهُ بالسِّواكِ، فأمرَهُ اللهُ أن يزيدَ علَيْهَا عَشرًا[٢].

وقيلَ: أمرَهُ أن يتخلَّى ثَلاثينَ بالصَّومِ والعبادةِ، ثمَّ أنزلَ عليهِ التَّوراةَ في العشرِ وكلَّمَه فيها.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾: كُنْ خَليفَتِي فيهِم ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يَجِبُ أن يُصلحَ في أُمورِهِم، أو: كُنْ مُصلِحًا.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: ولا تتَّبعْ مَن سلكَ الإفسادَ، ولا تُطِع مَن دَعاكَ إليهِ.

(١٤٣) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾: لوَقْتِنا الَّذي وَقَّتْناه[٣]، واللَّامُ للاختصاصِ؛ أي: اختصَّ مجيئُه بميقاتِنا[٤].

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ مِن غيرِ وَسيطٍ كما يكلِّمُ الملائكةُ، وفيما رُوِيَ: أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ كانَ يسمَعُ ذاكَ الكلامَ مِن كلِّ جِهَةٍ= تَنبيهٌ عَلى أنَّ سماعَ كلامِه القَديمِ ليس مِن جنسِ سَماعِ كلامِ المُحدَثينَ.

---

(١) قوله: «سأله ربَّه»؛ أي: الكتابَ.

(٢) ورد بنحوه ضمن خبر طويل عن ابن عباس رواه النسائي في «الكبرى» (١١٢٦٣)، ورواه مختصرًا بهذه القطعة ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٥٦). وليس فيهما كلام الملائكة، وهذا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٧) والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٥)، دون راو ولا سند.

(٣) في نسخة الخيالي: «وقتنا».

(٤) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «لميقاتنا»، والمثبت من نسخة التفتازاني، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ٢٧٤).

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾: أرِني[1] نفسكَ بأَنْ تُمكِّنَني مِن رُؤيتِكَ، أو تتجلَّى لي فأنظرَ إليكَ وأراكَ، وهو دليلٌ على أنَّ رُؤيتَه تعالى جائزةٌ في الجملةِ؛ لأنَّ طلبَ المُستحيلِ مِن الأنبياءِ محالٌ، وخصوصًا ما يَقتَضِي الجهلَ باللهِ، ولذلك ردَّه بقولِه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ دونَ: لَنْ أُرَى، ولَنْ أُرِيكَ، ولَنْ تَنظُرَ إليَّ، تنبيهًا على أنَّه قاصرٌ عَن رُؤيتِه؛ لتوقُّفِها على مُعَدٍّ في الرَّائي لم[2] يُوجَدُ فيه بعدُ.

وجعلُ السُّؤالِ لتبكيتِ قَومِه الَّذينَ قالُوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النساء: ١٥٣] خطأٌ، إذ لو كانَت الرُّؤيَةُ ممتنعةً لوجبَ أن يُجهِّلَهمُ ويُزيحَ شُبهتَهُم كما فعلَ بهم حين قالُوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾، ولا يتَّبعَ سبيلَهُم كما قالَ لأخيهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

والاستدلالُ بالجوابِ على استحالَتِها أشدُّ خطأً؛ إذ لا يدلُّ الإخبارُ عَن عدمِ رُؤيتِه إيَّاه على أنْ لا يراهُ أبدًا، وأن[3] لا يراه غيرُهُ أصلًا، فضلًا عن أَنْ يَدُلَّ على استحالَتِه، ودَعْوَى الضَّرورةِ فيه مكابرَةٌ أو جهالةٌ بحقيقةِ الرُّؤيةِ[4].

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ استدراكٌ يُريدُ أن يُبيِّنَ به أنَّه لا يُطيقُه.

وفي تعليقِ الرُّؤيَةِ بالاستقرارِ أيضًا دليلُ[5] الجوازِ؛ ضرورةَ أنَّ المعلَّقَ على الممكنِ ممكنٌ.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «إلى».

(٢) في نسخة التفتازاني: «ولم».

(٣) في نسخة الخيالي: «أو أن».

(٤) هذا ردٌّ على الزمخشري الذي أطال في الكلام على الآية للاستدلال على مذهب المعتزلة في نفي الرؤية. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٧٥ ـ ٢٧٩)، و«الانتصاف» لابن المنير (٢/ ١٥٢).

(٥) في نسخة الخيالي زيادة: «على».

والجبلُ قيلَ: جبلُ زَبيرٍ[١].

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾: ظهرَ له عَظَمَتُه، وتصدَّى له اقتدارُهُ وأمرُهُ.

وقيلَ: أعطى لهُ حياةً ورُؤيَةً حتَّى رآهُ.

﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾: مَدكوكًا مُفتتًا، و«الدَّكُّ» و«الدَّقُّ» أخوانِ كـ«الشَّكِّ» و«الشَّقِّ».

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿دكَّاءَ﴾[٢]؛ أي: أرضًا مُستويَةً، ومنه «ناقةٌ دكَّاءُ»: للَّتي لا سَنامَ لها.

وقُرِئَ: «دُكًّا»[٣]؛ أي: قِطَعًا دُكًّا جمعُ دكَّاءَ.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾: مَغشيًّا عليه مِن هَولِ ما رأى ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ﴾ تعظيمًا لِمَا رَأى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مِن الجراءةِ والإقدامِ على السُّؤالِ بغيرِ إذنٍ.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مرَّ تفسيرُه. وقيلَ: معناه: أنا أوَّلُ مَن آمنَ بأنَّكَ لا تُرى في الدُّنيا.

(١٤٤) ـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾: اخترتُكَ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: الموجودينَ في زَمانِكَ، وهارونُ وإن كانَ نبيًّا كانَ مأمورًا باتِّباعِه، ولم يكُنْ كليمًا ولا صاحبَ شَرعٍ.

﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾ يعني: أسفارَ التَّوراةِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ: ﴿برسَالَتِي﴾[٤].

﴿وَبِكَلَٰمِى﴾: وبتكليمِي إيَّاكَ.

---

(١) انظر: «تفسير السمرقندي» (١/ ٥٤٨). قال الخفاجي في «حاشيته»: والمشهورُ أنَّهُ الطُّورُ.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٣)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥١)، و«الكشاف» (٣/ ٢٨١)، عن يحيى بن وثاب.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٣)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾: أعطيتُكَ مِن الرِّسالَةِ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على النِّعمَةِ فيه.

رُوِيَ: أنَّ سُؤالَ الرُّؤيَةِ كانَ يومَ عَرفَةَ وإعطاءَ التَّوراةِ يومَ النَّحرِ[1].

(١٤٥) ـ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممَّا يحتاجونَ إليه من أمرِ الدِّينِ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بدلٌ مِن الجارِّ والمَجرورِ[2]؛ أي: كتَبْنا له كلَّ شيءٍ مِن المواعظِ وتَفصيلِ الأَحكامِ.

واختُلِفَ في أنَّ الألواحَ كانَتْ عشرةً أو سبعةً، وكانَتْ مِن زُمُرّذٍ[3] أو زَبَرجَدٍ أو ياقوتٍ أحمرَ، أو صخرةٍ صَمَّاءَ كتبَها اللهُ لِمُوسى فقطَّعَها بيَدِهِ أو شقَّقها[4] بأصابِعِه، وكانَ فيها التَّوراةُ أو غيرُها.

﴿فَخُذْهَا﴾ على إضمارِ القَولِ عطفًا على «كَتَبْنا» أو بدلٌ مِن قولِه: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ والهاءُ لـ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ أو لـ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ فإنَّه بمعنى الأشياءِ، أو للرِّسالاتِ[5].

---

(١) ذكره بنحوه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥١٤) عن الكلبي.

(٢) هذا مختار الزمخشري في إعراب ﴿مَّوْعِظَةً﴾، وأُعربَت مفعولاً به، ومفعولاً لأجله؛ بناء على الاختلاف في تعيين مفعول ﴿كتبنا﴾. انظر: «الدر المصون» للحلبي (٥/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).

(٣) لفظ معرَّب، وهو نوع من الأحجار الكريمة، قال التفتازاني: بالذّالِ المُعجمةِ، وذكر النهرواني أن الدال فيه من لحن العوام، لكن ذكر القلقشندي في «صبح الأعشى» (٢/ ١١٤)، والزبيدي في «تاج العروس» (٨/ ١٤٥) أنَّ الدّال والذال يتعاقبان فيه، وضبط بضمِّ الراء وفتحها. انظر: «الجليس الصالح الكافي» للنهرواني (ص: ١٥١)، و«حاشية التفتازاني» (٢٥١/ ب).

(٤) كذا في نسختنا الخطية، وقيل: «سقَّفَها بأصابِعِه»؛ أي: جعلَها سَقائفَ، وهي الألواحُ، وقال في بعضِ النُّسَخِ: «شقَّقَها» بالشِّينِ المُعجمةِ. قال الخفاجي: وهو بمعناه، وليس تحريفًا. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥٧٠)، و«حاشية السيوطي» (٦/ ٤١٨)، و«حاشية الخفاجي».

(٥) قال الطِّيبيُّ: العَطفُ على ﴿كتبنا﴾ أجرَى على سَنَنِ البَلاغةِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥٧٣).

﴿بِقُوَّةٖ﴾: بجِدٍّ وعَزيمةٍ ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾؛ أي: بأحسنِ ما فيها كالصَّبرِ والعفوِ بالإضافةِ إلى الانتصارِ والاقتِصاصِ[1]، على طريقةِ النَّدبِ والحثِّ على الأفضلِ؛ كقولِه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ [الزمر: ٥٥] أو: بواجبِها، فإنَّ الواجِبَ أحسنُ مِن غيرِه.

ويجوزُ أن يُرادَ بالأحسنِ: البالغُ في الحُسنِ مُطلقًا لا بالإضافةِ[2]، وهو المأمورُ به كقولِهم: الصَّيفُ أحرُّ مِن الشِّتاءِ[3].

﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: دارَ فِرعونَ وقومِه بمصرَ خاويةً على عروشِها، أو: مَنازلَ عادٍ وثمودَ وأضرابِهم؛ لتعتبروا فلا تَفْسُقوا، أو: دارَهُم في الآخرةِ وهي جهنَّمُ.

وقُرِئَ: «سَأُوريكُمْ»[4] بمعنى: سأبيِّنُ لكُم، مِن «أَوْرَيْتُ الزَّنْدَ».

و: «سأُورِثُكُم»[5]، ويؤيِّدُه قولُه: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

---

(١) قيل: هو مثالٌ للحَسَنِ والأحسَنِ، لا أنَّه مَكتوبٌ في التَّوراةِ بعَينِه؛ فالمقرَّر أنَّ بني إسرائيل كُتب عليهم القصاص قطعًا. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٥١/ ب).

(٢) يعني: أن «أحسن» في آية صفة مشبهة، لا اسم تفضيل. وثمة تفصيل لحالات «أفعل» ذكره الدماميني فمن أراده فلينظر: «مصابيح الجامع» (٧/ ٨٠ ـ ٨١).

(٣) أي: الصيف في حرِّه أبلغ من الشتاء في برده، وهذا هو المقصود وقد ذكره ابن الأثير، وذكر ابن مالك للعبارة توجيهات أخرى ليست مرادة هنا. انظر: «الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور» لابن الأثير (ص: ١٤٦)، و«شرح التسهيل» لابن مالك (٣/ ٥٥ ـ ٥٦).

(٤) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥١)، و«المحتسب» (١/ ٢٥٨)، و«الكشاف» (٣/ ٢٨٨)، و«البحر» (١٠/ ٣٠٨).

(٥) نُسبت لابن عباس وقسامة بن زهير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥١)، و«البحر» (١٠/ ٣٠٩).

(١٤٦) ـ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ المنصوبةِ في الآفاقِ والأنفسِ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالطَّبعِ على قلوبِهِم، فلا يتفكَّرونَ فيها ولا يعتبرونَ بها.

وقيلَ: سأصرِفُهُم عَن إبطالِها وإن اجتهَدُوا؛ كما فعلَ فِرعونُ فعادَ عليه بإعلائِها. أو: بإهلاكِهِم[1].

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صلةُ ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ أي: يتكبَّرون بما ليس بحقٍّ وهو دينُهُم الباطلُ، أو حالٌ مِن فاعِلِه.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ مُنزَّلَةٍ، أو مُعجزةٍ ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾؛ لعنادِهِم واختلالِ عَقولِهِم بسببِ انهماكِهِم في الهوى والتَّقليدِ، وهو[2] يُؤيِّدُ الوجهَ الأوَّلَ[3].

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لاستيلاءِ الشَّيطنَةِ عليهِم.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿الرَّشَدِ﴾ بفتحتينِ[4]، وقُرِئَ: «الرَّشَادِ»[5]، وثلاثتُها لغاتٌ كـ«السُّقْمِ» و«السَّقَمِ» و«السَّقَامِ».

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾؛ أي: ذلكَ الصَّرفُ بسببِ تكذيبِهِم وعدمِ تَدبُّرِهِم للآياتِ.

---

(١) «بإهلاكهم» معطوف على «بالطبع»؛ أي: سأصرفُهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها وتسميتِها سحرًا بإهلاكهم. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٨٩).

(٢) «هو»: ليس في نسخة التفتازاني. وانظر التعليق الآتي.

(٣) قوله: «وهو»؛ أي: انهماكُهم في ذلك «يؤيد الوجه الأول»؛ أي: وهو أنَّ الصرفَ: الطَّبعُ على قلوبهم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٤٦).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٣)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ٥١) عن علي رضي الله عنه، و«البحر» (١٠/ ٣٠٩) عن أبي عبد الرحمن السلمي.

ويجوزُ أن يُنصبَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ على المصدرِ؛ أي: سأصرفُ ذلك الصَّرفَ بسببِهِما[١].

(١٤٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: ولِقائِهِم الدَّارَ الآخرةَ، أو ما وعدَ الله في الآخرةِ[٢].

﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ لا ينتفِعونَ بها.

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: إلَّا جزاءَ أعمالِهِم.

(١٤٨) ـ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: مِن بعدِ ذَهابِه للميقاتِ ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ الَّتي استعارُوا من القِبطِ حينَ هَمُّوا بالخروجِ مِن مِصرَ، وإضافَتُها إليهم لأنَّها كانَتْ في أيديهِم، أو مَلَكُوها بعدَ هَلاكِهِم، وهو جمعُ حَلْيٍ؛ كـ«ثَدْيٍ» و«ثُدِيٍّ».

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بالكَسرِ بالإتباعِ كـ«دِلِيٍّ»[٣]، ويعقوبُ على الإفرادِ[٤].

﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾: بدنًا ذا لحمٍ[٥] ودَمٍ، أو: جسدًا من الذَّهبِ خاليًا مِن الرُّوحِ، ونصبُه على البدلِ.

﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: صوتُ البَقرِ.

رُوِيَ: أنَّ السَّامِرِيَّ لَمَّا صاغَ العِجْلَ أَلْقَى في فمِهِ مِن ترابِ أثرِ فرسِ جِبريلَ فصارَ حيًّا[٦].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «بسببها».

(٢) قال الزمخشري: يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به؛ أي: ولِقائهم الآخرةَ ومشاهدتِهم أحوالَها، ومن إضافةِ المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاءِ ما وعَدَ الله في الآخرة. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٢٩٠).

(٣) جمع «دلو»، وهو إناء معروف. انظر: «تاج العروس» (٣٨/ ٥٧).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٣)، و«التيسير» (ص: ١١٣)، و«النشر» (٢/ ٢٧٢).

(٥) في نسخة التفتازاني زيادة: «ذا روح ولحم».

(٦) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٥٩)، والزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٢٩١)، عن الحسن.

وقيلَ: صاغَهُ بنوعٍ مِن الحيَلِ فتدخلُ الرِّيحُ جوفَهُ وتُصوِّتُ.

وإنَّما نسبَ الاتِّخاذَ إليهِم وهو فعلُه؛ إمَّا لأنَّهم رَضُوا به، أو لأنَّ المرادَ اتِّخاذُهُم إيَّاهُ إلهًا.

وقُرِئَ: «جُؤَارٌ»[1]؛ أي: صياحٌ.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تقريعٌ على فَرْطِ ضَلالَتِهِم وإخلالِهِم بالنَّظرِ، والمعنى: أَلَمْ يَرَوا حينَ اتَّخذوهُ إلهًا أنَّه لا يقدرُ على كلامٍ ولا على إرشادِ سَبيلٍ كآحادِ البَشرِ حتَّى حَسِبُوا أنَّه خالِقُ الأجسامِ والقُوَى والقُدَرِ[2].

﴿اتَّخَذُوهُ﴾ تكريرٌ للذَّمِّ؛ أي: اتَّخذوهُ إلهًا ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾: واضعينَ الأشياءَ في غيرِ مَوضِعِها، فلم يكُن اتِّخاذُ العجلِ بدعًا منهم.

(١٤٩) ـ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ كنايةٌ من أن اشتدَّ ندَمُهُم[3]، فإنَّ النَّادمَ المتحسِّرَ يَعَضُّ يدَه غمًّا فتصيرُ يَدُه مَسقوطًا فيها.

---

(١) نسبها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥١) لأبي السمال العدوي، والزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٢٩١) لعليٍّ رضي الله عنه.

(٢) جمع «قُدرة». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) قوله: «كنايةٌ من أن اشتدَّ ندَمُهُم» هكذا في النسخ الخطيّة، ومثله في مطبوع البيضاوي مع «حاشية الخفاجي»، وفي مطبوع البيضاوي مع كل من «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٢٩٨)، و«حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٤٧)، و«حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (٨/ ٥٠٦): «كناية عن اشتداد ندمهم»، وذكر الأنصاري أن في نسخ: «كناية عمَّن اشتد ندمهم». وقال التفتازاني: جعلُه كنايةً لا مجازًا؛ لعدمِ المانعِ عن الحقيقةِ. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٥١/ ب).

وقُرِئَ: «سَقَطَ»[١] على بناءِ الفعلِ للفاعلِ[٢]، بمعنى: وقعَ العَضُّ فيها، وقيلَ: معناهُ: سقطَ النَّدمُ في أنفُسِهم.

﴿وَرَأَوۡا﴾: وعَلِمُوا ﴿أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ باتِّخاذِ العِجْلِ ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾ بإنزالِ التَّوراةِ ﴿وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ بالتَّجاوُزِ عَنِ الخطيئةِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

وقرأَهُمَا حمزةُ والكِسائيُّ بالتَّاءِ، و﴿ربَّنا﴾ على النِّداءِ[٣].

(١٥٠) ـ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾: شديدَ الغَضبِ، وقيلَ: حَزِينًا.

﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾: فعلتُم بعدِي حيثُ عَبدتُم العجلَ، والخطابُ للعَبَدةِ.

أو: قُمْتُم مَقامي فلم تكفُّوا العَبَدةَ، والخطابُ لهارونَ والمؤمنينَ معه.

و«ما» نكِرَةٌ موصوفةٌ تفسِّرُ المستكنَّ في «بئسَ»، والمَخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ تقديرُه: بئسَ خلافةٌ خَلَفْتُمونيها[٤] من بعدي خلافتُكم[٥].

---

(١) نسبت لابن السميفع اليماني. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٧٨)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٦)، و«الكشاف» (٣/ ٢٩٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٥)، و«البحر» (١٠/ ٣٢٠). ولم ينسبها الزجاج وابن عطية.

(٢) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «بناء الفاعل».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٤)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٤) في نسخة الخيالي: «خفلتموني فيها».

(٥) قال الطِّيبيُّ: ولا يجوزُ أن تكونَ «ما» هي المخصوصُ بالذَّمِّ؛ لأنَّه يَبقَى «بئس» بلا فاعلٍ؛ لأنَّه إنَّما يضمرُ فاعل «بئس» بشرطِ أن يَعقبَه المفسِّرُ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥٨٥).

ومعنى ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾: مِن بعدِ انطلاقِي، أو: مِن بعدِ ما رأيتُم مِنِّي مِن التَّوحيدِ والتَّنزيهِ والحملِ عليه[١] والكفِّ عمَّا يُنافيه.

﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ﴾: أتركْتُموه غيرَ تامٍّ؛ كأنَّه ضُمِّنَ «عَجِلَ» معنى: سبقَ، فعُدِّيَ تَعدِيَتَه.

أو: أَعجِلْتُم وعدَ ربِّكُم الَّذي وَعَدنيهِ مِن الأربعينَ وقدَّرتُم مَوْتِي، وغيَّرتُم بعدي كما غيَّرَت الأُممُ بعدَ أَنبيائِهِم.

﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾: طرحَها مِن شِدَّةِ الغَضبِ وفَرْطِ الضَّجرةِ حميَّةً للدِّينِ.

رُوِيَ: أنَّ التَّوراةَ كانَت سبعةَ أسباعٍ في سبعةِ ألواحٍ، فلمَّا ألقاها انكسَرَت فرُفعَ ستَّةُ أسباعِها، وكانَ فيها تفصيلُ كلِّ شيءٍ وبقيَ سُبعٌ كانَ فيه المواعظُ والأحكامُ[٢].

﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾: بشعرِ رأسِهِ ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ﴾ توهُّمًا بأنَّه قَصَّرَ في كفِّهِم، وهارونُ كانَ أكبرَ مِنه بثلاثِ سِنينَ، وكانَ حمولًا[٣] ليِّنًا، ولذلك كانَ أحبَّ إلى بني إسرائيلَ.

﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾ ذكرَ الأمَّ ليرقِّقَه عليه، وكانا مِن أبٍ وأمٍّ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ عَن عاصمٍ: ﴿يا ابنَ أمِّ﴾ بالكسرِ،

---

(١) أي: الأمر بالتَّوحيد، أو الأمر بالتَّوحيد والتنزيه، وعبَّر عنهما بضمير الفرد؛ لأنهما لا ينفصلان كالشَّيء الواحد.

(٢) ذكره بتمامه الطبري دون عزو مقدمًا له بـ(قيل)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٣ و١٥٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وتعقبه ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية بقوله: ويأباه قوله: ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ لأنَّ الظاهر منه أن المأخوذ هو الـمُلقَى بعينه.

(٣) أي: حليمًا. انظر: «تاج العروس» (٢٨/ ٣٤٣).

وأصلُه: «يا ابنَ أُمِّي» فحُذِفَت الياءُ اكتفاءً بالكسرةِ تخفيفًا كالمُنادَى المضافِ إلى الياءِ، والباقونَ بالفَتحِ[١] زيادةً في التَّخفيفِ؛ لطولِه، أو تشبيهًا بـ«خمسةَ عشرَ»[٢].

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾ إزاحَةً لتوهُّمِ التَّقصيرِ في حقِّهِ، والمعنى: بذلتُ وُسعِي[٣] في كفِّهِم حتَّى قَهَرُوني فاستَضْعَفُوني وقاربُوا قَتْلِي.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾: فلا تفعَلْ بي ما يَشمتونَ بي لأجلِه.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مَعدودًا في عدادِهِم بالمؤاخذةِ أو نسبةِ التَّقصيرِ.

(١٥١) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ ما صنعتُ بأَخِي ﴿وَلِأَخِي﴾ إن فَرَّطَ في كفِّهِم، ضمَّ إليه نفسَه في الاستغفارِ ترضيةً له ودفعًا للشَّماتَةِ عنهُ.

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ بمزيدِ الإنعامِ علينا ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فأنتَ أرحَمُ بنا مِنَّا على أنفُسِنَا.

(١٥٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو ما أمرَهُم به مِن قتلِ[٤] أنفُسِهِم ﴿وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي خروجُهُم مِن دِيارِهِم، وقيلَ: الجِزيَةُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٥)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٢) قال سيبويه في «الكتاب» (٢/ ٢١٤): وقالوا: «يا ابنَ أمَّ» و«يا ابنَ عمَّ»، فجعلوا ذلك بمنزلة اسم واحد؛ لأن هذا أكثرُ في كلامهم من «يا ابنَ أبي» و«يا غلامَ غلامي». وقد قالوا أيضا: «يا ابنَ أمِّ» و«يا ابنَ عمِّ»، كأنَّهم جعلوا الأوَّل والآخر اسمًا، ثم أضافوا إلى الياء؛ كقولك: يا أحدَ عشرَ أقبِلوا. وإن شئت قلتَ: حذفوا الياء لكثرة هذا في كلامهم.

(٣) في نسخة التفتازاني: «بذل الوسع».

(٤) في نسخة الخيالي: «قتلهم».

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ على اللهِ، ولا فريةَ أعظمُ من فريَتِهِم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]، ولعلَّه لم يفترِ مِثلَها[١] أحدٌ قبلَهُم ولا بعدَهُم.

(١٥٣) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مِن الكُفرِ والمَعاصي ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾: مِن بعدِ السَّيِّئاتِ ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾: واشتَغَلوا بالإيمانِ وما هو مُقتضاه مِن الأعمالِ الصَّالحةِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾: مِن بعدِ التَّوبةِ ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وإنْ عَظُمَ الذَّنبُ كجريمةِ عبَدَةِ العِجلِ، وكثُرَ كجَرائمِ بني إسرائيلَ.

(١٥٤) ـ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾: «سكنَ» وقد قُرِئَ به[٢] ﴿عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ باعتذارِ هارونَ، أو بتَوْبَتِهِم، وفي هذا الكلامِ مُبالغةٌ وبلاغةٌ مِن حيثُ إنَّه جَعَلَ الغضبَ الحاملَ له على ما فعلَ كالآمِرِ به والمُغْرِي عليه حتَّى عبَّرَ عَن سكونِه بالسُّكوتِ[٣].

وقُرِئَ: «سُكِّتَ» و: «أُسْكِتَ»[٤] على أنَّ المسكِتَ هو اللهُ، أو أخوهُ، أو الَّذينَ تابوا.

﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ الَّتي ألقاها ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾: وفيما نُسِخَ فيها؛ أي: كُتِبَ، «فُعْلَةٌ» بمَعنى مفعولٍ كـ«الخُطبَةِ».

وقيلَ: فيما نُسخَ منها؛ أي: من الألواحِ المنكسرةِ.

﴿هُدٗى﴾: بيانٌ للحقِّ ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ إرشادٌ إلى الصَّلاحِ والخيرِ ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «يفتر مثله».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥١)، و«الكشاف» (٣/ ٢٩٨)، عن معاوية بن قرة.

(٣) انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٥٩٥ ـ ٥٩٦)، و«حاشية التفتازاني» (٢٥٢/ أ).

(٤) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥١) عن أبي معاذ النحوي.

يَرْهَبُونَ﴾ دخلَت اللَّامُ على المفعولِ لضعفِ الفعلِ بالتَّأخيرِ[١]، أو حُذفَ المفعولُ واللَّامُ للتَّعليلِ، والتَّقديرُ: يرهبونَ مَعاصيَ اللهِ لرَبِّهم.

(١٥٥) ـ ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾؛ أي: مِن قَومِه، فحُذفَ الجارُّ وأُوصلَ الفعلُ إليه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ رُوِيَ أنَّه تَعالى أمرَهُ أن يأتيَهُ في سبعينَ مِن بني إسرائيلَ، فاختارَ مِن كلِّ سبطٍ ستَّةً فزادَ اثنانِ، فقالَ: ليتخلَّفْ مِنْكُم رجلانِ، فتَشاجَرُوا فقالَ: إنَّ لِمَن قعدَ أجرُ مَن خرجَ، فقعدَ كالَبُ ويوشَعُ، وذهبَ مع الباقينَ[٢]. فلَمَّا دَنَوْا من الجبلِ غَشِيَه غمامٌ، فدخلَ مُوسى بهم الغَمامَ وخرُّوا سُجَّدًا، فسمعوهُ يكلِّمُ موسى يأمرُهُ وينهاه، ثمَّ انكشفَ الغمامُ فأقبلُوا إليه وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأخذَتْهُم الرَّجفَةُ ـ أي: الصَّاعِقَةُ أو رجفةُ الجبلِ ـ وصُعقُوا مِنْهَا.

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ تمنَّى هلاكَهُم وهلاكَه قبلَ أَنْ يَرَى ما رأَى، أو بسببٍ آخرَ، أو عَنَى به: إنَّكَ قدرتَ على إهلاكِهِم قبلَ ذلك بحملِ فِرْعَوْنَ على إهلاكِهِم، وبإغراقِهِم في البَحرِ، وغيرِهما، فترحَّمتَ عليهِم بالإنقاذِ منها، وإن ترحَّمْتَ عليهم مرَّةً أُخْرَى لم يَبعُدْ مِن عَميمِ إحسانِكَ.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ من العنادِ والتَّجاسُرِ على طلبِ الرُّؤيَةِ، وكانَ ذلك قالَهُ بَعضُهُم.

وقيلَ: المرادُ بـ«ما فعلَ السُّفهاءُ» عبادةُ العجلِ، والسَّبعونَ اختارَهُم موسى

---

(١) وهذه اللامُ تُعرف بلام التقوية، وهي المزيدة لتقوية عامل ضعف؛ إما بتأخره نحو: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، أو بكونه فرعًا في العمل نحو: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. انظر: «مغني اللبيب» لابن هشام (ص: ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

لميقاتِ التَّوبةِ عنها[١]، فغشِيَتْهُم هيبةٌ قَلِقُوا مِنْها ورجفُوا حتَّى كادَت تَبِينُ مَفاصِلُهم، وأشرَفُوا على الهلاكِ، فخافَ عليهِم مُوسَى فبكَى ودَعا فكشفَها اللهُ عَنْهُم.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: ابتلاؤُكَ حينَ أسمَعْتَهم كلامَكَ حتَّى طمِعُوا في الرُّؤيَةِ، أو أوجَدْتَ في العجلِ خُوارًا فزاغُوا به.

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ ضلالَه بالتَّجاوُزِ عَن حدِّهِ أو باتِّباعِ[٢] المخايلِ.

﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ هداه، فيَقْوَى بها إيمانُه.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: القائمُ بأمرِنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ بمغفرةٍ ما قارَفْنا ﴿وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ تغفرُ السَّيئَةَ وتبدِّلُها بالحسنَةِ.

(١٥٦) - ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: حُسْنَ مَعيشَةٍ وتوفيقَ طاعةٍ ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الجنَّةَ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: تُبْنا إليك، مِن «هادَ يَهُودُ»: إذا رجعَ.

وقُرِئَ بالكسرِ[٣] مِن «هادَه يَهِيدُه»: إذا أمالَه، ويحتمِلُ أن يكونَ مَبنيًّا للفاعلِ والمفعولِ بمَعْنَى: أَمَلْنَا أَنفُسَنَا، أو أُمِلْنَا إليك، ويجوزُ أن يكونَ المضمومُ أيضًا مَبنيًّا للمفعولِ منه على لغةِ مَن يقولُ: عُودَ المَرِيضُ[٤].

﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ تعذيبَه ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ في الدُّنيا: المؤمنَ والكافرَ، بل المكلَّفَ وغيرَه.

---

(١) أي: عن عبادة العجل.

(٢) في نسخة الخيالي: «اتباع».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥١)، و«المحتسب» (١/ ٢٦٠)، عن أبي وجزة السعدي.

(٤) انظر: «الكتاب» (٤/ ٣٤٢ـ ٣٤٣)، و«شرح المقدمة المحسبة» لابن بابشاذ (٢/ ٣٧٢).

﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾: فسأُثْبِتُها في الآخرةِ، أو: فسأكتبُها كتبةً خاصَّةً مِنْكُم يا بني إسرائيلَ.

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفرَ والمعاصيَ ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خصَّها بالذِّكرِ لإنافتِها[1]، ولأنَّها كانَتْ أشقَّ عليهِم، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فلا يَكفُرونَ بشيءٍ مِنْهَا.

(١٥٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾ مُبتدأٌ خبرُه ﴿يَأۡمُرُهُم﴾، أو خبرُ مُبتدأٍ تَقديرُه: هم الَّذينَ، أو بدلٌ من «الَّذينَ يَتَّقونَ» بدلَ البَعضِ أو الكلِّ، والمرادُ مَن آمنَ مِنْهُم بمحمَّدٍ ﷺ، وإنَّما سَمَّاهُ رسولًا بالإضافةِ إلى اللهِ ونَبيًّا بالإضافةِ إلى العبادِ.

﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾ الَّذي لا يَكتبُ ولا يقرأُ، وَصَفَه[2] به تنبيهًا على أنَّ كمالَ علمِه مع حالِه أحدى مُعجِزَاتِه.

﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ اسمًا وصِفَةً.

﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ممَّا حرِّمَ عليهِم كالشُّحومِ.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ كالدَّمِ ولحمِ الخنزيرِ، أو كالرِّبا والرَّشوةِ.

﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾: ويخفِّفُ عَنْهُم ما كلِّفُوا به مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّة؛ كتعيُّنِ القصاصِ في العمدِ والخطأِ، وقطعِ الأعضاءِ الخاطِئَةِ، وقرضِ مَوضعِ النَّجاسةِ، وأصلُ «الإصرِ»: الثِّقَلُ الَّذي يأصِرُ صاحبَه؛ أي: يحبسُهُ مِن الحركةِ[3] لثِقَلِه. وقرأَ ابنُ عامرٍ ﴿آصَارَهُمْ﴾[4].

---

(١) الإنافة: الارتفاع والإشراف. انظر: «تاج العروس» (٢٤/ ٤٤٤).

(٢) في نسخة الخيالي: «وصف».

(٣) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «الحراك». وهما بمعنى.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٥)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾: وعظَّمُوه بالتَّقويَةِ، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[١]، وأصلُه: المنعُ، ومِنْهُ: التَّعزيرُ.

﴿وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾؛ أي: مع نبوَّتِه؛ يعني: القرآنَ، وإنَّما سمَّاه نورًا لأنَّه بإعجازِه ظاهرٌ أمرُه مظهرٌ غيرَه، أو لأنَّه كاشفُ الحقائقِ[٢] مظهرٌ لها[٣].

ويجوزُ أن يكونَ ﴿مَعَهُۥٓ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿اتَّبعُوا﴾؛ أي: واتَّبعوا النُّورَ المنزلَ مع اتِّباعِ النَّبيِّ، فيكونُ إشارةً إلى اتِّباعِ الكتابِ والسُّنَّةِ[٤].

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزونَ بالرَّحمَةِ الأبديَّةِ.

ومَضمونُ الآيةِ جوابُ دُعاءِ مُوسَى عليهِ السَّلامِ.

(١٥٨) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الخطابُ عامٌّ، وكانَ رَسولُ اللهِ ﷺ مَبعوثًا إلى كافَّةِ الثَّقَلينِ، وسائرُ الرُّسلِ إلى أقوامِهم.

﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ مِن ﴿إِلَيْكُمْ﴾.

﴿الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ صفةٌ لـ﴿اللَّهِ﴾ وإنْ حِيلَ بينَهُما بما هُو مُتعلِّقُ المضافِ إليه لأنَّه كالمتقدِّمِ عليه، أو مدحٌ مَنصوبٌ[٥] أو مَرفوعٌ، أو مُبتدأٌ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٢)، و«المحتسب» (١/ ٢٦١)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٦٤)، و«البحر» (١٠/ ٣٥٠).

(٢) في نسخة الخيالي: «للحقائق».

(٣) «مظهر لها»: ليس في نسخة التفتازاني.

(٤) انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٦٠٨ ـ ٦٠٩).

(٥) قدَّم هذا الوجه في «الكشاف» (٣/ ٣٠٦) وأهمل ما بعده، ورجحه التفتازاني. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٥٢/ ب).

خبرُه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهو على الوُجوهِ الأُوَلِ بيانٌ لِمَا قبلَه[١]، فإنَّ مَن مَلكَ العالمَ كانَ هو الإلهَ لا غيرُه، وفي ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مزيدُ تَقريرٍ لاختصاصِه بالأُلوهيَّةِ.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما أنزلَ عليهِ وعلى سائرِ الرُّسُلِ مِن كُتبهِ ووحيِه.

وقُرِئَ: «وكَلِمَتِه»[٢] على إرادةِ الجنسِ، أو القرآنِ، أو عيسى؛ تعريضًا لليهودِ، وتنبيهًا على أنَّ مَن لم يُؤمِن به لم يُعتبَرْ إيمانُه، وإنَّما عدلَ عَن التَّكلُّمِ إلى الغيبَةِ لإجراءِ هذه الصِّفاتِ الدَّاعيَةِ إلى الإيمانِ به والاتِّباعِ له.

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ جعلَ رجاءَ الاهتداءِ أثرَ الأمرينِ تَنبيهًا على أنَّ مَن صدَّقَه ولم يُتابِعْهُ بالتزامِ شَرعِه فهو بَعْدُ في خططِ الضَّلالةِ[٣].

(١٥٩) ـ ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: مِن بَني إسرائيلَ ﴿أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾: يهدونَ النَّاسَ مُحِقِّينَ، أو: بكلمةِ[٤] الحقِّ ﴿وَبِهِۦ﴾: وبالحقِّ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ بينَهُم في الحكمِ.

والمرادُ بها[٥]: الثَّابتونَ على الإيمانِ القائمونَ بالحقِّ مِن أهلِ زَمانِه، أَتبعَ

---

(١) كونها بيانًا يمكن أن يُحملَ على بيان المعنى، وهو بذلك خالف الزمخشري الذي جعلها بدلاً من جملة الصلة، وهو ما رجحه أبو حيان. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٣٠٦)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ٣٥١ ـ ٣٥٢).

(٢) نسبت لمجاهد في: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٢)، وللثقفي والجحدري ـ أو اللؤلؤي ـ في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ١٩٦).

(٣) في نسخة التفتازاني: «الضلال».

(٤) في نسخة الخيالي: «بكلمتي»، وفي هامشها نسخةٌ: «بكلمة».

(٥) قوله: «بها»؛ أي: بالآية.

ذِكرَهُم ذكرَ أَضدادِهِم على ما هو عادَةُ القُرآنِ تَنبيهًا على أنَّ تَعارُضَ الخيرِ والشَّرِّ وتزاحُمَ أهلِ الحقِّ والباطل أمرٌ مُستمرٌّ.

وقيلَ: مُؤمِنُو أهلِ الكتابِ.

وقيلَ: قومٌ وراءَ الصِّينِ رآهُم رسولُ اللهِ ﷺ ليلةَ المعراجِ فآمنوا بهِ[1].

---

(١) ذكره أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٥٥٧) عن ابن عباس، والثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٥٩) دون عزو. وذكر أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية بإسناد له من رواية الضحاك عن ابن عباس خبرًا طويلًا في لقاء النبي ﷺ بهم وإيمانهم به، ولا يصح في ذلك شيء، والله أعلم. وقد ذكر في هذه الآية أيضًا خبر: أن بني إسرائيل لمّا قتَلوا أنبياءهم وكفروا ـ وكانوا اثني عشر سِبطًا ـ تبرَّأ سِبطٌ منهم مما صنَعوا واعتذروا، وسألوا الله أن يفرِّق بينهم وبين إخوانهم، ففتح الله لهم نفقًا في الأرض فساروا فيه سنةً ونصفًا حتى خرجوا من وراء الصين، وهم هنالك حُنفاءُ مسلمون يستقبلون قبلتَنا. رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٠١) عن ابن جريج، وبعضه عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده منقطع. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٤)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٠٣)، عن ابن جريج والكلبي والربيع والضحاك وعطاء والسدي. وليس في الأخبار الواردة في هذه الحكاية ما يصح، قال الآلوسي في «روح المعاني» (٩/ ٤١٤): وضعَّف هذه الحكاية ابن الخازن [في «تفسيره» (٢/ ٣٠٠)] وأنا لا أراها شيئًا، ولا أظنك تجد لها سندًا يعول عليه ولو ابتغيت نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء.

وقال أبو شهبة في «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ٢٠٧ ـ ٢٠٨) عن قصة الصين هذه: وهي من خرافات بني إسرائيل ولا محالة... ونحن لا نشك في أن ابن جريج وغيره ممن رووا ذلك إنما أخذوه عن أهل الكتاب الَّذينَ أسلموا، ولا يمكن أبدًا أن يكون متلقًّى عن المعصوم ﷺ...

قال: والذي يترجح عندي أن المراد بهم أناس من قوم موسى عليه الصلاة والسلام اهتدوا إلى الحق ودعوا الناس إليه، وبالحق يعدلون فيما يعرض لهم من الأحكام والقضايا، وأن هؤلاءِ الناس وجدوا في عهد موسى وبعده، بل وفي عهد نبينا ﷺ كعبد الله بن سلام وأضرابه... أما ما ذكروه فليس =

(١٦٠) ـ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾: وصيَّرْناهُم قطعًا مُتميزًا بعضُهم عَن بعضٍ ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ مَفعولٌ ثانٍ لـ«قَطَّعَ»، فإنَّه يَتضمَّنُ معنى: صيَّرَ، أو حالٌ، وتأنيثُه[١] للحملِ على الأمَّةِ أو القطعَةِ.

﴿أُمَمًا﴾ بـدلٌ منه ولذلك جُـمـعَ[٢]، أو تَمييزٌ له على أنَّ كلَّ واحدةٍ مِن اثنتي عشرةَ أسباطٌ؛ فكأنَّه قيلَ: اثنتي عشرةَ قبيلةً.

وقُـرِئَ بكسرِ الشِّينِ وإسكانِها[٣]، ﴿أُمَمًا﴾ على الأوَّلِ بدلٌ بعد بَدَلٍ أو نعتُ ﴿أَسْبَاطًا﴾ وعلى الثَّاني بدلٌ من ﴿أَسْبَاطًا﴾.

= هناك ما يشهد له من عقل، ولا نقل صحيح، بل هو يخالف الواقع الملموس، والمشاهد المتيقن، وقد أصبحت الصين وما وراءها معلومًا كل شبر فيها، فأين هم؟ ثم أي فائدة تعود على الإسلام والمسلمين من التمسك بهذه الروايات التي لا خطام لها ولا زمام؟! وماذا يكون موقف الداعية إلى الإسلام في هذا العصر الذي نعيش فيه إذا انتصر لمثل هذه المرويات الخرافية الباطلة؟! إن هذه الروايات لو صحت أسانيدها لكان لها بسبب مخالفتها للمعقول والمشاهد الملموس ما يجعلنا في حل من عدم قبولها فكيف وأسانيدها ضعيفة واهية؟! وقد قلت غير مرة: إن كونها صحيحة السند فرضًا لا ينافي كونها من الإسرائيليات.

(١) أي: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾.

(٢) لأنه لو كان تميزًا لوجب أن يقـال: سبطًا؛ لأن مميز الأعداد المركبة مفرد. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (٨/ ٥٢٥).

(٣) كذا في النسخ الخطية، والنسخ المطبوعة مع عامَّة الحواشي، وقال الأنصاري في «الحاشية» (٢/ ٦٥٥): صوابُه: «وفتحها»؛ إذ إسكانُها ليس بشاذٍّ، بل هو المشهورُ.

قلت: يمكن أن يُحمل على أنها قرئت بالكسرة شذوذًا وبالإسكان على الوجه المشهور، وقراءة الكسر ذكرها في «المحتسب» (١/ ٢٦١) عن يحيى والأعمش وطلحة بن سليمان. وبالفتح والكسر ذكرها أبو حيان في «البحر» (١٠/ ٣٥٤) عن الأئمة المذكورين.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ في التِّيهِ ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ﴾؛ أي: فضربَ فانبجَسَت، وحذفُه للإيماءِ على أنَّ مُوسَى لم يَتوقَّفْ في الامتثالِ، وأنَّ ضربَهُ لم يَكُن مُؤثِّرًا يتوقَّفُ عليه الفعلُ في ذاتِه(١).

﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾: كلُّ سبطٍ ﴿مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ ليقيَهم حرَّ الشَّمسِ ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا﴾؛ أي: وقُلْنا لَهُم: كلُوا ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سبقَ تفسيرُه في سورةِ البقرةِ.

(١٦١) - ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بإضمارِ: اذكُرْ، والقريةُ: بيتُ المقدسِ.

﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ مثلَ ما في البقرةِ معنًى(٢)، غيرَ أنَّ قولَه: ﴿فكلوا﴾ فيها بالفاءِ أفادَ تَسبُّبَ سُكناهُم للأكلِ منها، ولم يتعرَّض له هاهنا اكتفاءً بذكرِه ثَمَّ، أو بدلالةِ الحالِ عليه.

وأمَّا تَقديمُ ﴿وَقُولُوا﴾ على ﴿وَادْخُلُوا﴾ فلا أثرَ له في المَعنى لأنَّه لا يُوجِبَ التَّرتيبَ، وكذلك(٣) الواوُ العاطفةُ بينَهُما.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وعدٌ بالغُفرانِ والزِّيادةِ عليه بالإثابةِ، وإنَّما أخرجَ الثَّانيَ مُخرجَ الاستئنافِ للدَّلالةِ على أنَّه تَفضُّلٌ محضٌ ليس في مُقابلَةِ ما أُمِرُوا به.

---

(١) فهذا كقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (٨/ ٥٢٧).

(٢) الآية: (٥٨) منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

(٣) في نسخة التفتازاني: «وكذا».

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ: ﴿تُغْفَرْ﴾ بالتَّاءِ والبناءِ للمَفعولِ و﴿خطيئاتُكم﴾ بالجمعِ والرَّفعِ، غيرَ ابنِ عامرٍ فإنَّه وحدَ، وقرأَ أبو عمرٍو: ﴿خطاياكُم﴾[١].

(١٦٢) ـ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ مَضى تفسيرُه في سورةِ البقرةِ.

(١٦٣) ـ ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ للتَّقريرِ والتَّقريعِ بقديمِ كُفْرِهم وعِصيانِهم، والإعلامِ بمَا هو مِن علومِهِم الَّتي لا تُعلمُ إلَّا بتَعليمٍ أو وحيٍ لتكونَ لك[٢] معجزةً عليهِم.

﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾: عن خبرِها وما وقعَ بأهلِها ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾: قريبةً منه، وهي أيلةُ: قريةٌ بينَ مدينَ والطُّورِ على شاطئِ البحرِ، وقيلَ: مدينُ، وقيلَ: طَبريَّةُ.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: يَتجاوزونَ حدودَ اللهِ بالصَّيدِ يومَ السَّبتِ، و﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لـ﴿كَانَتْ﴾ أو ﴿حَاضِرَةَ﴾، أو للمُضافِ المَحذوفِ، أو بدلٌ منه بدلَ الاشتمالِ[٣].

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرفٌ لـ﴿يَعْدُونَ﴾، أو بدلٌ بعدَ بدلٍ.

---

(١) قرأ نافع: ﴿تُغفَر﴾ مضمومة التّاء ﴿خطيئاتُكم﴾ بالجمع والرفع.
وقرأ ابن عامر: ﴿تُغفر﴾ مضمومة التّاء ﴿خطيئتُكم﴾ بالإفراد والرفع.
وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿نَغفِر﴾ بالنون ﴿خَطِيئاتِكم﴾ بالجمع والنصب.
وقرأ أبو عَمرو: ﴿نَغفِر لكم﴾ بالنُّون ﴿خطاياكم﴾ بغير همزٍ مثل «قضاياكم» ولا تاء فيها.
انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٢) في نسخة الخيالي: «ليكون ذلك».

(٣) قال أبو حيّان: هذا لا يجوزُ؛ لأنَّ «إذ» من الظُّروفِ التي لا تَنصَرِفُ ولا يدخلُ عليها حرفُ جرٍّ، وجعلها بدلًا يُجوِّزُ دخولَ «عن» عليها؛ لأنَّ البَدلَ على نيَّةِ تكرارِ العاملِ. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٠/ ٣٦٣).

وقُرِئَ: «يَعَدُّون»[١] وأصلُه: يَعْتَدُونَ، و: «يُعِدُّون» مِن الإعدادِ[٢]؛ أي: يُعِدُّونَ آلاتِ الصَّيدِ يومَ السَّبتِ وقد نُهُوا أن يَشتَغِلُوا فيه بغيرِ العبادةِ.

﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾: يومَ تعظيمِهِم أمرَ السَّبتِ، مَصدرُ «سَبَتَت اليهودُ»: إذا عظَّمَت[٣] سَبْتَها بالتَّجرُّدِ للعبادَةِ.

وقيلَ: اسمُ اليومِ، والإضافةُ لاختِصاصِهِم بأحكامٍ فيه.

ويؤيِّدُ الأوَّلَ[٤] أنْ قُرِئَ: «يومَ إسباتِهِم»[٥]، وقولُه: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

وقُرِئَ: «لا يُسْبِتُون» مِن أَسْبَتَ[٦]، و: «لا يُسبَتُون» على البناءِ للمفعولِ[٧] بمعنى: لا يدخلونَ في السَّبتِ.

و﴿شُرَّعًا﴾ حالٌ مِن الحيتانِ، ومَعناه: ظاهرةً على وجهِ الماءِ، من «شَرَعَ عَلَيْها»: إذا دَنا وأشرفَ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٢)، و«المحتسب» (١/ ٢٦٤) عن شهر بن حوشب وأبي نهيك.

(٢) دون نسبة في «الكشاف» (٣/ ٣١٥)، و«البحر» (١٠/ ٣٦٣).

(٣) في نسخة التفتازاني: «أعظمت».

(٤) وهو أنَّ ﴿سَبْتِهِمْ﴾ في الآية مصدر.

(٥) نسبت لعمر بن عبد العزيز. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٦٨)، و«الكشاف» (٣/ ٣١٥)، و«البحر» (١٠/ ٣٦٤).

(٦) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٢)، و«الكشاف» (٣/ ٣١٥)، عن علي رضي الله عنه، وزاد ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٦٨)، وأبو حيان في «البحر» (١٠/ ٣٦٤)، نسبتها للحسن وعاصم بخلاف.

(٧) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣١٥) عن الحسن.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾: مثلَ ذلكَ البَلاءِ الشَّديدِ نبلوهُمْ بسببِ فِسْقِهِم.

وقيلَ: ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ مُتَّصلٌ بما قبلَه؛ أي: لا تأتيهِم مثلَ إتيانِهِم يومَ السَّبتِ، والباءُ متعلِّقٌ بـ﴿يَعْدُونَ ﴾.

(١٦٤) - ﴿وَإِذْ قَالَتْ ﴾ عطفٌ على ﴿إِذْ يَعْدُونَ ﴾[1].

﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ ﴾: جماعةٌ مِن أهلِ القريةِ؛ يعني: صُلحَاءَهُم الَّذينَ اجتهَدُوا في مَوعِظَتِهم حتَّى أَيِسُوا مِن اتِّعاظِهِم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾: مُختَرِمُهُم ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ في الآخرةِ لتَمادِيهِم في العِصيانِ، قالوه مُبالغةً في أَنَّ الوعظَ لا ينفَعُ فيهِم، أو سُؤَالًا عن عِلَّةِ الوعظِ ونَفعِه، وكأنَّه تقاوُلٌ بينَهُم، أو قولُ مَن ارعَوَى[2] عن الوَعظِ لِمَن لَمْ يَرْعَوِ مِنهم.

وقيلَ: المرادُ طائفَةٌ مِن الفرقةِ الهالِكَةِ أجابُوا بهِ وُعَّاظَهُم رَدًّا عَلَيهِم وتَهَكُّمًا بهِم.

﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ جوابٌ للسُّؤالِ؛ أي: موعظَتُنا إنهاءُ عُذْرٍ إلى اللهِ حتَّى لا نُنْسَبَ إلى تَفريطٍ في النَّهيِ عَن المنكرِ.

وقرأَ حَفصٌ: ﴿مَعْذِرَةً ﴾ بالنَّصبِ على المصدرِ أو العلَّةِ؛ أي: اعتذرنا به معذرَةً، أو وعظناهُمْ مَعذِرَةً.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾؛ إذ اليأسُ لا يحصلُ إلَّا بالهلاكِ.

---

(١) ولا يجوزُ أن يكونَ مَعطوفًا على ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ ﴾ حتى لا يدخلَ هؤلاءِ في حكمِ أهلِ العُدوانِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٦٢٩)، و«حاشية التفتازاني» (٢٥٣/ أ).

(٢) أي: امتنعَ. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٣٥١).

(١٦٥) ـ ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾: تركوا تَرْكَ النَّاسي ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾: ما ذكَّرَهُم به صُلَحاؤُهُم ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالاعتداءِ ومُخالفةِ أمرِ اللهِ ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾: شَديدٍ، فَعيلٌ مِن «بَؤُسَ يَبْؤُسُ بَأسًا»: إذا اشتدَّ.

وقرأ أبو بكرٍ: «بَيْئَس» على فَيْعَلٍ كـ«ضَيْغَم»[1].

وابنُ عامرٍ: ﴿بِئْسٍ﴾ بكسرِ الباءِ وسُكونِ الهمزةِ[2] على أنَّه «بَئِسٌ» ـ كـ: حَذِرٍ ـ كما قُرِئَ[3]، فخُفِّفَ عنه بنقلِ حَرَكتِها إلى الفاءِ كـ«كِبْد» في «كَبِدٍ».

وقرأ نافعٌ: ﴿بِيْسٍ﴾ على قلبِ الهَمزةِ ياءً[4] كما قُلِبَت في «ذيبٍ»، أو على أنَّه فعلُ الذَّمِّ وُصفَ به فجُعلَ اسمًا.

وقُرِئَ: «بَيِّسٍ» ـ كـ: رَيِّسٍ ـ على قلبِ الهمزةِ ياءً ثمَّ إدغامِها[5].

و«بَيْسٍ» على التَّخفيفِ كـ: هَيْنٍ[6]، و: «بائسٍ»[7].

---

(١) قراءة أبي بكر بكسر الهمزة بخلاف عنه، والوجه الآخر عنه: ﴿بَيْئَسٍ﴾. انظر: «التيسير» (ص: ١١٤).
والقراءة بفتح الهمزة عزاها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٢) لعاصم، وعزاها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٦٥) لطلحة بن مصرف.

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١١٤).

(٣) نسبت لزيد بن ثابت في «المحتسب» (١/ ٢٦٥)، ولأبي عبد الرحمن السلمي وطلحة بن مصرف في «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٦٩)، و«البحر» (١٠/ ٣٧٠).

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ١١٤).

(٥) نسبت لنصر بن عاصم في «المحتسب» (١/ ٢٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٧٠)، و«البحر» (١٠/ ٣٧٠).

(٦) نسبت للحسن، وهي رواية خارجة عن نافع، وهي خلاف المشهور عنه. انظر: «المحتسب» (١/ ٢٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٦٩)، و«البحر» (١٠/ ٣٧٠).

(٧) نسبت لأبي رجاء في «المحتسب» (١/ ٢٦٥)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٧٠)، و«البحر» =

﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾: بسببِ فِسْقِهِم.

(١٦٦) - ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾: تكبَّرُوا عَنْ تركِ ما نُهُوا عنه؛ كقولِه: ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾؛ كقولِه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

والظَّاهرُ يَقتَضِي أنَّ اللهَ تعالى عذَّبَهم أوَّلًا بعذابٍ شَديدٍ فعَتَوا بعدَ ذلك فمَسَخهُم، ويجوزُ أَنْ تكونَ الآيةُ الثَّانيةُ تقريرًا وتفصيلًا للأولى.

رُوِيَ: أنَّ النَّاهينَ لمَّا أَيِسُوا عَن اتِّعاظِ المُعتَدِينَ كرهوا مُساكنَتَهُم، فقسموا القريةَ بجدارٍ فيه بابٌ مَطروقٌ، فأصبَحُوا يومًا ولم يخرُجْ إليهم أحدٌ من المُعتدينَ، فقالوا: إنَّ لهم شَأْنًا! فدَخَلُوا عليهم فإذا هُم قردةٌ، فلَم يعرِفُوا أَنسِبَاءَهُم، ولكنَّ القرودَ تعرفُهُم، فجعلَت تَأتِي أَنسِبَاءَهُم وتَشَمُّ ثِيابَهُم وتدورُ باكيةً حولهم، ثمَّ مَاتوا بعدَ ثلاثٍ[١].

وعن مجاهدٍ: مُسخَت قلوبُهُم لا أَبْدانُهُم[٢].

(١٦٧) - ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾؛ أي: أَعْلَمَ، «تفعَّلَ» مِن الإيذانِ بمعناه؛ كـ«التَّوعُّدِ» و«الإيعادِ»، أو: عزمَ؛ لأنَّ العازمَ على الشَّيءِ يُؤذِنُ نفسَه بفعلِه، وأُجرِيَ مجرَى فعلِ القَسَمِ كـ«عَلِمَ اللهُ» و«شَهِدَ اللهُ»، ولذلك أجيبَ بجَوابِهِ[٣].

= (١٠/ ٣٧١). وقد اعتنى أبو حيان رحمه في «البحر» بجمع ما روي في هذه الكلمة من قراءات، فذكر فيها اثنتين وعشرين قراءة مع شرحها، وقد خرجناها وفصلناها بفضل الله في تحقيقنا له فلتنظر فيه.

(١) وردت في هذه القصة روايات كثيرة عن ابن عباس وابن مسعود وقتادة وأبي صالح وابن زيد وابن رومان. انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٥١٢ ـ ٥٢٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦٥).

(٣) انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٦٣٦).

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ والمعنى: وإذ أوجبَ ربُّكَ على نفسِه ليسلطنَّ على اليَهودِ ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلالِ وضربِ الجزيَةِ.

بعثَ اللهُ عَليهِم بعدَ سُليمانَ عليه السَّلامُ بُخْتَنَصَّرَ، فخرَّبَ دِيارَهُم وقتلَ مُقاتلتَهُم وسبَى نِساءَهُم وذراريَّهم، وضربَ الجِزيةَ على مَن بقيَ مِنهُم، وكانُوا يؤدُّونَها إلى المجوسِ حتَّى بعثَ اللهُ مُحمَّدًا صلواتُ اللهِ عليهِ ففعلَ ما فعلَ ثمَّ ضربَ عليهم الجِزيةَ، فلا تزالُ مَضروبةً إلى آخرِ الدَّهرِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ عاقبَهُم في الدُّنيا ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَن تابَ وآمنَ.

(١٦٨) - ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾: وفرَّقْناهُم فيها - بحيثُ لا يَكادُ يخلو قطرٌ مِنْهُم - تتمَّةً لإدبارِهِم حتَّى لا يكونُ لهم شوكةٌ قطُّ، و﴿أُمَمًا﴾ مفعولٌ ثانٍ أو حالٌ.

﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ صفةٌ أو بدلٌ مِنه، وهم الَّذينَ آمنوا بالمدينَةِ ونُظراؤُهُم[1]، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ تقديرُه: ومِنْهُم ناسٌ دونَ ذلك[2]؛ أي: مُنحطُّونَ عَن الصَّلاحِ وهم كفرَتُهُم وفسَقَتُهم.

﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾: بالنِّعَمِ والنِّقَمِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينتبهونَ ويرجعونَ عمَّا كانُوا عليه.

---

(١) هذا مختار الزمخشري، وقال الطِّيبيُّ: الظَّاهرُ خِلافُه لِما يَقتَضيهِ النَّظمُ؛ لقولِه: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ بالفاءِ. انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٢٢)، و«فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٦٣٧).

(٢) قوله: «منهم» جار ومجرور متعلقان بخبر مقدم محذوف، و«ناسٌ» مبتدأ مؤخر، و«دون ذلك» ظرف مكان متلق بصفة محذوفة من «ناس»، وقال التفتازاني: قد شاعَ في الاستعمالِ رُجوعُ المبتدأِ والخبرِ ظَرفينِ، واستمرَّ النُّحاةُ على جعلِ الأوَّلِ خبرًا والثَّاني مُبتدأً بتقديرِ مَوصوفٍ دونَ العَكسِ. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٥٣/ أ).

(١٦٩) ـ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: من بعدِ المذكورينَ ﴿خَلۡفٌ﴾ بَدَلُ سَوءٍ، مَصدرٌ نُعِتَ به، ولذلك يقَعُ على الواحدِ والجمعِ.

وقيلَ: جمعٌ(١)، وهو شائعٌ في الشَّرِّ، و«الخَلَفُ» ـ بالفتحِ ـ في الخيرِ.

والمرادُ به: الَّذينَ كانُوا في عصرِ رَسولِ اللهِ عليه السَّلامُ.

﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: التَّوراةَ مِن أسلافِهم يقرؤونَها ويَقِفونَ على ما فيها.

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾: حطامَ هذا الشَّيءِ الأدنى؛ يعني: الدُّنيا، وهو من «الدُّنُوِّ» أو «الدَّناءةِ»، وهو ما كانُوا يأخذونَ مِن الرُّشَا في الحكومةِ، وعلى تحريفِ الكلمِ، والجملةُ حالٌ من الواوِ(٢).

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾: لا يُؤاخِذُنَا اللهُ بذلك ويتجاوزُ عنه، وهو يحتمِلُ العطفَ والحالَ، والفعلُ مُسندٌ إلى الجارِّ والمجرورِ أو مصدرِ ﴿يَأۡخُذُونَ﴾(٣).

﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿لَنَا﴾؛ أي: يرجونَ المغفرةَ مصرِّينَ على الذَّنبِ عائدينَ إلى مثلِه غيرَ تائبينَ عنه(٤).

---

(١) قوله: «جمع» أراد أنه اسم جمع؛ لأنّ أهل اللغة يسمون اسم الجمع جمعًا، فردُّه بأنه ليس من أبنية الجمع غير وارد. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قوله: «والجملةُ حالٌ من الواوِ»؛ أي: جملة ﴿يَأۡخُذُونَ﴾ حال من الواو في ﴿وَرِثُواْ﴾؛ أي: ورثوه آخذين عرض الدُّنيا. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (٨/ ٥٣٨).

(٣) قوله: «والفعل»؛ أي: ﴿سَيُغۡفَرُ﴾ «مسند إلى الجر والمجرور» وهو ﴿لَنَا﴾، «أو مصدرِ يأخذون»؛ أي: ويجوز أن يكون مسندًا إلى الأخذِ الذي هو مصدرُ ﴿يَأۡخُذُونَ﴾.

(٤) تبع الزمخشريَّ في «الكشاف» (٣/ ٣٢٣)، وقد ذهب السمينُ الحلبيُّ إلى أنَّ هذه الجُملةَ مُستأنفةٌ، وقال: إنَّما جعلَ الزَّمَخشَريُّ الواوَ للحالِ للغَرَضِ الذي ذكرَهُ من أنَّ الغُفرانَ شَرطُهُ التَّوبةُ، وهو رَأيُ المُعتزِلةِ، وأمَّا أهلُ السُّنَّةِ فيُجوِّزُونَ المَغفِرةَ مع عَدمِ التَّوبةِ. انظر: «الدر المصون» للسمين الحلبي (٥/ ٥٠٥).

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: في الكتاب[1] ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ عطفُ بيانٍ للميثاقِ، أو مُتعلِّقٌ به؛ أي: بأَنْ لا يقولوا، والمرادُ: توبيخُهم على البتِّ بالمغفرةِ مع عدمِ التَّوبةِ، والدّلالةُ على أنّه افتراءٌ على اللهِ وخروجٌ عَن ميثاقِ الكتابِ.

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ عطفٌ على ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ مِن حيثُ المعنى فإنّه تقريرٌ[2]، أو على ﴿وَرِثُواْ﴾ وهو اعتراضٌ.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ممَّا يأخذُ هؤلاءِ ﴿أفلا يَعقِلونَ﴾ فيعلموا ذلك، ولا يستبدلُوا الأَدْنى الدَّنيءَ المؤدِّيَ إلى العقابِ بالنَّعيمِ المخلدِ.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحفصٌ ويعقوبُ بالتَّاءِ على التَّلوينِ[3].

(١٧٠)- ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عطفٌ على «الَّذين يتَّقونَ»، وقوله: ﴿أفلا يعقلون﴾ اعتراضٌ، أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ على تقديرِ: منهم، أو وضعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ المضمَرِ تنبيهًا على أنَّ الإصلاحَ كالمانعِ مِن التَّضييعِ.

وقرأ أبو بكرٍ: ﴿يُمْسِكُونَ﴾ بالتَّخفيفِ[4].

وإفرادُ الإقامةِ لإنافتِها على سائرِ أنواعِ التَّمسُّكاتِ.

---

(١) قوله: «أي: في الكتاب»؛ حمل الإضافة في ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الإضافة بمعنى «في». انظر: «حاشية ابن التمجيد» (٨/ ٥٣٩).

(٢) أي: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ استفهام بمعنى: التقرير، فهُوَ بمنزلةِ الإخبارِ عن الثَّابتِ، فصحَّ عَطفُ الجملة الخبريّة ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ عليه لعدمِ المُنافاةِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٦٤٠).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٢)، و«النشر» (٢/ ٢٩١).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٧)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(١٧١) ـ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾؛ أي: قَلَعْناهُ ورفعناهُ فوقَهُم، وأصلُ «النَّتْقِ»: الجذبُ.

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾: سقيفةٌ، وهي كلُّ ما أظلَّكَ.

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: وتيقَّنوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾: ساقطٌ عليهِم؛ لأنَّ الجبلَ لا يَثبتُ في الجوِّ، ولأنَّهُم كانُوا يوعَدونَ به، وإنَّما أطلقَ الظَّنَّ لأنَّه لم يقَعْ مُتعلَّقُه، وذلك أنَّهم[1] أبَوْا أن يقبلوا أحكامَ التَّوراةِ لثِقَلِها فرفعَ اللهُ الطُّورَ فوقَهُم وقيل لهم: إن قَبِلْتُم ما فيها وإلَّا ليقعنَّ عليْكُم.

﴿خُذُواْ﴾ على إضمارِ القولِ؛ أي: وقُلْنَا: ﴿خُذُواْ﴾، أو قائلينَ: ﴿خُذُواْ﴾.

﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ مِن الكتابِ ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجِدٍّ وعزمٍ على تحمُّلِ مَشاقِّهِ، وهو حالٌ مِن الواوِ.

﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ بالعملِ بهِ ولا تتركوهُ كالمَنْسِيِّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قبائحَ الأعمالِ ورَذائلَ الأخلاقِ.

(١٧٢) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أخرجَ مِن أَصْلابِهِم نَسْلَهُم على ما يَتوالَدُونَ قرنًا بعدَ قرنٍ، و﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدلٌ من ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بدلَ البَعضِ.

وقرأَ نافعٌ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ ويَعقوبُ: ﴿ذُرِّيَّاتِهِم﴾[2].

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ أي: ونصبَ لَهُم دَلائِلَ رُبوبيَّتِه، وركَّبَ في عُقولِهِم ما يَدْعُوهُم إلى الإقرارِ بها، حتَّى صارُوا بمنزلةِ مَن قيلَ لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

(١) في نسخة الخيالي: «لأنهم».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٧ ـ ٢٩٨)، و«التيسير» (ص: ١١٤)، و«النشر» (٢/ ٢٧٣).

قَالُواْ بَلَىٰ﴾، فنزَّلَ تمكينَهُم مِن العلمِ بها وتمكُّنَهُم منه بمنزلةِ الإشهادِ والاعترافِ على طريقَةِ التَّمثيلِ[١]، ويدلُّ عليه قولُه:

﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: كراهةَ أَنْ تقولُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ لم ننبَّه عليه بدَليلٍ.

(١٧٣) ـ ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ عطفٌ على ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، وقرأ أبو عمرٍو كِلَيهما بالياءِ[٢]؛ لأنَّ أوَّلَ الكَلامِ على الغيبَةِ.

﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدَيْنا بهم؛ لأنَّ التَّقليدَ عندَ قيامِ الدَّليلِ والتَّمكُّنِ من العلمِ به[٣] لا يصلُحُ عُذْرًا.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يعني: آباءَهُم المبطِلينَ بتأسيسِ الشِّركِ.

وقيلَ: لَمَّا خلقَ اللهُ آدمَ أخرجَ مِن ظَهرِه ذرِّيَّةً كالذَّرِّ، وأحياهُم وجعلَ لَهُم العقلَ والنُّطقَ وألهمَهُم ذلك، لحديثٍ رواهُ عُمَرُ رضيَ اللهُ عنه[٤]، ....

---

(١) تَبِعَ في هذا الزَّمخشريَّ، وقال ابنُ المُنيِّرِ: قَد أجراهُ قومٌ على ظاهرِه وقالوا: لا تُتركُ الحقيقةُ مَع إمكانِها. وقال السيوطي: والأحاديثُ الصَّحيحةُ مُصرِّحةٌ بذلك. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٣٢٨)، و«حاشية السيوطي» (٦/ ٤٥٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٨)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٣) الضمير يعود على الدليل. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٥٤٤).

(٤) روى مالكٌ في «الموطأ» (٢): أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ سُئِلَ عن هذهِ الآيةِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فَقال عُمَرُ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُسأَلُ عَنها، فَقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالَى خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهرَهُ بِيَمِينِهِ فاستَخرَجَ مِنهُ ذُرِّيَّةً، فَقال: خَلَقتُ هؤُلاءِ لِلجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أهلِ الجَنَّةِ يَعمَلُونَ. ثُمَّ مَسَحَ ظَهرَهُ فاستَخرَجَ مِنهُ ذُرِّيَّةً، فَقال: خَلَقتُ هؤُلاءِ لِلنّارِ، وَبِعَمَلِ أهلِ النّارِ يَعمَلُونَ». =

وقَد حَقَّقْتُ الكلامَ فيه في شرحي لكتابِ «المصابيح»[(١)].

والمقصودُ مِن إيرادِ هذا[(٢)] الكلامِ هاهنا: إلزامُ اليهودِ بمُقتَضى الميثاقِ العامِّ بعد ما ألزمَهُم بالميثاقِ المخصوصِ بهم، والاحتجاجُ عَلَيْهِم بالحجَجِ السَّمعيَّةِ والعَقليَّةِ، ومنعُهم عن التَّقليدِ وحَملُهم على النَّظَرِ والاستدلالِ، كما قالَ:

= فَقال رَجُلٌ: يا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ العَمَلُ؟ قال: فَقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ إذا خَلَقَ العَبدَ لِلجَنَّةِ، استَعمَلَهُ بِعَمَلِ أهلِ الجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِن أعمالِ أهلِ الجَنَّةِ فَيُدخِلَهُ بِهِ الجَنَّةَ، وَإذا خَلَقَ العَبدَ لِلنّارِ، استَعمَلَهُ بِعَمَلِ أهلِ النّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِن أعمالِ أهلِ النّارِ فَيُدخِلَهُ بِهِ النّارَ».
ورواه أحمد في «مسنده» (٣١١)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ٩٧)، وأبو داود في «سننه» (٤٧٠٣)، والترمذي في «سننه» (٣٠٧٥)، وقال: هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً، والنسائي في «الكبرى» (١١١٢٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٦٦)، والحاكم في «المستدرك» (٧٤) وقال الذهبي في «التلخيص»: فيه إرسال، و(٤٠٠١) وقال الذهبي: «على شرط البخاري ومسلم»، وكل الأسانيد عن مسلم بن يسار الجهني عن عمر بن الخطاب، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧١٠)، ورواه أبو داود (٤٧٠٤) من طريق مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة، قال كنت عند عمر بن الخطاب بهذا الحديث. وأعله ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٣) بجهالة الراوي عن عمر، ثم قال: لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها، من حديث عمر وغيره.
وقال الفخر الرازي: أطبقَت المُعتَزِلةُ على أنَّه لا يَجوزُ تَفسيرُ الآيةِ بالحَديثِ. ثم ذكر الفخر الرازي لهم عشر حجج، وأجاب عنها. انظر: «تفسير الرازي» (١٥/ ٣٩٨ـ ٤٠٢).
وقال الطِّيبِيُّ: الواجبُ على المفسِّرِ المُحقِّقِ أن لا يُفسِّرَ كلامَ اللهِ المَجيدِ برَأيِه إذا وجدَ من جانبِ السَّلفِ الصّالحِ نقلًا مُعتمدًا، فكيفَ بالنصِّ القاطعِ من جانبِ حضرةِ الرِّسالةِ صلواتُ اللهِ على صاحِبها؟! انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٦٥٦).

(١) انظر: «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (١/ ١٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٣٧٦)، و«روح المعاني» (٩/ ٤٥٦).

(٢) «هذا» من نسخة التفتازاني.

(١٧٤) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: عَن التَّقليدِ واتِّباعِ الباطلِ.

(١٧٥) ـ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على اليهودِ ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾: هو أحدُ عُلماءِ بني إسرائيلَ. أو: أميَّةُ بنُ أبي الصَّلتِ؛ فإنَّه كانَ قد قرأَ الكتبَ وعَلِمَ أنَّ اللهَ تَعالى مُرسِلٌ رَسُولًا في ذلك الزَّمانِ ورَجَا أن يكونَ هُوَ، فلمَّا بُعِثَ مُحمَّدٌ عليه السَّلامُ حسَدَهُ وكفَرَ به. أو: بلعَمُ بن باعُوراءَ مِن الكَنعانِيِّينَ، أوتيَ عِلْمَ بعضَ كتبِ اللهِ ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: مِن الآياتِ بأَنْ كفرَ بها وأعرضَ عَنْها[١] ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حتَّى لَحِقَه ـ وقيلَ: استَتْبَعَه ـ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾: فصارَ مِن الضَّالينَ.

رُوِيَ: أنَّ قومَهُ سألوهُ أنْ يَدعُوَ على مُوسَى ومَن معَه فقالَ: كيفَ أَدْعُو على مَن مَعَه الملائكَةُ؟! فألَحُّوا عليه حتَّى دَعَا عليهِم فبقُوا في التِّيهِ[٢].

(١٧٦) ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ﴾ إلى مَنازلِ الأبرارِ مِن العُلَماءِ ﴿بِهَا﴾: بسببِ تلكَ الآياتِ ومُلازَمَتِها ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: مالَ إلى الدُّنيا وإلى[٣] السَّفالةِ[٤] ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في إيثارِ الدُّنيا واسترضاءِ قومِه، وأَعْرضَ عَن مُقتَضَى الآياتِ.

وإنَّما علَّقَ رَفْعَه بمشيئَةِ اللهِ ثمَّ استدركَ عنه بفعلِ العَبدِ تَنبيهًا على أنَّ المَشيئَةَ سببٌ لفعلِه الموجِبِ لرَفْعِه، وأنَّ عدمَهُ دَليلُ عدمِها دلالةَ انتفاءِ المُسبَّبِ على انتفاءِ

---

(١) يقالُ لكلِّ مَن فارقَ الشَّيءَ بالكُليَّةِ: انسلَخَ مِنه، وقيل: ﴿انسلخ منها﴾ مبالغة. انظر: «تفسير الرازي» (١٥/ ٤٠٤)، و«فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٦٦٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٧٩) من قول سالم أبي النضر مطولاً، وبنحوه (١٠/ ٥٧٥) من قول ابن عباس.

(٣) في نسخة التفتازاني: «أو إلى».

(٤) «السَّفالةُ»: النَّذالةُ. انظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ١٧٣٠).

سببِه[١]، وأنَّ السَّببَ الحَقيقيَّ هو المشيئَةُ، وأنَّ ما نُشاهِدُه[٢] من الأسبابِ وسائطُ مُعتبرَةٌ في حصولِ المسبَّبِ مِن حيثُ إنَّ المشيئةَ تعلَّقَت به كذلك، وكانَ مِن حَقِّهِ أن يقولَ: «ولكنَّه أعرَضَ عَنْها» فأَوْقعَ مَوقِعَه: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ مُبالغَةً وتنبيهًا على ما حملَهُ عليه، وأنَّ حبَّ الدُّنيَا رأسُ كلِّ خَطيئَةٍ.

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾: فصِفَتُه الَّتي هي مَثَلٌ في الخِسَّةِ ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾: كصِفَتِه في أخسِّ أحوالِه، وهو: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾؛ أي: يلهَثُ دائمًا سواءٌ حُملَ عليه بالزَّجرِ والطَّردِ أو تُرِكَ ولم يُتعرَّضْ لهُ بخِلافِ سائرِ الحَيواناتِ لضَعفِ فُؤادِه، و«اللَّهْثُ»: إدلاعُ اللِّسانِ عن التَّنفُّسِ الشَّديدِ، والشَّرطيَّةُ في مَوضعِ الحالِ[٣]، والمعنى: لاهثًا في الحالتينِ، والتَّمثيلُ واقِعٌ مَوقِعَ لازمِ التَّركيبِ الَّذي هو نفيُ الرَّفعِ ووضعُ المنزلةِ للمبالغَةِ والبَيانِ.

وقيلَ: لَمَّا دَعا على مُوسى خرجَ لِسانُه فوقعَ على صدرِه، وجعلَ يلهَثُ كالكَلْبِ.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ المذكورةَ على اليَهودِ؛ فإنَّها نحوُ قِصَصِهِم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تفكُّرًا يؤدِّي بهم إلى الاتِّعاظِ.

---

(١) قوله: «وأنَّ عدمَهُ دَليلُ عدمِها دلالةَ انتفاءِ المُسبَّبِ على انتفاءِ سببِه»؛ أي: عدمُ فعل العبد دليل عدم مشيئة الله تعالى، وفيه رد على المعتزلة حيث قالوا: يريد الله إيمان الكافر وطاعة العاصي مع انتفاء الإيمان والطاعة. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٥٥٠).

(٢) في نسخة التفتازاني: «فمشاهده».

(٣) أفاد الطيبي أنَّ الجملة الشرطيّة لا تقع بتمامها حالاً إلا أن تخرج عن معنى الشرطيّة؛ كأن تفيد معنى التسوية في نحو: «أتيتُكَ إن تَأتِني أو لم تَأتني»، ومنه الآية؛ لأنَّ المُرادَ: إن حُملَ عليه أو لم يُحمَل. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٦٦٨).

(١٧٧) ـ ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ﴾؛ أي: مثلُ القومِ، وقُرِئَ: «ساءَ مثلُ القَوْمِ» على حذفِ المخصوصِ بالذَّمِّ[١].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليها وعِلْمِهِم بها.

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ إمَّا أنْ يكونَ داخِلًا في الصِّلَةِ معطوفًا على ﴿ كَذَّبُوا۟ ﴾ بمَعنى: الَّذينَ جَمَعُوا بين تكذيبِ الآياتِ وظلمِ أنفُسِهِم[٢]، أو مُنقَطِعًا عنها بمَعنى: وما ظلموا بالتَّكذيبِ إلَّا أنْفُسَهُم؛ فإنَّ وَبالَهُ لا يَتخطَّاهَا، ولذلك[٣] قدَّمَ المفعولَ.

(١٧٨) ـ ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ تَصريحٌ بأنَّ الهُدَى والضَّلالَ مِن اللهِ، وأنَّ هِدايةَ اللهِ[٤] تختَصُّ ببعضٍ دونَ بعضٍ، وأنَّها مُستلزِمَةٌ للاهتداءِ، والإفرادُ في الأوَّلِ والجَمْعُ في الثَّاني لاعتبارِ اللَّفظِ والمَعنى[٥]= تنبيهٌ[٦] على أنَّ المُهتَدِينَ كواحِدٍ لاتِّحادِ طَرِيقِهِم، بخلافِ الضَّالِّينَ.

والاختِصارُ في الإخبارِ عمَّنْ هداهُ اللهُ بالمُهتَدِي تعظيمٌ لشأنِ الاهتداءِ، وتَنبيهٌ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣) عن الجحدري والأعمش. قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٧٩): ورفع (مثلُ) على هذه القراءة بـ﴿ سَآءَ ﴾، ولا تجري «ساءَ» مجرى «بئس» إلّا إذا كان ما بعدها منصوبًا.

(٢) قال القونوي في «حاشيته» (٨/ ٥٥٢): هو الظاهر الراجح؛ إذا الأصل في الواو العطف، مع الجامع الخيالي أو العقلي.

(٣) أي: لإفادة الحصر.

(٤) في نسخة الخيالي: «وأن هدايته».

(٥) في العبارة لفٌّ ونشر مرتَّب؛ أي: والإفرادُ في الأوَّلِ ـ وهو ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ ـ لاعتبارِ اللَّفظِ والجَمعُ في الثَّاني ـ وهو ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ـ لاعتبارِ المَعنى...

(٦) خبر «الإفرادُ».

على أنَّه في نفسِهِ كمالٌ جَسِيمٌ ونَفْعٌ عَظِيمٌ لو لم يحصُلْ له غيرُه لكَفَاهُ، وأنَّه المُستلزِمُ للفوزِ بالنِّعمِ الآجلَةِ والعنوانُ لها.

(١٧٩) ـ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾: خلَقْنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني: المُصِرِّينَ على الكفرِ في عِلْمِهِ تعالى.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ إذْ لا يُلْقُونَها إلى مَعرِفَةِ الحقِّ والنَّظَرِ في دَلائِلِه.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾؛ أي: لا يَنْظُرونَ إلى ما خلقَ اللهُ نظرَ اعتِبارٍ.

﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الآياتِ والمَواعِظَ سماعَ تَأمُّلٍ وتَذَكُّرٍ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدمِ الفقهِ والإبصارِ للاعتبارِ والاستماعِ للتَّدبُّرِ، أو: في أنَّ مَشاعِرَهُم وقُواهُم مُتوجِّهَةٌ إلى أسبابِ التَّعيُّشِ مقصورةٌ عليها.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فإنَّها تدرِكُ ما يمكنُ لها أن تدركَ مِن المنافعِ والمَضارِّ وتجتهِدُ في جذبِها ودَفعِهَا غايةَ جهدِها، وهُمْ لَيْسُوا كذلك، بَلْ أكثرُهُم يعلمُ أنَّه مُعانِدٌ فيَقْدَمُ على النَّارِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾: الكاملونَ في الغَفْلَةِ.

(١٨٠) ـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنَّها دالَّةٌ على معانٍ هيَ أحسَنُ المَعانِي، والمرادُ بهَا الألفاظُ، وقيلَ: الصِّفاتُ.

﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾: فسمُّوهُ بتلكَ الأَسماءِ، ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: واترُكُوا تَسمِيَةَ الزَّائغينَ فيها الَّذينَ يُسمُّونَه بما لا توقيفَ فيه، أو رُبَّما يوهِمُ مَعنًى فاسدًا؛ كقولِهِم: يا أبا المكارمِ، يا أبيضَ الوَجهِ.

أو: لا تُبالوا بإنكارِهِم ما سمَّى به نفْسَهُ؛ كقَوْلِهِم: ما نعرِفُ إلَّا رحمانَ اليَمامَةِ.

أو: وَذَرُوهُم وإلحادَهُم فيها بإطلاقِها على الأصنامِ واشتقاقِ أسمائِها منها؛ كـ«اللَّاتِ» مِن اللهِ، و«العُزَّى» من العَزيزِ، ولا تُوافِقُوهُم عليه[1].

أو: أَعرِضُوا عَنْهُم؛ فإنَّ اللهَ مُجازِيهِم كمَا قالَ: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقرأ حمزَةُ: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ بالفتحِ[2]، يُقالُ: «لَحَدَ» و«أَلْحَدَ» إذا مالَ عن القَصدِ.

(١٨١) - ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ذكرَ ذلك - بعدَما بيَّنَ أنَّه خلقَ للنَّارِ طائفةً ضالِّينَ مُلحِدِينَ عن الحقِّ - للدَّلالةِ على أنَّه خلقَ أيضًا للجنَّةِ أُمَّةً هادِينَ بالحَقِّ عادِلِينَ في الأمرِ، واستدلَّ به على صحَّةِ الإجماعِ[3]؛ لأنَّ المرادَ مِنْهُ[4]: أنَّ في كلِّ قرنٍ طائفةً بهذه الصِّفَةِ؛ لقولِه عليهِ السَّلامُ: «لا تَزالُ مِن أُمَّتِي طائفةٌ عَلى الحقِّ إلى أَنْ يَأتِيَ أَمْرُ الله»[5]؛ إِذْ لَوْ اختصَّ بعَهْدِ الرَّسُولِ عليه السَّلامُ أو غيرِه لم يَكُن لذِكْرِه فائدةٌ؛ فإنَّه مَعلومٌ.

(١٨٢) - ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: سنَسْتَدنِيهم إلى الهلاكِ قَليلًا قَليلًا[6]، وأصلُ «الاستدراجِ»: الاستِصْعَادُ أو الاستِنْزَالُ درجَةً بعدَ درجَةٍ.

﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما نريدُ بهم، وذلك أَنْ تتواتَرَ عليهِم النِّعَمُ فيَظُنُّوا

---

(١) قال ابنُ المُنيِّرِ: هذا هو الصَّوابُ. انظره في: «الإنصاف» لعلم الدين العراقي (١/ ٤٠٥)، و«حاشية السيوطي» (٦/ ٤٦٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٨)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٣) استدلَّ بها الجويني في «التلخيص» (٣/ ٢٦)، والغزالي في «المستصفى» (ص: ١٣٨) وغيرهم.

(٤) في نسخة الخيالي: «به».

(٥) رواه البخاري في «صحيحه» (٧٣١١) عن المغيرة بن شعبة، و(٧٣١٢) عن معاوية بن أبي سفيان، ومسلم في «صحيحه» (١٠٣٧) عن معاوية بن أبي سفيان، و(١٩٢١) عن المغيرة بن شعبة، بنحوه.

(٦) تقدَّم الكلام عن الاستدراج. وانظر: «الكشاف» (٣/ ٢٤١)، و«التعريفات» للجرجاني (ص: ٢٠).

أنَّها لطفٌ مِن اللهِ بهم، فيزدادُوا بَطَرًا وانهِمَاكًا في الغيِّ حتَّى يحقَّ عَلَيهِم كلمةُ العَذابِ.

(١٨٣) - ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾: وأُمهِلُهُم، عطفٌ على ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾.

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾: إنَّ أَخْذي شَديدٌ، وإنَّما سَمَّاه كَيْدًا لأنَّ ظاهِرَه إحسانٌ وباطِنَهُ خُذلانٌ[١].

(١٨٤) - ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم﴾ يعني: مُحمَّدًا عليه السَّلامُ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾: من جنونٍ.

رُوِيَ: أنَّه عليه السَّلامُ صَعِدَ على الصَّفَا فدَعاهُم فَخذًا فَخْذًا يُحذِّرُهم بأسَ اللهِ، فقالَ قائِلُهُم: إنَّ صاحِبَكُم لَمَجنونٌ باتَ يُهوِّتُ[٢] إلى الصَّباحِ، فنزلَتْ[٣].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ موضِّحٌ إنذارَهُ بحيثُ لا يخفَى على ناظرٍ[٤].

(١٨٥ - ١٨٦) - ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ نظرَ استدلالٍ ﴿فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ ممَّا يقَعُ عليه الشَّيءُ مِن الأجناسِ الَّتي لا يمكنُ حَصْرُها؛ ليَدُلَّهُم على كمالِ قدرةِ صانعِها ووحدةِ مُبدِعِها وعِظَمِ شَأنِ مَالِكِها ومُتولِّي أمرِها؛ ليُظْهِرَ لَهُم صحَّةَ ما يَدعوهُم إليه.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٣٩).

(٢) أي: يُصَوِّت. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٦/ ٢٠٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٤)، عن قتادة، بلفظ: «يُصَوِّت»، وهو مَعنى «يُهوِّت» كما تقدم، وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٦٦): إسناده صحيح إلى قتادة.

(٤) في نسخة التفتازاني: «ناظره».

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿مَلَكُوتِ﴾، و«أنْ» مَصدريَّةٌ، أو مخفَّفَةٌ مِن الثَّقيلَةِ واسمُها ضَميرُ الشَّأنِ[1]، وكذا اسمُ ﴿يَكُونَ﴾.

والمعنى: أَوَلم يَنْظُروا في اقترابِ آجالِهم وتوقُّعِ حُلولِها فيُسارِعُونَ إلى طلبِ الحقِّ والتَّوَجُّهِ إلى ما يُنجيهِم قبلَ مُغافَصَةِ المَوتِ[2] ونزولِ العَذابِ؟

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾: بعدَ القُرآنِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يُؤمِنُوا به وهو النِّهايَةُ في البيانِ؛ كأنَّه إخبارٌ عَنْهُم بالطَّبعِ والتَّصميمِ على الكُفْرِ بعدَ إلزامِ الحُجَّةِ، والإرشادِ إلى النَّظرِ.

وقيلَ: هو مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾؛ كأنَّه قيلَ: لعلَّ أَجَلَهم قد اقترَبَ، فما بالُهُم لا يُبادِرُونَ الإيمانَ بالقُرآنِ؟ وماذا يَنتَظِرُونَ بعدَ وُضوحِه؟ فإنْ لَمْ يُؤمِنُوا بِه فبأيِّ حَديثٍ أحقَّ مِنه يُريدونَ أَنْ يُؤمِنُوا به؟ وقولُه: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ كالتَّقريرِ والتَّعليلِ له.

﴿ونَذَرُهُمْ فـي طُغْيَانِهِمْ﴾ بالرَّفعِ على الاستئنافِ، وقرأَ أبو عَمرٍو وعاصمٌ ويَعقوبُ بالياءِ لقولِه: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، وحمزَةُ والكِسائيُّ به وبالجزمِ[3] عطفًا على محلِّ ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾؛ كأنَّه قيلَ: لا يَهْدِه أحدٌ غيرُه ويَذَرْهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حالٌ مِن «هم».

---

(١) اقتصرَ في «الكشاف» (٣/ ٣٣٩) على الوجه الثاني، وهو ما رجحه أبو حيان والحلبي، أمّا الأوَّل فذكره الكرماني في «غرائب التفسير» (١/ ٤٢٩) والعكبري في «التبيان» (١/ ٥٣٩)، وفيه إشكال؛ لأنَّ «عسى» فعل جامد لا يؤول بمصدر، وقد نبَّه الكرماني على بطلانه في «لباب التفاسير» عند تفسير هذه الآية. وانظر: «الدر المصون» للحلبي (٥/ ٥٢٦).

(٢) يقال: غافصَه الأمرُ: فاجَأه على غرَّةٍ منه. انظر: «العين» (٤/ ٣٧٣)، و«أساس البلاغة» للزمخشري (١/ ٧٠٦).

(٣) والباقون بالنُّون ورفع الرَّاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥)، و«النشر» (٢/ ٢٧٣).

(١٨٧) - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: عن القِيامَةِ، وهيَ مِن الأَسماءِ الغالبَةِ، وإطلاقُها عليها إمَّا لوُقوعِها بَغتَةً، أو لسُرعَةِ حِسابِها، أو لأنَّها على طُولِها عندَ اللهِ كسَاعَةٍ.

﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾: مَتى إرساؤُهَا؛ أي: إثباتُها واستِقرارُهَا، و«رُسُوُّ الشَّيءِ»: ثَباتُهُ واستِقرارُه، ومِنهُ: رَسَا الجَبَلُ، وأَرْسَى السَّفينَةَ.

واشتقاقُ «أيَّان» مِن «أيٍّ»؛ لأنَّ معناه: أيَّ وقتٍ، وهو مِن «أَوَيْتُ إليهِ» لأنَّ البعضَ آوٍ إلى الكُلِّ[1].

﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ استأثَرَ به، لم يُطلِع عليهِ مَلَكًا مُقرَّبًا ولا نَبيًّا مُرْسَلًا.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ﴾: لا يُظهرُ أَمْرَها في وَقتِها ﴿إِلَّا هُوَ﴾، والمعنى: أنَّ الخفاءَ بها مُستمِرٌّ على غَيرِه إلى وَقتِ وُقوعِها، واللَّامُ للتَّوقيتِ[2] كاللَّامِ في قَولِه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨][3].

﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: عَظُمَت على أَهلِها مِن المَلائِكَةِ والثَّقلينِ لهَوْلِها، وكأنَّه إشارَةٌ إلى الحكمَةِ في إخفائِها.

---

(١) هذا مبني على كلام ابن جني في «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (١/ ٢٦٨)، والأكثرون يأبون اشتقاق الأسماء غير المتصرفة. انظر: «حاشية السيوطي» (٦/ ٤٧٢).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «للتأقيت».

(٣) يستشهد النحاة بهذه الآية على أنَّ اللام فيها موافقة لـ«بعد». انظر: «الجنى الداني» للمرادي (ص: ١٠١)، و«مغني اللبيب» لابن هشام (ص: ٢٨١)، وذهب الواحدي إلى أنها لام السبب أو الأجل. انظر: «تفسير الرازي» (٢١/ ٣٨٣)، ومصطلح لام التأقيت ظهر عند الأصوليين، وربَّما استخدمه متأخرو النحاة. انظر: «شرح المعالم في أصول الفقه» لابن التلمساني (٢/ ٣١٠)، و«المفهم» للقرطبي (١/ ٢٧٨).

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾: فجأةً على غفلةٍ؛ كمَا قالَ عليهِ السَّلامُ: «إنَّ السَّاعَةَ تَهيجُ بالنَّاسِ والرَّجلُ يُصلِحُ حوضَهُ، والرَّجلُ يَسقِي ماشِيَتَه، والرَّجلُ يُقوِّمُ سِلعَتَه في سُوقِه، والرَّجُلُ يخفضُ مِيزانَه ويرفَعُه»(١).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ عالمٌ بها، فَعِيلٌ مِن «حَفِيَ عن الشَّيءِ»: إذا سألَ عَنْه، فإنَّ مَن بالغَ في السُّؤالِ عَن الشَّيءِ والبحثِ عنه استحكَمَ عِلْمُه فيه، ولذلك عُدِّيَ بـ«عن».

وقيلَ: هي(٢) صِلَةُ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

وقيلَ: هي مِن «الحَفاوَةِ» بمَعنى: الشَّفقَةِ، فإنَّ قُريشًا قالُوا له: إنَّ بَينَنَا وبينَكَ قرابةً فقُل لنا: متى السَّاعةُ(٣)؟ والمعنى: يَسألُونَكَ عَنْها كأنَّكَ حَفِيٌّ تتحَفَّى بهم، مِن «حَفِيَ بالشَّيءِ»: إذا فرحَ، فتخصَّهُم لأجلِ قَرابَتِهم بتَعليمِ وَقتِها.

وقيلَ: مَعناهُ: كأنَّكَ حَفِيٌّ بالسُّؤالِ عَنْها تحبُّه؛ أي: [وأنت] تَكرهُ [السُّؤالَ عنها](٤)؛ لأنَّه مِن الغيبِ الَّذي استأثرَهُ الله بعِلْمِه.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٥١) عن قتادة عن النبي ﷺ مرسلًا، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رواه البخاري في «صحيحه» (٦٥٠٦)، ومسلم في «صحيحه» (٢٩٥٤).

(٢) أي: (عن).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٦٧)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٤ و٦١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٨)، عن قتادة.

(٤) ما بين معكوفتين من مطبوع البيضاوي مع «حاشية القونوي» (٨/ ٥٦٧)، وقريب منه ما جاء في مطبوع البيضاوي مع كل من «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٣٤١)، و«حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٧٠)، وفيهما: «أي: وأنت تكرهه»، وبهذا يتضح المراد.

قال شيخ زاده: المعنى: يسألونك كأنك حفي تفرح وتسر بالسؤال عنها والحال أنك تكره السؤال =

﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كَرَّرَهُ لتكريرِ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ لِمَا نِيطَ بهِ مِن هذهِ الزِّيادَةِ، وللمُبالغَةِ[1].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ عِلمَهَا عِندَ اللهِ لم يؤتِه أحدًا مِن خَلقِه.

(١٨٨) ـ ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ جلبَ نَفْعٍ ولا دفعَ ضرٍّ، وهو إظهارٌ للعُبوديَّةِ والتَّبرِّي عَن ادِّعاءِ العلمِ بالغُيوبِ.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ مِن ذلكَ فيُلهِمَنِي إيَّاهُ ويُوفِّقَنِي له.

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ ولو كنتُ

= عنها لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به.

وقال القونوي: أي: مع أنك تكرهه، ففي عبارته [أي: البيضاوي] نوع مسامحة لظهور مراده.

قلت: وهذا كله موافق لما في «الكشاف» (٣/ ٣٤٣): وقيل: كأنك حفيٌّ بالسؤال عنها تحِبُّه وتُؤثِرُه، يعني: أنك تكرَهُ السؤالَ عنها لأنَّه من عِلم الغيب الذي استأثَر الله به ولم يؤتِه أحدًا من خلقه.

تنبيه: وقع في مطبوع البيضاوي مع «حاشية الخفاجي»: «أي: تكثره»، ومثله في «حاشية الأنصاري»، قال الشهاب: وقوله: «تكثره» هذا هو الصحيح، وفي نسخة: «تكره» وهو من تحريف الكتبة، وقيل: صوابه: تؤثره... ثم نقل عبارة «الكشاف» التي ذكرناها.

قلت: والذي ذكره القونوي وشيخ زاده أقرب إلى الصواب والله أعلم، ولعل الأنصاري استشكل لفظ «تكثره»، فقد أورد عقبه عبارة «الكشاف» التي نقلناها ثم قال: أشار إلى ما حرَّره التفتازاني: أن المعنى: أو حفيٌّ بالسؤالِ عنها محبٌّ له فرِحٌ به، فيسألونكَ عنها لذلك، وليس كذلك؛ أي: بل تكرهُه.

(١) في نسخة التفتازاني: «والمبالغة». قال الشهاب في «الحاشية»: قوله: «وللمبالغة» معطوف على قوله: «لما نيط به»، والمبالغة من هذه الزيادة أيضًا لأنّ قوله: «كأنك عالم بها» استبعاد لعلمه بها وهو الحبيب الأكرم ﷺ فما حال من سواه، ويجوز عطفه على قوله: «لتكرير».

أعلَمُـه لخالَفَـتْ حَالِـي مـا هيَ عليه مِـن اسـتكثارِ المَنافـعِ واجتنابِ المَضـارِّ حتَّى لا يَمسَّنِي سـوءٌ(١).

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾: وما أنَا إلَّا عَبدٌ مُرسَلٌ للإنذارِ والبِشارَةِ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنَّهم المُنتفعُونَ بهما، ويجوزُ أَنْ يكونَ مُتعلِّقًا بالبَشيرِ، ومُتعلَّقُ النَّذيرِ محذوفًا.

(١٨٩) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: هـو آدمُ ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾: مِـن جَسَدِها مِن ضلعٍ مِن أَضلاعِها، أو: مِن جِنْسِها؛ كقولِه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل: ٧٢].

﴿زَوْجَهَا﴾: حواءَ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليَستأنِسَ بها ويَطمئِنَّ إِلَيْهَا اطمئنانَ الشَّيءِ إلى جزئِه أو جِنْسِه، وإنَّما ذكَّرَ الضَّميرَ ذَهابًا إلى المعنى ليناسِبَ ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾(٢): جامَعَها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خفَّ عليها ولم تلقَ مِنهُ ما تلقَى الحوامِلُ غالبًا من الأذَى، أو: محمولًا خفيفًا هو النُّطْفَةُ.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: فاستمرَّتْ به وقامَتْ وقَعَدَت.

وقُرِئَ: «فمَرَتْ» بالتَّخفيفِ(٣)، و: «فاستمرَّتْ»(٤)،............

---

(١) في نسخة التفتازاني: «السوء».

(٢) قوله: «وإنما ذكَّر الضمير»؛ أي: في ﴿لِيَسْكُنَ﴾ مع أنَّه يعود على مؤنث في قوله: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، وقوله: «ذهابًا إلى المعنى»؛ أي: المراد بالنفسِ في الآية، وهو آدم، «ليناسب» تذكيرَ الضميرِ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٧٢).

(٣) نسبت لابن عباس وأبي العالية. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«المحتسب» (١/ ٢٦٩)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٦)، و«البحر» (١٠/ ٤٤٠). ونسبها في «الكشاف» (٣/ ٣٤٥) ليحيى بن يعمر.

(٤) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«المحتسب» (١/ ٢٧٠)، و«الكشاف» (٣/ ٣٤٥)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٦)، و«البحر» (١٠/ ٤٤١).

و: «فمارَتْ»[١] مِن «المَوْرِ»، وهو المجيءُ والذَّهابُ، أو مِن «المريةِ»؛ أي: فظنَّتِ الحملَ وارتابَتْ بِهِ.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾: صارَتْ ذاتَ ثقلٍ بكبرِ الولدِ في بَطنِها. وقُرِئَ على البناءِ للمَفعولِ[٢]؛ أي: أثقلَها حَمْلُها.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾: ولدًا سَوِيًّا قد صلحَ بدنُه ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك على هذه النِّعمةِ المجدَّدةِ.

(١٩٠ ـ ١٩١) ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾؛ أي: جعلَ أولادُهُما له شُركاءَ فيما آتى أولادَهُما[٣] فسَمَّوْهُ عبدَ العُزَّى وعبدَ مَنافٍ، على حذفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَه، ويدلُّ عليهِ قولُه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني: الأصنامَ.

وقيلَ: لَمَّا حملَتْ حوَّاءُ أتاها إبليسُ في صُورَةِ رَجُلٍ فقالَ لها: ما يُدريكِ ما في بطنكِ لعلَّهُ بَهيمَةٌ أو كَلْبٌ؟ وما يدريكِ مِن أينَ يَخرجُ؟ فخافَتْ من ذلك وذكرَتْ[٤] لآدمَ فهمَّا منهُ، ثمَّ عادَ إليهَا وقالَ: إنِّي مِن اللهِ بمَنزلَةٍ، فإنْ دَعوتُ اللهَ أن يجعَلَهُ خلقًا

---

(١) نسبت لعبد الله بن عمرو بن العاص والجحدري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«المحتسب» (١/ ٢٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٦)، و«البحر» (١٠/ ٤٤٠).

(٢) نسبت لليماني. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«البحر» (١٠/ ٤٤١).

(٣) قوله: «جعلَ أولادُهُما له شُركاءَ فيما آتى أولادَهُما» قدر المضاف ـ وهو الأولاد ـ في موضعين دفعًا للإشكال الوارد على ظاهر الآية... فلو لم يقدر للزم نسبتهما إلى الشرك، وهما بريئان منه. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٤) في نسخة الخيالي زيادة: «ذلك».

مثلَكِ ويسهِّلَ عليكِ خروجَه فسَمِّيهِ عبدَ الحارثِ، وكانَ اسمُه حارثًا في الملائكةِ، فتقبَّلَت[1]، فلَمَّا وَلدَتْ سمَّيَاه عبدَ الحارثِ.

وأمثالُ ذلك لا يليقُ بالأنبياءِ[2].

---

(١) في نسخة الخيالي: «فقبلت».

(٢) لم يرتضِ البيضاويُّ هذا القول ودفعه، وقد خالفه في ذلك الطِّيبيُّ فقال في «فتوح الغيب» (٦/ ٧٠٢): هذا القَولُ مُقتبَسٌ من مِشكاةِ النُّبوَّةِ، فقد أخرجَه أحمَدُ والتِّرمذيُّ وحسَّنَه والحاكِمُ وصَحَّحَه عن سَمُرة بنِ جُندبٍ قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا ولدَت حَوّاءُ طافَ بها إبليسُ وكان لا يعيشُ لها ولدٌ فقال: سَمِّيهِ عبدَ الحارثِ فإنَّه يَعيشُ، فسَمَّته فعاشَ، فكانَ ذلك من وَحيِ الشَّيطانِ وأمرِه».
وزاد الأنصاري أنه قول كثير كابن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيب، وهذا كما قال البغويّ: ليس إشراكاً في العبادة، ولا أنّ الحارث ربهما؛ فإنّ آدم كان نبياً معصوماً من الشرك، ولكن قصد إلى أنَّ الحرث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمّه، وقد يُطلق اسم العبد على من لا يُراد به أنّه مملوك، كما يُطلق اسم الرب على من لا يُراد به أنّه معبود. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٧٣).
وقد ردَّ هذا القول أيضًا شيخ زاده بأنَّ اتباع آدم لأمر الشيطان بعيد مع غزير علمه، مع أنَّ التسمية بعبد الحارث ليست شركًا في الحقيقة؛ لأن أسماء الأعلام لا تفيد معانيها اللغوية، أما القونوي فردَّه بأنَّ خبر الواحد لا يُعمل به إذا خالف ما هو أقوى منه، وهو ما ثبت من وقوع الشرك أو صورة الشرك محال على الأنبياء. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٣٤٥)، و«حاشية القونوي» (٨/ ٥٧٢).
والحديث رواه أحمد في «مسنده» (٢٠١١٧)، والترمذي (٣٠٧٧)، وقال: حديث حسن غريب، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤٠٠٣)، وصححه، ووافقه الذهبي في «التلخيص».
لكن الحديث من رواية الحسن عن سمرة، وهو ـ على ما فيه ـ معارض بما ثبت عن الحسن من أنه فسَّر الآية على غير الوجه الذي في الحديث، قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٢٧): ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب.

ويحتمِلُ أَنْ يكونَ الخِطابُ في ﴿خَلَقَكُم﴾ لآلِ قُصَيٍّ مِن قُرَيشٍ؛ فإنَّهم خُلقُوا مِن نفسِ قُصَيٍّ، وكانَ له زَوْجٌ مِن جِنسِها عَربيَّةٌ قُرَشيَّةٌ، وطلبَا مِن اللهِ الولدَ فأعطاهُما أربعةَ بنينَ، فسَمَّيَاهُم: عبدَ منافٍ، وعبدَ شَمْسٍ، وعبدَ قُصَيٍّ، وعبدَ الدَّارِ، ويكونُ الضَّميرُ في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لَهُما ولأعقَابِهِما المقتدِينَ بهما[1].

وقرأَ نافِعٌ وأبو بكرٍ: ﴿شِركًا﴾[2]؛ أي: شِرْكَةً بأَنْ أشركَا فيه غيرَه، أو: ذَوِي شركٍ، وهُم الشُّركَاءُ.

و﴿هم﴾ ضَميرُ الأَصْنَامِ جيءَ به على تَسمِيَتِهم إيَّاها آلهَةً.

(١٩٢) ـ ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾؛ أي: لعَبَدَتِهم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فيدفعونَ عَنْهَا ما يعتريهَا.

(١٩٣) ـ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: المشركينَ ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: إلى الإسلامِ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وقَرأَ نافِعٌ بالتَّخفيفِ[3].

وقيلَ: الخطابُ للمُشركينَ، و﴿هم﴾ ضَميرُ الأَصنامِ؛ أي: إِنْ تَدعوهُم إلى أَنْ يَهدوكُمْ لا يَتَّبِعُوكُم إلى مُرادِكُم ولا يُجيبوكُم[4] كما يُجِيبُكُم اللهُ.

(١) ذكر هذا الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٣٤٧)، وقال: هذا تفسيرٌ حسنٌ لا إشكال فيه، وقد استبعده غيره مُبرِزاً أكثر من إشكال؛ فقد ذكر سراج الدين عمر بن عبد الرحمن القزويني في «الكشف على الكشاف»: أن المخاطبين لم يُخلقوا من نفس قصي؛ لا كلهم ولا جلهم، وإنما هو مجمِّع قريش، وأن القول بأن زوجه قرشية خطأ؛ لأنها إنما كانت بنتَ سيد مكة من خزاعة، وقريش إذ ذاك متفرقون ليسوا في مكة، وأيضاً من أين العلم أنهما وعدا عند الحمل أن يكونا شاكرين لله تبارك وتعالى، ولا كفران أشد من الكفر الذي كانا فيه. ذكر كلامه الآلوسي في «روح المعاني» (٩/ ٥٣٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٤) في نسخة الخيالي: «ولا يجيبون».

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ وإنَّما لَمْ يَقُل: «أَمْ صَمَتُّم» للمُبالغَةِ في عدمِ إفادَةِ الدُّعاءِ مِن حيثُ إنَّه مُسوًّى بالثَّباتِ على الصُّماتِ، أو لأنَّهُم ما كانُوا يدَّعُونَها لحوائِجِهِم، فكأنَّه قيلَ: سَواءٌ عليكُم إحداثُكُم دُعاءَهُم واستمرارُكُم على الصُّماتِ عندَ دُعائِهِم.

(١٩٤ ـ ١٩٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تَعبُدُونَهُم وتُسمُّونَهُم آلهةً ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ مِن حَيثُ إنَّها مَمْلُوكَةٌ مُسخَّرَةٌ ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّهُم آلهَةٌ.

ويحتمِلُ أنَّهُم لَمَّا نَحَتُوها بصُوَرِ الأَناسيِّ قالَ لهم: إنَّ قُصارَى أمرِهِم أَنْ يَكونُوا أحياءً عُقلاءَ أمثالَكم، فلا يَستَحِقُّونَ عِبادَتَكُم كما لا يَستَحِقُّ بَعضُكُم عبادَةَ بعضٍ، ثمَّ عادَ عليهِ بالنَّقضِ فقالَ: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَا﴾.

وقُرِئَ: «إنِ الَّذينَ» بتَخفيفِ «إن» ونصبِ «عبادًا»[1] على أنَّها نافيةٌ عَمِلَت عملَ «ما» الحجازيَّةِ، ولم يَثْبُت مِثلُه[2].

---

(١) نسبت لسعيد بن جبير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«المحتسب» (١/ ٢٧٠)، و«الكشاف» (٣/ ٣٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٩)، و«البحر» (١٠/ ٤٤٧).

(٢) كذا قال، وقد أثبته كثير من أئمة النحو ومنعه آخرون، فقد أجازه الكسائيُّ كما في «الأزهية» لأبي عبيد الهروي (ص: ٤٦)، و«أمالي ابن الشجري» (٣/ ١٤٤)، و«مغني اللبيب» (ص: ٣٥)، وأجازه أكثرُ الكوفيين كما في «البحر» (١٠/ ٤٤٧)، ومن البصريين ابنُ السَّرّاج في «الأصول في النحو» (١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، وابنُ جِنّي في «المحتسب» (١/ ٢٧٢). والفارسيُّ كما ذكر ابن مالك في «شرح التسهيل» (١/ ٣٩٣).

ومنعه الفرّاء كما في «الأزهية» (ص: ٤٦)، و«أمالي ابن الشجري» (٣/ ١٤٤)، و«مغني اللبيب» (ص: ٣٥)، وأكثرُ البصريين كما في «البحر» (١٠/ ٤٤٨). =

و: ﴿يبطُشُونَ﴾ بالضَّمِّ هاهنا وفي القصصِ والدُّخانِ[1].

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ واستَعِينُوا بهم في عَداوَتِي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ فبالِغوا فيما تَقْدِرون عليه من مَكْروهي أنتم وشركاؤكم ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾: فلا تُمْهِلُوني؛ فإنِّي لا أُبالي بِكُم لوُثوقِي على وِلَايَةِ اللهِ وحِفْظِه.

= وقال أبو حيان: والصحيحُ أنه لغةٌ ثبت في النظم والنثر. قال: واختلف النقل عن سيبويه والمبرد.

قلت: أما سيبويه: فقد نقل عنه جواز الإعمال ابن مالك في «شرح التسهيل» (١/ ٣٩٣)، ونقله أيضًا السهيلي وأبو بكر بن طاهر كما ذكر أبو حيان في «التذييل والتكميل» (٤/ ٢٧٧ و٢٨٠).

ونُقل عنه المنعُ في «المقتضب» (٢/ ٣٦٢)، و«الأصول في النحو» (١/ ٢٣٥)، و«الأزهية» (ص: ٤٥)، و«أمالي ابن الشجري» (٣/ ١٤٣)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٩)، و«مغني اللبيب» (ص: ٣٥).

والصواب أنه لم يرد في «الكتاب» أي تصريح بالجواز، والذين نقلوا عن سيبويه ذلك إنما اعتمدوا على تأويل بعض عباراته الواردة فيه، وهي تأويلات مردودة عند غيرهم من العلماء، بل نقل أبو حيان في «التذييل والتكميل» (٤/ ٢٧٧) عن ابن عصفور أن الذي يعطيه كلام سيبويه أنها لا تعمل، قال: «لأنه لم يذكرها في نواسخ الابتداء والخبر».

قلت: ويرجِّح القولَ بالمنع عنه أن ممن نقله المبرد في «المقتضب» كما تقدم، وكان أعلم الناس في زمانه بكتاب سيبويه، وقد أخذه عن تلامذة أبي الحسن الأخفش تلميذ سيبويه، والذي كان كما قيل: الطريق إلى كتاب سيبويه.

وأما المبرد: فنقل المنع عنه السهيلي كما ذكر أبو حيان في «التذييل والتكميل» (٤/ ٢٧٧). لكن كلامه في «المقتضب» (٢/ ٣٦٢) صريح في جواز الإعمال، ونقل الجواز عنه ابن السراج في «الأصول في النحو» (١/ ٢٣٦)، والهروي في «الأزهية» (ص: ٤٦)، وابن الشجري في «أماليه» (٣/ ١٤٤)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٩)، وابن مالك في «شرح التسهيل» (١/ ٣٩٣)، وابن هشام في «مغني اللبيب» (ص: ٣٥).

(١) هي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٤).

(١٩٦) - ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآنَ ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: ومِن عادَتِه تَعالى أن يَتولَّى الصَّالحينَ مِن عِبادِهِ فَضْلًا عَن أنبيائِه[1].

(١٩٧) - ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ مِن تَمامِ التَّعليلِ لعدمِ مُبالاتِه بهم[2].

(١٩٨) - ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يُشبِهونَ النَّاظرينَ إليكَ لأنَّهم[3] صوِّرُوا بصُورَةِ مَن ينظرُ إلى مَن يُواجِهُه.

(١٩٩) - ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾؛ أي: خُذْ ما عَفَا لكَ مِن أفعالِ النَّاسِ، وتسهَّلْ ولا تَطْلُبْ ما يَشُقُّ عليهِم، مِن «العَفْوِ» الَّذي هو ضِدُّ الجهدِ.

أو: خُذِ العَفْوَ عَن المُذنبينَ، أو: الفضلَ وما يَسْهُلُ مِن صَدقاتِهم، وذلك قبلَ وُجوبِ الزَّكاةِ.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾: المعروفِ المُستحسَنِ مِن الأَفعالِ.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلا تُمارِهِم ولا تُكافِئْهُم بمثلِ أَفْعالِهِم.

وهذه الآيةُ جامِعَةٌ لمكارمِ الأَخلاقِ آمِرَةٌ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ باستِجْماعِها.

(٢٠٠) - ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾: يَنخَسنَّكَ مِنهُ نَخْسٌ؛ أي: وسوسَةٌ تَحمِلُكَ على خلافِ ما أُمِرْتَ به كاعتراءِ[4] غضبٍ وفكرٍ، و«النَّزْغُ»

---

(١) في نسخة الخيالي: «أوليائه».

(٢) في نسخة الخيالي: «مبالاتهم».

(٣) أي: الأصنام.

(٤) أي: عروضِه. انظر: «حاشية الخفاجي».

و«النَّسْغُ» و«النَّخْسُ»: الغَرْزُ[١]، شبَّهَ وسوسَتَهُ للنَّاسِ إغراءً لهم عَلى المعاصِي وإزعاجًا بغَرْزِ السَّائقِ ما يَسوقُه[٢].

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمعُ استعاذَتَكَ ﴿عَلِيمٌ﴾ يَعلَمُ ما فيهِ صَلاحُ أَمرِكَ فيَحمِلُكَ عليه.

أو: ﴿سَمِيعٌ﴾ بأقوالِ مَن آذاكَ ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالِه فيُجازيهِ عَلَيْها، مُغْنِيًا إيَّاك عَن الانتقامِ ومُشايعَةِ الشَّيطانِ[٣].

(٢٠١) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: لَمَّةٌ منهُ، وهو اسمُ فاعلٍ مِن «طافَ يَطوفُ»؛ كأنَّها طافَتْ بهِم ودارَتْ حَوْلَهُم فلَمْ تَقدِرْ أَنْ تُؤثِّرَ فيهِم، أو من «طافَ بهِ الخَيالُ يَطيفُ طَيْفًا».

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكِسائيُّ ويَعقوبُ: ﴿طَيْفٌ﴾[٤] على أَنَّه مَصدرٌ، أو تخفيفُ طَيِّفٍ؛ كـ«لَيْنٍ» و«هَيْنٍ»[٥].

والمرادُ بـ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: الجنسُ، ولذلك جُمعَ ضميرُهُ[٦].

﴿تَذَكَّرُواْ﴾ ما أمرَ اللهُ به ونَهى عنه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ بسببِ التَّذكُّرِ مواقِعَ

---

(١) الغَرز: إدخال إبرة أو نحوها في الجلد. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٥٨١).

(٢) السائق هنا: راكب الدابة، وما يسوقه: الدابة؛ يعني: أنَّه استِعارةٌ تبعيّةٌ. انظر: «حاشية التفتازاني» (٢٥٥/ ب).

(٣) قوله: «مُشايعة الشَّيطانِ»؛ أي: متابعته في الغضب. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٥٨١).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠١)، و«التيسير» (ص: ١١٥)، و«النشر» (٢/ ٢٧٥).

(٥) أي: أصله فَيعلٌ من طاف يَطِيفُ كـ«لين»، أو من طاف يطوف كـ«هين». انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٥٤).

(٦) أي: في قوله بعدُ: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٧٦).

الخَطأِ ومكايدَ الشَّيطانِ فيتحرَّزُونَ عنها ولا يَتَّبعونَه فيهَا، والآيةُ تأكيدٌ وتقريرٌ لِمَا قبلَها، وكذا قولُه:

(٢٠٢) ـ ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾؛ أي: وإخـوانُ الشَّياطيـنِ الَّذينَ لم يَتَّقُوا يَمدُّهم الشَّياطينُ ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾ بالتَّزيينِ والحملِ عليه.

وقُرِئَ: ﴿يُمِدُّونَهُم﴾ مِن أمدَّ[1]، و: «يُمَادُّونَهُم»[2]؛ كأنَّهم يُعِينونَهم بالتَّسهيلِ والإغواءِ، وهؤلاءِ يُعِينونَهم بالاتِّباعِ والامتِثالِ.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾: لا يمسِكونَ عن إغوائِهِم حتَّى يُرْدُوهم[3].

ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ للإخوانِ[4]؛ أي: لا يكـفُّونَ عَن الغيِّ ولا يُقْصِرونَ كالمُتَّقينَ.

ويجوزُ أَنْ يُرادَ بالإخوانِ الشَّياطينُ، ويرجعُ الضَّميرُ إلى ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فيكونُ الخبرُ جاريًا على ما هوَ لَهُ[5].

---

(١) هي قراءة نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠١)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٢) نسبت للجحدري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٧١)، و«البحر» (١٠/ ٤٦٧).

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «يردونهم»، وهي بتشديد الدال في نسخة الطبلاوي، وقد أشار الشهاب في «الحاشية» والقونوي في «الحاشية» (٨/ ٥٦٣) إلى هذه النسخة، قال الشهاب: إثبات النون ليس في النسخة الصحيحة، ولو كان أيضًا فله وجه. ولم يذكر الوجه لكن ذكره القونوي فقال: فتكون «حتى» حينئذ ابتدائية لا جارة كما في الأول.

(٤) قوله: «ويجوز أن يكون الضمير للإخوان»؛ أي: ضمير ﴿يُقْصِرُونَ﴾ وما قبله جار على ما قرره. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥) انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٦/ ٧٢٥).

(٢٠٣) - ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ مِن القُرآنِ أو مِمَّا اقترحوه ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾: هَلَّا جمَعْتَها تقوُّلًا مِن نَفسِكَ كسائرِ ما تقرؤُه، أو: هَلَّا طَلَبْتَها مِن اللهِ.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ لستُ بمُختلِقٍ للآياتِ، أو: لستُ بمُقترِحٍ لها.

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾: هذا القرآنُ بَصائرُ للقُلوبِ بها تُبصِرُ الحَقَّ وتُدرِكُ الصَّوابَ.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سبقَ تفسيرُهُ.

(٢٠٤) - ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ نزلَتْ في الصَّلاةِ كانُوا يتكلَّمونَ فيها، فأُمروا باستماعِ قراءةِ الإمامِ والإنصاتِ له[1].

وظاهرُ اللَّفظِ يَقتَضِي وجوبَهما حيثُ يُقرأُ القُرآنَ مُطلَقًا، وعامَّةُ العُلماءِ على استحبابِهما خارجَ الصَّلاةِ، واحتجَّ بهِ مَن لا يرى القِراءةَ على المأمومِ[2]، وهو ضَعيفٌ.

(٢٠٥) - ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ عامٌّ في الأذكارِ مِن القراءةِ والدُّعاءِ وغيرِهما.

أو أمرٌ للمأمومِ بالقراءةِ سِرًّا بعد فراغِ الإمامِ عَن قراءتِه، كما هوَ مَذهَبُ الشَّافعيِّ رضيَ اللهُ عنه.

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾: مُتضرِّعًا وخائِفًا.

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أو مُتكلِّمًا كلامًا فوقَ السرِّ ودونَ الجَهْرِ؛ فإنَّه أدخَلُ في الخشوعِ والإخلاصِ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٣٨٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٥٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهم الحنفيّة، واحتجوا بأن الآية نزل في القراءة مع الإمام، ووجه الضعف أنَّ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. انظر: «حاشية القونوي» (٨/ ٥٨٥).

﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾: بأوقاتِ الغُدُوِّ والعَشِيَّاتِ.

وقُرِئَ: «والإيصالُ»[1] وهو مَصدَرُ «آصَلَ»: إذا دخلَ في الأصيلِ مطابقٌ لـ«الغُدُوِّ»[2].

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ عَن ذكرِ اللهِ.

(٢٠٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: مَلائكةَ الملأِ الأعْلَى ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: ويُنزِّهُونَه ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾: ويخصُّونَه بالعِبادَةِ والتَّذلُّلِ لا يُشركونَ به غيرَه، وهو تَعريضٌ بمَن عداهُم مِن المكلَّفينَ، ولذلك شُرِعَ السُّجودُ لِقراءَتِه، وعن النَّبيِّ ﷺ: «إذا قرأَ ابنُ آدمَ السَّجدةَ فسَجَدَ اعتزلَ الشَّيطانُ يَبْكِي فيقولُ: يا ويلَه، أُمِرَ هذا بالسُّجودِ فسَجَدَ فلَهُ الجنَّةُ، وأُمِرْتُ بالسُّجودِ فعَصَيتُ فلي النَّارُ»[3].

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورَةَ الأعرافِ جَعَلَ اللهُ يومَ القِيامَةِ بينَهُ وبينَ إبليسَ سِتْرًا، وكانَ آدمُ شَفِيعًا لهُ يومَ القيامَةِ»[4].

***

---

(١) نسبت لأبي مجلز لاحق بن حميد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«البحر» (١٠/ ٤٧٤).

(٢) فـ«الغدو» و«الإيصال» كلاهما مصدر على هذه القراءة. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (٨/ ٥٨٦).

(٣) رواه مسلم (٨١)، وابن ماجه (١٠٥٢).

(٤) قطعة من الحديث الطويل في فضائل السور سورة سورة، رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٢)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٣٤٧)، عن أبيٍّ رضي الله عنه. ورواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣) وقال: مصنوع بلا شكٍّ. وقد تقدم الكلام فيه.

سورة الأعراف[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية، هذه السورة مكية كلها، قاله ابن عباس. وقال مقاتل: إلا قوله «واسألهم عن القرية» إلى قوله «من ظهورهم ذريتهم»[2] فإن ذلك مدني، وروي هذا أيضاً عن ابن عباس، وقيل: إلى قوله «وإذ نتقنا»[3].

واعتلاق هذه السورة بما قبلها هو أنه لما ذكر تعالى قوله ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام] واستطرد منه لما بعده، وإلى قوله آخر السورة ﴿ وَهُوَ [٢٠٤/ب] ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام] وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم، وذلك لا يكون إلاّ بالتكاليف الشرعية - ذكر ما يكون به التكاليف وهو الكتاب الإلهي، وذكر الأمر باتّباعه كما أمر في قوله «وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتّبعوه».

---

(١) مكية وآياتها ست ومئتان.

(٢) الآيات ١٦٣ - ١٧٢.

(٣) الآية ١٧١.

وتقدم الكلام على هذه الحروف المقطّعة أوائل السّور في أول البقرة[١]، وذِكْرُ ما حدسه الناس فيها ولم يقم دليل واضح على شيء من تفسيرهم يتعيّن به ما قالوا، وزادوا هنا لأجل الصاد أقوالاً، لا يقوم الدليل على صحة شيء منها.

ونهيُه تعالى أن يكون في صدره حرج منه أي من سببه، لما تضمّنه من أعباء الرسالة وتبليغها لمن لم يؤمن بكتاب ولا اعتقد صحّة رسالة وتكليف الناس أحكامها، وهذه أمور صعبة ومعانيها تشق عليه[٢]. وأسند النهي إلى الحرج، ومعناه نهي المخاطب عن التعرّض للحرج، وكان أبلغ من نهي المخاطب، لما فيه من أن الحرج لو كان مما يُنهى، لنهيناه عنك، فانتهِ أنت عنه بعدم التعرض له، ولأنّ فيه تنزيه نبيّه ﷺ بأن ينهاه فيأتي التركيب: فلا تحرج منه، لأنّ ما أنزله تعالى إليه، يناسب أن يُسرَّ به وينشرح لما فيه من تخصيصه بذلك وتشريفه حيث أهّله لإنزال كتابه عليه، وجعله سفيراً بينه وبين خلقه، فلهذه الفوائد عدل عن أن ينهاه ونَهىٰ الحرج.

«كتاب» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا كتاب. و«أنزل» جملة في موضع الصفة لكتاب. والظاهر أن الضمير في «منه» عائد على الكتاب. وذهب الفرّاء وتبعه الحوفي والزمخشري وابن عطية أن «لتنذر» متعلق بقوله «أنزل إليك». وقوله «أنزل» ماضي الزمان و«لتنذر» مستقبل الزمان، فلذلك احتيج في جعله مفعولاً من أجله للام الجرّ لمّا اختلف زمانهما. والجملة من قوله «فلا يكن» اعتراض بين «أنزل» وبين «لتنذر». «وذكرى» مصدر وهو مجرور عطفاً على المصدر المنسبك من أنْ والفعل المنصوب بإضمارها في قوله «لتنذر» أي: لإنذارك ولذكرى. ومعنى «ذكرى» هنا المراد به: ولتذكير

(١) انظر تفسير الآية الأولى.

(٢) ق: يشق عليه ذلك.

المؤمنين كقوله تعالى ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣٦﴾ [المدثر][1]. وحذف مفعول «لتنذر» أي: لتنذر الكافرين، ويدلّ على حذفه نظيره في قوله «وذكرى للمؤمنين».

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يشمل القرآن والسنّة لقوله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]. والضمير في ﴿مِن دُونِهِ﴾ عائد على «ربكم». ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ من دون الله تعالى كالأصنام والرهبان والكهّان والأحبار والنّار والكواكب وغير ذلك. وانتصب ﴿قَلِيلًا﴾ على أنه نعت لمصدر محذوف. و﴿مَّا﴾ زائدة، أي: يتذكرون تذكّراً قليلاً.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾: «كم» هنا خبرية، التقدير: وكثير من القرى أهلكناها. وأعاد الضمير في «أهلكناها» على معنى كم، وهي في موضع رفع بالابتداء و«أهلكناها» جملة في موضع الخبر، وأجازوا أن يكون في موضع نصب بإضمار فعل يفسّره «أهلكناها» تقديره: وكم من قرية أهلكنا، أهلكناها. ولا بدّ في الآية من تقدير محذوف مضاف لقوله «أوهم قائلون»؛ فمنهم من قدّره: وكم من أهل قرية، ومنهم من قدّره: أهلكنا أهلها. وينبغي أن يُقدَّر عند قوله «فجاءها» أي: فجاء أهلها، لمجيء[2] الحال من «أهلها»

(١) ق: وما هو.

(٢) ق: ويجيء.

بقوله «بياتاً» بدليل: «أوهم قائلون» لأنه يمكن إهلاك [٢٠٥/أ] القرى بالخسف والهدم وغير ذلك، فلا ضرورة تدعو إلى حذف المضاف قبل قوله «فجاءها». والضمير في «أهلكناها» المرفوع ضمير المتكلم المعظّم، وفيه التفات، إذ فيه خروج من ضمير الغائب المفرد إلى ضمير المتكلم. و﴿قَآئِلُونَ﴾ من القيلولة، نوّع مجيء البأس إلى نوعي[1] الاستراحة وهو «بياتاً» أي: ليلاً، إذ هو وقت سكون وراحة، وإلى زمان القيلولة وهو وقت الراحة أيضاً. و«أو» هنا للتفصيل.

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: لا يقال: جاء زيد هو فارس، بغير واو فما بال قوله تعالى «هم[3] قائلون»؟ قلت: قدّر بعض النحويين الواو محذوفة وردّه الزجّاج وقال: لو قلت: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، أو: جاءني زيد هو فارس، لم يُحْتَجْ فيه إلى واو، لأن الذكر قد عاد إلى الأول. والصحيح أنها إذا عطفت على حالٍ قبلها، حذفت الواو استثقالاً، لاجتماع حرفي عطف، لأن واو الحال هي واو العطف، استعيرت للوصل. فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، كلام فصيح، وارد على حدّه، وأما: جاءني زيد هو فارس، فخبيث انتهى.

فأما بعض النحويين الذي أبهمه الزمخشري فهو الفرّاء، وأما قول الزجّاج في التمثيلين لم يُحْتج فيه إلى الواو، لأنّ الذكر قد عاد إلى الأول، ففيه إبهام. وتعيينه لم يُجز دخولها في المثال الأول، ويجوّز دخولها في المثال الثاني، فانتفاء الاحتياج ليس على حدّ سواء، لأنه في الأول لامتناع

---

(١) ق: نوعين.

(٢) الكشاف ٢: ٦٧.

(٣) ق: أو هم.

الدخول، وفي الثاني لكثرة الدخول، لا لامتناعه فأما قول الزمخشري: والصحيح إلى آخره، فتعليله ليس بصحيح، لأو واو الحال ليست حرف عطف، فيلزم من ذكرها اجتماع حرفي عطف، لأنها لو كانت للعطف، للزم أن يكون ما قبل الواو حالاً حتى تعطف حالاً على حال. فمجيئها فيما لا يمكن أن يكون حالاً دليل على أنها ليست واو عطف، ولا لُحِظَ فيها معنى واو العطف، تقول: جاءني زيد والشمس طالعة. فجاء زيد ليس بحالٍ فتعطف عليه جملة حال، وإنما هذه الواو مغايرة لواو العطف بكل حال، وهي قسم من أقسام الواو، كما تأتي للقسم، وليست فيه للعطف، إذا قلت: والله لتخرجنّ. وأما قوله: فخبيث، فليس بخبيث، وذلك أنه بناه على أن الجملة الاسمية، إذا كان فيها ضميرُ ذي حال فإنّ حذف الواو منها شاذ، وتبع في ذلك الفرّاء وليس بشاذّ، بل هو كثيرٌ وقوعه في القرآن وفي كلام العرب نثرها ونظمها، وهو أكثر من رمل يبرين ومها فلسطين[1]!. وقد رجع الزمخشري عن هذا المذهب إلى مذهب الجماعة.

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ قال ابن عباس: «دعواهم» تضرّعهم إلا إقرارهم بالشرك انتهى. و«دعواهم» اسم كان و«إذ» ظرف معمول لدعواهم، وخبر كان «أن قالوا» أي: إلا قولَهم، و«إنا» وما بعدها معمول للقول.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: نسأل الأمم المرسل إليهم عن أعمالهم وعمّا بلّغه إليهم الرسل كقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [القصص]، ونسأل الرسل عمّا أجاب به من أُرسلوا إليه كقوله تعالى ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة]. وسؤال الأمم تقرير وتوبيخ يُعقب الكفار والعصاة عذاباً، وسؤال الرسل تأنيس، يُعقب

(١) ق: ونهر فلسطين.

الأنبياء ثواباً وكرامة.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أي: نسرد عليهم أعمالهم قصة قصة بعلم منّا لذلك واطّلاع عليه. ﴿وَمَا[٢٠٥/ب] كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن شيء منه، وهذا من أعظم التوبيخ والتقريع حيث يقرّون بالظلم، وتشهد عليهم أنبياؤهم، ويقصّ الله عليهم أعمالهم.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ مذهب الجمهور أن في القيامة موازين توزن بها أعمال العباد اتّباعاً لظواهر النصوص في ذلك. وذهب مجاهد والضحاك والأعمش وجماعة - وهو قول المعتزلة - إلى أن ما ورد من الوزن والموازين إنما هو كناية عن العدل ومحاسبة أهل الموقف بحساب أعمالهم. «والوزن» مبتدأ، و«يومئذ» [ظرف] منصوب بالوزن، والتنوين في «إذ» تنوين العوض من جملة محذوفة تقديره: يوم إذ نسأل ونقصّ، فحذف ذلك وعوّض منه التنوين ولذلك لا يجتمعان، وكذا في كل موضع يلحق التنوين فيه لإذ. و«الحق» خبر عن المبتدأ الذي هو الوزن.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ﴾ من أثبت الميزان، ذكر[1] أنه ذو كفّتين ولسان، ولم يثبت مثل هذا نصّاً لا في القرآن ولا في السنّة. والثقل والخفة إنما هما من صفات الأجسام، والحسنات والسيئات من صفات الأعراض. فقال هؤلاء إن الموزون هي الصحف التي كتبت فيها الحسنات والسيّئات. وقوله ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أفرد الضمير مراعاة للفظ «من» ثم جمع في قوله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مراعاة لمعنى «من». ويتعلق ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بقوله ﴿يَظْلِمُونَ﴾ لتضمّنه معنى: يكذبون، أو لأنها بمعنى يجحدون.

(١) عبارة ق: أثبت الميزان وذكر.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن
نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ
أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن
تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تقدم معنى «مكنّاكم» في قوله في أول الأنعام ﴿ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٦﴾ ﴾. والخطاب راجع للذين خوطبوا: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف] وما بينهما، أُورد مورد الاعتبار والاتعاظ بذكر ما آل إليه أمرهم في الدنيا، وما يؤول إليه في الآخرة. ﴿ مَعَـٰيِشَ ﴾ جمع معيشة. وقرأ خارجة عن نافع: معائش بالهمز، شبّهها بصحائف من حيث عدد الحروف والحركات والسكون. والمعيشة ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها مما يُتوصّل به إلى ذلك. وهي في الأصل مصدر ينزّل منزلة الآلات. وإعراب ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ كإعراب ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ﴾ هو على حذف مضاف تقديره: خلقنا أباكم ثم صوّرناكم[1]. وتبقى «ثم» دالّة على وضعها من المهلة في الزمان، فبدأ

(١) على أن الخطاب في الأولى لآدم وفي الثانية لذرّيته. وفي المطبوع: ثم صوّرنا أباكم، على أن الخطاب في الجملتين لآدم، لأن العرب تخاطب العظيم الواحد بخطاب الجمع. انظر البحر ٤: ٢٧٢.

بالخلق وهو إخراج من العدم الصرف إلى مادة وهي التراب[١] ولقوله تعالى ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران] ثم ثنّى بالتصوير وهو تشكيله بالصورة الآدمية. وتقدم تفسير ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]، فأغنى عن إعادته. وقوله ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ جملة لا موضع لها من الإعراب، مؤكدة لمعنى ما أخرجه الاستثناء من نفي سجود إبليس كقوله «أبى واستكبر» بعد قوله «إلاّ إبليس» في البقرة.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ انتقل من ضمير المتكلم المعظم إلى ضمير الغيبة في «قال». و«ما» استفهامية مبتدأة والجملة بعده خبره. و«لا» في ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ زائدة للتوكيد يدل على زيادتها سقوطها في قوله ﴿أَن تَسْجُدَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص]. و«إذ» معمولة لقوله «منعك». والمعنى أنه وبّخه وقرّعه على امتناعه من السجود وإن كان تعالى عالماً بما منعه من السجود. و«ما» استفهامية تدل على التوبيخ كما قلنا قبل. ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هذا ليس بجواب مطابق[٢] للسؤال، لكنه يتضمن الجواب إذ معناه: منعني فضلي عليه [٢٠٦/ أ] لشرف عنصري على عنصره. ولم ينظر الأبلم[٣] لأمرِ مَن أمره بالسجود وهو الله تعالى، فامتثال الأمر طاعة لله تعالى. وقد تكلم الناس في تفضيل النار على الطين وفي تفضيل الطين على النار بما هو مذكور في البحر[٤].

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ لما كان امتناعه من السجود لظهور شرفه على آدم عند نفسه، قابله الله تعالى بالهبوط المشعر بالنزول من علوّ إلى سفل. والضمير

(١) ق: التركيب.

(٢) ق: مطلق.

(٣) أي: الغليظ الشفتين.

(٤) انظر ٤: ٢٧٣.

في «منها» عائد على الجنة وإن لم يَجْرِ لها ذكر. قال ابن عطية: أُهْبِطَ أولاً وأُخرج من الجنة، وصار في السماء، لأن الأخبار تضافرت أنه أغوى آدم وحوّاء من خارج الجنة، ثم [أُمر] آخراً بالهبوط من السماء مع آدم وحوّاء. ومعنى ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ أي:[١] لا يصح لك، أو لا يتمّ، أو لا ينبغي. والضمير في ﴿فِيهَا﴾ عائد على ما عاد عليه «منها»، ولا مفهوم لهذا الظرف، بل التكبر منهيّ عنه في كل موضع. وكرر معنى الهبوط بقوله «فاخرج» لأن الهبوط منها خروج، ولكنه أخبر بصغاره وذلّته وهو أنه جزاء على تكبّره، قوبل بالضد مما اتّصف به وهو الصّغار الذي هو ضد التكبّر. والتكبّر تفعُّل منه، لا أنه خُلق كبيراً عظيماً ولكنه هو الذي تعاطى الكِبْر.

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ هذا يدل على إقراره بالبعث وعلمه بأن آدم سيكون له ذرية ونسل يعمّرون في الأرض ثم يموتون. والضمير في «يبعثون» عائد على ما دلّ عليه المعنى إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه. ومعنى «أنظرني» أي: أخّرني.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الظاهر أن الباء للقسم و«ما» مصدرية ولذلك تلقّيت الحلف بقوله «لأقعدن». و«أغويتني» بمعنى أضللتني، قاله ابن عباس. والإغواء نَسَبه إلى الله تعالى إبليس، وهو فعل من أفعال الله تعالى جارٍ على الحكمة الإلهية فجاز أن يُقسم به. قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: بم تعلّقت الباء فإن تعليقها بلأقعدنّ يصدّ عنه[٣] لام القسم، لا تقول: والله بزيدٍ لأمرّنّ؟ قلت: تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره: فبما أغويتني أقسم بالله

(١) ق: أو.

(٢) الكشاف ٢: ٦٩.

(٣) ق: عن.

لأقعدنّ، أي: بسبب إغوائك أقسم انتهى.

ما ذكره من أن اللام تصدّ عن تعلّق الباء بلأقعدنّ ليس مجمعاً عليه بل في ذلك خلاف. وعبّر بالقعود عن الثبوت في المكان والتلبّث فيه. قالوا: وانتصب «صراطك» على إسقاط «على»، قاله الزّجاج وشبّهه بقول العرب: ضرب زيد الظهر والبطن، أي: على الظهر والبطن. وإسقاط حرف الجر لا ينقاس في مثل هذا، لا يقال: قعدت الخشبة، تريد: قعدت على الخشبة، والأولى أن يُضمّن «لأقعدن» معنى ما يتعدى بنفسه فينتصب الصراط على أنه مفعول به والتقدير: لألزمنّ بقعودي صراطك المستقيم. وهذا الصراط هو دين الإسلام وهو الموصل إلى الجنّة.

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ الظاهر أن إتيانه من هذه الجهات الأربع كناية عن وسوسته وإغوائه له والجدّ في إضلاله من كلّ وجه ممكن. ولمّا كانت هذه الجهات يأتي منها العدوّ غالباً، ذكرها، لا أنه يأتي من الجهات الأربع حقيقة. وغاير في حرف الجر الذي هو مِن وعن، لأنه لو كان الكلّ بمِن أو بعن لكان في تكرار ذلك قلق في التركيب.

﴿ مَذۡءُومًا ﴾ يقال ذأمه يذأمه ذَأْماً: عابه، بسكون الهمزة ويجوز إبدالها ألفاً. ﴿ مَّدۡحُورًاۖ ﴾ يقال دحره: أبعده وأقصاه دحوراً، قال الشاعر[1]:

[من الوافر]

دَحَرْتُ بني الحصيب إلى قديدٍ ... وقد كانوا ذوي أَشَرٍ وَفَخْرِ

وهذه ثلاثة[2] أوامر: أمرٌ بالهبوط مطلقاً، وأمر بالخروج مخبراً أنه ذو

(١) لم أجده وانظر البحر ٤: ٢٧٧.

(٢) ق: ثلاث.

صغار، وأمر بالخروج مقيّداً[١] بالـذم [٢٠٦/ب] والطرد. ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ قرأ الجمهور: لَمَن بفتح اللام، والظاهر أنها اللام الموطّئة للقسم، و«مَن» شرطية في موضع رفع على الابتداء، وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب القسم المحذوف قبل اللام الموطئة. ويجوز أن تكون اللام لام الابتداء و«مَن» موصولة، و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب قسم محذوف بعد «من تبعك»، وذلك القسم المحذوف وجوابه في موضع خبر «مَن» الموصولة. وقرأ الجحدري وعصمة عن أبي بكر عن عاصم: لِمَن تبعك بكسر اللام، واختلفوا في تخريجها. قال ابن عطية: المعنى: لأجل من تبعك لأملأنّ انتهى.

ظاهر هذا التقدير أن اللام تتعلق بلأملأنّ، ويمتنع ذلك على قول الجمهور، وأن ما بعد لام القسم لا يعمل فيما قبلها.

قال الزمخشري[٢]: يعني لمن تبعك منهم [هذا] الوعيد وهو قوله «لأملأنّ جهنم منكم أجمعين»، على أن «لأملأنّ» في محلّ الابتداء، و«لمن تبعك» خبره انتهى.

إن أراد ظاهر كلامه فهو خطأ على مذهب البصريين، لأن قوله «لأملأنّ» جملة هي جواب قسم محذوف. فمن حيث كونها جملة فقط، لا يجوز أن تكون مبتدأة، ومن حيث كونها جواباً للقسم المحذوف يمتنع أيضاً، لأنها إذ ذاك من هذه الحيثيّة لا موضع لها من الإعراب، ومن حيث كونها مبتدأة لها موضع من الإعراب. ولا يجوز أن تكون الجملة لها موضع ولا موضع لها بحال؛ لأنه يلزم أن تكون في موضع رفع، لا في موضع رفع داخلاً

---

(١) ق: مقيّد.

(٢) الكشاف ٢: ٧١.

عليها عامل غير داخل عليها عامل، وذلك لا يُتصوّر.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ أي: وقلنا يا آدم، وتقدم تفسير هذه الآية في البقرة[1]، إلا أن هنا «فكلا من حيث شئتما» وفي البقرة «وكلا منها رغدا»، قالوا: وجاءت على أحد محاملها، وهو أن يكون الثاني بعد الأول. وحذف «رغداً» هنا على سبيل الاختصار، وأثبت هناك[2] لأن تلك مدنية وهذه مكيّة فوفّى المعنى هناك باللفظ.

﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي: فعل الوسوسة لأجلهما. وأما قوله ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه] فمعناه ألقى الوسوسة إليه. ﴿ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا ﴾ اللام لام كي وهو علّة الوسوسة. ﴿ مَا وُۥرِيَ ﴾ ما سُتر. وقرأ عبد الله بن مسعود: أُوري، بإبدال الواو همزة وهو بدل جائز. وقرىء: ما وُرِيَ، بواو مضمومة من غير واو بعدها على وزن كُسِيَ. وقرأ مجاهد والحسن: من سَوَّتهما،

---

(١) الآية ٣٥.

(٢) ق: هنا.

بالإفراد وتسهيل الهمزة وبإبدالها واواً وإدغام الواو فيها. و﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ استثناء مفرّغ من المفعول من أجله، أي: ما نهاكما ربكما لشيء إلا أن تكونا ملكين أو من[١] الخالدين الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ لم يكتف إبليس بالوسوسة وهي الإلقاء في خفيةٍ سرًّا ولا بالقول، حتى أقسم على أنه ناصح لهما. والمقاسمة مفاعلة تقتضي المشاركة في الفعل، وأما هنا فمعنى «وقاسمهما» أي: أقسم لهما لأن اليمين لم يشاركا فيها، وهو كقول الشاعر[٢]: [من الطويل]

وقـاسَمَهـا[٣] بـالله جَهـداً لأنتـمُ ... ألذُّ من السلوى إذا ما نَشُورها

وفاعَلَ قد يأتي بمعنى أفعَلَ نحو: باعدت الشيء وأبعدته. و«لكما» متعلق بمحذوف تقديره: ناصح لكما أو أعني أو بالناصحين، على أن أل موصولة وتُسومح في الظرف والمجرور ما لا يتُسامح في غيرهما.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: استزلّهما إلى الأكل من الشجرة بغُروره أي: بخداعه إياهما وإظهار النصح لهما وإبطان الغش وإطماعهما أن يكونا ملكين أو خالدين. وبأقسامه أنه ناصح لهما جعل من يغترّ بالكلام حتى يصدّق فيقع في مصيبة، كالذي تدلّى من علوّ إلى سفل بحبل ضعيف، فينقطع به فيهلك [٢٠٧/ أ] ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: وجدا طعمها آكلَيْن منها كما قال تعالى ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا ﴿١٢١﴾﴾ [طه] وتطايرت عنهما ملابس الجنة وظهرت لهما

(١) ق: ومن.
(٢) البيت لخالد بن زهير الهذلي في ديوان الهذليين ١: ١٥٨.
(٣) ق: وقاسمهما.

عوراتهما، وتقدّم أنهما [كانا] قبل ذلك لا يريانها[١] من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر.

﴿وَطَفِقَا﴾ طفق من أفعال المقاربة بفتح الفاء وكسرها، وبالباء مكان الفاء مكسورة، و«يخصفان» خبر «طفقا». ومعنى ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أي: جعلا يلصقان ورقة على ورقة ويلصقانها. والأولى أن يعود الضمير في «عليهما» على عورتيهما كأنه قيل: يخصفان على سوءاتهما من ورق الجنة، وعاد بضمير الاثنين لأن الجمع يراد به اثنان. و«على» هنا ظرف مجازي بمعنى فوق لا حرف جر، ونظير هذا التركيب قوله تعالى ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب] وقول الشاعر[٢]: [من المتقارب]

هوّن عليك فإنّ الأمور ... بكفّ الإله مقاديرُها

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ لما كان وقت الهناء شرّف بالتصريح باسمه في النداء فقيل ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف] وحين كان وقت العتاب أخبر أنه ناداه ولم يصرّح باسمه. والظاهر أنه تعالى كلّمهما بلا واسطة. والجملة معمولة لقول محذوف أي: قائلاً «ألم أنهكما»، وهو استفهام معناه العتاب على ما صدر منهما، والنهي[٣] قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبَا ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف] وثَمّ مضاف محذوف تقديره: عن قربان تلك. و«تي» اسم الإشارة واللام للبعد، حذفت ياءُ «تي» لالتقاء الساكنين و«كُما» خطاب للاثنين. ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾ إشارة إلى قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴿١١٧﴾﴾ [طه].

---

(١) ق: يرانهما.

(٢) البيت مع ثانٍ له في العقد ٣: ١٤١، وهو منسوب لابن أبي حازم، وفيه خرم.

(٣) ق: والمعنى.

و﴿لَنَكُونَنَّ﴾ جواب قسم محذوف قبل «إنْ» كقوله تعالى ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة]. التقدير: والله إن لم تغفر لنا. وأكثر ما تأتي «إن» هذه ولام التوطئة قبلها [كقوله] ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ثم قال ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب].

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ تقدم تفسيره في البقرة[1].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ وهذا كالتفسير لقوله «ولكم في الأرض مستقر ومتاع» أي: بالحياة «إلى حين» أي: حين الموت. ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي: إلى المجازاة بالثواب والعقاب.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه تعالى لمّا ذكر قصة آدم وفيها ستر السوءات وجعل في الأرض مستقرّاً ومتاعاً، ذكر تعالى ما امتنّ به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يواري

(١) انظر تفسير الآية ٣٦ من البقرة.

السوءات والرياش الذي يمكن به[١] استقرارهم في الأرض واستمتاعهم بما خوّلهم. «قد أنزلنا» الإنزال مجاز من [باب] إطلاق السبب على مسبّبه، فأنزل المطر وهو سبب يتهيّأ به اللباس. واللّباس يعمّ جميع ما يُلبس ويستر. الريش معروف وهو هنا عبارة عن سعة الرزق ورفاهة العيش والتمتّع، وقال الزمخشري[٢]: لباس الزينة استعير من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوءاتكم ولباساً يزيّنكم، لأن الزينة غرض صحيح، وكما قال تعالى ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ﴿٨﴾﴾ [النحل] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴿٦﴾﴾ [النحل] انتهى.

ويحسّنه قوله تعالى ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴿١٤﴾﴾ [النحل]. وقرىء: ولباسَ: بالنصب عطفاً على ما قبله. وقرىء بالرفع وهو مبتدأ و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، خبر عن قوله «ولباس»[٣] والرابط بينهما اسم الإشارة كما يربط المضمر وكأنه قال: ولباس التقوى هو خير. والإشارة بقوله ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ إلى ما تقدّم من إنزال اللباس والرياش ولباس التقوى. والمعنى: من آيات الله الدالّة على فضله ورحمته على عباده. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ هذه النعم فيشكرون الله تعالى عليها.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يستهوينكم ويغلب عليكم. وهو نهي للشيطان والمعنى نهيهم أنفسهم عن الإصغاء إليه والطواعية لأمره، كما قالوا: لا أرينّك هنا، ومعناه [٢٠٧/ب] النهي عن الإقامة بحيث يراه. و﴿كَمَا﴾ في موضع نصب أي: فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم من الجنة.

---

(١) ق: بهم.

(٢) الكشاف ٢: ٧٤.

(٣) عبارة ق: وقرىء بالرفع وهو مبتدأ وذلك خبر مبتدأ، وخير خبر عن قوله ولباس.

و﴿ يَنزِعُ ﴾ حال من الضمير في «أخرج» أو من «أبويكم» لأن الجملة فيها ضمير الشيطان[١] وضمير الأبوين. ونسب النَّزْع والإراءة إلى الشيطان لما كان متسبّباً فيه.

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ ﴾ قال الزمخشري[٢]: الضمير في «إنه يراكم» ضمير الشأن والحديث انتهى. لا ضرورة تدعو إلى هذا، بل الظاهر أنه ضمير عائد على الشيطان، أي: أنّ الشيطان وهو إبليس يبصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها. وهم أجسام لطيفة معلوم من هذه الشريعة وجودهم، كما أن الملائكة أيضاً معلوم وجودهم من هذه الشريعة. ولا يُستنكر وجود أجسام لطيفة جداً لا نراها نحن؛ ألا ترى أن الهواء جسم لطيف، لا ندركه نحن وقد قام البرهان العقلي القاطع على وجوده؟ وقد صحّ تصوّرهم في الأجسام الكثيفة ورؤية بني آدم لهم في تلك الأجسام كالشيطان الذي رآه أبو هريرة حين جعل يحفظ تمر الصدقة[٣]، والعفريت الذي رآه رسول الله ﷺ وقال فيه: «لولا دعوة أخي سليمان لربطتُه إلى سارية من سواري المسجد»[٤]، وكحديث خالد بن الوليد حين سُيّر لكسر ذي الخَلَصة[٥]، وكحديث سواد بن قارب مع رئيّه من الجن[٦]. إلاّ أنّ رؤيتهم في الصور نادرة كما أن الملائكة تبدو في صور كحديث جبريل عليه

---

(١) ق: ضمير الشأن.

(٢) الكشاف ٢: ٧٥.

(٣) انظر البخاري ٢: ٨١٢.

(٤) أخرجه البخاري ١: ١٧٦ من حديث أبي هريرة.

(٥) جاء في الأصنام ص٣٥ أن رسول الله ﷺ لمّا فتح مكّة سيّر جرير بن عبد الله لهدم ذي الخلصة، فهدم بنيانه وأضرم فيه النار.

(٦) انظر السيرة النبوية ١: ٢٢٣، والفتح الرّباني ٢٠: ٢٠٥.

السلام[١]. وقوله ﴿يَرَىٰكُمْ﴾ تعليل للنهي وتحذير مِن فتنته بأنه بمنزلة العدوّ المداجي يكيدهم ويغتالكم من حيث لا تشعرون. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: صيّرنا، ﴿ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ ناصريهم وعاضديهم في الباطل.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ الظاهر أنه إخبار مستأنف عن هؤلاء الكفّار بما كانوا يقولون إذا ارتكبوا الفواحش. وقولهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ تقليد لآبائهم في فِعْل ذلك، والتقليد ليس طريقاً لحصول العلم. وقولهم ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ افتراء على الله تعالى، وكانوا يقولون: لو كره الله ذلك لنَقَلَنا عنه. ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾ أي: بفعل الفحشاء. وإنما لم يردّ التقليد لظهور بطلانه فأبطل تعالى دعواهم أن الله أمر بها، إذ مدرك ذلك إنما هو الوحي على لسان الرسل والأنبياء ولم يقع ذلك. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وبّخهم على كذبهم ووقفهم على ما لا علم لهم به ولا رواية لهم فيه، بل هي دعوى واختلاق.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ أي: بالعدل. ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ معطوف على ما ينحلّ إليه[٢] المصدر الذي هو القسط؛ [أي] بأن أقسطوا وأقيموا. وكما ينحلّ المصدر لأَنْ والفعل الماضي نحو: عجبت من قيام زيد، وخرج، تقديره: من أن قام زيد وخرج، ولأَنْ والمضارع نحو[٣]: [من الوافر]

للُبْسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عيني   [أحبُّ إليّ من لُبْس الشُّفوفِ]

---

(١) أخرجه مسلم ١: ٣٧ من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) ق: عليه.

(٣) البيت من شواهد الكتاب ٣: ٤٥، لميسون بنت بحدل. وانظر أمالي الشجري ١: ٢٨٠، والمقتضب ٢: ٢٧.

تقديره: لأَنْ ألبس عباءة وتقرّ عيني. ولمّا أشكل هذا التخريج جعل الزمخشري «وأقيموا» على تقدير: وقل [فقال[1]: وقل] أقيموا وجوهكم. قال ابن عباس: المعنى إذا حضرت الصلاة، فصلّوا في كل مسجد، ولا يقل أحدكم: أصلّي في مسجدي. ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ الدعاء على بابه أمر به مقروناً بالإخلاص. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ هذا إعلام بالبعث أي: كما أوجدكم واخترعكم كذلك يعيدكم بعد الموت. والكاف في «كما» للتشبيه و«ما» مصدرية. والمعنى: تعودون بإنشائه تعالى مثل بدئه إياكم، شبّه الإعادة بالبدء.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ تقسيم للمؤمن والكافر. وانتصب «فريقاً» على أنه مفعول بهدى، و﴿فَرِيقًا﴾ الثاني انتصب بإضمار فعل يفسّره ما بعده تقديره: وأضل فريقاً. وهذا من باب الاشتغال فسّره فعل ناصب[2] من معنى قوله ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾. ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ لتعليل الفريق الذي حقت عليهم الضلالة.

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ
هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ
وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) الكشاف ٢: ٧٥.

(٢) ق: فسّر فكل ناصب.

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ [٢٠٨/أ] زِينَتَكُمۡ ﴾ الآية، كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة، وكانوا لا يأكلون في أيام حجّهم دسماً، ولا ينالون من الطعام إلا قوتاً تعظيماً لحجّهم فنزلت[(١)]. والزينة فِعلة من التزيين وهو اسم ما يتجمّل به من ثياب وغيرها كقوله تعالى ﴿ وَٱزَّيَّنَتۡ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] أي: بالنبات. والزينة هنا المأمور بأخذها هو ما يستر العورة في الصلاة. وفي صحيح مسلم[(٢)] عن عروة أن العرب كانت تطوف عراة إلا الحمس وهم قريش، إلا أن تعطيهم الحمس ثياباً فتعطي الرجال الرجال والنساء النساء. وفي غير مسلم[(٣)] من لم يكن له صديق بمكة يعيره ثوباً طاف عرياناً أو في ثيابه وألقاها بعدُ فلا يمسّها أحد وتسمّى اللّقى، وقال بعضهم[(٤)]:

[من الطويل]

كفى حَزَناً كرّي[(٥)] عليه كأنه لَقًى بين أيدي الطائفين حريم

فلما بعث الله تعالى رسوله وأنزل عليه «يا بني آدم خذوا زينتكم» أذّن مؤذن رسول الله ﷺ: ألا لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان[(٦)]. ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ﴾ الظاهر أنه أمر بإباحة الأكل والشرب من [كل ما يمكن أن يؤكل أو يشرب مما لم يُحظر أكله وشربه في الشريعة، وإن كان النزول على سبب خاص كما ذكروا من امتناع المشركين من أكل] اللّحم والدسم أيام إحرامهم. والنّهي عن الإسراف يدل على تحريمِ بقوله تعالى «إنه

---

(١) انظر أسباب النزول ص١٥١.

(٢) ٢: ٨٩٤ من حديث هشام بن حكيم عن أبيه، لا عروة.

(٣) انظر مثلاً: الفتح الرباني ١٢: ١٣.

(٤) البيت في اللسان «حرم» غير منسوب.

(٥) ق: كدّي.

(٦) ق: عرياناً.

لا يحب المسرفين». والظاهر تعلّق الإسراف بالأكل والشرب كما يوجد للمترفين في الدنيا من مغالاة التأنق في الأكل بحيث يغرم على الدجاجة الواحدة نحوٌ من عشرين درهماً[١]، وكما يغرم على الرطل من الحلوى نحو من أربعين درهماً. ولقد شاهدنا بعض أكابرهم رسم بأن يُعمل له خميرة وردٍ في مئين من القناني، في كل قنينة أربع[٢] أواق، فقيل له الورد كماءٍ حِلٌّ[٣] وهو غالٍ. فقال: أليس موجوداً؟ فقيل له: بلى[٤]. فقال: كل موجود ليس بغالٍ!. وكما بَلَغنا عن بعض الناس أنه يأكل الفستق مقشوراً بالسكّر النبات في القطايف، وقد سئل في حال من يأكل قشر الموز من الجوع والفقر فقال ذلك الآكل: كلنا فقراء!. وأما تأنّقهم في الأواني الصينيّة ومغالاتهم في أثمانها فكثير، ويُسألون درهماً لفقير فلا يبرّون به.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ هي ما حسّنتَهْ الشريعة وقرّرته ممّا يُتجمّل به من الثياب وغيرها. وأضيفت إلى الله تعالى لأنه هو الذي أباحها. و«الطيبات» هي المستلذّات من المأكول والمشروب بطريقه وهو الحِلّ. ومعنى الاستفهام إنكار تحريم هذه الأشياء وتوبيخ محرّميها، وقد كانوا يحرّمون أشياء من لحوم الطّيبات وألبانها. والاستفهام إذا تضمّن الإنكار لا جواب له. ومعنى ﴿أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: أبرزها وأظهرها وفصّل حلالها من حرامها.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقرىء: خالصةٌ، بالرفع وقرأ باقي السبعة بالنصب. فأما النصب فعلى الحال والتقدير: قل هي مستقرة للذين

---

(١) ق: درهم.

(٢) ق: أربعة.

(٣) ق: كما دخل، ولعل الصواب ما أثبتّه.

(٤) ق: نعم.

امنوا في حال خلوصها لهم يوم القيامة، وهي حال من الضمير المستكنّ في الجار والمجرور الواقع خبراً لهي، و«في الحياة» متعلق بآمنوا. وأما الرفع فجوّزوا [فيه] أن يكون خبراً لـ«هي»، و«للذين آمنوا» متعلق بـ«خالصة»، و«في الحياة» متعلق بـ«آمنوا»، ويصير المعنى: قل هي خالصة يوم القيامة لمن آمن في الدنيا. ولا يعني يوم القيامة وقت الحساب، وخلوصها كونهم لا يعاقبون عليها، وإلى هذا المعنى يشير[1] ابن جبير. وجوّزوا فيه أن يكون خبراً بعد خبر، والأول هو «للذين آمنوا» و«في الحياة الدنيا» متعلق بما يتعلق به «للذين» وهو الكون المطلق؛ [أي]: قل هي كائنة في الحياة الدنيا للمؤمنين وإن كان يشركهم فيها في الحياة الدنيا الكفار، وخالصة لهم يوم القيامة. ويراد بيوم القيامة استمرار الكون في الجنّة. وهذا المعنى من أنها لهم ولغيرهم في الدنيا خالصة لهم يوم القيامة هو قول ابن عباس وجماعة.

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ [٢٠٨/ب] ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ تقدم تفسير الفواحش في أواخر الأنعام[2]. ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ قال ابن عباس: هنا «ما ظهر منها» ما كانت تفعله الجاهلية من نكاح الأبناء نساء الآباء، والجمع بين الأختين، وأن تنكح المرأة على عمّتها وخالتها. «وما بطن» وهو الزّنى. وما عطف عليها بدل من «الفواحش» وهو بدل تفصيلي لانقسام الفواحش إلى ظاهرة وباطنة، ونظيره قوله[3]: [من الطويل]

وكنتُ كذي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صحيحةٍ ورِجْلٍ رمى فيها الزمانُ فشَلَّتِ

و﴿ وَٱلْإِثْمَ ﴾ عام يشمل الأقوال والأفعال التي يترتب عليها الإثم.

---

(١) ق: يصير.

(٢) الآية ١٥١.

(٣) البيت لكثيّر عزّة في ديوانه ص٩٩.

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ التعدّى وتجاوز الحدّ مبتدئاً كان أو منتصراً. وقوله ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة بيان وليس يُتصور بغيٌ بحقٍّ [لأن ما كان بحقّ] لا يسمّى بغياً. وتقدم تفسير «ما لم ينزّل به سلطاناً» في الأنعام[١] فأغنى عن إعادته.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: ولكل واحد من الأمة عمر ينتهي إليه بقاؤه في الدنيا، فإذا مات، علم ما كان عليه من حق أو باطل. وقرىء: جاء آجلهم بإبدال همزة «أجلهم» ألفاً، وقرىء أيضاً بحذفها، وقرىء أيضاً بإقرارها همزة. وجواب «إذا» قوله «لا يستأخرون». وقال الحوفي «ولا يستقدمون» معطوف على «يستأخرون» انتهى. وهذا لا يمكن لأنّ إذا شرطية، فالذي يترتب عليها إنما هو مستقبل، ولا يترتب على مجيء الأجل في المستقبل إلا مستقبل، وذلك يُتصور في انتفاء الاستئخار لا في انتفاء الاستقدام، لأن الاستقدام سابق على مجيء الأجل في الاستقبال، فيصير نظير قولك: إذا قمت في المستقبل لم يتقدم قيامك في الماضي. ومعلوم أنه إذا قام في المستقبل، لم يتقدم قيامه هذا في الماضي، وهذا شبيه بقول زهير[٢]:

بدا ليَ أني لستُ مُدْرِكَ ما مضى ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائيا

ومعلوم أن الشيء إذا كان جائياً إليه لا يسبقه. والذي تُخرّج عليه الآية أن قوله «ولا يستقدمون» منقطع من الجواب على سبيل استئناف إخبار، أي: وهم لا يستقدمون الأجل أي: لا يسبقونه. وصار المعنى أنهم لا يسبقون الأجل ولا يتأخرون عنه.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا

(١) الآية ٨١.

(٢) ديوانه ص٢٨٧.

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ
مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا
دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا
هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم
مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾».

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ هذا الخطاب هو لبني آدم في الأزل، وقيل: مراعىً به وقت الإنزال، وجاء بصورة الاستقبال، لتقوى الإشارة بصحة النبوّة إلى محمد ﷺ. و«ما» في «إمّا» تأكيد، وجواب الشرط: «فمن اتقى وأصلح».

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لمّا ذكر المكذبين ذكر من هو أسوأ حالاً منهم وهو من يفتري الكذب على الله تعالى، وذكر أيضاً من كذّب بآياته. «أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب» ذكرو أقوالاً كثيرة؛ والذي يظهر أن الذي كُتب لهم في الدنيا من رزق وأجل وغيرهما ينالهم فيها، ولذلك جاءت التغيِيَةُ بعدها بحتّى. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ تقدم الكلام على «حتى إذا» في أوائل الأنعام[1]. والمعنى أنهم ينالهم حظّهم ممّا كتب لهم إلى أن

(١) الآية ٣١.

تأتيهم رسل الموت يقبضون أرواحهم فيسألونهم سؤال توبيخ وتقرير: أين معبوداتكم من دون الله تعالى؟ فيجيبون بأنهم ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: هلكوا واضمحلّوا. والرّسل: ملك الموت وأعوانه. و«يتوفونهم» في موضع الحال.

وكتبت «أين ما» متصلة، وكان قياس كتابتها الانفصال، لأن «ما» موصولة كهي في: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام] إذ التقدير: أين الآلهة التي كنتم تعبدون. ومعنى ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: تستغيثونهم لقضاء حوائجكم. وجواب سؤالهم ليس مطابقاً من جهة اللفظ، لأن سؤاله عن مكان، وأجيب بفعلٍ، وهو مطابق من جهة المعنى إذ [٢٠٩/أ] تقدير السؤال: ما فعل معبودوكم[1] من دون الله معكم؟ قالوا: ضلّوا عنّا. ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ استئناف إخبار من الله تعالى بإقرارهم على أنفسهم بالكفر.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: يقول الله لهم أي: لكفّار العرب وهم المفترون الكذب والمكذّبون بالآيات وذلك يوم القيامة. وعبّر بالماضي لتحقق وقوعه، وقوله ذلك على لسان الملائكة. ويتعلق «في أمم» في الظاهر بـ«ادخلوا» والمعنى: في جملة أمم، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف، فيكون في موضع الحال. و﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: تقدمتكم في الحياة الدنيا أو تقدم دخولها في النار. وقدم الجنّ لأنهم الأصل في الإغواء والإضلال، ودلّ ذلك على أن عصاة الجن يدخلون النار. و«في النار» متعلق بـ«خَلَتْ» على أن المعنى: تقدم دخولها، أو بمحذوف هو صفة «لأمم» أي: في أمم سابقة في الزمان كائنة من الجن والإنس كائنة في النار.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾: «كلّما» للتكرار ولا يستوي ذلك في الأمة

---

(١) ق: معبودكم.

الأولى، فاللاحقة تلعن السابقة أو يلعن بعض الأمة الداخلة بعضها. ومعنى «أختها» أي: في الدين، والمعنى كلما دخلت أمة من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وغيرهم من الكفار. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾: «حتى» غاية لما قبلها، والمعنى أنهم يدخلون فوجاً ففوجاً لاعناً بعضهم بعضاً إلى انتهاء تداركهم وتلاحقهم في النار واجتماعهم فيها. وأصل «اداركوا» تداركوا، أدغمت التاء في الدال، فاجتُلبت همزة الوصل.

وأخرى هنا بمعنى آخِرة مؤنث آخِر مقابل أول لا مؤنث آخَر بمعنى غير كقوله تعالى ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام]. واللام في «لأولاهم» لام السبب أي: لأجل أولاهم، لأن خطابهم مع الله تعالى لا معهم. «أضلّونا» شرعوا لنا الضلال وجعلونا نضلّ وحملونا عليه. ﴿ضِعْفًا﴾ زائداً على عذابنا إذ هم كافرون ومسبّبو كفرنا. ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: لكلٍّ من الأخرى والأولى عذاب مضاعف زائد إلى غير نهاية، وذلك أن العذاب مؤبّد فكلّ ألمٍ يعقبه آخر. وقرأ الجمهور بالتاء على الخطاب للسائلين، أي: لا تعلمون ما لكلّ فريق من العذاب أو لا تعلمون المقادير وصور العذاب. أو خطاب لأهل الدنيا أي: ولكن يا أهل الدنيا لا تعلمون مقدار ذلك. وهذه الجملة ردٌّ على أولئك السائلين وعدم إسعاف لما طلبوا.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ أي: قالت الطائفة المتبوعة للطائفة المتَّبِعة. واللام في «لأخراهم» لام التبليغ نحو: قلت لك اصنع كذا، لأن الخطاب هو مع أُخراهم، بخلاف اللام في «لأولاهم» فإنها كما ذكرنا لام السبب لأن الخطاب هناك هو مع الله تعالى. وقبل قوله «فما» جملة محذوفة وتقديرها: فما أجابكم الله تعالى إلى ما طلبتم من تضعيف العذاب لنا. ﴿فَمَا [كَانَ] لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ باتّباعكم إيّانا في الدنيا، بل كفرتم اختياراً لا أنّا حملناكم على ذلك إجباراً. وأنّ قوله ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ من كلام الأولى خطاباً

للأخرى على سبيل التشفّي منهم، وأنّ ذوق العذاب بما كسبتم من الآثام لا بسبب دعواكم أنّا أضللناكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ أي: عن قبولها والتفكّر فيها والإيمان بها، والاستكبار هو نتيجة التكذيب. ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قرىء: لا تفتح، مخففاً ومثقّلاً وبياء الغيبة. «أبواب السماء» قال ابن عباس لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم ولا لما يريدون به طاعته [٢٠٩/ب] تعالى، أي: لا يصعد لهم عمل صالح فتفتح له[1] أبواب السماء. وقيل: المعنى لا تفتح لهم أبواب السماء في القيامة ليدخلوا منها إلى الجنّة. ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾ الولوج التقحّم في الشيء. «الجمل» الحيوان المعروف، والجمل حبل السفينة، ولغاته تأتي في المركبات[2]. ﴿سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ ثقبه. وتضمّ سين «سمّ» وتفتح وتكسر. وكل ثقب في أنف أو أذن أو غير ذلك فالعرب تسمّيه سَمّاً. و«الخِياط» المِخْيَط وهما آلتان كإزار ومئزر ولحاف ومِلْحف وقناع ومِقْنع. و«يلج» هذا نفي مُغَيّا بمستحيل، وذكر الجمل لأنه أعظم الحيوان المزاول للإنسان جثّة، فلا يلج إلا في باب واسع، فلا يدخلون الجنة أبداً. وقال الشاعر[3]: [من الوافر]

لقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ ... فَلَمْ يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البعيرُ

وقرأ ابن عباس في جماعة، وأبان عن عاصم: الجُمَّل، بضم الجيم والتشديد وفُسّر بالقلس الغليظ وهو حبل السفينة، تُجمع حبال وتُفتل وتصير

(١) ق: لهم.

(٢) انظر البحر ٤: ٢٩٧، وكذا اللسان «جمل».

(٣) البيت للعباس بن مرداس في الحماسة ٣: ١١٥٥.

حبلاً واحداً. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل [ذلك] الجزاء نجزي أهل الجرائم.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب، كما قال تعالى ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر]. والغواشي: جمع غاشية، قال ابن عباس: هي اللحف.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لما أخبر تعالى بوعيد[1] الكفار أخبر بوعد المؤمنين. وخبر «والذين» الجملة من «لا نكلّف نفساً» أي: منهم، أو الجملة من «أولئك» وما بعده، وتكون جملة «لا نكلف» اعتراضاً بين المبتدأ والخبر، وفائدته أنه لما ذكر قوله «وعملوا الصالحات» نبّه على أن ذلك العمل وُسْعهم وغير خارج عن قدرتهم. وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عِظَم محلّها يُوصَل إليها بالعمل السهل من غير مشقة.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الغل]: الحقد والإحنة الخفية في النفس وجمعها غلال، ومنه الغلول: أخذ الشيء في خفاء. «ونزعنا» أي: أذهبنا في الجنة ما انطوت عليه صدورهم من الحقود. ونزع الغلّ في الجنة أن لا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل منازلهم، وكنّى بالصدر عن الشخص. والذي

(١) ق: بوعد.

يظهر أن النزع للغلّ كناية عن خَلْقهم في الآخرة سالمي القلوب طاهريها متوادّين متعاطفين كما قال تعالى ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر]. و﴿تَجْرِى﴾ حال، قاله الحوفي، قال: والعامل فيه «نزعنا». وقال أبو البقاء: حال والعامل معنى الإضافة. وكلا القولين لا يصحّ لأنّ «تجري» ليس من صفات الفاعل الذي هو ضمير «نزعنا»، ولا من صفات المفعول الذي هو «ما في صدورهم»، ولأنّ[1] معنى الإضافة لا يعمل إلا إذا كانت إضافةً يمكن للمضاف أن يعمل إذا جُرّد من الإضافة رفعاً ونصباً فيما بعده. والظاهر أنه خبر مستأنف عن صفة حالهم.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: وفّقنا لتحصيل هذا النعيم الذي صرنا إليه بالإيمان والعمل الصالح، إذ هو نعمة عظيمة، يجب عليهم بها حمده والثناء عليه. «وما كنا» وقرىء: ما كنّا. ومعنى «لنهتدي» أي: من ذوات أنفسنا، «لولا أن هدانا الله». وجواب لولا الجملة قبلها وهو «وما كنّا لنهتدي»، ولا ينكر تقديم جواب لولا عليها، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴿١٠﴾﴾ [القصص] وقوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ [٢١٠/ أ] رَبِّهِۦ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف][2] وإن كان الأكثر في لسان العرب تأخير جواب لولا كقوله تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النور]. و«أن هدانا» في موضع رفع بالابتداء تقديره: لولا هداية الله إيانا.

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالموعود الذي وعدونا في الدنيا، قَضَوا بأنّ ذلك حقٌّ قضاءَ مشاهدةٍ بالحسّ، وكانوا في الدنيا يقضون بذلك قضاء

---

(١) ق: وكان.

(٢) ق: وهمّت به لولا.

استدلال. ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ يُحتمل أن يكون النداء من الله تعالى، وهو لقلوبهم أسرّ وأرفع لقدرهم، ويحتمل أن يكون من الملائكة. ويحتمل أن تكون [أنْ] المخففة من الثقيلة أي: ونودوا بأنّه تلكم الجنة، واسمها ضمير الشأن يحذف إذا خفّفت. ويحتمل أن تكون «أنْ» مفسّرة لوجود شرطيها وهما أن يكون قبلها جملة في معنى القول وبعدها جملة وكأنه قيل: تلكم الجنّة. و«تلكم» اسم إشارة والذي بعدها خطاب للجماعة، والمعنى أن البعد فيها باعتبار سَبْق الوعد بها في الدنيا، و«الجنة» صفة لـ «تلكم»، و«أورثتموها» خبر عن تلكم، والهمزة في «أورثتموها» بدل من واو بدلاً جائزاً، لأن أصل المادة الواو والراء والثاء تقول: وَرِثَ يَرِثُ، ولو قرىء: وُورثتموها لكان عربياً لأن «فاعِل» من ذوات الواو نحو واري إذا بنيت للمفعول يجوز أن تبدل [واوه] همزة فتقول: أوري، وأصله وُوري.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ
رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ
يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾
۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ
تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ
عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا
مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا
نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ
فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي

﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ أي: من فريقي الجنّة والنار بعلامتهم التي يتميّزون بها من ابيضاض وجوه واسوداد وجوه. وفي هذه الجملة التجنيس[1] المغاير، وهو أن يكون إحدى الكلمتين اسماً والأخرى فعلاً، فـ«الأعراف» اسم و«يعرفون» فعل. والرجال: قوم تساوت حسناتهم وسيّئاتهم وقفوا هنالك ما شاء الله تعالى لم تبلغ حسناتهم بهم دخول الجنة ولا سيّئاتهم دخول النار. وروي في مسند ابن أبي خيثمة[2] عن جابر عن رسول الله ﷺ حديث فيه: «قيل: يا رسول الله من استوت حسناته وسيّئاته؟. قال: أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها، وهم يطمعون».

﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ الضمير في «نادَوْا» عائد على «رجال». و«أن» تفسيرية أو مخفّفة من الثقيلة كما تقدّم. و﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا﴾ جملة حالية العامل فيها «نادَوْا» [أي: نادَوْا] غيرَ داخلي الجنّة. ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ جملة حالية أيضاً أي: يطمعون في دخولها. وأجاز الزمخشري[3] أن يكون «لم يدخلوها وهم يطمعون» صفة لرجال. وهو بعيد، للفصل بين الموصوف والصفة بجملة «ونادوا» وليست جملة اعتراض.

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ الضمير في «أبصارهم» عائد على رجال الأعراف يسلّمون على أهل الجنة وإذا نظروا إلى أهل النار دعوا الله تعالى في التخلص منهم، قاله ابن عباس وجماعة. وفي قوله «صُرفت» دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى تلقاء أصحاب الجنة، وأنّ نظرهم إلى أصحاب النار

---

(١) ق: من التجنيس.

(٢) حديث مرفوع رواه الحافظ ابن مردويه وأورده ابن كثير ٣: ١٧١ وقال: وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) الكشاف ٢: ٨٢.

بكونهم صُرفت أبصارهم تلقاءهم، فليس الصرف من قِبَلِهم بل هم محمولون عليه مفعول بهم ذلك: لأن ذلك المُطَّلَع مَخُوفٌ من سماعه فضلاً عن رؤيته فضلاً عن التلّبس به. والمعنى أنهم إذا حُملوا على صرف أبصارهم، ورأوا ما هم عليه، استغاثوا بربّهم من أن يجعلهم معهم. ولفظة «ربنا» مشعرة بوصفه تعالى بأنه مصلحهم وسيّدهم وهم عبيده، فبالدعاء به طلب رحمته واستعطاف كرمه. و«تلقاء» تفعال من اللقاء، استعمل ظرف مكان، تقول: زيد تلقاء عمرو، أي: مكان لقائه وجهته.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ الآية، هذا النداء وأولئك الرجال في النار، ومعرفتهم [إياهم] في الدنيا بعلامات. ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ في الدنيا: المال والولد والأجناد والحجّاب والجيوش. و«ما أغنى» استفهام توبيخ وتقريع، و«ما» في «ما أغنى» يجوز أن تكون نافية، و«ما» في «وما كنتم» مصدرية أي: وكونكم تستكبرون. وقرأت فرقة: تستكثرون بالثاء المثلثة من الكثرة.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ هذا يقتضي سماع كلٍّ من الفريقين كلام الآخر، وهذا جائز عقلاً على بعد المسافة بينهما من العلوّ والسّفل، وجائز أن يكون ذلك مع رؤية واطّلاع من الله تعالى، وذلك أخزى وأنكى للكفار، وجائز أن يكون ذلك وبينهم الحجاب والسّور. وعن ابن عباس أنه لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس فقالوا: يا ربّ لنا قرابات من أهل الجنة فأْذن لنا حتى نراهم ونكلّمهم، فنظروا إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم، ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل النار فلم يعرفوهم قد اسودّت وجوههم وصاروا خَلْقاً آخر، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وأخبروهم

بقراباتهم، فينادي الرجلَ أخوه فيقول: يا أخي قد احترقتُ فأغثني. فيقول: إن الله حرّمهما على الكافرين. ويحتمل أن تكون [أن] مصدرية ومفسّرة [٢١١/أ] وكلام ابن عباس يدلّ[١] على أن هذا النداء كان عن رجاء وطمع في حصول ذلك، وقيل: [هو] مع اليأس لأنهم قد علموا دوام عقابهم وأنه[٢] لا يفترّ عنهم، ولكنّ اليائس من الشيء قد يطلبه كما يقال: إنّ الغريق يتعلّق بالزّبد، وإن علم أنه لا يغنيه.

و«أفيضوا» أمكن من: اسقونا لأنها تقتضي التوسعة، كما يقال: أفاض الله عليه نعمه أي: وسّعها. وسؤالهم الماء لشدّة التهابهم واحتراقهم، ولأن من عادته إطفاء النار. ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ لأن البنية البشرية لا تستغني عن الطعام إذ هو مقوّيها[٣]، أو لرجائهم الرحمة بأكل طعام أهل الجنة، و«أو» على بابها من كونهم سألوا أحد الشيئين، وأتى «أو ممّا رزقكم الله» عاماً. والعطف بأو يدلّ على أن الأول لا يندرج في العموم، وقيل: أو بمعنى الواو لقولهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾، وقيل: المعنى: حرّم كلاًّ منهما، فأو على بابها. و«ما رزقكم الله» عامّ فيدخل فيه الطعام والفاكهة والأشربة غير الماء، أو تضمّن «أفيضوا» معنى: ألقوا، فيتعدى للماء ولغيره. و«ما» في «ممّا» موصولة والعائد عليها محذوف تقديره رزقكموه، ومعنى التحريم هنا المنع كما قال[٤]: [من الطويل]

---

(١) ق: يقتضي يدل.

(٢) ق: وأنهم.

(٣) ق: مقولها.

(٤) لم أتعرّف تمامه وقائله وانظر البحر ٤: ٣٠٥.

حرامٌ على عينيّ أن تطعما[1] الكرى

وإخبارهم بذلك هو عن أمر الله تعالى.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ تقدم تفسيرها في الأنعام[2] فأغنى عن إعادته. ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عمّا يفعل بهم، قال ابن عباس وجماعة: يتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم. ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ معطوف على «ما نَسُوا» و«ما» فيهما مصدرية، والكاف في «كما» للتعليل أي: لنسيانهم وكونهم جحدوا بآيات الله.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ الضمير في «جئناهم» عائد على من تقدم ذكره، ويكون الكتاب على هذا جنساً، أي: بكتاب إلهي، إذ الضمير عام في الكفار، و﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ صفة لكتاب، و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الظاهر أنه حال من فاعل «فصّلناه». وانتصب «هدى ورحمة» على الحال، وقيل مفعول من أجله أي: لأجل الهدى. وقرىء بالرفع، أي: هو هدى ورحمة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: مآل أمره وعاقبته، قال ابن عباس: مآله يوم القيامة. ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: يظهر عاقبة ما أخبر به من الوعد والوعيد، يسأل تاركو اتّباع الرسل: هل لنا من شفعاء. والناصب ليوم: «يقول»، والجملة بعد «يوم» في تقدير مصدر أي: يوم إتيان تأويله. ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ أي: تركوا العمل به واتّباعه. ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ هو معمول القول، و«مِن» زائدة و«شفعاء» مبتدأ و«لنا» في موضع الخبر، و﴿فَيَشْفَعُواْ﴾ جواب الاستفهام منصوب بحذف النون. ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ هو على إضمار هل أي: هل

(١) ق: تطعم.
(٢) انظر تفسير الآية ٧٠.

نرد، وجوابه «فنعمل»، عطف جملة استفهام فعلية على جملة استفهام اسمية. ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا في تجارة أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة، وبطل عنهم افتراؤهم على الله تعالى ما لم يقُله ولا أمر به، وكذبُهم في اتخاذهم آلهة [من] دون الله تعالى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، لما ذكر تعالى أشياء من مبدأ خلق الإنسان وانقسامهم إلى مؤمن وكافر ومعادهم وحشرهم إلى جنة ونار، ذكر مبدأ العالم واختراعه، ثم بعد إلى النبوة والرسالة، إذ مدار القرآن على تقرير المسائل الأربع: التوحيد والقدرة والمعاد والنبوّة. و«ربكم» خطاب عامّ للمؤمن والكافر. ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ في صحيح مسلم[1] عن أبي هريرة قال «أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: خلق الله عزّ وجلّ التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق [٢١١/ب] الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدوابّ يوم

---

(١) ٤: ٢١٤٩.

الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بين العصر إلى الليل».

وأما استواؤه تعالى على العرش فحمَلَه على ظاهره من الاستقرار بذاته على العرش قوم. والجمهور من السلف السفيانان ومالك والأوزاعي والليث وابن المبارك وغيرهم في أحاديث الصفات على الإيمان بها وإمرارها على ما أراد الله تعالى من غير تعيين مراد، وقوم تأوّلوا ذلك على عدّة تأويلات، ومسألة الاستواء مذكورة في علم أصول الدين. و«العرش» السقف، وكلُّ ما علا وأظلّ فهو عرش.

﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ التغشية التغطية، والمعنى أنه يُذهب الليل نور النهار، [فالليل للسكون والنهار للحركات. وفحوى الكلام يدل على أن النهار يُغشيه الله الليل]. وهما مفعولان [لأنّ] التضعيف والهمزة مُعدّيان. وقرىء بالتضعيف والهمز. وقرأ حميد بن قيس: يَغْشَى الليلُ، بفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وضمّ اللام كذا قال عنه أبو عمرو[1] الداني. وقال أبو الفتح بن جني عن حميد بنصب «الليل» ورفع «النهار». قال ابن عطية: وأبو الفتح أثبت [انتهى].

هذا الذي قاله من أنّ أبا الفتح أثبت كلاماً لا يصحّ، إذ رتبة أبي عمرو الداني في القراءات ومعرفتها وضبط رواياتها واختصاصه بذلك، بالمكان الذي لا يدانيه أحد من أئمة القراءة فضلاً عن النحاة الذين ليسوا مقرئين ولا رَوَوُا القرآن عن أحد ولا روى عنهم القرآن أحد، هذا مع الديانة الزائدة والتثبّت في النقل وعدم التجاسر ووفور الحظّ من العربية؛ فقد رأيت له كتاباً في «كلا وكلتا» وكتاباً في إدغام أبي عمرو الكبير دلّا على اطّلاعه

(١) ق: عمر، وكذا في المواضع التالية.

على ما لا يكاد يطّلع عليه أئمة النحاة ولا المقرئين، إلى سائر تصانيفه.

والذي نقله أبو عمرو الداني عن حميد أمكن من حيث المعنى لأن ذلك موافق لقراءة الجماعة، إذ «الليل» في قراءتهم وإن كان منصوباً هو الفاعل من حيث المعنى، إذ همزة النقل والتضعيف صيّرته مفعولاً. ولا يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً من حيث المعنى لأن المنصوبَيْن تعدّى إليهما الفعل، وأحدهما فاعل من حيث المعنى فيلزم أن يكون الأول منهما كما لزم ذلك في: ملّكتُ زيداً عَمْراً، إذ رتبة التقديم هي الموضّحة أنه الفاعل من حيث المعنى، كما لزم ذلك في: ضرب موسى عيسى.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ الجملة من «يطلبه» حال من الفاعل من حيث المعنى وهو «الليل» إذ هو المحدَّث عنه قبل التعدية، وتقديره: حاثّاً. ويجوز أن يكون حالاً من النهار وتقديره: محثوثاً. ويجوز أن ينتصب نعتاً لمصدر محذوف أي: طلباً حثيثاً أي: حاثّاً أو محثّاً. ونسبة الطلب إلى الليل مجازية، وهو عبارة عن تعاقبه اللازم فكأنه طالبٌ له لا يدركه بل هو في أثره بحيث يكاد يدركه. وقدّم «الليل» هنا كما قدّمه في ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴿٦١﴾﴾ [الحج] وفي ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾ [يس] وفي ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ وانتصب «مسخرات» على الحال من المجموع أي: وخلق الشمس. وقرىء بالرفع في الأربعة على الابتداء والخبر. [وقرأ أبان بن ثعلب برفع «والنجوم مسخرات» فقط على الابتداء والخبر]. ومعنى «بأمره» أي: بمشيئته وتصريفه وهو متعلق «بمسخّرات»، أي: خَلَقهنّ جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره وكما يريد أن يصرّفها، سمّى ذلك أمراً على التشبيه كأنهنّ مأمورات بذلك.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ لمّا تقدّم ذِكْر الخلق وأَمْره فيها قال ذلك، أي: له

الإيجاد والاختراع وجرى ما خلق واخترع على ما يريده، وما يأمر به، لا أحد يشركه في ذلك ولا في شيء منه. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: علا وعَظُم. ولمّا تقدّم [٢١٢/أ] «إن ربكم» صدر الآية، جاء آخرها «تبارك الله رب العالمين». وجاء «العالمين» أعمّ من «ربكم» لأنه [ذكر] خلق تلك الأشياء البديعة وهي عوالم كثيرة، فجاء «العالمين» جمعاً[١] لجميع العوالم، واندرج فيه المخاطبون بـ«ربّكم» وغيرهم. و«تبارك» فعل جامد لا يتصرّف، فلا يقال منه مضارع ولا اسم فاعل ولا فعل أمر؛ لا يقال: يتبارك ولا متبارِك ولا تبارَكْ.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ الظاهر أن الدعاء هو مناجاة الله تعالى بندائه لطلب أشياء ولدفع أشياء. وانتصب «تضرعاً وخفية» على الحال أي: متضرّعين وَمُخْفِين، أو ذوي تضرّع واختفاء في دعائكم. و[في] الحديث الصحيح[٢] «إنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً».

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وهذا اللفظ عام، يدخل فيه أوّلاً الدعاء على غير هذين الوجهين من عدم الخفية والتضرّع، بأن يدعوه وهو ملتبس بالكبر والزّهو، أو أن ذلك دأبه في المواعيد والمدارس، فصار له ذلك صنعة وعادة فلا يلحقه تضرّع ولا تذلّل، وبأن يدعوه بالجهر البليغ والصياح، كدعاء الناس عند الاجتماع في المشاهد والمزارات. وقال العلماء: الاعتداء في الدعاء على وجوه كثيرة منها الجهر الكثير والصياح.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ هذا نهي عن إيقاع الفساد في

---

(١) عبارة ق: وهي عن ألم كثيرة في العالمين جمعاً.

(٢) رواه مسلم ٤: ٢٠٧٧ من حديث أبي موسى.

الأرض وإدخال ماهيّته في الوجود، فيتعلق بجميع أنواعه من إفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان. ومعنى «بعد إصلاحها» أي: بعد أن أصلح [الله] خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلّفين. ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ لمّا كان الدعاء من ا لله تعالى بمكانٍ، كرّره، فقال أولاً «ادعوا ربكم تضرّعاً وخفية» وهاتان الحالتان من الأوصاف الظاهرة، لأن الخشوع والاستكانة وإخفاء الصوت ليست[1] من الأفعال القلبية. ثم كرّر الأمر[2] بالدّعاء خوفاً وطمعاً وهما من الأوصاف القلبية أي: وجلين مشفقين وراجين مؤمّلين، فبدأ أولاً بأفعال الجوارح ثم ثانياً بأفعال القلوب. وانتصب «خوفاً وطمعاً» على أنهما مصدران في موضع الحال، أو انتصاب المفعول له. وعَطْف أحدهما على الآخر يقتضي أن يكون الخوف والرجاء متساويين.

وقد قال كثير من العلماء: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والرحمة مؤنثة، فقياسها أن يخبر عنها إخبار المؤنث فيقال: قريبة. قال الفرّاء[3]: إذا استعمل في النسب والقرابة فهي مع المؤنث بتاء ولا بدّ، تقول: هذه قريبة فلان، وإذا استعملت في قرب المسافة أو الزمن فقد تجيء مع المؤنث بتاء وقد تجيء بغير تاء، تقول: دارك منّي قريب، وفلانة منّا قريب، ومن هذا قول الشاعر[4]:

عشيّـةَ لا عَفْـراءُ منـكَ قـريبـةٌ   فتَـدْنُـو ولا عَفْـراءُ منـكَ بعيـدُ

[من الطويل]

---

(١) ق: ليسا.

(٢) ق: أمر.

(٣) معاني القرآن ١: ٣٨٠، والنصّ منقول بتصرف.

(٤) البيت في سمط اللآلي ١: ٤٠١ لعروة بن حزام.

فجمع في هذا البيت بين الوجهين، انتهى. وقال تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب] وقال الشاعر[١]: [من الطويل]

له الويل إن أمسى ولا أمُّ هاشم قـريبٌ ولا البَسْباسـةُ ابنةُ يشكـرا

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ لمّا ذكر تعالى الدلائل على كمال ألوهيّته وقدرته وعلمه من العالم العلوي، أتبعها بالدلائل من العالم السفلي، وجعل الخبر موصولاً في «إن ربكم الله الذي»[٢] وفي «وهو الذي» دلالة على كون ذلك معهوداً عند السامع مفروغاً من تحقق النسبة فيه والعلم به، ولم يأت التركيب: إن ربكم خلق، ولا: وهو يرسل الرياح. قرىء: نُشُراً، جمع نَشور كصَبور وصُبُر. وقرىء: نُشْراً بإسكان الشين تخفيفاً [٢١٢/ب] من الضمّ كرُسُل ورُسْل. ونَشْراً: مصدر نَشَر. وبُشْرى، والألف للتأنيث وهو مصدر بشّر كرُجعى. ومعنى ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجلّ النّعم وأحسنها أثراً. والتعبير عن أمام الرحمة بقوله «بين يدي رحمته» من مجاز الاستعارة، إذ الحقيقة هو ما بين يدي الإنسان من الأجرام.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ هذه غاية لإرسال الرياح، والمعنى أنه تعالى يرسل الرياح منشّرات أو مبشّرات إلى سَوْقَ السحاب وقت إقلاله إلى بلد ميّت. و«السحاب» اسم جنس بينه وبين مفرده تاء التأنيث فيذكّر كقوله تعالى ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة] ويؤنث ويوصف ويخبر عنه بالجمع كقوله تعالى «ثقالاً» وثقله بالماء الذي فيه. ونسب السَّوق إليه تعالى بنون العظمة التفاتاً، إذ فيه خروج من ضمير الغيبة في «رحمته» إلى ضمير المتكلم في

---

(١) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٦٨.

(٢) الآية ٥٤ المتقدمة.

«سقناه» لما فيه من عظيم المنّة وجليل النعمة. وذكّر الضمير في «سقناه» رعياً للفظه كما قلنا إنه يذكّر. واللام في «لبلد» لام التبليغ كقولك: قلت لك. وقال الزمخشري[1]: لأجل بلد. فجعل اللام لام العلّة ولا يظهر، وفرقٌ بين قولك: سقتُ لك مالاً، وسقت لأجلك مالاً، فإن الأول معناه: أوصَلْتُه لك وأَبْلَغْتُكَهُ[2]، والثاني لا يلزم منه وصوله إليه بل قد يكون الذي وصل إليه المال غير الذي علّل به السَّوق؛ ألا ترى صحّة قول القائل: لأجل زيد سقتُ لك مالك؟. ووَصْفُ البلد بالموت استعارة حسنة لجدبه وعدم نباته، كأنه من حيث عدم الانتفاع به كالجسد الذي لا روح فيه.

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ الظاهر أن الباء ظرفية والضمير عائد على «بلدٍ ميت» أي: فأنزلنا فيه الماء وهو أقرب مذكور فحسن عَوْده إليه. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بالماء. ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ظاهره العموم. ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [أي: مثل هذا الإخراج وهو إخراج النبات نخرج الموتى] من قبورهم أحياءً إلى الحشر. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بإخراج الثمرات وإنشائها خروجكم للبعث إذ الإخراجان سواء؛ فهذا الإخراج المشاهَد، نظيره الإخراج الموعود به.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾. «الطّيب» الجيّد التّربة الكريم الأرض. ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ المكان السّبخ الذي لا يُنبت ما يُنتفع به وهو الرديء من الأرض. ولما قال «فأخرجنا به من كل الثمرات» تمّم هذا المعنى بكيفيّة ما يخرج من النبات من الأرض الكريمة والأرض السّبخة. وفي الكلام حال محذوفة أي: يخرج نباته وافياً حسناً، وحذفت لفهم المعنى، ولدلالة البلد الطيب عليها، ولمقابلتها بقوله «إلا نكداً»، ولدلالة «بإذن ربه» لأن ما أذن تعالى في

---

(١) الكشاف ٢: ٨٤.

(٢) ق: وأبلغتك هو.

إخراجه لا يكون إلا على أحسن حال. و«بإذن ربّه» في موضع الحال. وخصّ خروج النبات[1] الطيب بقوله «بإذن ربه» على سبيل المدح له والتشريف ونسبة الأشياء الشريفة الطيّبة إليه تعالى وإن [كان] كلا النّباتَيْن يخرج بإذنه تعالى. ومعنى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بتيسيره. وحذف من الجملة الثانية الموصوف أيضاً والتقدير: والبلد الذي خبث، لدلالة «والبلد الطيب» عليه، فكلٌّ من الجملتين فيه حذف.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي: مثل هذا التصريف والترديد والتنويع، ننوّع الآيات ونردّدها وهي الحجج الدالّة على الوحدانية والقدرة التامّة الباهرة والفعل بالاختيار. ولمّا كان ما سبق ذكره من إرسال الرياح مبشرات ومنشّرات سبباً لإيجاد النبات الذي هو سبب إيجاد الحياة وديمومتها، كان ذلك أكبر نعمة على الخلق فقال «لقوم يشكرون» أي: يشكرون هذه النعمة التي لا تكاد توازيها نعمة. وخصّ الشاكرين لأنهم هم المنتفعون بهذه النعم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

(١) ق: نبات.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ لما ذكر تعالى في هذه السورة مبدأ الخلق الإنساني، وهو آدم عليه السلام، وقصّ من أخباره ما قصّ، واستطرد من ذلك [٢١٣/أ] إلى المعاد ومصير أهل السعادة إلى الجنة وأهل الشقاوة إلى النار، قصّ تعالى على نبيّه ﷺ أحوال الرسل الذين كانوا قبله وأحوال من بُعثوا إليه، على سبيل التسلية له، عليه السلام، والتأسّي بهم، فبدأ بنوح عليه السّلام، إذ هو آدم الثاني وأول رسول بُعث إلى من في الأرض، وأمّته أَدْوَمُ تكذيباً له وأقلّ استجابة له. وتقدّم رفع نسبه إلى آدم عليهما السلام(١). وكان نجّاراً، بعثه الله إلى قومه، وهو ابن أربعين سنة، قاله ابن عباس. قال الزمخشري(٢): فإن قلت: ما بالهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام إلا مع «قد» وقلّ عنهم نحو(٣): [من الطويل]

حلفتُ لها بالله حَلْفَةَ فاجرٍ لَنَامُوا [فما إنْ من حديثٍ ولا صالِ]

قلت: إنّما كان ذلك لأن الجملة القَسَميّة لا تساق إلا تأكيداً لجملة القسم التي هي جوابها، فكان مظنّة لمعنى التوقّع الذي هو معنى «قد» عند استماع المخاطب كلمة القسم انتهى. وبعض أصحابنا يقول: إذا أُقسم على جملة مصدّرة بماضٍ مثبت متصرّف وكان قريباً(٤) من زمان الحال، أتيتَ مع اللام بقد الدالّة على التقريب من زمن الحال، ولم تأت بقد بل باللام وحدها إن لم تُرد التقريب.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ في ندائه قومه تنبيه لهم لما يلقيه إليهم واستعطاف وتذكير

---

(١) انظر تفسير الآية ٣٣ من آل عمران.

(٢) الكشاف ٢: ٨٤.

(٣) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٣٢.

(٤) ق: وكان فيها من.

بأنهم قومه، فالمناسب أن لا يخالفوه. ومعمول القول جملة الأمر بعبادة الله تعالى وحده ورفض آلهتهم المسمّاة ودّاً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً وغيرها، والجملة المنبّهة على الوصف الداعي إلى عبادة الله تعالى وهو انفراده بالألوهية المرجوّ إحسانه المحذور انتقامه دون آلهتهم. ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ[1] غَيْرُهُۥٓ﴾ [قرىء: غيرِه] بالجرّ نعتاً للإله على اللفظ، وقرىء: غيرُه بالرفع نعتاً للإله على الموضع، و«من» زائدة و«إله» مبتدأ و«لكم» خبره. و﴿أَخَافُ﴾ على بابها من الخوف لأنه يجوز عنده أن يؤمنوا[2] أو يؤمن بعضهم. و﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة أو يوم حلول العذاب بهم في الدنيا وهو الطوفان. وفي هذه الجملة إظهار الشفقة والحنوّ عليهم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ الملأ: الأشراف وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغمار عقولهم بالدنيا وطلب الرئاسة والعلوّ فيها. و«نراك» الظاهر أنّها من رؤية البصر. و﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ جعلوه ظرفاً لنوح عليه السلام. ومعنى ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح. وجاءت جملة جوابهم مؤكّدة بإنّ واللام.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ لم يَرد النفي منه على لفظ ما قالوه، فلم يأت التركيب: لست في ضلال مبين، بل جاء في غاية الحسن من نَفْي أن يلتبس به ويختلط ضلالة ما واحدة، فأنّى يكون في ضلال؟ فهذا أبلغ في الانتفاء من الضلال إذ لم تعتلق به ضلالة واحدة. وفي ندائه لهم ثانياً والإعراض عن جفائهم ما يدل على سعة صدره والتلطّف بهم. ولمّا نفى عنه التباس ضلالةٍ ما به، دلّ على أنه على الصراط المسقيم، فصحّ أن يستدرك كما تقول: ما زيد بضالٍّ لكنّه مهتدٍ. فلكنّ واقعة بين نقيضين لأنّ الإنسان لا يخلو من أحد

---

(١) ق: من الله.

(٢) ق: أن يكونوا يؤمنوا.

الشيئين: الضلال والهدى، ولا تُجامع الضلالة الرسالة. وفي قوله ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنبيه على أنه ربّهم لأنهم من جملة العوالم، أي: من ربّكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة حيث وجّه إليكم رسولاً يدعوكم إلى إفراده تعالى بالعبادة.

و﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ استئناف على سبيل البيان لكونه رسولاً، أو جملة في موضع الصفة لـ«رسول» ملحوظاً فيه كونه خبراً لضمير متكلم كما تقول: أنا رجل آمر بالمعروف، فتراعي لفظ أنا، ويجوز: يأمر بالمعروف، تراعي لفظ رجل. والأكثر مراعاة ضمير المتكلم والمخاطب، فيعود الضمير ضمير متكلم أو مخاطب، قال تعالى ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل] بالتاء، ولو قرىء بالياء لكان عربياً مراعاةً للفظ [٢١٣/ب] «قوم» لأنه غائب. وجمع ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ باعتبار ما أوحي إليه في الأزمان المتطاولة، أو باعتبار المعاني المختلفة من الأمر والنهي والزجر والوعظ والتبشير والإنذار، أو باعتبار ما أوحي إليه وإلى من قبله. وتقدم الكلام على «نصح»[1] وتعديتها باللاّم إلى المفعول وبغير اللام نحو نصحت زيداً ونصحت لزيد كقول الشاعر[2]:

[من الطويل]

نَصَحْتُ بني عوفٍ فلم يَتَقَبَّلُوا ... وَصاتي ولم تَنْجَحْ لديهم وسائلي

وفي قوله ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إبهام عليهم، وهو عام ولكن ساق ذلك مساق المعلومات التي يخاف عليهم ولم يسمعوا قطّ بأمّة عذّبت فتضمّن التهديد والوعيد. وما أحسن سياق هذه الأفعال: قال أولاً «أبلغكم رسالات ربي» وهذا مبدأ أمره معهم وهو التبليغ كما قال ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى]

(١) انظر تفسير الآية ٢١ من هذه السورة.

(٢) البيت للنابغة في ديوانه ص٦٧.

ثم قال «وأنصح لكم» أي: أخلص لكم في تبيين الرشد والسّلامة في العاقبة إذا عبدتم الله تعالى وحده، ثم قال «وأعلم من الله ما لا تعلمون» من بطشه بكم، وهو مآل أمركم إذا لم تفردوه بالعبادة، فنبّه على مبدأ أمره[1] معهم ومنتهاه.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ﴾ الآية، تضمن قولهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف] استبعادهم واستمحالهم ما أخبرهم به من خوف العذاب عليهم، وأنه بعثه الله تعالى إليهم بعبادته وحده ورَفْض آلهتهم وتعجبوا من ذلك. والهمزة للإنكار والتوبيخ، أي: هذا ممّا لا يُتعجّب منه إذ له تعالى التصرف التّام بإرسال من يشاء لمن يشاء. قال الزمخشري[2]: الواو للعطف والمعطوف [عليه] محذوف كأنه قيل: أكذّبتم وعجبتم أن جاءكم انتهى. وهذا كلام مخالف لكلام سيبويه والنّحاة، لأنهم يقولون إن الواو لعطف ما بعدها على ما قبلها من الكلام ولا حذف هناك، وكان الأصل: وَأَعَجبتم، لكنه اعتنى بهمزة الاستفهام، فقُدّمت على حرف العطف، لأن الاستفهام له صدر الكلام.

﴿أَن جَاءَكُمْ﴾ على إسقاط حرف الجر تقديره: لِأَنْ جاءكم، وهو تعليل لعجبهم. ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: كتاب. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ هو على حذف مضاف تقديره: على لسان رجل منكم[3]. ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ به أي: فجاءكم الذكر للإنذار بالمخوف، [والإنذار بالمخوف] لأجل وجود التقوى منهم، ووجود التقوى

---

(١) ق: أمرهم.

(٢) الكشاف ٢: ٨٦.

(٣) تقدّم في ق والمطبوع شرح «ذكر من ربكم على رجل» على شرح «أن جاءكم» فأعدته إلى سياقه.

لرجاء الرحمة وحصولها. فعلّل المجيء بجميع هذه العلل المرتّبة، لأن المرتّب على السبب سبب.

وفي قوله ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ ﴾ إعلام بعلّة الغرق وهو التكذيب. و﴿ بِـَٔايَٰتِنَآۚ ﴾ يقتضي أن نوحاً عليه السلام كانت له آيات ومعجزات تدلّ على إرساله. و﴿ ٱلْفُلْكِ ﴾ يذكّر ويُفرد كقوله تعالى ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الشعراء] ويجمع كقوله تعالى ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس]. ويتعلق «في الفلك» بما تعلّق به الظرف الواقع صلة أي: والذين استقرّوا معه في الفلك، ويحتمل أن يتعلق بـ«أنجيناه» أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان. و﴿ عَمِينَ ﴾ من عمى القلب أي: غير مستبصرين. ويدلّ على ثبوت هذا الوصف كونه جاء على وزن فَعِل، ولو قصد الحدوث لجاء على فاعل. وقال معاذ النحوي: يقال: رجل عَمٍ في أمره: لا يبصره، وأعمى: في البصر، قال الشاعر[١]: [من الطويل]

[وأَعْلَمُ ما في اليومِ والأمسِ قبلَه] ولكنّني عن عِلْمِ ما في غدٍ عَمِي

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ

(١) هو زهير والبيت في ديوانه ص٢٩.

إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ «إلى» متعلقة بمحذوف تقديره: وأرسلنا إلى عاد. و«عاد» اسم الحي ولذلك صَرَفَهُ، وبعضهم جعله اسماً للقبيلة فمنعه الصرف، قال الشاعر(١): [من الرجز]

لو شَهِدَ عادَ في زمان عادِ لَابتَزَّها مبارِكَ الجِلادِ

سمّيت القبيلة باسم أبيهم وهو عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. وهود: قال [٢١٤/أ] شيخنا الأستاذ الحافظ أبو الحسن الأبذي النحوي المعروف، إن هوداً عربي، والذي يظهر من كلام سيبويه لمّا عدّه مع نوح ولوط وهما عجميّان، أنه عجميٌّ عنده انتهى. وهود(٢): هو عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. ونزل أرضَ اليمن فهو أبو اليمن كلّها. و﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول بأرسلنا المحذوفة، و«أخاهم» ليس من عاد بل هو مجاز كما تقول: يا أخا العرب، للواحد منهم. وقيل من عاد وهو هود بن عبدالله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، فعلى هذا يكون من عاد. ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تقدم الكلام على هذا(٣).

---

(١) البيت في الكتاب ٣: ٢٥١، وفي الإنصاف ٢: ٥٠٤ غير منسوب فيهما.

(٢) في المعارف ص١٤ وتفسير القرطبي ٧: ٢٣٦: هو هود بن عبد الله بن رباح بن جاوب بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح.

(٣) انظر تفسير الآية ٥٩ من السورة.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى مخافة أن يحلّ بهم واقعة تشبه واقعة قوم نوح.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أتى بوصف الملأ بالذين كفروا ولم يأت بهذا الوصف في قوم نوح، لأن قوم هود كان في أشرافهم من كان آمن به، منهم مرثد بن سعد بن عفير، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن فلذلك قالوا ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء]. ﴿فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي: في خفّة حلم وسخافة عقل. و«في سفاهة» يقتضي أنه فيها قد احتوت عليه كالظرف المحتوي على الشيء. وأتبعوا ذلك بقولهم ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فدلّ ذلك على أنه أخبرهم بما يحلّ بهم من العذاب إن لم يتّقوا الله تعالى.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ تقدّمت كيفية هذا النفي في قوله ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف] وهناك جاء: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف] وهنا جاء «وأنا لكم ناصح أمين». لما كان آخر جوابهم جملة اسمية، جاء قوله كذلك؛ فقالوا هم: «وإنا لنظنك من الكاذبين» قال هود: «وأنا لكم ناصح أمين». وجاء بوصف الأمانة وهي الوصف العظيم الذي حمله الإنسان، ولا أمانة أعظم من أمانة الرسالة وإيصال أعبائها إلى المكلّفين.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ تقدم الكلام عليه[1]. ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ﴾. «إذ» ظرف لما مضى، وناصبه محذوف تقديره: واذكروا إنعامه عليكم وقت جعلكم خلفاء، فإنعامه: مفعول اذكروا. قال الزمخشري[2]: «إذ» مفعول به وهو منصوب باذكروا، أي: اذكروا وقت جعلكم.

---

(١) الآية ٦٣ المتقدمة.

(٢) الكشاف ٢: ٨٧: والعبارة فيه بالمعنى.

وهذا ليس بجيّد لأن إذ من الظروف التي لا تتصرّف فلا تكون مبتدأة ولا فاعلة ولا مفعولة. ومعنى ﴿خُلَفَآءَ﴾ أي: ملوكاً في الأرض استخلفكم فيها. ﴿مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ هذا يدل على قرب زمانهم من زمان نوح. ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ ظاهر بعض التواريخ أن البسطة الامتداد والطول والجمال في الصور والأشكال، ويحتمل أن يكون المعنى: «وزادكم بسطة» أي: اقتداراً في المخلوقين وتسليطاً عليهم واستيلاءً. ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ الآلاء: النعم، واحدها إِلىً نحو مِعىً وأمعاء. ذكّرهم أوّلاً نعماً مخصوصة من جعلهم خلفاء وزيادة البسطة، وذكّرهم ثانياً نعمه مطلقاً، وناط بِذِكْرِ نِعمهِ رجاءَ فلاحِهم.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾ الظاهر أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا الله تعالى بالعبادة، مع اعترافهم بالله تعالى، حُبًّا لما نشؤوا عليه وتألّفاً لما وجدوا آباءهم عليه. ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ دليل على أنه كان يعدهم بعذاب الله تعالى إن أقاموا على الكفر. وقولهم ذلك يدل على تصميمهم [على تكذيبه] واحتقارهم لأمر النبوّة واستعجال العقوبة إذ هي عندهم لا تقع أصلاً.

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ قال ابن عباس: الرجس: السخط أي: حلّ بكم وتحتّم عليكم. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ هذا إنكار منه لمخاصمتهم له فيما لا ينبغي فيه الخصام، وهو ذكر ألفاظ ليس تحتها مدلول تستحق به العبادة، فصارت المنازعة باطلة بذلك. ومعنى «سمّيتموها[(١)] [٢١٤/ب] أنتم وآباؤكم» أي: أحدثتموها قريباً

---

(١) ق: سمّيتموها سمّيتم.

أنتم وآباؤكم وهي صمود وصداء والهباء[١]، وقد ذكر ذلك مرثد بن سعد في شعره[٢]: [من الوافر]

عَصَتْ عادٌ رسولَهُمُ فَأَضْحَوْا ... عِطاشاً ما تَبُلُّهُمُ السّماءُ
لهم صنمٌ يقال له صَمودٌ ... يقابله صَداءٌ والهَباءُ
فَبَصَّرَنا الرسولُ سبيلَ رَشْدٍ ... فأَبْصَرْنا الهدى وجلا العماءُ
وإنّ إله هودٍ هُوْ إلهي ... على الله التوكّلُ والرّجاءُ

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا غاية في التهديد والوعيد، أي: انتظروا عاقبة أمركم في عبادة غير الله تعالى، وفي تكذيب رسوله، وهذا غاية في الوثوق بما يحلّ بهم وأنه كائن لا محالة.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ يعني من آمن معه برحمة سابقة لهم من الله تعالى وفضل عليهم حيث جعلهم آمنوا[٣]، فكان ذلك سبباً لنجاتهم مما أصاب قومهم من العذاب. ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك. وتقدم الكلام في «دابر» في قوله ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام]. وفي قوله «الذين كذبوا» تنبيه على علّة قطع دابرهم. وفي قوله «بآياتنا» دليل على أنه كانت لهود عليه السلام معجزات، ولكن لم تذكر لنا بتعيينها. ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ جملة مؤكدة لقوله «كذّبوا بآياتنا»، ويحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى أنهم ممّن علم الله تعالى أنهم لو بقُوا لم يؤمنوا، أي: ما كانوا ممّن يَقْبل إيماناً ألبتّة.

---

(١) انظر الأصنام ص١١٠-١١١.

(٢) لم أعثر عليه، وانظر البحر ٤ : ٣٢٦.

(٣) ق: حيث جعلوا منهم.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ
مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا
بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ
وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ثمود اسم القبيلة سمّيت باسم أبيهم الأكبر وهو ثمود أخو جديس وهما ابنا حاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى. وصالح عليه السلام هو ابن آسف[(١)] بن كاشح بن أرم بن ثمود بن حاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: آية ظاهرة جلية وشاهد على صحّة نبوّتي. وقوله «قد جاءتكم بيّنة من ربكم» كأنه جواب لقولهم[(٢)]: ائتنا ببيّنة تدلّ على صدقك وأنك مرسل إلينا. و«من ربكم»

---

(١) ق: سالف. وفي الاسم اختلاف، انظر مثلاً تفسير القرطبي ٧: ٢٣٨ والمعارف ص١٤.

(٢) ق: لقوله.

متعلق بـ«جاءتكم» أو في موضع الصفة «لبيّنة».

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ لمّا أبهم في قوله «قد جاءتكم بيّنة من ربكم» بيّن ما الآية، فكأنه قيل ما البيّنة؟ قال: هذه ناقة الله وأضافها إلى الله تشريفاً وتخصيصاً نحو: بيت الله وروح الله، ولكونه خلقها بلا واسطة ذكر وأنثى، لا مالك لها غيره، ولأنها حجّة على القوم، ولما أودع فيها من الآيات الآتي ذكرها في قصة قوم صالح. و«لكم» بيان لمن هي موجبة عليه الإيمان وهم ثمود، لأنهم عاينوها وسائر الناس أُخبروا عنها، كأنه قال: لكم خصوصاً. وانتصب «آية» على الحال، والعامل فيها على ما نختاره فعل محذوف تقديره: انظروا إليها في حال كونها آية.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ لمّا أضاف الناقة إلى الله أضاف محلّ رعيها إلى الله، إذ الأرض وما نبت فيها ملكه تعالى. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نهاهم عن مسّها بشيء من الأذى، وهذا تنبيه بالأدنى على الأعلى إذ كان قد نهاهم عن مسّها بسوءٍ إلزاماً لآية الله تعالى، فنهيُه عن نحرها وعقرها ومنعها من الماء[1] والكلأ أولى وأحرى. والمسّ والأخذ هنا استعارة، وهذا وعيد شديد لمن يمسّها بسوءٍ. والعذاب الأليم هو ما حلّ بهم إذ عقروها وما أعدّ لهم في الآخرة. وقوله «فيأخذكم» جواب النهي، والناصب للفعل أنْ مضمرة بعد الفاء.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ[٢١٥/أ] جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ ذكّر صالح قومه نعماً خاصة وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم. ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنزلكم بها وأسكنكم إياها. والمباءة: المنزل في الأرض، وهو من باء

---

(١) ق: المال.

أي: رجع. ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ جملة حالية العامل فيها «بوّأكم» ومعناه تعملون كقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت] فتعدّى اتّخذ لمفعول واحد. ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ[1] بُيُوتًا﴾ النحت: النجر والنشر في الشيء الصلب كالحجر والخشب وغير ذلك، وقال الشاعر[2]: [من البسيط]

أمّا النهارُ ففي قَيْدٍ وسِلْسِلَةٍ والّليلُ في بطن منحوتٍ من السّاجِ

وانتصب «بيوتاً» على أنه حال مقدّرة، لأنها وقت النحت لم تكن بيوتاً بل صارت بيوتاً بعد ذلك كقولك: خِطْ [لي] هذا قباءً. قال ابن عباس: القصور لمصيفهم[3] والبيوت في الجبال لمشتاهم. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدم الكلام على هذه الجملة في البقرة[4] في قصة استسقاء موسى لقومه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ قرأ ابن عامر: وقال الملأ، بواو العطف، والجمهور: قال، بغير واو. و«الذين استكبروا» وصف للملأ إمّا للتخصيص لأن مِن أشرافهم مَن آمن وهو جندع بن عمرو [وإمّا للذّم]. و«استكبروا» طلبوا الهيبة لأنفسهم وهو من الكِبْر، فيكون استفعل للطلب وهو بابها، أو يكون استفعل بمعنى فعل أي: كبروا بكثرة المال والجاه، فيكون مثل عجب واستعجب. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا﴾ أي: استضعفهم رؤساء الكفّار واستذلّوهم وهم العامّة وهم أتباع الرّسل. و﴿لِمَنْ ءَامَنَ﴾ بدل من «الذين استضعفوا»، والضمير [في ﴿مِنْهُمْ﴾] إن عاد على المستضعفين كان بدل بعض من كلّ، ويكون الذين استضعفوا قسمين: مؤمنين وكافرين. وإن عاد على «قومه»

---

(١) ق: من الجبال.

(٢) البيت في المقتضب ٤: ٣٣١ غير منسوب.

(٣) ق: لمصانعهم.

(٤) الآية ٦٠.

كان بدل كلٍّ من كلّ أعيد معه حرف الجر وهو اللام، وكان الاستضعاف مقصوراً على المؤمنين، وكان الذين استضعفوا قسماً واحداً. و«ومن آمن» مفسّر للمستضعفين من قومه، واللام في «للذين» للتبليغ، والجملة المقولة على جهة الاستهزاء والاستخفاف. وفي قولهم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ اختصاص بصالح، ولم يقولوا: من ربنا ولا: من ربكم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ وجواب المستضعفين وعدولهم عن قولهم: هو مرسل، إلى قولهم «إنّا بما أرسل به مؤمنون» في غاية الحسن؛ إذ أَمْر رسالته معلوم واضح لا يدخله ريب لما أتى به من المعجزات العظيمة الخارقة، فلا يحتاج أن يُسأل عن رسالته ولا أن يُستفهم عن العلم بإرساله، فأَخبروا بأنهم مؤمنون بما أرسل به لأنه لا يلزم بعد وضوح رسالته إلا التصديق بما جاء به. وتضمّن كلامهم العلم بأنه مرسل من الله تعالى. و«مؤمنون» خبر «إنّا»، و«بما أرسل» متعلق به، و«به» متعلق بـ«أرسل».

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ نسب العقر إلى الجميع وإن كان صادراً من واحد لمّا كان عقرها عن تمالؤ[1] واتفاق. وقصة عاد وثمود مشهورة عند العرب قال الأفوه الأودي[2]: [من البسيط]

فينا معاشرُ لم يَبْنوا لقومهمُ ... وإن بنى قومهمْ ما أفسدوا عادوا

أي: عادوا للإفساد.

أَضْحَوْا كقَيْلِ بن عترٍ في عشيرته ... إذا أُهلكتْ بالذي سَدّى لها عاد

أو بعده كقُدارٍ حين بايعه ... على الغواية أقوامٌ فقد بادوا

---

(١) ق: تمادي.

(٢) وهو صلاءة بن عمرو، والأبيات في ديوانه ص٩.

وقيل: ابن عنز هو رئيس عاد قوم هود. ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا عن امتثال أمر ربّهم [٢١٥/ب] يقال: عتا يعتو عتوًّا. ﴿ائْتِنَا[١] بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: من العذاب، لأنه كان سبق منه ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ﴾ [الأعراف] فاستعجلوه ما وعدهم به من ذلك إذ كانوا مكذّبين له في الإخبار بذلك الوعيد وبغيره، ولذلك علّقوه بما هم به كافرون وهو كونه من المرسلين.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ روي أنّ السّقْب وهو ولد الناقة، لمّا عقروها رغا ثلاثاً، فقال صالح: لكلّ رغوةٍ أَجَلُ يومٍ، تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام. فقالوا هازئين به: متى ذلك وما آيته؟ فقال: تصبحون غداة مؤنس مصفرّةً وجوهكم، وغداة العَروبة محمرّيها ويوم شِيارٍ[٢] مسودّيها، ثم يصبّحكم العذاب يوم أوّل وهو يوم الأحد. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ [الرَّجْفَةُ﴾ أي: أخذتهم] صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض، فقطّعت قلوبهم وهلكوا. وقد ذكر علقمة السَّقْب في شعره فقال[٣]: [من الطويل]

رغا فوقهم سَقْبُ السماء فداحِضٌ ... بشِكّته لم يُستلَبْ وسليبُ

وإنما نسبه للسماء لأنه آية من آيات الله تعالى. ﴿جَاثِمِينَ﴾ الجثوم: اللصوق بالأرض على الصدر مع قبض الساقين كما يرقد الأرنب والطير.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ الآية، ظاهر العطف بالفاء يدلّ على أنّ هذا التولّي كان

(١) ق: فائتنا.

(٢) كانت العرب تسمّي يوم الخميس مؤنساً. والجمعة العروبة والسبت شِياراً.

(٣) البيت في المفضليات ص٣٩٥.

بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم، فيكون الخطاب على سبيل التفجّع عليهم والتحسّر لكونهم لم يؤمنوا فهلكوا، أو للاغتمام [لهم] وليسمع ذلك من كان معه من المسلمين فيزداد إيماناً وانتفاءً عن معصية الله تعالى واقتفاءً لما جاء به نبيّه عن الله تعالى، ويكون[1] معنى قوله ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ولكن كنتم لا تحبون الناصحين، فيكون حكاية حال ماضية، وقد خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ الآية، لوط هو ابن هاران ابن أخي إبراهيم عليهما السلام، وناحور وهم بنو تارح بن ناحور. وانتصب «لوطاً» بإضمار: وأرسلنا، عطفاً على الأنبياء قبله، و«إذ» معمولة لأرسلنا. وجوّز الزمخشري وابن عطية نصبه بـ«واذكر» مضمرة، زاد الزمخشري[2] أن «إذ» بدل من لوط، أي: واذكر وقت إذ قال لقومه. وتقدّم الكلام على كونِ إذ تكون معمولاً بها صريحاً لـ«اذكر»، وأن ذلك تصرّف فيها[3].

(١) ق: وليكون.

(٢) الكشاف ١: ٩٢.

(٣) انظر تفسير الآية ٦٩ من السورة.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الاستفهام هنا هو على جهة الإنكار والتوبيخ والتشنيع والتوقيف على هذا الفعل القبيح، و«الفاحشة» هنا إتيان ذكران الآدميين في الأدبار. ولمّا كان هذا الفعل معهوداً قُبْحه ومركوزاً في العقول فُحْشه أتى معرّفاً بالألف واللام، أو تكون أل فيه[1] للجنس على سبيل المبالغة كأنه لشدة قبحه جُعل جميع الفواحش، ولبُعد العرب عن ذلك البعد التام وذلك بخلاف الزّنى فإنه قال فيه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء] فأتى [به] منكّراً أي: فاحشة من الفواحش، وكان كثير من العرب يفعله ولا يستنكرون فعله ولا ذكره في أشعارهم.

والجملة المنفيّة تدلّ على أنهم هم أوّل من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها. والمبالغة في «من أحد» حيث زيدت [مِن] لتأكيد نفي الجنس، وفي الإتيان بعموم العالمين جميعاً. قال عمرو بن دينار: مارئي ذكر على ذكر قبل قوم لوط. و﴿مَا سَبَقَكُم﴾ جملة حاليّة من الفاعل أو من الفاحشة، لأنّ في «سبقكم بها» ضمير: هم وضمير: ها. وقال الزمخشري[2]: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أولاً بقوله «أتأتون الفاحشة» ثم وبّخهم عليها فقال: أنتم أوّل من عملها، أو على أنه جواب لسؤال مقدّر كأنهم قالوا: لِمَ لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد فلا تفعلوا ما لم تُسبقوا به.

وقال الزمخشري[3]: والباء للتعدية، من قولك: سبقته بالكرة، إذا ضربتها [٢١٦/أ] قبله. ومنه قوله عليه السلام «سبقك بها عُكّاشة»[4] انتهى.

---

(١) ق: أم تكون فيه.

(٢) الكشاف ٢: ٩٢.

(٣) الكشاف ٢: ٩٢.

(٤) أخرجه مسلم ١: ١٩٨ من حديث أبي هريرة.

ومعنى التعدية هنا قلق جدًّا، لأن الباء المعدّية في الفعل المتعدي إلى واحد هي تجعل المفعول الأول يفعل ذلك الفعل بما دخلت عليه الباء فهي كالهمزة. وبيان ذلك أنك لو قلت: صككت [الحجر بالحجر، فمعناه: أصككتُ] الحجر الحجر، أي: جعلت الحجر يصكّ الحجر. وكذلك: دفعت زيداً بعمروٍ عن خالد، معناه: أدفعت زيداً عَمْراً عن خالد، أي: جعلت زيداً يدافع عَمْراً عنِ خالد، فللمفعول الأول تأثير في الثاني. ولا يتأتّى هذا هنا إذ لا يصحّ أن يقدّر: أسبقتُ زيداً الكرة، أي: جعلت [زيداً] يسبق الكرة، إلا بمجاز متكلّف وهو أن يجعل ضربك الكرة أول جعل ضربة قد سبقها أي: تقدمها في الزمان فلم يجتمعا.

﴿ إِنَّكُمْ (١)لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ هذا بيان لقوله «أتأتون الفاحشة». وأتى هنا من قولهم: أتى المرأة: غشيها، وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ. و«شهوة» مصدر في موضع الحال أي: مشتَهِين إن كانت حالاً من الضمير في «تأتون»، أو مشتَهَيْن(٢) إن كان حالاً من «الرجال». ويجوز أن ينتصب مفعولاً من أجله أي: للشهوة. و«بل» هنا للخروج من قصة إلى قصة، ينبىء بأنهم متجاوزو الحدّ في الاعتداء. وجاء هنا «مسرفون» باسم الفاعل ليدلّ على الثبوت ولموافقتها ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأسماء. وجاء في النمل ﴿ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ ﴾ [النمل] بالمضارع لتجدّد الجهل فيهم ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأفعال.

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ الضمير

---

(١) ق: أئنكم.

(٢) ق: مشتهون.

المنصوب في «أخرجوهم» عائد على لوط ومن آمن به. ولمّا تأخّر نزول هذه السورة عن سورة النّمل أضمر ما فسّره الظاهر في النّمل من قوله ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل]. [و«يتطهّرون»] قال ابن عباس ومجاهد: يتقذّرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ من العذاب الذي حلّ بقومه. و«أهله» هم المؤمنون معه. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فلم تَنْجُ واسمها واهلة، كانت منافقة تُسرّ الكفر موالية لأهل سدوم. ومعنى ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الذين بقُوا في ديارهم فهلكوا. والجملة من قوله «كانت» تأكيد لما تضمّنه الاستثناء من عدم نجاة امرأته.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ ضمّن «أمطرنا» معنى: أرسلنا، فلذلك عدّاه بعلى كقوله ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۝٣٢﴾ [الأنفال] والمطر هنا هي حجارة وقد ذكرت في غير آية. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هذا خطاب للسامع قصتهم كيف كان مآل من أجرم. وفيه اتّعاظ وازدجار أن تسلك هذه الأمة مسلكهم. و«المجرمين» عام في قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم، وهو من نظر التفكّر أو من نظر البصر فيمن بقيت له آثار منازل ومساكن كثمود وقوم لوط كما قال تعالى ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ ۝٣٨﴾ [العنكبوت]. و«كيف» خبر «كان» و«عاقبة» اسم «كان». والجملة في موضع نصب لأن «انظر» معلّقة عنها.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ

وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ
وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ
ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى
مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ
رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ
عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ
قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾ قال الفرّاء: مدين اسم بلد وقُطر، والجمهور على أن مدين اسم أعجمي، فإن كان عربيًّا احتمل أن يكون فَيْعَلاً مِن مَدَنَ بالمكان: أقام به، وهو بناء نادر، أو مَفْعلاً من دان فتصحيحه شاذ وكان قياسه مدان. وشعيب: اسم عربي تصغير شِعب أو شَعب. واختلف في نسب شعيب اختلافاً كثيراً، ذكر ذلك في البحر المحيط[1]. وشعيب: قيل هو ابن بنت لوط وقيل زوج بنته. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ هذا دليل على أنه جاء بالمعجزة، إذ كلّ نبيّ لا بدّ له من معجزة تدل على صدقه، ولكنه لم يعيّن هنا ما المعجزة ولا من أي نوعٍ هي.

---

(١) انظر ٤: ٣٣٦.

﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أمرهم أوّلاً بشيء خاص وهو إيفاء الكيل والميزان ثم نهاهم عن شيء عام وهو قوله «ولا تبخسوا الناس أشياءهم». و«الكيل» مصدر: كنّى به عن الآلة التي يُكال بها. «ولا تفسدوا [٢١٦/ب] في الأرض» تقدم تفسير هذه الجملة قريباً[١]. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة بذلكم إلى إيفاء الكيل والميزان وترك البخس والإفساد. و﴿خَيْرٌ﴾ أفعل التفضيل أو خير من الخيور.

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ ظاهره العموم، قال الزمخشري[٢]: «ولا تقعدوا بكل صراط» ولا تقتدوا بالشيطان في قوله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأعراف] فتقعدوا بكل صراط أي: بكل منهاج من مناهج الدين. والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله «وتصدّون عن سبيل الله». فإن [قلت] صراط الحق واحد ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۝١٥٣﴾ [الأنعام] فكيف قيل: «بكل صراط»؟ قلت: صراط [الحق] واحد ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا واحداً يشرّع في شيء منها أوعدوه وصدّوه عنها انتهى.

حَمَل العقود والصراط على المجاز، وتقدّم أن الظاهر أنه حقيقة، وأنهم كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعّدون من أراد المجيء إليه، ويصدّونه، ويقولون إنه كذّاب، فلا تذهب إليه على نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله ﷺ. ولا تظهر الدّلالة على أن الصراط سبيل الحق من قوله «وتصدون عن سبيل الله» كما ذكر، بل الظاهر التغاير لعموم

(١) انظر تفسير الآية ٥٦ المتقدمة.

(٢) الكشاف ٢: ٩٤.

كل صراط وخصوص سبيل الله، فيكون «بكل صراط» حقيقة في الطرق، و«سبيل الله» مجاز عن دين الله. والباء في «بكل صراط» ظرفية نحو: زيد بالبصرة، أي: في كل صراط وفي البصرة. [«توعدون» جملة حالية، أي: من جاء للإيمان بشعيب. «وتصدون» معطوف على «توعدون»].

قال الزمخشري: فإن قلت: إلام يرجع الضمير في «من آمن به»؟ قلت: إلى «كل صراط» تقديره: توعدون من آمن به وتصدّون عنه، فوضع الظاهر الذي هو «سبيل الله» موضع الضمير زيادة في تقبيح أمرهم دلالة على عظم ما يصدّون عنه انتهى.

هذا تعسّف في الإعراب لا يليق أن يُحمل عليه القرآن لِمَا فيه من التقديم والتأخير ووضع الظاهر موضع المضمر من غير حاجة إلى ذلك، وعَوْدِ الضمير على أبعد مذكور مع إمكان عوده على أقرب مذكور الإمكان السائغ الحسن الراجح. وجعل «من آمن» منصوباً بـ«توعدون»، فيصير من إعمال الأول وهو قليل، وقد قال النحاة إنّه لم يَرِدْ في القرآن لقلّته. ولو كان من إعمال الأول لَلَزِمَ ذِكْرُ الضمير في الفعل الثاني، وكان يكون التركيب: وتصدّونه أو تصدّونهم، إذ هذا الضمير لا يجوز حذفه على قول الأكثرين إلا ضرورةً، وعلى قول بعض النحاة يُحذف في قليل من الكلام. ويدل على أنّ «من آمن» منصوب بـ«تصدّون» الآية الأخرى وهي ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران] فَنَصْبه بـ«توعدون» بعيد، هذا مع التكلّفات المضافة إلى ذلك فكان جديراً بالمنع لما في ذلك من التعقيد البعيد عن الفصاحة.

قال ابن عطية: يجوز أن يعود على شعيب في قول من رأى القعود على

الطرق للردّ[١] عن شعيب. وهذا بعيد لأن القائل «ولا تقعدوا» هو شعيب، فكان يكون التركيب: من آمن بي، ولا يسوغ هنا أن يكون التفاتاً لو قلت: يا هند أنا أقول لا تهيني من أكرمه، تريد: أكرمني، لم يصحّ.

﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ الضمير عائد على «سبيل الله» والسبيل يذكّر ويؤنث، وهي جملة حالية أي: باغيها، والتقدير: تبغون لها عوجاً ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ روي أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله تعالى في نسلها بالبركة والنّماء فكثروا وفشوا. ﴿وَٱنظُرُوا۟[٢] كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هذا تهديد لهم وتذكير بعاقبة من أفسد قبلهم، وتمثيل لهم بمن حلّ به العذاب من قوم نوح عليه السلام وهود وصالح ولوط، وكانوا قريبي عهد بما أصاب المؤتفكة. وإعراب هذه [٢١٧/أ] الجملة كإعراب الجمل الواقعة إثر قصة قوم لوط[٣]. قال الزمخشري[٤]: «إذ» مفعول به غير ظرف أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم فكثّركم الله تعالى ووفّر عددكم. وذكر غيره أنه منصوب على الظرف فلا يمكن أن يعمل فيه: واذكروا، لاستقبال اذكروا وكون إذ ظرفاً لما مضى. والقلّة والتكثير هنا بالنسبة إلى الأشخاص أو إلى الفقر والغنى أو إلى قصر الأعمار وطولها، أقوال ثلاثة أظهرها الأول. وقال الزمخشري[٥]: إذا كنتم أقلّة أذلّة فأعزّكم بكثرة العَدد والعُدد [انتهى].

---

(١) ق: تفرّد.

(٢) ق: وانظر.

(٣) انظر الآيات ٨٠-٨٤ المتقدمة.

(٤) الكشاف ٢: ٩٤.

(٥) الكشاف ٢: ٩٤.

ولا ضرورة تدعو إلى حذف صفة وهي: أذلّة ولا إلى تحميل قوله «فكثّركم» معنى: بالعُدد؛ ألا ترى أن القلّة لا تستلزم الذلّة ولا الكثرة تستلزم العزّة، قال الشاعر(١): [من الطويل]

تُعَيِّرُنا أنّا قليلٌ عَديدُنا فقلتُ لها إنّ الكرامَ قليلُ
وما ضَرَّنا أنّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ

وقيل: المراد مجموع [الأقوال الأربعة]: كثَّر عددهم وأموالهم وأرزاقهم وطوّل أعمارهم وأعزّهم بعد أن كانوا على مقابلاتها.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآية، هذا الكلام من أحسن ما تلطّف به في المحاورة، إذ أبرز المتحقق في صورة المشكوك فيه؛ وذلك أنه قد آمن به طائفة، بدليل قول المستكبرين عن الإيمان ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف] وهو أيضاً من بارع التقسيم إذ لا يخلو قومه من القسمين. والذي أُرسل [به] هنا ما أمرهم به من إفراد الله تعالى بالعبادة وإيفاء الكيل والميزان، ونهاهم عنه من البَخْس والإفساد والقعود المذكور. ومتعلق «لم يؤمنوا» محذوف دلّ عليه ما قبله وتقديره: لم يؤمنوا به. والخطاب بقوله «منكم» لقومه. وينبغي أن يكون قوله «فاصبروا» خطاباً لفريقي قومه من آمن ومن لم يؤمن. و﴿بَيْنَنَاۚ﴾ أي: بين الجميع، فيكون ذلك وعداً للمؤمنين بالنصر الذي هو نتيجة الصبر فصبروا على ما كُذّبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا، ووعيداً للكافرين [بالعقوبة] والخسار.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ جواب قسم محذوف. والقسم يكون على فِعْل المقسم كقوله «لنخرجنّك» وعلى فِعْل غيره كقوله «أو

---

(١) البيتان للسموأل في الحماسة ١: ١١١، ١١٢.

لتعودنّ». وهذا يدلّ على [صعوبة] مفارقة الوطن إذ قرنوا ذلك بالعَوْد إلى الكفر. وفي الإخراج والعَوْد طباق معنوي، والعود هنا بمعنى الصيرورة. ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي: أيقع منكم أحد هذين الأمرين على كل حال حتى في حال كراهيتنا[١] لذلك؟. والاستفهام للتوقيف على شنعة المعصية بما أقسموا عليه من الإخراج عن مواطنهم ظلماً أو الإقرار بالعود في ملّتهم.

قال الزمخشري[٢]: الهمزة للاستفهام والواو واو الحال تقديره: أتعيدوننا في ملّتكم في حال كراهيتنا أو مع كوننا كارهين؟ انتهى. فجعل الاستفهام خاصاً بالعود في ملّتهم، وليس كذلك؛ بل الاستفهام هو عن أحد أمرين: الإخراج أو العود. وجعل الواو واو الحال وقدّره: أتعيدوننا في حال كراهتنا. وليست واوَ الحال التي يعبّر عنها النحويون بواو الحال، بل هي واو العطف عطفت على حال محذوفة كقوله صلى الله عليه وسلم «رُدّوا السائل ولو بظلفٍ مُحْرَقٍ»[٣] ليس المعنى ردّوه في حال الصدقة عليه بظلف محرق، بل المعنى: ردّوه مصحوباً بالصدقة ولو مصحوباً بظلف محرق. وتقدم لنا إشباع القول في هذا المعنى[٤].

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾ الآية، هذا إخبار مقيّد من حيث المعنى بالشرط، وجواب الشرط محذوف من حيث الصناعة وتقديره: إن عدنا في ملّتكم [فقد افترينا. وليس قوله] «قد افترينا على الله كذباً» هو جواب الشرط إلاّ على مذهب من

---

(١) ق: كراهيتها.

(٢) الكشاف ٢: ٩٦.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٢: ٩٢٣ من حديث ابن بُجَيد الأنصاري. وظلف محرق: مشويّ.

(٤) انظر تفسير الآية ١٧٠ من البقرة.

يجيز تقديم جواب الشرط على الشرط، فيمكن أن يخرّج هذا عليه. ونظير هذا [٢١٧/ب] التركيب الفصيح قول الأشتر النخعي واسمه الحارث[١]:

[من الكامل]

بقّيتُ وفري وانحرفتُ عن العلا ولقيتُ أضيافي بوجهِ عَبوسِ
إن لم أَشُنَّ على ابن هندٍ غارةً لم تَخْلُ يوماً من نِهاب نفوسِ

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي: وما ينبغي ولا يتهيّأ لنا أن نعود في ملّتكم «إلا أن يشاء الله ربنا». وهذا الاستثناء على سبيل عذق جميع الأمور بمشيئة الله تعالى وإرادته[٢]. وقال ابن عطية: ويحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعبّد الله به المؤمنين [بشيء] ممّا يفعله الكفرة من القربان، فلمّا قال لهم: إنا لا نعود في ملّتكم، ثم خشي أن يتعبّده الله تعالى بشيء من أفعال الكفرة، فيعارض ملحد بذلك ويقول: هذه عودة إلى ملّتنا، استثنى مشيئة الله تعالى فيما يمكن أن يتعبّد به انتهى.

وهذا الاحتمال لا يصحّ؛ لأن قوله «بعد إذ نجّانا الله منها» إنما يعني النجاة من الكفر والمعاصي لا من أعمال البرّ. وقيل: هذا الاستثناء إنما هو تسليم وتأدّب. قال ابن عطية: ويقلق هذا التأويل من جهة استقبال الاستثناء، ولو كان الكلام: إن شاء، قوي هذا التأويل انتهى. وليس يقوّي هذا التأويل، بل لا فرق بين: إلا أن يشاء، وبين: إلا إن شاء، لأنّ «إنْ» تخلّص الماضي للاستقبال كما تخلّص «أنْ» المضارع للاستقبال، فكلا الفعلين مستقبل.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ تقدّم تفسير نظيرها في الأنعام في قصة إبراهيم

(١) البيتان في شرح ديوان الحماسة ١: ١٤٩. واسمه هناك: مالك بن الحارث.

(٢) أي: وَسْمها بها.

عليه السلام[١]. ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في دفع ما توعّدتمونا به وفي حمايتنا من الضلال، وفي ذلك استسلام لله تعالى وتمسّك بلطفه. ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: احكم. والفاتح والفتّاح: القاضي بلغة حمير، وقيل بلغة مراد، وقال بعضهم[٢]: [من الوافر]

ألا أَبْلِغْ بني عصَمٍ رسولاً فإنّي عن فُتاحَتِكم غنيُّ

وقال ابن عباس: ما كنت أعرف ما معنى هذه اللفظة حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال لأفاتحكِ، أي: أحاكمك. وقال الفرّاء[٣]: أهل عُمان يسمّون القاضي الفاتح.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أي: كبراؤهم لأتباعهم تثبيطاً عن الإيمان. ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه. ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ أي: مغبونون. قال الزمخشري[٤]: فإن قلت: ما جواب القسم الذي وطّأته اللام في «لئن اتّبعتم» وجواب الشرط؟ قلت: قوله «إنكم إذاً لخاسرون» سادّ مسدّ الجوابين انتهى. والذي تقوله النحويون[٥] إن جواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، ولذلك وجب مضيّ فعل الشرط. فإن عنى الزمخشري بقوله: سادّ مسدّ الجوابين، أنه اجتُزِىء به عن ذكر جواب الشرط فهو قريب. وإن عنى به أنه من حيث الصناعة النحوية، فليس

---

(١) الأنعام ٦: ٨٠.

(٢) هو الأسعر الجعفي كما في اللسان «فتح» مع اختلاف في الرواية. والبيت في مجاز القرآن ١: ٢٢٠.

(٣) معاني القرآن ١: ٣٨٥.

(٤) الكشاف ٢: ٩٧.

(٥) عبارة ق: وهو الذي يقول.

كما زعم؛ لأن الجملة يمتنع أن تكون لا موضع لها من الإعراب [وأن يكون لها موضع من الإعراب]، و«إذاً» هنا معناها التوكيد، وهي الحرف الذي هو جواب، ويكون معه الجزاء وقد لا يكون.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ تقدّم تفسير هذه الجملة[1]. قال قتادة: أُرسل شعيب إلى أصحاب الأيكة، فأُهلكوا بالظُّلة، وإلى أصحاب مدين فصاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا جميعاً.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ﴾ أي: كأن لم يقيموا ناعمي البال رخيّي العيش في دارهم. وفيها قوة الإخبار عن هلاكهم وحلول المكروه بهم والتنبيه على الاعتبار بهم كقوله تعالى ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]. وفي كأن ضمير الشأن محذوف تقديره قبل الحذف: كأنه، والجملة بعدها في موضع الخبر منفيًا بـ«لم» وهو الكثير، وقد جاء النفي بلمّا في قول [٢١٨/أ] حماد الكلبي[2]:

وكأنْ لمّا يكون قطّ لم

والنّفي بلمّا قليل. ﴿ كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾: «هم» فصل[3] بين الاسم والخبر، ويجوز أن يكون بدلاً من الاسم في «كانوا». ولما كان قولهم ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأعراف] قوبلوا بقوله «هم الخاسرين». وأفاد الفصل الاختصاص.

---

(١) الأعراف ٧: ٧٨.

(٢) لم أجد تمامه وقائله، وانظر البحر ٤: ٣٤٦.

(٣) ق: فصلاً.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ تقدم تفسير نظيره في قصة صالح[1]. ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أي: فكيف أحزن على من لا يستحق أن يُحزن عليه. ونبّه على العلّة الموجبة لعدم الحزن عليهم وهي الكفر، إذ هو أعظم ما يعادي به المؤمن.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى ما حلّ بالأمم السالفة من بأسه وسطوته عليهم آخر أمرهم حين لا تجدي فيهم موعظة، ذكر تعالى أن تلك عادته في أتباع الأنبياء، إذا أصرّوا على تكذيبهم. وجاء بعد «إلاّ» فعل ماضٍ وهو «أخذنا»، ولا يليها فعل ماضٍ إلا إن تقدم فعل أو صحب بقد فمثال ما تقدّمه فعل هذه الآية، ومثال ما أصحب قد قولك: ما زيد إلا

(١) الآية ٧٩ السابقة.

قد قام، قال الشاعر[١]: [من الطويل]

متى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةً لنفسيَ إلا قد قضيت قضاءها

والجملة من قوله «أخذنا» حالية أي: إلاّ آخذين أهلها، وهو استثناء مفرّغ من الأحوال. وتقدّم تفسير نظير قوله «إلاّ أخذنا»[٢] إلى آخرها.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: مكان الحالة السيئة من البأساء والضرّاء، الحالة الحسنة من السّراء والنعمة. و«مكان» هو محلّ الباء أي: بمكان السيئة. وفي لفظ «مكان» إشعار بتمكّن البأساء منهم كأنه صار للشدة عندهم مكان. ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كثروا وتناسلوا. ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أبطرتهم النعمة وأشِروا فقالوا: هذه عادة الدهر ضرّاء وسرّاء وقد أصاب آباءنا مثل ذلك، وليس ذلك بابتلاء وقصد، بل ذلك بالاتفاق لا على ما تخبر الأنبياء، جعلوا أسلافهم وما أصابهم مثلاً لهم ولما يصيبهم فلا ينبغي أن تنكر هذه العادة من أفعال الدهر. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ تقدّم الكلام على مثل هذا[٣]، لما فسدوا على التقديرين أخذوا هذا الأخذ.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا﴾ الآية، أي: لو كانوا ممّن سبق في علم الله تعالى أن يتلبّسوا بالإيمان بما جاءت به الأنبياء، وبالطاعات التي هي ثمرة الإيمان، لتيسّر لهم من بركات السماء، ولكن كانوا ممّن سبق في علمه تعالى أنهم يكذّبون الأنبياء فيؤخذون باجترامهم. وكلٌّ من الإيمان والتكذيب والثواب والعقاب سبق به القدر. وأضيف الإيمان والتكذيب إلى العبد كسباً

(١) البيت لقيس بن الخطيم في ديوانه ص٤٩.
(٢) انظر تفسير الآية ٤٢ من الأنعام.
(٣) الأنعام ٦ : ٣١.

والموجد لهما هو الله تعالى لا يُسأل عمّا يفعل. والظاهر أن قوله ﴿ بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لا يُراد بها معيّن ولذلك جاءت نكرة، وقيل: بركات السماء المطر وبركات الأرض الثمار.

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ الهمزة دخلت على «أمن»[١] للاستفهام على جهة التوقيف والتوبيخ والإنكار والوعيد للكافرين المعاصرين لرسول الله ﷺ أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك. والفاء لعطف هذه الجملة على ما قبلها. قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولِمَ عُطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوف عليه قوله «فأخذناهم بغتة»[٣]. وقوله «ولو أنّ أهل القرى» إلى قوله «يكسبون» وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه. وإنّما عطفت بالفاء لأن المعنى: فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة، أَبَعْدَ ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً أو أمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى انتهى.

وهذا الذي ذكره الزمخشري من أن حرف العطف الذي [٢١٨/ب] بعد همزة الاستفهام هو عاطف ما بعدها على ما قبل الهمزة من الجمل رجوع إلى مذهب الجماعة في ذلك، وتخريج لهذه الآية على خلاف ما قرّر من مذهبه في غير آية، أنه يقدّر محذوف بين الهمزة[٤] وحرف العطف يصحّ بتقديره عطف ما بعد الحرف عليه، وأن الهمزة وحرف العطف واقعان في موضعهما من غير اعتبار تقديم حرف العطف على الهمزة في التقدير، وأنه قدّم الاستفهام اعتناءً لأنّ له صدر الكلام.

---

(١) ق: أمنوا.

(٢) الكشاف ٢: ٩٨.

(٣) الآية ٩٥ السابقة.

(٤) ق: بين الآية الهمزة.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الآية، أي: في حال الغفلة والإعراض والاشتغال بما لا يجدي كأنهم يلعبون. و﴿ضُحًى﴾ منصوب على الظرف أي: ضحوة. ويقيّد كل ظرف بما يناسبه من الحال؛ فيقيد البيات بالنوم وتقيّدت الضحى باللعب. وجاء «نائمون» باسم الفاعل لأنها حالة ثبوت واستقرار للبائتين، وجاء «يلعبون» بالمضارع، لأنهم مشتغلون بأفعال متجددة شيئاً فشيئاً في ذلك الوقت.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ جاء العطف بالفاء وإسناد الفعل إلى الضمير لأن الجملة المعطوفة تكرير لقوله «أفأمن أهل القرى» «أو أمن» وتأكيد لمضمون ذلك، فناسب إعادة الجملة مصحوبة بالفاء. و﴿مَكْرَ﴾ مصدر أضيف إلى الفاعل وهو استعارة لأخذه العبد من حيث [لا يشعر]. وكرر المكر مضافاً إلى الله تحقيقاً لوقوع جزاء المكر بهم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ الآية، قال ابن عباس: «يَهْدِ»: يبين. والفاعل بِيَهْدِ يحتمل وجوهاً: أحدها أن يعود على الله تعالى ويؤيده قراءة من قرأ: نَهْدِ بالنون. والثاني أن يكون ضميراً عائداً على ما يُفهم من سياق الكلام السابق أي: أَوَلَم يَهْدِ ما جرى للأمم السالفة أهلَ القرى وغيرهم. وعلى هذين الوجهين يكون «أن لو نشاء» وما بعده في موضع المفعول بِيَهْدِ أي: أولم يبيّن الله أو ما سبق من قصص القرى ومآل أمرهم للوارثين إصابتنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك، أي: علمهم بإصابتنا أو قدرتنا على إصابتنا إياهم. والمعنى أنكم[1] مذنبون كهم وقد علمتم ما حلّ بهم، أفما تحذرون أن يحلّ بكم ما حلّ بهم، فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا.

---

(١) ق: أنهم.

والوجه الثالث أن يكون الفاعل بِنَهْدِ قوله «أن لو نشاء» فينسبك المصدر من جواب لو والتقدير: أولم نبيّن ونوضّح للوارثين مآلهم وعاقبتهم إصابتنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك، أي: علمهم بإصابتنا أو قدرتنا على إصابتنا إياهم على التقديرين إذا كانت [أنْ] مفعولة.

و«أنْ» هنا هي المخففة من الثقيلة لأن الهداية فيها معنى العلم واسمها ضمير الشأن محذوف، والخبر الجملة المصدّرة بلو و«نشاء» في معنى شئنا، لأنّ لو التي هي حرف لما كان سيقع لوقوع غيره إذا جاء بعدها المضارع صرفَتْ معناه إلى المضي. ومفعول «نشاء» محذوف دلّ عليه جواب لو، والجواب «أصبناهم»، ولم يأت باللام وإن كان الفعل مثبتاً إذ حذفها جائز فصيح كقوله تعالى ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة] والأكثر الإتيان باللام كقوله تعالى ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف]. والذين يرثون الأرض من بعد أهلها: أي: يخلفون فيها من بعد هلاك أهلها، وظاهره التسميع لمن كان في عصر رسول الله ﷺ من مشركي قريش وغيرهم.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الظاهر أنها جملة مستأنفة أي: ونحن نطبع على قلوبهم. والمعنى أنّ من أوضح الله تعالى [له] سبيل الهدى وذكر له أمثالاً ممّن أهلكه الله تعالى بذنوبهم، وهو مع ذلك دائم على غيّه لا يرعوي، يطبع الله على قلبه، فينبو سَمْعه عن سماع الحق. وأجاز الزمخشري في عطف «ونطبع» [٢١٩/أ] وجهين أحدهما ضعيف والآخر خطأ؛ قال الزمخشري[١]: فإن قلت: بم يتعلق قوله «ونطبع على قلوبهم»؟ قلت: فيه أوجه: أنْ يكون معطوفاً على ما دلّ عليه معنى «أولم يهد لهم» كأنه قيل:

(١) الكشاف ٢: ٩٩.

يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم، أو على «يرثون الأرض» انتهى.

فقوله إنه معطوف على مقدّر وهو: يغفلون عن الهداية ضعيف لأنه إضمار لا يُحتاج إليه إذ قد صحّ أن يكون على الاستئناف من باب العطف في الجمل، فهو معطوف على مجموع الجملة المصدّرة بأداة الاستفهام، وقد قاله[١] الزمخشري وغيره. وقوله إنه معطوف على «يرثون» [خطأ، لأنه إذا كان معطوفاً على «يرثون»] كان صلة لـ«الذين» لأن المعطوف على الصلة صلة، ويكون قد فصل بين أبعاض الصلة بأجنبي من الصلة وهو قوله «أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم» سواء أقدّرنا «أن لو نشاء» في موضع الفاعل لـ«يَهْدِ» أو في موضع المفعول، فهو معمول ليهد لا تعلّق له بشيء من صلة «الذين» وهو لا يجوز.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، و«القرى» هي بلاد قوم نوح وهود وصالح وشعيب بلا خلاف بين المفسّرين. وجاءت الإشارة بـ«تلك» إشارة إلى بُعْد هلاكها وتقادمه، وحصل الربط بين هذه وبين قوله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف]. و«نقصّ» يحتمل إبقاؤه[٢] على حاله من الاستقبال فالمعنى: قد قصصنا عليك من أنبائها ونحن نقصّ عليك أيضاً منها مفرّقاً في السور، ويجوز أن يكون عبّر بالمضارع عن الماضي أي: تلك القرى قصصنا، والأنباء هنا أخبارهم مع أنبيائهم ومآل عصيانهم. و«تلك» مبتدأ و«القرى» خبر و«نقصّ» جملة حالية نحو قوله تعالى ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل]. وفي الإخبار بالقرى معنى التعظيم لها ولمهلكها كما قيل في قوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]، وفي

---

(١) ق: قال.

(٢) ق: ويحتمل بقيّه.

قوله صلى الله عليه وسلم «أولئك الملأ من قريش»[١]. ولما كان الخبر مقيّداً بالحال أفاد كالتقييد بالصفة. ومعنى من أنباء: «من» للتبعيض فدلّ على أنّ لها أنباءً أُخَر لم يقصّها[٢] عليه، وإنما قصّ عليه ما فيه عظة[٣] وازدجار وادّكار بما جرى على من خالف الرسل ليتّعظ بذلك السامع من هذه الأمة.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا﴾ الذي يظهر أن الضمير في «كانوا» وفي «ليؤمنوا» هو عائد على أهل القرى، وأنّ الباء في «بما» ليست سببيّة فالمعنى أنهم انتفت عنهم قابلية الإيمان وقت مجيء الرسل بالمعجزات [بما كذّبوا به من قبل مجيء الرسل بالمعجزات] بل حالهم واحد قبل ظهور المعجزات وبعد ظهورها، لم تُجْدِ عنهم شيئاً. وفي الإتيان بلام الجحود في «ليؤمنوا» مبالغة في نفي القابلية والوقوع، وهو أبلغ في تسلّط النّفي على الفعل بغير لام. و«ما» في «بما كذّبوا» موصولة والعائد منصوب محذوف أي: بما كذّبوه، وجوّز أن تكون مصدرية.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: لأكثر الناس أو أهل القرى والأمم الماضية. و«مِن» في «من عهد» تدلّ على استغراق الجنس. ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾: إنْ هي المخففة من الثقيلة، ووجد بمعنى علم. ومفعول «وجدنا» الأولى «لأكثرهم» ومفعول الثانية «الفاسقين» واللام للفرق بين إنْ المخفّفة من الثقيلة وإنْ النافية، وتقدّم الكلام على ذلك في قوله ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]، ودعوى [بعض] الكوفيين أنّ «إنْ» في نحو

(١) قاله عند رجوعه إلى المدينة مقبلاً من بدر، انظر دلائل النبوة للبيهقي ٣: ١٤٧.

(٢) ق: يقصّه.

(٣) ق: عظمة.

هذا التركيب هي النافية واللام بمعنى إلاّ. وقال الزمخشري[١]: وإن الشأن والحديث وجدنا انتهى. ولا يُحتاج إلى هذا التقدير، وكأن الزمخشري يزعم أنّ «إنْ» إذا خفّفت كان محذوفاً منها الاسم وهو الشأن والحديث، إبقاءً لها على الاختصاص بالدخول على الأسماء. وقد تقدّم لنا تقدير نظير ذلك ورددناه عليه[٢].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا
نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ
وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ
وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا
هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ
وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى
ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ

---

(١) الكشاف ٢ : ١٠٠.

(٢) انظر تفسير الآية ١٦٤ من البقرة.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

[٢١٩/ب] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ الآية، لما قصّ الله تعالى على نبيّه عليه السّلام أخبار الأنبياء وما آل إليه أمر قومهم ذكر موسى عليه السّلام. ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنّ بين موسى وشعيب عليهما السّلام مصاهرة كما حكى الله تعالى في كتابه، ونسباً[1] لكونهما من نسل إبراهيم عليه السلام. ولما استفتح قصّة نوح عليه السلام بـ﴿أَرْسَلْنَا ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف] بنون العظمة، أتبع ذلك بقصة موسى فقال «ثم بعثنا». والضمير في «من بعدهم» عائد على الرسل من قوله ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف]. وتعدية «فظلموا» بالباء على سبيل التضمين بمعنى كفروا.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه محاورة من موسى لفرعون وخطاب له بأحسن ما يُدعى به وأحبّها إليه، إذ كان مَن مَلَكَ مصر يقال له فرعون كنمرود في يونان وقيصر في الروم وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة. وعلى هذا لا يكون فرعون وأمثاله علماً شخصياً بل يكون علم جنس كأسامة وثُعالة[2]. ولمّا كان فرعون قد ادّعى الربوبيّة فاتحه موسى عليه السّلام بقوله «إني رسول من رب العالمين» لينبّهه على الوصف الذي ادّعاه وأنه فيه مبطل لا مُحقّ.

ولمّا كان قوله ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ دعوى أردفها بما يدلّ على صحّتها وهو قوله «قد جئتكم». ولمّا قرّر رسالته فرّع عليها تبليغ

(١) ق: ونسب.
(٢) ثُعالة وثُعَل: كلتاهما الأنثى من الثعالب.

الحكم وهو قوله «فأرسل». ولم ينازعه فرعون في هذه السورة في شيء ممّا ذكره موسى عليه السلام، إلاّ أنّه طلب المعجزة ودلّ ذلك على موافقته لموسى وأن الرسالة ممكنة لإمكان المعجزة، إذ لم يدفع إمكانها بل قال «إن كنت جئت بآية». ومعنى [«حقيق»] جدير وخليق، وارتفاعه على أنه صفة لرسول أو خبر بعد خبر. و«أن لا أقول [على الله] إلاّ» حَسُن فيه أن يكون فاعلاً بـ«حقيق» كأنه قيل: يحقّ عليّ كذا ويجب. ويجوز أن يكون «أن لا أقول» مبتدأ و«حقيق» خبره. وقال الزمخشري[(١)]: وفي القراءة المشهورة وهي قوله «على أن لا أقول» إشكال، ولا يخلو من وجوه: أحدها أن يكون مما يقلب من الكلام لأمن الإلباس كقول الشاعر[(٢)]: [من الطويل]

[ونركب خيلاً لا هوادةَ بينها   وتَشْقى الرماح بالضّياطِرةِ الحُمْرِ

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح انتهى هذا الوجه. وأصحابنا يخصون القلب بالشعر ولا يجيزونه في فصيح الكلام فينبغي أن يُنزّه القرآن عنه، وعلى هذا يصير معنى هذه القراءة معنى قراءة نافع. قال الزمخشري[(٣)]: والثاني أن ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق أي: لازماً له. قال الزمخشري[(٤)]: والثالث أن يُضمّن «حقيق» معنى حريص، تضمين «هيجني» معنى ذكرني في بيت الكتاب،

(١) الكشاف ٢: ١٠٠.
(٢) البيت لخداش بن زهير في اللسان (ضطر) بالياء المشدّدة المفتوحة: حقيق عليّ.
(٣) الكشاف ٢: ١٠١.
(٤) الموضع نفسه.

انتهى. يعني بالكتاب كتاب سيبويه والبيت المنشد[١]: [من البسيط]

إذا تغنّى حمامُ الأيك هيّجني ولـو تسلّيـتُ عنهـا أمَّ عمّـارِ

قال الزمخشري[٢]: والرابع وهو الأوجه والأدخل في لغة القرآن أن يغرق موسى عليه السلام في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام، لا سيما وقد رُوي أن عدو الله فرعون قال [له] لما قال «إني رسول من رب العالمين»: [كذبت]، فيقول: أنا حقيق عليّ قول الحق، أي: واجب عليّ قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به انتهى. ولا يصحّ هذا الوجه إلا إن عنى أنه يكون «على أن لا أقول» صفة له: كما تقول: أنا على قول الحق أي: طريقتي وعادتي قول الحق.

وقال ابن مقسم: «حقيق» من نعت الرسول [٢٢٠/أ] أي: رسول حقيق من رب العالمين أُرسلتُ على أن لا أقول على الله إلا الحق، وهذا معنى صحيح واضح. وقد غفل أكثر المفسرين من أرباب اللغة عن[٣] تعليق «على» برسول، [ولم يخطر لهم تعليقه إلا بقوله «حقيق» انتهى.

وهذا الكلام فيه تناقض في الظاهر لأنه قدّر أولاً العامل في على «أُرسلتُ» وقال أخيراً إنهم غفلوا عن تعليق «على» برسول]. فأما الأخير فلا يجوز على مذهب البصريين لأن «رسولاً» قد وُصف قبل أن يأخذ معموله وذلك لا يجوز. وأما التقدير الأول وهو أيضاً «أُرسلتُ» وتفسير لفظ «رسول» فهو تقدير سائغ. ويُتأوّل كلام ابن مقسم أخيراً في قوله عن تعليق «على» برسول

(١) البيت للنابغة في ديوانه ص٢٣٥، مع اختلاف في الرواية.
(٢) الكشاف ٢: ١٠١.
(٣) ق: على.

أي: ممّا دلّ عليه رسول.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ الآية، لمّا عرض موسى عليه السلام رسالته على فرعون وذكر الدليل على صدقه وهو مجيئه بالبيّنة والخارق المعجز، استدعى منه فرعون خرق العادة الدالّ على الصدق. وهذا الاستدعاء يحتمل أن يكون على سبيل الاختبار وتجويزه ذلك، ويحتمل أن يكون على سبيل التعجيز لما تقرّر في ذهن فرعون أن موسى عليه السلام لا يقدر على الإتيان ببيّنة. والمعنى إن كنت جئت بآية من ربك فأحضِرْها عندي لتصحّ دعواك وتثبت صدقك.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ هذه إذا الفجائية وفيها خلاف مذكور في البحر[1]. بدأ بالعصا دون سائر المعجزات، لأنها معجزة تحتوي على معجزات كثيرة منها انقلابها ثعباناً. وانقلاب خشبة لحماً ودماً قائماً به الحياة من أعظم الإعجاز، ويحصل في انقلابها ثعباناً من التهويل ما لا يحصل في غيرها وتلقّفها لحبال السّحرة وعصيّهم وإبطالها لما صنعوا من كيدهم وسحرهم. والإلقاء حقيقةٌ في الأجرام[2].

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: جذب يده، قيل: من جيبه، وهو الظاهر لقوله تعالى ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴿١٢﴾﴾ [النمل]. و«للناظرين» أي: للنظارة. وفي ذكر ذلك تنبيه على عظم بياضها لأنه لا يعرضها للنظارة إلا إذا كان بياضها عجيباً خارجاً عن العادة. وقال ابن عباس: صارت نوراً ساطعاً يضيء ما بين السماء والأرض [له] لمعان مثل لمعان البرق، فخرّوا على

(١) انظر ٤: ٣٥٧.
(٢) يعني هو حقيقة في الأجرام ومجاز في المعاني نحو: ألقى المسألة.

وجوههم. وما أعجب هذين الخارقين العظيمين: أحدهما في نفسه وذلك اليد البيضاء، والأخرى في غير نفسه وهي العصا. وجمع بذينك تبدّل الذّوات من الخشبية إلى الحيوانية، وتبدّل الأعراض من السّمرة إلى البياض الساطع، فكانا دالَّين على جواز الأمرين، وأنهما كلاهما ممكن الوقوع، وكان موسى عليه السلام أسمر.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ ﴿٣٤﴾﴾. والجمع بينهما أن فرعون وهم قالوا هذا الكلام، فحكى هنا قولهم وهناك قوله، أو قاله ابتداءً، فتلقّفه منه الملأ. ولما كان الانقلاب وبياض اليد ممّا هو مستحيل في العادة، وهم ينكرون النبوّات، نسبوه إلى السحر، ووصفوه بـ«عليم» لمبالغته عندهم في السحر.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ استشعرت نفوسهم ما صار إليه أمرهم من إخراجهم من أرضهم، وخلوّ مواطنهم منهم وخراب بيوتهم، فبادروا إلى الإخبار بذلك، وكان الأمر كما استشعروا، إذ أغرق الله تعالى فرعون وآله، وأخلى منازلهم منهم. ونبّهوا على هذا الوصف الصعب الذي هو معادل لقتل النفس، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم ﴿٦٦﴾﴾ [النساء]. وتحتمل «فماذا» أن تكون كلها استفهاماً وتكون مفعولاً ثانياً لـ«تأمرون» على سبيل التوسّع فيه بأن حذف منه حرف الجرّ كما قال: أمرتك الخير، ويكون المفعول الأول محذوفاً لفهم المعنى أي: أيَّ شيء تأمرونني، وأصله: بأي شيء. ويجوز أن تكون «ما» استفهاماً مبتدأ و«ذا» موصولة بمعنى الذي، خبرٌ عنه، و«تأمرون» صلة «ذا»، ويكون قد حذف مفعولي[1] «تأمرون» وهو ضمير [المتكلم والثاني وهو المضمر العائد على

(١) ق: مفعول.

الموصول، والتقدير: فأيّ شيء الذي تأمرونني؟ أي: تأمرونني به. وكلا الإعرابين في «ماذا» جائز في قراءة من كسر النّون، إلا أنه حذف ياء المتكلم، وأبقى الكسرة دلالة عليها.

وقدّر ابن عطية الضمير العائد على «ذا» إذا كانت موصولة مقروناً بحرف الجر فقال: وفي «تأمرون» ضمير] [٢٢٠/ب] عائد على الذي تقديره: تأمرون به انتهى. وهذا ليس بجيد لفوات شرط جواز حذف الضمير إذا كان مجروراً بحرف جر، وذلك الشرط هو أن لا يكون الضمير في موضع رفع، وأن يجرّ ذلك الحرف الموصول أو الموصوف به أو المضاف إليه، ويتحد المتعلّق به الحرفان لفظاً ومعنى، ويتحد معنى الحرف أيضاً. والعذر لابن عطية أنه قدّره على الأصل، ثم اتّسع فيه فتعدّى إليه الفعل بغير واسطة الحرف، ثم حذف بعد الاتّساع.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أي: قال من حضر مناظرة موسى عليه السلام من عقلاء ملأ فرعون وأشرافه. قيل: ولم يكن فرعون يجالس ولد غيّةٍ[1] وإنما كانوا أشرافاً، ولذلك أشاروا عليه بالإرجاء ولم يشيروا عليه بالقتل وقالوا: إن قتلتَه دخلت على الناس شبهة، ولكن اغْلِبْهُ بالحجّة. وقرىء بالهمز وبغير همز فقيل هما بمعنى واحد والمعنى: أخِّرْه واحبسه، وقيل: ارجيه بغير همز بمعنى أطمِعْه، جعله من رجوت، أدخل عليه همزة النقل أي: أطمعه وأخاه ولا تقتلهما حتى يظهر كذبهما، فإنك إن قتلتهما ظُنَّ أنّهما صدقا.

قال ابن عطية: وقرأ ابن عامر: أرجئهِ بكسر الهاء بهمزة قبلها، قال الفارسي: وهذا غلط انتهى. نسبة ابن عطية هذه القراءة إلى ابن عامر ليست

---

(١) يقال: هو ولد غيّة بالفتح والكسر: زَنية.

بجيدة[١]، لأن الذي روى ذلك إنما هو ابن ذكوان لا هشام، وكان ينبغي أن يقيّد فيقول: وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان.

ولم يَجْرِ لهارون ذكرٌ في صدر القصة، وقد تبيّن في غير آية أنهما ذهبا معاً، وأُرسلا إلى فرعون، ولمّا كان موافقاً له في دعواه ومؤازراً له أشاروا بإرجائهما. ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أي: مدائن مصر وقراها. والحاشرون: قال ابن عباس: هم أصحاب الشرط، «حاشرين» أي: حاشرين السّحرة. وفي الكلام حذف تقديره: فبعث فأتوه، فلما جاء السّحرة وأُعلموا بما صدر من موسى عليه السلام من انقلاب العصا وبياض اليد، وأن هذا [من السحر - قالوا لفرعون «إن لنا لأجراً». وقرىء: أئِنّ بهمزة الاستفهام. وقرىء: إنّ] على جهة الإثبات، فجاز أن يكون الاستفهام من بعض السحرة والإثبات من بعضهم. وفي خطاب السحرة بذلك لفرعون دليل على استطالتهم عليه باحتياجه إليهم، وربما يحصل للعالم بالشيء من الترفّع على من يحتاج إليه وعلى من لا يعلم مثل علمه. و«نحن» إما تأكيد للضمير، وإمّا فصلٌ، وجواب الشرط محذوف.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: نعم إن لكم لأجراً وإنكم، فعطف هذه الجملة على الجملة المحذوفة بعد «نعم» التي هي نائبة عنها. والمعنى: لمن المقرّبين منّي، أي: لا أقتصر على الجعل والثواب على غلبة موسى بل أزيدكم أن تكونوا المقربين، فتحوزون إلى الأجر الكرامة[٢] والرفعة والجاه والمنزلة.

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ قبل هذا محذوف تقديره: فحضر موسى بعصاه.

---

(١) ق: ليس بجيّد.

(٢) ق: فتجوزون إلى الأجر الرامة.

والذي يظهر أن تخييرهم إياه ليس من باب الأدب كما قال الزمخشري(١)، بل ذلك من باب الإدلال بما يعلمونه من السحر وإيهام الغلبة والثقة بأنفسهم وعدم الاكتراث والاهتبال بأمر موسى عليه السلام. وأجازوا في «أن تلقي» و«أن نكون» النصب أي: اختر أو افعل إما إلقاءك وإما إلقاءنا والمعنى فيه البداءة، والرفع [أي]: إما إلقاؤك مبدوء به وإمّا إلقاؤنا فيكون مبتدأ، وإما أمْرُك الإلقاء أي: البداءة به أو إمّا أمْرُنا الإلقاء فيكون خبر مبتدأ محذوف. ومفعول «تلقي» محذوف تقديره: [أن تلقي عصاك، ومفعول «الملقين» محذوف تقديره:] حبالنا وعصيّنا.

﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ أمرهم موسى عليه السلام بالتقدّم وثوقاً بالحق وعلماً أنه تعالى يبطله كما حكى الله تعالى عنه ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۝٨١﴾ [يونس]. ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي أَرَوُا العيون بالحيل والتّخيلات ما لا حقيقة له كما قال تعالى [٢٢١/أ] ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦﴾ [طه]. وفي قوله «سحروا أعين الناس» دلالة على أن السحر لا يقلب عيناً وإنما هو من باب التخييل. ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [أي: أرهبوهم] واستفعل هنا بمعنى أفعل كأبلّ واستبلّ، والرهبة الخوف والفزع. وقال الزمخشري(٢): استرهبوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم استدعوا رهبتهم. وقال ابن عطية: «واسترهبوهم» بمعنى وأرهبوهم، فكأن فعلهم اقتضى واستدعى الرهبة من الناس انتهى. ولا يظهر ما قالا لأن الاستدعاء والطلب لا يلزم منه وقوع المستدعى والمطلوب. والظاهر هنا حصول الرهبة فلذلك قلنا إن استفعل فيه موافق أفعل.

---

(١) انظر الكشاف ٢: ١٠٢.

(٢) الكشاف ٢: ١٠٣.

ووصف السحر بـ«عظيم» لقوّة ما خيّل أو لكثرة آلاته من الحبال والعصي؛ روي أنهم جاؤوا بحبال من أدم وأخشاب مجوّفة مملوءة زئبقاً، وأوقدوا في الوادي ناراً فحميت بالنار من تحت والشمس من فوق فتحركت وركب بعضها بعضاً، وهذا من باب الشعبذة والدك[١].

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ الظاهر أنه وحي إعلام كما رُوي أن جبريل عليه السلام أتاه وقال له: إنّ الحقّ يأمرك أن تلقي عصاك. وكونه وحي إعلام فيه تثبيت للجأش وتبشير بالنصر. و«أن» يُحتمل أن تكون المفسّرة بمعنى أي، لأنه تقدّمها معنى القول وهو «أوحينا»، فالمعنى: أي: ألق عصاك، وأن تكون الناصبة دخلت على فعل الأمر فينسبكُ منهما[٢] مصدر تقديره: بالإلقاء. وفي الكلام حذف قبل الجملة الفجائية أي: فألقاها فإذا هي تلقف، وتكون الجملة الفجائية إخباراً لما ترتّب على الإلقاء. وقرىء: تلقَّفُ بحذف التاء وأصلها: تتلقف، وبإدغام التاء في التاء في[٣] «تلقف». وقرىء تلقَف مضارع لَقِف. و«ما» موصولة أي: ما يأفكونه أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوّرونه، أو مصدرية أي: تلقف إفكهم تسمية للمفعول بالمصدر.

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن عباس والحسنّ: ظهر واستبان. وقال أرباب المعاني: الوقوع ظهور الشيء بوجوده نازلاً إلى مستقرّه. قال القاضي: «فوقع الحق» يفيد قوة الظهور والثبوت بحيث لا يصحّ فيه البطلان، كما لا يصحّ في الواقع أن يصير إلا واقعاً. ومع ثبوت الحق

---

(١) الدّك: شدة الوطء والكيد.

(٢) ق: منها.

(٣) ق: هي.

بطلت، وزالت تلك الأعيان التي أفكوها، وهي الحبال والعصي.

﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ ﴾ أي: غُلب جميعهم في مكان اجتماعهم أو وقت اجتماعهم وانقلبوا أذلّاء. و﴿صَٰغِرِينَ﴾ حال.

﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ لمّا كان الضمير قبلُ مشتركاً جُرّد المؤمنون وأفردوا بالذكر.

﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ساجدين قائلين. و«قالوا» في موضع الحال من الضمير في «ساجدين» أو من «السّحرة». وعلى التقديرين فهم ملتبسون بالسجود لله تعالى شكراً على المعرفة والإيمان وبالقول المنبىء عن التصديق الذي محلّه القلوب. ولما كان السجود أعظم القرب إذ «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(١) بادروا [به] متلبّسين بالقول الذي لا بدّ منه عند القادر عليه؛ إذ الدخول في الإيمان إنما يدلّ عليه القول، وقالوا «رب العالمين» [وفاقاً لقول موسى عليه السلام ﴿ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأعراف]]. ولما كان قد يوهم هذا اللفظ غير الله كقول فرعون ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات] نَصُّوا بالبدل على أنه رب العالمين ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ وأنهم فارقوا فرعون وكفروا بربوبيّته. والظاهر أنّ قائل ذلك جميع السّحرة.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ قرىء: آمنتم على الخبر، وأآمنتم على الاستفهام. والضمير في «به» عائد على «رب العالمين». و«قبل أن آذن لكم» [فيه] وهنٌ في أمره لأنه إنما جعل ذنبهم بمفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى[٢٢١/ب] ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: إنّ صنعكم هذا لحيلةٌ احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء وتواطأتم على

(١) رواه مسلم ١ : ٣٥٠ من حديث أبي هريرة.

ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوا بني إسرائيل، قال هذا تمويهاً على الناس لئلاّ يتبعوا السّحرة في الإيمان. روي عن ابن مسعود وابن عباس أن موسى عليه السلام اجتمع مع رئيس السّحرة شمعون فقال له موسى عليه السلام: أرأيتكم إن غلبتكم أتؤمنون بي؟ فقال[١] له: نعم، فعلم بذلك فرعون فقال ما قال.انتهى.

ولما خاف فرعون أن يكون إيمان السّحرة حجّة قومه ألقى في الحال نوعين من الشبهة أحدهما أنّ هذا تواطؤ منهم، لا أنّ ما جاء به حقّ، والثاني أنّ ذلك طلبٌ منهم للمُلْك. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد. ومفعول «تعلمون» محذوف أي: ما يحلّ بكم، أَبْهَمَ في متعلق «تعلمون» ثم عيّن ما يفعله بهم فقال مقسماً:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ لما ظهرت الحجّة عاد إلى عادة ملوك السّوء، إذا غُلبوا، من تعذيب من ناوأهم[٢]، وإن كان مُحقًّا. ومعنى ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: يد يمنى ورجل يسرى. وهذا التوعّد الذي توعّده فرعون السّحرة ليس في القرآن نصّ على أنه أنفذه وأوقعه.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ[٣]﴾ هذا تسليم واتّكال على الله تعالى وثقة بما عنده، والمعنى أنّا نرجع إلى ثواب ربّنا يوم الجزاء على ما نلقاه من الشدائد.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ الآية، والذي يظهر من تعديته بمِن أنّ المعنى «وما تنقم منّا» أي: ما تنال منّا كقوله ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ

(١) ق: فقالوا.

(٢) ق: ناوأه.

(٣) ق: لمنقلبون.

مِنْهُۚ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة] أي: يناله بمكروه، ويكون فعل وافتعل فيه بمعنى واحد كقدر واقتدر، وعلى هذا يكون قوله ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا﴾ مفعولاً من أجله استثناءً مفرّغاً، أي: ما تنال منا وتعذّبنا بشيء من الأشياء إلا لأن آمنّا بآيات ربّنا. وعلى هذا المعنى يدل تفسير عطاء، قال عطاء: ما لنا عندك ذنب تعذّبنا به إلا أن آمنّا. ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا﴾ تقدم الكلام عليه في البقرة(1).

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ تضمّن قول الملأ إغراء فرعون بموسى وقومه وتحريضه على قتلهم أو تعذيبهم حتى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون. ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [عُطِفَا على ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾ أي: للإفساد ولتركك وترك آلهتك] وكان الترك هو لذلك، وبدؤوا أوّلاً بالعلّة العامّة وهي الإفساد، ثم أتبعوه بالخاصّة، ليدلّوا على أن ذلك الترك من فرعون لموسى وقومه هو أيضاً يؤول إلى شيء يختص بفرعون، قدحوا بذلك زند تَغَيُّظه على موسى وقومه ليكون ذلك أبقى عليهم إذ هم الأشراف، وبترك موسى وقومه بمصر يذهب ملكهم وشرفهم. ويجوز أن يكون النصب على جواب الاستفهام والمعنى: أنّى يكون الجمع بين تركك موسى وقومه للإفساد وبين تركهم إياك وعبادة آلهتك؟ أي: أن هذا مما لا يمكن وقوعه.

---

(1) انظر تفسير الآية ٢٥٠ من البقرة.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ وإنّما لم يعاجل موسى وقومه بالقتال لأنه كان قد ملئ من موسى عليه السلام رعباً. والمعنى أنه قال: سنعيد عليهم ما كنّا فعلنا بهم قبلُ من قتل أبنائهم، ليقلّ رهطه الذين يقع الإفساد بواسطتهم. والفوقية هنا بالمنزلة والتمكّن في الدنيا. و«قاهرون» يقتضي تحقيرهم أي: قاهرون لهم فهم أقلّ من أن نهتم بهم، فنحن على ما كنّا عليه من الغلبة، أو أن غلبة موسى عليه السلام لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلاّ تتوهّم العامّة أنّه المولود الذي تحدّث المنجّمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده، فيثبّطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتّباعه وأنه منتظَر بعدُ.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ لمّا توعّدهم فرعون جزعوا وتضرّعوا، فسكّنهم موسى عليه السلام، وأمرهم بالاستعانة بالله تعالى [٢٢٢/أ] وبالصبر، وسلاّهم، ووعدهم النصر، وذكّرهم ما وعد الله به بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم. ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ أي: أرض مصر، وأل فيه للعهد وهي الأرض التي كانوا فيها.

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ أي: بابتلائنا بذبح أبنائنا مخافة ما كان يتوقع فرعون من هلاك ملكه على يد المولود الذي يولد منّا. و«أن» مصدرية مخلِّصة الفعل للاستقبال. وكانت إذايتهم الأولى قبل مجيء موسى عليه السلام وإذايتهم الثانية بعد مجيئه، فلذلك جاءت «ما» مصدرية وجاء بعدها الفعل الماضي. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ هذا رجاء من موسى عليه السلام، ومِثْله من الأنبياء يقوّي قلوب أتباعهم فيصبرون إلى وقوع متعلق الرجاء. ومعنى ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: في استخلافكم من الإصلاح والإفساد، وهي جملة تجرى مجرى البعث والتحريض على طاعة الله تعالى. وفي الحديث «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف

تعملون[١].

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟
بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟
مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ
لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ
ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ الأخذ التناول باليد ومعناه هنا الابتلاء في المدة التي أقام نبيهم موسى عليه السلام يدعو إلى الله تعالى. ومعنى «بالسنين» بالقحوط والجدوب، والسّنة تطلق على الحول وتطلق على الجدب ضد الخصب، وقد اشتقّوا منها بهذا المعنى فقالوا: أَسْنَتَ القوم، إذا أجدبوا ومنه قول الشاعر[٢]: [من الكامل]

---

(١) رواه مسلم ٤: ٢٠٩٨ من حديث أبي سعيد الخدري. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١: ٢٥٤.

(٢) البيت في المقاصد النحوية ٤: ١٤٠، وفي اللسان (سنت)، وهو منسوب فيهما لعبدالله بن الزبعرى. وهو في اللسان (هشم) غير منسوب.

عَمْرُو الذي هَشَمَ الثّرِيدَ لقومه ورجـالُ مكّـةَ مُسْنِتُـونَ عِجـافُ

قال ابن عباس: أما السّنون فكانت لباديتهم ومواشيهم، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم. وهذه سيرة الله تعالى في الأمم يبتليها بالنّقم، ليزدجروا ويتذكروا بذلك ما كانوا فيه من النعم.

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أتى في الشرط بإذا في مجيء الحسنة، وهي لتحقق وجوده، لأن إحسان الله تعالى هو المعهود الواسع العام لخلقه بحيث إن إحسانه لخلقه عامّ حتى في حال الابتلاء. وأتى الشرط بإنْ في إصابة السيئة وهي للإمكان، إبرازاً أنّ إصابة السيئة ممّا قد يقع وقد لا يقع. ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾[1] أي: يتشاءموا، وأصله يتطيّروا فأدغم التاء في الطاء. ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: طائرهم: نصيبهم أي: ما طار لهم في القَدَر مما هم لاقُوه، وهو مأخوذ من زجر الطير. سمّي ما عند الله من القدر للإنسان طائراً لما كان يُعتقد أن كلّ ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر، فهي لفظة مستعارة.

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ[2]﴾ الضمير في «قالوا» عائد على آل فرعون، ولم يزدهم الأخذ بالجدوب ونقص الثمرات إلا طغياناً وتشدّداً في كفرهم وتكذيبهم. ولم يكتفوا بنسبة ما يصيبهم من السيئات إلى أنّ ذلك بسبب موسى عليه السلام ومن معه، حتى واجهوه بهذا القول الدّالّ على أنه لو أتى بما أتى من الآيات فإنهم لا يؤمنون. وأتوا بـ«مهما» التي تقتضي العموم ثم فُسّر بـ«آية» على سبيل الاستهزاء في تسميتهم ذلك آية، كما قالوا في قوله

---

(١) ق: وقد لا يقعوا تطيّروا.

(٢) ق: بأننا بآية.

﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [النساء]، وتسميتهم[1] لها بـ«آية» على زعمك، ولذلك علّلوا الإتيان بقولهم «لتسحرنا بها». وبالغوا في انتفاء الإيمان بأن صدّروا الجملة بـ«نحن» وأدخلوا الباء في «بمؤمنين»، أي: أن إيماننا لك لا يكون أبداً. و﴿ مَهْمَا ﴾ مرتفع بالابتداء، أو منتصب بإضمار فعل يفسّره فعل الشرط فيكون من باب الاشتغال أي: أيَّ شيءٍ تحضر بإتيانه[2]. والضمير في «به» عائد على «مهما» وفي «بها» عائد أيضاً على معنى «مهما» لأن المراد به: أيّة آيةٍ، كما عاد على «ما» في قوله تعالى ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا[3] ﴿١٠٦﴾ ﴾ [البقرة]. و«مهما» كلمة بسيطة ليست [٢٢٢/ب] مركّبة من: مَهْ اسم الفعل وما، ولا أنّ أصلها: ما ما فأبدلت ألفها هاءً فقيل مهما. وقد جاء في الشرط مهما، قال الشاعر[4]: [من الطويل]

أماويَّ مهما يَسْتَمِعْ في صديقه أقاويلَ هذا الناس ماويّ يَنْدمِ

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ قال الأخفش: الطوفان جمع طوفانة عند البصريين، وعند الكوفيين مصدر. قال ابن عباس: الطوفان: الماء المغرق، وقال جماعة: هو المطر أُرسل عليهم دائماً الليل والنهار ثمانية أيام، وقيل: ذلك مع ظلمة شديدة لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحد أن يخرج من داره. وقيل: أُمطروا حتى كادوا يهلكون. وبيوت القبط وبني إسرائيل مشتبكة، فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق. ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة من الماء، وفاض الماء على وجه

(١) ق: وتسميه.
(٢) ق: أي أيّ محضر بإتيانه.
(٣) ق: ننساها.
(٤) البيت في اللسان (مهه) والخزانة ٣: ٦٣١ غير منسوب.

أرضهم، وركد، فمنعهم من الحرث والبناء والتصرّف ودام عليهم سبعة أيام.

﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ جمع جرادة وهو اسم جنس بينه وبين مفرده تاء التأنيث. وابتُلوا بالجراد بعد ابتلائهم بالطوفان سبعة أيام فأكلت عامّة زرعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء فكشف عنهم بعد سبعة أيام.

وسلّط الله عليهم القمّل، قال ابن عباس: القمل هو الدّبا وهو صغار الجراد قبل أن تنبت له أجنحة ولا يطير. رُوي أن موسى عليه السلام مشى إلى كثيب أهيل فضربه بعصاه فانتشر كلّه قمّلاً بمصر فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض. وكان يدخل بين جلد القبطي وقميصه، ويمتلىء الطعام قمّلاً.

وأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع فملأت آنيتهم وأطعماتهم ومضاجعهم، ورمت بأنفسها في القدور وهي تغلي والتنانير وهي تفور، [وإذا] تكلّم أحدهم وثبَتْ إلى فيه.

ثم بعد ذلك ارسل الله عليهم الدم حتى صار ماؤهم دماً، حتى إن الإسرائيلي ليضع الماء في في القبطي فيصير في فيه دماً. وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك فكان يمصّ الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها الطِيبْ ملحاً أجاجا. ومعنى تفصيل الآيات تبيينها وإزالة إشكالها. وحكمة التفصيل بالزمان أنه يُمتحن فيه أحوالهم، أَيَفُون بما عهدوا أم ينكثون[١].

وانتصب ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ على الحال. والذي دلّت عليه الآية أنه أرسل

---

(١) سمّاها مفصّلات لأنّ بين الآية والآية فصلاً من الزمان. انظر البحر ٤: ٣٧٣.

عليهم ما ذكر فيها، وأما كيفية الإرسال ومكث ما أرسل عليهم من الأزمان والهيئات فمرجعه إلى النقل عن الأخبار الإسرائيليات؛ إذ لم يثبت [من] ذلك في الحديث النبوي شيء. ومع إرسال حسن الآيات استكبروا عن الإيمان وعن قبول أمر الله تعالى. ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ إخبار منه تعالى عنهم باجترامهم على الله تعالى وعلى عباده.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ الظاهر أن الرّجز هو ما كان أُرسل عليهم من الآيات التي تقدّمت قبلُ. ومعنى «وقع عليهم» أي: نزل عليهم وثبت. وفي قولهم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وفي إضافة الربّ إلى موسى عليه السلام عدم إقرار بأنه ربّهم حيث لم يقولوا: ادعُ لنا ربّنا. ومعنى ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بما اختصّك به فنبأك، أو بما وصّاك به أن تدعو به فيجيبك كما أجابك في الآيات. والظاهر تعلّق «بما عهد» بـ«ادْعُ لنا ربّك» ومتعلّق الدعاء محذوف تقديره: ادعُ لنا ربك بما عهد عندك في كشف هذا الرجز. و﴿لَئِن كَشَفْتَ﴾ جواب لقسم محذوف في موضع الحال من «قالوا» أي: قالوا ذلك مقسمين لئن كشفت. وفي قولهم ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [٢٢٣/أ] دلالة على أنه طلب منهم الإيمان كما أنه طلب منهم إرسال بني إسرائيل. وقدّموا الإيمان لأنه المقصود الأعظم الناشىء منه الطواعية. وفي إسناد الكشف إلى موسى عليه السلام حيدة عن إسناده إلى الله تعالى لعدم إقرارهم بذلك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ في الكلام حذف دلّ عليه المعنى وهو: فدعا موسى فكشف عنهم الرجز. وأسند تعالى الكشف إليه لأنه هو الكاشف حقيقةً، فلمّا كان من قولهم أسندوه إلى موسى عليه السلام وهو إسناد مجازي، ولمّا كان إخباراً من الله أسنده تعالى إليه لأنه إسناد حقيقي. و﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ [قالوا]: متعلق بـ«كشفنا»، ولا يمكن حمله على التعلق به لأن ما دخلت عليه لمّا ترتّب جوابه على ابتداء وقوعه، والغاية بقوله «إلى

أجل» ينافي التعليق على ابتداء الوقوع، فلا بدّ من تعقّل الابتداء والاستمرار حتى تتحقق الغاية[١]. و﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ جملة في موضع الصفة لـ«أجل» وهي أفخم من الوصف بالمفرد لتكرّر الضمير، فليس في حُسْن التركيب كالمفرد[٢]. و«إذا» للمفاجأة، تدلّ على أنه لم يكن بعد بلوغ الأجل وبين النكث زمان يتخلّلهما، بل بنفس ما بلغوا الأجل نكثوا ما أقسموا عليه من الإيمان والإرسال.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أحللنا بهم النقمة وهي ضدّ النعمة. فإن كان الانتقام هو الإغراق فتكون الفاء تفسيرية، وذلك على رأي من أثبت هذا المعنى للفاء، وإلاّ كان المعنى: فأردنا الانتقام منهم. والباء في «بأنهم» سببية. والآيات هي المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام. والظاهر عود الضمير في «عنها» إلى الآيات أي: غفلوا عمّا تضمّنته الآيات من الهدى والنجاة وما فكّروا فيها، وتلك الغفلة هي سبب التكذيب.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾ الآية، لمّا قال موسى عليه السلام ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ١٢٩﴾ [الأعراف] كان كما ترجّى موسى عليه السلام فأغرق أعداءهم في اليم، واستخلف بني إسرائيل في الأرض. و﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان فرعون يستعبدهم ويستخدمهم. وفي الكلام حذف مضاف تقديره: وأورثنا ذرّية القوم، لأن القوم المستضعفين لم يعودوا إلى ديار مصر بأعيانهم، إذ كانوا جاوزوا البحر وأقاموا بالأرض المقدسة، وإنما ورث مصر ذرّيتهم ومنهم سليمان بن داود عليهما السلام. و﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ منصوب على أنه مفعول ثانٍ

---

(١) وجعل بعضهم «إلى أجل» من تمام الرجز أي: الرجز كائناً إلى أجل، والمعنى أن العذاب كان مؤجلاً. انظر البحر ٤: ٣٧٥.

(٢) هذا إذا وقع في غير القرآن فقيل: إلى أجل بالغيه. انظر المصدر السابق.

لـ «أورثنا». وجُعلت مشارق ومغارب مبالغة في كثرة بركتها. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: مضت واستمرّت، من قولهم: تمّ على الأمر إذا مضى عليه. ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الباء سببية و«ما» مصدرية أي: بصبرهم. ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ أي: خرّبنا قصورهم وأبنيتهم. والتدمير الإهلاك وإخراب الأبنية. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ أي: يرفعون من الأبنية المشيّدة كصرح هامان وغيره.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ لمّا بيّن أنواع نعمه على بني إسرائيل بإهلاك عدوّهم، أتبع بالنعمة العظمى من إراءتهم هذه الآية العظيمة وقطعهم البحر مع السلامة، والبحر بحر القلزم. ومعنى «وجاوزنا» قطعنا بهم البحر، يقال: جاوز الوادي إذا قطعه، والباء للتعدية، يقال: جاوز البحر، إذا قطعه، وجاوز بغيره البحر[1]: عبر به فكأنه قال: وجزنا ببني إسرائيل البحر، أي: أجزناهم البحر، وفاعَلَ بمعنى المجرّد يقال: جاوز وجاز بمعنى واحد. ﴿فَأَتَوْا۟﴾ أي: مرّوا. ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ هم من لخم وجذام. ﴿يَعْكُفُونَ﴾ أي: يقيمون. ﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ﴾ أي: عبادة الأصنام لهم. والأصنام: قيل البقر حقيقة وقيل تماثيل من حجر وعيدان على صورة البقر. ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى

(١) ق: وجاوزه بغير البحر.

[٢٢٣/ب]﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ الظاهر أن طلب مثل هذا كفر وارتداد وشقاق وعناد، خرجوا في ذلك على عادتهم في تعنّتهم على أنبيائهم وطلبهم ما لا ينبغي. وقد تقدّم من كلامهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة] وغير ذلك مما هو كفر. وربما كان القول من بعضهم فنُسب إلى جميعهم. ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجّب موسى عليه السلام من قولهم على أثر ما رأوا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة، ووصفهم بالجهل المطلق، وأكّده بإنّ، لأنّه[1] لا جهل أعظم من هذه المقالة ولا أشنع. وأتى بلفظ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ ولم يقل جهلتم إشعاراً بأنّ ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه [في] ماضٍ ولا مستقبل.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ الإشارة بـ«هؤلاء» إلى العاكفين على عبادة تلك الأصنام. ومعنى «متبّر» مهلك مدمّر مكسّر، وأصله الكسر. قال الزمخشري[2]: وفي إيقاع «هؤلاء» اسماً لإنّ وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها واسم لعبدة الأصنام بأنهم هو المعرّضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتّة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذّرهم عاقبة ما طلبوا ويبغّض لهم ما أحبّوا انتهى. لا يتعيّن ما قاله من أنه قدّم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً، لأن الأحسن في إعراب مثل هذا أن يكون خبر إنّ «متبّر»، وما بعده مرفوع على أنه مفعول لم يُسَمَّ فاعله. وكذلك «ما كانوا» هو فاعل بقوله «وباطل»، فيكون إذ ذاك قد أخبر عن اسم إنّ بمفرد لا جملة، وهو نظير: إنّ زيداً مضروب غلامه، فالأحسن في الإعراب أن يكون «غلامه» مرفوعاً على أنه مفعول لم يُسَمَّ فاعله، و«مضروب» خبر إنّ. والوجه الآخر [وهو]

---

(١) ق: وأكّده بأنه لا جهل.

(٢) الكشاف ٢: ١١٠.

أن يكون مبتدأ و«مضروب» خبره جائز وهو مرجوح.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ما أحسن ما خاطبهم موسى عليه السلام: بدأهم أولاً بنسبتهم إلى الجهل، ثم ثانياً أخبرهم بأنّ عُبّاد الأصنام ليسوا على شيء بل مآل أمرهم إلى الهلاك وبطلان العمل، وثالثاً أنكر وتعجّب أن يقع هوعليه السلام في أن يبغي لهم غير الله إلهاً، أي: أغير الله المستحقّ للعبادة والألوهية أطلب لكم معبوداً وهو الذي شرّفكم واختصّكم بالنّعم التي لم يعطها مَن سلف من الأمم لا غيره؟ فكيف أبغي لكم إلهاً غيره؟.

ومعنى «على العالمين» على عالمي زمانهم أو بكثرة الأنبياء فيهم. وانتصب «أغير» مفعولاً بـ«أبغيكم» أي: أبغي لكم غير الله، و«إلها» تمييز عن «غير» أو حال. أو على الحال و«إلهاً» المفعول، والتقدير: أبغي لكم إلهاً غير الله، فكان «غير» صفة فلما تقدم انتصب حالاً. وقال ابن عطية: و«غير» منصوبة بفعل مضمر، هذا هو الظاهر، ويحتمل أن ينتصب على الحال انتهى. ولا يظهر نصبه بفعل مضمر لأنّ «أبغي» مفرّغ له أو لقوله «إلهاً»، فإن تخيّل أنه منصوب بأبغي مضمرةً يفسّرها هذا الظاهر فلا يصحّ؛ لأن الجملة المفسِّرة لا رابط فيها لا من ضمير ولا من مُلابس يربطها بـ«غير»، فلو كان التركيب: أغير الله أبغيكموه، لصحّ المعنى. ويحتمل «وهو فضّلكم» أن يكون حالاً وأن يكون مستأنفاً.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ الخطاب لمن كان على عهد رسول الله ﷺ تقريعاً لهم بما فعل أوائلهم وبما جاؤوا به. وتقدّم تفسير نظير هذه الآية في أوائل سورة البقرة[١] فأغنى عن إعادته.

---

(١) انظر تفسير الآية ٤٩ من البقرة.

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ
لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ
لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ
وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ
شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ
سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟
عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ
يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ﴾ روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوّهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون. فلما هلك فرعون سأل موسى ربّه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة. وانتصب «ثلاثين» على أنه مفعول ثانٍ على حذف مضاف، فقدّره أبو البقاء[1]: إتيان ثلاثين أو إتمام ثلاثين. وقال ابن عطية: «وثلاثين» نصب [٢٢٤/أ] على تقدير: وأجّلناه أو مناجاة ثلاثين، وليست منتصبة على الظرف لأن المواعدة لم تقع في الثلاثين، والضمير [في] «وأتممناها» عائد على المواعدة المفهومة من «واعدنا». وقال

(١) إملاء ١ : ٢٨٤.

الحوفي: الهاء والألف نصب بـ«أتممناها» وهما راجعتان إلى «ثلاثين» انتهى. ولا يظهر لأن الثلاثين لم تكن ناقصة فتمّمت بعشر. وحذف مميّز «عشر» أي: بعشر ليالٍ لدلالة ما قبله عليه. وفي مصحف أبيّ: وتمّمناها مشدّداً. والميقات ما وُقّت له من الوقت وضربه له. وجاء بلفظ «ربّه» ولم يأت على «واعدنا» فكان يكون التركيب: فتم ميقاتنا، لأنّ لفظ «ربه» دالّ على أنه مُصلحه وناظر في أمره ومالكه والمتصرف فيه. والفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدر فيه عمل من الأعمال، والوقت وقت الشيء. وانتصب «أربعين» على الحال، قاله الزمخشري وابن عطية. وقدّر الزمخشري الحال فيه فقال[1]: أي تمّ بالغاً هذا العدد. فعلى هذا لا يكون الحال «أربعين» بل الحال هذا المحذوف، فينافي قوله: «وأربعين ليلة» نصب على الحال. وقال ابن عطية أيضاً: ويصحّ أن يكون «أربعين» ظرفاً من حيث هي عدد أزمنة، وقيل: «أربعين» مفعول به بـ«تمّ» لأن معناه بلغ. والذي يظهر أنه تمييز منقول من الفاعل وأصله: فتمّ أربعون ميقات ربّه، أي: كملت، ثم أسند التمام لـ«ميقات» وانتصب «أربعون» على التمييز.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ قرىء شاذًا: هارونُ بالضم على النداء [أي]: يا هارون. أمره حين أراد المضيّ للمناجاة والمغيب فيها أن يكون خليفته في قومه وأن يصلح في نفسه أو ما يجب أن يصلح في أمر قومه، ونهاه أن يتبع سبيل من أفسد. وفي النهي دليل على وجود المفسدين ولذلك نهاه عن اتباع سبيلهم. وأَمْرُه إياه بالإصلاح ونهيه عن اتّباع سبيل المفسدين هو على سبيل التأكيد لا لتوهمّ أنه يقع منه خلاف الإصلاح واتباع تلك السبيل لأن منصب النبوة منزّه عن ذلك. ومعنى ﴿ٱخْلُفْنِي﴾ استبِدَّ بالأمر وذلك في حياته إذ راح

(١) الكشاف ٢: ١١١ في الموضعين.

إلى مناجاة ربّه، وليس المعنى أنك تكون خليفتي بعد موتي؛ ألا ترى أنّ[1] هارون مات قبل موسى عليهما السلام؟.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا ﴾ أي: للوقت الذي ضربه له أي: لتمام الأربعين كما تقول: أتيته لعشرٍ خلون من الشهر. ومعنى [اللام] الاختصاص والجمهور على أنه وحده خُصَّ بالتكليم[2] إذ جاء للميقات. وقال القاضي: سمع هو والسبعون كلام الله تعالى. قال ابن عطية: خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديمة الذي هو صفة ذات. وقال ابن عباس وابن جبير: أدنى الله موسى عليه السلام حتى سمع صريف الأقلام في اللوح. وقال الزمخشري[3]: وكلّمه ربّه من غير واسطة كما يكلّم الملك. وتكليمه تعالى أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح. وروي أن موسى عليه السلام كان يسمع الكلام من كلّ جهة. وعن ابن عباس: كلّمه أربعين يوماً وأربعين ليلة وكتب له الألواح، وقيل إنما كلّمه في أوّل الأربعين انتهى.

وقال وهب: كلّمه في ألف مقام، وعلى إثر المقام يُرى نور على وجهه ثلاثة أيام، ولم يقرب النساء مذ كلّمه الله تعالى انتهى. وقد أوردوا هنا الخلاف الذي في كلام الله تعالى وهو مذكور [هو] ودلائل المختلفين في كتب الأصول. و«كلّمه» معطوف على «جاء» وقيل حال. وعدل عن قوله: وكلّمناه إلى قوله «وكلّمه ربّه» للمعنى الذي عدل إلى قوله «فتمّ ميقات ربّه».

---

(١) ق: إلى.

(٢) ق: بالتكلّم.

(٣) الكشاف ٢: ١١١.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ أرني: هي بصريّة والمفعول الثاني محذوف تقديره: أرنيك أو أرني إياك[1]. قال السّدي وأبو بكر الهذلي: لمّا كلّمه وخصّه بهذه الرتبة [٢٢٤/ب] طمحت همّته إلى رتبة الرؤية وتشوّف إلى ذلك فسأل ربّه أن يريه نفسه. قال ابن عطية: ورؤيته تعالى عند الأشعرية وأهل السنّة جائزة عقلاً لأنه من حيث هو موجود تصحّ رؤيته. وقررت الشريعة رؤية الله تعالى في الآخرة ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل محالاً وإنما سأل جائزاً.

وقوله تعالى ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ ليس بجواب من سأل محالاً، وقد [قال] تعالى لنوح عليه السلام ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴿٤٦﴾﴾ [هود] فلو سأل موسى محالاً لكان في الجواب زجرٌ ما وتبيين. وللزمخشري كلام كثير في الرؤية ذكرناه في البحر[2]. «ولكن انظر إلى الجبل» تعليق الرؤية على تقدير الاستقرار مؤذن بعدمها إذ لم يستقر. ونبّه بذلك على أن الجبل مع شدته وصلابته إذا لم يستقرّ فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقرّ. وهذا تسكين لقلب موسى عليه السلام وتخفيف عنه من ثقل أعباء المنع. والتجلي: الظهور، والدكّ مصدر دَكَكْتُ الشيء: فَتَتُّه وسحقته، مصدر في معنى المفعول، والدكّ والدقّ بمعنى واحد. قال ابن عزيز: دكًّا مستوياً مع الأرض. والخرُور: السقوط. «أفاق» ثاب إليه حسه وعقله.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ ترتّب على التجلّي أمران: أحدهما تفتّت الجبل وتفرّق أجزائه، والثاني خرور موسى مغشيًّا عليه. والتجلّي بمعنى الظهور الجسماني مستحيل على الله تعالى، قال ابن عباس وقوم: لمّا

---

(١) ق: أرني إليك إياك.

(٢) انظر ٤ : ٣٨٣.

وقع نوره عليه تعالى تدكدك. ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ نزّه الله تعالى عن سمات الحدوث والنقص.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ لما طلب موسى عليه السلام الرؤية ومُنِعَها، عدّد عليه تعالى وجوه نعمه العظيمة عليه، وأمره أن يشتغل بشكرها، وهذه تسلية منه تعالى له. و﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لفظ عام ومعناه الخصوص أي: على أهل زمانك. وقدّم «برسالاتي» على «وبكلامي» لأن الرسالة أسبق في الزمان، أو لأنه انتقل من شريف إلى أشرف. وأَمَره تعالى بأن يأخذ ما آتاه من النبوّة، لأنّ في الأمر بالأخذ مزيد تأكيد وحصول أجر بالامتثال. والمعنى: خذ ما آتيتك باجتهاد في تبليغه وجدّ في النفع به. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على ما آتيناك، وفي ذلك إشارة إلى القنع والرضى بما أعطى الله تعالى والشكر عليه.

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾ أي: أمرنا له بالكتابة فأضاف الكتابة إلى نفسه تعالى لمّا كان آمراً بالكتابة. والضمير في «له» عائد على موسى. و«الألواح» جمع قلّة، والألف واللام فيها للعهد إذ عنى بها ألواح موسى عليه السلام. قيل: والضمير نابت عنه الألف واللام أي: في ألواحه. ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ محتاج إليه في شريعتهم. ﴿مَّوۡعِظَةٗ﴾ للازدجار والاعتبار. ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ من التكاليف والحلال والحرام والأمر والنّهي والقصص والعقائد والإخبار بالمغيّبات.

﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ الظاهر أن الضمير في «خذها» عائد على الألواح. ومعنى «بقوة» قال ابن عباس: بجدٍّ واجتهاد فِعْلَ أولي العزم. وقال: أُمر أن يأخذ بأشد ما أمر به قومه. وقوله ﴿بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ ظاهره أنه أفعل التفضيل وفيها الحسن والأحسن كالقصاص والعفو والانتصار والصبر. ﴿سَأُوْرِيكُمۡ﴾ الإراءة هنا من رؤية العين ولذلك تعدّت إلى اثنين. و﴿دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ هي مصر. وثَمّ حال محذوفة تقديره: مدمّرةً، ألا ترى إلى قوله ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ

﴿فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف]، وقيل أريحا التي كان بها العمالقة، وقيل من الأرض المقدّسة. قال الزمخشري[١]: كيف أقفرت منهم ودمّروا لفسقهم [٢٢٥/أ] لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكّل بكم مثل نكالهم انتهى. وقرأ الحسن: سأوريكم بواوٍ ساكنة بعد الهمزة على ما يقتضيه رسم المصحف. ووجّهت هذه القراءة بوجهين: أحدهما ما ذكره أبو الفتح وهو أنه أشبع الضمّة ومطّها[٢]، فنشأ عنها الواو، قال: ويحسّن احتمال الواو في هذا الموضع أنه موضع وعيد وإغلاظ فمكّن الصوت فيه انتهى. فيكون كقوله[٣]:

[من البسيط]

[وأنني حيثما يثني الهوى بصري   من حيثما سلكوا] أدنو فأنظورُ

أي: فأنظر. وهذا التوجيه ضعيف لأن الإشباع بابه ضرورة الشعر. والثاني ما ذكره الزمخشري[٤] قال: وقرأ الحسن: سأوريكم، وهي لغة فاشية في الحجاز؛ يقال: أورني كذا وأوريته، فوجهه أن يكون من أوريتُه الزند كأن المعنى: بيِّنْهُ لي وأَنِرْه لأستبينه انتهى. وهي أيضاً في لغة أهل الأندلس كأنهم تلقّفوها من لغة الحجاز وبقيت في لسانهم إلى الآن، وينبغي أن ينظر في تحقيق هذه اللغة أهي في لغة الحجاز أم لا. وقرأ ابن عباس وقسامة بن زهير: سأورثكم، قال الزمخشري[٥]: وهي قراءة حسنة يصحّحها قوله تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ الآية، لمّا ذكر «سأريكم دار الفاسقين» ذكر ما يفعل

---

(١) الكشاف ٢: ١١٧.

(٢) ق: ومطلها.

(٣) البيت لابن هرمة في ديوانه ص٢٣٩.

(٤) الكشاف ٢: ١١٧.

(٥) الكشاف ٢: ١١٧.

بهم من صرفه إياهم عن آياته لفسقهم وخروجهم عن طورهم إلى وصفٍ ليس لهم. ثم ذكر تعالى من أحوالهم ما استحقّوا به اسم الفسق. ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ وصفهم[١] هذا الوصف الذميم وهو التكبّر عن الإيمان حتى لو عُرضت عليهم كل آية لم يروها آية فيؤمنوا بها، وهذا حتم منه تعالى على الطائفة التي قدّر أن لا يؤمنوا. ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ ﴾ الآية، أراهم الله تعالى السبيلين فرأوهما فآثروا الغيّ على الرشد كقوله تعالى ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي: ذلك الصرف عن الآيات هو بسبب تكذيبهم بها وغفلتهم عن النظر فيها والتفكر في دلالتها. والمعنى أنهم استمر تكذيبهم، وصار لهم ذلك ديدناً[٢] حتى صارت تلك الآيات لا تخطر لهم ببال، فحصلت الغفلة عنها والنسيان لها حتى كانوا لا يذكرونها ولا شيئاً منها. والظاهر أن الصرف سببه التكذيب والغفلة من جميعهم ويحتمل أن الصّرف سببه التكذيب، ويكون قوله ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ استئناف إخبار منه تعالى عنهم، أي: من شأنهم أنهم كانوا غافلين عن الآيات وتدبّرها، فأورثَتْهم الغفلة التكذيب بها. والظاهر أن «ذلك» مبتدأ وخبره «بأنهم» أي: ذلك الصرف كائن بأنهم كذّبوا، وجوّزوا أن يكون منصوباً فقدّره ابن عطيّة: فعَلْنا ذلك، وقدّره الزمخشري[٣]: صرفهم الله تعالى ذلك الصرف بعينه.

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ

(١) ق: صرف.

(٢) ق: ديناً.

(٣) الكشاف ٢: ١١٧.

أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ
إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا
وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ ﴾ الآية، إن كان الاتخاذ بمعنى اتخاذه إلهاً معبوداً فصحّ نسبته إلى القوم، وذُكر أنهم كلّهم عبدوه غير هارون، ولذلك قال ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأعراف]، وقيل إنّما عبده قوم منهم لا جميعهم لقوله تعالى ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف]. وإن كان بمعنى العمل كقوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت] أي: عملت وصنعت، فالمتّخِذ إنما هو السامريّ واسمه موسى بن ظفر من قرية تسمّى سامرة، ونُسب ذلك إلى قوم موسى مجازاً كما قالوا: بنو تميم قتلوا فلاناً، وإنما قتله واحد منهم ولكونهم راضين بذلك.

ومعنى ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ من بعد مضيّه للمناجاة. ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ يتعلق بـ«اتّخذ»، وبها يتعلق «من[1] بعده» وإن كانا حرفي جر بلفظ واحد. وجاز ذلك لاختلاف مدلوليهما لأن «مِن» الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض. وقرىء: [٢٢٥/ب] من حَلْيهم، مفرداً ومن حُلِيّهم جمعاً. وأصله حُلُوْيٌ

(١) ق: بمن بعده وإن كان.

على وزن فُعولن فاجتمعت واو وياء فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها، ثم كسر ما قبلها لتصحّ الياء[١]، ثم أتبعت حركة الحاء لحركة اللام فقيل: حِلِيّ كما قالوا[٢]: عِصِيّ. والعجل ولد البقرة القريب الولادة. ومعنى ﴿جَسَدًا﴾ جثة جماداً ليس مصوراً [بالخطّ] في حائط ولا رقماً في ثوب. وكان ذلك بسبب ما كان تقدم من أنهم مرّوا بقوم يعبدون البقرة فقالوا تلك المقالة الشنيعة. ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ ظاهره أنه قامت به الحياة ولذلك كان له خوار. وقيل: لمّا صنعه السامري أجوف تحيّل لتصويته بأن جعل في جوفه أنابيب على شكل مخصوص وجعله في مهبّ الريح فتدخل في تلك الأنابيب فيظهر له صوت يشبه الخوار، فإذا خار، سجدوا له، وإذا سكت رفعوا.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ إن كان «اتخذ» بمعنى[٣] عمل، وصنع، فلا بدّ من تقدير محذوف يترتّب عليه هذا الإنكار وهو: فعبدوه وجعلوه إلٰهاً لهم، وإن كان المحذوف إلٰهاً أي: اتخذوا عجلاً جسداً له خوار إلٰهاً فلا يحتاج إلى حذف جملة. وهذا استفهام إنكار حيث عبدوا جماداً أو حيواناً عاجزاً، عليه آثار الصنعة، لا يمكن أن يتكلم ولا يهدي. وقد ركز في العقول أنّ من كان بهذه المثابة، استحال أن يكون إلٰهاً، وهذا نوع من أنواع البلاغة يسمّى الاحتجاج النظري، وبعضهم يسميه المذهب[٤] الكلامي.

والظاهر أن ﴿يَرَوْا﴾ بمعنى يعلموا. وسلب تعالى عنه هذين الوصفين دون

---

(١) هذا التعليل ينطبق على قراءة من قرأ: حُلِيّهم جمعاً بالضمّ والتشديد، على ثُدِيّ.

(٢) ق: كما قال. وهذا التعليل ينطبق على قراءة لم يذكرها المصنف وهي قراءة من قرأ: من حِلِيّهم جمعاً بالكسر والتشديد، على عِصِيّ.

(٣) ق: بمنع.

(٤) ق: الاحتجاج.

باقي أوصاف الإلهيّة لأن انتفاء التكليم يستلزم انتفاء العلم، وانتفاء الهداية إلى سبيل [يستلزم] انتفاء القدرة. وانتفاء هذين الوصفين وهما العلم والقدرة يستلزمان انتفاء باقي الأوصاف، فلذلك خُصّ هذان الوصفان بانتفائهما. ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: أقدموا على ما أقدموا عليه من هذا الأمر الشنيع وكانوا واضعين الشيء في غير موضعه، أي: من شأنهم الظلم فليسوا مبتكرين وضع الشيء في غير موضعه.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ قال الزمخشري[١]: لمّا اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأنّ عادة من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعضّ يده غمًّا فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها، و«سقط» مسند إلى «في[٢] أيديهم» وهو من باب الكناية انتهى. وأصل السقوط الوقوع من علوّ. ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ الآية، انقطاع إلى الله تعالى واعتراف بعظيم ما أقدموا عليه. ولما كان هذا الذنب وهو اتخاذ غير الله إلهاً أعظم الذنوب بدؤوا بالرحمة التي وسعت كل شيء، ومن نتائجها غفران الذنب.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآية، أخبره تعالى قبل رجوعه أنهم قد فُتنوا بالعجل، فلذلك رجع وهو غاضب، ويدل على هذا القول قوله تعالى ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه]. و﴿غَضْبَٰنَ﴾ صيغة مبالغة، والغضب غليان في القلب بسبب حصول ما يؤلم[٣]. و﴿أَسِفًا﴾ حزيناً والفعل منه أسِف يأسف. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾ تقدم الكلام على بئسما في أوائل

(١) الكشاف ٢: ١١٨.

(٢) ق: إلى ما في.

(٣) ق: ما لم يؤلم.

البقرة[١]. ومعنى ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي: من بعد انفصالي عنكم للمناجاة، ذمّهم على عبادة غير الله تعالى. و﴿أَعَجِلۡتُمۡ﴾ استفهام إنكار، يقال: عجل عن الأمر إذا تركه، وأعجله عنه غيرُه. والمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار موسى عليه السلام حافظين لعهده وما وصّاكم به؟. ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ أي: ألواح التوراة وكان حاملاً لها فوضعها بالأرض غضباً [٢٢٦/أ] على ما فعله قومه من عبادة العجل وحميّةً لدين الله تعالى. والظاهر أنه أخذ برأسه أي: أمسك رأسه جارّه إليه، والظاهر أن سبب هذا الأخذ هو غضبه على أخيه كيف عبدوا العجل وهو قد استخلفه فيهم، وأمره بالإصلاح، وأن لا يتبع سبيل من أفسد، وكيف لم يكفّهم عن ذلك. ﴿قَالَ ٱبۡنَ[٢] أُمَّ﴾ الآية، ناداه نداء استعطاف وترفّق وكان شقيقه، وهي عادة العرب تتلطف وتتحنّن بذكر الأم كما قال[٣]: [من الخفيف]

يا بن أمي ويا شُقَيّقَ[٤] نفسي ... أنت خلَّفْتني لدهرٍ شديدِ

وقرىء بكسر الميم اجتزاءً بالكسرة عن الياء، إذ أصله: يا بن أمّي. وقرىء: يا بن أمَّ بفتح الميم المشدّدة اجتزاءً بالفتحة عن الألف، إذ أصله: يا بن أُمّا، والألف منقلبة عن الياء كما قال[٥]: [من الرجز]

يا بنة عمّا لا تلومي واهجعي ... [ألم يكن يبيضُّ لو لم يصلعِ]

---

(١) انظر تفسير الآية ٩٠ من البقرة.

(٢) ق: يا بن أمّ.

(٣) البيت لأبي زبيد الطائي في رثاء أخيه، وهو في المقتضب ٤: ٢٥٠.

(٤) ق: شقيقي.

(٥) البيت لأبي النجم في النوادر ص١٩، والمقتضب ٤: ٢٥٢.

يريد: يا بنة عمّي. ومعنى ﴿ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾ وجدوني ضعيفاً. ولمّا أبدى له[1] ما كان منهم من الاستضعاف له ومقاربة قتلهم [إياه] سأله ترك ما يسرّهم بفعله فقال ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ أي: لا تسرّهم بما تفعل بي فأكون ملوماً منهم ومنك، قال الشاعر[2]: [من الكامل]

[فلرحمة المتوجّعين مرارةٌ] والموتُ دون شماتة الأعداء

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾ لمّا اعتذر إليه أخوه، استغفر لنفسه وله، قالوا: واستغفاره لنفسه بسبب فعلته مع أخيه وعجلته في إلقاء الألواح، واستغفاره لأخيه من فعلته في الصبر لبني إسرائيل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ الظاهر أنه من كلام الله إخباراً عمّا ينال عُبّاد العجل، ومخاطبة لموسى عليه السلام بما ينالهم، ويدلّ عليه قوله آخر الآية «وكذلك نجزي المفترين».

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾ أي: رجعوا إلى الله تعالى. ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: من بعد عمل السيئات. ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ داموا على إيمانهم وأخلصوا فيه. «والذين» مبتدأ وخبره «إن ربك» والعائد على المبتدأ محذوف تقديره: لغفور رحيم بهم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ

(١) ق: لهم.

(٢) لعله لابن أبي الشبل البغدادي، انظر الوفيات ٤: ٣٩٣.

هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ
إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ
ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ الآية، سكوت غضبه كان، والله أعلم، بسبب اعتذار أخيه وكونه لم يقصّر في نهي بني إسرائيل عن عبادة العجل ووعد الله تعالى إياه بالانتقام منهم. وسكوت الغضب استعارة؛ شبّه خمود الغضب [بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوته، جعل الغضب] كأنه إنسان يناجي موسى ويهيّجه لما فعل قومه من اتخاذهم العجل، ولذلك ألقى الألواح ثم إنه سكت عنه. وهذا من بديع الاستعارة: جعل سكون الغضب سكوتاً. وقرأ معاوية بن قرّة: ولمّا سكن بالنون عوض التاء. ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ هو جواب «لمّا»، وكان ألقاها غضباً على قومه فلما سكت الغضب أخذها. ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ أي: [فيما] نقل وحوّل منها. واللام في «لربهم» مقوية لوصول الفعل الذي هو «يرهبون» إلى المفعول المتقدم كقوله تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف].

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ اختار افتعل من الخير وهو التخيّر والانتقاء. و«أختار» من الأفعال التي تعدّت إلى اثنين أحدهما بنفسه والآخر بواسطة حرف الجر، ثم يحذف حرف الجر ويتعدّى إليه الفعل فتقول: اخترت زيداً من الرجال واخترت زيداً الرجالَ، قال الشاعر[1]: [من البسيط]

اخترتُك الناسَ إذ رثّتْ خلائقهم واعتلّ من كان يُرجى عنده السُّولُ

﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ قال وهب بن منبه: قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: إنّ طائفة تزعم أن الله لا يكلّمك فخذ منّا من يذهب معك ليسمعوا كلامه فيؤمنوا، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار سبعين من خيارهم، ثم ارتقِ بهم الجبل أنت وهارون واستَخْلِفْ يوشع، ففعل. فلما سمعوا كلامه سألوا موسى أن يريهم [٢٢٦/ب] الله جهرة فأخذتهم الرجفة. وفي الكلام حذف تقديره: فرجف بهم الجبل وصعقوا.

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ﴾ مفعول «شئت» محذوف تقديره: لو شئت إهلاكنا، وجوابه «أهلكتهم» ولم يأت الجواب باللام. ﴿وَإِيَّٰىَ﴾ ضمير المتكلم معطوف على الضمير المنصوب في «أهلكتهم». ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ الظاهر أنه استفهام استعلام: أيقع إهلاك المختارين وهم خير بني إسرائيل بما فعل غيرهم إذ من الجائز في العقل ذلك، ألا ترى قوله تعالى ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال] وقوله عليه السلام[2] وقد قيل: «أنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال:نعم إذا كَثُر الخَبَث». وكما ورد[3]:

---

(١) البيت للراعي النميري في ديوانه ص١١٦، وفي رواية الديوان إقواء.

(٢) أخرجه مسلم ٤: ٢٢٠٨ من حديث زينب بنت جحش، ومالك في الموطأ ٢: ٩٩١ من حديث أم سلمة، والبخاري ٦: ٢٦٠٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢: ٧٤٦ من حديث جبير بن مطعم عن عائشة بلفظ مقارب.

إن قوماً يُخسف بهم. قيل: وفيهم الصالحون؟ فقيل: يبعثون على نيّاتهم. وكلامنا هذا معناه «بما فعل السفهاء منا» وهم عُبّاد العجل.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ «إن» نافية بمعنى ما، و«هي» ضمير يعود على ما يفهم من سياق الكلام أي: إن الفتنة إلا فتنتك أي: راجعة إليك إذ أنت موجد الخير والشر، وأنت موقع ضلال مَن فَتَنْتَه وهداية من شئت، وهذا هو الاعتقاد الصحيح أن الله تعالى يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء. ومفعول «تشاء» محذوف تقديره: من تشاء إضلاله ومن تشاء[1] هدايته. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: القائم بأمرنا. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ سأل الغفران والرحمة له لهم لما كان قد اندرج قومه في قوله «أنت ولينا». وفي سؤال المغفرة والرحمة له ولهم - وكان قومه أصحاب ذنوب - أكّد استعطاف ربه تعالى، وغفران تلك الذنوب فأكّد ذلك ونبّه بقوله «وأنت خير الغافرين».

ولما كان هو وأخوه عليهما السلام من المعصومين من الذنوب، فحين سأل المغفرة له ولأخيه وسأل الرحمة لم يؤكد المغفرة بل قال ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف] فنبّه على أنه تعالى أرحم الراحمين، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف]؟. وكان تعالى خير الغافرين لأن غيره يتجاوز [عن] الذنب طلباً للثناء أو الثواب أو دفعاً للصفة الخسيسة عن القلب وهي صفة الحقد. والباريء تعالى منزه عن أن يكون غفرانه لشيء من ذلك.

﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: ما يحسن من نعمة وطاعة وغير ذلك. وحسنة الآخرة هي الجنة لا حسنة دونها. ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ تعليل

(١) ق في المواضع الثلاثة: يشاء.

لطلب الغفران والرحمة. وقرأ الجمهور: هُدنا بضم الهاء من هاد يهود أي: تبنا إليك، قاله ابن عباس. وقرأ زيد بن علي وأبو وجزة: بكسر الهاء من هاد يهيد إذا حرّك، أي: حرّكنا أنفسنا وجذبناها لطاعتك، قال الشاعر(١):

[من السريع]

قد علمَتْ سلمى وجاراتُها أَنّـي مِـنَ الله لهـا هـائِـدُ

أي: مائل. ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ الظاهر أنه استئناف إخبار عن عذابه ورحمته. ومفعول «من أشاء» محذوف تقديره: أشاء إصابته به. وقرأ زيد بن علي والحسن وطاوس وعمرو بن فائد: من أساء، من الإساءة. وقرأ بها سفيان بن عيينة مرّة، واستحسنها، وذُكر أن الشافعي صحّف «من أشاء» بقوله: من أساء، ثم وجدت قراءة كما ذكرنا. ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ أي: أقضيها وأقدّرها والضمير عائد على الرحمة لأنها أقرب مذكور. وفهم المفسرون من قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلى آخر الأوصاف أن المتّصفين بذلك هم أمّة محمد رسول الله ﷺ.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلۡأُمِّىَّ﴾ الآية، هذا من بقيّة خطابه تعالى لموسى عليه السلام، وفيه تبشير له ببعثة محمد ﷺ وذكر لصفاته وإعلام له أيضاً أنه ينزل كتاباً يسمّى الإنجيل. ومعنى الاتباع الاقتداء به فيما جاء به اعتقاداً وقولاً [٢٢٧/أ] وفعلاً. وجمع هنا بين الرسالة والنبوّة لأن الرسالة في بني آدم أعظم شرفاً من النبوّة، أو لأنها بالنسبة إلى الآدمي والملك أعمّ

(١) في شعر عمرو بن معد يكرب ص١٥٤:

قد علمت سلمى وجاراتها مـا قطّـر الفـارس إلا أنـا

ولعلّ البيت الذي أورده المصنّف ملفّق من بيتين أو لعلّه سواه. وانظر أيضاً الكتاب ٢: ٣٥٣، وشرح الحماسة للمرزوقي ١: ٤١١، وشرح شواهد المغني ٥: ٢٥٦.

فبدىء به. و﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ هو الذي على صفة أمة العرب: أنّا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب، فأكثر العرب لا تكتب ولا تقرأ، وكونه صلى الله عليه وسلم أمّياً من جملة المعجز. ومعنى ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ أي: يجدون وصفه ونعته. قال ابن عباس: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بخلع الأنداد وبمكارم الأخلاق وصلة الأرحام. ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: المستلذّات، ويبعد تفسيره هنا بالحلال.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ وهو ما كانت العرب تستخبثه كالحية والعقرب والحشرات والدم والميتة ولحم الخنزير، وما جاء في الشرع النّهي عن أكله كذي مخلب من الطير وذي ناب من السّباع، وما أمر بقتله كالحدأة والغراب والفأرة والعقرب وغير ذلك. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ تقدّم تفسير الإصر في البقرة[1]. ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا مثل لما كُلّفوا من الأمور الصعبة كقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، والقصاص حتماً من القاتل عمداً كان أو خطأً، وترك الاشتغال يوم السبت، وتحريم العروق في اللحم. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ أثنوا عليه ومدحوه. وقرىء: وعَزَروه، بالتخفيف. وقرىء بزاءين أي: وعَزَّزُوه. و«النّور» القرآن وهو على حذف مضاف أي: أنزل مع نبوّته، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لمّا ذكر تعالى لموسى عليه السلام صفة محمد ﷺ، وأخبر أن من أدركه وآمن به أفلح، أمر تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بإشهار دعوته ورسالته إلى الناس كافة والدعاء إلى الإيمان بالله تعالى وبرسوله وكلماته واتّباعه. ودعوة رسول الله ﷺ عامة للإنس والجن وتقتضيه الأحاديث النبوية. و«الذي» في موضع نصب على

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٨٦ من البقرة.

المدح أو رفع، وأجاز الزمخشري[١] أن يكون مجروراً صفة «لله» تعالى وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله «إليكم». وقال أبو البقاء[٢]: ويبعد أن يكون صفة لله تعالى أو[٣] بدلاً منه لما فيه من الفصل بينهما بـ«إليكم» وبالحال، و«إليكم» متعلق بـ«رسول»، و«جميعاً» حال من ضمير «إليكم».

وقال الزمخشري[٤]: «لا إله إلا هو» بدل من الصلة التي هي «[له] ملك السماوات والأرض» وكذلك «يحيي ويميت». وفي «لا إله إلا هو» بيان للجملة قبلها لأنّ مَن مَلَك السماوات والأرض كان هو الإله على الحقيقة. وفي «يحيي ويميت» بيان لاختصاصه بالإلهية لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره انتهى. وإبدال الجمل [من الجمل] غير المشتركة في عامل لا نعرفه، وكأن الزمخشري لاحظ أنّ كلاًّ من الجملتين يصحّ أن يكون صلة. والظاهر أن تكون هذه جملاً مستقلة من حيث الإعراب وإن كان متعلقاً بعضها ببعض من حيث المعنى.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ لما ذكر أنه[٥] رسول الله ﷺ، أمرهم بالإيمان بالله تعالى وبه، وعدل عن ضمير المتكلم إلى الظاهر وهو الالتفات، لما في ذلك من البلاغة بأنه هو النبي السابق ذكره في قوله تعالى «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي»[٦] وأنه هو المأمور باتّباعه الموجود

---

(١) انظر الكشاف ٢: ١٢٣.

(٢) إملاء ١: ٢٨٧. وليست الجملة الأخيرة فيه: وجميعاً حال من ضمير إليكم.

(٣) ق: وبدلاً.

(٤) الكشاف ٢: ١٢٣.

(٥) ق: أنّ.

(٦) الآية ١٥٧ السابقة.

بالأوصاف السابقة. والظاهر أن كلماته هي الكتب الإلهية التي أنزلت على من تَقَدَّمه وعليه.

ولمّا كان الإيمان بالله تعالى هو الأصل يتفرّع عنه الإيمان بالرسول والنبي، بدأ به ثم أتبعه بالإيمان بالرسول ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى المعجز الدّال على نبوّته وهو كونه أمّياً وظهر عنه من المعجزات في ذاته ما ظهر من القرآن الجامع لعلوم الأولين والآخرين [٢٢٧/ب] مع نشأته في بلدٍ عارٍ من أهل العلم لم يقرأ كتاباً ولم يخطّ ولم يصحب عالماً ولا غاب عن مكة غيبة تقتضي تعلّماً.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ﴾ الآية، لما أمروا بالإيمان بالله

ورسوله وأمروا[١] باتّباعه، ذكر أنّ من قوم موسى من وُفّق للهداية وَعَدل ولم يَجُر، ولا تكون له هداية إلا باتّباع شريعة موسى عليه السلام قبل مبعث رسول الله ﷺ وباتّباع شريعة رسول الله ﷺ بعد مبعثه. فهذا إخبار عمّن كان من قوم موسى بهذه الأوصاف فكان المعنى أنهم كلهم لم يكونوا ضُلاّلاً بل كان منهم مهتدٍ كعبد الله بن سلام، وأصحابه.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ و«اثنتي عشرة» حال. وأجاز أبو البقاء[٢] أن يكون «قطّعنا» بمعنى صيّرنا، وأن ينتصب «اثنتي عشرة» على أنه مفعول ثانٍ لـ«قطّعنا». ولم يعدّ النحويون «قطّعنا» في باب ظننت، وجزم به الحوفي فقال: «اثنتي عشرة» مفعول لـ«قطّعناهم» أي: جعلناهم اثنتي عشرة، وتمييز «اثنتي عشرة» محذوف لفهم المعنى تقديره: اثنتي عشرة فرقة، و«أسباطاً» بدل من «اثنتي عشرة». وتقدم تفسير الأسباط في البقرة[٣]. و﴿أُمَمًا﴾ قال أبو البقاء[٤]: نعت لـ«أسباط» أو بدل بعد بدل. ولا يجوز أن يكون «أسباطاً» تمييزاً لأنه جمع، وتمييز هذا النوع لا يكون إلا مفرداً.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ تقدم تفسير نظيره في البقرة[٥]. «فانبجست» أي: عرقت[٦]، وانفجرت: سالت. وقال الواحدي: الانبجاس: الانفجار، يقال: بجس وانبجس بمعنى واحد.

---

(١) ق: وأمر.

(٢) إملاء ١: ٢٨٧.

(٣) انظر تفسير الآية ١٣٦ من البقرة.

(٤) إملاء ١: ٢٨٧.

(٥) انظر تفسير الآية ٦٠ من البقرة.

(٦) عرقت: ترشحت.

قال الزمخشري[١]: «أناس» اسم جمع غير تكسير نحو رُخاء وثُناء وتُؤام وأخوات لها. ويجوز أن يقال إن الأصل الكسر والتكسير، والضمة بدل من الكسرة كما أُبدلت في نحو سكارى وغيارى انتهى. لا يجوز ما قال، لأن سيبويه نص في كتابه[٢] على أن فُعال جمع تكسير أصل كما أن فِعال كذلك. ولم يُسمع كسر همزة أُناس كما سُمع الضّم في فُعالى.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ تقدمت هذه القصة وتفسيرها في البقرة[٣]، وكأن هذه مختصرة من تلك؛ إذ هناك «وإذا قلنا ادخلوا» وهنا «وإذ قيل لهم اسكنوا»، وهناك «رغداً» وسقط هنا، وهناك ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ وهنا «سنزيد»، وهناك «فأنزلنا على الذين ظلموا» وهنا «فأرسلنا عليهم». وبينهما تغاير في بعض الألفاظ لا تناقض فيه؛ فقوله «وإذ قيل لهم» وهناك «وإذ قلنا» فهنا حذف الفاعل للعلم به وهو الله تعالى، وهناك «ادخلوا» وهنا «اسكنوا» والسكنى ضرورة تعقب[٤] الدخول، فأمروا هناك بمبدأ الشيء وهنا بما تسبّب عن الدخول، وهناك «فكلوا» بالفاء وهنا بالواو، فجاءت الواو على أحد محتملاتها من كون ما بعدها وقع بعد ما قبلها. وقيل: الدخول حالة منقضية فحسن ذكر فاء التعقيب بعده، والسكنى حالة مستمرة فحسن الأمر بالأكل معه لا عقيبه، فحسنت الواو الجامعة للأمرين في الزمن الواحد وهو أحد محامِلها. وقيل: ثبت «رغداً» بعد الأمر بالدخول لأنها حالة قدوم فالأكل

---

(١) الكشاف ٢: ١٢٤.

(٢) انظر ٣: ٦٣٩.

(٣) في الآيتين ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾، وأثبتُّهما لتسهيل المقارنة.

(٤) ق: تتعقب.

فيها ألذّ وأتمّ وهم إليه أحوج بخلاف السكنى فإنها حالة استقرار واطمئنان فليس الأكل فيها ألذّ ولا هم أحوج إليه. وأما التقديم والتأخير في «وقولوا» و«ادخلوا» فقال الزمخشري(١): سواء قدّموا الحطّة على دخول الباب أو أخّروها فهم جامعون [في] الإيجاد بينهما انتهى.

وقوله: سواء قدّموا وأخّروها تركيب غير عربي وإصلاحه: سواء أقدموا أم أخّروها كما قال تعالى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم]. ويمكن أن يقال: ناسب تقديم الأمر بدخول الباب سجّداً مع تركيب «ادخلوا هذه القرية» [٢٢٨/أ] لأنه فعل دالّ على الخضوع والذّلة و«حطّة» قول، والفعل أقوى في إظهار الخضوع من القول، فناسب أن يذكر مع مبدأ الشيء وهو الدخول، ولأنّ قبله «ادخلوا» فناسب الأمر بالدخول للقرية الأمر بدخول بابها [على هيئة الخضوع، ولأن دخول القرية لا يمكن إلا بدخول بابها] فصار باب القرية كأنه بدل من القرية أعيد معه العامل بخلاف الأمر بالسكنى.

وأما «سنزيد» هنا فقال الزمخشري(٢): موعد بشيئين: بالغفران والزيادة، وطرح الواو لا يخلّ بذلك لأنه استئناف مرتّب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: سنزيد المحسنين. وزيادة «منهم» بيان «فأرسلنا» و«أنزلنا». و«يظلمون» و«يفسقون» من وادٍ واحد [انتهى]. وقرأ الحسن: حطّةً بالنصب على المصدر أي: حطّ ذنوبنا حطّة. ويجوز أن ينتصب بـ«قولوا» على حذف، التقدير: وقولوا قولاً حطّة، أي: ذا حطّة، فحذف ذا وصار «حطة» وصفاً للمصدر المحذوف كما تقول: قلت حسناً وقلت حقًّا أي: قولاً حسناً وقولا حقًّا.

---

(١) الكشاف ٢: ١٢٥.

(٢) الكشاف ٢: ١٢٥.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ الآية، الضمير في «واسألهم» عائد على من بحضرة الرسول من اليهود. وذكر أن بعض اليهود المعارضين للرسول عليه السلام قالوا له: لم يكن من بني إسرائيل عصيان ولا معاندة لما أُمروا به، فنزلت هذه الآية موبّخةً لهم ومقررةً كذبهم ومعلنةً بما جرى على أسلافهم من الإهلاك، والمسخ.وكانت اليهود تكتم هذه القصة فهي ممّا لا يُعلم إلا بكتاب أو وحي من الله تعالى، فإذا أعلمهم بها من لم يقرأ كتابهم عُلم أنه من جهة الوحي. وقوله «عن القرية» فيه حذف أي: عن أهل القرية. والقرية هي إيلة وقيل طبريّا قاله ابن عباس وجماعة. ومعنى ﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: بقرب البحر مبنيّة بشاطئه[1]. ويحتمل أن يكون معنى الحضارة على جهة التعظيم لها أي: هي الحاضرة في قرى البحر، والتقدير: حاضرة قرى البحر، أي: يحضر أهل قرى البحر إليها لبيعهم وشرائهم وحاجتهم.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يجاوزون أمر الله تعالى في العمل يوم السبت. وقد تقدم منه تعالى النهي عن العمل فيه والاشتغال بصيد أو غيره[2]، إلا أنه في هذه النازلة كان عصيانهم، أي: حدث عصيانهم. وقرىء: يُعِدّون، من الإعداد، وكانوا يعدّون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير عبادة الله. و«إذ» ظرف والعامل فيه قال الحوفي: «إذ» متعلقة بِسَلْهُم[3] انتهى. ولا يُتصور لأنّ «إذ» ظرف لما مضى و«اسألهم» مستقبل ولو كان ظرفاً مستقبلاً لم يصحّ المعنى لأن العادين وهم أهل القرية متقدمون فلا يمكن سؤالهم، والمسؤول غير أهل القرية العادين.

---

(١) ق: باثناطيه.

(٢) انظر البقرة ٢: ٦٥، والنساء ٤: ١٥٤.

(٣) ق: بسيلهم.

وقال الزمخشري[١]: «إذ يعدون» بدل من «القرية»، والمراد بالقرية أهلها كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال انتهى. وهذا لا يجوز لأنّ «إذ» من الظروف التي لا تتصرف ولا يدخل عليها حرف جر، وجَعْلها بدلاً يجّوز دخول «عن» عليها، لأن البدل هو على نيّة تكرار العامل، ولو أدخلت عن عليها، لم يَجُز، وإنما تُصُرِّفَ فيها بأن أضيف إليها بعض الظروف الزمانية نحو: يوم إذ كان كذا. وأما قول من ذهب إلى أنها يُتصرف فيها بأن تكون مفعولة باذكر، فهو قول من عجز عن تأويلها على ما ينبغي لها من إبقائها ظرفاً. والعامل في «إذ» محذوف تقديره: واسألهم عن قصة أهل القرية وقت عَدْوهم.

و﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ العامل في إذ «يعدون»[٢] أي: إذ عَدَوْا في السبت إذ أتتهم، لأن إذ ظرف لما مضى يصرف المضارع للمضيّ. وقال الزمخشري[٣]: ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل انتهى. يعني بدلاً من «القرية» بعد بدل «إذ يعدون» وقد ذكرنا أن ذلك لا يجوز. ﴿شُرَّعًا﴾ ظاهرة، [٢٢٨/ب] الواحد شارع، والعامل في «ويوم» قوله «لا تأتيهم» وفيه دليل على أنّ ما بعد لا للنفي يعمل فيما قبلها، وفيه ثلاثة مذاهب: الجواز مطلقاً، والمنع مطلقاً، والتفصيل بين أن تكون «لا» جواب قسم فيمنع، أو غير ذلك فيجوز وهو الصحيح. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البلاء بأمر الحوت. ﴿نَبْلُوهُم﴾ أي: بلوناهم وامتحنّاهم.

---

(١) الكشاف ٢: ١٢٥.

(٢) وإذ تأتيهم العامل في إذ يعدون. وردت هذه العبارة في ق قبل قليل بعد قوله «من إبقائها» ظرفاً.

(٣) الكشاف ٢: ١٢٥.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟
مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن
مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ
وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ
يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ
ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟
أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين جرّبوا الوعظ فيهم فلم يروه يجدي. والظاهر أن القائل غير المقول لهم: «لم تعظون قوماً» فتكون ثلاث[1] فرق: فرقة اعتدوا، وفرقة وعظت ونهت، وفرقة اعتزلت فلم تَنْهَ ولم تَعْتَدِ. وهذه الطائفة هي القائلة للواعظ «لم تعظـون قوماً». وقرىء: معذرةٌ، بالرفع أي: موعظتنا إقامة عذر إلى الله تعالى. وقرىء: معذرةً، بالنصب، وقال أبو البقاء[2]: من نصب فعلى المفعول له، أي: وعَظْنا للمعذرة، وقيل هو مصدر أي يعتذرون معذرة، وقالهما

(١) ق: ثلاثة.

(٢) إملاء ١ : ٢٨٧.

الزمخشري[١].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الضمير في «نسوا» للمنهيين أي: تركوا ما ذكّرهم به الصالحون. وجَعْل الترك نسياناً مبالغة، إذ أقوى أحوال الترك أن ينسى المتروك. و«ما» موصولة بمعنى الذي. و«السوء» عام في المعاصي وبحسب القصص يختصّ هنا بصيد الحوت. و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم العاصون، نبّه على العلّة في أخذهم وهي الظلم. وقرىء: بِيْس، على وزن فِعْل، وبالهمز. [وبئيس] على وزن فعيل. وبَيْئَس، على وزن فيعَل. هذه المشهورات وذكر في البحر اثنتين[٢] وعشرين قراءة.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: استعصوا. والعتوّ هو الاستعصاء والتأبّي[٣] في الشيء. وباقي الآية تقدم تفسيره في البقرة[٤]. والظاهر أن العذاب والمسخ والهلاك إنما وقع بالمعتدين في السبت، والأمة القائلة «ولِمَ تعظون قوماً» هم من فريق الناهين الناجين، وإنما سألوا إخوانهم عن علّة وعظهم وهو[٥] لا يجدي فيهم شيئاً البتّة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى قبح أفعالهم واستعصاءهم أخبر تعالى أنه حكم عليهم بالذّل والصّغار إلى يوم القيامة. «تأذن» أعلم، من الأذان وهو الإعلام. وأُجري مجرى القسم فتُلُقّي بما يُتلقى به القسم وهو قوله «ليبعثن». ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ إخبار يتضمن سرعة إيقاع

---

(١) الكشاف ٢: ١٢٦.

(٢) ق: اثنين. وانظر البحر ٤: ٤١٢.

(٣) ق: والتأني.

(٤) انظر تفسير الآية ٦٥ من البقرة.

(٥) ق: وهم.

العذاب بهم. ﴿وَإِنَّهُۥ(١) لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ترجية لمن آمن منهم ومن غيرهم ووعدٌ لمن تاب منهم وأصلح.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي: فِرَقاً متباينين في أقطار الأرض، فقلّ أرض لا يكون فيها منهم شرذمة، وهذا حالهم وهم في كل مكان تحت الصّغار والذلّة. و«أمماً» حال، وقال الحوفي: مفعول ثانٍ. وتقدم قوله هذا في ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف]. و[﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾] من آمن منهم، أي: من آمن بعيسى ومحمد عليهما السلام [أو من آمن بالمدينة]. و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصلاح [أي: ومنهم قوم دون أهل الصلاح] لأنه لا يعتدل التقسيم إلا على هذا التقدير من حذف مضاف، أو يكون «ذلك» المعنيّ به أولئك فكأنه قال: ومنهم قوم دون أولئك. وقد ذكر النحويون أن اسم الإشارة المفرد قد يستعمل للمثنى والمجموع فيكون «ذلك» بمعنى أولئك على هذه اللغة ويعتدل التقسيم. [و«دون» ظرف في موضع الصفة لمبتدأ محذوف خبره في المجرور قبله، أي: ومنهم قوم دون ذلك].

قال ابن عطية: فإن أريد بالصلاح الإيمان فـ«دون» بمعنى غير يراد بها الكفرة انتهى. إنْ أراد أنّ «دون» ترادف غير، فهذا ليس بصحيح، وإن أراد أنه يلزم ممّن كان دون شيء أن يكون غيره فصحيح. ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالصحّة والرخاء والسعة و«السيئات» مقابلاتها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الطاعة ويتوبون عن المعصية.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [قال ثعلب: الناس كلهم يقولون]: خَلَف صدقٍ

(١) ق: وإن ربك.

للصالح وخَلْف [٢٢٩/ أ] سوءٍ للطالح، ومنه قول الشاعر(١): [من الكامل]

ذهب الذين يُعاش في أَكْنافِهِمْ وبقيتُ في خَلْفٍ كَجلْدِ الأَجْرَبِ

﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم ولا يعملون بها. و﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هو ما يأخذونه من الرُّشا والمكاسب الخبيثة، و«العَرَض» ما يعرض ولا يثبت. وفي قوله «عرض هذا الأدنى» تخسيس لما يأخذونه وتحقير له. ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ قطع على الله تعالى بغفران معاصيهم، أي: لا يؤاخذنا الله تعالى بذلك، و«لنا» في موضع المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، تقول: غفر الله لزيد الذنب، فتحذف الفاعل والمفعول وتقيم المجرور مقام الفاعل فتقول: غُفر لزيد.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الظاهر أن هذا استئناف إخبار عنهم بانهماكهم في المعاصي، أي: وإن أمكنتهم الرُّشا والمكاسب الخبيثة لم يتوقّفوا عن أخذها ثانيةً ودائماً، فهم مصرّون على المعاصي. ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية، هذا توبيخ وتقريع وتقرير لما تضمّنه الكتاب من أخذ الميثاق أنهم لا يكذبون على الله تعالى. قال ابن زيد: كان يأتيهم المحقّ برشوة فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحكموا له به. و«أن لا يقولوا» في موضع رفع على البدل من «ميثاق الكتاب» و«درسوا» معطوف على قوله «ألم يؤخذ» وفي ذلك أعظم توبيخ وتقريع وهو أنهم تمرّدوا على ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء

---

(١) البيت للبيد في ديوانه ص١٥٣.

على الله. ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ أي: ولثواب دار الآخرة خير من تلك الرشوة الخبيثة الخسيسة المعقبة خزي الدنيا والآخرة.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [قرىء بالتشديد والتخفيف، أي: يتمسكون بالكتاب] أي: بما تضمّنه من حلال وحرام وعبادة. والتمسّك بالكتاب يستلزم إقامة الصلاة، لكنها أُفردت بالذكر هنا تعظيماً لشأنها لأنها عماد الدين [والصلة] بين العبد [وربّه]. و«الذين» استئناف إخبار [وهو] مبتدأ خبره «إنّا لا نضيع» إلخ، والرابط بينهما العموم في المصلحين أو ضمير محذوف تقديره: المصلحين منهم.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ النتق الجذب بقوة، وفسّره بعضهم بغايته وهو القلع، وتقول العرب: نتقت الزبدة من فم القربة، والناتق: الرحم التي تقلع الولد من الرجل، وقال النابغة الذبياني[1]: [من الكامل]

لم يُحرَموا حُسْنَ العزاء وأمُّهم طفحتْ عليك بناتقٍ مِذْكارِ

و«فوقهم» العامل فيه «نتقنا» ضُمِّن معنى رفعنا بالنتق الجبلَ فوقهم، كقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة]. «كأنه ظلة» في موضع الحال من «الجبل». والظلّة هنا معناها الغمامة. «وظنوا» هنا باقية على بابها من ترجيح أحد الجائزين. ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ تقدم تفسيرها في البقرة[2].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ

(١) ديوانه ص١٠٢.
(٢) انظر تفسير الآية ٦٣ من البقرة.

تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

«وإذ أخذ ربك من بني آدم» قال الزمخشري[1]: هذا من باب التمثيل والتخييل، ومعنى ذلك أنه تعالى نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركّبها فيهم، وجعلها مميّزة بين الضلال والهدى، فكأنه سبحانه وتعالى أشهدهم على أنفسهم، وقرّرهم وقال «ألست بربكم»؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بالوحدانية. وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله ﷺ وفي كلام العرب: ومعلوم أنه لا قولَ ثَمَّ وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى انتهى.

ومفعول «أخذ»: ذرّيتهم[2]. ويحتمل في قراءة الجمع أن يكون مفعول «أخذ» محذوفاً لفهم المعنى [٢٢٩/ب] و«ذرّياتهم»: بدل من ضمير «ظهورهم» كما أن «من ظهورهم» بدل من قوله «من بني آدم» والمفعول المحذوف هو الميثاق كما قال ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥﴾﴾ [النساء]. وتقدير الكلام: وإذ أخذ ربك من ظهور ذريات بني آدم ميثاق التوحيد وإفراده بالعبادة. واستعار أن يكون أخذ الميثاق من الظهر كأن الميثاق لصعوبته وللارتباط به والوقوف عنده شيء ثقيل[3] يُحمل على الظهر. ﴿أَلَسۡتُ﴾ دخلت همزة الاستفهام على النفي فصار معناه التقرير، وهذا النوع من التقرير يجاب بما يجاب به النفي الصريح؛ فإذا قلت: ألست من بني فلان؟ أجبت ببلى وصار معناه: أنت من بني فلان، فكذلك هنا أجيب ببلى، ومعناه: أنت

(١) الكشاف ٢: ١٢٩.

(٢) ق: ذرّياتهم.

(٣) ق: قيل.

ربنا. ﴿شَهِدْنَآ﴾ الظاهر أن الضمير لله تعالى. ﴿عَنْ هَٰذَا﴾ إشارة إلى الميثاق والإقرار بالربوبية.

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ قرىء: أو يقولوا، بالياء وبالتّاء. المعنى أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم مذكّر بما تضمّنه العهد من توحيد الله تعالى وعبادته لكانت لهم حجتان: إحداهما[1]: كنا غافلين، والأخرى: كنا تبعاً لأسلافنا فكيف نهلك والذنب إنما هو لمن طرق لنا وأضلّنا[2]، فوقعت الشهادة لتنقطع عنهم الحجج. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هذا من تمام القول الثاني، أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك وتقدّمهم فيه وتركه سنّةً لنا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: مثل هذا التفصيل الذي فصّلنا فيه الآيات السابقة نفصّل الآيات اللاحقة. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن شركهم وعبادة غير الله تعالى إلى توحيده وعبادته.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ
مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ
فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا
ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ
ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ

(١) ق: أحدهما.

(٢) ق: وأضللنا.

بِهَاۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ
فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنۡ
خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم
مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ قال الجمهور هو بلعام وهو رجل كنعاني أوتي بعض كتب الله تعالى. والانسلاخ من الآيات مبالغة في التبرّؤ والبعد، أي: لم يعمل بما اقتضته نعمتنا عليه. وقرأ الجمهور: فأتبعه الشيطان، من أَتْبَع رباعياً أي: لحقه وصار معه، وهي مبالغة في حقه إذ جعل كأنه هو إمام للشيطان يتبعه، وكذلك ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات] أي: عدا وراءه.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ أي: ولو شئنا أن نشرّفه ونرفع قدره بما آتيناه من الآيات لفعلنا. ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ترامى إلى شهوات الدنيا ورغب [فيها] واتّبع ما هو ناشىء عن الهوى. وجاء الاستدراك هنا تنبيهاً على السبب الذي لأجله لم يُرفع ولم يُشرّف كما فُعل بغيره ممّن أوتي الهدى فآثره واتّبعه. و«أخلد» معناه رمى بنفسه إلى الأرض أي: لما فيها من الملاذّ والشهوات قاله ابن عباس. وقال الزمخشري[1]: وكان حق الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض، فحططناه، ووضعنا منزلته، فوقع قوله «فمثله كمثل الكلب» موضع: فحططناه أبلغ حطّ، لأن تمثيله بالكلب في أخسّ أحواله وأذلّها في معنى ذلك انتهى.

قوله: وكان حق الكلام إلخ، سوء أدب على كلام الله تعالى. وأما قوله:

---

(١) الكشاف ٢: ١٣١.

فوقع قوله «فمثله» إلخ، فليس واقعاً موقع ما ذكر، ولكن قوله «ولكنه أخلد إلى الأرض» وقع موقع: فحططناه، إلا أنه تعالى لما ذكر الإحسان إليه أسند ذلك إلى ذاته الشريفة فقال «آتيناه آياتنا» «ولو شئنا لرفعناه بها»، ولما ذكر ما هو في حق الشخص إساءة أسنده إليه فقال «فانسلخ منها» وقال «ولكنه أخلد إلى الأرض» [وهو تعالى في الحقيقة هو الذي سلخه منها وأخلده إلى الأرض] فجاء على حدّ قوله ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ۝٧٩﴾ [الكهف] وقوله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ ۝٨٢﴾ [الكهف] في نسبة ما كان حسناً إلى الله تعالى، ونسبة ما كان بخلافه إلى الشخص.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ الآية، أي: فصفته - إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يحملها - كصفة الكلب إن كان مطروداً لهث وإن كان رابضاً لهث، قاله ابن عباس[١]. وهذه الجملة الشرطية في موضع الحال أي: لاهثاً في الحالتين [٢٣٠/أ] قاله الزمخشري وأبو البقاء[٢]. وتفسيرهما [لاهثاً] من حيث المعنى لا أنّ جملة الشرط هي الحال. ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: ذلك الوصف وصف الذين كذبوا بآياتنا، صفتهم كصفة الكلب لاهثاً في الحالتين، فكما شبّه وصف المؤتىٰ الآيات المنسلخ منها بالكلب في أخَسِّ حالاته، كذلك شُبّه به المكذّبون بالآيات حيث أُوتُوها وجاءتهم واضحات تقتضي التصديق بها فقابلوها بالتكذيب وانسلخوا منها.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ ساء بمعنى بئس، وتقدم لنا أن أصلها التعدّي[٣]، تقول:

---

(١) العبارة: فمثله كمثل الكلب.. قاله ابن عباس، وردت في ق في غير موضعها قبل قليل، قبل قول الزمخشري مباشرة.

(٢) الكشاف ٢: ١٣١، والإملاء ١: ٢٨٩.

(٣) انظر تفسير الآية ٦٦ من المائدة، والآية ٣١ من الأنعام.

ساءني الشيء يسوؤني، ثم لما استُعملت استعمال بِئْس بُنيت على فِعْل وجرت عليها[1] أحكام بئس. و«مثلاً» تمييز للمضمر المستكن في «ساء» فاعلاً، وهو مفسّر بهذا التمييز، وهو من الضمائر التي يفسّرها ما بعدها، ولا بدّ أن يكون المخصوص بالذّم من جنس التمييز فاحتيج إلى تقدير حذف إما في التمييز أي: ساء أصحاب مثل القوم، وإما في المخصوص أي: ساء مثلاً مثلُ القوم. وهذه الجملة تأكيد للجملة السابقة.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ لما تقدّم ذكر المهتدين والضالّين أخبر تعالى أنه هو المتصرف فيهم بما شاء من هداية وضلال. وتقرّر من مذهب أهل السنّة أنه تعالى هو خالق الهداية والضلال في العبد، و«من» شرطية مفعولة بـ«يَهْدِ» وحمل على لفظها في الجواب وهو قوله «فهو المهتدي». و«مَن» الثانية كذلك وحُمل على معناها في الجواب في قوله «فأولئك» فناسب الإفراد هناك لأن المهتدي قليل، وناسب الجمع في الثانية لأن الضالّين كثير.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ هذا إخبار منه تعالى بأنه خلق لجهنم كثيراً من الصنفين. ومناسبة هذا لما قبله أنه لمّا ذكر أنه هو الهادي وهو المُضِلّ أعقبه بذكر من خُلق للخسران والنار، وذكر من أوصافهم ما ذكر وفي ضمنه وعيد للكفار. والمعنى: لعذاب جهنم: واللام للصيرورة، على قول من أثبت لها هذا المعنى. ولمّا كان مآلهم إليها جعل ذلك سبباً على جهة المجاز.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية، لمّا كانوا لا يتدبّرون شيئاً من الآيات ولا ينظرون إليها نظر اعتبار ولا يسمعونها سماع تفكّر، جعلوا كأنهم فقدوا الفقه بالقلوب والإبصار بالعيون والسماع بالآذان. وليس المراد نفي هذه

---

(١) ق: وجردت إليها.

الإدراكات عن هذه الحواس، وإنما المراد نفي الانتفاع بها فيما طُلب منهم من الإيمان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في عدم الفقه في العواقب والنظر للاعتبار والسماع للتفكر، ولا يهتمون بغير الأكل والشرب. ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ بل للإضراب وليس إبطالاً بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم آخر وهو كونهم أضلّ من الأنعام. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ هذه الجملة بيّن تعالى بها سبب كونهم أضلّ من الأنعام وهو الغفلة عمّا أعدّ الله تعالى لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الآية، قال مقاتل: دعا رجل الله في صلاته، ومرة دعا الرحمن، فقال أبو جهل: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًّا واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فنزلت. ومناسبتها لما قبله أنه تعالى لمّا ذكر أنه ذرأ كثيراً من الإنس والجن للنّار، ذكر نوعاً منهم وهم الذين يلحدون في أسمائه وهم أشدّ الكفار عتيًّا أبو جهل وأضرابه. و«الحسنى» هنا تأنيث الأحسن. ووُصف الجمع الذي لا يعقل بما وُصف به الواحد كقوله تعالى ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨﴾ [طه] وهو فصيح، ولو جاء على المطابقة للجمع لكان التركيب: الحُسَن على وزن الأُخَر كقوله تعالى ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ ١٨٤﴾ [البقرة] [٢٣٠/ب] لأنّ جمع ما لا يعقل يُخبَر به ويوصَف بجمع المؤنثات وإنَ كان المفرد مذكراً. قال ابن عطية: و«الأسماء» هنا بمعنى التسميات إجماعاً من المتأولين لا يمكن غيره انتهى. لا تحرير فيما قال لأن التسمية مصدر والمراد هنا الألفاظ التي تطلق على الله تعالى وهي الأوصاف الدالّة على تغاير الصفات لا تغاير الموصوف، كما تقول: جاء زيد الشجاع

الكريم[١]. وكون الاسم الذي أمر تعالى أن يُدعىٰ به حسناً هو ما قرّره الشرع ونصّ عليه في إطلاقه على الله تعالى.

ومعنى ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ أي: نادوه بها كقوله: يا ألله يا رحمن يا رحيم يا ملك وما أشبه ذلك. [﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ يقال]: لحد وألحد لغتان بمعنى واحد وهو العدول عن الحق والإدخال فيه ما ليس منه، قاله ابن السكيت. ومعنى «يلحدون في أسمائه» أي: يقولون بجهلهم: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه وغير ذلك من الأسماء التي لم يثبت في الشرع إطلاقها على الله تعالى. و﴿سَيُجۡزَوۡنَ﴾ وعيد شديد، واندرج تحت قوله ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ الإلحاد في أسمائه وسائر أفعالهم القبيحه.

﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى من ذرأ للنار ذكر مقابلهم. وفي لفظة «وممّن» دلالة على التبعيض وأن المعظم[٢] من المخلوقين ليسوا هداة إلى الحق ولا عادلين به.

﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ قال أبو عبيد: الاستدراج أن تدرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً ولا تهجم عليه، وأصله من الدرجة وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة، ومنه: درج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم: ماتوا بعضهم في إثر بعض. ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قيل: بالاستدراج أو بالهلاك. وقال الأعشى في الاستدراج[٣]: [من الطويل]

فلو كنت في جبٍّ ثمانين قامةً ورُقّيتَ أسبابَ السماء بسلّمِ

(١) ق: والكريم.
(٢) ق: العظم.
(٣) البيتان في ديوانه ص١٥٩، مع اختلاف في الرواية.

ليستدرجَنْك القول حتى تَهِرَّه وتعلـمَ أنّـي عنكـمُ غيـرُ مفخـمِ

﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ معطوف على «سنستدرجهم» فهو داخل في الاستقبال، وهو خروج من ضمير التكلّم بنون العظمة إلى ضمير تكلّم المفرد. والمعنى: أُؤَخّرهم[١] ملاوة من الدهر أي: مدة فيها طول، والملاوة بفتح الميم وضمّها وكسرها ومنه ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم] أي: طويلاً. وسمَّى فِعْلَه ذلك بهم كيداً لأنّه شبيه[٢] بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان. والمتين من كل شيء القوي، يقال: مَتن متانة.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ قال الحسن وقتادة: سبب نزولها أن رسول الله ﷺ صعد ليلة على الصفا فجعل يدعو قبائل قريش: يا بني فلان يا بني فلان، يحذّرهم ويدعوهم إلى الله تعالى. فقال بعض الكفار حين[٣] أصبحوا: هذا مجنون بات يُصَوِّتُ حتى الصباح، وكانوا يقولون: ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات][٤] فنفى الله عزّ وجل عنه ما قالوا، ثم أخبر أنه محذر من عذاب الله تعالى. والآية باعثة لهم على التفكر في أمر الرسول عليه السلام وانتفاء الجِنّة عنه. وهذا الاستفهام قيل: معناه التوبيخ، وقيل: معناه

---

(١) ق: أؤخره.

(٢) ق: تشبيه.

(٣) ق: حتى.

(٤) ق: شاعر.

التحريض على التأمل. والجِنّة: الجن، والمعنى: من مسّ جنّة أو من تخبّط جنة. والظاهر أن «يتفكروا» معلق على الجملة المنفية وهي في موضع نصب بـ«يتفكّروا» بعد إسقاط حرف الجر، لأن التفكر من أفعال القلوب فيجوز تعليقه. والمعنى: أولم يتأمّلوا ويتدبروا في انتفاء هذا الوصف عن رسول الله ﷺ، فإنه منتفٍ عنه لا محالة، ولا يمكن لمن أمعن الفكر أن ينسب ذلك إليه.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، لمّا حضّهم على التفكر في حال رسول الله ﷺ، وكان مفرّعاً على تقرير دلائل التوحيد، أعقبه بما يدلّ على التوحيد [٢٣١/أ] ووجود الصانع الحكيم والملكوت: الملك العظيم، وتقدم شرح ذلك في الأنعام[١]. ولم يقتصر على ذكر النظر في الملكوت بل نبّه على أن كل فرد من الموجودات محلّ للنظر والاعتبار والاستدلال على الصانع ووحدانيته كما قيل[٢]: [من المتقارب]

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تـدلُّ علـى أنّـه واحـدُ

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ أن: هي المخففة من الثقيلة واسمها محذوف ضمير الشأن، وخبرها [«عسى»] وما تعلقت به. وقد وقع خبراً لها الجملة غير الخبرية في مثل هذه الآية وفي مثل ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ ﴿٩﴾﴾ [النور] فـ«غضب الله عليها» جملة دعاء وهي غير خبرية. وأجاز أبو البقاء[٣] أن تكون «أنْ» هي المخففة من أنّ الثقيلة، وأن تكون مصدرية. يعني أن تكون الموضوعة على

(١) انظر تفسير الآية ٧٥ من الأنعام.
(٢) البيت لأبي العتاهية في ديوانه ص١٠٤.
(٣) إملاء ١: ٢٨٩.

حرفين وهي الناصبة للفعل المضارع. وليس بشيء لأنهم نصّوا على أنها توصل[١] بفعل متصرف مطلقاً يعنون ماضياً ومضارعاً وأمراً، فشرطوا فيه التصرف، و«عسى» فعل جامد فلا يجوز أن يكون صلة لأن. و«عسى» هنا تامّة، و«أن يكون» فاعل بها نحو قولك: عسى أن يقوم زيد، واسم «يكون» قال الحوفي: «أجلهم» و«قد اقترب» الخبر. وقال الزمخشري[٢] وغيره: اسم «يكون» ضمير الشأن [انتهى]. فيكون «قد اقترب أجلهم» في موضع نصب في موضع خبر «يكون»، و«أجلهم» فاعل بـ«اقترب». وما أجازه الحوفي فيه خلاف. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ معنى هذه الجملة وما قبلها توقيفهم وتوبيخهم على أنه لم يقع منهم نظر ولا تدبّر في شيء من ملكوت [السماوات] والأرض ولا في مخلوقات الله تعالى ولا في اقتراب آجالهم، ثم قال: فبأي حديث أو أمر [يقع] إيمانهم وتصديقهم إذ لم يقع بأمر فيه نجاتهم ودخولهم الجنة؟ ونحوه قول الشاعر[٣]: [من الطويل]

فعن أي نفسٍ بعد نفسي أقاتل

والمعنى إذا لم أقاتل عن نفسي فكيف أقاتل عن غيرها.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ نفى نفياً عامّاً أن يكون هادٍ لمن أضلّه الله تعالى، فتضمّن اليأس من إيمانهم والمقت لهم. ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قرىء: ونذرهم، بالنون ورفع الراء. وقرىء: ويذرهم بالياء ورفع الراء، وهو استئناف إخبار، قطع الفعل أو أضمر قبله: ونحن، فتكون جملة

---

(١) ق: توصف.

(٢) الكشاف ٢: ١٣٣.

(٣) لم أقف على قائله وتمامه، وانظر البحر ٤: ٤٣٣.

اسمية. وقرىء: ونَذَرْهم، بالنون والجزم على أنه مجزوم عطفاً على محل «فلا هادي له» فإنه في موضع جزم جواباً للشرط. والجملة من «يذرهم» تقدم تفسيره في أوائل البقرة[١] فأغنى عن إعادته.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ قال ابن عباس: الضمير لليهود؛ قال حسل[٢] بن أبي قشير وشمويل بن زيد: إن كنت نبيّاً فأَخْبِرْنا بوقت الساعة فإنّا نعرفها. فإن صدقت آمنّا بك [فنزلت][٣]. ومناسبتها لما قبلها أنه لمّا ذكر التوحيد والنبوّة والقضاء والقدر أتبع ذلك بذكر المعاد. وأيضاً فلما تقدّم قوله ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف] وكان ذلك باعثاً لهم على المبادرة إلى التوبة - أتى بالسؤال عن الساعة ليُعلم أن وقتها مكتوم عن الخلق فيكون ذلك سبباً للمسارعة إلى التوبة. و«الساعة» القيامة، موت من كان حينئذ حيًّا وبَعْث الجميع يقع عليه [اسم] الساعة. واسم القيامة والساعة من الأسماء الغالبه كالنجم للثريا.

و﴿مُرْسَىٰهَا﴾ مصدر أي متى ارساؤها [أي] إثباتها وإقرارها. والرسوّ ثبات

(١) انظر تفسير الآية ١٥ من البقرة.

(٢) ق: حسن.

(٣) انظر أسباب النزول ص١٥٣.

الشيء الثقيل ومنه: رسا الجبل وأرسيت السفينة، والمرسى: المكان الذي ترسو فيه. وقال الزمخشري[(١)]: «مرساها» إرساؤها أو[(٢)] وقت إرسائها أي [٢٣١/ب] إثباتها وإقرارها انتهى. وتقديره وقت إرسائها ليس بجيد لأن «أيان» اسم استفهام عن الوقت فلا يصح أن يكون خبراً عن الوقت إلا بمجاز، لأنه يكون التقدير: في أي وقتٍ وقتُ إرسائها. و«أيان مرساها» مبتدأ وخبر. وحكى ابن عطية عن المبرد أن «مرساها» مرتفع بإضمار فعل. ولا حاجة إلى هذا الإضمار، و«أيان مرساها» جملة استفهامية في موضع البدل من «الساعة» والبدل على نية تكرار العامل وذلك العامل معلق عن العمل، لأن الجملة فيها استفهام. ولمّا علّق الفعل وهو يتعدى بعن، صارت الجملة في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، فهو يدل في الحقيقة على موضع «عن الساعة» لأن موضع الجر نصب.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: استأثر بعلمها. ولما كان السؤال عن الساعة عموماً ثم خُصّص بالسؤال عن وقتها جاء الجواب عموماً عنها بقوله «قل إنما علمها عند ربي» ثم خُصّصت من حيث الوقت فقيل ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وعِلْم الساعة من الخَمْس التي نصّ عليها من الغيب أنه لا يعلمها إلا هو تعالى. والمعنى: لا يكشفها ولا يظهرها لوقتها الذي قدّر أن تكون فيه إلا هو.

﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال السّدي: معنى «ثقلت» خفيت في السماوات والأرض فلا يعلم أحد من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين متى تكون، وما خفي أمره ثقل على النفوس انتهى. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي فجأة على غفلة منكم وعدم شعور بمجيئها. ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ «عنها» متعلق

---

(١) الكشاف ٢: ١٣٤.

(٢) ق: أي.

بـ«يسألونك». والحفاوة: الاعتناء بالشيء، ويتعدى بالباء والمعنى: حفيّ بها أي مُعْتَنٍ [بها] وبالسؤال عن حالها.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ الآية، قال ابن عباس: قال أهل مكة: ألا يخبرك [ربك] بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري وتربح، وبالأرض التي تجدب فترحل عنها إلى ما هي أخصب؟ فنزلت[١]. ووجه مناسبتها لما قبلها ظاهر جداً، وهذا منه عليه السلام إظهار للعبودية وانتفاء عمّا يختص بالربوبية من القدر وعلم الغيب ومبالغة[٢] في الاستسلام، فلا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضر.

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واستغزار المنافع واجتناب السوء والمضارّ حتى لا يمسّني شيء منها. وظاهر قوله ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ انتفاء العلم عن الغيب على جهة عموم الغيب كما روي عنه عليه السلام «لا أعلم ما وراء هذا الجدار إلاّ أن يُعْلِمَنيه ربي»[٣] بخلاف ما يذهب إليه هؤلاء الذين يدّعون الكشف، وأنهم بتصفية نفوسهم يحصل لها اطلاع على المغيّبات وإخبار بالكوائن التي تحدث. وما أكثر ادّعاء الناس لهذا الأمر وخصوصاً في ديار مصر حتى إنهم لينسبون ذلك إلى رجل متضمّخ بالنجاسة يظل دهره لا يصلي ولا يستنجي من نجاسة ويكشف عورته للناس حين يبول، وهو عارٍ من العلم والعمل الصالح، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) انظر أسباب النزول ص١٥٤.

(٢) ق: مبالغة.

(٣) ق: أبي. وانظر السيرة النبوية ٤: ١٦٦، وانظر أيضاً مختصر المقاصد الحسنة ص١٧٤.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ
فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا
صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ
فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ
لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ
أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ
أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ
يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ
ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ مناسبتها لما قبلها أنه لما تقدم سؤال الكفار عن الساعة ووقتها، وكان فيهم من لا يؤمن بالبعث، ذكر ابتداء خلق الإنسان وإنشاءه، تنبيهاً على أن الإعادة ممكنة كما أن الإنشاء ممكن[١]، وتقدم تفسير نظيرها[٢]. ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أي: ليطمئن ويميل إليها لأن الجنس إلى الجنس أميل وآنس به. وإذا كان «منها» على حقيقته فالسكون[٣] والمحبّة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبّه محبّة نفسه أو أكثر لكونه بعضاً [منه]. وأنّث في قوله «منها» ذهاباً إلى لفظ النفس، ثم ذكّر في قوله

(١) ق: ممكناً.

(٢) انظر تفسير الآية ١ من النساء.

(٣) ق: حقيقة فالسكوت.

«ليسكن» حملاً على معنى النفس ليبيّن أن المراد بها الذَّكَر آدم أو غيره. وكان الذكر [هو] الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشّاها فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [٢٣٢/أ] الغشيان كناية عن الجماع. ومعنى الخفّة أنها لم تَلْقَ به من الكرب ما يعرض لبعض الحبالى. و«حملاً» مصدر[١]، أو أن يكون ما في البطن، والحَمل بفتح الحاء ما كان في بطن أو على رأس شجرة، وبالكسر: ما كان على ظهر أو على رأس [غير] شجرة. ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال الحسن: استمرت به، أو فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق. ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ دخلت في الثقل كما تقول: أصبح وأمسى، أو صارت ذات[٢] ثقل كما تقول: أتمر الرجل وألبن، إذا صار ذا تمرٍ ولبن.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: مالك أمرهما، ومتعلق الدعاء محذوف يدلّ عليه جواب جملة القسم أي: دَعَوَا الله ورغبا إليه في أن يؤتيهما صالحاً، ثم أقسما على أنهما يكونان من الشاكرين إن آتاهما صالحاً. ومَن جَعَل الكلام لآدم وحواء - وهو الظاهر - جعل [الشّرك] تسميتهما [الولد الثالث عبد الحارث، إذ كان قد مات لهما ولدان قبله كانا قد سمّيا كل واحد منهما عبدالله] فأشار عليهما إبليس، لعنه الله، أن يسمّيا هذا الثالث عبد الحارث حرصاً على حياته. فالشرك الذي جعل لله تعالى هو في التسمية فقط. وقال الزمخشري[٣]: في الكلام محذوف تقديره: جعل أولادهما له شركاء فيما آتاهما، بدليل «فتعالى الله عمّا يشركون» فجمع، لأن آدم وحواء معصومان

(١) ق: مصدراً.

(٢) ق: ذا.

(٣) الكشاف ٢: ١٣٧، ونقل المصنف عبارة الزمخشري بفحواها.

عن الشرك، فتعيّن أن المراد أولادهما. وقرأ السلمي: عمّا تشركون، بالتاء خطاب للكفّار، وكذلك الياء. وتمّت قصة آدم وحوّاء عند قوله «فيما آتاهما» ثم استأنف تنزيه الله تعالى وتقديسه عمّا وقع من الكفّار من الإشراك بالله تعالى، ويدل على انتقال الكلام من قصة آدم وحوّاء إلى حال الكفّار، الآيات الجائية بعد هذا وهو قوله «أيشركون» الآية، وصدر[١] الآية في قوله «هو الذي خلقكم» إذ ضمير الخطاب يشمل المشركين وغيرهم. ومنصب آدم عليه السلام منزّه [عن] أن يجعل لله شريكاً، إذ هو نبي مرسل مكلَّم. وقرىء: شِرْكاً بالإفراد، وشركاء بالجمع.

﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ أي: أيشركون الأصنام وهي لا تقدر على خلق شيء كما يخلق الله تعالى. [﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ أي: يخلقهم الله تعالى] ويوجدهم كما أوجدكم. ويحتمل أن يكون «وهم» عائداً[٢] على ما عاد عليه ضمير الفاعل في «أيشركون» أي: وهؤلاء المشركون يُخلقون، أي: كان يجب أن يعتبروا لكونهم مخلوقين[٣] فيجعلوا إلٰههم خالقهم لا من لا يخلق شيئاً.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ الظاهر أن الخطاب للكافرين، انتقل من الغيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفات والتوبيخ على عبادة غير الله تعالى. ويدلّ على أن الخطاب[٤] للكفار قوله بعدُ: «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم». وضمير المفعول عائد على ما عادت عليه هذه الضمائر، قيل: وهي الأصنام. والمعنى: وإن تدعوا هذه الأصنام إلى ما هو هدى

---

(١) ق: ومصدر.

(٢) ق: عائد.

(٣) ق: مخلوقون.

(٤) ق: الخطا.

ورشاد[١]، أو إلى أن يهدوكم كما تطلبون من الله الهدى والخير، «لا يتبعوكم» على مرادكم ولا يجيبوكم[٢]، أي: ليست فيهم هذه القابلية لأنها جماد لا تعقل. وعادل همزة الاستفهام في قوله «ادعوتموهم» بقوله «أم» والجملة الاسمية بعدها من المبتدأ والخبر، لأنها[٣] في معنى الفعل إذ التقدير: أم صَمَتُّم. وحَسَّن المجيءَ بالجملة الاسمية كونُها فاصلة كالفواصل قبلها. قال ابن عطية: وفي قوله «أدعوتموهم أم أنتم صامتون» عطف الاسم على الفعل إذ التقدير: أم صَمَتُّم. ومثل هذا قول الشاعر[٤]: [من الطويل]

سواءٌ عليكَ النَّفْرُ أَمْ بِتَّ ليلةً بأهلِ القبابِ من نُميرِ بنِ عامرِ

انتهى. ليس هذا من عطف الاسم على الفعل، إنما هو من عطف الجملة الاسمية على الجملة [٢٣٢/ب] الفعلية. وأما البيت فليس من عطف الاسم على الفعل، بل من عطف الجملة الفعلية على الاسم[٥] المقدّر بالجملة الفعلية؛ إذ أصل التركيب: سواء عليك أنفرت أم بِتَّ ليلة، فأوقع النفر موضع: أنفرتَ. وتقدم الكلام في «سواء» وعلى ما بعدها في أوائل البقرة[٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، هذه الجملة على سبيل التوكيد لما قبلها في انتفاء كون هذه الأصنام قادرة على شيء من نفع أو ضرّ أي [أن]

(١) ق: ورشاداً.

(٢) ق: يجيبونكم.

(٣) ق: لأن.

(٤) البيت في المقاصد النحوية ٤: ١٧٩ غير منسوب.

(٥) ق: الاسمية.

(٦) انظر تفسير الآية ٦ من البقرة.

الذين تدعونهم وتسمّونهم آلهة من دون الذي أوجدها وأوجدكم هم عباد. وسمّى الأصنام عباداً وإن كانت جمادات لأنهم كانوا يعتقدون أنها تضرّ وتنفع. وقال الزمخشري[(١)]: «عبادٌ أمثالكم» استهزاء بهم، أي: قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال «ألهم أرجل يمشون بها» انتهى. وليس كما زعم، لأنه تعالى حكم على هؤلاء المدعوّين[(٢)] من دون الله تعالى أنهم عباد أمثال الداعين، فلا يقال في الخبر من الله تعالى «فإن ثبت ذلك» لأنه ثابت، ولا يصح أن يقال: ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالكم فقال «ألهم أرجل»، لأن قوله «ألهم أرجل» ليس إبطالاً لقوله «عباد[(٣)] أمثالكم» لأن المِثْلِيَّةَ ثابتة إما في أنهم مخلوقون أو في أنهم مملوكون مقهورون، وإنما ذلك تحقير[(٤)] لشأن الأصنام وأنهم دونكم في انتفاء الآلات التي أُعدّت للانتفاع بها مع ثبوت كونهم أمثالكم فيما ذكر. ولا يدل إنكار هذه الالآت على انتفاء المثليّة فيما ذكر، وأيضاً فالإبطال لا يُتصور بالنسبة إليه تعالى، لأنه يدل على كذب أحد الخبرين، وذلك مستحيل بالنسبة إلى الله تعالى.

قرأ سعيد بن جبير: إن، خفيفة، وعباداً أمثالكم، بنصب الدّال واللام. واتفق المفسرون على تخريج هذه القراءة على أنّ «إنْ» هي النافية أُعملت عمل ما الحجازية، فرفعت الاسم ونصبت [الخبر] فـ«عباداً أمثالكم» خبر

---

(١) الكشاف ٢: ١٣٨.

(٢) ق: المدعون.

(٣) ق: عباداً.

(٤) ق: تحقيراً.

منصوب. قالوا: والمعنى بهذه القراءة تحقير شأن الأصنام ونفي مماثلتهم للبشر، بل هم أقلّ وأحقر إذ هي جمادات لا تفهم ولا تعقل. وإعمال إنْ إعمال ما الحجازية فيه خلاف، أجاز ذلك الكسائي وأكثر الكوفيين، ومن البصريين ابن السراج والفارسي وابن جني، ومنع من إعمالها الفرّاء وأكثر البصريين، واختلف النقل عن سيبويه والمبرد. والصحيح أن إعمالها لغة، ثبت ذلك في النثر والنظم [وقد] ذكرنا ذلك مشبعاً في شرح التسهيل[١].

وقال النحّاس: هذه قراءة لا ينبغي أن يُقرأ بها لثلاث جهات: إحداها[٢] مخالفة للسّواد. الثانية أن سيبويه يختار الرفع في خبر إنْ إذا كانت بمعنى ما، فتقول: إن زيد منطلق، لأن عمل ما ضعيف، وإنْ بمعناها، فتكون أضعف منها. والثالثة[٣] أن الكسائي رأى أنها في كلام العرب، لا تكون بمعنى ما، إلا أن يكون بعدها إيجاب انتهى. وكلام النحّاس هذا هو الذي لا ينبغي لأنها قراءة مروية عن تابعي جليل ولها وجه في العربية. وأما ثلاث الجهات التي قد ذكرها فلا يقدح شيء منها في هذه القراءة. أما كونها مخالفة للسواد فهو خلاف يسير جدًّا لا يضرّ، ولعله كتب المنصوب على لغة ربيعة في الوقف على المنوّن المنصوب بغير ألف، فلا يكون فيه مخالفة للسواد. وأمّا ما حكى عن سيبويه، فقد اختلف الفهم عن كلام سيبويه في إنْ. وأمّا ما حكاه عن الكسائي، فالنقل عن الكسائي أنه حكى إعمالها، وليس بعدها إيجاب.

والذي يظهر لي أن هذا التخريج الذي خرّجوه من أنّ إنْ للنفي ليس

---

(١) طبع جزء منه بمطبعة السعادة سنة ١٣٢٨هـ، وليس ذلك فيه.

(٢) ق: أحدها.

(٣) ق: والثالث.

بصحيح؛ لأنّ قراءة الجمهور تدلّ على إثبات كون الأصنام عباداً أمثال عابديها، وهذا التخريج يدلّ على نفي ذلك [٢٣٣/أ] فيؤدي إلى عدم مطابقة أحد الخبرين، وهو لا يجوز بالنسبة إلى الله تعالى. وقد خرّجتُ هذه القراءة على وجهٍ غير ما ذكروه، وهو أن تكون إنْ هي المخففة من الثقيلة، وأعملها عمل المشدّدة. وقد ثبت أنّ إنْ المخفّفة يجوز إعمالها عمل المشدّدة في غير المضمر بالقراءة المتواترة ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا ﴿١١١﴾﴾ [هود] وبنقل سيبويه عن العرب، لكنه نصب في هذه القراءة خبرها كما نصبه عمر بن أبي ربيعة في قوله[1]: [من الطويل]

[إذا اسودّ جنح الليل فلتأت ولتكن   خطاك خفافاً] إنّ حُرّاسنا أُسْدا

وقد ذهب جماعة من النحاة إلى جواز نصب أخبار إنّ وأخواتها واستدلّوا على ذلك بشواهد ظاهرة الدّلالة على صحة مذهبهم وتأولها المخالفون. فهذه القراءة الشاذّة تتخرّج على هذه اللغة، أو تتأول على تأويل المخالفين لأهل هذا المذهب وهو أنهم قالوا: إن تقديره: أقبلت رواجعاً[2]، فكذلك تُؤوّل هذه القراءة على إضمار فعل تقديره: إن الذين تدعون من دون الله خلقناهم عباداً أمثالكم، وتكون القراءتان قد توافقتا على معنى واحد وهو الإخبار أنهم عباد، ولا يكون تنافٍ بينهما وتخالف لا يجوز في حق الله تعالى. وقرىء أيضاً: إنْ، مخففة، ونصب: عباداً، على أنه حال من الضمير

---

(١) البيت في الخزانة ٤: ٢٩٤ غير منسوب، وليس في ديوانه.

(٢) ذلك في قول العجاج:

يا ليت أيامَ الصّبا رواجعا

فتأوّلوا المنصوب على إضمار فعل تقديره: أقبلت رواجعا. والبيت في شرح المفصل ٨: ٨٤ غير منسوب. وهو من شواهد الكتاب ٢: ١٤٢.

المحذوف العائد من الصلة على «الذين»[١]، وأمثالكم: بالرفع على الخبر. أي: إنِ الذين تدعون من دون الله - في حال كونهم عباداً - أمثالكم في الخلق أو في الملك، فلا يمكن أن يكونوا آلهة.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ هذا استفهام إنكار وتعجب في تبيين أنهم جماد لا حراك لهم، وأنهم فاقدون لهذه الأعضاء ومنافعها التي خلقت لأجلها، فأنتم أفضل من هذه الأصنام إذ لكم هذا التصرف. وهذا الاستفهام الذي معناه الإنكار قد يتوجّه الإنكار فيه إلى انتفاء هذه الأعضاء وانتفاء منافعها، فتسلّط النفي على المجموع كما فسّرناه، لأن تصويرهم هذه الأعضاء للأصنام، ليست أعضاء حقيقية. وقد يتوجّه النفي إلى الوصف أي: وإن كانت لهم هذه الأعضاء النافعة. و«أم» هنا منقطعة، فتتقدر ببل والهمزة، وهو إضراب على معنى الانتقال لا على معنى الإبطال. وإنما هو تقدير على نفي كل واحدة من هذه الجمل، وكان ترتيب هذه الجمل هكذا لأنه بدأ بالأهم ثم أتبع بما دونه إلى آخرها.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ لما أنكر تعالى عليهم عبادة الأصنام وحقر شأنها وأظهر كونها جماداً عارية عن شيء من القدرة أمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم ذلك، أي لا مبالاة بكم ولا بشركائكم فاصنعوا ما تشاؤون، وهو أمر تعجيز أي: لا يمكن أن يقع منكم[٢] دعاء لأصنامكم ولا كيد لي، وكانوا قد خوّفوه آلهتهم. ومعنى «ادعوا شركاءكم» استعينوا بهم على إيصال الضرّ إليّ. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: امكروا بي ولا تؤخّرونِ عما تريدون بي من الضرّ. وسمّى الأصنام شركاءهم من حيث لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء لله،

(١) ق: الذي.

(٢) ق: منهم.

تعالى الله عن ذلك.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية، لما أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضرّه، وأراهم أن الله هو القادر على كل شيء، عقب ذلك بالاستناد إلى الله تعالى والتوكل عليه، والإعلام أنه تعالى هو ناصره عليهم. وبيّن جهة نصره عليهم بأن أوحى إليه، وأعزّه برسالته، ثم إنه عزّ وجلّ يتولى الصالحين من عباده وينصرهم على أعدائهم [٢٣٣/ب] ولا يخذلهم. وقرىء: وليَّ اللهُ، بياء مشدّدة[١].

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من دون الله. وهذه الآية بيان لحال الأصنام وعجزها عن نصرة أنفسها، فضلاً عن نصرة غيرها.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ تناسق الضمائر يقتضي أن الضمير المنصوب في «وإن تدعوهم» هو للأصنام. ونفى عنهم السماع لأنها جماد لا تحسّ، وأثبت لهم النظر على سبيل المجاز بمعنى أنهم صوّروهم ذوي أعين فهم يشبهون من ينظر ومن قلّب حدقته للنظر. ومعنى «إليك» أي: إليك أيها الداعي، وأُفرد لأنه اقتطع قوله ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ من جملة الشرط واستأنف الإخبار عنهم.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ
طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ
ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

(١) أي بياء واحدة مشدّدة مفتوحة، ورفع الجلالة. وهي قراءة أبي عمرو في رواية عنه.

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ الآية، هذا خطاب لرسول الله ﷺ ويعمّ جميع أمته. وهي أمرٌ بجميع مكارم الأخلاق. وقد أمر بذلك رسول الله ﷺ وهي في قوله «يسّروا ولا تعسّروا»[١] وقال حاتم الطائي[٢]: [من الطويل]

خُذي العفو منّي تستديمي مودّتي ولا تَنْطِقي في سَوْرتي حين أَغْضَبُ

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾ أي ينخسنّك[٣] بأن يحملك بوسوسة على ما لا يليق، فاطلب العياذ بالله منه، وهي اللواذ والاستجارة. قيل: لما نزلت «خذ العفو» الآية، قال رسول الله ﷺ «كيف والغضب»؟ فنزلت[٤]: «وإما ينزغنك». و«إن» شرطية و«ما» زائدة و«نزغ» هو الفاعل، وهو مصدر، يراد به اسم الفاعل أي: نازغ. وهذا التركيب جاء في القرآن كثيراً بزيادة ما، وبنون التوكيد، كقوله تعالى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال] ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يونس] وختم بهاتين الصفتين لأن الاستعاذة تكون باللسان ولا تجدي إلا باستحضار معناها فالمعنى: سميع للأقوال عليم بما في الضمائر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ ﴾ الآية، قرىء: طَيْف، مخففاً من طيّف، كما قالوا: مَيْت في ميّت. وقال الكسائي[٥]: الطيف: اللمم، والطائف: ما طاف حول الإنسان، [وقال ابن عطية]: وكيف هذا وقد قال الأعشى[٦]: [من الكامل]

---

(١) رواه مسلم ٣: ١٣٥٩ من حديث أنس بن مالك.

(٢) ليس في ديوانه، وانظر البحر ٤: ٤٤٨.

(٣) ق: يمسنّك.

(٤) انظر تفسير الطبري ٩: ١٠٦، والإكليل ص١٣٢.

(٥) ق: قال ابن عطية وقال الكسائي.

(٦) البيت في ديوانه ص٢٥٧.

وتُصيح عن غبِّ السُّرى وكأنها ألَمَّ بها من طائفِ الجنّ أولقُ

انتهى. لا يُتعجب من تفسير الكسائي الطائف [بأنه] ما طاف حول الإنسان بهذا البيت، لأنه يصحّ فيه معنى ما قاله الكسائي، لأنه إن كان تعجبه وإنكاره من حيث خصّص[1] الإنسان، فالذي قاله الأعشى تشبيه لأنه قال «كأنها»، وإن كان تعجبّه من حيث فسر بأنه ما طاف حول الإنسان، فطائف الجن يصحّ أن يقال طاف حول الإنسان. وشبّه هو الناقة في سرعتها ونشاطها وقطعها الفيافي في عجلة بحالتها إذا ألمّ بها أولق من طائف الجن. والنزغ من الشيطان أخفّ من مسّ الطائف من الشيطان، لأن النزغ أدنى حركة، والمسّ الإصابة. والطائف: ما يطوف [به] ويدور عليه فهو أبلغ لا محالة، فحال المتقين في ذلك غير حال الرسول.

وانظر لحسن هذا البيان: حيث كان الكلام للرسول كان الشرط بلفظ «إنْ» المحتملة للوقوع ولعدمه، وحيث كان الكلام للمتقين كان المجيء بإذا الموضوعة للتحقق أو الترجيح. وعلى هذا فالنزغ يمكن أن يقع ويمكن أن لا يقع، والمسّ واقع لا محالة أو مرجح وقوعه. وهو إلصاق البشرة بالبشرة وهو هنا استعارة. وفي تلك الجملة أُمر هو صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة. وهنا جاءت الجملة خبرية في ضمنها الشرط، وجاء الخبر «تذكروا» فدلّ على تمكّن مسّ الطائف حتى حصل نسيان فتذكّروا ما نسوه. والمعنى: تذكّروا ما أمر به تعالى وما نهى عنه، وبنفس التذكر حصل إبصارهم وفاجأهم إبصار الحق والسّداد، فاتّبعوه وطردوا عنهم مسّ الطائف. و«اتّقَوا» عامة في كل ما يُتّقى.

(١) ق: خصوص.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ الضمير في «وإخوانهم» عائد على ما تقدّم [٢٣٤/أ] من الكفار، «وإخوانهم» مبتدأ [و«يمدونهم» خبر]، والضمير في «يمدّونهم» المنصوب يعود على ما عاد عليه الضمير في «وإخوانهم». وقرىء: يُمدّونهم من أمدّ، ويَمُدّونهم، من مدّ وهما بمعنى واحد. و«في الغي» متعلق بيمّدونهم. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يكفّون عن إمدادهم في الغواية.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ روي أن الوحي كان يتأخر عن النبي ﷺ أحياناً، فكان الكفار يقولون: هلاّ اجتبيتها[1]! . ومعنى هذه اللفظة في كلام العرب: تخيّرتها واصطفيتها. قال ابن عباس: هلاّ اخْتَرَعْتَها واختلقتَها من قِبَلك ومن عند نفسك. و«لولا» هي للتحضيض بمعنى هل لا. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ الآية، بيّن أنه ليس مجيء الآيات إليه إنما هو مُتَّبِعٌ ما أوحاه الله تعالى إليه ولست بمفتعلها. ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: هذا الموحىٰ إليّ الذي أنا أتّبعه، لا أبتدعه، وهو القرآن بصائر، أي: حجج وبيّنات يُبْصَر بها وتتضّح الأشياء الخفيات. وهي جمع بصيرة كقوله ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف] أي: على أمر جليّ منكشف. وأخبر عن المفرد بالجمع لاشتماله على سور وآيات، وقيل هو على حذف مضاف أي: ذو بصائر. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: دلالة على الرشد ورحمة في الدين والدنيا. وخصّ المؤمنين لأنهم هم الذين يستبصرون وهم الذين ينتفعون بالوحي، يتبعون ما أمر به ويجتنبون ما يُنهون عنه فيه ويؤمنون بما تضمّنه.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر

(١) انظر تفسير الطبري ٩: ١٠٩.

رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ الآية، روي أنها نزلت في المشركين، كانوا إذا صلى رسول الله ﷺ يقولون ﴿لَا تَسْمَعُوا[1] لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] فنزلت جواباً لهم[2]. ولمّا ذكر أن القرآن بصائر وهدى ورحمة أمر باستماعه إذا شُرع في قراءته، وبالإنصات وهو السكوت مع الإصغاء إليه. لأن ما اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة حريّ بأن يُصْغىٰ إليه حتى تحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة وينتفع بها، فيستبصر من العمى ويهتدي من الضلالة ويُرحم بها. والظاهر استدعاء الاستماع والإنصات إذا شُرع في قراءة القرآن.

[﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ الآية، لما أمرهم تعالى بالاستماع والإنصات إذا شُرع في قراءته] ارتقى من أَمْرهم[3] إلى أَمْر رسول الله ﷺ بذكر ربّه في نفسه أي: بحيث يراقبه ويذكره في الحالة التي لا يشعر بها أحد، وهي الحالة الشريفة العليا. ثم أمره أن يذكره دون الجهر من القول، أي: يذكره بالقول الخفي الذي يُشعر بالتذلّل والخضوع من غير صياح ولا تصويت، كما تناجىٰ الملوك وتستجلب منهم الرغائب، وكما قال صلى الله عليه وسلم للصحابة وقد جهروا بالدعاء «إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، اربعوا على

(١) ق: لا تسمع.
(٢) انظر أسباب النزول ص١٥٤، ولباب النقول ص١٠٥.
(٣) ق: من أمره تعالى.

أنفسكم»[١]. ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ أي: مالك أمرك والناظر في مصلحتك. و«في نفسك» متعلق بـ«اذكر» و«تضرعاً وخيفة» مفعولان من أجله أي: لتضرع وخيفة، أو مصدران منصوبان على الحال أي: متضرعاً وخائفاً. «ودون الجهر» معطوف على قوله «في نفسك» أي: ذكراً في نفسك وذكراً دون الجهر.

﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾ إن كان جمعاً لغداة فهو مقابل بالجمع وهو «والآصال»، وإن كان مصدراً لغدا فيكون على حذف تقديره: بأوقات الغدوّ. والظاهر اقتصار الأمر بالذكر على هذين الوقتين، وقيل: المراد بهما الأوقات، واقتصر عليهما لأنهما ظرفان للأوقات. و«الآصال» هي العشايا جمع أصيل وهي العشية. ولمّا أمره تعالى بالذكر أكّد ذلك بالنهي عن أن يكون من الغافلين، أي: اسْتَدِمِ الذكر ولا تغفل عنه طرفة [٢٣٤/ب] عين. ومعلوم أنه عليه السلام تستحيل عليه الغفلة لعصمته عليه السلام فهو نهيٌ له والمراد أمّته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هم الملائكة عليهم السلام. ومعنى العنديّة الزّلفى والقرب منه تعالى بالمكانة لا بالمكان، وذلك لتوفّرهم على طاعته وابتغاء مرضاته. ولمّا أمر تعالى بالذكر ورغّب في المواظبة عليه، ذكر مَن شأنُهم ذلك فأخبر عنهم بأخبار ثلاثة: الأول نفي[٢] الاستكبار عن عبادته، وذلك هو أصل إظهار العبودية. ونفي الاستكبار هو الموجب للطاعات كما أن الاستكبار هو الموجب للعصيان، لأن المستكبر يرى لنفسه شفوفاً[٣] ومزيّة فيمنعه ذلك من الطاعة. الثاني: إثبات التسبيح منهم له تعالى وهو التنزيه

(١) رواه مسلم ٤: ٢٠٧٧ من حديث أبي موسى.
(٢) ق: في.
(٣) ق: شغوفاً.

والتطهير عن جميع ما لا يليق بذاته عزّ وجلّ. والثالث: السجود له.

ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار فكانت على قسمين: عبادة قلبية وعبادة جسمانية ذكرهما. فالقلبية تنزيه الله تعالى عن السوء، والجسمانية السجود وهو الحال التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى. وفي الحديث: «أطَّتِ السماء وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد»[1]. سؤال[2]: في تقديم الجار والمجرور في «وله يسجدون» إشعار[3] بأنهم لا يسجدون لغيره [فكيف] وقد سجدوا لآدم؟ فأجيب عنه بأن الذين سجدوا لآدم ملائكة الأرض خاصة، ويردّ عليه قوة العموم في: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر]!. ويمكن أن يجاب بأن السجود كان لله في الحقيقة وآدم كالقِبلة.

---

(١) رواه أنس بن مالك مرفوعاً وإسناده ضعيف. انظر النهاية ١: ٥٤، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٢: ٥٣٢.

(٢) ق: سواك.

(٣) ق: أي إشعار.

سورة الأعراف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ
لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ
﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم
بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ
﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدۡ
خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ
ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ
﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ
يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ
لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ
ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ
لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ

أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ
بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا
الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ
لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾
يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا
سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ
أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾».

المفردات

«كم» اسمٌ بسيطٌ، لا مركَّبٌ من كافِ التشبيه و«ما» الاستفهامية حُذِفَ ألفُها لدخول حرفِ الجرِّ عليها وسكِّنت ـ كما قالوا: لِمَ، ثم[1] قالوا: لِمْ ـ تركيباً لا ينفكُّ، كما رُكِّبت في «كأين» مع «أيّ». وتأتي استفهاميةً وخبريةً، وكثيراً ما جاءت الخبريةُ في القرآن، ولم يأتِ تمييزُها في القرآن إلَّا مجروراً بـ «مِن». وأحكامُها في نوعيها مذكورةٌ في كتب النحو.

القيلولة: نومُ نصفِ النهار، وهي: القائلةُ، قاله الليث. وقال الأزهريُّ[2]: الاستراحةُ في نصف النهار إذا اشتدَّ الحرُّ وإنْ لم يكن نومٌ.

وقال الفرَّاء: قالَ يَقِيلُ قيلولةً وقَيْلاً وقائلةً ومَقِيلاً: استراح وسطَ النهار.

العيش: الحياة، عاش يعيشُ عيشاً ومَعاشاً وعِيشةً ومَعيشةً ومَعيشاً؛ قال رؤبة:

إليكَ أشكو شدَّةَ المعيشِ ... وجَهْدَ أعوامٍ نَتَفْنَ ريشي[3]

غَوَى يَغْوِي غَيّاً وغوايةً: فَسَدَ عليه أمرُه، وفَسَد هو في نفسه، ومنه غَوَى

(١) قوله: قالوا لم ثم، ساقط من المطبوع، ووقع في النسخ عدا (يه): بم، بدل: ثم، والمثبت من (يه)، وهو المناسب للسياق. ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف ١/ ٢١١.

(٢) في تهذيب اللغة ٩/ ٣٠٦، وقول الليث منقول منه.

(٣) ديوان رؤبة ص ٧٨-٧٩، والرواية فيه: أشكو إليك.

[...] تحيّر من شُرْبِ لبنِ أمّه حتى فَسَدَ جوفُه وأَشْرفَ على الهلاك. وقيل: أصلُه الهلاك، ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

[...]: جمع شمالٍ، وهو جمعُ تكثيرٍ[١]، وجَمْعُه في القِلَّة على أَشْمُلٍ؛ قال الشاعر:

يــأتــي لــهــا مــن أَيْــمُــنٍ وأَشْــمُــلِ[٢]

وشمال يُطلَقُ على اليد اليسرى وعلى ناحيتها. والشمائلُ أيضاً جمع شمال، وهي الريح. والشمائل أيضاً: الأخلاق، يقال: هو حَسَنُ الشَّمائل.

ذَأَمَه: عابَه، يذْأَمُه ذَأْماً بسكون الهمزة، ويجوز إبدالُها ألفاً، قال الشاعر:

صحبتُك إذ عيني عليها غشاوةٌ ... فلمَّا انْجلَتْ قطَّعتُ نفسي أذِيمُها[٣]

وفي المَثَل: لن تَعْدَمَ الحسناء ذاماً[٤]. وقيل: أَرَدْتَ أن تَذِيمَه فمدَهْتَه[٥]. وقال الليث: ذَأَمْتُه: حَقَرْتَه[٦]. وقال ابنُ قتيبةَ وابنُ الأنباريِّ: ذَأَمَه: ذَمَّه[٧].

دَحَره: أَبْعَدَه وأقصاه، دُحوراً، قال الشاعر:

دَحَرْت بني الحصيب إلى قديدِ ... وقد كانوا ذوي أَشَرٍ وفَخْرِ[٨]

---

(١) قوله: تكثير، تحرف في المطبوع إلى: تكسير.

(٢) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص ٣٤٩، والكتاب ٣/ ٢٩٠ و٦٠٧، وبعده: وهي حيالَ الفرقدَيْنِ تعتلي.

(٣) البيت للحارث بن خالد بن العاص المخزومي، وهو في مجاز القرآن ١/ ٣١، والزاهر لابن الأنباري ٢/ ٣، وتفسير الطبري ١/ ٢٧١ و١٠/ ١٠٢، واللسان (غشا)، وورد في بعض المصادر برواية: ألومها، وعليه أكثر الرواة كما قال الطبري.

(٤) جمهرة الأمثال ٢/ ٣٩٨، والزاهر ٢/ ٣، والمستقصى ٢/ ٢٥٦، ومجمع الأمثال ٢/ ٢١٣، واللسان (ذيم). وجاء في أكثر المصادر: لا تعدم. وأول مَن قاله: حُبَّى بنت مالك بن عمرو العدوانية، وتنظر قصتها في المصادر المذكورة

(٥) قالها المنذر أو النعمان لرجل ذكر رجلاً عنده. وجاء في (ح) والمطبوع: فمدحته، وهي رواية. ويروى أيضاً: تذمَّه. بدل: تذيمه. ينظر أمالي القالي ٢/ ٩٧، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٦١٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨١، واللسان والتاج (قري).

(٦) ينظر العين ٨/ ٢٠٣.

(٧) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ١٦٦، والزاهر ٢/ ٣.

(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨١.

وَسْوَسَ: تكلَّم كلاماً خفيّاً يكرِّرُه، والوَسْوَاس: صوتُ الحَلْي شُبِّه الهمسُ به، وهو فعلٌ لا يتعدَّى إلى منصوبٍ نحو: وَلْوَلَتْ ووَعْوَعَ[(١)]. قال ابنُ الأعرابي: رجل موسوِسٌ بكسر الواو، ولايقال: موسوَس بفتحها[(٢)]. وقال غيره: يقال: موسوَسٌ له وموسوَسٌ إليه[(٣)]. وقال رُؤْبةُ يصف صيَّاداً:

وَسْوَسَ يدعو مُخْلِصاً ربَّ الفَلَقْ   لمَّا دنا الصيدُ دنا من الوَهَقْ[(٤)]

يقول: لمَّا أحسَّ بالصيد وأراد رَمْيَه وَسْوَسَ في نفسه: أيُخْطِئُ أم يُصيب؟ قال الأزهري: وَسْوَسَ ووَزْوَزَ معناهما واحدٌ[(٥)].

نَصَحَ: بَذَلَ المجهود في تبيين الخير، وهو ضدُّ غشَّ، ويتعدَّى بنفسه وباللام: نصحتُ زيداً ونصحتُ لزيدٍ، ويَبْعُدُ أن يكون يتعدَّى لواحدٍ بنفسه ولآخَرَ بحرفِ الجرِّ، وأصله: نصحتُ لزيدٍ الرأيَ[(٦)]، من قولهم: نصحتُ لزيدٍ الثوبَ، بمعنى: خِطْتُه، خلافاً لمن ذهب إلى ذلك.

ذاق الشيءَ يذوقُه ذَوْقاً: مسَّه بلسانه أو بفمه، ويُطلق على الأكل.

طَفِقَ بكسر الفاء وفتحها، ويقال: طَبِقَ بالباء، وهي بمعنى «أَخَذ» من أفعال المقاربة.

خَصَفَ النعلَ: وَضَعَ جلداً على جلدٍ، وجَمَعَ بينهما بسَيْرٍ، والخَصْفُ: الخَرْزُ.

---

(١) وَعْوَع: عوى وصوَّت، والوعوعة من أصوات الكلاب وبنات آوى. اللسان (وعع). وينظر الكشاف ٢/ ٧٢.

(٢) تهذيب اللغة ١٣/ ١٣٦.

(٣) الكشاف ٢/ ٧٢.

(٤) الأول في ديوان رؤبة ص ١٠٨، وتهذيب اللغة ١٣/ ١٣٦، ولم نقف على الثاني، وجاء بدله في الديوان: سرًا وقد أوَّنَ تأوين العُقُق.

(٥) في (ب) ووزن، وفي (ح): وزوَّر، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الدر المصون ٥/ ٢٧٦، ولم نقف عليه عند غيره.

(٦) قوله: الرأي، من (يه)، وسقط من باقي النسخ. وينظر الدر المصون ٥/ ٢٨٠.

الرِّيش معروفٌ، وهو للطائر، ويُستعمل في معانٍ يأتي ذكرُها في تفسير المركَّبات. واشتقُّوا منه؛ قالوا: راشَه يَرِيْشُه. وقيل: الرِّيشُ مصدرُ راشَ.

النَّزْعُ: الإزالةُ والجَذْبُ بقوَّةٍ.

* * *

التفسير

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ هذه السورةُ مكيةٌ كلُّها؛ قاله ابنُ عباس والحسنُ ومجاهدٌ وعكرمةُ وعطاءٌ وجابر بنُ زيد والضحَّاكُ وغيرُهم. وقال مقاتل: إلَّا قولَه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الآيات:١٦٣-١٧٢] فإن ذلك مدنيٌّ. ورُوِيَ هذا أيضاً عن ابن عباسٍ(١). وقيل: إلى قوله: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا﴾ [الآية: ١٧١].

واعْتِلاقُ هذه السورةِ بما قبلها هو أنه لمَّا ذَكَرَ تعالى قولَه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥] واستَطْردَ منه لِمَا بعده وإلى قوله آخِرَ السورة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وذَكَر ابتلاءَهم فيما آتاهم، وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعية، ذَكَر ما تكون به التكاليفُ، وهو الكتابُ الإلهيُّ، وذَكَر الأمرَ باتِّباعه كما أَمَر في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ﴾.

وتقدَّم الكلام على هذه الحروفِ المقطَّعةِ أوائلَ السورة في أول "البقرة"، وذِكْرُ ما حَدَسَه الناسُ فيها، ولم يقم دليلٌ على شيءٍ من تفسيرهم يُعيِّنُ ما قالوا، وزادوا هنا لأَجْلِ الصاد أنَّ معناه: أنا اللهُ أعلمُ وأفصِّلُ؛ رواه أبو الضُّحى عن ابن عباس(٢). أو: المصوِّرُ؛ قاله السدِّيُّ(٣). أو: اللهُ الملكُ النصيرُ؛ قاله بعضهم. أو: أنا اللهُ المصيرُ إليَّ؛ حكاه الماورديُّ(٤). أو: المصيرُ كتابٌ، فحذف الياء

(١) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٢، وزاد المسير ٣/ ١٦٤، والكلام منه. وقول ابن عباس الأول أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن ص ٣٣، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٣٥٨، والبيهقي في الدلائل ٧/ ١٤٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٢، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٦٧) بلفظ: أنا الله أفصل.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٢ بلفظ: «المص» هي هجاء: المصوِّر.

(٤) ينظر النكت والعيون ٢/ ١٩٩، وفيه: ويحتمل عندي أن يكون المراد: المصير إلى كتاب =

والراء ترخيماً، وعبَّر عن المصير بـ«المص»؛ قاله التبريزيُّ. وقيل عنه: أنا اللهُ الصادق.

وقيل: معناه: «ألم نشرح لك صدرك»؛ قاله الكرماني، قال: واكْتَفَى ببعض الكلام.

وهذه الأقوالُ في الحروف المقطَّعة لولا أنَّ المفسِّرين شحنوا بها كتبهم خَلَفاً عن سلفٍ لضَرَبْنا عن ذِكْرِها صَفْحاً، فإنَّ ذكرها يدلُّ على ما لا ينبغي ذِكْرُه من تأويلاتِ الباطنية وأصحابِ الألغاز والرموزِ.

ونهيُه تعالى أن يكون في صدره حرجٌ منه -أي: من سببه- لِمَا تضمَّنه من أعباء الرسالة وتبليغِها لمن لم يؤمِنْ بكتابٍ ولا اعْتَقَدَ صحةَ رسالةٍ، وتكليفِ الناس أحكامَها، وهذه أمورٌ صعبةٌ، ومُعايِنُها[1] يشقُّ عليه ذلك.

وأسند النهيَ إلى الحرج، ومعناه نهيُ المخاطَبِ عن التعرُّض للحرج، وكان أبلغَ من نهي المخاطَب لِمَا فيه من أنَّ الحرج لو كان ممَّا يُنْهَى لنهيناه عنك، فانْتَهِ أنت عنه بعدم التعرُّضِ له، ولأنَّ فيه تنزيهَ نبيِّه ﷺ بأنْ ينهاه فيأتيَ التركيبُ: فلا تَحْرَجْ منه؛ لأنَّ ما أنزله الله تعالى إليه يناسِبُ أن يُسَرَّ به وينشرحَ لِمَا فيه من تخصيصه بذلك وتشريفِه، حيث أهَّله لإنزالِ كتابه عليه، وجَعَلَه سفيراً بينه وبين خَلْقِه، فلهذه الفوائد عَدَلَ عن أن ينهاه ونَهَى الحرجَ.

وفسِّر الحرجُ هنا بالشكِّ، وهو تفسيرُ قَلِقٌ، وسمِّي الشكُّ حَرَجاً لأنَّ الشاكَّ ضيِّقُ الصدر كما أنَّ المتيقِّن منشرِحُ الصدر، وإنْ صحَّ هذا عن ابن عباس[2]، فيكون ممَّا تَوَجَّهَ فيه الخطابُ إليه لفظاً وهو لأمَّته معنىً، أي: فلا تشكُّوا أنه من عند الله.

وقال الحسن: الحرج هنا: الضِّيقُ[3]، أي: لا يَضيق صدرُك من تبليغ ما أُرْسِلْتَ به خوفاً من أنْ لا تقومَ بحقِّه.

= أنزل إليك من ربك، فحذف باقي الكلمة ترخيماً وعبر عنه بحروف الهجاء لأنها تذهب بالسامع كلَّ مذهب. اهـ. وهو قريب مما سيرد بعده.

(١) قوله: ومعاينها، تحرف في المطبوع إلى: ومعانيها.

(٢) ولم يصح، فقد أخرجه الطبري ١٠/ ٥٤ عنه بإسناد ضعيف جدًا.

(٣) النكت والعيون ٢/ ١٩٩، وزاد المسير ٣/ ١٦٥.

وقال الفرَّاء: معناه: لا يضيق صدرُك بأنْ يكذِّبوك، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦][١].

وقيل: الحرجُ هنا الخوف، أي: لا تَخَفْ منهم وإن كذَّبوك وتمالَؤوا عليك.

قالوا: ويحتملُ أن يكون الخطابُ له ولأمَّته.

والظاهر أنَّ الضمير في «منه» عائدٌ على الكتاب، وقيل: على التبليغ الذي تضمَّنه المعنى. وقيل: على التكذيب الذي دلَّ عليه المعنى. وقيل: على الإنزال. وقيل: على الإنذار.

قال ابن عطية: وهذا التخصيصُ كلُّه لا وجهَ له؛ إذ اللفظُ يعمُّ جميعَ الجهات التي هي من سبب الكتاب ولأَجْلِه، وذلك يستغرقُ التبليغَ، والإنذارَ، وتعرُّضَ المشركين، وتكذيبَ المكذِّبين، وغيرَ ذلك، و«فلا يَكُنْ في صدرك حرجٌ منه» اعتراضٌ في أثناء الكلام، ولذلك قال بعض الناس: إنَّ فيه تقديماً وتأخيراً. و«لتنذر» متعلِّقٌ بـ«أُنزل». انتهى[٢].

وكذا قال الحوفيُّ والزمخشريُّ أنَّ اللام متعلِّقةٌ بقوله: «أنزل»[٣]، وقاله قبلهم الفرَّاء[٤]، ولَزِمَ من قولهم أن يكون قولُه: «فلا يكُنْ في صدرك حرجٌ» اعتراضاً بين العامل والمعمول.

وقال ابنُ الأنباري: التقدير: فلا يكن في صدرك حرجٌ منه كي تنذر به، فجعله متعلِّقاً بما تعلَّقَ به «في صدرك»، وكذا علَّقه به صاحب «النظم»[٥]، فعلى هذا لا تكون الجملةُ معترضةً.

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٢.
(٣) الكشاف ٢/ ٦٦.
(٤) في معاني القرآن ١/ ٣٧٠.
(٥) كتاب النظم لأبي علي الحسن بن يحيى بن نصر، كما في تفسير الثعلبي ٦/ ٤٨٨، وكشف الظنون ٢/ ١٤٦٧، ووقع في تفسير البغوي ٤/ ٥٠٣، وزاد المسير ٩/ ١٦٤: الحسين، بدل الحسن. وقوله وقول ابن الأنباري في تفسير الرازي ١٤/ ١٦.

وجوَّز الزمخشريُّ وأبو البقاء[١] الوجهين، إلَّا أنَّ الزمخشريَّ قال: فإنْ قلتَ: بمَ يتعلَّقُ قولُه: «لتنذر»؟ قلتُ: بـ«أُنزل»، أي: أُنزل إليك لإنذارك به، أو بالنهي لأنه إذا لم يَخَفْهُم أَنْذَرَهم، وكذلك إذا أَيْقَنَ أنه من عند الله شجَّعه اليقينُ على الإنذار؛ لأنَّ صاحب اليقين جَسُورٌ متوكِّلٌ على عصمته[٢]. انتهى.

فقوله: أو بالنهي، ظاهِرُه أنه يتعلَّقُ بالنهي، فيكون متعلِّقاً بقوله: «فلا يكن»، و«كان» عندهم في تعليق الجارِّ والمجرور والعملِ في الظرف فيه خلافٌ، ومبناه على أنه: هل تدلُّ «كان» الناقصةُ على الحدَث أم لا؟ فَمَنْ قال: إنها تدلُّ على الحدث، جوَّز فيها ذلك، ومَن قال: إنها لا تدلُّ عليه،لم يجوِّز ذلك[٣].

وأَعْرَبَ الفرَّاءُ وغيرُه «المص» مبتدأً، و«كتابٌ» خبره، وأَعرب أيضاً «كتاب» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذا كتابٌ[٤].

و«ذكرى» هو مصدرُ «ذَكَر» بتخفيف الكاف، وجوَّزوا فيه أن يكون مرفوعاً عطفاً على «كتابٌ»، أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: وهو ذكرى. والنصبَ على المصدر على إضمارِ فعلٍ معطوفٍ على «لتنذر»، أي: وتُذَكِّر ذكرى، أو على موضع «لتنذر»؛ لأنَّ موضعه نصبٌ، فيكون إذ ذاك معطوفاً على المعنى كما عُطِفَت الحالُ على موضع المجرور في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ [يونس:١٢]. ويكون مفعولاً من أجْله، وكما تقول: جئتُك للإحسان وشوقاً إليك. والجرَّ على موضع «أنْ»[٥] الناصبة لـ«تنذر» المنسبِكِ منها ومن الفعل مصدرٌ، التقدير: لإنذارك به وذكرى. وقال قومٌ: هو معطوفٌ على

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٦، والإملاء ١/ ٢٦٧.
(٢) الكشاف ٢/ ٦٦.
(٣) قال السمين في الدر المصون ٥/ ٢٤٣: ليس في عبارته (يعني الزمخشري) ما يدل على أنه تعلَّق بـ«يكن»، بل قال: بالنهي، فقد يريد: بما تضمنه من المعنى، وعلى تقدير ذلك فالصحيح أن الأفعال الناقصة كلَّها لها دلالةٌ على الحدث إلا «ليس».
(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٦٨-٣٦٩، والوجه الثاني نقله عن الكسائي ثم قال: وهو وجهٌ، وكأنه إذا أضمر «هذا» أو «ذلك» أضمر لحروف الهجاء ما يرفعها قبلها؛ لأنها لا تكون إلا ولها موضع.
(٥) قوله: أن، ليس في (أ) و(ح) و(د١) و(ع) والمطبوع.

الضمير من «به»(١)، وهو مذهبٌ كوفيٌّ.

وتَقارير النصبِ والجرِّ هو على معنى: وتذكير، مصدر «ذكَّر» المشدَّد؛ لأنَّ «ذكرى» - كما قلنا - هو مصدرُ «ذكَر»، لا مصدرُ «ذكَّر» المشدَّد(٢).

وقال أبو عبد الله الرازي(٣): النفوسُ قسمان: جاهلةٌ غريقةٌ في طلب اللذَّات الجسمانية، وشريفةٌ مشرقةٌ بالأنوار الإلهية، مستشعرةٌ(٤) بالحوادث الروحانية، فبُعِثَتِ الأنبياءُ والرسل في حقِّ القسم الأول للإنذار والتخويف،[فإنهم] لمَّا غرقوا في بحر الغفلة ورقدةِ الجهالة(٥) احتاجوا إلى موقظٍ ومنبِّهٍ، وفي حقِّ القسم الثاني لتذكيرٍ وتنبيهٍ؛ لأنَّ هذه النفوسَ بمقتضى جواهرها الأصليةِ مستشعرةٌ بالانجذاب(٦) إلى عالَم القُدس، والاتِّصالِ بالحضرة الصَّمَدية، إلَّا أنه ربما غَشِيَها من غواشي عالَم الحسِّ(٧)، فيَعْرِضُ [لها] نوعُ ذهولٍ، فإذا سمعتْ دعوةَ الأنبياء واتَّصلَ بها [أنوار] أرواحِ رُسُلِ الله تذكَّرت مركزَها، وأبصرت منشأها، واشتاقت إلى ما حصل هناك من الرَّوْح والرَّاحة والرَّيْحان، فثبت أنه تعالى إنما أنزل الكتابَ على رسوله ليكونَ إنذاراً في حقِّ طائفةٍ وذكرى في حقِّ أخرى. انتهى.

وهو كلامٌ فلسفيٌّ خارجٌ عن كلام المتشرعين، وهكذا كلامُ هذا الرجل، أعاذنا الله منه.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ لمَّا ذكر تعالى أنَّ هذا الكتابَ أُنزل إلى الرسول أَمَرَ الأمَّةَ باتِّباعه، و«ما أُنزل إليكم» يشملُ القرآنَ والسنَّةَ؛ لقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

---

(١) التقدير: لتنذر به وبأنْ تذكِّر، وقد حسَّنه كونُ «ذكرى» في تقدير «أنْ» والفعل، ولو صرَّح بـ«أنْ» لحسُن معها حذف حرف الجر، فهو أحسن من: مررتُ بك وزيدٍ. ينظر الدر المصون ٥/ ٢٤٥.

(٢) قوله: لأن ذكرى كما قلنا هو مصدر ذكَر لا مصدر ذكَّر المشدد، من (ب) و(د٣) و(يه).

(٣) في مفاتح الغيب ١٤/ ١٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في تفسير الرازي: مستعدة.

(٥) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: الجاهلية.

(٦) في تفسير الرازي: مستعدة للانجذاب.

(٧) في تفسير الرازي: ربما غشيَها غواشٍ من عالم الجسم.

ونهاهم عن ابتغاءِ أولياءَ من دون الله كالأصنام والرُّهبان والكُهَّان والأحبارِ والنارِ والكواكب وغيرِ ذلك.

والظاهرُ أنَّ الضمير في «مِن دونه» عائدٌ على «ربّكم»، وقيل: على «ما». وقيل: على الكتاب، فالمعنى: لا تَعْدِلوا عنه إلى الكتب المنسوخة.

وقيل: أراد بالأولياء الشياطينَ، شياطينَ الجنِّ والإنس، فإنهم الذين يَحْمِلون على عبادة الأوثان والأهواء والبِدَع، ويُضِلُّون عن دين الله.

وقرأ الجحدري: «ابتغوا»، من الابتغاء. وقرأ مجاهدٌ ومالك بنُ دينار: «ولا تَبْتَغوا» من الابتغاء أيضاً[١].

والظاهرُ أنَّ الخطاب هو لجميع الناس، وقال الطبريُّ[٢] وحكاه: التقدير: قل اتَّبعوا، فحذف القولَ لدلالة الإنذار المتقدِّم الذِّكرِ عليه.

وانتصب «قليلاً» على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، و«ما» زائدةٌ، أي: تتذكّرون تذكُّراً قليلاً، أي: حيث تَتْرُكون دينَ الله وتتَّبعون غيره. وأجاز الحوفيُّ أن يكون نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ، والناصبُ له: «ولا تتَّبعوا»، أي: اتِّباعاً قليلاً[٣].

وحكى ابنُ عطية عن الفارسيِّ أنَّ «ما» موصولةٌ بالفعل، وهي مصدرية[٤]. انتهى، وتَمَّمَ غيرُه هذا الإعراب بأنَّ نَصْبَ «قليلاً» على أنه نعتٌ لظرفٍ محذوفٍ، أي: زماناً قليلاً تَذَكُّرُكم، أَخْبَرَ أنهم لا يَدَعون الذكر، إنما يَعْرِضُ لهم في زمانٍ قليلٍ، و«ما تذكَّرون» في موضع رفعٍ على أنه مبتدأٌ، والظرفُ قبله في موضع الخبر.

وأَبْعَدَ من ذَهَبَ إلى أنَّ «ما» نافية.

وقرأ حفصٌ والأخوان: «تذكَّرون» بتاءٍ واحدةٍ وتخفيفِ الذال، وقرأ ابنُ عامر: «يتذكَّرون» بالياء والتاء وتخفيفِ الذال، وقرأ باقي السبعة بتاءِ الخطاب وتشديدِ الذال[٥].

---

(١) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣، والثانية في القراءات الشاذة ص ٤٢.

(٢) في تفسيره ١٠/ ٥٦-٥٧، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣.

(٣) قال الآلوسي: ويضعفه أنه لا معنى حينئذٍ لقوله تعالى: «تذكَّرون». روح المعاني ٩/ ١٤.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣.

(٥) السبعة ص ٢٧٨، والتيسير ص ١٠٨-١٠٩. والأخوان هما حمزة والكسائي.

وقرأ أبو الدَّرْداء وابنُ عباسٍ وابنُ عامرٍ في روايةٍ بتاءين. وقرأ مجاهدٌ بياءٍ وتشديدِ الذال[١].

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ «كم» هنا خبريةٌ، التقدير: وكثيرٌ من القرى أهلكناها، وأعاد الضميرَ في «أهلكناها» على معنى «كم»، وهي في موضعِ رفعٍ بالابتداء، و«أهلكناها» جملةٌ في موضع الخبر. وأجازوا أن تكون في موضع نصبٍ بإضمارِ فعلٍ يفسِّره «أهلكناها» تقديره: وكم من قريةٍ أهلكناها[٢] أهلكناها.

ولابدَّ في الآية من تقديرِ محذوفٍ مضافٍ؛ لقوله: «أو هم قائلون»، فمنهم مَن قدَّره: وكم من أهل قريةٍ، ومنهم مَن قدَّره: أهلكنا أهلَها. وينبغي أن يقدَّر عند قوله: «فجاءها» - أي: فجاء أهلَها -لمجيء الحالِ من «أهلها» بدليل: «أو هم قائلون»؛ لأنه يمكن إهلاكُ القرى بالخسف والهدم وغيرِ ذلك، فلا ضرورة تدعو إلى حذف المضاف قبل قوله: «فجاءها».

وقرأ ابنُ أبي عبلةَ: «وكم من قريةٍ أهلكناهم فجاءهم»[٣] فيقدَّرُ المضافُ: وكم من أهل قرية.

ولابدَّ من تقديرِ صفةٍ للقرية محذوفةٍ، أي: من قريةٍ عاصيةٍ.

وتَعَقُّبُ مجيءِ البأس وقوعَ الإهلاك لا يُتصوَّرُ، فلابدَّ مِن تجوُّزٍ: إمَّا في الفعل بأنْ يُراد به: أَرَدْنا إهلاكَها -أو: حَكَمْنا بإهلاكها- فجاءها بأسُنا بعد ذلك. وإمَّا أن يَختلف المدلولان بأنْ يكون المعنى: أهلكناها بالخذلان وقلَّةِ التوفيق فجاءها بأسُنا بعد ذلك. وإمَّا أن يكون التجوُّز في الفاء بأنْ تكون بمعنى الواو، وهو ضعيفٌ، أو تكونَ لترتيب القول فقط، فكأنه أخبر عن قرىً كثيرةٍ أنه أهلكها، ثم قال: فكان من أمرها مجيءُ البأس.

(١) القراءات الشاذة ص ٤٢.
(٢) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: أهلكنا، وسقطت من (ب) و(ح) و(د٣)، والمثبت من (يه)، وهو الموافق لما في الدر المصون ٥/ ٢٤٨.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣.

وقال الفرَّاء: إنَّ الإهلاك هو مجيءُ البأس، ومجيءُ البأس هو الإهلاك، فلمَّا تَلَازَمَا لم يبال أيهما قدّم في الرتبة، كما تقول: شتمني فأساء،و: أساء فشتمني؛ لأنَّ الإساءة والشَّتْمَ شيءٌ واحدٌ[١].

وقيل: الفاءُ ليست للتعقيب، وإنما هي للتفسير، كقولهم: توضَّأ فغسل كذا ثم كذا.

وانتصب «بياتاً» على الحال، وهو مصدرٌ، أي: فجاءها بأسنا بائتينَ أو قائلين.

و«أو» هنا للتنويع، أي: جاء مرَّةً ليلاً كقوم لوطٍ، ومرَّةً وقتَ القيلولة كقوم شعيب، وهذا فيه نشرٌ لِمَا لُفَّ في قوله: «فجاءها».

وخُصَّ مجيءُ البأس بهذين الوقتين لأنهما وقتان للسكون والدَّعَة والاستراحة، فمجيءُ العذاب فيهما أقطعُ وأشقُّ، ولأنه يكون المجيءُ فيه على غفلةٍ من المُهْلَكين، فهو كالمجيء بغتةً.

وقوله: «أو هم قائلون» جملةٌ في موضع الحال، ونصَّ أصحابُنا أنه إذا دخل على جملةِ الحال واوُ العطف، فإنه لا يجوزُ دخولُ واوِ الحال عليها، فلا يجوز: جاء زيدٌ ماشياً أو وهو راكبٌ.

وقال الزمخشريُّ: فإنْ قلتَ: لايقال: جاء زيد هو فارسٌ، بغير واوٍ، فما بالُ قوله تعالى: «أو هم قائلون»؟ قلتُ: قدَّر بعضُ النحويين الواوَ محذوفةً، وردَّه الزجَّاجُ وقال: لو قلتَ: جاءني زيدٌ راجلاً أو هو فارسٌ، أو: جاءني زيدٌ هو فارسٌ،لم يُحْتَجْ فيه إلى واوٍ؛ لأنَّ الذكر قد عاد إلى الأول[٢]. والصحيحُ أنها إذا عُطِفَتْ على حالٍ قبلها حُذِفت الواوُ استثقالاً لاجتماع حرفي عطفٍ؛ لأنَّ واو الحال هي واوُ العطف استُعيرت للوصل، فقولك: جاء زيد راجلاً أو هو فارسٌ، كلامٌ فصيحٌ واردٌ على حدِّه، وأمَّا: جاءني زيدٌ هو فارسٌ، فخبيث[٣]. انتهى.

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧١ بنحوه، واللفظ دون المثال لابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣١٧.

(٣) الكشاف ٢/ ٦٧.

فأمَّا بعضُ النحويين الذي اتَّهمه الزمخشريُّ فهو الفرَّاء[١].

وأمَّا قولُ الزجَّاج في التمثيلين: لم يُحْتَجْ فيه إلى الواو لأنَّ الذكر قد عاد إلى الأول. ففيه إبهامٌ، وتعيينُه: لم يَجُزْ دخولُها في المثال الأول، ويجوزُ أن تدخل في المثال الثاني، فانتفاءُ الاحتياج ليس على حدٍّ سَواءٍ؛ لأنه في الأول لامتناع الدخول[٢]، وفي الثاني لكثرة الدخول لا لامتناعه.

وأمَّا قولُ الزمخشريِّ: والصحيحُ. إلى آخره، فتعليلُه ليس بصحيح؛ لأنَّ واو الحال ليست حرفَ عطفٍ فيَلْزَمَ من ذكرها اجتماعُ حرفي عطفٍ؛ لأنها لو كانت للعطف للزمَ أن يكون ما قبل الواو حالاً حتى تَعْطِفَ حالاً على حالٍ، فمجيئُها فيما لا يمكن أن يكون حالاً دليلٌ على أنها ليست واوَ عطفٍ، ولا لُحِظَ فيها معنَى واوِ عطفٍ، تقول: جاء زيدٌ والشمسُ طالعةٌ، فـ«جاء زيدٌ» ليس بحالٍ فتَعْطفَ عليه جملةً حاليةً، وإنما هذه الواوُ مغايِرةٌ لواو العطف بكلِّ حالٍ، وهي قِسْمٌ من أقسام الواو، كما تأتي للقَسَم وليست فيه للعطف إذا قلت: واللهِ ليَخْرجَنَّ[٣].

وأمَّا قوله: فخبيثٌ. فليس بخبيثٍ، وذلك أنه بناه على أنَّ الجملة الاسمية إذا كان فيها ضميرُ ذي الحال فإنَّ حذفَ الواوِ منها شاذٌّ، وتَبِعَ في ذلك الفرَّاءَ، وليس بشاذٍّ بل هو كثيرٌ وقوعُه في القرآن، وفي كلام العرب نَثْرِها ونَظْمِها، وهو أكثر من

(١) في معاني القرآن ١/ ٣٧٢.

(٢) قوله: لأنه في الأول لامتناع الدخول، وكذلك قوله قبل ذلك: لم يجز دخولها في المثال الأول. قد تعقَّبه السمين في الدر ٥/ ٢٥٢ بأن المصنف قد نقل امتناع ذلك ولم يحك خلافاً في المسألة، لكن قد أجاز الفراء أن يقال: أو وهم قائلون، وأنه لو قيل ذلك لكان صواباً، وهذا مصرحٌ بالخلاف له. وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٢، وفيه: لكان جائزاً.

(٣) ينظر الدر المصون ٥/ ٢٥٢، فقد ذكر السمين أن الزمخشري قد سبقه في تسمية هذه الواو حرفَ عطف الفراءُ وأبو بكر ابن الأنباري، وذكر نصَّ كلاميهما ثم قال: فهذا تصريح من هذين الإمامين بما ذكره أبو القاسم (يعني الزمخشري)، وإنما ذكرت نصَّ هذين الإمامين لأُعْلِمَ اطِّلاعه على أقوال الناس، وأنه لا يأتي بغير مصطلح أهل العلم كما يرميه (أي: المصنف) به غير مرة. اهـ. قلت: وكلام الفراء في معاني القرآن ١/ ٣٧٢، وقد صرح المصنف في الارتشاف ٣/ ١٦٠٤بنسبة القول بأن أصلها العطف للمتأخرين، ممَّا يدل على أنه لم يطَّلع على كلام الفراء في هذه المسألة.

رملِ يَبْرين[(١)] ومَهَا[(٢)] فلسطين، وقد ذكرنا كثرةَ مجيءِ ذلك في «شرح التسهيل»[(٣)]، وقد رجع عن هذا المذهبِ الزمخشريُّ إلى مذهب الجماعة.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ قال ابن عباس: «دعواهم»: تَضَرُّعُهم إلَّا إقرارُهم بالشرك[(٤)].

وقيل: «دعواهم»: دعاؤهم؛ قال الخليل: تقول: اللهمَّ أَشْرِكْنا في صالح دَعْوَى المسلمين، ومنه: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٥][(٥)].

وقيل: ادِّعاؤهم، أي: ادَّعَوا مَعَاذيرَ تُحَسِّنُ حالَهم وتقيمُ حجَّتَهم في زَعْمِهم.

قال ابن عطية: وتَحتَمِلُ الآيةُ أن يكون المعنى: فما آلَتْ دعاويهم التي كانت في حالِ كفرهم إلا[(٦)] إلى اعتراف، ومنه قول الشاعر:

وقد شهدتْ قيسٌ فما كان نَصْرُها ... قتيبةَ إلا عضَّها بالأباهم[(٧)]

وقال الزمخشريُّ: ويجوز: فما كان استغاثتُهم إلَّا قولَهم هذا؛ لأنه لا مستغاثَ

---

(١) قرية كثيرة النخل والعيون العذبة بحذاء الأحساء من بني سعد، وهناك الرمل الموصوف بالكثرة. معجم البلدان ١/ ٧١ و٥/ ٤٢٧.

(٢) في (ب): ومهر، وفي (ح): ومنها. وجاء في تفسير القرطبي ١٢/ ٣٥٢: وتيهاء، وهو الأشبه.

(٣) لم يَرِدْ في القسم المطبوع منه، وينظر الارتشاف ٣/ ١٦٠٦. وينظر كذلك شرح المفصَّل لابن يعيش ٢/ ٦٥-٦٦، وقد ردَّ فيه ابن يعيش أيضاً على الزمخشري قوله في المفصل بشذوذ خلوِّ الجملة الاسمية من الواو، وذكر (يعني ابن يعيش) أن اللازم في الجملة الاسمية الحالية أن يؤتى فيها بما يعلِّقها بما قبلها لئلا يُتوهَّمَ أنها مستأنفة، وذلك يكون بأحد أمرين: إما الواو كقولك: جاء زيدٌ والأمير راكبٌ، وإما الضمير نحو: أقبل محمدٌ يدُه على رأسه.

(٤) أي: كان في تضرعهم إقرار بالشرك. ينظر تفسير الرازي ١٤/ ٢١، وخبر ابن عباس فيه بلفظ: فما كان تضرُّعهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا: «إنا كنا ظالمين» فأقروا على أنفسهم بالشرك.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٤، وينظر الكتاب ٤/ ٤٠.

(٦) قوله: إلا، ساقط من (أ) و(ح) و(د١) و(ع) والمطبوع.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٤، وسلف البيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

من الله بغيره، من قولهم: دعواهم يا لَكَعب[١].

قالوا: و«دعواهم» اسمُ «كان»، و«إلا أن قالوا» الخبر. وأجازوا العكسَ.

والأولُ هو الذي تقتضي نصوصُ المتأخِّرين أنْ لا يجوزَ إلا هو، فيكون «دعواهم» الاسمَ و«إلَّا أن قالوا» الخبرَ؛ لأنه إذا لم تكن قرينةٌ لفظيةٌ ولا معنويةٌ تبيِّنُ الفاعلَ من المفعول وَجَبَ تقديمُ الفاعل وتأخيرُ المفعول، نحو: ضَرَبَ موسى عيسى، و«كان» وأخواتُها مشبَّهةٌ في عملها بالفعل الذي يتعدّى إلى واحدٍ، فكما وجب ذلك فيه وجب ذلك في المشبَّه به وهو «كان»، و«دعواهم» و«إلَّا أنْ قالوا» لا يظهر فيهما لفظٌ يبيِّن الاسمَ من الخبر ولا معنىً، فوجَبَ أن يكون السابقُ هو الاسمَ واللاحقُ الخبرَ.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ أي: نسألُ الأممَ المرسَلَ إليهم عن أعمالهم وعمَّا بلَّغه إليهم الرسلُ، كقوله[٢]: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] ونسألُ الرسلَ عمَّا أجاب به مَن أُرْسِلوا إليهم، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وسؤالُ الأمم تقريرٌ وتوبيخٌ يُعْقِبُ الكفارَ والعصاةَ عذاباً، وسؤالُ الرسل تأنيسٌ يُعْقِبُ الأنبياء ثواباً وكرامةً. وقد جاء السؤالُ منفيّاً ومُثْبَتاً بحسب المَواطن أو بحسب الكيفيات، كسؤال التوبيخ والتأنيس، وسؤالُ الاستعلام البحتِ منفيٌّ عن الله تعالى إذ أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

وقيل: المرسلُ إليهم الأنبياءُ والمرسلون الملائكةُ. وهذا بعيدٌ.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ أي: نسردُ عليهم أعمالَهم قصةً قصةً بعِلْمٍ منَّا لذلك واطِّلاعٍ عليه، وما كنَّا غائبين عن شيءٍ منه، بل عِلْمُنا محيطٌ بجميع أعمالهم ظاهرِها وباطنِها.

وهذا مِن أعظم التوبيخ والتقريع، حيث يُقِرُّون بالظلم، وتَشْهدُ عليهم أنبياؤهم، ويقصُّ الله عليهم أعمالَهم، قال وَهْبٌ: يقال للرجل منهم: أتَذْكُرُ يومَ فعلتَ كذا؟

(١) الكشاف ٢/ ٦٧.

(٢) في المطبوع: لقوله، وهو تحريف.

أتذكُرُ حين قلتَ كذا؟ حتى يأتي على آخِرِ ما فَعَلَه وقالَه في دنياه.

وفي قوله: «بِعِلْم» دليلٌ على إثبات هذه الصفةِ لِلّهِ تعالى، وإبطالٌ لقول مَن قال: لا عِلْمَ لِلّه.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ اختلفوا: هل ثَمَّ وزنٌ وميزانٌ حقيقةً، أم ذلك عبارةٌ عن إظهار العَدْلِ التامِّ والقضاءِ السَّويِّ والحسابِ المحرَّر؟

فذهبت المعتزلةُ إلى إنكارِ الميزان، وتَقَدَّمَهم إلى هذا مجاهدٌ والضحَّاك والأعمش وغيرهم[(١)]، وعبَّر بالثِّقَل عن كثرة الحسنات، وبالخِفَّة عن قلَّتها.

وقال جمهورُ الأمَّة بالأول، وأنَّ الميزان له عمودٌ وكفَّتان ولسان، وهو الذي دلَّ عليه ظاهرُ القرآن والسنَّة، ينظر إليه الخلائقُ تأكيداً للحجة وإظهاراً للنَّصْفة وقطعاً للمعذرة، كما يسألُهم عن أعمالهم فيعترفون بها بألسنتهم، وتَشْهَدُ عليهم بها أيديهم وأرجلُهم، وتشهدُ عليهم الأنبياءُ والملائكةُ والأشهاد، وأمَّا الثقلُ والخفَّةُ فمِن صفات الأجسام. وقد ورد أنَّ الموزون هي الصحائفُ التي أُثبتت فيها الأعمال، فيُحْدِثُ الله تعالى فيها ثقلاً وخفَّةً.

وما ورد في هيئته وطوله وأحواله لم يصحَّ إسنادُه.

وجُمعت الموازينُ باعتبارِ الموزوناتِ، والميزانُ واحدٌ؛ هذا قولُ الجمهور.

وقال الحسن: لكلِّ أحدٍ يومَ القيامة ميزانٌ على حِدَةٍ[(٢)]. وقد يعبَّر عن الحسنات بالموازين، فيكون ذلك على حذف مضافٍ، أي: فمن ثَقُلت كفةُ موازينه، أي: موزوناته، فيكون «موازين» جمعَ موزونٍ لا جمعَ ميزان، وكذلك: ومَن خفَّت كفةُ حسناته.

---

(١) ينظر قولهم في تفسير الرازي ١٤/ ٢٥، وتفسير القرطبي ٩/ ١٥٦. وأخرج الطبري ١٠/ ٦٨ عن مجاهد أن الوزن هو القضاء، والحقَّ هو العدل.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٦.

و«الوزن» مبتدأ، وخبرُه ظرفُ الزمان، والتنوين للعوض من الجملة، والتقدير: والوزنُ كائنٌ يوم أن نسألَهم ونقصَّ عليهم، وهو يومُ القيامة، و«الحقُّ» صفةٌ لـ«الوزن».

ويجوز أن يكون «يومئذ» ظرفاً للوزن معمولاً له، و«الحقّ» خبرٌ.

ويتعلَّق «بآياتنا» بقوله: «يظلمون»؛ لتضمُّنه معنى: يكذبون، أو لأنها بمعنى: يجحدون، وجَحَدَ يُعَدَّى بالباء، قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ [النمل: ١٤].

والظاهرُ أنَّ هذا التقسيم هو بالنسبة للمؤمنين -مَن أطاع ومَن عَصَى- وللكفار، فتوزَنُ أعمال الكفار. وقال قوم: لايُنْصَبُ لهم ميزانٌ ولا يحاسبون؛ لقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وإنما توزَنُ أعمالُ المؤمنين طائِعِهم وعاصيهم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ تقدَّم معنى «مكَّنَّاكُم» في قوله في أول «الأنعام»: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ٦] والخطابُ راجعٌ للذين خُوطِبوا بقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وما بينهما أُوْرِدَ مَوْرِدَ الاعتبارِ والاتِّعاظ[1] بذكرِ ما آلَ إليه أمرُهم في الدنيا وما يَؤُول إليه في الآخرة.

والمعايش: جمعُ مَعيشة، ويحتمل أن يكون وزنُها: مَفْعِلة ومَفْعُلة بكسر العين وضمِّها، قالهما سيبويه[2] وقال الفرَّاء: مَعْيَشة بفتح عين الكلمة[3].

والمعيشة: ما يُعاشُ به من المطاعم والمشارب وغيرهما ممَّا يُتَوصَّلُ به إلى ذلك، وهي في الأصل مصدرٌ تَنَزَّلَ منزلةَ الآلات. وقيل: هو على حذفِ مضافٍ، التقدير: أسبابَ معايشَ، كالزَّرْع والحصد والتجارة وما يجري مجرى ذلك، وسمَّاها معايشَ لأنها وصلةٌ إلى ما يُعاش به.

---

(١) قوله: والاتعاظ، تحرف في المطبوع إلى: والإيقاظ.

(٢) في الكتاب ٤/ ٣٤٩.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٧، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٣، وقد ضبطت في مطبوعه مفعِلة بكسر العين.

وقيل: المعايش وجوهُ المنافع، وهي إمَّا ما[١] يُحْدِثُه الله ابتداءً كالثمار، أو ما يُحْدِثُه بطريقِ اكتسابٍ من العبد، وكلاهما يوجبُ الشكر.

وقرأ الجمهور: «معايش» بالياء وهو القياسُ؛ لأن الياء في المفرد هي أصلٌ، لا زائدةٌ فتُهْمَز، وإنما تُهْمَزُ الزائدةُ نحو: صحائف، في صحيفة.

وقرأ الأعرجُ وزيد بنُ عليٍّ والأعمشُ، وخارجةُ عن نافعٍ، وابنُ عامرٍ في روايةٍ: «معائش» بالهمز[٢]، وليس بالقياس، لكنهم رَوَوْه وهم ثقاتٌ فوَجَبَ قبولُه، وشذَّ هذا الهمزُ كما شذَّ في منائر جمع منارةٍ وأصلُها مَنْورة، وفي مصائب جمع مُصيبةٍ وأصلُها مَصْوبة، وكان القياس: مَنَاوِر ومَصَاوِب، وقد قالوا: مَصَاوِب، على الأصل، كما قالوا في جمع مَقامة: مَقَاوِم، ومَعونة: مَعَاوِن.

وقال الزجَّاج: جميعُ نحاة البصرة تزعُم أنَّ همزها خطأٌ، ولاأعلم لها وجهاً إلا التشبيهَ بـ: صحيفة وصحائف، ولا ينبغي التعويلُ على هذه القراءة[٣].

وقال المازنيُّ[٤]: أصلُ أَخْذِ هذه القراءةِ عن نافع، ولم يكن يدري ما العربيةُ، وكلامُ العرب التصحيحُ في نحو هذا. انتهى.

ولسنا متعبَّدين بأقوال نحاة البصرة، وقال الفرَّاء: ربما همزت العربُ هذا وشِبْهَهُ، يَتَوهَّمون أنها فَعيلةٌ فيشبِّهون مَفْعَلَةً بفَعِيلةٍ[٥]. انتهى.

فهذا نقلٌ من الفرَّاء عن العرب أنهم ربما يهمزون هذا وشِبْهَه، وجاء به نَقْلُ القَرَأة الثقات: ابنِ عامر وهو عربيٌّ صُراحٌ، وقد أخذ القرآن عن عثمان قبل ظهور اللَّحن، والأعرجِ وهو من كبار قرَّاء التابعين، وزيد بنِ عليٍّ وهو من الفصاحة والعلم بالمكانَ الذي قلَّ أن يُدانِيَه في ذلك أحدٌ، والأعمشِ وهو من الضبط

---

(١) قوله: إما، ساقط من (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) والمطبوع.

(٢) القراءات الشاذة ص ٤٢ عن الأعرج ونافع، والكشاف ٢/ ٦٨ عن نافع، وذكرها عن الأعمش ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الحجر: ٢٠].

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٠-٣٢١ بنحوه.

(٤) في كتابه «التصريف» كما في المنصف شرح التصريف لابن جني ١/ ٣٠٧.

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٣-٣٧٤.

والإتقان والحفظ والثقة بمكانٍ، ونافع وهو قد قرأ على سبعين من التابعين، وهم من الفصاحة والضَّبط والثقة بالمحلِّ الذي لا يُجْهَلُ، فوَجَبَ قبولُ ما نقلوه إلينا، ولا مبالاةَ بمخالفةِ نحاة البصرة في مثلِ هذا.

وأمّا قولُ المازني: أصلُ أَخْذِ هذه القراءة عن نافع. فليس بصحيحٍ؛ لأنها نُقلت عن ابنِ عامرٍ وعن الأعرج وزيد بن عليٍّ والأعمش.

وأمّا قوله: إن نافعاً لم يكن يدري ما العربيةُ. فشهادةٌ على النفي، ولو فَرَضْنا أنه لا يدري ما العربيةُ - وهي هذه الصناعةُ التي يُتَوصَّلُ بها إلى التكلُّم بلسان العرب - فهو لا يلزمه ذلك؛ إذ هو فصيحٌ متكلِّمٌ بالعربية ناقلٌ للقراءة عن العرب الفُصَحاء، وكثيرٌ من هؤلاء النُّحاة يُسيئون الظنَّ بالقَرَأة[1]، ولا يجوزُ لهم ذلك.

وإعراب «قليلاً ما تشكرون» كإعراب «قليلاً ما تذكّرون».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ لمّا تقدَّم ما يدلُّ على تقسيم المكلَّفين إلى طائع وعاصٍ، فالطائعُ ممتثِلٌ ما أَمَرَ اللهُ به مجتنِبٌ ما نَهَى عنه، والعاصي بضدِّه، أَخَذَ ينبِّه على أنَّ هذا التقسيمَ كان في البدء الأول مِن أَمْرِ الله للملائكة بالسجود، فامْتَثَلَ مَن امْتَثَلَ وامتنع مَن امتنع، وأنه أَمَر تعالى آدمَ ونَهَى فحَكَى عنه ما يأتي خبرُه، فنبَّه أولاً على موضع الاعتبار وإبرازِ الشيء من العدم الصرف إلى الوجود، والتصويرِ في هذه الصورة الغريبة الشَّكْلِ المتمكِّنةِ[2] من بدائع الصنائع.

والظاهرُ أنَّ الخطاب عامٌّ لجميع بني آدم، ويكون قولُه[3]: «ثم قلنا» إمّا أن تكون فيه «ثم» بمعنى الواو فلم تُرتِّبْ، ويكون الترتيبُ بين الخلق والتصوير، أو تكون «ثم» في «ثم قلنا» للترتيب في الإخبار لا في الزمان، وهذا أسهلُ مَحْمَلٍ في الآية، ومنهم مَن جعل «ثم» للترتيب في الزمان.

---

(١) في المطبوع: بالقراء.
(٢) في (ب): المتضمنة.
(٣) في (أ) و(ح) و(د١) و(ع): ويكون على قوله.

واختلفوا في المخاطب:

فقيل: المرادُ به آدمُ، وهو من إطلاق الجمع على الواحد.

وقيل: المراد به بَنُوه.

فعلى القولِ الأول يكونُ الخطاب في الجملتين لآدم، لأنَّ العرب تخاطب العظيم الواحد بخطاب الجمع، وقيل: الخطابُ في الأولى لآدم وفي الثانية لذرِّيَّته، فتحصُل المُهلةُ بينهما، و«ثم» الثالثةُ لترتيب الإخبار، ورَوَى هذا العوفيُّ عن ابن عباس[١]. وقيل: «خلقناكم» لآدم «ثم صوَّرناكم» لبنيه -يعني في صُلْبه عند أَخْذِ الميثاق- «ثم قلنا»، فيكون الترتيبُ واقعاً على بابه.

وعلى القول الثاني، وهو أنَّ الخطاب لبني آدم، فقيل: الخطابُ على ظاهره وإن اخْتَلَف محلُّ الخلق والتصوير:

فروى الحارث عن ابن عباس: «خلقناكم» في ظهر آدم «ثم صوَّرْناكم» في الأرحام.[٢]

وقال ابن جبير عنه: «خلقناكم» في أصلاب الرجال «ثم صوَّرْناكم» في أرحام النساء.[٣] وقاله عكرمةُ وقتادةُ والضحاك والأعمش.[٤]

وقال ابن السائب: «خلقناكم» نُطفاً في أصلاب الرجال وترائبِ النساء «ثم صوَّرناكم» عند اجتماع النُّطف في الأرحام.[٥]

وقال مَعْمَرُ بن راشد حاكياً عن بعض أهل العلم: «خلقناكم» في بطون أمَّهاتكم، و«صوَّرناكم» فيها بعد الخلق بشقِّ السَّمْع والبصر[٦].

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٧٥-٧٦، وأخرجه أيضاً من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٢) زاد المسير ٣/ ١٧٢، وفيه: عبد الله بن الحارث عن ابن عباس، وهو الصواب، وكذا أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٩/ ٣١٩.
(٣) المصدر السابق، وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٩/ ٣١٩، والحاكم ٢/ ٣١٨.
(٤) أخرجه عن عكرمة والأعمش الطبريُّ ١٠/ ٧٧-٧٨، ولم نقف عليه عن قتادة والضحاك.
(٥) النكت والعيون ٢/ ٢٠٢، وزاد المسير ٣/ ١٧٣.
(٦) المصدران السابقان، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٧٩.

و«ثم» على هذه الأقوال في قوله: «ثم قلنا» للترتيب في الإخبار.

وقيل: الخطاب لبني آدم، إلَّا أنه على حذف مضافٍ، التقدير: ولقد خلقنا أرواحَكم ثم صوَّرنا أجسامكم؛ حكاه القاضي أبو يعلى في «المعتمد»[١]. ويكون «ثم» في «ثم قلنا» للترتيب في الإخبار.

وقيل: التقدير: ولقد خلقنا أباكم ثم صوَّرنا أباكم ثم قلنا، فـ«ثم» على هذا للترتيب الزمانيِّ والمهلةِ، على أصل وضعها. وقيل: هو من تلوين الخطاب، يخاطَبُ العينُ ويراد به الغير، فيكونُ الخطابُ لبني آدم والمرادُ آدمُ، كقوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة:٤٩] ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة:٧٢] هو خطابٌ لمن كان بحضرة الرسول ﷺ من بني إسرائيل والمرادُ أسلافُهم، ومنه قولُ الشاعر:

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقَوْسِها ... وزادتْ على ما وطَّدَتْ من مناقبِ
فأنتم بذي قارٍ أمالَتْ سيوفُكم ... عروشَ الذين استَرْهَنوا قوسَ حاجِبِ[٢]

وهذه الوقعةُ كانت لآبائهم.

وتقدَّم تفسير: «قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلَّا إبليس» في سورة البقرة فأغنى عن إعادته.

وقوله: «لم يكن من الساجدين» جملةٌ لا موضع لها من الإعراب، مؤكِّدةٌ لمعنى ما أخرجه الاستثناءُ من نفي سجود إبليس كقوله: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ بعد قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ في «البقرة»[٣].

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ الظاهرُ أنَّ «لا» زائدةٌ تفيدُ التوكيدَ والتحقيقَ، كهي في قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد:٢٩] أي: لأنْ يعلمَ، وكأنه قيل: ليتحقَّق علمُ أهلِ الكتاب، و: ما منعك أن تحقِّق السجودَ وتُلْزِمَه نفسكَ إذ أمرتُك، ويدلُّ على زيادتها قولُه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] وسقوطُها في هذا دليلٌ على

(١) زاد المسير ٣/ ١٧٣.
(٢) البيتان لأبي تمام، وهما في ديوانه ١/ ٢٠٧-٢٠٨.
(٣) الآية (٣٤).

زيادتها في «ألّا تسجد»، والمعنى أنه وبَّخه وقرَّعه على امتناعه من السجود وإن كان تعالى عالماً بما مَنَعَه من السجود، و«ما» استفهاميةٌ تدلُّ على التوبيخ كما قلنا.

وأنشدوا على زيادةِ «لا» قولَ الشاعر:

أفعَنْكَ لا برقٌ كأنَّ وميضَه غابٌ تَسَنَّمه ضِرامٌ مُثْقَبُ[١]

وقولَ الآخر:

أبى جودُه لا البخلَ واسْتَعْجَلَتْ به نَعَم من فتىً لا يمنعُ الجودَ قاتِلَه[٢]

وأقول: لا حُجَّةَ في البيت الأول؛ إذ يَحْتَمِلُ أن لاتكون فيه «لا» زائدةً؛ لاحتمالِ أن تكونَ عاطفةً وحُذِفَ المعطوفُ، والتقدير: أَفَعَنْكَ لا عن غيرك.

وأمَّا البيتُ الثاني فقال الزجَّاج: «لا» مفعولةٌ، و«البخل» بدلٌ منها، وقال أبو عمرو بن العلاء: الرواية فيه: لا البخلِ، بخفض اللام، جَعَلَها مضافةً إلى البخل لأنَّ «لا» قد يُنْطَقُ بها ولا تكون للبخل[٣]. انتهى.

وقد خرَّجْتُه أنا تخريجاً آخَرَ، وهو أن ينتصب «البخل» على أنه مفعولٌ من أَجْلِه و«لا» مفعولةٌ[٤].

وقال قوم: «لا» في «أن لاتسجد» ليست زائدةً، واختلفوا:

فقيل: يقدَّرُ محذوفٌ يصحُّ معه المعنى، وهو: ما منعك فأحْوَجَك أنْ لا تسجد.

وقيل: يُحمَّل قولُه: «ما منعك» معنىً يصحُّ معه النفيُ؛ فقيل: معنى: «ما منعك»: مَن أَمَرك، ومَن قال لك أنْ لا تسجد، وما ألجأكَ وما دعاك أن لا تسجد.

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٧٢، والصاحبي لابن فارس ص ١٧١، وجاء في الديوان: غابٌ تَشَيَّمه، وهما روايتان كما في اللسان (شيم)، وتحرف قوله: تسنَّمه، في (أ) و(ح) و(د١) و(ع) إلى: تقسمه. والغاب: شجر. والضرام: النار في الحطب الدقيق الذي تضطرم فيه. وتشيمه: دخله. ومثقَب: موقَد. قاله شارح الديوان.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٨٣، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٣، والخصائص ٢/ ٣٥، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٣، وتفسير الطبري ١٠/ ٨٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٧٨.

(٤) والتقدير: أبى جوده «لا» لأجل البخل، أي: كراهة البخل. الدر المصون ٥/ ٢٦٢.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ هذا ليس بجوابٍ مطابقٍ للسؤال لكنه يتضمَّنُ الجوابَ؛ إذ معناه: مَنَعني فَضْلي عليه لشَرَفِ عُنْصُري على عُنْصُرِه.

وهذا يقتضي عنده أنَّ النار خيرٌ من الطين، وإذا كان كذلك فالناشئُ من الأفضل لا يسجدُ للمفضول؛ قالوا: وذلك أنَّ النار جسمٌ مُشْرِقٌ عُلْويٌّ لطيفٌ خفيفٌ حارٌّ يابسٌ مجاوِرٌ لجواهر السماوات ملاصِقٌ لها، والطين مظلمٌ كثيفٌ ثقيلٌ باردٌ يابسٌ بعيدٌ عن مجاورة السماوات. والنارُ قويةُ التأثير والفعلِ، والطينُ ليس له إلا القبولُ والانفعالُ، والفعلُ أشرفُ من الانفعال. والنارُ مناسِبةٌ للحرارة الغريزية وهي مادةُ الحياة، والطين ببردِه ويبسِه مناسِبٌ للموت. وإذا تقرَّر هذا فالمخلوقُ من الأفضل أفضلُ، فلا يؤمَرُ الأفضلُ بخدمة المفضول، ألا ترى أنه لو أُمر مثلاً مالكٌ وأبو حنيفةَ بخدمة مَن هو دونهما في العلم لكان ذلك قبيحاً في العقل[(١)].

ثم قالوا: أخطأ إبليسُ من حيث فضَّل النارَ على الطين، وهما في درجةٍ واحدةٍ من حيث هما جمادٌ مخلوقٌ، والطينُ أفضلُ من النار من وجوه:

أحدها: أنَّ مِن جوهر الطين الرَّزانةَ والسُّكونَ والوَقارَ والأناةَ والحِلْمَ والحياءَ والصَّبر، وذلك هو الداعي لآدمَ عليه السلام -بعد السعادة التي سَبَقَتْ له- في[(٢)] التوبة والتواضُع والتضرُّع، فأَوْرَثَه المغفرةَ والاجتباءَ والهدايةَ. ومِن جوهر النارِ الخفَّةُ والطيشُ والحدَّةُ والارتفاعُ والاضطرابُ، وذلك هو الداعي لإبليس -بعد الشقاوة التي سبقت- إلى الاستكبار والإصرار، فأَوْرَثَه الهلاكَ واللَّعنةَ والعذابَ؛ قاله القفَّال.

ثم ذكروا وجوهاً عشرةً يظهر بها فضلُ التراب على النار.

ثم قالوا: لا يدلُّ مَن كانت مادتُه أفضلَ على أنه تكونُ صورتُه أفضلَ؛ إذ

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٣٢-٣٣.

(٢) كذا في النسخ والمطبوع، والذي في كتب التفسير: إلى. ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٨٦-٨٧، وتفسير الثعلبي ٣/ ٨، وتفسير البغوي ٢/ ١٥٠، وتفسير القرطبي ٩/ ١٦٥. وعبارة الطبري: . . .الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربِّه في الكتاب السابق إلى التوبة. . .

الفضيلةُ عطيةٌ من الله تعالى، ألا تراه تعالى يُخرج الكافرَ من المؤمنِ والمؤمنَ من الكافر، وأنَّ الحبشيَّ المؤمنَ خيرٌ من القُرَشيِّ الكافر، وإذا كانت المقدِّمة غيرَ مسلَّمةٍ لم ينتج، والمقدِّمتان أن تقول: إبليسُ ناريُّ المادةِ، وكلُّ ناريِّ المادة أفضلُ من ترابيِّ المادة، فإبليسُ أفضلُ من ترابيِّ المادة، والمقدِّمةُ الثانيةُ ممنوعةٌ فلا تنتج.

وقال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أولُ مَن قاس إبليسُ. قال ابن عباس: فأخطأ، فَمَن قاس الدِّين برأيه قَرَنَه الله مع إبليس. وقالا: وما عُبدت الشمسُ والقمر إلا بالمقاييس[١].

وقال بعض العلماء: أخطأ قياسه، وذهب علمه[٢] أنَّ الروح الذي نُفخ في آدمَ ليس من طين.

واستَدَلَّ نفاةُ القياس على إبطاله بقصة إبليس، ولا حجةَ فيها؛ لأنه قياسٌ في مورد النصِّ فهو فاسدٌ، فلا يدلُّ على بطلانِ القياس حيث لا نصَّ.

واستُدِلَّ بقوله: «إذ أمرتُك» على أنَّ مُطْلَقَ الأمر يدلُّ على الوجوب ويدل على الفور؛ لذمِّ إبليس على امتناعه من السجود في الحال، ولو لم يدلَّ على الوجوب ولا على الفور لم يَسْتَوْجِب الذمَّ في الحال ولا مطلقاً.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ لـمَّا كـان امتناعُه من السجود لسببِ ظهورِ شفوفه[٣] على آدم عند نفسه قابَلَه الله بالهبوط المُشْعِرِ بالنزول من عُلْوٍ إلى سفلٍ.

والضمير في «منها» لم يتقدَّم له مفسِّرٌ يعود عليه؛ فقيل: يعود على الجنة، وكان إبليسُ من سكَّانها

وقال ابن عباس: كانوا في جنةِ عَدْنٍ لا في جنة الخلد، وخُلِقَ آدمُ من جنة عَدْنٍ[٤].

(١) تنظر أقوالهم في المصادر المذكورة في التعليق السابق.
(٢) كذا في النسخ والمطبوع: علمه، والذي في المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٩ (والكلام منه): عليه، وهو الأشبه.
(٣) أي: فضله. ينظر اللسان (شفف)، وجاء في النهر على هامش البحر ٤/ ٢٧٤: شرفه.
(٤) ذكره بنحوه الرازي ١٤/ ٣٥.

وقال ابنُ عطية: أُهبط أوّلاً وأُخرج من الجنة وصار في السماء؛ لأنَّ الأخبار تظاهرت أنه أَغْوَى آدمَ وحواءَ من خارج الجنة، ثم أُمِرَ آخِراً بالهبوط من السماء مع آدمَ وحواءَ والحيةِ، وهذا كلُّه بحسَب ألفاظ القصة، والله أعلم[١]. انتهى.

وقيل: يعودُ على السماء؛ قال الزمخشري: «فاهْبِطْ منها»: من السماء التي هي مكانُ المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقرُّ العاصين المتكبِّرين من الثَّقَلَيْن[٢].

وقيل: يعود على الأرض، فإنه[٣]كان له ملكُها، أَمَره أن يهبط منها إلى جزائر البحار فسلطانُه فيها، فلا يدخل الأرضَ إلَّا كهيئة السارق يخافُ فيها حتى يَخْرُجَ منها. وهذا يَحتاجُ إلى صحةِ نقلٍ.

وقيل: يعود على صورته التي كان فيها؛ لأنه افْتَخَر أنه من النار فشوِّهت صورتُه بالإظلام وزوالِ إشراقه، قاله أبو روق[٤].

وقيل: عائدٌ على المدينة التي كان فيها. ذكره الكرمانيُّ، ويحتاجُ إلى تصحيحِ نقلٍ.

وقيل: يعود على المنزلة والرتبة الشريفة التي كان فيها في محلِّ الاصطفاء والتقريب إلى محلِّ الطَّردِ والتعذيب.

ومعنى «فما يكون لك»: لا يصحُّ لك، أو: لا يتمُّ، أو: لا ينبغي.

والضميرُ في «فيها» يعود على ما عاد عليه «منها»، ولا مفهوم لهذا الظرف[٥]، بل التكبُّرُ منهيٌّ عنه في كلِّ موضعٍ.

وقيل: هو على حذف معطوفٍ دلَّ عليه المعنى، التقدير: فيها ولا في غيرها.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٩.
(٢) الكشاف ٢/ ٦٩.
(٣) في (أ): فإن، وفي المطبوع: فكأنه.
(٤) تفسير القرطبي ٩/ ١٦٩، وأبو روق اسمه: عطية بن الحارث الهمداني.
(٥) من قوله: والضمير في فيها، إلى هذا الموضع ساقط من (أ) و(ح) والمطبوع، والمثبت من (ب).

وقيل: المعنى: ما للمتكبِّر أن يكون فيها. وكرَّر معنى الهبوطِ بقوله: «فاخْرُجْ»؛ لأنَّ الهبوط منها خروجٌ، ولكنه أَخبر بصَغَارِه وذلَّته، وهو أنه[١] جزاءً على تكبُّره قوبِلَ بالضِّدِّ ممَّا اتَّصَفَ به، وهو الصَّغارُ الذي هو ضدُّ التكبُّر، والتكبُّرُ تَفَعُّلٌ منه، لا أنه[٢] خُلق كبيراً عظيماً، ولكنه هو الذي تَعَاطَى الكِبْرَ، ومن كلام عمر: ومَن تكبَّر وعَدَا طورَه وَهَصَه الله إلى الأرض[٣].

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ هذا يدلُّ على إقراره بالبعث وعِلْمِه بأنَّ آدم سيكون له ذريةٌ ونسلٌ يَعْمُرون الأرضَ ثم يموتون، وأنَّ منهم مَن يُنْظَرُ، فيكون طلبُه الإنظارَ بأنْ يُغْوِيَهم ويوسوسَ إليهم، فالضميرُ في «يبعثون» عائدٌ على ما دلَّ عليه المعنى؛ إذ ليس في اللفظ ما يعود عليه.

وحكمةُ استنظارِه وإن كان ذلك سبباً للغواية والفتنة أنَّ في ذلك ابتلاءَ العباد بمخالفته وطواعيته، وما يترتَّبُ على ذلك من إعظام الثواب بالمخالفة وإدامةِ العقاب بالطواعية. وأجابه تعالى بأنه من المنظَرين، أي: من المؤخَّرين.

ولم يأتِ هنا بغايةٍ للإنظار[٤]، وجاء مغيّاً في «الحجر» وفي «ص» بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:٣٨، وص:٨١] ويأتي تفسيره في «الحجر» إن شاء الله.

ومعنى «من المنظَرين»: من الطائفة التي تأخَّرت أعمارُها كثيراً حتى جاءت آجالها على اختلافِ أوقاتها، فقد شمل تلك الطائفةَ إنظارٌ وإن لم يكونوا أحياءً مدةَ الدهر. وقيل: «من المنظرين» جمع كثير مثل «قوم يونس».

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ الظاهر أنَّ الباء للقَسَم و«ما» مصدريةٌ، ولذلك تُلقِّيَت الأَلِيَّةُ[٥] بقوله: «لأقعدنَّ». قال الزمخشري: وإنما أقسم بالإغواء لأنه كان تكليفاً، [والتكليف] من أحسن أفعالِ الله لكونه تعريضاً لسعادة

---

(١) في النسخ عدا (ح): وهوانه، والمثبت من (ح)، ومثله في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٢٧٤.

(٢) قوله: لا أنه، تحرف في (يه) والمطبوع إلى: لأنه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٧١١٥).

(٤) تحرفت في المطبوع إلى: للانتظار.

(٥) الأليَّة: اليمين. القاموس (ألي).

الأبد، فكان جديراً أن يُقْسَمَ به[١]. انتهى.

وقيل: الباء للسبب، أي: بسبب إغوائك إياي. وعبَّر ابنُ عطية عنها بأنْ يراد بها معنى المجازاة، قال: كما تقول: فبإكرامك لي يا زيدُ لأُكْرِمَنَّك، قال: وهذا أَلْيَقُ بالقصة[٢].

قال الزمخشري: فإن قلتَ: بم تعلَّقت الباءُ؟ فإنَّ تعليقها بـ«لأقعدنَّ» تصدُّ عنه لامُ القسم، لا تقول: واللهِ بزيدٍ لأَمُرَّنَّ.

قلتُ: تعلَّقت بفعل القسم المحذوف، تقديره: فبما أغويتني أقسمُ بالله لأقعدنَّ، أي: بسبب إغوائك أُقسم[٣]. انتهى. وما ذكره مِن أنَّ اللامَ تصدُّ عن تعلُّقِ الباء بـ«لأقعدن» ليس حُكْماً مُجْمعاً عليه، بل في ذلك خلافٌ.

وقيل: «ما» استفهامية، كأنه اسْتَفْهَم عن السبب الذي أغواه، وقال: بأيِّ شيءٍ أغويتني؟ ثم ابتدأ مُقْسِماً فقال: لأقعدنَّ لهم. وضعِّف بإثباتِ الألف في «ما» الاستفهامية، وذلك شاذٌّ أو ضرورةٌ، نحو قولهم: عمَّا تسألُ؟ فهذا شاذٌّ، والضرورةُ كقوله:

على ما قام يَشْتُمني لئيمٌ[٤]

ومعنى «أغويتني»: أَضْلَلْتَني؛ قاله ابنُ عباسٍ والأكثرون[٥].

أو: لَعَنْتَني؛ قاله الحسن[٦].

أو: أهلكتني؛ قاله ابنُ الأنباري[٧].

أو: خيَّبْتني؛ قاله بعضهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٠، وفيه: . . . أليق المعاني بالقصة.
(٣) الكشاف ٢/ ٦٩-٧٠.
(٤) وعجزه: كخنزير تمرَّغ في رماد، والبيت لحسان، وهو في ديوانه ص ١٩٩.
(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٩١ عن ابن عباس وابن زيد.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٠.
(٧) زاد المسير ٣/ ١٧٥.

وقيل: أَلْفَيْتني غاوياً.

وقيل: سمَّيتني غاوياً؛ لتكبُّري عن السجود لمن أنا خيرٌ منه.

وقيل: جَعَلْتني في الغَيِّ، وهو العذابُ.

وقيل: قضيتَ عليَّ من الأفعال الذميمة.

وقيل: أدخلْتَ عليَّ داءَ الكبر.

وقال الزمخشري: فبسبب إغوائك إياي لأقعدنَّ لهم، وهو تكليفُه إياه ما وقع به في الغيِّ ولم يَثْبت[١] كما ثبتت الملائكةُ مع كونهم أفضلَ منه ومن آدم نَفْساً ومناصِبَ، وعن الأَصَم: أمرتني بالسجود فحَمَلني الأَنَفُ على معصيتك، والمعنى: فبسبب وقوعي في الغيِّ لأجتهدنَّ في إغوائهم حتى يَفْسُدوا بسببي كما فَسَدْتُ بسببهم[٢]. انتهى.

وهو والأصمُّ فسَّرا على مذهب الاعتزال في نفي نسبةِ الإغواء حقيقةً -وهو الإضلال- إلى الله، وكذلك مَن فسَّر «أغويتني» بمعنى: ألفيتني غاوياً، أو: سمَّيتني غاوياً[٣]، وهو فرارٌ من ذلك.

وقوله في الملائكة: إنهم أفضلُ من آدمَ نَفْساً ومناصبَ. هو مذهبُ المعتزلة.

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: قاتَلَ الله القَدَرية لَإبليسُ أعلمُ بالله منهم[٤]. يريد في أنه عَلِمَ أنَّ الله يَهْدي ويُضِلُّ.

وجاء رجلٌ من كبار الفقهاء يُرْمَى بالقَدَر. فجلس إلى طاوس في المسجد الحرام، فقال له طاوس: تَقُومُ أو تُقام؟ فقام الرجل، فقيل له: أتقولُ هذا لرجلٍ فقيه؟ فقال: إبليسُ أفقهُ منه؛ قال: «ربِّ بما أغويتني»، وهذا يقول: أنا أُغوي نفسي[٥].

(١) قوله: ولم يثبت، من (ب) و(د٣) و(يه).
(٢) الكشاف ٢/ ٦٩.
(٣) قوله: أو سميتني غاوياً، من (ب) و(د٣) و(يه).
(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٩٣.
(٥) أخرجه الثعلبي ٢/ ٩، وأورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٧٠، والقرطبي ٩/ ١٧١-١٧٢.

وجَعَل الزمخشريُّ هذه الحكايةَ من تكاذيب المُجْبِرة، وذكرها ثم قال كلاماً قبيحاً يوقَفُ عليه في كتابه(١).

وعبَّر بالقعود عن الثبوت في المكان والثابتِ فيه، قالوا: وانْتَصَبَ «صراطك» على إسقاط «على»؛ قاله الزجَّاج وشبَّهه بقول العرب: ضُرِبَ زيدٌ الظَّهْرَ والبَطْنَ(٢)، أي: على الظهر والبطن. وإسقاطُ حرف الجرِّ لا ينقاسُ في مثل هذا، لا يقال: قعدتُ الخشبةَ، تريدُ: قعدتُ على الخشبة.

قالوا: أو على الظرف، كما قال الشاعر:

فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ(٣)

وهذا أيضاً تخريجٌ فيه ضَعْفٌ؛ لأنَّ «صراطك» ظرفُ مكانٍ مختصٌّ، وكذلك «الطريق»، فلا يتعدَّى إليه الفعلُ إلا بوساطةِ «في»(٤)، وما جاء خلافَ ذلك شاذٌّ أو ضرورةٌ، وعلى الضرورة أنشدوا:

كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٧٠، وينظر كذلك بهامشه ردَّ ابن المنيِّر عليه في «الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال».

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٤.

(٣) وصدره: لَدْنٌ بهزِّ الكفِّ يَعْسِلُ مَتْنُه، والبيت لساعدة بن جُؤيَّة الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٩٠، والكتاب ١/ ٣٦، وتفسير الطبري ١٠/ ٩٦، والكشاف ٢/ ٧٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٠، وتفسير القرطبي ٩/ ١٧٢. قال الأعلم في تحصيل عين الذهب ص ٧٣: وصف في البيت رمحاً لين الهز، فشبَّه اضطرابه في نفسه أو في حال هزه بعَسَلان الثعلب في سيره، والعَسَلان: سير سريع في اضطراب. واللدن: الناعم اللين. ويروى: لذٌّ (وهي رواية الديوان) أي: مستلذٌّ عند الهز لِلِينِه. وقوله: يعسل متنه فيه، أي: في كفه.

(٤) الظرف المختص: هو ما له اسمٌ من جهةِ نفسه كالدار والمسجد والحانوت. وقيل: هو ما كان لفظُه مختصَّاً ببعض الأماكن دون بعض. وقيل: ما كان له أقطارٌ تحصره ونهاياتٌ تحيط به. فلا يتعدَّى إليه الفعل إلا بواسطة «في» إذا أريد معنى الظرفية، كـ: جلست في الدار، و: صلَّيت في المسجد، و: نمت في السوق، ولا تقول: صليت المسجدَ. واستُثني منه ما كان بعد دخلتُ وسكَنْتُ ونزلتُ، نحو: دخلت الدار، و: سكنت الغرفة، و: نزلت الخان، وينظر تفصيل هذه المسألة في شرح الكافية للرضي ٢/ ١٦، والارتشاف ٣/ ١٤٣٥، وهمع الهوامع ٢/ ١٥١-١٥٢. ووقع في (أ) والمطبوع: بواسطة، بدل: بوساطة.

وما ذهب إليه أبو الحسين بنُ الطَّراوة من أنَّ «الصِّراط» و«الطريق» ظرفٌ مبهمٌ لا مختصٌّ[١] ردَّه عليه أهلُ العربية.

والأَوْلَى أن يضمَّن «لأقعدنَّ» معنَى ما يتعدَّى بنفسه فينتصبَ «الصراط» على أنه مفعولٌ به، والتقدير: لألْزَمنَّ بقعودي صراطَك المستقيم.

وهذا الصراطُ هو دينُ الإسلام، وهو المُوْصِلُ إلى الجنة -ويضعف ما رُوي عن ابن مسعود وعون بنِ عبد الله أنه طريقُ مكة[٢]، خصوصاً على العقبة المعروفة بعقبة الشيطان يضلُّ الناسَ عن الحجِّ- ومعنى قعودِه: أنه يعترضُ لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدوُّ على الطريق ليقطعه على السابلة، وفي الحديث «إنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرُقه نهاه عن الإسلام[٣]، وقال: أتتركُ دينَ آبائك؟ فعصاه وأسلم، فنهاه عن الهجرة وقال: تدعُ أهلكَ وبلدك؟ فعصاه فهاجر، فنهاه عن الجهاد وقال: تُقْتَلُ وتَتْرُكُ ولدَك؟ فعصاه فجاهد، فله الجنة»[٤].

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[٥] الظاهرُ أنَّ إتيانَه من هذه الجهات الأربع كنايةٌ عن وسوسته وإغوائه له، والجِدِّ في إضلاله من كلِّ وجهٍ يُمكن، ولمَّا كانت هذه الجهاتُ يأتي منها العدوُّ غالباً ذَكَرها، لا أنه يأتي من الجهات الأربع حقيقةً.

وقال ابن عباس: «مِن بينِ أيديهم»: الآخرةُ أشكِّكُهم فيها، وأنه لا بَعْثَ، «ومِن خَلْفِهم»: الدنيا أرغِّبُهم فيها وأزيِّنُها لهم. وعنه أيضاً وعن النخعيِّ والحكم بن

---

(١) ينظر قوله في شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ١٦٩، والارتشاف ٣/ ١٤٣٨، ومغني اللبيب ص ٧٥٠، والهمع ٢/ ١٥٣. والظرف المبهم هو ما كان صالحاً لكل بقعة كـ: مكان، وناحية، وجهة، وجانب، وأمام، وخلف. المغني ص ٧٥٠.

(٢) أخرجه من طريق عون بن عبد الله عن ابن مسعود رضي الله عنه الفاكهي في أخبار مكة (٢٤٦٣)، وأخرجه من قول عون بن عبد الله الطبري ١٠/ ٩٤.

(٣) وقع من هذا الموضع خرم في (ح) حتى آخر السورة.

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (١٥٩٥٨)، والنسائي ٦/ ٢١، وابن حبان (٤٥٩٣) من حديث سبرة رضي الله عنه.

(٥) جاء في هامش (د٣) ما نصه: قال في التحرير: «ثم لآتينهم» قرأ الجمهور بالمد، وقرأ ابن محارب: «ثم لأتينهم» بغير مدٍّ، وهي لغة. انتهى.
والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٢، وابن محارب هو مسلمة.

عتيبة عكسُ هذا. وعنه: «وعن أيمانهم»: الحقّ «وعن شمائلهم»: الباطل. وعنه أيضاً: «وعن أيمانهم»: الحسنات، «وعن شمائلهم»: السيئات.

وقال مجاهد: الأوّلان حيث يُبْصِرون والآخَران حيث لا يُبْصِرون.

وقال أبو صالح: الأوّلان الحقُّ والباطل، والآخران الآخرةُ والدنيا(١).

وقيل: الأوّلان بفُسْحةِ الأمل وبنِسْيان الأجَل، والآخَران فيما تَيَسَّرَ وفيما تَعَسَّر.

وقيل: الأوّلان فيما بقي من أعمارهم فلا يطيعون، وفيما مضى منها فلا يندمون على معصيةٍ، والآخَران فيما ملَكَتْه أيمانُهم فلا ينفقونه في معروف، ومِن قِبَلِ فقرهم فلا يمتنعون عن محظور(٢).

وقال أبو عبد الله الرازي(٣) حاكياً عمَّن سمَّاه هو حكماء الإسلام: «من بين أيديهم» القوة الخياليَّة، وهي تَجمعُ مُثُلَ المحسوسات وصُوَرَها، وهي موضوعةٌ في البطن المقدَّم من الدماغ، «ومن خلفهم» القوة الوَهْمية، وهي تَحْكُم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة للمحسوسات، وهي موضوعةٌ في البطن المؤخَّر من الدماغ، «وعن أيمانهم» قوةُ الشهوة، وهي موضوعةٌ في البطن الأيمن من القلب(٤)، «وعن شمائلهم» قوة الغضب، وهي موضوعةٌ في البطن الأيسر من القلب، فهذه القوى الأربعةُ هي التي يَتَولَّد عنها أحوالٌ توجبُ زوالَ السعادة الروحانية، والشياطينُ الخارجةُ ما لم تشعر(٥) بشيءٍ من هذه القوى الأربعِ لم تَقْدِرْ على إلقاء الوسوسة، فهذا هو السببُ في تعيين هذه الجهات الأربع، وهو وجهُ تحقيق(٦). انتهى، وهو بعيدٌ من مناحي كلام العرب والمتشرِّعين.

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/ ٩٦-١٠٠، وزاد المسير ٣/ ١٧٦-١٧٧.
(٢) النكت والعيون ٢/ ٢٠٧، وزاد المسير ٣/ ١٧٧.
(٣) في تفسيره ١٤/ ٤١.
(٤) في تفسير الرازي: وهي موضوعة في الكبد، وهي من يمين البدن.
(٥) في تفسير الرازي: تستعن، وهو الأشبه.
(٦) في تفسير الرازي: وهو وجهٌ حقيقي شريف.

قال: وعلى هذا لم يحتج إلى ذكر العُلْوِ والسُّفْلِ؛ لأنَّ هاتين الجهتين ليستا بمقرِّ شيءٍ من القُوَى المُفْسِدةِ لمصالح السعادة الروحانية[١]. انتهى.

وقال ابن عباس: لم يقل: من فوقهم؛ لأن رحمة الله تنزلُ عليهم من فوقهم[٢]، ولم يقل: من تحتهم؛ لأنَّ الإتيان من تحتهم فيه توحُّشٌ.

وقال الزمخشري[٣]: فإن قلتَ: كيف قيل: «من بين أيديهم ومن خلفهم» بحرف الابتداء، و«عن أيمانهم وعن شمائلهم» بحرف المجاوَزَة؟

قلتُ: المفعولُ فيه عدِّي إليه الفعلُ تعديتَه إلى المفعول به، فكما اختلفتْ حروفُ التعدية في ذلك اختلفتْ في هذا، وكانت لغةً تؤخَذُ ولا تقاس، وإنما يفتَّشُ عن صحة موقعها فقط، فلمَّا سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه وعن شماله وعلى شماله، قلنا: معنى «على يمينه» أنه تمكَّن من جهة اليمين تمكُّن المستَعْلي مِن المستَعْلَى عليه، ومعنى «عن يمينه» أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غيرَ ملاصِقٍ له، ثم كَثُر حتى استُعْمِلَ في المتجافي وغيره كما ذكرنا في تعال[٤]، ونحوُه من المفعول به قولُهم: رميتُ عن القوس، وعلى القوس، ومن القوس، لأنَّ السهم يَبْعُدُ عنها ويَسْتَعْليها إذا وُضع على كبدها للرَّمي، ويبتدئُ الرميُ منها. فكذلك قالوا: جلس بين يديه وخَلْفَه، بمعنى «في[٥]» لأنهما ظرفان للفعل، و: مِن بين يديه ومِن خَلْفِه، لأنَّ الفعل يقع في بعض الجهتين، كما تقول: جئتُه من الليل، تريد بعض الليل. انتهى، وهو كلامٌ لا بأسَ به.

---

(١) لم يرد بهذا السياق في تفسير الرازي، وإنما ورد فيه ١٤/ ٤٢ معناه دون لفظه.

(٢) أخرج هذه القطعة من الخبر دون ما بعدها الطبري ١٠/ ١٠١.

(٣) في الكشاف ٢/ ٧١.

(٤) قوله: تعال، تحرف في (أ) و(ب) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: فعال. والمثبت من (د٣) و(يه)، وهو الموافق لما في الكشاف، وقد قال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]: «تعال» من الخاص الذي صار عامًّا، وأصله أن يقوله من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه، ثم كثر واتُّسع فيه حتى عمَّ.

(٥) في الكشاف: فيه.

وأقول: إنما خصَّ بين الأيدي والخلف بحرف الابتداء الذي هو أمكنُ في الإتيان؛ لأنهما أغلبُ ما يجيءُ العدوُّ منهما فينالُ فرصته، وقدِّم بين الأيدي على الخلف لأنها الجهةُ التي تدلُّ على إقدام العدوِّ وبسالتِه في مواجهة قِرْنه غيرَ خائفٍ منه، والخلفُ جهة[١] غَدْرٍ ومُخاتَلةٍ وجَهالةِ القِرْنِ بمن يغتالُه ويتطلَّبُ غرَّتَه وغفلتَه.

وخصَّ الأيمان والشمائل بالحرف الذي يدلُّ على المجاوَزة لأنهما ليستا بأغلبِ ما يأتي منهما العدوُّ، وإنما يتجاوزُ إتيانُه إلى الجهة التي هي أغلبُ في ذلك. وقدِّمت الأيمانُ على الشمائل لأنها الجهةُ التي هي القويةُ في ملاقاة العدوِّ، وبالأيمان البطشُ والدفعُ، فالقرنُ الذي يأتي من جهتها أبسلُ وأشجعُ، إذ جاء من الجهة التي هي أقوى في الدَّفْع، والشمائلُ جهةٌ ليست في القوَّة والدفع كالأيمان.

قال ابن عباس: «شاكرين» موحِّدينَ[٢].

وعنه وعن غيره: مؤمنين؛ لأنَّ ابنَ آدم لا يشكرُ نعمة الله إلا بأنْ يُؤْمِن[٣].

وقال مقاتل: شاكرين لنعمتك[٤].

وقال الحسن: ثابتين على طاعتك، ولا يشكُرُكَ إلَّا القليلُ منهم.

وهذه الجملة المنفيَّةُ يحتمل أن تكون داخلةً في حَيِّز القسم معطوفةً على جوابه[٥]، ويحتملُ أن تكون استئنافَ إخبارٍ ليس مُقْسَماً عليه، أخبر أنَّ سعايته وإتيانَه إياهم من جميع الوجوه يفعل ذلك.

وهل[٦] هذا الإخبارُ منه كان على سبيل التظنِّي؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] أو على سبيل العلم؟ قولان.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: من جهة، والمثبت من (ب) و(د٣) و(يه)، وهو الموافق لما في الدر المصون ٥/ ٢٦٩ نقلاً عن المصنف.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ١٠١.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨١.
(٤) زاد المسير ٣/ ١٧٧.
(٥) أي: «لأقعدنَّ»، أقسم على جملتين مُثْبَتتين وأخرى منفية. الدر المصون ٥/ ٢٧٠.
(٦) قوله: وهل، تحرف في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: وهو، وسقط من (يه) والمثبت من (ب) و(د٣).

وسبيلُ العلم: إمَّا رؤيتُه ذلك في اللوح المحفوظ، أو استفادتُه من قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] أو من الملائكة بإخبارِ اللهِ لهم، أو بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:٣٠] أو بإغوائِه آدمَ، وذريَّتُه أضعفُ منه. أو يكونُ قُوى ابنِ آدمَ تسعةَ عَشَرَ قوةً، وهي: خمسُ حواسَّ ظاهرةٌ وخمسٌ باطنةٌ، والشهوةُ، والغضبُ، وسبعٌ سابقةٌ وهي: الجاذبةُ، والممسِكةُ، والهاضِمةُ، والدافِعةُ، والقاذِفةُ، والناميةُ، والمولِّدة، وكلُّها تدعو إلى عالَم الجسم إلى اللذَّات البدنية، والعقلُ قوةٌ واحدةٌ تدعو إلى عبادة الله، وتلك في أول الخلق، والعقلُ إذ ذاك ضعيفٌ[١]. أقوالٌ ستة.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ الجمهورُ على أنَّ الضمير عائدٌ على الجنة، والخلافُ فيه كالخلاف في «فاهبط منها». وهذه ثلاثُ أوامرَ: أمرٌ بالهبوط مطلقاً، وأمرٌ بالخروج مُخْبَرَاً أنه ذو صَغارٍ، وأمرٌ بالخروج مقيَّداً بالذمِّ والطرد.

وقال قتادة: «مذؤوماً»: لعيناً. وقال الكلبي: مَلُوماً. وقال مجاهد: مَنْفيًّا. وقيل: ممقوتاً[٢].

و«مدحوراً»: مبعَداً من رحمة الله، أو: من الخير، أو: من الجنة، أو: من التوفيق، أو: من خواصِّ المؤمنين. أقوالٌ متقاربةٌ.

وقرأ الزهريُّ وأبو جعفر والأعمشُ: «مَذُوماً» بضم الذال من غير همزٍ[٣]، فتَحْتَمِلُ هذه القراءةُ وجهين:

أحدهما وهو الأظهر: أن تكون من «ذأم» المهموز، سهَّل الهمزةَ وحَذَفها وألْقَى حركتَها على الذال.

---

(١) قوله: وتلك في أول الخلق. . . .إلخ، جاء بدلاً منه في تفسير الرازي ١٤/ ٤٣ (والكلام فيه بنحوه): وتلك القوى التسعة عشر تكون في أول الخلقة قويةً، ويكون العقل ضعيفاً جدّاً، وهي بعد قوتها يَعْسُرُ جَعْلُها ضعيفةً مرجوحةً، فلما كان الأمرُ كذلك لَزِمَ القطعُ بأنَّ أكثر الخلق يكونون طالبين لهذه اللذات الجسمانية، مُعْرِضينَ عن معرفة الحقِّ ومحبَّتِه، فلهذا السبب قال: «ولا تجد أكثرهم شاكرين».

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٠٢-١٠٣، والنكت والعيون ٢/ ٢٠٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ٤٢، والمحتسب ١/ ٢٤٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨١.

والثاني: أن يكون من «ذامَ» غيرِ المهموز يَذِيمُ، كـ: باع يبيع، فأَبْدَلَ الواوَ بياءٍ، كما قالوا في مَكِيلٍ: مَكُول.

وانتصب «مدحوراً» على أنه حالٌ ثانيةٌ على مَن جوَّز ذلك، أو حالٌ من الضمير في «مذؤوماً»، أو صفةٌ لقوله «مذؤوماً».

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ قرأ الجمهور: «لَمن» بفتح اللام، والظاهر أنها اللامُ الموطِّئةُ للقسم، و«مَن» شرطيةٌ في موضع رفعٍ على الابتداء، وجوابُ الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه جوابُ القسم المحذوفِ قبل اللامِ الموطِّئة.

ويجوز أن تكون اللامُ لامَ الابتداء، و«مَن» موصولة، و«لأملأن» جواب قسمٍ محذوفٍ بعد «مَن تبعك»، وذلك القسمُ المحذوفُ وجوابُه في موضعِ خبرِ «مَن» الموصولة.

وقرأ الجحدريُّ، وعصمةُ عن أبي بكر عن عاصم: «لِمَن تبعك منهم» بكسر اللام[١]، واختلفوا في تخريجها:

فقال ابن عطية[٢]: المعنى: لأَجْلِ مَن تَبِعَكَ منهم لأملأنَّ. انتهى، فظاهرُ هذا التقديرِ أنَّ اللام تتعلَّقُ بـ«لأَمْلأَنَّ»، ويمتنع ذلك على قول الجمهور أنَّ ما بعد لام القسم لا يعمل فيما قبله.

وقال الزمخشري[٣]: بمعنى: لِمَن تبعك منهم الوعيدُ، وهو قولُه: «لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين» على أنَّ «لأملأنَّ» في محلِّ الابتداء و«لِمَن تبعك» خبره. انتهى، فإنْ أراد ظاهرَ كلامه فهو خطأٌ على مذهب البصريين، لأنَّ قوله: «لأملأنَّ» جملةٌ هي جوابُ قسمٍ محذوفٍ، فمِن حيث كونُها جملةً فقط لا يجوز أن تكون مبتدأةً، ومن حيثُ كونُها جواباً للقسم المحذوف[٤] يمتنع أيضاً؛ لأنها إذ ذاك من هذه الحيثية لا موضعَ لها من الإعراب، ومن حيث كونُها مبتدأةً لها موضعٌ من

(١) القراءات الشاذة ص ٤٢، والكشاف ٢/ ٧١، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٢.
(٢) في المحرر ٢/ ٣٨٢.
(٣) في الكشاف ٢/ ٧١.
(٤) قوله: المحذوف، ساقط من المطبوع.

الإعراب، ولا يجوز أن تكون الجملة لها موضعٌ ولا موضعَ لها بحالٍ؛ لأنه يَلزمُ أن تكون في موضع رفع لا في موضع رفعٍ، داخلاً عليها عاملٌ غيرَ داخلٍ عليها عاملٌ، وذلك لا يُتصوَّر[١].

وقال أبو الفضل عبدُ الرحمن بنُ أحمد بن الحسن الرازيُّ: اللام متعلِّقةٌ من الذأم والدَّحر، ومعناه: اخرج بهاتين الصفتين لأجْلِ أتباعك. ذَكَر ذلك في كتاب «اللوامح في شواذِّ القراءات».

ومعنى «منكم»: منك وممن تبعك، فغلَّب الخطاب على الغيبة، كما تقول: أنت وإخوتُك أُكْرِمُكم.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: وقلنا: يا آدم، وتقدَّم تفسيرُ هذه الآية في «البقرة»، إلَّا أنَّ هنا «فكُلا من حيث شئتما» وفي «البقرة»: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الآية: ٣٥] فالواوُ جاءت[٢] على أحدِ مَحامِلِها، وهو أن يكون الثاني بعد الأول[٣]. وحُذف «رغداً» هنا على سبيل الاختصار وأُثبت هناك؛ لأنَّ تلك مدنيةٌ وهذه مكيةٌ، فوُفِّي المعنى هناك باللفظ.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: فَعَلَ الوسوسةَ لأجْلهما،

---

(١) تعقب هذا الكلامَ السمينُ في الدر ٢/ ٢٧٤-٢٧٥ بأنه بعد أن قال الزمخشري: بمعنى: لِمَن تبعك الوعيدُ، وهو «لأملأن». كيف يَحْسُنُ أن يُتردَّدَ بعد ذلك فيُقالَ: إن أراد ظاهر كلامه؟! كيف يريده مع التصريح بتأويله هو بنفسه؟ وأما قولُ الزمخشري: على أن «لأملأن» في محل الابتداء. فإنما قاله لأنه دالٌّ على «الوعيد» الذي هو في محل الابتداء، فنَسَب إلى الدالِّ ما يُنْسَبُ إلى المدلول من جهة المعنى.
وأيضاً قولُ أبي حيان: ومن حيث كونها جواباً للقسم المحذوف. . . .إلخ، كلامٌ متحمِّلٍ على الزمخشري؛ لأنه إنما يريد الجملة القسمية برمَّتها، فاستغنى عنها بذكر الملفوظ به منها وهو «لأملأن». . . ، وينظر تتمة كلامه ثمة.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: قالوا وجاءت، وهو تصحيف. وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) أي: أن الفاء في قوله: «فكلا» جاءت لبيانِ أنَّ ما في البقرة من قوله: «وكلا» كان جمعاً مع الترتيب؛ لأن الواو تفيد الجمع المطلق، بينما الفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب. ينظر تفسير الرازي ١٤/ ٤٥، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٢٠.

وأمَّا قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ [طه: ١٢٠] فمعناه: ألقى الوسوسةَ إليه.

قال الحسن: وصلت وسوستُه لهما في الجنة -وهو في الأرض- بالقوة التي خَلقَها الله له[1]. قال ابن عطية[2]: وهذا قولٌ ضعيفٌ يردُّه لفظُ القرآن.

وقيل: كان في السماء وكانا يخرجان إليه.

وقيل: من باب الجنة وهما فيها[3].

وقيل: كان يدخل إليهما في فم الحية.

وقال الكرماني: ألْهمهما. وقال ابن القشيريِّ: أَوْرَدَ عليهما الخواطرَ المزيَّنةَ. وهذان القولان يخالفان ظاهرَ القرآن؛ لأنَّ ظاهره يدلُّ على قولٍ ومحاوَرةٍ وقَسَمٍ.

والظاهرُ أنَّ اللام لامُ «كي»، قَصَد إبداءَ سوءاتهما، وتنحطَّ مرتبتُهما بذلك، ويَسُوؤهما بكشفِ ما ينبغي سترُه، ولا يجتنبان نهيَ الله، فيكون هو وهما سواءً في المخالفة: هو أُمر بالسجود فأبى، وهما نُهِيَا فلم ينتهيا.

وقال قوم: إنها لامُ الصيرورة؛ لأنه لم يكن له علمٌ بهذه العقوبة المخصوصة فيقصدَها.

قال الزمخشريُّ: وفيه دليلٌ على أنَّ كشفَ العورة من عظائم الأمور، وأنه لم يَزَلْ مستهجَناً في الطباع مستَقْبَحاً في العقول[4]. انتهى، وهو على مذهبه الاعتزاليِّ في أنَّ العقل يُقبِّح ويحسِّن.

والظاهرُ أنه يراد مدلولُ سوءاتِهما نفسِهما وهما الفَرْجُ والدُّبُر؛ قيل: وكانا لا يريانهما قبلَ أكل الشجرة، فلمَّا أكَلا بَدَتا لهما.

وقيل: لم يكن كلُّ واحدٍ يرى سَوْءةَ صاحبه.

وقال قتادة: كَنَى بسوءاتهما عن جميع بدنهما، وذَكَر السوءة لأنها أقبح ما يظهر من بني آدم.

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٤٦، وفيه: جَعَلها، بدل: خَلقَها.
(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٤، وقد ذكر قول الحسن بنحوه ودون نسبة.
(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: بها.
(٤) الكشاف ٢/ ٧١.

وقرأ الجمهور: «وُوري». وقرأ عبد الله: «أُورِيَ» بإبدالِ الواوِ همزةً[١]، وهو بدلٌ جائزٌ. وقرأ ابنُ وثَّاب: «ما وُرِي» بواوٍ مضمومةٍ من غيرِ واوٍ بعدها[٢]، على وزن: كُسِيَ.

وقرأ مجاهد والحسن: «مِن سوَّتِهما» بالإفراد وتسهيلِ الهمزة بإبدالها واواً، وإدغامِ الواو فيها. وقرأ الحسن أيضاً، وأبو جعفر بنُ القَعْقاع، وشيبةُ بن نِصَاحٍ: «من سوَّاتهما» بتسهيلِ الهمزة وتشديد الواو. وقرئ: «من سَوَاتهما» بواوٍ واحدةٍ وحَذْفِ الهمزة[٣]، ووَجْهُه أنه حَذَفَها وألْقَى حركَتَها على الواو.

فَمَنْ قرأ بالجمع فهو مِن وَضْعِ الجمعِ موضعَ التثنية كراهةَ اجتماعِ تَثْنِيَتَيْنِ[٤]، ومَن قرأ بالإفراد فمِن وَضْعِه موضعَ التثنية. ويحتملُ أن يكون الجمعُ على أصل وضعه باعتبارِ أنَّ كلَّ عورةٍ هي الدُّبر والفَرْجُ، وذلك أربعةٌ، فهي جمعٌ.

و«إلا أن تكونا مَلَكين» استثناءٌ مفرَّغٌ من المفعول من أَجْلِه، أي: ما نهاكما ربُّكما لشيءٍ إلَّا كراهةَ أن تكونا مَلَكين، ويقدِّره الكوفيون: إلا أن لا[٥] تكونا. وإضمارُ الاسم وهو «كراهة» أحسنُ من إضمار الحرف وهو «لا».

وقال الزمخشريُّ: وفيه دليلٌ على أنَّ الملائكة بالمنظر الأعلى، وأنَّ البشرية تَلْمَحُ مرتبتها[٦]. انتهى

وقال ابنُ فُوْرَك: لا حجةَ في هذه الآية على أنَّ الملائكة أفضلُ من البشر؛ لأنه يحتمل أن يريدَ: ملكين في أن لا يكون لهما شهوةٌ في طعام[٧]. انتهى.

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٢.
(٢) القراءات الشاذة ص ٤٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٤.
(٣) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص ٤٢، والمحتسب ١/ ٢٤٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٤، والإملاء ١/ ٢٧٠.
(٤) في المطبوع: مثلين.
(٥) قوله: لا، ساقط من (ب) والمطبوع.
(٦) الكشاف ٢/ ٧٢، وجاء في مطبوعه: الملكية، بدل: الملائكة.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥.

وقرأ ابنُ عباس، والحسنُ بنُ عليٍّ، والضحَّاك، ويحيى بنُ أبي[1] كثير، والزُّهْريُّ، وابنُ حكيم عن ابن كثير: «مَلِكَين» بكسرِ اللام[2]، ويدلُّ لهذه القراءة: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

و«من الخالدين»: من الذين لا يموتون، ويَبْقَون في الجنة ساكنين.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ لم يَكْتفِ إبليسُ بالوسوسة -وهو الإلقاءُ في خفيةٍ سراراً[3]- ولا بالقول، حتى أَقْسَمَ على أنه ناصحٌ لهما. والمقاسَمةُ مفاعَلَةٌ تقتضي المشارَكةَ في الفعل، فتُقْسِمُ لصاحبك ويُقْسِمُ لك، تقول: قاسَمْتُ فلاناً: حالَفْته، وتَقاسَمَا: تَحالَفَا. وأمَّا هنا فمعنى «وقاسمهما»: أَقْسَمَ لهما؛ لأنَّ اليمين لم يشاركاه فيها، وهو كقول الشاعر:

وقاسَمَها بالله جَهْداً لأنتم ألذُّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُها[4]

وفاعَلَ قد يأتي بمعنى أَفْعَلَ، نحو: باعَدْتُ الشيءَ وأَبْعَدْتُه.

وقال ابن عطية: «وقاسَمَهما»، أي: حَلَفَ لهما، وهي مفاعَلَةٌ؛ إذ قبولُ المحلوفِ له وإقبالُه على معنى اليمينِ كالقَسَمِ وتقريرِه، وإنْ كان باديَ الرأي يُعْطِي أنها من واحدٍ[5].

وقال الزمخشري: كأنه قال لهما: أُقْسِمُ لكما إني لمن الناصحين، وقالا له: أتُقْسِمُ بالله إنك لمن الناصحين، فجُعِلَ ذلك مقاسَمةً بينهم، أو أقسم لهما بالنصيحة

---

(١) قوله: أبي، ساقط من المطبوع.

(٢) ينظر القراءات الشاذة ص ٤٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥، وزاد المسير ٣/ ١٧٩. وقوله: وابن حكيم عن ابن كثير، فيه نظر، فقد أخرجها الطبري ١٠/ ١٠٨ من طريق يعلى بن حكيم عن يحيى بن أبي كثير، فحصَلَ في كلام المصنف أيضاً تكرار، ولعل سببه اختلاف المصدر، فقد ذكرها ابن عطية عن ابن عباس والضحاك ويحيى بن أبي كثير، ووقع في زاد المسير: يعلى بن حكيم عن ابن كثير. وكلاهما من مصادر المصنف.

(٣) في (يه): مراراً، وفي المطبوع: سرا.

(٤) البيت لخالد بن زهير الهذلي ابن أخت أبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥٨. السلوى: العسل. ونشورها: نجتنيها.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥. وقوله: يعطي، تحرف في المطبوع إلى: يعني.

وأقسما له بقبولها، أو أُخْرِجَ قسمُ إبليسَ على وزن المفاعَلَة لأنه اجتهد فيها اجتهادَ المُقاسم[١]. انتهى

وقُرئ: «وقاسَمَهما بالله»[٢].

و«لكما» متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديره: ناصحٌ لكما، أو: أعني، أو بـ«الناصحين» على أنَّ «أل» موصولةٌ، وتُسُومِحَ في الظرف والمجرور ما لا يُتَسَامحُ في غيرهما، أو على أنَّ «أل» لتعريفِ الجنس لا موصولةٌ. أوجهٌ مَقُولةٌ[٣].

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: استَنْزَلَهما إلى الأكل من الشجرة بغروره، أي: بخداعه إياهما، وإظهارِ النُّصح، وإبطانِ الغشِّ، وإطماعِهما أن يكونا مَلَكين أو خالِدَين، وبإقسامه أنه ناصحٌ لهما، جُعِلَ مَن يغترُّ بالكلام حتى يصدِّقَ فيقعَ في مصيبةٍ كالذي[٤] يدلَّى من عُلْوٍ إلى أسفلَ بحبلٍ ضعيفٍ فينقطعُ به فيهلك.

وقال الأزهري: لهذه الكلمة أصلان:

أحدهما: أنَّ الرجل يُدلي دَلْوَه في البئر ليأخُذَ الماء فلا يجدُ فيها ماءً، وُضعت التَّدليةُ موضعَ الطمع فيما لا فائدةَ فيه، فيقال: دلَّاه، أي: أطْمَعَه.

الثاني: جَرَّأهما على أكل الشجرة، والأصل فيه: دلَّلهما من الدالِّ والدَّالَّة وهما الجرأة[٥]. انتهى، فأبدل من المضاعَفِ الأخير حرفَ علَّةٍ، كما قالوا: تَظَنَّيْتُ، وأصله: تَظَنَّنْتُ.

ومِن كلام بعض العلماء: خَدَعَ الشيطانُ آدمَ فانْخَدَعَ، ونحن مَن خَدَعَنا بالله عزَّ وجلَّ انْخَدعْنا له. ورُوي نحوُه عن قتادة وعن ابن عمر[٦].

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: وَجَدَا طعمَها آكلَيْنِ منها، كما قال

(١) الكشاف ٢/ ٧٣.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥.
(٣) في (يه): مقبولة.
(٤) في النسخ والمطبوع: بالذي، والمثبت من النهر على هامش البحر ٤/ ٢٧٩.
(٥) تهذيب اللغة ١٤/ ١٧٢ بنحوه، وتفسير الرازي ١٤/ ٤٩، وعنه نقل المصنف.
(٦) أخرجه عن قتادة الطبري ١٠/ ١٠٩-١١٠، وعن ابن عمر ابنُ سعد في الطبقات ٤/ ١٥٦، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٩٤، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥، والكشاف ٢/ ٧٣.

تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١] وتطايرت عنهما ملابسُ الجنة فظهرت لهما عوراتُهما، وتقدَّم أنهما كانا قبل ذلك لايَرَيَانِها من أنفسهما، ولا أحدُهما من الآخَر.

وقال ابنُ عباس وقتادةُ وابنُ جبيرٍ: كان عليهما ظفرٌ كاسٍ، فلمَّا أكَلَا تَقَلَّص[١] عنهما فبدت سوءاتُهما، وبقي منه على الأصابع قَدْرَ ما يتذكَّران به المخالَفَةَ فيُجدِّدان النَّدم[٢].

وقال وهب بنُ منبِّهٍ: كان عليهما نورٌ يستُر عورةَ كلِّ واحدٍ منهما، فانْقَشَعَ بالأكل ذلك النور[٣].

وقيل: كان عليهما نورٌ فنقص وتجسَّد منه شيءٌ في أظفار اليدين والرجلين تذكرةً لهما ليستغفرا في كلِّ وقتٍ وأبناؤهما بَعْدَهما، كما جرى لأويسٍ القرنيِّ[٤] حين أذْهَبَ الله عنه البَرَصَ إلَّا لَمعةً أبقاها ليتذكَّر نِعَمَه فيشكر.

وقال قوم: لم يقصد بالسَّوْءَة العورةَ، والمعنى: انكشف لهما مَعايِشُهما وما يسوؤهما. وهذا القولُ ينبو عنه دلالةُ اللفظ ويخالفُ قولَ الجمهور.

وقيل: أكلت حوَّاءُ أوَّلَ فلم يُصبها شيءٌ، ثم آدمُ فكان البُدُوُّ.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي: جَعَلا يُلْصِقان عليهما من ورق الجنة[٥]، أي: جَعَلَا يُلْصِقان وَرَقةً على ورقةٍ ويُلْصِقانهما، بعدما كانت كُسَاهما حُلَلَ الجنة ظلَّا يستتران بالورق، كما قيل:

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: تبلس، وفي (ب) و(د٣) و(يه): تقلس، والمثبت من المصدر على ما يأتي.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦ ولم يذكر ابن جبير، وينظر ما روي عن ابن عباس وقتادة في تفسير الطبري ١٠/ ١١١ و١١٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٥٢ و١٤٥٩، وهي روايات واهية، وينظر الكلام عليها في حاشية تفسير الطبري (تحقيق أحمد شاكر) ١٢/ ٣٥٣ و٣٥٤، وحاشية القرطبي ٩/ ١٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ١١٤.

(٤) أخرج حديثه مسلم (٢٥٤٢) عن عمر ﷺ.

(٥) قوله: أي جعلا يلصقان. . .، من (د٣)، وليس في باقي النسخ.

لِـلّـهِ درُّهـمُ مـن فـتـيـةٍ بَـكَـروا مِثْلَ الملوك وراحوا كالمساكين[(١)]

والأَوْلَى أن يعود الضمير في «عليهما» على عورتيهما، كأنه قيل: يخصفان على سوءاتهما من ورق الجنة، وعاد بضمير الاثنين لأن الجمع يراد به اثنان، ولا يجوزُ أن يعود الضميرُ على آدمَ وحواءَ لأنه تقرَّرَ في علم العربية أنه لا يتعدَّى فِعْلُ الظاهِرِ والمُضْمَرِ المتَّصل إلى المضمَرِ المتَّصل المنصوبِ لفظاً أو محلّاً في غيرِ بابِ ظَنَّ وفَقَدَ وعَلِمَ ووَجَدَ، لا يجوز: زيد ضَرَبَه، ولا: ضَرَبَه زيدٌ، ولا: زيدٌ مرَّ به، ولا: مرَّ به[(٢)] زيدٌ، فلو جعلنا الضمير في «عليهما» عائداً على آدمَ وحواءَ لَلَزِمَ من ذلك تعدِّي «يخصف» إلى الضمير المنصوب محلّاً وقد رَفَعَ الضميرَ المتَّصلَ وهو الألف في «يخصفان»، فإنْ أُخِذَ ذلك على حذفِ مضافٍ مرادٍ جاز ذلك، وتقديره: يخصفان على بدنيهما.

قال ابن عباس: الورقُ الذي خَصَفا منه وَرَقُ الزيتون[(٣)].

وقيل: ورق شجر التين[(٤)].

وقيل: ورق الموز.

ولم يَثْبُت تعيينُها لا في القرآن ولا في حديثٍ صحيحٍ.

وقرأ أبو السَّمَّال: «وطَفَقَا» بفتح الفاء[(٥)].

وقرأ الزهري: «يُخْصِفان» مِن أَخْصَفَ[(٦)]، فيحتمل أن يكون أَفْعَلَ بمعنى فَعَلَ، ويحتمل أن تكون الهمزةُ للتعدية من خَصَفَ، أي: يخْصِفان أنفسَهما.

وقرأ الحسن والأعرج ومجاهدٌ وابنُ وثَّابٍ: «يَخِصِّفان» بفتح الياء وكَسْرِ الخاءِ

---

(١) سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]

(٢) قوله: ولا مر به، ساقط من المطبوع.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ١١٣ عن ابن عباس.

(٥) القراءات الشاذة ص ٤٢.

(٦) المحتسب ١/ ٢٤٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦، والكشاف ٢/ ٧٣. ووقع ضبطها في مطبوع القراءات الشاذة ص ٤٢: «يَخَصِّفان»، وسترد هكذا قريباً عن الحسن.

والصادِ وشدِّها. وقرأ الحسن فيما رَوَى عنه محبوبٌ كذلك إلَّا أنه فَتَح الخاء، ورُويت عن ابنِ بُريدة وعن يعقوب. وقرئ: «يُخَصِّفان» بالتشديد من خَصَّفَ على وزن فعَّل[١] وقرأ عبد الله بن يزيد: «يُخُصِّفان» بضمِّ الياء والخاء وتشديدِ الصَّادِ وكَسْرِها. وتقريرُ هذه القراءات في علم العربية.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

لمَّا كان وقتُ الهناءِ شُرِّف بالتصريح باسمه في النداء فقيل: «ويا آدم اسكن»، وحين كان وقتُ العتاب أخبر أنه ناداه ولم يصرِّح باسمه. والظاهرُ أنه تعالى كلَّمهما بلا واسطةٍ، ويدلُّ على أنَّ الله كلَّم آدَمَ ما في «تاريخ ابن أبي خيثمة»[٢] أنه ﷺ سُئِلَ عن آدم فقال: «نبيٌّ مكلَّمٌ».

وقال الجمهور: إنَّ النداء كان بواسطة الوحي. ويؤيِّده أنَّ موسى عليه السلام هو الذي خُصَّ من بين العالَم بالكلام، وفي حديثِ الشفاعة أنهم يقولون له: «أنت الذي خصَّك الله بكلامه»[٣].

وقد يقال: إنه خصَّه بكلامه وهو في الأرض، وأمَّا آدم فكان ذلك له في الجنة، وقد تقدَّم لنا في قوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] أنَّ منهم محمداً ﷺ كلَّمه الله ليلةَ الإسراء ولم يكلِّمه في الأرض، فيكون موسى عليه السلام مختصّاً بكلامه في الأرض.

وقيل: النداءُ لآدم على الحقيقة، ولم يُرْوَ قطُّ أنَّ الله كلَّم حواءَ. والنداءُ هو دعاءُ الشخص باسمه العَلَمِ، أو بنوعه، أو بوَصْفِه، ولم يصرِّح هنا بشيءٍ من ذلك.

والجملة معمولةٌ لقولٍ محذوفٍ، أي: قائلاً: أَلَمْ أَنْهَكُما، وهو استفهامٌ معناه العتابُ على ما صدر منهما والتنبيهُ على موضع الغفلة.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦، والقراءة الأخيرة عزاها ابن عطية لعبد الله بن بريدة، وهي عنه في القراءات الشاذة ص٤٢.

(٢) في الورقة الأولى منه، كما في المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وإسناده ضعيف جدًّا.

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وذكره بلفظ المصنف ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦.

وفي قوله: «ألَم أنهَكُما عن تلكما الشجرة» «ولا تقربا هذه الشجرة» إشارةٌ لطيفةٌ، حيث كان مباحاً له الأكلُ قارّاً ساكناً أُشيرَ إلى الشجرة باللَّفظ الدالّ على القُرْبِ والتمكُّنِ من الأشجار، فقيل: «ولا تقربا هذه الشجرة»، وحيث كان تعاطَى مخالفةَ النهي وقَرُبَ إخراجُه من الجنة واضطرابُ حاله فيها وفرَّ على وجهه فيها، قيل: «ألم أنهكما عن تلكما» فأُشيرَ إلى الشجرة باللَّفظ الدالّ على البعد والإنذارِ بالخروج منها.

و«أقُلْ لكما» إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] وهذا هو العهدُ الذي نسيه آدمُ على مذهب مَن يَحْمِلُ النسيانَ على بابه

قال ابن عباس: بيَّن العداوة حيث أبى السجود وقال: «لأقعدنَّ لهم صراطَكَ المستقيم»[١].

رُوي أنه تعالى قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتُك من شجرِ الجنة مندوحةٌ عن هذه الشجرة. فقال: بلى وعزَّتِكَ، ولكنْ ما ظننتُ أنَّ أحداً مِن خَلْقِكَ يحلفُ كاذباً. قال: فوعزَّتي لأُهْبِطنَّك إلى الأرض ثم لا تنال إلا كدّاً. فأُهبط، وعلِّم صنعةَ الحديد، وأُمر بالحرث، فَحرَثَ وسَقَى وحَصَدَ ودَرَسَ وذرَّى وعجنَ وخبزَ[٢].

وقرأ أبيٌّ: «ألم تُنْهَيَا عن تِلْكُما الشجرةِ وقيلَ لكما»[٣].

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ قال الزمخشري: وسَمَّيا ذنبهما -وإنْ كان صغيراً مغفوراً- ظلماً وقالا: «لنكوننَّ من الخاسرين» على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغيرَ من السيئات[٤].

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٥٠.

(٢) قطعة من خبر طويل أخرجه الطبري ١٠/ ١١١-١١٢ عن ابن عباس ﷺ موقوفاً، وفي إسناده الحسن بن عمارة الكوفي، قال عنه أحمد: متروك، وقال ابن معين: ليس حديثه بشيء. وذهب ابن المديني إلى أنه كان يضع الحديث. ينظر الميزان ١/ ٤٦٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٧.

(٤) الكشاف ٢/ ٧٣.

وقال ابن عطية: اعترافٌ من آدمَ وحوَّاءَ ﷺ، وطلبٌ للتوبة والسِّتْرِ والتغمُّدِ بالرحمة، فطَلَبَ آدمُ هذا وطلب إبليسُ النَّظِرةَ ولم يَطلب التوبة فوُكِلَ إلى رأيه، قال الضحاك: هذه الآيةُ هي الكلماتُ التي تلقَّى آدمُ من ربِّه[١].

وقيل: سَعِدَ آدمُ بخمسة أشياء: اعْتَرفَ بالمخالفة، وندمَ عليها، ولام نفسَه، وسارَعَ إلى التوبة، ولم يَقْنَطْ من الرحمة. وشَقِيَ إبليسُ بخمسة أشياء: لم يُقِرَّ بالذنب، ولم يندم، ولم يَلُمْ نفسَه، بل أضاف إلى ربِّه الغوايةَ، وقنط من الرحمة.

«ولنكوننَّ» جوابُ قسم محذوفٍ قبل «إنْ»، كقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾ [المائدة: ٧٣] التقدير: والله إنْ لم يغفر لنا، وأكثر ما تأتي «إنْ» هذه ولامُ التوطئة قبلها، كقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ثم قال ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ تقدَّم تفسير مِثْلِ هذا في «البقرة»[٢].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ هذا كالتفسير لقوله: «ولكم في الأرض مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين» أي: بالحياة إلى حين الموت، ولذلك جاء «قال» بغيرِ واوِ العطف؛ إذ الأكثرُ في لسان العرب إذا لم تكن الجملة تفسيريةً أو كالتفسيرية أن تُعطف على الجملة قبلها، فتقول: قال فلانٌ كذا وقال كذا، وتقول: زيدٌ قائم وعمروٌ قاعدٌ، ويَقِلُّ في كلامهم: قال فلانٌ كذا قال كذا، وكذلك يقلُّ: زيدٌ قائمٌ عمرٌو قاعدٌ، وهنا جاء «قال اهبطوا -الآية- قال فيها تحيون» لمَّا كانت كالتفسير لمَا قبلها، وتمَّمَ هنا المقصودَ بالتنبيه على البعث والنشور بقوله: «ومنها تخرجون»، أي: إلى المُجازاة بالثواب والعقاب، وهذا كقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وقرأ الأخوان وابنُ ذكوان: «تَخْرُجون» مبنيّاً للفاعل هنا وفي «الجاثية» و«الزخرف» وأوّلِ «الروم»، وعن ابن ذكوان في أوّل «الروم» خلافٌ، وقرأ باقي السبعة مبنيّاً للمفعول[٣].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٣٨٧.

(٢) الآية (٣٦). وكلمة «مثل» من (ب)، وليست في باقي النسخ والمطبوع.

(٣) ينظر السبعة ص٢٧٩ و٥٨٥، والتيسير ص١٠٩و١٧٥. والأخوان هما حمزة والكسائي.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ مناسَبةُ هذه الآيةِ لِمَا قبلها هو أنه تعالى لمَّا ذكر قصةَ آدمَ وفيها سَتْرُ السَّوءات، وجَعَلَ له في الأرض مستقرًّا ومتاعاً إلى حين[١]، ذكر ما امتنَّ به على بَنِيهِ وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يواري السَّوْءات والرِّياش الذي يمكن به استقرارُهم في الأرض واستمتاعُهم بما خوَّلهم.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآيةُ والثلاثُ بعدَها فيمَن كان من العرب يتعرَّى في طوافه بالبيت[٢].

وذكر النقَّاشُ أنها كانت عادةَ ثَقيفٍ، وخُزاعةَ، وبني عامر بنِ صَعْصَعةَ، وبني مُدْلجٍ، والحارثِ وعامرِ ابنَيْ عبدِ مَناةَ نسائهم ورجالهم[٣].

و«أنزلنا» قيل: على حقيقته من الانحطاط من عُلْوٍ إلى سفلٍ، فأنزل مع آدم وحواءَ شيئاً من اللباس مثالاً لغيره، ثم توسَّع بنوهما في الصنعة استنباطاً من ذلك المثال. أو أنزل من السماء أصلَ كلِّ شيءٍ عند إهباطهما. أو أنزل معه الحديدَ فاتُّخذ منه آلاتُ الصنائع. أو أنزل المَلَكَ فعلَّم آدمَ النَّسْجَ. أربعةُ أقوال.

وقيل: الإنزال مجازٌ من إطلاق السَّبب على مُسَبَّبه، فأنزل المطر وهو سببُ ما يتهيَّأ منه اللباسُ. أو بمعنى: خَلَقَ، كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ [الزمر: ٦]. أو بمعنى أَلْهَم.

وقال الزمخشريُّ: جَعَلَ ما في الأرض مُنْزَلاً من السماء لأنه قُضِيَ ثَمَّ وكُتِبَ، ومنه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ ﴿٦﴾﴾[٤].

وقال ابنُ عطية[٥]: «أنزلنا» يحتملُ أن يريدَ التدريجَ، أي: لمَّا أَنْزَلَ المطرَ فكان عنه جميعُ ما يُلْبَس قال عن اللباس: «أنزلنا»، وهذا نحوُ قولِ الشاعر يصف مطراً:

(١) قوله: إلى حين، من (ب).
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ١٢٠.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٨، وكلمة: مناة، تحرفت في مطبوعه إلى: مناف.
(٤) الكشاف ٢/ ٧٤.
(٥) في المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٨.

أقبل في المستنّ من سحابِهِ أَسْنِمَةُ الآبالِ في رَبابِهِ[١]

أي: بالمال، ويحتمل أن يريد: خَلَقْنا، فجاءت العبارة بـ«أنزلنا»، كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾وأيضاً فخلْقُ الله وأفعالُه إنما هي من عُلُوٍ في القَدْرِ والمنزِلة. انتهى.

واللباس يعمُّ جميعَ ما يُلْبَسُ ويَسْتُر، والريشُ عبارةٌ عن سعة الرزق ورفاهيةِ العيش ووجودِ اللُّبْسِ والتمتُّع.

وأكثرُ أهلِ اللغة على أن الريش ما يَسْتُر من لباسٍ أو معيشةٍ، وقال قوم: الأثاث[٢].

وقال ابن عباس والسدِّي ومجاهدٌ: المال. وقال ابن زيد: الجَمال[٣].

وقال الزمخشريُّ[٤]: لباسُ الزينة؛ استُعير من ريش الطائر لأنه لباسُه وزينتُه، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوءاتكم، ولباساً يَزِينُكم؛ لأنَّ الزينة غرضٌ صحيحٌ، كما قال تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦] انتهى، وعطفُ الرِّيش على «لباساً» يقتضي المغايَرةَ وأنه قسيمٌ للِّباسِ لا قِسْمٌ منه.

وقرأ عثمانُ وابنُ عباسٍ والحسنُ ومجاهدٌ وقتادةُ والسُّلَميُّ وعلي بن الحسين وابنُه زيدٌ وأبو رجاءٍ وزرّ بنُ حبيش، وعاصمٌ في روايةٍ، وأبو عمرٍو في روايةٍ «ورياشاً»[٥]، فقيل: هما مصدران بمعنىً واحدٍ؛ راشَه اللهُ يَرِيشُه رِيشاً ورِياشاً: أَنْعَمَ عليه.

---

(١) كذا وقعت رواية الرجز في المحرر الوجيز، وجاء في الكامل للمبرد ٢/ ٩٩٤، والفائق للزمخشري ٢/ ٢٧٩ بالعكس، أي: ذُكِرَ الرَّبابُ في الأول والسَّحاب في الثاني. قال المبرد: أراد أن ذلك السحاب ينبت ما تأكله الإبل فيصير شحوماً في أسنمتها، والرباب: سحاب دُوَيْنَ المعظم من السحاب.

(٢) قوله: الأثاث، تحرف في (ب) والمطبوع إلى: الإناث، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المصادر. ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٩.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٠/ ١٢٣-١٢٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٥٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٩.

(٤) في الكشاف ٢/ ٧٤.

(٥) تنظر هذه القراءة في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٠، والقراءات الشاذة ص٤٣، والمحتسب ١/ ٢٤٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٩. وهي خلاف المشهور عن عاصم وأبي عمرو.

وقال الزمخشري: جمعُ ريشٍ، كشِعْبٍ وشِعابٍ[١]. وقال الزجَّاج: هما اللباسُ. وقال الفرَّاء: هما ما يستر من ثيابٍ ومالٍ، كما يقال: لِبْسٌ ولِباس[٢]. وقال معبدٌ الجهني: الرِّياش: المعاش[٣]. وقال ابن الأعرابي: الريش: الأكلُ والشرب، والرياش: المال المستفاد. وقيل: الريشُ: ما بَطَن، والرياش: ما ظَهَر.

وقرأ الصاحبان والكسائيُّ: «ولباسَ التقوى» بالنصب[٤] عطفاً على المنصوب قبله. وقرأ باقي السبعة بالرفع، وقرأ بعض النحاة: «ولبوس» بالواو ورفع السين[٥]، فقيل: هو على إضمارِ مبتدأ محذوفٍ، أي: وهو لباسُ التقوى؛ قاله الزجَّاج[٦]، و«ذلك خير» على هذا مبتدأٌ وخبر.

وأجاز أبو البقاء أن يكون «ولباسُ» مبتدأً، وخبرُه محذوفٌ، تقديره: ولباسُ التقوى ساترٌ عوراتِكم[٧]. وهذا ليس بشيءٍ.

والظاهر أنه مبتدأٌ ثانٍ و«خير» خبرُه، والجملةُ خبرٌ عن «ولباسُ التقوى»، والرابطُ اسمُ الإشارة، وهو أحدُ الروابط الخمسِ المتَّفقِ عليها في ربط الجملة الواقعة خبراً للمبتدأ إذا لم يكن إياه.

وقيل: «ذلك» بدلٌ من «لباس». وقيل: عطفُ بيان. وقيل: صفةٌ، وخبرُ «ولباسُ» هو «خير».

وقال: الحوفي: وأنا أرى أن لا يكون «ذلك» نعتاً لـ«لباسِ التقوى»؛ لأنَّ الأسماء المُبْهَمَةَ أعرفُ ممَّا فيه الألفُ واللامُ وما أُضيف إلى الألف واللام، وسبيلُ

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٤.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/٣٢٨، وللفراء ١/ ٣٧٥.

(٣) أخرجه أبو الليث السمرقندي في تفسيره ١/ ٥٣٦.

(٤) السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١٠٩. والصاحبان هما نافع وابن عامر.

(٥) قوله: وقرأ بعض النحاة...، إلى هنا، من (ب) و(د٣) و(يه).

(٦) أجازه في معاني القرآن ٢/ ٣٢٨-٣٢٩، وأجاز أيضاً أن يكون «ذلك» صفة «لباس»، و«خير» خبره، وسيرد قريباً.

(٧) الإملاء ١/ ٢٧١.

النعت أن يكون مُساوِياً للمنعوت أو أقلَّ منه تعريفاً، فإنْ كان قد تقدَّم قولُ أحدٍ به فهو سهوٌ.

وأجاز الحوفي أن يكون «ذلك» فَصْلاً لا موضعَ له من الإعراب، ويكون «خيرٌ» خبراً لقوله: «ولباس التقوى». فجَعَلَ اسمَ الإشارة فصلاً كالمضمَر، ولا أعلم أحداً قال بهذا.

وأمَّا قولُه: فإنْ كان تقدَّم قولُ أحدٍ به فهو سهوٌ، فقد ذكره ابن عطية، وقال: هو أنبلُ الأقوال، ذكره أبو عليٍّ في «الحجّة»[١]. انتهى، وأجازه أيضاً أبو البقاء[٢]، وما ذكره الحوفيُّ هو الصوابُ على أشهر الأقوال في ترتيب المعارِف.

وقرأ عبد الله وأبيٌّ: «ولباسُ التقوى خيرٌ» بإسقاط «ذلك»[٣]، فهو مبتدأ وخبرٌ.

والظاهرُ حَمْلُه على اللباس حقيقةً؛ فقال ابن زيد: هو سترُ العورة. وهذا فيه تكرارٌ؛ لأنه قد قال: «لباساً يواري سوآتكم».

وقال زيدٌ بن عليٍّ: الدِّرع والمِغْفَرُ والساعدان؛ لأنه يُتَّقى بها في الحرب.

وقيل: الصوف ولبس الخشن، وروي: اخْشَوْشِنُوا وكُلوا الطعامَ الخَشِن[٤].

وقيل: ما يقي من الحرِّ والبرد.

وقال عثمان بن عطاء: لباس المتقين في الآخرة.

وقيل: «لباسُ التقوى» مجازٌ؛ فقال ابن عباس: العملُ الصالح. وقال أيضاً: العفَّةُ.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٩، والحجة ٤/ ١٢. وأجازه الزجاج أيضاً كما ذكرنا قبل تعليقين.

(٢) في الإملاء ١/ ٢٧١.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٥، والقراءات الشاذة ص٤٣.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٥/ ٣٣٩ عن عمر ﷺ أنه قال: اخشوشنوا واخشوشبوا واخلولقوا وتمعددوا كأنكم معدٌّ...، وله روايات أخرى، كما في مصنف عبد الرزاق (١٩٩٩٤)، ومسند أحمد (٣٠١)، وصحيح ابن حبان (٥٤٥٤). ومعنى اخشوشنوا: البسوا الخشن. واخشوشبوا: كلوا الغليظ من الطعام. ينظر غريب الحديث للحربي ٢/ ٥٤٥-٥٤٦.

وقال عثمان بن عفان وابنُ عباس أيضاً: السمتُ الحسن في الوجه.

وقال معبدٌ الجهنيُّ: الحياء.

وقال الحسن: الورعُ والسَّمْتُ الحَسَن.

وقال عروةُ بن الزبير: خشية الله.

وقال ابن جُريج: الإيمان.

وقيل: ما يَظْهَرُ من السَّكينة والإخبات.

وقال يحيى بن يحيى: الخشوع(١).

والأحسنُ أن يُجْعَلَ عامّاً، فكلُّ ما يَحْصُلُ به الاتِّقاءُ المشروعُ فهو من لباس التقوى.

والإشارة بقوله: «ذلك من آيات الله» إلى ما تقدَّم من إنزال اللباس والرياش ولباسِ التقوى، والمعنى: من آيات الله الدالَّةِ على فضله ورحمته على عباده، وقيل: مِن مُوْجبِ آيات الله.

وقيل: الإشارة إلى «لباس التقوى»، أي: هو في العبر آيةٌ ـ أي: علامةٌ وأمارةٌ ـ من الله أنه قد رضي عنه ورَحِمَه، لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ أي: لا يَسْتَهوِينَّكم ويَغْلِبْ عليكم، وهو نهيٌ للشيطان، والمعنى نَهْيُهم أنفسهم عن الإصغاء إليه والطواعيةِ لأمره، كما قالوا: لا أَرَيَنَّك هنا، ومعناه النهيُ عن الإقامة بحيث يراه. و«كما» في موضع نصبٍ، أي: فتنةً مِثْلَ فتنةِ إخراج أبويكم، ويجوز أن يكون المعنى: لا يخرجنَّكم عن الدِّين بفتنته إخراجاً مِثْلَ إخراجه أبويكم.

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/ ١٢٥-١٢٨، والنكت والعيون ٢/ ٢١٤، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٤/ ٢٣٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٩، وتفسير البغوي ٢/ ١٥٥، وزاد الميسر ٣/ ١٨٣، وتفسير القرطبي ٩/ ١٨٦.

وقرأ يحيى وإبراهيم: «لا يُفْتِنَنَّكم» بضم الياء من «أَفْتَنَ»[١]. وقرأ زيد بن علي: «لا يَفْتِنكم» بغيرِ نونِ توكيدٍ.

والظاهرُ أنَّ «لباسهما» هو الذي كان عليهما في الجنة، وقال مجاهد: هو لباسُ التقوى[٢]. و«سوآتهما» هو ما يسوؤهما من المعصية، و«ينزع» حالٌ من الضمير في «أَخْرَجَ» أو من «أبويكم»؛ لأنَّ الجملة فيها ضميرُ «الشيطان» وضمير الأبوين، فلو كان بَدَلَ «ينزع»: نازعاً، تعيَّن الأول؛ لأنه إذ ذاك لو جوّز الثاني لكان وصفاً جرى على غيرِ مَن هوَ له، فكان يجبُ إبرازُ الضمير، وذلك على مذهب البصريين[٣].

و«ينزع» حكايةُ أمرٍ قد وقع؛ لأنَّ نزع اللباس عنهما كان قبل الإخراج، ونَسَبَ النَّزْعَ إلى الشيطان لمَّا كان متسبِّباً فيه.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي: إنَّ الشيطان -وهو إبليس- يُبْصِركم هو وجنودُه ونوعُه وذرِّيتُه من الجهة التي لا تُبْصِرونه منها، وهم أجسامٌ لطيفةٌ معلومٌ من هذه الشريعة وجودهم، كما أنَّ الملائكة أيضاً معلومٌ وجودهم من هذه الشريعة، ولا يُسْتَنْكَر وجودُ أجسامٍ لطيفةٍ جداً لا نراها نحن، ألا ترى أنَّ الهواء جسمٌ لطيفٌ لاندركُه نحن وقد قام البرهانُ العقليُّ القاطعُ على وجوده. وقد صحَّ تصوُّرُهم في الأجسام الكثيفة، ورؤيةُ بني آدمَ لهم في تلك الأجسام، كالشيطان الذي رآه أبو هريرةَ حين جَعَلَ يحفظُ تمرَ الصدقة[٤]، والعفريتِ الذي رآه الرسولُ وقال فيه: «لولا دعوةُ أخي سليمان لربطتُه إلى ساريةٍ من سواري المسجد» الحديث[٥] وكحديث خالد بن الوليد حين سُيِّر لكَسْرِ ذي الخُلَصة[٦]، وكحديثِ

(١) القراءات الشاذة ص٤٣.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ١٣٤.
(٣) ينظر تفصيل هذه المسألة في الدر المصون٤/ ٣٩.
(٤) أخرجه البخاري (٢٣١١).
(٥) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٥٤٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.
(٦) كذا ذكر، والصواب أن القصة ليست في كسر ذي الخلصة، وإنما هي في هدم العزّى، وقد أخرجها النسائي في الكبرى (١١٤٨٣)، وأبو يعلى (٩٠٢).

سَوَاد بنِ قارِبٍ مع رَئِيَّة من الجنّ[١]، إلّا أنَّ رؤيتهم في الصور نادرةٌ كما أنَّ الملائكة تبدو في صورٍ كحديثِ جبريل[٢]، وحديثِ المَلَكِ الذي أتى الأعمى والأقرعَ والأبرص[٣]، وهذا أمرٌ قد استفاض في الشريعة فلا يمكنُ ردُّه، أعني تصوُّرَهم في بعض الأحيان في الصور الكثيفة.

وقال الزمخشري: وفيه دليلٌ بيِّنٌ على أنَّ الجنَّ لا يُرَوْنَ ولا يَظْهَرون للإنس، وأنَّ إظهارَهم أنفسَهم ليس في استطاعتهم، وأنَّ زَعْمَ مَن يدَّعي رؤيتهم زُورٌ ومَخْرقةٌ[٤]. انتهى.

ولا دليلَ في الآية على ما ذَكَرَ؛ لأنه تعالى أثبت أنهم يَرَوْننا من جهةٍ لا نراهم نحن فيها، وهي الجهةُ التي يكونون فيها على أصل خلقتهم من الأجسام اللطيفة، ولو أراد نفيَ رؤيتنا على العموم لم يتقيَّد بهذه الحيثية، وكان يكون التركيب: إنه يراكم هو وقبيلُه وأنتم لا ترونهم.

وأيضاً فلو فرضنا أنَّ في الآية دلالةً لكان من العامِّ المخصوص بالحديث النبويِّ المستفيض، فيكونون مَرْئيِّين في بعض الصور لبعض الناس في بعض الأحيان.

وفي كتاب «التحرير»[٥] أنكر جماعةٌ من الحكماء تكرُّرَ[٦] الجنِّ والشياطين وتصوُّرَهم على أيِّ جهةٍ شاؤوا.

---

(١) أخرج قصته أبو يعلى في معجم شيوخه (٣٢٩)، والحاكم في المستدرك ٣/٦٠٨-٦١٠. وأصل القصة في صحيح البخاري (٣٨٦٦) من حديث ابن عمر ﵄ دون تسمية صاحب القصة. وينظر تاريخ الإسلام للذهبي ١/٥٩٠-٥٩٤، والإصابة ٤/٢٩٣-٢٩٥.

(٢) هو الحديث المشهور في الإيمان والإسلام والإحسان، أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﵁. وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر ﵁.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٤) الكشاف ٢/٧٤-٧٥.

(٥) هو كتاب «التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير» لشيخ المصنف محمد بن سليمان المقدسي المعروف بابن النقيب.

(٦) في (د٣) و(يه): تطور.

وقوله: «إنه يراكم» تعليلٌ للنهي وتحذيرٌ من فتنته، بأنه[١] بمنزلة العدوِّ المُدَاجي يَكيدكُم ويغتالُكم من حيث لا تَشعرون، وفي الحديث: «إنَّ الشيطانَ يَجْري مِن ابنِ آدمَ مَجْرَى الدَّم»[٢] إشارة إلى أنه لا يفارقه، وأنه يَرْصُد غفلاته فيتسلَّطُ عليه.

والظاهر أنَّ الضمير في «إنه» عائدٌ على «الشيطان»، وقال الزمخشريُّ: والضمير في «إنه» ضميرُ الشأن والحديث[٣]. انتهى، ولاضرورةَ تدعو إلى هذا.

و«قبيلُه» معطوفٌ على الضمير المستكنِّ في «يراكم»، ويجوز أن يكون مبتدأً محذوفَ الخبر، أو معطوفاً على موضع اسم «إنَّ» على مذهبِ مَن يجيز ذلك.

وقرأ اليزيديُّ: «وقبيلَه» بنصب اللام[٤] عطفاً على اسم «إنَّ» إنْ كان الضمير يعود على «الشيطان» وقيل[٥]: مفعول معه، أي: مع قبيله.

وقرئ شاذًّا: «من حيث لا ترونه» بإفرادِ الضمير، فيحتمل أن يكون عائداً على الشيطان وقبيلِه إجراءً له مجرى اسم الإشارة، فيكون كقوله:

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ ... كأنه في الجلد تَوْليعَ البَهَقْ[٦]

أي: كأنَّ ذلك. ويحتمل أن يكون عاد الضمير على «الشيطان» وحده لكونه رأسَهم وكبيرهم وهم له تبَعٌ، وهو المفرَدُ بالنهي أولاً.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: صيَّرنا الشياطين ناصِريهم وعاضِدِيهم في الباطل. وقال الزجَّاج: سلَّطناهم عليهم يزيدون في غيِّهم، فيتابعونهم على ذلك، فصاروا أولياءَهم[٧].

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: فإنه، والمثبت من (ب) و(د٣) و(يه)، وينظر الكشاف ٢/ ٧٤.
(٢) أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صفية ﵂. وأخرجه مسلم (٢١٧٤) من حديث أنس ﵁.
(٣) الكشاف ٢/ ٧٥.
(٤) القراءات الشاذة ص٤٣.
(٥) قوله: وقيل، تحرف في المطبوع إلى: وقبيله.
(٦) الرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٠٤. قال صاحب الخزانة ١/ ٨٨: البَلَق: سواد وبياض. والتوليع: استطالة البلق. والبهق: بياض مخال لِلَون الجسد وليس ببرص.
(٧) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٩-٣٣٠ بنحوه.

وقيل: جعلناهم قُرَناءَ لهم.

وحكى الزهراويُّ أنَّ «جَعَلَ» هنا بمعنى «وَصَفَ»، وهي نزغةٌ اعتزالية[١].

وقال الزمخشري: خلَّينا بينهم وبينهم،لم نكُفَّهم عنهم، حتى تولَّوهم وأطاعوهم فيما سوَّلوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذيرٌ آخَرُ أبلغُ من الأول[٢]. انتهى، وهو على طريقةِ الاعتزال.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾أي: إذا فعلوا ما تفاحَشَ من الذنوب اعتذروا، والتقدير: وطُلبوا بحجةٍ[٣] على ارتكابها قالوا: آباؤنا كانوا يفعلونها فنحن نقتدي بهم، «والله أَمَرَنا بها» كانوا يقولون: لو كره الله منَّا ما نفعلُه لنَقَلَنا عنه. والإخبارُ الأولُ يتضمَّنُ التقليد لآبائهم، والتقليدُ باطلٌ إذ ليس طريقاً للعلم، والإخبارُ الثاني افتراءٌ على الله تعالى.

قال ابن عطية: والفاحشةُ وإن كان اللفظُ عامًّا هي كشفُ العورة في الطَّواف، فقد رُوِيَ عن الزُّهريُّ أنه قال: في ذلك نزلت هذه الآيات. وقاله ابنُ عباس ومجاهدٌ[٤]. انتهى، وبه قال زيد بنُ أسلم والسدِّي[٥].

وقال الحسن وعطاء والزجَّاج: الفاحشة هنا الشرك[٦].

وقيل: البَحيرةُ والسائبةُ والوصيلةُ والحامي.

وقيل: الكبائر. والظاهرُ من قوله: «وإذا فعلوا فاحشةً» أنه إخبارٌ مستأنَفٌ عن هؤلاء الكفارِ بما كانوا يقولون إذا ارتكبوا الفواحش، وقال ابن عطية[٧]: «وإذا فعلوا» وما بعده داخلٌ في صلة «الذين لا يؤمنون» ليقع التوبيخُ بصفةِ قومٍ قد جُعلوا

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩١، ووقع في (أ): نزعة، وهو موافق لما في مطبوع المحرر.
(٢) الكشاف ٢/ ٧٥.
(٣) في (ب): الحجة.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩١، وأخرجه عنهم الطبري ١٠/ ١٣٧-١٣٨.
(٥) زاد المسير ٣/ ١٨٤، وأخرجه عن السديِّ الطبريُّ ١٠/ ١٣٨.
(٦) زاد المسير ٣/ ١٨٥ عن الحسن وعطاء. والذي في معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٠: معنى الفاحشة: ما يشتد قبحه من الذنوب.
(٧) في المحرر الوجيز ٢/ ٣٩١.

أمثالاً للمؤمنين[١] إذ أَشْبَهَ فِعْلُهم فِعْلَ الممثَّلِ بهم.

وقال الزمخشري: وعن الحسن: إنَّ الله تعالى بَعَثَ محمداً ﷺ إلى العرب وهم قَدَرِيَّةٌ مُجْبِرةٌ يحملون ذنوبهم على الله تعالى، وتصديقُه قولُ الله عز وجل: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾[٢] انتهت حكايتُه عن الحسن، ولعلها لا تصحُّ عن الحسن. وانظر إلى دسيسة الزمخشريِّ في قوله: وهم قدرية. فإنَّ أهل السنَّة يجعلون المعتزلةَ هم القدريةَ، فعَكَسَ هو عليهم وجَعَلهم هم القدريةَ، حتى إنَّ ما جاء من الذمِّ للقَدَرية يكون لهم، وهذه النسبةُ من حيث العربيةُ هي أَلْيَقُ بمَن أثبت القَدَرَ لا بمن نفاه، وقولُ أهل السُّنَّة في المعتزلة: إنهم قدريةٌ، معناه أنهم يَنْفُون القَدَرَ ويزعمون أنَّ الأمر أُنُف[٣]، وذلك شبيهٌ بما يقول بعضُهم في داودَ الظاهريِّ: إنه القياسيُّ. ومعناه: نافي القياس.

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: بفعلِ الفحشاء، وإنما لم يَرُدَّ التقليدَ لظهور بطلانه لكلِّ أحد؛ للُزومه الأَخْذَ بالمتناقضات. وأَبطل تعالى دعواهم أنَّ الله أمر بها؛ إذ مُدركُ ذلك إنما هو الوحيُ على لسان الرسل والأنبياء، ولم يقع ذلك.

وقال الزمخشري: لأنَّ فعل القبيح مستحيلٌ عليه لعُدْم الدَّاعي ووجودِ الصَّارِف، فكيف يأمر بفعله؟ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إنكارٌ لإضافتهم القبيحَ إليه، وشهادةٌ على أنَّ مَبْنَى أمرِهم على الجهل المُفْرِط[٤]. انتهى، وهو على طريقة المعتزلة.

وقال ابن عطية: وبَّخهم على كذبهم، ووَقَفَهم على ما لا عِلْم لهم به ولا رواية لهم فيه، بل هي دعوى واختلاق[٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) في المحرر: جعلوا مثالاً للموبَّخين.

(٢) الكشاف ٢/ ٧٥.

(٣) بضم الهمزة والنون، أي: مستأنف لم يسبق به قدرٌ ولا علم من الله تعالى، وأنه يعلمه بعد وقوعه. شرح مسلم للنووي ١/ ١٥٦.

(٤) الكشاف ٢/ ٧٥.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩١.

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ
كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ
وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ
مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ
يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ
بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ
لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي
فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ
أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ
خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ
فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ
ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ
ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ
ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن
جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي
صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ
أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ
﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ
قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا
وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ
أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا
مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا
كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ

وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا
وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ
فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ
أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ
قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

المفردات

بدأ الشيءَ: أنشأه واخترعه.

الجَمَلَ: الحيوان المعروف، وجَمْعُه: جِمالٌ وأَجْمُلٌ، ولا يُسمَّى جملاً حتى يبلغ أربعَ سنين. والجُمَّل: حَبْلُ السفينة. ولغاتُه تأتي في المركَّبات.

سَمُّ الخِيَاط: ثُقْبُه، وتضمُّ سينُ «سم» وتُفتح وتُكسر، وكلُّ ثقبٍ في أنفٍ أو أذنٍ أو غيرِ ذلك فالعربُ تسمِّيه سمًّا. والخِيَاط: المِخْيَط، وهما آلتان كـ: إزار ومِئْزر، ولحاف ومِلْحف، وقِناع ومِقْنع.

الغِلّ: الحقد والإِحْنَةُ الخفيَّةُ في النفس، وجمعُها: غِلال، ومنه الغُلول: أخذٌ في خفاء.

نعم: حرفٌ يكون تصديقاً لإثباتٍ محضٍ، أو لمَا تضمَّنه استفهامٌ، وكَسْرُ عينها لغةٌ لقريشٍ، وإبدالُ عينها بالحاء لغةٌ، ووقوعُها جواباً بعد نفيٍ يراد به التقريرُ نادرٌ.

الأعراف: جمعُ عُرْفٍ، وهو المرتفعُ من الأرض، قال الشاعر:

كُلُّ كِنَازٍ لحمُه نِيَافِ
كالجبلِ المُوفي على الأعرافِ[1]

(١) الرجز في مجاز القرآن ١/ ٢١٥، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٠٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ٤٢، =

وقال الشمَّاخ:

فظلَّت بأعرافٍ تعالى[(١)] كأنها رماحٌ نحاها وجهةَ الريح راكِزُ[(٢)]

ومنه: عُرْفُ الفرس وعُرْفُ الديك، لعلوِّهما.

السِّتَّة: رتبةٌ من العدد معروفةٌ، وأصلُها: سِدْسة، فأَبْدَلوا من السين تاءً، ولزم[(٣)] الإبدالُ، ثم أدغموا الدالَ في التاء بعد إبدالِ الدالِ بالتاء، ولزم الإدغام. وتصغيره: سُدَيْس وسُدَيْسة.

الحثُّ: الإعجال، حَثَثْتُ فلاناً فاحْتَثَّ؛ قاله الليث، وقال: فهو حثيثٌ ومحثوث[(٤)].

* * *

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ﴾ قال ابن عباس: «القسط» هنا: لا إله إلا الله[(٥)]. لأنَّ أسباب الخير كلَّها تنشأ عنها. وقال عطاء والسدِّي: العدل، وما يَظْهر في المعقول كونُه حسناً صواباً[(٦)]. وقيل: الصدق والحقّ.

= والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤، وزاد المسير ٣/ ٢٠٥، واللسان (نوف). وروايته في المصادر عدا المحرر: كالعَلَم، بدل: كالجبل، وهما بمعنى. والكناز: المجتمِعُ اللحم القويَّة. والنياف: الطويل في ارتفاع. اللسان (كنز) و(نوف).

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: تعادى. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) ديوان الشماخ ص٢٠١، ومجاز القرآن ١/ ٢١٥، ونفسير الطبري (تحقيق محمود شاكر) ١٢/ ٤٤٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤. وجاء في الطبري: تغالى، وفي الديوان والمجاز: تفالى. ورواية الديوان: وظلت تَفَالى باليفاع كأنها، فلا شاهد فيه. وتفالت الحمر: احتكَّت كأن بعضها يَفلي بعضاً. اللسان (فلا). والبيت في صفة حمر الوحش بعد أن عادت من رحلتها الطويلة في طلب الماء. وهو في الاختيارين للأخفش ص٦، والأساس واللسان (سبب) برواية: مسبَّبةٌ قُبُّ البطون كأنها...، يصف سِمَنها وجودتها، فَمَن نظر إليها سبَّها وقال: قاتلها الله ما أجودها!

(٣) في (ب): ولزموا.

(٤) تفسير الرازي ١٤/ ١١٧.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ١٥٦، وتفسير الرازي ١٤/ ٥٧.

(٦) تفسير الرازي ١٤/ ٥٧، وتحرفت كلمة المعقول في (أ) و(ب) و(د١) و(ع) إلى: القول. وأخرجه عن السدي الطبري ١٠/ ١٣٩ مختصراً بلفظ: العدل.

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ «وأقيموا» معطوفٌ على ما ينحلُّ إليه المصدر الذي هو «القسط»، أي: بأنْ أَقْسِطوا وأَقيموا، وكما ينحلُّ المصدر لـ«أنْ» والفعلِ الماضي، نحو: عجبتُ من قيام زيدٍ وخَرَجَ، أي: من أنْ قام وخَرَجَ، ولـ: «أنْ» والمضارع نحو:

لَــلُــبْــسُ عــبــاءةٍ وتَــقَــرَّ عــيــنــي[1]

أي: لَأنْ ألبسَ عباءةً وتقرَّ عيني كذلك ينحلُّ لـ«أنْ» وفعلِ الأمر، ألا ترى أنَّ «أنْ» توصَلُ بفعلِ الأمر نحو: كتبتُ إليه بأنْ قُمْ، كما توصَلُ بالماضي والمضارع، بخلافِ «ما» المصدرية فإنها لا توصَلُ بفعلِ الأمر، وبخلافِ «كي» إذا لم تكن حرفَ جرٍّ[2] وكانت مصدريةً فإنها توصَلُ بالمضارع فقط.

ولمَّا أَشْكَلَ هذا التخريجُ جعل الزمخشريُّ «وأقيموا» على تقديرِ: وقل، فقال: وقُلْ أقيموا[3]. فيَحْتَمِلُ قولُه: وقُلْ أقيموا، أن يكون «أقيموا» معمولاً لهذا الفعل [غير][4] الملفوظِ به، ويَحتمِلُ أن يكون قولُه: «وأقيموا» معطوفاً على «أَمَرَ ربِّي بالقسط» فيكون معمولاً لـ«قلْ» الملفوظِ بها أولاً، وقدَّرها ليبيِّن أنها معطوفةٌ عليها. وعلى ما خرَّجناه نحن يكون في حيِّز[5] معمولِ «أَمَرَ».

وقيل: «وأقيموا» معطوفٌ على أمرٍ محذوفٍ تقديره: فأَقْبِلوا وأَقيموا.

وقال ابن عباس والضحاك واختاره ابن قتيبة: المعنى: إذا حضرت الصلاةُ فصلُّوا في كلِّ مسجدٍ، ولا يقُلْ أحدكم: أصلِّي في مسجدي[6].

---

(١) وعجزه: أحبُّ إليَّ من لُبسِ الشُّفوف، والبيت لميسون بنت بحدل الكلبية، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

(٢) في المطبوع: إذا لم تكن حرفاً.

(٣) الكشاف ٢/ ٧٥.

(٤) زيادة يقتضيها السياق، وينظر الدر المصون ٥/ ٢٩٦.

(٥) في (أ) و(د١) و(د٣) و(ع) والمطبوع: خبر، وسقط هذا الموضع من (ب). والمثبت من (يه)، وهو الموافق لما في الدر اللقيط على هامش البحر ٤/ ٢٨٧، وهو الصواب.

(٦) زاد الميسر ٣/ ١٨٥، وذكره عن الضحاك الثعلبي ٢/ ١٦. وقول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص١٦٧.

وقال مجاهد والسدِّيُّ وابنُ زيد: معناه: توجَّهوا حيث كنتُم في الصلاة إلى الكعبة[١].

وقال الربيع: اجعلوا سجودَكم خالصاً لِلّهِ دون غيره[٢].

وقيل: معناه: اقصدوا المسجد في وقتِ كلِّ صلاةٍ، أَمْراً بالجماعة؛ ذكره الماوَرْديّ[٣].

وقيل معناه: إذا كان في جواركم مسجدٌ فأقيموا الجماعةَ فيه ولا تتجاوَزوا إلى غيره، ذكره التبريزي.

وقيل: هو أمرٌ بإحضارِ النية لله في كلِّ صلاةٍ والقَصْدِ نحوَه، كما تقول: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ الآية [الأنعام: ٧٩] قاله الربيع أيضاً[٤].

وقيل: معناه إباحةُ الصلاة في كلِّ موضعٍ من الأرض، أي: حيثما كنتُم فهو مسجدٌ لكم يلزمُكم عنده الصلاةُ وإقامةُ وجوهِكم فيه لله، وفي الحديث: «جُعِلَتْ لي الأرضُ مسجداً، فأيُّما رجلٍ أدركتْه الصلاةُ فليصلِّ حيث كان»[٥].

وقال الزمخشريُّ: أي: اقْصِدوا عبادتَه مستقيمين إليه غيرَ عادِلِينَ إلى غيرها، «عند كلِّ مسجد» في وقتِ كلِّ سجودٍ وفي كلِّ مكانِ سجودٍ، وهو الصلاة[٦].

«وادْعُوه مُخْلِصينَ له الدِّين» قيل: الدعاءُ على بابه أمر به مقروناً بالإخلاص لأنَّ دعاءَ مَن لا يُخْلِصُ الدِّينَ لله لا يجاب. وقيل: معناه: اعبدوه. وقيل: قولوا: لا إله إلا الله.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ قال ابن عباس ومجاهدٌ والحسن وقتادة: هو إعلامٌ بالبعث، أي: كما أَوْجَدَكم واخترعكم، كذلك

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٤٠-١٤١، وزاد المسير ٣/ ١٨٥.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) في النكت والعيون ٢/ ٢١٧.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩١.

(٥) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عن جابر بن عبد الله ﵄.

(٦) الكشاف ٢/ ٧٥، وفيه: . . . مستقيمين إليها غير عادلين. . .

يُعيدكم بعد الموت[١]. ولم يذكر الزمخشريُّ غيرَ هذا القول؛ قال: كما أنشأكم ابتداءً يعيدكم، احْتَجَّ عليهم في إنكارهم الإعادةَ بابتداءِ الخلق، والمعنى: إنه يعيدُكم فيجازيكم على أعمالكم، فأَخْلِصوا له العبادة[٢]. انتهى.

وهذا قولُ الزجَّاج، قال: كما أحياكم في الدنيا يحييكم في الآخرة، وليس بَعْثُكم بأشدَّ من ابتداءِ إنشائكم، وهذا احتجاجٌ عليهم في إنكارهم البعث[٣]. انتهى.

وقال ابن عباس أيضاً، وجابر بنُ عبد الله، وأبو العالية، ومحمد بن كعب، وابنُ جُبيرٍ، والسدِّيُّ، ومجاهدٌ أيضاً، والفرَّاء، ورُوي معناه عن الرسول: إنه إعلامٌ بأنَّ مَن كُتب عليه أنه من أهل الشقاوة والكفر في الدنيا هم أهلُ ذلك في الآخرة، وكذلك مَن كُتب له السعادةُ والإيمان في الدنيا هم أهلُ ذلك في الآخرة، لا يتبدَّلُ شيءٌ ممَّا أَحْكَمَه ودبَّره تعالى[٤]. ويؤيِّد هذا المعنى قراءةُ أبيٍّ: «تعودون فريقين فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة»[٥].

وعلى هذا المعنى يكون الوقفُ على «تعودون» غيرَ حَسَنٍ؛ لأنَّ «فريقاً» نصبٌ على الحال، و«فريقاً» عطفٌ عليه، والجملةُ مِن «هَدَى» ومن «حَقَّ» في موضع الصفة لمَا قبله، وقد حُذف الضمير من جملة الصفة، أي: هداهم. وجوَّز أبو البقاء أن يكون «فريقاً» مفعولَ «هدى»، و«فريقاً» مفعولَ «أَضَلَّ» مضمرةً، والجملتان الفعليتان حالٌ، و«هَدَى» على إضمارِ «قد»، أي: تعودون قد هَدَى فريقاً وأضلَّ فريقاً[٦].

(١) أخرجه عنهم الطبري ١٠/ ١٤٥-١٤٦، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢.
(٢) الكشاف ٢/ ٧٥-٧٦.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣١، وليس فيه سوى قوله: أي: فليس بعثكم بأشد من ابتدائكم.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢، وأخرجه عنهم الطبري ١٠/ ١٤٢-١٤٥. وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٣٧٦. والحديث الذي أشار إليه أخرجه مسلم (٢٨٧٨)، والطبري ١٠/ ١٤٤ من حديث جابر، ولفظه: «يُبعث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه».
(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢.
(٦) الإملاء ١/ ٢٧١.

وعلى المعنى الأول يَحْسُنُ الوقفُ على «تعودون»، ويكون «فريقاً» مفعولاً بـ«هدى»، ويكون «وفريقاً» منصوباً بإضمارِ فعلٍ يفسِّره قولُه: «حقَّ عليهم الضلالة»[١].

وقال الزمخشري: «فريقاً هَدَى» وهم الذين أسلموا، أي: وفَّقهم للإيمان، «وفريقاً حقَّ عليهم الضلالةُ»، أي: كلمةُ الضلالة، وعَلِمَ الله تعالى أنهم يَضِلُّون ولا يهتدون، وانتصابُ قوله تعالى: «وفريقاً» بفعلٍ يفسِّره ما بعده، كأنه قيل: وخَذَلَ فريقاً حقَّ عليهم الضلالة[٢]. انتهى، وهي تقاديرُ على مذهب الاعتزال.

وقيل: المعنى: تعودون لا ناصرَ لكم ولا مُعِينَ؛ كقوله[٣]: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال الحسن: كما بدأكم من التراب يُعيدكم إلى التراب[٤].

وقيل: معناه: كما خلقكم عراةً تُبعثون عراةً.

ومعنى «حقَّ عليهم الضلالة» أي: حقَّ عليهم من الله، أو: حقَّ عليهم عقوبةُ الضلالة، هكذا قدَّره بعضُهم.

وجاء إسنادُ الهُدَى إلى الله ولم يَجِئْ مقابِلَه: وفريقاً أضلَّ، لأن المَسَاقَ مساقُ مَن نُهي عن أن يفتنه الشيطانُ، وإخبار أنَّ الشياطين أولياء للَّذين لا يؤمنون، وأنَّ الله لا يأمر بالفحشاء، وأَمَرَ بالقسط وإقامةِ الصلاة، فناسَبَ هذا المساقُ أن لا يُسْنَدَ إليه تعالى الضلالُ وإن كان تعالى هو الهادي وفاعِلُ الضلالة، فلذلك[٥] عَدَلَ إلى قوله: «حقَّ عليهم الضلالة».

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾ أي: إنَّ

(١) والجملتان الفعليتان على هذا مستأنفتان. ينظر الدر المصون ٥/٢٩٩.

(٢) الكشاف ٢/٧٦.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: لقوله.

(٤) لم نقف عليه عن الحسن، وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/١٤٦٣-١٤٦٤ عن الربيع، وذكره الثعلبي ٣/١٧عن قتادة.

(٥) في (أ) والمطبوع: فكذلك.

الفريق الضالَّ اتَّخذوا الشياطين أولياء، أي[١]: أنصاراً وأعواناً يتولَّونهم وينتصرون بهم، كقول بعضهم: اعْلُ هُبَل اعل هُبَل.

والظاهرُ أنَّ المراد حقيقةُ «الشياطين»، فهم يعينونهم على كفرهم، والضالُّون يتولَّونهم بانقيادهم إلى وسوستهم.

وقيل: «الشياطين» أحبارُهم وكبراؤهم.

قال الطبري: وهذه الآيةُ دليلٌ على خطأ قولِ مَن زَعَم أنَّ الله تعالى لا يعذِّب أحداً على معصيةٍ رَكِبها أو ضلالةٍ اعْتَقَدها إلَّا أن يأتيها على عِلْم منه بموضع الصواب[٢]. انتهى، ووجْهُ الدلالة قولُه: «ويحسبون» والمَحْسَبةُ الظنُّ لا العلم.

وقرأ العباس بن الفضل، وسهل بن شعيب، وعيسى بن عمر: «أنهم اتخذوا» بفتح الهمزة[٣]، وهو تعليلٌ لحقِّ الضلالةِ عليهم، والكسرُ يَحتملُ الاستئنافَ ويَحتمِلُ[٤] التعليل من حيث المعنى.

وقال الزمخشري: أي: تولَّوهم بالطاعة فيما أمروهم به، وهذا دليلٌ على أنَّ عِلْمَ الله تعالى لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالُّون باختيارهم وتولِّيهم الشياطينَ دون الله تعالى[٥]. انتهى، وهو على طريقة الاعتزال.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ كان أهلُ الجاهلية يطوفون بالبيت عراةً، وكانوا لا يأكلون في أيام حجِّهم دسماً ولا ينالون من الطعام إلَّا قُوتاً تعظيماً لحجِّهم، فنزلت[٦].

وقيل: كان أحدُهم يطوفُ عرياناً ويَدَعُ ثيابَه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضُرب وانتُزِعَتْ منه، لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثيابٍ أذنبنا فيها. وقيل:

---

(١) قوله: أي، ليس في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٤٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢، وعنه نقل المصنف.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢.
(٤) قوله: الاستئناف ويحتمل، ليس في (أ) والمطبوع.
(٥) الكشاف ٢/ ٧٦.
(٦) أخرج نحوه الطبري ١٠/ ١٥٥ عن السُّدي، وينظر ما سيرد من أخبار في تفسير هذه الآية.

تفاؤلاً؛ ليتعرَّوا من الذنوب كما تعرَّوا من الثياب[(١)].

والزينة: فِعْلة من التزيُّن، وهو اسمُ ما يُتَجمَّلُ به من ثيابٍ وغيرها، كقوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] أي: بالنبات.

والزينةُ هنا المأمورُ بأخْذِها هو ما يستر العورةَ في الصلاة، قاله مجاهدٌ والسدِّيُّ والزجَّاج[(٢)].

وقال طاوس: الشَّمْلةُ من الزينة.

وقال مجاهد: ما وارَى عورتَك ولو عباءةً فهو زينةٌ[(٣)].

وقيل: ما يستر العورةَ في الطَّواف. وفي «صحيح مسلم» عن عُروةَ: أنَّ العرب كانت تطوف عراةً إلا الحُمْسَ وهم قريش، إلَّا أنْ تعطيهم الحمسُ ثياباً، فيُعْطي الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ[(٤)].

وفي غير «مسلم»: مَن لم يكن له صديقٌ بمكة يُعِيرهُ ثوباً طاف عرياناً، أو في ثيابه، وألقاها بعدُ فلا يَمسُّها أحدٌ وتُسمَّى اللَّقَى، وقال بعضهم:

كَفَى حَزَناً كَرِّي عليه كأنَّه لَقىً بين أيدي الطائفين حَرِيمُ

وكانت المرأة تُنْشِدُ وهي تطوفُ عريانةً:

اليومَ يبدو بعضُه أو كلُّه وما بدا منه فلا أُحِلُّه[(٥)]

---

(١) الكشاف ٢/٧٦، ونسب القول الأول لطاوس. وقد وقع بعد قوله: يطوف عرياناً، خرم في (د٣)، وينتهي عند قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣].

(٢) في معاني القرآن ٢/٣٣٢، وذكره عنه وعن مجاهدٍ الماورديُّ في النكت والعيون ٢/٢١٨، وابنُ الجوزي في زاد المسير ٣/١٨٧، وأخرجه عن السديِّ الطبريُّ ١٠/١٥٣-١٥٤ بلفظ: ما يواري العورة عند كل مسجد.

(٣) أخرج القولين الطبري ١٠/١٥٢و ١٥٣.

(٤) صحيح مسلم (١٢١٩): (١٥٢).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٠٢-٢٠٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/٧٦٧-٧٦٩، وتفسير القرطبي ٩/١٩٢-١٩٣. وأخرج مسلم (٣٠٢٨) عن ابنِ عباس ﷺ:كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: مَن يُعيرني تِطْوافاً؟ تجعله على فرجها. وتقول: اليوم يبدو...، فنزلت هذه الآية ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

فلمَّا بَعَثَ الله رسولَه ﷺ وأُنزل عليه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ أذَّن مؤذِّنُ الرسول: أَلَا لا يحجُّ البيتَ بعد العام مشركٌ، ولايطوفُ بالبيت عُرْيانٌ[١]. وكان النداءُ بمكة سنةَ تسعٍ.

وقال عطاءٌ وأبو رَوْق: تسريح اللِّحَى وتنويرُها بالمشط والتَّرجيل.

وقيل: التزيُّنُ بأجمل اللباس في الجُمَعِ والأعياد؛ ذكره الماورديُّ[٢].

وقيل: رفعُ اليدين في تكبيرةِ الإحرام والركوعِ والرَّفعِ منه.

وقيل: إقامة الصلاة في الجماعة بالمساجد، وكان ذلك زينةً لهم لمَا في الصلاة من حُسْن الهيئة ومشَابَهَةِ صفوف الملائكة، ولمَا فيها من إظهارِ الألفة وإقامةِ شعائر الدِّين.

وقيل: لبس النعال في الصلاة، وفيه حديثٌ عن أبي هريرة؛ وقال ابن عطية: وما أحسبُه يصح[٣].

وقال أيضاً: الزينة هنا الثيابُ الساترة، ويدخل فيها ما كان من الطِّيب للجمعة، والسِّواكُ، وبدلُ الثياب، وكلُّ ما وُجد استحسانُه في الشريعة ولم يُقصد به الخُيَلاء و«عند كلِّ مسجد» يريدُ: عند كلِّ موضعِ سجودٍ. فهو[٤] إشارةٌ إلى الصلوات وسترِ العورة فيها، [هذا] هو مُهِمُّ الأمر، ويدخل مع[٥] الصلاة مواطنُ الخير كلُّها، ومع

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في النكت والعيون ٢/ ٢١٨.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢، وهو كما قال، فقد أخرجه ابنُ عدي في الكامل ٥/ ١٨٢٩ و٦/ ٢١٧١ بإسنادين: الأول فيه علي بن أبي علي القرشي، وهو مجهول ومنكر الحديث كما قال ابن عدي، والثاني فيه محمد بن الفضل بن عطية، قال عنه ابن معين كما نقل ابن عدي: ليس بشيء ولا يكتب حديثه. وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٧٩، ونقل عن أحمد قوله: محمد بن الفضل ليس بشيء، حديثه حديث أهل الكذب. وقال أبو حاتم عن حديث أبي هريرة كما في العلل لابنه ١/ ١٤٩: هذا حديث منكر. اهـ.
وأخرجه ابن الجوزي أيضاً في الموضوعات ٣/ ٨٠ من حديث أنس ﷺ، وقال: لا يصح.

(٤) قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، وجاء في المحرر: وهي، يعني الآية. فالمقصود واحدٌ في كلا اللفظين.

(٥) في (أ) والمطبوع: في، وفي (د١) و(ع): من، وكلاهما تصحيف.

سترِ العورة ما ذكرنا من الطِّيب للجمعة(١). انتهى.

وقال الزمخشري: «خذوا زينتكم» أي: ريشَكم ولباسَ زينتكم، «عند كلِّ مسجدٍ» كلَّما صلَّيتُم، وكانوا يطوفون عراةً(٢). انتهى.

والذي يظهرُ أنَّ الزينة هو ما يُتَجمَّل به ويُتزيَّنُ عند الصلاة، ولا يدخل فيه ما يستر العورة؛ لأنَّ ذلك مأمورٌ به مطلقاً، ولا يختصُّ بأنْ يكون ذلك عند كلِّ مسجدٍ. ولفظةُ «كلِّ مسجد» تأبَى(٣) أن يكون أيضاً ما يستر العورة في الطواف؛ لعمومه، والطوافُ إنما هو لخاصٍّ وهو المسجدُ الحرام، وليس بظاهرِ حَمْلُ العموم على كلِّ بقعةٍ منه. وأيضاً فـ«يا بني آدم» عامٌّ، وتقييدُ الأمر بما يستر العورة في الطواف مُفْضٍ إلى تخصيصه بمن يطوفُ بالبيت.

وقال أبو بكر الرازي(٤): في الآية دليلٌ على فرضِ سترِ العورة في الصلاة، وهو قولُ [أبي حنيفة وأبي يوسفَ وزُفَرَ ومحمدٍ والحسن بنِ زياد والشافعيِّ]؛ لقوله: «عند كلِّ مسجدٍ»، علَّق الأمرَ به فدلَّ على أنه الستر للصلاة. وقال مالكٌ والليث: كشفُ العورة حرامٌ(٥)، ويُوْجِبان الإعادةَ في الوقت استحباباً إنْ صلَّى مكشوفَها.

وقال الأبهري: هي فرضٌ في الجملة، وعلى الإنسان أن يسترها في الصلاة وغيرِها، وهو الصحيحُ؛ لقوله ﷺ للمِسْوَر بنِ مَخْرَمة: «ارْجِعْ إلى قومك ولا تمشوا عراةً» أخرجه مسلم(٦).

«وكلوا واشربوا» قال الكلبي: معناه: كلوا من اللَّحم والدَّسم واشربوا من الألبان، وكانوا يحرِّمون جميعَ ذلك في الإحرام(٧).

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) الكشاف ٢/ ٧٦.

(٣) في (أ) والمطبوع: تأتي، وهي ساقطة من (ب)، والمثبت هو الصواب.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ٣١، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) في أحكام القرآن: وقال مالك والليث: الصلاة مُجْزِيةٌ مع كشف العورة.

(٦) برقم (٣٤١)، والكلام منقول من تفسير القرطبي ٩/ ١٩٣، ولفظ الخبر في المصدرين: «ارجع إلى ثوبك فخذه، ولا تمشوا عراة».

(٧) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١٨، وأسباب النزول للواحدي ص٢٢٢، وتفسير البغوي ٢/ ١٥٧.

وقال السُّدِّي: كلوا من البَحِيرة وأَخَواتها.

والظاهرُ أنه أمرٌ بإباحةِ الأكل والشربِ مِن كلِّ ما يمكن أن يؤكَلَ أو يُشْرَبَ مما لم[١] يُحظر أكلُه وشربُه في الشريعة، وإن كان النزولُ على سببٍ خاصٍّ، كما ذكروا من امتناع المشركين من أكل اللَّحم والدَّسم أيامَ إحرامهم، أو بني عامرٍ دون سائرِ العرب من ذلك، وقولِ المسلمين بذلك[٢].

والنهيُ عن الإسراف يدلُّ على التحريم؛ لقوله: «إنه لا يحبُّ المسرفين». قال ابن عباس: الإسراف: الخروجُ عن حدِّ الاستواء. وقال أيضاً: لا تسرفوا في تحريم ما أُحِلَّ لكم[٣]. وقال أيضاً: كُلْ ما شئتَ والْبَسْ ما شئت ما أخطأَتْكَ خصلتان: سَرَفٌ ومَخِيلةٌ[٤].

وقال ابن زيد: الإسرافُ: أكلُ الحرام[٥].

وقال الزجَّاج: الإسرافُ: الأكلُ من الحلال فوق الحاجة[٦].

وقال مقاتل: الإسراف: الإشراك[٧].

وقيل: الإسراف: مخالفةُ أمرِ الله في طوافهم عراةً يصفِّقون ويصفرون.

وقال ابنُ عباس أيضاً: ليس في الحلال سَرَفٌ، إنما السَّرفُ في ارتكاب

= وهذا منقول عن الكلبي بالمعنى، وسأورد قريباً نص كلامه نقلاً عن المصادر المذكورة.

(١) قوله: لم، ساقط من (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع.

(٢) يشير إلى ما أورده الثعلبي والواحدي والبغوي -وسلف تخريجه قريباً- عن الكلبي قال: كانت بنو عامر لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً في أيام حجِّهم، يعظِّمون بذلك حجَّهم، فقال المسلمون: يا رسول الله نحن أحقُّ أن نفعل ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَكُلُوا﴾ يعني اللحم والدسم ﴿وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

(٣) لم نقف عليهما عن ابن عباس، وأخرج الثاني الطبري ١٠/ ١٥٥عن السدي.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٣٧٥)، وأورده البخاري تعليقاً في كتاب اللباس من صحيحه قبل الحديث (٥٧٨٣)

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ١٥٦.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٣.

(٧) زاد المسير ١٠/ ١٨٨.

المعاصي. قال ابن عطية[(١)]: يريد في الحلال القَصْد، واللفظةُ تقتضي النهيَ عن السَّرَف مطلقاً، فمَن تلبَّس بفِعْل حرام فتأوَّل تلبُّسَه به حَصَلَ من المسرفين وتوجَّه النهيُ عليه، ومَن تلبَّس بفعل مباح، فإنْ مشى فيه على القَصْد وأوساطِ الأمور فحسَنٌ، وإنْ أفرط حتى دخلَ الضررُ حَصَلَ أيضاً من المسرفين وتوجَّه النهيُ عليه، مثال ذلك: أن يُفرِط في شراء ثيابٍ أو نحوِها ويستنفدَ في ذلك جلَّ مالَه، أو يعطي مالَه أجمعَ ويكابِدَ بعياله الفقرَ بعد ذلك، أو نحوه، فالله عزَّ وجل لا يحبُّ شيئاً من هذا، وقد نهت الشريعةُ عنه. انتهى.

وحكى المفسِّرون هنا أن نصرانيًا طبيباً للرشيد أنكر أن يكون في القرآن أو في حديث الرسول ﷺ شيءٌ من الطبِّ، فأُجيبَ بقوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ وبقوله: «المعدةُ بيتُ الدَّاء، والحميةُ رأسُ كلِّ دواءٍ، وأَعْطِ كلَّ بدنٍ ما عوَّدْتَه» فقال النصراني: ما ترك كتابُكم ولا نبيُّكم لجالينوس طبًّا[(٢)].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ زينةُ الله: ما حسَّنتْه الشريعةُ وقرَّرته ممَّا يُتجمَّل به من الثياب وغيرِها، وأُضيفتْ إلى الله لأنه هو الذي أباحَها. و«الطيبات»: هي المُسْتَلَذَّاتُ من المأكول والمشروب بطريقِهِ وهو الحِلُّ.

وقيل: «الطيبات»: المحلَّلات.

ومعنى الاستفهامِ إنكارُ تحريم هذه الأشياء، وتوبيخُ مُحرِّميها، وقد كانوا يحرِّمون أشياءَ من لحوم الطيبات وألبانها، والاستفهامُ إذا تَضمَّن الإنكارَ لا جوابَ له، وتَوهُّمُ مكِّيٍّ هنا أنَّ له جواباً هنا وهو قوله: «قل هي» توهُّمٌ فاسدٌ[(٣)].

---

(١) في المحرر الوجيز ٢/٣٩٣، وعنه نقل المصنف قول ابن عباس.

(٢) ذكر القصة الزمخشري في الكشاف ٢/٧٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/١٨٨ وقال: هكذا نقلت هذه الحكاية، إلا أن الحديث المذكور فيها عن النبي ﷺ لا يَثْبُت. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٦٤ عن القصة: لم أجد لها إسناداً. وعن الحديث: لم أجده. وقال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٣٨٩: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، أو غيره. اهـ. وجالينوس فيلسوف يوناني له كتب في صناعة الطب وغيرها، وكان -كما ذكر المسعودي- بعد المسيح بنحو مئتي سنة، وبعد بقراط بنحو ست مئة سنة. أخبار العلماء للقفطي ص٨٦.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٢/٣٩٣.

ومعنى أخرج: أبرزَها وأظهرها. وقيل: فصَّل حلالها من حرامها.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ قرأ قتادة: «قل هي لمن آمَنَ»[١]، وقرأ نافع: «خالصةٌ» بالرفع، وقرأ باقي السبعة بالنصب[٢].

فأما النصبُ فعلى الحال، والتقدير: قل هي مستقرَّةٌ للذين آمنوا في حال خلوصها لهم يومَ القيامة، وهي حالٌ من الضمير المتسكنِّ في الجارِّ والمجرور الواقعِ خبراً لـ«هي»، وفي الحياة» متعلقٌ بـ«آمنوا»[٣].

وأما الرفعُ فجوَّزوا فيه أن يكون خبراً لـ«هي»، و«الذين آمنوا» متعلِّقٌ بـ«خالصةٌ»، و«في الحياة الدنيا» متعلِّقٌ بـ«آمَنوا» ويصير المعنى: قل هي خالصةٌ يومَ القيامة لمن آمَنَ في الدنيا، ولا يُعْنَى بـ«يوم القيامة» وقتُ الحساب. وخلوصُها كونُهم لا يعاقَبون عليها، وإلى هذا المعنى يشير تفسير ابن جبير[٤].

وجوَّزوا فيه أن يكون خبراً بعد خبرٍ، والخبرُ الأولُ هو «للذين آمنوا»، و«في الحياة الدنيا» متعلِّقٌ بما تعلَّق به «للذين» وهو الكونُ المطلَقُ، أي: قل هي كائنةٌ في الحياة الدنيا للمؤمنين وإنْ كان يَشْرَكُهم فيها في الحياة الدنيا الكفارُ، وخالصةٌ لهم يومَ القيامة[٥]، ويرادُ بـ«يوم القيامة» استمرارُ الكون في الجنة، وهذا المعنى من أنها لهم ولغيرهم في الدنيا خالصةٌ لهم يومَ القيامة هو قولُ ابنِ عباس والضحاك وقتادةَ والحسنِ وابنِ جُريجٍ وابنِ زيد[٦]، وعلى هذا المعنى فسَّر الزمخشري[٧].

فإن قلتَ: إذا كان معنى الآيةِ أنها لهم في الدنيا على الشركة بينهم وبين الكفار، فكيف جاء «قل هي للذين آمنوا»؟

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٣ عن قتادة والكسائي.
(٢) السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١٠٩.
(٣) ويجوز أيضاً تعلُّقه بالاستقرار المتعلق به «للذين». ينظر الدر المصون ٥/ ٣٠٢.
(٤) فإنه قال: ينتفعون بها في الدنيا، ولا يتبعهم إثمها. تفسير الطبري ١٠/ ١٦١-١٦٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٣.
(٥) ويجوز تعلُّق «في الحياة» بـ«آمنوا» على هذا الوجه أيضاً. ينظر الدر المصون ٥/ ٣٠٢.
(٦) تفسير الطبري ١٠/ ١٥٩-١٦١، والمحرر ٢/ ٣٩٣.
(٧) في الكشاف ٢/ ٧٦، وهذا المعنى يصلح أيضاً على الوجه الأول من وجوه القراءة بالرفع. ينظر الدر المصون ٢/ ٣٠١-٣٠٢.

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ في الكلام حذفاً، تقديره: قل هي للمؤمنين والكافرين في الدنيا خالصة للمؤمنين في القيامة لا يشارَكون فيها؛ قاله الكَرْماني.

الثاني: أنَّ ما تعلَّق به «للذين آمنوا» ليس كوناً مطلقاً بل كوناً مقيَّداً يدلُّ على حذفه مقابِلُه وهو «خالصة»، تقديره: قل هي غيرُ خالصةٍ للَّذين آمنوا؛ قاله الزمخشري، قال: قل هي للَّذين آمنوا في الحياة الدنيا غير خالصةٍ لهم لأن المشركين شركاؤهم فيها، خالصة يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحدٌ[1].

ثم قال الزمخشريُّ: فإن قلتَ: هلَّا قيل: للذين آمنوا ولغيرهم؟ قلتُ: النيةُ[2] على أنها خُلقت للَّذين آمنوا على طريقة الأصالة، وأنَّ الكفرة تبعٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ [البقرة: ١٢٦] انتهى.

وجوابُ الزمخشريِّ هو للتبريزيِّ رحمه الله؛ قال التبريزيُّ: معنى الآية أنها خالصةٌ للمؤمنين في الآخرة لا يشركُهم الكفارُ فيها، هذا وإن كان مفهومُه الشركةَ بين الذين آمنوا والذين أشركوا، وهو كذلك لأنَّ الدنيا عَرَضٌ حاضرٌ يأكل منها البرُّ والفاجر، إلا أنه أضاف إلى المؤمنين ولم يذكر الشركة بينهم وبين الذين أشركوا في الدنيا تنبيهاً على أنه إنما خلقها للَّذين آمنوا بطريق الأصالة والكفارُ تبعٌ لهم فيها في الدنيا، ولذلك خاطبَ الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. انتهى.

وقال أبو عليٍّ في «الحجة»: ويصحُّ أن يعلَّق قولُه: «في الحياة الدنيا» بقوله: «حرَّم»، ولا يصحُّ أن يتعلَّق [بـ«زينة» لأنها مصدر قد وُصف، ويصح أن يتعلَّق] بقوله: «أخرج لعباده»، ويجوزُ ذلك وإنْ فُصِلَ بين الصلة والموصول بقوله: «هي للَّذين آمنوا» لأن ذلك كلامٌ يشدُّ القصة وليس بأجنبيٍّ منها جدًّا، كما جاء ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧] فقوله: «وترْهَقُهم ذلة» معطوفٌ على «كسبوا» داخلٌ في الصلة، والتعلُّق بـ«أخرج» هو قولُ

---

(١) الكشاف ٢/٧٦.

(٢) كذا في النسخ، والذي في الكشاف: لينبه.

الأخفش، ويصح أن يتعلَّق بقوله: «والطيبات»، ويصح أن يتعلق بقولهِ: «مِن الرزق»[١]. انتهى.

وتقاديرُ أبي عليٍّ والأخفش فيها تفكيكٌ للكلام وسلوكٌ به غيرَ ماتقتضيه الفصاحةُ، وهي تقاديرُ أعجميةٌ بعيدةٌ عن البلاغة لا تُناسبُ في كتاب الله، بل لو قدِّرَتْ في شعر الشَّنْفَرَى ما ناسَبت، والنحاةُ الصرفُ غيرُ الأدباء بمعزلٍ عن إدراك الفصاحة.

وأما تشبيهُه ذلك بقوله: «والذين كسبوا» فليس ما قاله بمتعيِّنٍ فيه، بل ولا ظاهر، بل قولُه: «جزاءُ سيئةٍ بمثلها» هو خبرٌ عن «الذين»[٢]، أي: جزاءُ سيئةٍ منهم بمثلها، وحُذف «منهم» لدلالة المعنى عليه، كما حُذف من قولهم: السَّمْنُ مَنَوانِ بدرهم، أي: منوان منه، وقولُه: «وترهقهم ذلة» معطوفٌ على «جزاء سيئة بمثلها»، وسيأتي توضيحُ هذا بأكثر في موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: مِثْلَ تفصيلنا وتقسيمنا السابقِ نقسِّمُ في المستقبل لقوم لهم علمٌ وإدراكٌ؛ لأنه لا ينتفع بذلك إلَّا مَن عَلِم؛ لقوله[٣]: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قال الكلبي: لمَّا لبِسَ المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيَّرهم المشركون بذلك، وقالوا: استَحَلُّوا الحرام، فنزلت[٤].

وتقدَّمَ تفسير الفواحش ما ظهر منها وما بطن في أواخر «الأنعام»، وزِيدَ هنا أقوال:

أحدها: «ما ظهر منها»: طوافُ الرجل بالنهار عرياناً، و«ما بطن»: طوافُها بالليل عاريةً؛ قاله التبريزي.

---

(١) الحجة ٤/ ١٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٤، وما سلف بين حاصرتين منهما، وكلام أبي علي منقول بواسطة ابن عطية.

(٢) قوله: الذين، تحرف في (أ) و(د١) و(ع) إلى: النهي.

(٣) في (ب) و(يه): كقوله.

(٤) تفسير القرطبي ٩/ ٢١٠.

وقال مجاهد: «ما ظهر»: طوافُ الجاهلية عراةً، و«ما بطن»: الزنى[١].

وقيل: «ما ظهر»: الظلم، و«ما بطن»: السرقة.

وقال ابن عباس ومجاهد في روايةٍ: «ما ظهر»: ما كانت تفعله الجاهلية من نكاح الأبناء نساءَ الآباء، والجمعِ بين الأختين، وأن تُنْكَحَ المرأةُ على عمتها وخالتها، و«ما بطن»: الزنى[٢].

و«الإثم» عامٌّ يشملُ الأقوال والأفعال التي يترتَّبُ عليها الإثمُ، هذا قولُ الجمهور.

وقيل: هو صغارُ الذنوب.

وقيل: الخمر. وهذا قولٌ لا يصحُّ هنا؛ لأن السورة مكية ولم تحرَّم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحدٍ، وجماعةٌ من الصحابة اصطحبوها يومَ أحدٍ وماتوا شهداءَ وهي في أجوافهم[٣].

وأمَّا تسميةُ الخمر إثماً فقيل: هو من قول الشاعر:

شـربـتُ الإثـمَ حـتـى زَلَّ عـقـلـي[٤]

وهو بيتٌ مصنوعٌ مختلَقٌ، وإن صح فهو على حذفِ مضافٍ، أي: موجبَ الإثم.

ولا يدلُّ قولُ ابنِ عباسٍ والحسن: الإثم الخمر[٥]، على أنه اسمٌ من أسمائها؛ إذ يكون ذلك من إطلاق المسبَّب على السبب، وأنكر أبو العباس أن يكون الإثم من أسماء الخمر[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ١٦٣.

(٢) زاد المسير ٣/ ١٩٠ عن ابن عباس، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٩/ ٦٦١.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨١٥) و(٤٦١٨) من حديث جابر ﷺ دون قوله: وهي في أجوافهم. وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٥، والكلام منه.

(٤) وعجزه: كذاك الإثم تذهب بالعقول، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ [البقرة: ٢١٩].

(٥) تفسير البغوي ٢/ ١٥٨ عن الحسن، وزاد المسير ٣/ ١٩١ عن الحسن وعطاء، ولم نقف عليه عن ابن عباس ﷺ.

(٦) زاد المسير ٣/ ١٩١، وأبو العباس هو المبرد.

وقال الفضل: الإثم: الخمر، وأنشد:

نهانا رسولُ الله أنْ نَقْرَبَ الخَنَا ... وأن نشربَ الإثْمَ الذي يُوْجِبُ الوِزرا[١]

وأنشد الأصمعيُّ أيضاً:

ورحتُ حزيناً ذاهلَ العقل بعدهُمْ ... كأنّي شربتُ الإثمَ أو مسَّني خَبَلْ[٢]

قال: وقد تُسمَّى الخمر إثماً، وأنشد:

شربتُ الإثم حتى زلَّ عقلي

وقال ابن عباس والفرَّاء: البغي: الاستطالة[٣].

وقال الحسن: السُّكر من كلِّ شرابٍ.

وقال ثعلب: تكلُّمُ الرجل في الرجل بغير الحقِّ، إلا أن ينتصر منه بحقٍّ.

وقيل: الظلم والكبر؛ قاله الزمخشري، وقال: وأفرده بالذِّكر كما قال تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠][٤].

وقال ابن عطية: البغي: التعدِّي وتجاوُزُ الحدِّ مبتدئاً كان أو منتصراً، وقوله: «بغير الحق» زيادةُ بيانٍ، وليس يُتصوَّرُ بغيٌ بحقٍّ؛ لأن ما كان بحقٍّ لا يسمَّى بغياً[٥].

وتقدَّم تفسير «ما لم ينزل به سلطاناً» في «الأنعام»[٦].

وقال الزمخشريُّ: فيه تهكُّمٌ؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأنْ يُشْرَكَ به غيرُه[٧]. «ما لا تعلمون» من تحريم البحائر وغيرِها، وقال ابن عباس: أراد بذلك أنَّ الملائكة بناتُ الله[٨].

---

(١) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٨/ ٤٩.
(٢) لم نقف عليه.
(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٨، ولم نقف عليه عن ابن عباس.
(٤) الكشاف ٢/ ٧٧.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٥.
(٦) عند تفسير الآية (٨١)، وينظر كذلك ما سلف عند تفسير الآية (١٥١) من آل عمران.
(٧) الكشاف ٢/ ٧٧.
(٨) لم أقف عليه.

وقيل: قولُهم: إنه حُرِّم عليهم مآكلُ وملابسُ ومشاربُ في الإحرام مِن قِبَلِ أنفسهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ هذا وعيدٌ لأهل مكة بالعذاب النازل في أجَلٍ معلوم عند الله كما نزل بالأمم، أي: أجَلٍ مؤقَّتٍ لمجيء العذاب إذا[1] خالفوا أمر ربِّهم، فأنتم أيتها الأمةُ كذلك.

وقيل: الأجَلُ هنا: أجَلُ الدنيا، التقدير: للأمم كلِّها أجلٌ، أي: يَقْدَمون فيه على ما قدَّموا من عملٍ.

وقيل: الأجلُ: مدةُ العمر، والتقدير: ولكلِّ واحدٍ من الأمة عمرٌ ينتهي إليه بقاؤه في الدنيا فإذا مات عَلِمَ ما كان عليه من حقٍّ أو باطل.

وقال ابن عطية: أي: فرقةٍ وجماعةٍ، وهي لفظةٌ تُستعمل في الكثير من الناس[2].

وقال غيره: والأمة: الجماعة قَلُّوا أو كَثُروا، وقد يُطْلَقُ على الواحد كقوله في قسِّ بن ساعدة: «يبعث يومَ القيامة أمةً وحده»[3].

وأُفرِدَ الأجَلُ لأنه اسمُ جنسٍ، أو لتقارُبِ أعمال أهل كلِّ عصرٍ، أو لكون التقدير: لكلِّ واحدٍ من أمة.

وقرأ الحسن وابن سيرين: «فإذا جاء آجالهم» بالجمع[4].

وقال: «ساعة» لأنها أقلُّ الأوقات في استعمال الناس، يقول المستعجِلُ لصاحبه: في ساعة، يريد: في أقصر وقت وأقربِه؛ قاله الزمخشري[5].

---

(١) في (أ) و(ع): إذ.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٥.
(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٨) من حديث ابن عباس ﷺ، وفي إسناده المسعودي، قال الذهبي في السير ١/ ١٢٩: المسعودي ليس بحجة.
(٤) المحتسب ١/ ٢٤٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٥.
(٥) الكشاف ٢/ ٧٧.

وقال ابن عطية: لفظٌ عُنيَ به الجزءُ القليلُ من الزمان، والمراد جميع أجزائه[١]. انتهى.

والمضارع المنفيُّ بـ«لا» إذا وقع في الظاهر جواباً لـ«إذا» يجوز أن يُتلقَّى بفاء الجزاء ويجوز أن لا يُتلقَّى بها، وينبغي أن يُعتقد أنَّ بين الفاء والفعل مبتدأً محذوفاً، وتكون الجملةُ إذ ذاك اسميةً، والجملةُ الاسميةُ إذا وقعت جواباً لـ«إذا» فلا بد فيها من الفاء أو «إذا» الفجائية.

قال بعضهم: ودخلت الفاء على «إذا» حيث وقع إلا في «يونس»[٢] لأنها عَطَفتْ جملةً على جملةٍ بينهما اتِّصالٌ وتعقيب، فكان الموضعُ موضعَ الفاء، وما في «يونس» يأتي في موضعه إن شاء الله. انتهى

وقال الحوفي: «ولا يستقدمون» معطوفٌ على «لا يستأخرون». انتهى.

وهذا لا يمكن لأن «إذا» شرطيةٌ فالذي يترتَّب عليها إنما هو مستقبَلٌ، ولا يترتَّب على مجيء الأجل في المستقبل إلا مستقبلٌ؛ وذلك يُتصوَّر في انتفاء الاستئخار لا في انتفاء الاستقدام؛ لأن الاستقدامَ سابقٌ على مجيء الأجل في الاستقبال، فيصير نظيرَ قولك: إذا قمتَ في المستقبل لم يتقدَّم قيامك في الماضي، ومعلومٌ أنه إذا قام في المستقبل لم يتقدم قيامُه هذا في الماضي[٣]، وهذا شبيهٌ بقول زهير:

بدا لي أنِّي لستُ مُدرِكَ ما مضى ... ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائيا[٤]

ومعلومٌ أنَّ الشيء إذا كان جائياً إليه لا يسبقه.

والذي تُخرَّجُ عليه الآيةُ أنَّ قوله: «ولا يستقدمون» منقطعٌ من الجواب على

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٦.
(٢) الآية (٣٤)، وهي: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.
(٣) يعني أنه من باب الإخبار بالضروريات التي لا يجهل أحد معناها. الدر المصون ٥/ ٣٠٨.
(٤) ديوان زهير بشرح الأعلم ص١٦٩، والكتاب ١/ ١٦٥، والحلل للبطليوسي ص١١٠، وهو في الديوان بشرح ثعلب ص٢٨٧ برواية: ولا سابقي شيءٌ، وأشار المحقق في الحاشية إلى رواية: ولاسابقٍ شيئاً. قال البطليوسي: يجوز في «سابق» النصب بالعطف على «مدرك»، والرفع على إضمار مبتدأ، والخفض على توهُّم الباء في «مدرك».

سبيل استئنافِ إخبارٍ، أي: وهم لا يستقدمون الأجل، أي: لا يسبقونه، وصار معنى الآية: إنهم لا يسبقون الأجَلَ ولا يتأخَّرون[1] عنه.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦﴾ هذا الخطابُ لبني آدم؛ قيل: هو في الأزل، وقيل: هو مراعىً به وقتُ الإنزال، وجاء بصورة الاستقبال لتَقْوَى الإشارةُ بصحة النبوة إلى محمدٍ ﷺ.

و«ما» في «إمَّا» تأكيدٌ، قال ابن عطية: وإذا لم يكن «ما» لم يَجُزْ دخولُ النون الثقيلة[2]. انتهى.

وبعضُ النحويين يُجيز ذلك.

وجوابُ الشرط «فمن اتَّقى»، فيحتمل أن تكون «مَن» شرطيةً وجوابُه «فلا خوفٌ» وتكونُ هذه الجملةُ الشرطيةُ مستقلةً بجواب الشرط الأول من جهة اللفظ، ويحتمل أن تكون «مَن» موصولةً، فتكون هذه الجملةُ والتي بعدها من قوله: «والذين كذَّبوا» مجموعُها هو جوابُ الشرط، وكأنه قُصِدَ بالكلام التقسيمُ، وجُعِلَ القِسْمان جواباً للشرط، أي: إمَّا يأتينكم فالمتقون لا خوفٌ عليهم والمكذِّبون أصحابُ النار، فثمرةُ إتيان الرسل وفائدتُه هذا.

وتضمَّن قوله: «فمن اتَّقى وأصلح» سَبْقَ الإيمان إذ التقوى والإصلاح هما ناشئان عنه، وجاء في قسيمه[3]: «والذين كذَّبوا» والتكذيبُ هو بدءُ الشقاوة، إذ لا ينشأ عنه إلا الانهماكُ والإفساد، وقابَل الإصلاح بالاستكبار لأنَّ إصلاح العمل من نتيجة التقوى، والاستكبارَ من نتيجة التكذيب، وهو التعاظُمُ، فلم يكونوا ليتَّبعوا الرسل فيما جاؤوا به، ولا يقتدوا بما أمروا به؛ لأنَّ مَن كذَّب بالشيء نأى بنفسه عن اتِّباعه.

وقال ابن عطية: هذه حالتان تعمُّ جميعَ مَن يَصدُّ عن رسالة الرسول، إمَّا أن

---

(١) في (أ) و(ع): يستأخرون.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٦.

(٣) في (ب) و(د١) والمطبوع: قسمه، وهو تحريف.

يكذِّب بحسب اعتقاده أنه كذب، وإمَّا أن يستكبر فيكذِّبَ وإنْ كان غيرَ مصمِّم في اعتقاده على التكذيب، وهذا نحوُ الكفر عناداً(١). انتهى.

وتضمنت الجملتان حذفَ رابطٍ، وتقديره: فمن اتَّقى وأصلح منكم، والذين كذَّبوا منكم.

وتقدم تفسير «فلا خوفٌ» و«أولئك أصحابُ النار» الجملتان(٢).

وقرأ أبيٌّ والأعرجُ: «إما تأتينكم» بالتاء على تأنيث الجماعة(٣)، و«يقصُّون» محمولٌ على المعنى إذ ذاك، إذ لو حُمل على اللَّفظ لكان: تَقُصُّ.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ لمَّا ذكر المكذِّبين ذكر أسوأ حالاً منهم، وهو مَن يفتري الكذبَ على الله، وذكر أيضاً مَن كذَّب بآياته.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ قال ابن عباس وابن جبير ومجاهد: ما كُتب لهم من السعادة والشقاوة. ولا يناسبُ هذا التفسيرُ الجملةَ التي بعد هذا.

وقال الحسن: ما كُتب لهم من العذاب.

وقال الربيع ومحمد بن كعب وابن زيد: ما سبق لهم في أم الكتاب.

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد أيضاً وقتادة: ما كَتَبَ الحَفَظَةُ في صحائف الناس من الخير والشر، فينال هؤلاء(٤) نصيبهم من ذلك، وهو الكفرُ والمعاصي.

وقال الحكم وأبو صالح: ما كُتب لهم من الأرزاق والأعمار والخير والشر في الدنيا(٥).

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٦.

(٢) عند تفسير الآيتين (٣٨) و(٣٩) من سورة البقرة.

(٣) المحتسب ١/ ٢٤٧.

(٤) قوله: فينال هؤلاء، تحرف في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: فيقال هذا، والمثبت موافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٧، والكلام منه.

(٥) لم أقف عليه عن الحكم وأبي صالح، وأخرج الطبري ١٠/ ١٧٥ نحوه عن محمد بن كعب وابن زيد، ولفظه: «أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب»: من الأعمال والأرزاق والأعمار. وأخرج الطبري أيضاً ١٠/ ١٧٣ عن ابن عباس: من الخير والشر.

وقال الضحاك: ما كُتب لهم من الثواب والعقاب[١].

وقال ابن عباس أيضاً والضحاك أيضاً ومجاهد: ما كُتب لهم من الكفر والمعاصي[٢].

وقال الحسن أيضاً: ما كُتب لهم من الضَّلالة والهدى[٣].

وقال ابن عباس أيضاً: ما كُتب لهم من الأعمال[٤].

وقال ابن عباس ومجاهدٌ والضحاك: «من الكتاب» يراد به: من القرآن، وحظُّهم فيه سوادُ وجوههم يومَ القيامة[٥].

وقيل: ما أُوْجِبَ من حِفْظِ عهودهم إذا أَعْطَوا الجزية.

وقال الحسن والسدِّي وأبو صالح: من المقرَّر في اللوح المحفوظ، وقد تقرَّر في الشرع أن حظَّهم فيه العذابُ والسخط[٦].

والذي يَظهر أن الذي كُتب لهم في الدنيا من رزق وأجل وغيرهما ينالُهم فيها، ولذلك جاءت التغيية بعد هذا بـ«حتى»، والى هذا المعنى نحا الزمخشريُّ؛ قال: أي: ما كُتب لهم من الأرزاق والأعمال[٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾ تقدَّم الكلام على «حتى إذا» في أوائل «الأنعام»[٨]، ووقع في «التحرير»: «حتى» هنا ليس بغاية بل هي ابتداءٌ وجرٌّ[٩].

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج عنه الطبري ١٠/ ١٧٤: ما وُعِدوا من خيرٍ أو شرّ.
(٢) لم أقف عليه.
(٣) زاد المسير٣/ ١٩٣.
(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ١٧٠.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٧، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ١٧٤ عن ابن عباس.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٧.
(٧) الكشاف ٢/ ٧٧.
(٨) عند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾الآية (٢٥).
(٩) في (يه): وخبر، وكذا وقع في الدر المصون ٥/ ٣١٠ نقلاً عن البحر، وعليه شرح السمين، =

وهذا وهمٌ، بل معناها هنا الغايةُ، والخلافُ فيها إذا كانت حرفَ ابتداءٍ: أهي حرفُ جرٍّ والجملةُ بعدها في موضع جرٍّ وتتعلَّق بما قبلها كما تتعلق حروفُ الجرِّ، أم ليست حرفَ جرٍّ ولا تتعلَّق بما قبلها تعلُّق حروف الجرِّ من حيث المعنى لا من حيث الإعراب؟ قولان؛ الأولُ لابن دُرُسْتويه والزجَّاج والثاني للجمهور، وإذا كانت حرفَ ابتداء فهي للغاية، ألا تراها في قول الشاعر:

سَرَيْتُ بِهم حتى تَكِلَّ مَطِيُّهم وحتى الجيادُ ما يُقَدْنَ بأَرْسانِ[(١)]

وقول الآخر:

فما زالت القتلى تمجُّ دماءَها بدِجْلةَ حتى ماءُ دِجْلةَ أَشْكَلُ[(٢)]

تفيد الغاية؛ لأن المعنى أنه مدَّ بهم في السير إلى كلال المطيِّ والجياد، ومجَّت الدماء إلى تغيُّر ماءِ دجلة.

قال الزمخشريُّ: وهي «حتى» التي يُبْتَدَأ بعدها الكلام[(٣)]. انتهى.

وقال الحوفي: و«حتى» غايةٌ متعلِّقةٌ بـ«ينالهم» فيَحْتَمِل قولُه أن يريد التعلُّقَ الصناعيَّ وأن يريد التعلُّقَ المعنويَّ.

والمعنى: أنهم ينالهم حظُّهم ممَّا كُتب لهم إلى أن تأتيهم رسلُ الموت يقبضون أرواحهم، فيسألونهم سؤالَ توبيخٍ وتقريرٍ: أين معبوداتُكم من دون الله؟ فيُجيبون بأنهم حادُوا عنَّا وأخذوا طريقاً غيرَ طريقنا، أو «ضلُّوا عنَّا»: هلكوا واضْمَحلُّوا.

والرسل: مَلَكُ الموت وأعوانُه، و«يتوفونهم» في موضع الحال، وكُتبت «أينما» متَّصلةً، وكان قياسُ كتابتها الانفصال[(٤)]؛ لأن «ما» موصولةٌ كهي في ﴿إِنَّ مَا

= والمثبت من باقي النسخ، وهو الأنسب بالسياق. ووقع بعدها في المطبوع: والجملة بعدها في موضع جر. وليست في النسخ. ولم ترد أيضاً في الدر المصون.

(١) البيت لامرئ القيس. وهو في ديوانه ص٩٣ برواية: مَطَوْتُ بهم...

(٢) البيت لجرير. وهو في ديوانه ١/ ١٤٣، والكشاف ١/ ٥٠١، ورواية الديوان: وما زالت القتلى تمور دماؤها...، قال الشارح: تمور: تجري، والأشكل: الذي تخالطه حمرة. وتمج معناه: تلقي.

(٣) الكشاف ٢/ ٧٧.

(٤) في (أ) و(د١) و(ع): وكان قياسه كتابتها بالانفصال.

تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤] إذ التقدير: أين الآلهةُ التي كنتم تعبدون.

وقيل: معنى «تَدْعون»، أي: تستغيثونهم لقضاء حوائجكم، وما ذكرناه من أنَّ هذه المحاورةَ بين الملائكة وهؤلاء تكون وقتَ الموت. وأنَّ التوفِّيَ هو بقبض الأرواح هو قولُ أكثر المفسِّرين، وقالت فرقةٌ منهم الحسن: الرسلُ ملائكةُ العذاب يومَ القيامة، والمحاوَرَةُ في ذلك اليوم، ومعنى «يتوفَّونهم»: يستوفونهم عدداً في السَّوق إلى جهنم[١]، ونيلُ النصيب على هذا إنما هو في الآخرة؛ إذ لو كان في الدنيا لَمَا تحقَّقت الغايةُ؛ لانقطاع النَّيل قبلها بمدةٍ كثيرة.

ويحتمل «وشهدوا» أن يكون معطوفاً[٢] على «قالوا» فيكون من جملة جواب السؤال، ويحتمل أن يكون استئنافَ إخبارٍ من الله تعالى بإقرارهم على أنفسهم بالكفر، ولا تعارُضَ بين هذا وبين قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] لاحتمال ذلك من طوائفَ مختلفةٍ أو في أوقاتٍ مختلفةٍ.

وجوابُ سؤالهم ليس مطابقاً من جهة اللفظ؛ لأنه سؤالٌ عن مكانٍ، وأجيبَ بفعلٍ وهو مطابقٌ من جهة المعنى؛ إذ تقديرُ السؤال: ما فَعَلَ معبودوكم من دون الله معكم؟ قالوا: ضلُّوا عنا.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: يقولُ الله لهم، أي: لكفَّار العرب، وهم المفترونَ الكذبَ والمكذِّبون بالآيات، وذلك يومَ القيامة، وعبَّر بالماضي لتحقُّق وقوعه، وقولُه ذلك على لسان الملائكة.

ويتعلَّق «في أمم» في الظاهر بـ«ادخلوا»، والمعنى: في جملةِ أممٍ، ويحتمل أن يتعلَّق بمحذوفٍ فيكونُ في موضع الحال.

و«قد خَلَتْ من قبلكم»، أي: تقدَّمَتْكم في الحياة الدنيا، أو تقدَّمَتْكم، أي: تقدَّم دخولُها في النار، وقدِّم الجنُّ لأنهم الأصلُ في الإغواء والإضلال، ودلَّ ذلك على أن عصاة الجنِّ يدخلون النارَ.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٨ عن فرقة ولم ينسبه، وذكره عن الحسن بنحوه الرازي ١٤/ ٧١-٧٢، والطبرسي في مجمع البيان ٨/ ٥٢.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع): مقطوعاً.

و«في النار» متعلِّقٌ بـ«خلت» على أنَّ المعنى: تقدَّم دخولُها، أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ«أمم»، أي: في أمم سابقةٍ في الزمان كائنةٍ من الجنِّ والإنس كائنةٍ في النار، أو بـ«ادخلوا» على تقديرِ أن تكون «في» بمعنى «مع»، وقد قاله بعضُ المفسرين، فاختَلفَ مدلولُ «في» إذ الأولى تفيدُ الصحبةَ والثانيةَ تفيدُ الظرفيةَ، وإذا اختلف مدلولُ الحرف جاز أن يتعلَّق اللَّفظان بفعلٍ واحد، ويكون إذ ذاك «ادخلوا» قد تعدَّى إلى الظرف المختصِّ بـ«في» وهو الأصل، وإن كان قد تعدَّى في موضعٍ آخَرَ بنفسه لا بواسطة «في» كقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ﴾ [التحريم: ١٠] ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢].

ويجوز أن تكون «في» باقيةً على مدلولها من الظرفية و«في النار» كذلك، ويتعلقان بلفظ «ادخلوا» وذلك على أن يكون «في النار» بدلَ اشتمالٍ، كقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ﴾ [البروج: ٤-٥] ويجوز أن يتعدَّى الفعلُ إلى حرفي جرٍّ بمعنىً واحدٍ على طريقة البدل.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ «كلما» للتكرار، ولا يستوي ذلك في الأمة الأولى، فاللاحقةُ تلعنُ السابقةَ، أو يلعنُ بعضُ الأمة الداخلة بعضَها، ومعنى «أختها»، أي: في الدِّين، والمعنى: كلما دخلت أمةٌ من اليهود والنصارى وعَبَدةِ الأوثان وغيرهم من الكفار. وقال الزمخشري: «أختها»: التي ضلَّت بالاقتداء بها[1]. انتهى.

والمعنى: أن أهل النار يلعنُ بعضُهم بعضاً، ويعادي بعضُهم بعضاً، ويَكْفُرُ بعضُهم ببعضٍ، كما جاء في آياتٍ أُخَرَ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ «حتى» غايةٌ لمَا قبلها، والمعنى أنهم يدخلون فوجاً ففوجاً لاعِناً بعضُهم بعضاً إلى انتهاء تدارُكهم وتلاحُقهم في النار واجتماعِهم فيها.

وأصلُ «ادَّاركوا»: تَدَارَكوا، أُدغمت التاء في الدال فاجتُلبت همزةُ الوصل.

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٨.

قال ابن عطية: وقرأ أبو عمرو: «إدَّاركوا» بقطعِ ألفِ الوَصْل، قال أبو الفتح: هذا مُشْكِلٌ، ولا يَسُوغُ أن يَقْطَعها ارتجالاً، فذلك إنما يَجيءُ شاذّاً في ضرورة الشعر في الاسم أيضاً، لكنه وَقَفَ مِثْلَ وقفةِ المستنكر[1] ثم ابتدأ فقطع. وقرأ مجاهدٌ بقَطْع الألف وسكونِ الدال وفتح الراء بمعنى: أَدْرَكَ بعضُهم بعضاً، وقرأ حُميد: «أُدْرِكوا» بضم الهمزة وكسرِ الراء، أي: أُدْخِلوا في أدْراكها، وقال مكيٌّ في قراءة مجاهد: إنها «ادَّرَكوا» بشدِّ الدال المفتوحة وفتح الراء، قال: وأصلُها: اذْتَرَكوا، وزنُها افتعلوا. وقرأ ابن مسعود والأعمش: «تَدَارَكوا»، ورُويت عن أبي عمرو[2]. انتهى.

وقال أبو البقاء: وقُرِئ «إذا ادَّاركوا» بألفٍ واحدةٍ ساكنةٍ والدالُ بعدها مشدَّدةٌ، وهو جمعٌ بين ساكنين، وجاز في المنفصل كما جاز في المتَّصل، وقد قال بعضهم: اثنا عْشَر، بإثباتِ الألف وسكونِ العين[3]. انتهى.

ويعني بقوله: كما جاز في المتَّصل، نحو«الضالِّين» و«جانٌّ».

و«أُخراهم»: الأمةُ الأخيرة في الزمان التي وَجَدتْ ضلالاتٍ مقرَّرةً مستعمَلةً لأُوْلاهم التي شَرَعتْ ذلك وافترتْ وسلكتْ سبيلَ الضَّلال ابتداءً، أو: أُخْراهم في الدُّخول إلى النار وهم الأتباعُ لأُوْلاهم دخولاً وهم القادةُ. أقوالٌ آخِرُها لمقاتلٍ[4].

وقال ابن عباس: آخِرُ أمةٍ لأوَّلِ أمةٍ[5].

و«أُخرى» هنا بمعنى آخِرة مؤنَّث «آخِر» مقابِل أول، لا مؤنَّث «آخَر» بمعنى «غير»، كقوله: ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] واللام في «لأولاهم» لامُ السبب، أي: لأجْلِ أولاهم؛ لأنَّ خطابهم مع الله لا معهم.

---

(١) كذا في النسخ، والصواب: المستذكر، كما في المحرر والمحتسب.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٩، وكلام ابن جني في المحتسب ١/ ٢٤٧-٢٤٨، والقراءة الأخيرة مذكورة فيه.
(٣) الإملاء ١/ ٢٧٣، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٣ عن أبي عمرو، وذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٧ عن مجاهد وحميد ويحيى وإبراهيم.
(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٥٩، وزاد المسير ٣/ ١٩٥.
(٥) المصدران السابقان.

«أضلُّونا» شرَعوا لنا الضلالَ، أو: جعلونا نَضِلُّ وحملونا عليه ضعفاً زائداً على عذابنا؛ إذ هم كافرون ومسبِّبو كُفْرِنا.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾ أي: لكلٍّ من الأخرى والأولى عذابٌ متضاعِفٌ زائدٌ إلى غير نهاية، وذلك أن العذاب مؤبَّدٌ، فكلُّ ألمٍ يَعْقُبُه آخَرُ.

وقرأ الجمهورُ بالتاء على الخطاب للسائلين، أي: لا تعلمون ما لكلٍّ فريقٍ من العذاب، أو: لا تعلمون المقاديرَ وصورَ العذاب، قيل: أو خطابٌ لأهل الدنيا، أي: ولكن يا أهل الدنيا لا تعلمون مقدارَ ذلك.

وقرأ أبو بكر والمفضَّلُ عن عاصم بالياء[(١)]، فيحتمل أن يكون إخباراً عن الأمة، ويكون الضميرُ في «لا يعلمون» عائداً على الأمة الأخيرة التي طلبت أن يُضَعَّفَ العذابُ على أُولاها، ويحتمل أن يكون خبراً عن الطائفتين، أي: لا يعلم كلُّ فريقٍ قَدْرَ ما أُعِدَّ له من العذاب، أو قَدْرَ ما أُعِدَّ للفريق الآخَر من العذاب.

وروي عن ابن مسعود أن الضعف هنا الأفاعي والحيات. وهذه الجملة ردٌّ على أولئك السائلين وعدمُ إسعافٍ لما طَلَبوا.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٣٩﴾ أي: قالت الطائفة المتبوعة للطائفة المتَّبِعة، واللام في «لأخراهم» لامُ التبليغ، نحو: قلت لك اصنع كذا؛ لأنَّ الخطاب هو مع أُخراهم، بخلاف اللام في «لأُولاهم» فإنها كما ذكرنا لامُ السبب؛ لأن الخطابَ هناك هو مع الله تعالى.

والمعنى: أنتم لا فضلَ لكم علينا، ولم تَزْدَجِروا حين جاءتكم الرسلُ والنُّذر، بل دُمتم في كفركم وتركتُم النظرَ فاسْتَوتْ حالُنا وحالُكم، قال الزمخشريُّ: أي: قد ثَبتَ أنْ لا فضلَ لكم علينا وأنَّا متساوون في استحقاق الضعف[(٢)].

وقال مجاهد: معنى «من فضل»: من التخفيف؛ لمَّا قال الله: «لكلٍّ ضعف»

---

(١) السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١١٠ عن أبي بكر، وزاد المسير ٣/ ١٩٥ عن أبي بكر والمفضل.
(٢) الكشاف ٢/ ٧٨.

قالت الأولى للأخرى: لم تبلغوا أملاً بأنَّ عذابكم أخفُّ من عذابنا، ولا فضِّلْتُم بالإسعاف[١]. انتهى.

والفاء في «فما» قال الزمخشريُّ: عَطَفوا هذا الكلام على قولِ الله تعالى للسِّفْلة: «لكلٍّ ضعفٌ»[٢].

والذي يظهر أن المعنى انتفاءُ كونِ فضلٍ عليهم من السِّفْلة في الدنيا بسبب اتِّباعهم إياهم وموافَقَتهم لهم في الكفر، أي: اتِّباعُكم إيانا وعدمُ اتِّباعكم سواءٌ؛ لأنكم كنتم في الدنيا أقلَّ عندنا من أن يكون لكم علينا فضلٌ باتِّباعكم، بل كفرتُم اختياراً، لا أنَّا حملناكم على ذلك إجباراً. وأنَّ قوله: «فما كان» جملةٌ معطوفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ بعد القول دلَّ عليها ما سَبق من الكلام، والتقدير: قالت أُولاهم لأُخراهم: ما دعاؤكم الله بأنَّا أضْلَلْناكم وسؤالُكم ما سألتُم فما كان لكم علينا من فضلٍ بضلالكم. وأنَّ قوله: «فذوقوا العذاب» من كلام الأولى خطاباً للأخرى على سبيل التَّشَفِّي منهم. وأن ذَوْقَ العذاب هو بما كسبْتُم من الآثام لا بسبب دعواكم أنَّا أضللناكم.

وقيل: «فذوقوا» من خطاب الله لجميعهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس: لا تفتَّح لأعمالهم ولا لدعائهم، ولا لِمَا يريدون به طاعةَ الله تعالى[٣]، أي: لا يصعد لهم عملٌ صالحٌ فتُفتَّحَ أبوابُ السماء له، وهذا منتزعٌ من قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ومن قوله: ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨].

وقال السدِّي وغيره: لا تفتَّح لأرواحهم[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠، وقوله: لما قال الله لكل ضعف. . .، هو من كلام ابن عطية شرحاً لقول مجاهد.

(٢) الكشاف ٢/ ٧٨.

(٣) تفسير الرازي ١٤/ ٧٦، وأخرجه الطبري ١٠/ ١٨٣ من رواية عطاء عن ابن عباس بلفظ: لا يصعد لهم قول ولا عمل.

(٤) تفسير الرازي ١٤/ ٧٦، وأخرجه بنحوه مطولاً الطبري ١٠/ ١٨٣، وأخرجه الطبري أيضاً عن ابن عباس من رواية الضحاك باللفظ المذكور أعلاه.

وذكروا في صعود الروحين وفتحِ السماء لروح المؤمن وردِّ روح الكافر أحاديثَ، وذلك عند موتهما[١].

وقيل: المعنى: لا تفتَّح لهم أبوابُ السماء في القيامة ليدخلوا منها إلى الجنة، أي: لا يؤذنُ لهم في الصعود إلى السماء.

وقيل: لا تُنزَّلُ عليهم البركةُ ولا يغاثون.

وقرأ أبو عمرو: «لا تُفْتَحُ» بتاء التأنيث والتخفيف، وقرأ الأخوان بالياء والتخفيف، وقرأ باقي السبعة بالتاء من أعلى والتشديد[٢].

وقرأ أبو حيوة وأبو البرهسم بالتاء من أعلى مفتوحةً والتشديد[٣].

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ هذا نفيٌ مُغَيَّى بمستحيلٍ، والولوجُ: التقحُّم في الشيء، وذكر «الجمل» لأنه أعظمُ الحيوان المزاوَلِ للإنسان جثةً، فلا يَلِجُ إلا في بابٍ واسعٍ، كما قال:

لقد عَظُمَ البعيرُ بغيرِ لُبٍّ[٤]

وقال:

جسمُ الجِمال وأحلامُ العصافيرِ[٥]

---

(١) ينظر حديث أبي هريرة وحديث البراء بن عازب ﷺ عند أحمد (٨٧٦٩) و(١٨٥٣٤).

(٢) السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١١٠.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠، وجاء في مطبوعه: وقرأ أبو حيوة وأبو إبراهيم: «يفَتَّح» بالياء وفتح الفاء وشد التاء.

(٤) وعجزه: فلم يستغن بالعِظَم البعيرُ، والبيت عزاه أبو تمام للعباس بن مرداس السلمي ﷺ، كما في الحماسة بشرح المرزوقي ٣/ ١١٥٥، والتبريزي ٣/ ٨٩-٩٠، ونُسب لمعاوية بن مالك الكلابي كما نقل التبريزي عن أبي رياش. قال البكري في سمط اللآلي ١/ ١٩٠: اختلف في عزو هذا الشعر... والصحيح أنه لمعوِّد الحكماء، وهو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب. وقد ورد البيت دون نسبة في جمهرة الأمثال ١/ ٤٢٩، والمستقصى ١/ ١٠٢، ومجمع الأمثال ١/ ٢٥٤.

(٥) وصدره: لا بأس بالقوم من طولٍ ومن عِظَمٍ، والبيت لحسان ﷺ، وهو في ديوانه ص٢٧٠، والكتاب ٢/ ٧٤، والحيوان ٥/ ٢٢٩، وجمهرة الأمثال ١/ ٤٢٩، ومجمع الأمثال =

وذكر «سمّ الخياط» لأنهُ يُضرب به المَثَلُ في ضيق المسلك؛ يقال: أضيقُ من خَرْتِ الإبرة، وقيل للدليل: خِرِّيت؛ لاهتدائه في المضايق تشبيهاً بأخْرات الإبرة، والمعنى: أنهم لا يدخلون الجنة أبداً.

وقرأ ابن عباس فيما روى عنه شهر بن حوشب، ومجاهدٌ وابنُ يَعْمَرَ وأبو مِجْلَزٍ والشعبيُّ ومالك بن الشِّخِّير وأبو رجاء وأبو رَزِينٍ وابنُ مُحَيْصِنٍ وأبَان عن عاصم: «الجُمَّل» بضمِّ الجيم وفتحِ الميم مشدَّدةً[1]، وفسِّر بالقَلْس الغليظ وهو حَبْلُ السفينة؛ تُجمَعُ حبالٌ وتُفْتَلُ وتصيَّر حبلاً واحداً.

وقيل: هو الحبلُ الغليظُ من القنَّب.

وقيل: الحبلُ الذي يُصْعَدُ به في النخل[2].

ورُوي عن ابن عباس -ولعله لا يصح-: إنَّ الله أحسنُ تشبيهاً من أن يشبِّه بالجَمَل[3]. يعني أنه لا يناسِبُ، والحبلُ يناسِبُ الخيطَ الذي يُسْلَكُ به في خَرْمِ الإبرة.

وعن الكسائيِّ: أنَّ الذي رَوَى «الجُمَّل» عن ابن عباسٍ كان أعجميّاً، فشدَّد الميمَ لعُجْمَته[4].

قال ابن عطية: وهذا ضعيفٌ؛ لكثرة أصحاب ابن عباس على القراءة المذكورة. انتهى، ولكثرة القرَّاء بها غيرَ ابن عباس.

وقرأ ابن عباس أيضاً في روايةِ مجاهدٍ، وابنُ جُبير وقتادةُ وسالمٌ الأفطسُ بضم الجيم وفتح الميم مخفَّفةً.

= ١/ ٢٥٤ برواية: جسم البغال...، وما ذكره المصنف هو رواية الزمخشري للبيت في الكشاف ٢/ ٧٨، والمستقصى ١/ ١٠٣.

(١) القراءات الشاذة ص٤٣، والمحتسب ١/ ٢٤٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠، وزاد المسير ٣/ ١٩٧، وأخرجها الطبري ١٠/ ١٩٢ من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٢) هو تفسير عكرمة كما أخرج الطبري ١٠/ ١٩٣.

(٣) أورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٧٨.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ١٩٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠، وما سيرد منه.

وقرأ ابن عباس في رواية عطاءٍ، والضحاكُ والجحدريُّ بضم الجيم والميمِ مخففَةً.

وقرأ عكرمة وابنُ جبير في روايةٍ بضم الجيم وسكون الميم.

وقرأ أبو المتوكل وأبو الجوزاء بفتح الجيم وسكون الميم[١].

ومعناه في هذه القراءات: القَلْس الغليظ، وهو حبلُ السفينة، وقراءةُ الجمهور «الجمل» بفتح الجيم والميم أوقعُ؛ لأن سَمَّ الإبرة يُضرب بها المثلُ في الضّيق، والجملُ وهو هذا الحيوانُ المعروف يُضربُ به المثلُ في عِظَم الجثة كما ذكرناه.

وسئل ابنُ مسعود عن الجمل فقال: زوجُ الناقة[٢]. وذلك منه استجهالٌ للسائل، ومنعٌ منه أن يُتكلَّفَ له معنىً آخر.

وقرأ عبد الله وقتادةُ وأبو رزين وابن مصرِّفٍ[٣] وطلحةُ بضم سين «سم».

وقرأ أبو عمران الجَوْني وأبو نَهِيكٍ، والأصمعيُّ عن نافعٍ بكسر السين[٤].

وقرأ عبدُ الله وأبو رَزينٍ وأبو مجلز: «المِخْيَط» بكسر الميم وسكون الخاء وفتح الياء[٥]، وقرأ طلحة بفتح الميم[٦].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠﴾ أي: مِثْلَ ذلك الجزاء نجزي أهلَ الجرائم، وقال الزمخشريُّ: ليُؤْذِنَ أنَّ الإجرام هو السببُ الموصِلُ إلى العقاب، وأنَّ كلَّ مَن أَجْرمَ عُوقِبَ، ثم كرَّره تعالى فقال: «وكذلك نجزي الظالمين» لأنَّ كلَّ مجرمٍ ظالمٌ لنفسه[٧]. انتهى وفيه دسيسةُ الاعتزال.

---

(١) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص٤٣، والمحتسب ١/٢٤٩، والمحرر الوجيز ٢/٤٠٠، وزاد المسير ٣/١٩٧-١٩٨.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٩٤٨- تفسير)، والطبري ١٠/١٨٨.

(٣) كذا في النسخ، والصواب: وابن محيصن، كما في زاد المسير ٣/١٩٨، وعنه نقل المصنف، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٣ عن أبي السَّمَّال.

(٤) زاد المسير ٣/١٩٨، وهي في القراءات الشاذة ص٤٣ عن أبي السمال أيضاً.

(٥) زاد المسير ٣/١٩٨، وهي في القراءات الشاذة ص٤٣عن ابن مسعود.

(٦) المحرر الوجيز ٢/٤٠٠.

(٧) الكشاف ٢/٧٩.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ هذه استعارةٌ لما يُحيط بهم من النار من كلِّ جانبٍ، كما قال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

والغواشي: جمعُ غاشية، قال ابن عباس والقُرظي وابنُ زيد: هي اللُّحُف[١].

وقال عكرمة: ما يغشاهم مِن فوقهم من الدخان[٢].

وقال الزجَّاج: غاشية من النار[٣].

وقال الضحاك: المهاد: الفُرُش، والغواشي: اللُّحف[٤].

والتنوينُ في «غواش» تنوينُ صرفٍ أو تنوينُ عِوَضٍ؛ قولان. وتنوينُ عوضٍ من الياء أو من الحركة؛ قولان. كلُّ ذلك مقرَّرٌ في علم النحو.

وقرئ: «غواشٌ» بالرفع كقراءة عبد الله: «وله الجوارُ المنشآتُ»[٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لمَّا أخبر بوَعِيدِ الكفار أخبر بوَعْدِ المؤمنين، وخبر «والذين» الجملةُ من «لا نكلِّفُ نفساً»، أي: منهم، أو الجملةُ من «أولئك» وما بعده، وتكون جملة «لا نكلِّف» اعتراضاً بين المبتدأ والخبر، وفائدتُه أنه لمَّا ذكر قولَه: «وعملوا الصالحات» نبَّه على أنَّ ذلك العملَ وُسْعُهم وغيرُ خارجٍ عن قدرتهم، وفيه تنبيهٌ للكفار على أن الجنة مع عظم محلِّها يُوْصَلُ إليها بالعمل السهل من غير مشقَّةٍ.

وقال القاضي أبو بكر بن الطيب: لم يكلِّف أحداً في نفقات الزوجات إلا ما وَجَدَ وتمكَّن منه، دون ما لا تنالُه يدُه، ولم يُرِدْ إثباتَ الاستطاعة قبل الفعل، ونظيرُه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧][٦]. انتهى، وليس السياقُ يقتضي ما ذَكَره.

---

(١) زاد المسير ٣/ ١٩٩، وأخرجها الطبري ١٠/ ١٩٦-١٩٧ عن القرظي والضحاك والسدي.

(٢) زاد المسير ٣/ ١٩٩.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٨، وزاد المسير ٣/ ١٩٩، وفيهما: غاشية فوق غاشية من النار.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ١٩٧.

(٥) القراءات الشاذة ص٤٣ و١٤٩.

(٦) تفسير القرطبي ٩/ ٢٢١.

وقال الزمخشري[١]: جملةٌ معترضةٌ بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب ما لا يَكْتَنِهُه وصفُ الواصِفِ من النعيم الخالد مع العظيم[٢] بما هو من الوسع وهوالإمكانُ الواسعُ غيرُ الضيِّق من الإيمان والعمل الصالح. انتهى، وفيه دسيسةُ الاعتزال.

وقرأ الأعمش: «لا تكلَّفُ نفسٌ»[٣].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: أَذْهَبنا في الجنة ما انْطَوَتْ عليه صدورُهم من الحقود.

وقيل: نَزْعُ الغلِّ في الجنة أن لا يَحسدَ بعضُهم بعضاً في تفاضُل منازلهم.

وقال الحسن: غلّ الجاهلية[٤].

وقال سهل بن عبد الله: الأهواء والبدع.

ورُوي عن عليٍّ كرم الله وجهه: فينا واللهِ أهلَ بدرٍ نزلت.

وعنه: إنِّي لأرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ من الذين قيل فيهم: «ونزعنا» الآية[٥].

والذي يظهر أنَّ النزع للغِلِّ كنايةٌ عن خلقهم في الآخرة سالمي القلوبِ طاهِرِيها، متوادِّينَ متعاطِفِينَ، كما قال: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

و«تجري» حالٌ، قاله الحوفي، قال: والعامل فيه «نزعنا».

وقال أبو البقاء: حالٌ والعاملُ فيها معنى الإضافة[٦].

وكِلَا القولَين لا يصحُّ؛ لأن «تجري» ليس من صفات الفاعل الذي هو ضمير «نزعنا»، ولا من صِفات المفعول الذي هو «ما في صدورهم»، ولأن معنى الإضافةِ

---

(١) في الكشاف ٢/ ٧٩.
(٢) في مطبوع الكشاف: مع التعظيم.
(٣) المصدر السابق.
(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٢٤.
(٥) أخرج الروايتين عبد الرزاق ١/ ٢٢٩، والطبري ١٠/ ١٩٨-١٩٩.
(٦) الإملاء: ١/ ٢٧٤.

لا يعمل إلا إذا كانت إضافةً يمكِنُ للمضاف أن يعمل إذا جرِّد من الإضافة رفعاً أو نصباً فيما بعده. والظاهرُ أنه خبرٌ مستأنفٌ عن صفة حالهم.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: وفَّقَنا لتحصيل هذا النعيم الذي صِرْنا إليه بالإيمان والعملِ الصالح؛ إذ هو نعمةٌ عظيمةٌ يجب عليهم بها حمدُه والثناءُ عليه تعالى. وقيل: الهدايةُ هنا هو الإرشاد إلى طرق الجنة ومنازِلهم فيها، وفي الحديث أن أحدهم أَهْدَى إلى منزله في الجنة من منزله في الدنيا[١].

وقيل: الإشارةُ بـ«هذا» إلى العمل الصالح الذي هذا جزاؤه.

وقيل: إلى الإيمان الذي تأهَّلوا به لهذا النعيم المقيم.

وقال الزمخشريُّ[٢]: أي: وفَّقنا لمُوْجِبِ[٣] هذا الفوزِ العظيم، وهو الإيمانُ والعملُ الصالح. انتهى. وفي لفظة واجب والعمل الصالح دسيسةُ الاعتزال.

وقال أبو عبد الله الرازي: معنى هدانا الله: أعطانا القدرةَ وضمَّ إليها الداعيةَ الجازِمةَ وصيَّر مجموعهما مُوْجِباً لحصول تلك الفضيلة، وقالت المعتزلة: التحميدُ إنَّما وقع على أنه تعالى خَلَقَ العقل ووضع الدلائلَ وأزال الموانع[٤]. انتهى.

وفي «صحيح مسلم»: «إذا دَخَلَ أهلُ الجنة الجنةَ نادى منادٍ: إنَّ لكم أنْ تَحْيَوا فلا تَموتوا أبداً، وإنَّ لكم أنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبداً، وإن لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسوا أبداً، فلذلك قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾»[٥].

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: وما كانت تُوجَدُ منَّا أنفسِنا وَحْدَها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) في الكشاف ٢/ ٧٩.

(٣) في (ب) و(يه): لواجب، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف.

(٤) تفسير الرازي ١٤/ ٨٠-٨١.

(٥) صحيح مسلم (٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ، وفيه بعد قوله: «فلا تبأسوا أبداً»: فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، ولم نقف على رواية المصنف.

الهدايةُ لولا أنَّ الله هدانا، وهذه الجملة توضِّحُ أن الله خالقُ الهداية فيهم وأنهم لو خُلُّوا وأنفسَهم لم تكن منهم هدايةٌ.

وقال الزمخشري: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هدايةُ الله تعالى وتوفيقُه[(١)].

وقال أبو البقاء: «وما كنا» الواوُ للحال، ويجوزُ أن تكون مستأنفةً[(٢)]. انتهى، والثاني أظهر.

وقرأ ابن عامر: «ما كنا» بغير واوٍ، وكذا هي في مصاحف أهل الشام[(٣)]، وهي على هذا جملةٌ موضِّحةٌ للأولى، ومَن أجاز فيها الحالَ مع الواو ينبغي أن يُجيزها دونها.

والذي تقتضيه أصولُ العربية أنَّ جواب «لولا» محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي: لولا أنْ هدانا الله ما كنَّا لنهتديَ، أو: لضَللنا، لأنَّ «لولا» للتعليق[(٤)] فهي في ذلك كأدوات الشرط، على أنَّ بعض الناس خرَّجَ قولَه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] على أنَّ جوابَه تقدَّم، وهو قولُه: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى، وهذا على مذهب جمهور البصريين في منع تقديم جواب الشرط.

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالموعود الذي وُعِدْنا في الدنيا، قَضَوا بأنَّ ذلك حقٌّ قضاءَ مشاهَدةٍ بالحسِّ، وكانوا في الدنيا يَقْضُون بذلك بالاستدلال.

وقال الكرماني: وقع الموعودُ به على ما سبق به الوعدُ.

وقال الزمخشري: فكان لنا لطفاً وتنبيهاً على الاهتداء فاهتدينا، يقولون ذلك سروراً واغتباطاً بما نالوا، وتلذُّذاً بالتكلُّم به، لا تقرُّباً وتعبُّداً، كما ترى مَن رُزِقَ خيراً في الدنيا يتكلَّم بنحو ذلك ولا يتمالكُ أنْ لا يقولَه للفرح لا للقربة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٩.
(٢) الإملاء ١/ ٢٧٤.
(٣) السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١١٠.
(٤) أي: تعليق حصول مضمون جملة بحصول مضمون جملة أخرى.

﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يحتمل أن يكون النداءُ من الله وهو أسرُّ لقلوبهم وأرفعُ لقَدْرِهم، ويحتملُ أن يكون من الملائكة. و«أنْ» يحتمل أن تكون المخفَّفةَ من الثقيلة، أي: ونودوا بأنه تلكم الجنة، واسمُها ضميرُ الشأن يحذف إذا خُفِّفت، ويحتمل أن تكون «أنْ» مفسِّرةً لوجود شرطَيْها، وهما أن يكون قبلها جملةٌ في معنى القول، وبعدها جملةٌ، وكأنه قيل: تلكم الجنة

قال ابن عطية: «تلكم» إشارةٌ إلى غائبةٍ[(١)]، فإمَّا لأنهم كانوا وُعدوا بها في الدنيا فالإشارةُ إلى تلك، أي: تلكم هذه الجنة، وحُذفت «هذه»، وإما قبل أن يدخلوها، وإمَّا بعد الدخول وهم مجتمعون في موضعٍ منها، فكلٌّ غائبٌ عن منزله. انتهى.

وفي كتاب «التحرير»: «وتلكم» إشارةٌ إلى غائبٍ، وإنما قال هنا: «تلكم» لأنهم وُعدوا بها في الدنيا، فلأَجْل الوعد جرى الخطابُ بكلمةِ العهد، ومنه قولُه ﷺ للصِّدِّيق في الاستخبار عن عائشة: «كيف تيكم»[(٢)] للعهد السابق. انتهى.

و«الجنة» جوَّزوا فيها أن تكون خبراً لـ«تلكم» و«أُورِثْتُموها» حال، كقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢]؛ قال أبو البقاء: حالٌ من «الجنة»، والعاملُ فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة، ولا يجوز أن تكون حالاً من «تلك»؛ للفصل بينهما بالخبر، ولكون المبتدأ لا يعمل في الحال[(٣)]. انتهى، وفي العامل في الحال في مثل: هذا زيدٌ قائماً، خلافٌ مذكورٌ في النحو.

وأن تكون نعتاً وبدلاً، و«أُورِثْتموها» الخبر.

وأدغم النحويَّان وحمزةُ وهشامٌ الثاءَ في التاء، وأظهرها باقي السبعة[(٤)].

---

(١) في المحرر ٢/ ٤٠٢: إشارة فيها غيبة، والمعنى واحد، ونقلها السمين في الدر المصون ٥/ ٣٢٤ كما ذكرها المصنف، ثم قال: فيها مسامَحةٌ؛ لأن الإشارة لا تكون إلا لحاضر، ولكن العلماء تطلق على البعيد غائباً مجازاً.

(٢) قطعة من حديث الإفك الطويل، أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) عن عائشة ﵂.

(٣) الإملاء ١/ ٢٧٤.

(٤) السبعة ص٢٨١، والتيسير ص٤٤، والنحويان هما أبو عمرو والكسائي. ولم يذكر صاحب السبعة هشاماً فيمن قرأ بالإدغام.

ومعنى «أورثتموها»: صُيِّرتْ لكم كالإرث، وأَبْعَدَ مَن ذهب إلى أنَّ المعنى: أُوْرِثْتُموها عن آبائكم؛ لأنها كانت منازلَهم لو آمنوا فحُرِموها بكفرهم، وبُعْدُه أنَّ ذلك عامٌّ في جميع المؤمنين، ولم تكنْ آباؤهم كلّهم كفّاراً.

والباء في «بما» للسبب المَجازيِّ، والأعمالُ أمارةٌ من الله ودليلٌ على قوة الرجاء، ودخولُ الجنة إنما هو بمجرَّدِ رحمة الله، والقَسْمُ فيها على قَدْرِ العمل، ولفظُ «أورثتموها» مشيرٌ إلى الأقسام، وليس ذلك واجباً على الله تعالى.

وقال الزمخشري: «أُوْرِثْتُموها بما كنتم تعملون»: بسبب أعمالكم لا بالتفضُّل كما تقول المُبْطِلةُ[(١)]. انتهى، وهذا مذهبُ المعتزلة، وفي «صحيح مسلم»: «لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلّا أن يتغمَّدني اللهُ برحمةٍ منه وفضلٍ»[(٢)].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ عبَّر بالماضي عن المستقبل لتحقُّق وقوعه، وهذا النداءُ فيه تقريعٌ وتوبيخٌ، وتوقيفٌ على مآل الفريقين، وزيادةٌ في كرب أهل النار بأن يُشْرِفوا[(٣)] عليهم وبخلقِ إدراكِ أهلِ النارِ لذلك النداءِ في أسماعهم.

قال الزمخشريُّ: وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم، وشماتةً بأهل النار، وزيادةً في غَمِّهم، ولتكونَ حكايتُه لطفاً لمن سمعها، وكذلك قولُ المؤذِّن بينهم: «أن لعنةُ الله على الظالمين»، وهو مَلَكٌ يأمُره الله تعالى فينادي بينهم يُسْمِعُ أهلَ الجنة وأهلَ النار[(٤)].

وأتى في إخبار أهل الجنة: «ما وَعَدنا» بذكر المفعول، وفي قصةِ أهل النار: «ما وَعَدَ» ولم يُذكر مفعولُ «وَعَدَ»؛ لأنَّ أهل الجنة مستَبْشِرون بحصول موعودهم، فذكَروا ما وَعَدهم الله مضافاً إليهم، ولم يذكروا حين سألوا أهل الجنة[(٥)] متعلَّق

---

(١) الكشاف ٢/ ٨٠.

(٢) صحيح مسلم(٢٨١٦)من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع): شرفوا، والمثبت من (ب) و(يه)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٣، والكلام منه. وجاء في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٠٠: بأن يشرف عليهم أهل الجنة.

(٤) الكشاف ٢/ ٨٠.

(٥) كذا في البحر والنهر، والصواب: أهل النار.

«وعد» باسم الخطاب فيقولوا: ما وعدكم، لِيَشْمَلَ كلَّ موعودٍ من عذاب أهل النار ونعيمِ أهل الجنة، وتكون إجابتُهم بـ«نعم» تصديقاً لجميع ما وَعَدَ الله بوقوعه في الآخرة للصِّنفين، ويكون ذلك اعترافاً منهم بحصول موعود المؤمنين؛ ليتحسَّروا على ما فاتهم من نعيمهم إذ نعيمُ أهل الجنة ممَّا يَحْزُنُهم[1] ويزيدُ في عذابهم.

ويحتمل أن يكون حُذِفَ المفعولُ الذي للخطاب لدلالةِ ما قبلَه عليه، وتقديره: فهل وجدتم ما وعدكم ربُّكم.

وقرأ ابن وثاب والأعمش والكسائي: «نَعِم» بكسر العين[2].

و«أنْ» يحتمل أن تكون تفسيريةً وأن تكون مصدريةً مخفَّفةً من «أنّ» الثقيلة، وإذا وَلِيَ المخفَّفةَ فعلٌ متصرفٌ غيرُ دعاءٍ فُصِلَ بينهما بـ«قد» في الأجود، كقوله: «أنْ قد وجدنا».

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: فأَعْلَم مُعْلِمٌ؛ قيل: هو إسرافيل صاحبُ الصور. وقيل: جبريل يُسْمِعُ الفريقين تفريحاً وتبريحاً. وقيل: ملكٌ غيرُ معيَّنٍ.

ودخل طاوسٌ على هشام بن عبد الملك فقال له: احْذَرْ يومَ الأذان. فقال: وما يومُ الأذان؟ قال: يومَ «فأذَّن مؤذِّن» الآية، فصعق هشامٌ، فقال طاوس: هذا ذُلُّ الصفة فكيف ذُلُّ المعايَنة[3].

و«بينهم» يحتمل أن يكون معمولاً لـ«أذَّن»، ويحتمل أن يكون صفةً لـ«مؤذِّن» فالعاملُ فيه محذوفٌ.

وقرأ الأخوان وابنُ عامر والبَزِّي: «أنَّ لعنةَ الله» بتثقيل «أنَّ» ونصبِ «لعنة»[4]، وعصمةُ عن الأعمش «إنَّ» بكسر الهمزة والتثقيل ونصبِ «لعنة» على إضمار

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع): يخزيهم.

(٢) السبعة ص٢٨١، والتيسير ص١١٠ عن الكسائي، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٣ عن ابن وثاب والأعمش.

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٢٥.

(٤) السبعة ص٢٨١، والتيسير ص١١٠، والأخوان هما حمزة والكسائي.

القول[١]، أو إجراءِ «أذَّنَ» مجرى «قال»، وقرأ باقي السبعة «أنْ» بفتح الهمزة خفيفة النون ورفعِ «لعنة» على الابتداء، و«أنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة أو مفسِّرةٌ.

و«يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً» تقدَّم تفسيرُ مِثْلِه، وهذا الوصفُ بالموصول هو حكايةٌ عن حالهم السابقة، والمعنى: الذين كانوا يصدُّون عن سبيل الله؛ لأنهم وقتَ الأذان لم يكونوا متَّصِفينَ بهذا الوصفِ.

والمعنيُّ بـ«الظالمين» الكفار، ويَدْفَعُ قولَ مَن قال: إنه عامٌّ في الكافر والفاسق، قولُه أخيراً: «وهم بالآخرة كافرون» لأن الفاسق ليس كافراً بالآخرة بل مؤمنٌ مصدِّقٌ بها.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾أي: بين الفريقين؛ لأنهم المحدَّثُ عنهم، وهو الظاهرُ.

وقيل: بين الجنة والنار، وبهذا بدأ الزمخشريُّ وابنُ عطية، وفسَّرا الحجاب بأنه المعنيُّ بقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣][٢] وقاله ابن عباس[٣].

ويقوِّي أنه بين الفريقين لفظُ «بينهم» إذ هو ضميرُ العقلاء، ولا يُحيل ضربَ السور بُعْدُ ما بين الجنة والنار، وإن كانت تلك في السماء والنارُ أسفلَ السافلين.

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: وعلى أعراف الحجاب -وهو السورُ المضروبُ- رجالٌ يعرفون كلّاً من فريقي الجنة والنار بعلامتهم التي ميَّزهم[٤] الله بها من ابيضاض وجوهٍ واسودادِ وجوهٍ، أو بغيرِ ذلك من العلامات، أو بعلامتهم التي يُلهمهم الله معرفتها.

والأعرافُ تلٌّ بين الجنة والنار؛ قاله ابن عباس[٥].

وقال مجاهد: حجابٌ بين الجنة والنار[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٣.
(٢) الكشاف ٢/ ٨١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٣-٤٠٤.
(٣) المحرر الوجيز٢/ ٤٠٤، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٢١١.
(٤) في (ب) و(يه): ميزهما.
(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٢١٠-٢١١.
(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٠٨ و٢١٠ و٢١١.

• وقيل: هو أُحُدٌ يُمثَّلُ بين الجنة والنار، رُوي هذا في حديثٍ[١]، وفي آخر: أنَّ أُحُداً على ركنٍ من أركان الجنة[٢].

وقيل: أعالي السور الذي ضُرب بين الجنة والنار؛ قاله الزمخشريُّ[٣].

والرجالُ: قومٌ تساوَتْ حسناتُهم وسيئاتُهم وُقفوا هنالك ما شاء الله، لم تبلغ حسناتُهم بهم دخولَ الجنة، ولا سيئاتُهم دخولَ النار.

ورُوي في «مسند» ابن أبي خيثمة[٤] عن جابر عن رسول الله ﷺ حديثٌ فيه: قيل: يارسول الله، فَمَن استوتْ حسناتُه وسيئاتُه؟ قال: «أولئك أصحابُ الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»[٥]، وقاله ابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وحذيفةُ وأبو هريرة[٦].

وقال حذيفة بن اليمان أيضاً: هم قومٌ أبطأت بهم صغائرُهم إلى آخر الناس[٧].

---

(١) ذكره الزهراوي كما قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤، وأورده أيضاً ابن أبي زمنين في تفسيره ٢/ ١٢٥ من طريق إسحاق بن عبد الله بن الحارث عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٨٣ من طريق داود بن الحصين عن النبي ﷺ، وهو مع انقطاعه في إسناده عبد العزيز بن عمران، قال عنه البخاري: لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك. الميزان ٢/ ٥٥٢، وفيه أيضاً إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، وهو ضعيف كما في التقريب.
وأخرجه أبو يعلى (٧٥١٦)، والطبراني في الكبير (٥٨١٣) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه بلفظ: «أحد ركن من أركان الجنة»، وفي إسناده عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني، وهو متفق على ضعفه، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي: متروك الحديث. الميزان ٢/ ٣٦٢.

(٣) في الكشاف ٢/ ٨١.

(٤) كذا في النسخ، والصواب: خيثمة بن سليمان، كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤ (والكلام منه)، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٢٧ نقلاً عن المحرر، وخيثمة بن سليمان القرشي هو محدث الشام، ومصنف: فضائل الصحابة، توفي سنة (٣٤٣هـ) السير ١٥/ ٤١٢.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤، وأخرجه أيضاً ابن مردويه كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وأورده بإسناده ثم قال: وهذا حديث غريب من هذا الوجه. اهـ.

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٢١٢-٢١٧ عن حذيفة وابن مسعود وابن عباس، وأورده عن أبي هريرة رضي الله عنه ابنُ أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٤٨٥.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٢٢٦.

وقيل: غزاةٌ جاهَدوا من غيرِ إذنِ والِدِيهم فقُتلوا في المعركة، وهذا مرويٌّ عن الرسول أنهم حُبسوا عن الجنة بمعصيةِ آبائهم، وأعتقهم اللهُ من النار لأنهم قُتلوا في سبيله(١).

وقيل: قومٌ رضي عنهم آباؤهم دون أمَّهاتم، أو بالعكس.

وقيل: هم أولاد الزنى.

وقيل: أولاد المشركين.

وقيل: الذينْ كانوا في الفترة(٢) ولم يبدِّلوا دينهم.

وقيل: علماءُ شكُّوا في أرزاقهم.

وقال الزمخشري: رجالٌ من المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة لقصور أعمالهم، كأنهم المُرْجَوْنَ لأمر الله، يُحبسون بين الجنة والنار إلى أنْ يَأْذَنَ الله لهم في دخول الجنة(٣).

وقال ابن عطية: واللازِمُ من الآية أنَّ على أعراف ذلك السور أو على مواضعَ مرتفعةٍ عن الفريقين حيث شاء اللهُ رجالاً من أهل الجنة يتأخَّر دخولُهم ويقع لهم

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٩٥٤- تفسير)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٢٣)، وابن الأنباري في الأضداد ص٣٦٩، والطبري ١٠/ ٢١٨، وابن أبي حاتم ٥/ ١٤٨٤ من حديث عبد الرحمن المزني ﷺ، وفي إسناده أبو معشر، وهو ضعيف، وقد اضطرب فيه كما ذكر ابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٣٠. وأخرجه الطبري أيضاً ١٠/ ٢١٨ بإسناد آخر، وهو ضعيف جدّاً لتسلسله بالمبهمين. وينظر كلام الشيخ أحمد شاكر على الحديث في طبعته من تفسير الطبري ١٢/ ٤٥٨.

وأخرجه الطبراني الأوسط (٣٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٣: رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه محمد بن مخلد الرعيني، وهو ضعيف. اهـ. قلت: وفي إسناده أيضاً عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف أيضاً كما في التقريب.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع): الأسر، وهو تحريف، والمثبت من (ب) و(يه)، وهو الموافق لما في تفسير البغوي ٢/ ١٦٣، وزاد المسير ٣/ ٢٠٦، وفيهما: الذين ماتوا في الفترة...

(٣) الكشاف ٢/ ٨١.

ما وُصِفَ من الاعتبار في الفريقين، ويَعْرِفون كلًّا بعلامتهم، وهي بياضُ الوجوه وحُسْنُها في أهل الجنة، وسوادُها وقُبحها في أهل النار[١]. انتهى.

والأقوالُ السابقةُ تَحتاجُ إلى دليلٍ واضحٍ في التخصيص، والجيِّدُ منها هو الأوَّلُ؛ لحديث جابرٍ، ولتفسيرِ جماعةٍ من الصحابة.

وهذه الأقوالُ هي على قولِ مَن قال: إنَّ الأعراف هو بين الجنة والنار، وفي شعر أمية بنِ أبي الصَّلْت:

وآخَرون على الأعراف قد طَمِعوا ... في جنةٍ حفَّها الرمَّانُ والخُضَرُ[٢]

وقال قوم: إنه الصراط.

وقيل: موضعٌ على الصراط.

وقال قوم: هو جبلٌ في وسط الجنة أو أعلاها.

واختلف هؤلاء في تفسير «رجال»؛ فقال أبو مجلز: هم ملائكةٌ في صورِ رجالٍ ذكورٍ[٣]، وسُمُّوا رجالاً لقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾.

وقال مجاهد والحسن: هم فضلاءُ المؤمنين وعلماؤهم[٤].

وقيل: هم الشهداء، وقاله الكَرْماني، واختاره النحاس وقال: هو أحسنُ ما قيل فيه[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥.

(٢) ديوان أمية ص٨٠، والنكت والعيون ٢/ ٢٢٥. قال الماوردي: وهذا وإن كان شعراً جاهليًّا، وحال الأعراف منقول عن خبر يروى، فيحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون أمية قد وصل إلى علمه من الصحف الشرعية. والثاني: أن الله تعالى قد أنطق به أمية إلهاماً لتصديق ما جاء به القرآن.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٩٥٨- تفسير)، والطبري ١٠/ ٢١٩-٢٢١.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٢٥، وأخرجه عن مجاهد هناد في الزهد (٢٠٣)، والطبري ١٠/ ٢١٩.

(٥) الذي اختاره واستحسنه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٢٧ هو القول بأن أصحاب الأعراف هم عدول القيامة، وهم الشهداء من كل أمة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم. وهو محتمل على قول الكرماني.

وقيل: حمزة والعباس وعليٌّ وجعفر الطيار[١]. ورُوي هذا عن ابن عباس[٢].

وقيل: هم الأنبياء.

﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الظاهر أن الضمير في «ونادوا» إلى آخر الآيةِ عائدٌ على الرجال الذين على الأعراف، وعلى هذا لا يمكنُ أن تكون تلك الضمائرُ[٣] للأنبياء، ولا لشيءٍ ممَّا فسِّر به أنهم على جبل في وسط الجنة أو أعلى الجنة، وفي غاية البُعْدِ ما تُؤوِّل من ذلك ليصحَّ شيءٌ من تلك الأقوال، أنهم أُجلسوا على تلك الأماكن المرتفعة ليشاهدوا أحوالَ الفريقين فيلحقهم السرورُ بتلك الأحوال، ثم إذا استقرَّ الفريقان نُقلوا إلى أمكنتهم التي أُعِدَّت لهم في الجنة، فمعنى «لم يدخلوها»: لم يدخلوا منازلهم المعدَّة لهم فيها، ومعنى «وهم يطمعون»: يتيقَّنون ما أَعَدَّ الله لهم من الزُّلْفَى، وقد جاء الطمعُ بمعنى اليقين، قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢] وطَمَعُ إبراهيمَ عليه السلام يقينٌ[٤]، وقال الشاعر:

وإنِّي لأطمعُ أنَّ الإلهَ ... قديرٌ بحسنِ يقيني يقيني[٥]

وأمَّا قولُ مَن قال: إن الأعراف جبلٌ بين الجنة والنار، فقد طَعَنَ فيه القاضي والجُبَّائي[٦] وقالا: هو فاسدٌ؛ لأنَّ قوله: ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية٤٣] يدلُّ على أنَّ كلَّ مَن دخل الجنة لا بدَّ أن يكون مستحقّاً لدخولها،

(١) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٨/ ٦٥.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٥، ومجمع البيان ٨/ ٦٥، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٢٨، وأورده الذهبي في الميزان ٢/ ٣٢٠، وهو من طريق عاصم بن سليمان، عن جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس. وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وعاصم بن سليمان قال عنه النسائي: متروك، وقال الدارقطني: كذاب، وقال ابن عدي: يعدُّ ممن يضع الحديث، وعدَّ الذهبي هذا الخبر من بلاياه.

(٣) في (ب) و(يه): أن يكون ذلك الضمير.

(٤) نقل هذا التأويل الرازي في تفسيره ١٤/ ٨٨.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) كما في تفسير الرازي ٤/ ٨٨-٨٩، والقاضي هو عبد الجبار المعتزلي.

وذلك يمنعُ من القول بوجود أقوامٍ لا يَستحقُّون الجنةَ ولا النار، ثم يُدْخَلون الجنةَ بمحضِ الفضل لا بسبب الاستحقاق، ولأنَّ كونهم من أهل الأعراف يدلُّ على ميزهم[١] من جميع أهل القيامة، فإنَّ إجلاسهم على الأماكن المرتفعة العالية على أهل الجنة والنار تشريفٌ عظيم لا يليق إلا بالأشراف، ومَن تساوت حسناتُه وسيئاتُه درجتُه قاصِرةٌ لا يليقُ بهم ذلك التشريف.

وأجيبَ بأنه يحتمل أن يكون «ونودوا» خطابٌ مع أقوام معيَّنين، فلا يَلْزمُ أن يكون أهلُ[٢] الجنة كذلك، وعن الثاني: أَجْلَسَهم لا للتشريف، بل لأنها كالمرتبة المتوسِّطة بين الجنة والنار.

و«أنْ سَلام» يحتمل «أنْ» أن تكون تفسيريةً ومخفَّفة من الثقيلة، و«لم يدخلوها» حالٌ من المفعول، أي: نادوهم وهم في هذه الحال، يعني أهلَ الجنة، «وهم يطمعون» جملةٌ خبريةٌ لا موضعَ لها من الإعراب، أي: نادَوْا أهلَ الجنة غيرَ داخليها[٣]، ثم أخبر أنهم طامعون في دخولها؛ قال معناه أبو البقاء[٤].

وقيل: المعنى: ونادى أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة بالسلام وهم قد دخلوا الجنةَ وأهلُ الأعراف لم يدخلوها، فيكونُ قولُه: «لم يدخلوها» حالاً من ضمير «ونادَوْا» العائدِ على أهل الأعراف فقط، وهذا تأويلُ ابنِ مسعودٍ وقتادةَ والسُّديِّ وغيرهم[٥]، وقال ابن مسعود[٦]: واللهِ ما جَعَلَ الله ذلك الطَّمعَ في قلوبهم إلَّا لخيرٍ أراده بهم. وهذا هو الأظهرُ والألْيَقُ بمساقِ الآية.

وقال ابن مسعود أيضاً: إنما طَمِعَ أصحابُ الأعراف لأنَّ النور الذي كان في

---

(١) في تفسير الرازي: على أنه تعالى ميَّزهم.
(٢) في تفسير الرازي: أن يكون لكل أهل.
(٣) أي: نادى أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة حالَ كونهم -أي: أصحاب الجنة- غيرَ داخلين بعد.
(٤) في الإملاء ١/ ٢٧٥.
(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٢٢٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥ عن ابن مسعود وقتادة والسدي والحسن.
(٦) كذا ذكر، والصواب أنه قول الحسن. ينظر تفسير عبد الرزاق ١/ ٢٣٠، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٢٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٨٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥.

أيديهم لم يُطْفَأْ حين طُفِئَ نورُ ما بأيدي المنافقين[١].

وقيل: «وهم يطمعون» حالٌ من ضمير الفاعل في «يدخلوها»[٢]، والمعنى: لم يدخلوها في حال طمعٍ لها، بل كانوا في حالِ يأسٍ وخوفٍ، لكنْ عَمَّهم عفوُ الله.

وقال الزمخشريُّ: فإن قلتَ: ما مَحَلُّ قوله: «لم يَدْخُلوها وهم يَطْمَعون»؟ قلتُ: لا محلَّ له لأنه استئنافٌ، كأن سائلاً سَأَل عن أصحاب الأعراف، فقيل له: «لم يدخلوها وهم يطمعون» يعني: إنَّ دخولهم الجنةَ استأخَر عن دخول أهل الجنة فلم يدخلوها لكونهم محبوسين، وهم يطمعون لم ييأسوا، ويجوز أن يكون له محلٌّ بأنْ يقع صفةً لـ«رجال»[٣]. انتهى، وهذا الوجهُ ضعيفٌ؛ للفَصْل بين الموصوف وصفته بجملةٍ، «ونادوا»، وليست جملةَ اعتراضٍ.

وقرأ ابن [رقيش][٤] النحويُّ: «وهم طامعون»، وقرأ إياد بن لقيط: «وهم ساخطون»[٥]، وقرأ الأعمش: «وإذا قُلِبَتْ أبصارُهم»[٦].

والضمير في «أبصارهم» عائدٌ على رجال الأعراف، يُسَلِّمون على أهل الجنة وإذا نظروا إلى أهل النار دعوا الله في التخلُّص منها؛ قاله ابن عباسٍ وجماعةٌ[٧].

وقال أبو مجلز: الضمير لأهل الجنة، وهم لم يدخلوها بعدُ[٨].

وفي قوله: «صُرِفت» دليلٌ على أن أكثر أحوالهم النظرُ إلى تلقاء أصحاب الجنة، وأنَّ نظرهم إلى أصحاب النار هو بكونهم صُرفت أبصارُهم تلقاءَهم، فليس

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥، وأخرجه الطبري بنحوه مطولاً ١٠/ ٢١٤.

(٢) وهذا على الوجهين من كون «لم يدخلوها» حالاً من الفاعل في «ونادوا»، أو من المفعول الذي هو «أصحاب الجنة». ينظر الدر المصون ٥/ ٣٢٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٨١-٨٢.

(٤) ما بين معقوفين وقع مكانه في النسخ بياض، والمثبت من المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥، وفيه: أبو رقيش.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥.

(٦) الكشاف ٢/ ٨١.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٢٢٨.

(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥.

الصرفُ من قِبَلِهم، بل هم محمولون عليه مفعولٌ بهم ذلك؛ لأن ذلك المُطَّلَعَ مَخُوفٌ من سماعه فضلاً عن رؤيته فضلاً عن التلبُّس به، والمعنى: أنهم إذا حُملوا على صَرْفِ أبصارهم ورأوا ما هم عليه من العذاب استغاثوا بربِّهم من أنْ يجعلهم معهم، ولفظةُ «ربنا» مشعِرةٌ بوصفه تعالى بأنه مصلحُهم وسيدُهم وهم عبيدُه، فبالدعاء به طلبُ رحمته واستعطافُ كرمه.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون هذا النداءُ وأولئك الرجالُ في النار، ومعرفتُهم إياهم في الدنيا بعلاماتٍ، ويَحْتملُ أن يكون وهم يُحملون إلى النار وسيماهم تسويدُ الوجوه وتشويهُ الخَلْق.

وقال أبو مجلز: الملائكة تنادي رجالاً في النار[1]. وهذا على تفسيره أن أهل الأعراف هم ملائكةٌ، والجمهورُ على أنهم آدميون.

ولفظ «رجالاً» يدل على أنهم غيرُ معيَّنينَ، وقال ابن القشيري: ينادي أصحابُ الأعراف رؤساءَ المشركين قَبْلَ امْتحاءِ صورهم بالنار: يا وليد بن المغيرة، يا أبا جهل بن هشام، يا عاصي بن وائل، يا عقبة بن أبي معيط، يا أميةَ بنَ خلف، يا أبيَّ بن خلف، يا سائر رؤساء الكفار، ما أغنى عنكم جمعُكم في الدنيا المالَ والولدَ والأجنادَ والحجَّابَ والجيوشَ، وما كنتم تستكبرون عن الإيمان[2]. انتهى.

و«ما أغنى» استفهامُ توبيخٍ وتقريعٍ، وقيل: نافية، و«ما» في و«ما كنتم» مصدرية، أي: وكونُكم تستكبرون. وقرأت فرقةٌ: «تستكثرون» بالثاء مثلثةً من الكثرة[3].

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الظاهرُ أنَّ هذا من جملةِ مَقُولِ أهلِ الأعراف، وتكونُ الإشارةُ إلى أهل الجنة، أي: يقول أهلُ الأعراف مشيرين إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساءُ

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٣٠و٢٣٤.
(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٠٧ من طريق أبي صالح عن ابن عباس ﵄.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥.

يستهينون بهم ويَحْقِرونهم لفقرهم وقلةِ حظوظهم في الدنيا، وكانوا يُقْسِمون بالله تعالى لا يُدْخِلهم الجنة؛ قاله الزمخشريُّ[١]، وذكره ابنُ عطية عن بعض المتأوِّلين؛ قال الإشارةُ بـ«هؤلاء» إلى أهل الجنة، والمخاطِبون هم أهلُ الأعراف، والذين خُوطِبوا أهلُ النار، والمعنى: أهؤلاء الضعفاءُ في الدنيا الذين حَلَفْتُم إنَّ الله لا يَعْبأُ بهم قيل لهم: «ادخلوا الجنة».

وقال ابن عباس: «أهؤلاء» من كلام مَلَكٍ بأمر الله، إشارةً إلى أهل الأعراف ومخاطَبةً لأهل النار.

قال النقَّاش: لمَّا وبَّخوهم بقولهم: «ما أغنى عنكم جَمْعُكم» أقسم أهلُ النار إنَّ أهل الأعراف داخلون النار معهم، فنادتهم الملائكة: «أهؤلاء»، ثم نادت أهلَ الأعراف: «ادخلوا الجنة»[٢].

وقيل: الإشارةُ بـ«هؤلاء» إلى أهل الأعراف، والقائلون هم أصحابُ الأعراف، ثم يرجعون إلى مخاطبة أنفسهم فيقول بعضهم لبعض: «ادخلوا الجنة». قاله الحسن[٣].

وقيل: الإشارةُ إلى المؤمنين الذين كان الكفارُ يحلفون إنهم لا يدخلون الجنةَ، والقائلُ إمَّا اللهُ وإمَّا الملائكة.

وقيل: المشارُ بـ«هؤلاء» أصحابُ الأعراف، والقائلُ مالكٌ خازنُ النار بأمر الله تعالى.

وقال أبو مجلز: أهلُ الأعراف هم الملائكة، وهم القائلون: «أهؤلاء» إشارةً إلى أهل الجنة. وكذلك يجيءُ قولُ مَن قال: أهلُ الأعراف أنبياءُ وشهداءُ[٤].

وقرأ الحسنُ وابن هُرْمُز: «أَدْخِلوا» من أَدْخَلَ، أي: أَدْخِلوا أنفسَكم، أو يكونُ خطاباً للملائكة ثم خاطب بعدُ البشر[٥].

---

(١) في الكشاف ٢/ ٨١، وفيه: . . .يقسمون إن الله. . .
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٦.
(٣) لم نقف عليه.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٦.
(٥) المصدر السابق، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٤ دون نسبة.

وقرأ عكرمةُ: «دَخَلوا» إخباراً بفعل ماض، وقرأ طلحة وابنُ وثَّابٍ والنخعي: «أُدْخِلوا» خبراً مبنيّاً للمفعول(١)، وعلى هاتين القراءتين يكون قوله: «لا خوف عليكم» على تقدير: مقولاً لهم: لاخوفٌ عليكم.

قال الزمخشري: يقال لأهل الأعراف: «ادخلوا الجنة» بعد أن يُحْبَسوا على الأعراف، ويَنظروا إلى الفريقين، ويَعْرِفوهم بسيماهم، ويقولوا ما يقولون، وفائدةُ ذلك بيانُ أنَّ الجزاء على قَدْرِ الأعمال، وأنَّ التقدُّم والتأخُّر على حَسَبِها، وأنَّ أحداً لا يَسْبِقُ عند الله تعالى إلا بِسَبْقِه من العمل، ولا يتخلَّفُ إلا بتخلُّفه، ولِيَرْغَبَ السامعون في حال السابقين، ويَحْرِصوا على إحراز قصبهم، وأنَّ كلاً يُعْرَفُ ذلك اليومَ بسِيماه التي استوجَبَ أن يُوْسَم بها من أهل الخير والشر، فيَرْتَدِع المسيءُ عن إساءته، ويزيد المحسنُ في إحسانه، وليُعْلَم أن العصاةَ يوبِّخهم كلُّ أحدٍ حتى أقصرُ الناس عملاً(٢). انتهى.

وهو تكثيرٌ من باب الخطابة لا طائلَ تحته، وفيه دسيسةُ الاعتزال.

وعن حذيفة: أنَّ أهل الأعراف يرغبون في الشفاعة، فيأتون آدم فيدفعُهم إلى نوح، ثم يتدافعُهم الأنبياء حتى يأتوا محمداً ﷺ، فيُشَفَّعُ، فيدخلون الجنة فيُلْقَون في نهر الحياة فيَبْيَضُّون، ويُسمَّون: مساكينَ الجنة. قال سالمٌ مولى أبي حذيفة: ليت أنِّي من أهل الأعراف(٣).

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ هذا يقتضي سماعَ كلٍّ من الفريقين كلامَ الآخرِ، وهذا جائزٌ عقلاً على بُعْدِ المسافة بينهما من العُلْوِ والسُّفْل، وجائزٌ أن يكون ذلك مع رؤيةٍ وإطِّلاعٍ من الله، وذلك أَخْزَى وأَنْكَى للكفار، وجائزٌ أن يكون ذلك وبينهم الحجابُ والسورُ.

---

(١) القراءتان في المحتسب ١/ ٢٤٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٦، والكشاف ٢/ ٨١، وقراءة عكرمة في القراءات الشاذة ص٤٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٨١.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٦، وخبر حذيفة أخرجه الطبري بنحوه مطولاً ١٠/ ٢٣٢-٢٣٣، وخبر سالم أخرجه أحمد في الزهد ص٢٤٩، وابن أبي الدنيا في كتاب المتمنِّين ص٣١.

وعن ابن عباس أنه لمَّا صار أصحابُ الأعراف إلى الجنة طَمِعَ أهلُ النار في الفَرَج بعد اليأس، فقالوا: يا رب، لنا قراباتٌ من أهل الجنة فأْذَنْ لنا حتى نراهم ونكلِّمَهم، فيَنْظُرون إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم، ونظر أهلُ الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم، قد اسودَّتْ وجوهُهم وصاروا خَلْقاً آخَرَ، فنادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة بأسمائهم وأخبروهم بقراباتهم، فينادي الرجلَ أخوه فيقول: يا أخي، قد احترقْتُ فأَغِثْني، فيقول: إنَّ الله حرَّمهما على الكافرين(١).

ويحتمل «أنْ» أن تكونَ مصدريةً ومفسِّرةً.

وكلامُ ابن عباس يدلُّ على أنَّ هذا النداءَ كان عن رجاء وطمع حصول ذلك.

وقال القاضي(٢): هو مع اليأس؛ لأنهم قد علموا دوامَ عقابهم، وأنهم لا يفتَّرُ عنهم، ولكنَّ اليائس من الشيء قد يَطلُبُه، كما يقال في المَثَل: الغريقُ يتعلَّق بالزَّبَد وإن علم أنه لا يُغْنيه. انتهى.

و«أفيضوا» أَمْكَنُ من: اسْقُونا؛ لأنها تقتضي التوسعةَ، كما يقال: أفاض الله عليه نِعَمَه، أي: وسَّعها. وسؤالُهم الماءَ لشدَّة التهابهم واحتراقهم، ولأنَّ مِن عادتِه إطفاءُ النار، «أو مما رزقكم الله» لأنَّ البنية البشرية لا تستغني عن الطعام إذ هو مقوٍّ لها، أو لرجائهم الرحمةَ بأكل طعام الجنة(٣)، و«أو» على بابها من كونهم سألوا أحد الشيئين، وأتى «أو مما رزقكم الله» عامّاً، والعطفُ بـ«أو» يدلُّ على أن الأول لا يندرج في العموم.

وقيل: «أو» بمعنى الواو؛ لقولهم «إنَّ الله حرمهما».

وقيل: المعنى: حرَّم كلًّا منهما، فـ«أو» على بابها و«ما رزقكم الله» عامٌّ، فيدخلُ فيه الطعامُ والفاكهةُ والأشربةُ غير الماء.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ١٦٣، وزاد المسير ٣/ ٢٠٨، وتفسير الرازي ١٤/ ٩٢. وأخرجه بنحوه مختصراً الطبري ١٠/ ٢٣٦.

(٢) عبد الجبار شيخ المعتزلة، وكلامه في تفسير الرازي ١٤/ ٩٢.

(٣) كلمة: الجنة، ساقطة من المطبوع، وجاء في النهر على هامش البحر ٢/ ٣٠٤: أهل الجنة.

وتخصيصُه بالثمرة أو بالطعام أو غيرِ الماء من الأشربة أقوالٌ ثانيها للسدِّي[١]، وثالثُها للزمخشري، قال: «أو مما رزقكم الله» مِن غيره من الأشربة؛ لدخوله في حكم الإفاضة.

قال: ويجوز أن يُراد: أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة، كقوله:

علفتُها تبناً وماءً بارداً[٢]

وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرةً في أمرهم، كما يفعلُه المضطرُّ الممتحَن[٣]. انتهى وقوله: وإنما يطلبون.. إلى آخره هو كلامُ القاضي، وقد قدَّمناه.

وقوله: ويجوز أن يراد: وألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة، يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون «أفيضوا» ضمِّن معنى ألقوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيصحُّ العطفُ.

ويَحْتَمِلُ -وهو الظاهرُ من كلامه- أن يكون أضمر فعلاً بعد «أو» يصلُ إلى «مما رزقكم» وهو: ألقوا.

وهما مذهبان للنحاة فيما عُطف على شيءٍ بحرف عطفٍ والفعلُ لا يصل إليه، والصحيحُ منهما التضمينُ لا الإضمار، على ما قرَّرناه في علم العربية.

ومعنى التحريم هنا: المنع، كما قال:

حرامٌ على عينيَّ أنْ تَطْعَما الكَرَى[٤]

وإخبارهم بذلك هو عن أمر الله.

---

(١) أخرجه عنه الطبري ١٠/ ٢٣٥.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٧) من سورة البقرة، والآية (٣) من سورة النساء.
(٣) الكشاف ٢/ ٨٢.
(٤) أورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٨٢، وعجزه كما في شرح شواهد الكشاف للأستاذ محبّ الدين أفندي في آخر الكشاف ٤/ ٣٧٢: وأن ترقآ حتى ألاقيكِ يا هندُ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ تقدّم تفسير مثلِ هذا في «الأنعام»[١].

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾ هذا إخبارٌ من الله عمَّا يُفعل بهم، قال ابن عباس وجماعةٌ: يتركهم في العذاب كما تَرَكوا النظر للقاء هذا اليوم[٢].

وقال قتادة: نُسُوا من الخير ولم يُنْسَوا من الشر[٣].

وقال الزمخشريُّ: نَفْعَلُ بهم فِعْلَ الناسينَ الذين يَنسون عبيدَهم من الخير لا يذكرونهم به، «كما نسوا لقاء يومهم هذا» كما فعلوا بلقائه فِعْلَ الناسين فلم يُخْطِروه ببالهم ولم يهتموا به[٤].

وقال الحسن والسدِّي أيضاً والأكثرون: نتركهم في عذابهم كما تركوا العملَ لِلقاء يومهم[٥]. انتهى.

وإن قدِّر النسيانُ بمعنى الذهول من الكفرة، فهو في جهة الله بتسمية العقوبة باسم الذنب.

«وما كانوا» معطوفٌ على «ما نسوا»، و«ما» فيهما مصدريةٌ، ويظهر أن الكاف في «كما» للتعليل.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ الضمير في «ولقد جئناهم» عائدٌ على مَن تقدَّم ذكرُه، ويكون الكتاب على هذا جنساً، أي: بكتابٍ إلهيٍّ؛ إذ الضميرُ عامٌّ في الكفار، وقال يحيى بن سلام: الضمير لمكذِّبي محمدٍ ﷺ، وهو ابتداءُ كلامٍ، وتم الكلامُ عند قوله: «يجحدون»[٦].

---

(١) عند تفسير الآية (٧٠) منها.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٧، وأخرجه الطبري ١٠/ ٢٣٨ عن ابن عباس ومجاهد بلفظ: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٧، وأخرجه الطبري ١٠/ ٢٣٩ عن ابن عباس.
(٤) الكشاف ٢/ ٨٢.
(٥) تفسير الرازي ١٤/ ٩٣.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٧.

والكتاب هو القرآن، وفصَّلناه عالمينَ بكيفية تفصيله من أحكامٍ ومواعظَ وقصصٍ وسائرِ معانيه.

وقيل: فصَّلناه بإيضاح الحقِّ من الباطل.

وقيل: نزلناه في فصولٍ مختلفةٍ.

وقرأ ابن مُحيصن والجحدريُّ: «فضَّلناه» بالضاد المنقوطة(١)، والمعنى: فضَّلناه على جميع الكتب عالمينَ بأنه أهلٌ للتفضيل عليها.

وفي «التحرير» أنه فُضِّلَ على سائر الكتب المنزلة بثلاثين خصلةً لم تكن في غيره. و«فصَّلناه» صفةٌ لـ«كتاب» و«على علم» الظاهرُ أنه حالٌ من فاعل «فصَّلناه»، وقيل: التقدير: مشتملاً على علمٍ، فيكون حالاً من المفعول.

وانتصَبَ «هدىً ورحمةً» على الحال، وقيل: مفعولٌ من أَجْله، وقرئ بالرفع، أي: هو هدىً ورحمةٌ(٢)، وقرأ زيد بن عليٍّ: «هدىً ورحمةٍ» بالخفض على البدل من «كتاب» أو النعتِ، وعلى النعت لـ«كتابٍ» خرَّجه الكسائيُّ والفرَّاء رحمهما الله(٣).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: مآلَ أمره وعاقبتَه، قاله قتادةُ ومجاهدٌ وغيرهما.

وقال ابن عباس: مآله يوم القيامة.

وقال السدِّي: في الدنيا كوقعة بدر، ويومَ القيامة أيضاً(٤).

وقال الزمخشري: ما يَؤُولُ إليه من تبيُّن صدقه، وظهورِ صحة ما نَطَقَ به من الوعد والوعيد(٥).

---

(١) زاد المسير ٣/ ١٦٩، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤ عن ابن محيصن وحده.

(٢) الإملاء ١/ ٢٧٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٣٥، وقول الفراء في معاني القرآن له ١/ ٣٨٠.

(٤) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/ ٢٤١-٢٤٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٧-٤٠٨، وعنه نقل المصنف.

(٥) الكشاف ٢/ ٨٢.

والتأويلُ مادتُه همزةٌ وواوٌ ولامٌ من آلَ يَؤُول، وقال الخطابي: أوَّلتُ الشيءَ: رددْتُه إلى أوَّله، فاللفظةُ مأخوذةٌ من الأوَّل[١]. انتهى، وهو خطأٌ لاختلاف المادَّتين.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: تَظْهر عاقبةُ ما أَخْبرَ به من الوعد والوعيد، وذلك يومَ القيامة يَسألُ تارِكُو اتِّباعِ الرسل: هل لنا من شفعاء؟ سؤالاً عن وجه الخلاص في وقتٍ أنْ لا خلاصَ، وفي الكلام حذفٌ، أي: لقد جاءت رسلُ ربِّنا بالحقِّ ولم نصدِّقهم، أو: ولم نتَّبِعْهم، فهل لنا من شفعاء؟

والرسلُ هنا: الأنبياءُ، أَخبروا يومَ القيامة أنَّ الذي جاءتهم به رسلُهم هو الحق، وقيل: ملائكةُ العذاب عند المعاينة ما أنذروا به.

وقرأ الجمهور: «أو نردُّ» برفع الدال «فنعملَ» بنصب اللام، عَطَفَ جملةً فعليةً على جملةٍ اسمية وتقدَّمهما استفهامٌ فانتصب الجوابان، أي: هل شفعاءُ لنا فيشفعوا لنا في الخلاص من العذاب، أو هل نردُّ إلى الدنيا فنعملَ عملاً صالحاً.

وقرأ الحسن فيما نَقَلَ الزمخشريُّ بنصب الدال ورفع اللام[٢]. وقرأ الحسن فيما نَقَلَ ابنُ عطيةَ وغيرُه برفعهما، عَطَفَ «فنعملُ» على «نردُّ»[٣]. وقرأ ابنُ أبي إسحاق وأبو حَيْوَةَ بنصبهما[٤]، فنَصَبَ «أو نردَّ» عطفاً على «فيشفعوا لنا» جواباً على جوابٍ، فيكون الشفعاء في أحد أمرين: إمَّا في الخلاص من العذاب، وإمَّا في الرَّدِّ إلى الدنيا لاستئناف العمل الصالح، وتكونُ الشفاعة قد انسحبت على الردِّ أو الخلاص، و«فنعملَ» عطفٌ على «فنردَّ».

ويحتمل أن يكون «أو نردَّ» من باب: لألْزَمنَّك أو تَقْضِيَني حقِّي، على تقديرِ مَن قدَّر ذلك: حتى تقضِيَني حقِّي، أو: كي تقضِيَني حقِّي، فجعل اللزوم مغيًّا بقضاء حقِّه أو معلولاً له لقضاءِ حقه، وتكونُ الشفاعة إذ ذاك في الردِّ فقط.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٨.
(٢) الكشاف ٢/ ٨٢.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٨، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤ عن الحسن وعمرو بن عبيد ويزيد النحوي.
(٤) المحتسب ١/ ٢٥١، والكشاف ٢/ ٨٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٨.

وأمَّا على تقدير سيبويه «إلا»، أي: لألْزَمنَّك إلَّا أنْ تقضِيَني[١]، فليس يظهرُ أنَّ معنى «أو» معنى «إلا» هنا، إذ يصير المعنى: هل تشفع لنا شفعاءُ إلا أن نردَّ، وهذا استثناءٌ غير ظاهرٍ.

وقولُهم هذا: هل هو مع الرَّجاء، أو مع اليأس؟ فيه الخلافُ الذي في ندائهم: «أن أفيضوا».

قال القاضي[٢]: وهي تدلُّ على حُكْمين:

على أنهم كانوا قادرين على الإيمان والتوبة، ولذلك سألوا الردَّ[٣].

الثاني: أنَّ أهل الآخرة غيرُ مكلَّفين -خلافاً للمُجْبِرة والنَّجَّار[٤]- لأنها لو كانت كذلك ما سألوا الردَّ، بل كانوا يتوبون ويؤمنون.

﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: خسروا في تجارة أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفانيَ من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة، وبَطَلَ عنهم افتراؤهم على الله ما لم يَقُلْه ولا أمرهم به، وكذبُهم في اتِّخاذِ آلهةٍ من دون الله.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لمَّا ذَكَرَ تعالى أشياءَ من مبدأ خَلْقِ الإنسان وأَمْرِ بَنيه[٥]، وانقسام[٦] إلى مؤمنٍ وكافرٍ، وذكر معادَهم وحَشْرَهم إلى جنةٍ ونارٍ، ذَكَر مبدأ العالَمَ واختراعَه والتنبيهَ على الدلائل الدالَّة على التوحيد وكمالِ القدرة والعلم والقضاء، ثم بعد ذلك[٧] إلى

---

(١) الكتاب ٣/ ٤٧.
(٢) القائل هو الجبائي كما في تفسير الرازي ١٤/ ٩٦، وليس القاضي كما ذكر المصنف.
(٣) أي: لو كانوا في الدنيا غير قادرين على الإيمان والتوبة كما يقوله المجبرة لم يكن لهم في الردِّ فائدة، ولا جاز لهم أن يسألوا الرد. ينظر تفسير الرازي ١٤/ ٩٦.
(٤) الحسين بن محمد النجار، رأس الفرقة النجارية، إحدى فرق الجبرية. ينظر الملل والنحل ١/ ٨٨.
(٥) في (ب) و(يه): نبيه، ولم تجود في (أ)، والمثبت من (د١) و(ع)، وهو الصواب.
(٦) في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٠٧: وانقسامهم.
(٧) قوله: ذلك، من (يه)، وليس في باقي النسخ، ولم يرد أيضاً في النهر.

النبوة والرسالة؛ إذ مدارُ القرآن على تقرير المسائل الأربع: التوحيد، والقدرة، والمعاد، والنبوة.

و«ربكم» خطابٌ عامٌّ للمؤمن والكافر، وروى بكار بن [السُّقير][1]: «إنَّ ربَّكم اللهَ» بنصب الهاء عطف بيانٍ.

والظاهرُ أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وعلى هذا الظاهرِ فسَّرَ معظمُ الناس، وبدأ بالخلق يومَ الأحد، وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ بيدي رسولُ الله ﷺ فقال: «خَلَقَ اللهُ التربة يومَ السَّبت، وخَلَقَ الجبالَ فيها يومَ الأَحَد، وخَلَقَ الشَّجر يومَ الإثنين، وخَلَقَ المكروهَ يومَ الثلاثاء، وخَلَقَ النُّورَ يومَ الأربعاء، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميس، وخَلَقَ آدمَ بعد العصر من يوم الجمعة آخِرَ الخلق، في آخِرِ ساعةٍ من ساعات يوم الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»[2]، وقال عديُّ بنُ زيدٍ العباديُّ:

قَضَى لستةِ أيامٍ خَلِيقَتَه وكان آخِر يوم صوَّر الرَّجُلا[3]

وهو اختيارُ محمد بن إسحاق[4]، قال ابن الأنباري: هذا إجماعُ أهل العلم.

وقال عبد الله بن سلام وكعبٌ والضَّحاك ومجاهدٌ، واختاره الطبريُّ[5]: بدأ بالخلق يومَ الأحد. وبه يقول أهل التوراة.

وقيل: يومَ الإثنين وبه يقول أهلُ الإنجيل.

---

(١) ما بين حاصرتين وقع مكانه بياض في النسخ، وجاء في مطبوع المحرر الوجيز ٢/٤٠٨ والكلام منه: بكار بن الشقير، وهو تحريف. وسُقير بضم السين وفتح القاف وسكون الياء تليها راء، وبكار بن سُقير البصري المازني، سمع أباه والحسن، ويروي عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما. ينظر التاريخ الكبير ٢/١٢٢، وتوضيح المشتبه ٥/ ١١٥.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٨٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٣٤١)، وينظر ثمة تتمة تخريجه وكلام العلماء في أن الأصح فيه أنه موقوف على كعب الأحبار.

(٣) البيت في كتاب الحيوان للجاحظ ٤/١٩٨، ورسالة الصاهل والشاحج للمعري ص٢٢٤.

(٤) كما في زاد المسير ٣/ ٢١١، وعنه نقل المصنف ما سيرد من أقوال.

(٥) في تفسيره ١٠/ ٢٤٥، وفيه تخريج قول مجاهد.

قال ابن عباس وكعبٌ ومجاهدٌ والضحاك: مقدارُ كلِّ يوم من تلك الأيام ألفُ سنة.

ولا فَرْقَ بين خَلْقِه تعالى ذلك في لحظةٍ واحدةٍ أو في مُدَدٍ متواليةٍ بالنسبة إلى قدرته تعالى، وإبداءُ مَعَانٍ لذلك كما زعمه بعضُ المفسرين قولٌ بلا برهان، فلا نُسوِّد كتابَنا بذكره، وهو تعالى المنفردُ بعلم ذلك.

وذهب بعضُ المفسرين إلى أن التقدير في قوله: «في ستة أيام» في مقدار ستة أيام، فليست ستةُ الأيام أنفسُها وَقَعَ فيها الخلقُ، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [مريم: ٦٢] والمراد: مقدارَ البكرة والعشيِّ في الدنيا؛ لأنه لا ليلَ في الجنة ولا نهارَ، وإنما ذهب هذا الذاهبُ إلى هذا لأنه إنما يمتازُ اليومُ عن الليلة بطلوع الشمس وغروبها، فقبلَ خَلْقِ الشمس والقمر كيف يُعقل خلقُ الأيام؟

والذي أقول: إنه متى أَمْكَنَ حملُ الشيءِ على ظاهره أو على قريبٍ من ظاهره كان أَوْلَى مِن حَمْلِه على ما لا يُسلِّمه[١] العقلُ أو على ما يخالفُ الظاهرَ جملةً، وذلك بأنْ يُجعل قولُه: «في ستةِ أيام» ظرفاً لخَلْقِ الأرض لا ظرفاً لخلق السماوات والأرض، فيكون «في ستة أيام» مُدةً لخلق الأرض بتربتها وجبالها وشجرها ومكروهها ونُورها ودوابِّها وآدمَ عليه السلام، وهذا يطابقُ الحديثَ الثابتَ في الصحيح، وتبقى «ستة أيام» على ظاهرها من العَدَدية، ومن كونها أياماً باعتبارِ امتيازِ اليوم عن الليلة بطلوع الشمس وغروبها.

وأمَّا استواؤه على العرش فَحمَلَه على ظاهره من الاستقرار بذاته على العرش قومٌ، والجمهورُ من السلف: السفيانان ومالكٌ والأوزاعيُّ والليثُ وابنُ المبارك وغيرهم في أحاديث الصفات على الإيمان بها وإمرارِها على ما أراد الله تعالى من غيرِ تعيينِ مرادٍ، وقومٌ تأوَّلوا ذلك على عدَّة تأويلاتٍ، وقال سفيان الثوري: فَعَلَ فِعْلاً في العرش سمَّاه استواءً[٢].

---

(١) تحرفت في (أ) و(د١) و(ع): إلى: يشمله، والمثبت من (ب) و(يه).
(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٠٨.

وعن أبي الفضل ابن النحوي[١] أنه قال: العرشُ مصدرُ: عَرَشَ يَعْرُشُ عَرْشاً، والمراد بالعرش في قوله: «ثم استوى على العرش» هذا.

وهذا ينبو عنه ما تقرَّر في الشريعة من أنه جسمٌ مخلوقٌ معيَّنٌ.

ومسألةُ الاستواء مذكورةٌ في علم أصول الدِّين، وقد أَمْعَنَ في تقرير ما يمكن تقريرُه فيها القفَّال وأبو عبد الله الرازي[٢]، وذكر ذلك في «التحرير» فيطالَع هناك.

ولفظة «العرش» مشتركة بين معانٍ كثيرة:

فالعرشُ سريرُ المَلِك، ومنه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١].

والعرش: السقفُ، وكلُّ ما علا وأظلَّ فهو عرشٌ.

والعرش: المُلْكُ والسلطان والعزُّ، وقال زهير:

تَدَاركتُما عبساً وقد ثُلَّ عرشُها ... وذبيانَ إذ زلَّت بأقدامها النعلُ[٣]

وقال آخر:

إنْ يقتلوكَ فقد ثَلَلْتَ عروشَهم ... بعُتَيْبةَ بنِ الحارث بن شهاب[٤]

والعرش: الخشب الذي تُطْوَى به البئر بعد أن يُطْوَى أسفلُها بالحجارة.

والعرش: أربعةُ كواكبَ صغارٍ أسفلَ من العوَّاء[٥]، يقال لها: عَجُزُ الأسد،

(١) يوسف بن محمد بن يوسف التَّوْزَري الأصل التلمساني، له: القصيدة المنفرجة، مشهورة وعليها عدة شروح، توفي سنة (٥١٣هـ). ينظر بغية الوعاة ٢/ ٣٦٢، وهدية العارفين ٢/ ٥٥١، والأعلام ٨/ ٢٤٧. ونقل المصنف كلامه عن المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٨، وتحرف «الفضل» في مطبوعه إلى: الفضيل.

(٢) ينظر تفسيره ١٤/ ١٠١ ومابعدها.

(٣) ديوان زهير ص١٠٩، والصحاح (عرش)، ورواية الديون:

تداركتما الأخلاقَ قد ثُلَّ عرشها ... وذبيان قد زلَّت ....

(٤) البيت لأبي ذؤاب الأسدي، وقد سلف عند شرح مفردات الآية (٢٥٩) من سورة البقرة.

(٥) العواء: منزل من منازل القمر، خمسة كواكب أو أربعة، ويقال لها: عوَّاء البَرْد، يزعمون أنها إذا طلعت أو سقطت أتت ببرد. الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/ ١٨١.

ويسمَّى: عرشَ السِّماك[١].

والعرش: ما يلاقي ظهرَ القدم وفيه الأصابع.

و«استوى» أيضاً يُستعمل بمعنى استقرَّ، وبمعنى علا، وبمعنى قَصَدَ، وبمعنى ساوَى، وبمعنى تَسَاوَى، وقيل: بمعنى استَوْلى، وأنشدوا:

هما استويا بفضلهما جميعاً على عرش الملوك بغير زُورِ[٢]

وقال ابن الأعرابي: لا نعرفُ «استوى» بمعنى «استولى»[٣].

والضمير في قوله: «ثم استوى على العرش» يحتمل أن يعود على المصدر الذي دلَّ عليه «خلق»، أي: ثم استوى خَلْقُه على العرش، وكذلك في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] لا يتعيَّن حملُ الضمير في قوله: «استوى» على «الرحمن» إذ يحتملُ أن يكون «الرحمن» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، والضميرُ في «استوى» عائدٌ على الخَلْقِ المفهوم من قوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤] أي: هو الرحمنُ استوى خَلْقُه على العرش؛ لأنه تعالى لمَّا ذَكَرَ خَلْقَ السماوات والأرض ذَكَر خلقَ ما هو أكبرُ وأعظمُ وأوسعُ من السماوات والأرض.

ومع الاحتمال في «العرش» وفي «استوى» وفي الضمير العائد لا يتعيَّنُ حملُ الآية على ظاهرها، هذا مع الدلائل العقلية التي أقاموها على استحالة ذلك.

وقال الحسن: استوى أمرُه[٤].

وسأل مالكَ بن أنس رجلٌ عن هذه الآية فقال: كيف استوى؟ فأطرق رأسَه مليًّا، وعَلَتْه الرُّحَضاء[٥]، ثم قال: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ

---

(١) السماك يقال لنجمين نيِّرين هما: الأعزل والرامح، وسمي رامحاً لكوكب صغير بين يديه يقال له: راية السماك، والآخر سمي بالأعزل لأنه لا شيء بين يديه كأنه لا سلاح معه، والقمر ينزل بالأعزل ولا ينزل بالرامح. الأزمنة والأمكنة ١/ ١٨١.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢١٣.

(٣) تاريخ بغداد ٥/ ٨٣، وزاد المسير ٣/ ٢١٣.

(٤) سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩].

(٥) عَرَقٌ يغسل الجلد كثرة. القاموس (رحض).

به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ، وما أظنُّك إلا ضالّاً. ثم أمر به فأُخرج[(١)].

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ التغشيةُ: التغطية، والمعنى: أنه يُذهب الليلُ نورَ النهار ليَتمَّ قِوَامُ الحياة في الدنيا بمجيء الليل والنهار، فالليلُ للسكون والنهارُ للحركة، وفحوى الكلام يدل على أن النهارَ يُغشيه اللهُ الليلَ، وهما مفعولان، لأن التضعيف والهمزة مُعَدِّيان.

وقرأ بالتضعيف الأخوان وأبو بكر، وبإسكان الغين باقي السبعة[(٢)].

وبفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وضم اللام حميد بن قيس، كذا قال عنه أبو عَمرو الداني، وقال أبو الفتح عثمان بن جنِّي عن حميد بنصب «الليل» ورفع «النهار»، قال ابن عطية[(٣)]: وأبو الفتح أثبت. انتهى.

وهذا الذي قاله من أنَّ أبا الفتح أثبتُ، كلامٌ لا يصح، إذ رتبةُ أبي عمرو الداني في القراءات ومعرفتها وضبطِ رواياتها واختصاصُه بذلك بالمكان الذي لا يُدانيه أحدٌ من أئمة القراءات، فضلاً عن النُّحاة الذين ليسوا مُقْرِئين ولا رَوَوا القرآن عن أحدٍ ولا رُوي عنهم القرآن، هذا مع الديانة الزائدة والتثبُّتِ في النقل وعدم التجاسُر ووفورِ الحظِّ من العربية، فقد رأيتُ له كتاباً في «كلَّا» وكتاباً في إدغام أبي عمرو الكبير دالّاً على اطِّلاعه على ما لا يكاد يطَّلعُ عليه أئمةُ النحاة ولا المقرئين، إلى سائر تصانيفه رحمه الله.

والذي نقله أبو عَمرو الداني عن حميد أمكنُ من حيث المعنى؛ لأنَّ ذلك موافقٌ لقراءة الجماعة؛ إذ «الليل» في قراءتهم وإن كان منصوباً، هو الفاعلُ من حيث المعنى؛ إذ همزةُ النقل أو التضعيفُ صيَّره مفعولاً، ولا يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً من حيث المعنى؛ لأن المنصوبَيْن تعدَّى إليهما الفعلُ وأحدُهما فاعلٌ من حيث المعنى، فيلزمُ أن يكون الأولَ منهما، كما لزم ذلك في: ملَّكتُ زيداً عَمْراً، إذ رتبةُ التقديم هي الموضِّحةُ أنه الفاعلُ من حيث المعنى، كما لزم ذلك في: ضَرَبَ موسى عيسى.

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٧).

(٢) السبعة ص٢٨٢، والتيسير ص١١٠.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/٤٠٩، وما قبله منه، وكلام ابن جني في المحتسب ١/٢٥٣.

والجملةُ من «يَطْلُبه» حالٌ من الفاعل من حيث المعنى وهو «الليل» إذ هو المحدَّثُ عنه قبل التعدية، وتقديره: حاثّاً، ويجوز أن يكون حالاً من النهار، وتقديره: محثوثاً، ويجوز أن يَنْتَصِبَ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: طلباً حثيثاً، أي: حاثًا أو محثوثاً[1].

ونسبةُ الطلب إلى الليل مَجازِيَّةٌ، وهو عبارةٌ عن تعاقُبِه اللازِم، فكأنه طالبٌ له لا يدركُه، بل هو في أثره بحيث يكاد يُدْرِكه.

وقدَّم الليلَ هنا كما قدَّمه في ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾[2] وفي ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: ٤٠] وفي: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١].

وقال أبو عبد الله الرازي: وَصَفَ هذه الحركةَ بالسرعة والشدة لأنَّ تعاقُبَ الليل والنهار يحصُلُ بحركة الفَلَكِ الأعظم، وتلك الحركةُ أشدُّ الحركات سرعةً وأكملُها شدَّةً، حتى إنَّ الباحثينَ عن أحوال الموجودات قالوا: الإنسانُ إذا كان في العَدْوِ الشديد الكامل قبل أن يرفع رِجْلَه ويضعَها يتحرّك الفلكُ الأعظم ثلاثةَ آلافِ ميلٍ، ولهذا قال: «يطلبه حثيثاً» ونظيرُه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ الآية [يس: ٤٠] شبَّه ذلك المسيرَ وتلك الحركةَ بالسِّباحة في الماء، والمقصودُ التنبيهُ على السرعة والسهولة وكمالِ الاتِّصال[3]. انتهى وفيه بعضُ تلخيصٍ.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ انتصب «مسخَّرات» على الحال من المجموع، أي: وخَلَق الشمسَ.

---

(١) في (أ): محثا، وفي (د١): محيثاً، وسقطت الجملة من (ع)، والمثبت من (ب) و(يه). وكلام المصنف هنا فيه شيء من الغموض واللبس، وكلام السمين في الدر المصون ٥/ ٣٤٢ أوضح منه، ونصه: قوله: «يطلبه» حال من «الليل» لأنه هو المحدث عنه، أي: يَغْشَ النهارَ طالباً له، ويجوز أن يكون من «النهار»، أي: مطلوباً. و«حثيثاً» يحتمل أن يكون نعتَ مصدرٍ محذوف، أي: طلباً حثيثاً، وأن يكون حالاً من فاعل «يطلبه»، أي: حاثًا، أو من مفعوله، أي: محثوثاً.

(٢) ورد ذلك في أربع آيات، وهي: الآية (٦١) من سورة الحج، والآية (٢٩) من سورة لقمان، والآية (١٣) من سورة فاطر، والآية (٦) من سورة الحديد.

(٣) تفسير الرازي ١٤/ ١١٨.

وقرأ ابن عامر بالرفع في الأربعة على الابتداء والخبر[١]، وقرأ أبان بن تغلب برفع «والنجومُ مسخراتٌ» فقط على الابتداء والخبر[٢].

ومعنى «بأمره»: بمشيئته وتصريفه، وهو متعلِّق بـ«مسخرات» أي: خلقهنَّ جارياتٍ بمقتضَى حكمتهِ وتدبيرِه وكما يريد أن يُصرِّفها، سُمِّي ذلك أمراً على التشبيه كأنهنَّ مأموراتٌ بذلك.

وقال أبو عبد الله الرازي: الشمس لها نوعان من الحركة:

أحدهما: بحسب ذاتها، وذلك يَتمُّ في سنةٍ كاملةٍ، وبسبب ذلك تَحْصُلُ السنة.

والثاني: حركتُها بحسب حركة الفلك الأعظم، ويتم في اليوم بليلته.

فنقول: الليلُ والنهارُ لا يَحْصُلان بحركة الشمس، وإنما يَحصلان بحركة السماء الأقصى الذي يقال له: العرش، فلهذا السببِ لمَّا دلَّ على العرش بقوله: «ثم استوى على العرش» رَبَطه بقوله[٣]: «يُغْشي الليلَ النهار» تنبيهاً على أنَّ حدوث الليل والنهار إنما يَحْصُلُ بحركة العرش، «والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره» تنبيهاً على أنَّ الفلك الأعظم وهو العرشُ يحرِّك الأفلاكَ والكواكبَ على خلافِ طبعها من المشرق إلى المغرب، وأنه تعالى أَوْدَعَ في جِرْم الشمس قوةً قاهرةً باعتبارها قَوِيَتْ على قهر جميع الأفلاك والكواكب، وتحريكِها على خلافِ مقتضَى طبائعها، فهذه أبحاثٌ معقولةٌ ولفظُ القرآن مُشْعِرٌ بها، والعلمُ عند الله[٤]. انتهى.

وتكلَّم في قوله: «مسخرات بأمره» كلاماً كثيراً هو من عِلْمِ الهيئة، وهو علمٌ لم ننظر فيه، قال أربابه: وهو علمٌ شريفٌ يُطَّلعُ فيه على جزئيَّاتٍ غريبةٍ من صنعة الله تعالى يزدادُ بها إيمانُ المؤمن؛ إذ المعرفةُ بجزئيَّات الأشياء وتفاصيلِها ليست كالمعرفة بجمليَّتِها.

---

(١) السبعة ص٢٨٢، والتيسير ص١١٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٠٩، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤ عن محمد بن الحنفية.
(٣) في المطبوع: وربط بقوله، وهو خطأ، وفي (أ) و(ب) و(د١) و(ع): ربط بقوله، والمثبت من (يه)، وجاء في تفسير الرازي: ربط به قوله.
(٤) تفسير الرازي ١٤/ ١١٨ و١٢٠.

وقيل: «بأمره»، أي: ينقادُ بإرادته[١]؛ إذ المقصودُ تبيينُ عظيم قدرته لقوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٤٠].

وقيل: الأمرُ هنا[٢]: الكلام.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ لمَّا تقدَّم ذكرُ خَلْقِ السماوات والأرضِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ وأمره فيها قال ذلك، أي: له الايجادُ والاختراعُ، وجَرَى ما خَلَقَ واخْتَرع على ما يريدُه وبما يأمُر به، لا أحد يَشْرَكُه في ذلك ولا في شيءٍ منه.

وقيل: «الخلق» بمعنى المخلوق و«الأمر» مصدرٌ من: أَمَرَ، أي: المخلوقاتُ كلُّها له وملكُه واختراعُه، وعلى هذا قال النقَّاش وغيرُه: الآيةُ ردٌّ على القائلين بخَلْقِ القرآن؛ لأنه فُرِّق بين المخلوقات وبين الكلام؛ إذ «الأمر» كلامُه[٣]. انتهى.

وهو استدلالٌ ضعيفٌ إذ لا يتعيَّنُ حَمْلُ اللفظ على ما ذكر، بل الأظهَرُ خلافُه.

وقال الشعبيُّ: «الخلق» عبارةٌ عن الدنيا، و«الأمر» عبارةٌ عن الآخرة[٤].

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: علا وعَظُمَ، ولمَّا تقدَّم «إنَّ ربَّكم الله» صَدْرَ الآية، جاء آخرها: «فتبارك[٥] الله ربُّ العالمين» وجاء «العالمين» أعمّ من: ربكم، لأنه ذكر خَلْقَ تلك الأشياءِ البديعة وهي عوالمُ كثيرةٌ، فجاء «العالمين» جمعاً لجميع العوالم، وانْدَرَج فيه المخاطَبون بـ: ربكم وغيرُهم.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ الظاهرُ أنَّ الدعاء هو مناجاةُ الله بندائه لطَلَبِ أشياءَ ولدَفْعِ أشياء، وقال الزجَّاج: المعنى: اعبدوا[٦].

وانتصب «تضرُّعاً وخفيةً» على الحال، أي: متضرِّعين ومُخْفين، أو: ذوي تضرُّعٍ واختفاءٍ في دعائكم، وفي الحديث الصحيح: «إنَّكم لستُم تَدْعون أصمَّ

(١) في (أ) و(د١) و(ع): بنفاذ إرادته، والمثبت من (ب) و(يه).
(٢) في (أ) و(ب) و(د١) و(ع): هو، والمثبت من (يه).
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) كذا في النسخ، والآية هنا: تبارك، دون فاء، والتي بالفاء هي الآية (٦٤) من سورة غافر.
(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٤.

ولا غائباً، إنكم تَدْعُون سميعاً قريباً»(١) وكان الصحابة حين أخبرهم الرسولُ بذلك قد جَهَروا بالذِّكر.

أَمَرَ تعالى بالدعاء مقروناً بالتذلُّل والاستكانة والاختفاء، إذ ذاك أدْعَى للإجابة وأبعدُ عن الرياء، والدعاءُ خُفيةً أفضلُ من الجهر، ولذلك أثنى الله على زكريَّا ﷺ فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، وفي الحديث: «خيرُ الذِّكر الخفيُّ»(٢)، وقواعدُ الشريعة مقرِّرة أنَّ السرَّ فيما لم يُفْتَرضْ من أعمال البرِّ أعظمُ أجراً من الجهر.

قال الحسن: أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عملٌ يقدرون أن يكون سرّاً فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يُسمع لهم صوتٌ، إنْ هو إلا الهمسُ بينهم وبين ربِّهم(٣). انتهى.

ولو عاش الحسنُ إلى هذا الزمانِ العجيبِ الذي ظَهَرَ فيه ناسٌ يَتَسمَّوْنَ بالمشايخ، يَلْبَسون ثيابَ شهرةٍ عند العامَّة بالصَّلاح ويتركون الاكتسابَ، ويرتِّبون لهم أذكاراً لم تَرِدْ في الشريعة يَجْهَرون بها في المساجد، ويَجْمَعون لهم خُدَّاماً يجلبون الناسَ إليهم لاستخدامهم ونَتْشِ أموالهم، ويُذيعون عنهم كراماتٍ، ويَرَوْن لهم مناماتٍ يدوِّنونها في أسفارٍ، ويحضُّون على ترك العلم والاشتغالِ بالسنَّة، ويَرَوْن الوصولَ إلى الله بأمورٍ يقرِّرونها من خلواتٍ وأذكارٍ لم يأت بها كتابٌ مُنزلٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ، ويتعاظَمون على الناس بالانفراد على سجَّادةٍ، ونصبِ أيديهم للتقبيل، وقلَّةِ الكلام، وإطراقِ الرؤوس، وتعيينِ خادمٍ يقول: الشيخُ مشغولٌ في الخلوة، رَسَم الشيخُ، قال الشيخُ، رأى الشيخُ، الشيخُ له نَظَرٌ إليك، الشيخُ كان البارحةَ يَذْكُرك، إلى نحوٍ من هذه الألفاظ التي يَخيشون(٤) بها على العامَّة،

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٤٧٧)، وابن حبان (٨٠٩) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن سعد بن أبي وقاص ﷺ عن النبي ﷺ. قال محققو المسند: إسناده ضعيف، محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة ضعيف، ثم هو لم يدرك سعداً.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٠)، والطبري ١٠/ ٢٤٧-٢٤٨.

(٤) أي: يدخلون، في اللسان (خوش): خاش الرجل: دخل في غُمار الناس.

ويَجْلبون بها عقولَ الجَهَلة، هذا إنْ سَلِمَ الشيخُ وخادمُه من الاعتقاد الذي غَلَبَ الآن على متصوِّفة هذا الزمان من القول بالحلول، أو القولِ بالوحدة، فإذ ذاك يكون منسلِخاً عن شريعة الإسلام بالكلِّية، والعَجَبُ لِمِثْلِ هؤلاء كيف تُرتَّبُ لهم الرواتبُ، وتُبْنَى لهم الرُّبُط، وتُوْقَفُ عليهم الأوقاف، ويخدمهم الناسُ في عُرُوِّهم عن سائر الفضائل، ولكنَّ الناسَ أقربُ إلى أشباههم منهم إلى غيرِ أشباههم، وقد أَطَلْنا في هذا رجاءَ أنْ يقف عليه مسلمٌ فينتفعَ به.

وقرأ أبو بكر بكسر ضمة الخاء[١]، وهما لغتان. وقيل: «خِفْية» بكسر الخاء بمعنى الخوف والرهبة، ويَظْهَر ذلك من كلام أبي عليّ[٢]، ولا يتأتَّى إلَّا على ادِّعاء القَلْب[٣]، وهو خلافُ الأصل، ونقل ابن سِيْدَه في «المحكم» أنَّ فرقةً قرأت: و«خِيفةً» من الخوف، أي: ادْعُوه باستكانةٍ وخوفٍ، وقال أبو حاتم: قرأها الأعمش فيما زعموا[٤].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ قرأ ابنُ أبي عبلة: «إنَّ الله»، جَعَل مكانَ المُضْمَرِ المُظْهَرَ[٥].

وهذا اللفظُ عامٌّ يدخل فيه أولاً الدعاءُ على غير هذين الوجهين من عدم التضرُّع وعدم الخفية، بأنْ يَدْعُوَه وهو مُلْتبِسٌ بالكِبْر والزَّهْوِ، أو أنَّ ذلك دأبُه في المواعيد والمدارس فصار ذلك له صنعةً وعادةً فلا يلحقه تضرُّعٌ ولا تذلُّلٌ، وبأنْ يَدْعُوَه بالجهر البليغ والصياحِ، كدعاء الناس عند الاجتماع في المشاهِدِ والمَزارات.

وقال العلماء: الاعتداءُ في الدعاء على وجوه، منها: الجهرُ الكثير والصِّياح،

(١) السبعة ص٢٨٣، والتيسير ص١٠٣.
(٢) في الحجة ٤/ ٣٠، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر ٢/ ٤١٠. وجاء في مطبوع الحجة: الخِيْفة، بدل: الخِفْية، وهو خطأ، والصواب الموافق لما نقله المصنف عن ابن عطية: الخِفْية، كما جاء في إحدى نسخ الحجة في حواشيه.
(٣) أي: أن يُعتقد تقدم اللام على العين، أي: أن الأصل: خِيفة، فتقدمت الفاء على الياء فأصبحت: خِفْية. ينظر الدر المصون ٥/ ٣٤٤.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠.
(٥) المصدر السابق.

وأنْ يدعُوَ أن يكونَ له منزلةُ نبيٍّ، وأنْ يدعوَ بمُحَالٍ ونحوِه من الشَّطَط، وأنْ يدعُوَ طالباً معصيةً.

وقال ابن جُرَيجٍ والكلبيُّ: الاعتداءُ رفعُ الصوت بالدعاء[١]. وعنه[٢]: الصياحُ في الدعاء مكروهٌ وبِدعةٌ.

وقيل: هو الإسهابُ في الدعاء؛ قال القرطبي وقد ذكر وجوهاً من الاعتداء في الدعاء، قال: ومنها أن يدعُوَ بما ليس في الكتاب العزيز ولا في السنَّة، فيتخيَّرَ ألفاظاً مُقَفَّاةً وكلماتٍ مُسجَّعةً، قد وجدها في كراريس لهؤلاء -يعني المشائخ- لا معوَّل عليها، فيجعلُها شعارَه ويتركُ ما دعا به رسولُ الله ﷺ وكل هذا يمنعُ من استجابة الدعاء[٣].

وقال ابن جُبير: الاعتداءُ في الدعاء أن يدعو على المؤمنين بالخِزْي والشِّرك واللعنة[٤].

وفي «سنن» ابن ماجه: أنَّ عبد الله بن مُغَفَّلٍ سمع ابنَه يقول: اللهم إنِّي أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها، فقال: أيْ بُني سَلِ اللهَ الجنةَ وعُذْ به من النار، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء»[٥].

زاد ابن عطية والزمخشريُّ في هذا الحديث: «وحَسْبُ المرء أن يقول: اللهمَّ إني أسألك الجنةَ وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل، وأعوذُ بك من النار وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل» ثم قرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾[٦].

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ١٣٢، وذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٨٣ عن ابن جريج وحده.

(٢) أي: عن ابن جريج كما في الكشاف ٢/ ٨٣، وعنه نقل المصنف، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤٩/١٠.

(٣) تفسير القرطبي ٢٤٨/٩.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٠٠، وفيه: بالشر، مكان: بالشرك، وهو الصواب، فإن الدعاء على المؤمنين بالشرك كفرٌ والعياذ بالله.

(٥) سنن ابن ماجه (٣٨٦٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦٨٠١)، وأبو داود (٩٦)، وعندهما: . . . في الدعاء والطهور.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠، والكشاف ٢/ ٨٣، وهذه قطعة من حديث آخر أخرجه أحمد (١٤٨٣) في قصة جرت بين سعد بن أبي وقاص ﷺ وابنه، شبيهةٍ بقصة عبد الله بن مغفل ﷺ مع ابنه.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ هذا نهيٌ عن إيقاع الفساد في الأرض وإدخالِ ماهيته في الوجود، فيتعلَّق بجميع أنواعه من إفساد النفوسِ والأنسابِ والأموالِ والعقولِ والأديانِ، ومعنى «بعد إصلاحها»: بعد أنْ أَصْلَح الله خَلْقَها على الوجه الملائم لمنافع الخَلْقِ ومصالحِ المكلَّفين، وما رُوي عن المفسِّرين من تعيين نوعِ الإفساد والإصلاح ينبغي أن يُحْمَلَ ذلك على التمثيل؛ إذ ادِّعاءُ تخصيصِ شيءٍ من ذلك لا دليلَ عليه، كالظلم بعد العدل، أو الكفرِ بعد الإيمان، أو المعصيةِ بعد الطاعة، أو بالمعصية فيمسِكُ اللهُ المطرَ ويُهْلِكُ الحرثَ بعد إصلاحها بالمطر والخِصْب، أو بقتل المؤمن بعد بقائه، أو بتكذيب الرُّسل بعد الوحي[(١)]، أو بتغوير الماءِ المَعين وقطع الشجر والثمر ضراراً، أو بقطع الدنانير والدراهم، أو بتجارة الحكَّام، أو بالإشراك بالله بعد بعثة الرسل وتقريرِ الشرائع وإيضاحِ الملة[(٢)].

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ لمَّا كان الدعاء من الله بمكانٍ كرَّره، فقال أولاً: «ادعوا ربَّكم تضرُّعاً وخُفية»، وهاتان الحالتان من الأوصاف الظاهرة؛ لأنَّ الخشوع والاستكانة وإخفاءَ الصوت ليست من الأفعال القلبية، ثم كرَّر الأمر بالدعاء خوفاً وطمعاً، وهما من الأفعال القلبية، أي: وَجِلينَ مُشْفِقينَ وراجِينَ مؤمِّلين، فبدأ أولاً بأفعال الجوارح ثم ثانياً بأفعال القلوب.

وانتصب «خوفاً وطمعاً» على أنهما مَصْدَران في موضع الحال، أو انتصابَ المفعول له.

وعَطْفُ أحدهما على الآخر يقتضي أن يكون الخوفُ والرجاءُ متساويَيْنِ فيكونان للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة، فإن انفرد أحدُهما هَلَكَ الإنسانُ، وقد قال كثيرٌ من العلماء: ينبغي أن يَغْلِبَ الخوفُ الرجاءَ طولَ الحياةَ، فإذا جاءُ الموتُ غَلَبَ الرجاءُ، ورأى كثيرٌ من العلماء أن يكون الخوفُ أغلبَ، ومنه تمنَّى الحسن البصريُّ أن يكون الرجلَ الذي هو آخِرُ مَن يدخلُ

---

(١) هذه ستة أقوالٍ في الآية ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢١٥-٢١٦.
(٢) هذه الأقوال ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠، والأول عن الضحاك، ولفظه: لا تغوِّروا الماء المعين، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضراراً. ونقله عنه القرطبي ٩/ ٢٤٩، وفي مطبوعه: لا تعوِّروا...، وتعوير عيون المياه: دفنها وسدُّها. ينظر اللسان (عور).

الجنة، وتمنَّى سالمٌ مولى أبي حذيفةَ أن يكون من أصحاب الأعراف؛ لأنَّ مذهبه أنهم مُذْنبون[(١)]. وسالمٌ هذا من رتبة الدِّين والفضل بحيث قال فيه عمر بن الخطاب كلاماً معناه: لو كان سالم مولى أبي حذيفةَ حيًّا لولَّيْتُه الخلافة[(٢)].

وأَبْعَدَ مَن ذَهَبَ إلى أنَّ المعنى: خوفاً من الردِّ وطمعاً في الإجابة.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قال الزمخشريُّ: كقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢][(٣)]. انتهى، يعني أنَّ الرحمة مختصَّةٌ بالمُحْسِنِ، وهو مَن تابَ وآمَنَ وعمل صالحاً، وهذا كلُّه حملٌ للقرآن دائماً[(٤)] على مذهبه من الاعتزال.

والرحمة مؤنَّثةٌ، فقياسُها أنْ يُخْبَر عنها إخبارَ المؤنَّث فيقالَ: قريبة.

فقيل: ذكَّر على المعنى؛ لأنَّ الرحمة بمعنى الرَّحْمِ والترحُّم.

وقيل: ذكَّر لأنَّ الرحمة بمعنى الغفران والعفو، قاله النَّضْرُ بن شُمَيْلٍ، واختاره الزجَّاج[(٥)].

وقيل: بمعنى المطر؛ قاله الأخفش[(٦)]، أو الثواب قاله ابن جبير[(٧)].

فالرحمةُ في هذه الأقوال بدلٌ عن مذكَّر.

وقيل: التذكير على طريق النَّسَب، أي: ذاتُ قُرْبٍ.

وقيل: «قريب» نعتٌ لمذكَّرٍ محذوف، أي: شيء قريب.

وقيل: «قريبٌ» مشبَّهٌ بفَعيل الذي هو بمعنى مفعول، نحو: خَضيب وجَريح،

---

(١) نقل المصنف هذه الأقوال عن المحرر الوجيز ٢/ ٤١١، وخبر تمني سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف سلف عند تفسير الآية (٤٩) من هذه السورة.
(٢) أخرجه الطبري في التاريخ ٤/ ٢٢٧.
(٣) الكشاف ٢/ ٨٣.
(٤) تحرفت في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: وإنما، ولم تجود في (ب)، والمثبت من (يه).
(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٤٤.
(٦) في معاني القرآن ٢/ ٥١٩.
(٧) تفسير البغوي ٢/ ١٦٦.

كما شبّه فعيلٌ به فقَبِلَ شيئاً من أحكامه، فقيل في جمعه: فُعَلاء كأسيرٍ وأُسَراء، وقتيلٍ وقُتَلاء، كما قالوا: رحيم ورُحَماء وعليم وعُلماء.

وقيل: هو مصدر جاء على فعيل، كالضَّغيث وهو صوتُ الأرنب، والنقيق، وإذا كان مصدراً صحَّ أن يُخْبَرَ به عن المذكَّر والمؤنَّث والمفردِ والمثنَّى والمجموع بلفظ المصدر.

وقيل: لأن تأنيث الرحمة غيرُ حقيقيٍّ؛ قاله الجوهري[1]، وهذا ليس بجيدٍ إلَّا مع تقدُّم الفعل، أمَّا إذا تأخَّر فلا يجوزُ إلا التأنيثُ، تقول: الشمس طالعةٌ، ولا يجوز: طالعٌ إلَّا في ضرورة الشعر، بخلاف التقديم فيجوزُ: أطالعةٌ الشمسُ، و: أطالعٌ الشمسُ، كما يجوز: طلعت الشمس، و: طلع الشمس، ولا يجوز: الشمس طلع، إلا في الشعر.

وقيل: فعيلٌ هنا بمعنى المفعول، أي: مقرَّبةٌ، فيصير من باب: كفٌّ خَضيبٌ، و: عينٌ كَحيلٌ؛ قاله الكرمانيُّ، وليس بجيدٍ؛ لأن ما ورد من ذلك إنما هو من الثلاثيِّ غيرِ المزيد، وهذا بمعنى: مقرَّبة، فهو من الثلاثيِّ المزيد، ومع ذلك فهو لا ينقاس.

وقال الفراء: إذا استُعمل في النسب والقرابة فهو مع المؤنَّث بتاءٍ ولا بد، تقول: هذه قريبةُ فلان، وإذا استُعملت في قرب المسافة أو الزَّمن فقد تجيءُ مع المؤنث بتاءٍ وقد تجيءُ بغيرِ تاءٍ، تقول: دارُك منِّي قريبٌ، وفلانةُ منَّا قريبٌ، ومنه هذا، وقولُ الشاعر:

عَشِيَّةَ لا عفراءُ منك قريبةٌ ... فتدنو ولا عفراءُ منك بعيدُ[2]

---

(١) في الصحاح (قرب).

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٠-٣٨١، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٤٥ (بعد)، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١١، وزاد المسير ٣/ ٢١٦، واللسان (بعد)، وجميعهم نقلوه عن الفراء، وعزاه الفراء لعروة، وهو ابن حزام كما سيرد. وذكره الأزهري أيضاً في تهذيب اللغة ٩/ ١٢٥ (قرب)، وصاحب اللسان (قرب) برواية:

ليالي لا عفراء منك بعيدة ... فتسلو ولا عفراء منك قريب

وكذا ورد البيت عن عروة في الأغاني ٢٤/ ١٥٥ ضمن قصيدة على رَويِّ الباء، وفيه: عشية لا عفراء...

فجمَعَ في هذا البيت بين الوجهين.

قال ابن عطية: هذا قولُ الفرَّاء في كتابه، وقد مرَّ في كتب بعض المفسِّرين مغيَّراً[١]. انتهى.

وردَّ الزجَّاج هذا على الفرَّاء وقال: هذا خطأ؛ لأن سبيل المذكَّر والمؤنَّث أن يجريا على أفعالهما[٢].

وقال مَن احتجَّ له: كذا[٣] كلام العرب، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] وقال الشاعر:

له الويلُ إنْ أمسى ولا أمُّ هاشمٍ قريبٌ ولا البَسْباسةُ ابنةُ يَشْكُرَا[٤]

وقال أبو عبيدة: «قريب» في الآية ليس بصفةٍ للرحمة، وإنما هو ظرفٌ لها وموضعٌ، فتجيء هكذا في المؤنَّث والاثنين والجمع، وكذلك بعيدٌ، فإذا جعلوها صفةً بمعنى مقتربة قالوا: قريبةٌ وقريبتان وقريبات[٥].

قال علي بن سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان «قريب» منصوباً، كما تقول: إن زيداً قريباً منك[٦]. انتهى.

وليس بخطأ؛ لأنه يكون قد اتَّسَعَ في الظرف فاستعمله غيرَ ظرفٍ، كما تقول: هندٌ خَلْفُك، و: فاطمة أمامُك، بالرفع إذا اتَّسعْتَ في الخلف والأمام، وإنما يلزمُ النصبُ إذا بَقِيَتَا على الظرفية ولم يُتَّسع فيهما، وقد أجازوا: إنَّ قريباً منك زيدٌ، على أن يكون «قريباً» اسمَ «إنَّ» و«زيد» الخبر، فاتُّسع في «قريب» واستُعمل اسماً لا منصوباً على الظرف.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤١١، ووقع في مطبوعه: مقيداً، مكان: مغيراً.

(٢) معاني القرآن للزجاج٢/ ٢٤٥ بنحوه، واللفظُ من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٢، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٥١.

(٣) في (د١) والمطبوع: هذا، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس وتفسير القرطبي.

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٨.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٢١٦-٢١٧، والمحرر الوجيز٢/ ٤١١، والكلام منه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٢، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٥١. وعلي بن سليمان هو أبو الحسن المعروف بالأخفش الأصغر.

والظاهرُ عدمُ تقييد قُرْبِ الرحمة من المُحْسِنِ بزمانٍ، بل هي قريبٌ منه مطلقاً، وذكر الطبريُّ أنه وقتَ مفارَقةِ الأرواح للأجساد تنالُهم الرحمة(١).

❋ ❋ ❋

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ
كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ
إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن
جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ
عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ
جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا
تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ
أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى
مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٢٥٠.

جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا
وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا
مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا
بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ
ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ
وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ
وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ
أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

في المفردات

أقلَّ الشيءَ: حَمَله ورفَعه من غير مشقَّةٍ، ومنه: إقلالُ البطن عن الفخذ في الركوع والسجود، ومنه: القلَّة؛ لأنَّ البعير يحملُها من غيرِ مشقَّةٍ، وأصلُه من القِلَّة فكان المُقِلُّ يَرَى ما يرفعُه قليلاً، واستقلَّ به: أَقَلَّه.

السَّوْق: حملُ الشيءِ بعنف.

النَّكِد: العَسِر القليل(١)؛ قال الشاعر:

---

(١) في (ب) و(يه): العسر الأخلاق، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، وفيه: العسير القليل. وهو قريب مما قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢١٧، قال: «نَكِداً»، أي: قليلاً عسيراً في شدة.

لا تُنْجِزُ الوعدَ إنْ وعدْتَ وإن أَعْطَيتَ أَعْطَيْتَ تافهاً نَكِدَا[١]

ونُكِدَ الرجلُ: سُئِلَ إلحافاً وأُخْجِلَ؛ قال الشاعر:

وأَعْطِ ما أَعْطَيْتَه طيِّباً لا خيرَ في المنكود والناكِدِ[٢]

الآلاء: النِّعم، واحدها: إلَىً كـ: مِعىً؛ أنشد الزجَّاج:

أبيضُ لا يرهَبُ الهُزالَ ولا يقطَعُ رُحْمَى ولا يخونُ إلَى[٣]

وإلىً: إنىً بمعنى الوقت[٤]، أو ألىً كـ: قَفاً، أو إلْيٌ كـ: حِسْي، أو ألْوٌ كجَرْوٍ[٥].

«وقع» قال النَّضر بنُ شُمَيْل: قَرَعَ وصَدَع كوقوع المِيْقَعة، وقال غيره: نزل، والواقعة: النازِلةُ من الشدائد، والوقائع: الحروب، والمِيْقَعة: المِطْرقة؛ قال بعض أدبائنا:

ذو الفضل كالتِّبْر طَوْراً تحت ميقعةٍ وتارةً في ذُرَى تاجٍ على مَلِكِ[٦]

«ثمود» اسمُ قبيلةٍ سميِّت باسم أبيها، ويأتي ذكرُه في التفسير إن شاء الله.

الناقة: الأنثى من الجمال، وأَلِفُها منقلبة عن الواو، وجمعُها في القلَّة: أَنْوُقٌ

---

(١) البيت دون نسبة في مجاز القرآن ١/ ٢١٧، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٥٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، وزاد المسير ٣/ ٢٢٠.

(٢) أورده صاحب الأغاني ٦/ ٤٨ ضمن قصيدة طويلة لأعشى همدان قالها في عبد الرحمن بن الأشعث، وهو دون نسبة في العين ٥/ ٣٣١، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٥٧، والنكت والعيون ٢/ ٢٣٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، وأساس البلاغة واللسان والتاج (نكد).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٨، والبيت للأعشى ميمون بن قيس، وهو في ديوانه ص٢٨٥، وجاء في المصدرين: رِحماً، بدل: رُحْمى.

(٤) أي: «إلىً» مثلُ «إنىً» في تصاريف المفرد والجمع. ينظر الدر المصون ٥/ ٣٦٠. وقد سقطت كلمة «إلى» من بعض النسخ، وكلمة «إنى» من بعضها الآخر، ووردتا مجموعتين في (ب) وحدها.

(٥) هذه كلها مفرد الآلاء: إلىً وألىً وإلْيٌ وألْوٌ، وزاد في القاموس: أَلْيٌ، وفي الدر المصون ٥/ ٣٦٠: أُلْيٌ، كـ: قُفْل.

(٦) البيت لابن حزم، كما في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١/ ١٧٤، ومعجم الأدباء ١٢/ ٢٤٥، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٠٨.

وأَيْنُقٌ، وفيه القلبُ والإبدال، وفي الكثرة: نِيَاقٌ ونُوقٌ، واستَنْوَقَ الجملُ: إذا صار يُشْبِهُ الناقةَ.

السَّهْل: ما لان من الأرض وانخفض، وهو ضدُّ الحَزْن.

القَصْر: الدار التي قُصِرَت على بقعةٍ من الأرض مخصوصةٍ، بخلافِ بيوت العمود، سمِّي بذلك لقصور الناس عن ارتقائه، أو لقصورِ عامَّتهم عن بنائه.

النَّحْت: النَّجْر والنشر في الشيءِ الصلب كالحجر والخشب، قال الشاعر:

أمَّا النهارُ ففي قيدٍ وسلسلةٍ والليلُ في بطنِ منحوتٍ من السَّاجِ[1]

عَقَرْتُ الناقةَ: قتلتُها، فهي معقورةٌ وعقيرٌ، ومنه: «مَنْ عُقِرَ جواده» قاله ابن قتيبة[2].

وقال الأزهري[3]: العَقْر عند العرب: كَسْفُ[4] عُرقوب البعير، ولمَّا كان سبباً للنحر أُطلق العَقْرُ على النحر إطلاقاً لاسم السَّبب على المُسبَّب وإن لم يكن هناك قطعٌ للعرقوب، قال امرؤ لقيس:

ويومَ عَقَرْتُ للعذارى مَطِيَّتي[5]

(١) البيت دون نسبة في الجمل للخليل ص٤٣، والكتاب ١/ ١٦٠، والمقتضب ٤/ ٣٣١، ونسبه الجاحظ في الحيوان ٧/ ١٥٨، والسيرافي في شرح أبيات سيبويه ١/ ٢٣٦ للجَرَنْفَش بن عَبَدة الطائي، وجاء الاسم في الحيوان: الجَرَنْفَس بالسين المهملة، وكذا ذكره ابن دريد في الاشتقاق ص٣٩٠، وبالشين المعجمة جاء في المؤتلف والمختلف ص٩٩، والتاج (عبد). ومعنى اللفظ في الحالتين: الضخم، أو الشديد من الرجال، والسين والشين لغتان فيه. ينظر التاج (جرفس) و(جرنفش).

(٢) تفسير غريب القرآن ص٤٣٣، وقوله: «من عقر جواده» قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩٤٣٥) وابن ماجه (٢٧٩٤) عن عَمْرو بن عَبَسَة ﷺ، وفيه: فقلت: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «مَن عُقر جواده، وأهريق دمه».

(٣) في تهذيب اللغة ١/ ٢١٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الرازي في تفسيره ١٤/ ١٦٥.

(٤) في النسخ عدا (ب): كشف، وكذا وقع في مطبوع تفسير الرازي، والمثبت من (ب) وتهذيب اللغة، وهو الصواب، قال صاحب القاموس (كسف): كسفه يكسفه: قطعه، وعُرقوبَه: عرقبه.

(٥) وعجزه: فيا عجباً من رحلها المتحمَّل، وهو في ديوانه ص١١. ووقع في المطبوع: فيا عجباً =

وقال غيره: والعقرُ بمعنى الجَرْح، قال:

تقولُ وقد مال الغبيطُ بنا معاً عَقَرْتَ بعيري يا امْرأَ القيس فانزِلِ[(١)]

عَتَا يعتو عُتُوّاً: اسْتَكْبَر.

الرَّجْفة: الطامَّة التي يَرْجُفُ لها الإنسان، أي: يتزعزعُ ويضطربُ ويرتعدُ، ومنه: ترجُفُ بوادِرُه، وأصلُ الرَّجْف: الاضطراب، رَجَفتِ الأرضُ، والبحرُ رجَّافٌ لاضطرابه، وأرْجَفَ الناس بالشر: خاضوا فيهِ واضطربوا، ومنه: الأَرَاجيف، ورَجَفَ بهم الجمل: اضطرب؛ قال الشاعر:

ولـمَّا رأيتُ الحجَّ قد حان وقتُه وظلَّتْ جمالُ القوم بالحيِّ تَرْجُفُ[(٢)]

الجُثُوم: اللُّصوق بالأرض على الصَّدر مع قَبْضِ الساقين كما يَرْقُدُ الأرنب والطير.

غَبَرَ: بَقِيَ، قال أبو ذؤيب:

فَغَبَرْتُ بَعْدَهُم بعيشٍ ناصبٍ وإخالُ أنِّي لاحِقٌ مُسْتَتْبِعُ[(٣)]

هذا المشهورُ في اللغة، ومنه: غُبَّر الحيض، قال أبو كبير الهذلي:

ومبرَّأً مِن كلِّ غُبَّرِ حيضةٍ وفسادِ مُرْضِعةٍ وداءِ مُغْيِلِ[(٤)]

وغُبَّرُ اللبن في الضَّرْع: بقيتُه، وحكى أهلُ اللغة: غَبَر، بمعنى: مضى، قال الأعشى:

= من كورها المتحمل، وليس في النسخ. ومعنى البيت: أنه عَجِبَ لِمَا فعل مِن عَقْر ناقته حتى رحلها على أخرى، كأنه سفَّه نفسه لذلك. قاله شارح الديوان.

(١) ديوان امرئ القيس ص١١. الغبيط: ما يوضع على ظهر البعير لتركب المرأة فيه، كالرَّحْل للرجُل. المعجم الوسيط (غبط).

(٢) عزاه السمين في الدر ٥/ ٣٦٨ لابن أبي ربيعة، وليس في ديوانه، وأورده الثعلبي في تفسيره ٣/ ٤٠، والقرطبي ٩/ ٢٧٢، وفيهما: بالقوم، بدل: بالحي.

(٣) ديوان الهذليين ١/ ٢.

(٤) ديوان الهذليين ٢/ ٩٣، وجاء في المطبوع: وداء مُعْضِل، وهي رواية ذكرها ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٥١٩.

عـضّ بـمـا أبـقـى الـمَـوَاسِي لـه مِـنْ أمّـه فـي الـزمـن الـغـابِـرِ[١]

وبمعنى: غاب، ومنه: غَبَرَ عنّا زماناً، أي: غاب؛ قاله الزجّاج[٢].

وقال أبو عبيدة: غَبَر: عُمِّر دهراً طويلاً حتى هَرِم[٣].

المطر معروف، وقال أبو عبيدة: يقال في الرحمة: مَطَرَ، وفي العذاب: أَمْطَرَ[٤].

وهذا معارَضٌ بقوله: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فإنهم لم يريدوا إلّا الرحمة، وكلاهما متعدٍّ، يقال: مَطَرَتْهم السماءُ وأَمْطَرَتْهم.

شعيب: اسمُ نبيٍّ وسيأتي ذكرُ نسبِهِ في التفسير إنْ شاء الله.

* * *

التفسير

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ لمّا ذكر تعالى الدلائلَ على كمال إلٰهيته وقدرته وعِلْمِه من العالَم العلويّ أتبعهما بالدلائل من أحوال العالَم السفليّ، وهي محصورةٌ في آثار العالَم العُلْوي، ومنها الريحُ والسحابُ والمطر، وفي المعدن والنبات والحيوان، ويترتَّبُ على نزول المطر أحوالُ النبات، وذلك هو المذكورُ في الآية، وانجرَّ مع ذلك الدلالةُ على صحة الحشر والنشر والبعث والقيامة.

وانتظمت هاتان الآيتان محصِّلتين المبدأ والمعاد، وجُعل الخبر موصولاً في «إنَّ ربَّكم الله الذي» وفي «وهو الذي» دلالةً على كون ذلك معهوداً عند السامع مفروغاً من تحقُّق النسبة فيه والعلمِ به، ولم يأت التركيب: إنَّ ربَّكم خَلَقَ، ولا: وهو يرسِلُ الرياح.

وقرأ: «الرياح نُشُراً» جمعين، وبضم الشين جمع ناشِرٍ على النَّسَب، أي: ذاتَ

---

(١) ديوان الأعشى ص١٩٥.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٥٣.
(٣) ينظر مجاز القرآن ١/ ٢٧١ و٢/ ٨٩ و١١٥.
(٤) مجاز القرآن١/ ٢٤٥.

نَشْرٍ من الطيِّ، ك: لابِن وتامِر، وقالوا: بازِل وبُزُل، وشارِف وشُرُف، وهو جمعٌ نادرٌ في فاعِلٍ، أو: نُشورٍ من الحياة[١]، أو جمعُ نَشورٍ ك: صَبُور وصُبُر، وهو جمعٌ مَقيسٌ، لا جمعُ نَشُورٍ بمعنى مَنْشورٍ خلافاً لمن أجاز ذلك؛ لأنَّ فَعولاً - ك: رَكوب بمعنى مركوب - لا ينقاسُ، ومع كونه لا ينقاس لا يُجمع على فُعُل = الحسنُ والسُّلميُّ وأبو رجاء، واختُلف عنهم، والأعرج وأبو جعفر وشيبةُ وعيسى بنُ عمرٍ، وأبو يحيى وأبو نوفل الأعرابيان، ونافعٌ وأبو عمرو[٢].

وقرأ كذلك جمعاً إلا أنهم سكَّنوا الشين تخفيفاً من الضم ك: رُسْل، عبدُ الله وابنُ عباس وزرٌّ وابنُ وثاب والنخعي وطلحةُ بن مُصَرِّفٍ والأعمش ومسروقٌ وابنُ عامر[٣].

وقرأ: «نَشَراً» بفتح النون والشين مسروق فيما حكى عنه أبو الفتح[٤]، وهو اسمُ جمعٍ ك: غَيَب ونَشَأ، في: غائبة وناشئة.

وقرأ ابن كثير: «الريح» مفرداً «نُشُراً» بالنون وضمِّها وضمِّ الشين[٥]، فاحتمل «نُشُراً» أن يكون جمعاً حالاً من المفرد، لأنه أُريدَ به الجنسُ، كقولهم: الدرهم[٦] البيض، واحتمل أن يكون مفرداً ك: ناقة سُرُح.

وقرأ حمزة والكسائي: «نَشْراً» بفتح النون وسكون الشين[٧] مصدراً لـ: نَشَر خلافَ طوى، أو لـ: نَشَرَ بمعنى حَيِيَ، من قولهم: أَنْشَرَ الله الموتى فنَشَروا، أي: حَيُوا، قال الشاعر:

---

(١) قوله: أو نشور. . . ، معطوف على ما سلف من قوله: ذات نشر. . . ، أي: ذات نشر من الطي أو نشورٍ من الحياة، أي: أن المعنى إذا كان على النسب فهو إما إلى النَّشْر ضد الطي، وإما إلى النشور بمعنى الإحياء. ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤١٢، والدر المصون ٢/ ٣٤٧.

(٢) القراءة عن نافع وأبي عمرو في السبعة ص٨٣، والتيسير ص٧٨ و١١٠، وعن أبي جعفر في النشر ٢/ ٢٧٠، وعَزْوها إلى مَن ذكر من الأئمة منقول من المحرر الوجيز ٢/ ٤١١-٤١٢.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٢، وهي عن ابن عامر في السبعة ص٢٨٣، والتيسير ص١١٠.

(٤) في المحتسب ١/ ٢٥٥، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤.

(٥) السبعةص٢٨٣، والتيسير ص٧٨ و١١٠.

(٦) قوله: الدرهم، تحرف في (أ) و(دا) و(ع) والمطبوع إلى: العرب هم.

(٧) السبعة ص٢٨٣، والتيسير ص١١٠.

حتى يقولَ الناسُ ممّا رَأَوا يا عَجَباً للميت الناشِرِ[١]

وقرأ: «الرياح» جمعاً ابنُ عباس والسُّلميُّ وابنُ أبي عبلة «بُشُراً» بضم الباء والشين، ورُوِيَتْ عن عاصم[٢]، وهو جمع بَشيرةٍ كـ: نَذيرة ونُذُر.

وقرأ عاصمٌ كذلك إلّا أنه سكّن الشين تخفيفاً من الضم[٣].

وقرأ السُّلَميُّ أيضاً «بَشْراً» بفتح الباء وسكون الشين، وهو مصدر بَشَر المخفَّف، ورُويت عن عاصم[٤].

وقرأ ابن السميفع وابن قطيب: «بشرى» بألفٍ مقصورة[٥] كـ: رُجعى - ورُويت عن أبي نوفل وأبي يحيى الأعرابيين[٦] - وهو مصدرٌ.

فهذه ثماني قراءاتٍ: أربعةٌ في النون وأربعة في الباء:

فَمَن قرأ بالباء جمعاً، أو مصدراً بألف التأنيث، ففي موضع الحال من المفعول، أو مصدراً بغيرِ ألفِ التأنيث فيَحْتَمِلُ ذلك ويَحْتَمِلُ أن يكون حالاً من الفاعل.

ومَن قرأ بالنون جمعاً أو اسمَ جمعٍ فحالٌ من المفعول، أو مصدراً فيَحتمِلُ أن يكون حالاً من الفاعل، وأن يكون حالاً من المفعول، أو مصدراً لـ«يرسل» من المعنى؛ لأن إرسالها هو إطلاقُها، وهو بمعنى النَّشْر، فكأنه قيل: يَنْشُر الرياح نَشْراً، ووصفُ الريح بالنُّشُر بأحد معنيين: بخلاف الطَّيِّ، وبالحياة، قال أبو عبيدة في النُّشُر: إنها المتفرِّقة في الوجوه[٧]، وقال الشاعر في وصف الريح بالإحياء والموت:

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٩١.
(٢) المحتسب ١/ ٢٥٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٢.
(٣) وهي المشهورة عن عاصم، وهي في السبعة ص٢٨٣، والتيسير ص١١٠.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٢، وهي عن السلمي في المحتسب ١/ ٢٥٥، وعن عاصم من رواية عصمة في القراءات الشاذة ص٤٤.
(٥) القراءات الشاذة ص٤٤، والمحتسب١/ ٢٥٥، والمحرر الوجيز٢/ ٤١٢.
(٦) قوله: ورويت. . .، من (ب) و(ز١) و(يه)، وهو منقول من المحرر ٢/ ٤١٢.
(٧) مجاز القرآن ١/ ٢١٧ وفيه: «نُشراً»، أي: متفرقة من كل مهبٍّ وجانب وناحية.

وهبَّت له ريحُ الجنوب وأُحْيِيَتْ له رَيْدَةٌ يُحْيي المياهَ نسيمُها[(١)]

والرَّيْدةُ والرَّيْدانة: الريح، وقال الآخر:

إنِّي لأرجو أن تموتَ الريحُ فأقعدُ اليومَ وأستريحُ[(٢)]

ومعنى «بين يدي رحمته»: أمام نعمته، وهو المطرُ الذي هو من أجلِّ النعم وأحسنها أثراً، والتعبير[(٣)] عن أمام الرحمة بقوله: «بين يدي» من مجاز الاستعارة؛ إذ الحقيقةُ هو ما بين يدي الإنسان من الأجرام.

وقال الكرماني: قال هنا: «يرسل» لأن قبل ذلك: «وادعوه خوفاً وطمعاً» فهما في المستقبل فناسَبه المستقبل، وفي «الفرقان» و«فاطر»: ﴿أَرْسَلَ﴾﴿أَرْسَلَ﴾ [الفرقان: ٤٨ وفاطر: ٩] لأن قبله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] وبعده: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ﴾ [الفرقان: ٥٣] وكذا في «الروم»: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ﴾ [الآية: ٤٦] ليوافقَ ما قبله من المستقبل، وفي «فاطر» قبله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١] وذلك ماضٍ فناسَبه الماضي. انتهى ملخَّصاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ هذه غايةٌ لإرسال الرياح، والمعنى: أنه تعالى يُرسل الرياح مبشِّرات أو مُنْشَرات إلى سَوْق السحاب وقت إقلاله إلى بلدٍ ميتٍ، والسحابُ اسمُ جنسٍ بينه وبين مُفْرده تاءُ التأنيث، فيذكَّرُ كقوله: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقوله: ﴿يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ [النور: ٤٣] ويؤنَّث، ويُوصَفُ ويُخْبَرُ عنه بالجمع كقوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] وكقوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [ق: ١٠] وثِقلُه بالماء الذي فيه.

ونُسب السَّوقُ إليه تعالى بنونِ العظمة التفاتاً لِمَا فيه من عظيم المنَّة وجليل النعمة، وذكِّر الضمير في «سقناه» رعياً للَّفظِ، كما قلنا إنه يذكَّر.

---

(١) البيت للمَرَّار الفَقْعَسي كما في المخصص لابن سيده ٩/ ٩١، وزاد المسير ٣/ ٢١٧، وهو دون نسبة في اللسان (ريد)، ورواية المخصص واللسان: يُحيي المماتَ نسيمها.

(٢) المخصص ٩/ ٩١، وزاد المسير ٣/ ٢١٧، واللسان والتاج (موت) و(نشر).

(٣) في (أ) و(د١) و(ع): والتعيين، وهو تحريف.

وقال السدِّي: يرسل تعالى الرياح فتأتي بالسحابِ من بين الخافقَيْنِ طرفِ السماء والأرض حيث يلتقيان، فتخرجُه مِن ثَمَّ، ثم ينتشر ويبسطُه في السماء، وتُفتحُ أبوابُ السماء ويسيلُ الماء على السحاب، ثم يمطر السحابُ بعد ذلك. قال[١]: وهذا التفصيلُ لم يَثْبُتْ عن النبيِّ ﷺ. انتهى.

ومذهبُ أهل الحق أنَّ الله تعالى هو الذي يسخِّر الرياحَ ويصرِّفُها حيث أراد بمشيئته وتقديره لا مشارِكَ له في ذلك، وللفلاسفة كيفيةٌ في حصول الرياح ذَكَرها أبو عبد الله الرازي، وأَبْطَلها من وجوهٍ أربعةٍ يُوْقَفُ عليها في كلامه.

وللمنجِّمين أيضاً كلامٌ في ذلك أَبْطَله، وقال في آخره: فثبت بهذا البرهانِ أن محرِّك الرياح هو اللهُ تعالى، وثبت بالدليل العقلي صحةُ قوله: «وهو الذي يرسل الرياح»[٢].

وعن ابن عمر[٣]: الرياحُ ثمانٍ؛ أربعٌ منها عذابٌ، وهي: القاصِفُ والعاصِفُ والصَّرْصَرُ والعَقيم، وأربع منها رحمةٌ: الناشرات والمبشِّرات والمرسَلات والذاريات.

واللام في «لبلدٍ» عندي لامُ التبليغ، كقولك: قلت لك، وقال الزمخشري: لأجْلِ بلدٍ[٤]، فجعل اللامَ لامَ العلة ولا يظهرُ، وفرقٌ بين قولك: سقتُ لك مالاً، وسقتُ لأجْلك مالاً، فإنَّ الأول معناه: أوصلْتُه لك وأبلَغْتُكَه، والثاني لا يلزمُ منه وصولُه إليه، بل قد يكون الذي وَصَل له المالُ غير الذي عُلِّل به السَّوْق، ألا ترى إلى صحة قول القائل: لأَجْلِ زيدٍ سُقتُ لك مالَكَ.

---

(١) أي: ابن عطية في المحرر ٢/ ٤١٣، وما قبله من قول السدي منقول منه، وما بعده هو من كلامه لا من كلام السدي.

(٢) تفسير الرازي ١٤/ ١٣٩-١٤٠.

(٣) كذا في النسخ وتفسير الرازي ٤/ ١٤١، والصواب: ابن عمرو، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير الآية (٥١) من سورة الروم، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٦٤ إلى أبي عبيد، وابن أبي الدنيا في كتاب المطر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في العظمة.

(٤) الكشاف ٢/ ٨٤.

ووَصْفُ البلد بالموت استعارةٌ حسنةٌ لجدْبِه وعدمِ نباته، كأنه من حيث عدمُ الانتفاعِ به كالجسد الذي لا روحَ فيه، ولمَّا كان ذلك موضعَ قُرْبِ رحمة الله وإظهارِ إحسانِه ذَكَرَ أخصَّ من[1] الأرض وهو البلدُ، حيث مُجْتَمَعُ الناس ومكانُ استقرارهم، ولمَّا كان في سورة يس المقصدُ إظهارَ الآياتِ العظيمةِ الدالَّةِ على البعث جاء التركيبُ باللفظ العامِّ، وهو قولُه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [الآية: ٣٣] وبعده: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [الآية: ٣٧] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الآية: ٤١].

وسكَّن ياء «الميت» عاصمٌ وأبو عمرو والأعمش[2].

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ الظاهرُ أن الباء ظرفيةٌ والضمير عائدٌ على «بلد ميت»، أي: فأنزلنا فيه الماءَ، وهو أقربُ مذكورٍ، ويَحْسُنُ[3] عَوْدُه إليه فلا يُجعلُ لأبعد مذكور.

وقيل: الباء سببيةٌ والضميرُ عائدٌ على السحاب.

وقيل: عائدٌ على المصدر المفهوم من «سقناه»، فالتقدير: بالسحاب أو بالسوق.

والثالثُ ضعيفٌ؛ لأنه عائدٌ على غير مذكورٍ مع وجود المذكور وصلاحيته للعَوْد عليه.

وقيل: عائدٌ على السحاب، والباءُ بمعنى «مِن»، أي: فأنزلنا منه الماء، كقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان ٦] أي: منها. وهذا ليس بجيدٍ؛ لأنه تضمينٌ في الحروف.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الخلافُ في «به» هنا كالخلاف السابق في «به».

وقيل: الأولُ عائدٌ على السحاب والثاني على البلد، عدل عن كنايةٍ إلى كنايةٍ من غير فاصلٍ، كقوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] وفاعلُ «أَمْلَى» اللهُ تعالى.

---

(١) قوله: من، من (ب) و(ز١) و(يه).

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٣، وهي في السبعة ص٢٠٣، والتيسير ص٨٧ عن ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وشعبة.

(٣) في (يه): وبحسن، وجاء في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣١٧: فحسن.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: مِثْلَ هذا الإخراجِ نُخرجُ الموتى من قبورهم أحياءً إلى الحشر لعلكم تذكَّرون بإخراج الثمرات وإنشائها خروجَكم للبعث؛ إذِ الإخراجان سواءٌ، فهذا الإخراجُ المشاهَدُ نظيرُ الإخراج الموعود به.

خرَّج البيهقيُّ وغيرُه عن [أبي] رَزينٍ العُقيلي قال: قلت: يا رسول الله، كيف يعيد الله الخلق، وما آيةُ ذلك في خَلْقه؟ قال: «أمَا مررتَ بوادي قومك جَدْباً ثم مررتَ به يهتزُّ خَضِراً؟» قال: نعم، قال: «فتلك آيةُ الله في خَلْقِه»[1]. انتهى.

وهل التشبيهُ في مطلق الإخراج ودلالة إخراج الثمرات على القدرة في إخراج الأموات، أم في كيفيةِ الإخراج، وأنه يَنزلُ مطرٌ عليهم فيَحْيَوْنَ كما يَنْزِلُ المطرُ على البلد الميت فيحيا نباتُه؟ احتمالان.

وقد رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه يُمطَرُ عليهم من ماءٍ تحت العرش يقال له ماء الحيوان أربعين سنةً، فيَنْبُتون كما يَنْبُتُ الزرعُ، فإذا كَملت أجسامُهم نُفخ فيها الروحُ، ثم يُلْقَى عليهم نومةٌ فينامون، فإذا نُفخ في الصور الثانيةَ قاموا وهم يجدون طعم النوم، فيقولون: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ فيناديهم المنادي: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾[2].

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ «الطيِّب»: الجيِّدُ الترابِ الكريمُ الأرض، و«الذي خَبُث»: المكانُ السَّبْخُ الذي لا يُنْبِتُ ما يُنْتفعُ به، وهو الرَّديء من الأرض، ولمَّا قال: «فأخرجنا به من كلِّ الثمرات» تمم هذا المعنى بكيفية ما يخرج من النبات من الأرض الكريمة والأرض السَّبخة، وتلك عادةُ الله في إنبات الأرضين.

---

(١) الاعتقاد للبيهقي ص١٤٥، والأسماء والصفات (١٠٦٩) و(١٠٧٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦١٩٣)، والحاكم ٤/ ٥٦٠. والكلام من تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٥، وما بين حاصرتين من المصادر، وأبو رزين اسمه لقيط بن عامر.

(٢) ذكره الطبري ١٠/ ٢٥٥-٢٥٦ دون إسناد، وموضع الشاهد منه وهو نباتهم بنزول المطر، أخرجه مسلم (٢٩٥٥)، ولفظه: «ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل».

وفي الكلام حالٌ محذوفةٌ، أي: يَخْرجُ نباتُه وافياً حسناً، وحُذفت لِفَهْم المعنى، ولدلالةِ «والبلدُ الطيِّبُ» عليها، ولمقابَلتها بقوله: «إلَّا نَكِداً»، ولدلالة «بإذن ربه» لأنَّ ما أَذِنَ الله في إخراجه لا يكون إلَّا على أحسن حالٍ. و«بإذن ربِّه» في موضع الحال.

وخَصَّ خروجَ نبات الطيِّب بقوله: «بإذن ربِّه» على سبيل المدح له والتشريفِ، ونسبةِ الأشياء(١) الشريفةِ الطيبةِ إليه تعالى، وإن كان كِلَا النباتين يخرج بإذنه تعالى.

ومعنى «بإذن ربِّه»: بتيسيره، وحُذف من الجملة الثانية الموصوفُ أيضاً، والتقدير: والبلد الذي خَبُثَ، لدلالة «والبلد الطيب» عليه، فكلٌّ من الجملتين فيه حذفٌ.

وغايَرَ بين الموصولين فصاحةً وتفنُّناً، ففي الأولى قال: «الطيب»، وفي الثانية قال: «الذي خبث»، وكان إبرازُ الصلة هنا فعلاً بخلاف الأول ليُعادِلَ في اللفظ بكون ذلك كلمتين الكلمتين في قوله: «والبلدُ الطيب»، والطيبُ والخبيثُ متقابلان في القرآن كثيراً: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠] ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] إلى غير ذلك.

والفاعل في «لا يَخرجُ» عائد على «الذي خبث»، وقد قلنا: إنه صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ. والبلدُ لا يخرج، فيكون على حذفِ مضافٍ إمَّا من الأول، أي: ونباتُ الذي خَبُثَ، أو من الثاني، أي: لا يخرج نباتُه، فلمَّا حُذف استكنَّ الضمير الذي كان مجروراً لأنه فاعل.

وقيل: هاتان الجملتان قُصِدَ بهما التمثيل، فقال ابن عباس وقتادة: مثالٌ لروح المؤمن يرجع إلى جسده سهلاً طيباً كما خرج إذ(٢) مات، ولروح الكافر لا يرجع إلا بالنَّكَد كما خرج إذ مات(٣). انتهى.

---

(١) في النسخ والمطبوع: الإسناد، والمثبت من النهر على هامش مطبوع البحر ٣١٨/٤.
(٢) في المطبوع: إذا.
(٣) لم أقف عليه بهذا المعنى، إلا أن كونه تمثيلاً للمؤمن والكافر أخرجه عنهما الطبري ٢٥٨/١٠-٢٥٩.

فيكون هذا راجعاً من حيث المعنى إلى قوله: «كذلك نُخْرِجُ الموتَى» أي: على هذين الوصفين.

وقال السدِّي: مثالٌ للقلوب لمَّا نزل القرآنُ كنزول المطر على الأرض، فقَلْبُ المؤمن كالأرض الطيِّبة قَبِلَت الماءَ وانْتُفِعَ بما تُخرِجُ، وقلبُ الكافر كالسَّبخة لا يَنْتَفِعُ بما يقبل من الماء[١].

وقال النحاس: هو مثالٌ للفهيم والبليد[٢].

وقال الزمخشري: وهذا مَثَلٌ لمن يَنْجَعُ فيه الوعظُ والتنبيه من المكلَّفين ولمن لايؤثِّر فيه شيء من ذلك، وعن مجاهد: ذرية آدمَ خبيثٌ وطيِّبٌ، وهذا التمثيلُ واقعٌ على أثر ذكر المطر وإنزالِه بالبلد الميت وإخراجِ الثمرات به على طريق الاستطراد[٣]. انتهى.

والأظهرُ ما قدَّمناه من أنَّ المقصود التعريفُ بعبادة الله تعالى في إخراج النبات في الأرض الطيبة والأرض الخبيثة، دون قصدٍ إلى التمثيل بشيءٍ مما ذكروا.

وقرأ ابنُ أبي عبلة وأبو حَيْوَةَ وعيسى بنُ عُمر: «يُخْرَجُ نباتُه» مبنيًّا للمفعول[٤].

وقرأ ابن القعقاع «نَكَداً» بفتح الكاف، قال الزجاج: وهي قراءةُ أهل المدينة. وقرأ ابنُ مصرِّفٍ بسكونها[٥]، وهما مصدران: أي: ذا نكدٍ.

وكونُ نباتِ الذي خَبُثَ محصوراً خروجُه على حالة النكد مبالغةٌ شديدةٌ في

---

(١) أخرجه بنحوه مطولاً الطبري ١٠/ ٢٥٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٤ بنحوه، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، وعنه نقل المصنف. وجاء في (ب) و(ز١) و(يه): للفهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر.

(٣) الكشاف ٢/ ٨٤، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٠/ ٢٥٨-٢٥٩.

(٤) ذكرها عنهم ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، إلا أنه قيَّدها بضم الياء وكسر الراء ونصب التاء، أي: «يُخْرِج نباتَه»، وكذا ضبطت في القراءات الشاذة ص٤٤ عن عيسى بن عمر.

(٥) تنظر القراءتان في القراءات الشاذة ص٤٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، والكلام منه. وقول الزجاج في معاني القرآن ٢/ ٣٤٦.

كونه لا يكون إلا هكذا، ولا يمكن أن يوجد إلا نكداً، وهي إشارةٌ إلى أنَّ من استقرَّ فيه وصفُ الخُبْث يَبْعُدُ عنه النزوعُ إلى الخير.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾ أي: مِثْلَ هذا التصريفِ والترديد والتنويع نُنوِّعُ الآيات ونردِّدها، وهي الحججُ الدالة على الوحدانية والقدرة الباهرة التَّامَّة والفعلِ بالاختيار.

ولمَّا كان ما سَبَقَ ذِكْرُه من إرسال الرياح منتشرات[١] ومبشِّرات سبباً لإيجاد النبات الذي هو سببُ وجود الحياة وديمومتها، كان ذلك أكبرَ نعمةٍ على الخلق فقال: «لقوم يشكرون» أي: هذه النعمة التي لا تكاد توازيها[٢] نعمةٌ، وخصَّ الشاكرين لأنهم هم المنتفعون بهذه النعم على ما ينبغي، وهم الذين ينتفعون بالآيات وتصرُّفها؛ لأن مَن لا يفكِّر في النعم لا يَشْكُر ولا ينتفعُ بالآيات.

وقرئ: «يصرِّف» بالياء[٣] مراعاةً للغيبة في قوله: «بإذن ربِّه».

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ لـمَّا ذكر في هذه السورة مبدأَ الخَلْق الإنسانيِّ وهو آدمُ ﷺ، وقصَّ من أخباره ما قصَّ، واستطرد من ذلك إلى المَعاد ومَصِيرِ أهل السعادة إلى الجنة وأهلِ الشقاوة إلى النار، وأَمْرِه تعالى بترك الذين اتَّخذوا دينهم لعباً ولهواً، وكان مَن بُعث إليهم رسولُ الله ﷺ أولاً غيرَ مستجيبين له ولا مصدِّقين لما جاء به عن الله، قصَّ تعالى عليه أحوال الرسلِ الذين كانوا قبل، وأحوالَ مَن بُعثوا إليه على سبيل التسلية له ﷺ والتأسِّي بهم، فبدأ بنوحٍ إذ هو آدمُ الأصغر، وأولُ رسولٍ بُعث إلى مَن في الأرض، وأمتُه أدْوَمُ تكذيباً له وأقلُّ استجابةً.

وتقدَّم رَفْعُ نَسَبِه إلى آدمَ[٤]، وكان نجَّاراً بعثه الله إلى قومه وهو ابنُ أربعين

---

(١) في (ب) و(يه): منشرات.
(٢) في (أ) و(د١) و(ع): توازنها.
(٣) القراءات الشاذة ص٤٤ عن يحيى وإبراهيم.
(٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ الآية: [آل عمران: ٣٣].

سنة؛ قاله ابنُ عباس[(١)]. وقيل: ابنُ خمسين. وقال مقاتل: ابنُ مئةٍ. وقيل: ابنُ مئتين وخمسين. وقيل: ابنُ ثلاثِ مئةٍ. وقال عون بن [أبي] شداد: ابنُ ثلاث مئة وخمسين[(٢)].

وقال وَهْبٌ: ابنُ أربع مئة[(٣)].

وهذا اضطرابٌ كثيرٌ من أربعين إلى أربع مئة فما بينهما.

ورُوي أنَّ الطوفان كان سنة ألفٍ وستِّ مئة من عمره[(٤)].

وهو أولُ الرسل بعد آدم بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات، وجميعُ الخَلْق الآن من ذرية نوحٍ عليه السلام.

وعن الزهري أنَّ العربَ وفارساً والرومَ وأهلَ الشام واليمنِ من ذرية سام بن نوح، والهِنْدَ والسِّنْدَ والزِّنْجَ والحبشةَ والزُّطَّ والنُّوبةَ وكلَّ جلدٍ أسودَ من ولد حام بن نوح، والتُّركَ والبربر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصَّقالبة من ولد يافث بن نوح[(٥)].

«لقد أرسلنا» استئنافُ كلامٍ دون واوٍ، وفي «هود» و«المؤمنين» ﴿وَلَقَدْ﴾ [هود: ٢٥، والمؤمنون: ٢٣] بواو العطف، قال الكرماني: لمَّا تقدَّم ذكرُ الرسول مرَّاتٍ في «هود»، وتقدَّم ذكرُ نوحٍ ضمناً في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٢] لأنه أولُ مَن صنعها، عطف في السورتين. انتهى.

واللامُ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أكَّد تعالى هذا الإخبار بالقَسَم، قال الزمخشري: فإن قلت: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام إلا مع «قد»، وقلَّ عنهم [نحو] قوله:

---

(١) قطعة من خبر أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٦١٩) عن ابن عباس موقوفاً، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٤٥-٥٤٦ عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٠، وما بين حاصرتين منه، وهو عون بن أبي شداد العقيلي ويقال: العبدي، أبو معمر البصري، روى عن أنس رضي الله عنه، وأبي عثمان النهدي، ومطرف بن عبد الله بن الشخير، وغيرهم. تهذيب التهذيب ٣/ ٣٣٨.

(٣) المحرر الوجيز٢/ ٤١٦، وعنه نقل المصنف أكثر هذه الأقوال.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٩.

حَلَفْتُ لها بالله حَلْفَةَ فاجرٍ لناموا ....[1]

قلت: إنما كان ذلك لأن الجملة القَسَمية لا تُساقُ إلَّا تأكيداً للجملة المقسَم عليها التي هي جوابُها، فكانت مظنةً لمعنى التوقُّع الذي هو معنَى «قد» عند استماع المخاطَب كلمة القسم[2]. انتهى.

وبعضُ أصحابنا يقول: إذا أَقْسَم على جملةٍ مصدَّرةٍ بماضٍ مثبَتٍ متصرِّفٍ، وكان قريباً من زمان الحال، أُثبت مع اللام بـ «قد» الدالةِ على التقريب من زمن الحال، ولم يأتِ بـ «قد» بل باللام وحدها إن لم يُرِدِ التقريب.

قال ابن عباس: «أرسلنا»: بعثنا. وقال غيره: حَمَّلناه رسالةً يؤدِّيها. فعلى هذا تكون الرسالةُ متضمِّنةً للبعث[3].

وهنا: «فقال» بفاء العطف، وكذا في «المؤمنين»، وفي قصة عادٍ وصالحٍ وشعيبٍ هنا «قال» بغير فاءٍ، والأصلُ الفاءُ وحُذفت في القصتين[4] توسُّعاً واكتفاءً بالربط المعنويِّ. وفي قصة نوح في «هود»: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ [الآية: ٢٥] على إضمار القول، أي: فقال: إنِّي.

وفي ندائه قومَه تنبيهٌ لهم لمَا يُلقيه إليهم، واستعطافٌ وتذكيرٌ بأنهم قومُه، فالمناسبُ أن لا يُخالفوه، ومعمولُ القول جملةُ الأمر بعبادة الله وحده ورَفْضِ آلهتهم المسمَّاة وَدًّا وسُواعاً ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً وغيرها، والجملةُ المنبِّهة على الوصف الداعي إلى عبادة الله وهو انفرادُه بالألوهية المرجوُّ إحسانُه المحذورُ انتقامُه دون آلهتهم، ولم تأتِ بحرفِ عطفٍ لأنها بيانٌ وتفسيرٌ لعلة اختصاصه تعالى بأنْ يُعبد.

---

(١) وتمامه: ... لناموا فما إن من حديثٍ ولا صالِ، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣٢. الفاجر هنا: الكاذب. والصالي: الذي يصطلي بالنار. يقول: لمَّا خوَّفتني من السُّمَّار أقسمت لها كاذباً أن ليس منهم أحدٌ إلا نائما. قاله شارح الديوان.

(٢) الكشاف ٢/ ٨٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) تفسير الرازي ١٤/ ١٤٨.

(٤) لعله أراد: في القصص، فهي ثلاث قصص وليست قصتين.

وقرأ ابنُ وثَّابٍ والأعمشُ وأبو جعفر والكسائيُّ: «غيرِه» بالجرِّ[١] على لفظ «إلهٍ» بدلاً أو نعتاً، وقرأ باقي السبعة: «غيرُه» بالرفع عطفاً على موضع «من إلهٍ» ـ لأنَّ «من» زائدةٌ ـ بدلاً أو نعتاً.

وقرأ عيسى بن عمر: «غيرَه» بالنصب[٢] على الاستثناء، والجرُّ والرفعُ أفصحُ.

و«من إلهٍ» مبتدأ و«لكم» في موضع الخبر. وقيل: الخبر محذوفٌ، أي: في الوجود، و«لكم» تبيينٌ وتخصيصٌ.

و«أخاف» قيل: بمعنى أتيقَّن وأجزمُ؛ لأنه عالمٌ أنَّ العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا. وقيل: الخوفُ على بابه بمعنى الحذر؛ لأنه جوَّز أن يؤمنوا وأن يستمرُّوا على كفرهم. و«يوم عظيم» هو يومُ القيامة، أو يومُ حلولِ العذاب بهم في الدنيا وهو الطوفان. وفي هذه الجملة إظهارُ الشفقة والحنوِّ عليهم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ قال ابن عطية: قرأ ابنُ عامرٍ: «الملَوُ» بالواو، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام[٣]. انتهى، وليس مشهوراً عن ابن عامرٍ، بل قراءتُه كقراءة باقي السبعة بهمزةٍ.

ولم يُجِبْه من قومه إلا أشرافُهم وسادتُهم، وهم الذين يتعاصَون على الرسل لانغمارِ عقولهم بالدنيا، وطلبِ الرئاسة والعلوِّ فيها.

و«نراك» الأظهرُ أنها من رؤية القلب، وقيل: من رؤية العين، ومعنى «في ضلال مبين»، أي: في ذهابٍ عن طريق الصواب، وجهالةٍ بما تسلك بيِّنةٍ واضحةٍ، وجاءت جملةُ الجواب مؤكَّدةً بـ «إنَّ» وباللام، و«في» للوعاء، فكأنَّ الضلال صار ظرفاً له وهو فيه، ولم يأت: ضالًّا، ولا: ذا ضلالٍ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لم يَرِدِ النفيُ منه على لفظ ما قالوه،

(١) السبعة ص٢٨٤، والتيسير ص١١٠ عن الكسائي، والنشر٢/ ٢٧٠ عن أبي جعفر، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤١٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٥، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤ دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز٢/ ٤١٥.

فلم يأت التركيب: لستُ في ضلالٍ مبين، بل جاء في غاية الحسن مِن نفي أن يَلْتَبِسَ به ويختلطَ ضلالةٌ مَّا واحدةٌ، فأنَّى يكون في ضلال، فهذا أبلغُ في(١) الانتفاء من الضلال؛ إذ لم يَعْتَلِقْ به ولا ضلالةٌ واحدةٌ.

وفي ندائه لهم ثانياً والإعراضِ عن جفائهم ما يدلُّ على سعة صدره والتلطُّف بهم.

ولمَّا نفى عنه التباسَ ضلالةٍ مَّا به دلَّ على أنه على الصراط المستقيم، فصحَّ أن يستدرك، كما تقول: ما زيدٌ بضالٌ لكنه مهتدٍ، فـ: «لكنَّ» واقعةٌ بين نقيضين؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الشيئين: الضلال والهدى، ولا تُجامع الضلالةَ الرسالةُ.

وفي قوله: «من ربِّ العالمين» تنبيهٌ على أنه ربُّهم لأنهم من جملة العالَم، أي: من ربِّكم المالكِ لأموركم الناظرِ لكم بالمصلحة حيث وجَّه إليكم رسولاً يدعوكم إلى إفرادِه بالعبادة.

و«أبلِّغكم» استئنافٌ على سبيل البيان بكونه رسولاً، أو جملةٌ في موضع الصفة لـ«رسول» ملحوظاً فيه كونُه خبراً لضميرِ متكلِّم، كما تقول: أنا رجلٌ آمُرُ بالمعروف، فتُراعي لفظَ «أنا»، ويجوز: يأمر بالمعروف، فتُراعي لفظَ «رجل»، والأكثر مراعاةُ ضمير المتكلِّم والمخاطَب، فيعودُ الضميرُ ضميرَ متكلِّم أو مخاطَبٍ، قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧] بالتاء، ولو قرئ بالياء لكان عربيًّا مراعاةً لِلَفظ «قوم» لأنه غائبٌ.

وقرأ أبو عمرو: «أُبْلِغُكم» هنا في الموضعين وفي «الأحقاف» بالتخفيف، وباقي السبعةِ بالتشديد(٢)، والهمزةُ والتضعيفُ للتعدية فيه.

وجمع «رسالات» باعتبارِ ما أُوحي إليه في الأزمان المتطاولة، أو باعتبارِ المعاني المختلفة من الأمر والنهي، والزجر والوعظ، والتبشير والإنذار، أو باعتبارِ ما أُوحي إليه وإلى مَن قَبْلَه؛ قيل: في صحف إدريس وهي ثلاثون صحيفةً، وفي صحف شيث وهي خمسون صحيفة(٣).

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: من، والمثبت من باقي النسخ وهو الصواب.
(٢) السبعة ص٢٨٤، والتيسير ص١١١، وآية الأحقاف: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ [الآية: ٢٣].
(٣) الكشاف ٢/ ٨٥-٨٦.

وتقدَّم الكلام في «نَصَح» وتعديتها، وقال الزمخشري: وفي زيادة اللام مبالغةٌ ودلالةٌ على إمْحاضِ النصيحة، وأنها وقعت للمنصوح له مقصوداً به جانبُه[١] لا غير، فربَّ نصيحةٍ يَنتفِعُ بها الناصحُ فيقصد النفعين جميعاً، ولانصيحة أنفعُ من نصيحة الله تعالى ورسله.

وقال الفرَّاء: لا تكاد العرب تقول: نصحتُك، إنما: نصحتُ لك، وقال النابغة:

نصحتُ بني عوفٍ فلم يتقبَّلوا[٢]

وفي قوله: «ما لا تعلمون» إبهامٌ عليهم، وهو عامٌّ ولكن ساق ذلك مساق المعلومات التي تُخافُ عليهم، ولم يسمعوا[٣] قطُّ بأمةٍ عُذِّبت، فتضمَّنَ التهديدَ والوعيدَ، فيحتمل أن يريد: ما لا تعلمون من صفات الله وقدرته وشدة بطشه على مَن اتَّخذ إلهاً معه، أو يريد: ما لا تعلمون مما أُوحي إليَّ.

قال ابن عطية: ولا بد أنَّ نوحاً عليه السلام وكلَّ نبيٍّ مبعوثٍ إلى الخلق كانت له معجزةٌ بخرق العادة، فمنهم مَن عرَّفَنا بمعجزته ومنهم مَن لم يعرِّف[٤].

وما أحسنَ سياق هذه الأفعال! قال أولاً: «أبلِّغكم رسالات ربِّي»، وهذا مبدأُ أمره معهم وهو التبليغ، كما قال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ثم قال: «وأنصحُ لكم»، أي: أُخلِصُ لكم في تبيين الرشد والسلامة في العاقبة إذا عَبدتم الله وحده، ثم قال: «وأعلم من الله ما لا تعلمون» من بطشه بكم، وهو مآلُ أمركم إذا لم تُفْرِدوه بالعبادة، فنبَّه على مبدأ أمره ومنتهاه معهم.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ تضمَّن قولُهم: «إنَّا لنراك في ضلالٍ مبين» استبعادَهم واستمحالَهم ما أخبرهم به من

---

(١) في الكشاف: وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه.
(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٩٢ عند شرح قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ [البقرة: ١٥٢]. والبيت في ديوان النابغة ص٩٣، وعجزه: وصاتي ولم تنجح لديهم وسائلي.
(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٤١٥: المعلومات المخوفات عليهم لا سيما وهم لم يسمعوا...، وهو أوضح.
(٤) في (ز١): يعرفه، وفي (ب) و(يه): نعرفه.

خوف العذاب عليهم، وأنه بَعَثَه الله إليهم بعبادته وحده ورَفْضِ آلهتهم، وتعجَّبوا من ذلك، وقد ذكر[١] أبو عبد الله الرازي سببَ استبعادهم إرسالَ نوح[٢]، والهمزةُ للإنكار والتوبيخ، أي: هذا ممَّا لا يُعجَبُ منه، إذ له تعالى التصرُّفُ التامُّ بإرسال مَن يشاء لمن يشاء.

قال الزمخشري: الواو للعطف، والمعطوفُ [عليه] محذوفٌ، كأنه قيل: أكذَّبتُم وعَجِبْتُم أنْ جاءكم[٣]. انتهى، وهو كلامٌ مخالفٌ لكلام سيبويه والنحاة؛ لأنهم يقولون: إن الواوَ لعطف ما بعدها على ما قبلها من الكلام ولا حذفَ هناك، وكأنَّ الأصل: وأَعَجِبْتُم، لكنه اعْتُني بهمزة الاستفهام فقدِّمت على حرف العطف؛ لأنَّ الاستفهام له صدرُ الكلام، وقد تقدَّم الكلامُ معه في نظير هذه المسألة، وقد رجع هو عن هذا إلى قولِ الجماعة[٤].

والذِّكْر: الوعظ، أو الوحي، أو المُعْجِز، أو كتابٌ معجز، أو البيان. أقوالٌ.

والأَوْلى أن يكون قولُه: «على رجل» فيه إضمارٌ، أي: على لسان رجلٍ، كما قال: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وقيل: «على» بمعنى «مع». وقيل: لا حذفَ ولا تضمين في الحرف، بل قولُه: «على رجل» هو على ظاهره؛ لأنَّ «جاءكم» بمعنى: نزل إليكم، كانوا يتعجَّبون من نبوَّة نوحٍ ويقولون: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] يعنون إرسال البشر ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[٥] وذكر عِلة المجيء، وهو الإعلامُ بالمَخُوف، والتحذيرُ من سوء عاقبة

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع): وقال، بدل: وقد ذكر، وهو خطأ.

(٢) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٢.

(٣) الكشاف ٢/ ٨٦، وما بين حاصرتين منه.

(٤) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وغيرها كثير.

(٥) هذه الآية (١٤) من سورة فصلت، وقد تابع المصنفُ بذكرها الزمخشريَّ في الكشاف ٢/ ٨٦، والكلام منه، والصواب هنا ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ الذي ورد في سورة المؤمنون قبل قوله تعالى: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فهو الذي ورد في قصة نوح، أما آية فصلت فهي في عاد وثمود.

الكفر، ووجودُ التقوى منهم، ورجاءُ الرحمة لهم، وكأنها عللٌ مترتِّبة [أي:][(١)] فجاءكم الذكرُ للإنذار بالمَخُوف، والإنذارُ بالمخوف لأجْلِ وجودِ التقوى منهم، ووجودُ التقوى لرجاءِ الرحمة وحصولِها، فعلَّل المجيءَ بجميع هذه العلل المترتِّبة؛ لأنَّ المترتِّب على السبب سببٌ.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أخبر تعالى أنهم كذَّبوه، هذا مع حُسْنِ مُلاطَفتِهِ لهم ومُراجَعَتِهِ لهم وشفقته عليهم، فلم يكن نتيجةَ هذا كلِّه إلا التكذيبُ له فيما جاء به عن الله.

«والذين معه في الفلك» هم مَن آمَنَ به وصدَّقه، وكانوا أربعين رجلاً، وقيل: ثمانون: أربعون رجلاً وأربعون امرأة؛ قاله الكلبي[(٢)]. وإليهم تُنسب القريةُ التي يُنسب إليها الثمانيني[(٣)]، وهي بالموصل.

وقيل: عشرة فيهم أولاده الثلاثة[(٤)].

وقيل: تسعة منهم بَنُوه الثلاثة[(٥)].

وفي قوله: «وأغْرَقنا الذين كذَّبوا» إعلامٌ بعلَّة الغرق وهو التكذيب، و«بآياتنا» يقتضي أنَّ نوحاً كانت له آياتٌ ومعجزاتٌ تدلُّ على إرساله، ويتعلَّق «في الفلك» بما تعلَّق به الظرفُ الواقعُ صلةً، أي: والذين استقرُّوا معه في الفلك، ويحتمل أن يتعلَّق بـ«أنجيناه»، أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان، وعلى هذا يحتمل أن تكون «في» سببيةً، أي: بالفلك، كقوله: «دخلت النار في هرَّة»[(٦)] أي: بسبب هرَّة.

---

(١) ما بين حاصرتين من النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٢٢.
(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٣٣.
(٣) عمر بن ثابت، أبو القاسم الضرير النحوي، أخذ النحو عن ابن جني، وشرح كتاب «اللمع» له شرحاً تامًّا حسناً أجاد فيه، وله أيضاً: كتاب المفيد في النحو، وشرح التصريف المُلوكي، توفي سنة (٤٤٢هـ). معجم الأدباء ١٦/ ٥٧، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٤٣.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٦، وتحرف في مطبوعه: فيهم، إلى: فهم.
(٥) تفسير الثعلبي ٣/ ٣٣، والكشاف ٢/ ٨٦.
(٦) قطعة من حديث ابن عمر عند البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٥٨٥٣).

و«عَمِين» من عَمَى القلب، أي: غيرَ مستبصِرين، ويدلُّ على ثبوت هذا الوصف كونُه جاء على وزن فَعِلٍ، ولو قُصد الحدوث[١] لجاء على فاعلٍ، كما جاء ضائقٌ في ضيِّق وثاقلٌ في ثقيل إذا قُصد به حدوثُ الضِّيق والثِّقل.

قال ابن عباس: عَمِيتْ قلوبُهم عن معرفة التوحيدِ والنبوَّةِ والمَعَاد[٢].

وقال [أبو] معاذ النحويُّ[٣]: رجلٌ عَمٍ في أمره: لا يبصره، وأعمى في البصر، قال:

ولكنَّني عن علم ما في غدٍ عَمِ[٤]

وقد يكون العَمِي والأعمى كالخَضِر والأخضر.

وقال الليث: رجلٌ عمٍ: إذا كان أعمى القلب[٥].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

«عاد»: اسمُ الحيِّ ولذلك صَرَفه، وبعضُهم جَعَله اسماً للقبيلة فمنعَه الصرف، قال الشاعر:

لو شَهْدَ عادَ في زمانِ عادِ لابْتَزَّها مَبَارِكَ الجِلَادِ[٦]

سمِّيت القبيلةُ باسم أبيهم، وهو عاد بن عَوْص بن إرَم بن سام بن نوح عليه السلام[٧].

---

(١) قوله: الحدوث، تحرف في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: الحذف.

(٢) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٣.

(٣) كما في تهذيب اللغة ٣/ ٢٤٥، وما بين حاصرتين منه، وأبو معاذ النحوي هو الفضل بن خالد المروزي مولى باهلة، توفي سنة (٢١١هـ). الثقات ٩/ ٥، وبغية الوعاة ٢/ ٢٤٥.

(٤) وصدره: وأعلم ما في اليوم والأمس قبله، والبيت لزهير، وهو في ديوانه ص٢٩.

(٥) ينظر العين ٢/ ٢٦٦، وتهذيب اللغة ٣/ ٢٤٥.

(٦) الرجز في الكتاب ٣/ ٢٥١، والإنصاف لابن الأنباري ٢/ ٥٠٤. قوله: شَهْدَ، أراد: شَهِدَ، فسكَّن الهمزة تخفيفاً، وأراد بمبارك الجِلَاد: وسَط الحرب ومعظمها، يقول: لو شهد هذا الممدوحُ في الحرب عاداً على قوتها وعزَّتها لظهر عليها وفاز بمعظم الحرب دونها، ومعنى «ابتزَّها»: سلبها. ينظر شرح شواهد الكتاب للأعلم ص٤٦٢.

(٧) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٦٨ عن ابن إسحاق، وينظر المحبَّر ص٣٨٤، والمنتظم ١/ ٢٥٢.

و«هود» قال شيخُنا أبو الحسن الأُبَّذيُّ النحوي المعروف[(١)]: إنَّ هوداً عربيٌّ، والذي يظهر من كلام سيبويه[(٢)] لمَّا عدَّه مع نوحٍ ولوطٍ -وهما عجميان- أنه عجميٌّ عنده. انتهى.

وذكر الشَّريف النسَّابة أبو البركات الجَوَّاني[(٣)] أن يَعْرُبَ بن قحطان بن هود هو الذي زعمتْ يَمنٌ أنه أولُ مَن تكلَّم بالعربية ونزل أرضَ اليمن، فهو أبو اليمن كلِّها، وأنَّ العرب إنما سُمِّيتْ عرباً به. انتهى، فعلى هذا لا يكون هودٌ عربيًّا.

وهودٌ هو عابر[(٤)] بن شالخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح، و«أخاهم» معطوفٌ على «نوحاً» ومعناه: واحداً منهم، وليس هودٌ من بني عاد كما ذكرنا، وهذا كما تقول: يا أخا العرب، للواحد منهم.

وقيل: هو من عاد، وهو هود بنُ عبد الله بن رباح ابن الجلود[(٥)] بن عاد بن عَوْص بن إرَم بن سام بن نوح، فعلى هذا يكون من عاد.

واسمُ أمِّه مرجانة، وكان رجلاً تاجراً أشبهَ خلق الله بآدم ﷺ.

روي أنَّ عاداً كانت ثلاثَ عَشْرَةَ قبيلةً ينزلون رمال عالج، وهي عادٌ الأولى، وكانوا أصحابَ بساتين وزروعٍ وعمارةٍ، وبلادُهم أخصبُ بلادٍ، فسَخِطَ الله عليهم فجعلها مفاوِزَ، وكانت بنواحي عُمان إلى حضرموت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام، ولمَّا هلكوا لحق هودٌ ومَن آمَنَ معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا.

---

(١) علي بن محمد بن محمد الخشني، من أهل المعرفة بكتاب سيبويه والواقفين على غوامضه، قال أبو حيان في النُّضار: كان أحفظ مَن رأيناه بعلم العربية، توفي سنة (٦٨٠هـ). بغية الوعاة ٢/ ١٩٩. وأُبَّذة كقُبَّرة: بُليدة بالأندلس، وبعضهم يذكره بالدال المهملة. ينظر اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ٢٣، والتاج (أبذ).

(٢) في الكتاب ٣/ ٢٣٥.

(٣) النسَّابة هو ابنُه أبو علي محمد بن أسعد نقيب الأشراف، أما أبو البركات فهو نحوي، وقد سلف الكلام عليهما عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١].

(٤) في المطبوع: ابن عابر، وهو خطأ. ينظر الإتقان للسيوطي ٢/ ١٠٦٦.

(٥) في تاريخ الطبري ١/ ٢١٦، وعرائس المجالس للثعلبي ص٦٣، والمنتظم ١/ ٢٥٢: الخلود، بضم الخاء واللام كما ذكر في المنتظم، وقال: كذلك رأيته...، ويقال: بالجيم المكسورة واللام المفتوحة. اهـ.

ولم يأت: فقال، بالفاء لأنه كأنه جوابُ سؤالٍ مقدَّر، أي: فما قال لهم؟ [فقيل:][1] قال: يا قوم، وكذا «قال الملأ». وفي قوله: «أفلا تتَّقون» استعطافٌ وتحضيضٌ على تحصيل التقوى.

ولمَّا كان ما حلَّ بقوم نوحٍ من أمر الطوفان واقعةً لم يظهر في العالَم مِثْلُها قال: «إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم»، وواقعةُ هود كانت مسبوقةً بواقعة نوحٍ، وعَهْدُ الناس قريبٌ بها، اكتفى هودٌ بقوله: «أفلا تتقون»، والمعنى: تَعْرِفون أنَّ قوم نوحٍ لمَّا لم يتَّقوا الله وعَبَدوا غيرَه حلَّ بهم ذلك العذابُ الذي اشتهر خبرُه في الدنيا، فقوله: «أفلا تتقون» إشارةٌ إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أَتى بوصف «الملأ» بالذين كفروا ولم يأتِ بهذا الوصفِ في قوم نوح؛ لأنَّ قوم هودٍ كان في أشرافهم مَن آمَنَ به، منهم مَرْثَد بن سعد بن عفير، ولم يكن في أشراف قوم نوحٍ مؤمنٌ، ألا ترى إلى قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود:٢٧] وقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١] ويحتمل أن يكون وصفاً جاء للذَّم لم يُقْصَدْ به الفرقُ.

و«لَنراك» يحتمل أن يكون من رؤية العين، ومن رؤية القلب، كما تقدم القولُ في قصة نوح. و«في سفاهة»، أي: في خفةِ حِلْمٍ وسخافةِ عَقْلٍ حيث تترك دينَ قومك إلى دينٍ غيرِه. و«في سفاهة» يقتضي أنه فيها قد احتوت عليه كالظرف المحتوي على الشيء، ولمَّا كان كلامُ نوحٍ لقومه أشدَّ من كلام هودٍ لقومه[2]؛ لقوله: «إنِّي أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيم» كان جوابُهم أغلظَ، وهو «إنا لنراك في ضلالٍ مبين»، وكان كلامُ هودٍ ألطفَ لقوله: «أفلا تتقون»، كان جوابُهم له ألطفَ من جواب قوم نوحٍ لنوحٍ بقولهم: «إنَّا لَنراك في سفاهةٍ»، ثم أتبعوا ذلك بقولهم: «وإنَّا لنظنُّك من الكاذبين» فدلَّ ذلك على أنه أخبرهم بما يَحِلُّ بهم من العذاب إن لم يتَّقوا الله، أو علَّقوا الظنَّ بقوله لهم: «ما لكم من إلهٍ غيره»، أي: إنَّ لنا آلهةً فحَصْرُها في واحدٍ كذبٌ.

---

(١) زيادة من الكشاف ٢/ ٨٧، والكلام منه.

(٢) قوله: لقومه، تحرف في (أ) و(د١) و(ع) إلى: تقوية.

وهل الظنُّ هنا بمعنى اليقين، أو بمعنى ترجيح أحدِ الجائزين؟ قولان للمفسرين، والثاني للحسن والزجَّاج[١]. وقال الكرماني: خوَّفَ نوحٌ الكفارَ بالطوفان العامِّ واشتغل بعمل السفينة، فقالوا: «إنَّا لنراك في ضلالٍ مبين» حيث تُتْعِبُ نفسَك في إصلاح سفينةٍ كبيرةٍ في مفازةٍ ليس فيها ماءٌ ولم يظهر ما يدل على ذلك، وهودٌ زيَّفَ عبادة الأوثان ونسب قومَه إلى السفاهة فقابَلوه بمثل ذلك[٢].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ تقدَّمت كيفيةُ هذا النفي في قوله: «ليس بي ضلالةٌ»، وهناك جاء: «وأنصحُ لكم»، وهنا جاء: «وأنا لكم ناصحٌ أمين» لمَّا كان آخرُ جوابهم جملةً اسميةً جاء قولُه كذلك، فقالوا هم: «وإنَّا لنظنك من الكاذبين» قال هو: «وأنا لكم ناصحٌ أمين»، وجاء بوصف الأمانة وهي الوصفُ العظيم الذي حَمَله الإنسان، ولا أمانةَ أعظمُ من أمانة الرسالة وإيصال أعبائها إلى المكلَّفين، والمعنى: إنِّي عُرفت فيكم بالنصح فلا يحقُّ لكم أن تتَّهموني، وبالأمانة فيما أقولُ فلا ينبغي أن أُكذَّب.

قال ابن عطية: وقوله: «أمين» يحتمل أن يريد: على الوحي والذِّكرِ النازلِ من قِبَل الله، ويحتمل أنه أمينٌ عليهم وعلى غيبهم وعلى إرداة الخير بهم، والعربُ تقول: فلانٌ لفلانٍ ناصحُ الجيبِ أمينُ الغيبِ، ويحتمل أن يريد به من الأمن، أي: جهتي ذاتُ أمنٍ لكم من الكذب والغش[٣].

قال القُشَيري: شتَّان ما بين مَن دفع عنه ربُّه بقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢] ومَن دفع عن نفسه بقوله: «ليس بي ضلالةٌ» «ليس بي سفاهةٌ»[٤].

قال الزمخشري[٥]: وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام مَن نَسَبَهم إلى الضلالة والسفاهة

(١) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٦، وكلام الزجاج في معاني القرآن ٢/ ٣٤٧.
(٢) وقاله الرازي في تفسيره ٤/ ١٥٥-١٥٦.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٧.
(٤) لطائف الإشارات ١/ ٥٤٣ بنحوه.
(٥) في الكشاف ٢/ ٨٧.

بما أجابوهم من الكلام الصادر عن الحِلْم والإغضاء وتركِ المقابَلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأنَّ خصومهم أضلُّ السَّفَّاهين وأَسْفَهِهم(١)، أدبٌ حَسَنٌ وخُلُقٌ عظيم، وحكايةُ الله عز وجل عنهم ذلك تعليمٌ لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يُغْضون عنهم ويُسْبِلون أذيالهم على ما يكون منهم.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟﴾ أتى هنا بعلةٍ واحدة وهي الإنذار، وهو التخويفُ بالعذاب، واختصر ما يترتَّبُ على الإنذار من التقوى ورجاء الرحمة.

﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ﴾ أي: سكَّان الأرض بعدهم؛ قاله السديُّ وابن إسحاق(٢). أو: جعلكم ملوكاً في الأرض استخلفكم فيها؛ قاله الزمخشريُّ(٣). وتذكيرُ هود بذلك يدلُّ على قُرْب زمانهم من زمان نوح؛ لقوله: «من بعد قوم نوح».

و«إذ» ظرفٌ في قول الحوفي، فيكون مفعولُ «اذكروا» محذوفاً، أي: واذكروا آلاء الله عليكم وقتَ كذا، والعاملُ في «إذ» ما تضمَّنه النِّعم من الفعل(٤)، وفي قول الزمخشري «إذ» مفعولٌ به، وهو منصوبٌ بـ«اذكروا» أي: اذكروا وقتَ جَعْلِكم(٥).

﴿فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ ظاهرُ التواريخ أن البَسْطة: الامتدادُ والطولُ والجَمالُ في الصُّوَر والأشكال، فيحتمل إذ ذاك أن يكون الخلقُ بمعنى المخلوقين. ويحتمل أن يكون مصدراً، أي: وزادكم في خَلْقكم بسطةً، أي: مدَّ وطوَّل وحسَّن خَلْقَكم.

قيل: كان أقصرُهم ستين ذراعاً وأطولُهم مئة ذراع؛ قاله الكلبيُّ والسدِّي(٦).

---

(١) تحرفت في (أ) و(ب) و(د١) و(ع) إلى: وأسفهم، وفي المطبوع إلى: وأسفلهم. وعبارة الكشاف: . . . أضل الناس وأسفههم.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٠/٢٦٦.

(٣) الكشاف ٢/٨٧، ولفظه: . . . قد استخلفكم فيها بعدهم.

(٤) يعني بالنعم الآلاء المقدَّر مفعولاً لـ«اذكروا»، والذي دل عليه قوله بعد ذلك: «فاذكروا آلاء الله»، وقدر المصنف المفعول في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٢٤: واذكروا إنعامه عليكم وقت جعلكم خلفاء.

(٥) الكشاف ٢/٨٧، وفيه: وقت استخلافكم.

(٦) تفسير الثعلبي ٣/ ٣٤، وتفسير الرازي ١٤/١٥٧، وذكره أبو الليث السمرقندي في تفسيره

وقال أبو حمزة اليماني[١]: سبعون ذراعاً.

وقال ابن عباس: ثمانون ذراعاً.

وقال مقاتل: اثنا عشر ذراعاً.

وقال وَهْبٌ: كان رأسُ أحدهم مثلَ القبَّة العظيمة، وعينُه تفرِّخُ فيها الضِّباع، وكذلك منخرُه[٢].

وإذا كان «الخلق» بمعنى المخلوقينَ فـ«الخلقُ» قومُ نوح، أو أهلُ زمانهم، أو الناس كلُّهم. أقوال.

وقيل: الزيادةُ في الأجرام، وهي قَدْرُ ما تصل إليه يد الإنسان إذا رفعها.

وقيل: الزيادةُ هي في القوَّة والجَلادة لا في الأجرام.

وقيل: زيادةُ البَسْطة كونُهم من قبيلةٍ واحدةٍ، متشاركين في القوة متناصِرينَ يحبُّ بعضُهم بعضاً[٣].

ويحتمل أن يكون المعنى: وزادكم بسطةً، أي: اقتداراً في المخلوقين وتسليطاً عليهم واستيلاء.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ذكَّرهم أولاً بإنعامه عليهم حيث جَعَلَهم خلفاءَ وزادهم بسطةً، وذكَّرهم ثانياً بنعمه عليهم مطلقاً لا بتقييدِ زمانِ الجَعْلِ.

و«اذكروا» الظاهرُ أنه من الذِّكر، وهو أن لايتناسَوا نعمَه، بل تكونُ نعمُه على ذُكْرٍ منكم رجاءَ أن تُفلحوا، وتعليقُ رجاء الفلاح على مجرَّد الذِّكر لا يظهر، فيحتاجُ إلى تقدير محذوفٍ يترتَّبُ عليه رجاءُ الفلاح، وتقديره والله أعلم: فاذكروا

= ١/ ٥٥٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٢٢، والقرطبي ٩/ ٢٦٤ عن ابن عباس. ولم أقف عليه عن السدي. وذكر أبو الليث عن الكلبي: أطولهم مئة وعشرون وأقصرهم ثمانون ذراعاً.

(١) كذا في النسخ، وهو تحريف، والصواب: الثمالي، وقوله في تفسير الثعلبي ٣/ ٣٤.

(٢) ذكر هذه الأقوال الثعلبي في التفسير ٣/ ٣٤.

(٣) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٧-١٥٨.

آلاء الله وأفْرِدوه[١] بالعبادة، ألا ترى إلى قوله بعد ذلك: «أجئتنا لنعبدَ الله وحده»، وفي ذِكْرِهم آلاءَ الله ذكرُ المُنْعِم عليهم المستحِقِّ لإفراده بالعبادة ونَبْذِ ما سواه.

وقيل: «اذكروا» هنا بمعنى: اشكروا.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ الظاهرُ أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويُفردوا الله بالعبادة ـ مع اعترافهم بالله ـ حبًّا لِمَا نشؤوا عليه، وتألُّفا لمَا وَجدوا آباءَهم عليه. ويحتمل أن يكونوا منكرين لله، ويكون قولهم: «لنعبد الله وحده» أي: على قولك يا هود ودعواك؛ قاله ابنُ عطية، وقال: التأويلُ الأولُ أظهر فيهم وفي عُبَّاد الأوثان، ولا يَجْحدُ ربوبيةَ الله من الكفرة إلَّا مَن ادَّعاها لنفسه كفرعون ونمروذ[٢]. انتهى.

وكان في قول هودٍ لقومه: «فاذكُروا آلاءَ الله» دليلٌ قاطعٌ على أنه لا يُعْبَد إلا المُنْعِم، وأصنامُهم جماداتٌ لا قدرةَ لها على شيءٍ البتة، والعبادةُ هي نهايةُ التعظيم، فلا تَليقُ إلا بمن يَصْدُر عنه نهايةُ الإنعام.

ولمَّا نبَّه على هذه الحجة، ولم يُمْكِنْ[٣] لهم أن يُجيبوا[٤] عنها، عَدَلوا إلى التقليد البَحْتِ فقالوا: «أَجِئْتَنا لنعبدَ الله وحدَه» والمجيءُ هنا يحتملُ أن يكونَ حقيقةً بكونه كان متغيِّباً عن قومه منفرداً بعبادة ربِّه، ثم أرسله الله إليهم فجاءهم من مكانِ متعبَّده، ويحتملُ أن يكون قولُهم ذلك على سبيل الاستهزاءِ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ الله لا يُرسل إلَّا الملائكة، فكأنهم قالوا: أجئتنا من السماء كما يَجيءُ الملكُ، ولا يريدون حقيقةَ المجيء، ولكنِ التعرُّضَ والقصدَ، كما يقال: ذهب يشتمني، لا يريدون حقيقةَ الذهاب، كأنهم قالوا: أقصَدْتَنا لنعبد الله وحده وتعرَّضْتَ لنا بتكاليفِ ذلك.

---

(١) تحرفت في (أ) و(ع) والمطبوع إلى: وإفراده، وسقطت الجملة من (د١).
(٢) المحرر الوجيز ٢/٤١٩.
(٣) في (ب) والمطبوع: يكن.
(٤) في (أ) و(د١) و(ع): يجنّبوا.

وفي قولهم: «فأتنا بما تَعِدُنا» دليلٌ على أنه كان يَعِدُهم بعذاب الله إنْ داموا على الكفر، وقولُهم ذلك يدلُّ على تصميم على تكذيبه، واحتقارِهم لأمر النبوَّة، واستعجالٍ للعقوبة، إذ هي عندهم لا تقع أصلاً وقد تقدَّم قولُهم له: «إنَّا لنراكَ في سَفاهةٍ وإنَّا لنظنُّك من الكاذبين» فلما كانوا يعتقدون كونَه كاذباً قالوا: «فأتِنا بما تَعِدُنا إنْ كنتَ من الصادقين»، أي: في نبوَّتك وإرسالك، أو في أن العذابَ نازلٌ بنا.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: حلَّ بكم وتحتَّم عليكم، قال زيد بن أسلم والأكثرون: الرِّجسُ هنا العذاب[١]، من الارتجاس وهو الاضطراب، وقال ابن عباس: السَّخَط[٢].

وقال أبو عبد الله الرازي: لا يكون العذابَ؛ لأنه لم يكن حاصلاً في ذلك الوقت، وقال القفَّال: يجوز أن يكون الرِّجسُ هو الازديادَ في الكفر بالرَّين على القلوب، أي: لتماديكم على الكفر وقع عليكم من الله رينٌ على قلوبكم كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥][٣].

فإن كان الرجسُ السَّخَطَ أو الرينَ، فقوله: «قد وقع» على حقيقته من المُضيِّ، وإن كان العذابَ فيكونُ مِن جَعْل الماضي موضعَ المستقبل لتحقُّق وقوعه.

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ هذا إنكارٌ منه لمخاصمتهم له فيما لا ينبغي فيه الخصامُ، وهو ذكرُ ألفاظٍ ليس تحتها مدلولٌ يستحقُّ العبادةَ، فصارت المنازَعةُ باطلةً بذلك، ومعنى «سمَّيتُموها»: سميتُم بها أنتم وآباؤكم، أي: أحْدَثْتُموها قريباً أنتم وآباؤكم، وهي: صَمُودٌ وصُدَاءٌ والهَبَاء، وقد ذكرها مَرْثَد بن سعد في شعره فقال:

عَصَتْ عادٌ رسولَهمُ فأَضْحَوْا عِطاشاً ما تَبُلُّهم السماءُ
لهم صنمٌ يقال له صَمُودٌ يقابِلُه صُدَاءٌ والهَبَاءُ

(١) ذكره عن زيد بن أسلم الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٣٤.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٨٠-٢٨١.
(٣) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٩-١٦٠.

فبصَّرنا الرسولُ سبيلَ رُشْدٍ فأبصَرْنا الهدى وجَلا العَماءُ
وإنَّ إلهَ هودٍ هُوْ إلهي على الله التوكُّلُ والرجاءُ[١]

فالجدالُ إذ ذاك يكون في الألفاظ لا مدلولاتها.

ويحتمل أن يكون الجدالُ وقع في المسمَّيات وهي الأصنام، فيكون أَطْلَقَ الأسماء وأراد بها المسمَّيات، أو كان ذلك على حذف مضاف، أي: أتُجادلونني في ذواتِ أسماءٍ، ويكون المعنى: سمَّيتموها آلهةً وعبدتُموها من دون الله.

قيل: سمَّوا كلَّ صنم باسمٍ، على ما اشتهوا وزعموا أن بعضهم يسقيهم المطرَ، وبعضَهم يشفيهم من المرضِ، وبعضَهم يَصْحَبُهم في السفر، وبعضَهم يأتيهم بالرزق.

﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ والجملةُ من قوله: «ما نزَّل» في موضع الصفة، والمعنى: إنه ليس لكم بذلك حجَّةٌ ولا برهانٌ، وجاء هنا «نزَّل» وفي مكانٍ غيرِه «أنزل»[٢] وكلاهما فصيحٌ، والتعدية بالتضعيف والهمزة سواءٌ.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾ وهذا غايةٌ في التهديد والوعيد، أي: فانتظروا عاقبةَ أمركم في عبادة غير الله وفي تكذيب رسوله، وهذا غايةٌ في الوثوق بما يَحِلُّ بهم، وأنه كائنٌ لا محالة.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يعني: مَن آمَنَ معه برحمةٍ سابقةٍ لهم من الله وفضلٍ عليهم، حيث جعلهم آمنوا فكان ذلك سبباً لنجاتهم ممَّا أصاب قومهم من العذاب.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك بالعذاب، وتقدَّم الكلامُ في «دابر» في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ [الأنعام: ٤٥] وفي قوله: «الذين كذَّبوا» تنبيهٌ على علة قَطْع دابرهم، وفي قوله: «بآياتنا» دليلٌ على أنه كانت لهود معجزاتٌ ولكن لم تُذْكَرْ لنا بتعيينها.

---

(١) وردت ضمن خبر طويل في قصة عاد، ذكره الطبري في التاريخ ١/ ٢١٩-٢٢٤، والبغوي في التفسير ٢/ ١٧١-١٧٢. ومرثد بن سعد كان ممَّن آمن بهود ﷺ من قوم عاد.

(٢) وردت في الآية (٤٠) من سورة يوسف، والآية (٢٣) من سورة النجم.

﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ جملةٌ مؤكِّدة لقوله: «كذبوا بآياتنا»، ويحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى أنهم ممَّن عَلم الله تعالى أنهم لو بَقُوا لم يؤمنوا، أي: ما كانوا ممن يَقْبلُ إيماناً البتة، ولو علم الله تعالى أنهم يؤمنون لأبقاهم، وذلك أنَّ المكذِّب بالآيات قد يؤمن بها بعد ذلك ويَحْسُنُ حالُه، فأمَّا مَن حتم الله عليه(١) بالكفر فلا يؤمن أبداً.

وفي ذلك تعريضٌ بمن آمَنَ منهم كمرثد بن سعد ومَن نجا مع هود ﷺ، كأنه قال: وقطعنا دابر القوم الذين كذَّبوا منهم ولم يكونوا مِثْلَ مَن آمَنَ منهم؛ لِيُؤْذِنَ أنَّ الهلاك خصَّ المكذِّبين ونجّى الله المؤمنين؛ قاله الزمخشريُّ(٢).

وذكر المفسِّرون هنا قصةَ هلاك عادٍ، وذكروا فيها أشياءَ لا تعلُّق لها بلفظ القرآن، ولا صحت عن الرسول، فضربْتُ عن ذكرها صفحاً، وأمَّا ما له تعلُّقٌ بلفظ القرآن فيأتي في مواضعه إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ «ثمود»: اسمُ القبيلة سُمِّيت باسم أبيهم الأكبر، وهو ثمودُ أخو جَدِيس، وهما ابنا جاثر بن إرم بن سام بن نوح ﷺ، وكانت مساكنُهم الحِجْرَ بين الحجاز والشام، وإلى وادي القرى.

وقيل: سمِّيت ثمود لقلة مائها، من الثَّمد(٣) وهو الماءُ القليلُ، قال الشاعر:

احْكُمْ كحُكْم فتاة الحيِّ إذ نَظرتْ ... إلى حمامٍ شِراعٍ واردِ الثَّمَدِ(٤)

وكانت ثمودُ عرباً في سعةٍ من العيش، فخالَفوا أمر الله وعَبَدوا غيره وأفسدوا،

(١) في (يه): ختم الله له.
(٢) في الكشاف ٢/٨٨-٨٩.
(٣) بسكون الميم، ويحرك. القاموس (ثمد).
(٤) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٤، والكتاب ١/١٦٨، والخزانة ١٠/٢٥٣. قوله: احكم كحكم، أي: كن حكيماً كهذه الفتاة، وهي زرقاء اليمامة، والحُكم هنا بمعنى الحكمة مثل: نُعم ونِعمة. وشراع: التي شرعت في الماء، ورُوي: سِراع، وهما جمع شارعة وسريعة، والحمام اسم جنس، فيجوز أن يعتبر جمعاً ومفرداً، وهنا جُمع وصفُه تارةً في كلمة «شراع»، وأُفرد أخرى في «وارد». ينظر الخزانة ١٠/ ٢٥٤-٢٥٨.

فبعث الله لهم صالحاً نبيًّا من أوسطهم نَسَباً وأفضلهم حَسَباً، فدعاهم إلى الله حتى شَمِطَ(١)؛ ولا يتبعه منهم إلا القليل(٢).

قال وهب: بعثه الله حين راهَقَ الحلم، فلمَّا هلك قومُه ارْتَحَلَ بمن معه إلى مكة، فأقاموا معه حتى ماتوا، فقبورُهم بين دار الندوة والحِجْر(٣).

وصالح هو: صالح بن آسَف بن كماشح بن أَرُوم بن ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح، هكذا نسبه الشريف النسَّابة الجَوَّاني، وهو المنتهى إليه في علم النَّسب، ووقع في بعض التفاسير بين صالح وآسف زيادةُ أب وهو عبيد، فقالوا: صالح بن عبيد بن آسف، ونقص في الأجداد، وتصحيفُ: جاثر، بقولهم: عابر(٤).

قال الشريف الجَوَّاني في «المقدمة الفاضلية»: والعقبُ من جاثر بن إرم بن سام بن نوح: ثمود وجَديس، والعقب من ثمود بن جاثر: فالخ وهَيْلع وتَنوق وأروم، من ولده صالح النبيُّ ﷺ بن آسف بن كماشح بن أروم بن ثمود.

وقرأ ابن وثَّاب والأعمش: «وإلى ثمودٍ» بكسر الدال والتنوين مصروفاً في

(١) الشَّمط: بياض شعر الرأس يخالط سواده. اللسان (شمط).

(٢) عرائس المجالس للثعلبي ص٦٨، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٦٦، ورواه الطبري ١٠/ ٢٨٦ مطولاً عن ابن إسحاق.

(٣) المعارف لابن قتيبة ص٢٩-٣٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢١.

(٤) ينظر ما أشار إليه المصنف من زيادة أو نقص أو تصحيف في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٠، والكشاف ٢/ ٨٩، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٣-١٧٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٦٥-٢٦٦. ورواية المصنف: جاثر، توافق ما ورد في طبقات ابن سعد ١/ ٤٣، وتاريخ الطبري ١/ ٢٢٦، والمحبَّر لابن حبيب ص٣٨٤، والإكمال ٢/ ١٠، والقاموس والتاج (جثر). وقد جاء بدلاً منه عند القرطبي: عاد، وفي المحرر: غاثر، وعند الزمخشري والبغوي: عابر، ولكن في إطلاق التصحيف هنا نظر، فقد قال ابن قتيبة في المعارف ص٢٧: ومن ولد إرم بن سام بن نوح: ثمود بن عابر ـ ويقال: ثمود بن جاثر ـ بن إرم بن سام بن نوح. اهـ. وقد جاء في تفسير الطبري (تحقيق محمود شاكر) ١٢/ ٥٢٤: غاثر، بالغين والثاء، وأشار محققه الشيخ محمود شاكر إلى رواية التاريخ: جاثر، ثم قال: وكأن الأول هو الأصل، وأن الآخر على القلب عن الغين، هذا إذا لم يكن خطأ. اهـ. أما زيادة عبيد في الآباء وعدم زيادته فهما قولان أيضاً ذكرهما الطبري في التاريخ ١/ ٢٢٦.

جميع القرآن[١]، جَعَله اسمَ الحيِّ، والجمهور مَنَعوه الصَّرفَ؛ جعلوه اسمَ القبيلة.

والأخوَّةُ هنا في القرابة؛ لأن نسبه ونسبهم راجعٌ إلى ثمود بن جاثر.

وكلُّ واحدٍ من هؤلاء الأنبياء: نوح وهود وصالح، تَوارَدوا على الأمر بعبادة الله والتنبيهِ على أنه لا إله غيره إذ كان قومُهم عابدي أصنام ومتَّخذي آلهةٍ مع الله كما كانت قريشٌ والعربُ، ففي هذه القصص توبيخُهم وتهديدهم أن يصيبهم مثلُ ما أصاب أولئك من الهلاك المستأصِلِ بالعذاب[٢].

وكانت قصة نوحٍ مشهورةً طبَّقت الآفاق، وقصةُ هودٍ وصالحٍ مشهورةٌ أيضاً عند العرب وغيرِهم بحيث ذكرها قدماءُ الشعراء في الجاهلية، وشبَّهوا مفسدي[٣] قومهم بمفسدي قوم هود وصالح، قال بعضُ قدمائهم في الجاهلية:

فينا معاشرُ لن يَبْنوا لقومِهمُ ... وإنْ بَنَى قومُهم ما أَفْسَدوا عادوا
أَضْحَوا كقَيْلِ بن عَنْزٍ في عشيرته ... إذ أُهلكت بالذي سدَّى لها عادُ
أو بعده كقُدارٍ حين تابعه ... على الغواية أقوامٌ فقد بادوا[٤]

وقَيْلُ بن عَنْزٍ هو من قوم هود، وسيأتي ذكرُ خبره عند ذكر إرسال الريح على قوم هود إن شاء الله. وقُدار هو ابنُ سالف عاقِرُ ناقةِ صالحٍ، ويأتي خبره إن شاء الله.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: آيةٌ ظاهرةٌ جليَّةٌ، وشاهِدٌ على صحة نبوَّتي، وكثر استعمالُ هذه الصفة استعمالَ الأسماء في القرآن فوَلِيَتِ العواملَ، كقوله: حتى جاءتهم البينة[٥]، وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤] والمعنى:

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢٠.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: من العذاب، وهو خطأ.

(٣) هنا ينتهي الخرم الذي في (د٣).

(٤) الأبيات من قصيدة للأفْوَه الأوْدي ـ واسمه صلاءة بن عمرو ـ كما في أمالي القالي ٢/ ٢٢٤، وفيه: ... لم يبنوا لقومهم، وتحرفت كلمة «يبنوا» في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: يبغوا.

(٥) كذا ذكر، والصواب: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وفي سورة البينة أيضاً: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [الآية: ٤].

الآيةُ البينةُ، و: بالآيات البيِّنات، فقارَبَ أن تكون كالأَبْطَح والأَبْرق[١] إذ لا يكاد يصرَّح بالموصول معها.

وقوله: «قد جاءتكم بينةٌ من ربِّكم» كأنه جوابٌ لقولهم: ائتنا ببينةٍ تدلُّ على صدقك وأنك مرسَلٌ إلينا. و«من ربكم» متعلِّقٌ بـ«جاءتكم»، أو في موضع الصفة لـ«آية» على تقدير محذوفٍ، أي: من آيات ربِّكم.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ لمَّا أَبْهَمَ في قوله: «قد جاءتكم بينةٌ من ربكم» بيَّن ما الآيةُ، فكأنه قيل له: ما البينة؟ قال: «هذه ناقةُ الله»، وأضافها إلى الله تشريفاً وتخصيصاً، نحو: بيت الله، و: روح الله، ولكونه خَلَقَها بغير واسطةِ ذَكَرٍ وأنثى، ولأنه لا مالكَ لها غيرُه، ولأنها حجةٌ على القوم، ولمَا أُوْدِعَ فيها من الآيات الآتي ذِكْرُها في قصة قوم صالح.

و«لكم» بيانٌ لمَن هي له آيةٌ موجبةٌ عليه الإيمانَ وهم ثمود لأنهم عايَنُوها، وسائرُ الناس أُخبروا عنها، كأنه قال: لكم خصوصاً. وانتصب «آيةً» على الحال، والعاملُ فيها «ها» بما فيها من معنى التنبيه، أو اسمُ الإشارة بما فيه من معنى الإشارة، أو فعلٌ مضمرٌ تدلُّ عليه الجملةُ، كأنه قيل: انظر إليها في حال كونها آيةً. أقوالٌ ثلاثةٌ ذُكرت في علم النحو.

وقال الحسن: هي ناقةٌ اعترضها من إبلهم ولم تكن تُحلب[٢].

وقال الزجاج: قيل: إنه أخذ ناقةً من سائر النوق، وجَعَل الله لها شِرْباً يوماً ولهم شِرْبُ يومٍ، وكانت الآية في شربها وحلبها[٣].

قيل: وجاء بها من تِلْقاء نفسه.

وقال الجمهور: هي آيةٌ مقترحةٌ، لمَّا حذَّرهم وأنذرهم سألوه آيةً، فقال: أيَّةَ آيةٍ تريدون؟ قالوا: تَخرُجُ معنا إلى عيدنا -في يومٍ معلوم لهم من السنة- فتَدْعو إلهكَ

---

(١) الأبطح: مسيلٌ واسع فيه دُقاق الحصى، والأبرق: غِلَظٌ فيه حجارةٌ ورمل وطين مختلطة. القاموس (بطح) و(برق).

(٢) حكاه عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢١ نقلاً عن النقاش.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٠ بنحوه، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢١، وعنه نقل المصنف.

ونَدْعُو آلهتَنا، فإن استُجيب لك اتَّبعناك، وإن استُجيب لنا اتَّبعْتَنا، قال صالح: نعم، فخرج معهم، فدعَوا أوثانَهم وسألوها الاستجابة فلم تُجبهم، ثم قال سيدُهم جُنْدَع بن عَمرو بن جَوَّاس - وأشار إلى صخرةٍ منفردةٍ من ناحية الجبل يقال لها: الكاثبة -: أخرِجْ لنا من هذه الصخرة ناقةً مخترجَةً جَوْفاءَ وَبْراءَ عُشَراءَ. والمخترجةُ ما شاكلت البُخْتَ من الإبل. وأخذ صالحٌ ﷺ مواثيقَهم: لئن فعلتُ ذلك لتؤمِنُنَّ ولتصدِّقُنَّ، قالوا: نعم، فصلَّى ركعتين ودعا ربَّه، فتمخَّضت الصخرةُ تمخُّض النَّتُوج بولدها، ثم تحرَّكت فانصدعت عن ناقةٍ كما وصفوا لا يَعْلَم ما بين جنبيها إلا الله عِظَماً وهم ينظرون، ثم نتجت سَقْباً مثلَها في العِظَم، فآمَنَ به جُنْدَعٌ ورَهْطٌ من قومه، وأراد أشرافُ ثمودَ أن يؤمنوا به فنهاهم ذُؤاب بنُ عَمرو بنِ لَبيدٍ والحُباب صاحبا أوثانهم، ورَيَّان ابنُ كاهنهم، وكانوا من أشراف ثمود[(١)].

وهذه الناقةُ وسَقْبُها مشهورٌ قصتُهما عند جاهلية العرب، وقد ذكروا السَّقْب في أشعارهم، قال بعضهم يصف ناساً قُتلوا بمعركة حرب بأجمعهم:

كأنَّهمْ صابَتْ عليهم سحابةٌ صَواعِقُها لطيرهنَّ دبيبُ
رَغا فوقهم سَقْبُ السماء فداحِضٌ بشِكَّته لم يُسْتَلَبْ وسَليبُ[(٢)]

---

(١) تنظر القصة مطولة في تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٦، وعرائس المجالس للثعلبي ص٦٨، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٥، والبداية والنهاية ١/ ٣١٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٠. وقوله: ريان، جاء بدلاً منه في المصادر: رباب. والقصة عند الطبري من رواية ابن إسحاق، وهي عند المصنف حتى قوله: ورهط من قومه، منقولة من الكشاف ٢/ ٨٩.

(٢) البيتان لعلقمة الفحل، وهما في ديوانه (بشرح الأعلم) ص٤٦، والمفضليات ص٣٩٥، باختلاف في الترتيب. وهما من قصيدة في مدح الحارث بن جبلة الغساني، ومعنى البيت الأول: كأن ما أصاب أعداء هذا الممدوح ونزل بهم من القتل الذريع والاستئصال سحابة جاءت بصواعق فقتلت ما أصابت من الطير، وبقي ما أفلتَ منها يدبُّ لا يقدر على الطيران. وقوله: رغا فوقهم سقب السماء، يعني أنهم استؤصلوا وهلكوا كما هلكت ثمود. وقوله: فداحضٌ، الدحض الزلل، أي: قد زل فسقط بالأرض، ويروى: فداحصٌ (وهي رواية الديوان) أي: فاحص برجليه عند الموت مع شكَّته، وهي جملة السلاح. وقوله: لم يُستلب، أي: كان القتلى أكثر من أن يحاط بسلبهم، فمنهم من سُلب ومنهم من لم يُسلب. قاله الأعلم شارح الديوان.

قال أبو موسى الأشعري: أتيتُ أرض ثمودَ فذَرَعْتُ صدر الناقة فوجدتُه ستين ذراعاً[(١)].

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ لـمَّا أضاف الناقة إلى الله أضاف محلَّ رَعْيها إلى الله؛ إذ الأرضُ وما أنبته فيها ملكُه تعالى لا ملكُكم ولا إنباتُكم، وفي هذا الكلام إشارةٌ إلى أنَّ هذه الناقةَ نعمةٌ من الله يُنالُ خيرُها من غيرِ مشقةِ تَكلُّفِ علفٍ ولا طعمة، وهو شأنُ الإبل كما جاء في الحديث: قال: فضالَّة الإبل؟ قال: «ما لك ولها معها سقاؤها وحذاؤها تَرِدُ الماء وتأكلُ الشجر حتى يلقاها ربُّها»[(٢)].

و«تأكُلْ» جزمٌ على جواب الأمر، وقرأ أبو جعفر في رواية: «تأكلُ» بالرفع[(٣)]، وموضعه حالٌ.

كانت الناقةُ مع ولدها ترعَى الشجرَ وتشربُ الماء تَرِدُ غِبًّا، فإذا كان يومُها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كلَّ ما فيها، ثم تَفَجَّجُ فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم، فيشربون ويدَّخرون[(٤)].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ نهاهم عن مسِّها بشيءٍ من الأذى، وهذا تنبيهٌ بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهاهم عن مسِّها بسوءٍ إكراماً لآية الله، فنهيُه عن نحرِها وعقرِها ومنعِها من الماء والكلأ أَوْلَى وأحرى، والمسُّ والأخذُ هنا استعارةٌ، وهذا وعيدٌ شديدٌ لمن مسَّها بسوء، والعذابُ الأليم هو ما حلَّ بهم إذ عقروها وما أعدَّ لهم في الآخرة.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ذكَّر صالح قومَه بما ذكَّر به هودٌ قومَه، فذكَرا أولاً نعماً خاصَّةً وهي جَعْلُهم خلفاءَ بعد

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/٢٩٧.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٩١)، ومسلم (١٧٢٢) عن زيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٣) الكشاف ٢/ ٩٠، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤ عن الكسائي وأبي معاذ.

(٤) الكشاف ٢/ ٨٩، وهذه قطعة من الخبر الذي سلف قريباً في قصة ثمود. وقوله: تَفَحَّجُ، مضارع، وأصله: تتفحَّجُ بتاءين، وكذا وقع في الكشاف بتاءين، ومعناه: تفرج ما بين رجليها للحلب. ينظر حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٤/ ١٨٥.

الأمة التي سبقتهم، وذَكَر هودٌ لقومه ما اختصُّوا به من زيادة البَسْطة في الخَلْق، وذكَرَ صالح لقومه ما اختصُّوا به من اتخاذ القصور من السهول، ونحتِ الجبال بيوتاً، ثم ذكَرا نعماً عامةً بقولهما: «فاذكُروا آلاءَ الله»، ومعنى: «وبوأكم في الأرض»: أنزلكم بها وأسكنكم إياها، والمَبَاءَةُ: المنزلُ في الأرض، وهو مِن باء، أي: رجَع، وتقدَّم ذكرُه[1]، و«الأرض» هنا: الحِجْر ما بين الحجاز والشام.

و«تتخذون» حالٌ، أو تفسير لقوله: «وبوَّأكم في الأرض»، فلا موضعَ له من الإعراب، والظاهرُ أن بعض السهول اتَّخذوه قصوراً، أي: بَنَوا فيه قصوراً وأنشؤوها فيه، إذ لم يستوعِبوا جميعَ سهولها بالقصور.

وقال الزمخشريُّ: «من سهولها قصوراً»، أي: تبنونها من سهولة الأرض بما تعملون منها الرِّهْصَ واللَّبِنَ والآجُرَّ[2]. يعني أن القصور التي بَنَوها أجزاؤُها متَّخَذَةٌ من لين الأرض كالجيَّار[3] والآجُرِّ والجصِّ، كقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] يعني أن الصورة كانت مادَّتُها من الحليِّ كما أنَّ القصورَ مادتُها من سهول الأرض والأجزاءِ التي صُنعت منها.

وظاهرُ الاتِّخاذ هنا: العملُ، فيتعدَّى «تتخذون» إلى مفعولٍ واحد، وقيل: يتعدَّى إلى اثنين، والمجرورُ هو الثاني.

وقرأ الحسن: «وتَنْحَتون» بفتح الحاء، وزاد الزمخشريُّ أنه قرأ: «وتَنْحاتون» بإشباع الفتحة، قال: كقوله:

يَنْبَاعُ مِن ذِفْرَى أسِيلٍ حُرَّةٍ[4]

انتهى.

---

(١) عند تفسير المفردات لقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].
(٢) الكشاف ٢/ ٩٠. والرِّهص (بالكسر): الطين الذي يُبْنى به. القاموس (رهص).
(٣) الجيار: هو خليط الرماد مع النُّورة والجص. ينظر اللسان (جير).
(٤) الكشاف ٢/ ٩٠، وهذا صدر بيت من معلقة عنترة، والمشهور من روايته: ينباع من ذفرى غضوب جسرة، وقد سلف بهذه الرواية عند تفسير الآية (١٢٤) من سورة آل عمران، وعجزه: زيَّافةٍ مثل الفنيق المُكْدَم، وهو في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٢٤، وللتبريزي ص٢٣٠.

وقرأ ابن مصرِّفٍ بالياء من أسفل وكسرِ الحاء، وقرأ أبو مالك بالياء من أسفل وفتح الحاء[١]، ومَن قرأ بالياء فهو التفاتٌ.

وانتصَبَ «بيوتاً» على أنها حالٌ مقدَّرة؛ إذ لم تكن الجبالُ وقتَ النَّحت بيوتاً، كقولك: ابْرِ لي هذه اليراعةَ قلماً، و: خِطْ لي هذا قباءً، وقيل: مفعولٌ ثانٍ على تضمين «وتنحتون» معنى: وتتَّخذون.

وقيل مفعولٌ بـ«تنحتون». و«الجبال» نصبٌ على إسقاط «من»، أي: من الجبال.

وقرأ الأعمش: «تِعْثَوا» بكسر التاء[٢]؛ كقولهم: أنت تِعْلَم، وهي لغةٌ. و«مفسدين» حالٌ مؤكِّدة.

قال ابن عباس: القصورُ لمصيفهم والبيوتُ في الجبال لمَشْتاهم[٣].

وقيل: نحتوا الجبالَ لطول أعمارهم، كانت القصورُ تَخْرَبُ قبل موتهم. قال وهب: كان الرجلُ يبني البنيانَ فتمرُّ عليه مئةُ سنة فيَخْرَبُ، ثم يجدِّدُه فتمرُّ عليه مئةُ سنة فيَخْرَبُ، ثم يجدِّدُه فتمرُّ عليه مئة سنة فيَخْرَب، فأَضْجَرهم ذلك فاتَّخذوا الجبال بيوتاً[٤].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قرأ ابن عامر: «وقال الملأ» بواوِ عطفٍ، والجمهورُ: «قال» بغير واوٍ[٥]، و«الذين استكبروا» وصفٌ للملأ: إمَّا للتخصيص؛ لأن من أشرافهم مَن آمَنَ وهو[٦] جُنْدَع بن عمرو، وإمَّا للذمِّ.

و«استكبروا»: طلبوا الهيبة لأنفسهم، وهو من الكِبْر، فيكون اسْتَفْعَلَ للطلب وهو بابُها، أو تكون اسْتَفْعَلَ بمعنى فَعلَ، أي: كَبُروا بكثرة[٧] المال والجاه، فيكون مثل: عَجِبَ واسْتَعْجَبَ.

---

(١) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٢٥ بنحوه.
(٤) المصدر السابق.
(٥) السبعة ص٢٨٤، والتيسير ص١١١.
(٦) في (أ) و(د١) و(ع): مثل، بدل: وهو.
(٧) في (أ) و(د١) و(ع): لكثرة.

و«الذين استُضعفوا»، أي: استَضْعفَهم رؤساء الكفار واستذلُّوهم، وهم العامَّةُ، وهم أتباعُ الرسل[١]. و«لمن آمن» بدلٌ من «الذين استُضعفوا»، والضمير في «منهم» إن عاد على المستضعفين كان بدلَ بعضٍ من كلٍّ، ويكون «الذين استضعفوا» قِسْمَين: مؤمنينَ وكافرين، وإن عاد على قومه كان بدلَ كلٍّ من كلٍّ، وكان الاستضعافُ مقصوراً على المؤمنين، وكان «الذين استُضعفوا» قسماً واحداً ومن آمن مفسراً للمستضعفين من قومه، واللام في «للذين» للتبليغ، والجملةُ المقولةُ استفهامٌ على جهة الاستهزاء والاستخفافِ.

وفي قولهم: «من ربِّه» اختصاصٌ بصالح، ولم يقولوا: من ربنا، ولا: من ربكم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥﴾ جوابٌ للمستضعَفين، وعُدولُهم عن قولهم: هو مرسَلٌ، إلى قولهم: «إنَّا بما أُرسل به مؤمنون» في غاية الحُسْن، إذ أَمْرُ رسالته معلومٌ واضحٌ مسلَّم لا يدخله ريبٌ؛ لمَا أتى به من هذا المُعْجِز الخارق العظيم، فلا يحتاج أن يُسألَ عن رسالته، ولا أن يُستَفْهَمَ عن العلم بإرساله، فأَخْبَروا بأنَّهم مؤمنون بما أُرسل به؛ لأنه لا يلزم بعد وضوح رسالته إلَّا التصديقُ بما جاء به، وتضمَّن كلامُهم العِلْمَ بأنه مرسَلٌ من الله تعالى.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾ «بالذي آمنتم به» هو من حيث المعنى: «بما أُرسل به»، لكنه من حيث اللفظُ أعمُّ، قَصَدوا الردَّ لمَا جَعَله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلَّماً.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ نُسِبَ العقر إلى الجميع وإن كان صادراً عن بعضهم لمَّا كان عقرُها عن تَمالُؤٍ واتفاقٍ، حتى رُوي أنَّ قُدَاراً لم يعقرها إلا عن مشاورة الرجال والنساء والصبيان، فأجمعوا على ذلك[٢].

وسببُ عقرها أنها كانت إذا وقع الحرُّ تَصَيَّفتْ بظهر الوادي، فتهربُ منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البردُ تَشَتَّتْ ببطن الوادي، فتهرب مواشيهم إلى

---

(١) في (ز١): للرسل.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٢٣، وهو قطعة من خبر أخرجه عبد الرزاق ١/٢٣١، والطبري ١٠/٢٩٥-٢٩٦ عن قتادة.

ظهره، فشقَّ ذلك عليهم، وكانت تستوفي ماءهم شرباً، ويحلبونها ما شاء الله حتى ملَّتْها ثمود وقالوا: ما نصنعُ باللبن، الماءُ أحبُّ إلينا منه؟ وقال لهم صالحٌ يوماً: إن هذا الشهرَ يُولد فيه مولودٌ يكون هلاكُكم على يديه، فولد لعشرة نفرٍ، فذبح التسعةُ أولادهم وبقي العاشر، وهو سالفٌ أبو قُدارٍ، وكان قُدارٌ أحمرَ أزرقَ قصيراً، ولذلك قال بعض شعراء الجاهلية:

فتُنْتَجْ لكم غلمانَ أشأمَ كلُّهمْ كأحمرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فتَفْطِمِ[1]

قال الشُّرَّاح: غَلِطَ، وإنما هو أحمرُ ثمودَ وهو قُدار[2].

وكان يشبُّ في اليوم شبابَ غيره في السنة، وكان التسعةُ إذا رأوه قالوا: لو عاش بنونا كانوا مثلَ هذا، فأحْفَظَهم أنْ قتلوا أولادَهم بكلام صالح، فأجْمعوا على قتله، فكمنوا له في غارٍ ليُبيِّتوه. ويأتي خبرُ التبييت وما جرى لهم في سورة النمل إن شاء الله.

ورُوي أن السبب في عقرها: أنَّ امرأتين من ثمود من أعداء صالح، وهما: عُنيزةُ بنتُ غُنْم، أمُّ مِجْلَزٍ زوجةُ ذُؤابِ بنِ عَمرٍو، وتُكنى: أمَّ غُنْم، عجوزٌ ذاتُ بناتٍ حسانٍ ومالٍ من إبلٍ وبقرٍ وغنم، وصَدوفُ بنت المُحيَّا، جميلةٌ غنيةٌ ذاتُ مواشٍ كثيرةٍ، فدعت عُنيزة إلى عَقرِها قُداراً على أن تعطيَه أيَّ بناتها شاء، وكان عزيزاً منيعاً في قومه، ودعت صدوفُ رجلاً من ثمود يقال له الحُبَاب إلى ذلك وعرضتْ نفسها عليه إنْ فَعَلَ، فأبى، فدعت ابنَ عمٍّ لها يقال له: مِصْدَع بنُ مَهْرَج بنِ المحيَّا لذلك، وجعلت له نفسَها، فأجاب قدارٌ ومِصْدَعٌ واستَغْوَيا سبعة نفرٍ، فكانوا تسعةَ

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٢٠. قوله: تنتج لكم، يعني الحرب. غلمان أشأم. . .، أي: غلمان شؤم وشرٌّ كلُّهم في الشؤم كأحمر عاد. وقوله: فتفطم، يريد أنه يَتِمُّ أمرُ الحرب، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تممت، قاله ثعلب شارح الديوان، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) ينظر الديوان بشرح ثعلب ص٢٠، وبشرح الأعلم ص٢٠، وشرح المعلقات للنحاس١/ ١١٤. وقد ردَّ بعضهم ـ كما نقل الأعلم ـ فقال: لم يغلط، ولكنه جعل عاداً مكان ثمود اتساعاً ومجازاً؛ إذ قد عُرف المعنى، مع تقارب ما بين عاد وثمود في الزمن والأخلاق. وقال المبرد كما نقل النحاس: هذا ليس بغلط؛ لأن ثمود يقال لها: عاد الآخِرة، ويقال لقوم هود: عاد الأولى، والدليل على هذا قوله عز وجل: وأنه أهلك عاداً الأولى.

رَهْطٍ، فرصدوا الناقةَ حين صَدَرتْ عن الماء، وكَمَنَ قُدارٌ في أصل صخرة ومصدعٌ في أصلٍ أخرى، فمرت على مِصْدعٍ فرماها بسهم فانتظم به عَضَلةَ ساقها، وخرجتْ أم غُنم عُنيزةُ بابنتها وكانت من أحسن النساء فسَفَرتْ لقدارٍ، ثم مرَّت الناقة به فشدَّ عليها بالسيف فكَسَفَ عُرقوبَها، فخرَّت ورَغَتْ رَغاةً واحدةً، فطعن في لَبَّتها ونَحَرَها، وخرج أهلُ البلدة فاقتسموا لحمها وطبخوه. وذكروا لسَقْبها حكايةً الله أعلم بصحتها[١].

وقيل: سببُ عقرها أنَّ قداراً شرب الخمر، وطلبوا ماءً لمزاجها فلم يجدوه؛ لشرب الناقة، فعزموا على عقرها، وكمن لها فرماها بالحربة، ثم سقطت فعقرها[٢].

وقال بعض شعراء العرب وقد ذكر قصة الناقة:

فأتاها أُحَيْمِرٌ كأخي السَّهـ ... ـمِ بعَضْبٍ فقال كوني عَقيرا[٣]

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا عن امتثال أمر ربهم، وهو ما أَمر به تعالى على لسان صالحٍ من قوله: «فذَرُوها تأكلْ في أرض الله ولا تمسُّوها بسوء»، ومن اتِّباع أمر الله وهو دينُه وشرعُه[٤].

ويجوز أن يكون المعنى: صَدَر عتوُّهم عن أمر ربهم، كأنَّ أمر ربِّهم بتركها كان هو السببَ في عتوِّهم، ونحو «عن» هذه ما في قوله﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: ٨٢].

﴿وَقَالُوا يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: من العذاب؛ لأنه كان قد سَبقَ منه: «ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخُذَكم عذابٌ أليم»، فاستعجَلوه

(١) تنظر قصة الناقة وسقبها في تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٤-٢٩٤، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٢-٤٦، والكشاف ٢/ ٨٩، والمحرر ٢/ ٤٢١، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٦. وهي عند الطبري بعضها من رواية السدي مطولاً، وبعضها الآخر من رواية ابن إسحاق مطولاً أيضاً.

(٢) قطعة من خبر السدي الذي ذكر في التعليق السابق.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوانه ص٧٦.

(٤) أشار المصنف هنا إلى قولين في الآية أجازهما الزمخشري، الأول أن يكون الأمر فيه واحد الأوامر، وهو ما أمر الله به على لسان صالح، والثاني أن يكون الأمر واحدَ الأمور، وهو دين الله وشرعه، وهو الذي أشار إليه المصنف بقوله: ومن اتِّباع أمر الله...، وقوله: ومن، كذا وقع في النسخ، ولعل الأنسب بالسياق: أو عن...

ما وعدهم به من ذلك؛ إذ كانوا مكذِّبين له في الإخبار بذلك الوعيدِ وبغيره، ولذلك علَّقوه بما هم به كافرون، وهو كونُه من المرسلين.

وقرأ ورش والأعمش: «يا صالح ايْتِنا»، وأبو عمرٍو إذا أَدْرَجَ بإبدال همزة فاءِ «ائتنا» واواً لضمَّةِ حاءِ «صالح»[١]، وقرأ باقي السبعة بإسكانها.

وفي كتاب ابن عطية: قال أبو حاتم: قرأ عيسى وعاصم: «أوتنا» بهمزٍ وإشباعِ ضمٍّ[٢]. انتهى، فلعله عاصمٌ الجحدريُّ لا عاصم بنُ أبي النجود أحدُ قرَّاء السبعة.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ رُوي أنَّ السَّقب لمَّا عقروا الناقة رَغَا ثلاثاً، فقال صالح: لكلِّ رغوةٍ أجلُ يوم، تمتعوا في داركم ثلاثةَ أيام. فقالوا هازئين به: متى ذلك، وما آيةُ ذلك؟ فقال: تُصبحون غداةَ مُؤْنسٍ مصفرَّةً وجوهُكم، وغداةَ العَروبة مُحْمَرِّيها، ويومَ شِيار مسودِّيها[٣]، ثم يصبِّحكم العذابُ يومَ أوَّلَ. وهو يومُ الأحد. فرامَ التسعةُ عاقرو الناقة قتلَه وبيَّتوه، فدمَغَتْهم[٤] الملائكة بالحجارة، فقالوا له: أنت قتلْتَهم، وهمُّوا بقتله، فحمته عشيرتُه وقالوا: وَعَدكم أنَّ العذاب نازلٌ بكم بعد ثلاثٍ، فإنْ صَدَق لم تَزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً، وإن كَذَبَ فأنتم مِن وراء ما تريدون. فأصبحوا يومَ الخميس مصفرِّي الوجوهِ كأنها طُليت بالخَلوق، فطلبوه ليقتلوه فهرب إلى بطنٍ من ثمود يقال له: بنو غُنْم، فنزل على سيدهم أبي هُدْبٍ نُفَيْلٍ، وهو مشرك، فغيَّبه ولم يقدروا عليه، فعذَّبوا أصحابَ صالح، فقال منهم مبدعُ[٥] بن هَرِم: يا نبيَّ الله، عذَّبونا لندلَّهم عليك، أفندلُّهم؟ قال: نعم، فدلَّهم عليه، فأتوا أبا هُدْبٍ فقال لهم: عندي صالح ولا سبيلَ لكم عليه. فأَعْرَضوا عنه وشَغَلهم ما نزل بهم، فأصبحوا في الثاني

---

(١) ينظر السبعة ص١٣١، والتيسير ص٣٧.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٣.

(٣) مؤنس والعروبة وشيار هي بالترتيب: الخميس والجمعة والسبت، كذا كانت العرب تسميها في الجاهلية، والأحد عندهم: أوَّلُ، والإثنين: أهونُ، والثلاثاء: جُبار، والأربعاء: دُبار. الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٣٥٦، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٩٢-٢٩٣.

(٤) دَمَغه: أصاب دماغه فقتله. اللسان (دمغ).

(٥) كذا في النسخ وعرائس المجالس ص٧٢، وفي تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٤: ميدع.

محمرِّي الوجوه كأنها خُضبت بالدم، وفي الثالث مسودِّيها كأنها طُليت بالقار، وليلةَ الأحد خرج صالحٌ ومَن أسلم معه إلى أن نزل رملةَ فلسطين من الشام، فأصبحوا متكفِّنين متحنِّطين مُلْقينَ أنفسَهم بالأرض يقلِّبون أبصارَهم لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلمَّا اشتدَّ الضحى أخذتهم صيحةٌ من السماء فيها صوتُ كلِّ صاعقة، وصوتُ كلِّ شيءٍ له صوتٌ في الأرض، فقطعت قلوبهم وهلكوا كلُّهم إلا امرأةً مقعَدةً كافرةً اسمها دريعة بنت سلف[١] عندما عايَنَتِ العذابَ خرجت أسرع ما يُرى، حتى أتت واديَ القُرى، فأَخْبَرتْ بما أصاب ثمود، واسْتَسْقَتْ فشربت وماتت[٢].

وقيل: خرج صالح بمَن معه من قومه وهم أربعةُ آلافٍ إلى حضرموت، فلمَّا دخلوها مات صالح فسمِّي ذلك المكانُ: حضرموت[٣].

وقيل: مات بمكة ابنَ ثمانٍ وخمسين سنةً، وأقام في قومه عشرين سنة[٤].

قال مجاهدٌ والسُّدِّي: «الرجفةُ»: الصيحة[٥]. وقال أبو مسلم: الزلزلة الشديدةُ[٦].

قال الزمخشري: «جاثمين»: هامِدِين لا يتحرَّكون مَوْتَى، يقال: الناسُ جُثومٌ، أي: قُعودٌ لا حَرَاكَ بهم ولا يَنْبِسون نَبْسَةً، ومنه: المجثَّمة التي جاء النهيُ عنها، وهي البهيمةُ تُربط وتُجمع قوائمها لتُرْمَى[٧]. انتهى.

---

(١) اضطربت المصادر في اسمها، ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٥، وعرائس المجالس ص٧٣، وتفسير البغوي ٢/١٧٨، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية، والبداية والنهاية ١/ ٣١٦، ورجح العلامة محمود شاكر في تحقيقه لتفسير الطبري ١٢/ ٥٣٦ أن اسمها: الزُّريعة ابنة السلق. وينظر كلامه ثمة.

(٢) القصة من رواية ابن إسحاق كما في تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٢-٢٩٥، وعرائس المجالس ص٧٢-٧٣، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٧-١٧٨.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٧٩.

(٤) عرائس المجالس ص٧٣.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٠/ ٣٠٢-٣٠٣.

(٦) تفسير الرازي ١٤/ ١٦٦.

(٧) الكشاف ٢/ ٩١.

وقيل: معناه: حُمماً مُحترِقينَ كالرماد الجاثم، ذَهَب هذا القائلُ إلى أنَّ الصيحة اقْتَرنَ بها صواعِقُ محرقةٌ.

قال الكرماني: حيث ذَكَر الرَّجفةَ وهي الزلزلةُ وحَّد الدار، وحيث ذكر الصيحة جَمَعَ، لأنَّ الصيحة كانت من السماء فبلوغُها أكثر وأبلغ من الزلزلة، فاتَّصل كلُّ واحد منهما بما هو لائق به[1].

وقيل: «في دارهم»، أي: في بلدهم، كَنَى بالدار عن البلد.

وقيل: وُحِّد والمرادُ به الجنسُ.

والفاء في «فأخذتهم» للتعقيب، فيُمْكِنُ العطفُ بها على قولهم: «فأْتِنا بما تَعِدُنا» على تقديرِ قُرْبِ زمانِ الهلاك من زمانِ طلب الإتيان بالوعد، ولقرب ذلك كان العطفُ بالفاء، ويمكن أن يقدَّر ما يصحُّ العطفُ بالفاء عليه، أي: فوَعَدهم العذابَ بعد ثلاثٍ فانْقَضَتْ فأخذَتْهم الرَّجفةُ، ولا منافاةَ بين «فأخذتهم الرجفة» وبينَ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٨٣] وبين ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] كما ظنَّ قومٌ من الملاحِدة؛ لأنَّ الرجفة ناشئةٌ عن الصيحة؛ صِيْحَ بهم فرَجَفوا، فناسَبَ أن يُسْنَدَ الأخْذُ لكلٍّ واحدٍ منهما، وأمَّا «فأُهْلِكوا بالطاغية» فالباءُ فيه للسببية، أي: أُهلكوا بالفِعْلةِ الطاغيةِ، وهي الكفرُ أو عَقْرُ الناقة، و«الطاغية» مِن طَغَى: إذا تجاوَزَ الحدَّ وغَلَبَ، ومنه تسميةُ المَلِكِ العاتي بالطاغية، وقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ أي: بسبب طغيانها حَصَلَ تكذيبهم، ويمكن أن يراد بـ«الطاغية»: الرجفة أو الصيحة؛ لتجاوُزِ كلٍّ منهما الحدَّ.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ ظاهرُ العطف بالفاء أن هذا التولِّيَ كان بعد هلاكهم ومشاهدةِ ما جرى عليهم، فيكون الخطابُ على سبيل التفجُّع عليهم والتحسُّرِ لكونهم لم يؤمنوا فهلكوا، والاغتمام لهم، وليسمع ذلك مَن كان معه من المسلمين فيزدادوا إيماناً وانتفاءً عن معصية الله واقتفاءً لما جاء به نبيُّه عن الله، ويكونُ معنى قوله:

---

(١) أسرار التكرار في القرآن ص٨٥.

«ولكن لا تحبُّون الناصحين»: ولكن كنتم لا تحبُّون الناصحين، فتكونُ حكايةَ حالٍ ماضيةٍ، وقد خاطَبَ رسولُ الله ﷺ أهلَ قَليبِ بدرٍ[١].

ورُوي أنه خرج في مئة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخانَ فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسَ مئة دارٍ، ورُوي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارَهم[٢].

وقيل: كان تولِّيه عنهم وقتَ عَقْرِ الناقة وقولِهم: «ائتنا بما تَعِدُنا»، وذلك قبل نزول العذاب، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ مخاطبته لهم، وقولِه: «ولكنْ لا تحبون الناصحين»، وهو الذي نُقِلَ في قصصهم من أنه رَحَلَ عنهم ليلةَ أن أخذَتْهم الرجفةُ صَبيحتَها وبعدَ ظهور أمارات[٣] الهلاك التي وَعَدَ بها.

قال الطبريُّ: وقيل: لم تَهْلِكْ أمَّةٌ ونبيُّها فيها[٤].

ورُوي أنه ارتحل بمن معه حتى جاء مكة، فأقام بها حتى مات[٥].

ولفظةُ التولِّي تقتضي اليأسَ من خيرهم واليقينَ في هلاكهم، وخطابُه هذا كخطاب نوحٍ وهودٍ ﷺ في قولهما: «أبلِّغكم رسالاتِ ربِّي» وذُكر النصحُ بعد ذلك[٦]، لكنه لمَّا كان قولُه: «أبلغْتُكم» ماضياً عَطَفَ عليه ماضياً، فقال: «ونصحتُ».

وقوله: «لا تحبُّون الناصحين»، أي: مَن نَصَحَ لكم من رسولٍ أو غيره، أي: دَيْدَنُكم ذلك لغلبة شهواتكم على عقولكم، وجاء لفظ «الناصحين» عامًّا، أي: أيَّ شخصٍ نَصَحَ لكم لم تقبلوا في أيِّ شيءٍ نَصَحَ لكم! وذلك مبالغةٌ في ذمِّهم.

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٠)، ومسلم (٩٣٢) من حديث ابن عمر ﷺ. وأخرجه مسلم (٢٨٧٣) و(٢٨٧٤) من حديث عمر وأنس ﷺ.
(٢) الكشاف ٢/ ٩٢.
(٣) في (ب) و(د٣) و(يه): إشارات.
(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٣٠٤، وفيه: ...ونبيها بين أظهُرها.
(٥) عرائس المجالس ص٧٣.
(٦) ينظر الآيتان (٦٢) و(٦٨) من هذه السورة.

ورُوي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لمَّا نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من مائها ولا يَسْتَقوا منها، فقالوا: يا رسول الله، قد طبخنا وعجنَّا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك الطبيخَ والعجينَ ويُهريقوا ذلك الماءَ، وأَمَرهم أن يَسْتَقوا من الماء الذي كانت تَرِدُه ناقةُ صالح(١).

وإلى الأَخْذِ بهذا الحديثِ أخذ أبو محمدٍ بنُ حزمٍ في ذهابه إلى أنه لا يجوزُ الوضوءُ بماءِ أرضِ ثمودَ إلا إنْ كان من العين التي كانتْ تَرِدُها الناقةُ(٢).

وعن جابر أن رسول الله ﷺ لمَّا مرَّ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخل أحدٌ منكم القريةَ ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلَّا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم»(٣).

وفي الحديث: أنه مرَّ بقبرٍ فقال: «أتعرفون ما هذا؟» قالوا: لا، قال: «هذا قبرُ أبي رِغَال الذي هو أبو ثقيف، كان من ثمودَ فأصابَ قومَه البلاءُ وهو بالحَرَم فسَلِمَ، فلمَّا خرج من الحرم أصابه ما أصابهم، فدُفن هنا وجُعِلَ معه غصنٌ من ذهب» قال: فابتدر القومُ بأسيافهم فحفروا حتى أخرجوا الغصن(٤).

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٣٧٨) و(٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١).

(٢) المحلى ١/ ٢١٩-٢٢٠.

(٣) أورده الثعلبي في التفسير ٣/ ٤٦، والعرائس ص٧٣ من طريق أبي الزبير عن جابر، ولم نقف عليه مسنداً. وهو في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. ينظر صحيح البخاري (٣٣٧٨) و(٣٣٧٩) و(٣٣٨٠)، وصحيح مسلم (٢٩٨٠) و(٢٩٨١). وينظر أيضاً ما ذُكر من الكلام عليه في حاشية روح المعاني ٩/ ٢١٤.

(٤) أخرجه بنحوه أبو داود (٣٠٨٨)، وابن حبان (٦١٩٨)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٥٣)، والمزي في تهذيب الكمال ٤/ ١١ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ولفظه من المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٢. قال المزي: وهو حديث حسن عزيز. ونقل كلامه تلميذه ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية ثم قال: «قلت: تفرد بوصله بجير بن أبي بجير، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث، قال يحيى بن معين: ولم أر أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية، قلت: وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو مما أخذه من الزاملتين، قال شيخنا أبو الحجاج [وهو المزي] بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله اعلم» اهـ. قلت: وله شاهد دون قصة الغصن أخرجه أحمد (١٤١٦٠) من حديث جابر رضي الله عنه، وهو حديث قوي كما قال محققو المسند.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ هو لوط بن هاران أخي إبراهيم عليه السلام وناحور، وهم بنو تارح[١] بن ناحور، وتقدَّم رفعُ نسبه[٢]، وقومُه هم أهلُ سَدوم وسائرِ القرى المؤتفكة، بعثه الله تعالى إليهم، وقال ابن عطية: بعثه الله إلى أمّةٍ تسمَّى سَدوم[٣].

وانتصب «لوطاً» بإضمارِ: وأرسلنا، عطفاً على الأنبياء قبله، و«إذ» معمولةٌ لـ«أرسلنا»، وجوَّز الزمخشريُّ وابنُ عطية نصبه بـ: واذكر مضمرةً[٤]، زاد الزمخشري أن «إذ» بدلٌ من «لوط»، أي: واذكر وقتَ قال لقومه، وتقدَّم الكلامُ على كون «إذ» تكون مفعولاً بها صريحاً لـ: اذكر، وأنَّ ذلك تصرُّفٌ فيها[٥].

والاستفهامُ هو على جهة الإنكار والتوبيخ والتشنيع والتوقيف على هذا الفعل القبيح، والفاحشةُ هنا إتيانُ ذُكران الآدميين في الأدبار، ولمَّا كان هذا الفعلُ معهوداً قبحُه ومركوزاً في العقول فحشُه أتى معرَّفاً بالألف واللام، أو تكون «أل» فيه للجنس على سبيل المبالغة، كأنه لشدة قبحه جُعِلَ جميعَ الفواحش، ولبُعْدِ العرب عن ذلك البعدَ التامَّ، وذلك بخلاف الزنا فإنه قال فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] فأتى به منكَّراً، أي: فاحشةً من الفواحش، وكان كثيرٌ من العرب يفعله ولا يستنكرون فِعْلَه ولا ذِكْرَه في أشعارهم.

والجملةُ المنفيَّةُ تدل على أنهم هم أولُ مَن فَعَلَ هذه الفِعْلةَ القبيحة، وأنهم مُبْتكِروها، والمبالغةُ في «من أحد» حيث زيدت لتأكيد نفي الجنس، وفي الإتيان بعموم «العالَمين» جمعاً.

---

(١) في (د٣): تارخ، والمثبت من باقي النسخ، واللفظان موجودان في المصادر، وهو آزر كما سلف عند تفسير الآية (٧٤) من سورة الأنعام. وجاء في تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ١٥٣ بالمهملة.

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤].

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤.

(٤) الكشاف ٢/ ٩٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤.

(٥) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩].

قال عمرو بن دينار: ما نزا[(١)] ذَكَرٌ على ذَكَرٍ قبل قوم لوط.

رُوي أنهم كان يأتي بعضُهم بعضاً، وقال الحسن: كانوا يأتون الغرباء[(٢)]، كانت بلادُهم الأردنُّ تُؤْتَى من كلِّ جانبٍ لخِصْبِها، فقال لهم إبليس وهو في صورة غلام: إن أردتم دفع الغرباء فافعلوا بهم هكذا، فمكَّنهم من نفسه تعليماً، ثم فشا واستحلُّوا ما استحلُّوا.

وأَبْعَدَ مَن ذهب إلى أنَّ المراد: من عالَمي زمانهم، ومَن ذهب إلى أن المعنى: ما سبقكم إلى لُزومها وتشهيرها.

وفي تسمية هذا الفعلِ بالفاحشة دليلٌ على أنه يجري مجرى الزنى، يُرجم مَن أَحْصَنَ ويُجلد مَن لم يُحْصَنْ، وفَعَله عبد الله بن الزبير، أُتي بسبعةٍ منهم فرجم أربعةً أحصنوا وجَلَدَ ثلاثةً، وعنده ابن عُمر وابن عباس ولم ينكروا[(٣)]، وبه قال الشافعي[(٤)].

وقال مالك: يرجم أَحْصَنَ أو لم يُحْصَنْ، وكذا المفعولُ به إن كان محتلماً. وعنه: يُرْجَم المحصَنُ، ويؤدَّب ويُحبَسُ غيرُ المحصَن، وهو مذهبُ عطاءٍ وابنِ المسيِّب والنخعي وغيرِهم. وعن مالك أيضاً: يعزَّر أحصن أو لم يُحصن، وهو مذهب أبي حنيفة[(٥)].

وحرَّق خالد بن الوليد رجلاً يقال له: الفجاءة، عَمِلَ ذلك العملَ، وذلك برأي

---

(١) في النسخ عدا (زا): يرى، والمثبت من المصادر على ما يأتي، واللفظة في (زا) تحتمل الوجهين، وجاءت فيها بالألف المقصورة. والخبر أخرجه الدارمي (تحقيق حسين الأسد) (١١٧٩)، والطبري ١٠/ ٣٠٥ و١٨/ ٣٨٨، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٥٤، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٢٧.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٩، وما سيرد بعده ذكره الثعلبي ٣/ ٤٧ بنحوه من كلام الكلبي.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٣٣.

(٤) ينظر قوله في الإشراف لابن المنذر ٢/ ٣٦، والاستذكار لابن عبد البر ٢٤/ ٧٨، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧٦.

(٥) تفسير القرطبي ٩/ ٢٧٤.

أبي بكر وعليٍّ، وأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ أجْمعَ رأيُهم عليه وفيهم عليُّ بنُ أبي طالب[١].

ورُوي أنَّ ابنَ الزبير أحرقهم في زمانه، وخالدٌ القسريُّ بالعراق، وهشامٌ[٢].

و«ما سبقكم» جملةٌ حاليةٌ من الفاعل أو من «الفاحشة»؛ لأن في «سبقكم بها» ضميرَهم وضميرَها.

وقال الزمخشري: هي جملةٌ مستأنفةٌ، أنكر عليهم أولاً بقوله: «أتأتون الفاحشة»، ثم وبَّخهم عليها فقال: أنتم أولُ مَن عَمِلَها، أو على أنه جوابٌ لسؤال مقدَّرٍ، كأنهم قالوا: لِمَ لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحدٌ فلا تفعلوا ما لم تُسبقوا به.

وقال الزمخشري: والباء للتعدية من قولك: سبقتُه بالكرة: إذا ضربْتَها قبله، ومنه قولُه ﷺ: «سبقك بها عُكاشة»[٣]. انتهى.

ومعنى التعديةِ هنا قلقٌ جدًّا؛ لأنَّ الباء المعدِّية في الفعل المتعدِّي إلى واحدٍ هي بجَعْلِ المفعول الأول يفعلُ ذلك الفِعْلَ بما دخلت عليه الباء، فهي كالهمزة، وبيان ذلك: أنك إذا قلت: صككتُ الحجرَ بالحجرِ، فمعناه: أصكَكْتُ الحجرَ الحجرَ: أي: جعلتُ الحجرَ يصكُّ الحجرَ، وكذلك: دفعت زيداً بعمرو عن خالد، معناه: أدْفعتُ زيداً عمراً عن خالد، أي: جعلتُ زيداً يدفعُ عمراً عن خالد، فللمفعولِ الأول تأثيرٌ في الثاني، ولا يتأتَّى هذا المعنى هنا إذ لا يصحُّ أن يقدَّر: أسبقتُ زيداً الكرةَ، أي: جعلتُ زيداً يسبقُ الكرة، إلا بمجازٍ متكلَّفٍ، وهو أن تجعل ضَرْبَكَ للكرة أول جعل ضربه قد سبقها، أي: تقدَّمها في الزمان فلم يجتمعا.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٣٢، وابن حزم في المحلى ١١/ ٣٨٠-٣٨١.

(٢) المحلى ١١/ ٣٨١، وخالد القسري هو خالد بن عبد الله الدمشقي، أبو الهيثم، أمير العراقين لهشام بن عبد الملك، توفي سنة (١٢٦هـ). السير ٥/ ٤٢٥.

(٣) الكشاف ٢/ ٩٢، والحديث أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) مطولاً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ هذا بيانٌ لقوله: «أتأتون الفاحشة»، و«أتى» هنا من قولهم: أتى المرأةَ: غَشِيَها، وهو استفهامٌ على جهةِ التوبيخ والإنكار.

وقرأ نافع وحفصٌ: «إنكم»[١] على الخبر المستأنف.

و«شهوةً» مصدرٌ في موضع الحال، قاله الحوفيُّ وابنُ عطية[٢]، وجوَّزه الزمخشريُّ وأبو البقاء، أي: مشتهِينَ تابعين للشهوة غير ملتفتين لقبحها[٣]. أو مفعولٌ من أجْله؛ قاله الزمخشريُّ وبدأ به، وأبو البقاء[٤]، أي: للاشتهاء، لا حاملَ لكم على ذلك إلَّا مجردُ الشهوة، ولا ذمَّ أعظمُ منه، لأنه وصفٌ لهم بالبهيمية، وأنهم لا داعيَ لهم من جهة العقل كطلب النسل ونحوِه[٥].

و«من دون النساء» في موضع الحال، أي: منفردين عن النساء، وقال الحوفي: «من دون النساء» متعلِّقٌ بـ«شهوةً».

و«بل» هنا للخروج من قصةٍ إلى قصةٍ تُنبِئُ بأنهم متجاوِزُو الحدِّ في الاعتداء، وقيل: إضرابٌ عن تقريرهم وتوبيخهم والإنكار، أو عن الإخبار عنهم بهذه المعصية الشنيعة، إلى الحكم عليهم بالحال التي تنشأ عنها القبائحُ وتدعو إلى اتِّباع الشهوات، وهي الإسرافُ، وهو الزيادةُ المُفْسِدةُ، لمَّا كانت عادتُهم الإسرافَ أسرفوا حتى في باب قضاء الشهوة، وتجاوزوا المعتاد إلى غيره، ونحوُه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

وقيل: إضرابٌ عن محذوفٍ، تقديره: ما عَدَلْتُم بل أنتم.

(١) السبعة ص ٢٨٦، والتيسير ص ١١١.
(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٥.
(٣) الكشاف ٢/ ٩٢، والإملاء ١/ ٢٧٩. وهذا التقدير على أنها حال من الفاعل، وهو الضمير في «تأتون»، ويجوز -كما في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٣٤- أن تكون حالاً من المفعول وهو «الرجال»، أي: مشتَهَيْنَ. ويجوز أيضاً أن تكون مصدراً باقياً على مصدريته، ناصبُه: «أتأتون»؛ لأنه بمعنى: أتشتهون. الدر المصون ٥/ ٣٧٢.
(٤) الإملاء ١/ ٢٧٩.
(٥) الكشاف ٢/ ٩٢.

وقال الكرماني: «بل» ردٌّ لجوابٍ، زعموا أن يكون لهم عذرٌ، أي: لا عذرَ لكم ولا حجةَ بل أنتم.

وجاء هنا «مسرفون» باسم الفاعل ليدلَّ على الثبوت، ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في خَتْمها بالأسماء، وجاء في «النمل»: ﴿تَجْهَلُونَ ۝﴾ [الآية: ٥٥] بالمضارع لتَجَدُّدِ الجهل فيهم، ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في خَتْمها بالأفعال.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الضمير في «أخرجوهم» عائدٌ على لوطٍ ومَن آمَنَ به، ولمَّا تأخَّر نزولُ هذه السورة عن سورة النمل أُضْمِر ما فسَّره الظاهر في «النمل» من قوله: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [الآية: ٥٦] و«آل لوط» ابنتاه، وهما زَعوراء وريثا[1]، ومَن تبعه من المؤمنين.

وقيل: لم يكن معه إلَّا ابنتاه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

وقال ابن عطية: والضميرُ عائدٌ على آل لوطٍ وأهلِه وإن كان لم يَجْرِ لهم ذكرٌ، فإن المعنى يقتضيهم، وقرأ الحسن «جوابُ» بالرفع[2]. انتهى.

وهنا جاء العطفُ بالواو، والمرادُ بها أحدُ محاملها الثلاثِ من التعقيب المعين في «النمل» في قوله: ﴿تَجْهَلُونَ ۝ فَمَا﴾ [النمل: ٥٥-٥٦] وفي «العنكبوت»: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا﴾ [العنكبوت:٢٩] وكان التعقيبُ مبالَغةً في الردِّ حيث لم يُمْهِلوا في الجواب زماناً، بل أعجلوه بالجواب سرعةً وعَدَمَ اكتراثٍ بما يجاوبون به، ولم يطابق الجوابُ قولَه؛ لأنه لمَّا أنكر عليهم الفاحشةَ وعظَّم أمرها، ونَسَبهم إلى الإسراف، بادروا بشيءٍ لا تعلُّق له بكلامه،

(١) اضطرب رسم الاسمين في النسخ، والمثبت من (ز١)، وهو الموافق لما في تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٧، وتفسير الثعلبي ٣/ ٣٣٥، وجاء في تاريخ الطبري: ريثا ورعزيا، وفي البداية والنهاية ١/ ٤١٦: أريثا ودغوثا.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٥.

وهو الأمرُ بالإخراج، ونظيرُه جوابُ قوم إبراهيم بأن قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨] حين قبَّح عليهم بقوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٧] فأتوا بجوابٍ لا يطابق كلامَه.

والقرية هي سَدوم، سُمِّيت باسم سدوم بن باقيم الذي يُضرب به المثلُ في الحكومات، هاجر لوطٌ مع عمه إبراهيم من أرض بابل فنزل إبراهيم أرضَ فلسطين وأنزل لوطاً الأردن.

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهدٌ: يتقذَّرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء(١).

وقيل: يأتون النساء في الأطهار.

وقال ابن بحر: يرتَقِبون أطهارَ النساء فيجامعونهنَّ فيها.

وقيل: يتنزَّهون عن فِعْلنا، وهو معنى قولِ ابن عباس ومجاهدٍ.

وقيل: يغتسلون من الجنابة، ويتطهَّرون بالماء، عيَّروهم بذلك، ويسمَّى هذا النوعُ في علم البيان: التعريضُ بما يُوْهِمُ الذمَّ وهو مدحٌ، كقوله:

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم بهنَّ فلولٌ من قِرَاع الكتائبِ(٢)

ولذلك قال ابن عباس: عابوهم بما يُمدَح به(٣).

والظاهر أنَّ قوله: «إنهم» تعليلٌ للإخراج، أي: لأنهم لا يُوافِقوننا على ما نحن عليه، ومَن لم يُوافِقنا وَجَبَ أن نُخْرجه.

وقال الزمخشري(٤): وقولُهم: «إنهم أناسٌ يتطهَّرون» سخرية بهم وبتطهُّرِهم من

(١) أخرجه عنهما الطبري ١٠/٣٠٦-٣٠٧.
(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١.
(٣) لم نقف عليه عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/٨٣، والطبري ١٠/٣٠٧ عن قتادة.
(٤) في الكشاف ٢/٩٢-٩٣.

الفواحش، وافتخارٌ بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشيطان(١) من الفسقة لبعض الصُّلحاء إذا وعظهم: أبعِدوا عنا هذا المتقشِّف، وأرِيحونا من هذا المتزهِّد.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: فأنجيناه وأهلَه من العذاب الذي حلَّ بقومه، و«أهله» هم المؤمنون معه، أو ابنتاه، على الخلاف الذي سبق، واستُثْنيَ من أهله امرأتُه فلم تَنْجُ، واسمُها: واهلة، كانت منافِقةً تُسِرُّ الكفر، مواليةً لأهل سَدُوم.

ومعنى «من الغابرين»: من الذين بَقُوا في ديارهم فهلكوا، وعلى هذا يكون قولُه: «كانت من الغابرين» تفسيراً وتوكيداً لمَا تضمَّنه الاستثناءُ من كونها لم يُنجها الله تعالى.

وقال أبو عبيدة: «إلا امرأته» اكتفى به في أنها لم تَنْجُ، ثم ابتدأ وصفَها بعد ذلك بصفةٍ لا تتعلَّقُ بها النجاةُ ولا الهلكة، وهي أنها كانت ممن أسنَّ وبقي من عصره إلى عصرٍ غيرِه، فكانت غابرةً، أي: متقدِّمة في السن، كما قال: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١] إلى أن هَلَكَتْ مع قومها(٢). انتهى.

وجاء: «من الغابرين» تغليباً للذكور على الإناث(٣).

وقال الزجَّاج: من الغائبين عن النجاة، فيكونُ توكيداً لمَا تضمَّنه الاستثناء(٤). انتهى.

و«كانت» بمعنى: صارت، أو: كانت في علم الله، أو باقيةٌ على ظاهرها من تقييد غُبورها بالزمان الماضي. أقوال.

---

(١) كذا في النسخ، والذي في الكشاف: الشطار، ومثله في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٤/ ١٨٦، وروح المعاني ٩/ ٢٢١.

(٢) هذا الكلام الذي عزاه المصنف لأبي عبيدة بعضه له وبعضه من كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٥، فمن قوله: اكتفى به، إلى قوله: ولا الهلكة، هو من كلام ابن عطية، وكان ابن عطية قد ذكر قبله عن أبي عبيدة قوله: ذكَرها الله بأنها كانت ممن أسن... إلخ كما أورده المصنف، وهو بنحوه في مجاز القرآن ١/ ٢١٨ و٢/ ٨٩ و١١٥.

(٣) وهذا أيضاً من كلام أبي عبيدة، وهو بنحوه في مجاز القرآن ١/ ٢١٩ و٢/ ١١٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٣، دون قوله: فيكون توكيداً لما تضمنه الاستثناء.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ ضمَّن «أمطرنا» معنى: أرسلنا، فلذلك عدَّاه بـ«على» كقوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] والمطرُ هنا هي حجارةٌ، وقد ذُكرت في غير آية، خُسِفَ بهم وأُمْطِرَتْ عليهم الحجارة(١).

قيل: كانت المؤتفكةُ خمسَ مدائنَ. وقيل: ستٌّ. وقيل: أربعٌ. اقتلعها جبريل بجناحه فرفعها حتى سَمع أهلُ السماء نهيقَ الحمير وصياحَ الديكة، ثم عكَسَها فردَّ أعلاها أسفلَها وأرسلها إلى الأرض، وتَبِعتْهم الحجارةُ مع هذا، فأَهْلَكت مَن كان منهم في سفرٍ أو خارجاً عن البقاع المرفوعة، وقالت امرأةُ لوط حين سمعت الرجّة: واقوماه! والتفتت فأصابتها صخرةٌ فقتلتها(٢).

والظاهرُ أنَّ الإمطار شملهم كلَّهم، وقيل: خُسِفَ بأهل المدن وأُمطرت الحجارةُ على المسافرين منهم.

وسُئل مجاهدٌ: هل سَلِمَ منهم أحدٌ؟ قال: لا، إلا رجلاً كان بمكة تاجراً، وقف الحجرُ له أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم، فأصابه فمات(٣). وكان عددُهم مئةَ ألف.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ خطابٌ للرسول، أو للسامع قصتَهم، كيف كان مآلُ مَن أجرم، وفيه اتِّعاظٌ وازدجارٌ أن تسلك هذه الأمّةُ هذا المسلكَ، و«المجرمين» عامٌّ في قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وغيرِهم.

وهو من نظر التفكُّر، أو من نظر البصر فيمَن بقيت له آثارُ منازلَ ومساكنَ كثمودَ وقومِ لوطٍ، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

---

(١) ينظر الآية (٨٢) من سورة هود، والآية (٧٤) من سورة الحجر، والآية (٣٣) من سورة الذاريات.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦، وينظر ما ورد في هذه القصة من روايات في تفسير الطبري ١٢/ ٥١٥-٥١٦ عن سعيد بن جبير، و١٢/ ٥٣٣-٥٣٧ عن مجاهد وقتادة والسدي ومحمد بن كعب القرظي، وكلها روايات عن التابعين.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٩٣ دون نسبة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ قال الفرَّاء: «مدين» اسمُ بلدٍ وقطرٍ، وأنشد:

رهبان مُدينَ لو رأوكِ تنزَّلوا[١]

فعلى هذا؛ التقديرُ: وإلى أهلِ مدين.

وقيل: اسم قبيلة سُمِّيت باسم أبيها مدين بن إبراهيم، قاله مقاتلٌ وأبو سليمان الدمشقيُّ[٢].

و«شعيب» قيل: هو ابن بنتِ لوط. وقيل: زوجُ بنته[٣]. وهذه مناسَبةٌ بين قصته وقصة لوط.

و«شعيبٌ» اسمٌ عربيٌّ تصغيرُ شَعْبٍ أو شِعْبٍ[٤]، والجمهورُ على أنَّ «مدين» أعجميٌّ، فإن كان عربيًّا احتمل أن يكون فَعْيَلاً من مَدَنَ بالمكان: أقام به، وهو بناءٌ نادر، وقيل: مُهْمَلٌ. أو مَفْعَلاً مِن «دانَ» فتصحيحُه شاذٌّ[٥]، كـ: مَرْيَم ومَكْوَزَة ومَطْيَبَة[٦]. وهو ممنوعُ الصَّرف على كلِّ حالٍ، سواءٌ كان اسمَ أرضٍ أو اسمَ قبيلةٍ، أعجميًّا أم عربيًّا.

واختلفوا في نسب شعيبٍ؛ فقال عطاء وابنُ اسحاق وغيرهما: هو شعيب بن

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٩، وهذا صدر بيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٠٨، وعجزه: والعُصْمُ من شعف العقول الفادرِ. العصم: الوعول، والفادر: المُسِنُّ منها، والعقول: المتحرزة في شعف الجبال، وشعف كل شيء أعلاه. قاله محمد بن حبيب شارح الديوان.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٢٨، وقول أبي سليمان فيه: «مدين» هو ابن مَدْيان بن إبراهيم. وبعضهم جعل مدين ومديان واحداً؛ قال الآلوسي في روح المعاني ٩/ ٢٣٢: ومدين-وسمع: مديان- في الأصل عَلَم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام.

(٣) القولان في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦.

(٤) قال الآلوسي في روح المعاني ٩/ ٢٣٢: «الشَّعب» بفتح فسكون: اسم جبل، و«الشِعْب» بكسر فسكون: الطريق في الجبل، واختير أنه ـ أي: اسم شعيب ـ وضع مرتجلاً هكذا.

(٥) أي: قياسُه الإعلال، كـ: متاع ومقام. ينظر الدر المصون ٥/ ٣٧٦، وروح المعاني ٩/ ٢٣٢.

(٦) ينظر المنصف لابن جني ١/ ٢٩٦، وشرح الشافية للرضي ٣/ ١٠٤-١٠٥. ومكوزة: عَلَم لرجل.

ميكيل بن يَشْجن[١] بن مدين بن إبراهيم، واسمه بالسُّريانية: بيروت[٢].

وقال الشَّرْقيُّ بن قُطَامي[٣]: شعيب بن عَنْقا بن ثويب[٤] بن مدين بن إبراهيم.

وقال أبو القاسم إسماعيل بنُ محمد بنِ الفضل بنِ عليٍّ الطَّلْحيّ الأصبهاني في «كتاب الإيضاح في التفسير»[٥] من تأليفه: هو شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم.

وقيل: شعيب بن جزي بن يسجن[٦] بن اللام بن يعقوب، وكذا قال ابن سمعان، إلا أنه جعل مكان اللام: لاوي[٧]، ولا يُعرف في أولاد يعقوب: اللام،

---

(١) في النسخ عدا (ز١): سجن، والمثبت من(ز١)، وهو موافق في الرسم لما في تفسير الطبري ١٠/ ٣١٠، والبداية والنهاية ١/ ٤٢٧، وفيهما: يشجن، وأشير في حاشية الطبري لنسخة توافق ما في نسخ البحر غير (ز١)، وجاء في كثير من المصادر: يشجر. ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٤ (تحقيق محمود شاكر)، وعرائس المجالس ص١٦٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٨١، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية؛ والإتقان للسيوطي ٦/ ١٠٦٦، وروح المعاني ٩/ ٢٣٢؛ ونقله النووي في تهذيب الأسماء ص١٧٧ عن العرائس: تسخر.

(٢) كذا في النسخ، ومثله في نسخ القرطبي كما في حواشيه، وجاء في تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٤ (تحقيق محمود شاكر)، والكامل لابن الأثير ١/ ١٥٧، وتفسير ابن كثير: يثرون، وفي مطبوع العرائس: يترون، وفي مطبوع البداية والنهاية: بثرون. وفي تفسير الثعلبي ٣/ ٤٩، وروح المعاني ٩/ ٢٣٣: يثروب.

(٣) هو الوليد بن الحصين، والشرقي لقبه، والقطامي لقب والده، كان عالماً بالنسب وافر الأدب، ضم المنصورُ إليه المهديَّ ليأخذ من أدبه. ميزان الاعتدال ٢/ ٢٤٨، والأعلام ٨/ ١٢٠. وكلامه نقله النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٠١، والقرطبي ٩/ ٢٨١، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٠٢ (وعزاه لابن عساكر)، والآلوسي في روح المعاني ٩/ ٢٣٢.

(٤) قيده السيوطي ونقله عنه الآلوسي: يَوْبَب، بمثناة تحتية أوله، وبعدها واو وموحدتين بوزن جعفر، وكذا جاء في تفسير القرطبي، وجاء في معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠١: فويب. واسم أبيه عندهم: عَيْفَا.

(٥) وله أيضاً: التفسير الكبير، سماه: الجامع، والموضح في التفسير، والترغيب والترهيب، وغيرها، ويلقب: قوام السُّنة، روى عنه ابن عساكر، وأبو سعد السمعاني، وأبو موسى المديني، وآخرون، توفي سنة (٥٣٥هـ). طبقات المفسرين للداودي ١/ ١١٢.

(٦) في النسخ عدا (ز١): سجن، والمثبت من (ز١)، وسلف الكلام فيه.

(٧) كما في معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠١، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٨١. وابن سمعان هو =

فلعله تصحيفٌ من لاوي.

وقيل: شعيب بن صفوان بن عنقا بن ثويب بن مدين بن إبراهيم.

وقال الشريف النسَّابةُ الجَوَّاني، وهو المُنْتَهَى إليه في هذا العلم: هو شعيب بن ثويب[١] بن حُبَيْش بن وائل بن مالك بن حَرام بن جُذام، واسمُه عامرٌ أخو لَخْم، وهما ولدا الحارث بن مُرَّةَ بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عَريب بن زيد بن كَهْلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر هودٍ عليه السلام، فبينه وبين هود في هذا النسب الأخير ثمانيةَ عشر أباً، وبينهما في بعض النسب المذكور سبعةُ آباءٍ؛ لأنه ذُكر فيه أنه شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم، وإبراهيم هو ابن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر وهو هود عليه السلام.

وكان يقال لشعيب: خطيب الأنبياء؛ لحُسْنِ مراجَعَتِهِ قومَه[٢].

قال قتادة: أُرسل مرَّتين: مرَّةً إلى مدين، ومرَّةً إلى أصحاب الأيكة[٣].

وتعلَّق «إلى مدين» وانتَصَبَ «أخاهم» بـ«أرسلنا»، وهذا يقوِّي قولَ مَن نصب «لوطاً» بـ«أرسلنا» وجَعَلَه معطوفاً على الأنبياء قبلَه.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قرأ الحسن: «آيةٌ من ربِّكم»[٤]، وهذا دليلٌ على أنه جاء بالمعجزة، إذ كلُّ نبيٍّ لا بدَّ له من معجزة تدلُّ على صدقه، لكنه لم يعيِّن هنا ما المعجزةُ، ولا من أيِّ نوعٍ هي، كما أنه لرسول الله ﷺ معجزاتٌ كثيرةٌ جدًّا لم تعيَّن في القرآن.

= عبد الله بن زياد بن سليمان بن سمعان، أبو عبد الرحمن المدني، كذبه مالك، وقال أحمد: متروك. تهذيب التهذيب ٢/٣٣٦.

(١) قوله: بن ثويب، ساقط من (أ) و(د١) و(ع).

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٢٣ من طريق ابن إسحاق، عن يعقوب بن أبي سلمة، عن النبي ﷺ مرسلاً، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٤٢٩ من حديث ابن عباس، وفيه إسحاق بن بشر، وهو متروك.

(٣) لم أقف عليه عن قتادة، ورواه إسحاق بن بشر عن السدي وعكرمة، كما ذكر ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦].

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦.

وقال قوم: كان شعيبٌ نبيًّا ولم تكن له معجزةٌ[(١)]، والبينةُ هنا الموعظةُ.

وأنكر الزجَّاجُ هذا القولَ، وقال: لا تُقبل نبوةٌ بغير معجزةٍ[(٢)]، ومن معجزاته أنه دفع إلى موسى عصاه، وتلك العصا صارت تِنِّيناً.

وقال الزمخشري: ومن معجزات شعيبٍ ما رُوي من محاربةِ عصا موسى التنينَ حين دفع إليه غنمه، وولادةِ الغنم الدُّرْعَ خاصةً حين وَعَدَه أن يكون له الدُّرْعُ من أولادها، ووقوعِ عصا آدمَ على يده في المرات السبع، وغيرِ ذلك من الآيات؛ لأن هذه كلَّها كانت قبل أن يُستَنْبَأ موسى عليه السلام، فكانت معجزاتٍ لشعيب[(٣)].

وقال الزجَّاج: وأيضاً قال لموسى عليه السلام: هذه الأغنام تلد أولاداً فيها سوادٌ وبياض، وقد وهبتُها لك.

فكان الأمرُ كما أَخبر عنه، وهذه الأحوال كلُّها كانت معجزةً لشعيب عليه السلام؛ لأن موسى عليه السلام في ذلك الوقت ما ادَّعى الرسالة[(٤)]. انتهى

وما قاله الزمخشري متَّبعاً فيه الزجَّاجَ هو قولُ المعتزلة، وذلك أن الإرهاص - وهو ظهورُ المعجزة على يدِ مَن سيصيرُ نبيًّا ورسولاً بعد ذلك - مختلفٌ في جوازه، فالمعتزلةُ تقول: هو غير جائزٍ، فلذلك جعلوا هذه المعجزاتِ لشعيب، وأهل السنة يقولون بجوازه، فهي إرهاصٌ لموسى بالنبوة قبل الوحي إليه[(٥)]. والحججُ للمذهبين مذكورةٌ في أصول الدين.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: بينة، بدل: معجزة.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٣.

(٣) الكشاف ٢/ ٩٣. وقوله: الدُّرْع (بضم الدال وسكون الراء) هو جمع: أَدْرَع أو دَرْعَاء، وهو ما اسودَّ رأسه وابيضَّ سائره من الغنم والخيل. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٤/ ١٨٨.

(٤) لم أقف عليه في معاني القرآن للزجاج، وعزاه الرازي في تفسيره ١٤/ ١٧٣ لصاحب الكشاف، ولم أقف عليه فيه.

(٥) هذا الكلام هو قول الرازي في تفسيره ١٤/ ١٧٣، وتعقبه الآلوسي في روح المعاني ٩/ ٢٣٥ بقوله: نَظَر فيه الطيبي بأن الزمخشري قال في «آل عمران» في تكليم الملائكة عليهم السلام لمريم: إنه معجزةٌ لزكريا، أو إرهاص لنبوة عيسى عليه السلام. ينظر الكشاف ١/ ٤٢٩.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أمرهم أولاً بشيءٍ خاصٍّ وهو إيفاءُ الكيل والميزان، ثم نهاهم عن شيءٍ عام وهو قولُه: «أشياءهم»، والكيلُ مصدرٌ كُني به عن الآلة التي يُكال بها، كقوله في «هود»: ﴿الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الآية: ٨٤] فطابق قولَه: «والميزان»، أو هو باقٍ على المصدرية وأريدَ بالميزان المصدر-كالميعاد- لا الآلة، فتطابَقا، أو أخذ «الميزان» على حذف مضاف، أي: ووزنَ الميزان، والكيل على إرادة: كيل[1] المكيال، فتطابَقَا.

والبخسُ تقدَّم شرحُه في قوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢] و«أشياءهم» عامٌّ في كلِّ شيءٍ لهم، وقيل: أموالَهم. وقال التبريزي: حقوقهم.

وفي إضافة الأشياء إلى الناس دليلٌ على ملكهم إياها، خلافاً للإباحية الزنادقة.

كانوا يبخسون الناس في مُبايعاتهم، وكانوا مكَّاسين لا يَدَعون شيئاً إلا مَكَسوه، ومنه قيل للمَكْس: البَخْس.

ورُوي أنهم كانوا إذا دخل الغريبُ بلدهم أخذوا دراهمه الجيادَ وقالوا: هي زُيوفٌ، فقطَّعوها قطعاً، ثم أخذوها بنقصانٍ ظاهر وأعطوه بدلها زيوفاً، وكانت هذه المعصيةُ قد فشت فيهم في ذلك الزمان، مع كفرهم الذي نالتهم الرجفةُ بسببه.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾تقدَّم تفسير هذه الجملة قريباً في هذه السورة[2].

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥)﴾ الإشارةُ إلى إيفاء الكيل والميزان، وتركِ البَخْس والإفساد، و«خير» أفعلُ التفضيل، أي: من التطفيف والبَخْس والإفساد؛ لأن خيريةَ هذه لكم عاجلةٌ جدًّا منقضيةٌ عن قريبٍ منكم؛ إذ يقطع الناس مُعاملتَكم ويَحْذَرونكم، فإذا أوفيتُم وتركتُم البَخْسَ والإفساد جَمُلتْ سيرتكم وحَسُنت الأحدوثةُ عنكم، وقَصدكم الناس بالتجارات والمكاسب، فيكون ذلك أَخْيَرُ مما كنتم تفعلون؛ لديمومة التجارة والأرباح بالعدل في المعاملات والتحلِّي بالأمانات.

---

(١) قوله: كيل، ساقط من (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع.
(٢) عند تفسير الآية (٥٦) منها.

وقيل: «ذلكم» إشارةٌ إلى الإيمان الذي تضمَّنه قولُه: «اعبدوا الله مالكم من إله غيره»، وإلى تركِ البَخْسِ في الكيل والميزان.

وقيل: «خير» هنا ليست على بابها من التفضيل، ولذلك فسَّره ابن عطية بقوله: أي: ذاك نافعٌ عند الله مُكْسِبٌ فوزَه ورضوانَه(١).

وظاهر قوله: «إن كنتم مؤمنين» أنهم كانوا كافرين، وعلى ذلك يدلُّ صدرُ الآية وآخِرُ القصة، فمعنى ذلك أنه لا يكون ذلك لكم خيراً ونافعاً عند الله إلا بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عملٌ دون إيمان.

وقال الزمخشري: «إن كنتم مؤمنين»: إن كنتم مصدِّقين لي في قولي: «ذلكم خير لكم»(٢).

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الظاهر النهيُ عن القعود بكلِّ طريقٍ لهم عمَّا كانوا يفعلونه من إيعاد الناسِ وصدِّهم عن طريق الدِّينِ.

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعَّدون مَن أراد المجيءَ إليه ويصدُّونه، ويقولون: إنه كذَّابٌ فلا تذهب إليه، على نحوِ ما كانت قريشٌ تفعله مع رسول الله ﷺ(٣).

وقال السُّدي: هذا نهيٌ عن العشارين والمتقبلين ونحوِه مِن أَخْذِ أموال الناسِ بالباطل(٤).

وقال أبو هريرة: هو نهيٌ عن السَّلْب وقَطْعِ الطريق، وكان ذلك مِن فِعْلهم. ورَوَى عن النبيِّ ﷺ قال: «رأيتُ ليلةَ أسري بي خشبةً على الطريق لا يمرُّ بها ثوبٌ إلا شقَّته، ولاشيءٌ إلا خرقته، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا مَثَلٌ لقوم من

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦.
(٢) الكشاف ٢/ ٩٤.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٧، وأخرجه عنهم بنحوه الطبري ١٠/ ٣١٣-٣١٤.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣١٤ مختصراً بلفظ: «ولا تقعدوا بكل صراط تُوعِدون» قال: العشارون. وذكره القرطبي ٩/ ٢٨٣ بلفظ: كانوا عشارين متقبلين.

أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾[١].

وهذا القولُ والقولُ الذي قبله فيه مناسَبةٌ لقوله: «ولا تبخسوا الناس أشياءهم»، لكنْ لا تظهرُ مناسَبةٌ لهما بقوله: «وتصدُّون عن سبيل الله مَن آمن به» بل ذلك يناسِبُ القولَ الأول.

قال القرطبي: قال علماؤنا: ومِثْلُهم اليومَ هؤلاء المكَّاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعاً من الوظائف الماليَّة بالقهر والجبر، وضمَّنوا ما لا يجوزُ ضمانُ أصله من الزكوات والمواريث والملاهي، والمترتِّبون في الطرق، إلى غيرِ ذلك ممَّا قد كثر في الوجود وعُمِلَ به في سائر البلاد، وهو من أعظم الذنوب وأكبرِها وأفحشِها، فإنه غَصْبٌ وظلمٌ وعَسْفٌ على الناس، وإذاعةٌ للمنكر وعملٌ به ودوامٌ عليه وإقرارٌ له، وأعظمُه تضمينُ الشرع والحُكم للقضاء، فإنَّا لِلّهِ وإنَّا إليه راجعون، لم يَبْقَ من الإسلام إلَّا رَسْمُه، ولا من الدِّين إلا اسمُه. انتهى كلامُه.

وقد قَرَنَ رسول الله ﷺ الأموالَ والأعراضَ بالدماء في قوله في حجة الوداع: «أَلَا إنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ»[٢]، وما أكثَرَ ما تساهَلَ الناس في أخذ الأموال وفي الغيبة. وقال رسول الله ﷺ: «مَن قُتِلَ دون ماله فهو شهيد»[٣].

والعَجَبُ إطباقُ مَن يتظاهر بالصَّلاح والدِّين والعلم على عدم إنكار هذه المُكوس والضمانات، وادِّعاءُ بعضهم أنه له تصرُّفٌ في الوجود ودلالٌ على الله

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٨٣. ولم يذكر ابن عطية لفظ الحديث، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣١٤ من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هريرة أو غيره ـ شك أبو جعفر الرازي ـ قال: أتى النبي ليلة أسري به على خشبة. . . ، وهو قطعة من حديث طويل جدًّا أخرجه الطبري ١٤/ ٤٢٤-٤٣٥ في أول سورة الإسراء، وأورده ابن كثير في الموضع نفسه بتمامه ثم قال: وأبو جعفر الرازي قال فيه الحافظ أبو زرعة الرازي: يهم في الحديث كثيراً، وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم، والظاهر أنه سيء الحفظ، ففيما تفرَّد به نظر. . . ، وينظر باقي كلامه ثمة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٨٠)، ومسلم (١٤١) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

تعالى بحيث إنه يدعو فيُستجاب له فيما أراد، ويَضْمَنُ لمن كان من أصحابه وأتباعه الجنة، وهو مع ذلك يتردَّد لأصحاب المكوس ويتذلَّلُ إليهم في نزع شيءٍ حقيرٍ وأَخْذِه من المَكْس الذي حصَّلوه، وهذه وقاحةٌ لا تَصْدُرُ ممن شمَّ رائحةَ الإيمان، ولا تعلَّق بشيءٍ من الإسلام، وقال بعض الشعراء:

تَساوَى الكلُّ منَّا في المَسَاوي ... فأفضلُنا فتيلاً ما يُساوي

وعلى الأقوال السابقة يكون القعودُ بكلِّ صراطٍ حقيقةً، وحَمَلَ القعودَ والصِّراطَ الزمخشريُّ على المجاز، فقال: ولا تقتدوا بالشيطان في قوله: «لأقعدنَّ لهم صراطَكَ المستقيم» فتقعدوا بكلِّ صراطٍ، أي: بكلِّ منهاجٍ من مناهج الدِّين، والدليلُ على أنَّ المراد بالصراط سبيلُ الحقِّ قولُه: «وتصدُّون عن سبيل الله» فإن قلتَ: صراطُ الحقِّ واحدٌ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فكيف قيل: «بكلِّ صراطٍ» قلتُ: صراطُ الحقِّ واحدٌ ولكنه يتشَّعبُ إلى معارفَ وحدودٍ وأحكامٍ كثيرةٍ مختلفةٍ، فكانوا إذا رأوا واحداً يَشْرَعُ في شيءٍ منها أَوْعَدوه وصدُّوه[1]. انتهى.

ولا تظهرُ الدلالةُ على أنَّ المراد بالصراط سبيلُ الحقِّ من قوله: «وتصدُّون عن سبيل الله» كما ذَكر، بل الظاهرُ التغايُرُ؛ لعموم «كلّ صراط» وخصوصِ «سبيل الله»، فيكون «بكلِّ صراطٍ» حقيقةً في الطرق، و«سبيل الله» مجاز[2] عن دين الله.

والباءُ في «بكلِّ صراطٍ» ظرفيةٌ، نحو: زيدٌ بالبصرة، أي: في كلِّ صراطٍ، و: في البصرة، والجُمَلُ من قوله: «توعِدُون وتصدُّون وتبغونها» أحوالٌ، أي: مُوعِدين وصادِّين وباغِينَ.

والإيعادُ: ذِكْرُ إنزالِ المَضارِّ بالمُوْعَدِ، ولم يُذْكَر المُوْعَدُ به لتذهبَ النفسُ فيه كلَّ مذهبٍ من الشر؛ لأن «أَوْعَدَ» لا يكون إلا في الشر، وإذا ذُكِرَ تعدَّى الفعلُ إليه بالباء؛ قال أبو منصور الجواليقي[3]: إذا أرادوا أن يَذْكروا ما تَهَدَّوا به مع

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٤. ووقع في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: منعوه، بدل: أوعدوه.

(٢) كذا في النسخ، والجادة: مجازاً.

(٣) نقله عنه تلميذه ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٢٩. والجواليقي هو موهوب بن أحمد بن =

«أَوْعَدْتُ» جاؤوا بالباء، فقالوا: أوعَدْتُه بالضرب، ولا يقولون: أوعدتُه الضربَ.

والصدُّ يمكن أن يكون حقيقةً في عدم التمكين من الذهاب إلى الرسول لِيَسْمعَ كلامه، ويمكن أن يكون مجازاً عن الإيعاد من الصادِّ بوجهٍ مَّا، أو عن وعد المصدود بالمنافع على تَرْكه.

و«مَن آمَنَ» مفعولٌ بـ«تصدُّون» على إعمال الثاني، ومفعول «تُوْعِدُون» ضميرُ «مَن» محذوفٌ، والضميرُ في «به» الظاهرُ أنه عائدٌ على«سبيل الله»، وذكَّره لأنَّ السبيل تذكَّرُ وتؤنَّثُ، وقيل: عائد على «الله».

وقال الزمخشري: فإن قلت: إلامَ يرجع الضمير في «آمَنَ به»؟ قلت: إلى «كلّ صراط»، تقديره: تُوْعِدون مَن آمَنَ به وتصدُّون عنه، فوُضع الظاهرُ الذي هو «سبيل الله» موضعَ الضمير زيادةً في تقبيح أمرهم، ودلالةً على عظم ما يصدُّون عنه[1]. انتهى.

وهذا تعسُّفٌ في الإعراب لايليقُ بأن يُحمل القرآن عليه؛ لمَا فيه من التقديم والتأخير ووضعِ الظاهر موضعَ المُضْمَر من غير حاجةٍ إلى ذلك، وعَوْدِ الضمير على أبعدِ مذكورٍ مع إمكان عَوْدِه على أقرب مذكورٍ الإمكانَ السائغَ الحسنَ الراجحَ، وجَعْلِ «مَن آمَنَ» منصوباً بـ«تُوْعِدون» فيصيرُ من إعمال الأول وهو قليلٌ، وقد قال النحاة: إنه لم يَرِدْ في القرآن لقِلَّته، ولو كان من إعمال الأول لَلَزِمَ ذكرُ الضمير في الفعل الثاني، وكان يكون التركيب: وتصدُّونه، أو: وتصدونهم، إذ هذا الضميرُ لا يجوز حذفُه على قول الأكثرين إلا ضرورةً، وعلى قولِ بعض النحاة يُحذف في قليلٍ من الكلام، ويدل على أنَّ «مَن آمَنَ» منصوبٌ بـ«تصدُّون» الآيةُ الأخرى، وهي قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [آل عمران: ٩٩]، فنصبه بـ«تُوْعِدون» بعيدٌ، هذا ولا يُحذف مثلُ هذا الضمير إلا في شعرٍ، وأجاز بعضُهم حذفَه على قلةٍ، هذا مع التكلُّفات[2] المضافة إلى ذلك، فكان جديراً بالمنع لمَا في ذلك من التعقيد البعيد عن الفصاحة.

= محمد اللغوي النحوي إمام الخليفة المقتفي، ألَّف في العروض، وشرح أدب الكاتب، وعمل كتاب «المعرب» وغيره، توفي سنة (٥٤٠هـ). السير ٢٠/ ٨٩.

(١) الكشاف ٢/ ٩٤.

(٢) في (ب) و(د٣) و(يه): مع هذه التكلفات، بدل: هذا مع التكلفات.

وأجاز ابنُ عطية أن يعود على «شعيب» في قولِ مَن رأى القعودَ على الطريق للردِّ عن شعيبٍ[١]، وهذا بعيدٌ؛ لأن القائل: «ولا تقعدوا» هو شعيب، فكان يكون التركيب: مَن آمَنَ بي، ولا يَسُوغُ هنا أن يكون التفاتاً، لو قلت: يا هند، أنا أقولُ لك: لا تُهيني مَن أكْرَمَه، تريد: مَن أكرمَني، لم يصح.

وتقدَّم تفسير مِثْل قوله: «وتبغونها عوجاً» في «آل عمران»[٢].

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ قال الزمخشري: «إذ» مفعولٌ به غيرُ ظرفٍ، أي: واذكروا على جهة الشكر وقتَ كونهم قليلاً عددُكم فكثَّركم اللهُ ووفَّر عَدَدَكم[٣]. انتهى.

وذَكَرَ غيرُه أنه منصوبٌ على الظرف، فلا يمكن أن يعمل فيه «واذكُروا»؛ لاستقبال «اذكُروا» وكونِ «إذ» ظرفاً لمَا مضى.

والقلةُ والتكثير هنا بالنسبة إلى الأشخاص، أو إلى الفقر والغِنَى، أو إلى قِصَر الأعمار وطولِها. أقوالٌ ثلاثة أظهرُها الأول.

قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوَّج بنتَ لوطٍ، فولدت، فرمَى الله في نسلها بالبركة والنماء فكَثُروا وفَشَوا.

وقال الزمخشريُّ: أو: كنتم أَقِلَّةً أَذِلَّةً فأعزَّكم بكثرة العَدَد والعُدَد[٤]. انتهى، ولا ضرورةَ تدعو إلى حذفِ صفةٍ وهي: أذلة، ولا إلى تحميل قوله: «فكثَّركم» معنى: بالعدد، ألا ترى أنَّ القلة لا تستلزمُ الذلةَ، ولا الكثرة تستلزمُ العزَّ، وقال الشاعر:

تعيِّرنا أنَّا قليلٌ عديدُنا ... فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قليلُ
وما ضرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا ... عزيزٌ وجار الأكثرينَ ذليلُ[٥]

وقيل: المرادُ مجموعُ الأقوال الأربعة، فإنه تعالى كثَّر عددَهم وأرزاقَهم وطوَّلَ أعمارهم وأعزَّهم بعد أن كانوا على مقابِلاتها.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٧.
(٢) عند تفسير الآية (٩٩) منها.
(٣) الكشاف ٢/ ٩٤.
(٤) المصدر السابق.
(٥) البيتان للسموأل، وهما في ديوانه (مع ديوان عروة بن الورد) ص٩٠.

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ هذا تهديدٌ لهم وتذكيرٌ بعاقبةِ مَن أفْسَدَ قبلهم، وتمثيلٌ لهم بمَن حلَّ به العذابُ من قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ، وكانوا قريبي عهدٍ بما أصاب المؤتفكة.

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾هذا الكلامُ من أحسن ما تلطَّف به في المحاوَرةِ، إذ أبْرز المتحقِّقَ في صورة المشكوك فيه، وذلك أنه قد آمَنَ به طائفةٌ بدليلِ قول المستكبرين عن الإيمان: «لَنُخرجنَّك يا شعيب والذين آمنوا معك»، وهوأيضاً من بارع التقسيم؛ إذ لا يخلو قومُه من القِسْمين.

والذي أُرسل به هنا ما أمرهم به من إفراد الله تعالى بالعبادة وإيفاءِ الكيل والميزان، ونهاهم عنه من البَخْس والإفساد والقعود المذكور، ومتعلَّق «لم يؤمنوا» محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله، وتقديره: لم يؤمنوا به، والخطابُ بقوله: «منكم» لقومه.

وينبغي أن يكون قولُه «فاصبروا» خطاباً لفريقي قومه: مَن آمَنَ، ومَن لم يؤمن، و«بيننا»، أي: بين الجميع، فيكون ذلك وعداً للمؤمنين بالنصر الذي هو نتيجةُ الصبر: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخَسارة.

وقال ابن عطية: المعنى: وإنْ كنتُم يا قوم قد اختلفتُم عليَّ وشعَّبتم بكفركم أمري فآمنت طائفةٌ وكفرت طائفةٌ، فاصبروا أيها الكَفَرةُ حتى يأتيَ حُكْمُ الله بيني وبينكم، ففي قوله: «فاصبروا» قوةُ التهديد والوعيد، هذا ظاهرُ الكلام، وأنَّ المخاطبة بجميع الآية للكفار، قال النقَّاش: وقال مقاتل بن سليمان: المعنى: فاصبروا يا معشر الكفار. قال: وهذا قولُ الجماعة[1]. انتهى.

وهذا القولُ بدأ به الزمخشريُّ، فقال: «فاصبروا»: فتربَّصوا وانتظروا «حتى يحكم الله بيننا»، أي: بين الفريقين بأن يَنْصُرَ المحقِّين على المُبْطِلينَ ويُظْهِرَهم عليهم، وهذا وعيدٌ للكافرين بانتقام الله تعالى منهم، كقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢][2] انتهى.

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٧.
(٢) الكشاف ٢/ ٩٥.

وقال ابن عطية[١]: وحَكَى منذر بن سعيد عن أبي سعيد[٢] أنَّ الخطاب بقوله: «فاصبروا» للمؤمنين على معنى الوَعْدِ لهم، وقاله مقاتل بن حيان. انتهى.

وثنَّى به الزمخشريُّ فقال: أو هو موعظةٌ للمؤمنين وحثٌّ على الصبر واحتمالِ ما كان يَلْحقُهم من أذى المشركين إلى أنْ يَحكُم الله بينهم وينتقمَ لهم منهم[٣]. انتهى.

والذي قدَّمناه أولاً من أنه خطابٌ للفريقين هو قولُ أبي عليٍّ، وأتى به الزمخشريُّ ثالثاً فقال: ويجوزُ أن يكون خطاباً للفريقين، أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، وليصبر الكفار على ما يَسُوءُهم من إيمانِ مَن آمَنَ منهم، حتى يحكم الله فيَمِيزَ الخبيثَ من الطيب[٤]. انتهى، وهو جارٍ على عادته مِن ذِكْرِ تجويزاتٍ في الكلام تُوْهِمُ أنها من قوله، وهي أقوالٌ للعلماء المتقدِّمين.

«وهو خيرُ الحاكمين» لأن حُكْمَه عدلٌ لا يُخشى أن يكون فيه حَيْفٌ وجَوْرٌ.

❀ ❀ ❀

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ

(١) في المحرر ٢/ ٤٢٧.
(٢) كذا في النسخ، والذي في المحرر: عن ابن عباس.
(٣) الكشاف ٢/ ٩٥.
(٤) المصدر السابق.

وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ
آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾
أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم
بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم
بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ
وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ
اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ
لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ
عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ
فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ
وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ
قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا
يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا
أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

المفردات

«عاد»: رَجَعَ إلى ما كان عليه، وتأتي بمعنى: صار، قال:

تُعِدْ فيكم جَزْرَ الجَزُور رماحُنا ... ويَرْجِعْنَ بالأسياف مُنْكَسِراتِ[1]

«ضُحىً» ظرفٌ متصرِّفٌ إن كان نكرةً، وغيرُ متصرِّفٍ إذا كان من يوم بعينه[2]،

---

(١) البيت لامرأة من بني عامر كما في ديوان الحماسة (بشرح المرزوقي) ٢/٧٤٩، وفيه: ويمسكن بالأكباد منكسرات.

(٢) ومثال المتصرف: ضحاك ضُحًى مبارك، ومثال غير المتصرف: أتيتك يوم الجمعة ضحًى. =

وهو وقتُ ارتفاع الشمس إذا طلعت، وهو مؤنَّث، وشذوا في تصغيره فقالوا: ضُحَيٌّ بغير تاء التأنيث، وتقول: أتيتُه ضحىً وضَحاءً، إذا فتحت الضاد مَدَدْتَ.

«الثُّعْبان»: ذَكَرُ الحيَّات العظيم، أخذ من ثَعَبْتُ المكان: فجَّرته بالماء، والمَثْعَبُ: موضعُ انفجار الماءِ؛ لأن الثعبان يجري كالماء عند الانفجار.

الإرجاء: التأخير.

المدينة معروفة، مشتقةٌ من مَدَنَ فهي فعيلة، ومَن ذهب إلى أنها مَفْعِلة من «دانَ» فقولُه ضعيف؛ لإجماع العرب على الهمز في جمعها، قالوا: مدائن بالهمز، ولا يُحفظ فيه: مداين بالياء، ولا ضرورةَ تدعو إلى أنها مَفْعِلة، ويَقْطَعُ بأنها فعيلة جمعُهم لها على فُعُلٍ، قالوا: مُدُنٌ، كما قالوا: صُحُف، في صحيفة.

* * *

التفسير ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: الكفار الذين استكبروا عن الإيمان أَقْسَموا على أحد الأمرين: إخراجِ شعيبٍ وأتباعه، أو عودتهم في ملَّتهم، والقَسَمُ يكون على فِعْلِ المُقْسِم وفِعْلِ غيره، سوَّوا بين نفيه ونفي أتباعه وبين العود في الملة، وهذا يدلُّ على صعوبة مُفارقة الوطن؛ إذ قرنوا ذلك بالعود إلى الكفر.

وفي الإخراج والعَوْد طباقٌ معنويٌّ.

و«عاد» كما تقدَّم لها استعمالان: أحدهما أن تكون بمعنى: صار، والثاني بمعنى: رَجَعَ إلى ما كان عليه، فعلى الأول لا إشكال في قوله: «أو لتعودُنَّ» إذ صار فعلاً مسنداً إلى شعيب وأتباعه، ولا يدلُّ على أن شعيباً كان في ملَّتهم، وعلى المعنى الثاني يُشْكِلُ؛ لأنَّ شعيباً لم يكن في ملَّتهم قط لكن أتباعه كانوا فيها.

= وعرَّف السمين في الدر المصون ٥/ ٣٩١ المتصرف بأنه: ما لم يُرَدْ به وقته من يوم بعينه، قال: وهذه العبارة أحسن من عبارة الشيخ (يعني أبا حيان)؛ لأنها تُوْهم أنه متى كان معرفة بأيِّ نوعٍ كان من أنواع التعريف فإنه لا يتصرف، وليس الأمر كذلك، قال تعالى: «والضحى»، وقال: «والشمس وضحاها»، كلاهما استعمل مجروراً بحرف القسم، مع أن الأول معرف بـ«أل»، والثاني بالإضافة.

وأجيب عن هذا بوجوه:

أحدها: أن يراد بعَوْد شعيبٍ في الملّة حالُ سكوته عنهم قبل أن يُبعث لا حالةُ الضلال، فإنه كان يُخْفي دينَه إلى أن أَوْحَى الله إليه.

الثاني: أن يكون من باب تغليب حُكْم الجماعة على الواحد، لمَّا عطفوا أتباعَه على ضميره في الإخراج سَحَبوا عليه حُكْمَهم في العَوْد وإن كان شعيبٌ بريئاً ممّا كان عليه أتباعُه قبل الإيمان.

الثالث: أن رؤساءهم قالوا ذلك على سبيل التلبيس على العامة، والإيهام أنه كان منهم.

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: أيقعُ منكم أحدُ هذين الأمرين على كلِّ حالٍ حتى في حالِ كراهيتنا لذلك، والاستفهامُ للتوقيف على شناعة المعصية بما أقسموا عليه من الإخراج عن مواطنهم ظلماً أو الإقرارِ بالعَوْدِ في ملّتهم.

قال الزمخشري: الهمزة للاستفهام، والواوُ واوُ الحال، تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، أو: مع كوننا كارهين(١). انتهى.

فجعل الاستفهامَ خاصًا بالعود في ملّتهم، وليس كذلك، بل الاستفهامُ هو عن أحد الأمرين: الإخراج أو العود، وجَعَلَ الواوَ واوَ الحال وقدَّره: أتعيدوننا في حال كراهتنا، وليست واوَ الحال التي يعبّر عنها النحويون بواو الحال، بل هي واوُ العطف، عطفتْ على حالٍ محذوفةٍ، كقوله: «ردُّوا السائلَ ولو بظلفٍ محرَّقٍ» ليس المعنى: ردُّوه في حال الصدقة عليه بظلفٍ محرَّقٍ، بل المعنى: ردُّوه مصحوباً بالصدقة ولو مصحوباً بظلفٍ محرَّق، وتقدَّم لنا إشباعُ القول في نحو هذا(٢).

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ هذا إخبارٌ مقيَّدٌ من حيث المعنى بالشرط، وجوابُ الشرط محذوفٌ من حيث الصناعةُ، وتقديره: إن عُدنا في ملّتكم فقد افترينا، وليس قولُه: «قد افترينا على الله كذباً» هو جوابَ

---

(١) الكشاف ٢/٩٦.

(٢) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقد سلف الحديث في الموضعين.

الشرط إلا على مذهبِ مَن يُجيز تقديم جواب الشرط على الشرط، فيمكن أن يخرَّج هذا عليه.

وجوَّزوا في هذه الجملة وجهين:

أحدهما أن تكون إخباراً مستأنفاً، قال الزمخشري: فيه معنى التعجُّبِ، كأنهم قالوا: ما أكذَبَنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ لأن المرتدَّ أبلغُ في الافتراء من الكافر - يعني الأصليَّ - لأن الكافر مفترٍ على الله الكذبَ حيث يزعم أنَّ لله ندًّا ولا ندَّ له، والمرتدُّ مثلُه في ذلك وزائدٌ عليه حيث يزعم أنه قد بُيِّن له ما خَفِيَ عليه من التمييز ما بين الحقِّ والباطل[1]. وقال ابن عطية: الظاهرُ أنه خبر، أي: قد كنَّا نواقعُ أمراً عظيماً في الرجوع إلى الكفر[2].

والوجه الثاني: أن يكون قسماً على تقدير حَذْفِ اللام، أي: والله لقد افترينا، ذكره الزمخشري[3]، وأورده ابن عطية احتمالاً، قال: ويَحْتَمِلُ أن يكون على جهة القَسَم الذي هو في صيغة الدعاء، مثلَ قول الشاعر:

بَقَّيْتُ وَفْري وانحرفتُ عن العلا ... ولقيتُ أضيافي بوجهِ عَبُوسِ

وكما تقول: افتريتُ على الله إن كلَّمتُ فلاناً[4].

ولم ينشد ابنُ عطية البيتَ الذي يقيِّد قوله: «بقَّيتُ» وما بعده بالشرط، وهو قولُه:

إنْ لم أشنَّ على ابن هندٍ غارةً ... لمْ تَخْلُ يوماً من نِهابِ نفوسِ[5]

ولمَّا كان أمرُ الدِّين هو الأعظمَ عند المؤمن والمؤثَّرَ على أمر الدنيا لم يلتفتوا إلى الإخراج وإن كان أحدَ الأمرين اللَّذينِ أقسم على وقوعه الكفار، فقالوا: «قد

(١) الكشاف ٢/ ٩٧.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٨.
(٣) في الكشاف ٢/ ٩٧.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٨، واكتفى ابن عطية من البيت بأول كلمتين منه ولم يُكْمله، وينظر التعليق الذي بعده.
(٥) البيتان للأشتر النخعي، كما في ديوان الحماسة (بشرح المرزوقي) ١/ ١٤٩، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٤٨٨، وأمالي القالي ١/ ٨٥، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ص١٤٥.

افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملَّتكم»، وتقدَّم تفسيرُ العَوْد بالصيرورة، وتأويلُه إن كان في معنى الرجوع إلى ما كان الإنسان فيه بالنسبة إلى النبيِّ المعصوم من الكبائر والصغائر.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: وما ينبغي ولا يتهيَّأ لنا أن نعود في ملَّتكم، إلا أن يشاء اللهُ ربُّنا فنعود فيها، وهذا الاستثناء على سبيل عَذْقِ جميع الأمور بمشيئة الله وإرادته، وتجويزُ العود من المؤمنين إلى ملتهم دون شعيب؛ لعصمته بالنبوَّة، فجرى الاستثناءُ على سبيل تغليب حُكم الجمع على الواحد وإن لم يكن ذلك الواحدُ داخلاً في حكم الجمع.

وقال ابن عطية: ويَحْتَمِلُ أن يريد استثناءَ ما يمكن أن يَتعبَّدَ اللهُ به المؤمنين ممَّا يفعله الكفرةُ من القُرُبات، فلمَّا قال لهم: إنَّا لا نعودُ في ملَّتكم، ثم خشي أن يتَعبَّدَ الله بشيءٍ من أفعال الكفرة، فيعارض مُلْحِدٌ بذلك ويقول: هذه عودةٌ إلى ملَّتنا، استثنى مشيئةَ الله فيما يمكن أن يتَعبَّدَ به[1]. انتهى.

وهذا الاحتمالُ لا يصحُّ؛ لأنَّ قوله: «بعد إذ نجَّانا الله منها» إنما يعني النجاةَ من الكفر والمعاصي لا من أعمال البرّ.

وقال ابن عطية: ويَحْتَمِلُ أن يريد بذلك معنَى الاستبعاد، كما تقول: لا أفعلُ ذلك حتى يشيبَ الغرابُ، وحتى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاط، وقد عُلِمَ امتناعُ ذلك، فهي إحالةٌ على مستحيلٍ، وهذا تأويلٌ إنما هو للمعتزلة الذين مذهبُهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئةٍ من الله تعالى، وهذا تأويلٌ حكاه المفسِّرون ولم يشعروا بما فيه[2]. انتهى.

وقال الزمخشري: فإن قلتَ: وما معنى قوله: «وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أنْ يشاءَ الله»، والله تعالى متعالٍ أن يشاء رِدَّةَ المؤمنين وعَوْدَهم في الكفر؟ قلت: معناه: إلَّا أن يشاء اللهُ خذلاننا ومَنْعَنا الألطافَ لعِلْمِه تعالى أنها لا تنفع فينا، ويكون عَبَثاً، والعبثُ قبيحٌ لا يفعلُه الحكيم، والدليلُ عليه قولُه: «وسع ربُّنا كلَّ

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٢٨.
(٢) المصدر السابق.

شيءٍ علماً» أي: هو عالِمٌ بكلِّ شيءٍ ممَّا كان ويكون، وهو تعالى يعلمُ أحوالَ عباده كيف تتحوَّلُ قلوبُهم، وكيف تتقلَّبُ، وكيف تقسو بعد الرقة، وتمرضُ بعد الصحة، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان، ويجوزُ أن يكون قولُه: «إلَّا أن يشاء الله» حسماً لطمعهم في العَوْد؛ لأنَّ مشيئة الله تعالى لعَوْدهم في الكفر محالٌ خارجٌ عن الحكمة[1]. انتهى، وهذان التأويلان على مذهب المعتزلة.

وقيل: هذا الاستثناءُ إنما هو تسليمٌ وتأدُّبٌ؛ قال ابن عطية: ويَقلقُ هذا التأويلُ من جهة استقبال الاستثناء، ولو كان الكلام: إن شاء، قَوِيَ هذا التأويلُ. انتهى.

وليسَ يَقْوَى هذا التأويلُ؛ لا فَرْقَ بين: «إلا أن يشاء»، وبين: إلا إنْ شاء، لأن «إنْ» تخلِّصُ الماضي للاستقبال كما تخلِّص «أنْ» المضارعَ للاستقبال، فكِلَا الفعلين مستقبَلٌ.

وأبعدَ مَن ذهب إلى أن الضمير في «فيها» يعود على القرية لا على الملَّة.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تقدَّم تفسيرُ نظيرِها في «الأنعام[2]» في قصة إبراهيم عليه السلام.

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في دفع ما توعَّدْتُمونا به، وفي حمايتنا من الضلال، وفي ذلك استسلامٌ لله وتمسُّكٌ بلطفه، وذلك يؤيِّد التأويل الأول في «إلا أن يشاء الله».

وقال الزمخشري: يثبِّتنا على الإيمان ويوفِّقنا لازدياد الإيقان[3].

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: احكم، والفاتح والفتَّاح: القاضي بلغة حِمْيَرَ، وقيل: بلغة مراد، وقال بعضهم:

ألا أبلغ بني عُصْمٍ رسولاً فإنِّي عن فُتاحتِكم غنيُّ[4]

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٦.
(٢) الآية (٨٠) منها.
(٣) الكشاف ٢/ ٩٦.
(٤) اختلف في روايته وفي نسبته اختلافاً كثيراً، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٢٠، وإصلاح المنطق ص١٢٦ (وفيه: بني عمرو)، وتفسير الطبري ٢/ ١٥٠ و١٠/ ٣٢٠، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٩٣و٤٨٧، وأمالي القالي ٢/ ٢٨١، والصحاح واللسان (رسل)، وفيهما:
=

وقال ابن عباس: ما كنتُ أعرفُ معنى هذه اللفظةِ حتى سمعتُ بنتَ ذي يَزَن تقول لزوجها: تعال أفاتحك[١]، أي: أحاكمك.

وقال الفرَّاء: أهلُ عُمانَ يسمُّون القاضي: الفاتح[٢].

وقال السدِّي وابن بحر: احكم بيننا[٣].

قال أبو إسحاق: وجائز أن يكون المعنى: أَظْهِرْ أمرَنا حتى ينفتح ما بيننا وبين قومنا وينكشف ذلك، وذلك بأنْ يُنزل بعدوِّهم من العذاب ما يظهرُ به أنَّ الحقَّ معهم[٤].

قال ابن عباس: كان كثيرَ الصلاة، فلمَّا طال تَمادي قومِه في كفرهم ويئس من صلاحهم دعا عليهم، فاستجابَ دعاءَه وأهلكهم بالرجفة[٥].

= ألا أبلغ أبا عمرو...، وعزاه صاحب اللسان للأسعر الجعفي، وهو في اللسان والتاج (فتح) برواية: ألا مَن مُبْلغٌ عمراً...، وذكره ابن دُريد في الجمهرة ٢/ ٤، وصدره فيه: ألا أبلغ بني بكر بن عبد، وعزاه للأعشى، وليس في ديوانه.

وقال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٢٨٢: وجدت هذا البيت للشويعر الجُعفي -واسمه محمد بن حُمْران- على خلاف ما رواه يعقوب، وهو:

أبلغ بني عُضم فإني عن فُتاحتكم غنيُّ
لا أسرتي قلَّت ولا خالي لخالك مقتويُّ

قلت: والبيت الأول في الوحشيات (الحماسة الصغرى) لأبي تمام ص٤٦ مطلع قصيدة لمحمد بن حمران برواية:

أبلغ بني حُمران أني عن عداوتكم غنيُّ

والشويعر الجعفي هو محمد بن حُمْران بن أبي حمران، وهو ابن أخي الأسعر الجعفي، وممن سمي محمداً في الجاهلية، والأسعر اسمه: مرثد بن حمران بن أبي حمران. ينظر المؤتلف والمختلف ص٥٨ و٢٠٨.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٦٠٠)، والطبري ١٠/ ٣٢٠-٣٢١.
(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٥، وزاد: والفتَّاح.
(٣) أخرجه عن السديِّ الطبريُّ ١٠/ ٣٢١.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٨.
(٥) عرائس المجالس ص١٦٧-١٦٨، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٨٦.

وقال الحسن: إن كلَّ نبيٍّ أراد الله تعالى هلاك قومه أمَره بالدعاء عليهم، ثم استجاب له فأهلكهم[١].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أي: كُبراؤهم لأتباعهم تثبيطاً عن الإيمان: لئن اتَّبعتم شعيباً فيما أمركم به ونهاكم عنه.

قال الزمخشري: فإن قلتَ: ما جوابُ القسم الذي وطَّأته اللام في «لئن اتبعتم»، وجوابُ الشرط؟ قلت: قوله: «إنكم إذاً لخاسرون» سادٌّ مسدَّ الجوابين[٢]. انتهى.

والذي يقول النحويون: إنَّ جوابَ الشرط محذوفٌ لدلالة جواب القسم عليه، ولذلك وَجَبَ مُضيُّ فعل الشرط، فإن عَنَى الزمخشريُّ بقوله: سادٌّ مسدَّ الجوابين، أنه اجْتُزِئَ به عن ذكر جواب الشرط فهو قريبٌ، وإن عَنَى به أنه من حيث الصناعةُ النحوية فليس كما زعم؛ لأن الجملة يمتنعُ أن تكون لا موضعَ لها من الإعراب وأن يكون لها موضعٌ من الإعراب.

و«إذاً» هنا معناها التوكيد، وهي الحرفُ الذي هو جوابٌ، ويكون معه الجزاءُ وقد لا يكون. وزعم بعضُ النحويين أنها في هذا الموضع ظرفٌ، العاملُ فيه «لخاسرون»، والنونُ عوضٌ من المحذوف، والتقدير: إنكم إذا اتَّبعتموه لخاسرون، فلمَّا حُذف ما أُضيف إليه عوِّض من ذلك النونُ، فصادَفَتِ الألفَ فالتقى ساكنان، فحذف الألفُ لالتقائهما، والتعويضُ فيه مثلُ التعويض في «يومئذ» و«حينئذ» ونحوِه. وما ذهب إليه هذا الزاعمُ ليس بشيءٍ؛ لأنه لم يَثْبُت التعويضُ والحذفُ في «إذا» التي للاستقبال في موضعٍ فيُحْمَلَ هذا عليه[٣].

«لخاسرون» قال ابن عباس: مغبونون. وقال عطاء: جاهلون. وقال الضحاك: عَجَزَة[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٩.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٧.

(٣) وللسمين هنا تعقب على المصنف رأيت عدم ذكره خوف الإطالة، فمن أراده فليطلبه في الدر المصون ٥/ ٣٨٤.

(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ٥١، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٢، وتحرف: عجزة، في مطبوع الثعلبي إلى: فجرة. وتحرف: جاهلون، في مطبوع البغوي إلى: جاهدون.

وقال الزمخشري: «الخاسرون» لاستبدالكم الضلالةَ بالهدى؛ كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: ١٦] وقيل: تخسرون باتِّباعه فوائدَ البَخْس والتطفيف؛ لأنه ينهاكم عنها ويَحْمِلُكم على الإيفاء والتسوية[١]. انتهى.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ تقدَّم تفسيرُ مثلِ هذه الجملة[٢].

قال ابن عباس وغيره: لمَّا دَعا عليهم فُتح عليهم بابٌ من جهنمَ بحرٍّ شديد أخذ بأنفاسهم، فلم ينفعهم ظلٌّ ولا ماءٌ، فإذا دخلوا الأسراب ليتبرَّدوا وجدوها أشدَّ حرًّا من الظاهر، فخرجوا هرباً إلى البرية فأظلَّتهم سحابةٌ فيها ريحٌ طيِّبةٌ، فتنادوا: عليكم الظُّلة، فاجتمعوا تحتها كلُّهم، فانطبقت عليهم وألهبها الله ناراً ورجفت بهم الأرض، فاحترقوا كما يحترقُ الجرادُ المَقْلوُّ، فصاروا رماداً[٣].

ورُوي أنَّ الريح حُبست عنهم سبعةَ أيام، ثم سلِّط عليهم الحر.

وقال يزيد الجُرَيْري: سلِّط عليهم الريحُ سبعةَ أيام، ثم رُفع لهم جبلٌ من بعيد، فأتاه رجلٌ فإذا تحته أنهارٌ وعيونٌ، فاجتمعوا تحته كلُّهم، فوقع ذلك الجبلُ عليهم.

وقال قتادة: أُرسل شعيب إلى أصحاب الأيكة فأُهلكوا بالظُّلَّة، وإلى أصحابِ مدين فصاح بهم جبريلُ صيحةً فهلكوا جميعاً[٤].

وقال ابن عطية[٥]: ويحتمل أنَّ فرقةً من قوم شعيبٍ هلكت بالرَّجفة وفرقةً هلكت بالظُّلة، قال الطبريُّ[٦]: بلغني أنَّ رجلاً منهم يقال له: عَمرو بن جَلْهاءَ، لمَّا رأى الظلَّة قال:

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٧.

(٢) عند تفسير الآية (٧٨) من هذه السورة.

(٣) عرائس المجالس ص١٦٨، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٢. وأخرج نحوه الطبري ١٠/ ٣٢٤ عن ابن إسحاق.

(٤) ذكر هذه الأقوال البغوي ٢/ ١٨٢، والقرطبي ١٦/ ٧٥، وقول الجريري أخرجه الثعلبي في التفسير ٤/ ٢٦٢، وتحرف «يزيد» في مطبوعه إلى: برد، ولفظه عندهم جميعاً: سلط عليهم الحر، بدل: سلط عليهم الريح.

(٥) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٩-٤٣٠.

(٦) في تفسيره ١٠/ ٣٢٣-٣٢٤، والكلام من المحرر.

يا قوم إنَّ شعيباً مرسَلٌ فذروا عنكم سُميراً وعِمْران بن شدَّادِ
إنّي أرى غيمةً يا قوم قد طلعتْ تدعو بصوتٍ على صَمَّانةِ الوادِي
وإنه لن تَرَوْا فيها ضَحَاءَ غدٍ إلَّا الرقيمَ يُمشِّي بين أنجاد

سُمَيرةٌ وعِمرانُ: كاهِناهُم، والرقيم: كلبهم. وعن أبي عبد الله البَجَلي: أبو جادَ، وهوَّزُ، وحُطِّي، وكَلَمُن وسَعْفَص، وقُرِشَت، أسماءُ ملوكِ مدينَ، وكان «كَلَمُن» ملكَهم يومَ نزول العذاب بهم زمانَ شعيبٍ ﷺ، فلمَّا هلك قالت ابنتُه[1] تبكيه:

كَلَمنْ قد هَدَّ رُكني هُلْكُهُ وَسْطَ المَحَلَّهْ
سيدُ القوم أتاه حَتْفُ نارٍ وَسْطَ ظُلَّهْ
جُعِلَتْ نارٌ عليهم دارَهم كالمُضْمَحِلَّهْ

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي: كأنْ لم يُقيموا ناعِمي البالِ رَخِيِّي العيش في دارهم، وفيها قوةُ الإخبارِ عن هلاكهم وحلولِ المكروه بهم، والتنبيهِ على الاعتبار بهم، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] وكقول الشاعر:

كأنْ لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامِرُ[2]

وقال ابن عطية[3]: و: غَنِيْتُ في المكان، إنما يقال في الإقامة التي هي مقترنةٌ بتنعُّم وعيشٍ رَضيٍّ، هذا الذي استَقْرَيْتُ من الأشعار التي ذَكَرتِ العرب فيها هذه اللفظةَ، وأنشد على ذلك عدَّةَ أبياتٍ، ثم قال: وأمَّا قول الشاعر:

غَنِيْنا زماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى فَكلًّا سقاناه بكأسيهما الدهرُ[4]

---

(١) كذا في النسخ، والذي في الطبري والمحرر: أخته.
(٢) البيت لمُضاض بن عَمرو الجرهمي، وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ٨٣، والأغاني ١٥/ ١٨، ومعجم البلدان ٢/ ٢٢٥، وفيه: الحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها، والصفا: أحد الجبلين المشهورين، وهما الصفا والمروة بين بطحاء مكة والمسجد الحرام.
(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٠.
(٤) الشعر لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص٥١ برواية:
غَنينا زماناً بالتصعلك والغنى كما الدهرُ في أيامه العُسْرُ واليُسْرُ
كَسَيْنا صروفَ الدهر لِيناً وغِلظةً وكلًّا سقاناه بكأسيهما الدهرُ

فمعناه: استَغْنَيْنا ورَضينا، مع أنَّ هذه اللفظةَ ليست مقترنةً بمكانٍ. انتهى.

قال ابن عباس: كأنْ لم يعمروا[١].

وقال قتادة: كأنْ لم يَنْعَموا[٢].

وقال الأخفش: كأنْ لم يعيشوا[٣].

وقال أيضاً قتادةُ وابن زيد ومقاتل: كأن لم يكونوا[٤].

وقال الزجَّاج: كأن لم ينزلوا[٥].

وقال ابن قتيبة: كأنْ لم يُقِيْموا[٦].

و«الذين» مبتدأ، والجملة التشبيهيةُ خبرُه. قال الزمخشري[٧]: وفي هذا الابتداءِ معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين كذَّبوا شعيباً المخصوصون[٨] بأنْ أُهلكوا واستُؤصلوا كأنْ لم يُقيموا في دارهم، لأنَّ الذين اتَّبعوا شعيباً قد أنجاهم الله تعالى. انتهى.

وجوَّز أبو البقاء أن يكون الخبر: «الذين كذَّبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين»، و«كأنْ لم يغنوا» حالٌ من الضمير في «كذَّبوا»، وجوَّز أيضاً أن يكون «الذين كذبوا» صفةً لقوله: «الذين كفروا من قومه» وأن يكون بدلاً منه، وعلى هذين الوجهين يكون «كأنْ» حالاً[٩]. انتهى.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٢ من طريق الضحاك عنه. وأخرجه الطبري ١٠/ ٣٢٦ من طريق علي بن أبي طلحة عنه بلفظ: كأن لم يعيشوا فيها.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٢٣٣، والطبري ١٠/ ٣٢٦، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٣.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٢٤١، وزاد المسير ٣/ ٢٣٢، وهو قول ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة كما ذكرنا قريباً.

(٤) زاد المسير ٣/ ٢٣٢ عن ابن زيد ومقاتل، وأخرجه عنه ابن زيد الطبري ١٠/ ٣٢٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٨، وزاد المسير ٣/ ٢٣٣.

(٦) تفسير غريب القرآن ص١٧٠، والنكت والعيون ٢/ ٢٤١.

(٧) في الكشاف ٢/ ٩٧.

(٨) في الكشاف: هم المخصوصون، ومثله في الدر المصون ٥/ ٣٨٦، وهي أوضح من عبارة المصنف.

(٩) الإملاء ١/ ٢٨٠.

وهذه أوجهٌ متكلَّفةٌ، والظاهرُ أنها جملٌ مستقلةٌ لا تعلُّق لها بما قبلها من جهة الإعراب.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ هذا أيضاً مبتدأٌ وخبرٌ، وقال الزمخشري[(١)]: وفيه معنى الاختصاص، أي: هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه فإنهم هم الرابحون، وفي هذا الاستئناف للابتداء[(٢)] وهذا التكريرِ مبالغةٌ في ردِّ مقالة الملأ لأشياعهم، وتسفيةٌ لرأيهم، واستهزاءٌ بنُصْحِهم لقومهم، واستعظامٌ لمَا جرى عليهم. انتهى.

وهاتان الجملتان مُنْبِئتان عمَّا فَعَلَ الله بهم في مقالتهم؛ قالوا: «لنخرجنَّك يا شعيبُ»، فجاء الإخبار بإخراجهم بالهلاك، وأيُّ إخراجٍ أعظمُ من إخراجهم؟ وقالوا: «لئن اتبعتم شعيباً إنَّكم إذاً لخاسرون» فحَكَم تعالى عليهم هم بالخسران.

وأجاز أبو البقاء في إعراب «الذين» هنا أن يكون بدلاً من الضمير في «يغنوا»، أو منصوباً بإضمار أعني[(٣)]، والابتداء الذي ذكرناه أقوى وأجزلُ.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ تقدَّم تفسير نظيره في قصة صالح عليه السلام.

﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: فكيف أحزنُ على مَن لا يستحقُّ أن يُحزن عليه، ونبَّه على العلَّة التي لا تَبعثُ على الحزن وهي الكفر؛ إذ هو أعظمُ ما يعادَى به المؤمنُ؛ إذ هما نقيضان كما جاء: «لا تتراءى ناراهما»[(٤)].

وكأنه وجد في نفسه رقةً عليهم حيث كان أملُه فيهم أن يؤمنوا فلم يقدَّرْ، فسرَّى

(١) في الكشاف ٢/ ٩٧.
(٢) في (أ) و(د١) و(ع): لهذا الابتداء. وفي الكشاف: والابتداء، ومثله في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣/ ١٩٣ نقلاً عن الكشاف.
(٣) الإملاء ١/ ٢٨٠.
(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) من طريق قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ، وأخرجه الترمذي (١٦٠٥)، والنسائي ٨/ ٣٦ من طريق قيس عن النبي ﷺ مرسلاً، وهو أصح كما قال الترمذي إثره، ونقل ذلك في العلل ٢/ ٦٨٦ عن البخاري.

ذلك عن نفسه باستحضار سبب التسلِّي عنهم والقسوة عليهم، فذكَر أشنعَ ما ارتكبوه معه من الوصف الذي هو الكفرُ بالله الباعثُ على تكذيب الرسل، وعلى المناوأة الشديدة حتى لا يساكِنوه وتوعَّدوه بالإخراج وبأشدَّ منه وهو عَوْدُهم إلى ملتهم.

قال مكي: وسار شعيبٌ بمن تبعه إلى مكة فسكنوها(١).

وقرأ ابنُ وثَّاب وابنُ مصرِّفٍ والأعمش: «إيسى» بكسر الهمزة، وهي لغةٌ تقدَّم ذكرها في «الفاتحة»(٢).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ لمَّا ذكَر تعالى ما حلَّ بالأمم السالفة من بأسه وسطوته عليهم آخِرَ أمرهم حين لا تُجْدي فيهم موعظةٌ، ذكر تعالى أنَّ تلك عادتُه في أتباع الأنبياء إذا أصرُّوا على تكذيبهم.

وجاء بعد «إلا» فعلٌ ماضٍ وهو «أخذنا»، ولا يليها فعلٌ ماضٍ إلَّا إنْ تقدَّم فعلٌ أو أُصحب بـ«قد»، فمثالُ ما تقدَّمه فعلٌ هذه الآيةُ، ومثالُ ما أصحب «قد» قولُك: ما زيدٌ إلا قد قام.

والجملة من قوله: «أخذنا» حاليةٌ، أي: إلا آخِذِينَ أهلَها، وهو استثناءٌ مفرَّغٌ من الأحوال، وتقدَّم تفسيرُ نظيرِ قوله: «إلَّا أَخَذْنا» إلى آخره(٣).

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: مكان الحالةِ السيئةِ من البأساء والضرَّاء الحالَ الحسنةَ من السَّراء والنعمة.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة: مكان الشدَّة الرخاءَ(٤).

وقيل: مكانَ الشرِّ الخيرَ(٥).

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣١، ورُوي هذا عن وهب بن منبه كما في أخبار مكة للأزرقي ١/ ٧٣-٧٤، وتفسير القرطبي ٢/ ٤٠١، وفيه أنهم ماتوا هناك، وقبورهم في غربي الكعبة.
(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والقراءة هنا ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٥، وابن عطية في المحرر ٢/ ٤٣١.
(٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].
(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٤٢، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣٢٩-٣٣٠ عن ابن عباس وقتادة.
(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٢٩ عن مجاهد.

و«مكان» و«الحسنة» مفعولا «بَدَّلَ»، و«مكان» هو محلُّ الباء، أي: بمكان السيئة، وفي لفظ «مكان» إشعارٌ بتمكُّن البأساء منهم، كأنه صار للشدة عندهم مكانٌ. وأعرب بعضُهم «مكانَ» ظرفاً، أي: في مكان.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كَثُروا وتناسلوا، وقال مجاهد: كَثُرتْ أموالُهم وأولادُهم.

وقال ابن بحر: حتى أعرضوا، من: عفا عن ذنبه، أي: أعْرَضَ عنه.

وقال الحسن: سَمِنوا.

وقال قتادة: سُرُّوا بكثرتهم[(١)].

وذلك استدراجٌ منه لهم؛ لأنه أخذهم بالشدة ليتَّعظوا ويزدَجِروا فلم يفعلوا، ثم أخذهم بالرخاء ليشكروا.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا ٱلضَّرَّاءُ وَٱلسَّرَّاءُ﴾ أبطرتْهم النعمةُ وأَشِرُوا، فقالوا: هذه عادةُ الدهر: ضرَّاء وسرَّاء، وقد أصاب آباءَنا مثلُ ذلك، وليس ذلك بابتلاءٍ وقصدٍ بل ذلك بالاتِّفاق، لا على ما تُخْبِرُ الأنبياء، جعلوا أسلافَهم وما أصابهم مَثَلاً لهم ولِمَا يصيبهم، فلا ينبغي أن ننكِرَ هذه العادة من أفعال الدهر.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ تقدم الكلام على مثل هذه[(٢)]، لمَّا فَسَدوا على التقديرين[(٣)] أُخذوا هذا الأخذ.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: لو كانوا ممن سَبَقَ في علم الله أن يتلبَّسوا بالإيمان بما جاءت به الأنبياءُ وبالطاعات التي هي ثمرةُ الإيمان لتيسَّر لهم من بركات السماء، ولكن كانوا ممَّن سَبَقَ في علمه أنهم يكذِّبون الأنبياءَ فيؤخَذون باجترامهم،

---

(١) ينظر تفسيرالطبري ١٠/ ٣٣٠-٣٣١، والنكت والعيون ٢/ ٢٤٢، وقول قتادة فيهما: حتى سروا، ليس فيه كلمة: بكثرتهم، لكن ذكر الطبري أنه لا يُعرف العفو بمعنى السرور في كلام العرب، إلا أن يكون (يعني قتادة) أراد: حتى سروا بكثرتهم وكثرة أموالهم، فيكون وجهاً وإن بَعُدَ.

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

(٣) التقدير الأول: أخذهم بالبأساء والضراء، والثاني: تبديل الحسنة بمكان السيئة.

وكلٌّ من الإيمان والتكذيب والثوابِ والعقابِ سبق به القَدَرُ، وأضيف الإيمانُ والتكذيب إلى العبد كسباً، والموجِدُ لهما هو الله تعالى لا يُسْأَلُ عمَّا يَفعل.

وقال الزمخشري: اللام في «القرى» إشارةٌ إلى القرى التي دلَّ عليها قولُه تعالى: «وما أرسلنا في قرية من نبيٍّ»، كأنه قال: «ولو أنَّ أهلَ» تلك «القرى» الذين كذَّبوا وأُهلكوا «آمَنوا» بَدَلَ كفرهم، «واتقوا» المعاصيَ مكانَ ارتكابها، «لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض» لآتيناهم بالخير من كلِّ وجهٍ، وقيل: أرادَ المطرَ والنبات، «ولكن كذَّبوا فأخذناهم» بسوء كَسْبهم، ويجوزُ أن تكون اللام في «القرى» للجنس[(١)]. انتهى.

وفي قوله: واتَّقَوا المعاصيَ، نزغةُ الاعتزال.

رتَّبَ تعالى على الإيمان والتقوى فتحَ البركات، ورتَّب على التكذيب وحده ـ وهو المقابِلُ للإيمان ـ الهلاكَ، ولم يذكر مقابِلَ التقوى لأن التكذيب لا ينفع معه الخيرُ، بخلاف الإيمان فإنه ينفع وإن لم يكن معه فعلُ الطاعات.

والظاهر أنَّ قوله: «بركات من السماء والأرض» لا يرادُ بها معيَّنٌ، ولذلك جاءت نكرةً.

وقيل: بركاتُ السماء المطر، وبركاتُ الأرض الثمار.

وقال السدِّي: المعنى: لفتحنا عليهم أبوابَ السماء والأرض بالرزق[(٢)].

وقيل: بركات السماء إجابةُ الدعاء، وبركات الأرض تيسيرُ الحاجات.

وقيل: بركاتُ السماء المطر، وبركات الأرض المواشي والأنعام، وحصولُ السلامة والأمن.

وقيل: البركات النموُّ والزياداتُ، فمن السماء بجهة المطر والريح والشمس، ومن الأرض بجهة النبات والحفظِ لمَا نَبَتَ ـ هذا الذي تدركُه فِطَرُ البشر[(٣)]، ولِله

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٨.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٤٣ مختصراً بلفظ: لرزقنا.

(٣) كذا في النسخ، وجاء في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٢ (وعنه نقل المصنف هذا القول): هذا الذي يدركه نظر البشر.

خدَّامٌ غيرُ ذلك لا يُحْصَى عددُهم، وما عَلِم الله أكثر ـ وذلك أنَّ السماء تجري مجرى الأب والأرضَ مجرى الأم، ومنهما تحصلُ جميعُ الخيرات بخَلْقِ الله وتدبيره.

والأخذُ أخذُ إهلاكٍ بالذنوب.

وقرأ ابن عامر وعيسى الثقفي وأبو عبد الرحمن: «لفتَّحنا» بتشديد التاء[1].

ومعنى الفتحِ هنا: التيسيرُ عليهم كما يُيَسَّرُ على الأبواب[2] المستغلقة بفتحها، ومنه: فتحتُ على القارئ، إذا يسَّرْتَ عليه بتلقينك إياه ما تعذَّر عليه حفظُه من القرآن إذا أراد القراءة.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ الهمزةُ دخلت على «أمِن» للاستفهام على جهةِ التوقيف والتوبيخ والإنكار والوعيد للكافرين المعاصرين للرسول ﷺ أن يَنْزِلَ بهم مِثْلُ ما نزلَ بأولئك، والفاءُ لعطف هذه الجملة على ما قبلها.

قال الزمخشري: فإن قلتَ ما المعطوفُ عليه، ولم عُطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوفُ عليه قولُه: «فأخذناهم بغتةً»، وقولُه: «ولو أن أهل القرى» إلى «يكسبون» وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عُطفت بالفاء لأنَّ المعنى: فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة، أَبَعْدَ ذلك أَمِنَ أهلُ القرى أن يأتيهم بأسُنا بياتاً وأمنوا أن يأتيهم بأسُنا ضحًى[3]. انتهى.

وهذا الذي ذكره الزمخشريُّ ـ من أنَّ حرفَ العطف الذي بعد همزة الاستفهام هو عاطفٌ ما بعدها على ما قبل الهمزة من الجمل ـ رجوعٌ إلى مذهب الجماعة في ذلك، وتخريجٌ لهذه الآية على خلاف ما قرَّر هو من مذهبه في غيرِ آيةٍ أنه يقدِّر محذوفٌ بين الهمزة وحرفِ العطف يصحُّ بتقديره عَطْفُ ما بعد الحرف عليه، وأنَّ

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٢، وقراءة ابن عامر في السبعة ص٢٨٦، والتيسير ص١٠٣.
(٢) كذا في النسخ، وجاء في الكشاف ٢/ ٩٨ (والكلام منه): كما يُيسَّر أمر الأبواب، وهو الأشبه.
(٣) الكشاف ٢/ ٨٩.

الهمزة وحرفَ العطف واقعان في موضعهما من غيرِ اعتبارِ تقديم حرفِ العطفِ على الهمزة في التقدير، وأنه قدِّم الاستفهامُ اعتناءً لأنه له صدرُ الكلام، وقد تقدَّم كلامُنا معه على هذه المسألة(١).

و«بأسنا»: عذابُنا، و«بياتاً»: ليلاً، وتقدَّم تفسيرُه أولَ السورة(٢)، ونَصْبُه على الظرف، أي: وقتَ مَبيتهم، أو الحال، وذلك وقتُ الغفلة والنوم، فمجيءُ العذاب في ذلك الوقت ـ وهو وقتُ الراحة والاجتماع ـ في غاية الصعوبة؛ إذ أتى وقتَ المأمن.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨﴾ أي: في حال الغفلةِ والإعراضِ والاشتغالِ بما لايُجْدي كأنهم يلعبون، و«ضحًى» منصوبٌ على الظرف، أي: ضحوةً، وتَقَيَّدَ كلُّ ظرفٍ بما يناسبه من الحال، فتَقَيَّدَ البياتُ بالنوم وتقيدت الضُّحى باللَّعب.

وجاء «نائمون» باسم الفاعل لأنها حالةُ ثبوتٍ واستقرارٍ للبائتين، وجاء «يلعبون» بالمضارع لأنهم مشتغلون بأفعالٍ متجدِّدةٍ شيئاً فشيئاً في ذلك الوقت.

وقرأ نافع والابنان: «أَوْ أَمِنَ» بسكون الواو(٣)، جَعَل «أو» عاطفةً ومعناها التنويع، لا أن معناها الإباحةُ أو التخييرُ خلافاً لمن ذهب إلى ذلك. وحَذَفَ ورشٌ همزة «أَمِنَ» ونَقَل حركتَها إلى الواو الساكنة، والباقون بهمزة الاستفهام بعدها واوُ العطف(٤).

وتكرر لفظُ «أهل القرى» لمَا في ذلك من التسميع والإبلاغ والتهديد والوعيد بالسامع ما لا يكون في الضمير لو جاء: أو أمنوا، فإنه متى قُصد التفخيمُ والتعظيمُ والتهويلُ جيء بالاسم الظاهر.

---

(١) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ [الأعراف: ٦٣].

(٢) عند قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ [الآية: ٤].

(٣) السبعة ص٢٨٦، والتيسير ص١١١.

(٤) المصدران السابقان.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ جاء العطفُ بالفاء وإسناد الفعل إلى الضمير؛ لأن الجملةَ المعطوفة تكريرٌ لقوله: «أفأَمِنَ أهلُ القرى» «أو أمِنَ» وتأكيدٌ لمضمون ذلك، فناسَبَ إعادة الجملة مصحوبةً بالفاء، و«مكر» مصدرٌ أُضيف إلى الفاعل، وهو استعارةٌ لأَخْذِه العبدَ من حيث لا يَشْعُر.

قال ابن عطية: و«مكر الله» هي إضافةُ مخلوقٍ إلى الخالق، كما تقول: ناقة الله، و: بيت الله، والمرادُ فعلٌ يعاقَبُ به مَكْرُ الكفرة، وأُضيف إلى «الله» لمَّا كان عقوبةَ الذنب، فإنَّ العرب تسمِّي العقوبة على أيِّ جهةٍ كانت باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبةُ، وهذا نصٌّ في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤][(١)]. انتهى.

وقال عطيةُ العَوْفي: «مكر الله» عذابُه وجزاؤه على مكرهم[(٢)].

وقيل: مكرُه: استدراجُه بالنعمة والصحة، وأَخْذُه على غرَّةٍ[(٣)].

وكرَّر المكرُ مضافاً إلى الله تحقيقاً لوقوع جزاء المكر بهم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد: «يهد»: يُبيِّن[(٤)]، وهذا كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: بينَّا لهم طريقَ الهدى، والفاعلُ بـ«يَهْدِ» يحتملُ وجوهاً:

أحدهما: أن يعود على الله، ويؤيِّده قراءةُ مَن قرأ: «نهد» بالنون[(٥)].

والثاني: أن يكون ضميراً عائداً على مايُفهم من سياق الكلام السابق، أي: أو لم يَهْدِ ما جرى للأمم السالفة أهلِ القرى وغيرهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٣.
(٢) ذكره الثعلبي ٣/ ٥٣، والبغوي ٢/ ١٨٤ بلفظ: أَخْذُه وعذابُه، وذكره بلفظ المصنف لكن دون نسبة القرطبي ٩/ ٢٩٠.
(٣) في النسخ عدا (د١): غرته، والمثبت من (د١) والمطبوع.
(٤) أخرجه عنهم الطبري ١٠/ ٣٣٥.
(٥) تفسير الثعلبي ٣/ ٥٤، والكشاف ٢/ ٩٩، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٤.

وعلى هذين الوجهين يكون «أنْ لو نشاء» وما بعده في موضع المفعول بـ«يَهْدِ»، أي: أو لم يبيِّن الله ـ أو ما سبق من قصص القرى ومآلِ أمرهم- للوارثين إصابتَنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك، أي: عِلْمَهم بإصابتنا ـ أو قدرتَنا على إصابتنا ـ إياهم، والمعنى: إنكم مذنبون كهم، وقد علمتُم ما حلَّ بهم، أفما تَحْذَرون أن يحلَّ بكم ما حلَّ بهم، فذلك ليس بممتنعٍ علينا لو شئنا.

والوجه الثالث: أن يكون الفاعلُ بـ«يهد» قولَه: «أنْ لو نشاء» فيَنْسَبِكُ المصدرُ من جواب «لو»، والتقدير: أو لم يُبيِّنْ ويُوضِّح للوارثين مآلَهم وعاقبتَهم إصابتُنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك، أي: عِلْمُهم بإصابتنا ـ أو قدرتُنا على إصابتنا ـ إياهم، على التقديرين[1] إذا كانت «أنْ» مفعولةً.

و«أنْ» هنا هي المخفَّفةُ من الثقيلة؛ لأنَّ الهداية فيها معنى العلم، واسمُها ضميرُ الشأن محذوفٌ، والخبرُ الجملةُ المصدَّرة بـ«لو»، و«نشاء» في معنى: شئنا؛ لأنَّ «لو» التي هي لمَا كان سيقع لوقوع غيره إذا جاء بعدها المضارعُ صَرَفَتْ معناه إلى المُضيِّ، ومفعولُ «نشاء» محذوفٌ دلَّ عليه جوابُ «لو»، والجوابُ: «أصبناهم»، ولم يأت باللام وإن كان الفعلُ مُثْبَتاً إذ حذفُها جائزٌ فيصح، كقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، والأكثر الإتيانُ باللام كقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَهُ حُطَمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

و«الذين يرثون الأرض»، أي: يَخْلُفون فيها من بعد هلاك أهلها، وظاهرُه التسميعُ لمن كان في عصر الرسول ﷺ من مشركي قريشٍ وغيرهم، وقال ابن عباس: يريد أهلَ مكة.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾ الظاهرُ أنها جملةٌ مستأنفةٌ، أي: ونحن نطبعُ على قلوبهم، والمعنى: أنَّ مَن أَوضح الله له سُبُلَ الهدى، وذكَر له أمثالاً ممَّن أهلكه تعالى بذنوبهم، وهو مع ذلك دائمٌ على غيِّه لا يَرْعَوي، يَطْبعُ الله على قلبه فينبو سمعُه عن سماع الحق.

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: والمعنى على التقديرين، وهو خطأ.

وقال ابن الأنباري[١]: يجوز أن يكون معطوفاً على «أصبنا» إذ كان بمعنى: نُصيب، فوُضع الماضي موضعَ المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال، كما قال تعالى تبارك: ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠] أي: إنْ يشأ، يدلُّ عليه قولُه: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠] انتهى. فجَعَلَ «لو» شرطيةً بمعنى «إنْ»، ولم يجعلها التي هي لِمَا كان سيقعُ لوقوع غيره، ولذلك جَعَل «أصبنا» بمعنى: نصيب، ومثالُ وقوع «لو» موقعَ «إنْ» قولُ الشاعر:

لا يُلْفِكَ الراجيكَ إلا مُظْهِراً خُلُقَ الكرام ولو تكونُ عديما[٢]

وهذا الذي قاله ابن الأنباري ردَّه الزمخشريُّ من جهة المعنى، لكن بتقدير أن يكون «ونطبعُ» بمعنى: وطَبَعْنا، فيكون قد عطف المضارع على الماضي لكونه بمعنى الماضي، وابنُ الأنباري جَعَل التأويل في «أصبنا» الذي هو جوابُ «لو نشاء»، فجَعَلَه بمعنى: نُصِيبُ، فتأوَّلَ المعطوفَ عليه وهو الجواب وردَّه إلى المستقبل، والزمخشريُّ تأوَّل المعطوفَ وردَّه إلى المضيِّ، وأنتج ردُّ الزمخشريِّ أنَّ كِلَا التقديرين لا يصحُّ، قال الزمخشريُّ[٣]: فإن قلت: هل يجوزُ أن يكون «ونطبع» بمعنى: وطبعنا، كما كان «لو نشاء» بمعنى: لو شئنا، ويُعطف على «أصبناهم»؟ قلتُ: لا يساعدُ على[٤] المعنى؛ لأنَّ القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم، موصوفين بصفةِ مَن قبلهم من اقترافِ الذنوب والإصابةِ بها، وهذا التفسير يؤدِّي إلى خلوِّهم عن هذه الصفة، وأنَّ الله تعالى لو شاء لاتَّصفوا بها. انتهى.

وهذا الردُّ ظاهرُه الصحةُ، وملخَّصُه: أنَّ المعطوف على الجواب جوابٌ سواءٌ أتأوَّلْنا المعطوفَ عليه أم المعطوف، وجواب «لو» لم يقع بعدُ سواءٌ أكانت حرفاً لمَا كان سيقعُ لوقوعِ غيره، أم بمعنى «إنْ» الشرطية، والإصابةُ لم تقع والطبعُ على القلوب واقعٌ، فلا يصحُّ أن يُعْطَفَ على الجواب، فإن تُؤُوِّلَ ونطبعُ على معنى: ونستمرُّ على الطبع على قلوبهم، أَمْكَنَ التعاطُفُ؛ لأنَّ الاستمرار لم يقع بعدُ وإن كان الطبعُ قد وقع.

---

(١) كما في زاد المسير ٣/ ٢٣٥.

(٢) سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

(٣) في الكشاف ٢/ ٩٩.

(٤) كذا في النسخ، وفي المطبوع: هذا، وجاء في الكشاف: عليه، وهو الأنسب بالسياق.

وقال أبو عبد الله الرازي: تقريرُ صاحب الكشاف على أقوى الوجوه، هو ضعيفٌ؛ لأنَّ كونه مطبوعاً عليه في الكفر لم يكن منافياً لصحة العطف[١].

وكان قد قرَّر أن المعنى: أو لم نُبيِّن للذين نبقيهم[٢] في الأرض بعد إهلاكنا مَن كان قبلهم فيها أن نهلكهم بعدهم، وهو معنى قوله: «أن لو نشاء أصبناهم»، أي: بعقابِ ذنوبهم «ونطبع على قلوبهم»، أي: لم نُهلكهم بالعذاب نطبعُ على قلوبهم، «فهم لا يسمعون»، أي: لا يقبلون ولا يتَّعظون ولا ينزجرون، وإنما قلنا: إنَّ المراد: إمَّا الإهلاك وإمَّا الطبع على القلب؛ لأن الإهلاك لا يجتمع مع الطبع على القلب، فإنه إذا أهلكه يستحيلُ أن يطبع على قلبه. انتهى.

والعطفُ في «ونطبع» بالواو يمنع ما ذكره؛ لأنَّه جَعَلَ المعنى على أنه إمَّا الإهلاكُ وإمَّا الطبعُ، وظاهرُ العطف بالواو ينبو عن الدلالة على هذا المعنى، فإن جَعَلْتَ الواو بمعنى «أو» أَمْكَنَ ذلك، وكذلك ينبو عن قوله: إن لم نهلكهم بالعذاب نطبع على قلوبهم، العطفُ بالواو.

وأورد أبو عبد الله الرازي من أقوال المفسِّرين ما يدلُّ على أنَّ كونه مطبوعاً عليه في الكفر لا ينافي صحةَ العطف، فقال: قال أبو علي - ويعني به والله أعلم الجبَّائيَّ -: الطبعُ سمةٌ في القلب من نكتةٍ سوداء أنَّ صاحبها لا يُفْلِحُ. وقال الأصم: أي: يلزمُهم ما هم عليه، فلا يتوبون إلا عند المعاينة، فلا تُقبل توبتهم. وقال أبو مسلم: الطبع الخذلان، أنه يَخْذلُ الكافر فيرى الآيةَ ولا يؤمنُ بها، ويختارُ ما اعتاد وأَلِفَ[٣].

وهذه الأقوالُ لا يمكن معها العطفُ إلا على تأويلِ أن تكون الواو بمعنى «أو».

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ١٨٧، وفيه: . . . لأن كونه مطبوعاً عليه إنما يحصل حال استمراره وثباته عليه، فهو يكفر أولاً، ثم يصير مطبوعاً عليه في الكفر، فلم يكن هذا منافياً. . .

(٢) في مطبوع تفسير الرازي: نبعثهم.

(٣) لم ترد هذه الأقوال في تفسير الرازي، ولكنه ذكر عن الجبائي قوله: المراد من هذا الطبع أنه تعالى يسمُ قلوب الكفار بسِماتٍ وعلامات تعرف الملائكة بها أن أصحابها لا يؤمنون، وتلك العلامة غير مانعة من الإيمان.

وأجاز الزمخشريُّ في عطف «ونطبعُ» وجهين آخَرين: أحدُهما ضعيفٌ والآخَرُ خطأ؛ قال الزمخشري: فإن قلتَ: بمَ يتعلَّق قوله تعالى: «ونطبع على قلوبهم»؟ قلتُ: فيه أوجُهٌ: أن يكون معطوفاً على ما دلَّ عليه معنى «أو لم يَهْدِ لهم»، كأنه قيل: يغفلون عن الهداية ونطبعُ على قلوبهم، أو على «يرثون الأرض»[1]. انتهى.

فقوله: إنه معطوفٌ على مقدَّرٍ، وهو: يغفلون عن الهداية، ضعيفٌ؛ لأنه إضمارٌ لا يُحتاج إليه؛ إذ قد صحَّ أن يكون على الاستئناف من باب العطف في الجمل، فهو معطوفٌ على مجموع الجملة المصدَّرة بأداة الاستفهام، وقد قاله الزمخشريُّ وغيرُه.

وقوله: إنه معطوفٌ على «يرثون» خطأ؛ لأنه إذا كان معطوفاً على «يرثون» كان صلةً لـ«الذين»؛ لأنَّ المعطوف على الصلة صلةٌ، ويكونُ قد فُصِل بين أبعاض الصلة بأجنبيٍّ من الصلة، وهو قولُه: «أنْ لو نَشاءُ أَصَبْناهُم بذنوبهم» سواءٌ أقدَّرنا «أنْ لو نشاء» في موضع الفاعل لـ«يَهْدِ» أو في موضع المفعول، فهو معمولٌ لـ«يهد» لا تعلُّقَ له بشيءٍ من صلة «الذين»، وهو لا يجوز.

ومعنى قوله: «أصبناهم بذنوبهم»: بعقابِ ذنوبهم، أو يُضمَّن «أصبناهم» معنى: أهلكناهم، فهو من مَجازِ الإضمار أو التضمين.

ونُفي السماعُ والمعنى نفيُ القبول والاتِّعاظِ المترتِّبِ على وجود السماع، جُعِلَ انتفاءُ فائدته انتفاءً له.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ، و«القرى» هي بلادُ قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ بلا خلافٍ بين المفسرين، وجاءت الإشارة بـ«تلك» إشارةً إلى بُعْدِ هلاكها وتقادُمِه، وحَصَلَ الربطُ بين هذه وبين قوله: «ولو أنَّ أهل القرى».

و«نقصُّ» يُحْتَملُ بُقيُّه[2] على حاله من الاستقبال، والمعنى: قد قَصَصْنا عليك من أنبائها ونحن نقصُّ عليك أيضاً منها مفرَّقاً في السُّور، ويجوز أن يكون عبَّر بالمضارع عن الماضي، أي: تلك القرى قَصَصْنا.

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٩.

(٢) في المطبوع: إبقاؤه.

والأنباءُ هنا: أخبارُهم مع أنبيائهم ومآلُ عصيانهم.

و«تلك» مبتدأٌ، و«القرى» خبرٌ، و«نقصُّ» جملةٌ حاليةٌ نحو قوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢]، وفي الإخبار بـ«القرى» معنى التعظيم لها ولِمَهْلِكِها[١]، كما قيل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وفي قوله ﷺ: «أولئك الملأُ من قريش»[٢]، وكقول أمية:

تلك المكارمُ لا قَعْبانِ من لبنٍ[٣]

ولمَّا كان الخبرُ مقيَّداً بالحال أفاد، كالتقييد بالصفة في قولك: هو الرجلُ الكريم.

وأجازوا أن يكون «نقصُّ» خبراً بعد خبرٍ، وأن يكون خبراً و«القرى» صفةً.

ومعنى «مِن» التبعيضُ، فدلَّ على أنَّ لها أنباءً أُخَرَ لم تُقصَّ عليه، وإنما قُصَّ ما فيه عِظَةٌ وازدجارٌ وادِّكارٌ بما جرى على مَن خالف الرسل ليتَّعظ بذلك السامعُ من هذه الأمة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قال أبي بن كعب: «ليؤمنوا» اليومَ «بما كذَّبوا» به «من قبلُ» يومَ الميثاق[٤].

وقال ابن عباس: ما كانوا ليخالفوا عِلْمَ الله فيهم[٥].

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: معنى التعظيم لمهلكها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٤ والكلام منه.

(٢) قطعة من خبرٍ قُفول النبي ﷺ من بدر، رواه ابن إسحاق عن عاصم بن عمر ويزيد بن رومان كما في سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٣-٦٤٤، وأخرجه البيهقي في الدلائل عن موسى بن عقبة في كتاب المغازي، وفيه أن المسلمين لما جاؤوا يهنئون النبي ﷺ بالنصر قال سلمة بن سلامة: ما قتلنا إلا عجائز صُلعاً! فقال النبي ﷺ: «أولئك يا ابن أخي الملأ».

(٣) ديوان أمية ص١٧٩، وورد أيضاً في ديوان النابغة الجعدي ص١١٢، ونُسب لأبي الصلت بن ربيعة الثقفي والد أمية في سيرة ابن هشام ١/ ٦٥، والشعر والشعراء ١/ ٤٦٢. وعجزه: شِيبًا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا. القَعْب: قدح بمقدار ما يروي الرجل. شيب: خلط.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٣٣٧، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٣٠، والحاكم ٢/ ٣٢٤، والضياء في المختارة (١١٥٩)، ولفظه: كان في علمه يوم أقروا بما أقروا به مَن يكذِّب به ومن يصدِّق به.

(٥) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٥٤، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٤، وزاد =

وقال يمان بن رئاب: «بما كذَّبوا»، أي: أسلافُهم من الأمم الخالية، كقوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢][1]. فالفعل في «ليؤمنوا» لقومٍ، وفي «بما كذبوا» لقومٍ آخرين.

وقيل: جاءتهم رسلُهم بالمعجزات التي اقترحوها فما كانوا ليؤمنوا بعد المعجزات بما كذَّبوا به قبلها، كما قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠٢].

وقال الكرمانيُّ: «من قبلُ» يعود على الرسل، تقديره: من قبل مجيء الرسل لم يُسلب عنهم اسمُ الكفر والتكذيب، بل بَقُوا كافرين مكذِّبين كما كانوا من قبل الرسل.

وقال الزمخشري: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بالبينات بما كذَّبوه من آيات الله قبل مجيء الرسل، أو: فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذَّبوا به أولاً حين جاءتهم الرسلُ، أي: استمرُّوا على التكذيب مِن لَدُنْ مجيءِ الرسل إليهم إلى أنْ ماتوا مُصِرِّين لا يَرْعَوُون ولا تَلينُ شكيمتُهم في كفرهم وعنادهم مع تكرُّرِ المواعظ عليهم وتتابُعِ الآيات[2].

وقال ابن عطية: يحتمل أربعةَ وجوهٍ من التأويل:

أحدها: أنْ يريدَ أنَّ الرسول جاء لكلِّ فريقٍ منهم فكذَّبوه لأول أَمْرِه، ثم استبانت حجَّتُه وظهرت الآياتُ الدالةُ على صدقه مع استمرارِ دعوته، فلجُّوا هم في كفرهم ولم يؤمنوا بما سبق به تكذيبُهم من قبلُ، وكأنه وصفهم على هذا التأويل باللَّجاج في الكفر والصرامةِ عليه، ويؤيِّدُ هذا التأويلَ قولُه: «كذلك يطبعُ الله على قلوب الكافرين»، ويحتملُ في هذا الوجه أن يكون المعنى: فما كانوا ليوفِّقَهم الله إلى الإيمان بسببِ أنهم كذَّبوا قبلُ فكان تكذيبُهم سبباً لأنْ يُمنعوا الإيمانَ بعدُ.

= المسير ٣/ ٢٣٦، فقد ذكروا عن ابن عباس ﷺ ما قد يوافق هذا المعنى، ولفظه: فما كانوا ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذَّبوا به يومَ أَخَذ ميثاقهم حين أخرجهم من صلب آدم فآمنوا كُرهاً حيث أقروا بالألسُنِ وأضمروا التكذيب.

(١) ذكره بنحوه الثعلبي ٣/ ٥٤، والبغوي ٢/ ١٨٤، وابن الجوزي ٣/ ٢٣٦.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٠.

والثاني من الوجوه: أن يريد: فما كان آخِرُهم في الزمن والعصر ليهتديَ ويؤمنَ بما كذَّب به أوَّلُهم في الزمن والعصر، بل كَفَرَ كلُّهم ومشى بعضُهم على سَنَنِ بعضٍ في الكفر، أشار إلى هذا القولِ النقَّاش، فكأنَّ الضميرَ في قوله: «كانوا» يختصُّ بالآخِرين، والضميرَ في قوله: «كذَّبوا» يختصُّ بالقدماء منهم

والثالث من الوجوه: يحتمل أن يريد: فما كان هؤلاء المذكورون بأجمعهم لو رُدُّوا إلى الدنيا ومُكِّنوا من العودة ليؤمنوا بما قد كذَّبوا به في حال حياتهم ودُعاءِ الرسول لهم؛ قاله مجاهدٌ وقرَّبه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨][(١)] وهذه أيضاً صفةٌ بليغةٌ في اللَّجاج والثبوتِ على الكفر، بل هي غايةٌ في ذلك.

والرابع من الوجوه: أنه يحتمل أن يريد وَصْفَهم بأنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما قد سَبَقَ في عِلْمِ الله تعالى أنهم مكذِّبون به، فحمل[(٢)] سابق القدر عليهم بمثابة تكذيبهم بأنفسهم، لا سيما وقد خرج تكذيبُهم إلى الوجود في وقتِ مجيءِ الرسل، وذكر هذا القولَ المفسرون، وقرَّبوه[(٣)] بأنَّ الله تعالى حَتَم عليهم التكذيبَ وقتَ أخذ الميثاق، وهو قولُ أبيِّ بنِ كعبٍ[(٤)]. انتهى كلام ابن عطية.

والذي يَظهر أنَّ الضمير في «كانوا» وفي «ليؤمنوا» هو عائدٌ على «أهل القرى»، وأنَّ الباء في «بما» ليست سببيةً، فالمعنى أنهم انتفتْ عنهم قابليةُ الإيمان وقتَ مجيء الرسل بالمعجزات بما كذَّبوا به قبل مجيء الرسل بالمعجزات، بل حالُهم واحدٌ قبل ظهورِ المعجزات وبعد ظهورها، لم تُجْدِ عندهم شيئاً.

وفي الإتيان بلام الجحود في «ليؤمنوا» مبالغةٌ في نفي القابليةِ والوقوعِ، وهو أبلغُ من تسلُّط النفي على الفعل بغير لامٍ.

و«ما» في «بما كذَّبوا» موصولةٌ، والعائدُ منصوبٌ محذوفٌ، أي: بما كذَّبوه، وجوِّز أن تكون مصدريةً.

(١) أخرجه الطبري ١٠/٣٣٨ مختصراً بذكر التشبيه بين الآيتين.
(٢) في مطبوع المحرر: فجعل، وهو الأنسب بالسياق.
(٣) في مطبوع المحرر: وقرنوه.
(٤) المحرر الوجيز ٢/٤٣٤، وخبر أبي سلف قريباً.

قال الكرماني: وجاء هنا «بما كذَّبوا»، فحُذِفَ متعلقُ التكذيب لمَّا حُذف المتعلق في «ولو أنَّ أهل القرى آمنوا» وقوله: «ولكن كذَّبوا»، وفي «يونس» أبرزه فقال: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ [الآية: ٧٤] لـمَّا كان قد أُبرز في ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ [يونس: ٧٣] ثم: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [يونس: ٧٣]، فوافَقَ الختمُ في كلٍّ منهما بما يناسبُ ما قبله[١]. انتهى ملخَّصاً.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: مِثْلَ ذلك الطبعِ على قلوب أهلِ القرى حين انتفَتْ عنهم قابليةُ الإيمان وتَساوَى أمرُهم في الكفر قبل المعجزات وبعدها يَطْبَعُ الله على قلوب الكافرين ممن أتى بعدهم.

قال الكرماني: تقدَّم ذكرُ الله بالصَّريح وبالكناية، فجمع بينهما فقال: «ونطبعُ على قلوبهم»، وختم بالصَّريح فقال: «كذلك يطبعُ الله»، وفي «يونس» بنى على ما قبله بنون العظمة في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ [يونس: ٧٣] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ [يونس: ٧٤] فناسَبَ ﴿نَطْبَعُ﴾ [يونس: ٧٤] بالنون[٢].

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: لأكثر الناس، أو أهلِ القرى، أو الأممِ الماضية، احتمالاتٌ ثلاثةٌ؛ قاله التبريزي.

والعهد هنا: هو الذي عُوهِدوا عليه في صُلْبِ آدم، قاله أبيٌّ وابنُ عباس[٣]، أو: الإيمان؛ قاله ابن مسعود، ويدلُّ عليه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧] وهو: «لا إله إلا الله»[٤]، فالمعنى: من إيفاءٍ بعهدٍ أو التزامِ عهدٍ.

وقيل: العهدُ هو وضعُ الأدلة على صحة التوحيد والنبوة؛ إذ ذلك عهدٌ في رقاب العقلاء كالعقود، فعبَّر عن صرف عقولِهم إلى النظر في ذلك بانتفاء وجدان العهد.

و«مِن» في «من عهد» زائدةٌ تدلُّ على الاستغراقِ لجنسِ العهد.

---

(١) أسرار التكرار في القرآن ص٨٧.
(٢) أسرار التكرار في القرآن ص٨٨.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٣٤٠ عن أبيّ، وزاد المسير ٣/ ٢٣٦ وتفسير الرازي ١٤/ ١٨٨ عن ابن عباس.
(٤) تفسير الرازي ١٤/ ١٨٨.

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ «إنْ» هنا هي المخفَّفةُ من الثقيلة، ووجد بمعنى عَلِمَ، ومفعولُ «وجدنا» الأولى: «لأكثرهم»، ومفعولُ الثانية: «لفاسقين»، واللام للفرق بين «إنْ» المخفَّفةِ من الثقيلة و«إنْ» النافية، وتقدم الكلام على ذلك في قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ [البقرة: ١٤٣] ودعوى بعضِ الكوفيين أنَّ «إنْ» في نحو هذا التركيب هي النافيةُ واللامُ بمعنى «إلا»[(١)].

وقال الزمخشريُّ: وإن الشأن والحديث وجدنا[(٢)]. انتهى.

ولا يُحتاج إلى هذا التقدير، وكان الزمخشريُّ يزعم أنَّ «إنْ» إذا خُففت كان محذوفاً منها الاسمُ ـ وهو الشأنُ والحديثُ ـ إبقاءً لها على الاختصاص بالدخول على الأسماء، وقد تقدم لنا تقديرُ نظيرِ ذلك ورددْنا عليه[(٣)].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ لمَّا قصَّ الله تعالى على نبيِّه أخبارَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ، وما آل إليه أمرُ قومهم، وكان هؤلاء لم يبقَ منهم أحدٌ، أَتْبَعَ بقصص موسى وفرعون وبني إسرائيل؛ إذ كانت معجزاتُه من أعظم المعجزات، وأمتُه من أكثر الأمم تكذيباً وتعنُّتاً واقتراحاً وجهلاً، وكان قد بقي من أتباعه عالَمٌ وهم اليهود، فقصَّ الله علينا قصصهم لنعتبرَ ونتَّعظَ ونَنْزَجِرَ عن أن نتشبَّه بهم.

ومناسَبةُ هذه الآية لِمَا قبلها: أنَّ بين موسى وشعيبٍ ﷺ مصاهَرة كما حكى الله في كتابه[(٤)]، ونَسَبٌ لكونهما من نسل إبراهيم، ولمَّا استفتح قصة نوح بـ«أرسلنا» بنونِ العظمة أَتْبَعَ ذلك قصةَ موسى فقال: «ثم بعثنا».

---

(١) ينظر ما سلف عند تفسير الآية المذكورة من سورة البقرة، وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٠. قال السمين في الدر المصون ٥/ ٣٩٩: ظاهر هذه العبارة أنها مُعْمَلةٌ، وأن اسمها ضمير الأمر والشأن.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٦٤) من سورة آل عمران.

(٤) يشير إلى ما ورد من قصة موسى ﷺ في سورة القصص، لكن ليس ثَمَّ إجماعٌ من المفسرين على أن المذكور في القصة هناك هو شعيب ﷺ، وينظر ما سيرد عند تفسير الآية (٢٥) من سورة القصص.

والضميرُ في «مِن بعدهم» عائدٌ على الرسل من قوله: «ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات»، أو الأمم السابقة. والآياتُ: الحُججُ التي آتاه الله على قومه، أو الآياتُ التسعُ، أو التوراةُ، أقوالٌ.

وتعديةُ «فظلموا» بالباء إمَّا على سبيل التضمين بمعنى: كفروا بها، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان:١٣] وإما أنْ تكون الباءُ سببيةً، أي: ظلموا أنفسَهم بسببها، أو الناسَ حيث صدُّوهم عن الإيمان، أو الرسولَ فقالوا: سحرٌ وتمويهٌ، أقوال.

وقال الأصم: ظلموا تلك النعم التي آتاهم الله بأن استعانوا بها على معصية الله تعالى، فانظر أيها السامعُ ما آلَ إليه أمرُ المفسدين الظالمين، جَعَلهم مثالاً توعَّدَ به كَفَرةَ عصر الرسول ﷺ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥﴾ هذه محاورةٌ من موسى ﷺ لفرعون، وخطابٌ له بأحسنِ ما يُدْعَى به وأحبِّها إليه؛ إذ كان مَن مَلَكَ مصر يقال له: فرعون، كنمرود في يونان، وقيصرَ في الروم، وكسرى في فارس، والنجاشيِّ في الحبشة، وعلى هذا لا يكون فرعونُ وأمثالُه عَلَماً شخصيًّا بل يكون عَلَمَ جنسٍ كأسامةَ وثُعَالةَ.

ولمَّا كان فرعون قد ادَّعى الربوبيةَ فاتَحه موسى بقوله: «إني رسولٌ من ربِّ العالمين» ليُنَبِّهَه على الوصف الذي ادَّعاه، وأنه فيه مُبْطِلٌ لا محقٌّ.

ولمَّا كان قولُه: «حقيقٌ على أنْ لا أقول على الله إلَّا الحقَّ» دعوى، أردَفها بما يدلُّ على صحتها وهو قوله: «قد جئتكم».

ولمَّا قرَّر رسالتَه فرَّعَ عليها تبليغَ الحُكم وهو قولُه: «فأرسل».

ولم ينازِعْه فرعونُ في هذه السورة في شيءٍ ممَّا ذكره موسى، إلا أنه طلب المعجزة، ودلَّ ذلك على موافقته لموسى، وأنَّ الرسالة ممكِنَةٌ لإمكانِ المعجزة؛ إذ لم يدفع إمكانَها بل قال: «إن كنتَ جئتَ بآية»، ويأتي الكلام على هذا الطلب من فرعون للمعجزة.

وقرأ نافع: «عليَّ أنْ لا أقولَ» بتشديد الياء[١]، جَعَلَها[٢] «على» داخلةً على ياء المتكلِّم، ومعنى «حقيقٌ»: جَديرٌ وخَليقٌ، وارتفاعُه على أنه صفةٌ لـ«رسول»، أو خبرٌ بعد خبرٍ، و«أنْ لا أقولَ» الأحسنُ فيه أن يكون فاعلاً بـ«حقيق»، كأنه قيل: يَحقُّ عليَّ كذا ويَجِبُ، ويجوزُ أن يكون «أنْ لا أقولَ» مبتدأً و«حقيقٌ» خبرَه.

وقال قوم: تمَّ الكلامُ عند قوله: «حقيق»، و«عليَّ أنْ لا أقول» مبتدأٌ وخبر.

وقرأ باقي السبعة «عَلَى» بجرِّها «أنْ لا أقولَ»، أي: حقيقٌ عَلَى قولِ الحق، فقال قوم: ضمِّن «حقيقٌ» معنى: حريص. وقال أبو الحسن والفرَّاء والفارسيُّ: «علَى» بمعنى الباء كما أن الباء بمعنى «علَى» في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ [الأعراف: ٨٦] أي: على كلِّ صراطٍ، فكأنه قيل: حقيقٌ بأنْ لا أقولَ[٣]، كما تقول: فلانٌ حقيقٌ بهذا الأمر وخليقٌ به، ويشهدُ لهذا التوجيهِ قراءةُ أبيٍّ: «بأنْ لا أقول»[٤] وَضَعَ مكان «علَى» الباءَ. قال الأخفش[٥]: وليس ذلك بالمطَّرد؛ لو قلتَ: ذهبتُ على زيد، تريد: بزيد، لم يَجُزْ.

وقال الزمخشري[٦]: وفي المشهورة إشكالٌ، ولا يخلو من وجوه:

أحدها: أن يكون ممَّا يُقْلَبُ من الكلام لأمْنِ الإلباس، كقوله:

وتَشْقَى الرماحُ بالضَّياطِرة الحُمْرِ[٧]

ومعناه: وتَشْقَى الضياطرةُ بالرماح. انتهى هذا الوجهُ، وأصحابُنا يخصُّون

---

(١) السبعة ص٢٨٧، والتيسير ص١١١.
(٢) في (د١) والمطبوع: جعل.
(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٦، وللأخفش ٢/ ٥٢٨-٥٢٩، والحجة للفارسي ٤/ ٥٦-٥٧.
(٤) القراءات الشاذة ٤٥، وذكرها الفراء في معاني القرآن ١/ ٣٨٦ عن ابن مسعود ﷺ.
(٥) كما في الحجة للفارسي ٤/ ٥٧، ولم يرد في معاني القرآن له.
(٦) في الكشاف٢/ ١٠٠.
(٧) البيت لخداش بن زهير، وهو في ديوانه ص٧٩. والضياطرة: جمع ضيطار، وهو الجبان العظيم الخَلْق الذي لا يُحسن حمل السلاح. معجم مقاييس اللغة ٢/ ١٠٢. والحمر كناية عن العَجَم؛ لغلبة الحمرة على ألوانهم، فلذا يستعملونه في الذم. حاشية الشهاب على البيضاوي ٤/ ٢٠٠-٢٠١.

القلب بالشعر، ولا يُجيزونه في فصيح الكلام(١)، فينبغي أن يُنزَّه القرآن عنه، وعلى هذا يصيرُ معنى هذه القراءةِ معنى قراءةِ نافع(٢).

قال الزمخشريُّ: والثاني: أنَّ ما لَزِمَكَ لَزِمْتَه، فلمَّا كان قولُ الحقِّ حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق، أي: لازماً له.

قال الزمخشري: والثالث: أن يضمَّن «حقيقٌ» معنى: حريص، تضمينَ «هيَّجني» معنى: ذكَّرني، في بيت الكتاب. انتهى.

يعني بالكتاب: كتاب سيبويه، والبيت:

إذا تغنَّى الحمامُ الوُرْقُ هيَّجني ... ولو تسلَّيتُ عنها أمَّ عمَّارِ(٣)

قال الزمخشري: والرابع وهو الأَوْجَهُ والأَدْخَلُ في نُكت القرآن: أن يُغْرِقَ موسى عليه السلام في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام، لا سيما وقد رُوي أنَّ عدوَّ الله فرعونَ قال لمَّا قال: «إنِّي رسولٌ من ربِّ العالمين»: كَذَبْتَ، فيقول: أنا حقيقٌ على قول الحقِّ، أي: واجبٌ عليَّ قولُ الحقِّ أن أكون أنا قائلَه والقائمَ به، ولا يُرْضَى إلَّا بمثْلي ناطقاً به. انتهى. ولا يتَّضحُ هذا الوجهُ إلَّا إن عَنَى أنه يكون «على أنْ لا أقولَ» صفةً، كما تقول: أنا على قول الحقِّ، أي: طريقي وعادتي قولُ الحق.

وقال ابن مِقْسَم(٤): «حقيقٌ» من نعت الرسول، أي: رسولٌ حقيقٌ من ربِّ

---

(١) وللناس فيه ـ كما قال السمين في الدر ٥/ ٤٠٢ ـ ثلاثة مذاهب: الجواز مطلقاً، والمنع مطلقاً، والتفصيل بين أن يفيد معنىً بديعاً فيجوز، أو لا فيمتنع. اهـ. قالوا: والنكتة في البيت المذكور هي: الإشارة إلى كثرة الطعن حتى شقيت الرماح بهم لتكسُّرها بسبب ذلك. ينظر روح المعاني ٩/ ٢٧٧.

(٢) أي: الأصل في قراءة الجمهور على هذا القول: حقيقٌ عليَّ أن لا أقول، وهي كقراءة نافع التي معناها: قولُ الحقِّ حقيقٌ عليَّ، فقُلب اللفظ فصار: أنا حقيقٌ على قول الحق. ينظر الدر المصون ٥/ ٤٠٢.

(٣) الكتاب ١/ ٢٨٦، والبيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٥١، والرواية فيهما: ولو تغرَّبت عنها. . .، وهو من قصيدة عدَّها صاحب جمهرة أشعار العرب ١/ ٣٠٣ من المعلقات، والرواية في الجمهرة: . . .، ذكرني ولو تَعَزَّيتُ. . .

(٤) محمد بن الحسن بن مقسم، أبو بكر البغدادي، صنف في التفسير والمعاني، وأُنكر عليه

العالمين أُرسِلْتُ على أنْ لا أقولَ على الله إلا الحقَّ، وهذا معنىً صحيحٌ واضحٌ، وقد غفل أكثرُ المفسرين من أرباب اللغة عن تعليق «على» بـ«رسول»، ولم يخطُرْ لهم تعليقُه إلا بقوله: «حقيق». انتهى.

وكلامُه فيه تناقُضٌ في الظاهر؛ لأنه قدَّر أولاً العاملَ في «على»: أُرسِلْتُ، وقال أخيراً إنهم غفلوا عن تعليق «على» بـ«رسول»، فأمَّا هذا الأخير فلا يجوز على مذهب البصريين؛ لأنَّ «رسولاً» قد وُصف قبل أن يأخذ معمولَه، وذلك لا يجوز، وأما التقدير الأول وهو إضمار: أُرسِلْتُ، ويفسِّره لفظُ «رسول» فهو تقديرٌ سائغٌ ويُتأوَّلُ كلام ابن مقسمٍ أخيراً في قوله: عن تعليق «على» بـ«رسول»، أي: بما دلَّ عليه «رسول».

وقرأ عبد الله والأعمش: «حقيقٌ أن لا أقول» بإسقاط «على»[1]، فاحْتَمَلَ أن يكون على إضمارِ «على» كقراءةِ مَن قرأ بها، واحْتَمَلَ أن يكون على إضمار الباء كقراءة أُبيٍّ، وعلى الاحتمالين يكون التعلُّق بـ«حقيق».

ولمَّا ذَكَر أنه رسولٌ من عند الله، وأنه لا يقولُ على الله إلَّا الحقَّ أخذ يَذْكُر المعجزةَ والخارقَ الذي يدلُّ على صدق رسالته، والخطابُ في «جئتكم» لفرعون وملئه الحاضرين معه، ومعنى «ببيِّنةٍ»: بآية بينةٍ واضحةِ الدلالة على ما أَذْكُره.

والبَيِّنَة؛ قيل: تسْعُ الآياتِ المذكورةُ في قوله: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ١٢].

وقال بعض العلماء: وسياقُ الكلام[2] يقتضي أنَّ البينة هي العصا واليدُ البيضاء، بدليل ما بعده من قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ الآية.

وقال ابن عباس والأكثرون: هي العصا[3].

= إقراؤه بحروف تخالف الإجماع، ثم استتيب بحضرة الفقهاء والقراء فتاب، من كتبه: الأنوار في علم القرآن، وكتاب اختياره في القراءات، توفي سنة (٣٥٤هـ). السير ١٦/ ١٠٥.

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٦، والكشاف ٢/ ١٠٠.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع): الآية.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٣٧.

وفي قوله: «من ربِّكم» تعريضٌ أنَّ فرعون ليس ربًّا لهم بل ربُّهم هو الذي جاء موسى بالبينة مِن عنده.

«فأرسل»، أي: فخلِّ، والإرسالُ ضدُّ الإمساك.

«معي بني إسرائيل»، أي: حتى يذهبوا إلى وطنهم ومولدِ آبائهم الأرضِ المقدَّسة، وذلك أنَّ يوسف ﷺ لمَّا توفِّي وانقرضَ الأسباطُ غَلَبَ فرعونُ على نسلهم واستعبدهم في الأعمال الشاقَّة، وكانوا يؤدُّون إليه الجزاءَ، فاستنقذهم الله بموسى ﷺ، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسُف مصرَ واليومِ الذي دخل فيه موسى أربعُ مئة عام.

والظاهرُ أنَّ موسى لم يطلب من فرعونَ في هذه الآية إلَّا إرسالَ بني إسرائيلَ معه، وفي غير هذه الآية دعاؤه وإياه إلى الإقرار بربوبية الله تعالى وتوحيدِه؛ قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩] وكلُّ نبيٍّ داعٍ إلى توحيد الله تعالى، وقال تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] فهذا ونظائرُه دليلٌ على أنه طلب منه الإيمانَ، خلافاً لمن قال: إنَّ موسى لم يَدْعُه إلى الإيمان ولا إلى التزام شَرْعِه، وليس بنو إسرائيل من قوم فرعون والقِبْط، ألا ترى أن بقية القبط وهم الأكثرُ لم يرجع إليهم موسى.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ لـمَّـا عـرضَ موسى ﷺ رسالتَه على فرعون، وذكر الدليلَ على صدقه وهو مجيئُه بالبينة والخارقِ المعجِزِ، استَدْعَى فرعون منه خرقَ العادة الدالَّ على الصدق، وهذا الاستدعاءُ يحتمل أن يكون على سبيل الاختبار وتجويزه ذلك، ويحتمل أن يكون على سبيل التعجيز لمَّا تقرَّر في ذهن فرعون أنَّ موسى لا يقدِرُ على الإتيان ببينةٍ، والمعنى: إنْ كنتَ جئتَ بآيةٍ من ربِّك فأَحْضِرْها عندي لتَصِحَّ دعواك ويَثْبُتَ صدقُك.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ بدأ بالعصا دون سائر المعجزات لأنها معجزةٌ تحتوي على معجزاتٍ كثيرةٍ، قالوا: منها أنه ضَرَبَ بها بابَ فرعون ففزِعَ من قَرْعِها فشابَ رأسُه فخضَبَ بالسَّواد، فهو أولُ مَن خَضَبَ، وانقلابُها ثعباناً،

وانقلابُ خشبةٍ لحماً ودماً قائماً به الحياةُ من أعظم الإعجاز، ويحصل من انقلابها ثعباناً من التهويل ما لا يحصلُ في غيره، وضَرْبُه بها الحجرَ فينفجر عيوناً، وضربُه بها فتُنْبِتُ؛ قاله ابن عباس[(١)]، ومحاربتُه بها اللصوصَ والسباع القاصدةَ غَنَمَهُ، واشتعالُها في الليل كاشتعال الشمعة، وصيرورتُها كالرِّشاء[(٢)] لينزح بها الماءَ من البئر العميقة، وتَلَقُّفُها لحبال السَّحرة وعصيِّهم، وإبطالُها لمَا صنعوه من كيدهم وسحرهم. والإلقاءُ حقيقةٌ هو في الأجرام، ومجازٌ في المعاني نحو: أَلقَى المسألة.

قال ابن عباس والسدِّيُّ: صارت العصا حيةً عظيمةً شعراءَ فاغرةً فاها، ما بين لحييها ثمانون ذراعاً ـ وقيل: أربعون، ذكره مكيٌّ عن فَرْقَدٍ[(٣)] ـ واضعةً أحدَ لحييها بالأرض والآخر على سور القصر[(٤)].

وذكروا من اضطراب فرعونَ وفزعِه وهربِه، ووَعْدِه موسى بالإيمان إن عادت إلى حالها، وكثرةِ مَن مات من قوم فرعون فزعاً، أشياءَ لم تتعرَّضَ إليها الآية، ولا ثَبَتَتْ في حديثٍ صحيح، فالله أعلم بها.

ومعنى «مبين» ظاهرٌ لا تخييل فيه، بل هو ثعبانٌ حقيقةً.

قال ابن عطية: و«إذا» ظرفُ مكانٍ في هذا الموضع عند المبرِّد من حيث كانت خبراً عن جثةٍ، والصحيحُ الذي عليه الناسُ أنها ظرفُ زمانٍ في كلِّ موضع[(٥)]. انتهى.

والصحيحُ الذي عليه شيوخُنا أنها ظرفُ مكانٍ كما قاله المبرِّد، وهو المنسوبُ إلى سيبويه، وقوله: من حيث كانت خبراً عن جثةٍ، ليست في هذا المكان خبراً عن

(١) تفسير الرازي ١٤/ ١٨٩.
(٢) الرِّشاء: الحبل. القاموس (رشو).
(٣) هو فرقد بن يعقوب السَّبَخي، أبو يعقوب البصري، وأخرج قوله الطبري ١٠/ ٣٤٥.
(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٨٥-١٨٦، وأخرجه عنهما الطبري ١٠/ ٣٤٣-٣٤٤، دون قوله: ما بين لحييها ثمانون ذراعاً.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٦. وينظر المقتضب ٣/ ٧٨، وفيه: فأما «إذا» التي تقع للمفاجأة فهي التي تسدُّ مسدَّ الخبر، والاسم بعدها مبتدأ، وذلك قولك: جئت فإذا أخوك، وكلمتك فإذا زيدٌ... إلخ.

جثة، بل خبرُ «هي» قولُه: «ثعبان»، ولو قلت: فإذا هي، لم يكن كلاماً، وينبغي أن يُحمل كلامُه: من حيث كانت خبراً عن جثة، على مِثْلِ: خرجتُ فإذا السَّبُعُ، على تأويلِ مَن جعلها ظرفَ مكانٍ.

وما ذكره من أنَّ الصحيح الذي عليه الناسُ أنها ظرفُ زمانٍ، هو مذهبُ الرِّياشيِّ، ونسب أيضاً إلى سيبويه، ومذهبُ الكوفيين أن «إذا» الفجائية حرفٌ لا اسم.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٠٨﴾ أي: جذب يدَه، قيل: من جيبه وهو الظاهرُ؛ لقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾ [النمل: ١٢]. وقيل: من كُمِّه.

و«للناظرين»، أي: للنَّظَّارة، وفي ذكر ذلك تنبيهٌ على عظم بياضها؛ لأنه لا يَعْرِضُ العجبُ بها للنظارة[(١)] إلا إذا كان بياضُها عجيباً خارجاً عن العادة، يَجْتمعُ الناسُ إليه كما يجتمعُ النَّظارةُ للعجائب.

قال مجاهد: بيضاءُ كاللَّبَن أو أشدُّ بياضاً[(٢)].

وروي أنها كانت تظهر منيرةً شفافةً كالشمس، ثم يردُّها فترجعُ إلى لون موسى، وكان آدمَ ﷺ شديدَ الأُدْمةِ[(٣)].

وقال ابن عباس: صارت نوراً ساطعاً يضي ما بين السماء والأرض، له لمعانٌ مِثْلُ لمعانِ البرق، فخرُّوا على وجوههم[(٤)].

وقال الكلبي: بلغنا أن موسى ﷺ قال: يا فرعون، ما هذه بيدي؟ قال: هي عصاً. فألقاها موسى فإذا هي ثعبانٌ.

---

(١) في (ب) و(د٣) و(يه): لها النظارة، وفي (أ) و(د١) و(ع): لها للنظارة، والمثبت من (ز١)، وهو الموافق لما في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/٣٥٨، وما بين حاصرتين منه، والكلام بنحوه في الكشاف ٢/١٠٢، والعبارة فيه: ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها...

(٢) أخرجه الطبري ١٠/٣٤٧.

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٣٦.

(٤) زاد المسير ٣/٢٣٨، وتفسير الرازي ١٤/١٩٦ بنحوه.

ورُوي أن فرعون رأى يدَ موسى، فقال لفرعون: ما هذه؟ فقال: يدُكَ، ثم أدخلها جيبَه وعليه مدرعةُ صوفٍ ونزعها فإذا هي بيضاءُ بياضاً نورانيًا غلب شعاعُها شعاعَ الشمس(١).

وما أعجبَ أمرَ هذين الخارِقَيْنِ: أحدُهما في نَفْسِه وذلك اليدُ البيضاء، والآخَرُ في غيرِ نفسه وهي العصا، وجُمع بذينك تبدُّلُ الذوات وتبدُّلُ الأعراض، فكانا دالَّيْنِ على جواز الأمرين وأنهما كلاهما ممكنُ الوقوع.

قال أبو محمد بن عطية: هاتان الآيتان عَرَضَهما موسى ﷺ للمعارَضة، ودعا إلى الله بهما، وخرق العادةَ بهما، وتحدَّى الناسَ إلى الدِّين بهما، فإذا جعلنا التحدِّيَ الدعاءَ إلى الدِّين مطلقاً فبهما تحدَّى، وإذا جعلنا التحدِّيَ الدعاءَ بعد العجز عن معارضة المُعْجِزة وظهورِ ذلك فتنفردُ حينئذ العصا بذلك؛ لأنَّ المعارَضة والعجز فيها وَقَعَا، ويقال: التحدِّي هو الدعاءُ إلى الإتيان بمثل المعجزة، فهذا نحوٌ ثالثٌ، وعليه يكونُ تَحدِّي موسى بالآيتين جميعاً؛ لأن الظاهر من أمره أنه عَرَضهما معاً، وإن كان لم ينصَّ على الدعاء إلى الإتيان بمثلهما(٢). انتهى. وهو كلامٌ فيه تثبيجٌ(٣).

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ وفي «الشعراء»: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية: ٣٤]، والجمع بينهما: أنَّ فرعون وهُم قالوا هذا الكلام، فحَكَى هنا قولَهم وهناك قولَه، أو قاله ابتداءً فتلقَّفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما تفعل الملوكُ؛ يَرَى الواحدُ منهم الرأيَ فيكلِّم به مَن يَليه من الخاصَّة، ثم تبلِّغه الخاصةُ العامةَ، والدليلُ عليه أنهم أجابوه في قولهم: «أَرْجِئْه».

وكان السحر إذ ذاك في أعلى المراتبِ، فلمَّا رأوا انقلابَ العصا ثعباناً والأُدْماءَ بيضاءَ، وأنكروا النبوَّةَ، ودافَعوه عنها، قصدوا ذمَّه بوصفه بالسحر وحَطِّ

---

(١) الكشاف ٢/١٠٢.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٣٦.

(٣) التثبيج: مصدر ثبَّج، ومعنى ثبَّج الكلام: لم يأت به على وجهه. أساس البلاغة (ثبج).

قَدْرِه إذ لم يُمْكنهم في ظهور ما ظهر على يده نسبةُ شيءٍ إليه غيرِ السحر، وبالغوا في وصفه بأنْ قالوا: «عليم»، أي: بالغُ الغايةَ[1] في علم السحر وخُدَعِه وخيالاتِه وفنونه.

وأكثرُ استعمالِ لفظِ «هذا» -إذا كان من كلام الكفار- في التنقُّص والاستغراب، كما قال: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ﴿إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣] ﴿إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] يَعْدِلون عن لفظ اسم ذلك الشيء إلى لفظ الإشارة، وأكَّدوا نسبةَ السحر إليه بدخول «إنَّ» واللام.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ استشعرتْ نفوسُهم ما صار إليه أمرُهم: من إخراجهم من أرضهم، وخلوِّ مواطنهم منهم، وخرابِ بيوتهم، فبادَروا إلى الإخبار بذلك، وكان الأمرُ كما اسْتَشْعَروا إذ أغرقَ الله فرعونَ وآلَه وأخلى منازلهم منهم[2]، ونبَّهوا على هذا الوصفِ الصعب الذي هو معادلٌ لقتل الأنفس كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] وإرادتُه إخراجَهم -وذلك مبالغةٌ في دفعه وعدم قبوله[3]- إما بكونه يَحْكُم فيكم بإرسال خدمكم وعُمَّارِ أرضكم معه حيث يسير، فيقضي ذلك إلى خراب دياركم، وإما بكونهم[4] خافوا منه أن يقاتلهم بمن يجتمع إليه من بني إسرائيل ويَغْلِبَ على مُلْكهم.

قال النقَّاش: كانوا يأخذون من بني إسرائيل خَرْجاً كالجزية، فرأوا أنَّ مُلْكَهم يذهب بزوال ذلك[5].

(١) في (ب) و(ز١) و(د٣) و(يه): الغلبة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الأنسب بالسياق.
(٢) في (ب) و(ز١) و(يه): منه، ومثله في النهر على هامش مطبوع البحر ٣٥٨/٤، والمثبت من باقي النسخ، وهو الأنسب بالسياق.
(٣) قوله وذلك مبالغة. . .، ليس في (أ) و(د١) و(ع).
(٤) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): بكونه.
(٥) المحرر الوجيز ٤٣٧/٢.

وجاء في سورة الشعراء: ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ [الآية: ٣٥] وهنا حُذفت لأن الآية الأولى هنا بُنيت على الاختصار فناسبت الحذفَ، ولأن لفظ «ساحر» يدلُّ على السحر.

و«فماذا تأمرون» من قول فرعون، أو من قول الملأ: إما لفرعون وأصحابه، وإما له وحده كما يخاطَبُ أفرادُ العظماء بلفظ الجمع، وهو من الأمر، وقال ابن عباس: معناه: تُشيرون به(١).

قال الزمخشريُّ: من آمَرْتُه فأَمَرني بكذا: إذا شاوَرْتَه فأشار عليك برأي(٢).

وقرأ الجمهور: «تأمرونَ» بفتح النون هنا وفي «الشعراء»، وروى كردم عن نافعٍ كَسْرَ النون فيهما(٣).

و«ماذا» يحتمل أن تكون كلُّها استفهاماً، وتكونُ مفعولاً ثانياً لـ«تأمرون» على سبيل التوسُّع فيه بأنْ حُذِفَ منه حرفُ الجر، كما قال:

أمـــرتُـــك الـــخـــيـــرَ(٤)

ويكون المفعولُ الأول محذوفاً لفَهْم المعنى، أي: أيَّ شيءٍ تأمرونني، وأصلُه: بأيِّ شيءٍ.

ويجوز أن تكون «ما» استفهاماً مبتدأً، و«ذا» بمعنى الذي خبرٌ عنه، و«تأمرون» صلةُ «ذا»، ويكون قد حُذف مفعولي «تأمرون»: الأول وهو ضمير المتكلِّم، والثاني وهو الضميرُ العائد على الموصول، والتقدير: فأيُّ شيءٍ الذي تأْمُرونَنِيْهِ، أي تأمرونني به.

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٣٨.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٢.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٧. وكردم هو ابن خالد المغربي التونسي، أبو خالد، وقيل: ابن خليد، أبو خليد، قدم المدينة وعرض على نافع، وكان زاهداً عابداً فاضلاً. غاية النهاية ٢/ ٣٢.

(٤) قطعة من بيت عزاه سيبويه في الكتاب ١/ ٣٧ لعمرو بن معدي كرب، وذكر صاحب الخزانة خلافاً في نسبته، وتمامه:

أمرتُكَ الخيرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ به ... فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

وكِلَا الإعرابين في «ماذا» جائزٌ في قراءةِ مَن كسر النون، إلا أنه حَذَفَ ياءَ المتكلِّم وأبقى الكسرةَ دلالةً عليها.

وقدَّر ابنُ عطية الضمير العائد على «ذا» إذا كانت موصولةً مقروناً بحرف الجرِّ، فقال: وفي «تأمرون» ضميرٌ عائدٌ على الذي، تقديره: تأمرون به[(١)]. انتهى.

وهذا ليس بجيدٍ؛ لفواتِ شرطِ جوازِ حذفِ الضمير إذا كان مجروراً بحرف جرٍّ، وذلك الشرطُ هو أن لا يكون الضمير في موضع رفعٍ، وأن يَجرَّ ذلك الحرفُ الموصولَ أو الموصوفَ به أو المضاف إليه، ويتَّحد المتعلِّقُ به الحرفان لفظاً ومعنىً، ويتَّحدَ معنى الحرف أيضاً، والعذرُ لابن عطية أنه قدَّره على الأصل ثم اتُّسع فيه فتعدَّى إليه الفعلُ بغير واسطة الحرف، ثم حُذف بعد الاتِّساع.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: قال مَن حَضَرَ مناظرةَ موسى من عقلاءِ ملأ فرعون وأشرافه، قيل: ولم يكن يجالس فرعونَ ولدُ غَيَّةٍ، وإنَّما كانوا أشرافاً، ولذلك أشاروا عليه بالإرجاء ولم يشيروا بالقتل، وقالوا: إنْ قتلتَه دخلتْ على الناس شبهةٌ، ولكن اغْلِبْه بالحجة.

وقرئ بالهمز وغير همزٍ[(٢)]، فقيل: هما بمعنىً واحد، والمعنى: أخِّره، وقيل: المعنى: احْبِسْه وقيل: «أرجه» بغير همزٍ بمعنى: أَطْعِمْه، جَعَلَه من رَجَوْتُ أُدخل عليه همزة النقل، أي: أَطْعِمْه وأخاه لا تقتلهما حتى يظهر كذبُهما، فإنك إنْ قتلتَهما ظُنَّ أنهما صَدَقا.

ولم يَجْرِ لهارون ذكرٌ في صدر القصة، وقد تبيَّن من غير آيةٍ أنهما ذهبا معاً وأرسلا إلى فرعون، ولمَّا كان موافقاً له في دعواه ومؤازِراً أشاروا بإرجائهما.

وقرأ ابن كثير وهشام: «أرجئهو» بالهمز وضمِّ الهاء ووَصْلِها بواوٍ، وأبو عمرو كذلك إلا أنه لم يَصِلْ، ورُوي هذا عن هشام[(٣)]، وعن يحيى عن أبي بكر.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٧.

(٢) وكلاهما في السبعة كما سيرد.

(٣) وهي التي ذكرها عنه ابن مجاهد في السبعة ص٢٨٧، ولم يذكر عنه قراءة وصلها بواو، وفي التيسير ص١١١ العكس، حيث ذكر عنه قراءة الوصل بالواو ولم يذكر عنه عدم الوصل، وينظر الروايات عنه بذلك في جامع البيان للداني ٢/ ١٥٦.

وقرأ ورش والكسائيُّ: «أَرْجِهِي» بغيرِ همزٍ وبكسر الهاء ووَصْلِها بياء.

وقرأ عاصمٌ وحمزةُ بغير همزٍ وسكَّنا الهاء.

وقرأ قالون بغير همزٍ ويختلس كسرة الهاء[١].

وقرأ ابن ذكوان في روايةٍ كقراءة ورش والكسائي. وفي المشهور عنه: «أرجئهِ» بالهمز وكسر الهاء من غير صلةٍ[٢]، وقد قيل عنه: إنه يَصِلُها بياء.

قال ابن عطية: وقرأ ابن عامر «أَرْجِئهِ» بكسر الهاء بهمزة قبلها، قال الفارسي: وهذا غلط[٣]. انتهى.

ونسبةُ ابنِ عطية هذه القراءة إلى ابن عامرٍ ليس بجيدٍ؛ لأن الذي روى ذلك إنما هو ابنُ ذكوان لا هشامٌ، فكان ينبغي أن يقيِّد فيقول: وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان.

وقال بعضُهم: قال أبو عليٍّ: ضمُّ الهاء مع الهمز لا يجوزُ غيره، قال: وروايةُ ابن ذكوان عن ابن عامر غلطٌ[٤].

وقال ابن مجاهد بعده: وهذا لا يجوز؛ لأنَّ الهاء لا تُكسر إلا إذا وقع قبلها كسرةٌ أو ياءٌ ساكنة[٥].

وقال الحوفي: ومن القرَّاء مَن يكسر مع الهمز، وليس بجيد.

وقال أبو البقاء: ويُقرأ بكسر الهاء مع الهمزِ، وهو ضعيفٌ؛ لأن الهمز حرفٌ صحيح ساكنٌ فليس قبل الهاء ما يقتضي الكسرَ، ووجهُه أنه أَتْبَعَ الهاءَ كسرةَ الجيم، والحاجزُ غيرُ حصينٍ[٦]. انتهى.

---

(١) تنظر هذه القراءات في السبعة لابن مجاهد ص٢٨٧-٢٨٩، والحجة للفارسي ٤/ ٥٧-٦٣، والتيسير للداني ص١١١، وجامع البيان للداني أيضاً ٢/ ١٥٦-١٥٨، وجميعها من المتواتر.

(٢) وهي المذكورة عنه في السبعة ص٢٨٨، والتيسير ص١١١.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٧، وكلام أبي علي الفارسي في الحجة ٤/ ٦٢.

(٤) الحجة ٤/ ٦٠ و٦٢.

(٥) السبعة ص٢٨٨.

(٦) الإملاء ١/ ٢٨١. وسبقه إلى هذا التخريج الداني في جامع البيان ٢/ ١٥٦.

ويخرَّج أيضاً على توهُّم إبدال الهمز ياءً، أو على أنَّ الهمز لمَّا كان كثيراً ما يُبدل بحرف العلة أُجْرِيَ مُجْرَى حرف العلة في كسر ما بعده.

وما ذهب إليه الفارسيُّ وغيرُه من غلط هذه القراءة وأنها لا تجوز قولٌ فاسدٌ؛ لأنها قراءةٌ ثابتةٌ متواترةٌ روتها الأكابرُ عن الأئمة، وتلقَّتْها الأمةُ بالقبول، ولها توجيهٌ في العربية، وليست الهمزةُ كغيرها من الحروف الصحيحة؛ لأنها قابلةٌ للتغيير بالإبدال، والحذفِ بالنقل وغيرِه، فلا وجه لإنكار هذه القراءة.

﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ «المدائن»: مدائنُ مصر وقُراها، والحاشرون؛ قال ابن عباس: هم أصحابُ الشُّرَط[1].

وقال محمد بن إسحاق[2]: لمَّا رأى فرعونُ من آيات الله عز وجل ما رأى، قال: لن نغالِبَ موسى إلا بمن هو منه، فاتَّخذ غلماناً من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية -قال البغوي: هي الفَرَمَا[3]- يعلمونهم السحر كما يعلِّمون الصبيان في المكتب، فعلَّموهم سحراً كثيراً، وواعَدَ فرعونُ موسى موعداً ثم دعاهم وسألهم فقال: ماذا صنعتم؟ قالوا: علَّمناهم من السحر ما لا يُقاوِمُهم به أهلُ الأرض، إلَّا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به.

وقرأ الأخوان: «بكلِّ سحَّارٍ» هنا وفي «يونس»، والباقون: «ساحر»[4]، وفي «الشعراء» أجمعوا على: «سحَّار». ويناسِبُ «سحَّار»: «عليم» لكونهما من ألفاظ المبالغة، ولمَّا كان قد تقدَّم: «إنَّ هذا لساحرٌ عليم» ناسَبَ هنا أن يقابَل بقوله: «بكلِّ ساحر عليم».

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٥١ دون كلمة: أصحاب.

(٢) كما في تفسير الثعلبي ٣/ ٥٧، والبغوي ٢/ ١٨٦، وزادا نسبته لابن عباس والسدي، وأخرجه عن ابن عباس الطبريُّ ١٠/ ٣٥٣.

(٣) وقع في مطبوع تفسير البغوي: الغوصاء، وفي مطبوع الثعلبي: الفرقاء، والمثبت موافق لما في تفسير الطبري. والفرما: مدينة على الساحل بين العريش والفسطاط. ينظر معجم البلدان ٤/ ٢٥٦.

(٤) السبعة ص٢٨٩، والتيسير ص١١٢.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ في الكلام حذفٌ يقتضيه المعنى، وتقديره: فأرسَلَ حاشرين وجمعوا السحرة وأمرهم بالمجيء.

واضطرَبَ الناقلون للأخبار في عددهم اضطراباً متناقضاً يَعْجَبُ العاقلُ من تسطيره في الكتبِ، فَمِنْ قائلٍ: تسع مئة ألفِ ساحرٍ، وقائلٍ: سبعين ساحراً، فما بينهما من الأعداد المعيَّنةِ المتناقضة.

وجاء «قالوا» بغير حرفِ عطفٍ لأنه على تقديرِ جواب سائلٍ سأل: ما قالوه إذ جاء؟ قالوا[(١)]: إنَّ لنا لأجراً، أي: جُعْلاً.

وقال الحوفي: «قالوا» في موضع الحال من «السحرة» والعاملُ «جاء».

وقرأ الحِرْميَّان وحفصٌ: «إنَّ»[(٢)] على وجه الخبر واشتراطِ الأجر وإيجابِه على تقدير الغلبة، ولا يريدون مطلَقَ الأجر بل المعنى: لأجراً عظيماً، ولهذا قال الزمخشري: والتنكيرُ للتعظيم، كقول العرب: إنَّ له لإبلاً، و: إنَّ له لغنماً، يقصدون الكثرةَ[(٣)].

وجوَّز أبو عليٍّ أن تكون «إنَّ» استفهاماً حُذفت منه الهمزةُ[(٤)] كقراءةِ الباقين الذين أثبتوها، وهم الأخوان وابنُ عامرٍ وأبو بكر وأبو عمرو، فمنهم مَن حقَّقهما، ومنهم مَن سهَّل الثانية، ومنهم مَن أدخل بينهما ألفاً، والخلافُ في كتب القراءات[(٥)].

وفي خطاب السحرةِ بذلك لفرعون دليلٌ على استطالتهم عليه باحتياجه إليهم، وبما يحصُل للعالم بالشيءِ من الترفُّع على مَن يَحتاجُ إليه وعلى مَن لا يَعلم مِثْلَ عِلْمه.

---

(١) كذا وقعت العبارة في النسخ، وجاء في الكشاف ٢/ ١٠٢ (والكلام منه): على تقدير سائل سأل: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأجيب بقوله: قالوا...

(٢) السبعة ص٢٨٩، والتيسير ص١١٢.

(٣) الكشاف ٢/ ١٠٢.

(٤) الحجة ٤/ ٦٥-٦٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٣٨.

(٥) ينظر التيسير ص٣١-٣٢، باب ذكر الهمزتين المتلاصقتين في كلمة.

و«نحن» إمَّا تأكيدٌ للضمير، وإمَّا فصلٌ، وجوابُ الشرط محذوفٌ، وقال الحوفيُّ: جوابُه ما تقدَّم.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: نعم إنَّ لكم لأجراً وإنكم، فعطف هذه الجملة على الجملة المحذوفة بعد «نعم» التي هي نائبةٌ عنها، والمعنى: لمن المقرَّبين منِّي، أي: لا أقتصِرُ لكم على الجَعْل والثواب على غلبة موسى، بل أزيدُكم أن تكونوا من المقرَّبين، فتَحُوزون إلى الأجر الكرامةَ والرفعةَ والجاهَ والمنزلةَ، والمُثابُ إنما يتهنَّأ ويَغْتَبِطُ به[1] إذا حاز إلى ذلك الإكرامَ.

وفي مبادرة فرعون لهم بالوعد والتقريب منه دليلٌ على شدة اضطراره لهم، وأنهم كانوا عالِمينَ بأنه عبدٌ عاجزٌ، ولذلك احتاج إلى السحرة في دفع موسى ﷺ.

﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ قال الزمخشري: تخييرُهم إياه أدبٌ حسنٌ راعَوْه معه، كما يفعل أهلُ الصناعات إذا الْتَقَوا، كالمتناظِرينَ قبل أن يتخاوَضوا في الجدال، والمتصارِعينَ قبل أن يأخذوا في الصِّراع[2]. انتهى.

وقال القرطبي: تأدَّبوا مع موسى ﷺ بقولهم: «إما أن تُلقي» فكان ذلك سببَ إيمانهم[3]. انتهى.

والذي يظهر أنَّ تخييرهم إياه ليس من باب الأدب، بل ذلك من باب الإدلال بما يعلَمونه من السحر، وإيهامِ الغلبة والثقة بأنفسهم وعدمِ الاكتراث والاهتبالِ بأمر موسى، كما قال الفرَّاء لسيبويه حين جمع الرشيدُ بين سيبويه والكسائي: أتسأل فأجيب، أم أبتدئ وتجيب[4]؟ فهذا جاء التخييرُ فيه على سبيل الإدلال بنفسه

(١) في الكشاف ٢/ ١٠٢ (والكلام منه): إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغتبط به.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٢-١٠٣.
(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٩٦.
(٤) يشير إلى قصة المناظرة المشهورة بين سيبويه والكسائي التي جرى فيها ما يعرف بالمسألة الزنبورية، وكان الفراء تلميذُ الكسائي حاضراً، ينظر تاريخ بغداد ١٢/ ١٠٤، والإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٧٠٣، ومغني اللبيب ص١٢٢، وفيها أن الذي قال ذلك لسيبويه هو الكسائي، ولفظه أتسألني أم أسألك؟ وقد نقل صاحب نفح الطيب ٤/ ٧٩-٨٠ عن الأعلم =

والملاءة بما عنده وعدمِ الاكتراث بمناظرته والوثوقِ بأنه هو الغالب.

قال الزمخشري: وقولُهم «وإما أن نكون نحن المُلْقين» فيه ما يدلُّ على رغبتهم في أن يُلْقوا قبله: من تأكيدِ ضميرِهم المتَّصلِ بالمنفصل وتعريفِ الخبر، [أو تعريف الخبر] وإقحام الفصل(١). انتهى.

وأجازوا في «أن تلقيَ» وفي «أن نكون» النصبَ، أي: اختر أو افعل إمَّا إلقاءَك وإمَّا إلقاءَنا، والمعنى فيه البداءةُ، والرفعَ، أي: إمَّا إلقاؤك مبدوءٌ به وإما إلقاؤنا، فيكون مبتدأً، أو: إمَّا أمرُكَ الإلقاءُ، أي: البداءةُ به، أو: إمَّا أمرُنا الإلقاءُ، فيكون خبرَ مبتدأ محذوف، ودخلت «أنْ» لأنه لا يكون الفعلُ وحده مفعولاً ولا مبتدأً، بخلاف قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] فالفعلُ بعد «إما» هنا خبرٌ ثانٍ لقوله: «وآخرون» أو صفةٌ، فليس من مواضع «أنْ».

ومفعولُ «تلقي» محذوفٌ، أي: إمَّا أن تُلقي عصاك، وكذلك مفعولُ «الملقين»، أي: الملقين العصيَّ والحبال.

﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ أعطاهم موسى عليه السلام التقدُّم وثوقاً بالحقِّ وعلماً أنه تعالى يُبْطِلُه، كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس: ٨١].

قال الزمخشري: وقد سوَّغ لهم موسى عليه السلام ما تراغَبوا فيه ازدراءً لشأنهم، وثقةً بما كان بصدده من التأييد السماويِّ، وأن المعجزة لن يغلبها سحرٌ أبداً(٢). انتهى.

والمعنى: أَلْقُوا حبالَكم وعصيَّكم، والظاهر أنه أمرٌ بالإلقاء، وقيل: هو تهديدٌ، أي: فستَرون ما يحلُّ بكم من الافتضاح.

= خلافاً في كون تلك المناظرة كانت بين الكسائي وسيبويه أو بين الفراء وسيبويه، وهل كان ذلك بحضرة الرشيد أو بحضرة وزيره يحيى بن خالد البرمكي.

(١) الكشاف ٢/ ١٠٣، وما بين حاصرتين منه، وينظر كلام الطيبي في التفريق بين كون الضمير فصلاً وبين كونه توكيداً، في حاشية الشهاب ٤/ ٢٠٤، وروح المعاني ٩/ ٢٨٩، كلاهما عند تفسير هذه الآية.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٣.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ أي: أَرَوا العيونَ بالحيل والتخيُّلات ما لا حقيقةَ له، كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] وفي قوله: «سحروا أعينَ الناس» دلالةٌ على أن السحر لا يَقْلِبُ عيناً، وإنما هو من باب التخييل.

و«استرهبوهم» أي: أرهبوهم، واستفعل هنا بمعنى أَفْعَلَ، كـ: أبلَّ واسْتَبلَّ[١]، والرهبةُ: الخوفُ والفزع.

وقال الزمخشري: «واسترهبوهم»: وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتَهم[٢]. انتهى.

وقال ابن عطية: «واسترهبوهم» بمعنى: وأرهبوهم، فكأنَّ فعلَهم اقتضى واستَدْعَى الرهبةَ من الناس[٣]. انتهى.

ولا يظهرُ ما قالا؛ لأنَّ الاستدعاءَ والطلبَ لا يَلزمُ منه وقوعُ المستَدْعَى والمطلوبِ، والظاهرُ هنا حصولُ الرهبة، فلذلك قلنا: إنَّ «استفعل» فيه موافقُ «أَفْعَلَ»، وصرَّح أبو البقاء بأنَّ معنى «استرهبوهم»: طلبوا منهم الرهبةَ[٤].

ووصفُ السحر بـ«عظيم» لقوةِ ما خيَّل، أو لكثرة آلاته من الحبال والعصيِّ، روي أنهم جاؤوا بحبالٍ من أَدَمٍ وأخشابٍ مجوَّفةٍ مملوءةٍ زئبقاً، وأوقدوا في الوادي ناراً، فحميت بالنار من تحت والشمسِ من فوق، فتحرَّكت ورَكِبَ بعضُها بعضاً، وهذا من باب الشَّعبذة والدَّك[٥]. ورُوي غيرُ هذا من حِيَلهم.

وفي الكلام حذفٌ تقديره: قال أَلْقُوا فأَلْقَوا فلمَّا أَلْقَوا، والفاءُ عاطفةٌ على هذا المحذوف، وقال الحَوْفي: الفاءُ جوابُ الأمر. انتهى، وهو لا يُعْقَلُ ما قال.

ونقول: وُصِفَ بـ«عظيم» لمَا ظَهَرَ من تأثيره في الأعضاء الظاهرة التي هي الأعينُ بما لَحِقَها من تخيُّلِ العِصِيِّ والحبالِ حيَّاتٍ، وفي الأعضاء الباطنة التي هي

---

(١) أي: حَسُنت حاله بعد الهزال.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٣.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٩.

(٤) الإملاء ١/ ٢٨٢.

(٥) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

القلوبُ بما لحقها من الفزع والخوف، ولمَّا كانت الرهبةُ ناشئةً عن رؤية الأعين تأخَّرت الجملةُ الدالَّةُ عليها.

* * *

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ
مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ
وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ
أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ
قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن
كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ
وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا
مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ
فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ
سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤٢).

المفردات لَقِفَ الشيءَ لَقْفاً ولقَفَاناً: أخذه بسرعة فأكله أو ابتلعه، ورجلٌ ثَقِفٌ لَقِفٌ: سريعُ الأخذ، وثقيفٌ بيِّنُ الثَّقافةِ واللَّقافة، ولَقِمٌ ولَهِمٌ ولَقِفٌ بمعنىً، ومنه الْتَقَفْتُه وتَلَقَّفْتُه، ولقَّفَنيه[١] تلقيفاً.

«مهما» اسمٌ، خلافاً للسهيلي إذ زعم أنها قد تأتي حرفاً، وهي أداةُ شرطٍ، ونَدَرَ الاستفهامُ بها في قوله:

مهما ليَ الليلةَ مهما لِيَهْ أَوْدَى بنعليَّ وسِرْبالِيَهْ[٢]

وزعم بعضُهم أنها إذا كانت اسمَ شرطٍ قد تأتي ظرفَ زمانٍ، وفي بساطتها وتركيبها من «ماما»[٣] أو من «مه ما»[٤] خلافٌ ذُكِرَ في النحو، وينبغي أن يُحْمَلَ قولُ الشاعر:

أَمَاوِيَّ مَهْ مَن يَسْتَمِعْ في صديقه أقاويلَ هذا الناسِ ماويَّ يندمِ[٥]

على أنه لا تركيبَ فيها، بل «مه» بمعنى: انكفِف، و«مَن» هي اسم الشرط.

«الجَراد» معروف، واحدُه: جرادةٌ بالتاء للذَّكر والأنثى، ويُميِّز بينهما الوصفُ وذَكَر التصريفيُّون أنه مشتقٌّ من الجَرْد، قالوا: والاشتقاقُ في أسماء الأجناس قليلٌ جدًّا.

---

(١) في (أ) و(ع): ولقفتنيه، وفي (د١) و(د٣): ولقفته، والمثبت من (ب) و(ز١) و(يه).

(٢) البيت لعمرو بن مِلْقَط الطائي، كما في نوادر أبي زيد ص٦٢، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٥٧-٥٨، والخزانة ٩/ ٢١، وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٢/ ٣٦٣، وهو دون نسبة في شرح المفصل لابن يعيش ٧/ ٤٤، ومغني اللبيب ص١٤٦.

(٣) هي «ما» الشرطية كررت توكيداً، فاستُثقل توالي لفظين، فأبدلت ألف الأولى هاء، وقيل: الأولى شرطية والثانية زائدة، زيدت على الأولى كما زيدت على «إنْ» الشرطية، ثم عُمل العمل المذكور للثقل الحاصل. الدر المصون ٥/ ٤٣١.

(٤) «مَه» اسم فعل بمعنى الزجر، و«ما» الشرطية، ثم ركِّب الكلمتان فصارتا شيئاً واحداً. الدر المصون ٥/ ٤٣١.

(٥) البيت في الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٢٦٦، وشرح المفصل لابن يعيش ٤/ ٨، والخزانة ٩/ ١٦، قال البغدادي: الهمزة من قوله: «أماوي» للنداء، و«ماويّ» مرخَّم «ماويَّة»، وهي من أسماء النساء، منها ماوية امرأة حاتم الطائي، وهذا البيت شبيه بشعره، ولكني لم أقف عليه منسوباً إليه.

«القُمَّل»، قال أبو عبيدة: هو الحَمْنان، واحدُها: حَمْنَانة، وهو ضربٌ من القِرْدان[١]، وستأتي أقوال المفسرين فيه.

«الضِّفْدع» هو الحيوان المعروف، وتُكْسَر داله وتُفتح، وهو مؤنَّثٌ، وشذَّ جمعُهم له بالألف والتاء؛ قالوا: ضِفْدعات.

النَّكْث: النَّقْض.

«اليَمُّ»: البحر، قال ذو الرُّمَّة:

داوِيَّةٌ ودُجَى ليلٍ كأنهما ... يَمٌّ تَراطَنُ في حافاته الرُّومُ[٢]

وتقدَّمت هذه المادة في ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: ٤٣، والمائدة ٦] إلا أنَّ ابن قتيبة قال: «اليم»: البحر بالسُّريانية[٣]. وقيل: بالعبرانية.

التَّدْمير: الإهلاك وإخراب البناء.

التَّتْبير: الإهلاك، ومنه: التِّبْر؛ لتهالُكِ الناسِ عليه، وقال ابن عطية[٤] والكرماني: التتبير: الإهلاك وسوءُ العُقْبَى، وأصلُه: الكَسْرُ، ومنه: تِبْرُ الذَّهَبِ لأنه كُسَارُه.

* * *

التفسير

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ الظاهرُ أنه وحيُ إعلام كما رُوي أن جبريل ﷺ أتاه وقال له: إنَّ الحقَّ يأمرك أن تُلْقيَ عصاك، وكونُه وحيَ إعلامٍ فيه تثبيتٌ للجأش وتبشيرٌ بالنصر.

وقال قوم: هو وحيُ إلهامٍ، أُلقي ذلك في رُوعه.

(١) مجاز القرآن ١/٢٦٦.

(٢) ديوان ذي الرمة ١/٤١٠. الداوية: المفازة، يقول: اجتمعت مفازةٌ وظلمةُ ليلٍ، فصارا كأنهما بحرٌ فيه لَغَطٌ ودويٌّ يسمع بالليل. وتراطُنُ الروم: كلامهم، وحافاته: جوانبه. قاله شارح الديوان.

(٣) أدب الكاتب ص٤٩٦.

(٤) في المحرر الوجيز ٢/٤٤٨.

و«أنْ» يحتملُ أن تكون المفسِّرةَ، وأن تكون الناصبةَ، أي: بأنْ أَلْقِ، وفي الكلام حذفٌ قبل الجملة الفجائية، أي: فألقاها فإذا هي تلقفُ، وتكون الجملة الفجائيةُ إخباراً بما ترتَّبَ على الإلقاء، ولا يكون موحًى بها في الذكر، ومَن يذهب إلى أنَّ الفاء في نحو: خرجتُ فإذا الأسدُ، زائدةٌ، يحتمل على قوله أن تكون هذه الجملة موحًى بها في الذكر، إلا أنه يقدِّر المحذوفُ بعدها، أي: فألقاها فلقفته.

وقرأ حفص: «تَلْقَفُ» بسكون اللام من لَقِفَ، وقرأ باقي السبعة: «تَلَقَّفُ» مضارعُ تَلَقَّفَ حُذفت إحدى تاءيه، إذ الأصل: تتلقَّف[١].

وقرأ البَزِّيُّ بإدغام تاءِ المضارعة في التاء في الوصل[٢].

وقرأ ابن جبير: «تَلْقَمُ» بالميم، أي: تَبْلَعُ كاللقمة[٣].

و«ما» موصولةٌ، أي: ما يأفِكونه، أي: يقلبونه عن الحقِّ إلى الباطل ويزوِّرونه. قالوا: أو مصدرية، أي: تلقفُ إفكهم، تسميةً للمفعول بالمصدر.

روي أن موسى ﷺ لمَّا كان يومُ الجمع خرج متوكِّئاً على عصاه ويدُه في يد أخيه وقد صفَّ له السحرةُ في عددٍ عظيم، فلمَّا ألقوا واسترهبوا أوحى الله إليه فألقى فإذا هي ثعبانٌ عَظُم حتى كان كالجبل. وقيل: طال حتى جاز النيل. وقيل: طال حتى جاز بذَنَبه بحرَ القُلْزُم[٤].

وقيل: كان الجمع بإسكندرية، وطال حتى جاز مدينة البحيرة[٥].

ورُوي أنهم جعلوا يَرقُّون وحبالُهم وعصيُّهم تَعْظُم وعصا موسى تعظُم حتى سدَّت الأفق وابتلعت الكلَّ، ورجعت بعدُ عصاً، وأعدم الله العصيَّ والحبالَ، ومدَّ

---

(١) السبعة ص٢٩٠، والتيسير ص١١٢.

(٢) أي: «فإذا هي تَّلَقَّفُ»، وهي في السبعة ص٢٩٠، والتيسير ص٨٣.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٩.

(٤) هو البحر الأحمر. المعجم الوسيط (قلز). وقال ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٣٩ (والكلام منه): وهذا قول بعيد عن الصواب مفرِط الإغراق، لا ينبغي أن يلتفت إليه.

(٥) كورة من نواحي الإسكندرية تشتمل على قرى كثيرة ودَخْلٍ واسع. معجم البلدان ١/ ٣٥١. ووقع في (د٣): حتى جاز بذنبه البحيرة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز.

موسى يده إلى في الثعبان فعاد عصاً كما كان، فعلم السحرةُ حينئذٍ أنَّ ذلك ليس من عند البشر، فخرُّوا سجَّداً مؤمنين بالله ورسوله.

قال الزمخشري: أَعْدَمَ الله بقدرته تلك الأجرامَ العظيمةَ، أو فرَّقها أجزاءً لطيفةً، وقالت السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالُنا وعصيُّنا[١].

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ قال ابن عباس والحسن: ظهر واستبان[٢].

وقال أرباب المعاني: الوقوعُ: ظهورُ الشيء بوجوده نازلاً إلى مستقرِّه.

قال القاضي[٣]: «فوقع الحقُّ» يفيد قوة الظهور والثبوت بحيث لا يصح فيه البطلان، كما لا يصح في الواقع أن يَصِيرَ إلا واقعاً. ومع ثبوت الحق بطلت وزالت تلك الأعيان التي أفكوها وهي الحبالُ والعصي.

قال الزمخشري: ومِن بِدَعِ التفاسير: فوقع في قلوبهم، أي: فأثَّر فيها، من قولهم: فأسٌ وقيعٌ، أي: محدَّد[٤]. انتهى.

و«ما كانوا يعملون» يعمُّ سحرَ السَّحرة وسَعْيَ فرعون وشيعته.

﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: غُلب جميعُهم في مكان اجتماعهم، أو: ذلك الوقت، وانقلبوا أذلَّاءَ، وذلك أنَّ الانقلاب إن كان قبل إيمان السحرة فهم شركاؤهم في ضمير «انقلبوا»، وإن كان بعد الإيمان فليسوا داخلين في الضمير، ولا لَحِقَهم صَغارٌ يصفهم الله به؛ لأنهم آمنوا واسْتُشْهِدوا، وهذا إذا كان الانقلابُ حقيقةً، أمَّا إذا لوحِظَ فيه معنى الصيرورةِ فالضميرُ في «وانقلبوا» شاملٌ للسحرة وغيرهم، ولذلك فسَّره الزمخشريُّ: بقوله: وصاروا أذلَّاءَ مبهوتين[٥].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٣.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٤٠ عن ابن عباس بلفظ: استبان، وتفسير الرازي ٤/ ٢٠٥ عن الحسن بلفظ: ظهر، وبهذا اللفظ أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٠ عن مجاهد.

(٣) هو عبد الجبار المعتزلي، ونقل المصنف كلامه من تفسير الرازي ١٤/ ٢٠٥، وما قبله منه.

(٤) الكشاف ٢/ ١٠٣، وليس في مطبوعه: أي محدد.

(٥) المصدر السابق.

﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ لما كان الضمير قبلُ مشترَكاً جُرِّد المؤمنون وأُفرِدوا بالذِّكر، والمعنى: خرُّوا سجَّداً كأنما ألقاهم مُلْقٍ لشدة خُرورهم.

وقيل: لم يتمالَكُوا ممَّا رأوا فكأنهم أُلقوا.

وسجودُهم كان لله تعالى لمَا رأوا من قدرة الله تعالى، فتيقَّنوا نبوَّةَ موسى عليه السلام، واستَعْظَموا هذا النوعَ من قدرة الله تعالى.

وقيل: ألقاهم الله سُجَّداً، سبَّب لهم من الهدى ما وقعوا به ساجدين.

وقيل: سجدوا موافَقَةً لموسى وهارون، فإنهما سَجَدا لله شكراً على وقوع الحق، فوافقوهما إذ عرفوا الحقَّ فكأنما ألقياهم.

قال قتادةُ: كانوا أولَ النهار كفاراً سحرةً وفي آخره شهداءَ بَرَرَةً.

وقال الحسن: تَراه وُلد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينَه بكذا وكذا، وهؤلاء كفارٌ نشؤوا في الكفر بذلوا أنفسهم لله تعالى[1].

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ أي: ساجدين قائلين، فـ«قالوا» في موضع الحال من الضمير في «ساجدين»، أو من «السحرة»، وعلى التقديرين فهم مُلْتبِسون بالسجود لله شكراً على المعرفة والإيمان، وبالقول المُنْبِئ عن التصديق الذي محلُّه القلوب.

ولمَّا كان السجودُ أعظمَ القُرَبِ -إذ أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ- بادَروا به مُلْتبِسينَ بالقول الذي لا بدَّ منه عند القادر عليه، إذ الدخولُ في الإيمان إنما يدلُّ عليه القولُ، وقالوا: «ربِّ العالمين» وفاقاً لقول موسى: «إنِّي رسولٌ من ربِّ العالمين»، ولمَّا كان قد يُوْهِمُ هذا اللفظُ غيرَ الله تعالى كقول فرعون: «أنا ربكم الأعلى»، نصُّوا بالبدل على أنَّ ربَّ العالمين: ربُّ موسى وهارون، وأنهم فارَقوا فرعون وكفروا بربوبيته.

والظاهرُ أن قائل ذلك جميعُ السحرة، وقيل: بل قاله رؤساؤهم، وسمَّى ابنُ

(١) القولان في الكشاف ٢/١٠٣-١٠٤، وقول قتادة أخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٣٦٤-٣٦٥.

إسحاق منهم الرؤساء، فقال: هم سابورُ وعازورُ وحطحط ومُصَفًّى[١]. وحكاه ابن ماكولا أيضًا[٢].

وقال مقاتل: أكبرهم شمعون[٣].

وبدؤوا بموسى قبل هارون وإن كان هارون أكبرَ سنًّا من موسى ـ قيل: بثلاث سنين ـ لأن موسى هو الذي ناظَرَ فرعون، وظهرت المعجزتان في يده وعصاهُ، ولأن قوله: «وهارون» فاصلة، وجاء في «طه»: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [الآية: ٧٠] لأن «موسى» فيها فاصلةٌ، ويحتمل وقوعُ كلِّ قولٍ منهما مرتَّبًا من طائفةٍ وطائفةٍ، فنُسِبَ فعلُ بعضٍ إلى المجموع في سورة، وبعضٍ إلى المجموع في أخرى.

قال المتكلِّمون[٤]: وفي الآية دلالةٌ على فضيلة العلم؛ لأنّهم لمَّا كانوا كاملينَ في علم السحر عَلِموا أن ما جاء به موسى حقٌّ خارجٌ عن جنس السحر، ولولا العلمُ لتوهَّموا أنه سحرٌ، وأنه أسحرُ منهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ قرأ حفصٌ: «آمنتم» على الخبر في كلِّ القرآن، أي: فعلتُم هذا الفعلَ الشنيع، وبَّخهم بذلك وقرَّعهم، وقرأ العَرَبيان ونافعٌ والبَزِّيُّ بهمزةِ استفهام ومَدَّةٍ بعدها مطوَّلةٍ في تقدير ألِفين، إلا وَرْشًا فإنه يسهِّل الثانية، ولم يُدخِلْ أحدٌ ألِفًا بين المحقَّقة والمليِّنة، وكذلك في «طه» و«الشعراء»، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر فيهنَّ بالاستفهام وحقَّقا الهمزةَ، وبعدهما ألفٌ، وقرأنا لقُنْبُلٍ هنا بإبدال همزة الاستفهام واوًا لضمة نونِ «فرعون» وتحقيقِ الهمزة بعدها، أو تسهيلها، أو إبدالها، أو إسكانِها، أربعةُ أوجُه، وقرأ في «طه» مِثْلَ حفصٍ، وفي «الشعراء» مِثْلَ البَزِّي[٥].

(١) تاريخ الطبري ١/ ٤٠٨، وزاد المسير ٣/ ٢٤١، والاسمان الأوَّلان فيهما: ساتور وعاذور، ومثله في توضيح المشتبه ٥/ ٢٦٧، وأما سابور وعازور، فقد حكاهما ابن الجوزي عن غير ابن إسحاق.

(٢) في الإكمال ٤/ ٢٤٩، وفيه أيضاً: ساتور وعاذور، والكلام من زاد المسير ٣/ ٢٤١.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٤١.

(٤) كما في تفسير الرازي ١٤/ ٢٠٥-٢٠٦.

(٥) ذكر هذه القراءات الداني في التيسير ص١١٢، إلا أنه لم يذكر تسهيل الثانية لورش، كما أنه لم يذكر عن قنبل في هذه الآية سوى حالة واحدة، وهي أنه كان يبدل في حال الوصل من همزة الاستفهام واواً مفتوحة، ومن بعدها مدة في تقدير ألفين. وينظر السبعة ص٢٩٠-٢٩١.

وهذا الاستفهام معناه الإنكارُ والاستبعاد، والضميرُ في «به» عائدٌ على الله تعالى، لقولهم: «قالوا آمنا برب العالمين»، وقيل: يحتملُ أن يعود على «موسى»، وفي «طه» و«الشعراء» يعود في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩] على موسى لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾. وقيل: آمنتُ به، وآمنتُ له، واحدٌ.

وفي قوله: «قبلَ أن آذنَ لكم» دليلٌ على وَهْنِ أمرِه؛ لأنه إنما جَعَل ذَنْبهم بمفارقة الإذن ولم يجعله نفسَ الإيمان إلا بشرط.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: إنَّ صُنْعَكم هذا لحيلةٌ احْتَلْتُموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تَخْرجوا منها إلى هذه الصحراء، وتواطأْتُم على ذلك لغَرَضٍ لكم، وهو أنْ تُخرِجوا منها القِبْطَ وتُسكنوا بني إسرائيل، قال هذا تمويهًا على الناس لئلَّا يتَّبعوا السحرة في الإيمان.

رُوي عن ابن مسعود وابن عباس أنَّ موسى عليه السلام اجتمع مع رئيس السحر شمعون، فقال له موسى: أرأيتَ إن غلبتُكم، أتؤمنون بي؟ فقال له: نعم، فعلم بذلك فرعونُ فقال ما قال[١]. انتهى.

ولمَّا خاف فرعونُ أن يكون إيمانُ السحرة حجة قومه ألقى في الحال نوعين من الشُّبَهِ[٢]:

أحدهما: أن هذا تواطؤٌ منهم، لا أن ما جاء به حقٌّ.

والثاني: أن ذلك طلبٌ منهم للمُلْكِ.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣﴾ تهديدٌ ووعيدٌ، ومفعولُ «تعلمون» محذوفٌ، أي: ما يحلُّ بكم، أَبْهَمَ في متعلَّق «تعلمون» ثم عيَّن ما يفعله بهم فقال مُقْسِمًا:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤﴾ لمَّا ظهرت الحجةُ عاد إلى عادة ملوك السوء إذا غُلبوا من تعذيب مَن ناوأهم[٣] وإن كان محقًّا، ومعنى «من

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٢.

(٢) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): الشبهة.

(٣) في النسخ عدا (د١): نافاه، والمثبت من (د١) والمطبوع والنهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٦٥.

خلاف»، أي: يد يمنى ورجل يسرى، والعكس، قيل: وهو أولُ من فَعَلَ هذا[١].

وقيل: المعنى: من أجل الخلاف الذي ظهر منكم.

والصَّلب: التعليقُ على الخشب.

وهذا التوعُّدُ الذي توعَّدَه فرعونُ السحرةَ ليس في القرآن نصٌّ على أنه أَنْفَذَه وأوقَعَه بهم، ولكن رُوي في القصص أنه قطع بعضًا وصلَّب بعضًا، وتقدَّم قولُ قتادة[٢]، وروي عن ابن عباس أنهم أصبحوا سحرةً وأمسَوْا شهداء[٣].

وقرأ مجاهدٌ وحميدٌ المكيُّ وابنُ مُحَيْصِنٍ: «لأَقْطَعَنَّ» مضارع قَطَع الثلاثي «ولأَصْلُبنكم» مضارعُ صَلَبَ الثلاثي بضمِّ لام «لأصلبنكم»، ورُوي بكسرها[٤].

وجاء هنا «ثم لأصلِّبَنَّكم» وفي السورتين: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩] بالواو، فدلَّ على أنَّ الواو أُريدَ بها معنى «ثم» من كون الصلب بعد القطع، والبَعْدِيةُ قد يكون معها مُهْلَةٌ وقد لا يكون.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ هذا تسليمٌ واتِّكالٌ على الله تعالى، وثقةٌ بما عنده، والمعنى: إنَّا نَرْجعُ إلى ثواب ربِّنا يومَ الجزاء على ما نلقاه من الشدائد، أو: إنَّا ننقلبُ إلى لقاء ربِّنا ورحمته وخلاصِنا منك ومن لقائك، أو: إنَّا ميِّتون منقلبون إلى الله فلا نبالي بالموت، إذ لا تقدِرُ أن تفعل بنا إلَّا ما لا بدَّ لنا منه.

فالانقلابُ الأول يكون المرادُ به يومَ الجزاء، وهذان الانقلابان المرادُ بهما في الدنيا.

ويَبْعدُ أن يراد بقوله: «وإنَّا» ضميرُ أنفسهم وفرعونَ، أي: ننقلبُ إلى الله جميعًا فيحكُمُ بيننا؛ لقوله بعدُ: «وما تَنْقِمُ منَّا» فإنَّ هذا الضميرَ يخصُّ مؤمني السَّحرة، والأَوْلى اتِّحادُ الضمائر، والذي أجاز هذا الوجهَ هو الزمخشريُّ[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٣ عن ابن عباس ﵄.
(٢) قريبًا عند قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.
(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٤.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٠، وهي في القراءات الشاذة ص٤٥ مضبوطة بكسر اللام.
(٥) في الكشاف ٢/ ١٠٤، وأجاز الزمخشري الوجوه الثلاثة الأولى أيضاً.

وفي قولهم: «إلى ربِّنا» تبرُّؤٌ من فرعون ومن ربوبيته، وفي «الشعراء»: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الآية: ٥٠] لأن هذه السورة اختُصرت فيها القصةُ وأُشبِعت في «الشعراء»؛ ذَكَر فيها أحوالَ فرعونَ من أوّلها إلى آخرها، فبدأ بقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الآية: ١٨] وختم بقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ [الآية: ٦٦] فوقع فيها زوائدُ لم تقع في هذه السورة ولا في «طه»، قاله الكرماني[(١)].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ قال الضحاك: وما تطعَنُ علينا. وقال غيره: وما تكره منَّا[(٢)].

وقال الزمخشري: وما تَعيبُ منّا[(٣)].

وقال ابن عطية: وما تَعُدُّ علينا ذنبًا وتُؤاخِذُنا به[(٤)].

وعلى هذه التأويلاتِ يكون قولُه: «إلّا أن آمنا» في موضع المفعول، ويكون من الاستثناء المفرَّغ من المفعول، وجاء هذا التركيبُ في القرآن كقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ [المائدة: ٥٩]، ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ [البروج: ٨].

وهذا الفعلُ في لسان العرب يتعدَّى بـ«على»، تقول: نَقَمْتُ على الرجل أَنْقِمُ: إذا عِبْتَ عليه فِعْلَه، والذي يظهر من تَعْديته بـ«مِن» أنَّ المعنى: وما تنقم منَّا، أي: ما تنال منَّا، كقوله: ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] أي: يناله بمكروهٍ، ويكون فَعَلَ وافْتَعَلَ فيه بمعنًى واحدٍ كـ: قَدَر واقْتَدَر، وعلى هذا يكون قوله: «إلّا أنْ آمنّا» مفعولًا من أَجْله استثناءً مفرَّغًا، أي: ما تنالُ منَّا وتعذِّبنا لشيءٍ من الأشياء إلّا لأن آمنا بآيات ربِّنا، وعلى هذا المعنى يدلُّ تفسير عطاء؛ قال عطاء: أي: ما لنا عندك ذنبٌ تعذِّبنا عليه إلا أنّا آمنّا[(٥)].

والآيات: المعجزات التي أَتَى بها موسى عليه السلام، ومَن جَعَل «لمّا» ظرفًا

---

(١) في أسرار التكرار في القرآن ص٩١.
(٢) القولان في تفسير البغوي ٢/ ١٨٩.
(٣) الكشاف ٢/ ١٠٤.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.
(٥) تفسير البغوي ٢/ ١٨٩.

جَعَلَ العامل فيها «أنْ آمنَّا»، ومَن جعلها حرفًا جَعَل جوابها محذوفًا لدلالة ما قبله عليه، أي: لمَّا جاءتنا آمنا.

وفي كلامهم هذا تكذيبٌ لفرعون في ادِّعائه الربوبيةَ، وانسلاخٌ منهم عن اعتقادهم ذلك فيه، والإيمان بالله هو أصلُ المفاخرِ والمناقب، وهذا الاستثناء شبيهٌ بقوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهم بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائب[١]

وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو اليسر هاشم[٢] وابن أبي عبلة: «وما تَنْقَم» بفتح القاف مضارع نَقِمَ بكسرها، وهما لغتان، والأفصحُ قراءةُ الجمهور.

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ لمَّا أوْعَدَهم بالقطع والصَّلْب سألوا الله تعالى أن يرزقهم الصبرَ على ما يَحِلُّ بهم إن حَلَّ، وليس في هذا السؤالِ ما يدل على وقوع المُوْعَدِ بهم، خلافًا لمن قال: يدلُّ على ذلك. ولا في قوله: «وتوفَّنا مسلمين» دليلٌ على أنه لم يحلَّ بهم الموعودُ خلافًا لمن قال: يدل على ذلك؛ لأنهم سألوا الله أن يكون توفِّيهم من جهته لا بهذا القطع والقتل، وتقدَّم الكلام على جملة «ربَّنا أفرِغْ علينا صبرًا»[٣]، سألوا الموتَ على الإسلام، وهو الانقيادُ إلى دين الله وما أَمَر به.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ قال ابن عباس: لمَّا آمنت السحرةُ اتَّبع موسى ستُّ مئة ألفٍ من بني إسرائيل[٤].

قال مقاتل: ومكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عامًا أو نحوَه يُريهم الآيات[٥].

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١.

(٢) كذا في النسخ: وأبو اليسر هاشم، وهو تحريف، والصواب: وأبو البرهسم، كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣١، وكذا نسبها ابن عطية عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ [المائدة: ٥٩] لأبي البرهسم، ونقل ذلك عنه المصنف عند تفسير تلك الآية. والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٥ عن يحيى وإبراهيم وأبي حيوة.

(٣) عند تفسير الآية (٢٥٠) من سورة البقرة.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٧١.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.

وتضمَّن قولُ الملأ إغراءَ فرعون بموسى وقومِه، وتحريضَه على قتلهم أو تعذيبهم حتى لا يكون لهم خروجٌ عن دين فرعون، ويُعْنَى بقومه مَن اتَّبعه من بني إسرائيل، فيكون الاستفهام على هذا استفهامَ إنكارٍ وتعجُّبٍ.

وقيل: هو استخبارٌ، والغرضُ به أن يعلموا ما في قلب فرعون من موسى ومَن آمَنَ به.

قال مقاتل: والإفسادُ هو خوفُ أن يَقتلوا أبناء القِبْطِ ويَسْتَحيوا نساءهم على سبيل المُقَاصَّةِ منهم، كما فعلوا هم ببني إسرائيل.

وقيل: الإفساد: دعاؤهم الناسَ إلى مخالفة فرعونَ وتركِ عبادته.

وقرأ الجمهور: «ويَذَرَكَ» بالياء وفتح الراء عطفًا على «لِيُفْسِدوا»، أي: للإفساد ولتركك وتركِ آلهتك، وكأنَّ التركَ هو لذلك[1]، وبَدَؤوا أولًا بالعلَّة العامَّة وهي الإفساد، ثم أتْبَعوه بالخاصة ليدلُّوا على أنَّ ذلك التركَ من فرعون لموسى وقومِه هو أيضًا يَؤُولُ إلى شيءٍ يختصُّ بفرعون، قَدَحوا بذلك زَنْدَ تغيُّظه على موسى وقومه ليكون ذلك أبقى عليهم؛ إذ هم الأشرافُ، وبترك موسى وقومِه بمصر يذهبُ ملكهم وشرفُهم.

ويجوز أن يكون النصب على جواب الاستفهام، والمعنى: أنَّى يكونُ الجمع بين تركك موسى وقومِه للإفساد وبين تَرْكِهم إياك وعبادةَ آلهتِك، أي: إنَّ هذا ممَّا لا يمكنُ وقوعُه.

وقرأ نعيم بن ميسرة والحسن بخلاف عنه: «ويذرُك» بالرفع عطفًا على «أتذر»[2] بمعنى: أتذرُه ويَذَرُك؟ أي: أتُطْلِقُ له ذلك؟ أو على الاستئناف، أو على الحال على تقدير: وهو يذرُك.

وقرأ الأشهب العقيلي والحسن بخلافٍ عنه: «ويَذَرْك» بالجزم[3] عطفًا على

---

(١) أي: إذا تركهم ولم يمنعهم وكان ذلك مؤدِّياً إلى ما دَعَوْه فساداً، وإلى تركه وترك آلهته، فكأنه تركهم لذلك الكشاف ٢/ ١٠٤.

(٢) المحتسب ١/ ٢٥٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٦٧، وهي في الكشاف ٢/ ١٠٤ دون نسبة.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٥، والمحتسب ١/ ٢٥٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤١، والكشاف ٢/ ١٠٤.

التوهُّم، كأنه تَوَهَّمَ النطقَ: يُفسدوا، جزمًا على جواب الاستفهام، كما قال: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠][(١)]، أو على التخفيف من «ويَذَرْك».

وقرأ أنس بن مالك: «ونَذَرُكَ» بالنون ورَفْعِ الراء[(٢)]، توعَّدوه بتركه وتركِ آلهته، أو على معنى الإخبار، أي: إنَّ الأمر يَؤُولُ إلى هذا.

وقرأ أبيٌّ وعبد الله: «في الأرض وقد تركوكَ أنْ يعبدوكَ وآلهتك»، وقرأ الأعمش: «وقد تَرَكَكَ وآلهتك»[(٣)].

وقرأ الجمهور: «وآلهتك» على الجمع، والظاهرُ أنَّ فرعون كان له آلهةٌ يعبدُها، وقال سليمان التيمي: بلغني أنه كان يعبد البقر، وقيل: كان يعبد حجرًا يعلِّقه في صدره كياقوتة أو نحوِها[(٤)].

وقيل: الإضافةُ هي على معنى أنه شَرَعَ لهم عبادةَ آلهةٍ من بقرٍ وأصنامٍ وغيرِ

---

(١) أي: كأنه قيل: أصدَّقْ وأكنْ، وعلى هذا أعربها الخليل كما نقل عنه سيبويه في الكتاب ٣/ ١٠٠-١٠١، قال: لمَّا كان الفعل الذي قبله قد يكون جزماً ولا فاء فيه، تكلموا بالثاني وكأنهم جزموا قبله، فعلى هذا توهَّموا هذا. وشبَّهها بقول زهير:

بدا لي أني لستُ مُدْرِكَ ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائيا

قال: فإنما جرُّوا هذا (أي: سابقٍ) لأن الأول (أي: مدركَ) قد يدخله الباء، فجاؤوا بالثاني وكأنهم قد أثبتوا في الأول الباء.

وقال الزركشي في البرهان ٤/ ١١٢ عند كلامه على وجوه تخريج الجزم في «وأكنْ»: والتحقيق قول سيبويه: هو على توهُّم أن الفاء لم ينطق بها، واعلم أن بعضهم قد شنَّع القول بهذا في القرآن على النحويين وقال: كيف يجوز التوهم في القرآن؟! وهذا جهل منه بمرادهم؛ فإنه ليس المراد بالتوهم الغلط، بل تنزيل الموجود منه منزلة المعدوم ـ كالفاء في قوله تعالى: «فأصدقَ» ـ ليبنى على ذلك ما يقصد من الإعراب.

(٢) كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١، وقيَّدها الزمخشري في الكشاف ٢/ ١٠٤بنصب الراء، وهي في القراءات الشاذة ص٤٥ دون تقييد برفع أو نصب.

(٣) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.

(٤) كلا القولين مرويٌّ عن سليمان التيمي، كما في تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٣٨، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ١٥. والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١. والقول الأول أخرجه الطبري عن ابن عباس، والثاني أخرجه عن الحسن. تفسير الطبري ١٠/ ٣١٧.

ذلك، وجَعَلَ نفسَه الإلهَ الأعلى، فقوله على هذا: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] إنما هو بمناسبةٍ بينه وبين سواه من المعبودات(١).

قيل: كانوا قبطًا يعبدون الكواكبَ، ويزعمون أنها تستجيبُ دعاءَ مَن دعاها، وفرعونُ كان يدَّعي أن الشمس استجابت له وملَّكته عليهم.

وقرأ ابنُ مسعودٍ وعليٌّ وابنُ عباس وأنسٍ وجماعة غيرهم: «وإلهتَكَ»(٢)، وفسَّروا ذلك بأمرين:

أحدهما: أن المعنى: وعبادتُك، فيكون إذ ذاك مصدرًا؛ قال ابن عباس: كان فرعون يُعبَدُ ولا يَعْبُدُ(٣).

والثاني: أن المعنى: ومعبودَك، وهي الشمسُ التي كان يعبدها، والشمسُ تسمَّى: إلهةَ، عَلَمًا عليها ممنوعةَ الصرف.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ وإنما لم يعاجِلْ موسى وقومَه بالقتال لأنه كان مُلِئَ من موسى رعبًا، والمعنى أنه قال: سنُعيد عليهم ما كنَّا فعلنا بهم قبلُ من قتل أبنائهم؛ ليَقِلَّ رَهْطُه الذين يقعُ الإفساد بواسطتهم، والفوقيةُ هنا بالمنزلة والتمكُّنِ في الدنيا، «وقاهرون» يقتضي تحقيرَهم، أي: قاهرون لهم(٤) فهم أقلُّ من أن نهتمَّ بهم(٥)، فنحن على ما كنَّا عليه من الغلبة، أو إنَّ غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلا يتوهَّم العامةُ أنه المولودُ الذي تحدَّث المنجِّمون والكهنةُ بذهاب ملكنا على يده، فيثبِّطُهم ذلك عن طاعتنا، ويَدْعُوهم إلى اتِّباعه وأنه منتظَرٌ بعدُ.

وشدَّد «سنقتِّل» و«يقتِّلون» الكوفيون والعربيان وخفَّفهما نافعٌ، وخفَّف ابن كثير «سنَقْتُل» وشدَّد «ويقتِّلون»(٦).

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.
(٢) القراءات الشاذة ص٤٥، والمحتسب ١/ ٢٥٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.
(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٨-٣٦٩، وأخرج عنه أيضاً في الموضع نفسه أنه قال: «ويذرك وإلاهتك» قال: يترك عبادتك.
(٤) في (د١) والمطبوع: قهراً.
(٥) في (يه): نهتم لهم، وفي (ز١): يهتم بهم.
(٦) السبعة ص٢٩١-٢٩٢، والتيسير ص١١٢-١١٣.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوٓاْ﴾ لمَّا توعَّدهم فرعونُ جَزِعوا وتضجَّروا، فسكَّنهم موسى عليه السلام، وأمرهم بالاستعانة بالله وبالصبرِ، وسَلَّاهم ووعَدَهم النصرَ، وذكَّرهم ما وَعَدَ الله بني إسرائيل من إهلاك القِبْطِ وتوريثِهم أرضَهم وديارَهم: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: أرض مصر، و«أل» فيه للعهد، وهي الأرضُ التي كانوا فيها.

وقيل: «الأرض» أرضُ الدنيا، فهي على العموم.

وقيل: المراد: أرض الجنة؛ لقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

وتعدَّى «استعينوا» هنا بالباء، وفي ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ بنفسه، وجاء: «اللهم إنَّا نستعينك»[(١)].

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ قيل: النصرُ والظَّفرُ. وقيل: الدارُ الآخِرة. وقيل: السعادةُ والشهادة. وقيل: الجنة.

وقال الزمخشري: الخاتمةُ المحمودةُ للمتقين منهم ومن القِبْط، وإنَّ المشيئة متناوِلةٌ لهم[(٢)]. انتهى.

وقرأت فرقة: «يُوْرَثُها» بفتح الراء[(٣)].

وقرأ الحسن: «يوَرِّثُها» بتشديد الراء على المبالغة، ورُويت عن حفص[(٤)].

وقرأ ابن مسعود وأبيٌّ: و«العاقبةَ» بالنصب عطفًا على «إنَّ الأرض»[(٥)].

وفي وَعْدِ موسى تبشيرٌ لقومه بالنصر وحُسْنِ الخاتمة، ونتيجةُ طلبِ الإعانة

---

(١) قطعة من قنوت عمر وعلي وأبي بن كعب ﷺ، أخرج ذلك عنهم عبد الرزاق (٤٩٦٨) و(٤٩٦٩) و(٤٩٧٠) و(٤٩٧٨).

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢، وجاء في القراءات الشاذة ص٤٥: «يُورَثُها مَن تشاء»: ابن أبي ليلى.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٥، والمحرر ٢/ ٤٤٢.

(٥) ينظر التعليق السابق.

توريثُ الأرض لهم، ونتيجةُ الصبر العاقبةُ المحمودةُ والنصرُ على مَن عاداهم، فلذلك كان الأمر بشيئين ينتج عنهما شيئان.

قال الزمخشريُّ: فإن قلتَ: لمَ أُخليت هذه الجملةُ عن الواو وأُدخلت على الذي قبلها؟ قلتُ: هي جملةٌ مبتدأةٌ مستأنفةٌ، وأمَّا: «وقال الملأ» فمعطوفةٌ على ما سَبَقها من قوله: «قال الملأُ من قومِ فرعون»[١]. انتهى.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ أي: بابتلائنا بذبح أبنائنا مخافةَ ما كان يَتوقَّعُ فرعونُ من هلاك مُلْكِه على يد المولود الذي يولَدُ منّا، «من قَبْلِ أن تأتينا»، قال الزمخشريُّ: من قَبْلِ مولد موسى إلى أنْ استُنْبِئ[٢]، «ومن بعد ما جئتنا»: إعادةُ ذلك عليهم، قاله ابن عباس[٣]، وزاد الزمخشريُّ: وما كانوا يُستعبدون به ويُمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن، ويُمسُون به من العذاب[٤]. انتهى.

وقال ابن عطية: والذي من بعد مجيئه يَعْنُون به وعيدَ فرعون وسائرَ ما كان خلال تلك المدَّة من الإخافة لهم[٥].

وقال الحسن: بأَخْذِ الجزية منهمْ قبل بَعْثِ موسى إليهم، وبعد بَعْثِه ما زاد على ذلك.

وقال الكلبي: كانوا يَضربون له اللَّبِنَ، ويعطيهم التبنَ، فلما جاء موسى غرَّمهم التبنَ، وكان النساء يَغْزِلْن له الكتانَ ويَنْسُجْنَه.

وقال جُوَيْبر: استسخرهم من قبل إتيان موسى في أول النهار إلى نصف النهار، فلمَّا جاء موسى استسخرهم النهار كلَّه بلا طعامٍ ولا شراب.

وقال علي بن عيسى: من قبلُ بالاستعباد وقتلِ الأولاد، ومن بعدُ بالتهديد والإبعاد. ورُوي مِثْلُه عن عِكْرِمة.

(١) الكشاف ٢/ ١٠٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٩٠.
(٤) الكشاف ٢/ ١٠٥.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢.

وقيل: من قبل أن تأتينا بعهد الله بالخلاص، ومن بعد ما جئتنا به، قالوه في معرض الشكوى من فرعون واستعانةً عليه بموسى[(١)].

وقال ابن عباس والسدِّي: قالوا ذلك حين اتَّبعهم فرعون واضْطَرَّهم إلى البحر، فضاقت صدورُهم ورأوا بحرًا أمامهم وعدوًّا كثيفًا وراءهم[(٢)]، لمَّا أسرى بهم موسى حتى هجموا على البحر، التفتوا فإذا هم بِرَهَج دوابِّ فرعون، فقالوا هذه المقالة، وقالوا: هذا البحر أمامنا وهذا فرعونُ وراءنا قد رَهِقَنا بمن معه[(٣)]. انتهى.

وهذا القولُ فيه بعدٌ، وسياقُ الآيات يدلُّ على الترتيب، وقد جاء بعد هذه: «ولقد أخذنا آلَ فرعون بالسنين».

قال ابن عطية: وهو كلامٌ يجري مع المعهود من بني إسرائيلَ: من اضطرابهم على أنبيائهم، وقلَّةِ يقينهم وصبرِهم على الدِّين[(٤)]. انتهى.

قيل: ولا يدلُّ قولُهم ذلك على كراهة مجيءِ موسى؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى الكفر، وإنما قالوه لأنه كان وَعَدَهم بزوال المضارِّ، فظنُّوا أنها تَزول على الفور، فقولهم ذلك استعطافٌ لا نُفرةٌ.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ هذا رجاءٌ من نبيِّ الله موسى عليه السلام، ومِثْلُه من الأنبياء يُقوِّي قلوبَ أتباعهم فيصبرون إلى وقوع متعلَّق الرَّجاء، ولا تَنَافيَ بين هذا الرجاء وبين قوله: «والعاقبةُ للمتقين» مِن حيث إنَّ الرجاء غيرُ مقطوع بحصول متعلَّقِهِ، والإخبارَ بأنَّ العاقبة للمتقين واقعٌ لا محالة ـ لأنَّ العاقبة إن كانت في الآخِرة فظاهرٌ جدًّا عدمُ التنافي، وإنْ كانت في الدنيا فليس فيها تصريحٌ بعاقبة هؤلاء القوم المخصوصين، فسَلك موسى طريقَ الأدب مع الله، وساق الكلامَ مَساقَ الرجاء.

(١) ذكر هذه الأقوال عدا قول عكرمة الماورديُّ في النكت والعيون ٢/ ٢٤٩-٢٥٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢.
(٣) من قوله: لما أسرى بهم موسى...، إلى هنا هو لفظ خبر ابن عباس عند الطبري ١٠/ ٣٧٣.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢.

وقال التبريزي: يحتمل أن يكون قد أُوْحِيَ بذلك إلى موسى فـ«عسى» للتحقيق، أو لم يُوْحَ فيكون على الترجِّي منه.

قال الزمخشري: تصريحٌ بما رَمَزَ إليه من البشارة قبلُ، وكشفٌ عنه، وهو إهلاكُ فرعونَ واستخلافُهم بعده في أرض مصر[١].

وقال ابن عطية: واستعطافُ موسى لهم بقوله: «عسى ربُّكم أن يُهلك عدوَّكم» ووَعْدُه لهم بالاستخلاف في الأرض، يدلُّ على أنه يستدعي نفوسًا نافرةً، ويُقوِّي هذا الظنَّ في جهةِ بني إسرائيلَ سلوكُهم هذه السبيلَ في غير قصة[٢].

و«الأرض» هنا: أرضُ مصر؛ قاله ابن عباس[٣]. وقد حقَّق الله هذا الرجاءَ بوقوع متعلَّقه، فأغرقَ فرعون وملَّكهم مصر زمانَ داودَ وسليمان.

وقيل: أرضُ الشام، فقد فتحوا بيتَ المقدس مع يُوْشَعَ ومَلَكوا الشامَ زمانَ داودَ وسليمان.

ومعنى «فينظر كيف تعملون» أي: في استخلافكم من الإصلاح والإفساد، وهي جملةٌ تجري مجرى البعث والتحريض على طاعة الله تعالى، وفي الحديث: «إن الدنيا حلوةٌ خَضِرة، وإنَّ الله مستَخْلِفُكم فيها فناظرٌ كيف تعملون»[٤].

وقال الزمخشريُّ: فيرى الكائنَ منكم من العمل حَسَنِه وقبيحِه، وشكرَ النعمة وكفرانَها، ليجازيَكم على حسب ما يوجد منكم[٥]. انتهى، وفيه تلويح الاعتزال.

ودخل عمرو بنُ عبيد ـ وهو أحدُ كبار المعتزلة وزُهَّادِهم ـ على المنصور ثاني خلفاءِ بني العباس قبل الخلافة وعلى مائدته رغيفٌ أو رغيفان، فطلب زيادةً لعمرو

(١) الكشاف ٢/ ١٠٥.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢.
(٣) زاد المسير ٣/ ٢٤٦.
(٤) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٢٧٤٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.
(٥) الكشاف ٢/ ١٠٥.

فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعدما استُخْلِفَ فذكر له ذلك، وقال: قد بقي: «فينظرَ كيف تعملون»(١).

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ الأخـذُ: التناولُ باليد، ومعناه هنا: الابتلاءُ في المدَّة التي كان أقام بينهم موسى يدعوهم إلى الله، ومعنى «بالسنين» بالقُحُوط والجُدوب، والسنةُ تُطْلَقُ على الحول وتُطلق على الجَدْب ضدِّ الخِصْبِ، وبهذا المعنى تكون من الأسماء الغالبة كالنجم والدَّبَران(٢)، وقد اشتقُّوا منها بهذا المعنى فقالوا: أَسْنَتَ القومُ: إذا أَجْدَبوا، ومنه قولُه:

ورجـالُ مـكـةَ مُـسْـنِـتـونَ عِـجـافُ(٣)

أي: مجدبون. وقال حاتم:

فـإنَّـا نُـهـيـنُ الـمـالَ من غيـرِ ضِـنَّـةٍ ... ولا يَشْتكينا في السنين ضَرِيرُها(٤)

وفي «سنين» لغتان: شُهْراهما إعرابُها بالواو رفعًا والياء جرًّا ونصبًا، وقد تكلَّف النحاةُ علةً لكونها جُمعت هذا الجمعَ، والأخرى جَعْلُ الإعراب في النون والتزامُ الياء في الأحوال الثلاثة، نقلها أبو زيد والفرَّاء(٥)، وقال الفرَّاء: هي في هذه اللغة

(١) المصدر السابق، وروى ابن الجوزي في المنتظم ٧/ ٣٣٩ نحو هذه القصة على أنها جرت بين عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي والمنصور.

(٢) النجم: الثريا، وأصله: نجم، لواحد النجوم، ثم أُدخل عليه الألف واللام، فقالوا: النجم، لأيِّ نجم كان؛ بين المتخاطبَيْنِ فيه عهدٌ، ثم غلب على الثريا لكثرة الاستعمال، وكذلك الدبران أصله مأخوذ من دبر: إذا تأخر، ثم غلب على نجم مخصوص، وسمي دَبرانًا لأنه يَدْبُر الثريا، وهو من منازل القمر، وزعموا أن الدبران جاء خاطبًا للثريا وساق مهرها كواكب صغارًا معه تسمى: القلاص. ينظر شرح المفصل لابن يعيش ١/ ٤١-٤٢، واللسان (دبر).

(٣) وصدره: عمرو الذي هشم الثريد لقومه، وينسب لعبد الله بن الزِّبَعْرَى، وهو في ملحقات ديوانه ص٥٣، ونسب أيضاً لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في المنمَّق لابن حبيب ص١٢، والاشتقاق ص١٣. وعمرو هو هاشم بن عبد مناف، وهو أول من أطعم الثريد بمكة، وسمي هاشماً لهشمه الخبز بمكة لقومه. السيرة النبوية ١/ ١٣٦.

(٤) ديوان حاتم ص٦٢.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٩٢.

مصروفةٌ عند بني عامر وغير مصروفة عند تميم[١]. والكلامُ على ذلك أَمْعَنُ في كتب النحو.

وكان هذا الجدبُ سبعَ سنين، قال ابن عباس وقتادةُ: أمَّا السِّنون فكانت لباديتهم ومواشيهم، وأما نقصُ الثمرات فكان في أمصارهم[٢]. وهذه مسيرةُ الله في الأمم يبتليها بالنِّقم ليَزْدَجِروا ويتذكَّروا بذلك ما كانوا فيه من النِّعم، فإن الشدة تجلبُ الإنابةَ والخشيةَ ورقَّةَ القلب، والرجوعَ إلى طلب لطفِ الله وإحسانه، وكذا فُعِلَ بقريشٍ حين دعا عليهم رسول الله ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنينَ كسِنِي يوسف»[٣]، ورُوي أنه يبس لهم كلُّ شيءٍ حتى نيلُ مصر، ونُقِصوا من الثمرات حتى كانت النخلةُ تحملُ الثمرةَ الواحدة.

ومعنى «لعلهم يذَّكَّرون»: رجاءَ لِتَذَكُّرهم وتَنَبُّهِهِم، على أنَّ ذلك الابتلاءَ، إنما هو لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله فيَزْدَجِروا.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ ابْتُلُوا بالجَدْب ونقصِ الثمرات رجاءَ التذكُّر فلم يقع المرجوُّ، وصاروا إذا أَخْصَبوا وصحُّوا قالوا: نحن أحقَّاءُ بذلك، وإذا أصابهم ما يَسوؤُهم تشاءَموا بموسى وزعموا أنَ ذلك بسببه. واللامُ في «لنا» قيل: للاستحقاق، كما تقول: السَّرْجُ للفَرَس.

وتَشاؤُمُهم بموسى ومَن معه معناه أنه: لولا كونُهم فينا لم يُصِبْنا، كما قال الكفَّار للرسول عليه الصلاة والسلام: هذه من عندك، في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ﴾ [النساء: ٧٨]، وأتى الشرط بـ«إذا» في مجيء الحسنة ـ وهي لِمَا تُيُقِّنَ وجودُه ـ لأن إحسان الله هو المعهودُ الواسعُ العامُّ لخلقِه بحيث إن إحسانه لخلقه عامٌّ حتى في حال الابتلاء، وأتى الشرطُ بـ«إن» في إصابة السيئة ـ وهي للممكن ـ إبرازًا أنَّ إصابة السيئة ممَّا قد يقع وقد لا يقع، وجِهَةُ رحمة الله أوسع.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٥، وفيه: وحكى الفراء عن بني عامر أنهم يقولون: أقمت عنده سنينًا يا هذا، مصروفًا، قال: وبنو تميم يقولون: مضت له سنينُ يا هذا.

(٢) أخرجه عن قتادة الطبري ١٠/ ٣٧٥، وذكره عن ابن عباس الزمخشري ٢/ ١٠٥.

(٣) أخرجه البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الزمخشري: فإن قلتَ: كيف قيل: «فإذا جاءتهم الحسنةُ» بـ«إذا» وتعريفِ الحسنة، «وإن تُصِبْهم سيئة» بـ«إنْ» وتنكير السيئة؟ قلتُ: لأنَّ جنسَ الحسنة وقوعُه كالواجب لكثرته واتِّساعه، وأمَّا السيئة فلا تقع إلا في النُّدْرة، ولا يقعُ إلا يسيرٌ منها، ومنه قولُ بعضهم: وقد عَدَدْتَ أيام البلاء فهلَّا عَدَدْتَ أيام الرخاء[١]. انتهى.

وقرأ عيسى بنُ عمر وطلحةُ بنُ مصرِّفٍ: «تَطَيرَّوا» بالتاء وتخفيف الطاء فعلًا ماضيًا[٢]، وهو جوابُ «وإنْ تُصبهم»، وهذا عند سيبويه مخصوصٌ بالشعر، أعني: أن يكون فعلُ الشرط مضارعًا وفعلُ الجزاء ماضيَ اللفظ، نحو قول الشاعر:

مَن يَكِدْني بسيِّئٍ كنتُ منه   كالشَّجا بين حَلْقِه والوريدِ[٣]

وبعضُ النحويين يجوِّزُه في الكلام. وما رُوي من أن مجاهدًا قرأ: «تشاءَموا»[٤] مكان «يطَّيَّروا» فينبغي أن يُحمل ذلك على التفسير لا على أنه قرآن؛ لمخالفته سوادَ المصحف.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ قال ابن عباس: «طائرُهم»: نَصيبهم، أي: ما طار لهم في القَدَر ممَّا هم لاقُوه، وهو مأخوذٌ من زَجْرِ الطير، سمِّي ما عند الله من القَدَر للإنسان طائرًا لمَّا كان يَعْتقِدُ أنَّ كلَّ ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر، فهي لفظةٌ مستعارةٌ، قاله ابن عطية[٥].

وقال الزمخشري: أي: سببُ خيرِهم وشرِّهم عند الله تعالى، وهو حُكْمُه ومشيئتُه، والله تعالى هو الذي يشاءُ ما يُصيبهم من الحسنة والسيئة، وليس شؤمُ أحدٍ ولا يُمْنُه بسببٍ فيه، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨]، ويَجوزُ أن يكونَ معناه: أَلَا إنما سببُ شؤمهم عند الله، وهو عملُهم المكتوبُ عنده يُجْرى

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٦، وفيه: ... فهل، بدل: فهلا.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٣، وينظر القراءات الشاذة ص٤٥، وقد وقع في مطبوعه: «تِطيروا».
(٣) البيت لأبي زبيد الطائي النصراني كما في الخزانة ٩/ ٧٦، وهو دون نسبة في المقتضب ٢/ ٥٩، والمقرب ١/ ٢٧٥.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٣.
(٥) المصدر السابق، وأخرج الطبري ١٠/ ٣٧٧ عن ابن عباس أنه فسَّر «طائرهم» بقوله: مصائبهم عند الله.

عليهم ما يسوءُهم لأجْله، ويعاقَبون له بعد موتهم بما وَعَدهم الله تعالى في قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾الآية [غافر: ٤٦] ولا طائرَ أشأمُ من هذا[١].

وقرأ الحسن: «ألَا إنَّما طَيْرُهم»[٢].

وحَكَم بنفي العلم على[٣] أكثرهم لأنَّ القليل منهم عَلِمَ، كمؤمنِ آلِ فرعون، وآسيةَ امرأةِ فرعون، وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون الضمير في «طائرهم» الضمير[٤] العالَم، ويجيء تخصيصُ الأكثر على ظاهره، ويحتملُ أن يريد: ولكنَّ أكثرهم ليس قريبًا أن يعلمَ لانغمارهم في الجهل، وعلى هذا فيهم قليلٌ معدٌّ لأنْ يعلمَ لو وفَّقه الله. انتهى، وهما احتمالان بعيدان، وأبعدُ منه قوله: وإمَّا أن يراد الجميع، وتُجوِّز في العبارة[٥].

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ الضمير في «وقالوا» عائدٌ على «آل فرعون»، لم يَزِدْهم الأخذُ بالجدوب ونقصِ الثمرات، إلا طغيانًا وتَشدُّدًا في كفرهم وتكذيبهم، ولم يكتفوا بنسبةِ ما يُصيبهم من السيئات إلى أنَّ ذلك بسبب موسى ومَن معه، حتى واجَهوه بهذا القولِ الدالِّ على أنه لو أتَى بما أتَى من الآيات فإنهم لا يؤمنون بها، وأتوا بـ«مهما» التي تقتضي العمومَ ثم فسَّروا بـ«آية» على سبيل الاستهزاء في تسميتهم ذلك آيةً، كما قالوا في قوله: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧] وتسميتُهم[٦] لها بـ«آية» أي: على زَعْمِك، ولذلك علَّلوا الإتيان بقولهم: «لتسحرنا بها»، وبالغوا في انتفاء الإيمان بأنْ صدَّروا الجملة بـ«نحن»، وأدْخَلوا الباءَ في بـ«مؤمنين»، أي: إنَّ إيمانَنا لك لا يكون أبدًا.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٦.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٣.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع): عن، والمثبت من باقي النسخ، وكلاهما صواب، فـ«على» متعلقة بـ«حكم»، و«عن» تتعلق بـ«نفي».

(٤) في المحرر: لجميع.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٣.

(٦) في النسخ الخطية: وتسميه، والمثبت من النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٧٠.

و«مهما» مرتفعٌ بالابتداء، أو منتصبٌ بإضمار فعلٍ يفسِّرُه فعلُ الشرط، فيكون من باب الاشتغال، أي: أيَّ شيءٍ تُحْضِر تأتنا به، والضمير في «به» عائدٌ على «مهما»، وفي «بها» عائدٌ أيضًا على معنى «مهما»؛ لأنَّ المراد به: أيَّة آيةٍ، كما عاد على «ما» في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] وكما قال زهير:

ومهما تَكُنْ عند امرئ من خليقةٍ وإنْ خالها تَخفَى على الناس تُعْلَم(١)

فأنَّث على المعنى.

قال الزمخشري: وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يُحرِّفها مَن لا يدَ له في علم العربية فيضعُها غيرَ موضعها، ويحسب «مهما» بمعنى «متى ما»، ويقول: مهما جئتني أعطيتُك، وهذا من وَضْعِه وليس من كلام واضعِ العربية في شيء، ثم يذهب فيفسِّر «مهما تأتنا به من آية» بمعنى الوقتِ، فيُلْحِدُ في آيات الله تعالى وهو لا يشعر، وهذا وأمثالُه مما يوجبُ الجثوَّ بين يدي الناظر في كتاب سيبويه(٢). انتهى.

وهذا الذي أنكره الزمخشريُّ من أنَّ «مهما» لا تأتي ظرفَ زمانٍ قد ذهب إليه ابن مالك، ذكره في «التسهيل»(٣) وفي غيره من تصانيفه، إلَّا أنه لم يَقْصُر مدلولَها على أنها ظرفُ زمانٍ، بل قال: وقد تَرِدُ «ما» و«مهما» ظرفي زمانٍ، وقال في أرجوزته الطويلة المسمَّاة بـ: «الشافية الكافية»:

وقد أتت «مهما» و«ما» ظرفين في شواهِدَ مَن يَعتضِدْ بها كُفي

وقال في شرح هذا البيت: جميعُ النحويين يجعلون «ما» و«مهما» مثلَ «مَنْ» في لزوم التجرُّدِ عن الظرف، مع أنَّ استعمالهما ظرفين ثابتٌ في أشعار الفُصحاء من العرب(٤). وأنشد أبياتًا عن العرب زعم فيها أنَّ «ما» و«مهما» ظرفا زمانٍ، وكفانا

(١) ديوان زهير ص٣٢، والكشاف ٢/ ١٠٧، وكلام الزمخشري أوضح من كلام المصنف، حيث قال: والضميران في «به» و«بها» راجعان إلى «مهما»، إلا أن أحدهما ذكِّر على اللفظ، والثاني أنِّث على المعنى؛ لأنه في معنى الآية، ونحوُه قولُ زهير...

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٧.

(٣) ص٢٣٦.

(٤) شرح الكافية الشافية ٣/ ١٦٢٥.

الردَّ عليه فيها ابنُه الشيخُ بدرُ الدِّين محمدٌ[١]، وقد تأوَّلْنا نحن بعضَها، وذكَرْنا ذلك في كتاب «التكميل لشرح التسهيل» من تأليفنا، وكفاه ردًّا نقلُه عن جميع النحويين خلافَ ما قاله، لكن مَن يعاني عِلْمًا يحتاج إلى مثوله بين يدي الشيوخ.

وأمَّا مَن فسَّر «مهما» في الآية بأنها ظرفُ زمانٍ فهو كما قال الزمخشريُّ: مُلْحِدٌ في آيات الله.

وأمَّا قولُ الزمخشريّ: وهذا وأمثالُه... إلى آخر كلامه، فهو يدلُّ على أنه جثا بين يدي الناظر في «كتاب» سيبويه، وذلك صحيحٌ؛ رَحَلَ من خُوارزم في شَبِيبَته[٢] إلى مكةَ شَرَّفها الله تعالى لقراءة «كتاب» سيبويه على رجلٍ من أصحابنا من أهل جزيرة الأندلس كان مجاورًا بمكة شرَّفها الله، وهو الشيخُ الإمامُ العلَّامةُ المشاوَرُ أبو بكرٍ عبدُ الله بنُ طلحةَ بنِ محمد بنِ عبد الله الأندلسيُّ[٣]، من أهل يابُرَةَ من بلاد جزيرة الأندلس، فقرأ عليه الزمخشريُّ جميعَ «كتاب» سيبويه، وأخبره به قراءةً عن الإمام الحافظ أبي عليٍّ الحسين بن محمد بن أحمد الغسَّاني الجَيَّاني[٤]، قال: قرأتُه على أبي مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن سراج القرطبي[٥]، قال: قرأته على أبي القاسم بن الإفليلي[٦]، عن أبي عبد الله

(١) ينظر رده على والده في شرح التسهيل ٣/ ٤٤٠-٤٤١، وهو ضمن القسم الذي أكمل به الشيخ بدر الدين شرح والده لكتابه التسهيل.

(٢) في (أ) والمطبوع: شيبته، وهو تحريف، والمثبت من (ز١) و(ع)، وسقطت من باقي النسخ.

(٣) نحويٌّ أصوليٌّ فقيهٌ، روى عن أبي الوليد الباجي، ردَّ على ابن حزم، وقرأ عليه الزمخشري أيضاً شرح رسالة ابن أبي زيد، توفي سنة (٥١٨هـ). البغية ٢/ ٤٦.

(٤) محدث الأندلس، صاحب كتاب: تقييد المهمل، حدث عن ابن عبد البر وأبي الوليد الباجي وغيرهما، ولم يرحل من الأندلس، وكان مقدَّماً في الآداب والشعر والنسب، توفي سنة (٤٩٨هـ). السير ١٩/ ١٤٨.

(٥) الأموي مولاهم، المحدث اللغوي، عكف على كتاب سيبويه ثمانية عشر عاماً لا يَعرف سواه، عاش تسعة وثمانين عاماً، وتوفي سنة (٤٨٩هـ). السير ١٩/ ١٣٣، والبغية ٢/ ١١٠.

(٦) إبراهيم بن محمد بن زكريا، القرشي الزهري، من أحفاد سعد بن أبي وقاص ﷺ، المعروف بالإفليلي، من أهل قرطبة، ومن أئمة النحو واللغة، توفي سنة (٤٤١هـ). والإفليل قرية بالشام كان أصله منها. وفيات الأعيان ١/ ٥١.

محمد بن عاصم العاصِميّ[١]، عن الرَّباحي[٢] بسنده[٣].

وللزمخشريِّ قصيدٌ يمدحُ به سيبويه وكتابَه، وهذا يدلُّ على أنه ناظِرٌ في «كتاب» سيبويه، بخلافِ ما كان يعتقدُ فيه بعضُ أصحابنا من أنه إنما نَظَرَ في نُتَفٍ من كلام أبي عليٍّ الفارسيِّ وابن جنِّي، وقد صنَّف أبو الحجَّاج يوسفُ بنُ مغروزٍ[٤] كتابًا في الردِّ على الزمخشري في كتاب «المفصَّل» والتنبيهِ على أغلاطه التي خالَفَ فيها إمامَ الصناعة أبا بشرٍ عمرو بن عثمان سيبويه رَحِمَ اللهُ جميعَهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ قال الأخفش: الطُّوفان: جمعُ طُوفانة عند البصريين، وهو عند الكوفيين مصدرٌ كالرُّجْحَان[٥].

وحكى أبو زيد في مصدر طاف: طَوْفًا وطَوافًا، ولم يَحْكِ طُوفانًا، وعلى تقديرِ كونه مصدرًا فلا يرادُ به هنا المصدر؛ قال ابن عباس: هو الماء المُغْرِقُ. وقال قتادةُ والضحاك وابن جُبيرٍ وأبو مالكٍ ومقاتلٌ: هو المطر أُرسِلَ عليهم دائمًا الليلَ

(١) الأندلسي من أهل قرطبة، نحوي مشهور وإمام في العربية، توفي سنة (٣٨٢هـ). البغية ١/ ١٢٣.

(٢) محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي الأندلسي النحوي، أصله من جَيَّان، كان إماماً في اللغة لا يقصر عن أكابر أصحاب المبرد، فقيهاً شاعراً مشهوراً، أخذ عن ابن الأعرابي والنحاس وابن ولَّاد، توفي سنة (٣٥٢هـ). البغية ١/ ٢٦٢.

(٣) قال الرباحي: حدثني به أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الوليد بن ولاد التميمي، عن أبيه، عن محمد بن يزيد المبرد، عن أبي عثمان المازني وعن أبي عمر الجَرْمي، كلاهما عن أبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، عن سيبويه.
قال الرباحي: وحدثني به أيضاً أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، عن أبي إسحاق الزجاج، عن أبي العباس المبرد بسنده المتقدم. ينظر فهرسة ما رواه ابن خير الإشبيلي عن شيوخه ص٣٠٦.

(٤) نحوي أديب جليل، أخذ العربية عن أبي إسحاق بن ملكون والسهيلي وروى عنهما، وله: شرح الإيضاح للفارسي، والرد على الزمخشري في مفصله، وغير ذلك، توفي بمُرْسية في حدود سنة (٦٢٥هـ). البغية ٢/ ٣٦٢.

(٥) ينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٣١، وتفسير الطبري ١٠/ ٣٨١، وقوله: عند البصريين... إلخ، من كلام الطبري وليس من كلام الأخفش.

والنهارَ ثمانيةَ أيام[١]. واختاره الفرَّاءُ وابنُ قتيبة[٢].

وقيل: ذلك مع ظُلْمةٍ شديدةٍ لا يرون شمسًا ولا قمرًا، ولا يَقْدِرُ أحدٌ أن يَخْرُجَ من داره.

وقيل: أُمْطِروا حتى كادوا يهلكونَ وبيوتُ القِبْطِ وبني إسرائيلَ مشتبكةٌ، فامتلأت بيوتُ القبط ماءً حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، فَمَنْ جلس غرق، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيلَ قطرةٌ، وفاض الماء على وجه أرضهم ورَكَدَ، فمنعهم من الحرث والبناء والتصرُّف، ودام عليهم سبعةَ أيام[٣].

وقيل: طمَّ فيضُ النيل عليهم حتى ملأ الأرض سهلًا وجبلًا.

وقال ابن عطية[٤]: هو عامٌّ في كلِّ شيء يَطُوف، إلَّا أنَّ استعمال العرب له أكثرُ في الماء والمطر الشديد، ومنه قولُ الشاعر:

غَيَّرَ الجِدَّةَ من عِرْفانه ... خِرَقُ الريح وطُوفانُ المَطَرْ[٥]

وقال أبو النجم:

ومَدَّ طُوفانٌ مبيدٌ مَدَدا ... شهرًا شآبيبَ وشهرًا بَرَدا[٦]

وقال مجاهدٌ وعطاءٌ ووهبٌ وابن كثير: هو هنا الموتُ الجارِفُ. ورَوته عائشةُ

---

(١) زاد المسير ٣/٢٤٨، وأخرج أقوالهم ـ دون قوله: ثمانية أيام ـ الطبري ١٠/ ٣٧٩ و٣٨٦ فما بعدها.

(٢) زاد المسير ٣/٢٤٨، وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٣٩٢، وقول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص١٧١.

(٣) الكشاف ٢/ ١٠٧، وذكره القرطبي ٩/ ٣٠٩ بنحوه عن السدي.

(٤) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٣-٤٤٤.

(٥) البيت لحُسَيل بن عُرْفُطة كما في نوادر أبي زيد ص٧٧ ومطبوع الطبري ١٣/ ٥٣ (تحقيق محمود شاكر)، ووقع في نسخ الطبري: الحسن بن عرفطة، قال الشيخ محمود شاكر: وهو خطأ. وذكره دون نسبة الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٥٣١، وابن جني في المنصف ٢/ ٢٢٨، وجاء عند الأخفش: من آياتها، بدل: من عرفانه. قال أبو زيد: الخِرَق: القطع من الريح، وطوفان المطر: كثرته، وروى الأصمعي: خُرُق.

(٦) نقله ابن عطية عن الطبري ١٠/ ٣٨٢، وفيهما: خبث، بدل: مبيد. والبيت ليس في ديوان أبي النجم.

عن الرسول ﷺ(١)، ولو صحَّ وَجَبَ المصيرُ إليه.

ونُقل عن مجاهدٍ ووَهْبٍ أنه الطاعونُ بلغة اليمن(٢).

وقال أبو قِلَابَةَ: هو الجدري، وهو أولُ عذابٍ وقع فيهم فبقي في الأرض(٣).

وقيل: هو عذابٌ نزل من السماء فطاف بهم.

وروي عن ابن عباس أنه مُعمًّى عُني به: شيء أطافه الله بهم(٤).

فقالوا لموسى: ادْعُ لنا ربك يكشف عنَّا ونحن نؤمنُ بك، فدعا فرُفع عنهم فما آمنوا، فنبت لهم في تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يُعْهَدْ مِثْلُه، فأقاموا شهرًا فبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكلت عامةَ زرعهم وثمارِهم، ثم أكلت كلَّ شيءٍ حتى الأبوابَ وسقوفَ البيوت والثيابَ، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيلَ منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووَعَدوه التوبةَ، فكُشِفَ عنهم بعد سبعة أيام، وخرج موسى عليه السلام إلى الفضاء فأشار بعصاه نحوَ المَشْرِق والمغرب، فرجع الجرادُ إلى النواحي التي جئنَ منها، فقالوا: ما نحن بتاركي ديننا، فأقاموا شهرًا وسلَّط الله عليهم القمَّل(٥)، قال ابن عباس ومجاهدٌ وقتادةُ وعطاءٌ: هو الدَّبَى، هو صغارُ الجراد قبل أن تَنْبُتَ له أجنحةٌ ولا يطير(٦).

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٤٩، وأخرجه عنهم الطبري ١٠/ ٢٨٠-٢٨١، وابن كثير هو عبد الله بن كثير. وحديث عائشة ﵂ قال عنه ابن كثير عند تفسير هذه الآية: حديث غريب. قال الشيخ أحمد شاكر في حاشية الطبري ١٣/ ٥١: بل هو ضعيف؛ لضعف المنهال بن خليفة (أحد رجال الإسناد).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ١٩١، وزاد المسير ٢/ ٢٤٩، وأخرجه عن مجاهد الطبري ١٠/ ٣٧٩ بلفظ: «الطوفان»: الماء والطاعون على كل حال.

(٣) الكشاف ٢/ ١٠٧، وأبو قلابة هو عبد الله بن زيد الجَرْمي.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٤، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣٨١ بلفظ: أمر من أمر الله، الطوفان، ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [القلم: ١٩].

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٣٨٦ وما بعدها، والكشاف ٢/ ١٠٧، واللفظ له، وقد لخص فيه ما رواه الطبري وغيره من أخبار في هذه القصة.

(٦) تفسير الطبري ١٠/ ٣٨٣-٣٨٤، وزاد المسير ٣/ ٢٤٩.

وقال ابنُ جُبيرٍ عن ابن عباس: هو السوسُ الذي يقعُ في الحنطة[١].

وقال الحسنُ وابنُ جُبيرٍ: دوابُّ سودٌ صغارٌ.

وقال حبيب بنُ أبي ثابتٍ: هو الجِعْلان.

وقال أبو عبيدة: هو الحَمنان، وهو ضَرْبٌ من القِرْدان.

وقال عطاءٌ الخُراساني وزيد بن أسلم: هو القَمْلُ المعروف، وهو لغةٌ فيه. ويؤيِّده قراءةُ الحسن بفتح القاف وسكون الميم.

وقيل: هو البراغيثُ، حكاه ابنُ زيد[٢].

ورُوي أن موسى مشى إلى كَثيبٍ أَهْيَلَ فضربه بعصاه فانتشر كلُّه قُمَّلًا بمصر، فأكل ما أبقاه[٣] الجرادُ ولَحَسَ الأرضَ، وكان يدخل بين جلد القِبْطيِّ فيمصُّه[٤]، ويمتلئُ الطعامُ قمَّلًا، ويطحنُ أحدُهم عشرةَ أَجْرِبةٍ فلا يردُّ منها إلا يسيرًا، وسعى في أبشارهم وشعورهم وأهدابِ عيونهم وحواجبهم، ولزمت جلودَهم، فضجُّوا وفزعوا إلى موسى عليه السلام، فرُفع عنهم، فقالوا: قد تحقَّقْنا الآن أنك ساحرٌ، وعزَّةِ فرعون لا نصدِّقك أبدًا، فأرسل الله عليهم بعد شهرٍ الضفادعَ، فملأتْ آنيتَهم وأطعمتَهم ومضاجِعَهم، ورمت بأنفسها في القدور وهي تغلي، وفي التنانير وهي تفورُ، وإذا تكلَّم أحدُهم وثبت إلى فيه ـ قال ابن جُبيرٍ: وكان أحدُهم يجلس في الضفادع إلى ذقنه[٥] ـ فقالوا لموسى: ارْحَمنا هذه المرةَ ونحن نتوبُ التوبةَ النصوحَ

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٤٩، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣٨٣ بلفظ: هو السوس الذي يخرج من الحنطة.

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/ ٣٨٤-٣٨٥ و٣٩٧، وزاد المسير ٣/ ٢٤٩، وقول أبي عبيدة سلف عند شرح المفردات، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٤٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٤.

(٣) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): ألقاه، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ١٠٧، والكلام منه.

(٤) في (أ) و(د١) و(ع): وقميصه، والمثبت من باقي النسخ والكشاف، وفيه: وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه.

(٥) قطعة من خبر طويل عن سعيد بن جبير أخرجه الطبري ١٠/ ٣٨٨.

ولا نعود، فأخذ عليهم العهودَ فكُشِف عنهم فنقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدَّم ـ قال الجمهور: صار ماؤهم دمًا، حتى إنَّ الإسرائيليَّ ليضعُ الماء في في القبطيِّ فيصيرُ في فيه دمًا ـ وعطش فرعونُ حتى أشفى على الهلاك فكان يمصُّ الأشجار الرَّطْبةَ فإذا مضغها صار ماؤها الطيبُ مِلْحًا أُجاجًا، وقال سعيد بن المسيب: سال عليهم النيلُ[١] دمًا.

وقال زيد بن أسلم: الدمُ هو الرُّعافُ سَلَّطه الله عليهم[٢].

ومعنى تفصيلِ الآياتِ: تبيينُها وإزالةُ إشكالِها، والتفصيلُ في الأجرام هو التفريقُ، وفي المعاني يرادُ به أنه فُرِّقَ بينها فاستبانت وامتاز بعضُها من بعضٍ، فلا يُشْكِلُ على العاقل أنها من آيات الله التي لا يقدرُ عليها غيرُه، وأنها عبرةٌ لهم ونقمةٌ على كفرهم.

وقال ابن قتيبة: سماها مفصَّلاتٍ لأن بين الآية والآية فصلًا من الزمان[٣].

قيل: كانت الآيةُ تمكثُ من السبت إلى السبت، ثم يَبْقُون عقيبَ رفعها شهرًا في عافية ـ وقيل: ثمانيةَ أيام ـ ثم تأتي الآيةُ الأخرى، وقال وهبٌ: كان بين كلِّ آيتين أربعون يومًا[٤].

وقال نوفُ البكاليُّ: مَكَثَ موسى عليه السلام في آل فرعون بعد إيمانِ السَّحَرةِ عشرين سنةً يُريهم الآيات[٥].

وحكمةُ التفصيل بالزمان أنه تُمتَحنُ فيه أحوالُهم: أيَفُون بما عاهَدوا، أم ينكثون فتقومَ عليهم الحجة؟ وانتصب «آياتٍ مفصَّلات» على الحال.

والذي دلَّت عليه الآيةُ أنه أُرسل عليهم ما ذُكر فيها، وأمَّا كيفيةُ الإرسال،

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٧-١٠٨، وهذا ملخصٌ مما رواه الطبري ١٠/ ٣٨٦-٣٩٧ في هذه القصة عن ابن عباس ﷺ وسعيد بن جبير ومجاهدٍ وغيرهم.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٩٧.
(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٧١، وزاد المسير ٣/ ٢٥١.
(٤) زاد المسير ٣/ ٢٥١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٤٩، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٥٠.

ومكثِ ما أُرسل عليهم من الأزمان والهيئات، فمرجِعُه إلى النقل عن الأخبار الإسرائيليات، إذ لم يَثْبُتْ من ذلك في الحديث النبويِّ شيءٌ.

ومع إرسالِ خَمْس[١] الآيات استكبروا عن الإيمان وعن قبول أمر الله تعالى، «وكانوا قومًا مجرمين» إخبارٌ منه تعالى عنهم بإجترائهم على الله وعلى عباده.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ الظاهرُ أنَّ «الرجز» هنا هو ما كان أُرسل عليهم من الطُّوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم، فإنْ كان أُريدَ الظاهِرُ كان سؤالُهم موسى بعد وقوع جميعها لا بعد وقوع نوعٍ منها، ويحتمل أن يكون المعنى: ولمَّا وقع عليهم نوعٌ من الرجز، فيكون سؤالُهم قد تخلَّل بين نوعٍ ونوعٍ.

ومعنى «وقع عليهم»: نزل عليهم وثبت.

وقال قوم: «الرجزُ»: الطاعون؛ نزل بهم مات منهم في ليلةٍ سبعون ألفَ قبطيٍّ.

وفي قولهم: «ادعُ لنا ربَّك» وإضافةِ الربِّ إلى موسى عدمُ إقرارٍ بأنه ربُّهم، حيث لم يقولوا: ادعُ لنا ربَّنا. ومعنى «بما عَهِدَ عندك»: بما اختصَّكَ به فنبَّأك، أو: بما وصَّاك أن تدعو به ليُجيبك كما أجابك في الآيات، أو: بما استَوْدَعك من العلم.

والظاهرُ تعلُّق «بما عَهِدَ» بـ«ادع لنا ربَّك» ومتعلَّق الدعاء محذوفٌ تقديره: ادعُ لنا ربَّك بما عهد عندك في كشف هذا الرِّجز، «ولئن كشفتَ» جوابٌ لقسم محذوفٍ في موضع الحال من «قالوا»، أي: قالوا ذلك مُقْسِمين: «لئن كشفت»، أو لقَسَمٍ محذوفٍ معطوفٍ، أي: وأقسموا لئن كشفتَ.

وجوَّز الزمخشريُّ وابنُ عطية وغيرُهما أن تكون الباء في «بما عَهِدَ عندك» باءَ القسم[٢]، أي: قالوا: ادعُ لنا ربَّك في كشف الرِّجز مُقْسِمينَ بما عَهِدَ عندك لئن كشفت، أو: وأَقْسَموا بما عهد عندك لئن كشفتَ، والمعنى: لئن كشفتَ بدعائك.

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: جنس، هو تصحيف.

(٢) الكشاف ٢/١٠٩، والمحرر الوجيز ٢/٤٤٥، وأجاز ذلك أيضاً أبو البقاء في الإملاء ١/٢٨٣.

وفي قولهم: «لنؤمننَّ لك» دلالةٌ على أنه طَلَبَ منهم الإيمانَ كما أنه طلب منهم إرسالَ بني إسرائيل، وقدَّموا الإيمان لأنه المقصودُ الأعظمُ الناشئُ منه الطواعيةُ، وفي إسناد الكشف إلى موسى حَيْدةٌ عن إسناده إلى الله تعالى؛ لعدم إقرارهم بذلك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ في الكلام حذفٌ دلَّ عليه المعنى، وهو: فدعا موسى فكُشِفَ عنهم الرجزُ، وأَسْنَدَ تعالى الكشفَ إليه لأنه هو الكاشفُ حقيقةً، فلمَّا كان من قولهم أسندوه إلى موسى، وهو إسنادٌ مُجازيٌّ، ولمَّا كان إخبارًا من الله أسنده تعالى إليه لأنه إسنادٌ حقيقيٌّ.

ولمَّا كان «الرجزُ» من جملةٍ أخرى غيرِ مقولةٍ لهم حَسُنَ إظهاره دون ضميرِه، وكان جائزًا أن يكون التركيب في غير القرآن: فلمَّا كشفناه عنهم.

ومعنى «إلى أجلٍ هم بالغوه» إلى حدٍّ من الزمان هم بالِغوه لا محالة، فيعذَّبون فيه لا ينفعهم ما تقدَّم لهم من الإمهال وكشفِ العذاب إلى حلوله؛ قاله الزمخشري[1].

وقال ابن عطية[2]: يريدُ به غايةُ كلِّ واحدٍ منهم بما يخصُّه من الهلاك والموت، هذا اللازمُ من اللفظ، كما تقول: أَخَّرْتُ كذا إلى وقتٍ كذا، وأنت لا تريد وقتًا بعينه، وقال يحيى بن سلام: الأجلُ هاهنا: الغرق. قال[3]: وإنما قال هذا القولَ لأنه رأى جمهورَ هذه الطائفة قد اتَّفق أنْ هَلكتْ غرقًا، فاعتقد أنَّ الإشارة هاهنا إنما هي إلى الغرق، وهذا ليس بلازمٍ لأنه لا بدَّ أنه مات منهم قبلَ الغرق عالمٌ، وهم ممَّن[4] أُخِّر وكُشف العذابُ عنهم إلى أجلٍ بَلَغه[5]. انتهى.

---

(١) في الكشاف ٢/ ١٠٩.

(٢) في المحرر ٢/ ٤٤٥.

(٣) أي: ابن عطية.

(٤) في (أ): ومنهم ممن، وفي (د١) و(ع) والمطبوع: ومنهم من، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر.

(٥) زاد في المحرر: ودخل في هذه الآية، فأين الغرق من هؤلاء؟ وأين هو ممن بقي بمصر ولم يغرق؟

وفي «التحرير»[١]: «إلى أجلٍ» إلى انقضاءِ مدَّة إمهالهم، وهي المدةُ المضروبةُ لإيمانهم. وقيل: الغرق. وقيل: الموت.

وإذا فسِّر الأجلُ بالموت أو بالغرق فلا يصحُّ كشف العذاب إلى ذلك الوقت، أي: وقتِ حصول الموت أو الغرق؛ لأنه قد تخلَّل بين الكشف والغرق أو الموت زمانٌ، وهو زمانُ النَّكْث، فينبغي أن يكون التقدير على هذا: إلى قُرْبِ أجلٍ هم بالغوه، أمَّا إذا كان الأجلُ هو المدَّةُ المضروبةَ لإيمانهم وإرسالِهم بني إسرائيل فلا يحتاج إلى حذفِ مضافٍ.

و«إلى أجلٍ» قالوا: متعلق بـ«كشفنا»، ولا يمكِنُ حملُه على التعلُّق به، لأنَّ ما دخلت عليه «لمَّا» ترتُّب جوابُه على ابتداء وقوعه، والغايةُ تُنافي التعليق على ابتداء الوقوع، فلا بدَّ من تعقُّل الابتداء والاستمرار حتى تتحقَّق الغاية، ولذلك لا تصحُّ الغاية في الفعل غير[٢] المتطاوِل، لا يقال: لمَّا قلتُ زيدًا إلى يوم الخميس جرى كذا، ولا: لمَّا وثبتُ إلى يوم الجمعة اتَّفق كذا.

وجَعَل بعضُهم «إلى أجلٍ» من تمام الرِّجز، أي: الرِّجْزَ كائنًا إلى أجلٍ، والمعنى أنَّ العذاب كان مؤجَّلًا، ويقوِّي هذا التأويلَ كونُ جواب «لمَّا» جاء بـ«إذا» الفجائية، أي: فلمَّا كشفنا عنهم العذابَ المقرَّرَ عليهم إلى أجلٍ فاجَؤوا بالنَّكْث، وعلى معنى تَغْيِيَةِ الكشفِ بالأجل المبلوغ لا تتأتَّى المفاجأةُ إلا على تأويل الكشف بالاستمرار المغيَّا، فتكون المفاجأةُ بالنكث إذ ذاك ممكنةً.

وقال الزمخشري: «إذا هم ينكثون» جوابُ «لمَّا» يعني: فلمَّا كشفنا عنهم فاجَؤوا النكثَ وبادَروه ولم يؤخِّروه، ولكنْ لمَّا كُشف عنهم نكثوا[٣]. انتهى.

ولا يمكنُ التغييةُ مع ظاهرِ هذا التقدير[٤].

---

(١) هو: التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير، لابن النقيب شيخ المؤلف، وقد أشار المصنف في المقدمة إلى أنه من مصادره في هذا الكتاب.

(٢) تحرفت في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: عن.

(٣) الكشاف ١/١٠٩.

(٤) يعني: فلا بد من تأويل الكشف بالاستمرار ـ كما تقدم ـ حتى يصح ذلك. الدر المصون ٥/٤٣٦.

و«هم بالغوه» جملةٌ في موضع الصفة لـ«أجلٍ»، وهي أفخمُ مِن الوصف بالمفرد؛ لتكرُّر الضمير[1]، فليس في حُسْنِ التركيب كالمفرد لو قيل في غير القرآن: إلى أجلٍ بالغيه.

ومجيءُ «إذا» الفجائية جوابًا لـ«لمَّا» ممَّا يدلُّ على أنَّ «لمَّا» حرفُ وجوبٍ لوجوب كما يقول سيبويه[2]، لا ظرفٌ كما زعم بعضُهم؛ لافتقاره إلى عاملٍ فيه، والكلام تامٌّ لا يحتمل إضمارًا، ولا يعملُ ما بعد «إذا» الفجائيةِ فيما قبلها.

وقرأ أبو هاشم وأبو حَيْوَةَ «ينكِثون» بكسر الكاف[3].

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: أَحْلَلْنا بهم النقمةَ، وهي ضدُّ النعمة، فإن كان الانتقامُ هو الإغراقَ فتكون الفاءُ تفسيريةً، وذلك على رأي مَن أثبت هذا المعنى للفاء، وإلَّا كان المعنى: فأردنا الانتقامَ منهم، والباءُ في «بأنهم» سببية. والآياتُ هي المعجزاتُ التي ظهرت على يد موسى عليه السلام.

والظاهرُ عَوْدُ الضمير في «عنها» إلى الآيات، أي: غفلوا عمَّا تضمَّنته الآياتُ من الهدى والنجاة، وما فكَّروا فيها، وتلك الغفلةُ هي سببُ التكذيب.

وقيل: يعود الضميرُ على النقمة الدالِّ عليها «فانتقمنا»، أي: كانوا عن النقمة وحلولِها بهم غافلين.

والغفلةُ في القول الأول عُني بها الإعراضُ عن الشيء؛ لأن الغفلة عنه والتكذيبَ لا يجتمعان من حيث إنَّ الغفلة تستدعي عَدَمَ الشعور بالشيء، والتكذيبَ به يستدعي معرفتَه، ولأنه لو أُريد حقيقةُ الغفلة لكانوا معذورِينَ لأنَّ تلك ليست لاختيارِ العبد.

---

(١) يعني: الوصف بالجملة هنا أبلغ من الوصف بالمفرد؛ لأن فيها تكرُّرَ الضمير المؤذن بالتفخيم. ينظر الدر المصون ٥/ ٤٣٦.

(٢) ينظر الكتاب ٤/ ٢٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦ عن أبي البرهسم وأبي حيوة، وعزاها لأبي البرهسم أيضاً الصَّغَاني في الشوارد في اللغة ص١٥١، ولعل «أبو هاشم» محرف عن «أبو البرهسم»، وقد سلف شبيه بهذا قريباً عند ذكر قراءة: «وما تنقَم» بفتح القاف، وهي الآية (١٢٦) من هذه السورة.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾

لمَّا قال موسى عليه السلام: «عسى ربُّكم أن يُهلكَ عدوَّكم ويستخلفكم في الأرض» كان كما ترجَّى موسى، فأَغْرقَ أعداءَهم في اليم واستَخْلَفَ بني إسرائيل في الأرض، و«الذين كانوا يُسْتَضْعَفون» هم بنو إسرائيل؛ كان فرعونُ يستعبِدُهم ويستخدمُهم، والاستضعافُ: طلبُ الضَّعْف[1] بالقهر، وكثُر استعماله حتى قيل: استَضْعَفَه، أي: وَجَدَه ضعيفًا.

و«مشارق الأرض ومغاربها» قالت فرقة: هي الأرضُ كلُّها؛ قال ابنُ عطيةَ: ذلك [إمَّا] على سبيل المَجاز؛ لأنه تعالى ملَّكهم بلادًا كثيرةً، وإمَّا على الحقيقة فإنه مَلَّك ذريتَهم وهو سليمان بن داود[2].

وقال الحسن أيضًا: «مشارق الأرض»: الشام، و«مغاربها»: ديار مصر[3]، ملَّكهم الله إياها بإهلاك الفراعنة والعمالقة، وقاله الزمخشري، قال: وتصرَّفوا فيها كيف شاؤوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية[4].

وقال الحسن أيضًا وقتادةُ وغيرُهما: هي أرضُ الشام[5].

وفي كتاب النَّقَّاش عن الحسن: أرض مصر[6].

والبركةُ فيها بالماء والشجر، قاله ابن عباس[7]، وذيَّله غيرُه فقال: بالخِصْب والأنهار، وكثرةِ الأشجار، وطِيْبِ الثمار.

وقيل: البركةُ بإقدام الأنبياء وكثرة مُقامهم بها، ودَفْنِهم فيها، وهذا يتخرَّج على مَن قال: أرض الشام.

وقيل: «باركنا»: جعلنا الخير فيها دائمًا ثابتًا، وهذا يشير إلى أنَّها مصر.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: الضعيف، وهو تحريف.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦، وما بين حاصرتين منه.
(٣) النكت والعيون ٢/ ٢٥٤.
(٤) الكشاف ٢/ ١٠٩.
(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٠/ ٤٠٤-٤٠٥.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦.
(٧) زاد المسير ٣/ ٢٥٣.

وقال الليث: هي مصرُ، بارك الله فيها بما يَحْدُث عن نِيلها من الخيرات وكثرة الحبوب والثمرات[١].

وعن عمر ﷺ: أنَّ نيلَ مصر سيدُ الأنهار، في حديثٍ طويلٍ[٢].

ورُوي أنه كانت الجناتُ بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في البرَّين جميعًا ما بين أسوان إلى رشيد، وكانت الأشجار متصلةً لا ينقطعُ منها شيءٌ عن شيءٍ، وقال أبو بَصْرةَ الغِفَاري: مصرُ خزائنُ الأرض كلِّها، ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥][٣].

ويُروى أن عيسى عليه السلام أقام بها اثنتي عشرةَ سنةً، وذلك أنَّ الله أوحَى إلى مريم أن الْحقي بمصر وأرضِها[٤]. وذُكر أنها الربوةُ التي قال تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقال ابن عمر: البركاتُ عشرٌ، ففي مصر تسعٌ وفي الأرض كلِّها واحدةٌ.

وانتصاب «مشارق» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ«أورثنا»، و«التي باركنا» نعتٌ لـ«مشارق الأرض ومغاربها»، وقولُ الفرَّاء: إن انتصاب «مشارق» والمعطوفِ عليها على الظرفية، والعاملُ فيهما هو «يُستَضْعَفون»، و«التي بارَكْنا» هو المفعولُ الثاني، أي: الأرضَ التي بارَكْنا فيها[٥]، تكلُّفٌ وخروجٌ عن الظاهر بغير دليلٍ، ومَن أجاز أن تكون «التي» نعتًا لـ«الأرض» فقولُه ضعيفٌ، للفصل بالعطف بين المنعوت ونعتِه.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: مَضَتْ واستمرَّت، من قولهم: تمَّ على الأمرُ: إذا مَضَى عليه.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ بلفظ: هي مصر، وهي مباركة في كتاب الله. الدر المنثور ٣/ ١١٣.

(٢) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص٢٦٣-٢٦٤، والنحاس في معاني القرآن ٥/ ٨١، كلاهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، ولم نقف عليه عن عمر ﷺ.

(٣) عزاه السخاوي في المقاصد الحسنة ص٣٨٩ لتاريخ ابن يونس، وهو المسمَّى: العقيد في أخبار تاريخ الصعيد، لعبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي. ينظر كشف الظنون ٢/ ١١٥٩.

(٤) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٧، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٤٠٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦.

قال مجاهد: المعنى: ما سبق لهم في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوِّهم والظهورِ عليه[(١)].

وقال المهدوي وتبعه الزمخشريُّ: الكلمة قولُه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥-٦][(٢)].

وقيل: هي قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٢٩].

وقيل: الكلمة: النعمة.

و«الحسنى» تأنيثُ الأحسن، وهي صفةٌ للكلمة، وكانت الحسنى لأنها وعدٌ بمحبوبٍ، قاله الكرماني.

والمعنى: على مَن بقي من مؤمني بني إسرائيل «بما صبروا» أي: بصَبْرهم.

وقرأ الحسن: «كلمات» على الجمع، ورُويت عن عاصم وأبي عمرو[(٣)]، قال الزمخشري: ونظيرُهُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨][(٤)]. انتهى، يعني: نظيرُ وصفِ الجمع بالمفرد المؤنَّث، ولا يتعيَّن ما قاله من أن «الكبرى» نعت لـ«آيات ربِّه»، إذ يُحتمل أن يكون مفعولًا لقوله: «رأى»، أي: الآيةَ الكبرى، فيكون في الأصل نعتًا لمفردٍ مؤنَّثٍ لا لجَمْعٍ، وهو أبلغُ في الوصف.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ أي: خرَّبْنا قصورَهم وأبنيتَهم، والتدميرُ: الإهلاكُ وإخرابُ الأبنية.

وقيل: ما كان يصنعُ من التدبير في أمر موسى عليه السلام وإخمادِ كلمته.

وقيل: المراد إهلاكُ أهلِ القصور والمواضِع المنيعة، وإذا هلك الساكنُ هلك المسكونُ.

و«ما كانوا يَعْرِشون»، أي: يرفعون من الأبنية المَشيدة كصَرْح هامان وغيرِه.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٤٦، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/٤٠٦.

(٢) الكشاف ٢/١٠٩، والمحرر الوجيز ٢/٤٤٦ عن المهدوي.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٥، والكشاف ٢/ ١١٠ عن عاصم، والمحرر الوجيز ٢/٤٤٧ عن أبي عمرو.

(٤) الكشاف ٢/ ١١٠.

وقال الحسن: المراد عرشُ الكروم[١]، ومنه: ﴿جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقرأ ابنُ عامر وأبو بكر بضم الراء، وباقي السبعة والحسنُ ومجاهدٌ وأبو رجاء بكسر الراء هنا وفي «النحل»[٢]، وهي لغةُ الحجاز، وقال اليزيدي: هي أفصح[٣].

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «يعرِّشون» بضمِّ الياء وفتحِ العين وتشديدِ الراء[٤].

وانتزع الحسنُ من هذه الآية أنه ينبغي أن لا يُخرَجَ على ملوك السُّوء، وإنما ينبغي أن يُصْبَر عليهم، فإنَّ الله يدمِّرهم. ورُوي عنه وعن غيره: إذا قابَلَ الناسُ البلاءَ بمثله وَكَلَهم الله إليه، وإذا قابَلوه بالصبر وانتظارِ الفَرَج أتى الله بالفَرَج[٥].

قال الزمخشري: وبلغني أنه قرأ بعضُ الناس: «يَغْرِسون» مِن غَرْس الأشجار، وما أحسبُه إلَّا تصحيفًا منه، وهذا آخِرُ ما اقْتصَّ الله تعالى من نبأ فرعونَ والقِبْطِ، وتكذيبِهم بآيات الله وظلمِهم ومعارَضَتهم، ثم أتبعه اقتصاصَ نبأ بني إسرائيل وما أَحْدَثوه بعد إنقاذِهم من مملكة فرعون واستعبادِه، ومعايَنَتِهم الآياتِ العظام، ومجاوَزَتِهم البحرَ: من عبادة البقر، وطلبِ رؤية الله جَهْرةً، وغيرِ ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليُعْلَم حالُ الإنسان، وأنه كما وُصف: ظَلومٌ كفَّارٌ جَهُولٌ كَنُود، إلا مَن عَصَمَه الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وليُسلِّيَ رسولَ الله ﷺ مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة[٦].

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ لمَّا بيَّن أنواعَ نِعَمِهِ تعالى على بني إسرائيل بإهلاك عدوِّهم أتبع بالنعمة العظمى: من إراءتهم هذه الآيَةَ العظيمةَ، وقَطْعِهم البحرَ مع السلامة، والبحرُ بحرُ القُلْزُم، وأخطأ مَن قال: إنه نيلُ مصر، ومعنى «جاوَزْنا»:

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٣١٦.
(٢) تنظر القراءتان عمن ذكر من القراء السبعة في السبعة ص٢٩٢، والتيسير ص١١٣. أما الحسن ومجاهد وأبو رجاء فقد ذكرهم ابن عطية مع مَن قرأ بضم الراء.
(٣) الكشاف ٢/ ١١٠.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٧.
(٥) المصدر السابق.
(٦) الكشاف ٢/ ١١٠.

قطعنا بهم البحر، يقال: جاوَزَ الوادي: إذا قَطَعه، والباء للتعدية، يقال: جاوَزَ الوادي: إذا قَطَعه، وجاوز بغيره البحرَ: عَبَرَ به، فكأنه قال: وجُزْنا ببني إسرائيل، أي: أَجَزْناهم البحرَ، و«فاعَلَ» بمعنى «فَعَلَ» المجرَّد؛ يقال: جاوَزَ وجاز بمعنًى واحدٍ.

وقرأ الحسن وإبراهيم وأبو رجاء ويعقوب «وجوَّزنا»[1]، وهو ممَّا جاء فيه «فَعَّلَ» بمعنى «فَعَلَ» المجرَّد، نحو: قدَّرَ وقَدَرَ، وليس التضعيفُ للتعدية.

رُوي أنه عَبَر بهم موسى عليه السلام يومَ عاشوراء بعدما أهلك الله فرعونَ وقومَه، فصاموه شكرًا لله، وأُعْطي موسى التوراةَ يوم النحر، فبَيْنَ الأمرين أحدَ عَشَرَ شهرًا[2].

﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قال قتادة وأبو عمران الجوني: هم من لَخْمٍ وجُذَام[3]، كانوا يسكنون الريف.

وقيل: كانوا نزولًا بالرقة[4] ـ رقة مصر ـ وهي قريةٌ بريف مصر تُعرف بساحل البحر يُتوصل منها إلى الفيوم.

وقيل: هم الكنعانيون الذين أُمر موسى بقتالهم[5].

ومعنى «فأتوا»: فمرُّوا، يقال: أتت عليه سِنُونَ، ومعنى «يعكفون» يقيمون ويواظبون على عبادة أصنام.

وقرأ الأخوان وأبو عمرو في رواية عبد الوارث بكسر الكاف[6]، وباقي السبعة بضمِّها، وهما فصيحتان.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٧ نقلاً عن النقاش.

(٣) المصدر السابق، وأخرجه عن قتادة الطبري ١٠/ ٤٠٩-٤١٠، وعن أبي عمران الجوني ابنُ أبي حاتم ٥/ ١٥٥٣، وتحرف «عمران» في النسخ إلى: «عمرو».

(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٩٤، وزاد المسير ٣/ ٢٥٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٣١٧.

(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٤١٠، والكشاف ٢/ ١١٠.

(٦) السبعة ص٢٩٢، والتيسير ص١١٣، ولم يذكرها الداني عن أبي عمرو، والمشهور عنه القراءة بضم الكاف كباقي السبعة.

والأصنام، قيل: بقرٌ حقيقةٌ. وقال ابن جُريجٍ: كانت تماثيلَ بقرٍ من حجارة وعيدان ونحوِه وذلك كان أولَ فتنة العجل(١).

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ الظاهرُ أن طلب مِثْلِ هذا كفرٌ وارتدادٌ وشقاقٌ وعنادٌ، جَرَوا في ذلك على عادتهم في تعنُّتهم على أنبيائهم وطلبِهم ما لا ينبغي، وقد تقدَّم من كلامهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وغير ذلك ممَّا هو كفرٌ.

وقال ابن عطية: الظاهِرُ أنهم استحسنوا ما رأوا من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى، وفي جملة ما يتقرَّب به إلى الله تعالى، وإلا فبعيدٌ أن يقولوا لموسى: اجْعَلْ لنا إلهًا نُفْرِدُه بالعبادة(٢). انتهى.

وفي الحديث: مَرُّوا في غزوة حنينٍ على دوحِ سِدْرةٍ خضراءَ عظيمةٍ، فقيل: يا رسول الله، اجْعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ، وكانت ذاتُ أنواطٍ سرحةً لبعض المشركين يعلِّقون بها أسلحتهم، ولها يومٌ يجتمعون إليها، فأراد قائلُ ذلك أن يَشْرَعَ الرسولُ ذلك في الإسلام، ورأى الرسولُ عليه السلام ذلك ذريعةً إلى عبادة تلك السَّرحة فأنكره وقال: «الله أكبر! قلتُم واللهِ كما قال بنو إسرائيل: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، لتتبعنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم» الحديث(٣).

وقال أبو عبد الله الرازي: من المستحيل أن يقول العاقلُ لموسى: اجْعَلْ لنا إلهًا خالقًا مدبِّرًا؛ لأن الذي يجعلُه موسى لا يمكن أن يجعله خالقًا للعالَم ومدبِّرًا، فالأقربُ أنهم طلبوا أن يعيِّن لهم تماثيلَ وصورًا يتقرَّبون بعبادتها إلى الله تعالى، وقد حَكَى تعالى عن عبَّاد الأوثان قولَهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٠٩.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٧-٤٤٨.
(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٢١٨٩٧)، والترمذي (٢١٨٠) من حديث أبي واقد الليثي ﷺ. قال الترمذي: حسن صحيح. ولفظ المصنف منقول من المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٨. السَّرحة: الشجرة العظيمة. النهاية (سرح). والدوح: جمع دوحةٍ، وهي الشجرة العظيمة. والسِّدرة: مفرد السِّدر، وهو شجر النَّبِق. القاموس (دوح) و(سدر).

ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وأجمع كلُّ الأنبياء عليهم السلامُ على أنَّ عبادةَ غيرِ الله كفرٌ، سواءٌ اعْتُقِدَ فيه كونُه إلهًا للعالَم، أو أنَّ عبادته تقرِّبُ إلى الله[١]. انتهى.

ويَظْهَرُ أن ذلك لم يَصْدُر من جميعهم، فإنه كان فيهم السبعون المختارون ومَن لا يصدُرُ منه هذا السؤالُ الباطلُ، لكنه نَسَبَ ذلك إلى بني إسرائيلَ لمَّا وقع من بعضهم على عادة العرب في ذلك.

و«ما» في «كما» قال الزمخشري: كافَّةٌ للكاف، ولذلك وقعت الجملةُ بعدها[٢].

وقال غيره: موصولةٌ حرفيةٌ، أي: كما ثبت لهم آلهةٌ، فتكون قد حُذف صلتُها، على حدِّ ما قال ابن مالك في أنه إذا حُذفت صلةُ «ما» فلا بدَّ من إبقاء معمولها، كقولهم: لا أكلِّمك ما أن في السماء نجمًا، أي: ما ثَبَتَ أنَّ في السماء نجمًا[٣]، ويكون «آلهةٌ» فاعلًا بـ«ثبت» المحذوفة.

وقيل: موصولةٌ اسميةٌ، و«لهم» صلتُها، والضميرُ العائدُ عليها مستكنٌّ في المجرور، والتقدير: كالذي لهم، و«آلهةٌ» بدلٌ من ذلك الضمير المستكنّ.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ تعجَّبَ موسى عليه السلام من قولهم على إثر ما رأوا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة، ووصَفَهم بالجهل المطلَق وأكَّده بـ«إنَّ»؛ لأنه لا جَهْلَ أعظمُ من هذه المقالةِ ولا أشنعُ، وأتى بلفظ «تجهلون» ولم يقل: جهلتُم، إشعارًا بأنَّ ذلك منهم كالطَّبْع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا مستقبَلٍ.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ الإشارة بـ«هؤلاء» إلى العاكفين على عبادة الأصنام، ومعنى «متبَّر»: مُهْلَكٌ مدمَّرٌ مكسَّرٌ، وأصله الكسر، وقال الكلبي: مُبْطَلٌ. وقال أبو اليسع: مضلَّلٌ[٤].

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٢٢٣.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٠.

(٣) التسهيل ص٣٨، وشرحه لابن مالك ١/ ٢٥٨.

(٤) القولان في النكت والعيون ٢/ ٢٥٥، وفيه: ضلال، بدل: مضلَّلٌ.

وقال السدِّي وابنُ زيد: مدمَّرٌ رديءٌ سيِّئُ العاقبة[١].

و«ما هم فيه» يعمُّ جميعَ أحوالهم، وبُطْلُ عملهم هو اضمحلالُه بحيث لا يُنتفع به وإن كان مقصودًا به التقرُّبُ إلى الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

قال الزمخشريّ[٢]: وفي إيقاع «هؤلاء» اسمًا لـ«إنَّ» وتقديم خبرِ المبتدأ من الجملة الواقعة خبرًا لها واسِمٌ لعبدة الأصنام[٣] بأنهم هم المعرَّضون للتَّبار، وأنَّه لا يعْدُوهم البتةَ، وأنه لهم ضربةُ لازمٍ[٤]، ليحذِّرهم عاقبةَ ما طلبوا، ويبغِّضَ لهم ما أحبُّوا. انتهى.

ولا يتعيَّن ما قاله من أنه قدِّمَ خبرُ المبتدأ من الجملة الواقعة خبرًا لـ«إنَّ»؛ لأنَّ الأحْسَنَ في إعراب مِثْلِ هذا أن يكون خبر «إنَّ»: «متبَّر»، وما بعده مرفوعٌ على أنه مفعولٌ لم يُسَمَّ فاعلُه، وكذلك «ما كانوا» هو فاعلٌ بقوله: «وباطل»، فيكون إذ ذاك قد أخبر عن اسم «إنَّ» بمفردٍ لا جملةٍ، وهو نظيرُ: إنَّ زيدًا مضروبٌ غلامُه، فالأحسنُ في الإعراب أن يكون «غلامُه» مرفوعًا على أنه مفعولٌ لم يسمَّ فاعلُه و«مضروبٌ» خبرَ «إنَّ»، والوجهُ الآخَرُ - وهو أن يكون مبتدأً و«مضروبٌ» خبرَه - جائزٌ، وهو مرجوحٌ[٥].

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ ما أحسن ما خاطبهم موسى عليه السلام لقومه! بدأهم أولًا بنسبتهم إلى الجهل، ثم ثانيًا أخبرهم بأنَّ عبَّاد الأصنام ليسوا على شيءٍ، بل مآلُ أمرهم إلى الهلاك وبطلانِ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٨، ولفظه: مهلك مدمَّر رديُّ العاقبة، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٤١٢.
(٢) في الكشاف ٢/ ١١٠.
(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: واسم لعباده، كما سقطت منها كلمة «الأصنام»، وجاء في مطبوع الكشاف: وسم، بدل: واسم.
(٤) أي: لازم وثابت. وجاء في الكشاف: لازب، وهما بمعنًى. ينظر القاموس (لزب) و(لزم).
(٥) قال السمين في الدر ٥/ ٤٤٤: «وهو كما قال؛ لأن الأصل في الأخبار أن تكون مفردة، فما أمن فيها ذلك لا يُعدل عنه». لكنه عاد فدافع عن الزمخشري بقوله: «وقد يكون هذا عنده أرجح من جهة ما ذكره من المعنى، وإذا دار الأمر بين مرجّح لفظي ومرجِّح معنوي فاعتبارُ المعنوي أولى، وما أظن حَمَلَ الزمخشريَّ على ذلك إلا ما ذكرتُ».

العمل، وثالثًا أنْكَر وتعجَّب أن يقع هو عليه السلام في أن يبغي لهم غيرَ اللهِ إلهًا، أي: أغيرَ المستحِقِّ للعبادة والألوهية أطلبُ لكم معبودًا، وهو الذي شرَّفكم واختصَّكم بالنِّعم التي لم يُعْطِها مَن سَلَفَ من الأمم لا غيرُه، فكيف أبغي لكم إلهًا غيرَه؟!

ومعنى «على العالمين»: على عالَمي زمانِهم، أو بكثرة الأنبياء فيهم.

قال ابن القشيري: بإهلاك عدوِّهم، وبما خصَّهم من الآيات[1].

وانتصب «غير» مفعولاً لـ«أبغيكم»، أي: أبغي لكم غيرَ الله، و«إلهًا» تمييزٌ عن «غير» أو حالٌ، أو على الحال[2] و«إلهًا» المفعول، والتقدير: أبغي لكم إلهًا غيرَ الله، فكان «غير» صفةً فلمَّا تقدَّم انتصب حالًا.

وقال ابن عطية: و«غير» منصوبةٌ بفعلٍ مضمرٍ، هذا هو الظاهرُ، ويحتمل أن ينتصب على الحال[3]. انتهى.

ولا يَظْهرُ نصبُه بفعلٍ مضمرٍ؛ لأن «أبغي» مفرَّغٌ له أو لقوله: «إلهًا»، فإنْ تخيَّلَ أنه منصوبٌ بـ«أبغي» مُضْمَرة يفسِّرها هذا الظاهرُ فلا يصحُّ؛ لأنَّ الجملة المفسِّرة لا رابطَ فيها لا من ضميرٍ ولا من مُلابسٍ يربطُها بـ«غير»، فلو كان التركيب: أغير الله أبغيكُموه، لصحَّ.

ويحتمل «وهو فضلكم» أن يكون حالًا وأن يكون مستأنفًا.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ قرأ الجمهور: «أنجيناكم»، وفرقةٌ: «نجَّيْناكم» مشدَّدًا، وابنُ عامر: «أنجاكم»[4]. فعلى «أنجاكم» يكون جاريًا على قوله: «وهو فضَّلكم» خاطَبَ بها موسى قومَه، وفي قراءةِ النون خاطبهم الله

(١) لم أقف عليه في لطائف الإشارات، وذكره القرطبي ٩/٣١٨ ولم ينسبه.
(٢) يعني: أو انتصب «غير» على الحال.
(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٤٨.
(٤) الأولى والأخيرة في التيسير ص١١٣، وقراءة «نجَّيناكم» في المحرر الوجيز ٢/٤٤٨، وهي هنا قراءة شاذة.

تعالى بذلك، وقال الطبري: الخطابُ لمن كان على عهد الرسول ﷺ تقريعًا لهم بما فعل أوائلُهم وبما جاؤوا به[١]، وتقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآية في أوائل «البقرة»[٢].

وقرأ نافع: «يقتُلون» من قَتَلَ، والجمهورُ من قتَّل مشدَّدًا[٣].

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ رُوِيَ أنَّ موسى عليه السلام وَعَدَ بني إسرائيلَ وهو بمصر إنْ أهلك الله عدوَّهم أتاهم بكتابٍ من عندِ الله فيه بيانُ ما يأتون وما يَذَرون، فلمَّا هلك فرعونُ سأل موسى ربَّه تعالى الكتابَ فأمره بصوم ثلاثين يومًا، وهو شهرُ ذي القَعْدة، فلمَّا أتمَّ الثلاثين أنكر خُلوفَ فيهِ فتسوَّكَ، فقالت الملائكة: كنَّا نشمُّ مِن فيك رائحةَ المسك فأفسدْتَه بالسواك[٤].

وقيل: أوحَى الله إليه: أما عَلِمْتَ أن خُلوفَ فَمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك، فأمره أن يزيد عليه عشرةَ أيام من ذي الحجَّة لذلك[٥].

وقيل: أمره الله بأنْ يصوم ثلاثين يومًا وأن يعمل فيها بما يقرِّبُه من الله تعالى، ثم أُنزلت عليه التوراةُ في العشر وكلِّم فيها، وأُجمِلَ ذكرُ الأربعين في «البقرة» وفصِّل هنا[٦].

وقال الكلبيُّ: لمَّا قطع موسى البحر ببني إسرائيل وغرق فرعونُ، قالت بنو إسرائيل لموسى: ائتنا بكتابٍ من ربِّنا كما وعدْتَنا وزعَمْتَ أنك تأتينا به إلى شهرٍ، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لينطلقوا معه، فلمَّا تجهَّزوا قال الله تعالى

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٤١٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٩، والكلام منه.
(٢) الآية (٤٩) منها.
(٣) التيسير ص١١٣.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٢، وتفسير أبي الليث ١/ ٥١٧، والكشاف ٢/ ١١١، والكلام منه.
(٥) الكشاف ٢/ ١١١، وهذه قطعة من حديث طويل جدًّا أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٦٣)، وأبو يعلى (٢٦١٨)، وأخرج هذه القطعة منه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٥٦.
(٦) الكشاف ٢/ ١١١.

لموسى: أخبر قومك أنك لن تأتيهم أربعين ليلةً، وذلك حين أُتمَّتْ بعشرٍ، فلمَّا خرج موسى بالسبعين أمرهم أن ينتظروه أسفلَ الجبلِ، وصعد موسى الجبلَ وكلَّمه الله أربعين يومًا وأربعين ليلةً، وكتب له الألواح، ثم إنَّ بني إسرائيل عدُّوا عشرين ليلةً وعشرين يومًا، فقالوا: قد أَخْلَفَنا موسى الوعدَ، وجَعَل لهم السامريُّ العجلَ فعبدوه(١).

وقيل: زيدت العشرُ بعد الشَّهر للمناجاة.

وقيل: التفتَ في طريقه فزِيْدَها.

وقيل: زِيدَتْ عقوبةً لقومه على عبادة العجل بعده.

وقيل: أَعْلَم موسى بمغيبه ثلاثين ليلةً، فلمَّا زاده العشرَ في مَغيبه ولم يعلموا بذلك وجست نفوسهم للزيادة على ما أخبرهم، فقال السامري: هلك موسى وليس براجعٍ، وأضلَّهم بالعجل فاتَّبعوه؛ قاله ابن جريج(٢).

وفائدةُ التفصيل؛ قالوا: إنَّ الثلاثين للتهيُّؤ للمناجاة، والعَشْرَ لإنزالِ التوراة وتكليمِه.

وقال أبو مسلم: بادر إلى ميقات ربِّه قبل قومه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾الآية [طه: ٨٣]، فجائزٌ أن يكون أتى الطورَ عند تمام الثلاثين فلمَّا أُعلم بخبر قومه مع السامريِّ رجع إلى قومه قبل تمام مدة الوعد، ثم عاد إلى الميقات في عشرٍ أخر(٣).

وقيل: لا يمتنع أن يكون وَعْدان: أوَّل حضره موسى، وثانٍ حضره المختارون ليسمعوا كلام الله، فاختلف الوعد لاختلاف الحاضرين(٤).

والثلاثون هي شهر ذي القعدة والعشر من ذي الحجة، قاله ابن عباس ومسروقٌ ومجاهدٌ، وتقدَّم الخلاف في قراءة «ووعدنا»(٥).

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين ٢/ ١٤٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٩، وأخرجه بنحوه مطولاً الطبري ١٠/ ٤١٦-٤١٧.
(٣) تفسير الرازي ١٤/ ٢٢٦.
(٤) المصدر السابق.
(٥) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً﴾ [البقرة: ٥١].

وقالوا: انْتَصَبَ «ثلاثين» على أنه مفعولٌ ثانٍ على حَذْفِ مضافٍ، فقدَّره أبو البقاء: إتيانَ ثلاثين، أو: تمامَ ثلاثين[١].

وقال ابن عطية: «وثلاثين» نصبٌ على تقدير: أجلناه أو مناجاة ثلاثين، وليست منتصبةً على الظرف لأن المواعدة لم تقع في الثلاثين[٢].

والضمير في «وأتممناها» عائدٌ على المواعَدة المفهومة من «واعدنا».

وقال الحَوْفي: الهاءُ والألف نصبٌ بـ«أتممنا»، وهما راجعتان إلى «ثلاثين». انتهى، ولا يظهر؛ لأنَّ الثلاثين لم تكن ناقصةً فتُتَمَّمَ بعشرٍ.

وحُذف مميِّزُ «عشر»، أي: بعشرِ ليالٍ؛ لدلالة ما قبله عليه.

وفي مصحف أُبَيٍّ «وتمَّمْناها» مشدَّدًا.

والميقات: ما وَقَّتَ له من الوقت وضَرَبَه له، وجاء بلفظ «ربه» ولم يأت على «واعدنا» ـ فكان يكون التركيب: فتمَّ ميقاتُنا ـ لأن لفظ «ربه» دالٌّ على أنه مُصْلِحُه وناظرٌ في أمره، ومالكُه والمتصرِّفُ فيه.

قيل: والفرقُ بين الميقات والوقت: أنَّ الميقات ما قدِّر فيه عملٌ من الأعمال، والوقتَ وقتُ الشيء.

وانتصب «أربعين» على الحال، قاله الزمخشري وابن عطية[٣]، وقدَّر الزمخشري الحال فيه فقال: أي: تم بالغًا هذا العدد.

فعلى هذا لا يكون الحالُ «أربعين» بل الحالُ هذا المحذوفُ، فيُنافي قولَه: و«أربعين ليلة» نصبٌ على الحال[٤].

وقال ابن عطية أيضًا: ويصح أن يكون أربعين ظرفًا من حيث هي عددُ أزمنة[٥].

---

(١) الإملاء ١/ ٢٨٤.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠، وليس في مطبوع: أو مناجاة.

(٣) الكشاف ٢/ ١١١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٩.

(٤) الكشاف ٢/ ١١١. وينظر اعتراض السمين في الدر ٥/ ٤٤١ على المصنف، ومناقشة ذلك في روح المعاني ٩/ ٣٣٠.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٩.

وقيل: «أربعين» مفعولٌ به بـ«تم» لأنَّ معناه: بلَغَ.

والذي يظهر أنه تمييزٌ منقولٌ[١] من الفاعل، وأصله: فتمَّ أربعونَ ميقاتِ ربِّه، أي: كملت، ثم أسند التمامُ لـ«ميقات» وانتصب «أربعون» على التمييز[٢].

والذي يظهرُ أنَّ هذه الجملة تأكيدٌ وإيضاح، وقيل: فائدتُها إزالةُ توهُّم تلك العشرِ من الثلاثين؛ لأنّه يُحتَمَلُ إتمامها بعشرٍ من الثلاثين.

وقيل: إزالةُ توهُّم أن تكون عَشْرَ ساعات، أي: أتممناها بعشرِ ساعات.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾
وقُرئ شاذًا: «هارونُ» بالضم على النداء[٣]، أي: يا هارونُ.

أَمَرَه حين أراد المضيَّ للمناجاة والمغيبَ فيها أن يكون خليفتَه في قومه، وأن يُصْلِحَ في نفسه، أو ما يجبُ أن يُصْلَحَ من أمر قومه، ونهاه أن يتَّبع سبيلَ مَن أَفْسَدَ، وفي النهي دليلٌ على وجود المفسدين، ولذلك نهاه عن اتِّباع سبيلهم.

وأَمْرُه إياه بالإصلاح ونَهْيُه عن اتِّباع سبيل المفسدين هو على سبيل التأكيد، لا لتَوَهُّم أنه يقع منه خلافُ الإصلاح واتِّباعُ تلك السبيل؛ لأن مَنْصِبَ النبوَّة منزَّهٌ عن ذلك.

ومعنى «اخْلُفْني»: استَبِدَّ بالأمر وذلك في حياته إذ راح إلى مناجاة ربِّه، وليس المعنى: إنك تكون خليفتي بعد موتي، ألا ترى أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام.

وليس في قول الرسول ﷺ لعليٍّ: «أنتَ منِّي كهارون من موسى»[٤] دليلٌ على

---

(١) تحرفت في (أ) و(د١) و(ع) إلى: مفعول، وجاء في المطبوع: محول.
(٢) وتعقبه السمين بأن هذا الذي قاله يُشْكِل بما ذكره هو (أي: المصنف) في الرد على الحوفي، وينظر كلامه بتمامه في الدر المصون ٥/٤٤٨.
(٣) الكشاف ٢/١١١.
(٤) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، ولفظه: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى...» وفي رواية لمسلم: «أنت مني بمنزلة...».

أنه خليفتُه بعد موته، إذ لم يكن هارونُ خليفةً بعد موت موسى، وإنما استخلف الرسولُ عليًّا على أهل بيته إذ سافر الرسولُ عليه السلام في بعض مغازيه كما استخلف ابنَ أمِّ مكتوم على المدينة[١]، فلم يكن في ذلك دليلٌ على أنه يكون خليفةً بعد موت الرسول.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي: للوقت الذي ضَرَبه له، أي: لتمام الأربعين، كما تقول: أتيتُه لعَشْرٍ خَلَوْنَ من الشهر، ومعنى اللامِ الاختصاصُ.

والجمهورُ على أنه وحده خُصَّ بالتكليم إذ جاء للميقات، وقال القاضي[٢]: سمع هو والسبعون كلامَ الله.

قال ابن عطية: خَلَقَ له إدراكًا سمع به الكلامَ القائمَ بالذات، القديمَ الذي هو صفةُ ذاتٍ، وقال ابنُ عباس وابنُ جُبيرٍ: أدنى اللهُ تعالى موسى حتى سمع صريفَ الأقلام في اللوح[٣].

وقال الزمخشريّ: «وكلَّمه ربُّه» من غيرِ واسطةٍ كما يكلِّم المَلَكَ، وتكليمُه أن يخلق الكلامَ منطوقًا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطًا في اللوح، ورُوي أنَّ موسى كان يسمع الكلام في كلِّ جهة، وعن ابن عباس: كلَّمه أربعين يومًا وأربعين ليلةً، وكتب له الألواح. وقيل: إنما كلَّمه في أول الأربعين[٤]. انتهى.

وقال وهب: كلَّمه في ألف مقام، وعلى إثر كلِّ مقامٍ يُرى نورٌ على وجهه ثلاثةَ أيام، ولم يَقْربِ النساءَ مذ كلَّمه الله[٥]. انتهى.

وقد أوردوا هنا الخلافَ الذي في كلام الله، وهو مذكورٌ ودلائلَ المختلفين في كتب أصول الدِّين.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٤٤)، وأبو داود (٢٩٣١)، وابن حبان (٢١٣٤) من حديث أنس ﷺ.

(٢) هو عبد الجبار المعتزلي، وكلامه في تفسير الرازي ١٤/ ٢٢٨.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠.

(٤) الكشاف ٢/ ١١١-١١٢.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٣٧٧)، وابن حبان في الثقات ٩/ ٥١، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٥٠.

و«كلَّمه» معطوفٌ على «جاء»، وقيل: حالٌ، وعدل عن قوله: وكلَّمناه، إلى قوله: «وكلمه ربُّه»، للمعنى الذي عدل إلى قوله: «فتم ميقاتُ ربه»، و«فلما تجلَّى ربُّه».

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ قال السدِّي وأبو بكر الهُذَلي: لمَّا كلَّمه وخصَّه بهذه المرتبة طَمَحَتْ هِمَّتُه إلى رتبة الرؤية، وتَشوَّفَ إلى ذلك، فسأل ربَّه أن يُرِيَه نفسه(١).

وقال الزجَّاج شوَّقه الكلامُ فَعِيْلَ صبرُه، فحملَه على سؤال الرؤية(٢).

وقال الربيع: لم يُعْهَدْ إليه في الرؤية، فظَنَّ أنَّ السؤال في هذا الوقت جائزٌ(٣).

وقال السدِّي: غار الشيطان في الأرض، فخرج بين يديه فقال: إنما يكلِّمك شيطانٌ، فسأل الرؤية(٤).

ولو لم تَجُزِ الرؤيةُ ما سألها، قال ابنُ عطية: ورؤيةُ الله عند الأشعرية وأهلِ السنة جائزةٌ عقلًا؛ لأنه من حيث هو موجودٌ تصحُّ رؤيتُه، وقرّرت الشريعةُ رؤيةَ الله في الآخرة ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهِرِ الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل مُحالًا وإنما سأل جائزًا، وقوله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾الآية ليس بجوابِ مَن سأل مُحالًا، وقد قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦] فلو سأل موسى محالاً لكان في الجواب زجرٌ مّا وتبيينٌ(٥).

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠، وأخرجه عنهما بنحوه الطبري ١٠/ ٤١٩. وأبو بكر الهذلي اسمه سُلْمى بن عبد الله بن سُلْمى، وقيل: اسمه روح. روى عن الحسن البصري وابن سيرين والشعبي وعكرمة وقتادة وغيرهم، وعنه: ابن جريج ـ وهو من أقرانه ـ ووكيع وابن عيينة وغيرهم، وهو أخباري متروك الحديث، توفي سنة (١٦٧هـ). التهذيب ٤/ ٤٩٨.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٣.

(٣) ذكر نحوه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٥٧ عن الربيع والحسن والسدي.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٩٦، وفيه: غاص، بدل: غار.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠، وتحرف قوله: تبيين، في (د١) إلى: وتيئس، وفي المطبوع: وتيئيس.

وقال الكرماني وغيرُه: في الكلام محذوفٌ تقديره: لن تراني في الدنيا. وقيل: لن تَقْدِرَ أن تراني. وقيل: لن تراني بسؤالك. وقيل: لن تراني ولكن ستراني حين أتجلَّى للجبل.

وقال الزمخشري[١]: فإن قلت: كيف طَلَبَ موسى عليه السلامُ ذلك وهو مِن أعلمِ الناسِ بالله تعالى وصفاته، وما يجوزُ عليه وما لا يجوز، وبتعاليه عن الصفة[٢] التي هي إدراكٌ ببعض الحواسِّ، وذلك إنما يصحُّ فيما كان في جهةٍ، وما ليس بجسمٍ ولا عَرَضٍ فمحالٌ أن يكون في جهة، ومنعُ المُجْبِرة إحالتَه في العقول غيرُ لازمٍ؛ لأنه ليس بأول مُكابرتهم وارتكابِهم، وكيف يكون طالِبَه وقد قال حين أخذتهم الرجفةُ ـ أي: الذين[٣] قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] ـ: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ إلى قوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] فتبرَّأ من فعلهم ودعاهم سفهاءَ وضلّالاً؟ قلتُ[٤]: ما كان طلبُه الرؤيةَ إلَّا ليُبَكِّتَ هؤلاء الذين دعاهم سفهاءَ وضُلَّالا وتبرَّأ من فعلهم، وليُلْقِمَهم الحَجَر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤيةَ أنْكَر عليهم وأعْلَمَهم الخطأ، ونبَّههم على الحق، فلجُّوا وتمادَوا في لَجاجهم، وقالوا: لا بدَّ ولن نؤمن لك حتى نراه، فأراد أن يَسمعوا النصَّ[٥] من عند الله باستحالة ذلك، وهو قوله: «لن تراني» ليتيقَّنوا ولينزاحَ عنهم ما دخَلَهم من الشبهة، فلذلك قال: «ربِّ أَرِني أَنْظُرْ إليك». فإن قلتَ: فهلَّا قال: أَرِهم ينظرون إليك؟ قلت: لأن الله سبحانه إنما كلَّم موسى وهم يسمعون، فلمَّا سمعوا كلامَ ربِّ العزَّة أرادوا أن يرى موسى ذاتَه فيُبْصِروه معه ـ كما أَسْمَعه كلامَه فَسَمِعوه معه ـ إرادةً مبنيةً على قياسٍ فاسدٍ، فلذلك قال موسى: «أرني أنظر إليك» ولأنه إذا

(١) في الكشاف ٢/ ١١٢.
(٢) كذا في النسخ، والذي في الكشاف: عن الرؤية.
(٣) في (أ) و(ع): للذين، وكلمة «أي» من (د٣) وليست في باقي النسخ والكشاف، لكن جاء في الكشاف: أخذت، بدل: أخذتهم.
(٤) القائل الزمخشري.
(٥) في النسخ عدا (د١): النطق، والمثبت من (د١) والمطبوع، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.

زُجِرَ[١] عمَّا طَلَبَ وأُنكر عليه في[٢] نبوَّته واختصاصِه وزُلْفَتِه عند الله، وقيل له: لن يكون ذلك، كان غيرُه أولى بالإنكار، ولأنَّ الرسول إمامُ أمته، فكان ما يخاطَبُ به أو يخاطِبُ[٣] راجعًا إليهم، وقولُه: «أنظر إليك» وما فيه من معنى المقابَلة التي هي محضُ[٤] التشبيه والتجسيم دليلٌ على أنه ترجمةٌ عن مُقْتَرحهم، وحكايةٌ لقولهم، وجَلَّ صاحبُ الجمل أن يَجْعَلَ الله منظورًا إليه مقابَلًا بحاسَّة النظر[٥]، فكيف بمن هو أعرقُ في معرفة الله من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظَّام وأبي الهُذَيْل والشيخين[٦] وجميع المتكلِّمين؟ وثاني مفعولي «أرني» محذوفٌ، أي: أَرِني نفسك، [أي][٧] اجعلني متمكِّنًا من رؤيتك بأن تتجلَّى لي فأنظرَ إليك. انتهى.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ قال ابن عطية: نصٌّ على منعه الرؤيةَ في الدنيا، و«لن» تنفي المستقبلَ، فلو بقينا على هذا النفي بمجرَّده لتضمَّن أن موسى لا يراه أبدًا ولا في الآخرة، ولكن ورد من جهةٍ أخرى الحديثُ المتواتر أنَّ أهل الإيمان يرون الله تعالى يوم القيامة، فموسى عليه السلام أحرى برؤيته[٨].

وقال الزمخشري: فإن قلتَ: ما معنى «لن»؟ قلتُ: تأكيدُ النفي الذي تعطيه «لا»، وذلك أن «لا» تنفي المستقبل، تقول: لا أفعلُ غدًا، فإذا أكَّدْتَ نفيها قلت: لن أفعل غدًا، والمعنى: إنَّ فِعْلَه يُنافي حالي، كقوله تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ

---

(١) في النسخ عدا (د١): ازدجر، والمثبت منها ومن المطبوع، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.
(٢) في (د١) والمطبوع: مع، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.
(٣) قوله: أو يخاطب، من (د١) والمطبوع: وفي الكشاف: أو ما يخاطب.
(٤) في النسخ عدا (د١): محط، والمثبت منها ومن المطبوع، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.
(٥) في النسخ عدا (د١): البصر، والمثبت منها ومن المطبوع، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.
(٦) هما أبو علي الجبائي وابنه أبو هاشم، وهما من رؤوس المعتزلة. وينظر الكشاف ١/ ٤٥٢.
(٧) زيادة يقتضيها السياق مستفادة من سياق الكلام في الكشاف ٢/ ١١٢.
(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠. وحديث رؤية الله تعالى يوم القيامة أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) عن جرير بن عبد الله ﷺ.

﴿ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] نفيٌ للرؤية فيما يُستقبَل، و«لن تراني» تأكيدٌ وبيان.

فإن قلتَ: كيف قال: «لن تراني»، ولم يقل: لن تنظر إليَّ، لقوله: «أنظر إليك»؟ قلتُ: لمَّا قال: «أرني» بمعنى: اجعلني متمكِّنًا من الرؤية التي هي الإدراك، عُلم أنَّ الطلبة هي الرؤيةُ لا النظرُ الذي لا إدراكَ معه، فقيل: «لن تراني» ولم يقل: لن تنظر إليَّ[1].

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ قال مجاهد وغيره: ولكن سأتجلَّى للجبل الذي هو أقوى منك وأشدُّ، فإن استقرَّ وأطاقَ الصبر لهيبتي فسيُمْكِنُك أنت رؤيتي؛ قال ابن عطية: فعلى هذا إنما جَعَلَ الله له الجبلَ مثالاً، وقالت فرقة: إنما المعنى: سأتبدَّى لك على الجبل فإن استقرَّ لعظمتي فسوف تراني[2]. انتهى.

وتعليقُ الرؤية على تقدير الاستقرار مؤذِنٌ بعدمها إن لم يستقرَّ، ونبَّه بذلك على أنَّ الجبل مع شدته وصلابته إذا لم يستقرَّ فالآدميُّ مع ضعفِ بنيته أَوْلى بأنْ لا يستقرَّ، وهذا تسكينٌ لقلب موسى وتخفيفٌ عنه من ثقل أعباء المنع.

وقال الزمخشري[3]: فإن قلت: كيف اتَّصل الاستدراك في قوله تعالى: «ولكن انظر إلى الجبل» بما قبله؟ قلت: اتَّصَلَ به على معنى: إنَّ النظر إليَّ محالٌ فلا تَطْلُبْه، ولكن عليك بنظرٍ آخَرَ وهو أن تنظُرَ إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبتَ الرؤيةَ لأجلهم كيف أفعل به، وكيف أجعلُه دكًّا بسبب طلبك للرؤية، لتستعظم ما أقدمْتَ عليه بما أُريك من عظيم أثره، كأنه عزَّ وعلا حقَّق عند طَلَب الرؤية ما مَثَّلَه عند نسبة الولد إليه في قوله تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٩٠-٩١] فإن استقرَّ مكانه كما كان مستقرًّا ثابتًا ذاهبًا في جهاته «فسوف تراني» تعريضٌ لوجود الرؤية لوجود ما لا يكون[4] من استقرار الجبل مكانَه

(١) الكشاف ٢/ ١١٢ و١١٣.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠.
(٣) في الكشاف ٢/ ١١٣-١١٤.
(٤) كذا وقعت العبارة في النسخ، والصواب: تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون، كما في الكشاف، ولكن تحرفت في مطبوعه: بوجود، إلى: موجود.

حين يدكُّه دكًّا ويسوِّيَه بالأرض، وهذا كلامٌ مُدْمَجٌ بعضُه في بعض، واردٌ على أسلوبٍ عجيبٍ ونظمٍ[(١)] بديعٍ، ألا ترى كيف تخلَّص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك، ثم كيف بَنَى الوعيد[(٢)] بالرَّجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية، أعني قوله: «فإن استقرَّ مكانه فسوف تراني». انتهى.

وهو على طريقة المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى، ولهم في ذلك أقاويلُ أربعةٌ:

أحدها: ما رووا عن الحسن وغيرِه أن موسى ما عَرَفَ أنَّ الرؤية غيرُ جائزةٍ، وهو عارِفٌ بربِّه وبعَدْله وتوحيده، فلم يَبْعُدْ أن يكون العلمُ بامتناع الرؤية وجوازِها موقوفًا على السماع.

ورُدَّ ذلك بأنه يلزمُ أن تكون معرفتُه بالله أقلَّ درجةً من معرفة أراذل المعتزلة، وذلك باطلٌ بالإجماع.

الثاني: قال الجبائي وابنُه أبو هاشم: سأل الرؤيةَ على لسان قومه فقد كانوا مُكْثِرين للمسألة عنها، لا لنفسه، فلمَّا مُنع منها ظهر أنْ لا سبيل إليها.

ورُدَّ بأنه لو كان كذلك لقال: أرِهم ينظروا إليك، ولقيل: لن تروني، وأيضًا لو كان محالًا لمنعهم عنه كما منعهم عن جَعْلِ الآلهة لهم بقوله: «إنكم قومٌ تجهلون».

وقال الكعبي: سأله الآيات الباهرةَ التي عندها تزولُ الخواطرُ والوساوسُ عن معرفته، كما نقول في معرفة أهلِ الآخرة.

ورُدَّ ذلك بأنه يقتضي حذفَ مضافٍ، وسياقُ الكلام يأبَى ذلك، وقد أَراه من الآيات ما لا غايةَ بعدها كالعصا وغيرِها.

وقال الأصم: المقصودُ أن يُذْكَر من الدلائل السمعية ما يدلُّ على امتناع الرؤية، حتى يتأكَّدَ الدليلُ العقليُّ بالدليل السمعيِّ[(٣)].

---

(١) في الكشاف: ونمط.
(٢) في (د١) والمطبوع: ثنى بالوعيد.
(٣) تنظر هذه التأويلات مع الردود عليها في تفسير الرازي ١٤/ ٢٢٩-٢٣١.

و«أل» في «الجبل» للعهد، وهو أعظمُ جبلٍ بمدينَ يقال له: إدريين، قال ابن عباس: تطاولت الجبال للتجلّي، وتواضع إدريين فتجلَّى له(١).

❃ ❃ ❃

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ
تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى
وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ
شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ
ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ
مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ
قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ
بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ
ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى
رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا
وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ
ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ
رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٥٧، وفيه: زبير، بدل: إدريين.

وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

المفردات

التجلِّي: الظهور.

الدَّك: مصدرُ دَكَكْتُ الشيءَ فَتَتُّهُ وسحقته، مصدرٌ في معنى المفعول، والدَّكُّ والدَّقُّ بمعنى واحدٍ، وقال ابن عُزيز[١]: «دكًّا»: مستويًا مع الأرض.

الخُرُور: السُّقوط.

أفاق: ثاب إليه حسُّه وعقلُه.

اللَّوْح معروفٌ، وهو يعدُّ للكتابة وغيرِها، وأصلُه: اللَّمْعُ؛ تَلْمَعُ وتَلُوحُ فيه الأشياءُ المكتوبة.

الحُليُّ معروفٌ، وهو ما يَتزَيَّنُ به النساءُ من فضةٍ وذهبٍ وجوهرٍ وغيرِ ذلك من الحجر النفيس.

الخُوَار: صوت البقر.

الأسف: الحزن، يقال: أسِفَ يأسَفُ.

الجرُّ: الجذب.

الإشمات: السرور بما ينال الشخص من المكروه.

السُّكوت والسُّكات: الصَّمْت.

* * *

(١) محمد بن عُزيز، أبو بكر السجستاني المفسر، عاش إلى حدود سنة (٣٣٠هـ). السير ١٥/٢١٦. وقد وقع في اسم: عزيز، خلاف بين العلماء ذكره الذهبي، وأن بعضهم ضبطه بزايين، وبعضهم بزاء وراء، وقد رجح الأول ابن حجر في تبصير المنتبه ٣/٩٤٨-٩٥٠، خلافاً للذهبي فإنه رجح الثاني. وكلام ابن عزيز في كتابه نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن ص٢٢٧.

التفسير ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ ترتَّب على التجلِّي أمران:

أحدهما: تفتُّتُ الجبل وتفرُّقُ أجزائه.

والثاني: خُرورُ موسى مغشيًّا عليه؛ قاله ابنُ زيد وجماعةُ المفسرين(١).

وقال السدِّي: ميتًا(٢). ويُبْعِدُه لفظةُ «أفاق».

والتجلِّي بمعنى الظهورِ الجسمانيِّ مستحيلٌ على الله تعالى، قال ابنُ عباس وقومٌ: لمَّا وقع نورُه عليه تَدَكْدَكَ(٣).

وقال المبرِّد: المعنى: ظَهَرَ للجبل من مَلكوت الله ما تَدَكْدَكَ به(٤).

وقيل: ظهر جزءٌ من العرش للجبل فتصدَّعَ من هيبته.

وقيل: ظهر أمرُه تعالى(٥).

وقيل: تجلَّى لأهل الجبل، يريد موسى والسبعين الذين معه.

وقال الضحاك: أظهر الله من نور الحُجُب مثلَ منخر الثور(٦).

وقال عبد الله بن سلام وكعبُ الأحبارِ: ما تجلَّى من عظمة الله للجبل إلا مثلُ سَمِّ الخِيَاط(٧).

وقال الزمخشري: فلمَّا ظهر له اقتدارُه وتصدَّى له أمرُه وإرادتُه(٨). انتهى.

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/٤٢٧-٤٢٨ عن ابن عباس وابن زيد.
(٢) لم أقف عليه عن السدي، وأخرجه الطبري ١٠/٤٢٨ عن قتادة وابن جريج.
(٣) ذكره الثعلبي ٣/٦٧، والبغوي ٢/١٩٧ بلفظ: ظهر نور ربه للجبل، جبل زبير.
(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/٢٥٨ دون نسبة، وذكر عن المبرد نحوه الثعلبيُّ ٣/٦٧، فقال: «وقال المبرد: معناه: فلما تَجلَّى ربُّه آيةً للجبل، جعله فعلاً متعدياً كالتخلص والتبدل والتوعد».
(٥) النكت والعيون ٢/٢٥٨، وعزاه الثعلبي ٣/٦٧ لقطرب.
(٦) تفسير الثعلبي ٣/٦٧، وتفسير البغوي ٢/١٩٧.
(٧) المصدران السابقان.
(٨) الكشاف ٢/١١٤.

وقال المتأوِّلون المتكلِّمون كالقاضي أبي بكر بن الطَّيِّب وغيرِه: إن الله خلق للجبل حياةً وحسًّا وإدراكًا يرى به، ثم تجلَّى له ـ أي: ظهر وبدا ـ فاندكَّ الجبلُ لشدة المَطْلِع، فلمَّا رأى موسى ما بالجبل صعق. وهذا المعنى مرويٌّ عن ابن عباس[١].

والظاهر نسبةُ التجلِّي إليه تعالى على ما يليقُ به من غير انتقالٍ ولا وصفٍ يدل على الجسمية.

وقال ابن عباس: صار ترابًا[٢].

وقال مقاتل: قطعًا متفرِّقةً[٣].

وقيل: صار ستة أَجْبُلٍ: ثلاثة بالمدينة: أحدٌ ووَرِقانُ ورَضْوَى، وثلاثة بمكة: ثورٌ وثَبيرٌ وحِراءٌ، رواه أنس عن رسول الله ﷺ[٤].

وقيل: ذهب أعلاه وبقي أكثره.

وقيل: صار غبارًا تذروه الرياح.

وقال سفيان: روي أنه ساخ في الأرض وأفضى إلى البحر الذي تحت الأرضين. قال ابن الكلبي: فهو يهوي فيه إلى يوم القيامة[٥].

وقرأ الجمهور: «دكًّا»، أي: مدكوكًا، أو: ذا دَكٍّ، وقرأ حمزة والكسائي: «دكَّاءَ» على وزن حمراء[٦]، والدكَّاءُ: الناقة التي لا سنامَ لها، والمعنى: جَعَله أرضًا دكَّاءَ تشبيهًا بالناقة الدكَّاء.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥١.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٢٧.
(٣) النكت والعيون ٢/ ٢٥٨.
(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٢١١، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٥). قال ابن حبان: موضوع لا أصل له.
(٥) ذكر هذه الأقوال ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٥١، وقول سفيان أخرجه الطبري ١٠/ ٤٢٨ بنحوه.
(٦) السبعة ص٢٩٣، والتيسير ص١١٣.

وقال الربيع بن خُثيم: ابسُطْ يدكَ دكَّاءَ، أي: مُدَّها مستويةً[١].

وقال الزمخشري: والدكَّاء اسمٌ للرابية الناشزة من الأرض، كالدَّكَّة[٢]. انتهى، وهذا يناسبُ قولَ مَن قال: إنه لم يذهب بجملته، وإنما ذهب أعلاه وبقي أكثرُه.

وقرأ يحيى بن وثاب: «دُكًّا»[٣]، أي: قطعًا، جمع دكَّاء، نحو غُرٌّ جمع غَرَّاء.

وانتصب على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ«جَعَله»، ويَضْعُفُ قولُ الأخفش: إنَّ نَصْبَه من باب: قعدتُ جلوسًا[٤].

و«صَعِقًا» حالٌ مقارِنةٌ، ويقال: صَعَقَه فصَعِقَ، وهو من الأفعال التي تعدَّت بالحركة، نحو: شَتَرَ الله عينَه فَشَتِرتْ.

والظاهرُ أنَّ موسى والجبلَ لم يُطيقا رؤيةَ الله تعالى حين تجلَّى، فلذلك اندكَّ الجبلُ وصَعِقَ موسى عليه السلام، وحَكَى عِياضُ بن موسى[٥] عن القاضي أبي بكر بن الطيِّب أنَّ موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خرَّ صعقًا، وأن الجبل رأى ربَّه فصار دكًّا بإدراكٍ خَلَقه الله له.

وذكر أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ عن كعبٍ قال: إنَّ الله تعالى قَسَم كلامَه ورؤيته بين محمدٍ وموسى صلى الله عليهما وسلم، فكلَّم موسى مرتين، ورآه محمدٌ ﷺ مرتين[٦].

وذكر المفسِّرون من رؤيته ملائكةَ السماوات السبع وحملةَ العرش وهيئاتهم وأعدادهم ما اللهُ أعلمُ بصحته[٧].

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٤-١١٥، وفيه: وعن الشعبي: وقال لي الربيع بن خثيم: ابسط...

(٢) الكشاف ٢/ ١١٤.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٥، والكشاف ٢/ ١١٥.

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٣١ بنحوه.

(٥) في الشفا ١/ ٣٨٥.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٤٩٨)، وأخرجه الترمذي (٣٢٧٨) في قصة جرت بين ابن عباس رضي الله عنه وكعب.

(٧) ينظر ما أخرجه الطبري ١٠/ ٤٢٠-٤٢٧ عن ابن إسحاق، وما ذكره الثعلبي ٣/ ٦٥-٦٧ عن وهب.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾أي: من مسألة الرؤية في الدنيا؛ قاله مجاهد(١). أو: من سؤالها قبل الاستئذان. أو: عن صغائري؛ حكاه الكرماني.

أو قال ذاك على سبيل الإنابة إلى الله تعالى والرجوع إليه عند ظهور الآيات، على ما جرت به عادةُ المؤمن عند رؤية العظائم، وليس توبةً عن شيءٍ معيَّن، أشار إليه ابنُ عطية(٢).

وقال الزمخشريُّ: «قال سبحانك» أنزِّهُك عمَّا لا يجوز عليك من الرؤية وغيرِها «تبت إليك» من طلب الرؤية. فإن قلتَ: فإنْ كان طلبُ الرؤية للغرض الذي ذكرتَه فممَّ تاب؟ قلتُ: من إجرائه تلك المقالةَ العظيمةَ ـ وإن كان لغرضٍ صحيح ـ على لسانه من غير إذنٍ فيه من الله تعالى، فانظُر إلى إعظام الله تعالى أمرَ الرؤية في هذه الآية، وكيف أرجَفَ الجبلَ بطالبيها وجَعَلَه دكًّا، وكيف أصعقَهم، ولم يُخَلِّ كليمَه من نفيان ذلك مبالغةً في إعظام الأمر، وكيف سَبَّح ربَّه ملتجئًا إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمةِ على لسانه، وقال: «أنا أولُ المؤمنين». ثم تعجَّبْ من المتَّسِمِينَ بالإسلام، المتَسَمِّينَ بأهل السنَّة والجماعة، كيف اتَّخذوا هذه العظيمةَ مذهبًا! ولا يغرَّنَّك تستُّرُهم بالبَلْكَفة(٣)، فإنه من منصوبات أشياخهم، والقولُ ما قال بعضُ العَدْلية(٤) فيهم:

لجماعةٌ سمَّوا هواهم سُنَّةً وجماعةٌ حُمُرٌ لعَمْري مُوْكَفَهْ
قد شبَّهوه بخَلْقِه وتخوَّفوا شَنْعَ الوَرَى فتستَّروا بالبَلْكَفَهْ(٥)

وهو تفسيرٌ على طريقة المعتزلة، وسبٌّ لأهل السُّنة والجماعة على عادته، وقد نَظَمَ بعضُ علماء السنة على وزن هذين البيتين وبحرهما؛ أنشدنا الأستاذ العلَّامة

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٣٤.
(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢.
(٣) البلكفة: نحت كالبسملة، أي: القائلين بأن الرؤية بلا كيف. حاشية الشهاب على البيضاوي ٤/ ٢١٦.
(٤) العدلية من أسماء المعتزلة، وينظر في سبب التسمية منهاج السنة النبوية ٣/ ١٤١، وفيض القدير ١/ ٤١٥.
(٥) الكشاف ٢/ ١١٥-١١٦.

أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بغَرْناطة إجازةً إن لم يكن سماعًا، ونقلتُه من خطِّه، قال: أنشدنا القاضي الأديب العالِمُ أبو الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السَّكُوني بقراءتي عليه، عن أخيه القاضي أبي بكر[1] من نَظْمِه:

شَبَّهْتَ جَهْلاً صَدْرَ أمةِ أحمد ... وذوي البصائرِ بالحمير المُوْكَفَهْ
وزَعَمْتَ أنْ قد شبَّهوا معبودَهم ... وتخوَّفوا فتستَّروا بالبَلْكَفَهْ
ورَمَيْتَهم عن نبعةٍ سوَّيْتَها ... رَمْيَ الوليدِ غدا يمزِّقُ مُصْحَفَهْ
وَجَبَ الخَسَارُ عليك فانْظُرْ مُنصِفاً ... في آية الأعراف فهي المُنْصِفَهْ
أترى الكليمَ أتَى بجهلٍ ما أتَى ... وأتَى شيوخُك ما أتَوْا عن مَعْرِفَهْ
وبآيةِ الأعرافِ وَيْكَ خُذِلْتُمُ ... فوقَعْتُمُ دون المراقي المُزْلَفَهْ
لو صحَّ في الإسلام عقدُكَ لم تَقُلْ ... بالمذهبِ المهجورِ من نفي الصِّفَهْ
إن الوجوه إليه ناظرةٌ بذا ... جاء الكتابُ فقلتُم هذا السَّفَهْ
فالنَّفْيُ مختصٌّ بدارٍ بعدها ... لك لا أبا لك موعِدًا لن تُخْلَفَهْ

وأنشدنا قاضي القضاة أبو القاسم عبد الرحمن ابن قاضي القضاة أبي محمد بن عبد الوهاب بن خلف العَلَاميُّ[2] بالقاهرة لنفسه:

قالوا يُريد ولا يكونُ مرادُه ... عَدَلوا ولكنْ عن طريقِ المعرفَهْ

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾ قال ابن عباس ومجاهدٌ: من قومي بني إسرائيل[3].

وقيل: مِن أهل زمانه إن كان الكفرُ قد طبَّق الآفاق[4].

(١) يحيى بن أحمد السكوني، كان عالماً بأصول الفقه والكلام، خطيباً مفوَّهاً، له حظٌّ من النظم والنثر، شَرَحَ مستصفى الغزالي، وقيد على تفسير الزمخشري كتاباً سماه: الحسنات والسيئات، أبدى فيه مستظرف غرائبه البيانية وطرقه الاعتزالية، توفي سنة (٦٢٧هـ). نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي على هامش الديباج المذهب ص٣٥٥.

(٢) وكان فقيهاً نحويّاً أديباً، جرت له محنة مع الملك الأشرف، ثم نجاه الله منها، توفي سنة (٦٩٥هـ). طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ١٧٢.

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٠/ ٤٣٥.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢.

وقال أبو العالية: بأنك لا تُرى في الدنيا[(١)].

وقال الزمخشري: بأنك لستَ بمرئيٍّ ولا مُدْرَكٍ بشيءٍ من الحواس[(٢)].

وقال أيضًا: بعظمتك وجلالك، وأنَّ شيئًا لا يقوم لبطشك وبأسك[(٣)]. انتهى.

وتفسيرُه الأولُ على طريقة المعتزلة، وقد ذكر متكلِّمو أهل السنة دلائلَ على رؤية الله تعالى في الآخرة سمعيةً وعقليةً يوقَفُ عليها وعلى حجج الخصوم في كتب أصول الدين.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ لمَّا طلب موسى عليه السلام الرؤيةَ ومُنِعَها عدَّدَ عليه تعالى وجوهَ نعمه العظيمة عليه، وأَمَره أن يشتغل بشُكْرِها، وهذه تسليةٌ منه تعالى له، والاصطفاءُ تقدَّم شرحُه[(٤)]، و«على الناس» لفظٌ عام ومعناه الخصوصُ، أي: على أهل زمانك، أو يبقى على عمومه، يعني: في مجموع الدرجتين: الرسالة والكلام؛ قاله ابن عطية[(٥)]. وينبغي أن يُحمل ذلك على وقوع الكلام في الأرض، إذ ثبت أنَّ آدم نبيٌّ مكلَّم[(٦)]، وتؤوِّل على أنَّ ذلك في الجنة، ورسولُنا محمدٌ ﷺ يَظْهَرُ من حيث الإسراء أنّه كلَّمه الله تعالى.

ويدلُّ قوله: «وبكلامي» على أنه سمع الكلام من الله لا من غيره؛ لأنَّ الملائكة تنزل على الرسل بكلام الله.

وقدَّم «برسالاتي» على «بكلامي» لأن الرسالة أسبقُ في الزمان، أو لأنّه انتقل من شريفٍ إلى أشرف.

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٣٣.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٥.
(٣) الكشاف ٢/ ١١٦.
(٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [البقرة: ١٣٠].
(٥) في المحرر ٢/ ٤٥٢.
(٦) يشير إلى ما أخرجه أحمد (٢١٥٤٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وفيه أن النبي ﷺ سئل عن آدم. فقال: «نبيٌّ مكلَّم»، وإسناده ضعيف، وقد سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢.

وقرأ الحِرْميان: «برسالتي» على الإفراد[١]، وهو مرادٌ به المصدر، أي: بإرسالي، أو يكون على حذفِ مضافٍ، أي: بتبليغ رسالتي؛ لأنَّ مدلول الرسالة غيرُ مدلول المصدر.

وقرأ باقي السبعة بالجمع؛ لأن الذي أُرسل به ضروبٌ وأنواع.

وقرأ الجمهور: «وبكلامي»، فاحتمل أن يكون مصدرًا، أي: وبتكليمي، أو يكون على حذف مضافٍ، أي: وبسماع كلامي.

وقرأ أبو رجاء: «برسالتي وبكَلِمي» جمع كلمة، أي: وبسماع كلمي.

وقرأ الأعمش: «برسالاتي وبكَلِمي»، وحَكَى عنه المهدويُّ: «وتكليمي» على وزن: تفعيلي[٢].

وأمَره تعالى بأن يأخذَ ما آتاه من النبوَّة لأنَّ في الأمر بالأخذ مزيدَ تأكيدٍ وحصولَ أجرٍ بالامتثال، والمعنى: خُذْ ما آتيتك باجتهادٍ في تبليغه وجِدٍّ في النفع به، وكن من الشاكرين على ما آتيناك، وفي ذلك إشارةٌ إلى القَنَع والرِّضا بما أعطى الله، والشكرِ عليه.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ قيل: إن موسى عليه السلام صَعِقَ يومَ الجمعة يومَ عرفة وأفاق فيه، وأُعطي التوراةَ يومَ النحر[٣].

وظاهرُ قوله: «وكتبنا» نسبةُ الكتابة إليه:

فقيل: كتب بيده وأهلُ السماء يسمعون صرير القلم في اللوح[٤].

وقيل: أَظْهَرَها وخَلَقَها في الألواح.

وقيل: أمر القلم أن يخطَّ لموسى في الألواح. وقيل: كتبها جبريلُ عليه السلام

---

(١) السبعة ص٢٩٣، والتيسير ص١١٣.
(٢) ذكر هذه القراءات ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٥٢، ووقعت قراءة أبي رجاء في مطبوعه: «برسالتي وبكلمتي».
(٣) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٥٩ عن ابن عباس، والبغوي ٢/ ١٩٨ عن الكلبي، والقرطبي ٩/ ٣٢٥ عن قتادة والكلبي.
(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٥٦ عن سعيد بن جبير.

بالقلم الذي كتب به الذِّكر، واستمدَّ من نهر النور[(١)]. ففي هذين القولين أَسند ذلك إلى نفسه إسنادَ تشريفٍ؛ إذ ذاك صادرٌ عن أمره.

وقيل: معنى «كتبنا»: فرضنا، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣][(٢)].

والضمير في «له» عائدٌ على موسى، والألواحُ جمعُ قِلَّةٍ، و«أل» فيها لتعريفِ الماهِيَةِ فإن كان هو الذي قطعها وشقَّقها[(٣)]، فتكونُ «أل» فيها للعهد، وقال ابن عطية: عوضٌ من الضمير الذي يقدَّرُ وصلةً بين الألواح وموسى عليه السلام، تقديره: في ألواحه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١] أي: مأواه[(٤)]. انتهى.

وكونُ «أل» عِوَضًا من الضمير ليس مذهبَ البصريين، ولا يتعيَّنُ أن يكون عوضًا من الضمير، وليس ذلك كقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ لأن الجملة خبرٌ عن «مَن»، فاحتاجت الجملةُ إلى رابطٍ، فقال الكوفيون: «أل» عوضٌ من الضمير، كأنه قيل: مأواه، وقال البصريون: الرابطُ محذوفٌ، أي: هي المأوى له.

وظاهر «الألواح» الجمع:

فقيل: كانت سبعةً، وروي ذلك عن ابن عباس.

وقيل: ثمانية، ذكره الكرماني.

وقيل: تسعةً، قاله مقاتل.

وقيل: عشرة، قاله وهب بن منبه.

وقيل: اثنان وروي عن ابن عباس أيضًا، واختاره الفرَّاءُ[(٥)]، وهذا ضعيفٌ؛

---

(١) ذكر هذا القول الرازي في تفسيره ١٤/ ٢٣٦ عن ابن جريج، ثم قال: واعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح، وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوي وجب القول به، وإلا وجب السكوت عنه.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٣٥٩.

(٣) كما نقل البغوي ٢/ ١٦٦ عن وهب بن منبه، وسيرد قريباً.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢.

(٥) ذكر هذه الأقوال عدا قول الكرمانيِّ ابنُ الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٥٨.

لأن الدلالة بالجمع على اثنين قياسًا له شرطٌ مذكورٌ في النحو، وهو مفقودٌ هنا.

وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراةُ وهي وِقْرُ سبعين بعيرًا يُقْرأُ الجزءُ منها في سنة، ولم يقرأها سوى أربعةِ نفرٍ: موسى ويوشع وعُزير وعيسى(١).

وقد اختلفوا من أيِّ شيءٍ هي، فعن ابن عباس وأبي العالية: من زبرجد، وعن ابن جبير: من ياقوت أحمر، وعن ابن عباس أيضًا ومجاهد: من زمردٍ أخضر، وعن أبي العالية أيضًا: من بَرَدٍ، وعن مقاتل: من زُمُرُّدٍ وياقوت، وعن الحسن: من خشب طولُها عشرة أذرع، وعن وهب: من صخرةٍ صمَّاء أُمر بقطعها ولانت له، فقطعها بيده وشقَّقها بأصابعه(٢).

وقيل: من نورٍ، حكاه الكرمانيُّ، والمعنى: من كلِّ شيءٍ محتاجٍ إليه في شريعتهم.

﴿مَّوۡعِظَةً﴾للازْدِجار والاعتبار ﴿وَتَفۡصِيلًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ﴾من التكاليف: الحلال والحرام، والأمر والنهي، والقصص والعقائد، والإخبار بالمغيَّبات.

وقال ابن جبير ومجاهد: «لكل شيءٍ» بما أُمروا به ونُهوا عنه. وقال السدي: الحلال والحرام(٣).

وقال مقاتل: كان مكتوبًا في الألواح: إني أنا الله الرحمن الرحيم، لا تُشْرِكوا بي شيئًا، ولا تقطعوا السُّبلَ، ولا تحلفوا باسمي كاذبين، فإنَّ مَن حَلَفَ باسمي كاذبًا فلا أزكِّيه، ولا تقتلوا، ولا تزنوا، ولا تعقُّوا الوالدين(٤).

والظاهرُ أنَّ مفعول «كتبنا»: «موعظة»، أي: كتبنا فيها موعظةً من كلِّ شيءٍ وتفصيلًا لكلِّ شيءٍ، قاله الحَوْفي، قال: نصب «موعظةً» بـ«كتبنا»، و«تفصيلًا» عطفٌ على «موعظةً لكلِّ شيءٍ» متعلِّقٌ بـ«تفصيلًا». انتهى.

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٤٥٥، وتفسير الثعلبي ٣/ ٧٢، والكشاف ٢/ ١١٦، وتفسير البغوي ٢/ ١٩٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٢٨. وعندهم جميعاً: وهي سبعون وقر بعير.

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/ ٤٥٦-٤٥٧، والنكت والعيون ٢/ ٢٦٠، وتفسير البغوي ٢/ ١٩٩، وزاد المسير ٣/ ٢٥٨.

(٣) أخرج القولين الطبري ١٠/ ١٣٧-١٣٨.

(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٢، والكشاف ٢/ ١١٦.

وقال الزمخشري: «من كلِّ شيءٍ» في محلِّ النصب مفعول «كتبنا»، و«موعظةً وتفصيلًا» بدلٌ منه، والمعنى: كتبنا له كلَّ شيءٍ كان بنو إسرائيل يحتاجون إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام[١]. انتهى.

ويُحتملُ عندي وجهٌ ثالثٌ، وهو أن يكون مفعولُ «كتبنا» موضعَ المجرور، كما تقول: أكلتُ من الرغيف، و«من» للتبعيض، أي: كتبنا له أشياءَ من كلِّ شيءٍ، وانتصب «موعظةً وتفصيلًا» على المفعول من أَجْله، أي: كتبنا له تلك الأشياء للاتِّعاظ والتفصيل لأحكامهم[٢].

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾أي: فقلنا: خذها، عطفًا على «كتبنا»، ويجوز أن يكون «فخذها» بدلًا من قوله: «فخذ ما آتيتُك»، والضمير في «فخذها» عائدٌ على «ما» على معنى «ما» لا على لفظِها، وأمَّا إذا كان على إضمارٍ: فقلنا، فيكون عائدًا على «الألواح»، أي: الألواح[٣]، أو على «كلِّ شيء» لأنه في معنى الأشياء، أو على التوراة، أو على الرسالات، وهذه احتمالاتٌ مَقولةٌ أظهرُها الأول.

ومعنى «بقوَّة»، قال ابن عباس: بِجدٍّ واجتهادٍ فِعْلَ أُولي العَزْم.

وقال أبو العاليةِ والربيعُ بن أنس: بطاعة.

وقال جُوَيْبر: بشكرٍ.

وقال ابن عيسى: بعزيمةٍ وقوةِ قلبٍ؛ لأنه إذا أخذها بضعفِ النية أدَّاه إلى الفتور[٤]، وهذا القولُ راجعٌ لقول ابن عباس.

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٦.

(٢) في (ب) و(د٣) و(يه): للأحكام. وينظر روح المعاني ٩/ ٣٥٨، فقد استبعد الآلوسي أن تكون «موعظة» مفعولًا من أجله، قال: لأن الظاهر عطف «تفصيلًا» على «موعظة» وظاهرٌ أنه لا معنى لقولك: كتبنا له من كل شيءٍ تفصيلًا لكل شيء.

(٣) قوله: أي الألواح، متعلق بقوله بدايةً: أي: فقلنا خذها، وسبب هذا الانقطاع في السياق أن المصنف استدرك على هامش (ز١) من قوله: عطفاً على «كتبنا»، إلى قوله: عائداً على الألواح، والنسخ الأخرى نقلت عنها فجاء الكلام فيها ضمن المتن.

(٤) تنظر هذه الأقوال مفرقة في تفسير الطبري ١٠/ ٤٣٩-٤٤٠، والنكت والعيون ٢/ ٢٦٠، والكشاف ٢/ ١١٦-١١٧، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٠، وزاد المسير ٣/ ٢٥٩.

وقال ابن عباس: أُمر موسى أن يأخذ بأشدَّ ممَّا أمر به قومه[١].

وقولُه: «بأحسنها» ظاهرُه أنه أفعلُ التفضيل، وفيها الحَسَنُ والأحسنُ، كالقصاص والعفو والانتصار والصبر.

وقيل: أحسنُها: الفرائضُ والنوافلُ، وحَسَنُها: المباحُ.

وقيل: أحسنُها: الناسخُ، وحَسَنُها: المنسوخ. ولا يتصوَّر أن يكون المنسوخُ حَسَنًا إلا باعتبار ما كان عليه قبلَ النسخ، أمَّا بعد النسخ فلا يُوصَفُ بأنه حَسَنٌ؛ لأنه ليس مشروعًا.

وقيل: الأحسنُ المأمورُ به دون المنهيِّ عنه؛ قال الزمخشري: على قوله: الصيفُ أحرُّ من الشتاء[٢]. انتهى، وذلك على تخيُّلِ أنَّ في الشتاء حرًّا، ويمكنُ الاشتراكُ فيهما في الحُسْن بالنسبة إلى الملاذِّ وشهوات النفس، فيكونُ المأمورُ به أحسنَ من حيث الامتثالُ وترتُّبُ الثواب عليه، ويكونُ المنهيُّ عنه حَسَنًا باعتبارِ الملاذِّ والشهوة، فيكونُ بينهما قَدْرٌ مشتركٌ في الحُسْن وإن اخْتَلفَ متعلَّقُه.

وقيل: أحسنُها هو أشبه ما تحتملُه الكلمة[٣] من المعاني إذا كان لها احتمالاتٌ، فتُحمل على أُولاها بالحقِّ وأقربِها إليه.

وقيل: «أحسن» هنا ليست أفعلَ التفضيل، بل المعنى: بِحَسَنها، كما قال:

بيتًا دعائمه أعزُّ وأطولُ[٤]

أي: عزيزةٌ طويلةٌ؛ قاله قطربٌ وابنُ الأنباري[٥]، فعلى هذا أُمروا بأنْ يأخذوا بحسنها، وهو ما يترتَّب عليه الثوابُ، دون المناهي التي يترتَّبُ على فعلها العقابُ.

وقيل: «أحسن» هنا صلةٌ، والمعنى: يأخذوا بها، وهذا ضعيفٌ؛ لأن الأسماء لا تزاد.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٧.

(٣) قوله: الكلمة، ليس في (ب) و(د٣) و(يه).

(٤) وصدره: إن الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ١٥٥.

(٥) زاد المسير ٣/ ٢٥٩.

وانْجَزَم «يأخذوا» على جواب الأمر، وينبغي تأويلُ «وأْمُرْ قومَكَ» لأنه لا يَلزمُ من أَمْرِ قومه بأَخْذِ أحسنِها أن يأخذوا بأحسنها، فلا ينتظمُ منه شرطٌ وجزاء[1].

و«بأحسنها» متعلِّقٌ بـ«يأخذوا»، وذلك على إعمال الثاني؛ لأن «بأحسنها» مقتضًى لقوله: «وأمر» ولقوله: «يأخذوا».

ويحتمل أن يكون قوله: «يأخذوا» مجزومًا على إضمارِ لام الأمر، أي: ليأخذوا؛ لأن معنى «وأمر قومك»: قل لقومك، وذلك على مذهب الكسائي.

ومفعولُ «يأخذوا» محذوفٌ لفهم المعنى، أي: يأخذوا أنفسَهم بأحسنها، ويحتمل أن تكون الباء زائدةً، أي: يأخذوا أحسنَها، كقوله:

لا يَقْرأنَ بالسُّوَرِ[2]

والوجهُ الأولُ أحسنُ.

وانظُرْ إلى اختلافِ متعلَّق الأمرين: أُمِرَ موسى بأَخْذِ جميعِها، فقيل: «فخذها بقوة» وأُكِّد الأخذُ بقوله: «بقوة»، وأُمروا هم أن يأخذوا بأحسنها ولم يؤكَّد ليُعْلَم أن رتبة النبوَّة أشقُّ في التكليف من رتبة التابع، ولذلك فُرِضَ على رسول الله ﷺ قيامُ الليل وغيرُ ذلك من التكاليف المختصة به.

والإرادةُ هنا من رؤية العين ولذلك تعدَّت إلى اثنين، و«دار الفاسقين» مصرُ، قاله عليٌّ وقتادةُ ومقاتلٌ وعطيةُ العوفي[3]، والفاسقون فرعونُ وقومُه، قال

---

(١) يعني: أن شرط الجزم انحلالُ الجملتين إلى شرط وجزاء، وهذا لا يستقيم هنا دون تأويل، لأننا إذا قلنا: إن تأمر قومك يأخذوا بأحسنها، لا يستقيم المعنى بدليل عصيان بعضهم له في ذلك، فلا بد من تأويل، نحو: إن تأمرهم ويوفقهم الله تعالى يأخذوا. ينظر الدر المصون ٥/ ٤٥٣، وروح المعاني ٩/ ٣٦٢.

(٢) قطعة من بيت سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وتمامه:

هن الحرائر لا رباتُ أحمرةٍ سودُ المحاجر لا يقرأن بالسُّور

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٣، وزاد المسير ٣/ ٢٦٠.

الزمخشريُّ: كيف أَقْفَرتْ منهم ودمِّروا لفِسْقِهم، لتعتبروا فلا تفسقوا مِثْلَ فسقهم فينكَّلُ بكم مِثْلَ نكالهم[١]. انتهى.

وقيل: المعنى: سأُريكم مصارعَ الكفار، وذلك أنه لمَّا أُغْرِقَ فرعونُ وقومُه أُوْحيَ إلى البحر أن اقْذِفْ أجسادَهم إلى الساحل، ففعل فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم مصارعَ الفاسقين[٢].

وقال الكلبي: ما مرُّوا عليه إذا سافروا من مصارع عادٍ وثمودَ والقرونِ الذين أُهلكوا.

وقال قتادة أيضاً: الشام، والمرادُ العمالقةُ الذين أُمر موسى بقتالهم.

وقال مجاهد والحسن: «دار الفاسقين» جهنم، والمراد الكفرةُ بموسى وغيره[٣].

وقال ابن زيد: «سأريكم» من رؤية القلب، أي: سأُعلِّمُكم سِيرَ الأولين وما حلَّ بهم من النكال[٤].

وقيل: «دار الفاسقين» أي: ما دار إليه أمرُهم، وهذا لا يُدْرَك إلا بالأخبار التي يَحْدُثُ عنها العلمُ، وهذا قريبٌ من قول ابن زيد.

قال ابن عطية: ولو كان من رؤية القلب لتعدَّى بالهمزة إلى ثلاثة مفعولين، ولو قال قائلٌ: المفعولُ الثالثُ يتضمَّنه المعنى فهو مقدَّر، أي: مدمَّرةً، أو: خربةً، أو: مسعَّرةً ـ على قولِ مَن قال: إنها جهنم ـ قيل له: لا يجوزُ حذفُ هذا المفعول، ولا الاقتصارُ دونه؛ لأنها داخلةٌ على الابتداء والخبر، ولو جوِّز لكان على قبحٍ في اللسان لا يليقُ بكتاب الله تعالى[٥]. انتهى.

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٧.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٣، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٣٠. وروي نحو هذا المعنى عن سفيان الثوري، فقد أخرج عنه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٦ قوله: «دار الفاسقين»: هلاك الفاسقين.

(٣) تنظر هذه الأقوال في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٣، وزاد المسير ٣/ ٢٦٠، وتفسير الرازي ١٤/ ٢٣٨، وقول مجاهد والحسن أخرجه الطبري ١٠/ ٤٤١، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٦.

(٤) ذكره الثعلبي ٣/ ٧٣ بلفظ: يعني سَنَنَ الأولين.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٣.

وحذفُ المفعول الثالث في باب «أَعْلَمَ» لدلالة المعنى عليه جائزٌ، فيجوزُ في جواب: هل أعلمتَ زيدًا عمرًا منطلقًا: أعلمتَ زيدًا عمرًا، ويُحذَفُ «منطلقًا» لدلالة الكلام السابق عليه.

وأمَّا تعليلُه: لأنها داخلةٌ على الابتداء والخبر، لا يدلُّ على المنع؛ لأن خبر المبتدأ يجوزُ حذفُه اختصارًا، والثاني والثالثُ في باب «أَعْلَم» يجوزُ حذفُ كلِّ واحدٍ منهما اختصارًا. وفي قوله: لأنها ـ أي: «سأريكم» ـ داخلةٌ على المبتدأ والخبر، فيه تجوُّزٌ، ويعني أنها قبل النقل بالهمزة كانت داخلةً على المبتدأ والخبر.

وقرأ الحسن: «سأوريكم» بواوٍ ساكنةٍ بعد الهمزة[1] على ما يقتضيه رسمُ المصحف، ووجِّهت هذه القراءةُ بوجهين:

أحدهما: ما ذكره أبو الفتح، وهو أنه أشبعَ الضمةَ ومطلها[2] فنشأ عنها الواوُ، قال: ويُحسِّنُ احتمالَ الواو في هذا الموضع أنَّه موضعُ وعيدٍ وإغلاظٍ فمكَّن الصوتُ فيه[3]. انتهى، فيكون كقوله:

.... أدنـو فـأنـظـورُ[4]

أي: فأنظر، وهذا التوجيهُ ضعيفٌ، لأن الإشباعَ بابُه ضرورةُ الشعر.

والثاني: ما ذكره الزمخشريُّ، قال: وقرأ الحسن: «سأوريكم» وهي لغةٌ فاشيةٌ بالحجاز، يقال: أَوْرِني كذا، وأَوْرَيْتُه، فوجهُه أن يكون من: أَوْرَيْتُه[5] الزَّنْدَ، كأنَّ المعنى: بَيِّنه لي وأنِرْه لأستَبينَه. انتهى، وهي أيضًا في لغة أهل الأندلس، كأنهم تلقَّفوها من لغة الحجاز وبقيت في لسانهم إلى الآن، وينبغي أن يُنظر في تحقُّق هذه اللغة: أهي في لغة الحجاز أم لا؟

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٥-٤٦، والمحتسب ١/ ٢٥٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٣، والكشاف ٢/ ١١٧.

(٢) في (د١) والمطبوع: ومطها.

(٣) المحتسب ١/ ٢٥٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٣، وعنه نقل المصنف.

(٤) قطعة من بيت لإبراهيم بن هرمة وهو في ديوانه ص٢٣٩ وتمامه:

وأنني حيثما يُشري الهوى بصري من حيثما سلكوا أدنو فأنظورُ

(٥) في (د١) والمطبوع ومطبوع الكشاف: أوريتُ.

وقرأ ابن عباس وقَسَامةُ بنُ زهيرٍ: «سأُوْرِثُكم»[١]، قال الزمخشريُّ: وهي قراءةٌ حسنةٌ يصحِّحُها قولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧][٢].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾لمَّا ذكر «سأوريكم دارَ الفاسقين» ذكر ما يَفعل بهم تعالى مِن صَرْفِه إياهم عن آياته لفسقهم وخروجِهم عن طَوْرِهم إلى وصفٍ ليس لهم، ثم ذكر تعالى من أحوالهم ما استحقُّوا به اسم الفسق.

قال ابن جبير[٣]: سأَصْرِفُهم عن الاعتبار والاستدلالِ بالدلائل. والآياتُ على هذا: المعجزاتُ وبدائعُ المخلوقات.

وقال قتادة: سأَصُدُّهم عن الإعراض والطَّعنِ والتحريفِ والتبديل والتغيير[٤]. فالآياتُ: القرآن، فإنه مختصٌّ بصونه عن ذلك.

وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ: سأمنعُهم من تدبُّرها ونَظَرِها النظرَ الصحيح المؤدِّيَ إلى الحق[٥].

وقال الزجَّاج: أجعلُ جزاءهم الإضلالَ عن الاهتداء بآياتي[٦]. والآياتُ على هذا: التوراةُ أو الإنجيل، أو الكتب المنزلة.

وقيل: سأَصْرِفُهم عن دفع الانتقام[٧]، أي: إذا أصابتهم عقوبةٌ لم يدفعها عنهم، فالآياتُ على هذا: ما حلَّ بهم من المَثُلات التي صاروا بها مُثْلَةً وعِبْرَةً.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٦. وقسامة بن زهير: المازني التميمي البصري، روى عن أبي موسى الأشعري وأبي هريرة ﷺ. تهذيب التهذيب ٣/ ٤٤٠.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٧.
(٣) كذا في النسخ، ولعله محرف عن: ابن جريج، وقد أخرجه عن ابن جريج الطبري ١٠/ ٤٤٣، وذكره عنه الثعلبي ٣/ ٧٣. ولم أقف عليه عن ابن جبير.
(٤) لم أقف عليه.
(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٤٣ بلفظ: سأنزع عنهم فهم القرآن. والثعلبي ٣/ ٧٣ بلفظ: أحرمهم فهم القرآن.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٦.
(٧) النكت والعيون ٢/ ٢٦١، وفيه: ... عن دفع الانتقام عنهم.

وعلى هذه الأقوال يكون «الذين يتكبَّرون» عام[١]، أي: كلّ مَن قام به هذا الوصفُ.

وقيل: هذا من تمام خطاب موسى، والآيات هي التسعُ التي أُعطيها، والمتكبِّرون هم فرعون وقومُه؛ صَرَفَ الله قلوبَهم عن الاعتبار بها بما انهمكوا فيه من لذَّات الدنيا.

وأخذ الزمخشريُّ بعضَ أقوال المفسرين فقال: «سأصْرِفُ عن آياتي» بالطَّبْع على قلوب المتكبِّرين وخذلانِهم، فلا يفكِّرون فيها ولا يعتبرون بها غفلةً وانْهِماكًا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم، وفيه إنذارُ المخاطبين من عاقبة الذين يُصْرَفون عن الآيات لتكبُّرهم وكفرهم بها؛ لئلَّا يكونوا مِثْلَهم فيُسْلَكَ بهم سبيلُهم[٢]. انتهى.

و«الذين يتكبَّرون»؛ قيل: عن الإيمان؛ قال ابنُ عطية: هم الكفرةُ، والمعنى في هذه الآية: سأجعلُ الصَّرْفَ عن الآيات عقوبةَ المتكبِّرين على تكبُّرهم[٣]. انتهى.

وقيل: هم الذين يحتقرون الناس ويرون لهم الفضلَ عليهم[٤]، وفي الحديث الصحيح «إنما الكبرُ أن تَسْفَهَ الحقَّ وتَغْمِصَ الناسَ»[٥] ويتعلَّق «بغير الحق» بـ«يتكبَّرون» أي: بما ليس بحقٍّ وما هم عليه من دينهم، وقد يكون التكبُّر بالحقِّ كتكبُّرِ المُحِقِّ على المُبْطِل، لقوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ويجوزُ أن يكون في موضع الحال فيتعلَّقُ بمحذوف، أي: مُلْتَبِسينَ بغير الحق، والمعنى: غيرَ مستحِقِّين[٦]؛ لأنَّ التكبُّر بالحقِّ لله وحده؛ لأنه هو الذي له القدرةُ والفضلُ الذي ليس لأحد.

---

(١) كذا في النسخ، والجادة: عامًّا.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٧.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.
(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٧٩، وزاد المسير ٣/ ٢٦١.
(٥) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٦٥٨٣)، والطبراني في الأوسط (٩٠٨٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ. وأخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «... الكبر بَطَر الحق وغَمْطُ الناس». والغَمْطُ مثلُ الغَمْصِ، وهو: الاستهانة والاستحقار. النهاية (غمط).
(٦) في الكشاف ٢/ ١١٧ (والكلام منه: غير محقين).

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ صَرَفَهم هذا الوصفُ الذميمُ وهو التكبُّرُ عن الإيمان حتى لو عُرِضَتْ عليهم كلُّ آيةٍ لم يروها آيةً فيؤمنوا بها، وهذا حَتْمٌ منه تعالى على الطائفة التي قدَّر أنْ لا يؤمنوا.

وقرأ مالك بن دينار: «وإنْ يُرَوا» بضم الياء(١).

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أراهم اللهُ السبيلين فرأَوْهما؛ فآثَروا الغيَّ على الرُّشد، كقوله: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقرأ الأخَوان: «الرَّشَد»، وباقي السبعة: «الرُّشْد»(٢)، وعن ابن عامرٍ في روايةٍ إتْباعُ الشين ضمةَ الراء(٣)، وأبو عبد الرحمن: «الرَّشاد»(٤)، وهي مصادرُ كـ: السُّقْم والسَّقَم والسَّقَام.

وقال أبو عمرو بنُ العلاء: الرُّشْدُ: الصلاح في النظر، وبفتحهما: الدِّين(٥).

وقرأ ابن أبي عبلة: «لا يتَّخذوها» و«يتَّخذوها»(٦) على تأنيث السبيل، والسبيلُ تذكَّر وتؤنَّث، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولمَّا نفى عنهم الإيمان وهو من أفعال القلب، استعار للرشد والغي سبيلين، فذكَر أنهم تارِكو سبيلِ الرشد سالِكو سبيلِ الغيِّ؛ ليطابق الاعتقاد القلبيُّ الفعل الجسمانيَّ، وهو سلوكُ سبيل الغيِّ، وناسَبَ تقديم جملة الشرط المتضمِّنةِ سبيلَ الرشد على مقابِلتها لأنها قبلها: «وإن يروا كلَّ آية لا يؤمنوا بها»، فذكَر مُوْجِبَ الإيمان ـ وهو الآياتُ ـ وترتُّبَ نقيضه عليه، وأتبعَ ذلك بموجب الرُّشد وترتُّبِ نقيضه عليه، ثم جاءت الجملةُ بعدها مصرِّحةً بسلوكهم سبيلَ الغيِّ ومؤكِّدةً لمفهوم

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤، والكشاف ٢/ ١١٧.
(٢) السبعة ص٢٩٣، والتيسير ص١١٣.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.
(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٣، وهي في القراءات الشاذة ص٤٦ عن علي ﷺ.
(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٤٤٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.
(٦) أي: في الموضعين، والقراءة في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.

الجملة الشرطية قبلها؛ لأنه يلزمُ مِن تَرْكِ سبيل الرشد سلوكُ سبيل الغي؛ لأنهما إمَّا هدًى أو ضلالٌ، فهما نقيضان: إذا انْتَفَى أحدُهما ثبت الآخر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ أي: ذلك الصرفُ عن الآيات هو بسبب تكذيبهم بها، وغفلتهم عن النظر فيها والتفكُّرِ في دلالتها، والمعنى أنهم استمرَّ تكذيبُهم وصار لهم ذلك ديدنًا حتى صارت تلك الآياتُ لا تخطُر لهم ببالٍ، فحصلت الغفلةُ عنها والنسيانُ لها، حتى كانوا لا يذكرونها ولا شيئًا منها.

والظاهرُ أن الصَّرْفَ سببُه التكذيبُ والغفلةُ من جميعهم، ويحتمل أنَّ الصرف سببُه التكذيبُ، ويكون قولُه: «وكانوا عنها غافلين» استئنافَ إخبارٍ منه تعالى عنهم، أي: من شأنهم أنم كانوا غافلين عن الآيات وتدبُّرِها فأَوْرَثَتْهم الغفلةُ التكذيبَ بها.

والظاهر أن «ذلك» مبتدأ، وخبرُه «بأنهم»، أي: ذلك الصرفُ كائنٌ بأنهم كذَّبوا، وجوَّزوا أن يكون منصوبًا، فقدَّره ابنُ عطية: فعلْنا ذلك[(١)]، وقدَّره الزمخشريُّ: صَرَفَهم الله ذلك الصرفَ بعينه[(٢)].

وفي قوله تعالى: «سأصرفُ عن آياتي الذين يتكبَّرون في الأرض بغير الحق» إشعارٌ بأنَّ الصرف سببُه هذا التكبُّرُ، وفي قوله: «ذلك بأنهم كذَّبوا» إعلامٌ بأنَّ ذلك الصرفَ سببهُ التكذيبُ، والجمعُ بينهما: أن التكبُّر سببٌ أول نشأ عنه التكذيبُ، فصحَّ نسبةُ الصَّرف إلى السبب الأول وإلى ما تَسبَّبَ عنه.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ ذكر تعالى ما يَؤُولُ إليه في الآخرة أمرُ المكذِّبين، فذكَر أنه يُحْبِطُ أعمالَهم، أي: لا يَعْبأُ بها، وأصل الحَبْط: أن يكون فيما تقدَّم صلاحُه، فاستُعمل الحبوطُ هنا إذ كانت أعمالُهم في معتقداتهم جاريةً على طريقٍ صالح، فكان الحبطُ

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤، قال السمين في الدر ٥/ ٤٥٨: فجعله مفعولاً به.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٧، قال السمين: فجعله مصدراً. اهـ. وقوله: بعينه، جاء بدلاً منه في الكشاف بسببه، وهو الصواب، ينظر تفسير البيضاوي (على هامش حاشية الشهاب) ٤/ ٢١٨، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٧٢، وروح المعاني ٩/ ٣٦٩، والتقدير عندهم: سأصرفهم ذلك الصرف بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها.

فيها بحسب معتقداتهم؛ إذا المكذِّبُ بالآيات قد يكون له عملٌ فيه إحسانٌ للناس، وصفحٌ وعفوٌ عمَّن جَنَى عليه، وكلُّ ذلك لا يُجازَى عليه في الآخرة، فشمل حبطُ الأعمال مَن له عملُ برٍّ ومَن عملُه من أول مرةٍ فاسدٌ. ونبَّه بـ«لقاء الآخرة» على محلِّ افتضاحهم وجزائهم، وتهديدًا لهم ووعيدًا بها، وبأنها كائنةٌ لا محالةَ.

وإضافةُ «لقاء» إلى «الآخرة» إضافةُ المصدر إلى المفعول، أي: ولقائهم الآخِرةَ.

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: ولقائهم الآخرةَ ومشاهدتهم أحوالَها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاءِ ما وَعَدَ الله تعالى في الآخرة[1]. انتهى.

ولا يُجيز جِلَّةُ النحويين الإضافةَ إلى الظرف؛ لأن الظرف هو على تقدير «في»، والإضافةُ عندهم إنما هي على تقدير اللام أو تقدير «مِن»، على ما بيِّن في علم النحو، فإن اتُّسع في العامل جاز أن يَنْصِبَ الظرفَ نَصْبَ المفعول به، وجاز إذ ذاك أن يضاف مصدرُه إلى ذلك الظرفِ المتَّسَع في عامله. وأجاز بعضُ النحويين أن تكون الإضافة على تقدير «في» كما يُفْهِمه ظاهرُ كلام الزمخشريِّ، وهو مذهبٌ مردودٌ في علم النحو.

و«هل يُجزون» استفهامٌ بمعنى التقرير، أي: يَسْتَوجِبون بسوء فِعْلِهم العقوبةَ، قاله ابنُ عطية[2].

والظاهرُ أنه استفهامٌ بمعنى النفي، ولذلك دخلت «إلا»، والاستفهامُ الذي هو بمعنى التقريرِ هو موجبٌ من حيث المعنى فيَبْعُد دخولُ «إلا»، أو لعله لا يجوز.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ إن كان الاتِّخاذُ بمعنى اتِّخاذِه إلهًا معبودًا فصحَّ نسبتُه إلى القوم، وذُكر أنهم كلَّهم عَبَدوه غيرَ هارون، ولذلك قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ [الأعراف: ١٥١]، وقيل: إنما عَبَده قومٌ منهم لا جميعُهم؛ لقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

(١) الكشاف ٢/ ١١٧.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.

وإن كان بمعنى العمل، كقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] أي: عَمِلَتْ وصنعتْ، فالمتَّخِذُ إنما هو السامريُّ واسمُه موسى بن ظفر من قريةٍ تسمَّى سامرة، ونُسِبَ ذلك إلى قوم موسى مجازًا، كما قالوا: بنو تميمٍ قتلوا فلانًا، وإنما قَتَله واحدٌ منهم، ولكنهم راضين بذلك.

ومعنى «من بعده»، أي: من بعد مُضِيِّه للمناجاة. و«من حُليِّهم» متعلق بـ«اتخذ»، وبها يتعلَّق «من بعده» وإن كانا حرفي جرٍّ بلفظٍ واحد، وجاز ذلك لاختلافِ مدلولَيْهما؛ لأن «مِن» الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، وأجاز أبو البقاء[١] أن يكون «من حُليِّهم» في موضع الحال ـ فيتعلَّق بمحذوفٍ ـ لأنه لو تأخَّر لكان صفةً، أي: عجلًا كائنًا من حُليِّهم.

وقرأ الأخوان: «من حِليِّهم» بكسر الحاء إتْباعًا لحركة اللام، كما قالوا عِصِي، وهي قراءةُ أصحاب عبد الله ويحيى بن وثاب وطلحة والأعمش. وقرأ باقي السبعة والحسن وأبو جعفر وشيبةُ بضم الحاء، وهو جمعُ حَلْي، نحو: ثَدْي وثُدِي، ووزنُه فُعُول اجتمعت ياءٌ وواوٌ وسُبقت إحداهما بالسكون فقُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت في الياء وكُسر ما قبلها لتصحَّ الياء. وقرأ يعقوبُ: «من حَلْيهم» بفتح الحاء وسكون اللام[٢]، وهو مفردٌ يراد به الجنس، أو اسمُ جنسٍ مفردُه حَلْية: ك: تمر وتمرة.

وإضافةُ الحليِّ إليهم إمَّا لكونهم مَلَكوه ممَّا كان على قوم فرعون حين غرقوا ولَفَظَهم البحرُ فكان كالغنيمة، ولذلك أَمَر هارونُ بجمعه حتى يَنظر موسى إذا رجع في أمره، أو مَلَكوه إذ كان من أموالهم التي اغْتَصَبها القِبْطُ بالجزية التي كانوا وضعوها عليهم، فتحيَّل بنو إسرائيل على استرجاعها إليهم بالعاريَّة، وإمَّا لكونهم لم يَمْلكوه لكنْ تصرَّفَتْ أيديهم فيه بالعاريَّة فصحت الإضافةُ إليهم لأنها تكون بأدنى ملابَسةٍ.

روى يحيى بنُ سلام عن الحسن أنهم استعاروا الحليَّ من القِبْطِ لعرسٍ، وقيل:

---

(١) في الإملاء ١/ ٢٨٥.

(٢) ذكر هذه القراءات ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥، وقراءةُ مَن ذُكر من السبعة في السبعة ص٢٩٤، والتيسير ص١١٣، ومَن ذكر من العشرة ـ وهما أبو جعفر ويعقوب ـ في النشر ٢/ ٢٧٢.

ليوم زينةٍ[١]، ولمَّا هلك فرعونُ وقومُه بقي الحليُّ معهم، وكان حرامًا عليهم، فأخذ بنو إسرائيل في بيعه وتمحيقه، فقال السامريُّ لهارون: إنه عاريةٌ وليس لنا، فأمر هارونُ مناديًا بردِّ العاريَّة ليرى فيها موسى رأيَه إذا جاء، فجمعه وأَوْدَعه هارونُ عند السامريِّ، وكان صائغًا فصاغ لهم صورةَ عجلٍ من الحليِّ.

وقيل: مَنَعَهم من ردِّ العاريَّة خوفُهم أن يطَّلع القبطُ على سُرَاهُم؛ إذ كان تعالى أمر موسى أن يَسريَ بهم[٢].

والعجلُ ولدُ البقرةِ القريبُ الولادةِ، ومعنى: «جسدًا»: جثةً جمادًا، وقيل: بدنًا بلا رأس ذهبًا مُصمتًا. وقيل: صنعه مجوَّفًا.

قال الزمخشري: «جسدًا»: بدنًا ذا لحم ودم كسائر الأجساد، قال الحسن: إن السامريَّ قبض قبضةً من ترابٍ من أثرِ فرسِ جبريلَ عليه السلام يومَ قَطَعَ البحر، فقذفه في في العجلِ فكان عجلًا له خوارٌ[٣]. انتهى، وهذا ضعيفٌ، أعني كونَه لحمًا ودمًا؛ لأنَّ الآثار وردت بأنَّ موسى بَرَدَه بالمَبَارِدِ وألقاه في البحر[٤]، ولا يُبْرَدُ اللَّحم، بل كان يُقتل ويقطَّع.

وقال ابن الأنباري: ذُكِرَ الجسد دلالةً على عدم الروح فيه. انتهى.

وظاهرُ قوله: «له خوارٌ» يدلُّ على أنه فيه روحٌ؛ لأنه لا يخورُ إلَّا ما فيه روحٌ.

وقيل: لمَّا صنعه أجوفَ تَحيَّلَ لتصويته بأنْ جعل في جوفه أنابيبَ على شكلٍ مخصوصٍ، وجَعَله في مهبِّ الرياح، فتدخلُ في تلك الأنابيب فيظهرُ صوتٌ يشبهُ الخوار.

وقيل: جعل تحته مَن ينفُخُ فيه من حيث لا يشعر به، فيُسْمَعُ صوتٌ من جوفه كالخوار.

---

(١) وبهذه الرواية أورده ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٥٥ عن الحسن.
(٢) ينظر ما ورد من هذه القصص في تفسير الطبري ١/ ٦٦٩ وما بعدها.
(٣) الكشاف ٢/ ١١٨.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥.

وقال الكرماني: جَعَل في بطن العجل بيتًا يُفْتَحُ ويُغلق، فإذا أراد أن يَخُورَ أَدْخَله غلامًا يخورُ بعلامةٍ بينهما إذا أراد.

وقيل: يحتمل أن يكون الله اختاره ليفتنَ بني إسرائيل.

وخُوارُه؛ قيل: مرةً واحدة ولم يثنِّ؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس[١].

وقيل: مرارًا، فإذا خار سجدوا، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم، وقاله ابنُ عباس[٢] وأكثر المفسرين. وقرأ عليٌّ وأبو السَّمال وفرقةٌ: «جُؤار» بالجيم والهمز[٣] من جأر: إذا صاح بشدَّةِ صوتٍ.

وانتصب «جسدًا»؛ قال الزمخشري: على البدل[٤]. وقال الحوفي: على النعت. وأجازهما أبو البقاء، وأن يكون عطفَ بيانٍ[٥].

وإنما قال: «جسدًا» لأنه يمكن أن يتخذ مخطوطًا أو مرقومًا في حائطٍ أو حجرٍ أو غير ذلك كالتماثيل المصوَّرة بالرَّقْم والخطِّ والدهان والنقش، فبيَّن تعالى أنه ذو جسد.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ إن كان «اتَّخذ» معناه: عَمِلَ وصَنَعَ، فلا بدَّ من تقديرِ محذوفٍ يترتَّبُ عليه هذا الإنكار، وهو فَعَبَدوه وجعلوه إلهًا لهم، وإنْ كان المحذوفُ «إلهًا»، أي: اتَّخذوا عجلًا جسدًا له خُوارٌ إلهًا، فلا يحتاج إلى حذفِ جملة.

وهذا استفهامُ إنكارٍ، حيث عبدوا جمادًا أو حيوانًا عاجزًا عليه آثارُ الصنعة لا يمكنُ أن يتكلَّم ولا يَهْدي، وقد رُكِزَ في العقول أنَّ مَن كان بهذه المثابة استحالَ

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٦٢، وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٨ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٨ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٦٢.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٦ عن أبي السمال، والكشاف ٢/ ١١٨ عن عليٍّ.

(٤) الكشاف ٢/ ١١٨.

(٥) الإملاء ١/ ٢٨٥.

أن يكون إلهًا، وهذا نوعٌ من أنواع البلاغة يسمَّى الاحتجاج النظري، وبعضهم يسمِّيه: المذهب الكلامي(١).

والظاهرُ أنَّ «يروا» بمعنى: يعلموا، وسَلَبَ تعالى عنه هذين الوصفين دون باقي أوصاف الإلهية لأنَّ انتفاء التكليم يستلزمُ انتفاءَ العلم، وانتفاءَ الهداية إلى سبيلٍ يستلزمُ انتفاءَ القدرة، وانتفاءَ هذين الوصفين وهما العلم والقدرةُ يستلزمان انتفاءَ باقي الأوصاف، فلذلك خُصَّ هذان الوصفان بانتفائهما.

﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: أقْدَموا على ما أقْدَموا عليه من هذا الأمر الشنيع وكانوا واضعين الشيءَ في غير موضعه، أي: من شأنهم الظلمُ، فليسوا مبتكرين وضعَ الشيء في غير موضعه، وليس عبادةُ العجل بأول ما أحدثوا من المَنَاكِر.

قال ابن عطية: ويحتمل أن تكون الواوُ واوَ حالٍ(٢). انتهى، يعني في «وكانوا»، والوجهُ الأولُ أبلغُ في الذم، وهو الإخبارُ عن وصفهم بالظلم وأنَّ شأنهم ذلك، فلا يتقيَّد ظلمُهم بهذه الفعلة الفاضحة.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ ذكر بعض النحويين أن قول العرب: سُقط في يده، فعلٌ لا يتصرَّف، فلا يُستعمل منه مضارعٌ ولا اسمُ فاعلٍ ولا مفعولٍ، وكان أصله متصرِّفًا؛ تقول: سَقَط الشيء: إذا وقع من علو، فهو في الأصل متصرِّفٌ لازمٌ.

وقال الجُرْجاني: سُقط في يده، ممَّا دُثر استعمالُه مثلَ ما دُثر استعمالُ قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١] قال ابن عطية(٣): وفي هذا الكلام ضعفٌ، والسِّقاط في كلام العرب: كثرةُ الخطأ والندمُ عليه، ومنه قولُ ابنِ أبي كاهل:

---

(١) سمي بهذا لأنه يُسلك فيه مذهب أهل الكلام في استدلالهم على إبطال حجج خصومهم، وينظر شرح هذا النوع من البلاغة وأقوال العلماء فيه في معجم المصطلحات البلاغية ص٣٦ وما بعدها.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦، وما قبله منه.

كيف يرجون سِقاطي بعدما ... بَقَّعَ الرأسَ مشيبٌ وصَلَعْ[١]

وحَكَى[٢] عن أبي مروان بن سراجٍ[٣] أحدِ أئمة اللغة بالأندلس أنه كان يقول: قولُ العرب: سُقط في يده، ممَّا أعياني معناه.

وقال أبو عبيدة: يقال لمن ندم على أمرٍ وعجز عنه: سُقط في يده[٤].

وقال الزجَّاج: معناه: سَقَطَ الندمُ في أيديهم، أي: في قلوبهم وأنفسِهم، كما يقال: حَصَلَ في أيديهم مكروهٌ - وإن كان محالًا أن يكون في اليد - تشبيهًا لمَا يحصلُ في القلب والنفس بما يحصلُ في اليد ويُرى بالعين[٥].

وقال ابن عطية: العربُ تقول لمن كان ساعيًا لوجهٍ أو طالبًا غايةً، فعَرَضَ له ما صدَّه عن وجهه ووَقَفَه موقفَ العجز، وتيقَّن أنه عاجز: سقط في يد فلانٍ، وقد يَعْرِضُ له الندمُ وقد لا يَعْرِضُ، قال: والوجهُ الذي يَصِلُ بين هذه الألفاظ وبين المعنى الذي ذكرناه هو أنَّ السعيَ أو الصَّرفَ أو الدفاعَ سَقَط في يد المشار إليه فصار في يده لا يُجاوزها، ولا يكون له في الخارج أثر[٦].

وقال الزمخشريُّ: لمَّا اشتدَّ ندمُهم وحسرتُهم على عبادة العجل؛ لأنَّ مِن شأنِ مَن اشتدَّ ندمُه وحسرتُه أن يعضَّ يدَه غمًّا فتصير يدُه مسقوطًا فيها؛ لأنَّ فَاهُ قد وقع

---

(١) البيت في العين ٢/ ١٤٥ و٥/ ٧٣، وأساس البلاغة (سقط) و(لفع)، والتاج (لفع)، وهو في هذه المصادر وكذا في المحرر برواية: لفَّع الرأس، وهو في مقاييس اللغة ٣/ ٨٦، واللسان والتاج (سقط) برواية: جلَّل الرأس، وورد في العقد لابن عبد ربه ٥/ ٣٦ برواية: شمل الرأس. ولم نقف على رواية المصنف. وابن أبي كاهل هو سويد.

(٢) أي: ابن عطية في الموضع السابق.

(٣) واسمه: عبد الملك بن سراج، وسلفت ترجمته عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٨، والكشاف ٢/ ١١٨، وعنه نقل المصنف، وقد قال الزجاج هذا الكلام في شرح قراءة: «سَقَط في أيديهم» بالبناء للفاعل، وكذا فعل الزمخشري، وسترد القراءة قريباً، وسيعيد المصنف عندها قول الزجاج مختصراً، ولعل ذكره هنا لأنه يصلح أن يكون تأويلاً لقراءة المبني للمجهول.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥-٤٥٦.

فيها، و«سُقط» مسندٌ إلى ما في أيديهم، وهو من باب الكناية[(١)]. انتهى، والصوابُ «وسُقط» مسندٌ إلى «في أيديهم»[(٢)].

وحكى الواحدي[(٣)] عن بعضهم أنه مأخوذٌ من السَّقيط، وهو ما يُغْشَى الأرضَ بالغدوات شِبْهُ الثلج، يقال منه: سُقِطَت الأرضُ، كما يقال من الثلج: ثُلِجَت الأرضُ وثُلِجْنا، أي: أصابنا الثلجُ، ومعنى سُقط في يده: وقع في يده، والسَّقيط والسَّقْط يذوبُ بأدنى حرارةٍ[(٤)] ولا يبقى، ومَن وقع في يده السَّقيط لم يَحْصُلْ منه على شيءٍ، فصار مثلًا لكلِّ مَن خَسِرَ في عاقبته ولم يَحْصُلْ من بغيته على طائلٍ، وكانت الندامةُ آخِر أمره.

وقيل: مِن عادة النادم أن يطأطئ رأسَه، ويضعَ ذقنه على يده معتمِدًا عليها، ويصيرَ على هيئةٍ لو نُزعت يدُه لسقط على وجهه، فكأنَّ اليدَ مسقوطٌ فيها، ومعنى «في»: على، أي: سُقِطَ على يده، ومعنى «في أيديهم»: على أيديهم، كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] انتهى.

وكان متعلق «سُقط» قوله: «في أيديهم»، لأن اليد هي الآلةُ التي يُؤخذ بها ويُضبط، و«سُقط» مبنيٌّ للمفعول، والذي أُوقع موضعَ الفاعل هو الجارُّ والمجرور، كما تقول: جُلِسَ في الدار، و: ضُحِكَ من زيد.

وقيل: «سُقط» يتضمَّن مفعولًا، هو هاهنا المصدرُ الذي هو: الإسقاط، كما يقال: ذُهب بزيد. انتهى.

---

(١) الكشاف ٢/١١٨، وفيه وسقط مسند إلى في أيديهم، دون كلمة «ما»، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) كذا ذكر المصنف رحمه الله، وهذا الذي صوَّبه هو عينه الذي ورد في الكشاف ـ كما نبهت عليه في التعليق السابق ـ وهو الذي نقله المصنف نفسه عن الزمخشري في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/٣٩٣.

(٣) كما في تفسير الرازي ١٥/٨، ولعله قاله في كتابه: البسيط، فهو ليس في الوسيط ولا في الوجيز.

(٤) في تفسير الرازي: . . . وقع في يده السقيط، والسقيط يذوب. . . وهو الأنسب بسياق الكلام، وقوله: وقع في يده، من (ز١)، وسقط من باقي النسخ.

وصوابه: وهو هنا ضميرُ المصدر الذي هو السقوط؛ لأن «سَقَط» ليس مصدرُه الإسقاط، وليس نفسُ المصدر هو المفعول الذي لم يُسمَّ فاعلُه، بل هو ضميرُه.

وقرأت فرقةٌ منهم ابنُ السَّمَيْفَع: «سَقَط في أيديهم» مبنيًّا للفاعل(١)؛ قال الزمخشري: أي: وقع العضُّ فيها(٢). وقال الزجَّاج: سَقَطَ الندمُ في أيديهم(٣).

قال ابنُ عطيةُ: ويحتمل أن الخسران والخيبة سَقَط في أيديهم(٤).

وقرأ ابنُ أبي عبلَةَ: «أُسقط في أيديهم» رباعيًّا مبنيًّا للمفعول(٥).

«ورأوا»، أي: علموا أنهم قد ضلُّوا، قال القاضي(٦): يجب أن يكون المؤخَّر مقدَّمًا؛ لأن الندم والتحسُّر إنما يقعان بعد المعرفة، فكأنه تعالى قال: ولمَّا رأوا أنهم قد ضلُّوا وسُقط في أيديهم لمَا نالهم من عظيم الحسرة. انتهى.

ولا يُحتاج إلى هذا التقدير، بل يمكنُ تقدُّم النَّدم على تبيُّنِ الضلال؛ لأنَّ الإنسان إذا شكَّ في العمل الذي أَقْدَمَ عليه: أهو صوابٌ أم خطأ؟ حَصَل له الندمُ، ثم بعدُ يتكامَلُ النظرُ والفِكْرُ فيَعْلَم أنَّ ذلك خطأ.

«قالوا لئنْ لم يَرْحَمْنا ربُّنا» انقطاعٌ إلى الله تعالى واعترافٌ بعظيم ما أقدموا عليه، وهذا كما قال آدمُ وحوَّاء: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] ولمَّا كان هذا الذنبُ ـ وهو اتخاذُ غيرِ الله إلهًا ـ أعظمَ الذنوب بدؤوا بالرحمة التي وسعت كلَّ شيءٍ، ومن نتاجها غفرانُ الذنب، وأمَّا في قصة آدم فإنه جرت محاوَرةٌ بينه تعالى وبينهما وعتابٌ على ما صدر منهما من أكل ثمر الشجرة بعد نهيه تعالى إياهما عن قُربانها، فضلًا عن أكل ثمرها، فبادَرا إلى الغُفران وأتبعاه بالرحمة، إذ غُفْرانُ ما وقع العتابُ عليه آكَدُ ما يُطْلَبُ أولًا.

(١) القراءات الشاذة ص٤٦، والكشاف ٢/١١٨، وهي دون نسبة في معاني القرآن للزجاج ٢/٣٧٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥.
(٢) الكشاف ٢/١١٨.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٧٨، والكشاف ٢/١١٨.
(٤) المحرر الوجيز ٢/٤٥٦.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥.
(٦) هو عبد الجبار المعتزلي، وكلامه في تفسير الرازي ١٥/٨-٩.

وقرأ الأخوان والشعبيُّ وابنُ وثَّابٍ والجحدريُّ وابنُ مُصَرِّفٍ والأعمشُ وأيوبُ بالخطاب في «ترحمنا» و«تغفر» ونداء «ربَّنا»، وقرأ باقي السبعة ومجاهدٌ والحسنُ والأعرج وأبو جعفر وشَيْبَةُ بنُ نِصَاحٍ وغيرُهم: «يرحَمْنا ربُّنا ويَغْفِرْ لنا» بالياء فيهما ورَفْع «ربُّنا»(١). وفي مصحف أُبيّ: «قالوا ربَّنا لئن لم ترحمنا وتغفر لنا»(٢) بتقديم المنادَى وهو «ربَّنا».

ويحتملُ أن يكون القولان صَدَرَا منهم جميعِهم على التعاقُب، أو هذا من طائفةٍ وهذا من طائفةٍ، فَمَنْ غَلَبَ عليه الخوفُ وقَوِيَ على المواجهة خاطَبَ مستقيلًا من ذنبه العظيم، ومَن غاب عليه الحياءُ أخرج كلامَه مُخْرجَ المستحيي من الخطاب فأَسْنَدَ الفعلَ إلى الغائب.

وفي قولهم: «ربّنا» استعطافٌ حسنٌ؛ إذ الربُّ هو المالك الناظرُ في أمر عبيده، والمصلِحُ منهم ما فَسَد.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ أي: رجع من المناجاة؛ يُرْوَى أنه لمَّا قَرُبَ من مَحَلَّة بني إسرائيلَ سمع أصواتهم، فقال: هذه أصواتُ قوم لاهين، فلمَّا تحقَّقَ عُكوفَهم على عبادة العجل داخَلَه الغضبُ والأسف، وألْقَى الألواحَ(٣).

وقال الطبري: أخبره تعالى قبل رجوعه أنهم قد فُتنوا بالعجل، فلذلك رجع وهو غاضبٌ(٤). ويدلُّ على هذا القولِ قولُه: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ الآية [طه: ٨٥].

و«غضبان» من صفات المبالغة، والغضب: غليانُ القلب بسبب حصول ما يُؤْلِم، وذكروا أنه عليه السلام كان من أسرع الناس غضبًا، وكان سريعَ الفيئة، قال ابن

(١) ينظر السبعة ص٢٩٤، والتيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦، والكلام منه.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٤٥١-٤٥٢ عن ابن عباس ﵄.
(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٤٤٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦.

القاسم: سمعت مالكًا يقول: كان إذا غضب طلع الدخانُ من قلنسوته، ورَفَعَ شعرُ بدنه جُبَّتَه[(١)].

و«أسِفًا» من أسِفَ فهو أسِفٌ، كما تقول: فَرِقَ فهو فَرِقٌ، يدلُّ على ثبوت الوصف، ولو ذُهِبَ به مذهبَ الزمان لكان على فاعِلٍ، فيقال: آسِفٌ.

والأَسِفُ: الحزينُ، قاله ابن عباس والحسن والسُّدي[(٢)]، أو: الجَزِعُ، قاله مجاهد[(٣)]. أو: المتلهِّفُ. أو: الشديدُ الغَضَبِ؛ قاله الزمخشري[(٤)] وابن عطية، قال: وأكثر ما يكون بمعنى الحزين[(٥)]. أو المغضَب؛ قاله ابنُ قتيبة[(٦)]. أو: النادم؛ قاله القتيبي أيضًا[(٧)]. أو متقاربان؛ قاله الواحديُّ[(٨)]، قال: فإذا أتاك ما تكرهُ ممَّن دونك غضبتَ، أو ممن فوقك حَزِنْتَ، فأغضبه عبادتُهم العجلَ وأحزَنَه فتنةُ الله إياهم، وكان قد أخبره بذلك بقوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾.

وتقدَّم الكلام على «بئسما» في أوائل «البقرة»[(٩)].

والخطابُ إمَّا للسامريِّ وعُبَّادِ العجل، أي: بئسما قمتم مقامي حيث عبدتُم العجلَ مكانَ عبادة الله تعالى، وإمَّا لوجوه بني إسرائيل هارونَ والمؤمنين، أي: حيث لم تكفُّوا مَن عَبَدَ غيرَ الله.

و«خَلَفْتموني» يدلُّ على البَعْدية في الزمان، والمعنى هنا: من بعد ما رأيتُم منِّي

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٢-٧٨٣، وهذا من الإسرائيليات.
(٢) أخرجه عنهم الطبري ١٠/ ٤٥٠، وذكره عنهم ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٦٣.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٩، وذكره ابن الجوزي ٣/ ٢٦٣.
(٤) في الكشاف ٢/ ١١٨.
(٥) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): الحزن، وعبارة المحرر ٢/ ٤٤٦: والأسَفُ قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن.
(٦) تفسير غريب القرآن ص١٧٣ و٢٨١، ولفظه: شديد الغضب. وكذا نقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٦٣.
(٧) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٦٣.
(٨) كما في تفسير الرازي ١٥/ ١٠، ولعله في كتابه: البسيط. وقوله: متقاربان، يعني تفسير الأسِف بالحزين وتفسيره بالشديد الغضب.
(٩) عند تفسير قوله: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٠].

توحيدَ الله تعالى ونفيَ الشركاء عنه وإخلاصَ العبادة له، أو: من بعدما كنتُ أحملُ بني إسرائيل على التوحيد وأكفُّهم عمَّا طمحت إليه أبصارُهم من عبادة البقر، ومن حقِّ الخَلَفِ أن يسير بسيرة المستخلِف ولا يخالفه، ويقال: خَلَفَه بخيرٍ أو شرٍّ: إذا فَعَله بمَن[١] تَرَكَ مِن بَعْدِه.

و«أعْجِلْتم» استفهامُ إنكارٍ، قال الزمخشري: يقال: عَجِلَ عن الأمر: إذا تركه غيرَ تامٍّ، ونقيضُه: تمَّ عليه، وأعْجَلَه عنه غيرُه، ويُضمَّنُ معنى سَبَقَ فيُعَدَّى تعديتَه، فيقال: عجلتُ الأمرَ، والمعنى: أعَجِلتُم عن أمر ربِّكم، وهو انتظارُ موسى حافِظِينَ لعهده وما وصَّاكم به، فبنيتُم الأمرَ على أنَّ الميعاد قد بلغ آخِرَه ولم أرجع إليكم، فحدَّثتُم أنفسَكم بموتي، فغيَّرتُم كما غيَّرت الأممُ بعد أنبيائهم، ورُوي أنَّ السامريَّ قال لهم حين أَخرَج إليه العجلَ: هذا إلهُكم وإلهُ موسى، إنَّ موسى لن يرجع وإنه قد مات[٢]. انتهى.

وقال ابن عطية: معناه: أسابقتُم قضاءَ ربِّكم واستعجلتُم إتياني قبلَ الوقت الذي قدَّرْته[٣]. انتهى.

وقال يعقوب: يقال عجلتُ الشيءَ: سَبَقْتُه، وأعْجَلْتُ الرجلَ: استَعْجَلْتُه، أي: حَمَلْتُه على العَجَلة[٤]. انتهى.

وقيل: معناه: أعَجِلتُم ميعادَ ربِّكم أربعين ليلةً.

وقيل: أعَجِلتُم سخَطَ ربكم.

وقيل: أعَجِلتُم بعبادة العجل.

وقيل: العجلةُ: التقدُّمُ بالشيءِ في غير وقته ـ قيل: وهي مذمومةٌ. ويُضْعِفُه قولُه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] ـ والسرعةُ المبادرة بالشيء في وقته، وهي محمودة.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: عن، وهو تحريف، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧، وعنه نقل المصنف هذه العبارة.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٩.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥١. ويعقوب هو ابن السكيت.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ أي: ألواحَ التوراة، وكان حاملًا لها فوضعها بالأرض غضبًا على ما فعله قومُه من عبادة العجل، وحَمِيَّةً لدين الله، وكان كما تقدَّم شديدَ الغضب، وقالوا: كان هارونُ أليَنَ منه خُلقًا ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيلَ منه[(١)].

وقيل: ألقاها دهشًا لمَا دَهَمه من أمرهم.

وعن ابن عباس: أنَّ موسى عليه السلام لمَّا ألقاها تكسَّرت فرُفع أكثرُها الذي فيه تفصيلُ كلِّ شيءٍ، وبقي الذي في نسختها الهدى والرحمةُ، وهو الذي أُخذ بعد ذلك[(٢)].

وروي أنها رُفع ستةُ أسباعها وبقي سُبُعٌ، قاله جماعة من المفسرين[(٣)].

وقال أبو الفَرَج بنُ الجَوْزيِّ: لا يصحُّ أنه رماها رمي كاسِرٍ[(٤)]. انتهى.

والظاهرُ أنه ألقاها من يديه لأنهما كانتا مشغولتين بها وأراد إمساك أخيه وجرَّه، ولا يتأتَّى ذلك إلا بفراغ يديه لجرِّه، وفي قوله: «ولمَّا سكت عن موسى الغضبُ أَخَذَ الألواحَ» دليلٌ على أنها لم تتكسَّر، ودليلٌ على أنه لم يُرفع منها شيءٌ.

والظاهرُ أنه أخذ برأسه، أي: أمسك رأسَه جارَّه إليه، وقيل: بشعر رأسه. وقيل: بذوائبه ولحيته. وقيل: بلحيته. وقيل: بأُذُنه.

وقيل: لم يأخذ حقيقةً وإنما كان ذلك إشارةً، فخشي هارونُ أن يتوهَّم الناظرُ إليهما أنه لغضبٍ، فلذلك نهاه ورَغِبَ إليه[(٥)].

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٩.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧، وأخرجه بنحوه الطبري في التاريخ ١/ ٤٢٧.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٤٥٥، والنكت والعيون ٢/ ٢٦٣، وتفسير الثعلبي ٣/ ٧٥، والكشاف ٢/ ١١٩، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٢، وأخرجه الطبري في التاريخ ١/ ٤٢٧ من طريق صدقة بن يسار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ، لكنه أخرج في التفسير ١٠/ ٤٥٦، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٧٠ من طريق ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال: ألقى موسى الألواح فتكسَّرت، فرفعت إلا سدسها.
(٤) تلبيس إبليس ص٢٥١ بنحوه.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧، وفيه بدل كلمة: إشارة، كلمة: ليساره، ولعلها محرفة عنها.

والظاهرُ أن سبب هذا الأَخْذِ هو غضبُه على أخيه، وكيف عَبَدوا العجلَ وهو قد استَخْلفَه فيهم، وأَمَرَه بالإصلاح وأنْ لا يتَّبعَ سبيلَ مَن أَفْسَدَ، وكيف لم يَكُفَّهم ولم يَزْجُرْهم عن ذلك، ويدلُّ على هذا الظاهرِ قولُه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

قال الزمخشريُّ: أي: بشعرِ رأسِه، «يَجرُّه إليه» بذُؤابته، وذلك لشدَّةِ ما ورد عليه من الأمر الذي استفزَّه وذهب بفطنته، وظنًّا بأخيه أنه فرَّط في الكف[١].

وقيل: ذلك الأخذُ والجرُّ كان ليُسِرَّ إليه نزول الألواح عليه في مناجاته، وأراد أن يُخفيها عن بني إسرائيل، فنهاه هارون لئلَّا يَشْتَبِهَ سِرارُه على بني إسرائيل بإذلاله.

وقيل: ضمَّه ليَعْلَم ما لديه، فكَرِهَ ذلك هارونُ لئلَّا يظنُّوا إهانَتَه، وبيَّن له أخوه أنهم استَضْعَفوه.

وقيل: كان ذلك على سبيل الإكرام لا على سبيلِ الإهانة، كما تفعلُ العرب مِن قَبْضِ الرجلِ على لحية أخيه[٢].

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ ناداه نداءَ استعطافٍ وترفُّقٍ، وكان شقيقَه، وهي عادةُ العرب تتلطَّفُ وتتحنَّنُ بذكر الأمِّ، كما قال:

يا ابنَ أمِّي ويا شقيقَ نَفْسي[٣]

وقال آخر:

يا ابن أمي فَدَتْكَ نفسي ومالي[٤]

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٩.

(٢) ذكر هذه الأقوال القرطبي ٩/ ٣٤٠-٣٤١.

(٣) وعجزه: أنت خليتني لدهرٍ شديد، والبيت لأبي زبيد الطائي، كما في الكتاب ٢/ ٢١٣، وهو دون نسبة في المقتضب ٤/ ٢٥٠، وزاد المسير ٣/ ٢٦٥.

(٤) وعجزه: كنتَ ركني وَمفْزَعي وجمالي، والبيت للسيد الحِمْيَري من قصيدة في رثاء أخيه، كما في العقد لابن عبد ربه ٢/ ٤٠٧.

وأيضًا فكانت أمُّهما مُؤمنةً، قالوا: وكان أبوه مقطوعًا عن القرابة بالكفر، كما قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: ٤٦].

وأيضًا فلمَّا كان حقُّها أعظمَ لمقاساتها الشدائدَ في حمله وتربيته والشفقةِ عليه ذكَّره بحقِّها.

وقرأ الحرميَّان وأبو عمرٍو وحفصٌ: «ابنَ أمَّ» بفتح الميم[١]. فقال الكوفيون: أصلُه: يا ابنَ أمَّاه، فحذفت الألفُ تخفيفًا كما حُذفت في: يا غلامَ، وأصله: يا غلاما، وسقطت هاءُ السَّكتِ لأنه دَرْجٌ، فعلى هذا الاسمُ مُعْرَبٌ إذ الألفُ منقلبةٌ عن ياءِ المتكلِّم، فهو مضافٌ إليه «ابن».

وقال سيبويه: هما اسمان بُنيا على الفتح كاسمٍ واحدٍ كـ: خَمسة عشر ونحوِه[٢]. فعلى قوله ليس مضافًا إليه «ابن»، والحركةُ حركةُ بناءٍ.

وقرأ باقي السبعة بكسر الميم، فقياسُ قول الكوفيين أنه مُعْرَبٌ، وحُذفت ياءُ المتكلِّم، واجتُزِئَ بالكسرة عنها كما اجْتَزَؤوا بالفتحة عن الألف المنقلبة عن ياءِ المتكلم.

وقال سيبويه[٣]: هو مبنيٌّ أُضيف إلى ياء المتكلِّم[٤]، كما قالوا: يا أَحَدَ عَشَرِ[٥] أَقْبِلوا، وحُذفت الياءُ واجْتُزِئَ بالكسرة عنها كما اجتزؤوا في: يا قوم، ولو كانا باقيين على الإضافة لم يَجُزْ حذفُ الياء؛ لأن الاسم ليس بمنادًى ولكنه مضافٌ إليه المنادَى، فلا يجوزُ حذفُ الياء منه.

وقرئ بإثبات ياءِ الإضافة[٦].

وأجودُ اللُّغات الاجتزاءُ بالكسرة عن ياءِ الإضافة، ثم قلبُ الياءِ ألفًا والكسرةِ

(١) السبعة ص٢٩٥، والتيسير ص١١٣.
(٢) ينظر الكتاب ٢/ ٢١٤ و٢٧٥.
(٣) ينظر الكتاب ٢/ ٢٠٩-٢١٤.
(٤) أي: هما بمنزلة اسم مركَّبٍ أضيف كلُّه لياء المتكلم. ينظر الدر المصون ٥/ ٤٦٧.
(٥) وأصله: يا أحد عشرِي، ثم حذفت الياء واجتزئ عنها بالكسرة. الدر المصون ٥/ ٤٦٧.
(٦) الكشاف ٢/ ١١٩، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ عن عيسى بن عمر أنه حكى: «يا ابن أمِّيَ» بفتح الياء.

قبلَها فتحةٌ، ثم حذفُ الياء وفتحُ الميم، ثم إثباتُ الياء مفتوحةً أو ساكنةً، وهذه اللغات جائزة في: ابنة أمي، وفي: ابن عمي، وابنة عمي.

وقرئ: «يا ابنَ أمِّي» بإثبات الياء[١]، و«ابنَ إمِّ» بكسر الهمزة والميم[٢].

ومعمولُ القول: المنادى، والجملةُ بعده المقصودُ بها تخفيفُ ما أَدرك موسى من الغضب، والاستعذارُ له بأنه لم يُقصِّر في كَفِّهم بالوَعْظ والإنذار وما بَلَغتْه طاقتُه، ولكنهم استَضْعَفوه فلم يلتفتوا إلى وَعْظِه، بل قاربوا أن يقتلوه، ودلَّ هذا على أنه بالَغَ في الإنكار عليهم حتى همُّوا بقتله، ومعنى «استَضْعَفوني»: وَجَدوني، فهي لمعنى[٣] إلْفاءِ الشيءِ بمعنى ما صِيغَ منه، أي: اعْتَقَدوني ضعيفًا، وتقدَّم ذلك في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ [الأعراف: ٧٥].

ولمَّا أبدَى له ما كان منهم من الاستضعاف له ومقارَبةِ قَتْلِهم إياه، سأله تَرْكَ ما يَسُرُّهم بفِعْلِه فقال: «فلا تُشمِتْ بي الأعداءَ» أي: لا تَسُرَّهم بما تفعلُ بي فأكونَ ملُومًا منهم ومنك، وقال الشاعر:

والموتُ دونَ شماتةِ الأعداء[٤]

وقرأ ابن مُحَيْصِنٍ: «تَشمِتْ» بفتح التاء وكسرِ الميم ونصبِ «الأعداءَ»[٥]، ومجاهدٌ كذلك إلا أنه فَتَحَ الميم[٦]. و«شَمِتَ» متعدِّيةٌ كأَشْمَتَ، وخرَّج أبو الفتح قراءةَ مجاهدٍ على أن تكون لازمةً، والمعنى: فلا تَشْمَتْ أنت يا رب، وجاز هذا كما قال: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥] ونحو ذلك، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلًا نَصَبَ به «الأعداء» كقراءة الجماعة[٧]. انتهى.

---

(١) ينظر التعليق السابق.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٧، والكشاف ٢/ ١١٩.

(٣) في (أ): معنى، وفي المطبوع: بمعنى، وسقطت من (د١).

(٤) وصدره: شَمَّتَّ بيَ الأعداءَ حين هَجَرْتني، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٨، وهي في القراءات الشاذة ص٤٦ عن مجاهد وحميد بن قيس.

(٦) المحتسب ١/ ٢٥٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧.

(٧) المصدران السابقان.

وهذا خروجٌ عن الظاهر وتكلُّفٌ في الإعراب، وقد رُوي تَعَدِّي «شَمِتَ» لغةً فلا يُتكلَّفُ أنها لازمةٌ مع نَصْب «الأعداء»، وأيضًا قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ إنما ذلك على سبيل المقابَلة لقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وكقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] ولا يجوزُ ذلك ابتداءً من غيرِ مقابَلة.

وعن مجاهدٍ: «فلا تَشْمَتْ» بفتح التاء والميم ورفع «الأعداء»[(١)]، وعن حميد بن قيس كذلك إلا أنه كَسَر الميم[(٢)]، جَعَلَاه فعلًا، لازمًا فارْتَفَع به «الأعداء»، فظاهِرُه أنه نَهَى الأعداءَ عن الشماتة به، وهو من باب: لا أُرَيَنَّكَ هنا، والمراد نَهْيُه أخاه، أي: لا تُحِلَّ بي مكروهًا فيَشْمَتوا بي.

وبدأ أولاً بسؤال أخيه أن لا يُشْمِتَ به الأعداءَ؛ لأن ما يوجبُ الشماتةَ هو فعلٌ مكروهٌ ظاهرٌ لهم فيشمتوا به، فبدأ بالأَوْكَد ثم سأله أن لا يجعله ولا يعتقدَه واحدًا من الظالمين، إذ جَعْلُه معهم واعتقادُه من جملتهم هو فعلٌ قلبيٌّ وليس ظاهرًا لبني إسرائيل، أو يكون المعنى: ولا تجعلني في مَوْجِدَتك عليَّ قرينًا لهم مصاحِبًا لهم.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ لـمّـا اعتذر إليه أخوه اسْتَغْفَر لنفسه وله، قالوا: واستغفارُه لنفسه بسبب فعلته مع أخيه وعَجَلته في إلقاء الألواح، واستغفارُه لأخيه من فِعْلته في الصبر لبني إسرائيل.

قالوا: ويمكنُ أن يكونَ الاستغفارُ ممَّا لا يعلمُه، والله أعلم.

وقال الزمخشريّ[(٣)]: لمَّا اعتذر إليه أخوه وذَكَر شماتةَ الأعداء قال: «ربِّ اغْفِرْ لي ولأخي» ليُرْضِيَ أخاه، ويُظْهِرَ لأهل الشماتة رضاه عنه، فلا تَتِمَّ لهم شماتَتُهم، واستَغْفَر لنفسه ممَّا فَرَط منه إلى أخيه، ولأخيه أنْ عسى فرَّط في حين[(٤)] الخلافة، وطلب أن لا يتفرَّقا عن رحمته، ولا تزالَ متضمِّنةً لهما في الدنيا والآخرة. انتهى.

---

(١) المحتسب ١/٢٥٩، والمحرر الوجيز ٢/٤٥٧، وهي في القراءات الشاذة ص٤٦ عن مالك بن دينار.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٥٧.

(٣) في الكشاف ٢/١١٩.

(٤) في الكشاف: في حُسْن.

وقوله: ولأخيه أن عسى فرَّط، إنْ كانت «أنْ» بفتح الهمزة فتكونُ المخفَّفةَ من الثقيلة، ويَقْرُبُ معناه، وإن كانت بكسر الهمزة فتكونُ للشرط، ولا يصحُّ إذ ذاك دخولُها على «عسى» لأنَّ أدوات الشرط لا تدخلُ على الفعل الجامد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ الظاهرُ أنه من كلام الله تعالى إخبارًا عمَّا ينالُ عُبَّادَ العِجل، ومخاطَبةً لموسى بما ينالُهم.

وقيل: هو من بقية كلام موسى إلى قوله: «في الحياة الدنيا»، وصَدَّقَه الله تعالى بقوله: «وكذلك نجزي المفترين».

والأولُ هو الظاهرُ؛ لقوله: «وكذلك نجزي المفترين» في نسقٍ واحدٍ مع الكلام قبله.

والمعنى: اتَّخذوه إلهًا؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]، قيل: والغضبُ في الآخرة والذلَّةُ في الدنيا.

وهم فرقةٌ من اليهود أُشربوا حبَّ العِجْلِ فلم يتوبوا.

وقيل: هم مَن مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات.

وقال أبو العالية وتبعه الزمخشريُّ: هو[1] ما أُمِروا به مِن قَتْلِ أنفسِهم، وقال الزمخشريُّ: والذلَّةُ خروجُهم من ديارهم؛ لأن ذلَّ الغُربة مَثَلٌ مضروبٌ[2]. انتهى، وينبغي أن يقول: استمرارُ انقطاعهم عن ديارهم؛ لأنَّ خروجه كان سَبَقَ على عبادة العجل.

وقال عطيَّةُ العَوْفيُّ: هو في قَتْلِ بني قُريظةَ وإجلاءِ بني النَّضير لأنهم تولَّوا متَّخذي العجل[3].

وقيل: ما نال أولادَهم على عهد رسول الله ﷺ من السبي والجَلاء والجزية وغيرِها.

---

(١) أي: الغضب.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٩-١٢٠. وقول أبي العالية ذكره الثعلبي ٣/ ٧٥، والبغوي ٢/ ٢٠٢.

(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٥-٧٦، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٢، وزاد المسير ٣/ ٢٦٦.

وجَمَعَ هذين القولين الزمخشريُّ فقال: هو ما نال أبناءَهم وهم بنو قُريظةَ والنضير من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن الذِّلة بضَرْبِ الجزية[١]. انتهى.

والغضبُ إنْ أُخذ بمعنى الإرادة فهو صفةُ ذاتٍ، أو بمعنى العقوبة فهو صفةُ فِعْلٍ.

والظاهرُ أنَّ قوله: «في الحياة الدنيا» متعلِّقٌ بقوله: «سينالُهم»، «وكذلك» أي: مِثْلَ ذلك النَّيْلِ من الغضب والذلَّة نجزي مَن افترى الكذبَ على الله، وأيُّ افتراءٍ أعظمُ من قولهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾.

و«المفترين» عامٌّ في كلِّ مُفْتَرٍ، وقال أبو قِلابةَ ومالكٌ وسفيانُ بن عُيينة: كلُّ صاحب بدعةٍ أو فِرْيةٍ ذليلٌ، واستدلُّوا على ذلك بالآية[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ «السيئات» من[٣] الكفر والمعاصي وغيرها، «ثم تابوا» أي: رجعوا إلى الله، «مِن بَعْدِها» أي: من بعد عَمَلِ السيئات، «وآمنوا» أي: داموا على إيمانهم وأخلصوا فيه، أو تكون الواو لا ترتِّب، أو تكون الواوُ حاليَّةً، أي: وقد آمنوا، «إنَّ ربَّك من بعدها»، أي: من بعد عَمَلِ السيئات، هذا هو الظاهرُ، ويحتمل أن يكون الضمير في «من بعدها» عائدًا على التوبة، أي: إنَّ ربك من بعد توبتهم، فيعود على المصدر المفهوم من قوله: «ثم تابوا»، وهذا عندي أَوْلَى؛ لأنك إذا جعلتَ الضميرَ عائدًا على «السيئات» احْتَجْتَ إلى حذفِ مضافٍ وحذفِ معطوفٍ، إذ يصير التقدير: مِن بعد عَمَلِ السيئات والتوبةِ منها.

وخبر «الذين» قولُه: «إنَّ ربَّك» وما بعده، والرابطُ محذوفٌ، أي: لغفورٌ رحيمٌ لهم.

(١) الكشاف ٢/ ١٢٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٨ عن أبي قلابة وسفيان، وأخرجه عنهما الطبري ١٠/ ٤٦٤-٤٦٥، وذكره عن مالك ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٦٦، والرازي ١٥/ ١٣، والقرطبي ٩/ ٣٤٥.
(٣) في (د١) والمطبوع: هي.

قال الزمخشريّ(١): لغفورٌ: لستُورٌ عليهم مَحَّاءٌ لِمَا كان منهم(٢)، «رحيم» منعِمٌ عليهم بالجنة، وهذا حُكْمٌ عامٌّ يدخل تحته متَّخِذو العجلِ ومَن عَدَاهم، عظَّم جناياتهم أولًا ثم أردفها بعِظَم رحمته؛ ليُعْلَمَ أنَّ الذنوبَ وإنْ جَلَّت وإنْ عَظُمَتْ فإنَّ عفوَه تعالى وكرمَه أعظمُ وأجلُّ، ولكنْ لا بدَّ من حِفْظِ الشريطة، وهي وجوبُ التوبة والإنابةِ، وما وراءه طمعٌ فارغٌ وأشْعَبيةٌ باردةٌ لا يَلتفت إليها حازمٌ، وهذا على طريقَةِ الاعتزال.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ سكوتُ غضبه كان ـ والله أعلم ـ بسبب اعتذارِ أخيه، وكونِه لم يقصِّر في نهي بني إسرائيلَ عن عبادة العجل، ووَعْدِ الله إياه بالانتقام منهم.

وسكوتُ الغضب استعارةٌ؛ شبَّه خمودَ الغضب بانقطاع كلام المتكلِّم، وهو سكوتُه، قال يونس بن حبيب: تقول العرب: سال الوادي يومين ثم سَكتَ(٣).

وقال الزجَّاج: مصدر «سَكَتَ الغضبُ»: سَكْتٌ، ومصدر «سَكَتَ الرجلُ»: سُكوتٌ، وهذا يقتضي أنه فِعْلٌ على حِدَةٍ وليس من سكوت الناس، وقيل: هو من بابِ القَلْب، أي: ولمَّا سكت موسى عن الغضب، نحو: أدخلتُ فمي في الحجر، وأدخلتُ القلنسوةَ في رأسي(٤). انتهى.

ولا ينبغي هذا؛ لأنه من القَلْب، وهو لم يقع إلا في قليلٍ من الكلام، والصحيحُ أنه لا ينقاس.

وقال الزمخشري: هذا مَثَلٌ، كأنَّ الغضب كان يُغريه على ما فَعَلَ، ويقول له: قل لقومك كذا، وألْقِ الألواحَ، وخُذْ برأس أخيك إليك، فتَرَكَ النطقَ بذلك وتَرَكَ

(١) في الكشاف ٢/ ١٢٠.
(٢) في النسخ عدا (د١): لما كان عليهم منه، والمثبت من (د١) والمطبوع، وهو الموافق لما في الكشاف.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩، وكلمة «يومين» سقطت من (أ) و(ب) و(ع) والمطبوع.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٩ بنحوه، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩. وقوله: وهذا يقتضي أنه فعل على حدة وليس من سكوت الناس، هو من كلام ابن عطية، وليس من كلام الزجاج.

الإغراء، ولم يَسْتَحْسِنْ هذه الكلمةَ ولم يَسْتَفْصِحْها كلُّ ذي طبعٍ سليم وذوقٍ صحيح إلا لذلك، ولأنه من قَبيل شُعَب البلاغة، وإلَّا فما لقراءة معاوية بن قُرَّةَ: «ولمَّا سَكَنَ عن موسى الغضبُ» لا تجدُ النفسُ عندها شيئًا من تلك الهزَّة وطرفًا من تلك الروعة[1].

وقرئ: «أُسْكِتَ» رباعيًا مبنيًّا للمفعول[2]، وكذا هو في مصحف حفصة[3]، والمَنُوبُ عنه اللهُ، أو أخوه باعتذارِه إليه أو تنصُّلِه، أي: أَسْكَتَ اللهُ أو هارونُ.

وفي مصحف عبد الله: «ولمَّا صبر»، وفي مصحف أبيٍّ: «ولمَّا انشقَّ»[4].

والمعنى: ولمَّا طَفِئَ غضبُه أخذَ ألواحَ التوراةِ التي كان ألقاها من يده، رُوي عن ابن عباس أنه ألقاها فتكسَّرت، فصام أربعين يومًا فرُدَّت إليه في لوحين ولم يفقد منها شيئًا[5].

«وفي نسختها» أي: فيما نُسِخَ من الألواح المكسَّرة[6]، أو: فيما نُسخ فيها، أو: فيما بقي منها بعد المرفوع وهو سُبُعها، والأظهَرُ أنَّ المعنى: وفيما نُقِلَ وحُوِّلَ منها.

واللامُ في «لربهم» مقوِّيةٌ لوصول الفعل إلى مفعوله المتقدِّم، وقال الكوفيون: هي زائدة. وقال الأخفش: هي لامُ المفعول له، أي: لأَجْلِ ربِّهم يرهبون لا رياءً ولا سمعةً. وقال المبرِّد: هي متعلِّقةٌ بمصدرٍ، المعنى: الذين هم رهبتُهم لربِّهم[7].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٠، وقراءة معاوية بن قرة في القراءات الشاذة ص٤٦.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٦، والكشاف ٢/ ١٢٠.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩، ووقع في مطبوعه: وفي مصحف حفصة: «ولما سكت». اهـ. ولعلها من الرباعي المضعف المبني للمجهول ـ أي: «سُكِّت»، وهي قراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ ـ أو هي مصحفة عن «أسكت».

(٤) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩، ووقع في مطبوعه: اشتق، بدل: انشق.

(٥) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٦، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٣، وتفسير الرازي ١٥/ ١٥.

(٦) أي: فيما نسخ منها ونُقل إلى الألواح الجديدة، والنسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر، ويقال للأصل الذي كُتبت منه: نسخة، وللفرع: نسخة. تفسير القرطبي ٩/ ٣٤٦.

(٧) ذكر هذه الأقوال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٥٤، والقرطبي ٩/ ٣٤٧، وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٥٣٥.

وهذا على طريقة البصريين لا يتمشَّى؛ لأنَّ فيه حذفَ المصدر وإبقاءَ معموله، وهو لا يجوزُ عندهم إلَّا في الشعر، وأيضًا فهذا التقديرُ يُخْرِجُ الكلامَ عن الفصاحة.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾«اختار»: افْتَعَلَ، من الخير، وهو التخيُّرُ والانتقاء، و«اختار» من الأفعال التي تعدَّت إلى اثنين: أحدُهما بنفسه، والآخَرُ بوساطة حرف الجرِّ، وهي مقصورةٌ على السماع، وهي: اختار، واستغفر، وأمر، وسمَّى، وكَنَى، ودعا، وزوَّج، وصَدَق[١]، ثم يُحذف حرفُ الجرِّ ويتعدَّى إليه الفعلُ فتقول: اخترتُ زيدًا من الرجال، واخترت زيدًا الرجالَ، قال الشاعر:

اخْـتَـرْتُـكَ الـنـاسَ إذ رثَّـتْ خـلائـقُـهـم واعْتَلَّ مَن كان يُرْجَى عنده السُّولُ[٢]

أي: اخترتُك من الناس.

و«سبعين» هو المفعولُ الأول، و«قومَه» هو الثاني، وتقديره: من قومه. ومَن أَعْربَ «قومَه» مفعولًا أولَ و«سبعين» بدلًا منه بَدَلَ بعضٍ من كلٍّ وحُذِفَ الضمير، أي: سبعين رجلًا منهم، احتاج إلى تقديرِ مفعولٍ ثانٍ، وهو المختارُ منه، فإعرابُه فيه بُعدٌ وتكلُّفُ حذفٍ في رابط البدل وفي المختارِ منه.

واختلفوا في هذا الميقات: أهو ميقاتُ المناجاة ونزولِ التوراة، أو غيره؟

فقال نوفٌ البَكَاليُّ، ورواه أبو صالح عن ابن عباس: هو الأولُ[٣]، بُيِّنَ فيه بعضُ ما جرى من أحواله، وأنه اختار من كلِّ سبطٍ ستةَ رجالٍ فكانوا اثنين وسبعين، فقال: لِيَتَخلَّفِ اثنان فإنما أُمِرْتُ بسبعين، فتشاحُّوا فقال: مَن قَعَدَ فله أجرُ مَن حَضَرَ، فقعد كالب بن يوقنا ويوشع بن نون، واستَصْحَبَ السبعين بعد أن أمرهم أن يصوموا ويتطهَّروا ويُطهِّروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طُورِ سيناءَ لميقاتِ ربِّه، وكان أَمَرَه ربُّه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فلمَّا دنا موسى من الجبل وقع عليه عمودُ الغمام حتى تغشَّى الجبلَ كلَّه، ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم:

---

(١) تنظر شواهد هذه الأفعال في الدر المصون ٥/ ٤٧٤، وزاد السمين: «حدَّث، وأنبأ، ونبَّأ، وأَخْبَر، وخبَّر» إذا لم تضمَّن معنى: أَعْلَمَ.

(٢) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص١٩٤، وتفسير الطبري ١٠/ ٤٧٣.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٦٨، وما بعده نقله المصنف عن الكشاف ٢/ ١٢١، وروى بعضَه الطبريُّ ١٠/ ٤٦٨ عن ابن إسحاق، والبعضَ الآخرَ الثعلبيُّ ٣/ ٧٨ عن الكلبي.

ادنوا، فدَنَوا حتى إذا دخلوا في الغمام وَقَعوا سُجَّدًا، فسمعوه وهو يكلِّم موسى يأمره وينهاه: افْعَلْ، ولا تَفْعَلْ. ثم انكشف الغمامُ فأقبَلوا إليه فطلبوا الرؤيةَ، فوعَظَهم وزجرهم وأنكر عليهم، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، قال الزمخشريّ: فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يريد أن يسمعوا الردَّ والإنكارَ من جهته، فأجيب بـ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ورَجَفَ الجبلُ بهم وصَعِقوا[١]. انتهى.

وقيل: هو ميقاتٌ آخَرُ غيرُ ميقات المناجاة ونزولِ التوراة، فقال وهب بن منبِّه: قال بنو إسرائيل لموسى: إن طائفةً تزعم أنَّ الله لا يكلِّمك، فخذْ منَّا مَن يذهبُ معك ليسمعوا كلامَه فيؤمنوا، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار سبعين من خِيارهم، ثم ارْتَقِ بهم الجبلَ أنت وهارونُ واستَخْلِفْ يوشع، ففعل[٢]، فلمَّا سمعوا كلامه سألوا موسى أن يُرِيَهم الله جهرةً فأخذتهم الرجفة.

وقال السُّدِّي: هو ميقاتٌ وقَّته الله تعالى لموسى ليلقاه في ناسٍ مِن بني إسرائيل ليَعْتَذروا إليه من عبادة العجل[٣].

وقال ابن عباس فيما رَوَى عنه علي بن [أبي] طلحة: هو ميقاتٌ وقَّته الله لموسى وأمره أن يختار من قومه سبعين رجلًا ليدعوا ربَّهم، فدَعَوْا فقالوا: اللهمَّ أَعْطِنا ما لم تُعْطِ أحدًا قبلنا ولا أحدًا بعدنا، فكَرِه الله ذلك فأخذتهم الرجفة[٤].

وعن عليٍّ رضي الله عنه فيما روى ابنُ أبي شيبة[٥]: أن موسى وهارون وابناه شَبَّرٌ وشَبِيرٌ انطلقوا حتى انتهوا إلى جبلٍ فيه سريرٌ، فقام[٦] عليه هارون فقبض روحه، فرجع

(١) الكشاف ٢/ ١٢١.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٧، وزاد المسير ٣/ ٣٦٨.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٦٨، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٣٦٨.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٤٦٩، وزاد المسير ٣/ ٣٦٨، وعنه نقل المصنف، وما بين حاصرتين منهما.

(٥) في المصنف (٣٢٥٠٢)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٠/ ٤٧٠، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٧٣، والضياء في المختارة (٦٨٦)، ونقله المصنف عن القرطبي ٩/ ٣٤٨، وهو من طريق عُمارة بن عبد السلولي عن علي رضي الله عنه.

(٦) كذا في النسخ وبعض نسخ القرطبي كما ذكر في حاشيته، والذي في المصادر: فنام.

موسى إلى قومه فقالوا: أنت قَتَلْتَه، حسدتنا على خُلُقه ولِيْنه، فقال: كيف أقتلُه ومعي ابناه؟! قال: فاختاروا مَن شئتم، فاخْتِيرَ سبعون، فانتهوا إليه فقالوا: مَن قتلك يا هارون؟ قال: ما قتلني أحدٌ، ولكن الله تَوفَّاني. قالوا: يا موسى ما نعصي[(١)] بعدُ، فأخذتهم الرجفةُ فجعلوا يتردَّدون يمينًا وشمالًا[(٢)]. انتهى.

ولفظ «لميقاتنا» في هذا القولِ الذي رُوي عن عليٍّ؛ لأنه يقتضي أنه كان عن توقيتٍ من الله تعالى، وقال ابن السائب: كان موسى لا يأتي ربَّه إلا بإذنٍ منه[(٣)].

والذي يظهر أنَّ هذا الميقاتَ غيرُ ميقاتِ موسى الذي قيل فيه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لظاهر تغايُرِ القصتين وما جرى فيهما؛ إذ في تلك أن موسى كلَّمه الله، وسأله الرؤيةَ، وأحاله في الرؤية على تجلِّيه للجبل وثبوته، فلم يَثْبُتْ وصار دكًّا وصَعِقَ موسى، وفي هذه اختيرَ السبعون لميقات الله، وأخذَتْهم الرجفةُ ولم تأخذ موسى، وللفصل الكثير الذي بين أجزاء الكلام لو كانت قصةً واحدة.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ سببُ الرجفة مختلَفٌ فيه، وهو مرتَّبٌ على تفسير الميقات، فهل الرجفةُ عقوبةٌ على سكوتهم وإغضائهم على عبادة العجل، أو عقوبةٌ على سؤالهم الرؤيةَ، أو عقوبةٌ لتشطُّطهم في الدعاء المذكور، أو سببه سماعُ كلام هارون وهو ميتٌ؟ أقوال.

وقال السُّدي: عقوبةٌ على عبادة هؤلاء السبعين بأنفسهم[(٤)] العجلَ، وخَفيَ ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أَعْلَمه الله.

---

(١) عند ابن أبي شيبة والقرطبي: ما تُعْصَى.

(٢) كذا في النسخ ونسخ القرطبي، وعند ابن أبي شيبة والضياء: فجعل يتردد يميناً...، وعند الطبري: فجعل موسى يرجع يميناً...، وهذا الخبر أورده ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: «هذا أثر غريب جدًا وعمارة بن عبد هذا لا أعرفه، وقد رواه شعبة، عن أبي إسحاق، عن رجل من بني سلول، عن علي». قلت: وهذه الرواية أخرجها الطبري ١٠/ ٤٧١، وروى نحو هذا الخبر الطبري ١٩/ ١٩٤ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس عن علي ﷺ، وقوّى إسناده الحافظ في الفتح ٨/ ٥٣٤، لكن ليس فيه كلام هارون بعد الموت.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٦٨.

(٤) في (أ) و(ب) و(ع) والمطبوع: باختيارهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩، وعنه نقل المصنف.

وأخذُ الرجفة يحتملُ أن نشأ عنه الموتُ، ويحتملُ أن نشأ عنه الغَشْيُ، وهما قولان.

قال السدي: قال موسى: كيف أرجعُ إلى بني إسرائيلَ وقد أهلكْتَ خيارَهم، فماذا أقول، وكيف يأمنونني على أحدٍ؟ فأحياهم الله[١].

وقيل: أخذتهم الرِّعْدةُ حتى كادت تَبِيْنُ مفاصِلُهم وتَنْتَقِضُ ظهورُهم، وخاف موسى الموتَ، فعند ذلك بكى ودعا فكُشف عنهم[٢].

قال الزمخشريُّ: وهذا تمنٍّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تَبِعةِ طلبِ الرؤية، كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوءَ المَغَبَّةِ: لو شاء الله لأهلكني قبل هذا[٣]. انتهى، فمعنى قوله: من قبل، أي: من قبل[٤] سؤال الرؤية، وهذا بناء من الزمخشريِّ على أنَّ هذا الميقاتَ هو ميقاتُ المناجاة وطلبِ الرؤية، وقد ذكرنا أنَّ الأظهر خلافُه.

وقال ابن عطية[٥]: لمَّا رأى موسى ذلك أَسِفَ عليهم، وعلم أنَّ أمر بني إسرائيل سيتشَعَّبُ إن لم يأتِ بالقوم، فجعل يستَعْطِفُ ربَّه، أي ربِّ[٦] لو شئتَ أهلكتهم قبلَ هذه الحالِ وإياي لكان أخفَّ عليَّ، وهذا وقتُ هلاكهم فيه مَفْسَدةٌ عليَّ مُؤْذٍ لي. انتهى.

ومفعولُ «شئتَ» محذوفٌ تقديره: لو شئتَ إهلاكَنا، وجوابُ «لو»: «أهلكتهم»، وأتى دون لام وهو فصيحٌ، لكنه باللام أكثر كما قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ﴾ [الكهف: ٧٧]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ﴾ [يونس: ٩٩] ولا نَحْفَظه[٧] جاء بغيرِ

---

(١) قطعة من خبر طويل أخرجه الطبري ١/ ٦٩٥، وهو بلفظ المصنف في تفسير الرازي ١٥/ ١٨.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٣، وتفسير الرازي ١٥/ ١٨، وعنه نقل المصنف، وعزاه البغوي لوهب.

(٣) الكشاف ٢/ ١٢١.

(٤) قوله: أي من قبل، ساقط من (أ) و(ب) و(د١) و(ع)، وقوله: أي، من (ز١) وسقط من باقي النسخ، وعبارة الكشاف ليس فيها كلمة «من».

(٥) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٠.

(٦) في (د١) والمطبوع: أن يا رب، وفي باقي النسخ: أي يا رب، والمثبت من المحرر.

(٧) في (أ) و(د١) و(ع): ولا يصح، وفي المطبوع: ولا يحفظ.

لام في القرآن إلّا هذا، وقوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ [الأعراف: ١٠٠] ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠].

والمحذوفُ في «من قبلُ»، أي: من قبلِ الاختيار وأخذِ الرجفة، وذلك زمانَ إغضائهم على عبادة العجل، أو عبادتِهم هم إياه، وقوله: «وإياي»، أي: وقتَ قتلي القِبْطيَّ، فأنت قد سترتَ وغفرتَ حينئذٍ، فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فسادٌ لبني إسرائيلَ؟ قال أكثره ابن عطية[١].

وعُطِفَ «وإياي» على الضمير المنصوب في «أهلكتهم»، وعَطْفُ الضمير ممَّا يوجبُ فَصْلَه، وبدأ بضميرهم لأنهم الذين أخذتهم الرجفةُ فماتوا أو أُغمي عليهم، ولم يَمت هو ولا أُغْمي عليه، ولم يكتفِ بقوله: «أهلكتهم من قبل» حتى أشرك نفسَه فيهم ـ وإن كان لم يَشْرَكهم في مقتضَى الإهلاك ـ تسليمًا منه لمشيئة الله تعالى وقدرته، وأنه لو شاء إهلاكَ العاصي والطائع لم يَمْنَعه من ذلك مانعٌ.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ قيل: هذا استفهامٌ على سبيل الإدلاء بالحجة في صيغة استعطافٍ وتذلُّلٍ، والضميرُ المنصوبُ في «أتهلكنا» له وللسبعين، و«بما فعل السفهاء» فيه الخلافُ مرتَّبًا على سبب أخذ الرجفة: مِن طَلَبِ الرؤية، أو عبادةِ العجل، أو قولِهم: قتلتَ هارون، أو تشطُّطِهم في الدعاء، أو عبادتهم بأنفسهم العجلَ.

وقيل: الضمير في «أتهلكنا» له ولبني إسرائيل، و«بما فعل[٢] السفهاء»، أي: بالتفرُّق والكفر والعصيان يكون هلاكُهم.

وقال الزمخشريّ: يعني نفسه وإياهم؛ لأنه إنما طلبَ الرؤيةَ زجرًا للسفهاء، وهم طلبوها سفهًا وجهلًا[٣].

والذي يظهر[٤] أنه استفهامُ استعلام: أيقعُ إهلاكُ المختارين وهم خيرُ بني

(١) في المحرر ٢/ ٤٦٠.
(٢) في (أ) و(ز١) و(يه): فعله.
(٣) الكشاف ٢/ ١٢١.
(٤) بعدها في (د١) والمطبوع: لي.

إسرائيل بما فَعَلَ غيرُهم؟ إذ من الجائز في العقل ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. وقوله عليه السلام وقد قيل له: أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[(١)].

وكما ورد أنَّ قومًا يُخْسَفُ بهم، قيل: وفيهم الصالحون؟ فقيل: «يبعثون على نياتهم»[(٢)]؛ أو كلامًا هذا معناه.

ورُوي عن عليٍّ أنهم أُحْيُوا وجُعلوا أنبياءَ كلُّهم[(٣)].

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي: إن فتنتُهم إلا فتنتُك، والضمير في «هي» يفسِّره سياقُ الكلام، أي: أنت هو الذي فَتَنْتَهم، قالت فرقة: لمَّا أَعْلَمه الله أنَّ السبعين عبدوا العجل تعجَّب وقال: «إن هي إلا فتنتك».

وقيل: لمَّا أُعلم موسى بعبادة بني إسرائيلَ العجلَ وبصفته قال: يا رب، ومَن أخَارَه؟ قال: أنا، قال موسى: فأنت أَضْلَلْتَهم إنْ هي إلَّا فتنتُك.

قال ابنُ عطية[(٤)]: ويحتملُ أن يشير به إلى قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] إذ كانت فتنةً من الله أوجبت الرَّجفة، وفي هذه الآية ردٌّ على المعتزلة.

وقال الزمخشري: أي: محنتُك وبلاؤك حين كلَّمتني وسمعتُ كلامَك، فاستدلّوا بالكلام على الرؤية استدلالًا فاسدًا حتى افتُتِنوا وضَلّوا، «تُضِلُّ بها» الجاهلين غيرَ الثابتين في معرفتك، «وتَهدي» العالمِينَ الثابتين بالقول الثابت، وجَعَلَ ذلك إضلالًا من الله تعالى وهُدًى منه لأن محنته إنما كانت سببًا لأنْ ضلُّوا واهْتَدَوا فكأنه أضلَّهم بها وهداهم، على الاتِّساع في الكلام[(٥)]. انتهى.

وهو على طريقة المعتزلة في نفيهم الإضلالَ عن الله تعالى.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: القائمُ بأمرنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ سأل

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش ﵂.
(٢) أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤) من حديث عائشة ﵂.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٠.
(٤) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٠، وما قبله منه.
(٥) الكشاف ٢/ ١٢١.

الغفرانَ له ولهم والرحمةَ لمَّا كان قد انْدَرَجَ قومُه في قوله: «أنت وليُّنا»، وفي سؤال المغفرة والرحمة له ولهم ـ وكان قومُه أصحابَ ذنوبٍ ـ أكَّد استعطافَ ربِّه تعالى في غفران تلك الذنوب، فأكَّد ذلك ونبَّه بقوله: «وأنتَ خيرُ الغافرين»، ولمَّا كان هو وأخوه هارونُ عليهما السلام من المعصومينَ من الذنوب، فحين سأل المغفرةَ له ولأخيه وسأل الرَّحمة لم يؤكِّد المغفرة، بل قال: «وأنتَ أرحم الراحمين» فنبَّه على أنه تعالى أرحمُ الراحمين، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وكان تعالى خيرَ الغافرين لأن غيره يَتَجاوزُ عن الذنب طلبًا للثناء أو الثواب، أو دفعًا للصفة الخسيسة عن القلب وهي صفةُ الحقد، والباري سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن أن يكون غُفرانُه لشيءٍ من ذلك.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: وأَثْبِتْ لنا عافيةً[1] وحياةً طيِّبةً، أو عملاً صالحًا يَسْتَعْقِبُ ثناءً حسنًا، و«في الآخرة»: الجنةَ والرؤيةَ والثوابَ على حسنة الدنيا. والأجودُ حملُ الحسنة على ما يَحْسُنُ من نعمةٍ وطاعةٍ وغيرِ ذلك، وحسنةُ الآخرةِ الجنةُ لا حسنةَ دونها.

و«إنا هُدْنا» تعليلٌ لطالب الغفران والرَّحمة وكَتْبِ الحسنة، أي: تبنا إليك؛ قاله ابنُ عباس ومجاهدٌ وابنُ جُبيرٍ وأبو العالية وقتادةُ والضحاك والسدِّيُّ[2]، من: هاد يهودُ.

وقال ابن بحر: تَقَرَّبْنا بالتوبة[3].

وقيل: مِلْنا، ومنه:

قد عَلِمتْ سلمى وجاراتُها أنِّي مِن الله لها هائدُ[4]

أي: مائل.

---

(١) في (د١) والمطبوع: عاقبة، وهو تصحيف، وينظر الكشاف ٢/ ١٢١.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٤٧٩-٤٨٢.
(٣) النكت والعيون ٢/ ٢٦٧.
(٤) أورده الثعلبي في التفسير ١/ ١٠٧-١٠٨ عند تفسير قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [البقرة: ٦٢]، وأورده أيضاً عند تفسير هذه الآية ٣/ ٧٩، وعزاه في الموضع الأول لامرئ القيس، وليس في ديوانه، وجاء عنده في الموضعين: من الناس، بدل من الله.

وقرأ زيد بن علي وأبو وَجْزَة: «هِدْنا» بكسر الهاء[١] من هادَ يَهِيدُ: إذا حَرَّك، أي: حرَّكْنا أنفسَنا وجَذَبْناها لطاعتك، فيكون الضمير فاعلاً، ويحتمل أن يكون مفعولاً لم يُسَمَّ فاعلُه، أي: حُرِّكنا إليك وأُمِلْنا، والضمُّ في «هُدْنا» يحتَمِلُهما.

وتضمَّنت هذه الجملُ كونَه تعالى هو ربَّهم ووليَّهم، وأنهم تائبون عبيدٌ له خاضعون، فناسَبَ عزَّ الربوبية أن يُستَعْطَفَ للعبيد التائبين الخاضعين بسؤال المغفرة والرحمة والكُتْب.

﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ الظاهرُ أنه استئنافُ إخبارٍ عن عذابه ورحمته، ويندرجُ في قوله: «أصيب به مَن أشاء» أصحابُ الرَّجفة.

وقيل: العذابُ هنا هو الرجفةُ، و«مَن أشاء» أصحابُها.

والمعنى أنه لا اعتراضَ عليه، أي: من أشاءُ عذابَه. وقيل: مَن أشاء أنْ لا أعفوَ عنه. وقيل: مَن أشاء مِن خَلْقي كما أصبتُ به قومَك. وقيل: مَن أشاء من الكفار.

وقيل: المشيئة راجعةٌ إلى التعجيل والإمهال، لا إلى الترك والإهمال.

وقال الزمخشري: «مَن أشاء»: مَن وَجَبَ عليَّ في الحكمة تعذيبُه ولم يكن في العفو عنه مساغٌ لكونه مَفْسَدةً[٢]. انتهى، وهو على طريقة المعتزلة.

وقال ابن عباس: أصيبُ به من أشاء على الذَّنْب اليسير.

وقال أيضًا: وسعت كلَّ شيءٍ من ذنوب المؤمنين[٣].

وقال أبو روق: هي التعاطُف بين الخلائق[٤].

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٦، والمحتسب ١/ ٢٦٠، والكشاف ٢/ ١٢٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٠، عن أبي وجزة.
(٢) الكشاف ٢/ ١٢٢.
(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٦٧ بلفظ: وسعت المؤمنين بي من أمة محمد. ولم أقف على القول الذي قبله.
(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ٨٠ بنحوه.

وقال ابن زيد: هي التوبةُ على العموم(١).

وقال الحسن: هي في الدنيا بالرزق عامةً، وفي الآخرة بالمؤمنين خاصةً(٢).

وقال الزمخشريُّ: وأمّا رحمتي فِمنْ حالِها وصفتها أنها واسعةٌ تبلغ كلَّ شيءٍ، ما مِن مسلمٍ ولا كافرٍ ولا مطيعٍ ولا عاصٍ إلّا هو متقلِّبٌ في نعمتي(٣). انتهى، وهو بسطُ قولِ الحسن: هي في الدنيا بالرزق عامةً.

وقرأ زيد بن علي والحسنُ وطاوسٌ وعمرو بن فائد: «مَنْ أساءَ» من الإساءة(٤).

قال أبو عمرو الداني: لا تصحُّ هذه القراءةُ عن الحسن وطاوسٍ، وعمرُو بنُ فائدٍ رجلُ سوء، وقرأ بها سفيانُ بنُ عُيينةَ مرَّةً واستَحْسَنَها، فقام إليه عبد الرحمن المقرئ وصاح به وأسمعه، فقال سفيان: لم أدْرِ ولم أفْطَنْ لمَا يقولُ أهلُ البِدَع(٥).

وللمعتزلة تَعَلُّقٌ بهذه القراءة من جهة إنفاذ الوعيد، ومن جهةِ خَلْقِ المرءِ أفعالَه وإن أساء لا فِعْلَ فيه لله تعالى، والانفصالُ عن هذا كالانفصال عن سائر الظواهر(٦).

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٦٧، وزاد المسير ٣/ ٢٧١، ولفظه فيهما: الرحمة: التوبة، فهي على العموم. فقوله: على العموم، ليس من كلام ابن زيد، وكذا أخرجه دون هذه الكلمة الطبري ١٠/ ٤٨٦.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٤٨٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٧٨، وتفسير أبي الليث ١/ ٥٧٣، وتفسير الثعلبي ٣/ ٧٩، والنكت والعيون ٢/ ٢٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٤، وزاد المسير ٣/ ٢٧١، جميعهم ذكره عن الحسن وقتادة بلفظ: وسعت في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للمتقين خاصة. وما ذكره المصنف من أنها الرزق في الدنيا عامة هو شرح لهذا القول، حيث قال ابن الجوزي إثر الخبر: فعلى هذا: معنى الرحمة في الدنيا للكافر أنه يُرزق ويُدفع عنه.

(٣) الكشاف ٢/ ١٢٢.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٦، والمحتسب ١/ ٢٦١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، والكشاف ٢/ ١٢٢.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وتحرف في مطبوعه: المقرئ، إلى: المقبري، ولعل الصواب في الاسم: أبو عبد الرحمن، وهو عبد الله بن يزيد المقرئ، من أقران سفيان بن عيينة، توفي سنة (٢١٣هـ)، وتوفي سفيان سنة (١٩٨هـ)، وكلاهما من رجال التهذيب.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وجاء فيه بدل قوله: والانفصال عن هذا. . .، قولُه: وهذان التعلُّقان فيهما احتمال ينفصل عنه كما ينفصل عن سائر الظواهر.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ أي: أقضيها وأُقدِّرها، والضميرُ عائدٌ على الرحمة لأنها أقربُ مذكورٍ، ويحتمل عندي أن يعود على «حسنة» في قوله: «واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة»، أي: فسأكتبُ الحسنة.

وقال ابنُ عباس ونوفٌ البكالي وقتادةُ وابنُ جُرَيْجٍ، والمعنى متقارِبٌ: لمَّا سمع إبليسُ: «ورحمتي وسعت كلَّ شيءٍ» تطاوَلَ لها إبليس، فلمَّا سمع: «فسأَكْتُبُها للَّذين يتَّقون ويُؤتون الزكاة» يئس وبقيت اليهود والنصارى، فلمَّا تمادت الصفةُ تبيَّن أن المراد أمةُ محمد ﷺ، ويئس النصارى واليهود من الآية[١].

وقال أهل التفسير: عَرَضَ الله هذه الخِلالَ على قوم موسى فلم يتحمَّلوها، ولمَّا انطلق وفدُ بني إسرائيل إلى الميقات قيل لهم: خُطَّتْ لكم الأرضُ مسجدًا وطهورًا إلا عند مرحاضٍ أو قبرٍ أو حمَّامٍ، وجُعلت السكينةُ في قلوبهم، فقالوا: لا نستطيع، فاجعل السكينةَ في التابوت، والصلاةَ في الكنيسة، ولا نقرأ التوراة إلَّا نظرًا، ولا نصلِّي إلا في الكنيسة، فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ من أمةِ محمد ﷺ[٢].

وقال نوفٌ البِكَالي: إنَّ موسى عليه السلام قال: يا رب، جعلتَ وفادتي لأمة محمد؟ قال نوف: فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم[٣].

ومعنى «يتقون»، قال ابنُ عباس وفرقةٌ: الشركَ. وقالت فرقةٌ: المعاصي[٤]. فَمَنْ قال: الشرك لا غير، خرج إلى قول المُرْجِئة، ويَرِدُ عليه من الآية شرطُ

---

(١) ينظر قولهم في تفسير الطبري ١٠/ ٤٨٣-٤٨٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٤، وزاد المسير ٣/ ٢٧٢، ولفظه من المحرر، وقوله: فلما تمادت الصفة، يعني به قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾.

(٢) أخرجه الطبري بنحوه ١٠/ ٤٨٩-٤٩٠ عن نوف البكالي، وقولهم: ولا نقرأ التوراة إلا نظراً، قالوه ردًّا على ما قيل لهم: وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم، كما جاء في الخبر.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٤٩٠.

(٤) أخرجهما الطبري ١٠/ ٤٨٧، والثاني فيه عن قتادة، وذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١ دون نسبة.

الأعمال بقوله: «ويؤتون الزكاة»، ومَن قال: المعاصي ولا بدَّ، خرج إلى قول المعتزلة، قال ابنُ عطية[١]: والصوابُ أنْ تكونَ اللفظةُ عامةً، ولكن لا نقول: لا بدَّ من اتِّقاء المعاصي، بل نقول: مُواقِعُ المعاصي في المشيئة، ومعنى «يتقون»: يجعلون بينهم وبين المتَّقَى حجابًا ووقايةً، فذكر تعالى الرتبةَ العاليةَ ليتسابَقَ السامعون إليها. انتهى.

و«يؤتون الزكاة» الظاهرُ أنها زكاةُ المال، وبه قال ابنُ عباس[٢]، ورُوي عنه: ويُؤتون الأعمال التي يزكُّون بها أنفسَهم[٣]. وقال الحسن: تزكيةُ الأعمال بالإخلاص[٤]. انتهى.

ولمَّا كانت التكاليف ترجعُ إلى قسمين: تُروكٍ وأفعالٍ، والأفعالُ قسمان: راجعةٌ إلى المال، وراجعةٌ إلى نفس الإنسان، وهذا قسمان: عِلْمٌ وعملٌ، فالعلمُ: المعرفةُ، والعملُ: إقرارٌ باللسان وعملٌ بالأركان، فأشار بالاتِّقاء إلى التروك؛ وبالفعل الراجع إلى المال بالزكاة، وأشار إلى ما بقي بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ وهذه شبيهةٌ بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ الآية [البقرة: ٢-٣].

وفَهِمَ المفسِّرون من قوله: «الذين يتَّقون» إلى آخر الأوصاف أنَّ المتَّصفين بذلك هم أمةُ الرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون من باب التغايُرِ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، فيكون قوله: «للَّذين يتَّقون ويُؤتون الزكاة» لمن فَعَلَ ذلك قبل بعثة الرسول، ويكون قوله: «والذين هم بآياتنا يؤمنون» مَن فَعَلَ ذلك بعد البعثة، وفسَّر الآيات هنا بأنها القرآن، وهو الكتابُ المُعْجِزُ.

❁ ❁ ❁

---

(١) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وما قبله منه.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٦٧، وقال: هذا قول الجمهور. اهـ. ولم أقف عليه عن ابن عباس.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٤٨٧-٤٨٨.

(٤) ينظر النكت والعيون ٢/ ٢٦٧.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ
وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ
ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ
وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ
ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ
خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ
يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ
قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟
عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ
سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ
يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

المفردات

التَّعْزير؛ قال يونسُ بنُ حَبيبٍ: التعزيرُ هو الثناءُ والمدحُ.

الانبجاس: العَرَق؛ قال أبو عمرو بن العلاء: انْبَجسَتْ: عَرِقَتْ، وانفجَرَتْ: سالت[(١)]. وقال الواحدي: الانبجاس: الانفجار، يقال: بَجَسَ وانبجس[(٢)].

الحوت معروف، يجمع في القلَّة على: أَحْواتٍ، وفي الكثرة على: حيتانٍ، وهو قياسٌ مطَّردٌ في فعلٍ واويِّ العين، نحو: عُودٍ وأعوادٍ وعِيدانٍ.

* * *

التفسير

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ هذا من بقية خطابه تعالى لموسى عليه السلام، وفيه تبشيرٌ ببعثةِ محمدٍ ﷺ، وذِكْرٌ لصفاته، وإعلامٌ له أيضًا أنه يُنْزِلُ كتابًا يسمَّى: الإنجيل.

ومعنى الاتِّباع: الاقتداء به فيما جاء به اعتقادًا وقولًا وفعلًا.

وجمع هنا بين الرسالة والنبوّة لأنَّ الرسالة في بني آدم[(٣)] أعظمُ شرفًا من النبوَّة، أو لأنها بالنسبة إلى الآدميِّ والمَلَكِ أعمُّ، فبُدئ به.

و«الأُمِّيُّ»: الذي هو على صفة أمة العرب «إنَّا أمةٌ أميةٌ لا نكتب ولا نحسب»[(٤)]، فأكثرُ العرب لا يَكْتُبُ ولا يقرأ؛ قاله الزجَّاج[(٥)]. وكونه أمِّيًّا من جملة المُعْجِزِ.

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٨٤، وتفسير البغوي ١/ ٧٧.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٤١٩، وتفسير الرازي ١٥/ ٣٣.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع): في بني إسرائيل.

(٤) أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) من حديث ابن عمر ﵄.

(٥) تفسير الرازي ١٥/ ٢٣، وعنه نقل المصنف، والذي في معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٨١، واللسان (أمم) نقلاً عنه: الأمي هو على خلقة الأمَّة لم يتعلَّم الكتاب، فهو على جِبِلَّته. ونقله عنه أبو الليث في تفسيره ١/ ٥٧٤ بلفظ: الأمي الذي هو على خلقةِ أمِّه لم يتعلَّم الكتابة. . .، فإن كان لفظ أبي الليث صحيحاً فهو مختلف عما نقله الرازي، يدل على ذلك أن السمين في الدر ٥/ ٤٧٨ ذكر في معنى «الأمي» الوجهين: أي: النسبة إلى أمة العرب، أو النسبة إلى الأم، كأن الذي لا يقرأ ولا يكتب على حالة ولادته من أمه. وينظر معاني

وقيل: نسبةً إلى أمِّ القُرى، وهي مكة[١].

ورُوي عن يعقوبَ وغيره أنه قرأ «الأَمِّي» بفتح الهمزة[٢]، وخرِّج على أنه من تغييرِ النَّسَب، والأصل الضمُّ، كما قيل في النَّسَب إلى أُمَيَّةَ: أَموي بالفتح، أو على أنه نَسَبَ إلى المصدر من «أمَّ»، ومعناه: المقصود، أي: لأنَّ هذا النبيَّ مَقْصِدٌ للناس وموضعُ أَمٍّ؛ وقال أبو الفضل الرازي: وذلك مكةُ، فهو منسوبٌ إليها، لكنها ذُكِّرت إرادةً للحَرَم أو الموضع.

ومعنى «يجدونه»، أي: يجدون وَصْفَه ونَعْتَه، قال التبريزي: في التوراة. أي: سأُقيم لهم نبيًّا من إخوتهم مِثْلَكَ، وأجعلُ كلامي في فيه، ويقول لهم كلَّ ما أوصيتُه. وفيها: وأمَّا النبيُّ فقد باركتُ عليه جدًّا جدًّا، وسأَدَّخِرُه لأمةٍ عظيمة. وفي الإنجيل: يعطيكم فارقليطًا آخَرَ يعطيكم معلِّمَ[٣] الدَّهر كلِّه. وقال المسيح: أنا أذهبُ وسيأتيكم الفارقليط، روحُ الحق الذي لا يتكلَّم من قِبَلِ نفسه، ويمدحُني ويشهدُ لي[٤].

ويحتمل أن يكون «يأمرهم بالمعروف» إلى آخره متعلِّقًا بـ«يجدونه»، فيكون في موضع الحال على سبيل التجوُّز، فيكون حالًا مقدَّرةً. ويحتمل أن يكون مِن وَصْفِ النبيِّ، كأنه قيل: الآمِرَ بالمعروف والناهيَ عن المنكر وكذا وكذا.

وقال أبو عليٍّ[٥]: «يأمُرُهم» تفسيرٌ لِمَا كُتب من ذكره، كقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن

= القرآن للزجاج ١/ ١٥٩ عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] وتهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٦ نقلاً عنه، وفيهما: معنى الأمي في اللغة: المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه، أي: لا يكتب، فهو في أنه لا يكتب على ما دل عليه.

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٧٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٢.

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ عن اليماني.

(٣) في (د٣): معكم، وجاء في النكت والعيون ٢/ ٢٦٨ (والكلام منه): فارقليطاً آخر يكون معكم.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٦٨، وينظر الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا ص٣٣٧-٣٣٨، وقد استخدمت فيه كلمة: المؤيد، ولكن أشير في الحاشية إلى أنها في الأصل اليوناني: البارا قليط.

(٥) في الإغفال ٢/ ٢٨٣-٢٨٤، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٦٣.

تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩][(١)] ولا يجوزُ أن يكونَ حالًا من الضمير في «يجدونه»؛ لأنَّ الضمير للذِّكْر والاسم، والاسمُ والذِّكْرُ لا يَأمران.

وقال ابن عباس وعطاء: «يأمرهم بالمعروف» أي: بخَلْع الأنداد، ومكارِمِ الأخلاق، وصلة الأرحام. وقال مقاتل: الإيمان. وقيل: الحق[(٢)].

وقال الزجَّاج: كلُّ ما عُرِفَ بالشرع[(٣)].

و«المنكر» قال ابن عباس: عبادةُ الأوثان وقطعُ الأرحام. وقال مقاتل: الشرك. وقيل: الباطل[(٤)].

وقيل: الفساد ومساوئ الأخلاق.

وقيل: القولُ في صفات الله بغير علمٍ، والكفرُ بما أنزل، وقطعُ الرَّحِم، والعقوق.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ تقدَّم ذِكْرُ الخلاف في «الطيبات» في قوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ [البقرة: ٥٧] أهي الحلال، أو المستلَذُّ؟ وكلاهما قيل هنا.

وقال الزمخشري[(٥)]: ما حُرِّمَ عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة واللحم[(٦)]، ممَّا ذُكِرَ اسمُ الله عليه من الذبائح وما خلا كَسْبُه من السُّحت. انتهى.

وقيل: ما كانت العرب تحرِّمه من البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

واستَبْعَد أبو عبد الله الرازي[(٧)] قولَ مَن قال: إنَّها المحلَّلاتُ، لتقديره: ويُحِلُّ

(١) في الإغفال والمحرر: «كما أن قوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ تفسير للمثل»، يعني: في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾. ينظر الدر المصون ٥/ ٤٨٠.
(٢) زاد المسير ٣/ ٢٧٢، وقول عطاء لم يذكره ابن الجوزي، وذكره الثعلبي ٣/ ٨٢.
(٣) لم أقف عليه.
(٤) زاد المسير ٣/ ٢٧٢.
(٥) في الكشاف ٢/ ١٢٢.
(٦) كذا في النسخ، وجاء في مطبوع الكشاف: والحكم، وهو الأشبه.
(٧) في تفسيره ١٥/ ٢٤.

لهم المحلَّلات، قال: وهذا محضُ التكذيب[١]، ولخروج الكلام عن الفائدة؛ لأنَّا لا ندري ما أُحِلَّ لنا وكم هو؟ قال: بل الواجبُ أن يراد: المُسْتَطابة بحسب الطبع؛ لأن تناوُلها يفيدُ اللذةَ، والأصلُ في المنافع الحِلُّ، فدلَّت الآيةُ على أنَّ كلَّ ما تستطيبُه النفسُ ويَسْتَلِذُّه الطبعُ حلالٌ إلَّا ما خرج بدليلٍ منفصل.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ «الخبائث»؛ قيل: المحرَّمات. وقيل: ما تستخْبِثُه العربُ كالعقرب والحية والحشرات. وقيل: الدمُ والمَيْتةُ ولحمُ الخنزير.

وعن ابن عباس: ما في سورة المائدة إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [الآية: ٣][٢].

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ طلحة: «ويُذْهِبُ عنهم إصرهم»[٣]، وتقدَّم تفسيرُ الإصر في آخر سورة البقرة، وفسَّره هنا قتادةُ وابنُ جُبيرٍ ومجاهدٌ والضَّحاكُ والحسن وغيرُهم بالثقل[٤].

وقرأ ابن عامر: «آصارهم» جمع إصرٍ[٥]، وقُرِئ: «أصرهم» بفتح الهمزة وبضمِّها[٦]. فَمَن جَمَعَ فباعْتبارِ متعلَّقات الإصر إذ هي كثيرةٌ، ومَن وحَّد فلأنه اسمُ جنسٍ.

و«الأغلال» مَثَلٌ لمَا كلِّفوا من الأمور الصعبة، كقَطْعِ موضع النجاسة من الجِلْد والثوب، وإحراقِ الغنائم، والقصاصِ حتمًا من القاتل عمدًا كان أو خطأً، وتركِ الاشتغال يومَ السبت، وتحريمِ العروق في اللحم.

---

(١) كذا في النسخ، والذي في تفسير الرازي: وهو محض التكرير، وهو الأشبه.
(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٢٤، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٤٩٣.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٣.
(٤) كذا ذكر، والصواب أن من فسره بالثقل هم قتادة وابن جبير ومجاهد، أما الضحاك والحسن وكذلك ابن عباس فقد فسروه بالعهد. ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٤٩٣-٤٩٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٣، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٥٦. والمقصود بالثقل التشديد الذي كان عليهم في دينهم، وما كلِّفوا به من الأمور الصعبة.
(٥) السبعة ص٢٩٥، والتيسير ص١١٣.
(٦) ذكرها مقيَّدةً بفتح الهمزة ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٦٤، وكذا ضبطت في القراءات الشاذة ص٤٦.

وعن عطاء: أنَّ بني إسرائيل كانوا إذا قاموا إلى الصلاة لبسوا المُسوح، وغلُّوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجلُ ترقُوَته وجَعَلَ فيها طرفَ السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبسُ نفسَه على العبادة[١].

ورُوي أنَّ موسى عليه السلام رأى يومَ السبت رجلًا يحملُ قَصَبًا فضربَ عنقه[٢].

وهذا المثلُ كما قالوا: جَعَلْتُ هذا طَوْقًا في عُنقك، وقالوا: طُوِّقَها طَوْقَ الحمامة[٣]. وقال الهُذَلي[٤]:

وليس كعهد الدار يا أمَّ مالكٍ ولكنْ أحاطت بالرقاب السَّلاسلُ
وصار الفتى كالكهل ليس بقابلٍ سوى العَدْلِ شيئًا واستراحَ العواذِلُ

وليس ثَمَّ سلاسلُ، وإنما أراد أنَّ الإسلام ألزمه أمورًا لم يكن ملتزِمًا لها قبل ذلك، وكما قال: «الإيمانُ قَيَّدَ الفتكَ»[٥].

وقال ابن زيد: «الأغلال» يريدُ في قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤] فَمَن آمَنَ زالت عنه الدعوةُ وتغليلُها[٦].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ و«عزّروه»: أَثْنوا عليه ومَدَحوه، قال الزمخشري: مَنَعوه حتى لا يَقْوَى عليه عدوٌّ[٧].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٢.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٢٩ من قول أبي مالك أو سعيد بن جبير.
(٣) يشير إلى بيت عبد الله بن جحش ﷺ من قصيدة يخاطب بها أبا سفيان، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٥٠٠، والبيت هو:
اذهب بها اذهب بها طُوِّقْتها طَوْقَ الحمامَهْ
(٤) هو أبو خراش، والبيتان في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤.
(٥) أخرجه أحمد (١٤٢٦) من حديث الزبير ﷺ، و(١٦٨٣٢) من حديث معاوية ﷺ. والفتك: أن يأتي الرجل صاحبه وهو غارٌّ غافل، فيشد عليه فيقتله. النهاية (فتك).
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٤٩٦-٤٩٧.
(٧) الكشاف ٢/ ١٢٢.

وقرأ الجحدريُّ وقتادةُ وسليمان التيميُّ وعيسى بالتخفيف(١). وقرأ جعفر بن محمد: «وعزَّزوه» بزايين(٢).

و«النور»: القرآن؛ قاله قتادة.

وقال ابن عطية: هو كنايةٌ عن جملة الشرع(٣).

قيل: و«مع» بمعنى: عليه، أي: الذي أُنزل عليه.

وقيل: هو على حذفِ مضافٍ، أي: أُنزل مع نبوَّته؛ لأنَّ استنباءه كان مصحوبًا بالقرآن مشفوعًا به.

وعلى هذين القولين يكون العاملُ في الظرف «أنزل».

ويجوز عندي أن يكون «معه» ظرفًا في موضع الحال، فالعاملُ فيه محذوفٌ تقديره: أُنزل كائنًا معه، وهي حالٌ مقدَّرة، كقولهم: مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائدًا به غدًا، فحالةَ الإنزال لم يكن معه لكنه صار معه بعدُ، كما أن الصيد لم يكن(٤) وقتَ المرور.

وقال الزمخشري: ويجوز أن يعلَّق بـ«اتبعوا»، أي: واتَّبعوا القرآنَ المنزلَ مع اتِّباع النبيِّ ﷺ والعملِ بسنَّته وبما أمر به ونهى، أو: واتَّبعوا القرآنَ كما اتَّبعه مُصاحِبِينَ له في اتِّباعه(٥).

وفي قوله: «فالذين آمنوا به» إلى آخره، إشارةٌ إلى مَن آمَنَ من أعقاب(٦) بني إسرائيلَ بالرسول، كعبد الله بن سَلَام وغيرِه من أهل الكتابَيْن.

(١) القراءات الشاذة ص٤٦، والمحتسب ١/ ٢٦١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤، والكلام منه.
(٢) لم أقف عليها، وهي مروية عند قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] فقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٩ عن محمد بن السميفع اليماني وابن عباس أنهما قرآ: «وتعزِّزوه».
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤.
(٤) في (د٣): لم يكن معه.
(٥) المصدر السابق.
(٦) في (د١) والمطبوع: أعيان، وهو تصحيف، وسقطت من (ب) و(د٣) و(يه)، والمثبت من (أ) و(ز١) و(ع).

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ لمَّا ذَكَر تعالى لموسى عليه السلام صفةَ محمدٍ ﷺ، وأخبر أنَّ مَن أدركه وآمَنَ به أَفْلَحَ، أمر تعالى نبيَّه بإشهارِ دعوته ورسالتِه إلى الناس كافةً، والدعاءِ إلى الإيمان بالله ورسوله وكلماته واتِّباعِه.

ودعوةُ رسول الله ﷺ عامةٌ للإنس والجنِّ؛ قاله الحسن[(١)]، وتقتضيه الأحاديثُ[(٢)].

و«الذي» في موضع نصبٍ على المدح أو رفعٍ، وأجاز الزمخشري أن يكون مجرورًا صفةً لـ«الله»، قال: وإنْ حِيلَ بين الصفة والموصوف بقوله: «إليكم»[(٣)].

وقال أبو البقاء: ويَبْعُدُ أن يكون صفة لـ«الله» أو بدلًا منه لما فيه من الفصل بينهما بـ«إليكم» وبالحال[(٤)].

و«إليكم» متعلقٌ بـ«رسول»، و«جميعًا» حالٌ من ضمير «إليكم».

وهذا الوصفُ يقتضي الإذعانَ والانقيادَ لمن أرسله إذ له المُلْكُ، فهو المتصرِّفُ بما يريد، وفي حصر الإلهية له نفيُ الشركة لأنَّ مَن كان له ملكُ هذا العالَم لا يمكن أن يَشْرَكَه أحدٌ، فهو المختصُّ بالألوهية. وذكَر الإحياءَ والإماتةَ إذ هما وصفان لا يقْدِرُ عليهما إلَّا الله، وهما إشارةٌ إلى الإيجاد لكلِّ شيءٍ يريده والإعدام.

والأحسنُ أن تكون هذه جملًا مستقلةً من حيث الإعرابُ، وإن كانت متعلِّقًا بعضُها ببعضٍ من حيث المعنى.

وقال الزمخشري: «لا إله إلا هو» بدلٌ من الصلة التي هي «له ملك السماوات والأرض»، وكذلك «يحيي ويميت»، وفي «لا إله إلا هو» بيانٌ للجملة قبلها؛ لأنَّ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤.

(٢) ينظر حديث جابر رضي الله عنه عند البخاري (٣٣٥)، وفيه: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي...»، فذكر منها: «وبعثت إلى الناس عامة»، وأخرجه مسلم (٥٢١) بلفظ: «وبعثت إلى كلِّ أحمر وأسود»، وأخرج مسلم أيضاً (٥٢٣) من حديث أبي هريرة: «فضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ... وأرسلت إلى الخلق كافة...».

(٣) الكشاف ٢/ ١٢٣.

(٤) الإملاء ١/ ٢٨٧.

مَن مَلَكَ العالَمَ كان هو الإلهَ على الحقيقة، وفي «يحيي ويميت» بيانٌ لاختصاصه بالإلهية لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيرُه[١]. انتهى.

وإبدالُ الجمل من الجمل غيرِ المشتركة في عاملٍ لا نعرفُه.

وقال الحَوْفي: «يُحيي ويميت» في موضع الخبر؛ لأنَّ «لا إله» في موضع رفعٍ بالابتداء، و«إلا هو» بدلٌ على الموضع، قال: والجملةُ أيضًا في موضع الحال من اسم الله تعالى. انتهى، يعني: من ضمير اسم الله، وهذا إعرابٌ متكلف.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ لمَّا ذكر أنه رسولُ الله أمرهم بالإيمان بالله وبه، وعَدَلَ عن ضمير المتكلِّم إلى الظاهر ـ وهو الالتفاتُ ـ لمَا في ذلك من البلاغة بأنه هو النبيُّ السابقُ ذِكْرُه في قوله: «الذين يتَّبعون الرسول النبيَّ الأميَّ» وأنه هو المأمورُ باتِّباعه الموجودُ بالأوصاف السابقة.

والظاهر أنَّ «كلماته» هي الكتبُ الإلهية التي أُنزلت على مَن تَقَدَّمه وعليه، ولمَّا كان الإيمانُ بالله هو الأصلَ يتفرَّعُ عنه الإيمان بالرسول والنبيِّ بدأ به، ثم أتبعه بالإيمان بالرسول، ثم أتبع بالإشارة إلى المُعْجِزِ الدَّالِّ على نبوَّته، وهو كونُه أميًّا وظَهَرَ عنه من المعجزات في ذاته ما ظَهر من القرآن الجامعِ لعلوم الأوَّلين والآخِرين، مع نشأته في بلدٍ عارٍ من أهل العلم، لم يقرأ كتابًا ولم يخطَّ، ولم يصحب عالمًا، ولا غاب عن مكة غيبةً تقتضي تعلُّمًا.

وقيل: «وكلماته»: المعجزاتُ التي ظهرت من خارج ذاته، مثلَ انشقاق القمر[٢]، ونَبْعِ الماء من بين أصابعه[٣]، وهي تسمَّى بكلمات الله لمَّا كانت أمورًا خارقةً غريبةً، كما سمِّي عيسى عليه السلام ـ لمَّا كان حدوثُه أمرًا غريبًا خارقًا ـ كلمةً.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٣٦) و(٣٦٣٧) و(٣٦٣٨)، ومسلم (٢٨٠٠) و(٢٨٠٢) و(٢٨٠٣) من حديث ابن مسعود وأنس وابن عباس ﵃.

(٣) أخرجه البخاري (١٦٦)، ومسلم (٢٢٧٩) من حديث أنس ﵁، وأخرجه البخاري (٣٥٧٦) من حديث جابر ﵁.

وقرأ مجاهد وعيسى: «وكلمته»[١]، وحَّد وأراد به الجمعَ، نحو: «أصدقُ كلمةٍ قالتها العربُ قولُ لبيد»[٢]، وقد يقولون للقصيدة: كلمةٌ، وكلمة فلان.

وقال مجاهدٌ والسُّدِّي: المرادُ بـ«كلماته» و«كلمته»، أي: بعيسى[٣]، لقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

وقيل: كلمة «كن» التي تكوَّن بها عيسى وسائرُ الموجودات.

وقرأ الأعمش: «الذي يؤمن بالله وآياته» بدل «كلماته»[٤].

ولـمَّا أُمِروا بالإيمان بالله ورسوله ـ وذلك هو الاعتقادُ ـ أُمروا بالاتِّباع له فيما جاء به، وهو لفظٌ يدخل تحته جميعُ التزاماتِ الشريعةِ، وعلَّق رجاءُ الهداية باتِّباعه.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ لـمَّا أَمَر بالإيمان بالله ورسوله، وأَمَر باتِّباعه، ذَكَر أنَّ مِن قوم موسى مَن وفِّق للهداية وعَدَلَ ولم يَجُرْ، ولا تكونُ له هدايةٌ إلَّا باتِّباعِ شريعة موسى قبل مَبْعَثِ رسول الله ﷺ، وباتِّباع شريعة رسولِ الله بعد مَبْعَثِه، فهذا إخبارٌ عمَّن كان من قوم موسى بهذه الأوصاف، فكأنَّ المعنى: إنَّهم كلَّهم لم يكونوا ضُلَّالاً بل كان منهم مهتدون.

قال السائب[٥]: هم قومٌ من أهل الكتاب آمنوا بنبيِّنا ﷺ، كعبد الله بن سلام وأصحابه.

وقال قوم: هم أمةٌ من بني إسرائيلَ تمسَّكوا بشرع موسى قبل نَسْخِه، ولم يبدِّلوا ولم يقتلوا الأنبياء.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥.
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، ولفظه: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٥٠٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤، وعنه نقل المصنف.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥.
(٥) كذا في النسخ، ولعل الصواب: ابن السائب، فقد ذكر نحو هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٧٠ عن الكلبي محمد بن السائب.

وقال الزمخشري: هم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل، لمَّا ذَكَرَ الذين تزلزلوا منهم ذَكَر أمةً مؤمنين تائبين يَهْدُون الناسَ بكلمة الحق، ويَدلُّونهم على الاستقامة، ويُرْشِدونهم، وبالحقِّ يَعْدِلون بينهم في الحُكم ولا يَجُورون، أو أراد الذين وصفهم ممَّن أدرك النبيَّ ﷺ وآمَنَ به من أعقابهم[١]. انتهى.

وقال ابن عطية: يحتملُ أن يريد به الجماعةَ التي آمنت بمحمدٍ ﷺ على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم، ويحتمل أن يريد به وصفَ المؤمنين التائبين من بني إسرائيل، ومَن اهْتَدَى واتَّقَى وعَدَلَ[٢]. انتهى.

وما رُوي عن ابن عباس والسدِّي وابن جُرَيج أنهم قومٌ اغْتَربوا من بني إسرائيل، ودخلوا سَرَبًا مشوا فيه سنةً ونصفًا تحتَ الأرض، حتى خرجوا وراء الصين، فهم هناك يقيمون الشرعَ[٣]، في حكايات طويلة ذكرها الزمخشريُّ[٤] وصاحبُ «التحرير والتحبير» يوقَفُ عليها هناك = لعلَّه لا يصحُّ.

وفي قوله: «ومن قوم موسى» إشارةٌ إلى التقليل، وأنَّ معظمهم لا يَهْدي بالحق ولا يَعْدِلُ به، وهم إلى الآن كذلك، دخل في الإسلام من النصارى عالَمٌ لا يَعْلَم عددَهم إلا اللهُ تعالى، وأمَّا اليهود فقليلٌ مَن آمَنَ منهم.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ أي: وقطَّعنا قومَ موسى، ومعناه: فرَّقناهم وميَّزناهم، وفي ذلك رجوعُ أمرِ كلِّ سبطٍ إلى رئيسه؛ ليَخِفَّ أمرُهم على موسى، ولئلَّا يتحاسدوا فيقعَ الهَرْجُ، ولهذا فجَّرَ لهم اثنتي عشرةَ عينًا لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء، ولهذا جَعَلَ لكلِّ سبطٍ نقيبًا ليرجع بأمرهم إليه، وتقدَّم تفسير الأسباط.

قرأ أبانُ بنُ تغلبَ عن عاصم بتخفيف الطاء، وابنُ وثابٍ والأعمشُ وطلحةُ بن سليمان: «عَشِرَةَ» بكسر الشين، وعنهم الفتحُ أيضًا، وأبو حَيْوَةَ وطلحةُ بنُ مصرِّفٍ

(١) الكشاف ٢/ ١٢٣.

(٢) الكلام بنحوه مع تقديم وتأخير في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥، أخرجه الطبري ١٠/ ٥٠١-٥٠٢ عن ابن جريج، وقد روى ابن جريج بعضَه عن ابن عباس، فهو منقطع، وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أنه خبر عجيب.

(٤) في الكشاف ٢/ ١٢٣-١٢٤.

بالكسر وهي لغة تميم[١]، والجمهورُ بالإسكان وهي لغة الحجاز.

و«اثنتي عشرة» حالٌ، وأجاز أبو البقاء أن يكون «قطَّعنا» بمعنى: صيَّرنا، وأن ينتصِبَ «اثنتي عشرة» على أنه مفعول ثانٍ لـ«قطعنا»[٢]، ولم يَعُدَّ النحويُّون «قطَّعنا» في باب ظننتُ، وجزم به الحَوفي فقال: «اثنتي عشرة» مفعولٌ لـ«قطَّعناهم»، أي: جعلنا اثنتي عشرة.

وتمييز «اثنتي عشرة» محذوفٌ لفَهْم المعنى، تقديره: اثنتي عشرةَ فرقةً، و«أسباطًا» بدلٌ من «اثنتي عشرة»، و«أُمَمًا» قال أبو البقاء: نعت لـ«أسباطًا» أو بدلٌ بعد بدلٍ، ولا يجوزُ أن يكون «أسباطًا» تمييزًا؛ لأنه جمعٌ[٣]، وتميزُ هذا النوعِ لا يكون إلَّا مفردًا.

وذهب الزمخشريُّ إلى أن «أسباطًا» تمييزٌ، قال: فإن قلتَ: مميِّزُ ما عدا العشرة مفردٌ، فما وجهُ مجيئه مجموعًا، وهلا قيل: اثنتي عشر سبطًا؟ قلت: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقًا؛ لأنَّ المراد: وقطَّعناهم اثنتي عشرةَ قبيلةً، وكلُّ قبيلةٍ أسباطٌ لا سِبْطٌ، فوَضَعَ «أسباطًا» موضعَ قبيلة، ونظيرُه:

بيـن رمـاحَـيْ مـالـكٍ ونَـهْـشَـلِ[٤]

و«أممًا» بدلٌ من «اثنتي عشرة» بمعنى: وقطعناهم أُممًا؛ لأنَّ كلَّ أسباطٍ كانت أمةً عظيمةً وجماعةً كثيفةَ العدد، وكلُّ واحدةٍ تَؤُمُّ خلافَ ما تَؤُمُّه الأخرى لا تكادُ تأتلِفُ[٥]. انتهى.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥، والقراءة بتخفيف الطاء ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ عن أبي حيوة.
(٢) الإملاء ١/ ٢٨٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص١٧٥-١٧٦، والأغاني ١٠/ ١٥١، وقبله: تَبَقَّلَتْ من أول التَّبَقُّل، ومعنى تبقَّلت: رعت البقل. يفتخر بأن الموضع الذي جاءت بنو عجل ترعى فيه إبلها، كان الجميع قد تحاموا الرعي فيه بسبب ما جرى بين بني مالك ونهشل من الحروب، أما قومه فلعزِّهم رعوا ذلك الموضع ولم يخافوا هذين الحيين، ذكره صاحب الأغاني.
(٥) الكشاف ٢/ ١٢٤.

وما ذهب إليه من أنَّ كلَّ قبيلةٍ أسباطٌ خلافُ ما ذكر الناسُ، ذكروا أنَّ الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وقالوا: الأسباط جمعُ سبطٍ وهم الفِرَقُ، والأسباطُ من ولد إسحاق بمنزلةِ القبائل من ولد إسماعيل، ويكون على زَعْمِه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] معناه: والقبيلة.

وقولُه: ونظيره:

بـيـن رمـاحَـيْ مـالـكٍ ونَـهْـشَـلِ

ليس نظيرَه؛ لأن هذا من تثنية الجمع، وهو لا يَجوزُ إلا في الضرورة، وكأنه يشير إلى أنه لو لم يُلْحَظْ في الجمع كونُه أريدَ به نوعٌ من الرماح لم يصحَّ تثنيتُه، كذلك هنا لُحظ بالأسباط وإن كان جمعًا معنى القبيلةِ، فمُيِّزَ به كما يميَّزُ بالمفرد.

وقال الحَوْفي: يجوز أن يكون على الحذف، والتقدير: اثنتي عشرةَ فرقةً، ويكون «أسباطًا» نعتًا لـ«فرقة»، ثم حُذف الموصوفُ وأُقيمت الصفةُ مقامه، و«أممًا» نعتٌ لـ«أسباط»، وأنَّث العددُ وهو واقعٌ على الأسباط ـ وهو مذكَّر ـ لأنه بمعنى فِرقةٍ أو أُمَّة، كما قال:

ثـلاثـةُ أنـفـسٍ ....(١)

يعني رجالًا، و:

.... عَـشْـرُ أَبْـطُـنٍ(٢)

بالنظر إلى القبيلة. انتهى.

---

(١) قطعة من بيت للحطيئة، كما في الكتاب ٣/ ٥٦٥، والخصائص ٢/ ٤١٢، والإنصاف ٢/ ٧٧١، والخزانة ٧/ ٣٦٧، وتمامه:

ثـلاثـة أنـفـسٍ وثـلاث ذودٍ   لـقـد جـار الـزمـان عـلـى عـيـالـي

(٢) قطعة من بيت ورد دون نسبة في الجمل للخليل ص٢٧١، والكتاب ٣/ ٥٦٥، والمقتضب ٢/ ١٤٨، والأصول في النحو ٣/ ٤٧٧، والخصائص ٢/ ٤١٧، والإنصاف ٢/ ٧٦٩، وقال العيني في المقاصد ٤/ ٤٨٤: قائله رجل من بني كلاب يسمى النواح. وتمامه:

وإن كـلابًـا هـذه عـشـرُ أبـطُـنٍ   وأنـت بـريءٌ مـن قـبـائـلـهـا الـعـشـر

ونظيرُ وصف التمييز المفرَدِ بالجمع مراعاةً للمعنى قولُ الشاعر:

فيها اثنتان وأربعون حلوبةً   سودًا كخافيةِ الغراب الأسْحَمِ[١]

ولم يقل: سوداء.

وقيل: جَعَلَ كلَّ واحدةٍ من اثنتي عشرة أسباطًا، كما تقول: لزيدٍ دراهمُ ولفلانٍ دراهمُ ولعمرٍو دراهم، فهذه عشرون دراهم.

وقيل: التقدير: وقطَّعناهم فرقًا اثنتي عشرةَ، فلا يحتاج إلى تمييز.

وقال البغوي[٢]: في الكلام تأخيرٌ وتقديمٌ، تقديره: وقطَّعناهم أسباطًا أممًا اثنتي عشرةَ.

وهذه كلُّها تقاديرُ متكلَّفةٌ، والأجْرَى على قواعد العربية القولُ الذي بَدَأنا به.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الجُمل في «البقرة»[٣]. و«انبجست» إن كان معناه ما قال أبو عمرو بن العلاء[٤]؛ فقيل: كان يَظْهَرُ على كلِّ موضعٍ من الحجر يَضْرِبُه موسى مِثْلُ ثدي المرأة فيَعْرقُ أوَّلًا ثم يسيل، وإن كان مُرادِفًا لـ«انفجرت» فلا فرق.

وقال الزمخشري[٥] هنا: الأُناسُ اسمُ جمعٍ غير تكسير، نحو: رُخَالٍ وثُناءٍ وتُؤام[٦]، وأخواتٍ لها، ويجوزُ أن يقال: إنَّ الأصلَ الكسرُ والتكسيرُ، والضمةُ

---

(١) البيت لعنترة، وهو في ديوانه ص١٧.

(٢) في التفسير ٢/ ٢٠٧، وسبقه إليه الثعلبي ٣/ ٨٤.

(٣) الآية (٥٧) والآية (٦٠).

(٤) سلف عند شرح المفردات.

(٥) في الكشاف ٢/ ١٢٤.

(٦) تؤام واحده، توأم، وهو المولود مع أخيه، ورُخال واحده: رِخل أو رخلة، وهي أنثى ولد الضأن. حاشية الشهاب على البيضاوي ١/ ٣٠٢. أما ثُناء فهي جمع ثِنْي، للشاة تلد في =

بدلٌ من الكسر، كما أبدلت في نحو: سُكارى وغُيَارى من الفتحة. انتهى.

ولا يجوز ما قال لوجهين:

أحدهما: أنه لم يُنطق بـ: إناس بكسر الهمزة فيكونَ جمعَ تكسيرٍ حتى تكونَ الضمةُ بدلًا من الكسرة، بخلافِ سُكارى وغُيارى فإن القياسَ فيه: فَعالى، بفتح فاء الكلمة، وهو مسموعٌ فيها.

والثاني: أن سُكارى وغُيارى وعُجالى ـ وما ورد من نحوها ـ ليست الضمةُ فيه بدلًا من الفتحة، بل نصَّ سيبويه في «كتابه» على أنه جمعُ تكسيرٍ أصْلٌ، كما أن فَعَالى جمعُ تكسيرٍ أصلٌ، وإن كان لا ينقاسُ الضمُّ كما ينقاسُ الفتح، قال سيبويه في حدِّ تكسير الصفات: وقد يكسِّرون بعضَ هذا على فُعالى، وذلك قولُ بعضهم: سُكارى وعُجالى[1].

وقال سيبويه في الأبنية أيضًا: ويكون فُعَالَى في الاسم، نحو: حُبَارَى وسُمَانَى ولُبَادَى، ولا يكون وصفًا إلا أن يكسَّرَ عليه الواحدُ للجمع، نحو: عُجَالَى وسُكارى وكُسالى[2].

فهذان نصَّان من سيبويه على أنه جمعُ تكسيرٍ، وإذا كان جمعَ تكسيرٍ أصلًا لم يَسُغْ أن يُدَّعَى أنَّ أصله فَعالى، وأنه أُبدلت الحركةُ فيه.

وذهب المبرِّد إلى أنه اسمُ جمع ـ أعني فُعالى بضم الفاء ـ وليس بجمع تكسيرٍ، فالزمخشريُّ لم يذهب إلى ما ذهب إليه سيبويه ولا إلى ما ذهب إليه المبرِّد؛ لأنَّه عند المبرِّد اسمُ جمعٍ، فالضمةُ في فائه أصلٌ ليست بدلًا من الفتحة، بل أَحْدَثَ قولًا ثالثًا.

وقرأ عيسى الهَمْداني: «من طيبات ما رزقتُكم» موحَّدًا للضمير[3].

= السنة مرتين. وتحرفت في مطبوع الكشاف إلى: تناء، بالتاء. ينظر اللسان (عرق)، والمزهر للسيوطي ٢/ ٧٢.

(١) الكتاب ٣/ ٦٤٥.

(٢) الكتاب ٤/ ٢٥٤.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٦.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ تقدَّمت هذه القصةُ وتفسيرُها في البقرة، وكأنَّ هذه مختصرةٌ من تلك، إذ هناك[١]: «وإذ قلنا ادخلوا» وهنا: «وإذ قيل لهم اسكنوا»، وهناك: «رغدًا» وسقط هنا، وهناك: «وسنزيد»، وهنا «سنزيد»، وهناك: «فأنزلنا على الذين ظلموا» وهنا: «فأرسلنا عليهم».

وبينهما تغايُرٌ في بعض الألفاظ لا تناقُضَ فيه، فقوله: «وإذ قيل لهم» وهناك: «وإذ قلنا»، فهنا حُذِفَ الفاعلُ للعلم به وهو الله تعالى، وهناك: «ادخلوا» وهنا: «اسكنوا»، والسُّكنى ضرورةٌ تتعقَّبُ الدخولَ، فأُمروا هناك بمبدأ الشيءِ وهنا بما تسبَّبَ عن الدخول.

وهناك: «فكلوا» بالفاء وهنا بالواو، فجاءت الواوُ على أحد محتملاتها من كون ما بعدها وقع بعد ما قبلها.

وقيل: الدخول حالةٌ مُنْقَضِيةٌ فحَسُنَ ذكرُ فاء التعقيب بعده، والسُّكنى حالةٌ مستمرةٌ فحَسُنَ الأمرُ بالأكل معه لا عقيبه، فحسُنَتِ الواوُ الجامعةُ للأمرين في الزمن الواحد وهو أحدُ محاملها، ويزعم بعضُ النحويين أنه أولى محامِلِها وأكثر.

وقيل: ثبت «رغدًا» بعد الأمر بالدخول لأنها حالةُ قدومٍ فالأكلُ فيها ألذُّ وأتمُّ، وهم إليه أحوجُ، بخلافِ السُّكنى فإنها حالةُ استقرارٍ واطمئنانٍ، فليس الأكل فيها ألذَّ، ولا هم إليه أحوجَ.

وأمَّا التقديم والتأخير في «وقولوا» «وادخلوا»، فقال الزمخشريّ: سواءٌ قدَّموا الحِطَّةَ على دخول الباب وأخَّروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما[٢]. انتهى.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع): إلا أن هناك، بدل: إذ هناك.
(٢) الكشاف ٢/ ١٢٥، وفيه: أو أخَّروها.

وقولُه: سواءٌ قدَّموا.. وأخَّروها، تركيبٌ غيرُ عربيٍّ، وإصلاحُه: سواءٌ أقدَّموا أم أخَّروها(١)، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١].

ويمكن أن يقال: ناسَبَ تقديمُ الأمر بدخول الباب سجَّدًا وتركيب «ادْخُلوا هذه القريةَ» لأنه فِعْلٌ دالٌّ على الخضوع والذِّلة، و«حطَّة» قولٌ والفعلُ أقوى في إظهار الخضوع من القول، فناسَبَ أن يُذْكَر مع مبدأ الشيء وهو الدخول، ولأنَّ قبله: «ادخلوا» فناسَبَ الأمرُ بالدخول للقرية الأمرَ بدخول بابها على هيئة الخضوع، ولأنَّ دخولَ القرية لا يمكنُ إلَّا بدخول بابها، فصار بابُ القرية كأنه بدلٌ من القرية أُعيد معه العاملُ، بخلافِ الأمر بالسُّكنى.

وأمَّا «سنزيد» هنا فقال الزمخشري: مَوْعِدٌ بشيئين بالغفران والزيادة، وطرحُ الواوِ لا يُخِلُّ بذلك؛ لأنه استئنافٌ مرتَّبٌ على تقديرِ القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: «سنزيد المحسنين»، وزيادةُ «منهم» بيانٌ، و«أرسلنا» و«أنزلنا» و«يظلمون» و«يفسقون»، من وادٍ واحد(٢).

وقرأ الحسن: «حِطَّةً» بالنصب على المصدر(٣)، أي: حُطَّ ذنوبَنا حِطَّةً، ويجوز أن ينتصب بـ«قولوا» على حذفٍ، التقدير: وقولوا قولًا حِطَّةً، أي: ذا حِطَّةٍ، فحذف «ذا» وصار «حطة» وصفًا للمصدر المحذوفِ، كما تقول: قلت حَسَنًا، وقلت حقًّا، أي: قولًا حسنًا، و: قولًا حقًّا.

وقرأ الكوفيون وابنُ كثير والحسن والأعمش: «نَغْفِرْ» بالنون «لكم خطيئاتكم» جمع سلامة، إلَّا أنَّ الحسن خفَّف الهمزةَ وأَدْغَم الياءَ فيها.

وقرأ أبو عمرو: «نَغْفِرْ» بالنون «لكم خطاياكم» على وزن قضاياكم.

وقرأ نافعٌ ومحبوبٌ عن أبي عمرو: «تُغْفَرْ» بالتاء مبنيًّا للمفعول «لكم خَطِيْئاتُكم» جمع سلامة.

---

(١) يعني أن الزمخشري أتى بلفظ «سواء» مع «أو» دون «أم»، ولم يأت بهمزة التسوية بعد «سواء»، لكن ذكر السمين في الدر ٥/ ٤٩٠ أن ذلك جائز، وإن كان الكثير ما ذكره المصنف، وقال السمين: والردُّ بمثْلِ هذا غيرُ طائلٍ.

(٢) الكشاف ٢/ ١٢٥.

(٣) المحتسب ١/ ٢٦٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٢٦٦.

وقرأ ابنُ عامر «تُغْفَرْ» بتاءٍ مضمومةٍ مبنيًّا للمفعول «لكم خَطِيْئَتُكم» على التوحيد مهموزًا(١).

وقرأ ابنُ هُرْمُز: «تُغْفَرْ» بتاءٍ كنافعٍ «خطاياكم» كأبي عمرو، وعنه: «يُغْفَرْ» بياء مضمومة، ورُويت عن عاصم، ورُوي عن ابن هُرْمُز: «تَغْفِرْ»(٢) بتاءٍ مفتوحةٍ على معنى أنَّ الحطة، تَغْفِرُ إذ هي سببُ الغفران.

قال ابن عطية: وبَدَّلَ: غيَّر اللفظَ دون أن يذهب بجميعه، وأبدل: إذا ذهب به وجاء بلفظ آخر(٣). انتهى.

وهذه التفرقةُ ليست بشيءٍ، وقد جاء في القرآن بَدَّلَ وأَبْدَلَ بمعنًى واحدٍ؛ قُرئ: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١]، ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا﴾ [التحريم: ٥]، ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ [القلم: ٣٢] بالتخفيف والتشديد(٤)، والمعنى واحدٌ، وهو إذهابُ الشيءِ والإتيانُ بغيره بدلًا منه.

ثم التشديدُ قد جاء حيث يذهبُ الشيء كلُّه، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠]، ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥] وعلى هذا كلامُ العرب نثرُها ونَظْمُها.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ الضمير في «واسألهم» عائدٌ على مَن بحضرة الرسول ﷺ من اليهود، وذُكِرَ أنَّ بعض اليهود المعارِضينَ للرسول ﷺ قالوا له: لم يكن مِن بني إسرائيلَ عصيانٌ ولا معانَدةٌ لمَا أُمروا به. فنزلت هذه الآيةُ موبِّخة لهم(٥)، ومقرِّرةً

---

(١) ذكر هذه القراءات ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧، وقراءةُ مَن ذُكِرَ من السبعة في السبعة ص٢٩٥-٢٩٦، والتيسير ص١١٤.

(٢) من قوله: بتاء كنافع، إلى هنا ساقط من (د١) والمطبوع، وهذه القراءة الأخيرة ذكرها ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٦٧.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٢٦٧.

(٤) قرأ في هذه المواضع بالتشديد من السبعة نافع وأبو عمرو، والباقون بالتخفيف. وسيرد كلٌّ في موضعه.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧.

كذبَهم، ومُعْلِمةً ما جرى على أسلافهم من الإهلاك والمسخ، وكانت اليهود تكتُم هذه القصةَ، فهي ممَّا لا يُعْلَم إلا بكتابٍ أو وحي، فإذا أَعْلَمهم بها مَن لم يقرأ كتابهم عُلِم أنه من جهة الوحي(١).

وقوله: «عن القرية» فيه حذفٌ، أي: عن أهل القرية، والقريةُ: أَيْلةُ، قاله ابنُ مسعود، وأبو صالح عن ابن عباس، والحسن وابن جبير وقتادة والسدي وعكرمة وعبد الله بن كثير والثوري(٢).

أو: مَدْيَنُ، رواه عكرمةُ عن ابن عباس. أو: ساحل مدينَ، ورُوي عن قتادة(٣)، وقال: هي مَقْنا، بالقاف ساكنةً(٤).

وقال ابن زيد: هي مقناة ساحل مدين، ويقال لها: معَنَّى بالعين مفتوحةً ونونٍ مشدَّدة(٥).

أو: طبرية، قاله الزهري(٦).

أو: أريحا. أو: بيتُ المقدس، وهو بعيدٌ لقوله: «حاضرةَ البحر». أو: قرية بالشام لم تسمَّ بعينها، ورُوي عن الحسن.

ومعنى «حاضرة البحر»: بقُرْب البحر مَبْنيةٌ بشاطئه، ويحتمل أن يريد معنى الحضارة(٧) على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرةُ في قرى البحر، فالتقدير: حاضرةَ قرى البحر، أي: يَحْضُرُ أهلُ قرى البحر إليها لبيعهم وشرائهم وحاجتهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٥.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧، وزاد المسير ٣/ ٢٧٦، وأخرجه الطبري ١٠/ ٥٠٧ من طريق عكرمة، ومن طريق علي بن أبي طلحة، كلاهما يرويه عن ابن عباس، وأخرجه أيضاً عن السدي وعبد الله بن كثير ومجاهد.
(٣) أخرج القولين الطبري ١٠/ ٥٠٨ و٥٠٩، والكلام من زاد المسير ٣/ ٢٧٦.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧، ووقع في مطبوعه: ... مغنى بالغَيْنِ مفتوحة...، وأخرج الطبري ١٠/ ٥٠٨، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٩٧-١٥٩٨ عن ابن زيد قال: هي قرية يقال لها: مَقْنا، بين مدين وعَيْنُونَى.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٩٧.
(٧) تحرفت في المطبوع إلى: الحاضرة.

«إذ يَعْدُون في السبت» أي: يُجاوِزُون أمرَ الله في العمل يومَ السبت، وقد تقدَّم منه تعالى النهيُ عن العمل فيه والاشتغالِ بصيدٍ أو غيرِه، إلا أنه في هذه النازلة كان عصيانُهم.

وقرئ: «يُعِدُّون» من الإعداد، وكانوا يُعِدُّون آلاتِ الصيد يومَ السبت، وهم مأمورون بأنْ لا يشتغلوا فيه بغير العبادة[١].

وقرأ شَهْرُ بن حَوْشَبٍ وأبو نَهِيكٍ «يَعَدُّون» بفتح العين وتشديدِ الدال، وأصله: يَعْتَدون، فأُدغمت التاء في الدال[٢]، كقراءة مَن قرأ: «لا تَعَدُّوا في السبت»[٣].

و«إذ» ظرف، والعاملُ فيه؛ قال الحوفي: «إذ» متعلِّقةٌ بـ«سَلْهم». انتهى.

ولا يتصوَّر؛ لأن «إذ» ظرفٌ لما مضى و«سلهم» مستقبلٌ، ولو كان ظرفًا مستقبَلًا لم يصحَّ المعنى؛ لأن العادِين وهم أهلُ القرية مفقودون، فلا يمكن سؤالهم، والمسؤولُ غيرُ أهل القرية العادِينَ.

وقال الزمخشري: «إذ يَعْدُون» بدلٌ من «القرية»، والمرادُ بالقرية أهلُها، كأنه قيل: وسَلْهم عن أهل القرية وقتَ عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال[٤]. انتهى.

وهذا لا يجوزُ؛ لأن «إذ» من الظروف التي لا تتصرَّفُ، ولا يدخل عليها حرفُ جرٍّ، وجَعْلُها بَدَلًا يجوِّز دخولَ «عن» عليها؛ لأنَّ البدل هو على نيةِ تكرارِ العامل، ولو أُدخلت «عن» عليها لم يَجُزْ، وإنما تُصُرِّفَ فيها بأنْ أُضيف إليها بعضُ الظروفِ الزمانية نحو: يومَ إذ كان كذا، وأمَّا قولُ مَن ذهب إلى أنها يُتَصَرَّفُ فيها بأنْ تكونَ مفعولةً باذكر، فهو قولُ مَن عجز عن تأويلها على ما ينبغي لها من إبقائها ظرفًا.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٥.
(٢) المحتسب ١/ ٢٦٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧، والكشاف ٢/ ١٥٥، وضبطت في مطبوع القراءات الشاذة ص٤٦ بكسر العين، وهو خطأ.
(٣) هي قراءة ورش، وسلفت عند تفسير الآية (١٥٤) من سورة النساء.
(٤) الكشاف ٢/ ١٢٥.

وقال أبو البقاء: «عن القرية»، أي: عن خبر القرية، وهذا المحذوفُ هو الناصبُ للظرف الذي هو «إذ يعدون»، وقيل: هو ظرفٌ لـ«حاضرة»، وجوَّز ذلك أنها كانت موجودةً في ذلك الوقت ثم خَرِبَتْ[١]. انتهى.

والظاهرُ أنَّ قوله: «في السبت» و«يوم سبتهم» المرادُ به اليومُ، ومعنى اعتدوا فيه، أي: بعصيانهم وخلافهم كما قدَّمْنا. وقال الزمخشري: «السبت» مصدرُ سَبَتَتِ اليهودُ: إذا عظَّمَتْ سَبْتَها بترك الصيد والاشتغالِ بالتعبُّد، فمعناه: يَعْدُون في تعظيم هذا اليوم، وكذلك قوله تعالى: «يومَ سَبْتِهم»: يومَ تعظيمهم، ويدلُّ عليه قوله: «ويومَ لا يَسْبِتُون»[٢].

«وإذ تأتيهم» العاملُ في «إذ» «يَعْدُون»، أي: إذ عَدَوا في السبت إذ أتتهم؛ لأن «إذ» ظرفٌ لِمَا مضى يَصْرِف المضارعَ للمُضِيِّ، وقال الزمخشري: ويجوزُ أن يكون بدلًا بعد بدلٍ[٣]. انتهى، يعني بدلًا من «القرية» بعد بدل «إذ يعدون»، وقد ذكرنا أنَّ ذلك لا يجوز.

وأضافَ السبتَ إليهم لأنهم مخصوصون بأحكام فيه.

وقرأ عمر بن عبد العزيز: «حيتانُهم يومَ إسباتهم»[٤]، قال أبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامح» وقد ذَكَر هذه القراءة عن عمر بن عبد العزيز: وهو مصدرٌ من أَسْبَتَ الرجلُ: إذا دخل في السبت.

وقرأ عيسى بنُ عُمر وعاصمٌ بخلافٍ: «لا يَسْبُتون» بضم كسرة الباء قراءةِ الجمهور[٥]، وقرأ عليٌّ والحسنُ وعاصم بخلافٍ: «يُسْبِتون» بضم ياء المضارعة[٦]، من أَسْبَتَ: دخل في السبت.

---

(١) الإملاء ١/ ٢٨٧.
(٢) الكشاف ٢/ ١٢٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) القراءات الشاذة ص٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٨، والكشاف ٢/ ١٢٥.
(٥) في (د١) والمطبوع: في قراءة الجمهور، والقراءة المذكورة في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٨، والمشهور عن عاصم: «يَسْبِتون» بكسر الباء كقراءة الجمهور.
(٦) القراءات الشاذة ص٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٨، والكشاف ٢/ ١٢٥.

قال الزمخشري: وعن الحسن: «لا يُسْبَتُون» بضم الياء على البناء للمفعول، أي: لا يُدَارُ عليهم السبتُ، ولا يؤمرون بأنْ يَسْبِتوا[١].

والعامل في «يوم» قولُه: «لا تأتيهم»، وفيه دليلٌ على أنَّ ما بعد «لا» للنفي يعمل فيما قبلها، وفيه ثلاثةُ مذاهبَ: الجوازُ مطلقًا، والمنعُ مطلقًا، والتفصيلُ بين أن يكون «لا» جوابَ قسمٍ فيمتنع، أو غيرَ ذلك فيجوز، وهو الصحيح.

«كذلك» أي: مِثْلَ ذلك البلاءِ بأمر الحوت نبلوهم، أي: بلوناهم وامتحنَّاهم، وقيل: «كذلك» متعلقٌ بما قبله، أي: ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك، أي: لا تأتيهم إتيانًا مِثْلَ ذلك الإتيان، وهو أن تأتي شُرَّعًا ظاهرةً كثيرةً، بل يأتي ما أتى منها وهو قليلٌ، فعلى القول الأول في «كذلك» ينتفي إتيانُ الحوت مطلقًا كما روي في القصص أنه كان يغيبُ بجملته، وعلى القول الثاني كان يغيبُ أكثرُه ولا يبقى منه إلا القليلُ الذي يُتْعَبُ بصيده، قاله قتادة[٢].

وهذا الإتيانُ من الحوت قد يكون بإرسالٍ من الله كإرسال السحاب، أو بوحي إلهامٍ كما أَوْحَى إلى النحل، أو بإشعارٍ في ذلك اليوم على نحوِ ما يُشْعِرُ الله الدوابَّ يومَ الجمعة بأمرِ الساعة حسبما جاء: «وما من دابةٍ إلَّا وهي مُصيخةٌ يومَ الجمعة حتى تَطْلُعَ الشمسُ فَرَقًا من الساعة»[٣]، ويحتمل أن يكون ذلك من الحوت شعورًا بالسلامة.

ومعنى «شرَّعًا»: مقبِلةً إليهم مصطفَّةً، كما تقول: أَشْرَعْتُ الرمحَ نحوه، أي: أقبلتُ به إليه.

وقال الزمخشريّ[٤]: «شرَّعًا»: ظاهرةً على وجه الماء، وعن الحسن تَشْرَعُ على

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧.

(٣) قطعة من حديث طويل أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٠٨، وأحمد (١٠٣٠٣)، وأبو داود (١٠٤٦)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١١٤ عن أبي هريرة ﵁، وعندهم: شفقًا، بدل: فرقًا.

(٤) في الكشاف ١٠/ ١٢٥-١٢٦.

أبوابهم كأنها الكباشُ السُّمْنُ[١]، يقال: شَرَعَ علينا فلان: إذا دنا منَّا وأشرف علينا، وشَرَعْتُ على فلانٍ في بيته فرأيتُه يفعل كذا.

وقال رواة القصص: يَقْرُبُ حتى يُمكن أخذُه باليد، فساءهم ذلك وتطرَّقوا إلى المعصية بأنْ حفروا حفرًا يخرج إليها ماءُ البحر على أخدودٍ، فإذا جاء الحوتُ يوم السبت وحصل في الحفرة ألقوا في الأخدود حجرًا فمنعوه الخروجَ إلى البحر، فإذا كان الأحدُ أخذوه، فكان هذا أولَ التطريق[٢].

وقال ابن رومان[٣]: كانوا يأخذ الرجلُ منهم خيطًا ويضعُ فيه وَهقةً[٤]، وألقاها في ذَنَب الحوت، وفي الطرف الآخَرِ من الخيط وَتِدٌ مضروبٌ، وتَرَكه كذلك إلى أن يأخذَه في الأحد، ثم تطرَّقَ الناسُ حين رأوا مَن يصنع هذا لا يُبْتَلَى، حتى كَثُر صيدُ الحوت ومُشِيَ به في الأسواق، وأعْلَن الفسقةُ بصيده، وقالوا: ذهبت حرمةُ السبت.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: جماعةٌ من أهل القرية من صُلَحائهم الذين جرَّبوا الوعظَ فيهم فلم يَرَوْه يُجْدي، والظاهرُ أنَّ القائلَ غيرُ المَقُول لهم «لم تَعِظون قومًا»، فيكون ثلاث فرق: فرقةٌ اعتدوا، وفرقةٌ وَعَظَتْ ونَهَتْ، وفرقةٌ اعتزلت ولم تَنْهَ ولم تَعْتَدِ، وهذه الطائفةُ هي[٥] القائلةُ للواعظة: «لم تَعِظون».

ورُوي أنهم كانوا فرقتين: فرقةٌ عَصَتْ، وفرقةٌ نَهَتْ وَوَعَظَتْ، وأنَّ جماعةً من العاصية قالت للواعظة على سبيل الاستهزاء: لم تعظون قومًا قد علمتُم أنتم أنَّ الله مُهْلِكُهم أو معذِّبهم.

---

(١) في الكشاف: الكباش البيض، وكلاهما مرويٌّ، فقد أخرج الطبري ١/ ٥١٥ عن ابن عباس ﷺ: ... كانت تأتيهم يوم السبت شرعاً بيضاً سماناً...

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧، وفيه: ... أول التطرُّق. وهو الأنسب بالسياق.

(٣) كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧، والكلام منه، وأخرجه بنحوه مطولًا الطبري ١٠/ ٥١٩.

(٤) في القاموس (وهق): الوَهَق محركة ويسكَّن: الحبل يرمى في أنشوطة، فتؤخذ به الدابة...، وجاء في المحرر: ويصنع فيه وهقة...

(٥) في (د١) والمطبوع: غير، وهو خطأ.

قال ابن عطية: والقولُ الأوَّلُ أصوبُ، ويؤيِّدُه الضمائر في قوله: «معذرةً إلى ربِّكم ولعلهم يتَّقون» فهذه المخاطَبةُ تقتضي مخاطبًا[(١)]. انتهى، ويعني أنه لو كانت العاصيةُ هي القائلةَ لقالت الواعظةُ: معذرةً إلى ربِّهم ولعلهم، أو بالخطاب: معذرةً إلى ربِّكم ولعلَّكم تتَّقون.

ومعنى «مُهْلِكُهم»: مُخْتَرِمُهم ومطهِّرُ الأرضِ منهم، أو: معذِّبُهم عذابًا شديدًا لتماديهم في العصيان، ويحتمل أن يكون العذابُ في الدنيا، ويحتمل أن يكون في الآخرة، وإن كانوا ثلاثَ فرقٍ فالقائلةُ إنما قالت ذلك حيث علموا أنَّ الوعظ لا ينفعُ فيهم لكثرة تكرُّره عليهم وعدمِ قبولهم له.

ويحتمل أن يكونوا فرقتين: عاصيةً وطائعةً، وأنَّ الطائعة قال بعضهم لبعض لمَّا رأوا أنَّ العاصية لا يُجدي فيها الوعظُ ولا يؤثِّر شيئًا: «لم تعظون».

وقرأ الجمهور: «معذرةٌ» بالرفع، أي: موعظتُنا إقامةُ عذرٍ إلى الله، ولئلَّا نُنْسَبَ في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط، ولطَمَعِنا في أن يتَّقوا المعاصي.

وقرأ زيد بن عليٍّ، وعاصمٌ في بعض ما رُوي عنه، وعيسى بن عمر، وطلحةُ بن مُصَرِّفٍ: «معذرةً» بالنصب[(٢)]، أي: وَعَظْناهم معذرةً، قال سيبويه: لو قال رجلٌ لرجلٍ: معذرةً إلى الله وإليك من كذا، لنَصَبَ[(٣)]. انتهى.

وهنا يَختارُ سيبويه الرفعَ، قال: لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارًا مستأنفًا من أمرٍ لِيْمُوا عليه، ولكنهم قيل لهم: «لم تعظون» قالوا: موعظتُنا معذرةٌ[(٤)].

وقال أبو البقاء: مَن نَصَبَ فعلى المفعول له، أي: وَعَظْنا للمعذرة، وقيل: هو مصدرٌ، أي: نعتذر معذرةً[(٥)]. وقالهما الزمخشري[(٦)].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٨، وفيه: تقتضي مخاطِباً ومخاطَباً ومكنيًّا عنه.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩، وهي رواية حفص عن عاصم كما في السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤.

(٣) الكتاب ١/ ٣٢٠، والمحرر ٢/ ٤٦٩، ولفظ الكتاب: . . . من كذا وكذا يريد اعتذاراً لَنَصَبَ. ففيه زيادة: يريد اعتذاراً، وعلى هذه العبارة مدار كلام سيبويه السابق واللاحق.

(٤) الكتاب ١/ ٣٢٠، وما بين حاصرتين منه.

(٥) الإملاء ١/ ٢٨٧.

(٦) في الكشاف ٢/ ١٢٦.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ الضمير في «نسوا» للمَنْهِيِّين أي: تَرَكوا ما ذكَّرهم به الصالحون، وجَعَل التركَ نسيانًا مبالغةً إذ أقوى أحوالِ التركِ أن ينسى المتروكُ.

و«ما» موصولةٌ بمعنى الذي، قال ابنُ عطية: ويحتملُ أن يراد به الذِّكْرُ نفسُه، ويحتمل أن يراد به ما كان في الذِّكر[١]. انتهى، ولا يَظهر لي هذان الاحتمالان.

و«السوء» عامٌّ في المعاصي، وبحسب القصص يختصُّ هنا بصيد الحوت.

و«الذين ظلموا» هم العاصون، نبَّه على العلَّة في أَخْذِهم وهي الظلمُ.

قال مجاهد: «بئيس»: شديد مُوْجِع[٢]. وقال الأخفش: مُهْلِك[٣].

وقرأ أهلُ المدينة نافعٌ وأبو جعفر وشيبةُ وغيرهما: «بِيْسٍ» على وزن جِيْدٍ، وابنُ عامرٍ كذلك إلا أنه هَمَزَ كـ: بئرٍ[٤]، ووجِّهتا على أنه فعلٌ سمِّي به كما جاء: «أنهاكم عن قيلٍ وقالٍ»[٥].

ويحتمل أن يكون وُضع وصفًا على وزن «فِعْل» كحِلْفٍ، فلا يكونُ أصله فِعْلًا.

وخرَّجه الكسائيُّ على وجهٍ آخَرَ، وهو أنَّ الأصل: بئِيس، فخفف الهمزة فالتقت ياءان، فحُذفت إحداهما وكُسر أولُه، كما يقال: رِغيف وشِهيد[٦].

وخرَّجه غيرُه[٧] على أن يكون على وزن فَعِلٍ، فكُسِرَ أوله إتْباعًا ثم حُذفت

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٢٨ بلفظ: أليم شديد.
(٣) لم أقف عليه.
(٤) تنظر القراءتان في السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢٧٢.
(٥) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٧١٥)، وابن حبان (٤٥٦٠) - واللفظ له - عن أبي هريرة ﷺ، وأخرجه بنحوه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣): (١٤) كتاب الأقضية، من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ، وقوله: «قيل وقال» فيهما قولان: الأول أنهما فعلان أحدهما مبني للمجهول والآخر للمعلوم، والقول الثاني أنهما اسمان مجروران منوَّنان. ينظر شرح مسلم للنووي ١٢/ ١١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٩، ومعاني القرآن له ٣/ ٩٥، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٦٧.
(٧) هو المبرد كما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٩، وأورده دون نسبة القرطبي ٦/ ٣٦٧.

الكسرةُ ـ كما قالوا: فِخْذ ـ ثم خفَّفوا الهمزة.

وقرأ الحسن: «بِئْسَ» بهمز وبغير همزٍ[(١)]، وعن نافعٍ وأبي بكرٍ مثلُه إلَّا أنه بغير همزٍ عن نافع[(٢)]، كما تقول: بيسَ الرجلُ، وضعَّفها أبو حاتم[(٣)]: وقال: لا وجهَ لها، قال: لأنه لا يقال: مررت برجلٍ بيسَ، حتى يقال: بيسَ الرجلُ، أو بيسَ رجلًا.

قال النحاس: هذا مردودٌ من كلام أبي حاتم، حكى النحويون: إن فعلْتَ كذا وكذا فَبِها ونِعْمَتْ، يريدون: ونعمت الخصلةُ، والتقدير: بيسَ العذاب[(٤)].

وقرئ: «بَئِسَ» على وزن شَهِدَ، حكاها يعقوب القارئ[(٥)]، وعزاها أبو الفضل الرازيّ إلى عيسى بن عمر وزيد بن عليّ.

وقرأ جؤيَّةُ بن عائذٍ ونصر بنُ عاصم في رواية: «بَأَسَ» على وزن ضَرَبَ فعلًا ماضيًا[(٦)].

وعن الأعمش ومالك بن دينار «بَأْسَ»[(٧)] أصله بأس[(٨)] فسكَّن الهمزة، جَعَلَه فعلًا لا يتصرَّف.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩، والتي بغير همزٍ وردت في القراءات الشاذة ص٤٧، والتي بالهمز ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٥٨.

(٢) وهي خلاف المشهور عنهما.

(٣) أي: بالوجهين: الهمز وعدمه، كما في الدر المصون ٥/ ٤٩٩، وكلام أبي حاتم في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٦٨. وكلام أبي حاتم هو في تضعيف القراءة بالوجهين كما ذكر السمين.

(٤) إعراب القرآن ٢/ ١٥٩، وتفسير القرطبي ٩/ ١٦٨ وفيهما: بعذابٍ بئسَ العذابُ.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٨، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٦٨، وهي باء مفتوحة وهمزة مكسورة وسين مفتوحة، كما قُيِّدت في المصدرين المذكورين.

(٦) ذكرها عنهما ابن جني في المحتسب ١/ ٦٥، لكن بسكون الهمزة، أي: «بَأْسَ»، وسيوردها المصنف ـ أي: بسكون الهمزة ـ بعد هذه القراءة، قال ابن جني: هي تخفيف بَئِسَ، كقولك في سَئِمَ: سَأْمَ، وفي عَلِمَ: عَلْمَ. اهـ. وقد ضبطت في (ز١): «بَأَسَ» بفتح العين، وكذا: ضَرَبَ.

(٧) المحتسب ١/ ٢٦٥، والدر المصون ٢/ ٤٩٧.

(٨) كذا في النسخ، ولعل الصواب: بئِس، كما في الدر المصون والمحتسب، وينظر التعليق قبل السابق.

وقرأت فرقةٌ: «بَيَسَ» بفتح الباء والياء والسين.

وحكى الزهراويُّ عن ابن كثير وأهل مكة «بِئس» بكسر الباء والهمزِ همزًا خفيفًا، ولم يبيِّن هل الهمزةُ مكسورةٌ أو ساكنة؟

وقرأت فرقة: «باسٍ» بفتح الباء وسكون الألف.

وقرأ خارجة عن نافع وطلحةُ «بَيْسٍ» على وزن كيلٍ لفظًا، وكأنَّ أصله فَيْعِلٌ مهموزًا، إلَّا أنه خفَّف الهمزة بإبدالها ياءً وأدْغَم ثم حَذَفَ[1] ك: مَيْتٍ.

وقرأ نصرٌ في رواية مالك بن دينارٍ عنه: «بأَسٍ» على وزنِ جَبَلٍ، وأبو عبد الرحمن وابن مصرِّفٍ: «بَئِسٍ» على وزن كَبِدٍ وحَذِرٍ، وقال عبيد الله بنُ قيس الرُّقَيَّات:

ليتني أَلْقَى رُقَيَّةَ في خَلْوةٍ مِن غيرِ ما بَئِسٍ[2]

وقرأ ابن عباس، وأبو بكرٍ عن عاصمٍ، والأعمش: «بَيْأَسٍ» على وزن ضَيْغَمٍ، وقال امرؤ القيس بنُ عابس الكندي:

كلاهما كان رئيساً بَيْأَسَا يضربُ في يوم الهَيَاج القَوْنَسَا[3]

وقرأ عيسى بنُ عمر والأعمشُ بخلافٍ عنه: «بَيْئِسٍ» على وزن صَيْقِلٍ ـ اسم امرأة ـ بكسر الهمزة وبكسر القاف، وهما شاذَّان لأنه بناءٌ مختصٌّ بالمعتلِّ كسيِّدٍ وميِّتٍ.

وقرأ نصر بن عاصم في روايةٍ: «بَيِّسٍ» على وزن ميِّتٍ، وخرِّج على أنه من البُؤْس ولا أصلَ له في الهمز، وخرِّج أيضًا على أنه خَفَّف الهمزة بإبدالها ياءً ثم أَدْغَم. وعنه أيضًا: «بئِّسٍ» بقَلْب الياءِ همزةً وإدغامِها في الهمزة، ورُوِيَتْ هذه عن الأعمش.

---

(١) في (دا): خففَ، والمعنى واحد.

(٢) تفسير الطبري ١٠/٥٢٧، وتفسير الثعلبي ٣/٨٧، والمحرر الوجيز ٢/٤٦٩، والكلام منه، وهو في الديوان ص١٦٠ برواية: يئسٍ.

(٣) تفسير الثعلبي ٣/٨٧، والمحرر الوجيز ٢/٤٦٩، وأورده الطبري ١٠/٥٢٦ برواية: بَيْئِسا، شاهداً على القراءة التي سترد بعد هذه.

وقرأ فرقة: «بَأَّسَ» بفتح الثلاثة والهمزة مشدَّدة[(١)].

وقرأ باقي السبعة، ونافعٌ في روايةِ أبي قُرَّة، وعاصمٌ في رواية حفصٍ، وأبو عبد الرحمن ومجاهدٌ والأعرج، والأعمش في روايةٍ، وأهلُ الحجاز: «بَئِيسٍ» على وزن رَئِيسٍ[(٢)]، وخرِّج على أنه وصفٌ على وزن فَعِيلٍ للمبالغة من بائسٍ على وزن فاعلٍ، وهي قراءة أبي رجاء عن عليٍّ[(٣)]، أو على أنه مصدرٌ وُصف به كالنَّكير والعَذِير. وقال أبو الإصبع[(٤)] العَدْواني:

حَنَقاً عليَّ ولا أرى لِيَ منهما شرًّا بئيسًا[(٥)]

وقرأ أهل مكة كذلك إلا أنهم كسروا الباء[(٦)]، وهي لغةُ تميم في فَعيلٍ حلقيّ العين يَكْسِرون أولَه، وسواءٌ أكان اسمًا أم صفةً.

وقرأ الحسن والأعمش فيما زعم عِصْمةُ: «بِئْيَسٍ» على وزن طِرْيَم وحِذْيَم[(٧)].

فهذه اثنتان وعشرون قراءةً، وضبطُها بالتلخيص أنها قُرِئتْ ثلاثيةَ اللفظ ورباعيَّته، فالثلاثي اسمًا: بِئْسٍ، وبِيْسٍ، وبَيْسٍ وبأْسٍ وبَأَسٍ وبَئِسٍ وبِئِسٍ، وفعلًا:

(١) ذكر هذه القراءات جميعاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩-٤٧٠، وكلها شاذٌّ عدا قراءة أبي بكر عن عاصم: «بيأسٍ» فهي أحد وجهين عن أبي بكر، والوجه الآخر كقراءة باقي السبعة التي سترد لاحقاً، أي: «بئيسٍ». ينظر السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩، وهي عن ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي وحفص، وأبي بكر في رواية (وهو الوجه الثاني عنه) في السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤.

(٣) ذكرها عن أبي رجاء ابن جني في المحتسب ١/ ٢٦٥، وابن عطية في المحرر ٢/ ٤٧٠.

(٤) كذا ذكر المصنف، ومثله في الدر المصون ٥/٤٩٧، والذي في المصادر: ذو الإصبع، سمي بذلك لأن حيَّةً نهشت إصبعه أو لأنه كانت له إصبع زائدة، وهو شاعر جاهلي معمَّر مختلف في اسمه. ينظر الشعر والشعراء ٢/٧٠٨، والأغاني ٣/ ٨٩، والخزانة ٥/ ٢٨٤.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٢٣١، وتفسير الطبري ١٠/ ٥٢٧، والأغاني ٣/ ١٠٢، وتفسير الثعلبي ٣/ ٨٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩، وزاد المسير ٣/ ٢٧٨، وروايته في المصادر عدا المحرر: لي فيهم أثراً بئيسا، وفيها أيضاً: ترى، بدل: أرى. ورواية المصنف توافق ما في المحرر.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩.

(٧) الطِّرْيَم: العسل، والسحاب الكثيف. والحِذْيم: القاطع. ينظر القاموس (طرم) و(حذم). والقراءة في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٠ نقلاً عن أبي حاتم السجستاني، وقال ابن عطية: وضعفها أبو حاتم.

بِيْسَ وبِئْسَ وبَئِسَ وبَأْسَ وبَأُسَ وبَيَسَ، والرباعية اسمًا: بَيْأَسٍ وبَيْئِسٍ وبَيِّسٍ وبَئِّسٍ وبَئِيسٍ وبِئِيسٍ وبِئْيَسٍ وبائسٍ، وفعلًا: بأَّس.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: اسْتَعْصَوا، والعتوُّ: الاستعصاءُ والتأبِّي في الشيء، وباقي الآية تقدَّم تفسيرُه في «البقرة»[١].

والظاهرُ أنَّ العذابَ والمَسْخَ والهلاك إنما وقع بالمعتدين في السبت، والأمةُ القائلةُ: «لم تعظون قومًا» هم من فريق الناهين الناجين، وإنما سألوا إخوانهم عن علَّةِ وَعْظِهم وهم لا يجدي فيهم شيئًا البتةَ إذ اللهُ مُهْلِكُهم أو معذِّبهم فيصير الوعظُ إذ ذاك كالعَبَثِ، كوَعْظِ المكّاسين فإنهم يَسْخَرون ممَّن يَعِظُهم، وكَثُرَ ما يؤدِّي إلى تنكيل[٢] الواعظ.

وعلى قولِ مَن زعم أنَّ الأمة القائلة: «لم تعظون» هم من العصاةُ، قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء، أي: تزعمون أنَّ الله مهلكُهم أو معذِّبهم، تكونُ هذه الأمَّةُ من الهالكين الممسوخين.

والظاهر من قوله: «فلمَّا عتوا» أنهم أولًا أُخذوا بالعذاب حين نَسُوا ما ذكِّروا به، ثم لمَّا عَتَوْا مُسِخوا، وقيل: «فلمَّا عتوا» تكريرٌ لقوله: «فلمَّا نَسُوا»، والعذابُ البئيس هو المسخ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ لمَّا ذَكر تعالى قبح أفعالِهم واستعصاءَهم، أخبر تعالى أنه حَكَم عليهم بالذُّلِّ والصَّغار إلى يوم القيامة.

«تأذَّن»: أَعْلَمَ، من الأذان وهو الإعلام، قاله الحسن وابنُ قتيبة[٣]، واختاره الزجَّاج وأبو عليٍّ[٤].

---

(١) الآية (٦٥) منها.

(٢) في النسخ عدا (د١): يودي بتنكيل، والمثبت من (د١) والمطبوع.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٧٩، وقول الحسن ذكره أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٧٣، وقول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص١٧٤.

(٤) قول الزجاج في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، أما قول أبي علي فلم نقف عليه، وسيرد عنه غيره قريباً.

وقال عطاء: «تأذَّنَ»: حَتَم[١].

وقال قطرب: وَعَدَ[٢].

وقال أبو عبيدة[٣]: أَخْبَرَ. وهو راجع لمعنى أَعْلَمَ.

وقال مجاهد: أَمَرَ، وعنه: قال[٤].

وقيل: أَقْسَمَ، ورُوي عن الزجَّاج[٥].

قال الزمخشري: «تأذَّن»: عَزَمَ رَبُّك، وهو تَفَعُّلٌ من الإيذان وهو الإعلام؛ لأن العازم على الأمر يحدِّثُ به نفسَه ويُؤذِنُها بفعله، وأُجْرِي مُجْرَى فعل القسم كـ: عَلِمَ الله، وشَهِدَ الله، ولذلك أُجيبَ بما يُجاب به القسم، وهو قوله: «ليبعثن»، والمعنى: وإذ حَتَم ربُّك وكتب على نفسه[٦].

وقال ابن عطية: بِنْيةُ «تأذَّن» هي التي تقتضي التكسُّبَ من أَذِنَ، أي: عَلِم ومَكَّنَ، فإذا كان مُسْنَدًا إلى غير الله لَحِقَه معنى التكسُّبِ الذي يَلْحَقُ المُحْدَثين، وإلى الله كان بمعنى عَلِمَ، صفةً لا مكتسَبةً بل قائمةٌ بالذات، فالمعنى: وإذ عَلِمَ الله ليبعثنَّ، وتقتضي قوةُ الكلام أنَّ ذلك العلم منه مقترنٌ بإنفاذٍ وإمضاءٍ، كما تقول في أمرٍ قد عزمتَ عليه غايةَ العزم: عَلِمَ اللهُ لأبعثنَّ كذا، نحا إليه أبو عليٍّ الفارسيُّ، وقال الطبريُّ وغيره: تأذَّنَ معناه: أَعْلَم. وهو قَلِقٌ من جهة التصريف؛ إذ نسبةُ «تأذن» إلى الفاعل غيرُ نسبة أَعْلَم، وبَيْنَ ذلك فَرْقٌ من التعدِّي وغيرِه[٧]. انتهى، وفيه بعضُ اختصارٍ.

وقال أبو سليمان الدِّمشقي: أي: أَعْلَم أنبياءَ بني إسرائيل[٨].

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٨٨، وزاد المسير ٣/ ٢٧٩.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) كذا في النسخ، والذي في تفسير الثعلبي ٣/ ٨٨: أبو عبيد.

(٤) أخرج القولين الطبري ١٠/ ٥٣٠.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، ولفظه: تألَّى، وهو بمعنى أقسم.

(٦) الكشاف ٢/ ١٢٧.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧١، وقول الطبري في تفسيره ١٠/ ٥٢٩.

(٨) زاد المسير ٣/ ٢٧٩.

«لَيَبْعَثن»: ليُرْسِلنَّ وليسلِّطنَّ، كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ [الإسراء: ٥].

والضمير في «عليهم» عائدٌ على اليهود، قاله الجمهور أو عليهم وعلى النصارى، قاله مجاهد(١).

وقيل: نسل الممسوخِينَ والذين بَقُوا منهم.

وقيل: اليهود الذين كانوا في زمان الرسول ودعاهم إلى شريعته.

وقيل: يهود خيبر وقُرَيظةَ والنضير. وعلى هذا ترتَّبَ الخلاف فيمَن يسومُهم:

فقيل: بختنصر ومَن أذلَّهم بعده إلى يوم القيامة.

وقيل المجوس، كانت اليهود تؤدِّي الجزيةَ إليهم إلى أنْ بعث الله محمدًا ﷺ فضربها عليهم، ولا تزالُ مضروبةً عليهم إلى آخِرِ الدهر.

وقيل: العرب، كانوا يَجْبُون الخراجَ من اليهود؛ قاله ابن جبير.

وقال السُّدِّي: بعث الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم.

وقال ابن عباس: المبعوثُ عليهم محمدٌ ﷺ وأمتُه(٢).

ولم يَجْبِ الخراجَ نبيٌّ قطُّ إلَّا موسى، جَبَاه ثلاثَ عَشرةَ سنةً ثم أمْسِكَ للنبيِّ ﷺ(٣).

و«سوء العذاب»: الجزية، أو: الجزيةُ والمَسْكَنةُ، وكلاهما عن ابن عباس(٤).

أو: القتالُ حتى يُسْلِموا أو يؤدُّوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون.

وقيل: الإخراجُ والإبعادُ عن الوطن، وذلك على قولِ مَن قال: إنَّ الضمير في «عليهم» عائدٌ على أهل خيبر وقريظةَ والنضير.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/ ٥٣٠-٥٣٢، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٧٩، وقول سعيد بن جبير جاء عند الطبري بلفظ: هم أهل الكتاب بعث الله عليهم العرب يَجْبُونهم. والكلام الذي سيرد لاحقًا هو قطعة من هذا الخبر كما في المصدرين المذكورين.

(٣) قوله: للنبي، كذا في النسخ، والذي في زاد المسير: إلى النبي، وعند الطبري: وإلَّا النبي - عطفاً على «إلا موسى» - وكلاهما أوضح من عبارة المصنف.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٥٣٠-٥٣١، وزاد المسير ٣/ ٢٧٩.

وهذه الآيةُ تدلُّ على أنْ لا دولةَ لليهود ولا عزَّ، وأنَّ الذلَّ والصَّغارَ فيهم لا يفارِقُهم، ولمَّا كان خبرًا في زمانِ الرسول عليه السلام وشاهَدْنا الأمرَ كذلك، كان خبرًا عن مُغيَّبٍ صدقًا، فكان مُعْجِزًا.

وأمَّا ما جاء في أتباع الدجَّال أنهم هم اليهود[1]، فتسميةٌ بما كانوا عليه؛ إذ هم في ذلك الوقت دانوا بإلهيَّة الدجَّال، فلا تعارُضَ بين هذا الخبر - إن صحَّ - والآيةِ.

وفي كتاب ابن عطية: ولقد حدِّثت أنَّ طائفةً من الروم أَمْلَقتْ في صُقْعها فباعتِ اليهودَ المجاورةَ لهم وتملَّكوهم[2].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ إخبارٌ يتضمَّنُ سرعةَ إيقاع العذاب بهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٧﴾ تَرْجِيَةٌ لمن آمَنَ منهم ومِن غيرهم، ووعدٌ لمن تاب وأصْلَح.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فرقًا متباينين في أقطار الأرض، فقلَّ أرضٌ لا يكونُ فيها منهم شرذمةٌ، وهذا حالُهم، وهم في كلِّ مكانٍ تحت الصَّغار والذِّلة سواءٌ أكان أهلُ تلك الأرض مسلمين أم كفارًا.

و«أممًا» حالٌ، وقال الحَوْفيُّ: مفعولٌ ثانٍ، وتقدَّم قولُه هذا في: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ [الآية: ١٦٠].

و«الصالِحون»: مَن آمَنَ منهم بعيسى ومحمدٍ عليهما السلام، أو: مَن آمَنَ بالمدينة. ومنهم منحطُّون عن الصالحين وهم الكفرة، و«ذلك» إشارةٌ إلى الصلاح، أي: ومنهم قومٌ دون أهلِ الصلاح؛ لأنه لا يعتدِلُ التقسيم إلَّا على هذا التقديرِ من حذفِ مضافٍ، أو يكونُ «ذلك» المعنيُّ به: أولئك، فكأنه قال: ومنهم قومٌ دون أولئك، وقد ذَكَر النَّحْويُّون أن اسم الإشارةِ المفرَدَ قد يُستعمَلُ للمثنَّى والمجموع،

---

(١) ينظر حديث جابر بن عبد الله ﷺ عند أحمد (١٤٩٥٤)، وحديث عثمان بن أبي العاص ﷺ عند أحمد أيضاً (١٧٩٠٠)، وحديث أبي أمامة الباهلي ﷺ عند ابن ماجه (٤٠٧٧)، وحديث ابن عمر ﷺ عند أحمد (٥٣٥٣)، وفي جميعها إشارة إلى اتِّباع اليهود للدجال، وحديث جابر قال عنه محققو المسند: إسناده على شرط مسلم.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧١.

فيكون «ذلك» بمعنى «أولئك» على هذه اللغة ويَعتدلُ التقسيم.

و«الصالحون» و«دون ذلك» ألفاظٌ محتملة، فإنْ أُريدَ بالصلاح الإيمانُ فـ«دون ذلك» يرادُ به الكفار، وإن أريدَ بالصلاح العبادةُ والخيرُ وتوابعُ الإيمانِ كان «دون ذلك» في مؤمنين لم يَبْلُغوا رتبةَ الصَّلاح الذي لأولئك.

والظاهرُ الاحتمالُ الأولُ ـ لقوله: «لعلهم يرجعون» إذ ظاهرُ: «وبلوناهم» أنهم القومُ الذين هم دون أولئك ـ وهو مَن ثبت على اليهودية وخرج من الإيمان.

و«دون ذلك» ظرفٌ أصلُه للمكان، ثم يُستعمل للانحطاط في المرتبة.

وقال ابن عطية: فإنْ أُريد بالصلاح الإيمانُ فـ«دون» بمعنى «غير» يراد بها الكفرة[(١)]. انتهى.

فإنْ أراد أنَّ «دون» تُرادِفُ غيرًا فهذا ليس بصحيحٍ، وإن أراد أنه يلزمُ ممن كان دون شيءٍ أن يكون غيرًا فصحيحٌ.

و«دون» ظرفٌ في موضع رفع نعتٍ لمنعوتٍ محذوفٍ، ويجوزُ في التفصيل بـ«مِن» حذفُ الموصوف وإقامةُ صفته مُقامَه نحو هذا، ومنه قولُهم: مِنَّا ظَعَنَ ومنَّا أقامَ.

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالصحة والرخاء والسَّعة، والسيئاتِ مقابلاتها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ إلى الطاعة، ويتوبون عن المعصية.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي: حَدَثَ من بعد المذكورين خَلْفٌ، قال الزجَّاج: يقال للقَرْنِ الذي يجيءُ بعد القرنِ: خَلْفٌ[(٢)].

وقال الفرَّاء: الخَلْفُ: القرنُ، والخَلَفُ مَن اسْتَخْلَفْتَه[(٣)].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٨٨.
(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٩.

وقال ثعلب: الناسُ كلُّهم يقولون: «خَلَفُ صِدْقٍ» للصالح، و«خَلْفُ سوءٍ» للطالح، ومنه قولُ الشاعر:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافهم وبقيتُ في خَلْفٍ كجِلْدِ الأجْربِ[١]

والمَثَل: سَكَت ألفًا ونطق خَلْفًا[٢]، أي: سَكَت طويلًا ثم تكلَّم بكلامٍ فاسدٍ.

وعن الفرَّاء: الخَلْفُ يُذْهَبُ به إلى الذمِّ، والخَلَفُ صالحٌ[٣]، وقال الشاعر:

خلَّفْتَ خَلْفًا ولم تَدَعْ خَلَفًا ليتَ بهم كان لا بك التَّلفا[٤]

وقد يكون في الرديء: خَلَف، وعليه قوله:

أَلَا ذلك الخَلَفُ الأعورُ[٥]

وفي الصالح: خَلْف، وعلى هذا بيتُ حسان:

لنا القدمُ الأولى عليهم وخَلْفُنا لأوَّلنا في طاعة الله تابعُ[٦]

وقال ابن السِّكِّيت: يقال: هذا خَلَفُ صِدْقٍ، وهذا خَلْفُ سوءٍ، ويجوز: هؤلاء خَلَفُ صِدْقٍ وهؤلاء خَلْفُ سوءٍ، واحدُه وجَمْعُه سواءٌ، وقال الشاعر:

إنَّا وَجَدْنا خَلَفًا بئس الخَلَفْ

عبدًا إذا ما ناء بالحِمْل وَقَفْ[٧]

---

(١) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص١٥٣، وأورده مع قول ثعلب الرازي ١٥/ ٤٣.

(٢) الأمثال لأبي عبيد ص٥٥، وجمهرة الأمثال ١/ ٥٠٩، ومجمع الأمثال ١/ ٣٣٠.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٠، وفيه: . . . والخلف: الصالح.

(٤) البيت في درة الغوّاص ص٢١٥، والنكت والعيون ٢/ ٢٧٤، والدر المصون ٥/ ٥٠٣. ووقع في (د١) و(ز١): خُلقت، والمثبت من باقي النسخ والمصادر، وهو الصواب.

(٥) وصدره: تزوَّجتِ داودَ مختارةً، والبيت أورده صاحب الأغاني ٣/ ٣٥٨ لموسى بن يسار المعروف بموسى شهوات، يخاطب فاطمة بنت عبد الملك، وكانت قد تزوجت بعد عمر بن عبد العزيز بداود بن سليمان بن مروان، وكان قبيح الوجه.

(٦) ديوان حسان ص٣١٠.

(٧) أنشده الرياشي لأعرابي يذم رجلاً اتخذ وليمة. ينظر الكامل ٣/ ١٣١١، والصحاح والأساس واللسان: (خَضف)، وجاء عندهم جميعًا بدل «وقف»: خضف، أي: ضرط. =

انتهى، وقد جَمَعَ في الرديء بين اللغتين في هذا البيت[١].

وقال النَّضْرُ بن شُمَيْلٍ: التحريكُ والإسكانُ معًا في القَرْن الرديء، وأمَّا الصالح فبالتحريك لا غير[٢]. وأكثرُ أهل اللغة على هذا إلا الفرَّاءَ وأبا عبيدةَ، فإنهما أجازا الإسكان في الصالح[٣].

والخَلْفُ إمَّا مصدرُ «خَلَفَ» ولذلك لا يُثنَّى ولا يُجْمَع ولا يؤنَّث وإن ثُنِّي وجُمِعَ وأُنِّثَ ما قبله، وإمَّا جمعُ خالِفٍ ك: راكب ورَكْب، و: شارِب وشَرْب، قاله ابن الأنباري[٤]. وليس بشيءٍ؛ لجريانه على المفرد، واسمُ الجمع لا يجري على المفرد.

قال ابن عباسٍ وابنُ زيد هنا: هم اليهود[٥].

قال الزمخشري: وهم الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ، «وَرِثوا الكتاب»: التوراةَ، بقيت في أيديهم بعد سَلَفهم يقرؤونها ويَقِفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحريم والتحليل ولا يعملون بها[٦].

وقال الطبري: هم أبناءُ اليهود[٧].

وعن مجاهد: أنهم النصارى. وعنه: أنهم هؤلاء الأمة[٨].

= وهو برواية المصنف في تفسير القرطبي ٩/ ٣٧١. وكلام ابن السكيت دون الرجز في إصلاح المنطق ص١٤.

(١) لم يتوجه لي هذا الجمع في رواية المصنف، وهي الموافقة للمصادر، لكن أورده السمين في الدر ٥/ ٥٠٣ برواية إنا وجدْنا خَلْفنا. . .، فعلى هذه الرواية يستقيم كلام المصنف، يدل على هذا قول السمين إثرها: «فاستعمل الساكن والمتحرك في الرديء». لكن لم أقف على هذه الرواية عند غير السمين.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٢١٠، وقوله: القرن، تحرف في المطبوع إلى القرآن.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٣٢.

(٤) زاد المسير ٣/ ٢٨٠-٢٨١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الكشاف ٢/ ١٢٧-١٢٨.

(٧) تفسير الطبري ١٠/ ٥٣٥ بنحوه.

(٨) القولان في زاد المسير ٣/ ٢٨٠، والأول أخرجه الطبري ١٠/ ٥٣٥.

وقرأ الحسن: «وُرِّثوا» بضم الواو وتشديدِ الراء[1].

وعلى الأقوال يتخرَّج «الكتاب»: أهو التوراةُ، أو الإنجيلُ، أو القرآن؟

و«عَرَضَ هذا الأدنى» هو ما يأخذونه من الرُّشا والمكاسِبِ الخبيثة، والعَرَضُ ما يَعْرِضُ ولا يَثْبُتُ، وفي قوله: «عَرَضَ هذا الأدنى» تخسيسٌ لمَا يأخذونه وتحقيرٌ له، وأنهم مع عِلْمِهم بما في كتابهم من الوعيد على المعاصي يُقْدِمون لأجْل العامَّة على تبديلِ الكتاب وتحريفِه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩].

و«الأدنى» من الدُّنوِّ وهو القُرْبُ؛ لأنَّ ذلك قريبٌ منقضٍ زائلٌ، قال الزمخشريُّ: وإمَّا من دنوِّ الحال وسقوطِها وقلَّتها[2].

«ويقولون سَيُغْفَرُ لنا» قَطْعٌ على الله بغفران معاصيهم، أي: لا يؤاخِذُنا الله بذلك، والمناسِبُ إذ وَرِثوا الكتابَ أن يَعْمَلوا بما فيه، وأنه إن قُضِيَ عليهم بالمعصية أن لا يَجْزموا بالمغفرة وهم مصرُّون على ارتكابها، و«لنا» في موضع المفعول الذي لم يُسمَّ فاعِلُه، وقيل: ضميرُ مصدر «يأخذون»[3]، أي: سيُغْفَرُ هو ـ أي: الأَخْذُ ـ لنا.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الظاهرُ أنَّ هذا استئنافُ إخبارٍ عنهم بانهماكِهِم في المعاصي، أي: وإن أمْكَنَتْهم الرُّشا والمكاسبُ الخبيثةُ لم يتوقَّفوا عن أَخْذِها ثانيةً ودائمًا، فهم مصرُّون على المعاصي غيرُ مكترِثينَ بالوعيد كما جاء: «والفاجرُ مَن أَتْبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله»[4] والعَرَضُ بفتح الراء: متاعُ الدنيا؛ قاله أبو عبيدة[5]، يقال: «إنَّ الدنيا عَرَضٌ حاضِرٌ يأخذُ منها البَرُّ

(١) القراءات الشاذة ص٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٢.
(٢) الكشاف ٢/ ١٢٨.
(٣) أي: المفعول الذي لم يسم فاعله هو ضمير مصدر «يأخذون».
(٤) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس ﷺ، وأوله: «الكيِّسُ مَن دانَ نفسَه...»، وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، قال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف، وكان قد سُرق بيته فاختلط.
(٥) مجاز القرآن ١/ ٢٥٠.

والفاجر»(١). والعَرْضُ بسكون الراء: الدراهم والدنانيرُ التي هي رؤوسُ الأموال وقِيَمُ المُتْلَفات.

قال السُّدِّي: كانوا يُعيِّرون القاضي فإذا وُلِّي المعيِّر ارْتَشَى(٢).

وقيل: كانوا لو أتاهم من الحَنْتَم(٣) الآجُرّ(٤) رشوةٌ أخذوها ونَقَضُوا بالرشوة الثانيةِ ما قَضَوْا بالرشوة الأولى. وقال الشاعر:

إذا ما صُبَّ في القنديلِ زيتٌ   تحوَّلت القضيةُ للمُقَنْدِلْ(٥)

وقال آخر:

لم يَفْتَحِ الناسُ أبوابًا ولا عَرَفوا   أَجْدَى وأَنْجحَ في الحاجات من طَبَقِ
إذا تعمَّم بالمنديل في طبقٍ   لم يَخْشَ نَبْوةَ بوَّابٍ ولا غَلَقِ(٦)

ولهذه الأمَّةِ من هذه الآية نصيبٌ وافرٌ، قال رسول الله ﷺ: «لَتَسْلُكُنَّ سَنَنَ مَن قبلَكم»(٧)، ومَن اختبر حالَ علمائها قُضاتِها(٨) ومُفْتِيها شاهَدَ بالعِيَان ما أَخْبَر به الصادق.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الطبراني في الكبير (٧١٥٨) عن شداد بن أوس ﷺ، وفي إسناده أبو مهدي سعيد بن سنان، قال الذهبي في الميزان ٢/ ١٣٧ وقد أورد له جملة أحاديث منها هذا الحديث: ولأبي مهدي أحاديث كثيرة منها هذا الحديث، وهو بيِّن الضعف.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٥٣٨.

(٣) في (د١) والمطبوع: الخصم، وهو تحريف. والحنتم: الجرة، وقيل: الجِرار الخضر، وقيل: جرارٌ كانت تعمل من طين وشعر ودم. فتح الباري ١/ ١٣٤. وفي اللسان (حنتم): الحنتم جرار خضر تضرب إلى الحمرة.

(٤) قوله: الآجر، من (د١) و(ع)، وجاء في باقي النسخ والمطبوع: الأجر. والآجُر: طبيخ الطين. اللسان (أجر).

(٥) أورده الراغب في محاضرات الأدباء ١/ ٢٠٨ من قول أحد القضاة.

(٦) البيتان في عيون الأخبار ٣/ ١٢٣، والمثل السائر ١/ ٣٣٥، وبغية الطلب ٤/ ١٧٩٤، وقد عزاهما مؤلفه لأبي العتاهية عن أبيه، والرواية في هذه المصادر:

ما من صديقٍ وإن تمَّت صداقته   يوماً بأنجحَ في الحاجات من طَبَقِ
إذا تلثَّم بالمنديل منطلقًا   لم يَخْشَ نَبْوة بوَّابٍ ولا غَلَقِ

(٧) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظه: «لتتَّبِعُنَّ سَنَنَ...».

(٨) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: وقضاتها.

وقال الزمخشريُّ: الواو للحال ـ يعني في «وإن يأتهم» ـ أي: يرجون المغفرةَ وهم مصرُّون عائدون إلى مِثْلِ قولهم غير تائبينَ، وغفرانُ الذنوب لا يصحُّ إلا بالتوبة، والمُصِرُّ لا غفرانَ له(١). انتهى.

وحَمَلَه على جَعْلِ الواو للحال لا للعطف مذهبُ الاعتزال، والظاهرُ ما قدَّمناه، ولا يُرَدُّ عليه بأنَّ جملة الشرط لا تقع حالًا؛ لأن ذلك جائز.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ هذا توبيخٌ وتقريعٌ وتقريرٌ لمَا تضمَّنه الكتابُ مِن أَخْذِ الميثاقِ: أنهم لا يكذبون على الله.

قال ابن زيد: كان يأتيهم المحِقُّ برشوةٍ فيُخْرِجون له كتابَ الله ويَحْكُمون له به، فإذا جاء المُبْطِلُ أخذوا منه الرشوةَ وأخرجوا كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحَكموا له(٢).

وأضيف الميثاقُ إلى «الكتاب» لأنه ذُكِرَ فيه: «أنْ لا يقولوا على الله إلَّا الحقَّ»، و: «أنْ لا يقولوا على الله إلَّا الحق» قال بعضُهم: هو قولُهم: «سيُغْفَرُ لنا». ولا يتعيَّنُ ذلك، بل هو أعمُّ من هذا القولِ وغيرِه، فيَنْدَرِجُ فيه الجزمُ بالغفران وغيرِه.

و«أنْ لا يقولوا» في موضع رفع على البدل من «ميثاق الكتاب»، وقال الزمخشري(٣): هو عطفُ بيانٍ لـ«ميثاق الكتاب»، ومعناه: الميثاقُ المذكورُ في الكتاب، وفيه أنَّ إثباتَ المغفرة بغيرِ توبةٍ خروجٌ عن ميثاق الكتاب، وافتراءٌ على الله تعالى، وتقوُّلُ ما ليس بحقٍّ عليه، وإنْ فسِّر «ميثاق الكتاب» بما تقدَّم ذِكْرُه كان «أنْ لا يقولوا» مفعولًا له، ومعناه: لئلَّا يقولوا، ويجوز أن تكون مفسِّرة «ولا يقولوا» نهيًا، كأنه قيل: ألم يقل لهم: لا تقولا على الله إلا الحق.

وقال أيضاً قبل ذلك: «ميثاق الكتاب» يعني قوله في التوراة: مَن ارْتَكَبَ ذنبًا عظيمًا فإنه لا يُغفر له إلَّا بالتوبة، «ودَرَسوا ما فيه» أي: ما في الكتاب من اشتراطِ التوبة في غفران الذنوب، والذي عليه هَوَى المُجْبِرِ(٤) هو مذهبُ اليهود بعينه

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٨.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٥٣٦، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٧٣، والكلام منه.
(٣) في الكشاف ٢/ ١٢٨.
(٤) في الكشاف: والذي عليه المجبِرةُ.

كما ترى، وقال مالك بن دينار رحمه الله: يأتي على الناس زمانٌ إنْ قصَّروا عمَّا أُمِروا به قالوا: سيُغْفَر لنا؛ لم[١] نُشرِكْ بالله تعالى شيئًا، كلُّ أمرهم على الطمع، خيارُهم فيه[٢] المُداهنةُ، فهؤلاء من هذه الأمَّة أشباهُ الذين ذكَرهم الله تعالى، وتلا الآية. انتهى، وهو على طريقة المعتزلة.

وقولُه: «إلا الحقَّ» دليلٌ على أنهم كانوا يقولون الباطلَ على تناوُلهم عَرضَ الدنيا.

و«دَرَسوا» معطوفٌ على قوله: «ألم يؤخَذْ»، وفي ذلك أعظمُ توبيخٍ وتقريعٍ، وهو أنهم كرَّروا على ما في الكتاب، وعَرَفوا ما فيه المعرفةَ التامَّة من الوعيد على قول الباطل والافتراءِ على الله، وهذا العطفُ على التقرير؛ لأنَّ معناه: قد أُخِذَ عليهم ميثاقُ الكتاب ودَرَسوا ما فيه، كقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ﴾ [الشعراء: ١٨] معناه: قد ربَّيناكَ ولَبِثْتَ.

وقال الطبريُّ وغيرُه: هو معطوفٌ على قوله: «ورثوا الكتاب»[٣]. وفيه بُعْدٌ.

وقيل: هو على إضمارِ «قد»، أي: وقد دَرَسوا ما فيه.

وكونُه معطوفًا على التقرير هو الظاهرُ؛ لأنَّ فيه معنى إقامةِ الحجَّةِ عليهم في أخذِ ميثاق الكتاب، بكونهم حَفِظوا لَفْظَه وكرَّروه وما نَسُوه وفَهِموا معناه، وهم مع ذلك لا يقولون إلَّا الباطل.

وقرأ الجَحْدَري: «أنْ لا تَقُولوا» بتاء الخطاب، وقرأ عليٌّ والسُّلميُّ: «وادَّارَسُوا»[٤] وأصله: وتَدارَسوا، كقوله: ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾ [البقرة: ٧٢] أي: تَدارَأْتُم، وقد مرَّ تقريرُه في العربية. وهذه القراءةُ توضِّح أنَّ معنى «ودَرَسُوا ما فيه» هو التكرارُ لقراءته والوقوفُ عليه، وأنَّ تأويل مَن تأوَّلَ «ودَرَسوا ما فيه» أن معناه: ومَحَوْه بترك العمل والفَهْمِ له، من قولهم: دَرَسَتِ الريح الآثارَ: إذا محتها[٥]، فيه بُعْدٌ، ولو

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: لن. وجاء في الكشاف: لأنَّا لم.

(٢) في الكشاف: فيهم.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٥٤٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٣، والكلام منه.

(٤) القراءتان في القراءات الشاذة ص٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٢-٤٧٣.

(٥) ذكره القرطبي ٩/ ٣٧٣ عن بعض العلماء.

كان كما قيل لقيل: رَبْعٌ مدروسٌ، و: خَطٌّ مدروسٌ، وإنما قالوا: ربعٌ دارِسٌ، و: خطٌّ دارِسٌ، بمعنى: داثِر.

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: ولَثوابُ دارِ الآخرة خيرٌ من تلك الرشوة الخبيثة الخسيسة المُعْقِبةِ خزيَ الدنيا والآخرة، ومعنى «يتقون»: [يتقون] محارم الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو وأهل مكة: «يعقلون» بالياء[١] جريًا على الغيبة في الضمائر السابقة، وقرأ الجمهورُ بالخطاب على طريق الالتفات إليهم، وعلى طريق خطابِ هذه الأمَّة، كأنه قيل: أفلا تعقلون حالَ هؤلاء وما هم عليه من سوء العمل، وتتعجَّبون من تَماديهم[٢] على ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ الظاهرُ أنَّ «الكتاب» هو السابقُ ذِكْرُه في «ورثوا الكتاب»، فيجيءُ الخلافُ فيه كالخلاف في ذلك، وهو مبنيٌّ على المراد بقوله: «خَلْفٌ وَرِثوا».

وقيل: «الكتاب» هنا للجنس، أي: الكتب الإلهية.

والتمسُّكُ بالكتاب يستلزمُ إقامةَ الصلاة، لكنها أُفرِدَتْ بالذِّكْر تعظيمًا لشأنها لأنها عمادُ الدِّين: «بين العبد وبين الشِّرك، تركُ الصلاة»[٣].

وقرأ عمر وأبو العالية وأبو بكرٍ عن عاصم: «يُمْسِكون» من أَمْسَكَ[٤]، والجمهورُ: «يمسِّكون» مشدَّدًا من مسَّك، وهما لغتان جَمَعَ بينهما كعب بنُ زهير فقال:

فما تُمسِّكُ بالعهد الذي زعمت ... إلَّا كما تُمْسِكُ الماءَ الغرابيلُ[٥]

---

(١) السبعة ص٢٥٦، والتيسير ص١٠٢ عن أبي عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي وشعبة، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع): عادتهم، وفي المطبوع: تجارثهم.

(٣) أخرجه أحمد (١٤٩٧٩)، ومسلم (٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٣، وهي عن أبي بكر في السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤.

(٥) ديوان كعب ص٨٥. وقوله: تمسك، قال ابن هشام في شرح قصيدة بانت سعاد ص٣٥:

=

وأَمْسَكَ متعدٍّ؛ قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ﴾ [الحج: ٦٥] فالمفعولُ هنا محذوفٌ، أي: يُمْسِكون أعمالَهم، أي: يَضْبِطونها، والباءُ على هذا تحتملُ الحاليَّةَ والآلَةَ.

ومسَّك مشدَّدٌ بمعنى تَمسَّكَ، والباءُ معها للآلة، وفعَّل تأتي بمعنى تفعَّل، نصَّ عليه التصريفيُّون.

وقرأ عبد الله والأعمش: «اسْتَمْسَكوا»، وفي حرفِ أُبيٍّ: «تَمسَّكوا»(١).

والظاهِرُ أنَّ قوله: «والذين» استئنافُ إخبارٍ؛ لمَّا ذكر حالَ مَن لم يَسْتَمسك بالكتاب ذَكَر حالَ مَن اسْتَمْسَك به، فيكون «والذين» على هذا مرفوعًا بالابتداء، وخبرُه الجملةُ بعدَه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] إذا جَعَلْنا الرابطَ هو في «مَن أَحْسَنَ عملًا»، وهو العمومُ، كذلك هذا يكونُ الرابطُ هو العمومَ في «المصلحين».

وقال الحَوْفيُّ وأبو البقاء: الرابطُ محذوفٌ تقديره: أجر الصالحين منهم(٢).

وأجاز الحوفيُّ أيضًا أن يكون الخبر محذوفًا، و«إنَّا لا نُضيع أجر المصلحين» اعتراضٌ، والتقدير: مأجورون، أو: نَأْجُرهم. انتهى، ولا ضرورةَ إلى ادِّعاء الحذف.

وأجاز أبو البقاء أن يكون الرابطُ هو «المصلحين»، وَضَعَه موضع المضمر، أي: لا نُضِيعُ أَجْرَهم(٣). انتهى، وهذا على مذهب الأخفش، حيث أجاز الرَّبط بالظاهر إذا كان هو المبتدأ، فأجاز: زيدٌ قام أبو عمرو، إذا كان أبو عمرو كنيةَ زيدٍ، كأنه قال: زيدٌ قام، أي: هو.

= إما بضم التاء وكسر السين المشدَّدة، مضارع مسَّك بالتشديد، وإما بفتحها مضارع تَمَسَّكَ، والأصل: تتمسك، فحذفت إحدى التاءين، يقال: مسَّك بالشيء وتمسَّك وأمسك واسْتَمْسَكَ، بمعنًى.

(١) القراءتان في تفسير الثعلبي ٣/ ٩٠، والكشاف ٢/ ١٢٨-١٢٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٣، وقراءة أبيٍّ عندهم جميعاً: «مسَّكوا».

(٢) الإملاء ١/ ٢٨٨.

(٣) المصدر السابق.

وأجاز الزمخشريُّ أن يكون «والذين» في موضع جرٍّ عطفًا على «الذين يتقون»[١]، ولم يذكر ابنُ عطية غيرَه[٢]. والاستئنافُ هو الظاهرُ كما قلنا.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟
مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢)
أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ (١٧٣)
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ
مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى
ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ
مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا
بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ
إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً
يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لَّآ
أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا
مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٨.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٣.

المفردات

النَّتْق: الجذبُ بشدة، وفسَّره بعضُهم بغايته وهو القلعُ، وتقول العرب: نتقت الزبدةَ من فم القِرْبةِ، والناتِقُ: الرَّحِم التي تَقْلَعُ الولدَ من الرَّجُل، وقال النابغة:

لم يُحْرَموا حُسْنَ الغذاءِ وأمُّهم طَفَحَتْ عليك بناتقٍ مِذْكارِ[١]

وفي الحديث: «عليكم بزواج الأبكار، فإنهنَّ أنتقُ أرحامًا، وأطيبُ أفواهًا، وأرْضَى باليسير»[٢].

الانسلاخ: التعرِّي من الشيء حتى لا يَعْلَقَ به منه شيء، ومنه: انسلخت الحيةُ من جلدها.

الكلب حيوانٌ معروفٌ، ويجمع في القلَّة على أكلبٍ، وفي الكثرة على كِلَابٍ، وشذُّوا في هذا الجمع فجمعوه بالألف والتاء، فقالوا: كِلاباتٌ. وتقدَّمت هذه المادّةُ في ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤] وكرَّرْناها لزيادة فائدةٍ.

لَهَثَ الكلبُ يَلْهَثُ بفتح الهاءين ماضيًا ومضارعًا، والمصدر: لَهْثًا ولُهْثًا بالضم[٣]: أخرج لسانه، وهي حالةٌ له في التعب والراحة والعطش والريِّ، بخلاف غيره من الحيوان فإنه لا يلهثُ إلا من إعياءٍ أو عطشٍ.

لَحَدَ وألْحدَ لغتان، قيل: بمعنًى واحدٍ وهو العدولُ عن الحقِّ والإدخالُ فيه ما ليس منه، قاله ابن السِّكِّيت[٤]. وقال غيره: العدولُ عن الاستقامة. والرباعيُّ أشهَرُ في الاستعمال من الثلاثي، وقال الشاعر:

ليس الأميرُ بالشَّحيح المُلْحِدِ[٥]

---

(١) ديوان النابغة ص٦١. قوله: طفحت عليك بناتق، أي: هي نفسُها ناتقٌ، وطفحت فلانة بالأولاد، أي: فاضت وأكثرت. أساس البلاغة (طفح).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٦١) من طريق عبد الرحمن بن سالم بن عتبة بن عويم بن ساعدة، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ. وهو حديث ضعيف لاضطراب إسناده، وجهالة عبد الرحمن بن سالم، كما ذكر الحافظ في الإصابة ٦/ ٣٧٨-٣٧٩.

(٣) وذكره أيضاً السمين في الدر ٥/ ٥١٧، ولم أقف عليه في المعاجم، ولعله: لُهاثًا بالضم. ينظر إصلاح المنطق ص٢١٣، والصحاح واللسان والقاموس (لهث).

(٤) كما في تفسير البغوي ٢/ ٢١٧.

(٥) الرجز دون نسبة في الكتاب ٢/ ٣٧١، وقبله: قَدْني من نصر الخُبَيْبَيْن قَدِي، وقائله حميدٌ =

ومنه: لَحْدُ القبر، وهو الميلُ إلى أحد شِقَّيه[١]، ومن كلامهم: ما فَعَلَ الواحدُ؟ قالوا: لَحدَه اللَّاحِدُ[٢].

وقيل: ألحد بمعنى: مالَ وانحرف، ولَحَدَ بمعنى: رَكَنَ وانضوى، قاله الكسائي[٣].

مَتُنَ متانةً: اشتدَّ وقَوِيَ.

«أيان» ظرفُ زمانٍ مبنيٌّ لا يتصرَّفُ، وأكثرُ استعماله في الاستفهام، ويليه الاسمُ مرفوعًا بالابتداء، والفعلُ المضارع لا الماضي، بخلاف «متى» فإنهما يليانه، قال تعالى: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١]، و﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧، والنازعات: ٤٢]. وقال الشاعر:

أيان تَقْضي حاجتي أيانا أَمَا ترى لِفِعْلِها إبَّانا[٤]

وتُستعمل في الجزاء فتَجْزِمُ المضارعَيْنِ، وذلك قليل فيها، ولم يَحْفَظْه سيبويه لكن حَفِظَه أصحابُه[٥]، وأنشدوا:

إذا النعجةُ الأَذْناءُ كانت بقفرةٍ فأيَّان ما يَعْدِلْ بها الرِّئمُ تَنْزِلِ[٦]

= الأرقط، كما في الإنصاف ١/ ١٣١، والخزانة ٥/ ٣٩٣، وجاء في المصادر: ليس الإمام...

(١) أي: يمال بحفره إلى جانبه، بخلاف الضريح فإنه يُحفر في وسطه. الدر المصون ٥/ ٥٢٢.

(٢) ورد هذا في رسالة مشهورة كتبها الأديب الشاعر الحسين بن علي بن محمد المعروف بابن قُمّ الزَّبيدي اليمني إلى أبي حمير الصليحي اليماني بعد انفصاله عنه. ينظر معجم الأدباء ١٠/ ١٣٦.

(٣) كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٨١.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ١٠/ ٦٠٦، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٠١، والنكت والعيون ٢/ ٢٨٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٠٥، واللسان (أبن)، وفيه: إبَّان كل شيء: وقته وحينه الذي يكون فيه. وجاء في المصادر عدا المحرر: لنُجحها، بدل: لفعلها.

(٥) في (د١) والمطبوع: غيره، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الارتشاف ٤/ ١٨٦٥، ولم نقف على كلام سيبويه في كتابه.

(٦) البيت لأمية بن أبي عائذ، وهو في شرح أشعار الهذليين للسكري ٢/ ٥٢٦، وديوان الهذليين ٢/ ١٩٤. قوله: الأذناء، أي: عظيمة الأذنين طويلتهما، ووقع بدلا منها في (أ) و(د١) =

وقال غيره:

أيَّانَ نُؤْمِنْكَ تَأْمَنْ غيرنا وإذا لم تُدْرِك الأمنَ منَّا لم تَزَلْ حَذِرا[١]

وكَسْرُ فتحةِ همزتِها لغةُ سليم، وهي عندي حرفٌ بسيطٌ لا مركَّبٌ، وجامدٌ لا مشتقٌّ.

وذكر صاحب كتاب «اللوامح» أنَّ «أيّان» في الأصل كان «أي أوان» فلمَّا كَثُر دَوْرُه حُذفت الهمزةُ على غيرِ قياسٍ ولا عِوَضٍ، وقُلبت الواوُ ياءً فاجتمعت ثلاثُ ياءاتٍ، فحذفَتْ إحداها فصارت على ما رأيتَ. انتهى.

وزعم أبو الفتح[٢] أنه فَعْلان وفِعْلان مشتقٌّ من «أي»، ومعناه: أيّ وقتٍ، و«أيّ» فعْلٌ من: أَوَيتُ إليه، لأن البعض آوٍ إلى الكلِّ متساندٌ إليه، وامْتَنَعَ أن يكون فَعَّالًا وفِعَّالًا من «أين»؛ لأنَّ «أيّان» ظرفُ زمانٍ «وأين» ظرفُ مكانٍ، فأَوْجَبَ ذلك أن يكون من لفظ «أي»؛ لزيادة النون، ولأن «أيان» استفهامٌ كما أنَّ أيًّا كذلك.

والأصلُ عدمُ التركيب، وفي أسماء الاستفهام والشرط الجمودُ كمتى وحيثما وأنَّى وإذا.

رَسَا يَرْسو: ثَبَتَ.

الحفيُّ: المستَقْصِي للشيء المُهْتَبِلُ[٣] به المعتني، وفلانٌ حفيٌّ بي: بارٌّ مُعْتَنٍ، وقال الشاعر:

فلمَّا التقينا بيَّن السيفُ بيننا لسائلةٍ عنا حفيٍّ سؤالُها[٤]

= و(ع): الأدماء، وفي المطبوع: العجفاء، وفي شرح أشعار الهذليين: العيناء. وقوله: الرئم: هو الظبي الخالص البياض، ووقع بدلًا منها في المطبوع: الريح، وفي ديوان الهذليين: الدهر.

(١) شرح التسهيل لابن مالك ٣/ ٤٤٣ (القسم الذي أكمله ابنه)، وشرح الألفية لابن عقيل ٢/ ٣٦٦.

(٢) في المحتسب ١/ ٢٦٨ بنحوه.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: المحتفل. والاهتبال: الاغتنام. الصحاح (هبل).

(٤) البيت لأُنَيْف بن زَبَّان النبهاني من طيئ كما في الحماسة بشرح التبريزي ١/ ٨٩، وجاء اسمه في شرح المرزوقي ١/ ١٦٩: أنيف بن حكم، وفي منتهى الطلب ٧/ ٧١: أنيف بن حكيم، ولم نقف له على ترجمة. وأورده دون نسبة ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٨٥.

وقال آخر(١):

سؤالَ حَفيٍّ(٢) عن أخيه كأنه ... بذِكْرتِه وَسْنانُ أو متواسِنُ

والإحفاء: الاستقصاء، ومنه: إحفاءُ الشارب. والحافي، أي: حَفِيَتْ قَدَمُه للاستقصاء في السَّيْر، والحَفَارةُ: البِرُّ واللُّطف.

* * *

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: جَذَبْنا الجبلَ بشدَّةٍ، و«فوقهم» حالٌ مقدَّرةٌ ـ فالعاملُ فيها محذوفٌ تقديره: كائنًا فوقهم ـ إذ(٣) حالةُ النتقِ لم تقارِنِ الفوقيةَ، لكنه صار فوقهم.

وقال الحَوْفيُّ وأبو البقاء: «فوقهم» ظرفٌ لـ«نتقنا»(٤). ولا يمكنُ ذلك إلَّا إنْ ضُمِّن «نتقنا» معنى فِعْلٍ يمكن أن يعمل في «فوقهم»، أي: رفعنا بالنتق الجبلَ فوقهم، فيكون كقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤].

والجملةُ من قوله: «كأنه ظلَّة» في موضع الحال، والمعنى: كأنه عليهم ظلَّةٌ.

والظلَّةُ: ما أظلَّ من سقيفةٍ أو سحابٍ، وينبغي أن يُحمل التشبيهُ على أنه بظلَّةٍ مخصوصةٍ؛ لأنه إذا كان كلُّ ما أظلَّ يسمَّى ظلةً فالجبلُ فوقهم صار ظلةً، وإذا صار ظلةً فكيف يشبَّهُ بظلَّةٍ، فالمعنى والله أعلم: كأنه حالةَ ارتفاعه عليهم ظلةٌ من

---

(١) هو المعطَّل الهذلي كما في ديوان الهذليين ٣/ ٤٠-٤٥، ومالك بن خالد كما في شرح أشعار الهذليين للسكري ١/ ٤٤٤-٤٥٠، وفيه: ويقال: إنها للمعطل، هكذا قال أبو نصر. وذكر البيت دون نسبة الطبري ١٠/ ٦١٥، وابن عطية ٢/ ٤٨٥.

(٢) كذا عند الطبري وابن عطية، والذي في الديوان وشرح أشعار الهذليين: سؤال الغني، وهو الأنسب بمعنى البيت، لأن معناه كما شرحه السكري: يسأل سؤال المستغني عن أخيه ليست له إليه حاجة، وقوله: أو متواسن، أي: مُدخلٌ نفسه في الوَسَن من النعاس، أي: مفعل ذلك عمداً ولا يبالي، أي: يسأل سؤال رجل قد استغنى عن أخيه فهو يتذكره. اهـ. وهذا المعنى هو عكس المعنى المذكور في شرح الحفي.

(٣) في (د١) والمطبوع: إذ كانت.

(٤) الإملاء ١/ ٢٨٨.

الغمام، وهي الظلةُ التي ليست تحتها عَمَدٌ، بل إمساكُها بالقدرة الإلهية وإن كانت أجرامًا، بخلافِ الظلَّةِ الأرضية فإنها لا تكون إلَّا على عمدٍ، فلمَّا كانت هذه الظلَّة الأرضيةُ فوقهم بلا عَمَدٍ شُبِّهت بظُلَّةِ الغمام التي ليست بعَمَدٍ[١].

وقيل: اعتاد البشرُ هذه الأجرامَ الأرضيةَ ظُللًا إذا[٢] كانت على عَمَدٍ، فلمَّا كان الجبلُ مرتفعًا على غيرِ عمدٍ قيل: «كأنه ظلة»، أي: كأنه على عَمَدٍ.

وقرئ: «طُلَّة» بالطاء، من أَطَلَّ عليه: إذا أَشْرفَ[٣].

و«ظنُّوا» هنا باقيةٌ على بابها من ترجيح أحد الجائزَيْنِ، وقال المفسِّرون: معناه: أيْقَنوا[٤]. وقال الزمخشري: علموا[٥]. وليس كذلك بل هو غلبةُ ظنٍّ مع بقاءِ الرجاء، إلَّا إنْ قيِّد ذلك بقيدِ أن لا يقبلوا[٦] التوراةَ، فإنه يكون بمعنى الإيقان.

وتقدَّم ذكرُ سبب رفع الجبل فوقهم في تفسير قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ و﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ في «البقرة»[٧]، فأغنى عن إعادته. وقد كرَّره المفسرون هنا: الزمخشريُّ وابنُ عطيةَ[٨] وغيرُهما، وذكر الزمخشريُّ هنا عند ذكر السبب أنه: لمَّا نَشَرَ موسى عليه السلام الألواحَ وفيها كتابُ الله تعالى، لم يَبْقَ جبلٌ ولا شجرٌ

---

(١) في النسخ والمطبوع عدا (د١): بظلة الغمام التي ليست بلا عمد، والمثبت من (د١)، وهو الصواب. وجاء في (ز١) بين كلمة «الغمام» وكلمة «التي»: لاشتراكهما في كونهما بلا عمد، لكن ضرب عليها.

(٢) في المطبوع: إذ، وسقطت الجملة من (د١)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤، والكلام منه.

(٣) الكشاف ٢/ ١٢٩.

(٤) ذكره عن المفسرين ابن عطية ٢/ ٤٧٤، وتعقبه بما سيذكره المصنف قريباً بعد كلام الزمخشري.

(٥) الكشاف ٢/ ١٢٩.

(٦) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: يعقلوا، وهو تحريف، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر ٢/ ٤٧٤، والكلام منه.

(٧) الآية: (٦٣).

(٨) ينظر الكشاف ٢/ ١٢٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٣-٤٧٤.

ولا حجرٌ إلا اهتزَّ، فلذلك لا ترى يهوديًا يقرأ التوراةَ إلا اهتزَّ وأنغَضَ لها رأسَه[١]. انتهى.

وقد سَرَتْ هذه النزعةُ إلى أولاد المسلمين فيما رأيتُ بديارِ مصرَ، تراهم في المكتب إذا قرؤوا القرآنَ يهتزُّون ويُحرِّكون رؤوسَهم، وأمَّا في بلادنا بالأندلس والغرب فلو[٢] تحرَّك صغيرٌ عند قراءة القرآن أدَّبه مؤدِّبُ المكتب، وقال له: لا تتحرَّك فتُشْبِهَ اليهودَ في الدراسة.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ قرأ الأعمش: «وادَّكِروا» بالتشديد من الادِّكار. وقرأ ابنُ مسعود: «وتَذَكَّروا»[٣]. وقرئ: «وتَذَّكَّروا» بالتشديد بمعنى: وتَذَكَّروا[٤]، وتقدَّم تفسير هذه الجملِ في «البقرة».

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ رُوي في الحديث من طرق: أَخَذَ من ظهر آدم ذرِّيتَه، وأَخَذَ عليهم العهدَ بأنه ربُّهم وأنْ لا إله غيرُه، فأقرُّوا بذلك والْتَزَموه[٥].

واختلفوا في كيفية الإخراج، وهيئة المُخْرَج والمكانِ والزمان، وتقريرُ هذه الأشياء محلُّها ذلك الحديث والكلامُ عليه، وظاهرُ هذه الآية ينافي ظاهرَ ذلك الحديث، ولا تلتئم ألفاظُه مع لفظ الآية[٦]، وقد رام الجمعَ بين الآية والحديثِ جماعةٌ بما هو متكلَّفٌ في التأويل.

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ١٢٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤.

(٢) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): بلادنا بلاد الأندلس فلو.

(٣) الكشاف ٢/ ١٢٩.

(٤) قوله: «وتذَّكَّروا» بالتشديد بمعنى: وتَذَكَّروا. كذا وقع في النسخ، ولعل هناك تصحيف في الفعل الأول أو في الثاني، فقد جاء في الكشاف ٢/ ١٢٩، وروح المعاني ٩/ ٤٤٧: وقرئ: «واذَّكَّروا» بمعنى: وتَذَكَّروا. وفي الدر المصون ٥/ ٥١٠-٥١١: وقرئ: «وتَذَّكَّروا» بتشديد الذال والكاف، والأصل: ولِتَتَذكروا، فأدغمت التاء في الذال وحذفت لام الجر.

(٥) ينظر ما جاء من روايات بهذا المعنى في تفسير الطبري ١٠/ ٥٤٧-٥٦٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٧٥-٣٧٨.

(٦) لعله يريد بهذه المنافاة وعدم الالتئام بين الآية وبين الأحاديث التي جاءت في تفسيرها: أن ألفاظ الآية تقتضي أن الأخذ إنما كان من بني آدم من ظهورهم، وليس لآدم ذكر فيها، =

وأحسنُ ما تُكُلِّم به على هذه الآية ما فسَّره به الزمخشريُّ؛ قال: من باب التمثيل والتخييل، ومعنى ذلك أنه تعالى نَصَبَ لهم الأدلَّةَ على ربوبيته ووحدانيته، وشَهِدتْ بها عقولُهم وبصائرُهم التي ركَّبها فيهم وجَعَلها مميِّزةً بين الضلالة والهدى، فكأنه سبحانه أَشْهدَهم على أنفسهم وقرَّرهم وقال: ألستُ بربِّكم، وكأنهم قالوا: بلى أنت ربُّنا شَهِدْنا على أنفسنا وأقررنا لوحدانيتك، وبابُ التمثيل واسعٌ في كلام الله تعالى ورسوله ﷺ، وفي كلام العرب، ونظيرُه قولُ الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقوله:

إذ قالت الأنساعُ للبطن الحقِ[1]

قالت له ريحُ الصَّبا قرقارِ[2]

ومعلومٌ أنه لا قولَ ثَمَّ وإنما هو تمثيلٌ وتصويرٌ للمعنى، «وأن تقولوا» مفعولٌ له، أي: فعلْنا ذلك مِن نَصْبِ الأدلة الشاهِدةِ على صحتها العقولُ كراهةَ أن تقولوا يومَ القيامة: إنَّا كنّا عن هذا غافلين لم نُنَبَّهْ عليه، أو كراهةَ أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنّا ذريةً مِن بعدِهم فاقْتَدَينا بهم، لأنَّ نَصْبَ الأدلة على التوحيد وما نبِّهوا عليه قائمٌ معهم، فلا عذرَ لهم في الإعراض عنه، والإقبال على التقليد والاقتداءِ بالآباء، كما لا عذرَ لآبائهم في الشرك وأدلةُ التوحيد منصوبةٌ لهم.

فإن قلتَ: بنو آدم وذرِّياتُهم مَن هم؟

قلت: عَنَى ببني آدمَ أسلافَ اليهود الذين أشركوا بالله تعالى، حيث قالوا:

= بينما جاءت الأحاديث في تفسيرها أن أخذ الذرية كان من ظهر آدم عليه السلام، كما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤-٤٧٥، وكلام المصنف إلى آخر هذه الفقرة مختصر منه، وينظر تفسير الرازي ١٥/ ٤٦ وما بعدها، وروح المعاني ٩/ ٤٥٤ وما بعدها.

(١) وبعده: قِدْماً فآضَتْ كالفَنيق المُحْنِقِ، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

(٢) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٢٠٣، والكتاب ٣/ ٢٧٦، والخزانة ٦/ ٣٠٧. قوله: قرقارِ، هو اسم فعلِ أمرٍ من قرقر مبنيٌّ على الكسر، وَصَف سحاباً هبت له ريح الصبا فألقحته وهيَّجت رعده، فكأنها قالت له: قَرْقِرْ بالرعد يا سحاب، أي: صَوِّتْ.

﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وبذرِّياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من أخلافهم المقتدِينَ بآبائهم، والدليلُ على أنها في المشركين وأولادِهم قولُه تعالى: «أو تقولوا إنما أَشْركَ آباؤنا من قبلُ»، والدليلُ على أنها في اليهود الآياتُ التي عُطفت عليها هي والتي عُطفت عليها وهي على نمطها وأسلوبها، وذلك قولُه: «واسألهم عن القرية» «وإذ قالت أمَّةٌ منهم» «وإذ تأذَّنَ ربُّك» «وإذ نَتَقْنا الجبلَ فوقهم» «واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا»[1]. انتهى كلامُ الزمخشري، وهو بسطُ كلام مَن تقدَّمه.

قال ابن عطية[2]: قال قومٌ: الآيةُ مشيرةٌ إلى هذا التناسُل[3] الذي في الدنيا، و«أَخَذَ» بمعنى: أَوْجَدَ، وأنَّ الإشهاد من[4] عند بلوغ المكلَّف، وهو قد أُعطيَ الفهمَ ونُصبت له هذه الصَّنعةُ الدالةُ على الصانع، ونحا لهذا الزجَّاج[5]، وهو معنًى تَحْتَمِلُه الألفاظ، انتهى.

والقولُ بظاهر الحديث يَطْرقُ إلى القول بالتناسُخ[6]، فيجبُ تأويلُه.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٩-١٣٠.

(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٥.

(٣) في النسخ والمطبوع: التأويل، وهو تحريف، والمثبت من المحرر.

(٤) في المحرر: هو، بدل: من.

(٥) ينظر معاني القرآن له ٢/ ٣٩٠.

(٦) هذه شبهة ذكرها المعتزلة الذين ينكرون أخذ الميثاق القاليِّ المشار إليه في الأخبار، من أن الله تعالى أخذ من ظهر آدم ذريته وأخذ عليهم العهد فأقروا، كما سلف في بداية تفسير هذه الآية، وقالوا: إن أولئك الذر إن لم يكونوا عقلاء لم يكن أخذ الميثاق منهم، وإن كانوا عقلاء وجب أن يتذكروا تلك الحالة في هذا العالَم، ولا يجوز للعاقل أن ينسى مثل هذه الواقعة العظيمة نسياناً كليًا، وبهذا الدليل يبطل التناسخ، قالوا: فإذا جوَّزتم النسيان فجوِّزوا أن يقال: إنا قبل هذا البدن كنا في أبدان أخرى على سبيل التناسخ، وإن كنا لا نتذكر الآن أحوال تلك الأبدان.
وأجاب الإمام الرازي بالفرق بين الأمرين، وذلك أنا إذا كنا في أبدان أخرى وبقينا فيها سنين امتنع في مجرى العادة نسيانها، وأما أخذ الميثاق فإنما حصل بأسرع زمان، فلم يَبْعُدْ حصول النسيان فيه.
ويتلخص من كلام المصنف وغيره من المفسرين في هذه الآية قولان: الأول هو الميثاق القالي الوارد في الأخبار، والثاني ما نقله المصنف عن الزمخشري، وأورده ابن عطية عن

ومفعولُ أَخَذَ: «ذرِّياتهم»، قاله الحَوْفي، ويحتمل في قراءة الجميع أن يكون مفعول «أَخَذ» محذوفًا لفَهْم المعنى، و«ذرّياتهم» بدلٌ من ضمير «ظهورهم» كما أنَّ «من ظهورهم» بدلٌ من قوله: «بني آدم»، والمفعولُ المحذوفُ هو الميثاق، كما قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣] وتقدير الكلام: «وإذ أخذ ربُّك» من ظهور ذرياتِ بني آدم ميثاقَ التوحيد وإفرادِه بالعبادة، واستعار أن يكون أَخْذُ الميثاق من الظهر، كأنَّ الميثاق لصعوبته وللارتباط به والوقوفِ عنده شيءٌ ثقيل يُحمل على الظهر، وهذا من تمثيل المعنى بالجِرْم، «وأشهدهم على أنفسهم» بما نَصَبَ لهم من الأدلة قائلًا: «ألستُ بربّكم قالوا بلى».

وقرأ العربيان ونافع: «ذرياتهم» بالجمع، وتقدَّم إعرابُه، وقرأ باقي السبعة: «ذرِّيتَهم» مفردًا بفتح التاء[(١)]، ويتعيَّن أن يكون مفعولًا بـ«أُخذ»، وهو على حذف مضافٍ، أي: ميثاق ذرِّياتهم، وإنما كان أخذُ الميثاق من ذرية بني آدم لأنَّ بني آدم لصُلبه لم يكن فيهم مشركٌ، وإنما حدث الإشراك في ذريتهم.

﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: قال الله: شهدنا عليكم. أو قال الله والملائكة؛ قاله السُّدي[(٢)]. أو قالت الملائكةُ. أو شَهِدَ بعضُهم على بعضٍ. أقوال. ومعنى «عن هذا»: عن هذا الميثاق والإقرارِ بالربوبية.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾المعنى أنَّ الكفرة لو لم يُؤخذ عليهم عهدٌ، ولا جاءهم رسولٌ مذكِّرٌ بما تضمَّنه العهدُ من توحيد الله وعبادته، لكانت لهم حجَّتان: إحداهما: كنَّا غافلين، والأخرى: كنَّا أتباعًا

= قوم كما سلف، وأشار إلى أن الزجاج نحا إليه، وقال النيسابوري: وهذا القول الثاني غير منافٍ للقول الأول، ولا هو مطعون في نفسه. وذكر ابن عطية أنه معنى تحتمله الألفاظ، لكن يَرِدُ عليه ما جاء في الأخبار الواردة في تفسير الآية. ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٥، وتفسير الرازي ١٥/ ٤٧ و٥٠-٥١، وغرائب القرآن للنيسابوري ٩/ ٨١-٨٢، وروح المعاني ٩/ ٤٦٤-٤٦٥.

(١) السبعة ص٢٩٧-٢٩٨، والتيسير ص١١٤.

(٢) أخرجه الطبري مطولاً ١٠/ ٥٦١، ومختصراً ١٠/ ٥٦٣-٥٦٤.

لأسلافنا، فكيف نُهْلَكُ والذنبُ إنما هو لمن طرَّقَ لنا وأضلَّنا؟ فوقعت الشهادة لتنقطع عنهم الحججُ.

وقرأ أبو عمرو: «أن يقولوا» بالياء على الغيبة، وباقي السبعة بالتاء على الخطاب(١).

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ١٧٣﴾ هذا من تمام القول الثاني، أي: كانوا السببَ في شِرْكنا؛ لتأسيسهم الشركَ وتقدُّمهم فيه وتَرْكِه سُنَّةً لنا، والمعنى: أنه تعالى أزال عنهم الاحتجاجَ بتركيب العقول فيهم وتذكيرِهم ببعثة الرسل إليهم، فقطع بذلك أعذارَهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: مثلَ هذا التفصيلِ الذي فصَّلْنا فيه الآياتِ السابقةَ نفصِّلُ الآياتِ اللاحقةَ، فالكلُّ على نمطٍ واحدٍ في التفصيل والتوضيحِ لأدلَّةِ التوحيد وبراهينه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٧٤﴾ عن شِرْكهم وعبادةِ غير الله إلى توحيده وعبادته بذلك التفصيل والتوضيح. وقرأت فرقةٌ: «يفصِّل» بالياء(٢)، أي: يفصِّلُ هو، أي: الله تعالى.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ١٧٥﴾ أي: واتلُ على مَن كان حاضرًا من كفَّارِ اليهود وغيرِهم، ولمَّا كان تعالى قد ذَكَر أخذَ الميثاق على توحيده تعالى وتقريرِ ربوبيته، وذَكَر إقرارَهم بذلك وإشهادَهم على أنفسهم، ذَكَر حالَ مَن آمَنَ به ثُم بعد ذلك كَفَرَ، كحال اليهود كانوا مقرِّينَ منتظرينَ بعثةَ رسول الله ﷺ لمَا اطَّلعوا عليه من كتب الله المُنْزَلةِ وتبشيرِها به وذِكْرِ صفاته، فلمَّا بُعث كفروا به، فذَكَروا أنَّ ما صدر منهم هي طريقةٌ لأسلافهم اتَّبعوها.

واختلف المفسِّرون في هذا الذي آتاه اللهُ آياته فانسلخ منها:

فقال عكرمة: هو كلُّ مَن انْسَلَخَ من الحقِّ بعد أن أُعطيه من اليهود والنصارى والحُنَفاء(٣).

---

(١) السبعة ص٢٩٨، والتيسير ص١١٤.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٦.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٨٨، وأخرجه بنحو ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٨، وروي عنه خلافه، فقد أخرج الطبري ١٠/ ٥٦٩ عن عكرمة قال: هو بَلْعام. وفي رواية: هو بَلْعَم.

وقال عُبادةُ بنُ الصَّامت: هم قريشٌ أتتهم أوامرُ الله ونواهيهِ والمعجزاتُ فانسلخوا من الآيات ولم يقبلوها(١).

فعلى هذين القولين يكون «الذي» مفردًا أريد به الجمع.

وقال الجمهور: هو شخصٌ معيَّنٌ؛ فقيل: هو بَلْعَم. وقيل: هو بَلْعَام. وهو رجلٌ من الكنعانيين أُوتي بعضَ كتب الله. وقيل: كان يعلم اسمَ الله الأعظمُ.

واختُلف في اسم أبيه، فقال ابن مسعود: هو أَبْرَه(٢). وقال ابن عباس باعوراء(٣). وقال مجاهد والسدي: باعرويه(٤).

رُوي أنَّ قومه طلبوا إليه أن يَدْعُوَ على موسى ومَن معه، فأبى وقال: كيف أدعو على مَن معه الملائكة؟ فألحُّوا عليه حتى فعل(٥).

وقد طوَّل المفسرون في قصته وذكروا ما اللهُ أعلم به.

وقيل: هو رجلٌ من علماء بني إسرائيل. قال ابن مسعود: بعثه موسى عليه السلام نحو مدين داعيًا إلى الله وإلى شريعته، وعلَّمه من آيات الله ما يدعو به، فكان مُجابَ الدعوة، فلمَّا فارق دينَ موسى سلخ الله منه الآيات(٦).

وقيل: اسمه ناعم، كان في زمن موسى، وكان بحيت اسم بلد كان إذا نظر(٧) رأى العرش، وكان في مجلسه اثنا عشر ألفَ محبرة للمتعلِّمين يكتبون عنه، وهو أولُ مَن صنَّف كتابًا أنَّه ليس للعالَم صانعٌ.

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٩٦، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٨٥.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٦٣، وأسباب النزول للواحدي ص٢٢٣، وأخرجه الطبري ١٠/ ٥٦٧-٥٦٨ بلفظ: ابن أَبَرَ، وفي رواية: ابن أَبُرَ، بضم الباء.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٢٢٣، وتفسير البغوي ٢/ ٢١٣، وأخرجه الطبري ١٠/ ٥٦٧ بلفظ: باعرا، و١٠/ ٥٧٣ بلفظ: باعر. وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٧ بلفظ: باعورة.

(٤) لم أقف عليه، وأخرج الطبري عن مجاهد قال: بلعام بن باعر.

(٥) الكشاف٢/ ١٣٠، وأخرجه مطولاً الطبري ١٠/ ٥٧٩-٥٨١ عن سالم أبي النضر قوله، وأخرج نحوه ١٠/ ٥٧٥ عن ابن عباس موقوفاً.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٦ بنحوه. وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٨ عن مالك بن دينار.

(٧) كذا وقعت العبارة في النسخ، والذي في تفسير القرطبي ٩/ ٣٨٣ (والكلام منه): وكان بحيث إذا نظر. . .، ولم أقف على الخبر عند غيره.

وقيل: هو رجلٌ من بني إسرائيل أُعطي ثلاثَ دعوات مستجابة يدعو بها في مصالح العباد، جعلها كلَّها لامرأته، وكانت قبيحةً، فسألته فدعا الله فجعلها جميلةً ففَرِكَتْه، فدعا الله عليها فصارت كلبةً نبَّاحةً، وكان له منها بنونَ فتضرَّعوا إليه فدعا الله فصارت إلى حالتها الأولى(١).

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وابنُ المسيِّب وزيد بنُ أَسْلَمَ وأبو رَوْقٍ: هو أمية بنُ أبي الصلت الثقفي، قرأ الكتبَ وعلم أنه سيُبعَثُ نبيٌّ من العرب، ورجا أن يكون إياه، وكان يَنْظُمُ الشعرَ في الحِكَم والأمثال، فلمَّا بُعث الرسول ﷺ حَسَده، ووفد على بعض الملوك، ورُوي أنه جاء يريد الإسلام، فوصل إلى بدر بعد الوقعة بيومٍ أو نحوِه، فقال: مَن قَتَلَ هؤلاء؟ فقيل: محمد. فقال: لا حاجة لي بدينِ مَن قتلَ هؤلاء. فارتدَّ ورجع، وقال: الآن حلَّت لي الخمرُ، وكان قد حرَّم الخمر على نفسه، فلحق بقومٍ من ملوك حمير فنادمهم حتى مات، وقَدِمَتْ أختُه فارعةُ على رسول الله ﷺ واستَنْشَدَها من شعره، فأنشدته عدَّةَ قصائد، فقال ﷺ: «آمن شعرُه وكفر قلبُه»، وهو الذي قال فيه تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾(٢).

وقال سعيد بن المسيب أيضًا: هو أبو عامر بن النعمان بن صيفي(٣) الراهب، سمَّاه رسولُ الله ﷺ: الفاسق، وكان ترهَّب في الجاهلية ولبس المُسُوح، وهو الذي

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٧ من طريق عكرمة عن ابن عباس ﷺ، وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٢٣-٢٢٤ عن عكرمة. وقوله: ففرِكته، أي: أبغضته، ووقع بدلا منها في (د١) والمطبوع: فمالت إلى غيره. وسقطت من (أ) و(ع).

(٢) تنظر القصة في عرائس المجالس للثعلبي ص٢٤١-٢٤٢، وتفسير الثعلبي ٣/ ٩٥-٩٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٨٤. والحديث المرفوع أخرجه باللفظ المذكور ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٧، وأخرج مسلم (٢٢٥٥) من حديث الشريد بن سويد أن النبي ﷺ قال: «فلقد كاد يُسْلم من شعره».

(٣) كذا في تفسير الثعلبي ٣/ ٩٦، وعرائس المجالس ص٢٤٢، ومجمع البيان ٩ (تتمة)/ ٦٥، وقد ذكر أهل السير في اسمه أنه أبو عامر عبد عمرو - ويقال: عمرو - بن صيفي بن النعمان، وهو والد الصحابي حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة. ينظر سيرة ابن هشام ١/ ٥٨٤-٥٨٥، وطبقات ابن خياط ص٢٣٦، والاستيعاب ٣/ ٩٢، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٣٢١، والإصابة ٢/ ٢٨٩.

بَنَى له المنافقون مسجدَ الضِّرار، جرت بينه وبين النبيِّ ﷺ محاورةٌ فقال أبو عامر: أماتَ الله الكاذبَ منَّا طريدًا وحيدًا، وأرسل إلى المنافقين أن استعدُّوا بالقوة والسلاح، ثم أتى قيصرَ واستجاشَه ليُخرِجَ الرسول ﷺ وأصحابَه من المدينة، فمات بالشام طريدًا شريدًا وحيدًا.

وقيل غيرُ هذا، والأَوْلَى في مثل هذا إذا ورد عن المفسِّرين أن تُحمل أقاويلُهم على التمثيل لا على الحصر في معيَّنٍ، فإنه يؤدِّي إلى الاضطراب والتناقُض.

والخلافُ في «آياتنا»[(١)] مترتِّبٌ على مَن عُني بـ«الذي آتيناه»: أذلك اسمُ الله الأعظم، أو الآياتُ مِن كتب الله، أو حججُ التوحيد، أو من آيات موسى، أو العلم بمجيء الرسول؟

والانسلاخُ من الآيات مبالغةٌ في التبرِّي منها والبعدِ، أي: لم يَعْمَلْ بما اقتضته نعمتُنا عليه من إتيانه آياتنا، جُعِلَ كأنه كان مُلْتبِسًا بها كالثوب فانسلخ منها، وهذا مِن إجراء المعنى مُجرى الجَزْم. وقولُ مَن قال: إنه من المقلوب، أي: انسلخت الآياتُ منه لا ضرورة تدعو إليه.

وقال سفيان: إنَّ الرجل ليُذْنِبُ ذنبًا فينسى بابًا من العلم[(٢)].

وقرأ الجمهور: «فأتبعه الشيطان» مِن أَتْبَعَ رباعيًّا، أي: لَحِقه وصار معه، وهي مبالغةٌ في حقِّه إذ جُعل كأنه هو إمامٌ للشيطان يَتْبعه، وكذلك ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] أي: عَدَا وراءه. قال القُتَبيُّ: تَبِعَه مِن خَلْفِه، وأتبعه: أدركَه ولحقه، كقوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي: أدركوهم[(٣)].

فعلى هذا يكون متعدِّيًا إلى واحدٍ، وقد يكون «أَتْبع» متعدِّيًا إلى اثنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ذُرِّيَّتَهُم بِإِيمَٰنٍ﴾[(٤)] [الطور: ٢١] فيقدَّر هذا: فأَتْبعَه الشيطانُ خطواتِه،

(١) في النسخ والمطبوع عدا (د١): آتيناه آياتنا، والمثبت من (د١).
(٢) لم أقف عليه عن سفيان، وورد قطعة من حديث مرفوع أورده الديلمي في الفردوس ١/ ٣٨٣ عن ابن مسعود ﷺ.
(٣) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٧٤ و٣١٧.
(٤) هذه قراءة أبي عمرو كما في السبعة ص٦١٢، والتيسير ص٢٠٣.

أي: جعَله الشيطانُ يَتْبَعُ خطواته، فتكون الهمزةُ فيه للتعدِّي؛ إذ أصلُه: تبع هو خطواتِ الشيطان.

وقرأ طلحةُ بخلافٍ، والحسنُ فيما روى عنه هارون: «فاتَّبَعه» مشدَّدًا[١] بمعنى تَبِعه. قال صاحب كتاب «اللوامح»: بينهما فُرَيْقٌ، وهو أن «تبعه»: إذا مشى في أثره، وأتبعه: إذا وازاه مشيًا، فأمَّا «فأتْبَعَهُ» بقطع الهمزة فممَّا يتعدَّى إلى مفعولين؛ لأنه منقولٌ مِن «تَبِعه»، وقد حُذف في العامَّة أحدُ المفعولين.

وقيل: «فأتبعه» بمعنى: اسْتَتْبَعه، أي: جَعَله له تابعًا فصار له مطيعًا سامعًا.

وقيل: معناه: تبعه شياطين[٢] الإنس أهل الكفر والضلال.

«فكان من الغاوين» يحتمل أن تكونَ «كان» باقيةً للدلالة على مضمون الجملة واقعًا في الزمان الماضي، ويحتمل أن تكون بمعنى «صار»، أي: صار من الضالين الكافرين.

قال مقاتل: من الضالين.

وقال الزجَّاج: من الهالكين الفاسدين[٣].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: ولو أردنا أن نشرِّفَه ونرفعَ قَدْرَه بما آتيناه من الآيات لفعلنا «ولكنه أخلد إلى الأرض»، أي: تَرامَى إلى شهوات الدنيا ورَغِبَ فيها واتَّبع ما هو ناشئٌ عن الهوى.

وجاء الاستدراكُ هنا تنبيهًا على السبب الذي لأجله لم يُرْفَعْ ولم يُشَرَّفْ كما فُعِلَ بغيره ممَّن أُوتي الهدى فآثره واتَّبعه.

و«أخْلَد» معناه: رمى بنفسه إلى الأرض، أي: إلى ما فيها من الملاذِّ والشهوات، قال معناه ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ والسدِّي[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٧.

(٢) في (د٣) و(يه): وشياطين.

(٣) القولان في زاد المسير ٣/ ٢٨٩، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٢/ ٣٩١.

(٤) أخرج أقوالهم الطبري ١٠/ ٥٨٤.

ويحتمل أن يريد بقوله: «أخلد إلى الأرض»، أي: مال إلى السَّفالة[(١)] والرَّذالة، كما يقال: فلانٌ في الحضيض، عبارةً عن انحطاطِ قَدْرِه بانسلاخِه من الآيات، قال معناه الكرمانيُّ.

قال أبو روق: غلب على عقله هواهُ فاختار دنياه على آخرته[(٢)].

وقال قوم معنى «لرفعناه بها»: لأَخَذْناه، كما تقول: رُفع الظالم: إذا هَلك، والضمير في «بها» عائدٌ على المعصية في الانسلاخ، وابتُدِئَ وصفُ حاله بقوله: «ولكنه أخلد»[(٣)].

وقال ابنُ أبي نَجيح «لرفعناه»: لتوفَّيناه قبل أن يقع في المعصية ورفعناه عنها[(٤)]. والضمير للآيات، ثم ابتدئ وصفُ حاله.

والتفسير الأولُ هو الأظهر وهو مرويٌّ عن ابن عباس وجماعةٍ[(٥)]، ولم يَذْكر الزمخشريُّ غيرَه[(٦)]، وهو الذي يقتضيه الاستدراكُ؛ لأنه على قول الإهلاك بالمعصية أو التوفي قبل الوقوع فيها لا يَتَّضِحُ معنى الاستدراك.

والضمير في «لرفعناه» في هذه الأقوال عائدٌ على الذي أوتي الآيات وإن اختلفوا في الضمير في «بها» على ما يعود.

وقال قوم: الضمير في «لرفعناه» عائدٌ على الكفر المفهوم ممَّا سبق، وفي «بها» عائدٌ على الآيات، أي: ولو شئنا لرفعنا الكفرَ بالآيات، وهذا المعنى رُوي عن مجاهد[(٧)]، وفيه بعدٌ وتكلُّفٌ.

قال الزمخشري: فإن قلتَ: كيف علَّق رَفْعُه بمشيئة الله تعالى ولم يعلِّق بفعله الذي يستحقُّ به الرفع؟ قلت: المعنى: ولو لزمَ العملَ بالآيات ولم ينسلخْ منها

(١) من (ب) و(د٣) و(يه): السفاهة.
(٢) ذكره الثعلبي ٣/ ٩٧ مختصراً بلفظ: اختار الدنيا على الآخرة.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٨، وزاد: فهي عبارة عن إمهاله وإملاء الله له.
(٤) المصدر السابق، وما بعده هو من كلام ابن عطية في شرحه لهذا القول.
(٥) المصدر السابق.
(٦) الكشاف ٢/ ١٣٠.
(٧) تفسير الطبري ١٠/ ٥٨٢-٥٨٣.

لرفعناه بها، وذلك أنَّ مشيئة الله تعالى رفعَه تابعةٌ للزومه الآيات، فذَكَر المشيئةَ والمرادُ ما هي تابعةٌ له ومسبَّبةٌ عنه، كأنه قيل: ولو لَزِمَها لرفعناه بها، ألا ترى إلى قوله: «ولكنه أَخْلَد إلى الأرض» فاستدرك المشيئةَ بإخلاده الذي هو فعلُه، فوجب أن يكون «ولو شئنا» في معنى ما هو فعلُه، ولو كان الكلامُ على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكنَّا لم نشأ(١). انتهى، وهو على طريقة الاعتزال.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: فصِفَتُه إنْ تَحمِلْ عليه الحكمةَ لم يَحْمِلها، وإنْ تَرَكْتَه لم يَحمِلْها، كصفة الكلب: إن كان مطرودًا لَهَثَ، وإن كان رابضًا لَهَثَ، قاله ابن عباس(٢).

وقيل: شبِّه المتهالكُ على الدنيا في قلقه واضطرابِه على تحصيلها، ولزومِه ذلك، بالكلب في حالته هذه التي هي ملازِمةٌ له حالةَ تهيجه وتَرْكِه، وهي كونُه لا يزال لاهثًا، وهي أخسُّ أحواله وأرذلُها، كما أنَّ هذا المتهالِكَ على الدنيا لا يزال تَعِبًا قلقًا في تحصيلها.

قال الحسن: هو مَثَلُ المنافق لا يُنيب إلى الحقِّ دُعي أو لم يُدْعَ، أُعْطِي أو لم يُعْطَ، كالكلب يلهثُ طردًا وتركًا(٣). انتهى.

وفي كتاب «الحيوان»: دلت الآية على أن الكلب أخسُّ الحيوان وأذلُّه؛ لضَرْب المَثَل في الخسَّة به في أخسِّ أحواله، ولو كان في جنس الحيوان ما هو أخسُّ من الكلب ما ضُرِبَ المَثَلُ إلا به(٤).

قال ابن عطية: وقال الجمهور: إنما شبه في أنه كان ضالًا قبل أن يؤتَى الآيات ثم أُوتيها [فكان] أيضًا ضالًا لم تنفعه، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهثَ في حالِ حَمْلِ المشقَّة عليه أو تركِه دون حملٍ عليه(٥).

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٠-١٣١.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٨٧، وفيه بدل «وإن تركته لم يحملها»: وإن ترك لم يهتد لخير.
(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ٩٨، وفيه بدل: «أعطي أو لم يُعط»: وُعظ أو لم يُوعظ.
(٤) لم أقف عليه بهذا السياق، وينظر كتاب الحيوان ٤/ ٣٨.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٨، وما بين حاصرتين منه.

وقال السدِّي وغيره: هذا الرجلُ خرج لسانُه على صدره وجَعَلَ يلهثُ كما يلهثُ الكلب(١).

وقال الزمخشري(٢): وكان حقُّ الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحطَطْناه ووضَعْنا منزلتَه، فوقع قولُه: «فمثله كمَثَل الكلب» موضعَ(٣) فحطَطْناه أبلغَ حطٍّ؛ لأن تمثيله بالكلب في أخسِّ أحواله وأذلِّها في معنى ذلك. انتهى.

وفي قوله: وكان حقُّ الكلام... إلى آخره، سوءُ أدبٍ على كلام الله تعالى، وأما قولُ: فوقع قولُه: «فمَثَلُه»... إلى آخره، فليس واقعًا موقع ما ذَكَر، لكن قوله: «ولكنَّه أَخْلَدَ إلى الأرض» وقع موقع: فحطَطْناه، إلَّا أنه تعالى لمَّا ذكر الإحسان إليه أسند ذلك إلى ذاته الشريفةِ فقال: «آتيناه آياتنا» «ولو شئنا لرفعناه بها»، ولمَّا ذكر ما هو في حقِّ الشخص إساءةٌ أسنده إليه فقال: «فانْسَلَخ منها»، وقال: «ولكنه أَخْلَد إلى الأرض»، والله تعالى في الحقيقة هو الذي سلخه من الآيات وأَخْلَده إلى الأرض، فجاء على حدِّ قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ﴾ [الكهف: ٨٢] في نسبة ما كان حَسَنًا إلى الله ونسبةِ ما كان بخلافه إلى الشخص.

وهذه الجملةُ الشرطيةُ في موضع الحال، أي: لاهثًا في الحالتين؛ قاله الزمخشريُّ وأبو البقاء(٤).

وقال بعضُ شرَّاح كتاب «المصباح»(٥): وأمَّا الشرطيةُ فلا تكاد تقع بتمامها موضعَ الحال، فلا يقال: جاءني زيدٌ إنْ يسألْ يُعْطَ، على الحال، بل لو أُريد ذلك لجُعِلَت الجملةُ الشرطيةُ خبرًا عن ضمير ما أُريدَ الحالُ عنه، نحو: جاء زيدٌ وهو إنْ

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٠/٥٨٨.
(٢) في الكشاف ٢/ ١٣١.
(٣) في (دا) والمطبوع: موقع. وجاء في الكشاف: فوضع قوله: فمثله... موضع.
(٤) الكشاف ٢/ ١٣١، والإملاء ١/ ٢٨٩.
(٥) لعله: المصباح في النحو، لناصر الدين المطرِّزي النحوي المتوفى سنة (٦١٠هـ)، وعليه شروح كثيرة. ينظر كشف الظنون ٢/ ١٧٠٨.

يسأل يُعْطَ، فيكون الواقعُ موقعَ الحال هو الجملة الاسمية لا الشرطية، نعم قد أوقعوا الجُمَلَ المصدَّرة بحرف الشرط موقعَ الحال ولكن بعد ما أخرجوها عن حقيقة الشرط، وتلك الجملةُ لم تَخْلُ من أن يُعْطَفَ عليها ما يناقِضُها أو لم يعطف؛ والأولُ تركُ الواو مستمرٌّ فيه، نحو: أتيتُكَ إنْ أتيتني وإنْ لم تأتني، إذ لا يَخْفَى أنَّ النقيضين من الشرطين في مِثْلِ هذا الموضع لا يبقيان على معنى الشرط، بل يتحوَّلان إلى معنى التسويةِ، كالاستفهامين المتناقضين في قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦، ويس: ١٠]، وأمَّا الثاني: فلا بدَّ فيه من الواو، نحو: أتيتُك وإنْ لم تأتني، ولو ترك الواو لالْتَبَس بالشرط حقيقةً. انتهى.

فقوله: «إنْ تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تَتْرُكْه يَلْهَثْ» من قَبيل الأول؛ لأنَّ الحملَ عليه والتركَ نقيضان.

﴿ذَّلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: ذلك الوصفُ وصفُ الذين كذَّبوا بآياتنا، صفتُهم كصفةِ الكلب لاهثًا في الحالتين، فكما شبِّه وصفُ المؤتى الآياتِ المنسلخِ منها بالكلب في أخسِّ حالاته، كذلك شبِّه به المكذِّبون بالآيات حتى أُوْتُوها وجاءتهم واضحاتٍ تقتضي التصديقَ بها، فقابَلوها بالتكذيب وانْسَلَخوا منها.

واحتمل «ذلك» أن يكون إشارةً لمثَلِ المنسلخِ، وأن يكون إشارةً لوصف الكلب.

واحتمل أن تكونَ أداةُ التشبيه محذوفةً من «ذلك»، أي: صفةُ ذلك صفةُ الذين كذَّبوا، واحتمل أن تكون محذوفةً من «مَثَل القوم»، أي: ذلك الوصفُ ـ وصفُ المنسلخ أو وصفُ الكلب ـ كَمثَل الذين كذَّبوا، ويكون أبلغَ في ذمِّ المكذِّبين حيث جُعلوا أصلًا وشبِّه بهم.

قال ابن عطية: أي: هذا المَثَلُ يا محمدُ مَثَلُ هؤلاء القوم الذين كانوا ضالِّين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة، ثم جئتهم بذلك فبَقُوا على ضلالهم ولم ينتفعوا بذلك، فمَثَلُهم كمثَلِ الكلب[1].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٨.

وقال الزمخشري[(١)]: «كذبوا بآياتنا» من اليهود بعد ما قرؤوا نَعْتَ[(٢)] رسول الله ﷺ في التوراة، وذِكْرَ القرآنِ المعجزِ وما فيه، وبشَّروا الناسَ باقتراب مَبْعَثِه، وكانوا يَسْتَفْتِحون به.

وقال ابن عباس: يريد كفارَ مكة؛ لأنهم كانوا يتمنَّوْن هاديًا يهديهم، وداعيًا يَدْعُوهم إلى طاعة الله، ثم جاءهم مَن لا يُشَكُّ في صدقه وديانته[(٣)] ونبوَّتِه فكذَّبوه، فحصَلَ التمثيلُ بينهم وبين الكلب الذي إنْ تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركه يَلْهَثْ؛ لأنهم لم يَهْتدوا لمَّا تُركوا ولم يهتدوا لمَّا جاءهم الرسولُ، فبَقُوا على الضلال في كلِّ الأحوال، مِثْلَ الكلب الذي يلهثُ على كلِّ حالٍ. انتهى.

وتَلَخَّصَ: أهؤلاء القومُ المكذِّبون بالآيات عامٌّ، أم خاصٌّ باليهود، أم بكفارِ مكة؛ أقوالٌ ثلاثة، والأظهرُ العموم.

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ أي: فاسْرُدْ أخبارَ القرون الماضيةِ كخبر بلعام، أو مَن فُسِّر به المنسلِخُ؛ إذ هو من القَصَص الذي لا يعلَمُه إلَّا مَن دَرَسَ الكتبَ، إذ هو من خفيِّ أخبارهم، ففي إخبارِكَ بذلك أعظمُ معجِزٍ، لعلهم يتفكَّرون فيما جرى على المكذِّبين فيكون ذلك عِبرةً لهم ورادِعًا عن التكذيب، وأن يكونوا أخبارًا شنيعةً تُقَصُّ كما قُصَّ خبرُ ذلك المنسلِخ.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ «ساء» بمعنى: بئس، وتقدَّم لنا أنَّ أصلَها التعدِّي، تقول: ساءني الشيءُ يَسُوءُني، ثم لمَّا استُعْمِلت استعمال «بئس» بُنيت على «فَعُلَ»، وجَرَتْ عليها أحكامُ «بئس»[(٤)]، و«مَثَلًا» تمييزٌ للمُضْمَر المستَكِنِّ في «ساء» فاعلًا، وهو مفسَّرٌ بهذا التمييز، وهو من الضمائر التي يفسِّرُها ما بعدها، ولا يثنَّى

---

(١) في الكشاف ٢/ ١٣١.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: بعثة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف.

(٣) في (د١): وأمانته، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في تفسير الرازي ١٥/٥٧، والكلام منه.

(٤) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩]، وقوله: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]، وقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

ولا يُجْمَعُ، هذا[1] مذهب البصريين، وعن الكوفيين خلافٌ مذكورٌ في النحو.

ولا بدَّ أن يكون المخصوصُ بالذمِّ من جنس التمييز، فاحتيج إلى تقديرِ حذفٍ: إمَّا في التمييز، أي: ساء أصحابُ مَثَلِ القوم، وإمَّا في المخصوص، أي: ساء مَثَلًا مَثَلُ القوم.

وهذه الجملةُ تأكيدٌ للجملة السابقة.

وقال أبو عبد الله الرازي: ظاهرُه يقتضي أن يكون ذلك المَثَلُ موصوفًا بالسوء، وذلك غيرُ جائزٍ؛ لأنَّ هذا المَثَلَ ذكره الله تعالى فكيف يكون موصوفًا بالسوء؟ فوَجَبَ أن يكون الموصوفُ بالسوء ما أفاده المَثَلُ من تكذيبهم بآيات الله وإعراضِهم عنها، حتى صاروا في التمثيل بذلك بمنزلة الكلب اللاهثِ[2]. انتهى.

وليس كما ذَكَر، ليس هنا ضَرْبُ مَثَلٍ، والمَثَلُ لفظٌ مشتَرَكٌ بين الوصف وبين ما يُضْرَبُ مثلًا، والمرادُ هنا الوصفُ، فمعنى «فَمَثَلُه كَمَثَلِ الكلب»، أي: وَصْفُه وصفُ الكلب، وليس هذا من ضَرْبِ المَثَلِ، بل[3] كما قال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] أي: صِفَتُهم كصِفَةِ الذي اسْتَوْقَد، وكقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي: صِفَتُها، وإذا تَقرَّرَ هذا فقولُه: «ساء مثلًا» معناه: بئس وَصْفًا، فليس مِن ضَرْبِ المثل في شيءٍ.

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر والأعمش: «ساء مَثَلُ» بالرفع «القومِ» بالخفض[4]، واختُلف على الجحدريِّ فقيل: كقراءة الأعمش، وقيل: بكسر الميم وسكونِ الثاء وضمِّ اللام مضافًا إلى «القوم»[5].

والأحسنُ في قراءة رفع المثل أن يُكْتَفَى به ويُجْعَلَ من باب التعجُّب، نحو: لَقَضُوَ الرجلُ، أي: ما أسوأ مَثَلَ القوم.

(١) في (د١) والمطبوع: على.
(٢) تفسير الرازي ١٥/٥٨.
(٣) كلمة: بل، من (د١) والمطبوع، وليست في باقي النسخ.
(٤) القراءات الشاذة ص٤٧ عن الجحدري والأعمش.
(٥) المحرر الوجيز ٢/٤٧٩.

ويجوز أن يكون كـ«بئس» على حذف التمييز على مذهب مَن يُجيزه، التقدير: ساء مثلًا[١] مَثَلُ القوم[٢]، أو على أن يكون المخصوصُ «الذين كذَّبوا» على حذف مضافٍ، أي: بئسَ مَثَلُ القوم مَثَلُ الذين كذَّبوا، فيكون «الذين» مرفوعًا إذا قام مقام «مَثَلُ» المحذوف[٣]، لا مجرورًا صفةً لـ«القوم» على تقديرِ حذفِ التمييز.

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ يحتملُ أن يكون معطوفًا على الصلة، ويحتملُ أن يكون استئنافَ إخبارٍ عنهم بأنهم كانوا يظلمون أنفسَهم، والزمخشريُّ[٤] على طريقته في أنَّ تقديم المفعول يدلُّ على الحصر، فقدَّره: وما ظلموا إلَّا أنفسَهم بالتكذيب، قال: وتقديمُ المفعول به لاختصاصٍ[٥]، كأنه قيل: وخَصُّوا أنفسَهم بالظلم لم يتعدَّ[٦] إلى غيرها.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ لمَّا تقدَّم ذكرُ المهتدين والضالِّين أخبر تعالى أنه هو المتصرِّفُ فيهم بما شاء من هدايةٍ وضلالٍ، وتَقرَّرَ من مذهب أهل السُّنةِ أنه تعالى هو خالقُ الهداية والضلال في العبد، وللمعتزلة في هذا ونظائرِه تأويلاتٌ:

قال الجبَّائيُّ، وهو اختيارُ القاضي[٧]: مَن يَهْدِ اللهُ إلى الجنة والثواب في الآخرة فهو المهتدي في الدنيا، السالك طريقَ الرشد فيما كُلِّف فبيَّنَ أنه لا يهدي إلى الثواب في الآخرة إلَّا مَن هذا وَصْفُه، ومَن يُضْلِلْه عن طريق الجنة فأولئك هم الخاسرون.

---

(١) كلمة: مثلاً من (أ) و(ز١) و(ع).

(٢) وقوله: «مَثَلُ القوم» على هذا الوجه هو المخصوص بالذم، ولم يذكر السمين هذا الوجه في نقله لكلام المصنف.

(٣) وقوله: «مَثَلُ القوم» على هذا الوجه هو الفاعل، وقد وهم السمين رحمه الله فنقل عن المصنف أنه قدَّر تمييزًا في هذا الوجه، وليس كما ذكر. ينظر الدر المصون ٥/ ٥١٨. وقد نقل الآلوسي في روح المعاني ٩/ ٤٨٤ كلام السمين، ولم ننبه على الوهم ثمة، فليستدرك من هنا.

(٤) في الكشاف ٢/ ١٣١.

(٥) في مطبوع الكشاف: للاختصاص.

(٦) في مطبوع الكشاف: يتعدها.

(٧) هو القاضي عبد الجبار المعتزلي، والكلام من تفسير الرازي ١٥/ ٥٨.

وقال بعضهم: في الكلام حذفٌ، أي: مَن يَهْدِ الله فيَقْبَلُ ويهتدي بهداه فهو المهتدي، ومَن يُضْلِلْ بأنْ لم يَقْبَلْ فهو الخاسرُ.

وقال بعضهم: المراد: مَن وَصَفَه اللهُ بأنه مهتدٍ فهو المهتدي؛ لأنَّ ذلك مدحٌ، ومدحُ الله لا يَحْصُلُ إلَّا في حقِّ مَن كان موصوفًا بذلك، «ومَن يُضْلل»، أي: ومَن يَصِفْه بكونه ضالًّا فهو الخاسر.

وقال بعضهم: مَن آتيناه الألطافَ وزيادةَ الهدى فهو المهتدي، ومَن يُضللْ عن ذلك لمَا تقدَّمَ منه بسوءِ اختيارِه فأَخرج لهذا السببِ تلك الألطافَ من أن تؤثِّر فيه، فهو الخاسرُ.

وهذه التأويلاتُ كلُّها متكلَّفةٌ بعيدةٌ، وظاهرُ الآيةِ يردُّ على القَدَرية والمعتزلة.

و«فهو المهتدي» حَمْلٌ على لفظ «مَن»، و«فأولئك هم الخاسرون» حملٌ على معنى «مَن»، وحسَّنه كونُه فاصلةً رأسَ آيةٍ.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ هذا إخبارٌ منه تعالى بأنه خَلَقَ لجهنم كثيراً من الصِّنفين.

ومناسَبةُ هذا لما قبلَه: أنه لمَّا ذَكَر أنه هو الهادي وهو المُضِلُّ أَعقبه بذكرِ مَن خُلق للخُسْران وللنارِ، وذكَرَ من أوصافهم ما ذَكَر، وفي ضِمْنِه وعيدُ الكفار، والمعنى: لعذاب جهنم، واللامُ للصيرورة على قولِ مَن أثبت لها هذا المعنى، أو لمَّا كان مآلُهم إليها جُعِلَ ذلك سببًا على جهة المجاز، وقد ردَّ ابنُ عطيةَ قولَ من زعم أنها للصيرورة؛ فقال: وليس هذا بصحيح، ولامُ العاقبة إنما يُتَصوَّر إذا كان فعلُ الفاعل لم يَقْصِدْ به ما يَصيرُ الأمرُ إليه، وأمَّا هنا فالفعلُ قُصِدَ به ما يَصيرُ الأمرُ إليه من سُكناهم بجهنم[1]. انتهى.

وإنما ذَهَبَ مَن ذهب إلى أنَّها لامُ العاقبة والصيرورةِ لأنه قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فإثباتُ كونها للعلَّة ينافي قولَه: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وأنشدوا دليلًا على إثبات معنى الصيرورة للَّام قولَ الشاعر:

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٩. وجاء في (د١) والمطبوع: لجهنم، وفي المحرر: جهنم.

أَلَا كلُّ مولودٍ فلِلْموت يُوْلَدُ ولستُ أرى حيًّا لحيٍّ يُخلَّدُ(١)

وقولَ الآخَر:

فلِلْموتِ تَغْذُو الوالداتُ سِخالَها كما لخراب الدَّهر تُبْنَى المساكنُ(٢)

ودعوى القَلْبِ فيه، وأنَّ تقديره: ولقد ذرأنا جهنَّمَ لكثيرٍ، غيرُ سديدٍ لأنَّ القلب لا يكون إلا في الشعر على الصحيح.

ولفظةُ «كثير» لا تُشْعِرُ بالأكثر، ولكن ثبت في الحديث أنَّ بعث النار أكثر؛ لقول الله لآدم: «أَخْرِجْ بعثَ النار من ذرِّيتك» فأَخرجَ من كلِّ ألفٍ تسعةً وتسعين وتسعَ مئةٍ(٣). وهؤلاء المخلوقون لجهنم هم الذين طَبَعَ الله على قلوبهم فلا يتأتَّى منهم إيمانٌ البتةَ، وتفسير ابنِ جُبيرٍ أنهم أولادُ الزنا(٤) ليس بجيِّدٍ.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ لمَّا كانوا لا يتدبَّرون شيئًا من الآيات، ولا ينظرون إليها نظرَ اعتبارٍ، ولا يسمعونها سماعَ تفكُّرٍ، جُعلوا كأنهم فَقَدوا الفِقْهَ بالقلوب، والإبصارَ بالعيون، والسماعَ بالآذان، وليس المرادُ نفي هذه الإدراكاتِ عن هذه الحواسِّ، وإنما المرادُ نفيُ الانتفاع بها فيما طلب منهم من الإيمان، وقال مسكينٌ الدارميُّ:

أعمى إذا ما جارتي خَرَجَتْ حتى يواري جارتي السِّترُ

وأَصَمُّ عن ما كان بينهما عَمْدًا وما بالسَّمْع لي وَقْرُ(٥)

وفسَّر مجاهدٌ هذا فقال: لا يفقهون بها شيئًا من أمور الآخرة، ولا يُبْصِرون بها الهدى، ولا يسمعون بها الحقَّ(٦). انتهى.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في بستان الواعظين ص١٤٣.

(٢) البيت لسابق البربري كما في العقد الفريد ٢/ ٦٩، وفقه اللغة للثعالبي ص٣٢٤، وشرح شواهد المغني للبغدادي ٤/ ٢٩٦، وهو دون نسبة في زاد المسير ٤/ ٥٦، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٣٥، وشرح التسهيل لابن مالك ٣/ ١٨، ومغني اللبيب ص٢٨٢. وجاء في بعض المصادر الدور، بدل: الدهر.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٩١.

(٥) سلف البيتان عند تفسير قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨].

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٩٤.

وفي قوله: «لهم قلوبٌ لا يفقهون بها» دليلٌ على أنَّ القلب آلةٌ للفِقْه والعلمِ كما أنَّ العين آلةٌ للإبصار، والأذنَ آلةٌ للسماع.

وقال الزمخشريّ[١]: وجَعَلهم لإغراقهم في الكفر وشدَّةِ شكائمهم فيه وأنه لا يتأتَّى منهم إلا أفعالُ أهل النار مخلوقين للنار؛ دلالةً على توغُّلهم في المُوْجِبات، وتمكُّنهم فيما يؤهِّلُهم لدخول النار، ومنه كتابُ عمر إلى خالد بن الوليد: بلغني أنَّ أهل الشام اتَّخذوا لك دلوكًا عُجِنَ بخمرٍ، وإنِّي لأظنُّكم آلَ المغيرة ذرءَ النار[٢]. ويقال لمن كان عَريقًا في بعض الأمور: ما خُلِقَ فلانٌ إلا لكذا، والمرادُ وصفُ حالهم[٣] في عظم ما أَقْدَموا عليه في تكذيب رسول الله ﷺ مع عِلْمِهم أنه النبيُّ الموعود، وأنهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتَّى منهم، كأنهم خُلقوا للنار. انتهى، وهو تكثيرٌ في الشرح.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدم الفقه في العواقب، والنظرِ للاعتبار، والسماعِ للتفكُّر، ولا يهتمُّون بغير الأكل والشرب.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ قال الزمخشريّ: بل هم أضلُّ سبيلًا من الأنعام عن الفقه والاعتبارِ والتدبُّر، وقيل: الأنعامُ تُبْصِرُ منافعَها ومضارَّها فتلزمُ بعضَ ما تبصِرُه، وهؤلاء أكثرُهم يعلم أنه معاندٌ فيُقْدِم على النار[٤].

وقال ابن عطية: حَكَم عليهم بأنهم أضلُّ لأنَّ الأنعام رُكِّب في بِنْيَتِها وخِلْقَتها أنْ لا تفكُّر في شيءٍ، وهؤلاء هم مُعَدُّون للفهم، وقد خُلقت لهم قُوًى يصرفونها، وأُعْطُوا طُرُقًا من النظر، فهم بغفلتهم وإعراضِهم يُلْحِقون أنفسَهم بالأنعام، فهم أضلُّ على هذا[٥]. انتهى.

وقيل: هم أضلُّ لأنهم يَعْصون، والأنعامُ لا تَعْصي.

---

(١) في الكشاف ٢/ ١٣١-١٣٢.

(٢) رواه أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٣٢٨، والدلوك: ما يُدلك به البدن عند الاغتسال من طِيْبٍ أو غيره. التاج (دلك).

(٣) في (د١) والمطبوع: أحوالهم، وفي الكشاف: حال اليهود.

(٤) الكشاف ٢/ ١٣٢.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٠.

وقيل: الأنعام تعرِفُ ربَّها وتسبِّح له، والكفارُ لا يعرفونه ولا يَدْعونه، ورُوي: كلُّ شيءٍ أطوعُ لله من ابْنِ آدمَ[(١)].

وقال أبو عبد الرازي[(٢)]: الإنسانُ وسائرُ الحيوان متشارِكةٌ في قوى الطبيعة الغاذية والنامية والمولِّدة[(٣)]، وفي منافع الحواسِّ الخمس الظاهرةِ والباطنةِ، وفي أحوال التخيُّلِ والتفكُّر والتذكُّر، وإنما حَصَلَ الامتيازُ بين الإنسان وغيرِه بالقوة العقلية والفكرية التي تَهْديه إلى معرفة الحق لذاته، والخيرِ لأَجْلِ العملِ به، فلمَّا أَعْرَضَ الكفارُ عن أغراض[(٤)] أحوال العقل والفِكْر ومعرفةِ الحق والعملِ بالخير، كانوا كالأنعام، ثم قال: «بل هم أضلُّ» لأن الحيوانات لا قدرةَ لها على تحصيل الفضائل، والإنسانُ أُعطِيَ القدرة على تحصيلها، ومَن أَعْرَضَ عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخسَّ حالًا ممن لم يكتسِبْها مع العجز، فلهذا قال تعالى: «بل هم أضلُّ». انتهى.

وقيل: الأنعام تَفِرُّ إلى أربابها ومَن يقومُ بمصالحها، والكافرُ يهربُ عن ربِّه الذي أَنْعُمُهُ عليه لا تُحصَى.

وقيل: الأنعام تَضِلُّ إذا لم يكن معها مرشدٌ، وقلَّما تَضِلُّ إذا كان معها، وهؤلاء قد جاءتهم الرسلُ وأُنزلت عليهم الكتبُ وهم يزدادون في الضلال. انتهى.

وأقول: هذا الإضرابُ ليس على جهة الإبطال للخبر السابقِ من تشبيههم بالأنعام، ولا يجوز أن تكون جهةُ المبالغة في الضلال هي جهةَ التشبيه؛ لأنه يؤدِّي إلى كذب أحد الخبرين، وذلك مستحيلٌ في حق الله تعالى، وكلامُ مَن تقدَّم من المفسِّرين يدل على أنه تعالى شبَّههم بالأنعام فيما ذكروا، وأنهم أضلُّ من الأنعام فيما وقع التشبيهُ فيه، وهو لا يجوز لِما ذكرناه، فالمعوَّلُ عليه أنَّ جهة التشبيه مخالِفةٌ لجهة المبالغة في الضلال، وأنَّ هذا الإضرابَ ليس على سبيل الإبطال

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٩٩.

(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٦٤.

(٣) في النسخ عدا (د١): والمتولدة، والمثبت من (د١) والمطبوع، وهو الموافق لما في تفسير الرازي.

(٤) في مطبوع الرازي: عن اعتبار.

لمدلول الجملة السابقة، «بل هم أضلُّ» إضرابٌ دالٌّ على الانتقال من إخبارٍ إلى إخبارٍ، فالجملةُ الأولى شبَّههم بالأنعام في انتفاء منافع الإدراكات المؤدِّيةِ إلى امتثالِ ما جاءت به الرسلُ، والجملةُ الثانية أثبت[١] لهم المبالغةَ في ضلال طريقهم التي يسلكونها، فالموصوفُ بالمبالغة في الضلال طريقُهم، وحُذف التمييزُ، وتقديره: بل هم أضلُّ طريقًا منهم، ويبيِّن هذا قولُه تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: في انتفاءِ السمع للتدبُّر والعقل، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، أي: بل سبيلُهم أضلُّ، فالمحكوم عليه أولًا غيرُ المحكوم عليه آخِرًا، والمحكومُ به أيضًا مختلف.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ هذه الجملةُ بيَّن تعالى بها سببَ كونهم أضلَّ من الأنعام، وهو الغفلةُ، وقال عطاءٌ: عمَّا أعدَّ الله لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب[٢].

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ قال مقاتل: دعا رجلٌ اللهَ تعالى في صلاته، ومرةً دعا الرحمن، فقال أبو جهل: أليس يزعمُ محمدٌ وأصحابُه أنهم يعبدون ربًّا واحدًا، فما بال هذا يدعو اثنين؟! فنزلت[٣].

ومناسَبتُها لما قبلها أنه تعالى لمَّا ذكر أنه ذرأ كثيراً من الجنِّ والإنس للنار ذكر نوعًا منهم وهم الذين يُلْحِدون في أسمائه، وهم أشدُّ الكفار عِتِيًّا أبو جهل وأضرابُه.

وأيضًا لمَّا نبَّه على أنَّ دخول جهنم هو للغفلة عن ذكر الله، والمخلِّصُ من العذاب هو ذكرُ الله، أَمَر بذكر الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا، والقلبُ إذا غفل عن ذكر الله وأَقْبَلَ على الدنيا وشهواتها وقع في الحرص، وانتقل من رغبةٍ إلى رغبةٍ، ومن طلبٍ إلى طلبٍ، ومن ظلمةٍ إلى ظلمةٍ، وقد وجدنا ذلك بالذوق حتى

(١) في (د١) والمطبوع: أثبتت.
(٢) تفسير الرازي ٢/ ٦٥.
(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ٩٩، وزاد المسير ٣/ ٢٩٢.

إنَّ أحدهم ليصلِّي الصلوات كُلَّها قضاءً في وقتٍ واحدٍ، فإذا انفتح على قلبه بابُ ذكر الله تعالى تخلَّص من آفات الغفلة، وامْتَثَل ما أَمَره الله به، واجْتَنَبَ ما نهى عنه.

قال الزمخشري: التي هي أحسنُ الأسماء؛ لأنها تدلُّ على معانٍ حَسَنةٍ من تحميدٍ وتقديسٍ وغيرِ ذلك[1]. انتهى.

فـ«الحسنى» هنا تأنيثُ الأحسن، ووُصِفَ الجمعُ الذي لا يَعْقِلُ بما يوصفُ به الواحدةُ، كقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] وهو فصيحٌ، ولو جاء على المطابَقة للجمع لكان التركيبُ: الحُسَنُ، على وزن الأُخَر، كقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] لأنَّ جَمْعَ ما لا يعقل يُخْبَرُ عنه ويُوْصَفُ بجمع المؤنَّثات وإن كان المفردُ مذكَّرًا.

وقيل: «الحسنى» مصدرٌ وُصِفَ به.

قال ابن عطية: والأسماءُ هاهنا بمعنى التسميات إجماعًا من المتأوِّلين، لا يمكِنُ غيرُه[2]. انتهى.

ولا تحرير فيما قال؛ لأنَّ التسمية مصدرٌ، والمرادُ هنا: الألفاظُ التي تُطلَقُ على الله تعالى، وهي الأوصافُ الدالةُ على تغايُرِ الصفات لا تغايُر الموصوف، كما تقول: جاء زيدٌ الفقيهُ الشجاعُ الكريم، وكونُ الاسم الذي أَمر تعالى أن يُدْعَى به حسنًا هو ما قرَّره الشرع ونصَّ عليه في إطلاقه على الله، ومعنى «فادعوه بها»، أي: نادُوه بها، كقولك: يا اللهُ، يا رحمنُ، يا رحيمُ، يا مالكُ، وما أَشْبَهَ ذلك.

وقال الزمخشري: فسمُّوه بتلك الأسماء[3] جَعَله من باب: دَعَوْتُ ابني عبدَ الله، أي: سمَّيته بهذا الاسم.

واختُلف في الاسم الذي يقتضي مدحًا خالصًا ولا تتعلَّقُ به شبهةٌ ولا اشتراكٌ إلَّا أنه لم يَرِدْ منصوصًا: هل يُطْلَقُ ويسمَّى الله تعالى به، فنصَّ القاضي أبو بكر

(١) الكشاف ٢/ ١٣٢، وفيه: . . . من تمجيد وتقديس. . .
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٠.
(٣) الكشاف ٢/ ١٣٢.

الباقلاني على الجواز، ونصَّ أبو الحسن الأشعريُّ على المنع، وبه قال الفقهاء والجمهورُ، وهو الصوابُ(١).

واختلف أيضًا في الأفعال التي في القرآن كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] هل يُطلق عليه منه تعالى اسم فاعِلٍ مقيَّدٍ بمتعلقه، فيقال: الله مستهزئٌ بالكافرين وماكرٌ بالذين يمكرون، فجوَّز ذلك فرقةٌ، ومنعت منه فرقةٌ، وهو الصوابُ، وأمَّا إطلاقُ اسم الفاعل بغيرِ قَيْدِه فالإجماعُ على منعه(٢).

وروى الترمذي في «جامعه»(٣) من حديث أبي هريرةَ النصَّ على تسعةٍ وتسعين اسمًا مسرودةً اسمًا اسمًا؛ قال ابنُ عطية(٤): وفي بعضها شذوذٌ، وذلك الحديثُ ليس بالمتواتر - وإن كان قد قال فيه أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقةٌ عند أهل الحديث(٥) - وإنما المتواترُ منه قولُ النبيِّ ﷺ: «إنَّ للهِ تسعةً وتسعين اسمًا، مئةً إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنة» ومعنى «أحصاها»: عدَّها وحَفِظَها، وتضمَّن ذلك الإيمانَ بها، والتعظيمَ لها، والرغبة فيها، والعبرةَ في معانيها، وهذا حديثُ البخاري(٦). انتهى، وتسميةُ هذا الحديث متواترًا ليس على اصطلاح الناس(٧) في المتواتر، وإنما هو خبرُ آحادٍ(٨).

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٠، وينظر شرح المواقف للجرجاني ٨/ ٢١٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) برقم (٣٥٠٧).
(٤) في المحرر ٢/ ٤٨١.
(٥) سنن الترمذي، إثر الحديث المذكور، وقوله: وإن كان قد قال فيه أبو عيسى، إلى هذا الموضع ليس في المحرر الوجيز، لكن ذكره القرطبي ٩/ ٣٩١ ضمن كلام ابن عطية، وسياق المصنف مطابق لما في القرطبي.
(٦) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٧) في (د١) والمطبوع: المحدثين.
(٨) ينظر فتح الباري ١١/ ٢١٤-٢١٥، وقد نفى ابن حجر أيضاً كونَ هذا الحديث متواتراً بعد أن نقل كلام ابن عطية في تواتره، ثم قال: بل غاية أمره أن يكون مشهوراً.

وفي بعض دعاء رسول الله ﷺ: «يا حنَّان يا منَّان» ولم يَرِدا في «جامع» الترمذي[١].

وقد صنَّف العلماء في شرح أسماء الله الحسنى، كأبي حامدٍ الغزالي[٢]، وأبي الحَكَم بنِ بَرَّجَان[٣]، وأبي عبد الله الرازي[٤]، وأبي بكر بن العربي[٥]، وغيرهم.

قال الزمخشري: ويجوز أن يراد: ولله الأوصافُ الحسنى، وهي الوصفُ بالعدل والخير والإحسان، وانتفاءِ شَبَه الخَلْقِ، فصِفُوه بها وذَروا الذين يُلْحِدون في صفاته، فيَصِفونه بمشيئة القبائح، وخَلْقِ الفحشاء والمنكرِ، وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوِها[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨١، والحديث المذكور أخرجه أحمد (١٣٤١١) عن أنس ﷺ، وإسناده ضعيف جدًا كما قال محققو المسند، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤١٥٤) عن أبي هريرة ﷺ، وإسناده حسن كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦٠.

(٢) واسمه: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وهو مطبوع.

(٣) واسمه: شرح الأسماء الحسنى، قال حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٠٧١: وهو كتاب كبير جمع فيه من أسماء الله تعالى ما زاد على المئة والثلاثين كلها مشهورة مروية... إلى آخر كلامه. وابن بَرَّجان: هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال اللخمي المغربي الإفريقي، ثم الأندلسي الإشبيلي، شيخ الصوفية، توفي سنة (٥٣٦هـ). السير ٢٠/ ٧٢.

(٤) واسمه: لوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات، وذكره الرازي في تفسيره ١٥/ ٦٦، وهو مطبوع.

(٥) واسمه: الأمد الأقصى، وقد أشار إليه في مواضع كثيرة من كتاب «أحكام القرآن» منها عند شرح هذه الآية ٢/ ٨٠٣.

(٦) الكشاف ٢/ ١٣٢. والعجب من المصنف كيف أورد هذا الكلام وذهل عن الرد عليه بشيء، وهو الذي ردَّ عليه فيما هو أقل من هذا بكثير، ففي هذا الكلام جرأة على أهل السنَّة، واتهام لهم بأنهم يُلحدون في صفات الله، وانتصارٌ لمذهب المعتزلة القائلين بأن الله تنزَّه عن خلق الفحشاء، ويكفي ردًّا عليه ما جاء في المناظرة بين الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني والقاضي عبد الجبار المعتزلي؛ قال القاضي في ابتداء جلوسه للمناظرة: سبحان مَن تنزَّه عن الفحشاء. فقال الأستاذ: سبحان مَن لا يقعُ في ملكه إلا ما يشاء. فقال القاضي: أفَيَشاءُ ربُّنا أن يُعْصَى؟! فقال الأستاذ: أيُعْصَى ربُّنا قهراً؟! فقال عبد الجبار: أفرأيت إن منعني الهدى وقضى عليَّ بالرَّدى، أحْسَنَ إليَّ أم أساء؟ فقال الأستاذ: إن كان منعك ما هو لك =

وقيل: معنى قوله: «وذروا الذين يُلحدون في أسمائه»: اتركوهم ولا تحاجُّوهم ولا تَعْرِضوا لهم؛ قاله ابن زيد، فتكون الآيةُ على هذا منسوخةً بالقتال(١).

وقيل: معناه الوعيدُ، كقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]، وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣].

وقال الزمخشري: واتركوا تسميةَ الذين يَميلون عن الحقِّ والصواب فيها فيسمُّونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يُسمُّوه بما لا يجوز عليه، كما سمعنا البَدْوَ يقولون بجهلهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا سنحي، أو أن يأبَوْا تسميتَه ببعض أسمائه الحسنى، نحو أن يقولوا: يا الله، ولا يقولوا: يا رحمن(٢).

وقيل: معنى الإلحادِ في أسمائه: تسميتُهم أوثانَهم اللاتَ نظرًا إلى اسم الله تعالى، والعزَّى نظرًا إلى العزيز؛ قاله مجاهد. ويسمُّون الله أبًا، وأوثانَهم أربابًا، ونحو هذا.

وقال ابن عباس: معنى «يُلْحِدون»: يكذِّبون.

وقال قتادة: يُشرِكون(٣).

وقال الخطابي(٤): الغلطُ في أسمائه والزيغُ عنها إلحادٌ.

وقرأ حمزة: «يَلْحَدون» بفتح الياء والحاء، وكذا في «النحل» [الآية: ١٠٣] و«السجدة» [الآية: ٤٠](٥)، وهي قراءةُ ابنِ وثّابٍ والأعمشِ وطلحةَ وعيسى(٦)، وقرأ باقي السبعةِ بضم الياء وكسرِ الحاء فيهنّ.

= فقد أساء، وإن منعك ما هو له فيَختصُّ برحمته مَن يشاء. فانقطع عبد الجبار. طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٢٦١. أما مسألة رؤية الله في الآخرة فقد سلف الكلام عليها عند قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٥٩٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨١، والكلام منه.

(٢) الكشاف ٢/ ١٣٢.

(٣) أخرج الأقوال الثلاثة عن مجاهد وابن عباس وقتادة الطبري ١٠/ ٥٩٧-٥٩٨.

(٤) كما في زاد المسير ٣/ ٢٩٣.

(٥) السبعة ص٢٩٨، والتيسير ص١١٤ و١٣٨، ويعني بالسجدة سورة فصلت.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨١.

و«سيُجْزَوْن» وعيدٌ شديدٌ، وانْدَرَج تحت قوله: «ما كانوا يعملون» الإلحادُ في أسمائه، وسائرُ أفعالهم القبيحة.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ لـمَّا ذَكَـرَ مَن ذرأ للنار ذَكَر مقابِلَهم، وفي لفظةِ «وممن» دلالةٌ على التبعيض، وأنَّ المُعْظَم من المخلوقين ليسوا هداةً إلى الحقِّ ولا عادِلينَ به.

قيل: هم العلماءُ والدُّعاةُ إلى الدِّين.

وقيل: هم مؤمِنو أهلِ الكتاب؛ قاله ابنُ الكلبيِّ[١].

ورَوَى قتادةُ وابنُ جُرَيْجٍ[٢].

وقيل: هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسانٍ[٣].

وقال ابن عباس: هم أمةُ محمدٍ ﷺ[٤] وعليه أكثرُ المفسِّرين، ورُوي في ذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «هذه لكم، وقد أُعطي القومُ بين أيديكم مثلَها، ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٩]»[٥]، وعنه ﷺ: «إنَّ من أمَّتي قومًا على الحقِّ حتى ينزل عيسى ابنُ مريم»[٦].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٣.

(٢) كذا وقع، ولم يذكر المصنف قولهما، ويجب أن تكون العبارة: وروى قتادة وابن جريج عن النبي ﷺ أنهم هذه الأمة. أخرج ذلك عنهما الطبري ١٠/ ٦٠٠، وذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٩٤، وسيرد لفظ خبر قتادة قريباً. ووقع في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: وروي عن قتادة وابن جريج.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢١٨، وزاد المسير ٣/ ٢٩٤ عن ابن عباس ﷺ، وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) هو مثل الذي قبله، فقد جاء لفظ الخبر عند البغوي: قال عطاء عن ابن عباس: يريد أمة محمد ﷺ وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٠٠ عن قتادة مرسلًا، وقد سلفت الإشارة إليه قريباً.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٢٣ عن الربيع بن أنس مرسلاً، وله شاهد من حديث عمران بن حصين عند أحمد (١٩٨٥١). وفي الباب عن المغيرة بن شعبة عند البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١)، وعن معاوية عند البخاري (٧١)، ومسلم ٣/ ١٥٢٤ (١٠٣٧): (١٧٤).

والظاهرُ أنَّ هذه الجملةَ أخبر فيها أنَّ ممن خَلَقَ أمةً موصوفون بكذا، فلا يدلُّ على تعيينٍ لا في أشخاصٍ ولا في أزمانٍ، وصَلَحت لكلِّ هادٍ بالحقِّ من هذه الأمة وغيرهم، وفي زمان الرسول وغيرِه، كما أنَّ مقابِلَها في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لا يدل على تعيينِ أشخاصٍ ولا زمانٍ، وإنما هذا تقسيمٌ للمخلوق للنار والمخلوقِ للجنة، ولذلك قيل: إنَّ في الكلام محذوفًا تقديره: وممَّن خلقنا للجنة، يدلُّ عليه إثباتُ مقابِلِهِ في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾.

وقال الجبَّائي: هذه الآيةُ تدلُّ على أنْ لا يخلوَ زمانٌ البتةَ ممن يقومُ بالحق ويعملُ به ويهدي إليه، وأنهم لا يجتمعون في شيءٍ من الأزمنة على الباطل[١]. انتهى.

والآيةُ لا تدل على ما زعم الجبَّائي، وما قاله مخالفٌ لمَا رُوي من أنه «لا تقومُ الساعةُ إلَّا على شرار الخلق»[٢]، «ولا تقومُ الساعةُ حتى لا يقالَ في الأرض: الله»[٣]، و: لا تقوم الساعةُ حتى يُسْرَى على كتاب الله فلا يبقى منه حرفٌ[٤]. أو كما قيل[٥].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ قال الخليل بن أحمد: سنطوي أعمارَهم في اغترارٍ منهم.

وقال أبو عبيدة: الاستدراج أن تَدْرُجَ إلى الشيء في خفيةٍ قليلًا قليلًا ولا تهجمَ عليه، وأصله من الدَّرَجة، وذلك أنَّ الراقيَ والنازلَ يَرْقَى وينزلُ مرقاةً مرقاةً، ومنه دَرَجَ الكتابَ: طواه شيئًا بعد شيءٍ، ودَرَجَ القومُ: ماتوا بعضُهم في أثر بعض.

وقال ابن قُتيبة: هو أن يُذيقهم من بأسه قليلًا قليلًا من حيث لا يعلمون، ولا يباغتهم[٦] به، ولا يجاهرهم.

---

(١) تفسير الرازي ١٥/ ٧٢.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٩) من حديث ابن مسعود ﷺ.
(٣) أخرجه مسلم (١٤٨) من حديث أنس ﷺ.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم ٤/ ٤٧٣ و٥٤٥ من حديث حذيفة ﷺ، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
(٥) في (د١) والمطبوع: قال.
(٦) في النسخ: يتابعهم، وهو خطأ، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

وقال الأزهري: سنأخذُهم قليلًا قليلًا من حيث لا يحتسبون، وذلك أنَّ الله تعالى يفتحُ بابًا من النعمة يَغْتَبِطون به ويَرْكَنون إليه، ثم يأخذُهم على غِرَّتهم أغفلَ ما يكونون[١]. انتهى.

ومنه: دَرَجَ الصبيُّ: إذا قارَبَ بين خُطاه، والمعنى: سَنَسْتَرِقُهم[٢] شيئًا بعد شيءٍ ودرجةً بعد درجةٍ بالنعم عليهم والإمهالِ لهم، حتى يغترُّوا ويظنُّوا أنهم لا ينالُهم عقابٌ.

وقال الجبَّائي: سنستدرجهم إلى العقوبات حتى يقعوا فيها من حيث لا يعلمون، استدراجًا لهم إلى ذلك، فيجوز أن يكون هذا العذابُ في الدنيا كالقتل، ويجوزُ أن يكون عذابَ الآخرة[٣].

وقال الزمخشري: ومعنى «سنستدرجهم»: سَنَسْتَدْنيهم قليلًا قليلًا إلى ما يُهْلِكهم ويضاعِفُ عقابهم، «من حيث لا يعلمون» ما يراد بهم، وذلك أن يُوَاتِرَ الله نعمَه عليهم مع انهماكهم في الغيِّ، فكلما جدَّد عليهم نعمةً ازدادوا بطرًا وجدَّدوا معصيةً، فيتدرَّجون في المعاصي بسبب ترادُفِ النعم ظانِّينَ أنَّ مُواتَرَةَ النعم أثرةٌ من الله وتقريبٌ، وإنما هي خذلانٌ منه وتبعيدٌ، فهو استدراجُ الله نعوذ بالله تعالى منه[٤].

«من حيث لا يعلمون»؛ قيل: بالاستدراج. وقيل: بالهلاك.

وقرأ النخعيُّ وابنُ وثَّابٍ: «سَيَسْتَدْرِجُهم» بالياء[٥]، فاحْتملَ أن يكون من باب الالتفات واحتمل أن يكون الفاعلُ ضمير التكذيبِ المفهومَ من «كذَّبوا»، أي: سيستدرجُهم هو، أي: التكذيب.

وقال الأعشى في الاستدراج:

---

(١) ذكر هذه الأقوال ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٩٤-٢٩٥، وعنه نقل المصنف، وينظر قول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٣٣، وقول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص١٢٦، وتفسير غريب القرآن ص٤٨١، وقول الأزهري في تهذيب اللغة ١٠/ ٦٤٧.

(٢) كذا في النسخ، والذي في المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٢ (والكلام منه): سنسوقهم، وهو الأشبه.

(٣) تفسير الرازي ١٥/ ٧٤.

(٤) الكشاف ٢/ ١٣٣.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٢، وهي في القراءات الشاذة ص٤٧ عن بعضهم.

فلو كنتَ في جبٍّ ثمانين قامةً ورُقِّيتَ أسبابَ السماء بسُلَّم
لَيَسْتَدْرِجَنْكَ القولُ حتى تَهرَّه وتعلمَ أنّي عنكمُ غيرُ مُفْحَمِ[١]

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ معطوفٌ على «سنستدرِجُهم»، فهو داخلٌ في الاستقبال، وهو خروجٌ من ضميرِ التكلُّم بنون العظمة إلى ضمير تكلُّم المفرَد، والمعنى: أُؤَخِّرُه[٢] مُلاوَةً من الدَّهر، أي: مدَّةً فيها طولٌ، والملاوةُ بفتح الميم وضمِّها وكسرِها. ومنه: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي: طويلًا، وسمَّى فعلَه ذلك بهم كيدًا لأنه شبيهٌ بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسانٌ وفي الحقيقة خُذْلان.

قال ابن عباس: يريد: إنَّ مَكْري شديد[٣].

وقيل: إنَّ عذابي، وسمَّاه كيدًا لنزوله بالعباد من حيث لا يشعرون.

والمتين من كلِّ شيءٍ: القويُّ، يقال: مَتُنَ مَتانةً.

وهذا إخبارٌ عن المكذِّبين عمومًا، وقيل: نزلت في المستهزِئينَ من قُريشٍ؛ قَتَلهم الله في ليلةٍ واحدةٍ[٤] بعد أن أمهلهم مدةً.

وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر: «أنَّ كيدي» بفتح الهمزة، على معنى: لأَجْلِ أنَّ كيدي[٥]، وقرأ الجمهور بكسرها على الاستئناف.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ قال الحسن وقتادة: سببُ نزولها أنَّ رسول الله ﷺ صعد ليلًا على الصَّفا، فجعل يدعو قبائلَ قريش:

---

(١) ديوان الأعشى ص١٧٣، والكشاف ٢/ ٤٣١، ورواية الديوان: وتعلم أني عنك لستُ بمُلْجَم. قوله: تهرَّه، قال في القاموس (هرر): هرَّه يَهُرُّه ويَهِرُّه: كرهه، والمعنى: لئن خرقتَ الأرض أو طرت في الفضاء ليبلغنك قولي، وليتركنك تدرج في الأرض حتى تكره الكلام، وتعلم أني غير عاجز عن الانتقام. قاله شارح الديوان.

(٢) في (ب) و(د٣) و(يه): أؤخرهم.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢١٨، وزاد المسير ٣/ ٢٩٥.

(٤) أي: يوم بدر، كما في روح المعاني ٩/ ٥٠٧، وهذا القول ذكره الثعلبي ٣/ ١٠١، والبغوي ٢/ ٢١٨، وابن الجوزي ٣/ ٢٩٤، وعزاه لمقاتل.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٢.

يا بني فلانٍ، يا بني فلانٍ، يحذِّرُهم ويدعوهم إلى الله تعالى، فقال بعض الكفار حين أصبحوا: هذا مجنونٌ باتَ يصوِّت حتى الصباح[١]!

وكانوا يقولون: شاعرٌ مجنون، فنفى الله عز وجل ما قالوه[٢]، ثم أَخبر أنه محذِّرٌ من عذاب الله، والآيةُ باعثةٌ لهم على التفكُّر في أمر الرسول ﷺ وانتفاءِ الجِنَّة عنه.

وهذا الاستفهامُ قيل: معناه التوبيخ. وقيل: التحريضُ على التأمُّل.

والجِنَّةُ: الجنُّ، كما قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] والمعنى: من مسِّ جِنَّةٍ، أو: مِن تخبيطِ جِنَّة، وقيل: هي هيئةٌ كالجِلْسة والرِّكْبة أُريدَ بها المصدرُ، أي: ما بصاحبهم من جُنون.

والظاهر أنَّ «يتفكَّروا» متعلِّقٌ عن الجملة المَنْفيَّةِ، وهي في موضع نصبِ «يتفكَّروا» بعد إسقاط حرف الجرِّ؛ لأنَّ التفكُّر من أفعال القلوب فيجوزُ تعليقه، والمعنى: أولم يتأمَّلوا ويتدبَّروا في انتفاءِ هذا الوصفِ عن الرسول، فإنه مُنْتَفٍ لا محالةَ، ولا يمكنُ لمن أَمْعَنَ الفكر أن يَنْسبَ ذلك إليه[٣].

وقيل: ثَمَّ مضمرٌ محذوفٌ، أي: فيَعْلَموا ما بصاحبهم من جِنَّةٍ؛ قاله الحَوْفي: وزعم أنَّ «تفكَّر» لا يُعلَّق؛ لأنه لا يدْخلُ على الجمل، قال: ودلَّ التفكُّرُ على العلم.

وقال أصحابنا: إذا كان فعلُ القلب يتعدَّى بحرف جرٍّ قدِّرتِ الجملةُ في موضع نصبٍ[٤] بعد إسقاط حرف الجرِّ، ومنهم مَن زَعَم أن يُضمَّنُ الفعلُ الذي تعدَّى بنفسه إلى واحدٍ أو بحرفِ جرٍّ إلى واحدٍ معنى ما يتعدَّى إلى اثنين، فتكونُ الجملة في موضع المفعولين، فعلى هذين الوجهين لا حاجة إلى هذا المضمَرِ الذي قدَّره الحَوْفي.

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٩٦، وأخرجه عن قتادة الطبري ١٠/ ٦٠٢.
(٢) في (د١) والمطبوع: عنه ما قالوه.
(٣) في النسخ: ولا يمكن لمن أنعم الفكر في نسبة ذلك إليه، والمثبت من النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٤٣١.
(٤) في المطبوع: جر، وهو خطأ.

وقيل: تمَّ الكلامُ على قوله: «يتفكَّروا» ثم استأنف إخبارًا بانتفاءِ الجنة وإثباتِ النذارة.

وقال أبو البقاء: في «ما» وجهان:

أحدهما: أنها نافيةٌ، وفي الكلام حذفٌ تقديره: أولم يتفكَّروا في قولهم: به جنة.

والثاني: أنها استفهامٌ، أي: أولم يتفكَّروا أيُّ شيءٍ بصاحبهم[١] من الجنون مع انتظامِ أقواله وأفعاله.

وقيل: هي بمعنى الذي، تقديره: أولم يتفكَّروا في ما بصاحبهم، وعلى هذا يكون الكلامُ خَرَجَ على زَعْمِهم[٢]. انتهى، وهي تخريجاتٌ ضعيفةٌ ينبغي أن ينزَّه القرآنُ عنها، و«تفكَّر» مما ثبت في اللسان تعليقُه، فلا ينبغي أن يُعْدَلَ عنه.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ لمَّا حضَّهم على التفكُّر في حال الرسول، وكان مفرَّعًا على تقرير دلائل التوحيد، أَعْقَبَ بما يدلُّ على التوحيد ووجودِ الصانع الحكيم، و«الملكوت»: المُلْكُ العظيم، وتقدَّم شرحُ ذلك في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، ولم يقتصر على ذِكْرِ النظر في الملكوت بل نبَّه على أنَّ كلَّ فردٍ فردٍ من الموجودات محلٌّ للنظر والاعتبارِ والاستدلالِ على الصانع ووحدانيته، كما قال الشاعر:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحدُ[٣]

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ «وأنْ» معطوفٌ على «ما» في قوله: «وما خَلَقَ»، وُبِّخوا على انتفاءِ نظرهم في ملكوت السَّماوات والأرض، وهي أعظمُ المصنوعات وأَدَلُّها على عظمة الصانع، ثم عَطَفَ عليه شيئًا عامًّا وهو قولُه: «وما خلق الله من شيء» فاندرج «السماوات والأرض» في «ما خلق»، ثم عَطَفَ عليه شيئًا يخصُّ أنفسَهم، وهو انتفاءُ نظرِهم وتفكُّرِهم في أنَّ أَجَلَهم قد اقترب، فيبادِرُهم الموتُ على حالة الغفلة عن النظر في ما ذكر، فيَؤُولُ أمرُهم إلى الخسار

(١) قوله: أي: مبتدأ، والخبر: بصاحبهم. الدر المصون ٥/ ٥٢٥.
(٢) الإملاء ١/ ٢٨٩.
(٣) سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨].

وعذابِ النار، نبَّههم على الفكر في اقتراب الأجَل لعلهم يبادرون إليه، وإلى طلب الحق وما يخلِّصهم من عذاب الله قبل مُغافصة(١) الأجَل.

و«أجلُهم»: وقتُ موتهم، وقال الزمخشري: يجوزُ أن يراد باقتراب الأجل: اقترابُ الساعة(٢).

و«أنْ» هي المخفَّفةُ من الثقيلة، واسمُها محذوفٌ ضميرُ الشأن، وخبرُها «عسى» وما تعلَّقت به، وقد وقع خبرًا لها الجملةُ غيرُ الخبرية(٣) في مثل هذه الآية، وفي مثل: ﴿والخامِسَةُ أنْ غَضِبَ اللهُ علَيها﴾(٤) [النور: ٩] فـ«غَضِبَ اللهُ عليها» جملةُ دعاءٍ، وهي غيرُ خبريةٍ، فلو كانت «أنْ» مشدَّدة لم تقع «عسى» ولا جملةُ الدعاء خبرًا لها، لا يجوز: علمتُ أنَّ زيدًا عسى أن يخرج، ولا: علمتُ أنَّ زيدًا لَعَنه اللهُ، وأنت تريد الدُّعاء.

وأجاز أبو البقاء أن تكون «أن» هي المخفَّفةَ من الثقيلة، وأن تكون مصدرية(٥)، يعني أن تكون الموضوعةَ على حرفين، وهي الناصبةُ للفعل المضارع، وليس بشيءٍ لأنهم نصُّوا على أنها تُوْصَلُ بفعلٍ متصرِّفٍ مطلقًا، يعنون ماضيًا ومضارعًا وأمرًا، فشَرَطوا فيه التصرُّفَ، و«عسى» فعلٌ جامدٌ فلا يجوزُ أن يكون صلةً لـ«أنْ».

و«عسى» هنا تامةٌ، «وأن يكون» فاعلٌ بها، نحو قولك: عسى أن تقوم، واسم «يكون» قال الحوفي: «أجلهم»، «وقد اقترب» الخبر.

وقال الزمخشري وغيره: اسم «يكون» ضميرُ الشأن(٦)، فيكون «قد اقترب أجلُهم» في موضع نصبٍ في موضعِ خبرِ «يكون»، «وأجلُهم» فاعلٌ بـ«اقترب».

---

(١) تحرفت في (د١) والمطبوع إلى: مقانصة. والمغافصة من غافَصَه: فاجأه، وأخذه على غِرَّة. القاموس (غفص).
(٢) الكشاف ٢/ ١٣٣.
(٣) في (ب) و(د٣) و(يه): الطلبية، وهو خطأ.
(٤) وهي قراءة نافع من السبعة كما سيرد عند تفسير الآية.
(٥) الإملاء ١/ ٢٨٩.
(٦) الكشاف ٢/ ١٣٣.

وما أجازه الحوفي فيه خلافٌ، فإذا قلتَ: كان يقومُ زيدٌ، فمن النحويين مَن زعم أنَّ «زيدًا» هو الاسمُ و«يقومُ» في موضع نصبٍ على الخبر، ومنهم مَن منع ذلك، ويَجْعَلُ في «كان» ضميرَ الشأن، والجوازُ اختيارُ ابنِ مالكٍ، والمنعُ اختيارُ ابنِ عصفورٍ[١]، وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاةَ التقسيم والدلائل في شرحنا لكتاب «التسهيل»[٢].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ معنى هذه الجملةِ وما قبلها توقيفُهم وتوبيخُهم على أنه لم يقع منهم نظيرٌ ولا تدبُّرٌ، في شيءٍ من ملكوت السماوات والأرض، ولا في مخلوقات الله تعالى، ولا في اقترابِ آجالهم، ثم قال: فبأيِّ حديثٍ أو أمرٍ يقعُ إيمانُهم وتصديقُهم إذ لم يقع بأمرٍ فيه نجاتُهم ودخولُهم الجنةَ، ونحوُه قول الشاعر:

فعَنْ أيِّ نفسٍ بعد نفسي أقاتلُ[٣]

والمعنى: إذا لم أُقاتِلْ عن نفسي فكيف أقاتل عن غيرها؟ وكذلك: إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث الذي هو الصدقُ المحضُ وفيه نجاتُهم وخلاصُهم فكيف يُصدِّقون بحديثٍ غيرِه؟ والمعنى أنه ليس من طباعهم التصديقُ بما فيه خلاصُهم.

والضمير في «بعده» للقرآن، أو للرسول، أي: بعد الرسول وقصتِه وأمرِه، أو للأجَلِ إذ لا عملَ بعد الموت، أقوالٌ ثلاثة.

قال الزمخشري: فإنْ قلتَ: بم يَتعلَّق قوله: «فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمنون»؟ قلتُ: بقوله: «عسى أن يكونَ قد اقْتَرِبَ أَجَلُهم»، كأنه قيل: لعل أجلَهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون الإيمانَ[٤] بالقرآن قبل الفَوْتِ، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق، وبأيِّ

---

(١) ينظر شرح التسهيل لابن مالك ١/ ٣٧١، والمقرب لابن عصفور ١/ ٩٦.

(٢) التذييل والتكميل في شرح التسهيل ٤/ ١٨٣.

(٣) وصدره: فجردت سيفي ثم قمت بنصله، والبيت لضرار بن الخطاب ﷺ، وهو في سيرة ابن هشام ١/ ٤١٥، وطبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٣، والكلام منه. وجاء في هذه المصادر: وعن، بالواو.

(٤) في المطبوع ومطبوع الكشاف: إلى الإيمان، والمثبت من النسخ، وهو الموافق لمَا في المصادر التي نقلت عن الكشاف، ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٤١، وروح المعاني ٩/ ٥١١. وكلاهما صواب، ينظر اللسان (بدر).

حديثٍ أحقَّ منه يريدون أن يؤمنوا[١]؟

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ نَفَى نفيًا عامًّا أن يكون هادٍ لمن أضلَّه الله، فتضمَّن اليأسَ من إيمانهم والمقتَ لهم.

﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ قرأ الحسنُ وقتادةُ وأبو عبد الرحمن وأبو جعفر والأعرجُ وشيبةُ والحِرْميَّان وابنُ عامرٍ: «ونَذَرُهم» بالنون ورفع الراء، وأبو عمرٍو وعاصمٌ بالياء ورفعِ الراء[٢]، وهو استئنافُ إخبارٍ: قُطِعَ الفعل، أو أُضمر قبله: نحن[٣]، فيكون جملةً اسمية.

وقرأ ابن مصرِّفٍ والأعمشُ والأخوان، وأبو عمرو فيما ذكر أبو حاتم بالياء والجزم[٤]، وروى خارجةُ عن نافعٍ بالنون والجزم[٥]، وخُرِّج سكونُ الراء على وجهين:

أحدهما: أنه سكِّن لتوالي الحركات كقراءة: «وما يشعرْكم»[٦] و«ينصرْكم»[٧] فهو مرفوعٌ.

والآخَر: أنه مجزومٌ عطفًا على محلِّ «فلا هادي له» فإنه في موضع جزمٍ، فصار مِثْلَ قوله: «فهو خيرٌ لكم ونكفِّرْ» في قراءةِ مَن جَزَمَ راءَ «ونكفِّرْ»[٨]، ومثْلَ قول الشاعر:

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٤.
(٢) ينظر السبعة ص٢٩٨، والتيسير ص١١٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٣، والنشر ٢/ ٢٧٣.
(٣) في (ب) و(د٣) و(يه): وأضمر...، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما قاله ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٨٣، قال: وهذا على إضمار مبتدأ: ونحن نذرهم، أو على قطع الفعل واستئناف القول. اهـ. وتقدير «نحن» على قراءة النون، أما على قراءة الياء فيقدر: هو. ينظر الدر المصون ٥/ ٥٢٨.
(٤) قراءة الأخوين في السبعة ص٩٩، والتيسير ص١١٥، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٣، وهي خلاف المشهور عن أبي عمرو.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤، وهي خلاف المشهور عن نافع.
(٦) الآية: (١٠٩) من سورة الأنعام، وقرأ بالجزم فيها أبو عمرو بخلف عن الدوري.
(٧) الآية: (١٦٠) من آل عمران، وقرأ بالجزم فيها أيضاً أبو عمرو بخلف عن الدوري.
(٨) الآية: (٢٧١) من البقرة، وقرأ بالجزم في «ونكفِّرْ» نافع وحمزة والكسائي.

أنَّى سلكتَ فإنَّني لك كاشحٌ وعلى انتقاصِكَ في الحياة وأَزْدَدِ[١]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ الضميرُ في «يسألونك» لقريشٍ، قالوا: يا محمد، إنَّا قَرابَتُكَ فأخبِرْنا بوقتِ الساعة[٢].

وقال ابن عباس: الضمير لليهود؛ قال جَبَل[٣] بن أبي قُشَيْر وشَمْويل بنُ زيد: إن كنتَ نبيًا فأَخْبِرْنا بوقت الساعة، فإنَّا نعرفُها، فإنْ صَدَقْتَ آمنَّا بك. فنزلت.

ومناسَبتُها لمَا قبلها: أنه لمَّا ذكر التوحيدَ والنبوَّةَ والقضاءَ والقَدَرَ، أَتْبَعَ ذلك بذِكْرِ المَعاد، وأيضًا فلمَّا تقدَّم قولُه: «وأنْ عسى أن يكونَ قد اقْتَرَبَ أَجَلُهم»، وكان ذلك باعثًا على المبادَرة إلى التوبة، أتَى بالسُّؤال عن السَّاعة ليُعْلم أنَّ وقتَها مكتومٌ عن الخَلْق، فيكون ذلك سببًا للمسارعة إلى التوبة.

و«الساعة»: القيامة، موتُ مَن كان حينئذٍ حيًّا وبَعْثُ الجميع يقعُ عليه اسمُ الساعة واسمُ القيامة. و«الساعة» من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا.

وقرأ الجمهور: «أيان» بفتح الهمزة، والسُّلَميُّ بكسرها حيث وقعت، وتقدَّم أنها لغة قومه سُليم[٤]، و«مرساها» مصدرٌ، أي: متى إرساؤها: إثباتُها وإقرارُها، والرسُوُّ: ثباتُ الشيء الثقيل، ومنه: رسا الجبلُ، وأَرْسَيْتُ السفينةَ، والمَرْسَى: المكانُ الذي تَرْسُو فيه.

وقال الزمخشري: «مرساها»: إرساؤها، أو: وقتُ إرسائها، أي: إثباتها وإقرارها[٥]. انتهى.

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٦٥٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤، واللسان (أيا). ورواية التهذيب واللسان: أيًّا فعلتَ فإنني. . .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٢٤٥، والطبري ١٠/ ٦٠٤ عن قتادة.

(٣) في (أ) و(د١) و(د٣) و(ع): حِسْل، وهي غير واضحة في باقي النسخ، والمثبت من المصادر. ينظر سيرة ابن هشام ١/ ٥٦٩، وتفسير الطبري ١٠/ ٦٠٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤.

(٤) عند شرح مفردات الآية، وذكرها عنه في هذه الآية ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٨، وابن جني في المحتسب ١/ ٢٦٨، وابن عطية في المحرر ٢/ ٤٨٤، والزمخشري في الكشاف ٢/ ١٣٤.

(٥) الكشاف ٢/ ١٣٤.

وتقديره: أو وقتُ إرسائها، ليس بجيدٍ، لأنَّ «أيان» اسمُ استفهامٍ عن الوقت فلا يصحُّ أن يكون خبرًا عن الوقت إلا بمجازٍ؛ لأنه يكون التقدير: في أيِّ وقتٍ وقتُ إرسائها.

و«أيان مرساها» مبتدأ وخبر، وحَكَى ابنُ عطيَّةَ عن المبرِّد أن «مُرساها» مرتفِعٌ بإضمارِ فِعْلٍ[١]، ولا حاجةَ إلى هذا الإضمار.

و«أيان مُرساها» جملةٌ استفهاميةٌ في موضع البدل من «الساعة»، والبدلُ على نية تكرارِ العامل، وذلك العاملُ معلَّقٌ عن العمل؛ لأن الجملة فيها استفهامٌ، ولمَّا عُلِّقَ الفعلُ وهو يتعدَّى بـ«عن» صارت الجملة في موضع نصبٍ على إسقاط حرف الجر، فهو يدلُّ في الحقيقة على[٢] موضع «عن الساعة»؛ لأن موضع المجرور نصبٌ، ونظيرُه في البدل قولُهم: عَرَفْتُ زيدًا أبو مَن هو، على أحسن المذاهب في تخريج هذه المسألة، أعني في[٣] كون الجملة الاستفهامية تكونُ في موضع البدل.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: اللهُ استأثر بعِلْمها، ولمَّا كان السؤالُ عن الساعة عمومًا، ثم خصِّص بالسؤال عن وقتها، جاء الجوابُ عمومًا عنها بقوله: «قل إنَّما علمُها عند ربِّي»، ثم خصِّصت من حيث الوقتُ فقيل: «لا يجلِّيها لوقتها إلَّا هو».

وعِلْمُ الساعة من الخمس التي نُصَّ عليها من الغيب أنه لا يعلمها إلا الله، والمعنى: لا يُظْهِرُها ويَكشفُها لوقتها الذي قدِّر أن تكون فيه إلا هو، قالوا: وحكمةُ إخفائها أنهم يكونون دائمًا على حذرٍ، فإخفاؤها أدْعَى إلى الطاعة وأَزْجَرُ عن المعصية، كما أَخْفَى الأجَلَ الخاصَّ ـ وهو وقتُ الموت ـ لذلك.

وقال الزمخشري: «لا يجلِّيها لوقتها إلَّا هو»، أي: لا تزالُ خَفِيَّةً، ولا يُظْهِرُ أمرَها ولا يكشفُ خفاءَ عِلْمِها إلَّا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتةً، لا يجلِّيها

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤.
(٢) كذا في النسخ، ولعل الأنسب بالسياق: مِن، كما في الدر المصون ٥/ ٥٢٦.
(٣) في (ز١): من.

بالخبر عنها قبل مجيئها أحدٌ من خَلْقِه؛ لاستمرارِ الخفاءِ بها على[(١)] غيره إلى وقتِ وقوعها[(٢)]. انتهى، وهو كلامٌ فيه تكثيرٌ وعُجمةٌ.

﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن جريج: معناه: ثَقُلَتْ على السماوات والأرض أنفسِها؛ لتفَطُّرِ السماوات، وتبدُّلِ الأرض، ونَسْفِ الجبال.

وقال الحسن: ثَقُلَتْ لهيبتها والفزعِ منها على أهل السماوات والأرض.

وقال السدِّي: معنى «ثَقُلت»: خَفِيَتْ في السماوات والأرض، فلم يَعْلَم أحدٌ من الملائكة المقرَّبين والأنبياءِ المرسَلين متى تكونُ، وما خَفيَ أمرُه ثَقُلَ على النفوس[(٣)]. انتهى.

ويعبَّر بالثِّقل عن الشدة والصعوبة، كما قال: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ [الإنسان: ٢٧]، أي: شديدًا صعبًا، وأصلُه أن يتعدَّى، بـ«على»؛ تقول: ثَقُلَ عليَّ هذا الأمرُ، وقال الشاعر:

ثـقـيـلٌ عـلـى الأعـداء ....[(٤)]

فإمَّا أن يُدَّعَى أنَّ «في» بمعنى «على»، كما قال بعضهم في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أو يُضمَّن «ثقلت» معنى فعلٍ يتعدَّى بـ«في».

وقال الزمخشري[(٥)]: أي: كلُّ مَن أهلَها من الملائكة والثَّقلين أهَمَّه شأنُ

---

(١) في (ز١): عن، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.
(٢) الكشاف ٢/ ١٣٤.
(٣) تنظر هذه الأخبار في تفسير الطبري ١٠/٦٠٨-٦٠٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤.
(٤) قطعة من بيت أورده ابن الأنباري في الزاهر ١/ ٢٧٠، والقالي في أماليه ٢/ ٣ دون نسبة، وتمامه:

لـنـا جـانـبٌ مـنـه يـلـيـن وجـانـبٌ ثـقـيـلٌ عـلـى الأعـداء مـركـبـه صـعـبُ

وأورده أبو تمام في الحماسة (بشرح التبريزي) ١/ ١٤٤ برواية:

لـنـا جـانـبٌ مـنـه دَمـيـثٌ وجـانـبٌ إذا رامـه الأعـداء مـمـتـنـعٌ صـعـبُ

قال التبريزي: قال أبو رياش: هو لأبي الشغب العبسي، وقال أبو عبيدة: للأقرع بن معاذ القشيري.
(٥) في الكشاف ٢/ ١٣٤.

الساعة، وودَّ أن يتجلَّى له عِلْمُها، وشقَّ عليه خَفاؤها وثَقُلَ عليه، أو ثَقُلَتْ فيها لأنَّ أهلهما[١] يتوقَّعونها ويخافون شدائدها وأهوالها، ولأنَّ كلَّ شيءٍ لا يطيقها ولا يقوم لها، فهي ثقيلة فيهما.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً على غفلةٍ منكم وعدمِ شعورٍ بمجيئها، وهذا خطابٌ عامٌّ لكلِّ الناس، وفي الحديث «إن الساعة لتهجم والرجلُ يُصْلِحُ حوضَه، والرجلُ يسقي ماشيته، والرجلُ يسومُ سائمتَه، والرجلُ يخفضُ ميزانَه ويرفعُه»[٢].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال ابن عباس والسدِّيُّ ومجاهد: كأنك حفيٌّ بسؤالهم، أي: محبٌّ له[٣].

وعن ابن عباسٍ أيضًا: كأنك يعجبُك سؤالُهم[٤].

وعنه أيضًا: كأنك مجتهدٌ في السؤال مبالِغٌ في الإقبال على ما تُسأل عنه[٥].

وقال ابنُ قُتيبة: كأنك طالبٌ عِلْمَها[٦].

وقال مجاهد أيضًا والضحاك وابن زيد: معناه: كأنك حفيٌّ بالسؤال عنها

---

(١) في النسخ عدا (د١): ألها، والمثبت من (د١) والمطبوع، وجاء في مطبوع الكشاف: أو ثقلت فيها لأن أهلها.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٦١٠ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً بلفظ: «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح. . .»، وفيه: «والرجل يُقيم سلعته» بدل: «والرجل يسوم سائمته».
ويشهد لهذا الخبر حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري (٦٥٠٦)، ومسلم (١٩٥٤).

(٣) الذي في المصادر عن الأئمة المذكورين: حفيٌّ بهم، صديق لهم، على تقدير التقديم في «عنها»، أي: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بهم. ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٦١١-٦١٢، والنكت والعيون ٢/ ٢٨٥، وزاد المسير ٣/ ٢٩٨. وسيرد هذا الوجه في «عنها» قريباً عند الكلام عن الإعراب.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٦١٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ١٦٢٨، وزاد المسير ٣/ ٢٩٨.

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤-٤٨٥، وفيه: وقرأ ابن عباس فيما ذكر أبو حاتم: «كأنك حفي بها» لأن «حفي» معناه: مهتبلٌ مجتهدٌ في السؤال مبالغٌ. . .، وسترد القراءة قريباً عن ابن مسعود.

(٦) تفسير غريب القرآن ص١٧٥، ولفظه: أي: معنيٌّ بطلب علمها.

والاشتغالِ بها حتى حصلْتَ عليها[١]، أي: تحبُّه وتُؤْثِره، أو بمعنى أنك تكره السؤال لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحدًا[٢].

وقال ابن عطية: أي: مُحْتَفٍ ومُهْتَبِل"[٣].

وقال الزمخشري[٤]: كأنك عالمٌ بها، وحقيقته: كأنك بليغٌ في السؤال عنها؛ لأنَّ مَن بالَغَ في السؤال عن الشيء والتنقير عنه استَحْكَم عِلْمُه فيه ورصن، وهذا التركيبُ معناه المبالغةُ، ومنه إحفاءُ الشارب، واحتفاء البقل[٥]: استئصالُه، وأَحْفَى في المسألة: أَلْحفَ، وحَفيَ بفلانٍ وتحفَّى به: بالغ في البِرِّ به. انتهى.

و«عنها» إما أن يتعلق بـ«يسألونك»، أي: يسألونك عنها، وتكون صلةُ «حفي» محذوفةً، والتقدير: كأنك حفيٌّ بها، أي: مُعْتَنٍ بشأنها حتى عَلِمْتَ حقيقتَها ووقتَ مجيئها، أو: كأنك حفيٌّ بهم، أي: مُعْتَنٍ بأمرِهم فتجيبُهم عنها، لزَعْمهم أنَّ علمها عندك، و«حفيّ» لا يتعدَّى بـ«عن»، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] فعدَّاه بالباء، وقال أبو علي: لا تُوْصَلُ الحفاوة بـ«عن» كما توصَل بالباء.

وإمَّا أن يتعلَّق بـ«حفيّ» على جهة التضمين، لأنَّ مَن كان حفيًّا بشيءٍ أدركه وكشف عنه، فالتقدير: كأنك كاشفٌ بحفاوتك عنها.

وإمَّا أن تكون «عن» بمعنى الباء، كما تكون الباء بمعنى «عن» في قوله:

فإن تسألوني بالنساء فإنني[٦]

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤، وفيه: . . . حتى حصَّلت عِلْمَها، وهو الموافق لمعنى ما أخرجه الطبري عن الأئمة المذكورين ١٠/ ٦١٣-٦١٤.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ١٣٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤. ومهتبل: مغتنم، وتحرف في المطبوع إلى: محتفل. وجاء في مطبوع المحرر: متحفٌ، بدل: مُحْتَفٍ، وهما بمعنى.

(٤) في الكشاف ٢/ ١٣٤-١٣٥.

(٥) في النسخ والمطبوع. النعل، والمثبت من الكشاف، وهو الصواب. ينظر الفائق ١/ ٩٤، (حفأ)، والمغرب ١/ ٢١٥ (حفي)، واللسان والتاج (حفي). واحتفاء البقل: أخذه بأطراف الأصابع من وجه الأرض من قصره وقلّته. تهذيب اللغة ٥/ ٢٦٠.

(٦) صدر بيت لعلقمة بن عَبَدة، وهو في ديوانه (بشرح الأعلم) ص٣٥، وعجزه: خبير بأدواء النساء طبيب.

أي: عن النساء.

وقرأ عبد الله: «كأنك حفيٌّ بها» بالباء[١] مكانَ «عن»، أي: عالمٌ بها بليغٌ في العلم بها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: عِلْم مجيئها في علم الله، وظرفيةُ «عند» مَجازيَّةٌ، كما تقول: النحوُ عند سيبويه، أي: في عِلْمِه.

وتكريرُ السؤال والجواب على سبيل التوكيد، ولمَا جاء به من زيادةِ قوله: «كأنك حفيٌّ عنها».

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ قال الطبري: لا يعلمون أنَّ هذا الأمرَ لا يعلمُه إلا الله، بل يظنُّ أكثرهم أنه ممَّا يعلمُه البشر[٢].

وقيل: لا يعلمون أنَّ القيامة حقٌّ؛ لأن أكثر الخلق يُنكرون المَعَادَ، ويقولون: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [الأنعام: ٢٩].

وقيل: لا يعلمون أنِّي أخبرتُكَ أنَّ وقتها لا يعلمُه إلا الله.

وقيل: لا يعلمون السببَ الذي لأَجْلِه أخفيتُ معرفةَ وقتها.

والأظهرُ قولُ الطبري.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: قال أهلُ مكة: أَلَا يُخْبِرك ربُّكَ بالسعر الرخيص قبل أن يلغوَ فتشتريَ وتربحَ، وبالأرض التي تُجْدِبُ فترحلَ عنها إلى ما أَخْصَبَ؟ فنزلت[٣].

وقيل: لمَّا رجع من غزوة المُصْطلِق جاءت ريحٌ في الطريق، فأَخْبَرَ بموت رفاعة، وكان فيه غيظُ المنافقين، ثم قال: «انظروا أين ناقتي»، فقال عبد الله بنُ أبيٍّ: أَلَا تَعْجَبون من هذا الرجل؛ يُخبر عن موت رجلٍ بالمدينة ولا يعرفُ أين

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٧، والكشاف ٢/ ١٣٥.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٦١٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥، والكلام منه.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢٢٠، وزاد المسير ٣/ ٢٩٩، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٢٥: عن الكلبي.

ناقتُه؟ فقال عليه السلام: «إن ناسًا من المنافقين قالوا كيت وكيت، وناقتي في الشِّعْب قد تعلَّق زمامُها بشجرةٍ» فوجدوها على ما قال، فنزلت[1].

ووجهُ مناسَبَتِها لمَا قبلها ظاهرٌ جدًّا، وهذا منه عليه السلامُ إظهارٌ للعبودية، وانتفاءٌ عمَّا يختصُّ بالربوبية من القدرة وعلمِ الغيب، ومبالغةٌ في الاستسلام، فلا أملك لنفسي اجتلابَ نفعٍ ولا دفعَ ضرٍّ فكيف أملكُ علمَ الغيب؟ كما قال في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٨-٤٩].

وقدَّم هنا النفعَ على الضَّرِّ لأنه تقدَّم: «مَن يَهْدِ اللهُ فهو المهتدي ومَن يُضْلِل» فقدَّم الهداية على الضلال، وبعده: «لاستَكْثَرْتُ من الخير وما مسَّني السوء» فناسَبَ تقديم النفع، وقدَّم الضرَّ في «يونس» على الأصل؛ لأنَّ العبادة لله تكون خوفًا من عقابه أولًا ثم طمعًا في ثوابه، ولذلك قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] فإذا تقدَّمَ النفعُ فلِسابقةِ لفظٍ تضمَّنه.

وأيضًا ففي «يونس» موافقةُ ما قبله، ففيها: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [الآية: ١٨]، وفيها: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية: ١٢].

وفي «الأنعام»: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الآية: ٧١] لأنه موصولٌ بقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الآية: ٧٠].

وفي «يونس»: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [الآية: ١٠٦] وتقدَّمه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: ١٠٣].

وفي «الأنبياء»: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا

---

(١) ذكره بهذا السياق الرازي في التفسير ١٥/٨٣، لكن أورده البغوي في التفسير ٤/٣٥٠ في سبب نزول سورة المنافقين، وفيه أن القائل رجل من المنافقين، وأنه آمن عندما ظهرت معجزة الناقة، وأن الميت هو رفاعة بن زيد بن التابوت، وكان من عظماء اليهود. وأخرجه مطولًا ابن شَبَّة في أخبار المدينة ١/٣٤٩-٣٥٤ من طريق موسى بن عقبة عن الزهري، والبيهقي في الدلائل ٤/٥٩-٦٠ عن عروة وموسى بن عقبة، دون ذكر النزول.

يَضُرُّكُمْ﴾ [الآية: ٦٦] وتقدَّمه قولُ الكفار لإبراهيم في المحاجَّة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الآية: ٦٥].

وفي «الفرقان»: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الآية: ٥٥] وتقدَّمه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الآية: ٤٥] ونعمٌ كثيرةٌ.

وهذا النوعُ من لطائف القرآن العظيم وساطعِ براهينه.

والاستثناءُ متصلٌ، أي: إلّا ما شاء الله من تمكيني منه فإني أَمْلِكُه، وذلك بمشيئة الله.

وقال ابن عطية: وهذا الاستثناءُ منقطعٌ[١]. انتهى، ولا حاجة لدعوى الانقطاعِ مع إمكانِ الاتِّصال.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: لكانت حالي على خلافِ ما هي عليه: من استكثارِ الخير، واستِغْزارِ المنافع، واجتنابِ السُّوء والمضارِّ حتى لا يمسَّني شيء منها.

وظاهرُ قوله: «ولو كنتُ أعلم الغيبَ» انتفاءُ العلم عن الغيب على جهةِ عمومِ الغيب كما رُوي عنه: «لا أَعْلَم ما وراء هذا الجدار إلا أن يُعْلِمَنيهِ ربِّي»[٢] بخلافِ ما يذهب إليه هؤلاء الذين يدَّعون الكشفَ، وأنهم بتصفية نفوسهم يَحْصُلُ لها اطِّلاعٌ على المغيَّبات وإخبارٌ بالكوائن التي تحدث، وما أكثر ادِّعاءَ الناسِ لهذا الأمرِ، وخصوصًا في ديارِ مصرَ، حتى إنهم لينسبون ذلك إلى رجلٍ متضمِّخٍ بالنجاسة يَظَلُّ دهرَه لا يصلِّي ولا يستنجي من نجاسته، ويكشف عورتَه للناس حين يَبُولُ، وهو عارٍ من العلم والعملِ الصالح.

وقد خصَّص قومٌ هذا العمومَ، فحكى مكي عن ابن عباس: لو كنتُ أعلم السَّنَةَ المُجْدِبةَ لأَعْدَدْتُ لها من المُخْصِبة[٣].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥.
(٢) لم أقف عليه، وسلف عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥، وذكره بنحوه النحاس في معاني القرآن ٢/ ٢٧٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٣٠٠، وهو من رواية أبي صالح عن ابن عباس كما ذكر ابن الجوزي، =

وقال قوم: أوقاتَ النصر لتوخَّيْتُها.

وقال مجاهدٌ وابن جُريجٍ: لو كنتُ أعلم أَجَلي لاستكثرتُ من العمل الصالح[(١)].

وقيل: ولو كنتُ أعلم وقتَ الساعة لأخبرتُكم حتى تُوْقنوا.

وقيل: ولو كنت أعلم الكتبَ المنزلةَ لاستكثرتُ من الوحي.

وقيل: ولو كنت أعلم ما يريده الله مني قبل أن يُعرِّفنيه لفَعَلْتُه.

وينبغي أن تُجعل هذه الأقوالُ وما أشبهها مُثُلًا لا تخصيصاتٍ لعموم الغيب.

والظاهرُ أنَّ قوله: «وما مسَّني السوءُ» معطوفٌ على قوله: «لاستكثرتُ من الخير» فهو من جواب «لو»، ويوضِّح ذلك أنه تقدَّم قولُه: «قل لا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا» فقابَلَ النفعَ بقوله: «لاستكثرتُ من الخير» وقابَلَ الضرَّ بقوله: «وما مسَّني السوءُ»، ولأنَّ المترتِّبَ على تقدير علم الغيب كلاهما، وهما اجتلابُ النفع واجتنابُ الضرّ.

ولم تَصْحَبْ [اللامُ][(٢)] «ما» النافيةَ جوابَ «لو» لأنَّ الفصيح أن لا تَصْحَبها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

والظاهرُ عمومُ «الخير» وعدمُ تعيين «السوء»، وقيل: «السوء»: تكذيبُهم له مع أنه كان يُدْعَى الأمين. وقيل: الجدب. وقيل: الموت. وقيل: الغلبةُ عند اللقاء. وقيل: الخسارةُ في التجارة. وقال ابن عباس: الفقر[(٣)].

وينبغي أن تُجعَلَ هذه الأقوالُ خَرَجَتْ على سبيل التمثيل لا الحصرِ، فإنَّ الظاهر في «الغيب» و«الخير» و«السوء» عدمُ التعيين.

= وأخرج ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٢٩ من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فما أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر.

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٦١٦.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، مستفادة من كلام السمين في الدر ٥/ ٥٣٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٢٩.

وقيل: تمَّ الكلامُ عند قوله: «لاستَكْثَرْتُ من الخير» ثم أَخبر أنه ما مسَّه السوءُ، وهو الجنونُ الذي رَمَوْه به، وقال مُؤَرِّجٌ السَّدُوسيُّ: «السوء»: الجنونُ بلغة هذيل[1].

وهذا القولُ فيه تفكيكٌ لنظم الكلام، واقتصارٌ على أن يكون جوابُ «لو» «لاستكثرتُ من الخير» فقط، وتقديرُ حصول علم الغيب يترتَّب عليه الأمران لا أحدُهما، فيكون إذ ذاك جوابًا قاصرًا.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ لمَّا نَفَى عن نفسه عِلْمَ الغيب أَخْبرَ بما بُعِثَ به من النذارة ومتعلَّقُها المَخُوفات، والبشارةِ ومتعلَّقُها المحبوبات، والظاهرُ تعلُّقهما بالمؤمنين لأنَّ منفعتهما معًا وجَدْواهما لا تَحْصُلُ إلا لهم، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقيل: معنى «لقوم يؤمنون»: يُطْلَبُ منهم الإيمانُ ويُدْعَوْن إليه، وهؤلاء الناسُ أجمع.

وقيل: أَخبر أنه نذيرٌ وتمَّ الكلامُ، ومعناه أنه نذيرٌ للعالَم كلِّهم، ثم أَخبر أنه بشيرٌ للمؤمنين به، فهو وعدٌ لمن حصل له الإيمان.

وقيل: حُذِف متعلَّق النذارةِ، ودَلَّ على حذفه إثباتُ مُقابِله، والتقدير: نذيرٌ للكافرين وبشيرٌ لقوم يؤمنون، كما حُذف المعطوفُ في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد.

وبدأ بالنذارة لأن السائلين عن الساعة كانوا كفارًا: إمَّا مشركو قريش، وإما اليهودُ، فكان الاهتمامُ بذكر الوصف من قوله: «إن أنا إلَّا نذير» آكَدُ وأَوْلَى بالتقديم، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا
حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾
أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾
أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ
يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾
وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ
إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا
قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا
وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾.

المفردات

صَمَتَ يَصْمُتُ ـ بضم الميم ـ صَمْتًا وصُماتًا: سكت، وإِصْمِتُ: فلاةٌ معروفةٌ، وهي مسمَّاةٌ بفعل الأمر قُطِعَتْ همزتُه، إذ ذاك قاعدةٌ في تسميةٍ بفعلٍ فيه همزةُ وصلٍ، وكُسِرت الميم لأنَّ التغيير يأنَس بالتغيير، ولئلَّا يَدخلَ في وزنٍ ليس في الأسماء.

البَطْش: الأخذُ بقوةٍ، بَطَشَ يبطُشُ بضمِّ الطاء وكسرها.

النَّزْغ: أدنى حركةٍ تكون، ومن الشيطان أدنى وسوسةٍ، قاله الزجَّاج(١).

وقال ابن عطية: حركةٌ فيها فسادٌ، وقلَّما تُستعمل إلَّا في فِعْلِ الشيطان؛ لأنَّ حركاته مسرعةٌ مفسدةٌ(٢).

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٦.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥.

وقيل هو لغةً: الإصابةُ تَعْرِضُ عند الغضب. وقال الفرّاء: الإغراء والإغضاب[١].

الإنصات، قال الفرَّاء: هو السُّكوت للاستماع[٢]. يقال: نَصَتَ وأَنْصَتَ وانْتَصَتَ بمعنًى واحدٍ، وقد ورد الإنصاتُ متعدِّيًا في شعر الكُمَيْت[٣] قال:

أبوك الذي أَجْدَى عليه بنصره ... فأَنْصَتَ عنِّي بعده كلَّ قائلِ

قال[٤]: يريد: فأَسْكَتَ عنِّي[٥].

الآصال: جمع أُصُلٍ، وهو العَشِيُّ، كعُنُقٍ وأعناق، أو: جمعُ أَصيلٍ، كيَمينٍ وأيمان، ولا حاجةَ لدعوى أنه جمعُ جمعٍ كما ذهب إليه بعضُهم؛ إذ ثبت أنَّ أُصُلًا مفردٌ وإن كان يجوزُ جمعُ أصيلٍ على أُصُل فيكون جمعًا ككَثيبٍ وكُثُب، وممَّن ذهب إلى أنَّ آصالًا جمعُ أُصُلٍ ومفردُ أُصُلٍ أَصيلٌ: الفرَّاء[٦]. ويقال: جئناهم مُؤْصِلينَ، أي: عند الأَصِيلِ.

* * *

التفسير ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قَبْلَها أنه لمَّا تقدَّمَ سؤالُ الكفار عن الساعة ووقتِها، وكان فيهم مَن لا يؤمنُ بالبعث، ذَكر ابتداءَ خلق الإنسان وإنشائه تنبيهًا على أنَّ الإعادة ممكنةٌ كما أنَّ

(١) لم أقف عليه، وقد فسر الفراء قوله تعالى: «ينزغنك» في معاني القرآن ٣/ ١٨ بقوله: يصدنَّك عن أمرنا إياك.

(٢) لم أقف عليه عن الفراء، وقاله القاضي عياض في مشارق الأنوار ٢/ ١٤، والزمخشري في الفائق ٣/ ٤٣١.

(٣) كذا ذكر، والذي في المصادر أنه للراعي النميري. ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٤٧، والاشتقاق لابن دريد ١/ ١١٠، ومنتهى الطلب ٦/ ٢٧، وهو في ديوانه ص٢٠٩. وورد دون نسبة في الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٧، وتهذيب اللغة ١٢/ ١٥٥، واللسان والتاج (نصت).

(٤) في تهذيب اللغة واللسان والتاج القائل هو الأصمعي.

(٥) وهذه رواية الديوان والاشتقاق ومنتهى الطلب، وفي باقي المصادر مثل رواية المصنف، وقال الأزهري: ويروى: كلُّ قائل.

(٦) تفسير الرازي ١٥/ ١٠٩، ونقل النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٧٣ عن الفراء: أُصُل: جمع أصيل، وقد يكون «أُصُل» واحدًا.

الإنشاء كان ممكنًا، وإذا كان إبرازُه من العَدَم الصِّرْف إلى الوجود واقعًا بالفعل فإعادتُه أَحْرَى أن تكون واقعةً بالفعل.

وقيل: وجهُ المناسَبةِ أنه لمَّا بيَّن الذين يُلْحِدون في أسمائه ويشتقُّون منها أسماءً لآلهتهم وأصنامهم، وأمر بالنظر والاستدلال المؤدِّي إلى تفرُّده بالإلهية والرُّبوبية، بيَّن هنا أنَّ أصل الشرك من إبليس لآدم وزوجته حين تمنَّيا الولدَ الصالحَ وأجاب الله دعاءهما، فأدخل إبليسُ عليهما الشركَ بقوله: سمِّياه عبدَ الحارث فإنه لا يموت. فَفَعَلَا ذلك[١].

وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخَّصه: لمَّا أَمَر بالنظر في الملكوت الدَّالِّ على التوحيد، وقَسَم خَلْقَه إلى مؤمنٍ وكافرٍ، ونَفَى قدرةَ أحدٍ من خَلْقِه على نفع نفسه أو ضرِّها، رجع إلى تقرير التوحيد[٢]. انتهى.

والجمهورُ على أنَّ المراد بقوله: «من نفسٍ واحدة» آدمُ عليه السلام، فالخطابُ بـ«خلقكم» عامٌّ، والمعنى: إنكم تفرَّعْتُم من آدمَ عليه السلام، وأنَّ معنى «وجَعَلَ منها زوجَها» هي حواء، و«منها»: إمَا من جسم آدم من ضلعٍ من أضلاعه، وإمَّا أن يكون المعنى: من جنسها، كما قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وقد مرَّ هذان القولان في أول «النساء» مشروحَيْنِ بأكثرَ مِن هذا، ويكونُ الإخبارُ بعد هذه الجملة عن آدمَ وحواءَ، ويأتي تفسيرُه إن شاء الله تعالى، وعلى هذا القولِ فسَّر

---

(١) ينظر ما ورد من أخبار في هذه القصة في تفسير الطبري ١٠/ ٦٢١-٦٢٨، وقال عنها ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب. اهـ. وقد روي فيها حديث مرفوع عن النبي ﷺ أخرجه أحمد (٢٠١١٧)، والترمذي (٣٠٧٧)، والطبري ١٠/ ٦٢٣ من طريق الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ، وأعله ابن كثير رحمه الله بعلل؛ منها: أنه روي موقوفًا من قول سمرة؛ أخرجه الطبري ١٠/ ٦٢٤، ومنها أن الحسن نفسه روي عنه بأسانيد صحيحة تفسيرُ الآية بغير هذا، قال: ولو كان الحديث عنده محفوظًا لمَا عَدَل عنه هو ولا غيره، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب مَن آمن منهم. اهـ. وينظر أيضًا ما قاله محققو المسند في تضعيف هذا الحديث، وسيرد مزيد كلام على هذه القصة فيما سيأتي من تفسير الآية.

(٢) ورد الكلام بنحوه مختصراً في تفسير الرازي ١٥/ ٨٥.

الزمخشريُّ الآية[١]، وقد ردَّ هذا القولَ أبو عبد الله الرازيُّ وأفسَدَه من وجوه:

الأول: «فتعالى الله عمَّا يشركون» فدلَّ على أنَّ الذين أتوا بهذا الشرك جماعةٌ.

الثاني: أنه قال بعده: «أيُشْرِكون ما لا يخلق شيئًا وهم يُخلقون»، وهذا ردٌّ على مَن جعل الأصنام شركاءَ، ولم يَجْرِ لإبليسَ في هذه الآية ذكرٌ.

الثالث: لو كان المرادُ إبليسَ لقال: أيشركون مَن لا يخلق.

ثم ذكر الرازي ثلاثةَ وجوهٍ أُخَرَ من جهة النظر يُوْقَفُ عليها من كتابه[٢].

وقال الحسن وجماعةٌ: الخطابُ لجميع الخلق، والمعنى في «هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة» من هيئةٍ واحدةٍ وشكلٍ واحدٍ، «وجَعَل منها زوجَها» أي: من جنسها، ثم ذكر حالَ الذَّكَر والأنثى من الخلق، ومعنى «جَعَلا له شركاء» أي: صَرَفاه عن الفطرة إلى الشرك، كما جاء: «ما مِنْ مولودٍ إلَّا يُوْلَدُ على الفطرة، فأَبَواه هما اللذانِ يُهوِّدانِه وينصِّرانه ويمجِّسانه»[٣].

وقال القفَّال نحوَ هذا القولِ، قال: هو الذي خَلَقَ كلَّ واحدٍ منكم من نفسٍ واحدةٍ، وجَعَلَ من جنسها زوجَها، وذكر حال الزوج والزوجة، و«جَعَلَا» أي: الزوجُ والزوجةُ لله تعالى شركاءَ فيما آتاهما؛ لأنهما تارةً ينسبون ذلك الولدَ إلى الطبائع كما هو قولُ الطَّبائعيين، وتارةً إلى الكواكب كما هو قولُ المنجِّمين، وتارةً إلى الأصنام والأوثان كما هو قولُ عَبَدةِ الأصنام[٤]. انتهى، وعلى هذا لا يكونُ لآدمَ وحواءَ ذكرٌ في الآية.

وقيل: الخطاب بـ«خَلَقكم» خاصٌّ، وهو لمشركي العرب، كانوا يقرِّبون المولودَ للَّات والعُزَّى والأصنام تبرُّكًا بهم في الابتداء، وينقطعون بأملهم إلى الله تعالى في ابتداءِ خلق الولد إلى انفصاله، ثم يُشْرِكون، فحصَلَ التعجُّبُ منهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٦.

(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٨٦.

(٣) معنى هذا القول أخرجه عن الحسن الطبريُّ ١٠/ ٦٢٩، ولفظه في القرطبي ٩/ ٤١١ لكن دون نسبة. والحديث المرفوع أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) وتفسير الرازي ١٥/ ٨٦-٨٧.

وقيل: الخطابُ خاصٌّ أيضًا، وهو لقريشٍ المعاصرين للرسول ﷺ، و«نفسٍ واحدةٍ» هو قُصيٌّ، «منها» أي: من جنسها زوجةً عربيةً قُرشيةً «ليسكن إليها»، والصالح: الولدُ السويُّ، «جَعَلَا له شركاءَ» حيث سمَّيا أولادهما الأربعةَ: عبد مَنافٍ، وعبد العُزَّى، وعبد قصيٍّ، وعبد الدار، والضمير في «يشركون» لهما ولأعقابهما الذين اقتَدَوا بهما في الشرك[١]. انتهى.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئنَّ ويميلَ ولا يَنْفِرَ؛ لأنَّ الجنس إلى الجنس أَمْيَلُ، وبه آنَسُ، وإذا كان «منها» على حقيقته فالسكونُ والمحبَّةُ أبلغُ، كما يسكنُ الإنسانُ إلى ولده ويحبُّه محبةَ نَفْسِه أو أكثر لكونه بعضًا منه، وأنَّث في قوله: «منها» ذهابًا إلى لفظ النفس، ثم ذكَّر في قوله: «ليسكن» حملًا على معنى النفس؛ ليبيِّن أنَّ المراد بها الذَّكَرُ آدمُ أو غيرُه على اختلاف التأويلات، وكان الذَّكر هو الذي يسكنُ إلى الأنثى ويتغشَّاها، فكان التذكيرُ أحسنَ طِباقًا للمعنى.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ إن كان الخبرُ عن آدم فخلْقُ حواءَ كان في الجنة، وأمَّا التغشِّي والحملُ فكان في الأرض، والتغشِّي والغشيانُ والإتيانُ كنايةٌ عن الجماع، ومعنى الخفَّة: أنها لم تَلْقَ به من الكَرْب ما يَعْرِضُ لبعض الحبالَى، ويحتملُ أن يكون «حَمْلًا» مصدرًا وأن يكون ما في البطن، والحَمْلُ بفتح الحاء: ما كان في بطنٍ أو على رأسِ الشجرة، وبالكسر ما كان على ظهرٍ أو على رأسِ غير شجرةٍ، وحكى يعقوبُ[٢] في حمل النخلة الكسرَ، وحكى أبو سعيدٍ[٣] في حمل المرأة: حَمْلٌ وحِمْلٌ.

وقال ابن عطية: الحَمْلُ الخفيفُ هو المنيُّ الذي تحمله المرأة في فَرْجِها[٤].

وقرأ حَمَّاد بن سَلَمة عن ابن كثيرٍ: «حِمْلًا» بكسر الحاء[٥].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٧، وتفسير الرازي ٥/ ٨٧.

(٢) هو ابن السكيت، وذكر كلامه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٦٧، وينظر إصلاح المنطق ص٣.

(٣) الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، نحويٌّ بغداد، قرأ القرآن على ابن مجاهد، وتصدر لإقراء القراءات واللغة، وجوَّد شرح كتاب سيبويه، وله: ألِفاتُ القطع والوصل، توفي سنة (٣٦٨هـ). السير ١٦/ ٣٤٧. وذكر كلامه القرطبي في التفسير ٩/ ٤٠٨-٤٠٩.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦.

(٥) المصدر السابق.

وقرأ الجمهور: «فمرَّت به»، قال الحسن: أي: استمرَّت به[(١)]. وقيل: هذا على القلب، أي: فمرَّ بها، أي: استمرَّ بها. وقال الزمخشري: فمضتْ إلى وقتِ ميلاده من غيرِ إخداجٍ[(٢)] ولا إزلاق، وقيل: «حملت حملًا خفيفًا» يعني النطفة، «فمرَّت به»: فقامت به وقعدت فاستمرَّت به[(٣)]. انتهى.

وقرأ ابن عباس فيما ذكر النقَّاشُ وأبو العالية ويحيى بن يَعْمَرَ وأيوب: «فمَرَتْ به» خفيفةَ الراء من المِرْيَة[(٤)]، أي: فشَكَّتْ فيما أصابها: أهو حملٌ أم[(٥)] مرضٌ؟ وقيل: معناه: استمرَّت به لكنهم كرهوا التضعيفَ فخفَّفوه، نحو ﴿وَقَرْنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فيمَن فتح من القَرار[(٦)].

وقرأ عبد الله بن عمرو بن العاصي والجَحْدَريُّ: «فمارَتْ به» بألفٍ وتخفيفِ الراء[(٧)]، أي: جاءت وذهبت وتصرَّفت به، كما تقول: مارت الريحُ مَوْرًا، ووزنه: فَعَلَ.

وقال الزمخشري: من المِرْيَة، كقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ و﴿أَفَتَمْرُونَهُۥ﴾[(٨)] [النجم: ١٢] ومعناه ومعنى المخفَّفة «فمَرَتْ»: وَقَعَ في نفسها ظَنُّ الحمل وارتابت به[(٩)]. ووزنُه فاعَلَ.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ١/٢٤٨، والطبري ١٠/٦١٨.

(٢) تصحفت في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: إخراج، والمثبت من باقي النسخ والكشاف، والإخداج: مجيء الولد ناقصًا وإن كان أيامه تامة. ينظر القاموس (خدج).

(٣) الكشاف ٢/١٣٦، وفيه: . . . فقامت به وقعدت، وقرأ ابن عباس: «فاستمرت به».

(٤) القراءات الشاذة ص٤٧، والمحتسب ١/٢٦٩، والمحرر الوجيز ٢/٤٨٦، وزاد المسير ٢/٣٠١.

(٥) في (أ) و(د١) و(ز١) و(ع) والمطبوع: أو.

(٦) هي قراءة عاصم ونافع من السبعة كما سيرد عند تفسير الآية.

(٧) القراءات الشاذة ص٤٧-٤٨، والمحتسب ١/٢٧٠، والكشاف ٢/١٣٦، والمحرر الوجيز ٢/٤٨٦، وزاد المسير ٣/٣٠١.

(٨) هي قراءة حمزة والكسائي كما سيرد عند تفسير الآية، وقصد الزمخشري تشبيه القراءتين في سورة النجم بالقراءتين هنا، وهما: «مَرَتْ» و«مارَتْ».

(٩) الكشاف ٢/١٣٦.

وقرأ عبد الله: «فاستمرَّتْ بحَمْلِها»(١). وقرأ سعد بن أبي وقَّاص وابنُ عباس أيضًا والضحاكُ: «فاستمرَّتْ به»(٢). وقرأ أبي بن كعب والجَرْميّ(٣): «فاستمارتْ به» والظاهرُ رجوعُه إلى المرية، بُنيَ منها اسْتَفْعَلَ كما بُني منها فاعَلَ في قولك: ماريْتُ.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ أي: دخلتْ في الثِّقل، كما تقول: أصبح وأمسى، أو: صارت ذاتَ ثِقْلٍ، كما تقول: أَتْمَرَ الرجلُ وأَلْبَن: إذا صار ذا تَمْرٍ ولَبَنٍ.

وقال الزمخشري: أي: حان وقتُ ثقلها، كقوله: أَقْرَبَت(٤).

وقرئ: «أُثقلت» على البناء للمفعول(٥).

«ربَّهما» أي: مالك أمرِهما، الذي هو الحقيقُ أن يُدْعَى، ومتعلَّقُ الدعاء محذوفٌ يدلُّ عليه جملةُ جواب القسم، أي: دَعَوَا الله ورَغِبَا إليه في أنْ يُؤْتِيَهما صالحًا، ثم أقسما على أنهما يكونان من الشاكرين إنْ آتاهما صالحًا؛ لأنَّ إيتاءَ الصالح نعمةٌ من الله على والديه، كما جاء في الحديث أن عملَ ابنِ آدمَ ينقطعُ إلا من ثلاثٍ، فذَكَر الولدَ الصالح يَدعو لوالده(٦)، فينبغي الشكرُ عليها إذ هي من أجلِّ النعم.

ومعنى «صالحًا»: مطيعًا للهِ تعالى، أي: ولدًا طائعًا، أو: ولدًا ذَكَرًا؛ لأن الذكورةَ من الصلاح والجودة. قال الحسن سمَّياه(٧) غلامًا. وقال ابن عباس: بشرًا سويًّا سليمًا(٨).

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧٠، والكشاف ٢/ ١٣٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦، وزاد المسير ٣/ ٣٠١.

(٣) كذا في النسخ، والذي في زاد المسير ٣/ ٣٠١ (والكلام منه): والجوني. وهو أبو عمران عبد الملك بن حبيب البصري.

(٤) الكشاف ٢/ ١٣٦، وفيه: ... ثقل حملها كقولك: أقربت. وأقربت الحامل فهي مُقْرِب: دنا وِلادُها. اللسان (قرب).

(٥) القراءات الشاذة ص٤٨ عن اليماني.

(٦) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) كذا في النسخ، وفي المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦ (والكلام منه): معناه، وهو الصواب. والخبر بذلك عن الحسن أخرجه عبد الرزاق ١/ ٢٤٨، والطبري ١٠/ ٦٢٠، وابن أبي حاتم ٥/ ١٦٣٣.

(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦.

و«لنكوننَّ» جوابُ قسمٍ محذوفٍ، تقديره: وأقْسَما لئن آتيتنا، أو: مُقْسِمينَ لئن آتيتنا. وانتصابُ «صالحًا» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ«آتيتنا»، وفي «المُشْكِل» لمكّي أنه نعتٌ لمصدرٍ، أي: إيتاءً صالحًا(١).

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ مَن جَعَلَ الآيةَ في آدم وحواء جَعَلَ الضمائر والأخبار لهما، وذكروا في ذلك محاوراتٍ جرت بين إبليس وآدمَ وحواءَ لم تثبت في قرآنٍ ولا حديثٍ صحيحٍ فاطَّرحْتُ ذكرها.

وقال الزمخشري: والضميرُ في «آتيتنا» و«لنكوننَّ» لهما ولكلِّ مَن تناسَلَ مِن ذرِّيتهما، «فلما آتاهما» ما طَلَبا من الولد الصالح السَّويِّ «جَعَلا له شركاء» أي: جَعَل أولادُهما له شركاءَ، على حذف المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامَه، وكذلك «فيما آتاهما» أي: آتى أولادَهما، وقد دلَّ على ذلك بقوله تعالى: «فتعالى اللهُ عما يشركون» حيث جمع الضميرَ، وآدمُ وحواءُ بريئان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم اللهُ: تسميةُ أولادِهم بعبد العُزَّى وعبدِ مَنَافٍ وعبدِ شمسٍ، وما أشبه ذلك، مكانَ: عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم(٢). انتهى.

وفي كلامه تفكيكٌ للكلام عن سياقه، وغيرُه ممَّن جَعَلَ الكلام لآدم وحواءَ جعل الشركَ تسميتَهما الولدَ الثالثَ عبد الحارث؛ إذ كان قد مات لهما ولدان قبله كانا سمَّيا كلَّ واحدٍ منهما عبد الله، فأشار عليهما إبليسُ في أن يسمِّيا هذا الثالثَ عبد الحارث، فسمَّياه به(٣) حرصًا على حياته(٤)، فالشركُ الذي جَعَلا لِله هو في التسمية فقط، ويكونُ الضميرُ في «يشركون» عائدًا على آدم وحواء وإبليس؛ لأنه مدبِّرٌ معهما تسميةَ الولد عبدَ الحارث.

وقيل: «جَعَلَا»، أي: جَعَل أحدُهما يعني حواءَ، وأمَّا مَن جعل الخطابَ

---

(١) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٠٧.
(٢) الكشاف ٢/ ١٣٧.
(٣) قوله: فسمَّياه به، من (د١) والمطبوع، وليس في باقي النسخ.
(٤) أخرج هذه القصة عن جمع الطبري ١٠/ ٦٢١-٦٢٨، وقد سلف الكلام على ما ورد فيها من أخبار في بداية تفسير الآية، ولعل هذه الأخبار هي المقصودة بما سلف قريباً من قول المصنف: لم تثبت في قرآنٍ ولا حديث صحيح.

للناس وليس المرادُ في الآية بالنفس وزوجِها آدمَ وحواءَ، أو جَعَل الخطابَ لمشركي العرب، أو لقريش، على ما تقدَّم ذكره، فيتَّسِقُ الكلام اتِّساقًا حسنًا من غير تكلُّفِ تأويلٍ ولا تفكيكٍ.

وقال السدِّي والطبري: تَمَّ خبرُ آدم وحواء في قوله: «فيما آتاهما»، وقولُه: «فتعالى الله عمَّا يشركون» كلامٌ منفصلٌ يرادُ به مشركو العرب. قال ابن عطية[١]: وهذا تَحَكُّمٌ لا يساعدُه اللفظ. انتهى.

والضميرُ في «له» عائدٌ على الله، ومَن زَعَم أنه عائدٌ على إبليس[٢] فقولُه بعيدٌ؛ لأنه لم يَجْرِ له ذِكْرٌ، وكذا يَبْعُدُ قولُ مَن جَعَلَه عائدًا على الولد الصالح، وفسَّر الشركَ بالنصيب من الرزق في الدنيا، وكانا قبله يأكلان ويشربان وحدَهما، ثم استأنف فقال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ يعني الكفار.

وقرأ ابن عباس وأبو جعفر وشيبةُ وعكرمةُ ومجاهدٌ وأبان بن تَغْلِبَ ونافعٌ وأبو بكرٍ عن عاصم: «شِرْكًا» على المصدر[٣]، وهو على حذف مضافٍ، أي: ذا شِرْكٍ، ويمكن أن يكون أطلق الشِّرك على الشريك، كقولك: زيدٌ عَدْلٌ.

قال الزمخشري: أو أَحْدَثا لله شِركًا[٤] في الولد. انتهى.

وقرأ الأخوان وابنُ كثير وأبو عمرٍو «شركاء» على الجمع، ويَبْعُدُ توجيهُ الآية أنها في آدم وحوَّاءَ على هذه القراءة، وتظهر باقي الأقوال عليها.

وفي مصحف أبيٍّ: «فلمَّا آتاهما صالحًا أشركا فيه»[٥].

وقرأ السُّلمي: «عمَّا تُشرِكون» بالتاء التفاتًا من الغيبة للخطاب[٦].

(١) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٧، وما قبله منه، وكلام الطبري والسدي في تفسير الطبري ١٠/ ٦٣٠.

(٢) والمعنى عليه: جعلا لإبليس شركاء في اسمه حيث سمَّيا ولدهما بعبد الحارث.

(٣) ينظر السبعة ص٢٩٩، والتيسير ص١١٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٧، والنشر ٢/ ٢٧٣.

(٤) في (أ) و(د١) و(ز١) و(ع): إشراكًا، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ١٣٧.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٧.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٨.

وكان الضميرُ بالواو انتقالًا من التثنية للجمع، وتقدَّم توجيهُ ضمير الجمع على مَن يعود.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ أي: أيُشرِكون الأصنامَ وهي لا تَقْدِرُ على خَلْق شيءٍ كما يَخْلُقُ الله، «وهم يُخلقون» أي: يَخلقُهم الله تعالى ويُوجِدُهم كما يُوْجِدُكم، أو يكون معناه: وهم يُنْحَتون ويُصْنَعون، فعَبَدَتُهم يَخْلُقونهم وهم لا يقدرون على اختلاق[١] شيءٍ، فهم أعجزُ من عَبَدَتهم. و«هم» عائدٌ على معنى «ما»، وقد عاد الضمير في «يخلق» على لفظ «ما».

وعبَّر عن الأصنام بقوله: «وهم» ـ كأنها تعقلُ ـ على اعتقادِ الكفار فيها، وبحسب أسمائهم[٢].

وقيل: أتى بضميرِ مَن يَعْقِلُ لأنَّ من جملةِ مَن عُبِدَ الشياطينُ والملائكةُ وبعضُ بني آدم، فغلَّب مَن يعقلُ، وكلٌّ مخلوقٌ للهِ تعالى.

ويحتملُ أن يكون «وهم» عائدًا على ما عاد عليه ضميرُ الفاعل في «أيشركون»، أي: وهؤلاء المشركون يُخلقون، أي: كان يجبُ أن يَعتبروا بأنَّهم مخلوقون فيَجْعَلوا إلهَهم خالِقَهم لا مَن لا يخلقُ شيئًا. وقرأ السُّلميُّ: «أيشركون» بالتاء من فوق[٣]، فيظهرُ أن يكون «وهم» عائدًا على «ما» على معناها.

ومَن جَعَلَ ذلك في آدم وحوَّاءَ قال: إنَّ إبليس جاء إلى آدم وقد مات له ولدٌ اسمُه عبدُ الله، فقال: إن شئتَ أن يعيش لك الولدُ فسمِّه عبدَ شمسٍ، فسمَّاه كذلك، فإياه عنى بقوله: «أيُشْرِكون ما لا يَخْلُقُ شيئًا وهم يُخلقون» عائدٌ على آدم وحواء والابنِ المسمَّى عبدَ شمسٍ[٤].

(١) في (د١) والمطبوع: خلق.

(٢) أي: بحسب تسميتهم إياها آلهة. ينظر الكشاف ٢/ ١٣٧، وروح المعاني ٩/ ٥٣٩.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٨.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٨، وأخرجه بنحوه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٣٥، وهذه الرواية تخالف غيرها من الروايات الواردة في القصة، والتي فيها أن الشيطان أوعز إليهما أن يسمياه بعبد الحارث، وقد تقدم الكلام عليها قريباً.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ أي: ولا تَقْدِرُ الأصنامُ لِمَن يعبدُهم على نصرٍ ولا لأنفسهم إن حَدَث بهم حادثٌ، بل عَبَدَتُهم هم الذين يدفعون عنها ويَحْمُونها، ومَن لا يقدرُ على نصرِ نفسه كيف يقدرُ على نصرِ غيرِه.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ الظاهرُ أن الخطاب للكفار؛ انْتَقَلَ من الغيبة إلى الخطاب على سبيلِ الالتفاتِ والتوبيخِ على عبادةِ غيرِ الله، ويدلُّ على أنَّ الخطاب للكفار قولُه: بعدُ: «إنَّ الذين تَدْعون من دون الله عبادٌ أمثالُكم».

وضميرُ المفعول عائدٌ على ما عادت عليه هذه الضمائر قبلُ، وهي الأصنامُ، والمعنى: وإنْ تَدْعوا هذه الأصنامَ إلى ما هو هدًى ورشادٌ أو إلى أن يَهْدُوكم كما تطلبون من الله الهدى والخير، لا يتَّبعوكم على مُرادِكم ولا يُجيبوكم، أي[1]: ليست فيهم هذه القابليةُ؛ لأنها جمادٌ لا تعقل، ثم أكَّد ذلك بقوله: «سواءٌ عليكم»، أي: دعاؤكم إياهم وصمتُكم عنهم سِيَّان، فكيف يُعبدُ مَن هذه حالُه؟!

وقيل: الخطابُ للرسول والمؤمنين، وضميرُ النصب للكفار، أي: وإن تدعوا الكفارَ إلى الهدى لا يقبلوا منكم، فدعاؤكم وصمتُكم سِيَّان، أي: ليست فيهم قابليةُ قبولٍ ولا هدًى.

وقرأ الجمهور: «لا يتَّبعوكم» مشدَّدًا هنا وفي «الشعراء»: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الآية: ٢٢٤] من اتَّبع، ومعناها: لا يقتدوا بكم. وقرأ نافعٌ فيهما: «لا يَتْبعوكم» مخفَّفًا من تَبِعَ[2]، ومعناه: لا يَتْبعوا آثاركم.

وعُطفت الجملة الاسميةُ على الفعلية لأنها في معنى الفعلية، والتقدير: أم صمتُّم.

وقال ابن عطية: وفي قوله: «أَدَعَوْتُموهم أم أنتم» عطفُ الاسم على الفعل؛ إذ التقدير: أم صمتُّم، ومِثْلُ هذا قولُ الشاعر:

سواءٌ عليك النفرُ أم بِتَّ ليلةً ... بأَهْلِ القباب مِن نمير بنِ عامرِ[3]

(١) في (يه): إذ.

(٢) السبعة ص٢٩٩، والتيسير ص١١٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٨، وذكر البيت أيضًا الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٠١، والطبري

انتهى، وليس من عَطْفِ الاسم على الفعل، إنما هو مِن عَطْفِ الجملة الاسمية على الجملة الفعلية، وأمَّا البيتُ فليس من عَطْفِ الاسم على الفعل بل من عَطْفِ الجملة الفعلية على الاسم المقدَّر بالجملة الفعليّة، إذ أصلُ التركيب: سواءٌ عليك أنفَرْتَ[1] أم بتَّ ليلةً، فأَوْقَع «النَّفْر»[2] موقعَ: أَنَفَرْتَ، وكانت الجملةُ الثانية اسميةً لمراعاة رؤوس الآي، ولأنَّ الفعل يُشعر بالحدوث واسمَ الفاعل يُشْعِرُ بالثبوت والاستمرار، فكانوا إذا دَهَمهم أمرٌ مُعْضِلٌ فزعوا إلى أصنامهم، وإذا لم يحدث بَقُوا ساكتين، فقيل: لا فَرْقَ بين أن تُحْدِثوا لهم دعاءً وبين أن تستمرُّوا على صمتكم فتبقَوْا على ما أنتم عليه من عادة صمتكم، وهي الحالةُ المستمرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ هذه الجملةُ على سبيل التوكيد لمَا قبلها في انتفاء كونِ هذه الأصنام قادرةً على شيءٍ من نفعٍ أو ضرٍّ، أي: الذين تَدْعونهم وتسمُّونهم آلهةً من دون الله[3] الذي أوجدها وأوجدكم هم عبادٌ، وسمَّى الأصنامَ عِبادًا وإن كانت جماداتٍ لأنهم كانوا يعتقدون فيها أنها تَضُرُّ وتنفعُ، فاقتضى ذلك أن تكونَ عاقلةً. و«أمثالكم» قال الحسن: في كونها مملوكةً لله[4].

وقال التبريزي: في كونها مخلوقةً.

وقال مقاتل: المرادُ طائفةٌ من العرب من خُزاعةَ كانت تعبدُ الملائكةَ، فأَعْلَمهم تعالى أنهم عبادٌ أمثالُهم لا آلهةٌ[5]. انتهى، فعلى هذا جاء الإخبارُ إخبارًا عن العقلاء.

= ١٠/ ٦٣٥. ووقع في النسخ والمحرر ونسخ الطبري: الفقر؛ قال الأستاذ محمود شاكر في تحقيق الطبري ١٣/ ٣٢١: وهو خطأ محض، صوابه في المعاني. اهـ. ويعني معاني القرآن للفراء، والمثبت منه، وهو الموافق لما في مطبوع النهر على هامش البحر ٤/ ٤٤١.

(١) في النسخ: أفتقرت، وكذا في الموضع الثاني، والمثبت من المطبوع ومطبوع النهر ٤/ ٤٤١.

(٢) في النسخ: الفقر، والمثبت من المطبوع ومطبوع النهر.

(٣) لفظ الجلالة من (د١) والمطبوع.

(٤) ذكر عنه الجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٣٧، والقرطبي ٩/ ٤١٥ قوله في تفسير الآية: مخلوقة أمثالكم. وهو عين القول الذي سيذكره المصنف عن التبريزي.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦.

وقال الزمخشري[١]: «عبادٌ أمثالُكم» استهزاءٌ بهم، أي: قُصارى أمرهم أنْ يكونوا أحياءً عُقلاءَ، فإنْ ثَبَتَ ذلك فهم عبادٌ أمثالُكم لا تفاضُل بينكم، ثم أَبْطَلَ أن يكونوا عبادًا أمثالَكم[٢] فقال: «ألهم أرجلٌ يمشون بها». انتهى.

وليس كما زَعَم؛ لأنه تعالى حَكَم على هؤلاء المدعوِّين من دون الله أنهم عِبَادٌ أمثالُ الدَّاعينَ، فلا يقال في الخبر من الله: فإنْ ثَبَتَ ذلك؛ لأنه ثابتٌ، ولا يصحُّ أن يقال: ثم أبطل أن يكونوا عبادًا أمثالكم فقال: «ألهم أرجلٌ»؛ لأنَّ قولَه: «ألهم أرجلٌ» ليس إبطالًا لقوله: «عبادٌ أمثالُكم»؛ لأن المِثْلِيَّةَ ثابتةٌ: إمَّا في أنهم مخلوقون، أو في أنهم مملوكون مقهورون، وإنما ذلك تحقيرٌ لشأن الأصنام، وأنهم دونَكم في انتفاءِ الآلات التي أُعدَّت للانتفاع بها مع ثبوتِ كونهم أمثالَكم فيما ذكر، ولا يَدُلُّ إنكارُ هذه الآلات على انتفاءِ المِثْلِيَّة فيما ذكر، وأيضًا فالإبطالُ لا يُتصوَّرُ بالنسبة إليه تعالى، لأنه يدلُّ على كذب أحد الخبرين، وذلك مستحيلٌ بالنسبة إلى الله تعالى، وقد بيَّنَّا ذلك في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقرأ ابنُ جبير: «إنْ» خفيفةً، و«عبادًا أمثالَكم» بنصب الدال واللام[٣]، واتَّفق المفسِّرون على تخريجِ هذه القراءةِ على أنَّ «إنْ» هي النافيةُ أُعملت عملَ «ما» الحجازية فَرَفعت الاسمَ ونصبت الخبر، فـ«عبادًا أمثالَكم» خبرٌ منصوبٌ[٤]، قالوا: والمعنى بهذه القراءة تحقيرُ شأن الأصنام ونَفْيُ مماثَلَتِهم للبشر، بل هم أقلُّ وأحقرُ إذ هي جماداتٌ لا تفهم ولا تعقلُ.

وإعمالُ «إنْ» إعمالَ «ما» الحجازيةِ فيه خلافٌ؛ أجاز ذلك الكسائيُّ[٥] وأكثر الكوفيين، ومن البصريين ابنُ السرَّاج[٦] والفارسيُّ وابنُ جنِّي[٧]، ومَنَع من إعماله

---

(١) في الكشاف ٢/ ١٣٨.

(٢) في الكشاف: أمثالهم، وهو الأشبه.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧٠، والمحرر ٢/ ٤٨٩، والكشاف ٢/ ١٣٨.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٧، والكشاف ٢/ ١٣٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٩، والإملاء للعكبري ١/ ٢٩٠-٢٩١.

(٥) كما في الأزهية ص٤٦، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١٤٤، ومغني اللبيب ص٣٥.

(٦) في الأصول في النحو ١/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٧) ذكره عنهما ابن مالك في شرح التسهيل ١/ ٣٩٣، وقول ابن جني في المحتسب ١/ ٢٧٠.

الفرَّاءُ[١] وأكثرُ البصريين، واختلف النقلُ عن سيبويه[٢] والمبرِّد[٣]، والصحيحُ أنَّ

---

(١) كما في الأزهية ص٤٦، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١٤٤، ومغني اللبيب ص٣٥.

(٢) نُقل عنه المنع في المقتضب ٢/ ٣٦٢، والأصول في النحو ١/ ٢٣٥، والأزهية ص٤٥، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١٤٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٩، والإملاء للعكبري ١/ ٢٩١، ومغني اللبيب ص٣٥. ونقل جواز الإعمال عنه السهيلي كما ذكر المصنف في التذييل والتكميل ٤/ ٢٧٧، ونقل ذلك عن سيبويه أيضاً ابن مالك في شرح التسهيل ١/ ٣٩٣، وقد استنبطه من عبارة قالها سيبويه في الكتاب، قال ابن مالك: وأكثر النحويين يزعمون أن مذهب سيبويه في «إنْ» النافية الإهمال، وكلامه مشعر بأن مذهبه فيها الإعمال، وذلك أنه قال في باب «عدة ما يكون عليه الكلام» [الكتاب ٤/ ٢٢١]: «وأما «إنْ» مع «ما» في لغة أهل الحجاز فهي بمنزلة «ما» مع «إنَّ» الثقيلة، تجعلها من حروف الابتداء، وتمنعها أن تكون من حروف ليس»، فعُلم بهذه العبارة أن في الكلام حروفاً مناسِبة لـ«ليس» من جملتها «ما»، ولا شيء من الحروف يصلح لمشاركة «ما» في هذه المناسبة إلا «إنْ» و«لا» فتعيَّن كونهما مقصودَين. اهـ. وتعقبه المصنف في التذييل ٤/ ٢٨٠ بأن القواعد الكلّية لا تؤخذ من مثل قوله: «وتمنعها أن تكون من حروف ليس». وينظر تتمة كلامه ثمة. وجاء في الكتاب ٤/ ٢٢ أيضاً عبارة أخرى وقع الاختلاف في تأويلها، وهي قوله: «وتكون «إن» كـ«ما» في معنى ليس» وهذه العبارة جعلها الأستاذ أبو بكر بن طاهر كما في التذييل ٤/ ٢٨٠ نصًّا على أنَّ «إنْ» كـ«ما» تعمل عمل «ليس»، وقال الأستاذ أبو علي: هذا الكلام ليس بنص على ذلك؛ لأنه يحتمل أن يريد أنَّ «إنْ» تكون كـ«ما» في النفي. إلى آخر كلامه.
قلت: والظاهر أن الصواب مع من نقل عنه المنع؛ لأنه لم يَرِدْ عنه تصريح بالجواز، وقد نقل المصنف في التذييل ٤/ ٢٧٧ عن ابن عصفور أن الذي يعطيه كلام سيبويه أنها لا تعمل، قال: لأنه لم يذكرها في نواسخ الابتداء والخبر. اهـ. والذين نقلوا عنه الجواز إنما اعتمدوا على احتمالات واستنباطات من كلامه قد رُدَّ عليها كما تقدم، أضف إلى ذلك أن ممَّن نقل عنه المنع أبو العباس المبرد، وكان أعلم الناس في زمانه بكتاب سيبويه، وقد أخذه عن تلامذة أبي الحسن الأخفش، وكان الأخفش تلميذ سيبويه، وكان كما ذكروا الطريق إلى كتاب سيبويه. ينظر مقدمة الكتاب للأستاذ عبد السلام هارون ١/ ١٥، وفهرسة أبي بكر ابن خير الإشبيلي ص٣٠٥-٣٠٧.

(٣) نقل المصنف في التذييل والتكميل ٤/ ٢٧٧ القول بالمنع للمبرد عن السهيلي، لكن كلامه في المقتضب ٢/ ٣٦٢ صريح في جواز الإعمال، ونقله عنه ابن السراج في الأصول في النحو ١/ ٢٣٦، والهروي في الأزهية ص٤٦، وابن الشجري في أماليه ٣/ ١٤٤، وابن عطية في المحرر ٢/ ٤٨٩، والعكبري في الإملاء ١/ ٢٩١، وابن مالك في شرح التسهيل ١/ ٣٩٣، وابن هشام في المغني ص٣٥. ولعل إطلاق المصنف للخلاف عند سيبويه وأبي العباس المبرد سببه عدم وقوفه على صريح كلام المبرد في مقتضبه.

إعمالها لغةٌ، ثبت ذلك في النثر والنظم، وقد ذكرنا ذلك مُشْبَعًا في «شرح التسهيل»[(١)].

وقال النحاس: هذه قراءةٌ لا ينبغي أن يُقْرأ بها لثلاثِ جهاتٍ:

إحداها: أنها مخالِفةٌ للسَّواد.

الثانية: أنَّ سيبويه يختارُ الرفع في خبر «إنْ» إذا كانت بمعنى «ما» فيقول: إنْ زيدٌ منطلقٌ؛ لأنَّ عمل «ما» ضعيفٌ، و«إنْ» بمعناها فهي أضعفُ منها.

والثالثة: أنَّ الكسائيَّ رأى أنَّها في كلام العرب لا تكون بمعنى «ما» إلا أن يكون بعدها إيجابٌ[(٢)]. انتهى.

وكلامُ النحَّاس هذا هو الذي لا ينبغي؛ لأنها قراءةٌ مَرْويةٌ عن تابعيٍّ جليلٍ، ولها وجهٌ في العربية، وأمَّا ثلاثُ الجهاتِ التي ذكرها فلا يَقْدَحُ شيءٌ منها في هذه القراءة:

أمَّا كونُها مخالِفةً للسَّواد فهو خلافٌ يسيرٌ جدًّا لا يضرُّ، ولعله كُتِبَ المنصوبُ على لغةِ ربيعةَ في الوقف على المنوَّن المنصوبِ بغير ألفٍ، فلا تكونُ فيه مخالَفةٌ للسواد.

وأمَّا ما حَكَى عن سيبويه فقد اختلف الفهمُ عن[(٣)] كلام سيبويه في «إنْ».

وأمَّا ما حكاه عن الكسائيِّ فالنقلُ عن الكسائيِّ أنه حَكَى إعمالَها وليس بعدها إيجابٌ.

والذي يَظْهرُ لي أنَّ هذا التخريجَ الذي خرَّجوه من أنَّ «إنْ» للنفي ليس بصحيحٍ؛ لأنَّ قراءة الجمهور تدلُّ على إثبات كونِ الأصنام عبادًا أمثالَ عابديها، وهذا التخريج يدلُّ على نفي ذلك، فيؤدِّي إلى عدم مطابقةِ أحد الخبرين الآخَرَ[(٤)]، وهو لا يجوزُ بالنسبة إلى الله تعالى.

---

(١) وهو التذييل والتكميل، والكلام فيه ٤/ ٢٧٧-٢٨١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٨.

(٣) في (د١) والمطبوع: في.

(٤) كلمة: الآخر، من (د١) والمطبوع، وجاء في (أ): الجزأين، بدل: الخبرين.

وقد خرَّجتُ هذه القراءةَ في «شرح التسهيل»[١] على وجهٍ غيرِ ما ذكروه، وهو أنَّ «إنْ» هي المخفَّفةُ من الثقيلة، وأعمَلَها عملَ المشدَّدة، وقد ثبت أنَّ «إنْ» المخفَّفةَ يجوزُ إعمالُها إعمالَ المشدَّدة في غير المضمَر بالقراءة المتواترة: ﴿وإنْ كلًّا لَمَا﴾[٢] [هود: ١١١]، وبنقلِ سيبويه عن العرب[٣]، لكنه نصبَ في هذه القراءة خبرها كما نَصَبَه عمر بن أبي ربيعة المخزومي في قوله:

إذا اسْوَدَّ جُنْحُ الليل فلتأتِ ولتكن خُطاكَ خِفافًا إنَّ حرَّاسنا أُسْدَا[٤]

وقد ذهب جماعةٌ من النحاة إلى جواز نصبِ أخبار «إنَّ» وأخواتها، واستدلُّوا على ذلك بشواهِدَ ظاهرةِ الدلالة على صحة مذهبهم، وتأوَّلها المخالفون[٥]، فهذه القراءةُ الشاذةُ تتخرَّجُ على هذه اللغة، أو تُتأوَّلُ على تأويل المخالفين لأهل هذا المذهب، وهو أنهم تأوَّلوا المنصوبَ على إضمارِ فعلٍ، كما قالوا في قوله:

يا ليت أيامَ الصِّبا رواجعا[٦]

إن تقديره: أقبلتْ رَوَاجِعا، فكذلك تُؤوَّل هذه القراءةُ على إضمار فعلٍ تقديره: إنِ الذين تَدْعون من دون الله خلقناهم[٧] عبادًا أمثالَكم، وتكونُ القراءتان قد توافَقَتا

(١) التذييل والتكميل ٤/ ٢٧٨.
(٢) هي قراءة نافع وابن كثير من السبعة، كما سيرد عند تفسير الآية.
(٣) الكتاب ٢/ ١٤٠.
(٤) البيت دون نسبة في شرح المقدمة الجزولية الكبير للشلوبين ٢/ ٨٠٠، وشرح التسهيل لابن مالك ١/ ٤٢٦، ومغني اللبيب ص٥٥.
(٥) ينظر تفصيل هذه المسألة في شرح المقدمة الجزولية ٢/ ٨٠٠-٨٠٦، وشرح التسهيل لابن مالك ١/ ٤٢٦، والتذييل والتكميل ٥/ ٢٦-٣٢، وشرح شواهد المغني للبغدادي ١/ ١٨٤، وذكر ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ١/ ٧٨ أنها لغة رؤبة وقومه، لكن قال المصنف في الارتشاف ٣/ ١٢٤٢: وكثر ذلك في خبر ليت، ولم يحفظ في خبر «إنَّ» ولا خبر «لكنَّ».
(٦) الرجز للعجاج كما في طبقات فحول الشعراء ١/ ٧٨، وهو دون نسبة في الكتاب ٢/ ١٤٢، والأصول في النحو ١/ ٢٤٨، وأسرار العربية ص٢٥٩، وشرح المقدمة الجزولية ٢/ ٨٠٢، والتذييل والتكميل ٥/ ٢٨. وجعله البغدادي في الخزانة ١٠/ ٢٣٦ من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، ولعله لم يقف عليه في طبقات فحول الشعراء.
(٧) في (د١) و(ع): تدعون، بدل: خلقناهم، وسقطت من (أ)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الدر المصون ٥/ ٥٤١.

على معنًى واحدٍ، وهو الإخبارُ أنهم عبادٌ، ولا يكونُ تَنَافٍ بينهما وتخالُفٌ لا يجوز في حقِّ الله تعالى.

وقُرئ أيضاً «إنْ» مخفَّفةً ونصب «عبادًا» على أنه حالٌ من الضمير المحذوف العائد من الصِّلة على «الذين»، و«أمثالُكم» بالرفع على الخبر[١]، أي: إن الذين تدعونهم من دون الله في حال كونهم عبادًا أمثالُكم في الخلق أو في الملك، فلا يمكن أن يكونوا آلهةً.

«فادعوهم» أي: فاختَبِروهم بدعائكم: هل تقعُ منهم إجابةٌ أو لا تقع، والأمرُ بالاستجابة هو على سبيل التعجيز، أي: لا يمكن أن يُجيبوا، كما قال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] ومعنى «إنْ كنتم صادقين»: في دعوى إلهيتهم واستحقاقِ عبادتهم، كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ هذا استفهامُ إنكارٍ وتعجبٍ وتبيينٍ أنهم جمادٌ لا حراكَ لهم، وأنهم فاقدون لهذه الأعضاءِ ومنافِعِها التي خُلقت لأجْلها، فأنتم أفضلُ من هذه الأصنام إذ لكم هذا التصرُّفُ.

وهذا الاستفهامُ الذي معناه الإنكار قد يتوجَّه الإنكارُ فيه إلى انتفاءِ هذه الأعضاءِ وانتفاءِ منافعها، فيَتَسَلَّطُ النفيُ على المجموع كما فسَّرناه؛ لأنَّ تصويرهم هذه الأعضاءَ للأصنام ليست أعضاءً حقيقةً، وقد يتوجَّهُ النفيُ إلى الوصف، أي: وإن كانت لهم هذه الأعضاءُ مصوَّرةً فقد انتفت المنافعُ[٢] التي للأعضاء، والمعنى: إنكم أفضلُ من الأصنام بهذه الأعضاء النافعة.

و«أم» هنا منقطعةٌ، فتتقدَّر بـ«بل» والهمزة وهو إضرابٌ على معنى الانتقال لا على معنى الإبطالِ، وإنما هو تقريرٌ[٣] على نفي كلِّ واحدةٍ من هذه الجمل.

---

(١) الإملاء للعكبري ١/ ٢٩١.

(٢) في المطبوع: هذه المنافع، وسقطت الجملة من (ب) و(د٣) و(يه).

(٣) تحرفت في (ب) والمطبوع إلى: تقدير.

وكان ترتيبُ هذه الجملِ هكذا لأنه بُدئ بالأهم ثم أُتبعَ بما هو دونه إلى آخرها.

وقرأ الحسن والأعرج ونافعٌ بكسر الطاء، وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافعٌ أيضًا بضمِّها[1].

وقال أبو عبد الله الرازي: تعلَّق بعضُ الأغمار بهذه الآية في إثباتِ هذه الأعضاء لله تعالى فقالوا: جُعِلَ عدمُها للأصنام دليلًا على عدم إلهيتها، فلو لم تكن موجودةً له تعالى لكان عدمُها دليلًا على عدم الإلهية، وذلك باطلٌ، فوجب القولُ بإثباتها له تعالى.

والجواب من وجهين:

أحدهما: أنَّ المقصود من الآية بيان أنَّ الإنسان أفضلُ وأكملُ حالًا من الصنم؛ لأنه له رِجْلٌ ماشيةٌ ويدٌ باطشةٌ وعينٌ باصِرةٌ وأُذنٌ سامعةٌ، والصنم - وإن صوِّرَتْ له صورةُ هذه الأعضاءِ - بخلافِ الإنسان، فالإنسانُ أكملُ وأفضلُ، فلا يشتغل بعبادة الأخسِّ الأدْوَنِ.

والثاني: أن المقصود تقريرُ الحجَّة التي ذكرها قبلُ، وهي: «ولا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسَهم ينصرون» يعني كيف تَحْسنُ عبادةُ مَن لا يقدر على النفع والضرِّ، ثم قرَّر أنَّ هذه الأصنامَ انتفت عنها هذه الأعضاءُ ومنافعُها، فليست قادرةً على نفع ولا ضرٍّ، فامتنع كونُها آلهةً، أمَّا الله تعالى فهو وإن كان متعاليًا عن هذه الأعضاء، فهو موصوفٌ بكمال القدرة على النفع والضر، وبكمال السمع والبصر[2]. انتهى، وفيه بعضُ تلخيص.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ لـمَّا أنكر تعالى عليهم عبادةَ الأصنام، وحقَّر شأنَها، وأظهر كونَها جمادًا عاريةً عن شيءٍ من القدرة، أمر تعالى نبيَّه أن يقول لهم ذلك، أي: لا مبالاةَ بكم ولا بشُرَكائكم فاصنعوا

(١) والمشهور عن نافع الكسر، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٢٧٤، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٩.

(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٩٣.

ما تشاؤون، وهو أمرُ تعجيزٍ، أي: لا يمكنُ أن يقع منكم دعاءٌ لأصنامكم ولا كيدٌ لي، وكانوا قد خوَّفوه آلهتَهم، ومعنى: «ادعوا شركاءكم»: استعينوا بهم على إيصال الضرِّ إليَّ «ثم كيدون» أي: امكروا بي ولا تؤخِّرون عمَّا تريدون من الضرِّ، وهذا كما قال قومُ هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤-٥٥] وسمَّى الأصنامَ شركاءَهم من حيث[١] لهم نسبةٌ إليهم بتسميتهم إياهم آلهةً وشركاءَ الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو وهشامٌ بخلافٍ عنه: «كيدوني» بإثبات الياء وصلًا ووقفًا، وقرأ باقي السبعة بحذف الياء اجتزاءً بالكسرة عنها[٢].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ لمَّا أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضرِّه، وأراهم أنَّ الله هو القادرُ على كلِّ شيءٍ، عقَّب ذلك بالاستناد[٣] إلى الله تعالى والتوكُّلِ عليه، والإعلام أنه تعالى هو ناصرُه عليهم، وبيَّن جهةَ نصرِه عليهم بأنْ أوْحَى إليه كتابَه وأعزَّه برسالته، ثم أنه تعالى يتولَّى الصالحين من عباده وينصرُهم على أعدائهم ولا يخذلهم.

وقرأ الجمهور: «إنَّ وليِّي الله» بياءٍ مشدَّدة، وهي ياءُ «فَعيلٍ» أُدغمت في لام الكلمة، وبياءِ المتكلِّم بعدها مفتوحةً، وقرأ أبو عمرو في روايةٍ عنه بياءٍ واحدةٍ مشدَّدةٍ مفتوحةٍ ورفعِ «الله»[٤].

قال أبو علي: لا يخلو من أن تُدْغَم الياءُ التي هي لامُ الفعل في ياء الإضافة،

(١) في المطبوع: من حيث إن.

(٢) ينظر السبعة ص٢٩٩، والتيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٥، وفيها جميعاً أن إثبات الياء عن أبي عمرو هو في الوصل خاصة، ولم يذكر عنه الداني في جامع البيان ٢/ ١٧١ سواها.

(٣) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): بالإسناد، والمثبت من باقي النسخ والنهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٤٤٦.

(٤) في (د١) والمطبوع: الجلالة. وهذه القراءة أوردها ابن مجاهد في السبعة ص٢٩٦، وذكرها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ١٦٨-١٧٠ ولم يذكرها في التيسير، وذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٨.

وهو لا يجوزُ لأنه ينفكُّ الإدغام الأول، أو تُدْغَم ياءُ فعيلٍ في ياء الإضافة ويُحذف لامُ الفعل، فليس إلَّا هذا[(١)]. انتهى.

ويمكنُ تخريجُ هذه القراءةِ على وجهٍ آخَر، وهو أنْ لا يكونَ «وليّ» مضافًا إلى ياءِ متكلِّمٍ بل هو اسمٌ نكرةٌ اسمُ «إنَّ» والخبر «الله»، وحُذف من «وليّ» التنوينُ لالتقاء الساكنين، كما حُذف من قوله: «قل هو الله أحدُ الله»[(٢)]، وقوله:

ولا ذاكــــرَ اللهَ إلَّا قـــلـــيـــلا[(٣)]

والتقدير: إنَّ وليًّا حقَّ وليِّ اللهُ الذي نزَّل الكتاب، وجَعْلُ اسم «إنَّ» نكرةً والخبرُ معرفةً فصيحٌ في الكلام، قال:

وإنَّ حـرامًـا أن أسـبَّ مُـجـاشِـعًـا بـآبـائي الـشـمِّ الـكرامِ الـخَـضَـارِمِ[(٤)]

وهذا توجيهٌ لهذه القراءة سهلٌ.

واختلَفَ النقلُ عن الجَحْدَريِّ، فنقل عنه صاحبُ كتاب «اللوامح في شواذِّ القراءات»: «إنَّ وليِّ اللهُ» بياءٍ مكسورةٍ مشدَّدةٍ، وحُذفت ياءُ المتكلم لمَّا سكَنَتْ، الْتَقَى ساكنان فحذفت، كما تقول: إنَّ صاحبي الرجلُ الذي تَعْلَم.

ونَقَلَ عنه أبو عمرٍو الداني[(٥)] «إنَّ وليَّ اللهِ» ياءٍ واحدةٍ مشدَّدةٍ منصوبةٍ مضافةٍ إلى «الله»، وذَكَرها الأخفش وأبو حاتم غيرَ منسوبةٍ، وضعَّفها أبو حاتم[(٦)]، وخرَّج

---

(١) الحجة ٤/ ١١٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠.

(٢) أي: بضم «أحد» دون تنوين حتى في الوصل، وهي قراءة نصر بن عاصم، ورواها هارون عن أبي عمرو. ينظر السبعة ص٧٠١، والقراءات الشاذة ص١٨٢.

(٣) وصدره: فألفيته غير مُسْتَعْتِبٍ، والبيت لأبي لأسود الدؤلي، وهو في الكتاب ١/ ١٦٩، ومجالس ثعلب ١/ ١٢٣، والمقتضب ٢/ ٣١٣، والأصول في النحو ٣/ ٤٥٥، والخصائص ١/ ٣١١، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٦٤، والخزانة ١١/ ٣٧٤. وسلف في تفسير الآية (١٨١) من آل عمران.

(٤) البيت للفرزدق، وسلف بهذه الرواية عند تفسير الآية (٩٦) من سورة آل عمران، وهو في الديوان ٢/ ٣٠٠ برواية أخرى ليس فيها محل الشاهد.

(٥) كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠، وذكرها أيضاً النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٦٩.

(٦) كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠.

الأخفشُ وغيرُه هذه القراءةَ على أن يكون المرادُ جبريل[(١)]؛ قال الأخفش: فيصيرُ «الذي نزَّل الكتاب» من صفة جبريل بدلالة: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] وفي قراءة العامَّة من صفة الله تعالى. انتهى، يعني أن يكون خبرُ «إنَّ» هو قوله: «الذي نزَّل الكتاب».

قال الأخفش: فأمَّا «وهو يتولَّى الصالحين» فلا يكون إلا من الإخبار عن الله تعالى.

وتفسيرُ هذه القراءة: بأنَّ المراد بها جبريلُ وإن احْتَملَها لفظُ الآية لا يناسِبُ ما قبل هذه الآية ولا ما بعدها، ويحتملُ وجهين من الإعراب، ولا يكون المعنيُّ جبريلَ:

أحدهما: أن يكون «وليَّ اللهِ» اسمُ «إنَّ»، «والذي نزَّل الكتاب» هو الخبر، على تقدير حذف الضمير العائدِ على الموصول، والموصولُ هو النبيُّ ﷺ، والتقدير: إنَّ وليَّ اللهِ الشخصُ الذي نزَّل الكتاب عليه، فحذف «عليه» وإن لم يكن فيه شرطُ جواز الحذف المَقيس، لكنه قد جاء نظيرُه في كلام العرب، قال الشاعر:

وإنَّ لساني شُهْدةٌ يُشْتَفَى بها ... وهو على مَن صبَّه الله علقمُ[(٢)]

التقدير: وهو على مَن صبَّه الله عليه عَلْقمُ، وقال الآخر:

فأصبح من أسماءَ قيسٌ كقابضٍ ... على الماء لا يَدْري بما هو قابضُ[(٣)]

التقدير: بما هو قابضٌ عليه، وقال الآخر:

لعلَّ الذي أَصْعَدْتِني أنْ يَرُدَّني ... إلى الأرض إنْ لم يَقْدِرِ الخيرَ قادِرُه[(٤)]

يريد: أَصْعَدْتِني به، وقال الآخر:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/١١٧.

(٢) البيت في الجمل للخليل ص٢٦٧، وشرح التسهيل لابن مالك ١/٢٢٥، والخزانة ٥/٢٦٦، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤].

(٣) البيت لقيس بن جَرْوةَ الطائي، كما في نوادر أبي زيد ص٦٢، والمستقصى للزمخشري ٢/٢٠٩، وفيهما: أصبح، دون الفاء، وهو برواية المصنف في ضرائر الشعر ص١٧٥.

(٤) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/٢١٢، وشرح التسهيل لابن مالك ١/٢٢٥، وفيهما: الحين، بدل: الخير. والحَيْن بفتح الحاء: الهلاك. القاموس (حين).

فَأَبْلِغَنْ خالدَ بنَ نَضْلةٍ والـ مَرْءُ معنيٌّ بِلَوْمِ مَن يَثِقُ(١)

يريد: يثق به، وقال الآخر:

ومِن حَسَدٍ يجورُ عليَّ قومي وأيُّ الدهر ذو لم يَحْسُدوني(٢)

يريد: لم يحسدوني فيه، وقال الآخر:

فقلتُ لها لا والذي حجَّ حاتمٌ أخونُك عهدًا إنَّني غيرُ خَوَّانِ(٣)

قالوا يريد: حجَّ حاتم إليه.

فهذه نظائرُ من كلام العرب يمكنُ حملُ هذه القراءة الشاذَّة عليها.

والوجهُ الثاني: أن يكون خبر «إنَّ» محذوفًا لدلالةِ ما بعده عليه، التقدير: إن وليَّ اللهِ الذي نزَّل الكتاب مَن هو صالحٌ، أو: الصالح، وحُذف لدلالة: «وهو يتولَّى الصالحين» عليه، وحَذْفُ خبر «إنَّ» وأخواتها لفهم المعنى جائزٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ الآية [فصلت: ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية [الحج: ٢٥]، وسيأتي تقديرُ حذفِ الخبر فيهما إن شاء الله.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ أي: من دون الله، ويتعيَّنُ عَوْدُ الضمير في «مِن دونه» على الله، وبذلك يُضعَّفُ مَن فسَّر «الذي نزَّل الكتاب» بجبريل عليه السلام، وهذه الآيةُ بيانٌ لحال الأصنام، وعجزِها عن نُصْرةِ أنفُسِها فضلًا عن نُصرة غيرها.

وتقدَّم قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]،

---

(١) شرح التسهيل ١/ ٢٢٥ برواية: فأبلغ الحارث بن نضلة...

(٢) البيت لحاتم في شرح التسهيل ١/ ٢٢٥، وليس في ديوانه.

(٣) البيت للعُريان بن سهلة الجرمي كما في نوادر أبي زيد ص٦٥، وروايته: فقال مجيباً والذي حج حاتم...، ومثله في الإفصاح للفارقي ص٣٠٤، وهو في كتاب الشعر لأبي عليٍّ الفارسي ٢/ ٣٩٤، والخزانة ٦/ ٥٦ برواية: فقلت له، وجاء برواية المصنف في ضرائر الشعر لابن عصفور ص١٧٥.

قال الواحدي[١]: أُعيد هذا المعنى لأنَّ الأول مذكورٌ على جهةِ التقريع، وهذا مذكورٌ على جهة الفرق بين مَن تجوزُ له العبادةُ وبين مَن لا تجوز، كأنّه قيل: الإِلهُ المعبودُ يجب أن يكون يتولَّى[٢] الصالحين، وهذه الأصنامُ ليست كذلك فلا تكون صالحةً للإلهية. انتهى.

ومعنى قوله: على جهة التقريع، أنَّ قوله: «ولا يستطيعون» معطوفٌ على قوله: «ما لا يخلقُ شيئاً»، وهو في حيِّز الإنكار والتقريع والتوبيخ على إشراكهم مَن لا يمكنُ أن يُوْجِدَ شيئًا ولا يُنْشِئَه، ولا ينصر نفسَه فضلًا عن غيره، وهذه الآية كما ذَكَر جاءت على جهة الفَرْق، ومندرِجةً تحت الأمر بقوله: «قل ادعوا»، فهذه الجملُ مأمورٌ بقولها وخطابِ المشركين بها؛ إذ كانوا يخوِّفون الرسولَ عليه السلام بآلهتهم، فأُمِرَ أن يخاطبهم بهذه الجملِ تحقيرًا لهم ولأصنامهم، وإخبارًا لهم بأنَّ وليَّه هو الله، فلا مبالاةَ بهم ولا بأصنامهم.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ تناسُقُ الضمائر يقتضي أنَّ الضمير المنصوبَ في «وإنْ تدعوهم» هو للأصنام، ونَفَى عنهم السماعَ لأنها جمادٌ لا تحسُّ، وأثبت لهم النظر على سبيل المجاز، بمعنى أنهم صوَّروهم ذوي أعينٍ، فهم يشبهون مَن يَنظُرُ ومَن قلَّب حَدَقَتَه للنظر، ثم نَفَى عنهم الإبصارَ كقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

ومعنى «إليك»، أي: إليك أيها الدَّاعي، وأَفْرَدَ لأنه اقْتَطَعَ قولَه: «وتراهم ينظرون إليك» من جملة الشرط، واستأنَفَ الإخبارَ عنهم بحالهم السَّيِّئ في انتفاء الإبصار كانتفاءِ السماع.

وقيل: المعنى في قوله: «ينظرون إليك» أي: يُحاذونك، من قولهم: المنازلُ تتناظَرُ، إذا كانت متحاذيةً يقابلُ بعضُها بعضًا[٣].

(١) كما في تفسير الرازي ١٥/ ٩٥، ولعله في تفسيره: البسيط، فإنه لم يَرِد في الوسيط ولا في الوجيز.
(٢) في تفسير الرازي: أن يكون بحيث يتولى...
(٣) ذكره الطبري في التفسير ١٠/ ٦٣٨.

وذهب بعضُ المعتزلة إلى الاحتجاج بهذه الآية على أنَّ العباد ينظرون إلى ربِّهم ولا يرونه، ولا حجَّةَ لهم في الآية؛ لأنَّ النظر في الأصنام مجازٌ محضٌ(١).

وجَعْلُ الضمير للأصنام اختاره الطبري(٢)؛ قال: ومعنى الآيةِ تبيينُ جمودِها وصغرِ شأنها(٣).

قال(٤): وإنما تكرَّرَ القولُ في هذا وتردَّدت الآياتُ فيه؛ لأنَّ أمر الأصنام وتعظيمَها كان متمكِّنًا من نفوس العرب في ذلك الزمن، ومستوليًا على عقولهم لطفًا(٥) من الله تعالى بهم.

وقال مجاهدٌ والحسن والسدِّي: الضميرُ المنصوبُ في «تدعوهم» يعود على الكفار، وَوَصَفهم بأنهم لا يسمعون ولا يُبْصِرون إذ لم يتحصَّلْ لهم عن الاستماع والنظرِ فائدةٌ، ولا حَلَوا منه بطائلٍ(٦).

وهذا تأويلٌ حَسَنٌ، ويكون إثباتُ النظر حقيقةً لا مجازًا، ويُحسِّنُ هذا التأويلَ الآيةُ بعد هذه؛ إذ في آخِرها: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ أي: الذين من شأنهم إن تَدْعُهم(٧) لا يسمعوا، وينظرون إليك ولا يبصرون(٨)، فيكون قد نبَّه(٩) على العلَّة

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٦٣٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠.
(٣) هذا من قول ابن عطية، وليس من قول الطبري.
(٤) والقائل أيضًا هو ابن عطية.
(٥) كذا وقعت العبارة في النسخ، والذي في المحرر: ومستوليًا على عقولها فأوعب القول في ذلك لطفًا . . .
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠، والضمير في «تدعوهم» على هذا القول يعود أيضاً على الكفار كما هو ظاهر من الكلام، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٦٣٧-٦٣٨. وقوله: ولا حَلَوا منه بطائل، أي: ولا ظفروا بفائدة، قال الجوهري في الصحاح (حلا): وقولهم: لم يَحْلَ منه بطائل، أي: لم يستفِدْ منه كبير فائدة، ولا يتكلم به إلا في الجَحْد. اهـ. وتحرف حلوا في المطبوع إلى: حصلوا.
(٧) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: أن تدعوهم، وهو خطأ.
(٨) في (د١) والمطبوع: وهم لا يبصرون.
(٩) في (د١) والمطبوع: فتكون مرتبة، وفي (أ): فتكون مدنية، وفي (ع): فتكون مدلية. وكلها تحريف.

الموجِبة لذلك وهي الجهل.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ هذا خطابٌ لرسول الله ﷺ ويعمُّ جميعَ أمته، وهي أمرٌ بجميع مكارم الأخلاق.

وقال عبد الله بنُ الزبير ومجاهدٌ وعروةُ والجمهورُ: أي: اقْبَلْ من الناس في أخلاقهم وأموالهم ومُعاشرتهم بما أتى عفوًا دون تكلُّفٍ ولا تحرُّجٍ[1]. والعفوُ ضدُّ الجهد، أي: لا تطلُبْ منهم ما يَشُقُّ عليهم حتى لا يَنْفِروا، وقد أَمَر بذلك رسولُ الله ﷺ بقوله: «يسِّروا ولا تعسِّروا»[2] وقال حاتم:

خُذي العفوَ منِّي تستديمي مودَّتي ... ولا تنطقي في سَوْرتي حين أغضبُ[3]

وقال آخر:

إذا ما بُلْغَةٌ جاءتك عفوًا ... فخذها فالغِنَى مَرْعًى وشِرْبُ
إذا اتَّفقَ القليلُ وفيه سِلْمٌ ... فلا تَرِدِ الكثيرَ وفيه حَرْبُ[4]

وقال الشعبي: سأل الرسولُ ﷺ جبريلَ عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ فأخبره عن الله تعالى أنه يأمرُك أن تعفوَ عمَّن ظَلَمكَ، وتُعطيَ مَن حَرَمَكَ، وتَصِلَ مَن قَطَعَك[5].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠-٤٩١، وأخرجه عنهم بنحوه الطبري ١٠/ ٦٣٩-٦٤١، وقول عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أخرجه البخاري (٤٦٤٣) و(٤٦٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) عزاه لحاتم الطائي ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٩١، وهو في الأغاني ٢٠/ ٣٦٢ منسوب إلى أسماء بن خارجة الفزاري، وفي عيون الأخبار ٣/ ١١ إلى شريح بن الحارث القاضي، ونسب في عيون الأخبار ٤/ ٧٧ أيضاً إلى أبي الأسود الدؤلي، وقال صاحب الأغاني: وليس ذلك بصحيح. وهو في الكشاف ٢/ ١٣٨ دون نسبة.

(٤) البيتان من قصيدة لأبي الحسن البُصْروي محمد بن محمد بن أحمد، كما في تاريخ بغداد ٤/ ٣٨٥.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٣٨، وهو مرسل كما قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: وقد روي له شواهد من وجوه أُخر. اهـ. قلت: وقوله: أن تعفو عمن ظلمك... إلخ، له شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند أحمد (١٧٤٥٢).

وقال ابن عباس والضحَّاك والسُّدِّي: هي في الأموال قبل فرض الزكاة، أُمر أن يأخذ ما سَهُلَ من أموال الناس، أي: ما فَضَلَ وزاد، ثم فُرِضت الزكاة فنُسخت هذه، وتؤخذُ طَوْعًا وكَرْهًا[١].

وقال مكي عن مجاهد: إنَّ العفو هو الزكاةُ المفروضة[٢].

وقال ابن زيد: الآيةُ جميعُها في مُداراةِ الكفار وعَدَمِ مُؤاخَذَتهم، ثم نُسِخَ ذلك بالقتال[٣]. انتهى.

والذي يَظْهَرُ القولُ الأولُ من أنه أُمِرَ بمكارِمِ الأخلاق، وأن ذلك حُكْمٌ مستمرٌّ في الناس ليس بمنسوخ، ويدلُّ عليه حديثُ الحُرِّ بن قيسٍ حين أَدخل عُيينةَ بن حِصْنٍ على عمر، فكلَّم عُمرَ كلامًا فيه غلظةٌ، فأراد عمر أن يَهُمَّ به، فتلا الحرُّ هذه الآيةَ على عمر، فقرَّرها ووقف عندها[٤].

و«العرف» المعروفُ والجميلُ من الأفعال والأقوال، وقرأ عيسى بن عمر: «بالعُرُف» بضم الراء[٥].

والأمرُ بالإعراض عن الجاهلين حضٌّ على التخلُّق بالحِلْم والتنزُّهِ عن منازَعةِ السُّفهاء، وعلى الإغضاء على ما[٦] يَسُوءُ، كقولِ مَن قال: إنَّ هذه قسمةٌ ما أُرِيدَ بها وجهُ الله[٧]. وقولِ الآخَر: «أنْ كان ابنَ عمَّتك»[٨]. وكالذي جذب رداءه حتى حزَّ في عنقه وقال: أعطني من مال الله[٩].

---

(١) بنحوه في تفسير الطبري ١٠/ ٦٤١.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩١.

(٣) أخرجه مطولاً الطبري ١٠/ ٦٤٢.

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٤٢) عن ابن عباس ﵄.

(٥) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحرر ٢/ ٤٩١.

(٦) في (د١) والمطبوع: الإغضاء عما، وكلاهما بمعنى.

(٧) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود ﵁.

(٨) أخرجه البخاري (٢٣٥٩، ٢٣٦٠)، ومسلم (٢٣٥٧) من حديث عبد الله بن الزبير ﵄.

(٩) أخرجه أحمد (١٢٥٤٨) ـ واللفظ له ـ والبخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧) من حديث أنس ﵁، ولفظه في الصحيحين: مُرْ لي من مال الله الذي عندك.

وخرَّج البزَّار في «مسنده»[١] من حديث جابر بن سُلَيم ما وصَّاه به الرسول ﷺ: «اتق الله ولا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئًا، وأنْ[٢] تَلْقَى أخاك بوجهٍ مُنْبَسِطٍ، وأنْ تُفْرِغَ من فَضْلِ دَلْوِكَ في إناء المُسْتَسْقي، وإن امرؤٌ سبَّك بما لا يَعْلَم[٣] منك فلا تسبَّه بما تَعْلَم فيه، فإنَّ الله جاعلٌ لك أجرًا وعليه وِزرًا، ولا تسبنَّ شيئًا مما خوَّلك الله».

وقال جعفر الصادق: أمَر اللهُ تعالى نبيَّه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آيةٌ أجمعُ لمكارِمِ الأخلاق منها[٤].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي: يَنْخَسَنَّك بأنْ يَحْمِلَكَ بوسوسته على ما لا يليق، فاطْلُب العياذةَ بالله منه وهي اللِّواذ والاستجارة.

قيل: لمَّا نزلت ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ الآية قال رسول الله ﷺ: «كيف، والغضب؟»، فنزلت[٥].

ومناسَبتُها لما قبلها ظاهرةٌ. وفاعِلُ «ينزغنَّك» هو «نَزْغٌ»، على حد قولهم: جَدَّ جَدُّه، أو على إطلاق المصدر والمرادُ به: نازغٌ.

وختم بهاتين الصفتين لأنَّ الاستعاذة تكون باللسان، ولا تُجْدي إلَّا باستحضار معناها، فالمعنى: سميعٌ للأقوال عليمٌ بما في الضمائر.

قال ابن عطية: الآيةُ وصيةٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ تعمُّ أمَّته رجلًا رجلًا، ونَزْغُ الشيطان عامٌّ في الغضب وتحسينِ المعاصي واكتسابِ الغوائل وغيرِ ذلك، وفي

(١) كما في تفسير القرطبي ٩/١٦٨-١٦٩، ولم أقف عليه في مطبوعه، وأخرجه أحمد (٢٠٦٣٢)، وأبو داود (٤٠٨٤)، والنسائي في الكبرى (٩٦١٦)، وابن حبان (٥٢٢).

(٢) في المصادر عدا أبي داود والقرطبي: ولو أن.

(٣) كذا نقل عن القرطبي، والذي في المصادر: بما يعلم، دون كلمة «لا»، وهو الصواب، وقد جاء في رواية الطيالسي في مسنده (١٢٠٨): «وإن امرؤ شتمك وعيَّرك بأمرٍ هو فيك».

(٤) تفسير الثعلبي ٣/١٠٧، والكشاف ٢/١٣٨-١٣٩، وتفسير البغوي ٢/٢٢٤، وتفسير القرطبي ٩/٤٢٠.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/٦٤٦ عن ابن زيد، وهو مرسل.

مصنف الترمذيّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنَّ للمَلَكِ لَمَّةً وإنَّ للشيطان لَمَّةً»[(١)]، وبهذه الآية تعلَّق ابن القاسم في قوله: إنَّ الاستعاذة عند القراءة: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم[(٢)]. انتهى.

واستنباطُ ذلك من الآية ضعيفٌ؛ لأنَّ قوله: «إنه سميعٌ عليم» جَرَى مجرى التعليلِ لطلبِ الاستجارة بالله، أي: لا تَسْتعِذْ بغيره فإنه هو السميعُ لما تقول، أو: السميعُ لما يقولُه الكفارُ فيك حين يَرُومون إغضابَكَ، العليم بقصدك في الاستعاذة، أو: العليم بما انْطَوَتْ عليه ضمائرُهم من الكيد لك، فهو ينصرُك عليهم ويُجيرك منهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ النَّزْغُ من الشيطان أخفُّ من مسِّ الطائف من الشيطان؛ لأنَّ النَّزْغَ: أدنى حركةٍ، والمسَّ: الإصابة، والطائف: ما يطوفُ به ويدورُ عليه، فهو أبلغُ لا محالةَ، فحالُ المتَّقين تزيدُ في ذلك على حال الرسول.

وانظر لحُسْنِ هذا البيانِ، حيث جاء الكلامُ للرسول كان الشرطُ بلفظ «إنْ» المحتمِلةِ للوقوع ولعَدَمه، وحيث كان الكلام للمتقين كان المجيءُ بـ«إذا» الموضوعةِ للتحقيق أو للترجيح، وعلى هذا فالنزغُ يمكن أن يقع ويمكن أنْ لا يقع، والمسُّ واقعٌ لا محالةَ أو يرجَّحُ وقوعُه، وهو إلصاقُ البشرة بالبشرة، وهو هنا استعارةٌ.

وفي تلك الجملة أُمِرَ هو ﷺ بالاستعاذة، وهنا جاءت الجملة خبريةً في ضمنها الشرطُ، وجاء الخبر «تذكَّروا» فدلَّ على تمكُّن مسِّ الطائف حتى حصل نسيانٌ فتذكَّروا ما نَسُوه، والمعنى: تذكَّروا ما أمر به تعالى وما نَهَى عنه، وبنفس التذكُّرِ حصل إبصارُهم وفاجأهم إبصارُ الحق والسداد، فاتَّبعوه وطردوا عنهم مسَّ الشيطانِ[(٣)] الطائفِ.

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٨٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، وجاء في مطبوعه: حسن غريب، وفي بعض نسخه: حسن صحيح غريب، كما ذكر الشيخ أحمد شاكر في حاشية الطبري ٥/ ٥٧٢. واللمة: الخَطْرة تقع في القلب. النهاية (لمم).

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩١.

(٣) كلمة: الشيطان، من (د١) والمطبوع، وليست في باقي النسخ.

و«اتقوا» قيل: عامَّةٌ في كلِّ ما يُتَّقى. وقيل: الشرك والمعاصي. وقيل: عقاب الله.

وقرأ النحويان وابن كثير: «طَيْفٌ»[(١)]، فاحتمل أن يكون مصدرًا من طاف يَطِيفُ طَيْفًا، أنشد أبو عبيدة:

أنَّى ألَمَّ بكَ الخيالُ يَطيفُ ومَطَافُه لك ذِكْرةٌ وشغوفُ[(٢)]

واحتمل أن يكون مخففًا من طيِّفٍ، كميْتٍ من مَيِّتٍ أو كلَيْنٍ من ليِّنٍ؛ لأنَّ طيِّفًا المشدَّدَ يحتمل أن يكون من طاف يَطِيفُ، ويحتمل أن يكون من طاف يَطُوف[(٣)].

وقرأ باقي السبعة: «طائفٌ» اسم فاعلٍ من طاف.

وقرأ ابن جبير: «طيِّفٌ» بالتشديد، وهو فَيْعِلٌ[(٤)].

وإلى أنَّ الطَّيْفَ مصدرٌ مال الفارسيُّ، جَعَل الطَّيْفَ كالخَطْرة والطائفَ كالخاطر[(٥)].

وقال الكسائي: الطيف: اللَّمم، والطائف: ما طاف حولَ الإنسان؛ قال ابن عطية[(٦)]: وكيف هذا وقد قال الأعشى:

وتُصْبِحُ عن غِبِّ السُّرى وكأنها ألَمَّ بها من طائفِ الجنِّ أولَقُ[(٧)]

---

(١) السبعة ص٣٠١، والتيسير ص١١٥. والنحويان هما أبو عمرو والكسائي.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٣٧، والبيت لكعب بن زهير، وهو في ديوانه ص٥٨، وإصلاح المنطق ص٢٩٠، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٢٩٣، وتفسير الطبري ١٠/ ٦٤٨، ومقاييس اللغة ٣/ ٤٣٢، والكشاف ٢/ ١٣٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢، واللسان (ذكر) و(شغف) و(طيف). قوله: وشغوف، كذا في النسخ والمحرر الوجيز، وجاء في باقي المصادر: وشعوف، قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٤٥١: الشُّعوف مصدر شعفه الحب: إذا أحرق قلبه شَعَفًا، ويجوز أن يكون جمع شَعْفٍ.

(٣) يعني أنَّ طيِّفًا إن كان من: طاف يطوف، فهو ك: مات يموت، وإن كان من: طاف يطيف، فهو ك: لان يلين.

(٤) وهي في القراءات الشاذة ص٤٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢.

(٥) الحجة ٤/ ١٢١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢، والكلام منه.

(٦) في المحرر ٢/ ٤٩٢، وعنه نقل المصنف قول الكسائي.

(٧) البيت في ديوان الأعشى ص٢٧١ برواية: وتصبح من غِبِّ السُّرى وكأنما. وسيأتي شرحه قريبًا للمصنف.

انتهى. ولا يُتعجَّبُ من تفسير الكسائيِّ الطائفَ بأنه ما طاف حول الإنسان بهذا البيت؛ لأنه يصحُّ فيه معنى ما قاله الكسائيُّ؛ لأنه إن كان تعجُّبُه وإنكارُه من حيث خَصَّصَ الإنسانَ، فالذي قاله الأعشى تشبيهٌ؛ لأنه قال: كأنها، وإن كان تعجُّبه من حيث فسَّر بأنه ما طاف حول الإنسان، فطائفُ الجنِّ يصحُّ أن يقال: طاف حول الإنسان، وشبَّه هو الناقةَ في سرعتها ونشاطِها وقَطْعِها الفيافيَ عَجِلةً بحالتها إذا ألَمَّ بها أَوْلَقٌ من طائفِ الجن.

وقال أبو زيد: طاف: أَقْبَلَ وأَدْبرَ، يطوفُ طَوْفًا وطَوافًا، وأطاف: استدار القومَ وأتاهم من نواحيهم، وطاف الخيال: ألَمَّ، يَطِيفُ طَيْفًا[(١)].

وزعم السهيليُّ أنه لم يُقَلْ اسم فاعل من: طاف الخيال، قال: لأنه تخيُّلٌ لا حقيقةٌ، وأمَّا ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩] فلا يقال فيه: طيفٌ؛ لأنه اسمُ فاعلٍ حقيقةً[(٢)]. انتهى. وقال حسان:

جِنِّيَّةٌ أرَّقَنِي طَيْفُها تَذْهَبُ صُبْحًا وتُرى في المنامْ[(٣)]

وقال ابن عباس: هما بمعنى النَّزْغ.

وقال السُّدي: الطيف: الجنون، والطائف: الغضب.

وقال أبو عمرو: هما بمعنى الوسوسة.

وقيل: هما بمعنى اللَّمم والخيال.

وقيل: الطيف: التخيُّل، والطائف: الشيطان.

وقال مجاهد: الطيف: الغضب، ويُسمَّى الجنونُ والغضبُ والوسوسةُ طيفًا لأنه لَمَّةٌ من الشيطان.

وقال عبد الله بن الزبير والسّدي: إذا زلُّوا تابوا.

(١) الحجة للفارسي ٤/ ١٢٠، وتفسير الرازي ١٥/ ٩٩، وفيهما: . . . وأطاف إذا جعل يستدير بالقوم . . .

(٢) الروض الأنف ٤/ ١١٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٢٦، وعنه نقل المصنف.

(٣) ديوان حسان ص٤٣٦.

وقال مجاهد: إذا همُّوا بذنبٍ ذكروا الله فتركوه.

وقال ابن جبير: إذا غَضِبَ كَظم غيظَه.

وقال مقاتل: إذا أصابه نزغٌ تَذَكَّر وعَرَفَ أنها معصيةٌ، نَزَع عنها مخافة الله تعالى.

وقال أبو روق: ابتهلوا[١].

وقال ابن بحر: عاذوا بذكر الله[٢].

وقيل: تفكَّروا فأبصروا.

وهذه كلُّها أقوالٌ متقارِبةٌ.

وسَبَّ عصام بن المُصْطَلِق الشاميُّ الحسينَ بن عليٍّ وأباه - رضي الله عنهما - سبًّا مبالغًا؛ إذ كان مبغضًا لأبيه، فقال الحسين بن عليٍّ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾، ثم قال: خَفِّضْ عليك، أستغفرُ الله لي ولك. ودعا له، في حكايةٍ فيها طولٌ ظهر فيها من مكارم أخلاقه وسعةِ صدره وحوالةِ الأشياء على القَدَر ما صيَّر عصامًا أشدَّ الناسِ حبًّا له ولأبيه، وذلك باستعماله هذه الآيةَ الكريمة وأَخْذِه بها[٣].

و«مبصرون» هنا من البَصِيرة لا من البَصَر، وقرأ ابن الزبير: «من الشيطان تأمَّلوا»، وفي مصحف أبيٍّ «إذا طاف من الشيطان طائفٌ تأمَّلوا فإذا هم مُبْصِرون»[٤]، وينبغي أن يُحمل هذا وقراءةُ ابنِ الزبير على أنَّ ذلك من باب

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٠/٦٤٨-٦٥٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/١٦٤٠-١٦٤١، وتفسير الثعلبي ٣/١٠٨، والنكت والعيون ٢/٢٨٩، وتفسير البغوي ٢/ ٢٢٥، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٢٦، وقد اختلف النقل عن أبي عمرو، فنقل عنه الماوردي مثلما ذكر المصنف من أن المعنى واحد وهو الوسوسة، ونقل البغوي والثعلبي عنه التفريق، وأن الطائف: ما يطوف حول الشيء، والطيف: اللَّمَّة والوسوسة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ذكر القصة كاملة القرطبي ٩/ ٤٢٦-٤٢٧.

(٤) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢.

التفسير، لا أنّه[١] قرآنٌ؛ لمخالفتِه سوادَ ما أَجْمَعَ المسلمون عليه من ألفاظ القرآن.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ الضميرُ في «وإخوانهم» عائدٌ على الجاهلين أو على ما دلَّ عليه قولُه: «إنَّ الذين اتَّقوا»، وهم غيرُ المتَّقين؛ لأنَّ الشيء قد يدلُّ على مُقابِلِه فيُضْمَرُ ذلك المقابلُ لدلالةِ مُقابِله عليه. وعُني بالإخوان على هذا التقديرِ: الشياطين، كأنه قيل: والشياطينُ الذين هم إخوانُ الجاهلين أو غيرِ المتقين، يَمدُّون الجاهلين أو غيرَ المتقين في الغي، قالوا: وفي «يمدونهم» ضميرُ الإخوان، فيكونُ الخبرُ جاريًا على مَن هو له، والضميرُ المجرورُ والمنصوبُ للكفار، وهذا قولُ قتادة[٢].

وقال ابن عطية: ويحتمل أن يعودوا جميعًا على الشياطين، ويكون المعنى: وإخوانُ الشياطين في الغيِّ بخلاف الإخوة في الله يَمدُّون الشياطينَ، أي: بطاعتهم لهم وقبولهم منهم، ولا يترتَّبُ هذا التأويلُ على أنْ يتعلَّق «في الغي» بالإمداد؛ لأنَّ الإنس لا يُغْوون الشياطين[٣]. انتهى.

ويمكن أن يتعلَّق «في الغَيّ» على هذا التأويلِ بقوله: «يمدُّونهم» على أنْ تكون «في» للسببية، أي: يَمُدُّونهم بسببِ غوايتهم، نحو: «دخلت امرأةٌ النارَ في هرة»[٤] أي: بسببِ هرَّةٍ، ويحتمل أن يكون «في الغي» حالًا فيتعلَّقُ بمحذوفٍ، أي: كائنين ومستقرِّين في الغيّ، فيبقى «في الغيّ» في موضعه ولا يكون متعلِّقًا بقوله: «وإخوانهم»، وقد جوَّز ذلك ابن عطية[٥]، وعندي في ذلك نظرٌ، فلو قلتَ: مُطعِمُكَ زيدٌ لحمًا، تريد: مُطعِمُك لحمًا زيدٌ، فتفصل بين المبتدأ ومعموله بالخبر، لكان في جوازه نظرٌ؛ لأنك فَصَلْتَ بين العامل والمعمول بأجنبيٍّ لهما معًا وإن كان ليس أجنبيًا لأحدهما الذي هو المبتدأ.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: لا على أنه.

(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ٢٤٥، وتفسير الطبري ١٠/ ٦٥٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٣.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث ابن عمر ﵄.

(٥) يعني جوَّز تعلّق «في الغي» بقوله: «وإخوانهم» المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢.

ويحتمل أن يختلف الضمير، فيكون في «وإخوانهم» عائدًا على الشياطين الدالّ عليهم الشيطانُ، أو على الشيطان نفسِه باعتبارٍ أنه يراد به الجنس، نحو قوله: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] المعنى: الطواغيت، ويكون في «يمدُّونهم» عائدًا على الكفار والواو في «يمدُّونهم» عائدةٌ على الشياطين، أي: وإخوانُ الشياطين يمدُّهم الشياطين، ويكون الخبر جرى على غيرِ مَن هو له، لأن الإمداد مسندٌ إلى الشياطين لا لإخوانهم، وهو نظيرُ قوله:

قومٌ إذا الخيلُ جالوا في كواثبها[(١)]

وهذا الاحتمالُ هو قولُ الجمهور، وعليه فسَّر الطبري[(٢)].

وقال الزمخشري: هو أوجَهُ؛ لأن «إخوانهم» في مقابَلةِ «الذين اتقوا»[(٣)].

وقرأ نافع: «يُمِدُّونهم» مضارع أَمَدَّ، وباقي السبعة: «يَمُدُّونهم» مِن مَدَّ[(٤)]، وتقدَّم الكلامُ على ذلك في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

وقرأ الجحدري: «يُمادُّونهم» من مادَّ على وزن فاعَلَ[(٥)].

---

(١) وصدره: فوارسُ الخيل لا مِيلٌ ولا قَزَمٌ، والبيت في الصحاح واللسان (قزم) والخزانة ٥/ ٢٥٠ منسوب لزياد بن منقذ، وهو من قصيدة في ذم صنعاء أوردها أبو تمام في الحماسة، وجاء في شرحها للمرزوقي ٣/ ١٣٩٢، وللتبريزي ٣/ ١٨١: وقال زياد بن حمل، ويقال: زياد بن منقذ. وهو دون نسبة في الخصائص ٣/ ٢٢٧، والكشاف ٢/ ١٣٩ ولم يذكر عجزه، والرواية في المصادر عدا الكشاف: وهم إذا الخيل...، وقَزَمٌ بفتح القاف والزاي: رذال الناس وسفلتهم، يطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى، والكواثب جمع كاثبة، وهي في عرف الفرس، ما تقدم من قربوس السرج حيث يقع عليه يد الفارس، وقوله: جالوا، أي: وثبوا. قاله صاحب الخزانة. وقال ابن جني: إنما يجول الراكب في صهوة الفرس لا في كاثبته، لكنهما لما تجاورا جريا مجرى الجزء الواحد. اهـ. والرواية في الحماسة: حالوا، قال المرزوقي والتبريزي: يقال: حال في ظهر دابته إذا ركبها. ومحل الشاهد عود الضمير في «جالوا» إلى القوم لا إلى الخيل، كما ذكر صاحب الخزانة، وينظر مناقشة ذلك في شرح شواهد الكشاف ٤/ ٥٢٥.

(٢) في تفسيره ١٠/ ٦٥٠.

(٣) الكشاف ٢/ ١٣٩.

(٤) السبعة ص٣٠١، والتيسير ص١١٥.

(٥) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧١.

وقرأ الجمهورُ: «ثم لا يُقْصِرون» من أَقْصَرَ، أي: كفَّ، قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ ما قلبي إلى أهله بِحُرّ ولا مُقْصِرٍ يومًا فيأتيني بِقُرّ[1]

أي: ولا نازعٍ عمَّا هو فيه.

وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ وعيسى بنُ عمر: «ثم لا يَقْصُرون» مِن «قَصَرَ»[2]، أي: ثم لا ينقصون من إمدادهم وغوايتهم.

وقد أَبْعَدَ الزجَّاجُ في دَعْواه أنَّ قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ الآيةَ متصلٌ بقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الآية: ١٩٢][3] ولا حاجة إلى تكلُّفِ ذلك، بل هذا كلامٌ متناسِقٌ آخِذٌ بعضُه بعنق بعضٍ؛ لمَّا بيَّنَ حالَ المتقين مع الشياطين بيَّنَ حال غيرِ المتقين معهم، وأنَّ أولئك بنفس ما يمسُّهم من الشيطان ماسٌّ أقلعوا على الفور، وهؤلاء في إمدادٍ في الغيِّ وعدمِ نزوعٍ عنه.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ روي أنَّ الوحي كان يتأخَّر عن النبيِّ ﷺ أحيانًا، فكان الكفارُ يقولون: هلا اجتبيتها. ومعنى اللفظة في كلام العرب: تخيَّرْتَها واصْطَفَيْتَها.

وقال ابن عباس ومجاهدٌ وقتادةُ وابنُ زيدٍ وغيرُهم: المراد: هلا اخْتَرَعْتها واختلقْتَها من قِبَلِكَ ومن عندِ نفسك[4]. والمعنى: إنَّ كلامك كلَّه كذلك، على ما كانت قريشٌ تدَّعيه، كما قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

قال الفرَّاء[5]: تقول العرب: اجْتَبَيْتُ الكلامَ واخْتَلَقْتُه وارْتَجَلْتُه: إذا افْتَعَلْتَه مِن قِبَل نفسِك.

وقال الزمخشري: اجْتَبَى الشيء بمعنى: جَبَاه لنفسه، أي: جمعه، كقولك:

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٠٩.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٨، وضبطت فيه صاد المضارع بالكسر، لكن قيَّدها السمين في الدر ٥/ ٥٥٠ بضم الصاد.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٣.

(٥) كما في تفسير الطبري ١٠/ ٦٥٧، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٢.

اجْتَمَعه، أو: جُبِيَ إليه فاجتباه، أي: أَخَذه، كقولك: جَلَيْتُ إليه العروسَ فاجْتَلَاها، والمعنى: هلا اجْتَمَعْتَها افتعالًا من عند نفسك[١].

وقال ابنُ عباس أيضًا والضحاك: هلَّا تَلَقَّيتَها[٢].

وقال الزمخشري: هلَّا أخذْتَها مُنزلةً عليك مقترحة[٣]. انتهى.

وهذا القولُ منهم من نتائج الإمداد في الغيِّ، كانوا يطلبون آياتٍ معيَّنةً على سبيل التعنُّت، كقلب الصَّفا ذهبًا، وإحياءِ الموتى، وتفجيرِ الأنهار، وكم جاءتهم من آيةٍ فكذَّبوا بها واقترحوا غيرها.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ بيَّن أنه ليس مجيءُ الآيات إليه إنما هو متَّبعٌ ما أوحاه الله تعالى إليه، ولستُ بمفتعِلِها ولا مقترِحِها.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: هذا الموحَى إليَّ الذي أنا أتَّبِعُه لا أبتدعُه، وهو القرآن، «بصائر» أي: حججٌ وبيناتٌ يُبْصَرُ بها وتتَّضِحُ الأشياءُ الخَفِيَّاتُ، وهي جمعُ بصيرة، كقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أي: على أمرٍ جليٍّ منكشِفٍ، وأخبر عن المفرد بالجمع لاشتماله على سورٍ وآياتٍ.

وقيل: هو على حذفِ مضافٍ، أي: ذو بصائر.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ أي: دلالةٌ إلى الرشد ورحمةٌ في الدارين[٤]، وفي الدِّين والدنيا، وخصَّ المؤمنين لأنهم هم الذين يَستبصِرون، وهم الذين ينتفعون بالوحي يتَّبعون ما أمر به فيه، ويَجتنبون ما يُنْهَوْن عنه فيه، ويؤمنون بما تضمَّنه.

وقال أبو عبد الله الرازي: أصل البصيرة: الإبصار، لمَّا كان القرآنُ سببًا لبصائر العقول في دلالة التوحيد والنبوَّة والمعاد أطلق عليه اسم البصيرة تسميةً للسبب باسم المسبَّب، والناسُ في معارفِ التوحيد والنبوة والمعاد ثلاثةُ أقسام:

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٩.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٣، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٠/ ٦٥٦ بلفظ: لولا تقبلتها من الله. وقول الضحاك فيه بلفظ: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء.

(٣) الكشاف ٢/ ١٣٩.

(٤) قوله: في الدارين، من (د١) والمطبوع.

أحدها: الذين بالغوا في هذه المعارف إلى حيث صاروا كالمشاهِدين لها، وهم أصحاب عينِ اليقين، فالقرآنُ في حقِّهم بصائرُ.

والثاني: الذين وصلوا إلى درجاتِ المستدِلِّين، وهم أصحابُ علم اليقين، فهو في حقِّهم هدًى.

والثالث: مَن اعتقد ذلك الاعتقادَ الجزم وإن لم يبلُغْ مرتبةَ المستدلِّين، وهم عامةُ المؤمنين، فهو في حقِّهم رحمةٌ.

ولمَّا كانت هذه الفرقُ الثلاث من المؤمنين قال: «لقومٍ يؤمنون»(١). انتهى، وفيه تكميلٌ وبعضُ تلخيصٍ.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ لمَّا ذكر أنَّ القرآن بصائرُ وهدًى ورحمةٌ أَمَر باستماعه إذا شُرِعَ في قراءته، وبالإنصات وهو السكوتُ مع الإصغاء إليه؛ لأن ما اشتمل على هذه الأوصافِ من البصائر والهدى والرحمةِ حَرٍ بأنْ يُصْغَى إليه حتى يَحْصُلَ منه للمنْصِتِ هذه النتائجَ العظيمةَ، وينتفعَ بها فيَسْتَبْصِرَ من العَمَى ويَهْتديَ من الضلال، ويُرْحَمَ بها.

والظاهر استدعاءُ الاستماعِ والإنصاتِ إذا أخذ في قراءة القرآن ومتى قُرئ، وقال ابنُ مسعود وأبو هريرةَ وجابرٌ وعطاءٌ وابنُ المسيِّب والزهريُّ وعبيد الله بن عمر(٢): إنها في المشركين، كانوا إذا صلَّى الرسولُ ﷺ يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] فنزلت جوابًا لهم(٣).

---

(١) تفسير الرازي ١٥/ ١٠١-١٠٢ بنحوه.

(٢) كذا في النسخ، والصواب: عبيد بن عمير. ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٦٥٩، وتفسير الثعلبي ٣/ ١١٠، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية، وجاء في تفسير القرطبي ٩/ ٤٣١: عبيد الله بن عمير، والصواب ما قدمناه. ينظر التهذيب ٣/ ٣٨.

(٣) هذا الخبر أورده الثعلبي ١٠/ ٦٥٩، وابن الجوزي ٣/ ٣١٢، والقرطبي ٦/ ٤٣١ عن سعيد بن المسيب وحده، لكن دون قوله: إنها في المشركين، والمروي عن الأئمة المذكورين أنها نزلت تأمر بالإنصات والاستماع للإمام أثناء الصلاة كما سيرد نحوه عن ابن مسعود وابن عباس ﷺ. ينظر المصادر المذكورة في هذا التعليق والذي قبله، ويقارن كلام المصنف بكلام القرطبي.

وقال عطاءٌ أيضًا وابنُ جُبيرٍ ومجاهدٌ وعمرو بن دينار وزيد بنُ أَسْلَم والقاسم بن مُخَيْمرة ومسلم بنُ يسارٍ وشهرُ بن حَوْشَبٍ وعبد الله بن المبارك: هي في الخطبة يوم الجمعة[١]. وضعَّف هذا القولُ بأنَّ ما يُقرأ في الخطبة من القرآن قليلٌ، وبأنَّ الآية مكيةٌ والخطبةُ لم تكن إلَّا بعد الهجرة من مكة[٢].

وقال ابن جُبيرٍ: إنها في الإنصات يومَ الأضحى، ويومَ الفِطْرِ، ويومَ الجمعة، وفيما يَجْهَرُ فيه الإمامُ من الصلاة[٣].

وقال ابن مسعود أيضًا: كان يسلِّم بعضُنا على بعضٍ في الصلاة ويكلِّمه في حاجته، فأُمِرْنا بالسكوت في الصلاة بهذه الآية[٤].

وقال ابن عباس: قَرَأَ في الصلاة المكتوبة، وقرأ الصحابةُ رافعي أصواتِهم فخلَّطوا عليه، فالآيةُ فيهم[٥].

وقيل: هو أمرٌ بالاستماع والإنصات إذا أدَّى الوحي.

وقال جماعة منهم الزجَّاج: ليس المراد الصلاةَ ولا غيرَها، وإنما المرادُ بقوله: «فاستمعوا له وأنصتوا»: اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه، كقولك: سمع الله دعاءك، أي: أجابك[٦].

وقال الحسن: هي على عمومها، ففي أيِّ موضع قُرئ القرآنُ وَجَبَ على كلِّ حاضرٍ استماعُه والسُّكوت[٧].

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ١١٠، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٣١، وأخرجه عن بعضهم الطبري ١٠/ ٦٦٤-٦٦٦.

(٢) تفسير القرطبي ٩/ ٤٣١، وقد نقل القرطبي الرد الأول عن ابن العربي، وهو في أحكام القرآن له ٢/ ٨١٧، ونقل الرد الثاني عن النقاش.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٦٦.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٦٥٨، وأخرج نحوه أيضاً البخاري (٤٥٣٤)، ومسلم (٥٣٩) من حديث زيد بن أرقم ﷺ، وذلك في نزول قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٦٤.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٩٨.

(٧) تفسير الرازي ١٥/ ١٠٢، وأخرجه الطبري ١٠/ ٦٦٦ بنحوه مختصراً بلفظ: في الصلاة المكتوبة وعند الذكر.

والخطابُ في قوله: «فاستمعوا» إن كان للكفار فتُرْجَى لهم الرحمةُ باستماعه والإصغاءِ إليه بأنْ يكونَ سببًا لإيمانهم، وإن كان للمؤمنين فرحمتُهم هو ثوابُهم على الاستماع والإنصاتِ والعملِ بمقتضاه، وإن كان للجميع فرحمةُ كلٍّ منهم على ما يناسبه.

و«لعل» باقيةٌ على بابها من توقع الترجّي، وقيل: هي للتعليل بمعنى «كي».

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ لمَّا أمرهم تعالى بالاستماع والإنصات إذا شُرع في قراءة القرآن ارْتَقى من أمرهم إلى أمرِ[١] الرسول ﷺ أنْ يذكُرَ ربَّه في نفسه، أي: بحيث يراقبه ويذكرُه في الحالة التي لا يَشْعُر بها أحدٌ، وهي الحالةُ الشريفةُ العُلْيا، ثم أَمَره أن يَذْكُرَه دون الجهر من القول، أي: يذكره بالقول الخفيِّ الذي يُشْعِرُ[٢] بالتذلُّل والخشوع من غير صياحٍ ولا تصويتٍ شديدٍ، كما تُناجَى الملوك وتُستجلب منهم الرغائبُ، وكما قال للصحابة وقد جَهَروا بالدعاء: «إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، اربَؤوا على أنفسكم»[٣]، وكان كلامُ الصحابة ﷺ للرسول ﷺ سِرارًا، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] وقال تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢] لأنَّ في الجهر عَدَمَ مبالاةٍ بالمخاطَب، وظهورَ استعلاءٍ وعدمَ تذلُّلٍ.

والذكرُ شاملٌ لكلِّ ذكرٍ من تهليلٍ وتسبيحٍ وغيرِ ذلك.

وانتصب «تضرُّعًا وخيفةً» على أنهما مفعولان من أَجْلهما لأنهما يتسبَّبُ عنهما الذكرُ، وهو التضرُّع في اتِّصال الثواب والخوفِ من العقاب، ويحتمل أن ينتصبا على أنهما مصدران في موضع الحال، أي: متضرِّعًا وخائفًا، أو: ذا تضرُّعٍ وخيفةٍ. وقرئ: «وخُفْية»[٤].

---

(١) في النسخ عدا (د١): ارتقى من أمره تعالى إلى أمر، والمثبت من (د١) والمطبوع.
(٢) في (ب) و(د٣) و(يه): يشرع، وهو تحريف، ووقع في (د١) والمطبوع: لا يشعر، وهو خطأ.
(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وجاء فيهما وفي غيرهما من المصادر: اربعوا، أي: ارفقوا. الفتح ٦/ ١٣٥.
(٤) تفسير الرازي ١٥/ ١٠٨.

والظاهرُ أن قوله: «واذكر» خطابٌ للرسول ﷺ، وقيل: خطابٌ لكلِّ ذاكرٍ. وقال ابن عطية: خطابٌ له ويعمُّ جميعَ أمَّته(١).

والظاهرُ تعلُّقُ الذكر بالرب تعالى؛ لأن استحضار الذات المقدَّسة استحضارٌ لجميع أوصافها.

وقيل: هو على حذف مضافٍ، أي: واذكر نِعَمَ ربِّك في نفسك باستدامة الفكر حتى لا تنسى نِعَمَهُ الموجبةَ لدوام الشكر.

وفي لفظة «ربِّك» من التشريف بالخطاب والإشعارِ بالإحسان الصادر من المالك للمملوك ما لا خفاءَ فيه، ولم يأتِ التركيبُ: واذكر الله، ولا غيرَه من الأسماء.

وناسَبَ أيضًا لفظُ الربِّ قولَه: «تضرُّعًا وخفيةً» لأنَّ فيه التصريحَ بمقام العبودية.

والظاهرُ أنَّ قوله: «ودون الجهر من القول» حالةٌ مغايرةٌ لقوله: «في نفسك» لعطفها عليها، والعطفُ يقتضي التغايرُ.

وقال ابنُ عطية: والجمهورُ على أنَّ الذكر لا يكونُ في النفس، ولا يراعَى إلا بحركة اللسان، قال: ويدلُّ عليه من هذه الآية قولُه تعالى: «ودون الجهر من القول» فهذه مرتبةُ السرِّ والمخافَتة باللفظ(٢). انتهى.

ولا دلالةَ في ذلك كما(٣) زعم، بل الظاهرُ المغايرةُ بين الحالتين، وأنهما ذِكْرانِ: نفسانيٌّ ولسانيٌّ، ولذلك قال الزمخشري: ومتكلِّمًا كلامًا دون الجهر؛ لأنَّ الإخفاء أدخلُ في الإخلاص وأقربُ إلى جنس التفكُّر(٤). انتهى.

ولمَّا ذكر حالتي الذِّكر وسببهما وهما التضرُّعُ والخِيفةُ ذكر أوقاتَ الذكر؛ فقيل: أراد خصوصيةَ الوقتين؛ لأنهم كانوا يصلُّون في وقتين قبل فرض الخمس.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في (د١) والمطبوع: لما.
(٤) الكشاف ٢/ ١٤٠.

وقال قتادة: «الغدوُّ»: صلاة الصبح، و«الآصال»: صلاة العصر[١].

وقيل: خصَّهما بالذِّكر لفضلهما.

وقيل: المعنى: جميع الأوقات، وعبَّر بالطرفين المُشْعِرَيْن بالنهار والليل.

و«الغدوّ»؛ قيل: جمعُ غُدْوة، فعلى هذا تَظْهَرُ المقابَلةُ لاسم جنسٍ بجمعٍ، ويكونُ المرادُ: بالغدوات والعشايا، وإن كان مصدرًا لـ«غدا» فالمرادُ: بأوقات الغدوِّ، حتى يقابَلَ زمانٌ مجموعٌ بزمانٍ مجموعٍ.

وقرأ أبو مجلز لاحِقُ بنُ حُميدٍ السَّدُوسيُّ البصري: «والإيصال»[٢] جَعَله مصدرًا لقولهم: آصَلْتُ، أي: دخلتُ في وقت الأصيل، فيكون قد قابَلَ مصدرًا بمصدرٍ، ويكون كـ«أَعْصَرَ» أي: دخل في العصر، وهو العشيُّ، «وأَعْتَم» أي: دخل في العتمة.

ولمَّا أَمَره بالذكر أكَّد ذلك بالنهي عن أن يكون من الغافلين، أي: استَدِم[٣] الذِّكر ولا تَغفلْ طرفةَ عينٍ، ومعلومٌ أنه عليه السلام تستحيلُ عليه الغفلةُ لعصمته، فهو نهيٌ له ﷺ والمرادُ أمتُه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۝٢٠٦﴾ هم الملائكةُ عليهم السلام، ومعنى العندية: الزُّلْفَى والقُرْبُ منه تعالى بالمكانة لا بالمكان، وذلك لتوفُّرهم على طاعته وابتغاءِ مرضاته.

ولمَّا أَمَر تعالى بالذكر ورغَّب في المواظبة عليه، ذَكَر مَن شأنُهم ذلك، فأخبر عنهم بأخبارٍ ثلاثةٍ:

الأولُ نَفْيُ الاستكبار عن عبادته، وذلك هو أصلُ[٤] إظهارِ العبودية، ونفيُ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٤، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ٢٤٦، والطبري ١٠/ ٦٧٠-٦٧١، وفيه: العشي، بدل: العصر، وصلاة العشي هي صلاة العصر، وقيل: الظهر والعصر. تفسير البيضاوي ٣/ ٢٦٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٨.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: استلزم.

(٤) كلمة: أصل، ساقطة من (د١) والمطبوع.

الاستكبارِ هو المُوْجِبُ للطاعات كما أنَّ الاستكبارَ هو الموجبُ للعصيان؛ لأنَّ المستكبِر يرى لنفسه شفوفًا(١) ومَزِيَّةً، فيمنعُه ذلك من الطاعة.

الثاني: إثباتُ التسبيح منهم له تعالى، وهو التنزيهُ والتطهيرُ عن جميع ما لا يليق بذاته المقدَّسة.

والثالث: السجودُ له.

قيل: وتقديم المجرور يُؤْذِنُ بالاختصاص، أي: لا يسجدون إلَّا له، والذي يَظهر أنه إنما قدَّم المجرورُ ليقع الفعلُ فاصلةً، فأخَّره لذلك ليناسِبَ ما قبله من رؤوس الآي.

ولمَّا كانت العبادةُ ناشئةً عن انتفاء الاستكبار، وكانت على قسمين: عبادة قلبية، وعبادة جسمانية، ذكَرهما، فالقلبيةُ: تنزيهُ الله تعالى عن كلِّ سوءٍ، والجسمانيةُ: السجودُ، وهو الحالُ التي يكونُ العبد فيها أقربَ إلى الله تعالى، وفي الحديث: «أطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ شبرٍ إلا وفيه ملكٌ قائمٌ أو راكعٌ أو ساجدٌ»(٢).

وقوله: «وله يسجدون» هو مكانُ سجدةٍ، فقيل: سجودُ التلاوة أربعُ سجداتٍ: «الم تنزيل» و«حم تنزيل» و«النجم» و«العلق»(٣).

وذُكِرَ عن ابن عباس أنها عشرٌ؛ أسقط آخِرَ «الحج»، و«صٓ»، وثلاثًا في المفصَّل.

ورُوي عن مالك: إحدى عَشْرةَ؛ أَسْقَطَ أخيرة(٤) «الحج» وثلاثَ المفصَّل.

---

(١) أي: فضلًا وزيادة، من شَفَّ: إذا زاد. ينظر اللسان (شفف).

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن غريب. وله شاهد من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٣٤)، وإسناده قوي كما ذكر محققو المسند في حاشية الحديث الأول.

(٣) أورده القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٥٢٣ عن عليٍّ وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم.

(٤) في (أ) و(د١) والمطبوع: آخرة.

وعن ابن وهب: أربعَ عَشْرةَ؛ أسقط ثانيةَ «الحج»، وهو قولُ أبي حنيفةَ والشافعيِّ، لكن أبو حنيفة أسقط ثانيةَ «الحج» وأثبت «ص»، وعَكَسَ الشافعيُّ.

وعن ابن وهب أيضًا وابنِ حبيبٍ: خمسَ عَشْرةَ آخِرُها خاتمةُ «العلق».

وعن بعض العلماء: ستَّ عشرةَ، وزاد سجدةَ «الحجر»[١].

والجمهورُ على أنه ليس بواجبٍ، وقال أبو حنيفة: هو واجبٌ.

ولا خلافَ في أنَّ شرطَه شرطُ الصلاة من طهارةِ خَبَثٍ وحَدَثٍ، ونيةٍ، واستقبالٍ، ووقتٍ، إلَّا ما رَوَى البخاريُّ[٢] عن ابن عمر، وابنُ المنذر عن الشعبيِّ[٣]، أنه يسجد على غير طهارةٍ.

وذهب الشافعيُّ وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبِّر ويرفع اليدين، وعن مالك: يكبِّر لها في الخفض والرفع في الصلاة. وأمَّا في غير الصلاة فاختُلف عنه.

ويسلِّم عند الجمهور، وقال جماعةٌ من السلف وإسحاقُ: لا يسلِّم[٤].

ووقتُها سائر الأوقات مطلقًا؛ لأنها صلاةٌ بسببٍ، وهو قولُ الشافعيِّ وجماعةٍ، وقيل: ما لم يُسْفِر ولم تصفرَّ الشمسُ[٥]. وقيل: لا يسجد بعد الصبح ولا بعد

(١) تنظر هذه الأقوال في إكمال المعلم ٢/ ٥٢٢-٥٢٣، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي ٢/ ١٩٤-١٩٥، وتفسير القرطبي ٩/ ١٣٦-١٣٧.

(٢) تعليقًا قبل الحديث (١٠٧١)، ووصله ابن أبي شيبة (٤٣٥٤).

(٣) وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة (٤٣٥٧)، وتحرف «المنذر» في (د١) والمطبوع إلى: المنكدر. والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في تفسير القرطبي ٩/ ٤٣٨، والكلام منه.

(٤) كذا وقع في النسخ، وهو عكس ما جاء في إكمال المعلم ٢/ ٥٢٤، والمفهم ٢/ ١٩٦-١٩٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٣٩، واللفظ عندهم: ولا سلام لها عند الجمهور، وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يسلم. اهـ. والتحقيق أن القولين منصوصان للشافعي، أصحهما عند العلماء من مذهبه اشتراط التسليم. وعن أحمد أيضاً روايتان. وينظر تفصيل ذلك في المغني لابن قدامة ٢/ ٣٦٢-٣٦٣، والمجموع للنووي ٣/ ٥٦٢، والتبيان في آداب حملة القرآن له ص١٤٠، وينظر أيضاً مختصر اختلاف العلماء للجصاص ١/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٥) أي: ما لم يسفر الصبح أو ما لم تصفر الشمس بعد العصر. ينظر المعلم بفوائد مسلم للمازري ١/ ٢٨٢، وإكمال المعلم ٢/ ٥٢٣، والمفهم ٢/ ١٩٦، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٣٩.

العصر. وقيل: الصبح[١] لا بعد العصر. وثلاثة الأقوال هذه في مذهب مالك.

وفي «سنن» ابن ماجه عن ابن عباس أنه عليه الصلاةُ والسلام كان يقول في سجود التلاوة: «اللهم احْطُطْ عنِّي بها وِزْرًا، واكْتُبْ لي بها أجرًا، واجْعَلْها لي عندكَ ذُخْرًا»[٢].

ومشهورُ مذهبِ مالكٍ أنه لا يسجد في الفريضة سرًّا كانت أو جهرًا، ومذهبُ أبي حنيفةَ أنه واجبٌ على السامع قَصَدَ الاستماعَ أو لا[٣].

والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

* * *

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾

الآية الأولى من سورة الأنعام

(١) أي: ما لم يُسْفر. ينظر المصادر المذكورة في التعليق السابق.

(٢) سنن ابن ماجه (١٠٥٣)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٥٧٦) و(٣٤٢٢) وقال: غريب من حديث ابن عباس، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. اهـ. وفي إسناده حسن بن محمد بن عبيد الله، قال العقيلي في الضعفاء ١/ ٢٤٣: لا يتابع على حديثه. وقال غيره: فيه جهالة. الميزان ١/ ٤٧٥.

(٣) ينظر تفصيل هذه المسائل في مختصر اختلاف العلماء للجصاص ١/ ٢٣٨-٢٤٤، وإكمال المعلم ٢/ ٥٢٢-٥٢٤، والمفهم ٢/ ١٩٤-١٩٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٣٦-٤٤٠.

(٧) سورة الأعراف مكية
وآياتها ست ومائتان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه، قال ابن جرير عن ابن عباس ﴿المص﴾: أنا الله أفصل، ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك، ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ شك منه، وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به، ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾، ولهذا قال: ﴿لتنذر به﴾ أي أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وذكرى للمؤمنين﴾، ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه، ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره، ﴿قليلاً ما تذكرون﴾، كقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقوله: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾، وقوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

يقول الله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة كما قال تعالى: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾، وكقوله: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾، وقال تعالى:

﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين﴾، وقوله: ﴿فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بياتاً﴾ أي ليلاً ﴿أو هم قائلون﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾، وقال: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾، وقوله: ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة – إلى قوله – خامدين﴾، قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ قال: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ الآية، كقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾، وقوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم؟ قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين﴾ قال: عما بلغوا.

وعن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده»، ثم قرأ: ﴿فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين﴾[1]، وقال ابن عباس في قوله ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وما كنا غائبين﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى: ﴿والوزن﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿الحق﴾ أي لا يظلم تعالى أحداً، كقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾، وقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾، وقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية﴾، وقال تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾.

---

(١) رواه ابن مردويه، وهو مخرج في الصحيحين بدون زيادة قوله ثم قرأ الآية.

(**فصل**) والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً، يروى هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: لا إله إلا الله، الحديث[1]، وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة»، ثم قرأ: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾، وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد»، وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى: ممتناً على عبيده فيما مكّن لهم من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل فيها رواسي وأنهاراً وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعها وسخّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها ﴿معايش﴾ أي مكاسب وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كقوله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، والمراد بذلك كله آدم عليه السلام، وقال سفيان الثوري عن ابن عباس ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ قال: خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء[2]، ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضاً أن المراد ﴿بخلقناكم﴾ ثم ﴿صورناكم﴾ الذرية، وقال أي خلقنا آدم ثم صورنا الذرية، وهذا فيه نظر لأنه قال بعده: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾، والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل، صار كأنه واقع على الأبناء، وهذا بخلاف قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾

---

(١) الحديث في سنن الترمذي وصححه.

(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

الآية، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معيناً، والله أعلم.

* ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

قال بعض النحاة (لا) هنا زائدة، زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر: (ما إن رأيت ولا سمعت بمثله)، فأدخل (إن) وهي للنفي على (ما) النافية لتأكيد النفي، قالوا: وكذا هنا ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾ مع تقدم قوله: ﴿لم يكن من الساجدين﴾، واختار ابن جرير أن ﴿منعك﴾ مضمن معنى فعل آخر تقديره: ما ألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، وهذا القول قوي حسن، والله أعلم. وقول إبليس لعنه الله: ﴿أنا خير منه﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله (وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له)؟ ثم بيّن أنه خير منه بأنه خلق من نار والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فقعوا له ساجدين﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود، فلهذا أبلس من الرحمة أي أويس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله في قياسه، ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم»[1]، وعن عائشة قالت، قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الملائكة من نور العرش، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[2]، وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح: «وخلقت الحور العين من الزعفران». وقال الحسن: قاس إبليس وهو أول من قاس، وعن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. إسناد صحيح أيضاً

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدري كوني ﴿فاهبط منها﴾ أي بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي فما يكون لك أن تتكبر فيها، قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ أي الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ.

(٢) رواه ابن مردويه.

ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿ أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿ إلى يوم يبعثون﴾ واستوثق إبليس بذلك أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿ فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ أي كما أغويتني، قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿ صراطك المستقيم﴾ أي طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي، وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمية، كأنه يقول فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم، قال مجاهد: ﴿ صراطك المستقيم﴾ يعني الحق، والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك، روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك قال فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال، قال فعصاه وجاهد»، قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»[1].

وقوله: ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ الآية، قال ابن عباس: ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿ ومن خلفهم﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿ وعن أيمانهم﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ وعن شمائلهم﴾ أشهي لهم المعاصي، وعنه: أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم، وأما من خلفهم فأمر آخرتهم، وأما عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم، وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم. وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله[2].

وقال مجاهد: ﴿ من بين أيديهم وعن أيمانهم﴾ من حيث يبصرون، ﴿ ومن خلفهم وعن شمائلهم﴾ حيث لا يبصرون، واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه، والشر يحسنه لهم، وقال ابن عباس ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ قال: موحدين، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند. (٢) وكذا روي عن إبراهيم النخعي والسدي وابن جريج.

في هذا الواقع كما قال تعالى: ﴿ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾، ولهذا ورد في الحديث: الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان كما قال الحافظ البزار. عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يديَّ ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي»(١).

وعن عبدالله بن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يديَّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»(٢)

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

أكد تعالى على الشيطان اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله: ﴿اخرج منها مذءوماً مدحوراً﴾، قال ابن جرير: أما المذؤوم فهو المعيب، والذأم: العيب، يقال ذأمه ذأماً فهو مذؤوم، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم، قال: والمدحور المقصيّ وهو المبعد المطرود. وقال ابن أسلم: ما نعرف المذؤوم والمذموم إلا واحداً، وقال ابن عباس: صغيراً مقيتاً، وقال السدي: مقيتاً مطروداً، وقال قتادة: لعيناً مقيتاً، وقال مجاهد: منفياً مطروداً، وقال الربيع بن أنس: مذؤوماً منفياً والمدحور المصغر. وقوله تعالى: ﴿لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾، كقوله: ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً﴾ .

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن (وقال) كذباً وافتراء: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ أي لئلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ أي لئلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾، أي لئلا تضلوا ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ أي لئلا تميد بكم، ﴿وقاسمهما﴾ أي حلف لهما بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾، أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله، وقال قتادة في

(١) أخرجه الحافظ البزار من حديث ابن عباس مرفوعاً .

(٢) ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد .

الآية: حلف بالله إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول: من خدعنا بالله انخدعنا له .

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

عن ابن عباس قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة، فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما، وكان الذي وارى عنهما من سوآتهما أظفارهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين، يلزقان بعضه إلى بعض، فانطلق آدم عليه السلام مولياً في الجنة، فعلقت برأسه شجرة من الجنة، فناداه الله: يا آدم أمني تفر؟ قال: لا، ولكني استحييك يا رب، قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: وهو قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كداً قال: فاهبط من الجنة، وكانا يأكلان منها رغداً فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث، فحرث وزرع ثم سقى، حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه ثم ذراه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قال: ورق التين، وقال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال كهيئة الثوب، وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما[1]. وقال قتادة: قال آدم: أي رب أرأيت إن تبت واستغفرت، قال: إذاً أدخلك الجنة، وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله. وقال ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كُرهاً، ولا تضع إلا كُرهاً، قال: فرنت عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنة عليك وعلى ولدك؛ وقال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

---

(١) رواه ابن جرير بسند صحيح .

قيل المراد بالخطاب في ﴿ اهبطوا ﴾ آدم وحواء وإبليس، والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال: ﴿ اهبطا منها جميعاً ﴾ الآية، وحواء تبع لآدم، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات والله أعلم بصحتها، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ، وقوله: ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أي قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول، قال ابن عباس: ﴿ مستقر ﴾ القبور، وعنه قال ﴿ مستقر ﴾ فوق الأرض وتحتها رواهما ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾، كقوله تعالى: ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾، يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلا بعمله.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهي السوآت، والرياش والريش ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات. قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب، وقال ابن عباس: الريش: اللباس، والعيش والنعيم، وقال ابن أسلم: الرياش الجمال؛ ولبس أبو أمامة ثوباً جديداً، فلما بلغ ترقوته قال الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي، ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوباً فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به، كان في ذمة الله وفي جوار الله وفي كنف الله حياً وميتاً»[1]. وقوله تعالى: ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾، اختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة، وقال قتادة وابن جريج: ﴿ ولباس التقوى ﴾ الإيمان، وقال ابن عباس: العمل الصالح، وعنه: هو السمت الحسن في الوجه، وعن عروة بن الزبير ﴿ لباس التقوى ﴾ خشية الله، وقال ابن أسلم: ولباس التقوى يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى، وكلها متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص فوهي محلول الزر، وسمعته يأمر بقتل الكلاب، وينهى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيراً فخير وإن شراً فشر»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله ﴾ قال: السمت الحسن»[2]

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.

(٢) رواه ابن جرير، قال ابن كثير: وفيه ضعف، وقد روى الأئمة الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصري بعضه.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾

يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سعيه في إخراجه من الجنة، التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ .

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠﴾

كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الحمس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر فتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال: ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة والله لا يأمر بمثل ذلك، ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ ؟ أي أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته، وقوله تعالى: ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ أي بالعدل والاستقامة، ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك .

واختلف في معنى قوله: ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾، فقال مجاهد: يحييكم بعد موتكم، وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء، وقال قتادة: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم ذهبوا ثم يعيدهم، وقال ابن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً، واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده

بما رواه عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين»(١). وعن مجاهد قال: يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً، وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدىء عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدىء خلقه عليه، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدأوا عليه، وقال السدي: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم؛ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً، قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إلّه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة».

وعن سهل بن سعد قال، قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم(٢). وفي الحديث: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»(٣). قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾، وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، ووجه الجمع على هذا: أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إلّه غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك، وجعله في غرائزهم وفطرهم، ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً، ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾، وفي الحديث: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» وقدر الله نافذ في بريته، فإنه هو ﴿الذي قدر فهدى﴾ و ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾، وفي الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»، ولهذا قال تعالى: ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾، ثم علل ذلك فقال: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ الآية.

* ﴿يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣١﴾

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتملونه من الطواف بالبيت عراة، كما روي عن ابن عباس،

(١) الحديث من رواية الصحيحين، ومعنى قوله ﴿غرلاً﴾ أي غير مختونين.

(٢) هذا جزء من حديث رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم وابن ماجة.

قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول

اليوم يبدو بعضه أو كلــه وما بـدا منه فـلا أحله

فقال الله تعالى: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾(١) ، وقال العوفي عن ابن عباس: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة، والزينةُ اللباس، وهو ما يواري السوأة، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد(٢) . ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنّة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة، ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض، كما قال الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً قال، قال رسول الله ﷺ: «إلبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر»، وللإمام أحمد أيضاً وأهل السنن، عن سمرة بن جندب قال، قال رسول الله ﷺ: «عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم». ويروى أن تميماً الداري اشترى رداء بألف وكان يصلي فيه.

وقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا﴾ الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾، وقال البخاري، قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. وقال ابن عباس: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرفاً أو مخيلة، وفي الحديث: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»(٣) ، وقال الإمام أحمد قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»(٤) ، وفي الحديث: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت»(٥) . وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك (الدسم) ما أقاموا في الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿كلوا واشربوا﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم، وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ولا تسرفوا﴾ ولا تأكلوا حراماً ذلك الإسراف، وقال ابن جرير، وقوله: ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾، يقول الله تعالى: ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ حده في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

(١) رواه مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له.

(٢) وروي عن مجاهد وعطاء والنخعي وقتادة والسدي والضحاك وغيرهم.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة.

(٤) ورواه النسائي والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) رواه الحافظ الموصلي والدارقطني وقال فيه: هذا حديث غريب.

﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ الآية، أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حساً في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين. عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ فأمروا بالثياب[1]

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله»[2]، وقد تقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام. وقوله: ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾، قال السدي: أما الإثم فالمعصية، والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق، وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيه على نفسه، وحاصل ما فسر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا. وقوله تعالى: ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته، ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً، ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ الآية.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ أي قرن وجيل ﴿أجل فإذا جاء أجلهم﴾ أي ميقاتهم المقدر لهم ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته وبشر وحذر فقال: ﴿فمن اتقى وأصلح﴾ أي ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد والشيخان.

واستكبروا عنها﴾ أي كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها، ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ماكثون فيها مكثاً مخلداً

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ أي لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾، اختلف المفسرون في معناه، فقال ابن عباس: ينالهم ما كتب عليهم، وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسود، وعنه قال: نصيبهم من الأعمال، من عمل خيراً جزي به، ومن عمل شراً جزي به. وقال مجاهد: ما وعدوا به من خير وشر، واختاره ابن جرير، وقال محمد القرظي ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ قال: عمله ورزقه وعمره، وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ ونظير المعنى في هذه الآية، كقوله: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾، وقوله: ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾ الآية، وقوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ الآية. يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه، قالوا: ﴿ضلوا عنا﴾ أي ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أنهم كانوا كافرين﴾.

۞ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته ﴿ادخلوا في أمم﴾ أي من أمثالكم وعلى صفاتكم، ﴿قد خلت من قبلكم﴾ أي من الأمم السالفة الكافرة، ﴿من الجن والإنس في النار﴾ ويحتمل أن يكون ﴿في أمم﴾ أي مع أمم. وقوله: ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ كما قال الخليل عليه السلام، ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إذْ تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتَّبعُوا ورأوا العذاب وتقطعت

بهم الأسباب﴾، وقوله: ﴿حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً﴾ أي اجتمعوا فيها كلهم ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ أي أخراهم دخولاً وهم (الأتباع) لأولاهم وهم (المتبوعون) لأنهم أشد جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي أضعف عليهم، كما قال تعالى: ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ء ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ الآية. وقوله: ﴿قال لكل ضعف﴾ أي قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه، كقوله: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً﴾ الآية، وقوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، وقوله: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ الآية، ﴿وقالت أولاهم لأخراهم﴾ أي قال المتبوعون للأتباع: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾، قال السدي: لقد ضللتم كما ضللنا، ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾، وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ الآيات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)﴾

وقوله تعالى: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء[١]، وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء[٢]، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثاً - ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان - قال: فتخرج تسيل كما يسيل القطر في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا

---

(١) قاله مجاهد وسعيد بن جبير ورواه العوفي عن ابن عباس.

(٢) رواه الضحاك عن ابن عباس وبه قال السدي.

كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له قبره مد البصر- قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً - ثم قرأ: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة.

وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك، حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عزَّ وجلَّ، وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة التي كانت

في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم يفتح لك أبواب السماء، فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر »[١]. وقد قال ابن جريج: لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ هكذا قرأه الجمهور، وفسروه بأنه البعير، قال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خرق الإبرة[٢]. وقرأ ابن عباس: بضم الجيم وتشديد الميم: يعني الحبل الغليظ في خرق الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير، وفي رواية أنه قرأ: حتى يلج الجمل، يعني قلوس السفن وهي الحبال الغلاظ. وقوله: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ المراد: الفرش، ﴿ومن فوقهم غواش﴾ اللحف، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد ﴿أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها﴾ نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ أي من حسد وبغض، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا ». وقال السدي في الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة، في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً. وقال علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾[٣]. وروى النسائي وابن مردويه عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكراً، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني فيكون له حسرة »[٤]، ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون، أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ:

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير واللفظ له.

(٢) هذا قول جمهور السلف منهم أبو العالية والضحاك وابن مسعود ورواه العوفي عن ابن عباس.

(٣) ررواه ابن جرير عن قتادة عن علي كرم الله وجهه.

(٤) أخرجه ابن مردويه والنسائي عن أبي هريرة مرفوعاً.

« واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة »، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل »[1]

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ « أن » ههنا مفسرة للقول المحذوف، و « قد » للتحقيق، أي قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ قالوا: نعم كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار، ﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ أي ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾، وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى: « يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. وقال عمر: يا رسول الله تخاطب قوماً قد جيّفوا؟ فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا »[2]، وقوله تعالى: ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ ي أعلم معلم ونادى مناد ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ أي مستقرة عليهم، ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً﴾ أي يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد، ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون أي جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً

وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فضرب بينهم بسور له باب﴾ وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وعلى الأعراف رجال﴾، ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً. (٢) الحديث مروي في الصحيحين.

﴿ وبينهما حجاب﴾ هو السور وهو الأعراف، وقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار سور له باب. قال ابن جرير: والأعراف جمع عرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه. وعن ابن عباس: هو سور بين الجنة والنار، وقال السدي: إنما سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم[1]. وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته، فقال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون». وقال ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف، قال فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلفت بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم.

وعن ابن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول الله: ﴿ فمن ثقلت موازينه﴾ الآيتين، ثم قال: الميزان يخف بمثقال حبة، ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم ونظروا أهل النار ﴿ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ تعوذوا بالله من منازلهم، قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا﴾، وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع، فهنالك يقول الله تعالى: ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ فكان الطمع دخولاً، قال: فقال ابن مسعود إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلبت آحاده عشراته[2]، وسئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف؟ قال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد، قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عتقائي، فارعوا من الجنة حيث شئتم»[3]

وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولاً، وقوله تعالى: ﴿ يعرفون كلاً بسيماهم﴾، قال ابن عباس: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه، وقال العوفي عن ابن عباس: أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين، وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله، وقال الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها

---

(١) قال بذلك حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف.

(٢) رواه ابن جرير عن ابن مسعود موقوفاً.

(٣) قال ابن كثير: هذا مرسل حسن

بهم، وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع، وقوله: ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾. قال الضحاك عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال السدي: وإذا مروا بهم يعني أصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال عكرمة: تجدد وجوههم للنار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم، وقال ابن أسلم في قوله: ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

يقول الله تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ أي كثرتكم، ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ أي لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال، ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾، قال ابن عباس: يعني أصحاب الأعراف ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾، وقال ابن جرير عن ابن عباس ﴿قالوا ما أغنى عنكم جمعكم﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار، قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك، قال السدي: ﴿أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ يعني الطعام، وقال ابن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم، وقال سعيد ابن جبير: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول له: قد احترقت، فأفض عليَّ من الماء، فيقال لهم أجيبوهم، فيقولون: ﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾، قال ابن أسلم ﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾: يعني طعام الجنة وشرابها، وسئل ابن عباس أي الصدقة أفضل؟ فقال، قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة، قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله»[1]؟ ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا

(١) رواه ابن أبي حاتم .

يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهوا ولعباً، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة، وقوله: ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي يعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾، وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾، وقال: ﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾، وقال تعالى: ﴿وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾، وقال ابن عباس: نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر، وعنه: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا، وقال مجاهد: نتركهم في النار، وقال السدي: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين كقوله: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾ الآية، وقوله: ﴿فصلناه على علم﴾ للعالمين، أي على علم منا بما فصلناه به كقوله: ﴿أنزله بعلمه﴾، ولما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، ولهذا قال: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار، قاله مجاهد وغير واحد، وقال مالك: ثوابه، وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ، قوله: ﴿يوم يأتي تأويله﴾ أي يوم القيامة، ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا، ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ أي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أو نرد﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾، كقوله: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ كما قال ههنا: ﴿قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ

حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

يخبر تعالى أنه خالق العالم؛ سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان ؟ أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ، ومنه سمي السبت، وهو القطع . وأما قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح وهو إمرارها، كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه و ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، بل الأمر كما قال (نعيم بن حماد الخزاعي) شيخ البخاري قال: من شبَّه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص؛ فقد سلك سبيل الهدى. وقوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أي سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه، كقوله: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾، إلى قوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، فقوله: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو في أثره بلا واسطة بينهما، ولهذا قال: ﴿يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته، ولهذا قال منبهاً: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ أي له الملك والتصرف ﴿تبارك الله رب العالمين﴾، كقوله: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ الآية، وفي الحديث: « من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه، فقد كفر وحبط عمله، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه »، لقوله: ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[1]، وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروي مرفوعا: « اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله » .

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أرشدك تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم، فقال: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾، قيل معناه: تذللاً واستكانة وخيفة، كقوله: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ الآية، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: « أيها الناس أربعوا على أنفسكم

(١) رواه ابن جرير

فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعون سميع قريب » الحديث، وقال ابن عباس في قوله: ﴿ تضرعاً وخفية قال: السر، وقال ابن جرير: ﴿ تضرعاً ﴾ تذللاً واستكانة لطاعته ﴿ وخفية ﴾ يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً مراءاة. وقال الحسن البصري: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾، وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويأمر بالتضرع والاستكانة، ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ في الدعاء ولا في غيره.

وقال الإمام أحمد إن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها، ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت به من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وقرأ هذه الآية: ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً ﴾ الآية – وإن بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل »[1]، وسمع عبد الله بن مغفل ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني سل الله الجنة وعُذْ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور »[2]، وقوله تعالى: ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً مما عنده من وبيل العقاب وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب، ثم قال: ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ الآية، وقال: ﴿ قريب ﴾ ولم يقل: (قريبة) لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين.

* وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

(١) رواه أحمد وأبو داود.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه وأبو داود قال ابن كثير: وإسناده حسن.

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر نبه تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً﴾ أي مبشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ بشراً، كقوله: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾، وقوله: ﴿بين يدي رحمته﴾ أي بين يدي المطر، كما قال: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾، وقال: ﴿فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾، وقوله: ﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾ أي حملت الرياح سحاباً ثقالاً أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زلالا

وقوله تعالى: ﴿سقناه لبلد ميت﴾ أي إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كقوله: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رمماً يوم القيامة، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض، وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً ليوم القيامة باحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال: ﴿لعلكم تذكرون﴾، وقوله: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً كقوله: ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾، ﴿والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾، قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها، وقال ابن عباس في الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، وقال البخاري عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام: الأول، فالأول، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام. قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل، وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه، وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم

على الإسلام. قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد، وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسموها بأسماء أولئك الصالحين (وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً)، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به، ﴿قال الملأ من قومه﴾ أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله: ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾، ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ إلى غير ذلك من الآيات، ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه، ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾، وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد»

۞ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أوعجبتم﴾ الآية، أي لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم لينذركم، ولتتقوا نقمة الله، ولا تشركوا به ﴿ولعلكم ترحمون﴾، قال الله تعالى: ﴿فكذبوه﴾ أي تمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه في موضع آخر، ﴿فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ أي السفينة، كما قال: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾، ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾، كما قال: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾، وقوله: ﴿إنهم كانوا قوماً عمين﴾ أي عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له، فبيّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كقوله: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ الآية، وهذه سنّة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين، وكان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل، وقال ابن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز. وقال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس أنه نجي مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً أحدهم جرهم، وكان لسانه عربياً[1]

(١) رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، وهؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر، كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة﴾؟ وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه، ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ - والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم - ﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أي في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إلّه واحد فقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾؟ الآية، ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسولٌ من رب العالمين﴾ أي لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء فهو رب كل شيء ومليكه، ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾، وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة، ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم، ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾، أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه، ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي زاد طولكم على الناس بسطة أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كقوله في قصة طالوت: ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ ﴿واذكروا آلاء الله﴾ أي نعمه ومننه عليكم ﴿لعلكم تفلحون﴾.

قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ

كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام، ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده﴾ الآية، كقول الكفار من قريش: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: صمد، وآخر يقال له: صمود، وآخر يقال له: الهباء، ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس، معناه سخط وغضب ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ أي أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿ما نزّل الله بها من سلطان. فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقّبه بقوله: ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه، فتثلغ رأسه حتى تبينه من جثته، ولهذا قال: ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾. وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلّهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس – وهم يسير – يكتمون إيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع كلمهم هود فقال: ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ الآيات .

فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمته ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستقوا لهم عند الحرم فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاثاً بيضاء وسوداء وحمراء، ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال: اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه مناد: « اخترت رماداً رمدداً، لا تبقي من عاد أحداً، لا والداً ولا ولداً، إلا جعلته همداً ». وساق الله السحابة السوداء بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد، يقال لها المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، يقول: ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء﴾ أي تهلك كل شيء مرت به، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، كما قال الله تعالى، والحسوم الدائمة، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك، وقد قال الله تعالى: ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾،

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق عن الحارث البكري قال: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له قيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودي: منها اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي: منها خذها رماداً رمدداً، لا تبقي من عاد أحداً، قال: فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا. قال أبو وائل وصدق قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد(١)

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع، قال الإمام أحمد عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم». وقال أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمر قال، قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»(٢). قوله تعالى: ﴿وإلى ثمود﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾، فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأخرجه ابن جرير. (٢) أصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين.

له، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقوله: ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية﴾، أي قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم الله إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عزَّ وجلَّ، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء، يتحرك جنينها بين جنبيها، كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيسهم (جندع بن عمرو) ومن كان معه على أمره، وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها، فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾، وقال تعالى: ﴿هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾، وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان، قلت: وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾، وقال: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾، وقال: ﴿فعقروا الناقة﴾، فأسند ذلك على مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك، والله أعلم.

وذكر ابن جرير وغيره من علماء التفسير: أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها (عنيزة) وتكنى أم عثمان، كانت عجوزاً كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها (ذؤاب بن عمرو) أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها (صدقة) ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته، فكانتا تجعلان جعلاً لمن التزم لهما بقتل الناقة فدعت صدقة رجلاً يقال له: الحباب، فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له: (مصدع بن المحيا) فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة بنت غنم (قدار بن سالف) وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه كان ولد زانية، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، فعند ذلك انطلق (قدار بن سالف) و (مصدع بن المحيا) فاستغويا غواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها، فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها (قدار بن سالف) في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت بنت غنم عنيزة، وأمرت ابنتها - وكانت من أحسن الناس وجهاً - فسفرت عن وجهها لقدار وزمرته، وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها، ثم طعن في لبتها فنحرها، وانطلق سقبها وهو فصيلها حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبر صالحاً عليه السلام جاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ الآية، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون﴾، فلما عزموا على ذلك وتواطأوا عليه وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبي الله، فأرسل الله سبحانه وتعالى – وله العزة ولرسوله – عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس – وهو اليوم الأول من أيام النظرة – ووجوههم مصفرة، كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل – وهو يوم الجمعة – ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع – وهو يوم السبت – ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد، وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه – عياذاً بالله من ذلك – لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة. ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى، ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً يقال له (أبو رغال) كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله .

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ وقف على القليب – قليب بدر – فجعل يقول: « يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة ابن ربيعة، ويا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا ! فقال: « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون »[1] . وهكذا قال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾، وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته كان يذهب فيقيم في الحرم – حرم مكة – والله أعلم. وقد قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: « يا أبا بكر أي واد هذا ؟ » قال هذا وادي عسفان. قال: « لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمهن الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون يحجون البيت العتيق »[2]

---

(١) وفي السيرة أنه ﷺ قال لهم: « بئس عشيرة القوم كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة القوم كنتم لنبيكم » .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى (و) لقد أرسلنا ﴿ لوطاً ﴾ أو تقديره (و) اذكر ﴿ لوطاً إذ قال لقومه ﴾، ولوط هو ابن هاران ابن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدوم، وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله. قال عمرو بن دينار في قوله ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان يوم لوط؛ وقال الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله عزّ وجلّ قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً، ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴾ أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل، لأنه وضع الشيء في غير محله، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿ هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾ فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أي لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك، وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً .

* وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

أي ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين، وقوله تعالى: ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾، قال قتادة: عابوهم بغير عيب. وقال مجاهد: إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء، وروى مثله عن ابن عباس أيضاً .

* فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه، وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسري بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول بل اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هي، فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال ههنا: ﴿ إلا امرأته كانت

من الغابرين﴾ أي الباقين، وقيل من الهالكين وهو تفسير باللازم، وقوله: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ مفسر بقوله، ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾، ولهذا قال: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصي الله عزَّ وجلَّ ويكذب رسله، وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله. والحجة ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[1]. وقال آخرون: هو كالزاني فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة، وهو القول الآخر للشافعي، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض السلف.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب (معان) من طريق الحجاز[2]، قال الله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة، ﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾، أي قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿ويل للمطففين - إلى قوله - لرب العالمين﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له (خطيب الأنبياء) لفصاحة عبارته وجزالة موعظته.

وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾ أي

(١) ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) معان هي الآن بلدة شهيرة في شرق الأردن.

تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي: كانوا عشارين، وعن ابن عباس ومجاهد ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾: أي تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه، والأول أظهر، لأنه قال: ﴿بكل صراط﴾ وهو الطريق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً﴾ أي وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة، ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم﴾ أي كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك، ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله، وقوله: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾ أي قد اختلفتم علي ﴿فاصبروا﴾ أي انتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ وبينكم أي يفصل ﴿وهو خير الحاكمين﴾، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

* قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين ﴿٨٨﴾ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴿٨٩﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين، وتوعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول، والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة، وقوله: ﴿أولو كنا كارهين﴾؟ يقول: أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه، فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله، في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تنفير منه على اتباعهم ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾، وهذا رد إلى الله مستقيم فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً، ﴿على الله توكلنا﴾ أي في أمورنا ما نأتي منها وما نذر، ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾، أي احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم، ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ أي خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون ﴿٩٠﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴿٩١﴾ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ﴿٩٢﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون﴾، فلهذا عقبه بقوله: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾، أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء

كما أخبر عنهم في سورة هود، فقال: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾، والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به في قولهم ﴿أصلاتك تأمرك﴾؟ الآية، فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ الآية، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾. ثم قال تعالى: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾.

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

أي فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، وقال مقرعاً لهم وموبخاً: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ أي قد أديت إليكم ما أرسلت به، فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، فلهذا قال: ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾؟..

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء. يعني ﴿بالبأساء﴾ ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، ﴿والضراء﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لعلهم يضّرعون﴾ أي يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم، وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه، ولهذا قال: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك فما فعلوا، وقوله: ﴿حتى عفوا﴾ أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر ﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾. يقول: تعالى ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، وقالوا: قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له» فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء،

ولهذا جاء في الحديث: « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه[1] ، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهله ولا فيم أرسلوه »، أو كما قال، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي على بغتة وعدم شعور منهم، أي أخذناهم فجأة كما في الحديث: « موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر »

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس﴾ أي ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس فإنهم آمنوا، وذلك بعدما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾. وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ أي آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل، وصدقت به واتبعوه، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾، أي قطر السماء ونبات الأرض، وقال تعالى: ﴿ ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم، ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره ﴿ أفأمن أهل القرى﴾ أي الكافرة، ﴿ أن يأتيهم بأسنا﴾ أي عذابنا ونكالنا، ﴿ بياتاً﴾ أي ليلاً ﴿وهم نائمون » أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾ أي في حال شغلهم وغفلتهم، ﴿ أفأمنوا مكر الله﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم، وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قال ابن عباس المعنى: أولم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، وقال ابن جرير في تفسيرها: أو لم يتبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ﴿ ونطبع على قلوبهم﴾ يقول: ونختم على قلوبهم، ﴿ فهم لا يسمعون﴾ موعظة ولا تذكيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا

(١) في رواية الترمذي: «حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة » .

قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾، وقال: ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾، وقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾ أي هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ وقال تعالى: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾؟ وقال تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه، ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين.

* تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تلك القرى نقص عليك﴾ أي يا محمد ﴿من أنبائها﴾ أي من أخبارها، ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، وقال تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾، وقوله تعالى: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ الباء سببية أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، كقوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، ولهذا قال هنا: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم﴾ أي لأكثر الأمم الماضية ﴿من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع.

قال تعالى: ﴿واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾؟ وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. إلى غير ذلك من الآيات، وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾، عن أبي بن كعب قال: كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أي فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، واختاره ابن جرير، وقال السدي ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً. وقال مجاهد في قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾، هذا كقوله: ﴿ولو ردوا لعادوا﴾ الآية

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ أي الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات

الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين، ﴿ موسى بآياتنا﴾ أي بحجتنا ودلائلنا البينة إلى فرعون –وهو ملك مصر في زمن موسى– ﴿ وملئه﴾ أي قومه، ﴿ فظلموا بها﴾ أي جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا﴾، ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي انظر يا محمد كيف فعلنا بهم وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ أي أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربه ومليكه ﴿ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾، قال بعضهم: معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي جدير بذلك وحري به، قالوا: والباء وعلى يتعاقبان، يقال: رميت بالقوس وعلى القوس، وقال بعض المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق، وقرأ آخرون من أهل المدينة: حقيق عليَّ، بمعنى واجب وحق عليَّ ذلك، أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه، ﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ أي بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، ﴿ فأرسل معي بني إسرائيل﴾ أي أطلقهم من أسرك وقهرك ودعهم وعبادة ربهم، فإنهم من سلالة نبي كريم (إسرائيل) وهو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، ﴿ قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ أي قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمعطيك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

قال ابن عباس: ﴿ فألقى عصاه﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل، وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة، وقال السدي في قوله ﴿ فإذا هي ثعبان مبين﴾: الثعبان الذكر من الحيات، فاتحة فاها، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث، وصاح: يا موسى خذها وأنا أؤمن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا، وقوله ﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾: أي أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿ وأدخل

يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ الآية. وقال ابن عباس ﴿من غير سوء﴾ يعني من غير برص، ثم أعادها إلى كمه، فعادت إلى لونها الأول .

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

أي قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه واستقر على سرير مملكته، بعد ذلك قال للملأ حوله: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ فوافقوه، وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره، وإخماد كلمته وظهور كذبه وافترائه، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى: ﴿ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى :

قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

قال ابن عباس: ﴿أرجه﴾ أخره: وقال قتادة: احبسه ﴿وأرسل﴾ أي ابعث، ﴿في المدائن﴾ أي في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿حاشرين﴾ أي من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم، وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم منهم أن ما جاء موسى به عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى، فلنأتينك بسحر مثله، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾

وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام، إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلاً، فوعدهم ومنّاهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله .

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم: ﴿إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾ أي قبلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وإما أن نكون أول من ألقى﴾، فقال لهم موسى عليه السلام: ألقوا أي أنتم أولاً، قيل: الحكمة في هذا – والله أعلم – ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من بهرجهم، جاءهم الحق الواضح

الجلي بعد التطلّب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾ أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾. قال ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وقال محمد بن إسحاق: ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصي: فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس رجل منهم إلا ومعه حبل وعصا، ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾ يقول: فرقوهم أي من الفرق، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، ولهذا قال تعالى: ﴿وجاءوا بسحر عظيم﴾

۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿فإذا هي تلقف﴾ أي تأكل ﴿ما يأفكون﴾ أي ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل، قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر، فخروا سجداً[1]، وقالوا: ﴿آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ قال محمد بن إسحاق: جعلت تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً، قالوا: ﴿آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ لو كان هذا ساحراً ما غلبنا. وقال القاسم بن أبي برة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغر فاه، يبتلع حبالهم وعصيهم، فألقي السحرة عند ذلك سجداً فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما.

۞ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

(١) قيل: كان رؤساؤهم أربعة، وهم أئمة السحرة، كما ذكره الطبري، والدارقطني، وكان السحرة: سبعين ألفاً، وقيل دون ذلك، ومهما يكن من أمر فقد كان عددهم كبيراً.

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه وسلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ممن اختار وأحضرهم عنده، ووعدهم بالعطاء الجزيل، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على التقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ فإن قوماً صدقوه في قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم. وقوله: ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أي تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فسوف تعلمون﴾ أي ما أصنع بكم، ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ يعني يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ولأصلبنكم أجمعين﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿في جذوع النخل﴾ أي على الجذوع، قال ابن عباس: وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون، وقول السحرة: ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي قد تحققنا أنا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم، وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي عمّنا بالصبر على دينك والثبات عليه، ﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي متابعين لنبيك موسى عليه السلام، وقالوا لفرعون: ﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾، فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة، قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى ﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾ أي لفرعون ﴿أتذر موسى وقومه﴾ أي أتدعهم ﴿ليفسدوا في الأرض﴾ أي يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، ﴿ويذرك وآلهتك﴾ الواو هنا حالية أي أتذره وقومه يفسدون في الأرض وقد ترك عبادتك؟ وقيل: هي عاطفة أي أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك؟ وقرأ

بعضهم : إلاهتك أي عبادتك[١] . قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر، فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله: «سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم» وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكّل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون، وهكذا عومل في صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد، أعزهم الله وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده، ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾، ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ أي فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك، فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ الآية. وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

* وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون﴾ أي اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ﴿بالسنين﴾ وهي سنين الجوع بسبب قلة الزروع، ﴿ونقص من الثمرات﴾، قال رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة، ﴿لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة﴾ أي من الخصب والرزق ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي هذا لنا بما نستحقه ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي جدب وقحط ﴿يطيّروا بموسى ومن معه﴾ أي هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾، قال ابن عباس: مصائبهم عند الله، ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وعنه ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي من قبل الله .

* وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

هذا إخبار من الله عزّ وجلّ عن تمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم:

(١) روي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾، يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ اختلفوا في معناه، فعن ابن عباس: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار[1]، وعنه: هو كثرة الموت، وقال مجاهد: ﴿ الطوفان ﴾ الماء والطاعون، وأما الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد، وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد والكبد والطحال ». وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب. وروى الحافظ أبو الفرج الحريري قال: سئل شريح القاضي عن الجراد؟ فقال: قبح الله الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجل جمل، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب. وروى ابن ماجه عن أنس وجابر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دعا على الجراد قال: « اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزقنا إنك سميع الدعاء » فقال له جابر: يا رسول الله أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: « إنما هو نثرة حوت في البحر »[2]. قال هشام: أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت. قال من حقق ذلك: إن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس أنه يفقس كله جراداً طياراً. وأما القمل فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وعن الحسن: القمل دواب سود صغار، وقال ابن أسلم: القمل البراغيث، وقال ابن جرير: القُمَّل جمع واحدتها قملة وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل فيما بلغني.

وعن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر، فصب عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلّطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرزوا في البيوت فقالوا قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل وهو (السوس) الذي يخرج منه، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا،

---

(١) وبه قال الضحاك بن مزاحم وهو الأظهر . (٢) أخرجه ابن ماجة في سننه .

وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحركم، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟ فأتوه وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل[1]

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذه بالسنين وأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا له، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ماقالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون – وهم بنو إسرائيل – مشارق الأرض ومغاربها كما قال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾، وقال تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾. وعن الحسن البصري وقتادة في قوله:

---

(١) روي مثل هذا عن ابن عباس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف.

﴿مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ يعني الشام، وقوله: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾، قال مجاهد وهي قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض﴾[1] الآية، وقوله: ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ أي وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿وما كانوا يعرشون﴾ يبنون[2]

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فأتوا﴾ أي فروا ﴿على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾. قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين، قال ابن جرير: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ﴿إن هؤلاء مُتَبَّر ما هم فيه﴾ أي هالك ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾، عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فررنا بسدرة، فقلت: يا نبيّ الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. إنكم تركبون سنن من قبلكم»[3]

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

يذكّرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره، وقد تقدم تفسيرها في البقرة

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

---

(١) وروي أيضاً عن ابن جرير وغيره وهو ظاهر

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد .

(٣) رواه أحمد وابن أبي حاتم وأورده ابن جرير .

يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، فصامها موسى عليه السلام وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي (ذو القعدة) وعشر من ذي الحجة، روي عن ابن عباس وغيره، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾، فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور استخلف على بني إسرائيل أخاه (هارون) ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾ وقد أشكل حرف ﴿لن﴾ ههنا على كثير من العلماء، لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة، وهذا أضعف الأقوال، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، وقوله تعالى إخباراً عن الكفار ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾، وقيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة، وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده» ولهذا قال تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾، قال ابن جرير الطبري: «لما تجلى ربه للجبل أشار بأصبعه فجعله دكاً وأرانا أبو إسماعيل بأصبعه السبابة»، وعن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾ قال: هكذا بأصبعه، ووضع النبي ﷺ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل[1]. قال ابن عباس: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جعله دكاً﴾ قال: تراباً ﴿وخر موسى صعقاً﴾ قال: مغشياً عليه[2]. وقال قتادة: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ قال: ميتاً، وقال الثوري: ساخ الجبل في الأرض حتى

(١) أخرجه ابن جرير وروى الترمذي وأحمد والحاكم قريباً منه.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري وهي رواية السدي عن ابن عباس.

وقع في البحر فهو يذهب معه. وعن عروة بن زويم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صماء ملساء، فلما تجلى الله لموسى على الطور دك وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف[1]

وقال مجاهد في قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾، فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقاً. وقال عكرمة ﴿جعله دكاً﴾ قال: نظر الله إلى الجبل فصار صحراء تراباً، والمعروف أن الصعق هو الغشي ها هنا كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة، كقوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ فإن هناك قرينة تدل على الموت، كما أن هنا قرينة تدل على الغشي، وهي قوله: ﴿فلما أفاق﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي، ﴿قال سبحانك﴾ تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات، وقوله: ﴿تبت إليك﴾، قال مجاهد: أن أسألك الرؤية ﴿وأنا أول المؤمنين﴾، قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل، واختاره ابن جرير. وفي رواية أخرى عنه ﴿وأنا أول المؤمنين﴾: أنه لا يراك أحد، قال أبو العالية: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة، وهذا قول حسن له اتجاه، وقوله: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، وقال يا محمد إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي قال: «ادعوه»، فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله إني مررت باليهودي فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر، قال: وعلى محمد؟ قال: فقلت: وعلى محمد؟ وأخذتني غضبة فلطمته فقال: «لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»[2]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق فإذا بموسى ممسك بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجلَّ»[3]. والكلام في قوله عليه السلام: «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله: «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى» قيل: من باب التواضع وقيل: قبل أن يعلم بذلك، وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب، وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي، والله أعلم. وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة» الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به، وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلى للخلائق الملك الديان كما صعق موسى من تجلي الرب تبارك وتعالى، ولهذا قال عليه السلام: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور».

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

(٣) رواه الشيخان وأحمد.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه، ولا شك أن محمداً ﷺ سيّد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، وأتباعه أكثر من أتباع سائر المرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل (إبراهيم) الخليل عليه السلام، ثم (موسى بن عمران) كليم الرحمن عليه السلام، ولهذا قال الله تعالى له ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿وكن من الشاكرين﴾ أي على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به، ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة، مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة، وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة فالله أعلم، وقوله ﴿فخذها بقوة﴾ أي بعزم على الطاعة ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾، قال ابن عباس: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه، وقوله: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب، قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري على (وجه التهديد) والوعيد لمن عصاه وخالف أمره[1]، وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم.

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي، قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي كما استكبروا بغير حق أذلهم بالجهل، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر، وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً، وقال سفيان بن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي، ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم

---

(١) نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري.

كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾، وقوله: ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً﴾ أي وإن ظهر لهم سبيل الرشد أي طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علّل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ أي كذبت بها قلوبهم ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ أي لا يعملون بما فيها، وقوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله، وقوله: ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾؟ أي إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلاً جسداً له خوار، والخوار صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قال فإنّا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوّت كالبقر؟ على قولين والله أعلم، ويقال: إنهم لما صوّت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به وقالوا: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾، قال تعالى: ﴿أفلا يرون ألّا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾؟ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً﴾؟ ينكر تعالى عليهم ضلالهم بالعجل، وذهولهم عن خالق السموات والأرض، ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطّى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال، كما تقدم عن أبي الدرداء قال، قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم»[1]. وقوله: ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ أي ندموا على ما فعلوا ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عزَّ وجلَّ.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝١٥٠ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝١٥١﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسفاً، والأسف أشد الغضب ﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾ يقول: بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، وقوله: ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى، وقوله: ﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ قيل: كانت الألواح من زمرد، وقيل: من ياقوت، وظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، ﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ خوفاً أن يكون قد قصَّر في نهيهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿قال يا ابن أمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيت أن تقول فرَّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾، وقال ها هنا: ﴿ابن أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم وإنما قال: ﴿ابن أمَّ﴾ ليكون أرق وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام، عند ذلك ﴿قال﴾ موسى ﴿رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه عزَّ وجلَّ أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح»[1]

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ۝١٥٢ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٥٣﴾

أما (الغضب) الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً وأما (الذلة) فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين، وعن أبي قلابة أنه قرأ هذه الآية: ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك﴾ أي يا محمد يا نبيّ الرحمة ﴿من بعدها﴾ أي من بعد تلك الفعلة ﴿لغفور رحيم﴾. عن عبد الله بن مسعود: أنه سئل عن ذلك يعني الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها، فتلا هذه الآية: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها[2]

(١) اخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً .

(٢) رواه ابن أبي حاتم أيضاً عنه .

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولما سكت﴾ أي سكن ﴿عن موسى الغضب﴾ أي غضبه على قومه، ﴿أخذ الألواح﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له ﴿وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك، ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿أخذ الألواح﴾ قال: رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي! قال تلك أمة أحمد، قال رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون، أي آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها رب اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد[1].

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾

قال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً، ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾ على عينيه ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لن نؤمن لك﴾ يا موسى ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ فإنك قد كلمته فأرناه، ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾[2]، وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً: الخيِّر فالخير، وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى (طور سيناء) لميقات وقّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون - فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه - لموسى، اطلب لنا نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام، وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم فقالوا يا موسى: ﴿لن نؤمن لك حتى

(١) ذكر هذا الأثر مطولاً عن قتادة ولم يرمز إليه ابن كثير بضعف. (٢) روي مثل هذا عن ابن عباس وبعض السلف.

نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة﴾ وهي الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعاً، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل؟

وقال ابن عباس وقتادة: إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾، وقوله: ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك، يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك فما شئت كان، تضل من تشاء وتهدي من تشاء ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك والحكم كله لك، لك الخلق والأمر، وقوله: ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ الغفر هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل، ﴿وأنت خير الغافرين﴾ أي لا يغفر الذنب إلا أنت، ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ أي أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي تبنا ورجعنا وأنبنا إليك[1]. عن علي قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إنا هدنا إليك﴾[2]

قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

يقول تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ الآية، ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه لا إله إلا هو، وقوله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله إنهم يقولون: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾. عن جندب بن عبد الله البجلي قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته، ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته، فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضل أم بعيره، ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى، قال: «لقد حظرت رحمة واسعة، إن الله عزَّ وجلَّ خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها وبهائمها، وأخّر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره»؟ رواه أحمد وأبو داود، وقال الإمام أحمد أيضاً عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن لله عزَّ وجلَّ مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة». عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: «لله مائة رحمة فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق، به يتراحم الناس والوحش والطير»[3]. وقوله:

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك والسدي وقتادة وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن جرير قال ابن كثير: وفيه جابر الجعفي ضعيف.

(٣) رواه ابن ماجة والإمام أحمد.

﴿ فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية، يعني فسأوجب حصول رحمتي منة مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾، وقوله: ﴿ للذين يتقون﴾ أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد ﷺ (الذين يتقون) أي الشرك والعظائم من الذنوب، قوله: ﴿ ويؤتون الزكاه﴾ قيل: زكاة النفوس، وقيل: الأموال، ويحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية ﴿ والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي يصدقون.

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم، كما روى الإمام أحمد عن رجل من الأعراب، قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل، فلأسمعن منه قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي» فقال: برأسه هكذا أي لا؛ فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فقال: «أقيموا اليهودي عن أخيكم»، ثم تولى كفنه والصلاة عليه[1]. وروى ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، اسمك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إلّه إلا الله، ويفتح به قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وأعيناً عمياً. وقد رواه البخاري في صحيحه وزاد بعد قوله «ليس بفظ ولا غليظ» ولا صخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وقوله تعالى: ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه. عن أبي حميد وأبي أسيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عني مما تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه

(١) أخرجه أحمد عن الجريري عن أبي صخر العقيلي قال ابن كثير: هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بتمامه.

منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه »(١). وعن علي رضي الله عنه قال: « إذا سمعتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا به الذي هو أهدى، والذي هو أهنى، والذي هو أتقى »(٢). وفي رواية قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأتقاه. وقوله: ﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ويحرم عليهم الخبائث، قال ابن عباس: كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى، قال بعض العلماء: فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين، وقوله: ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ أي أنه جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال ﷺ لأميريه (معاذ) و (أبي موسى الأشعري) لما بعثهما إلى اليمن: « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا »، وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » وقال: « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »، ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾، وقوله: ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه ﴾ أي عظموه ووقروه، ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ يا أيها الناس ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿ إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ أي جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى: ﴿ وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾، وقال تعالى: ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله عليه رسول الله إلى الناس كلهم. قال البخاري في تفسير هذه الآية، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ،

(١) قال ابن كثير: رواه أحمد بإسناد جيد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

(٢) رواه الإمام أحمد.

فقال أبو الدرداء ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي غاضب وحاقد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت». وقال الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي ولا أقوله فخراً: بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي يوم القيامة، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً». وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[1]. وعن جابر ابن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة»[2]. وقوله: ﴿الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾ صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم، وقوله: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿النبي الأمي﴾ أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم، ولهذا قال النبي الأمي، وقوله: ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿واتبعوه﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي إلى الصراط المستقيم.

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾، وقال تعالى: ﴿وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ الآية.

* وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ

(١) رواه أحمد في المسند ومسلم في صحيحه واللفظ لأحمد.

(٢) رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله مرفوعاً.

وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا ولله الحمد والمنة .

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ الآية، يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه، ﴿واسألهم﴾ أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم، وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطىء بحرم القلزم، وقال ابن عباس: هي قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور[١] ، وقيل: هي مدين وهو رواية عن ابن عباس، وقوله: ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً﴾، قال ابن عباس: أي ظاهرة على الماء، ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده، ﴿كذلك نبلوهم﴾ نختبرهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يقول : بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام، وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[٢]

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

---

(١) وهو قول عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي .

(٢) قال ابن كثير : إسناده جيد ورجاله مشهورون ثقات .

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ أي لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم قد هلكوا، واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم، قالت لهم المنكرة: ﴿معذرة إلى ربكم﴾ أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي لعلهم بهذا الانكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم، قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا﴾، أي ارتكبوا المعصية ﴿بعذاب بئيس﴾، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين، وقال ابن عباس في الآية: هي قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها، فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة، وقالوا: تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾؟ وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾ وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: لم تعظون قوماً مهلكهم الله والذين قالوا معذرة إلى ربكم، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة.

عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا فكساني حلة. وقال عبد الرزاق عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك؟ قال: فقال هؤلاء الورقات قال: وإذا هو في سورة الأعراف، قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم، قال: فإنه كان بها حي من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً بيضاء سماناً، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام، فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت، فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت، وقال الأيمنون: ويلكم، ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾؟ قال الأيمنون: ﴿معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾ أي ينتهون، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم، فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون فقد فعلتم يا أعداء الله، والله لنأتينكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله

بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب، ونادوا فلم يجابوا، فوضعوا سلماً وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم، فقال: أي عباد الله قردة والله تعاوى تعاوى، لها أذناب، قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس، فتشم ثيابه، وتبكي، فيقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها: أي نعم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾ قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها، قال: قلت جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم، وقالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم؟﴾ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين[1]

(**القول الثاني**): أن الساكتين كانوا من الهالكين، قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت، فابتلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شرعاً فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخزم أنفه ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه وتركه في الماء، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه، حتى ظهر ذلك في الأسواق ففعل علانية، قال، فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم﴾ فقالوا: نسخط أعمالهم ﴿ولعلهم يتقون ۞ فلما نسوا ما ذكروا به – إلى قوله – قردة خاسئين﴾. قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً، ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم[2]، وقوله تعالى: ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا، و ﴿بئيس﴾ معناه في قول مجاهد الشديد، وفي رواية: أليم، وقال قتادة: موجع، والكل متقارب، والله أعلم، وقوله: ﴿خاسئين﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿تأذن﴾ تفعّل من الأذان أي أعلم، قاله مجاهد، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا أتبعت باللام في قوله: ﴿ليبعثن عليهم﴾ أي على اليهود، ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم، ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين

---

(١) أخرجه عبد الرزاق عن ابن عباس.

(٢) قال ابن كثير: هذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى القول بهذا.

والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ، فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: هي المسكنة وأخذ الجزية منهم، وعنه: هي الجزية، والذي يسومهم سوء العذاب محمد ﷺ وأمته إلى يوم القيامة[1]. ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان. وقوله: ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ أي لمن عصاه وخالف شرعه، ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ أي لمن تاب إليه وأناب، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف .

* وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمماً أي طوائف وفرقاً، ﴿منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك، كقول الجن: ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك﴾، ﴿وبلوناهم﴾ أي اختبرناهم ﴿بالحسنات والسيئات﴾ أي بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء ﴿لعلهم يرجعون﴾، قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ الآية، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة، وقال مجاهد: هم النصارى، وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه، ولهذا قال: ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾. قال مجاهد: لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ويتمنون المغفرة، ﴿ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾. وقال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فتطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي، يقول: وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه، قال الله تعالى: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ الآية،

(١) وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدي وقتادة .

يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه، كقوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ الآية، وقال ابن جريج قال ابن عباس: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ قال: فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها. وقوله تعالى: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه ويحذرهم من وبيل عقابه، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه، ﴿أفلا تعقلون﴾؟ يقول أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿والذين يمسّكون بالكتاب﴾ أي اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾.

* وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

قال ابن عباس ﴿نتقنا الجبل فوقهم﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ بميثاقهم، رفعته الملائكة فوق رؤوسهم، ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كأنه ظلة﴾ قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم[1]. وقال أبو بكر بن عبد الله قيل: هذا كتاب أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها، قال: اقبلوها بما فيها، قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء، قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي عزَّ وجلَّ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل، قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من أن يسقط عليه، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة، قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونغض لها رأسه: أي حوّل، كما قال تعالى: ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾[2] والله أعلم.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ

(١) رواه النسائي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
(٢) أخرجه سنيد بن داود في تفسيره عن حجاج بن محمد عن أبي بكر بن عبد الله.

أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿ فأقم وجهك حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة». وقال ابن جرير عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية»؟ فقال رجل: يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين، فقال: «إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها»، قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾[1] الآية. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال، فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي»[2].

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال: ﴿ ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا - إلى قوله - المبطلون﴾»[3]. عن أبي مسعود عن جرير قال: مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام، قال فقال: يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده، فإن ابني مجلس ومسئول، ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله عم يسأل ... من يسأله إياه؟ قال: يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم، قلت يا أبا القاسم: وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس: إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقرَّ به لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة.

---

(١) رواه ابن جرير وأخرجه أحمد والنسائي.

(٢) رواه أحمد والشيخان.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم في المستدرك.

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»[1]

(**حديث آخر**): قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، قال أي رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب قد وهبت له من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطىء آدم فخطئت ذريته»[2]. (**حديث آخر**): عن هشام ابن حكيم رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أتبدأ بالأعمال أم قد قضى القضاء؟ قال، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، ثم قال هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار»[3]

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عزَّ وجلَّ استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسر الحسن الآية بذلك، قالوا، ولهذا قال: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾، ولم يقل من آدم، ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهره، ﴿ذرياتهم﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾، وقال: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾، وقال: ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾، ثم قال: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾، أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً، والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قالوا شهدنا

---

(١) رواه احمد وأبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن.

(٢) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن هشام بن حكيم.

على أنفسنا﴾ الآية، وتارة تكون حالاً، كقوله تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾، أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾، كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال، كقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾. قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده؟ فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أن تقولوا﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إنا كنا عن هذا﴾ أي التوحيد ﴿غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا﴾ الآية.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

هو رجل من بني إسرائيل، يقال له بلعم بن باعوراء[1]؛ وقال قتادة عن ابن عباس: هو (صيفي بن الراهب)، وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو رجل من أهل اليمن، يقال له (بلعم) آتاه الله آياته فتركها، وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام. وقال سفيان بن عيينة عن ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء، وقال ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت، وقال عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾ الآية، قال: هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت؛ وقد روي من غير وجه عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه. فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله. وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه، فإن له أشعاراً ربانية وحكماً وفصاحة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

والمشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة: إنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن

(١) ذكره عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مسعود وغيره من السلف، وكان يعلم اسم الله الأكبر، وكان مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه - يعني بلعم - بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يردَّ عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فانسلخ منها فأتبعه الشيطان﴾ الآية. وقال السدي: لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة﴾، بعث (يوشع بن نون) نبياً فدعا بني إسرائيل، فأخبرهم أنه نبي، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه، وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: (بلعام) فكان عالماً يعلم الاسم الأعظم المكتوم، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين، وقال لهم: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون، وقوله تعالى: ﴿فأتبعه الشيطان﴾ أي استحوذ عليه وعلى أمره فهمما أمره امتثل وأطاعه، ولهذا قال: ﴿فكان من الغاوين﴾ أي من الهالكين الحائرين البائرين، وقد ورد في معنى هذه الآية حديث (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام، اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك» قال: قلت يا نبيّ الله أيها أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي»[1]. وقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾، يقول تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى

قال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم عن أبي النضر: أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه، فقالوا له هذا (موسى بن عمران) في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وإنا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم قال: ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليه وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ قالوا له: ما لنا من منزل، فلم يزالوا به يرفقونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه، فافتتن؛ فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل - وهو جبل حسبان - فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها، حتى إذا أزلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به فضربها، حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم، فلم ينزع عنها، فضربها، فخلى الله سبيلها، حين فعل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا، قال: فهذا ما لا أملك. هذا شيء قد غلب الله عليه، قال: واندلع لسانه فوقع على

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي قال ابن كثير: إسناده جيد.

صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جملوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم، ففعلوا، فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين برجل من عظماء بني إسرائيل وهو (زمري بن شلوم) رأس سبط شمعون بن يعقوب، فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها، وأتى بها موسى وقال: إني أظنك ستقول: هذا حرام عليك لا تقربها، قال: أجل هي حرام عليك، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، فدخل بها قبته، فوقع عليها، وأرسل الله عزَّ وجلَّ الطاعون في بني إسرائيل، وكان (فنحاص) صاحب أمر موسى غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء الطاعون يجوس فيهم، فأخبر الخبر، فأخذ حربته ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً، والمقلل لهم يقول عشرون ألفاً في ساعة من النهار، ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها - إلى قوله - لعلهم يتفكرون﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ اختلف المفسرون في معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر، وقيل: معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لهيثه في حالتيه إن حملت عليه، وإن تركته هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه، كما قال تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾، ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾. وقيل: معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا[2]، وقوله تعالى: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾، يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فاقصص القصص لعلهم﴾ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب، في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام، ولهذا قال: ﴿لعلهم يتفكرون﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته وموازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة، وقوله: ﴿ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ يقول تعالى: ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أي ساء مثلهم أن شبهوا

---

(١) رواه محمد بن إسحاق عن سالم عن أبي النضر وأخرجه ابن جرير بمثله وفيه أن الزنى وقع من عدد من الجند الذين كانوا مع موسى عليه السلام فسلّط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً.

(٢) نقل نحو هذا عن الحسن البصري وغيره.

بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»[١] وقوله: ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والاقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»[٢]

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿كثيراً من الجن والإنس﴾ أي هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»، وفي صحيح مسلم أيضاً عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له، عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم». وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث الله إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد»، وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه، وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»، والأحاديث في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾ الآية، وقال تعالى:

---

(١) هو في الصحيحين من حديث ابن عباس. (٢) الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن.

﴿ صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿ صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ ولم يكونوا صماً ولا بكماً ولا عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾، وقال: ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾، وقال: ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾، وقوله تعالى: ﴿ أولئك كالأنعام﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾ أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال في هؤلاء: ﴿ بل هم أضل﴾ أي من الدواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « إن لله تسعاً وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر »(١). ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدل مكانه فرحاً ». فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: « بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها ». وذكر ابن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه (الأحوذي في شرح الترمذي) أن بعضهم جمع من الكتاب والسنّة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾، قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله، وقال مجاهد: اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، وقال قتادة: يلحدون: يشركون في أسمائه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي وابن ماجه وزاد الترمذي (هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن..) وذكر أسماء الله الحسنى .

يقول تعالى: ﴿ ومن خلقنا﴾ أي بعض الأمم ﴿ أمة﴾ قائمة بالحق قولاً وعملاً ﴿ يهدون بالحق﴾ يقولونه ويدعون إليه، ﴿ وبه يعدلون﴾ يعملون ويقضون، وقد جاء في الآثار أن المراد في الآية هذه الأمة المحمدية، قال قتادة: بلغني أن النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها، ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾. وقال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل»، وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»، وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ وأملي لهم﴾ أي وسأملي لهم أي أطول لهم ما هم فيه ﴿ إن كيدي متين﴾ أي قوي سديد.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

يقول تعالى: ﴿ أولم يتفكروا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ ما بصاحبهم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ من جنة﴾ أي ليس به جنون بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق ﴿ إن هو إلا نذير مبين﴾ أي ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به كما قال تعالى: ﴿ وما صاحبكم بمجنون﴾، وقال تعالى: ﴿ ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾، يقول ﴿ ثم تتفكروا﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا، فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً، وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً، فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً، يا بني فلان، يا بني فلان، فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين﴾.

* أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

يقول تعالى: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، فيؤمنوا بالله ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه، وقوله: ﴿ فبأي

حديث بعده يؤمنون﴾ يقول: فبأي تخويفٍ وتحذيرٍ وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله، يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله عزَّ وجلَّ؟

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يقول تعالى من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾، وكما قال تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

يقول تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة﴾ قيل: نزلت في قريش، وقيل في نفر من اليهود، والأول أشبه لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾، وقال تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾، وقوله: ﴿أيان مرساها﴾. قال ابن عباس: منتهاها أي متى محطها، وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة: ﴿قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾، أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يظهر أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾. قال قتادة: ثقل علمها على أهل السموات والأرض، قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول كبرت عليهم، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة؛ وقال ابن جريج: إذا جاء انشقت السماء، وانتثرت النجوم وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله عزَّ وجلَّ، فذلك ثقلها، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد: ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض كما قال قتادة، كقوله تعالى: ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض والله أعلم، وقال السدي: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ يبغتهم قيامها تأتيهم على غفلة، وقال قتادة: قضى الله أنها ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق، ويخفض ميزانه ويرفعه». وقال البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من

قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»

وقوله تعالى: ﴿يسألونك كأنك حفيٌّ عنها﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه كأنّ بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم، قال ابن عباس: لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً، وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسرَّ إلينا متى الساعة؟ فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾، والصحيح عن مجاهد قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها، وكذا قال الضحاك عن ابن عباس: كأنك عالم بها لست تعلمها، وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم ﴿كأنك حفي عنها﴾: كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية، وهذا القول أرجح في المقام من الأول، والله أعلم، ولهذا قال: ﴿قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» أي لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية، وفي رواية: فسأله عن أشراط الساعة فبين له أشراط الساعة، ثم قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله»، وقرأ هذه الآية، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1]، ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هاؤم» على نحوٍ من صوته، قال: يا محمد متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها»؟ قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث

وقال الإمام أحمد عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «علمها عند ربي عزَّ وجلَّ لا يجلّيها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشارطها وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاً» قالوا: يا رسول الله الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟ قال: «بلسان الحبشة: القتل»، قال: «ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً». وقال وكيع عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة، حتى نزلت: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ الآية، وهذا إسناد جيد قوي، فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة، والعاقب والمقفي والحاشر، الذي تحشر الناس على قدميه مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما:

---

(١) قال ابن كثير: قد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد في أول شرح البخاري.

« بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿ قل إن علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ الآية، وقوله: ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾، قال مجاهد: لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحاً. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾: أي من المال، وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر. وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ وما مسني السوء﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر أن يكون واتقيته، ثم أخبر أنه هو نذير وبشير، أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً﴾ .

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ الآية، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ فلا ألفة أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه، ﴿ فلما تغشاها﴾ أي وطئها ﴿ حملت حملاً خفيفاً﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألماً إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة، وقوله: ﴿ فمرت به﴾، قال مجاهد: استمرت بحمله، وقال أيوب سألت الحسن عن قوله: ﴿ فمرت به﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي، إنما هي: فاستمرت به، وقال قتادة ﴿ فمرت به﴾: استبان حملها، وقال العوفي عن ابن عباس: استمرت به فشكت أحملت أم لا، ﴿ فلما أثقلت﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها، وقال السدي: كبر الولد في بطنها، ﴿ دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً﴾ أي بشراً سوياً،

كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة. وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً لنكونن من الشاكرين ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾. ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها

قال الإمام أحمد في مسنده عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: « لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه (عبد الحارث) فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره »[1]. قال ابن جرير عن الحسن ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم، وعن قتادة قال كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، وعن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله يقول: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة - إلى قوله - جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ إلى آخر الآية، وعنه قال: أتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يولد لكما! أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً ومات، كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاهما﴾ الآية. وروى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميه عبد الحارث، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة فهيبها فأطاعا، وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق (آدم وحواء) وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ الآية، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم.

* أَيُشْرِكُونَ مَالَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم في المستدرك قال ابن كثير: وهذا الحديث معلول وقد رجّح رحمه الله كونه موقوفاً على الصحابي وبيّن أنه غير مرفوع وضعّف ما ورد من آثار

مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ
فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ
لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ أي أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كقوله تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ أي بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ أي لعابديهم ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾، وقال تعالى: ﴿فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون﴾، وكما كان (معاذ بن عمرو بن الجموح) و (معاذ بن جبل) رضي الله عنهما، وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ليرتأوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح، وكان سيداً في قومه، صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعذرة، فيجيء (عمرو بن الجموح) فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح، ورأى ذلك نظر، فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال:

تالله لو كنت إلهاً مستدن　　　لم تـك والكلب جميعاً في قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه. وقوله: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ الآية، يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها كما قال إبراهيم: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾، ثم ذكر

تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم، بل الأناس أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك

وقوله تعالى: ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ الآية، أي استنصروا بها عليَّ فلا تؤخروني طرفة عين واجهدوا جهدكم، ﴿إن وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ أي الله حسبي وكافيني وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود عليه السلام: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾، وكقول الخليل: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾، وقوله: ﴿والذين تدعون من دونه﴾ إلى آخر الآية، مؤكد لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذاك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾، وقوله: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾، كقوله تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ الآية، وقوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾، إنما قال: ﴿ينظرون إليك﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صور مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك، فعبر عنها بضمير من يعقل، وقال السدي: المراد بهذا المشركون، والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير

* ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾

قال ابن عباس ﴿خذ العفو﴾ يعني خذ ما عفا لك من أموالهم وما أتوك به من شيء فخذه، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات، وقال الضحاك عن ابن عباس: أنفق الفضل، وقال عبد الرحمن بن أسلم: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، واختار هذا القول ابن جرير، وقال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿خذ العفو﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس، وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن الزبير قال: انما أنزل ﴿خذ العفو﴾ من أخلاق الناس. وفي رواية عن أبي الزبير: ﴿خذ العفو﴾ قال: من أخلاق الناس والله لآخذنه منهم ما صحبتهم، وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما روي عن أبيّ قال: لما أنزل الله عزَّ وجلَّ على نبيه ﷺ ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك[1]. وقال الإمام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «يا عقبة صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك»

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال البخاري قوله: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ العرف: المعروف[١]. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم (عيينة بن حصن بن حذيفة) فنزل على ابن أخيه (الحر بن قيس) وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاوراته كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله عزَّ وجلَّ[٢]. وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن نافع: أن (سالم بن عبد الله بن عمر) مرّ على عير لأهل الشام وفيها جرس فقال: إن هذا منهي عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم وقال: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾، وقال ابن جرير: أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب. وقال قتادة في الآية: هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها. وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى؛ فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما ... أمرت وأعرض عن الجاهلين

ولِنْ في الكلام لكل الأنام ... فمستحسن من ذوي الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمره بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾، فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك. قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته ﴿فاستعذ بالله﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه، ﴿إنه سميع عليم﴾ سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه. وقد تقدم

(١) قول البخاري العرف: المعروف نص عليه عروة والسدي وقتادة وابن جرير.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ، فغضب أحدهما فقال رسول الله ﷺ «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» الحديث. وأصل النزغ: الفساد إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾، والعياذ: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما الملاذ ففي طلب الخير، كما قال الحسن بن هانيء:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن إعادته ها هنا.

* إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إذا مسهم﴾ أي أصابهم ﴿طائف﴾، منهم من فسره بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب، وقوله: ﴿تذكروا﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب، ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف، فقالت: يا رسول الله إني أصرع، وأتكشف، فادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة»، فقالت: بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها فكانت لا تتكشف[1]. وروي أن شاباً كان يتعبد في المسجد فهويته امرأة فدعته إلى نفسها، فما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ فخر مغشياً عليه، ثم أفاق، فأعادها، فمات، فجاء عمر فعزى فيه أباه، وكان قد دفن ليلاً فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر قد أعطانيهما[2] ربي عزَّ وجلَّ في الجنة مرتين. وقوله تعالى: ﴿وإخوانهم يمدونهم﴾ أي وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ وهم أتباعهم والمستمعون لهم، القابلون لأوامرهم ﴿يمدونهم في الغي﴾ أي تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم، المد: الزيادة، يعني يزيدونهم في الغي يعني الجهل والسفه، ﴿ثم لا يقصرون﴾ قيل: معناه إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك، كما قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون ولا الشياطين تمسك عنهم، وقيل: معناه كما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾،

---

(١) رواه ابن مردويه وغير واحد من أهل السنن وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه.

قال: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يقصرون، يقول لا يسأمون، وكذا قال السدي وغيره، يعني أنّ الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس، ولا تسأم من إمدادهم في الشر، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، ﴿لا يقصرون﴾ لا تفتر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾، قال ابن عباس وغيره: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ يقول: لولا تلقيتها وقال مرة أخرى لولا أحدثتها فأنشأتها، وقال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها عن نفسك[1]، واختاره ابن جرير. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿لولا اجتبيتها﴾ يقول: تلقيتها من الله تعالى: وقال الضحاك ﴿لولا اجتبيتها﴾ يقول: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء، ومعنى قوله تعالى: ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ أي معجزة وخارق، كقوله تعالى: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾، يقولون للرسول ﷺ ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي﴾ أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه الي، فإن بعثت آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها، إلا أن يأذن لي في ذلك فإنه حكيم عليم، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات، فقال: ﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ الآية، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما روي عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا»[2]. وعن أبي هريرة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له﴾ والآية الأخرى أمروا بالإنصات. قال ابن جرير وقال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فجاء القرآن: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾، وقال أيضاً عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرأون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا أما آن لكم أن تعقلوا: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ كما أمركم الله. وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: «هل

(١) وهو قول قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ورواه أهل السنن.

قرأ أحد منكم معي آنفاً؟» قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: «إني أقول ما لي أنازع القرآن»، قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ[1]. وقال عبد الله بن المبارك: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرأون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾. وهذا مذهب طائفة من العلماء وهو أحد قولي الشافعية، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة، وقال الشافعي في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم.

وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته قراءة له»[2] وهذا أصح، وقد أفرد لها الإمام البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، يعني في الصلاة المفروضة، وعن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم. وقال ابن المبارك عن ثابت بن عجلان قال: سمعت ابن جبير يقول في قوله ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة، وهذا اختيار ابن جرير: أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، كما جاء في الأحاديث بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة، وقال الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»[3]

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ۩﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾، وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء وهذه الآية مكية، وقال ههنا بالغدو وهو أول النهار، والآصال جمع أصيل، وأما قوله: ﴿تضرعاً وخيفة﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿ودون الجهر من القول﴾، وهكذا يستحب أن يكون الذكر خفياً لا يكون نداء وجهراً بليغاً، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على

(١) رواه أحمد وأهل السنن.

(٢) هذا الحديث رواه أحمد عن جابر مرفوعاً وهو في الموطأ عن جابر موقوفاً قال ابن كثير: وهذا أصح.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند.

أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »، وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار، والمراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ الآية، وإنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عزَّ وجلَّ كما جاء في الحديث: « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف، الأول فالأول، ويتراصون في الصف »، وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع .

[انتهى تفسير سورة الأعراف . ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓصٓ (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾.

قد تقدم الكلام فى أول «سورة البقرة» على ما يتعلق بالحروف وبسطه، واختلاف الناس فيه.

وقال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وَكِيع، حدثنا أبى، عن شَرِيك، عن عطاء بن السائب، عن أبى الضُّحَى، عن ابن عباس: ﴿الٓمٓصٓ﴾: أنا الله أفصل وكذا قال سعيد بن جُبَير.

[قوله][1]: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى: هذا كتاب أنزل إليك، أى: من ربك، ﴿ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد، [وعطاء][2]، وقتادة والسُّدِّى: شَكٌّ منه.

وقيل: لا تتحرج به فى إبلاغه والإنذار به [واصبر][3] كما صبر أولو العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أى: أنزل إليك لتنذر به الكافرين، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى: اقتفوا آثار النبى الأمى الذى جاءكم بكتاب أنزل من رب كلّ شىء ومليكه، ﴿وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره.

﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ كقوله: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزىُ الدنيا موصولا بذُلِّ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن[4] مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ

---

(١) زيادة من د. (٢) زيادة من م. (٣) زيادة من ك، م، أ. (٤) فى أ: «وكأين».

عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

وقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أى: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيَاتًا﴾ أى: ليلا ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾: من القيلولة، وهى: الاستراحة وسط النهار. وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو[(١)]، كما قال [تعالى][(٢)]: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، وقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ ـ ٤٧].

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أى: فما كان قولهم عند مجىء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً [وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ. فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ. لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا][(٣)] خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٥].

وقال ابن جرير: فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله: «ما هلك قوم حتى يُعْذروا من أنفسهم»، حدثنا بذلك ابن حُمَيْد، حدثنا جرير، عن أبى سنان، عن عبد الملك بن مَيْسَرة الزرّاد قال: قال عبد الله بن مسعود [رضى الله عنه][(٤)]: قال رسولَ الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يُعْذروا من أنفسهم». قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذاك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[(٥)].

وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، كقوله [تعالى][(٦)]: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالرَّبُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ[(٧)] رسالاته؛ ولهذا قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، فى تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا.

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكندى، حدثنا المحاربى، عن لَيْث، عن نافع، عن ابن عمر [رضى الله عنهما][(٨)] قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم رَاعٍ وكلكم مسؤول عن رَعيَّته، فالإمام يُسْأل عن الرجل[(٩)]،

---

(١) فى ك: «لهوٌ وغفلةٌ». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من ك، د، أ، وفى هـ: «إلى قوله».
(٤) زيادة من أ.
(٥) تفسير الطبرى (١٢/ ٣٠٤).
(٦) زيادة من ك، م، أ. (٧) فى ك، م: «بلاغ». (٨) زيادة من أ.
(٩) فى ك: «عن رعيته».

والرجل يسأل عن أهله[١]، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده». قال الليث: وحدثنى ابن طاوس، مثله، ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[٢].

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ فى الصحيحين بدون هذه الزيادة[٣].

وقال ابن عباس: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ يعنى: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحَقير؛ لأنه تعالى شهيد على كل شىء، لا يغيب عنه شىء، ولا يغفل عن شىء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) ﴾.

يقول [تبارك و][٤] تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أى: للأعمال[٥] يوم القيامة ﴿الْحَق﴾ أى: لا يظلم تعالى أحدا، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٦ ـ ١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ ـ ١٠٣].

فصل:

والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة[٦] قيل: الأعمال وإن كانت أعراضًا، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما.

قال البغوى: يروى هذا عن ابن عباس[٧]، كما جاء فى الصحيح من أن «البقرة» و «آل عمران» يأتيان[٨] يوم القيامة كأنهما غمامتان ـ أو: غَيَايتان ـ أو فِرْقَان من طير صَوَافّ. من ذلك فى الصحيح قصة القرآن وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذى

---

(١) فى أ: «أهل بيته».

(٢) وفى إسناده عبد الرحمن بن محمد المحاربى، قال ابن معين: يروى المناكير عن المجهولين، ولكن روى من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر وفى الصحيحين.

(٣) صحيح البخارى برقم (٥١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٢٩).

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ك: «الأعمال».

(٦) فى ك: «يوم القيامة فى الميزان».

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٣/ ٢١٥).

(٨) فى أ: «تأتيان».

أسهرت ليلك وأظمأت نهارك[(١)]. وفى حديث البراء، فى قصة سؤال القبر: «فيأتى المؤمن شابٌّ حسن اللون طيّب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح»[(٢)]. وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء فى حديث البطاقة، فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كِفَّه تسعة وتسعون سجلا، كل سِجلّ مَدّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «لا إله إلا الله» فيقول: يارب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تُظلَم. فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان. قال رسول الله ﷺ: «فَطاشَت السجلات، وثَقُلَتْ البطاقة».

رواه الترمذى بنحو من هذا[(٣)]، وصححه.

وقيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث: «يُؤتَى يوم القيامة بالرجل السَّمين، فلا يَزِن عند الله جَنَاح بَعُوضَة»[(٤)]. ثم قرأ: ﴿فلا نُقيمُ لهُمْ يومَ القِيامَةِ وزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وفى مناقب عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أتعجبون من دِقّة ساقَيْه، فوالذى[(٥)] نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أُحُد»[(٦)].

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا، فتارة[(٧)] توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عبيده[(٨)] فيما مكن لهم من أنه جَعَل الأرض قرارًا، وجعل لها رواسى وأنهارًا، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا، وأباح منافعها، وسَخَّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش، أى: مكاسب وأسبابًا يتجرون فيها، ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد قرأ الجميع: ﴿مَعَايِشَ﴾ بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هُرْمُز الأعرج فإنه همزها. والصواب الذى عليه الأكثرون بلا همز؛ لأن معايش جمع معيشة، من عاش يعيش عيشا، ومعيشة أصلها «مَعْيِشَة» فاستثقلت الكسرة على الياء، فنقلت إلى العين فصارت مَعِيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال، فقيل: معايش. ووزنه مفاعل؛ لأن الياء أصلية فى الكلمة. بخلاف مدائن

---

(١) ورواه أحمد فى مسنده (٥/٣٤٨) وابن ماجة فى السنن برقم (٣٧٨١) من طريق بشير بن المهاجر، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه بريدة بن الحصيب، رضى الله عنه، مرفوعا.

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٥/٢٨٧).

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٦٣٩) ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٦٣٩) والحاكم فى المستدرك (١/٥٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد على شرطهما ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٢٩) بنحوه من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٥) فى د، م: «والذى».

(٦) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٤٢٠).

(٧) فى ك: «وتارة». (٨) فى م: «عباده».

وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من: مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجمع على فعائل، وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) ﴾.

ينبه تعالى بنى آدم فى هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو مُنْطَوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ [فَسَجَدُوا][(١)]﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . [فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ][(٢)]﴾ الآية [الحجر: ٢٨ ـ ٣٠]، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم، عليه السلام، بيده من طين لازب، وصوره بشرًا [سوياً][(٣)]، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدم الكلام على إبليس فى أول تفسير «سورة البقرة».

وهذا الذى قررناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم، عليه السلام.

وقال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: خُلِقوا فى أصلاب الرجال، وصُوِّروا فى أرحام النساء.

رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[(٤)].

ونقله ابن جرير عن بعض السلف أيضا: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية.

وقال الربيع بن أنس، والسُّدِّى، وقتادة، والضحاك فى هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أى: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية.

وهذا فيه نظر؛ لأنه قال بعده: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول تعالى لبنى إسرائيل الذين كانوا فى زمن الرسول ﷺ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد: آباؤهم الذين كانوا فى زمان موسى [عليه السلام][(٥)]، ولكن لما كان ذلك مِنَّةً على الآباء الذين هم أصلٌ صار كأنه واقع على الأبناء. وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ [ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ][(٦)]﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة[(٧)]، وذريته مخلوقون من

(١) زيادة من ك. (٢) زيادة من م. (٣) زيادة من ك، م، أ.
(٤) المستدرك (٢/ ٣١٩).
(٥) زيادة من أ. (٦) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية». (٧) فى ك، م: «من سلالة من طين».

نطفة، وصح هذا لأن المراد من[1] خلقنا الإنسان الجنس، لا معيناً، والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾.

قال بعض النحاة فى توجيه قوله تعالى: ﴿مَا [مَنَعَكَ][2] أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: لا ههنا زائدة.

وقال بعضهم: زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله

فأدخل «إن»، وهى للنفى، على «ما» النافية؛ لتأكيد النفى، قالوا: وكذلك ههنا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن لاَّ تَسْجُدَ﴾، مع تقدم قوله: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾.

حكاهما ابن جرير[3] .وردهما، واختار أن «منعك» تضمن معنى فعل آخر تقديره: ما أحوجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، ونحو ذلك. وهذا القول قوى حسن، والله أعلم.

وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، من العذر الذى هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعنى لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرنى بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، فشذ من بين الملائكة بتَرْك السجود؛ فلهذا[4] أبلس من الرحمة، أى: أيس من الرحمة، فأخطأ قَبَّحه الله فى قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضًا، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره فى الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

وفى صحيح مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَت الملائكة من نور، وخُلِقَ إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم» هكذا رواه مسلم[5].

وقال ابن مَرْدُوَيه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل، عن عبد الله بن مسعود، حدثنا نُعَيم ابن حماد، حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الملائكة من نور العرش، وخلق الجان من [مارج من][6] نار، وخلق آدم

---

(١) فى ك، م، أ: «فى».
(٢) زيادة من أ.
(٣) تفسير الطبرى (١٢/ ٣٢٤).
(٤) فى م: «ولهذا».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).
(٦) زيادة من أ.

مما وُصفَ لكم». قلت لنعيم بن حماد: أين سمعت هذا من عبد الرزاق؟ قال: باليمن[١]. وفى بعض ألفاظ هذا الحديث فى غير الصحيح: «وخلقت الحور العين من الزعفران»[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن ابن شَوْذَب، عن مطر الوراق، عن الحسن فى قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. إسناده صحيح.

وقال: حدثنى عمرو بن مالك، حدثنى يحيى بن سليم الطائفى[٣]، عن هشام، عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس[٤]. إسناد صحيح أيضا.

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) ﴾.

يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمر قدرى كونى: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أى: بسبب عصيانك لأمرى، وخروجك عن طاعتى، فما يكون لك أن تتكبر فيها.

قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً على المنزلة التى هو فيها فى الملكوت الأعلى.

﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أى: الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده، مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أَنظِرْنِي[٥] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾، أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمانع، ولا مُعقِّبَ لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾.

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ[٦]﴾، واستوثق إبليس بذلك، أخذ فى المعاندة والتمرد، فقال: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: كما أغويتنى.

قال ابن عباس: كما أضللتنى. وقال غيره: كما أهلكتنى لأقعدن لعبادك ـ الذين تخلقهم من

(١) رواه عبد الرزاق فى المصنف برقم (٢٠٩٠٤).
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٣٧) من طريق عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، وفى إسناده عبيد الله بن زحر، قال ابن حبان فى المجروحين: «يروى الموضوعات عن الأثبات، وإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع فى إسناد خبر عبيد الله، وعلى بن يزيد، والقاسم أبو عبد الرحمن، لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم».
(٣) فى أ: «الطائى».
(٤) تفسير الطبرى (١٢/ ٣٢٨).
(٥) فى ك، م: «فأنظرنى» وهو خطأ.
(٦) فى م: «الدين» وهو خطأ.

ذرية هذا الذى أبعدتنى بسببه ـ على ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم[١] عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياى.

وقال بعض النحاة: الباء ههنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياى لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

قال مجاهد: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعنى: الحق.

وقال محمد[٢] بن سوقة، عن عون بن عبد الله: يعنى طريق مكة.

قال ابن جرير: والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك [كله][٣].

قلت: لما روى الإمام أحمد:

حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عَقيل ـ يعنى الثقفى عبد الله بن عَقيل ـ حدثنا موسى بن المسيب، أخبرنى سالم بن أبى الجَعْد، عن سَبْرَة بن أبى فَاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، قعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟». قال: «فعصاه وأسلم». قال: «وقعد له بطريق[٤] الهجرة فقال: أتهاجر وتدع[٥] أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطِّوَل؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق[٦] الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟». قال: «فعصاه، فجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم[٧] فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان[٨] حقا على الله، عز وجل، أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو[٩] وقَصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة»[١٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ [وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ][١١]﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أشككهم فى آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أرغبهم فى دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: أشبّه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾: أشهى لهم المعاصى.

وقال [على][١٢] بن طلحة ـ فى رواية ـ والعَوْفى، كلاهما عن ابن عباس: أما ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: فمن قبل دنياهم، وأما ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾:: فأمر آخرتهم، وأما ﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: فمن قِبَل حسناتهم، وأما ﴿عَن شَمَائِلِهِمْ﴾: فمن قبل سيئاتهم.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة: أتاهم ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فأخبرهم أنه[١٣] لا بعث ولا

(١) فى أ: «أفلأضلنهم». (٢) فى أ: «مجاهد». (٣) زيادة من ك.
(٤) فى د: «فى طريق». (٥) فى د، ك، م، أ: «وتذر».
(٦) فى د: «فى طريق». (٧) فى د: «منهم ذلك».
(٨) فى ك: «وإن قتل كان»، وفى م: «وإن كان قتل». (٩) فى م: «وإن».
(١٠) المسند (٣/ ٤٨٣).
(١١) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية». (١٢) زيادة من أ. (١٣) فى ك: «أن».

جنة ولا نار ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: من أمر الدنيا فزيَّنها لهم ودعاهم إليها و ﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل حسناتهم بَطَّأهم[١] عنها ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾: زين لهم السيئات والمعاصى، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

وكذا روُى عن إبراهيم النَّخَعى، والحكم بن عتيبة[٢]، والسدى، وابن جرير[٣]، إلا أنهم قالوا: ﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: الدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: الآخرة.

وقال مجاهد: «من بين أيديهم وعن أيمانهم»: حيث يبصرون، «ومن خلفهم وعن شمائلهم»: حيث لا يبصرون.

واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه، والشر يُحببه[٤] لهم.

وقال الحكم بن أبان، عن عكْرِمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾، ولم يقل: من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال: موحدين.

وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق فى هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

ولهذا ورد فى الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده:

حدثنا نَصْر بن على، حدثنا عمرو بن مُجَمِّع، عن يونس بن خَبَّاب، عن ابن جُبَيْر بن مُطْعِم ـ يعنى نافع بن جبير ـ عن ابن عباس ـ وحدثنا عمر بن الخطاب ـ يعنى السجستانى ـ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبى أُنَيْسَةَ، عن يونس بن خباب ـ عن ابن جبير بن مطعم ـ عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى، وأهلى ومالى، اللهم استر عَوْرَتى، وآمن رَوْعَتى[٥]، واحفظنى من بين يدى ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بك[٦] اللهم أن أُغْتَال مِنْ تَحْتى». تفرد به البزار[٧]، وحسنه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا عبادة بن مسلم الفزارى، حدثنى جُبَير بن أبى سليمان

(١) فى أ: «بطأهم». (٢) فى م، أ: «عيينة». (٣) فى د، ك، م: «جريج».
(٤) فى د، ك، م، أ: «يحسنه». (٥) فى د، ك: «اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى».
(٦) فى د: «بعظمتك».
(٧) مسند البزار برقم (٣١٩٦) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٥): «فيه يونس بن خباب وهو ضعيف».

ابن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى: «اللهم إنى أسألك العافية[(١)] فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى، وآمن رَوْعاتى، اللهم احفظنى من بين يدىّ ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فَوْقِى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى». قال وكيع: يعنى الخسف.

ورواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وابن حِبَّان، والحاكم من حديث عبادة بن مسلم، به[(٢)]. وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾.

أكد تعالى اللعنة[(٣)] والطرد والإبعاد النفى عن محل الملأ الأعلى بقوله: **﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾**.

قال ابن جرير: أما «المذؤوم»، فهو المعيب، والذّأم غير مشدَّد: العيب. يقال: «ذأمه يَذْأمه ذأما فهو مذؤوم». ويتركون الهمز فيقولون: «ذمْته أذيمه ذيما وذَاما، والذام والذيم أبلغ فى العيب من الذم».

قال: «والمدحور»: المُقْصَى. وهو المبعد المطرود.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف[(٤)] «المذؤوم» و«المذموم» إلا واحداً.

وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن التميمى، عن ابن عباس: **﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾** قال: مقيتا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: صغيرا مقيتا. وقال السدى: مقيتا مطرودا. وقال قتادة: لعينا مقيتا. وقال مجاهد: منفياً مطروداً. وقال الربيع بن أنس: مذؤوما: منفيا، والمدحور: المصغر[(٥)].

وقوله تعالى: **﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾**. كقوله: **﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾** [الإسراء: ٦٣ ـ ٦٥].

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

---

(١) فى أ: «أسألك العفو والعافية».

(٢) المسند (٢/ ٢٥) وسنن أبى داود برقم (٥٠٧٤) وسنن النسائى (٨/ ٢٨٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٧١) وصحيح ابن حبان (٢/ ١٥٥) «الإحسان» والمستدرك (١/ ٥١٧).

(٣) فى د، ك، م، أ: «أكد تعالى عليه اللعنة». (٤) فى ك: «ما يعرف». (٥) فى د: «الصغير».

فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)﴾ .

يذكر تعالى أنه أباح لآدم، عليه السلام، ولزوجته [حواء][١] الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. وقد تقدم الكلام على ذلك فى «سورة البقرة»، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى فى المكر والخديعة والوسوسة لِيُسلبا[٢] ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذبا وافتراء: مانهاكما ربكما عن أكل[٣] الشجرة إلا لتكونا ملكين أى: لئلا تكونا ملكين، أو خالدين ههنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما[٤]، كقوله: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ**﴾ [طه: ١٢٠] أى: لئلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا**﴾ [النساء: ١٧٦]، أى: لئلا تضلوا، ﴿**وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ [النحل: ١٥] أى: لئلا تميد بكم.

وكان ابن عباس ويحيى بن أبى كثير يقرآن: ﴿**إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلِكَيْنِ**﴾، بكسر اللام. وقرأه الجمهور بفتحها.

﴿**وَقَاسَمَهُمَا**﴾ أى: حلف لهما بالله: ﴿**إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾، فإنى من قَبْلكما ههنا، وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زهير، ابن عم أبى ذؤيب:

وقاسَمَها بالله جَهْدا لأنتمُ ... ألذّ من السلوى إذا ما نشورها[٥]

أى: حلف لهما بالله [على ذلك][٦] حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، فقال: إنى خُلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعانى أرشدكما. وكان بعض أهل العلم يقول: «من خادعنا بالله خُدعنا له».

﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ .

قال سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى بن كعب، رضى الله عنه، قال: كان آدم رجلا طُوَالا، كأنه نخلة سَحُوق، كثير شعر الرأس. فلما وقع بما وقع به من الخطيئة، بَدَتْ له

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى د: «ليسلبهما». (٣) فى د، ك: «هذه».
(٤) فى أ: «ذلك».
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (١٢/ ٣٥٠) وعزاه المحقق لأشعار الهذليين (١/ ١٥٨).
(٦) زيادة من د، ك، م، أ.

عورته عند ذلك، وكان لا يراها. فانطلق هاربا فى الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسلينى. فقالت: إنى غير مرسلتك. فناداه ربه، عز وجل: يا آدم، أمنّى تفر؟ قال: رب إنى استحييتك(١).

وقد رواه ابن جرير، وابن مَرْدُويه من طُرُق، عن الحسن، عن أبىّ بن كعب، عن النبى ﷺ، والموقوف أصحّ إسنادا(٢).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته، السنبلة. فلما أكلا منها بدت لهما سوآتها، وكان الذى وارى عنهما من سوآتهما أظفارهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وَرقَ التين، يلزقان بعضه إلى بعض. فانطلق آدم، عليه السلام، موليا فى الجنة، فعلقت برأسه شجرة من الجنة، فناداه: يا آدم، أمنى تفر؟ قال: لا، ولكنى استحييتك يارب. قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة، عما حرمت عليك. قال: بلى يارب، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحداً يحلف بك كاذباً. قال: وهو قوله، عز وجل(٣): ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾. قال: فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض، ثم لاتنال العيش إلا كَدا. قال: فأهبط من الجنة، وكانا يأكلان منها رَغَدًا، فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعُلّم صنعة الحديد، وأمر بالحرث، فحرث وزرع ثم سقى، حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه، ثم ذَرَاه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ(٤).

وقال الثورى، عن ابن أبى ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ورق التين . صحيح إليه.

وقال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة كهيئة الثوب.

وقال وَهْب بن مُنَبِّه فى قوله: ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قال: كان لباس آدم وحواء نورا على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا. فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما. رواه ابن جرير بإسناد صحيح إليه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: قال آدم: أى رب، أرأيت إن تبت واستغفرت؟ قال: إذاً أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذى سأله.

---

(١) تفسير الطبرى (١٢/ ٣٥٤).

(٢) تفسير الطبرى (١٢/ ٣٥٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٣٤٥) من طريق يزيد بن الهاد، عن الحسن، عن أبى بن كعب بنحوه، وقال: «هذا لا يعلل حديث يونس بن عبيد، فإنه أعرف بحديث الحسن من أهل المدينة ومصر، والله أعلم» يقصد الحاكم ما أخرجه فى المستدرك (١/ ٣٤٤) من طريق يونس بن عبيد، عن الحسن ،عن عتى، عن أبىّ بن كعب بنحوه، فإنه قد علله فى آخره بأنه قد روى عن الحسن، عن أُبَىٍّ دون ذكر عتى. ورواه عبد الرزاق فى المصنف (٣/ ٤٠٠)، عن ابن جريج حدثت عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ فذكره بنحوه.

(٣) فى د، م: «قول الله»، وفى ك: «قوله تعالى».

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٢/ ٣٥٢) من طريق عبد الرزاق به.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عَبَّاد بن العوَّام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها. قال: حواء. أمرتني. قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كَرْهًا، ولا تضع إلا كَرْهًا. قال: فرنَّت عند ذلك حواء. فقيل لها: الرنة عليك وعلى ولدك[١].

وقال الضحاك بن مُزَاحِم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه [عز وجل][٢].

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾.

قيل: المراد بالخطاب في ﴿اهْبِطُوا﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والحية. ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم.

والعمدة في العداوة آدم وإبليس؛ ولهذا قال تعالى في سورة «طه» قال: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [الآية: ١٢٣]، وحواء تبع لآدم. والحية ـ إن كان ذكرها صحيحا ـ فهي تبع لإبليس.

وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم، أودنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله[٣] ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول.

وقال ابن عباس: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: القبور. وعنه: وجه الأرض وتحتها. رواهما ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾. كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، يخبر تعالى أنه يجعل[٤] الأرض دار لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة[٥] الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلا بعمله.

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾.

يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش فاللباس[٦] المذكور ههنا لستر

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٥٦).
(٢) زيادة من أ.
(٣) في ك: «ورسوله».
(٤) في ك، م: «جعل».
(٥) في ك، م، أ: «المعاد».
(٦) في ك: «واللباس».

العورات ـ وهى السوآت[١] ـ والرياش والريش: هو ما يتجمل به ظاهرًا، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات.

قال ابن جرير: «الرياش» فى كلام العرب: الأثاث، وما ظهر من الثياب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس ـ وحكاه البخارى ـ عنه: الريش: المال. وكذا قال مجاهد، وعُرْوَة بن الزبير، والسُّدِّى والضحاك[٢].

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: «الرياش»: اللباس، والعيش، والنعيم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الرياش»: الجمال.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أصْبَغُ، عن أبى العلاء الشامى قال: لبس أبوأمامة ثوبًا جديداً، فلما بلغ تَرْقُوَتَه قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى. ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوبًا فلبسه[٣]، فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى[٤]، ثم عمد إلى الثوب الذى خَلُقَ أو: ألقى فتصدق به، كان فى ذمة الله، وفى جوار الله، وفى كنف الله حيا وميتا، [حيا وميتا، حيا وميتا][٥]».

ورواه الترمذى، وابن ماجه، من رواية يزيد بن هارون، عن أصبغ ـ هو ابن زيد الجهنى[٦] ـ وقد وثقه يحيى بن مَعِين وغيره، وشيخه «أبو العلاء الشامى» لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يخرجه أحد، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا مختار بن نافع التمار، عن أبى مطر؛ أنه رأى عليا، رضى الله عنه، أتى غلامًا حدثًا، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول ولبسه: الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس، وأوارى به عورتى. فقيل: هذا شىء ترويه عن نفسك أو عن نبى الله ﷺ؟ قال: هذا شىء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذى رزقنى[٧] من الرياش[٨] ما أتجمل به فى الناس، وأوارى به عورتى»[٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: قرأ بعضهم: «ولباسَ التقوى»، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خيره.

واختلف المفسرون فى معناه، فقال عكرمة: يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبى حاتم.

---

(١) فى ك: «الشهوات». (٢) فى ك، م، أ: «والضحاك: الرياش: المال». (٣) فى م: «يلبسه»
(٤) فى أ: «فى الناس». (٥) زيادة من أ.
(٦) المسند (١/ ٤٤) وسنن الترمذى برقم (٣٥٦٠) وسنن ابن ماجة برقم (٣٥٥٧).
(٧) فى أ: «كسانى». (٨) فى م: «من اللباس».
(٩) المسند (١/ ١٥٧) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١١٩): «فيه مختار بن نافع وهو ضعيف».

وقال زيد بن على، والسُّدِّى، وقتادة، وابن جُرَيْج: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: الإيمان.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس [رضى الله عنه: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾][١]: العمل الصالح.

وقال زياد[٢] بن عمرو، عن ابن عباس: هو السمت الحسن فى الوجه.

وعن عُرْوَة بن الزبير: ﴿لِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: خشية الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿لِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: يتقى الله، فيوارى عورته، فذلك لباس التقوى.

وكل هذه متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذى رواه ابن جرير حيث قال:

حدثنى المثنى، حدثنا إسحاق بن الحجاج، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان، رضى الله عنه، على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص قُوهى محلول الزرّ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب، وينهى عن اللعب بالحمام. ثم قال: يأيها الناس، اتقوا الله فى هذه السرائر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفس محمد بيده، ما عمل أحد قط سرا إلا ألبسه الله رداء علانية، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر». ثم تلا هذه الآية: «ورياشاً» ـ ولم يقرأ: وريشاً ـ ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال: «السمت الحسن».

هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم[٣]، وفيه ضعف. وقد روى الأئمة: الشافعى، وأحمد، والبخارى فى كتاب «الأدب» من طرق صحيحة، عن الحسن البصرى؛ أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام، يوم الجمعة على المنبر.

وأما المرفوع منه[٤]، فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير له شاهداً[٥] من وجه آخر، حيث قال: حدثنا. . .[٦].

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾.

---

(١) زيادة من ك، أ. (٢) فى أ: «الديال».
(٣) تفسير الطبرى (١٢/ ٣٦٧).
(٤) فى م: «عنه». (٥) فى ك، م: «شاهدا آخر».
(٦) [محمود بن محمد المروزى، حدثنا حامد بن آدم المروزى، حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمى، عن سلمة ابن كهيل، عن جندب بن سفيان البجلى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أسر عبدٌ سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر»].

المعجم الكبير (٢/ ١٧١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢٥): «فيه حامد بن آدم وهو كذاب» والعرزمى تركه الأئمة.

تنبيه: فى جميع النسخ لم يذكر هذا الحديث الذى سقته ههنا، وموضعه بياض عدة أسطر، وقد تعرفت على أن هذا الحديث هو مقصود الحافظ ابن كثير، أنى رأيته ساق أثر عثمان السابق ثم ساق بعده هذا الحديث بإسناد الطبرانى، كما سيأتى فى سورة الفتح آية: ٢٩، فرأيت إثباته فى الحاشية.

يقول تعالى محذرًا بنى آدم من إبليس وقبيله، ومبيناً لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم، عليه السلام، فى سعيه فى إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب فى هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠)﴾.

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على فرجها النِّسْعَة، أو الشيء وتقول:

اليوم يبدُو بعضُه أو كلّه وما بَدا منه فلا أحلّهُ

فأنزل الله [تعالى][١]: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية[٢].

قلت: كانت العرب ـ ماعدا قريشًا ـ لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش ـ وهم الحُمْس ـ يطوفون فى ثيابهم، ومن أعاره أحمسى ثوبًا طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوبًا جديداً ولا أعاره أحمسى ثوبًا، طاف عريانًا. وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئًا يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبدُو بعضُه أو كلّه وما بَدا منه فلا أحلّه[٣]

وأكثر ما كان النساء يطفن [عراة][٤] بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال تعالى ردًا عليهم: ﴿قُلْ﴾ أى: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى: هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: أتسندون إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته.

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل والاستقامة، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ

---

(١) زيادة من ك.
(٢) تفسير الطبرى (١٢/ ٣٧٧).
(٣) البيت منسوب لضباعة بنت عامر بن قرط، وله قصة ذكرها ابن حبيب البغدادى فى المنمق (ص٢٧٠).
(٤) زيادة من ك، م.

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله [تعالى][١]، وما جاؤوا به [عنه][٢] من الشرائع، وبالإخلاص له فى عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صوابًا موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصًا من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ][٣] الضَّلَالَةُ﴾ ـ اختلف فى معنى [قوله تعالى][٤] : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم.

وقال الحسن البصرى: كما بدأكم فى الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء.

وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئًا، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخرًا.

واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج، كلاهما عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يأيها الناس، إنكم تحشرون[٥] إلى الله حُفَاة عُرَاة غُرْلاً، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]».

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ فى الصحيحين، من حديث شعبة، وفى صحيح البخارى ـ أيضا ـ من حديث الثورى به[٦].

وقال وِقَاء بن إياس أبو يزيد، عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: يبعث المسلم مسلمًا، والكافر كافرًا .

وقال أبو العالية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: رُدّوا إلى علمه فيهم.

وقال سعيد بن جبير: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما كتب عليكم تكونون ـ وفى رواية: كما كنتم تكونون عليه تكونون.

وقال محمد بن كعب القُرَظِى فى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة، كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة، ثم صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه. ومن ابتُدئ خلقه على السعادة، صار على ماابتدئ خلقه عليه، إن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملت[٧] بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه.

---

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ك. (٣) زيادة من ك، أ وفى هـ: «إلى قوله».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «محشورون».
(٦) تفسير الطبرى (١٢/٣٨٦) وصحيح البخارى برقم (٤٦٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٠).
(٧) فى أ: «عملوا».

وقال السُّدِّى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ. فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما خلقناكم، فريق مهتدون وفريق ضلال، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ. فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا، كما قال [تعالى](١): ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم(٢)، مؤمنًا وكافرًا.

قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود فى صحيح البخارى: «فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع ـ أو: ذراع ـ فيسبق(٣) عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع ـ أو: ذراع ـ فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة»(٤).

وقال أبو القاسم البَغَوى: حدثنا على بن الجَعْد، حدثنا أبو غَسَّان، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل ـ فيما يرى الناس ـ بعمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار. وإنه ليعمل ـ فيما يرى الناس ـ بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم»(٥).

هذا قطعة من حديث رواه البخارى من حديث أبى غسان محمد بن مُطَرِّف المدنى، فى قصة «قُزْمان» يوم أحد(٦).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «تُبْعَثُ كل نَفْسٍ على ما كانت عليه».

وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن الأعمش، به. ولفظه: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»(٧).

قلت: ولابد من الجمع بين هذا القول ـ إن كان هو المراد من الآية ـ وبين قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وما جاء فى الصحيحين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفِطْرَة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسَانه»(٨). وفى صحيح مسلم، عن عِياض بن حمَار(٩) قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إنى خلقت عبادى حُنَفَاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث. ووجه

(١) زيادة من أ. (٢) فى ك، أ: «بدأ خلقهم». (٣) فى ك: «ويسبق».
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٢٠٨).
(٥) ورواه البغوى فى تفسيره (٣/ ٢٢٤) من طريق عبد الرحمن بن أبى شريح، عن أبى القاسم البغوى به.
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٦٠٧، ٦٤٩٣).
(٧) تفسير الطبرى (١٢/ ٣٨٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٣٠).
(٨) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).
(٩) فى أ: «حماد».

الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر، فى ثانى الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله فى غرائزهم وفطرهم، ومع هذا قدر أن [١] منهم شقيًا ومنهم سعيدًا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وفى الحديث: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمُعْتِقُهَا، أو مُوبقها»[٢]. وقدر الله نافذ فى بريته، فإنه هو ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]، و﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وفى الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ [وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ][٣] ﴾.

قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل وهو يحسب أنه هاد، وفريق الهدى، فرق. وقد فَرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية [الكريمة][٤].

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾.

هذه الآية الكريمة ردٌّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عُراة، كما رواه مسلم والنسائى وابن جرير[٥] ـ واللفظ له ـ من حديث شعبة، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليومَ يبدُو بعضُه أو كُلّه وما بَدَا منه فلا أحِلّهُ

فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٦].

وقال العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله [تعالى][٧]: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة ـ والزينة: اللباس، وهو ما يوارى السوأة، وما سوى ذلك من جيِّد البزِّ والمتاع ـ فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد.

وكذا قال مجاهد، وعطاء، وإبراهيم النَّخعى، وسعيد بن جُبَيْر، وقتادة، والسُّدِّى، والضحاك،

(١) فى ك: «أن يكون».
(٢) قطعة من حديث رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٣) من حديث أبى مالك الأشعرى.
(٣) زيادة من د، ك، م، أ. وفى هـ: «الآية». (٤) زيادة من ك، أ. (٥) فى أ: «ابن ماجة».
(٦) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٨) وسنن النسائى (٥/ ٢٣٣) وتفسير الطبرى (١٢/ ٣٩٠).
(٧) زيادة من أ.

ومالك عن الزهرى، وغير واحد من أئمة السلف فى تفسيرها: أنها نزلت فى طواف المشركين بالبيت عراة.

وقد روى الحافظ بن مَرْدُويه، من حديث سعيد بن بشير والأوزاعى، عن قتادة، عن أنس مرفوعا؛ أنها أنزلت[١] فى الصلاة فى النعال. ولكن فى صحته نظر[٢]، والله أعلم.

ولهذه الآية، وما ورد فى معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب[٣] البياض، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا على بن عاصم، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكَفِّنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثْمِد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر».

هذا حديث جيد الإسناد،رجاله[٤] على شرط مسلم. ورواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، به[٥]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وللإمام أحمد أيضا، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سَمُرَة بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم»[٦].

وروى الطبرانى بسند[٧] صحيح، عن قتادة، عن محمد بن سيرين: أن تميما الدارى اشترى رداءً بألف، فكان يصلى فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا [وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ][٨]﴾، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله فى نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾.

وقال البخارى: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرَف ومَخِيلة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثَوْر، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرَفًا أو مَخيلة. إسناده

---

(١) فى أ: «نزلت».

(٢) ورواه العقيلى فى الضعفاء الكبير (٣/ ١٤٣) من طريق عباد بن جويرية، عن الأوزاعى، عن قتادة به.وعباد بن جويرية قال فيه الإمام أحمد: «كذاب أفاك».

ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (١٤/ ٢٨٧) من طريق يعقوب، الدعاء عن يحيى بن عبد الله الدمشقى، عن الأوزاعى به. ويعقوب وشيخه لا يعرفان.

(٣) فى د، ك، م، أ: «اللباس». (٤) فى م: «رجاله كلهم ثقات».

(٥) المسند (١/ ٢٤٧) وسنن أبى داود برقم (٤٠٦١) وسنن الترمذى برقم (٩٩٤) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٧٢).

(٦) المسند (٥/ ٧) وسنن النسائى (٨/ ٢٠٥).

(٧) فى م: «بإسناد». (٨) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».

صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا هَمّام، عن قتادة، عن عمرو بن شُعَيْب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، فى غير مَخِيلة ولا سرَف، فإن الله يحب أن يرى(١) نعمته على عبده»(٢).

ورواه النسائى وابن ماجه، من حديث قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «كلوا وتصدقوا والبسوا فى غير إسراف ولا مَخِيلة»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكِنانى، حدثنا يحيى بن جابر الطائى(٤): سمعت المقدام بن معد يكرب الكندى(٥) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمى وعاءً شرًا من بطنه، حَسْبُ ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صُلْبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث طعامٌ، وثلث شرابٌ، وثلث لنفسه».

ورواه النسائى والترمذى، من طرق، عن يحيى بن جابر، به(٦). وقال الترمذى: حسن ـ وفى نسخة: حسن صحيح.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا سُوَيْد بن عبد العزيز(٧)، حدثنا بَقِيَّة، عن يوسف ابن أبى كثير، عن نوح بن ذَكْوان، عن الحسن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من السَّرف أن تأكل كل ما اشتهيت».

ورواه الدارقطنى فى الأفراد، وقال: هذا حديث غريب تفرد به بقية(٨).

وقال السُّدِّى: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرمون عليهم الودَكَ ما أقاموا فى الموسم؛ فقال الله [تعالى](٩) لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا [وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ](١٠)﴾ يقول: لا تسرفوا فى التحريم.

وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾ يقول: ولا تأكلوا حرامًا، ذلك الإسراف.

وقال عطاء الخراسانى، عن ابن عباس قوله: ﴿وَكُلُوا(١١) وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ

---

(١) فى ك: «ترى».
(٢) المسند (٢/ ١٨٢).
(٣) سنن النسائى (٥/ ٧٩) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٠٥).
(٤) فى أ: «الطائى قال». (٥) فى ك: «العبدى».
(٦) المسند (٤/ ١٣٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٦٧٦٨) وسنن الترمذى برقم (٢٣٨٠).
(٧) فى جميع النسخ: «سويد بن عبد العزيز» وصوابه: «سويد بن سعيد» كما فى مسند أبى يعلى وكتب الرجال.
(٨) مسند أبى يعلى (٥/ ١٥٤) وأطراف الغرائب والأفراد لابن القيسرانى (ق ٧٢) ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٣٥٢) من طريق سويد بن سعيد به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٩٥): «هذا إسناد ضعيف» وهو مسلسل بالعلل.
(٩) زيادة من م. (١٠) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ «الآية». (١١) فى م: «كلوا».

الْمُسْرِفِينَ﴾، فى الطعام والشراب.

وقال ابن جرير: وقوله: **﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** يقول الله: إن الله [تعالى][١] لا يحب المتعدين[٢] حَدَّه فى حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حَرّم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذى أمر به.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾.

يقول تعالى ردًا على من حَرّم شيئًا من المآكل والمشارب، والملابس، من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: **﴿قُلْ﴾** يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: **﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ [وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ][٣]﴾** الآية، أى: هى مخلوقة لمن آمن بالله وعبده فى الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حسّا[٤] فى الدنيا، فهى لهم خاصة يوم القيامة، لا يَشْرَكهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرّمة على الكافرين.

قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو حُصَين محمد بن الحسين القاضى، حدثنا يحيى الحِمَّانى، حدثنا يعقوب القُمِّى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة، يصفرون ويُصَفِّقون. فأنزل الله: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾** فأمروا بالثياب[٥].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شَقِيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، فلذلك حَرَّم الفواحش ما ظَهَر منها وما بَطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث سليمان بن مهْران الأعمش، عن شقيق أبى وائل، عن عبد الله بن مسعود[٦]. وتقدم الكلام فى سورة الأنعام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله: **﴿وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾** قال السُّدِّى: أما الإثم فالمعصية، والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق.

---

(١) زيادة من ك. (٢) فى ك، م: «المعتدين». (٣) زيادة من ك، م، أ.

(٤) فى ك: «حبا».

(٥) المعجم الكبير (١٢/ ١٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٣): «فيه يحيى الحمانى وهو ضعيف».

(٦) المسند (١/ ٣٨١)، وصحيح البخارى برقم (٤٦٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٠).

وقال مجاهد: الإثم المعاصى كلها، وأخبر أن الباغى بغيه كائن على نفسه.

وحاصل ما فُسّر[١] به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغى هو التعدى إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: تجعلوا له شريكا فى عبادته، وأن تقولوا عليه[٢] من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك، مما لا علم لكم به كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ [وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ][٣]﴾ الآية [الحج: ٣٠، ٣١].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أى: قَرْن وجيل ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أى: ميقاتهم المقدر لهم ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك[٤] ﴿وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ثم أنذر تعالى بنى آدم بأنه سيبعث إليهم رسلا، يقصون عليهم آياته، وبَشر وحذر فقال: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ أى: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أى: كذبت بها قلوبهم، واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: ماكثون فيها مكثًا مخلدًا.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) ﴾.

يقول [تعالى][٥]: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أى: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله، أو كذب بآيات الله المنزلة.

﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فقال العَوْفى عن ابن عباس: ينالهم ما كتب عليهم، وكتب لمن يفترى على الله أن وجهه مسود.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: نصيبهم من الأعمال، من عَمِل خيرًا جُزِى به،

---

(١) فى أ: «فسرا». (٢) فى ك: «على الله». (٣) زيادة من ك، م، أ.
(٤) فى أ: «أى من ذلك». (٥) زيادة من أ.

ومن عمل شرًا جُزِى به.

وقال مجاهد: ما وعدوا فيه من خير وشر.

وكذا قال قتادة، والضحاك، وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿أُوْلَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال: عمله ورزقه وعمره.

وكذا قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول قوى فى المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ويصير المعنى فى هذه الآية كما فى قوله [تعالى][1]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا [ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ][2]﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤].

وقوله [تعالى][3]: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ [قَالُوا أَيْنَمَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ][4]﴾ الآية: يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم[5] عند الموت وقَبْض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم[6]: أين الذين كنتم تشركون بهم فى الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم[7] مما أنتم فيه. قالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أى: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم، ولا خيرهم. ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾.

يقول تعالى مخبرًا عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذبين بآياته: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أى: من أشكالكم وعلى صفاتكم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أى: من الأمم السالفة الكافرة، ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾، يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فِي أُمَمٍ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿فِي أُمَمٍ﴾، أى: مع أمم.

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، كما قال الخليل، عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ[8] الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ [وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا][9]﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ

---

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من د، ك، م، أ. (٣، ٤) زيادة من أ.
(٥) فى أ: «تقرعهم». (٦) فى د: «قائلين لهم». (٧) فى أ: «يخلصونكم».
(٨) فى د، ك، م: «ويوم». (٩) زياة من ك، م، أ.

﴿الَّذِينَ اتُّبِعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقوله [تعالى][(١)]: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمعوا فيها كلهم، ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ﴾ أي: أخراهم دخولاً ـ وهم الأتباع ـ لأولاهم ـ وهم المتبوعون ـ لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم[(٢)] الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ [وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا][(٣)]﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

وقوله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا [فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ][(٤)]﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ [وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ][(٥)]﴾ [العنكبوت: ١٣] وقال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ [أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ][(٦)]﴾[النحل: ٢٥].

﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السدى: فقد ضللتم كما ضللنا.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم فى حال محشرهم، فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)﴾.

قوله: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قيل: المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء.

---

(١) زيادة من م.
(٢) فى أ: «فيشكونهم».
(٣، ٤) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».
(٥) زيادة من أ. وفى هـ: «الآية».
(٦) زيادة من ك، م،أ. وفى هـ: «الآية».

قاله مجاهد، وسعيد بن جبير. ورواه العَوْفى وعلى بن أبى طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه الثورى، عن ليْث، عن عطاء، عن ابن عباس.

وقيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء.

رواه الضحاك، عن ابن عباس. وقاله السُّدِّى وغير واحد، ويؤيده ما قال ابن جرير:

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن المِنْهَال ـ هو ابن عمرو ـ عن زاذان، عن البراء؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قَبْض روح الفاجر، وأنه يُصْعَد بها إلى السماء، قال: «فيصعدون بها، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التى كان يُدْعَى بها فى الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ [وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ]**[1]﴾ الآية.

هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه، من طرق، عن المنهال بن عمرو، به[2]. وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن منْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب [رضى الله عنه][3] قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود ينكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر». مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنُوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر. ثم يجىء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة[4]، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان».

قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعُوها[5] فى يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن، وفى ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها فلا يمرون ـ يعنى ـ بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى علِّيِّين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى».

---

(١) زيادة من ك، م، أ.

(٢) تفسير الطبرى (١٢/٤٢٤)، وسنن أبى داود برقم (٤٧٥٣)، وسنن النسائى (٤/٧٨)، وسنن ابن ماجة برقم (١٥٤٨).

(٣) زيادة من ك، أ. (٤) فى ك، م: «المطمئنة». (٥) فى ك: «يدعها».

قال: «فتعاد روحه، فيأتيه مَلَكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله. فيقولان له ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة». «فيأتيه[١] من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مَدّ بصره».

قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسُرك، هذا يومك الذى كنت توعد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلى ومالى».

قال: «وإن العبد الكافر، إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة[٢]، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم [٣] المسوح، فيجلسون منه مَدّ البصر، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله وغضب». قال: «فتُفَرّق فى جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعُوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح [٤]. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتابه فى سجّين فى الأرض السفلى. فتطرح روحه طرحا». ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

«فتعاد روحه فى جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدرى. فيقولان[٥]: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدرى. فيقولان [٦]: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه! لا أدرى. فينادى مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حَرّها وسمومها، ويُضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعد فيقول: من[٧] أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة»[٨].

---

(١) فى ك، م، أ: «قال: فيأتيه». (٢) فى م: «إذا كان فى انقطاع عن الآخرة وإقبال من الدنيا».
(٣) فى م: «معهم السياط». (٤) فى م، أ: «فلا يفتح له». (٥، ٦) فى م، أ: «فيقولان له».
(٧) فى م: «ومن».
(٨) المسند (٤/٢٨٧).

وقال أحمد أيضا: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يونس بن خَبَّاب، عن المِنْهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه.

وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك فى السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، عز وجل، أن يعرج بروحه من قبلهم».

وفى آخره: «ثم يقيض له أعمى أصم أبكم، فى يده مِرْزَبَّة لو ضرب بها جبل كان ترابًا، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله، عز وجل، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين». قال البراء: «ثم يفتح له باب من النار، ويمهد له من فرش النار»[١].

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، والنسائى، وابن ماجه وابن جرير ـ واللفظ له ـ من حديث محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَار، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٢] أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حَمِيدة، وأبشرى برَوْح وريحان، ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يُعْرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقولون: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب، ادخلى حميدة، وأبشرى برَوْح وريحان، ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك حتى ينتهى به إلى السماء التى فيها الله، عز وجل. وإذا كان الرجل السَّوْء قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة، وأبشرى بحميم وغَسّاق، وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، ارجعى ذميمة، فإنه لم تفتح[٣] لك أبواب السماء، فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر»[٤].

وقد قال ابن جُرَيج فى قوله: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم.

وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه[٥] الجمهور، وفسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة. وفى رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصرى: حتى يدخل البعير فى خُرْق الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى على بن أبى طلحة، والعَوْفى عن ابن عباس.

---

(١) المسند (٤/ ٢٩٥).

(٢) زيادة من أ. (٣) فى ك: «يفتح».

(٤) المسند (٢/ ٣٦٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٤٤٢) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٦٢) وتفسير الطبرى (١٢/ ٤٢٤).

(٥) فى د، ك، م: «فسره».

وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «[حتى][١] يلج الجُمَّل فى سم الخيام» بضم الجيم، وتشديد الميم، يعنى: الحبل الغليظ فى خرم الإبرة.

وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفى رواية أنه قرأ: «حتى يلج الجُمَّل» يعنى: قُلُوس السفن، وهى الحبال الغلاظ.

وقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ [وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ][٢]﴾ قال محمد بن كعب القُرَظِى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال: الفرش، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾قال: اللحُفُ.

وكذا قال الضحاك بن مُزاحِم، والسُّدِّى، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء[٣]، عطف بذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها.

وينبه[٤] تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أى: من حسد وبغضاء، كما جاء فى الصحيح للبخارى، من حديث قتادة، عن أبى المتوكِّل الناجى، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذبوا ونقوا، أذن لهم فى دخول الجنة؛ فوالذى نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أدلّ منه بمسكنه كان فى الدنيا»[٥].

وقال السُّدِّى فى قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ الآية: إن أهل الجنة إذا سبقوا إلى الجنة فبلغوا، وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان، فشربوا[٦] من إحداهما، فينزع ما فى صدورهم من غل، فهو «الشراب الطهور»، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم «نضرة النعيم» فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً.

---

(١) زيادة من ك، م، أ. (٢) زيادة من م، أ. (٣) فى أ: «ما للأشقياء» .
(٤) فى م، أ: «ونبه» .
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٤٤٠) .
(٦) فى م: «فيشربون».

وقد روى أبو إسحاق، عن عاصم، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب نحواً من ذلك[١]، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال قتادة: قال على، رضى الله عنه: إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾. رواه ابن جرير.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسرائيل قال: سمعت الحسن يقول: قال على: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[٢].

وروى النسائى وابن مَرْدُويه ـ واللفظ له ـ من حديث أبى بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هدانى، فيكون له شكراً. وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هدانى، فيكون له حسرة»[٣].

ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا: ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «واعلموا أن أحدكم[٤] لن يدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدَنِى الله برحمة منه وفضل»[٥].

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)﴾.

يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة أهل النار إذا استقروا فى منازلهم، وذلك على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا [فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا][٦]﴾، «أن» ههنا مفسِّرة للقول المحذوف، و«قد» للتحقيق، أى: قالوا لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كما أخبر تعالى فى سورة «الصافات» عن الذى كان له قرين من الكفار: ﴿فَاطَّلَعَ

---

(١) فى ك، م، أ: «هذا».
(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢١٧).
(٣) سنن النسائى الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى برقم (١٢٤٩٢) ورواه أحمد فى مسنده (٢/ ٥١٢) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٣٥) من طريق أبى بكر بن عياش به، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.
(٤) فى أ: «أحدًا».
(٥) صحيح البخارى برقم (٦٤٦٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٦) زيادة من ك، م.

فرآه في سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾ [الآيات: ٥٥ ـ ٥٩] أى: ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذا[١] تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون. أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون. اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ [الطور: ١٤ ـ ١٦]. وكذلك قرع رسولُ الله ﷺ قتلى القَليب يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة ـ وسمى رؤوسهم ـ: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً». وقال[٢] عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جَيفوا؟ فقال: «والذى نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»[٣].

وقوله: ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ أى: أعلم معلم ونادى مُنَاد: ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ أى: مستقرة عليهم.

ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا﴾ أى: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد. ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أى: وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة كافرون، أى: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لايخافون حساباً عليه ، ولا عقاباً، فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً.

﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون (٤٦) وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين (٤٧) ﴾.

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نَبَّه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة.

قال ابن جرير: وهو السور الذى قال الله تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ [الحديد: ١٣]. وهو الأعراف الذى قال الله تعالى: ﴿وعلى الأعراف رجال﴾.

ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله [تعالى][٤]: ﴿وبينهما حجاب﴾ وهو «السور»، وهو «الأعراف».

---

(١) فى م: «وكذلك». (٢) فى ك، م: «فقال».
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٩٨٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٩٣٢) من حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما.
(٤) زيادة من ك .

وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب.

قال ابن جرير: والأعراف جمع «عُرْف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى «عرفاً»، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه.

وحدثنا سفيان بن وَكِيع، حدثنا ابن عيينة، عن عُبَيد الله بن أبى يزيد، سمع ابن عباس يقول: الأعراف: هو الشىء المشرف.

وقال الثورى، عن جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: الأعراف: سور كعُرُف الديك.

وفى رواية عن ابن عباس: الأعراف، تل بين الجنة والنار، حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار. وفى رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار. وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير.

وقال السدى: إنما سمى «الأعراف» أعرافاً؛ لأن أصحابه يعرفون الناس.

واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، رحمهم الله. وقد جاء فى حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيَه:

حدثنا عبد الله بن إسماعيل، حدثنا عبيد بن الحسين، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا النعمان بن عبد السلام، حدثنا شيخ لنا يقال له: أبو عباد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته، فقال: «أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطعمون».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه[(١)]، ورواه من وجه آخر، عن سعيد بن سلمة بن أبى الحسام، عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم، فقتلوا فى سبيل الله»[(٢)].

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو مَعْشَر، حدثنا يحيى بن شِبْل، عن يحيى بن عبد الرحمن المزنى[(٣)]، عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن «أصحاب الأعراف» فقال: «هم ناس[(٤)] قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم النار[(٥)] قتلهم فى سبيل الله».

---

(١) ورواه أبو الشيخ وابن عساكر فى تاريخه كما فى الدر المنثور (٣/٤٦٣).

(٢) ورواه أبو الشيخ كما فى الدر المنثور (٣/ ٤٦٥)، وسعيد بن سلمة ضعفه النسائى وخرج له مسلم فى صحيحه.

(٣) وقع فى النسخ «يحيى بن عبد الرحمن المزنى» وفى تفسير الطبرى «محمد بن عبد الرحمن المزنى» وفى مسند الحارث ومساوئ الأخلاق «عمر بن عبد الرحمن المزنى» ولم أجد من ترجم له إلا أن ابن أبى حاتم قال فى الجرح والتعديل فى ترجمة يحيى بن شبل أنه روى عن «عمر بن عبد الرحمن المزنى».

(٤) فى أ: «قوم».

(٥) فى أ: «من دخول النار».

هكذا رواه ابن مَرْدُويَه، وابن جرير، وابن أبى حاتم من طرق، عن أبى معشر به[(١)]. وكذلك[(٢)] رواه ابنُ ماجه مرفوعاً، من حديث ابن عباس وأبى سعيد الخدرى[(٣)] [رضى الله عنهما][(٤)]، والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حصين، عن الشعبى، عن حذيفة؛ أنه سئل عن أصحاب الأعراف، قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلَّفت بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هناك[(٥)] على السور حتى يقضى الله فيهم[(٦)].

وقد رواه من وجه آخر أبسط[(٧)] من هذا فقال:

حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبى إسحاق قال: قال الشعبى: أرسل إلىّ عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذَكْوان مولى قريش ـ وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة، فقالا: هات. فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صُرِفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ﴿**رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾، فبينا[(٨)] هم كذلك، اطلع عليهم ربك فقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة فإنى قد غفرت لكم[(٩)].

وقال عبد الله بن المبارك، عن أبى بكر الهذلى قال: قال سعيد بن جبير، وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ثم قرأ قول الله: ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ [فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**][(١٠)]﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من

---

(١) تفسير الطبرى (١٢/ ٤٥٨)، ورواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده برقم (٧١١) «بغية الباحث».
والخرائطى فى مساوئ الأخلاق برقم (٢٥٢) كلاهما من طريق أبى معشر به.
وأبو معشر هو نجيح بن عبد الرحمن قال البخارى: منكر الحديث.
(٢) فى ك، م: «وكذا».
(٣) لم أجدهما فى سنن ابن ماجة، وإنما رواهما ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٣/ ٤٦٥)، وحديث أبى سعيد رواه أيضا الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٣٢٢) «مجمع البحرين» من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء، عن أبى سعيد الخدرى به. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٣): «فيه محمد بن مخلد الرعينى وهو ضعيف».
قلت: وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف أيضا.
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى ك، م: «هنالك».
(٦) تفسير الطبرى (١٢/ ٤٥٣).
(٧) فى م: «بأبسط».
(٨) فى أ: «فبينما».
(٩) تفسير الطبرى (١٢/ ٤٥٢).
(١٠) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآيتين».

أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أصحاب النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فتعوذوا بالله من منازلهم. قال: فأما أصحاب الحسنات، فإنهم يعطون نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة. فلما رأى أهل الجنة ما لقى المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨]. وأما أصحاب الأعراف، فإن النور كان فى أيديهم فلم ينزع، فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، فكان الطمع دخولاً. قال: وقال[١] ابن مسعود: على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلبت واحدته أعشاره.

رواه ابن جرير[٢]، وقال أيضا:

حدثنى ابن وَكِيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن منصور، عن حبيب بن أبى ثابت، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس قال: «الأعراف»: السور الذى بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا الله أن يعافيهم، انْطُلِق بهم إلى نهر يقال له: «الحياة»، حافتاه قصب الذهب، مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، فألقوا[٣] فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدو فى نحورهم بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم فيتمنون، حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذى تمنيتم ومثله سبعون ضعفا. فيدخلون الجنة وفى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، يسمون مساكين أهل الجنة.

وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن المغيرة، عن جرير، به. وقد رواه سفيان الثورى، عن حبيب بن أبى ثابت، عن مجاهد، عن عبد الله بن الحارث، من قوله[٤]. وهذا أصح، والله أعلم. وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد.

وقال سُنَيْد بن داود: حدثنى جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعَة بن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال[٥]: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من فصله[٦] بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا[٧] الجنة، فأنتم عتقائى، فارعوا من الجنة حيث شئتم». وهذا مرسل حسن[٨].

---

(١) فى د: «فقال».

(٢) تفسير الطبرى (١٢/ ٤٥٤).

(٣) فى م: «فالقى».

(٤) تفسير الطبرى (١٢/ ٤٥٥).

(٥) فى م: «فقال». (٦) فى ك، م: «فصل». (٧) فى م: «يدخلوا».

(٨) ورواه الطبرى (١٢/ ٤٦١) عن القاسم، عن سنيد بإسناده به.

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة «الوليد بن موسى»، عن منبه بن عثمان(١)، عن عُرْوَة بن رُوَيْم، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ؛ أن مؤمنى الجن لهم ثواب وعليهم عقاب، فسألناه عن ثوابهم(٢)، فقال: «على الأعراف، وليسوا فى الجنة مع أمة محمد ﷺ». فسألناه: وما الأعراف؟ فقال: «حائط الجنة تجرى فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار».

رواه البيهقى، عن ابن بشران، عن على بن محمد المصرى، عن يوسف بن يزيد، عن الوليد بن موسى، به(٣).

وقال سفيان الثورى، عن خُصَيف، عن مجاهد قال: أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سليمان التيمى، عن أبى مِجْلَز فى قوله تعالى: ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ**﴾ قال: هم رجال من الملائكة، يعرفون أهل الجنة وأهل النار، قال: ﴿**وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ. وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا**﴾ فى النار ﴿**يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ. أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ**﴾ قال: فهذا حين دخل أهل الجنة الجنة: ﴿**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾.

وهذا صحيح إلى أبى مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق: وقول الجمهور مقدم على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه. وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء(٤)، فيه غرابة أيضا. والله أعلم.

وقد حكى القرطبى وغيره فيهم اثنى عشر قولا منها: أنهم شهدوا أنهم صلحاء تفرعوا من فرع الآخرة، دخلوا(٥) يطلعون على أخبار الناس. وقيل: هم أنبياء. وقيل: ملائكة.

وقوله تعالى: ﴿**يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ**﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وكذا روى الضحاك، عنه.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس(٦): أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من فى الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها، وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، والسدى، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

---

(١) فى النسخ «شيبة بن عثمان» والتصويب من تاريخ دمشق والبعث للبيهقى.
(٢) فى النسخ: «عن ثوابهم وعن مؤمنيهم» والمثبت من الدر المنثور ٣/ ٨٨. مستفاد من هامش ط الشعب.
(٣) تاريخ دمشق (١٧/ ٩١٠) «القسم المخطوط» والبعث للبيهقى برقم (١١٧) ورجاله ثقات.
(٤) فى ك، م، أ: «فقهاء علماء». (٥) فى م: «وجعلوا»، وفى أ: «وخلق».
(٦) فى ك، م: «عن ابن عباس قال».

وقال مَعْمَر، عن الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم، إلا لكرامة يريدها بهم.

وقال قتادة: [قد][1] أنبأكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم[2]، قالوا: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقال السُّدِّى: وإذا مروا بهم ـ يعنى بأصحاب الأعراف ـ بزمرة يُذهب بها إلى النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقال عكرمة: تجدد وجوههم فى النار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة، وأعينهم مزرقة، ﴿قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً[3] عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم فى النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أى: كثرتكم، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: لا ينفعكم[4] كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه[5] من العذاب والنكال. ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: أصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سعد، حدثنى أبى، حدثنى عمى، حدثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ [وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ][6]﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا ـ يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار ـ قال الله [تعالى][7] لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وقال[8] حذيفة: إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة،

---

(١) زيادة من م، أ. (٢) فى ك، م، أ: «عرفوهم». (٣) فى ك، م، أ: «إخبارا».
(٤) فى أ: «يمنعكم». (٥) فى ك، م: «إلى ما أنتم فيه». (٦) زيادة من د، ك، م، أ.
(٧) زيادة من أ. (٨) فى ك، م: «فقال».

وقصرت بهم سيئاتهم عن النار، فجُعلوا على الأعراف، يعرفون الناس بسيماهم، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة، فأتوا آدم فقالوا: يا آدم، أنت أبونا، فاشفع لنا عند ربك. فقال: هل تعلمون أن أحدًا خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسبقت رحمته إليه غضبَه، وسجدت له الملائكة غيرى؟ فيقولون: لا. [قال][(١)] :فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا ابنى إبراهيم. فيأتون إبراهيم ﷺ[(٢)] ،فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم، فيقول: [هل][(٣)] تعلمون من أحد اتخذه الله خليلا؟ هل تعلمون أن أحدًا أحرقه قومه فى النار فى الله غيرى؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن ائتوا ابنى موسى. فيأتون موسى، عليه السلام، [فيقولون: اشفع لنا عند ربك][(٤)]، فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليمًا وقربه نجيًا غيرى؟ فيقولون: لا، فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا عيسى. فيأتونه، عليه السلام، فيقولون له: اشفع لنا عند ربك. فيقول: هل تعلمون أحدًا خلقه الله من غير أب غيرى؟ فيقولون: لا. فيقول: هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله غيرى؟ قال: فيقولون: لا. فيقول: أنا حجيج نفسى. ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن ائتوا محمدًا ﷺ.فيأتوننى[(٥)]، فأضرب بيدى على صدرى، ثم أقول: أنا لها. ثم أمشى حتى أقف بين يدى العرش، فآتى ربى، عز وجل، فيفتح لى من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط، ثم أسجد فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تُعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى، فأقول: ربى أمتى. فيقول: هم لك. فلا يبقى نبى مرسل، ولا ملك مقرب، إلا غبطنى بذلك المقام، وهو المقام المحمود. فآتى بهم الجنة، فأستفتح فيفتح لى ولهم، فيذهب بهم إلى نهر يقال له: نهر الحيوان، حافتاه قصب مكلّل باللؤلؤ، ترابه المسك، وحصباؤه الياقوت. فيغتسلون منه، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة، وريح [أهل الجنة][(٦)]، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية، ويبقى فى صدورهم شامات بيض يعرفون بها، يقال لهم: مساكين أهل الجنة»[(٧)].

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) ﴾.

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

قال السُّدِّى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾

---

(١) زيادة من ك، م. (٢) فى أ: «عليه الصلاة والسلام». (٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ك، م: «فيأتونى». (٦) زيادة من ك، م، أ.
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٢/ ٤٦٩) .

يعنى: الطعام وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم.

وقال الثورى، عن عثمان الثقفى، عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قال: ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت، أفض[١] على من الماء. فيقال لهم: أجيبوهم. فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وروى من وجه آخر عن سعيد، عن ابن عباس، مثله [سواء][٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعنى: طعام الجنة وشرابها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نصر بن على، أخبرنا موسى بن المغيرة، حدثنا أبو موسى الصفَّار فى دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس ـ أو: سئل ـ :أى الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله»[٣].

وقال أيضا: حدثنا أحمد بن سِنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبى صالح قال: لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلتَ إلى ابن أخيك هذا، فيرسل إليك بعنقود من الجنة[٤]، لعله أن يشفيك به. فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبى ﷺ، فقال أبو بكر: إن الله حرمهما على الكافرين[٥].

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه فى الدنيا من اتخاذهم الدين لهوا ولعبا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة.

قوله[٦]: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أى: نعاملهم معاملة من نَسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذ عن[٧] علمه شىء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقال العَوْفى، عن ابن عباس فى [قوله][٨]: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر.

---

(١) فى د: «فأفض». (٢) زيادة من أ.

(٣) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٣٣٨٠) والذهبى فى ميزان الاعتدال (٤/ ٢٢٤) من طريق موسى بن المغيرة به.

وقال الذهبى: «موسى بن المغيرة مجهول، وشيخه أبو موسى الصفَّار لا يعرف».

(٤) فى د، ك، م، أ: «جنته».

(٥) ورواه ابن أبى شيبة كما فى الدر المنثور للسيوطى (٣/ ٤٦٩).

(٦) فى م: «وقوله». (٧) فى أ: «من». (٨) زيادة من أ.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا.

وقال مجاهد: نتركهم فى النار. وقال السُّدِّى: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا.

وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذَرْك ترأس وتَرْبَع؟ فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقى؟ فيقول: لا. فيقول الله: فاليوم أنساك كما نسيتنى»[١].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذى جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ [مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ][٢]﴾ الآية [هود: ١].

وقوله: ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ[٣]﴾ أى: على علم منا بما فصلناه به، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦].

قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ [لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ][٤]﴾ [الأعراف: ٢]. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ [فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ][٥]﴾ الآية.

وهذا الذى قاله فيه نظر، فإنه قد طال الفصل، ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخسار فى الدار الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عللهم فى الدار الدنيا، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أى: ما وُعِدَ من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد.

وقال مالك: ثوابه. وقال الربيع: لا يزال يجىء تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أى: يوم القيامة، قاله ابن عباس ـ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أى: تركوا العمل به، وتناسوه فى الدار الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أى: فى

---

(١) ورواه ابن أبى شيبة كما فى الدر المنثور للسيوطى (٣/ ٤٦٩).

(٢) زيادة من ك، م.

(٣) فى ك: «علم للعالمين» وهو خطأ.

(٤) زيادة من ك، م، وفى هـ: «الآية».

(٥) زيادة من ك، م.

خلاصنا مما نحن فيه، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام٢٧، ٢٨]، كما قال هاهنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: [قد][1] خسروا أنفسهم بدخلوهم النار وخلودهم فيه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم، ولا يشفعون لهم[2]، ولا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾.

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك فى ستة أيام، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هى: الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة ـ وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام. واختلفوا فى هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان[3]؟ أو كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمى السبت، وهو القطع.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال: حدثنا حجاج، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرنى إسماعيل بن أُمَيَّة، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع ـ مولى أم سلمة ـ عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل».

فقد رواه مسلم بن الحجاج فى صحيحه والنسائى من غير وجه، عن حجاج ـ وهو ابن محمد الأعور ـ عن ابن جريج به[4]، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال فى ستة أيام؛ ولهذا تكلم البخارى وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبى هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعا، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يُسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعى، والثورى،

---

(١) زيادة من م. (٢) فى ك، م: «فيهم». (٣) فى م: «الفهم».

(٤) المسند (١/٣٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠١٠).

والليث بن سعد، والشافعى، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله، فإن الله لا يشبهه شىء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة ـ منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى ـ: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذى يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أى: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أى: سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ ـ ٤٠]. فقوله: ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أى: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو فى أثره لا واسطة بينهما؛ ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ ـ منهم من نصب، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أى: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته؛ ولهذا قال مُنَبِّهًا: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾؟ أى: له الملك والتصرف، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، كما قال [تعالى][(١)]: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا [وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا][(٢)]﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا هشام أبو عبد الرحمن، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصارى، عن عبد العزيز الشامى، عن أبيه ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح، وحمد نفسه، فقد كفر وحبط عمله. ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئا، فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه؛ لقوله: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[(٣)].

وفى الدعاء المأثور، عن أبى الدرداء ـ وروى مرفوعا ـ: «اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله»[(٤)].

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

أرشد[سبحانه و][(٥)] تعالى عباده إلى دعائه، الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم، فقال تعالى:

(١) زيادة من ك. (٢) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية».
(٣) تفسير الطبرى (١٢/ ٤٨٤).
(٤) سبق الكلام على هذا الأثر، وذكر وجوه رفعه عند الآية: ٢ من سورة الفاتحة.
(٥) زيادة من أ.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، [قيل][١]: معناه: تذللا واستكانة، و﴿خُفْيَةً﴾، كما قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ [تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ][٢]﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفى الصحيحين، عن أبى موسى الأشعرى [رضى الله عنه][٣] قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، اربَعُوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذى تدعونه سميع قريب[٤]»[٥]. الحديث.

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء الخراسانى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قال: السر.

وقال ابن جرير: ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذللا واستكانة لطاعته. ﴿وَخُفْيَةً﴾ يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهارا ومراءاة.

وقال عبد الله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إنْ كانَ الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقُه[٦] الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزُّوَّر وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر، فيكون علانية أبدا. ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً [إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ][٧]﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحا رَضِى فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وقال ابن جُرَيْج: يكره رفع الصوت والنداء والصياحُ فى الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة، ثم روى عن عطاء الخراسانى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: فى الدعاء ولا فى غيره.

وقال أبو مِجْلَز: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: لا يسأل[٨] منازل الأنبياء.

وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِى، حدثنا شعبة، عن زياد ابن مِخْراق، سمعت أبا نعامة[٩]، عن مولى لسعد؛ أن سعداً سمع ابنا له يدعو وهو يقول: اللهم، إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوا من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال: لقد سألت الله خيرًا كثيرًا، وتعوذت بالله من شر كثير، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء». وقرأ هذه الآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا [وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ

---

(١) زيادة من ك، م، د، أ. (٢) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».
(٣) زيادة من أ. (٤) فى م، ك: «سمعيا قريبا»، وفى د: «قريبا سميعا».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٢٠٥)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤).
(٦) فى أ: «لفقه». (٧) زيادة من ك.
(٨) فى د: «تسأل». (٩) فى م، ك، أ: «أبا عباية».

الْمُعْتَدِينَ][1]﴾، وإن بحسبك أن تقول: «اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل»[2].

ورواه أبو داود، من حديث شعبة، عن زياد بن مخراق، عن أبى نَعَامة، عن ابن لسعد، عن سعد، فذكره[3]، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفَّان، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، أخبرنا الجريرى، عن أبى نَعَامة: أن عبد الله بن مغفل[4] سمع ابنه يقول: اللهم، إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بنى، سل الله الجنة، وعذ به من النار؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون فى الدعاء والطَّهُور».

وهكذا رواه ابن ماجه، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن عفان به. وأخرجه أبو داود، عن موسى ابن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن سعيد بن إياس الجريرى، عن أبى نَعَامة[5] ـ واسمه: قيس ابن عباية الحنفى البصرى ـ وهو إسناد حسن لا بأس به، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾: ينهى تعالى عن الإفساد فى الأرض، وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد. فنهى [الله][6] تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿**وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ أى: خوفا مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب.

ثم قال: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ أى: إن رحمته مُرْصَدَة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ [وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ**][7]﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

وقال: ﴿**قَرِيبٌ**﴾، ولم يقل: «قريبة»؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين.

وقال مطر الوراق: تَنَجَّزوا موعود[8] الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين، رواه ابن أبى حاتم.

---

(١) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية».
(٢) المسند (١/ ١٧٢).
(٣) سنن أبى داود برقم (١٤٨٠).
(٤) فى أ: «معقل».
(٥) المسند (٥/ ٥٥)، وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٦٤)، وسنن أبى داود برقم (٩٦).
(٦) زيادة من أ.
(٧) زيادة من ك، م، أ.
(٨) فى أ: «فتنجزوا بوعد».

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾.

لما ذكر تعالى أنه خالق[١] السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبِّر المسخِّر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر ـ نبه تعالى على أنه الرزّاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نشراً﴾ أى: ناشرة بين يدى السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ ﴿بُشْرًا﴾، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[الروم: ٤٦].

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أى: بين يدى المطر، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ[٢] رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أى: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أى: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله:

وأسلمتُ وجهى لمنْ أسْلَمَتْ ... لَهُ المُزْنُ تَحمل عَذْبـــاً زُلالا
وأسَلمْتُ وَجْهى لمن أسلَمَتْ ... له الأرض تحملُ صَخراً ثقالا[٣]

وقوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أى: إلى أرض ميتة، مجدبة[٤] لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا [وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ][٥]﴾[يس: ٣٣]؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أى: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيى الأجساد بعد صيرورتها رَميماً يوم القيامة، ينزل الله، سبحانه وتعالى، ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوما، فتنبت منه الأجساد فى قبورها كما ينبت الحب فى الأرض. وهذا المعنى كثير فى القرآن، يضرب الله مثلاً للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أى: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسنا، كما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾، قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

---

(١) فى أ: «خلق». (٢) فى أ: «آثار».
(٣) البيتين فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٣١).
(٤) فى أ: «ميتة أى مجدبة». (٥) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

وقال البخارى: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا حماد بن أسامة[(١)]، عن بُرَيد[(٢)] بن عبد الله، عن أبى بردة، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت [(٣)]، فذلك مثل من فَقُه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به، فَعَلم وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يَقْبَل هُدَى الله الذى أُرسِلْتُ به».

رواه مسلم والنسائى من طرق، عن أبى أسامة حماد بن أسامة، به[(٤)].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

لما ذكر تعالى قصة آدم فى أول السورة، وما يتعلق بذلك ويتصل به، وفرغ منه، شرع تعالى فى ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، الأول فالأولَ، فابتدأ بذكر نوح، عليه السلام، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم، عليه السلام، وهو: نوح بن لامك بن متوشلح بن خَنُوخ ـ وهو إدريس [النبى][(٥)] عليه السلام ـ فيما، يزعمون، وهو أول من خط بالقلم ـ ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم، عليه[(٦)] السلام.

هكذا نسبه [محمد][(٧)] بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب، قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبى من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبى قتل.

وقال يزيد الرقاشى: إنما سمّى نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه.

وقد كان بين آدم إلى زمان نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على الإسلام [قاله عبد الله ابن عباس][(٨)].

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجساداً على تلك الصور. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين «وداً وسواعاً ويَغُوث ويَعُوق ونسراً». فلما تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى ـ وله الحمد والمنة ـ رسوله نوحا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك

---

(١) فى أ: «ابن أبى أسامة» وهو خطأ. (٢) فى أ: «يزيد». (٣) فى ك، د، م، أ: «ولا تنبت كلأ».
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٩)، وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٢)، وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٨٤٣).
(٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «عليهم». (٧) زيادة من ك، م، أ.
(٨) زيادة من م، أ.

له، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى: من عذاب يوم القيامة إن[1] لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ أى: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: فى دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار فى ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول[2] من رب كل شىء ومليكه، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغاً فصيحا ناصحا بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله فى هذه الصفات، كما جاء فى صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عنى، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتُها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد[3]»[4].

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾.

يقول تعالى إخباراً عن نوح [عليه السلام][5]: أنه قال لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ [أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ][6]﴾ أى: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجَب أن يوحى الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفا وإحسانا إليكم، لإنذاركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أى: فتمادوا[7] على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه تعالى فى موضع آخر، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾، وهى السفينة، كما قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كما قال: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أى: عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له.

فبين تعالى فى هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم

---

(١) فى د: «إذا». (٢) فى أ: «ولكنى رسول». (٣) جاءت «اللهم اشهد» فى «أ» ثلاث مرات.
(٤) صحيح مسلم برقم (١٢١٨) من حديث جابر، رضى الله عنه.
(٥) زيادة من أ. (٦) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية». (٧) فى د: «تمادوا».

من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا [وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ] (١)وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وهذه سنة الله فى عباده فى الدنيا والآخرة، أن العاقبة(٢) للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح [عليه السلام](٣) بالغرق ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح [عليه السلام](٤) إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز.

وقال ابن وَهْب: بلغنى عن ابن عباس: أنه نجا مع نوح [عليه السلام](٥) فى السفينة ثمانون رجلا، أحدهم «جُرْهم»، وكان لسانه عربيا.

رواهن(٦) ابن أبى حاتم. وقد روى هذا الأثر الأخير من وجه آخر متصلا عن ابن عباس، رضى الله عنهما.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً.

قال محمد بن إسحاق: هم [من] (٧)ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح.

قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله [تعالى](٨)، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العَمَد فى البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهى جبال الرمل.

---

(١) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية إلى قوله». (٢) فى أ: «أن العاقبة فيها». (٣ ـ ٥) زيادة من أ.
(٦) فى م، د، أ: «رواه». (٧) زيادة من م. (٨) زيادة من أ.

قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة، سمعت على بن أبى طالب [رضى الله عنه][1] يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيبا أحمر تخالطه مَدَرَة حمراء ذا أراكٍ وسدْر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لَتنعته نعتَ رجلٍ قد رآه. قال: لا، ولكنى قد حدِّثْتُ عنه. فقال الحضرمى: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبرُ هود، عليه السلام.

رواه ابن جرير[2]. وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هودا، عليه السلام، دفن هناك، وقد كان من أشرف[3] قومه نسبا؛ لأن الرسل [صلوات الله عليهم][4] إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدّد خلقهم شُدِّد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيبا للحق؛ ولهذا دعاهم هود، عليه السلام، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

﴿**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ**﴾ ـ والملأ هم: الجمهور والسادة القادة منهم ـ: ﴿**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ أى: فى ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده [لا شريك له][5]، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد ﴿**فَقَالُوا**﴾: ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا [إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ]**[6]﴾ [ص: ٥].

﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أى: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شىء، فهو رب كل شىء ومليكه ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾ وهذه الصفات التى يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة.

﴿**أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ**﴾ أى: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم، ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**﴾ أى: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جلعكم من ذرية نوح، الذى أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه، ﴿**وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً**﴾ أى: زاد طولكم على الناس بسطة، أى: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى: فى قصة طالوت: ﴿**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ﴿**فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ**﴾ أى: نعمه ومنّنه عليكم ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [وألاء جمع ألى وقيل: إلى][7].

---

(١) زيادة من أ.
(٢) تفسير الطبرى (١٢/ ٥٠٧).
(٣) فى م، ك: «أشراف». (٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من ك.
(٦) زيادة من ك، م. وفى هـ: «الآية». (٧) زيادة من ك، م.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود، عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ [وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ][1]﴾، كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناما، فصنم يقال له: صُدَاء، وآخر يقال له: صمُود، وآخر يقال له: الهباء[2].

ولهذا قال هود، عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أى: قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس [وغضب][3]، قيل: هو مقلوب من رجز. وعن ابن عباس: معناه السخَط والغضب.

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أى: أتحاجونى[4] فى هذه الأصنام التى سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهى لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا؛ ولهذا قال: ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وقد ذكر الله، سبحانه، صفة إهلاكهم فى أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨] لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أمّ رأسه فتثلغُ رأسه حتى تُبينه من جثته؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن من[5] عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد

(١) زيادة من ك، م، وفى هـ: «الآية».
(٢) انظر: تفسير الطبرى (١٢/ ٥٠٧).
(٣) زيادة من م. (٤) فى م، د: «أتجادلوننى». (٥) فى م، ك: «بين».

فشوا فى الأرض وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التى آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هودًا، عليه السلام، وهو من أوسطهم نسبا، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبو عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس، وهم يسير مكتتمون بإيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا فى الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ربع آية عبثا بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣١]. ﴿**قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**﴾ أى: بجنون ﴿**قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٦].

قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به، أمسك الله عنهم القطر(١) ثلاث سنين، فيما يزعمون، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرج فيه، إنما يطلبونه بحُرْمة ومكان بيته، وكان معروفا عند المِلَل(٢)، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذَ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له: «معاوية بن بكر»، وكانت له أم(٣) من قوم عاد، واسمها كلهدة(٤) ابنة الخيبرى، قال: فبعثت عاد وفداً قريبا من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان لمعاوية ـ وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنياهم به، فقال:

ألا يا قيل ويحك قُم فَهَيْنِمْ ... لعلّ الله يُصْبحُنَا غمَاما
فَيَسْقِى أرضَ عادٍ إنّ عاداً ... قَدَ امسَوا لا يُبِينُونَ الكَلاَما
من العطش الشديد فليس نَرجُو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغُلاما
وَقَدْ كَانَت نساؤهُم بخيرٍ ... فقد أمست(٥) نِساؤهم عَيَامى
وإنّ الوحشَ تأتيهمْ جهاراً ... ولا تَخْشَى لعادىَ سِهَاما
وأنتم هاهُنَا فيما اشتهَيْتُمْ ... نهارَكُمُ ولَيْلَكُمَ التماما
فقُبِّحَ وَفْدكم من وَفْدِ قَوْمٍ ... ولا لُقُّوا التحيَّةَ والسَّلاَما

(١) فى م: «القطر عنهم». (٢) فى ك، م: «عند أهل ذلك الزمان». (٣) فى م: «وكانت أمه».
(٤) فى ك، م: «جلهدة». (٥) فى أ: «فاصبحت».

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاؤوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم فدعا داعيهم، وهو: «قيل بن عنز»، فأنشأ الله سحابات ثلاثا: بيضاء، وسوداء، وحمراء، ثم ناداه مناد من السماء: «اختر لنفسك ـ أو: ـ لقومك من هذا السحاب»، فقال: «اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء» فناداه مناد: اخترت رَمادا رِمْدَداً، لا تبقى من عاد أحدا، لا والداً تترك ولا ولدا، إلا جعلته هَمَدا، إلا بنى اللّوذيّة المهندا[(١)] قال: وبنو اللوذية: بطن من عاد مقيمون[(٢)] بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم ـ قال: وهم من بقى من أنسالهم[(٣)] وذراريهم[(٤)] عاد الآخرة ـ قال: وساق الله السحابة السوداء، فيما يذكرون، التى اختارها «قيل بن عنز» بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: «المغيث»، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥] أى: تهلك كل شىء مَرّت[(٥)] به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها: مَهْدد[(٦)] فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صُعقت. فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مَهْدد[(٧)]؟ قالت[(٨)]: ريحا فيها شُهُب النار، أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، كما قال الله. و«الحسوم»: الدائمة ـ فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك واعتزل هُود، عليه السلام، فيما ذكر لى، ومن معه من المؤمنين فى حظيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتلْتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة.

وذكر تمام القصة بطولها، وهو سياق غريب[(٩)]، فيه فوائد كثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله.

قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنى أبو المنذر سَلام بن سليمان النحوى، حدثنا عاصم بن أبى النَّجُود، عن أبى وائل، عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالربذة فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد بسيف[(١٠)] بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ فقالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله ـ أو قال: رحله ـ فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت فسلمت، قال: هل بينكم وبين تميم[(١١)] شىء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدَّبَرة عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك،

---

(١) فى م: «المهدى». (٢) فى ك، م، أ: «مقيمين». (٣) فى أ: «أنسابهم».
(٤) فى ك، م: «ذرياتهم». (٥) فى ك، م: «أمرت». (٦، ٧) فى ك، م، أ: «مهد».
(٨) فى ك، م: «فقالت».
(٩) تفسير الطبرى (١٢/٥٠٧).
(١٠) فى أ: «السيف». (١١) فى أ: «وبين بنى تميم».

وها هى بالباب. فأذن لها، فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت[١] أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء. فحميت العجوز واستوفزت، فقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مُضَرُك[٢]؟ قال: قلت: إن مثلى ما قال الأول: «معزَى حَمَلت حتفها»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما، أعوذ بالله وبرسوله[٣] أن أكون كوافد عاد! قال: هيه، وما وافد عاد؟ ـ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه ـ قلت: إن عادا قُحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: «قيل»، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان، يقال لهما: «الجرادتان»، فلما مضى[٤] الشهر خرج إلى جبال مَهْرة، فقال: اللهم إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سُودٌ، فنودى: منها «اختر». فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رمادا رِمْددا، لا تبقى من عاد أحدا». قال: فما بلغنى أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر[٥] ما يجرى فى خاتَمى هذا، حتى، هلكوا ـ قال أبو وائل: وصدق ـ قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد».

هكذا رواه الإمام أحمد فى المسند، ورواه الترمذى، عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب، به[٦] نحوه: ورواه النسائى من حديث سلام أبى المنذر، عن عاصم ـ وهو ابن بَهْدَلة ـ ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضا، عن أبى وائل، عن الحارث بن حسان البكرى، به. ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب عن زيد بن حُبَاب، به. ووقع عنده: «عن الحارث بن يزيد البكرى» فذكره، ورواه أيضا عن أبى كريب، عن أبى بكر بن عياش، عن عاصم، عن الحارث بن يزيد البكرى، فذكره[٧]، ولم أر فى النسخة «أبا وائل»، والله أعلم.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾

(١) فى أ: «أرأيت». (٢) فى أ: «مطهرك». (٣) فى ك، م: «ورسوله».
(٤) فى د: «قضى». (٥) فى ك، م: «كقدر».
(٦) المسند (٣/٤٨٢)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٧٤).
(٧) سنن النسائى الكبرى كما فى تحفة الأشراف وسنن ابن ماجة برقم (٣٨١٦) وتفسير الطبرى (١٢/٥١٣، ٥١٦).

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جَديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طَسْم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صَخْر بن جُوَيرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم [(١)] الحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا منها القدور. فأمرهم النبى ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجينَ الإبلَ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»[(٢)].

وقال [الإمام][(٣)] أحمد أيضا: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم»[(٤)].

وأصل هذا الحديث مُخَرَّج فى الصحيحين من غير وجه[(٥)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا المسعودى، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبى كَبْشَة الأنمارى، عن أبيه قال: لما كان فى غزوة تبوك، تسارع الناس إلى أهل الحجر، يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فنادى فى الناس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره[(٦)] وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم». فناداه رجل منهم: نعجبُ منهم يا رسول الله. قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسَدِّدوا، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا»[(٧)].

لم يخرجه أحد من أصحاب السنن[(٨)]، وأبو كبشة اسمه: عمر[(٩)] بن سعد، ويقال: عامر بن سعد، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَر، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن أبى الزبير، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح فكانت ـ يعنى الناقة ـ ترد من هذا الفَجْ، وتصْدُر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما، فعقروها، فأخذتهم صيحة، أهمد[(١٠)] الله مَنْ تحت

(١) فى أ: «بهم على».
(٢) المسند (٢/ ١١٧).
(٣) زيادة من أ.
(٤) المسند (٢/ ٧٤).
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٣٨١)، وصحيح مسلم برقم (٢٩٨).
(٦) فى د، م: «بعنزة».
(٧) المسند (٤/ ٢٣١)، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٩٤): «فيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى وقد اختلط».
(٨) فى م: «الكتب»، وفى ك، أ: «الكتب الستة». (٩) فى ك، م: «عمرو». (١٠) فى د: «أخمد».

أديم السماء منهم، إلا رجلا واحداً كان فى حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رِغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[١].

وهذا الحديث ليس فى شىء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

فقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أى: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال [تعالى][٢]: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أى: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صمَاء عيّنوها بأنفسهم، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحِجْر، يقال لها: الكَاتبة، فطلبوا منه[٣] أن يخرج لهم منها ناقة عُشَراء تَمْخَضُ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طُلْبتهم ليؤمنن به وليتبعنّه؟ فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح، عليه السلام، إلى صلاته ودعا الله، عز وجل، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جَوْفاء وَبْرَاء يتحرك جنينها بين جنبيها، كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو: «جُنْدَع بن عمرو» ومن كان معه على أمره[٤]، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم «ذُؤاب بن عمرو بن لبيد» «والحباب» صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلهس، وكان لـ «جندع بن عمرو» ابن عم يقال له: «شهاب بن خليفة بن مخلاة بن لبيد بن جواس»، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم أيضا فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال فى ذلك رجل من مؤمنى ثمود، يقال له مهوس[٥] بن عنمة بن الدميل، رحمه الله:

وكانت عُصْبَةٌ من آل عَمْرو ... إلى دين النبىّ دَعَوْا شِهَابا
عَزيزَ ثَمُودَ كُلَّهمُ جميعا ... فَهَمّ بأن يُجيبَ فلو[٦] أجابا
لأصبحَ صالحٌ فينا عَزيزاً ... وما عَدَلُوا بصاحبهم ذُؤابا
ولكنّ الغُوَاة من آل حُجْرٍ ... تَوَلّوْا بعد رُشْدهم ذئابا

فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة، تشرب ماء بئرها يوما، وتدعه لهم يوما، وكانوا يشربون لبنها يوم[٧] شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وكانت تسرح فى بعض تلك الأودية

---

(١) المسند (٣/ ٢٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٩٤): «رجال أحمد رجال الصحيح».
(٢) زيادة من م. (٣) فى م: «منها». (٤) فى أ: «على دينه».
(٥) فى ك، م، أ: «مهوش». (٦) فى م: «ولو». (٧) فى أ: «بيوم».

ترد من فَجّ وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتضلّع من الماء، وكانت ـ على ما ذكر ـ خَلْقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبى، عليه السلام، عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها[١].

قال قتادة: بلغنى أن الذى قتل الناقة طاف عليهم كلهم، أنهم راضون بقتلها حتى على النساء فى خدورهن، وعلى الصبيان [أيضا][٢].

قلت: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤] ،وقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك، والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، وغيره من علماء التفسير فى سبب قتل الناقة: أن امرأة منهم يقال لها: «عنيزة ابنة غنم بن مِجْلز» وتكنى أم غَنَم[٣]، كانت عجوزا كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح، عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذُؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: «صدوف ابنة المحيا بن دهر[٤] بن المحيا» ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود، ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت «صدوف» رجلا يقال له: «الحباب» وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له: «مصدع بن مهرج بن المحيا»، فأجابها إلى ذلك ـ ودعت «عنيزة بنت غنم» قدار بن سالف بن جُنْدَع[٥]، وكان رجلا أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد زَنْية، وأنه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه، وهو سالف، وإنما هو[٦] من رجل يقال له: «صهياد»[٧]، ولكن ولد على فراش «سالف»، وقالت له: أعطيك أى بناتى شئتَ على أن تعقر[٨] الناقة! فعند ذلك، انطلق «قدار بن سالف» «ومصدع بن مهرج»، فاستفزا غُواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، وكانوا رؤساء فى قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها، فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها «قدار» فى أصل صخرة على طريقها، وكمن لها «مصدع» فى أصل أخرى، فمرت على «مصدع» فرماها بسهم، فانتظم به عضَلَة ساقها وخرجت «أم غَنْم عنيزة»، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها، فسفرت عن وجهها لقدار وذمّرته فشدّ على الناقة بالسيف، فكسَفَ[٩] عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رَغاة واحدة تحذر سَقْبَها، ثم طعن فى لبَّتّها فنحرها، وانطلق سَقْبَها ـ وهو فصيلها ـ حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا ـ فروى عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عمن سمع الحسن البصرى أنه قال:

---

(١) تفسير الطبرى (١٢/٥٢٩).
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى ك، م: «أم عثمان».
(٤) فى أ: «زهير».
(٥) فى أ: «جدع».
(٦) فى أ: «كان».
(٧) فى م: «صبيان»، وفى ك: «ضبيان».
(٨) فى ك، م: «يعقر».
(٩) فى ك، م، د: «فكشف»، وفى أ: «فكشف عن».

يارب، أين أمى؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات. وإنه دخل فى صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمه، فالله أعلم[1].

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، بلغ الخبر صالحا، عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ [ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ][2]﴾ [هود: ٦٥]، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح [عليه السلام][3]، وقالوا: إن كان صادقاً عَجَّلْناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته! ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ [أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا][4]﴾ الآية [النمل: ٤٩ ـ ٥٢].

فلما عزموا على ذلك، وتواطؤوا عليه، وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبى الله صالح، أرسل الله، سبحانه وتعالى، وله العزة ولرسوله، عليهم حجارة فرضَخَتهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النَّظرة، ووجوهم مصفرة كما وعدهم صالح، عليه السلام، وأصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، وأصبحوا[5] فى اليوم الثالث فى أيام المتاع[6] وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تَحنَّطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياذا بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب؟ و[قد][7] أشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورَجْفَة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس فى ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أى: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى ـ قالوا: إلا جارية كانت مقعدة ـ واسمها «كلبة ابنة السِّلْق»، ويقال لها: «الزريقة»[8] ـ وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح، عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب، أُطلِقَت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شىء، فأتت حيا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت، ماتت.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح، عليه السلام، ومن اتبعه، رضى الله عنهم، إلا أن رجلا كان يقال له: «أبو رِغال»، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما فى الحرم، فلم يصبه شىء، فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحِلّ، جاءه حجر من السماء فقتله.

وقد تقدم فى أول القصة حديث «جابر بن عبد الله» فى ذلك، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد

---

(١) تفسير الطبرى (١٢/ ٥٣٦).
(٢) زيادة من ك، م، وفى هـ: «الآية». (٣) زيادة من ك، م.
(٤) زيادة من ك، م، أ. (٥) فى م: «واجتمعوا». (٦) فى ك: «التمتع».
(٧) زيادة من م. (٨) فى م: «الذريعة».

«ثقيف» الذين كانوا يسكنون الطائف[١].

قال عبد الرزاق: قال مَعْمَر: أخبرنى إسماعيل بن أمية؛ أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغال فقال: «أتدرون من هذا؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا قبر أبى رغال، رجل من ثمود، كان فى حرم الله، فمنعه حرمُ الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فدفن هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن».

وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهرى: أبو رغال: أبو ثقيف[٢].

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى متصلا من وجه آخر، كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بُجَير بن أبى بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر فقال: «هذا قبر أبى رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفع[٣] عنه، فلما خرج [منه][٤]، أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه. وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشم عنه أصبتموه [معه][٥]، فابتدره الناس[٦] فاستخرجوا منه الغصن».

وهكذا رواه أبو داود، عن يحيى بن مَعِين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن ابن إسحاق، به[٧].

قال شيخنا أبو الحجاج المزى: وهو حديث حسن عزيز[٨] [٩].

قلت: تفرد بوصله «بُجَيْر بن أبى بجير» هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث. قال يحيى ابن معين: ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية.

قلت: وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم فى رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين.

قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم.

وقوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾.

هذا تقريع من صالح، عليه السلام، لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله،

---

(١) انظر: «الكلام على أبى رغال، وترجيح أنه كان دليل أبرهة فى تفسير سورة النساء آية: ٤.

(٢) المصنف برقم (٢٠٩٨٩)، وتفسير عبد الرزاق (١/١١٩، ٢٢٠).

(٣) فى ك: «يدفع». (٤) زيادة من ك، م. (٥) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «القوم».

(٧) سنن أبى داود برقم (٣٠٨٨).

(٨) فى أ: «غريب».

(٩) تهذيب الكمال (٤/١١).

وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العَمى ـ قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فشُدّت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها[١]، ثم سار حتى وقف على القليب، قليب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا». فقال له عمر: يا رسول الله، ما تُكَلّم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون».

وفي السيرة أنه، عليه السلام[٢]، قال لهم: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم»[٣].

وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون[٤] الحق ولا تتبعون ناصحا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِن لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.

وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا زَمْعَة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما مر رسول الله ﷺ بوادي عُسْفَان حين حَجّ قال: «يا أبا بكر، أيّ وادٍ هذا؟» قال: هذا وادي عُسْفَان. قال: «لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بَكَرات حُمْر خُطُمها الليف، أزُرُهم العباء، وأرديتهم النّمار، يلبون، يحجون البيت العتيق».

هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرجه أحد منهم[٥].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَ﴾ قد أرسلنا ﴿لُوطًا﴾، أو تقديره: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

ولوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، عليهما[٦] السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله [تعالى][٧] إلى أهل «سَدُوم» وما

---

(١) في ك: «ثم ركبها». (٢) في أ: «ﷺ».

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٣٩).

(٤) في أ: «تتبعون».

(٥) المسند (١/ ٢٣٢) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٢٠): «فيه زمعة بن صالح وفيه كلام وقد وثق».

(٦) في ك، أ: «عليه». (٧) زيادة من أ.

حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور. وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل «سَدُوم» عليهم لعائن الله.

قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: مانزا ذَكَر على ذَكَر، حتى كان قوم لوط.

وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى، بانى جامع دمشق: لولا أن الله، عز وجل، قص علينا خبر لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلوا ذكراً.

ولهذا قال لهم لوط، عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أى: عدلتم[١] عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشىء فى غير محله؛ ولهذا قال لهم فى الآية الأخرى: ﴿[قَالَ][٢] هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] أى: لقد علمت أنه لا أَرَبَ لنا فى النساء، ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك.

وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى[٣] بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنى[٤] بعضهن ببعض أيضاً.

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) ﴾.

أى: ما أجابوا لوطاً إلا أن هَموا بإخراجه ونفيه ومن معه [من المؤمنين][٥] من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالما، وأهلكهم فى أرضهم صاغرين مهانين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، قال قتادة، عابوهم بغير عيب.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من أدبار الرجال وأدبار النساء. ورُوى مثله عن ابن عباس أيضاً.

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) ﴾.

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى:

---

(١) فى د، م: «أعدلتم». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ك، م: «اغتنى».
(٤) فى ك: «استغنين». (٥) زيادة من أ.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتُعْلمهم بمن يَقْدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أمر لوط، عليه السلام، أن يُسْرى بأهله أمر ألا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذابُ التفتت هى فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى: الباقين. ومنهم من فسر ذلك ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [من](١) الهالكين، وهو تفسير باللازم.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: انظر ـ يا محمد ـ كيف كان عاقبة من تجهرم على معاصى الله وكذّب رسله(٢).

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أن اللائط يلقى من شاهق، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط.

وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن. وهو أحد قولى الشافعى، رحمه الله، والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، من حديث الدراوردى، عن عمرو بن أبى عَمْرو(٣)، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(٤).

وقال آخرون: هو كالزانى، فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعى.

وأما إتيان النساء فى الأدبار، فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء، إلا قولاً [واحدا](٥) شاذاً لبعض السلف، وقد ورد فى النهى عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة(٦).

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥)﴾.

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة «مدين بن مديان بن إبراهيم». وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال: واسمه بالسريانية: «يثرون».

---

(١) زيادة من ك، م. (٢) فى ك: «برسله». (٣) فى أ: «عمرو بن سلمة».

(٤) المسند (١/ ٣٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٤٦٢) وسنن الترمذى برقم (١٤٥٥) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٦١).

(٥) زيادة من ك.

(٦) الآية: ٢٢٣.

قلت: وتطلق مدين على القبيلة، وعلى المدينة، وهى التى بقرب «معَان» من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] ، وهم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾: هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به. ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أى: لا يخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفْية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . [الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ . أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ][(١)] لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦]، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذى يقال[(٢)] له: «خطيب الأنبياء»، لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)﴾.

ينهاهم شعيب، عليه السلام، عن قطع الطريق الحسى والمعنوى، بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أى: توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

قال السدى وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس [رضى الله عنه][(٣)] ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أى: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ ، وهى الطرق، وهذا الثانى هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾أى: كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك، ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من الأمم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب[(٤)] رسله.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أى: [قد][(٥)] اختلفتم علىّ

---

(١) زيادة من ك، م، وفى هـ: «إلى قوله». (٢) فى م: «قال». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ: «وتكذيبهم». (٥) زيادة من د، ك، م .

﴿فَاصْبِرُوا﴾ أى: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أى: يفصل، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾.

هذا إخبار من الله [تعالى][١] عما واجهت به الكفار نبى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، فى[٢] توعدهم إياه ومن معه بالنفى من القرية، أو الإكراه على الرجوع فى مِلَّتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

وقوله: ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يقول: أو أنتم فاعلو ذلك ولو كنا[٣] كارهين ما تدعونا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفرْية على الله فى جعل الشركاء معه أنداداً. وهذا تعبير منه عن اتباعه. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ ، وهذا ردّ إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شىء، وقد أحاط بكل شىء علماً، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أى: فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْتَحْ[٤] بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى: افصل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أى: خير الحاكمين، فإنك العادل الذى لا يجور أبداً.

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) ﴾.

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا[٥]: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ ، فلهذا عقب ذلك بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة كما[٦] أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم فى سورة «هود» فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]. والمناسبة فى ذلك ـ والله أعلم ـ أنهم لما تهكموا بنبى الله شعيب فى

---

(١) زيادة من ك، م. (٢) فى ك، م، أ: «من» . (٣) فى ك، م، أ: «وإن كنا».
(٤) فى ك، م: «احكم». (٥) في ك، م: «فقالوا». (٦) فى ك، م، أ: «لما».

قولهم: ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة أسكتتهم.

وقال تعالى إخبارا عنهم فى سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وما ذاك إلا لأنهم[١] قالوا له فى سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ [إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ][٢]﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فأخبر أنه[٣] أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولَهَب[٤] ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخمدت الأجساد، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أى: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

ثم قال مقابلا لقيلهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾.

أى: فتولى عنهم «شعيب» عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، وقال مقرعاً لهم وموبخاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أى: قد أديتُ إليكم ما أرْسِلْت به، فلا أسفة عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، ولهذا[٥] قال: ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾.

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعنى ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾: ما يصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام. ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أى: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف ما نزل بهم.

وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئا من الذى أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أى: حوّلنا الحال من شدة

(١) فى ك: «إلا أنهم». (٢) زيادة من ك، م. وفى هـ: «الآية». (٣) فى م: «أنهم».
(٤) فى ك، م: «لهيب». (٥) فى د: «فلهذا».

إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، ﴿وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾، يقول تعالى: ابتلاهم[١] بهذا وهذا[٢] ،ليتضرعوا ويُنيبوا إلى الله، فما نَجَع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا[٣]، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا فى قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالين. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت فى الصحيحين: «عجباً للمؤمن، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له، وإن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صَبَر فكان خيرا له»[٤] فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء[٥]؛ ولهذا جاء فى الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نَقيًا[٦] من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار، لا يدرى فيم ربطه أهله، ولا فيم أرسلوه»، أو كما قال.

ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أى: على بغتة منهم، وعدم شعور منهم، أى: أخذناهم فجأة[٧] كما جاء فى الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر»[٨].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى[٩]: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(١) فى د: «ابتليناهم». (٢) فى أ: «بهذا وبهذا». (٣) فى م: «ولا هذا».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب بن سنان، رضى الله عنه، ولم أجده فى صحيح البخارى بهذا اللفظ.

(٥) فى ك، م: «من الضراء والسراء». (٦) فى ك: «حتى يخرج من الدنيا نقيا». (٧) فى ك: «بغتة».

(٨) جاء من حديث عائشة وعبيد بن خالد السلمى وأنس بن مالك، رضى الله عنه.

فأما حديث عائشة: فأخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (١٢٠٧) «مجمع البحرين»، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ٨٩٤) من طريق صالح بن موسى، عن عبد الملك بن عمير، عن موسى بن طلحة، عن عائشة بلفظ: «موت الفجأة تخفيف على المؤمن وسخط على الكافر» وفيه صالح بن موسى وهو متروك.

وأما حديث عبيد بن خالد: فرواه أحمد فى المسند (٣/ ٤٢٤) وأبو داود فى السنن برقم (٣١١٠) من طريق شعبة، عن منصور، عن تميم بن سلمة أو سعد بن عبيدة، عن عبيد بن خالد بلفظ: «موت الفجأة أخذة أسف».

وأما حديث أنس: فرواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية(٢/ ٨٩٣)من طريق محمد بن مقاتل،عن جعفر بن هارون، عن سمعان ابن المهدى، عن أنس بلفظ: «موت الفجأة رحمة للمؤمنين وعذاب للكافرين» قال ابن الجوزى: «سمعان مجهول منكر الحديث».

(٩) فى ك، م، أ: «كما قال تعالى».

وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: **﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾** [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، وقال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ [إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ](١)﴾** [سبأ: ٣٤].

وقوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾** أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، **﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾** أي: قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: **﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره: **﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾**، أي: الكافرة **﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾** أي: عذابنا ونكالنا، **﴿بَيَاتًا﴾** أي: ليلاً **﴿وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾** أي: في حال شغلهم وغفلتهم، **﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾** أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم **﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾**؛ ولهذا قال الحسن البصري، رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشْفِق وَجِل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾.

قال ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله: **﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾**: أو لم نُبَيِّن، [وكذا قال مجاهد والسدي، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أو لم نبين](٢) لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم.

وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول(٣) تعالى: أو لم نبيِّن للذين يستخلفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: **﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾**، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، **﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾** يقول: ونختم على قلوبهم **﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾** موعظة ولا تذكيراً.

قلت: وهكذا قال تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾** [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾** [السجدة: ٢٩]، وقال: **﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ. وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ [وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ](٤)﴾** [إبراهيم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ**

---

(١) زيادة من ك، م، أ. وفي هـ: «الآية».
(٢) زيادة من ك، م، أ.
(٣) في م: «بقوله».
(٤) زيادة من ك، م، أ. وفي هـ: «الآية».

تسمع لهم ركزا﴾ [مريم: ٩٨] أي: هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ وقال تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ [الأنعام: ٦]، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين. ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ [الأحقاف: ٢٥ ـ ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ [سبأ: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾ [الملك: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [الأنعام: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه؛ ولهذا عقب ذلك بقوله، وهو أصدق القائلين ورب العالمين:

﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين (١٠١) وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين (١٠٢)﴾.

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب [عليهم الصلاة والسلام](١)، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تلك القرى نقص عليك﴾ أي: يا محمد ﴿من أنبائها﴾ أي: من أخبارها، ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ [هود: ١٠١، ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾: الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية، رحمه الله، وهو متجه حسن، كقوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول

(١) زيادة من أ.

مرَّةٍ [وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ](١)﴾ [الأنعام: ١١٠، ١١١]؛ ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ. وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم﴾ أى: لأكثر الأمم الماضية ﴿مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أى: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذى أخذه [عليهم](٢) هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك، كما جاء فى صحيح مسلم يقول الله تعالى: «إنى خلقت عبادى حُنَفَاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم». وفى الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه» الحديث. وقال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ ما روى(٣) أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أُبىّ بن كعب فى قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ قال: كان فى علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أى: فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير.

وقال السدى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرها.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾: هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا [لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ](٤)﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أى: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين. ﴿مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أى: بحُججنا ودلائلنا البينة إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر فى زمان موسى، ﴿وَمَلَئِهِ﴾ أى: قومه، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أى: جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعناداً، كقوله تعالى(٥): ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا

(١) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية». (٢) زيادة من م. (٣) فى أ: «فقال».
(٤) زيادة من ك، م، أ. وفى هـ: «الآية». (٥) فى ك، م، أ: «كما قال تعالى».

وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] أى: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أى: انظر ـ يا محمد ـ كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله ـ موسى وقومه ـ من المؤمنين به[1].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) ﴾.

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإلجامه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: أرسلنى الذى هو خالقُ كل شيء وربه ومليكه.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أى: جدير بذلك وحرى به.

وقالوا: و«الباء» و«على» يتعاقبان، فيقال[2]: «رميت بالقوس» و«على القوس»، و«جاء على حال حسنة» و «بحال حسنة».

وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على ألا أقول على الله إلا الحق.

وقرأ آخرون من أهل المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بمعنى: واجب وحق عَلَيّ ذلك ألا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلا على صدقى فيما[3] جئتكم به، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: أطلقهم من أسرْك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبى كريم إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن [عليهم صلوات الرحمن][4].

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: الحية الذكر. وكذا قال السدى، والضحاك.

---

(١) فى أ: «وقومه المؤمنين». (٢) فى م: «يقال»، وفى أ: «فيقول».
(٣) فى د: «ما». (٤) زيادة من أ.

وفى حديث «الفُتُون»، من رواية يزيد بن هارون عن الأصْبَغ بن زيد، عن القاسم بن أبى أيوب، عن[1] سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه، اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها [عنه][2] ففعل.

وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة.

وقال السدى فى قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: والثعبان: الذكر من الحيات، فاتحة فاها، واضعة لَحْيها، الأسفل فى الأرض، والآخر على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه. فلما رآها ذعر منها، ووثب وأحدث، ولم يكن يُحْدث قبل ذلك، وصاح: يا موسى، خذها وأنا أومن بك، وأرسل معك بنى إسرائيل. فأخذها موسى، عليه السلام، فعادت عصا.

وروى عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا.

وقال وَهْب بن مُنَبِّه: لما دخل موسى على فرعون، قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم، قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]؟ قال: فرد إليه موسى الذى ردّ، فقال فرعون: خذوه، فبادره موسى ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، فحملت على الناس فانهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا، قتل بعضهم بعضا، وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت.

رواه ابن جرير، والإمام أحمد فى كتابه «الزهد»، وابن أبى حاتم. وفيه غرابة فى سياقه[3]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أى: نزع يده: أخرجها من درعه بعد ما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلألأ من غير بَرَص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ[4]﴾ [النمل: ١٢].

وقل ابن عباس فى حديث الفتون: [أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء][5] ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، يعنى: من غير برص، ثم أعادها إلى كمه، فعادت إلى لونها الأول. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠)﴾.

أى: قال الملأ ـ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون ـ موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه رَوْعه، واستقر على سرير مملكته[6] بعد ذلك، قال للملأ حوله ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا فى أمره، وماذا يصنعون فى أمره، وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء

---

(١) فى ك، م، أ: «حدثنى». (٢) زيادة من ك، م، أ.
(٣) تفسير الطبرى (١٣/١٦)، والزهد للإمام أحمد برقم (٣٤١).
(٤) بعدها فى د، ك، م، أ: «آية أخرى». (٥) زيادة من أ. (٦) فى د: «ملكه».

نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبهم وافترائهم، وتخوفوا من [معرفته][١] أن يستميل[٢] الناس بسحره فيما يعتقدون[٣]، فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم. والذى خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] فلما تشاوروا فى شأنه، وائتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم فى قوله تعالى:

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) ﴾.

قال ابن عباس: ﴿أَرْجِهْ﴾: أخره. وقال قتادة: احبسه. ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أى: ابعث ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ أى: فى الأقاليم ومعاملة ملكك، ﴿حَاشِرِينَ﴾ أى: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم.

وقد كان السحر فى زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا. واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء به موسى، عليه السلام، من قبيل ما تشعبذه[٤] سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى . فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٥٧ـ ٦٠] وقال تعالى هاهنا:

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) ﴾.

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين[٥] استدعاهم لمعارضة موسى، عليه السلام: إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلا. فوعدهم ومناهم أنه يعطيهم ما أرادوا، وليجعلنهم[٦] من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ﴾.

هذه مبارزة من السحرة لموسى، عليه السلام، فى قولهم: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أى: قبلك. كما قال[٧] فى الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]. فقال لهم موسى، عليه السلام: ﴿أَلْقُوا﴾ أى: أنتم أولا قبلى. والحكمة فى هذا ـ والله أعلم ـ ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرِغ من بهرجهم[٨] ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلى بعد تطلب له وانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع فى النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أى: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ. فَأَوْجَسَ فِي

---

(١) زيادة من ك، م، أ. (٢) فى د: «يميل». (٣) فى ك: «يعتقدوه».
(٤) فى ك: «يشعبذه». (٥) فى د: «لما». (٦) فى أ: «وليجعلهم».
(٧) فى أ: «قالوا». (٨) فى أ: «بهرجتهم».

نَفْسه خِيفَةً مُّوسَىٰ . قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٦ ـ ٦٩].

قال سفيان بن عُيَيْنَة: حدثنا أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظًا وخشبًا طوالاً. قال: فأقبلت يُخَيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

وقال محمد بن إسحاق: صَفّ خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه، وخرج موسى، عليه السلام، معه أخوه يتكئ على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعون في مجلسه معه أشراف أهل مملكته، ثم قال السحرة: **﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾**[طه: ٦٥، ٦٦]، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصى(١)، فإذا حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا.

وقال السُّدِّى: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس رجل منهم إلا ومعه حبل وعصا، **﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾** يقول: فرّقوهم أى: من الفَرَق.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبرهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن هشام الدَّسْتَوَائى، حدثنا القاسم ابن أبى بَزَّة قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى(٢)؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾**.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) ﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، فى ذلك الموقف العظيم، الذى فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقى ما فى يمينه وهى عصاه، **﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾** أى: تأكل **﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾** أى: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

قال ابن عباس: فجعلت لا تَمُرّ بشىء(٣) من حبالهم ولا من خُشُبهم(٤) إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر، فخروا سجدا وقالوا: **﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾**.

وقال محمد بن إسحاق: جعلت تبتلع(٥) تلك الحبال والعصى واحدة واحدة، حتى ما يُرَى

---

(١) فى ك، م، أ: «العصى والحبال».
(٢) تفسير الطبرى (١٣/ ٢٨) وهذا من أخبار أهل الكتاب التى لا فائدة من علمها.
(٣) فى أ: «على شىء». (٤) فى أ: «عصيهم». (٥) فى أ: «تتبع».

بالوادى قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى، فإذا هى عصا فى يده كما كانت، ووقع السحرة سجدا ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾، لو كان هذا ساحرا ما غُلبنا.

وقال القاسم بن أبى بَزَّة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه، فإذا هى ثعبان فاغرٌ فاهُ، يبتلع[١] حبالهم وعصيهم. فألقى السحرة عند ذلك سجدا، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأو الجنة والنار وثواب أهلهما.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾.

يخبر تعالى عما توعد به فرعون، لعنه الله، السحرة لما آمنوا بموسى، عليه السلام، وما أظهره للناس من كيده ومكره فى قوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أى: إن غَلَبَه لكم فى يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله فى الآية الأخرى: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧٠]، وهو يعلم وكلّ من له لب أن هذا الذى قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من «مَدْين» دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون فى مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور فى مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترا وتدليسا على رعاع دولته وجَهَلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[الزخرف: ٥٤]، فإن قوما صدّقوه فى قوله: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] من أجْهَل خلق الله وأضلهم.

وقال السدى فى تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قالوا: التقى موسى، عليه السلام، وأميرُ السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بى، وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتنى لأومنن بك ولأشهدن أنك حق. وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال.

وقوله: ﴿ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أى: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم[٢] دولة وصولة، وتخرجوا

(١) فى م: «يبلع».
(٢) فى ك، م: «لهم».

منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ما أصنع بكم.

ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ﴾ يعنى: يقطع يد الرّجُل اليمنى ورجْله اليسرى أو بالعكس. و﴿لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقال فى الآية الأخرى: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أى: على الجذوع.

قال ابن عباس: وكان[١] أولَ من صلب، وأولَ من قطع الأيدى والأرجل من خلاف، فرعون.

وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أى: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله[٢] ما تدعونا إليه، وما أكرهتنا عليه من السحر، أعظم[٣] من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، لما قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أى: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أى: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام. وقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ . وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٢ ـ ٧٥]، فكانوا فى أول النهار سحرة، فصاروا فى آخرة[٤] شهداء بررة.

قال ابن عباس، وعُبَيد بن عُمَيْر، وقتادة، وابن جُرَيْج: كانوا فى أول النهار سحرة، وفى آخره شهداء.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾.

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أظهروه[٥] لموسى، عليه السلام، وقومه من الأذى والبغضة: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أى: لفرعون ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾ أى: أتدعهم ليفسدوا فى الأرض، أى: يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يالله للعجب! صار[٦] هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون؛ ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، قال بعضهم: «الواو» هنا حالية، أى: أتذره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟

---

(١) فى م، أ: «فكان». (٢) فى أ: «ونكاله على». (٣) فى د: «أشد».
(٤) في ك، م، أ: «فى آخر النهار». (٥) فى ك، م، أ: «أضمروه»، وفى د: «أضمروا».
(٦) فى أ: «صاروا».

وقرأ ذلك أُبيّ بن كعب: «وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»، حكاه ابن جرير.

وقال آخرون: هى عاطفة، أى: لا تدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم[١] عليه وعلى تركه آلهتك.

وقرأ بعضهم: «إلاهتك» أى: عبادتك، ورُوى ذلك عن ابن عباس ومجاهد.

وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده. قال الحسن البصرى: كان لفرعون إله يعبده فى السر .وقال فى رواية أخرى: كان له[٢] جُمَانة فى عنقه معلقة يسجد لها.

وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾: وآلهته، فيما زعم ابن عباس، كانت البقر، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم عجلا جسدا.

فأجابهم فرعون فيما سألوا بقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم به قبل ولادة موسى، عليه السلام، حذَرًا من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضدّ ما قصده فرعون. وهكذا عومل فى صنيعه [هذا][٣] أيضا، إنما أراد قهر بنى إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم الله عليه وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده.

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾، ووعدهم بالعاقبة، وأن الدار ستصير لهم فى قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أى: قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى، ومن بعد ذلك. فقال منبهًا لهم على حالهم الحاضرة[٤] وما يصيرون[٥] إليه فى ثانى الحال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ [وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ][٦]﴾، وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر، عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أى: اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهى سِنِى الجوع بسبب قلة الزروع[٧]، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك.

وقال أبو إسحاق، عن رجاء بن حَيْوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة.

---

(١) فى أ: «أقررتم». (٢) فى ك، م، أ: «لفرعون». (٣) زيادة من م، أ.
(٤) فى ك، د، م: «الحاضر». (٥) فى د: «يصير». (٦) زيادة من د، ك، م، وفى هـ: «الآية».
(٧) فى د، ك، م: «الزرع».

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ أى: من الخصب والرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أى: هذا لنا بما نستحقه: ، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أى: جدب وقحط ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ أى: هذا بسببهم وما جاؤوا به.

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾: قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله، قال الله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس قال: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾قال: إلا من قبَلِ الله.

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) ﴾.

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن تَمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: أىُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾.

اختلفوا فى معناه، فعن ابن عباس فى رواية: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار. وبه قال الضحاك بن مُزَاحِم.

وقال ابن عباس فى رواية أخرى: هو كثرة الموت. وكذا قال عطاء.

وقال مجاهد: ﴿الطُّوفَانَ﴾: الماء، والطاعون على كل حال.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرفاعى، حدثنا يحيى بن يَمان، حدثنا المِنْهَال بن[1] خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن ميناء، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطوفان الموت».

وكذا رواه ابن مردويه، من حديث يحيى بن يمان، به وهو حديث غريب.

وقال ابن عباس فى رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . [فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ][2]﴾ [القلم: ١٩، ٢٠] .

(١) فى أ: «عن».
(٢) زيادة من أ.

وأما الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لما ثبت فى الصحيحين عن أبى يعفور[(١)] قال: سألت عبد الله بن أبى أوْفَى عن الجراد، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[(٢)].

وروى الشافعى، وأحمد بن حنبل، وابن ماجة من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال»[(٣)].

ورواه أبو القاسم البغوى، عن داود بن رُشَيْد، عن سُوَيْد بن عبد العزيز، عن أبى تمام الأيلىّ، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعا مثله[(٤)].

وروى أبو داود، عن محمد بن الفرج، عن محمد بن الزِّبْرِقان الأهوازى، عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان، عن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله، لا آكله، ولا أحرمه»[(٥)].

وإنما تركه، عليه السلام[(٦)]، لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب، وأذن فيه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى جزء جمعه فى الجراد، من حديث أبى سعيد الحسن بن على العدوى، حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد، حدثنا يحيى بن خالد، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ لا يأكل الجراد، ولا الكلوتين، ولا الضب، من غير أن يحرمها. أما الجراد: فرجز وعذاب. وأما الكلوتان: فلقربهما من البول. وأما الضب فقال: «أتخوف أن يكون مسخا»، ثم قال[(٧)]: غريب، لم أكتبه إلا من هذا الوجه[(٨)].

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، يشتهيه ويحبه، فروى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن عمر سئُل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قَفْعَة أو قفعتين نأكله[(٩)].

وروى ابن ماجة: حدثنا أحمد بن مَنِيع، عن سفيان بن عيينة، عن أبى سعد سعيد بن المرزبان البقال، سمع أنس بن مالك يقول: كان أزواج النبى ﷺ يَتَهادَيْن الجراد على الأطباق[(١٠)].

وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا داود بن رُشَيْد، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، عن نُمَيْر بن يزيد

---

(١) فى م: «يعقوب».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٤٩٥)، وصحيح مسلم برقم (١٩٥٢).

(٣) مسند الشافعى (١٧٣٤)، ومسند أحمد (٢/ ٩٧)، وسنن ابن ماجة برقم (٣٢١٨).

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف وقد رجح أبو زرعة والدارقطنى وقفه.

(٤) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى نصب الراية للزيلعى (٤/ ٢٠٢) من طريق محمد بن بشر، عن داود بن راشد، عن سويد بن عبد العزيز، عن (أبى هشام الأيلى) سمعت زيد بن أسلم يحدث عن ابن عمر عن النبى ﷺ فذكره.

تنبيه: وقع هنا: «أبو تمام الأيلى» وفى نصب الراية: «أبو هشام الأيلى» وهذا تصحيف والصواب: «أبو هاشم الأيلى» وهو كثير بن عبد الله الأيلى، ضعيف. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر (١/ ٢٦).

(٥) سنن أبى داود (٣٩١٣). (٦) فى أ: «ﷺ». (٧) فى أ: «وقال».

(٨) ورواه ابن صصرى فى أماليه كما فى الكنز برقم (١٨١٨٥) وفى إسناده انقطاع فإن عطاء لم يسمع من ابن عباس وابن جريج مدلس وقد عنعن.

(٩) رواه مالك فى الموطأ (٢/ ٩٣٣).

(١٠) سنن ابن ماجة برقم (٣٢٢٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٦٤): «هذا إسناد ضعيف».

القَيْنى[(١)]، حدثنى أبى، عن صُدَىّ بن عَجْلان، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مريم بنت عمران، عليها السلام، سألت ربها [عز وجل][(٢)] أن يطعمها لحما لا دم له، فأطعمها الجراد، فقالت: اللهم أعشه بغير رضاع، وتابع بَيْنَه بغير شياع»[(٣)]. وقال نُمَير: «الشِّيَاع»: الصوت.

وقال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا أبو تقى هشام بن عبد الملك اليَزَنى[(٤)]، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبى زُهَيْر النميرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاتلوا الجراد، فإنه جند الله الأعظم». غريب جداً[(٥)].

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، فى قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتَدَع الخشب.

وروى ابن عساكر من حديث على بن زيد الخرائطى، عن محمد بن كثير، سمعت الأوزاعى يقول: خرجت إلى الصحراء، فإذا أنا برِجْل من جراد فى السماء، وإذا برَجل راكب على جَرَادة منها، وهو شاك فى الحديد، وكلما قال بيده هكذا، مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها.

وروى الحافظ أبو الفرج[(٦)] المعافى بن زكريا الحريرى، حدثنا محمد بن الحسن بن زياد، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم، أخبرنا وَكِيع، عن الأعمش، أنبأنا عامر قال: سئل شُرَيْح القاضى عن الجراد، فقال: قبح الله الجرادة. فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجلا جمل. وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب.

و[قد][(٧)] قدمنا عند قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦] حديث حماد بن سلمة، عن أبى المُهزَم، عن أبى هريرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى حج أو عمرة، فاستقبلنا[(٨)] رِجْلُ جراد، فجعلنا نضربه بالعِصِىِّ، ونحن محرمون، فسألنا رسول الله ﷺ [عن ذلك][(٩)] فقال: «لا بأس بصيد البحر»[(١٠)].

وروى ابن ماجه، عن هارون الحمال[(١١)]، عن هاشم بن القاسم، عن زياد بن عبد الله بن عُلاثة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى، عن أبيه، عن أنس وجابر [رضى الله عنهما][(١٢)]، عن رسول الله[(١٣)] ﷺ؛ أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال له جابر: يا رسول الله، أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إنما هو نثرة حوت[(١٤)] فى البحر». قال

---

(١) فى أ: «عن الوليد بن يحيى بن مرثد». (٢) زيادة من ك، د.

(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ١٦٦) من طريق بقية بن الوليد به قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٣٩): «فيه بقية وهو ثقة لكنه مدلس، ويزيد القينى لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

(٤) فى أ: «المزنى».

(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/ ٢٩٧)، وأبو الشيخ الأصبهانى فى العظمة برقم (١٢٩٣) من طريق إسماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زرعة به.

(٦) فى أ: «ابن الفرج». (٧) زيادة من ك، أ. (٨) فى ك: «فاستقبلتنا». (٩) زيادة من أ.

(١٠) سورة المائدة آية: ٩٦.

(١١) فى أ: «الحمانى». (١٢) زيادة من أ. (١٣) فى ك، م، أ: «النبى». (١٤) فى أ: «صوت».

هاشم[١]: أخبرنى زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت[٢] قال: من حقق ذلك أن السمك إذا باض فى ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس، أنه يفقس كله جراداً طياراً.

وقدمنا عند قوله: ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨]، حديث عُمَر، رضى الله عنه: «إن الله خلق ألف أمة، ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر، وإن أولها هلاكاً الجراد»[٣].

وقال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا يزيد بن المبارك، حدثنا عبد الرحمن بن قَيْس، حدثنا سالم بن سالم، حدثنا أبو المغيرة الجوزجانى محمد بن مالك، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وَباء مع السيف، ولا نجاء مع الجراد». حديث غريب[٤].

وأما ﴿الْقُمَّلَ﴾ فعن ابن عباس: هو[٥] السوس الذى يخرج من الحنطة. وعنه أنه الدبى[٦] ـ وهو الجراد الصغار الذى لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة.

وعن الحسن وسعيد بن جبير: ﴿الْقُمَّلَ﴾: دواب سود صغار.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿الْقُمَّلَ﴾: البراغيث.

وقال ابن جرير: ﴿الْقُمَّلَ﴾: جمع واحدتها «قُمَّلة»، وهى دابة تشبه القَمْل، تأكلها الإبل، فيما بلغنى، وهى التى عناها الأعشى بقوله:

قوم تعالج[٧] قُمَّلا أبناؤهم وسلاسلاً أجُدا وباباً مؤصدا[٨]

قال: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب «الحمنان»، واحدتها «حمنانة»، وهى صغار القردان فوق القمقامة.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن حميد الرازى، حدثنا يعقوب القمى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى، عليه السلام، فرعون قال له: أرسل معى بنى إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان ـ وهو المطر ـ فصب عليهم منه شيئا، خافوا أن يكون عذابا، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر، فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل. فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل. فأنبت لهم فى تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر[٩] والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى. فأرسل الله عليهم الجراد، فسلطه على الكلأ، فلما رأوا

---

(١) فى ك: «هشام».

(٢) سنن ابن ماجة برقم (٣٢٢١) قال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٦٥): «هذا إسناد ضعيف لضعف موسى بن محمد بن إبراهيم. أورده ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق هارون بن عبد الله وقال: لا يصح عن رسول الله ﷺ، وضعه موسى بن محمد المذكور».

(٣) سورة الأنعام آية: ٣٨، وقد تفرد بهذا الحديث محمد بن عيسى، قال ابن عدى فى الكامل: «قال عمرو بن على: محمد بن عيسى بصرى صاحب محمد بن المنكدر، ضعيف منكر الحديث روى عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن عمر، عن النبى ﷺ فى الجراد».

(٤) ورواه ابن صصرى فى أماليه كما فى الكنز برقم (٣٠٨٧١) والجامع الصغير للسيوطى (٦/ ٤٣٩) ورمز له بالضعف، وأقره المناوى والألبانى.

(٥) فى م: «أنه». (٦) فى م: «الدباب». (٧) فى م: «يعالج».

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/ ٥٦)، واللسان مادة (قمل).

(٩) فى م: «من الزروع والثمار»، وفى ك، أ: «الزروع والثمر».

أثره فى الكلأ، عرفوا أنه لا يبقى الزرع، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك ليكشف[(١)] عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل، معك بنى إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل، فداسوا وأحرزوا فى البيوت، فقالوا: قد أحرزنا. فأرسل الله عليهم القمل ـ وهو السوس الذى يخرج منه ـ فكان الرجل يخرج عشرة[(٢)] أجربة إلى الرحى، فلا يرد منها ثلاثة أقفزة[(٣)]. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا القمل، فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا. قال[(٤)]: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذَقْنه فى الضفادع، ويهم أن يتكلم فتثب[(٥)] الضفدع فى فيه. فقالوا لموسى: ادع ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه، فكشف[(٦)] عنهم فلم يؤمنوا. وأرسل[(٧)] الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان فى أوعيتهم، وجدوه دمًا عبيطًا، فشكوا إلى فرعون، فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب. فقال: إنه قد سحركم!! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دمًا عَبِيطًا؟ فأتوه وقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك[(٨)]، ونرسل معك بنى إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل[(٩)].

وقد روى نحو هذا عن ابن عباس، والسدى، وقتادة وغير واحد من علماء السلف[(١٠)].

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولا، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادى فى الشر، فتابع الله عليه الآيات، وأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات. فأرسل الطوفان ـ وهو الماء ـ ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئا، حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك **﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**، فدعا موسى ربه، فكشف[(١١)] عنهم، فلم يفوا له بشىء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر، فيما بلغنى، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشىء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لى أن موسى، عليه السلام، أمر أن يمشى إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم، فضربه بها، فانثال عليهم قملا، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرارة، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشىء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع، قد غلبت عليه. فلما جهدهم ذلك، قالوا له

---

(١) فى د، ك، م: «فيكشف». (٢) في ك «يخرج معه عشرة». (٣) فى ك: « ثلاثة إلا أقفزة».
(٤) فى ك، د، م،أ: «فقال». (٥) فى م، أ: «فيثب»، وفى د: «فتبدر». (٦) في م:«فكشف الضفادع».
(٧) فى م: «فأرسل». (٨) فى ك، م، أ: «لك».
(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ٥٧).
(١٠) بعدها فى م،أ: «أنه أخذ بذلك». (١١) فى م، ك: «فكشفه».

مثل ما قالوا، فسأل ربه[١]، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دما عبيطا[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزى، أنبأنا النضر، أنبأنا إسرائيل، أنبأنا جابر ابن يزيد[٣]، عن عكرمة، قال عبد الله بن عَمْرو: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على قوم فرعون[٤]، انطلق ضفدع منها فوقع فى تنور فيه نار، يطلب بذلك مرضاة الله، فأبدلهن الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسبيح. وروى من طريق عكرمة، عن ابن عباس، نحوه[٥].

وقال زيد بن أسلم: يعنى بالدم: الرعاف. رواه ابن أبى حاتم.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾.

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا، مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، [أنه][٦] انتقم منهم بإغراقه إياهم فى اليم، وهو البحر الذى فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون ـ وهم بنو إسرائيل ـ ﴿مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[القصص: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨]

وعن الحسن البصرى وقتادة، فى قوله: ﴿مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعنى: الشام.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال مجاهد وابن جرير: وهى قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أى: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: يبنون.

---

(١) فى ك، م: «فدعا».

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٦٣).

(٣) فى أ: «زيد».
(٤) فى ك، م، أ: «بنى إسرائيل».

(٥) وفى إسناده جابر بن يزيد وهو ضعيف وقد ورد النهى عن قتل الضفدع مرفوعا إلى النبى ﷺ فروى عبد الرحمن التيمى، رضى الله عنه: «أن طبيبا ذكر ضفدعا فى دواء عند النبى ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتله». أخرجه أبو داود فى السنن برقم (٥٢٦٩).

(٦) زيادة من أ.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) ﴾ .

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فَأَتَوْا﴾ أى: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين . وقيل: كانوا من لخم.

قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر، فلهذا أثار[(١)] ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أى: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه[(٢)] عنه من الشريك والمثيل.

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أى: هالك﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير [رحمه الله][(٣)] تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقَيل، ومعمر كلهم، عن الزهرى، عن سنان بن أبى سنان، عن أبى واقد الليثى: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة[(٤)] يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذات أنواط»، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «قلتم والذى نفسى بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن سنان بن أبى سنان الدِّيلى، عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبى الله[(٦)]، اجعل لنا هذه «ذات أنواط»، كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ [قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ][(٧)]﴾ إنكم تركبون[(٨)] سنن من قبلكم»[(٩)].

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده مرفوعا[(١٠)].

---

(١) فى أ: «أثر». (٢) فى د: «تنزيهه». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى م: «سدة».
(٥) تفسير الطبرى (١٣/ ٨١، ٨٢).
(٦) فى أ: «رسول الله». (٧) زيادة من د. (٨) فى م: «لتركبون».
(٩) المسند (٥/ ٢١٨) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١١٨٥) من طريق عبد الرزاق به ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢١٨٠) من طريق سفيان عن الزهرى بنحوه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».
(١٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ٢١) من طريق ابن أبى فديك، عن كثير بن عبد الله المزنى، عن أبيه، عن جده مرفوعا، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٤): «فيه كثير بن عبد الله وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذى حديثه.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾.

يذكِّرهم موسى، عليه السلام، بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره. وقد تقدم تفسيرها فى [سورة][١] البقرة.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾.

يقول تعالى ممتنا على بنى إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى، عليه السلام، وإعطائه التوراة ،وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة.

قال المفسرون: فصامها موسى، عليه السلام، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر[٢] أربعين.

وقد اختلف المفسرون فى هذه العشر ما هى؟فالأكثرون على أن الثلاثين هى ذو القعدة،والعشر عشر ذى الحجة. قاله مجاهد،ومسروق، وابن جريج. وروى عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى،عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ،كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فلما تم الميقات عزم[٣] موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ الآية [طه: ٨٠]،فحينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير،وإلا فهارون،عليه السلام، نبى شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء[٤].

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾.

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله [تعالى][٥]، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾.

---

(١) زيادة من م، أ. (٢) فى أ: «العشرة». (٣) فى د، ك، م: «وعزم».
(٤) فى ك، أ: «أنبياء الله». (٥) زيادة من ك، أ.

وقد أشكل حرف «لن» هاهنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفى التأبيد، فاستدل به المعتزلة على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] .

وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥] .

وقيل: إنها لنفى التأبيد فى الدنيا، جمعا بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية فى الدار الآخرة.

وقيل: إن هذا الكلام فى هذا المقام كالكلام فى قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقد تقدم ذلك فى الأنعام [الآية :١٠٣].

وفى الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: «يا موسى، إنه لا يرانى حى إلا مات، ولا يابس إلا تدهده»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

قال أبو جعفر بن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن سُهَيْل الواسطى، حدثنا قُرَّة ابن عيسى، حدثنا الأعمش، عن رجل، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «لما تجلى ربه للجبل، أشار بإصبعه، فجعله دكاً» وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه السبابة[(١)].

هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم، ثم قال[(٢)]:

حدثنى المثنى، حدثنا حجَّاج بن منْهال، حدثنا حَمَّاد، عن لَيْث، عن أنس؛ أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال:«هكذا بإصبعه ـ ووضع النبى ﷺ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ـ فساخ الجبل»[(٣)].

هكذا وقع فى هذه الرواية «حماد بن سلمة، عن ليث، عن أنس». والمشهور: «حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس»، كما قال ابن جرير :

حدثنى المثنى، حدثنا هُدْبَة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: قال ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره، قال: فساخ الجبل ـ قال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ، ويقوله أنس، وأنا أكتمه؟[(٤)].

وهكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا أبو المثنى، معاذ بن معاذ العنبرى، حدثنا حماد بن

(١) تفسير الطبرى (١٣/ ٩٨).
(٢) فى أ: «وقال».
(٣، ٤) تفسير الطبرى (١٣/ ٩٩).

سلمة، حدثنا ثابت البنانى، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ [جَعَلَهُ دَكًّا](١)﴾: قال: قال هكذا ـ يعنى أنه خرج طرف الخنصر ـ قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثنى به أنس بن مالك عن النبى ﷺ، فتقول أنت: ما تريد إليه؟!

وهكذا رواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق، عن معاذ بن معاذ به. وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن سليمان بن حرب، عن حماد [بن سلمة](٢)، به(٣). ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حماد.

وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من طرق، عن حماد بن سلمة، به. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه(٤) (٥).

ورواه أبو محمد الحسن(٦) بن محمد الخلال، عن محمد بن على بن سُوَيْد، عن أبى القاسم البغوى، عن هدبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، فذكره وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه.

وقد رواه داود بن المحبر ،عن شعبة ،عن ثابت ،عن أنس مرفوعاً [وهذا ليس بشىء، لأن داود ابن المحبر كذاب ورواه الحافظان أبو القاسم الطبرانى وأبو بكر] (٧)، بنحوه(٨).

وأسنده ابن مردويه من طريقين، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس مرفوعا(٩) بنحوه، وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيْلَمَانى، عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعا، ولا يصح أيضاً.

وقال السُّدِّى، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس فى قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: ترابا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال: مغشياً عليه. رواه ابن جرير.

وقال قتادة: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال :ميتاً.

وقال سفيان الثورى: ساخ الجبل فى الأرض، حتى وقع فى البحر فهو يذهب معه(١٠).

وقال سُنَيْد، عن حجاج بن محمد الأعور، عن أبى بكر الهذلى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ انقعر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلى يوم القيامة.

وجاء فى بعض الأخبار أنه ساخ فى الأرض، فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة، رواه ابن مردويه.

(١، ٢) زيادة من أ.

(٣) المسند (٣/١٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٤) ورواه ابن خزيمة فى التوحيد برقم (١١٣) من طريق معاذ بن جبل به.

(٤) فى أ: «يخرجه».

(٥) المستدرك (٢/ ٣٢٠) ورواه ابن خزيمة فى التوحيد برقم (١١٤) وابن الأعرابى فى معجمه برقم (٤٠٥) من طريق عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة به.

(٦) فى أك «أبو محمد بن الحسن». (٧) زيادة من أ .

(٨) ورواه ابن منده فى الرد على الجهمية برقم (٥٩) من طريق شعبة به.

(٩) ورواه ابن عدى فى الكامل (١/ ٣٥٠) من طريق أيوب بن خوط عن قتادة عن أنس مرفوعا وأيوب بن خوط متروك الحديث.

(١٠) فى أ: «بعد».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شَبَّة، حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكنانى، حدثنا عبدالعزيز بن عمران، عن معاوية بن عبد الله، عن الجلد بن أيوب، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس بن مالك؛ أن النبى ﷺ قال: «لما تجلى الله للجبال[١]، طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد، وورقان، ورضوى. ووقع بمكة: حراء، وثَبِير، وثور».

وهذا حديث غريب، بل منكر[٢].

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبى الثلج، حدثنا الهَيْثَم بن خارجة، حدثنا عثمان بن حُصَين بن عَلاق، عن عُرْوة بن رُوَيم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صُماً مُلْسا، فلما تجلى الله لموسى على الطور دك[٣]، وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف.

وقال الربيع بن أنس: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور، صار مثل دك من الدكاك. وقال بعضهم: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أى: فتته.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾: فإنه أكبر منك وأشد خلقا، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعقاً.

وقال عكرمة: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ قال: نظر الله إلى الجبل، فصار صحراء تراباً.

وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء، واختارها ابن جرير، وقد ورد فيها حديث مرفوع، رواه ابن مردويه.

والمعروف أن «الصَّعْق» هو الغشى هاهنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً فى اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فإن هنا قرينة تدل على الموت كما أن هناك قرينة تدل على الغشى، وهى قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾، والإفاقة إنما تكون من[٤] غشى.

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾: تنزيها وتعظيما وإجلالاً أن يراه أحد فى الدنيا إلا مات.

وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية.

---

(١) فى أ: «للجبل».

(٢) ورواه ابن الاعرابى فى معجمه (٢/١٦٦) والمحاملى فى أماليه (١/١٧٢/١) كما فى السلسلة الضعيفة للشيخ ناصر الألبانى برقم (١٦٢) والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (١٠/٤٤١) كلهم من طريق عبد العزيز بن عمران عن معاوية بن عبد الله به.
قال الخطيب: «هذا الحديث غريب جدا لم أكتبه إلا بهذا الإسناد» وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات (١/ ١٢٠) وقال: «قال ابن حبان: موضوع، وعبد العزيز متروك يروى المناكير عن المشاهير».

(٣) فى أ: «صارت دكا».

(٤) فى ك، م: «عن».

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: من بنى إسرائيل. واختاره ابن جرير. وفى رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك أحد. وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة.

وهذا قول حسن له اتجاه. وقد ذكر محمد بن جرير فى تفسيره هاهنا أثراً طويلا فيه غرائب وعجائب، عن محمد بن إسحاق بن يسار [رحمه الله][١]، وكأنه تلقاه من الإسرائيليات[٢]، والله [تعالى][٣] أعلم.

وقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، فيه أبو سعيد وأبو هريرة، عن النبى ﷺ: فأما حديث أبى سعيد، فأسنده البخارى فى صَحِيحه هاهنا، فقال:

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عمرو بن يحيى المازنى، عن أبيه، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبى ﷺ قد لطم وجهه، فقال: يا محمد، إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم فى وجهى. قال: «ادعوه». فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إنى مررت باليهود فسمعته يقول: والذى اصطفى موسى على البشر. قال: قلت: وعلى محمد؟ فأخذتنى غضبة[٤]، فلطمته، قال: «لا تخيرونى من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور».

وقد رواه البخارى فى أماكن كثيرة من صحيحه، ومسلم فى أحاديث الأنبياء من صحيحه، وأبوداود فى كتاب «السنة» من سننه من طرق، عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبى الحسن المازنى الأنصارى المدنى، عن أبيه، عن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى، به[٥].

وأما حديث أبى هريرة فقال الإمام أحمد فى مسنده:

حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذى اصطفى محمداً على العالمين. وقال اليهودى: والذى اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودى فلطمه، فأتى اليهودى رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ، فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيرونى على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى ممسكاً بجانب العرش، فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى، أم كان ممن استثناه الله، عز وجل». أخرجاه فى الصحيحين، من حديث

---

(١) زيادة من أ.

(٢) انظر: تفسير الطبرى (١٣/ ٩١).

(٣) زيادة من م.

(٤) فى د: «غيظة».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٣٨، ٢٤١٢، ٦٩١٧، ٣٣٩٨، ٧٤٢٧، ٦٥١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٤) وسنن أبى داود برقم (٤٦٦٨).

الزهرى، به[(١)].

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا، رحمه الله: أن الذى لطم اليهودى فى هذه القضية هو أبو بكر الصديق، رضى الله عنه[(٢)]، ولكن تقدم فى الصحيحين أنه رجل من الأنصار، وهذا هو أصح وأصرح، والله أعلم .

والكلام فى قوله، عليه السلام: «لا تخيرونى على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضبية والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأى والتشهى، والله أعلم.

وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة»، الظاهر أن هذا الصعق يكون فى عرصات القيامة، يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتجلى للخلائق الملك الديان، كما صعق موسى من تجلى الرب، عز وجل، ولهذا قال، عليه السلام: «فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور»؟

وقد روى القاضى عياض فى أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق: حدثنا قتادة، حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيى بن وثّاب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لما تجلى الله لموسى، عليه السلام، كان يبصر النملة على الصفا فى الليلة الظلماء، مسيرة عشرة فراسخ»[(٣)]، ثم قال: «ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب، بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى.

انتهى ما قاله، وكأنه صحح هذا الحديث، وفى صحته نظر، ولا يخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهى إلى منتهاه، والله أعلم.

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾ .

يذكر تعالى أنه خاطب موسى [عليه السلام][(٤)] بأنه اصطفاه على عالمى زمانه برسالاته وبكلامه[(٥)] تعالى، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه الله تعالى بأن

---

(١) المسند (٢/ ٢٦٤) وصحيح البخارى برقم (٣٤٠٨، ٢٤١١) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٣).

(٢) قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٦/ ٤٤٣): «وأما كون اللاطم فى هذه القصة الصديق فهو مصرح به فيما أخرجه سفيان بن عيينة فى جامعه وابن أبى الدنيا فى «كتاب البعث» من طريقه عن عمرو بن دينار، عن عطاء وابن جدعان، عن سعيد بن المسيب قال: كان بين رجل من أصحاب النبى ﷺ وبين رجل من اليهود كلام فى شىء فقال عمرو بن دينار: هو أبو بكر الصديق».

(٣) الشفا (١/ ١٦٥).

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ك، م: «وكلامه».

جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، التى[١] تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده فى الشرف والفضل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ثم موسى [بن عمران][٢] كليم الرحمن، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى له: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أى: من الكلام [والوحى][٣] والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء، قيل: كانت الألواح من جوهر، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاما مفصلة مبينة للحلال من الحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التى قال الله [تعالى][٤] فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣].

وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير كانت[٥] كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أى: بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعد[٦]، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى ـ عليه السلام ـ أن يأخذ بأشد ما أمر قومه.

وقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: سترون[٧] عاقبة من خالف أمرى، وخرج عن طاعتى، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟

قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سأريك غدا إلام يصير إليه حال من خالف أمرى»، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره.

ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصرى.

وقيل: معناه ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: من أهل الشام، وأعطيكم إياها. وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى، والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: سأمنع فهم[٨] الحجج

---

(١) فى أ: «الذى». (٢) زيادة من م، أ. (٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من ك، م، أ. (٥) فى م، ك، أ: «فكانت». (٦) فى أ: «أبو سعيد».
(٧) فى أ: «أى: ستروا». (٨) فى أ: «منهم».

والأدلة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين عن طاعتى، ويتكبرون على الناس[(١)] بغير حق، أى: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيى ولا مستكبر.

وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقى فى ذل الجهل أبدا.

وقال سفيان بن عُيينة فى قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتى.

قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة[(٢)].

قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد فى حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد فى هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أى: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أى: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلا.

ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أى: لا يعلمون شيئاً مما فيها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله.

وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: إنما نجازيهم بحسب[(٣)] أعمالهم التى أسلفوها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾ .

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل، الذى اتخذه لهم السامرى من حلى القبط، الذى كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلا، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلا جسدا له خوار، و«الخوار» صوت البقر.

---

(١) فى أ: «على الله».

(٢) تفسير الطبرى (١٣/ ١١٣).

(٣) فى أ: «نجازيهم إلا بحسب».

وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى [عليه السلام][(١)] لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: **﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾** [طه: ٨٥].

وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل: هل صار لحما ودما له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم.

ويقال: إنهم لما صوّت لهم العجل رقَصوا حوله وافتتنوا به، **﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾** [طه:٨٨]، فقال الله تعالى: **﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾** [طه: ٨٩].

وقال فى هذه الآية الكريمة: **﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾**، ينكر تعالى عليهم فى ضلالهم بالعجل، وذُهُولهم عن خالق السموات والأرض وربّ كل شيء ومليكه، أن عبدوا[(٢)] معه عجلاً جسداً له خُوَار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غَطَّى على أعيُن بصائرهم[(٣)] عَمَى الجهل والضلال، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبى داود، عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يُعْمى ويُصِم»[(٤)].

وقوله: **﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾** أى: ندموا على ما فعلوا، **﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾**، وقرأ بعضهم: «لئن لم ترحمنا» بالتاء المثناة من فوق، «ربنا» منادى، «وتغفر لنا»، **﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** أى: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عزوجل.

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) ﴾ .

يخبر تعالى أن موسى، عليه السلام، رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف.

قال أبو الدرداء «الأسف»: أشد الغضب.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ يقول: بئس ما صنعتم فى عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم.

وقوله: **﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾** ؟ يقول: استعجلتم مجيئى إليكم، وهو مقدر من الله تعالى.

وقوله: **﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾** قيل: كانت الألواح من زُمُرُّد. وقيل: من

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى م: «يعبدوا». (٣) فى م: «أبصارهم».

(٤) المسند (٥/ ١٩٤) وسنن أبى داود برقم (٥١٣٠) وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده (٦/ ٤٥٠) موقوفا، قال الحافظ ابن حجر فى أجوبته عن أحاديث المصابيح: «الموقوف أشبه».

ياقوت. وقيل: من بَرَد وفى هذا دلالة على ما جاء فى الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة»[١].

ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبًا على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا. وروى ابن جرير عن قتادة فى هذا قولاً غريبًا، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد ردّه ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تَلَقَّاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضّاعون وأفاكون وزنادقة.

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قَصَّر فى نهيهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٤]، وقال هاهنا: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا تَسُقْنى مَسَاقهم، ولا تخلطنى معهم. وإنما قال: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾؛ لتكون[٢] أرأف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه. فلما تحقق موسى، عليه السلام، براءة ساحة هارون [عليه السلام][٣]، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا أبو عوَانة، عن أبى بِشْر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال النبى[٤] ﷺ: «يرحم[٥] الله موسى، ليس المعاين كالمخبر؛ أخبره ربه، عز وجل، أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح»[٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣)﴾ .

أما الغضب الذى نال بنى إسرائيل فى عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قَتَل بعضهم بعضاً، كما تقدم فى سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً[٧] فى الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٢٧١) من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة إن الله، عز وجل، أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».

(٢) فى ك، م: «ليكون». (٣) زيادة من ك، أ. (٤) فى ك، أ: «رسول الله». (٥) فى م: «رحم».

(٦) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٨٠) من طريق أبى بشر، به. وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وفى تلخيص الذهبى: «سمعه من أبى بشر ثقتان».

(٧) فى أ: «فأعقبهم ذل وصغار».

لكل من افترى بدعة، فإن ذُلَّ البدعة ومخالفة الرسالة[١] ، متصلة من قبله على كتفيه، كما قال الحسن البصرى: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هَمْلَجَت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين.

وهكذا روى أيوب السَّخْتيَانى، عن أبى قلابَة الجَرْمى، أنه قرأ هذه الآية: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**﴾ قال: هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة.

وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أى ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ**﴾ أى: يا محمد، يا رسول الرحمة ونبى النور[٢] ، ﴿**مِن بَعْدِهَا**﴾ أى: من بعد تلك الفعلة ﴿**لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عزرة[٣]، عن الحسن العُرَنى، عن عَلْقَمة، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه سئل عن ذلك ـ يعني عن الرجل يزنى بالمرأة، ثم يتزوجها ـ فتلا هذه الآية: ﴿**وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم[٤] بها ولم ينههم عنها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿**وَلَمَّا سَكَتَ**﴾ أى: سكن ﴿**عَن مُّوسَى الْغَضَبُ**﴾ أى: غضبه على قومه ﴿**أَخَذَ الْأَلْوَاحَ**﴾ أى: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرةً لله وغضبا له ﴿**وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ**﴾.

يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك؛ ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجودا فى خزائن الملوك لبنى إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا. وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها، وهى من جوهر الجنة[٥]، فقد[٦] أخبر [الله][٧] تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها هدى ورحمة.

﴿**لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**﴾: ضمن الرهبة معنى الخضوع؛ ولهذا عدَّاها باللام.

وقال قتادة: فى قوله تعالى: ﴿**أَخَذَ الْأَلْوَاحَ**﴾ قال: رب، إنى أجدُ فى الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم[٨] أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون ـ أى آخرون فى الخَلْقِ ـ السابقون[٩] فى دخول الجنة،

---

(١) فى م: «الرسل».
(٢) فى ك، م، أ: «التوبة».
(٣) فى م: «عروة».
(٤) فى ك، م: «يأمر».
(٥) فى أ: «من جوهر من الجنة».
(٦) فى ك: «وقد».
(٧) زيادة من أ.
(٨) فى د، ك، م، أ: «اجعلهم».
(٩) فى د، أ: «سابقون».

رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها ـ كتابهم ـ وكان من قبلهم يقرؤون كتابهم نظرا، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا [منها][(١)] شيئاً، ولم يعرفوه. قال قتادة: وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئا لم يعطه[(٢)] أحدًا من الأمم. قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول، وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلوا[(٣)] الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها ـ وكان مَنْ قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه، بعث الله عليها نارًا فأكلتها، وإن ردت عليه تُركَت، فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم[(٤)] ـ قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها، كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة [ضعف][(٥)]، رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هَم أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي: قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المشفَّعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبي الله موسى [عليه السلام][(٦)] نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد[(٧)].

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمرَه أن يختار من قومه سبعين رجلا، فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دَعَوُا الله قالوا: اللهم اعطنا ما لم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ الآية.

وقال السُّدِّي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدا، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرناه. فأخذتهم

(١) زيادة من أ. (٢) في ك، م، أ: «يعط». (٣) في ك، م: «يقاتلون» وهو خطأ.
(٤) في ك: «غنيهم لفقيرهم». (٥، ٦) زيادة من أ.
(٧) تفسير الطبري (١٣/ ١٢٤).

الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا لقيتهم(١) وقد أهلكت خيارهم؟﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا، الخيِّرَ فالخيِّر، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسَلُوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهَّروا، وطهِّروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طُور سَيْناء، لميقات وقَّته له ربه ـ وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم ـ فقال له السبعون ـ فيما ذكر لى ـ حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه، [فقالوا](٢) لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمودُ الغمام، حتى تَغَشَّى الجبل كله. ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه(٣) الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه. فضرب دونه بالحجاب. ودنا القوم، حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سُجُودا(٤)، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره، انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتهم الرجفة ـ وهى الصاعقة ـ فافتُلتَت(٥) أرواحهم، فماتوا جميعا. فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾قد سفهوا، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل.

وقال سفيان الثورى: حدثنى أبو إسحاق، عن عمارة بن عبد السَّلُولى، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: انطلق موسى وهارون وشبر وشبير، فانطلقوا إلى سفح جَبَل، فنام(٦) هارون على سرير، فتوفاه الله، عز وجل. فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفاه الله، عز وجل. قالوا [له](٧): أنت قتلته، حَسَدتنا على خُلُقه ولينه ـ أو كلمة نحوها ـ قال: فاختاروا من شئتم. قال: فاختاروا سبعين رجلا. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾، فلما انتهوا إليه قالوا: يا هارون، من قتلك؟ قال: ما قتلنى أحد، ولكن توفانى الله. قالوا: يا موسى، لن تعصى بعد اليوم. قال: فأخذتهم الرجفة. قال: فجعل موسى، عليه السلام، يرجع يمينًا وشمالاً، وقال: يا﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ قال: فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم.

هذا أثر غريب جدا، وعمارة بن عبد(٨) هذا لا أعرفه. وقد رواه شعبة، عن أبى إسحاق عن رجل من بنى سلول عن على، فذكره(٩).

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جُرَيْج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم فى عبادتهم العجل، ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾.

---

(١) فى أ: «أتيتهم». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ك: «كلم».

(٤) فى أ: «سجداً». (٥) فى أ: «فالتقت». (٦) فى أ: «فقام».

(٧) زيادة من ك. (٨) فى ك: «عبيد».

(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ١٤٢) وفى إسناده عمارة بن عبد السلولى. قال الذهبى فى ميزان الاعتدال: «عمارة بن عبد، عن على، مجهول لا يحتج به. قاله أبو حاتم. وقال أحمد: مستقيم الحديث لا يروى عنه غير أبى إسحاق».

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ﴾ أى: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمرُ إلا أمرُك، وإن الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدى من تشاء، ولا هادى لمن أضللت، ولا مُضل لمن هَدَيت، ولا مُعطى لمن مَنَعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾: الغَفْر هو: الستر، وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقعه فى مثله فى المستقبل، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أى: لا يغفر الذنوب إلا أنت، ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾، هناك الفصل الأول من الدعاء فى دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾ أى: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم [تفسير][1] ذلك فى سورة البقرة [الآية: ٢٠١].

﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أى: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم التيمى، والسُّدِّى، وقتادة، وغير واحد. وهو كذلك لُغَة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وَكيع، حدثنا أبى، عن شريك، عن جابر، عن عبد الله بن نُجى[2]، عن على [رضى الله عنه][3] قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾.

جابر ـ هو ابن يزيد الجُعْفى ـ ضعيف.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾.

قال تعالى مجيبا لموسى فى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ [تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ][4]﴾ الآية: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ [فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ][5]﴾ أى: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولى الحكمة والعدل فى كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخباراً عن حَمَلة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبى، حدثنا الجُرَيرى، عن أبى عبد الله الجُشَمى، حدثنا جُنْدُب ـ هو ابن عبد الله البَجَلى، رضى الله عنه ـ قال: جاء أعرابى فأناخ راحلته ثم عَقَلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ. فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم، ارحمنى ومحمدًا، ولا تشرك فى رحمتنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى. قال: «لقد حَظَرْت[6] رحمةً واسعة؛ إن الله، عز

---

(١) زيادة من ك، م، أ. (٢) فى أ: «يحيى». (٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من ك، م، أ. (٥) زيادة من م. (٦) فى د: «حجرت».

وجل، خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق؛ جنّها وإنسها وبهائمها، وأخَّرَ عنده تسعاً وتسعين[١] رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟».

ورواه أبو داود عن علي بن نصر، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به[٢].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان، عن أبى عثمان، عن النبى ﷺ قال: «إن لله، عز وجل، مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحمُ بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة».

تفرد[٣] بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سُلَيمان ـ هو ابن طَرْخان ـ وداود بن أبى هند كلاهما، عن أبى عثمان ـ واسمه عبد الرحمن بن مل[٤] ـ عن سلمان، هو الفارسى، عن النبى ﷺ، به[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن أبى صالح، عن أبى هريرة؛ أن النبى[٦] ﷺ قال: «لله مائة رحمة، عنده تسعة وتسعون، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين[٧] الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه». تفرد به أحمد من هذا الوجه[٨].

وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لله مائة رحمة، فقسم منها جزءًا واحدًا بين الخلق، فيه يتراحم الناس والوحش والطير».

ورواه ابن ماجه من حديث أبى معاوية، عن الأعمش، به[٩].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا سعد أبو غَيْلان الشيبانى، عن حماد بن أبى سليمان، عن إبراهيم، عن صلة بن زُفَر، عن حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، ليدخلن الجنة الفاجرُ فى دينه، الأحمق فى معيشته. والذى نفسى بيده، ليدخلن الجنة الذى قد مَحَشته النار بذنبه. والذى نفسى بيده، ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه».

هذا حديث غريب[١٠] جدا، «وسعد» هذا لا أعرفه[١١].

وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية، يعنى: فسأوجب حُصُول رحمتى مِنَّةً منى وإحسانا إليهم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

---

(١) فى ك، م: «تسعاً وتسعون»، وفى أ: «تسع وتسعون».
(٢) المسند (٤/ ٣١٢) وسنن أبى داود برقم (٤٨٨٥).
(٣) فى ك، م، أ: «انفرد». (٤) فى أ: «بن مثل».
(٥) المسند (٥/ ٤٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥٣).
(٦) فى ك، أ: «عن النبى»، وفى م: «عن رسول الله».
(٧) فى أ: «من».
(٨) المسند (٣/ ٥٥).
(٩) المسند (٣/ ٥٥)، وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٩٤).
(١٠) فى أ: «هذا الأثر».
(١١) المعجم الكبير (٣/ ١٦٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢١٦): «سعيد بن طالب أبو غيلان وثقه أبو زرعة وابن حبان، وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات».

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أى: سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ الذين يتقون، أى: الشرك والعظائم من الذنوب.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس. وقيل: [زكاة][1] الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما؛ فإن الآية مكية ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ .

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾: وهذه صفة محمد ﷺ فى كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه[2]، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم كما قال الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيل، عن الجُرَيرى، عن أبى صخر العقيلى، حدثنى رجل من الأعراب، قال: جلبت جَلُوبَةً إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعتى[3] قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون، فتبعتهم فى أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها، يعزى بها نفسه على ابن له فى الموت كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذى أنزل التوراة، هل تجد[4] فى كتابك ذا صفتى ومخرجى؟» فقال برأسه هكذا، أى: لا. فقال ابنه، إى: والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومَخرجك، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك[5] رسول الله فقال: «أقيموا اليهودى عن أخيكم». ثم ولى كفنه[6] والصلاة عليه[7].

هذا حديث جيد قوى له شاهد فى الصحيح، عن أنس.

وقال الحاكم صاحب المستدرك: أخبرنا أبو محمد ـ عبد الله بن إسحاق البغوى، حدثنا إبراهيم ابن الهيثم البلدى[8]، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن شُرَحْبِيل بن مسلم، عن أبى أمامة الباهلى، عن هشام بن العاص الأموى قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة ـ يعنى غوطة دمشق ـ فنزلنا على جبلة بن الأيهم الغسانى، فدخلنا عليه، فإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسول نكلمه، فقلنا: والله لا نكلم رسولاً، إنما بعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلمناه[9]، وإلا لم نكلم

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ك، م، أ: «ببعثته». (٣) فى د: «بيعى».
(٤) فى أ: «هل تجدنى». (٥) فى ك: «وأشهد أنك». (٦) فى ك، م، أ: «ثم ولى كفنه وحنطه».
(٧) المسند (٥/ ٤١١).
(٨) فى أ: «البكرى». (٩) فى د: «تكلمنا».

الرسول[(١)]. فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك، قال: فأذن لنا فقال: تكلموا[(٢)]، فكلّمه هشام بن العاص، ودعاه إلى الإسلام، فإذا عليه ثيابُ سوادٍ[(٣)]، فقال له هشام: وما هذه التى عليك؟ فقال: لبستها وحلفت ألا أنزعها حتى أخرجكم من الشام. قلنا: ومجلسك هذا، والله[(٤)] لنأخذنه منك، ولنأخذن ملك الملك الأعظم، إن شاء الله، أخبرنا بذلك نبينا[(٥)] ﷺ. قال: لستم بهم، بل هم قوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل، فكيف صومكم؟ فأخبرناه، فمُلئ وجهه سواداً فقال: قوموا. وبعث معنا رسولاً إلى الملك، فخرجنا، حتى إذا كنا قريبًا من المدينة، قال لنا الذى معنا: إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك، فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال؟ قلنا: والله لا ندخل إلا عليها، فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك. فدخلنا على رواحلنا متقلدين سيوفنا، حتى انتهينا إلى غرفة[(٦)]، فأنخنا فى أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فالله يعلم لقد تَنَفَّضَت الغرفة حتى صارت كأنها عِذْق تَصَفّقه الرياح، فأرسل[(٧)] إلينا: ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم. وأرسل إلينا: أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراش له، وعنده بطارقته من الروم، وكل شىء فى مجلسه أحمر، وما حوله حمرة، وعليه ثياب من الحمرة، فدنونا منه فضحك، فقال: ما كان عليكم لو حييتمونى بتحيتكم فيما بينكم؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية، كثير الكلام، فقلنا: إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك، وتحيتك التى تُحيى بها لا تحل[(٨)] لنا أن نحييك بها. قال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليك. قال: وكيف تحيون ملككم؟ قلنا: بها. قال: وكيف يرد عليكم؟ قلنا: بها. قال: فما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم ـ لقد تَنَفَّضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التى قلتموها حيث تنفضت الغرفة، كلما قلتموها فى بيوتكم تنفضت عليكم غرفكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك. قال: لوددت أنكم كلما قلتم تَنَفَّضَ كل شىء عليكم. وأنى خرجت[(٩)] من نصف ملكى. قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أيسر لشأنها، وأجدر ألا تكون من أمر النبوة، وأنها[(١٠)] تكون من حيل الناس. ثم سألنا عما أراد فأخبرناه. ثم قال: كيف صلاتكم وصومكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا فقمنا. فأمر لنا بمنزل حسن ونُزُل كثير، فأقمنا ثلاثاً.

فأرسل إلينا ليلا فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه. ثم دعا بشىء كهيئة الرَّبْعَةِ العظيمة مذهبة، فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتا وقفلا، فاستخرج حريرة سوداء، فنشرها، فإذا فيها صورة حمراء، وإذا فيها رجل ضخم العينين. عظيم الأليتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا لبست له لحية، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله. قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم، عليه السلام، وإذ هو أكثر الناس شعراً.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، وإذا له شعر كشعر القطط، أحمر العينين، ضخم الهامة، حسن اللحية، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا

---

(١) فى ك: «الرسل».
(٢) فى ك: «فتكلموا».
(٣) فى أ: «سود».
(٤) فى د، ك، م: «فوالله».
(٥) فى أ: «نبينا محمد».
(٦) فى أ: «غرفة له».
(٧) فى د: «قال فأرسل».
(٨) فى د، م: «لا يحل».
(٩) فى د: «وأنى قد خرجت».
(١٠) فى ك، م: «أن».

نوح، عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج[1] حريرة سوداء، وإذا فيها رجل شديد البياض، حسن العينين، صَلْت الجبين، طويل الخد، أبيض اللحية كأنه يبتسم، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم ،عليه السلام.

ثم فتح بابا آخر[2] ،فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا ـ والله ـ رسول الله ﷺ، فقال[3]: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله ﷺ قال: وبكينا. قال: والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس، وقال: والله إنه لهو؟ قلنا: نعم، إنه لهو، كأنك تنظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت، ولكنى عَجّلته لكم لأنظر ما عندكم.

ثم فتح بابا آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فإذا فيها صورة أدماء سحماء[4]، وإذا رجل جعد قطط، غائر العينين، حديد النظر، عابس متراكب الأسنان، مقلَّص[5] الشفة كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى[6] ،عليه السلام. وإلى جانبه صورة تشبهه، إلا أنه مُدْهَان الرأس، عريض الجبين، فى عينيه قبل، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران، عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل آدم سَبْط رَبْعَة،كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط ،عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرَب حُمرة، أقنى، خفيف العارضين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق ،عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج[7] حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق، إلا أنه على شفته خال، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. [قال][8]: هذا يعقوب، عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة رجل أبيض، حسن الوجه، أقنى الأنف، حسن القامة، يعلو وجهه نور، يعرف فى وجهه الخشوع، يضرب إلى الحمرة، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جد نبيكم ،عليهما السلام.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج[9] حريرة بيضاء، فيها صورة كأنها آدم، عليه السلام، كأن وجهه الشمس، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف ،عليه السلام.

ثم فتح بابا آخر فاستخرج[10] حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمر حَمْش الساقين، أخفش العينين، ضخم البطن، ربْعة متقلد سيفا، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود، عليه السلام.

(١) فى د،ك، أ: «فاستخرج منه». (٢) فى أ: «آخر فاستخرج منه حريرة سوداء». (٣) فى د، م: «قال».
(٤) فى أ: «جسماء». (٥) فى د: «مفلطس». (٦) فى م: «موسى بن عمران».
(٧) فى د،ك، أ: «فاستخرج منه». (٨) زيادة من أ.
(٩) فى ك، م، أ: «فاستخرج منه». (١٠) فى ك، م، أ: «فاستخرج منه».

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج [١] حريرة بيضاء، فيها صورة رجل ضخم الأليتين، طويل الرجلين، راكب فرسًا، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود، عليه [٢] السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة بيضاء، وإذا شابٌّ [٣] شديد سواد اللحية، كثير الشعر، حسن العينين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم، عليه السلام.

قلنا: من أين لك هذه الصور؟ لأنا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء، عليهم السلام، لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله. فقال: إن آدم، عليه السلام، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم، فكان فى خزانة آدم، عليه السلام، عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إن نفسى طابت بالخروج من ملكى، وإنى كنت عبداً لأشركم ملكه، حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا، وسرحنا، فلما أتينا أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، فحدثناه بما أرانا، وبما قال لنا، وما أجازنا، قال: فبكى أبو بكر وقال: مسكين! لو أراد الله به خيراً لفعل. ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم.

هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقى، رحمه الله، فى كتاب «دلائل النبوة»، عن الحاكم إجازة، فذكره[٤]، وإسناده لا بأس به.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا عثمان بن عُمَر، حدثنا فُلَيْح، عن هلال بن على، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن: «يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح به قلوبا غُلفا، وآذاناً صماً، وأعيناً عمياً» قال عطاء: ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفا، إلا أن كعبا قال بلغته، قال: «قلوباً غُلُوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً».

وقد رواه البخارى فى صحيحه، عن محمد بن سِنَان، عن فُلَيْح، عن هلال بن على ـ فذكر بإسناده نحوه[٥]، وزاد بعد قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»: «ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح».

ويقع فى كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد فى بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

---

(١) فى ك، م، أ: «فاستخرج منه». (٢) فى أ: «عليهما». (٣) فى د: «وإذا رجل شاب».

(٤) دلائل النبوة (١/ ٣٨٥).

(٥) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤) وصحيح البخارى برقم (٢١٢٥).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا محمد بن إدريس ورّاق الحميدي(١)، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم ـ من ولد جبير بن مطعم ـ قال: حدثتنى أم عثمان بنت سعيد ـ وهى جدتى ـ عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير، عن أبيه محمد بن جبير، عن أبيه جبير بن مطعم، قال: خرجت تاجراً إلى الشام، فلما كنت بأدنى الشام، لقينى رجل من أهل الكتاب، فقال: هل عندكم رجل نبياً؟ قلت: نعم. قال: هل تعرف صورته إذا رأيتها؟ قلت: نعم. فأدخلنى بيتا فيه صور، فلم أر صورة النبى ﷺ، فبينما أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا، فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهب بنا إلى منزله، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبى ﷺ، وإذا رجل آخذ بعقب النبى ﷺ، قلت: من هذا الرجل القابض على عقبه؟ قال: إنه لم يكن نبى إلا كان بعده نبى إلا هذا النبى، فإنه لا نبى بعده، وهذا الخليفة بعده، وإذا صفة أبى بكر، رضى الله عنه(٢).

وقال أبو داود: حدثنا حفص بن عمر أبو عمر الضرير(٣)، حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إياس الجريرى أخبرهم، عن عبد الله بن شقيق العقيلى، عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال: بعثنى عمر إلى الأسقف، فدعوته، فقال له عمر: هل تجدنى فى الكتاب؟ قال: نعم. قال: كيف تجدنى؟ قال: أجدك قَرْنا. قال: فرفع عمر الدرة وقال(٤): قرن مه؟ قال: قرن حديد، أمير شديد. قال: فكيف تجد الذى بعدى؟ قال: أجد خليفة صالحا، غير أنه يؤثر قرابته قال عمر: يرحم الله عثمان، ثلاثا. قال: كيف تجد الذى بعده؟ قال: أجد صدأ حديد. قال: فوضع عمر يده على رأسه وقال: يا دَفْراه، يا دفراه! قال: يا أمير المؤمنين، إنه خليفة صالح، ولكنه يُستخلف حين يُستخلف والسيف مسلول، والدم مهراق(٥).

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، هذه صفة الرسول ﷺ(٦) فى الكتب المتقدمة، وهكذا كان(٧) حاله، عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ فَأَرْعِها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه، ما بعثه الله [تعالى](٨) به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهى عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر ـ هو العقدى عبد الملك بن عمرو ـ حدثنا سليمان ـ هو ابن بلال ـ عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد، عن أبى حميد وأبى أسيد، رضى

---

(١) فى هـ: «محمد بن إدرس بن الحميدى»، وفى بقية النسخ: «محمد بن إدريس بن وراق بن الحميدى» والمثبت من الجرح والتعدل ٢١٣/٤ ٢٠٤ مستفاد من هامش ط. الشعب.

(٢) المعجم الكبير (٢/ ١٢٥) ورواه أيضا فى الأوسط برقم (٣٤٩٦) «مجمع البحرين» وقال: «لا يروى عن جبير إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن إدريس». قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٣٣): «فيه من لم أعرفهم».

(٣) فى جميع النسخ: «عمر بن حفص أبو عمر الضرير»، والمثبت من سنن أبى داود.

(٤) فى أ: «فقال».

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٦٥٦)، «والدفر: النتن».

(٦) فى م: «صلوات الله وسلامه عليه». (٧) فى ك، م، أ: «كانت». (٨) زيادة من م.

الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه»[١].

هذا [حديث][٢] جيد الإسناد، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب [الستة][٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبى البخترى، عن على، رضى الله عنه، قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثا، فظنوا به الذى هو أهدى، والذى هو أهنا، [والذى هو أنجى][٤] والذى هو أتقى[٥] [٦].

ثم رواه عن يحيى بن سعيد، عن مسعر، عن عمرو بن مرة، عن أبى البخترى، عن أبى عبدالرحمن، عن على، رضى الله عنه، قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثا، فظنوا به الذى هو أهداه وأهناه وأتقاه[٧].

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أى: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر، والسوائب، والوصائل، والحام، ونحو ذلك، مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله تعالى.

وقال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى، فهو طيب نافع فى البدن والدين، وكل ما حرمه، فهو خبيث ضار فى البدن والدين.

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له.

وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع فى حل المآكل التى لم ينص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب فى حال رفاهيتها، وكذا فى جانب التحريم إلى ما استخبثته. وفيه[٨] كلام طويل أيضا.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى: إنه جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». وقال لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرى، لما[٩] بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا». وقال صاحبه أبو برزة الأسلمى: إنى صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره.

---

(١) المسند من حديث أبى أسيد (٣/ ٤٩٧) ومن حديث أبى حميد (٥/ ٤٢٥).
(٢ـ ٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «أبقى».
(٦) المسند (١/ ١٢٢).
(٧) المسند (١/ ١٣٠).
(٨) فى م: «وفى ذلك». (٩) فى أ: «حين».

وقد كانت الأمم الذين[1] كانوا قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل»[2]. وقال: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[3]؛ ولهذا قد أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت، قد فعلت[4].

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أى: عظموه ووقروه، ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أى: القرآن والوحى الذى جاء به مبلغاً إلى الناس، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾.

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربى والعجمى، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أى: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والآيات فى هذا كثيرة، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم.

قال البخارى، رحمه الله، فى تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الله بن العلاء بن زَبْر[5]، حدثنى بسر[6] ابن عبيد الله، حدثنى أبو إدريس الخولانى قال: سمعت أبا الدرداء، رضى الله عنه، يقول: كانت بين أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عمر عنه مغضبا، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه فى وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ـ فقال أبو الدرداء: ونحن عنده ـ فقال[7] رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» ـ أى:

---

(١) فى ك: «التى».
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٦٩) ومسلم فى صحيحه برقم (١٢٧) من حديث أبى هريرة.
(٣) رواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٠٤٥) من حديث أبى ذر، رضى الله عنه، وقد سبق تخريجه وذكر شواهده.
(٤) صحيح مسلم برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس، رضى الله عنه.
(٥) فى أ: «زيد». (٦) فى أ: «بشر». (٧) فى ك، م، أ: «قال».

غاضب وحاقد ـ قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبى ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر ـ قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لى صاحبى؟ إنى قلت: يأيها الناس، إنى رسول الله إليكم جميعا، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت». انفرد به البخارى[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبى زياد، عن مقسم، عن ابن عباس [رضى الله عنه][(٢)]، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى ـ ولا أقوله فخراً: بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى، فهى لمن لا يشرك بالله شيئا»[(٣)]. إسناده جيد، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، قام من الليل يصلى، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه [(٤)]يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلى، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة[(٥)]، وكان من قبلى إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بينى وبينهم مسيرة شهر لملئ منى رعبا، وأحلت لى الغنائم آكلها[(٦)]، وكان من قبلى يعظمون أكلها، كانوا يحرقونها، وجعلت لى الأرض مساجد[(٧)] وطهوراً، أينما أدركتنى الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلى يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون فى بيعهم وكنائسهم، والخامسة هى ما هى، قيل لى: سل؛ فإن كل نبى قد سأل. فأخرت مسألتى إلى يوم القيامة، فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله»[(٨)]. إسناد جيد قوى أيضا ولم يخرجوه.

وقال أيضا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه، عن رسول الله[(٩)] ﷺ قال: «من سمع بى من أمتى أو يهودى أو نصرانى، فلم يؤمن بى، لم يدخل الجنة»[(١٠)].

وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى رجل[(١١)] من هذه الأمة: يهودى ولا[(١٢)] نصرانى، ثم لا يؤمن[(١٣)] بى إلا دخل النار»[(١٤)].

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٤٠).

(٢) زيادة من أ.

(٣) المسند (١/٣٠١) قال الهيثمى فى المجمع (٨/٢٥٨): «رجال أحمد رجال الصحيح غير يزيد بن أبى زياد وهو حسن الحديث».

(٤) فى أ: «من الأنصار». (٥) فى ك: «كافة». (٦) فى أ: «كلها».

(٧) فى ك: «مسجداً».

(٨) المسند (٢/٢٢٢).

(٩) فى م: «عن النبى».

(١٠) المسند (٤/٤٩٦).

(١١) فى م: «أحد». (١٢) فى م: «أو». (١٣) فى م: «ثم يموت ولا يؤمن».

(١٤) هذا لفظ حديث أبى هريرة وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٥٣) وحديث أبى موسى الأشعرى بهذا اللفظ رواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٤١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس ـ وهو سليم بن جبير ـ عن أبى هريرة، عن رسول الله[(١)] ﷺ، أنه قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة: يهودى أو نصرانى، ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار». تفرد به أحمد[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن أبى بُرْدَة، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لى الغنائم ولم تحل[(٣)] لمن كان قبلى، ونصرت بالرعب شهراً[(٤)]، وأعطيت الشفاعة ـ وليس من نبى إلا وقد سأل الشفاعة، وإنى قد اختبأت شفاعتى، ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئا»[(٥)].

وهذا أيضا إسناد صحيح، ولم أرهم خرجوه، والله أعلم، وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين ايضا، من حديث[(٦)] جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى [ﷺ][(٧)] يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة»[(٨)].

وقوله: ﴿الَّذى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى، فى قوله[(٩)]: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى: الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربه ومليكه، الذى بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم.

وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾: أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به، ﴿النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾ أى: الذى وعدتم به وبشرتم به فى الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك فى كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أى: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ أى: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: إلى الصراط المستقيم.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن بنى إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِين

---

(١) فى ك: «عن النبى».
(٢) المسند (٢/ ٣٥٠).
(٣) فى أ: «ولم تحل لأحد».
(٤) فى ك: «مسيرة شهر».
(٥) المسند (٤/ ٤١٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٥٨): «رجاله رجال الصحيح».
(٦) فى ك، م، أ: «رواية».
(٧) زيادة من أ.
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١)
(٩) فى ك: «قول».

آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا [ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون][(١)]﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾[الإسراء: ١٠٧ـ ١٠٩].

وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبراً عجيباً، فقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ قال: بلغني أن بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا ـ وكانوا اثنى عشر سبطا ـ تبرأ سبط منهم مما صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله، عز وجل، أن يفرق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقا فى الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾ [الإسراء: ١٠٤]، و«وعد الآخرة»: عيسى ابن مريم[(٢)] ـ قال ابن جريج: قال ابن عباس: ساروا فى السرب سنة ونصفاً.

وقال ابن عيينة، عن صدقة أبى الهذيل، عن السدى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ قال: قوم بينكم وبينهم نهر من شهد[(٣)].

﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١٦٠) وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين (١٦١) فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون (١٦٢)﴾.

تقدم تفسير هذا كله فى سورة «البقرة»، وهى مدنية، وهذا السياق مكى، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته، ولله الحمد والمنة[(٤)].

﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون (١٦٣)﴾.

---

(١) زيادة من م، وفى هـ: «الآية».

(٢) تفسير الطبرى (١٣/ ١٧٣).

(٣) فى أ: «سهل».

(٤) سورة البقرة الآية: ٦٠.

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[البقرة: ٦٥]، يقول [الله][1] تعالى، لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ أى: واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم؛ لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هى «أيلة»، وهى على شاطىء بحر القلزم.

قال محمد بن إسحاق: عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: هى قرية يقال لها «أيلة» بين مدين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسُّدِّى.

وقال عبد الله بن كثير القارئ، سمعنا أنها أيلة. وقيل: هى مدين، وهو رواية عن ابن عباس وقال ابن زيد: هى قرية يقال لها. «مقنا» بين مدين وعَيْدُونى.

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أى: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أى ظاهرة على الماء.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿شُرَّعًا﴾: من كل مكان.

قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أى: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه[2] عنهم فى اليوم المحلل لهم صيده ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾: نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها.

وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام.

وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة، رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت[3] اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[4].

وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا[5] ذكره الخطيب فى تاريخه[6] ووثقه، وباقى رجاله مشهورون ثقات، ويصحح الترمذى بمثل هذا الإسناد كثيراً.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً

(١) زيادة من م.

(٢) فى ك، م، أ: «إخفائها». (٣) فى أ: «ارتكب».

(٤) جزء فى الخلع وإبطال الحيل لابن بطة (٤٢).

(٥) فى م: «هكذا».

(٦) فى تاريخ بغداد (٥/ ٩٨، ٩٩) أحمد بن محمد بن مسلم البغدادى ولكن لم يتكلم عليه الخطيب ولم يوثق.

إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة[١] ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك، [وأنكرت][٢] واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ أى: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة فى نهيكم إياهم. قالت لهم المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ . قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقديره: هذا معذرة وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أى: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين:

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [قال:][٣] هى قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: «أيلة»، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً فى ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها. فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ [أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا][٤]﴾، وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى؟ فقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة.

وروى العوفى، عن ابن عباس قريباً من هذا.

وقال حماد بن زيد، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ

---

(١) فى ك، م، أ: «ففرقة». (٢) زيادة من ك، م، أ. (٣، ٤) زيادة من أ.

مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: ما أدرى أنجا الذين قالوا: «أتعظون قوما الله مهلكهم»، أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرَّفته أنهم نجوا، فكسانى حلة.

قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيْج، حدثنى رجل، عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوما وهو يبكى، وإذا[١] المصحف فى حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت: ما يبكيك يا أبا عباس، جعلنى الله فداك؟ قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو فى «سورة الأعراف»، قال: تعرف[٢] أيلة قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حى من يهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم السبت شرعا بيضاً سماناً كأنها الماخض، تتبطح[٣] ظهورها لبطونها بأفنيتهم. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها فى غيره من الأيام. فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت. فكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم، الله، الله ننهاكم أن[٤] تتعرضوا لعقوبة الله. وقال الأيسرون: **﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾**؟ قال الأيمنون: **﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾**، إن ينتهوا فهو أحب إلينا ألا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون: فقد[٥] فعلتم، يا أعداء الله. والله لا نبايتكم[٦] الليلة فى مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلما، وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم فقال: أى عباد الله، قردة والله تعاوى لها أذناب. قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابها[٧] من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود يأتيها نسيبها[٨] من الإنس فتشم ثيابه وتبكى، فتقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها، أى نعم. ثم قرأ[٩] ابن عباس: **﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾** قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها؟. قال: قلت: جعلنى الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: **﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾**؟ قال: فأمر لى فكسيت ثوبين غليظين[١٠].

وكذا روى مجاهد، عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز، عن مالك، قال: زعم ابن رومان

---

(١) فى أ: «إن». (٢) فى أ: «قال: هل تعرف». (٣) فى م: «حتى تنبطح»
(٤) فى أ: «الله، الله ينهاكم عن ذلك ولا». (٥) فى أ: «قد». (٦) فى م: «لنأتينكم».
(٧) فى م: «أنسابهم». (٨) فى أ: «تأت نسبها». (٩) فى أ: «ثم فسر».
(١٠) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٢٦).

أن قوله تعالى: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ قال: كانت تأتيهم يوم السبت، فإذا كان المساء ذهبت، فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر، فاتخذ ـ لذلك ـ رجل خيطاً ووتداً، فربط حوتا منها في الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد، أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك، فجحدهم، فلم يزالوا به حتى قال لهم: «فإنه جلد حوت وجدناه». فلما كان السبت[1] الآخر فعل مثل ذلك ـ ولا أدرى لعله قال: ربط حوتين ـ فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا رائحة، فجاؤوا[2] فسألوه[3]، فقال لهم: لو شئتم صنعتم كما أصنع. فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كثر ذلك. وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم، فأصابهم من المسخ ما أصابهم. فغدوا[4] عليهم جيرانهم مما كانوا[5] حولهم، يطلبون منهم ما يطلب الناس، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم، فنادوا فلم يجيبوهم، فتسوروا عليهم، فإذا هم قردة، فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك، ويدنو منه ويتمسح به[6].

وقد قدمنا في سورة «البقرة»[7] من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية، ولله الحمد والمنة.

القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين.

قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت، شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر. فإذا انقضى السبت، ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شرعا، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخزم أنفه ثم، ضرب له وتداً في الساحل، وربطه وتركه في الماء. فلما كان الغد، أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون، ولا ينهاه منهم أحد، إلا عصبة منهم نهوه، حتى ظهر ذلك في الأسواق، ففعل علانية. قال: فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، فقالوا: سخط أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً: ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم.

وهذا إسناد جيد عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين، أولى من القول بهذا؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾: فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا.

و﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قراءات كثيرة، ومعناه في قول مجاهد: «الشديد»، وفي رواية: «أليم». وقال قتادة: موجع. والكل متقارب، والله أعلم.

---

(١) في م: «فلما كان يوم السبت». (٢) في م: «فأتوه». (٣) في م: «فسألوه عن ذلك فجحدهم»
(٤) في م: «فعدا». (٥) في ك، م: «ممن كان».
(٦) تفسير الطبري (١٣/ ١٩٣).
(٧) سورة البقرة الآية: ٦٠.

وقوله: ﴿خاسئين﴾ أى: ذليلين حقيرين مهانين.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) ﴾.

﴿تأذن﴾: تَفَعَّل من الإذن أى: أعلم، قاله مجاهد. وقال غيره: أمر.

وفى قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلُقِّيَت باللام فى قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أى: على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم.

ويقال: إن موسى، عليه السلام، ضرب عليهم الخراج سبع سنين ـ وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج. ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، ثم صاروا فى(١) قهر النصارى وإذلالهم وإياهم، أخذهم منهم الجزى والخراج، ثم جاء الإسلام، ومحمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فكانوا تحت صفاره وذمته يؤدون الخراج والجزى(٢).

قال العوفى، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال: هى المسكنة، وأخذ الجزية منهم.

وقال على بن أبى طلحة، عنه: هى الجزية، والذين يسومونهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمته، إلى يوم القيامة.

وكذا قال سعيد بن جبير، وابن جُرَيج، والسُّدِّى، وقتادة.

وقال عبد الرزاق: عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجزرى، عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط فى الجزية.

قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار الدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم، عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أى: لمن عصاه وخالف [أمره و](٣) شرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب.

وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن [الله](٤) تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا

---

(١) فى ك، م، أ: «إلى». (٢) فى م: «الجزية».
(٣) زيادة من أ. (٤) زيادة من م.

يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (١٦٩) والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين (١٧٠)﴾.

يذكر تعالى أنه فرقهم فى الأرض أمما، أى: طوائف وفرقاً، كما قال [تعالى][1] : ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

﴿منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ أى: فيهم الصالح وغير ذلك، كما قالت الجن: ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا﴾ [الجن: ١١]، ﴿وبلوناهم﴾ أى: اختبرناهم ﴿بالحسنات والسيئات﴾ أى: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء، ﴿لعلهم يرجعون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة [هذا][2] الكتاب وهو التوراة ـ وقال مجاهد: هم النصارى ـ وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أى: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ كما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه.

وقول مجاهد فى قوله: ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ قال: لا يشرف لهم شىء من الدنيا إلا أخذوه، حلالاً كان أو حرماً، ويتمنون المغفرة، ويقولون: ﴿سيغفر لنا﴾ وإن يجدوا عرضاً مثله يأخذوه.

وقال قتادة فى: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾: أى والله، لخلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم، ورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله فى آية أخرى: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ [مريم: ٥٩]، قال: ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾، تمنوا على الله أمانى، وغرة يغترون بها، ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ لا يشغلهم شىء عن شىء، ولا ينهاهم شىء عن ذلك، كلما هف لهم شىء من [أمر][3] الدنيا أكلوه، ولا يبالون حلالاً كان أو حراماً.

وقال السدى [فى][4] قوله: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ إلى قوله: ﴿ودرسوا ما فيه﴾ قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى فى الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا، فأخذ بعضهم على بعض العهود ألا يفعلوا ولا يرتشى، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشى فى الحكم، فيقول: «سيغفر لى»، فيطعن علية البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع، فإذا مات، أو نزع، وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه، فيرتشى. يقول: وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) زيادة من م.
(٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من م.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ يقول تعالى منكراً عليهم فى صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس، ولا يكتمونه كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال ابن جُرَيْج: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ﴾ قال: فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها.

وقوله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾: يرغبهم تعالى فى جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أى: وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه.

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعَرَض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟ ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أى: اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رفعته الملائكة فوق رؤوسهم.

وقال القاسم بن أبى أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى، عليه السلام، متوجها نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذى أمره(١) الله تعالى [به](٢) ـ أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم، وأبوا أن يقربوها حتى ينتق(٣) الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. رواه النسائى بطوله(٤).

وقال سنيد بن داود فى تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن أبى بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب، أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة، وحدودها خفيفة قبلناها. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها؟ فراجعوا موسى مرارا، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع فى السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربى،

---

(١) فى م: «أمر». (٢) زيادة من أ. (٣) فى د، ك، م: «نتق».
(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٢٦) وهو حديث الفتون وسيأتى إن شاء الله فى سورة طه.

عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها، لأرمنيكم بهذا الجبل. قال: فحدثنى الحسن البصرى قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجلٍ ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فرقاً من أن يسقط [عليه](١)، فكذلك ليس اليوم فى الأرض يهودى يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التى رفعت بها العقوبة. قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده، لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودى على وجه الأرض صغير، ولا كبير، تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه. [أى: حرك كما قال تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] أى يحركونها](٢).

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾.

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة ـ وفى رواية: على هذه الملة ـ فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله [تعالى](٣): إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم(٤) الشياطين فاجتالتهم، عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»(٥).

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى السرى بن يحيى: أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم، عن الأسود بن سريع من بنى سعد، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» قال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو(٦) ينصرانها». قال الحسن: والله لقد قال الله فى كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ](٧)﴾ الآية(٨).

---

(١) زيادة من ك، أ. (٢، ٣) زيادة من ك، م. (٤) فى م: «فجاءت».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥)، وسبق تخريجه هو والذى قبله عند الآية: ٣٠.
(٦) فى م: «و». (٧) زيادة من أ.
(٨) تفسير الطبرى (١٣/ ٣٢١).

وقد رواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن علية، عن يونس بن عبيد، عن الحسن البصرى[(١)]، به. وأخرجه النسائى فى سننه من حديث هُشَيْم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: حدثنا الأسود ابن سَرِيع، فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك[(٢)].

وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلْب آدم، عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين و[إلى][(٣)] أصحاب الشمال، وفى بعضها [(٤)]الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا حَجَّاج، حدثنا شُعْبة، عن أبى عمران الجَوْنى، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به؟» قال: «فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم [(٥)]ألا تشرك بى شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بى».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث شعبة، به[(٦)].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير ـ يعنى ابن حازم ـ عن كلثوم بن جابر[(٧)]، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][(٨)]، عن النبى ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان. يعنى[(٩)]: عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: **﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾** إلى قوله: **﴿الْمُبْطِلُونَ﴾**».

وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم ـ صاعقة ـ عن حسين بن محمد المروزى، به. ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث حسين بن محمد[(١٠)]، به. إلا أن ابن أبى حاتم جعله موقوفا. وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره، عن جرير بن حازم، عن كلثوم بن جَبْر، به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير[(١١)] [(١٢)]. هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث، عن كلثوم بن جَبْر[(١٣)]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فوقفه[(١٤)]. وكذا رواه إسماعيل بن علية ووَكِيع، عن ربيعة بن كلثوم، عن جبير، عن أبيه، به[(١٥)]. وكذا رواه عطاء بن السائب، وحبيب بن أبى ثابت، وعلى بن بَذِيمة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس[(١٦)]، قوله، وكذا رواه العَوْفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن

---

(١) المسند (٣/ ٤٣٥).
(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٦١٦).
(٣) زيادة من ك، م، أ. (٤) فى أ: «وفى بعض». (٥) فى أ: «ظهر أبيك».
(٦) المسند (٣/ ١٢٧) وصحيح البخارى برقم (٣٣٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٥).
(٧) فى ك، م: «جبر»، وفى أ: «جبير». (٨) زيادة من أ. (٩) فى ك، م، أ: «يوم».
(١٠) المسند (١/ ٢٧٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١١٩١) وتفسير الطبرى (١٣/ ٢٢٢) وقال النسائى: «كلثوم هذا ليس بالقوى، وحديثه ليس بالمحفوظ».
(١١) فى ك، م: «جبر».
(١٢) المستدرك (١/ ٢٧).
(١٣) فى أ: «جبير».
(١٤) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٧٢).
(١٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٢٢٤) من طريق ابن علية ورواه (١٣/ ٢٢٩) من طريق وكيع.
(١٦) تفسير الطبرى (١٣/ ٢٢٧ ـ ٢٢٩).

عباس [١] فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا أبى، عن أبى هلال، عن أبى جَمْرَة الضبَعى، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][٢]، قال: أخرج الله ذرية آدم [عليه السلام][٣] من ظهره كهيئة الذر، وهو فى آذِى من الماء.

وقال أيضا: حدثنا على بن سهل، حدثنا ضَمْرَة بن ربيعة، حدثنا أبو مسعود عن جُوبير قال: مات ابن للضحاك بن مُزَاحم، [وهو][٤] ابن ستة أيام. قال: فقال: يا جابر، إذا أنت وضعت ابنى فى لحده، فأبرز وجهه، وحُلّ عنه عقده، فإن ابنى مُجْلَس، ومسؤول. ففعلت به الذى أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله، عمّ يُسأل ابنك؟ من يسأله إياه؟ قال: يُسْأل عن الميثاق الذى أقر به فى[٥] صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذى أقر به فى[٦] صلب آدم؟ قال: حدثنى ابن عباس [رضى الله عنه][٧] ؛أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها[٨] إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم فى صلبه. فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف[٩] به، لم ينفعه الميثاق الأول. ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول على الفطرة[١٠].

فهذه الطرق كلها مما تقوِّى وَقْف هذا على ابن عباس، والله أعلم.

حديث آخر: وقال ابن جرير: حدثنا عبد الرحمن بن الوليد، حدثنا أحمد بن أبى طيبة، عن سفيان بن سعيد، عن الأجلح، عن الضحاك وعن[١١] ـ منصور، عن مجاهد ـ عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم﴾** قال: «أخذوا من ظهره، كما يؤخذ بالمشط من الرأس، فقال لهم: **﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾** ، قالت الملائكة: **﴿شَهِدْنَا أَن يَقُولُوا[١٢] يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾**»[١٣].

أحمد بن أبى طيبة هذا هو: أبو محمد الجرجانى قاضى قومس، كان أحد الزهاد، أخرج له النسائى فى سننه، وقال أبو حاتم الرازى: يكتب حديثه. وقال ابن عَدِىّ: حدث بأحاديث أكثرها[١٤] غرائب.

وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، عن سفيان الثورى، عن منصور، عن مجاهد،

---

(١) تفسير الطبرى (١٣/ ٢٣٦، ٢٣٧).
(٢، ٣) زيادة من أ. (٤) زيادة من م. (٥، ٦) فى ك، م، أ: «من».
(٧) زيادة من أ. (٨) فى ك، م، أ: «خالقها». (٩) فى ك، م: «يقر».
(١٠) تفسير الطبرى (١٣/ ٢٣٠).
(١١) فى م: «بن». (١٢) فى أ: «تقولوا».
(١٣) تفسير الطبرى (١٣/ ٢٣٢) قال الطبرى: «ولاأعلمه صحيحاً؛ لأن الثقات الذين يعتمد على حفظهم واتقانهم، حدثوا بهذا الحديث عن الثورى فوقفوه على عبد الله بن عمرو، ولم يرفعوه ولم يذكروا فى الحديث هذا الحرف الذى ذكره أحمد بن أبى طيبة عنه».
(١٤) فى ك، م، أ: «كثيرة».

عن عبد الله بن عمرو، قوله، وكذا رواه جرير، عن منصور، به. وهذا أصح[(١)]، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح ـ هو ابن عبادة ـ حدثنا مالك، وحدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن زيد بن أبى أُنَيْسَةَ: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أخبره، عن مسلم بن يَسار الجُهَنى: أن عمر بن الخطاب سُئِل عن هذه الآية: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ**﴾ الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ، سُئِل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم، عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة، استعمله بأعمال[(٢)] أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله[(٣)] به الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله[(٤)] به النار».

وهكذا رواه أبو داود عن القَعْنَبى ـ والنسائى عن قتيبة ـ والترمذى[(٥)]، عن إسحاق بن موسى، عن مَعْن. وابن أبى حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب. وابن جرير من حديث روح ابن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر. وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، من رواية أبى مصعب الزبيرى، كلهم عن الإمام مالك بن أنس، به[(٦)].

قال الترمذى: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يَسَار لم يسمع[(٧)] عُمَر. وكذا قاله أبو حاتم وأبو زُرْعَة. زاد أبو حاتم: وبينهما نُعَيْم بن ربيعة.

وهذا الذى قاله أبو حاتم، رواه أبو داود فى سننه، عن محمد بن مصفى، عن بَقِيَّةَ، عن عمر ابن جُعْثُم[(٨)] القرشى، عن زيد بن أبى أُنَيْسَةَ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يَسَار الجهنى، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٩)]، وقد سئل عن هذه الآية: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾، فذكره[(١٠)].

وقال الحافظ الدارقطنى: وقد تابع عمر بن جُعْثُم يزيد بن سِنان أبو فَرْوَة الرَّهَاوى، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك، والله أعلم[(١١)].

قلت: الظاهر أن الإمام مالكاً إنما أسقط ذكر «نعيم بن ربيعة» عمداً؛ لما جهل حاله ولم يعرفه،

---

(١) تفسير الطبرى (١٣/ ٢٣٣).
(٢) فى ك، م، أ: «بعمل». (٣) فى ك، م، أ: «فيدخل». (٤) فى أ: «فيدخل».
(٥) فى ك، م، أ: «والترمذى فى تفسيرهما».
(٦) المسند (١/ ٤٤) وسنن أبى داود برقم (٤٧٠٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١١٩٠) وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٥) وتفسير الطبرى (١٣/ ٢٣٣).
(٧) فى أ: «لم يسمع من». (٨) فى أ: «عمرو بن خثعم». (٩) زيادة من أ.
(١٠) سنن أبى داود برقم (٤٧٠٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٢٣٥) من طريق محمد بن مصفى، به.
(١١) العلل للدارقطنى (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٣).

فإنه غير معروف إلا فى هذا الحديث، وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم؛ ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات، ويقطع كثيراً من الموصولات، والله أعلم.

حديث آخر: قال الترمذى عند تفسيره هذه الآية: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][١] قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله [عز وجل][٢] آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نَسَمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وَبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أى رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذرّيتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه وَبيص ما بين عينيه، فقال: أى رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذُرّيتك، يقال له: داود. قال: رب، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أى رب، زده من عمرى أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمرى أربعون[٣] سنة؟ قال: أوَ لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته، وخَطِئ آدم فخَطئت ذريته».

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقد رُوى من غير وجه عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ.

ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث أبى نُعَيْم الفضل بن دُكَيْن، به. وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[٤].

ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه حدثه عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، فذكر نحو ما تقدم، إلى أن قال: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم، هؤلاء ذريتك. وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب، لم فعلت هذا بذريتى؟ قال: كى تشكر نعمتى. وقال آدم: يا رب، من هؤلاء الذين أراهم أظْهَرَ الناس نورا؟ قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك». ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم[٥].

حديث آخر: قال عبد الرحمن بن قتادة النَّصْرى[٦]، عن أبيه، عن هشام بن حكيم، رضى الله عنه، أن رجلاً سأل النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أتبدأ الأعمال، أم قد قُضِى القضاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم فى كفيه» ثم قال: «هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار، فأهل الجنة مُيَسَّرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار مُيَسَّرون لعمل أهل النار».

رواه ابن جرير، وابن مردويه من طرق عنه[٧].

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى د، أ: «أربعين».
(٤) سنن الترمذى برقم (٣٠٧٦) والمستدرك (٢/ ٣٢٥).
(٥) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٠١٥) من طريق محمد بن شعيب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، به. وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف.
(٦) فى أ: «البصرى».
(٧) تفسير الطبرى (١٣/ ٢٤٤) وقد توسع الشيخ محمود شاكر فى الكلام عليه فى الحاشية بما يغنى عن إعادته هنا.

حديث آخر: روى جعفر بن الزبير ـ وهو ضعيف ـ عن القاسم، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق، وقضى القضية، أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله، فقال: يا أصحاب اليمين. فقالوا: لبيك وسعديك. قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. قال: يا أصحاب الشمال. قالوا: لبيك وسعديك. قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. ثم خلط بينهم، فقال قائل: يا رب، لم خلطت بينهم؟ قال: لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ثم ردهم فى صلب آدم [عليه السلام][(١)]». رواه ابن مردويه[(٢)].

أثر آخر: قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أُبى بن كعب [رضى الله عنه][(٣)] فى قول الله تعالى[(٤)]: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾، الآية والتى بعدها، قال: فجمعهم له يومئذ جميعا، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحاً ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، الآية. قال: فإنى أشهد عليكم السموات السبع، والأرَضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيرى، ولا رب غيرى، فلا تشركوا بى شيئاً، وإنى سأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم[(٥)] عهدى وميثاقى، وأنزل عليكم كتبى. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك. فأقروا له يومئذ بالطاعة، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغنى والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب، لو سَوّيت بين عبادك؟ قال: إنى أحببت أن أُشكر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السرُج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذى يقول تعالى[(٦)]: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ** [**وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**][(٧)]﴾ [الأحزاب: ٧]، وهو الذى يقول: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ** [**الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**][(٨)]﴾ الآية [الروم: ٣٠]، ومن ذلك قال: ﴿**هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ**﴾ [النجم: ٥٦] ،ومن ذلك قال: ﴿**وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ** [**وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ**][(٩)]﴾ [الأعراف: ١٠٢].

رواه عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه، ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير وابن مَرْدُويه فى تفاسيرهم،من رواية أبى جعفر الرازى، به. وروى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدى، وغير واحد من علماء السلف، سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل بتلك الآثار كلها، وبالله المستعان.

---

(١) زيادة من أ.

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٨٧) من طريق عثمان بن الهيثم، عن جعفر بن الزبير به. وجعفر بن الزبير ضعيف جدًا، وقد توبع:

تابعه بشر بن نمير عن القاسم عن أبى أمامة بنحوه. ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٢٢٨) والعقيلى فى الضعفاء الكبير (١/ ٥١)، ولكن لم يفرح بهذه المتابعة فإن بشر بن نمير متروك متهم.

(٣) زيادة من أ. (٤) فى أ: «الله عز وجل». (٥) فى أ: «ينذرونكم».

(٦) فى أ: «عز وجل». (٧) زيادة من م، أ، وفى هـ: «الآية». (٨) زيادة من ك، م، أ.

(٩) زيادة من د، ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

فهذه الأحاديث دالة على أن الله، عز وجل، استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار. وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبر[١]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][٢]، وفى حديث عبد الله بن عمرو [رضى الله عنهما][٣]، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم. ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد، كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمَار المُجَاشعى، ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سَرِيع. وقد فسر الحسن البصرى الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾، ولم يقل: «من آدم»، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: «من ظهره» ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: جعل نسلهم جيلا بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أى: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول، كما قال[تعالى][٤]: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾[الأنعام: ١٣٠] الآية، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أى: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكَذَلِكَ[٥] قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتارة يكون بالحال، كما فى قوله: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[إبراهيم: ٣٤]، قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال[٦]، لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كاف فى وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه على الفطرة التى فُطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَن يَقُولُوا﴾[٧] أى: لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أى: [عن][٨] التوحيد ﴿غَافِلِينَ. أَوْ يَقُولُوا[٩] إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ الآية.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾.

قال عبد الرزاق، عن سفيان الثورى، عن الأعمش ومنصور، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق،

---

(١) فى أ: «جبير». (٢ ـ ٤) زيادة من أ. (٥) فى ك: «وكذا»، وفى م: «وهذا كقوله».
(٦) فى م، أ: «قاله». (٧) فى ك، م، أ: «تقولوا». (٨) زيادة من م، أ.
(٩) فى م: «تقولوا».

عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، فى قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا [فَأَتْبَعَهُ][(١)]﴾ الآية، قال: هو رجل من بنى إسرائيل، يقال له: بَلْعم بن أبَرَ. وكذا رواه شعبة وغير واحد، عن منصور، به.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][(٢)]: هو صيفى بن الراهب.

قال قتادة: وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيما ببيت[(٣)] المقدس مع الجبارين.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][(٤)]: هو رجل من أهل اليمن، يقال له: بَلْعَم، آتاه الله آياته فتركها.

وقال مالك بن دينار: كان من علماء بنى إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه فى الشدائد، بعثه نبى الله موسى إلى ملك مَدْين يدعوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى، عليه السلام.

وقال سفيان بن عيينة، عن حُصَين، عن عمران بن الحارث، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][(٥)]: هو بلعم بن باعر. وكذا قال مجاهد وعكرمة.

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن مغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][(٦)] قال: هو بلعام ـ وقالت ثقيف: هو أمية بن أبى الصلت.

وقال شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن نافع بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو [رضى الله عنهما][(٧)] فى قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ [آيَاتِنَا][(٨)]﴾، قال: هو صاحبكم أمية بن أبى الصلت.

وقد روى من غير وجه، عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبى الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قبحه الله [تعالى][(٩)] [(١٠)]. وقد جاء فى بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه»؛ فإن له أشعاراً ربانية وحكما وفصاحة، ولكن لم يشرح الله صدره للإسلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن أبى سعيد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال: هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعل لى منها واحدة. قال:

---

(١) زيادة من ك. (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «بيت».
(٤ ـ ٧) زيادة من أ. (٨) زيادة من ك، م، أ. (٩) زيادة من أ.
(١٠) انظر: العقيدة فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٠).

فلك واحدة، فما الذى تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل. فدعا الله، فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل، فلما علمت أن[١] ليس فيهم مثلها رغبت عنه، وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبة، فصارت كلبة، فذهبت دعوتان. فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار، قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردها إلى الحال التى كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث، وسميت البسوس.[٢] غريب.

وأما المشهور فى سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين فى زمان بنى إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين، يقال له: «بلعام»[٣]، وكان يعلم اسم الله الأكبر.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره من علماء السلف: كان [رجلا][٤] مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه.

وأغرب، بل أبعد، بل أخطأ من قال: كان قد[٥] أوتى النبوة فانسلخ منها. حكاه ابن جرير، عن بعضهم، ولا يصح[٦].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم ـ يعنى بالجبارين ـ ومن معه، أتاه يعنى بلعام[٧] ـ أتاه بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه. قال: إنى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياى وآخرتى. فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ [فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ][٨]﴾.

وقال السدى: إن الله لما انقضت الأربعون سنة التى قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦]، بعث يوشع بن نون نبيا، فدعا بنى إسرائيل، فأخبرهم أنه نبى، وأن الله [قد][٩] أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه. وانطلق رجل من بنى إسرائيل يقال له: «بلعم» وكان عالماً، يعلم الاسم الأعظم المكتوم، فكفر ـ لعنه الله ـ وأتى الجبارين وقال لهم: لا ترهبوا بنى إسرائيل، فإنى إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون! وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتى النساء، يعظمهن[١٠]، فكان ينكح أتانا له، وهو الذى قال الله تعالى[١١]: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾.

---

(١) فى أ: «أنه».
(٢) ورواه أبو الشيخ فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٣/٦٠٨).
(٣) فى د، ك، م، أ: «بلعم». (٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «من قال أنه».
(٦) تفسير الطبرى (١٣/٢٥٩).
(٧) فى د، ك، م، أ: «بلعم». (٨) زيادة من د، ك، م، أ. وفى هـ: «الآية». (٩) زيادة من د، أ.
(١٠) فى أ: «لعظمهن». (١١) فى أ: «الله عز وجل».

وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: من الهالكين الحائرين[١] البائرين.

وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا محمد بن بكر، عن الصلت بن بَهْرام، حدثنا الحسن، حدثنا جُنْدُب البجلي في هذا المسجد؛ أن حذيفة ـ يعني ابن اليمان، رضي الله عنه ـ حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجُل قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رِدْء الإسلام اعتراه[٢] إلى ماشاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي».

هذا إسناد جيد[٣] ، والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين، ولم يرم بشيء سوى الإرجاء، وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: لرفعناه من التدنس عن[٤] قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرّته كما غرت غيره من غير أولي البصائر[٥] والنهى.

وقال أبو الزاهرية في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ قال: تراءى له الشيطان على غَلْوة من قنطرة بانياس، فسجدت الحمارة لله، وسجد بلعام للشيطان. وكذا قال عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَير، وغير واحد.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: وكان من قصة هذا الرجل: ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه: أنه سُئِل عن هذه الآية: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا [فَانسَلَخَ مِنْهَا][٦]﴾، فحدث عن سيار أنه كان رجلاً يقال له بلعام، وكان قد أوتي النبوة وكان مجاب الدعوة، قال: وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام ـ أو قال: الشام ـ قال: فرُعب الناس منه رعباً شديداً، قال: فأتوا بلعام، فقالوا: ادع الله على هذا الرجل وجيشه! قال: حتى أوامر ربي ـ أو: حتى أؤامر ـ قال: فوامر في الدعاء عليهم، فقيل له: لا تدع عليهم، فإنهم عبادي، وفيهم نبيهم. قال: فقال لقومه: إني قد وامرت ربي في الدعاء عليهم، وإني قد نهيت. فأهدوا له هدية فقبلها، ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم. فقال: حتى أوامر. فوامر، فلم يَحُر إليه شيء. فقال: قد وامرت فلم يَحُر إلي شيء! فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم، جرى على لسانه الدعاء على قومه، وإذا أراد أن يدعو أن يفتح

(١) في أ: «الجائرين». (٢) في أ: «اعتره».
(٣) ورواه البزار في مسنده برقم (١٧٥) من طريق: حدثنا محمد بن مرزوق والحسن بن أبي كبشة، حدثنا محمد بن بكر البرساني به. قال الهيثمي في المجمع (١/١٨٨): «إسناده حسن».
(٤) في أ: «من». (٥) في أ: «الأبصار». (٦) زيادة من أ.

لقومه[١]، دعا أن يفتح لموسى وجيشه ـ أو نحواً من ذا إن شاء الله. قال [٢]: ما نراك تدعو إلا علينا. قال: ما يجرى على لسانى إلا هكذا، ولو دعوت عليه أيضا ما استجيب لى، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم. إن الله يبغض الزنا، وإنهم إن وقعوا بالزنا هلكوا، ورجوت أن يهلكهم الله، فأخرجوا النساء يَسْتقبلنهم[٣]؛ فإنهم قوم مسافرون، فعسى أن يزنوا فيهلكوا. قال: ففعلوا. قال: فأخرجوا النساء يستقبلنهم. قال: وكان للملك ابنة، فذكر من عظمها ما الله أعلم به! قال: فقال أبوها ـ أو بلعام ـ: لا تمكنى نفسك إلا من موسى! قال: ووقعوا فى الزنا. قال: وأتاها رأس سبط من أسباط بنى إسرائيل، قال: فأرادها على نفسه، فقالت: ما أنا بممكنة نفسى إلا من موسى. قال: فقال: إن منزلتى[٤] كذا وكذا، وإن من حالى كذا وكذا. قال: فأرسلت إلى أبيها تستأمره، قال: فقال لها: فأمكنيه قال: ويأتيهما رجل من بنى هارون ومعه الرمح فيطعنهما. قال: وأيده الله بقوة. فانتظمهما جميعا، ورفعهما على رمحه[٥]، فرآهما الناس ـ أو كما حدَّث ـ قال: وسلط الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفا.

قال أبو المعتمر: فحدثنى سَيَّار: أن بلعاماً ركب حمارة له حتى [٦] أتى العلولى[٧] ـ أو قال: طريقا من العلولى[٧] ـ جعل يضربها ولا تُقْدِم، وقامت عليه فقالت: علام تضربنى؟ أما ترى هذا الذى بين يديك؟ فإذا الشيطان بين يديه، قال: فنزل وسجد له، قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال: فحدثنى بهذا سيار، ولا أدرى لعله قد دخل فيه شىء من حديث غيره.

قلت: هو بلعام ـ ويقال: بلعم ـ بن باعوراء، ابن أبر. ويقال: ابن باعور بن شهوم[٨] بن قوشتم ابن ماب بن لوط بن هاران ـ ويقال: ابن حران ـ بن آزر. وكان يسكن قرية من قرى البلقاء.

قال ابن عساكر: وهو الذى كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ من دينه، له ذكر فى القرآن. ثم أورد[٩] من قصته نحوا مما ذكرنا هاهنا، وأورده عن وهب وغيره، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبى النضر؛ أنه حدث: أن موسى، عليه السلام، لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل، وإنا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم. قال: ويلكم! نبى الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا له: ما لنا من منزل! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه، حتى فتنوه فافتتن، فركب حمارة[١٠] له متوجهاً إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل، وهو جبل حُسْبان، فلما سار عليها غير كثير، ربضت به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا

---

(١) فى م: «على قومه».
(٢) زفى أ: «فقالوا له».
(٣) فى أ: «تستقبلهم».
(٤) فى أ: «إن من منزلتى».
(٥) فى م: «على رأس رمحه».
(٦) فى أ: «حتى إذا».
(٧) فى ك: «العلوى».
(٨) فى أ: «شهتوم».
(٩) فى أ: «ثم ذكر».
(١٠) فى م، أ: «حماراً».

أذلقها قامت فركبها. فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به، فضربها حتى إذا أذلقها أذن الله لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم: أين تذهب؟ أما[١] ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو[٢] عليهم؟ فلم ينزع عنها يضربها، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك. فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان، على عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه! قال: واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جَمِّلوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفِيتموهم، ففعلوا. فلما دخل النساء العسكر، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها «كسبى ابنة صور، رأس أمته» برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو «زمرى بن شلوم»، رأس سبط سمعان بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام، فقام إليها، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى، عليه السلام، فقال: إني أظنك ستقول هذا حرام عليك؟ قال: أجل، هي حرام عليك، لا تقربها. قال: فوالله لا نطيعك في هذا. ثم دخل بها قبته فوقع عليها. وأرسل الله، عز وجل، الطاعون في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون، صاحب أمر موسى، وكان غائبا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت من حديد كلها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان، فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لَحْيَيْه ـ وكان بكر العيزار ـ وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك. ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفا ـ والمقلل لهم يقول: عشرون ألفا ـ في ساعة من النهار. فمن هنالك تعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القبة والذراع واللَّحْي ـ لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحييه ـ والبكر من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار. ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا [فَأَتْبَعَهُ الشيطان][٣]﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿فمثله كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾: اختلف المفسرون في معناه[٥] فأما على سياق ابن إسحاق، عن سالم بن أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره ـ فتشبيهه بالكلب في لهثه[٦] في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك. وقيل: معناه: فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لهثه[١] في حالتيه، إن

---

(١) في ك، م: «ألا». (٢) في أ: «تدعو». (٣) زيادة من أ.

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٦٤).

(٥) في أ: «في معنى هذا». (٦) في د، ك، م: «لهيثه».

حملت عليه وإن تركته، هو يلهث فى الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه؛ كما قال تعالى: ﴿سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة: ٦]، ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ [التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك.

وقيل: معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال، ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوجيب[٢]، فعبر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصرى وغيره.

وقوله تعالى: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فاقصص القصص لعلهم﴾ أى: لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له فى إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه ـ فى تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى، وإذا دعى به أجاب ـ فى غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله فى ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران، [عليه السلام][٣]؛ ولهذا قال: ﴿لعلهم يتفكرون﴾ أى: فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإن الله قد أعطاهم علماً، وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به؛ ولهذا من خالف منهم فى كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وقوله: ﴿ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾: يقول تعالى: ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، أى: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى[٤] لا همة لها[٥] إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيِّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيها بالكلب، وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه»[٦].

وقوله: ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أى: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم، بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾.

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

---

(١) فى د، ك، م: «لهيثه». (٢) فى أ: «الوجيف». (٣) زيادة من ك.
(٤) فى د، ك: «الذين». (٥) فى ك، م: «لهم».
(٦) صحيح البخارى برقم (٢٦٢٢).

الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وغيرهم(١).

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٧٩)﴾.

يقول تعالى: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾** أى: خلقنا وجعلنا **﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾** أى: هيأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده فى كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد فى صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»(٢).

وفى صحيح مسلم أيضا، من حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، أنها قالت: دعى رسول الله ﷺ إلى جنازة صبى من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال [رسول الله ﷺ](٣): «أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلا، وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها(٤) أهلاً، وهم فى أصلاب آبائهم»(٥).

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود [رضى الله عنه](٦): «ثم يبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم(٧) سعيد».

وتقدم أن الله [تعالى](٨) لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالى، وهؤلاء للنار ولا أبالى».

والأحاديث فى هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: **﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾** يعنى: ليس ينتفعون بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله [سببا للهداية](٩)، كما قال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ [وحاق بهم ما كانوا به يستهزون](١٠)﴾** [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾** [البقرة: ١٨]، هذا فى حق المنافقين، وقال فى حق الكافرين: **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾** [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صمًا بكمًا عميًا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: **﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ**

---

(١) المسند (١/٣٩٢) وسنن أبى داود برقم (١٠٩٧) وسنن النسائى (٦/٨٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٩٢).
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣).
(٣) زيادة من د.
(٤) فى د، ك، م: «للنار».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٢).
(٦) زيادة من أ.
(٧) فى ك، م، أ: «أو».
(٨) زيادة من أ.
(٩) زيادة من د، ك، م، أ.
(١٠) زيادة من أ. وفى هـ: «الآية».

فيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ﴾ أى: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع[١] بهذه الحواس منها إلا فى الذى يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً [صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ][٢]﴾ [البقرة: ١٧١] أى: ومثلهم ـ فى حال دعائهم إلى الإيمان ـ كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه[٣] ما يقول؛ ولهذا قال فى هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أى: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفقه[٤] ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده، ومن كفر به[٥] من البشر، كانت الدواب أتم منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾.

عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عنه[٦]. رواه البخارى، عن أبى اليمان، عن شعيب بن أبى حمزة، عن أبى الزناد به[٧]. وأخرجه الترمذى، عن الجوزجانى، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر»: هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولى، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر،

---

(١) فى ك، م: «لا ينتفع». (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «لا نفهم».
(٤) فى أ: «تفعل». (٥) فى أ: «بالله».
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٤١٠) وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧).
(٧) صحيح البخارى برقم (٧٣٩٢).

الظاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البر، التواب، المنتقم، العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقى، الوارث، الرشيد، الصبور[١].

ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٢]، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث.

ورواه ابن حبان فى صحيحه، من طريق صفوان، به[٣]. وقد رواه ابن ماجه فى سننه، من طريق آخر[٤]، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبى هريرة مرفوعا[٥]، فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان.

والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أى: أنهم جمعوها من القرآن كما ورد[٦] عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى، والله أعلم.

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين[٧]، بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبى سلمة الجهنى، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إنى عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أعلمته[٨] أحداً من خلقك، أو أنزلته فى كتابك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً». فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى، ينبغى لكل من سمعها[٩] أن يتعلمها».

وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بمثله[١٠].

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه: «الأحوذى فى شرح الترمذى»؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم.

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا «اللات[١١]» فى أسماء الله.

---

(١) بعدها فى م: «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير». (٢) زيادة من أ.
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٥٠٧).
(٤) فى أ: «أخرى».
(٥) سنن ابن ماجة برقم (٣٨٦١)، وقال البوصيرى: «إسناد طريق ابن ماجة ضعيف لضعف عبد الملك بن محمد الصنعانى».
(٦) فى ك، م، أ: «روى». (٧) فى د: «تسعة وتسعين». (٨) فى م: «علمته».
(٩) فى أ: «ينبغى لمن سمعها».
(١٠) المسند (١/ ٣٩٢)، وصحيح ابن حبان برقم (٢٣٧٢) «موارد».
(١١) فى أ: «اللات والعزى».

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: اشتقوا «اللات» من الله، واشتقوا «العزى» من العزيز.

وقال قتادة: ﴿يلْحِدُونَ﴾ يشركون. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب.

وأصل الإلحاد فى كلام العرب: العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد فى القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أى: ومن الأمم ﴿أُمَّةٌ﴾ قائمة بالحق، قولاً وعملاً، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، يقولونه ويدعون إليه، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: يعملون ويقضون.

وقد جاء فى الآثار: أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية، هى هذه الأمة المحمدية.

قال سعيد، عن قتادة فى تفسير هذه الآية: بلغنا أن نبى الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]»(١).

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتى قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل»(٢).

وفى الصحيحين، عن معاوية بن أبى سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة ـ وفى رواية ـ: حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ـ وفى رواية ـ: وهم بالشام»(٣).

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا(٤) أنهم على شىء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أى: وسأملى لهم، أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أى: قوى شديد.

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٢٨٦)، وهو مرسل.

(٢) رواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج أحاديث الكشاف للزيلعى (١/ ٤٧٤).

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٦٤١) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٧).

(٤) فى أ: «ويعتقدون».

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ يعنى محمداً ـ صلوات الله وسلامه عليه(١)، ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ أى: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعى به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا لله قياما خالصا لله، ليس فيه تعصب ولا عناد، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ أى: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله: أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك، بان لكم وظهر أنه رسول [الله](٢) حقاً وصدقاً.

وقال قتادة بن دعامة: ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان على الصفا، فدعا قريشاً فجعل يُفَخِّذهم فَخذًا فَخذًا: «يا بنى فلان، يا بنى فلان»، فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون. بات يصوت إلى الصباح ـ أو: حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٣).

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ ـ هؤلاء المكذبون بآياتنا ـ فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض، وفيما خلق [الله](٤) من شىء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومنْ فعلِ من لا ينبغى أن تكون(٥) العباد. والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأى تخويف وتحذير وترهيب ـ بعد تحذير محمد وترهيبه، الذى آتاهم به من عند الله فى آى كتابه ـ يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله، عز وجل؟!

وقد روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى وعفان(٦) بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جُدْعَان، عن أبى الصلت، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى، لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوقى، فإذا أنا برعد وبرق وصواعق»، قال: «وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، قلت: من

(١) فى أ: «ﷺ». (٢) زيادة من د، ك، م، أ.
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٢٨٩).
(٤) زيادة من م.
(٥) فى ك، أ: «يكون». (٦) فى أ: «عثمان».

هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا. فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل منى، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات[(١)]، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين[(٢)] يُحَرِّفون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب».

على بن زيد بن جدعان له منكرات[(٣)].

ثم قال تعالى:

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾.

يقول تعالى: من كُتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزى[(٤)] عنه شيئا، ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[المائدة: ٤١]، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قيل: نزلت فى قريش. وقيل: فى نفر من اليهود. والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: «منتهاها» أى: متى محطها؟ وأيان آخر مدة الدنيا الذى هو أول وقت الساعة؟

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾: أمر تعالى نبيه ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة، أن يردَّ علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذى يجليها لوقتها، أى: يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، [أى][(٥)]: لا يعلم ذلك [أحد][(٦)] إلا هو تعالى؛ ولهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة فى قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض إنهم لا يعلمون.

قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت، ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول: كَبُرَت عليهم.

---

(١) فى م: «وأصوات عالية». (٢) فى أ: «هذه أصوات الشياطين».
(٣) المسند (٢/ ٣٥٣).
(٤) فى م، ك: «لا يجدى». (٥) زيادة من م. (٦) زيادة من أ.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، قال: ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة.

وقال ابن جُرَيْج: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال: إذا جاءت انشقت السماء[١]، وانتثرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله، عز وجل[٢]، فذلك ثقلها.

واختار ابن جرير، رحمه الله: أن المراد: ثَقُلَ علم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال[٣] قتادة.

وهو كما قالاه، كقوله تعالى: ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً﴾، ولا ينفى ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم.

وقال السدى [فى قوله تعالى][٤]: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يقول: خفيت فى السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب، ولا نبى مرسل.
﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً﴾[قال][٥]: يبغتهم قيامها، تأتيهم على غفلة.

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً﴾: قضى الله أنها ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً﴾. قال: وذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال[٦]: «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقى ماشيته، والرجل يقيم سلعته فى السوق ويخفض ميزانه ويرفعه»[٧].

وقال البخارى: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما[٨] بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومَنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقْحته فلا يَطْعَمُه. ولتقومَنَّ الساعة وهو يَلِيط حوضه فلا يسقى فيه. ولتقومَنَّ الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[٩].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنى زهير بن حرب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ قال: «تقوم الساعة والرجل يحلب اللِّقْحَة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة. والرجلان[١٠] يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم. والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم»[١١].

وقوله [تعالى][١٢]: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فقيل: معناه: كما قال[١٣] العوفى عن ابن عباس: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأن بينك وبينهم مودة،

---

(١) فى أ: «السموات». (٢) فى أ: «الله تعالى». (٣) فى م، أ: «قاله».
(٤) زيادة من م. (٥) زيادة من أ. (٦) فى م: «كان يقول».
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٢٩٧) والثعلبى فى تفسيره كما فى «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعى (١/ ٤٧٥) وهو مرسل.
(٨) فى م: «ثوبا». (٩) صحيح البخارى برقم (٦٥٠٦). (١٠) فى ك: «والرجل».
(١١) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٤). (١٢) زيادة من ك، م، أ.
(١٣) فى ك، م، أ: «فقيل معناه: كأنك حفى بها كما قال».

كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدا حفى بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً.

وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسرّ إلينا متى الساعة. فقال الله، عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وأبى مالك، والسُّدِّى، وهذا قول. والصحيح عن مجاهد ـ من رواية ابن أبى نَجِيح وغيره ـ: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، قال: استَحْفَيت عنها السؤال، حتى علمت وقتها.

وكذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾.

وقال معمر، عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

ولهذا القول أرجح فى المعنى من الأول، والله أعلم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

ولهذا لما جاء جبريل، عليه السلام، فى صورة أعرابى، يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أى: لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبى ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية[(١)].

وفى رواية: فسأله عن أشراط الساعة، ثم قال: «فى خمس لا يعلمهن إلا الله». وقرأ هذه الآية، وفى هذا كله يقول له بعد كل جواب: «صدقت»؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم [(٢)] دينكم»[(٣)].

وفى رواية قال: «وما أتانى فى صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه».

وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد، فى أول شرح صحيح البخارى، ولله الحمد والمنة[(٤)].

ولما سأله ذلك الأعرابى وناداه بصوت جهورى فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: هاء[(٥)] ـ

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٩).

(٢) فى م، أ: «يعلمكم أمر».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٩).

(٤) وانظر هذا المطلب فى: شرح الحافظ ابن حجر «فتح البارى» (١/ ١١٤).

(٥) فى أ: «هاؤم».

على نحو من صوته ـ قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كبير[١] صلاة ولا صيام، ولكنى أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث[٢].

وهذا له طرق متعددة فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «المرء مع من أحب»[٣]، وهى متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين.

ففيه أنه، عليه السلام، كان إذا سئل عن هذا الذى لا يحتاجون إلى عمله، أرشدهم إلى ما هو الأهم فى حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته.

ولهذا قال مسلم فى صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا: حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر[٤] إلى أحدث إنسان[٥] منهم فقال: «إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت ساعتكم»[٦]. يعنى بذلك موتهم الذى يفضى بهم إلى الحصول فى برزخ الدار الآخرة.

ثم قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا يونس بن محمد، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد، فقال رسول الله ﷺ: «إن يعش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهَرَم حتى تقوم الساعة». انفرد به مسلم[٧].

وحدثنا حجاج بن الشاعر، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزى[٨]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه؛ أن رجلا سأل النبى ﷺ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هُنَيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إن عُمِّرَ هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة» ـ قال أنس: ذلك الغلام من أترابى[٩].

وقال: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبة ـ وكان من أقرانى[١٠] ـ فقال للنبى ﷺ: «إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة»[١١].

---

(١) فى أ: «كثير».
(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك، رضى الله عنه.
(٣) جاء من حديث أنس بن مالك وصفوان بن عسال وعبد الله بن مسعود وأبى موسى الأشعرى:.
أما حديث أنس بن مالك فهو السابق ذكره.
وأما حديث صفوان بن عسال فرواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٣٥).
وأما حديث عبد الله بن مسعود فرواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٦٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٤٠).
وأما حديث أبى موسى الأشعرى فرواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٧٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٤١).
(٤) فى ك، م: «فينظر». (٥) فى ك، م، أ: «أسنان».
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٢).
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٣).
(٨) فى ك، م، أ: «سعيد بن أبى هلال المصرى».
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٣).
(١٠) فى ك، م: «أترابى».
(١١) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٣).

ورواه البخارى فى كتاب «الأدب» من صحيحه، عن عمرو بن عاصم، عن همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس؛ أن رجلا من أهل البادية قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فذكر الحديث، وفى آخره: «فمر غلام للمغيرة بن شعبة»، وذكره[(١)].

وهذا الإطلاق فى هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» فى حديث عائشة، رضى الله عنها.

وقال ابن جُرَيْج: أخبرنى أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ قبل[(٢)] أن يموت بشهر، قال: «تسألونى عن الساعة، وإنما علمها عند الله. وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة، تأتى عليها مائة سنة» رواه مسلم[(٣)].

وفى الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أنبأنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن عَفَازة[(٤)]، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، عن رسول الله[(٥)] ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى»، قال: «فتذاكروا أمر الساعة»، قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم، عليه السلام، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، عز وجل، وفيما عهد إلىَّ ربى، عز وجل، أن الدجال خارج»، قال: «ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص»، قال: «فيهلكه الله، عز وجل، إذا رآنى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافرًا تعالى فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، عز وجل، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم»، قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه»، قال: «ثم يرجع الناس إلىَّ فيشكونهم، فأدعو[(٦)] الله، عز وجل، عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تَجْوَى الأرض من نتن ريحهم ـ أى: تُنْتِن ـ» قال: «فينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى[(٧)] البحر».

قال أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم ـ ثم رجع إلى حديث هشيم قال: ففيما عهد إلى ربى، عز وجل، أن ذلك إذا كان كذلك، فإن[(٨)] الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادها[(٩)] ليلا أو نهارا[(١٠)].

ورواه ابن ماجه، عن بُنْدَار عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حَوْشَب بسنده، نحوه[(١١)].

فهؤلاء أكابر أولى العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما ردوا

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦١٦٧).
(٢) فى ك: «يقول قبل».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٣٨).
(٤) فى م: «غفارة»، وفى ك: «عفان».
(٥) فى م: «عن النبى».
(٦) فى م: «وادعوا».
(٧) فى أ: «إلى».
(٨) فى أ: «تكون».
(٩) فى د، ك: «بولادتها».
(١٠) المسند (١/ ٣٧٥).
(١١) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٨١) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٦١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، مؤثر بن عفازة ذكره ابن حبان فى الثقات، وباقى رجال الإسناد ثقات».

الأمر إلى عيسى عليه السلام، فتكلم على أشراطها؛ لأنه ينزل فى آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ، ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبى بُكَير(١)، حدثنا عبيد الله بن إياد بن لَقِيط(٢) قال: سمعت أبى يذكر عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «علمها عند ربى لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم(٣) بمشاريطها، وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاً»، قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فالهرج ما هو؟ قال بلسان الحبشة: «القتل». قال(٤): «ويُلقَى بين الناس التَّنَاكرُ، فلا يكاد أحد يعرف أحداً»(٥). لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال وكيع: حدثنا ابن أبى خالد، عن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن(٦) الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ الآية [النازعات: ٤٢].

ورواه النسائى من حديث عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبى خالد، به(٧). وهذا إسناد جيد قوى.

فهذا النبى الأمى سيد الرسل وخاتمهم [محمد](٨)، صلوات الله عليه وسلامه(٩)، نبى الرحمة، ونبى التوبة، ونبى الملحمة، والعاقب والمُقَفِّى، والحاشر الذى تحشر(١٠) الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه فى الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد، رضى الله عنهما: «بعثت أنا والساعة كهاتين»(١١)، وقرن بين إصبعيه السبابة والتى تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله تعالى أن يَرُد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾.

أمره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شىء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . [إِلا مَنِ

(١) فى م: «مليكة».
(٢) فى أ: «عبد الله بن زياد بن لقيط».
(٣) فى ك، م: «أخبركم».
(٤) فى م: «وقال».
(٥) المسند (٥/ ٣٨٩) قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٣٠٩): «رجاله رجال الصحيح».
(٦) فى أ: «أمر».
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤٥).
(٨) زيادة من م، أ.
(٩) فى م: «ﷺ».
(١٠) فى أ: «يحشر».
(١١) أما حديث أنس بن مالك:
فأخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٦٥٠٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٩٥١).
وأما حديث سهل بن سعد:
فأخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩٣٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٩٥٠).

ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا](١) ﴾[الجن: ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ : قال عبد الرزاق، عن الثورى، عن منصور، عن مجاهد. ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملا صالحا.

وكذلك روى ابن أبى نَجيح عن مجاهد: وقال مثله ابن جُرَيْج.

وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان دِيمَة .وفى رواية: كان إذا عمل عملا أثبته(٢).

فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله، عز وجل، فى جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المرادُ أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم.

والأحسن فى هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾أى: من المال. وفى رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما(٣) أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، وما مسنى السوء، قال: ولا يصيبنى الفقر.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولعرفت (٤)الغَلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتقيته.

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أى: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾.

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام، وأنه خلق منه زوجه(٥) حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا [وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً](٦)﴾ الآية [النساء: ١].

---

(١) زيادة من م، أ.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٨٣) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٣) فى م: «مما».

(٤) فى أ: «ولوقت».

(٥) فى د: «زوجته».

(٦) زيادة من م، أ.

وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أى: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له ألما، إنما هى النُّطفة، ثم العَلَقة، ثم المُضغة.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وروى عن الحسن، وإبراهيم النَّخعى، والسُّدِّى، نحوه.

وقال ميمون بن مهران: عن أبيه استخفته.

وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هى. إنما هى: فاستمرت به.

وقال قتادة: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، واستبان حملها.

وقال ابن جرير: [معناه][1]: استمرت بالماء، قامت به وقعدت.

وقال العوْفى، عن ابن عباس: استمرت به، فشكت: أحملت[2] أم لا.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ أى: صارت ذات ثقل[3] بحملها.

وقال السدى: كبر الولد فى بطنها.

﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ أى: بشرا سويا، كما قال الضحاك، عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة.

وكذلك[4] قال أبو البَختَرى وأبو مالك: أشفقا ألا يكون إنساناً.

وقال الحسن البصرى: لئن آتيتنا غلاماً.

﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ذكر المفسرون هاهنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح فى ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

قال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَة، عن النبى[5] ﷺ قال: «ولما ولدت حواء طاف بها إبليس ـ وكان لا يعيش لها ولد ـ فقال: سَمِّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحى

(١) زيادة من أ.
(٢) فى د، ك، م، أ: «أحبلت».
(٣) فى م: «أثقل».
(٤) فى أ: «وكذا».
(٥) فى د: «رسول الله».

الشيطان وأمره».

وهكذا رواه[١] ابن جرير، عن محمد بن بشار، بُنْدَار، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به.

ورواه الترمذى فى تفسيره[٢] هذه الآية عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد، به وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه.

ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ورواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره، عن أبى زُرْعَة الرازى، عن هلال بن فياض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعاً.

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه فى تفسيره من حديث شاذ بن فياض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعا[٣].

قلت: «وشاذ» [هذا][٤]، هو: هلال، وشاذ لقبه. والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازى: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مَرْدُويه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة[٥]، مرفوعا فالله أعلم.

الثانى: أنه قد روى من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبدالأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه. وحدثنا ابن علية[٦]، عن سليمان التيمى، عن أبى العلاء بن الشخير، عن سمرة بن جندب، قال: سمى آدم ابنه «عبد الحارث».

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً، لما عدل عنه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: ﴿**جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾، قال: كان هذا فى بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم[٧].

حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده ـ يعنى: [قوله][٨]: ﴿**جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾[٩].

---

(١) فى أ: «وروى».
(٢) فى د، ك، م، أ: «تفسير».
(٣) المسند (٥/ ١١) وتفسير الطبرى (١٣/ ٣٠٩)، وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٧)، والمستدرك (٢/ ٥٤٥).
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى أ: «حمزة».
(٦) فى د، ك، م: «بكر بن عبد الله».
(٧) تفسير الطبرى (١٣/ ٣١٤).
(٨) زيادة من ك، م، أ.
(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ٣١٤).

وحدثنا بشر(١)، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهوّدوا ونصَّروا(٢).

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن، رحمه الله، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت(٣) عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هو ولا غيره، لا سيما مع تقواه لله ووَرَعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن مُنبّه وغيرهما، كما سيأتى بيانه إن شاء الله [تعالى](٤)، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما(٥) الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم، عليه السلام، أولاداً فيُعبّدهم لله ويُسَمّيه: «عبد الله» و«عبيد الله»، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو تُسميانه بغير الذى تسميانه به لعاش(٦)، قال: فولدت له رجلاً(٧) فسماه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله، يقول الله: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ إلى آخر الآية.

وقال العوْفى، عن ابن عباس قوله فى آدم: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَمَرَّتْ بِهِ**﴾، شكّت(٨): أحبَلتْ أم لا؟ ﴿**فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾، فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون؟ أبهيمة(٩) يكون أم لا؟ وزيّن لهما الباطل؛ إنه غوى مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بى، لم يخرج سويا، ومات كما مات الأولان(١٠)، فسميا ولدهما «عبد الحارث»، فذلك قول الله [تعالى](١١): ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾الآية.

وقال عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن خُصَيف، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ قال: قال الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا**﴾ آدم ﴿**حَمَلَتْ [حَمْلاً خَفِيفًا]**(١٢)﴾، فأتاهما إبليس ـ لعنه الله ـ فقال: إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتَطيعُنّى أو لأجعلنّ قرنى له(١٣) أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلنّ ولأفعلنّ ـ يخوفهما ـ فسمّياه «عبد الحارث» فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت الثانية، فأتاهما أيضا فقال: أنا صاحبكما الذى فعلت ما فعلت، لتفعلُنّ أو لأفعلَنّ ـ يخوفهما ـ فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضا، فذكر لهما، فأدركهما حبُّ الولد، فسمياه «عبد الحارث»، فذلك قوله: ﴿**جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ رواه ابن أبى حاتم.

---

(١) فى أ: «بشير».
(٢) تفسير الطبرى (١٣/ ٣١٥).
(٣) فى أ: «ما دلت».
(٤) زيادة من م.
(٥) فى د، م: «وأما».
(٦) فى ك: «فعاش».
(٧) فى أ: «ولداً».
(٨) فى م، أ: «فشكت».
(٩) فى ك: «بهيمة».
(١٠) فى ك، م، أ: «الأول».
(١١) زيادة من ك.
(١٢) زيادة من أ.
(١٣) فى م، ك: «له قرن».

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة. ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدى، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه ـ والله أعلم ـ أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أُبى بن كعب، كما رواه ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا أبو الجماهر[١]، حدثنا سعيد ـ يعنى ابن بشير ـ عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أُبى بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان، فقال[٢] لها: أتطيعينى ويَسْلَمَ لك ولدك؟ سميه «عبد الحارث»، فلم تفعلْ، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل. ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن تطيعينى يسلم، وإلا فإنه يكون بهِيمة، فهيبَّهما فأطاعا.

وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حَدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله. ومنها ما علمنا كذبه، بما دُلَّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً. ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون فى روايته، بقوله، عليه السلام: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج» وهو الذى لا يصدَّق ولا يكذب، لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». وهذا الأثر: [هل][٣] هو من القسم الثانى أو الثالث؟ فيه نظر. فأما من حدث به من صحَابى أو تابعى، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى، رحمه الله، فى هذا [والله أعلم][٤]، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾.

---

(١) فى أ: «أبو الجماهير».
(٢) فى م، ك: «قال».
(٣) زيادة من ك، م، أ.
(٤) زيادة من ك.

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهى مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، [ولا تنصر][1] ولا تنتصر لعابديها، بل هى جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى: أتشركون[2] به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استلبتهم[3] الذبابة شيئا من حَقير المطاعم[4] وطارت، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ][5]﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أى: لعابديهم ﴿وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يعنى: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل، عليه الصلاة السلام، يكسر أصنام قومه ويهينُها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو ابن الجموح ومعاذ بن جبل، رضى الله عنهما ـ وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ـ فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيداً فى قومه ـ كان له صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعَذرة، فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا، ويقول له: «انتصر». [ثم][6] يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضا، حتى أخذاه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت، ودلَّياه فى حبل فى بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تَالله لو كُنتَ إلَها مُسْتَدن لَم تَكُ والكَلْبُ جَميعاً فى قَرنْ[7]

ثم أسلم فَحُسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً، رضى الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ [سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ][8]﴾. يعنى: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]؟

ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أى: مخلوقات مثلهم، بل الأناسى أكمل منها، لأنها

---

(١) زيادة من د، ك، م، أ. (٢) فى م، أ: «أيشركون». (٣) فى د: «سلبتهم».
(٤) فى د، م: «الطعام». (٥) زيادة من د، ك، م، أ. وفى هـ: «لآية». (٦) زيادة من د، م، أ.
(٧) انظر: الرجز فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٥٤).
(٨) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».

تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئا من ذلك.

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ﴾[1] أي: استنصروا بها علي، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم! ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي: الله حسبي وكافيّ، وهو نصيري، وعليه متكلي، وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي. وهذا كما قال هود، عليه السلام، لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، وكقول الخليل [عليه السلام][2]: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ][3]﴾ الآيات [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٠]، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ. إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ. وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ إلى آخر الآية، مؤكد لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ [وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ][4]﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾، إنما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهي جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان، [فقال][5]: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فعبر عنها بضمير من يعقل.

وقال السدي: المراد بهذا[6] المشركون وروي عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعني: خذ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فخذه. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات. قاله السدي.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أنفق الفضل. وقال سعيد[7] بن جبير عن ابن عباس: قال: الفضل.

---

(١) زيادة من د، ك، م، أ، وفي هـ: «الآية».
(٢، ٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من أ. وفي هـ: «الآية».
(٥) زيادة من د، أ.
(٦) في أ: «بها».
(٧) في م: «حميد».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال غير واحد، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسس[١].

وقال هشام بن عُرْوة، عن أبيه: أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم.

وفي صحيح البخاري، عن هشام، عن أبيه عروة، عن أخيه[٢] عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل[٣]: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس[٤]. وفي رواية لغيره: عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر. وفي رواية: عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أنهما قالا مثل ذلك[٥]، والله أعلم.

وفي رواية سعيد بن منصور، عن أبي معاوية، عن هشام، عن وهب بن كيسان، عن ابن[٦] الزبير: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم. وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم جميعا: حدثنا يونس حدثنا سفيان ـ هو ابن عيينة ـ عن أمَيّ قال: لما أنزل الله، عز وجل، على نبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك.

وقد رواه ابن أبي حاتم أيضا، عن أبي يزيد القراطيسي كتابة، عن أَصْبَغ بن الفرج، عن سفيان، عن أُمَيّ عن الشعبي. نحوه، وهذا ـ على كل حال ـ مرسل، وقد روى له شاهد[٧] من وجوه أخر، وقد روى مرفوعا عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة، عن النبي ﷺ، أسندهما ابن مردويه[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاعة، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة الباهلي، عن عقبة بن عامر، رضي الله عنه، قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة، صل من قطعك، واعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك».

وروى الترمذي نحوه، من طريق عبيد الله بن زَحْر[٩]، عن علي بن يزيد، به. وقال: حسن[١٠].

قلت: ولكن «علي بن يزيد» وشيخه «القاسم أبو عبد الرحمن»، فيهما ضعف.

---

(١) في د، ك، م: «تحسيس»، وفي أ: «تجسيس». (٢) في أ: «عن أبيه». (٣) في أ: «أنزل الله».
(٤) صحيح البخاري برقم (٤٦٤٣، ٤٦٤٤).
(٥) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٣٠٥): «وقال عبيد الله بن عمر، عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر، أخرجه البزار والطبراني وهي شاذة، وكذا رواية حماد بن سلمة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة عند ابن مردويه».
(٦) في أ: «عن أبي». (٧) في ك، م: «شواهد».
(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٢٨).
(٩) في م: «أحمد»، وفي أ: «نحر».
(١٠) المسند (٤/ ١٤٨) وسنن الترمذي برقم (٢٤٠٦).

وقال البخارى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ «العرف»: المعروف. حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس ـ وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ـ وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته ـ كُهولاً كانوا أو شبانا ـ فقال عيينة لابن أخيه: يابن أخى، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لى عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر[رضى الله عنه][(١)]، فلما دخل عليه قال: هى يا بن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وَقَّافًا عند كتاب الله، عز وجل. انفرد بإخراجه البخارى[(٢)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى مالك بن أنس، عن عبد الله بن نافع؛ أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على عير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهى عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجُلْجُل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به. فسكت سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

وقول البخارى: «العرف: المعروف» نص عليه عروة بن الزبير، والسُّدِّى، وقتادة، وابن جرير، وغير واحد. وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته عرفاً، وعارفاً، وعارفة، كل ذلك بمعنى: «المعروف». قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل فى ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة فى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: هذه أخلاق أمر الله [عز وجل][(٣)] بها نبيه ﷺ، ودله عليها.

وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى، فسبكه فى بيتين فيهما جناس فقال:

خُذ العفو وأمر بعُرف كَمَا ... أُمرتَ وأعْرِض عن الجَـاهلينْ

ولِنْ فى الكَلام لكُلِّ الأنَام ... فَمُسْتَحْسَن من ذَوِى الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه. وإما مسيء، فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمر فى جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾

---

(١) زيادة من أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٤٢).

(٣) زيادة من أ.

[المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أى هذه الوصية ﴿إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[فصلت: ٣٤ـ ٣٦]، وقال فى هذه السورة الكريمة أيضا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾فهذه الآيات الثلاث فى «الأعراف» و«المؤمنون»و«حم السجدة»، لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف والتى هى أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لايكفه[(١)] عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك.

قال ابن جرير فى تفسير قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾: وإما يُغْضِبَنَّك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين[(٢)]، ويحملك على مجازاتهم ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: إن الله الذى تستعيذ به من نزغ الشيطان سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شىء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «يارب، كيف بالغضب؟»، فأنزل الله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(٣)].

قلت: وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبى ﷺ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقيل له، فقال: ما بى من جنون[(٤)].

وأصل «النزغ»: الفساد، إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[الإسراء: ٥٣]، و«العياذ»: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما «الملاذ» ففى طلب الخير، كما قال أبو الطيب [الحسن بن هانئ][(٥)] المتنبى:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فيمَا أؤمِّلُه ... وَمَنْ أعوذُ بِهِ مما أحَاذِرُه
لا يَجْبر الناس عَظْماً أنت كاسرُه ... ولاَ يَهِيضُون عَظْماً أنت جَابِره[(٦)]

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة فى أول التفسير، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

---

(١) فى ك، م: «لا يكفيه»، وفى أ: «لا يكفيك». (٢) فى د، ك، م: «الجاهل».
(٣) تفسير الطبرى (١٣/ ٣٣٣).
(٤) انظر: الحديث وتخريجه فى الكلام على الاستعاذة.
(٥) زيادة من ك، م، أ.
(٦) ديوان المتنبى (٢/ ٢٧٢).
قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (١١/ ٢٧٥): «وقد بلغنى عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، رحمه الله، أنه كان ينكر على المتنبى هذه المبالغة فى مخلوق ويقول: إنما يصلح لجناب الله سبحانه وتعالى.
وأخبرنى العلامة شمس الدين بن القيم، رحمه الله، أنه سمع الشيخ تقى الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين فى السجود، أدعوا الله بما تضمناه من الذل والخضوع».

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾.

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركو ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي: أصابهم«طيف» وقرأ آخرون: «طائف»، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب.

وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

وقد أورد[(١)] الحافظ أبو بكر بن مردويه هاهنا حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: جاءت امرأة إلى النبى[(٢)] ﷺ وبها طيف فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني. فقال: «إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت فاصبرى ولاحساب عليك». فقالت: بل أصبر، ولا حساب على.

ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت[(٣)]: يا رسول الله، إنى أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفيني. فقال [(٤)]: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟» فقالت: بل أصبر، ولى الجنة، ولكن[(٥)] ادع الله ألا أتكشف، فدعا لها، فكانت لا تتكشف.

وأخرجه الحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه[(٦)].

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة «عمرو بن جامع» من تاريخه: أن شاباً كان يتعبد فى المسجد، فهويته امرأة، فدعته إلى نفسها، وما[(٧)] زالت به حتي كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، فخر مغشياً عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات. فجاء عمر فعزّى فيه أباه[(٨)]، وكان قد دفن ليلاً، فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى[(٩)]، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربى، عز وجل، فى الجنة مرتين[(١٠)].

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أي: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وهم أتباعهم والمستمعون[(١١)] لهم القابلون[(١٢)] لأوامرهم ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي: تساعدهم الشياطين على [فعل][(١٣)] المعاصى، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم.

---

(١) فى ك: «روى». (٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى م، أ: «فقالت».
(٤) فى أ: «فقال رسول الله ﷺ». (٥) فى أ: «ولكن يا رسول الله».
(٦) المستدرك (٤/٢١٨).
(٧) فى د: «فما». (٨) فى أ: «أهله». (٩) فى د، ك، أ: «يا فلان».
(١٠) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٤١١، ٤١٢) «القسم المخطوط». ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٩/ ١٩٠، ١٩١).
(١١) فى ك، م، أ: «المستمعين». (١٢) فى أ: «القائلون». (١٣) زيادة من أ.

وقال ابن كثير: المد: الزيادة. يعنى: يزيدونهم فى الغى، يعنى: الجهل والسفه.

﴿ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: معناه: إن الشياطين تمد، والإنس لا تقصر فى أعمالهم بذلك. كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم.

قيل: معناه كما رواه العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ قال: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ يقول: لا يسأمون.

وكذا قال السُّدِّى وغيره: يعنى: أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم فى الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسَجِيَّة، لا تفتر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] قال ابن عباس وغيره: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا.

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها.

وقال ابن جرير[(١)]، عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد فى قوله [تعالى][(٢)]: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾ قال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة، والسدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقال العوفى، عن ابن عباس [رضى الله عنه][(٣)]: ﴿لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: تلقيتها من الله، عز وجل[(٤)].

وقال الضحاك: ﴿لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ أى: معجزة، وخارق، كما قال تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك فى طلب الآيات [من الله][(٥)] حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ أى: أنا لا أتقدم إليه تعالى فى شىء، وإنما أتبع ما أمرنى به فأمتثل ما يوحيه إلى، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها؛ إلا أن يأذن لى فى ذلك، فإنه حكيم عليم.

ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبينات، فقال: ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) فى د، أ: «جريج». (٢) زيادة من ك، أ. (٣) زيادة من أ.
(٤) فى د، ك، أ: «تعالى». (٥) زيادة من م.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾.

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون[١] فى قولهم: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ [لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ][٢]﴾ [فصلت: ٢٦]، ولكن يتأكد ذلك فى الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه، من حديث أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا»[٣]، وكذلك رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة[٤]، وصححه مسلم بن الحجاج أيضا، ولم يخرجه فى كتابه[٥]. وقال إبراهيم بن مسلم الهجرى، عن أبى عياض، عن أبى هريرة قال: كانوا يتكلمون فى الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ [وَأَنصِتُوا][٦]﴾، والآية الأخرى، أمروا بالإنصات[٧].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، قال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة: سلام على فلان، وسلام على فلان، فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقال أيضا: حدثنا أبو كريب، حدثنا المحاربى، عن داود بن أبى هند، عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود، فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا؟ أما آن لكم أن تعقلوا؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾، كما أمركم[٨] الله[٩].

قال: وحدثنى أبو السائب، حدثنا حفص، عن أشعث، عن الزهرى قال: نزلت هذه الآية فى فتى من الأنصار، كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئا قرأه، فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾.

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الزهرى، عن ابن أُكَيْمَةَ الليثى، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: «هل قرأ أحد منكم معى آنفا؟» قال رجل: نعم يا رسول الله. قال[١٠]: «إنى أقول: ما لى أنازع القرآن؟» قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلوات[١١]، حين سمعوا ذلك من

---

(١) فى أ: «المشركين». (٢) زيادة من د.
(٣) صحيح مسلم برقم (٤٠٤).
(٤) رواه النسائى فى السنن (٢/ ١٤١)، وابن ماجة فى السنن برقم (٨٤٦).
(٥) انظر الكلام على هذه الزيادة فى: سورة الفاتحة.
(٦) زيادة من م.
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٣٤٥).
(٨) فى أ: «كما أمر».
(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ٣٤٦).
(١٠) فى ك، م: «فقال». (١١) فى د: «الصلاة».

رسول الله ﷺ[١].

وقال الترمذى: «هذا حديث حسن». وصححه أبو حاتم الرازى.

وقال عبد الله بن المبارك، عن يونس، عن الزهرى قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سراً فى أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء: أن المأموم لا يجب عليه فى الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولى الشافعى، وهو القديم كمذهب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال فى الجديد: يقرأ الفاتحة فقط فى سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً فى السرية ولا الجهرية، لما ورد فى الحديث: «من كان له إمام فقراءته له قراءة». وهذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو فى موطأ مالك عن وهب بن كيسان، عن جابر موقوفاً، وهذا أصح. وهذه المسألة مبسوطة فى غير هذا الموضع[٢]، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخارى مصنفاً على حدة[٣]، واختار وجوب القراءة خلف الإمام فى السرية والجهرية أيضا، والله أعلم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ يعنى: فى الصلاة المفروضة. وكذا روى عن عبد الله بن المغفل.

وقال ابن جرير: حدثنا حُمَيْد بن مَسْعدَة، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجريرى، عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيزَ قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبى رباح يتحدثان، والقاص يقص، فقلت: ألا تسمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إلى، ثم أقبلا على حديثهما. قال: فأعدت[٤]، فنظر إلى، وأقبلا[٥] على حديثهما. قال: فأعدت الثالثة، قال: فنظرا إلى فقالا: إنما ذلك فى الصلاة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾.

وقال سفيان الثورى، عن أبى هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ قال: فى الصلاة. وكذا رواه غير واحد عن مجاهد.

وقال عبد الرزاق، عن الثورى، عن ليث، عن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم.

---

(١) المسند (٢/ ٣٠١) وسنن أبى داود برقم (٨٢٦) وسنن الترمذى برقم (٣١٢) وسنن النسائى (٢/ ١٤٠) وسنن ابن ماجة برقم (٨٤٨).

(٢) انظر الكلام مبسوطاً فى: مقدمة سورة الفاتحة.

(٣) سماه «جزء القراءة خلف الإمام» مطبوع فى مؤسسة الرسالة ببيروت.

(٤) فى أ: «فأعدت الكلام». (٥) فى أ: «ثم أقبلا».

وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والشعبي، والسدي، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

وقال شعبة، عن منصور، سمعت إبراهيم بن أبي حرة يحدث أنه سمع مجاهدا يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة.

وكذا روى ابن جريج[1]، عن عطاء، مثله.

وقال هُشَيْم، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن قال: في الصلاة وعند الذكر.

وقال ابن المبارك، عن بَقِيَّة: سمعت ثابت بن عجلان يقول: سمعت سعيد بن جبير يقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة.

وهذا اختيار ابن جرير أن المراد بذلك [الإنصات في الصلاة وفي الخطبة؛ لما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات][2] خلف الإمام وحال الخطبة.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئا، قال: السكوت.

وقال مبارك بن فَضَالة، عن الحسن: إذا جلست إلى القرآن، فأنصت له.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عباد بن ميسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة». تفرد به أحمد[3]، رحمه الله.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾.

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية.

وقال هاهنا بالغدو ـ وهو أوائل النهار: ﴿وَالْآصَالِ﴾: جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين.

وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رهبة ورغبة، وبالقول لا جهراً؛ ولهذا

---

(١) في د، أ: «ابن جرير». (٢) زيادة من م، أ.

(٣) المسند (٢/ ٣٤١) وفي إسناده عباد بن ميسرة وهو ضعيف.

قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ .وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء و[لا][١] جهراً بليغاً؛ ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦][٢].

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار، فقال لهم النبى ﷺ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً؛ إن الذى تدعونه سميع قريب»[٣].

وقد يكون المراد من هذه الآية كما فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ١١٠]، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله، و[سبوا][٤] من جاء به؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار. وكذا قال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ .

وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أن المراد بهذه الآية: أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به، ثم المراد بذلك فى الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهراً، فهذا الذى قالاه لم يتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ [وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ][٥]﴾. وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم فى كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله، عز وجل، كما جاء فى الحديث: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأُوَل، ويتَراصُّون فى الصف»[٦].

وهذه أول سجدة فى القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعيها السجود بالإجماع. وقد ورد فى حديث رواه ابن ماجة، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ أنه عدها فى سجدات القرآن[٧].

ولله الحمد والمنة

---

(١) زيادة من أ.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٣/ ٤٨٠) من طريق عبدة السجستانى، عن الصلت بن حكيم، عن أبيه، عن جده فذكره، وقد سبق الكلام عليه عند الآية: ١٨٦ من سورة البقرة.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٢٠٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤).

(٤) زيادة من د.

(٥) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٦) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٤٣٠) من حديث جابر بن سمرة، رضى الله عنه.

(٧) سنن ابن ماجة برقم (١٠٥٦).

(٨) زيادة من ك، م.

تفسير سورة الأعراف

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه .

قال ابن جرير(١) : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبي ، عن شريك ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي الضحىٰ ، عن ابن عباس ﴿ **المص** ﴾ : أنا اللَّه أفصل . وكذا قال سعيد بن جبير .

﴿ **كتاب أنزل إليك** ﴾ أي : هذا كتاب أنزل إليك ، أي : من ربك ﴿ **فلا يكن في صدرك حرج منه** ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي : شك منه .

وقيل : لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به واصبر كما صبر أولو[١] العزم من الرسل ، ولهذا قال : ﴿ **لتنذر به** ﴾ أي : أنزلناه[٢] إليك لتنذر به الكافرين ﴿ **وذكرىٰ للمؤمنين** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ مخاطبًا للعالم : ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ أي : اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم[٣] من رب كل شيء ومليكه ﴿ **ولا تتبعوا من دونه أولياء** ﴾ أي : لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلىٰ غيره ، فتكونوا قد عدلتم عن حكم اللَّه إلىٰ حكم غيره .

﴿ **قليلًا ما تذكرون** ﴾ كقوله : ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾ ، وقوله :

---

(١) - تفسير ابن جرير (١٤٣١٠/١٢) وأخرجه البيهقي في « الأسماء والصفات » (١/رقم١٦٧) من طريق يحيى بن أبي بكير ثنا شريك به ، وشريك هو ابن عبد اللَّه القاضي ، سيئ الحفظ ، وقد خالفه شيبان فرواه عن عطاء عن أبي الضحى قوله ، لم ينم به إلى ابن عباس ، أخرجه ابن أبي حاتم في (٨٢٠٠/٥) ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٢٥/٣) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس .

---

[١] - في ز : « ألوا » . [٢] - في ز : « أنزل » .
[٣] - سقط من : خ ، ز .

﴿ **وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ الآية[١] ، وقوله : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ .

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **وكم من قرية أهلكناها** ﴾ أي : بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولًا بذل الآخرة ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ ، وكقوله : ﴿ **فكأين[٢] من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية علىٰ عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا وكنا نحن الوارثين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فجاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون** ﴾ أي : فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿ **بياتًا** ﴾ أي : ليلًا ﴿ **أو هم قائلون** ﴾ من القيلولة ، وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو ؛ كما قال : ﴿ **أفأمن أهل القرىٰ أن يأتيهم بأسنا بياتًا وهم نائمون * أو أمن أهل القرىٰ أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون** ﴾ ، وقال : ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم علىٰ تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾ أي : فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ **وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة** ﴾ إلىٰ قوله ﴿ **خامدين** ﴾ .

وقال ابن جرير(٢) : في هذه الآية الدلالة[٣] الواضحة علىٰ صحة ما جاءت به الرواية عن رسول

(٢) - **إسناده ضعيف** تفسير ابن جرير (١٤٣٢٣/١٢) وشيخ ابن جرير هو محمد بن حميد الرازي ، حافظ ضعيف ، وخالفه محمد بن عيسى الدَّامغاني - وهو أقوى منه - فرواه عن جرير به موقوفًا على ابن مسعود ، أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٢١٢/٥) لكن عبد الملك بن ميسرة لم يدرك ابن مسعود =

[١] - سقط من : ز . [٢] - في ز : « وكأين » .
[٣] - في ز : « الدالة » .

اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم من قوله : « **ما هلك قوم حتىٰ يُعْذِروا[١] من أنفسهم** » ، حدثنا بذلك ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن أبي سنان ، عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبد اللَّه بن مسعود : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **ما هلك قوم حتىٰ يعذروا من أنفسهم** » . قال : قلت لعبد الملك : كيف يكون ذاك . قال : فقرأ هذه الآية : ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم [ولنسألن المرسلين][٢]** ﴾ ؛ [كقوله : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾][٣] ، وقوله : ﴿ **يوم يجمع اللَّه الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب** ﴾ [فيسأل اللَّه الأمم يوم القيامة][٤] عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضًا عن إبلاغ[٥] رسالاته؛ ولهذا قال علي بن أبي طلحة(٣) : عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾ [قال: يسأل اللَّه الناس عما أجابوا المرسلين ، ويسأل المرسلين][٦] عما بلغوا .

وقال ابن مردويه(٤) : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن

= فإسناده منقطع . وأخرج أحمد (٢٦٠/٤) و(٢٩٣/٥) ، وأبو داود (٤٣٤٧) ، وابن أبي الدنيا في « العقوبات » (ص ١٨ ، ١٩) من طرق عن شعبة ، أخبرني عمرو بن مُرَّة ، قال : سمعت أبا البختري يقول : أخبرني من سمع النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - يقول : « **لن يَهْلك الناس حتى يُعْذِروا أو يُعْذَروا من أنفسهم** » . وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات ، وأبو البختري اسمه سعيد ابن فيروز وثقه غير واحد ، وقال ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (٢٩٧/٦) : « ... كان أبو البختري كثير الحديث يرسل حديثه ، ويروي عن أصحاب رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم - ولم يسمع من كبير أحد ، فما كان من حديثه سماعًا فهو حسن وما كان عن فهو ضعيف » وهو هنا صرح بالسماع ولم يعنعن ، وجهالة الصحابي لا تضر .

(٣) - أخرجه ابن جرير (١٤٣٢٤/١٢) وابن أبي حاتم (٨٢١٣/٥ ، ٨٢١٨) وعزاه السيوطي في « الدرالمنثور » (١٢٦/٣) إلى البيهقي في « البعث » وهو غير موجود في المطبوع منه - واللَّه أعلم .

(٤) - **صحيح** وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في « الدر المنثور » (١٢٨/٣) - وأخرجه مسلم ، كتاب : الإمارة، باب : فضيلة الإمام العادل - (٢٠) (١٨٢٩) والترمذي ، كتاب : الجهاد ، باب : =

---

[١] - يُعْذِرُوا : يُقال : أعذر فلان من نَفْسِه إذا أمكن منها ، يعنى أنهم لا يهكلون حتى تكثر ذنوبهم وعيوبهم فيستوجبون العقوبة ويكون لمن يعذبهم عذر ، كأنهم قاموا بعذره في ذلك . ويُرْوَى بفتح الياء ، من عَذَرْته ، وهو بمعناه . وحقيقة عَذَرْت : مَحَوْتُ الإساءة وطمستها . نهاية [١٩٧/٣] .

[٢] - ما بين المعكوفتين من : ز ، وفي : ت « الآية » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « فالرب تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم » .

[٥] - في ز : « بلاغ » .

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

الحسن ، حدثنا أبو سعيد الكندي ، حدثنا المحاربي ، عن ليث ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن الرجل ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده** » . قال الليث : وحدثني ابن طاوس مثله ثم قرأ : ﴿ **فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾ . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة .

وقال ابن عباس(٥) [في قوله][١] : ﴿ **فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين** ﴾ : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

[﴿ **وما كنا غائبين** ﴾][٢] يعني : أنه تعالىٰ يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا ، وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ؛ لأنه تعالىٰ شهيد علىٰ كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾ .

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **والوزن** ﴾ أي : للأعمال يوم القيامة ﴿ **الحق** ﴾ أي : لا يظلم تعالىٰ أحدًا ؛ كقوله : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفىٰ بنا حاسبين** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه فأمه هاوية * وما أدراك ماهيه * نار حامية** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون** ﴾ .

ما جاء في الإمام (١٥٠٧) من طريق الليث - وهو ابن سعد - به ، وأخرجه البخاري ، كتاب : الجمعة ، باب : الجمعة في القرى والمدن (٨٩٣) - وانظر أطرافه ثمة - ومسلم وأحمد (٢/٥ ، ١٠٨، ١١١، ١٢١) من طرق عن عبد الله بن عمر به دون قوله : « قال الليث : وحدثني ابن طاوس .....» وهذه الزيادة أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/٨٢١٧) ثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا المحاربي ، قال ليث ... فذكره .

(٥) - أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٣٢٥) وابن أبي حاتم (٥/٨٢٢١) من طريق مسلسل بالضعفاء أولهم عطية العوفى عن ابن عباس ، به .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز . [٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

فصل

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال ، وإن كانت أعراضًا ، إلا أن اللّٰه تعالىٰ يقلبها يوم القيامة أجسامًا .

قال البغوي[١] : يُروىٰ هذا عن ابن عباس ؛ كما جاء في الصحيح(٦) من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف . و[من ذلك][٢] في الصحيح(٧) قصة القرآن ، وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت[٣] نهارك . وفي حديث البراء(٨) في قصة سؤال القبر : « **فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح** » . وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق .

وقيل : يوزن كتاب الأعمال ؛ كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتىٰ به ، ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مدّ البصر ، ثم يؤتى بتلك البطاقة [ ][٤] فيها لا إله إلا اللّٰه ، فيقول : يارب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول اللّٰه تعالىٰ : إنك لا تظلم ، فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان ، قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة** » .

رواه الترمذي(٩) بنحو من هذا وصححه[٥] .

وقيل : يوزن صاحب العمل ؛ كما في الحديث(١٠) : « **يُؤتىٰ يوم القيامة بالرجل السمين ، فلا يزن عند اللّٰه جناح بعوضة** » ، ثم قرأ : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا** ﴾ .

---

(٦) - **صحيح** ، تقدم تخريجه [سورة البقرة / ما ورد في فضلها مع آل عمران] .

(٧) - كذا عزاه المصنف للصحيح ، وإنما أخرجه ابن ماجه (٣٧٨١) فحسب من بين أصحاب الكتب الستة ، وقد أخرجه أحمد (٥/٣٤٨) ضمن حديث طويل ، ونقله المصنف في صدر تفسير سورة البقرة وخرجناه هناك ولله الحمد والمنة .

(٨) - **صحيح** ، يأتي تخريجه [سورة إبراهيم / آية ٢٧] .

(٩) - **صحيح** ، يأتي تخريجه [سورة الأنبياء / آية ٤٧] .

(١٠) - **صحيح** ، يأتي تخريجه [سورة الكهف / آية ١٠٥] .

---

[١] - في تفسيره (٢١٥/٣) .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز « لذلك » .

[٣] - في ز « ظمأت » .

[٤] - ما بين المعكوفتين في ز « في الرجل » .

[٥] - الموجود عند الترمذي في « جامعه ٢٦٣٩ » أنه قال : « حسن غريب » وكذا هو في « تحفة الأشراف » (٢٥٣/٦) وكذا نقله المصنف نفسه عنه في تفسير [سورة الأنبياء/ آية ٤٧] .

وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **أتعجبون من دقة ساقيه ؟ فوالذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد** »(١١) .

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا ؛ فتارة[١] توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها ، والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (١٠)

يقول تعالى ممتنًا على عبيده فيما مكن لهم من أنه[٢] جعل الأرض قرارًا ، وجعل فيها[٣] رواسي وأنهارًا ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب ؛ لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش ، أي : مكاسب وأسبابًا [يكسبون بها][٤] ، ويتجرون فيها ، ويتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك ؛ كقوله : ﴿ **وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ .

وقد قرأ الجميع : ﴿ **معايش** ﴾ بلا همز إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها ، والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز ؛ لأن معايش جمع مَعِيشة من عاش يعيش عيشًا ، ومعيشة أصلها مَعْيِشة ، فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت[٥] إلى العين فصارت معِيشة ، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال ، فقيل : معايِش ووزنه مفاعل ؛ لأن الياء أصلية في الكلمة ، بخلاف مدائن وصحائف وبصائر ، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة ، من مدن وصحف وأبصر ؛ فإن الياء فيها زائدة ؛ ولهذا تجمع على فعائل ، وتهمز لذلك ، والله أعلم .

---

(١١) - **صحيح بطرقه** أخرجه الطيالسي (٣٥٥) وأحمد في « المسند » (٤٢٠/١ ، ٤٢١) وفي « الفضائل » (٢/رقم ١٥٥٢) وابن سعد في « الطبقات » (١١٥/٣) والفسوي في « المعرفة والتاريخ » (٥٤٥/٢) والبزار في مسنده (١٨٢٧/٥) وأبو يعلى (٥٣١٠/٩) والطبراني في « الكبير » (٧٥/٩) وأبو نعيم في « الحلية » (١٢٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود - وهو مغاير في بعض الأحرف لسياق المصنف - بإسناد حسن ، وله شاهد من حديث علي بن أبي طالب عند أحمد (١١٤/١) والبخاري في « الأدب المفرد » (٢٣٧) وأبي يعلى (٥٣٩/١) وغيرهم وإسناده حسن ، وشاهد آخر من حديث قرة بن إياس عند البزار (٢٦٧٧/٣/ كشف الأستار) والطبراني في « الكبير » (٢٨/١٩) والفسوي (٥٤٦/٢) والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤٨/١) وصححه الحاكم (٣١٧/٣) ووافقه الذهبي ، وانظر - غير مأمور - « إرواء الغليل » للألباني (١/ رقم ٦٥) وكذا « صحيح الأدب المفرد » (١٧٦) .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز « لها » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٥] - سقط من : ز .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

ينبه تعالىٰ بني آدم في هذا المقام[١] علىٰ شرف أبيهم آدم ، ويبين لهم عداوة[٢] عدوهم إبليس ، وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ؛ ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه ، فقال تعالىٰ : **﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ﴾** ، وهذا كقوله تعالىٰ : **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾** ، وذلك أنه تعالىٰ لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوّره بشرًا سويًّا[٣] ، ونفخ فيه من روحه - أمر[٤] الملائكة بالسجود له تعظيمًا لشأن الله[٥] تعالىٰ وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . وقد تقدم الكلام علىٰ إبليس في أول تفسير سورة البقرة .

وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير[٦] : أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام .

وقال سفيان الثوري : عن الأعمش ، عن منهال[٧] بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس **﴿ ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ﴾** قال : خلقوا في أصلاب الرجال ، وصوّروا في أرحام النساء .

رواه الحاكم(١٢)، وقال : صحيح علىٰ شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

ونقل[٨] ابن جرير[٩] ، عن بعض السلف أيضًا : أن المراد بـ **﴿ خلقناكم ثم صورناكم ﴾**

---

(١٢) - « المستدرك » (٣١٩/٢) من طريق أبي نعيم ثنا سفيان به ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وأخرجه ابن أبي حاتم (٨٢٣٢/٥ ، ٨٢٣٤) من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان به ، وأخرجه ابن جرير (١٤٣٤٩/١٢) من طريق مؤمل ثنا سفيان قال : سمعت الأعمش يقرأ : ﴿ ولقد خلقناكم ... ﴾ فذكره من قول الأعمش ومؤمل هو ابن إسماعيل سيئ الحفظ ، والأثر زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٣٤/٣) إلى عبد الرزاق - ولم أجده في تفسيره - وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ والبيهقي في « الشُّعب » .

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز « وأمر » .
[٥] - في ز « الرب » .
[٦] - في تفسيره (٣٢٠/١٢ ، ٣٢١) .
[٧] - في ز « المنهال » .
[٨] - في ز « نقله » .
[٩] - في تفسيره (٣١٩/١٢) عن الضحاك وعكرمة .

الذرية .

وقال الربيع بن أنس والسدي وقتادة والضحاك في هذه الآية : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ أي : خلقنا آدم ثم صورنا الذرية .

وهذا فيه نظر ؛ لأنه قال بعده : ﴿ **ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم ، وإنما قيل ذلك بالجمع ؛ لأنه أبو البشر ؛ كما قال الله تعالىٰ لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي صلىٰ الله عليه وسلم : ﴿ **وظللنا عليكم[١] الغمام وأنزلنا عليكم[٢] المن والسلوىٰ** ﴾ ، والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمن[٣] موسىٰ ، ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل صار [ ][٤] كأنه واقع على الأبناء ، وهذا بخلاف قوله : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ [الآية ، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة][٥] ، وذريته مخلوقون من نطفة ، وصح هذا ؛ لأن المراد من[٦] خلقنا الإنسان الجنس لا معينًا ، والله أعلم .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالىٰ : ﴿ **ما منعك ألَّا تسجد إذ أمرتك** ﴾ لا هنا[٧] زائدة .

وقال بعضهم : زيدت لتأكيد الجحد ، كقول الشاعر :

* ما إن رأيت ولا سمعت بمثله *

فأدخل « **إنْ** » وهي للنفي على « **ما** » النافية لتأكيد النفي . قالوا : [وكذا هنا][٨] : ﴿ **ما منعك أن لا تسجد** ﴾ مع تقدم قوله : ﴿ **لم يكن من الساجدين** ﴾ .

حكاهما ابن جرير[٩] ، وردهما واختار : أن منعك تضمَّن[١٠] معنىٰ فعل آخر تقديره : ما أحوجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ، ونحو هذا[١١] .

وهذا القول قوي حسن ، والله أعلم .

---

[١] - في ز « عليهم » .
[٢] - في ز « عليهم » .
[٣] - في ز « زمان » .
[٤] - ما بين المعكوفتين في ز « به » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٦] - في ز « و » .
[٧] - في ز « هاهنا » .
[٨] - في ز « وكذلك هاهنا » .
[٩] - في تفسيره (١٢/٣٢٥ ، ٣٢٦) .
[١٠] - في ز « يضمن » .
[١١] - في ز « ذلك » .

وقول إبليس لعنه اللَّه : ﴿ **أنا خير منه** ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع من الطاعة ؛ لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعني لعنه اللَّه : وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له ؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين ، فنظر اللعين إلىٰ أصل العنصر ، ولم ينظر إلىٰ التشريف العظيم ، وهو أن اللَّه تعالىٰ خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياسًا فاسدًا في مقابلة نص [ ][١] قوله تعالىٰ : ﴿ **فقعوا له ساجدين** ﴾ ، فشذ من بين الملائكة بترك السجود ، فلهذا أبلس من الرحمة ؛ [أي : آيس من الرحمة][٢]، فأخطأ قبحه اللَّه في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضًا ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة ؛ ولهذا خان إبليسَ عنصرُه ، ونفع آدمَ عنصرُه بالرجوع[٣] والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر اللَّه ، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة .

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم** » . هكذا[٤] رواه مسلم(١٣) .

وقال ابن مردويه(١٤) : حدثنا عبد اللَّه بن جعفر ، حدثنا إسماعيل بن[٥] عبد اللَّه بن مسعود ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **خلق اللَّه الملائكة من نور العرش ، وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم** » . قلت لنعيم بن حماد : أين سمعت هذا من عبد الرزاق ؟ قال : باليمن . وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح : « **وخلقت الحور العين من**

---

(١٣) - صحيح مسلم ، كتاب : الزهد والرقائق ، باب : في أحاديث متفرقة (٦٠) (٢٩٩٦) ثنا محمد بن رافع وعبد بن حميد (قال عبد : أخبرنا وقال ابن رافع : حدثنا) عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة به ، وانظر ما بعده .

(١٤) - **صحيح** وعزاه لابن مردويه السيوطي في « الدر المنثور » (١٩٣/٦) - وهو عند عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٩٠٤/٤٢٥/١١) ومن طريقه أيضًا أحمد في « المسند » (١٥٣/٦ ، ١٦٨) وعبد ابن حميد في « المنتخب » (١٤٧٩) - ومن طريق عبد بن حميد مسلم كما في السابق ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١٨/٢ - مخطوط) - وأبو الشيخ في « العظمة » (٧٢٥/٢ ، ٧٢٦) وابن منده في « الرد على الجهمية » (ص ٩١ ، ٩٢) وابن حبان في صحيحه (٦١٥٥/١٤) والبيهقي في « الكبرى » (٩/ ٣) وفي « الأسماء والصفات » (٨١٨/٢) وفي « الشعب » (١٤٣/١) وأخرجه أبو الشيخ أيضًا (٧٢٥/٢، ٧٢٧) من طريقين آخرين عن معمر ، به .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز « اللَّه » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٣] - في ز « في الرجوع » .
[٤] - في ز « وهذا » .
[٥] - في ت : «عن».

الزعفران »(١٥) .

وقال ابن جرير(١٦) : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن كثير ، عن ابن شوذب ، عن مطر الوراق ، عن الحسن في قوله : ﴿ **خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾ قال : قاس إبليس ، وهو أول من قاس .

إسناده[١] صحيح .

وقال(١٧) : حدثني عمرو[٢] بن مالك ، حدثنا يحيىٰ بن سليم[٣] الطائفي ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، قال : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس .

إسناد صحيح أيضًا .

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا لإبليس بأمر قدري كوني ﴿ **فاهبط منها** ﴾ أي : بسبب عصيانك لأمري ، وخروجك عن طاعتي ، فما يكون لك أن تتكبر فيها .

---

(١٥) - **ضعيف** لم أهتد إليه من حديث عائشة ، وإنما أخرجه أبو نعيم في « صفة الجنة » (٣/رقم ٣٨٤) والخطيب في « تاريخ بغداد » (٩٩/٧) من حديث أنس بلفظ « **حور العين خلقن من الزعفران** » وفي إسناده جهالة ، واستنكره البيهقي كما في « حادي الأرواح » لابن القيم (ص ٣٣٥) وروي أيضًا من طريقين عن أبي أمامة أخرجهما الطبراني في « الكبير » (٧٨١٣/٨) وفي « الأوسط » (١/رقم ٢٨٨) وعنه أبو نعيم في « صفة الجنة » (٣٨٣/٣ ، ٣٨٥) وإسنادهما ضعيف .

(١٦) - تفسير ابن جرير (١٤٣٥٦/١٢) وصحح المصنف إسناده مع أن رجاله متكلم فيهم بما لا يرتقي إسنادهم إلى الحسن فضلًا عن الصحة فانظر إن شئت تراجمهم في « التهذيب » والله أعلم .

(١٧) - تفسير ابن جرير (١٤٣٥٥/١٢) وصحح المصنف إسناده مع أن شيخ ابن جرير ضعفه أبو يعلى الموصلي ، وقال ابن عدي « منكر الحديث عن الثقات ، ويسرق الحديث » وقال ابن أبي حاتم : « ترك أبي التحديث عنه وكذلك أبو زرعة ترك الرواية عنه » وقال ابن حبان في « الثقات » (٤٨٧/٨) : « يُغْرِبُ ويخطئ » وقد أخطأ في هذا الإسناد ، فقد رواه أبو بكر بن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٤/٨) ثنا يحيى بن سليم الطائفي عن داود بن أبي هند عن ابن سيرين ، به . وهذا إسناد حسن لكلام في يحيى بن سُلَيم وهو مترجم له في « التهذيب » .

---

[١] - في ز « إسناد » .

[٢] - في خ : « عمر » .

[٣] - في ز « سليمان » .

قال كثير من المفسرين : الضمير عائد إلىٰ الجنة ، ويحتمل أن يكون عائدًا علىٰ[١] المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلىٰ .

﴿ **فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾ أي : الذليلين الحقيرين ، معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده بضده ، فعند ذلك استدرك اللعين ، وسأل النظرة إلىٰ يوم الدين ، قال : ﴿ **أنظرني[٢] إلىٰ يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين** ﴾ ، أجابه تعالىٰ إلىٰ ما سأل ؛ لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالىٰ أنه لما أنظر إبليس ﴿ **إلىٰ يوم يبعثون** ﴾ ، واستوثق إبليس بذلك ، أخذ في المعاندة والتمرد ، فقال : ﴿ **فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ أي : كما أغويتني .

قال ابن عباس(١٨) : كما[٣] أضللتني . وقال غيره : كما[٤] أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه ، علىٰ ﴿ **صراطك المستقيم** ﴾ أي : طريق الحق وسبيل النجاة ، فلأضلنهم[٥] عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي .

وقال بعض النحاة : الباء هاهنا قسمية ، كأنه يقول : فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم .

[قال مجاهد ﴿ **صراطك المستقيم** ﴾][٦] يعني : الحق .

وقال محمد بن سوقة : عن عون بن عبد الله : يعني طريق مكة .

قال ابن جرير[٧] : والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك .

(قلت) : لما روىٰ الإمام أحمد(١٩) : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل - يعني :

---

(١٨) - أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٣٦١) واللالكائي في « أصول الاعتقاد » (٣/رقم ١٠٠٢) من طريق علي ابن أبي طلحة عنه به ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٣/١٣٥) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم .

(١٩) - **حسن** « المسند » (٣/٤٨٣) ومن طريقه المزي في « تهذيب الكمال » (١٠/٢٠٢ ، ٢٠٣) = =

---

[١] - في خ « إلى » .
[٢] - في ز « فأنظرني » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في خ « ولأضلنهم » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٧] - في تفسيره (١٢/٣٣٦) .

الثقفي عبد اللَّه بن عقيل - ، حدثنا موسىٰ بن المسيب ، أخبرني سالم بن أبي الجعد ، عن سبرة ابن أبي فاكه ، قال : سمعت رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، يقول[١] : « **إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ، قال : فعصاه وأسلم** » ، قال : « **وقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل**[٢] ، **فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال ، فقال : تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ، قال : فعصاه وجاهد** » . قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقًّا علىٰ اللَّه أن يدخله الجنة** ، [**وإن قتل كان حقًّا علىٰ اللَّه أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقًّا علىٰ اللَّه أن يدخله الجنة**][٣] ، **أو وقصته دابة كان حقًّا علىٰ اللَّه أن يدخله الجنة** » .

وقوله : ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم** ﴾ الآية .

قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم** ﴾ يقول[٤] : أشككهم في آخرتهم ﴿ **ومن خلفهم** ﴾ : أرغبهم في دنياهم ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ : أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ **وعن شمائلهم** ﴾ : أشهي لهم المعاصي .

وقال ابن أبي طلحة في رواية والعوفي كلاهما عن ابن عباس : أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم ، وأما من خلفهم فأمر آخرتهم ، وأما عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم ، وأما عن[٥]

وأخرجه النسائي ، كتاب : الجهاد ، باب : ما لمن أسلم وهاجر وجاهد (٦/٢١ ، ٢٢) - ومن طريقه ابن الأثير في « أسد الغابة » (٢/٣٢٤ ، ٣٢٥) - وأبو يعلى وعنه ابن حبان في صحيحه (١٠/٤٥٩٣) - والبيهقي في « الشعب » (٤/٤٢٤٦) من طريق هاشم بن القاسم به ، وأخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤/٥٦٤) - ومن طريقه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢/١٠٤٣) (٥/٢٦٧٥) والطبراني في « الكبير » (٧/٦٥٥٨) - والبخاري في « التاريخ الكبير » (٤/١٨٧ ، ١٨٨) من طريق محمد بن فضيل عن موسى أبي جعفر الثقفي به ، وخالفهما - أبا عقيل الثقفي ومحمد بن فضيل - محمد بن عجلان فرواه عن أبي جعفر - يعنى موسى بن المسيب - قال : سمعت سالم بن أبي الجعد يقول : حدثني جابر بن أبي سبرة ، رواه البيهقي (٤/٤٢٤٧) وعلقه المزي ، ومثل هذا الاختلاف لا يضره وقد صحح إسناده العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (المستخرج/٤/١٥٥٢) وحسنه ابن حجر في « الإصابة » (٤/١٢٠) وهو أشبه إذ إن موسى بن المسيب : « صدوق » ولم يوثقه غير ابن حبان والعجلي ، وقال ابن معين وأبو حاتم : « صالح » .

---

[١] - في ز « قال » .

[٢] - هو الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره ، والطرف الآخر في يد الفرس ؛ ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه . «نهاية».

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٤] - سقط من : ت .

[٥] - في ز « من » .

شمائلهم فمن قبل سيئاتهم .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة : أتاهم من بين أيديهم ، فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ، « **ومن خلفهم**» من أمر الدنيا فزينها[١] لهم ودعاهم إليها ، «**وعن أيمانهم**» من قبل حسناتهم بطَّأهم عنها ، «**وعن شمائلهم**» زين لهم السيئات والمعاصي ، ودعاهم إليها وأمرهم بها ، آتاك يا بن آدم من كل وجه ، غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم[٢] يستطع أن يحول بينك وبين رحمة اللَّه .

وكذا روي عن إبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة[٣] والسدي وابن جريج[٤] إلا أنهم قالوا : من بين أيديهم : الدنيا ، ومن خلفهم : الآخرة .

وقال مجاهد : من بين أيديهم وعن أيمانهم : حيث يبصرون ، [ومن خلفهم وعن شمائلهم : حيث لا يبصرون][٥].

واختار ابن جرير[٦] : أن المراد : جميع طرق الخير والشر ، فالخير يصدهم عنه ، والشر يحببه لهم .

وقال الحكم بن أبان(٢٠) : عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم** ﴾ : ولم يقل من فوقهم ؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم .

وقال علي بن أبي طلحة(٢١) : عن ابن عباس ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ قال : موحدين .

وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق في هذا الواقع ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك علىٰ كل شيء حفيظ** ﴾ .

---

(٢٠) - أخرجه ابن جرير (١٤٣٨٢/١٢) من طريق حفص بن عمر ثنا الحكم بن أبان به ، وحفص بن عمر ضعيف ، وتابعه إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه به أخرجه اللالكائي في « أصول الاعتقاد » (٦٦١/٣) وإبراهيم ضعيف كذلك ، وزاد نسبته السيوطي في «الدر المنثور» (١٣٦/٣) إلى عبد بن حميد .

(٢١) - أخرجه ابن جرير (١٤٣٨٣/١٢) وابن أبي حاتم (٨٢٦٣/٥) .

---

[١] - في ز « وزينها » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ ، ز : « عيينة » ، والمثبت من تفسير ابن جرير (٣٤٠/١٢) .
[٤] - في ت « جرير » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٦] - في تفسيره (٣٤٠/١٢) .

ولهذا ورد في الحديث : الاستعاذةُ من تسلط الشيطان علىٰ الإِنسان من جهاته كلها ؛ كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده(٢٢) :

حدثنا نصر بن علي ، حدثنا عمرو بن مجمع ، عن يونس بن خباب ، عن ابن جبير بن مطعم - يعني نافع بن جبير - ، عن ابن عباس .

وحدثناه عمر بن الخطاب - يعني السجستاني - ، حدثنا عبد اللَّه بن جعفر ، حدثنا عبيد[١] اللَّه بن عمرو ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن يونس بن خباب ، عن ابن جبير بن مطعم ، عن ابن عباس قال : كان رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، يدعو[٢] : « **اللَّهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ، اللَّهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي ، واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بك اللَّهم أن أغتال من تحتي** » .

تفرد به البزار وحسنه .

وقال الإِمام أحمد(٢٣): حدثنا وكيع، حدثنا[٣] عبادة بن مسلم الفزاري ، حدثني جبير[٤] بن

(٢٢) - **إسناده ضعيف** رواه البزار - كما في « مختصر الزوائد » لابن حجر (٢١٦٠/٢) - وأخرجه الطبراني في « الدعاء » (٣/رقم ١٢٩٧) ثنا أحمد بن إسحاق الخشاب الرقي ، ثنا عبد اللَّه بن جعفر به مختصرًا وقال البزار : « وقد روي من غير وجه بغير لفظه ، فذكرنا هذا لاختلاف لفظه ، ولا نعلم أسند يونس عن ابن جبير إلا هذا » قال ابن حجر : « وهو ضعيف » ومن قبله ذكر الحديث شيخه الهيثمي في « المجمع » (١٧٨/١٠) وقال : « رواه البزار وفيه يونس بن خباب وهو ضعيف » قلت : واختلف فيه على عبيد اللَّه بن عمرو فرواه عبد اللَّه ابن جعفر - وهو ثقة تغير - عن عبيد اللَّه به هكذا ، ورواه الوليد بن صالح - وهو ثقة - عن عبيد اللَّه بن عمرو به غير أنه سمى الصحابي « عبد اللَّه بن عمر » أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٦٩٨) وانظر ما بعده .

(٢٣) - **صحيح** « المسند » (٢٥/٢) (٤٧٨٥) ومن طريقه الحاكم (٥١٧/١ ، ٥١٨) وأخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (١٢٠٠) وعلقه في « التاريخ الكبير » (٢٢٥/٢) ، وأبو داود ، كتاب : الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٤) وابن ماجه ، كتاب : الدعاء ، باب : ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى (٣٨٧١) وابن أبي شيبة في « المصنف » (٤١/٧) من طريق وكيع به ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي وصححه أيضًا ابن حبان (٩٦١/٣) وأخرجه عبد بن حميد في « المنتخب » (٨٣٧) ، وأبو داود (٥٠٧٤) والنسائي ، كتاب : الاستعاذة ، باب : الاستعاذة من الخسف (٢٨٢/٨) وفي « عمل اليوم والليلة » (٥٦٦) مختصرًا ، وابن أبي شيبة (٤١/٧) والطبراني في « الكبير » (١٣٢٩٦/١٢) وفي « الدعاء » (٢/رقم ٣٠٥) والبيهقي في « الأسماء والصفات » (٢٧٨/١) من طرق عن عبادة بن مسلم به .

[١] - في خ ، ز : « عبد »
[٢] - في خ ، ز : « يقول » .
[٣] - في ز « بن » .
[٤] - سقط من: خ ، ز .

أبي سليمان بن جبير بن مطعم ، سمعت عبد اللّه بن عمر[١] يقول : لم يكن رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، يَدَعُ هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يُمسي : « **اللّهم ؛ إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللّهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللّهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي ، اللّهم احفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي** » ، قال وكيع : [« **من تحتي** »][٢] يعني : الخسف .

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به[٣] ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

أكد (تعالىٰ) اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلىٰ بقوله : ﴿ **اخرج منها مذءومًا مدحورًا** ﴾ .

قال ابن جرير[٤] : أما المذءوم : فهو المعيب ، والذام - غير مشدّد - : العيب ، يقال : ذأمه يذأمه ذأمًا فهو مذءوم ، ويتركون الهمز ، فيقولون : ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا ، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم .

قال : والمدحور : المُقْصَى ، وهو المبعد المطرود .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما نعرف المذءوم والمذموم إلا واحدًا .

وقال سفيان الثوري(٢٤) : عن أبي إسحاق ، عن التميمي ، عن ابن عباس ﴿ **اخرج منها مذءومًا مدحورًا** ﴾ قال : مقيتًا .

وقال علي بن أبي طلحة(٢٥) : عن ابن عباس : صغيرًا منفيًا[٥] . وقال السدي : مقيتًا

(٢٤) - أخرجه ابن جرير (١٤٣٩١/١٢) وابن أبي حاتم (٨٢٦٦/٥ ، ٨٢٧١) من طرق عن سفيان به ، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير التميمي واسمه أَرْبِدة وهو صدوق روى له أبو داود .

(٢٥) - إنما أخرجه ابن جرير (١٤٣٨٦/١٢) وابن أبي حاتم (٨٢٦٧/٥ ، ٨٢٧٢) من طريق العوفي عن ابن عباس ، به .

[١] - في ز « عمرو » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في تفسيره (٣٤٢/١٢) .
[٥] - في خ ، ز : « مقيتًا » ، والمثبت من تفسير ابن جرير .

مطرودًا . وقال قتادة : لعينًا مقيتًا . وقال مجاهد : منفيًا مطرودًا . وقال الربيع بن أنس : مذءومًا منفيًا ، والمدحور : المصغَّر .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين** ﴾ كقوله : ﴿ **قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورًا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفىٰ بربك وكيلًا** ﴾ .

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

يذكر تعالىٰ أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حوّاء[١] الجنة ؛ أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة ، وقد تقدم الكلام علىٰ ذلك في سورة البقرة ، فعند ذلك حسدهما الشيطان ، وسعىٰ في المكر والوسوسة والخديعة ؛ ليُسْلَبَا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿ **وقال** ﴾ كذبًا وافتراء ﴿ **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين** ﴾ [أي : لئلا تكونا ملكين][٢] أو خالدين هاهنا ، ولو[٣] أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك[٤] ؛ كقوله : ﴿ **قال يا آدم هل أدلك علىٰ شجرة الخلد وملك لا يبلىٰ** ﴾ أي : لئلا تكونا ملكين ؛ كقوله : ﴿ **يبين الله لكم أن تضلوا** ﴾ أي : لئلا تضلوا ﴿ **وألقىٰ في الأرض رواسي أن تميد بكم** ﴾ [أي : لئلا تميد بكم][٥] .

وكان ابن عباس(٢٦) ويحيىٰ بن أبي كثير يقرآن : (**إلا أن تكونا مَلِكين**) بكسر اللام ، وقراءة[٦] الجمهور بفتحها .

---

(٢٦) - أخرجه ابن جرير (١٤٣٩٤/١٢) وفي إسناده عبد الرحمن بن أبي حماد وهو « مجهول الحال » ، وقال ابن جرير (٣٤٩/١٢) : « والقراءة التي لا أستجيز القراءة في ذلك بغيرها ، القراءة التي عليها قرأة الأمصار وهي ، فتح « اللام » من « مَلَكَيْنِ » بمعنى : ملكين من الملائكة ...» .

---

[١] - سقط من : خ ، ز .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز « فلو » .
[٤] - في ز « إلا أن تكون ملكين » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٦] - في خ « قراه » .

﴿ **وقاسمهما** ﴾ أي : حلف لهما بالله ﴿ **إني لكما لمن الناصحين** ﴾ فإني من قبلكما هاهنا ، وأعلم بهذا المكان ، وهذا من باب المفاعلة ، والمراد أحد الطرفين ؛ كما قال خالد بن زهير ابن عم أبي ذؤيب :

وقاسَمَها[١] بالله جَهْدًا لأَنْتُمُ أَلَذُّ من السَّلْوَىٰ إذا[٢] ما[٣] نَشُورُها

أي : حلف لهما بالله [علىٰ ذلك][٤] حتىٰ خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله ، فقال : إني خلقت قبلكما ، وأنا أعلم منكما ، فاتبعاني[٥] أرشدكما . وكان بعض أهل العلم يقول : [من خدعنا بالله انخدعنا له][٦] .

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

قال سعيد بن أبي عروبة(٢٧) : عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : كان آدم رجلًا طوالًا كأنه نخلة سحوق ، كثير شعر الرأس ، فلما وقع فيما[٧] وقع فيه[٨] من الخطيئة ، بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها ، فانطلق هاربًا في الجنة ، فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة ، فقال لها : أرسليني ، فقالت : إني غير مرسلتك ، فناداه ربه عز وجل : يا آدم أمني تفر ؟ قال : يا[٩] رب ، إني استحييتك[١٠] . وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق : عن الحسن ، عن أبي بن كعب عن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، والموقوف أصح إسنادًا .

وقال عبد الرزاق(٢٨) : أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك ، عن الحسن بن عمارة ، عن المنهال

---

(٢٧) - تقدم تخريجه [سورة البقرة/آية ٣٦] .

(٢٨) - **إسناده ضعيف جدًا** وعزاه لعبد الرزاق السيوطي في « الدر المنثور » (١٠٨/٣) - ومن طريقه أخرجه ابن جرير (١٤٣٩٩/١٢) وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٢٧/٢ ، ٦٢٨/ مخطوط) ، والحسن بن عمارة « متروك » كما في « التقريب » .

---

[١] - في ز « قاسمهما » .
[٢] - بياض في : ز .
[٣] - في ز « أما » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٥] - في خ « فاتبعان » .
[٦] - في خ ، ز : « من خادعنا بالله خدعنا » .
[٧] - في ز « بما » .
[٨] - في ز « به » .
[٩] - سقط من : ز .
[١٠] - في ز « أستحييك » .

ابن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كانت الشجرة التي نهىٰ اللَّه عنها آدم وزوجته : السنبلة ، فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما ، وكان الذي وارىٰ عنهما [من سوآتهما][١] أشعارهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين ، يلزقان بعضه إلىٰ بعض ، فانطلق آدم - عليه السلام - موليًا في الجنة ، فعلقت[٢] برأسه شجرة من الجنة ، فناداه اللَّه[٣] : يا آدم ، أمني تفر ؟ قال : لا ، ولكني استحييتك يا رب ، قال : أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك ؟ قال : بلىٰ يا رب ، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحدًا يحلف بك كاذبًا . قال : وهو قول اللَّه عز وجل : ﴿ **وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين** ﴾ ؛ قال : فبعزتي لأهبطنك إلىٰ الأرض ، ثم لا تنال العيش إلا كدًّا ، قال : فأهبط من الجنة ، وكانا يأكلان منها رغدًا ، فأهبط إلىٰ غير رغد من طعام وشراب ، فعلم صنعة الحديد ، وأمر بالحرث فحرث وزرع ، ثم سقىٰ ، حتىٰ إذا بلغ حصد ، ثم داسه ، ثم ذرّاه ، ثم طحنه ، ثم عجنه ، ثم خبزه ، ثم أكله ، فلم يبلعه[٤] حتىٰ بلغ[٥] منه ما شاء اللَّه أن يبلغ[٦] .

وقال الثوري(٢٩) : عن ابن أبي ليلىٰ ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ﴿ **وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ قال : ورق التين . صحيح إليه .

قال مجاهد : جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، قال[٧] : كهيئة الثوب .

وقال وهب بن منبه في قوله : ﴿ **ينزع عنهما لباسهما** ﴾ قال : كان لباس آدم وحوّاء نورًا علىٰ فروجهما ، لا يرىٰ هذا عورة هذه ، ولا هذه عورة هذا ، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما .

---

(٢٩) - أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٤٠٤) وابن أبي حاتم (٥/٨٣٠٢) وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢/٦٢٧/مخطوط) من طريق جعفر بن عون عن سفيان الثوري به ، ورواه يحيى بن آدم عن شريك عن ابن أبي ليلى به ؛ أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٤٠٥) وقد صحح المصنف إسناده مع أن ابن أبي ليلى - وهو محمد بن عبد الرحمن - ضعف لسوء حفظه ، لكن رواه البيهقي في « السنن الكبرى » (٢/٢٤٤) من طريق معاوية بن هشام عن سفيان أظنه عن عمرو بن قيس الملائي عن المنهال به ، لكن معاوية بن هشام : « صدوق له أوهام » فأخشى أن يكون ذلك من أوهامه ، لاسيما ولم يجزم به ، والأثر زاد نسبته في « الدر المنثور » (٣/١٣٩) إلى الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه .

---

[١] - سقط من ز .
[٢] - في ز « وعلقت » .
[٣] - سقط من: خ ، ز .
[٤] - في خ ، ز : « يبلغه » .
[٥] - في ت : « بلغ » .
[٦] - في ت : « يبلغ » .
[٧] - سقط من : ز .

رواه ابن جرير(٣٠) بسند[١] صحيح إليه .

وقال عبد الرزاق(٣١) : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قال : قال آدم : أي رب ، أرأيت إن تبت واستغفرت ؟ قال : إذًا أدخلك الجنة ، وأما إبليس فلم يسأله التوبة ، وسأله النظرة ، فأعطىٰ كل واحد منهما الذي سأله .

وقال ابن جرير(٣٢) : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا عباد بن العوام ، عن سفيان بن حسين ، عن يعلىٰ بن مسلم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أكل آدم من الشجرة ، قيل له : لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها[٢] ؟ قال : حواء أمرتني ؛ قال : فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرْهًا ، ولا تضع إلا كرهًا ، قال : فرنت [عند ذلك حواء][٣] ، فقيل لها : الرنة عليك وعلىٰ ولدك .

وقال الضحاك بن مزاحم في قوله : ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ : هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

قيل : المراد بالخطاب في[٤] : ﴿ **اهبطوا** ﴾ آدم وحواء وإبليس والحية ، ومنهم من لم يذكر الحية ، والله أعلم .

والعمدة في العداوة آدم وإبليس ؛ ولهذا قال تعالىٰ في سورة طه ، ﴿ **قال اهبطا منها جميعًا** ﴾

---

(٣٠) - تفسير ابن جرير (١٤٤٠٨/١٢) وكذا أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٢٧/٢/مخطوط) والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » وابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في « الدر المنثور » (١٣٨/٣).

(٣١) - « التفسير » لعبد الرزاق (٢٢٦/٢) .

(٣٢) - **صحيح موقوف** ابن جرير في تفسيره (١٤٤١٠/١٢) وأخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٥/ ١٠٤٨) وابن أبي الدنيا في « كتاب البكاء » - كما في « الدر المنثور » (١٠٩/١) - ومن طريقه الحاكم في « المستدرك » (٣٨١/٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي وهو كما ، قالا وزاد نسبته السيوطي إلى ابن منيع وابن المنذر والبيهقي في « الشعب » وابن عساكر .

---

[١] - في ز « بإسناد » .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز « حواء عند ذلك » .
[٤] - سقط من : ز .

الآية ، وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحًا فهي تبع لإبليس .

وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلىٰ الإسرائيليات ، واللَّه أعلم بصحتها ، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم ، لذكرها اللَّه تعالىٰ في كتابه أو رسوله صلىٰ اللَّه عليه وسلم .

وقوله[١] : ﴿ **ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلىٰ حين** ﴾ أي : قرار وأعمار مضروبة إلىٰ آجال معلومة ، قد جرىٰ بها القلم ، وأحصاها القدر ، وسطرت في الكتاب الأول .

وقال ابن عباس : ﴿ **مستقر** ﴾ القبور . وعنه [قال : ﴿ **مستقر** ﴾ فوق][٢] الأرض وتحتها . رواهما ابن أبي حاتم(٣٣) .

وقوله : ﴿ **قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ كقوله تعالىٰ : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرىٰ** ﴾ ، يخبر تعالىٰ أنه جعل[٣] الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا ؛ فيها محياهم، وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة[٤] الذي يجمع اللَّه فيه الأولين والآخرين ، ويجازي كلًّا بعمله .

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

يمتن تعالىٰ علىٰ عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش ، فاللباس المذكور ها هنا لستر العورات ، وهي : السوآت ، والرياش والريش : هو[٥] ما يتجمل به ظاهرًا ، فالأول من الضروريات ، والريش من التكملات والزيادات .

قال ابن جرير[٦] : الرياش في كلام العرب : الأثاث ، وما ظهر من الثياب .

وقال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس ، وحكاه البخاري(٣٤) عنه : الرياش[٧] : المال .

---

(٣٣) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٥/٨٣٢١ ، ٨٣٢٢) بإسنادين حسنين عنه ، به .

(٣٤) - صحيح البخاري، كتاب: التفسير ، باب : « سورة الأعراف » معلقًا عن ابن عباس ، ووصله ابن جرير (١٢/١٤٤٢٨) وابن أبي حاتم (٥/٨٣٣١) من طريق علي بن أبي طلحة عنه ، به .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز « وجه » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز « يجعل » .
[٤] - في خ ، ز : « المعاد » .
[٥] - سقط من خ .
[٦] - في تفسيره (١٢/٣٦٤) .
[٧] - في ز « الريش » .

وهكذا[١] قال مجاهد وعروة بن الزبير والسدي والضحاك [وغير واحد][٢] .

وقال العوفي(٣٥) : عن ابن عباس : الرياش : اللباس والعيش والنعيم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرياش : الجمال .

وقال الإمام أحمد(٣٦) : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أصبغ ، عن أبي العلاء الشامي قال : لبس أبو أمامة ثوبًا جديدًا ، فلما بلغ ترقوته قال : الحمد للّٰه الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في حياتي ، ثم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **من استجد ثوبًا فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد للّٰه الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلي الثوب الخلق[٣] - أو : ألقى - فتصدق به - كان في ذمة اللّٰه ، وفي جوار اللّٰه ، وفي كنف اللّٰه حيًا وميتًا** » .

ورواه الترمذي وابن ماجه : من رواية يزيد بن هارون ، عن أصبغ - هو ابن زيد الجهني - وقد وثقه يحيىٰ بن معين وغيره ، وشيخه أبو العلاء الشامي لا يُعرف إلا بهذا الحديث ، ولكن لم

(٣٥) - أخرجه ابن جرير (١٤٤٣٤/١٢) وابن أبي حاتم (٨٣٣٣/٥) والعوفي ضعيف .

(٣٦) - **إسناده ضعيف** « المسند » (٤٤/١) (٣٠٥) - ومن طريقه ابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٢/رقم ١١٣٠) - وأخرجه ابن أبي شيبة (٥٩/٦) ، (١٢٢/٧) - وعنه ابن ماجة ، كتاب : اللباس ، باب : ما يقول الرجل إذا لبس ثوبًا جديدًا (٣٥٥٧) - وعبد بن حميد في « المنتخب » (١٨) والترمذي في « الدعوات » (٣٥٥٥) وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٠٩ ، ١١٠) والمزي في « تهذيب الكمال » (١٥٨/٣٤) من طريق يزيد بن هارون به ، وقال الترمذي : « هذا حديث غريب ، وقد رواه يحيى بن أيوب عن عبيد اللّٰه بن زَحْر عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة » وقال ابن الجوزي : « هذا حديث لا يصح ، أصبغ هو ابن زيد قال ابن عدي : له أحاديث غير محفوظة ، قال ابن حبان ، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد - قلت وثقه غير واحد من الأئمة انظر « التهذيب » - قال الدارقطني : « وأبو العلاء هذا مجهول ...» والطريق الذي أشار إليه الترمذي ، أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٧٤٩) - ومن طريقه الحاكم (١٩٣/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٢٨٦/٥) - والطبراني في « الدعاء » (٣٩٣/١) من طريق يحيى بن أيوب عن عبيد اللّٰه بن زَحْر به ، وقال الحاكم : « هذا حديث لم يحتج الشيخان - رضي اللّٰه عنهما - بإسناده .... على أنه حديث تفرد به إمام خراسان عبد اللّٰه بن المبارك عن أئمة الشام - رضي اللّٰه عنهم أجمعين - فآثرت إخراجه ليرغب المسلمون في استعماله » . وذكر له الدارقطني في « العلل » (٢/س ١٦٠) طرقًا أخرى عن عبيد اللّٰه بن زحر ثم قال : « عبيد اللّٰه بن زحر ضعيف ، والحديث غير ثابت » .

[١] - في ز « وكذا » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز « خلق » وفي المسند « الذي أخلق » .

يجرحه[١] أحد ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد أيضًا(٣٧) : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا مختار بن نافع التمار ، عن أبي مطر : أنه رأى عليًا رضي الله عنه أتى غلامًا حدثًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم ، ولبسه إلى[٢] ما بين الرسغين[٣] إلى الكعبين ، يقول حين[٤] لبسه : الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس ، وأواري به عورتي . فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن النبي[٥] صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هذا شيء سمعته من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول عند الكسوة : « **الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس ، وأواري به عورتي** » .

وقوله تعالى : ﴿ **ولباس التقوى ذلك خير** ﴾ قرأ بعضهم : (**ولباسَ التقوى**) بالنصب ، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء ، و﴿ **ذلك خير** ﴾ خبره .

واختلف المفسرون في معناه ؛ فقال عكرمة : يقال : هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة . رواه ابن أبي حاتم(٣٨) .

وقال زيد بن علي والسدي وقتادة وابن جريج : ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ الإيمان .

وقال العوفي(٣٩) : عن ابن عباس : [العمل الصالح .

وقال زياد بن عمرو(٤٠) : عن ابن عباس][٦] : هو السمت الحسن في الوجه .

---

(٣٧) - **إسناده ضعيف** « المسند » (١/١٥٧ ، ١٥٨) (١٣٥٤) وأخرجه عبد بن حميد في « المنتخب » (٩٦) - ومن طريقه ذكره المصنف في « البداية والنهاية » (٨/٤ ، ٥) - ثنا محمد بن عبيد به مطولًا وأخرجه عبد الله بن أحمد في « زوائد المسند » (١/١٥٧) (١٣٥٢) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/٨٣٣٢) وأبو يعلى في « المسند » (١/رقم ٢٩٥) والطبراني في « الدعاء » (٢/رقم ٣٩٥) من طرق عن المختار بن نافع به ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٥/١٢١ ، ١٢٢) وقال : « رواه أحمد ، وأبو يعلى ... وفيه مختار بن نافع وهو ضعيف » قلت : تابعه اثنان عند أبي يعلى (١/٣٢٧) والطبراني (١/٣٩٤) لكن شيخهم أبا مطر هذا جهله أبو حاتم والذهبي ، وقال أبو زرعة : لا يعرف اسمه . والحديث ذكره ابن حجر في « المطالب العالية » (١/١٢٧٠ ، ١٣٦٢) وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه - وزاد السيوطي نسبته في « الدر المنثور » (٣/١٤١) إلى ابن مردويه .

(٣٨) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٥/٨٣٣٧ ، ٨٣٤١) وإسناده حسن .

(٣٩) - أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٤٤٤) ، وابن أبي حاتم (٥/٨٣٣٦) والعوفي ضعيف .

(٤٠) - أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٤٤٥) وقد تحرف في مخطوطته « زياد بن عمرو » إلى =

---

[١] - في خ ، ز : « يخرجه » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز « الرصغين » .
[٤] - في خ ، ز : « و » .
[٥] - في ز « نبي الله » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

وعن عروة بن الزبير : ﴿ **لباس التقوىٰ** ﴾ خشية اللَّه .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ **ولباس التقوىٰ** ﴾ يتقي اللَّه فيواري عورته ، فذاك لباس التقوىٰ .

وكل هذه متقاربة ، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال(٤١) :

حدثني المثنىٰ ، حدثنا إسحاق بن الحجاج ، حدثني إسحاق بن إسماعيل ، عن سليمان بن أرقم ، عن الحسن قال : رأيت عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه علىٰ منبر رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، عليه[١] قميص قوهي[٢] محلول الزر ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب ، وينهى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس اتقوا اللَّه في هذه السرائر ، فإني سمعت رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم يقول : « **والذي نفس محمد بيده ، ما عمل أحد قط سرًا إلا ألبسه اللَّه رداء علانية ، إن خيرًا فخير[٣] ، وإن شرًا فشر[٤]** » . ثم قرأ[٥] هذه الآية : (ورياشًا) ولم يقرأ ﴿ **وريشًا** ﴾ ، ﴿ **ولباس التقوىٰ ذلك خير ذلك من آيات اللَّه** ﴾ قال : السمت الحسن .

هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم ، وفيه ضعف . وقد روىٰ الأئمة الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب الأدب من طرق صحيحة : عن الحسن البصري : أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب ، وذبح الحمام يوم الجمعة علىٰ المنبر(٤٢) .

= « الدبا بن عمرو » وفي طبعة الحلبي منه (١٤٩/٨) إلى : « الزباء بن عمرو » وفي بعض نسخ ابن كثير المطبوعة إلى « الديال بن عمرو » ولذلك لم يعرفه الشيخ الأديب محمود شاكر فتركه بياضًا في طبعته من ابن جرير والصواب المثبت عندنا هنا وقد ترجم له « البخاري » في « التاريخ » (٣٦٧/٣) ، وابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٥٤٠/٣) وابن حبان في « الثقات » (٢٥٦/٤) وكذا ابن حجر في « لسان الميزان » (٥٧٧/٢) وذكروا أنه يروي عن ابن عباس ، لكنه مجهول كما قال أبو حاتم .

(٤١) - **إسناده ضعيف** تفسير ابن جرير (١٤٤٤٦/١٢) وأخرجه ابن أبي حاتم (٨٣٤٢/٥) من طريق حفص المهرقاني ، ثنا إسحاق بن إسماعيل به ، وقال ابن جرير (٣٦٣/١٢) : « في إسناده نظر » قلت : علته سليمان بن أرقم هذا : تركه أبو حاتم وأبو داود والترمذي وغير واحد ، وقال أبو زرعة : « ضعيف الحديث ، ذاهب الحديث » وقال ابن عدي : « عامة ما يرويه لا يتابع عليه » . وقد نفى جماعة سماع الحسن من عثمان ، لكنه قد صرح بالسماع منه كما في الآتي .

(٤٢) - **صحيح موقوف** ، عزاه المصنف لأحمد وهو في «المسند» (٧٢/١) (٥٢١) من زيادات عبد اللَّه- ومن طريق عبد اللَّه أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » ترجمة عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه =

---

[١] - سقط من : خ ، ز .

[٢] - في ز « فوهي » . والقوهي : ثياب بيض . (القاموس المحيط ١٦١٥ .

[٣] - في ز « فخيرًا » .

[٤] - في ز « فشرًا » .

[٥] - في ز « تلا » .

وأما المرفوع منه فقد روىٰ الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير له شاهدًا من وجه آخر حيث قال : حدثنا [محمود بن محمد المروزي ، ثنا حامد بن آدم المروزي ، ثنا الفضل بن موسى ، عن محمد بن عبيد الله العرزمي ، عن سلمة بن كهيل ، عن جندب بن سفيان ، قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **ما أسرَّ عبدٌ سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيراً فخير ، وإن شرًا فشر** » . ...(٤٣)[١]

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٧) ﴾

يقول تعالىٰ محذرًا بني آدم من إبليس وقبيله ، ومبينًا لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام ، في سعيه في إخراجه من الجنة ، التي هي دار النعيم ، إلىٰ دار التعب والعناء ، والتسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة ، وهذا كقوله تعالىٰ : ﴿ **أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾ .

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٢٨) قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ

= (ص ٢٢١ ، ٢٢٢) - قال : ثنا شيبان بن أبي شيبة ثنا مبارك بن فضالة ثنا الحسن قال : شهدت عثمان ... فذكره ، وأخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (١٣٠١) وابن أبي الدنيا في « ذم الملاهي » (١٣ أ مخطوط) من طريق مبارك بن فضالة . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٤٥/٤) وقال : « رواه أحمد - كذا قال وهو من زيادات عبد الله - وإسناده حسن إلا أن مبارك بن فضالة مدلس » لكنه صرح بالسماع هنا وقد وثقه غير واحد ، وضعفه آخرون وهو متابع عند البخاري وعبد الرزاق في « المصنف » (١٩٧٣٣/١١) - ومن طريقه البيهقي في « السنن الكبرى » (٤١٣/٢) وفيه تحريفات في المتن - وابن أبي شيبة في « المصنف » (٦٣٩/٤) وأُعلَّ بعدم سماع الحسن من عثمان حيث قال أبو زرعة : « رآه رؤية ولم يسمع منه » لكن قال علي بن المديني في « العلل » (ص ٦٠) : « سمع الحسن من عثمان بن عفان وهو يخطب » قلت : ونص الأثر هنا يشهد لسماعه منه . وبالله التوفيق .

(٤٣) - ما بين المعكوفتين بياض بالأصل وقد استدركناه من المعجم الكبير للطبراني ، وقد جاء بسنده كاملًا عند [آية رقم ٢٩/ من سورة الفتح] ولفظه « **ما أسر عبدٌ سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر** » ويخرج في المكان المذكور .

[١] - بياض بالمخطوطة .

وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ
(٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن
دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠)

قال مجاهد : كان المشركون يطوفون بالبيت عراة ، يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على فرجها النّسعة أو الشيء وتقول :

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فأنزل اللَّه : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا واللَّه أمرنا بها** ﴾ الآية .

قلت : كانت العرب ما عدا قريشًا[١] لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها ، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا اللَّه فيها ، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ، فمن[٢] أعاره أحمسي ثوبًا طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه ، فلا يتملكه أحد ، فمن لم يجد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسي ثوبًا طاف عريانًا ، وربما كانت امرأة فتطوف[٣] عريانة ، فتجعل على فرجها شيئًا ليستره بعض الشيء ، وتقول :

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أو كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل ، وكان هذا شيئًا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من اللَّه وشرع ، فأنكر اللَّه تعالى عليهم ذلك ، فقال : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا واللَّه أمرنا بها** ﴾ فقال تعالى ردًّا عليهم : ﴿ **قل** ﴾ أي : قل يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿ **إن اللَّه لا يأمر بالفحشاء** ﴾ أي : هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة ، واللَّه لا يأمر بمثل ذلك ، ﴿ **أتقولون على اللَّه ما لا تعلمون** ﴾ أي : أتسندون إلى اللَّه من الأقوال ما لا تعلمون صحته .

وقوله تعالى : ﴿ **قل أمر ربي بالقسط** ﴾ أي : بالعدل والاستقامة ﴿ **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين** ﴾ أي : أمركم بالاستقامة[٤] في عبادته في محالها ، وهي متابعة المرسلين المؤيَّدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن اللَّه ، وما جاءوا به من الشرائع ، وبالإخلاص له في عبادته ، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة ، وأن يكون خالصًا من الشرك .

---

[١] - في ز « قريش » .
[٢] - في ز « ومن » .
[٣] - في ز « تطوف » .
[٤] - في ز « بالاستعانة » .

وقوله تعالىٰ : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ الضلالة ﴾ اختلف في معنىٰ قوله : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ .

فقال ابن أبي نجيح : عن مجاهد : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ : يحييكم بعد موتكم .

وقال الحسن البصري : كما بدأكم في الدنيا ، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء .

وقال قتادة : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئًا ، ثم ذهبوا ، ثم يعيدهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما بدأكم أولًا كذلك يعيدكم آخرًا .

واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير(٤٤) ، وأيده بما رواه : من حديث سفيان الثوري وشعبة ابن الحجاج كلاهما ، عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بموعظة ، فقال : « **يا أيها الناس ، إنكم تحشرون إلىٰ الله حفاة عراة غرلًا ، ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين﴾** » .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين : من حديث شعبة ، وفي صحيح[١] البخاري أيضًا : من حديث الثوري به .

[وقال وقاء[٢] بن إياس أبو يزيد : عن مجاهد : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : يبعث المسلم مسلمًا ، والكافر كافرًا .

وقال أبو العالية ﴿ كم بدأكم تعودون ﴾ : ردّوا إلىٰ علمه فيهم][٣] .

---

(٤٤) - تفسير ابن جرير (١٢/٣٨٥ ، ٣٨٦) وأخرج الحديث (١٢/رقم ١٤٥٠٢) وأحمد (١/٢٣٥ ، ٢٥٣) والبخاري كتاب : التفسير ، باب : « وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم ...» (٤٦٢٥) ، وباب : « كما بدأنا أول خلق نعيده ....» سورة الأنبياء (٤٧٤٠) ، وكتاب : الرقاق ، باب : الحشر (٦٥٢٦) ، ومسلم ، ك : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، ب : فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٥٨) (٢٨٦٠) ، والترمذي ، كتاب : صفة القيامة ، باب : ما جاء في شأن الحشر (٢٤٢٥) ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الأنبياء عليهم السلام (٣١٦٦) والنسائي (٤/١١٧) من طريق شعبة عن المغيرة به وأخرجه ابن جرير (١٢/رقم ١٤٥٠٠ ، ١٤٥٠١) وأحمد (١/٢٢٣ ، ٢٢٩) والبخاري كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلًا** ﴾ (٣٣٤٩) - وانظر أطرافه ثمة - والترمذي (٢٤٢٥) والنسائي (٤/ ١١٤) من طريق سفيان عن المغيرة به .

---

[١] - في خ « حديث » . [٢] - في خ ، ز : « ورقاء » .
[٣] - سقط من : خ ، ز .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ : كما كتب عليكم تكونون . وفي رواية : كما كنتم تكونون عليه تكونون .

وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالىٰ : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ : من ابتدأ اللَّه خلقه على الشقاوة ، صار إلىٰ [ما ابتدئ عليه خلقه][١] ، وإن عمل بأعمال أهل السعادة [كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة ، ثم صار إلىٰ ما ابتدئ عليه خلقه][٢] ، ومن ابتدأ خلقه علىٰ السعادة صار إلىٰ ما ابتدئ خلقه عليه ، وإن[٣] عمل بأعمال أهل الشقاء ، كما أن السحرة عملوا[٤] بأعمال أهل الشقاء ، ثم صاروا إلى ما ابتدئوا[٥] عليه .

وقال السدي : ﴿ **كما بدأكم تعودون فريقًا هدى** [**وفريقًا حق عليهم الضلالة** ﴾ يقول : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾][٦]: كما خلقناكم[٧] فريق مهتدون ، وفريق ضلال ، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم .

وقال علي بن أبي طلحة(٤٥) ، عن ابن عباس قوله : ﴿ **كما بدأكم تعودون فريقًا هدىٰ وفريقًا حق عليهم الضلالة** ﴾ ، قال : إن اللَّه تعالىٰ بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا ؛ كما قال : ﴿ **هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمنًا وكافرًا .

قلت : ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري(٤٦) : « **فوالذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة** » .

وقال أبو القاسم البغوي(٤٧) : حدثنا علي بن الجعد ، حدثنا أبو غسان[٨] ، عن أبي حازم ، عن

---

(٤٥) - أخرجه ابن جرير (١٤٤٧٨/١٢) وابن أبي حاتم (٨٣٦٤/٥) وابن المنذر ؛ كما في « الدر المنثور » (١٤٤/٣) .

(٤٦) - صحيح البخاري كتاب : الخلق ، باب : ذكر الملائكة ... (٣٢٠٨) مغايرًا في بعض الأحرف لسياق المصنف ، ويذكره المصنف مطولًا عند [آية رقم ١٤/ من سورة المؤمنون] ويأتي تخريجه ثمة .

(٤٧) - **صحيح** ومن طريق أبي القاسم البغوي أخرجه أبو محمد البغوي في « شرح السنة » (١/رقم ٨٠) =

---

[١] - في ت : « ما ابتدأ اللَّه خلقه عليه » . [٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز « فإن » . [٤] - في ز « عملت » .
[٥] - في ز « ابتدءوا » . [٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٧] - في خ ، ز : « خلقكم » . [٨] - بياض في : خ .

سهل بن سعد ، قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة ، وإنه من أهل النار ، وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار ، وإنه من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم** » .

هذا قطعة من حديث رواه البخاري : من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني في قصة قزمان يوم أحد .

وقال ابن جرير(٤٨) : حدثني ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم أنه قال : « **تبعث كل نفس علىٰ ما كانت عليه** » .

وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجة من غير وجه ، عن الأعمش به ، ولفظه : « **يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه** » .

قلت : ولابد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالىٰ : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت اللَّه التي فطر الناس عليها** ﴾ ، وما جاء في الصحيحين(٤٩) : عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه : أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « **كل مولود يولد علىٰ الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه** » . وفي صحيح مسلم(٥٠) : عن عياض بن حمار قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **يقول اللَّه تعالىٰ : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم** » الحديث . ووجه الجمع علىٰ هذا أنه تعالىٰ خلقهم ؛ ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم علىٰ معرفته وتوحيده

= وهو في « المسند » لابن الجعد (٣٠٣٧/٢) وأخرجه أحمد (٣٣٥/٥) ، والبخاري ، كتاب : الرقاق ، باب : الأعمال بالخواتيم ، وما يُخافُ منها (٦٤٩٣) ، وكتاب : القدر ، باب : العمل بالخواتيم (٦٦٠٧) من طرق عن أبي غسان به مطولًا ، وأخرجه أحمد (٣٣١/٥) والبخاري كتاب : الجهاد ، باب : لا يقول فلان شهيد (٢٨٩٨) - وانظر أطرافه ثمة - ومسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١٧٩) (١١٢) من طرق عن أبي حازم مطولًا دون قوله : « **وإنما الأعمال بالخواتيم** » .

(٤٨) - **صحيح** تفسير ابن جرير (١٤٤٨٩/١٢) وأخرجه مسلم ، كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : الأمر بحسن الظن باللَّه تعالى عند الموت (٨٣) (٢٨٧٨) من طريق (جرير وسفيان) وأحمد (٣٣١/٣ ، ٣٦٦) من طريق سفيان كلاهما جرير سفيان عن الأعمش به بلفظ « **يبعث كل عبدٍ على ما مات عليه** » وأخرجه ابن ماجة ، كتاب : الزهد ، باب : النية (٤٢٣٠) من طريق شريك عن الأعمش به بلفظ « **يحشر الناس على نيّاتهم** » وشريك هو ابن عبد اللَّه القاضي « سيئ الحفظ » وأخرجه أحمد (٣١٤/٣) ثنا أبو معاوية ثنا بعض أصحابنا عن الأعمش به ولفظه « **من مات علي شيء بعثه اللَّه عليه** » .

(٤٩) - **صحيح** تقدم تخريجه [سورة الأنعام/ آية ٧٩] .

(٥٠) - **صحيح** تقدم تخريجه [سورة الأنعام/ آية ٧٩] .

والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك ، وجعله في غرائزهم وفطرهم ، ومع هذا قدر أن منهم شقيًا ومنهم سعيدًا ﴿ **هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ . وفي الحديث(٥١) : « **كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها** » . وقدر الله نافذ في بريته ، فإنه هو ﴿ **الذي قدر فهدىٰ** ﴾ ، و ﴿ **الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ** ﴾ . وفي الصحيحين(٥٢) : « **فأما من كان منكم[١] من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما[٢] من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل[٣] الشقاوة** » . ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فريقًا هدىٰ وفريقًا حق عليهم الضلالة** ﴾ ، ثم علل ذلك فقال : ﴿ **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله [ويحسبون أنهم مهتدون][٤]** ﴾ .

قال ابن جرير[٥] : وهذا من أبين الدلالة علىٰ خطأ من زعم : أن الله لا يعذب أحدًا علىٰ معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عنادًا منه لربه فيها ؛ لأن ذلك[٦] لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هاد وفريق الهدىٰ ؛ فرق ، وقد فرق الله تعالىٰ بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية .

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾

هذه الآية الكريمة رد علىٰ المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة ؛ كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له(٥٣) : من حديث شعبة ، عن سلمة بن كهيل ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة : الرجال والنساء ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أو كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فقال تعالىٰ : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ .

---

(٥١) - **صحيح** جزء من حديث تقدم تخريجه [سورة المائدة/ آية ٦] من حديث أبي مالك الأشعري .

(٥٢) - **صحيح** يأتي تخريجه [سورة الليل/ آية ٧] من حديث علي بن أبي طالب .

(٥٣) - تفسير ابن جرير (١٤٥٠٤/١٢) وأخرجه أيضًا (١٤٥٠٣/١٢ ، ١٤٥٠٦) ومسلم ، كتاب : التفسير ، باب : في قوله تعالىٰ : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ (٢٥) (٣٠٢٨) والنسائي ، كتاب : الحج ، باب : قوله عز وجل ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ (٢٣٣/٥ ، ٢٣٤) .

---

[١] - سقط من : ز . [٢] - سقط من : ز .
[٣] - سقط من : ز . [٤] - في ت : « الآية » .
[٥] - في تفسيره (٣٨٨/١٢) . [٦] - سقط من: ت .

وقال العوفي(٥٤) : عن ابن عباس في قوله : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ الآية ، قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة : اللباس وهو ما يواري السوأة ، وما سوىٰ ذلك من جيد البزّ والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد .

وكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك [ومالك ، عن الزهري][١] وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها : إنها نزلت[٢] في طواف المشركين بالبيت عراة .

وقد روىٰ الحافظ ابن مردويه(٥٥) : من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي ، عن قتادة ، عن أنس مرفوعًا : أنها أنزلت في الصلاة في النعال . ولكن في صحته نظر ، والله أعلم .

ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة : يستحب التجمل عند الصلاة ، ولاسيما يوم الجمعة ويوم العيد ، والطيب ؛ لأنه من الزينة ، والسواك ؛ لأنه من تمام ذلك ، ومن أفضل اللباس[٣] البياض ؛ كما قال الإمام أحمد(٥٦) :

---

(٥٤) - أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٥٠٨) وابن أبي حاتم (٥/٨٣٧٧) وابن مردويه كما في « الدر المنثور » (٣/١٤٥) .

(٥٥) - **إسناده ضعيف جدًا** وعزاه لابن مردويه السيوطي في « الدر المنثور » (٣/١٤٦) - وأخرجه العقيلي في « الضعفاء » (٣/١٤٢، ١٤٣) - ومن طريقه ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/٩٥) - وابن حبان في « المجروحين » (٢/١٧٢) وتمام في « فوائده » (٥/١٣٣٩ - الروض البسّام » والسهمي في « تاريخ جرجان » (ص٨٨) والخطيب البغدادي في « تلخيص المتشابه » (١/رقم ٦١٨) وفي « الجامع لأخلاق الراوى » (١/٦١٤) من طريق عبادة بن جويرية عن الأوزاعي به ، قال ابن الجوزي : «هذا حديث لا يصح ولا يعرف إلا بعباد بن جويرية ولا يتابع عليه ، قال أحمد - وعنه قاله البخاري - كما في « اللسان » لابن حجر (٣/٢٧٧) و« الكامل » لابن عدي (٤/١٦٥٠) - : كذاب » وقد تعقبه السيوطي في « اللآلى المصنوعة » (٢/١٧) وتابعه ابن عَرّاق في « تنزيه الشريعة » (٢/١٠١) : بأن (عَبَّاد بن جُويرية) لم ينفرد بروايته عن الأوزاعي بل تابعه (يحيى بن عبد الله الدمشقي) أخرج هذه المتابعة الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/٢٨٧) وابن عساكر في « تاريخ دمشق (١٨/١٥٠/مخطوط) من طريق يعقوب بن إسحاق الدَّعَّاء ثنا يحيى بن عبد الله الدمشقي به ، ويعقوب ذكره الخطيب ، وشيخه ذكره ابن عساكر ولم يحكيا فيهما جرحًا ولا تعديلًا ، لكن ذكر السيوطي وابن عراق له شواهد لا يصلح معها الحكم عليه بالوضع ، وقال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٢٤) - « وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن أكثر من ثلاثين صحابيًا في الصلاة في النّعال مالا يحتاج معه إلى أحاديث الكذابين » وبالله التوفيق .

(٥٦) - **إسناده جيد** « المسند » (١/٢٤٧) وأخرجه أيضًا (١/٢٣١ ، ٢٧٤، ٣٢٨ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣)=

---

[١] - لم أهتد إليه من هذه الطريق ، وإنما أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٥٢٤) من طريق معمر عن الزهري .

[٢] - سقط من : ز . [٣] - في ز « الثياب » .

حدثنا علي بن عاصم ، حدثنا عبد اللَّه بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **البسوا من ثيابكم البياض ، فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم ، وإن من خير أكحالكم الإثمد ، فإنه يجلو البصر ويُنْبِتُ الشعر** » .

هذا حديث جيد الإسناد ، رجاله علىٰ شرط مسلم ، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة : من حديث عبد اللَّه بن عثمان بن خثيم به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وللإمام أحمد(٥٧) أيضًا وأهل السنن[١] بإسناد جيد: عن سمرة بن جندب قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **عليكم بثياب[٢] البياض فالبسوها ، فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم** » .

ورویٰ الطبراني(٥٨) بسند صحيح : عن قتادة ، عن محمد بن سيرين : أن تميمًا الداري اشترىٰ

= وأبو داود ، كتاب : الطب ، باب : في الأمر بالكحل (٣٨٧٨) ، كتاب : اللباس ، باب : في البياض (٤٠٦١) والترمذي ، كتاب : الجنائز ، باب : ما يستحب من الأكفان (٩٩٤) والنسائي ، كتاب : الزينة ، باب : الكحل (١٤٩/٨ ، ١٥٠) - الشطر الثاني منه دون الأول - وابن ماجه ، كتاب : الجنائز ، باب : ما جاء فيما يستحب من الكفن (١٤٧٢) ، كتاب : اللباس ، باب : البياض من الثياب (٣٥٦٦) وغيرهم من طرق عن عبد اللَّه بن عثمان به مطولًا ومختصرًا وأعله النسائي فقال عقبه : « عبد اللَّه بن عثمان بن خثيم لين الحديث » مع أنه وثقه في رواية ، وكذا وثقه ابن معين في رواية ، وقال أبو حاتم : « مابه بأس صالح الحديث » وتكلم فيه ابن المديني وابن حبان وقد صحح حديثه هذا الترمذي فقال عقبه : « حديث حسن صحيح » وكذا صححه ابن حبان (٥٤٢٣/١٢) والحاكم على شرط مسلم (٣٥٤/١) ووافقه الذهبي وجوَّد إسناده المصنف وهو أشبه .

(٥٧) - **صحيح** أخرجه أحمد (١٠/٥، ١٢ - وفي غير موضع) والترمذي ، كتاب : الأدب ، باب : ما جاء في لبس البياض (٢٨١١) ، والنسائي ، كتاب : الجنائز ، باب : أي الكفن خير (٣٤/٤) ، كتاب : الزينة ، باب : الأمر بلبس البيض من الثياب (٢٠٥/٨) وابن ماجه ، كتاب : اللباس ، باب : البياض من الثياب (٣٥٦٧) وغيرهم وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » وصححه الحاكم (١٨٥/٤) ووافقه الذهبي ، وكذا صحح إسناده ابن حجر في « الفتح » (١٣٥/٣) وكذا الألباني في « أحكام الجنائز » (ص ٨٢) .

(٥٨) - **رجاله رجال الصحيح** في « المعجم الكبير » (١٢٤٨/٢) وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٣٨/٥) وقال : « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح » لكن قتادة مدلس ، ولم يصرح بالتحديث .

[١] - كذا قال المصنف ، ولم يخرجه أبو داود من بينهم كما قال ابن حجر في « تلخيص الحبير » (٧٤/٢) وكذا لم يعزه إلى أبي داود السيوطي في « الدر المنثور » (١٤٧/٣) وانظر « تحفة الأشراف » (٨٠/٤ ، ٨٤ ، ٨٦) و« جامع المسانيد » للمصنف (٥٩٠/٥ ، ٦٠٠)

[٢] - في ز « بالثياب » .

رداء بألف ، وكان[١] يصلي فيه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وكلوا واشربوا [ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين][٢] ﴾ ، قال بعض السلف : جمع اللَّه الطب كله في نصف آية ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

وقال البخاري(٥٩) : قال ابن عباس : كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة .

وقال ابن جرير(٦٠) : حدثنا محمد بن عبد الأعلىٰ ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : أحل اللَّه الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة . إسناده صحيح .

وقال الإمام أحمد(٦١) : حدثنا بهز ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا ، والبسوا وتصدقوا ، في[٣] غير مخيلةٍ ولا سَرَفٍ ، فإن اللَّه يُحِبُّ أن يرىٰ نعمته علىٰ عبده » .

---

(٥٩) - **إسناده صحيح** صحيح البخاري ، فاتحة كتاب اللباس (١٠/٢٥٢/ فتح) معلقًا ، ووصله ابن أبي شيبة في « المصنف » (٦/٣٦) ، وابن حجر في « تغليق التعليق » (٥/٥٤) من طريق سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عباس به . وزاد نسبته ابن حجر في « الفتح » (١٠/٢٥٣) إلى الدينوري في « المجالسة » ، والسيوطي في « الدر المنثور » (٣/١٤٩) إلى عبد بن حميد ، وانظر ما بعده .

(٦٠) - **إسناده صحيح** تفسير ابن جرير (١٢/١٤٥٢٩) وأخرجه عبد الرزاق في « المصنف » - كما في « تغليق التعليق » (٥/٥٤) و« الفتح » (١٠/٢٥٣ ، ٢٥٤) لابن حجر - عن معمر ، به .

(٦١) - **حسن** : « المسند » (٢/١٨٢) (٦٧٠٨) وأخرجه أيضًا (٢/١٨١) (٦٦٩٥) والترمذي ، كتاب : الأدب ، باب : ما جاء أن اللَّه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (٢٨٢٠) الجزء الأخير منه - والنسائي ، كتاب : الزكاة ، باب : الاختيال في الصدقة ، (٥/٧٩) وابن أبي شيبة في « المصنف » (٦/٣٥، ٣٦) وعنه ابن ماجه ، كتاب : اللباس ، باب : البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة (٣٦٠٥) وابن أبي الدنيا في « الشكر » (٥١) - ومن طريقه ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/٥٣) - وأخرجه ابن أبي الدنيا أيضًا في « التواضع والخمول » (١٥٧) والبيهقي في « الشعب » (٥/٦١٩٦) وابن مردويه كما في « التغليق » و« الدر المنثور » (٣/١٤٨) - من طرق عن همام به مطولًا ومختصرًا ، وصححه الحاكم (٤/ ١٣٥) ووافقه الذهبي وقال الترمذي : « حديث حسن » وهو أشبه للخلاف المعروف في رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقد رواه الطيالسي في « المسند » (٢٢٦١) - ومن طريقه البيهقي (٥/٦١٩٦) وابن حجر في « التغليق » (٥/٥٢) - عن همام عن رجل عن عمرو بن شعيب به ، ورواه تمام في « الفوائد » (٣/١٠٣٤ - الروض البسام) من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن عمرو بن شعيب به وهو في صحيح البخاري معلقًا وقد تقدم تخريجه [سورة الأنعام / آية رقم ١٤١] .

---

[١] - في ز « فكان » . [٢] - في ت : « الآية » .
[٣] - سقط من : خ ، ز .

ورواه النسائي وابن ماجه : من حديث قتادة ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة** » .

وقال الإمام أحمد(٦٢) : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا سليمان بن سليم الكناني ، حدثنا يحيى بن جابر الطائي[١] ، سمعت المقدام بن معدي كرب الكندي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **ما ملأ [ابن آدم][٢] وعاء شرًّا من بطنه[٣] ، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان فاعلًا لا محالة ، فثلث لطعامه[٤] ، وثلث لشرابه[٥] ، وثلث لنفسه** ».

ورواه النسائي والترمذي من طرق ، عن يحيى بن جابر به . وقال الترمذي : حسن . وفي نسخة : حسن صحيح .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده(٦٣) : حدثنا [سويد بن عبد العزيز][٦] ، حدثنا بقية ، عن يوسف بن أبي كثير ، عن نوح بن ذكوان ، عن الحسن ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت** » .

---

(٦٢) - **صحيح** « المسند » (١٣٢/٤) وأخرجه الترمذي ، كتاب : الزهد ، باب : ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨١) ، والنسائي في الوليمة من « الكبرى » (١٧٧/٤ ، ١٧٨) وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » وصححه ابن حبان (٦٧٤/٢) ، واستدركه الحاكم على الشيخين (١٢١/٤) وسكت عنه في النسخة التى بين يديَّ ، ونقل تصحيحه عنه الحافظ في «الفتح» (٥٢٨/٩) و(٢٤٨/١٣)- وكذا صححه الذهبي في «تلخيص المستدرك»- وحسنه ابن حجر ، وأعله أبو حاتم - كما في « المراسيل » لابنه (ص ٢٤٤) - بالإرسال بين يحيى بن جابر والمقدام - وقد صرح يحيى بن جابر بسماعه من المقدام كما في مسند أحمد هنا وانظر « الإرواء » للألباني (٧/رقم ١٩٨٣) ، وللحديث طريق آخر عن المقدام عند ابن ماجه (٣٣٤٩) لكن في إسناده جهالة ، وطريق ثالث عند النسائي وابن حبان (٥٢٣٦/١٢) والبيهقي في « الأدب » (٧٠١) وفي إسناده صالح بن يحيى بن المقدام وهو « ليّن » كما في « التقريب » ، فالمعول على الإسناد الأول ، وقد صح ولله الحمد .

(٦٣) - **موضوع** « المسند » لأبي يعلى (٢٧٦٥/٥) وعن أبي يعلى ابن حبان في « المجروحين » (٤٧/٣) وأخرجه ابن ماجه ، كتاب : الأطعمة ، باب : من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت (٣٣٥٢) وابن أبي الدنيا في « كتاب الجوع » (رقم ١٨١) وابن عدي في « الكامل » (٢٥٠٨/٧ ، ٢٥٠٩) والدارقطني في « الأفراد » - كما في « اللآلىء المصنوعة » للسيوطي (٢٠٩/٢) ومن طريقه المزي في «تهذيب الكمال» (٥٠/٣٠) وكذا من طريقه وطريق غيره ابن الجوزي في « الموضوعات » (٣٠/٣) = =

---

[١] - في ز « الطاري » .
[٢] - ما بين المعكوفتين في ز « آدمي » .
[٣] - في ز « بطن » .
[٤] - في ز « طعام » .
[٥] - في ز « شراب » .
[٦] - في جميع النسخ : « سويد بن عبد العزيز » وهو خطأ صوابه : « سويد بن سعيد » كما في مسند أبي يعلى وكتب الرجال .

ورواه الدارقطني في الأفراد ، وقال : هذا حديث غريب ، تفرد به بقية .

وقال السدي : كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك[١] ما أقاموا في الموسم ، فقال اللّٰه تعالىٰ لهم : ﴿ **كلوا واشربوا ولا تسرفوا [إنه لا يحب المسرفين]**[٢]﴾، يقول : لا تسرفوا في التحريم.

وقال مجاهد : أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم اللّٰه .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ **ولا تسرفوا** ﴾ يقول : ولا تأكلوا حرامًا ، ذلك الإسراف .

وقال عطاء الخراساني(٦٤) : عن ابن عباس قوله : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ : في الطعام والشراب.

وقال ابن جرير[٣]: : وقوله : ﴿ **إنه لا يحب المسرفين** ﴾ يقول اللّٰه تعالىٰ : إن اللّٰه لا يحب المتعدين[٤] ، حدّه في حلال أو حرام ، الغالين فيما أحل أو حرم ، بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال ، ولكنه يحب أن يحلل ما أحَل ويحرم ما حرم ، وذلك العدل الذي أمر به .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ

وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٣/١٠) والبيهقي في « الشعب » (١٤٦/٥) كلهم من طريق سويد بن سعيد وغيره عن بقية به ، ورواه سليمان بن عمر عن بقية ثنا شعبة عن يوسف بن أبي كثير به رواها البيهقي في « الشعب » وقال أبو نعيم : « غريب من حديث الحسن عن أنس لا أعلم رواه عنه إلا نوح » قلت : وهو المتهم به فقد قال البوصيري في « الزوائد » : « هذا إسناد ضعيف ، لأن نوح بن ذكوان متفق على تضعيفه ، وقال الدميري : هذا الحديث مما أنكر عليه » وهو كما قال فقد ذكر له ابن عدي هذا الحديث وغيره ثم قال : « نوح بن ذكوان يروى عنه يوسف بن أبي كثير ، وعن يوسف يرويه بقية وهذه الأحاديث عن الحسن عن أنس ليست بمحفوظة » ولذلك كان من نصيب « الضعيفة » للعلامة الألباني (١/رقم ٢٤١) وقد حكم عليه بالوضع لعلل أخرى فيه – انظرها إن شئت ثمة – وزاد نسبته السيوطي في « اللآلئ » إلى الخرائطي في « اعتلال القلوب » وفي « الدر المنثور » (١٤٨/٣) إلى ابن مردويه .

(٦٤) – أخرجه ابن جرير (١٤٥٣٠/١٢) وابن أبي حاتم (٨٣٨٠/٥) وعطاء الخراساني لم يسمع من ابن عباس .

---

[١] – « الودك » دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه . « والموسم » مجتمع الناس في أيام الحج .

[٢] – في ت : « الآية » .

[٣] – في تفسيره (٣٩٥/١٢) .

[٤] – في ز « المعتدين » .

يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالىٰ ردًّا علىٰ من حرم شيئًا من المآكل أو[١] المشارب أو[٢] الملابس ، من تلقاء نفسه من غير شرع من اللَّه : ﴿ **قل** ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿ **من حرم زينة اللَّه التي أخرج لعباده [والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا]**[٣]﴾ ، أي : هي مخلوقة لمن آمن باللَّه ، وعبده في الحياة الدنيا ، وإن شركهم فيها الكفار حسًّا في الدنيا ، فهي لهم خاصة يوم القيامة ، لا يشركهم فيها أحد من الكفار ، فإن الجنة محرمة علىٰ الكافرين .

قال أبو القاسم الطبراني(٦٥) : حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين القاضي ، حدثنا يحيىٰ الحماني ، حدثنا يعقوب القمي ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة ، يصفرون ويصفقون ، فأنزل اللَّه : ﴿ **قل من حرم زينة اللَّه التي أخرج لعباده** ﴾ فأمروا بالثياب .

قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قال الإمام أحمد(٦٦) : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **لا أحد أغير من اللَّه** ؛ [**فلذلك حرم الفواحش ما ظهر**

(٦٥) - **إسناده ضعيف** في « المعجم الكبير » ١٢/١٢٣٢٤) - وتحرف فيه محمد بن الحسين إلى محمد بن الحصين فليضبط انظر « السير » (٥٦٩/١٣) - وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٦/٧) وقال : « رواه الطبراني وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف » .

(٦٦) - **صحيح** « المسند » (٣٨١/١) (٣٦١٦) وأخرجه أيضًا (٤٢٥/١) (٤٠٤٤) والبخاري ، كتاب : النكاح ، باب : الغيرة (٥٢٢٠) ، وك : التوحيد ، باب : قول اللَّه تعالى : ﴿ **ويحذركم اللَّه نفسه** ﴾ (٧٤٠٣) ومسلم ، كتاب : التوبة ، باب : غيرة اللَّه تعالى ، وتحريم الفواحش (٣٢ ، ٣٣) (٢٧٦٠) والنسائي في « التفسير » (١١١٨٣/٦) من طرق عن الأعمش به ، وأخرجه أحمد (٤٣٦/١) (٤١٥٣) والبخاري ، كتاب : التفسير ، باب : ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ (٤٦٣٤) وباب : ﴿ **إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ (٤٦٣٧) ومسلم (٣٤) (٢٧٦٠) والترمذي ، كتاب : الدعوات ، باب : لا أحد أغير من اللَّه (٣٥٢٠) والنسائي في « التفسير » من « الكبرى » (٦/ ١١١٧٣) من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة عن شقيق أبي وائل ، به .

[١] - في ز « و » . [٢] - في ز « و » .
[٣] - في ت : « الآية » .

منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله »][١] أخرجاه في الصحيحين : من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن [شقيق أبي وائل][٢] ، عن عبد الله بن مسعود به[٣] . وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام .

وقوله : ﴿ **والإثم والبغي بغير الحق** ﴾ قال السدي : أما الإثم فالمعصية ، والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق .

وقال مجاهد : الإثم : المعاصي كلها ، وأخبر أن الباغي بغيه كائن على نفسه .

وحاصل ما فسر[٤] به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغي هو التعدي إلى الناس ، فحرم الله هذا وهذا .

وقوله تعالى : ﴿ **وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا** ﴾ أي : تجعلوا له شركاء[٥] في عبادته ﴿ **وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ [ ][٦] من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ، ونحو ذلك مما لا علم لكم به ؛ كقوله : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان [واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به]**[٧] ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ **ولكل أمة** ﴾ أي[٨] : قرن وجيل ﴿ **أجل فإذا جاء أجلهم** ﴾ أي : ميقاتهم المقدر لهم ﴿ **لا يستأخرون ساعة** ﴾ عن ذلك ﴿ **ولا يستقدمون** ﴾ .

ثم أنذر تعالى بني آدم بأنه[٩] سيبعث إليهم رسلًا يقصون عليهم آياته ، وبشر وحذر ، فقال : ﴿ **فمن اتقى وأصلح** ﴾ أي : ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿ **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**

---

[١] - سقط من : خ ، ز .
[٢] - في خ ، ت : « شقيق عن أبي وائل » .
[٣] - سقط من : ت .
[٤] - في ز « فسرا » .
[٥] - في ز « شريكا » .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز « عليه » .
[٧] - في ت : « الآية » .
[٨] - سقط من : ز .
[٩] - في خ « أنه » .

والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴾ أي : كذبت بها قلوبهم ، واستكبروا عن العمل بها ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي : ماكثون فيها مكثًا مخلدًا .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول : ﴿ فمن أظلم ممن افترىٰ علىٰ الله كذبًا أو كذَّب بآياته ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن افترىٰ الكذب علىٰ الله أو كذب بآياته[١] المنزلة .

﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ اختلف المفسرون في معناه ؛ فقال العوفي(٦٧) : [عن ابن عباس][٢] : ينالهم ما كتب عليهم ، وكتب لمن يفتري علىٰ الله أن وجهه مسوَدٌّ .

وقال علي بن أبي طلحة(٦٨) : عن ابن عباس يقول : نصيبهم من الأعمال ، من عمل خيرًا جُزي به ، ومن عمل شرًّا جُزِي به .

وقال مجاهد : ما وعدوا فيه من خير وشر.

وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد واختاره ابن جرير[٣] .

وقال محمد بن كعب القرظي : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ قال : عمله ورزقه وعمره.

وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وهذا القول قوي في المعنىٰ ، والسياق يدل عليه ، وهو قوله : ﴿ حتىٰ إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ ويصير[٤] المعنىٰ في هذه الآية كما في قوله : ﴿ إن الذين يفترون علىٰ الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ ،

---

(٦٧) - أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٥٨٨) والعوفي ضعيف .

(٦٨) - أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٥٧٣) وابن أبي حاتم (٥/٨٤٣٨) وابن المنذر كما في « الدر المنثور » (٣/١٥٣) .

---

[١] - في ز « بآيات الله » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٣] - في تفسيره (١٢/٤١٤) .

[٤] - في ت « نظير » .

وقوله : ﴿ **ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلًا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **حتىٰ إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم [قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا]**[١]﴾ ، يخبر تعالىٰ أن الملائكة إذا توفت المشركين ، تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلىٰ النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا ، وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ، ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه ، قالوا : ﴿ **ضلوا عنا** ﴾ أي : ذهبوا عنا ، فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿ **وشهدوا علىٰ أنفسهم** ﴾ أي : أقروا واعترفوا علىٰ أنفسهم ﴿ **أنهم كانوا كافرين** ﴾.

قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مخبرًا عما يقوله لهؤلاء المشركين به ، المفترين عليه ، المكذبين بآياته : ﴿ **ادخلوا في أمم** ﴾ أي : من أشكالكم وعلىٰ صفاتكم ﴿ **قد خلت من قبلكم** ﴾ أي : من الأمم السالفة الكافرة .

﴿ **من الجن والإنس في النار** ﴾ يحتمل أن يكون بدلًا من قوله : ﴿ **في أمم** ﴾ ، ويحتمل أن يكون ﴿ **في أمم** ﴾ أي : مع أمم .

وقوله : ﴿ **كلما دخلت أمة لعنت أختها** ﴾ ، كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ **ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض [ويلعن بعضكم بعضًا]**[٢] ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ **إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار** ﴾.

وقوله : ﴿ **حتىٰ إذا اداركوا فيها جميعًا** ﴾ أي : اجتمعوا فيها كلهم ﴿ **قالت أخراهم**

---

[١] - في ت : « الآية » . [٢] - في ت : « الآية » .

لأولاهم ﴾ أي : آخرهم دخولًا . وهم الأتباع لأولادهم وهم المتبوعون لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم ، فدخلوا قبلهم ، فيشكوهم الأتباع إلىٰ اللَّه يوم القيامة ؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل ، فيقولون : ﴿ **ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار** ﴾ أي : أضعف عليهم العقوبة ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا اللَّه وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنًا كبيرًا** ﴾ .

وقوله : ﴿ **قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون** ﴾ أي : قد فعلنا ذلك ، وجازينا كلا بحسبه ؛ كقوله : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل اللَّه زدناهم عذابًا [فوق العذاب بما كانوا يفسدون][١]** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم** ﴾، وقوله : ﴿ **ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم [ألا ساء ما يزرون][٢]** ﴾ .

﴿ **وقالت أولاهم لأخراهم** ﴾ أي : قال المتبوعون للأتباع ﴿ **فما كان لكم علينا من فضل** ﴾ قال السدي : فقد ضللتم كما ضللنا.

﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾ وهذا الحال كما أخبر اللَّه[٣] تعالىٰ عنهم في حال محشرهم في قوله تعالىٰ : ﴿ **ولو ترىٰ إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلىٰ بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدىٰ بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر باللَّه ونجعل له أندادًا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون** ﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

قوله : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾ قيل : المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء .

قاله مجاهد وسعيد بن جبير ، ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة : عن ابن عباس . وكذا رواه

---

[١] - في ت : « الآية » . [٢] - في ت : « الآية » .
[٣] - سقط من : ز .

الثوري : عن ليث ، عن عطاء ، عن ابن عباس(٦٩) .

وقيل : المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء .

رواه الضحاك(٧٠) عن ابن عباس ، وقاله السدي وغير واحد ، ويؤيده ما قال ابن جرير(٧١) :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن المنهال - هو ابن عمرو - ، عن زاذان ، عن البراء : أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلىٰ السماء ، قال[١] : « **فيصعدون بها فلا يمرون[٢] علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ، فيقولون : فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يدعىٰ بها في الدنيا ، حتىٰ ينتهوا[٣] بها إلىٰ السماء ، فيستفتحون بابها له ، فلا يفتح له** » . ثم قرأ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء [ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط][٤]** ﴾ .

هكذا رواه ، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة من طرق : عن المنهال بن عمرو ، به . وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال(٧٢) :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المنهال[٥] بن عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلىٰ القبر ولما يُلحد ، فجلس رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، وجلسنا حوله كأن علىٰ رءوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت[٦] به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : « **استعيذوا بالله من عذاب**

---

(٦٩) - أخرجه من طرقه الثلاثة ابن جرير (١٢/١٤٦٠٦ ، ١٤٦٠٧ ، ١٤٦٠٨) وابن أبي حاتم (٥/ ٨٤٦٠، ٨٤٦١ ، ٨٤٦٢) والرواية الأولى فيها عطية العوفي وهو ضعيف ، والثانية فيها إرسال بين ابن عباس وعلي بن أبي طلحة ، والثالثة فيها ليث وهو ابن أبي سليم ضعيف لاختلاطه ، وعطاء في هذه الطريق هو ابن أبي رباح .

(٧٠) - أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٦٠٣) وابن أبي حاتم (٥/٨٤٥٩) وعبد بن حميد وأبو الشيخ - كما في « الدر المنثور » (٣/١٥٥) - والضحاك لم يلق ابن عباس كما في « جامع التحصيل » للعلائي (ص ٢٠٠) لكنه أفاد أن بينهما سعيد بن جبير .

(٧١) - **صحيح** تفسير ابن جرير (١٢/١٤٦١٤) وانظر ما بعده .

(٧٢) - **صحيح** وهو في « المسند » (٤/٢٨٧ ، ٢٨٨) وعنه ابنه عبد الله في « السنة » (٢/رقم ١٤٣٨) وأخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » كتاب : الجنائز ، باب : في نفس المؤمن كيف تخرج ونفس الكافر=

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في خ ، ز : « تمر » .
[٣] - في ز « ينتهى » .
[٤] - في ت : « الآية » .
[٥] - في ز « منهال » .
[٦] - في ز « يكنث » .

القبر » - مرتين أو ثلاثًا ، ثم قال : « **إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى**[١] **الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتىٰ يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتىٰ يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس المطمئنة ، اخرجي إلىٰ مغفرة من الله ورضوان** » .

قال : « **فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتىٰ يأخذوها**[٢] **فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت علىٰ وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون - يعني بها - علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه**[٣] **الروح الطيبة**[٤] ؟ **فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتىٰ ينتهوا به إلىٰ السماء الدنيا ، فيستفتحون له**

(٢٥٦/٣ ، ٢٥٧) - ومن طريقه الآجري في « الشريعة » (٢/رقم ٩١٩) - وهنَّاد في « الزهد » (١/رقم ٣٣٩) ومن طريقه أبو داود ، كتاب : السنة ، باب : في المسألة في القبر ، وعذاب القبر (٤٧٥٣) والآجري (٩٢٠) والبيهقي في « عذاب القبر » (٢١) - والمروزي في « زوائد الزهد » (١٢١٩) ومن طريقه الآجري أيضًا (٩٢١) - والحاكم (٣٧/١ ، ٣٨) والبيهقي في « الشعب » (٣٩٥/١) كلهم من طريق أبي معاوية به ، وقال الحاكم : « ورواه سفيان بن سعيد - كما عند أحمد (٢٩٧/٤) - وشعبة بن الحجاج وزائدة بن قدامة - كما عند أحمد أيضًا (٢٨٨/٤) - وهم الأئمة الحفاظ عن الأعمش - » ثم أخرج بإسناده هذه الطرق وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين ، فقد احتجا جميعًا بالمنهال بن عمرو وزاذان أبي عمر الكندي، وفي هذا الحديث فوائد كثيرة لأهل السنة وقمع للمبتدعة ولم يخرجاه بطوله » وأقره الذهبي ، قلت : ورواه أيضًا عن الأعمش ، عبد الله بن نمير عند أحمد في « المسند » (٢٨٨/٤) - وعنه ابنه عبد الله في « السنة » (٢/رقم ١٤٣٩) - وأبي داود (٤٧٥٤) وابن أبي حاتم في تفسير (٨٤٦٥/٥) - وجرير بن عبد الحميد عند أبي داود (٤٧٥٣) - ومن طريقه البيهقي في « إثبات عذاب القبر » (٢١) ومحمد بن فضيل عند الحاكم (٣٨/١) ، وأبو عوانة عند الطيالسي (٧٥٣) والروياني في مسنده (١/رقم ٣٩٢) وابن جرير في « التفسير » (٢١٧/١٣) وقال البيهقي : « هذا حديث كبير صحيح الإسناد رواه جماعة من الأئمة الثقات عن الأعمش » وبنحوه قال في « الشعب » وأعله أبو حاتم بن حبان في صحيحه (٣٨٧/٧) فقال: « خبر الأعمش عن المنهال بن عمرو، عن زاذان ، عن البراء ؛ سمعه الأعمش عن الحسن بن عمارة، عن المنهال بن عمرو ، وزاذان لم يسمعه من البراء، فلذلك لم أخرِّجه » وكذا أعله ابن حزم فقال: « ولم يرو أحدٌ في عذاب القبر أن الروح ترد إلى الجسد إلا المنهال بن عمرو ، وليس بالقوي .....» نقله ابن القيم في « تهذيب السنن » (١٣٩/٧ ، ١٤٠) ثم قال : « ولم أعلم أحدًا طعن في هذا الحديث إلا أبا حاتم البستي وابن حزم ، ومجموع ما ذكراه ثلاث علل : إحداها : ضعف المنهال ، والثانية : أن الأعمش لم يسمعه من المنهال ، والثالثة : أن زاذان لم يسمعه من البراء ، وهذه علل واهية جدًّا ...» ثم شرع في تفصيل الرد على هذه العلل ، فأجاد فيه أيما إجادة - فارجع إليه إن شئت .

---

[١] - في ت : « من » . [٢] - في ز « أخذوها » .
[٣] - في ز « هذا » . [٤] - في ز « الطيب » .

فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلىٰ السماء التي تليها ، حتىٰ يُنتهىٰ بها إلىٰ السماء السابعة ، فيقول اللّٰه عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه إلىٰ الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ ».

قال : « فتعاد روحه ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي اللّٰه . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب اللّٰه فآمنت به وصدقت . فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلىٰ الجنة . فيأتيه من روحها وطِيبها ، ويفسح له في قبره مد البصر[١] .

قال : « ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول له : من أنت فوجهك الوجه[٢] يجيء بالخير ؟ فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي .

قال : « وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتىٰ يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها[٣] النفس الخبيثة ، اخرجي إلىٰ سخط من اللّٰه وغضب . قال : فتفرق[٤] في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتىٰ يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت علىٰ وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه[٥] الروح الخبيثة[٦] ؟ فيقولون : فلان بن فلان . بأقبح أسمائه التي كان يسمىٰ بها في الدنيا، [حتىٰ ينتهىٰ به إلىٰ السماء الدنيا][٧]، فيستفتح له ، فلا يفتح [ ][٨]، ثم قرأ رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتىٰ يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فيقول اللّٰه عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلىٰ . فتطرح روحه طرحًا . ثم قرأ : ﴿ ومن يشرك باللّٰه فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ ، فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري . فيقولان : ما دينك ؟ فيقول :

---

[١] - في ز « بصره » .
[٢] - في ز « اليوم » .
[٣] - في ز « أيها » .
[٤] - في ز « فيفرق » .
[٥] - في ز « هذا » .
[٦] - في ز « الخبيث » .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٨] - في ز : له .

هاه هاه لا أدرى . فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري . فينادي مناد من السماء : أن كذب عبدي[١] ، فافرشوه من النار ، وافتحوا له بابًا إلىٰ[٢] النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتىٰ تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل ، قبيح الوجه قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة » .

وقال الإِمام[٣] أحمد أيضًا(٧٣) : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن يونس بن خباب ، عن المنهال بن عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، إلىٰ جنازة ... فذكر نحوه .

وفيه : « **حتىٰ إذا خرج روحه صلىٰ عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفتحت له أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون اللَّه عز وجل : أن يعرج بروحه من قبلهم** » .

وفي آخره : « **ثم يقيض له أعمىٰ أصم أبكم ، في يده مرزبة ، لو ضرب بها جبل كان ترابًا ، فيضربه ضربة فيصير ترابًا ، ثم يعيده اللَّه عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرىٰ ،**

---

(٧٣) - « المسند » (٢٩٥/٤ ، ٢٩٦) وعنه ابنه عبد اللَّه في « السنة » (١٤٤٢/٢) ومن طريقه الحاكم (٣٩/١) - وهو في « المصنف » لعبد الرزاق (٣/رقم ٦٧٣٧) وأخرجه عبد اللَّه بن أحمد في « زوائد المسند » (٢٩٦/٤) وفي « السنة » (١٤٤١/٢) وابن ماجه في « السنن » ، كتاب : الجنائز ، باب : ما جاء في الجلوس في المقابر (١٥٤٨) من طريق حماد بن زيد - وسماه ابن القيم في « تهذيب السنن » (١٤٠/٧) حماد بن سلمة فأخشىٰ أن يكون وهمًا واللَّه أعلم - عن يونس بن خباب بهذا الإِسناد ويونس بن خباب « صدوق يخطئ » كما في « التقريب » وقد رواه الحاكم (٣٩/١) من طريق شعيب بن صفوان ثنا يونس بن خباب به غير أنه زاد بين زاذان والبراء : « أبا البختري الطائي » قال الحاكم : « ذِكْر أبي البختري في هذا الحديث وهم من شعيب بن صفوان لإجماع الأئمة الثقات على روايته عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو ، عن زاذان أنه سمع البراء ... ثم قال: هذا هو الصحيح المحفوظ من حديث يونس بن خباب، وهكذا رواه أبو خالد الدالاني ، وعمرو بن قيس الملائي ، والحسن بن عبيد اللَّه النخعي ، عن المنهال بن عمرو » ثم شرع في إخراج هذه الطرق وطريق عمرو بن قيس أخرجها النسائي (٧٨/٤) وابن ماجة (١٥٤٩) وتابعهم أيضًا محمد بن سلمة عن المنهال به أخرجه عبد اللَّه بن أحمد في « السنة » (١٤٤٤/٢) لكن في إسناده ضعف وقد صح من طريق الأعمش وللَّه الحمد ، ورواه عدي بن ثابت عن البراء به أخرجه البيهقي في « الشعب » (٣٩٦/١) وابن منده - كما قال ابن القيم في « تهذيب السنن » (١٤١/٧) .

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - في ز « من » .

[٣] - سقط من : ز .

فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين » . قال البراء : ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد له من فرش النار .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجة وابن جرير - واللفظ له(٧٤) - : من حديث محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يسار ، عن أبي هريرة أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : « **الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح ، قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة[١] ، كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان[٢] . فيقولون ذلك حتىٰ يعرج بها إلىٰ السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان . فيقال : مرحبًا بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فيقال[٣] لها ذلك حتىٰ يُنتهىٰ بها إلىٰ السماء التي فيها الله عز وجل ، وإذا كان الرجل السوء قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فيقولون ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ، فيقولون : فلان . فيقولون : لا مرحبًا بالنفس الخبيثة ، التي[٤] كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنه لم تفتح[٥] لك أبواب السماء ، فترسل بين السماء والأرض ، فتصير إلىٰ القبر** ».

وقد قال ابن جريج في قوله : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾ قال[٦] : لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم.

وهذا فيه جمع بين القولين ، والله أعلم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتىٰ يلج الجمل في سم الخياط** ﴾ هكذا قرأه[٧] الجمهور ، وفسروه : بأنه البعير .

قال ابن مسعود(٧٥) : هو الجمل ابن الناقة . وفي رواية : زوج الناقة .

---

(٧٤) - **صحيح** تفسير ابن جرير (١٤٦١٥/١٢) وقد تقدم تخريجه [سورة الأنعام/ آية٦٢].

(٧٥) - أخرجه سعيد بن منصور - كما في « الدر المنثور » (١٥٧/٣) - ومن طريقه الطبراني في «الكبير» (٨٦٩١/٩) - وعبد الرزاق في تفسيره (٢٢٩/٢) وابن جرير (٤٢٨/١٢) من طريق =

---

[١] - في خ ، ز : « المطمئنة » والمثبت من تفسير ابن جرير .
[٢] - بعده في خ ، ز : «قال : فيقال : من هذا» .
[٣] - في ز « فيقول » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في ز « يفتح » .
[٦] - زيادة من : ز .
[٧] - في خ ، ز : « فسره» .

وقال الحسن البصري : حتىٰ يدخل البعير في خرق[١] الإبرة .

وكذا قال أبو العالية والضحاك ، وكذا روىٰ علي بن أبي طلحة والعوفي : عن ابن عباس .

وقال مجاهد وعكرمة ، عن ابن عباس : إنه كان يقرؤها : (يلج الجُمّل في سم الخياط) بضم الجيم وتشديد الميم ، يعني : الحبل الغليظ في خرم الإبرة .

وهذا اختيار سعيد بن جبير ، و[٢]في رواية : أنه قرأ (حتىٰ يلج الجُمّلُ) يعني قلوس السفن ، وهي الحبال الغلاظ .

وقوله : ﴿ **لهم من جهنم مهاد** ﴾ [قال محمد بن كعب القرظي : ﴿ **لهم من جهنم مهاد** ﴾][٣] قال : الفرش ﴿ **ومن فوقهم غواش** ﴾ قال : اللحف .

وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي ، ﴿ **وكذلك نجزي الظالمين** ﴾.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

لما ذكر تعالىٰ حال[٤] الأشقياء عطف بذكر حال السعداء ، فقال : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أي : آمنت قلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ، ضد أولئك الذين كفروا

= إبراهيم النخعي عن عبد اللَّه بن مسعود به ، وأخرجه سعيد بن منصور ومن طريقه الطبراني أيضًا (٩/ ٨٦٩٢) عن عمرو بن ثابت عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود به ، وعمرو بن ثابت ضعيف رُمي بالرفض - كما في « التقريب » - والأثر ذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٦/٧) وقال : « رواه الطبراني من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح إلا أن إبراهيم النخعي لم يدرك ابن مسعود ، والأخرى ضعيفة » ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ .

---

[١] - وفي تفسير ابن جرير (٤٢٩/١٢) : « خُرت الإبرة » وقال محققه : « خرت الإبرة » (بضم الخاء أو فتحها أو سكون الراء) : هو ثقبها وأشار إلى تصويب لفظة « خرق » التي هنا .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٤] - في ز « مآل » .

بآيات اللَّه واستكبروا عنها .

وينبه تعالىٰ علىٰ أن الإِيمان والعمل به سهل ؛ لأنه تعالىٰ قال[١] : ﴿ **لا نكلف[٢] نفسًا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾ أي : من حسد وبغض[٣] ؛ كما جاء في صحيح البخاري(٧٦) : من حديث قتادة ، عن أبي المتوكل الناجي ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : [« **إذا خلص المؤمنون من النار**][٤] ، **حبسوا علىٰ قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتَصُّ لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتىٰ إذا هُذِّبوا ونُقُّوا ، أُذِنَ لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفسي بيده ، إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا** » .

وقال السدي في قوله : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار** ﴾ الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلىٰ الجنة فبلغوا[٥] ، وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان ، فشربوا من إحداهما ، فينزع ما في صدورهم من غل ، فهو الشراب الطهور ، واغتسلوا من الأخرىٰ ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم يشعثوا ، ولم يشحبوا بعدها أبدًا . وقد روىٰ أبو إسحاق(٧٧) : [عن عاصم][٦] ، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نحوًا من هذا ؛ كما سيأتي في قوله تعالىٰ : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلىٰ الجنة زمرًا** ﴾ إن شاء اللَّه ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقال قتادة : قال علي رضي اللَّه عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال اللَّه تعالىٰ فيهم : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾ . رواه ابن جرير(٧٨) .

وقال عبد الرزاق(٧٩) : أخبرنا ابن عيينة ، عن إسرائيل ، قال : سمعت الحسن يقول : قال علي : فينا واللَّه أهل بدر نزلت : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾ .

---

(٧٦) - صحيح البخاري كتاب : المظالم ، باب : قصاص المظالم (٢٤٤٠) وأخرجه أحمد (١٣/٣) ووقع فيه « عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد به » وجاء على الصواب في (١٢/٣ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٤) .

(٧٧) - يأتي تخريجه [سورة الزمر / آية ٧٤] .

(٧٨) - تفسير ابن جرير (١٤٦٦٢/١٢) من طريق محمد بن ثور عن معمر عن قتادة ، به وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٢٩/٢) - ومن طريقه ابن أبي حاتم (٨٤٦٧/٥) - عن معمر عن قتادة به ، وفيه انقطاع بين قتادة وعلي بن أبي طالب .

(٧٩) - إسناده منقطع بين الحسن - وهو البصري - وعلي بن أبي طالب =

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - في ز « يكلف » .

[٣] - في ز « وبغضاء » .

[٤] - سقط من : خ ، ز .

[٥] - سقط من: خ ، ز .

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

وروى النسائي وابن مردويه - واللفظ له(٨٠) - : من حديث أبي بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **كل أهل الجنة يرى مقعده من النار ، فيقول : لولا أن الله هداني ، فيكون له شكرًا ، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله هداني ، فيكون له حسرة** » .

ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا : ﴿ **أن تلكم الجنة[١] أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ ، أي : بسبب أعمالكم [نالتكم الرحمة ، فدخلتم الجنة ، وتبوّأتم منازلكم بحسب أعمالكم][٢] . وإنما وجب الحمل على هذا ؛ لما ثبت في الصحيحين(٨١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [أنه قال][٣] : « **واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة** » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله . قال : « **ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل** » .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ

= « التفسير » لعبد الرزاق (٢/٢٢٩) ومن طريقه ابن جرير (١٤٦٦١/١٢) وابن أبي حاتم (٨٤٦٦/٥) ، وأخرجه ابن جرير (١٤٦٦٠/١٢) من طريق ابن المبارك عن ابن عيينة به ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٥٨/٣) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ وفي (١٨٨/٤) إلى سعيد بن منصور وابن مردويه .

(٨٠) - **صحيح** أخرجه النسائي في « التفسير » من « الكبرى » (١١٤٥٤/٦) وأحمد في « المسند » (٥١٢/٢) وابن أبي الدنيا في « صفة النار » (٢٥٨) وابن أبي حاتم - ذكره المصنف من طريقه عند [آية رقم ٧٢ / من سورة الزخرف] - ، والحاكم في « المستدرك » (٢٣٥/٢ ، ٢٣٦) وعنه البيهقي في « البعث والنشور » (٢٤٣) كلهم من حديث أبي بكر بن عياش به ، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٤٠٢/١٠) وعزاه إلى أحمد وقال : « رجاله رجال الصحيح » ورواه ابن جرير في تفسيره (١٤٦٦٥/١٢) والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٤/٥) من طريق محمد بن يزيد أبي هاشم الرفاعي ثنا أبو بكر بن عياش به غير أنه جعل صحابيَّهُ أبا سعيد الخدري وهو وهم من أبي هاشم الرفاعي حيث خالف الثقات فيه مع ضعفه ، وقد قال فيه أبو حاتم ابن حبان : « يخطئ ويخالف » وفي « التقريب » : « ليس بالقوي ...» والحديث عزاه السيوطي في « الدر المنثور » (١٥٨/٣) إلى ابن مردويه ورواه البخاري في صحيحه (٦٥٦٩) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ « **لا يدخل أحد الجنة إلا أرِىَ مقْعَدَه من النار لو أساء ، ليزدادَ شكرًا ، ولا يدخل النار أحدٌ إلا أُري مقعده من الجنة لو أحسن ، ليكون عليه حسرة** » .

(٨١) - أخرجه البخاري ، كتاب : الرقاق ، باب : القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣) ، ومسلم ، كتاب : صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة وفي الباب عن عائشة عند البخاري (٦٤٦٤) ومسلم (٧٨) (٢٨١٨) أيضًا .

---

[١] - زيادة من : ز . [٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)

يخبر تعالىٰ بما يخاطب به[١] أهل الجنة أهل النار وذلك[٢] علىٰ وجه التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿ **أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا** ﴾ ﴿ **أن** ﴾ هاهنا مفسرة للقول المحذوف، و ﴿ **قد** ﴾ للتحقيق، أي: قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعدكم[٣] ربكم حقًّا؟ قالوا: نعم. كما أخبر تعالىٰ في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار: ﴿ **فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولىٰ وما نحن بمعذبين** ﴾ أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك[٤] تقرعهم[٥] الملائكة يقولون لهم: ﴿ **هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾، وكذلك قرع رسول الله، صلىٰ الله عليه وآله وسلم، قتلىٰ القليب يوم بدر؛ فنادىٰ: « **يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة** - وسمىٰ رءوسهم -: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا ». وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قومًا قد جيفوا! فقال: « **والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا** »(٨٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿ **فأذن مؤذن بينهم** ﴾ أي: أعلم معلم، ونادىٰ مناد: ﴿ **أن لعنة الله علىٰ الظالمين** ﴾ أي: مستقرة عليهم.

ثم وصفهم بقوله: ﴿ **الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا** ﴾ أي: يصدّون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه، وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل[٦] معوجة غير مستقيمة؛ حتىٰ لا يتبعها أحد، ﴿ **وهم بالآخرة كافرون** ﴾ أي: وهم بلقاء الله في الدار

---

(٨٢) - أخرجه أحمد في « المسند » (٣/١٠٤، ١٨٢، ومواضع أخر) ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٧٧) (٢٨٧٤) من حديث أنس بن مالك وبنحوه أخرجه أحمد (٢٩/٤) والبخاري، كتاب: المغازي (حديث رقم ٣٩٧٦) وكذا مسلم (٧٨) (٢٨٧٥) من حديث أبي طلحة.

---

[١] - سقط من: ز.
[٢] - سقط من: ت.
[٣] - في ز « وعد ».
[٤] - في ز « كذا ».
[٥] - سقط من: خ، وفي ز « يقرعهم ».
[٦] - في ز « السبل ».

الآخرة كافرون ، أي : جاحدون مكذبون بذلك ، لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما[١] يأتون من منكر من القول والعمل ؛ لأنهم لا يخافون حسابًا عليه ولا عقابًا ، فهم شر الناس أقوالًا وأعمالًا .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾

لما ذكر تعالىٰ مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار ، نبه أن بين الجنة والنار حجابًا[٢] ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلىٰ الجنة .

قال ابن جرير[٣] : وهو السور الذي قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ وهو الأعراف ، الذي قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **وعلىٰ الأعراف رجال** ﴾ ثم روىٰ بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالىٰ : ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾ : وهو السور ، وهو[٤] الأعراف .

وقال مجاهد : الأعراف حجاب بين الجنة والنار ، سور له باب .

قال ابن جرير(٨٣) : والأعراف جمع عُرْف ، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمىٰ عُرْفًا ، وإنما قيل لعرف الديك عرفًا لارتفاعه .

وحدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا ابن عيينة ، عن عبيد[٥] اللَّه بن أبي يزيد ، سمع ابن عباس يقول : [الأعراف هو الشيء المشرف .

(٨٣) - تفسير ابن جرير (١٤٦٧٣/١٢) ورجاله ثقات رجال الشيخين غير سفيان بن وكيع ضعيف، لكنه توبع فأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٢٩/٢ ، ٢٣٠) وعنه ابن جرير أيضًا (١٤٦٧٤/١٢) - عن ابن عيينة به ، وأخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٦٩) وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٤٩٣/٥) والبيهقي في « البعث والنشور » (٩٩) من طرق عن سفيان به ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٦٠/٣) إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ .

[١] - في ز « ما » .
[٢] - في ز « حجاب » .
[٣] - في تفسيره (٤٤٩/١٢) .
[٤] - بعده في خ ، ز : « علي » .
[٥] - في ز « عبد » .

وقال الثوري(٨٤) ، عن جابر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال [١] : الأعراف سور كعرف الديك .

وفي رواية(٨٥) عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه ، الأعراف : تَلٌّ بين الجنة والنار ، حُبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار . وفي رواية عنه(٨٦) : هو سور بين الجنة والنار :

وكذا قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير .

وقال السدي : إنما سمي الأعراف أعرافًا ؛ لأن أصحابه يعرفون الناس .

واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلىٰ معنىٰ واحد ؛ وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله ، وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه(٨٧) :

حدثنا عبد الله بن إسماعيل ، حدثنا عبيد بن الحسين ، حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا[٢] النعمان بن عبد السلام ، حدثنا شيخ لنا يقال له : أبو عباد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عمن استوت حسناته وسيئاته ؟ فقال : « **أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون** » .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه .

ورواه من وجه آخر(٨٨) عن سعيد بن سلمة بن أبي الحسام ، عن محمد بن المنكدر ، عن رجل

---

(٨٤) - أخرجه هَنَّاد في « الزهد » (١/رقم ٢٠٤) وابن جرير (١٢/١٤٦٧٥ ، ١٤٦٧٦) من طريقين عن سفيان الثوري به وأخرجه ابن جرير أيضًا (١٢/١٤٦٨٢) وابن أبي حاتم (٥/٨٤٩١) من طريق إسرائيل عن جابر به، وجابر هو ابن يزيد الجعفي «ضعيف» والأثر زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٣/١٦٠) إلى الفريابي وعبد بن حميد وأبي الشيخ .

(٨٥) - أخرجه ابن جرير (١٢/١٤٦٧٧) من طريق عبيد الله بن أبي يزيد أنه سمع ابن عباس يقول : ... فذكره .

(٨٦) - يأتي تخريجها برقم (٩٤) .

(٨٧) - **إسناده ضعيف جدًا** وعزاه لابن مردويه السيوطي في « الدر المنثور » (٣/١٦٢) وزاد عزوه إلى أبي الشيخ وابن عساكر - وفي إسناده جهالة شيخ النعمان بن عبد السلام ، وسليمان بن داود هو الشاذكوني متهم بالكذب .

(٨٨) - وعزاه لابن مردويه من هذا الوجه السيوطي في « الدر المنثور » (٣/١٦٤) وزاد عزوه إلى أبي الشيخ =

---

[١] - سقط من : خ ، ز . [٢] - في ز « بن » .

من مزينة قال : سئل رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم عن [أصحاب الأعراف][١] ؟ فقال : « **إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم ، فقتلوا في سبيل اللَّه** » .

وقال سعيد بن منصور(٨٩) : حدثنا أبو معشر ، حدثنا يحيىٰ بن شبل ، عن يحيىٰ بن عبد الرحمن المزني ، عن أبيه قال : سئل رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، عن أصحاب الأعراف ؟ فقال : « **هم ناس قتلوا في سبيل اللَّه بمعصية آبائهم ، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ، ومنعهم من النار قتلهم في سبيل اللَّه** » .

وهكذا رواه ابن مردويه وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن أبي معشر ، به ، وكذا[٢] رواه

= وسعيد بن سلمة بن أبي الحسام ، « صدوق صحيح الكتاب يخطئ من حفظه » - كما في « التقريب » وهو هكذا يحتمل التحسين ، لكن لم نقف على من دون سعيد بن سلمة ، ومن المحتمل أن يكون فيهم ضعيف أو متكلم فيه ، ومما يؤيد ذلك قول المصنف في آخر هذه الأحاديث : « ... واللَّه أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة ، وقصاراها أن تكون موقوفة » ثم إن الغالب على تفردات ابن مردويه الضعف .

(٨٩) - **إسناده ضعيف لضعف أبي معشر** وعزاه لسعيد بن منصور السيوطي في «الدر المنثور» (١٦٣/٣) - ومن طريق سعيد بن منصور أخرجه البيهقي في « البعث والنشور » (١٠٦) غير أنه قال : « عن عمرو بن عبد الرحمن المزني عن أبيه » - وضعف إسناده - وأخرجه البيهقي أيضًا (١٠٥) من طريق آدم ، أبنا أبو معشر به ، وأخرجه الحارث بن أبي أسامة (٧١١) والبيهقي (١٠٧) من طريق هوذة، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٤٩٨/٥) وابن الأثير في « أسد الغابة » (٤٧٠/٣) من طريق يزيد بن هارون ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢/رقم ١١٢٣) من طريق المغيرة بن عبد الرحمن ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (رقم ٢٥٢) من طريق يَسَرَة بن صفوان أربعتهم (هوذة ، يزيد بن هارون ، المغيرة بن عبد الرحمن ، يَسَرَة بن صفوان) عن أبي معشر به ، ومنهم من قال : « عن عمر بن عبد الرحمن عن أبيه » ومنهم من قال : « عمرو بن عبد الرحمن » واختلف فيه على « يزيد بن هارون » فرواه بعضهم عنه وقال فيه عن « عمر » وقال بعضهم « عن عمرو » - كما في الطريق السابق - ورواه ابن جرير في تفسيره (١٢/ ١٤٧٠٥) من طريق إسحاق عن يزيد بن هارون به غير أنه قال فيه « عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه » وتابع يزيد بن هارون على هذه التسمية هشام بن عبد الملك عن أبي معشر به أخرجه البيهقي (١٠٤) وأفاد ابن عبد البر - كما في « الإصابة » (٣٣٠/٦) أن تسميته بـ « محمد بن عبد الرحمن » هو الصواب ، قال ابن حجر - وذكر طرقه - « ... والاضطراب فيه عن أبي معشر ، وهو نجيح بن عبد الرحمن ، فإنه ضعيف - وبه أعله الهيثمي في « المجمع » (٢٧/٧) وعزاه للطبراني - وقد رواه سعيد بن أبي هلال، عن يحيى بن شبل ، فخالف أبا معشر في سندة : أخرجه ابن جرير - (١٤٧٠٤/١٢) - وابن شاهين من طريق الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد عن يحيى بن شبل ، أن رجلًا من بنى نضر أخبره عن رجل من بني هلال عن أبيه ، أنه سأل النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - فذكر نحوه ، وأخرجه ابن مردويه ، من طريق ابن لهيعة ، عن خالد بن يزيد به ، لكن لم يقل عن أبيه ، ورواية الليث أوصل » ، لكن في إسناده جهالة وزاد نسبته السيوطي إلى عبد بن حميد وابن منيع وابن الأنباري في « كتاب الأضداد » وأبي الشيخ وابن مردويه .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في خ ، ز : « من استوت حسناته الأعراف » .

[٢] - في ز « وكذلك » .

ابن ماجة(٩٠) مرفوعًا من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس ، واللَّه أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة ، وقصاراها أن تكون موقوفة ، وفيه دلالة علىٰ ما ذكر .

وقال ابن جرير(٩١) : حدثني يعقوب ، حدثنا هشيم ، أخبرنا حصين ، عن الشعبي ، عن حذيفة : أنه سُئل عن أصحاب الأعراف ؟ قال : فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقصرت[١] بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلَّفت بهم حسناتهم عن النار . قال : فوقفوا هنالك علىٰ السور حتىٰ يقضي اللَّه فيهم .

وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا ، فقال(٩٢) :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيىٰ بن واضح ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، قال : قال الشعبي : أرسل إلي عبد الحميد بن عبد الرحمن ، وعنده أبو الزناد عبد اللَّه بن ذكوان مولىٰ قريش ، وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكرًا ، ليس كما ذكرا ، فقلت لهما : إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة ؛ فقالا : هات . فقلت : إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف ، فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار ، وقصرت[٢] بهم سيئاتهم عن الجنة ، فإذا صرفت أبصارهم

(٩٠) - غير موجودين في « السنن » ولعلهما في تفسيره - وذكرهما السيوطي في « الدر المنثور » (١٦٣/٣ ، ١٦٤) وعزاهما إلى ابن مردويه وزاد عزو الأول إلى الطبراني وهو في « الأوسط » (٤٦٤٤/٥) و« الصغير » (٢٣٨/١) من طريق محمد بن مخلد الرُّعَيني ثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد فذكر الحديث وقال الهيثمي في « المجمع » (٢٦/٧) : « فيه محمد مخلد الرعيني وهو ضعيف » قلت : وشيخه عبد الرحمن بن زيد مثله و إن كان التلميذ أسوأ حالًا من شيخه ، انظر ترجمة محمد بن مخلد هذا في « اللسان » لابن حجر .

(٩١) - تفسير ابن جرير (١٤٦٨٦/١٢) وأخرجه أيضًا (١٤٦٨٧/١٢) والمروزي في « زوائد الزهد » (١٣٧٠) وهناد في « الزهد » (١/رقم ٢٠١) من طرق عن حصين به ، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين ، غير أنهم لم يذكروا حذيفة فيمن روى عنهم عامر وأفاد البيهقي في « البعث والنشور » (ص ١٠٥) أن روايته عنه مرسلة ، وأخرجه ابن جرير أيضًا (١٤٦٨٨/١٢ ، ١٤٦٨٩) وهناد (٢٠٢) وابن أبي حاتم (٨٤٩٩/٥) من طريقين عن عامر الشعبي به وانظر ما بعده .

(٩٢) - تفسير ابن جرير (١٤٦٨٥/١٢) وأخرجه البيهقي في « البعث والنشور » (١٠٢) من طريق شيبان ثنا يونس به ، وقال : « هذا مرسل موقوف » ووصله الحاكم في « المستدرك » (٣٢٠/٢) - وعنه البيهقي (١٠١) من طريق عبيد اللَّه بن موسى أنبا يونس بن أبي إسحاق عن الشعبي ، عن صلة بن زفر عن حذيفة به ، وقال الحاكم : « حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي وقال البيهقي : « هذا موصول موقوف .. وروي مرسلًا مرفوعًا فيما يتوهم راويه » ثم أخرجه (١٠٣) من طريق مطرف عن الشعبي عن حذيفة به مرفوعًا ، وأخرجه المروزي في « زوائد الزهد » (١٣٦٧) من طريق إسماعيل بن أبي خالد يحدث عمن سمع الشعبي عامرًا يقول : ... فذكره موقوفًا .

[١] - في خ ، ز : « فقعدت » . [٢] - في خ ، ز : « وقعدت » .

تلقاء أصحاب النار : ﴿ **قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ فبينما[١] هم كذلك ، اطلع عليهم ربك فقال لهم : اذهبوا فادخلوا الجنة ، فإني قد غفرت لكم .

وقال عبد اللَّه بن المبارك ، عن أبي بكر الهذلي ، قال : قال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود ، قال : يحاسب الناس يوم القيامة ؛ فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قول اللَّه : ﴿ **فمن ثقلت موازينه [فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون]**[٢] ﴾ . ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح . قال : ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم ، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أصحاب النار : ﴿ **قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ فتعوذوا[٣] باللَّه من منازلهم . قال : فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورًا ، فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نورًا ، وكل أمة نورًا ، فإذا أتوا على الصراط سلب اللَّه نور كل منافق ومنافقة ، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون ، قالوا : ﴿ **ربنا أتمم لنا نورنا** ﴾ ، وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم[٤] ، فلم ينزع ، فهنالك[٥] يقول اللَّه تعالى : ﴿ **لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ فكان الطمع دخولًا . قال : وقال ابن مسعود : على[٦] أن العبد إذا عمل حسنة كتب[٧] له بها عشر[٨] ، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة . ثم يقول : هلك من [غلب وُحْدَانُه][٩] أعشاره .

رواه ابن جرير(٩٣) . وقال أيضًا(٩٤) :

حدثني ابن وكيع ، وابن حميد قالا : حدثنا جرير ، عن منصور ، عن حبيب بن أبي ثابت ،

(٩٣) - تفسير ابن جرير (١٤٦٩٠/١٢) وأخرجه ابن أبي حاتم (٨٥٠١/٥) من طريق ابن المبارك به مختصرًا وأبو بكر الهذلي « أخباري متروك الحديث » .

(٩٤) - تفسير ابن جرير (١٤٦٩٣/١٢) وأخرجه هناد في « الزهد » (١/رقم ٢٠٠) ثنا عبيدة عن منصور به غير أنه أدخل بين حبيب وعبد اللَّه بن الحارث « مجاهدًا » ، وأخرجه ابن أبي حاتم (٨٥٠٢/٥) من طريق يحيى بن المغيرة أنبا جرير به بإسناد ابن جرير ، وزاد نسبته السيوطي (١٦٣/٣) إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ وانظر ما بعده .

[١] - في ز « فبينا » .
[٢] - في ت : « الآيتين » .
[٣] - في : ت « تعوذوا » .
[٤] - في ز « في أيديهم » .
[٥] - في خ « فهناك » .
[٦] - زيادة من : ز .
[٧] - في ز « كتبت » .
[٨] - في ز « عشرًا » .
[٩] - ما بين المعكوفتين في خ ، ز : « غلبت واحدته » .

عن عبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس قال : الأعراف السور الذي بين الجنة والنار ، وأصحاب الأعراف بذلك المكان ، حتىٰ إذا بدا لله أن يعافيهم ؛ انطلق بهم إلىٰ نهر يقال له : نهر[١] الحياة ، حافتاه قصب الذهب ، مكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، فألقوا فيه[٢] حتىٰ تصلح ألوانهم ، وتبدو في نحورهم شامة بيضاء . يعرفون بها ، حتىٰ إذا صلحت ألوانهم ؛ أتىٰ بهم الرحمن تبارك وتعالىٰ فقال : « **تمنوا ما شئتم** » . فيتمنون ، حتىٰ إذا انقطعت أمنيتهم ، قال لهم : « **لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفًا** » . فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها ، يسمون : مساكين أهل الجنة .

وكذا رواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن يحيىٰ بن المغيرة ، عن جرير به . وقد رواه سفيان الثوري(٩٥) ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن الحارث من قوله . وهذا أصح والله أعلم . وكذا[٣] روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد .

وقال سنيد بن داود(٩٦) : حدثني جرير ، عن عمارة بن القعقاع ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، قال : سئل رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، عن أصحاب الأعراف ؟ قال : « **هم آخر من يفصل بينهم من العباد ؛ فإذا فرغ رب العالمين من الفصل[٤] بين العباد ، قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ، ولم تدخلوا الجنة ، فأنتم عتقائي ، فارعوا من الجنة حيث شئتم** » وهذا مرسل حسن .

وقيل : هم أولاد الزنا . حكاه القرطبي[٥] .

وروىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة الوليد بن موسىٰ(٩٧) ، عن [منبه بن عثمان][٦] ، عن

---

(٩٥) - أخرجه هناد في « الزهد » (١٩٨ ، ١٩٩) وابن جرير (١٤٦٩٤/١٢ ، ١٤٦٩٥) من طرق عن سفيان الثوري به ، وزاد نسبته السيوطي (١٦٣/٣) إلى ابن أبي شيبة والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ .

(٩٦) - **مرسل** ومن سنيد بن داود ابن جرير في تفسيره (١٤٧١٥/١٢) حدثني القاسم عنه به ، ومع كونه مرسلًا فإن سنيدًا هذا ضعف مع إمامته ، لكن تابعه محمد بن عيسى ثنا جرير به : أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٥٠٠) وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٦٢/٣) إلى ابن المنذر .

(٩٧) - **إسناده ضعيف جدًا** من كتابه « تاريخ دمشق » (٩١٠/١٧/ مخطوط) من طريق البيهقي - وهو في « البعث والنشور » له (رقم ١٠٨) والوليد بن موسى قواه أبو حاتم ، وقال غيره : متروك =

---

[١] - سقط من : ز . [٢] - زيادة من : خ ، ز .
[٣] - في ز « هكذا » . [٤] - في ز « فصل » .
[٥] - في « الجامع لأحكام القرآن » (٢١٢/٧) عن ابن عباس .
[٦] - في جميع النسخ : « شيبة بن عثمان» والتصويب من تاريخ دمشق و« البعث » للبيهقي وهو مترجم في « الجرح والتعديل » (٤١٩/٨) و«الثقات» لابن حبان (١٩٨/٩).

عروة بن رويم ، عن الحسن ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **أن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب** » . فسألناه عن ثوابهم [وعن مؤمنيهم][١] ؟ فقال : « **علىٰ الأعراف ، وليسوا في الجنة مع أمة محمد صلىٰ الله عليه وسلم** » . فسألناه وما الأعراف ؟ فقال : « **حائط الجنة تجري فيه الأنهار ، وتنبت فيه الأشجار والثمار** » .

رواه البيهقي : عن ابن بشران ، عن علي بن محمد المصري ، عن يوسف بن يزيد ، عن الوليد ابن موسىٰ به . وقال سفيان الثوري ، عن خصيف ، عن مجاهد قال : أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء .

وقال ابن جرير(٩٨) : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، عن سليمان التيمي ، عن أبي مجلز في قوله تعالىٰ : ﴿ **وبينهما حجاب وعلىٰ الأعراف رجال يعرفون كلًّا بسيماهم** ﴾ قال : هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار . قال : ﴿ **ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادىٰ أصحاب الأعراف رجالًا** ﴾ [في النار][٢] ﴿ **يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنىٰ عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة** ﴾ قال : فهذا[٣] حين يدخل[٤] أهل الجنة الجنة : ﴿ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ .

وهذا صحيح إلىٰ أبي مجلز ؛ لاحق بن حميد أحد التابعين . وهو غريب من قوله ، وخلاف الظاهر من السياق . وقول الجمهور مقدم علىٰ قوله ، لدلالة[٥] الآية علىٰ ما ذهبوا إليه(٩٩) - .

= وقال الدارقطني : منكر الحديث ، ووهّاه العقيلي وابن حبان ، وقال الحاكم : « أحاديثه موضوعة » انظر ترجمته في « ميزان الاعتدال » للذهبي و « لسان الميزان » لابن حجر .

(٩٨) - تفسير ابن جرير (١٤٧٠٧/١٢) - وقد سقط منه « عن سليمان التيمي » ولم ينتبه له محققه مع أن ابن جرير أخرجه بعده من طريق (جرير ، ومحمد بن أبي عدي وسفيان وخالد) عن التيمي عن أبي مجلز به مختصرًا ثم وجدته أخرجه من هذه الطريق على الصواب (١٤٧٤١/١٢) ورواه المروزي في « زوائد الزهد » (١٣٦٦) من طريق معتمر بن سليمان وإسماعيل بن علية قالا : ثنا سليمان التيمي به ، ورواه سعيد ابن منصور - كما في « الدر المنثور » (١٦٤/٣) - ومن طريقه البيهقي في « البعث والنشور » (١١٢) عن معتمر بن سليمان وابن أبي حاتم (٨٥٠٧/٥) من طريق زهير بن معاوية كلاهما عن سليمان التيمي به ، وزاد نسبته السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في « الأضداد » وأبي الشيخ .

(٩٩) - وكذا رد ابن جرير قول أبي مجلز فقال في تفسيره (٤٦٠/١٢ ، ٤٦١) : « والصواب من القول في أصحاب الأعراف أن يقال كما قال الله جل ثناؤه فيهم : هم رجال يعرفون كُلًّا من أهل الجنة =

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت . [٢] - زيادة من ز .
[٣] - في ز : فهلا . [٤] - في ز « دخل » .
[٥] - في خ « بدلالة » .

وكذا قول مجاهد : إنهم قوم صالحون علماء فقهاء ، فيه غرابة أيضًا ، والله أعلم .

وقد حكىٰ القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولًا ؛ منها : [أنهم شهدوا][١] أنهم صلحاء تفرغوا من فرع الآخرة ، ودخلوا[٢] يطلعون علىٰ أخبار الناس .

وقيل : هم أنبياء ، وقيل : هم[٣] ملائكة .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **يعرفون كلًّا بسيماهم** ﴾ ، قال علي بن أبي طلحة(١٠٠) ، عن ابن عباس قال : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه . وكذا روىٰ الضحاك عنه .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : أنزلهم الله تلك[٤] المنزلة ؛ ليعرفوا من في الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه[٥]، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله .

وكذا قال مجاهد والضحاك والسدي والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم[٦] .

وقال معمر ، عن الحسن أنه تلا هذه الآية : ﴿ **لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ قال : والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم .

وقال قتادة : أنبأكم الله بمكانهم من الطمع .

وقوله : ﴿ **وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ وقال الضحاك ، عن ابن عباس : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلىٰ أهل النار ، و[٧]عرفوهم ، قالوا : ﴿ **ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ .

= وأهل النار بسيماهم، ولا خبر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يصح سنده ، ولا أنه متفق على تأويلها ، ولا إجماع من الأمة على أنهم ملائكة . فإذ كان ذلك كذلك ، وكان ذلك لا يدرك قياسًا ، وكان المتعارف بين أهل لسان العرب أن « الرجال » اسم يجمع ذكور بنى آدم دون إناثهم ودون سائر الخلق غيرهم ، كان بيّنًا أن ما قاله أبو مجلز من أنهم ملائكة، قولٌ لا معنى له، وأن الصحيح من القول في ذلك ما قاله سائر أهل التأويل غيره . هذا مع من قال بخلافه من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ومع ما روى عن رسول الله - صلى الله عله وسلم - في ذلك من الأخبار ، وإن كان في أسانيدها ما فيها ».

(١٠٠) - أخرجه ابن جرير في تفسيره - مع ما بعده من آثار عن ابن عباس (٤٦٢/١٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين زيادة من : ز .
[٢] - في ز « حلوا » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز « بتلك » .
[٥] - في ز « وجوه » .
[٦] - سقط من: خ ، ز .
[٧] - سقط من : ز .

وقال السدي : وإذا مروا بهم يعني ـ بأصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلىٰ النار ، قالوا : ﴿ **ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ .

وقال عكرمة : تحرد[١] وجوههم للنار[٢] ، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم .

وعن[٣] عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ **وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار** ﴾ فرأوا وجوههم مسودة ، وأعينهم مزرقة ﴿ **قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾

يقول اللَّه تعالىٰ مخبرًا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم ، يعرفونهم في النار بسيماهم : ﴿ **ما أغنىٰ عنكم جمعكم** ﴾ أي : كثرتكم ، ﴿ **وما كنتم تستكبرون** ﴾ أي : لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب اللَّه ، بل صرتم إلىٰ ما صرتم فيه من العذاب والنكال .

﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم اللَّه برحمة** ﴾ قال علي بن أبي طلحة(١٠١) ، عن ابن عباس : يعني أصحاب الأعراف ﴿ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ .

وقال ابن جرير(١٠٢) : حدثني محمد بن سعد، [قال: حدثني أبي][٤] حدثني عمي[٥] ، حدثني أبي[٦] ، عن أبيه ، عن ابن عباس : ﴿ **قالوا ما أغنىٰ عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون** ﴾ ، قال : فلما قالوا[٧] لهم الذي قضىٰ اللَّه أن يقولوا ـ يعني : أصحاب الأعراف

---

(١٠١) - أخرجه ابن جرير (١٤٧٤٣/١٢) وأخرجه أيضًا (١٤٧٤٥/١٢) وابن أبي حاتم (٨٥٢٨/٥) من طريق العوفي عنه به .

(١٠٢) - ابن جرير في تفسيره (١٤٧٤٥/١٢) وهذا إسناد مسلسل بالضعفاء أولهم الراوي عن ابن عباس وهو عطية العوفي .

---

[١] - في خ ، ز : « تحدد » ، والمثبت من تفسير ابن جرير (١٤٧٣٦/١٢) وابن أبي حاتم (٥/ ٨٥١٨) .

[٢] - في ز « في النار » .

[٣] - في ز « وقال » .

[٤] - زيادة من تفسير ابن جرير .

[٥] - في خ : «أبي»، وفي ز : « أبي ، حدثني يحيى » .

[٦] - في خ : «يحيى» .

[٧] - في ز « قال » .

لأهل الجنة وأهل النار . قال الله لأهل التكبر والأموال : ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ .

وقال[١] حذيفة(١٠٣) : إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم ، فقصَّرت بهم حسناتهم عن الجنة ، وقصَّرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجعلوا علىٰ الأعراف ، يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضىٰ الله بين العباد ، أذن لهم في طلب الشفاعة ، فأتوا آدم ، فقالوا : يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك . فقال : هل تعلمون أن أحدًا خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسبقت رحمته إليه غضبه ، وسجدت له الملائكة ، غيري ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما عملت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابني إبراهيم ، فيأتون إبراهيم صلىٰ الله عليه وسلم ، فيسألونه[٢] أن يشفع لهم عند ربهم ، فيقول : تعلمون من أحد اتخذه الله خليلًا ، هل تعلمون أن أحدًا أحرقه[٣] قومه في النار في الله ، غيري ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما عملت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابني موسىٰ ، فيأتون موسىٰ عليه السلام ، فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليمًا وقربه نجيًا ، غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما عملت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا عيسىٰ ، فيأتونه عليه السلام ، فيقولون له : اشفع لنا عند ربك . فيقول : هل تعلمون أحدًا خلقه الله من غير أب غيري[٤] ؟ فيقولون : لا . فيقول : هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ بإذن الله غيري ؟ قال : فيقولون : لا . فيقول: أنا حجيج نفسي، ما عملت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم . فيأتونني ، فأضرب بيدي علىٰ صدري ، ثم أقول : أنا لها . ثم أمشي حتىٰ أقف بين يدي العرش ، [فأثني على][٥] ربي عز وجل ، فيفتح لي من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ، ثم أسجد ، فيقال لي : يا محمد ، ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فأرفع رأسي ، فأقول : ربي أمتي . فيقول : هم لك . فلا يبقىٰ نبي مرسل ولا ملك مقرب ، إلا غبطني بذلك المقام ، وهو المقام المحمود ، فآتي بهم الجنة ، فأستفتح فيفتح لي ولهم فيذهب بهم إلىٰ نهر يقال له : نهر الحيوان ، حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، وحصباؤه الياقوت ، فيغتسلون منه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة ، وريح [أهل الجنة][٦] ، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ، ويبقىٰ في صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال لهم[٧] : مساكين أهل الجنة .

---

(١٠٣) - أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٢/١٤٧٤٦) وفي إسناده انقطاع ، وللفظه شواهد كثيرة تأتي في سورة [الإسراء / آية ٧٩] .

---

[١] - في ز « فقال » . [٢] - في ز « فيسألون » .
[٣] - في ز « حرقه » . [٤] - سقط من: خ ، ز .
[٥] - ما بين المعكوفتين في خ ، ز : « فآتي » والمثبت من تفسير ابن جرير .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٧] - سقط من: خ ، ز .

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾

يخبر تعالىٰ عن ذلة أهل النار ، وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، وأنهم لا يجابون إلىٰ ذلك .

قال السدي: ﴿**ونادىٰ أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله**﴾ يعني : الطعام . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يستطعمونهم ويستسقونهم .

وقال الثوري(١٠٤) ، عن عثمان الثقفي ، عن سعيد بن جبير في هذه الآية ، قال : ينادي الرجل أباه أو أخاه ، فيقول له[١] : قد احترقت ، فأفض[٢] عليَّ من الماء . فيقال لهم : أجيبوهم . فيقولون : ﴿ **إن الله حرمهما علىٰ الكافرين** ﴾ .

ورویٰ من وجه آخر عن سعيد ، عن ابن عباس مثله سواء[٣] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ **إن الله حرمهما علىٰ الكافرين** ﴾ يعني : طعام الجنة وشرابها .

وقال ابن أبي حاتم(١٠٥) : حدثنا أبي ، حدثنا نصر بن علي ، أخبرنا موسىٰ بن المغيرة ، حدثنا

---

(١٠٤) - أخرجه ابن جرير (١٤٧٥٢/١٢) حدثني المثنى ، وابن أبي حاتم (٨٥٣٢/٥) ثنا أبي قالا (المثنى وأبو حاتم) : حدثنا ابن دكين - وهو الفضل أبو نعيم ثقة ثبت - ثنا الثوري به وخالفه وكيع فرواه عن الثوري به نمى به ، إلى ابن عباس ، لكن راويه عن وكيع هو ابنه سفيان وهو ضعيف أخرجه ابن جرير (١٢/ ١٤٧٥١) ورواه زيد بن الحباب - أخرجه ابن أبي حاتم (٨٥٣٨/٥) - عن الثوري به إلى ابن عباس ، لكن زيد بن الحباب ، « صدوق يخطئ في حديث الثوري » كما في « التقريب » ومن حديث ابن عباس زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٦٦/٣) إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ .

(١٠٥) - **إسناده فيه جهالة** ، « التفسير » لابن أبي حاتم (٨٥٣٣/٥) وأخرجه أبو يعلى في « المسند » (٥/ ٢٦٧٣) ثنا نصر بن علي به ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٣٨٠/٣) والذهبي في « ميزان الاعتدال » (٣٤٩/٥/ت ٨٩٢٩) من طريق محمد بن أبي بكر المقدمي ثنا موسى بن المغيرة - =

---

[١] - سقط من: خ ، ز.

[٢] - في ز « أفض » .

[٣] - سقط من: خ ، ز .

أبو موسىٰ الصفار في دار عمرو[١] بن مسلم ، قال : سألت ابن عباس أو سئل : أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **أفضل الصدقة الماء ، ألم تسمع إلىٰ أهل النار [لما استغاثوا بأهل الجنة]**[٢] ، **قالوا**[٣] : ﴿ **أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللَّه** ﴾ .

وقال أيضًا(١٠٦) : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، قال : لما مرض أبو طالب ، قالوا له : لو أرسلت إلىٰ ابن أخيك هذا ، فيرسل إليك بعنقود من الجنة ؛ لعله أن يشفيك به . فجاءه الرسول ، وأبو بكر عند النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم فقال أبو بكر : ﴿ **إن اللَّه حرمهما على الكافرين** ﴾ .

ثم وصف تعالىٰ الكافرين بما كانوا يعتمدونه[٤] في الدنيا ، من اتخاذهم الدين لهوًا ولعبًا ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها ، عما أمروا به من العمل للدار الآخرة .

قوله : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي : نعاملهم معاملة من نسيهم ؛ لأنه تعالىٰ لا يشذ عن علمه شيء ، ولا ينساه ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **في كتاب لايضل ربي ولا ينسىٰ** ﴾ .

وإنما قال تعالىٰ هذا من باب المقابلة ؛ كقوله : ﴿ **نسوا اللَّه فنسيهم** ﴾ . وقال : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسىٰ** ﴾. وقال تعالىٰ : ﴿ **وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾.

= تصحف في « الشعب » إلى موسى بن عبد العزيز - به ، وضعفه الذهبي فقال « موسى بن المغيرة ، عن أبي موسى الصفار ، مجهول ، وشيخه لا يعرف » وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣/١٣٤ ، ١٣٥) وقال : « رواه أبو يعلى والطبراني في « الأوسط » - ولم أجده في المطبوع منه والله أعلم - وفيه موسى بن المغيرة وهو مجهول » وعزاه السيوطي في « الدر المنثور » (٣/١٦٦) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في « شعب الإيمان » ؛ وله شاهد من حديث سعد بن عبادة عند أبي داود (١٦٧٩ ، ١٦٨٠) والنسائي (٦/٢٥٤) وابن ماجه (٣٦٨٤) وأحمد (٥/٢٨٥) ،(٦/٧) وصححه ابن حبان (٨/٣٣٤٨) والحاكم (١/٤١٤) على شرط الشيخين ، لكن في إسناده انقطاع ، ولذلك تعقب الذهبي الحاكم فيه فقال : « غير متصل » وانظر - إن شئت - « تلخيص الحبير » لابن حجر (٢/٣١٠) .

(١٠٦) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٥/٨٥٣٦) وهذا مرسل ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٣/١٦٦) إلى ابن أبي شيبة .

---

[١] - في ت : « عمر » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٣] - في ز « قال » .

[٤] - في خ « يتتمدونه » .

وقال العوفي(١٠٧) ، عن ابن عباس [في قوله][١] : ﴿ **فاليوم [ننساهم كما نسوا لقاء يومهم][٢] هذا** ﴾ قال : نسيهم الله من الخير ، ولم ينسهم من الشر .

وقال علي بن أبي طلحة(١٠٨) ، عن ابن عباس قال : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا.

[وقال مجاهد : نتركهم في النار . وقال السدي : نتركهم من الرحمة ، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا][٣] .

وفي الصحيح(١٠٩) أن الله تعالىٰ يقول للعبد يوم القيامة : « **ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخِّر لك الخيل والإبل وأذرْك ترْأس وترْبعُ ؟** » فيقول : بلىٰ . فيقول : « **أظننت أنك مُلاقِيَّ ؟** » فيقول : لا . فيقول الله تعالىٰ : « **فاليوم أنساك كما نسيتني**» .

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن إعذاره إلىٰ المشركين ، بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين ، كقوله : ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت [من لدن حكيم خبير][٤]** ﴾.

وقوله : ﴿ **فصلناه علىٰ علم** ﴾ أي : علىٰ علم منا بما فصلناه به ، كقوله : ﴿ **أنزله بعلمه** ﴾.

---

(١٠٧) - أخرجه ابن جرير (١٤٧٥٩/١٢) وابن أبي حاتم (٨٥٤٦/٥) .

(١٠٨) - أخرجه ابن جرير (١٤٧٥٨/١٢) وابن أبي حاتم (٨٥٤٣/٥) والبيهقي في « الأسماء والصفات » وابن المنذر - كما في « الدر المنثور » (١٦٧/٣) .

(١٠٩) - تقدم تخريجه [سورة البقرة/ آية ٤٦] .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز « ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٤] - في ت : « الآية » .

قال ابن جرير[١] : وهذه الآية مردودة علىٰ قوله : ﴿ **كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه [لتنذر به وذكرى للمؤمنين]**[٢] ﴾ ، ﴿ **ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم** ﴾ .

وهذا الذي قاله فيه نظر ؛ فإنه قد طال الفصل ، ولا دليل علىٰ ذلك ، وإنما لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة[٣] في الدار[٤] الآخرة ، ذكر أنه قد[٥] أزاح عللهم في الدار الدنيا ؛ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ؛ كقوله : ﴿ **وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولاً** ﴾. ولهذا قال : ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله** ﴾ أي : ما [وعدوا به][٦] من العذاب والنكال والجنة والنار ، قاله مجاهد وغير واحد .

[وقال مالك][٧] : ثوابه .

وقال الربيع : لا يزال يجيء من تأويله أمر ، حتىٰ يتم يوم الحساب ، حتىٰ يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ .

وقوله[٨] : ﴿ **يوم يأتي تأويله** ﴾ أي : يوم القيامة . قاله ابن عباس . ﴿ **يقول الذين نسوه من قبل** ﴾ أي : تركوا العمل به ، وتناسوه[٩] في الدار الدنيا : ﴿ **قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا** ﴾ أي : في خلاصنا مما نحن فيه ، ﴿ **أو نرد** ﴾ إلىٰ الدار[١٠] الدنيا : ﴿ **فنعمل غير الذي كنا نعمل** ﴾ ، كقوله : ﴿ **ولو ترىٰ إذ وقفوا علىٰ النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾ ، كما قال هاهنا : ﴿ **قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ [أي : خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾][١١] أي : ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون اللَّه ؛ [فلا يشفعون لهم ولا ينصرونهم][١٢] ولا ينقذونهم مما هم فيه .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ

---

[١] - في تفسيره (٤٧٧/١٢) .
[٢] - في ت : « الآية » .
[٣] - في ز « الخسار » .
[٤] - سقط من: ت .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٧] - لم أر ذكرًا لمالك عند هذه الآية وأخرج هذا التفسير ابن جرير (١٤٧٦١/١٢) وابن أبي حاتم (٨٥٥٧/٥) من قول قتادة واللَّه أعلم .
[٨] - سقط من : ز .
[٩] - في ز « تلبسوه » .
[١٠] - زيادة من : ز .
[١١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[١٢] - ما بين المعكوفتين في ز « ينصرونهم ولا يشفعون فيهم » .

بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

يخبر تعالىٰ بأنه خالق[١] العالم سماواته وأرضيه ، وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة أيام[٢] هي : الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، فيه خلق آدم عليه السلام ، واختلفوا في هذه الأيام : هل كل يوم منها كهذه الأيام ، كما هو المتبادر إلىٰ الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة ، كما نص علىٰ ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ؟ ويروىٰ ذلك من[٣] رواية الضحاك عن ابن عباس ، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ؛ لأنه اليوم السابع ، ومنه سمي السبت ، وهو القطع .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال(١١٠) : حدثنا حجاج ، حدثنا ابن جريج ، أخبرني إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع مولىٰ أم سلمة ، عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بيدي فقال : « **خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلىٰ الليل** » .

فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه ، والنسائي من غير وجه ، عن حجاج وهو ابن محمد الأعور ، عن ابن جريج به . وفيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالىٰ قد قال : ﴿ **في ستة أيام** ﴾ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث ، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعًا ، والله أعلم.

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ **ثم استوىٰ علىٰ العرش** ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًا ليس هذا موضع بسطها ؛ وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا ، وهو : إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . والظاهر المتبادر إلىٰ أذهان المشبهين منفي عن الله ؛ فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ . بل الأمر كما قال الأئمة : منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال[٤] : من شبَّه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه[٥] ؛ فمن أثبت لله تعالىٰ ما وردت به الآيات الصريحة

(١١٠) - « المسند » (٣٢٧/٢) وتقدم تخريجه [البقرة / آية ٢٩] .

[١] - في ز « خلق هذا » .
[٢] - في ز « الأيام » .
[٣] - في ز « عن » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في ز « تشبيها » .

والأخبار الصحيحة ، علىٰ الوجه الذي يليق بجلال اللَّه تعالى ، ونفىٰ عن اللَّه تعالىٰ النقائص ، فقد سلك سبيل الهدىٰ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا** ﴾ أي : يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا أي : سريعًا لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وإذا جاء هذا ذهب هذا ، كقوله : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتىٰ عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾. فقوله : ﴿ **ولا الليل سابق النهار** ﴾ أي : لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو في أثره لا واسطة بينهما ، ولهذا قال : ﴿ **يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ منهم من نصب، ومنهم من رفع ، وكلاهما[١] قريب المعنىٰ . أي : الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ، ولهذا قال منبهًا : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ أي : له الملك والتصرف . ﴿ **تبارك اللَّه رب العالمين** ﴾ ، كقوله : ﴿ **تبارك الذي جعل في السماء بروجًا [وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا]**[٢] ﴾ .

وقال ابن جرير(١١١) : حدثني المثنىٰ ، حدثنا إسحاق ، حدثنا هشام أبو عبد الرحمن ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثنا [عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري][٣] ، عن عبد العزيز الشامي ، عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **من لم يحمد اللَّه علىٰ ما عمل من عمل صالح ، وحمد نفسه فقد كفر ، وحبط عمله ، ومن زعم أن اللَّه جعل للعباد من الأمر شيئًا فقد كفر بما أنزل اللَّه علىٰ أنبيائه ، لقوله**[٤] : ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك اللَّه رب**

(١١١) - **إسناده هالك** ، تفسير ابن جرير (١٤٧٧٦/١٢) وأخرجه ابن أبي عاصم (٥/رقم ٢٧٥٧) ومن طريقه ابن الأثير في « أسد الغابة » (٢٠٢/٦) عن كثير بن عبيد عن بقية به مختصرًا وهذا إسنادٌ هالك عبد الغفور بن عبد العزيز هذا هو أبو الصبَّاح الواسطي ، قال يحيى بن معين : ليس حديثه بشيء، وقال ابن حبان : كان ممن يضع الحديث ، وقال البخاري : تركوه ، وذكر له ابن عدي عدة أحاديث يرويها بهذا الإسناد ثم قال : « وبهذا الإسناد اثنان وعشرون حديثًا ... وعبد الغفور هذا الضَّعْفُ على حديثه ورواياته بَيِّنٌ ، وهو منكر الحديث » .

[١] - في ز « وكلا » . [٢] - في ت : « الآية » .
[٣] - كذا جاءت تسميته هكذا في جميع النسخ المخطوطة وكذا هو في « التفسير » لابن جرير ونقله عن ابن جرير الحافظ ابن حجر في « الإصابة » (١٢٩/٤) وسماه أيضًا « عبد الغفار بن عبد العزيز » ولكن كل هذا مخالف لما أطبقت عليه كتب التراجم والكتب الأخرى التى خرجته حيث جاء تسميته « عبد الغفور بن عبد العزيز » وكنوه « أبا الصباح الواسطي » انظر « لسان الميزان » (٤٧/٢) وابن عدي « الكامل » (١٩٦٦/٥) وانظر « هامش تفسير ابن جرير » (٤٨٤/١٢) .
[٤] - في ز « كقوله » .

العالمين ﴾ » .

وفي الدعاء المأثور ، عن أبي الدرداء ، وروي مرفوعًا(١١٢) : « **اللّهم لك الملك كله ، ولك الحمد كله ، وإليك يرجع الأمر كله ؛ أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله** » .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾

أرشد تبارك وتعالىٰ عباده إلىٰ دعائه ، الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم ، فقال : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعًا وخفية** ﴾ معناه : تذللًا واستكانة ، ﴿ **وخفية** ﴾ كما قال : ﴿ **واذكر ربك في نفسك** ﴾ الآية . وفي الصحيحين(١١٣) عن أبي موسىٰ الأشعري ، قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : « **أيها الناس اربَعُوا علىٰ أنفسكم ؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، إن الذي تدعونه [سميع قريب]**[١] » . الحديث .

وقال ابن جريج ، عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **تضرعًا وخفية** ﴾ قال : السر .

وقال ابن جرير[٢] : ﴿ **تضرعًا** ﴾ تذللًا واستكانة لطاعته ، ﴿ **وخفية** ﴾ يقول : بخشوع قلوبكم ، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه ، لا جهارًا و[٣]مراءاة .

---

(١١٢) - **ضعيف** المرفوع روي من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه البيهقي في « الشعب » (٤/رقم ٤٤٠٠) والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٨١٧) من طريق خالد بن يزيد عن بن أبي ذئب عن زيد ابن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبي سعيد رفعه ، وقال البيهقي: « قال أبو عبد اللّه - يعني شيخه الحاكم - تفرد به خالد بن يزيد العمري عن ابن أبي ذئب » قلت : خالد بن يزيد هذا كذبه أبو حاتم ويحيى وقال ابن حبان : « يروي الموضوعات عن الأثبات » ، واستنكر له ابن عدي في « الكامل » (٣/٨٩٠) عدة أحاديث ثم قال : « ولخالد العمري ، عن الثوري وابن أبي ذئب وغيرهم غير ما ذكرت أحاديث ، وعامتها مناكير » وفي الباب عن حذيفة عند أحمد (٥/٣٩٦) وفي إسناده جهالة ، وعن سعد بن أبي وقاص عند البيهقي في « الشعب » أيضًا (٤/٤٣٩٩) وفي إسناده أبو بلج يحيى بن سليم وثقه جماعة وضعفه آخرون وقال البخاري « فيه نظر » .

(١١٣) - تقدم تخريجه [سورة البقرة / آية ١٨٦] .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز «سميعًا قريبًا». [٢] - في تفسيره (١١٢/٤٨٥) .

[٣] - سقط من : ز .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : إن[١] كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ، وعنده الزُّوْر[٢] ، وما يشعرون به . ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدًا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالىٰ يقول : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعًا وخفية** ﴾ وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا رضي فعله ، فقال : ﴿ **إذ نادىٰ ربه نداء خفيًا** ﴾ .

وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستكانة . ثم روى عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ في الدعاء ، ولا في غيره .

وقال أبو مجلز : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء.

وقال الإمام أحمد بن حنبل(١١٤) رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا شعبة ، عن زياد بن مخراق ، سمعت أبا عيلة[٣] ، عن مولىٰ لسعد : أن سعدًا سمع ابنًا له يدعو وهو[٤] يقول : اللّهم ؛ إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ، ونحوًا من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، فقال : لقد سألت الله خيرًا كثيرًا[٥] ، وتعوذت به[٦] من شر كثير ، وإني سمعت رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يقول : « **إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء** » . وقرأ هذه

---

(١١٤) - « المسند » (١٧٢/١) (١٤٨٣) وأخرجه أحمد أيضًا (١٨٣/١) (١٥٨٤) من طريق أبي النضر ومحمد بن جعفر ، وأبو يعلى في مسنده (٢/رقم ٧١٥) من طريق شبابة بن سَوَّار ، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٥٩٥/٥) من طريق آدم بن أبي إياس أربعتهم (أبو النضر ، ومحمد بن جعفر ، وشبابة ، وآدم) ثنا شعبة به ، وانظر ما بعده .

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في خ ، ت « الزوار » ، والمثبت من ز ، و« الزور » (بفتح فسكون) جمع « زائر » ، مثل « صاحب » و « صحب » .
[٣] - كذا في خ ، ز : « عيلة » ، والصواب أبا نعامة كما في « التهذيب » لكن الذي في « المسند » في هذا الموضع هو « أبا عَبَاية » ولذا ذكره الحافظ في « تعجيل المنفعة » (رقم ١٣١٩) وقال : « أبو عباية عن مولى لسعد بن أبي وقاص ، وهو قيس بن عباية وهو من رجال « التهذيب » وأيد ذلك الشيخ أحمد شاكر ثم قال : « ولكن كنية قيس « أبو نعامة » فلعل بعض الرواة وهم أو قال : « ابن عباية » ثم صحف خطأ ، وقيس بن عباية : تابعي ، بصري ثقة عند جميعهم » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - سقط من : ز . [٦] - في ز « بالله » .

الآية : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين** ﴾ . وإن بحسبك أن تقول : اللَّهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل .

ورواه أبو داود(١١٥) من حديث شعبة ، عن زياد بن مخراق ، عن أبي نعامة ، عن ابن لسعد ، عن سعد . فذكره ، واللَّه أعلم .

وقال الإمام أحمد(١١٦) : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا الجريري ، عن أبي نعامة : أن عبد اللَّه بن مغفل سمع ابنه يقول : اللَّهم ، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة ، إذا دخلتها ، فقال : يا بني ، سل اللَّه الجنة وعُذْ به من النار ، فإني سمعت رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، يقول : « **يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور** » .

وهكذا رواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن عفان ، به .

وأخرجه أبو داود(١١٧) ، عن موسىٰ بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، عن سعيد بن إياس الجريري ، عن أبي نعامة - واسمه قيس بن عباية الحنفي البصري - ، وهو إسناد حسن لا بأس

---

(١١٥) - « السنن » لأبي داود ، كتاب : الصلاة ، باب : الدعاء (١٤٨٠) والطبراني في « الدعاء » (١/ رقم ٥٦) من طريق مسدد ثنا يحيى - ابن سعيد - عن شعبة به ، وأخرجه الطيالسي في « مسنده » (رقم ٢٠٠) ثنا شعبة أخبرني زياد بن مخراق قال : سمعت أبا عباية - شك أبو داود - أن سعدًا سمع ابنًا له يقول .... ، فذكره وأخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٦٥/٧) ثنا عبيد بن سعد عن شعبة به مختصرًا ليس فيه ذكر لابن سعد، وأخرجه الطبراني في « الدعاء » (١/رقم ٥٥) من طريق عاصم بن علي ثنا شعبة ، أخبرني زياد بن مخراق ، قال : سمعت قيس بن عباية مولى لسعد أن ابنا لسعد كان يدعو ... فذكره هكذا ، وعاصم بن علي، « صدوق ربما وهم » - كما في « التقريب » - وقد خالفه عبد الرحمن بن مهدي وغيره في هذا الإسناد - كما تقدم في السابق - والحديث أعله أحمد بأن زياد بن مخراق لم يُقم إسناده حيث رواه غيره عن أبي نعامة أن عبد اللَّه بن مغفل سمع ابنه ... الحديث - ويأتي بعد هذا - انظر « تهذيب الكمال » (٥١٠/٩) ، وقال المنذري في « مختصر سنن أبي داود » (١٤٢/٢) : « سعد هذا - هو ابن أبي وقاص - وابنه هذا لم يسم ، فإن كان عمر ، فلا يحتج به » لكن يشهد له ما بعده .

(١١٦) - **صحيح** « المسند » (٥٥/٥) مقرونًا بـ « عفان » ، « عبد الصمد » ومن طريق عفان - وهو ابن مسلم - أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٦٥/٧) وعنه ابن ماجه ، كتاب : الدعاء ، باب : كراهية الاعتداء في الدعاء (٣٨٦٤) وانظر ما بعده .

(١١٧) - « السنن » لأبي داود كتاب : الطهارة ، باب : الإسراف في الماء (٩٦) ومن طريق موسى بن إسماعيل ، أخرجه الحاكم (١٦٢/١ ، ٥٤٠) وعنه البيهقي في « السنن الكبرى » (١٩٦/١ ، ١٩٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في الموضع الثاني ، بينما قال في الأول : « فيه إرسال » !! وأخرجه أحمد (٨٧/٤) وابن حبان (٦٧٦٤/١٥) والطبراني في « الدعاء » (٥٩) من طرق عن حماد بن سلمة به ، وأخرجه أحمد أيضًا (٨٦/٤) وعبد بن حميد في « المنتخب » (٥٠٠) ، والطبراني (٥٨) =

به ، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** ﴾ ينهى تعالىٰ عن الإفساد في الأرض ، وما[١] أضره بعد الإصلاح ! فإنه إذا كانت الأمور ماشية علىٰ السداد ، ثم وقع الإفساد بعد ذلك ، كان أضر ما يكون علىٰ العباد ؛ فنهىٰ تعالىٰ عن ذلك ، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه ، فقال : ﴿ **وادعوه خوفًا وطمعًا** ﴾ أي : خوفًا مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعًا فيما عنده من جزيل الثواب .

ثم قال : ﴿ **إن رحمت الله قريب من المحسنين** ﴾ أي : إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون [ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي][٢]** ﴾ .

وقال: ﴿**قريب**﴾ ولم يقل قريبة؛ لأنه ضمّن الرحمة معنىٰ الثواب، أو لأنها مضافة إلىٰ الله ، فلهذا قال : ﴿ **قريب من المحسنين** ﴾ .

وقال مطر الوراق : تنجزوا موعود الله بطاعته ؛ فإنه قضىٰ أن رحمته قريب من المحسنين . رواه ابن أبي حاتم (١١٨) .

وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴿٥٨﴾

لما ذكر تعالىٰ أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلىٰ دعائه ، لأنه علىٰ ما يشاء قادر ، نبه تعالىٰ على أنه الرزاق ، وأنه يعيد الموتىٰ يوم القيامة ، فقال :

= من طرق عن حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أبي نعامة ، ويزيد ضعيف لكنه متابع وصححه ابن حبان أيضًا (٦٧٦٣) من طريق أبي الوليد الطيالسي عن حماد بن سلمة عن الجُريري عن أبي العلاء قال : سمع عبد الله بن المُغفَّل ابنًا له - فذكر الحديث ، قال أبو حاتم بن حبان (١٥/ص ١٦٧/ الإحسان) : « سمع هذا الخبر الجريري عن يزيد بن عبد الله الشِّخِّير وأبي نَعَامَة ، فالطريقان جميعًا محفوظان » .

(١١٨) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٨٦٠٤/٥) وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٧٢/٣) إلى أبي الشيخ .

[١] - سقط من : ز .
[٢] - من : ز ، وفي ت : « الآية » .

﴿ **وهو الذي يرسل الرياح نشرًا**[١] ﴾ أي : ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ، ومنهم من قرأ : (بشرًا) كقوله : ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات** ﴾ .

وقوله : ﴿ **بين يدي رحمته** ﴾ أي : بين يدي المطر ، كما قال : ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد** ﴾ ، وقال : ﴿ **فانظر إلىٰ آثار رحمة اللَّه كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتىٰ وهو علىٰ كل شيء قدير** ﴾.

وقوله : ﴿ **حتىٰ إذا أقلت سحابًا ثقالًا** ﴾ أي: حملت الرياح سحابًا ثقالًا ، أي : من كثرة ما فيها من الماء ، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة ، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه اللَّه :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقالًا

وقوله : ﴿ **سقناه لبلد ميت** ﴾ أي : إلىٰ أرض ميتة مجدبة[٢] لا نبات فيها ، كقوله : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها [وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون]**[٣] ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ **فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتىٰ** ﴾ أي : كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها ؛ كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة ، ينزل اللَّه سبحانه وتعالىٰ ماءً من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يومًا ، فتنبت منه الأجساد في قبورها ، كما ينبت الحب في الأرض ، وهذا المعنىٰ كثير في القرآن ، يضرب اللَّه مثلًا [ليوم القيامة][٤] بإحياء الأرض بعد موتها ، ولهذا قال : ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه** ﴾ أي : والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسنًا ، كقوله : ﴿ **فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا** ﴾ .

﴿ **والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا** ﴾ قال مجاهد وغيره : كالسباخ ونحوها .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية : هذا مثل ضربه اللَّه للمؤمن والكافر.

وقال البخاري(١١٩): حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا حماد بن أسامة ، عن بُرَيد[٥] بن عبد اللَّه ، عن أبي بردة ، عن أبي موسىٰ ، رضى اللَّه عنه ، قال : قال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه

(١١٩) - صحيح البخاري ، كتاب : العلم ، باب : فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وعَلَّم (٧٩) ، وأخرجه أحمد (٤/٣٩٩) ، ومسلم ، كتاب : الفضائل ، باب : بيان مثل ما بعث النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - من الهدى والعلم (١٥) (٢٢٨٢) ، والنسائي في « الكبرى » (٣/٥٨٤٣) من طرق عن أبي أسامة حماد ابن أسامة ، به .

[١] - في ت : « بشرًا » .
[٢] - في ز « أي : مجذبة » .
[٣] - في ت : « الآية » .
[٤] - ما بين المعكوفتين في خ،ز: «للقيامة» .
[٥] - في ز « يزيد » .

وسلم : « **مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا[١] ، فكان[٢] منها نقية[٣] قبلت الماء ، فأنبتت[٤] الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب ، أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس: فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرىٰ إنما هي قيعان[٥] : لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل[٦] من فقه في دين الله ونفعه ما[٧] بعثني الله به ، فعلِمَ وَعَلَّم[٨] ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ، ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به** ».

رواه مسلم والنسائي : من طرق ، عن أبي أسامة حماد بن أسامة ، به

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

لما ذكر تعالىٰ قصة آدم في أول السورة ، وما يتعلق بذلك ، وما[٩] يتصل به ، وفرغ منه شرع تعالىٰ في ذكر[١٠] قصص الأنبياء عليهم السلام ؛ الأول فالأول ، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام ؛ فإنه أول رسول [بعثه الله][١١] إلىٰ أهل الأرض ، بعد آدم - عليه السلام - وهو نوح بن لامك[١٢] ابن متوشلح[١٣] بن خنوخ - وهو إدريس النبي - عليه السلام - فيما يزعمون ، وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليه السلام .

هكذا نسبه ابن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب . قال محمد بن إسحاق : ولم يلق نبي

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في خ ، ز : « فكانت » .
[٣] - في ز « بقية » .
[٤] - في ز « وأنبتت » .
[٥] - سقط من : خ ، ز .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - في ز « بما » .
[٨] - سقط من : خ ، ز .
[٩] - سقط من : ز .
[١٠] - سقط من : خ ، ز .
[١١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[١٢] - في ز « لمك » .
[١٣] - في ز « متوشلخ » .

من قومه من الأذىٰ مثل نوح إلا نبي قتل .

وقال يزيد الرقاشي : إنما سمي نوحًا[١] ؛ لكثرة ما ناح علىٰ نفسه .

وقد كان بين آدم إلىٰ زمان نوح - عليهما السلام - عشرة قرون ، كلهم علىٰ الإسلام .

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : وكان أول ما عبدت الأصنام ؛ أن قومًا صالحين ماتوا ، فبنىٰ قومهم عليهم مساجد ، [وصوروا صور][٢] أولئك فيها ؛ ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا تلك الصور أجسادًا علىٰ تلك الصور ، فلما تمادىٰ الزمان عبدوا تلك الأصنام ، وسموها بأسماء أولئك[٣] الصالحين : [ودًّا وسواعًا][٤] ويغوث ويعوق ونسرًا ، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالىٰ - وله الحمد والمنة - رسوله نوحًا ، يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، فقال : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ أي : من عذاب يوم القيامة ، إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به . ﴿ **قال الملأ من قومه** ﴾ أي : الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم : ﴿ **إنا لنراك في ضلال مبين** ﴾ أي : في دعوتك إيانا إلىٰ ترك عبادة هذه الأصنام ، التي وجدنا آباءنا عليها ، وهكذا حال الفجار ، إنما يرون الأبرار في ضلالة ، كقوله : ﴿ **وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون** ﴾ ، ﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات .

﴿ **قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين** ﴾ أي : ما أنا ضال[٥] ، ولكن أنا رسول من [رب العالمين][٦] ، رب كل شيء ومليكه ، ﴿ **أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا فصيحًا ناصحًا عالمًا[٧] بالله ، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات ، كما جاء في صحيح مسلم(١٢٠) : أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا : « **أيها الناس ، إنكم مسئولون عني ، فما أنتم قائلون ؟** » قالوا : نشهد أنك قد[٨] بلغت وأديت ونصحت[٩] ، فجعل يرفع أصبعه إلىٰ السماء ، وينكتها عليهم ، ويقول : « **اللهم اشهد ! اللهم اشهد!** ».

(١٢٠) - صحيح مسلم كتاب : الحج ، باب : حجة النبي - صلى الله عليه وسلم - (١٤٧) (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله ، وتقدم ذكره في [سورة المائدة / آية ٦٧] .

[١] - في ز « نوح » .
[٢] - في ز « صوروا صورة » .
[٣] - في ز « تلك » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٥] - في ز « ضالًا » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٧] - سقط من : خ ، ز .
[٨] - سقط من: ز .
[٩] - سقط من : خ ، ز .

أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ **أو عجبتم** [**أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون**][١]﴾ ، أي : لا تعجبوا من هذا ؛ فإن هذا ليس بعجب ، أن يوحي اللَّه إلىٰ رجل منكم رحمة بكم ، ولطفًا وإحسانًا إليكم ؛ لينذركم[٢] ولتتقوا نقمة اللَّه ، ولا تشركوا به ، ﴿ **ولعلكم ترحمون** ﴾ .

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **فكذبوه** ﴾ أي : فتمادوا علىٰ تكذيبه ومخالفته ، وما آمن معه منهم إلا قليل ، كما نص عليه تعالىٰ في موضع آخر : ﴿ **فأنجيناه والذين معه في الفلك** ﴾ وهي السفينة ، كما قال : ﴿ **فأنجيناه وأصحاب السفينة وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ ، كما قال : ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارًا فلم يجدوا لهم من دون اللَّه أنصارًا** ﴾ .

وقوله : ﴿ **إنهم كانوا قومًا عمين** ﴾ أي : عن الحق ، لا يبصرونه ولا يهتدون له .

فبين تعالىٰ في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجىٰ رسوله والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم من الكافرين ، كقوله : ﴿ **إنا لننصر رسلنا** ﴾ الآية إلىٰ قوله : ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ .

وهذه سنة اللَّه في عباده في الدنيا والآخرة ، أن العاقبة فيها[٣] للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ونجىٰ[٤] نوحًا وأصحابه المؤمنين .

و[٥]قال مالك ، عن زيد بن أسلم : كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما عذب اللَّه قوم نوح إلا والأرض ملأىٰ بهم ، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز .

وقال ابن وهب : بلغني عن ابن عباس : أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلًا ، أحدهم

---

[١] - في ت : « الآية » .
[٢] - في ز « لإنذاركم » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز « نجا » .
[٥] - سقط من : ز .

جرهم ، وكان لسانه عربيًا . رواهن ابن أبي حاتم(١٢١) ، وقد روي هذا الأثر الأخير من وجه آخر متصلًا[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالىٰ : وكما أرسلنا إلىٰ قوم نوح نوحًا ، كذلك أرسلنا إلىٰ عاد أخاهم هودًا .

قال محمد بن إسحاق : هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح .

(قلت) : وهؤلاء هم عاد الأولىٰ ، الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى[٢] العمد في البر ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ .

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهي جبال الرمل .

قال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي ، عن أبي الطفيل عامر

---

(١٢١) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٥/١٥٠٦ ، ١٥٠٧) والأثر الأخير رواه موصولًا (٥/رقم ٨٦٣٥/ص ١٥٠٦) من طريق الحسين بن واقد عن أبي نَهيك عن ابن عباس به ، وأبو نهيك اسمه « عثمان بن نهيك » وثقه أبو أحمد الحاكم وابن حبان ، وقال ابن عبد البر : « مجهول » واضطربت فيه عبارة الحافظ في « التقريب » فوثقه في الكنى وقال في الأسماء : « عثمان بن نهيك ... مقبول » .

---

[١] - في ز « متصل » .
[٢] - سقط من : ز .

ابن واثلة ، سمعت علي بن أبي طالب يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيبًا أحمر[١] تخالطه مدرة حمراء ، ذا أراك وسدر كثير ، بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه . قال : لا ، ولكني قد حدثت عنه . فقال الحضرمي : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود عليه السلام .

رواه ابن جرير(١٢٢) . وهذا فيه فائدة : أن مساكنهم كانت باليمن ؛ وأن هودًا عليه السلام دفن هناك ، وقد كان من أشرف قومه نسبًا ؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد علىٰ قلوبهم ، وكانوا من أشد الأمم تكذيبًا للحق ، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلىٰ طاعته وتقواه .

﴿ **قال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ والملأ : هم الجمهور والسادة والقادة منهم : ﴿ **إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ أي : في ضلالة حيث دعوتنا إلىٰ ترك عبادة الأصنام ، والإقبال علىٰ[٢] عبادة الله وحده ، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلىٰ إله واحد ، فقالوا[٣] : ﴿ **أجعل الآلهة إلهًا واحدًا [إن هذا لشيء عجاب][٤]** ﴾ .

﴿ **قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين** ﴾ أي : لست كما تزعمون ، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء ، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿ **أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين** ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل : البلاغة والنصح والأمانة .

﴿ **أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم علىٰ رجل منكم لينذركم** ﴾ أي : لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولًا من أنفسكم ؛ لينذركم أيام الله ولقاءه ، بل احمدوا الله علىٰ ذاكم ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ أي : واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح ، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته ، لما خالفوه وكذبوه ﴿ **وزادكم في الخلق بسطة** ﴾ أي : زاد طولكم علىٰ الناس ﴿ **بسطة** ﴾ أي : جعلكم أطول من أبناء جنسكم ؛ كقوله في قصة طالوت : ﴿ **وزاده بسطة في العلم والجسم** ﴾ ، ﴿ **فاذكروا آلاء الله** ﴾ أي : نعمته[٥] ومنته عليكم ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ .

(١٢٢) - تفسير ابن جرير (١٢/١٤٨٠٣) وأخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (١/١٣٥/ ترجمة محمد ابن عبد الله بن أبي سعيد) وصرح عنده ابن إسحاق بالتحديث ، لكن محمد بن عبد الله هذا لم يوثقه غير ابن حبان « الثقات » (٥/٣٧٦) .

[١] - في ز « أحمرا » .
[٢] - في ز « إلى » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ت : « الآية » .
[٥] - في ز « نعمه » .

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن تمردهم وطغيانهم ، وعنادهم وإنكارهم علىٰ هود عليه السلام : ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد اللَّه وحده [ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين]**[١]﴾ ، كما قال الكفار من قريش : ﴿ **وإذ قالوا اللَّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره : أنهم كانوا يعبدون أصنامًا ؛ فصنم يقال له : صُداء ، وآخر يقال له : صمود[٢] ، وآخر يقال له : الهباء .

ولهذا قال هود[٣] عليه السلام : ﴿ **قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب** ﴾ أي : قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم ﴿ **رجس** ﴾ قيل : هو مقلوب من رجز ، وعن ابن عباس : معناه [سخط وغضب][٤] .

﴿ **أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم** ﴾ أي : أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة ، وهي لا تضر ولا تنفع ، ولا جعل اللَّه لكم علىٰ عبادتها حجة ولا دليلًا ؛ ولهذا قال : ﴿ **ما نزل اللَّه بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ .

وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ؛ ولهذا عقب بقوله : ﴿ **فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين** ﴾ .

وقد ذكر اللَّه سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن ، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا**

---

[١] - في ت : « الآية » .
[٢] - في ز « صمرد » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز « السخط والغضب » .

بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا * فترىٰ القوم فيها صرعىٰ كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترىٰ لهم من باقية ﴾ ، لما تمردوا وعتوا أهلكهم اللَّه بريح عاتية ، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه علىٰ أم رأسه فتثلغ رأسه حتىٰ تبينه من بين[١] جثته ؛ ولهذا قال : ﴿ **كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق : كانوا يسكنون باليمن بين[٢] عمان وحضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض ، وقهروا أهلها بفضل قوّتهم التي آتاهم اللَّه ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون اللَّه ، فبعث اللَّه إليهم هودًا - عليه السلام - وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم موضعًا ، فأمرهم أن يوحدوا اللَّه ولا يجعلوا معه إلهًا غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا عليه وكذبوه ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟! واتبعه منهم ناس وهم يسير مكتتمون بإيمانهم، فلما عتت عاد علىٰ اللَّه وكذبوا نبيه ، وأكثروا في الأرض الفساد ، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثًا بغير نفع ، كلمهم هود ، فقال : ﴿ **آتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا اللَّه وأطيعون** ﴾ ، ﴿ **قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ أي : بجنون ﴿ **قال إني أشهد اللَّه واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون * إني توكلت علىٰ اللَّه ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي علىٰ صراط مستقيم** ﴾ .

قال محمد بن إسحاق : فلما أبوا إلا الكفر به ، أمسك اللَّه عنهم القطر ثلاث سنين ، فيما يزعمون ، حتىٰ جهدهم ذلك . قال : وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان ، فطلبوا من اللَّه الفرج فيه ، إنما يطلبونه بحَرَمِه[٣] ومكان[٤] بيته ، وكان معروفًا عندالمِلَل، وبه العماليق مقيمون ، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ[٥] بن سام بن نوح ، وكان سيدهم إذ ذاك رجلًا[٦] يقال له : معاوية بن بكر ، وكانت له أم من قوم عاد واسمها : كلهدة[٧] بنة الخيبري . قال : فبعثت عاد وفدًا قريبًا من سبعين رجلًا إلىٰ الحرم ؛ ليستسقوا لهم عند الحرم ، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة ، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرًا ، يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان - قينتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهر ، فلما طال مقامهم عنده ، وأخذته شفقة علىٰ قومه ، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف ، عمل شعرًا يعرض لهم بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنياهم[٨]

---

[١] - سقط من : خ ، ز .
[٢] - في ز « من » .
[٣] - في ت « بحرمة » .
[٤] - في ت « مكانة » .
[٥] - في ز « لاوم » .
[٦] - في ز ، خ « رجل » .
[٧] - في ز « جلهدة » .
[٨] - في ز « تغنيهم » .

به ، فقال :

ألا يا قَيْلُ ويحَكَ قم فَهَيْنِم لعلَّ اللَّه يُصْبِحنَا غمامًا
فيسقي أرضَ عادٍ إنَّ عادًا قد امسوا لا يُبِينُون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو[١] به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمستْ نساؤهم عَيَاما
وإن الوحش تأتيهم جهارا ولا تخشىٰ لعاديٍّ سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما
فقُبِّح وَفْدُكم من وفد قومٍ ولا لُقُّوا التحيَّةَ والسَّلاما

قال : فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له ، فنهضوا إلىٰ الحرم ، ودعوا لقومهم ، فدعا داعيهم ، وهو : قيل بن عنز ، فأنشأ اللَّه سحابات ثلاثًا ؛ بيضاء وسوداء وحمراء ، ثم ناداه مناد [من السماء : اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب . فقال : اخترت هذه السحابة السوداء ، فإنها أكثر السحاب ماء . فناداه مناد][٢] :

اخترت رمادًا رمددًا ، لا تبقي[٣] من عاد أحدًا ، لا[٤] والدًا تترك ولا ولدًا ، إلا جعلته همدًا

إلا بني اللوذية المهندًا .

قال : وبنو اللوذية بطن من عاد مقيمون[٥] بمكة ، فلم يصبهم ما أصاب قومهم . قال : وهم من بقي من أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة . قال : وساق اللَّه السحابة السوداء فيما يذكرون ، التي اختارها قيل بن عنز ، بما فيها من النقمة إلىٰ عاد ، حتىٰ تخرج عليهم من واد يقال له : المغيث ، فلما رأوها استبشروا ، وقالوا : ﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾ . يقول : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها** ﴾ [أي : تهلك كل شيء مرت به][٦] ، فكان أول من أبصر ما[٧] فيها ، وعرف أنها ريح ، فيما يذكرون ، امرأة من عاد يقال لها : مهدد[٨] ؟ فلما تبينت ما فيها صاحت ، ثم صعقت ، فلما أفاقت قالوا : ما رأيت يا مهدد[٩] ؟ قالت : ريحًا فيها شهب النار ، أمامها رجال يقودونها . فسخرها اللَّه عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا ، كما قال اللَّه تعالىٰ ، والحسوم : الدائمة ، فلم تدع من عاد أحدًا إلا

---

[١] - في ز « يرجو » .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز : « يبقي » .
[٤] - في ز : « ولا » .
[٥] - في ز : « مقمين » .
[٦] - سقط من : خ ، ز .
[٧] - سقط من : ت .
[٨] - في خ ، ز : « مميد » .
[٩] - في خ ، ز : « مميد » .

هلك ، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي ومن معه من المؤمنين في حظيرة ، ما يصيبه ومن معه إلا ما[١] تلين عليه الجلود ، وتلتذ[٢] الأنفس ، وإنها لتمر على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة.

وذكر تمام القصة بطولها ، وهو سياق غريب ، فيه فوائد كثيرة ، وقد قال اللّه تعالىٰ : ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هودًا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ** ﴾ .

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه اللّه . قال الإمام أحمد][٣](١٢٣) : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني أبو المنذر سلام ابن سليمان النحوي ، حدثنا عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن الحارث البكري ، قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلىٰ رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، فمررت بالربذة ، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي[٤] : يا عبد اللّه ، إن لي إلىٰ رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، بحاجة ، فهل أنت مبلغي إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت المدينة ، فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد بسيف بين يدي رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا[٥] : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا . قال : فجلست . قال[٦] : فدخل منزله - أو قال : رحله - فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت

(١٢٣) - « المسند » (٤٨٢/٣) وأخرجه الترمذي ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الذاريات (٣٢٧٠) ثنا عبد بن حميد ، وابن جرير في تفسيره (١٤٨٠٦/١٢) ثنا أبو كريب ، كلاهما (عبد بن حميد ، وأبو كريب) ثنا زيد بن الحباب ، به . وأخرجه أحمد (٤٨١/٣، ٤٨٢) - ومن طريقه ابن الأثير في « أسد الغابة » (٣٨٧/٢) - وابن أبي شيبة في مسنده (٢/رقم ٦٥٩) وابن سعد في « الطبقات » (٦/ ١٠٩) والنسائي في « الكبرى » (٥/رقم ٨٦٠٧) ، والطبراني في « الكبير » (٣٣٢٥/٣) من طريق عفان ابن مسلم - مقرونًا به محمد بن مخلد الحضرمي عند الطبراني - وأخرجه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٣/رقم ١٦٦٧) والترمذي (٣٢٦٩) والطبراني (٣٣٢٦/٣) والأزدي في « كتاب المخزون في علم الحديث » (ت ٥٢) من طريق سفيان بن عيينة ثلاثتهم (عفان ومحمد وسفيان) عن سلام أبي المنذر به وفي رواية سفيان عند الترمذي (عن أبي وائل عن رجل من ربيعة) - وأخرجه أحمد (٤٨١/٣) ، ومن طريقه - وطريق إبراهيم بن الحسن والعلاء بن عمرو وإسحاق بن راهويه - : أخرجه الطبراني (٣٣٢٧/٣ : ٣٣٢٩) - وابن أبي شيبة (٦٥٨/٢) وعنه البخاري في « التاريخ الكبير » (٢٦١/٢) وابن أبي عاصم (٣/ ١٦٦٦) وابن ماجة، كتاب: الجهاد، باب : الرايات والألوية (٢٨١٦) - وابن جرير (١٤٨٠٥/١٢) عن أبي كريب، ورواه سعيد الأموي ، ويحيى الحماني وعبد الحميد ابن صالح - كما في « أسد الغابة » كلهم (أحمد بن حنبل، وإبراهيم بن الحسن والعلاء بن عمرو وإسحاق ابن راهوية وأبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب ، وسعيد الأموي ويحيى الحماني وعبد الحميد بن صالح) عن أبي بكر بن عياش عن عاصم =

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في خ : « وتتلذ » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز.
[٤] - سقط من: خ ، ز .
[٥] - في ز : « فقالوا » .
[٦] - سقط من : ز .

فسلمت ، فقال : هل بينكم وبين تميم شيء ؟ قلت : نعم ، وكانت لنا الدَّبَرة عليهم ، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها إليك ، وها هي بالباب . فأذن لها فدخلت ، فقلت : يا رسول الله ، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزًا فاجعل الدهناء . فحميت العجوز واستوفزت[١] ، فقالت : يا رسول الله ، فإلى أين يضطر مضرك ؟. قال : قلت : إن مثلي ما قال الأول : « معْزَىٰ حملت حتفها »، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا ، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد . قال : « **هيه ، وما وافد عاد ؟** » . وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه[٢] . قلت : إن عادًا قحطوا ، فبعثوا وافدًا لهم يقال له : قيل ، فمر بمعاوية بن بكر ، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر ، وتغنيه[٣] جاريتان يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضىٰ الشهر خرج إلىٰ [جبال مهرة][٤] ، فقال : اللَّهم إنك تعلم أني لم أجئ إلىٰ مريض فأداويه ، ولا إلىٰ أسير فأفاديه ، اللَّهم اسق عادًا ما كنت تسقيه . فمرت به سحابات سود ، فنودي منها : اختر ، فأومأ إلىٰ سحابة منها سوداء ، فنودي منها : خذها رمادًا رِمْدِدًا ، لا تبقي من عاد أحدًا . قال : فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح ، إلا قَدْر ما يجري في خاتمي هذا حتىٰ هلكوا - قال أبو وائل : وصدق - قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد .

هكذا رواه الإمام أحمد في المسند ، ورواه الترمذي : عن عبد بن حميد ، عن زيد بن الحباب به نحوه ، ورواه النسائي : من حديث سلام أبي المنذر ، عن عاصم - وهو ابن بهدلة - . ومن طريقه رواه ابن ماجة أيضًا[٥]: عن أبي وائل ، عن الحارث بن حسان البكري ، به .

= عن الحارث بن حسان به مختصرًا ومطولًا ، وليس فيه « أبو وائل » وقال الأزدي : « روى هذا الحديث سلام القاري ، عن عاصم عن أبي وائل ، عن الحارث بن حسان وهو الصحيح ، وسلام قد حمل الناس عنه ورواه أبو بكر بن عياش وهو من الثقات عن عاصم عن الحارث بن حسان ولم يذكر أبا وائل ، وقول سلام في هذا عن أبي وائل أثبت وأصح وإن كان أبو بكر بن عياش ثقة إلا أنه بشر يقع عليه السهو » وصحح ابن عبد البر في « الاستيعاب » والمزي في « تهذيب الكمال » وابن حجر في « التهذيب » - [كلهم في ترجمة الحارث ابن حسان] - صححوا رواية من رواه بإثبات « أبي وائل » في الإسناد ويؤيده قول حماد بن سلمة : « سلام أبو المنذر أحفظ لحديث عاصم من حماد بن زيد » لكن سلام متكلم فيه ، وقال ابن عدي في « الكامل » (١١٥٩/٣) : « عامة ما يرويه حسان إلا أنه لا يتابع عليه » ولذلك قال المصنف وذكر الحديث عند [سورة الأحقاف / آية ٢١] : « هو غريب جدًّا من غرائب الحديث وأفراده » .

---

[١] - « حميت » : غضبت ، وأخذتها الحمية والأنفة والغيظ ، و« استوفز الرجل في قعدته » إذا قعد قعودًا منتصبًا غير مطمئن ، ولم يستو قائمًا كالمتهيئ للوثوب ، وذلك عند الشر والخصام والجدال والمماحكة . [هامش تفسير ابن جرير (٥١٧/١٢)] .

[٢] - في خ ، ز : « يستعظمه » . [٣] - في ز : « وتغبيه » .

[٤] - في ز : « حبال مهره » .

[٥] - رواية ابن ماجة ليس فيها « أبو وائل » وانظر « تحفة الأشراف » (٣/رقم ٣٢٧٧) .

ورواه ابن جرير : عن أبي كريب ، عن زيد بن حباب، به . ووقع عنده : [عن الحارث بن يزيد البكري][١] فذكره . ورواه أيضًا : عن أبي كريب ، عن أبي بكر بن عياش ، عن عاصم ، عن الحارث بن حسان البكري فذكره . ولم أر في النسخة أبا وائل ، والله أعلم .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾

قال علماء التفسير والنسب : ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكانت ثمود بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلىٰ وادي القرىٰ وما حوله ، وقد مر رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، علىٰ قراهم ومساكنهم ، وهو ذاهب إلىٰ تبوك في[٢] سنة تسع .

---

[١] - اختلف في اسمه فقيل « الحارث بن حسان البكرى » وقيل : « الحارث بن يزيد البكرى » وقيل اسمه « حريث » وصحح ابن عبد البر في « الاستيعاب » أن اسمه « الحارث بن حسان » فقال : « والأكثرون يقولون : الحارث بن حسان البكري وهو الصحيح إن شاء الله » .

[٢] - سقط من : ز .

قال الإمام أحمد(١٢٤) : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا صخر بن جُوَيْرِيَة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : لما نزل رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، بالناس عام[١] تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقىٰ[٢] الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا منها القدور ، فأمرهم النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، فأهراقوا[٣] القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم ، حتىٰ نزل بهم علىٰ البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا علىٰ القوم الذين عذبوا ، وقال[٤] : « **إني أخشىٰ أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم** » .

وقال أحمد أيضًا(١٢٥) : حدثنا عفان ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا عبد اللَّه بن دينار ، عن عبد اللَّه بن عمر قال : قال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، وهو بالحجر : « **لا تدخلوا علىٰ هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ؛ أن يصيبكم مثل ما أصابهم** ».

وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه .

وقال الإمام أحمد أيضًا(١٢٦) : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا[٥] المسعودي ، عن إسماعيل ابن

(١٢٤) - « المسند » (١١٧/٢) (٥٩٨٤) - وذكره المصنف في « البداية والنهاية » (١٤/٥ ، ١٥) من طريق أحمد هذه وصححه على شرط الشيخين ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠٣/١٤) من طريق أبي الوليد - هشام بن عبد الملك ، قال : حدثنا صخر بن جويرية به ، والبخاري، كتاب : الأنبياء ، باب : قول اللَّه تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحًا** ﴾ (٣٣٧٩) ، ومسلم ، كتاب : الزهد والرقائق ، باب : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين (٤٠) (٢٩٨١) من طريق عبيد اللَّه بن عمر عن نافع به مختصرًا .

(١٢٥) - « المسند » (٧٤/٢) (٥٤٤١) وأخرجه أيضًا (٩/٢ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٩١ ، ١١٣ ، ١٣٧) والبخاري : كتاب ، الصلاة ، باب: الصلاة في مواضع الخسف والعذاب (٤٣٣) ، كتاب : المغازي ، باب : نزول النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - الحِجْرَ (٤٤٢٠) ، كتاب : التفسير ، باب : ﴿ **ولقد كذّب أصحاب الحجر المرسلين** ﴾ (٤٧٠٢) ومسلم ، كتاب : الزهد والرقائق ، باب : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين (٣٨) (٢٩٨٠) ، والنسائي في « التفسير » من «الكبرى» (٦/ ١١٢٧٤) من طرق عن عبد اللَّه بن دينار به ، وأخرجه أحمد (٦٦/٢ ، ٩٦) والبخاري ، كتاب : الأنبياء باب : قول اللَّه تعالى ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحًا** ﴾ (٣٣٨٠، ٣٣٨١) وك: المغازي ، باب : نزول النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - الحجر (٤٤١٩) ومسلم (٣٩) (٢٩٨٠) والنسائي (١١٢٧٠/٦) من طريق الزهري عن سالم بن عبد اللَّه بن عمر عن أبيه ، به .

(١٢٦) - **إسناده حسن** « المسند » (٢٣١/٤) وذكره المصنف في « البداية والنهاية » (١٥٩/١) (١٥/٥)=

[١] - في خ ، ز : « على » . [٢] - في ت : « فاستسقى » .
[٣] - في خ ، ز : « فأهرقوا » . [٤] - سقط من : ز .
[٥] - سقط من: ز ، خ .

أوسط ، عن محمد بن أبي كبشة الأنماري ، عن أبيه قال : لما كان في غزوة تبوك ، تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فنادى في الناس: « **الصلاةَ جامعةً** » . قال : فأتيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو ممسك بعيره[١] ، وهو يقول: « **ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم** ». فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله. قال : « **أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك : رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم ، وبما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا ، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئًا ، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا** ».

لم يخرجه أحد من أصحاب السنن[٢] ، وأبو كبشة : اسمه عمرو[٣] بن سعد ، ويقال : عامر ابن سعد، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد(١٢٧) : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : لما مر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالحجر ، قال : « **لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح فكانت** - يعني الناقة - **ترد من هذا الفج** ،

= من هذه الطريق وقال : « إسناده حسن ، ولم يخرجوه » وأخرجه أحمد أيضًا والبيهقي في « الدلائل » (٥/ ٢٣٥) من طريق هاشم بن القاسم وابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٦٢/٨، ٥٦٣) - ومن طريقه الطبراني (٨٥٢/٢٢) - عن جعفر بن عون والطبراني أيضًا (٢٢/رقم ٨٥١، ٨٥٢) من طريق عبد الله بن رجاء وعمرو بن مرزوق وإسماعيل بن عياش خمستهم عن المسعودي به ، وذكره الهيثمي في موضعين من « المجمع » (١٩٧/٦) (٢٩٣/١٠ ، ٢٩٤) وقال في الأول : « رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي وقد اختلط » - قلت : وقد روى عنه بعد الاختلاط يزيد بن هارون وهاشم بن القاسم أبو النضر ، لكن روى عنه جعفر بن عون ، وعبد الله بن رجاء وعمرو بن مرزوق بعد الاختلاط ؛ انظر « الكواكب النيرات » لابن الكيال (ص ٢٨٢) - ولذلك قال الهيثمي في الموضع الثاني : « رواه الطبراني وأحمد بأسانيد وأحدها حسن » والحديث عزاه السيوطي في « الدر المنثور » (١٨٣/٣) إلى أحمد وابن المنذر .

(١٢٧) - **إسناد على شرط مسلم** « المسند » (٢٩٦/٣) وذكره المصنف في « البداية والنهاية » (١٥٧/١) كما هنا . والحديث عند عبد الرزاق في تفسيره (٢٣١/٢ ، ٢٣٢) ومن طريقه أيضًا أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤٨١٧/١٢) والحاكم في « المستدرك » (٣٢٠/٢) ، وأخرجه البزار (٢/رقم ١٨٤٤/كشف) وابن حبان في صحيحه (٦١٩٧/١٤) والحاكم (٣٤٠/٢ ، ٣٤١) من طريق مسلم بن خالد عن ابن خثيم به ، وابن أبي حاتم (٨٦٨٦/٥) من طريق ابن عياش عن ابن خثيم به ، والطبراني في « الأوسط » (٩/ ٩٠٦٩) من طريق ابن لهيعة عن أبي الزبير ، به وصحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي ، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٢٧٠/٦) وأبو الزبير - وهو محمد بن مسلم - مدلس وقد عنعن ، لكنه صرح بالسماع في رواية عند الحاكم (٥٦٧/٢) مختصرة وصرح بالتحديث أيضًا في رواية مطولة عند ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (رقم ١٤٨) لكن في إسناده يحيى بن سليم ، وهو « صدوق سيئ الحفظ » والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (١٩٧/٦) وقال : « رواه البزار والطبراني في « الأوسط » =

[١] - في خ : « بعنزة » . [٢] - في خ ، ز : « السنة » .
[٣] - في خ ، ز : « عمر » .

وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يومًا ، ويشربون لبنها يومًا ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهمد اللّٰه من تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم اللّٰه » . فقالوا : من هو يا رسول اللّٰه ؟ قال : « **أبو رِغَال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه** ».

وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة ، وهو علىٰ شرط مسلم .

فقوله تعالىٰ : ﴿ **وإلىٰ ثمود أخاهم صالحًا** ﴾ أي : ولقد أرسلنا إلىٰ قبيلة ثمود أخاهم صالحًا ﴿ **قال يا قوم اعبدوا اللّٰه ما لكم من إله غيره** ﴾ فجميع[١] الرسل يدعون[٢] إلىٰ عبادة اللّٰه وحده لا شريك له ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي[٣] إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾، وقال : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا اللّٰه واجتنبوا الطاغوت** ﴾.

وقوله : ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة اللّٰه لكم آية** ﴾ أي : قد جاءتكم حجة من اللّٰه علىٰ صدق ما جئتكم به ، وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن[٤] تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر ، يقال لها : الكاتبة ، فطلبوا منه أن يُخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق : لئن أجابهم اللّٰه إلىٰ سؤالهم ، وأجابهم إلىٰ طلبتهم ، ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه علىٰ ذلك عهودهم ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام إلىٰ صلاته ، ودعا اللّٰه - عز وجل - فتحركت تلك الصخرة ، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء ، يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا ، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو : جندع بن عمرو ، ومن كان معه علىٰ أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا ، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب[٥] بن صمعر[٦] ابن جلهس[٧] ، وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال[٨] له : شهاب بن خليفة بن مخلاة[٩] ابن لبيد بن جواس ، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها ، فأراد أن يسلم أيضًا ، فنهاه أولئك الرهط ، فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود ، يقال له : مِهْوس[١٠] ابن عِنمة بن الدميل[١١] ، رحمه اللّٰه :

= وأحمد بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح ، وبنحوه قاله في موضع آخر من « المجمع » (٧/٤٠ ، ٤١) والحديث زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٣/١٨٣) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه .

---

[١] - في ز : « جميع » .
[٢] - في ز : « تدعوا » .
[٣] - في ز : « يوحى » .
[٤] - في ز : « أن » .
[٥] - في ز ، خ : « وزبان » .
[٦] - في خ : « صحر » .
[٧] - في خ ، ز : « جلمس » .
[٨] - سقط من : ز .
[٩] - في ز : « محلاة » .
[١٠] - في ز : « مهوش » .
[١١] - في ز : « الزميل » .

وكانت عصبة من آل عمرو إلىٰ دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعًا فَهَمَّ بأن يجيب فلو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزًا وما عدلوا[١] بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر تولوا بعد رشدهم ذئابًا[٢]

فأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة ، تشرب ماء بئرها يومًا ، وتدعه لهم يومًا ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملئون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم ، كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر** ﴾، وقال تعالىٰ : ﴿ **هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾، وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ، ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها ؛ لأنها كانت تتضلع[٣] من الماء ، وكانت - علىٰ ما ذكر - خلقًا هائلًا ومنظرًا رائعًا ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها ، فلما طال عليهم ذلك ، واشتد تكذيبهم لصالح النبي - عليه السلام - عزموا علىٰ قتلها ؛ ليستأثروا بالماء كل يوم ؛ فيقال : إنهم اتفقوا كلهم علىٰ قتلها .

قال قتادة : بلغني أن الذي قتل الناقة ، طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها ، حتىٰ علىٰ النساء في خدورهن ، وعلىٰ الصبيان .

قلت : وهذا هو الظاهر ؛ لأن اللَّه يقول : ﴿ **فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها** ﴾ ، وقال : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها** ﴾ ، وقال : ﴿ **فعقروا الناقة** ﴾ فأسند ذلك إلىٰ مجموع القبيلة ، فدل علىٰ رضىٰ جميعهم بذلك ، واللَّه أعلم .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة : أن امرأة منهم ، يقال لها : عنيزة بنة غنم بن مجلز[٤] وتكنىٰ أم غنم[٥] كانت عجوزًا كافرة ، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام ، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل ، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود ، وامرأة أخرىٰ يقال لها :صدوف بنة المحيا بن [دهر بن المحيا][٦] ، ذات حسب ومال[٧] وجمال ، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته ، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة ، فدعت صدوف رجلًا يقال له : الحباب ، فعرضت[٨] عليه نفسها إن هو عقر الناقة فأبىٰ عليها ، فدعت ابن عم لها يقال له : مصدع بن مهرج بن المحيا فأجابها إلىٰ ذلك ،

---

[١] - في ز : « عذلوا » .
[٢] - في الطبري : ذبابًا
[٣] - في ز : « تضلع » .
[٤] - في ز : « مجلزم » .
[٥] - في خ ، ز : « عثمان » .
[٦] - في خ ، ز : «زهير بن المختار» .
[٧] - سقط من : خ ، ز .
[٨] - سقط من : ز .

ودعت عنيزةُ بنت غنم قدارَ بن سالف بن جُنْدع[١]، وكان رجلًا أحمر أزرق قصيرًا ، يزعمون أنه كان[٢] ولد زَنْية ، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه - وهو[٣] سالف - وإنما هو من رجل يقال له : صهياد[٤]، ولكن ولد علىٰ فراش سالف ، وقالت له : أعطيك أي بناتي شئت علىٰ أن تعقر الناقة ، فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع ابن مهرج ، فاستنفرا[٥] غواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾، وكانوا رؤساء في قومهم ، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها ، فطاوعتهم علىٰ ذلك ، فانطلقوا ، فرصدوا الناقة حين صدرت عن[٦] الماء ، وقد كمن لها قدار [بن سالف][٧] في أصل صخرة علىٰ طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل أخرىٰ ، فمرت علىٰ مصدع ، فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها ، وخرجت أم غنم عنيزة ، وأمرت ابنتها - وكانت من أحسن الناس وجهًا - فسفرت عن وجهها لقدار[٨] وذمَّرته، فشد علىٰ الناقة بالسيف فكشف[٩] عن عرقوبها ، فخرت ساقطة إلىٰ الأرض ، ورغت رغاة واحدة تحذر سَقْبَها[١٠]، ثم طعن في لبتها فنحرها ، وانطلق سقبها[١١] - وهو فصيلها - حتىٰ أتىٰ جبلًا منيعًا ، فصعد أعلىٰ صخرة فيه ورغا . فروىٰ عبد الرزاق : عن معمر ، عمن سمع الحسن البصري أنه قال : يارب ، أين أمي . ويقال : إنه رغا ثلاث مرات ، وإنه دخل في صخرة فغاب فيها . ويقال : إنهم[١٢] اتبعوه فعقروه مع أمه ، فاللّٰه أعلم .

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة ، بلغ الخبر صالحًا عليه السلام ، فجاءهم وهم مجتمعون ، فلما رأىٰ الناقة بكىٰ ، وقال : ﴿ **تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾ ، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء ، فلما أمسىٰ أولئك التسعة الرهط ، عزموا علىٰ قتل صالح ، وقالوا : إن كان صادقًا عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته : ﴿ **قالوا تقاسموا باللّٰه لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا** ﴾ .

فلما عزموا علىٰ ذلك وتواطئوا عليه ، وجاءوا من الليل ؛ ليفتكوا بنبي اللّٰه صالح ، أرسل اللّٰه

---

[١] - في ز : « جذع » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في خ ، ز : « صبيان » .
[٥] - في خ ، ز : « فاستغووا » ، والمثبت من الطبري .
[٦] - في خ : « على » وفي ت : « من » .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٨] - في ز : « لقذار » .
[٩] - في خ : « فكسف » .
[١٠] - في ز : « سقيها » .
[١١] - في ز : « سقيها» .
[١٢] - في ز : « بل » .

سبحانه وتعالىٰ - وله العزة ولرسوله - عليهم حجارة ، فرضختهم سلفًا وتعجيلًا قبل قومهم[١] ، وأصبح ثمود يوم الخميس ، وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام ، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ، ووجوههم محمرة ، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ، ووجوههم مسودة ، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا ، وقعدوا ينتظرون نقمة اللَّه وعذابه - عياذًا باللَّه من ذلك - ، لا يدرون ماذا يفعل بهم ، ولا كيف يأتيهم العذاب ، وأشرقت الشمس ، جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة شديدة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح ، وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿ **فأصبحوا في دارهم[٢] جاثمين** ﴾ أي : صرعىٰ لا أرواح فيهم ، ولم يفلت منهم أحد : لا صغير ولا كبير ، ولا[٣] ذكر ولا أنثىٰ ، قالوا : إلا جارية كانت مقعدة ، اسمها : كلبة[٤] بنة السلق ، ويقال لها : الذريقة ، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها ، فقامت تسعىٰ كأسرع شيء ، فأتت حيًّا من الأحياء ، فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها[٥] ، ثم استسقتهم من الماء ، فلما شربت ماتت .

قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوىٰ صالح - عليه السلام - ومن اتبعه - رضي اللَّه عنهم - إلا أن رجلًا [ ][٦] يقال له : أبو رغال ، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيمًا في الحرم ، فلم يصبه شيء ، فلما خرج في بعض الأيام إلىٰ الحل ، جاءه حجر من السماء فقتله .

وقد تقدم في أول القصة حديث جابر بن عبد اللَّه في ذلك ، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف ، الذين كانوا يسكنون الطائف .

قال عبد الرزاق(١٢٨) : قال معمر ، أخبرني إسماعيل بن أمية : أن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم مر بقبر أبي رِغال ، فقال : « **أتدرون من هذا ؟** » . قالوا[٧] : اللَّه ورسوله أعلم . قال : « **هذا قبر أبي رغال ؛ رجل من ثمود ، كان في حرم اللَّه فمنعه حرمُ اللَّه عذابَ اللَّه ؛ فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ، فدفن هاهنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم ، فبحثوا[٨] عنه فاستخرجوا الغصن** ».

---

(١٢٨) - **إسناده معضل** « التفسير » لعبد الرزاق (٢/٢٣٢) وفي « المصنف » (١١/٢٠٩٨٩) ومن طريقه ابن جرير (١٢/١٤٨١٨ ، ١٤٨١٩) وأخرجه ابن جرير أيضًا (١٢/١٤٨٢٣) من طريق محمد بن ثور عن معمر به هكذا معضلًا وانظر ما بعده .

---

[١] - في ز : « يومهم » .
[٢] - في ز : « ديارهم » .
[٣] - في ت : « لا » .
[٤] - في ز : « كلب » .
[٥] - في ت : « بقومهم » .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز : « كان » .
[٧] - في ز : « فقالوا » .
[٨] - في ز : « فحثوا » .

و[١]قال عبد الرزاق : قال معمر : قال الزهري : أبو رغال أبو ثقيف .

هذا مرسل من هذا الوجه ، وقد روي متصلًا من وجه آخر ، كما قال محمد بن إسحاق : عن إسماعيل بن أمية ، عن بجير بن أبي بجير قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، يقول ، حين خرجنا معه إلىٰ الطائف فمررنا بقبر فقال : « **هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم ، فدفع عنه ، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه ، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه** » فابتدره الناس ، فاستخرجوا منه الغصن .

وهكذا رواه أبو داود(١٢٩) : عن يحيىٰ بن معين ، عن وهب بن جرير بن حازم ، عن أبيه ، عن ابن[٢] إسحاق به[٣] . قال شيخنا أبو الحجاج المزي : وهو حديث حسن عزيز.

(قلت) : تفرد بوصله بجير بن أبي بجير هذا ، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث ، قال يحيىٰ بن معين : ولم أسمع أحدًا روىٰ عنه غير إسماعيل بن أمية.

(قلت) : وعلىٰ هذا فيخشىٰ أن يكون وهم في رفع هذا الحديث ، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو ، مما أخذه من الزاملتين .

---

(١٢٩) - **إسناده فيه جهالة وأُعِلَّ بالوقف** . بُجَيْر بن أبي بُجَيْر ، قال يحيى بن معين : لم أسمع أحدًا يُحدِّث عنه غير إسماعيل وكذا قال النسائي ، وأما ابن المديني ، فقال : بجير بن سالم أبو عُبَيد ، روى عنه إسماعيل ابن أمية ، وروح بن القاسم حديث أبي رغال وهو من أهل الطائف ، مجهول لم يرو عنه غيرهما ، قال أبو داود : حدَّث رَوْح بن القاسم عن إسماعيل عن بجير ، فتبين أنه ليس له راوٍ غير إسماعيل ... وذكره ابن حبان في « الثقات » (٨٢/٤) - وجهله ابن القطان » انظر « التهذيب » . « السنن » لأبي داود كتاب : الخراج والإمارة والفيء ، باب : نبش القبور العاديَّة يكون فيها المال (٣٠٨٨) ، وأخرجه البيهقي في « الدلائل » (٢٩٧/٦) والمزي في « تهذيب الكمال » (١١/٤) والذهبي في « السير » (٤٤٤/٩ ، ٤٤٥) وفي « ميزان الاعتدال » (١/ت ١١٢٤) من طريق يحيى ابن معين به ، وتابعه أبو الأزهر ثنا وهب بن جرير به أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (١٥٦/٤) ، قال الذهبي في « الميزان » : « انفرد ابن إسحاق به » كذا قال : وتابعه روح بن القاسم عن إسماعيل بن أمية به أخرجه ابن حبان (٦١٩٨/١٤) والطبراني في «الأوسط » (٢٧٨٨/٣) ، (٨٥٣٣/٨) والبيهقي في مصدريه السابقين وقال المزي : « حديث حسن عزيز » وراجعه في ذلك المصنف فرجع !! قال في « البداية والنهاية » (١٥٨/١) : « تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ولا يعرف إلا بهذا الحديث ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية ، قال شيخنا - المزي - فيحتمل أنه وهم في رفعه ، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه والله أعلم، قلت - المصنف - لكن في المرسل - السابق (١٢٧) - وفي حديث جابر - (١٢٦) - أيضًا شاهدٌ له » .

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في خ ، ز : «أبي».
[٣] - سقط من : ز .

قال شيخنا أبو الحجاج بعد أن عرضت عليه ذلك : وهذا محتمل ، والله أعلم .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه ، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه ، وتمردهم على الله ، وإبائهم عن قبول الحق ، وإعراضهم عن الهدىٰ إلىٰ العمىٰ ، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعًا وتوبيخًا ، وهم يسمعون ذلك ، كما ثبت في الصحيحين(١٣٠) : أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لما ظهر علىٰ أهل بدر ، أقام هناك ثلاثًا ، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ، ثم سار حتىٰ وقف علىٰ القليب قليب بدر ، فجعل يقول : « **يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، ويا فلان بن فلان ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا** » . فقال له عمر : يا رسول الله ، ما تكلم من أقوام قد جيفوا . فقال : « **والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لايجيبون** ».

وفي السيرة(١٣١) : أنه عليه السلام قال لهم : « **بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم اكذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم** ».

وهكذا[١] صالح عليه السلام قال لقومه : ﴿ **لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم** ﴾ أي : فلم تنتفعوا بذلك ؛ لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحًا ؛ ولهذا قال : ﴿ **ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ .

وقد ذكر بعض المفسرين : أن كل نبي هلكت أمته ، كان يذهب فيقيم في الحرم : حرم مكة ، والله أعلم .

---

(١٣٠) - تقدم تخريجه هنا برقم (٨٢) .

(١٣١) - **إسناده معضل** « السيرة » لابن هشام (٤٦٧/٢) قال ابن إسحاق - وذكره عنه الحافظ في «الفتح» (٣٠٢/٧) - وحدثني بعض أهل العلم : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال هذه المقالة بأصل القليب - فذكره هكذا معضلًا ، وأخرج أحمد (١٧٠/٦) من طريق إبراهيم النخعي عن عائشة مرفوعًا « **جزاكم الله شرًا من قوم نبي ، ما كان أسوأ الطرد وأشد التكذيب** » ورجاله ثقات إلا أن إبراهيم النخعي لم يسمع من عائشة قاله غير واحد ، انظر « جامع التحصيل » للعلائي (ص ١٤١ ، ١٤٢) .

---

[١] - في ز : « هذا » .

وقد قال الإمام أحمد(١٣٢) : حدثنا وكيع ، حدثنا زَمْعَة بن صالح ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما مر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بوادي عُسْفَانَ حين حج ، قال : « **يا أبا بكر ، أيُّ وادٍ هذا ؟** » . قال : هذا وادي عسفان . قال : « **لقد مَرّ به هودٌ وصالح عليهما السلام ، علىٰ بَكَراتٍ حُمْرٍ**[١] **خُطُمها اللّيفُ ، أُزُرُهم العباء ، وأرديتهم النِّمار ، يُلبُّون يَحُجُّون البيت العتيق** » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، لم يخرجه أحد منهم .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ **لوطًا** ﴾ أو[٢] تقديره : ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ **لوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ ولوط : هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام ، وهاجر معه إلىٰ أرض الشام ، فبعثه الله إلىٰ أهل سدوم وما حولها من القرىٰ ؛ يدعوهم إلىٰ الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها ، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور [دون الإناث][٣] ، وهذا شيء لم

(١٣٢) - **إسناده ضعيف** « المسند » (٢٣٢/١) (٢٠٦٧) وأخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٣/ ٤٠٠٣) من طريق أبي كريب نا وكيع به، وذكره المصنف في «البداية والنهاية» (١٥٨/١) كما هنا - وقال : « إسناد حسن ، وقد تقدم (١٣٥/١) في قصة نوح عليه السلام من رواية الطبراني وفيه نوح وهود وإبراهيم » والذي تقدم عنده في الموضع المذكور إنما هو من رواية الحافظ أبي يعلى ثنا سفيان بن وكيع ثنا أبي به ، دون ذكر نبي الله صالح - عليه السلام - وقال عقبه : « فيه غرابة » قلت : وهذا أشبه وتحسين إسناده بعيد ، فإن سلمة بن وهرام وإن وثقه ابن معين ، فقد قال فيه أحمد « روى عنه زمعة بن صالح ، أحاديث مناكير أخشى أن يكون حديثه ضعيفًا » وقال العقيلي في « الضعفاء » (١٤٧/٢) : « له عن عكرمة أحاديث لا يتابع منها على شيء » وزمعة بن صالح ضعفه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم ، والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٢٣/٣) وقال : « رواه أحمد وفيه زمعة بن صالح وفيه كلام وقد وثق » وعزاه السيوطي في « الدر المنثور » (١٧٦/٣) إلى البيهقي في « شعب الإيمان » وابن عساكر ، وغفل عن عزوه لأحمد !!

[١] - سقط من : خ ، ز . [٢] - في ز : « و » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم ، حتىٰ صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله !

قال عمرو بن دينار في[١] قوله : ﴿ **ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ قال : ما نزا ذكر علىٰ ذكر حتىٰ كان قوم لوط .

وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق : لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا .

ولهذا قال لهم لوط عليه السلام : ﴿ **أتأتون[٢] الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم[٣] لتأتون الرجال شهوة من دون النساء** ﴾ أي : عدلتم عن النساء ، وما خلق لكم ربكم منهن إلىٰ الرجال ، وهو[٤] إسراف منكم وجهل ؛ لأنه وضع الشيء في غير محله ؛ ولهذا قال لهم في الآية الأخرىٰ : ﴿ **هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين** ﴾ ، فأرشدهم إلىٰ نسائهم ، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿ **قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ أي : لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة ، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك .

وذكر المفسرون : أن الرجال كانوا قد استغنىٰ[٥] بعضهم ببعض ، وكذلك نساؤهم كن[٦] قد استغنين[٧] بعضهن ببعض[٨] أيضًا .

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

أي : ما أجابوا لوطًا إلا أن[٩] هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالىٰ سالمًا ، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **إنهم أناس يتطهرون** ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب .

وقال مجاهد : ﴿ **إنهم أناس يتطهرون** ﴾ من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروي مثله عن ابن عباس أيضًا .

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « أئنكم لتأتون » .
[٣] - في ز : « أئنكم » .
[٤] - في ز : « هذا » .
[٥] - في ز : « اغتنى » .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - في ز : « استغنى » .
[٨] - في ز : « بعضًا » .
[٩] - في ز : « بأن » .

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالىٰ : فأنجينا لوطًا وأهله ، ولم يؤمن به أحد منهم سوىٰ أهل بيته فقط ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ ، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت علىٰ دين قومها تمالئهم عليه ، وتعلمهم بمن يَقْدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط - عليه السلام - أن يسري بأهله أمر أن لا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول : بل اتبعتهم ، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم . والأظهر : أنها لم تخرج من البلد ، ولا أعلمها لوط ، بل بقيت معهم ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ أي : الباقين ، ومنهم من فسر ذلك (من الغابرين) : الهالكين ، وهو تفسير باللازم .

وقوله : ﴿ **وأمطرنا عليهم مطرًا** ﴾ مفسر[١] بقوله : ﴿ **وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ ؛ ولهذا قال : ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ أي : انظر يا محمد ، كيف كانت[٢] عاقبة من تجهرم علىٰ معاصي اللَّه - عز وجل - وكذب رسله .

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه اللَّه إلىٰ أن اللائط يلقىٰ من شاهق ، ويتبع بالحجارة ، كما فعل بقوم لوط ، وذهب آخرون من العلماء إلىٰ أنه يرجم ، سواء كان محصنًا أو غير محصن ، وهو أحد قولي الشافعي رحمه اللَّه ، والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة من حديث الدراوردي ، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به**(١٣٣) ».

وقال آخرون : هو كالزاني ؛ فإن كان محصنًا رجم ، وإن لم يكن محصنًا جلد مائة جلدة .

---

(١٣٣) - **صحيح** أخرجه أحمد (١/٣٠٠) وأبو داود ، كتاب : الحدود ، باب : فيمن عمل عمل قوم لوط (٤٤٦٢) ، والترمذي ، كتاب : الحدود ، باب : ما جاء في حد اللوطي (١٤٥٦) ، وابن ماجه ، كتاب : الحدود ، باب : من عمل عمل قوم لوط (٢٥٦١)، وانتقاه ابن الجارود «المنتقى» (٨٢٠) وغيرهم من طريق عبد العزيز بن محمد الدَّراوردي وصححه الحاكم (٤/٣٥٥) - من طريق سليمان ابن بلال عن عمرو ابن أبي عمرو به - ووافقه الذهبي ، وكذا صححه الألباني ، فانظر - غير مأمور - « الإرواء » (٨/٢٣٥٠).

---

[١] - في ز : « مفسرًا » . [٢] - في ز : « كان » .

وهو القول الآخر للشافعي ، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرىٰ ، وهو حرام بإجماع العلماء ، إلا قولًا شاذًا لبعض السلف، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

قال محمد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل ابن يشجر[١] . قال : واسمه بالسريانية « **يثرون**[٢] » .

(قلت) : « **مدين** » تطلق[٣] علىٰ القبيلة وعلىٰ المدينة ، وهي التي بقرب « **مَعَان** » من طريق الحجاز . قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمّة من الناس يسقون** ﴾ وهم أصحاب الأيكة ، كما سنذكره إن شاء اللّٰه وبه الثقة .

﴿ **قال يا قوم اعبدوا اللّٰه ما لكم من إله غيره** ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم** ﴾ أي : قد أقام اللّٰه الحجج والبينات علىٰ صدق ما جئتكم به ، ثم وعظهم في معاملتهم الناس ، بأن يوفوا المكيال والميزان ، ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أي : لا يخونوا[٤] الناس في أموالهم ، ويأخذوها[٥] علىٰ وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسًا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **لرب العالمين** ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، نسأل اللّٰه العافية منه .

ثم قال تعالىٰ إخبارًا عن شعيب ، الذي يقال له : خطيب الأنبياء ؛ لفصاحة عبارته ، وجزالة موعظته .

وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ

---

[١] - في خ ، ز : « يشجن » .
[٢] - في ز : « بثرون » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « تحونوا » .
[٥] - في ز : « تأخذوها » .

بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

ينهاهم شعيب - عليه السلام - عن قطع الطريق الحسي والمعنوي ، بقوله : ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾ أي : تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم .

قال السدي وغيره : كانوا عشارين . وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ **و[١]لا تقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾ أي : تتوعدون المؤمنين الآتين إلىٰ شعيب ليتبعوه .

والأوّل أظهر ؛ لأنه قال : ﴿ **بكل صراط** ﴾ وهي الطرق ، وهذا الثاني هو قوله : ﴿ **وتصدّون عن سبيل اللّه من آمن به وتبغونها عوجًا** ﴾ أي : وتودّون أن تكون[٢] سبيل اللّه عوجًا مائلة ﴿ **واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثركم** ﴾ أي : كنتم مستضعفين لقلتكم ، فصرتم أعزة لكثرة عددكم[٣] ، فاذكروا نعمة اللّه عليكم في ذلك ﴿ **وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أي : من الأمم الخالية والقرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم علىٰ معاصي اللّه وتكذيب رسله .

وقوله : ﴿ **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا** ﴾ أي : قد[٤] اختلفتم عليَّ ﴿ **فاصبروا** ﴾ أي : انتظروا ﴿ **حتىٰ يحكم اللّه بيننا** ﴾ وبينكم ، أي : يفصل ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار علىٰ الكافرين .

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « يكون » .
[٣] - في ز : « عدوكم » .
[٤] - سقط من : ز .

وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

هذا إخبار من اللَّه تعالىٰ عما واجهت به الكفار نبيه[١] شعيبًا ومن معه من المؤمنين ، في توعدهم إياه ومن معه بالنفي من[٢] القرية أو[٣] الإكراه علىٰ الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه ، وهذا خطاب مع الرسول ، والمراد : أتباعه الذين كانوا معه علىٰ الملة .

وقوله : ﴿ **أو لو كنا كارهين** ﴾ يقول : أو أنتم فاعلو ذلك ولو[٤] كنا كارهين ما تدعونا إليه ، فإنا إن رجعنا إلىٰ ملتكم ، ودخلنا معكم فيما أنتم فيه ، فقد أعظمنا الفرية علىٰ اللَّه في جعل الشركاء معه أندادًا ، وهذا تنفير[٥] منه عن اتباعه ﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء اللَّه ربنا** ﴾ وهذا رد إلىٰ المشيئة ، فإنه يعلم كل شيء ، وقد أحاط بكل شيء علمًا ﴿ **علىٰ اللَّه توكلنا** ﴾ أي : في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿ **ربنا افتح**[٦] **بيننا وبين قومنا بالحق** ﴾ أي : افصل بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم ﴿ **وأنت خير الفاتحين** ﴾ أي : خير الحاكمين ، فإنك العادل الذي لا يجور[٧] أبدًا .

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾

يخبر تعالىٰ عن شدة كفر قوم شعيب ، وتمردهم وعتوهم ، وما هم فيه من الضلال ، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ؛ ولهذا أقسموا وقالوا : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون** ﴾ ؛ فلهذا عقب ذلك بقوله : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ أخبر تعالىٰ هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة ؛ [وذلك كما[٨] أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم في سورة هود ، فقال : ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا والذين آمنوا**[٩] **معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين** ﴾ والمناسبةفي ذلك - واللَّه أعلم - أنهم لما تهكموا [بنبي اللَّه شعيب][١٠] في قولهم : ﴿ **أصلاتك تأمرك أن**

---

[١] - في ز : « نبي اللَّه » .
[٢] - في ت : « عن » .
[٣] - في ز : « و » .
[٤] - في ز : « وإن » .
[٥] - في خ ، ز : « تعبير » .
[٦] - في ز : « احكم » .
[٧] - في ز : « تجوز » .
[٨] - في ز : « لما » ، وفي خ : « كما » .
[٩] - سقط من : ز .
[١٠] - ما بين المعكوفتين في ت : « به » .

نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ ، فجاءت الصيحة فأسكتتهم[١] .

وقال تعالىٰ إخبارًا عنهم في سورة الشعراء : ﴿ **فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة : ﴿ **فأسقط علينا كسفًا من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ ، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم ، ﴿ **عذاب يوم الظلة** ﴾ وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ، ولهب[٢] ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخمدت الأجسام[٣] ﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **كأن لم يغنوا فيها** ﴾ أي : كأنهم لما أصابتهم النقمة ، لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

ثم قال تعالىٰ مقابلًا لقيلهم : ﴿ **الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ .

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

أي : فتولىٰ عنهم شعيب - عليه السلام - بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال ، وقال مقرعًا لهم وموبخًا : ﴿ **يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم** ﴾ أي : قد أديت إليكم ما أرسلت به ، فلا أسفة عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به ؛ ولهذا قال : ﴿ **فكيف آسىٰ علىٰ قوم كافرين** ﴾ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عما اختبر به الأمم الماضية ، الذين أرسل إليهم الأنبياء ﴿ **بالبأساء والضراء** ﴾ ، يعني بالبأساء : ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء : ما يصيبهم

---

[١] - في ز : « أسكتتهم » .
[٢] - في ز : « لهيب » .
[٣] - في ز : « الأجساد » .

من فقر وحاجة ونحو ذلك ؛ ﴿ **لعلهم يضَّرعون** ﴾ أي : يدعون ويخشعون ، ويبتهلون إلىٰ اللّٰه تعالىٰ في كشف ما نزل بهم .

وتقدير الكلام : أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا ، فما فعلوا شيئًا من الذي أراد اللّٰه[١] منهم ، فقلب عليهم[٢] الحال إلىٰ الرخاء ليختبرهم فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ **ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة** ﴾ أي : حولنا الحال من شدة إلىٰ رخاء ، ومن مرض وسقم إلىٰ صحة وعافية ، ومن فقر إلىٰ غنىٰ ؛ ليشكروا علىٰ ذلك فما فعلوا .

وقوله : ﴿ **حتىٰ عفوا** ﴾ أي : كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم . يقال : عفا الشيء إذا كثر . ﴿ **وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ يقول تعالىٰ : ابتليناهم[٣] بهذا وهذا ؛ ليتضرعوا وينيبوا إلىٰ اللّٰه ، فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا ، ولا انتهوا[٤] بهذا ولا بهذا ، بل قالوا : قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء ، مثل ما أصاب آباءنا في قديم الدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، ولم يتفطنوا لأمر اللّٰه فيهم ولا استشعروا ابتلاء اللّٰه لهم في الحالين ، وهذا بخلاف حال المؤمنين ، الذين يشكرون اللّٰه علىٰ السراء ، ويصبرون علىٰ الضراء ، كما ثبت في الصحيحين(١٣٤) : « **عجبًا للمؤمن؛ لا يقضي اللّٰه له قضاء إلا كان خيرًا له ؛ إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له** » . فالمؤمن من[٥] يتفطن لما ابتلاه اللّٰه به من الضراء والسراء ؛ ولهذا جاء في الحديث(١٣٥) : « **لا يزال البلاء بالمؤمن حتىٰ يخرج نقيًا من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار ، لا يدري فيم ربطه**

---

(١٣٤) - كذا عزاه للصحيحين وهو وهم ، تنبه له المصنف نفسه عند [آية رقم ٥/ من سورة إبرهيم] وعزاه للصحيح فقط ، وهو في صحيح مسلم ، كتاب : الزهد والرقائق ، ب : المؤمن أمره كله خير (٦٤) (٢٩٩٩) من حديث صهيب وكذا عزاه الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٠٩/١٠) إلى مسلم فحسب ، وانظر [سورة يونس آية /١٢] .

(١٣٥) - لم أهتد إليه بهذا اللفظ ، وأخرجه أحمد (٢٨٧/٢ ، ٤٥٠) والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٩٤) والترمذي ، كتاب : الزهد ، باب : ما جاء في الصبر على البلاء (٢٤٠١) وغيرهم من حديث أبي هريرة مرفوعًا بلفظ « **ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى اللّٰه وما عليه خطيئة** » وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » وصححه الحاكم (٣٤٦/١) (٣١٤/٤) على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وإسناده حسن فقط - انظر « الصحيحة » للألباني (٢٢٨٠/٥) - والجزء الأخير وقفت عليه موقوفًا من كلام سلمان الفارسي بإسناد صحيح أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٤٩٣) وهناد السري في « الزهد » (١/رقم ٤١٤) ومن طريقه أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٦/١) - ومن طريق أبي نعيم المزي في « تهذيب الكمال » (٩٨/١١) - والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٩١٤/٧، ٩٩١٥) .

---

[١] - زيادة من : ز .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - في ز : « ابتلاهم » .

[٤] - في ز : « ينتهوا » .

[٥] - سقط من : ز .

أهله ، ولا فيم أرسلوه » . أو[١] كما قال .

ولهذا عقب هذه الصفة بقوله : ﴿ **فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ أي : أخذناهم بالعقوبة بغتة ، أي : علىٰ بغتة وعدم شعور منهم ، أي : أخذناهم فجأة ؛ كما في الحديث (١٣٦): « **موت الفجأة رحمة للمؤمن ، وأخذة أسف للكافر** ».

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

[يخبر تعالىٰ][٢] عن قلة إيمان أهل القرىٰ الذين أرسل فيهم الرسل ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلىٰ حين** ﴾ أي : ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس فإنهم آمنوا ، وذلك بعد ما عاينوا العذاب ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وأرسلناه إلىٰ مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلىٰ حين** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ .

وقوله[٣] تعالىٰ : ﴿ **ولو أن أهل القرىٰ آمنوا واتقوا** ﴾ أي : آمنت قلوبهم بما جاءتهم به

---

(١٣٦) - **صحيح** ورد من حديث عائشة وعبيد بن خالد السلمي وأنس بن مالك وعبد اللَّه بن مسعود .
أما حديث عائشة ، فأخرجه أحمد (١٣٧/٦) من طريق وكيع ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٣٧٩/٣) وفي « شعب الإيمان » (١٠٢١٨/٧) من طريق أبي إسحاق ، كلاهما (وكيع وأبو إسحاق) عن عبيد اللَّه بن الوليد عن عبد اللَّه بن عبيد بن عمير عن عائشة مرفوعًا به ، وصحح إسناده العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٣٩٣٦/٦/ المستخرج) وكذا السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص ٤٣٦) والعجلوني في « كشف الخفا » (٢٩٠/٢) وأعله البيهقي فقال : « رواه الثوري عن عبيد اللَّه موقوفًا عن عائشة - رضي اللَّه عنها - » قلت : وعبيد اللَّه بن الوليد هذا ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم ، وتركه عمرو بن علي ، والنسائي ، وقال ابن عدي : « هو ضعيف جدًّا ، يتبين ضعفه على حديثه » والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (٣٢١/٢) وقال : « رواه أحمد والطبراني في « الأوسط » وفيه قصة وفيه =

---

[١] - في ز : « و » . [٢] - في ز : « يقول تعالى مخبرًا » .
[٣] - في ز : « وكذا قال » .

الرسل ، وصدقت به واتبعوه[١] ، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات **﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾** أي : قطر السماء ونبات الأرض . قال تعالىٰ : **﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾** أي : ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك علىٰ ما كسبوا من المآثم

= عبيد اللَّه بن الوليد الوصَّافي وهو متروك » قلت : وطريق « الأوسط » ليس فيه الوَصَّافي ، فقد أخرجه (٣/ ٣١٢٩) وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٢/رقم ١٤٩٣) من طريق سعيد بن منصور ، قال : نا صالح بن موسى الطلحي عن عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة عنها به ، وقال الطبراني : « لم يروهذا الحديث عن عبد الملك إلا صالح » قال ابن عساكر في « الإجابة » (ص ٩٧) : « وهو ضعيف عندهم » - يعني صالح بن موسى - وبه أعله ابن الجوزي أيضًا وكذا ابن حجر قال : « حديث غريب فيه صالح بن موسى وهو ضعيف لكن له شواهد » [« فيض القدير » للمناوي (٢٤٦/٦)] وأخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٦٧٨١/٣) وإسحاق بن راهوية في « المسند » (٣/رقم ١١٩٧) من طريقين عنها ، وفي الأول يحيى بن العلاء أبو عمرو الرازي ، رمي بالوضع ، وفي الثاني ليث بن أبي سليم ترك حديثه لاختلاطه وعدم تميز صحيح حديثه من سقيمه واللَّه أعلم .

وأما حديث عبيد بن خالد فأخرجه أحمد (٤٢٤/٣) (٢١٩/٤) - وعنه المزي في « تهذيب الكمال » (١٩/ ٢٠١) - وأبو داود ، كتاب : الجنائز ، ب: موت الفجأة (٣١١٠) - ومن طريقه وطريق آخر البيهقي في « السنن الكبرى » (٣٧٨/٣) - من طريق يحيى بن سعيد ، وأخرجه البيهقي وابن عدي في « الكامل » (٦٤٩/٢) من طريق روح ومحمد بن جعفر ، وأخرجه أحمد أيضًا وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣/ ٢٤٧) من طريق محمد بن جعفر ثلاثتهم (يحيى وروح ومحمد) عن شعبة حدثني منصور عن تميم بن سلمة أو سعد بن عبيدة - وبعضهم لم يذكر سعد بن عبيدة - عن عبيد بن خالد السلمي وكان من أصحاب النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - قال : « موت الفجأة أخذة أسف » وحدث به مرة عن النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - قال المنذري في « مختصر سنن أبي داود » (٢٨٢/٤) : « رجال إسناده ثقات ، والوقف فيه لا يؤثر ، فإن مثله لا يؤخذ بالرأي ، فكيف ؟ وقد أسنده الراوي مرة واللَّه أعلم » . وصحح إسناده النووي في « الخلاصة » - كما في « تخريج الكشاف » للزيلعي (٣٥٤/٢) وقال ابن حجر في « تخريج المختصر » - نقله عنه المناوي في « فيض القدير » - : « إسناده صحيح وليس في الباب حديث صحيح غيره » .

وأما حديث أنس فأخرجه ابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٤٨٩/٢ ، ١٤٩٠ ، ١٤٩١) من طرق ثلاثة عنه ثم قال : وفي الطريق الأول : « يزيد الرقاشي وهو غاية في الضعف عندهم ، وفيه درست : قال يحيى : لا شيء ، وقال ابن حبان : لا يحل الاحتجاج به ، وفي الطريق الثاني : سمعان وهو مجهول منكر الحديث ، وفي الطريق الثالث الحسن بن عمارة قال شعبة : كان الحسن يحدث بأحاديث وقد وضعها » .

وحديث عبد اللَّه بن مسعود علقه البيهقي في « الكبرى » (٣٧٩/٣) من طريق الحجاج عن زبيد عن مرة عنه مرفوعًا و والحجاج هو ابن أرطأة ضعيف ، وخالفه الأعمش واختلف عليه فيه ، فرواه أبو بكر بن عياش عنه عن زبيد عن مرة عن عبد اللَّه من قوله - أخرجه البيهقي في « الكبرى » (٣٧٩/٣) - ورواه أبو شهاب الحناط - صدوق يهم - عنه عن زبيد عن أبي الأحوص عن عبد اللَّه وعائشة موقوفًا أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٤٧/٣) والبيهقي في « الكبرى » .

[١] - في ز : « واتبعته » .

والمحارم .

ثم قال تعالىٰ مخوفًا ومحذرًا من مخالفة أوامره ، والتجرؤ علىٰ زواجره : ﴿ **أفأمن أهل القرىٰ** ﴾ أي : الكافرة ﴿ **أن يأتيهم بأسنا** ﴾ أي : عذابنا ونكالنا ﴿ **بياتًا** ﴾ أي : ليلًا ﴿ **وهم نائمون * أو أمن أهل القرىٰ أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون** ﴾ أي : في حال شغلهم وغفلتهم ﴿ **أفأمنوا مكر الله** ﴾ أي : بأسه ونقمته وقدرته عليهم ، وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ﴿ **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** ﴾ ؛ ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله : ﴿ **أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها** ﴾ : أو لم نبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم .

وقال أبو جعفر بن جرير[١] في تفسيرها : يقول تعالىٰ أو لم يَبِن[٢] للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك[٣] آخرين قبلهم كانوا أهلها ، فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم ، وعتوا علىٰ ربهم . ﴿ **أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم** ﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ **ونطبع علىٰ قلوبهم** ﴾ يقول ونختم علىٰ قلوبهم ﴿ **فهم لا يسمعون** ﴾ موعظة ولا تذكيرًا.

(قلت) : وهكذا قال تعالىٰ : ﴿ **أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى** ﴾، وقال تعالىٰ : ﴿ **أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون** ﴾ ، وقال : ﴿ **أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **وكم أهلكنا [ ][٤] قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا** ﴾ أي : هل ترىٰ لهم شخصًا ، أو تسمع لهم صوتًا ، وقال تعالىٰ : ﴿ **[أو لم][٥] يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم**

---

[١] - ابن جرير في تفسيره (٥٧٩/١٢) .

[٢] - في ز : نبين ، والمثبت من تفسير ابن جرير .

[٣] - في ز : « هلاك » .

[٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « من » . [٥] - ما بين المعكوفتين في ز : « ألم » .

وأنشأنا من بعدهم قرنًا آخرين ﴾ ، وقال تعالىٰ بعد ذكره إهلاك عاد : ﴿ **فأصبحوا لا يرىٰ**[١] **إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين * ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنىٰ عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * ولقد أهلكنا ما حولكم من القرىٰ وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير** ﴾، وقال تعالىٰ : ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية علىٰ عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور** ﴾، وقال تعالىٰ : ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ حلول نقمه بأعدائه ، وحصول نعمه لأوليائه ؛ ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين .

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

لما قص تعالىٰ علىٰ نبيه ، صلىٰ الله عليه وسلم ، خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين ، وأنه تعالىٰ أعذر إليهم بأن بين لهم الحق[٢] بالحجج[٣] علىٰ ألسنة الرسل ، صلوات الله عليهم أجمعين ، قال تعالىٰ : ﴿ **تلك القرىٰ نقص عليك** ﴾ أي : يا محمد ﴿ **من أنبائها** ﴾ أي : من أخبارها ﴿ **ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أي : بالحجج علىٰ صدقهم فيما أخبروهم به ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولًا** ﴾، وقال تعالىٰ : ﴿ **ذلك من أنباء القرىٰ نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم** ﴾.

وقوله تعالىٰ : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾ الباء سببية ، أي : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم . حكاه ابن عطية رحمه الله ، وهو متجه حسن ، كقوله : ﴿ **وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم**

---

[١] - في ز : « ترى » .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز : « الحجج » .

كما لم يؤمنوا به أول مرة [ونذرهم في طغيانهم يعمهون][١] ﴾ .

ولهذا قال هنا : ﴿ **كذلك يطبع الله علىٰ قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم** ﴾ أي : لأكثر الأمم الماضية ﴿ **من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ أي : ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين ، خارجين عن الطاعة والامتثال ، والعهد الذي أخذه هو ما[٢] جبلهم عليه وفطرهم عليه ، وأخذ عليهم في[٣] الأصلاب : أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، فأقروا بذلك ، وشهدوا علىٰ أنفسهم به ، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة ، لا من عقل ولا شرع ، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلىٰ آخرهم بالنهي عن ذلك ، كما جاء في صحيح مسلم(١٣٧) : يقول الله تعالىٰ : « **إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم** » . وفي الصحيحين(١٣٨) : « **كل مولود يولد علىٰ الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه** » الحديث . وقال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي[٤] إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾، وقوله تعالىٰ : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾، وقال تعالىٰ : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات .

وقد قيل في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾ [ما روىٰ][٥] أبو جعفر الرازي(١٣٩) : عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب في قوله : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾ قال : كان في علمه تعالىٰ يوم أقروا له بالميثاق. أي : فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك . وكذا قال الربيع بن أنس : واختاره ابن جرير[٦] .

وقال السدي : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾ قال : ذلك يوم أخذ منهم الميثاق ، فآمنوا كرهًا.

وقال مجاهد في قوله : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾ : هذا كقوله : ﴿ **ولو**

(١٣٧) - تقدم تخريجه [سورة الأنعام / آية ٧٩] .

(١٣٨) - تقدم تخريجه [سورة الأنعام / آية ٧٩] .

(١٣٩) - ومن طريق أبي جعفر الرازي أخرجه ابن جرير (١٤٩٠٢/١٣) وابن أبي حاتم (٨٧٧٨/٥) وأبو جعفر الرازي « صدوق سيىء الحفظ » والأثر زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٩٤/٣) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ .

[١] - من ز : وفي ت : « الآية » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز : « من » .
[٤] - في ز : « يوحى » .
[٥] - ما بين المعكوفتين في خ ،ز: « فقال » .
[٦] - ابن جرير في تفسيره (٩/١٣) .

ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم** ﴾ أي : الرسل المتقدم ذكرهم ؛ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، صلوات اللَّه وسلامه عليهم وعلىٰ سائر أنبياء اللَّه أجمعين ﴿ **موسىٰ بآياتنا** ﴾ أي : بحججنا ودلائلنا البينة إلىٰ فرعون ، وهو ملك مصر في زمان موسىٰ ﴿ **وملئه** ﴾ أي : قومه ﴿ **فظلموا بها** ﴾ أي : جحدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أي : الذين صدوا عن سبيل اللَّه وكذبوا رسله ، أي : انظر يا محمد ، كيف فعلنا بهم ، وأغرقناهم عن آخرهم بمرأىٰ من موسىٰ وقومه ، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه ، وأشفىٰ لقلوب أولياء اللَّه : موسىٰ وقومه من المؤمنين به .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

يخبر تعالىٰ عن مناظرة موسىٰ لفرعون ، وإلجامه إياه بالحجة ، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر ، فقال تعالىٰ : ﴿ **وقال موسىٰ يا فرعون إني رسول من رب العالمين** ﴾ أي : أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربه ومليكه .

﴿ **حقيق علىٰ أن لا أقول علىٰ اللَّه إلا الحق** ﴾ فقال بعضهم : معناه حقيق بأن لا أقول علىٰ اللَّه إلا الحق ، أي : جدير بذلك وحري به .

قالوا : « والباء » « وعلىٰ » يتعاقبان ، فيقال : رميت بالقوس وعلىٰ القوس ، وجاء علىٰ حال حسنة وبحال حسنة .

وقال بعض المفسرين : معناه : حريص علىٰ أن لا أقول علىٰ اللَّه إلا الحق .

وقرأ[١] آخرون من أهل المدينة : (حقيق عليَّ) بمعنىٰ واجب وحق عليَّ ذلك : أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم سلطانه[٢] .

﴿ **قد جئتكم ببينة من ربكم** ﴾ أي : بحجة قاطعة من اللَّه أعطانيها دليلًا علىٰ صدقي فيما جئتكم به ﴿ **فأرسل معي بني إسرائيل** ﴾ أي : أطلقهم من أسرك وقهرك ، ودعهم وعبادة ربك وربهم ، فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن .

﴿ **قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين** ﴾ أي : قال فرعون : لست بمصدقك فيما قلت ، ولا بمطيعك[٣] فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها ، إن كنت صادقًا فيما ادعيت .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ثعبان مبين** ﴾ الحية الذكر . وكذا قال السدي والضحاك .

وفي حديث الفتون(١٤٠) من رواية يزيد بن هارون أخبرنا[٤] الأصبغ بن زيد ، عن القاسم بن أبي أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ﴿ **فألقىٰ[٥] عصاه** ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلىٰ فرعون ، فلما رأى[٦] فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره ، واستغاث بموسىٰ أن يكفها عنه ، ففعل .

وقال قتادة : تحولت حية عظيمة مثل المدينة .

وقال السدي في قوله : ﴿ **فإذا هي ثعبان مبين** ﴾ والثعبان : الذكر من الحيات ، فاتحة فاها واضعة لحيها الأسفل في الأرض ، والآخر علىٰ سور القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث ، ولم يكن يحدث قبل ذلك ، وصاح : يا موسىٰ ، خذها وأنا أومن بك ، وأرسل معك بني إسرائيل . فأخذها موسىٰ عليه السلام ، فعادت عصًا .

وروي عن عكرمة ، عن ابن عباس نحو هذا .

(١٤٠) - يأتي تخريجه [سورة طه / آية ٤٠] .

[١] - في ز : « وقرأه » .
[٢] - في ت : « شأنه » .
[٣] - في ت : « بمعطيك » .
[٤] - في خ ، ز : « أبا » . وفي ت : « بن » .
[٥] - في ز : « ألقى » .
[٦] - في ت : « رآها » .

وقال وهب بن منبه : لما دخل موسىٰ علىٰ فرعون قال له فرعون : أعرفك . قال : نعم . قال : ﴿ **ألم نربك فينا وليدًا** ﴾ . قال : فردّ إليه موسىٰ الذي ردّ . فقال فرعون : خذوه . فبادره موسىٰ : ﴿ **فألقىٰ عصاه فإذا هي ثعبان مبين** ﴾ فحملت علىٰ الناس فانهزموا منها ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا قتل بعضهم بعضًا ، وقام فرعون منهزمًا حتىٰ دخل البيت .

رواه ابن جرير والإمام أحمد في كتابه « **الزهد** » ، وابن أبي حاتم(١٤١) ، وفيه غرابة في سياقه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين** ﴾ أي : أخرج[١] يده [ ][٢] من درعه بعد ما أدخلها فيه ، فخرجت بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء** ﴾ .

[وقال ابن عباس في حديث الفتون(١٤٢) : ﴿ **من غير سوء** ﴾][٣] يعني : من غير برص ، ثم أعادها إلىٰ كمه فعادت إلىٰ لونها الأول. وكذا قال مجاهد وغير واحد .

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

أي : قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون ، موافقين لقول فرعون فيه ، بعد ما رجع إليه روعه[٤] ، واستقر علىٰ سرير مملكته ، بعد ذلك قال للملأ حوله : ﴿ **إن هذا لساحر عليم** ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته ، وتشاوروا في أمره ، وماذا[٥] يصنعون في أمره ، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته ، وظهور كذبهم وافترائهم ، وتخوفوا [ ][٦] أن يستميل الناس [إليه][٧] بسحره فيما يعتقدون ؛ فيكون ذلك سببًا لظهوره عليهم ، وإخراجه إياهم من أرضهم ، والذي خافوا منه وقعوا فيه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ **ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا**

---

(١٤١) - أخرجه ابن جرير (١٤٩١٥/١٣) وابن أبي حاتم (٨٧٩٢/٥) مختصرًا ، وأحمد في « الزهد » (ص ٧٩ : ٨٤) مطولًا ، من طريق إسماعيل بن عبد الكريم ، عن عبد الصمد بن معقل ، قال : سمعت وهب بن منبه فذكره وإسناده حسن إلى وهب ، لكن « فيه غرابة في سياقه » كما قال المصنف .

(١٤٢) - يأتي تخريجه [سورة طه / آية ٤٠] .

---

[١] - في ز : « نزع » .
[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « أخرجها» .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٤] - في خ : « روعهم » .
[٥] - في ت : « كيف » .
[٦] - في ز : « من معرته» .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من خ .

يحذرون ﴾، فلما تشاوروا في شأنه ، وائتمروا فيه ، اتفق رأيهم علىٰ ما حكاه اللَّه[١] تعالىٰ عنهم في قوله تعالىٰ :

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

قال ابن عباس : ﴿ **أرجه** ﴾ : أخِرْه . وقال قتادة : احبسه . ﴿ **وأرسل** ﴾ أي : ابعث ﴿ **في المدائن** ﴾ أي : في الأقاليم ومعاملة ملكك ﴿ **حاشرين** ﴾ أي : من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم .

وقد كان السحر في زمانهم غالبًا كثيرًا ظاهرًا ، واعتقد من اعتقد منهم ، وأوهم من أوهم منهم ، أن ما جاء به موسىٰ - عليه السلام - من قبيل ما تشعبذه سحرتهم ؛ فلهذا جمعوا له السحرة ؛ ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات ، كما أخبر تعالىٰ عن فرعون حيث قال : ﴿ **أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسىٰ * فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدًا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانًا سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحىٰ * فتولىٰ فرعون فجمع كيده ثم أتىٰ** ﴾ ، وقال تعالىٰ هاهنا :

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ عما تشارط عليه فرعون والسحرة ، الذين استدعاهم لمعارضة موسىٰ عليه السلام ؛ إن غلبوا موسىٰ ليثيبنهم وليعطينهم عطاءً جزيلًا ، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ، وليجعلنهم من جلسائه والمقربين عنده ، فلما توثقوا من فرعون لعنه اللَّه .

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسىٰ - عليه السلام - في قولهم : ﴿ **إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين** ﴾ أي : قبلك ؛ كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **وإما أن نكون أول من ألقىٰ** ﴾ . فقال لهم موسى عليه السلام : ﴿ **ألقوا** ﴾ ، أي : أنتم أولًا قبلي[٢] والحكمة في هذا واللَّه أعلم ؛

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ت : « قيل » .

ليرىٰ الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فُرِغَ من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه ، فيكون أوقع في النفوس ، وكذا كان ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم** ﴾ أي : خيلوا إلىٰ الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ، ولم يكن إلا مجرد صنعة[١] وخيال ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعىٰ * فأوجس في نفسه خيفة موسىٰ * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلىٰ * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتىٰ** ﴾ .

قال سفيان بن عيينة (١٤٣): حدثنا أبو سعد[٢] ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ألقوا حبالًا غلاظًا وخشبًا طوالًا . قال : فأقبلت يخيل[٣] إليه من سحرهم أنها تسعىٰ.

وقال محمد بن إسحاق : صف خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر ، حباله وعصيه ، وخرج موسىٰ عليه السلام ، معه أخوه[٤] يتكئ علىٰ عصاه ، حتىٰ أتىٰ الجمع وفرعون في مجلسه مع أشراف أهل مملكته ، ثم قالت[٥] السحرة : ﴿ **يا موسىٰ إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقىٰ * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم** ﴾ فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسىٰ وبصر فرعون ، ثم أبصار الناس بعد ، ثم ألقىٰ كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصي ، فإذا حيات كأمثال الجبال ، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضًا.

وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين[٦] ألف رجل ، ليس رجل منهم إلا ومعه حبل وعصا ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم** ﴾ يقول : فرقوهم ، أي : من الفرق .

وقال ابن جرير(١٤٤) : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، عن هشام الدستوائي ، حدثنا القاسم بن أبي بزّة ، قال : جمع فرعون سبعين ألف ساحر فألقوا سبعين ألف حبل ، وسبعين ألف عصا ، حتىٰ جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعىٰ .

ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ .

۞ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ**

(١٤٣) - أخرجه ابن جرير (١٣/١٤٩٣٩) وأبو سعد هو البقّال ، سعيد بن المرزبان ، « ضعيف مُدلّس » .
(١٤٤) - تفسير ابن جرير (١٣/١٤٩٤١) وإسناده صحيح إلى القاسم بن أبي بزّة .

[١] - في ز : « صيغة » .
[٢] - في ز : « سعيد » .
[٣] - في ز : « تخيل » .
[٤] - في ز : « أخاه » .
[٥] - في خ ، ز : « قال » ، والمثبت من تفسير ابن جرير (١٢/١٤٩٤٠) .
[٦] - في ز : « ثلاثون » .

ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

يخبر تعالىٰ أنه أوحىٰ إلىٰ عبده ورسوله موسىٰ - عليه السلام - في ذلك الموقف العظيم ، الذي فرق اللَّه تعالىٰ فيه بين الحق والباطل ، يأمره بأن يلقي ما في يمينه ، وهي عصاه ﴿ **فإذا هي تلقف** ﴾ أي : تأكل ﴿ **ما يأفكون** ﴾ أي : ما يلقونه ، ويوهمون أنه حق وهو باطل .

قال ابن عباس : فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته ، فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء و[١]ليس هذا بسحر ، فخروا سجدًا ، وقالوا : ﴿ **آمنا برب العالمين * رب موسىٰ وهارون** ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق : جعلت تبتلع[٢] تلك الحبال والعصي واحدة واحدة ، حتىٰ ما يرىٰ[٣] بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا ، ثم أخذها موسىٰ ، فإذا هي عصا في يده كما كانت ، ووقع السحرة سجدًا ﴿ **قالوا آمنا برب العالمين * رب موسىٰ وهارون** ﴾ ، لو كان هذا ساحرًا[٤] ما غلبنا .

وقال القاسم بن أبي بزّة : أوحىٰ اللَّه إليه أن ألق عصاك ، [فألقىٰ عصاه][٥] ، فإذا هي ثعبان [ ][٦]، فاغر فاه يبتلع حبالهم وعصيهم ، فألقي السحرة عند ذلك سجدًا ، فما رفعوا رءوسهم حتىٰ رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما[٧] .

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

يخبر تعالىٰ عما توعد به فرعون - لعنه اللَّه - السحرةَ لما آمنوا بموسىٰ عليه السلام ، وما أظهره

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في خ ، ز : « تتبع » .
[٣] - في ز : « ترى » .
[٤] - في ز : « ساحر » .
[٥] - سقط من : خ ، ز .
[٦] - في ت : « مبين » .
[٧] - في خ ، ز : « أهلها » .

للناس من كيده ومكره في قوله : ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها** ﴾ أي : إن غَلَبَه لكم في يومكم هذا ، إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك ؛ كقوله في الآية الأخرىٰ : ﴿ **إنه لكبيركم الذي علمكم السحر** ﴾ وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل ، فإن موسىٰ - عليه السلام - بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلىٰ اللَّه ، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة علىٰ صدق ما جاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته ، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ، ممن اختار هو من قومه وأحضرهم عنده ، ووعدهم بالعطاء الجزيل ؛ و[١]قد كانوا من[٢] أحرص الناس علىٰ ذلك ، وعلىٰ الظهور في مقامهم ذلك ، والتقدم عند فرعون . وموسىٰ - عليه السلام - لا يعرف أحدًا منهم ، ولا رآه ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم ذلك ، وإنما قال هذا[٣] تسترًا وتدليسًا علىٰ رعاع دولته وجهلتهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه** ﴾ ، فإن قومًا صدقوه فى قوله : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ من أجهل خلق اللَّه وأضلهم .

وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور(١٤٥) : عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالىٰ : ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة** ﴾ قال[٤] : التقىٰ موسىٰ - عليه السلام - وأمير السحرة ، فقال له موسىٰ : أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي ، وتشهد أن ما جئت به حق ؟ قال الساحر : لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر ، واللَّه لئن غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنك حق . وفرعون ينظر إليهما . قالوا : فلهذا قال ما قال .

وقوله : ﴿ **لتخرجوا منها أهلها** ﴾ أي : تجتمعوا أنتم وهو ، و[تكون لكم][٥] دولة وصولة ، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء ، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ أي : ما أصنع بكم .

ثم فسر هذا الوعيد بقوله : ﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف** ﴾ يعني : يقطع يد الرجل اليمنىٰ ورجله اليسرىٰ ، أو[٦] بالعكس ﴿ **ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ وقال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **في جذوع النخل** ﴾ أي : علىٰ الجذوع .

قال ابن عباس : وكان أول من صلب ، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون .

---

(١٤٥) - ومن طريق السُّدي أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٢/١٤٩٥٥) عن أبي مالك وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم - فذكره.

---

[١] - في ت : « ولهذا » .
[٢] - زيادة من : خ ، ز .
[٣] - في ز : « ذلك » .
[٤] - في ز : « قالوا » .
[٥] - في ز : « يكون لهم » .
[٦] - في ز : « و » .

وقول السحرة : ﴿ **إنا إلىٰ ربنا منقلبون** ﴾ أي : قد تحققنا أنا إليه راجعون ، وعذابه أشد من عذابك ، ونكاله علىٰ ما تدعونا إليه وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك ، فلنصبرن[١] اليوم علىٰ عذابك ؛ لنتخلص من عذاب الله ؛ ولهذا قالوا[٢] : ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرًا** ﴾ أي : عمنا بالصبر علىٰ دينك والثبات عليه ﴿ **وتوفنا مسلمين** ﴾ أي : متابعين لنبيك موسىٰ عليه السلام ، وقالوا لفرعون : ﴿ **فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقىٰ * إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيىٰ * ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلىٰ** ﴾ فكانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره[٣] شهداء بررة .

قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة [وابن جريج][٤] : كانوا في أول النهار سحرة ، وفي آخره شهداء .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يخبر تعالىٰ عما تمالأ عليه فرعون وملؤه ، وما أظهروه لموسىٰ - عليه السلام - وقومه من الأذىٰ والبغضة : ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون** ﴾ أي : لفرعون ﴿ **أتذر موسىٰ وقومه** ﴾ أي : أتدعهم ليفسدوا في الأرض ، أي : يفسدوا[٥] أهل رعيتك ويدعوهم إلىٰ عبادة ربهم دونك. ياالله للعجب[٦] ! صار هؤلاء يشفقون[٧] من إفساد موسىٰ وقومه ! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون

---

[١] - في ز : « فلنصبر » .
[٢] - في ز : « قال » . [٣] - في ز : « آخر النهار » .
[٤] - إنما رواه ابن جريج عن مجاهد قوله - كما في « التفسير » لابن جرير (١٣/١٤٩٦٠) ولم أجد من عزاه لابن جريج ، والله أعلم .
[٥] - في ز : « يفسدون » .
[٦] - في ز : « العجب » . [٧] - في ز : « لا يشفقون » .

ولكن لا يشعرون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ **ويذرك وآلهتك** ﴾ قال بعضهم : الواو هاهنا[١] حالية ، أي : أتذره وقومه يفسدون في الأرض وقد ترك عبادتك ؟ وقرأ ذلك أبي بن كعب : (وقد تركوك أن يَعْبُدُوك[٢] وَآلِهَتَكَ) . حكاه ابن جرير[٣] .

وقال آخرون : هي عاطفة ، أي : لا تدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلىٰ ترك آلهتك.

وقرأ بعضهم : (إلاهتك) . أي : عبادتك ، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد .

وعلىٰ القراءة الأولىٰ قال بعضهم : كان لفرعون إله يعبده . قال الحسن البصري : كان لفرعون إله يعبده في السر.

وقال في رواية أخرىٰ : [كان له جمانة][٤] في عنقه معلقة يسجد لها .

وقال السدي في قوله تعالىٰ : ﴿ **ويذرك وآلهتك** ﴾ : وآلهته ، فيما زعم ابن عباس [كانت البقر][٥] كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها ؛ فلذلك أخرج لهم عجلا جسدًا .

فأجابهم فرعون فيما سألوا بقوله : ﴿ **سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم** ﴾ ، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع ، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسىٰ - عليه السلام - حذرًا من وجوده ، فكان[٦] خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل في صنيعه [هذا][٧] أيضًا إنما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم ، فجاء الأمر علىٰ خلاف ما أراد ؛ نصرهم اللّٰه عليه وأذله ، وأرغم أنفه ، وأغرقه وجنوده .

ولما صمم فرعون علىٰ ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿ **قال موسىٰ لقومه استعينوا باللّٰه واصبروا** ﴾ ووعدهم بالعاقبة ، وأن الدار ستصير لهم في قوله : ﴿ **إن الأرض للّٰه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾ أي : قد جرىٰ علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسىٰ ومن بعد ذلك ، فقال منبهًا لهم علىٰ حالهم الحاضرة ، وما يصيرون إليه في ثاني الحال : ﴿ **عسىٰ ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ ، وهذا تحضيض لهم علىٰ العزم علىٰ الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

---

[١] - في ز : « هنا » .
[٢] - في خ : « يعبدوا » .
[٣] - ابن جرير في تفسيره (١٣/٣٧) .
[٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « جنانة » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٦] - في ز : « وكان » .
[٧] - سقط من خ .

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون** ﴾ أي : اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ﴿ **بالسنين** ﴾ وهي سني الجوع بسبب قلة الزروع ﴿ **ونقص من الثمرات** ﴾ قال مجاهد : وهو دون ذلك .

وقال أبو إسحاق : عن رجاء بن حيوة : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة .

﴿ **لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة** ﴾ أي : من الخصب والرزق ﴿ **قالوا لنا هذه** ﴾ أي : هذا لنا بما نستحقه ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ أي : جدب[١] وقحط ﴿ **يطيروا بموسىٰ ومن معه** ﴾ أي : هذا بسببهم وما جاءوا به .

﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ [قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ يقول :][٢] مصائبهم عند الله قال الله[٣]: ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ .

وقال ابن جريج : عن ابن عباس قال : ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ أي[٤] : الأمر[٥] من قِبَل الله .

وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ

---

[١] - في ز : « جذب » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز . [٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « قال » .
[٥] - في خ ، ز « ألا » ، والمثبت من تفسير ابن جرير (١٤٩٨٧/١٣) .

يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

هذا إخبار من اللَّه - عز وجل - عن تمرّد قوم فرعون وعتوّهم وعنادهم للحق ، وإصرارهم علىٰ الباطل في[١] قولهم : ﴿ **مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ يقولون : أي آية جئتنا بها ، ودلالة وحجة أقمتها رددناها ، فلا نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ، ولا بما جئت به . قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان** ﴾ .

اختلفوا في معناه ؛ فعن ابن عباس في رواية : كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار . وبه قال الضحاك بن مزاحم .

وقال ابن عباس في رواية أخرىٰ : هو كثرة الموت . وكذا قال عطاء .

وقال مجاهد : الطوفان : الماء والطاعون علىٰ كل حال .

وقال ابن جرير(١٤٦) : حدثنا أبو هشام الرفاعي ، حدثنا يحيىٰ بن يمان[٢] ، حدثنا المنهال بن خليفة ، عن الحجاج ، عن الحكم بن ميناء ، عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **الطوفان : الموت** » .

وكذا رواه ابن مردويه : من حديث يحيىٰ بن يمان[٣] به ، وهو حديث غريب .

وقال ابن عباس في رواية أخرىٰ : هو أمر من اللَّه طاف بهم ، ثم قرأ : ﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون** ﴾ .

وأما الجراد فمعروف مشهور ، وهو مأكول ؛ لما ثبت في الصحيحين(١٤٧) عن أبي يعفور قال :

---

(١٤٦) - **إسناده ضعيف** تفسير ابن جرير (١٤٩٩٦/١٣) وأخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٥٥/٥) من طريق الحماني ، ثنا يحيى بن يمان به ، وذكره المصنف في « البداية والنهاية » (٣٠٧/١) وعزاه إلى ابن جرير وابن مردويه وقال : « وهو غريب » قلت : علته المنهال بن خليفة هذا : ضعفه ابن معين والنسائي ، وقال البخاري : « فيه نظر » وقال في موضع آخر : « حديثه منكر » وهو مترجم في « التهذيب » . والحجاج هو ابن أرطاة : صدوق كثير الخطأ والتدليس وقد عنعنه ، واضطرب فيه المنهال بن خليفة فرواه عن عطاء عن عائشة به كما عند ابن أبي حاتم (٨٨٥٦/٥) ورواه عن حجاج عن رجل عنها به كما عند ابن جرير (١٣/ ١٥٠٠٠) ، وذكره الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٣٠٠/٨) وعزاه إلى «ابن مردويه بإسنادين ضعيفين » وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٠٣/٣) إلى أبي الشيخ .

(١٤٧) - أخرجه البخاري ، كتاب : الذبائح والصيد ، باب : أكل الجراد (٥٤٩٥) ، ومسلم ، =

---

[١] - في ز : « و » . [٢] - في ز : « ثمان » .
[٣] - في ز : « ثمان » .

سألت عبد اللّٰه بن أبي أوفىٰ عن الجراد ، فقال : غزونا مع رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، سبع غزوات نأكل الجراد .

وروىٰ الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجة(١٤٨) : من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، قال : « **أحلت لنا ميتتان ودمان ؛ الحوت والجراد ، والكبد والطحال** » .

ورواه أبو القاسم البغوي(١٤٩) : عن داود بن رشيد ، عن سويد بن عبد العزيز ، [عن أبي هشام][١] الأبلي[٢] ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعًا مثله .

وروىٰ أبو داود(١٥٠) : عن محمد بن الفرج ، عن محمد بن الزبرقان الأهوازي ، عن سليمان

= كتاب : الصيد والذبائح ، باب : إباحة الجراد (٥٢) (١٩٥٢) وكذا أخرجه أحمد (٣٥٣/٤ ، ٣٥٧، ٣٨٠) وأبو داود ، كتاب : الأطعمة ، باب : في أكل الجراد (٣٨١٢) والترمذي ، كتاب : الأطعمة ، باب : ما جاء في أكل الجراد (١٨٢٢ ، ١٨٢٣) ، والنسائي ، كتاب : الصيد والذبائح ، باب : الجراد (٧/ ٢١٠) من طرق عن أبي يعفور به ، وبعض الرواة عن أبي يعفور قال : « ست غزوات » وبعضهم رواه بالوجهين وانظر « الفتح » (٦٢١/٩) .

(١٤٨) - **صحيح موقوفًا** تقدم تخريجه [سورة المائدة / آية ٣] وانظر ما بعده .

(١٤٩) - وأخرجه ابن مردويه في تفسيره [تفسير سورة الأنعام] - كما في « نصب الراية » للزيلعي (٤/ ٢٠٢) و« تلخيص الحبير » لابن حجر (٢٨/١) - ثنا عبد الباقي بن قانع ، ثنا محمد بن بشر بن مطر ثنا داود بن راشد - كذا وصوابه « رُشَيْد » كما هنا وانظر ترجمته في «التهذيب» - عن سويد بن عبد العزيز به ، وأبو هشام الأَبْلّي وهو كثير بن عبد اللّٰه ، قال البخاري : « منكر الحديث » ، وقال النسائي : « متروك » وقال الدارقطني : ضعيف ، وذهب ابن حبان إلى أن هذا وكثير بن سليم واحد ، وليس هذا بشيء ، وقال أبو حاتم : « كثير بن عبد اللّٰه منكر الحديث ، وشبه المتروك » «ميزان الاعتدال » (٤/ت ٦٩٤٢) واستنكر له ابن عدي في « الكامل » (٢٠٨٦/٦) عدة أحاديث ثم قال : « وفي بعض رواياته ما ليس بمحفوظ » وبه أعل هذه الطريق ابن حجر في « التلخيص » .

(١٥٠) - **ضعيف** « السنن » لأبي داود كتاب : الأطعمة ، باب : في أكل الجراد (٣٨١٣) - ومن طريقه وطريق آخر البيهقي في « السنن الكبرى » (٢٥٧/٩) - وأخرجه الطبراني في « الكبير » (٦/رقم ٦١٢٩) والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٧٢/١٤) وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨٩/٧/ مخطوط) من طرق ثلاثة عن محمد بن الفرج به ، وأخرجه البزار في مسنده (٦/رقم ٢٥٠٩ ، ٢٥١٠) وأبو الشيخ في « العظمة » (١٢٩٤/٥) من طريقين عن محمد بن الزِّبرقان به ، وقال الدارقطني في « الأفراد » - كما في « أطراف الغرائب » (٢/١٤٠ مخطوط) : « تفرد به أبو همام محمد بن الزبرقان =

[١] - في خ ، ز ، وفي جميع النسخ « عن أبي تمام » وهو مصحف ، وصوابه ما أثبتناه كما في « نصب الراية » (٢٠٢/٤) و« تلخيص الحبير » (٢٨/١) ، وانظر « ميزان الاعتدال » (٤/ت٦٩٤٢) .

[٢] - في خ ، ز « الأيلي » .

التيمي ، عن أبي عثمان ، عن سلمان قال : سئل رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، عن الجراد فقال : « **أكثر**[١] **جنود اللَّه ، لا آكله ولا أحرمه** » .

وإنما تركه - عليه السلام - لأنه كان يعافه ، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه(١٥١) .

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر في جزء جمعه في الجراد(١٥٢) : من حديث أبي سعيد الحسن بن

= عن سليمان التيمي عنه » قلت : وأبو همام وإن وثقه ابن المديني والدارقطني وقال النسائي : ليس به بأس وقال أبو حاتم وأبو زرعة « صالح » - : إلا أن ابن معين قال : « لم يكن صاحب حديث ولكن لا بأس به » ، وذكره ابن حبان في « الثقات » (٤٤١/٧) وقال : « ربما أخطأ » وفي « التقريب » صدوق يهم ، وقد عُدَّ وصل هذا الحديث من أخطائه أو أوهامه حيث قال أبو داود : « رواه المعتمر عن أبيه - أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٤/رقم ٨٧٥٧) - عن أبي عثمان ، عن النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - لم يذكر سلمان » قلت : وتابعه الأنصاري محمد بن عبد اللَّه فأخرجه في « جزء من حديثه » (رقم ٧) ثنا سليمان التيمي به ، لم يذكر سلمان وتابعهما يزيد بن هارون عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٧٣/٥) ، ومعتمر والأنصاري ويزيد ثقات فضلًا عن أن المعتمر « أعلم الناس بحديث أبيه ولم يكن أحد من الناس يقوم في سليمان مقامه » قاله يحيى ابن معين - وتابع سليمان التيمي فيه : (أبو العوام ، فائد بن كيسان الباهلي وعثمان بن غياث) فأما طريق أبي العوام فقد اختلف عليه فيه فرواه زكريا بن يحيى بن عُمارة الذَّراع - « صدوق يخطئ » - عنه عن أبي عثمان النهدي به موصولًا ، أخرجه أبو داود (٣٨١٤) - ومن طريقه البيهقي - وابن ماجه ، كتاب : الصيد ،ب : صيد الحيتان والجراد (٣٢١٩) والطبراني في « الكبير » (٦/ ٦١٤٩) ومن طريقه المزي في « تهذيب الكمال » (١٤١/٢٣/ ت ٤٧٠٥) - وأبو الشيخ (١٢٩٥) ورواه حماد بن سلمة عن أبي العوام عن أبي عثمان عن النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - لم يذكر سلمان علقه أبو داود ومن طريقه البيهقي في «السنن» ، وقال ابن أبي حاتم في « العلل » (٢/رقم ١٤٩٥) : « سألت أبي عن حديث رواه فائد أبو العوام عن أبي عثمان عن سلمان عن النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - في الجراد فذكره - قال أبي : هذا خطأ ، والصحيح مرسل وليس فيه سلمان » . وتابع التيمي فيه أيضًا عثمان بن غياث - ثقة رمي بالإرجاء - حدثني أبو عثمان النهدي، أن رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم - قال فذكره ليس فيه سلمان ، أخرجه الأنصاري في « جزء حديثه » (٩٠) ، ورواه الطيالسي في مسنده (رقم ٦٥٣) ثنا شعبة عمن سمع أبا عثمان قال: ذكر الجراد عند النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - فذكر الحديث وقال : روى هذا الحديث أبو العوام عن أبي عثمان . وصوَّب المرسل ابن حجر في « الفتح » (٦٢٢/٩) والألباني - ولذا أودعه في « الضعيفة » (٤/رقم ١٥٣٣) - ومال إلى ذلك البيهقي ، واللَّه الموفق .

(١٥١) - أخرج ذلك البخاري، ك: الأطعمة، باب : ما كان النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - لا يأكل حتى يُسمَّى له فيعلم ما هو (٥٣٩١) ، ومسلم ، كتاب : الصيد والذبائح ، باب : إباحة الضب (٤٤) (١٩٤٦) وغيرهما من حديث خالد بن الوليد .

(١٥٢) - لم أقف على هذا « الجزء » ولم أهتد للحديث في غير هذا الموضع .

---

[١] - في ز : « كثر » .

علي العدوي حدثنا نصر بن يحيىٰ بن سعيد ، حدثنا يحيىٰ بن خالد ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : كان رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، لا يأكل الجراد ولا الكلوتين ولا الضب من غير أن يحرمها ، أما الجراد فرجز وعذاب ، وأما الكلوتان فلقربهما من البول ، وأما الضب فقال : « **أتخوف أن يكون مسخًا** » . ثم قال : غريب لم أكتبه إلا من هذا الوجه .

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه يشتهيه ويحبه ، فروىٰ عبد اللّٰه بن دينار[١] ، عن ابن عمر : أن عمر سئل عن الجراد ، فقال : ليت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين[٢] نأكله .

وروىٰ ابن ماجة(١٥٣) : حدثنا أحمد بن منيع ، عن سفيان بن عيينة ، عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال ، سمع أنس بن مالك يقول : كان[٣] أزواج النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يتهادين الجراد علىٰ الأطباق .

وقال أبو القاسم البغوي(١٥٤) : حدثنا داود بن رشيد ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن نمير[٤] بن

(١٥٣) - **ضعيف** أخرجه ابن ماجه ، كتاب : الصيد ، باب : صيد الحيتان والجراد (٣٢٢٠) ، وأخرجه ابن عدي في « الكامل » (١٢٢٠/٣) والبيهقي في « السنن الكبرى » (٢٥٨/٩) والخطيب البغدادي في « موضح أوهام الجمع والتفريق » (١٢٩/٢ ، ١٣٠) من طرق عن أبي سعيد البقال به قال البوصيري في « الزوائد » (٦٤/٣) : « في إسناده أبو سعد البقال ، واسمه سعيد بن المرزبان العبسي الكوفي وهو ضعيف » ضعفه النسائي والعجلي ، وقال البخاري : « منكر الحديث » وقال أبو حاتم : « لا يحتج بحديثه وتركه الدارقطني والفلاس » قلت : وأخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٨٧٦٣/٤) عن ابن عيينة عن أبي يعفور - كذا - عن أنس به وهذا الإسناد لاشك أنه محرف ، فإن الحديث لا يعرف إلا بأبي سعد البقال واللّٰه تعالى أعلم .

(١٥٤) - **ضعيف** أخرجه ابن قتيبة في « غريب الحديث » (١٨٢/١) والحربي في « غريب الحديث » (٢/ ٥٨١) والطبراني في « الكبير » (٨/رقم ٧٦٣١) والبيهقي في « السنن الكبرى » (٢٥٨/٩) ومن طريقه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣١/١٩/ مخطوط) - والذهبي في « الميزان » (٥/ت ٩٠٧١) من طرق عن بقية به ، وفي أكثرها تصريح بقية بالتحديث ، لكن شيخه نُمير بن يزيد القيني ، قال أبو الفتح الأزدي : ليس بشيء ، وفي « التقريب » : « مجهول » وأبوه لا يعرف أيضًا ، قال الذهبي : « هذا الإسناد على ركاكة متنه أنظف من الأول - يعني حديث أبي هريرة الآتي - ويريني فيه هذا الدعاء ، فإنها ما=

[١] - أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٥٨/٩) من طريق مالك عن عبد اللّٰه بن دينار به وعبد الرزاق في « المصنف » (٨٧٥١/٤) من طريق سالم وابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٧١/٥) من طريق نافع كلاهما (سالم ونافع) عن ابن عمر به .

[٢] - قال أبو عبيد : القفعة شيء يشبه بالزنبيل ليس بالكبير يعمل من خوص وليست له عرى . « السنن الكبرى » للبيهقي (٢٥٨/٩) .

[٣] - في ز : « كن » . [٤] - في خ ، ز : « يحيى » .

يزيد القَيْني[١] ، حدثني أبي ، عن صدي بن عجلان ، وهو[٢] أبو[٣] أمامة قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **إن مريم بنت عمران عليها السلام سألت ربها - عز وجل - أن يطعمها لحمًا لا دم له ، فأطعمها الجراد ، فقالت : اللَّهم أعشه بغير رضاع ، وتابع بينه بغير شياع** » . وقال نمير : الشياع : الصوت[٤] .

وقال أبو بكر بن أبي داود(١٥٥) : حدثنا [أبو تقي][٥] هشام بن عبد الملك اليَزَني[٦] ، حدثنا

= كانت لتدعو بأمر واقع ، ومازال الجراد بلا رضاع ولا شياع » قال الحافظ في « اللسان » : « وهذا الإشكال غير مشكل لجواز أن يكون الجراد ما كان موجودًا قبل » والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (٤٢/٤) وقال : « رواه الطبراني في « الكبير » وفيه بقية وهو ثقة ولكنه مدلس ويزيد القيني - في الأصل « العيني » وهو تحريف - لم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » ، تقدم أن بقية صرح بالتحديث ، فأمنا تدليسه ، وبقى إعلال الحديث بالجهالة ، وفي الباب عن أبي هريرة عند العقيلي في « الضعفاء » (٢٨٧/٤) وتمام في « الفوائد » (٣/رقم ٩٥٣/ الروض البسام) وأبي الشيخ في « العظمة » (١٣٠٣/٥) وابن عساكر والذهبي وفي إسناده النضر بن عاصم أبو عباد ، قال العقيلي : « لا يتابع عليه ، ولا يعرف إلا به » والنضر هذا تركه الأزدي - كما في « الميزان » وبه أعل الحديث الألباني ، فكان من نصيب « الضعيفة » (٤/رقم ١٩٩٢) .

(١٥٥) - وأخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (١٢٩٣/٥) من طريق أبي التقي هشام بن عبد الملك به ، وأخرجه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٣/رقم ١٤٤٠) والبيهقي في « الشعب » (٧/رقم ١٠١٢٧) - وفي إسناده سقط يستدرك من هنا - من طريق عبد الوهاب بن نجدة الحوطي وأبو الشيخ أيضًا من طريق العباس بن الهيثم الأنطاكي ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/رقم ٧٥٧) من طريق محمد بن إسماعيل بن عياش ، وسليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ، وفي « الأوسط » (٩/رقم ٩٢٧٧) من طريق أبي صالح عبد الغفار بن داود ، (وأبو محمد المخلدي في « الفوائد » (ق ٢/٢٨٩) وأبو عبد اللَّه بن منده في « معرفة الصحابة » (١/٢٠١/٣٧) عن سعيد بن عمرو الحضرمي ، وابن منده أيضًا (١/٢٤٣/٢) عن عبد الوهاب بن الضحاك / نقلًا عن الألباني من « الصحيحة » (٢٤٢٨/٥)) ثمانيتهم (بقية ، عبد الوهاب بن نجدة ، العباس ، محمد ، سليمان ، عبد الغفار ، سعيد ، عبد الوهاب بن الضحاك) عن إسماعيل بن عياش به ، وقال الطبراني : « لا يُرْوىٰ هذا الحديث عن أبي زهير إلا بهذا الإسناد ، تفرد به إسماعيل بن عياش » قلت : وهو ثقة في روايته عن الشاميين وهذه منها ، وضمضم بن زرعة وإن ضعفه أبو حاتم فقد وثقه ابن معين وابن نمير ، وفي « التقريب » : صدوق يهم ولذا جوَّد إسناده الألباني ، لكن توقف فيه البيهقي فقال : « وهذا إن صح فإنما أراد به - واللَّه أعلم - إذا لم يتعرض لإفساد المزارع ، فإذا تعرض له جاز دفعه بما يقع به الدفع من القتال والقتل ، أو أراد به تعذر مقاومته بالقتال والقتل » وأما إعلال الهيثمي الحديث بمحمد بن إسماعيل - حيث قال في « المجمع » (٤٢/٤) : « رواه الطبراني في « الكبير » و « الأوسط » وفيه محمد ابن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف » - فمردود بمتابعة سَبْعَةٍ لمحمد بن إسماعيل بن عياش فتنبه !!

[١] - في ز : « القبتي » . [٢] - سقط من : ز .
[٣] - في خ ، ز : « أبي » . [٤] - في خ ، ز : « الصوب » .
[٥] - في خ ، ز : « أبو بقي » وهو خطأ والصواب ما أثبتناه من كتب الرجال .
[٦] - في خ ، ز : « المزنى » .

بقية بن الوليد ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن ضمضم بن زرعة ، عن شريح بن عبيد ، عن أبي زهير النميري قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **لا تقاتلوا[١] الجراد ، فإنه جند اللَّه الأعظم** » . غريب جدًّا .

وقال ابن أبي نجيح : عن مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد** ﴾ قال : كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب .

وروىٰ ابن عساكر(١٥٦) : من حديث علي بن زيد الخرائطي[٢] ، عن محمد بن كثير ، سمعت الأوزاعي يقول : خرجت إلىٰ الصحراء ، فإذا أنا برِجْل من جراد في السماء ، وإذا[٣] برجل راكب علىٰ جرادة منها وهو شاك في الحديد ، وكلما قال بيده هكذا مال الجراد مع يده وهو يقول : الدنيا باطل ، باطل ما فيها ، الدنيا باطل ، باطل ما فيها ، الدنيا باطل ، باطل ما فيها .

وروىٰ الحافظ أبو الفرج المعافىٰ بن زكريا الجريري[٤] : حدثنا محمد بن الحسن بن زياد ، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم ، أخبرنا وكيع ، عن الأعمش ، أنبأنا عامر قال : سئل شريح القاضي عن الجراد ، فقال : قبح اللَّه الجرادة ، فيها خلقة سبعة جبابرة ، رأسها رأس فرس ، وعنقها عنق ثور ، وصدرها صدر أسد ، وجناحها جناح نسر ، ورجلاها رجلا جمل . وذنبها ذنب حية ، وبطنها بطن عقرب .

وقدمنا عند قوله تعالىٰ : ﴿ **أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعًا لكم وللسيارة** ﴾(١٥٧) حديث حماد بن سلمة ، [عن أبي المهزم ، عن أبي هريرة][٥] قال : خرجنا مع رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم في حج أو عمرة ، فاستقبلنا رِجْل جراد ، فجعلنا نضربه بالعصي ونحن محرمون ، فسألنا رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، فقال : « **لا بأس بصيد البحر** » .

وروىٰ ابن ماجة(١٥٨) : عن هارون الحمال[٦] ، عن هاشم[٧] بن القاسم ، عن زياد بن عبد اللَّه بن

(١٥٦) - والقصة ذكرها أبو الشيخ في « العظمة » (١٣٠٢/٥) عن الأوزاعي بنحو ماهنا .
(١٥٧) - تقدم تخريجه [سورة المائدة/ آية ٩٦] .
(١٥٨) - **ضعيف** رواه ابن ماجه كتاب : الصيد ، باب : صيد الحيتان والجراد (٣٢٢١) ، وأخرجه =

[١] - في ز : « تقابلوا » . [٢] - في ز : « الفرايطني » .
[٣] - في ت : « فإذا » .
[٤] - في خ ، ز : « الحريري » وهو خطأ وصوابه المثبت وهو مترجم في « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ٥٤٤) وهو « الجريري » نسبة إلى رأي ابن جرير الطبري .
[٥] - سقط من : خ ، ز .
[٦] - في ز : الحماني ، وهو تحريف . [٧] - في ز : « هشام » .

علاثة [ ] [١]عن موسىٰ بن [ ] [٢] محمد بن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ، عن أنس وجابر عن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، أنه كان إذا دعا علىٰ الجراد قال : « **اللَّهم أهلك كباره واقتل صغاره ، وافسد بيضه واقطع دابره ، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا ، إنك سميع الدعاء** » . فقال له جابر: يا رسول الله أتدعو علىٰ جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ فقال : « **إنما هو نثرة[٣] حوت في البحر** » . قال هاشم : أخبرني زياد : أنه أخبره من رآه ينثره[٤] الحوت ، قال من حقق ذلك : إن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء[٥] عنه وبدا للشمس ، أنه يفقس كله جرادًا طيارًا .

وقدمنا عند قوله : ﴿ **إلا أمم أمثالكم** ﴾(١٥٩) حديث عمر - رضي الله عنه - : « **أن الله خلق ألف أمة ؛ ستمائة في البحر وأربعمائة في البر ، وإن أولها هلاكًا الجراد** » .

وقال أبو بكر بن أبي داود(١٦٠) : حدثنا يزيد بن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن بن قيس ،

= الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٧٨/٨ ، ٤٧٩) - ومن طريقه ابن الجوزي في « الموضوعات » (١٤/٣) وكذا ذكره من طريقه السيوطي في « اللآلئ المصنوعة » - من طريق هارون بن عبد الله به ، وذكره المصنف عند [آية رقم ٩٦/ سورة المائدة] كما هنا وقال : « تفرد به ابن ماجه » كذا قال ، وأخرجه الترمذي ، كتاب : الأطعمة ، باب : ما جاء في الدعاء على الجراد (١٨٢٤ ط دعاس) - وقد عزاه للترمذي المزي في « التحفة » (١/رقم ١٤٥١) - وقال الترمذي : « حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وموسى بن محمد بن إبراهيم التيمي قد تكلم فيه ، وهو كثير الغرائب والمناكير ، وأبوه محمد بن إبراهيم ثقة ، وهو مدني » وقال ابن الجوزي : « هذا لا يصح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يحيى : موسى بن محمد ليس بشيء ، ولا يكتب حديثه ، وقال النسائي : منكر الحديث ، وقال : الدارقطني ، متروك » واستنكره له الذهبي في « الميزان » (٥/ت ٨٩١٤) وضعف إسناده ابن حجر في « الفتح » (٦٢١/١) وعزاه إلى ابن ماجه فحسب . وانظر - غير مأمور - « تنزيه الشريعة » لأبي الحسن الكناني (٢٥٢/٢) و« تذكرة الموضوعات » للفتني (ص١٥٤ ، ١٥٥) و« الفوائد المجموعة » للشوكاني (١٧٤) و« الضعيفة » للألباني (١/رقم ١١٢) وفي الباب عن ابن عمر عند الحاكم في « تاريخ نيسابور » - كما في « تنزيه الشريعة » وزاد نسبته إلى الطبراني - وعن الحاكم أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠١٣٠/٧) وفي إسناده محمد بن عثمان القيسي ، جهله البيهقي ، واستنكر الحديث وبه أعل الحديث السيوطي في « الدر المنثور » (٢٠٥/٣).

(١٥٩) - [آية رقم ٣٨/ سورة الأنعام] .

(١٦٠) - **إسناده ضعيف بمرّة** ، وآفته سلم بن سالم هذا وهو البلخي الزاهد ضعفه ابن معين ، وقال مرة : ليس بشيء ، وقال أحمد : ليس بذاك ، وقال أبو زرعة : لا يكتب حديثه ... وقال النسائي : ضعيف =

[١] - في ز : « عن أبي المهزم ، عن أبي هريرة » . وكأن الناسخ انتقل نظره ، فنقلها من الإسناد الذي أعلاه إلى هنا ، والله أعلم .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « أبي » . [٣] - في ز : « بثرة » .

[٤] - في ز : « يستره » . [٥] - في ز : « الباء » .

[حدثنا سلم][١] بن سالم ، حدثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمد بن مالك ، عن البراء بن عازب قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « **لا وَبَاء[٢] مع السيف ، ولا نَجَاء[٣] مع الجراد** » . حديث غريب.

وأما القمل ؛ فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة . وعنه : أنه الدبى[٤] . وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له ، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة.

وعن الحسن وسعيد بن جبير : القمل دواب سود صغار .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : القمل البراغيث .

وقال ابن جرير : القمل جمع واحدتها قُمَّلة ، وهي دابة تشبه القمل تأكلها الإبل فيما بلغني ، وهي التي عناها الأعشى[٥] بقوله :

[قَوْمٌ تُعَالِجُ[٦] قُمَّلًا أَبْنَاؤُهُمْ[٧] وَسَلاسِلًا أُجُدًا وَبَابًا مُؤْصَدَا][٨]

قال : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب : الحَمْنان[٩] ، واحدتها حمنانة[١٠] ، وهي صغار القِرْدان فوق القَمْقَامة[١١] .

= وقال ابن المبارك - فيما رواه أبو زرعة عن بعض الخراسانيين عنه - : اتق حيات سلم لا تلسعك ... وقال الخليلي : أجمعوا على ضعفه انظر « لسان الميزان » (٣/ت ٣٨٥٢) والحديث عزاه الهندي في « الكنز » (٣٠٨٧١) والسيوطي في « الجامع الصغير » (٦/٤٣٩ - فيض القدير) إلى ابن صَصْرى في « أماليه » ورمز له بالضعف ، وأقره المناوي ، وكذا الألباني فأودعه في « ضعيف الجامع الصغير » (٦/٦٣٣٠) .

قال المناوي : « الوباء مرض عام ، وقد جرت العادة الإلهية أنه لا يجتمع مع القتال بالسيف في قطر واحد ، فإن وقع الوباء في قطر لا يقع السيف معه وعكسه ، والجراد إذا وقع بأرض لا نبات للزرع معه لأنه يجرد الأرض بأكله ما فيها فتصير جردًا لا نبات فيها ولذلك سمي جرادًا » .

---

[١] - في خ ، ز : «سالم» .
[٢] - في خ : «دباء» ، وفي ز : « دبا » .
[٣] - في ز : « لجا » .
[٤] - في خ ، ز : « الدبا » .
[٥] - في ز : «الأعمش » .
[٦] - في ز : « تقابح » .
[٧] - سقط من : ز .
[٨] - البيت في خ : هكذا « قوم تقابح قملا وسلاسلا أبعدا وبابا موصدا » .
[٩] - في خ : « الحمان » .
[١٠] - في خ : «الحمانة» .
[١١] - القمقامة : صغار القردان (جمع قراد) وهو أول ما يكون صغيرًا ، لايكاد يرى من صغره ، وهو أيضًا ضرب من القمل شديد التشبث بأصول الشعر [نقلًا عن « هامش تفسير ابن جرير » (١٣/٥٦)].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير(١٦١) : حدثنا ابن حميد الرازي ، حدثنا يعقوب القمي ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير قال : لما أتىٰ موسىٰ - عليه السلام - فرعون قال له : أرسل معي بني إسرائيل [فأبى عليه][١]، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر ، فصب عليهم منه شيئًا ، خافوا أن يكون عذابًا ، فقالوا لموسىٰ : ادع لنا ربك يكشف عنا المطر ، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فأنبت لهم في تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار[٢] والكلأ ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنىٰ ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه علىٰ الكلأ ، فلما رأوا أثره في[٣] الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع ، فقالوا : يا موسىٰ ادع لنا ربك يكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فداسوا وأحرزوا في البيوت ، فقالوا : قد أحرزنا ، فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه ، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلىٰ الرحىٰ ، فلا يرد منها ثلاثة أقفزة ، فقالوا لموسىٰ ادع لنا ربك يكشف عنا القمل ، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل ، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع ، فقال لفرعون : ما تلقىٰ أنت وقومك من هذا ؟ فقال[٤] : وما عسىٰ أن يكون كيد هذا ؟ فما أمسوا حتىٰ كان الرجل يجلس إلىٰ ذقنه في الضفادع ، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه ، فقالوا لموسىٰ : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع ، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، [فدعا ربه ، فكشف عنهم فلم يؤمنوا][٥] وأرسل الله عليهم الدم ، فكان[٦] ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دمًا عبيطًا[٧]، فشكوا إلىٰ فرعون فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب ، فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا : من أين سحرنا ؟ ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطًا[٨] ، فأتوه وقالوا : يا موسىٰ ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم ، فنؤمن لك[٩] ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل .

وقد روي نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف .

---

(١٦١) - تفسير ابن جرير (١٥٠١٤/١٣) وأخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٦٤/٥، ٨٨٧١ ، ٨٨٧٦، ٨٨٨٠) من طريقين عن يعقوب القمي به مفرقًا ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٠٤/٣) إلى ابن المنذر .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز ، ت ، وأثبتناه من تفسير ابن جرير (١٥٠١٤/١٣) .
[٢] - في ز : « الثمر » . [٣] - في ز : « على » .
[٤] - في ز : « قال » . [٥] - سقط من : خ ، ز .
[٦] - في ز : « فكانوا » . [٧] - في ز : « غبيطًا » .
[٨] - في ز : « غبيطًا » . [٩] - في ز : « بك » .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله(١٦٢) : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبًا مغلولًا ، ثم أبىٰ إلا الإقامة علىٰ الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه [الآيات وأخذه][١] بالسنين ، فأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات. فأرسل[٢] الطوفان - وهو الماء - ففاض علىٰ وجه الأرض ثم ركد لا يقدرون علىٰ أن يحرثوا ولا يعملوا شيئًا حتىٰ جُهدوا جوعًا ، فلما بلغهم ذلك ﴿ **قالوا يا موسىٰ ادع لنا ربك [بما عهد عندك][٣] لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل** ﴾ ، فدعا موسىٰ ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء [مما قالوا][٤] ، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني ، حتىٰ إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتىٰ تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذُكر لي أن موسىٰ - عليه السلام - أمر أن يمشي إلىٰ كثيب حتىٰ يضربه بعصاه ، فمشىٰ إلىٰ كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها فانثال[٥] عليهم قملًا حتىٰ غلب علىٰ البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم ، قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه فكشف[٦] عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت[٧] عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فسأل ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دمًا ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا[٨].

وقال ابن أبي حاتم(١٦٣) : حدثنا أحمد بن منصور المروزي ، أنا النضر ، أنا[٩] إسرائيل ، أنا جابر بن يزيد[١٠] ، عن عكرمة ، عن[١١] عبد[١٢] الله بن عمرو قال[١٣] : لا تقتلوا الضفادع ، فإنها لما أرسلت علىٰ [قوم فرعون][١٤] انطلق ضفدع منها فوقع في تنور فيه نار

(١٦٢) - ورواه من طريق محمد بن إسحاق ابن جرير في تفسيره (١٣/١٥٠٢٣) .

(١٦٣) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٥/٨٨٧٩) وجابر بن يزيد هو الجعفي ضعيف .

[١] - في ز : « بالآيات فواخذه » .

[٢] - في ز : « فأصل » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٥] - في ز : « فأسال » .

[٦] - في ز : « فكسفه » .

[٧] - في ز : « غلب » .

[٨] - في ز : « غبيطًا » .

[٩] - في ز : « أبا » .

[١٠] - في ز : « زيد » .

[١١] - في ز : « قال » .

[١٢] - في ت : « عبيد » .

[١٣] - سقط من : ز .

[١٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « بني إسرائيل » وكذا في المطبوع من ابن أبي حاتم (٥/٨٨٧٩) وهو خطأ.

يطلب[١] بذلك مرضاة الله ، فأبدلهن الله [من هذا][٢] أبرد شيء يعلمه من الماء ، وجعل نقيقهن التسبيح . وروي من طريق عكرمة ، عن ابن عباس نحوه.

وقال زيد بن أسلم : يعني بالدم الرعاف . رواه ابن أبي حاتم(١٦٤) .

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة [أنه][٣]، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم ، وهو البحر الذي فَرَقه لموسىٰ فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم وَرَدَهُ فرعون وجنوده علىٰ أثرهم ، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم ، فغرقوا عن آخرهم ، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها .

وأخبر تعالىٰ أنه أورث القوم الذين[٤] كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - [﴿ **مشارق الأرض ومغاربها** ﴾[٥]، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ونريد أن نمن علىٰ الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قومًا آخرين** ﴾.

وعن الحسن البصري وقتادة في قوله : ﴿ **مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها** ﴾ يعني : الشام.

وقوله : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنىٰ علىٰ بني إسرائيل بما صبروا** ﴾ قال مجاهد وابن جرير[٦] : وهي قوله تعالىٰ : ﴿ **ونريد أن نمن علىٰ الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم[٧] ما كانوا**

(١٦٤) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٨٨٨٣/٥) وكذا رواه ابن جرير في تفسيره (١٥٠٢٨/١٣) .

[١] - في ز : « طلب » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من خ .
[٤] - في خ : « الذي » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٦] - ابن جرير في تفسيره (٧٧/١٣) .
[٧] - سقط من : ز .

يحذرون ﴾ .

وقوله : ﴿ **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه** ﴾ [أي : وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع][١] ﴿ **وما كانوا يعرشون** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : ﴿ **يعرشون** ﴾ : يبنون .

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

يخبر تعالىٰ عما قاله جَهَلَةُ بني إسرائيل لموسىٰ - عليه السلام - حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات اللَّه وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿ **فأتوا** ﴾ أي : فمروا ﴿ **علىٰ قوم يعكفون علىٰ أصنام لهم** ﴾ قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين . وقيل : كانوا من لخم.

قال ابن جريج[٢] : وكانوا يعبدون أصنامًا علىٰ صور البقر ، فلهذا أثار[٣] ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا : ﴿ **يا موسىٰ اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون** ﴾ .

أي : تجهلون عظمة اللَّه وجلاله ، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل .

﴿ **إن هؤلاء متبر ما هم فيه** ﴾ أي : هالك ﴿ **وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ .

ورویٰ الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه الآية(١٦٥) : من حديث محمد بن إسحاق وعقيل ومعمر ، كلهم عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان ، عن أبي واقد[٤] الليثي : أنهم خرجوا من مكة مع رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وآله وسلم ، إلىٰ حنين ، قال : وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط ، قال : فمررنا بسدرة

(١٦٥) - **صحيح** تفسير ابن جرير (١٣/ ١٥٠٥٧ ، ١٥٠٥٨ ، ١٥٠٥٦) ومن طريق ابن إسحاق أخرجه ابن هشام في « السيرة » (٨٩٣/٤) والطبراني في « الكبير » (٣٢٩٣/٣) والبيهقي في « الدلائل » (٥/ ١٢٤ ، ١٢٥) ومن طريق عقيل - وهو ابن خالد ، أخرجه أحمد في « المسند » (٢١٨/٥) والبخاري في « التاريخ الكبير » (١٦٣/٤) وطريق معمر هو الآتي .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في ت : « جرير » .
[٣] - في ز : « أثر » .
[٤] - في ز : « وافد » .

خضراء عظيمة ، قال : فقلنا : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : « **قلتم - والذي نفسي بيده - كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ : ﴿ اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾** » .

وقال الإمام أحمد(١٦٦) : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان الديلي[١] ، عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت : يا نبي الله ! اجعل لنا هذه[٢] ذات أنواط ، كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها ، فقال النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ : ﴿ اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم** » .

ورواه ابن أبي حاتم(١٦٧) : من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني ، عن أبيه ، عن جده مرفوعًا .

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ

---

(١٦٦) - « المسند » (٥/٢١٨) - والحديث عند عبد الرزاق في « التفسير » (٢/٢٣٥) وفي « المصنف » (١١/٢٠٧٦٣) - ومن طريق عبد الرزاق أخرجه النسائي في « التفسير من الكبرى » (٦/١١١٨٥) والطبراني في « الكبير » (٣/٣٢٩٠) وأخرجه الطيالسي (١٣٤٦) - وفيه سقط يستدرك من هنا - والحميدي (٨٤٨) - ومن طريقه الطبراني (٣/٣٢٩٢) - وأحمد (٥/٢١٨) والترمذي ، كتاب : الفتن ، باب : ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٢١٨١) وابن أبي عاصم في « السنة » (١/رقم ٧٦) وأبو يعلى في « المسند » (٣/١٤٤١) ، وابن أبي حاتم في « التفسير » (٥/٨٩٠٦) وابن حبان (١٥/٦٧٠٢) والطبراني (٣/٣٢٩١ ، ٣٢٩٤) والبيهقي في « الدلائل » (٥/١٢٥) من طرق عن الزهري بهذا الإسناد . وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » ، وسنده صحيح على شرط مسلم ، رجاله كلهم ثقات ، وأبو واقد الليثي صحابي جليل مشهور بكنيته واختلف في اسمه ، فقيل اسمه الحارث بن مالك وقيل ابن عوف وقيل : اسمه عوف بن الحارث .

(١٦٧) - **إسناده ضعيف** « التفسير » لابن أبي حاتم (٥/٨٩١٠) وكذا أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٧/ رقم ٢٧) وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٣/٢١٣) إلى ابن مردويه ، وكثير بن عبد الله ضعفه ابن معين ويعقوب بن سفيان ، وابن البرقي ، وقال أحمد : « منكر الحديث ليس بشيء » وقال أبو حاتم : ليس بالمتين ، وقال أبو زرعة : واهي الحديث ، ليس بقوي ، وتركه النسائي والدارقطني ، وقال ابن عدي : « عامة ما يرويه لا يتابع عليه » « تهذيب الكمال » (٢٤/ت ٤٩٤٨) والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (٧/ ٢٧) وقال : « رواه الطبراني وفيه كثير بن عبد الله وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه » .

---

[١] - سقط من : خ ، ز .   [٢] - سقط من : ت .

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ١٤١﴾

يذكرهم موسىٰ - عليه السلام - بنعمة اللَّه عليهم ، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة . وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره[١] ، وقد تقدم تفسيرها في البقرة .

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾

يقول تعالىٰ ممتنًا علىٰ بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسىٰ عليه السلام ، وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم ، فذكر تعالىٰ أنه واعد موسىٰ ثلاثين ليلة .

قال المفسرون: فصامها موسىٰ - عليه السلام - فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة ، فأمره اللَّه تعالىٰ أن يكمل بعشرة أربعين .

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر : ما هي ؟ فالأكثرون علىٰ أن الثلاثين هي ذو القعدة ، والعشر عشر ذي الحجة . قاله مجاهد ومسروق وابن جريج ، وروي عن ابن عباس وغيره[٢] . فعلىٰ هذا يكون قد كمل الميقات[٣] يوم النحر ، وحصل فيه التكليم لموسىٰ عليه السلام ، وفيه أكمل اللَّه الدين لمحمد صلىٰ اللَّه عليه وسلم كما قال تعالىٰ : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** ﴾ .

فلما تم الميقات وعزم موسىٰ علىٰ الذهاب إلىٰ الطور ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن** ﴾ الآية ، فحينئذ استخلف موسىٰ علىٰ بني إسرائيل أخاه هارون ، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد ، وهذا تنبيه وتذكير ، وإلا فهارون - عليه السلام - نبي شريف كريم علىٰ اللَّه ، وله وجاهة وجلالة ، صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلىٰ سائر الأنبياء[٤] .

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى

[١] - في ز : « وذماره » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز : « الميثاق » .
[٤] - في ز : « أنبياء اللَّه » .

﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (١٤٣)

يخبر تعالىٰ عن موسىٰ - عليه السلام - أنه لما جاء لميقات اللَّه تعالىٰ وحصل له التكليم من اللَّه سأل اللَّه تعالىٰ أن ينظر إليه فقال : ﴿ **رب أرني أنظر إليك قال لن تراني** ﴾ .

وقد أشكل حرف (لن) هاهنا علىٰ كثير من العلماء ؛ لأنها موضوعة لنفي التأبيد ، فاستدل به المعتزلة علىٰ نفي الرؤية في الدنيا والآخرة ، وهذا أضعف الأقوال ؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم بأن المؤمنين يرون اللَّه في الدار الآخرة ؛ كما سنوردها عند قوله تعالىٰ : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلىٰ ربها ناظرة** ﴾[١] .

وقوله تعالىٰ إخبارًا عن الكفار : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ .

وقيل : إنها لنفي التأبيد في الدنيا ، جمعًا بين هذه الآية وبين الدليل القاطع علىٰ صحة الرؤية[٢] في الدار الآخرة .

و[٣]قيل : إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالىٰ : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ . وقد تقدم ذلك في الأنعام.

وفي الكتب المتقدمة : أن اللَّه تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام : « **يا موسىٰ ! إنه لا يراني حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده** » ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكًا وخر موسىٰ صعقًا** ﴾ .

قال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية(١٦٨) : حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي ،

---

(١٦٨) - **إسناده فيه جهالة وهو حديث صحيح** رواه ابن جرير (١٥٠٨٦/١٣) وأخرجه ابن مردويه في تفسيره - كما في « اللآلئ المصنوعة » (٣٠/١) - من طريق شعيب بن عبد الحميد الطحان عن قرة بن عيسى به ، وفوق جهالة الراوي عن أنس ، فإن شيخ ابن جرير وشيخ شيخه لم يوجد لهما ترجمة - أفاده محقق تفسير ابن جرير - قلت : أما شيخ شيخ ابن جرير فمُسلّم ، لكن شيخه تُرجم له في « اللسان » =

---

[١] - وانظر أيضًا تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ...** ﴾ [آية رقم ٢٦/من سورة يونس] .

[٢] - في ز : « الرواية » . [٣] - سقط من ز .

حدثنا قُرَّة بن عيسىٰ ، حدثنا الأعمش ، حدثنا عن رجل ، عن أنس عن النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، قال : « **لما تجلىٰ ربه للجبل أشار بأصبعه ، فجعله دكا** » . وأرانا أبو إسماعيل بأصبعه السبابة .

هذا الإِسناد فيه رجل مبهم لم يسم ، ثم قال(١٦٩) :

حدثني المثنىٰ ، حدثنا الحجاج[١] بن منهال ، حدثنا حماد ، [عن ليث][٢] ، عن أنس : أن النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، قرأ هذه الآية ﴿ **فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكًا** ﴾ قال[٣] هكذا بأصبعه - ووضع النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، أصبعه الإِبهام علىٰ المفصل الأعلىٰ من الخنصر ، فساخ الجبل .

هكذا وقع في هذه الرواية : حماد بن سلمة [ ][٤] ، عن ليث ، عن أنس . والمشهور : حماد ابن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، كما قال ابن جرير(١٧٠) :

حدثني المثنىٰ ، حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابتٍ ، عن أنس قال : قرأ رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : ﴿ **فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكًا** ﴾ قال : « **وضع**

= (١/رقم ٥٩٤) وقال فيه أبو أحمد الحاكم : في حديثه بعض مناكير ، لكن ذكره ابن حبان في « الثقات » (٥١/٨) وقال : « يروى عن صلة بن سليمان ، ثنا عنه حبيش بن عبد اللّٰه النيلى بواسط » . وأخرجه ابن عدي في « الكامل » (٣٤٢/١) ومن طريقه ابن الجوزي في « الموضوعات » (١٢١/١) من طريق أيوب بن خوط عن قتادة عن أنس مرفوعًا بلفظ « **لما تجلى ربه للجبل أشار بإصبعه فمن نورها جعله دكا** » وقال ابن الجوزي : « وهذا ليس بصحيح ، قال يحيى بن معين : لا يكتب حديث ايوب ، ليس بشيء ، وقال الفلاس وأبو حاتم الرازي ، والنسائي والسعدي والدارقطني : متروك ، وقال ابن حبان : منكر الحديث جدًّا ، روى المناكير عن المشاهير فكان مما عملت يداه » لكنه متابع يأتي برقم (١٧٥) .

(١٦٩) - تفسير ابن جرير أيضًا (١٥٠٨٧/١٣) .

(١٧٠) - تفسير ابن جرير أيضًا (١٥٠٨٨/١٣) ومن طريق هدبة بن خالد أخرجه أبو القاسم البغوي - ذكره المصنف هنا يأتي برقم (١٧٣) ونقل عن أبي القاسم البغوي قال: « إسناده صحيح لاعلة فيه » - وابن أبي عاصم في « السنة » (١/رقم ٤٨٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٦٧٧/٢) ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٢٢/١) ، والحاكم في «المستدرك» (٢٥/١) (٥٧٧/٢) - وصححه =

---

[١] - في ز : « حجاج » .

[٢] - كذا نقله عن ابن جرير والذي في تفسير ابن جرير (١٥٠٨٧/١٣/شاكر) : « ... ثنا حماد عن ثابت عن أنس » ونقل محقق تفسير ابن جرير هذا الإسناد كما هنا عن هذا الموضع ثم قال : « وليس ذلك كما نقل ، فإن الثابت في المخطوطة والمطبوعة ، « حماد ، عن ثابت ، عن أنس » ليس فيها « ليث » فلا أدرى كيف وقع هذا للحافظ ابن كثير ولا من أين ؟؟ وأخرجه ابن خزيمة في « التوحيد » (١/ ٢٦٣) من طريق الحجاج بن منهال به على الجادة .

[٣] - قال هنا بمعنى أشار . انظر النهاية (١٢٤/٤) .

[٤] - ما بين المعكوفتين في : ت ، ز : عن ثابت .

الإبهام قريبًا من طرف خنصره ، قال : فساخ الجبل » ، قال حميد لثابت : تقول[١] هذا ؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد وقال : يقوله رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ويقوله أنس ، وأنا أكتمه ؟.

وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده(١٧١) : حدثنا أبو المثنىٰ معاذ بن معاذ العنبري ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا ثابت البناني ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، في قوله : ﴿ **فلما تجلىٰ ربه للجبل** ﴾ قال : قال : « هكذا » ، يعني : أنه أخرج طرف الخنصر . قال أحمد : أرانا معاذ ، فقال له حميد الطويل : ما تريد إلىٰ هذا يا محمد ؟ قال : فضرب صدره ضربة شديدة ، وقال : من أنت يا أبا[٢] حميد؟ ! وما أنت يا أبا حميد ؟ ! يحدثني به أنس ابن مالك عن النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، [فتقول أنت][٣]: ما تريد إليه ؟ .

وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية : عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق ، عن معاذ بن معاذ به . وعن عبد اللّٰه بن عبد الرحمن الدارمي ، عن سليمان بن حرب ، عن حماد به ، ثم قال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث حماد .

وهكذا رواه الحاكم في مستدركه(١٧٢) من طرق ، عن حماد بن سلمة ، به ، وقال : « هذا

= على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وقال ابن الجوزي : « هذا حديث لا يثبت ، قال ابن عدي الحافظ : « كان ابن أبي العرجاء ربيب حماد بن سلمة فكان يدس في كتبه هذه الأحاديث » كذا قال ، وتعقبه السيوطي في « اللآلئ المصنوعة » (١/ ٣٠) فقال : « هذا الحديث صحيح رواه خلق عن حماد ، وأخرجه الأئمة من طرق عنه وصححوه ... وقال ابن طاهر في «تذكرة الحفاظ» - (٢/رقم ١٥٢٣) - أورد ابن عدي هذا الحديث في ترجمة حماد بن سلمة ، ولعله أشار إلى تفرده به وحماد إمام ثقة » وفي تلخيص موضوعات الجوزقاني للذهبي : « هذا حديث غريب ، ولا يحل أن يذكر في الموضوعات » « تنزيه الشريعة » (١/ ١٤٥) .

(١٧١) - « المسند » (٣/ ١٢٥) وعنه ابنه عبد اللّٰه في « السنة » (١/رقم ٥٠٠) وأخرجه الترمذي ، كتاب : التفسير ، باب : ومن سورة الأعراف (٣٠٧٦) وابن أبي عاصم في « السنة » (١/رقم ٤٨١) وابن خزيمة في «التوحيد» (١/رقم ١٦٢) وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ٨٩٣٦) من طريق معاذ بن معاذ به ، وأخرجه الترمذي أيضًا وعبد اللّٰه بن أحمد في (١/ ٥٠٣) وابن خزيمة (١/ص ٢٦٣) والحاكم (٢/ ٣٢٠ ، ٣٢١) من طريق سليمان بن حرب - مقرونا به محمد بن كثير عند عبد اللّٰه بن أحمد - عن حماد بن سلمة به، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة » .

(١٧٢) - « المستدرك » (١/ ٢٥) (٢/ ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٥٧٧) وأخرجه أحمد (٣/ ٢٠٩) وابنه عبد اللّٰه في « السنة » (١/رقم ٥٠٢) ، وابن خزيمة (١/ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢) وابن أبي حاتم (٥/ ٨٩٤٠)=

[١] - في ز : « يقول » .

[٢] - زيادة من : ز .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « يقول » .

حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ، ولم يخرجاه ».

ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال(١٧٣) ، عن محمد بن علي بن سويد ، عن أبي القاسم البغوي ، عن هدبة[١] بن خالد ، عن حماد بن سلمة ، فذكره وقال : هذا إسناد صحيح لا علة فيه .

وقد رواه داود بن المحبر[٢](١٧٤) ، عن شعبة ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعًا بنحوه[٣]، وأسنده ابن مردويه(١٧٥) من طريقين ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن أنس مرفوعًا بنحوه .

[وأسنده ابن مردويه(١٧٦) ، من طريق ابن البيلماني ، عن أبيه ، عن ابن عمر مرفوعًا][٤] ، ولا يصح أيضًا .

وقال السدي : عن عكرمة ، عن ابن عباس في قول الله تعالىٰ : ﴿ **فلما تجلىٰ ربه للجبل** ﴾ قال : ما تجلىٰ منه إلا قدر الخنصر ﴿ **جعله دكا** ﴾ قال : ترابا ﴿ **وخر موسىٰ صعقًا** ﴾ قال :

= وابن الأعرابي في « معجمه » (٣/رقم ٤٠٥) وابن منده في « الرد على الجهمية » (رقم ٧٠) وابن مردويه والبيهقي في « كتاب الرؤية » والضياء المقدسي في « المختارة » وصححه - كما في « اللآلئ المصنوعة » (٣٠/١) - من طرق عن حماد بن سلمة ، به .

(١٧٣) - انظر رقم (١٧٠) .

(١٧٤) - وداود بن المحبر متروك - كما في « التقريب » لكن وتابعه سعيد بن عامر عن شعبة به أخرجه ابن منده في « الرد على الجهمية » (رقم ٥٩) أخبرنا أحمد بن محمد بن زياد ثنا أحمد بن محمد الصيدلاني البغدادي ثنا سعيد بن عامر به ، ورجاله ثقات سوى أحمد بن محمد الصيدلاني ترجم له الخطيب (٥/ ١٣٧) ولم يذكر فيه شيئًا ، وقال ابن منده : « وهو من حديث شعبة غريب مرفوع » .

(١٧٥) - ومن طريق سعيد بن أبي عروبة أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/رقم ٤٨٢ ، ٤٨٣) - وصحح إسناده الألباني - وعبد الله بن أحمد في « السنة » (١/رقم ٥٠١) ومن طريقه ابن منده في « الرد على الجهمية » معلقًا (٦٠) ووصله عند رقم (٧١) والطبراني في « السنة » - كما في « اللآليء المصنوعة » (٢٩/١) - كلهم من طريق سعيد بن أبي عروبة به وعزاه السيوطي في «اللآليء المصنوعة » إلى أبي الشيخ في « التفسير » من طريق أحمد بن محمد الصيدلاني ثنا إسحاق بن داود بن المحبر ثنا همام عن قتادة به وقال ابن منده : « هذا حديث مشهور ، وقد روي من طرق عن أنس بن مالك » .

(١٧٦) - وعزاه لابن مردويه السيوطي في « اللآليء المصنوعة » (٣٠/١) - من طريق المسيب بن شريك عن ابن البيلماني به ، وهذا إسناد مسلسل بالضعفاء ، ابن البيلماني هو محمد بن عبد الرحمن ، ضعيف هو وأبوه والابن أشد ضعفًا - مترجم لهما في « التهذيب » - والمسيب بن شريك ، قال أحمد : ترك الناس حديثه ، وقال البخاري : سكتوا عنه ، وقال مسلم وجماعة : « متروك » وهو مترجم له في « اللسان » .

[١] - في ز : « هدبة » .
[٢] - في ز : « المحير » .
[٣] - زيادة من : ز .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

مغشيًا عليه .

رواه ابن جرير(١٧٧) .

وقال قتادة : ﴿ **وخر موسىٰ صعقًا** ﴾ قال : ميتًا .

وقال سفيان الثوري : ساخ الجبل في الأرض حتىٰ وقع في البحر ، فهو يذهب معه .

وقال سنيد : عن حجاج بن محمد الأعور ، عن أبي بكر الهذلي ﴿ **فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكًا** ﴾ : انقعر فدخل تحت الأرض ، فلا يظهر إلىٰ يوم القيامة .

وجاء في بعض الأخبار : أنه ساخ في الأرض ، فهو يهوي فيها إلىٰ يوم القيامة . رواه ابن مردويه .

وقال ابن أبي حاتم(١٧٨) : حدثنا عمر بن شبة ، حدثنا محمد بن يحيىٰ أبو غسان الكناني ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، عن معاوية بن عبد الله ، عن الجلد بن أيوب ، [عن معاوية][١] بن قرة، عن أنس بن مالك : أن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : « **لما تجلىٰ الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل ، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة ؛ بالمدينة : أحد وَوَرِقان[٢] ورضوىٰ . ووقع بمكة : حراء[٣] وثَبِير وثور** » .

---

(١٧٧) - تفسير ابن جرير (١٣/١٥٠٧٨) وكذا أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (١/رقم ٤٨٤) وعبد الله بن أحمد في « السنة » (١/رقم ٥٠٤) وابن أبي حاتم في « التفسير » (٥/٨٩٣٧) من طريق عمرو بن محمد العنقزي - تحرف عند ابن جرير إلى محمد بن عمرو - ثنا أسباط عن السدي ، به .

(١٧٨) - موضوع « التفسير » لابن أبي حاتم (٥/٨٩٣٩) وأخرجه ابن حبان في « المجروحين » (١/٢١١) والمحاملي في « الأمالي » (١/١٧٢/١) - نقلًا عن « الضعيفة » للألباني (١/رقم ١٦٢) - ومن طريقه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١٠/٤٤٠ ، ٤٤١) ، ومن طريق البغدادي ابن الجوزي في « الموضوعات » (١/١٢٠) - وابن الأعرابي في «معجمه» - كما في « الضعيفة » أيضًا - وأبو الشيخ وابن مردويه - كما في « اللآلئ المصنوعة » (١/٢٨) - كلهم من طريق عبد العزيز بن عمران به ، قال ابن حبان : « موضوع لا أصل له » وقال البغدادي : « هذا الحديث غريب جدًّا » ونقل ابن الجوزي كلام ابن حبان وأبان علة الحكم عليه بالوضع فقال: «عبد العزيز بن عمران يروي المناكير عن المشاهير ، وقال يحيى بن معين : ليس بثقة ، وقال البخاري : منكر الحديث لا يكتب حديثه ، وقال النسائي : متروك الحديث » وأورده الذهبي في ترجمته في « الميزان » (٣/ت ٥١١٩) وتعقب السيوطي ابن الجوزي في الحكم عليه بالوضع - بمالا يقوى ، وانظر « تنزيه الشريعة » لابن عراق (١/١٤٣ ، ١٤٤) ، « والفوائد المجموعة » للشوكاني (ص ٤٤٥) و« الضعيفة » للألباني .

---

[١] - سقط من : خ ، ز .

[٢] - في خ : « ورقاء » ، وفي ز : «ورقا» .

[٣] - في ز : « حرى » .

وهذا حديث غريب ، بل منكر .

وقال ابن أبي حاتم(١٧٩) : ذُكر عن محمد بن عبد اللّه بن أبي الثلج ، حدثنا الهيثم بن خارجة ، حدثنا عثمان بن حصين بن علاق ، عن عروة بن رُوَيم قال : كانت الجبال قبل أن يتجلىٰ اللّه لموسىٰ علىٰ الطور صُمًّا مُلْسًا ، فلما تجلىٰ اللّه لموسىٰ علىٰ الطور دُكَّ ، وتفطرت الجبال ، فصارت الشقوق والكهوف .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ **فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكًّا وخر موسىٰ صعقًا** ﴾ ، وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ، ورأىٰ النور صار مثل دك من الدكَّات[١]. وقال بعضهم : ﴿ **جعله دكًّا** ﴾ أي : فتَّته .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ **ولكن انظر إلىٰ الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني** ﴾ ، فإنه أكبر منك وأشد خلقًا ، ﴿ **فلما تجلىٰ ربه للجبل** ﴾ فنظر إلىٰ الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل فَدُكَّ علىٰ أوله ، ورأىٰ موسىٰ ما يصنع الجبل ، فخر صعقًا .

وقال عكرمة ﴿ **جعله دكَّاء** ﴾ قال : نظر اللّه إلىٰ الجبل فصار صحراء[٢] ترابًا.

وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء[٣] ، واختارها ابن جرير ، وقد ورد فيها حديث مرفوع رواه ابن مردويه(١٨٠) .

والمعروف أن الصعق هو الغَشْي هاهنا ، كما فسره ابن عباس وغيره ، لا كما فسره قتادة بالموت ، وإن كان ذلك صحيحًا في اللغة ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السملوات ومن في الأرض إلا من شاء اللّه ثم نفخ فيه أخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ ، فإن هنا قرينة تدل علىٰ الموت كما أن هناك قرينة تدل علىٰ الغشي ، وهي قوله : ﴿ **فلما أفاق** ﴾ والإفاقة إنما تكون من[٤] غشي .

(١٧٩) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٥/٨٩٤٣) .

(١٨٠) - وعزاه لابن مردويه السيوطي في « الدر المنثور » (٣/٢٢٢) - ولم أقف على إسناده وما ينفرد به ابن مردويه الغالب عليه الضعف ، وقد أخرج ما يخالفه أيضًا - عزاه له السيوطي - وصححه الحاكم على شرط مسلم (٢/٢٣٩) ووافقه الذهبي، من حديث أنس أيضًا، أن النبي - صلى اللّه عليه وسلم - قرأ ﴿ **دكًّا** ﴾ منونة ولم يمدد .

[١] - في خ ، ز : « الدكاك » والمثبت من تفسير ابن جرير (١٢/١٥٠٨٩) .

[٢] - في ز : « صخرا » .

[٣] - هي قراءة حمزة ، والكسائي ، كما في السبعة لابن مجاهد ص ٢٩٣ .

[٤] - ساقطة من : ت .

﴿ قال سبحانك ﴾ تنزيهًا وتعظيمًا وإجلالًا أن يراه أحد في الدنيا إلا مات .

وقوله : ﴿ تبت إليك ﴾ قال مجاهد : أن أسألك الرؤية .

﴿ وأنا أوّل المؤمنين ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : من بني إسرائيل. واختاره ابن جرير ، وفي رواية أخرىٰ عن ابن عباس : ﴿ وأنا أوّل المؤمنين ﴾ أنه لا يراك أحد، وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ، ولكن يقول : أنا أوّل من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلىٰ يوم القيامة .

وهذا قول حسن له اتجاه ، وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هاهنا[١] أثرًا طويلًا فيه غرائب وعجائب عن محمد بن إسحاق بن يسار ، وكأنه تلقاه من الإِسرائيليات والله أعلم .

[ ][٢] وقوله : ﴿ وخر موسىٰ صعقًا ﴾ فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم ؛ فأما حديث أبي سعيد فأسنده [البخاري في صحيحه][٣] هاهنا(١٨١) فقال :

حدثنا[٤] محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عمرو[٥] بن يحيىٰ المازني ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جاء رجل من اليهود إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم قد لُطم وجهُه ، فقال : يا محمد إن رجلًا من أصحابك من الأنصار [لطم وجهي][٦] . قال[٧] : « **ادعُوه** ». فدعَوه ، قال[٨]: « **لم لطمت وجهه ؟** » . قال[٩] : يا رسول الله ! إني مررت باليهود[١٠] فسمعته يقول: والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ البشر . قال: [قلت: و][١١] علىٰ محمد ؟ . فأخذتني غضبة ، فلطمته . قال : « **لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور** » .

---

(١٨١) - صحيح البخاري كتاب : « التفسير » باب ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا** .... ﴾ (٤٦٣٨) - وانظره بأطرافه عند فاتحة كتاب ، الخصومات (٢٤١٢) - وأخرجه أحمد (٣/٣١ ، ٣٣ ، ٤٠) ومسلم ، كتاب : الفضائل ، باب : من فضائل موسى عليه السلام (١٦٢ ، ١٦٣) (٢٣٧٤) ، وأبو داود ، كتاب : السنة ، باب : في التخيير بين الأنبياء عليهم السلام (٤٦٦٨) من طرق عن عمرو ابن يحيى ، به .

---

[١] - ابن جرير في تفسيره (١٣/١٥٠٧٧).
[٢] - في خ ، ز « وقال البخاري في صحيحه » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - سقط من: خ ، ز .
[٥] - في ز : « عمر » .
[٦] - في ز : « لطف وجهه » .
[٧] - في ز : « فقال » .
[٨] - في ز : « فقال » .
[٩] - في ز : « فقال » .
[١٠] - في ت : « باليهودي » .
[١١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه ، ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه ، وأبو داود في كتاب السنة من سننه من طرق عن عمرو بن يحيىٰ بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني ، عن أبيه ، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري به .

وأما حديث أبي هريرة ، فقال الإمام أحمد في مسنده(١٨٢) :

حدثنا[١] أبو كامل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال[٢] : استب رجلان : رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم . والذي اصطفىٰ محمدًا علىٰ العالمين ، وقال اليهودي : والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ العالمين، فغضب المسلم علىٰ اليهودي فلطمه، فأتىٰ اليهودي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فأخبره، فدعاه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فسأله فاعترف بذلك ، فقال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **لا تخيروني علىٰ موسىٰ ، فإن الناس يُصعَقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق . فأجد[٣] موسىٰ ممسكًا بجانب العرش ، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي ، أم كان ممن استثناه الله عز وجل** » .

أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به.

وقد روىٰ الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا(١٨٣) - رحمه الله - : أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ولكن تقدم(١٨٤) في الصحيحين : أنه رجل من

---

(١٨٢) - « المسند » (٢٦٤/٢) (رقم ٧٥٧٦/شاكر) وأخرجه البخاري ، فاتحة كتاب الخصومات (٢٤١١) ، وكتاب . الرقاق ، باب . نفخ الصور (٦٥١٧) ، وكتاب : التوحيد ، باب : في المشيئة والإرادة (٧٤٧٢) ومسلم ، كتاب : الفضائل ، باب من فضائل موسى - صلى الله عليه وسلم - (١٦٠) (٢٣٧٣) وأبو داود، كتاب السنة باب في التخيير بين الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام (٤٦٧١) ، والنسائي في « الكبرى » كتاب . النعوت (٧٧٥٨/٤) . من طرق عن إبراهيم بن سعد بهذا الإسناد ، وانظر ما تقدم [سورة البقرة / آية ٢٥٣] .

(١٨٣) - في « كتاب البعث » - كما في « فتح الباري » للحافظ ابن حجر (٤٤٣/٦) - من طريق سفيان ابن عيينة - وهو في « جامعه » - عن عمرو بن دينار عن عطاء وابن جدعان عن سعيد بن المسيب قال : كان بين رجل من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين رجل من اليهود كلام في شيء - فقال عمرو بن دينار : هو أبو بكر الصديق « فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على البشر . فلطمه المسلم ... الحديث ، وهذا مرسل قوي .

(١٨٤) - تقدم هنا برقم (١٨١)

---

[١] - سقط من ر [٢] - سقط من : ر

[٣] - في ر « فأجد »

الأنصار ، وهذا هو أصح وأصرح ، والله أعلم .

والكلام في قوله عليه السلام : « **لا تخيروني على موسى** » كالكلام على قوله : « **لا تفضلوني على الأنبياء ، ولا على يونس بن متى** »(١٨٥) ، قيل : من باب التواضع ، وقيل : قبل أن يعلم بذلك ، وقيل : نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضبية والتعصب ، وقيل : على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي ، والله أعلم .

وقوله : « **فإن الناس يصعقون يوم القيامة** » ، الظاهر : أن هذا الصعق يكون في عَرَصَات القيامة ، يحصل أمر يصعقون منه ، والله أعلم به ، وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، وتجلى للخلائق الملك الديان ، كما صُعق موسى من تجلي الرب تبارك وتعالى ؛ ولهذا قال عليه السلام : « **فلا أدري : أفاق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور** » .

وقد روى القاضي عياض في أوائل كتابه (الشفاء) بسنده(١٨٦) : عن محمد بن محمد بن مرزوق ، [حدثنا قتادة][١] ، حدثنا الحسن ، عن قتادة ، عن يحيى بن وَثَّاب ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **لما تجلى الله لموسى - عليه السلام - كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ** » . ثم قال : ولا يبعد على هذا أن يختص

---

(١٨٥) - أخرجه البخاري ، كتاب : الأنبياء ، باب : قول الله تعالى ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ (٣٤١٤) ، ومسلم ، كتاب : الفضائل ، باب : من فضائل موسى - صلى الله عليه وسلم - (١٥٩) (٢٣٧٣) والنسائي في « التفسير » من « الكبرى » (١١٤٦١/٦) من طريق عبد الله بن الفضل عن الأعرج عن أبي هريرة به مطولًا .

(١٨٦) - **إسناده ضعيف** كتاب « الشفاء » للقاضي عياض (ص ٦٨ ، ٦٩) بسنده عن « محمد بن مرزوق ثنا همام - كذا وهو محرف ، وكذا تحرف عند المصنف هنا ويأتي ذكر الصواب - ثنا الحسن به بهذا الإسناد » وقال العلامة الشمني في ذيله على كتاب « الشفا » : « قوله (حدثنا همام) كذا في كثير من النسخ وصوابه هانئ وهو هانئ بن يحيى السلمي ، أخذ عن الحسن بن أبي جعفر الجعفري أحد الضعفاء ، قال الطبراني - لم أهتد إليه في معاجمه الثلاثة - : لم يروه عن قتادة إلا الحسن بن أبي جعفر تفرد به هانئ ابن يحيى » وهو « يخطئ » - قاله ابن حبان في « الثقات » (٢٤٧/٩) - وشيخه « ضعيف الحديث مع عبادته وفضله » وهو مترجم له في « التهذيب » والراوى عن هانئ ، صدوق له أوهام وهو من رجال « التهذيب » أيضًا ، ومن هذا تعلم أن قول ابن كثير « لا يخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون » غير مضبوط إذ رجاله مترجم لهم ومعروفون ولكن تحرف الإسناد عند ابن كثير ولهذا لم يعرف بعضهم وبالله التوفيق .

والحديث اكتفى السيوطي في « الدر المنثور » (٢٢٢/٣) بعزوه إلى أبي الشيخ .

---

[١] - كذا في جميع النسخ والذي في « كتاب الشفاء » [ثنا همام] وهو خطأ أيضًا وصوابه هانئ » انظر تخريج الحديث .

نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحُظْوة بما رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ .

انتهىٰ ما قاله ، وكأنه صحح هذا الحديث ، وفي صحته نظر ، ولا يخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون ، ومثل هذا إنما يقبل من رواية[١] العدل الضابط عن مثله حتىٰ ينتهي إلىٰ منتهاه ، واللَّه أعلم .

قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

يذكر تعالىٰ أنه خاطب موسىٰ بأنه اصطفاه علىٰ عالمي زمانه برسالاته وكلامه[٢] ، ولا شك أن محمدًا صلىٰ اللَّه عليه وسلم سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ؛ ولهذا اختصه[٣] اللَّه بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين ، التي تستمر شريعته إلىٰ قيام الساعة ، وأتباعه أكثر من أتباع سائر[٤] الأنبياء والمرسلين كلهم ، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم موسىٰ [بن عمران][٥] كليم الرحمن عليه السلام ؛ ولهذا قال اللَّه تعالىٰ له : ﴿ **فخذ ما آتيتك** ﴾ أي : من الكلام والمناجاة ﴿ **وكن من الشاكرين** ﴾ أي : علىٰ ذلك ، ولا تطلب ما لا طاقة لك به .

ثم أخبر تعالىٰ أنه كتب ﴿ **له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلًا لكل شيء** ﴾ قيل : كانت الألواح من جوهر ، وإن اللَّه تعالىٰ كتب له فيها مواعظ وأحكامًا مفصلة مبينة للحلال و[٦]الحرام ، وكانت هذه الألواح مشتملة علىٰ التوراة التي قال اللَّه تعالىٰ فيها : ﴿ **ولقد آتينا موسىٰ الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولىٰ بصائر للناس** ﴾ .

وقيل : الألواح أعطيها موسىٰ قبل التوراة . فاللَّه أعلم . وعلىٰ كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومُنع منه[٧] ، واللَّه أعلم .

وقوله : ﴿ **فخذها بقوة** ﴾ أي : بعزم علىٰ الطاعة ﴿ **وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾ قال

---

[١] - في ز : « رواته » .
[٢] - في ت : « بكلامه » .
[٣] - في ز : « اختصر » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٦] - في ز : « من » .
[٧] - في ت : « منها » .

سفيان بن عيينة(١٨٧) : ثنا أبو سعد[١] ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أمر موسىٰ عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أُمِر قومه .

وقوله : ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ أي : سترون[٢] عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلىٰ الهلاك والدمار والتباب ؟

قال ابن جرير[٣] : وإنما قال : ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : (سأوريك[٤] غدًا إلام يصير إليه حال من خالف أمري) ، علىٰ وجه التهديد[٥] والوعيد لمن عصاه وخالف أمره .

ثم نقل معنىٰ ذلك عن مجاهد والحسن البصري .

وقيل : معناه ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ أي : من أهل الشام ، وأعطيكم إياها . وقيل : منازل قوم فرعون ، والأول أولىٰ ، والله أعلم ؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسىٰ وقومه عن بلاد مصر ، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه ، والله أعلم .

---

(١٨٧) - أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣/١٥١١٢) وأبو سعد هو البقَّال ، شعيد بن المرزوبان : ضعيف .

---

[١] - في خ ، ز : « سعيد » . [٢] - في ز : « ستروا » .
[٣] - ابن جرير في تفسيره (١٣/١١٠) . [٤] - في ز : « سأريك » .
[٥] - في تفسير ابن جرير (١٣/١١٠) : « التهدُّد » .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٤٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق** ﴾ أي : سأمنع فهمَ الحُجج والأدلة الدالة علىٰ عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي ، ويتكبرون علىٰ الناس بغير حق ، أي : كما استكبروا بغير حق أذلهم اللَّه بالجهل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ اللَّه قلوبهم** ﴾ .

وقال بعض السلف(١٨٧) : لاينال العلم حَيِيٌّ ولامستكبر .

وقال آخر : من لم يصبر علىٰ ذل التعلم[١] ساعة بقي في ذل الجهل أبدًا .

وقال سفيان بن عيينة في قوله : ﴿ **سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق** ﴾ قال : أنزع عنهم فهم القرآن ، وأصرفهم عن آياتي .

قال ابن جرير[٢] : وهذا يدل علىٰ أن هذا خطاب لهذه الأمة .

قلت :ليس هذا بلازم ؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة ، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا ، واللَّه أعلم .

---

(١٨٧) - علقه البخاري في صحيحه ، كتاب : العلم ، باب : الحياء في العلم من كلام مجاهد بلفظ : « لا يتعلَّم العلم ، مُسْتحي ولا مُسْتكبرٌ » وقال الحافظ في « الفتح » (٢٢٩/١) : « وصله أبو نعيم في « الحلية » (٢٨٧/٣) من طريق علي بن المديني ، عن ابن عيينة ، عن منصور » كذا وفي « الحلية » مسعر ، عن مجاهد ، ورواه من طريق إسماعيل بن سعيد الكسائي ، ثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد به ، وقد رواه منصور عن مجاهد أيضًا في غير « الحلية » انظر « تغليق التعليق » لابن حجر (٩٣/٢) .

---

[١] - في ز : « التعليم » . [٢] - ابن جرير في تفسيره (١١٣/١٣) .

وقوله : ﴿ **وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها** ﴾ كما قال تعالىٰ : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتىٰ يروا العذاب الأليم** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا** ﴾ أي : وإن ظهر لهم ﴿ **سبيل الرشد** ﴾ أي : طريق النجاة لايسلكوها ، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال ﴿ **يتخذوه سبيلا** ﴾ .

ثم علل مصيرهم إلىٰ هذه الحال[١] بقوله : ﴿ **ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا** ﴾ أي : كذبت بها قلوبهم ﴿ **و كانوا عنها غافلين** ﴾ أي : لا يعلمون شيئًا مما فيها .

وقوله : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم** ﴾ أي : من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلىٰ الممات حبط عمله .

وقوله : ﴿ **هل يجزون إلا ماكانو يعملون** ﴾ أي : إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها ؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، وكما تَدين تُدان .

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يخبر تعالىٰ عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل ، الذي اتخذه لهم السامري من حُليّ القبط ، الذي كانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه عجلا ، ثم ألقىٰ فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام ، فصار عجلا جسدًا له خُوار ، والخوار : صوت البقر ، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسىٰ لميقات ربه تعالىٰ ، وأعلمه اللَّه تعالى بذلك وهو علىٰ الطور ، حيث يقول تعالىٰ إخبارًا عن نفسه الكريمة : ﴿ **قال فإنا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلهم السامري** ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في هذا العجل : هل صار لحمًاودمًا له خوار ؟ أو استمر علىٰ كونه من ذَهَبٍ إلا أنه يدخل فيه الهواء[٢] فيصوِّت كالبقر ؟ علىٰ قولين ، واللَّه أعلم .

---

[١] - سقط من: خ ، ز .

[٢] - في ز : « الهوى » .

ويقال : إنهم لما صَوّت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به قالوا[١] ﴿ **هذا إلهكم وإله موسىٰ فنسي** ﴾ ، فقال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولًا ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا** ﴾ .

وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا** ﴾ ينكر تعالىٰ عليهم في ضلالهم بالعجل ، وذُهُولهم عن خالق السماوات والأرض ورب كل شيء ومليكه ، أن عبدوا معه عجلا جسدًا له خوار لايكلمهم ولايرشدهم إلىٰ خير ، ولكن غَطّىٰ علىٰ أعين بصائرهم عمىٰ الجهل والضلال ، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **حبك الشيء[٢] يُعْمي وَيُصِمّ** »(١٨٨).

وقوله : ﴿ **ولما سُقط في أيديهم** ﴾ أي : ندموا علىٰ ما فعلوا ﴿ **ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا** ﴾ وقرأ بعضهم[٣] : (**لئن لم ترحمنا[٤]**) بالتاء المثناة من فوق[٥] ، ﴿ **ربنا** ﴾ منادىٰ ﴿ **وتغفر[٦] لنا** ﴾ ، ﴿ **لنكونن من الخاسرين** ﴾ أي : من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم ، والتجاء إلىٰ اللَّه -عز وجل- .

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ أن موسىٰ - عليه السلام - رجع إلىٰ قومه من مناجاة ربه تعالىٰ وهو غضبان أسف . قال أبو الدرداء : والأَسَف : أشد الغضب .

﴿ **قال بئسما خلفتموني من بعدي** ﴾ يقول : بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم !

---

[١] - في ز : « وقال » . [٢] - في ز : « للشيء » .
[٣] - وهي قراءة حمزة ، والكسائي ، السبعة لابن مجاهد (ص ٢٩٤) .
[٤] - في ز : « تغفر لنا » .
[٥] - في ز : « فوقها » . [٦] - في ت : « ويغفر » .

[وقوله : ﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾ يقول : استعجلتم مجيئي إليكم ، وهو مقدَّر من الله تعالىٰ][١] .

وقوله : ﴿ **وألقىٰ الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ قيل : كانت الألواح من زُمُرُّد ، وقيل : من ياقوت ، وقيل : من برد . وفي هذا دلالة علىٰ ما جاء في الحديث(١٨٩) : « **ليس الخبر كالمعاينة** » .

ثم ظاهر السياق : أنه إنما ألقىٰ الألواح غضبًاعلىٰ قومه ، وهذا قول جمهور العلماء سلفًا وخلفًا ، وروىٰ ابن جرير(١٩٠) عن قتادة في هذا قولا غريبًا ، لا يصح إسناده إلىٰ حكاية قتادة ، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء ، وهو جدير بالرد ، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب ، وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة .

وقوله : ﴿ **وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ خوفًا أن يكون قد قصر في نهيهم ، كما قال في الآية الأخرىٰ ﴿ **قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألَّا تتبعن**[٢] **أفعصيت أمري قال يا ابن أم لاتأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي** ﴾ ، وقال هاهنا : ﴿ [**قال**][٣] **ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولاتجعلني مع القوم الظالمين** ﴾ أي : لاتسُقني[٤] مَسَاقهم ، ولا تخلطني[٥] معهم ، وإنما قال : ﴿ **ابن أم** ﴾ لتكون أرأف وأنجع عنده ، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه ، فلما تحقق موسىٰ عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام ؛ [ ][٦] كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري** ﴾ . فعند ذلك قال موسىٰ : ﴿ **رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين** ﴾ .

---

(١٨٨) - **ضعيف** تقدم تخريجه [سورة البقرة /آية ٩٣] .

(١٨٩) - يأتي تخريجه برقم (١٩١)

(١٩٠) - « التفسير » لابن جرير (١٥١٣٢/١٣) وسيذكره المصنف هنا عند قوله ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب ...** ﴾ (رقم ١٩٣) وقال ابن جرير : « والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك ، أن يكون سبب إلقاء موسى الألواح ، كان من أجل غضبه على قومه لعبادتهم العجل ، لأن الله - جل ثناؤه - بذلك أخبر في كتابه فقال ﴿ **ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٢] - في ز : « تتبعنى » .

[٣] - سقط من خ .

[٤] - في ز : « لا تسوقنى » .

[٥] - في ز : « تخلطنى » .

[٦] - ما بين المعكوفتين في ز : « قال : » .

قال ابن أبي حاتم(١٩١) : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، ثنا عفان ، ثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يرحم الله موسى ! ليس المعاين كالمخبر ، أخبره ربه - عز وجل - أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح** » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل ، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضًا ؛ كما تقدم في سورة البقرة : ﴿ **فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم** ﴾ .

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلًا[١] وصغارًا في الحياة الدنيا .

وقوله : ﴿ **و كذلك نجزي المفترين** ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه ؛ كما قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم وإن

(١٩١) - **إسناده صحيح** ، « التفسير » لابن أبي حاتم (٨٩٩٨/٥) وأخرجه البزار (١/رقم ٢٠٠ كشف الأستار) وابن حبان (٦٢١٤/١٤ - إحسان) والطبراني في « الكبير » (١٢٤٥١/١٢) وابن عدي في « الكامل » (٢٥٩٦/٧) والحاكم في « المستدرك » (٣٨٠/٢) والخطيب البغدادي في « موضح أوهام الجمع والتفريق » (٥٣٠/١) من طرق عن أبي عوانة به مطولًا ومختصرًا ، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي . وأخرجه أحمد (٢١٥/١ ، ٢٧١) وابن حبان (٦٢١٣/١٤) والطبراني في « الأوسط » (١/رقم ٢٥) ، وابن عدي والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٨٢/٢ ، ١١٨٣) وأبو الشيخ في « الأمثال » (رقم ٥) والحاكم (٣٢١/٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٥٦/٦) من طرق عن هشيم عن أبي بشر به ، وصححه الحاكم أيضًا على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، واختاره الضياء - « المختارة » - (١٠/رقم ٧٣ : ٧٦) لكن قيل : « إن هشيمًا لم يسمعه من أبي بشر ، وإنما سمعه من أبي عوانة عنه ، فدلسه » قال السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص ٣٥٢) : « وقول ابن عدي - نسبه السخاوي لابن عدي و إنما ذكره ابن عدي عن غيره وبصيغة التمريض - إن هشيمًا لم يسمعه من أبي بشر ، وإنما سمعه من أبي عوانة عنه فدلسه ، لا يمنع صحته ...» .

[١] - في ز : « ذلة » .

هَمْلَجَت[١] بهم البغلات ، وَطَقْطَقَتْ بهم البراذين[٢] .

وهكذا روىٰ أيوب السختياني : عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذهالآية : ﴿ **وكذلك نجزي المفترين** ﴾ فقال[٣] : هي والله لكل مفتر إلىٰ يوم القيامة .

وقال سفيان بن عيينة : كلُّ صاحب بدعة ذليل .

ثم نبه تعالىٰ عباده وأرشدهم إلىٰ أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان ، حتىٰ ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله : ﴿ **والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك** ﴾ أي : يا محمد يارسول الرحمة ونبي النور ﴿ **من بعدها** ﴾ أي : من بعد تلك الفعلة ﴿ **لغفور رحيم** ﴾.

وقال ابن أبي حاتم(١٩٢) : حدثنا أبي ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، ثنا أبان ، ثنا قتادة ، عن عزرة[٤] ، عن الحسن العرني ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود : أنه سئل عن ذلك - يعني - عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها . فتلا هذه الآية : ﴿ **والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **ولما سكت** ﴾ أي : سكن ﴿ **عن موسي الغضب** ﴾ أي : غضبه علىٰ قومه ﴿ **أخذ الألواح** ﴾ أي : التي كان ألقاها من شدة الغضب علىٰ عبادتهم العجل غيرةً لله وغضبًا له ﴿ **وفي نسختها هدى ورحمة** ﴾ .

(١٩٢) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٥/٩٠١٠) وإسناده صحيح ، أبان هو ابن يزيد العطار وعزرة هو ابن عبد الرحمن معروف بـ « صاحب قتادة » وثقه ابن معين وابن المديني . والحسن العُرني هو ابن عبد الله العرني وثقه أبو زرعة وابن سعد والعجلي ، وقال ابن معين : « صدوق ليس به بأس » وعلقمة هو ابن قيس النخعي .

[١] - هملجت الدابة : سارت سيراً حسناً في سرعة .
[٢] - جمع برذون : ويطلق على غير العربي من الخيل والبغال .
[٣] - في ز : « قال » .
[٤] - في ز : « عررة » .

يقول كثير من المفسرين : إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ؛ ولهذا قال بعض السلف : فوجد فيها هدى ورحمة ، وأما التفصيل فذهب ، وزعموا أن رُضاضها[١] لم يزل موجودًا في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلي الدولة الإسلامية ، والله أعلم بصحة هذا . وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها ، وهي من جوهر [من][٢] الجنة ، فقد[٣] أخبر تعالى أنه لما أخذها بعدما ألقاها وجد فيها ﴿ هدى ورحمة ﴾ .

﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ ضمَّن الرهبة معني الخضوع ؛ ولهذا عداها باللام .

وقال قتادة(١٩٣) في قوله تعالى : ﴿ أخذ الألواح ﴾ قال : « ربِّ ، إني[٤] أجد في الألواح أمة ، خير أمةً أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فاجعلهم[٥] أمتي ، قال : تلك أمة أحمد[٦] ، قال : رب ، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون - أي : آخرون في الخلق - السابقون[٧] في دخول الجنة ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرءونها [ ][٨] وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرًا ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئًا ولم يعرفوه » [قال قتادة][٩] : وإن الله أعطاكم [أيتها الأمة][١٠] من الحفظ شيئًا لم يعطه أحدًا من الأمم قال : « رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فضول[١١] الضلالة[١٢] حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب ، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها - وكان من قبلهم [من الأمم][١٣] إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها[١٤] نارًا فأكلتها[١٥] وإن ردت عليه تركت ، فتأكلها السباع والطير وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم - قال : رب ! اجعلهم أمتي ، قال :

---

(١٩٣) - أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥١٣٢/١٣ ، ١٥١٣٣) من طريقين عن قتادة مطولًا ومختصرًا واستغرب المصنف هذا الأثر لقتادة وقال : « لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة ... » وانظر رقم (١٩٠) .

---

[١] - الرُّضاض : الفتات .
[٢] - ما بين المعكوفتين زيادة من ز .
[٣] - في ز : « وقد » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في ز : « اجعلهم » .
[٦] - في خ : « محمد » .
[٧] - في ز : « سابقون » .
[٨] - في خ : ، ز « كتابهم ».
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[١٠] - ما بين المعكوفتين سقط من خ .
[١١] - في خ ، ز : « فصول » .
[١٢] - في ز : « الصلاة » .
[١٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[١٤] - سقط من : ت .
[١٥] - في ز : « فأكلته » .

تلك أمة أحمد .

[قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بسيئة لم تكتب حتى يعملها ، فإذا عملها كتبت له سيئة واحدة ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : ربِّ ! إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب ! إني أجد في الألواح أمة هم المشفَّعون والمشفوع لهم ، فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد »][١] . قال قتادة : فذكر لنا أن نبي اللّه موسى نبذ الألواح ، وقال : « اللهم اجعلني[٢] من أمة أحمد » .

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (١٥٥)

قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : كان اللّه أمره أن يختار من قومه سبعين رجلًا ، فاختار سبعين رجلًا ، فبرز بهم[٣] ليدعوا ربهم ، فكان فيما دَعَوُا اللّه قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعط أحدًا قبلنا ولا تعطيه[٤] أحدًا بعدنا . فكره اللّه ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال موسىٰ : ﴿ **رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي** ﴾ الآية .

وقال السدي : إن اللّه أمر موسىٰ أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل ، يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موعدًا واختار موسى [من][٥] قومه سبعين رجلًا علىٰ عينه ، ثم ذهب بهم ليعتذروا ، فلما أتوا ذلك المكان قالوا : لن نؤمن لك يا موسىٰ حتىٰ نرى اللّه جهرة فإنك قد كلمته، فأرناه. فأخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسى يبكي[٦]، ويدعو اللّه ، ويقول : رب ! ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم ؟ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٢] - في ز : « اجعله » .
[٣] - في ز : « فبررهم » .
[٤] - في خ : « تعطه » .
[٥] - ما بين المعكوفتين زيادة من ز .
[٦] - سقط من : خ ، ز .

وقال محمد بن إسحاق : اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلًا الخيِّر فالخير ، وقال : انطلقوا إلىٰ اللَّه فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه[١] التوبة علىٰ من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ، فخرج بهم إلىٰ طور سيناء لميقات وقَّته له ربه ، وكان لايأتيه إلا بإذن منه وعلم . فقال له السبعون - فيما ذكر لي ، حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه - لموسىٰ : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعل ، فلما دنا موسىٰ من الجبل وقع عليه عمود الغمام ، حتىٰ تغشىٰ الجبل كله ، ودنا موسىٰ فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا ، وكان موسىٰ إذا كلمه اللَّه وقع علىٰ جبهة موسىٰ نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب ، ودنا القوم ، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا ، فسمعوه وهو يكلم موسىٰ ، يأمره وينهاه : افعل ، ولا تفعل . فلما فرغ إليه من أمره [ ][٢]انكشف عن موسىٰ الغمام ، فأقبل إليهم ، فقالوا لموسىٰ : لن نؤمن لك حتىٰ نرى اللَّه جهرة فأخذتهم الرجفة وهي : الصاعقة ، فافْتُلِتَتْ[٣] أرواحهم ، فماتوا جميعًا ، فقام موسىٰ يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : رب ، لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، قد سفهوا ، أفتهلك[٤] من ورائي من بني إسرائيل .

وقال سفيان الثوري(١٩٤) : حدثني أبو إسحاق ، عن عمارة بن عبد[٥] السَّلولي ، عن علي ابن أبي طالب رضي اللَّه عنه قال : انطلق موسىٰ وهارون وشبر وشبير ، فانطلقوا إلىٰ سفح جبل ، فنام[٦] هارون علىٰ سرير فتوفاه اللَّه عز وجل ، فلما رجع موسىٰ إلىٰ بني إسرائيل قالوا له : أين

(١٩٤) - أخرجه ابن جرير (١٥١٥٧/١٣) وابن أبي حاتم (٩٠١٨/٥) ، وأخرجه ابن جرير (١٣/ ١٥١٥٨) من طريق شعبة عن أبي إسحاق ، عن رجل من بني سلول لم يسمه - والثوري إمام وقد سماه فلا يعله ذلك - أنه سمع عليًا ،رضي اللَّه عنه ، يقول : ... فذكره ، ورجاله ثقات ، رجال الصحيح غير عمارة بن عبد السلولي الكوفي قال إبراهيم بن يعقوب الجُوزجانيُّ عن أحمد بن حنبل : « مستقيم الحديث ، لا يروي عنه غير أبي إسحاق » وقال أبو حاتم - في « الجرح والتعديل » (٢٠٢٣/٦) - « شيخ مجهول ، لا يحتج بحديثه » - وذكره ابن حبان في « الثقات » (٢٤٤/٥) - وروى له النسائي حديثًا واحدًا في « مسند علي » - انظر « تهذيب الكمال » (٢١/ت ٤١٩٠) وأفاد ابن سعد في « الطبقات » (٢٤٨/٦) أنه روى عن حذيفة أيضًا ، وقال العجلي في « الثقات » (ت ١٢١٤) : « كوفى ، تابعي ، ثقة ...» . وقال ابن حجر في « التقريب » ، مقبول . والأثر زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٣٧/٣) إلى عبد ابن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب « من عاش بعد الموت » وأبي الشيخ .

[١] - في ز : « واسلوه » .
[٢] - زيادة من : ز .
[٣] - في ز : « فالتقت » .
[٤] - في ز : « أتهلك » .
[٥] - في خ ، ت : « عيد » .
[٦] - في ز : « فقام » .

هارون ؟ قال : توفاه اللّٰه عز وجل[١] ، قالوا : أنت قتلته ، حسدتنا علىٰ خلقه ولينه - أو كلمة نحوها - قال : فاختاروا من شئتم . قال : فاختاروا سبعين رجلا ، قال : فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **واختار موسىٰ قومه سبعين رجلا** ﴾ ، فلما انتهوا إليه قالوا : يا هارون ! من قتلك ؟ قال : ما قتلني أحد[٢] ، ولكن توفاني[٣] اللّٰه ، قالوا : يا موسىٰ ، لن تعصىٰ بعد اليوم ، قال : فأخذتهم الرجفة . قال : فجعل[٤] موسىٰ - عليه السلام - يرجع يمينًا وشمالا وقال : يا ﴿ **رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء** ﴾ قال : فأحياهم اللّٰه وجعلهم أنبياء كلهم .

هذا أثر غريب جدًّا ، وعمارة بن عبد هذا لا أعرفه[٥] ، وقد رواه شعبة : عن أبي إسحاق ، عن رجل من بني سلول ، [عن علي][٦] ، فذكره .

وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جريج : إنما أخذتهم الرجفة ؛ لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ، ولا نهوهم .

ويتوجه هذا القول بقول موسىٰ : ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ .

وقوله : ﴿ **إن هي إلا فتنتك** ﴾ أي : ابتلاؤك واختبارك وامتحانك . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع[٧] بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف ، ولا معنىٰ له غير ذلك ، يقول : إنِ الأمرُ إلا أمرُك ، وإن الحكم إلا لك ، فما شئت كان ، تضل من تشاء ، وتهدي من تشاء ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، فالملك كله لك ، والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر .

وقوله : ﴿ **أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين** ﴾ الغفر : هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب ، والرحمة إذا قرنت مع الغَفْر يراد بها أن لا يوقعه[٨] في مثله في المستقبل ﴿ **وأنت خير الغافرين** ﴾ أي : لا يغفر الذنوب إلا أنت ﴿ **واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة** ﴾ هناك الفصل الأول من الدعاء في دفع المحذور ، وهذا لتحصيل المقصود . ﴿ **واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة** ﴾ أي : أوجب لنا وأثبت لنا فيهما[٩] حسنة ، وقد تقدم

[١] - بعده في خ : « فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز : « توافاني » .
[٤] - في خ ، ز : « فرجع » .
[٥] - هو معروف ، ومترجم في « التهذيب » انظر (ح رقم ١٩٤) .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٧] - في خ : « وربيع » .
[٨] - في ز : « يرفعه » .
[٩] - في ز : « فيها » .

ذلك في سورة البقرة .

﴿ **إنا هدنا إليك** ﴾ أي : تبنا ورجعنا وأنبنا إليك ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمي والسدي وقتادة وغير واحد ، وهو كذلك لغة .

وقال ابن جرير(١٩٥) : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبي ، عن شريك ، عن جابر ، عن عبد الله ابن نُجَيّ ، عن علي قال : إنما سميت اليهود ؛ لأنهم قالوا : ﴿ **إنا هدنا إليك** ﴾ .

جابر هو ابن يزيد الجُعْفي ، ضعيف .

۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

يقول تعالىٰ مجيبًا لموسىٰ في قوله : ﴿ **إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء** ﴾ ، قال : ﴿ **عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ أي : أفعل ما أشاء ، وأحكم ما أريد ، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك ، سبحانه لا إله إلا هو .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم ؛ كقوله تعالىٰ إخبارًا عن حَمَلة العرش ومن حوله أنهم يقولون : ﴿ **ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا** ﴾ .

وقال الإمام أحمد(١٩٦) : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبي ، حدثنا الجُرَيري ، عن أبي عبد الله الجُشَمي ، حدثنا جندب - هو ابن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - قال : جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عَقَلها ثم صلىٰ خلف رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فلما صلىٰ رسول الله صلىٰ

---

(١٩٥) - تفسير ابن جرير (١٥١٩٩/١٣) وتصحف فيه « عبد الله بن نُجَيّ » إلى « عبد الله بن يحيى » ، «وعبد الله بن نُجَيّ » هذا وثقه النسائي ، لكن قال البخاري وأبو أحمد بن عدي : « فيه نظر » ، وقال ابن معين : لم يسمع من علي ، بينه وبينه أبوه ، وأثبت سماعه من علي البزار وابن حبان ، وقال الدارقطني : « ليس بقوي في الحديث » وجهله الشافعي - انظر « التهذيب » - وشريك في الإسناد هو ابن عبد الله القاضي النخعي وجابر هو ابن يزيد الجعفي ضعيف .

(١٩٦) - **إسناده فيه جهالة** « المسند » (٣١٢/٤) وأخرجه أبو داود ، كتاب : الأدب ، باب : من ليست له غيبة (٤٨٨٥) ، والروياني في « مسنده » (٢/رقم ٩٥٧)، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٦٦٧/٢) - ومن طريقه المزي في « تهذيب الكمال » (٣٤/ت ٧٤٧٢ أبو عبد الله الجُشميّ) كلهم عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ، وأخرجه الحاكم في « المستدرك » =

اللَّه عليه وسلم أتىٰ راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادىٰ : اللهم ارحمني ومحمدًا ، ولا تشرك في رحمتنا أحدًا . فقال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **أتقولون[١] هذا أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا ما قال ؟** » . قالوا : بلىٰ . قال : « **لقد حَظَرْتَ رحمة واسعة ، إن اللَّه – عز وجل – خلق مائة رحمة ؛ فأنزل رحمة واحدة[٢] يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها وبهائمها ، وأخَّر عنده تسعًا وتسعين[٣] رحمة ، أتقولون[٤] هو أضل أم بعيره ؟** » .

ورواه أحمد[٥] وأبو داود : عن علي بن نصر ، عن عبد الصمد بن عبد الوارث ، به .

وقال أحمد أيضًا(١٩٧) : حدثنا يحيىٰ بن سعيد ، عن سليمان ، عن أبي عثمان ، عن سلمان ، عن النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، قال : « **إن للَّه – عز وجل – مائة رحمة ؛ فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش علىٰ أولادها ، وأخَّر تسعة وتسعين إلىٰ يوم القيامة** » .

تفرد[٦] بإخراجه مسلم فرواه من حديث سليمان – هو ابن طرخان – وداود بن أبي هند، كلاهما عن أبي عثمان – واسمه عبد الرحمن بن مِلّ – عن سلمان – هو الفارسي [عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم به][٧] .

وقال الإمام أحمد(١٩٨) : حدثنا عفان ، حدثنا[٨] حماد ، عن عاصم بن بهدلة ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، أن النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، قال : « **إن[٩] للَّه مائة رحمة ؛ عنده**

= (٢٤٨/٤) من طريق يزيد بن هارون أنبأ سعيد بن إياس الجريري به – غير أنه تصحف عنده « أبي عبد اللَّه الجشمي » إلى « أبي عبد اللَّه الحيري » – وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي كذا قالا ، وأبو عبد اللَّه الجشمي هذا لم يرو عنه غير الجريري ، وجهله الحافظان : الذهبي ، وابن حجر ، والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (٢١٦/١٠ ، ٢١٧) وقال : « رواه أبو داود باختصار – رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي عبد اللَّه الجشمي ، ولم يضعفه أحدٌ » ، وأصل الحديث عند البخاري (٦٠١٠) وغيره من حديث أبي هريرة مختصرًا .

(١٩٧) – « المسند » (٤٣٩/٥) وأخرجه مسلم ، كتاب : التوبة ، باب : في سعة رحمة اللَّه تعالى ، وأنها سبقت غضبه (٢٠ ، ٢١) (٢٧٥٣) ، وانظر [سورة الأنعام / آية ٥٤] .

(١٩٨) – **حديث صحيح** « المسند » (٥٥/٣) وأخرجه أيضًا (٥٢٦/٢) ثنا مؤمل ، ثنا حماد به =

---

[١] – سقط من : ز .
[٢] – سقط من : ز .
[٣] – في ز : « تسعون » .
[٤] – في ز : « تقولون » .
[٥] – سقط من : ز .
[٦] – في ز : « انفرد » .
[٧] – ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٨] – في ز : « بن » .
[٩] – سقط من : ز .

تسعة وتسعون ، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق ، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه » . تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال أحمد(١٩٩) : حدثنا عفان[١] ، حدثنا عبد الواحد ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **لله مائة رحمة ؛ فقسم منها جزءًا واحدًا بين الخلق ، فبه يتراحم الناس والوحش والطير** » .

ورواه ابن ماجة من حديث أبي معاوية ، عن الأعمش ، به .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني(٢٠٠)[٢] : حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا

= وأخرجه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٣٢٤/٨) من طريق الأعمش عن أبي صالح به ، وأخرجه البخاري (٦٠٠٠) ومسلم (٢٧٥٢) من طريق سعيد بن المسيب ، والبخاري (٦٤٦٩) من طريق سعيد بن أبي سعيد المقبري ، وأحمد (٤٣٤/٢) ومسلم (١٩) (٢٧٥٢) وابن ماجه (٤٢٩٣) من طريق عطاء ابن أبي رباح ، وأحمد (٥١٤/٢) من طريق محمد بن سيرين وخلاس ابن عمرو - وتقدم [سورة الأنعام/ آية ١٦٥] - من طريق عبد الرحمن بن يعقوب ، سبعتهم (أبو صالح ، سعيد بن المسيب ، سعيد بن أبي سعيد ، عطاء ، محمد ، خلاس ، عبد الرحمن) عن أبي هريرة به مطولًا ومختصرًا . وانظر [سورة الأنعام / آية ١٢] .

(١٩٩) **صحيح** « المسند » (٥٥/٣) وأخرجه أبو يعلى (٢/رقم ١٠٩٨) ثنا العباس بن الوليد ، ثنا عبد الواحد بن زياد به ، وعبد الواحد بن زياد ثقة ، روى له الجماعة ، لكن حديثه عن الأعمش فيه مقال ، ولم ينفرد ؛ فقد تابعه أبو معاوية محمد بن خازم الضرير وهو من أحفظ الناس لحديث الأعمش ، أخرجه من هذه الطريق ابن ماجه ، كتاب : الزهد ، باب : ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٤) . وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣١٨/٣) : « حديث أبي سعيد صحيح ، رجاله ثقات » .

(٢٠٠) - **إسناده ضعيف** وقال المصنف : « حديث غريب جدًّا ، وسعد هذا لا أعرفه » قلت : سعد هذا عرفه غير واحد - كما يأتي - والحديث في « المعجم الكبير » (٣٠٢١/٣) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢١٩/١٠) وقال : « رواه الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » وزاد ... وفي إسناد « الكبير » سعد بن طالب أبو غيلان وثقه أبو زرعة وابن حبان وفيه ضعف ، وبقية رجال « الكبير » ثقات » قلت : الذي نقله ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٤/ت ٣٨٠) عن أبي زرعة أنه قال فيه : « لا بأس به » وقد نقل فيه عن أبيه قال: « شيخ صالح ، في حديثه صنعة » كذا وقع في نسخة « الجرح والتعديل » المطبوعة ، وقد نقل تضعيفه عن أبي حاتم ابن الجوزي في « الضعفاء والمتروكين » (١/ت ١٣٥٥) والذهبي في « الميزان » وعنه ابن حجر في « اللسان » فأخشى أن يكون قوله : « في حديثه صنعة » تصحف عندهم إلى « في حديثه ضعف » =

---

[١] - في ز : « عثمان » . [٢] - في ز : « الطبري » .

أحمد ابن يونس ، حدثنا سعد أبو غيلان الشيباني ، عن حماد بن أبي سليمان ، عن إبراهيم ، عن صِلة ابن زُفر ، عن حذيفة بن اليمان رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة[١] الفاجرُ في دينه الأحمق في معيشته ، والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الذي قد مَحَشته النار بذنبه[٢] ، والذي نفسي بيده ليغفرن اللَّه يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه** » .

هذا حديث غريب جدًّا ، وسعد هذا لا أعرفه .

وقوله : ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون** ﴾ [إلى آخرها][٣] ، يعني : فسأوجب حصول رحمتي منة مني ، وإحسانًا إليهم ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **كتب ربكم علىٰ نفسه الرحمة** ﴾ .

وقوله : ﴿ **للذين يتقون** ﴾ أي: سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد صلىٰ اللَّه عليه وسلم ﴿ **الذين يتقون** ﴾ أي : الشرك والعظائم من الذنوب .

قوله[٤] : ﴿ **ويؤتون الزكاة** ﴾ قيل : زكاة النفوس ، وقيل : الأموال ، ويحتمل[٥] أن تكون عامة لهما ، فإن الآية مكية .

﴿ **والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أي : يصدقون .

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ

= لاسيما وأن صدر كلامه يؤيد أن أبا حاتم قوّاه لا ضعفه فاللَّه أعلم بالصواب . وأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٥٢٢٧/٥) وابن عدي في « الكامل » (١٩٥٤/٥) من طريق عبد الأعلى ابن أبي المساور عن حماد به ، وقال الطبراني : « لم يرو هذا الحديث عن حماد إلا عبد الأعلى بن أبي المساور ، وسعد أبو غيلان » قلت : وعبد الأعلى هذا ضعفه غير واحد وتركه النسائي وابن نمير ، وقال البخاري والساجي « منكر الحديث » وهو مترجم له في « التهذيب » .

[١] - سقط من: ز .
[٢] - في خ ، ز : « بدينه » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ت : « الآية » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في ز : « وتحتمل » .

أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ وهذه صفة محمد ، صلىٰ الله عليه وسلم ، في كتب الأنبياء بشروا[١] أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم ، يعرفها علماؤهم وأحبارهم ؛ كما قال الإمام أحمد(٢٠١) : حدثنا إسماعيل ، عن الجريري ، عن أبي صخر العقيلي ، حدثني رجل من الأعراب ، قال : جلبت جَلُوبة[٢] إلىٰ المدينة في حياة رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فلما فرغت من بيعتي قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم [في أقفائهم][٣] . حتىٰ أتوا علىٰ رجل من اليهود ناشرًا[٤] التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : **« أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجد[٥] في كتابك ذا صفتي ومخرجي ؟ »** . فقال برأسه :

(٢٠١) - « المسند » (٤١١/٥) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٣٧/٨) وقال : « رواه أحمد وأبو صخر لم أعرفه ! وبقية رجاله رجال الصحيح » قال الحافظ ابن حجر في « التعجيل » (ت ١٣١٤) : « أبو صخر العقيلي ... اسمه عبد الله بن قدامة ، وهو مختلف في صحبته ، وجزم البخاري ومسلم وابن حبان وغيرهم أن له صحبة ، واختلف على الجريري في إسناده ، فقال ابن علية - إسماعيل - عنه هكذا عند أحمد ... ورواه عبد الوهاب بن عطاء عن الجريري عن عبد الله بن قدامة عن رجل أعرابي ، ورواه سالم بن نوح عن الجريري عن عبد الله بن شقيق عن أبي صخر - رجل من بنى عقيل وربما قال : عبد الله بن قدامة - عزاه في « الإصابة (١٠٧/٤) من هذه الطريق إلى ابن خزيمة في « صحيحه » وهو غير موجود في المطبوع - والحسن بن سفيان في مسنده وكذا هو في « الكنى » لأبي أحمد الحاكم (٢٥٩/١/أ) - قال : قدمت المدينة على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - بجارية أبيعها ، الحديث .....» ورواه ابن سعد في « الطبقات » (١/ ١٤٥) أخبرنا علي بن محمد عن الصلت بن دينار عن عبد الله بن شقيق عن أبي صخر قال : خرجت إلى المدينة ... الحديث ، وحسنه ابن الأثير في « أسد الغابة » (١٧١/٦) وذكره المصنف في « البداية والنهاية » (٣٩٥/٢) كما هنا وقال : « إسناد جيد ، وله شواهد في « الصحيح » عن أنس بن مالك - رضي الله عنه » .

والشاهد المشار إليه عند البخاري : كتاب ، الجنائز ، باب : إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (١٣٥٦) .

[١] - في ز : « يبشروا » .
[٢] - في ز : « حلوه » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٤] - في ز : « ناشر » .
[٥] - في خ ، ز : « تجدني » .

هكذا ، أي : لا . فقال ابنه : إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد[١] أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . فقال : « **أقيموا اليهودي عن أخيكم** » . ثم وَلِي كفنه[٢] والصلاة عليه .

هذا حديث جيد قوي ، له شاهد في الصحيح ، عن أنس .

وقال الحاكم صاحب المستدرك(٢٠٢) : أخبرنا [أبو محمد بن عبد الله][٣] بن إسحاق البغوي ، حدثنا إبراهيم ابن الهيثم البلدي ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس ، [حدثنا عبد الله بن إدريس][٤] ، عن شرحبيل بن مسلم[٥] ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن هشام بن العاص الأموي قال : بعثت أنا ورجل آخر إلىٰ هرقل صاحب الروم ندعوه إلىٰ الإسلام ، فخرجنا حتىٰ قدمنا الغَوطة - يعني : غوطة دمشق - فنزلنا علىٰ جبلة بن الأيهم الغساني ، فدخلنا عليه ، فإذا هو علىٰ سرير له ، فأرسل إلينا برسول نكلمه ، فقلنا : والله لا نكلم رسولًا ، و[٦]إنما بعثنا إلىٰ الملك ، فإن أذن لنا كلمناه ، وإلا لم نكلم الرسول ، فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك ، قال : فأذن لنا ، فقال : تكلموا ، فكلمه هشام بن العاص ، ودعاه إلىٰ الإسلام ، فإذا عليه ثياب سواد[٧] ، فقال له هشام : وما هذه التي عليك ؟ فقال : لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتىٰ أخرجكم من الشام ، قلنا : ومجلسك هذا ، والله[٨] لنأخذنَّه منك ، ولنأخذنّ مُلك المَلك الأعظم إن شاء الله ، أخبرنا بذلك نبينا محمد[٩] ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : لستم بهم ؛ بل

(٢٠٢) - ومن طريق الحاكم إجازة أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٣٨٥/١ : ٣٩٠) وذكر القصة الحافظ ابن حجر - مختصرة في « الإصابة » (٦٠٤/٣ ، ٦٠٥) وقال : « وتقدم في ترجمة عدي ابن كعب نحو هذه القصة، لكن فيها أنه هشام بن العاص السهمي والله أعلم» وقال في ترجمة عدي بن كعب - « الإصابة » (٤٧١/٢) : « روى المعافى في « الجليس » من طريق محمد بن أبي بكر الأنصاري عن عبادة بن الصامت قال : بعثني أبو بكر إلى ملك الروم ومعي عمرو بن العاص وأخوه هشام وعدي بن كعب ونعيم بن عبد الله ، فخرجنا حتى قدمنا على جبلة بن الأيهم بدمشق ... فذكر قصة طويلة في ورقتين وإسناده ضعيف ، وقد أخرجها البيهقي في « الدلائل » من وجه آخر ...» قلت : وسند البيهقي رجاله ثقات غير عبد العزيز بن مسلم بن إدريس هذا فلم أجد له ترجمة ، وأخشى أن يكون مصحفًا ، والله تعالى أعلم .

[١] - سقط من : ز .
[٢] - بعده في خ ، ز : « وحسه » .
[٣] - في خ ، ز : « محمد بن عبد الله » والمثبت من « دلائل النبوة » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - في ت : « مسلمة » .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - في خ : « سود » .
[٨] - في ز : « فوالله » .
[٩] - سقط من : ز .

هم قوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل ، فكيف صومكم ؟ ، فأخبرناه فملئ وجهه سوادًا ، فقال : قوموا ، وبعث معنا رسولًا إلىٰ الملك ، فخرجنا حتىٰ إذا كنا قريبًا من المدينة قال لنا الذي معنا : إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك ، فإن شئتم حملناكم علىٰ براذين وبغال ، قلنا : والله لا ندخل إلا عليها . فأرسلوا إلىٰ الملك أنهم يأبون ذلك ، فدخلنا على رواحلنا متقلدين سيوفنا حتىٰ انتهينا إلىٰ غرفة ، فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا ، فقلنا : لا إله إلا الله والله أكبر ، فالله يعلم لقد تَنَفَّضَت[١] الغرفة حتىٰ صارت كأنها عذق تصفقه الرياح ، فأرسل إلينا : ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم ، وأرسل إلينا : أن ادخلوا ، فدخلنا عليه ، وهو علىٰ فراش له ، وعنده بطارقته من الروم ، وكل شيء في مجلسه أحمر ، وما حوله حمرة ، وعليه ثياب من الحمرة ، فدنونا منه ، فضحك فقال : ما [كان][٢] عليكم لو حييتموني بتحيتكم فيما بينكم ؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام ، فقلنا : إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك ، وتحيتك التي تحيا بها لا يحل[٣] لنا أن نحييك بها ، قال : كيف[٤] تحيتكم فيما بينكم ؟ قلنا : السلام عليك ، قال : وكيف تحيون ملككم ؟ قلنا : بها ، قال : فكيف[٥] يرد عليكم ؟ قلنا : بها ، قال : فما أعظمُ كلامكم ؟ قلنا : لا إله إلا الله والله أكبر ، فلما تكلمنا بها ، والله يعلم ، لقد تنفضت الغرفة حتىٰ رفع رأسه إليها ، [قال : فهذه][٦] الكلمة التي قلتموها حيث تنفضت الغرفة ، كلما قلتموها في بيوتكم تنفضت عليكم غرفكم[٧] ؟ قلنا : لا ، ما رأيناها فعلت هذا قطُّ إلا عندك ، قال : لوددت أنكم كلما قلتم تنفض كل شيء عليكم ، وأني قد[٨] خرجت من نصف ملكي ، قلنا : لم ؟ قال : لأنه كان أيسر لشأنها ، وأجدر أن لا تكون من أمر النبوة ، وأنها تكون من حيل الناس ، ثم سألنا عما أراد فأخبرناه ، ثم قال : كيف صلاتكم وصومكم ؟ فأخبرناه ، فقال : قوموا . فقمنا[٩] : فأمر لنا بمنزل حسن ونُزُل كثير[١٠] ، فأقمنا ثلاثًا .

فأرسل إلينا ليلا فدخلنا عليه ، فاستعاد قولنا ، فأعدناه ، ثم دعا بشيء كهيئة الرَّبْعَة العظيمة[١١] مُذَهبة ، فيها بيوت صغار عليها أبواب ، ففتح بيتًا وقفلًا ، فاستخرج حريرة سوداء ، فنشرها ، فإذا فيها صورة حمراء ، وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الأليتين ، لم أر مثل طول عنقه ، وإذا ليست له لحية ، وإذا له ضفيرتان[١٢] أحسن ما خلق الله ، قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا آدم عليه السلام ، وإذا هو أكثر الناس شعرًا .

---

[١] - في ز : « تَنَقَّضَت » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز : « تحل » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في ز : « وكيف » .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز : «فقال : هذه».
[٧] - سقط من : ز .
[٨] - سقط من : ز .
[٩] - سقط من : ز .
[١٠] - سقط من : ز .
[١١] - في ز : « القطيمة » .
[١٢] - في ز : « طفيرتان » .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، وإذا فيها صورة بيضاء ، وإذا له شعر كشعر[١] القطط ، أحمر العينين ، ضخم الهامة ، حسن اللحية ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا نوح عليه السلام .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة سوداء ، وإذا فيها رجل شديد البياض ، حسن العينين ، صَلْت الجبين ، طويل الخد ، أبيض اللحية كأنه يبتسم[٢] ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا إبراهيم عليه السلام .

ثم فتح بابًا آخر ، فإذا فيه[٣] صورة بيضاء ، وإذا والله رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعم ، محمد رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : وبكينا ، قال - والله يعلم أنه قام قائمًا ثم جلس ، وقال - : والله إنه لهو ، قلنا : نعم إنه لهو ؟ كأنك تنظر إليه ، فأمسك ساعة ينظر إليها ، ثم قال : أما إنه كان آخر البيوت ، ولكني عَجَّلته لكم لأنظر ما عندكم .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فإذا[٤] فيها صورة آدماء سحماء ، وإذا رجل جعد قَطَط ، غائر العينين ، حديد النظر ، عابس [متراكب الأسنان][٥] مقلص الشفة كأنه غضبان ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا موسىٰ عليه السلام ، وإلىٰ جانبه صورة تشبهه إلا أنه مُدْهَان الرأس ، عريض الجبين ، في عينيه قَبَل ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا هارون بن عمران - عليه السلام - .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل آدم سَبْط ربعة ، كأنه غضبان ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا لوط عليه السلام .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرب حمرة ، أَقْنىٰ ، خفيف العارضين ، حسن الوجه ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا إسحاق - عليه السلام - .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق ، إلا أنه علىٰ شفته[٦] خَال ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا يعقوب - عليه السلام - .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة رجل أبيض ، حسن الوجه ، أقنى

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « يتبسم » .
[٣] - في ز : « فيها » .
[٤] - في ز : « وإذا » .
[٥] - في ز : « متاكب » .
[٦] - في « دلائل النبوة » : «شفته السفلى» .

الأنف ، حسن القامة ، يعلو وجهه نور ، يعرف في وجهه الخشوع ، يضرب إلىٰ الحمرة ، قال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا إسماعيل جد نبيكم - عليهما السلام - .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فيها صورة كأنها صورة[١] آدم عليه السلام ، كأن وجهه الشمس ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا يوسف - عليه السلام - .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل أحمر حَمْش الساقين ، أخفش العينين ، ضخم البطن ربعة متقلد سيفًا ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا داود - عليه السلام - .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فيها صورة رجل ضخم الأليتين ، طويل الرجلين ، راكب فرسًا ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا سليمان بن داود - عليهما السلام - .

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة بيضاء ، وإذا شابٌ[٢] شديد سواد اللحية ، كثير الشعر ، حسن العينين ، حسن الوجه ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا عيسىٰ ابن مريم - عليه السلام - .

قلنا من أين لك هذه الصور ؟ لأنا نعلم أنها علىٰ ما صُوّرت عليه الأنبياء - عليهم السلام - لأنا رأينا صورة نبينا - عليه السلام - مثله ، فقال : إن آدم - عليه السلام - سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده ، فأنزل عليه صورهم ، فكان في خزانة آدم - عليه السلام - عند مغرب الشمس ، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس ، فدفعها إلىٰ دانيال ، ثم قال : أما واللّٰه إن نفسي طابت بالخروج من مُلكي ، وإني كنت عبدًا لأشركم[٣] ملكة حتىٰ أموت ، ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا ، فلما أتينا أبا بكر الصديق - رضي اللّٰه عنه - ، [فحدثناه بما أرانا وبما قال لنا وما أجازنا قال : فبكىٰ أبو بكر][٤] ، وقال : مسكين ! لو أراد اللّٰه به خيرًا لفعل ، ثم قال : أخبرنا رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، أنهم واليهود يجدون نعت محمد ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، عندهم .

هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي - رحمه اللّٰه - في كتاب « **دلائل النبوّة** » عن

---

[١] - سقط من: ت .
[٢] - في « دلائل النبوة » : « رجل شابٌ».
[٣] - في خ : «لأشر»، وفي « الدلائل » : « لا يترك » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

الحاكم إجازة ، فذكره ، وإسناده لا بأس به .

وقال ابن جرير(٢٠٣) : [حدثنا ابن المثنى][١] ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا فليح ، عن هلال ابن علي ، عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، في التوراة . قال : أجل والله ، إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن : ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا** ﴾ وحرزًا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، أسميتك[٢] المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ [ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح][٣]، ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به قلوبًا غلفًا ، وآذانًا صمًّا ، وأعينًا عميًا . قال عطاء : ثم لقيت كعبًا فسألته عن ذلك ، فما اختلف حرفًا ، إلا أن كعبًا قال بلغته ، قال : قلوبًا غُلُوفيا ، وآذانًا صُمُوميا ، وأعينًا عموميًا .

وقد رواه البخاري في صحيحه : عن محمد بن سنان ، عن فليح ، عن هلال بن علي ، فذكر بإسناده نحوه ، وزاد بعد قوله : ليس بفظ ولا غليظ : ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح .

ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق « **التوراة** » على كتب أهل الكتاب ، وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني(٢٠٤) : حدثنا موسىٰ بن هارون ، حدثنا محمد بن إدريس - ورّاق[٤] الحميدي - حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم من ولد جبير بن مطعم قال : حدثتني أم

---

(٢٠٣) - تفسير ابن جرير (١٥٢٢٥/١٣) وأخرجه البخاري ، كتاب : البيوع ، باب : كراهية السَّخَب في الأسواق ، (٢١٢٥) ثنا محمد بن سنان ثنا فليح به ، وأخرجه أحمد في « المسند » (١٧٤/٢) من طريق فليح به ، وأخرجه البخاري ، كتاب : التفسير ، سورة الفتح ، باب : (٣) ﴿ **إنا أرسلناك شاهدًا ومَبشِّرًا ونذيرًا** ﴾ (٤٨٣٨) ثنا عبد الله بن مسلمة ثنا عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال بن أبي هلال به مختصرًا ، ويقال له هلال بن علي ، انظر « الفتح » (٣٤٣/٤) .

(٢٠٤) - **إسناده به جهالة** في « المعجم الكبير » (٢/رقم ١٥٣٧) وفي « الأوسط » (٨٢٣١/٨) وقال في « الأوسط » : « لا يروى هذا الحديث عن جبير بن مطعم إلا بهذا الإسناد ، تفرد به : محمد بن إدريس وراق الحميدي » وهو « صدوق » - كما قال ابن أبي حاتم « الجرح والتعديل » (٢٠٤/٧) لكن أم عثمان بنة سعيد لم أجد من ترجم لها ، وإنما ذكرها ابن أبي حاتم عرضًا =

---

[١] - في خ ، ز : « حدثنا المثنى » وهو خطأ وصوابه المثبت من تفسير ابن جرير

[٢] - في خ ، ز : « اسمك » والمثبت من تفسير ابن جرير

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز

[٤] - سقط من: خ ، وفي ر : « بن »

عثمان بنت سعيد وهي جدتي ، عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير ، عن أبيه محمد بن جبير ، عن أبيه جبير بن مطعم قال : خرجت تاجرًا إلىٰ الشام ، فلما كنت بأدنىٰ الشام لقيني رجل من أهل الكتاب فقال : هل عندكم رجل تنبأ[١] ؟ قلت : نعم . قال : هل تعرف صورته إذا رأيتها ؟ قلت : نعم ، فأدخلني بيتًا فيه صور ، فلم أر صورة النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، فبينما أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا فقال : فيم أنتم ؟ فأخبرناه ، فذهب بنا إلىٰ منزله ، فساعة ما دخلتُ نظرتُ إلىٰ صورة النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، وإذا رجل آخذ بِعَقِبِ النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، قلت : من هذا الرجل القابض علىٰ عقبه ؟ قال : إنه لم يكن [نبي إلا كان][٢] بعده نبي ، إلا[٣] هذا النبي[٤] فإنه لا نبي بعده ، وهذا الخليفة بعده ، وإذا صفة أبي بكر ، رضي اللَّه عنه .

وقال أبو داود(٢٠٥) : حدثنا [حفص بن عمر][٥] أبو عمر[٦] الضرير ، حدثنا حماد بن سلمة : أن سعيد بن إياس الجريري أخبرهم ، عن عبد اللَّه بن شقيق العقيلي ، عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال : بعثني عمر إلىٰ الأسقف ، فدعوته ، فقال له عمر : هل تجدني في الكتاب ؟ قال : نعم ، قال : كيف تجدني ؟ قال : أجدك قرنًا ، قال[٧] : فرفع عمر الدرّة وقال : [قرن مه ؟ قال][٨] : قرن حديد ، أمير[٩] شديد ، قال : فكيف تجد الذي بعدي ؟ قال : أجد خليفة صالحًا ، غير أنه يؤثر قرابته ، قال عمر : يرحم اللَّه عثمان ، ثلاثًا ، قال : كيف

= في ترجمة محمد بن عمر - ولم يذكر في محمد هذا جرحًا ولا تعديلًا ، والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٣٦/٨، ٢٣٧) وقال : « رواه الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » وفيه من لم أعرفهم » .

(٢٠٥) - **كسابقه** « السنن » لأبي داود ، كتاب : السنة ، باب : في الخلفاء (٤٦٥٦) ، وأخرجه اللالكائي في « شرح أصول الاعتقاد » (٢٦٥٨) من طريق حجاج بن المنهال وداود بن شبيب عن حماد بن سلمة به ، ورجاله ثقات رجال الصحيح غير الأقرع مؤذن عمر وثقه العجلي وابن حبان ، لكن قال الذهبي في « الميزان » : « لا يعرف ، تفرد عنه شيخ » يريد عبد اللَّه بن بن شقيق وهو ثقة لكن كان فيه نصب ، نسأل اللَّه السلامة .

---

[١] - في ز ، خ : نبيًا ، وأثبتنا ما في « المعجم الكبير والأوسط » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٣] - سقط من : ز . [٤] - سقط من : ز .
[٥] - في خ ، ز : « عمر بن حفص » وهو خطأ صوابه المثبت من « سنن أبي داود » و« كتب الرجال » .
[٦] - في ز : « عمرو » . [٧] - سقط من : ت .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ [٩] - في سنن أبي داود : « أمين » .

تجد الذي بعده ؟ قال : أجده[١] صَدَأً حديد ، قال : فوضع عمر يده علىٰ رأسه ، وقال : يا دَفْراه ، يا دَفْرَاه ! قال : يا أمير المؤمنين ، إنه خليفة صالح ، ولكنه يُستخلَف حين يُستخلَف والسيف مسلول ، والدم مُهْرَاق .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾ هذه صفة الرسول ، صلىٰ اللَّه تعالىٰ عليه وسلم ، في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت[٢] حاله عليه الصلاة والسلام ، لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهىٰ إلا عن شر ؛ كما قال عبد اللَّه بن مسعود(٢٠٦) : إذا سمعت اللَّه يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ فَأَرْعِها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهىٰ عنه . ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه اللَّه به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة من سواه ، كما أرسل به جميع الرسل قبله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا اللَّه واجتنبوا الطاغوت** ﴾ .

وقال الإمام أحمد(٢٠٧): حدثنا أبو عامر - هو العَقَدي عبد الملك بن عمرو - حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد ، عن أبي حميد وأبي أسيد - رضي اللَّه عنهما - أن رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « **إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به . وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه** » .

هذا حديث[٣] جيد الإسناد ، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب .

---

(٢٠٦) - تقدم في [سورة البقرة/ آية ١٠٥] .

(٢٠٧) - **صحيح** « المسند » (٤٩٧/٣) ، (٤٢٥/٥) وأخرجه البزار (٣٧١٨/٩/ البحر الزخار) وابن حبان (٦٣/١ إحسان) من طريقين عن أبي عامر العقدي ، به ، وأخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٢٩٥/١) أخبرنا عبد اللَّه بن مسلمة بن قعنب ، قال : أخبرنا سليمان بن بلال به ، وقال البزار : « لا نعلمه يروى عن رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم - من وجه أحسن من هذا الوجه » وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٥٤/١ ، ١٥٥) وقال : « رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح » وسيذكره المصنف [سورة هود/ آية ٨٨] كما هنا وقال : « إسناد صحيح ، وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث : إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللَّهم : افتح لي أبوب رحمتك ....» وللحديث شاهد مرسل قوي ، انظره - غير مأمور - في « الصحيحة » للألباني (٧٣٢/٢) .

---

[١] - في ز : « أجد » .

[٢] - في ز : « كان » .

[٣] - زيادة من ز .

وقال الإمام أحمد(٢٠٨) : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري ، عن علي -رضي الله عنه- قال : إذا سمعتم[١] عن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم، حديثا فظنوا به الذي هو أهدىٰ ، والذي هو أهنىٰ ، والذي هو أتقىٰ .

ثم رواه عن يحيىٰ بن سعيد ، عن مسعر ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري[٢] ، عن أبي عبد الرحمن ، عن علي رضي الله عنه قال : إذا حدثتم عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم حديثًا ، فظنوا به الذي هو أهداه ، وأهناه ، وأتقاه .

وقوله : ﴿ **ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ أي : يحل لهم ما كانوا حرموه علىٰ أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك ، مما كانوا ضيقوا به علىٰ أنفسهم.

﴿ **ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ . قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس : كلحم الخنزير ، والربا ، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالىٰ .

وقال بعض العلماء : كل ما أحل الله تعالىٰ فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين .

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرىٰ التحسين والتقبيح العقليين ، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له .

وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلىٰ أن المرجع في حِلِّ المآكل التي لم ينص علىٰ تحليلها ولا تحريمها إلىٰ ما استطابته العرب في حال رفاهيتها ، وكذا في جانب التحريم إلىٰ ما استخبثته ، وفيه كلام طويل أيضًا .

وقوله : ﴿ **ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾ أي : أنه جاء بالتيسير والسماحة ؛ كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، أنه قال(٢٠٩) :

---

(٢٠٨) - «المسند» (١/١٢٢) (رقم ٩٨٥) ورجاله ثقات إلا أن أبا البختري - واسمه سعيد بن فيروز - لم يسمع من علي بن أبي طالب ، قاله ابن معين وغيره ، ورواه أحمد أيضًا موصولًا : ثنا يحيى ابن سعيد عن مسعر ح ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة - وابن ماجة في « المقدمة » (٢٠) ثنا محمد ابن بشار ثنا يحيى بن سعيد عن شعبة ، قالا (مسعر وشعبة) ثنا عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي عبد الرحمن السُّلمي عن علي قال .... فذكره وهذا إسناد صحيح .

(٢٠٩) - أخرجه بهذا اللفظ الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٧/٢٠٩) من حديث جابر =

---

[١] - في ز : « حدثتم » . [٢] - في ز : « البحتري » .

« **بعثتُ بالحَنيفية السمحة** » .

وقال صلىٰ اللَّه عليه وسلم لأميريه معاذ وأبي موسىٰ الأشعري لما بعثهما إلىٰ اليمن : « **بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا** »(٢١٠) . وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي : إني صحبت رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم وشهدت تيسيره(٢١١) .

وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم ، فوسع اللَّه علىٰ هذه الأمة أمورها وسهلها لهم ؛ ولهذا قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **إن اللَّه تجاوز لأمتي ما حدَّثتْ به أنفسها ما لم تقل أو تعمل** »(٢١٢) . وقال : « **رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** »(٢١٣) . ولهذا [ ][١] أرشد اللَّه هذه الأمة أن يقولوا : ﴿ **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته علىٰ الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا علىٰ القوم الكافرين** ﴾. وثبت في صحيح مسلم(٢١٤): أن اللَّه تعالىٰ قال بعد كل سؤال من هذه « **قد فعلتُ قد فعلتُ** » .

وقوله : ﴿ **فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه** ﴾ أي : عظموه ووقروه ﴿ **واتبعوا النور الذي أنزل معه** ﴾ [أي : القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلىٰ الناس][٢] ، ﴿ **أولئك هم المفلحون** ﴾ أي : في الدنيا والآخرة .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ

= ابن عبد اللَّه وإسناده ضعيف ورواه أحمد في « المسند » (٥/٢٦٦) - ومن طريقه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢/١٢١٨) - والطبراني في « الكبير » (٨/رقم ٧٨٦٨) من حديث أبي أمامة وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف ، وقد صح من طرق أخرى بنحو هذا اللفظ انظر ما تقدم [سورة الأنعام /آية ١٦٥] .

(٢١٠) - تقدم تخريجه [سورة البقرة / آية ١٨٥] .

(٢١١) - أخرجه أحمد (٤/٤٢٠ ، ٤٢٣) والبخاري ، كتاب : العمل في الصلاة ، باب : إذا انفلتت الدَّابة في الصلاة (١٢١١) .

(٢١٢) - تقدم تخريجه [سورة البقرة / آية ٢٨٤] .

(٢١٣) - تقدم تخريجه [سورة الأنعام / آية ٦٨] .

(٢١٤) - صحيح مسلم كتاب : الإيمان ، باب : بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق (٢٠٠) (١٢٦) وانظر ما تقدم [سورة البقرة / آية ٢٨٤] .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « قال » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

يقول تعالىٰ لنبيه ورسوله محمد ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : ﴿ **قل** ﴾ يا محمد : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿ **إني رسول اللَّه إليكم جميعًا** ﴾ أي : جميعكم ، وهذا من شرفه وعظمته ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلىٰ الناس كافة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **قل اللَّه شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ** ﴾ والآيات في هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإِسلام ضرورة أنه - صلوات اللَّه وسلامه عليه - رسول اللَّه إلىٰ الناس كلهم .

قال البخاري رحمه اللَّه في تفسير هذه الآية(٢١٥) : حدثنا عبد اللَّه ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسىٰ بن هارون قالا : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا عبد اللَّه بن العلاء بن زَبْر ، حدثني بُسر[١] بن عبيد اللَّه ، حدثني أبو إدريس الخولاني قال : سمعت أبا الدرداء رضي اللَّه عنه يقول : كانت بين أبي بكر وعمر رضي اللَّه عنهما محاورة ، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عمر عنه مغضبًا ، فاتبعه أبو بكر يسأله[٢] أن يستغفر له ، فلم يفعل حتىٰ أغلق بابه في وجهه ، فأقبل أبو بكر إلىٰ رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فقال أبو الدرداء : ونحن عنده فقال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **أما صاحبكم هذا فقد غَامَرَ** » . [أي : غاضب وحاقد][٣]، قال: وندم

---

(٢١٥) - صحيح البخاري كتاب : التفسير، سورة الأعراف، باب : (٣) قوله تعالى ﴿ **قل يأيها الناس إني رسول اللَّه إليكم جميعًا ....** ﴾ (٤٦٤٠) ، وأخرجه ، كتاب : فضائل الصحابة ، باب : قول النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - : « لو كنت متخذًا خليلًا » (٣٦٦١) ثنا هشام بن عمار ثنا صدقة ابن خالد ثنا زيد بن واقد عن بسر بن عبيد اللَّه ، به .

---

[١] - في ز : « بشر » . [٢] - في ز : « فسأله » .
[٣] - هذا من تفسير الحافظ ابن كثير ، وقد فسر البخاري هذه اللفظة بخلاف ذلك فقال: « غامر : أي سبق بالخير » ، وقال ابن حجر في « الفتح » (٢٥/٧) : قوله (فقد غامر) بالغين المعجمة : أي خاصم ، والمعنى دخل في غمرة الخصومة ، والغامر الذي يرمى بنفسه في الأمر العظيم كالحرب وغيره ، وقيل هو من الغمر بكسر المعجمة وهو الحقد ، أي : صنع أمرًا اقتضى له أن يحقد على من صنعه معه ، ويحقد الآخر عليه ، ووقع في تفسير الأعراف في رواية أبي ذر وحده :« قال أبو عبد اللَّه - وهو المصنف - غامر أي سبق بالخير ... » وهو تفسير مستغرب والأول أظهر ، وقد عزاه المحب الطبري لأبي عبيدة بن المثنى أيضًا ، فهو سلف البخاري فيه » اهـ .

عمر علىٰ ما كان منه ، فأقبل حتىٰ سلم وجلس إلىٰ النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم وقص على رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم [الخبر . قال أبو الدرداء : وغضب رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم][١] وجعل أبو بكر يقول : واللَّه يا رسول اللَّه لأنا كنت أظلم . فقال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **هل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ إني قلت : يا أيها الناس إني رسول اللَّه إليكم جميعًا . فقلتم : كذبت . وقال أبو بكر : صدقت** » . انفرد به البخاري .

وقال الإمام أحمد(٢١٦) : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا يزيد بن أبي زياد ، عن مقسم ، عن ابن عباس أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « **أعطيت خمسًا لم يعطهن نبي قبلي ، ولا أقوله[٢] فخرًا : بعثتُ إلىٰ الناس كافة : الأحمر والأسود ، ونُصرتُ بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلتْ لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأعطيتُ الشفاعة فأخرتها لأمتي [يوم القيامة][٣] ، فهي لمن لا يشرك بالله شيئًا** » . إسناد جيد ، ولم يخرجوه .

وقال الإمام أحمد أيضًا(٢١٧) : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا بكر بن مُضَر ، عن ابن[٤]

---

(٢١٦) - « المسند » (٣٠١/١) (٢٧٤٢) وأخرجه أيضًا (٢٥٠/١) (٢٢٥٦) من طريق علي بن عاصم وابن أبي شيبة في « المصنف » (٤١٠/٧) - وعنه عبد بن حميد في « المنتخب » (٦٤٣) ومن طريق محمد بن فضيل ، كلاهما (علي ومحمد) عن يزيد بن أبي زياد به ، مقرونًا بـ « مقسم » « مجاهد » ، ويزيد بن أبي زياد « ضعيف كبر فتغير وصار يتلقن وكان شيعيًا » كما في « التقريب » ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١١٠٤٧/١١) من طريق ابن أبي ليلى عن الحكم عن مجاهد به ، وابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمن « سيئ الحفظ جدًا » ، ورواه الطبراني أيضًا (١١٠٨٥/١١) من طريق سلمة بن إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل حدثني أبي عن أبيه عن جده عن سلمة بن كهيل عن مجاهد به ، وإبرهيم بن إسماعيل ضعيف وأبوه وجده : « متروكان » ، وقد اضطربوا فيه ، فرواه البزار (١/ رقم ١٩٤/ زوائد ابن حجر) وكذا الطبراني (١٣٥٢٢/١٢) من طريق إبراهيم بن إسماعيل بهذا الإسناد غير أنهم جعلوه من مسند « عبد اللَّه بن عمر » وقال البزار : « لا نعلمه يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد ، وقد رواه يزيد ابن أبي زياد عن مجاهد ومقسم عن ابن عباس » وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٦١/٨) وقال : « رواه أحمد والبزار والطبراني بنحوه ... ورجال أحمد رجال الصحيح غير يزيد بن أبي زياد وهو حسن الحديث » . وانظر ما يأتي بعده .

(٢١٧) - **إسناده حسن** « المسند » (٢٢٢/٢) (٧٠٦٨) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣٧٠/١٠) مختصرًا من وسطه وقال : « رواه أحمد ورجاله ثقات » وصحح إسناده المنذري في =

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز . [٢] - في المسند : « أقولهن » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٤] - في ز : « أبي » .

الهاد ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عام غزوة تبوك ، قام من الليل يصلي[١] ، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه ، حتىٰ إذا صلىٰ انصرف إليهم فقال لهم : « **لقد أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن أحد قبلي : أما أنا فأرسلت إلىٰ الناس كلهم عامة ، وكان من قبلي إنما يُرسَل إلىٰ قومه ، ونصرت علىٰ العدو بالرعب ، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لَمُلِئَ مني رعبًا ، وأحلت لي الغنائم آكلها ، وكان مَن قبلي يعظمون أكلها ، كانوا يحرقونها ، وجعلت لي الأرض مساجد وطهورًا ، أينما أدركتني الصلاة تمسَّحتُ وصليت ، وكان من قبلي يعظمون ذلك ، إنما كانوا يصلون في بِيَعهم وكنائسهم ، والخامسة هي ما هي ، قيل لي : سل ؛ فإن كل نبي قد سأل ، فأخرت مسألتي إلىٰ يوم القيامة ، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله** » . إسناد جيد قوي أيضًا ، ولم يخرجوه .

وقال[٢] أيضًا(٢١٨) : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن أبي موسىٰ الأشعري – رضي الله عنه – ، عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة** » .

وهذا الحديث في صحيح مسلم(٢١٩) من وجه آخر عن أبي موسىٰ قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار** » .

وقال الإمام أحمد(٢٢٠) : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس ، وهو سليم بن

= « الترغيب والترهيب » (٤٣٢/٤) وإسناده حسن للخلاف المشهور في رواية « عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده » .

(٢١٨) – « المسند » (٣٩٦/٤) وأخرجه أيضًا (٣٩٨/٤) ثنا عفان ، ثنا شعبة بهذا الإسناد ، ويأتي تخريجه بأطول من هذا عند [سورة هود / آية ١٧] وانظر ما بعده .

(٢١٩) – كذا قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – وكرر مثل هذا عند [آية رقم ١٧/ سورة هود] وبينّا عند هذا الموضع أن عزو الحديث لمسلم – من حديث أبي موسى – خطأ ، فانظر بيان ذلك ثمة .

(٢٢٠) – « المسند » (٣٥٠/٢) وقول المصنف « تفرد به أحمد » إن كان يعني بهذا الإسناد بتمامه وإلا فقد أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان، باب : وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (٢٤٠) (١٥٣) حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، قال : وأخبرني عمرو ؛ أن أبا يونس حدَّثه عن أبي هريرة ... فذكر الحديث .

---

[١] – في ز : « فصلى » .   [٢] – بياض في ز .

جبير ، عن أبي هريرة ، عن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم [أنه قال][١] : « **والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ، ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار** » . تفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد(٢٢١) : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، [عن أبي بردة ، عن أبي موسىٰ - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **أعطيت خمسًا : بعثت إلىٰ الأحمر والأسود ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا وأحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي ، ونصرت بالرعب شهرًا ، وأعطيت الشفاعة ، وليس من نبي إلا و[٢]قد سأل الشفاعة ، وإني قد اختبأت شفاعتي ، ثم جعلتها لمن مات من أمتي لم يشرك باللَّه شيئًا** » .

وهذا أيضًا إسناد صحيح ، ولم أرهم خرجوه ، واللَّه أعلم ، وهذا الحديث ثابت في الصحيحين أيضًا من حديث[٣] جابر بن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلىٰ قومه وبعثت إلىٰ الناس عامة** »(٢٢٢) .

وقوله : ﴿ **الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت** ﴾ صفة اللَّه تعالىٰ في قوله : ﴿ **رسول اللَّه** ﴾ : أي : إن[٤] الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه ، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة ، وله الحكم .

---

(٢٢١) - « المسند » (٤١٦/٤) وأخرجه الروياني في « مسنده » (١/رقم ٤٨٥) نا محمد بن معمر ، نا عبيد اللَّه بن موسى ، نا إسرائيل به ، ورواه أحمد أيضًا ثنا أبو أحمد الزبيري ، قال : ثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي بردة ، قال : قال رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم - فذكر معناه ولم يسنده ، وحسين بن محمد وعبيد بن موسى وأبو أحمد الزبيري - واسمه محمد بن عبد اللَّه - ثقات ، وعبيد اللَّه ابن موسى أوثقهم في إسرائيل . والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (٨/ ٢٦١) وقال : « رواه أحمد متصلًا ومرسلًا والطبراني ورجاله رجال الصحيح » .

(٢٢٢) - أخرجه البخاري ، فاتحة كتاب التيمم (رقم ٣٣٥) ومسلم ، فاتحة كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٣) (٥٢١) وكذا أخرجه أحمد (٣٠٤/٣) والنسائي (٢٠٩/١ ، ٢١٠ ، ٢١١) و(٢/ ٥٦) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز : « رواية » . [٤] - سقط من : ز .

وقوله : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي** ﴾ أخبرهم أنه رسول اللَّه إليهم ، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿ **النبي الأمي** ﴾ أي : الذي وُعِدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة ، فإنه منعوت بذلك في كتبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ **الذي يؤمن بالله وكلماته** ﴾ أي : يصدق قوله عمله ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿ **واتبعوه** ﴾ أي : اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ أي : إلى الصراط المستقيم .

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

يقول تعالىٰ مخبرًا عن بني إسرائيل إن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات اللَّه آناء الليل وهم يسجدون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين للَّه لا يشترون بآيات اللَّه ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن اللَّه سريع الحساب** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلىٰ عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا** ﴾ الآية ، وقال تعالىٰ : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به** ﴾ الآية ، وقال تعالىٰ : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلىٰ عليهم يخرون للأذقان سجدًا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا]**[١] **ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا** ﴾ .

وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبرًا عجيبًا فقال(٢٢٣) : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج قوله : ﴿ **ومن قوم موسىٰ أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ قال : بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطًا ، تبرأ سبط منهم مما صنعوا ، واعتذروا ، وسألوا اللَّه - عز وجل - أن يفرق بينهم وبينهم ، ففتح اللَّه لهم نفقًا في الأرض ، فساروا فيه حتىٰ خرجوا من وراء الصين ، فهم هنالك حنفاء مسلمون[٢] يستقبلون قبلتنا . قال ابن جريج : قال ابن عباس : فذلك قوله : ﴿ **وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفًا** ﴾ و﴿ **وعد الآخرة** ﴾ عيسىٰ بن مريم - قال ابن جريج : قال ابن عباس : ساروا في السرب سنة ونصفًا .

---

(٢٢٣) - « التفسير » لابن جرير (١٥٢٥١/١٣) وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٥٠/٣) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في خ ، ز : « مسلمين » والمثبت من تفسير ابن جرير .

وقال ابن عيينة : عن صدقة أبي الهذيل ، عن السدي : ﴿ **ومن قوم موسىٰ أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ قال : قوم بينكم وبينهم نهر من شهْد[١] .

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة ، وهي مدنية ، وهذا السياق مكي ، ونبهنا علىٰ الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنىٰ عن إعادته ، ولله الحمد والمنة .

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالىٰ : ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ . يقول تعالىٰ لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ **واسألهم**[٢] ﴾ أي: واسأل[٣] هؤلاء اليهود الذين[٤] بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ،

---

[١] - في ز ، ت : « شُهْ » .
[٢] - في ز : « وسلهم » .
[٣] - في ز : « سل » .
[٤] - سقط من : ز .

ففاجأتهم[١] نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم ؛ لئلا يحلّ بهم ما حل بإخوانهم وسَلَفهم ، وهذه القرية هي « **أيلة** » ، وهي على شاطئ بحر القلزم .

قال محمد بن إسحاق(٢٢٤) : عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر** ﴾ قال : هي قرية يقال لها : « **أيلة** » بين مدين والطور .

وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدّي . وقال عبد الله بن كثير القارئ : سمعنا أنها أيلة .

وقيل : هي مدين ، وهو رواية عن ابن عباس . وقال ابن زيد : هي قرية يقال لها : « **مقنا** »[٢] بين مدين وعينونا[٣] .

وقوله : ﴿ **إذ يعدون في السبت** ﴾ أي : يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك .

﴿ **إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعًا** ﴾ قال الضحاك : عن ابن عباس ؛ أي : ظاهرة على الماء .

وقال العوفي : عن ابن عباس : ﴿ **شرعًا** ﴾ : من كل مكان .

قال ابن جرير[٤] : وقوله : ﴿ **ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم** ﴾ أي : نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائه[٥] عنهم في اليوم المحلل لهم صيده ﴿ **كذلك نبلوهم** ﴾ نختبرهم ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ يقول : بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها .

وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله ، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام .

---

(٢٢٤) - أخرجه ابن جرير (١٥٢٥٢/١٣) وابن أبي حاتم (٨٤٤١/٥) .

---

[١] - في ز : « ففجأتهم » . [٢] - في خ ، ز : « متنا » .
[٣] - في ت : « وعيدوني » ، و« عينونا » وتكب أيضًا و« عينون » كلمة عبرانية وهي علم على قرية من قرى بيت المقدس وقيل : قرية من وراء البثنية من دون القلزم في طرف الشام « معجم البلدان » (٢٠٣/٤ ، ٢٠٤) .
[٤] - ابن جرير في تفسيره (١٨٣/١٣ - ١٨٤) .
[٥] - في ز : « إخفائها » .

وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة رحمه الله(٢٢٥) : حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم ، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : [« **لا ترتكبوا ما ارتكبت**][١] **اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل** » .

وهذا إسناد جيد ، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه ، وباقي رجاله مشهورون ثقات ، ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا .

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، كما تقدم بيانه في سورة البقرة ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة : ﴿ **لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا** ﴾ أي : لمَ تنهون[٢] هؤلاء وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله ؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم ، قالت لهم المنكرة : ﴿ **معذرة إلى ربكم** ﴾ قرأ بعضهم بالرفع[٣] ، كأنه على تقدير : هذه معذرة ، وقرأ آخرون بالنصب [٤]أي : نفعل ذلك

(٢٢٥) - « جزء في الخلع وإبطال الحيل » (ص ٢٤) لأبي عبد الله بن بطة - كما في « إرواء الغليل » (٥/رقم ١٥٣٥) وقال الألباني : « وإسناده رجاله ثقات معروفون من رجال « التهذيب » غير أبي الحسن أحمد بن محمد بن مسلم وهو المخرمي كما جاء منسوبًا في أكثر من موضع في كتابه الآخر « الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ....» ثم نقل الألباني كلام ابن كثير الذي عقب به هذا الحديث وقال -: « ولكني لم أجد ترجمة ابن مسلم هذا في « تاريخ بغداد » والله أعلم » .
قلت : هو مترجم في « تاريخ بغداد » (٥/٩٨ ، ٩٩) ولكن لم يذكر فيه الخطيب جرحًا أو تعديلًا ، ومع هذا فقد جوَّد المصنف إسناده وحسن إسناده السخاوري كما في « الفتاوي الحديثية » (ص ٢٣٦) .

[١] - في خ : « لا تركبوا ما ارتكب » . [٢] - في ز : « تنهوا » .
[٣] - وهم ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي .
[٤] - وهي قراءة عاصم . انظر السبعة في القراءات لابن مجاهد (ص ٢٩٦) .

﴿ **معذرة إلىٰ ربكم** ﴾ أي : فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ﴿ **ولعلهم يتقون** ﴾ يقولون : ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ، ويرجعون إلىٰ الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم .

قال تعالىٰ : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ أي : فلما أبىٰ الفاعلون المنكرَ قبول النصيحة ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا** ﴾ أي : ارتكبوا المعصية ﴿ **بعذاب بئيس** ﴾ فنص علىٰ نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحوا ، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين ؟ علىٰ قولين :

قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس ﴿ **وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا** ﴾ : هي قرية علىٰ شاطئ البحر بين مكة[١] والمدينة يقال لها : « **أيلة** » فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم ، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعًا في ساحل البحر ، فإذا مضىٰ يوم السبت لم يقدروا عليها ، فمضىٰ علىٰ ذلك ما شاء الله ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا : تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ، فلم يزدادوا إلا غيًا ، وعتوًا ، وجعلت طائفة أخرىٰ تنهاهم ، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة : تعلموا[٢] أن هؤلاء قوم قد[٣] حق عليهم العذاب ﴿ **لم تعظون قومًا الله مهلكهم** ﴾ وكانوا أشد غضبًا لله من الطائفة الأخرىٰ فقالوا : ﴿ **معذرة إلىٰ ربكم ولعلهم يتقون** ﴾ وكل قد كانوا ينهون، فلما[٤] وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿ **لم تعظون قومًا الله مهلكهم** ﴾ والذين قالوا : ﴿ **معذرة إلىٰ ربكم** ﴾ وأهلك[٥] الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة .

وروىٰ العوفي عن ابن عباس قريبًا من هذا .

وقال حماد بن زيد : عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ **وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا** ﴾ قال : ما أدري أنجا الذين قالوا : ﴿ **لم تعظون قومًا الله مهلكهم** ﴾ أم لا ؟ قال : فلم أزل به حتىٰ عرَّفته أنهم قد نجوا ، فكساني حُلَّة .

---

[١] - في ح ، ز : « مصر » والمثبت من تفسير ابن جرير (١٥٢٦٦/١٣) .
[٢] - في ج ، ز : « تعلمون » وهو تحريف ، لأنه فعل أمر بمعنى اعلموا .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « لما » .
[٥] - في ز : « أهلكهم » .

وقال عبد الرزاق(٢٢٦) : أخبرنا ابن جريج ، حدثني رجل ، عن عكرمة قال : جئت ابن عباس يومًا وهو يبكي ، وإذا المصحف في حجره ، فأعظمت أن أدنو ، ثم لم أزل علىٰ ذلك حتىٰ تقدمت ، فجلست ، فقلت : ما يبكيك يا أبا عباس ، جعلني اللّٰه فداك ؟ قال : فقال : هؤلاء الورقات . قال : وإذا هو[١] في سورة الأعراف قال : تعرف أيلة ؟ قلت : نعم . قال : فإنه كان بها حي من اليهود[٢] ، سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ، ثم غاصت[٣] لا يقدرون عليها[٤] حتىٰ يغوصوا[٥] بعد كد ومؤنة شديدة ، كانت تأتيهم يوم السبت شرعًا بيضًا سمانا كأنها الماخض تتبطّح[٦] ظهورها لبطونها بأفنيتهم ، فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم إن الشيطان أوحىٰ إليهم فقال : إنما نهيتم[٧] عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام ، فقالت ذلك طائفة منهم ، وقالت طائفة : بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت . فكانوا كذلك حتىٰ جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، و[تنحت واعتزلت][٨] طائفة ذات اليسار وسكتت، وقال الأيمنون: [ويلكم . اللّٰه][٩] اللّٰهَ ، [ننهاكم أن][١٠] تتعرضوا لعقوبة اللّٰه . وقال الأيسرون : ﴿ **لم تعظون قومًا اللّٰه مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا** ﴾ . قال الأيمنون : ﴿ **معذرة إلىٰ ربكم ولعلهم يتقون** ﴾ ، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا ، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلىٰ ربكم . فمضوا علىٰ الخطيئة ، وقال الأيمنون : فقد فعلتم يا أعداء اللّٰه ، واللّٰه لا نُبايِتُكم الليلة في مدينتكم ، واللّٰه ما نراكم تصبحون حتىٰ يصبحكم اللّٰه بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب ، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ، ونادوا ، فلم يجابوا ، فوضعوا سلمًا ، فأعلوا[١١] بسور المدينة رجلًا ، فالتفت إليهم فقال : أي عباد اللّٰه ، قردةٌ واللّٰه تَعَاوَىٰ[١٢] ، لها أذناب . قال : ففتحوا ، فدخلوا عليهم ، فعرفت القرود أنسابها من الإنس ، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة ، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي ، فيقول[١٣] : ألم ننهكم عن كذا ؟ فتقول برأسها : أي نعم . ثم قرأ ابن عباس : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس** ﴾ قال : فأرىٰ[١٤] الذين نهوا قد نجوا ، ولا أرىٰ الآخرين ذكروا ، ونحن نرىٰ

---

(٢٢٦) - « التفسير » لعبد الرزاق (٢/٢٤٠ ، ٢٤٢) ومن طريقه ابن جرير (١٣/١٥٢٧٢) .

---

[١] - سقط من: خ ، ز .
[٢] - في ز : « يهود » .
[٣] - في ز : « عاصت » .
[٤] - في ت : « عليه » .
[٥] - في ز : « يعصوا » .
[٦] - في ز : « تنتطح » .
[٧] - في ز : « نهيتكم » .
[٨] - في تفسير عبد الرزاق « نهت واعترضت »
[٩] - سقط من: خ، ز .
[١٠] - في ز : « ينهاكم عن لا » .
[١١] - في ت : « أعلوا » .
[١٢] - في ز : « تعادى » .
[١٣] - في ز : « فتقول لهم » .
[١٤] - في ز : « قاري » .

أشياء ننكرها ولا نقول فيها ، قال : قلت : أي[١] جعلني الله فداك ، ألا ترىٰ أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا : ﴿ لم تعظون قومًا الله مهلكهم ﴾ ؟ قال : فأمر لي[٢] ، فَكَسِيتُ ثوبين غليظين .

وكذا روىٰ مجاهد عنه .

وقال ابن جرير(٢٢٧) : حدثني يونس ، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز ، عن مالك قال : زعم ابن رُومان أن قوله تعالىٰ : ﴿ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴾ قال : كانت تأتيهم يوم السبت ، فإذا كان المساء ذهبت ، فلا يُرىٰ منها شيء إلىٰ يوم السبت الآخر ، فاتخذ لذلك رجل خيطًا ووتدًا ، فربط حوتًا منها في الماء يوم السبت ، حتىٰ إذا أمسوا[٣] ليلة الأحد أخذه فاشتواه ، فوجد الناس ريحه ، فأتوه فسألوه عن ذلك ، فَجَحَدهم ، فلم يزالوا به حتىٰ قال لهم : فإنه جلد حوت وجدناه . فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ولا أدري لعله قال : ربط حوتين فلما أمسىٰ من ليلة الأحد أخذه فاشتواه ، فوجدوا رائحة ، فجاءوا فسألوه ، فقال لهم : لو شئتم صنعتم كما أصنع . فقالوا له : وما صنعت ؟ فأخبرهم ، ففعلوا مثل ما فعل حتىٰ كثر ذلك ، وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم ، فأصابهم من المسخ ما أصابهم ، فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا[٤] حولهم ، يطلبون منهم ما يطلب الناس ، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم ، فنادوا فلم يجيبوهم ، فتسوروا عليهم ، فإذا هم قردة ، فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ، ويدنو منه ويتمسح به .

وقد قدمنا في سورة « **البقرة** » من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مَقْنَعٌ وكفاية ، ولله الحمد والمنة .

(القول الثاني) : أن الساكتين كانوا من الهالكين :

قال محمد بن إسحاق(٢٢٨) : عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : ابتدعوا السبت فابتلوا فيه ، فحرمت عليهم فيه الحيتان ، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم

---

(٢٢٧) - تفسير ابن جرير (١٥٢٧٧/١٣) .

(٢٢٨) - تفسير ابن جرير (١٥٢٧٨/١٣) وجود إسناده المصنف مع أن داود بن الحصين متكلم فيه لا سيما في عكرمة ، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن ، لكن وجدت تصريح ابن إسحاق به ، عند ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٤٥٤/٥) فانتفت شبهة تدليسه : وبقيت علة ضعف داود بن الحصين في عكرمة ، والله أعلم .

---

[١] - زيادة من : ز .
[٢] - في ز : « بي » .
[٣] - في خ : « أتوا » .
[٤] - في ز : « كان يكون » .

الحيتان ينظرون إليها في البحر ، فإذا انقضىٰ السبت ذهبت ، فلم تُر حتىٰ السبت المقبل ، فإذا جاء السبت جاءت شُرعًا ، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ، ثم إن رجلًا منهم أخذ حوتًا فخزمه بأنفه ثم ضرب له وتدًا في الساحل ، وربطه وتركه في الماء ، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ، ولا ينهاه منهم أحد ، إلا عصبة منهم نهوه ، حتىٰ ظهر ذلك في الأسواق ، فَفُعِلَ علانية ، قال : فقالت طائفة للذين ينهونهم : ﴿ **لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا قالوا معذرة إلىٰ ربكم** ﴾ فقالوا : نسخط أعمالهم ﴿ **ولعلهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **قردة خاسئين** ﴾ قال ابن عباس : كانوا أثلاثًا : ثلث نهوا ، وثلث قالوا : ﴿ **لم تعظون قومًا الله مهلكهم** ﴾ ، وثلث أصحاب الخطيئة ، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم .

وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ، ولكن رجوعه إلىٰ قول عكرمة في نجاة الساكتين أولىٰ من القول بهذا ؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك ، والله أعلم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس** ﴾ فيه دلالة بالمفهوم علىٰ أن الذين بقوا نجوا .

و﴿ **بئيس** ﴾ فيه قراءات كثيرة[١] ، ومعناه في قول مجاهد : الشديد ، وفي رواية : أليم ، وقال قتادة : موجع ، والكل متقارب ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **خاسئين** ﴾ أي : ذليلين حقيرين مُهانين .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿ **تأذن** ﴾ تفعَّل من الأذان أي : أعلم . قاله[٢] مجاهد ، [ ][٣] وقال غيره : أمر .

وفي قوة الكلام ما يفيد معنىٰ القسم من هذه اللفظة ؛ ولهذا تُلُقِّيت باللام في قوله : ﴿ **ليبعثن عليهم** ﴾ أي : علىٰ اليهود ﴿ **إلىٰ يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب** ﴾ أي : بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم علىٰ المحارم .

ويقال : إن موسىٰ - عليه السلام - ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة

---

[١] - انظر هذه القراءات في كتاب السبعة في القراءات لأبي بكر بن مجاهد (ص٢٩٦ ، ٢٩٧) .
[٢] - في ز : « وقال » . [٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « قال » .

سنة ، وكان أول من ضرب الخراج ، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكُشْدانيين والكُلدانيين ، ثم صاروا إلىٰ[١] قهر النصارىٰ وإذلالهم إياهم ، وأخذهم منهم الجزىٰ والخراج ، ثم جاء الإِسلام ومحمد صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، فكانوا تحت صَغَاره[٢] وذمته يؤدون الخراج والجزىٰ .

قال العوفي : عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال : هي المسكنة وأخذ الجزية منهم .

وقال علي بن أبي طلحة : عنه : هي الجزية ، والذين[٣] يسومونهم سوء العذاب : محمد رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، وأمته ، إلىٰ يوم القيامة .

وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج[٤] والسدي وقتادة .

وقال عبد الرزاق : عن معمر ، عن عبد الكريم الجزري ، عن سعيد بن المسيب قال : يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية .

قلت : ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار[٥] الدجال ، فيقتلهم المسلمون مع عيسىٰ ابن مريم عليه السلام ، وذلك آخر الزمان .

وقوله : ﴿ **إن ربك لسريع العقاب** ﴾ أي : لمن عصاه وخالف شرعه ﴿ **وإنه لغفور رحيم** ﴾ أي : لمن تاب[٦] إليه وأناب .

وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة ؛ لئلا يحصل اليأس ، فيقرن تعالىٰ بين الترغيب والترهيب كثيرًا ؛ لتبقىٰ النفوس بين الرجاء والخوف.

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ

---

[١] - في ز : « في » .
[٢] - في ز : « صفاره » .
[٣] - في خ : « الذي » .
[٤] - في ز : « جرير » .
[٥] - في خ : « أنصارًا » .
[٦] - في ز : « ثاب » .

بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

يذكر تعالىٰ أنه فرقهم في الأرض أممًا ، أي : طوائف وفِرَقًا ، كما قال : ﴿ **وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفًا** ﴾ .

﴿ **منهم الصالحون ومنهم دون ذلك** ﴾ أي : فيهم الصالح وغير ذلك ، كما قالت الجن : ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددًا** ﴾ ، ﴿ **وبلوناهم** ﴾ أي : اختبرناهم ﴿ **بالحسنات والسيئات** ﴾ أي : بالرخاء والشدة ، والرغبة والرهبة ، والعافية والبلاء ، ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنىٰ ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه** ﴾ ، يقول تعالىٰ ﴿ **فخلف** ﴾ من بعد ذلك الجيل الذي[١] فيهم الصالح والطالح ﴿ **خلف** ﴾ آخر لا خير فيهم ، وقد ﴿ **ورثوا** ﴾ دراسة ﴿ **الكتاب** ﴾ وهو التوراة - وقال مجاهد : هم النصارىٰ - وقد يكون أعم من ذلك ﴿ **يأخذون عرض هذا الأدنىٰ** ﴾ أي : يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ، ويسوِّفون أنفسهم وَيعِدُونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ **وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه** ﴾ ، كما قال سعيد بن جبير : يعملون بالذنب[٢] ثم يستغفرون اللَّه منه ، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه .

وقال مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿ **يأخذون عرض هذا الأدنىٰ** ﴾ قال : لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه ؛ حلالًا كان أو حرامًا ، ويتمنون المغفرة ﴿ **ويقولون سيغفر لنا وإن [يأتهم عرض مثله يأخذوه]**[٣] ﴾ .

وقال قتادة في قوله : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ : إي واللَّه ، لخلف سوء ﴿ **ورثوا الكتاب** ﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم ، ورثهم اللَّه وعَهِد إليهم ، وقال اللَّه تعالىٰ في آية[٤] أخرىٰ : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** ﴾ . قال : ﴿ **يأخذون عرض هذا الأدنىٰ ويقولون سيغفر لنا** ﴾ تمنوا علىٰ اللَّه أماني وغرة يغترون بها ﴿ **وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه** ﴾ ، لا[٥] يشغلهم شيء عن شيء ، ولا ينهاهم شيء عن ذلك ، كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه ، ولا يبالون[٦] حلالًا كان أو حرامًا .

---

[١] - في خ : « الذين » . [٢] - في ت : « الذنب » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « يجدوا عرضًا مثله يأخذونه » .
[٤] - سقط من : ز . [٥] - سقط من : ز .
[٦] - في خ : « ولا يسألون » .

وقال السدي : قوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ قال : كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى في الحكم ، وإن خيارهم اجتمعوا[١] ، فأخذ بعضهم علىٰ بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا[٢] . فجعل الرجل منهم إذا استُقضي ارتشىٰ ، فيقال له : ما شأنك ترتشي في الحكم ؟ فيقول : سيغفر[٣] لي ، فيطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع ، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي ، يقول : وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه .

قال اللّه تعالىٰ : ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا علىٰ اللّه إلا الحق ودرسوا ما فيه ﴾ ، يقول تعالىٰ منكرًا عليهم في صنيعهم هذا ، مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه ، كقوله[٤] : ﴿ وإذ أخذ اللّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلا فبئس ما يشترون ﴾ .

وقال ابن جريج : قال ابن عباس ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا علىٰ اللّه إلا الحق ﴾ قال : فيما يوجبون علىٰ اللّه من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها .

وقوله تعالىٰ : ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون[٥] ﴾ ، يرغبهم تعالى في جزيل ثوابه ، ويحذرهم من وبيل عقابه ، أي : وثوابي و[ ][٦] ما عندي خير لمن اتقىٰ المحارم ، وترك هوىٰ نفسه ، وأقبل علىٰ طاعة ربه .

﴿ أفلا تعقلون[٧] ﴾ يقول أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بِعَرَض الدنيا عما عندي ، عقل يردعهم عما هم[٨] فيه من السفه والتبذير ، ثم أثنىٰ تعالىٰ علىٰ من تمسك بكتابه الذي يقوده إلىٰ اتباع رسوله محمد صلىٰ اللّه عليه وسلم ، كما هو مكتوب فيه ، فقال تعالىٰ : ﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ أي : اعتصموا به ، واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره ﴿ وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾.

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

---

[١] - في ز : « أجمعوا » .
[٢] - في ز : « يرتشي » .
[٣] - في ز : « فيغفر » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في ز : « يعقلون » .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز : خير .
[٧] - في ز : « يعقلون »
[٨] - زيادة من : ز .

قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس قوله : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم** ﴾ يقول : رفعناه ، وهو قوله : ﴿ **ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم** ﴾ .

[وقال سفيان الثوري : عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس][١] : رفعته الملائكة فوق رءوسهم .

وقال القاسم بن أبي أيوب : عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ثم سار بهم موسىٰ - عليه السلام - متوجهًا نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أمره[٢] اللَّه أن يبلغهم من الوظائف ، فثقلت عليهم ، وأبوا أن يقربوها حتىٰ نتق اللَّه الجبل فوقهم ﴿ **كأنه ظلة** ﴾ قال : رفعته الملائكة فوق رءوسهم . رواه النسائي بطوله(٢٢٩) .

وقال سنيد بن داود في تفسيره(٢٣٠) : عن حجاج بن محمد ، عن أبي بكر بن عبد اللَّه قال : هذا كتاب ، أتقبلونه بما فيه ؟ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم ، وما أمركم وما نهاكم . قالوا : انشر علينا ما فيها ، فإن كانت فرائضها يسيرة[٣] ، وحدودها خفيفة قبلناها . قال : اقبلوها بما فيها . قالوا : لا ، حتىٰ نعلم ما فيها ، كيف حدودها وفرائضها . فراجعوا موسىٰ مرارًا ، فأوحىٰ اللَّه إلىٰ الجبل فانقلع فارتفع في السماء ، حتىٰ إذا كان بين رءوسهم وبين السماء قال لهم موسىٰ : ألا ترون ما يقول ربي عز وجل ، لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل[٤] . قال : فحدثني الحسن البصري قال : لما نظروا إلىٰ الجبل خر كل رجل ساجدًا علىٰ حاجبه الأيسر ، ونظر بعينه اليمنىٰ إلىٰ الجبل ، فَرَقًا من أن يسقط عليهم[٥] ، فلذلك[٦] ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا علىٰ حاجبه الأيسر ، يقولون : هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة . قال أبو بكر : فلما نشر الألواح فيها كتاب اللَّه كتبه بيده ، لم يبق علىٰ وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فليس اليوم يهودي علىٰ وجه الأرض صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونغض[٧] لها رأسه [أي : حوّل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **فسينغضون إليك**

---

(٢٢٩) - هو جزء من حديث الفتون يأتي تخريجه [سورة طه / آية ٤٠] .

(٢٣٠) - ومن طريق سُنَيْد أخرجه ابن جرير (١٥٣٣٧/١٣) .

---

[١] - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٥١٦/٥) ثم أخرجه (٨٥٢٤/٥) من طريق « سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره هكذا بزيادة « مسلم البطين والأعمش سمع من سعيد ومسلم » .

[٢] - في خ : « أمر » .

[٣] - سقط من : ز .

[٤] - في خ ، ز : « الحيط » .

[٥] - ساقطة من : ت .

[٦] - في خ ، ز : « فكذلك » والمثبت من تفسير ابن جرير .

[٧] - في ز : « نفض » .

رءوسهم ﴾ والله أعلم][١] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

يخبر تعالىٰ أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم ، شاهدين علىٰ أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالىٰ فطرهم علىٰ ذلك وجبلهم عليه ، قال تعالىٰ : **﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾** ، وفي الصحيحين(٢٣١) عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **كل مولود يولد علىٰ الفطرة**» - وفي رواية(٢٣٢) : « **علىٰ هذه الملة - فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء**[٢] ؟ » وفي صحيح مسلم(٢٣٣) ، عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم[٣] الشياطين ، فاجتالتهم[٤] عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم** » .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله(٢٣٤) : حدثنا يونس بن عبد الأعلىٰ ، حدثنا ابن

(٢٣١) - تقدم تخريجه [سورة الأنعام / آية ٧٩] .

(٢٣٢) - وهي عند مسلم ، كتاب : القدر ، باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة ... (٢٣) (٢٦٥٨) وانظر ما يأتي [سورة هود / آية ١٧] .

(٢٣٣) - تقدم تخريجه [سورة الأنعام / آية ٧٩] .

(٢٣٤) - تفسير ابن جرير (١٥٣٥٣/١٣) وأخرجه أحمد (٢٤/٤) من طريق محمد بن جعفر، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٤٤٥/١) وفي « الصغير » (١١٤/١ ، ١١٥) من طريق مسلم ابن إبراهيم الفراهيدي ، كلاهما (محمد ومسلم) عن السري بن يحيى به ، وفيه تصريح الحسن ابن أبي الحسن بسماعه من الأسود بن سريع ، وأخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٣٠/٧) والطحاوي في « مشكل الآثار » (رقم ١٣٩٤ ، ١٣٩٥) وابن حبان في صحيحه (١/رقم ١٣٢)=

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز . [٢] - في ز : « جذعاء » .

[٣] - في ز : « فجتالتهم » . [٤] - في ز : « فاختالتهم » .

وهب ، أخبرني السري بن يحيىٰ : أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم ، عن الأسود بن سريع من بني سعد قال : غزوت مع رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة ، فبلغ ذلك رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فاشتد عليه ثم قال : « **ما بال أقوام يتناولون الذرية** » ؟ فقال رجل : يا رسول اللَّه أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : « **إن خياركم أبناء المشركين ، ألا إنها ليست نسمة تُولَد إلا وُلدت علىٰ الفطرة ، فما تزال عليها حتىٰ يبين عنها لسانها[١] ، فأبواها يهوّدانها أو ينصرانها** » . قال الحسن : واللَّه لقد قال اللَّه في كتابه : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم[٢]** ﴾ الآية .

وقد رواه الإمام أحمد(٢٣٥) : عن إسماعيل بن علية ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن البصري به ، وأخرجه النسائي في سننه(٢٣٦) : من حديث هشيم ، عن[٣] يونس بن عبيد ، عن

= والطبراني في « الكبير » (١/رقم ٨٢٧) والإسماعيلي في « كتاب المعجم » (٢/رقم ٣٧٦) والضياء في « المختارة » (١٤٤٦/٤) من طريق السرى بن يحيى ، وليس فيه تصريح الحسن بالسماع من الأسود وانظر ما بعده .

(٢٣٥) - « المسند » (٤٣٥/٣) وأخرجه الدارمي (٢٤٦٦) وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦٣/٨) من طريق أبي إسحاق الفزاري ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (١١٦٠/٢) والطبراني في « الكبير » (١/رقم ٨٢٩) من طريق يزيد بن زريع ، والطبراني أيضًا (٨٣٢/١) من طريق سعيد بن أبي عروبة ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٧٧/٩) من طريق عبد الوهاب بن عطاء الخفاف ، أربعتهم (أبو إسحاق ، ويزيد ، وسعيد ، وعبد الوهاب) عن يونس بن عبيد به ، وليس فيه ذكر السماع بين الحسن والأسود ، وقد سقط « الحسن » من « الحلية » فليستدرك ، وقال أبو نعيم : « حديث الأسود مشهور ثابت » وانظر ما بعده .

(٢٣٦) - « الكبرى » ، كتاب : السير ، باب : النهي عن قتل ذراري المشركين (٨٦١٦/٥) - ومن طريقه الطحاوي في « مشكل الآثار » (١٦٣/٢) ، ومن طريق هشيم أخرجه المحاملي في « أماليه » (الجزء الأول ١١ب - ١٢ أ رواية عبد الواحد الفارسي) - ومن طريق المحاملي الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٨٠/٨) والضياء في « المختارة » (١٤٤٤/٤) والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٢٣) - ومن طريقه البيهقي في « السنن الكبرى » (٧٧/٩) وعند جميعهم تصريح الحسن بالسماع من الأسود بن سريع ، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

وله طرق أخرى عن الحسن انظر « الآحاد والمثاني » (١١٦١/٢ ، ١١٦٢) و« المعجم الكبير » (١/ص ٢٨٣ : ٢٨٥) وقد أعله جماعة بالانقطاع بين الحسن والأسود بن سريع ، فنفى سماع الحسن من الأسود ، كل من : ابن معين في « تاريخه » (رقم ٤٠٩٤ ، ٤٥٩٩) وأبو داود « سؤالات الآجري » (رقم ٣٨٠) والبزار « نصب الراية » (٩٠/١) وغيرهم - وسئل علي بن المديني =

[١] - في ز : « نساها » . [٢] - في ز : « ذرياتهم » .
[٣] - في ز : « بن » .

الحسن قال : حدثني الأسود بن سريع ، فذكره ، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك .

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرّية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم إلىٰ أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفي بعضها : الاستشهاد عليهم بأن اللَّه ربهم .

قال الإِمام أحمد(٢٣٧) : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة ، عن أبي عمران الجوني ، عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه ، عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « **يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما علىٰ الأرض**[١] **من شيء أكنت مفتديًا به ؟ قال : فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئًا ، فأبيت إلا أن تشرك بي** » .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث شعبة ، به .

(حديث آخر) وقال الإِمام أحمد(٢٣٨) : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير - يعني ابن

= عن هذا الحديث فقال : « إسناده منقطع ، رواية الحسن عن الأسود بن سريع والحسن عندنا لم يسمع من الأسود ؛ لأن الأسود خرج من البصرة أيام علي وكان الحسن بالمدينة » « العلل » لعلي بن المديني (رقم ١٣) ، لكن صحح حديث الحسن عن الأسود ابن حبان والحاكم وأبو نعيم والضياء واللَّه أعلم . وانظر ما يأتي [سورة هود / آية ١٧] .

(٢٣٧) - « المسند » (١٢٧/٣) وأخرجه أيضًا (١٢٩/٣) والبخاري ، كتاب : الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته (٣٣٣٤) ، ومسلم ، كتاب : صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (٥١ (٢٨٠٥) من طرق عن شعبة به نحوه .

(٢٣٨) - « المسند » (٢٧٢/١) (رقم ٢٤٥٥) وذكره المصنف في « البداية والنهاية » (١٠٠/١) كما هنا وقال : « إسناده قوي على شرط مسلم ، رواه النسائي وابن جرير والحاكم في مستدركه من حديث حسين محمد المروزي به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر ؛ فروي عنه مرفوعًا وموقوفًا .....» إلى آخره بنحو كلامه هنا - ومن طريق الضياء أحمد أخرجه في « المختارة » (١٠/رقم ٣٦٦) - وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ رقم ٢٠٢) ثنا سليمان بن عبد الجبار ، والنسائي في « التفسير » من « الكبرى » (١١١٩١/٦) أنا محمد بن عبد الرحيم ، وابن جرير في تفسيره (١٥٣٣٨/١٣) حدثني أحمد بن محمد الطوسي ، وابن منده في « الرد على الجهمية » (٢٩) من طريق محمد بن إبراهيم ، والحاكم في « المستدرك » (٥٤٤/٢) - وعنه البيهقي في « الأسماء والصفات » (٢/رقم ٧١٤) - والضياء (٣٦٧/١٠) من طريق جعفر بن محمد الصائغ ، وكذا الضياء (٣٦٨/١٠ ، ٣٦٩) من طريق إسحاق الحربي وسليمان بن عبد الجبار ؛ كلهم (أحمد بن حنبل ، وسليمان =

[١] - سقط من : ز .

حازم - عن كلثوم بن جبر[١] ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس عن النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، قال : « **إن اللّٰه أخذ الميثاق من ظهر آدم - عليه السلام - بِنَعْمَان ، يعني[٢] عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرّية ذرأها ، فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قِبَلًا[٣] قال : ﴿ ألست بربكم قالوا بلىٰ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا ﴾ إلىٰ قوله ﴿ المبطلون ﴾** .

وقد روىٰ هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه : عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة ، عن حسين بن محمد المروزي ، به .

ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث حسين بن محمد به ، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفًا . وأخرجه الحاكم في مستدركه ، من حديث حسين بن محمد وغيره ، عن جرير بن حازم ، عن كلثوم بن جبر[٤] به ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر[٥] . هكذا قال ، وقد رواه عبد الوارث(٢٣٩) ، عن كلثوم بن جبر[٦] ، عن سعيد

= ومحمد بن عبد الرحيم - صاعقة - وأحمد بن محمد ، ومحمد بن إبراهيم وجعفر بن محمد وإسحاق) ثنا الحسين بن محمد به ، وأخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٨٥٢٩/٥) ثنا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم البغوي ، ثنا حسين بن محمد به موقوفًا ، وأعله النسائي بضعف كلثوم بن جبر فقال عقبه « كلثوم هذا ليس بالقوي ، وحديثه ليس بالمحفوظ » ، وأجيب بأن كلثوم هذا وثقه أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين وابن حبان وقال ابن سعد : « كان معروفًا وله أحاديث » ، وفي « التقريب » : « صدوق يخطئ » ولا يبعد أن يكون قد أخطأ في رفع هذا الحديث وقد أعله بالوقف المصنف وكذا ابن مندة فقال : « هذا حديث تفرد به حسين المروزي » - كذا قال - وهو متابع كما يأتي عن جرير بن حازم وهو أحد الثقات ، ورواه حماد بن زيد وعبد الوراث وابن علية وربيعة بن كلثوم كلهم عن كلثوم بن جبر ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفًا ، وكذلك رواه حبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة ، وعطاء بن السائب كلهم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله ، وزاد عطاء في حديثه قال « أهبط اللّٰه عز وجل آدم بدخنا ومسح اللّٰه ظهره » وقد تابع حسينًا المروزيَّ وهبُ ابن جرير عن أبيه جرير بن حازم به مرفوعًا أخرجه الحاكم (٢٧/١) ومن طريقه وطريق آخر البيهقي (٤٤١/١) (٧١٤/٢) وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر » ووافقه الذهبي على هذا وصحح رفعه أيضًا الألباني في « الصحيحة » (١٦٢٣/٤) وانظر ما بعده .

(٢٣٩) - أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥٣٣٩/١٣) وفي « التاريخ » (٦٧/١) ثنا عمران =

[١] - في ز : « جبير » .
[٢] - في خ ، ز : « يوم » .
[٣] - في ز : « فتلا » .
[٤] - في ز : « جبير » .
[٥] - في ز : « جبير » .
[٦] - في ز : « جبير » .

ابن جبير ، عن ابن عباس ، فوقفه ، وكذا رواه إسماعيل بن علية ووكيع ، عن ربيعة بن كلثوم ، عن جبير ، عن[1] أبيه به . وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة : عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله[2]. وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس . فهذا أكثر وأثبت ، والله أعلم .

وقال ابن جرير(٢٤٠) : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبي ، عن أبي هلال ، عن أبي جمرة[3] الضبعي، عن ابن عباس قال: أخرج الله ذرّية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في آذيّ من الماء[4] .

وقال أيضًا(٢٤١) : حدثنا علي بن سهل ، حدثنا ضمرة بن ربيعة ، حدثنا أبو مسعود ، عن

= ابن موسى ثنا عبد الوارث به ، ورواه إسماعيل بن علية عن كلثوم بن جبر به موقوفًا ؛ أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٢٥/١) وابن جرير (١٥٣٤٠/١٣) وكذا رواه ابن علية ووكيع عن ربيعة بن كلثوم عن أبيه به أخرجه ابن سعد (٢٦/١) وابن جرير (١٥٣٥١/١٣) ورواه حماد بن زيد عن كلثوم بن جبر به موقوفًا أيضًا أخرجه ابن سعد ، وقد رواه عطاء بن السائب ، وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير به موقوفًا .

وحديث عطاء عند ابن سعد وابن جرير (١٥٣٤٢/١٣ ، ١٥٣٤٣ ، ١٥٣٤٦ ، ١٥٣٤٧) .

وحديث حبيب عند ابن جرير (١٣/ ١٥٣٤٤ ، ١٥٣٤٥) وابن أبي حاتم (٨٥٣١/٥) وابن بطة في « الإبانة » (١/رقم ١٣٣٤ ، ١٣٣٨) والآجري في « الشريعة » (١/رقم ٤٨١) وابن مندة في « الرد على الجهمية » (رقم ٣٤) وحديث علي بن بذيمة عند ابن جرير (١٥٣٤٨/١٣ ، ١٥٣٤٩) وابن بطة في « الإبانة » (١/رقم ١٣٣٦ ، ١٣٤١) ورواه ابن جريج عن الزبير بن موسى عن سعيد ابن جبير به موقوفًا أخرجه ابن بطة (١٣٤٠/١) والآجرى (٤٨٢/١) وابن جرير (١٥٣٦٢/١٣) وابن مندة (٣٥) وطريق العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس أخرجهما ابن جرير (١٣/ ١٥٣٦١ ، ١٥٣٦٠) .

(٢٤٠) - تفسير ابن جرير (١٥٣٥١/١٣) وأخرجه ابن أبي حاتم (٨٥٣٤/٥) من طريق موسى بن إسماعيل ، وابن منده في « الرد على الجهمية » (رقم ٣١) من طريق شيبان ، كلاهما (موسى وشيبان) عن أبي هلال به وقد تحرف عند ابن منده « أبي جمرة » إلى « أبي حمزة » فليصحح ، والأثر ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢٥٩/٣) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ .

(٢٤١) - تفسير ابن جرير (١٥٣٥٢/١٣) .

---

[1] - سقط من : ز .

[2] - زيادة من : ز .

[3] - في ز : « حمزة » .

[4] - قوله : « آذي من الماء » الآذيّ - بالمد والتشديد : الموج الشديد، ويجمع على أواذي « النهاية » (٣٤/١) .

جويبر قال[١] : مات ابن للضحاك[٢] بن مزاحم ، ابن ستة أيام ، قال :

فقال : ياجابر ، إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحُلَّ عنه عقده ، فإن ابني مُجْلَسٌ ومسئول ، ففعلت به الذي أمر[٣] ، فلما فرغت قلت : يرحمك اللّه ، عم يُسأل] ابنك ؟ من يسأله إياه ؟ قال : يُسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم . قلت : يا أبا القاسم ، وما[٤] هذا الميثاق الذي أقر به[٥] في صلب آدم ؟ قال : حدثني ابن عباس : إن اللّه مسح صلب آدم ، فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلىٰ يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وتكفل لهم بالأرزاق ، ثم أعادهم في صلبه ، فلن تقوم الساعة حتىٰ يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفىٰ به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر ، فلم يف[٦] به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيرًا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات علىٰ الميثاق الأول علىٰ الفطرة .

فهذه الطرق كلها مما تقوي وقف هذا علىٰ ابن عباس ، واللّه أعلم .

(حديث آخر) : وقال ابن جرير(٢٤٢) : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد ، حدثنا أحمد بن أبي طيبة ، عن سفيان بن سعيد ، عن الأجلح ، عن الضحاك عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبد اللّه

(٢٤٢) - « التفسير » لابن جرير (١٥٣٥٤/١٣) وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢٦١/٣) وعزاه إلى ابن جرير وابن مندة في « كتاب الرد على الجهمية » - وهو عند ابن منده (ص ٦٣ ، ٦٤) معلقًا عن مجاهد عن ابن عمر - كذا وهو مصحف - به موقوفًا ، وأخرجه ابن جرير أيضًا (١٥٣٥٥/١٣) من طريق يحيى بن سعيد ، وابن أبي حاتم (٨٥٣٢/٥) من طريق يحيى بن يمان ، كلاهما (يحيى بن سعيد ويحيى بن يمان) عن سفيان - مقرونًا به شريك عند ابن أبي حاتم عن منصور به موقوفًا ، ورواية عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان المشار إليها هنا ، لم أهتد إليها واللّه أعلم .

ورواه ابن جرير أيضًا (١٥٣٥٦/١٣) ثنا ابن وكيع وابن حميد قالا : ثنا جرير عن منصور به موقوفًا .
وقد أعل ابن جرير رواية أحمد بن أبي طيبة المرفوعة ، بهذه الروايات الموقوفة فقال : « لا أعلمه صحيحًا ، لأن الثقات الذين يعتمد على حفظهم وإتقانهم ، حدَّثوا بهذا الحديث عن الثوري ، فوقفوه على عبد اللّه بن عمرو ، ولم يرفعوه ، ولم يذكروا في الحديث هذا الحرف الذي ذكره أحمد بن أبي طيبة عنه - يعني من قوله : « فقال لهم ﴿ **ألست بربكم ...** ﴾ إلى آخر الحديث ، وإن لم يكن ذلك عنه صحيحًا فالظاهر يدلُّ على أنه خبر من اللّه عن قِيل بنى آدم بعضهم لبعض ، لأنه جل ثناؤه قال : ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ فكأنه =

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « الضحاك » .
[٣] - في تفسير ابن جرير « أمرني » .
[٤] - في ت : « ومال » .
[٥] - زيادة من : ز .
[٦] - في خ ، . : « يقر » .

ابن عمرو قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم**[١] ﴾ قال : أخذوا[٢] من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس ، فقال لهم : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلىٰ** ﴾ قالت الملائكة : ﴿ **شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ .

أحمد بن أبي طيبة هذا هو أبو محمد الجرجاني قاضي قومس[٣] ، كان أحد الزهاد ، أخرج له النسائي في سننه ، وقال أبو حاتم الرازي : يكتب حديثه ، وقال ابن عدي : حدّث بأحاديث أكثرها[٤] غرائب .

وقد روىٰ هذا الحديث عبد الرحمن [ ][٥] بن مهدي ، عن سفيان الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو قوله ، وكذا [رواه جرير ، عن منصور][٦] به ، وهذا أصح ، والله أعلم .

(حديث آخر) : قال الإِمام أحمد(٢٤٣) : حدثنا روح - هو ابن عبادة - حدثنا مالك .

وحدثنا إسحاق ، حدثنا[٧] مالك ، عن زيد بن أبي أنيسة : أن عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب أخبره ، عن مسلم بن يسار الجُهَني : أن عمر بن الخطاب سُئل عن هذه الآية : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم**[٨] **وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست**

= قيل : « فقال الذي شهدوا على المقرِّين حين أقروا فقالوا « بلى » شهدنا عليكم بما أقررتم به على أنفسكم كيلا تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين » .

(٢٤٣) - « المسند » (٤٤/١) (٣١١) وفيه قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد : وحدثنا مُصْعَبٌ الزبيري حدثني مالك به ، والحديث عند مالك في « الموطأ » ، كتاب : القدر ، باب : النهي عن القول بالقدر (ح رقم ٢) ، وأخرجه ابن جرير (١٥٣٥٧/١٣) والحاكم في المستدرك (٢٧/١) من طريق روح ابن عبادة مقرونًا به - عند ابن جرير : سعد بن عبد الحميد بن جعفر - عن مالك به ، وأخرجه أبو داود ، كتاب : السنة ، باب : في القدر (٤٧٠٣) ، والحاكم (٢٧/١) ، (٣٢٤/٢ ، ٥٤٤) وعنه البيهقي في « الأسماء والصفات » (٧١٠/٢) من طريق القعنبي ، والترمذي كتاب : التفسير ، باب : ومن سورة الأعراف (٣٠٧٧) والفريابي في « كتاب القدر » (٢٨) من طريق معن ، والنسائي في « التفسير » من « الكبرى » (١١١٩٠/٦) والفريابي (رقم ٢٧) وعنه الآجري في « الشريعة » (١/رقم ٣٦٢) من طريق قتيبة بن سعيد وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٢/٥) =

---

[١] - في ز : « ذرياتهم » .
[٢] - في خ ، ز : « أخذ » .
[٣] - في ز : « قرمس » .
[٤] - في ز : « كثيرة » .
[٥] - ما بين المعكوفتين في ز : « حمزة » .
[٦] - في خ ، ز : « رواه ابن جرير عن منصور » وهو خطأ صوابه المثبت .
[٧] - في ز « بن » .
[٨] - في ز : « ذرياتهم » .

بربكم قالوا بلىٰ﴾ الآية ، فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم سئل عنها فقال : « **إن الله خلق آدم - عليه السلام - ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، [قال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية][١] ، قال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون** » . فقال رجل[٢] : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **إذا خلق الله العبد[٣] للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا**

= من طريق ابن وهب وابن حبان في صحيحه (٦١٦٦/١٤) والبغوي في « شرح السنة » (٧٧/١) والضياء في « المختارة » (١/رقم ٢٨٩) من طريق أحمد بن أبي بكر أبي مصعب الزهري ، وابن أبي عاصم في « السنة » (١/رقم ١٩٦) من طريق عبد الأعلى بن حماد النرسي ، وابن منده في « الرد على الجهمية » (٢٨) من طريق سعيد بن عفير ويحيى بن بكير ، والحاكم (٥٤٤/٢) من طريق يحيى بن بكير ، وأيضًا (٣٢٤/٢) وعنه البيهقي (٧٠١/٢) من طريق إسحاق بن سليمان واللالكائي في « شرح أصول الاعتقاد » (٩٩٠/٣) من طريق عبد الرحمن بن القاسم ؛ كلهم (روح وإسحاق بن عيسى ، ومصعب الزبيري ، وسعد ، والقعنبي ، ومعن ، وقتيبة ، وابن وهب ، وأبو مصعب الزهري ، وعبد الأعلى ، وسعيد بن عفير ، ويحيى بن بكير ، وإسحاق بن سليمان ، وعبد الرحمن بن القاسم) كلهم عن مالك به ، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ، فتعقبه الذهبي - في الموضع الأول - قائلًا « فيه إرسال » ووجهه الانقطاع بين مسلم بن يسار وعمر كما قال الترمذي وأبو حاتم وأبو زرعة ، وغيرهم ثم إن مسلمًا هذا لم يوثقه غير ابن حبان والعجلي وهما مشهوران بالتساهل في ذلك !! وقد روي موصولًا أخرجه أبو داود (٤٧٠٤) - ومن طريقه الضياء في « المختارة » (٢٩٠/١) وابن جرير (١٥٣٥٨/١٣) من طريق عمر بن جُعثم القرشي ، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٩٧/٨) وابن أبي عاصم في « السنة » (٢٠١/١) ومحمد بن نصر في كتاب « الرد على محمد بن الحنفية » - كما في « النكت الظراف » (١١٣/٨) - من طريق يزيد ابن سنان ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٦/ ٤ ، ٥) من طريق أبي عبد الرحيم الحراني ثلاثتهم (عمر بن جعثم ، ويزيد بن سنان ، وأبو عبد الرحيم) عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب ... فذكر الحديث ، وقال الدارقطني في « العلل » (٢١٢/٢) « هذا أولى بالصواب » ومع هذا فإن إسناده لا تقوم به الحجة لجهالة نعيم بن ربيعة هذا قال ابن عبد البر في « التمهيد » (٦/٦) : « وجملة القول في هذا الحديث ، أنه حديث ليس إسناده بالقائم ، لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعًا غير معروفين بحمل العلم ، ولكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها ...» ثم ذكر بعض الأحاديث - فانظرها إن شئت - مع كتاب « شفاء العليل » لابن قيم الجوزية (ص ١٩: ٢٦) وبالله التوفيق .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز . [٢] - سقط من : ز .
[٣] - سقط من : ز .

خلق العبد للنار استعمله بأعمال[١] أهل النار ، حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار » .

وهكذا رواه أبو داود عن القعنبي ، والنسائي عن قتيبة ، والترمذي عن إسحاق بن موسىٰ عن معن ، وابن أبي حاتم ، عن يونس بن عبد الأعلىٰ ، عن ابن وهب ، وابن جرير [من حديث][٢] روح بن عبادة وسعد[٣] بن عبد الحميد بن جعفر ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية [أبي مصعب الزهري][٤] ، كلهم ، عن الإمام مالك بن أنس به .

قال الترمذي : « وهذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر[٥] ». و[٦]كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة ، زاد أبو حاتم : وبينهما نعيم بن ربيعة .

وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه عن محمد بن مصفى ، عن بقية ، [عن عمر ابن جُعْثُم[٧] القرشي ، عن زيد بن أبي أنيسة][٨] ، عن[٩] عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد ابن الخطاب ، عن مسلم بن يسار الجهني ، عن نعيم بن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب ، وقد سئل عن هذه الآية : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم**[١٠] ﴾ فذكره .

وقال الحافظ الدارقطني[١١] : وقد تابع عمرَ بن [جعثم يزيدُ][١٢] بن سنان أبو فروة الرهاوي ، وقولهما أولىٰ بالصواب من قول مالك ، والله أعلم .

قلت : الظاهر أن الإمام مالكًا إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمدًا لما جهل حاله ولم يعرفه ، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث ، وكذلك[١٣] يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ؛ ولهذا

---

[١] - في ز : « بعمل » . [٢] - سقط من : ت .
[٣] - في خ ، ز : « سعيد » وصوابه المثبت كما في تفسير ابن جرير وكتب الرجال .
[٤] - في خ ، ز : « أبي مصعب الزبيري » وهو خطأ صوابه المثبت كما في صحيح ابن حبان وكتب الرجال .
[٥] - في ز : « عمرو » . [٦] - سقط من : ز .
[٧] - في ز : « جعتم » .
[٨] - هكذا هنا وفي « السنن » « حدثني عمر بن جعثم القرشي قال : حدثني زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ، به » .
[٩] - سقط من : ز . [١٠] - في ز : « ذرياتهم » .
[١١] - في كتابه القيم « العلل » (٢/٢٢٢ ، ٢٢٣) الذي لم ير مثله في بابه .
[١٢] - ما بين المعكوفين في ز : « جعتم بن زيد » .
[١٣] - في خ : « لذلك » .

يرسل كثيرًا من المرفوعات ، ويقطع كثيرًا من الموصولات[١] ، والله أعلم .

(حديث آخر) قال الترمذي(٢٤٤) عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلىٰ يوم القيمة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور ، ثم عرضهم علىٰ آدم فقال : أي رب ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأىٰ رجلًا منهم فأعجبه وبيص[٢] ما بين عينيه فقال : أيْ رب ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك ، يقال له : داود ، قال : رب ، وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة . قال : أي رب ، [قد وهبت له][٣] من عمري أربعين سنة ، فلما انقضىٰ عمر آدم ، جاءه ملك الموت ، قال : أو[٤] لم يبق من عمري أربعون سنة ، قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال[٥] : فجحد آدم[٦] فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم فخطئت ذريته** » .

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن[٧] صحيح . وقد رُوي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم .

---

(٢٤٤) - « الجامع » للترمذي ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الأعراف (٣٠٧٨) وأخرجه الحاكم (٣٢٥/٢) من طريق أبي نعيم به ، وابن سعد في « الطبقات » (٢٤/١ ، ٢٥) أخبرنا خلاد بن يحيى ، وإسحاق بن راهوية - كما في « شفاء العليل » لابن القيم (ص ٢٢) - من طريق جعفر بن عون ، وأبو يعلى (٦٦٥٤/١٢) من طريق القاسم بن الحكم العُرني ، أربعتهم (أبو نعيم وخلاد وجعفر والقاسم) عن هشام بن سعد به ، وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم » وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي . وانظر ما بعده .

---

[١] - لكن قال ابن عبد البر في « التمهيد» (٦/٥،٦) : « زيادة من زاد في هذا الحديث نعيم بن ربيعة ليست حجة لأن الذي لم يذكره أحفظ - يعني مالكًا - وإنما تقبل الزيادة من الحافظ المتقن » كذا قال مع أن الدارقطني صوب زيادة « نعيم بن ربيعة » في الإسناد وكذا الحافظ ابن كثير هنا وأشار إلى ذلك الترمذي وهو أشبه بالصواب ، فإن عمر بن جعثم ويزيد بن سنان وإن كان غير ثقتين لكن تابعهما أبو عبد الرحيم الحراني وهو ثقة روى له مسلم وغيره . وعلى كلا الحالين فلا يصح إسناده كما بينا في تخريجه وبالله التوفيق .

[٢] - في ز : « ومص » .

[٣] - ما بين المعكوفتين في خ ، ز: « زده » .

[٤] - في ز : « و » .

[٥] - سقط من : ز .

[٦] - سقط من : ز .

[٧] - زيادة من : ز . وكذا في « سنن الترمذي » .

ورواه الحاكم في مستدركه : من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين به ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره(٢٤٥) ، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه أنه حدث[١] ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال : « **ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم ، هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام**[٢] ، **فقال آدم : يارب ، لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تشكر نعمتي ، وقال آدم : يارب ، من هؤلاء الذين أراهم أظْهَرَ الناس نورًا . قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك** » . ثم ذكر قصة داود ، كنحو ما تقدم .

(حديث آخر)(٢٤٦) : قال عبد الرحمن بن قتادة النصري[٣]، عن أبيه ، عن هشام بن حكيم - رضي الله عنه - : إن رجلًا سأل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، أتبدأ الأعمال ، أم قد قُضي القضاء ؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ، ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه ، ثم قال : هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون**[٤] **لعمل**

(٢٤٥) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٥/٨٥٣٥) أخبرنا العباس بن الوليد ثنا محمد بن شعيب أخبرني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه به ، وأخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٥/رقم ١٠١٥) من طريق دحيم ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢/٦٢٤/مخطوط) من طريق العباس بن الوليد أيضًا ، كلاهما (العباس ودحيم) ثنا محمد بن شعيب ، قال : حدثني عبد الرحمن بن زيد به ، ورواية دحيم مختصرة، وعبد الرحمن بن زيد هذا أجمعوا على ضعفه، ورواه ابن وهب حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة به ، أخرجه أبو يعلى في مسنده (١١/٦٣٧٧) ثنا أبو همام ثنا ابن وهب به ، قال ابن أبي حاتم في « العلل » (٢/رقم ١٧٥٧) « سئل أبو زرعة عن حديث رواه ابن وهب عن هشام بن سعد فذكره » - ورواه أبو نعيم عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح .... - الطريق السابق - قلت لأبي زرعة : « أيهما أصح ؟ قال : حديث أبي نعيم أصح ، وهم ابن وهب في حديث » - وقد توبع أبو نعيم أيضًا كما تقدم -.

(٢٤٦) - هذا الحديث رواه راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن قتادة واختلف فيه على راشد بن سعد :

١ - فقيل : عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن قتادة عن أبيه عن هشام بن حكيم .

[١] - في ز : « حدثه » . [٢] - في ز : « الأقسام » .
[٣] - في خ ، ز : « البصرى » . [٤] - في ز : « ميسورون » .

أهل النار » .

رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه .

أخرجه إسحاق بن راهويه - كما في « شفاء العليل » لابن القيم (ص ٢١) ، و« المطالب العالية المسندة » (٣٢٥٣/٧/ط : قرطبة) - ومن طريقه البيهقي في « الأسماء والصفات » (٧١١/٢) - والبخاري في « التاريخ الكبير » (١٩١/٨ ، ١٩٢) من طريق خطاب بن عثمان ، وابن جرير في تفسيره (١٥٣٧٧/١٣) ثنا أحمد بن الفرج الحمصي و(١٥٣٧٨/١٣) حدثني محمد بن عوف قال : حدثنا حيوة ويزيد ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/رقم ٤٣٥) من طريق محمد بن المبارك الصوري ، ستتهم (إسحاق وخطاب وأحمد ومحمد وحيوة بن شريح ويزيد بن هارون) ثنا بقية ابن الوليد ، حدثني الزبيدي عن راشد بن سعد به ، غير أن إسحاق بن راهويه سمى « عبد الرحمن بن قتادة » « عبد الرحمن بن أبي قتادة » وتابع بقية عبدُ الله بن سالم عن الزبيدي به غير أنه قال : « عبد الرحمن بن أبي قتادة » أخرج هذه المتابعة البخاري في « التاريخ الكبير » (٣٤١/٥) وابن أبي عاصم في « السنة » (١/رقم ١٦٩) وابن جرير (١٥٣٧٩/١٣) ، وعبد الرحمن بن قتادة هذا هو السلمي ، رجح الحافظ في « الإصابة » أنه صحابي ، ووالده « قتادة » ترجم له البخاري في « التاريخ الكبير » (١٨٥/٧) وابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (١٣٥/٧) باسم « قتادة النصري الشامي » وذكرا أنه روى عن هشام بن حكيم ، وروى عنه ابنه عبد الرحمن ، ولم يذكرا أنه صحابي ولم يترجم له ابن حجر في « الإصابة » وهذا غريب جدًّا ، وهشام بن حكيم - وهو ابن حزام - صحابي معروف [وانظر « حاشية » الأديب محمود شاكر على هذا الحديث في تفسير ابن جرير] ، وقد قال الحافظ ابن حجر في « المطالب » عقب هذا الإسناد : « هذا حديث غريب » وقال البوصيري : « هذا إسناد ضعيف غريب » قلت : ووجهه ما فيه من الاضطراب - كما يأتي .

٢ - وقيل عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن قتادة عن هشام بن حكيم .

أخرجه الفريابي في كتاب « القدر » (رقم ٢٢) ثنا عمرو بن عثمان وأبو أنس مالك بن سليمان - وعنه من الطريق الأولى الآجري في « الشريعة » (٣٦٨/١) - وابن أبي عاصم في « السنة » (١/رقم ١٦٨) وفي « الآحاد والمثاني » (٢/رقم ٥٩٩) من طريق عبد الوهاب بن نجدة الحوطي وعمرو بن عثمان وابن مصفى ، أربعتهم (عمرو ، ومالك ، وعبد الوهاب وابن مصفى) ثنا بقية ثنا الزبيدي عن راشد ، به .

٣ - وقد رواه معاوية بن صالح عن راشد بن سعد ، واختلف فيه على معاوية بن صالح .

فرواه عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن قتادة عن هشام بن حكيم به أخرجه الفريابي (٢٤) وابن جرير (١٥٣٨٠/١٣) والطبراني (٤٣٤/٢٢) ، وعبد الله بن صالح ضُعِّفَ وخالفه الثقات ، فرواه الليث بن سعد عند أحمد (١٨٦/٤) وابن وهب عند ابن حبان (٢/رقم ٣٣٨) والحاكم (٣١/١) وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧٤/٦/مخطوط)

(حديث آخر) : روىٰ جعفر بن الزبير - وهو ضعيف - عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **لما خلق اللَّه الخلق ، وقضىٰ القضية ، أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله ، فقال : ياأصحاب اليمين ، فقالوا : لبيك وسعديك ، قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلىٰ . قال : ياأصحاب الشمال ، قالوا : لبيك وسعديك ، قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلىٰ . ثم خلط بينهم ، فقال قائل : يارب ، لم خلطت بينهم ؟ قال : لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، أن يقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غافلين ، ثم ردهم في صلب آدم** » . رواه ابن مردويه(٢٤٧) .

(أثر آخر) : قال أبو جعفر الرازي : عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب في قوله تعالىٰ : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم**[١] ﴾ الآية والتي بعدها ، قال : فجمعهم له يومئذ جميعًا ، ما هو كائن منه إلىٰ يوم القيامة ، فجعلهم ثم[٢] صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهدهم علىٰ أنفسهم : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلىٰ** ﴾ الآية ، قال : فإني أشهد عليكم السماوات السبع ، والأرضين السبع ، وأشهد

ومعن بن عيسى عند الفريابي (٢٥) وابن سعد في « الطبقات » (٧/٢٩٢) وابن شاهين كما في « الإصابة » (٦/٣١٦) - وحماد بن خالد الخياط عند ابن سعد (١/٢٧) أربعتهم (الليث وابن وهب ومعن وحماد) عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد قال: حدثني عبد الرحمن بن قتادة السلمي، وكان من أصحاب النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - قال: سمعت رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم- يقول ... فذكر الحديث . وقد رواه عبد اللَّه بن صالح أيضًا على الجادة كرواية الليث وغيره أخرجه الفريابي (٢٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، لكن أعل البخاري هذه الرواية فقال في « التاريخ » (٥/٣٤١) : « وقال معاوية مرة : عبد الرحمن بن قتادة سمعت النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - وهو خطأ » وكذا أعله بالاضطراب ابن السكن - كما في « الإصابة » (٦/٣١٦) - لكن رد ذلك ابن حجر وأثبت الصحبة لعبد الرحمن بن قتادة ثم قال : « لا يضر بعد ذلك إن كان سمع الحديث من النبي - صلى اللَّه عليه وسلم - أو بينهما واسطة » واللَّه أعلم .

(٢٤٧) - عزاه لابن مردويه السيوطي في « الدر المنثور » (٣/٢٦٢) - وأخرجه الطيالسي في « مسنده » (رقم ١١٣٠) مختصرًا ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٨/رقم ٧٩٤٣) وابن عدي في « الكامل » (٧/٢٧٢٣) من طريق جعفر بن الزبير به ، وجعفر هذا تركه غير واحدٍ ، بل نقل ابن الجوزي الإجماع على أنه « متروك » انظر « التهذيب » . وقال ابن عدي : « لجعفر أحاديث عن القاسم وعامتها لا يتابع عليه والضعف على حديثه بين » . وبه أعل هذه الطريق الهيثمي في « المجمع » (٧/١٩٢) - لكنه قصر في تضعيف جعفر هذا - فقال : « فيه جعفر بن الزبير وهو ضعيف » وتابعه من هو مثله فأخرجه الدارمي في « الرد على الجهمية » (ص١١) والعقيلي =

---

[١] - في ز : « ذرياتهم » . [٢] - سقط من : ت .

عليكم أباكم آدم ، أن تقولوا يوم القيامة : لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيري ، ولا رب غيري ، فلا[١] تشركوا بي شيئًا ، وإني سأرسل إليكم رسلًا يذكرونكم[٢] عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتبي ، قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك [ولا إله لنا غيرك][٣] . فأقروا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم ، فرأى فيهم الغني والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : يارب ، لو سويت بين عبادك ؟ قال : إني أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذي يقول تعالىٰ : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم [ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظا]**[٤] ﴾ ، وهو الذي يقول : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت الله [التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله]**[٥] ﴾ ، ومن ذلك قال : ﴿ **هذا نذير من النذر الأولىٰ** ﴾ ، ومن ذلك قال : ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد [وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين]**[٦] ﴾ .

رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه(٢٤٨) ، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه

= في « الضعفاء » (١/١٣٩ ، ١٤٠) وأبو الشيخ في « العظمة » (٢/٢٢٨) وابن أبي شيبة في مسنده - كما في « المطالب العالية المسندة » (٧/٣٢٥٧) من طريق بشر بن نمير عن القاسم عن أبي أمامة به وبشر بن نمير هذا أجمعوا على ضعفه ، وقال ابن عدي : « عامة ما يرويه عن القاسم وعن غيره لا يتابع عليه » - مترجم له في « التهذيب » .

وله طريق آخر عن أبي أمامة أخرجه الطبراني أيضًا في « الأوسط » (٧/٧٦٣٢) من طريق سلم بن سالم عن عبد الرحمن عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أبي أمامة به مرفوعًا وقال الطبراني : « لم يرو هذا الحديث عن سليمان التيمي إلا عبد الرحمن أظنُّه : ابن عمر المكي - تفرَّد به سلم بن سالم » قلت : هو البلخي الزاهد ضعفه ابن معين وغيره - ترجمته في « اللسان » وبه أعل هذه الطريق الهيثمي فقال : « فيه سلم بن سالم وهو ضعيف » .

والحديث زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » إلى عبد بن حميد والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » وبالله التوفيق .

(٢٤٨) - « المسند » (٥/١٣٥) - ومن طريقه الضياء في « المختارة » (٣/١١٨٥) - نا محمد بن يعقوب الربالي ، نا المعتمر بن سليمان ، قال : سمعت أبي يُحدِّثُ عن الربيع بن أنس به ، وأخرجه الدولابي في « الكنى » (٢/٢٠) من طريق يحيى بن حبيب ، وابن منده في « الرد على الجهمية » (٣٠) من طريق روح بن أسلم كلاهما (يحيى وروح) عن معتمر بن سليمان به وإسناده صحيح ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٧/٢٧ ، ٢٨) وقال : « رواه عبد الله بن أحمد عن شيخه =

---

[١] - في ز : « ولا » .
[٢] - في ز : « ينذرونكم » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٤] - في ت : « الآية » .
[٥] - في ت : « الآية » .
[٦] - في ت : « الآية » .

في تفاسيرهم ، من رواية أبي جعفر الرازي به ، ورُوي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث ، اكتفينا بإيرادها عن التطويل بتلك الآثار كلها ، وبالله المستعان .

فهذه الأحاديث دالة علىٰ أن اللّٰه - عز وجل - استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس[١] . وفي حديث عبد اللّٰه بن عمرو[٢] . وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان ، كما تقدم ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم علىٰ التوحيد ، كما تقدم في حديث أبي هريرة[٣] ، وعياض بن حمار المجاشعي[٤] ، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع[٥] ، وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك ، قالوا : ولهذا قال : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم** ﴾ ولم يقل : من آدم ، ﴿ **من ظهورهم** ﴾ ولم يقل : من ظهره ﴿ **ذريتهم**[٦] ﴾ أي : جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرنًا بعد قرن ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ﴾ ، وقال : ﴿ **ويجعلكم خلفاء الأرض** ﴾ ، وقال : ﴿ **كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست بربكم قالوا بلىٰ** ﴾ أي : أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالًا وقالًا ، والشهادة تارة تكون بالقول ، كقوله[٧] : ﴿ **قالوا شهدنا علىٰ أنفسنا** ﴾ الآية ، وتارة تكون حالا ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين علىٰ أنفسهم بالكفر** ﴾ أي : حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **وإنه علىٰ ذلك لشهيد** ﴾ ، كما أن السؤال تارة يكون بالقال[٨] ، وتارة يكون بالحال ؛ كقوله : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه** ﴾ قالوا : ومما يدل علىٰ أن المراد بهذا

= محمد ابن يعقوب الربالي - وهو مستور - وقد توبع كما ترى - وبقية رجاله رجال الصحيح » وأخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥٣٦٣/١٣) وابن أبي حاتم (٨٥٣٧/٥) وابن مردويه - كما في « الدر المنثور » (٢٦٠/٣) - ومن طريقه الضياء (١١٥٩/٣) - واللالكائي في « شرح أصول الاعتقاد » (٣/رقم ٩٩١) من طريق أبي جعفر الرازي - عيسى بن عبد اللّٰه بن ماهان - عن الربيع ابن أنس به ، وصححه الحاكم (٣٢٣/٢ ، ٣٢٤) ووافقه الذهبي ، وزاد نسبته السيوطي إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ والبيهقي في « الأسماء والصفات » وابن عساكر في تاريخه .

---

[١] - تقدم برقم (٢٣٨ ، ٢٣٩) .
[٢] - تقدم برقم (٢٤٢) .
[٣] - تقدم برقم (٢٣١) .
[٤] - تقدم برقم (٢٣٢) .
[٥] - تقدم برقم (٢٣٤) .
[٦] - في ز : « ذرياتهم » .
[٧] - في ز : « كما قال » .
[٨] - في ت : « بالمقال » .

هذا ، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال[١] لكان كل أحد يذكره ، ليكون حجة عليه ، فإن قيل : إخبار الرسول صلىٰ اللَّه عليه وسلم به كاف في وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل علىٰ أنه على الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ؛ ولهذا قال : ﴿ **أن تقولوا**[٢] ﴾ أي : لئلا تقولوا[٣] يوم القيامة : ﴿ **إنا كنا عن هذا** ﴾ أي : التوحيد ﴿ **غافلين أو تقولوا**[٤] **إنما أشرك آباؤنا** ﴾ الآية.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

قال عبد الرزاق(٢٤٩) : عن سفيان الثوري ، عن الأعمش ومنصور ، عن أبي الضحىٰ ، عن مسروق ، عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه في قوله تعالىٰ : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها** ﴾ الآية ، قال : هو رجل من بني إسرائيل يقال له : بلعم بن آبَرَ . وكذا رواه شعبة وغير واحد ، عن منصور ، به .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن ابن عباس : هو صيفي بن الراهب .

---

(٢٤٩) - « التفسير » لعبد الرزاق (٢/٢٤٣) ومن طريقه وطرق أخرى ابن جرير (١٣/١٥٣٨٩ ، ١٥٣٨٣ ، ١٥٣٨٨) وابن أبي حاتم (٥/٨٥٤١) والطبراني في « الكبير » (٩/٩٠٦٤) من طرق عن سفيان به ، وأخرجه النسائي في « التفسير » من « الكبرى » (٦/١١١٩٣) وابن جرير (١٣/ ١٥٣٨١، ١٥٣٨٥) من طرق عن شعبة وابن جرير أيضًا (١٣/ ١٥٣٨٢ ، ١٥٣٨٤ ، ١٥٣٨٦) من طريق جرير وعمرو ، أربعتهم (سفيان وشعبة وجرير وعمرو) عن منصور - مقرونًا به في بعض الروايات الأعمش - به ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٧/٢٨) وقال : « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح » وزاد نسبته السيوطي (٣/٢٦٥) إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه .

---

[١] - في خ : « قال » .
[٢] - في ز : « يقولوا » .
[٣] - في ز : « يقولوا » .
[٤] - في ز : « يقولوا » .

قال قتادة : وقال كعب[١] : كان رجلًا من أهل البلقاء ، وكان يعلم الاسم الأكبر ، وكان مقيمًا ببيت المقدس مع الجبارين .

وقال العوفي ، عن ابن عباس - رضي اللَّه عنه - : هو رجل من أهل اليمن ، يقال له : بلعم ، آتاه اللَّه آياته فتركها .

وقال مالك بن دينار : كان من علماء بني إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، يقدمونه في الشدائد ، بعثه نبي اللَّه موسىٰ - عليه السلام - إلىٰ ملك مَدْين يدعوه إلىٰ اللَّه ، فأقطعه وأعطاه ، فتبع دينه وترك دين موسىٰ - عليه السلام - .

[وقال سفيان بن عيينة][٢] ، عن حصين ، عن عمران[٣] بن الحارث ، عن ابن عباس : هو بلعم بن باعر . وكذا قال مجاهد وعكرمة .

وقال ابن جرير(٢٥٠) : حدثني الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا إسرائيل ، عن مغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : هو بلعام . وقالت ثقيف : هو أمية بن أبي الصلت .

وقال شعبة(٢٥١) ، عن يعلىٰ بن عطاء ، عن نافع بن عاصم ، عن عبد اللَّه بن عمرو في قوله :

(٢٥٠) - تفسير ابن جرير (١٥٣٩٩/١٣) وفي حاشيته : هذه الجملة « وقالت ثقيف ...» حذفت من المطبوعة وهي ثابتة في المخطوطة ولا أدرى أهي من كلام أبي جعفر ، أم كلام ابن عباس ، أو من كلام بعض رواة خبر ابن عباس ، والأرجح أنها من قول بعض رواة الخبر .

(٢٥١) - أخرجه النسائي في « التفسير » من « الكبرى » (١١١٩٢/٦) وابن جرير (١٥٤٠٣/١٣ ، ١٥٤٠٤ ، ١٥٤٠٦) وابن أبي حاتم (٨٥٤٢/٥) من طرق عن شعبة به ، ورجاله ثقات غير نافع ابن عاصم وهو ابن عروة بن مسعود الثقفي روى عنه اثنان ووثقه العجلي ، وذكره ابن حبان في « الثقات » (٤٦٩/٥) وقال عنه الحافظ في « التقريب » : « صدوق » وله طرق أخرى صحيحة انظر « تفسير ابن جرير » (٢٥٥/١٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٨/٧) وقال : « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح » وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٣/ ٢٦٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه .

[١] - في تفسير ابن أبي حاتم (٨٥٤٦/٥) « هو بلعم بن باعورة وكان رجلًا من أهل البلقاء ...» .

[٢] - كذا في المطبوعة والمخطوط ، والذي في تفسير ابن جرير (١٥٣٨٧/١٣) ثنا ابن وكيع قال : ثنا عمران بن عيينة عن حصين به ، وعمران هذا - وهو أخو سفيان بن عيينة - ضعفه أبو زرعة وقال أبو حاتم : لا يحتج بحديثه لأنه يأتي بالمناكير وضعفه ابن معين في رواية ابن محرز ، وفي رواية الدوري قال : « صالح الحديث » وذكره ابن حبان في « الثقات » (٢٤٠/٧) وقال عنه ابن حجر في « التقريب » : صدوق له أوهام .

[٣] - في خ ، ز : « عثمان » .

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾ الآية . قال : هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت .

وقد روي من غير وجه عنه ، وهو صحيح إليه ، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه ، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه ، فإنه أدرك زمان رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته ، وظهرت لكل من له بصيرة ، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه ، وصار إلىٰ موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ، ورثىٰ أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة ، قبحه اللَّه . وقد جاء في بعض الأحاديث : « **أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه** »(٢٥٢) ، فإن له أشعارًا ربانية وحكمًا وفصاحة ، ولكن لم يشرح اللَّه صدره للإِسلام .

وقال ابن أبي حاتم(٢٥٣) : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر[١] ، حدثنا سفيان ، [عن أبي سعد][٢] الأعور ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : **﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾** قال : هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت[٣] له امرأة له منها ولد ، فقالت : اجعل لي منها واحدة . قال : فلك واحدة ، فما الذي تريدين ؟ قالت : ادع اللَّه أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فدعا اللَّه ، فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه ، وأرادت شيئًا آخر ، فدعا اللَّه أن يجعلها كلبة ، فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان ، فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا علىٰ هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها ، فادع اللَّه أن يردها إلىٰ الحال التي كانت عليها ، فدعا اللَّه ، فعادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث ، وسُمِّيت البسوس . غريب

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن[٤] بني إسرائيل ؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف .

---

(٢٥٢) - **ضعيف** يأتي تخريجه [سورة الرعد / آية ٢] .

(٢٥٣) - « التفسير » لابن أبي حاتم (١٦١٧/٥) (٨٥٤٩) وأخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٧/٣ ، ٤٢٨/ مخطوط) من طريق الحميدي ثنا سفيان بن عيينة به ، وأبو سعد الأعور هو سعيد بن المرزبان ضعيف ، ولذلك استغربه المصنف ، والأثر زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٦٦/٣) إلى أبي الشيخ .

---

[١] - في ز : « نمر » .

[٢] - في خ ، ز : « عن أبي سعيد » والمثبت من ابن أبي حاتم وكتب الرجال وأبو سعد هذا اسمه سعيد بن المرزبان ، مترجم له في « التهذيب » .

[٣] - في ز : « فكانت » . [٤] - في ز : « زمان » .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هو رجل من مدينة الجبارين يقال له : بلعام[١] ، وكان يعلم اسم الله الأكبر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف: كان مجاب الدعوة، ولا يسأل الله[٢] شيئًا إلا أعطاه إياه .

وأغرب ، بل أبعد ، بل أخطأ من قال : كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها . حكاه ابن جرير[٣] ، عن بعضهم ، ولا يصح .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : لما نزل موسىٰ بهم - يعني بالجبارين ومن معه - أتاه يعني بلعام[٤] أتاه بنو عمه وقومه ، فقالوا : إن موسىٰ رجل حديد ، ومعه جنود كثيرة[٥] ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسىٰ ومن معه، قال : إني إن دعوت الله أن[٦] يرد موسىٰ ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتىٰ دعا عليهم، فسلخه الله[٧] ما كان عليه ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **فانسلخ منها فأتبعه الشيطان [فكان من الغاوين]**[٨] ﴾ .

وقال السدي : إن الله لما انقضت الأربعون سنة[٩] التي قال الله : ﴿ **فإنها محرمة عليهم أربعين سنة** ﴾ بعث يوشع بن نون نبيًا ، فدعا بني إسرائيل ، فأخبرهم أنه نبي ، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين ، فبايعوه وصدقوه ، وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له : بلعم، وكان عالما ، يعلم الاسم الأعظم المكتوم[١٠] ، فكفر لعنه الله وأتىٰ الجبارين وقال لهم : لا ترهبوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون ، وكان عندهم فيما شاء من الدنيا ، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء [من عظمهن][١١] ، فكان[١٢] ينكح أتانًا له ، وهو الذي قال الله تعالىٰ : ﴿ **فانسلخ منها** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ أي : استحوذ عليه وغلبه علىٰ أمره ، فمهما أمره امتثل وأطاعه ؛ ولهذا قال : ﴿ **فكان من الغاوين** ﴾ أي : من الهالكين الحائرين البائرين .

---

[١] - في ز : « بعلم » .
[٢] - سقط من: خ، ز .
[٣] - ابن جرير في تفسيره (٢٥٩/١٣) .
[٤] - في تفسير ابن جرير : بلعم .
[٥] - في ز : « كثير » .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - سقط من : ز .
[٨] - في ت : « الآية » .
[٩] - في ز : « السنة » .
[١٠] - سقط من : خ ، ز .
[١١] - في خ ، ز : « يعظمهن » والمثبت من تفسير ابن جرير (١٥٤١١/١٢) .
[١٢] - في ز : « وكان » .

وقد ورد في معنىٰ هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال(٢٥٤) : حدثنا محمد بن مرزوق ، حدثنا محمد بن بكر ، عن الصلت بن بهرام ، حدثنا الحسن ، حدثنا جندب البجلي في هذا المسجد : أن حذيفة - يعني : ابن اليمان - رضي اللّٰه عنه - حدثه قال: قال[١] رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن، حتىٰ إذا رؤيت[٢] بهجته عليه وكان رِدْءً[٣] الإسلام اعتراه[٤] إلىٰ ما شاء اللّٰه : انسلخ منه ونبذه وراء ظهره ، وسعىٰ علىٰ جاره بالسيف ورماه بالشرك** » . قال : قلت : يانبي اللّٰه أيهما أولى بالشرك : المرمي أو الرامي ؟ قال : « **بل الرامي** » .

هذا إسناد جيد ، والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ، ولم يرم بشيء سوىٰ الإرجاء ، وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين وغيرهما.

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلىٰ الأرض واتبع هواه** ﴾ يقول تعالىٰ : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ أي : لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها ﴿ **ولكنه أخلد إلىٰ الأرض** ﴾ أي : مال إلىٰ زينة الحياة[٥] الدنيا وزهرتها ، وأقبل علىٰ لذاتها ونعيمها ، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهىٰ .

وقال أبو الزاهرية[٦] في قوله تعالىٰ : ﴿ **ولكنه أخلد إلىٰ الأرض** ﴾ قال : تراءىٰ[٧] له الشيطان علىٰ غلوة[٨] من قنطرة بانياس فسجدت الحمارة لله ، وسجد بلعام للشيطان . وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير وغير واحد .

---

(٢٥٤) - ومن طريق أبي يعلى أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/رقم ٨١/ إحسان) ، وأخرجه البزار في مسنده (٢٧٩٣/٧/ البحر الزخار) ثنا محمد بن مرزوق والحسين بن أبي كبيشة - كذا والصواب : كبشة - قالا أخبرنا محمد بن بكر به ، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٣٠١/٤) قال لنا علي - هو ابن المديني - ثنا محمد بن بكر به مختصرًا وقال البزار : « هذا الحديث بهذا اللفظ لا نعلمه يروى إلا عن حذيفة بهذا الإسناد ، وإسناده حسن ، والصلت هذا رجل مشهور من أهل البصرة وما بعده فقد استغنينا عن تعريفهم لشهرتهم » وذكره الهيثمي في « المجمع » (١/ ١٩٢، ١٩٣) وقال : « رواه البزار وإسناده حسن ، وأورده ابن حجر في « مختصر زوائد البزار » (١/رقم ١٣١) وذكر كلام البزار السابق ثم قال : « هو ابن عمران - يعني الصلت كذا تحرف في « الزوائد » ابن بهرام إلى ابن عمران - ذكره ابن حبان في « الثقات » (٤٧١/٦) » قلت : وترجم له الحافظ نفسه في « التهذيب » و« اللسان » معًا فتنبه !!

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - في ز : « ربت » . [٣] - في ز : « رد » .

[٤] - عند ابن حبان من طريق أبي يعلى : « غَيَّرَهُ » .

[٥] - سقط من : ز . [٦] - في ز : « الراهويه » .

[٧] - في ز : « تزايا » . [٨] - في ز : « علوة » .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير(٢٥٥) رحمه الله : وكان من قصة هذا الرجل : ما حدثنا محمد ابن عبد الأعلىٰ ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه : أنه سئل عن هذه الآية : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا** ﴾ فحدث عن سيار : أنه كان رجلا يقال له : بلعام [وكان قد أوتي النبوة][١] ، وكان مجاب الدعوة ، قال : وإن موسىٰ أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام – أو قال : الشام – قال : فَرعب الناس منه رعبًا شديدًا ، قال : فأتوا بلعام ، فقالوا : ادع الله علىٰ هذا الرجل وجيشه ، قال : حتىٰ أوامر ربي ـ أو حتىٰ أؤامر ـ قال : فَوَامر في الدعاء عليهم ، فقيل له : لا تدع عليهم فإنهم عبادي ، وفيهم نبيهم ، قال : فقال لقومه : إني قد وامرت ربي في الدعاء عليهم ، وإني قد نهيت ، فأهدوا له هدية فقبلها ، ثم راجعوه فقالوا : ادع عليهم ، فقال : حتىٰ أوامر ، فوامر[٢] [فلم يَحُر إليه][٣] شيء[٤] ، فقال : قد وامرت فلم [يحر إليّ شيء][٥] ، [قال][٦] فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولىٰ ، قال : فأخذ يدعو عليهم ، فإذا دعا عليهم جرىٰ علىٰ لسانه الدعاء علىٰ قومه ، وإذا أراد [أن يدعو][٧] أن يُفتح لقومه ، دعا أن يفتح لموسىٰ وجيشه أو نحوًا[٨] من ذلك[٩] إن شاء الله – قال : فقالوا : ما نراك تدعو إلا علينا ، قال : ما يجرى علىٰ لساني إلا هكذا ، ولو دعوت عليه أيضًا ما استجيب لي ، ولكن سأدلكم علىٰ أمر عسىٰ أن يكون فيه هلاكهم ، إن الله يبغض الزنا ، وإنهم إن وقعوا [في الزنا][١٠] هلكوا ، ورجوت أن يهلكهم الله ، فأخرجوا النساء يَسْتقبلنَهم[١١] ، فإنهم قوم مسافرون ، فعسىٰ أن[١٢] يزنوا فيهلكوا ، قال : ففعلوا ، فأخرجوا النساء يَسْتقبلنَهم[١٣] ، قال : وكان للملك ابنة ، فذكر من عظمها ما الله أعلم به ، قال : فقال أبوها أو بلعام : لا تمكني نفسك إلا من موسىٰ ، قال : ووقعوا[١٤] في الزنا ، قال : وأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل ، فأرادها علىٰ نفسه[١٥] ، فقالت : ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسىٰ ، قال : فقال : إن

---

(٢٥٥) – تفسير ابن جرير (١٣/١٥٤٢٠) وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٣/٢٦٨) مختصرًا وزاد نسبته إلى أبي الشيخ .

---

[١] – ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٢] – في خ : « فآمر » .
[٣] – قوله « فلم يحر إليه شيء » أي : لم يرجع إليه شيء . « حار إليه يحور حورًا » رجع إليه ، ومنه « حاوره محاورة حوارًا » في الكلام [مستفاد من هامش تفسير ابن جرير (١٣/٢٦٢)] .
[٤] – في خ : « بشيء » .
[٥] – ما بين المعكوفتين في ت : « يأمرني » .
[٦] – ما بين المعكوفتين زيادة من ز .
[٧] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٨] – في ز : « نحو » .
[٩] – في ز : « ذا » .
[١٠] – ما بين المعكوفتين في ز : « بالزنا » .
[١١] – في ز : « تستقبلهم » .
[١٢] – سقط من : ز .
[١٣] – في ز : « تستقبلهم » .
[١٤] – في ز : « وأوقعوا » .
[١٥] – في خ ، ز : « نفسها » .

منزلتي كذا وكذا ، وإن من حالي كذا وكذا ، [ ][١] فأرسلت إلي أبيها تستأمره ، قال : فقال لها : فأمكنيه ، قال : ويأتيهما رجل من بني هارون ومعه الرمح فيطعنهما ، قال : وأيده الله بقوة ، فانتظمهما جميعًا ، ورفعهما على رمحه ، فرآهما الناس أو كما حدث قال : وسلط الله عليهم الطاعون ، فمات منهم سبعون ألفًا .

قال أبو[٢] المعتمر : فحدثني سيار : أن بلعاما ركب حمارة له حتى أتى علولي[٣] . أو قال : طريقًا من علولي[٤] . جعل يضربها ولا تُقدم ، وقامت عليه فقالت : علام تضربني ؟ أما ترى هذا الذي بين يديك ؟ فإذا الشيطان بين يديه ، قال : فنزل وسجد له ، قال الله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ .

قال : فحدثني بهذا سيار ، ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره .

(قلت) : هو بلعام . ويقال : بلعم بن باعوراء ويقال : ابن أبر ، ويقال : ابن باعور بن شهوم ابن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران . ويقال : ابن حران بن آزر ، وكان يسكن قرية من قرى البلقاء .

قال ابن عساكر[٥] : وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم ، فانسلخ من دينه ، له ذكر في القرآن . ثم أورد من قصته نحوًا مما ذكرنا هاهنا ، أورده عن وهب وغيره ، والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار(٢٥٦) ، عن سالم أبي النضر : أنه حدث : أن موسى - عليه السلام - لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام ، أتى قوم بلعام إليه ، فقالوا له : هذا موسى ابن عمران في بني إسرائيل ، قد جاء[٦] يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ، وإنا قومك ، وليس لنا منزل ، وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادع الله عليهم ، قال : ويلكم ، نبي الله معه الملائكة والمؤمنون[٧] ، كيف أذهب أدعو عليهم ، وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ ! قالوا له : ما لنا من منزل ، فلم يزالوا به يرققونه[٨] ويتضرعون إليه ، حتى فتنوه فافتُتِنَ ، فركب حمارة[٩] له متوجهًا[١٠] إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل ، وهو جبل حُسْبان ،

---

(٢٥٦) - أخرجه ابن جرير في « التفسير » (١٣/١٥٤٢٢) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « قال » . [٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في خ : « العولى » ، وفي ز : « العلولى » .
[٤] - في خ ، ز : « العلولى » .
[٥] - في « تاريخ دمشق » لابن عساكر (٣/٤٢٦/مخطوط) .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - في ز : « والمنون » . [٨] - في ز : « يرفقونه » .
[٩] - في ز : « حمارًا » . [١٠] - في ز : « موجهًا » .

فلما سار عليها غير كثير ، ربضت به ، فنزل عنها فضربها ، حتىٰ إذا أذلقها قامت فركبها ، فلم تسر به كثيرًا حتىٰ ربضت به فضربها ، حتىٰ إذا أذلقها أذن اللّٰه لها فكلمته حجة عليه ، فقالت : ويحك يا بلعم ، أين تذهب ؟ أما ترىٰ الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا ؟ أتذهب[١] إلىٰ نبي اللّٰه والمؤمنين لتدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها يضربها[٢] ، فخلىٰ اللّٰه سبيلها حين فعل بها ذلك ، فانطلقت به حتىٰ إذا أشرفت به علىٰ رأس حسبان ، علىٰ عسكر موسىٰ وبني إسرائيل ، جعل يدعو عليهم ، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف به[٣] لسانه إلىٰ قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلىٰ بني إسرائيل ، فقال له قومه : أتدري يا بلعم ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ، قال : فهذا مالا أملك ، هذا شيء قد غلب اللّٰه عليه ، قال : واندلع لسانه فوقع علىٰ صدره ، فقال لهم : قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال . جمّلوا النساء وأعطوهن السلع ، ثم أرسلوهن إلىٰ العسكر يبعنها فيه ، ومُرُوهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها ، فإنهم إن زنىٰ رجل منهم واحد كُفِيتُموهم ، ففعلوا ، فلما دخل النساء العسكر ، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كسبى[٤] ابنة صور رأس أمته[٥] برجل من عظماء بني إسرائيل ، وهو « **زمري[٦] بن شلوم** » ، رأس سبط [ ][٧] شمعون[٨] بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - [فقام إليها ، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسىٰ عليه السلام][٩] ، فقال : إني أظنك ستقول هذا حرام عليك ؟ قال : أجل ، هي حرام عليك ، لا تقربها قال : فواللّٰه لا نطيعك في هذا ، ثم دخل بها قبته فوقع عليها ، وأرسل اللّٰه - عز وجل - الطاعون في بني إسرائيل ، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون ، صاحب أمر موسىٰ ، وكان غائبًا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع ، فجاء و[١٠]الطاعون يجوس في بني إسرائيل ، فأخبر الخبر ، فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ، ثم دخل القبة وهما متضاجعان ، فانتظمهما بحربته ، ثم خرج بهما رافعهما إلىٰ السماء ، والحربة قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه علىٰ خاصرته ، وأسند الحربة إلىٰ لَحْيَيْه[١١] - وكان بكر العيزار - وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، ورفع الطاعون ، فحُسِب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلىٰ أن قتله فنحاص ، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفًا ـ والمقلل لهم يقول : عشرون ألفًا في ساعة من النهار ، فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل

---

[١] - في ز : « تذهب » . [٢] - في ز : « فضرها » .
[٣] - في ز : « بها » . [٤] - في ز : « كسبتى » .
[٥] - في ز : « أمنه » . [٦] - في ز : « ربري » .
[٧] - ما بين المعكوفتين في ز : « بني » .
[٨] - في خ ، ز : « سمعان » والمثبت من تفسير ابن جرير (٢٦٦/١٣) .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [١٠] - سقط من : ز .
[١١] - في ز : « لحيته » .

ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القَبَة والذراع واللحْي . [لاعتماده بالحربة على خاصرته ، وأخذه إياها بذراعه ، وإسناده إياها إلى لحييه][١] والبكر من كل أموالهم وأنفسهم ؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار ، ففي بلعام بن باعوراء أنزل اللّه : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ اختلف المفسرون في معناه[٢] ؛ فأما علىٰ سياق ابن إسحاق ، عن سالم أبي النضر : أن بلعامًا اندلع لسانه علىٰ صدره ، فتشبيهه[٣] بالكلب في لَهْثه[٤] في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك . وقيل : معناه : فصار مثله في ضلاله ، واستمراره فيه ، وعدم انتفاعه بالدعاء إلىٰ الإيمان ، وعدم الدعاء كالكلب في لَهْثه[٥] في حالتيه ، إن حملت عليه وإن تركته ، هو يلهث في الحالين ، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلىٰ الإيمان ولا عدمه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ . ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم [إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن][٦] يغفر اللّه لهم** ﴾ ونحو ذلك .

وقيل : معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدىٰ ، فهو كثير الوجيب ، فعبر عن هذا بهذا . نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ ، يقول تعالىٰ لنبيه محمد صلىٰ اللّه عليه وسلم : ﴿ **فاقصص القصص لعلهم** ﴾ أي : لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام ، وما جرىٰ له في إضلال اللّه إياه وإبعاده من رحمته ؛ بسبب أنه استعمل نعمة اللّه عليه[٧] في تعليمه الاسم الأعظم ، الذي إذا سئل به أعطىٰ ، وإذا دُعِيَ به أجاب - في غير طاعة ربه ، بل دعا به علىٰ حزب الرحمن ؛ وشَعْب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان ، كليم اللّه موسىٰ بن عمران عليه السلام ، ولهذا قال : ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ أي : فيحذروا أن يكونوا مثله ، فإن اللّه قد أعطاهم علمًا ، وميزهم علىٰ من عداهم من الأعراب ، وجعل بأيديهم صفة محمد صلىٰ اللّه عليه وسلم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ؛ ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل اللّه به ذلًا في الدنيا موصولًا بذل الآخرة .

وقوله : ﴿ **ساء مثلًا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾ يقول تعالىٰ :

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٢] - في ز : « معنى هذا » . [٣] - في ز : « فتشبيه » .
[٤] - في ز : « لهيثه » . [٥] - في ز : « لهيثه » .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز : « لن » . [٧] - في ت : « عليهم » .

ساء[١] مثلًا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أي : ساء مثلهم أن شُبِّهوا بالكلاب التي[٢] لا همة لها[٣] إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدىٰ ، وأقبل علىٰ شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهًا بالكلب ، وبئس المثل مثله ؛ ولهذا ثبت في الصحيح(٢٥٧) أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **ليس لنا مثل السوء ، العائد [في هبته][٤] كالكلب يعود في قيئه** » .

وقوله : ﴿ **وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾ أي : ما ظلمهم الله ، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدىٰ ، وطاعة المولىٰ ، إلىٰ الركون إلىٰ دار البلىٰ ، والإقبال علىٰ تحصيل اللذات وموافقة الهوىٰ .

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

يقول تعالىٰ : من هداه الله فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فإنه تعالىٰ ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا جاء في حديث ابن مسعود : « **إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله** » .

الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم(٢٥٨) .

---

(٢٥٧) - أخرجه البخاري ، كتاب : الهبة ، باب : لا يَحلُّ لأحد أن يرجع في هبته وصدقته (٢٦٢٢) ، وكذا أخرجه أحمد (٢١٧/١) والترمذي ، كتاب : البيوع ، باب : ما جاء في الرجوع في الهبة (١٢٩٨) والنسائي كتاب : الهبة ، باب : ذكر الاختلاف لخبر عبد الله بن عباس فيه (٦/ ٢٦٦ ، ٢٦٧) .

(٢٥٨) - أخرجه الترمذي ، كتاب : النكاح ، باب : ما جاء في خطبة النكاح (١١٠٥) والنسائي ، كتاب : النكاح ، باب : ما يستحب من الكلام عند النكاح (٨٩/٦) من طريق عبثر عن الأعمش ، وابن ماجه ، كتاب : النكاح ، باب : خطبة النكاح (١٨٩٢) من طريق عيسى بن يونس ثنا أبي كلاهما (الأعمش ، ويونس بن أبي إسحاق) عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : علمنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التشهد في الصلاة والتشهد في الحاجة ...» فذكر الحديث . وقال الترمذي : « حديث عبد الله حديث حسن رواه الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ورواه شعبة عن أبي إسحاق ، =

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « الذين » .
[٣] - في ز : « لهم » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **ولقد ذرأنا** ﴾ أي : خلقنا وجعلنا ﴿ **لجهنم كثيرًا من الجن والإنس** ﴾ أي : هيأناهم لها ، وبعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالىٰ لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد في صحيح مسلم(٢٥٩) ، عن عبد اللَّه بن عمرو : أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « **إن اللَّه قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه علىٰ الماء** » .

وفي صحيح مسلم أيضًا(٢٦٠) ، من حديث عائشة بنت طلحة ، عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي اللَّه عنها أنها قالت : دُعِيَ النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم إلىٰ جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول اللَّه طوبىٰ له ، عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه . فقال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **أوَ غير ذلك ، يا عائشة ؟ إن اللَّه خلق الجنة وخلق لها أهلًا ، وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم** » .

= عن أبي عبيدة عن عبد اللَّه ، عن النبي صلي اللَّه عليه وسلم وكلا الحديثين صحيح ، لأن إسرائيل جمعهما فقال : عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص ، وأبي عبيدة عن عبد اللَّه بن مسعود عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم » وطريق شعبة أخرجها أحمد (٣٩٢/١ ، ٣٩٣) والنسائي (١٠٤/٣) وطريق إسرائيل أخرجها أحمد أيضًا (٤٣٢/١) وأبو داود (٢١١٨) ولم ينفرد إسرائيل بجمع الإسنادين معًا عن أبي إسحاق ، فقد جمعهما شعبة عن أبي إسحاق أيضًا في رواية عند أحمد (٣٩٣/١) وكل هذه الروايات ليست فيها لفظة : « ونستهديه » وللحديث طرق أخرى أعرضنا عنها اختصارًا ، ومن أراد زيادة تفصيل فليراجع رسالة الألباني « خطبة الحاجة » وباللَّه التوفيق .

(٢٥٩) - أخرجه مسلم ، كتاب : القدر ، باب : حجاج آدم وموسى عليهما السلام (١٦) (٢٦٥٣) بلفظ « كتب اللَّه مقادير الخلائق ....» وأخرجه الترمذي ، كتاب : القدر ، باب : (رقم ١٨) (ح ٢١٥٧) وأحمد (١٦٩/٢) بلفظ « **قدر اللَّه المقادير** ...» دون قوله : « وكان عرشه على الماء » وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » .

(٢٦٠) - أخرجه مسلم ، كتاب : القدر ، باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة (٣٠ ، ٣١) (٢٦٦٢) ، وسوف يعيده المصنف [سورة الإسراء / آية ١٥] ويخرج هناك بأوسع مما هنا .

وفي الصحيحين(٢٦١) من حديث ابن مسعود : « **ثم يبعث الله**[١] **إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد** » .

وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه ، وجعلهم فريقين : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال : « **هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي** »(٢٦٢) .

والأحاديث في هذا كثيرة ، ومسألة القَدَر كبيرة ليس هذا موضع بسطها .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها** ﴾ يعني : ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببًا للهداية ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وجعلنا لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنىٰ عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله** ﴾ . الآية . وقال تعالىٰ : ﴿ **صم بكم عمي فهم لا يرجعون** ﴾ ، هذا في حق المنافقين ، وقال في حق الكافرين : ﴿ **صم بكم عمي فهم لا يعقلون** ﴾ ، ولم يكونوا صمًا و[٢]بكمًا و[٣]عميًا إلا عن الهدىٰ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** ﴾ ، وقال : ﴿ **فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور** ﴾ ، وقال : ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **أولئك كالأنعام** ﴾ أي : هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يَعُونه ولا يبصرون الهدىٰ كالأنعام[٤] السارحة التي لا تنتفع[٥] بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها في ظاهر الحياة الدنيا ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء** ﴾ ، أي : ومثلهم في حال دعائهم إلىٰ الإيمان ، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها ، لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول ؛ ولهذا قال في هؤلاء : ﴿ **بل هم أضل** ﴾ أي : من الدواب ؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أَبَسَّ[٦] (٢٦٣) بها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق

(٢٦١) - أخرجه البخاري ، كتاب : بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة (٣٢٠٠) ومسلم ، فاتحة كتاب القدر (٢٦٤٣) و يأتي تخريجه بأوسع مما هنا [سورة الرعد / آية ٨] .

(٢٦٢) - تقدم برقم (٢٤٦) .

(٢٦٣) - أبَس الراعي الإبل ، وأبس بها : زجرها بقوله : بِسْ ، بِسْ .

[١] - سقط من : ز .

[٢] - سقط من : ت .

[٣] - سقط من : ت .

[٤] - في ز : « والأنعام » .

[٥] - في ز : « ينتفع » .

[٦] - في ز : « أيس » .

ليعبد اللَّه ويوحده ، فكفر باللَّه وأشرك به ؛ ولهذا من أطاع اللَّه من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر ، كانت الدواب أتم منه ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم « **إن للَّه تسعةً وتسعين اسمًا [مائة إلا واحدًا][١] ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر** » .

أخرجاه في الصحيحين(٢٦٤) ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عنه . ورواه البخاري(٢٦٥) ، عن أبي اليمان ، عن شعيب بن أبي حمزة ، عن أبي الزناد به . وأخرجه الترمذي [في جامعه][٢] (٢٦٦)، عن الجوزجاني ، عن صفوان بن صالح ، عن الوليد بن مسلم ، عن شعيب ، فذكر بسنده مثله ، وزاد بعد قوله : « **يحب الوتر : هو اللَّه الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدئ ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ،**

---

(٢٦٤) - أخرجه البخاري ، كتاب : الدعوات ، باب : للَّه مائة اسم غير واحدة (٦٤١٠) ، ومسلم ، كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : في أسماء اللَّه تعالى ، وفضل من أحصاها (٥) (٢٦٧٧) ، وكذا أخرجه الترمذي ، كتاب : الدعوات ، باب (رقم ٨٣) (ح ٣٥٠٨) من طرق عن سفيان بن عيينة ، به .

(٢٦٥) - البخاري ، كتاب: الشروط، باب: المكاتب ، وما لا يَحلُّ من الشروط التي تخالف كتاب اللَّه ... (٢٧٣٦) ، وك : التوحيد ، باب : إن للَّه مائة اسم إلا واحدة (٧٣٩٢) .

(٢٦٦) - جامع الترمذي ، كتاب : الدعوات ، باب : (رقم ٨٣) (ح ٣٥٠٧) وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه كما في « تلخيص الحبير » (١٩٠/٤) - ومن طريقه البغوي في « شرح السنة » =

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » .

ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث .

ورواه ابن حبان في صحيحه ، من طريق صفوان به . وقد رواه ابن ماجة في سننه من طريق آخر ، عن موسىٰ بن عقبة ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعًا ، فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان .

والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مُدرج فيه ، وإنما ذلك

= (٥/رقم ١٢٥٧) نا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني ، به ، وأخرجه ابن حبان (٣/رقم ٨٠٨) أخبرنا الحسن بن سفيان ومحمد بن الحسن بن قتيبة ومحمد بن أحمد بن عبيد بن فياض بدمشق ، والطبراني في « الدعاء » (١/رقم ١١١) ثنا أحمد بن المعلّى الدمشقي ، وورد بن أحمد بن لبيد البيروتي ، والحاكم (١٦/١) من طريق موسى بن أيوب ومحمد بن أحمد بن الوليد الكرابيسي ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٢٧/١٠) من طريق جعفر بن محمد ، وفي « شعب الإيمان » (١/ رقم ١٠٢) من طريق الحسن بن سفيان، وفي «الأسماء والصفات» (١/رقم ٦) من طريق الحسن بن سفيان وجعفر محمد بن المستفاض ، كلهم (الجوزجاني والحسن والمحمدان وأحمد وورد وموسى والكرابيسى وجعفر) عن صفوان بن صالح به ، وقال الترمذي : « هذا حديث غريب ، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل الحديث ، وقد روي هذا الحديث من غير وجهٍ عن أبي هريرة عن النبيِّ - صلى اللّٰه عليه وسلم - ولا نَعْلَمُ في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث ، وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسنادٍ غير هذا عن أبي هريرة عن النبي - صلى اللّٰه عليه وسلم - وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح » .

وقال الحاكم : « هذا حديث قد خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه ، والعلة فيه عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله ، وذكر الأسامي فيه ولم يذكرها غيره ، وليس هذا بعلة - يأتي تعقيب الحافظ على هذا الكلام - فإني لا أعلم اختلافًا بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان ، وبشر بن شعيب ، وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب ، وللحافظ ابن حجر كلام نفيس على هذا الحديث في « الفتح » (٢١٤/١١ : ٢٢٧) وفي « تلخيص الحبير » (١٩٠/٤ : ١٩٢) ننقل بعضه للإفادة ، قال في « الفتح » : « هذا الحديث رواه عن الأعرج أيضًا موسى بن عقبة عند ابن ماجه - (٣٨٦١) - من رواية زهير بن محمد عنه ... وسرد الأسماء ، ورواه عن أبي الزناد أيضًا شعيب بن أبي حمزة -

تقدمت هذه الراوية هنا برقم (٢٦٤) - وأخرجه الترمذي من رواية الوليد بن مسلم عن شعيب ... وسرد الأسماء ، ومحمد بن عجلان عند أبي عوانة ، ومالك عند ابن خزيمة والنسائي - « السنن الكبرى » (٧٦٥٩/٤) - والدارقطني في « غرائب مالك » وقال : صحيح عن مالك وليس في « الموطأ » قدر ما عند أبي نعيم في طرق الأسماء الحسنى ، وعبد الرحمن بن أبي الزناد عند الدارقطني وأبو عوانة ومحمد بن إسحاق عند أحمد وابن ماجه - لم أهتد إلا لطريق محمد بن إسحاق عند أحمد (٢٥٨/٢) - وموسى بن عقبة عند أبي نعيم من رواية حفص بن ميسرة عنه ، ورواه عن أبي هريرة أيضًا همام بن منبه عند مسلم (٦) (٢٦٧٧) - وأحمد (٢٦٧/٢ ، ٢٧٧ ، ٣١٤) - ومحمد بن سيرين عند مسلم - (٦) (٢٦٧٧) - والترمذي - (٣٥٠٦) - والطبراني في « الدعاء » - (٨٢٦/٢ ، ٨٢٧) - وجعفر الفريابي في « الذكر » وأبو رافع عند الترمذي - (٣٥٠٦) - وأبو سلمة بن عبد الرحمن عند أحمد (٥٠٣/٢) - وابن ماجه (٣٨٦٠) - وعطاء ابن يسار وسعيد المقبري وسعيد بن المسيب وعبد اللّٰه بن شقيق ومحمد بن جبير بن مطعم والحسن البصري أخرجها أبو نعيم بأسانيد عنهم كلها ضعيفة ، وعراك بن مالك عند البزار لكن شك فيه ، ورويناها في « جزء المعالى » وفي « أمالي الجرفي » من طريقه بغير شك ، ورواه عن النبي - صلى اللّٰه عليه وسلم - مع أبي هريرة سلمان الفارسي ، وابن عباس وابن عمر وعلي وكلها عند أبي نعيم أيضًا بأسانيد ضعيفة ، وحديث علي في « طبقات الصوفية » لأبي عبد الرحمن السلمي ، وحديث ابن عباس وابن عمر معًا في الجزء الثالث عشر من « أمالي القاسم بن بشران » وفي « فوائد أبي عمر بن حيويه » انتقاء الدارقطني ، هذا جميع ما وقفت عليه من طرقه ، وقد أطلق ابن عطية في تفسيره أنه تواتر عن أبي هريرة فقال : « في سرد الأسماء نظر ، فإن بعضها ليس في القرآن ، ولا في الحديث الصحيح ، ولم يتواتر الحديث من أصله وإن خرج في « الصحيح » ، ولكنه تواتر عن أبي هريرة » كذا قال، ولم يتواتر عن أبي هريرة أيضًا ، بل غاية أمره أن يكون مشهورًا ، ولم يقع في شيء من طرقه سرد الأسماء إلا في رواية الوليد بن مسلم عند الترمذي ، وفي رواية زهير بن محمد عن موسى بن عقبة عند ابن ماجة ، وهذان الطريقان يرجعان إلى رواية الأعرج ، وفيهما اختلاف شديد في سرد الأسماء والزيادة والنقص على ما سأشير إليه ، ووقع سرد الأسماء أيضًا في طريق ثالثة أخرجها الحاكم في « المستدرك » -(١٧/١)- وجعفر الفريابي في « الذكر » من طريق عبد العزيز بن الحصين عن أيوب - مقرونًا به هشام بن حسان - عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة - قال في « تلخيص الحبير » (١٩٠/٤) : « المحفوظ عن أيوب وهشام بدون ذكر الأسامي ، قال الحاكم : وعبد العزيز ثقة ، قلت : - الحافظ ابن حجر - : بل متفق على تضعيفه وهاه البخاري ومسلم وابن معين وقال البيهقي : ضعيف عند أهل النقل ، قال البيهقي : ويحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة . ولهذا الاحتمال ترك الشيخان إخراج حديث الوليد في الصحيح ....» واختلف العلماء في سرد الأسماء هل هو مرفوع أو مدرج في الخبر من بعض الرواة ، فمشى كثير منهم على الأول ، واستدلوا به على جواز تسمية اللّٰه تعالى بما لم يرد في القرآن بصيغة الاسم ، لأن كثيرًا من هذه الأسماء كذلك ، وذهب آخرون إلى أن التعيين مدرج لخلو أكثر الروايات عنه - ونقله عبد العزيز النخشبي عن كثير من العلماء - ثم ذكر كلام الحاكم المذكور آنفًا وقال : يشير - أي الحاكم

كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني[١] ، عن زهير بن محمد : أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أي : أنهم جمعوها من القرآن ، كما ورد عن جعفر ابن محمد وسفيان بن عيينة وأبي[٢] زيد اللغوي[٣] ، والله أعلم .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنىٰ ليست منحصرة في التسعة والتسعين ، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده(٢٦٧) ، عن يزيد بن هارون ، عن فضيل بن مرزوق ، عن أبي سلمة[٤] الجهني ، عن

- إلى أن بشرًا وعليًا وأبا اليمان رووه عن شعيب بدون سياق الأسماء فرواية أبي اليمان عند المصنف - يعني « البخاري » - تقدمت برقم (٢٦٤) - ورواية علي عند النسائي - « الكبرى » (٧٦٥٩/٤) - ورواية بشر عند البيهقي - « السنن الكبرى » (٢٧/١٠) - وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط بل الاختلاف فيه والاضطراب وتدليسه واحتمال الإدراج ... - ثم نقل كلام الحافظ الترمذي السابق وقال : « ولم ينفرد به صفوان فقد أخرجه البيهقي - « الأسماء والصفات » ١/رقم ٦) - من طريق موسى بن أيوب النصيبي - وهو ثقة - عن الوليد أيضًا ، وقد اختلف في سنده على الوليد .... ورواية الوليد تشعر بأن التعيين مدرج - ثم ذكر الخلاف بين الروايات في سرد الأسماء - ثم نقل قول الحاكم : « إنما أخرجت رواية عبد العزيز بن الحصين شاهدًا لرواية الوليد عن شعبة لأن الأسماء التى زادها على الوليد كلها في القرآن » ، وتعقبه ابن حجر بقوله كذا قال : وليس كذلك ، وإنما تؤخذ من القرآن بضرب من التكلف لا أن جميعها ورد فيه بصورة الأسماء ... ثم نقل تضعيف إسناد الأحاديث الواردة في سرد الأسماء ، وقال : وقد استضعف الحديث أيضًا جماعة فقال الداودي لم يثبت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عين الأسماء المذكورة ، وقال ابن العربي : يحتمل أن تكون الأسماء تكملة الحديث المرفوع ، ويحتمل أن تكون من جمع بعض الرواة وهو الأظهر عندي - وذكر الحافظ عن الفخر الرازي أنه نقل عن أبي زيد البلخي تضعيف هذا الحديث - ثم قال الحافظ : وإذا تقرر رجحان أن سرد الأسماء ليس مرفوعًا فقد اعتنى جماعة بتتبعها من القرآن من غير تقييد بعدد ....» ا.هـ .

(٢٦٧) - « المسند » (٣٩١/١ ، ٤٥٢) (٣٧١٢ ، ٤٣١٨) وأخرجه ابن أبي شيبة في =

[١] - رواية عبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أخرجها ابن ماجه (٣٨٦١) وابن أبي عاصم والحاكم - كما في « فتح الباري » لابن حجر (٢١٥/١١) .

[٢] - في ت : « أبو » .

[٣] - قال الحافظ في « الفتح » (٢١٥/١١) : « أخرج أبو نعيم عن الطبراني عن أحمد بن عمرو الخلال عن ابن أبي عمرو « حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين سألت أبا جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء الحسنى فقال : هي في القرآن وروينا في « فوائد تمام » (٤/رقم ١٥٦٧- الروض البسام) - من طريق أبي الطاهر بن السرح عن حبان بن نافع عن سفيان بن عيينة الحديث ، يعني حديث « إن لله تسعة وتسعين اسمًا » قال : فوعدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فأبطأ فأتينا أبا زيد فأخرجها لنا فعرضناها على سفيان فنظر فيها أربع مرات وقال : « نعم هي هذه » .

[٤] - في خ ، ز : « مسلم » .

القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال : « **ما أصاب أحدًا قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ فقال : اللهم ! إني عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عَدْلٌ في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيْتَ به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم**[١] **ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله**[٢] **مكانه فرحًا** » . فقيل : يا رسول الله ، أفلا نتعلمها ؟ فقال : « **بلىٰ ، ينبغي [لكل من]**[٣] **سمعها أن يتعلمها** » .

وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله .

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه « عارضة الأحوذي في شرح الترمذي » أن بعضهم جمع من[٤] الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم ، فالله أعلم .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ **وذروا الذين يلحدون في أسمائه** ﴾ قال :

= « المصنف » (٤٧/٧) والحارث بن أبي أسامة (١٠٦٣/ زوائد الهيثمي) والشاشي في مسنده (١/رقم ٢٨٢) وأبو يعلي في مسنده (٥٢٩٧/٩) - وعنه ابن حبان في صحيحه (٩٧٢/٣) - من طريق يزيد بن هارون ، والطبراني في « الكبير » (١٠٣٥٢/١٠) وفي « كتاب الدعاء » (١٠٣٥/٢) من طريق عاصم بن علي ، والحاكم في « المستدرك » (٥٠٩/١) وعنه البيهقي في « الأسماء والصفات » (١/رقم ٧) من طريق سعيد بن سليمان الواسطي ، ثلاثتهم (يزيد وعاصم وسعيد) ثنا فضيل بن مرزوق ، به وقال الحاكم : « حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه عن أبيه » قلت : أثبت سماعه من أبيه سفيان الثوري وابن المديني وابن معين في رواية والبخاري وأبو حاتم ، وروى البخاري في « التاريخ الصغير » بإسناد لا بأس به - كما قال ابن حجر في « التهذيب » - عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود عن أبيه قال : لما حضر عبد الله الوفاة قال له ابنه عبد الرحمن : يا أبت أوصني ، قال : « ابك على خطيئتك » لكن أعل الذهبي الحديث بعلة أخرى فقال : « أبو سلمة لا يدرى من هو ولا رواية له في الكتب الستة » كذا قال : واستقرب الشيخ شاكر في « تحقيق المسند » - وجزم به الألباني في « الصحيحة » (١/رقم ١٩٩) بأنه موسى بن عبد الله أو ابن عبد الرحمن الجهني ، ويكنى أبا سلمة وهو ثقة من رجال مسلم ، ثم إن أبا سلمة هذا متابع ، تابعه عبد الرحمن بن إسحاق عند البزار (١٩٩٤/٥/ البحر الزخار) وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٤٢) والبيهقي (١/ ٨) لكن عبد الرحمن هذا - وهو أبو شيبة الواسطي - متفق على تضعيفه ، وله شاهد من حديث أبي موسى الأشعري ، انظره في « الصحيحة » وانظر « العلل » للدارقطني (٥/س ٨١٩) .

---

[١] - سقط من : ز . [٢] - في خ : « أبدل » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « لمن » . [٤] - في ز : « في » .

[إلحاد الملحدين : أن دعوا اللات في أسمائه][١] .

[وقال ابن جريج ، عن مجاهد : ﴿ **وذروا الذين يلحدون في أسمائه**][٢] ﴾ قال : اشتقوا « **اللات** » من اللّٰه ، [واشتقوا][٣] « [ ][٤]**العزىٰ** » من العزيز .

وقال قتادة : ﴿ **يلحدون** ﴾ : يشركون . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الإلحاد : التكذيب .

وأصل الإلحاد في كلام العرب : العدول[٥] عن القصد ؛ والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر ، لانحرافه إلىٰ جهة القبلة عن سمت الحفر .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **وممن خلقنا** ﴾ أي : ومن الأمم ﴿ **أمة** ﴾ قائمة بالحق ، قولًا وعملًا ﴿ **يهدون بالحق** ﴾ يقولونه ويدعون إليه ، ﴿ **وبه يعدلون** ﴾ يعملون ويقضون .

وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة المحمدية .

قال سعيد(٢٦٨) ، عن قتادة في تفسير هذه الآية : بلغنا أن النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم كان يقول إذا قرأ هذه الآية : « **هذه لكم ، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها ﴿ ومن قوم موسىٰ أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾** » .

وقال أبو جعفر الرازي(٢٦٩) ، عن الربيع بن أنس في قوله تعالىٰ : ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **إن من أمتي قومًا علىٰ الحق ، حتىٰ ينزل عيسىٰ ابن مريم متىٰ ما نزل** » .

---

(٢٦٨) – أخرجه ابن جرير (١٥٤٦٠/١٣) ثنا بشر ، ثنا يزيد ، ثنا سعيد به ، ورجاله ثقات غير أنه مرسل ، وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢٧٢/٣) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر .

(٢٦٩) – أخرجه ابن أبي حاتم (٨٥٨٩/٥) ثنا علي بن الحسين ، ثنا محمد بن أبي حماد ، ثنا مهران عن أبي جعفر به ، وأبو جعفر الرازي « صدوق سيئ الحفظ » والحديث معضل الإسناد ، وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢٧٢/٣) ولم يعزه لغير ابن أبي حاتم .

---

[١] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٢] – ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٣] – ما بين المعكوفتين سقط من خ .

[٤] – ما بين المعكوفتين في خ : و . [٥] – في ز : « العدل » .

وفي الصحيحين(٢٧٠) ، عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتىٰ تقوم الساعة » . وفي رواية : « حتىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك » . وفي رواية : « وهم بالشام » .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ (١٨٢) وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ (١٨٣)

يقول تعالىٰ : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ ومعناه : أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا ، حتىٰ يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم علىٰ شيء ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتىٰ إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وأملي لهم** ﴾ أي : وسأملي لهم ، أي : أطول لهم ما هم فيه ﴿ **إن كيدي متين** ﴾ أي : قوي شديد .

أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ (١٨٤)

يقول تعالىٰ : ﴿ **أولم يتفكروا** ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ **ما بصاحبهم** ﴾ يعني : محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم ﴿ **من جنة** ﴾ أي : ليس به جنون ، بل هو رسول الله حقًّا ، ودعا إلىٰ حق ﴿ **إن هو إلا نذير مبين** ﴾ أي : ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **وما صاحبكم بمجنون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنىٰ وفرادىٰ ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ ، يقول : إنما أطلب منكم أن تقوموا لله قيامًا خالصًا [ ][١] ، ليس فيه تعصب ولا عناد ، ﴿ **مثنىٰ وفرادىٰ** ﴾ أي : مجتمعين ومتفرقين ، ﴿ **ثم تتفكروا** ﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله : أبه[٢] جنون أم لا ؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقًّا وصدقًا .

---

(٢٧٠) - أخرجه البخاري ، كتاب : المناقب ، باب : (رقم ٢٨) (ح ٣٦٤١) ، ومسلم ، كتاب : الإمارة، باب : قوله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ...» (١٧٤ ، ١٧٥) (١٠٣٧) مغايرًا في بعض الأحرف لسياق المصنف وقوله « وهم بالشام » عند البخاري فقط ، من كلام معاذ بن جبل ، وانظر « الصحيحة » للألباني (١/ ٢٧٠) (٤/ ١٩٥٥ ، ١٠٦٢) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « لله » . [٢] - في ز : « أنه » .

وقال قتادة بن دعامة(٢٧١) : ذكر لنا أن نبي اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، كان علىٰ الصفا ، فدعا قريشًا فجعل يُفخِّذهم فخذًا فخذًا[١] : يا بني فلان يا بني فلان، فحذرهم بأس اللّٰه ووقائع اللّٰه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا المجنون ، بات يصوت إلىٰ الصباح أو حتىٰ أصبح ، فأنزل اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين** ﴾ .

أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

يقول تعالىٰ ﴿ **أو لم ينظروا** ﴾ هؤلاء المكذبون[٢] بآياتنا ، في ملك اللّٰه وسلطانه في السموات والأرض ، وفيما خلق من شيء فيهما ، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ، ومن فِعْل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له ، فيؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، وينيبوا إلىٰ طاعته ، ويخلعوا الأنداد والأوثان ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا علىٰ كفرهم ، ويصيروا إلىٰ عذاب اللّٰه وأليم عقابه .

وقوله : ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون** ﴾ يقول : فبأي تخويف وتحذير وترهيب - بعد تحذير محمد ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وترهيبه ، الذي أتاهم به من عند اللّٰه في آي كتابه - يصدقون ؟ إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند اللّٰه عز وجل .

وقد روىٰ الإمام أحمد(٢٧٢) ، عن حسن بن موسىٰ وعفان[٣] بن مسلم وعبد الصمد بن

---

(٢٧١) - أخرجه ابن جرير (١٥٤٦١/١٣) وابن أبي حاتم (٨٥٩٢/٥) من طريقين عن يزيد بن زريع ثنا سعيد عن قتادة به ، هكذا مرسلًا ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٧٣/٣) إلى عبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ .

(٢٧٢) - « المسند » (٣٥٣/٣ ، ٣٦٣) - ومن طريقه المزي في «تهذيب الكمال» (٣٣/ت ٧٤٤٤) وأخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٤٦/٨) - وعنه مختصرًا ابن ماجه ، كتاب : التجارات ، باب : التغليظ في الربا (٢٢٧٣) - ثنا الحسن بن موسى به ، وأخرجه ابن أبي حاتم - سوف يذكره المصنف في [سورة الإسراء / آية ١ /ح ٨١] - ثنا أبي ثنا حجاج بن منهال ، ثنا حماد بن سلمة به ، قال البوصيري في « مصباح الزجاجة » (١٩٧/٢) : « إسناده ضعيف ، لضعف علي بن زيد » وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٢٠/٤) وقال : رواه الإمام أحمد ... ورواه =

---

[١] - أي : يناديهم فخذًا فخذًا . وهم أقرب العشيرة إليه ، وأول العشيرة : « الشعب » ثم « القبيلة » ، ثم « الفصيلة » ، ثم « العمارة » ، ثم « البطن » ، ثم « الفخذ » كذا قال الجوهري ، النهاية (٤١٨/٣) .

[٢] - في ز : « المكذبين » . [٣] - في ز : « عثمان » .

عبد الوارث ، كلهم[١] عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد بن جدعان[٢] ، عن أبي الصلت ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **رأيت ليلة أسري بي ، لما[٣] انتهينا إلىٰ السماء السابعة ، فنظرت فوقي ، فإذا أنا برعد وبرق وصواعق ، قال : وأتيت علىٰ قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترىٰ من خارج بطونهم ، قلت : من هؤلاء[٤] يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني ، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هؤلاء[٥] الشياطين يحومون[٦] علىٰ أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب** » .

علي بن زيد بن جدعان[٧] له منكرات . ثم قال تعالىٰ :

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يقول تعالىٰ : من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولو نظر لنفسه فيما نظر ، فإنه لا يجزي عنه شيئًا ﴿ **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا** ﴾ ، وكما[٨] قال تعالىٰ : ﴿ **قل انظروا ماذا في السمٰوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **يسألونك عن الساعة** ﴾ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **يسألك الناس عن الساعة** ﴾ .

= ابن ماجه باختصار، وفيه علي بن زيد ، وفيه كلام والغالب عليه الضعف وكذا أعله المصنف بـ « علي بن زيد » وهو مُعَلّ قبله بشيخه أبي الصلت هذا فلم يرو عنه إلا علي بن زيد ، وقد جهله الحافظان : الذهبي في « الميزان » وابن حجر في « التقريب » ، والحديث ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٣/٢٧٣) ، (٤/٢٨١) وزاد نسبته في الموضع الثاني إلى ابن مردويه .

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « جذعان » .
[٣] - في ز : « فلما » .
[٤] - في خ : « هذه » .
[٥] - في ز : « هذه » .
[٦] - في خ، ز : « يحرقون » .
[٧] - في ز : « جذعان » .
[٨] - سقط من : ز .

قيل : نزلت في قريش . وقيل : في نفر من اليهود ، والأول أشبه ؛ لأن الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة ، استبعادًا لوقوعها ، وتكذيبًا بوجودها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ويقولون متىٰ هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد** ﴾ .

وقوله : ﴿ **أيان مرساها** ﴾ قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : منتهاها ، أي : متىٰ محطها ، وأيان آخر مدة الدنيا الذي [هو أقل وقت الساعة][١] ﴿ **قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ أمر تعالىٰ رسوله ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، إذا سئل عن وقت الساعة ، أن يرد علمها إلىٰ اللّٰه تعالىٰ ؛ فإنه هو الذي يجليها لوقتها ، أي : يعلم جلية[٢] أمرها ، ومتىٰ يكون علىٰ التحديد ، لا يعلم ذلك إلا هو تعالىٰ ؛ ولهذا قال : ﴿ **ثقلت في السمٰوات والأرض** ﴾ .

قال عبد الرزاق(٢٧٣) ، عن معمر ، عن قتادة في قوله : ﴿ **ثقلت في السمٰوات والأرض** ﴾ قال : ثقل علمها علىٰ أهل السموات والأرض ، إنهم لا يعلمون .

قال معمر : قال الحسن : إذا جاءت ثقلت علىٰ أهل السمٰوات والأرض ، يقول : كَبُرت عليهم .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ثقلت في السمٰوات والأرض** ﴾ قال : ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة .

وقال ابن جريج : ﴿ **ثقلت في السمٰوات والأرض** ﴾ قال : إذا جاءت انشقت السماء ، وانتثرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وكان ما قال اللّٰه عز وجل ، فذلك ثقلها .

واختار ابن جرير رحمه اللّٰه[٣] : أن المراد ثَقُلَ علم وقتها علىٰ أهل السمٰوات والأرض ، كما قال قتادة .

---

(٢٧٣) - « التفسير » لعبد الرزاق (٢/٢٤٤ ، ٢٤٥) ومن طريقه ابن جرير (١٣/١٥٤٧٣ ، ١٥٤٧٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/٨٦١١) وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٣/٢٧٤) إلى ابن المنذر .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت . [٢] - في ز : « جليته » .

[٣] - ابن جرير في تفسيره (١٣/٢٩٦ ، ٢٩٧) .

وهو كما قالاه ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ ، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها علىٰ أهل السموات والأرض ، والله أعلم .

وقال السدي : ﴿ **ثقلت في السموات والأرض** ﴾ ، يقول : خفيت في السموات والأرض ، فلا[١] يعلم قيامها - حين تقوم مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبي مرسل .

﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ يبغتهم قيامها ، تأتيهم علىٰ غفلة .

وقال قتادة(٢٧٤) في قوله تعالىٰ : ﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ : قضىٰ الله أنها ﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ - قال : وذكر لنا أن نبي الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : « **إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه ، والرجل يسقي ماشيته ، والرجل يقيم سلعته في السوق ، ويخفض ميزانه ويرفعه** » .

وقال البخاري(٢٧٥) : حدثنا أبو اليمان ، أنبأنا شعيب ، أنبأنا[٢] أبو الزناد ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **لا تقوم الساعة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أُكْلَته إلىٰ فيه فلا يطعمها** » .

وقال مسلم في صحيحه(٢٧٦) : حدثني زهير بن حرب ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **تقوم الساعة**

---

(٢٧٤) - أخرجه ابن جرير (١٣/١٥٤٧٩) ثنا بشر قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا سعيد عن قتادة به ، هكذا مرسلًا ، وذكره السيوطي « الدر المنثور » (٣/٢٧٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير وزاد نسبته في [(٤/٤٩٨/ سورة يس / آية ٤٩)] إلى ابن أبي حاتم وانظر الحديثين اللذين بعد هذا .

(٢٧٥) - البخاري في صحيحه ، كتاب : الرقاق ، باب (رقم ٤٠) ، (ح ٦٥٠٦) وانظر ما تقدم [سورة الأنعام /آية ١٥٨] .

(٢٧٦) - صحيح مسلم ، كتاب : الفتن وأشراط الساعة ، باب : قرب الساعة (١٤٠) (٢٩٥٤) وانظر ما قبله .

---

[١] - في ز : « فلم » . [٢] - في : « ثنا » .

والرجل يحلب لقحته[١] ، فما يصل الإناء إلىٰ فيه حتىٰ تقوم الساعة ، والرجلان يتبايعان الثوب ، فما يتبايعانه حتىٰ تقوم الساعة[٢] ، والرجل يلوط حوضه ، فما يصدر حتىٰ تقوم ».

وقوله : ﴿ **يسألونك كأنك حفي عنها** ﴾ ، اختلف المفسرون في معناه ؛ فقيل : معناه كما [ ][٣] قال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ **يسألونك كأنك حفي عنها** ﴾ يقول : كأن بينك وبينهم مودّة ، كأنك صديق لهم . قال ابن عباس : لما سأل الناس محمدًا ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، عن الساعة ، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدًا حفي بهم ، فأوحىٰ اللّٰه إليه : إنما علمها عنده ، استأثر بعلمها فلم يطلع اللّٰه عليها ملكًا مقربًا ولا رسولًا .

وقال قتادة : قالت قريش لمحمد صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : إن بيننا وبينك قرابة ، فأسر إلينا متىٰ الساعة ؟ فقال اللّٰه عز وجل : ﴿ **يسألونك كأنك حفي عنها** ﴾ .

وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدي ، وهذا قول . والصحيح عن مجاهد - من رواية ابن أبي نجيح وغيره -: ﴿ **يسألونك كأنك حفي عنها** ﴾ قال : استحفيت[٤](٢٧٧) عنها السؤال ، حتىٰ علمت وقتها .

وكذا قال الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ **يسألونك كأنك حفي عنها** ﴾ يقول : كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، ﴿ **قل إنما علمها عند اللّٰه** ﴾ .

وقال معمر[٥] ، عن بعضهم : ﴿ **كأنك حفي عنها** ﴾ : كأنك عالم بها .

[وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ **كأنك حفي عنها** ﴾ كأنك عالم بها][٦] ، وقد أخفىٰ اللّٰه علمها علىٰ خلقه ، وقرأ : ﴿ **إن اللّٰه عنده علم الساعة** ﴾ الآية .

وهذا القول أرجح في المعنىٰ من الأول ، واللّٰه أعلم .

ولهذا قال : ﴿ **قل إنما علمها عند اللّٰه ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

ولهذا لما جاء جبريل - عليه السلام - في صورة أعرابي ، ليعلم الناس أمر دينهم ، فجلس من رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، مجلس السائل المسترشد ، وسأله ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم قال : فمتىٰ الساعة ؟ قال له رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه

---

(٢٧٧) - استحفى عن الشيء : بالغ في الاستخبار عنه .

---

[١] - في ز : « اللقحة » .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز : « كأنك حفي وقال : » .
[٤] - في ز : « استخفيت » .
[٥] - في ز : « يعمر » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

عليه وسلم : « **ما المسئول عنها بأعلم من السائل** » . أي : لست أعلم بها منك ، ولا أحد أعلم بها من أحد ، ثم قرأ النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : ﴿ **إن اللّٰه عنده علم الساعة** ﴾ الآية .

وفي رواية : « **فسأله عن أشراط الساعة ، فبين له أشراط الساعة ، ثم قال : « في خمس لا يعلمهن إلا اللّٰه** » ، وقرأ هذه الآية . وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب : صدقت ؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه ، ثم لما انصرف قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم** »(٢٧٨) .

وفي رواية قال(٢٧٩) : « **وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها ، إلا صورته هذه** » .

وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد في أول شرح صحيح[١] البخاري ، ولله الحمد والمنة .

ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جَهْوَرِيّ ، فقال : يا محمد . قال[٢] له رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **هَاؤم**[٣] » - علىٰ نحو من صوته - قال : يا محمد ! متىٰ الساعة ؟ قال له رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **ويحك ، إن الساعة آتية ، فما أعددت لها** » ؟ قال : ما[٤] أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ، ولكني أحب اللّٰه ورسوله . فقال له رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **المرء مع من أحب** »(٢٨٠) . فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث .

(٢٧٨) - أخرجه البخاري ، كتاب : الإيمان ، باب : سؤال جبريل النبي - صلى اللّٰه عليه وسلم - عن الإيمان ... (رقم ٥٠) ومسلم ، كتاب : الإيمان، ب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان ... (٥) (٩) من حديث أبي هريرة .

(٢٧٩) - أخرج هذه الرواية أحمد في مسنده (٥٢/١ ، ٥٣) من حديث ابن عمر وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر (رقم ٣٧٤) وكذا أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٣٥٨١/١٢) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٤٥/١ ، ٤٦) وقال : « رواه الطبراني في « الكبير » - وغفل عن عزوه لأحمد - ورجاله موثقون » وانظر « فتح الباري » (١٢٤/١) .

(٢٨٠) - أخرجه البخاري ، كتاب : فضائل الصحابة ، باب : مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العَدويّ - رضي اللّٰه عنه - (٣٦٨٨) ومسلم ، كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : المرء مع من أحب (١٦١ : ١٦٤) (٢٦٣٩) من طرق عن أنس بن مالك وهو مغاير في بعض =

[١] - زيادة من : ز. [٢] - في ز : « فقال » .

[٣] - في ت : « هاء » ، وقال أبو حاتم بن حبان « الصحيح » (٣٢٢/٢/إحسان) رحمه اللّٰه تعالى : قوله - صلى اللّٰه عليه وسلم - : « هاؤم » أراد به رفع الصوت فوق صوت الأعرابي ، لئلا يأثم الأعرابي برفع صوته على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم » .

[٤] - سقط من : ز .

وهذا له طرق متعددة(٢٨١) في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال : « **المرء مع من أحب** » . وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين .

ففيه أنه - عليه السلام - أنه[١] كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلىٰ علمه ، أرشدهم إلىٰ ما هو الأهم في حقهم ، وهو الاستعداد لوقوع ذلك ، والتهيؤ له قبل نزوله ، وإن لم يعرفوا تعيين وقته .

ولهذا قال مسلم في صحيحه(٢٨٢) : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا : حدثنا أبو أسامة ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كانت الأعراب إذا قدموا علىٰ رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، سألوه عن الساعة : متىٰ الساعة ؟ فينظر إلىٰ أحدث إنسان[٢] منهم فيقول[٣] : « **إن يعش هذا لم يدركه الهَرَم حتىٰ قامت ساعتكم** » .

يعني بذلك : موتهم الذي يفضي بهم إلىٰ الحصول في برزخ الدار الآخرة .

ثم قال مسلم(٢٨٣) : وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا يونس بن محمد ، عن حماد بن

= الأحرف لسياق المصنف ، وأقرب لفظ لسياق المصنف ، هو ما أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ رقم ١٠٥) من طريق المعتمر بن سليمان ثنا حميد الطويل عن أنس - فذكر الحديث ، وكذا حديث صفوان بن عسال المرادي عند الترمذي (٣٥٣٥) وقال : « حديث حسن صحيح » وكذا صححه ابن حبان (٢/٥٦٢) .

(٢٨١) - منها حديث أبي موسى الأشعري عند البخاري (٦١٧٠) ومسلم (٢٦٤١) وحديث عبد الله ابن مسعود عندهما أيضًا ؛ البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (١٦٥) (٢٦٤٠) ، وحديث أبي ذر عند أبي داود (٥١٢٦) والبخاري في « الأدب المفرد » (٣٥١) وأحمد (٥/١٥٦ ، ١٦٦) وصححه ابن حبان (٢/٥٥٦) وهذا الحديث في عداد المتواتر كما قال المصنف وغيره ، وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٠/٥٦٠) : قوله « **المرء مع من أحب** » قد جمع أبو نعيم طرق هذا الحديث في جزء سماه « كتاب المحبين مع المحبوبين » وبلغ الصحابة فيه نحو العشرين » .

(٢٨٢) - صحيح مسلم ، كتاب : الفتن وأشراط الساعة ، باب : قرب الساعة (١٣٦) (٢٩٥٢) وكذا أخرجه البخاري ، كتاب : الرقاق ، باب : سكرات الموت (٦٥١١) حدثني صدقة أخبرنا عبدة عن هشام ، به .

(٢٨٣) - صحيح مسلم ، كتاب : الفتن وأشراط الساعة ، باب : قرب الساعة (١٣٧) (٢٩٥٣) وكذا أخرجه أحمد في « المسند » (٣/٢٢٨ ، ٢٦٩) من طريق يونس وحسن بن موسى =

[١] - زيادة من : ز .
[٢] - في خ ، ز : « أسنان » .
[٣] - في ز : « فقال » .

سلمة ، عن ثابت ، عن أنس : أن رجلًا سأل رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، عن الساعة ، [وعنده غلام من الأنصار يقال له : محمد][١] ، فقال رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **إن يعش هذا الغلام فعسىٰ أن لا يدركه الهرم حتىٰ تقوم الساعة** » . انفرد به مسلم .

وحدثني حجاج بن الشاعر(٢٨٤) ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، [حدثنا معبد بن هلال العَنَزي][٢] ، عن أنس بن مالك - رضي اللّٰه عنه - : أن رجلًا سأل النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم قال : متىٰ الساعة ؟ فسكت رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم هُنَيْهة ، ثم نظر إلىٰ غلام بين يديه من أزد شنوءة فقال : « **إن عُمِّرَ هذا لم يدركه الهرم حتىٰ تقوم الساعة** » . قال أنس : ذلك الغلام من أترابي .

وقال : حدثنا هارون بن عبد اللّٰه ، حدثنا عفان بن مسلم ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن أنس قال : مر غلام للمغيرة بن شعبة - وكان [من أقراني][٣] - فقال النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتىٰ تقوم الساعة** » [ ][٤] .

ورواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه ، عن عمرو بن عاصم ، عن همام بن يحيىٰ ، عن قتادة ، عن أنس : أن رجلًا من أهل البادية قال : يا رسول اللّٰه ؛ متىٰ الساعة ؟ فذكر الحديث ، وفي آخره : فمر غلام للمغيرة بن شعبة ، وذكره .

وهذا الإِطلاق في هذه الروايات محمول علىٰ التقييد بـ « **ساعتكم** » في حديث عائشة - رضي اللّٰه عنها - .

وقال ابن جريج : أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد اللّٰه يقول : سمعت رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، يقول قبل أن يموت بشهر [ ][٥] : « **تسألوني عن الساعة ، وإنما علمها عند اللّٰه ، وأقسم باللّٰه ما علىٰ ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة تأتي[٦] عليها مائة سنة** » . رواه

= وعفان عن حماد ابن سلمة ، به .

(٢٨٤) - هذا الحديث والذي بعده رواهما مسلم في صحيحه ، كتاب : الفتن وأشراط الساعة ، باب : قرب الساعة (١٣٧ : ١٣٩) (٢٩٥٣) والثاني أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الأدب ، باب : ما جاء في قول الرجل : ويلك ! (٦١٦٧) حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا همام به مطولًا ، وانظر ما تقدم برقم (٢٧٨) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في خ ، ز : « سعيد بن أبي هلال المصري » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « ابن أبي » .
[٤] - في ز ، خ : قال أنس : ذلك الغلام لي .
[٥] - في ز : قال .
[٦] - في ز : « يأتي » .

مسلم(٢٨٥) .

وفي الصحيحين(٢٨٦) عن ابن عمر مثله . قال ابن عمر[١] : وإنما أراد رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم انخرام ذلك القرن .

وقال الإمام أحمد(٢٨٧) : حدثنا هشيم ، أنبأنا العوام ، عن جبلة بن سحيم ، عن مؤثر بن عفازة[٢] ، عن ابن مسعود - رضي اللّٰه عنه - عن النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، قال : « **لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ، قال : فتذاكروا أمر الساعة ، قال : فردوا أمرهم إلىٰ إبراهيم - عليه السلام - فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم[٣] إلىٰ موسىٰ ، فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلىٰ عيسىٰ ، فقال عيسىٰ : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا اللّٰه عز**

(٢٨٥) - صحيح مسلم ، كتاب : فضائل الصحابة ، باب : قوله - صلى اللّٰه عليه وسلم - « **لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم** » (٢١٨) (٢٥٣٨) .

(٢٨٦) - البخاري ، كتاب : العلم ، باب : السمر في العلم (١١٦) ، ومسلم ، كتاب : فضائل الصحابة ، باب : قوله - صلى اللّٰه عليه وسلم - « **لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم** » (٢١٧) (٢٥٣٧) .

(٢٨٧) - « المسند » (٣٧٥/١) (٣٥٥٦) وأخرجه ابن جرير في تفسيره [(٩١/١٧)/ سورة الأنبياء / آية ٩٦] حدثني أحمد بن إبراهيم ، قال : ثنا هشيم بن بشير به ، وكذا رواه من طريق أصبغ بن زيد عن العوام بن حوشب به ، وأخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٦٦٠/٨) وابن ماجه ، كتاب : الفتن ، باب : فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج (٤٠٨١) ، وأبو يعلى في مسنده (٥٢٩٤/٩) والحاكم في «المستدرك» (٣٨٤/٢) (٤٨٨/٤ ، ٥٤٥ - ٥٤٦) من طريق يزيد بن هارون ثنا العوام بن حوشب به موقوفًا على عبد اللّٰه بن مسعود وقال الحاكم : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، فأما مؤثر فليس بمجهول ، قد روى عن عبد اللّٰه بن مسعود والبراء بن عازب ، وروى عنه جماعة من التابعين » وقال البوصيري في « مصباح الزجاجة » (٣/ ٢٦١ ، ٢٦٢) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات ، مؤثر بن عفازة ذكره ابن حبان في « الثقات » - (٤٦٣/٥) - وباقي رجال الإسناد ثقات .... ورواه الحاكم وقال : حديث صحيح الإسناد » .

قلت : ومُؤثر وثقه العجلي أيضًا في ثقاته (رقم ١٦٤٩) وقال ابن حجر في « التقريب » : « مقبول » وصحح إسناده الشيخ شاكر في حاشية « المسند » ومثله حديثه يحتمل التحسين ، ووقف يزيد بن هارون له لا يضره لأن لفظه لا يقال من قبل الرأي والاجتهاد واللّٰه أعلم ، والحديث زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٨٠/٤) إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في « البعث والنشور » .

[١] - في ز : « عمرو » .
[٢] - في خ ، ز : « عفان » .
[٣] - سقط من : ز .

وجل ، وفيما عهد إليَّ ربي – عز وجل – أن الدجال خارج ، قال : ومعي قضيبان ، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه اللَّه – عز وجل – إذا رآني ، حتىٰ إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم ، إن تحتي كافرًا فتعال[١] فاقتله ، قال : فيهلكهم اللَّه عز وجل ، ثم يرجع الناس إلىٰ بلادهم وأوطانهم ، قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون فيطئون بلادهم ، لا يأتون علىٰ شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون علىٰ ماء إلا شربوه ، قال : ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم ، فأدعو اللَّه – عز وجل – عليهم ، فيهلكهم ويميتهم ، حتىٰ تَجْوَىٰ الأرض من نتن ريحهم – أي : تنتن – قال : فينزل اللَّه – عز وجل – المطر ، فيجترف[٢] أجسادهم حتىٰ يقذفهم[٣] في البحر » .

قال الإمام أحمد : قال يزيد بن هارون : « **ثم تنسف الجبال ، وتُمَدُّ الأرض مد الأديم** – ثم رجع إلىٰ حديث هشيم قال : « **ففيما عهد إلي ربي – عز وجل – أن ذلك إذا كان كذلك ، فإن الساعة كالحامل المُتِم ، لا يدري أهلها متىٰ تَفْجَؤُهم بولادها ليلًا أو نهارًا** » .

ورواه ابن ماجة ، عن بندار ، عن يزيد بن هارون ، عن العوام بن حوشب بسنده ، نحوه .

فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة علىٰ التعيين ، وإنما ردوا الأمر إلىٰ عيسىٰ – عليه السلام – فتكلم علىٰ أشراطها ؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذًا لأحكام رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، ويقتل المسيح الدجال ، ويجعل اللَّه هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه ، فأخبر بما أعلمه اللَّه تعالىٰ به .

وقال الإمام أحمد(٢٨٨) : حدثنا يحيىٰ بن أبي بكير ، حدثنا [عبيد اللَّه بن إياد][٤] بن لقيط قال : سمعت أبي يذكر ، عن حذيفة قال : سُئل رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، عن الساعة ، فقال : « **علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ولكن سأخبركم[٥] بمشاريطها**

(٢٨٨) – « المسند » (٣٨٩/٥) وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣١٢/٧) وقال : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » وهو كما قال غير أنهم لم يذكروا إياد بن لقيط في الرواة عن حذيفة ، وقد روى إياد عن بعض الصحابة المتأخرين موتًا مثل البراء بن عازب – توفى سنة اثنتين وسبعين – وغيره ، وحذيفة متقدم موتًا ، فقد توفي في أول خلافة عليٍّ سنة ست وثلاثين واللَّه أعلم . والحديث ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢٧٤/٣) ولم يعزه لغير أحمد .

[١] – في ز : « تعال » . [٢] – في المسند : « فَتَجْرُف » .
[٣] – في ز : « يقذفها » .
[٤] – في ز ، خ : [عبد الله بن زياد] وهو تحريف .
[٥] – في ز : « أخبركم » .

وما يكون بين يديها ، إن بين يديها فتنة وهرجًا » . قالوا : يا رسول الله ، الفتنة قد عرفناها ، فالهَرج[١] ما هو ؟ قال : « **بلسان الحبشة القتل** » . قال : « **ويُلقىٰ بين الناس التناكر ، فلا يكاد[٢] أحد يعرف أحدًا** » . لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة[٣] من هذا الوجه .

وقال وكيع(٢٨٩): حدثنا ابن أبي خالد ، عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لا يزال يذكر من شأن الساعة حتىٰ نزلت ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها** ﴾ الآية .

ورواه النسائي ، من حديث عيسىٰ بن يونس ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، به . وهذا إسناد جيد قوي .

فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم - صلوات الله عليه وسلامه - نبي الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والعاقب ، والمُقَفِّي ، والحاشر الذي تحشر الناس علىٰ قدميه ، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح(٢٩٠) من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما : « **بعثت أنا**

(٢٨٩) - أخرجه ابن جرير في تفسيره [(٤٩/٣٠) سورة النازعات / آية ٤٣] ثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع به ، ورواه النسائي في « التفسير » من الكبرى (١١٦٤٥/٦) من طريق عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبي خالد به ، وقال المصنف على هذا الإسناد « جيد قوي » ، ورواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨٢١٠/٨) ثنا إسحاق بن داود الصواف التستري ، وابن عدي في « الكامل » (١٨٤٨/٥) ثنا علي بن أحمد بن علي بن عمران ، كلاهما (إسحاق وعلي) ثنا محمد بن موسى الحَرَشي - صحف في الموضعين إلى الجرشي - ثنا مروان بن معاوية عن « علي بن أبي الوليد » - تصحف عند الطبراني إلى « علي بن الوليد » - عن إسماعيل بن أبي خالد به ، وذكره الهيثمي في « المجمع (١٣٦/٧) وقال : « رواه الطبراني ، وفيه من لم أعرفه » قلت : وهو يعني بذلك شيخ الطبراني ، فإني لم أجد له ترجمة ،. وباقي رجال إسناد الطبراني كلهم من رجال « التهذيب » ، وللطبراني شيخ يسمى « الحسين بن إسحاق بن إبراهيم التُّسْتَري » ترجم له الذهبي في « السير » (٥٧/١٤) وقال : « أكثر عنه أبو القاسم الطبراني » فالله أعلم ، وقد زاد نسبة الحديث السيوطي في « الدر المنثور » (٥١٥/٦) إلى عبد بن حميد وابن مردويه ولم يعزه لابن عدي !! وللحديث شاهد من حديث عائشة عند البزار (رقم ٢٢٧٩/ كشف الأستار) وابن جرير (٤٩/٣٠) وصححه الحاكم (٥١٣/٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، لكن صحح أبو زرعة إرساله - كما في « العلل » لابن أبي حاتم (١٦٩٣/٢) .

(٢٩٠) - أخرجهما البخاري في صحيحه (٦٥٠٤ ، ٤٩٣٦) ومسلم (١٣٣ : ١٣٥) (٢٩٥١) ، (١٣٢) (٢٩٥٠) على الترتيب .

[١] - في ز : « الهَرَج » . [٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - سقط من : خ ، ز .

والساعة كهاتين » ، وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها ، ومع هذا كله قد أمره الله تعالى أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها فقال : ﴿ **قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾.

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

أمره الله تعالىٰ أن يفوّض الأمور إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب ، ولا اطلاع له علىٰ شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحدًا [إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا]**[١] ﴾ .

وقوله : ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** ﴾ ، قال عبد الرزاق(٢٩١) ، عن الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** ﴾ قال : لو كنت أعلم متىٰ أموت لعملت عملًا صالحًا .

وكذا[٢] روىٰ ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وقال مثله ابن جريج .

وفيه نظر ؛ لأن عمل رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم كان ديمة ، وفي رواية : كان إذا عمل عملًا أثبته(٢٩٢) ، فجميع عمله كان علىٰ منوال واحد ، كأنه ينظر إلىٰ الله - عز وجل - في جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلىٰ الاستعداد لذلك ، والله أعلم .

والأحسن في هذا ما رواه الضحاك ، عن ابن عباس ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** ﴾ أي : من المال ، وفي رواية : لعلمت إذا اشتريت شيئًا ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئًا إلا ربحت فيه ، [وما مسني السوء ، قال][٣] : ولا يصيبني الفقر .

---

(٢٩١) - غير موجود في تفسيره المطبوع ومن طريقه أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/٨٦٢٥) .

(٢٩٢) - أخرج الرواية الأولى البخاري ، كتاب : الصوم ، باب : هل يَخُصُّ شيئًا من الأيام (١٩٨٧) ومسلم ، كتاب : صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ... (٢١٧) (٧٨٣) من حديث عائشة ، والرواية الثانية أخرجها أبو داود (١٣٦٨) وأحمد (٦/٤٠) بإسناد صحيح ، وهي عند مسلم (٢١٥) (٧٨٢) بلفظ آخر .

---

[١] - من : ز ، وفي ت : « الآية » . [٢] - في ز : « كذلك » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

وقال ابن جرير[١] : وقال آخرون : معنىٰ ذلك : لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة[٢] من المخصبة ، ولعرفتُ[٣] الغلاء من الرخص ، فاستعددت له من الرخص .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ **وما مسني السوء** ﴾ قال : لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته[٤] .

ثم أخبر أنه إنما هو ﴿ **نذير وبشير** ﴾ أي : نذيرا من العذاب ، وبشيرا للمؤمنين بالجنات كما قال تعالىٰ : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قومًا لدًا** ﴾.

۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾

ينبه تعالىٰ علىٰ أنه خلق جميع الناس من آدم - عليه السلام - وأنه خلق منه زوجه حواء ، ثم انتشر الناس[٥] منهما ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها** ﴾ الآية .

وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ **وجعل منها زوجها ليسكن إليها** ﴾ أي : ليألفها ويسكن بها ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة** ﴾ ، فلا ألفة بين روحين[٦] أعظم مما بين الزوجين ؛ ولهذا ذكر تعالىٰ أن الساحر ربما توصل بكيده إلىٰ التفرقة بين المرء وزوجه .

﴿ **فلما تغشاها** ﴾ أي : وطئها ﴿ **حملت حملًا خفيفًا** ﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألمًا ، إنما هي النطفة ثم العَلَقة ، ثم المضغة .

وقوله : ﴿ **فمرت به** ﴾ قال مجاهد : استمرت بحمله . وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه .

وقال ميمون بن مهران ، عن أبيه : استخفته .

---

[١] - ابن جرير في تفسيره (١٣/٣٠٢) .
[٢] - في ز : « المجذبة » .
[٣] - في ز : « لوقت » .
[٤] - في خ : « وأتقيه » .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - في ز : « زوجين » .

وقال أيوب : سألت الحسن عن قوله : ﴿ **فمرت به** ﴾ قال : لو كنت رجلًا عربيًا لعرفت ما هي ؟ ، إنما هي فاستمرت به .

وقال قتادة : ﴿ **فمرت به** ﴾ و[١]استبان حملها .

وقال ابن جرير[٢] : استمرت بالماء : قامت به وقعدت .

وقال العوفي عن ابن عباس : استمرت به ، فشكّت ؛ أحملت أم لا ؟

﴿ **فلما أثقلت** ﴾ أي : صارت ذات ثقل بحملها .

وقال السدي : كبر الولد في بطنها .

﴿ **دعوا اللَّه ربهما لئن آتيتنا صالحاً** ﴾ أي[٣] : بَشَرًا سويًا ، كما قال الضحاك ، عن ابن عباس : أشفقا أن يكون بهيمة .

وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك : أشفقا أن لا يكون إنسانًا .

وقال الحسن البصري : لئن آتيتنا غلامًا .

﴿ **لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالىٰ اللَّه عما يشركون** ﴾ ذكر المفسرون هاهنا آثارًا وأحاديث[٤] سأوردها وأبين ما فيها ، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك إن شاء اللَّه ، وبه الثقة .

قال الإمام أحمد في مسنده(٢٩٣) : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ، عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « **لما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد - فقال : سميه عبد الحارث ؛ فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره** » .

---

(٢٩٣) - « المسند » (٥/١١) وأخرجه الترمذي ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الأعراف (٣٠٧٧) ، والبزار في مسنده (الكتانية/٢٥٤) ، والروياني في مسنده (٢/٨١٦) وابن جرير في « التاريخ » (١/١٤٨) وفي تفسيره (١٣/١٥٥١٣) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/٨٦٣٧ ، ٨٦٤١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٧/٦٨٩٥) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/١٧٠٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٥٤٥) ، وأبو القاسم عبد الملك بن محمد بن بشران =

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - ابن جرير في تفسيره (١٣/٣٠٤) .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « حديثًا » .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن محمد بن بشار ، [ ][١] بندار ، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به .

ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى ، عن عبد الصمد به . وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم [عن قتادة][٢] ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه .

ورواه الحاكم في مستدركه ، من حديث عبد الصمد مرفوعًا ، ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره ، عن أبي زرعة الرازي ، عن هلال بن فياض ، عن عمر بن إبراهيم به مرفوعًا .

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره ، من حديث شاذ بن فياض ، عن عمر بن إبراهيم به مرفوعًا .

قلت : و« **شاذ** » هو : هلال ، وشاذ لقبه ، والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :

(أحدها) أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري[٣] ، وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم

= في « أماليه » (٢/١٥٨) - كما في « الضعيفة » للألباني (١/رقم ٣٤٢) - وابن مردويه - كما قال المصنف هنا ، وعزاه له السيوطي أيضًا في « الدر المنثور » (٣/٢٧٧) - كلهم من طريق عمر بن إبراهيم عن قتادة ، به وقال الترمذي عقبه : « حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث عُمر بن إبراهيم عن قتادة . ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ، وعمر بن إبراهيم شيخ بصري » قال البزار : « ولا نعلم هذا الحديث رواه أحد إلا سمرة ، ولا نعلم رواه عن قتادة غير عمر ابن إبراهيم » وقال ابن عدي : « وهذا لا أعلم يرويه عن قتادة غير عمر بن إبراهيم ... وحديثه عن قتادة خاصة مضطرب » وقال ابن حبان في « المجروحين » (٢/٨٩) : « كان ممن ينفرد عن قتادة بما لا يشبه حديثه فلا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد ، فأما فيما وافق الثقات فإن اعتبر به معتبر لم أر بذلك بأسًا » . ومع هذا فقد حسنه الترمذي وصحح إسناده الحاكم ، ووافقه الذهبي في « تلخيصه » مع أنه قال في « الميزان » (٤/ت ٦٠٤٢) عقب هذا الحديث ، « هو حديث منكرٌ كما ترى » !! وللحديث علل أخرى انظر كلام المصنف أعلاه .

(٢٩٤) - ابن جرير في تفسيره (١٣/١٥٥١٤ ، ١٥٥١٥) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في : خ، ز « عن ».
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز : « المصري » .

الرازي : لا يحتج به . ولكن رواه ابن مردويه[١] من حديث المعتمر ، عن أبيه ، عن الحسن ، عن سمرة مرفوعًا . فالله أعلم .

(الثاني) أنه قد روي من قول سمرة نفسه ، ليس مرفوعًا ، كما قال ابن جرير(٢٩٤) : حدثنا ابن عبد الأعلىٰ ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه ، و[٢]حدثنا [ابن علية][٣] ، عن سليمان التيمي ، عن أبي العلاء بن الشخير ، عن سمرة بن جندب قال : سمىٰ آدم ابنه عبد[٤] الحارث .

(الثالث) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا ، لما عدل عنه .

قال ابن جرير(٢٩٥) : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا سهل بن يوسف ، عن عمرو ، عن الحسن : ﴿ **جعلا له شركاء فيما آتاهما** ﴾ قال : كان هذا في بعض أهل الملل ، ولم يكن بآدم .

وحدثنا محمد بن عبد الأعلىٰ ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، قال : قال الحسن : عني بها ذرية آدم ، ومن أشرك منهم بعده ، يعني : ﴿ **جعلا له شركاء فيما آتاهما** ﴾

وحدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارىٰ ، رزقهم اللّٰه أولادًا فهوّدوا ونصروا .

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي اللّٰه عنه ، أنه فسر الآية بذلك ، وهو من أحسن التفاسير ، وأولىٰ ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، لما عدل عنه[٥] هو ولا غيره ، لا سيما مع تقواه للّٰه وورعه . فهذا يدلك علىٰ أنه موقوف علىٰ الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم ؛ مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما ، كما سيأتي بيانه إن شاء اللّٰه ، إلا أننا[٦] برئنا من عهدة المرفوع ، واللّٰه أعلم .

(٢٩٥) - ابن جرير في تفسيره (١٣/١٥٥٢٦ ، ١٥٥٢٧ ، ١٥٥٢٨) .

[١] - فيه عنعنة الحسن البصري ، وفي سماعه من سمرة لغير حديث العقيقة خلاف مشهور ، بالإضافة إلى أننا لا نعرف حال من دون المعتمر ، وما أظنه إلا من لا تقوم به حجة ولا اعتبار ، لا سيما والحديث محفوظ بإسنادٍ آخر عن المعتمر موقوفاً ، ويأتي قريباً .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « بكر بن عبد اللّٰه » ، والذي يقول هنا [وحدثنا ابن علية] هو محمد بن عبد الأعلى شيخ ابن جرير ، فابن علية متابع للمعتمر بن سليمان على أبيه .

[٤] - سقط من : ز .

[٥] - سقط من : ز .

[٦] - في ز : « أنما » .

فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لآدم - عليه السلام - أولادًا فيعبّدهم لله ، ويسميهم[١] : عبد الله ، وعبيد الله ، ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت ، [فأتاها إبليس وآدمَ][٢] فقال : إنكما لو تُسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش[٣]، قال: فولدت له رجلًا فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله يقول : ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **جعلا له شركاء فيما آتاهما** ﴾ إلىٰ آخر الآية .

وقال العوفي عن ابن عباس : قوله في آدم : ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾ إلىٰ قوله ﴿ **فمرت به** ﴾ شكّت : حملت[٤] أم لا ؟ ﴿ **فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحًا لنكونن من الشاكرين** ﴾ فأتاهما الشيطان ، فقال : هل تدريان ما يولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون ؟ أبهيمة يكون ة[٥] أم لا ؟ وزين لهما الباطل ، إنه غوي مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا ، فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًّا ، ومات كما مات الأولان[٦] فسميا ولدهما عبد الحارث ؛ فذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ **فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء فيما آتاهما** ﴾ الآية .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن شريك ، عن خصيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء فيما آتاهما** ﴾ قال : قال الله تعالىٰ : ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها** ﴾ آدم ، ﴿ **حملت** ﴾ آتاهما إبليس لعنه الله ، فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة ؛ لتطيعانّي[٧] أو لأجعلن له قرني أيل[٨] ، فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ولأفعلن ، يخوفهما ، فسمياه عبد الحارث ، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا ، ثم حملت ، [يعني الثانية ، فأتاهما أيضًا فقال : أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت ، لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما . فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتًا ، ثم][٩] حملت الثالثة ، فأتاهما أيضًا فذكر لهما ، فأدركهما حب الولد ، فسمياه عبد الحارث ؛ فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **جعلا له شركاء فيما آتاهما** ﴾ . رواه ابن أبي حاتم(٢٩٦) .

---

(٢٩٦) - ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٥٤/٥) وشريك وخصيف ضعيفان .

---

[١] - في ز : « يسميه » .
[٢] - في ت : « فأتاها إبليس » .
[٣] - في ز : « فعاش » .
[٤] - في ز : « أحبلت » .
[٥] - زيادة من الطبري .
[٦] - في ز : « الأول » .
[٧] - في ز : « لتطيعني » .
[٨] - في خ ، ز : « أيل » والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم (٨٦٥٤/٥) .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ، ز .

وقد تلقىٰ هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه ؛ كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة . ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف ، وجماعة من الخلف ، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة ، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب ؛ فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب ، كما رواه ابن أبي حاتم(٢٩٧) :

حدّثنا أبي ، حدثنا أبو الجماهر ، حدثنا سعيد ، يعني ابن بشير ، عن عقبة ، عن قتادة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب قال : لما حملت حواء أتاها الشيطان ؛ [فقال لها][١] : أتطيعيني ويسلم لك ولدك ؟ سميه عبد الحارث ، فلم تفعل ، فولدت فمات ، ثم حملت ، فقال لها مثل ذلك ، فلم تفعل ، ثم حملت الثالثة ، فجاءها ، فقال : إن تطيعيني يسلم ؛ وإلا فإنه يكون بهيمة ، فهيبهما ؛ فأطاعا .

وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب ، وقد صح الحديث عن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، أنه قال : « **إذا حدّثكم أهل الكتاب ؛ فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم** »(٢٩٨) .

ثم أخبارهم علىٰ ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل علىٰ خلافه من الكتاب والسنة أيضًا ، ومنها ما هو مسكوت عنه ، فهو المأذون في روايته ، بقوله - عليه السلام - : « **حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج** »(٢٩٩) . وهو الذي لا يصدق ولا يكذب ، لقوله : « **فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم** » .

---

(٢٩٧) - ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/٨٦٥٣) .

(٢٩٨) - أخرجه أحمد (٤/١٣٦) وأبو داود ، كتاب : العلم ، باب : رواية حديث أهل الكتاب (٣٦٤٤) وغيرهما من حديث أبي نملة الأنصاري وصححه ابن حبان (١/رقم ١١٠/ موارد) وإسناده جيد ، وفي الباب عن أبي هريرة عند البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير ، سورة البقرة ، باب : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا** ﴾ (٤٤٨٥) مرفوعًا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « **لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا** ﴿ **آمنا بالله وما أنزل ...** ﴾ الآية . وقد تقدم بإسناده عند المصنف [آية ١٣٦/ سورة البقرة] .

(٢٩٩) - أخرجه البخاري ، كتاب : الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١) ، والترمذي ، كتاب : العلم ، باب : ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل (٢٦٦٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخرجه أحمد في « المسند » (٣/٤٦) من حديث أبي سعيد الخدري مطولًا وحديث أبي سعيد عند مسلم (٧٢) (٣٠٠٤) والنسائي في « الكبرى » (٥/ ٨٠٠٨) مختصرًا وليس فيه اللفظ المقصود هنا .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث ؛ فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي ؛ فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلىٰ مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله: ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ ثم قال : [فذكر آدم وحواء أولًا كالتوطئة لما بعدهم من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلىٰ الجنس ، كقوله : ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ الآية . ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمىٰ بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلىٰ جنسها ، ولهذا نظائر في القرآن ، والله أعلم][١] .

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ
أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ
أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ
يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ
ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا
يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

هذا إنكار من الله علىٰ المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان ، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة ، لا تملك شيئًا من الأمر ولا تضر ولا تنفع ، [][٢] ولا تنتصر لعابديها ، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر ، و[٣]عابدوها أكمل منها بسمعهم

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٢] - ما بين المعكوفتين في خ : ولا تبصر . [٣] - سقط من : ز .

وبصرهم وبطشهم ؛ ولهذا قال : ﴿ **أيشركون ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون** ﴾ أي : أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ، ولا يستطيع ذلك ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون**[١] **من دون اللَّه لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا اللَّه حق قدره إن اللَّه لقوي عزيز** ﴾ أخبر تعالىٰ [أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم][٢] ما استطاعوا خلق ذبابة ، بل لو سلبتهم[٣] الذبابة شيئًا من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا [استنقاذ ذلك][٤] منها ، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر ؟ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون** ﴾ أي : بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل : ﴿ **أتعبدون ما تنحتون [والله خلقكم وما تعملون]**[٥] ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ولا يستطيعون لهم نصرًا** ﴾ أي : لعابديهم ، ﴿ **ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ يعني : ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء ، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ، ويهينها غاية الإهانة ، كما أخبر تعالىٰ عنه في قوله : ﴿ **فراغ عليهم ضربًا باليمين** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **فجعلهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون** ﴾ وكما كان معاذ ابن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل - رضي اللَّه عنهما - وكانا شابين قد أسلما ، لما قدم رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، المدينة فكانا يعدوان في الليل علىٰ أصنام المشركين ، يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبًا للأرامل ؛ ليعتبر قومهما بذلك ، ويرتئوا لأنفسهم . فكان لعمرو بن الجموح - وكان سيدًا في قومه - [كان له][٦] صنم يعبده ويطيبه ، فكانا يجيئان في الليل ، فينكسانه علىٰ رأسه ، ويلطخانه بالعذرة ، فيجيء عمرو بن الجموح فيرىٰ ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفًا ويقول له : انتصر . ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلىٰ صنيعه أيضًا ، حتىٰ أخذاه مرة ، [فقرنا معه جرو][٧] كلب ميت ، ودلياه في حبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأىٰ ذلك ، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل ، وقال :

تالله لو كنت إلها مستدن لم تَكُ والكلبُ جميعًا في قرن(٣٠٠)[٨]

---

(٣٠٠) - أخرج هذه القصة ابن إسحاق في « المغازي » - كما في سيرة ابن هشام =

---

[١] - في ز : « تعبدون » .
[٢] - في ز : « أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها ».[٣] - في ز : « استلبتهم » .
[٤] - ما بين المعكوفتين في ت : « إنقاذه » . [٥] - في ت : « الآية » .
[٦] - ما بين المعكوفتين زيادة من : ز . [٧] - ما بين المعكوفتين في ت : « فقرناه مع » .
[٨] - هذا البيت في جميع مصادر التخريج رسمه هكذا :

وَاللَّه لَوْ كُنْتَ إلهًا لم تَكُنْ أنت وكَلْبٌ وسْطَ بئرٍ في قَرَنْ

وبعده

ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدًا رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل جنة الفردوس مأواه .

وقوله : ﴿ **وإن تدعوهم إلى الهدىٰ لا يتبعوكم [سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون]**[١] ﴾ . يعني : أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها . كما قال إبراهيم : ﴿ **يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا** ﴾ ثم ذكر تعالىٰ أنها عبيد مثل عابديها ، أي مخلوقات مثلهم ، بل الأناسي[٢] أكمل منها ؛ لأنها تسمع وتبصر وتبطش ، وتلك لا تفعل شيئًا من ذلك .

وقوله : ﴿ **قل ادعوا شركاءكم ثم كيدوني فلا تنظرون** ﴾ . أي : استنصروا بها علي ، فلا تؤخروني طرفة عين ، واجهدوا جهدكم ، ﴿ **إن وليي اللَّه الذي نزل الكتاب وهو يتولَّى الصالحين** ﴾ أي : اللَّه حسبي وكافيَّ[٣] ، وهو نصيري ، وعليه متكلي ، وإليه ألجأ ، وهو وليي في الدنيا والآخرة ، وهو ولي كل صالح بعدي ، وهذا كما قال هود - عليه السلام - لما[٤] قال له قومه : ﴿ **إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد اللَّه واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون * إني توكلت علىٰ اللَّه ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي علىٰ صراط مستقيم** ﴾ . وكقول الخليل : ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا ربَّ العالمين * الذي خلقني فهو يهدين** ﴾ الآيات . وكقوله لأبيه وقومه : ﴿ **إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **والذين تدعون[٥] من دونه** ﴾ إلىٰ آخر الآية ، مؤكد[٦] لما تقدم ، إلا أنه بصيغة الخطاب ، وذاك[٧] بصيغة الغيبة ، ولهذا قال : ﴿ **لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ .

= (٢/٤٧٤،٤٧٥) و« الإصابة » لابن حجر (٧/٩٤ ، ٩٥) - ومن طريق ابن إسحاق أخرجه ابن الأثير في « أسد الغابة » (٤/٢٠٧ ، ٢٠٨) - قال ابن إسحاق : وكان عمرو بن الجموح سيدًا من سادة بني سلمة .... فذكر القصة هكذا معضلًا .

أفٌ لِمَلْقَاكَ إلهًا مُستَدنْ الآنَ فتَّشنَاكَ عن سَوْءِ الغَبَنْ

[١] - في ت : « الآية » .
[٢] - في ت : « الإناس » .
[٣] - في ز : « كافي » .
[٤] - في ز : « كما » .
[٥] - في ز : « يدعون » .
[٦] - في ز : « مؤكدًا » .
[٧] - في ز : « ذلك » .

وقوله : ﴿ وإن تدعوهم إلىٰ الهدىٰ لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ كقوله تعالىٰ : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم [ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير][١] ﴾ .

وقوله : ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ . إنما قال : ﴿ ينظرون إليك ﴾ أي : يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد ، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل ؛ لأنها علىٰ صور مصورة كالإنسان ، وتراهم ينظرون إليك فعبر عنها بضمير من يعقل .

وقال السدي : المراد بهذا : المشركون ، وروي عن مجاهد نحوه . والأول أولىٰ . وهو اختيار ابن جرير ، وقاله قتادة .

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : قوله : ﴿ خذ العفو ﴾ يعني : خذ ما عفي[٢] لك من أموالهم ، وما أتوك به من شيء فخذه . وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها ، وما انتهت إليه الصدقات . قاله السدي .

وقال الضحاك : عن ابن عباس : ﴿ خذ العفو ﴾ أنفق الفضل .

وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس : ﴿ خذ العفو ﴾ قال : الفضل .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ خذ العفو ﴾ أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ، ثم أمره بالغلظة[٣] عليهم واختار هذا القول ابن جرير .

وقال غير واحد . عن مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿ خذ العفو ﴾ قال : من أخلاق الناس وأعمالهم [من غير تجسس][٤] .

وقال هشام بن عروة ، عن أبيه : أمر الله رسوله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس . وفي رواية قال : خذ ما عفي[٥] لك من أخلاقهم .

---

[١] - ما بين المعكوفتين من : ز ، وفي ت : « الآية » .
[٢] - في ز : « عفا » . [٣] - في ز : « بالغلظ » .
[٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « بغير تجسيس » .
[٥] - في ز : « عفا » .

وفي صحيح البخاري[٣٠١] ، عن هشام ، عن أبيه عروة ، عن أخيه عبد الله بن الزبير ، قال : إنما أنزل ﴿ **خذ العفو** ﴾ من أخلاق الناس ، وفي رواية[٣٠٢] لغيره : عن هشام ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، وفي رواية[٣٠٣] : عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة أنهما قالا مثل ذلك . والله أعلم .

---

(٣٠١) - صحيح البخاري ، كتاب : التفسير ، سورة الأعراف ، باب : ﴿ **خُذِ العفو وأمربالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (٤٦٤٣) حدثني يحيى حدثنا وكيع عن هشام به ولفظه ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف** ﴾ « ما أنزل اللهُ إلا في أخلاق الناس » ، وأخرجه أيضًا (٤٦٤٤) وقال عبد الله بن بَرّاد : حدثنا أبو أسامة قال هشام به ، ولفظه : « أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يأخذ العفو من أخلاق الناس » ، وأخرجه أبو داود ، كتاب : الأدب ، باب : في التجاوز في الأمر (٤٧٨٧) - ومن طريقه البيهقي في « دلائل النبوة » (٣١٠/١) - حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، ثنا محمد بن عبد الرحمن الطفاوي عن هشام بن عروة به ، بنحو اللفظ الثاني ، والنسائي في « التفسير » من « الكبرى » (١١١٩٥/٦) - وعنه أبو جعفر النحاس في « الناسخ والمنسوخ » (ص ٤٤٨) - أنا هارون بن إسحاق ، نا عَبْدةُ عن هشام به ولفظه « إنما أنزل الله تبارك وتعالى ﴿ **خذ العفو** ﴾ من أخلاق الناس » وأخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥٥٤١/١٣) من طريق سفيان بن وكيع ثنا عبدة بن سليمان به - كذا ، وعزاه الحافظ في « الفتح » (٣٠٥/٨) إلى ابن جرير من طريق ابن وكيع عن أبيه - ثنا عبدة بن سليمان ، به .

وأخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » ، كتاب : الزهد ، باب : كلام ابن الزبير - رضي الله عنه - (٢٠٥/٨) ثنا عبد الله بن نمير قال : أخبرنا هشام بن عروة به - وقد عزاه له الحافظ في « الفتح » من طريق وكيع عن هشام ولم أجده في مظانه من « المصنف » من هذه الطريق والله أعلم . وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٨٠/٣) إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم - والذي فيه بإسناد آخر يأتي بعد هذا - والطبراني وأبي الشيخ ، وابن مردويه . وانظر ما بعده .

(٣٠٢) - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٧٥/٥) ، والحاكم في « المستدرك » (١٢٤/١) من طريق عمرو بن محمد الناقد ، والطبراني في « الأوسط » (١٢١٦/٢) من طريق عثمان بن حفص التُّومَني كلاهما (عمرو وعثمان) عن محمد بن عبد الرحمن الطُّفاوي عن هشام بن عروة به وقال الطبراني : « لم يرو هذا الحديث عن هشام ، عن أبيه ، عن ابن عمر إلا الطُّفاوي » كذا قال وتابعه عبيد الله بن عمر عن هشام به - ذكره الحافظ في « الفتح » (٣٠٥/٨) وعزاه إلى البزار والطبراني ثم قال : « وهي شاذة ، وكذا رواية حماد بن سلمة عن هشام عن أبيه عن عائشة عند ابن مردويه » ومع هذا فقد صححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي ، وأجاد الهيثمي حينما قال في « المجمع » (٢٨/٧) : « ...رجاله ثقات » إذ إن هذا لا يعني تصحيحه لاسيما وقد حكم عليه الحافظ ابن حجر بالشذوذ وإن كان في كلام الهيثمي السابق بعض التجوز ، إذ إن محمد بن عبد الرحمن الطفاوي متكلم فيه ، ثم إنه قد رواه الطفاوي على الجادة كما تقدم في الحديث السابق ، وزاد السيوطي نسبة حديث ابن عمر إلى أبي الشيخ وابن مردويه ، وبالله التوفيق .

(٣٠٣) - عزاه الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٣٠٥/٨) وكذا السيوطي في « الدر المنثور » =

وفي رواية سعيد بن منصور(٣٠٤) ، عن أبي معاوية ، عن هشام ، عن وهب بن كيسان ، عن ابن[١] الزبير ﴿ خذ العفو ﴾ قال : من أخلاق الناس ؛ والله لآخذنه منهم ما صحبتهم .

وهذا أشهر الأقوال[٢] ، ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم جميعًا(٣٠٥) : حدثنا يونس، حدثنا سفيان - هو ابن عيينة - عن أُميّ قال: لما أنزل الله - عز وجل - على نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك** » .

وقد رواه ابن أبي حاتم أيضًا (٣٠٦)، عن أبي يزيد القراطيسي كتابةً ، عن أصبغ بن الفرج ، عن سفيان ، عن[٣] أُميّ ، عن الشعبي نحوه ، وهذا مرسل على كل حال . وقد روي له شواهد[٤]

= (٢٨١/٣) إلى ابن مردويه وأخرجه تمام في فوائده (١٣٤١/٤) من طريق الزهري قال : سمعت عروة ابن الزبير يقول : سمعت عائشة تقول .... الحديث ، وفي إسناده إلى الزهري يحيى بن كثير البصري وهو ضعيف ، وفي الإسناد جهالة أيضًا ، وقد حكم الحافظ على هذه الرواية بالشذوذ ، فانظر السابق .

(٣٠٤) - وعزاه إلى سعيد بن منصور الحافظ بن حجر في «الفتح» (٣٠٥/٨) والسيوطي في «الدر المنثو » (٢٨٠/٣)، وأخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥٥٤٠/١٣) ثنا سفيان بن وكيع ثنا أبو معاوية به، قال الحافظ ابن حجر «وأما رواية أبي معاوية فشاذة أيضًا مع احتمال أن يكون لهشام فيه شيخان ...».

(٣٠٥) - أخرجه ابن جرير (١٥٥٤٨/١٣) وابن أبي حاتم (٨٦٨٢/٥) وهذا إسناد معضل ، وأُمَيّ هو ابن ربيعة المُرادي الصَّيْرفي وثقه ابن عيينة وابن معين وابن سعد وأبو داود وغيرهم .

وأخرجه ابن جرير (١٥٥٤٧/١٣) من طريق حسين الجعفي عن سفيان بن عيينة عن رجلٍ قد سماه قال ..... فذكره بنحو هذا ، وانظر ما بعده .

(٣٠٦) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٨٦٨٣/٥) وهذا مرسلٌ ، وقد ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢٨٠/٣) وزاد نسبته إلى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ - والذي في تفسير ابن جرير الطريق السابق دون هذا .

---

[١] - في خ ، ز : « أبي الزبير » وهو خطأ والمثبت من مصادر التخريج .

[٢] - وقال النحاس في « الناسخ والمنسوخ » (ص ٤٤٨) : « وهذا أولى ما قيل في الآية لصحة إسناده ، وأنه عن صحابي يُخْبِرُ بنزول الآية ، وإذا جاء الشيء هذا المجيء لم يسع أحدًا مخالفته ، والمعنى عليه ﴿ **خذ العفو** ﴾ أي السهل من أخلاق الناس ، ولاتغلظ عليهم ، ولا تعنف بهم ، وكذا كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم » .

[٣] - في ز : « بن » . [٤] - في خ ، ز : « شاهد » .

من وجوه أخر ، وقد روي مرفوعًا عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة ، عن النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم . أسندهما ابن مردويه(٣٠٧) .

وقال الإمام أحمد(٣٠٨) : حدثنا أبو المغيرة ، [ ][١] ، حدثنا معان[٢] بن رفاعة ، حدثني علي ابن يزيد ، عن القاسم عن أبي أمامة الباهلي ، عن عقبة بن عامر - رضي اللّٰه عنه - قال : لقيت رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم فابتدأته فأخذت بيده ، فقلت : يا رسول اللّٰه أخبرني بفواضل الأعمال فقال : « **يا عقبة ، صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، وأعرض عمن ظلمك** » . ورویٰ الترمذي نحوه ، من طريق عبيد اللّٰه [ ][٣] بن زَحْر ،عن علي بن يزيد به . وقال : حسن .

قلت : ولكن علي بن يزيد ، وشيخه القاسم أبو عبد الرحمن فيهما ضعف .

---

(٣٠٧) - وذكرهما السيوطي في « الدر المنثور » (٣/٢٨٠ ، ٢٨١) وعزاهما إلى ابن مردويه فحسب .

(٣٠٨) - « المسند » (٤/١٤٨) مطولًا وسيذكره المصنف بطوله عند [تفسيره سورة الإخلاص] وأخرجه الطبراني في « الكبير » (١٧/رقم ٧٣٩) وفي « مكارم الأخلاق » له (رقم ٥٦) من طريق أبي المغيرة به ، ومُعان بن رفاعة وعلي بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن فيهم ضَعْفٌ ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٨/١٩١) وقال : « رواه أحمد والطبراني وأحد إسنادى أحمد رجاله ثقات » والإسناد الثاني الذي أشار إليه الهيثمي أخرجه أحمد (٤/١٥٨) من طريق حسين بن محمد ، وهناد في « الزهد » (٤٦٠، ١٠١٤ ، ١١٢٦) والبيهقي في « الشعب » (٦/٨٠٧٩) من طريق عبد الوهاب - وهو الحوطي - وثلاثتهم (حسين وهناد وعبد الوهاب) ثنا إسماعيل بن عياش نا أسيد بن عبد الرحمن الخثعمي عن فروة بن مجالد اللخمي عن عقبة بن عامر به مطولًا ولفظ هناد مختصر ، قال الألباني في « الصحيحة » (٢/رقم ٨٩١/ص ٥٨٣) : « وهذا إسناد صحيح ، رجاله كلهم ثقات معروفون ، غير فروة بن مجاهد - كذا وهو ابن مجالد - وقد ذكره ابن حبان في « الثقات » (٧/٣٢١) - وروى عنه جماعة ، وقال البخاري - « التاريخ الكبير » (٧/١٢٧) كانوا لا يشكون أنه من الأبدال » .

ورواية الترمذي التي أشار إليها المصنف ، أخرجها في « الجامع » كتاب : الزهد ، باب : ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٦) بإسناده عن عقبة بن عامر قال : قلت : يا رسول اللّٰه ، ما النجاة ؟ قال : « **أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك** » وهذا اللفظ جزء من الحديث المطول الذي يذكره المصنف عند تفسير سورة الإخلاص .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ت : [حدثنا شعبة] .
[٢] - في خ ، ز ، والمسند « معاذ » والمثبت من مصادر التخريج - وراجع ترجمته في « التهذيب » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ت : « عن علي بن زحر » .

وقال البخاري(٣٠٩) : قوله : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ العرف المعروف ؛ حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني عبيد الله بن عبد الله [بن عتبة][١] ، أن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة ، فنزل[٢] علىٰ ابن أخيه الحر بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو[٣] شبانًا ؛ فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي ، لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه ، قال : سأستأذن لك عليه ؛ قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة ، فأذن له عمر ، [فلما دخل][٤] عليه ، قال : هِيْ يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل . فغضب عمر حتىٰ هم أن يوقع به ؛ فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ،[إن الله تعالىٰ قال][٥] لنبيه صلىٰ الله عليه وسلم : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ ، وإن هذا من الجاهلين . والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقّافًا عند كتاب الله - عز وجل - . انفرد بإخراجه البخاري .

وقال ابن أبي حاتم(٣١٠) : حدثنا يونس بن عبد الأعلىٰ قراءةً ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني مالك بن أنس ، عن عبد الله بن نافع ، أن سالم بن عبد الله بن عمر مر علىٰ عير لأهل الشام ، وفيها جرس ، فقال : إن[٦] هذا منهي[٧] عنه ؛ فقالوا نحن أعلم بهذا منك ، إنما يكره الجلجل الكبير ، فأما مثل هذا فلا بأس به . فسكت سالم وقال : ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ .

وقول البخاري العرف المعروف نص عليه عروة بن الزبير والسدي وقتادة وابن جرير وغير واحد ، وحكىٰ ابن جرير أنه يقال: أوليته [معروفًا][٨] وعارفًا وعارفة، كل ذلك بمعنىٰ المعروف . قال : وقد أمر الله نبيه ، صلىٰ الله عليه وسلم ، أن يأمر عباده بالمعروف ، ويدخل في ذلك جميع الطاعات ، وبالإعراض عن الجاهلين وذلك وإن كان أمرًا لنبيه ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فإنه تأديب

---

(٣٠٩) - صحيح البخاري ، كتاب : التفسير ، باب : ﴿ **خُذِ العفو وأْمُر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (٤٦٤٢)، كتاب : الاعتصام ، باب : الاقتداء بسنن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ... (٧٢٨٦).

(٣١٠) - « التفسير » لابن أبي حاتم (٨٦٨٨/٥) ولم يعزه السيوطي في « الدر المنثور » (٢٨١/٣) لغير ابن أبي حاتم .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٢] - في ز : « ونزل » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - ما بين المعكوفتين في ت : « فدخل » .
[٥] - ما بين المعكوفتين في ز : « قال الله » .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - في ز : « منها » .
[٨] - في تفسير ابن جرير (٣٣١/١٣) [عُرْفًا] .

لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدىٰ عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق اللّٰه ، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته ، وهو للمسلمين حرب .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة في قوله : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ قال : هذه أخلاق أمر اللّٰه بها نبيه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، ودله عليها وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنىٰ فسبكه في بيتين فيهما[١] جناس فقال :

خُذِ العفوَ وَأْمُرْ بعُرْفٍ[٢] كما أُمِرْتَ وَأَعْرِض عن الجاهلينْ
وَلِنْ في الكلام لكل الأنام فمستحسنٌ مِن ذَوِي الجاه لين

وقال بعض العلماء : الناس رجلان : فرجل محسن ، فخذ ما عفا لك من إحسانه ، ولا تكلفه فوق طاقته ، ولا ما يحرجه . وإما مسيء ، فمره بالمعروف ، فإن تمادىٰ علىٰ ضلاله واستعصىٰ عليك واستمر في جهله فأعرض عنه ؛ فلعل ذلك أن يرد كيده ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ ، [وقال تعالىٰ : ﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**][٣] * **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ أي هذه الوصية . ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾ ، [وقال في هذه السورة الكريمة أيضًا : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم** ﴾][٤] فهذه الآيات الثلاث في الأعراف ، والمؤمنون ، وحم السجدة ، لا رابع لهن ، فإنه تعالىٰ يرشد فيهن إلىٰ معاملة العاصي من الإنس[٥] بالمعروف فالتي[٦] هي أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالىٰ ، [ولهذا قال : ﴿ **فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ ، ثم يرشد تعالىٰ إلىٰ الاستعاذة به][٧] من شيطان الجان ، فإنه لا [يكفه عنك][٨] الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ؛ فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك .

قال ابن جرير في تفسير قوله : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ** ﴾ وإما يغضبنك من الشيطان غضب ، يصدك عن الإعراض عن الجاهلين[٩] ، ويحملك علىٰ مجازاتهم ﴿ **فاستعذ**

[١] - في ز : « فيها » . [٢] - في ز : « بالعرف » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٥] - في ز : « الأمر » .
[٦] - في ز : « والتي » . [٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٨] - في ز : « يكفيه منك » .
[٩] - في خ ، ز : « الجاهل » والمثبت من تفسير ابن جرير .

بالله ﴾ يقول : فاستجر بالله من نزغه **﴿ إنه سميع عليم ﴾** ، [يقول : إن الله الذي تستعيذ به من نزغ الشيطان][1] سميع لجهل الجاهل عليك ، والاستعاذة به من نزغه ، ولغير[2] ذلك من [كلام خلقه][3] ، لا يخفىٰ عليه منه شيء ، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان ، وغير ذلك من أمور خلقه .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم(٣١١) : لما نزل : **﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾** قال [رسول الله صلى الله عليه وسلم][4] : « **يا رب كيف بالغضب** »؟ فأنزل الله : **﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾** .

قلت : وقد تقدم(٣١٢) في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي صلىٰ الله عليه وسلم فغضب أحدهما حتىٰ جعل أنفه يتمزع[5] غضبًا ، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم** » فقيل له ، فقال : ما بي من جنون .

وأصل « **النزغ** » الفساد ، إما بالغضب أو غيره ، قال الله تعالىٰ : **﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾** . و« **العياذ** » الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر . وأما « **الملاذ** » ففي طلب الخير ، كما قال [الحسن بن المتنبي[6] في شعره][7]

يا مَنْ ألوذ به فيما أُؤَمِّلُهُ ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناسُ عَظْمًا أنت كاسره ... ولا يَهِيضون عظمًا أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير ، بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم

---

(٣١١) - أخرجه ابن جرير (١٥٥٥٣/١٣) حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد ... فذكره هكذا مرسلًا ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف ، والحديث ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢٨٣/٣) ولم يعزه لغير ابن جرير .

(٣١٢) - تقدم [سورة الفاتحة / الاستعاذة] .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٢] - في ز : « بغير » .
[٣] - في ز : « الكلام لخلقه » . [٤] - سقط من: ت .
[٥] - في خ : « يتمرغ » .
[٦] - كذا في ز ، خ ، وهو تحريف ، والصواب : أحمد بن الحسين المتنبي ، والبيتان في ديوانه (٢/ ٢٧٢) بشرح البرقوقي .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .

مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

يخبر تعالىٰ عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجر ، أنهم ﴿ **إذا مسهم** ﴾ أي : أصابهم (**طيف**) ، وقرأ الآخرون[١] ﴿ **طائف** ﴾(٣١٣) ، **وقد جاء فيه حديث**(٣١٤) ، **وهما قراءتان مشهورتان ، فقيل : بمعنىٰ واحد ، وقيل : بينهما فرق ، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه ، ومنهم من فسره بالهم بالذنب ، ومنهم من فسره بإصابة الذنب .**

وقوله : ﴿ **تذكروا** ﴾ أي : عقاب اللَّه وجزيل ثوابه ، ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا ، واستعاذوا[٢] باللَّه ورجعوا إليه من قريب ، ﴿ **فإذا هم مبصرون** ﴾ أي : قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه(٣١٥) هاهنا حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : جاءت امرأة إلىٰ النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم وبها طيف فقالت : يا رسول اللَّه ، ادع اللَّه أن يشفيني ، فقال : « **إن شئت دعوت اللَّه فشفاك ، وإن شئت**

---

(٣١٣) - أخرجه ابن مردويه - كما في « الدر المنثور » (٢٨٤/٣) - من حديث جابر بن عبد اللَّه قال : سمعت رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم - يقرأ ﴿ **إذا مسهم طائف** ﴾ بالألف ، ولم أهتد لإسناده ، والغالب على انفرادات ابن مردويه الضعف ، فاحفظ هذا .

(٣١٤) - قرأ نافع وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ﴿ **طائف** ﴾ بألفٍ وهمزة ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو والكسائي ﴿ **طيف** ﴾ بغير ألف .

(٣١٥) - وأخرجه أحمد (٤٤١/٢) (٩٦٨٧) وابن حبان (٢٩٠٩/٧) والبغوي في « شرح السنة » (١٤٢٤/٥) ، من طريق محمد بن عبيد مقرونًا به عبدة بن سليمان عند ابن حبان ، وأخرجه البزار (١/رقم ٥٣٤/ الزوائد لابن حجر) من طريق عمرو بن خليفة، والحاكم (٢١٨/٤) من طريق عبد العزيز بن مسلم ، وابن عدي في « الكامل » (٢٢٧١/٦) من طريق محمد بن يعلى السلمي ، خمستهم (المحمدان وعبدة وعمرو وعبد العزيز) عن محمد بن عمرو ، به ، واستنكره ابن عدي لمحمد بن يعلى هذا وقال : « يروي عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أحاديث لا يتابع عليها » قلت : وهو متابع هنا ، وقد صححه الحاكم على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وحسن إسناده الهيثمي في « المجمع » (٣١٠/٢) وعزاه إلى البزار ، وغفل عن عزوه لأحمد وقد ذكره ابن حجر في « الفتح » (١١٥/١٠) وعزاه إلى البزار وابن حبان فحسب .

---

[١] - في ز : « آخرون » .

[٢] - في ز : « استعانوا » .

فاصبري ولا حساب عليك » . فقالت : بل أصبر ولا حساب عليَّ .

ورواه غير واحد من أهل السنن(٣١٦) وعندهم : قالت : يا رسول اللّه، إني أُصْرَعُ وأتكشَّف ؛ فادع اللّه أن يشفيني . فقال : « **إن شئت دعوت اللّه أن يشفيك ، وإن شئت صبرت ولك الجنة** » فقالت : بل أصبر ولي الجنة ، ولكن ادع اللّه أن لا أتكشف ، فدعا لها ، فكانت لا تتكشف[١] .

وأخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة « **عمرو بن جامع** » من تاريخه[٢] : أن شابًّا كان يتعبد في المسجد ، فَهَويته امرأة ، فدعته إلىٰ نفسها ، فما[٣] زالت به حتىٰ كاد يدخل معها المنزل ؛ فذكر هذه الآية : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف**[٤] **من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ فخرّ مغشيًّا عليه ، ثم أفاق فأعادها ، فمات ، فجاء عُمَر فعزَّىٰ فيه أباه ، وكان قد دفن ليلًا ، فذهب فصلىٰ علىٰ قبره بمن معه ، ثم ناداه عمر فقال : يا فتىٰ ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ ، فأجابه الفتىٰ من داخل القبر : يا عمر ، قد أعطانيهما[٥] ربي - عز وجل - في الجنة مرتين .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **وإخوانهم** ﴾ أي : وإخوان الشياطين من الإنس ، كقوله : ﴿ **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين** ﴾ [من الإنس][٦] وهم أتباعهم ، والمستمعون[٧] لهم ، القابلون[٨] لأوامرهم ، ﴿ **يمدونهم**[٩] **في الغي** ﴾ أي : تساعدهم الشياطين علىٰ المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم .

وقال ابن كثير[١٠] : « **المد** » : الزيادة ، يعني : يزيدونهم في الغي ، يعني : الجهل والسفه .

---

(٣١٦) - كذا عزاه المصنف لغير واحد من أهل السنن ، وإنما أخرجه النسائي في « السنن الكبرى » (٧٤٩٠/٤) فحسب من حديث ابن عباس ، وكذا أخرج حديث ابن عباس هذا ، البخاري ، كتاب : المرضى ، باب : فضل من يصرع من الريح (٥٦٥٢) ، ومسلم ، كتاب : البر =

---

[١] - في ز : « تنكشف » .
[٢] - « تاريخ دمشق » (٤١١/١٣ ، ٤١٢/ مخطوط) .
[٣] - في ز : « وما » .
[٤] - في ز : « طيف » .
[٥] - في ز : « أعطانيها » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[٧] - في ز : « المستمعين » .
[٨] - في ز : « القابلين » .
[٩] - في ز : « يهدونهم » .
[١٠] - هو عبد اللّه بن كثير الدَّاريُّ المكيُّ ، أبو معبد القارئ ثقة مترجم له في « التهذيب » ، والأثر أخرجه ابن جرير (١٥٥٦٧/١٣) .

﴿ ثم لا يقصرون ﴾ قيل معناه : إن الشياطين [تمد ، و][١]الإنس لا تقصر[٢] في أعمالهم بذلك ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ الآية قال : لا الإنس يقصرون عما يعملون [من السيئات][٣] ، ولا الشياطين تمسك عنهم .

وقيل : معناه كما رواه العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ قال : هم[٤] الجن يوحون إلىٰ أوليائهم من الإنس ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ ، يقول : لا يسأمون .

وكذا قال السدي وغيره : يعني[٥] إن الشياطين يمدون[٦] أولياءهم من الإنس ، ولا تسأم من إمدادهم من الشر ؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية لا تفتر[٧] فيه ولا تَبْطُل[٨] عنه ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين علىٰ الكافرين تؤزهم أزًا ﴾ ، قال ابن عباس وغيره : تزعجهم إلىٰ المعاصي إزعاجًا .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ قالوا لولا اجتبيتها ﴾ ، يقول : لولا تلقيتها . وقال مرة أخرىٰ : لولا أحدَثْتها فأنشأتها .

وقال ابن جرير(٣١٧) ، عن عبد الله بن كثير ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ﴾ قال : لولا اقتضبتها[٩] ، قالوا : تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

= والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض (٥٤) (٢٥٧٦) .

(٣١٧) - أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥٥٧٢/١٣) حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج عن ابن جريج عن عبد الله بن كثير ، به .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « يمدوا » . [٢] - في ز : « يقصر » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز . [٤] - سقط من : ز .
[٥] - زيادة من : ز . [٦] - في ز : « يمدوا » .
[٧] - في ز : « تفر » . [٨] - في ز : « يبْطُل » .
[٩] - اقتضب الكلام : تكلم به على غير إعداد وتهيئة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ **لولا اجتبيتها** ﴾ يقول : تلقيتها من اللَّه تعالىٰ .

وقال الضحاك : ﴿ **لولا اجتبيتها** ﴾ يقول : لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء .

ومعنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **وإذا لم تأتهم بآية** ﴾ أي : معجزة وخارق ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين** ﴾ ، يقولون للرسول صلىٰ اللَّه عليه وسلم : لا تجهد نفسك في طلب الآيات حتىٰ نراها ونؤمن بها ، قال اللَّه تعالىٰ له : ﴿ **قل إنما أتبع ما يوحىٰ إلي من ربي** ﴾ أي : أنا لا أتقدم إليه تعالىٰ في شيء[١] ، وإنما أتبع ما أمرني به ، فأمتثل ما يوحيه إلي ؛ فإن بعث آية قبلتها ، وإن منعها لم أسأله ابتداءً إياها ، إلا أن يأذن لي في ذلك ، فإنه حكيم عليم .

ثم أرشدهم إلىٰ أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبينات ، فقال : ﴿ **هذا بصائر من ربكم وهدًى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ .

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

لما ذكر تعالىٰ أن القرآن بصائر للناس وهدًى ورحمة ، أمر تعالىٰ بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا ، لا كما كان يعتمده[٢] كفار قريش المشركون[٣] في قولهم : ﴿ **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه** ﴾ . ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة ، كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه(٣١٨) من حديث أبي موسىٰ الأشعري - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **إنما جعل الإمام ليؤتم به ؛ فإذا كبر فكبروا ، وإذا**

---

(٣١٨) - صحيح مسلم ، كتاب : الصلاة ، باب : التشهد في الصلاة (٦٣) (٤٠٤) ، وكذا أخرجه أحمد (٤/٤١٥) وأبو داود ، كتاب : الصلاة ، باب : التشهد (٩٧٣) والنسائي ، كتاب : الافتتاح ، باب : نوع آخر من التشهد (٢/٢٤٢) وابن ماجه ، كتاب : إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٧) وغيرهم من طريق سليمان التيمي عن قتادة عن أبي غلاب يونس بن جبير عن حطان بن عبد اللَّه الرقاشي ، قال : قال أبو موسى ... فذكر حديثًا مطولًا ، ورواه بعضهم مختصرًا ، قال البزار في مسنده (٨/٦٦) : « روى هذا الحديث جماعة عن قتادة بهذا الإسناد ولا نعلم أحدًا قال فيه : « **وإذا قرأ الإمام فأنصتوا** » إلا التيمي إلا حديثا - ثم أسند إلى سالم بن نوح عن عمرو بن عامر - عن قتادة بالإسناد السابق بنحو حديث التيمي ، وفي صحيح مسلم عقب هذا الحديث: «قال أبو إسحاق - صاحب مسلم وراوي الكتاب عنه =

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في خ : « يتعمده » .
[٣] - في ز : « المشركين » .

قرأ فأنصتوا » . وكذا رواه أهل السنن[١] من حديث أبي هريرة(٣١٩) ، وصححه مسلم بن الحجاج

= قال أبو بكر ابن أخت أبي النضر في هذا الحديث . فقال مسلم : تريدُ أحفظ من سليمان ؟ ...» لكن قال أبو داود السجستاني عقبه : قوله : « **فأنصتوا** » ليس بمحفوظ ، لم يجئ به إلا سليمان التيمي في هذا الحديث وقال الدارقطني في « السنن » (٣٣١/٢) : « رواه هشام الدستوائي وسعيد وشعبة وهمام وأبو عوانة وأبان وعدي بن أبي عمارة كلهم عن قتادة ، فلم يقل أحد منهم « **وإذا قرأ فأنصتوا** » وهم أصحاب قتادة والحفاظ » وذكر طرق هذا الحديث في « العلل » (٧/س ١٣٣٣) وقال : « ... سليمان التيمي من الثقات ، وقد زاد عليهم قوله « **وإذا قرأ فأنصتوا** » ، ولعله شبه عليه لكثرة من خالفه من الثقات ....» وقال النووي في « شرح صحيح مسلم » (٤/ ١٦٢) : قوله : « **وإذا قرأ فأنصتوا** » مما اختلف الحفاظ في صحته فروى البيهقي في « السنن الكبير » (١٥٦/٢) عن أبي داود السجستاني أن هذه اللفظة ليست بمحفوظة ، وكذلك رواه عن يحيى بن معين وأبي حاتم الرازي والدارقطني والحافظ أبي علي النيسابوري شيخ الحاكم أبي عبد الله ، قال البيهقي : قال أبو علي الحافظ : هذه اللفظة غير محفوظة قد خالف سليمان التيمي فيها جميع أصحاب قتادة ، واجتماع هؤلاء الحافظ على تضعيفها مقدم على تصحيح مسلم ، لاسيما ولم يروها مسندة في صحيحه والله أعلم » .

وقد مال إلى تصحيح هذه الزيادة ابن التركماني فقال في « الجوهر النقي » (١٥٥/٢) : « التيمي جليل القدر ، قال شعبة : ما رأيت أحدًا أصدق منه ، وفي « علل الخلال » قلت يعني لابن حنبل - : يقولون أخطأ التيمي ؟ قال : « من قال أخطأ التيمي فقد بهت التيمي » ولا نُسلّم أنه خالفهم بل زاد عليهم وزيادة الثقة مقبولة ... وقد تابعه على روايته سعيد بن أبي عروبة وعمر بن عامر فروياه عن قتادة ؛ كذلك أخرجه البيهقي (١٥٦/٢) من حديث سالم بن نوح عنهما فبطل قول أبي علي (خالف أصحاب قتادة كلهم) ، وسالم هذا وإن قال الدارقطني : (ليس بالقوي) فقد أخرج له مسلم وكذلك ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وقال ابن حنبل : ما بحديثه بأس ، وقال : أبو زرعة صدوق ثقة ، فهذا كما تقدم زيادة ثقة وترك من ترك لا يكون علة في زيادة من حفظ ... » اهـ .

(٣١٩) - ذكر أبو الحسن الدارقطني حديث أبي هريرة هذا في « العلل » (٨/س ١٥٠١) وقال : « هو حديث اختلف فيه على محمد بن عجلان ، فرواه أبو خالد الأحمر عن محمد بن عجلان عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة ، وقال إسماعيل بن أبان الغنوي عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم ومصعب بن شراحبيل عن أبي صالح عن أبي هريرة ، وقال أبو سعد الصاغاني : عن ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة ، وقال محمد بن سعد الأشهلي : عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم أيضًا ، وكلهم قال فيه « **وإذا قرأ فأنصتوا** » ، وقال الليث ، عن ابن عجلان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ، ولم يقل فيه : « **وإذا قرأ فأنصتوا** » ورواه يحيى بن العلاء الرازي عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة وقال فيه : « **فإذا قرأ فأنصتوا** » وهذا الكلام =

[١] - هذا فيه بعض التجوز، فإن الحديث بهذه الزيادة ليس عند الترمذي . انظر التخريج .

أيضًا ، ولم يخرجه في كتابه . وقال إبراهيم بن مسلم الهجري[٣٢٠] ، عن أبي عياض ، عن أبي

= ليس بمحفوظ في هذا الحديث » .

* فأما رواية أبي خالد الأحمر فأخرجها ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤١٤/١) - ومن طريقه أحمد في « المسند » (٤٢٠/٢) وكذا ابنه عبد الله ، وابن ماجه (٨٤٦) والدارقطني في « السنن » (١/ ٣٢٧) وفي « العلل » (١٨٧/٨ ، ١٨٨) - وأبو داود (٦٠٤) والنسائي (١٤١/٢ ، ١٤٢) والطحاوي في « شرح معاني الآثار » (٢١٧/١) وتمام في « فوائده » (٢٩٦/١/الروض البسام) وقال أبو داود : « وهذه الزيادة « **وإذا قرأ فأنصتوا** » ليست بمحفوظة ، الوهم عندنا من أبي خالد » كذا قال ، وقد تابعه غير واحد عن ابن عجلان ، وزادوا تلك الزيادة - كما يأتي - وقد تعقب أبا داود المنذري في إلصاق هذا الوهم بأبي خالد الأحمر ، فانظر « مخصر سنن أبي داود » (٣١٣/١) .

* وأما رواية إسماعيل بن أبان الغنوي : فأخرجها الدارقطني في « السنن » (٣٢٩/١) والبيهقي في « الكبرى » (١٥٦/٢) ، وقال الدارقطني : « إسماعيل بن أبان ضعيف » .

* وأما رواية أبي سعد الصاغاني فأخرجها أحمد (٣٧٦/٢) والدارقطني في « السنن » (٣٣٠/١) وقال : « أبو سعد الصاغاني - محمد بن مُيَسَّر - ضعيف » .

* وأما رواية محمد بن سعد الأشهلي، فأخرجها النسائي (١٤٢/٢)- ومن طريقه الدارقطني (١/ ٣٢٨)- والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٣٢٠/٥) وقال النسائي أبو عبد الرحمن : « كان المخرمي يقول : هو ثقة يعني محمد بن سعد » .

* وأما رواية الليث فأخرجها أبو العباس السَّراج في مسنده - كما في « النكت الظراف » لابن حجر (٣٤٣/٩ ، ٣٤٤) - وقد أخرجه البخاري (٧٣٤) من طريق شعيب بن أبي حمزة ، ومسلم (٨٦) (٤١٤) من طريق المغيرة الحزامي ، كلاهما (شعيب والمغيرة) عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة به وليس فيه قوله « **وإذا قرأ فأنصتوا** » .

* ورواية يحيى بن العلاء الرازي ذكرها البيهقي في « السنن الكبرى » (١٥٧/٢) وقال : « ويحيى بن العلاء متروك » .

وجعل البيهقي الوهم في هذا الحديث من ابن عجلان ، وسبقه إلى ذلك أبو حاتم في « العلل » (١/رقم ٤٦٥) - فأسند البيهقي عن العباس بن محمد الدُّوري قال : سمعت يحيى بن معين يقول في حديث ابن عجلان : « **إذا قرأ فأنصتوا** » قال : ليس بشيء ، ثم أسند عن ابن أبي حاتم قال في « العلل » : « قال أبي : ليس هذه الكلمة بالمحفوظ وهو من تخاليط ابن عجلان ، وقد رواه خارجة ابن مصعب أيضًا ، وتابع ابن عجلان ، وخارجة أيضًا ليس بالقوي » .

لكن قد صحح مسلم هذه الزيادة في حديث أبي هريرة ففي صحيحه أن أبا بكر ابن أخت أبي النضر قال له: « فحديث أبي هريرة ؟ فقال: هو صحيحٌ : يعني: « **وإذا قرأ فأنصتوا** » فقال: هو عندي صحيح - فقال : لِمَ لَمْ تضعه ههنا ؟ - يعني في الصحيح - قال : ليس كُلُّ شيءٍ عندي =

هريرة قال : كانوا يتكلمون في الصلاة ، فلما نزلت هذه الآية : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له** ﴾ ، والآية الأخرىٰ ، أمروا بالإنصات .

وقال ابن جرير(٣٢١) : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عاصم ، عن المسيب ابن رافع ، قال ابن مسعود : كنا [يسلم بعضنا علىٰ][١] بعض في الصلاة ، فجاء القرآن ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ .

وقال أيضًا(٣٢٢) : حدثنا أبو كريب ، حدثنا المحاربي ، عن داود بن أبي هند ، عن [يسير][٢] ابن جابر ، قال: صلىٰ ابن مسعود فسمع ناسًا يقرءون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا أما آن لكم أن تعقلوا ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ ، كما أمركم الله .

قال(٣٢٣) : وحدثني أبو السائب ، حدثنا حفص ، عن أشعث ، عن الزهري قال : نزلت هذه

= صحيح وضعته هاهنا إنما وضعت هاهنا ما أجمعوا عليه » . ونقل ابن عبد البر في « التمهيد » عن أحمد بن حنبل أنه صحح الحديثين يعني حديث أبي موسى وحديث أبي هريرة ، وكذا صحح حديث ابن عجلان ابن حزم في « المحلى » (٢٤٠/٣) وصحح الخبر جملة ابن جرير في تفسيره (٣٥٢/١٣) .

(٣٢٠) - أخرجه ابن جرير (١٥٥٨٢/١٣) وابن أبي حاتم (٨٧٢٨/٥) والبيهقي في « السنن الكبرى » (١٥٥/٢) من طرق عن إبراهيم بن مسلم الهجري به ، وإبراهيم بن مسلم هذا ضعيف ، والخبر زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٨٦/٣) إلى ابن أبي شيبة في «المصنف» - ولم أجده في مظانه - وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه .

(٣٢١) - تفسير ابن جرير (١٥٥٨١/١٣) وعاصم هو ابن أبي النجود ، والمسيب بن رافع لم يسمع من عبد الله بن مسعود شيئًا قاله أحمد وأبو حاتم ؛ انظر « جامع التحصيل » و« التهذيب » . والأثر لم يعزه السيوطي في « الدر المنثور » (٢٨٦/٣) لغير ابن جرير .

(٣٢٢) - تفسير ابن جرير (١٥٥٨٤/١٣) وهذا إسناد منقطع بين داود بن أبي هند ويسير - ويقال أسير - بن جابر وقد وصله ابن أبي حاتم (٨٧٣٠/٥) ثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا ابن فضيل وأبو خالد عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أسير بن جابر به نحوه ، وهذا إسناد صحيح متصل ، والخبر زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٨٥/٣) إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ .

(٣٢٣) - تفسير ابن جرير (١٥٥٨٣/١٣) وحفص هو ابن غياث ، « ثقة فقيه ، تغير حفظه =

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « نسلم على بعضنا » .

[٢] - في خ ، ز : « بشير » وكذا تحرف في تفسير ابن جرير ولذلك فقد أعيا الشيخ الأديب محمود شاكر فلم يعرفه ، والصواب ما أثبتناه هنا ولله الحمد ، وانظر ترجمة يسير أو أسير في « التهذيب » وغيره .

الآية في فتىً من الأنصار كان رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم كلما قرأ شيئًا قرأه ؛ فنزلت : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ .

وقد روىٰ الإمام أحمد وأهل السنن(٣٢٤) ، من حديث الزهري ، عن أبي أكيمة[١] الليثي ، عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، انصرف من صلاة جَهَرَ فيها بالقراءة ، فقال : « **هل قرأ أحد منكم معي آنفًا ؟** » [قال رجل : نعم ، يا رسول اللَّه ، قال : « **إني أقول مالي أنازَع القرآن**][٢] » . قال : فانتهىٰ الناس عن القراءة مع رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، [فيما جهر فيه رسول اللَّه ، صلى اللَّه عليه وسلم][٣] بالقراءة من الصلوات، حين سمعوا ذلك من رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم .

وقال الترمذي : هذا حديث حسن . [وصححه أبو حاتم الرازي][٤] .

وقال عبد اللَّه بن المبارك ، عن يونس ، عن الزهري قال : لا يقرأ مَن وراء الإمام فيما يجهر به الإِمام ، تكفيهم قراءة الإِمام ، وإن لم يسمعهم صوته ، ولكنهم يقرءون[٥] فيما لا يجهر به سرًّا

= قليلًا » وأشعث هو ابن سَوَّار : « ضعيف » والخبر أيضًا مرسل ، وقد ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢٨٦/٣) ولم يعزه لغير ابن جرير .

(٣٢٤) - أخرجه أحمد (٢٨٤/٢ ، ٢٨٥ ، ٣٠١ ، ٤٨٧) وأبو داود ، كتاب : الصلاة ، باب : من كره القراءة بفاتحة الكتاب إذا جهر الإمام (٨٢٦ ، ٨٢٧) ، والترمذي ، كتاب : الصلاة ، باب : ما جاء في ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر الإمام بالقراءة (٣١٢) ، والنسائي ، كتاب : الافتتاح ، باب : ترك القراءة خلف الإمام فيما جهر به (١٤٠/٢ ، ١٤١) ، وابن ماجه ، كتاب : إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٨ ، ٨٤٩) وغيرهم من طرق عن الزهري به وحسنه الترمذي ، وصححه أبو حاتم بن حبان (١٨٤٣/٥ ، ١٨٤٩) وأعله الحميدي والبيهقي - كما في « السنن الكبرى » له (١٥٩/٢) - بجهالة ابن أكيمة واسمه عمارة وقيل عمرو بن مسلم وهذا مردود فقد وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم : « صحيح الحديث ، حديثه ، مقبول » وذكره ابن حبان في « الثقات » (٢٤٢/٥) وقال يعقوب بن سفيان ، هو من مشاهير التابعين بالمدينة ، ووثقه ابن حجر في « التقريب » .

[١] - في ز : « أكتمة » . [٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ . قال الحافظ ابن حجر في « التلخيص » (٢٤٦/١) : قوله « فانتهى الناس » إلى آخره مدرج في الخبر من كلام الزهري بينه الخطيب ، واتفق عليه البخاري في « التاريخ » وأبو داود ويعقوب بن سفيان والذهلي والخطابي وغيرهم » .
[٤] - قال في : « الجرح والتعديل » [(٦/ت عمارة بن أكيمة رقم (٢٠٠٢)] : « هو صحيح الحديث ، حديثه مقبول .
[٥] - في ز : « يجهرون » .

في أنفسهم ، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرًّا ولا علانية ؛ فإن اللَّه تعالىٰ قال : ﴿ **وإذا**[١] **قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ .

قلت : هذا مذهب طائفة من العلماء : أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام ، لا الفاتحة ولا غيرها ، وهو أحد قولي الشافعي[٢] ، وهو القديم ، كمذهب مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة . و[٣]قال في الجديد : يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام . وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم . وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : لا يجب علىٰ المأموم قراءة أصلًا في السرية ولا الجهرية ؛ لما ورد في الحديث « **من كان له إمام فقراءته له قراءة** » . وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعًا ، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان ، عن جابر موقوفًا ، وهذا أصح(٣٢٥) . وهذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع ، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد اللَّه البخاري[٤] مصنفًا علىٰ حدة ، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضًا ، واللَّه أعلم .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ ، يعني : في الصلاة المفروضة . وكذا روي عن عبد اللَّه بن المغفل .

وقال ابن جرير(٣٢٦) : حدثنا حميد بن مسعدة ، حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا الجريري ، عن طلحة بن عبيد اللَّه بن كريز قال : رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان ، والقاص يقص ، فقلت : ألا تستمعان[٥] [إلىٰ الذكر][٦] وتستوجبان الموعود ؟ قال : فنظرا إليّ ، ثم أقبلا علىٰ حديثهما ، قال : فأعدت ، فنظرا إلي وأقبلا علىٰ حديثهما ، قال : [فأعدت الثالثة][٧] فنظرا إلي فقالا : إنما ذلك في الصلاة : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ .

وقال سفيان الثوري ، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير ، عن مجاهد في قوله : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ قال : في الصلاة . وكذا رواه غير واحد عن مجاهد .

وقال عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن ليث ، عن مجاهد قال : لا بأس إذا قرأ الرجل في غير

---

(٣٢٥) - تقدم تخريجه [في أول سورة الفاتحة] .
(٣٢٦) - تفسير ابن جرير (١٣/١٥٥٨٥) .

---

[١] - في ز : « فإذا » . [٢] - في ت : « الشافعية » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - وسماه « القراءة خلف الإمام » وهو مطبوع .
[٥] - في ز : « تسمعان » .
[٦] - سقط من : ز . [٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

الصلاة أن يتكلم .

وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وإبراهيم النخعي وقتادة والشعبي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أن المراد بذلك في الصلاة .

وقال شعبة ، عن منصور ، سمعت [إبراهيم بن أبي حُرَّة][١] يحدِّث ، أنه سمع مجاهدًا يقول في هذه الآية : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ قال : في الصلاة والخطبة يوم الجمعة .

وكذا روىٰ ابن جريج عن عطاء مثله .

وقال هشيم ، عن الربيع بن صبيح ، عن الحسن قال : في الصلاة وعند الذكر .

وقال ابن المبارك ، عن بقية ، سمعت ثابت بن عجلان يقول : سمعت سعيد بن جبير يقول في قوله : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ قال : الإنصات يوم الأضحى ، ويوم الفطر ، ويوم الجمعة ، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة .

وهذا اختيار ابن جرير[٢] ، أن المراد بذلك خلف الإمام وحال الخطبة .

وقال عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن ليث ، عن مجاهد ، أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف ، أو بآية رحمة ، أن يقول أحد من خلفه شيئًا ، قال : السكوت .

وقال مبارك بن فضالة ، عن الحسن : إذا جلست إلىٰ القرآن فأنصت له .

وقال الإمام أحمد(٣٢٧) : حدثنا أبو سعيد مولىٰ بني هاشم ، حدثنا عباد بن ميسرة ، عن

(٣٢٧) - « المسند » (٣٤١/٢) (٨٤٧٥) وعزاه له العراقي وقال : « فيه ضعف وانقطاع » [المستخرج/ تخريج أحاديث « إحياء علوم الدين » (٨٤٤/٢)] وعلة الضعف هو ما أشار إليها تلميذه الهيثمي حيث قال في « المجمع » (١٦٥/٧) بعد أن عزاه لأحمد - « فيه عباد بن ميسرة ضعفه أحمد وغيره ، وضعفه ابن معين في رواية ووثقه في أخرى ، ووثقه ابن حبان » وعلة الانقطاع هي ما أشار إليه المنذري في « الترغيب والترهيب » (٣٤٥/٢) حيث قال : « والجمهور على أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة » والحديث رمز لضعفه السيوطي في « الجامع الصغير » مع أنه حسن إسناده في « الدر المنثور » (٢٨٧/٣) وزاد عزوه إلى البيهقي في « الشعب » ، وأخرج

[١] - تصحف في تفسير ابن جرير (١٥٦١١/١٣) إلى « إبراهيم بن أبي حمزة » ولم ينبه على ذلك محققه وإبراهيم هذا وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وهو مترجم في « التاريخ الكبير » (٢٨١/٢) « والجرح والتعديل » (٩٦/٢) وفي « الثقات » لابن حبان (٩/٦) .

[٢] - ابن جرير في تفسيره (٣٥٢/٣ ، ٣٥٣) .

الحسن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **من استمع إلىٰ آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة** » . تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ .

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦) ﴾

يأمر تعالىٰ بذكره أول النهار وآخره ، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله : ﴿ **وسبح**[١] **بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب** ﴾ . وقد كان هذا[٢] قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء وهذه الآية مكية .

وقال هاهنا : ﴿ **بالغدو** ﴾ وهو أول[٣] النهار ، ﴿ **والآصال** ﴾ جمع أصيل ، كما أن الأيمان جمع يمين .

وأما قوله : ﴿ **تضرعًا وخيفة**[٤] ﴾ أي : اذكر ربك في نفسك ، [رهبة ورغبة][٥] وبالقول لا جهرًا ؛ ولهذا قال : ﴿ **ودون الجهر من القول** ﴾ ، وهكذا يُستحب أن يكون الذكر ، لا يكون نداء وجهرًا بليغًا ، ولهذا لما سألوا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقالوا(٣٢٨) : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة [الداع إذا دعان]**[٦] ﴾ .

وفي الصحيحين(٣٢٩) عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم

= عبد الرزاق في « المصنف » (٦٠١٢/٣) أخبرنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : « من استمع آيةً من كتاب الله كانت له نورًا يوم القيامة » ورجاله ثقات ، رجال الشيخين ، غير أن ابن جريج مدلس وقد عنعنه .

(٣٢٨) - انظر ما تقدم [سورة البقرة / آية ١٨٦] .

(٣٢٩) - تقدم تخريجه [سورة البقرة / آية ١٨٦] .

---

[١] - في ز : « فسبح » .
[٢] - زيادة من : ز .
[٣] - في ز : « أوائل » .
[٤] - في ت : « خفية » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز : « الداعي إذا دعاني » .

بالدعاء في بعض الأسفار ؛ فقال لهم النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **يا**[١] **أيها الناس ؛ أربعوا علىٰ أنفسكم ؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، إن الذي تدعونه سميع قريب** » .

وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلًا** ﴾ ، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه ، وسبوا من أنزله ومن جاء به ، فأمره[٢] اللّٰه تعالىٰ أن لا يجهر به ؛ لئلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به[٣] عن أصحابه فلا يسمعهم ، وليتخذ سبيلًا بين الجهر والإسرار ، وكذا قال في هذه الآية الكريمة : ﴿ **ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** ﴾ .

وقد زعم ابن جرير[٤] ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله : أن المراد بهذه الآية : أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر علىٰ هذه الصفة ، وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به ، ثم إن[٥] المراد [ ][٦] بذلك في الصلاة كما تقدم ، أو في[٧] الصلاة والخطبة ، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر [باللسان ، سواء كان سرًّا أو جهرًا ، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض علىٰ كثرة الذكر][٨] من العباد بالغدو والآصال ؛ لئلا يكونوا من الغافلين ، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون ؛ فقال : ﴿ **إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون** ﴾ . وإنما ذكرهم بهذا ليُتَشَبَّه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ؛ ولهذا شرع[٩] لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم للّٰه عز وجل ، كما جاء في الحديث(٣٣٠) : « **ألا تَصفّون كما تصف الملائكة**[١٠] **عند ربها ، يُتمون الصفوف الأُوَل ، ويتراصون في الصف** » .

---

(٣٣٠) - أخرجه مسلم ، كتاب : الصلاة ، باب : الأمر بالسكون في الصلاة ... (١١٩) (٤٣٠) ، وأبو داود ، كتاب : الصلاة ، باب : تسوية الصفوف (٦٦١) ، والنسائي ، كتاب : الإمامة ، باب : حث الإمام عل رصِّ الصفوف والمقاربة بينها (٩٢/٢) وابن ماجه ، كتاب : إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : إقامة الصفوف (٩٩٢) وأحمد في « المسند » (١٠١/٥) من حديث جابر بن سمرة .

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « فأمر » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - ابن جرير في تفسيره (٣٥٣/١٣ ، ٣٥٤) .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز : « بهذه » .
[٧] - سقط من : ز .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٩] - في ز : « يشرع » .
[١٠] - سقط من : ز .

وهذه أول سجدة في القرآن ، مما يشرع لتاليها ومستمعيها السجود بالإجماع ، وقد ورد في حديث رواه ابن ماجة(٣٣١) عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه عدها في

(٣٣١) - أخرجه ابن ماجه ، كتاب : إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : عدد سجود القرآن (١٠٥٦) ثنا محمد بن يحيى - وهو الذهلي - ثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ثنا عثمان بن فائد ، ثنا عاصم بن رجاء بن حيوة ، عن المهدي بن عبد الرحمن بن عيينة بن خاطر ، قال : حدثتني عمتي أمُّ الدرداء عن أبي الدرداء قال : سجدت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إحدى عشرة سجدة ، ليس فيها من المفصل شيء : الأعراف والرعد والنحل وبني إسرائيل ومريم والحج وسجدة الفرقان وسليمان سورة النمل - وتحرفت إلى النحل - والسجدة وفي ص وسجدة الحواميم » وقال البوصيري في « الزوائد » (١/٣٥٣) : « هذا إسناد ضعيف لضعف عثمان بن فائد » قلت : هو متابع ، قال المزي في « تهذيب الكمال (٢٨/٥٩١) : « رواه - يعني ابن ماجه - عن محمد بن يحيى الذهلي ثم ساق هذا الإسناد وقال : « تابعه - يعني ابن ماجه - أبو بكر محمد بن يحيى بن سَهَل المُطَرِز عن الذهلي ... - وهذه المتابعة عند البيهقي في « السنن الكبرى » (٢/٣١٣) - وقال : « و رواه عثمان بن خُرَّزاذ الأنطاكيُّ ، عن سليمان بن عبد الرحمن ، عن عثمان بن خُلَيْد عن عاصم بن رجاء بن حَيْوَة عن المهدي بن عبد الرحمن بن حاضر - كذا ضبطه وهو مختلف في اسمه - ورواه أبو بكر بن أبي داود ، عن يعقوب بن سفيان عن سليمان بن عبد الرحمن ، عن إسماعيل بن عياش عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن المهدي بن عبد الرحمن بن عبيدة ...» ومهدي بن عبد الرحمن هذا مختلف في اسمه وجهله ابن حجر وقال الذهبي في « الميزان » (٤/ ت ٨٨٢٥) : « لا يعرف إلا من رواية عاصم بن رجاء عنه » وترجم له العقيلي في « الضعفاء » (٤/٢٦٣) وسماه مُهَنَّد وقال « مُهَنَّد بن عبد الرحمن عن أمّ الدرداء حديثه غير محفوظ ولا يعرف إلا بهذا الإسناد ، ثم ساق له من حديث عاصم أيضًا عنه عن أم الدرداء عن أبي الدرداء مرفوعًا « **الخال وارث من لا وارث له** » وأخرجه أحمد (٥/١٩٤) ثنا سريج بن النعمان ، وابن ماجه (١٠٥٥) والمزي في « تهذيب الكمال » (٢١/٣١٣) من طريق حرملة بن يحيى ، والترمذي (٥٦٨) ثنا سفيان بن وكيع ثلاثتهم (سريج وحرملة وسفيان) عن عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عمر الدمشقي عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : « سجدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم- إحدى عشرة سجدة ، منها التي في النجم » وأخرجه أحمد (٦/٤٤٢) من طريق رشدين بن سعد ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٢/٣١٣) من طريق عبد الله بن وهب ، كلاهما (رشدين وابن وهب) عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عمَّن أخبره عن أبي الدرداء أنه سجد مع النبي - صلى الله عليه وسلم - الحديث بنحو اللفظ السابق ، وقد رواه الترمذي (٥٦٩) بنحو هذا الإسناد من طريق الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن عمر - وهو ابن حيَّان الدمشقي قال : سمعت مخبرًا يخبر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - نحوه بلفظه .

وقال الترمذي : « وهذا أصح من حديث سفيان بن وكيع عن عبد الله بن وهب .... وحديث =

سجدات القرآن .

آخر سورة الأعراف ، ولله الحمد والمنة

☆ ☆ ☆

انتهى بحمد الله وحسن توفيقه المجلد السادس

ويليه إن شاء الله تعالى المجلد السابع

وأوله سورة الأنفال

= أبي الدرداء حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن أبي هلال عن عمر الدمشقي » .

وقال البخاري في « التاريخ الكبير » (٦/الترجمة ٢١٨٦) : « عمر الدمشقي عن أم الدرداء ، روى عنه سعيد بن أبي هلال ، منقطع » وقال أبو داود في « السنن » كتاب : الصلاة ، باب : تفريع أبواب السجود وكم سجدة في القرآن (٥٨/١) : « روي عن أبي الدرداء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إحدى عشرة سجدة وإسناده واهٍ » .

تنبيه : عزا البوصيري في « مصباح الزجاجة » حديث أبي الدرداء من طريق سفيان بن وكيع إلى أبي داود في سننه وما أخاله إلا وهمًا فإن أحدًا لم يعز هذا الحديث لأبي داود ، وانظر « تحفة الأشراف » (١٠٩٩٣/٨ ، ١٠٩٩٧) و« جامع المسانيد » للمصنف (٦٦٥/١٣ ، ٦٦٦) وبالله التوفيق .

سورة الأعراف

مكّيّة إلّا ثمان آياتٍ مِن قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ [الأعراف، ١٦٣/٧]
إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ [الأعراف، ١٧١/٧]، وآيها مائتان وخمس.[١]

/ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[٢] [٢٨٦و]

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

﴿الٓمٓصٓ﴾ إمّا مسرود على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة،[٣] فلا محلّ له مِن الإعراب، وإمّا اسمٌ للسورة، فمحلّه الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، والتقدير: هذا الٓمٓصٓ، أي مسمًّى به، وتذكير اسم الإشارة مع تأنيث المسمّى لِما أنّ الإشارة إليه مِن حيث إنّه مسمًّى بالاسم المذكور، لا مِن حيث إنّه مسمًّى بالسورة، وإنّما صحّت الإشارة إليه مع عدم سبق ذكره لِما أنّه باعتبار كونه بصدد الذِّكر صار في حكم الحاضر المشاهَد.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿كِتَٰبٌ﴾ على الوجه الأوّل خبرُ مبتدأ محذوف، هو ما يُنبئ عنه تعديدُ الحروف، كأنّه قيل: المؤلَّفُ مِن جنس هذه الحروف -مرادًا به السورة- كتابٌ... إلخ، أو اسمُ إشارة أشيرَ به إليه[٤] تنزيلًا لحضور المؤلَّف منه منزلةَ حضور نفس المؤلَّف، أي: هذا كتابٌ... إلخ؛ وعلى الوجه الثاني خبرٌ بعد خبرٍ، جِيء به إثر بيان كونه مترجمًا باسم بديع مُنبئٍ عن غرابته في نفسه، إبانةً لجلالة محلّه ببيان كونه فردًا مِن أفراد الكتب الإلهيّة حائزًا للكمالات المختصّة بها.

---

[١] م - سورة الأعراف، مكّيّة إلّا ثمان آياتٍ مِن قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾، وآيها مائتان وخمس؛ ط: سورة الأعراف، مكّيّة غير ثمان آياتٍ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إلى ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾، وهي مائتان وخمس أو ستّ آياتٍ.

[٢] وفي هامش م: عليك توكّلت يا ربّ العالمين.

[٣] انظر: تفسير البقرة، ١/٢.

[٤] أي: إلى المؤلَّف مِن جنس هذه الحروف.

وقد جُوِّز كونه خبرًا، و﴿الٓمٓصٓ﴾ مبتدأً، أي: المسمَّى بـ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتابٌ؛ وقد عرفتَ ما فيه مِن أنّ ما يُجعَل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه عند المخاطَب، وإذ لا عهدَ بالتسمية قبلُ، فحقُّها الإخبارُ بها.

﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: مِن جهته تعالى. بُنِي الفعل للمفعول جريًا على سَنَن الكبرياء، وإيذانًا بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعيّنِه، وهو السرّ في ترك ذكر مَبدَأ الإنزال كما في قوله جلّ ذِكره: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة، ٦٧/٥] ونظائرِه. والجملة صفة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾، مشرِّفةٌ له ولمَن أُنزل إليه؛ وجعلُه خبرًا له على معنى: "كتاب عظيمُ الشأنِ أُنزلَ إليك" خلافُ الأصل.

[٢٨٦ظ] ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ﴾ أي: شكٌّ، كما في قوله تعالى: / ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [يونس، ٩٤/١٠]؛ خَلَا أنّه عُبّر عنه بما يلازمه مِن الحَرَج -فإنّ الشاكّ يعتريه ضيقُ الصدر، كما أنّ المتيقِّن يعتريه انشراحه وانفساحه- مبالغةً في تنزيه ساحته عليه السلام عن نسبة الشكّ إليه ولو في ضِمن النهي، فإنّه مِن الأحوال القلبيّة التي يستحيل اعتراؤها إيّاه عليه السلام. وما قد يقع مِن نسبته إليه في ضمن النهي، فعلى طريقة التهييج والإلهاب والمبالغة في التنفير والتحذير بإيهامِ أنّ ذلك مِن القُبح والشرّيّة بحيث يُنهَى عنه مَن لا يمكن صدورُه عنه أصلًا، فكيف بمَن يمكن ذلك منه؟ والتنوين للتحقير.

والجارّ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡهُ﴾ متعلِّق بـ﴿حَرَجٌ﴾، يقال: "حَرِج منه"، أي: ضاق به صدرُه، أو بمحذوف وقع صفةً له، أي: حرجٌ كائنٌ منه، أي: لا يكنْ فيك شكٌّ ما في حقّيّته أو في كونه كتابًا منزلًا إليك مِن عنده تعالى؛ فـ"الفاء" على الأوّل لترتيب النهي أو الانتهاء على مضمون الجملة، فإنّه ممّا يوجِب انتفاءَ الشكّ فيما ذُكر بالكلّيّة وحصولَ اليقين به قطعًا؛ وأمّا على الثاني، فهي لترتيب ما ذُكر على الإخبار بذلك، لا على نفسه، فتدبَّرْ.

وتوجيه النهي إلى الحَرَج -مع أنّ المراد نهيُه عليه السلام عنه- إمّا لِما مرّ مِن المبالغة في تنزيهه عليه السلام عن الشكّ فيما ذُكر، فإنّ النهي عن الشيء ممّا يوهِم إمكانَ صدور المَنهي عنه عن المَنهي، وإمّا للمبالغة في النهي،

فإنَّ وقوع الشكِّ في صدره عليه السلام سببٌ لاتّصافه عليه السلام به، والنهيُ عن السبب نهيٌ عن المسبَّب بالطريق البرهاني ونفيٌ له عن أصله بالمرّة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ الآية [المائدة، ٢/٥، ٨]. وليس هذا مِن قبيل "لا أُرَيَنَّك ههنا"، فإنّ النهي هناك واردٌ على المسبَّب مرادًا به النهيُ عن السبب، فيكونُ المآل نهيَه عليه السلام عن تعاطي ما يُورث / الحرَجَ، فتأمَّلْ. [٢٨٧و]

وقيل: الحَرَج على حقيقته، أي لا يكنْ فيك ضيقُ صدر مِن تبليغه مخافةَ أن يكذِّبوك أو أن تقصِّر في القيام بحقّه؛ فإنّه عليه السلام كان يخاف تكذيبَ قومه له وإعراضَهم عنه، فكان يَضيق صدرُه مِن الأداء ولا ينبسِط له، فآمَنَه الله عزّ وجلّ ونهاه عن المُبالاة بهم؛ فـ"الفاء" حينئذ للترتيب على مضمون الجملة أو على الإخبار به، فإنّ كلًّا منهما موجِب للإقدام على التبليغ وزوالِ الخوف قطعًا، وإن كان إيجابُ الثاني بواسطة الأوّل.

وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب المنزل، متعلِّقٌ بـ﴿أُنزِلَ﴾، وما بينهما اعتراض توسَّطَ بينهما تقريرًا لِما قبله وتمهيدًا لِما بعده وحسمًا لتوهّمِ أنّ مَورِد الشكّ هو الإنزال للإنذار. وقيل: متعلِّق بالنهي، فإنّ انتفاء الشكّ في كونه منزلًا مِن عنده تعالى موجِبٌ للإنذار به قطعًا، وكذا انتفاءُ الخوف منهم أو العلمُ بأنّه موفَّق للقيام بحقّه موجِبٌ للتجاسر على ذلك. وأنت خبير بأنّه لا يتأتّى على التفسير الأوّل؛ لأنّ تعليلَ النهي عن الشكّ بما ذُكِر مِن الإنذار والتذكير مع إيهامه لإمكان صدوره عنه عليه السلام مُشعِرٌ بأنّ المَنهي عنه ليس محذورًا لذاته؛ بل لإفضائه إلى فَوَات الإنذار والتذكير، لا أقلَّ مِن الإيذان بأنّ ذلك معظم غائلته، ولا ريب في فساده. وأمّا على التفسير الثاني، فإنّما يتأتّى التعليلُ بالإنذار، لا بتذكير المؤمنين؛ إذ ليس فيه شائبة خوفٍ حتّى يُجعَل غايةً لانتفائه.

وقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في حيّز النصب بإضمار فعله معطوفًا على ﴿تُنذِرَ﴾، / أي: وتذكِّرَ المؤمنين تذكيرًا؛ أو الجرّ عطفًا على محلّ "أن تُنذِرَ"، أي: للإنذار والتذكير؛ وقيل: مرفوع عطفًا على ﴿كِتَـٰبٌ﴾، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف. [٢٨٧ظ]

وتخصيص التذكير بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالكَفَرة، أي: لتُنذِرَ به المشركين وتذكِّرَ المؤمنين. وتقديم الإنذار لأنّه أهمُّ بحسب المقام.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ كلام مستأنَف خُوطبَ به كافّة المكلّفين بطريق التلوين وأُمروا باتّباع ما أُمِر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبله بتبليغه بطريق الإنذار والتذكير. وجعلُه منزَلًا إليهم بواسطة إنزاله إليه عليه السلام إثر ذكر ما يصحّحه مِن الإنذار والتذكير[١] لتأكيد وجوب اتّباعه.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ متعلِّق بـ﴿أُنزِلَ﴾ على أنّ ﴿مِنۡ﴾ لابتداء الغاية مجازًا، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن الموصول أو مِن ضميره في الصلة. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين مزيدُ لطفٍ بهم وترغيبٌ لهم في الامتثال بما أُمروا به وتأكيدٌ لوجوبه. وجعلُ ما أُنزلَ ههنا عامًّا للسنّة القوليّة والفعليّة بعيدٌ؛ نعم، يعمّهما حكمُه بطريق الدلالة، لا بطريق العبارة.

ولمّا كان اتّباعُ ما أنزله الله تعالى اتّباعًا له تعالى، عُقّب الأمر بذلك[٢] بالنهي عن اتّباع غيره تعالى، فقيل: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: مِن دون ربّكم الذي أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحقّ. ومحلّه النصب على أنّه حال مِن فاعل فعلِ النهي، أي: لا تتّبِعوا متجاوِزين[٣] اللهَ تعالى ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ مِن الجنّ والإنس بأن تقبَلوا منهم / ما يُلقونه إليكم بطريق الوسوسة والإغواء مِن الأباطيل ليضلّوكم [٢٨٨و] عن الحقّ ويحمِلوكم على البِدع والأهواء الزائغة؛ أو مِن ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، قُدّم عليه لكونه نكرةً، إذ لو أُخّر عنه لَكان صفةً له، أي: أولياءَ كائنةً غيرَه تعالى. وقيل: الضمير للموصول على حذف المضاف في ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: ولا تتّبِعوا مِن دون ما أُنزلَ أباطيلَ أولياءَ، كأنّه قيل: ولا تتّبِعوا مِن دون دين ربّكم دينَ أولياءَ. وقُرئ: "وَلَا تَبْتَغُوا"[٤] كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ [آل عمران، ٣/٨٥].

---

[١] وفي هامش م: فإنّهما مِن مقتضَيات إنزاله إليهم. «منه».

[٢] وفي هامش م: أي: باتّباع ما أنزل الله تعالى.

[٣] س + دين.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري ومالك بن دينار. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٣.

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين وتخفيفِ الذال. وقُرِئ بتشديدها على إدغام التاء المهموسة في الذال المجهورة.[١] وقُرِئ: "يَتَذَكَّرُونَ"[٢] على صيغة الغَيبة.

و﴿قَلِيلًا﴾ نصب إمّا بما بعده على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف مقدَّمٍ للقَصر، أو لزمانٍ كذلك محذوفٍ، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد القلّة، أي: تذكُّرًا قليلًا أو زمانًا قليلًا تَذَكّرون، لا كثيرًا، حيث لا تتأثّرون بذلك ولا تعملون بموجَبه وتتركون دينَ الله تعالى وتتّبعون غيرَه. ويجوز أن يراد بالقلّة العدمُ كما قيل في قوله تعالى:[٣] ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة، ٨٨/٢]. والجملة اعتراض تذييلي مَسوقٌ لتقبيح حال المخاطَبين. والالتفات على القراءة الأخيرة للإيذان باقتضاء سوء حالهم في عدم الامتثال بالأمر والنهي صَرْفَ الخطاب عنهم وحكايةَ جناياتهم لغيرهم بطريق المُباثّة.

وإمّا[٤] نصبٌ على أنّه حال مِن فاعل ﴿لَا تَتَّبِعُوا﴾، و﴿مَا﴾ مصدريّة / مرتفعةٌ [٢٨٨ظ]
به، أي: لا تتّبعوا[٥] مِن دونه أولياءَ قليلًا تذكّرُكم؛ لكنْ لا على توجيه النهي إلى المقيَّد فقط كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء، ٤٣/٤]، بل إلى المقيَّد والقيد جميعًا. وتخصيصه بالذِّكر لمَزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المُنكَرَين.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ شروع في إنذارهم بما جرى على الأمم الماضية بسبب إعراضهم عن اتّباع دين الله تعالى وإصرارِهم على اتّباع دين أوليائهم. و﴿كَمْ﴾ خبريّة للتكثير في موضع رفعٍ على الابتداء كما في قولك: "زيدٌ ضربتُه"، والخبر هو الجملة بعدها، و﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ تمييز، والضمير في ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾

---

١ أي: "تَذَكَّرُونَ". قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٦٧/٢.

٣ م – تعالى.

٤ السياق: و﴿قَلِيلًا﴾ نصبٌ إمّا بما بعده... وإمّا نصبٌ على أنّه حال...

٥ س – أي: لا تتّبعوا.

راجعٌ إلى معنى ﴿كَمْ﴾، أي: كثيرٌ مِن القُرَى أهلكناها؛ أو في موضع نصبٍ بـ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر، ٤٩/٥٤]. والمراد بإهلاكها إرادة إهلاكها كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة، ٦/٥]، أي: أردنا إهلاكها.

﴿فَجَآءَهَا﴾ أي: فجاء أهلَها ﴿بَأْسُنَا﴾ أي: عذابُنا ﴿بَيَـٰتًا﴾ مصدرٌ بمعنى الفاعل، واقعٌ موقعَ الحال، أي: بائتين، كقوم لوطٍ، ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ عطفٌ عليه، أي: أو قائلين؛ مِن القَيْلولة نِصفَ النهار، كقوم شُعيب. وإنّما حُذفت الواو مِن الحال المعطوفة على أُختها استثقالًا لاجتماع العاطفَين، فإنّ واو الحال حرفُ عطف قد استُعيرت للوصل؛ لا اكتفاءً بالضمير كما في "جاءني زيد هو فارس"، فإنّه غيرُ فصيح. وتخصيص الحالتين بـ"العذاب" لِما أنّ نزول المكروه عند الغفلة والدَّعَة أفظَعُ وحكايتَه للسامعين أزجَرُ وأردَعُ عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة. ووصفُ الكلّ / بوصفَي البَيَات والقَيْلولة -مع أنّ بعض المُهلَكين [٢٨٩و] بمَعزِلٍ منهما، لاسيّما القَيْلولة- للإيذان بكمال غفلتهم وأمنهم.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝٥﴾

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: دعاؤهم واستغاثتُهم ربَّهم، أو ما كانوا يدّعونه مِن دينهم وينتحلونه مِن مذهبهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابُنا وعاينوا أماراته، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾ جميعًا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ أي: إلّا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتهم ببطلانه تحسّرًا عليه وندامةً وطمَعًا في الخلاص؛ وهيهاتَ ولاتَ حينَ نجاةٍ.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ بيان لعذابهم الأُخروي إثر بيان عذابهم الدُّنيويّ، خَلَا أنّه قد تعرّض لبيان مبادي أحوال المكلَّفين جميعًا لكونه أدخلَ في التهويل. و"الفاء" لترتيب الأحوال الأُخرويّة على الدُّنيويّة ذِكرًا حسب ترتّبها عليها وجودًا، أي: لَنسألنّ الأمم قاطبةً قائلين: ماذا أَجبتم المرسَلين؟

﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عمّا أجيبوا. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥]. والمراد بالسؤال توبيخ الكَفَرة وتقريعُهم. والذي نُفِي بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص، ٧٨/٢٨] سؤالُ الاستعلام، أو الأوّلُ في موقف الحساب، والثاني في موقف العقاب.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الرُّسل حين يقولون: «لا علمَ لنا، إنّك أنت علّامُ الغُيوب»،[1] أو عليهم وعلى المرسَل إليهم جميعًا ما كانوا عليه. ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: عالمين بظواهرهم وبواطنِهم أو بمعلومنا منهم. ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ / عنهم [٢٨٩ظ] في حال مِن الأحوال، فيخفي علينا شيء مِن أعمالهم وأحوالهم. والجملة تذييل مقرِّر لِما قبلها.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي: وزنُ الأعمال والتمييزُ بين راجحها وخفيفها وجيّدِها ورَديئها. ورفعُه على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبرُه، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفتُه، أي: والوزن الحقّ ثابتٌ يومَ إذ يكون السؤال والقَصُّ. وقيل: خبرُ مبتدأ محذوف، كأنّه قيل: ما ذلك الوزن؟ فقيل: الحقّ، أي: العدل السويّ. وقُرئ: "القِسطُ".[2]

واختُلف في كيفيّة الوزن. والجمهور على أنّ صحائف الأعمال هي التي تُوزَن بميزانٍ له لسانٌ وكِفّتان[3] يَنظر إليه الخلائق إظهارًا للمَعدلة وقطعًا للمَعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم، فيعترف بها ألسنتهم وجوارحهم، وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد، وكما يُثبَت في صحائفهم، فيقرءونها في موقف الحساب. ويؤيّده ما رُوي أنّ الرجل يؤتَى به إلى الميزان، فيُنشَر له تسعة وتسعون سجلًّا

---

[1] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥].

[2] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٨٩/٢.

[3] وفي هامش م: معًا. | يعني: بفتح الكاف وكسرها.

مَدَى البصر، فيُخرَج له بِطاقة[١] فيها كلمتا الشهادةِ، فتوضَع السجِلّات في كِفّة والبِطاقةُ في كِفّة، فتطيش السجِلّاتُ وتثقُل البطاقةُ.[٢]

وقيل: يوزَن الأشخاص، لِما رُوي عنه عليه السلام: «إنّه لَيأتي العظيم السمينُ يومَ القيامة، لا يزنُ عند الله جَناحَ بَعُوضة».[٣]

[٢٩٠و] / وقيل: الوزن عبارة عن القضاء السّوي والحُكم العادل. وبه قال مجاهد والأعمش والضحّاك، واختاره كثير مِن المتأخِّرين[٤] بناءً على أنّ استعمال لفظ "الوزن" في هذا المعنى شائعٌ في اللغة والعُرفِ بطريق الكناية.

قالوا: إنّ الميزان إنّما يُراد به التوصّل إلى معرفة مقادير الشيء، ومقاديرُ أعمال العباد لا يمكن إظهارُها بذلك؛ لأنّها أعراضٌ قد فَنِيَت، وعلى تقدير بقائها لا تَقبل الوزن. وقيل: إنّ الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصُوَر عرضيّة تبرُز في النشأة الآخرة بصُوَر جوهريّة مناسبةٍ لها في الحسن والقُبح، حتّى إنّ الذنوب والمعاصيَ تتجسّم هناك وتتصوّر بصورة النار.

وعلى ذلك حُمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة، ٤٩/٩؛ العنكبوت، ٥٤/٢٩] وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾ [النساء، ١٠/٤]، وكذا قولُه عليه السلام في حقّ مَن يشرب مِن إناء الذَّهَب والفِضّة: «إنّما يُجرجِر في بطنه نارَ جهنّم».[٥] ولا بُعدَ في ذلك؛ ألَا يُرى أنّ العلم يظهر في عالَم المِثال على صورة اللبن كما لا يخفي على مَن له خِبرة بأحوال الحَضَرات الخمس. وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: «أنّه يؤتَى بالأعمال الصالحة على صُوَر حسنة وبالأعمال السيّئة على صُوَر قبيحة،

---

١ وفي هامش م: رقعة. | البِطاقة بالكسر: رُقَيعة توضَع في الثّوب فيها رقم الثّمَن. الصحاح للجوهري، «بطق».

٢ أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٥٧٠/١١-٥٧١ (٦٩٩٤)؛ وابن ماجة في سننه، ٣٥٦/٥ (٤٣٠٠)؛ والترمذي في سننه، ٢٤/٥-٢٥ (٢٦٣٩)، مِن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦/٣.

٣ صحيح البخاري، ٩٣/٦ (٤٧٢٩)؛ صحيح مسلم، ٢١٤٧/٤ (٢٧٨٥).

٤ انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٢٤/٩؛ واللباب لابن عادل، ٢٢/٩.

٥ صحيح البخاري، ١١٣/٧ (٥٦٣٤)؛ صحيح مسلم، ١٦٣٤/٣ (٢٠٦٥).

فتوضَع في الميزان».[١]

إنْ قيل: إنّ المكلَّف / يومَ القيامة إمّا مؤمن بأنّه تعالى حكيم منزَّهٌ عن الجَوْر، فيكفيه حكمه تعالى بكيفيّات الأعمال وكمّيّاتها، وإمّا منكِرٌ له، فلا يسلِّم حينئذ أنّ رجحان بعض الأعمال على بعضٍ لخصوصيّات راجعةٍ إلى ذوات تلك الأعمال؛ بل يُسنده إلى إظهار الله تعالى إيّاه على ذلك الوجه، فما الفائدة في الوزن؟ [٢٩٠ظ]

أُجيبَ بأنّه ينكشف الحال يومئذ، ويظهر جميع الأشياء بحقائقها على ما هي عليه وبأوصافها وأحوالها في أنفسها مِن الحسن والقبح وغير ذلك، وتنخلع عن الصُّوَر المستعارة التي بها ظهرت في الدنيا، فلا يبقى لأحد ممّن يشاهدها شُبهة في أنّها هي التي كانت في الدنيا بعينها، وأنّ كلّ واحد منها قد ظهر في هذه النشأة بصورته الحقيقيّة المستتبعةِ لصفاته، ولا يخطُر بباله خلافُ ذلك. والله تعالى[٢] أعلم.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ تفصيل للأحكام المترتِّبة على الوزن. و"الموازين" إمّا جمعُ "مِيزان"، أو جمعُ "مَوزون" على أنّ المراد به ما له وزنٌ وقدْرٌ، وهو الحَسَنات، فإنّ رجحان أحدهما مستلزم لرجحان الآخَر، أي: فمَن رجَحت موازينه التي توزَن بها حسناته أو أعمالُه التي لها قدر وزِنة. وعن الحسن البصري: «وحُقَّ لميزانٍ توضَع فيه الحسنات أن يثقُل، وحُقَّ لميزانٍ توضَع فيه السيّئات أن يَخِفَّ».[٣]

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بثِقَل المَوازين. والجمعيّة باعتبار معناه، كما أنّ جمعَ "المَوازين" لذلك. وأمّا ضمير ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾، فراجعٌ إليه باعتبار لفظه. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ طبقتهم وبُعد منزلتهم في الفضل والشرف.

---

[١] اللباب لابن عادل، ٢٣/٩-٢٤. ونحوه عنه رضي الله عنهما في التفسير البسيط للواحدي، ٢٤/٩.
[٢] س - تعالى.
[٣] الكشّاف للزمخشري، ٨٩/٢.

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب. و﴿هُمْ﴾ إمّا ضميرُ فصل يفصل بين / الخبر والصفة ويؤكِّدُ النسبةَ ويفيد اختصاصَ المسنَد بالمسند إليه، أو مبتدأٌ، خبرُه ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والجملة خبرٌ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. وتعريف ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ للدلالة على أنّهم الناس الذين بلغك أنّهم مفلِحون في الآخرة، أو إشارة إلى ما يعرفه كلّ أحد مِن حقيقة المفلحين وخصائصهم. [٢٩١و]

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: مَوازينُ أعماله، أو أعمالُه التي لا وزن لها ولا اعتدادَ بها، وهي أعماله السيّئة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتّصافهم بتلك الصفة القبيحة. والجمعيّة ومعنى البُعد لِما مرّ آنفًا في نظيره. وهو مبتدأ، خبرُه: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ أي: ضيَّعوا الفطرة السليمةَ التي فُطروا عليها، وقد أُيِّدت بالآيات البيّنة.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿خَسِرُوا﴾، و﴿مَا﴾ مصدريّة، و﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ متعلِّق بـ﴿يَظْلِمُونَ﴾ على تضمين معنى التكذيب، قُدِّم عليه لمراعاة الفواصلِ. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا، أي: فأولئك الموصوفون بخِفّة الموازين الذين خسِروا أنفسَهم بسبب تكذيبهم المستمرّ بآياتنا ظالمين.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لمّا أمر الله سبحانه أهل مكّةَ باتّباع ما أنزل إليهم ونهاهم عن اتّباع غيره وبيّن لهم وخامةَ عاقبته بالإهلاك في الدنيا والعذاب المخلَّد في الآخرة، ذكَّرهم ما أفاض عليهم مِن فنون النِّعم الموجِبة للشكر ترغيبًا في الامتثال بالأمر والنهي إثرَ ترهيبٍ، أي: جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، أو ملّكناكم فيها وأقدرناكم على التصرّف فيها.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ المَعايش: / جمعُ "مَعيشة"، وهي ما يُعاش به مِن المطاعم والمشارب وغيرها، أو ما يُتوصّل به إلى ذلك. والوجه في قراءته [٢٩١ظ]

إخلاصُ الياء. وعن ابن عامر[١] أنّه همزة[٢] تشبيهًا له بـ"صحائف" و"مدائن". والجعل بمعنى الإنشاء والإبداع، أي: أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعكم فيها أسبابًا تَعيشون بها. وكلّ واحد مِن الظرفين متعلِّق به، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن مفعوله المنكّر، إذ لو تأخّر لَكان صفةً له؛ وتقديمُهما على المفعول -مع أنّ حقّهما التأخّر عنه- لِما مرّ غيرَ مرّةٍ مِن الاعتناء بشأن المقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، فإنّ النفس عند تأخير ما حقُّه التقديم -لاسيّما عند كون المقدَّم مُنبِئًا عن منفعة للسامع- تبقى مترقِّبةً لورود المؤخَّر، فيتمكّن فيها عند الورود فضل تمكّنٍ. وأمّا تقديم "اللام" على "في"، فلِما أنّه المنبِئ عمّا ذُكر مِن المنفعة، فالاعتناء بشأنه أتمُّ والمسارعةُ إلى ذكره أهمُّ.

هذا، وقد قيل: إنّ الجعل متعدٍّ إلى مفعولَين، ثانيهما أحدُ الظرفين على أنّه مستقَرّ، قُدّم على الأوّل، والظرفُ الآخَر إمّا لغوٌ متعلِّقٌ بالجعل، أو بالمحذوف الواقع حالًا مِن المفعول الأوّل كما مرّ. وأنت خبير بأنّه لا فائدةَ يُعتدّ بها في الإخبار بجعل المَعايش حاصلةً لهم أو حاصلةً في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تلك النعمةَ، تذييلٌ مَسوقٌ لبيان سوء حال المخاطَبين وتحذيرِهم. وبقيّة الكلام فيه عينُ ما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف، ٣/٧].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾

---

١ هو عبد الله بن عامر بن يزيد اليَحْصبي، أبو عمران (ت. ١١٨هـ/٧٣٦م). أحد القرّاء السبعة، مُقرئ الشام، تابعيّ. ولي قضاء دمشق. وأمّ المسلمين بالجامع الأمويّ سنينَ كثيرةً. أجمع الناس على قراءته وعلى تلقّيها بالقبول. أخذ القراءة عرضًا عن أبي الدّرداء، وعن المغيرة بن أبي شِهاب صاحبِ عثمان بن عفّان. وحدّث عن معاوية والنعمان بن بشير وفَضالة بن عُبيد وواثلةَ بن الأسقع، وعدّة. وحدّث عنه ربيعة بن يزيد القصير والزُّبيدي ويحيى الذِّماري وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر وعبد الله بن العَلاء، وجماعة. والمعتمَد المشهور في قراءته رواية هشام بن عمّار وابن ذَكوان عنه. انظر: **معرفة القرّاء** للذهبي، ص ٤٦-٤٩؛ وغاية **النهاية** لابن الجزري، ٤٢٣/١-٤٢٤؛ والنشر لابن الجزري، ١٣٥/١-١٤٦.

٢ انظر تعليق أبي حيّان عليها في **البحر المحيط**، ١٥/٥.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ تذكير لنعمة عظيمة فائضةٍ على آدمَ عليه السلام / ساريةٍ إلى ذُرّيّته موجِبةٍ لشكرهم كافّةً. وتأخيره عن تذكير ما وقع [٢٩٢و] قبله مِن نعمة التمكين في الأرض إمّا لأنّها فائضة على المخاطَبين بالذات، وهذه بالواسطة، وإمّا للإيذان بأنّ كلًّا منهما نعمة مستقلّة مستوجِبة للشكر على حِيالها، فإنّ رعاية الترتيب الوقوعي ربّما تؤدّي إلى توهّم عَدّ الكلّ نعمةً واحدةً كما ذُكر في قصّة البقرة.[١] وتصدير الجملتين بالقَسم وحرفِ التحقيق لإظهار كمال العناية بمضمونهما.

وإنّما نُسب الخلق والتصوير إلى المخاطَبين -مع أنّ المراد بهما خلقُ آدمَ عليه السلام وتصويرُه حتمًا- توفيةً لمقام الامتنان حقَّه وتأكيدًا لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أنّ لهم حظًّا مِن خلقه عليه السلام وتصويرِه لِما أنّهما ليسا مِن الخصائص المقصورة عليه عليه السلام كسجود الملائكة له عليه السلام؛ بل مِن الأمور السارية إلى ذُرّيّته جميعًا، إذ الكلُّ مخلوق في ضِمن خلقه على نمطه ومصنوعٌ على شاكلته، فكأنّهم الذي تعلّق به خلقه وتصويرُه، أي: خلقنا أباكم آدمَ عليه السلام طِينًا غيرَ مصوَّرٍ، ثمّ صوّرناه أبدعَ تصويرٍ وأحسنَ تقويمٍ سارَ إليكم جميعًا.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ صريح في أنّه ورد بعد خلقه عليه السلام وتسويته ونفخِ الروح فيه؛ أمرٌ مُنجَزٌ غيرُ الأمر المعلَّق الواردِ قبل ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ٢٩/١٥؛ ص، ٧٢/٣٨]. وهو المراد بما حُكي بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ الآية في سورة البقرة [٣٤/٢] وسورة بني إسرئيلَ [٦١/١٧] وسورة الكهف [٢٩٢ظ] [٥٠/١٨] / وسورةِ طه [١١٦/٢٠]، مِن غير تعرّض لوقته. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ ههنا يقتضي تَراخِيَه عن التصوير مِن غير تعرّض لبيان ما جرى بينهما مِن الأمور.

وقد بيّنّا في سورة البقرة أنّ ذلك ظهور فضل آدمَ عليه السلام بعد المحاورة المسبوقة بالإخبار باستخلافه عليه السلام حسبما نطق به قوله عزّ وجلّ:

---

[١] انظر: تفسير البقرة، ٧٣/٢.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٣٠/٢] إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة، ٣٣/٢]؛ فإنّ ذلك أيضًا مِن جملة ما نِيطَ به الأمر المعلَّق مِن التسوية ونفخ الروح.

وعدمُ ذكره عند الحكاية لا يقتضي عدمَ ذكره عند وقوع المَحكيّ، كما أنّ عدم ذكر الأمر المعلَّق عند حكاية الأمر المنجَّز لا يستلزم عدمَ مسبوقيّته به. فإنّ حكاية كلام واحد على أساليبَ مختلفةٍ يقتضيها المقام ليست بعزيزة في الكلام العزيز؛ فلعلّه قد أُلقيَ إلى الملائكة عليهم السلام أوّلًا جميعُ ما يتوقّف عليه الأمر المنجَّز إجمالًا بأنْ قيل مثلًا: «إنّي خالقٌ بشرًا مِن كذا وكذا، وجاعلٌ إيّاه خليفةً في الأرض، فإذا سوّيتُه ونفختُ فيه مِن روحي وتبيَّنَ لكم فضله، فقَعُوا له ساجدين»، فخلَقَه، فسَوّاه، فنفخ فيه مِن روحه، فقالوا عند ذلك ما قالوا؛ أو أُلقيَ إليهم خبر الخلافة بعد تحقّق الشرائط المذكورة بأن قيل إثرَ نفخ الروح: «إنّي جاعلٌ هذا خليفةً في الأرض»، فهنالك ذكروا في حقّه عليه السلام ما ذكروا، فأيّده الله تعالى بتعليم الأسماء، فشاهدوا منه عليه السلام ما شاهدوا، فعند ذلك ورد الأمر المنجَّز اعتناءً بشأن / المأمور به وإيذانًا بوقته. وقد حُكي بعض الأمور المذكورة في بعض المواطن وبعضُها في بعضها اكتفاءً بما ذُكر في كلّ مَوطن عمّا تُرك في موطن آخرَ. [٢٩٣و]

والذي يرفع غشاوةَ الاشتباه عن البصائر السليمة أنّ ما في سورة ص مِن قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [ص، ٧١/٣٨] بدلٌ مِن قولِه: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فيما قبله مِن قوله: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص، ٦٩/٣٨]، أي: بكلامهم عند اختصامهم. ولا ريب في أنّ المراد بـ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الملائكة وآدمُ عليهم السلام وإبليسُ حسبما أطبَقَ عليه جمهورُ المفسِّرين، وباختصامِهم ما جرى بينهم في شأن الخلافة مِن التقاول الذي مِن جملته ما صدر عنه عليه السلام مِن الإنباء بالأسماء.

ومِن قضيّة البدليّة وقوعُ الاختصام المذكور في تضاعيف ما شُرح فيه مفصَّلًا مِن الأمر المعلَّق، وما عُلّق به مِن الخلق والتسوية ونفخِ الروح فيه،

وما ترتَّب عليه مِن سجود الملائكة وعنادِ إبليسَ ولعنِه وإخراجِه مِن بين الملائكة، وما جرى بعده مِن الأفعال والأقوال. وإذ ليس تمامُ الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة إبليسَ وطردِه مِن البَيْن لِما عرفتَ مِن أنّه أحدُ المختصمِين، كما أنّه ليس قبل الخلق ضرورةً، فإذن هو بعد نفخ الروح وقبلَ السجود بأحد الطريقين المذكورين. والله تعالى أعلمُ.

﴿فَسَجَدُوا﴾ أي: الملائكة عليهم السلام بعد الأمر مِن غير تَلعثُمٍ.[1] ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناء متّصل لِما أنّه كان جِنّيًا مفردًا مغمورًا بألوفٍ مِن الملائكة متّصفًا بصفاتهم، فغُلّبوا عليه في ﴿فَسَجَدُوا﴾، ثمّ استُثني استثناءَ واحدٍ منهم، / أو لأنّ مِن الملائكة جنسًا يتوالدون، يقال لهم: "الجنُّ" كما مرّ في سورة البقرة،[2] فقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: ممّن سجد لآدمَ، كلامٌ مستأنَف مبيِّنٌ لكيفيّة عدم السجود المفهومِ مِن الاستثناء، فإنّ عدم السجود قد يكون للتأمّل، ثمّ يقع السجود، وبه عُلم أنّه لم يقع قطُّ. وقيل: منقطِعٌ، فحينئذ يكون متّصلًا بما بعده، أي: لكنّ إبليس لم يكن مِن الساجدين. [٢٩٣ظ]

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مَسوق للجواب عن سؤالٍ نشأ مِن حكاية عدم سجوده، كأنّه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذ؟ وبه يظهر وجه الالتفات إلى الغَيبة، إذ لا وجهَ لتقدير السؤال على وجه المخاطبة. وفيه فائدة أخرى هي الإشعار بعدم تعلّق المَحكي بالمخاطَبين كما في حكاية الخلْق والتصوير.

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ أي: أن تسجُد، كما وقع في سورة ص.[3] و﴿لَا﴾ مَزيدة مؤكِّدة لمعنى الفعل الذي دخلت عليه، كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد، ٢٩/٥٧]، منبِهةً على أنّ الموبَّخ عليه تركُ السجود. وقيل:

---

[1] تَلَعْثَمَ الرّجل في الأمر، إذا تمكّث فيه وتأنّى. الصحاح للجوهري، «لعثم».

[2] انظر: تفسير البقرة، ٣٤/٢.

[3] ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص، ٧٥/٣٨].

الممنوع عن الشيء مصروفٌ إلى خلافه، فالمعنى: ما صرفك إلى ألّا تسجُدَ.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قيل: فيه دلالة على أنّ مطلَق الأمر للوجوب والفَوْر. وفي سورة الحِجر: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ٣٢/١٥]، وفي سورة ص: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص، ٧٥/٣٨]. واختلاف العبارات عند الحكاية يدلّ على أنّ اللَّعين قد أدمَجَ في معصية واحدة ثلاثَ مَعاصٍ: مخالفة الأمر ومفارقة الجماعة والإباءُ عن الانتظام / في سِلك أولئك [٢٩٤و] المقرَّبين والاستكبارُ مع تحقير آدمَ عليه السلام. وقد وُبّخ حينئذ على كلّ واحدة منها، لكنْ اقتُصر عند الحكاية في كلّ مَوطن على ما ذُكر فيه اكتفاءً بما ذُكر في موطن آخرَ، وإشعارًا بأنّ كلّ واحدة منها كافية في التوبيخ وإظهارِ بطلانِ ما ارتكبه. وقد تُركت حكاية التوبيخ رأسًا في سورة البقرة وسورة بني إسرائيلَ وسورة الكهف وسورة طه.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبق، مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن حكاية التوبيخ، كأنّه قيل: فماذا قال اللَّعين عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ متجانِفًا عن تطبيق جوابه على السؤال بأن يقول: «منعني كذا»، مدّعِيًا لنفسه بطريق الاستئناف شيئًا بيّنَ الاستلزامِ لمنعه مِن السجود على زعمه، ومشعِرًا بأنّ مَن شأنه هذا لا يحسُن أن يسجد لمَن دونه، فكيف يحسُن أن يُؤمَر به، كما يُنبئ عنه ما في سورة الحِجر مِن قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر، ٣٣/١٥]. فهو أوّلُ مَن أسّس بُنيان التكبّر واخترع القولَ بالحُسن والقُبح العقليَّين.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تعليل لِما ادّعاه مِن فضله عليه. ولقد أخطأ اللعينُ، حيث خَصّ الفضل بما مِن جهة المادّة والعُنصُر، وزلّ عنه ما مِن جهة الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص، ٧٥/٣٨]، أي: بغير واسطة على وجه الاعتناء به، وما مِن جهة الصورة، كما نبّه عليه بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر، ٢٩/١٥؛ ص، ٧٢/٣٨]، وما مِن جهة الغاية، وهو مِلاك الأمر؛ / ولذلك أمر الملائكة [٢٩٤ظ]

بسجوده عليه السلام حين ظهر لهم أنّه أعلمُ منهم بما يدور عليه أمرُ الخلافة في الأرض، وأنّ له خواصَّ ليست لغيره. وفي الآية دليل على الكون والفساد، وأنّ الشياطين أجسام كائنة. ولعلّ إضافةَ خلق البشر إلى الطين والشياطينِ إلى النار باعتبار الجُزء الغالب.

﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ لترتيب الأمر على ما ظهر مِن اللعين مِن مخالفة الأمر وتعليلِه بالأباطيل وإصرارِه على ذلك، أي: فاهبِطْ مِن الجنّة. والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه مِن سكّانها. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كانوا في عَدْنٍ، لا في جنّة الخُلد».[١] وقيل: مِن زُمرة الملائكة المعزّزين، فإنّ الخروج مِن زمرتهم هبوط، وأيّ هبوط! وفي سورة الحِجر: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ [١٥/٣٤].

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد الهُبوط مِن السماء،[٢] فيردّه أنّ وسوسته لآدمَ عليه السلام كانت بعد هذا الطرد، فلا بدّ أن يُحمَل على أحد الوجهين قطعًا، ويكون وسوسته على الوجه الأوّل بطريق النداء مِن باب الجنّة، كما رُوي عن الحسن البصري رحمه الله.[٣]

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ أي: فما يصحّ ولا يستقيم لك ولا يَليق بشأنك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: في الجنّة أو في زُمرة الملائكة، تعليلٌ للأمر بالهُبوط؛ فإنّ عدم صحّةِ أن يتكبّر فيها علّةٌ للأمر المذكور، فإنّها مكان المُطيعين الخاشعين. ولا دلالةَ فيه على جواز التكبّر في غيرها. وفيه تنبيه على أنّ التكبّر لا يليق بأهل الجنّة، وأنّه تعالى إنّما طرده لتكبّره، لا لمجرّد عصيانه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ تأكيد للأمر بالهُبوط، متفرّعٌ على علّته. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ تعليل للأمر بالخروج، مُشعِرٌ بأنّه لتكبّره، أي: مِن / الأذِلّاء [٢٩٥و]

---

١ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥/١٨؛ اللباب لابن عادل، ٩/٣٦.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٩٠.

٣ س - رحمه الله. | قوله في التفسير الوسيط للواحدي، ١/١٢٢ (البقرة، ٢/٣٦)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١/٨٣ (البقرة، ٢/٣٦).

وأهلِ الهَوان على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبُّرك. وعن عمر رضي الله عنه: «مَن تواضَعَ لله، رفَعَ الله حَكَمَتَه[١] -وقال: انتعِش، نَعشَك الله-[٢] ومَن تكبَّرَ وعَدَا طَوْرَه، وَهَصَه[٣] الله إلى الأرض».[٤]

﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ، مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: فماذا قال اللّعين بعد ما سمع هذا الطرد المؤكَّد؟ فقيل: قال: ﴿أَنظِرْنِىٓ﴾ أي: أَمهِلْني، ولا تُمِتْني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: آدمُ وذُرّيّتُه للجزاء بعد فنائهم. وهو وقت النفخة الثانية. وأراد اللعين بذلك أن يجد فُسحةً مِن إغوائهم، ويأخذَ منهم ثأرَه، وينجُوَ مِن الموت لاستحالته بعد البعث.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف. ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ وورود الجواب بالجملة الاسميّة مع التعرّض لشمول ما سأله لآخَرين على وجهٍ يُشعر بأنّ السائل تبعٌ لهم في ذلك صريحٌ في أنّه إخبار بالإنظار المقدَّر لهم أزَلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به إجابةً لدعائه، وأنّ استنظاره كان طلبًا لتأخير الموت، إذ به يتحقّق كونه

---

١ الحَكَمَة مِن الإنسان: مقدَّم وجهه، وقيل: أسفل وجهه؛ مستعار مِن موضع حَكَمَة اللِّجام. ومِن المجاز: حَكَمَة الإنسان: رأسه وشأنه وأمره. يقال: رفع الله حَكَمَتَه، أي: رأسَه وشأنَه وأمرَه. وهو كناية عن الإعزاز؛ لأنّ مِن صفة الذليل أن ينكِّس رأسه. تاج العروس للزبيدي، «حكم».

٢ قال الطيبي في فتوح الغيب، ٣٣٩/٦: «قوله: "انتعِش"، أي: ارتفِع. يقال: "نَعَشَه الله ينعَشُه" إذا رفَعَه، و"انتعش العاثر" إذا نهض مِن عثرته. وهو اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه مِن قول عمر رضي الله عنه، أو هو عطفٌ على "رفَعَ الله"، أي: أراد الله رفعَه؛ قال: "انتعِش نَعَشَك الله"، أي: رفَعَك».

٣ الوَهْص: شدّة وَطْءِ القَدَم على الأرض، شدَخه أو لم يشدخه. وكذلك إذا وضع قدمه على شيءٍ فشدَخه، تقول: وهَصَه. ومعنى "وهَصَه الله إلى الأرض": كأنّه رُمي رَميًا عنيفًا. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٧١/٤ «باب الهاء والسين».

٤ هو مع اختلاف بالنقص والزيادة في مصنّف ابن أبي شيبة، ٣٢٩/٥ (٢٦٥٨٣)؛ والآداب للبيهقي، ص ٨١ (٢٤٣). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٩٠/٢.

مِن جملتهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل،[١] أي: إنّك مِن جملة الذين أخّرت آجالهم أزَلًا حسبما يقتضيه الحكمة التكوينيّة إلى وقتِ فناءِ غير مَن[٢] استثناه الله تعالى مِن الخلائق، وهو النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث الذي هو المسئول.

وقد تُرك التوقيت للإيجاز ثقةً بما وقع في سورة الحِجر وسورة ص، كما تُرك / ذكر النداء و"الفاءِ" في الاستنظار والإنظار تعويلًا على ما ذُكر فيهما [٢٩٥ظ] بقوله عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ [الحجر، ١٥/٣٦-٣٨؛ ص، ٣٨/٧٩-٨١]. وفي إنظاره ابتلاء للعِباد وتعريضٌ للثواب.

إن قلتَ: لا ريبَ في أنّ الكلام المَحكي له عند صدوره عن المتكلِّم حالةٌ مخصوصةٌ يقتضي ورودَه على وجه خاصّ مِن وجوه النظم، بحيث لو أُخلَّ بشيء مِن ذلك، سقَطَ الكلام عن رتبة البلاغة البتّة. فالكلام الواحد المَحكيُّ على وجوه شتّى إن اقتضى الحالُ ورودَه على وجه معيَّن مِن تلك الوجوه الواردة عند الحكاية، فذلك الوجه هو المطابِق لمقتضى الحال والبالغُ إلى رتبة البلاغة دون ما عداه مِن الوجوه. إذا تمهَّدَ هذا، فنقول: لا يخفى أنّ استنظار اللعين إنّما صدر عنه مرّةً واحدةً لا غيرُ، فمقامُه إن اقتضى إظهارَ الضراعة وترتيبَ الاستنظار على ما حاقَ به مِن اللعن والطرد على نهج استدعاء الجبر في مقابلة الكسر كما هو المتبادر مِن قوله تعالى:[٣] ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِي﴾ [الحجر، ١٥/٣٦؛ ص، ٣٨/٧٩] حسبما حُكي عنه في السورتين، فما حُكي ههنا يكون بمَعزِل مِن المطابقة لمقتضى الحال فضلًا عن العُروج إلى معارج الإعجاز.

قلنا: مقام استنظاره مقتضٍ لِما ذُكر مِن إظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على الحِرمان المدلول عليه بالطرد والرجم. وكذا مقام الإنظار مقتضٍ لترتيب الإخبار بالإنظار على الاستنظار. وقد طُبّق الكلام عليه في تَيْنِك السورتين، ووُفّيَ كلُّ واحد مِن مقامَي الحكاية والمَحكي جميعًا حظَّه. وأمّا ههنا، فحيث

---

[١] ذكره البيضاوي بصيغة التمريض في أنوار التنزيل، ٣/٧.

[٢] س: ما.

[٣] م - تعالى.

اقتضى مقامُ الحكاية مجرّدَ الإخبار بالاستنظار والإنظار، سِيقت الحكاية على نهج الإيجاز والاختصار مِن غير تعرّضٍ لبيان كيفيّة كلّ واحد منهما عند المخاطبة والحِوار.

/ **إن قلتَ**: فإذن لا يكون ذلك نقلًا للكلام على ما هو عليه، ولا مطابِقًا لمقتضى المقام؛ **قلنا**: الذي يجب اعتباره في نقل الكلام إنّما هو أصل معناه ونفسُ مدلوله الذي يفيده. وأمّا كيفيّة إفادته له، فليس ممّا يجب مراعاته عند النقل البتّة؛ بل قد تُراعَى، وقد لا تُراعَى حسب اقتضاء المقام. ولا يقدح في أصل الكلام تجريده عنها؛ بل قد يُراعَى عند نقله كيفيّات وخصوصيّات لم يُراعِها المتكلِّمُ أصلًا. ولا يُخلّ ذلك بكون المنقول أصلَ المعنى. ألا يُرى أنّ جميع المقالات المنقولة في القرآن الكريم إنّما تُحكَى بكيفيّات واعتباراتٍ لا يكاد يقدر على مراعاتها مَن تكلَّم بها حتمًا؛ وإلّا لَأمكن صدورُ الكلام المعجِز عن البشر فيما إذا كان المَحكيُّ كلامًا. [٢٩٦و]

وأمّا عدم مطابقته لمقتضى الحال، فمَنشؤه الغفلة عمّا يجب توفير مقتضاه مِن الأحوال، فإنّ ملاك الأمر هو مقام الحكاية. وأمّا مقام وقوع المَحكيّ، فإن كان مقتضاه موافِقًا لمقتضى مقام الحكاية، يُوفَّى كلّ واحد مِن المقامَين حقَّه كما في سورة الحِجر وسورة ص، فإنّ مقام الحكاية فيهما لمّا كان مقتضيًا لبسط الكلام وتفصيلِه على الكيفيّات التي وقع عليها، رُوعِي حقّ المقامين معًا. وأمّا في هذه السورة الكريمة، فحيث اقتضى مقامُ الحكاية الإيجازَ، رُوعِي جانبه.

ألا يُرى أنّ المخاطَب المنكِرَ إذا كان ممّن لا يفهم إلّا أصل المعنى، وجب على المتكلِّم أن يجرِّد كلامَه عن التأكيد وسائرِ الخواصّ والمزايا التي يقتضيها المقام، ويخاطِبَه بما يناسبه مِن الوجوه، لكنّه مع ذلك يجب أن يقصد معنًى زائدًا يفهمه سامعٌ آخرُ بليغٌ -هو تجريده عن الخواصّ- رعايةً لمقتضى حال المخاطَب في الفهم. / وبذلك يرتقي كلامُه عن رتبة أصوات الحيوانات كما حُقّق في مقامه. فإذا وجب مراعاة مقام الحكاية مع إفضائها إلى تجريد الكلام عن الخواصّ والمزايا بالمرّة، فما ظنُّك بوجوب مراعاته مع تحلية الكلام [٢٩٦ظ]

بمزايا أُخَرَ يرتقي بها إلى رتبة الإعجاز، لاسيّما إذا وُفّي حقّ مقام وقوع المَحكي في السورتين الكريمتين، وكان هذا الإيجازُ مبنيًا عليه وثقةً به؟

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كأمثاله. ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ "الباء" للقَسم كما في قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص، ٨٢/٣٨]، فإنّ إغواءه تعالى إيّاه[١] أثرٌ مِن آثار قدرته وعزّته وحُكمٌ مِن أحكام سلطانه تعالى، فمآل الإقسام بهما واحد؛ فلعلّ اللّعينَ أقسَمَ بهما جميعًا، فحُكي تارةً قَسَمه بأحدهما وأخرى بالآخر. و"الفاء" لترتيب مضمون الجملة على الإنظار، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: فأُقسِم بإغوائك إيّايَ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾، أو للسببيّة على أنّ "الباء" متعلّقة بفعل القَسم المحذوف، لا بقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ كما في الوجه الأوّل، فإنّ "اللام" تصدّ عن ذلك، أي: فبسبب إغوائك إيّايَ لأجلهم أُقسِم بعزّتك[٢] لَأقعُدنّ لآدمَ وذُرّيّته ترصّدًا بهم، كما يقعُد القُطّاع للقطع على السابلة.[٣]

﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الموصِلَ إلى الجنّة. وهو دين الإسلام، فالقُعود مجاز متفرّعٌ على الكناية. وانتصابه على الظرفيّة كما في قوله:

كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ[٤]

وقيل: على نزع الجارّ، تقديره: على صراطك، كقولك: "ضُرب زيد الظهرَ والبطنَ".

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ١٧﴾

---

١ وفي هامش م: أي: خلق الإغواء فيه. «منه».

٢ وفي هامش م: كما في سورة ص، فحُذف ههنا إيجازًا. «منه».

٣ السابلة: المختلفون في الطُرُقات لحوائجهم. أساس البلاغة للزمخشري، «سبل».

٤ البيت لساعدة بن جُؤَيّة الهُذلي في كتاب سيبويه، ٣٥/١؛ ولسان العرب لابن منظور، «عسل»؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٨٣/٣؛ وتاج العروس للزبيدي، «عسل». وصدره:
لَدْنٌ بهَزِّ الكَفِّ يَعسِل متنُه
فيه...

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ أي: مِن الجهات الأربع التي يعتاد هجوم العدوّ منها. مُثّل قصده إيّاهم للتسويل والإضلال مِن أيّ وجهٍ يتيسّر / بإتيان العدوّ مِن الجهات الأربع؛ ولذلك لم يُذكَر الفوق والتحت. [٢٩٧و]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: مِن قِبل الآخرة، و﴿مِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: مِن جهة الدنيا، و﴿عَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: مِن جهة حسناتهم وسيّئاتهم».[١] وقيل: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: مِن حيث يعلمون ويقدرون على التحرّز عنه، و﴿مِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: مِن حيث لا يعلمون ولا يقدرون، و﴿عَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: مِن حيث يتيسّر لهم أن يعلموا ويتحرّزوا -ولكن لم يفعلوا لعدم تيقّظهم واحتياطِهم- ومن حيث لا يتيسّر لهم ذلك.[٢]

وإنّما عُدّي الفعل إلى الأوّلَين بحرف الابتداء؛ لأنّه منهما متوجّهٌ إليهم، وإلى الآخِرَين بحرف المجاوزة، فإنّ الآتيَ منهما كالمنحرف المتجافي عنهم المارِّ على عرضهم؛ ونظيرُه: "جلستُ عن يمينه".

﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ أي: مُطيعين. وإنّما قاله ظنًّا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ، ٢٠/٣٤]، لِما رأى منهم مَبدأ الشرّ متعدّدًا ومَبدأَ الخير واحدًا. وقيل: سمعه مِن الملائكة عليهم السلام.

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف مرارًا. ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي: مِن الجنّة، أو مِن السماء، أو مِن بين الملائكة عليهم السلام. ﴿مَذۡءُومٗا﴾ أي: مذمومًا. مِن "ذَأَمَه" إذا ذمّه. وقُرئ: "مَذُومًا"،[٣] كـ"مَسُول" في "مَسْئُول"، أو كـ"مَكُول" في "مَكِيل"، مِن "ذامه يَذيمه ذَيْمًا". ﴿مَّدۡحُورٗا﴾ مطرودًا.

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧/٣-٨. ونحوه عنه رضي الله عنهما في اللباب لابن عادل، ٤٥/٩. وقد رُوي عنه في تأويل ذلك خلافُ هذا التأويل؛ انظر: جامع البيان للطبري، ٩٦/١٠-٩٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٨/٣.

[٢] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨/٣.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري وأبي جعفر والأعمش. المحتسب لابن جنّي، ٢٤٣/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٣/٥.

﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ "اللام" موطِّئة للقَسم، وجوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وهو سادٌّ مسدَّ جواب الشرط. وقُرئ: "لِمَنْ تَبِعَكَ"[1] بكسر اللام، على أنّه خبرُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ على معنى: "لِمَن تَبِعَك هذا الوعيدُ"، أو علّةٌ لـ﴿ٱخْرُجْ﴾، / و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ [٢٩٧ظ] جوابُ قَسم محذوف. ومعنى ﴿مِنكُمْ﴾: منك ومنهم، على تغليب المخاطَب.

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ﴾ أي: وقلنا، كما وقع في سورة البقرة.[2] وتصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلقّي المأمور به. وتخصيص الخطاب به عليه السلام للإيذان بأصالته في تلقّي الوحي وتَعاطي المأمور به. ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ هو مِن السُّكنى الذي هو عبارة عن اللبث والاستقرار والإقامةِ، لا مِن "السُّكون" الذي هو ضِدّ الحركة. و﴿أَنتَ﴾ ضميرٌ أُكّد به المستكنّ في ﴿ٱسْكُنْ﴾ ليصحّ العطف عليه.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ لبيان المراد ممّا في سورة البقرة مِن قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة، ٣٥/٢] مِن أنّ ذلك كان جمعًا مع الترتيب.[3] وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ في معنى: منها حيث شئتما.

ولم يُذكر ههنا ﴿رَغَدًا﴾ ثقةً بما ذُكر هناك. وتوجيه الخطاب إليهما لتعميم التشريف والإيذانِ بتساويهما في مباشرة المأمور به؛ فإنّ حوّاءَ أُسْوة له عليه السلام في حقّ الأكل، بخلاف السُّكنى، فإنّها تابعة له فيه، ولتعليق النهي بها صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾. وقُرئ: "هٰذِي"،[4] وهو الأصل لتصغيره على "ذَيّا"، والهاء بدل مِن الياء. ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إمّا جزم على العطف، أو نصب على الجواب.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري، وعن عصمة عن أبي بكر عن عاصم. **الكشّاف** للزمخشري، ٩٤/٢؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٤/٥. ولم يذكرها ابن الجزري في **النشر** عن عاصم.

[2] البقرة، ٣٥/٢.

[3] وفي هامش م: أي: بين السُّكنى والأكل. «منه».

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٤.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: فعل الوسوسةَ لأجلهما، / أو تكلَّمَ لهما كلامًا خفيًّا متداركًا متكرّرًا. وهي في الأصل: الصوت الخفي كالهَيْنَمة والخَشْخَشَة. ومنه "وَسْوَسَ الحُلِيُّ". وقد سبق بيان كيفيّة وسوسته في سورة البقرة.[1] [٢٩٨و]

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي: ليُظهِر لهما. و"اللام" للعاقبة، أو للغرض على أنّه أراد بوسوسته أن يسُوءَهما بانكشاف عَوْرتَيهما؛ ولذلك عُبّر عنهما[2] بـ"السَّوْأة". وفيه دليل على أنّ كشف العَوْرة في الخَلْوة وعند الزوج مِن غير حاجة قبيحٌ مستهجَنٌ في الطِّباع.

﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ما غُطّي وسُتر عنهما مِن عَوْراتهما. وكانا لا يَرَيانِها مِن أنفسهما، ولا أحدُهما مِن الآخر. وإنّما لم يُقلَب الواو المضمومة همزةً في المشهورة كما قُلبتْ في "أُوَيْصِل" تصغيرِ "واصِل"؛ لأنّ الثانية مَدّة. وقُرِئ: "سَوَاتِهِمَا" بحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على الواو،[3] وبقلبها واوًا وإدغام الواو الساكنة فيها.[4]

﴿وَقَالَ﴾ عطفٌ على ﴿وَسْوَسَ﴾ بطريق البيان. ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: عن أكلها ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي: إلّا كراهةَ أن تكونا مَلَكَين، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الذين لا يموتون، أو يخلدون في الجنّة. وليس فيه دلالة على أفضليّة الملائكة لِما أنّ مِن المعلوم أنّ الحقائق لا تنقلب، وإنّما كانت رغبتُهما في أن يحصل لهما أوصاف الملائكة مِن الكمالات الفِطريّة والاستغناءِ عن الأطعمة والأشربة، وذلك بمَعزِل / مِن الدلالة على الأفضليّة بالمعنى المتنازَع فيه. [٢٩٨ظ]

---

١ انظر: تفسير البقرة، ٣٦/٢.

٢ أي: عن عَوْرتَيهما.

٣ قراءة شاذّة. ذكرها أبو حيّان بلا نسبة في البحر المحيط، ٢٥/٥.

٤ أي: "سَوَّاتِهِمَا"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح والزهري. انظر: المحتسب لابن جنّي، ٢٤٣/١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥/٥.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: أقسَمَ لهما. وصيغة المغالبة للمبالغة. وقيل: أقسَمَا له بالقَبول. وقيل: قالا له: «أتُقسِم بالله أنّك لَمِن الناصحين؟»، وأقسَمَ لهما، فجُعل ذلك مقاسمةً.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزّلهما على الأكل مِن الشجرة. وفيه تنبيه على أنّه أهبطهما بذلك مِن درجة عالية، فإنّ التّدْلية والإدلاءَ إرسالُ الشيء مِن الأعلى إلى الأسفل. ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرَّهما به مِن القَسَم، فإنّهما ظنّا أنّ أحدًا لا يُقسِم بالله كاذبًا، أو ملتبسَين بغرور.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: فلمّا وجدَا طعْمَها آخِذَين في الأكل منها، أخذتْهما العقوبة وشؤمُ المعصية، فتهافَتَ عنهما لِباسُهما، وظهرت لهما عَوْراتهما. واختُلف في أنّ الشجرة كانت السُّنبلةَ أو الكَرْمَ أو غيرَهما، وأنّ اللباسَ كان نورًا أو ظُفْرًا. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ "طَفِقَ" مِن أفعال الشروع والتلبّس، كـ"أخَذَ" و"جعَلَ" و"أنشأ" و"عَلِق" و"هَبَّ" و"انبَرَى"، أي: أخذا يرقعان ويلزقان ورقةً فوق ورقةٍ ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قيل: كان ذلك ورقَ التِّين. وقُرئ: "يُخْصِفَانِ"[1] مِن "أخصَفَ"، أي: يُخصفان أنفسَهما، و"يُخَصِّفَانِ"[2] مِن "التخصيف"، و"يَخِصِّفَانِ"،[3] أصله: يختصفان.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَا﴾ مالك أمرِهما بطريق العتاب والتوبيخ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري بخلاف عنه. المحتسب لابن جنّي، ١/٢٤٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن بُريدة والحسن والزهري والأعرج بخلاف عنهم. المحتسب لابن جنّي، ١/٢٤٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج بخلاف عنهما. المحتسب لابن جنّي، ١/٢٤٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٤.

وهو تفسير للنداء، فلا محلّ له مِن الإعراب، أو معمولٌ لقولٍ محذوفٍ، أي:
وقال أو قائلًا: ألم أنهكما / ﴿عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ ما في اسم الإشارة مِن معنى [٢٩٩و]
البُعد لِما أنّه إشارة إلى الشجرة التي نُهي عن قُربانها. ﴿وَأَقُل لَّكُمَا﴾ عطف على ﴿أَنْهَكُمَا﴾، أي: ألم أقل لكما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدوّ، كما أنّ الأوّل عتاب على مخالفة النهي. قيل: فيه دليل على أنّ مطلَق النهي للتحريم.

و﴿لَكُمَا﴾ متعلّق بـ﴿عَدُوٌّ﴾ لِما فيه مِن معنى الفعل، أو بمحذوفٍ هو حال مِن ﴿عَدُوٌّ﴾. ولم يُحكَ هذا القولُ ههنا، وقد حُكي في سورة طه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه، ١١٧/٢٠].

رُوي أنّه تعالى قال لآدمَ: «ألم تكن فيما منحتُك مِن شجر الجنّة مَنْدُوحةٌ عن هذه الشجرة؟»، فقال: «بلى وعزّتك، ولكنْ ما ظننتُ أنّ أحدًا مِن خلقك يَحلِف بك كاذبًا»، قال: «فبعزّتي، لأُهبِطنَّك إلى الأرض، ثمّ لا تَنال العَيشَ إلّا كدًّا»، فأُهبطَ، وعُلّم صنعةَ الحديد، وأُمر بالحَرْث، فحرَثَ وسقَى وحصَد وداسَ وذرَّى وعجَن وخبَز.[١]

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ أي: ضرَرْناها بالمعصية والتعريضِ للإخراج مِن الجنّة. ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ذلك ﴿وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وهو دليل على أنّ الصغائر يعاقَب عليها إن لم تُغفَر. وقالت المعتزلة: لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر؛ ولذلك حملوا قولَهما ذلك على عادات المقرَّبين في استعظام الصغير مِن السيّئات واستصغارِ العظيم مِن الحسنات.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

/ ﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ مرارًا. ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ خطاب لآدمَ وحوّاءَ وذُرّيّتِهما، [٢٩٩ظ]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٩٦/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٨/٥. وهو مع اختلاف بالنقص والزيادة في جامع البيان للطبري، ١١١/١٠-١١٢.

أو لهما ولإبليسَ؛ كُرّر الأمر له[١] تبعًا لهما ليعلمَ أنّهم قُرَناءُ أبدًا، أو أخبر عمّا قال لهم مفرَّقًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]. ولم يُذكر ههنا قبول توبتهما ثقةً بما ذُكر في سائر المواضع. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ جملة حاليّة مِن فاعل ﴿ٱهْبِطُوا﴾، أي: مُتعادِين. ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: استقرار أو موضعُ استقرار، ﴿وَمَتَـٰعٌ﴾ أي: تمتّعٌ وانتفاع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ هو حينُ انقضاء آجالكم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾

﴿قَالَ﴾ أعيدَ الاستئناف، إمّا للإيذان بعدم اتّصالِ ما بعده بما قبله كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر، ٥٧/١٥] إثرَ قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر، ٥٦/١٥]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء، ٦٢/١٧] بعد قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء، ٦١/١٧]؛ وإمّا لإظهار الاعتناء بمضمونِ ما بعده مِن قوله تعالى:[٢] ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي: للجزاء، كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه، ٥٥/٢٠].

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦﴾

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ خطاب للناس كافّةً. وإيرادهم بهذا العنوان ممّا لا يخفى سرّه. ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي: خلقناه لكم بتدبيرات سماويّة وأسباب نازلة منها. ونظيره: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾... إلخ [الزمر، ٦/٣٩]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد، ٢٥/٥٧]. ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ التي قصد إبليسُ إبداءَها مِن أبوَيكم حتّى اضطرَّا[٣] إلى خَصْف الأوراق، وأنتم مستَغْنون عن ذلك.
وِرُوي / أنّ العرب كانوا يطوفون بالبيت عُريانًا ويقولون: «لا نطوف بثِيابٍ [٣٠٠و]

---

[١] أي: لإبليس.
[٢] م - تعالى.
[٣] س: اضطرّوا.

عصينا اللهَ تعالى فيها»، فنزلت.[١] ولعلّ ذكرَ قصّة آدمَ حينئذ للإيذان بأنّ انكشاف العَوْرة أوّلُ سوءٍ أصاب الإنسانَ مِن قِبل الشيطان، وأنّه أغواهم في ذلك كما أغوى أبَوَيهم. ﴿وَرِيشًا﴾ ولباسًا تتجمّلون به. والرِّيش: الجمال. وقيل: مالًا، ومنه: "تريَّشَ الرجلُ"، أي: تموّل. وقُرِئ: "رِيَاشًا"،[٢] وهو جمعُ "رِيش"، كـ"شِعْب" و"شِعاب".

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: خشية الله تعالى، وقيل: الإيمان، وقيل: السَّمْت الحسن، وقيل: لباس الحرب. ورفعُه بالابتداء، خبرُه جملةُ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، أو ﴿خَيْرٌ﴾، و﴿ذَٰلِكَ﴾ صفته، كأنّه قيل: ولباس التقوى المشارُ إليه خيرٌ. وقُرِئ: "وَلِبَاسَ التَّقْوَى"[٣] بالنصب عطفًا على ﴿لِبَاسًا﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إنزال اللباس ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دالّةٌ على عظيم فضله وعميمِ رحمته؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفون نعمته، أو يتّعِظون فيتورّعون عن القبائح.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ تكرير النداء للإيذان بكمال الاعتناء بمضمون ما صُدِّر به. وإيرادهم بهذا العنوان ممّا لا يخفى سببه. ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لا يُوقِعنّكم في الفتنة والمِحنة بأن يمنعكم مِن دخول الجنّة. ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ نعتٌ لمصدر محذوف، أي: لا يفتِننّكم فتنةً مثلَ إخراج أبويكم. وقد جُوّز أن يكون التقدير: لا يُخرِجَنّكم بفتنته إخراجًا مثلَ إخراجه لأبويكم. والنهي، وإن كان متوجِّهًا إلى الشيطان، لكنّه في الحقيقة / متوجِّهٌ إلى المخاطَبين، [٣٠٠ظ]

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ١٢٠/١٠-١٢١؛ واللباب لابن عادل، ٨٧/٩-٨٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعن ابن عبّاس والحسن وزَرّ بن حبيش وزيد بن عليّ والمفضّل عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٤. ورواية المفضّل غير القراءة المشهورة عن عاصم.

٣ قرأ بها نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٦٨/٢.

كما[١] في قولك: "لا أُرَيَنَّك ههنا". وقد مرّ تحقيقه مرارًا. ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا﴾ حال مِن ﴿أَبَوَيْكُم﴾، أو مِن فاعل ﴿أَخْرَجَ﴾. وإسناد النَّزْع إليه للتسبيب. وصيغة المضارع لاستحضار الصورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أي: جنوده وذُرّيّته، استئنافٌ لتعليل النهي وتأكيدِ التحذير منه. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ لابتداء غاية الرؤية، و﴿حَيْثُ﴾ ظرفٌ لمكان انتفاء الرؤية، و﴿لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ في محلّ الجرّ بإضافة الظرف إليه. ورُؤيتهم لنا مِن حيث لا نراهم لا يقتضي امتناعَ رؤيتنا لهم مطلَقًا واستحالةَ تمثّلهم لنا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ جُعل قَبيلُه مِن جملته، فجُمع. ﴿أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: جعلناهم بما أوجدنا بينهم مِن المناسبة أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم مِن إغوائهم وحملِهم على ما سوّلوا لهم أولياءَ -أي: قُرناءَ- مسلّطين عليهم. والجملة تعليلٌ آخرُ للنهي وتأكيدٌ للتحذير إثرَ تحذير.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ جملة مبتدأة، لا محلَّ لها مِن الإعراب. وقد جُوّز عطفها على الصلة. والفاحشة: الفعلة المتناهية في القُبح. و"التاء" لأنّها مُجراة على الموصوف المؤنَّث، أو للنقل مِن الوصفيّة إلى الاسميّة. والمراد بها عبادة الأصنام وكشفُ العَورة في الطواف ونحوُهما.

﴿قَالُوا۟﴾ جوابًا للناهين عنها: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ مُحتجّين بأمرَين: تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه. ولعلّ تقديمَ المقدَّم للإيذان منهم بأنّ آباءهم إنّما كانوا يفعلونها بأمر الله تعالى بها، على أنّ ضمير ﴿أَمَرَنَا﴾ لهم ولآبائهم؛ فحينئذ يظهر وجهُ الإعراض عن الأوّل في ردّ مقالتهم بقوله تعالى:

---

[١] وفي هامش م: أي: في كونه كنايةً فقط، لا في كونه نهيًا عن المسبَّب مرادًا به النهي عن السبب؛ كيف لا، وإنّه نهيٌ عن السبب مرادًا به النهي عن المسبَّب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان، ٣٣/٣١؛ فاطر، ٥/٣٥]. «منه».

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، / فإنّ عادته تعالى جارية على الأمر بمحاسن [٣٠١و]
الأعمال والحثِّ على مراضي الخِصال. ولا دلالةَ فيه على أنّ قُبح الفعل -بمعنى ترتّب الذمّ عليه عاجلًا والعقابِ آجلًا- عقليٌّ؛ فإنّ المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. وقيل: هما جوابَا سؤالَين مترتّبين، كأنّه قيل لمّا فعلوها: لِم فعلتم؟ فقالوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، فقيل: لِم فعلها آباؤكم؟ فقالوا: ﴿ٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾. وعلى الوجهين يُمنَع التقليد إذا قام الدليل بخلافه لا مطلقًا.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن تمام القول المأمور به. والهمزة لإنكار الواقع واستقباحِه. وتوجيه الإنكار والتوبيخ إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون[1] صدوره عنه تعالى -مع أنّ بعضهم يعلمون عدم صدوره عنه تعالى- مبالغة في إنكار تلك الصورة؛ فإنّ إسناد ما لم يُعلم صدوره عنه إليه تعالى إذا كان منكرًا، فإسنادُ ما عُلم عدم صدوره عنه إليه عزّ وجلّ أشدُّ قُبحًا وأحقُّ بالإنكار.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ بيان للمأمور به إثرَ نفي ما أُسندَ أمره إليه تعالى مِن الأمور المَنهي عنها. والقِسط: العدل، وهو الوسط مِن كلّ شيء، المتجافي عن طرفَي الإفراط والتفريط. ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ وتَوجَّهوا إلى عبادته مستقيمين غيرَ عادلين إلى غيرها، أو أَقيموا وجوهَكم نحو القِبلة ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كلّ وقتِ سجود أو مكانِ سجود،[2] وهو الصلاة، أو في أيّ مسجد حضرتْكم الصلاة عنده، ولا تؤخِّروها حتّى تعودوا إلى مساجدكم.

/ ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعةَ، فإنّ مَصيركم إليه [٣٠١ظ]
بالآخرة. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أي: أنشأكم ابتداءً ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه بإعادته، فيجازيكم على أعمالكم. وإنّما شُبّه الإعادة بالإبداء تقريرًا لإمكانها والقدرةِ عليها. وقيل:

---

[1] س: تعلمون.

[2] س: السجود.

كما بدأكم مِن التراب تعودون إليه. وقيل: حُفاةً عُراةً غُرْلًا تعودون إليه. وقيل: كما بدأكم مؤمنًا وكافرًا يُعيدكم.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفّقهم للإيمان، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ بمقتضى القضاء السابق التابعِ للمشيئة المَبنيّة على الحِكم البالغة. وانتصابه بفعل مُضمَر يفسّره ما بعده، أي: وخذل فريقًا. ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعليل لخِذلانه أو تحقيق لضلالتهم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيه دلالة على أنّ الكافر المخطِئ والمعانِدَ سواءٌ في استحقاق الذمّ، وللفارق أن يحمله على المقصِّر في النظر.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ أي: ثِيابَكم لمُواراة عَورتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: طوافٍ أو صلاةٍ. ومِن السنّة أن يأخذ الرجل أحسنَ هيئته للصلاة. وفيه دليل على وجوب سَتْر العَورة في الصلاة. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ ممّا طاب لكم.[١] رُوي أنّ بني عامر كانوا في أيّام حَجّهم لا يأكلون الطعام إلّا قوتًا، ولا يأكلون دَسَمًا، يعظِّمون بذلك حجّتَهم، فهَمَّ المسلمون بمِثله، فنزلت.[٢]

﴿وَلَا تُسْرِفُوا۟﴾ بتحريم الحلال، أو بالتعدّي إلى الحرام، أو بالإفراط في الطعام والشَّرَهِ عليه. / وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٣] «كُلْ ما شئتَ، والبَسْ ما شئتَ، ما أخطأتْك خَصْلتانِ: سَرَفٌ ومَخِيلة».[٤] وقال[٥] عليّ بن الحُسين [٣٠٢و]

---

[١] وفي هامش م: فيه إشارة إلى أنّ حذف المفعول للتعميم. «منه».

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١١. وهو مع اختلاف بالزيادة في الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٢٢٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/١٠٠.

[٣] م - رضي الله عنهما.

[٤] مصنّف ابن أبي شيبة، ٥/١٧١ (٢٤٨٧٨). ورواه البخاري عنه تعليقًا في كتاب اللباس مِن صحيحه، ٧/١٤٠. وروى نحوه أحمد في مسنده، ١١/٢٩٤-٢٩٥ (٦٦٩٥)؛ وابن ماجة في سننه، ٤/٦٠٠ (٣٦٠٤)؛ والنسائي في سننه، ٥/٧٩ (٢٥٥٩)، مرفوعًا مِن حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

[٥] س: فقال.

ابن واقد:[١] «جمَعَ الله الطبَّ في نِصف الآية، فقال: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾».[٢] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: لا يرتضي فعلَهم.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ مِن الثِّياب وما يُتجمّل به ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ مِن النبات كالقُطن والكتّان، والحيوانِ كالحرير والصُّوف، والمعادنِ كالدُّروع، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ أي: المُستلذّاتِ مِن المآكل والمشارب. وفيه دليل على أنّ الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجمّلات الإباحةُ؛ لأنّ الاستفهام في ﴿مَنْ﴾ إنكاريّ.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالأصالة، والكفرة، وإن شاركوهم فيها، فبِالتّبع. ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرُهم. وانتصابها على الحاليّة. وقُرئ بالرفع[٣] على أنّه خبرٌ بعد خبرٍ. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: مثلَ هذا التفصيل نفصّل سائرَ الأحكام لقوم يعلمون ما في تضاعيفها مِن المعاني الرائقة.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: ما تفاحَش قُبحه مِن الذنوب. وقيل: ما يتعلّق منها بالفروج. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾، أي: جهرَها وسرَّها.

---

١ هو عليّ بن الحُسين بن واقِد المَروزي، أبو الحسن (ت. ٢١١هـ/٨٢٦-٨٢٧م). الإمام، المحدّث. كان مولى الأمير فاتح خراسان عبد الله بن عامر القرشي. حدّث عن أبيه وأبي حمزة السُّكّري وسليم مولى الشعبي وهشام بن سعد المدني وخارجة بن مصعب وعبد الله بن عمر، وطبقتهم. وحدّث عنه إسحاق بن راهَويه ومحمود بن غَيلان وعليّ بن خَشْرَم ومحمّد بن عَقيل بن خُوَيلد ومحمّد بن رافع وأبو الدرداء عبد العزيز بن مُنيب، وآخرون. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢١١/١٠-٢١٢.

٢ معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٥/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١/٣. وانظر لقصّته: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٠/٤.

٣ أي: "خَالِصَةٌ". قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.

﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾ أي: ما يوجب الإثمَ. وهو تعميم بعد تخصيص. وقيل: هو شُرب الخَمر. ﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾ أي: الظلمَ أو الكِبرَ. أُفردَ بالذِّكر للمبالغة في الزجر عنه. ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱلۡبَغۡيَ﴾، مؤكِّدٌ له معنًى. ﴿وَأَن / تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ تهكّمٌ بالمشركين وتنبيهٌ على تحريم اتّباع ما لا يدلّ عليه برهان. ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته والافتراء عليه، كقولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف، ٢٨/٧]. وتوجيه التحريم إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون وقوعَه -لا ما يعلمون عدمَ وقوعه- قد مرّ سرُّه.[١] [٣٠٢ظ]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمَم المُهلَكة ﴿أَجَلٞ﴾ حدٌّ معيَّنٌ مِن الزمان مضروبٌ لمَهلِكهم. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ إن جُعل الضمير للأمم المدلول عليها بـ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾، فإظهار "الأجَل" مضافًا إليه لإفادة المعنى المقصود الذي هو بلوغ كلّ أمّة أجَلَها الخاصَّ بها؛ ومَجيئُه إيّاها بواسطة اكتساب الأجَل بالإضافة عمومًا يفيده معنى الجمعيّة، كأنّه قيل: إذا جاءهم آجالهم بأن يجيء كلٌّ واحدة مِن تلك الأمم أجلها الخاصُّ بها. وإن جُعل ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ خاصّةً كما هو الظاهر، فالإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير؛ والإضافةُ إلى الضمير لإفادة أكمل التمييز، أي: إذا جاءها أجلها الخاصُّ بها.

﴿لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل ﴿سَاعَةٗ﴾ أي: شيئًا قليلًا مِن الزمان؛ فإنّها مَثلٌ في غاية القلّة منه، أي: لا يتأخّرون أصلًا. وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحِرمانهم عن ذلك مع طلبهم له. ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ أي: ولا يتقدّمون عليه. وهو عطفٌ على ﴿يَسۡتَأۡخِرُونَ﴾، لكنْ لا لبيان انتفاء التقدّم مع إمكانه في نفسه كالتأخّر؛ بل للمبالغة في انتفاء التأخّر بنظمه في سِلك المستحيل عقلًا، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ / وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ [النساء، ١٨/٤]؛ فإنّ مَن مات كافرًا [٣٠٣و]

---

[١] انظر: تفسير الأعراف، ٢٨/٧.

مع ظهورِ أنْ لا توبةَ له رأسًا، قد نُظم في عدم القبول في سِلك مَن سوّفها إلى حضور الموت، إيذانًا بتَساوي وجود التوبة حينئذ وعدمِها بالمرّة. وقيل: المراد بالمَجيء الدنوُّ بحيث يمكن التقدّمُ في الجملة، كمَجيء اليوم الذي ضُرب لهلاكهم ساعةٌ منه؛ وليس بذاك.

وتقديم بيان انتفاء الاستئخار لِما أنّ المقصود بالذات بيانُ عدم خلاصهم مِن العذاب. وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر، ٥/١٥؛ المؤمنون، ٤٣/٢٣] مِن سبقِ السَّبْق في الذكر، فلِما أنّ المراد هناك بيانُ سرّ تأخير إهلاكهم مع استحقاقهم له، حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر، ٣/١٥]، فالأهمُّ هناك بيانُ انتفاء السبق.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافّة الناس اهتمامًا بشأن ما في حيّزه. ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هي "إنْ" الشرطيّة، ضُمّت إليها "ما" لتأكيد معنى الشرط؛ ولذلك لزمت فعلَها النون الثقيلةُ أو الخفيفةُ. وفيه تنبيه على أنّ إرسال الرسل أمرٌ جائزٌ، لا واجبٌ عقلًا. ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الجارّ متعلِّق بمحذوفٍ هو صفة لـ﴿رُسُلٌ﴾، أي: كائنون مِن جنسكم. وقوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ صفة أخرى لـ﴿رُسُلٌ﴾، أي: يبيّنون لكم أحكامي وشرائعي.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ / جملة شرطيّة وقعت جوابًا للشرط، أي: فمن اتّقى منكم التكذيبَ وأصلح عمله، فلا خوفٌ... إلخ. وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: والذين كذّبوا منكم بآياتنا. وإيراد الاتّقاء في الأوّل للإيذان بأنّ مدار الفلاح ليس مجرّدَ عدم التكذيب؛ بل هو الاتّقاء [٣٠٣ظ]

والاجتناب عنه. وإدخال "الفاء" في الجزاء الأوّل دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحةِ في الوعيد.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ۝٣٧﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ أي: تقوّلَ عليه تعالى ما لم يقُلْه، أو كذَّب ما قاله. أي: هو أظلمُ مِن كلِّ ظالم. وقد مرّ تحقيقه مرارًا.[١] ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، والجمعُ باعتبار معناه، كما أنّ إفراد الفعلين باعتبار لفظه، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بتماديهم في سوء الحال، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن الافتراء والتكذيب ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: ممّا كُتب لهم مِن الأرزاق والأعمار. وقيل: ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾: اللوح، أي: ما أُثبتَ لهم فيه. وأيًا ما كان، فـ﴿مِنْ﴾ الابتدائيّة متعلّقة بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿نَصِيبُهُمْ﴾، أي: ينالهم نصيبهم كائنًا مِن الكتاب. وقيل: ﴿نَصِيبُهُمْ﴾: العذاب وسواد الوجه وزُرقة العيون. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كُتب لِمَن يفتري على الله سوادُ الوجه».[٢] قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ/ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ [٣٠٤و]
وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر، ٣٩/٦٠].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: مَلكُ الموت وأعوانُه، ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي: حالَ كونِهم مُتوفِّين لأرواحهم، يؤيّد الأوّلَ؛ فإنّ ﴿حَتَّىٰ﴾، وإن كانت هي التي يُبتدأ بها الكلام، لكنّها غايةٌ لِما قبلها، فلا بدَّ أن يكون نصيبُهم ممّا يتمتّعون بها إلى حين وفاتهم، أي: ينالهم نصيبهم مِن الكتاب إلى أن يأتيَهم ملائكة الموت، فإذا جاءتهم ﴿قَالُوٓا۟﴾ لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا؟ و﴿مَا﴾ وقعت موصولةً بـ﴿أَيْنَ﴾ في خطّ المصحف، وحقُّها الفصل؛ لأنّها موصولة.

---

[١] انظر: تفسير الأنعام، ٦/٢١.

[٢] اللباب لابن عادل، ٩/١٠٢-١٠٣. وهو باختلاف يسير عنه في جامع البيان للطبري، ١٠/١٧٤؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٣٦٥.

﴿قَالُوا﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكاية سؤال الرُّسل، كأنّه قيل: فماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: غابوا عنّا، أي: لا نَدري مكانهم. ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿قَالُوا﴾، أي: اعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ أي: في الدنيا ﴿كَافِرِينَ﴾ عابدين لِما لا يستحقّ العبادةَ أصلًا، حيث شاهدوا حاله وضلاله.

ولعلّه أريدَ بوقت مَجيء الرسل وحالِ التوفّي الزمانُ الممتدُّ مِن ابتداء المَجيء والتوفّي إلى انتهائه يومَ الجزاء بناءً على تحقّق المَجيء والتوفّي في كلّ ذلك الزمان بقاءً، وإن كان حدوثُهما في أوّله فقط؛ أو قُصد بيان غاية سرعة وقوع البعث والجزاء، كأنّهما حاصلان عند ابتداء التوفّي، كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: «مَن مات، فقد قامت قيامتُه»؛[1] وإلّا فهذا السؤال والجوابُ وما ترتَّبَ عليهما مِن الأمر بدخول النار وما جرى بين أهلها مِن التلاعن والتقاولِ إنّما يكون بعد البعث لا محالةَ.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ يومَ القيامة بالذات أو بواسطة المَلك: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: كائنين مِن جملة أمم مصاحبين لهم. ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني: كفّار الأمم الماضية مِن النوعين. ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿ادْخُلُوا﴾.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ مِن الأمم السابقة واللاحقةِ فيها[2] ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلّت بالاقتداء بها، ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: تداركوا / وتلاحقوا في النار، ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ دخولًا أو منزلةً، وهم الأتباع، ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ أي: لأجلهم؛ إذ الخطاب مع الله تعالى، لا معهم: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ سَنُّوا لنا الضلالَ فاقتدَينا بهم، [٣٠٤ظ]

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١٦/٢ (الأنعام، ٣١/٦)؛ اللباب لابن عادل، ١٠٣/٨ (الأنعام، ٣١/٦). وانظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٣٦/١-٤٣٧ (٤٤٥).

[2] س - فيها.

﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفًا ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ لأنهم ضلّوا وأضلّوا. ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أمّا القادة، فلِما ذُكر مِن الضلال والإضلال. وأمّا الأتباع، فلكفرهم وتقليدِهم. ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي: مالكم وما لِكلّ فريق مِن العذاب. وقُرئ بالياء.[1]

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ﴾ أي: مخاطِبين ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ حين سمعوا جوابَ الله تعالى لهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: فقد ثبت أنْ لا فضلَ لكم علينا،[2] وإنّا وإيّاكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب، ﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ﴾ أي: العذاب المعهود المضاعفَ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ مِن قول القادة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ مع وضوحها ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي: عن الإيمان بها والعملِ بمقتضاها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا تُقبَل أدعِيتهم ولا أعمالهم، أو لا تعرُج إليها أرواحهم كما هو شأن أدعِية المؤمنين وأعمالهم وأرواحِهم. و"التاء" في ﴿تُفَتَّحُ﴾ لتأنيث "الأبواب"، والتشديدُ لكثرتها. وقُرئ بالتخفيف،[3] وبالتخفيف والياء.[4] وقُرئ على البناء للفاعل ونصبِ "الأبواب"[5] على أنّ الفعل لـ"الآيات"، وبالياء[6] على أنّه لله تعالى.

---

[1] قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

[2] وفي هامش م: قوله: "أي: فقد ثبت أن لا فضل"، أي: بجواب الله تعالى -لا جوابهم- ثبت عدم فضل الأتباع على القادة.

[3] أي: "لَا تُفْتَحُ". قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

[4] أي: "لَا يُفْتَحُ". قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

[5] أي: "لَا تَفْتَحُ لَهُم أَبْوَابَ السَّمَاءِ". وهي قراءة شاذّة، مروية عن اليزيدي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٦.

[6] أي: "لَا يَفْتَحُ لَهُم أَبْوَابَ السَّمَاءِ". وهي قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/١٠٣.

/ ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي: حتّى يدخلَ ما هو مثلٌ في عِظَم الجِزم فيما هو عَلَمٌ في ضيق المسلَك، وهو ثُقبة الإبرة. وفي كون الجَمَل ممّا ليس مِن شأنه الوُلوج في سَمّ الإبرة مبالغةٌ في الاستبعاد. وقُرئ: "الجُمَّلُ"[١] كـ"القُمَّل"، و"الجُمَلُ"[٢] كـ"النُّغَر"، و"الجُمْلُ"[٣] كـ"القُفْل"، و"الجُمُلُ"[٤] كـ"النُّصُب"، و"الجَمْلُ"[٥] كـ"الحَبْل"، وهو الحبل الغليظ مِن القُنب، وقيل: حبلُ السفينة، و"سُمِّ"[٦] بالضمّ والكسر. وقُرئ: "فِي سَمِّ المِخْيَطِ"،[٧] وهو الخِياط، أي: ما يُخاط به، كـ"الحِزام" و"المِحزَم". [٣٠٥و]

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: جنسَ المجرمين، وهم داخلون في زُمرتهم دخولًا أوّليًّا.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش مِن تحتهم. والتنوين للتفخيم. و﴿مِنْ﴾ تجريديّة. ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: أغطِية. والتنوين بدلٌ مِن الإعلال عند سيبويه، وللتصرّف عند غيره. وقُرئ: "غَوَاشٌ"[٨] على إلغاء المحذوف، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ [الرحمن، ٥٥/٢٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك الجزاء الشديد ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عُبّر عنهم بـ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٩] تارةً وبـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أخرى إشعارًا بأنّهم بتكذيبهم الآياتِ اتّصفوا بكلّ واحد

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير ومجاهد بخلاف عنهم، والشعبي وأبي العلاء بن الشِّخِّير وأبي رجاء. **المحتسب** لابن جنّي، ١/٢٤٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير ومجاهد بخلاف عنهم، وعبد الكريم وحنظلة. **المحتسب** لابن جنّي، ١/٢٤٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير بخلاف عنهما. **المحتسب** لابن جنّي، ١/٢٤٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. **المحتسب** لابن جنّي، ١/٢٤٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. **المحتسب** لابن جنّي، ١/٢٤٩.

٦ قراءتان شاذّتان. الأولى -أي: بالضمّ- مرويّة عن ابن سِيرين وأبي حياة وأبي السَّمّال، والثانية -أي: بالكسر- مرويّة عن أبي حياة أيضًا ويزيد بن قطيب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٦.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٧.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٨٧.

٩ في الآية السابقة.

مِن ذَينك الوصفين القبيحين. وذكرُ الجُرم مع الحِرمان عن دخول الجنّة والظلمِ مع التعذيب بالنار للتنبيه على / أنّه أعظمُ الجرائم والجرائر. [٣٠٥ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٤٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بآياتنا، أو بكلّ ما يجب أن يُؤمَن به، فيدخل فيه الآيات دخولًا أوّليًا. وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمال الصالحةَ التي شُرعت بالآيات. وهذا بمقابلة الاستكبار عنها.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ اعتراض وُسّط بين المبتدأ الذي هو الموصول والخبرِ الذي هو جملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ للترغيب في اكتساب ما يؤدِّي إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله وتيسّرِ تحصيله. وقُرئ: "لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ".[١] واسمُ الإشارة مبتدأ، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ خبرُه، والجملة خبرٌ للمبتدأ الأوّل؛ أو اسمُ الإشارة بدلٌ مِن المبتدأ الأوّل الذي هو الموصول، والخبرُ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل والشرف.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ حال مِن ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، وقد جُوّز كونه حالًا مِن ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ لاشتماله على ضميرها، والعامل معنى الإضافة أو اللام المقدَّرة؛ أو خبرٌ ثانٍ[٢] لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ على رأي مَن جوّزه.[٣] و﴿فِيهَا﴾ متعلِّق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: نُخرِج مِن قلوبهم أسبابَ الغِلّ أو نطهّرها منه حتّى لا يكون بينهم إلّا التوادُّ. وصيغة الماضي للإيذان بتحقّقه وتقرّرِه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٧.

[٢] س - ثان.

[٣] وفي هامش م: أي: جُوّز كون الخبر الثاني جملةً كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسْعَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٢٠]. «منه».

وعن عليّ رضي الله عنه: «إنّي لَأرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم».[١] ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ / زيادة في لذّتهم وسرورهم. والجملة حال [٣٠٦و] مِن الضمير في ﴿صُدُورِهِم﴾، والعامل إمّا معنى الإضافة، وإمّا العامل في المضاف؛ أو حالٌ مِن فاعل ﴿نَزَعۡنَا﴾، والعامل ﴿نَزَعۡنَا﴾. وقيل: هي مستأنَفة للإخبار عن صفة أحوالهم.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: لِما جزاؤه هذا، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ﴾ أي: لهذا المطلَب الأعلى، أو لمطلبٍ مِن المطالب التي هذا مِن جملتها. ﴿لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ ووفّقنا له. و"اللام" لتأكيد النفي. وجواب ﴿لَوۡلَآ﴾ محذوف ثقةً بدلالةِ ما قبله عليه. ومفعول ﴿نَهۡتَدِيَ﴾ و﴿هَدَىٰنَا﴾ الثاني محذوفٌ لظهور المراد أو لإرادة التعميم كما أشيرَ إليه. والجملة مستأنَفة أو حاليّة. وقُرئ: "مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ"... إلخ[٢] بغير واو، على أنّها مبيِّنة ومفسِّرة للأولى.

﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ جوابُ قَسمٍ مقدَّرٍ، قالوه تبجّحًا واغتباطًا بما نالوه وابتهاجًا بإيمانهم بما جاءت به[٣] الرسل عليهم السلام. و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ إمّا للتعدية، فهي متعلِّقة بـ﴿جَآءَتۡ﴾، أو للملابسة، فهي متعلِّقة بمقدَّرٍ وقع حالًا مِن "الرُّسُل"، أي: واللهِ لقد جاءوا بالحقّ، أو لقد جاءوا ملتبسين بالحقّ.

﴿وَنُودُوٓاْ﴾ أي: نادتهم الملائكة عليهم السلام: ﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ ﴿أَن﴾ مفسِّرة لِما في النداء مِن معنى القول، أو مخفَّفة مِن "أنّ"، وضميرُ الشأن محذوف. ومعنى البُعد في اسم الإشارة إمّا لأنّهم نُودُوا عند رؤيتهم إيّاها مِن مكان بعيد، وإمّا لرفع منزلتها / وبُعدِ رتبتها، وإمّا للإشعار بأنّها تلك الجنّة [٣٠٦ظ] التي وُعدوها في الدنيا. ﴿أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال الصالحة، أي: أُعطِيتُموها بسبب أعمالكم أو بمقابلة أعمالكم. والجملة حال مِن ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾، والعامل معنى الإشارة على أنّ ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ؛ أو ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾ صفةٌ، والخبرُ ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾.

---

١ مصنَّف ابن أبي شيبة، ٥٤٤/٧ (٣٧٨٢١)؛ جامع البيان للطبري، ١٩٩/١٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٩/٣-٢٣٠.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.

٣ س: بما جاءتهم به.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ تبجّحًا بحالهم وشماتةً بأصحاب النار وتحسيرًا لهم، لا لمجرّد الإخبار بحالهم والاستخبارِ عن حال مخاطَبيهم: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ حيث نِلْنا هذا المنال الجليلَ، ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾ حذف المفعول مِن الفعل الثاني إسقاطًا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد، وقيل: لأنّ ما ساءهم مِن الموعود لم يكن بأسره مخصوصًا بهم وعدُه كالبعث والحساب ونعيمِ أهل الجنّة، فإنّهم قد وجدوا جميع ذلك حقًّا، وإن لم يكن وعدُه مخصوصًا بهم.

﴿قَالُواْ نَعَمۡ﴾ أي: وجدناه حقًّا. وقُرئ بكسر العين،[١] وهي لغة فيه. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ﴾ قيل: هو صاحبُ الصُّورِ. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بين الفريقين: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بـ"أنْ" المخففة أو المفسِّرةِ. وقُرئ: بـ"أنَّ" المشدَّدةِ ونصبِ ﴿لَعۡنَةُ﴾.[٢] وقُرئ: "إنَّ"[٣] بكسر الهمزة على إرادة القول أو إجراءِ ﴿أَذَّنَ﴾ مُجرى "قال".

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة مقرِّرة لـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أو رفعٌ على الذمّ، أو نصبٌ عليه. ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: يَبغُون لها عِوَجًا بأن يصفوها بالزَّيْغ والمَيل عن الحقّ، وهي[٤] أبعدُ شيء منهما. والعوَج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم يكن منتصبًا، وبالفتح ما كان في المنتصب كالرُّمح والحائط. ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ / كَٰفِرُونَ﴾ غيرُ معترفين. [٣٠٧و]

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

٢ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي. واختلف عن ابن كثير في رواية قُنبل عنه. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٨١-٢٨٢؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٧.

٤ س: وهو.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين الفريقين، كقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد، ١٣/٥٧]، أو بين الجنّة والنار ليمنعَ وصول أثر إحداهما إلى الأخرى. ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي: على أعراف الحجاب وأعالِيه. وهو السُّور المضروب بينهما، جمعُ "عُرْف"، مستعار مِن "عُرْف الفَرَس". وقيل: العُرف ما ارتفع مِن الشيء، فإنّه بظهوره أعرفُ مِن غيره.

﴿رِجَالٌ﴾ طائفة مِن الموحِّدين قَصّروا في العمل، فيجلسون بين الجنّة والنار حتّى يقضيَ الله تعالى فيهم ما يشاء. وقيل: قومٌ عَلَت درجاتهم كالأنبياء والشهداء والأخيار والعلماء مِن المؤمنين، أو ملائكةٌ يُرَون في صُوَر الرجال. ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ مِن أهل الجنّة وأهل النار ﴿بِسِيمَـٰهُمْ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها كبَياض الوجه وسوادِه. "فِعْلَا" مِن "سامَ إبِلَه" إذا أرسلها في المَرعى مُعلَمةً، أو مِن "وَسَم" بالقلب، كـ"الجاه" مِن "الوجه". وإنّما يعرفون ذلك بالإلهام أو بتعليم الملائكة.

﴿وَنَادَوْا﴾ أي: رجالُ الأعراف ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ حين رأوهم: ﴿أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق الدعاء والتحيّة، أو بطريق الإخبار بنجاتهم مِن المَكاره. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ حال مِن فاعل ﴿نَادَوْا﴾ أو مِن مفعوله. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَدْخُلُوهَا﴾، أي: نادَوْهم وهم لم يدخلوها حالَ كونهم طامعين في دخولها مترقّبين له، أي: لم يدخلوها وهم في وقت عدم الدخول طامعون.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

/ ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى جهتهم. وفي عدم [٣٠٧ظ]
التعرّض لتعلّق أنظارهم بأصحاب الجنّة والتعبيرِ عن تعلّق أبصارهم بأصحاب النار بالصَّرْف إشعارٌ بأنّ التعلّق الأوّل بطريق الرغبة والمَيل، والثاني بخلافه. ﴿قَالُوا﴾ متعوّذين بالله تعالى مِن سُوء حالهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: في النار. وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ مِن العذاب وسوءِ الحال الذي هو الموجِب للدعاء إشعارٌ بأنّ المحذور عندهم ليس نفيَ العذاب فقط؛ بل مع ما يوجبه ويؤدّي إليه مِن الظلم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ كُرّر ذكرهم مع كفاية الإضمار لزيادة التقرير. ﴿رِجَالًا﴾ مِن رؤساء الكفّار حين رأوْهم فيما بين أصحاب النار. ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ الدالّةِ على سُوء حالهم يومئذ، وعلى رياستهم في الدنيا. ﴿قَالُوا﴾ بدل مِن ﴿نَادَىٰ﴾. ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ﴾ إمّا استفهاميّة للتوبيخ والتقريع، أو نافية. ﴿جَمْعُكُمْ﴾ أي: أتباعكم وأشياعكم أو جمعُكم للمال. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: ما أغنى عنكم جمعُكم واستكباركم المستمرُّ عن قبول الحقّ، أو على الخَلْق، وهو الأنسب بما بعده. وقُرئ: "تَسْتَكْثِرُونَ"[١] مِن الكثرة، أي: مِن الأموال والجنود.

﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ مِن تتمّة قولهم للرِّجال. والإشارة إلى ضُعفاء المؤمنين الذين كانت الكَفَرة يحتقرونهم في الدنيا، ويحلِفون صريحًا أنّهم لا يدخلون الجنّة، أو يفعلون ما يُنبئ عن ذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم / مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٤]. [٣٠٨و]

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى أولئك المذكورين، أي: ادخُلوا الجنّة على رغم أنوفهم. ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ بعد هذا، ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، أو قيل لأصحاب الأعراف: "ادخُلوا الجنّة بفضل الله تعالى" بعد أن حُبسوا وشاهدوا أحوال الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا.

والأظهر ألّا يكون المراد بـ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ المقصِّرين في العمل؛ لأنّ هذه المقالاتِ وما تتفرّع هي عليه مِن المعرفة لا يَليق بمَن لم يتعيّن حاله بعدُ. وقيل: لمّا عيّروا أصحابَ النار أقسموا أنّ أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنّة، فقال الله تعالى أو الملائكة ردًّا عليهم: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾... إلخ. وقُرئ: "أُدْخِلُوا"[٢]

---

[١] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/١٠٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرِّف. المحتسب لابن جنّي، ١/٢٤٩.

و"دَخَلُوا"[١] على الاستئناف، وتقديره: دخلوا الجنّة مقولًا في حقّهم: لا خوفٌ عليكم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ بعد أن استقرّ بكلٍّ مِن الفريقين القرارُ واطمأنّت به الدارُ: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: صُبُّوه. وفيه دلالة على أنّ الجنّة فوق النار. ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مِن سائر الأشربة، ليُلائِم الإفاضة، أو مِن الأطعمة، على أنّ الإفاضة عبارة عن الإعطاء بكثرة. ﴿قَالُوٓا۟﴾ استئناف مبنيٌّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: منعهما منهم منعًا كلّيًا، فلا سبيلَ إلى ذلك قطعًا.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ كتحريم البَحيرة والسائبة ونحوهما والتصديةِ حولَ البيت، / واللّهْو: صرفُ الهمّ إلى ما لا يحسن أن يُصرَف إليه. واللّعِب: [٣٠٨ظ] طلبُ الفرح بما لا يحسن أن يُطلَب. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخارفها العاجلة. ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمَنسي مِن عدم الاعتداد بهم وتركِهم في النار تركًا كلّيًا. و"الفاء" في ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ فصيحة.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ في محلّ النصب على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: ننساهم نِسيانًا مثلَ نسيانِهم لقاءَ يومهم هذا، حيث لم يُخطِروه ببالهم ولم يستعدّوا له. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ عطفٌ على ﴿مَانَسُوا﴾، أي: وكما كانوا منكِرين بأنّها مِن عند الله تعالى إنكارًا مستمرًّا.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي: بيّنّا معانيه مِن العقائد والأحكام والمواعظ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. المحتسب لابن جني، ١/٢٤٩.

والضمير للكَفَرة قاطبةً، والمراد بـ"الكتاب" الجنسُ؛ أو للمعاصِرين منهم، و"الكتاب" هو القرآن. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال مِن فاعل ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾، أي: عالمين بوجه تفصيله حتّى جاء حكيمًا؛ أو مِن مفعوله، أي: مشتمِلًا على علم كثير. وقُرئ: "فضَّلْنَاهُ"،[1] أي: على سائر الكتب عالمين بفضله. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حال مِن المفعول. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المغتنِمون بآثاره[2] المقتبسون مِن أنواره.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: ما ينتظر هؤلاء الكَفَرةُ بعدم إيمانهم به إلّا ما يئول إليه أمره مِن تبيّنِ صدقه بظهور ما أخبر به مِن الوعد والوعيد. ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوه تركَ المَنسي مِن قبل / إتيان تأويله: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: قد تبيَّن أنّهم قد جاءوا بالحقّ، ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ اليومَ ويدفعوا عنّا العذابَ، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أي: هل نُرَدّ إلى الدنيا. وقُرئ بالنصب[3] عطفًا على ﴿فَيَشْفَعُوا﴾، أو لأنّ ﴿أَوْ﴾ بمعنى "إلى أنْ". فعلى الأوّل[4] المسئول أحد الأمرين، إمّا الشفاعة لدفع العذاب، أو الردُّ إلى الدنيا؛ وعلى الثاني[5] أن يكون لهم شفعاءُ، إمّا لأحد الأمرين،[6] أو لأمر واحد،[7] هو الردّ. ﴿فَنَعْمَلَ﴾ بالنصب على أنّه جواب الاستفهام الثاني. وقُرئ بالرفع،[8] أي: فنحن نعمل. ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: في الدنيا. [٣٠٩و]

---

[1] قراءة شاذّة. ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٦٢/٥، ونسبها إلى ابن محيصِن وعاصم الجحدري.

[2] وفي هامش م: متعلِّق بالاغتنام بتضمينه معنى الانتفاع. «منه».

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. المحتسب لابن جنّي، ٢٥١/١.

[4] وفي هامش م: أي: الرفع. «منه».

[5] وفي هامش م: أي: النصب. «منه».

[6] وفي هامش م: على تقدير العطف على ﴿فَيَشْفَعُوا﴾. «منه».

[7] وفي هامش م: على تقدير كون ﴿أَوْ﴾ بمعنى "إلى أنْ". «منه».

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٨.

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس مالهم إلى الكفر والمعاصي، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ظهر بطلانُ ما كانوا يفترونه مِن أنّ الأصنام شركاءُ لله تعالى وشفعاؤهم يومَ القيامة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ شروع في بيان مَبدَأ الفطرة إثرَ بيان معاد الكَفَرة، أي: إنّ خالقكم ومالككم الذي خلق الأجرام العُلويّة والسُّفليّة في ستّة أوقاتٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال، ٨/١٦]، أو في مقدار ستّة أيّامٍ، فإنّ المتعارَف أنّ اليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها، ولم تكن هي حينئذ. وفي خلق الأشياء مدرَّجًا مع القدرة على إبداعها دفعةً دليلٌ على الاختيار، واعتبارٌ للنُّظّار، وحثٌّ على التأنّي في الأمور.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: استوى أمرُه / واستولى. وعن أصحابنا أنّ [٣٠٩ظ]
الاستواء على العرش صفةٌ لله تعالى بلا كيفٍ، والمعنى: أنّه تعالى استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزَّهًا عن الاستقرار والتمكّن. والعرش: الجسم المحيط بسائر الأجسام، سُمّي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير المَلِك، فإنّ الأمور والتدابير تنزل منه، وقيل: المُلك.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يغطِّيه به. ولم يُذكَر العكس للعلم به، أو لأنّ اللفظ يحتملهما؛ ولذلك قُرئ بنصب ﴿ٱلَّيْلَ﴾ ورفعِ ﴿ٱلنَّهَارَ﴾.[١] وقُرئ بالتشديد[٢] للدلالة على التكرار. ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يعقُبه سريعًا كالطالب له، لا يفصل بينهما شيء. والحَثيث "فَعِيل" مِن "الحَثّ"، وهو صفةُ مصدر محذوف، أو حال

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد. المحتسب لابن جنّي، ٢٥٣/١.

٢ أي: "يُغَشِّي". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

مِن الفاعل أو المفعول، بمعنى: حاثًا أو محثوثًا.[١] ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ أي: خلقَهنّ حالَ كونهنّ مسخَّراتٍ بقضائه وتصريفه. وقُرئ كلُّها بالرفع[٢] على الابتداء والخبر.

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ فإنّه المُوجِد للكلّ والمتصرِّف فيه على الإطلاق. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: تعالى بالوحدانيّة في الألوهيّة، وتعظَّمَ بالتفرّد في الربوبيّة.

وتحقيق الآية الكريمة -والله أعلم- أنّ الكَفَرة كانوا متّخذين أربابًا، فبُيّن لهم أنّ المستحقّ للربوبيّة واحدٌ، هو الله تعالى؛ لأنّه الذي له الخلق والأمر، فإنّه تعالى خلَقَ العالَم على ترتيب قويم وتدبير حكيم، فأبدَعَ الأفلاك، ثمّ زيَّنها بالشمس والقمر والنجوم كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت، ١٢/٤١]، وعمَد إلى الأجرام السُّفليّة، فخلق جسمًا قابلًا للصُّوَر المتبدِّلة والهيئاتِ المختلفة، ثمّ قسمها بصُوَر[٣] نوعيّة متباينةِ / الآثار والأفعالِ، [٣١٠و] وأشار بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ[٤] ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت، ٩/٤١]، أي: ما في جهة السُّفْل في يومين، ثمّ أنشأ أنواعَ المواليد الثلاثة بتركيب موادّها أوّلًا وتصويرِها ثانيًا، كما قال بعد قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت، ٩/٤١]: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ [فصلت، ١٠/٤١]، أي: مع اليومين الأوّلَين لِما فُصّل في سورة السجدة.[٥]

ثمّ لمّا تمّ له عالَمُ المُلك عمَد إلى تدبيره، كالمَلِك الجالس على سريره، فدبَّر الأمر مِن السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكويرِ[٦] الليالي والأيّام، ثمّ صرَّح بما هو فَذْلكة التقرير ونتيجتُه، فقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ثمّ أمَرَ بأن يدعوه مخلِصين متذلّلين، فقال:

---

١ س: حال مِن الفاعل بمعنى: حاثًا، أو مِن المفعول بمعنى: محثوثًا.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.

٣ س: بصورة.

٤ م: وخلق.

٥ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة، ٤/٣٢].

٦ س: وتكرير.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ الذي قد عرفتم شئونه الجليلة ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ أي: ذَوِي تضرّعٍ وخُفيةٍ، فإنّ الإخفاء دليلُ الإخلاص.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي: لا يحبّ دعاءَ المجاوِزين لِما أُمروا به في كلّ شيء، فيدخل فيه الاعتداء في الدعاء دخولًا أوّليًّا. وقد نبّه به على أنّ الداعي يجب ألّا يطلب ما لا يَليق به كرُتبة الأنبياء والصُّعود إلى السماء. وقيل: هو الصِّياح في الدعاء والإسهاب فيه. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «سيكون قومٌ يَعتَدُون في الدعاء، وحسْبُ المَرْء أن يقول: اللّهمّ إنّي أسألك الجنّةَ وما قرَّب إليها مِن قولٍ وعملٍ، وأعوذُ بك مِن النار وما قرَّب إليها مِن قولٍ وعملٍ»، / ثمّ قرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.[1] [٣١٠ظ]

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ ببعث الأنبياء وشرعِ الأحكام، ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ أي: ذَوي خوفٍ نظرًا إلى قصور أعمالكم وعدمِ استحقاقكم، وطمَعٍ نظرًا إلى سَعة رحمته ووفورِ فضله وإحسانه.

﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في كلّ شيء. ومِن الإحسان في الدعاء أن يكون مقرونًا بالخوف والطمَع. وتذكير ﴿قَرِيبٞ﴾ لأنّ الرحمة بمعنى الرُّحم، أو لأنّه صفة لمحذوف، أي: أمرٌ قريبٌ، أو على تشبيهه بـ"فَعِيل" الذي هو بمعنى مفعول، أو الذي هو مصدر كـ"النَّقيض" و"الصَّهيل"، أو للفرق بين القريب مِن النسب والقريب مِن غيره، أو لاكتسابه التذكيرَ مِن المضاف إليه، كما أنّ المضاف يكتسي التأنيثَ مِن المضاف إليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾

---

[1] هو باختلاف يسير في مسند أحمد، ٣/٧٩-٨٠ (١٤٨٣)؛ والدعاء للطبراني، ص ٣٧ (٥٥). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٢/١١١.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ عطفٌ على الجملة السابقة. وقُرئ: "الرِّيحَ".[١] ﴿بُشْرًا﴾ تخفيفُ "بُشُر" جمعِ "بَشير"، أي مبشِّراتٍ. وقُرئ بفتح الباء[٢] على أنّه مصدر "بَشَره"، بمعنى: باشراتٍ أو للبِشارة. وقُرئ: "نُشُرًا"[٣] بالنون المضمومة جمع "نَشُور"، أي: ناشراتٍ، و"نَشْرًا"،[٤] على أنّه مصدر في موقع الحال، بمعنى: ناشراتٍ،[٥] أو مفعولٌ مطلقٌ، فإنّ الإرسال والنَّشر متقاربان. ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قُدّامَ رحمتِه التي هي المطر، فإنّ الصَّبا تُثير السحابَ، والشَّمال تجمعه، والجَنوب تدُرّه، والدَّبُور تفرّقه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ أي: حملتْ. واشتقاقه مِن "القِلّة"، فإنّ المُقِلّ للشيء يستقلّه. ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء. جمعه لأنّه بمعنى "السحائب". ﴿سُقْنَٰهُ﴾ أي: السحابَ. وإفراد الضمير لإفراد اللفظ. / ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: لأجله ولمنفعته، أو لإحيائه، أو لسَقْيه. وقُرئ: "مَيْتٍ".[٦] [٣١١و]

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي: بالبلد أو بالسحاب أو بالسَّوق أو بالريح. والتذكير بتأويل المذكور. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾. ويحتمل أن يعود الضمير إلى ﴿ٱلْمَآءَ﴾، وهو الظاهر. وإذا كان لـ"البلد"، فـ"الباء" للإلصاق في الأوّل، والظرفيّةِ في الثاني. وإذا كان لغيره، فهي للسببيّة. ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: مِن كلّ أنواعها.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الإشارة إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميّت، أي: كما نُحييه بإحداث القوّة النامية فيه وتطريتِها بأنواع النبات والثمراتِ، نُخرِج الموتى مِن الأجداث ونُحييها بردّ النفوسِ إلى موادّ أبدانها بعد جمعِها

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣، ٢٦٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الرحمن بخلاف. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٥٥.

٣ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.

٥ م ط س - ونشرًا على أنّه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات ["صح" في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٦ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٤-٢٢٥، ٢٧٠.

وتطريتها بالقُوى والحواس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بطرح إحدى التاءين، أي: تتذكّرون، فتعلمون أنّ مَن قدر على ذلك، قدر على هذا مِن غير شُبهة.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي: الأرض الكريمةُ التُّربةِ ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيئته وتيسيره. عبّر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارةِ نفعه؛ لأنّه أوقعه في مقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ مِن البلاد كالسَّبِخة والحرّة ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قليلًا عديمَ النفع. ونصبُه على الحال، والتقدير: والبلد الذي خبُثَ لا يخرج نباته إلّا نكِدًا، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه، فصار مرفوعًا مستترًا. وقُرئ: "لَا يُخرِجُ إلّا نَكِدًا"،[١] أي: لا يُخرج البلد إلّا نكِدًا. وقُرئ: "نَكَدًا"[٢] على المصدر، أي: ذا نَكَدٍ، و"نَكْدًا"[٣] بالإسكان للتخفيف. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك التصريف البديعِ ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نردّدها ونكرّرها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمةَ الله تعالى، / فيتفكّرون فيها، ويعتبرون بها. [٣١١ظ]

وهذا -كما ترى- مَثلٌ لإرسال الرسل عليهم السلام بالشرائع التي هي ماء حياة القلوب إلى المكلَّفين المنقسِمين إلى المقتبِسين مِن أنوارها والمحرومين مِن مَغانم آثارها. وقد عُقّب ذلك بما يحقّقه ويقرّره مِن قِصَص الأمَم الخالية بطريق الاستئناف، فقيل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وهو جوابُ قَسمٍ محذوفٍ، أي: واللهِ لقد أرسلنا... إلخ. واطّراد استعمال هذه "اللام" مع "قد" لكون مدخولها مَظِنّةً للتوقّع الذي هو معنى "قد"، فإنّ الجملة القَسَميّة إنّما تُساق لتأكيد الجملة المُقسَم عليها.

---

١ رواها الشطوي عن ابن هارون عن الفضل عن أصحابه عن ابن وردان. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠. وهي مرويّة عن ابن يعمر وابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٩.

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٩.

ونوحٌ هو ابنُ لَمَك بن مُتَوَشْلخ بن أُخنُوخ، وهو إدريسُ النبيّ عليهما السلام. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بُعث عليه السلام على رأس أربعين سنةً مِن عُمره، ولَبِث يدعو قومه تسعَمائةٍ وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان ستّين سنةً، وكان عُمره ألفًا وخمسين سنةً».[١] وقيل: عاش بعده[٢] مائتين وخمسين سنةً، فكان عمرُه ألفًا ومائتين وأربعين سنةً. وقال مقاتل: «بُعث وهو ابنُ مائةِ سنةٍ».[٣] وقيل: وهو ابن خمسين سنةً.[٤] وقيل: وهو ابن[٥] مئاتين وخمسين، ومكث يدعو قومَه تسعَمائةٍ وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنةً، فكان عمرُه ألفًا وأربعمائةٍ وخمسين سنةً.[٦]

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبُدوه وحدَه. وتركُ التقييد به للإيذان بأنّها العبادةُ حقيقةً. وأمّا العبادة بالإشراك، فليس مِن العبادة في شيء. وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أي: مِن مستحقّ للعبادة، استئنافٌ مَسوقٌ لتعليل العبادة المذكورة أو الأمرِ بها. و﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ بالرفع صفةً لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبار مَحلّه الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعليّة. وقُرئ بالجرّ[٧] باعتبار لفظه. وقُرئ بالنصب[٨] على الاستثناء. وحكمُ[٩] ﴿غَيۡر﴾ حكمُ الاسم الواقع بعد "إلّا"، أي: ما لكم مِن إلهٍ إلّا إيّاه، كقولك: "ما في الدار مِن أحدٍ إلّا زيدًا وغيرَ زيدٍ". فـ﴿مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾ إن جُعل مبتدأً، فـ﴿لَكُم﴾ خبرُه، أو خبرُه محذوفٌ، و﴿لَكُم﴾ للتخصيص والتبيين، أي: ما لكم في الوجود أو / في العالَم إله غير الله. [٣١٢و]

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: إن لم تعبدوه حسبما أمرتُ به ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هو يوم القيامة أو يوم الطوفان. والجملة تعليل للعبادة ببيان الصارف عن تركها

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٠ (هود، ١١/٢٦)؛ اللباب لابن عادل، ١٩/٤٦٧ (هود، ١١/٢٦).

[٢] س – ستّين سنةً، وكان عُمره ألفًا وخمسين سنةً، وقيل: عاش بعده.

[٣] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٠ (هود، ١١/٢٦)؛ اللباب لابن عادل، ١٩/٤٦٧ (هود، ١١/٢٦).

[٤] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٠ (هود، ١١/٢٦)؛ اللباب لابن عادل، ١٩/٤٦٧ (هود، ١١/٢٦).

[٥] س – ابن.

[٦] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٧٠ (هود، ١١/٢٦)؛ اللباب لابن عادل، ١٩/٤٦٧ (هود، ١١/٢٦).

[٧] قرأ بها الكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمرو اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٩.

[٩] وفي هامش م: أي: في الإعراب. «منه».

إثرَ تعليلها ببيان الداعي إليها. ووصفُ "اليوم" بالعِظَم لبيان عظيمِ ما يقع فيه وتكميلِ الإنذار.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن حكاية قوله عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قالوا له عليه السلام في مقابلة نُصحه؟ فقيل: قال الرؤساء مِنْ قومه والأشرافُ الذين يَملئُون صدورَ المَحافل بإجرامهم والقلوبَ بجلالهم وهيبتِهم والأبصارَ بجمالهم وأُبّهتِهم:[١] ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي: ذهابٍ عن طريق الحقّ والصواب. والرؤية قَلبيّة، ومفعولاها: الضمير والظرف. ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّنٌ كونُه ضلالًا.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦١﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبق. ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ ناداهم بإضافتهم إليه استمالةً لقلوبهم نحو الحقّ: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ﴾ أي: شيء ما مِن الضلال. قصد عليه السلام تحقيقَ الحقّ في نفي الضلال عن نفسه ردًّا على الكَفَرة، حيث بالغوا في إثباته له عليه السلام، حيث جعلوه مستقرًّا في الضلال الواضحِ كونُه ضلالًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ استدراك ممّا قبله باعتبار ما يستلزمه مِن كونه في أقصى مراتب الهداية، فإنّ رسالة ربّ العالمين مستلزِمة لا محالةَ، كأنّه قيل: ليس بي شيءٌ مِن الضلالة، ولكنّي في الغاية القاصية مِن الهداية. و﴿مِّنْ﴾ لابتداء الغاية مجازًا، متعلِّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، مؤكِّدة لِما يفيده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: رسولٌ وأيُّ رسولٍ كائنٌ مِن ربّ العالمين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾

/ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى﴾ استئناف مَسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها [٣١٢ظ]

---

١ رجلٌ ذو أُبّهة، أي: ذو كِبر ونَخْوة. تهذيب اللغة للأزهري، ٦/٢٤٣ «باب الهاء والباء».

وأحوالها. وقيل: صفة أخرى لـ﴿رَسُولٌ﴾،[١] على طريقة:

أنَـا الـذي سَـمّـتْـنـي أُمّـي حَـيْـدَرَهْ[٢]

وقُرِئ: "أَبْلِغُكُمْ"[٣] مِن الإبلاغ. وجمعُ "الرسالات" لاختلاف أوقاتها، أو لتنوّعِ معانيها، أو لأنّ المراد بها ما أُوحيَ إليه وإلى النبيّين مِن قبله عليهم السلام. وتخصيص ربوبيّته تعالى به عليه السلام بعد بيان عمومها للعالَمين للإشعار بعلّة الحُكم الذي هو تبليغ رسالته تعالى إليهم، فإنّ ربوبيّته تعالى له عليه السلام مِن موجِبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، مبيِّنٌ لكيفيّة أداء الرسالة. وزيادة اللام -مع تعدّي "النُّصح" بنفسه- للدلالة على إمحاض النصيحة لهم، وأنّها لمنفعتهم ومصلحتهم خاصّةً. وصيغة المضارع للدلالة على تجدّد نصيحته لهم كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح، ٥/٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عطفٌ على ما قبله، وتقريرٌ لرسالته عليه السلام، أي: أعلم مِن جهة الله تعالى بالوحي ما لا تعلمونه مِن الأمور الآتية، أو أعلَمُ مِن شئونه عزّ وجلّ وقدرته القاهرة وبطشِه الشديد على أعدائه وأنّ بأسه لا يُردّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه. قيل: كانوا لم يسمعوا بقومٍ حلّ بهم العذابُ قبلَهم، فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون ما علمه نوحٌ عليه السلام بالوحي.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جواب وردّ لِما اكتُفيَ عن ذِكره بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف، ٦٠/٧] مِن قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] البيت لعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه في تهذيب اللغة للأزهري، ١٠٣/١٣ «باب السين والدال»؛ وأساس البلاغة للزمخشري، ٧٦/٢؛ ونهاية الأرب للنُّوَيري، ٢٥٤/١٧. وانظر لقصّته: صحيح مسلم، ١٤٣٣-١٤٤٠ (١٨٠٧)، وفيه بعده:

كَلَيْثِ غاباتٍ كَريهِ المَنظَرة ... أُوفِيهم بالصاع كَيْلَ السَّنْدَرَة

[٣] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

﴿مِّثۡلَنَا﴾ [هود، ٢٧/١١] وقولِهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٤/٢٣]. والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّرٍ ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: أاستبعدتم وعجِبتم مِن / أن جاءكم ذكرٌ -أي: وحيٌ أو موعظةٌ- مِن مالك أموركم ومُربّيكم. [٣١٣و]

﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: على لسانِ رجلٍ مِن جنسكم، كقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران، ١٩٤/٣]، وقلتم لأجل ذلك ما قلتم مِن أنّ الله تعالى لو شاء لأنزلَ ملائكةً. ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ علّة للمَجيء، أي: ليحذِّرَكم عاقبةَ الكفر والمعاصي. ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ عطفٌ على العلّة الأولى، مترتِّبةٌ عليها. ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ عطفٌ على العلّة الثانية، مترتِّبةٌ عليها، أي: ولتتعلّقَ بكم الرحمة بسبب تقواكم. وفائدة حرف الترجّي التنبيهُ على عزّة المَطلَب، وأنّ التقوى غير موجِب للرحمة؛ بل هي مَنُوطة بفضل الله تعالى، وأنّ المتّقي ينبغي ألّا يعتمد على تقواه، ولا يأمَنَ عذابَ الله عزّ وجلّ.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فتمّوا على تكذيبه في دعوى النبوّة وما نزل عليه مِن الوحي الذي بلّغه إليهم وأنذرهم بما في تضاعيفه، واستمَرّوا على ذلك هذه المدّة المتطاولةَ بعد ما كَرّر عليه السلام عليهم الدعوةَ مرارًا، فلم يَزِدْهم دعاؤه إلّا فرارًا حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي[١] لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ الآيات [نوح، ٥/٧١]، إذ هو الذي يعقُبه الإنجاء والإغراق، لا مجرَّدُ التكذيب.

﴿فَأَنجَيۡنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ مِن المؤمنين. قيل: كانوا أربعين رجلًا وأربعين امرأةً.[٢] وقيل: تسعةٌ،[٣] أبناؤه الثلاثة وستّةٌ ممّن آمن به.[٤] وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ متعلّقٌ بالاستقرار في الظرف، أي: استقرّوا معه في الفُلك أو صحِبوه فيه،

---

١ م س: دعوتهم.
٢ قاله مقاتل بن سليمان في تفسيره، ٤٥٢/٤ (نوح، ٢٨/٧١).
٣ ط س: عشرة. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.
٤ الكشّاف للزمخشري، ١١٥/٢.

أو بفعل الإنجاء، أي: أنجيناهم في السفينة. ويجوز أن يتعلّق بمضمَرٍ وقع حالًا مِن الموصول أو مِن ضميره في الظرف.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: استمرّوا على تكذيبها. وليس المراد بهم المَلَأَ المتصدِّين للجواب فقط؛ بل كلّ مَن أصرَّ على التكذيب منهم ومِن أعقابهم. وتقديم ذكر / الإنجاء على الإغراق للمسارعة إلى الإخبار به، والإيذانِ بسَبْق الرحمة التي هي مقتضى الذات وتقدّمِها على الغضب الذي يظهر أثره بمقتضى جرائمهم. [٣١٣ظ]

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عُمْيَ القلوبِ غيرَ مستبصِرين. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «عَمِيَتْ قلوبُهم عن معرفة التوحيد والنبوّة والمَعاد».[١] وقُرئ: "عَامِينَ".[٢] والأوّل أدلُّ على الثبات والقرار.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ متعلِّق بمضمَرٍ معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾[٣] في قصّة نوح عليه السلام.[٤] وهو الناصب لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: وأرسلنا إلى عادٍ أخاهم، أي: واحدًا منهم في النَّسَب، لا في الدين، كقولهم: "يا أخا العربِ". وقيل: العامل فيهما الفعلُ المذكور فيما سبق، و﴿أَخَاهُمْ﴾ معطوف على ﴿نُوحًا﴾.[٥] والأوّل هو الأَولى.

وأيًّا ما كان، فلعلّ تقديمَ المجرور ههنا على المفعول الصريح للحِذار عن الإضمار قبل الذِّكر؛ يرشدك إلى ذلك ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾... إلخ [الأعراف، ٧/٨٠]؛ فإنّ قومه لمّا لم يُعهَدوا باسمٍ معروفٍ يقتضي الحالُ ذكرَه عليه السلام مضافًا إليهم كما في قصّة عادٍ وثمودَ ومَدْينَ، خُولِفَ في النظم الكريم بين قصّته عليه السلام وبين القِصص الثلاث.

---

١ تفسير الرازي، ١٤/٢٩٨؛ اللباب لابن عادل، ٩/١٨٣. ونحوه عنه رضي الله عنهما في معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٤٢.

٢ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/١١٥.

٣ الأعراف، ٧/٥٩.

٤ م - عليه السلام.

٥ الأعراف، ٧/٥٩.

وقوله تعالى: ﴿هُودًا﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿أَخَاهُمْ﴾. وهو هودُ بنُ عبد الله بنِ رباحِ بن الجارود[١] بنِ عاد بنِ[٢] عوصِ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ عليه السلام.[٣] وقيل: هودُ بنُ شالَخ بن إرْفَخْشَد بن سامِ بن نوحٍ ابنِ عمّ أبي عادٍ.[٤] وإنّما جُعل منهم لأنّهم أفهمُ لكلامه، وأعرفُ بحاله في صِدقه وأمانته، وأقربُ إلى اتّباعه.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن حكاية إرساله عليه السلام إليهم، كأنّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحدَه، كما يُعرب عنه قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، / فإنّه استئنافٌ جارٍ مَجرى البيان للعبادة [٣١٤و] المأمور بها والتعليلِ لها أو للأمر بها، كأنّه قيل: خُصُّوه بالعبادة، ولا تُشركوا به شيئًا، إذ ليس لكم إله سِواه. و﴿غَيْرُهُۥ﴾ بالرفع صفةٌ لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبار مَحلّه. وقُرئ بالجرّ[٥] حملًا له على لفظه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إنكار واستبعاد لعدم اتّقائهم عذابَ الله تعالى بعد ما علموا ما حلَّ بقوم نوح. و"الفاء" للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: ألَا تتفكّرون أو أتغفُلون فلا تتّقون، فالتوبيخ على المعطوفَين معًا؛ أو أتعلمون ذلك فلا تتّقون، فالتوبيخ على المعطوف فقط. وفي سورة هودٍ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود، ٥١/١١]. ولعلّه عليه السلام خاطبهم بكلٍّ منهما. وقد اكتُفي بحكاية كلٍّ منهما في مَوطنٍ عن حكايته في مَوطنٍ آخرَ، كما لم يُذكَر ههنا ما ذُكر هناك مِن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود، ٥٠/١١]. وقِسْ على ذلك حالَ بقيّةِ ما ذُكر وما لم يُذكَر مِن أجزاء القصّة؛ بل حالَ نظائرِه في سائر القِصص، لاسيّما في المحاوَرات الجارية[٦] في الأوقات المتعدِّدة. والله أعلم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ استئناف كما مرّ. وإنّما وُصف ﴿ٱلْمَلَأُ﴾

---

١ م س: الحلود [صُحّح في هامش م س].
٢ م س - عاد بن ["صح" في هامش م].
٣ اللباب لابن عادل، ١٨٤/٩.
٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٥/٤.
٥ قرأ بها الكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.
٦ س - الجارية.

بالكفر؛ إذْ لم يكن كلُّهم على الكفر كمَلأ قومِ نوحٍ؛ بل كان منهم مَن آمن له عليه السلام، ولكنْ كان يكتُم إيمانَه كمَرْثد بن سَعد. وقيل: وُصفوا به لمجرّد الذمّ. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي: متمكِّنًا في خِفّةِ عقلٍ راسخًا فيها، حيث فارقتَ دينَ آبائك. ألَا إنّهم هم السفهاء، ولكنْ لا يعلمون![1] ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما ادّعيتَ مِن الرسالة. قالوه لعراقتهم في التقليد / وحِرمانِهم مِن النظر الصحيح. [٣١٤ظ]

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧﴾

﴿قَالَ﴾ مستعطِفًا لهم ومستمِيلًا لقلوبهم مع ما سمع منهم ما سمع مِن الكلمة الشّنعاء الموجِبةِ لتغليظ القول والمشافهة بالسوء: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ أي: شيءٌ منها، ولا شائبةٌ مِن شوائبها، ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استدراك ممّا قبله باعتبار ما يستلزمه ويقتضيه مِن كونه في الغاية القُصوى مِن الرُّشد والأناة والصدق والأمانة؛ فإنّ الرسالة مِن جهة ربّ العالمين موجِبةٌ لذلك حتمًا، كأنّه قيل: ليس بي شيءٌ ممّا تَنسبتموني إليه، ولكنّي في غايةِ ما يكون مِن الرُّشد والصِّدق. ولم يصرِّح بنفي الكذب اكتفاءً بما في حيّز الاستدراك. و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية مجازًا، متعلّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿رَسُولٌ﴾، مؤكِّدة لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾

وقوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ استئناف سِيقَ لتقرير رسالته وتفصيل أحوالها. وقيل: صفة أخرى لـ﴿رَسُولٌ﴾.[2] والكلام في إضافة "الربّ" إلى نفسه عليه السلام بعد إضافته إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،[3] وكذا في جمع "الرسالات"، كالذي مرّ في قصّة نوح عليه السلام.[4] وقُرئ: "أُبْلِغُكُمْ"[5] مِن الإبلاغ.

---

[1] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، ٢/١٣].

[2] في الآية السابقة.

[3] في الآية السابقة.

[4] انظر: تفسير الأعراف، ٦٢/٧.

[5] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ معروف بالنُّصح والأمانة، مشهورٌ بين الناس بذلك. وإنّما جِيءَ بالجملة الاسميّة دلالةً على الثبات والاستمرار، وإيذانًا بأنّ مَن هذا حالُه لا يحُوم حولَه شائبةُ السفاهة أو الكذب.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في قصّة نوح عليه السلام.[١] ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: مِن جنسكم ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ ويحذِّرَكم عاقبةَ ما أنتم عليه مِن الكفر والمعاصي، حتّى نسبتموني / إلى السفاهة والكذب. وفي إجابة الأنبياء [٣١٥و] -صلوات الله عليهم[٢] وسلامُه- مَن يشافههم بما لا خيرَ فيه مِن أمثال تلك الأباطيل بما حُكي عنهم مِن المقالات الحقّة المُعرِبة عن نهاية الحلم والرزانة وكمالِ الشفقة والرّأفة مِن الدلالة على حِيازتهم القِدْحَ المُعلَّى مِن مَكارم الأخلاق ما لا يخفى مكانُه.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ شروع في[٣] ترتيب أحكام النُّصح والأمانة والإنذارِ وتفصيلِها. و﴿إِذۡ﴾ منصوب بـ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ على المفعوليّة دون الظرفيّة. وتوجيه الأمر بالذِّكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مِن الحوادث -مع أنّها المقصودة بالذات- للمبالغة في إيجاب ذكرها، لِما أنّ إيجاب ذكر الوقت إيجابٌ لذكر ما فيه بالطريق البرهانيّ، ولأنّ الوقت مشتمل عليها، فإذا استُحضِر كانت هي حاضرةً بتفاصيلها، كأنّها مشاهَدة عِيانًا. ولعلّه معطوف على مقدَّر، كأنّه قيل: لا تعجَبوا مِن ذلك أو تدبَّروا في أمركم واذكُروا وقت جعلِه تعالى إيّاكم خُلفاءَ ﴿مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي: في مساكنهم أو في الأرض بأن جعلكم مُلوكًا، فإنّ شَدّاد بنَ عادٍ ممّن ملك معمورة الأرض مِن رَمْلِ عالِجٍ إلى شجر عُمَان.[٤]

---

١ انظر: تفسير الأعراف، ٦٣/٧.

٢ س: عليه.

٣ س + بيان.

٤ قال الثعلبي في الكشف والبيان، ٢٤٦/٤: «وكانت قصّة عادٍ وهلاكهم على ما ذكره محمّد بن إسحاق والسدّي وغيرهما مِن الرواة والمفسّرين: إنّ عادًا كانوا ينزلون اليمن، وكان مساكنهم منها بالشجرة والأحقاف، وهي رِمال يقال لها: رَمْلُ عالِجٍ، ما بين عُمَان إلى حَضرَموت»... إلخ.

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: في الإبداع والتصوير أو في الناس ﴿بَصْطَةً﴾ قامةً وقوّةً، فإنّه لم يكن في زمانهم مثلُهم في عِظَم الأجرام. قال الكلبي والسدّي: «كانت قامةُ الطويل منهم مائةَ ذراعٍ، وقامةُ القصير ستّين ذراعًا».[1]

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ التي أنعَمَ بها عليكم مِن فنون النَّعْماء التي هذه مِن جملتها. وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير، وتعميمٌ إثرَ تخصيصٍ. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كَيْ يؤدّيَكم ذلك إلى الشكر المؤدّي إلى النجاة مِن الكروب والفوزِ بالمطلوب.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ مُجيبين عن تلك النصائح العظيمة: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ أي: لنخُصَّه بالعبادة، ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أنكروا عليه عليه السلام مَجيئَه لتخصيصه تعالى بالعبادة والإعراضِ عن عبادة الأوثان انهماكًا في التقليد، وحُبًّا لِما أَلِفوه وأَلْفَوْا أسلافَهم عليه. / ومعنى المَجيء إمّا مَجيئه عليه السلام مِن مُتعبَّده ومُعتزَله، وإمّا مِن السماء على التهكّم، وإمّا القصد والتصدّي مجازًا، كما يقال في مقابله: "ذهب يشتُمُني" مِن غير إرادة معنى الذَّهاب. [٣١٥ظ]

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ مِن العذاب المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.[2] ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: في الإخبار بنزول العذاب. وجوابُ ﴿إِنْ﴾ محذوف لدلالة المذكور عليه، أي: فأتِ به.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وجب وحقَّ، أو نزل بإصراركم هذا، بناءً على تنزيل المتوقَّع منزلةَ الواقع كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل، ١٦/١].

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ٢٤٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٨٨/٩.

٢ الأعراف، ٦٥/٧.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: مِن جهته تعالى. وتقديم الظرف الأوّل[1] على الثاني -مع أنّ مَبدأ الشيء متقدّم على منتهاه- للمسارعة إلى بيان إصابة المكروه بهم. وكذا تقديمهما على الفاعل الذي هو قوله تعالى: ﴿رِجْسٌ﴾، مع ما فيه مِن التشويق إلى المؤخَّر، ولأنّ فيه نوعَ طولٍ بما عُطف عليه مِن قوله تعالى: ﴿وَغَضَبٌ﴾، فربّما يُخلّ تقديمُهما بتجاوب النظم الكريم. والرِّجس: العذاب، مِن "الارتجاس" الذي هو الاضطراب. والغَضَب: إرادة الانتقام. وتنوينهما للتفخيم والتهويل.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ﴾ عاريةٍ عن المسمَّى ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ أي: سَمَّيتم بها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ إنكار واستقباح لإنكارهم مَجيئَه عليه السلام داعيًا لهم إلى عبادة الله تعالى وحدَه وتركِ عبادة الأصنام، أي: أتجادلونني في أشياءَ سَمَّيتموها آلهةً ليست هي إلّا محضُ الأسماء، مِن غير أن يكون فيها مِن مِصداق الإلهيّة شيءٌ ما؛ لأنّ المستحِقّ للمعبوديّة بالذات ليس إلّا مَن أوجد الكلّ، وأنّها لو استحقّت لكان ذلك بجعله تعالى، / إمّا بإنزال آية أو نصبِ حُجّة، وكلاهما [٣١٦و]
مستحيل، وذلك قوله تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، وإذ ليس ذلك في حيّز الإمكان، تحقَّقَ بطلانُ ما هم عليه.

﴿فَٱنتَظِرُوٓا﴾ مترتِّب على قوله تعالى: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾، أي: فانتظِروا ما تطلبونه بقولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾... إلخ.[2] ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لِما يحلّ بكم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ فصيحة كما في قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة، ٦٠/٢]، أي: فوقع ما وقع، فأنجيناه ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي: في الدين ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ أي: عظيمةٍ لا يقادَر قدرها. وقوله تعالى: ﴿مِّنَّا﴾ أي: مِن جهتنا، متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو نعتٌ لـ﴿رَحْمَةٍ﴾ مؤكِّدٌ لفخامتها الذاتيّة المنفهمة مِن تنكيرها بالفخامة الإضافيّة.

---

[1] وفي هامش م: أي: ﴿عَلَيْكُم﴾.

[2] في الآية السابقة.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: استأصلناهم بالكلّيّة ودمّرناهم عن آخرهم. ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبُوا﴾، داخلٌ معه في حكم الصلة، أي: أصَرّوا على الكفر والتكذيب، ولم يَرعَوُوا عن ذلك أبدًا. وتقديم حكاية الإنجاء على حكاية الإهلاك قد مرّ سرُّه.[1] وفيه تنبيه على أنّ مناط النّجاة هو الإيمان بالله تعالى وتصديقُ آياته، كما أنّ مدار البَوار هو الكفر والتكذيب.

وقِصّتهم: أنّ عادًا قومٌ كانوا باليَمن بالأحقاف، وكانوا قد تبسّطوا في البلاد ما بين عُمان إلى حَضْرَمَوت، وكانت لهم أصنام يعبدونها: صُدَاء وصَمُود والهَباء، فبعث الله تعالى إليهم هودًا نبيًّا، وكان مِن أوسطهم وأفضلهم حَسَبًا، فكذّبوه، وازدادوا عُتوًّا وتجبّرًا، / فأمسك الله تعالى عنهم القَطْر ثلاثَ سِنينَ [٣١٦ظ] حتّى جُهِدوا،[2] وكان الناس إذا نزل بهم بلاءٌ طلبوا إلى الله الفَرَجَ منه عند بيته الحرام مسلمُهم ومشركُهم، وأهلُ مكّةَ إذ ذاك العَماليق أولاد عِمليق بنِ لاوَذ بن سام بن نوح، وسيّدُهم معاوية بن بكر، فجَهّزت عادٌ إلى مكّةَ مِن أماثلهم سبعين رَجلًا، منهم قَيْل بن عنز ومَرْثَدُ بن سعد الذي كان يكتُم إسلامَه، فلمّا قدِموا نزلوا على معاويةَ بن[3] بكر، وهو بظاهرِ مكّةَ خارجًا مِن الحَرم، فأنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخوالَه وأصهارَه، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمرَ وتُغنّيهم قَينتا معاويةَ، فلمّا رأى طُولَ مُقامهم وذهولَهم باللّهو عمّا قدِموا له، أهمّه ذلك وقال: «قد هلك أخوالي وأصهاري، وهؤلاء على ما هم عليه»، وكان يستحيي أن يكلّمهم خشيةَ أن يظنّوا به ثِقَلَ مُقامهم عليه، فذكر ذلك للقَينتين، فقالتا: «قُل شِعرًا نُغنّيهم به لا يدرون مَن قال»، فقال معاوية:

أَلَا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فهَيْنِمْ ... لعلَّ الله يَسْقِينا غَمَامَا
فيَسقي أرضَ عادٍ إنّ عادًا ... قَدَ امسَوْا ما يُبِينون الكلامَا[4]

---

[1] انظر: تفسير الأعراف، ٦٤/٧.

[2] جهَدَ المرضُ فلانًا -وكذا التّعَبُ والحُبُّ- يجهَده جَهْدًا: هَزَله. وجَهِد عَيْشُه: نَكِد واشتدّ. تاج العروس للزبيدي، «جهد».

[3] س: ابن.

[4] قوله: "فَهَيْنِمْ"، الهَيْنَمة: إخفاء الكلام، وههنا: عبارة عن الدعاء. قوله: "يَسْقينا غَمَامًا"، أي: غَيْثًا. قوله: "ما يُبِينون الكلامًا"، أي: لا يفقهون قولًا مِن ضَعفهم. فتوح الغيب للطيبي، ٤٤٢/٦.

فلمّا غنّتا به قالوا: «إنّ قومكم يتغوّثون مِن البلاء الذي نزل بهم، وقد أبطأتم عليهم، فادخُلوا الحَرَم واستَسْقُوا لقومكم»، فقال لهم مَرْثد بن سعد: «واللهِ لا تُسقَون بدعائكم، ولكنْ إن أطعتم نبيَّكم وتُبتم إلى الله تعالى، سُقِيتم»، وأظهر إسلامَه، فقالوا لمعاوية: «احبِسْ عنّا مَرْثدًا، لا يَقدَمَنّ معنا، فإنّه قد اتّبع دينَ هود وترك ديننا»، ثمّ دخلوا مكّةَ، فقال قَيْل: «اللّهمّ اسقِ عادًا ما كنتَ تَسقيهم»، فأنشأ الله تعالى سحاباتٍ ثلاثًا: بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ، ثمّ ناداه منادٍ مِن السماء: «يا قَيْل اختَرْ / لنفسك ولقومك»، فقال: [٣١٧و] «اخترتُ السوداءَ، فإنّها أكثرُهنّ ماءً»، فخرجتْ على عادٍ مِن وادٍ يقال له: المُغيث، فاستبشَروا بها وقالوا: «هذا عارضٌ مُمطِرُنا»، فجاءتهم منها رِيح عَقيم فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتَوا مكّةَ، فعبدوا الله فيها إلى أن ماتوا.[١]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ عطفٌ على ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾،[٢] موافقٌ له في تقديم المجرور على المنصوب. وثمود: قبيلة مِن العرب، سُمُّوا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرَمَ بنِ سام. وقيل: إنّما سُمُّوا بذلك لقلّة مائهم، مِن "الثَّمد"، وهو الماء القليل. وقُرئَ بالصرف[٣] بتأويل الحيّ. وكانت مساكنُهم الحِجرَ بين الحِجاز والشام إلى وادي القُرى. وأُخُوّة صالح عليه السلام لهم مِن حيث النَّسبُ كهُودٍ عليه السلام؛ فإنّه صالح بنُ عبيد بنِ آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١١٨/٢. وانظر لتفصيل القصّة: جامع البيان للطبري، ٢٦٩/١٠-٢٧٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٤٣/٣-٢٤٤.

[٢] الأعراف، ٦٥/٧.

[٣] أي: "ثَمودٍ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن والأعمش والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٠.

ولمّا كان الإخبار بإرساله عليه السلام إليهم مَظِنّةً لأن يُسأل ويقال: فماذا قال لهم؟ قيل جوابًا عنه بطريق الاستئناف: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾. وقد مرّ الكلام في نظائره.[1] ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ﴾ أي: آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنُبوّتي. وهي مِن الألفاظ الجارية مَجرى "الأبطح" و"الأبرق" في الاستغناء عن ذِكر موصوفاتها حالةَ الإفراد والجمع، كـ"الصالح" إفرادًا وجمعًا. وكذلك "الحَسَنة" و"السيّئة" سواء كانتا صفتين للأعمال أو المَثُوبة، أو حالةً مِن الرخاء والشدّة؛ / ولذلك أُولِيَت العوامل. [٣١٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَتۡكُم﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿بَيِّنَةٞ﴾ كما مرّ مرارًا. والمراد بها الناقة. وليس هذا الكلام منه عليه السلام أوّلَ ما خاطَبهم إثرَ دعوتهم إلى التوحيد؛ بل إنّما قاله بعد ما نصَحَهم وذكَّرهم بنِعم الله تعالى، فلم يقبَلوا كلامه وكذّبوه؛ ألَا[2] يُرى إلى ما في سورة هود مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود، ٦١/١١] إلى آخر الآيات.

رُوي أنّه لمّا أُهلكت عادٌ عَمَرت ثمودُ بلادَها، وخلَفوهم في الأرض، وكثُروا وعُمّروا أعمارًا طِوالًا، حتّى إنّ الرجل كان يَبني المَسكن المُحكَم، فينهدم في حياته، فنحتوا البيوتَ مِن الجبال، وكانوا في سَعَة ورخاءٍ مِن العَيْش، فعتَوا على الله تعالى، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحًا، وكانوا قومًا عَرَبًا، وصالحٌ مِن أوسطهم نسَبًا، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فلم يتّبعه إلّا قليلٌ منهم مستضعَفون، فحذّرهم وأنذرهم، فسألوه آيةً، فقال: «أيّةَ آيةٍ تريدون؟»، قالوا: «تخرج معنا إلى عِيدنا -في يوم معلوم لهم مِن السَّنة- فتدعو إلهك، وندعو آلهتنا؛ فإن استُجيب لك اتّبعناك، وإن استُجيب لنا اتّبعتَنا»، فقال صالح: «نعم»، فخرج معهم، ودعَوا أوثانَهم، وسألوا الإجابة، فلم تُجبْهم، ثمّ قال سيّدهم جُندُع بن عمرو -وأشار إلى صَخْرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها: الكاثبة-: «أَخرِجْ لنا مِن هذه الصخرة ناقةً مخترَجةً جَوْفاءَ وَبْراءَ -والمخترَجة التي شاكلت البُخْت- فإن فعلتَ صدّقناك وأجبناك»،

[1] انظر: تفسير الأعراف، ٥٩/٧.
[2] س: إلى.

فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق: «لَئن فعلتُ ذلك لَتؤمنُنَّ ولَتُصدّقُنّ»، قالوا: «نعم»، فصلّى ودعا ربَّه، فتمخّضت الصخرةُ تمخُّضَ النَّتُوج[1] بولدها، فانصدعت عن ناقةٍ عُشَراءَ جَوْفاءَ وَبْراءَ كما وصفوا، / لا يعلم ما بين جَنْبَيْها إلّا [٣١٨و] الله، وعظماؤهم ينظرون، ثمّ نُتِجت ولدًا مثلَها في العِظَم، فآمن به جُندُع ورَهْطٌ مِن قومه، ومنع أعقابَهم ناسٌ مِن رُءوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجرَ وتشرب الماء، وكانت تَرِد غِبًّا، فإذا كان يومُها وضعتْ رأسَها في البئر، فما ترفعها حتّى تشربَ كلَّ ما فيها، ثمّ تتفحّج،[2] فيحتلبون ما شاءوا حتّى تمتلئَ أوانيهم، فيشربون ويدّخرون، وكانت إذا وقع الحَرّ تصيَّفت بظَهر الوادي، فيهرُب منها أنعامُهم، فتهبِط إلى بطنه، وإذا وقع البَرد تَشَتّتْ بطن الوادي، فتهرُب مواشيهم إلى ظَهره، فشقَّ ذلك عليهم، وزيّنتْ عَقْرَها لهم امرأتان -عُنَيزةُ أمُّ غَنْم وصَدَقة بنتُ المختار- لِما أضرَّتْ به مِن مواشيهما، وكانتا كثيرتَي المواشي، فعقَروها، واقتسَموا لحمها، وطبَخوه، فانطلق سَقْبُها[3] حتّى رقيَ جَبَلًا اسمه قَارَةُ، فرَغَا ثلاثًا، وكان صالح قال لهم: «أدرِكوا الفصيلَ، عسى أن يُرفَع عنكم العذاب»، فلم يقدروا عليه، فانفجّت الصخرة بعد رُغائه، فدخلها، فقال لهم صالح: «تُصبِحون غدًا ووجوهُكم مُصْفَرّة، وبعد غدٍ ووجوهُكم مُحمرّة، واليومَ الثالثَ ووجوهكم مُسودّة، ثمّ يصبِّحكم العذابُ»، فلمّا رأَوا العلاماتِ طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطينَ، ولمّا كان اليومُ الرابع وارتفع الضُّحى، تحنَّطوا[4] بالصَّبِر وتكفّنوا بالأنطاع، فأتتهم صَيْحة مِن السماء ورَجْفةٌ مِن الأرض، فتقطّعت قلوبهم، فهلكوا.[5]

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ استئناف مَسوق لبيان البيّنة. وإضافة "الناقة" إلى الاسم الجليل لتعظيمها، ولمَجيئها مِن جهته تعالى بلا أسباب معهودة

---

[1] النَّتُوج مِن الخيل وجميعِ الحافر: الحامل. لسان العرب لابن منظور، «نتج».

[2] التفحّج، مثل التفشّج: وهو أن يفرّج بين رِجلَيه إذا جلس. لسان العرب لابن منظور، «فحج».

[3] السَّقْب: ولد الناقة. وقيل: الذَّكر مِن ولد الناقة. لسان العرب لابن منظور، «سقب».

[4] الحَنُوط: طِيب يُخلَط للميّت خاصّةً. وقال الجوهري: الحَنُوط: ذَرِيرَة. وقد تحنَّطَ به الرجلُ، وحنَّط الميّت تحنيطًا. لسان العرب لابن منظور، «حنط».

[5] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٠-١٢١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٢١.

[٣١٨ظ] ووسائطَ معتادةٍ؛ ولذلك كانت آيةً وأيَّ آيةٍ. / و﴿لَكُمْ﴾ بيان لمَن هي آيةٌ له. وانتصابُ ﴿ءَايَةً﴾ على الحاليّة، والعامل فيها معنى الإشارة. ويجوز أن يكون ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ بدلًا مِن ﴿هَٰذِهِۦ﴾ أو عطفَ بيانٍ له أو مبتدأً ثانيًا، و﴿لَكُمْ﴾ خبرًا عاملًا في ﴿ءَايَةً﴾.

﴿فَذَرُوهَا﴾ تفريع على كونها آيةً مِن آيات الله تعالى، فإنّ ذلك ممّا يوجِب عدمَ التعرّض لها. ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ جواب الأمر، أي: الناقةُ ناقةُ الله والأرضُ أرضُ الله؛ فاتركوها تأكلْ ما تأكل في أرض ربّها، فليس لكم أن تحُولوا بينها وبينها. وقُرئ: "تَأْكُلُ"[١] بالرفع على أنّه في موقع الحال، أي: آكلةً فيها. وعدم التعرّض للشُّرب إمّا للاكتفاء عنه بذكر الأكل أو لتعميمه له أيضًا كما في قوله:

وعَلَفْتُها تِبْنًا وماءً بارِدًا[٢]

وقد ذُكر ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء، ١٥٥/٢٦].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نُهي عن المَسّ الذي هو مقدّمة الإصابة بالشرّ الشامل لأنواع الأذيّة، ونُكّر "السُّوء" مبالغةً في النهي، أي: لا تتعرَّضوا لها بشيء ممّا يسُوءها أصلًا ولا تطرُدوها ولا تَرِيبوها، إكرامًا لآية الله تعالى. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جواب للنهي.

ويُروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين مرَّ بالحِجر في غزوة تَبُوك قال لأصحابه: «لا يدخُلَنَّ أحدٌ منكم القريةَ، ولا تَشرَبوا مِن مائها، ولا تدخُلوا على هؤلاء المعذَّبين إلّا أن تكونوا باكِينَ أن يُصيبَكم مثلُ الذي أصابهم».[٣]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبيد بن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٠.

[٢] صدر بيت، وعجزه:

حتّى غَدَتْ هَمّالةً عَيْناها

وهو منسوب إلى بعض بني أسدٍ يصف فَرَسَه في معاني القرآن للفرّاء، ١٤/١، وبلا نسبة في جامع البيان للطبري، ١٠٩/٩ (المائدة، ١٠٩/٥)؛ وشرح كتاب سيبويه للسيرافي، ٧٠/١؛ والصحاح للجوهري، «علف»؛ ولسان العرب لابن منظور، «علف»؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٩٢٩/٢، وفي بعضها: "شَتَتْ" بدلَ "غَدَتْ".

[٣] معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢١/٢. ونحوه في صحيح البخاري، ٩٤/١ (٤٣٣)، ٧/٦ (٤٤٢٠)؛ وصحيح مسلم، ٢٢٨٥/٤-٢٢٨٦ (٢٩٨٠، ٢٩٨١).

وقال عليه السلام لعليّ رضي الله عنه: «يا عليّ، أتَدري مَن أشقَى الأوّلين؟»، قال: «الله ورسوله أعلمُ»، قال: «عاقرُ ناقةِ صالحٍ؛ أتَدري مَن أشقَى الآخِرين؟»، قال: «الله ورسوله أعلمُ»، قال «قاتِلُك».[1]

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ أي: خلفاءَ في الأرض أو خلفاءَ لهم كما مرّ. / ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: جعل لكم مَباءةً ومَنزِلًا في أرض [٣١٩و] الحِجر بين الحجاز والشام. ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة التَّبوئة، أي: تَبنُون في سُهولها قصورًا رفيعةً، أو تَبنُون مِن سهولة الأرض بما تعملون منها مِن الرِّهْص[2] واللَّبِن[3] والآجُرِّ.[4]

﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ﴾ أي: الصخورَ. وقُرئ: "تَنحَتُونَ"[5] بفتح الحاء، و"تَنحَاتُونَ"[6] بإشباع الفتحة كما في قوله:

يَـنْـبـاعُ مِـن ذِفْـرَى أَسـيـلٍ حُـرَّةٍ[7]

والنَّحْت: نَجْر الشيءِ الصُّلب، فانتصاب ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ على المفعوليّة، وانتصاب قوله تعالى: ﴿بُيُوتٗا﴾ على أنّها حال مقدَّرةً منها، كما تقول: "خِطْتُ هذا الثوبَ

---

[1] هو بهذه الألفاظ في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٨/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١٢١/٢. وانظر لتخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٦٤/١-٤٦٦ (٤٦٧).

[2] الرِّهْص: العِرْق الأسفل مِن الحائط. وقيل: الطِّين الذي يُجعَل بعضه على بعض، وهو الذي يوافق قول المصنّف. المُغرِب للمُطرّزي، ص ٢٠٢ «الراء مع الهاء».

[3] اللَّبِن: المضروب مِن الطِّين مربّعًا للبناء. ويقال فيه بالكسر وبكسرتين، كـ"إِبِل" لغة. القاموس المحيط للفيروزآبادي، «لبن».

[4] الآجُرّ: فارسيّ مُعرَّب، واحدته: آجُرَة، وهي طبيخ الطِّين، يُستخدم في البناء. تاج العروس للزبيدي، «أجر».

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٠.

[6] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١٢٢/٢، ونسبها إلى الحسن.

[7] صدر بيت، وعجزه:

زَيّـافـةٍ مِـثـلِ الفَـنـيـقِ الـمُـقـرَمِ

وهو لعنترة في ديوانه، ٢٠٤. وفي مطبوعه: "غَضُوب" بدلًا مِن "أَسيل". | الذِّفرَى: أصل القَفا والأذن، وجعلها غَضُوبًا لنشاطها. والحُرَة: الكريمة والزيافة المسرعة. والفَنيق: الفحل مِن الإبل. والمُقرَم: الذي نُحي عن الركوب واتُّخذ فحلًا لكرمه. انظر تعليق الشنتمري على البيت.

قميصًا". وقيل: انتصاب ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ على إسقاط الجارّ، أي: مِن الجبال، وانتصاب ﴿بُيُوتًا﴾ على المفعوليّة. وقد جُوّز أن يضمَّن النَّحت معنى الاتّخاذ، فانتصابُهما على المفعوليّة. قيل: كانوا يسكُنون السهول في الصيف والجبالَ في الشتاء.[1]

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليكم ممّا ذكر، أو جميعَ آلائِه التي هذه مِن جملتها. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإنّ حقّ آلائِه تعالى أن تُشكَر ولا تُهمَل ولا يُغفَل عنها، فكيف بالكفر والعَثي في الأرض بالإفساد!

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: عتَوا وتكبّروا. استئناف كما سلف. وقُرئ بالواو[2] عطفًا على ما قبله مِن قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾... إلخ.[3] و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ للتبليغ. وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل مِن الموصول بإعادة العامل بدلَ الكلِّ إن كان ضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ لـ﴿قَوْمِهِۦ﴾، وبدلَ البعضِ إن كان لـ﴿الذين استُضعفوا﴾ على أنّ مِن المستضعَفين مَن لم يؤمن. والأوّل هو الوجه؛ / إذ لا داعيَ إلى توجيه الخطاب أوّلًا إلى جميع [٣١٩ظ]
المستضعَفين مع أنّ المجاوبة مع المؤمنين منهم على أنّ الاستضعاف مختصّ بالمؤمنين، أي: قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. وإنّما قالوه بطريق الاستهزاء بهم.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ عدَلوا عن الجواب الموافِق لسؤالهم بأن يقولوا: «نعم» أو «نعلم أنّه مرسَل منه تعالى» مسارَعةً إلى تحقيق الحقّ وإظهارِ ما لهم مِن الإيمان الثابت المستمرّ الذي يُنبئ عنه الجملة الاسميّة، وتنبيهًا على أنّ أمر إرساله مِن الظهور بحيث لا ينبغي أن يُسأل عنه، وإنّما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به.

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٢.
[2] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.
[3] الأعراف، ٧/٧٣.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ أعيدَ الموصول مع صلته مع كفاية الضمير إيذانًا بأنهم قد قالوه بطريق العُتوّ والاستكبار. ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وإنّما لم يقولوا: «إنّا بما أُرسلَ به كافرون» إظهارًا لمخالفتهم إيّاهم وردًّا لمقالتهم.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧٧﴾

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أي: نحَروها. أُسندَ العَقْر إلى الكلّ -مع أنّ المباشِر بعضُهم- للملابسة، أو لأنّ ذلك لمّا كان برِضاهم، فكأنّه فعله كلُّهم. وفيه مِن تهويل الأمر وتفظيعِه بحيث أصابت غائلته الكلَّ ما لا يخفى. ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا عن الامتثال به.[1] وهو ما بلّغهم صالحٌ عليه السلام مِن الأمر والنهي. ﴿وَقَالُوا﴾ مخاطِبين له عليه السلام بطريق التعجيز والإفحام على زعمهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: مِن العذاب. والإطلاق للعِلم به قطعًا. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فإنّ كونك مِن جملتهم / يستدعي صدقَ ما تقول مِن الوعد والوعيد. [٣٢٠و]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة، لكن لا إثرَ ما قالوا ما قالوا؛ بل بعد ما جرى عليهم ما جرى مِن مبادي العذاب في الأيّام الثلاثة حسبما مرّ تفصيله.[2] ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: صاروا في أرضهم وبلدهم أو في مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ هامدين موتى، لا حراكَ بهم. وأصل الجُثوم: البُروك، يقال: "الناس جُثومٌ"، أي: قُعود، لا حراكَ بهم، ولا يَنبِسون نَبسةً.[3] قال أبو عُبيدة:

---

١ م ط س: عن امتثاله [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٢ انظر: تفسير الأعراف، ٧٣/٧.

٣ يُقال: ما نبَس فلان بكلمة، أي: ما تكلّم، يَنبِس نَبْسًا. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٧٢/٧ «باب السين والنون والباء معهما».

«الجُثوم للناس والطير، والبُروك للإبل».[١] والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم مِن غير اضطراب وحركةٍ كما يكون عند الموت المعتاد. ولا يخفى ما فيه مِن شدّة الأخذ وسرعةِ البطش. اللّهمّ إنّا بك نعوذ مِن نزول سَخَطك وحلول غضبك.

و﴿جَٰثِمِينَ﴾ خبرٌ لـ﴿أَصۡبَحُوا﴾، والظرف متعلِّق به؛ ولا مساغَ لكونه خبرًا و﴿جَٰثِمِينَ﴾ حالًا، لإفضائه إلى كون الإخبار بكونهم في دارهم مقصودًا بالذات وكونِهم جاثمين قيدًا تابعًا له غيرَ مقصود بالذات. قيل: حيث ذُكرت الرَّجْفة وُحّدت الدار، وحيث ذُكرت الصَّيْحة جُمعت؛ لأنّ الصَّيحة كانت مِن السماء، فبُلوغها أكثرُ وأبلغُ مِن الزلزلة، فقُرن كلٌّ منهما بما هو أليَقُ به.[٢]

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ إثرَ ما شاهد ما جرى عليهم تولّيَ مُغتمّ متحسّرٍ على ما فاتهم مِن الإيمان متحزِّنًا عليهم، ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ بالترغيب والترهيب، وبذلتُ فيكم وُسعي، ولكنْ لم تقبلوا منّي ذلك.

وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، أي: شأنُكم الاستمرارُ على بُغض الناصحين وعداوتهم. خاطَبهم عليه السلام / بذلك خطابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أهلَ قَليبِ بدرٍ حيث [٣٢٠ظ] قال: «إنّا وجدنا ما وعَدَنا ربّنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقًّا؟».[٣] وقيل: إنّما تولّى عنهم قبل نزول العذاب بهم عند مشاهدته عليه السلام لعلاماته تولّيَ ذاهبٍ عنهم منكرٍ لإصرارهم على ما هم عليه.

---

١ قال أبو عبيدة في مجاز القرآن، ٢١٨/١: «﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي بعضهم على بعضٍ جُثوم، وله موضع آخرُ جُثوم على الرُّكَب». وقوله بألفاظ المصنّف في تفسير الرازي، ٣٠٧/١٤، وباختلاف يسير في التفسير البسيط للواحدي، ٢١٥/٩.

٢ قاله الكرماني كما في اللباب لابن عادل، ٢٠٠/٩.

٣ قطعة مِن حديث أنس بن مالك، أخرجه البخاري في صحيحه، ٧٦/٥ (٣٩٧٦)؛ وأحمد في مسنده، ٢٧٩/٢٦ (١٦٣٥٩).

ورُوي أنّ عَقْرهم الناقةَ كان يومَ الأربعاء، ونزل بهم العذاب يومَ السبت.[١] ورُوي أنّه خرج في مائةٍ وعشرةٍ مِن المسلمين وهو يَبكي، فالتفَتَ فرأى الدخانَ ساطعًا، فعلم أنّهم قد هلكوا، وكانوا ألفًا وخمسَمائةِ دارٍ.[٢] ورُوي أنّه رجع بمَن معه، فسكنوا ديارهم.[٣]

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٠﴾

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمَر معطوف على ما سبق. وعدمُ التعرّض للمرسَل إليهم مقدَّمًا على المنصوب حسبما وقع فيما سبق وما لحِق، قد مرّ بيانه في قصّة هودٍ عليه السلام.[٤] وهو لوط بن هاران بن تارخ ابنُ أخي إبراهيمَ عليهما السلام، كان مِن أرض بابلَ مِن العراق مع عمّه إبراهيمَ، فهاجر إلى الشام، فنزل فلسطينَ، وأنزل لوطًا الأردنَّ، وهي كُورة بالشام، فأرسله الله تعالى إلى أهل سَذُوم، وهو بلدٌ بحِمص.[٥]

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرف للمضمَر المذكور، أي: أرسلنا لوطًا إلى قومه وقتَ قوله لهم... إلخ. ولعلّ تقييدَ إرساله عليه السلام بذلك لِما أنّ إرساله إليهم لم يكن في أوّل وصوله إليهم. وقيل: هو بدلٌ مِن ﴿لُوطًا﴾ بدلَ اشتمالٍ على أنّ انتصابه بـ"اذكرْ"، أي: اذكرْ وقت قوله عليه السلام لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ / بطريق الإنكار التوبيخي التقريعي، أي: أتفعلون تلك الفعلة [٣٢١و]
المتناهية في القُبح المتمادية في الشرّيّة والسُّوء.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ ما عمِلها قبلكم، على أنّ "الباء" للتعدية، كما في قوله عليه السلام: «سبَقَك بها عُكّاشة»،[٦] مِن قولك: "سبقتُه بالكُرة"، أي: ضربتها قبله.

---

١ تفسير السمرقندي، ٥٤٤/١؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢٤/٢.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٢٤/٢.

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٢٤/٢.

٤ انظر: تفسير الأعراف، ٦٥/٧.

٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٨/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٤/٣-٢٥٥.

٦ عن الزهري، قال: حدثّني سعيد بن المسيّب: أنّ أبا هريرة حدّثه قال: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يدخل الجنّة مِن أمّتي زُمرة هم سبعون ألفًا، تُضيء وجوههم إضاءةَ القمر ليلةَ البدر»، وقال أبو هريرة: فقام عُكّاشة بن مِحصن الأسدي يرفع نَمِرةً عليه، فقال: «يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم»، قال: «اللّهمّ اجعَلْه منهم»، ثمّ قام رجل مِن الأنصار، فقال: «يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم»، فقال: «سبَقَك بها عُكّاشة». انظر: صحيح البخاري، ١١٣/٨ (٦٥٤٢)؛ وصحيح مسلم، ١٩٧/١ (٢١٦).

و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ مزيدة لتأكيد النفي وإفادةِ معنى الاستغراق، وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للتبعيض.

والجملة مستأنفة مَسوقة لتأكيد النكير وتشديدِ التوبيخ والتقريع، فإنّ مباشرة القبيح قبيحٌ، واختراعَه أقبحُ. ولقد أنكر الله تعالى عليهم أوّلًا إتيانَ الفاحشة، ثمّ وبّخهم بأنّهم أوّل مَن عمِلها. فإنّ سَبْك النظم الكريم، وإن كان على نفي كونهم مسبوقِين مِن غير تعرّضٍ لكونهم سابقين، لكنّ المرادَ أنّهم سابقون لكلّ مَن عداهم مِن العالَمين، كما مرّ تحقيقه مرارًا في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام، ٢١/٦، ٩٣]. أو[1] مَسوقةٌ جوابًا عن سؤال مقدَّر، كأنّه قيل مِن جهتهم: لِم لا نأتيها؟ فقيل بيانًا للعلّة وإظهارًا للزاجر: ما سبَقَكم بها أحدٌ لغاية قُبحها وسوءِ سبيلها، فكيف تفعلونها؟

قال عمرو بن دِينار:[2] «ما نزَا ذَكرٌ على ذَكر حتّى كان قومُ لوط».[3] قال محمّد بن إسحاق: «كانت لهم ثمار وقُرًى لم يكن في الدنيا مثلها، فقصدهم الناس، فآذَوْهم، فعرض لهم إبليسُ في صورةِ شيخ: "إن فعلتم بهم كذا وكذا نجَوْتم منهم"، فأبوا، / فلمّا ألحّ الناسُ عليهم قصدوهم، فأصابوا غِلمانًا [٣٢١ظ] صِباحًا، فأخبثوا، فاستحكمَ فيهم ذلك».[4] قال الحسن: «كانوا لا يفعلون ذلك إلّا بالغُرَباء».[5] وقال الكلبي: «أوّلُ مَن فُعل به ذلك الفعلُ إبليسُ الخبيثُ، حيث تمثّل لهم في صورةِ شابّ جميل، فدعاهم إلى نفسه، ثمّ عبثوا بذلك العمل».[6]

---

[1] السياق: والجملة مستأنفة مَسوقة لتأكيد النكير... أو مَسوقةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ...

[2] هو عمرو بن دينار المكّي الجُمحي بالولاء، أبو محمّد (ت. ١٢٦هـ/٧٤٤م). تابعيّ، فقيه، كان مفتي أهل مكّة. فارسيّ الأصل، مِن الأبناء. مولده بصنعاء، ووفاته بمكّة. كان مِن أوعية العلم وأئمّة الاجتهاد. سمع مِن ابن عبّاس وجابر بن عبد الله وابن عمر وأنس بن مالك وعبد الله بن جعفر وأبي الطفيل، وغيرهم مِن الصحابة. وحدّث عنه ابنُ أبي مُليكة وقتادة بن دِعامة والزهري وأيّوب السَّختياني وجعفر الصادق وعبد الملك بن ميسرة وابن جُريج وشُعبة وسفيان الثوري وإبراهيم بن طهمان وزمعة بن صالح ومعقِل بن عبيد الله وهُشيم وأبو عوانة وسفيان بن عُيينة، وخلق كثير. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٠٠/٥-٣٠٧؛ والأعلام للزركلي، ٧٧/٥.

[3] سنن الدارمي، ٧٣٥/١ (١١٧٩)؛ جامع البيان للطبري، ٣٨٨/١٨ (العنكبوت، ٢٨/٢٩).

[4] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٩/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٥/٣.

[5] هو باختلاف يسير في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٩/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٥/٣.

[6] وفي هامش م: ثعلبي. | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٩/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٥/٣.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ خبر مستأنف لبيان تلك الفاحشة. وقُرئ بهمزتين صريحتين،[١] وبتَلْيين الثانيةِ بغير مدٍّ[٢] وبمدٍّ أيضًا،[٣] على أنّه تأكيد للإنكار السابق وتشديد للتوبيخ. وفي زيادة "إنّ" و"اللام" مزيدُ تقبيح وتقريع، كأنّ ذلك أمرٌ لا يتحقّق صدورُه عن أحد، فيؤكَّد تأكيدًا قويًّا. وفي إيراد لفظ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ دون "الغِلمان" و"المُزدان" ونحوهما مبالغة في التوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له أو مصدر في موقع الحال. وفي التقييد بها وصفُهم بالبَهيميّة الصِّرفة، وتنبيهٌ على أنّ العاقل ينبغي له أن يكون الداعي له إلى المباشرَة طلبَ الولد وبقاءَ النوع، لا قضاء الشهوة. ويجوز أن يكون المراد الإنكارَ عليهم وتقريعَهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: متجاوِزين النساءَ اللاتي هُنّ محالّ الاشتهاء، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود، ١١/٧٨].

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب عن الإنكار المذكور إلى الإخبار بحالهم / التي أفضَتْهم إلى ارتكاب أمثالها، وهي اعتياد الإسراف في كلّ شيء؛ أو عن [٣٢٢و] الإنكار عليها إلى الذمّ على جميع مَعايبهم؛ أو عن محذوف، أي: لا عُذرَ لكم فيه، بل أنتم قوم عادتُكم الإسراف.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: المستكبِرين منهم، المُتَولّين للأمر والنهي، المتصدِّين للعَقد والحَلّ. وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأشياء، أي: ما كان جوابًا مِن جهة قومه شيءٌ مِن الأشياء إلّا قولُهم، أي: لبعضهم الآخَرين المباشِرين للأمور معرِضين عن مخاطبته عليه السلام: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾

---

[١] أي: "أَئِنَّكُمْ". قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وعاصم مِن رواية أبي بكر ويعقوب مِن رواية رَوح. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٧٠-٣٧٢.

[٢] قرأ بها ابن كثير ورُويس. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٧٠-٣٧٢.

[٣] قرأ بها أبو عمرو. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٧٠-٣٧٢.

أي: لوطًا ومَن معه مِن أهله المؤمنين ﴿مِن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي: إلّا هذا القول الذي يستحيل أن يكون جوابًا لكلام لوطٍ عليه السلام. وقُرئ برفع ﴿جَوَابَ﴾[١] على أنه اسمُ ﴿كَانَ﴾، و﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا﴾... إلخ خبرُها. وهو أظهرُ، وإن كان الأوّل أقوى في الصناعة؛ لأنّ الأعرف أحقُّ بالاسميّة.

وأيًّا ما كان، فليس المراد أنّه لم يصدُر عنهم بصدد الجواب عن مقالات لوط عليه السلام ومَواعظِه إلّا هذه المقالة الباطلة، كما هو المتسارع إلى الأفهام؛ بل أنّه لم يصدر عنهم في المرّة الأخيرة مِن مرّات المحاورات الجارية بينهم وبينه عليه السلام إلّا هذه الكلمة الشنيعة؛ وإلّا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثيرٌ مِن التُّرّهات حسبما حُكي عنهم في سائر السُّور الكريمة. وهذا هو الوجه في نظائره الواردة بطريق القَصر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تعليل للأمر بالإخراج. ووصفُهم بالتطهّر للاستهزاء والسُّخريّة بهم وبتطهّرهم مِن الفواحش والخبائث، والافتخارِ بما هم فيه مِن القَذارة كما هو دَيْدن الشُّطّار والدُّعّار.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي: المؤمنين منهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء مِن ﴿أَهْلَهُۥٓ﴾، فإنّها كانت تُسِرّ بالكفر. ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في ديارهم الهالكين فيها. والتذكير للتغليب ولبيان استحقاقها لِما يستحقّه المباشِرون للفاحشة. والجملة استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ / نشأ عن استثنائها مِن حُكم الإنجاء، [٣٢٢ظ]
كأنّه قيل: فماذا كان حالها؟ فقيل: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: نوعًا مِن المَطر عجيبًا. وقد بيّنه قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر، ١٥/٧٤]. قال أبو عبيدة: «"مطَرَ" في الرحمة،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٠.

و"أُمطِرَ" في العذاب».[١] وقال الراغب: «"مطَرَ" في الخير، و"أُمطِرَ" في العذاب».[٢] والصحيح أنّ ﴿أَمْطَرْنَا﴾ بمعنى: أرسلنا عليهم إرسالَ المَطر.

قيل: كانت المُؤتَفِكة خمسَ مدائن، وقيل: كانوا أربعةَ آلافٍ بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكِبريت والنارَ، وقيل: خُسِف بالمُقيمين منهم، وأُمطِرت الحجارة عَلى مسافِريهم وشُذّاذهم،[٣] وقيل: أُمطرَ عليهم، ثمّ خُسف بهم.[٤] ورُوي أنّ تاجرًا منهم كان في الحرَم، فوقف له الحَجَر أربعين يومًا، حتّى قضى تجارتَه، وخرج مِن الحرَم، فوقع عليه.[٥] ورُوي أنّ امرأته التفتَتْ نحوَ ديارها، فأصابها حَجَرٌ، فماتت.[٦]

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ خطاب لكلّ مَن يتأتّى منه التأمّل والنظرُ تعجيبًا مِن حالهم وتحذيرًا مِن أعمالهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[٧] وما عُطف عليه. وقد رُوعيَ ههنا ما في المعطوف عليه مِن تقديم المجرور على المنصوب، أي: وأرسلنا إليهم. وهم أولاد مَدْينَ بنِ إبراهيمَ عليه السلام،[٨] وشُعيب بن ميكاييلَ بنِ يشجر بنِ مَدْينَ،[٩] وقيل: شُعيب بن ثُويب بنِ مَدْينَ،[١٠] وقيل: شُعيب بن يثرون بنِ مَدْينَ،[١١] وكان يقال له: خَطيب الأنبياء عليهم السلام لحُسن مراجعته قومَه، وكانوا أهلَ بَخْسٍ للمَكاييل والموازين مع كفرهم.[١٢]

---

١ انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ١/٢٤٥.
٢ انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٧٧٠.
٣ شُذّاذ الناس: الذين يكونون في القوم وليسوا مِن قبائلهم. الصحاح للجوهري، «شذذ».
٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٦.
٥ معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٩٤ (هود، ١١/٨٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٦.
٦ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٦.
٧ الأعراف، ٧/٦٥.
٨ جامع البيان للطبري، ١٠/٣١٠.
٩ اللباب لابن عادل، ٩/٢١٠.
١٠ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥/١٠٣.
١١ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٥٦.
١٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٢٧.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ عن حكاية إرساله إليهم، كأنّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ مرّ تفسيرُه مرارًا.[١] ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ﴾ أي: معجزة. وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَتۡكُم﴾، أو بمحذوف هو صفة لفاعله مؤكِّدةٌ لفخامته الذاتيّة المستفادة مِن تنكيره بفخامته الإضافيّة، أي: بيّنة عظيمة ظاهرة كائنة مِن ربّكم ومالكِ أموركم.

[٣٢٣و] ولم يُذكَر معجزته / عليه السلام في القرآن العظيم، كما لم يُذكَر أكثر معجزات النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. فمنها ما رُوي مِن محارَبةِ عصا موسى عليه السلام التِّنِّينَ حين دفع إليه غنمَه. ومنها ولادة الغَنَم الدُّرْعَ خاصّةً حين وعد أن يكون له الدُّرْع مِن أولادها. ومنها وقوع عصا آدمَ على يده في المرّات السَّبع؛ لأنّ كلّ ذلك كان قبل أن يُستنبأ موسى عليهما السلام.[٢] وقيل: البيّنة مَجيئه عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [هود، ٨٨/١١]، أي: حجّة واضحة وبرهان نيّر. عُبّر بهما عمّا آتاه الله تعالى مِن النبوّة والحكمة.

﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: المِكيالَ، كما وقع في سورة هود،[٣] ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾؛ فإنّ المتبادر منه الآلةُ، وإن جاز كونُه مصدرًا كـ"المِيعاد". وقيل: آلةَ الكَيل والوزن، على الإضمار. و"الفاء" لترتيب الأمر على مَجيء البيّنة. ويجوز أن يكون عاطفةً على ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، فإنّ عبادة الله تعالى موجِبةٌ للاجتناب عن المَناهي التي معظَمها بعد الكفر البَخْسُ الذي كانوا يباشرونه.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ التي تشترونها بهما[٤] معتمدين على تمامهما أيّ شيءٍ كان وأيّ مقدارٍ كان، فإنّهم كانوا يَبخَسون الجليل والحقير والقليل والكثير. وقيل: كانوا مكّاسين، لا يدعون شيئًا إلّا مكَسوه، قال زُهَير:

---

[١] انظر: تفسير الأعراف، ٥٩/٧.

[٢] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٢٧/٢.

[٣] ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود، ٨٤/١١].

[٤] س: بها.

أفـي كـلِّ أســواقِ الـعِـراقِ إتــاوَةٌ   وفي كلِّ ما باعَ امرُؤٌ مَكْسُ دِرهَـمِ[١]

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالكفر والحَيْف ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بعدما أصلَحَ أمرها وأهلَها الأنبياءُ وأتباعُهم بإجراء الشرائع، أو أصلحوا فيها، وإضافتُه إليها كإضافة "مَكْر الليلِ والنهارِ".[٢]

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه. / ومعنى الخيريّة إمّا الزيادةُ مطلقًا، أو في الإنسانيّة وحُسنِ الأُحدوثة وما يطلبونه مِن التكسّب والربح؛ لأنّ الناس إذا عرفوهم بالأمانة، رغبوا في معاملتهم ومتاجرتهم. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدِّقين بي في قولي هذا. [٣٢٣ظ]

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨٦﴾

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: بكلّ طريق مِن طُرق الدين كالشيطان. وصراط الحقّ، وإن كان واحدًا، لكنّه يتشعّب إلى معارفَ وحدودٍ وأحكامٍ. وكانوا إذا رأَوا أحدًا يشرع في شيء منها، منعوه. وقيل: كانوا يجلسون على المراصد، فيقولون لمن يريد تشعيبًا: «إنّه كذّابٌ، لا يَفْتِنَنّك عن دينك»، ويتوعّدون لمن آمن به. وقيل: يقطعون الطريق.[٣]

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: السبيلِ الذي قعَدوا عليه، فوضع المُظهَر موضعَ المُضمَر بيانًا لـ﴿كُلِّ صِرَٰطٍ﴾، ودلالةً على عِظم ما يصُدّونه، وتقبيحًا لِما كانوا عليه؛ أو الإيمانِ بالله أو بكلّ صراط، على أنه عبارة عن طُرق الدين. وقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ مفعول ﴿تَصُدُّونَ﴾ على إعمال الأقرب. ولو كان مفعولَ ﴿تُوعِدُونَ﴾،

---

١ البيت لزُهير في الفروق اللغويّة للعسكري، ص ١٧٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤١٧-٤١٨؛ ولجابر بن حُنَيّ التّغلبي في المفضّليّات للضّبّي، ص ٢١١؛ وكتاب الحيوان للجاحظ، ١/٢١٥؛ ولسان العرب لابن منظور، «مكس»؛ وتاج العروس للزبيدي، «مكس». | الإتاوَة: الخَرَاج، والجمع: الأتاوي. والمَكْس: ما يأخذه العَشّار. الصحاح للجوهري، «أتا، مكس».

٢ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾... إلخ [سبأ، ٣٤/٣٣]، أي: بل مَكْرهم في الليل والنهار.

٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٢٣.

لَقيل: وتصُدّونهم. و﴿تُوعِدُونَ﴾ حال مِن الضمير في ﴿تَقْعُدُوا﴾. ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتطلبون لسبيل الله عِوَجًا بإلقاء الشُّبَه أو بوصفها للناس بأنّها مُعْوجّة، وهي أبعدُ شيءٍ مِن شائبة الاعوجاج.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالبركة في النسل والماء، ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مِن الأمم الماضية كقوم نوحٍ ومَن بعدهم مِن عادٍ وثمودَ وأضرابِهم، واعتبِروا بهم.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨٧﴾

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ مِن الشرائع والأحكام، ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: به أو لم يفعلوا الإيمانَ، ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين بنصر المُحقّين على المُبطِلين؛ فهو وعدٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للكافرين. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا معقِبَ لحُكمه، ولا حَيْفَ فيه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨﴾

[٣٢٤و] / [١] ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه المقال، كأنّه قيل: فماذا قالوا بعد ما سمعوا هذه المواعظ مِن شُعيب عليه السلام؟ فقيل: قال أشراف قومه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غيرَ مُكتفِين بمجرَّد الاستعصاء عليه والامتناع مِن الطاعة له؛ بل بَالغين مِن العُتوّ والاستكبار إلى أن قصدوا استتباعه عليه السلام فيما هم فيه وأتباعِه المؤمنين، واجترءُوا على إكراههم عليه بوعيد النفي، وخاطبوه عليه السلام بذلك على طريقة التوكيد القَسَميّ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بنسبة الإخراج إليه عليه السلام أوّلًا، وإلى المؤمنين ثانيًا بعطفهم عليه، تنبيهًا على أصالته عليه السلام

---

[١] في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

في الإخراج وتَبَعيّتِهم له فيه، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿مَعَكَ﴾؛ فإنّه متعلّق بـ"الإخراج"، لا بـ"الإيمان".

وتوسيط النداء باسمه العَلَمي بين المعطوفَين لزيادة التقرير والتهديد الناشئةِ عن غاية الوقاحة والطغيان، أي: واللهِ لَنُخرِجنّك وأتباعَك ﴿مِن قَرۡيَتِنَآ﴾ بغضًا لكم ودفعًا لفتنتكم المترتّبة على المساكنة والجوار.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ عطفٌ على جواب القَسم، أي: واللهِ لَيكوننَّ أحدُ الأمرين البتّة، على أنّ المقصد الأصلي هو العَود؛ وإنّما ذُكر النفي والإجلاءُ لمحض القسر والإلجاء، كما يُفصِح عنه عدم تعرّضه عليه السلام لجواب الإخراج، كأنّهم قالوا: لا ندَعُكم فيما بيننا حتّى تدخلوا في ملّتنا. وإدخالهم له عليه السلام في خطاب العَود -مع استحالة كونه عليه السلام في ملّتهم قبل ذلك- إنّما هو بطريق تغليب الجماعة على الواحد. وإنّما لم يقولوا: "أو لَنُعيدَنّكم" على طريقة ما قبله لِما أنّ مرادهم أن يعودوا إليها بصورة الطواعية حذارَ الإخراج باختيار أهون الشرّين، / لا إعادتهم بسائر وجوه [٣٢٤ظ] الإكراه والتعذيب.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبق، أي: قال عليه السلام ردًّا لمقالتهم الباطلة وتكذيبًا لهم في أيمانهم الفاجرة: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ على أنّ الهمزة لإنكار الوقوع ونفيِه، لا لإنكار الواقع واستقباحِه كالتي في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء، ٣٠/٢٦]. ويجوز أن يكون الاستفهام فيه باقيًا على حاله.

وقد مرّ مرارًا أنّ كلمة "لو" في مثل هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشيء في الزمن الماضي لانتفاء غيره فيه، فلا يلاحَظ لها جوابٌ قد حُذف تعويلًا على دلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديّةً، إلّا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعيّة؛ بل هي لبيان تحقّقِ ما يفيده الكلام السابقُ بالذات[١] أو بالواسطة[٢] مِن الحُكم الموجَب أو المَنفيّ على كلّ حال مفروض مِن الأحوال

---

[١] وفي هامش م: كما في الخبر الموجَب والمَنفيّ والأمر والنهي. «منه».

[٢] وفي هامش م: كما فيما نحن فيه، فإنّ إفادته له بواسطة الفعل المقدّر كما سيأتي. «منه».

المقارنة له[١] على الإجمال، بإدخالها على أبعدها منه[٢] وأشدِّها منافاةً له ليظهرَ بثبوته أو انتفائِه معه ثبوتُه أو انتفاؤُه مع ما عداه مِن الأحوال بطريق الأَوْلويّة، لِما أنّ الشيء متى تحقَّق مع المُنافي القويّ، فلَأَن يتحقّقَ مع غيره أَولى؛ ولذلك لا يذكَر معه شيء مِن سائر الأحوال، ويُكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملةِ لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعدّدها.

وهذا معنى قولِهم: إنّها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال. وهذا المعنى ظاهرٌ في الخبر الموجَب والمَنفيّ والأمرِ والنهي، كما في قولك: "فلانٌ جوادٌ يُعطي ولو كان فقيرًا" و"بخيلٌ لا يُعطي ولو كان غنيًّا"، وقولِك: "أحسِنْ إليه ولو أساء إليك" و"لا تُهِنْه ولو أهانك"، لبقائه على حاله سالمًا عمّا يغيّره.

وأمّا فيما نحن فيه، ففيه نوعُ خفاءٍ لتغيّرِه بورود الإنكار عليه؛ لكنّ الأصل في الكلّ واحد، إلّا أنّ كلمة "لو" في الصُّوَر المذكورة متعلِّقةٌ بنفس الفعل المذكور قبلها، وأنّ ما يُقصَد بيان تحقّقه على كلّ حال هو نفس مدلوله، وأنّ الجملة حالٌ مِن ضميره[٣] أو ممّا يتعلّق به،[٤] وأنّ ما في حيّز "لو" / مقرَّر على ما هو عليه مِن [٣٢٥و] الاستبعاد، بخلاف ما نحن فيه، لِما أنّ كلمة ﴿لَوْ﴾ متعلِّقة فيه بفعل مقدَّر يقتضيه المذكور، وأنّ ما يُقصَد بيان تحقّقه على كلّ حال هو مدلوله، لا مدلول المذكور، وأنّ الجملة حال مِن ضميره، لا مِن ضمير المذكور كما سيأتي، وأنّ المقصود الأصلي إنكار مدلوله مِن حيث مقارنتُه للحالة المذكورة، وأمّا تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة،[٥] وأنّ ما في حيّز ﴿لَوْ﴾ لا يُقصَد استبعاده في نفسه؛ بل يُقصَد الإشعار بأنّه أمر مقرَّر، إلّا أنّه أُخرجَ مُخرَجَ الاستبعاد مبالغةً في الإنكار مِن جهة أنّ العَود ممّا ينكَر عند كون الكراهة أمرًا مستبعَدًا، فكيف به عند كونها أمرًا محقَّقًا، ومعاملةً مع المخاطَبين على معتقَدهم لاستنزالهم مِن رُتبة العناد.

---

١ أي: للحُكم.

٢ أي: بإدخال "لو" على أبعد الأحوال مِن الحُكم الموجَب أو المَنفيّ.

٣ وفي هامش م س: كما في الأُوليَين، فإنّها حينئذ حال مِن فاعل "يُعطي" و"لا يُعطي". «منه».

٤ وفي هامش م س: كما في الأُخريَين، فإنّها حينئذ حال مِن ضمير "إليه" و"لا تُهِنْه". «منه».

٥ وفي هامش م: لا لإثبات الإنكار فيه بطريق الأَولويّة. «منه».

وليس المراد بالكراهة مجرّدَ كراهة المؤمنين للعَود في ملّة الكَفَرة ابتداءً حتّى يقالَ: إنّها معلومة لهم، فكيف تكون مستبعدةً عندهم؛ بل إنّما هي كراهتهم له بعد وعيد الإخراج الّذي جُعل قرينًا للقتل في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية،[١] فإنّهم كانوا يستبعدونها ويطمَعون في أنّهم حينئذ يختارون العَود خشيةَ الإخراج، إذ رُبّ مكروهٍ يُختار عند حلولِ ما هو أشدُّ منه وأفظعُ، والتقدير: أنعودُ فيها لو لم نكنْ كارهين، ولو كنّا كارهين غيرَ مُبالين بالإكراه؟

فالجملة في محلّ النصب على الحاليّة مِن ضمير الفعل المقدَّر حسبما أشيرَ إليه، إذ مآلُه: أنعودُ فيها حالَ عدم الكراهة وحالَ الكراهة، إنكارًا لِما يفيده كلمتهم الشنيعةُ بإطلاقها مِن العَود على أيّ حالة كانت؛ غيرَ أنّه اكتُفيَ بذكر الحالة الثانية التي هي أشدُّ الأحوال منافاةً للعَود وأكثرُها بُعدًا منه تنبيهًا على أنّها هي الواقعة في نفس الأمر، وثقةً بإغنائها عن ذكر الأُولى إغناءً واضحًا؛ لأنّ العَود الذي تعلّق به / الإنكارُ حين تحقَّقَ مع الكراهة على ما يوجبه كلامهم، فلَأن يتحقّقَ مع عدمها أَولى. [٣٢٥ظ]

إن قلتَ: النفي المستفاد مِن الاستفهام الإنكاري فيما نحن فيه بمنزلة صريح النفي، ولا ريبَ في أنّ الأَولويّة هناك معتبرة بالنسبة إلى النفي، ألَا يُرى أنّ الأَولى بالتحقّق فيما ذُكر مِن مثال النفي عند الحالة المسكوت عنها -أعني: عدم الغِنى- هو عدم الإعطاء، لا نفسُه، فكان ينبغي أن يكون الأَولى بالتحقّق فيما نحن فيه عند عدم الكراهة عدم العَود، لا نفسَه، إذ هو الذي يدلّ عليه قولنا: أنعود؟ لأنّه في معنى: لا نعود؛ فلِمَ اختلف الحال بينهما؟

قلتُ: لِما أنّ مناط الأَولويّة هو الحكم الذي أريدَ بيانُ تحققه على كلّ حال. وذلك في مثال النفي عدمُ الإعطاء المستفادُ مِن الفعل المنفيّ المذكور. وأمّا فيما نحن فيه، فهو نفس العَود المستفادُ مِن الفعل المقدَّر، إذ هو الذي يقتضيه الكلام السابق، أعني: قولهم: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾. وأمّا الاستفهام،

---

١ ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ [النساء، ٤/٦٦].

فخارجٌ عنه واردٌ عليه لإبطال ما يفيده ونفيِ ما يقتضيه، لا أنّه مِن تمامه كما في صورة النفي.

وتوضيحه: أنّ بين النفيَين فرقًا معنويًّا يختلف به أحكامهما التي مِن جملتها ما ذُكر مِن اعتبار الأَولويّة في أحدهما بالنسبة إلى نفسه، وفي الآخر بالنسبة إلى متعلَّقه؛ ولذلك لا تستقيم إقامة أحدهما مُقامَ الآخَر على وجه الكلّيّة. ألَا يُرى أنّك لو قلتَ مكانَ "أنعود فيها"... إلخ "لا نعود فيها ولو كنّا كارهين"، لَاختلَّ المعنى اختلالًا فاحشًا؛ لأنّ مدلول الأوّل نفيُ العَود المقيَّد بحال الكراهة، ومدلولَ الثاني تقييدُ العَود المنفيّ بها.

وذلك لأنّ حرف النفي يباشر نفسَ الفعل وينفيه، وما يُذكَر بعده يرجع إليه مِن حيث هو منفيّ. وأمّا همزة الاستفهام، فإنّما تباشر /[٣٢٦و] الفعلَ بعد تقيّده بما بعده، لِما أنّ دلالتها على الإنكار والنفي ليست بدلالة وضعيّة كدلالة حرف النفي حتّى يتعلّقَ معناها بنفس الفعل الذي يليها، ويكونَ ما بعده راجعًا إليه مِن حيث هو منفيّ؛ بل هي دلالة عقليّة مستفادة مِن سياق الكلام، فلا بدّ أن يكون ما يُذكَر بعد الفعل مِن موانعه ودواعي إنكاره ونفيِه حتمًا ليكون قرينةً صارفةً للهمزة عن حقيقتها إلى معنى الإنكار والنفي.

ثمّ لمّا كان المقصود نفيَ الحُكم على كلّ حال مع الاقتصار على ذكر بعضٍ منها مُغنٍ[١] عن ذكر ما عداه[٢] لاستلزام تحقّقِه معه تحقُّقَه مع غيره بطريق الأَولويّة، وكانت حال الكراهة عند كونها قيدًا لنفس العَود كذلك -أي: مُغنيًا عن ذكر سائر الأحوال ضرورةَ أنّ تحقّق العَود في حال الكراهة مستلزِمٌ لتحقّقه في حال عدمها البتّة- وعند كونها قيدًا لنفيه بخلاف ذلك -أي: غيرَ مُغنٍ عن ذكر غيرها ضرورةَ أنّ نفي العَود في حال الكراهة لا يستلزم نفيَه في غيرها؛ بل الأمرُ بالعكس، فإنّ نفيه في حال الإرادة مستلزم لنفيه في حال الكراهة قطعًا- استقامَ[٣] الأوّلُ[٤] لإفادته نفيَ العَود في الحالتين مع الاقتصار

---

١ وفي هامش م: صفة لـ"بعضٍ". «منه».

٢ ط س: عداها | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، ولعلّه بعد نسخ ط س.

٣ وفي هامش م: جواب "لمّا". «منه».

٤ وفي هامش م: وهو "أَنَعود". «منه».

على ذكر ما هو مُغنٍ عن ذكر الأخرى، ولم يستقم الثاني[١] لعدم إفادته إيّاه على الوجه المذكور.

إن قيل: فما وجهُ استقامتهما جميعًا عند ذكر المعطوفَين معًا، حيث يصحّ أن يقال: "لا نعودُ فيها لو لم نكن كارهين، ولو كنّا كارهين"، كما يصحّ أن يقال: "أنعودُ فيها لو لم نكن كارهين، ولو كنّا كارهين"، مع أنّ المقدَّر في حكم الملفوظ؟

قلنا: وجهُها أنّ كلًّا منهما يفيد معنًى صحيحًا في نفسه؛ لا أنّ معنى أحدهما عينُ معنى الآخر أو متلازمان متّفِقان في جميع الأحكام؛ كيف لا، ومدلول الأوّل أنّ العَود منتفٍ في الحالتين، / ومدلولُ الثاني أنّ العَود في الحالتين منتفٍ، وكِلا المعنيَين صحيحٌ في نفسه مصحِّحٌ لنفي العَود في الحالتين مع ذكرهما معًا؛ غيرَ أنّ الثاني مصحِّح لنفي العَود في الحالتين مع الاقتصار على ذكر حالة الكراهة، على عكس المعنى الأوّل، فإنّه مصحِّح لنفيه فيهما مع الاقتصار على ذكر حالة الإرادة. [٣٢٦ظ]

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: كذبًا عظيمًا لا يقادَر قدره، ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ﴾ التي هي الشرك. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: إن عُدْنا في ملّتكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ فقد افترينا على الله كذبًا عظيمًا، حيث نزعُم حينئذ أنّ لله تعالى نِدًّا، وليس كمِثله شيءٌ، وأنّه قد تبيَّن لنا أنّ ما كنّا عليه مِن الإسلام باطلٌ، وأنّ ما كنتم عليه مِن الكفر حقٌّ، وأيُّ افتراءٍ أعظمُ مِن ذلك؟ وقيل: إنّه جوابُ قَسم محذوف حُذف عنه اللام، تقديره: واللهِ لقد افترينا... إلخ.

---

[١] وفي هامش م: وهو "لا نعود". «منه».

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ أي: وما يصِحّ وما يستقيم لنا ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾ في حال مِن الأحوال أو في وقت مِن الأوقات ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلّا حالَ مشيئة الله تعالى[1] أو وقتَ مشيئته تعالى لعَودنا فيها. وذلك ممّا لا يكاد يكون كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا﴾؛ فإنّ التعرّض لعنوان ربوبيّته تعالى لهم ممّا يُنبئ عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعًا. وكذا قوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾؛ فإنّ تَنجيته تعالى لهم منها مِن دلائل عدم مشيئته لعَودهم فيها.

وقيل: معناه: إلّا أن يشاء الله خِذلاننا. وقيل: فيه دليل على أنّ الكفر بمشيئته تعالى. وأيًا ما كان، فليس المراد بذلك بيانَ أنّ العَود فيها في حيّز الإمكان وخطر الوقوع / بناءً على كون مشيئته تعالى كذلك؛ بل بيان استحالة وقوعها، كأنّه قيل: وما كان لنا أن نعود فيها إلّا أن يشاء الله ربُّنا؛ وهيهاتَ ذلك بدليل ما ذُكر مِن موجِبات عدم مشيئته تعالى له. [٣٢٧و]

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فهو محيط بكلّ ما كان وما سيكون مِن الأشياء التي مِن جملتها أحوال عباده وعزائمُهم ونيّاتُهم وما هو اللائق بكلّ واحد منهم، فمحالٌ مِن لُطفه أن يشاء عَودنا فيها بعد ما نجّانا منها مع اعتصامنا به خاصّةً، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: في أن يثبّتنا على ما نحن عليه مِن الإيمان، ويتمّ علينا نعمته بإنجائنا مِن الإشراك بالكلّيّة. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار للمبالغة في التضرّع والجُؤار.[2]

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ إعراض عن مفاوضتهم إثرَ ما ظهر له عليه السلام أنّهم مِن العُتوّ والعناد بحيث لا يُتصوّر منهم الإيمان أصلًا، وإقبالٌ على الله تعالى بالدعاء لفصل ما بينه وبينهم بما يَليق بحال كلٍّ مِن الفريقين، أي: احكُمْ بيننا بالحقّ، والفُتاحة: الحكومة؛ أو أَظهِرْ أمرَنا حتّى ينكشفَ ما بيننا وبينهم ويتميّزَ المُحقّ مِن المبطِل، مِن "فتَحَ المُشكِلَ" إذا بيّنه. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ تذييل مقرّر لمضمون ما قبله على المعنيين.

---

١ م - تعالى.

٢ الجُؤار مثل الخُوار. يقال: جأَرَ الثور يَجأرُ، أي: صاح. وجأَرَ الرجلُ إلى الله عزّ وجلّ، أي: تضرّعَ بالدعاء. **الصحاح** للجوهري، «جأر».

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ عطفٌ على ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ﴾... إلخ.[1] ولعلّ هؤلاء غيرُ أولئك المستكبرين ودونهم في الرتبة، شأنُهم الوساطةُ بينهم وبين العامّة والقيامُ بأمورهم حسبما يراه المستكبرون. ويجوز أن يكونوا عينَ الأوّلين، وتغييرُ الصلة لِما أنّ مدار قولهم هذا هو الكفر، كما أنّ مناط قولهم السابق هو الاستكبار. أي: قال أشرافهم الذين أصرّوا على الكفر لأعقابهم بعد ما شاهدوا صلابةَ شُعيبٍ عليه السلام ومَن معه مِن المؤمنين في الإيمان وخافوا أن يستتبعوا قومهم، تثبيطًا لهم عن الإيمان به وتنفيرًا لهم عنه، / على [٣٢٧ظ] طريقة التوكيد القَسميّ: واللهِ ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ ودخلتم في دينه وتركتم دين آبائكم، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: في الدين لاشترائكم الضلالةَ بهُداكم، أو في الدنيا لفَوَات ما يحصل لكم بالبَخْس والتطفيف. و﴿إِذًا﴾ حرفُ جواب وجزاءٍ، معترِضٌ بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرِها. والجملة سادّة مسدَّ جوابَي الشرط والقَسم الذي وطّأته "اللام".

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة. وهكذا في سورة العنكبوت.[2] وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود، ٩٤/١١]، أي: صيحةُ جبريلَ عليه السلام. ولعلّها مِن مبادي الرَّجْفة، فأُسندَ هلاكهم إلى السبب القريب تارةً وإلى البعيد[3] أخرى. ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ﴾ أي: في مدينتهم. وفي سورة هودٍ: ﴿فِي دِيَٰرِهِمْ﴾ [هود، ٩٤/١١]. ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي: ميّتين لازمين لأماكنهم، لا بَراح لهم منها.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا﴾ استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم فيما سبق:

---

١ الأعراف، ٨٨/٧.

٢ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت، ٣٧/٢٩].

٣ وفي هامش م: وهو صيحة جبريل. «منه».

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾[1] وعقوبتِهم بمقابلته. والموصول مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي: استُؤْصِلوا بالمرّة، وصاروا كأنّهم لم يقيموا بقريتهم أصلًا، أي: عُوقِبوا بقولهم ذلك، وصاروا هم المُخرَجين مِن القرية إخراجًا لا دخولَ بعده أبدًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ استئناف آخرُ لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير. وإعادة الموصول والصلةِ كما هي لزيادة التقرير والإيذانِ بأنّ ما ذُكر في حيّز الصلة هو الذي استَوْجب العقوبتين، / أي: الذين [٣٢٨و] كذّبوه عليه السلام عُوقِبوا بمقالتهم الأخيرة، فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين، لا المتّبِعون له عليه السلام. وبهذا القَصر اكتُفي عن التصريح بإنجائه عليه السلام كما وقع في سورة هود مِن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا[2] جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾... إلخ [هود، ١١/٩٤].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ قاله عليه السلام بعد ما هلكوا تأسّفًا بهم لشدّة حُزنه عليهم. ثمّ أنكر على نفسه ذلك، فقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أي: أحزَنُ حزنًا شديدًا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ مُصرّين على الكفر، ليسوا أهلَ حزنٍ لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم. أو قاله اعتذارًا عن عدم شدّة حُزنه عليهم، والمعنى: لقد بالغتُ في الإبلاغ والإنذار وبذلتُ وُسعي في النُّصح والإشفاق، فلم تصدِّقوا قولي، فكيف آسَى عليكم؟ وقُرئ: ﴿ءَاسَىٰ﴾[3] بإمالتين.

---

[1] الأعراف: ٧/٨٨.

[2] م س: فلمّا.

[3] الإمالة الأولى في "آ" في الألف التي بعد الهمزة على أنّ أصله "أأسَى"، والثانية في "سى" في الألف التي بعد السين. ذكرها البيضاوي بلا نسبة في أنوار التنزيل، ٣/٢٤. وذكرها الكرماني في شواذّ القراءات، ص ١٩٠؛ والزمخشري في الكشّاف، ٢/١٣١؛ وابن عادل في اللباب، ٩/٢٣١، ولم يصرّحوا بالإمالة الثانية، ونسبوها إلى يحيى بن وثّاب وطلحة بن مصرّف والأعمش وإبراهيم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ إشارة إجماليّة إلى بيان أحوال سائر الأمم إثرَ بيان أحوال الأمم المذكورة تفصيلًا. و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي، والصفةُ محذوفة، أي: مِن نبيّ كُذّب أو كذّبه أهلها.[1] ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال. و﴿أَخَذۡنَا﴾ في محلّ النصب مِن فاعل ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾. والفعلُ الماضي لا يقع بعد "إلّا" إلّا بأحد شرطين: إمّا تقديرِ "قد" كما في هذه الآية، أو مقارنةِ "قد" كما في قولك: "ما زيد إلّا قد قام". والتقدير: وما أرسلنا في قرية مِن القُرى المهلَكة / نبيًّا مِن الأنبياء في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كوننا [٣٢٨ظ] آخذين أهلَها ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ بالبؤس والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالضُّرّ والمرض؛ لكنْ لا على معنى أنّ ابتداء الإرسال مقارنٌ للأخذ المذكور، بل على أنّه مستتبع له غيرُ منفكّ عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتّباع نبيّهم وتعزّزِهم عليه حسبما فعلت الأمم المذكورة.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ كي يتضرّعوا ويتذلّلوا ويحُطّوا أرديةَ الكِبر والعزّة عن أكتافهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام، ٤٢/٦].

﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾

﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا﴾ عطفٌ على ﴿أَخَذۡنَا﴾،[2] داخلٌ في حكمه. ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ التي أصابتهم للغاية المذكورة ﴿ٱلۡحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدلَ ما كانوا فيه مِن البلاء والمِحنة الرخاءَ والسعةَ، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف، ١٦٨/٧].

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: كثُروا عَدَدًا وعُدَدًا -مِن "عَفَا النباتُ" إذا كثُر وتكاثَف- وأبطرتْهم النعمةُ، ﴿وَّقَالُواْ﴾ غيرَ واقفين على أنّ ما أصابهم مِن الأمرين ابتلاءٌ

---

[1] س: أهله.

[2] في الآية السابقة.

مِن الله سبحانه: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ كما مسّنا ذلك، وما هو إلّا مِن عادة الدهر، يعاقِبُ في الناس بين الضرّاء والسرّاء مِن غير أن يكون هناك داعية تؤدّي إليهما أو تبعةٌ تترتّب عليهما. ولعلّ تأخيرَ ﴿ٱلسَّرَّآءُ﴾ للإشعار بأنّها تعقب الضرّاءَ، فلا ضيرَ فيها.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ إثرَ ذلك ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً أشدَّ الأخذِ وأفظعَه، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك ولا يُخطِرون ببالهم شيئًا مِن المَكاره، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا / بِمَآ أُوتُوٓا﴾ الآية [الأنعام، ٤٤/٦]. وليس المراد بالأخذ بغتةً إهلاكَهم طَرْفةَ عينٍ [٣٢٩و] كإهلاك عادٍ وقوم لوطٍ؛ بل ما يعمّه. وما يمضي بين الأخذ وإتمام الإهلاك أيّامٌ كدأب ثمودَ.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: القُرى المهلَكة المدلولَ عليها بقوله تعالى: ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾.[١] وقيل: هي مكّةُ وما حولها مِن القُرى. وقيل جنس القُرى المنتظمة لِما ذُكر منها انتظامًا أوّليًّا. ﴿ءَامَنُوا﴾ بما أُوحيَ إلى أنبيائهم معتبِرين بما جرى عليهم مِن الابتلاء بالضرّاء والسرّاء. ﴿وَٱتَّقَوْا﴾ أي: الكفرَ والمعاصيَ أو اتّقَوا ما أُنذروا به على ألسنة الأنبياء، ولم يُصرّوا على ما فعلوا مِن القبائح، ولم يحملوا ابتلاء الله تعالى على عادات الدهر. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «وحّدوا الله واتّقَوا الشرك».[٢]

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لَوسّعْنا عليهم الخيرَ ويسّرناه لهم مِن كلّ جانب مكانَ ما أصابهم مِن فنون العقوبات التي بعضها مِن السماء وبعضها مِن الأرض. وقيل: المراد المطر والنبات.[٣] وقُرئ: "لَفَتَّحْنَا"[٤] بالتشديد للتكثير.

---

[١] الأعراف، ٩٤/٧.

[٢] **التفسير البسيط** للواحدي، ٢٤٨/٩.

[٣] م ط س – النبات ["صح" في هامش م]. ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[٤] قرأ بها ابن عامر. واختُلف فيها عن ابن جمّاز ورُويس. انظر: **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٨٦؛ وشرح **طيّبة النشر** لابن الجزري، ص ٢٢٣.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ أي: ولكنْ لم يؤمنوا ولم يتّقوا. وقد اكتُفي بذكر الأوّل لاستلزامه للثاني. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن أنواع الكفر والمعاصي التي مِن جملتها قولُهم: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا﴾... إلخ.[1] وهذا الأخذ عبارة عمّا في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾،[2] لا عن الجَذْب والقَحْط كما قيل؛[3] فإنّهما قد زالَا بتبديل الحسنة مكانَ السيّئة.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: أهل القُرى المذكورة، / على وضع المُظهَر موضعَ المُضمَر للإيذان بأنّ مدار التوبيخ أمنُ كلّ طائفةٍ ما أتاهم مِن البأس، لا أمنُ مجموع الأمم؛ فإنّ كلّ طائفة منهم أصابهم بأس خاصّ بهم، لا يتعدّاهم إلى غيرهم كما سيأتي. والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، لا لإنكار الوقوع ونفيه كما قاله أبو شامةَ[4] وغيرُه، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف، ٧/٩٩]. [٣٢٩ظ]

و"الفاء" للعطف على ﴿أَخَذْنَٰهُمْ﴾،[5] وما بينهما اعتراضٌ توسَّط بينهما للمسارعة إلى بيانِ أنّ الأخذ المذكور ممّا كسبته أيديهم، والمعنى: أَبَعد ذلك الأخذ أَمِنَ أهلُ القُرى ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ أي: تبييتًا أو وقتَ بياتٍ أو مبيَّتًا أو مبيَّتين. وهو في الأصل مصدرٌ بمعنى "البَيْتوتة"، ويجيء بمعنى "التبييت"، كـ"السلام" بمعنى "التسليم". ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ حال مِن ضميرهم البارز أو المستترِ في ﴿بَيَٰتًا﴾.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إنكار بعد إنكار للمبالغة في التوبيخ والتشديد؛ ولذلك لم يُقَل: أفَأَمِنَ أهلُ القُرى أن يأتيَهم بأسنا بياتًا وهم نائمون، أو ضحًى وهم يلعَبون؟

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] وفي هامش م: ابن عادل. «منه». | اللباب لابن عادل، ٩/٢٣٥.
[4] اللباب لابن عادل، ٩/٢٣٧.
[5] في الآية السابقة.

وقُرئ: "أَوْ"[١] بسكون الواو على الترديد. ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ أي: ضَحْوةَ[٢] النهار. وهو في الأصل: ضَوْء الشمس إذا ارتفعت. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: يلهون مِن فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم، كأنّهم يلعبون.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ تكرير للنكير لزيادة التقرير. ومكرُ الله تعالى استعارةٌ لاستدراجه العبدَ وأخذِه مِن حيث لا يحتسب، والمراد به إتيان بأسه تعالى في الوقتين المذكورين؛ ولذلك عُطف الأوّل والثالثُ بـ"الفاء"، فإنّ الإنكار / فيهما [٣٣٠و] متوجّه إلى ترتّب الأمن على الأخذ المذكور، وأمّا الثاني، فمِن تتمّة الأوّل. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الذين خسِروا أنفسَهم وأضاعوا فطرة الله التي فطر الناسَ عليها والاستعدادَ القريب المستفاد مِن النظر في الآيات.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي: يخلُفون مَن خَلَا قبلهم مِن الأمم المهلَكة ويرثون ديارَهم. والمراد بهم أهل مكّةَ ومَن حولها. وتعدية فعل الهداية بـ"اللام"، إمّا لتنزيلها منزلةَ اللازم، كأنّه قيل: أَغَفَلوا ولم يفعل الهداية لهم... إلخ، وإمّا لأنّها بمعنى "التبيين"، والمفعول محذوف، والفاعل على التقديرين هو الجملة الشرطيّة، أي: أوَلم يبيّن لهم مآلُ أمرهم ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أنّ الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم أو بسبب ذنوبهم كما أصبنا مَن قبلهم. وقُرئ: "نَهْدِ"[٣] بنون العظمة، فالجملة مفعوله.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطفٌ على ما يُفهَم مِن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾، كأنّه قيل: لا يهتدون أو يغفُلون عن الهداية أو عن التفكّر والتأمّل، أو منقطِعٌ عنه

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

٢ س: ضحوة.

٣ قراءة شاذّة. ذكرها ابن عادل في اللباب، ٩/٢٣٨، ونسبها إلى مجاهد وقتادة ويعقوب.

بمعنى: ونحن نطبَع. ولا يجوز عطفه على ﴿أَصَبْنَـٰهُم﴾ على أنّه بمعنى: طبعنا، لإفضائه إلى نفي الطَّبع عنهم؛ لأنّه في سياق جواب ﴿لَوْ﴾. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبارَ الأمم المهلَكة، فضلًا عن التدبّر والنظر فيها والاغتنامِ بما في تضاعيفها مِن الهدايات.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ جملة مستأنَفة جارية مَجرى الفَذْلكة لِما قبلها مِن القِصص، منبِئةٌ عن غاية غَواية الأمم / المذكورة وتَماديهم فيها بعد ما أتتهم الرُّسل [٣٣٠ظ] بالمعجزات الباهرة. و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قُرى الأمم المَحكيّة على أنّ "اللام" للعهد، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ خبرُه. وصيغة المضارع للإيذان بعدم انقضاء القصّة بعدُ. و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، أي: بعض أخبارها التي فيها عِظة وتذكير. وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ خبره، وما بعده حال، أو خبر بعد خبر عند مَن يجوّز كون الخبر الثاني جملةً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٢٠].

وتصدير الكلام بذكر ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ وإضافة "الأنباء" إليها -مع أنّ المقصوص أنباءُ أهلها والمقصودَ بيانُ أحوالهم حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾- لِما أنّ حكاية هلاكهم بالمرّة على وجه الاستئصال بحيث يشمل أماكنَهم أيضًا بالخَسْف بها والرَّجْفة وبقائِها خاويةً معطَّلةً أهولُ وأفظعُ.

و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ متعلِّقة إمّا بالفعل المذكور على أنّها للتعدية، وإمّا بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعله، أي: ملتبسين بالبيّنات، لكنْ لا بأن يأتيَ كلُّ رسول ببيّنة واحدة؛ بل ببيّنات كثيرة خاصّةٍ به معيَّنةٍ له حسب اقتضاء الحكمة، فإنّ مراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنّما هي فيما بين الرُّسل وضميرِ الأمم.

والجملة[١] مستأنَفة مبيّنة لكمال عُتوّهم وعنادهم، أي: وبالله لقد جاء كلَّ أمّةٍ مِن تلك الأمم المهلَكة / رسولهم الخاصُّ بهم بالمعجزات البيّنة المتكثّرة [٣٣١و] المتواردة عليهم الواضحةِ الدلالةِ على صحّة رسالته الموجِبةِ للإيمان حتمًا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوا﴾ بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي، لا لعدم استمرار إيمانهم. وترتيب حالهم هذه على مَجيء الرُّسل بالبيّنات بـ"الفاء" لِما أنّ الاستمرار على فعل مِن الأفعال بعد ورودِ ما يوجِب الإقلاعَ عنه، وإن كان استمرارًا عليه في الحقيقة، لكنّه بحسب العنوان فعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ، نحو: "وعظتُه فلم ينزجِز" و"دعوتُه فلم يُجب". و"اللام" لتأكيد النفي، أي: فما صحّ وما استقام لقوم مِن أولئك الأقوام في وقت مِن الأوقات أن يؤمنوا؛ بل كان ذلك ممتنعًا منهم إلى أن لَقُوا ما لَقُوا لغاية عُتوّهم وشدّةِ شكيمتهم في الكفر والطغيان.

ثمّ إن كان المَحكيّ عنهم آخرَ حال كلّ قوم منهم، فالمراد بعدم إيمانهم المذكور ههنا إصرارُهم على ذلك بعد اللّتيّا والتي، وبما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ تكذيبُهم مِن لَدُنْ مَجيءِ الرُّسل إلى وقت الإصرار والعناد. وإنّما لم يُجعل ذلك مقصودًا بالذات كالأوّل -بل جُعل صلةً للموصول- إيذانًا بأنّه بيّنٌ بنفسه، وإنّما المحتاج إلى البيان عدمُ إيمانهم بعد تواتر البيّنات الظاهرة وتظاهرِ المعجزات الباهرة التي كانت تَضطرّهم إلى القبول لو كانوا مِن أصحاب العقول. والموصول الذي تعلّقَ به / الإيمان والتكذيبُ سلبًا وإيجابًا [٣٣١ظ] عبارةٌ عن جميع الشرائع التي جاء بها كلّ رسول، أصولِها وفروعِها.

وإن كان المَحكيّ جميعَ أحوال كلّ قوم منهم، فالمراد بما ذُكر أوّلًا كفرهم المستمرُّ مِن حين مَجيء الرُّسل إلى آخره، وبما أشيرَ إليه آخِرًا تكذيبُهم قبل مَجيئهم. فلا بدّ مِن جعل الموصول المذكور عبارةً عن أصول الشرائع التي أجمعتْ عليها الرُّسل قاطبةً ودعَوا أممَهم إليها آثِرَ ذي أثيرٍ[٢] لاستحالة تبدّلها وتغيّرِها،

---

[١] أي: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

[٢] أفعلُ هذا آثِرَ ذي أثيرٍ، أي: أوّلَ كلّ شيء. الصحاح للجوهري، «أثر».

مثل ملّة التوحيد ولوازمِها، ومعنى تكذيبهم بها قبل مَجيء رُسلهم: أنّهم ما كانوا في زمن الجاهليّة بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قطّ؛ بل كانت كلُّ أمّة مِن أولئك الأمم يتسامعون بها مِن بقايا مَن قَبلهم فيكذّبونها، ثمّ كانت حالتُهم بعد مَجيء رُسلهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يُبعَث إليهم أحد.

وتخصيص التكذيب وعدمُ الإيمان بما ذُكر مِن الأصول لظهور حال الباقي بدلالة النصّ، فإنّهم حين لم يؤمنوا بما أجمعتْ عليه كافّة الرُّسل، فلأَن لا يؤمنوا بما تفرّد به بعضُهم أولى. وعدمُ جعل هذا التكذيب مقصودًا بالذات لِما أنّ ما عليه يدور فلك العذاب والعقاب هو التكذيب الواقعُ بعد الدعوة حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٥/١٧]. وإنّما ذُكر ما وقع قبلها بيانًا لعراقتهم / في الكفر والتكذيب. [٣٣٢و]

وعلى كلا التقديرين، فالضمائر الثلاثة متوافقة في المرجِع. وقيل:[١] ضمير ﴿كَذَّبُوا﴾ راجعٌ إلى أسلافهم، والمعنى: فما كان الأبناء لِيؤمنوا بما كذّب به الآباءُ. ولا يخفى ما فيه مِن التعسّف. وقيل:[٢] المراد: ما كانوا لِيؤمنوا لو أحيَيْناهم بعد إهلاكهم ورددْناهم إلى دار التكليف بما[٣] كذّبوا مِن قبلُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام، ٢٨/٦].

وقيل: "الباء" للسببيّة، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: بسبب تعوّدِهم تكذيبَ الحقّ وتمرّنِهم عليه قبل بعثة الرُّسل. ولا يَرِدُ عليه ههنا ما ورَدَ في سورة يونسَ مِن مخالفة الجمهور بجعل ﴿مَا﴾ المصدريّةِ مِن قبيل الأسماء -كما هو رأي الأخفش

---

[١] وفي هامش م: قاله يماني وابن عطيّة. «منه». | انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤٣٤/٢. | ابن عطيّة هو: عبد الحقّ بن غالب بن عبد الرحمن بن عطيّة المُحاربي الغرناطي الأندلسي، أبو محمّد (ت. ٥٤١هـ/١١٤٧م). مفسّر، فقيه. كان عارفًا بالأحكام والحديث والتفسير بارعًا في الأدب، ذا ضبط وتقييد وتجويد وذهن سيّال. روى عن أبيه وغيره. وروى عنه أبو جعفر بن مَضاء وعبد المنعم بن الفرس وأبو محمّد عبيد الله وأبو القاسم بن حبيش، وآخرون. وله شعر. ولي قضاء المَرية. له: المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، وبرنامج في ذكر مرويّاته وأسماء شيوخه. انظر: فوات الوفيات للكُتبي، ٢٥٦/٢؛ وطبقات المفسّرين للداوودي، ٢٦٥/١-٢٦٧.

[٢] قاله مجاهد كما في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤٣٤/٢.

[٣] قوله: "بما كذّبوا" متعلّق بقوله: "لِيؤمنوا".

وابنِ السرّاج-[١] ليرجعَ إليه الضمير في ﴿بِهِۦ﴾.[٢]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطَّبع الشديد المحكَم ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مِن المذكورين وغيرهم، فلا يكاد يؤثِّر فيها الآيات والنُّذُر. وفيه تحذير للسامعين. وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وإدخال الروعة.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ۝١٠٢﴾

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي: أكثرِ الأمم المذكورين. و"اللام" متعلِّقة بالوجدان، كما في قولك: "ما وجدتُ له مالًا"، أي: ما صادفتُ له مالًا ولا لقيتُه، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن قوله: ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾؛ لأنّه في الأصل صفة للنكرة، فلمّا قُدّمت عليها انتصبت حالًا، والأصل: ما وجدنا عهدًا كائنًا لأكثرهم، و﴿مِنْ﴾ مزيدة للاستغراق، أي: وما وجدنا لأكثرهم مِن وفاءِ عهدٍ؛ فإنّهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه عند مساس البَأْساء والضَّرّاء، قائلين: «لَئن أنجيتَنا مِن هذه لَنكونَنّ مِن الشاكرين»،[٣] فتخصيص هذا الشأن بـ﴿أَكْثَرِهِمْ﴾ ليس لأنّ بعضهم كانوا يَفُون بعهودهم؛ بل لأنّ بعضهم كانوا لا يعهَدون ولا يَفُون. / وقيل: المراد بـ"العهد" ما عَهِد الله تعالى إليهم مِن الإيمان والتقوى بنصب الآيات وإنزالِ الحُجج؛ وقيل: ما عَهِدوا عند خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف، ١٧٢/٧]، فالمراد بـ﴿أَكْثَرِهِمْ﴾ كلُّهم. وقيل: الضمير لـ"الناس"، والجملة اعتراض، فإنّ أكثرهم لا يَفُون بالعهود بأيّ معنًى كان. [٣٣٢ظ]

١ قول الأخفش في المقتضب للمبرّد، ٢٠٠/٣؛ وقول ابن السرّاج في كتابه الأصول في النحو، ١٦١/١. | ابن السرّاج هو: محمّد بن السَّرِي بن سَهْل البغدادي، أبو بكر (ت. ٣١٦هـ/٩٢٩م). أحد أئمّة الأدب والعربيّة. صحب أبا العبّاس المبرّد، وأخذ عنه العلم. روى عنه أبو القاسم الزجّاجي وأبو سعيد السيرافي وعليّ بن عيسى الرُّماني. يقال: ما زال النحو مجنونًا حتى عقله ابن السرّاج بأصوله. وكان عارفًا بالموسيقى. مِن كتبه: الأصول والموجَز في النحو، وشرح كتاب سيبويه، والشعر والشعراء، والخطّ والهجاء، والمواصَلات والمذكَّرات في الأخبار، والعروض. انظر: معجم الأدباء للحَمَوي، ٢٥٣٤/٦-٢٥٣٧؛ وبغية الوعاة للسيوطي، ١٠٩/١-١١٠.

٢ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾... إلخ [يونس، ٧٤/١٠]. | انظر: تفسير المصنّف في يونس، ٧٤/١٠.

٣ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس، ٢٢/١٠].

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر الأمم، أي: علمناهم، كما في قولك: "وجدتُ زيدًا ذَا حِفاظٍ". وقيل: الأول[١] أيضًا كذلك. و﴿إِنْ﴾ مخفَّفة مِن "إنّ"، وضمير الشأن محذوف، أي: إنّ الشأن وجدناهم ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود؛ وعند الكوفيين ﴿إِنْ﴾ نافية، و"اللام" بمعنى "إلّا"، أي: ما وجدناهم إلّا فاسقين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ أي: أرسلناه مِن بعد انقضاء وقائع الرُّسل المذكورين عليهم السلام، أو مِن بعد هلاك الأمم المَحكيّة. والتصريح بذلك -مع دلالة ﴿ثُمَّ﴾ على التراخي- للإيذان بأنّ بعثه عليه السلام جَزيٌ على سَنَن السنّة الإلهيّة مِن إرسال الرُّسل تَتْرى. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن مفعول ﴿بَعَثْنَا﴾، أو صفةً لمصدره، أي: بعثناه عليه السلام ملتبسًا بآياتنا، أو بعثناه بَعْثًا ملتبسًا بها. وهي الآيات التِّسع المفصَّلاتُ التي هي: العصا واليد البيضاء والسِّنونَ ونقصُ الثَّمَرات والطُّوفان والجَرَاد والقُمَّل والضَّفادِع والدم، / حسبما سيأتي على التفصيل.[٢] [٣٣٣و]

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو لقبٌ لكلّ مَن ملك مصرَ مِن العَمالقة، كما أنّ كِسرى لقبٌ لكلّ مَن ملك فارسَ، وقَيْصرَ لكلّ مَن ملك الروم. واسمه: قابوس، وقيل: الوليد بن مصعب بن الريّان. ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه. وتخصيصهم بالذِّكر -مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافّةً، حيث كانوا جميعًا مأمورين بعبادة ربّ العالمين عزَّ سلطانُه وتركِ العظيمة الشَّنْعاء التي كان يدّعيها الطاغية ويقبلها منه فِئَتُه الباغية- لأصالتهم في تدبير الأمور واتّباعِ غيرهم لهم في الورود والصدور.

---

١ أي: ﴿وَجَدْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾.
٢ انظر: الأعراف، ١٣٣/٧.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي: كفروا بها؛ أُجريَ الظلم مُجرى الكفر لكونهما مِن وادٍ واحدٍ، أو ضُمّن معنى الكفر أو التكذيب، أي: ظلموا كافرين بها أو مكذِّبين بها، أو كفروا بها مكانَ الإيمان الذي هو مِن حقّها لوضوحها؛ ولهذا المعنى وُضع ﴿ظَلَمُوا﴾ موضعَ "كفروا". وقيل: ظلموا أنفسهم بسببها بأن عرّضوها للعذاب الخالد، أو ظلموا الناس بصَدّهم عن الإيمان بها. والمراد به الاستمرار على الكفر بها إلى أنْ لَقُوا مِن العذاب ما لَقُوا؛ ألَا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فكما أنّ ظلمهم بها مستتبع لتلك العاقبة الهائلة، كذلك حكاية ظلمهم بها مستتبع للأمر بالنظر إليها.

و﴿كَيْفَ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾، قُدّم على اسمها لاقتضائه الصدارةَ. والجملة في حيّز النصب بإسقاط الخافض، أي: فانظرْ بعين عقلك إلى / كيفيّة ما فعلنا بهم. [٣٣٣ظ] ووضعُ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ موضعَ ضميرهم للإيذان بأنّ الظلم مستلزم للإفساد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مَسوقٌ لتفصيل ما أُجملَ فيما قبله مِن كيفيّة إظهار الآيات وكيفيةِ عاقبة المفسدين. ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾ أي: إليك ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على الوجه الذي مرّ بيانه.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥﴾

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ جواب عمّا ينساق إليه الذهن مِن حكاية ظلمهم بالآيات مِن تكذيبه إيّاه عليه السلام في دعوى الرسالة. وكان أصله: حقيقٌ عليَّ ألّا أقولَ... إلخ، كما هو قراءة نافع،[١] فقُلِب للأمن مِن الإلباس، كما في قول مَن قال:

---

[١] النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

وتَشقَى الرِّماحُ بالضَّياطِرةِ الحُمْرِ[1]

أو لأنّ ما لزِمَك فقد لزِمتَه،[2] أو للإعراق في الوصف بالصدق، والمعنى: واجبٌ على القول الحقّ أن أكون أنا قائلَه، لا يرضى إلّا بمِثلي ناطقًا به، أو ضُمِّن ﴿حَقِيقٌ﴾ معنى "حريص"، أو وُضِع على موضع "الباء" لإفادة التمكّن، كقولهم: "رميتُ على القوس" و"جئتُ على حال حسنة"، ويؤيّده قراءة أُبيّ بالباء.[3] وقُرئ: "حَقِيقٌ أَنْ لَا أَقُولَ".[4]

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن كونه رسولًا مِن ربّ العالمين وكونِه حقيقًا بقول الحقّ. ولم يكن هذا القول منه عليه السلام وما بعده مِن جواب فرعونَ إثْرَ ما ذُكر ههنا؛ بل بعد ما جرى بينهما مِن المحاورة المَحكيّة بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ الآيات [طه، ٤٩/٢٠] وقولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآيات [الشعراء، ٢٣/٢٦]، وقد طُوي ههنا ذكرُه للإيجاز.

و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة إمّا بـ﴿جِئْتُكُمْ﴾ على أنّها لابتداء الغاية مجازًا، وإمّا بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿بَيِّنَةٍ﴾ مفيدةً لفخامتها الإضافيّة المؤكِّدة لفخامتها الذاتيّة المستفادةِ مِن التنوين التفخيميّ. وإضافة اسم "الربّ" إلى المخاطَبين بعد إضافته فيما قبله إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5] / لتأكيد وجوب الإيمان بها. [٣٣٤و]

---

[1] عجز بيت، صدره:
وتلحَقُ خَيلٌ لا هَوادةَ بينها
وهو لخداش بن زُهير في الكامل للمبرّد، ٤٨/٢؛ والصحاح للجوهري، «ضطر»؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ٢١١/١؛ والإيضاح للقزويني، ص ١٦٧. | الهَوَادة: الصلح والمَيل. والتهويد: المَشي الرُّويد، مثل الدبيب. الضَّيطَر: الرّجل الضّخم الذي لا غَناء عنده. والحُمْر: العجَم؛ لأنّ الشُّقرة غلَبت عليهم. وأصل البيت: "وتَشقَى الضَّياطِرةُ بالرِّماح"، أي: أنّهم يُقتَلون بها. انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٥٠١/٦.

[2] أي: فلمّا كان قول الحقّ حقيقًا عليه، كان هو حقيقًا على قول الحقّ، أي: لازمًا له.

[3] أي: "حَقِيقٌ بِأَنْ لَا أَقُولَ"، وهي قراءة شاذّة، ذكرها عنه الزمخشري في الكشّاف، ١٣٧/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٢٤٧/٩. وزاد الثاني بنسبتها إلى الأعمش.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ١٣٦/٢-١٣٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢٩/٥.

[5] في الآية السابقة.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: فخلِّهم حتّى يذهبوا معي إلى الأرض المقدّسة التي هي وطنُ آبائهم. وكان قد استعبدهم بعد انقراض الأسباط يستعملهم ويكلّفهم الأفاعيلَ الشاقّةَ، فأنقذهم الله تعالى بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل يوسفُ مصرَ واليومِ الذي دخله موسى عليهما السلام أربعُمائة عامٍ.[١] و"الفاء" لترتيب الإرسال أو الأمرِ به على ما قبله مِن رسالته عليه السلام ومَجيئِه بالبيّنة.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤالٍ ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال فرعونُ له عليه السلام حين قال ما قال؟ فقيل: قال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: مِن عند مَن أرسلك كما تدّعيه، ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ أي: فأحضِرْها حتّى يثبت بها رسالتك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فإنّ كونك مِن جملة المعروفين بالصدق يقتضي إظهارَ الآية لا محالةَ.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧﴾

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهرٌ أمرُه، لا يُشَكّ في كونه ثُعبانًا، وهو الحَيّة العظيمة. وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على كمال سرعة الانقلاب وثبات وصف الثُّعبانيّة فيها، كأنّها في الأصل كذلك. رُوي أنّه لمّا ألقاها صارت ثُعبانًا أشعَرَ، فاغرًا فاهُ،[٢] بين لَحْيَيْهِ ثمانون ذِراعًا، وضَعَ لَحْيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سُور القَصر، ثمّ توجّهَ نحو فرعونَ، فهرب منه وأحدَثَ، وانهزم الناسُ مُزدحمين، فمات منهم خمسةٌ وعشرون ألفًا، فصاح فرعونُ: «يا موسى، أنشُدك بالذي أرسلك، خُذْه وأنا أومِن بك وأُرسِل معك بني إسرائيلَ»، فأخذه، فعاد عصًا.[٣]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٢.

٢ فَغَرَ فاهُ، أي: فتحَه. وفَغَرَ فُوهُ، أي: انفتح. يتعدّى ولا يتعدّى. الصحاح للجوهري، «فغر».

٣ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٢.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٠٨﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: مِن جَيْبه / أو مِن تحت إِبْطه، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [٣٣٤ظ] أي: بيضاءُ بياضًا نُورانيًا خارجًا عن العادة، يجتمع عليه النَّظّارة تعجّبًا مِن أمرها. وذلك ما يُروى أنّه أَرَى فرعونَ يدَه وقال: «ما هذه؟»، فقال: «يدُك»، ثمّ أدخلها جَيْبه وعليه مِدرَعةُ صُوفٍ، ونزعها، فإذا هي بيضاءُ بياضًا نورانيًا غلب شُعاعُه شُعاعَ الشمس، وكان عليه السلام آدَمَ شديدَ الأُدْمة.[١] وقيل: بيضاءُ للناظرين، لا أنّها كانت بيضاءَ في جِبِلّتها.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝١١٠ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۝١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝١١٢﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: الأشرافُ منهم، وهم أصحاب مشورته: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: مبالِغ في علم السحر ماهرٌ فيه. قالوه تصديقًا لفرعونَ وتقريرًا لكلامه، فإنّ هذا القول بعينه مَعزيّ في سورة الشعراء إليه.[٢]

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: مِن أرض مصرَ، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بفتح النون. و﴿مَا﴾ في ﴿مَاذَا﴾ في محلّ النصب على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿تَأْمُرُونَ﴾ بحذف الجارّ، والأوّل محذوف، والتقدير: بأيّ شيء تأمرونني. وهذا مِن كلام فرعونَ، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف، ٥٢/١٢]، أي: فإذا كان كذلك، فماذا تُشيرون عليّ في أمره؟ وقيل: قاله المَلأ عن قِبَله بطريق التبليغ إلى العامّة.

فقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ على الأوّل -وهو الأظهر- حكاية لكلام المَلأ الذين شاوَرهم فرعونُ، وعلى الثاني لكلام العامّة الذين خاطَبهم المَلأُ، ويأباه أنّ الخطاب لفرعونَ، وأنّ المشاورة ليست مِن وظائفهم. أي: أَخِّرْه وأخاه.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٢. | الآدَم مِن الناس: الأسمر. والأُدْمة: السُّمرة. الصحاح للجوهري، «أدم».

٢ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء، ٣٤/٢٦].

[٣٣٥و] وعدمُ التعرّض لذِكره قبلُ[١] / لظهور كونه معه حسبما ينادي به الآيات الأُخَرُ، والمعنى: أخِّرْ أمرهما وأصدِرْهما عنك حتّى ترى رأيك فيهما وتدبِّرَ شأنهما. وقُرئ: "أَرْجِئْهُ" و"أَرْجِهِ"،[٢] مِن "أرجأه" و"أرجاه".

﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ قيل: هي مدائنُ صعيدِ مصرَ. وكان رؤساء السَّحَرة ومَهَرتُهم بأقصى مدائن الصعيد. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّهم كانوا سبعين ساحرًا، قد أخذوا السحر مِن رَجلين مجوسيَّين مِن أهل نينوى مدينةِ يونسَ عليه السلام بالمَوصِل»،[٣] وردّ[٤] ذلك بأنّ المجوسيّة ظهرت بِزرادشت، وهو إنّما جاء بعد موسى عليه السلام.

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ أي: ماهرٍ في السحر. وقُرئ: "بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ".[٥] والجملة جواب الأمر.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ﴾ بعد ما أرسَلَ إليهم الحاشرين. وإنّما لم يصرَّح به حسبما في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٥٣] للإيذان بمسارعة فرعونَ إلى الإرسال ومبادرةِ الحاشرين والسَّحَرة إلى الامتثال.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف مَنوط بسؤالٍ نشأ مِن حكاية مَجيء السَّحَرة، كأنّه قيل: فماذا قالوا له عند مَجيئهم إيّاه؟ فقيل: قالوا مُدلِّين بما عندهم واثقين بغلبتهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ بطريق الإخبار بثبوت الأجر وإيجابه، كأنّهم قالوا: لا بدَّ لنا مِن أجر عظيم حينئذ؛ أو بطريق الاستفهام التقريري بحذف الهمزة،

---

[١] ط س – لذكره قبلُ. | زاده المؤلّف في نهاية السطر، ولعلّ الزيادة بعد نسخ ط س.

[٢] قرأ بالأولى ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر في رواية هشام وأبو بكر بخلاف. وقرأ بالثانية نافع والكسائي. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٨٧-٢٨٩؛ والنشر لابن الجزري، ١/٣٠٤-٣١٣.

[٣] اللباب لابن عادل، ٩/٢٥٦. وهو عن الكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٦٤.

[٤] هو الرازي في تفسيره، ١٤/٣٣٢.

[٥] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧١.

وقُرئ بإثباتها.[١] وقولهم: ﴿إِن كُنَّا﴾ لمجرَّد تعيين مناط ثبوت الأجر، لا لتردّدِهم في الغلبة. وتوسيط الضمير وتحليةُ الخبر بـ"اللام" للقَصر، أي: / إنْ كنّا نحن الغالبين، لا موسى. [٣٣٥ظ]

﴿قَالَ نَعَمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ سدّ مَسدَّه حرفُ الإيجاب، كأنّه قال: إنّ لكم لَأجرًا، وإنكم مع ذلك لَمِن المقرَّبين، للمبالغة في الترغيب. ورُوي أنّه قال لهم: «تكونون أوّلَ مَن يدخل مَجلسي وآخِرَ مَن يخرج عنه».[٢]

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۝١١٥﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف كما مرّ، كأنّه قيل: فماذا فعلوا بعد ذلك؟ فقيل: قالوا متصدّين لشأنهم مخاطِبين لموسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ ما تُلقي أوّلًا، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ أي: لِما نُلقي أوّلًا أو الفاعلين للإلقاء أوّلًا. خيَّروه عليه السلام بالبَدْء بالإلقاء مراعاةً للأدب وإظهارًا للجلادة، وأنّه لا يختلف حالهم بالتقديم والتأخير؛ ولكن كانت رغبتهم في التقديم كما يُنبئ عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيطِ ضمير الفصل وتأكيدِ الضمير المتّصل.

﴿قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۝١١٦﴾

﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾ غيرَ مبالٍ بأمرهم، أي: أَلقُوا ما تُلقون، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ ما ألقَوا ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيّلوا إليهم ما لا حقيقةَ له، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: بالغوا في إرهابهم، ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في بابه. رُوي أنّهم ألقَوا حِبالًا غِلاظًا وخُشُبًا طِوالًا، كأنّها حَيّات ملأت الواديَ وركب بعضُها بعضًا.[٣]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ "الفاء" فصيحة،

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وعاصم في رواية حفص. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٨٩.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ١٣٩/٢.

[٣] التفسير البسيط للواحدي، ٢٨١/٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٣.

أي: فألقاها، فصارت حيّةً، فإذا هي الآية. وإنّما حُذف للإشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب، كأنّ لَقْفَها لِما يَأفِكون قد حصل متّصلًا بالأمر بالإلقاء. وصيغة المضارع لاستحضار صورة اللَّقْف الهائلة [٣٣٦و] / والإفك الصَّرف والقلب عن الوجه المعتاد. و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، والعائد محذوف، أي: ما يَأفِكونه ويزوّرونه، أو مصدريّةٌ، وهي مع الفعل بمعنى المفعول. رُوي أنّه لمّا تلقّفت مِلءَ الوادي مِن الخُشُب والحِبال، ورفعها موسى، فرجعت عصًا كما كانت، وأعدم الله تعالى بقدرته القاهرة تلك الأجرام العظامَ أو فرّقها أجزاءً لطيفةً، قالت السَّحَرة: لو كان هذا سحرًا لَبقيتْ حِبالنا وعِصِيُّنا.[١]

﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٨﴾

﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: فثبت لظهور أمره، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: ظهر بطلانُ ما كانوا مستمرّين على عمله.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠﴾

﴿فَغُلِبُواْ﴾ أي: فرعون وقومُه ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في مجلسهم، ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ أي: صاروا أذِلّاءَ مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذِلّاءَ مقهورين. والأوّل هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾؛ فإنّ ذلك كان بمحضر مِن فرعونَ قطعًا، أي: خرُّوا سُجّدًا كأنّما ألقاهم مُلقٍ لشدّة خرورهم؛ كيف لا، وقد بهرهم الحقّ واضطرّهم إلى ذلك.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أبدلوا الثانيَ مِن الأوّل لئلّا يُتوهَّم أنّ مرادهم فرعون. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: «لمّا آمنت السَّحَرة اتّبع موسى مِن بني إسرائيلَ ستُّمائةِ ألفٍ».[٢]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٢/١٤١.

[٢] جامع البيان للطبري، ١٠/٣٧١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٦٧.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ منكِرًا على السَّحَرة موبِّخًا لهم على ما فعلوه: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بهمزة واحدة، إمّا على الإخبار المحض المتضمِّنِ للتوبيخ، أو على الاستفهام التوبيخي بحذف الهمزة، كما مرّ في: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف، ١١٣/٧]. وقد قُرِئ بتحقيق الهمزتين معًا،[١] وبتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بيْنَ بين.[٢] أي: / آمنتم بالله تعالى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: بغير أنْ آذَنَ لكم، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]؛ لا أنّ الإذن منه ممكن في ذلك. [٣٣٦ظ]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ يعني: إنّ ما صنعتموه ليس ممّا اقتضى الحال صدورَه عنكم لقوّة الدليل وظهور المعجزة؛ بل هو حيلة احتملتموها مع مواطأة موسى ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني: مصرَ قبل أن تخرجوا إلى المِيعاد. رُوي أنّ موسى عليه السلام وأميرَ السَّحَرة التقَيا، فقال له موسى عليه السلام: «أرأيتَك إنْ غلبتُك، أتؤمن بي وتشهد أنّ ما جئتُ به الحقُّ؟»، فقال الساحر: «واللهِ لَئن غلبتَني لَأومننَّ بك»، وفرعونُ يسمعهما، وهو الذي نشأ عنه هذا القول.[٣] ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: القِبطَ وتخلصَ هي لكم[٤] ولبني إسرائيلَ.

وهاتان شُبهتان ألقاهما إلى أسماع عوامّ القِبط عند معاينتهم لارتفاع أعلام المعجزة ومشاهدتِهم لخضوع أعناق السَّحَرة لها وعدمِ تمالكِهم مِن أن يؤمنوا بها؛ ليمنعهم بهما عن الإيمان بنبوّة موسى عليه السلام بإراءةِ أنّ إيمان السَّحَرة مبنيٌّ على المواضعة بينهم وبين موسى عليه السلام،[٥] وأنّ غرضهم بذلك

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر وروح، واختلف عن هشام. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٨/١-٣٦٩.

٢ قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر وقالون وورش مِن طريق الأزرق والبَزّي وابن ذَكوان. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٨/١-٣٦٩.

٣ جامع البيان للطبري، ٣٦٢/١٠؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٨/٩.

٤ ط س: لك. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلِّف، ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٥ م - عليه السلام.

إخراجُ القوم مِن المدينة وإبطالُ مُلكهم؛ ومعلوم أنّ مفارقة الأوطان المألوفة والنعمةِ المعروفة ممّا لا يُطاق به، فجمع اللعينُ بين الشُّبهتين تثبيتًا للقِبط على ما هم عليه وتهييجًا لعداوتهم له عليه السلام، ثمّ عقَّبهما بالوعيد ليُرِيَهم أنّ له قوّةً وقدرةً على المدافعة، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبةَ ما فعلتم.

[٣٣٧و] وهذا وعيد ساقَه بطريق / الإجمال للتهويل، ثمّ عقَّبه بالتفصيل، فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: مِن كلّ شقٍّ طرفًا، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحًا لكم وتنكيلًا لأمثالكم. قيل: هو أوّلُ مَن سنَّ ذلك،[١] فشرعه الله تعالى لقُطّاع الطريق تعظيمًا لجُرمهم؛ ولذلك سمّاه تعالى محاربةَ لله ورسوله.[٢]

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مَسوق للجواب عن سؤالٍ ينساق إليه الذهن، كأنّه قيل: فماذا قالت السَّحَرة عندما سمعوا وعيد فرعونَ؛ هل تأثّروا به أو تصلّبوا فيما هم فيه مِن الدين؟ فقيل: قالوا ثابتين على ما أحدثوا مِن الإيمان: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: بالموت لا محالةَ، فسواء كان ذلك مِن قِبلك أو لا، فلا نُبالي بوعيدك؛ أو إنّا إلى رحمة ربّنا وثوابِه منقلبون إن فعلتَ بنا ذلك، كأنّهم استطابوه شَغَفًا على لقاء الله تعالى؛ أو إنّا جميعًا إلى ربّنا منقلبون، فيحكم بيننا وبينك.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ١٢٦﴾

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ أي: وما تُنكر وتَعيب منّا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وهو خيرُ الأعمال وأصلُ المَفاخر، ليس ممّا يتأتّى لنا العُدولُ عنه طلبًا لمَرضاتك. ثمّ أعرضوا عن مخاطبته إظهارًا لِما في قلوبهم مِن العزيمة على ما قالوا

---

[١] قاله سعيد بن جبير عن ابن عباس. جامع البيان للطبري، ١٠/٣٦٣.

[٢] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة، ٥/٣٣].

وتقريرًا له، ففزعوا إلى الله عزّ وجلّ وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أي: أَفِض علينا مِن الصبر ما يغمُرنا كما يغمر الماءُ، أو صُبَّ علينا ما يطهِّرنا مِن أوضار الأوزار وأدناسِ الآثام، وهو الصبر على وعيد فرعونَ. / ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [٣٣٧ظ] ثابتين على ما رزقتَنا مِن الإسلام غيرَ مفتونين مِن الوعيد. قيل: فعَلَ بهم ما أوعدهم به. وقيل: لم يقدر عليه لقوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص، ٣٥/٢٨].[1]

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ مخاطِبين له بعد ما شاهدوا ما شاهدوا[2] مِن أمر موسى عليه السلام: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرض مصرَ بتغيير الناس عليك وصرفِهم عن متابعتك، ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطفٌ على ﴿يُفۡسِدُوا﴾، أو جوابُ الاستفهام بالواو، كما في قول الحُطَيئة:[3]

ألم أكُ[4] جارَكم ويكونَ بيني وبينكم المَوَدّةُ والإخاءُ[5]

أي: أيكون منك تركُ موسى ويكونَ تركه إيّاك؟ وقُرئ بالرفع[6] عطفًا على ﴿تَذَرُ﴾ أو استئنافًا أو حالًا. وقُرئ بالسكون،[7] كأنّه قيل: يُفسدوا ويذَرْك، كقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون، ١٠/٦٣].

---

[1] وفي هامش م: واعلم أنّه ليس في القرآن أنّ فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به، ولم يثبت في الأخبار. لباب ابن عادل. «منه». | اللباب لابن عادل، ٣٣٠/١٣ (طه، ٧٦/٢٠).

[2] س - ما شاهدوا.

[3] هو جَرْوَل بن أوس بن مالك العَبْسي، أبو مُليكة (ت. ٥٩هـ/٦٧٨م [؟]). شاعر مخضرَم، أدرك الجاهليّة والإسلام. لُقّب "الحُطيئة" لقِصره وقُربه مِن الأرض. كان هجّاءًا عنيفًا، لم يكد يُسلم مِن لسانه أحد. وهجا أمّه وأباه ونفسه. له: ديوان شعر. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٣١٠/١-٣١٦؛ والأعلام للزركلي، ١١٨/٢.

[4] س: يك.

[5] البيت في ديوانه، ص ٨٩. وفي مطبوعه: "ألم أكُ مسلمًا فيكونَ" مكان "ألم أكُ جارَكم ويكونَ".

[6] أي: "وَيَذَرُكَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن نُعيم بن مَيسرة والحسن بخلاف عنه. المحتسَب لابن جنّي، ٢٥٦/١.

[7] أي: "وَيَذَرْكَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب. المحتسَب لابن جنّي، ٢٥٦/١.

﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ ومعبوداتِك. قيل: إنّه كان يعبد الكواكب.[١] وقيل: صنع لقومه أصنامًا وأمرهم بأن يعبدوها تقرّبًا إليه؛[٢] ولذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.[٣] وقُرئ: "وَإِلٰهَتَكَ"،[٤] أي: عبادتَك.

﴿قَالَ﴾ مُجيبًا لهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كما كنّا نفعل بهم ذلك مِن قبلُ ليُعلَم أنّا على ما كنّا عليه مِن القهر والغلبة، ولا يُتوهَّمَ أنّه المولود الذي حكَمَ المنجِّمون والكَهَنةُ بذَهاب مُلكنا على يديه. وقُرئ: "سَنَقْتُلُ"[٥] بالتخفيف. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ كما كنّا، لم يتغيّر حالُنا أصلًا، وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾

[٣٣٨و] / ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ تسليةً لهم وعِدةً بحُسن العاقبة حين سمعوا قول فرعونَ وتضجّروا منه: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ على ما سمعتم مِن أقاويله الباطلة، ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ أي: أرضَ مصرَ، أو جنسَ الأرض، وهي داخلة فيها دخولًا أوّليًا. ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين أنتم منهم. وفيه إيذان بأنّ الاستعانة بالله تعالى والصبرَ مِن باب التقوى. وقُرئ: "وَالْعَاقِبَةَ"[٦] بالنصب عطفًا على اسم ﴿إِنَّ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٢٩﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: بنو إسرائيلَ: ﴿أُوذِينَا﴾ أي: مِن جهة فرعونَ ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/٣.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ١٤٣/٢.

[٣] النازعات، ٢٤/٧٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن عبّاس وابن مسعود وأنس بن مالك وعلقمة والجحدري والتيمي وأبي طالوت وأبي رجاء. المحتسَب لابن جنّي، ٢٥٨/١.

[٥] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧١/٢.

[٦] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١٤٣/٢، ونسبها إلى أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود.

أي: بالرسالة. يَعنُون بذلك قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام وبعدَه. ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي: رسولًا. يَعنُون به ما توعَّدهم به مِن إعادة قتل الأبناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام مِن فنون الجَور والظلم والعذاب. وأمّا ما كانوا يُستعبَدون به ويُمتهَنون فيه مِن أنواع الخِدَم والمِهَن كما قيل،[1] فليس ممّا يلحقهم بواسطته عليه السلام، فليس لذِكره كثيرُ ملابسة بالمقام.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام لمّا رأى شدّة جَزَعِهم ممّا شاهدوه مسلّيًا لهم بالتصريح بما لوّح به في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾... إلخ.[2] ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الذي فعل بكم ما فعل وتوعَّدكم بإعادته، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يجعلَكم خُلفاءَ في أرض مصرَ، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أحَسنًا أم قبيحًا، فيجازيَكم حسبما يظهر / منكم مِن الأعمال. وفيه تأكيد للتسلية وتحقيق للأمر. [٢٣٨ظ]

قيل:[3] لعلّ الإتيانَ بفعل الطمَع لعدم الجزم منه عليه السلام بأنّهم هم المستخلَفون بأعيانهم، أو أولادهم، فقد رُوي أنّ مصرَ إنّما فُتحت في زمن داودَ عليه السلام؛ ولا يساعده قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]؛ فإنّ المتبادر استخلاف أنفس المستضعَفين، لا استخلافُ أولادهم، وإنّما مَجيءُ فعل الطمع للجَرْي على سَنَن الكبرياء.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ شروع في تفصيل مبادي الهلاك الموعود، وإيذان بأنّه تعالى لم يُمهِلهم بعد ذلك، ولم يكونوا في خفض ودَعَة؛ بل رُتّبت أسباب هلاكهم، فتحوّلوا مِن حال إلى حال إلى أن حلَّ بهم عذابُ الاستئصال. وتصدير الجملة بالقَسم لإظهار الاعتناء بمضمونها.

---

[1] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٤٣/٢-١٤٤.

[2] في الآية السابقة.

[3] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣٠/٣.

والسِّنُونَ: جمعُ "سَنَة". والمراد بها عامُ القَحْط. وفيها لغتان، أشهرُهما إجراؤها مُجرى المذكَّر السالم، فيُرفَع بالواو، ويُنصَب ويُجَرّ بالياء، ويُحذَف نونه بالإضافة. واللغة الثانية إجراءُ الإعراب على النون، ولكن مع الياء خاصّةً، إمّا بإثبات تنوينها أو بحذفه. قال الفرّاء: «هي في هذه اللغة مصروفةٌ عند بني عامرٍ وغيرُ مصروفةٍ عند بني تَميم».[1] ووجهُ حذف التنوين التخفيفُ، وحينئذ لا يُحذف النون للإضافة، وعلى ذلك جاء قول الشاعر:

دعانِيَ مِن نجدٍ فإنّ سِنِينَه لَعِبْنَ بنا شِيبًا وشيَّبْنَنَا مُردا[2]

وجاءِ الحديث: «اللّهمّ اجعَلْها عليهم سِنِينَ كسِنِي يوسفَ»،[3] و«سِنِينًا كسِنِينِ يوسفَ»،[4] باللغتين.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بإصابة العاهات. عن كعب: «يأتي على الناس زمانٌ لا تحمِل النَّخْلةُ إلّا تَمرةً».[5] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أمّا السِّنونَ فكانت لِباديَتِهم / وأهلِ ماشيَتِهم، وأمّا نقصُ الثَّمَرات فكان في أمصارهم».[6] [٣٣٩و]

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ كَيْ يتذكّروا ويتّعِظوا بذلك، ويقِفوا على أنّ ذلك لأجل معاصيهم، وينزجروا عمّا هم عليه مِن العُتوّ والعناد. قال الزجّاج: «إنّ أحوال الشدّة ترقِّقُ القلوبَ وترغِّب فيما عند الله عزّ وجلّ وفي الرجوع إليه تعالى؛ ألَا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت، ٥١/٤١]».[7] وقد مرّ تحقيق القول في ﴿لَعَلَّ﴾ وفي محلّها في تفسير قوله عزّ وجلّ:[8] ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة، ٢١/٢] في أوائل سورة البقرة.

---

١ لم نقف عليه في معاني القرآن. نقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٧٤/٩.

٢ البيت للصِّمّة بن عبد الله القشيري في ديوانه، ص ٧٨. وفي مطبوعه: "دَعُوني" مكان "دعاني". والشاهد فيه: أنّ النون في "فإنّ سِنِينَه" لمّا جرى عليها الإعراب لم تُحذَف مع إضافة الكلمة إلى ضمير "نجد".

٣ صحيح البخاري، ٤٤/٨ (٦٢٠٠)؛ صحيح مسلم، ٤٦٧/١ (٦٧٥).

٤ لم نقف عليه بلفظه في كتب الحديث. ذكره الرازي في تفسيره، ٣٤٣/١٤؛ وابن عادل في اللباب، ٢٧٤/٩.

٥ جامع البيان للطبري، ٣٧٥/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ١٤٤/٢.

٦ الكشّاف للزمخشري، ١٤٤/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٧/٥.

٧ انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٣٦٨/٢.

٨ س: تعالى.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣١﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾... إلخ بيان لعدم تذكّرهم وتَماديهم في الغيّ، أي: فإذا جاءتهم السَّعَة والخِصْب وغيرهما مِن الخيرات ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: لأجلنا واستحقاقنا لها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: جَدْب وبلاء ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: يتشاءموا بهم ويقولوا: «ما أصابتنا إلّا بشؤمهم». وهذا -كما ترى- شاهدٌ بكمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغباوتهم، فإنّ الشدائد ترقّق القلوبَ وتليّن العرائكَ، لاسيّما بعد مشاهدة الآيات، وقد كانوا بحيث لم يؤثّر فيهم شيء منها؛ بل ازدادوا عُتوًّا وعِنادًا. وتعريف ﴿ٱلْحَسَنَة﴾ وذكرُها بأداة التحقيق للإيذان بكثرة وقوعها وتعلّقِ الإرادة بها بالذات، كما أنّ تنكير "السيّئة" وإيرادَها بحرف الشكّ للإشعار بندرة وقوعها وعدمِ تعلّق الإرادة بها إلّا بالعَرَض.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ / استئناف مَسوق مِن قِبله تعالى لردّ مقالتهم الباطلة وتحقيقِ الحقّ في ذلك، وتصديرُه بكلمة التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي: ليس سببُ خيرهم وشرّهم إلّا عنده تعالى، وهو حكمُه ومشيئتُه المتضمّنة للحِكم والمصالح؛ أو ليس سبب شُؤمهم -وهو أعمالهم السيّئة- إلّا عنده تعالى، أي: مكتوبةٌ لَدَيه، فإنّها التي ساقت إليهم ما يسُوءهم، لا ما عداها. وقُرئ: "إِنَّمَا طَيْرُهُمْ"،[1] وهو اسمُ جمعِ "طائرِ"، وقيل: جمعٌ له. [٣٣٩ظ]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيقولون ما يقولون ممّا حُكي عنهم. وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم للإشعار بأنّ بعضهم يعلمون أنّ ما أصابهم مِن الخير والشرّ مِن جهة الله تعالى، أو يعلمون أنّ ما أصابهم مِن المصائب والبلايا ليس إلّا بما كسبت أيديهم، ولكنْ لا يعلمون بمقتضاه عنادًا واستكبارًا.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ شروع في بيان بعضٍ آخرَ ممّا أُخذ به آل فرعونَ مِن فنون العذاب

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٣.

التي هي في أنفسها آياتٌ بيّناتٌ وعدمِ[١] ارعِوائهم مع ذلك عمّا كانوا عليه مِن الكفر والعناد، أي: قالوا بعد ما رأَوا ما رأَوا مِن شأن العصا والسِّنِينَ ونقص الثَّمرات: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾ كلمةُ "مَهْمَا" تُستعمل للشرط والجزاء، وأصلها: "ما" الجزائيّة، ضُمّت إليها "ما" المزيدةُ للتأكيد، كما ضُمّت إلى "أَيْنَ" و"إِنْ" في: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ﴾ [النساء، ٧٨/٤] و﴿إِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف، ٤١/٤٣]؛ خلا أنّ أَلِف الأُولى قُلبت هاءً حذارًا مِن تكرير المتجانسَين. هذا هو الرأي السديد.

[٣٤٠و] وقيل: "مَهْ" كلمةٌ / يصوّت بها الناهي، ضُمّت إليها "ما" الشرطيّة. ومحلّها الرفع بالابتداء، أو النصبُ بفعلٍ يفسّره ما بعدها، أي: أيَّ شيءٍ تظهره لدينا؟

وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ بيان لـ﴿مَهْمَا﴾. وتسميتهم إيّاها آيةً لمجاراتهم على رأي موسى عليه السلام واستهزائِهم بها، وللإشعار بأنّ عنوان كونها آيةً لا يؤثّر فيهم. وقوله تعالى: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾... إلخ إظهار لكمال الطغيان والغُلوّ فيه، وتسميةٌ للإرشاد إلى الحقّ بالسِّحر وتسكير الأبصار. والضميران المجروران راجعان إلى ﴿مَهْمَا﴾؛ وتذكيرُ الأوّل لمراعاة جانب اللفظ لإبهامه، وتأنيثُ الثاني للمحافظة على جانب المعنى لتبيينه بـ﴿ءَايَةٍ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر، ٢/٣٥].

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدِّقين لك ومؤمنين لنبوّتك.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ عقوبةً لجرائمهم، لاسيّما لقولهم هذا. ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ أي: الماءَ الذي طاف بهم وغشِيَ أماكنهم وحروثَهم مِن مطَر أو سَيل. وقيل: هو الجُدَريّ، وقيل: الموتان،[٢] وقيل: الطاعون. ﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ قيل: هو كِبار القِرْدان، وقيل: أولادُ الجَراد قبل نبات أجنِحتها، ﴿وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾.

---

[١] عطفٌ على "بعض آخر"... إلخ.

[٢] المَوَتان: خلاف الحَيَوان. والمُوتانُ: موتٌ يقع في الماشية. الصحاح للجوهري، «موت».

رُوي أنّهم مُطروا ثمانيةَ أيّام في ظلمة شديدة، لا يستطيع أن يخرج أحد مِن بيته، ودخل الماء بيوتهم حتّى قاموا فيه إلى تراقيهم، ولم يدخل / بيوتَ [٣٤٠ظ] بني إسرائيلَ منه قطرةٌ وهي في خلال بيوتهم، وفاضَ الماء على أرضهم وركَدَ، فمنعهم مِن الحَرث والتصرّف، ودام ذلك سبعةَ أيّام، فقالوا له عليه السلام: «ادعُ لنا ربَّك يكشِفْ عنّا، ونحن نؤمن بك»، فدعا، فكُشف عنهم، فنبت مِن العُشب والكَلأ ما لم يُعهَد قبله، ولم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجَرَاد، فأكل زروعهم وثِمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثِيابَهم، ففزِعوا إليه عليه السلام كما ذُكر، فخرج إلى الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرِق والمغرِب، فرجعتْ إلى النواحي التي جاءت منها، فلم يؤمنوا، فسلَّط الله تعالى عليهم القُمّلَ، فأكل ما أبقتْه الجَرَاد، وكان يقع في أطعِمتهم ويدخل بين ثِيابهم وجلودهم فيمُصّها، ففزِعوا إليه ثالثًا، فرفع عنهم، فقالوا: «قد تحقّقْنا الآنَ أنّك ساحرٌ»، ثمّ أرسل الله تعالى عليهم الضَّفادِع بحيث لا يكشَف ثَوب ولا طعام إلّا وُجدت فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم، وتثبُ إلى قدورهم وهي تَغْلي وإلى أفواههم عند التكلّم، ففزِعوا إليه رابعًا وتضرّعوا، فأخذ عليهم العهود، فدعا، فكشف الله عنهم، فنقضوا العهدَ، فأرسل الله عليهم الدمَ، فصارت مِياههم دماءً، حتّى كان يجتمع القِبطي والإسرائيلي على إناءٍ، فيكون ما يليه دمًا وما يلي الإسرائيلي ماءً على حاله، ويمصّ مِن فم الإسرائيليّ، فيَصير دمًا في فِيهِ، وقيل: سلّط الله عليهم الرُّعاف.[١]

﴿ءَايَٰتٍ﴾ حال / مِن المنصوبات المذكورة. ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبيَّناتٍ، لا يُشكل [٣٤١و] على عاقل أنّها آيات الله تعالى[٢] ونِقمته؛ وقيل: مفرَّقاتٍ بعضُها مِن بعضٍ لامتحان أحوالهم. وكان بين كلّ اثنتينِ منها شهرٌ، وكان امتدادُ كلّ واحدة منها أسبوعًا. وقيل: إنّه عليه السلام لبِث فيهم بعد ما غلب السَّحَرة عشرين سنةً يُريهم هذه الآياتِ على مَهلٍ.[٣] ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي: عن الإيمان بها، ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ جملة معترِضة مقرِّرة لمضمون ما قبلها.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٠-٣١. وانظر للتفصيل: الكشّاف للزمخشري، ٢/١٤٦-١٤٨.

٢ م - تعالى.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣١.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: العذاب المذكور على التفصيل، فـ"اللام" للجنس المنتظم لكلّ واحدة مِن الآيات المفصّلة، أي: كلّما وقع عليهم عقوبة مِن تلك العقوبات ﴿قَالُواْ﴾ في كلّ مرّة: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بعهده عندك،[1] وهو النبوّة، أو بالذي عهِد إليك أن تدعوَه، فيُجيبَك كما أجابك في آياتك. وهو صلة لـ﴿ٱدْعُ﴾، أو حال مِن الضمير فيه بمعنى: ادعُ الله متوسّلًا إليه بما عهِد عندك، أو متعلّق بمحذوفٍ دلّ عليه التماسُهم، مثل: "أسعِفْنا إلى ما نطلب بحقِّ ما عندك"، أو قَسَمٌ أجيبَ بقوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ الذي وقع علينا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أقسَمْنا بعهد الله عندك لَئن كشفتَ... إلخ.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

[٣٤١ظ] ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ / إلى حدٍّ مِن الزمان هم بالِغوه، فمعذَّبون بعده أو مهلَكون، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جوابُ ﴿لَمَّا﴾، أي: فلمّا كشفنا عنهم، فاجَئُوا النَّكْث مِن غير تأمّل وتوقّف.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: فأردنا أن ننتقم منهم لِما أسلفوا مِن المعاصي والجرائم؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ عينُ الانتقام منهم، فلا يصحّ دخول "الفاء" بينهما. ويجوز أن يكون المراد مطلق الانتقام، و"الفاء" تفسيريّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾... إلخ [هود، ١١/٤٥]. ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر الذي لا يدرَك قَعْرُه، وقيل: في لُجّته.

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ تعليل للإغراق، أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضِهم عنها وعدمِ تفكّرهم فيها بحيث صاروا

---

[1] ط س: بعهدك عنده. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فهو مما صُحّح بعد نسخ ط س.

كالغافلين عنها بالكلّيّة. و"الفاء"، وإن دلّت على ترتّب الإغراق على ما قبله مِن النَّكْث، لكنّه صرّح بالتعليل إيذانًا بأنّ مدار جميع ذلك تكذيبُ آيات الله تعالى والإعراضُ عنها، ليكونَ ذلك مَزجرةً للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرة على يد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والإعراضِ عنها.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ أي: بالاستعباد وذبح الأبناء. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدّده. وهم بنو إسرائيلَ، ذُكروا بهذا العُنوان إظهارًا لكمال لطفه تعالى بهم وعظيمِ إحسانه إليهم / في رفعهم مِن حضيض المَذَلّة إلى أَوْج العزّة. [٣٤٢و]

﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ أي: جانبَيها الشرقيِّ والغربيِّ، حيث ملكها بنو إسرائيلَ بعد الفَراعِنة والعَمالِقة، وتصرَّفوا في أكنافها الشرقيّة والغربيّة كيف شاءوا. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: بالخِصْب وسَعة الأرزاق، صفةٌ لـ"المشارق" و"المغارب"، وقيل: لـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾؛ وفيه ضعفٌ للفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف، كما في قولك: "قام أمُّ هند وأبوها العاقلةُ".

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي وعدُه تعالى إيّاهم بالنصر والتمكين، كما يُنبِئ عنه قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص، ٥/٢٨]. وقُرئ: "كَلِمَاتُ"[١] لتعدّدِ المواعيد. ومعنى ﴿تَمَّتْ﴾: مضتْ واستمرّت. ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها مِن جهة فرعونَ وقومِه.

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أي: خرَّبنا وأهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ مِن العِمارات والقصور، أي: ودمَّرنا الذي كان فرعونُ يصنعه، على أنّ ﴿فِرْعَوْنُ﴾ اسمُ ﴿كَانَ﴾،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو وعاصم والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٣؛ اللباب لابن عادل، ٢٩٠/٩. وهي غير القراءة المشهورة عن أبي عمرو وعاصم.

و﴿يَصْنَعُ﴾ خبرٌ مقدَّم، والجملة الكونيّة صلةُ ﴿مَا﴾، والعائد محذوف. وقيل: اسمُ ﴿كَانَ﴾ ضميرٌ عائدٌ إلى ﴿مَا﴾ الموصولة، و﴿يَصْنَعُ﴾ مسندٌ إلى ﴿فِرْعَوْنُ﴾، والجملة خبرُ ﴿كَانَ﴾، والعائد محذوف أيضًا، والتقدير: ودمَّرنا الذي كان هو يصنعه فرعونُ... إلخ. وقيل: ﴿كَانَ﴾ زائدة، و﴿مَا﴾ مصدريّة، والتقدير: ما يصنع فرعونُ... إلخ. وقيل: ﴿كَانَ﴾ زائدة كما ذُكر، و﴿مَا﴾ موصولة اسميّة، والعائد محذوف، / تقديره: ودمَّرنا الذي يصنعه فرعونُ... إلخ، أي: صُنعَه. والعُدول [٣٤٢ظ] إلى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار الصورة.

﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ مِن الجنّات، أو ما كانوا يرفعونه مِن البُنيان كصَرْح هامانَ. وقُرِئَ: "يَعْرُشُونَ"[١] بضمّ الراء. والكَسر أفصحُ. وهذا آخِرُ قصّة فرعونَ وقومِه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٖ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٖ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٞ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩﴾

وقوله عزّ وجلّ:[٢] ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ شروع في قصّة بني إسرائيلَ وشرحِ ما أحدثوه مِن الأمور الشنيعة بعد أن أنقذهم الله عزّ وجلّ مِن مَلَكة[٣] فرعونَ ومَنَّ عليهم مِن النِّعم العِظام الموجِبة للشكر وأراهم مِن الآيات الكبار ما تَخِرّ له صُمُّ الجبال، تسليةً لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٤] وإيقاظًا للمؤمنين حتّى لا يغفُلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. و"جاوَزَ" بمعنى: جاز، وقُرِئ: "جَوَّزْنَا"[٥] بالتشديد، وهو أيضًا بمعنى: جاز، فعُدِّي بالباء، أي: قطعنا بهم البحرَ. رُوي أنّه عبَرَ بهم موسى عليه السلام يومَ عاشوراءَ بعد ما أهلك الله تعالى فرعونَ، فصاموا شكرًا لله عزّ وجلّ.[٦]

---

١ قرأ بها ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧١.
٢ س: تعالى.
٣ بفتحتين، أو بكسر الميم وسكون اللام، كما في لسان العرب لابن منظور، «ملك».
٤ س: عليه السلام.
٥ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/١٥٠.
٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٢٧٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٥٠.

﴿فَأَتَوْاْ﴾ أي: مَرُّوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ قيل: كانوا مِن لَخْمٍ،[١] وقيل: مِن العَمالِقة الكنعانيّين الذين أُمر موسى عليه السلام بقتالهم.[٢] ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ أي: يواظِبون على عبادتها ويلازمونها. وقُرئ بكسر الكاف.[٣] قال ابن جُريج: «كانت أصنامهم تماثيلَ بقرٍ، وهو أوّلُ شأن العِجل».[٤]

﴿قَالُواْ﴾ عندما شاهدوا أحوالهم: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ مثالًا نعبُده، ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ "الكاف" متعلِّقة بمحذوفٍ وقع / صفةً لـ﴿إِلَٰهًا﴾، و﴿مَا﴾ موصولة، و﴿لَهُمْ﴾ صلتها، و﴿ءَالِهَةٌ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَا﴾،[٥] والتقدير: اجعلْ لنا إلهًا كائنًا كالذي استقرّ هو لهم. [٣٤٣و]

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجَّب عليه السلام مِن قولهم هذا إثرَ ما شاهدوا مِن الآية الكبرى والمعجزةِ العُظمى، فوَصَفهم بالجهل المطلق، إذ لا جهلَ أعظمُ ممّا ظهر منهم. وأكّده بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: القومَ الذين يعبدون تلك التماثيلَ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أي: مدمَّرٌ مكسَّرٌ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مِن الدين الباطل، أي: يتبِّر الله تعالى ويهدِم دينَهم الذي هم عليه عن قريبٍ، ويحطِّم أصنامَهم ويتركها رُضاضًا. وإنّما جِيءَ بالجملة الاسميّة للدلالة على التحقّق.

﴿وَبَٰطِلٌ﴾ أي: مضمحِلٌّ بالكلّيّة ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مِن عبادتها، وإن كان قصدُهم بذلك التقرّبَ إلى الله تعالى، فإنّه كفرٌ محضٌ. وليس هذا كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٣/٢٥] كما تُوهِّم؛[٦] فإنّ المراد به أعمال البرّ التي عملوها في الجاهليّة، فإنّها في أنفسها حَسَناتٌ، لو قارنت الإيمانَ لَاستَتْبعت أجورَها، وإنّما بطلت لمقارنتها الكفرَ.

---

[١] لَخْم: حيٌّ مِن اليَمن، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهليّة، وهم آل عمرو بن عَديّ ابن نصر اللَّخمي. الصحاح للجوهري، «لخم».

[٢] الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٢.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي والورّاق عن خلف. النشر لابن الجزري، ٢٧١/٢.

[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٣/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٢.

[٥] وفي هامش م: أي: مِن ضميرها في الصلة. «منه».

[٦] توهّمه الزمخشري في الكشّاف، ١٥٠/٢.

وفي إيقاع ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسمًا لـ﴿إِنَّ﴾ وتقديمِ الخبر مِن الجملة الواقعة خبرًا لها وَسْمٌ لعَبَدة الأصنام بأنّهم هم المعرَّضون للتَّبار، وأنّه لا يَعدُوهم البتّةَ، وأنّه لهم ضَرْبةُ لازبٍ ليحذِّرهم عاقبةَ ما طلبوا ويبغِّضَ إليهم ما أحبّوا.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٤٠﴾

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ شروع في بيان شُئون الله تعالى الموجِبة لتخصيص العبادة به تعالى بعد بيانِ أنّ ما طلبوا عبادته ممّا لا يمكن طلبُه أصلًا لكونه هالكًا باطلًا؛ ولذلك وسّط بينهما ﴿قَالَ﴾ مع كونِ كلٍّ منهما / كلامَ [٣٤٣ظ] موسى عليه السلام. والاستفهام للإنكار والتعجّب والتوبيخ. وإدخال الهمزة على ﴿غَيْرَ﴾ للإيذان بأنّ المنكَر هو كون المَبغيّ غيرَه تعالى؛ لِما أنّه لاختصاص الإنكار بغيره تعالى،[1] دون إنكار الاختصاصِ بغيره تعالى.[2] وانتصاب ﴿غَيْرَ﴾ على أنّه مفعول ﴿أَبْغِي﴾ بحذف اللام، أي: أبغي لكم، أي: أطلب لكم غيرَ الله تعالى، و﴿إِلَٰهًا﴾ إمّا تمييز أو حال؛ أو على الحاليّة مِن ﴿إِلَٰهًا﴾، وهو المفعول لـ﴿أَبْغِي﴾ على أنّ الأصل: أبغي لكم إلهًا غيرَ الله، فـ﴿غَيْرَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿إِلَٰهًا﴾، فلمّا قُدّمت صفة النكرة انتصبَتْ حالًا.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: والحالُ أنّه تعالى خصّكم بنِعَمٍ لم يُعطِها غيرَكم. وفيه تنبيه على ما صنعوا مِن سوء المعاملة، حيث قابلوا تخصيصَ الله تعالى إيّاهم مِن بين أمثالهم بما لم يستحقّوه تفضّلًا بأن[3] عمَدوا إلى أخسّ شيء مِن مخلوقاته تعالى، فجعلوه شريكًا له تعالى. تبًّا لهم ولِما يعبُدون!

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝١٤١﴾

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ تذكير لهم مِن جهته سبحانه بنعمة الإنجاء مِن مَلَكة فرعونَ.

---

١ وفي هامش م: أي: يبغي غيره تعالى دون إنكار اختصاص البَغي بغيره تعالى ليخرج الإشراك عن حيّز الإنكار. «منه».

٢ وفي هامش م: كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام، ٦/١٤] ونظائره. «منه».

٣ متعلِّق بقوله: "قابلوا".

وقُرئ: "نَجَّيْنَاكُمْ"[١] مِن التنجية. وقُرئ: "أَنْجَاكُمْ"،[٢] فيكون مَسوقًا مِن جهة موسى عليه السلام. أي: واذكروا وقتَ إنجائنا إيّاكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مِن ملَكتهم، لا بمجرّد تخليصكم مِن أيديهم وهم على حالهم في المَكِنَة[٣] والقدرة؛ بل بإهلاكهم بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ مِن "سَامَه خسْفًا"، أي: أولاه إيّاه أو كلّفه إيّاه. وهو إمّا استئناف لبيان ما أنجاهم منه، أو حال مِن المخاطَبين أو مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أو منهما معًا لاشتماله على ضميرَيهما. وقوله تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ / وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ بدل مِن ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، مبيِّنٌ أو مفسِّرٌ له. ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ الإنجاءِ أو سوءِ العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾ أي: نعمة أو مِحنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مِن مالك أمركم، فإنّ النعمة والنِّقمة كِلتَيهما[٤] منه سبحانه،[٥] ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يقادَر قدره. [٣٤٤و]

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ رُوي أنّ موسى عليه السلام وعَدَ بني إسرائيلَ وهم بمصرَ: إنْ أهلك الله تعالى عدوَّهم أتاهم بكتابٍ فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون، فلمّا هلك فرعونُ سأل موسى ربّه الكتابَ، فأمره بصومِ ثلاثين يومًا،[٦] وهو شهرُ ذي القَعدة، فلمّا أتمّ الثلاثين أنكرَ خُلُوفَ فِيهِ[٧] فتسوَّكَ، فقالت الملائكة: «كنّا نشمّ مِن فِيكَ رائحةَ المِسك، فأفسدتَه بالسِّواك»، وقيل: أوحى الله تعالى إليه: «أمَا علمتَ أنّ ريحَ فَمِ الصائم أطيبُ عندي مِن ريح المِسك؟»[٨]

---

[١] قراءة شاذّة. ذكرها ابن عادل بلا نسبة في اللباب، ٢٩٦/٩.

[٢] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٧١/٢.

[٣] المَكِنَة: التمكّن. تقول العرب: إنّ ابن فلان لَذو مَكِنَة مِن السلطان، أي: ذو تمكّن. تاج العروس للزبيدي، «مكن».

[٤] ط س: كلتاهما. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[٥] س + وتعالى.

[٦] س - يومًا.

[٧] الخُلُوف: تغيّرُ طَعْم الفم لتأخير الطعام. تهذيب اللغة للأزهري، ١٧١/٧ «أبواب الخاء واللام».

[٨] وفي الحديث: «... والذي نفس محمّدٍ بيده، لَخُلُوف فمِ الصائم أطيَبُ عند الله مِن ريح المِسك». صحيح البخاري، ٢٦/٣ (١٩٠٤)؛ صحيح مسلم، ٨٠٦/٢ (١١٥١).

فأمره الله تعالى بأن يزيد عليها عشرةَ أيامٍ مِن ذي الحجّة لذلك؛[١] وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾. والتعبير عنها بـ"اللَّيَالي"؛ لأنّها غُرَرُ الشهور. وقيل: أمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يومًا وأن يعمل فيها بما يقرّبه مِن الله تعالى، ثمّ أُنزلت عليه التوراة في العشر وكُلّم فيها.[٢] وقد أُجملَ ذكر الأربعين في سورة البقرة،[٣] وفُصّل ههنا.

و﴿وَٰعَدۡنَا﴾ بمعنى: وعَدْنا، وقد قُرئ كذلك.[٤] وقيل: الصيغة على بابها بناءً على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلةَ الوعد. و﴿ثَلَٰثِينَ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿وَٰعَدۡنَا﴾ بحذف المضاف، أي: إتمامَ ثلاثين ليلةً.

[٣٤٤ظ] / ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ أي: بالغًا أربعين ليلةً.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ حين توجّه إلى المناجاة حسبما أُمر به: ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾ أي: كُنْ خليفتي ﴿فِي قَوۡمِي﴾ وراقِبهم فيما يأتون وما يذرون، ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح مِن أمورهم أو كُنْ مصلِحًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: لا تتّبِعْ مَن سلك الإفسادَ، ولا تُطِعْ مَن دعاك إليه.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٤٣﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ لِوقتنا الذي وقّتْناه. و"اللام" للاختصاص، أي: اختصّ مَجيئه بمِيقاتنا. ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ مِن غير واسطة، كما يكلِّم الملائكةَ عليهم السلام. وفيما رُوي أنّه عليه السلام كان يسمع ذلك مِن كلّ جهة[٥] تنبيهٌ على أنّ سماع كلامه عزّ وجلّ ليس مِن جنس سماع كلام المحدَثين.

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٧٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٥١.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢/١٥١؛ اللباب لابن عادل، ٩/٢٩٩.

[٣] ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة، ٢/٥١].

[٤] قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٢.

[٥] الكشّاف للزمخشري، ٢/١٥٢.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أي: أَرِني ذاتَك بأن تمكِّنني مِن رؤيتك أو تَتَجلّى لي فأنظرَ إليك وأراك. وهو دليل على أنّ رؤيته تعالى جائزة في الجملة لِما أنّ طلب المستحيل مستحيلٌ مِن الأنبياء، لاسيّما ما يقتضي الجهلَ بشئون الله عزّ وجلّ؛ ولذلك ردَّه بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، دون "لَنْ أُرَى" و"لَنْ أُرِيَك" و"لَنْ تنظُرَ إليّ"، تنبيهًا على أنّه قاصرٌ عن رؤيته لتوقّفها على معدّ في الرائي، ولم يوجد فيه ذلك بعدُ.

وجعلُ السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا: «أَرِنا الله جَهْرةً»[1] خطأٌ؛ إذ لو كانت الرؤيةُ ممتنعةً، لَوجَبَ أن يجهِّلهم ويُزيحَ شُبهتَهم، كما فعل ذلك حين قالوا: «اجعَلْ لنا إلهًا»،[2] وألّا يتّبعَ سبيلَهم كما قال لأخيه: «ولا تتّبِعْ سبيلَ المفسِدين».[3] / والاستدلال بالجواب على استحالتها أشدُّ خطأً؛ إذ لا يدلّ الإخبار بعدم رؤيته إيّاه على أنّه لا يراه أبدًا وألّا يراه غيرُه أصلًا، فضلًا عن أن تدلّ على استحالتها. ودعوى الضرورة مكابرةٌ أو جهلٌ لحقيقة الرؤية.[4] [٣٤٥و]

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال ربّ العزّة حين قال موسى عليه السلام ما قال؟ فقيل: قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ استدراك لبيان أنّه لا يُطيق بها. وفي تعليقها باستقرار الجبل أيضًا دليل على الجواز، ضرورةَ أنّ المعلَّق بالممكن ممكنٌ. والجبل، قيل: هو جبل أُردُنّ.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ أي: ظهرت له عظمتُه وتصدّى له اقتداره وأمرُه. وقيل: أُعطيَ الجبل حياةً ورؤيةً حتّى رآه.[5] ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ مدكوكًا مُفتّتًا. والدَّكّ والدَّقّ أخَوان، كالشَّكّ والشَّقّ. وقُرئ: "دَكّاءَ"،[6] أي: أرضًا مستويةً، ومنه "ناقةٌ دَكّاءُ"

---

[1] كما في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾... إلخ [النساء، ١٥٣/٤].

[2] كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف، ١٣٨/٧].

[3] في الآية السابقة.

[4] الردود الواردة هنا متوجّهة بالخصوص إلى صاحب الكشّاف، ١٥١/٢-١٥٧.

[5] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣/٣.

[6] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧١/٢.

للتي لا سَنامَ لها. وقُرئ: "دُكًّا"،[١] جمعُ "دَكّاءَ"، أي: قِطعًا. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مَغشيًّا عليه مِن هَوْل ما رآه.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ الإفاقة: رجوع العقل والفهم إلى الإنسان بعد ذهابهما بسبب مِن الأسباب. ﴿قَالَ﴾ تعظيمًا لِما شاهده: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك مِن أن أسألك شيئًا بغير إذنٍ منك، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: مِن الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذنٍ، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بعظمتك وجلالك، وقيل: أوّلُ مَن آمن بأنّك لا تُرى في الدنيا، وقيل: بأنّه لا يجوز السؤال بغير إذنٍ منك.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

[٣٤٥ظ] ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ استئناف مَسوق لتسليته عليه السلام / مِن عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية، كأنّه قيل: إنْ منعتُك الرؤيةَ فقد أعطيتُك مِن النِّعم العِظام ما لم أُعطِ أحدًا مِن العالَمين، فاغتنِمْها وثابِرْ على شكرها.

﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ أي: اخترتُك واتّخذتُك صَفْوةً وآثرتُك ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: المعاصِرين لك، وهارون، وإن كان نبيًّا، كان مأمورًا باتّباعه، وما كان كَليمًا، ولا صاحبَ شرعٍ. ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾ أي: بأسفار التوراة. وقُرئ: "بِرِسَالَتِي".[٢] ﴿وَبِكَلَٰمِى﴾ وبتكليمي إيّاك بغير واسطة.

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي: أعطيتُك مِن شرف النبوّة والحكمة، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على ما أُعطيتَ مِن جلائل النِّعم. قيل: كان سؤال الرؤية يومَ عرفةَ وإعطاءُ التوراة يومَ النَّحر.[٣]

---

[١] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١٥٥/٢؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ١٦٧/٥، ونسباها إلى يحيى بن وثّاب.

[٢] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو جعفر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢٧٢/٢.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٩/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤/٣.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: ممّا يحتاجون إليه مِن أمور دينهم ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بدلٌ مِن الجارّ والمجرور، أي: كتبنا له كلَّ شيء مِن المواعظ وتفصيلِ الأحكام.

واختُلف في عدد الألواح، وفي جوهرها ومقدارها، فقيل: إنّها كانت عشرةَ ألواحٍ،[١] وقيل: سبعةً،[٢] وقيل: لَوْحَين؛[٣] وأنّها كانت مِن زُمُرُّدةٍ جاء بها جبريلُ عليه السلام،[٤] وقيل: مِن زَبَرْجَدةٍ خضراءَ أو ياقوتةٍ[٥] حمراءَ.[٦] وقيل: أمر الله تعالى موسى بقطْعها مِن صخرةٍ صمّاءَ ليّنها له، فقطعها بيده وشقّقها بأصابعه.[٧] وعن الحسن: «كانت مِن خشب، نزلت مِن السماء، فيها التوراةُ، وأنّ طُولها كان عشرةَ أذرُعٍ».[٨] وقيل: أُنزلت التوراة / وهي سبعون وِقرَ بعيرٍ، يُقرَأ الجزء منه في سنة، لم يقرأها إلّا أربعة نفرٍ: موسى ويُوشَعُ وعُزيرٌ وعيسى عليهم السلام.[٩] [٣٤٦و]
وعن مقاتل: «كُتب في الألواح: إنّي أنا الله الرحمن الرحيم، لا تُشرِكوا بي شيئًا، ولا تقطَعوا السبيلَ، ولا تَزْنُوا، ولا تعُقُّوا الوالدَين».[١٠]

﴿فَخُذْهَا﴾ على إضمار "قولٍ" معطوفٍ على ﴿كَتَبْنَا﴾، أي: فقلنا: خُذْها ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وعزيمةٍ. وقيل: هو بدل[١١] مِن قوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾.[١٢] والضمير لـ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾، أو لـ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ لأنّه بمعنى: الأشياء، أو لـ"الرسالة"، أو لـ"التوراة".

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٤.
[٢] الكشّاف للزمخشري، ١٥٧/٢-١٥٨.
[٣] الكشّاف للزمخشري، ١٥٧/٢-١٥٨.
[٤] معالم التنزيل للبغوي، ٢٨١/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٨/٢.
[٥] س: وياقوتة.
[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨١/٣.
[٧] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨١/٣.
[٨] الكشّاف للزمخشري، ١٥٨/٢.
[٩] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٣/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨١/٣.
[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان، ٦٣/٢، باختلاف يسير.
[١١] وفي هامش م: فلا إضمارَ حينئذ، وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ﴾... إلخ اعتراض مقرِّر لِما قبله. «منه».
[١٢] في الآية السابقة.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بأحسنِ ما فيها كالعَفو والصبر بالإضافة إلى الاقتصاص والانتصار[١] على طريقة الندب والحثِّ على اختيار الأفضل، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٥]؛ أو بواجباتها، فإنّها أحسنُ مِن المُباح. وقيل: المعنى: يأخذوا بها، و﴿أَحْسَنِ﴾ صلة. قال قُطرُب: «أي: بحسَنها، وكلُّها حسَنٌ»،[٢] كقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٤٥]. وقيل: هو أن تُحمَل الكلمة المحتملة لمعنيَين أو لمعانٍ على أشبه محتمَلاتها بالحقّ وأقربِها إلى الصواب.

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى قومه عليه السلام بطريق الالتفات حملًا لهم على الجدّ في الامتثال بما أُمروا به، إمّا على نهج الوعيد والترهيب، على أنّ المراد بـ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أرضُ مصرَ وديارُ عادٍ وثمودَ وأضرابِهم، فإنّ رؤيتها -وهي خالية عن أهلها خاوية على عُروشها- موجِبةٌ للاعتبار والانزجار عن مثل أعمال أهلها كَيلا يحلَّ بهم ما حلّ بأولئك؛ وإمّا على نهج الوعد / والترغيب، على أنّ المراد بـ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ إمّا أرضُ مصرَ [٣٤٦ظ]
خاصّةً، أو مع أرض الجبابِرة والعَمالِقة بالشام، فإنّها أيضًا ممّا أُتيحَ لبني إسرائيلَ وكُتب لهم، حسبما ينطِق به قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة، ٥/٢١].

ومعنى الإراءة: الإدخال بطريق الإيراث. ويؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "سَأُورِثُكُمْ"[٣] بالثاء المثلّثة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف، ٧/١٣٧]. وقُرئ: "سَأُورِيكُمْ"،[٤] ولعلّه مِن "أوريْتُ الزَّنْدَ"، أي: سأبيّنُها لكم.

---

١ س: وكالاقتصار. | وكانت مُثبتةً في م ثمّ ضُرِب عليها.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٢٨٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٨١.

٣ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٢/١٥٨؛ وابن عادل في اللباب، ٩/٣١٠، ونسبها الثاني إلى ابن عبّاس وقسامة بن زيد.

٤ بإشباع الهمزة، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٥٨-٢٥٩.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف مَسوق لتحذيرهم عن التكبّر الموجِب لعدم التفكّر في الآيات التي هي ما كُتب في ألواح التوراة مِن المواعظ والأحكام أو ما يعمُّها وغيرَها مِن الآيات التكوينيّة التي مِن جملتها ما وُعد إراءته مِن دار الفاسقين. ومعنى صرفِهم عنها: الطبع على قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه مِن التكبّر والتجبّر، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف، ٥/٦١].

وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، مع أنّ في المؤخَّر نوعَ طُولٍ يُخِل تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الجليل، أي: سأطبَع على قلوب الذين يعُدّون أنفسهم كُبراءَ ويرَون / لهم على الخلق مزيّةً وفضلًا، فلا ينتفعون بآياتي التنزيليّة والتكوينيّة [٣٤٧و] ولا يغتنمون مغانمَ آثارها؛ فلا تسلُكوا مسلَكَهم لتكونوا أمثالَهم.

وقيل: المعنى: سأصرِفهم عن إبطالها، وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعونُ في إبطال ما رآه مِن الآيات، فأبى الله إلّا إحقاقَ الحقّ وإزهاقَ الباطل. وعلى هذا، فالأنسب أن يراد بـ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1] أرضُ الجبابِرة والعَمالِقة المشهورين بالفسق والتكبّر في الأرض، وبـ"إراءتها للمخاطَبين" إدخالُهم الشامَ وإسكانُهم في مساكنهم ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة، ٢١/٥]، ويكونَ[2] قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾... إلخ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر ناشيءٍ مِن الوعد بإدخال الشام، على أنّ المراد بـ"الآيات" ما تُلي آنفًا ونظائرُه، وبـ"صَرْفهم عنها" إزالتُهم عن مقام معارضتها وممانعتِها لوقوع أخبارها وظهور أحكامها وآثارها بإهلاكهم على يد موسى عليه السلام حين سار بعد التِّيهِ بمَن بقي مِن بني إسرائيلَ -أو بذُرّيّاتهم

---

[1] في الآية السابقة.

[2] السياق: فالأنسب أن يُراد... ويكونَ...

على اختلاف الروايتين-[١] إلى أريحا، ويُوشَع بنُ نونٍ في مقدّمته، ففتحها، واستقرّ بنو إسرائيلَ بالشام، وملكوا مشارقها ومغاربها، كأنّه قيل: كيف يرون دارهم وهم فيها؟ فقيل: سأهلِكهم. وإنّما عُدل إلى الصَرْف ليزدادوا ثقةً بالآيات واطمئنانًا بها.

[٣٤٧ظ] وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إمّا صلة / للتكبّر، أي: يتكبّرون بما ليس بحقّ، وهو دينهم الباطل وظلمُهم المفرط؛ أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو حال مِن فاعله، أي: يتكبّرون ملتبسين بغير الحقّ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ عطفٌ على ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، داخلٌ معه في حكم الصلة. والمراد بـ"الآية" إمّا المنزَلة، فالمراد بـ"رؤيتها" مشاهدتُها بسماعها، أو ما يعمُّها وغيرَها مِن المعجزات، فالمراد بـ"رؤيتها" مطلَقُ المشاهدة المنتظمة للسماع والإبصار، أي: وإن شاهدوا كلّ آية مِن الآيات لا يؤمنوا بها، على عموم النفي، لا على نفي العموم، أي: كفروا بكلّ واحدة منها لعدم اجتلائهم إيّاها كما هي. وهذا -كما ترى- يؤيِّد كون الصَّرف بمعنى الطبع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ عطفٌ على ما قبله داخلٌ في حكمه، أي: لا يتوجّهون إلى الحقّ ولا يسلُكون سبيله أصلًا لاستيلاء الشَّيطنة عليهم ومطبوعيّتهم على الانحراف والزَّيغ. وقُرئ بفتحتين.[٢] وقُرئ: "الرَّشَادِ".[٣] وثلاثتُها لغاتٌ كـ"السُّقْم" و"السَّقَم" و"السَّقام". ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: يختارونه لأنفسهم مَسلَكًا مستمرًّا لا يكادون يعدِلون عنه لموافقته لأهوائهم الباطلة وإفضائِه لهم إلى شهَواتهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن تكبّرهم وعدم إيمانهم بشيء مِن الآيات

[٣٤٨و] وإعراضِهم عن سبيل الرشد وإقبالِهم التامّ إلى سبيل الغَيّ. / وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: حاصلٌ بسبب أنّهم ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالّةِ على بطلان

[١] انظر: تفسير المائدة، ٢٦/٥.

[٢] أي: "الرَّشَدِ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٢/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٤.

ما اتّصفوا به مِن القبائح وعلى حقّيّة أضدادها، ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ لا يتفكّرون فيها، وإلّا لَما فعلوا ما فعلوا مِن الأباطيل.

ويجوز أن يكون إشارةً إلى ما ذُكر مِن الصَّرف. ولا يمنعه الإشعار بعلّيّة ما في حيّز الصلة؛ كيف لا، وقد مرّ أنّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ الآية [البقرة، ٦١/٢] يجوز أن يكون إشارةً إلى ضرب الذِلّة والمَسْكنة والبَوء بالغضب العظيم مع كون ذلك معلَّلًا بالكفر بآيات الله صريحًا. وقيل: محلّ اسم الإشارة النصبُ على المصدر، أي: سأصرِفهم ذلك الصَّرْفَ بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: وبلقائهم الدارَ الآخرةَ أو لقائِهم ما وعده الله تعالى في الآخرة مِن الجزاء. ومحلّ الموصول الرفعُ على الابتداء، وقوله تعالَى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ خبرُه، أي: ظهر بطلان أعمالهم التي كانوا عملوها مِن صلة الأرحام وإغاثة الملهوفين ونحو ذلك، أو حبطت بعد ما كانت مَرجوّةَ النفع على تقدير إيمانهم بها. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي: لا يُجزون ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلّا جزاءَ ما كانوا يعملونه مِن الكفر والمعاصي.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد ذهابه إلى الطُّور ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾
متعلِّق بـ﴿ٱتَّخَذَ﴾ كالجارّ الأوّل / لاختلاف معنيَيهما، فإنّ الأوّل للابتداء والثاني [٣٤٨ظ]
للتبعيض أو للبيان، أو الثاني متعلّق بمحذوفٍ وقع حالًا ممّا بعده، إذ لو تأخّر لَكان صفةً له. وإضافة "الحُلِيّ" إليهم -مع أنّها كانت للقِبط- لأدنى الملابسة، حيث كانوا استعاروها مِن أربابها قُبيلَ الغرق، فبقيت في أيديهم. وأمّا أنّهم ملكوها بعد الغرق، فذلك مَنوط بتملّك بني إسرائيلَ غنائمَ القِبط، وهم مستأمَنون فيما بينهم، فلا يساعده قولهم: ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه، ٨٧/٢٠].

و"الحُلِيّ" بضمّ الحاء وكسر اللام: جمعُ "حَلْي"، كـ"ثَدْي" و"ثُدِيّ". وقُرئ بكسر الحاء بالإتباع،[١] كـ"دِلِيّ". وقُرئ: "حَلْيِهِمْ"[٢] على الإفراد.

وقوله تعالى: ﴿عِجْلًا﴾ مفعولُ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، أُخِّر عن المجرور لِما مرّ مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، مع ما فيه مِن نوعِ طولٍ يُخِلّ تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الكريم. وقيل:[٣] هو متعدٍّ إلى اثنين بمعنى "التصيير"، والمفعول الثاني محذوف، أي: إلهًا. وقوله تعالى: ﴿جَسَدًا﴾ بدل مِن ﴿عِجْلًا﴾، أي: جُثّةً ذا دمٍ ولحمٍ، أو جسدًا مِن ذهبٍ لا روحَ معه. وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: صوتُ بقر، وقُرئ بالجيم والهمزة،[٤] وهو الصِّياح، نعتٌ[٥] لـ﴿عِجْلًا﴾.

رُوي أنّ السامريَّ لمّا صاغ العِجلَ ألقى في فمه ترابًا مِن أثرِ فرسِ جبريلَ عليه السلام، وقد كان أخذه عند فلق البحر أو عند توجّهه إلى الطور، فصار حيًّا.[٦] وقيل: صاغه بنوعٍ مِن الحِيَل، فيدخل الرِّيح في جَوفه، فيصوِّت.[٧] والأنسب بما في سورة طه[٨] هو الأوّل. / وإنّما نُسب اتّخاذه إليهم، وهو فعلُه،[٩] إمّا لأنّه واحد [٣٤٩و] منهم، وإمّا لأنّهم رضُوا به فكأنّهم فعلوه، وإمّا لأنّ المراد بالاتّخاذ اتّخاذُهم إيّاه إلهًا، لا صنعه وإحداثُه.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ استئناف مَسوق لتقريعهم وتشنيعهم وتركيك عقولهم وتسفيهِهم فيما أقدموا عليه مِن المنكَر الذي هو اتّخاذه إلهًا، أي: ألم يرَوا أنّه ليس فيه شيء مِن أحكام الألوهيّة، حيث لا يكلِّمهم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ بوجهٍ مِن الوجوه، فكيف اتّخذوه إلهًا؟ وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أي:

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

٢ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

٣ وفي هامش م: أبو البقاء. | التبيان لأبي البقاء العُكبري، ١/٥٩٥.

٤ أي: "لَهُ جُؤَارٌ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وأبي السمّال وفرقة. الكشّاف للزمخشري، ٢/١٦٠؛ اللباب لابن عادل، ٩/٣١٦.

٥ خبرُ قوله: "وقوله تعالى".

٦ انظر: اللباب لابن عادل، ٩/٣١٦.

٧ انظر: اللباب لابن عادل، ٩/٣١٦.

٨ ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه، ٢٠/٨٧-٨٨].

٩ أي: فعلُ السامري.

فعلوا ذلك، ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: واضعين للأشياء في غير موضعها، فلم يكن هذا أوّلَ منكَرٍ فعلوه. والجملة اعتراض تذييليّ. وتكرير ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ لتثنية التشنيع وترتيب الاعتراض عليه.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندِموا على ما فعلوا غايةَ الندم، فإنّ ذلك كناية عنه؛ لأنّ النادم المتحسِّرَ يعَضّ يدَه غمًّا، فتَصير يدُه مسقوطًا فيها. وقُرئ: "سَقَطَ"[١] على البناء للفاعل، بمعنى: وقع العَضّ فيها، فـ"اليدُ" حقيقة؛ وقال الزجّاج: «معناه: سقَطَ الندمُ في أنفسهم»،[٢] إمّا بطريق الاستعارة بالكناية أو بطريق التمثيل. ﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ باتّخاذ العجل، أي: تبيّنوا بحيث تيقّنوا بذلك حتّى كأنّهم رأَوه بأعيُنهم. وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية -مع كونه متأخّرًا عنها- للمسارعة إلى بيانه والإشعارِ بغاية سرعته، كأنّه سابقٌ على الرؤية.

/ ﴿قَالُوا۟﴾ والله ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوبة المكفِّرة ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ [٣٤٩ظ] ذنوبَنا بالتجاوز عن خطيئتنا. وتقديم الرحمة على المغفرة -مع أنّ التخلية حقُّها أن تقدَّم على التحلية- إمّا للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصليّ، وإمّا لأنّ المراد بالرحمة مطلَق إرادة الخير بهم، وهو مبدأٌ لإنزال التوبة المكفِّرة لذنوبهم. و"اللام" في ﴿لَئِن﴾ موطِّئة للقَسم كما أُشيرَ إليه، وفي قوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لجواب القَسم.

وما حُكي عنهم مِن الندامة والرؤية والقول، وإن كان بعد ما رجع موسى عليه السلام إليهم كما ينطِق به الآيات الواردة في سورة طه، لكن أُريدَ بتقديمه عليه حكايةُ ما صدر عنهم مِن القول والفعل في موضع واحد.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وأبي السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٦٠.

٢ انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢/٣٧٨.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروع في بيان ما جرى مِن موسى عليه السلام بعد رجوعه مِن المِيقات إثرَ بيان ما وقع مِن قومه بعده. وقوله تعالى: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ حالانِ مِن ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، أو الثاني مِن المستكنّ في ﴿غَضْبَٰنَ﴾. والأَسِف: الشديدُ الغضبِ، وقيل: الحَزين.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: بئسما فعلتم مِن بعد غَيْبتي، حيث عبدتم العجلَ بعد ما رأيتم فعلي مِن توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه وإخلاصِ العبادة له، أو مِن حملكم على ذلك وكفِّكم عمّا طمحت نحوه أبصارُكم حيث قلتم: «اجعلْ لنا إلهًا كما لهم آلهةٌ»،[1] ومِن حقّ الخُلفاء أن يَسيروا بسيرة المستخلِف، فالخطاب للعَبَدة مِن السامري وأشياعه؛ أو بئسما قمتم مَقامي، ولم تُراعُوا عهدي، حيث لم تكُفّوا / العَبَدةَ عمّا فعلوا، فالخطاب [٣٥٠و] لهارونَ ومَن معه مِن المؤمنين، كما يُنبِيء عنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۞ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه، ٢٠/٩٢-٩٣]. ويجوز أن يكون الخطاب للكلّ على أنّ المراد بالخليفة ما يعُمّ الأمرين المذكورين. و﴿مَا﴾ نكرة موصوفة مفسِّرة لفاعل ﴿بِئْسَ﴾ المستكنِّ فيه، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: بئس خلافةً خلَفتمونيها مِن بعدي خلافتُكم.[2]

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: تركتموه غيرَ تامّ، على تضمين "عجِلَ" معنى "سبقَ"، يقال: "عَجِل عن الأمر" إذا تركه غيرَ تامّ؛ أو أعَجِلتم وعدَ ربّكم الذي وعدنِيه مِن الأربعين، وقدّرتم موتي، وغيّرتم بعدي كما غيّرت الأممُ بعد أنبيائهم؟

---

[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف، ٧/١٣٨].

[2] قوله "خلافةً" بالنصب تفسير لـ"ما"، و"خلافتُكم" هو المخصوص بالذمّ. انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٧٥/٤.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ طرحها مِن شدّة الغضب وفرط الضجر حَمِيّةً للدين. رُوي أنّ التوراة كانت سبعةَ أسباعٍ في سبعة ألواح، فلمّا ألقاها انكسرت، فرُفعت ستّةُ أسباعها التي كان فيها تفصيلُ كلّ شيء، وبقي سُبُعٌ كان فيه المواعظ والأحكام.[١]

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشَعر رأسه عليهما السلام ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ حال مِن ضمير ﴿أَخَذَ﴾. فعَلَه عليه السلام توهّمًا أنّه قصّر في كفّهم. وهارونُ كان أكبرَ منه عليهما السلام بثلاث سنينَ، وكان حَمولًا؛ ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيلَ.[٢]

﴿قَالَ﴾ أي: هارونُ مخاطِبًا لموسى عليهما السلام: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ بحذف حرف النداء. وتخصيص "الأمّ" بالذِّكر مع كونهما شقيقَين لِما أنّ حقّ الأمّ أعظمُ وأحقُّ بالمراعاة، مع أنّها كانت مؤمِنةً، وقد قاست فيه المخاوفَ / والشدائدَ. [٣٥٠ظ]
وقُرئ بكسر الميم بإسقاط الياء تخفيفًا[٣] كالمنادَى المضاف إلى الياء. وقراءة الفتح لزيادة التخفيف أو لتشبيهه بـ"خَمْسَةَ عَشَرَ".

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ إزاحة لتوهّم التقصير في حقّه، والمعنى: بذلتُ جُهدي في كفّهم حتّى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي؛ ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي: فلا تفعلْ بي ما يكون سببًا لشماتتهم بي، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: معدودًا في عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير، وهذا يؤيّد كونَ الخطاب للكلّ؛ أو لا تعتقِدْ أنّي واحدٌ مِن الظالمين مع بَراءتي منهم ومِن ظلمهم.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية اعتذار هارونَ عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ أي: ما فعلتُ بأخي مِن غير ذنب مقرّر مِن قِبله، ﴿وَلِأَخِى﴾ إنْ فرط منه تقصيرٌ

---

١ جامع البيان للطبري، ١٠/٤٥٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٦١.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٢٨٦؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٨٤.

٣ أي: "ابْنَ أُمِّ". قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

ما في كفّهم عمّا فعلوه مِن العظيمة. استغفر عليه السلام لنفسه ليُرضِيَ أخاه ويُظهرَ للشامتين رضاه لئلّا تتمّ شماتتهم به، ولأخيه للإيذان بأنّه محتاج إلى الاستغفار، حيث كان يجب عليه أن يقاتلهم.

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ بمزيد الإنعام بعد غفران ما سلف منّا، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فلا غَرْوَ في انتظامنا في سِلك رحمتك الواسعة في الدنيا والآخرة. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي: تمّوا على اتّخاذه واستمرّوا على عبادته، كالسامري / وأشياعِه مِن الذين أُشربوه في قلوبهم، كما يُفصح عنه كون الموصول الثاني[1] عبارةً عن التائبين، فإنّ ذلك صريح في أنّ الموصول الأوّل عبارة عن المُصرّين. [٣٥١و]

﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿غَضَبٌ﴾ أي: عظيمٌ لا يقادَر قدره، مستتبعٌ لفنون العقوبات لِما أنّ جريمتهم أعظمُ الجرائم وأقبحُ الجرائر. وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: مالكِهم، متعلِّق بـ﴿يَنَالُهُمْ﴾، أو بمحذوف هو نعتٌ لـ﴿غَضَبٌ﴾ مؤكِّد لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنٌ مِن ربّهم.

﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هي ذِلّة الاغتراب التي تُضرَب بها الأمثال والمسكنة[2] المنتظمة لهم ولأولادهم جميعًا. والذِلّة التي اختصّ بها السامري مِن الانفراد عن الناس والابتلاء بـ"لا مِساسَ"؛[3] يُروى أنّ بقاياهم اليومَ يقولون ذلك، وإذا مسّ أحدَهم أحدٌ غيرُهم حُمّا جميعًا في الوقت.[4] وإيرادُ ما نالهم في حيّز "السين" مع مُضِيّه بطريق تغليب حال الأخلاف على حال الأسلاف.

---

[1] في الآية التالية.

[2] خبر ثانٍ لـ"هي".

[3] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾... إلخ [طه، ٢٠/٩٧].

[4] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٨/٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٢/٥.

وقيل:[١] المراد بهم التائبون، وبـ"الغضب" ما أُمروا به مِن قتل أنفسهم، واعتُذِر عن "السين" بأنّ ذلك حكاية عمّا أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتّخاذِهم العجلَ بأنّه سينالهم غضب مِن ربّهم وذِلّة، فيكون سابقًا على الغضب. وأنت خبير بأنّ سِباق النظم الكريم وسياقَه نابيانِ عن ذلك / نُبوًّا ظاهرًا؛ كيف لا، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ ينادي [٣٥١ظ] على خلافه؛ فإنّهم شهداءُ تائبون، فكيف يمكن وصفُهم بعد ذلك بالافتراء؟ وأيضًا ليس يجزي الله تعالى كلَّ المفترين بهذا الجزاء الذي ظاهرُه قهر وباطنُه لطف ورحمة.

وقيل:[٢] المراد بهم أبناؤهم المعاصِرون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ تعيير الأبناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف، منه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسًا﴾ الآية [البقرة، ٧٢/٢] وقولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ﴾ الآية [البقرة، ٥٥/٢، ٦١]. والمراد بـ"الغضب" الغضب الأخرويّ، وبـ"الذِلّة" ما أصابهم مِن القتل والإجلاء وضرب الجِزية عليهم.

وقيل: المراد بالموصول المتّخِذون حقيقةً، وبالضمير في ﴿يَنَالُهُمۡ﴾ أخلافُهم. ولا ريب في أنّ توسيط حال هؤلاء في تضاعيف بيان حال المتّخذين مِن قبيل الفصل بين الشجر ولِحائه.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أيَّ سيئة كانت، ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾ عن تلك السيّئات ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: مِن بعد عملها، ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ إيمانًا صحيحًا خالصًا، واشتغلوا بإقامة ما هو مِن مقتضَياته مِن الأعمال الصالحة، ولم يُصرّوا على ما فعلوا كالطائفة الأولى، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: مِن بعد تلك التوبة المقرونة بالإيمان ﴿لَغَفُورٞ﴾ للذنوب، وإن عظُمت وكثُرت، ﴿رَّحِيمٞ﴾ مبالِغ في إفاضة فنون الرحمة الدنيويّة والأخرويّة. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للتشريف.

---

[١] انظر: اللباب لابن عادل، ٢٢٨/٩.

[٢] انظر: اللباب لابن عادل، ٢٢٨/٩.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤﴾

[٣٥٢و] ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ شروع في بيان بقيّة الحكاية / إثرَ ما بيّن تحزّب القوم إلى مُصرّ وتائب والإشارةِ إلى مآل كلّ منهما إجمالًا، أي: لمّا سكن عنه الغضب باعتذار أخيه وتوبة القوم. وهذا صريح في أنّ ما حُكي عنهم مِن الندم وما يتفرّع عليه كان بعد مَجيء موسى عليه السلام. وفي هذا النظم الكريم مِن البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له عليه السلام على ما صدر عنه مِن الفعل والقول منزلةَ الآمر بذلك المُغري عليه بالتحكّم والتشديد والتعبيرِ[١] عن سكونه بالسكوت ما لا يخفى. وقُرِئ: "سَكَنَ"، و"سُكِتَ" و"أُسْكِتَ"[٢] على أنّ الفاعل هو الله تعالى أو أخوه أو التائبون.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها، ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ أي: فيما نُسخ فيها وكُتب. "فُعْلَة" بمعنى "مفعول"، كـ"الخُطبة". وقيل: فيما نُسخ منها، أي: مِن الألواح المنكسرة. ﴿هُدًى﴾ أي: بيان للحقّ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ للخلق بإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ "اللام" الأولى متعلِّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿رَحْمَةٌ﴾، أي: كائنةٌ لهم، أو هي لامُ الأجل، أي: هدًى ورحمةٌ لأجلهم؛ والثانية لتقوية عمل الفعل المؤخَّر، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف، ٤٣/١٢]، أو هي أيضًا لامُ العلّة، والمفعول محذوف، أي: يرهبون المعاصيَ لأجل ربّهم، لا للرِّياء والسمعة.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۝١٥٥﴾

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ شروع في بيان كيفيّة استدعاء التوبة وكيفيّة وقوعها.

---

١ متعلِّق بقوله: "بتنزيل الغضب".

٢ كلّها قراءات شاذّة. الأولى مرويّة عن معاوية بن قُرّة، والثانية عن بعض القرّاء، والثالثة قيل: إنّها كذا في مصحف حفصة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨٦/٥.

و﴿ٱخۡتَارَ﴾ يتعدّى إلى اثنين، ثانيهما مجرورٌ بـ"مِن"، أي: اختار مِن قومه، بحذف الجارّ وإيصالِ الفعل إلى المجرور، كما في قوله:

اختـارَكَ النـاسَ إذْ رثَّـتْ خَلائِقُهم   واعتلَّ مَن كان يُرجَى عنده السُّولُ[1]

أي: اختارك مِن الناس.

﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ مفعول أوّل لـ﴿ٱخۡتَارَ﴾، أُخّر عن الثاني / لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر. ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ الذي وقّتْناه بعد ما وقع مِن قومه ما وقع، لا لمِيقات الكلام الذي ذُكر قبل ذلك كما قيل.[2] [٣٥٢ظ]

قال السدّي: «أمره الله تعالى بأن يأتيَه في ناس مِن بني إسرائيلَ يعتذرون إليه تعالى مِن عبادة العجل، ووعَدَهم موعدًا، فاختار عليه السلام مِن قومه سبعين رجلًا».[3] وقال محمّد بن إسحاق: «اختارهم ليتوبوا إليه[4] تعالى ممّا صنعوه ويسألوه التوبةَ على مَن تركوهم وراءهم مِن قومهم».[5]

قالوا: اختار عليه السلام مِن كلّ سِبط ستّةً، فزاد اثنان، فقال: «لِيتخلّفْ منكم رجلان»، فتشاحُّوا، فقال عليه السلام: «إنّ لِمن قعد مثلَ أجر مَن خرج»، فقعد كالَبُ ويُوشَعُ، وذهب مع الباقين، وأمرهم أن يصوموا ويتطهّروا ويطهِّروا ثيابهم، فخرج بهم إلى طور سَيْنا، فلمّا دنَوا مِن الجبل غشِيَه غمام، فدخل موسى بهم الغمامَ، وخَرّوا سُجّدًا، فسمعوه تعالى يكلِّم موسى يأمرُه وينهاه حسبما يشاء، وهو الأمر بقتل أنفسهم توبةً.[6]

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ ممّا اجترءُوا عليه مِن طلب الرؤية، فإنّه يُروى أنّه لمّا انكشف الغمام أقبلوا إلى موسى عليه السلام وقالوا: «لن نؤمنَ لك

---

[1] البيت للراعي النميري في تهذيب اللغة للأزهري، ٤٧/١٣ «باب السين واللام»؛ وجامع البيان للطبري، ٤٧٢/١٠؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣٩٢/١٤؛ وتاج العروس للزبيدي، «سول». وفي كلّها: "اخترتُك" مكان "اختارك".

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٦٤/٢. وانظر أيضًا: اللباب لابن عادل، ٣٣٣/٩-٣٣٤.

[3] جامع البيان للطبري، ٤٦٨/١٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٦/٣.

[4] س: إلى الله.

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٦/٣.

[6] الكشّاف للزمخشري، ١٦٤/٢؛ اللباب لابن عادل، ٣٣٣/٩.

حتّى نرى الله جَهْرةً»، فأخذتهم الرَّجْفة،[١] أي: الصاعقة أو رجفةُ الجبل، فصُعقوا منها، أي: ماتوا. ولعلّهم أرادوا بقولهم: "لن نؤمنَ لك": لن نصدِّقَك في أنّ الآمر بما سمعنا مِن الأمر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتّى نراه، حيث قاسوا رؤيتَه تعالى على سماع كلامه قياسًا فاسدًا.

فحين شاهد موسى عليه السلام تلك الحالة الهائلة ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: حين فرّطوا في النهي عن عبادة العجل / وما فارقوا [٣٥٣و] عَبَدَتَه حين شاهدوا إصرارهم عليها، ﴿وَإِيَّىَ﴾ أيضًا حين طلبتُ منك الرؤية، أي: لو شئتَ إهلاكنا بذنوبنا لَأهلكتَنا حينئذ. أراد به عليه السلام تذكيرَ العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق، فإنّ الاعتراف بالذنب والشكرَ على النعمة ممّا يرتبط العتيد ويستجلب المَزيد، يعني: إنّا كنّا مستحقّين للإهلاك، ولم يكن مِن موانعه إلّا عدمُ مشيئتك إيّاه، فحيث لطُفتَ بنا وعفوتَ عنّا تلك الجرائر، فلا غَرْوَ في أن تعفُوَ عنّا هذه الجريمة أيضًا.

وحملُ الكلام على التمنيّ[٢] يأباه قوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي: الذين لا يعلمون تفاصيل شئونك ولا يتثبّتون في المداحض. والهمزة إمّا لإنكار وقوع الإهلاك ثقةً بلطف الله عزّ وجلّ، كما قاله ابن الأنباري، أو للاستعطاف، كما قاله المبرّد، أي: لا تُهلكنا.[٣]

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله واعتذار عمّا صنعوا ببيان مَنشأ غلطهم، أي: ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء -وقالوا بسببها ما قالوا مِن العظيمة- إلّا فتنتُك، أي: مِحنتُك وابتلاؤك، حيث أسمعتَهم كلامك، فافتُتنوا[٤] بذلك، ولم يتثبّتوا، فطَمِعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس الفاسد.

وقوله تعالى: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ إمّا استئناف مبيّن لحُكم الفتنة، أو حال مِن ﴿فِتْنَتُكَ﴾، أي: حالَ كونِها مُضلًّا بها... إلخ، أي: تُضلّ بسببها

---

١ انظر: اللباب لابن عادل، ٩/٣٣٣.

٢ هو الزمخشري في الكشّاف، ٢/١٦٤.

٣ ذكر قولَيهما الواحدي في التفسير البسيط، ٩/٣٩٠؛ وابن عادل في اللباب، ٩/٣٣٥.

٤ وفي هامش م: معًا. | يعني: الفتحة إذا قُرئ معلومًا والضمّة إذا قُرئ مجهولًا. | وفي هامش م: افتتن: متعدّ ولازم. «منه».

مَن تشاء إضلالَه، فلا يهتدي إلى التثبّت، وتَهدي مَن تشاء هدايته إلى الحقّ، فلا يتزلزل / في أمثالها، فيقوى بها إيمانه. [٣٥٣ظ]

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: القائم بأمورنا الدنيويّة والأخرويّة وناصرُنا وحافظُنا، لا غيرُك، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما قارفناه مِن المعاصي. و"الفاء" لترتيب الدعاء على ما قبله مِن الولاية، كأنّه قيل: فمِن شأن الوليّ المغفرة والرحمةُ. وقيل: إنّ إقدامه عليه السلام على أن يقول: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾... إلخ جرأةٌ عظيمةٌ، فطلب مِن الله تعالى غُفرانها والتجاوزَ عنها. ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ بإفاضة آثار الرحمة الدنيويّة والأخرويّة علينا. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ اعتراض تذييلي مقرّر لِما قبله مِن الدعاء. وتخصيص المغفرة بالذِّكر لأنّها الأهمّ بحسب المقام.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ أي: عيِّنْ لنا، وقيل: أوجِبْ وحقِّقْ وأثبِتْ ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: نعمةً وعافيةً أو خصلةً حسنةً. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «اقبَلْ وِفادتَنا، ورُدَّنا بالمغفرة والرحمة».[١] ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: واكتبْ لنا فيها أيضًا حسنةً. وهي المَثوبة الحسنى والجنّة.

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تُبنا وأنبنا إليك، مِن "هادَ يهُودُ" إذا رجع. وقُرئ بكسر الهاء،[٢] مِن "هادَ يَهيدُ" إذا حرّكه وأماله. ويحتمل[٣] أن يكون مبنيًّا للفاعل وللمفعول، بمعنى: أمَلْنا أنفسَنا أو أُمِلْنا إليك. وتجويزُ[٤] أن تكون القراءة المشهورة على بناء المفعول على لغة مَن يقول: "عُودَ المريضُ" -مع كونها لغةً ضعيفةً- ممّا لا يَليق بشأن التنزيل الجليل.

---

١ التفسير البسيط للواحدي، ٣٩١/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وأبي وَجزةَ يزيد بن عبيد السعدي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٥.

٣ أي: القراءة بكسر الهاء.

٤ أجازه الزمخشري في الكشّاف، ١٦٥/٢.

والجملة استئناف مَسوق لتعليل الدعاء؛ فإنّ التوبة ممّا يوجِب قبولَه
[٣٥٤و] بموجَب الوعد المحتوم. وتصديرها بحرف التحقيق / لإظهار كمال النشاط والرغبة في التوبة. والمعنى: إنّا تُبنا ورجعنا عمّا صنعنا مِن المعصية العظيمة التي جئناك للاعتذار عنها وعمّا وقع ههنا مِن طلب الرؤية، فبعيدٌ مِن لُطفك وفضلك ألّا تقبلَ توبةَ التائبين.

قيل: لمّا أخذتْهم الرَّجْفة ماتوا جميعًا، فأخذ موسى عليه السلام يتضرّع إلى الله تعالى حتّى أحياهم.[١] وقيل: رُجفوا، وكادت تَبِينُ مفاصلهم، وأشرفوا على الهلاك، فخاف موسى عليه السلام، فبكى، فكشفها الله تعالى عنهم.[٢]

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال الله تعالى عند دعاء موسى عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾ لعلّه عزّ وجلّ حين جعل توبة عَبَدة العجل بقتلهم أنفسَهم ضمَّنَ موسى عليه السلام دعاءَه التخفيفَ والتيسيرَ، حيث قال: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً﴾، أي: خصلةً حسنةً عاريةً عن المشقّة والشدّة، فإنّ في قتل أنفسهم مِن العذاب والتشديد ما لا يخفى.

فأجاب تعالى: بأنّ عذابي شأنُه أن أُصيبَ به مَن أشاء تعذيبَه مِن غير دخل لغيري فيه، وهم ممّن تناولتْه مشيئتي؛ ولذلك جعلتُ توبتهم مشوبةً بالعذاب الدنيويّ، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ أي: شأنُها أن تسَعَ في الدنيا المؤمنَ والكافرَ؛ بل كلَّ ما يدخل تحت الشيئيّة مِن المكلَّفين وغيرهم، وقد نال قومَك نصيب منها في ضمن العذاب الدنيويّ.

وفي نسبة "الإصابة" إلى "العذاب" بصيغة المضارع ونسبةِ "السَّعَة" إلى "الرحمة" بصيغة الماضي إيذانٌ بأنّ الرحمة مقتضى الذات، وأمّا العذاب
[٣٥٤ظ] فبمقتضى معاصي العباد. والمشيئة معتبَرة / في جانب الرحمة أيضًا، وعدمُ التصريح بها للإشعار بغاية الظهور؛ ألَا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ أي:

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣٣٤/٩-٣٣٥.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٦/٣.

أُثبتها وأعيِّنُها، فإنّه متفرّع على اعتبار المشيئة، كأنّه قيل: فإذا كان الأمر كذلك -أي: كما ذُكر مِن إصابة عذابي وسَعَة رحمتي لكلّ مَن أشاء- فسأكتبها كتبةً كائنةً كما دعوتَ بقولك: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ﴾... إلخ، أي: سأكتبها خالصةً غيرَ مشوبة بالعذاب الدنيوي ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: الكفر والمعاصي، إمّا ابتداءً أو بعد ملابستهما.

وفيه تعريض بقومه، كأنّه قيل: لا لقومك؛ لأنّهم غير متّقين، فيكفيهم ما قُدّر لهم مِن الرحمة، وإن كانت مقارنةً للعذاب الدنيويّ. ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وفيه أيضًا تعريض بهم، حيث كانت الزكاة شاقّةً عليهم. ولعلّ الصلاةَ إنّما لم تُذكَر -مع إنافتها على سائر العبادات- اكتفاءً منها بـ"الاتّقاء" الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسْرها وتركِ المنكَرات عن آخِرها. وإيراد إيتاء الزكاة لِما مرّ مِن التعريض.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جميعًا ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ إيمانًا مستمرًّا مِن غير إخلال بشيء منها. وفيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العِظام التي جاء به موسى عليه السلام، وبما سيجيء بعد ذلك مِن الآيات البيّنات كتظليل الغمام وإنزال المَنّ والسَّلوى وغير ذلك. وتكرير الموصول -مع أنّ المراد به عينُ ما أُريدَ بالموصول الأوّل، دون أن يقال: "ويؤمنون بآياتنا" عطفًا على ﴿يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كما عُطف هو على ﴿يَتَّقُونَ﴾- لِما أشيرَ إليه مِن القَصر بتقديم الجارّ والمجرور، أي: هم بجميع آياتنا يؤمنون، لا ببعضها دون بعض.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ/ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي نوحي إليه كتابًا مختصًّا به، ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ أي: صاحبَ [٣٥٥و]
المعجزة. وقيل: عنوان الرسالة بالنسبة إليه تعالى، وعنوان النبوّة بالنسبة إلى الأمّة.

﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾ بضمّ الهمزة نسبةً إلى "الأمّ"، كأنّه باقٍ على حالته التي وُلد عليها مِن أمّه، أو إلى "أمّة العرب"، كما قال عليه السلام: «إنّا أمّةٌ لا نحسُب ولا نكتب»،[١] أو إلى "أمّ القُرى". وقُرئ بفتح الهمزة.[٢] أي: الذي لم يمارس القراءة والكتابة، وقد جمع مع ذلك علومَ الأوّلين والآخِرين.

والموصول بدل مِن الموصول الأوّل بدلَ الكلّ، أو منصوب على المدح، أو مرفوع عليه، أي: أعني الذين، أو هم الذين. وأمّا جعلُه مبتدأً على أنّ خبره ﴿يَأۡمُرُهُم﴾[٣] أو ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾،[٤] فغيرُ سديد.

﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا﴾ باسمه ونعوته بحيث لا يشكّون أنّه هو؛ ولذلك عُدل عن أن يقال: "يجدون اسمه أو وصفه مكتوبًا". ﴿عِندَهُمۡ﴾ زيد هذا لزيادة التقرير، وأنّ شأنه عليه السلام حاضرٌ عندهم، لا يَغيب عنهم أصلًا. ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ اللذَين تُعُبِّدَ بهما بنو إسرائيلَ سابقًا ولاحقًا. والظرفان متعلّقان بـ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ أو بـ﴿مَكۡتُوبًا﴾. وذكرُ الإنجيل قبل نزوله مِن قبيل ما نحن فيه مِن ذكر النبيّ عليه السلام والقرآنِ الكريم قبل مَجيئهما.

﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ كلام مستأنَف، لا محلَّ له مِن الإعراب -قاله الزجّاج-[٥] متضمِّنٌ لتفصيل بعض أحكام الرحمة التي وُعد فيما سبق بكتبها إجمالًا، فإنّ ما بُيِّن فيه مِن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر وإحلال الطيّبات وتحريم الخبائث وإسقاطِ التكاليف الشاقّة كلُّها مِن آثار رحمته الواسعة. وقيل: في محلّ النصب على أنّه حال مقدَّرة مِن مفعول ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ أو مِن ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ أو مِن المستكنّ في ﴿مَكۡتُوبًا﴾. أو مفسِّرٌ[٦] لـ﴿مَكۡتُوبًا﴾، أي: لِما كُتب.[٧]

---

١ انظر: صحيح البخاري، ٢٧/٣ (١٩١٣)؛ وصحيح مسلم، ٧٦١/٢ (١٠٨٠).

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. اللباب لابن عادل، ٣٣٩/٩.

٣ م س: يأمرون. | الظاهر أنّه سهو مِن المصنّف رحمه الله.

٤ أجاز هذا الوجه أبو البقاء العُكبري في التبيان، ٥٩٨/١. انظر لوجه ردّه: اللباب لابن عادل، ٣٣٩/٩.

٥ معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٣٨١/٢.

٦ وفي هامش م: عطفٌ على "كلام". «منه».

٧ وفي هامش م: كما فسّر "المَثل" في قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ بقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران، ٥٩/٣]. «منه».

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ التي حُرِّمت عليهم بشؤم ظلمهم، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ كالدم ولحم الخِنزير والرِّبا والرشوة، ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: يخفِّف عنهم ما كُلِّفوه مِن التكاليف الشاقّة التي هي مِن قبيل ما كُتب عليهم حينئذ / مِن كون التوبة بقتل النفس، كتعيين القصاص [٣٥٥ظ] في العمد والخطأ مِن غير شرع الدِّية وقطعِ الأعضاء الخاطئة وقرضِ موضع النجاسة مِن الجِلد والثوب وإحراقِ الغنائم وتحريمِ السبت. وعن عطاء: «أنّه كانت بنو إسرائيلَ إذا قاموا يُصلّون لبِسوا المُسوح،[١] وغلّوا أيديَهم إلى أعناقهم، وربّما ثقَبَ الرجلُ تَرقُوَتَه،[٢] وجعل فيها طرف السلسلة، وأَوْثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة».[٣]

وقُرئ: "آصَارَهُمْ".[٤] وأصل "الإصْر": الثِّقل الذي يأسِرُ صاحبَه مِن الحَراك.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ تعليم لكيفيّة اتّباعه صلّى الله عليه وسلّم،[٥] وبيان لعُلوّ رتبة متّبِعيه واغتنامِهم مغانمَ الرحمة الواسعة في الدارين إثرَ بيان نعوته الجليلة والإشارةِ إلى إرشاده عليه السلام إيّاهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر وإحلالِ الطيّبات وتحريم الخبائث، أي: فالذين آمنوا بنبوّته، وأطاعوه في أوامره ونواهيه، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عظّموه ووقّروه، وأعانوه بمنع أعدائه عنه. وقُرئ بالتخفيف.[٦] وأصله: المنع، ومنه: التعزير.[٧]

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه في الدين، ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: مع نبوّته. وهو **القرآن**. عُبّر عنه بـ﴿ٱلنُّور﴾ المُنبئ عن كونه ظاهرًا بنفسه ومظهِرًا لغيره

---

١ المُسُوح: جمعُ "المِسْح"، وهو الكساء مِن الشَّعر. لسان العرب لابن منظور، «مسح».

٢ التَّرقُوَتانِ: العَظمان المُشرِفان بين ثُغرة النحر والعاتق، تكون للناس وغيرهم. ولا تقلْ "تُرقُوَة" بالضمّ. وقيل: هي عظمٌ وصل بين ثُغرة النحر والعاتق مِن الجانبين. وجمعها: التراقي. لسان العرب لابن منظور، «ترق».

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٩٥/٥.

٤ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٧٢/٢.

٥ س: عليه السلام.

٦ أي: "وَعَزَرُوهُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب اللؤلؤي والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٦.

٧ التعزير: التأديب، ومنه سُمّي الضرب دون الحدّ تعزيرًا. الصحاح للجوهري، «عزر».

أو مظهِرًا للحقائق كاشفًا عنها لمناسبته[١] الاتّباعَ. ويجوز أن يكون ﴿مَعَهُۥ﴾ متعلِّقًا بـ﴿ٱتَّبَعُوٓاْ﴾، أي: واتّبعوا القرآن المنزل مع اتّباعه عليه السلام بالعمل بسُنّته وبما أمر به ونهى عنه، أو اتّبعوا القرآن مصاحِبين له في اتّباعه.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين مِن حيث اتّصافُهم بما فُصّل مِن الصفات الفاضلة للإشعار بعلّيّتها للحُكم، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ درجتهم وسُموّ طبقتهم في الفضل والشرف؛ أو أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب، لا غيرُهم مِن الأمم، فيدخل فيهم قوم موسى عليه السلام دخولًا أوّليًا، حيث لم ينجُوا عمّا في توبتهم مِن المشقّة الهائلة. وبه يتحقّق التحقيق ويتأتّى التوفيق والتطبيق بين دعائه عليه السلام وبين الجواب، لا بمجرّد ما قيل / مِن أنّه لمّا دعا لنفسه [٣٥٦و]
ولبني إسرائيلَ أجيبَ بما هو منطوٍ على توبيخ بني إسرائيلَ على استجازتهم الرؤيةَ على الله عزّ وجلّ وعلى كفرهم بآياته العِظام التي أجراها على يد موسى عليه السلام؛ وعُرّض بذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾،[٢] وأريدَ أن يكون استماعُ أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبما جاء به كعبد الله بن سلَام وغيره مِن أهل الكتابَين لطفًا لهم وترغيبًا في إخلاص الإيمان والعمل الصالح.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ لمّا حُكي ما في الكتابين مِن نعوت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشرف مَن يتّبعه مِن أهلهما ونيلِهم لسعادة الدارين، أُمِر عليه السلام ببيان أنّ تلك السعادة غيرُ مختصّة بهم؛ بل شاملة لكلّ مَن يتّبعه كائنًا مَن كان، ببيان عموم رسالته للثقلين[٣] مع اختصاص رسالة سائر

---

١ متعلِّق بقوله: "عُبّر عنه بـ﴿ٱلنُّور﴾".

٢ في الآية السابقة.

٣ أي: الإنس والجنّ.

الرسل عليهم السلام بأقوامهم. وإرسال موسى عليه السلام إلى فرعونَ ومَلَئِه بالآيات التِّسع إنّما كان لأمرهم بعبادة ربّ العالمين عزّ سلطانُه وتركِ العظيمة التي كان يدّعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية، وبإرسال بني إسرائيلَ مِن الأسر والقسر؛ وأمّا العمل بأحكام التوراة، فمختصّ ببني إسرائيلَ.

﴿جَمِيعًا﴾ حال مِن الضمير في ﴿إِلَيْكُمْ﴾. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ منصوب أو مرفوع على المدح، أو مجرور على أنّه صفة للجلالة، وإن حِيل بينهما بما هو متعلِّق بما[1] أضيفَ إليه،[2] فإنّه في حكم المتقدّم عليه.[3]

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيان لِما قبله، فإنّ مَن ملك العالَم كان هو الإلهَ، لا غيره. وقوله تعالى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ لزيادة تقرير ألوهيّته. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لتفريع الأمر على ما تمهّدَ وتقرَّر مِن رسالته عليه السلام. وإيراد نفسه عليه السلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات إلى الغَيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال بأمره.

ووصفُ الرسول بقوله: ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ لمدحِه عليه السلام بهما، ولزيادة تقرير أمره / وتحقيقِ أنّه المكتوب في الكتابين. ووصفُه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: ما أنزل إليه وإلى سائر الرسل عليهم السلام مِن كُتبه ووحيه، لحملِ أهلِ الكتابين على الامتثال بما أُمروا به. والتصريح بإيمانه بالله تعالى للتنبيه على أنّ الإيمان به تعالى لا ينفكّ عن الإيمان بكلماته، ولا يتحقّق إلّا به. [٣٥٦ظ]

وقُرئ: "وَكَلِمَتِهِ"[4] على إرادة الجنس، أو القرآنِ تنبيهًا على أنّ المأمور به هو الإيمان به عليه السلام مِن حيث أنزلَ عليه القرآنُ، لا مِن حيثيّة أخرى، أو على أنّ المراد بها عيسى عليه السلام تعريضًا باليهود، وتنبيهًا على أنّ مَن لم يؤمن به لم يُعتدّ بإيمانه.

---

[1] وفي هامش م: رسول. «منه».

[2] وفي هامش م: أي: إلى الاسم الجليل. «منه».

[3] وفي هامش م: على الاسم الجليل. «منه».

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٦.

﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: في كلّ ما يأتي وما يذرُ مِن أمور الدين. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ علّة للفعلين، أو حال مِن فاعلَيهما، أي: رجاءً لاهتدائكم إلى المطلوب، أو راجين له. وفي تعليقه بهما[١] إيذان بأنّ مَن صدّقه ولم يتّبعه بالتزام أحكام شريعته، فهو بمَعزل مِن الاهتداء مستمرٌّ على الغَيّ والضلالة.

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾ كلام مبتدأ مسوق لدفع ما عسى يُوهمه تخصيصُ كتبة الرحمة والتقوى والإيمان بالآيات بمتّبِعِي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم مِن حِرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام مِن كلّ خير، وبيانِ أنّ كلّهم ليسوا كما حُكيت أحوالهم؛ بل منهم.

﴿أُمَّةٞ يَهۡدُونَ﴾ أي: الناسَ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: ملتبسين به، أو يَهدُونهم بكلمة الحقّ، ﴿وَبِهِۦ﴾ أي: بالحقّ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ أي: في الأحكام الجارية فيما بينهم. وصيغة المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية. وقيل: هم الذين آمنوا بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛[٢] ويأباه أنّه قد مرّ ذكرهم فيما سلف.[٣]

وقيل: إنّ بني إسرائيلَ لمّا بالغوا في العُتوّ والطغيان حتّى اجترءُوا على قتل الأنبياء عليهم السلام، تبرّأ سِبط منهم ممّا صنعوا، واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرّق بينهم وبين أولئك الطاغين، ففتح الله / تعالى لهم نَفَقًا في الأرض، [٣٥٧و] فساروا فيه سنةً ونِصفًا حتّى خرجوا مِن وراء الصين، وهم اليومَ هنالك حنفاءُ مسلمون يستقبلون قِبلتنا.[٤]

وقد ذُكر عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ جبريل عليه السلام ذهب به ليلةَ الإسراء نحوَهم، فكلّمهم، فقال جبريلُ عليه السلام: «هل تعرفون مَن تكلِّمون؟»، قالوا: «لا»، قال: «هذا محمّدٌ النبيّ الأمّيّ»، فآمنوا به وقالوا: «يا رسول الله، إنّ موسى أوصانا: مَن أدرك منكم أحمدَ، فليَقرأ منّي عليه السلامَ»،

---

١ أي: الإيمان بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم واتّباعه.
٢ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٢/١٦٧.
٣ في الأعراف، ٧/١٥٧.
٤ جامع البيان للطبري، ١٠/٥٠١؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٦٧.

فردٌ محمّد على موسى السلامَ -عليهما السلام- ثمّ أقرأهم عشرَ سوَرٍ مِن القرآن نزلت بمكّةَ، ولم تكن نزلت يومئذ فريضةٌ غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يُقيموا مكانهم، وكانوا يسبِتون، فأمرهم أن يجمِّعوا ويتركوا السبت هذا.[١] وأنت خبير بأنّ تخصيصهم بالهداية مِن بين قومه عليه السلام -مع أنّ منهم مَن آمن بجميع الشرائع- لا يخلو عن بُعد.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي: قومَ موسى، لا الأمّة المذكورة منهم.[٢] وقُرئ بالتخفيف.[٣] وقوله تعالى: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ ثاني مفعولَي "قطّع" لتضمُّنه معنى التصيير، والتأنيثُ للحمل على "الأمّة" أو "القطعة"، أي: صيّرناهم اثنتَي عشرةَ أمّةً أو قطعةً متميّزًا بعضُها مِن بعض؛ أو حالٌ مِن مفعوله، أي: فرّقناهم معدودين هذا العددَ. وقوله تعالى: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل منه؛ ولذلك جُمع، أو مميّز له على أنّ كلّ واحدة مِن اثنتَي عشرةَ قطعةً أسباطٌ، لا سِبطٌ. وقُرئ: "عَشِرَةَ"[٤] بكسر الشين. وقوله تعالى: ﴿أُمَمًا﴾ على الأوّل بدل بعد بدل أو نعتٌ لـ﴿أَسْبَاطًا﴾، وعلى الثاني بدل مِن ﴿أَسْبَاطًا﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ حين استولى عليهم العطشُ في التِّيه الذي وقعوا فيه بسوء صنيعهم، لا بمجرّد استسقائهم إيّاه عليه السلام؛ بل باستسقائه عليه السلام لهم، لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة، ٦٠/٢]. وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ مفسِّر لفعل الإيحاء. / وقد مرّ بيان شأن الحَجَر في تفسير سورة البقرة.[٥] [٣٥٧ظ]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٤/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٦٧/٢.

٢ في الآية السابقة.

٣ أي: "وَقَطَعْنَاهُمْ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى والأعمش وطلحة بن سليمان. المحتسَب لابن جنّي، ٢٦١/١.

٥ انظر: تفسير البقرة، ٦٠/٢.

﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ عطفٌ على مقدَّر ينسحب عليه الكلام، قد حُذف تعويلًا على كمال الظهور، وإيذانًا بغاية مسارعته عليه السلام إلى الامتثال، وإشعارًا بعدم تأثير الضرب حقيقةً، وتنبيهًا على كمال سرعة الانبجاس -وهو الانفجار- كأنّه حصل إثرَ الأمر قبل تحقّق الضرب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فضرب فانبجست ﴿مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾ بعدد الأسباط. وأمّا ما قيل مِن أنّ التقدير: "فإن ضربتَ فقد انبجستْ"،[١] فغيرُ حقيقٍ بجزالة النظم التنزيليّ. وقُرِئ: "عَشِرَةَ" بكسر الشين وفتحها.[٢]

﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ﴾ كلّ سِبط. عُبّر عنهم بذلك إيذانًا بكثرة كلّ واحد مِن الأسباط. ﴿مَّشۡرَبَهُمۡ﴾ أي: عينهم الخاصّةَ بهم.

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾ أي: جعلناها بحيث تُلقي عليهم ظِلَّها، تَسير في التِّيه بسيرهم وتسكن بإقامتهم. وكان ينزل بالليل عمود مِن نار يَسيرون بضَوئه.[٣] ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ أي: التُّرنجَبِين والسُّمانَى. قيل: كان ينزل عليهم المنّ مثلَ الثّلج مِن الفجر إلى الطلوع، لكلّ إنسان صاعٌ، وتَبعَث الجَنوبُ عليهم السُّمانَى، فيذبح الرجل منهم ما يكفيه.[٤]

﴿كُلُواْ﴾ أي: وقلنا لهم: كُلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي: مستلَذّاتِه. و﴿مَا﴾ -موصولةً كانت أو موصوفةً- عبارةٌ عن المنّ والسَّلوى.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ رجوع إلى سَنَن الكلام الأوّل بعد حكاية خطابهم. وهو معطوف على جملة محذوفة للإيجاز والإشعارِ بأنّه أمرٌ محقَّقٌ غنيٌّ عن التصريح به، أي: فظلموا بأن كفروا بتلك النِّعم الجليلة، وما ظلمونا بذلك، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ إذ لا يتخطّاهم ضرره. وتقديم المفعول لإفادة القَصر

---

[١] قاله الزمخشري في **الكشّاف**، ١٤٤/١؛ والبيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٨٣/١. وفيهما: "انفجرت" مكان "انبجست".

[٢] كلاهما قراءتان شاذّتان. الأولى مرويّة عن يحيى والأعمش وطلحة بن سليمان، والثانية مرويّة عن الأعمش أيضًا بخلاف. **المحتسَب** لابن جنّي، ٢٦١/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٩٦.

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٢/١ (البقرة، ٥٧/٢).

[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٢/١ (البقرة، ٥٧/٢).

الذي يقتضيه النفي السابق. وفيه ضربٌ مِن التهكّم بهم. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل / للدلالة على تَماديهم فيما هم فيه مِن الظلم والكفر. [٣٥٨و]

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ منصوب بمضمَر، خُوطبَ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وإيراد الفعل على البناء للمفعول -مع استناده إليه تعالى كما يُفصح عنه ما وقع في سورة البقرة مِن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾-[١] للجَري على سَنَن الكبرياء والإيذانِ بالغِنى عن التصريح به لتعيُّن الفاعل. وتغيير النظم بالأمر بالذكر للتشديد في التوبيخ. أي: اذكرْ لهم وقت قوله تعالى لأسلافهم: ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ منصوبة على المفعوليّة، يقال: "سكنتُ الدارَ"، وقيل: على الظرفيّة اتّساعًا. وهي بيت المقدِس،[٢] وقيل: أريحاء،[٣] وهي قرية الجبّارين، وكان فيها قوم مِن بقيّة عادٍ، يقال لهم: العَمالِقة، رأسُهم عُوج بن عنق.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾ إيذان بأنّ المأمور به في سورة البقرة هو الدخول على وجه السُّكنى والإقامة؛ ولذلك اكتُفي به عن ذكر ﴿رَغَدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي: مِن مطاعمها وثِمارها، على أنّ ﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة؛ أو منها،[٤] على أنّها ابتدائيّة. ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: مِن نواحيها مِن غير أن يزاحِمكم فيها أحد، فإنّ الأكل المستمرّ على هذا الوجه لا يكون إلّا رَغَدًا واسعًا. وعطفُ ﴿كُلُوا۟﴾ على ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾ بـ"الواو" لمقارنتهما زمانًا، بخلاف "الدخول"، فإنّه مقدَّم على الأكل؛ ولذلك قيل هناك: ﴿فَكُلُوا۟﴾.[٥]

﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: مسألتُنا أو أمرُك حِطّةٌ لذنوبنا. وهي "فِعْلة" مِن "الحَطّ"، كـ"الجِلْسة". ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ أي: بابَ القرية ﴿سُجَّدًا﴾ أي: متطامنين مُخبِتين

---

[١] ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة، ٥٨/٢].

[٢] جامع البيان للطبري، ٧١٣/١ (البقرة، ٥٨/٢).

[٣] جامع البيان للطبري، ٧١٣/١ (البقرة، ٥٨/٢).

[٤] وفي هامش م: مِن القرية. «منه».

[٥] في البقرة، ٥٨/٢.

أو ساجدين، شكرًا على إخراجهم مِن التِّيه.

وتقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور في سورة البقرة غيرُ مُخلّ بهذا الترتيب؛ لأنّ المأمور به هو الجمع بين الفعلين مِن غير اعتبار الترتيب بينهما. ثمّ إن كان المراد بـ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ أريحاءَ، فقد رُوي أنّهم دخلوها،
[٣٥٨ظ] حيث سار إليها موسى عليه السلام بمَن بقي مِن / بني إسرائيلَ -أو بذَرَارِيّهم على اختلاف الروايتين- ففتحها، كما مرّ في سورة المائدة.[١] وأمّا إن كان بيتَ المقدس، فقد رُوي أنّهم لم يدخلوه في حياة موسى عليه السلام، فقيل: المراد بـ﴿ٱلْبَابَ﴾ بابُ القُبّة التي كانوا يُصلّون إليها.[٢]

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ وقُرئ: "خطَايَاكُمْ"،[٣] كما في سورة البقرة، و"تُغْفَرْ لَكُمْ خَطِيئَاتُكُمْ"[٤] و"خَطَايَاكُمْ"[٥] و"خَطِيئَتُكُمْ"[٦] على البناء للمفعول. ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عِدة بشيئين: بالمغفرة وبالزيادة. وطرحُ الواو ههنا لا يُخلّ بذلك؛ لأنّه استئناف مرتّب على تقدير سؤالٍ نشأ مِن الإخبار بالغفران، كأنّه قيل: فماذا لهم بعد الغفران؟ فقيل: ﴿سَنَزِيدُ﴾. وكذلك زيادة ﴿مِنْهُمْ﴾[٧] زيادةُ بيان.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بما أُمروا به مِن التوبة والاستغفار، حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعَه ﴿قَوْلًا﴾ آخَرَ ممّا لا خيرَ فيه. رُوي أنّهم دخلوه زاحفين على أستاههم، وقالوا مكانَ "حِطّة": "حِنْطة"،[٨] وقيل: قالوا بالنَّبطيّة:

---

[١] انظر: تفسير المائدة، ٢٦/٥.

[٢] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٤٢/١ (البقرة، ٥٨/٢).

[٣] على البناء للفاعل. قرأ بها أبو عمرو. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٩٥؛ النشر لابن الجزري، ٢٧٢/٢.

[٤] قرأ بها نافع. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٩٥؛ النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

[٥] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ١٧٠/٢.

[٦] قرأ بها ابن عامر. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٩٦؛ النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

[٧] أي: زيادة ﴿مِنْهُمْ﴾ في الآية التالية.

[٨] انظر: جامع البيان للطبري، ٧٢٤/١-٧٢٥ (البقرة، ٥٩/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤٣/١ (البقرة، ٥٩/٢).

"هطًا سُمقاثًا"، يَعنُون: حِنطة حمراء،[١] استخفافًا بأمر الله عزّ وجلّ[٢] واستهزاءً بموسى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ نعتٌ لـ﴿قَوْلًا﴾. صُرّح بالمغايرة -مع دلالة التبديل عليها قطعًا- تحقيقًا للمخالفة وتنصيصًا على المغايرة مِن كلّ وجه.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إثرَ ما فعلوا ما فعلوا مِن غير تأخير. وفي سورة البقرة: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾،[٣] والمعنى واحد. والإرسال مِن فوق، فيكون كالإنزال. ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابًا كائنًا منها. والمراد الطاعون. رُوي أنّه مات منهم في ساعة واحدة أربعةٌ وعشرون ألفًا.[٤]

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ بسبب ظلمهم المستمرّ السابق واللاحق، حسبما يفيده الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل؛ لا بسبب التبديل فقط، كما يُشعر به ترتيب الإرسال عليه بـ"الفاء". والتصريح بهذا التعليل لِما أنّ الحكم ههنا مرتَّب على المضمَر، دون الموصول بالظلم كما في سورة البقرة. / وأمّا التعليل [٣٥٩و] بالفِسق بعد الإشعار بعلّيّة الظلم، فقد مرّ وجهُه هناك.[٥] والله تعالى أعلم.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ عطفٌ على المقدّر في ﴿إِذْ قِيلَ﴾،[٦] أي: واسألِ اليهود المعاصرين لك سؤالَ تقريع وتقرير بقديم كفرهم وتجاوزِهم لحدود الله تعالى، وإعلامًا لهم بأنّ ذلك مع كونه مِن علومهم الخفيّة التي لا يقف عليها إلّا مَن مارس كتبهم قد أحاط به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خُبْرًا؛ وإذ ليس ذلك بالتلقّي مِن كتبهم -لأنّه عليه السلام بمَعزِل مِن ذلك- تعيَّنَ أنّه مِن جهة الوحي الصريح.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٧٢٥/١ (البقرة، ٥٩/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤٣/١ (البقرة، ٥٩/٢). وفي مطبوع الأوّل: "هِطى سُمقاثا"، والثاني: "حطا سُمقاثا".

٢ س: تعالى.

٣ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة، ٥٩/٢].

٤ الكشّاف للزمخشري، ١٤٣/١ (البقرة، ٥٩/٢).

٥ انظر: تفسير البقرة، ٥٩/٢.

٦ الأعراف، ١٦١/٧.

﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: عن حالها وخبرها وما جرى على أهلها مِن الداهية الدَّهْياء. وهي أَيْلَةُ،[١] قرية بين مَدْينَ والطور. وقيل: هي مَدْينُ،[٢] وقيل: طَبَرِيّة.[٣] والعرب تسمِّي المدينة قريةً. ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: قريبةً منه مشرِفةً على شاطئه.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يتجاوزون حدود الله تعالى بالصَّيد يومَ السبت.[٤] و﴿إِذْ﴾ ظرف للمضاف المحذوف أو بدل منه. وقيل: ظرف لـ﴿كَانَتْ﴾ أو ﴿حَاضِرَةَ﴾؛[٥] وليس بذاك، إذ لا فائدةَ في تقييد الكون أو الحضور بوقت العُدوان. وقُرئ: "يَعَدُّونَ"،[٦] وأصله: يعتدون،[٧] و"يُعِدُّونَ"[٨] مِن "الإعداد"، حيث كانوا يُعِدّون آلاتِ الصيد يومَ السبت، وهم مَنهيّون عن الاشتغال فيه بغير العبادة.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرف لـ﴿يَعْدُونَ﴾، أو بدل بعد بدل. والأوّل هو الأولى؛ لأنّ السؤال عن عُدوانهم أدخلُ في التقريع. والحِيتان: جمعُ "حُوت"، قُلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، كـ"نُون" و"نِينان" لفظًا ومعنًى. وإضافتها إليهم للإشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجَد في سائر أفراد الجنس مِن الخواصّ الخارقة للعادة، أو لأنّ المراد بها الحِيتان الكائنة في تلك الناحية، وأنّ ما ذُكر مِن الإتيان وعدمه لاعتيادها أحوالَهم في عدم التعرّض يومَ السبت.

﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ ظرف لـ﴿تَأْتِيهِمْ﴾، أي: تأتيهم يومَ تعظيمهم لأمر السبت. وهو مصدرُ "سَبَتَ اليهودُ" إذا عظّمت السبتَ بالتجرّد للعبادة. وقيل: / اسم لليوم، [٣٥٩ظ]
والإضافة لاختصاصهم بأحكامٍ فيه. ويؤيّد الأوّلَ قراءة مَن قرأ: "يَوْمَ إِسْبَاتِهِمْ".[٩]

---

١ جامع البيان للطبري، ١٠/٥٠٧-٥٠٨.

٢ جامع البيان للطبري، ١٠/٥٠٩.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٧٠. | طَبَريّة: بليدة مطلّة على البحيرة المعروفة ببحيرة طَبَريّة، وهي في طرف جبل، وجبل الطور مطلّ عليها، وهي مِن أعمال الأردنّ في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيّام، وكذلك بينها وبين بيت المقدس وبينها وبين عَكّا يومان. وفُتحت طَبَريّة على يد شُرَحبيل بن حَسَنة رضي الله عنه في سنة ١٣هـ. انظر: معجم البلدان للحَمَوي، ٤/١٧-٢٠.

٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٤٢٠.

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٣٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن شَهر بن حَوشَب وأبي نَهيك. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٦٤.

٧ أُدغمت التاء في الدال، ونُقلت حركتها إلى العين، فصار: يَعَدُّون.

٨ قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/١٧٠-١٧١.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن عبد العزيز. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٧.

وقوله تعالى: ﴿شُرَّعًا﴾ جمعُ "شارع"، مِن "شرَع عليه" إذا دنا وأشرف. وهو حال مِن ﴿حِيتَانُهُمْ﴾، أي: تأتيهم يومَ سَبْتهم ظاهرةً على وجه الماء قريبةً مِن الساحل.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: لا يُراعُون أمر السبت، لكن لا بمجرّد عدم المراعاة مع تحقّق يوم السبت كما هو المتبادر؛ بل مع انتفائهما معًا، أي: لا سبتَ ولا مراعاةَ، كما في قوله:

ولا تَـــرى الـضَّـــبَّ بـهـا يَـنـجـحِـرُ[1]

وقُرئ: "لَا يُسْبِتُونَ"[2] مِن "أسبَتَ"، و"لَا يُسْبَتُونَ"[3] على البناء للمفعول، بمعنى: لا يدخلون في السبت، ولا يُدار عليهم حكمُ السبت، ولا يؤمَرون فيه بما أُمروا به يومَ السبت.

﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ كما كانت تأتيهم يومَ السبت حِذارًا مِن صيدهم. وتغيير السَّبكْ -حيث لم يُقل: ولا تأتيهم يومَ لا يسبِتون- لِما أنّ الإخبار بإتيانها يومَ سبتهم مَظِنّةُ أن يقال: فماذا حالها يومَ لا يسبِتون؟ فقيل: يومَ لا يسبِتون لا تأتيهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أي: مثلَ ذلك البلاء العجيب الفظيع نعامِلهم معاملةَ مَن يختبرهم ليظهرَ عدوانهم ونؤاخِذَهم به. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجيب منها. ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فِسقهم المستمرّ المدلولِ عليه بالجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل، لكنْ لا في تلك المادّة، فإنّ فِسقهم فيها لا يكون سببًا للبَلوى؛ بل بسبب فِسقهم المستمرّ في كلّ ما يأتون وما يذَرون. وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متّصل بما قبله، أي:

---

[1] عجز بيت، وصدره:

لا تُـفـزِع الأرنـــبَ أهـوالُـهـا

وهو لعمرو بن أحمر في أساس البلاغة للزمخشري، «رنب»؛ وتاج العروس للزبيدي، «فلت»، وبلا نسبة في أمالي ابن الشجري، ٢٩٨/١؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ١٠٦/١. | والشاهد فيه: أنّه لم يُرد أنّ بها أرانبَ لا تُفزعها أهوالُها، ولا ضبابًا غير منجحرة، ولكنّه نفى أن يكون بها حيوان. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ١٩٢/١٠-١٩٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ. الكشّاف للزمخشري، ١٧١/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. الكشّاف للزمخشري، ١٧١/٢.

لا تأتيهم مثلَ ما تأتيهم يومَ سبتهم؛ فالجملة بعده حينئذ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال عن حكمة اختلاف حال الحِيتان بالإتيان تارةً وعدمِه أخرى.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾

﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ عطفٌ على ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾،[1] مَسوق لتَماديهم في العدوان وعدمِ انزجارهم عنه بعد العِظات والإنذارات. ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: جماعة مِن صلحائهم [٣٦٠و] الذين ركِبوا في عِظتهم متنَ كلّ صعب وذَلول[2] حتّى يئسوا / مِن احتمال القبول لآخرين لا يُقلعون عن التذكير رجاءً للنفع والتأثير مبالغةً في الإعذار وطمعًا في فائدة الإنذار: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مخترِمُهم بالكلّيّة ومطهِّرُ الأرض منهم، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون الاستئصال بالمرّة، وقبل مَهلِكهم مُخزيهم في الدنيا، أو معذِّبُهم في الآخرة لعدم إقلاعهم عمّا كانوا عليه مِن الفِسق والطغيان.

والترديد لمنع الخُلوّ دون منع الجمع، فإنّهم مهلَكون في الدنيا ومعذَّبون في الآخرة. وإيثار صيغة اسم الفاعل -مع أنّ كلًّا مِن الإهلاك والتعذيب مترقَّب- للدلالة على تحقّقهما وتقرّرِهما البتّةَ، كأنّهما واقعان. وإنّما قالوه مبالغةً في أنّ الوعظ لا ينجَع فيهم، أو ترهيبًا للقوم، أو سؤالًا عن حكمة الوعظ ونفعه. ولعلّهم إنّما قالوه بمحضَرٍ مِن القوم حثًّا لهم على الاتّعاظ، فإنّ بثّ القولِ بهلاكهم وعذابهم ممّا يُلقي في قلوبهم الخوفَ والخشيةَ. وقيل:[3] المراد طائفة مِن الفِرقة الهالكة، أجابوا به وُعّاظَهم ردًّا عليهم وتهكّمًا بهم. وليس بذاك كما ستقف عليه.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: الوُعّاظ: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: نَعِظهم[4] مَعذرةً إليه تعالى، على أنّه مفعول له، وهو الأنسب بظاهر قولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾؛ أو نعتذر مَعذرةً،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] ركِبوا كلَّ صعبٍ وذَلولٍ في أمرهم: إذا بذَلوا فيه الطاقةَ. أساس البلاغة للزمخشري، «ذلل».

[3] ذكره الزمخشري بصيغة التمريض في الكشّاف، ١٧١/٢.

[4] س: يعظهم.

على أنّه مصدر لفعل محذوف. وقُرئ بالرفع،[١] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: موعظتُنا مَعذرةٌ إليه تعالى حتّى لا نُنسَبَ إلى نوعٍ تفريط في النهي عن المنكَر. وفي إضافة "الربّ" إلى ضمير المخاطَبين نوعُ تعريض بالسائلين.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿مَعْذِرَةً﴾، أي: ورجاءَ لأنْ يتّقوا بعضَ التُّقاة. وهذا صريح في أنّ القائلين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾... إلخ ليسوا مِن الفِرقة الهالكة، وإلّا لوجب الخطاب.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤُهم تركَ الناسي للشيء، وأعرضوا عنه إعراضًا كلّيًا بحيث لم يخطُر ببالهم شيء مِن تلك المواعظ أصلًا، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ وهم الفريقان المذكوران.[٢] وإخراج إنجائهم مُخرَجَ الجواب الذي حقُّه الترتّب على الشرط -وهو نِسيان المُعتدِين المستتبعُ لإهلاكهم- لِما أنّ ما في حيّز الشرط شيآنِ: النسيان والتذكير، كأنّه قيل: فلمّا ذَكّر المذكِّرون ولم يتذكّر المُعتدون، أنجينا الأوّلين وأخذنا الآخرين. وأمّا تصدير الجواب بإنجائهم، فلِما مرّ مرارًا مِن المسارعة إلى بيان نجاتهم مِن أوّل الأمر، مع ما في المؤخَّر مِن نوع طُول.

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالاعتداء ومخالفة الأمر ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي: شديدٍ، وزنًا ومعنًى. مِن "بَؤُسَ يبْؤُس بأسًا" إذا اشتدّ. وقُرئ: "بَيْئَسٍ" على وزن "فَيْعَل" بفتح العين[٣] وكسرها،[٤] و"بَئِسٍ"[٥] كـ"حَذِرٍ"، و"بِئْسٍ"[٦] على تخفيف العين

---

١ قرأ بها السبعة إلّا عاصمًا في رواية حفص. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

٢ في تفسير الآية السابقة.

٣ رواها أبو بكر عن عاصم، إلّا أنّه يُروى أنّه تركها بعدما شكّ فيها، وأخذ رواية الأعمش: بَيْئِسٍ. انظر لطرقها الأخرى: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وعيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن ثابت. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٦٥.

٦ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٢.

ونقلِ حركتها إلى الفاء، كـ"كِبْد" في "كَبِد"، و"بِيْسٍ"[١] بقلب الهمزة ياءً، كـ"ذِيب" في "ذِئْب"، و"بَيِّسٍ"[٢] كـ"رَيِّس" بقلب همزة "بَيْئِس" ياءً وإدغام الياء فيها، و"بَيْسٍ"[٣] على تخفيف "بَيِّس"، كـ"هَيْن" في "هَيِّن". وتنكير "العذاب" للتفخيم والتهويل.

﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿أَخَذْنَا﴾، كـ"الباء" الأولى؛ ولا ضيرَ فيه لاختلافهما معنًى، أي: أخذناهم بما ذُكر / مِن العذاب بسبب تَماديهم في الفِسق [٣٦٠ظ] الذي هو الخروج عن الطاعة، وهو الظلم والعدوان أيضًا. وإجراء الحكم على الموصول، وإن أشعَرَ بعلّيّة ما في حيّز الصلة له، لكنّه صُرّح بالتعليل المذكور إيذانًا بأنّ العلّة هو الاستمرار على الظلم والعدوان مع اعتبار كون ذلك خروجًا عن طاعة الله عزّ وجلّ، لا نفسُ الظلم والعدوان، وإلّا لَما أُخّروا عن ابتداء المباشرة ساعةً.

ولعلّه تعالى قد عذّبهم بعذاب شديد دون الاستئصال، فلم يُقلِعوا عمّا كانوا عليه، بل ازدادوا في الغَيّ، فمسَخَهم بعد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي: تمرّدوا وتكبّروا وأبَوا أن يتركوا ما نُهوا عنه، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ صاغرين أذِلّاءَ بُعَداءَ عن الناس. والمراد بالأمر هو الأمر التكوينيّ، لا القوليّ. وترتيب المسخ على العُتوّ عن الانتهاء عمّا نُهوا عنه للإيذان بأنّه ليس لخصوصيّة الحُوت؛ بل العُمدة في ذلك هو مخالفة الأمر والاستعصاء عليه تعالى. وقيل:[٤] المراد بـ"العذاب البَئيس" هو المسخ، والجملة الثانية تقرير للأولى.

رُوي أنّ اليهود أُمروا باليوم الذي أُمرنا به، وهو يوم الجمعة، فتركوه واختاروا السبت، وهو المَعنيّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [النحل، ١٢٤/١٦]، فابتُلُوا به، وحُرّم عليهم الصيد فيه، وأُمروا بتعظيمه،

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٢/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن نصر بن عاصم. المحتسَب لابن جنّي، ٢٦٥/١.

٣ رواها خارجة عن نافع. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٩٦.

٤ أورده الزمخشري في الكشّاف، ١٧٣/٢.

فكانت الحِيتان تأتيهم يومَ السبت كأنّها المَخاض[1] لا يُرى وجه الماء لكثرتها، ولا تأتيهم في سائر الأيّام، فكانوا على ذلك بُرهةً مِن الدهر، ثمّ جاءهم إبليسُ فقال لهم: «إنّما نُهيتم عن أخذها يومَ السبت، فاتّخِذوا حِياضًا سهلةَ الورود صعبةَ الصدور»، ففعلوا، فجعلوا يسُوقون الحِيتان إليها يومَ السبت، فلا تقدر على الخروج منها، ويأخذونها يومَ الأحد، وأخذ رجل منهم حُوتًا، وربط في ذَنَبه خَيطًا إلى خَشَبةٍ في الساحل، ثمّ شوَاه يومَ الأحد، فوجد جارُه ريحَ السمك، فتطلّعَ في تَنُّوره، فقال له: «إنّي أرى الله سيعذّبك»، فلمّا لم يره عُذّب أخَذَ في السبت القابل حُوتين، فلمّا رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم استمرّوا على ذلك، فصادوا وأكلوا وملّحوا وباعوا، وكانوا نحوًا مِن سبعين ألفًا، فصار أهل القرية أثلاثًا: ثُلُثٌ استمرّوا على النهي، وثُلُثٌ مَلُّوا التذكير وسَئموه، وقالوا للواعظين: «لِم تعِظون»... إلخ، وثُلُثٌ باشروا الخطيئة، فلمّا لم ينتهوا قال المسلمون: «نحن لا نساكنكم»، فقسموا القرية بجدار، للمسلمين بابٌ وللمُعتَدين باب، ولعنهم داودُ عليه السلام، فأصبح الناهون ذاتَ يوم في مجالسهم، ولم يخرج مِن المُعتدين أحد، فقالوا: «إنّ لهم لَشأنًا»، فعلَوْا الجدارَ، فنظروا، فإذا هم قِرَدة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القِرَدة أنسِباءَهم مِن الإنس، وهم لا يعرفونها، فجعل القِرد يأتي نسيبَه، فيشمّ ثِيابه ويبكي،[2] فيقول له نَسيبه: «ألم نَنْهَكم؟»، فيقول القِرد برأسه: «بلى»، ثمّ ماتوا عن ثلاث.[3] وقيل: صار الشباب قِردةً والشيوخُ خنازيرَ.[4]

/ وعن مجاهد: «مُسخت قلوبهم».[5] وقال الحسن البصري: «أكلوا -واللهِ- [٣٦١و] أوخمَ أكلةٍ أكَلَها أهلُها، أثقلَها خِزيًا في الدنيا، وأطوَلَها عذابًا في الآخرة. هاهْ! وايْمُ اللهِ، ما حُوتٌ أخذه قوم فأكلوه أعظمُ عند الله مِن قتل رجل مسلم، ولكنّ الله تعالى جعل موعدًا، والساعةُ أدهى وأمرُّ».[6]

---

١ المَخاض: جمعُ "المَخاضة"، وهو ما جاز الناس فيه مُشاةً ورُكبانًا، وهو الموضع الذي يتخضخض ماؤه، فيُخاض عند العبور. تاج العروس للزبيدي، «خوض».

٢ س: فيبكي.

٣ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٢/١ (البقرة، ٦٥/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ١٧٢/٢.

٤ جامع البيان للطبري، ٥٢٩/١٠.

٥ جامع البيان للطبري، ٦٥/٢ (البقرة، ٦٥/٢).

٦ الكشّاف للزمخشري، ١٧٢/٢. وهو باختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٥٢٣/١٠ (الأعراف، ١٦٣/٧).

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَر معطوف على قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾.[1] و﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى "آذن" -كما أنّ "توعَّدَ" بمعنى "أوعد"- أو بمعنى "عزَمَ"، فإنّ العازم على الأمر يحدّث به نفسَه. وأُجريَ مُجرى فعل القَسم، كـ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة، ١٨٧/٢] و﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران، ١٨/٣]؛ فلذلك أجيبَ بجوابه، حيث قيل: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. أي: واذكرْ لهم وقت إيجابِه تعالى على نفسه أن يسلِّط على اليهود البتّةَ ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك مِن فنون العذاب.

وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمانَ عليه السلام بُختَ نَصَّرَ، فخرَّب ديارهم، وقتل مقاتِلتَهم، وسبى نساءَهم وذَرارِيَّهم، وضرب الجزية على مَن بقي منهم، وكانوا يؤدّونها إلى المجوس، حتّى بُعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ففعل ما فعل، ثمّ ضرب الجزية عليهم، فلا تزال مضروبةً إلى آخر الدهر.[2]

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ يعاقبهم في الدنيا، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمن تاب وآمن منهم.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ أي: فرّقنا بني إسرائيلَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وجعلنا كلّ فرقة منهم في قُطر مِن أقطارها بحيث لا يخلو ناحية منها منهم، تكملةً لإدبارهم حتّى لا يكون لهم شوكة. وقوله تعالى: ﴿أُمَمًا﴾ إمّا مفعول ثانٍ لـ﴿وَقَطَّعْنَا﴾ أو حال مِن مفعوله.

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ صفة لـ﴿أُمَمًا﴾ أو بدل منه. وهم الذين آمنوا بالمدينة ومَن يَسير بسيرتهم. ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ناس دون ذلك الوصف، أي:

---

[1] الأعراف، ١٦٣/٧.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠/٣.

مُنحطّون عن الصلاح. وهم كَفَرتهم وفسَقتُهم. ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنِّعم والنِّقم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمّا كانوا فيه مِن الكفر والمعاصي.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِن بعد المذكورين ﴿خَلْفٌ﴾ أي: بدلُ سَوْء. مصدرٌ نُعت به؛ ولذلك يقع على الواحد والجمع. وقيل: جمعٌ، وهو شائع في الشرّ، و"الخَلَف" -بفتح اللام- في الخير. والمراد به الذين كانوا في عصر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ مِن أسلافهم، يقرءونها ويقفون على ما فيها.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتهم إيّاه، أي: يأخذون حُطام هذا الشيء الأدنى، أي: الدنيا؛ وهو مِن "الدُّنوّ" أو "الدناءة". والمراد به ما كانوا يأخذونه مِن الرُّشا في الحكومات وعلى تحريف الكلام. وقيل: حال مِن واوِ ﴿وَرِثُوا۟﴾.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ولا يؤاخذُنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنه. والجملة يحتمل العطف والحاليّة. والفعل مسنَد إلى الجارّ والمجرور، أو مصدرِ ﴿يَأْخُذُونَ﴾. ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَنَا﴾، أي: يرجُون المغفرة / والحالُ أنّهم مُصرّون على الذنب عائدون إلى مثله غير تائبين عنه. [٣٦١ظ]

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الميثاق الوارد في الكتاب ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ عطفُ بيان لـ"الميثاق"، أو متعلِّق به، أي: بأن لا يقولوا... إلخ. والمراد به الردّ عليهم، والتوبيخُ على بَتّهم القولَ بالمغفرة بلا توبة، والدلالةُ على أنّه[١] افتراء على الله تعالى وخروج عن ميثاق الكتاب. ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ عطفٌ على ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ مِن حيث المعنى، فإنّه تقرير، أو على ﴿وَرِثُوا۟﴾، وهو[٢] اعتراض.

---

١ ط س: أنّها.

٢ وفي هامش م: أي: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾... إلخ. «منه».

﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ما فعل هؤلاء؛ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ فتعلموا ذلك، فلا تستبدلوا الأدنى المؤدِّي إلى العقاب بالنعيم المخلَّد. وقُرئ بالياء.[١] وفي الالتفات تشديد للتوبيخ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: يتمسّكون به في أمور دينهم. يقال: مسَّك بالشيء وتمسَّك به. قال مجاهد: «هم الذين آمنوا مِن أهل الكتاب كعبد الله بن سلَام وأصحابه، تمسّكوا بالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام، فلم يحرّفوه، ولم يكتُموه، ولم يتّخذوه مأكلةً».[٢] وقال عطاء: «هم أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[٣]

وقُرئ مِن "الإمساك".[٤] وقُرئ: "تَمَسَّكُوا"[٥] و"اسْتَمْسَكُوا"[٦] موافقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ولعلّ التغييرَ في المشهورة للدلالة على أنّ التمسّك بالكتاب أمر مستمرّ في جميع الأزمنة، بخلاف إقامة الصلاة، فإنّها مختصّة بأوقاتها. وتخصيصها بالذكر مِن بين سائر العبادات لإنافتها عليها.

ومحلّ الموصول إمّا الجرّ نسقًا على ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾،[٧] وقولُه تعالى:[٨] ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[٩] اعتراض مقرِّر لِما قبله؛ وإمّا الرفع على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾، والرابط إمّا الضمير المحذوف، كما هو رأي جمهور البصريّين، والتقدير: أجرَ المصلِحين منهم؛ وإمّا الألف واللام،

---

١ أي: "أَفَلَا يَعْقِلُونَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة لابن مجاهد، ٢٥٦؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٧.

٢ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٩٧. ونحوه عنه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٠١.

٣ معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢٩٧. ونحوه عنه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٠١.

٤ أي: "يُمْسِكُونَ". قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. اللباب لابن عادل، ٩/٣٧٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٨.

٧ في الآية السابقة.

٨ م - تعالى.

٩ في الآية السابقة.

كما هو رأي الكوفيّين، فإنّه في حكم "مُصلِحِيهم"، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات، ٤١/٧٩]، أي: مأواهم، وقوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص، ٥٠/٣٨]، أي: أبوابها؛ وإمّا العموم في "مصلِحين"، فإنّه مِن الروابط، ومنه: "نِعم الرجلُ زيدٌ" على أحد الوجوه.[1] وقيل: الخبر محذوف، والتقدير: والذين يمسِّكون بالكتاب مأجورون أو مُثابون، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾... إلخ اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: قلَعْناه مِن مكانه ورفعناه عليهم، ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي: سقيفة. وهي كلّ ما أظلَّك. ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي: تيقّنوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم؛ لأنّ الجبل لا يثبت في الجوّ، ولأنّهم كانوا يوعَدون به. وإطلاق الظنّ في الحكاية لعدم وقوع متعلّقه. وذلك أنّهم أبَوا أن يقبلوا أحكام التوراة لِثقلها، فرفع الله تعالى عليهم الطور، وقيل لهم: إن قبِلتم ما فيها فبِها، وإلّا ليقعَنَّ عليكم.[2]

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أي: وقلنا أو قائلين: خذوا ما آتيناكم مِن الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدّ وعزيمة على تحمّل مَشاقّه. وهو حال مِن "الواو". ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ بالعمل، ولا تتركوه كالمَنسيّ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بذلك قبائحَ الأعمال ورذائلَ الأخلاق، أو راجين أن تنتظموا في سِلك المتّقين.[3]

---

١ وفي هامش م: وهو أن يكون "زيد" مبتدأ و"نعم الرجل" خبرَه، و"اللام" للجنس، إذ حينئذ يكون الرابط بينهما العمومَ. وأمّا على الوجهين الآخرين -وهما أن يكون "اللام" للعهد وأن يكون "زيد" خبرَ مبتدأ محذوف- فلا يكون ممّا نحن فيه. أمّا على الثاني فظاهر، وأمّا على الأوّل، فلأنّ الرابط حينئذ هو "اللام" المُغنية عن العائد، إذ هي لتعريف المعهود الذي هو عبارة عن المبتدأ. «منه».

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٢/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١٧٥/٢.

٣ في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

[٣٦٢و] / ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ منصوب بمضمَر معطوف على ما انتصب به ﴿إِذْ نَتَقْنَا﴾،[١] مَسوقٌ للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العامّ المنتظمِ للناس قاطبةً وتوبيخِهم بنقضه إثرَ الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاق الطور. وتعليق الذكر بالوقت -مع أنّ المقصود تذكيرُ ما وقع فيه مِن الحوادث- قد مرّ بيانه مرارًا، أي: واذكرْ لهم أخذ ربِّك. ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ المراد بهم الذين وُلد لهم كائنًا مَن كان نسلًا بعد نسل، سِوىٰ مَن لم يولَد له بسبب مِن الأسباب كالعُقم وعدم التزوّج والموت صغيرًا.

وإيثار "الأخذ" على "الإخراج" للإيذان بالاعتناء بشأن المأخوذ، لِما فيه[٢] مِن الإنباء عن الاجتباء والاصطفاء، وهو السبب في إسناده إلى اسم "الربّ" بطريق الالتفات، مع ما فيه مِن التمهيد للاستفهام الآتي. وإضافته إلى ضميره عليه السلام للتشريف.

وقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل مِن ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بدلَ البعض بتكرير الجارّ، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ﴾ [الأعراف، ٧/٧٥]. و﴿مِنْ﴾ في الموضعَين ابتدائيّة. وفيه مزيدُ تقرير لابتنائه على البيان بعد الإبهام والتفصيلِ غِبَّ الإجمال، وتنبيهٌ على أنّ الميثاق قد أُخذ منهم، وهم في أصلاب الآباء، ولم يُستودَعوا في أرحام الأمّهات.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مفعول ﴿أَخَذَ﴾، أُخّر عن المفعول بواسطة الجارّ لاشتماله على ضمير راجع إليه، ولمراعاة أصالته ومنشئيّته، ولِما مرّ مرارًا مِن التشويق إلى المؤخّر. وقُرئ: "ذُرِّيَّاتِهِمْ".[٣] والمراد بهم أولادهم على العموم، فيندرج فيهم اليهود المعاصرون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم اندراجًا أوّليًا،

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] أي: في "الأخذ".

[٣] قرأ بها نافع وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

كما اندرج أسلافهم في ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ كذلك. وتخصيصهما[١] باليهود سلَفًا وخلَفًا -مع أنّ ما أريدَ بيانه مِن بديع صنع الله عزّ وجلّ شاملٌ للكلّ كافّةً- مُخلٌّ بفخامة التنزيل وجزالة التمثيل.

﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: أشهد كلّ واحدة مِن أولئك الذُّرّيّات المأخوذِين مِن ظهور آبائهم على نفسها، لا على غيرها، تقريرًا لهم بربوبيّته التامّة وما تستتبعه مِن المعبوديّة على الاختصاص وغير ذلك مِن أحكامها.

وقوله تعالى: / ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ على إرادة "القول"، أي: قائلًا: «ألستُ [٣٦٢ظ] بربّكم ومالكِ أمركم ومُربّيكم على الإطلاق، مِن غير أن يكون لأحد مَدخل في شأن مِن شئونكم». فينتظم استحقاق المعبوديّة، ويستلزم اختصاصه به تعالى.

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: فماذا قالوا حينئذ؟ فقيل: قالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾ أي: «على أنفُسنا بأنّك ربّنا وإلهنا، لا ربَّ لنا غيرُك»، كما ورد في الحديث الشريف.[٢]

وهذا تمثيل لخَلقه تعالى إيّاهم جميعًا في مبدأ الفطرة مستعدّين للاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس المؤدّيةِ إلى التوحيد والإسلام، كما ينطِق به قوله صلّى الله عليه وسلّم: «كلُّ مولودٍ يُولَد على الفِطرة» الحديث،[٣] مبنيٌّ على تشبيه الهيئة المنتزَعة مِن تعريضه تعالى إيّاهم لمعرفة ربوبيّته بعد تمكينهم منها بما رَكَز فيهم مِن العقول والبصائر ونصَبَ لهم في الآفاق والأنفس مِن الدلائل تمكينًا تامًّا، ومِن تمكّنهم منها تمكّنًا كاملًا وتعرّضِهم لها تعرّضًا قويًّا، بهيئة[٤] منتزَعة مِن حمله تعالى إيّاهم على الاعتراف بها بطريق الأمر، ومِن مسارعتهم إلى ذلك مِن غير تَلعثُم[٥] أصلًا، مِن غير أن يكون هناك أخذٌ وإشهاد وسؤال وجواب، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت، ٤١/١١].

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/١٧٧.

٢ انظر: مسند أحمد، ٣٥/١٥٥-١٥٦ (٢١٢٣٢)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٠٣.

٣ انظر: صحيح البخاري، ٢/١٠٠ (١٣٨٥)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٠٤٧ (٢٦٥٨).

٤ السياق: تشبيه الهيئة المنتزعة... بهيئة منتزعة...

٥ تَلَعثَمَ الرّجل في الأمر، إذا تمكّث فيه وتأنّى. الصحاح للجوهري، «لعثم».

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ بالتاء على تلوين الخطاب وصرفِه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى معاصريه مِن اليهود تشديدًا في الإلزام، أو إليهم وإلى متقدّميهم بطريق التغليب، لكن لا مِن حيث إنّهم مخاطَبون بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فإنّه ليس مِن الكلام المَحكيّ. وقُرئ بالياء[١] على أنّ الضمير لـ"الذُّرّيّة".

وأيًّا ما كان، فهو مفعول له لِما قبله مِن الأخذ والإشهاد، أي: فعلنا ما فعلنا كراهةَ أن تقولوا أو لِئلّا تقولوا أيّها الكَفَرة، أو يقولوا هم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عند ظهور الأمر: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ عن وحدانيّة الربوبيّة وأحكامِها ﴿غَٰفِلِينَ﴾ / لم نتنبّه عليه؛ فإنّهم حيث جُبلوا على ما ذُكر مِن التهيّؤ التامّ لتحقيق الحقّ والقوّة القريبة مِن الفعل، صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك، إذ لا سبيلَ لأحد إلى إنكار ما ذُكر مِن خلقهم على الفطرة السليمة. [٣٦٣و]

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ عطفٌ على ﴿تَقُولُواْ﴾، و﴿أَوْ﴾ لمنع الخُلوّ دون الجمع، أي: هم اخترعوا الإشراك وهم سَنّوه ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبل زماننا، ﴿وَكُنَّا﴾ نحن ﴿ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ لا نهتدي إلى السبيل ولا نقدر على الاستدلال بالدليل؛ ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ مِن آبائنا المُضلّين بعد ظهور أنّهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبداد بالرأي، أو أتؤاخذنا فتُهلكنا... إلخ، فإنّ ما ذُكر مِن استعدادهم الكامل يسُدّ عليهم باب الاعتذار بهذا أيضًا، فإنّ التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها ممّا لا مساغَ له أصلًا.

هذا، وقد حُملت هذه المقاولة على الحقيقة، كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّه لمّا خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسَحَ ظَهره، فأخرج منه كلّ نَسَمة هو خالقُها إلى يوم القيامة، فقال: «ألستُ بربّكم؟»، قالوا: «بلى»، فنُودي يومئذ: جَفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.[٢]

---

[١] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ١٠/٥٤٨-٥٥١؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥/١٦١٣-١٦١٤؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٤٢٥.

وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنّه سُئل عن الآية الكريمة، فقال: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سُئل عنها، فقال: «إنّ الله تعالى خلق آدمَ، ثمّ مسَحَ ظَهره بيمينه، فاستخرج منه ذُرّيّةً، فقال: "خلقتُ هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنّة يعملون"، ثمّ مسَحَ ظهره، فاستخرج منه ذُرّيّةً، فقال: "خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار / يعملون"».[1] [٣٦٣ظ]

وليس المعنى أنّه تعالى أخرج الكلّ مِن ظهره عليه السلام بالذات؛ بل أخرج مِن ظهره عليه السلام أبناءه الصُّلبيّة، ومِن ظهورهم أبناءهم الصُّلبيّة، وهكذا إلى آخر السلسلة؛ لكن لمّا كان المَظهر الأصلي ظهرَه عليه السلام، وكان مَساقُ الحديثين الشريفين بيانَ حال الفريقين إجمالًا مِن غير أن يتعلّق بذكر الوسائط غرضٌ علميٌّ، نُسب إخراج الكلّ إليه.

وأمّا الآية الكريمة، فحيث كانت مسوقةً للاحتجاج على الكَفَرة المعاصرين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبيانِ عدم إفادة الاعتذار بإسناد الإشراك إلى آبائهم، اقتضى الحالُ نسبةَ إخراج كلّ واحد منهم إلى ظهر أبيهم، مِن غير تعرّض لإخراج الأبناء الصُّلبيّة لآدمَ عليه السلام مِن ظهره قطعًا.

وعدمُ بيان الميثاق في حديث عمرَ رضي الله عنه ليس بيانًا لعدمه ولا مستلزِمًا له.

وأمّا ما قالوا[2] مِن أنّ أخذ الميثاق لإسقاط عذر الغفلة حسبما ينطِق به قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، ومعلوم أنّه غيرُ دافع لغفلتهم في دار التكليف، إذ لا فردَ مِن أفراد البشر يذكر ذلك، فمردودٌ؛ لكنْ لا بما قيل[3] مِن أنّ الله عزّ وجلّ قد أوضح الدلائل على وحدانيّته وصدَّق رُسله فيما أَخبروا به، فمَن أنكره كان معانِدًا ناقضًا للعهد ولزِمتْه الحُجّة، ونسيانُهم وعدمُ حفظهم لا يُسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبِر الصادق؛ بل بأنّ قوله تعالى:

---

[1] موطّأ مالك، ١٣٢٢/٥ (٦٧٧)؛ مسند أحمد، ٣٩٩/١-٤٠٠ (٣١١)؛ سنن الترمذي، ٢٦٦/٥ (٣٠٧٥).

[2] انظر: اللباب لابن عادل، ٣٨٥/٩.

[3] قاله ابن عادل في اللباب، ٣٨٤/٩-٣٨٥.

﴿أَن تَقُولُواْ﴾... إلخ ليس مفعولًا له لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ وما يتفرّع عليه مِن قولهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ حتّى يجبَ كونُ ذلك / الإشهاد والشهادة محفوظًا لهم [٣٦٤و] في إلزامهم؛ بل لفعل مضمَر ينسحب عليه الكلام، والمعنى: فعلنا ما فعلنا مِن الأمر بذكر الميثاق وبيانه كراهةَ أن تقولوا أو لِئلّا تقولوا أيّها الكَفَرةُ يومَ القيامة: إنّا كنّا غافلين عن ذلك الميثاق، لم نُنبَّه عليه في دار التكليف، وإلّا لعمِلنا بموجَبه.

هذا على قراءة الجمهور. وأمّا على القراءة بالياء،[١] فهو مفعول له لنفس الأمر المضمَر العامل في ﴿إِذْ أَخَذَ﴾، والمعنى: اذكرْ لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لِئلّا يعتذروا يومَ القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء. هذا على تقدير كون قوله تعالى: ﴿شَهِدْنَا﴾ مِن كلام الذرّيّة، وهو الظاهر. فأمّا على تقدير كونه مِن كلامه تعالى، فهو العامل في ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، ولا محذورَ أصلًا، إذ المعنى: شهدنا قولكم هذا لِئلّا تقولوا يومَ القيامة... إلخ؛ لأنّا نردّكم[٢] ونكذّبكم حينئذ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٧٤﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ شأن المشار إليه وبُعد منزلته. و"الكاف" مقحَمة مؤكِّدة لِما أفاده اسم الإشارة مِن الفخامة. والتقديم على الفعل لإفادة القَصر. ومحلّه النصب على المصدريّة. أي: ذلك التفصيلَ البليغَ المستتبِعَ للمنافع الجليلة ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ المذكورةَ، لا غيرَ ذلك.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولِيرجعوا عمّا هم عليه مِن الإصرار على الباطل وتقليد الآباء نفعل التفصيلَ المذكورَ. فالواوانِ ابتدائيّتان. ويجوز أن تكون[٣] الثانية عاطفةً على مقدَّر مترتّب على التفصيل، أي: وكذلك نفصّل الآياتِ ليقفوا على ما فيها مِن المرغِّبات والزواجر وليرجعوا... إلخ.

---

[١] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

[٢] وفي هامش م: أو نردّهم... إلخ.

[٣] س: يكون.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عطفٌ على المضمَر العامل في ﴿إِذۡ أَخَذَ﴾،[١] واردٌ على نمَطه في الإنباء عن الحَوْر بعد الكَوْر[٢] والضلالةِ بعد الهدى، أي: واتْلُ / على اليهود [٣٦٤ظ] ﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: خبرَه الذي له شأن وخطر. وهو أحد علماء بني إسرائيلَ.[٣] وقيل: هو بَلعَم بن باعورا أو بَلعام بن باعر مِن الكنعانيّين، أُوتيَ علمَ بعض كتب الله تعالى.[٤] وقيل هو أُميّة بن أبي الصَّلْت، وكان قد قرأ الكتب، وعلم أنّ الله تعالى مرسِل في ذلك الزمان رسولًا، ورجَا أن يكون هو الرسولَ، فلمّا بعث الله تعالى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حسده وكفر به.[٥] والأوّل هو الأنسب بمقام توبيخ اليهود بهَناتِهم.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: مِن تلك الآيات انسلاخَ الجلد مِن الشاة، ولم يُخطرها بباله أصلًا، أو خرج منها بالكلّيّة بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره. وأيًّا ما كان، فالتعبير عنه بـ"الانسلاخ" المُنبئ عن اتّصال المحيط بالمُحاط خِلقةً وعن عدم الملاقاة بينهما أبدًا للإيذان بكمال مُباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتّصال.

﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: تبِعه حتّى لحِقه وأدركه، فصار قرينًا له، وهو المعنى على قراءة "فَاتَّبَعَهُ"[٦] مِن "الافتعال"، وفيه تلويح بأنّه أشدُّ مِن الشيطان غوايةً؛ أو أتبعَه خطُواتِه. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ فصار مِن زُمرة الضالّين الراسخين في الغَواية بعد أن كان مِن المتهدين.

---

١ الأعراف، ١٧٢/٧.

٢ الكَوْر: الوصول إلى الزيادة. والحَوْر: هو الرجوع إلى النقصان. وقيل: نعوذ بالله مِن الحَوْر بعد الكَوْر، أي: مِن التردّد في الأمر بعد المُضيّ فيه، أو مِن نقصان وتردّد في الحال بعد الزيادة فيها. الكلّيّات للكفوي، ص ٧٧٣.

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٧٨/٢.

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٥٧٣/١٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٣.

٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٦/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠٣/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٩.

ورُوِي أنّ قومه طلبوا إليه أن يدعوَ على موسى عليه السلام، فقال: «كيف أدعو على مَن معه الملائكة؟»، فلم يزالوا به حتّى فعل، فبَقُوا في التِّيه.[١] ويردّه أنّ التِّيه كان لموسى عليه السلام رَوحًا وراحةً، وإنّما عُذّب به بنو إسرائيلَ، وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام عليهم، كما مرّ في سورة المائدة.[٢]

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

[٣٦٥و] ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ كلام مستأنَف / مَسوق لبيان مناط ما ذُكر مِن انسلاخه مِن الآيات ووقوعِه في مهاوي الغَواية. ومفعول "المَشيئة" محذوف لوقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء على القاعدة المستمرّة، أي: ولو شئنا رفْعه ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ أي: إلى المنازل العالية للأبرار العالِمين بتلك الآيات العاملين بموجَبها؛ لكنْ لا بمحض مشيئتنا مِن غير أن يكون له دخل في ذلك أصلًا، فإنّه منافٍ للحكمة التشريعيّة المؤسَّسة على تعليق الأجزية بالأفعال الاختياريّة للعباد؛ بل مع مباشرته للعمل المؤدّي إلى الرفع بصرف اختياره إلى تحصيله، كما يُنبِئ عنه قوله تعالى: ﴿بِهَا﴾ أي: بسبب تلك الآيات بأن عمل بموجَبها، فإنّ اختياره، وإن لم يكن مؤثّرًا في حصوله،[٣] ولا في ترتّب الرفع عليه، بل كلاهما بخلق الله تعالى، لكنّ خلقه تعالى مَنوط بذلك البتّةَ حسب جرَيان العادة الإلهيّة.

وقد أشيرَ إلى ذلك في الاستدراك بأن أُسندَ ما يؤدّي إلى نقيض التالي إليه، حيث قيل: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، مع أنّ الإخلاد إليها أيضًا ممّا لا يتحقّق عند صرف اختياره إليه إلّا بخلقه تعالى، كأنّه قيل: ولو شئنا رفعه بمباشرته لسببه، لرفَعْناه بسبب تلك الآيات التي هي أقوى أسباب الرفع، ولكنْ لم نشأه لمباشرته لسبب نقيضه.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٥٧٩/١٠-٥٨١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٣-٣٠٢.

٢ انظر: تفسير المائدة، ٢٦/٥.

٣ أي: في حصول العمل المؤدّي إلى الرفع.

فتُرك في كلٍّ مِن المقامين ما ذُكر في الآخر تعويلًا على إشعار المذكور بالمَطويّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس، ١٠/١٠٧]. وتخصيص كلٍّ مِن المذكورَين بمقامه للإيذان بأنّ الرفع مراد له تعالى بالذات وتفضّلٌ محضٌ عليه، لا دخلَ فيه لِفعله حقيقةً، كيف لا، وجميع أفعاله ومباديها مِن نِعمه تعالى وتفضّلاته؛ وأنّ نقيضه إنّما أصابه بسوء اختياره على موجَب الوعيد، لا بالإرادة الذاتيّة له سبحانه، كما قيل في وجه ذكر "الإرادة" مع الخير و"المَسّ" مع الضرّ في الآية المذكورة. وهو السرّ في جرَيان السنّة القرآنيّة / على إسناد الخير إليه تعالى وإضافةِ الشرّ إلى الغير، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٢٦/٨٠] ونظائرِه. [٣٦٥ظ]

والإخلاد إلى الشيء: المَيل إليه مع الاطمئنان به. والمراد بـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾: الدنيا، وقيل: السَّفالة، والمعنى: ولكنّه آثَرَ الدنيا الدَّنيّةَ على المنازل السَّنيّة، أو الضَّعةَ والسَّفالةَ على الرفعة والجلالة.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ مُعرِضًا عن تلك الآيات الجليلة، فانحطّ أبلغَ انحطاطٍ وارتدّ أسفلَ سافلين. وإلى ذلك أشيرَ بقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ لِما أنّه أخسُّ الحيوانات وأسفلُها. وقد مُثّل حاله بأخسّ أحواله وأذلّها، حيث قيل: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: فحالُه التي هي مَثَل في السوء كصفته في أرذل أحواله، وهي حال دوام اللَّهث به في حالتَي التعب والراحة، فكأنّه قيل: فتردَّى إلى ما لا غايةَ وراءَه في الخِسّة والدَّناءة.

وإيثار الجملة الاسميّة على الفعليّة -بأن يقال: فصار مثله كمثل الكلب... إلخ- للإيذان بدوام اتّصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمالِ استقراره واستمراره عليها. والخطاب في فعلَي الشرط لكلّ أحد ممّن له حظٌّ مِن الخطاب، فإنّه أدخلُ في إشاعة فظاعة حاله.

واللَّهث: إدلاع اللسان بالتنفّس الشديد. أي: هو ضيِّقُ الحال مكروبٌ دائمُ اللَّهث، سواء هيّجتَه وأزعجتَه بالطرد العنيف أو تركتَه على حاله؛ فإنّه في الكِلاب

طبعٌ لا تقدر على نفض الهواء المتسخّن وجلب الهواء البارد بسهولةٍ لضعف قلبها وانقطاع فؤادها، بخلاف سائر الحيوانات، فإنّها لا تحتاج إلى التنفّس الشديد، ولا يلحقها الكرب والمضايقة إلّا عند التعب والإعياء.

[٣٦٦و] / والشرطيّة مع أُختها تفسير لِما أُبهمَ في المَثل، وتفصيل لِما أُجمل فيه، وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشَّبَه، لا محلَّ له مِن الإعراب على منهاج قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إثرَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران، ٥٩/٣].

وقيل: هي في محلّ النصب على الحاليّة مِن ﴿ٱلْكَلْبِ﴾ بناءً على خروجهما مِن حقيقة الشرط وتحوّلِهما إلى معنى "التّسْوية"، حسب تحوّل الاستفهامين المتناقضين إليه في مثل قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [يس، ١٠/٣٦]، كأنّه قيل: لاهثًا في الحالتين.

وأيًّا ما كان، فالأظهر أنّه تشبيه للهيئة المنتزَعة ممّا اعتراه بعد الانسلاخ مِن سوء الحال واضطرام القلب ودوام القلق والاضطراب وعدمِ الاستراحة بحال مِن الأحوال بالهيئة المنتزَعة ممّا ذُكر مِن حال الكلب. وقيل: لمّا دعا بَلْعَم على موسى عليه السلام خرج لسانُه، فتدلّى على صدره، وجعل يلهَث كالكلب إلى أن هلك.[١]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الحالة الخسيسة منسوبةً إلى الكلب أو إلى المنسلِخ، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتها في الخِسّة والدَّناءة، أي: ذلك المَثل السيّء ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم اليهود، حيث أُوتُوا في التوراة ما أُوتُوا مِن نعوت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وذكرِ القرآن المعجِز وما فيه، فصدّقوه وبشّروا الناس باقتراب مَبعَثه، وكانوا يستفتحون به، فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به، وانسلخوا مِن حكم التوراة.

[٣٦٦ظ] ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ / القَصَص: مصدرٌ سُمّي به المفعول، كـ"السَّلَب". و"اللام" للعهد، و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إذا تحقّق أنّ المَثل المذكور مثلُ هؤلاء المكذِّبين، فاقصُصه عليهم حسبما أوحيَ إليك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢/٣.

فيقفون على جليّة الحال، وينزجرون عمّا هم عليه مِن الكفر والضلال، ويعلمون أنّك قد علمتَه مِن جهة الوحي، فيزدادون إيقانًا بك. والجملة في محلّ النصب على أنّها حال مِن ضمير المخاطَب، أو على أنّها مفعول له، أي: فاقصُص القَصَص راجيًا لتفكّرِهم، أو رجاءَ لتفكّرِهم.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ١٧٧﴾

﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ استئناف مَسوق لبيان كمال قُبح حال المكذِّبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلِخ. و﴿سَآءَ﴾ بمعنى "بئس"، وفاعلُها مضمَر فيها، و﴿مَثَلًا﴾ تمييز مفسِّر له، والمخصوص بالذمّ قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾. وحيث وجب التصادق بينه وبين الفاعل والتميز، وجَبَ المَصير إلى تقدير مضاف، إمّا إليه، وهو الظاهر، أي: ساء مَثَلًا مَثلُ القوم... إلخ، أو إلى التمييز، أي: ساء أصحابَ مَثلِ القوم...[١] إلخ. وقُرئ: "سَاءَ مَثَلُ القَوْمِ".[٢]

وإعادة "القوم"[٣] موصوفًا بالموصول -مع كفاية الضمير بأن يقال: ساء مَثَلًا مثلُهم- للإيذان بأنّ مدار السوء ما في حيّز الصلة، ولربط قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ به؛ فإنّه إمّا معطوف على ﴿كَذَّبُواْ﴾، داخل معه في حكم الصلة، بمعنى: جمعوا[٤] بين تكذيب آيات الله تعالى بعد قيام الحُجّة عليها وعلمِهم بها وبين ظلمهم لأنفسهم خاصّةً؛ أو منقطعٌ عنه، بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب / إلّا أنفسَهم، فإنّ وباله[٥] لا يتخطّاها. وأيًّا ما كان، ففي ﴿يَظْلِمُونَ﴾ [٣٦٧و]
لمحٌ إلى أنّ تكذيبهم بالآيات متضمِّن للظلم بها، وأنّ ذلك أيضًا معتبَر في القَصر المستفاد مِن تقديم المفعول.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي﴾ لمّا أُمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يقُصّ

---

١ كذا ضبطه المصنّف.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٩.
٣ الأوّل في الآية السابقة.
٤ س ط: أجمعوا. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.
٥ ط س: وبالها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

قَصَص المنسلِخ على هؤلاء الضالّين الذين مثلهم كمَثله ليتفكّروا فيه، ويتركوا ما هم عليه مِن الإخلاد إلى الضلالة، ويهتدوا إلى الحقّ، عُقّب ذلك بتحقيق أنّ الهداية والضلالة مِن جهة الله عزّ وجلّ، وإنّما العِظة والتذكير مِن قبيل الوسائط العاديّة في حصول الاهتداء، مِن غير تأثير لها فيه سِوى كونها دواعيَ إلى صَرف العبد اختيارَه نحو تحصيله حسبما نِيط به خلقُ الله تعالى إيّاه كسائر أفعال العباد.

فالمراد بهذه الهداية ما يوجِب الاهتداءَ قطعًا، لكن لا لأنّ حقيقتها الدلالةُ الموصِلة إلى البُغية البتّةَ؛ بل لأنّها الفرد الكامل مِن حقيقة الهداية التي هي الدلالة إلى ما يوصِل إلى البُغية، أي: ما مِن شأنه الإيصال إليها، كما سبق تحقيقه في تفسير قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢].

وليس المراد مجرّدَ الإخبار باهتداء مَن هداه الله تعالى حتّى يُتوهّمَ عدم الإفادة بحسب الظاهر لظهور استلزام هدايته تعالى للاهتداء، ويُحملَ النظم الكريم على تعظيم شأن الاهتداء والتنبيهِ على أنّه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم، لو لم يحصل له غيره لكفاه؛ بل هو قَصر الاهتداء على مَن هداه الله تعالى حسبما يقضي به تعريف الخبر، فالمعنى: مَن يهده الله -أي: يخلُقْ فيه الاهتداء على الوجه المذكور- فهو المهتدي لا غيرُ كائنًا مَن كان.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بأن لم يخلق فيه الاهتداءَ؛ بل خلق فيه الضلالة لصَرف اختياره نحوَها، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور ﴿هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخُسران، / لا غير. وإفراد ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ نظرًا إلى لفظ ﴿مَن﴾ وجمعُ "الخاسرين" نظرًا إلى معناها للإيذان باتّحاد منهاج الهدى وتفرّقِ طُرق الضلال. [٣٦٧ظ]

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا﴾ كلام مستأنَف مقرِّر لمضمون ما قبله بطريق التذييل، أي: خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ أي: لدخولها والتعذيب بها. وتقديمه على قوله تعالى: ﴿كَثِيرٗا﴾ -أي: خلقًا كثيرًا- مع كونه مفعولًا به لِما في توابعه مِن نوع طول يؤدِّي توسيطه بينهما[١] وتأخيرُه عنها إلى الإخلال بجزالة النظم الكريم.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ متعلِّق بمحذوف هو صفة لـ﴿كَثِيرٗا﴾، أي: كائنًا منهما. وتقديم ﴿ٱلۡجِنِّ﴾؛ لأنّهم أعرقُ مِن الإنس في الاتّصاف بما نحن فيه مِن الصفات وأكثرُ عددًا وأقدمُ خَلقًا. والمراد بهم الذين حقّت عليهم الكلمة الأزليّة بالشقاوة، لكنْ لا بطريق الجبر مِن غير أن يكون مِن قِبلهم ما يؤدِّي إلى ذلك؛ بل لعِلمه تعالى بأنّهم لا يصرفون اختيارهم نحوَ الحقّ أبدًا، بل يُصرّون على الباطل مِن غير صارف يَلويهم ولا عاطِف يَثنيهم مِن الآيات والنُّذُر. فبهذا الاعتبار جُعل خلقهم مُغنيًا[٢] بها،[٣] كما أنّ جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفِطري للعبادة وتمكّنِهم التامّ منها جُعل خَلقهم مُغنيًا بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات، ٥١/٥٦].

وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ﴾ في محلّ النصب على أنّه صفة أخرى لـ﴿كَثِيرٗا﴾. وقوله تعالى ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ في محلّ الرفع على أنّه صفة لـ﴿قُلُوبٞ﴾، مؤكِّدةٌ لِما يفيده تنكيرها وإبهامُها مِن كونها غيرَ معهودة مخالِفةً لسائر أفراد الجنس فاقدةً لكماله بالكلّيّة، لكنْ لا بحسب الفطرة حقيقةً؛ بل بسبب امتناعهم عن صَرفها إلى تحصيله.

وهذا وصفٌ لها بكمال الإغراق في القساوة، فإنّها حيث لم يَتأتَّ منها الفقهُ بحال، فكأنّها خُلقت غيرَ قابلة له رأسًا. وكذا الحال في أعيُنهم وآذانهم. وحذفُ المفعول للتعميم، أي: لهم قلوب ليس مِن شأنها أن يفقَهوا بها شيئًا ممّا مِن شأنه أن يُفقَه، فيدخل فيه ما يَليق بالمقام مِن الحقّ ودلائله دخولًا / أوّليًّا. وتخصيصه بذلك مُخلّ بالإفصاح عن كُنه حالهم. [٣٦٨و]

---

١ ط س: بينها.

٢ المُغنَيا، كـ"مُعظَّم": انتهاء الغاية. تاج العروس للزبيدي، «غني».

٣ وفي هامش م: بجهنّم.

﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ الكلام فيه كما فيما عُطف هو عليه. والمراد بالإبصار والسمع المَنفيَّين ما يختصّ بالعقلاء مِن الإدراك على ما هو وظيفة الثقلين،[١] لا ما يتناول مجرّدَ الإحساس بالشَّبَح[٢] والصوت كما هو وظيفة الأنعام، أي: لا يُبصرون بها شيئًا مِن المبصَرات، فيندرج فيه الشواهد التكوينيّة الدالّة على الحقّ اندراجًا أوّليًّا. ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَا﴾ أي: شيئًا مِن المسموعات، فيتناول الآياتِ التنزيليّةَ تناولًا أوّليًّا.

وإعادة الخبر في الجملتين المعطوفتين -مع انتظام الكلام بأن يقال: وأعيُنٌ لا يُبصِرون بها وآذانٌ لا يَسمعون بها- لتقرير سوء حالهم. وفي إثبات المَشاعر الثلاثة لهم ثمّ وصفِها بعدم الشعور -دون سلبها عنهم ابتداءً بأن يقال: ليس لهم قلوب يفقَهون بها، ولا أعيُنٌ يُبصِرون بها، ولا آذانٌ يسمعون بها- مِن الشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغَواية ما لا يخفى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورِين باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن الصفات، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الضلال، أي: أولئك الموصوفون بالأوصاف المذكورة ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي: في انتفاء الشعور على الوجه المذكور، أو في أنّ مَشاعرهم متوجّهة إلى أسباب التعيّش مقصورة عليها.

﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ فإنّها تُدرِك ما مِن شأنها أن تُدركَه مِن المنافع والمَضارّ، فتجتهد في جلبها وسلبها غايةَ جهدها مع كونهما[٣] بمَعزِل مِن الخلود، وهؤلاء ليسوا كذلك، حيث لا يميّزون بين المنافع والمَضارّ؛ بل يعكِسون الأمر، فيتركون النعيم المُقيم، / ويُقدِمون على العذاب الخالد. وقيل:[٤] لأنّها تعرف صاحبَها وتذكرُه وتُطيعه، وهؤلاء لا يعرفون ربّهم ولا يذكرونه ولا يُطيعونه. وفي الخبر: «كلُّ شيءٍ أطوَعُ لله مِن ابن آدمَ».[٥] [٣٦٨ظ]

---

١ أي: الإنس والجنّ.

٢ الشَّبَح: ما بدَا لك شخصُه مِن الخَلق. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٩٩/٣ «باب الحاء والشين والميم معهما».

٣ أي: كون المنافع والمَضارّ.

٤ قاله مقاتل بن سليمان في تفسيره، ٧٦/٢.

٥ هو بهذا اللفظ بغير نسبة في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٤، وباختلاف يسير مرفوعًا في مسند البزّار، ٢٧١/١٠ (٤٣٧٤)؛ والمعجم الصغير للطبراني، ١٣١/٢ (٩٠٨).

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنعوتون بما مرّ مِن مثليّة الأنعام والشرّيّة منها ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة المستحقّون لأنْ يُخَصّ بهم الاسم ولا يطلَق على غيرهم. كيف لا، وإنّهم لا يعرفون مِن شئون الله عزّ وجلّ، ولا مِن شئون ما سِواه شيئًا، فيُشركون به سبحانه -وليس كمِثله شيء، وهو السميع العليم- أصنامَهم التي هي مِن أخسّ مخلوقاته تعالى.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ تنبيه للمؤمنين على كيفيّة ذِكره تعالى وكيفيّة المعاملة مع المُخلّين بذلك الغافلين عنه سبحانه وعمّا يَليق به مِن الأمور وما لا يَليق به، إثرَ بيان غفلتهم التامّة وضلالتهم الطامّة. و﴿الْحُسْنَىٰ﴾: تأنيث "الأحسن"، أي: الأسماءُ التي هي أحسن الأسماء وأجلُّها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: فسَمُّوه بتلك الأسماء، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الإلحاد واللَّحد: المَيل والانحراف، يقال: "لحَدَ" و"ألحَدَ" إذا مال عن القصد. وقُرئ: "يَلْحَدُونَ"[1] مِن الثلاثيّ. أي: يَميلون في شأنها عن الحقّ إلى الباطل، إمّا بأن يُسَمّوه تعالى بما لا توقيفَ فيه أو بما يوهِم معنًى فاسدًا، كما في قول أهل البَدْو: "يا أبا المكارم"، "يا أبيضَ الوجه"، "يا نَخِيُّ"،[2] ونحوِ ذلك، فالمراد بالترك المأمور به الاجتنابُ عن ذلك، وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسمَّوه به على زعمهم، لا أسماؤه تعالى حقيقةً. وعلى ذلك يُحمل ترك الإضمار بأن يقال: يلحدون فيها.

[٣٦٩و] / وإمّا بأن يعدِلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة، كما قالوا: "وما الرحمان؟ ما نعرف سِوى رحمانِ اليمامة"،[3] فالمراد بالترك الاجتناب أيضًا،

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٨٠. | يا نَخِيُّ: يا متكبّرُ. فتوح الغيب للطيبي، ٦/٦٧٦.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٣.

وبالأسماء أسماؤه تعالى حقيقةً، فالمعنى: سمُّوه تعالى بجميع أسمائه الحسنى، واجتنِبوا إخراج بعضها مِن البَيْن. وإمّا بأن يُطلقوها على غيره تعالى، كما سمَّوا أصنامهم آلهةً. وإمّا بأن يشتقّوا مِن بعضها أسماءَ أصنامهم، كما اشتقّوا "اللات" مِن "الله" و"العُزّى" مِن "العزيز"،[1] فالمراد بالأسماء أسماؤه حقيقةً كما في الوجه الثاني.

والإظهار في موقع الإضمار مع التجريد عن "الوصف" في الكلّ للإيذان بأنّ إلحادهم في نفس الأسماء مِن غير اعتبار "الوصف".[2] وليس المراد بالترك حينئذ[3] الاجتنابَ عن ذلك؛ إذ لا يُتوهّم صدور مِثل هذا الإلحاد عن المؤمنين ليُؤمَروا بتركه؛ بل هو الإعراض عنهم وعدمُ المبالاة بما فعلوا ترقّبًا لنزول العقوبة بهم عن قريب، كما هو المتبادر مِن قوله تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، فإنّه استئناف وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن الأمر بعدم المبالاة والإعراضِ عن المُجازاة، كأنّه قيل: لِم لا نبالي بإلحادهم ولا نتصدّى لمُجازاتهم؟ فقيل: لأنّه سينزل بهم عقوبتِه، وتتشفَّون بذلك عن قريب.

وأمّا على الوجهين الأوّلين، فالمعنى: اجتنِبوا إلحادهم كَيلا يُصيبَكم ما أصابهم، فإنّه سينزل بهم عقوبة إلحادهم.

﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٨١﴾

﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ بيان إجمالي لحال مَن عدَا المذكورين مِن الثقلين الموصوفين بما ذُكر مِن الضلال والإلحاد عن الحقّ. ومحلّ الظرف الرفع على أنّه مبتدأ، إمّا باعتبار مضمونه / أو بتقدير الموصوف، [٣٦٩ظ]
وما بعده خبرُه كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾... إلخ [البقرة، ٢/٨]، أي: وبعضُ مَن خلقنا أو وبعضٌ ممّن خلقنا أمّةٌ، أي: طائفة كثيرة يهدون الناسَ

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٩٧/١٠.

٢ أجاز الزمخشري أن يكون المراد بالأسماء الأوصافَ الحسنى، بناءًا على مذهبه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨٠/٢-١٨١.

٣ أي: على الوجهين الأخيرين.

ملتبسين بالحقّ أو يهدونهم بكلمة الحقّ، ويدلّونهم على الاستقامة، وبالحقّ يحكمون في الحكومات الجارية فيما بينهم، ولا يجورون فيها.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يقول إذا قرأها: «هذه لكم، وقد أُعطيَ القوم بين أيديكم مثلَها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ الآية [الأعراف، ١٥٩/٧]».[١] وعنه عليه السلام: «إنّ مِن أمّتي قومًا على الحقّ حتّى ينزلَ عيسى».[٢] ورُوي: «لا تزال مِن أمّتي طائفةٌ على الحقّ إلى أن يأتيَ أمر الله».[٣] ورُوي: «لا تزال مِن أمّتي أمّةٌ قائمةٌ بأمر الله، لا يضرّهم مَن خذَلهم، ولا مَن خالفهم، حتّى يأتيَ أمر الله وهم ظاهرون».[٤] وفيه مِن الدلالة على صحّة الإجماع ما لا يخفى.

والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للإيذان بأنّ اهتداءهم في أنفسهم أمر محقَّق غنيٌّ عن التصريح به.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ شروع في تحقيق الحقّ الذي به يهدي الهادون وبه يعدِل العادلون وحملِ[٥] الناس على الاهتداء به على وجه الترهيب. ومحلّ الموصول الرفع على أنّه مبتدأ، خبرُه ما بعده مِن الجملة الاستقباليّة. وإضافة "الآيات" إلى نُون العَظَمة لتشريفها واستعظام الإقدام على تكذيبها. أي: والذين كذّبوا بآياتنا التي هي مِعيار الحقّ ومِصداق الصدق والعدل ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي: نستَدْنيهم البتّةَ إلى الهلاك شيئًا فشيئًا.

والاستدراج: "استفعال" مِن "درَج"، إمّا بمعنى "صعِد"، ثمّ اتُّسع فيه، فاستُعمل في كلّ نقل تدريجي سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة،

---

١ جامع البيان للطبري، ٦٠٠/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ١٨١/٢.

٢ الحديث بهذا اللفظ في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١٧١/٢. وأخرج نحوَه مسلم في صحيحه، ١٣٧/١ (١٥٦)؛ وأحمد في مسنده، ٦٣/٢٣ (١٤٧٢٠).

٣ الحديث بهذا اللفظ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣/٣. وهو باختلاف يسير في صحيح البخاري، ١٠١/٩ (٧٣١١).

٤ انظر: صحيح مسلم، ١٥٢٤/٣ (١٠٣٧)؛ ومسند أحمد، ١٢٨/٢٨ (١٦٩٣٢).

٥ عطفٌ على قوله: "في تحقيق الحقّ".

وإمّا بمعنى "مشَى مَشيًا ضعيفًا"، وإمّا بمعنى "طوَى". والأوّل هو الأنسب بالمعنى المراد الذي هو النقل إلى أعلى درجات المهالك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب، ثمّ استُعير لطلب كلّ نقل تدريجي مِن حال إلى حال مِن
[٣٧٠و] الأحوال الملائمة للمنتقل الموافِقةِ / لهواه، بحيث يزعم أنّ ذلك ترقٍّ في مراقي منافعه، مع أنّه في الحقيقة تردٍّ في مهاوي مصارعه.

فاستدراجُه سبحانه إيّاهم أن يواتر عليهم النِّعم مع[١] انهماكهم في الغَيّ، فيحسَبوا أنّها لطف لهم منه تعالى، فيزدادوا بَطَرًا وطغيانًا؛ لكنْ لا على أنّ المطلوب تدرّجُهم في مراتب النعم، بل هو تدرّجُهم في مدارج المعاصي إلى أن يحقّ عليهم كلمة العذاب على أفظع حال وأشنعِها، والأوّلُ وسيلة إليه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متعلِّق بمضمَرٍ وقع صفةً لمصدر الفعل المذكور، أي: سنستدرجهم استدراجًا كائنًا مِن حيث لا يعلمون أنّه كذلك؛ بل يحسَبون أنّه أَثَرة مِن الله عزّ وجلّ وتقريب منه. وقيل: لا يعلمون ما يراد بهم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾، غيرُ داخل في حكم "السين" لِما أنّ الإملاء الذي هو عبارة عن الإمهال والإطالة ليس مِن الأمور التدريجيّة كالاستدراج الحاصل في نفسه شيئًا فشيئًا؛ بل هو فعل يحصل دفعةً، وإنّما الحاصل بطريق التدريج آثاره وأحكامه، لا نفسُه، كما يلوِّح به تغيير التعبير بتوحيد الضمير، مع ما فيه مِن الافتنان المُنبئ عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام لابتنائه على تجديد القصد والعزيمة.

وأمّا أنّ ذلك للإشعار بأنّه بمحض التقدير الإلهي والاستدراجَ بتوسّط المدبّرات، فمَبناه دلالة نُون العَظَمة على الشركة؛ وأنّى ذلك، وإلّا لاحترِز عن إيرادها
[٣٧٠ظ] في قوله تعالى: ﴿وَلَا[٢] يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ / إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾

---

١ س: مِن.

٢ م س: لا.

الآية [آل عمران، ٣/١٧٨]؛ بل إنّما إيرادها في أمثال هذه الموارد بطريق الجرَيان على سَنَن الكبرياء.

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ تقرير للوعيد وتأكيد له، أي: قويٌّ، لا يدافَع بقوّة ولا بحيلة. والمراد به إمّا الاستدراج والإملاء مع نتيجتهما التي هي الأخذ الشديد على غِرّة، فتسميته "كيدًا" لِما أنّ ظاهره لطف وباطنَه قهر؛ وإمّا نفس ذلك الأخذ فقط، فالتسمية لكون مقدّماته كذلك. وأمّا أنّ حقيقة الكَيد هو الأخذ على خَفاء مِن غير أن يُعتبر فيه إظهار خلاف ما أبطنه، فممّا لا تعويلَ عليه مع عدم مناسبته للمقام ضرورةَ استدعائه لاعتبار القيد المذكور حتمًا.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ كلام مبتدأ مَسوق لإنكار عدم تفكّرهم في شأنه عليه السلام وجهلِهم بحقيقة حاله الموجِبة للإيمان به وبما أُنزل عليه مِن الآيات التي كذّبوا بها. والهمزة للإنكار والتعجيب والتوبيخ. و"الواو" للعطف على مقدَّر يستدعيه سِباق النظم الكريم وسياقُه. و﴿مَا﴾ إمّا استفهاميّة إنكاريّة، في محلّ الرفع بالابتداء، والخبر ﴿بِصَاحِبِهِمْ﴾، وإمّا نافية، اسمُها ﴿جِنَّةٍ﴾، وخبرها ﴿بِصَاحِبِهِمْ﴾.

و"الجِنّة" مِن المصادر التي يراد بها الهيئة، كـ"الرِّكبة" و"الجِلسة". وتنكيرها للتقليل والتحقير. والجملة معلِّقة لفعل التفكّر لكونه مِن أفعال القلوب. ومحلّها على الوجهين النصبُ على نزع الجارّ، أي: أكذّبوا بها[1] ولم يتفكّروا في أيّ شيء مِن جنونٍ ما كائنٌ بصاحبهم الذي هو أعظم الأمّة الهادية بالحقّ وعليه أُنزلت تلك الآيات، أو في أنّه ليس بصاحبهم / شيءٌ مِن جِنّة، حتّى يؤدِّيَهم التفكّرُ في [٣٧١و] ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحّة نبوّته، فيؤمنوا به وبما أُنزل عليه مِن الآيات.

وقيل: قد تمّ الكلام عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾، أي: أكذّبوا بها ولم يفعلوا التفكّر؟ ثمّ ابتُدئ فقيل: أيُّ شيء بصاحبهم مِن جِنّةٍ ما، على طريقة الإنكار والتعجيب والتبكيت، أو قيل: ليس بصاحبهم شيءٌ منها.

---

[1] وفي هامش م: أي: بآياتنا. «منه».

والتعبير عنه صلّى الله عليه وسلّم بـ﴿صَاحِبِهِمْ﴾ للإيذان بأنّ طُول مصاحبتهم له عليه السلام ممّا يُطلِعهم على نزاهته عليه السلام عن شائبة ما ذُكر. ففيه تأكيد للنكير وتشديد له. والتعرّض لنفي الجنون عنه صلّى الله عليه وسلّم -مع وضوح استحالة ثبوته له عليه السلام- لِما أنّ التكلّم بما هو خارق لقضيّة العقول والعادات لا يصدر إلّا عمّن به مسّ مِن الجنون كيفما اتّفق مِن غير أن يكون له أصل ومعنًى، أو عمّن له تأييد إلهي يُخبر به عن الأمور الغيبيّة. وإذ ليس به عليه السلام شائبةُ الأوّل، تعيَّنَ أنّه عليه السلام مؤيَّد مِن عند الله عزّ وجلّ.

وقيل: إنّه عليه السلام علَا الصفا ليلًا، فجعل يدعو قريشًا فخِذًا فخِذًا، يحذِّرهم بأسَ الله تعالى، فقال قائلهم: «إنّ صاحبكم هذا لَمجنونٌ، باتَ يهوِّت[1] إلى الصباح»، فنزلت؛[2] فالتصريح بنفي الجنون حينئذ للردّ على عظيمتهم الشَّنْعاء، والتعبيرُ عنه عليه السلام بـ﴿صَاحِبِهِمْ﴾ واردٌ على شاكلة كلامهم، مع ما فيه مِن النكتة المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جملة مقرِّرة لمضمون ما قبلها، ومبيِّنة لحقيقة حاله صلّى الله عليه وسلّم، على منهاج قوله تعالى:[3] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف، ٣١/١٢] بعد قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف، ٣١/١٢]، أي: ما هو عليه السلام إلّا مبالِغ في الإنذار مُظهِرٌ له غايةَ الإظهار، / إبرازًا لكمال الرأفة ومبالغةً في الإعذار.[4] [٣٧١ظ]

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف آخرُ، مَسوق للإنكار والتوبيخ بإخلالهم بالتأمّل في الآيات التكوينيّة المنصوبة في الآفاق والأنفس الشاهدةِ بصحّة مضمون الآيات المنزلة، إثرَ ما نُعي عليهم

---

[1] هيّت بالقوم تهييتًا، وهوّت بهم تهويتًا، إذا ناداهم. لسان العرب لابن منظور، «هيت».

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٦٠٢/١٠؛ والكشّاف للزمخشري، ١٨٢/٢.

[3] س - تعالى.

[4] وفي هامش م: أي: إزالة العُذر. «منه».

إخلالهم بالتفكّر في شأنه عليه السلام. والهمزة لِما ذُكر مِن الإنكار والتعجيب والتوبيخ. و"الواو" للعطف على المقدَّر المذكور، أو على الجملة المَنفيّة بـ﴿لَمْ﴾.[1] والمَلَكوت: المُلك العظيم. أي: أكَذّبوا بها أو ألم يتفكّروا فيما ذُكر ولم ينظروا نظرَ تأمّلٍ فيما يدلّ عليه السماوات والأرض مِن عِظم المُلك وكمال القدرة.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ أي: وفيما خلق فيهما، على أنّه عطفٌ على ﴿مَلَكُوتِ﴾، وتخصيصُه[2] بهما لكمال ظهور عِظم المُلك فيهما؛ أو وفي مَلَكوت ما خلق، على أنّه عطفٌ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والتعميمُ لاشتراك الكلّ في الدلالة على عِظم المُلك في الحقيقة، وعليه قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس، ٨٣/٣٦].

وقوله تعالى: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ بيان لِما خلق، مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلائل المصنوعات دون دقائقها، والمعنى: أوَلم ينظروا في مَلَكوت السماوات والأرض وما خلق فيهما مِن جليل ودقيق ممّا ينطلق عليه اسمُ "الشيء" ليدلَّهم ذلك على العلم بوحدانيّته تعالى وبسائر شئونه التي ينطِق بها تلك الآيات، فيؤمنوا بها لاتّحادهما في المدلول؛ فإنّ كلّ فرد مِن أفراد الأكوان ممّا عزَّ وهانَ دليلٌ لائحٌ على الصانع المجيد وسبيلٌ واضحٌ إلى عالَم التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿مَلَكُوتِ﴾. و﴿أَنْ﴾ مخفَّفة مِن "أنّ"، واسمُها ضمير الشأن، وخبرها ﴿عَسَىٰ﴾ مع فاعلها / الذي هو ﴿أَن يَكُونَ﴾. واسم ﴿يَكُونَ﴾ أيضًا ضمير الشأن، والخبر ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾. والمعنى: أولم ينظروا في أنّ الشأن عسى أن يكون الشأنُ قد اقترب أجلهم. وقد جُوّز أن يكون اسمُ ﴿يَكُونَ﴾: ﴿أَجَلُهُمْ﴾، وخبرها: ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ﴾، على أنّها جملة مِن فعل وفاعل، هو ضمير ﴿أَجَلُهُمْ﴾ لتقدّمِه حكمًا. [٣٧٢و]

وأيًا ما كان، فمناط الإنكار والتوبيخ تأخيرُهم للنظر والتأمّل، أي: لعلّهم يموتون عمّا قريب، فما لهم لا يسارِعون إلى التدبّر في الآيات التكوينيّة

---

[1] في الآية السابقة.

[2] أي: تخصيص ﴿مَلَكُوتِ﴾.

الشاهدة بما كذّبوه مِن الآيات القرآنيّة؟ وقد جُوّز أن يكون "الأجَل" عبارةً عن الساعة، والإضافة إلى ضميرهم لملابستهم لها مِن جهة إنكارهم لها وبحثِهم عنها.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ قطعٌ لاحتمال إيمانهم رأسًا، ونفيٌ له بالكلّيّة، مترتّبٌ[1] على ما ذُكر مِن تكذيبهم بالآيات وإخلالِهم بالتفكّر والنظر. و"الباء" متعلّقة بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. وضمير ﴿بَعْدَهُۥ﴾ لـ"الآيات" على حذف المضاف المفهوم مِن "كَذّبوا"، والتذكيرُ باعتبار كونها قرآنًا، أو بتأويلها بالمذكور وإجراءِ الضمير مُجرى اسم الإشارة. والمعنى: أكَذّبوا بها ولم يتفكّروا فيما يوجِب تصديقَها مِن أحواله عليه السلام وأحوالِ المصنوعات، فبأيّ حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثلُ هذه الشواهد القويّة؟ كلّا وهيهاتَ!

وقيل: الضمير لـ"القرآن"، والمعنى: فبأيّ حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في البيان؟ / وقيل: هو إنكار وتبكيت لهم، مترتّب على [٣٧٢ظ] إخلالهم بالمسارعة إلى التأمّل فيما ذُكر، كأنّه قيل: لعلّ أجَلَهم قد اقترب، فما لهم لا يبادِرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفَوْت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحقّ، وبأيّ حديثٍ أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا؟ وقيل: الضمير لـ﴿أَجَلُهُمْ﴾، والمعنى: فبأيّ حديث بعد انقضاء أجلهم يؤمنون؟ وقيل: لـ"الرسول" صلّى الله عليه وسلّم على حذف مضاف، أي: فبأيّ حديث بعد حديثه يؤمنون وهو أصدقُ الناس؟

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله، مُنبئ عن الطبع على قلوبهم. وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ بالياء والرفع على الاستئناف، أي: وهو يذَرُهم. وقُرئ بنُون العَظَمة[2] على طريقة الالتفات، أي:

---

[1] س: مرتّب.

[2] أي: "وَنَذَرُهُمْ". قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

ونحن نذَرُهم. وقُرئ بالياء والجزمِ[1] عطفًا على محلّ ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾، كأنّه قيل: مَن يُضلل اللهُ لا يَهدِه أحدٌ ويذَرْهم. وقد رُوي الجزم بالنون عن نافع وأبي عمرو في الشواذّ.[2]

وقوله تعالى: ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ أي: يتردّدون ويتحيّرون، حالٌ مِن مفعول ﴿يَذَرُهُمۡ﴾. وتوحيد الضمير في حيّز النفي نظرًا إلى لفظ ﴿مَن﴾، وجمعُه في حيّز الإثبات نظرًا إلى معناها للتنصيص على شمول النفي والإثبات للكلّ.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ استئناف مَسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم وطغيانهم، أي: عن القيامة. وهي مِن الأسماء الغالبة. وإطلاقها عليها إمّا لوقوعها بَغتةً أو لسرعة ما فيها مِن الحساب، أو لأنّها ساعة عند الله تعالى مع طُولها في نفسها. قيل: إنّ قومًا مِن اليهود قالوا: «يا محمّدُ، أخبِرنا متى الساعة إن كنت نبيًّا؟ فإنّا نعلم متى هي»،[3] وكان ذلك امتحانًا منهم مع علمهم أنّه تعالى قد استأثر بعلمها. وقيل: السائلون قريش.[4]

وقوله تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ بفتح الهمزة. وقد قُرئ بكسرها.[5] / وهو ظرفُ زمان متضمِّنٌ لمعنى الاستفهام، ويَليه المبتدأ أو الفعل المضارع دون الماضي، بخلاف "متى"، حيث يليها كلاهما. قيل: اشتقاقه مِن "أيّ" -"فَعْلان" منه- لأنّ معناه: أيّ وقت، وهو مِن "أوَيتُ إلى الشيء"؛ لأنّ البعض آوٍ إلى الكلّ متساندٌ إليه. ومحلّه الرفع على أنّه خبرٌ مقدَّم، و﴿مُرۡسَىٰهَا﴾ مبتدأ مؤخَّر، [٣٧٣و]

---

١ أي: " وَيَذَرْهُمْ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

٢ أي: " وَنَذَرْهُمْ". انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٩٩؛ واللباب لابن عادل، ٩/٤٠٨.

٣ انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/١٨٣.

٤ انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣١٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّلمي. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٦٨.

أي: متى إرساؤها، أي: إثباتها وتقريرها؛ فإنّه مصدر مِيميّ مِن "أرساه" إذا أثبته وأقرّه. ولا يكاد يُستعمل إلّا في الشيء الثقيل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات، ٣٢/٧٩]. ومنه: "مِرساة السُّفن".

ومحلّ الجملة قيل: الجرُّ على البدليّة مِن ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، والتحقيقُ: أنّ محلّها النصب بنزع الخافض؛ لأنّها بدل مِن الجارّ والمجرور، لا مِن المجرور فقط، كأنّه قيل: يسألونك عن الساعة عن أيّان مُرساها.

وفي تعليق السؤال بنفس الساعة أوّلًا وبوقت وقوعها ثانيًا تنبيهٌ على أنّ المقصد الأصلي مِن السؤال نفسُها باعتبار حلولها في وقتها المعيَّن، لا وقتُها باعتبار كونه محلًّا لها. وقد سُلك هذا المَسلك في الجواب الملقَّن أيضًا، حيث أضيفَ العلم المطلوب بالسؤال إلى ضميرها، فأُخبرَ باختصاصه به عزّ وجلّ، حيث قيل: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: علمُها بالاعتبار المذكور ﴿عِندَ رَبِّى﴾، ولم يُقل: إنّما علمُ وقت إرسائها. ومَن لم يتنبّه لهذه النُّكتة حمَلَ النظم الكريم على حذف المضاف.[1]

والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأنّ توفيقه عليه السلام للجواب على الوجه المذكور مِن باب التربية والإرشاد. ومعنى كونه عنده تعالى خاصّةً أنّه تعالى قد استأثر به، بحيث لم يُخبر به أحدًا مِن مَلك مقرَّب / أو نبيّ مرسَل. [٣٧٣ظ]

وقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ بيان لاستمرار تلك الحالة إلى حين قيامها، وإقناط كلّي عن إظهار أمرها بطريق الإخبار مِن جهته تعالى أو مِن جهة غيره لاقتضاء الحكمة التشريعيّة إيّاه، فإنّه أدعى إلى الطاعة وأزجرُ عن المعصية، كما أنّ إخفاء الأجَل الخاصّ للإنسان كذلك، والمعنى: لا يكشِف عنها ولا يُظهر للناس أمرها الذي تسألونني عنه إلّا هو بالذات، مِن غير أن يشعُر به أحد مِن المخلوقين فيتوسّطَ في إظهاره لهم؛ لكنْ لا بأن يُخبرهم بوقتها

[1] هو الزمخشري في الكشّاف، ١٨٣/٢.

قبل مَجيئه كما هو المسئول، بل بأن يُقيمها فيشاهدوها عِيانًا كما يُفصح عنه التَّجْلية المُنبئة عن الكشف التامّ المُزيل للإبهام بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿لِوَقْتِهَا﴾، أي: في وقتها، قيدٌ للتجلية بعد ورود الاستثناء عليها، لا قبلَه، كأنّه قيل: لا يُجَلّيها إلّا هو في وقتها؛ إلّا أنّه قُدّم على الاستثناء للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّ تجليتها ليست بطريق الإخبار بوقتها، بل بإظهار عينها في وقتها الذي يسألون عنه.

وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف كما قبله، مقرّر لمضمون ما قبله، أي: كبُرت وشقّت على أهلهما مِن الملائكة والثقلين، كلٌّ منهم أهمَّه خفاؤها وخروجُها عن دائرة العقول. وقيل: عظُمت عليهم، حيث يُشفِقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها. وقيل: ثقُلت فيهما، إذ لا يُطيقها منهما وممّا فيهما شيءٌ أصلًا.

والأوّل هو الأنسب بما قبله وبما بعده مِن قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾؛ فإنّه أيضًا استئناف مقرّر لمضمون ما قبله، فلا بدَّ مِن اعتبار الثِّقل مِن حيث الخفاء، أي: لا تأتيكم إلّا فُجَاءةً على غفلة، كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الساعة تَهِيجُ بالناس، / والرَّجلُ يُصلِح حَوضَه، والرجلُ يَسقي ماشِيتَه، والرجلُ يقوّم سِلعتَه في سُوقه، والرجلُ يخفِض مِيزانَه ويرفَعُه».[1] [٣٧٤و]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ استئناف مَسوق لبيان خَطَئهم في توجيه السؤال إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بناءً على زعمهم أنّه عليه السلام عالمٌ بالمسئول عنه أو أنّ العلم بذلك مِن مواجب الرسالة، إثرَ بيان خطئهم في أصل السؤال بإعلام شأن المسئول عنه.

والجملة التشبيهيّة في محلّ النصب على أنّها حال مِن "الكاف"، جِيء بها بيانًا لِما يدعوهم إلى السؤال على زعمهم، وإشعارًا بخطئهم في ذلك، أي:

---

١ جامع البيان للطبري، ٦١٠/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ١٨٤/٢. ونحوه في صحيح البخاري، ١٠٦/٨ (٦٥٠٦)؛ وصحيح مسلم، ٢٢٧٠/٤ (٢٩٥٤).

يسألونك مشبَّهًا حالُك عندهم بحال مَن هو حَفِيٌّ عنها، أي: مبالِغ في العلم بها؛ "فَعِيلٌ" مِن "حَفِيَ". وحقيقته: كأنّك مبالِغ في السؤال عنها، فإنّ ذلك في حكم المبالغة في العلم بها لِما أنّ مَن بالغ في السؤال عن الشيء والبحثِ عنه، استحكَمَ علمه به. ومَبنى التركيب على المبالغة والاستقصاء. ومنه: "إحفاء الشارب" و"احتفاء البَقل"، أي: استئصاله، و"الإحفاء في المسألة"، أي: الإلحاف فيها.

وقيل: ﴿عَنْ﴾ متعلِّقة بـ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ معترض، وصلةُ ﴿حَفِيٌّ﴾ محذوفة، أي: حفيّ بها. وقد قُرئ كذلك.[١]

وقيل: هو مِن "الحَفاوة" بمعنى: البِرّ والشَّفقة؛ فإنّ قريشًا قالوا له عليه السلام: «إنّ بيننا وبينك قرابةً، فقُلْ لنا متى الساعة؟»،[٢] والمعنى: يسألونك كأنّك حفيٌّ تتحفّى بهم، فتخصّهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتَزوِي أمرَها عن غيرهم. ففيه تخطئة لهم مِن جهتين.

وقيل: هو مِن "حفِي بالشيء" بمعنى: فرِح به، والمعنى: كأنّك فرِحٌ بالسؤال عنها تُحبّه، مع أنّك كارهٌ له لِما أنّه تعرّضٌ / لِحَرم الغيب الذي [٣٧٤ظ] استأثر الله عزّ وجلّ بعلمه.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أُمر عليه السلام بإعادة الجواب الأوّل تأكيدًا للحكم وتقريرًا له، وإشعارًا بعلّته على الطريقة البرهانيّة بإيراد اسم الذات المُنبئ عن استتباعها لصفات الكمال التي مِن جملتها العلمُ، وتمهيدًا للتعريض بجهلهم بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ما ذُكر مِن اختصاص علمها به تعالى، فبعضُهم يُنكرونها رأسًا، فلا يعلمون شيئًا ممّا ذُكر قطعًا، وبعضُهم يعلمون أنّها واقعة البتّةَ، ويزعمون أنّك واقفٌ على وقت وقوعها، فيسألونك عنه جهلًا، وبعضُهم يدّعون أنّ العلم بذلك مِن مواجب الرسالة، فيتّخذون السؤال عنه ذريعةً إلى القدح في رسالتك. والمستثنَى مِن هؤلاء

---

١ أي: "حَفِيٌّ بِهَا"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. المحتسَب لابن جنّي، ٢٦٩/١.

٢ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٣١؛ والكشّاف للزمخشري، ١٨٥/٢.

هُم الواقفون على جليّة الحال مِن المؤمنين. وأمّا السائلون عنها مِن اليهود بطريق الامتحان، فهم منتظمون في سِلك الجاهلين، حيث لم يعملوا بعلمهم.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ شروع في الجواب عن السؤال ببيان عجزه عن علمها[1] إثرَ بيان عجز الكلّ عنه وإبطالِ زعمهم الذي بنَوا عليه سؤالهم مِن كونه عليه السلام ممّن يعلمها. وإعادة الأمر لإظهار كمال العناية بشأن الجواب والتنبيهِ على استقلاله ومغايرته للأوّل. والتعرّض لبيان عجزه عمّا ذُكر مِن النفع والضرّ لإثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهانيّ. و"اللام" إمّا متعلّق بـ﴿أَمۡلِكُ﴾، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿نَفۡعٗا﴾. أي: لا أقدر لأجل نفسي على جلب نفعٍ ما، ولا على دفع ضرٍّ ما ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملِكه مِن ذلك بأن يُلهمنيه، فيُمكِنَني منه ويُقدِرَني عليه؛ أو لكن ما شاء الله مِن ذلك كائنٌ، فالاستثناء منقطِع، وهذا أبلغُ في إظهار العجز.

﴿وَلَوۡ كُنتُ / أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: جنسَ الغيب الذي مِن جملته ما بين الأشياء [٣٧٥و] مِن المناسَبات المصحِّحة عادةً للسببيّة والمسبَّبيّة، ومِن المبايَنات المستتبعة للممانعة والمدافعة. ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: لَحصّلتُ كثيرًا مِن الخير الذي نِيط تحصيلُه بالأفعال الاختياريّة للبشر بترتيب أسبابه ودفع موانعه، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: السوء الذي يُمكن التفصّي[2] عنه بالتوقّي عن موجِباته والمدافعة بموانعه، لا سوءَ ما، فإنّ منه ما لا مدفعَ له.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أي: ما أنا إلّا عبد مرسَل للإنذار والبِشارة، شأني حيازةُ ما يتعلّق بهما مِن العلوم الدينيّة والدنيويّة، لا الوقوفُ على الغيوب التي لا علاقةَ بينها وبين الأحكام والشرائع، وقد كشفتُ مِن أمر الساعة ما يتعلّق به الإنذارُ

---

١ أي: علم الساعة.

٢ التفصّي: التخلّص مِن المضيق أو البليّة. تاج العروس للزبيدي، «فصي».

مِن مَجيئها لا محالةَ واقترابِها. وأمّا تعيين وقتها، فليس ممّا يستدعيه الإنذار؛ بل هو ممّا يقدح فيه لِما مرّ مِن أنّ إبهامه أدعى إلى الانزجار عن المعاصي. وتقديم "النذير" على "البشير" لِما أنّ المقام مقامُ الإنذار.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إمّا متعلّق بهما جميعًا؛ لأنّهم ينتفعون بالإنذار كما ينتفعون بالبِشارة، وإمّا بـ"البشير" فقط، وما يتعلّق بـ"النذير" محذوف، أي: نذيرٌ للكافرين، أي: الباقين على الكفر، وبشيرٌ لقوم يؤمنون، أي: في أيّ وقت كان. ففيه ترغيب للكَفَرة في إحداث الإيمان وتحذيرٌ عن الإصرار على الكفر والطغيان.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ استئناف سِيق لبيان كمال عِظم جناية الكَفَرة في جرأتهم على الإشراك بتذكير مبادي أحوالهم المنافية له. / وإيقاع الموصول خبرًا لتفخيم شأن المبتدأ، أي: هو ذلك العظيمُ الشأنِ الذي خلقكم جميعًا وحدَه مِن غير أن يكون لغيره مَدخل في ذلك بوجه مِن الوجوه. ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو آدمُ عليه السلام. وهذا نوعُ تفصيل لِما أشيرَ إليه في مَطلع السورة الكريمة إشارةً إجماليّةً[1] مِن خلقهم وتصويرهم في ضمن خلق آدمَ وتصويره، وبيانٌ لكيفيّته. [٣٧٥ظ]

﴿وَجَعَلَ﴾ عطفٌ على ﴿خَلَقَكُم﴾، داخلٌ في حكم الصلة؛ ولا ضيرَ في تقدّمه عليه وجودًا لِما أنّ "الواو" لا تستدعي الترتيبَ في الوجود. ﴿مِنْهَا﴾ أي: مِن جنسها، كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل، ٧٢/١٦؛ الشورى، ١١/٤٢]، أو مِن جسدها، لِما يُروى أنّه تعالى خلق حوّاءَ مِن ضِلع مِن أضلاع آدمَ عليه السلام.[2] والأوّل هو الأنسب، إذ الجنسيّة هي المؤدّية إلى الغاية الآتية، لا الجزئيّة.

---

[1] في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف، ١١/٧].

[2] انظر: تفسير البقرة، ٣٥/٢.

و"الجعل" إمّا بمعنى "التصيير"، فقوله تعالى: ﴿زَوْجَهَا﴾ مفعوله الأوّل، والثاني هو الظرف المقدَّم، وإمّا بمعنى "الإنشاء"، والظرف متعلِّق بـ﴿جَعَلَ﴾، قُدِّم على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، أو بمحذوف هو حال مِن المفعول. والأوّل هو الأولى.

وقوله تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ علّة غائيّة للجعل باعتبار تعلّقه بمفعوله الثاني، أي: ليستأنسَ بها ويطمئنَّ إليها اطمئنانًا مصحِّحًا للازدواج، كما يلوِّح به تذكير الضمير ويُفصح عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامَعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ في مبادي الأمر، فإنّه عند كونه نُطفةً أو عَلَقةً أو مُضغةً أخفُّ عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك مِن المراتب. والتعرّض لذكر خِفّته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه تعالى إيّاهم متدرّجين في أطوار الخلق مِن العدم إلى الوجود ومِن الضَّعف إلى القوّة.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ / أي: فاستمرّت به كما كانت قبلُ، حيث قامت وقعدت [٣٧٦و] وأخذت وتركت. وعليه قراءة ابن عبّاس رضي الله عنهما.[١] وقُرئ: "فَمَرَتْ"[٢] بالتخفيف، و"فَمَارَتْ"[٣] مِن "المَوْر"، وهو المَجيء والذهاب، أو مِن "المِرية"، أي: فظنّت الحملَ وارتابت به.

وأمّا ما قيل[٤] مِن أنّ المعنى: "حمَلتْ حملًا خَفَّ عليها، ولم تلقَ منه ما تلقَى بعضُ الحَبالى مِن حملهنّ مِن الكَرب والأذيّة، ولم تستثقله كما يستثقِلْنَه، فمرّت به، أي: فمضَت به إلى مِيلاده مِن غير إخداج[٥] ولا إزلاق"،[٦] فيردّه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾؛ إذ معناه: فلمّا صارت ذاتَ ثِقل لكِبر الولد في بطنها. ولا ريبَ في[٧] أنّ الثِّقل بهذا المعنى ليس مقابِلًا للخِفّة بالمعنى المذكور.

---

١ أي: "فَاسْتَمَرَّتْ بِهِ"، وهي قراءة شاذّة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يَعمَر. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٦٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٠.

٤ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/١٨٦.

٥ ناقة خادِج: ألقتْ ولدَها قبل الوقت وإن تمّ خَلقُه، ومُخدِجٌ: جاءت به ناقصَ الخَلق وإن كان لوقته. أساس البلاغة للزمخشري، «خدج».

٦ أزلقت الناقةُ: أسقطتْ. الصحاح للجوهري، «زلق».

٧ س – في.

إنّما مقابِلها الكَربُ الذي يعتري بعضَهنّ مِن أوّل الحمل إلى آخره دون بعضٍ أصلًا. وقُرئ: "أُثْقِلَتْ"[1] على البناء للمفعول، أي: أثقلها حملُها.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾ أي: آدمُ وحوّاءُ عليهما السلام لمّا دَهِمهما أمرٌ لم يعهَداه ولم يعرفَا مآلَه، فاهتمَّا به وتضرّعَا إليه عزّ وجلّ. وقوله تعالى: ﴿رَبَّهُمَا﴾ أي: مالِكَ أمرهما الحقيقَ بأن يُخَصّ به الدعاء، إشارةٌ إلى أنّهما قد صدّرَا به دعاءَهما، كما في قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية [الأعراف، ٧/٢٣].

ومتعلّق الدعاء محذوف تعويلًا على شهادة الجملة القَسَميّة به، أي: دعَوَاه تعالى أن يُؤتيَهما صالحًا، ووعدَا بمقابلته الشكرَ على سبيل التوكيد القَسميّ، وقالا أو قائلَين: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ أي: ولدًا مِن جنسنا سَوِيًّا، ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ نحن ومَن يتناسل مِن ذُرّيّتنا ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الراسخين في الشكر على نَعْمائك التي مِن جملتها هذه النعمة.

[٣٧٦ظ] / وترتيب هذا الجواب على الشرط المذكور لِما أنّهما قد علمَا أنّ ما علّقَا به دعاءَهما أنمُوذَج لسائر أفراد الجنس ومعيارٌ لها ذاتًا وصفةً، وجودُه مستتبع لوجودها، وصلاحُه مستلزِم لصلاحها، فالدعاء في حقّه متضمِّنٌ للدعاء في حقّ الكلّ مستتبِعٌ له، كأنّهما قالا: لئن آتيتَنا وذُرّيّتَنا أولادًا صالحةً.

وقيل:[2] إنّ ضمير ﴿ءَاتَيۡتَنَا﴾ أيضًا لهما ولكلّ مَن يتناسل مِن ذُرّيّتهما.[3] وأنت خبير بأنّ نظم الكلّ في سِلك الدعاء أصالةً يأباه مقام المبالغة في الاعتناء بشأن ما هما بصدده. وأمّا جعلُ ضمير ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ للكلّ، فلا محذورَ فيه؛ لأنّ توسيع دائرة الشكر غيرُ مُخِلّ بالاعتناء المذكور، بل مؤكِّدٌ له.

وأيًّا ما كان، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾: لمّا آتاهما ما طلباه أصالةً واستتباعًا مِن الولد وولد الولد ما تناسَلوا. فقوله تعالى: ﴿جَعَلَا﴾ أي: جعل أولادُهما ﴿لَهُۥ﴾ تعالى ﴿شُرَكَآءَ﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه

---

[1] قراءة شاذّة. ذكرها الزمخشري بلا نسبة في الكشّاف، ٢/١٨٦.

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/١٨٦.

[3] ط س + فالوجه ظاهرٌ. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه أزالها بعد نسخ ط س.

مُقامه ثقةً بوضوح الأمر وتعويلًا على ما يعقبه مِن البيان. وكذا الحال في قوله تعالى: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: فيما آتى أولادَهما مِن الأولاد، حيث سمَّوهم بـ"عبد مَناف" و"عبد العُزّى" ونحو ذلك.

وتخصيص إشراكهم هذا بالذِّكر في مقام التوبيخ -مع أنّ إشراكهم بالعبادة أغلظُ منه جنايةً وأقدمُ وقوعًا- لِما أنّ مَساق النظم الكريم لبيان إخلالهم بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح، وأوّلُ كفرهم في حقّه إنّما هو تسميتهم إيّاه بما ذُكر. وقُرئ: "شِرْكًا"،[1] أي: شركةً أو ذَوي شركة، أي: شركاءَ.

إن قيل: ما ذُكر مِن حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامَه إنّما يُصار إليه فيما يكون للفعل ملابسةٌ ما بالمضاف إليه أيضًا بسرايته إليه حقيقةً أو حكمًا، ويتضمّن نسبته إليه صورةً مزيّةً يقتضيها المقام، كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية [الأعراف، ١٤١/٧]، فإنّ الإنجاء منهم -مع أنّ تعلّقه حقيقةً ليس إلّا بأسلاف اليهود- قد نُسب إلى أخلافهم بحكم سرايته إليهم توفيةً لمقام الامتنان حقَّه، وكذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة، ٩١/٢]، / فإنّ القتل حقيقةً -مع كونه مِن جنايات آبائهم- قد أُسندَ إليهم بحكم [٣٧٧و]
رِضاهم به أداءً لحقّ مقام التوبيخ والتبكيت. ولا ريبَ في أنّهما عليهما السلام بَريئان مِن سراية الجعل المذكور إليهما بوجه مِن الوجوه. فما وجهُ إسناده إليهما صورةً؟

قلنا: وجهُه الإيذان بتركهما الأَولى، حيث أقدمَا على نظم أولادهما في سِلك أنفسهما، والتزمَا شكرهم في ضمن شكرهما، وأقسمَا على ذلك قبل تعرّف أحوالهم ببيان[2] أنّ إخلالهم بالشكر الذي وعداه وعدًا مؤكَّدًا باليمين بمنزلة إخلالهما به بالذات في استيجاب الحِنْث والخُلْف، مع ما فيه مِن الإشعار بتضاعف جنايتهم ببيان أنّهم بجعلهم المذكور أوقعوهما في وَرْطة الحِنث والخُلف، وجعلوهما كأنّهما باشراه بالذات، فجمعوا بين الجناية على الله تعالى والجناية عليهما عليهما السلام.

---

[1] قرأ بها نافع وعاصم في رواية أبي بكر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٣/٢.

[2] متعلّق بقوله: "الإيذان".

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تنزيه فيه معنى التعجّب. و"الفاء" لترتيبه على ما فُصّل مِن أحكام قدرته تعالى وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعيةِ إلى التوحيد. وصيغة الجمع لِما أشيرَ إليه مِن تعيين الفاعل وتنزيهِ آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام عن ذلك. و﴿مَا﴾ في ﴿عَمَّا﴾ إمّا مصدريّة، أي: عن إشراكهم، أو موصولة أو موصوفة، أي: عمّا يشركونه به سبحانه. والمراد بإشراكهم إمّا تسميتهم المذكورةُ أو مطلقُ إشراكهم المنتظِم لها انتظامًا أوّليًا. وقُرئ: "تُشْرِكُونَ"[1] بتاء الخطاب بطريق الالتفات.

وقيل: الخطاب لآل قُصَيّ مِن قريش، والمراد بـ"النفس الواحدة" نفسُ قُصَيّ، فإنّهم خُلقوا منه، وكان له زوج مِن جنسه عربيّةٌ قُرَشيّةٌ، وطلبا مِن الله تعالى ولدًا صالحًا، فأعطاهما أربعةَ بنينَ، فسمّياهم "عبدَ مَناف" و"عبدَ شمس" و"عبدَ قُصَي" و"عبدَ الدار".[2] وضمير ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ لهما ولأعقابهما المُقتَدين بهما.

وأمّا ما قيل: مِن أنّه لمّا حملت حوّاءُ أتاها إبليسُ في صورة رجل، فقال لها: «ما يُدريكِ ما في بطنكِ، لعلّه بهيمة أو كلب أو خنزير؟ وما يُدريكِ مِن أين يخرج؟»، فخافت مِن ذلك، فذكرتْه لآدمَ عليه السلام، فأهمَّهما ذلك، ثمّ عاد إليها وقال: / «إنّي مِن الله تعالى بمنزلةٍ، فإنْ دعوتُه أن يجعله خلقًا مِثلَكِ ويسهِّلَ عليكِ خروجَه تُسمّينَه "عبدَ الحارث"»، وكان اسمه حارثًا في الملائكة، فقبلتْ، فلمّا وَلدتْ سمّتْه "عبدَ الحارث"،[3] فممّا لا تعويلَ عليه؛ كيف لا، وإنّه عليه السلام كان علَمًا في عِلم الأسماء والمسمَّيات، فعدمُ علمه بإبليسَ واسمِه واتّباعُه إيّاه في مِثل هذا الشأن الخطير أمرٌ قريبٌ مِن المحال. والله أعلم بحقيقة الحال. [٣٧٧ظ]

﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١﴾

﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾ استئناف مَسوق لتوبيخ كافّة المشركين واستقباح إشراكهم على الإطلاق وإبطالِه بالكلّيّة ببيان شأن ما أشركوه به سبحانه وتفصيلِ أحواله

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠٠.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥/٣.

[3] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥/٣.

القاضية ببطلان ما اعتقدوه في حقّه، أي: أيشركون به تعالى ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يقدر على أن يخلق شيئًا مِن الأشياء أصلًا. ومِن حقّ المعبود أن يكون خالقًا لعابده لا محالةَ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَخْلُقُ﴾. وإيراد الضميرين بجمع العُقلاء -مع رجوعهما إلى ﴿مَا﴾ المعبَّر بها عن الأصنام- إنّما هو بحسب اعتقادهم فيها وإجرائِهم لها مُجرى العقلاء وتسميتِهم لها آلهةً. وكذا حال سائر الضمائر الآتية. ووصفُها بالمخلوقيّة بعد وصفها بنفي الخالقيّة لإبانة كمال منافاة حالها لِما اعتقدوه في حقّها وإظهارِ غاية جهلهم، فإنّ إشراك ما لا يقدر على خلق شيءٍ ما بخالقه وخالقِ جميع الأشياء ممّا لا يمكن أن يسوّغه مَن له عقل في الجملة. وعدمُ التعرّض لخالقها للإيذان بتعيّنه والاستغناء عن ذكره.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ أي: لِعَبَدتهم إذا حزّ بهم أمرٌ مهمّ وخَطبٌ مُلِمّ ﴿نَصْرًا﴾ أي: نصرًا ما بجلب منفعة أو دفعِ مَضرّة، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إذا اعتراهم حادثة مِن الحوادث، أي: لا يدفعونها / عن أنفسهم. وإيراد "النصر" [٣٧٨و] للمشاكلة. وهذا بيان لعجزهم عن إيصال منفعةٍ ما مِن المنافع الوجوديّة والعدميّة إلى عبَدتِهم وأنفسِهم بعد بيان عجزهم عن إيصال منفعة الوجود إليهم وإلى أنفسهم؛ خلَا أنّهم وُصفوا هناك بالمخلوقيّة[١] لكونهم أهلًا لها، وههنا لم يوصَفوا بالمنصوريّة؛ لأنّهم ليسوا أهلًا لها.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بيان لعجزهم عمّا هو أدنى مِن النصر المَنفيّ عنهم وأيسرُ، وهو مجرّدُ الدلالة على المطلوب والإرشاد إلى طريق حصوله مِن غير أن يحصّله للطالب. والخطاب للمشركين بطريق الالتفات

---

١ أي: في الآية السابقة.

المُنبِئ عن مَزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت، أي: إن تدعوهم -أيّها المشركون- إلى أن يَهدوكم إلى ما تحصِّلون به المطالبَ أو تنجُون به عن المكاره، ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم وطَلِبَتِكم. وقُرئ بالتخفيف.[١]

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله ومبيِّنٌ لكيفيّة عدم الاتّباع، أي: مُستوٍ عليكم في عدم الإفادة دعاؤُكم لهم وسكوتُكم البَحتُ، فإنّه لا يتغيّر حالكم في الحالين، كما لا يتغيّر حالهم بحكم الجماديّة. وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ جملة اسميّة في معنى الفعليّة، معطوفةٌ على الفعليّة؛ لأنّها في قوّة "أمْ صَمَتُّم"، عُدل عنها للمبالغة في عدم إفادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمرّ.

وما قيل[٢] مِن أنّ الخطاب للمسلمين، والمعنى: وإن تدعوا المشركين إلى الهدى -أي: الإسلامِ- لا يتّبعوكم... إلخ، ممّا لا يساعده سِياق النظم الكريم وسياقُه أصلًا، على أنّه لو كان كذلك لَقيل: "عليهم" مكانَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة، ٦/٢]؛ فإنّ استواء الدعاء وعدمَه إنّما هو بالنسبة / إلى المشركين، لا بالنسبة إلى الداعين، [٣٧٨ظ] فإنّهم فائزون بفضل الدعوة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تقرير لِما قبله مِن عدم اتّباعهم لهم، أي: إنّ الذين تعبُدونهم مِن دونه تعالى مِن الأصنام وتُسَمُّونهم آلهةً ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: مماثِلة لكم؛ لكنْ لا مِن كلّ وجه، بل مِن حيث إنّها مملوكة لله عزّ وجلّ مسخَّرةٌ لأمره عاجزةٌ عن النفع والضرر. وتشبيهُها بهم في ذلك -مع كون عجزها عنهما[٣] أظهرَ وأقوى مِن عجزهم- إنّما هو لاعترافهم

---

[١] أي: "لَا يَتْبَعُوكُمْ". قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣-٢٧٤.

[٢] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٦/٣.

[٣] أي: على النفع والضرر.

بعجز أنفسهم وادّعائِهم لقدرتها عليهما؛ إذ هو الذي يدعوهم إلى عبادتها والاستعانة بها.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم، أي: فادْعُوهم في جلب نفع أو كشفِ ضرّ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنّهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾... إلخ تبكيتٌ إثرَ تبكيتٍ، مؤكِّدٌ لِما يفيده الأمر التعجيزي مِن عدم الاستجابة ببيان فُقدان آلاتها بالكلّيّة، فإنّ الاستجابة مِن الهياكل الجسمانيّة إنّما تُتصوّر إذا كان لها حياة وقُوًى محرّكةٌ ومُدرِكةٌ، وما ليس له شيء مِن ذلك، فهو بمَعزِل مِن الأفاعيل بالمرّة، كأنّه قيل: ألَهم هذه الآلات التي بها يتحقّق الاستجابة حتّى يمكنَ استجابتهم لكم؟

وقد وُجّه الإنكار إلى كلّ واحدة مِن هذه الآلات الأربع على حِدة تكريرًا للتبكيت، وتثنيةً للتقريع، وإشعارًا بأنّ انتفاء كلّ واحدة منها بحيالها كافٍ في الدلالة على استحالة الاستجابة. ووصفُ الأرجُل بالمَشي بها للإيذان بأنّ مدار الإنكار هو الوصف، وإنّما وُجّه إلى الأرجُل -لا إلى الوصف بأن يقال: أيمشُون بأرجُلهم؟- لتحقيقِ أنّها حيث لم يظهر منها ما يظهر مِن سائر الأرجُل، فهي ليست بأرجُلٍ في الحقيقة. وكذا الكلام فيما بعده مِن الجوارح الثلاث الباقية.

/ وكلمة ﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ منقطِعة. وما فيها [٣٧٩و]
مِن "الهمزة" لِما مرّ مِن التبكيت والإلزام، و"بل" للإضراب المفيد للانتقال مِن فنّ مِن التبكيت بعد تمامه إلى فنّ آخرَ منه لِما ذُكر مِن المزايا. والبَطْش: الأخذ بقوّة. وقُرئ: "يَبطُشُونَ"[١] بضمّ الطاء، وهي لغة فيه. والمعنى: بل ألَهم أيدٍ يأخذون بها ما يريدون أخْذه؟

---

١ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٤.

وتأخير هذا عمّا قبله لِما أنّ المَشي حالُهم في أنفسهم والبطشَ حالُهم بالنسبة إلى الغير. وأمّا تقديمه على قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ -مع أنّ الكلّ سواءٌ في أنّها مِن أحوالهم بالنسبة إلى الغير- فلمراعاة المقابلة بين الأيدي والأرجُل، ولأنّ انتفاء المشي والبطش أظهرُ والتبكيتَ بذلك أقوى. وأمّا تقديم "الأعيُن"، فلِما أنّها أشهرُ مِن الآذان، وأظهرُ عينًا وأثرًا.

هذا، وقد قُرئ: "إِنِ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادًا أَمْثَالَكُمْ"[1] على إعمال "إنْ" النافية عملَ "ما" الحجازيّة،[2] أي: ما الذين تدعون مِن دونه تعالى عِبادًا أمثالَكم، بل أدنى منكم؛ فيكونُ قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ﴾... إلى آخره تقريرًا لنفي المماثلة بإثبات القصور والنقصان.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ بعد ما بيّن أنّ شركاءهم لا يقدرون على شيءٍ ما أصلًا أُمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يناصِبهم للمُحاجّة ويكرّرَ عليهم التبكيت وإلقامَ الحَجَر،[3] أي: ادعوا شركاءَكم واستعِينوا بهم عليَّ، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعًا أنتم وشركاؤكم، وبالِغوا في ترتيب ما تقدرون عليه مِن مبادي الكيد والمكر، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: فلا تُمهلوني ساعةً بعد ترتيب مقدّمات الكيد، فإنّي لا أبالي بكم أصلًا.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تعليل لعدم المبالاة المنفهم مِن السَّوق انفهامًا جليًّا. ووصفُه تعالى بتنزيل الكتاب / للإشعار بدليل الولاية والإشارةِ [٣٧٩ظ]

---

[1] في الآية السابقة. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٧٠.

[2] قال إمام الحرمين الجويني في البرهان، ١/٥٢: «إنْ اتّصلت "ما" بالابتداء أو الخبر، فأهل الحجاز يرَون إحلالَها محلَّ "ليس"، فيرفعون بها الاسمَ وينصبون الخبر، وهي لغة القرآن، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف، ١٢/٣١]. وبنو تميم لا تُعمل "ما" النافية؛ لأنّها تدخل على الاسم والفعل. وقياس "ما" يدخل على البابين -أعني: الاسم والفعل- ألّا يعمل في واحد منهما».

[3] ألقمَه الحَجَرَ: يُضرَب للمُجيب بجواب مُسكِت. المستقصى للزمخشري، ١/٣٣٩

إلى علّة أخرى لعدم المبالاة، كأنّه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم؛ لأنّ وليّيَ هو الله الذي نزّل الكتاب الناطقَ بأنّه وليّي وناصري، وبأنّ شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلًا عن نصركم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: ومِن عادته أن يتولّى الصالحين مِن عباده وينصُرَهم ولا يخذُلَهم.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ أي: تعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى، أو تدعونهم للاستعانة بهم عليّ حسبما أمرتُكم به، ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾ أي: في أمر مِن الأمور، أو في خصوص الأمر المذكور، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ إذا نابتْهم نائبة.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ إلى أن يَهدوكم إلى ما تحصِّلون به مقاصدَكم على الإطلاق، أو في خصوص الكيد المعهود، ﴿لَا يَسۡمَعُواْ﴾ أي: دعاءَكم، فضلًا عن المساعدة والإمداد. وهذا أبلغُ مِن نفي الاتّباع.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع. وبه يتمّ التعليلُ، فلا تكرارَ أصلًا. والرؤية بصريّة. وقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ حال مِن المفعول، والجملةُ الاسميّة حال مِن فاعل ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: وترى الأصنامَ رأيَ العينِ يُشبِهون الناظرين إليك، ويخيَّلُ[1] إليك أنّهم يُبصِرونك لِما أنّهم صنعوا لها أعيُنًا مركّبةً بالجواهر المُضيئة المتلألِئة، وصوّروها بصورة مَن قلب حدَقَتَه إلى الشيء ينظُر إليه، والحالُ أنّهم غير قادرين على الإبصار.

وتوحيد الضمير في ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾ مع رجوعه إلى المشركين لتوجيه الخطاب إلى كلّ واحدٍ واحدٍ منهم، لا إلى الكلّ مِن حيث هو كلّ كالخطابات السابقة،

---

١ وفي هامش م: قاله ابن الأنباري. | نقله عنه الواحدي في التفسير البسيط، ٥٣٨/٩.

[٣٨٠و] تنبيهًا على أنّ رؤية الأصنام على الهيئة / المذكورة لا يتسنّى للكلّ معًا؛ بل لكلّ مَن يواجهها. وقيل: ضمير الفاعل في ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وضمير المفعول على حاله، وقيل: للمشركين، على أنّ التعليل قد تمّ عند قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾، أي: وترى المشركين ينظرون إليك، والحالُ أنّهم لا يُبصرونك كما أنتَ عليه.

وعن الحسن[١] أنّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوا﴾ للمؤمنين،[٢] على أنّ التعليل قد تمّ عند قوله تعالى: ﴿يَنصُرُونَ﴾، أي: وإن تدعوا -أيّها المؤمنون- المشركين إلى الإسلام لا يلتفِتوا إليكم؛ ثمّ خُوطبَ عليه السلام بطريق التجريد بـ"أنّك تراهم ينظُرون إليك والحالُ أنّهم لا يُبصرونك حقَّ الإبصار"، تنبيهًا على أنّ ما فيه عليه السلام مِن شواهد النبوّة ودلائلِ الرسالة مِن الجَلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ بعد ما عُدّ مِن أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يُطاق تحمّله أُمِر صلّى الله عليه وسلّم بمجامع مكارم الأخلاق التي مِن جملتها الإغضاء عنهم، أي: خُذ ما عفَا لك مِن أفعال الناس وتسهَّلْ ولا تكلِّفْهم ما يشُقّ عليهم، مِن "العَفو" الذي هو ضدّ "الجَهد"؛ أو خُذْ العفوَ مِن المُذنِبين أو الفضلَ مِن صَدَقاتهم، وذلك قبل وجوب الزكاة، ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ بالجميل المستحسَن مِن الأفعال، فإنّها قريبة مِن قبول الناس مِن غير نكير، ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ مِن غير مماراة ولا مكافأة.

قيل: لمّا نزلت سأل رسول الله جبريلَ عليهما السلام، فقال: «لا أَدري حتّى أسألَ»، ثمّ رجع فقال: «يا محمّدُ، إنّ ربّك أمرك أن تَصِل مَن قطعَك،

---

[١] أي: الحسن البصري.

[٢] التفسير البسيط للواحدي، ٩/٥٣٧.

وتُعطيَ مَن حَرَمك، وتعفُوَ عمّن ظلَمَك».[١] وعن جعفرٍ الصادقِ:[٢] «أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه بمكارم الأخلاق».[٣]

ورُوي أنّه لمّا نزلت الآية الكريمة قال صلّى الله عليه وسلّم: «كيف -يا ربّ- والغضبُ؟»،[٤] فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾.[٥] النَّزْغ والنَّسْغ والنَّخْس: الغَرْز. شُبّهت وسوسته للناس وإغراؤه لهم على المعاصي بغَرْز السائق لِما يسُوقه. وإسناده إلى النَّزْغ / مِن قبيل "جَدَّ جِدُّه". أي: وإمّا يحمِلنَّك مِن جهته وسوسةٌ ما على خلاف ما أُمرتَ به مِن اعتراء غضب أو نحوه، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فالتجِئ إليه تعالى مِن شرّه، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتَك به قولًا، ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم تضرُّعَك إليه قلبًا في ضمن القول أو بدونه، فيعصِمُك مِن شرّه. [٣٨٠ظ]

وقد جُوّز[٦] أن يراد بنَزْغ الشيطان اعتراءُ الغضب على نهج الاستعارة، كما في قول الصدّيق رضي الله عنه: «إنّ لي شيطانًا يعتريني».[٧] ففيه زيادةُ تنفيرٍ عنه وفرطُ تحذيرٍ عن العمل بموجَبه.

وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره، وتنبيه على أنّه مِن الغوائل الصعبة التي لا يُتخلّص مِن مَضَرّتها إلّا بالالتجاء إلى حرم عصمته عزّ وجلّ.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٠/٦٤٣-٦٤٤؛ اللباب لابن عادل، ٩/٤٣١.

٢ هو جعفر بن محمّد الباقر بن عليّ زينِ العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب القرشي الهاشمي، أبو عبد الله (١٤٨هـ/٧٦٥م). أحد الأئمّة الاثني عشر على مذهب الإماميّة. كان مِن سادات أهل البيت. ولُقب بـ"الصادق" لصِدقه في مقالته. وفضلُه أشهرُ مِن أن يُذكر. وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل. حدّث عن أبيه أبي جعفر الباقر وعُبيد الله بن أبي رافع وعُروة بن الزبير وعطاء بن أبي رَباح وجدِّه القاسم بن محمّد ومحمّد بن المنكدر والزهري ومسلم بن أبي مريم، وغيرهم. وحدّث عنه خلق كثير. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ١/٣٢٧-٣٢٨؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٦/٢٥٥-٢٧٠.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣١٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٩٠.

٤ وفي هامش م: أي: والغضبُ متحقّق. «منه».

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/١٩٠.

٦ جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٢/١٩٠.

٧ انظر: نوادر الأصول للحكيم الترمذي، ١/١٢١؛ وتخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١/٤٨١-٤٨٢ (٤٨٥).

وقيل: يعلم ما فيه صلاحُ أمرك، فيحملك عليه، أو سميعٌ بأقوال مَن آذاك عليمٌ بأفعاله، فيجازيه عليها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله ببيان أنّ ما أُمر به عليه السلام مِن الاستعاذة بالله عزّ وجلّ سنّة مسلوكة للمتّقين، والإخلالَ بها دَيْدن[1] الغاوين، أي: إنّ الذين اتّصفوا بوقاية أنفسهم عمّا يضرّها ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أدنى لَمّةٍ منه، على أنّ تنوينه للتحقير. وهو اسمُ فاعل مِن "طافَ يطوف"، كأنّها تطوف بهم وتدور حولهم لتُوقِعَ بهم، أو مِن "طاف به الخيالُ يَطيف طَيْفًا"، أي: ألَمَّ. وقُرئ: "طَيْفٌ"[2] على أنّه مصدر، أو تخفيف مِن "طيِّف" مِن الواوي أو اليائي،[3] كـ"هيِّنٍ" و"ليِّنٍ". والمراد بـ﴿ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ الجنس؛ ولذلك جُمع ضميره فيما سيأتي.

﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي: الاستعاذةَ به تعالى والتوكّلَ عليه، ﴿فَإِذَا هُم﴾ بسبب ذلك التذكّر ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ مواقعَ الخطأ ومكايدَ الشيطان، فيحترزون عنها ولا يتّبعونه.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي: إخوان الشياطين. وهم المنهمِكون في الغيّ المُعرِضون عن وقاية أنفسهم عن المضارّ. ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي: يكون الشياطين مددًا لهم فيه ويعضُدونهم بالتزيين والحمل عليه. وقُرئ: "يُمِدُّونَهُمْ"[4] مِن "الإمداد"، و"يُمَادُّونَهُمْ"،[5] كأنّهم يُعينونهم بالتسهيل والإغراء، وهؤلاء بالاتّباع والامتثال.

[٣٨١و] ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ / أي: لا يُمسِكون عن الإغواء حتّى يُرْدُوهم[6] بالكلّيّة. ويجوز أن يكون الضمير لـ"الإخوان"، أي: لا يَرعَوُون عن الغيّ ولا يُقصِرون كالمتّقين.

---

[1] الدَّيْدَن: الدَّأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

[2] قرأ بها ابن كثير والكسائي وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٥.

[3] ط س: واليائي.

[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٥.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٠١.

[6] ط س: يُرْدُوهم.

ويجوز أن يراد بـ"الإخوان": الشياطين، ويرجعَ الضمير إلى الجاهلين، فيكون الخبر جاريًا على ما هو له.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ مِن القرآن عند تراخي الوحي أو بآية ممّا اقترحوه، ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ "اجتبى الشيءَ" بمعنى "جَبَاه لنفسه"، أي: هلَّا جمعتَها مِن تِلقاء نفسك تقوّلًا -يُرُون بذلك أنّ سائر الآيات أيضًا كذلك- أو هلَّا تلقّيتَها مِن ربّك استدعاءً.

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ مِن غير أن يكون لي دخلٌ ما في ذلك أصلًا، على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتّباع ما يوحَى إليه، بتوجيه القَصر المستفاد مِن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ إلى نفس الفعل بالنسبة إلى مقابله الذي كلّفوه إيّاه عليه السلام؛ لا على معنى تخصيص اتّباعه عليه السلام بما يوحَى إليه، بتوجيه القَصر إلى المفعول بالقياس إلى مفعولٍ آخرَ كما هو الشائع في موارد الاستعمال. وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام، ٦/٥٠]. كأنّه قيل: ما أفعل إلّا اتّباعَ ما يوحَى إليّ منه تعالى.

وفي التعرّض لوصف الربوبيّة المُنبِئة عن المالكيّة والتبليغِ إلى الكمال اللائق مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه عليه السلام والتنبيهِ على تأييده ما لا يخفى.

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن الكريم المدلولِ عليه بـ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ بمنزلة البصائر للقلوب، بها تُبصِر الحقَّ وتُدرِك الصوابَ. وقيل: حُجَج بيّنةٌ / وبراهينُ نيّرةٌ. و﴿مِن﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿بَصَائِرُ﴾، مفيدةٌ [٣٨١ظ]
لفخامتها، أي: بصائرُ كائنةٌ منه تعالى. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد وجوب الإيمان بها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿بَصَآئِرُ﴾. وتقديم الظرف عليهما وتعقيبُهما بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للإيذان بأنّ كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقّقٌ بالنسبة إلى الكلّ، وبه تقوم الحُجّة على الجميع. وأمّا كونه هدًى ورحمةً، فمختصّ بالمؤمنين به؛ إذ هم المقتبِسون مِن أنواره والمغتنِمون بآثاره.[١] والجملة مِن تمام القول المأمور به.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ إرشاد إلى طريق الفَوز بما أشيرَ إليه مِن المنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن، أي: وإذا قُرئ القرآن الذي ذُكرت شئونه العظيمة، فاستمِعوا له استماعَ تحقيق وقبولٍ، ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ أي: واسكُتوا في خلال القراءة، وراعُوها إلى انقضائها تعظيمًا له وتكميلًا للاستماع. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: تفوزون بالرحمة التي هي أقصى ثمَراته.

وظاهرُ النظم الكريم يقتضي وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها. وقيل: معناه: إذا تلَا عليكم الرسول القرآنَ عند نزوله، فاستمِعوا له. وجمهور الصحابة رضي الله تعالى عنهم على أنّه / في استماع المُؤتَمّ. وقد رُوي أنّهم كانوا يتكلّمون في الصلاة، فأُمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له.[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قرأ في المكتوبة، وقرأ أصحابه رضي الله عنهم خلفَه، فنزلت.[٣] وأمّا خارج الصلاة، فعامّة العلماء على استحبابهما. [٣٨٢و]

والآية إمّا مِن تمام القول المأمور به،[٤] أو استئناف مِن جهته تعالى؛ فقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ على الأوّل عطفٌ على ﴿قُلْ﴾،[٥] وعلى الثاني

---

١ وفي هامش م: "الباء" لتضمين الاغتنام معنى التمتّع. «منه».

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ١٠/٦٥٩، ٦٦٠؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٣.

٣ انظر: جامع البيان للطبري، ١٠/٦٦٤؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٣٣.

٤ في الآية السابقة.

٥ الأعراف، ٧/٢٠٣.

فيه تجريد للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وهو عامّ في الأذكار كافّةً، فإنّ الإخفاء أدخلُ في الإخلاص وأقربُ مِن الإجابة.

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: متضرِّعًا وخائفًا، ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: ومتكلِّمًا كلامًا دون الجَهر، فإنّه أقربُ إلى حسن التفكّر. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱذْكُر﴾، أي: اذكره في وقت الغَدَوات والعَشِيّات. وقُرئ: "وَالإِيصَالِ"،[1] وهو مصدر "آصَلَ"، أي: دخل في الأصيل، موافِقٌ لـ﴿ٱلْغُدُوِّ﴾. ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكر الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام. ومعنى كونهم عنده سبحانه وتعالى قُرْبُهم مِن رحمته وفضلِه لتوفّرهم على طاعته تعالى. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يؤدُّونها حسبما أُمروا به، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: ينزّهونه عن كلّ ما لا يَليق بجَناب كِبريائه، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ أي: يخُصّونه بغاية العبوديّة والتذلّل، لا يُشركون به شيئًا. وهو تعريض بسائر المكلَّفين؛ ولذلك شُرع السجود عند قراءته.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا قرأ ابن آدمَ آيةَ السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يَبكي فيقول: "يا وَيْلَه! أُمر هذا بالسجود فسجد فله الجنّة، وأُمرتُ بالسجود فعصيتُ فلي النارُ"».[2] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورةَ الأعراف جعل الله يومَ القيامة بينه وبين إبليسَ سِتْرًا، وكان آدمُ شفيعًا له يومَ القيامة».[3]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مِجلَز لاحق بن حميد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٠١.

[2] انظر: **صحيح مسلم**، ٨٧/١ (٨١)؛ و**مسند أحمد**، ٤٤٥/١٥ (٩٧١٣)؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٣٢١/٣.

[3] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢١٤/٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٩٣/٢. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٤٨٢/١-٤٨٤. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد صبحةَ يوم الثلاثاء الثامن والعشرين مِن جُمادَى الآخرة، لسَنة سبعٍ وستّين وتسعمائة.

٧

سُورَةُ الأَعْرَافِ

مكية إلاّ «واسألهم عن القرية» الثمانَ أو الخمسَ آيات، مِائَتانِ وخمسُ أو ستُّ آياتٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿المص﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

٢ ـ هذا ﴿كِتابٌ أُنزِلَ إلَيكَ﴾، خطابٌ للنبيِّ ـ ﴿فلا يَكُنْ في صَدرِكَ حَرَجٌ﴾: ضِيق ﴿مِنهُ﴾ أن تُبلّغه مَخافةَ أن تُكذَّب ـ ﴿لِتُنذِرَ﴾: مُتعلّق بـ «أُنزل» أي: للإنذار ﴿بِهِ وذِكرَى﴾: تذكرةٍ ﴿لِلمُؤمِنِينَ﴾ به.

٣ ـ قل لهم: ﴿اتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إلَيكُم مِن ربِّكُم﴾ أي: القُرآنَ، ﴿ولا تَتَّبِعُوا﴾ تتّخذوا ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: اللهِ أي: غيرَه ﴿أولِياءَ﴾ تُطيعونهم في معصيته تعالى...

سُورَةُ الأَعْرَافِ

قولُه: (هَذا) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿كِتَابٌ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذُوفٍ، والمشارُ إليه: إمَّا القُرآنُ أو السُّورةُ، والتَّذكيرُ باعتِبارِ الخبرِ.

قولُه: (خطَابٌ للنَّبيِّ) لا يحتملُ غيرَهُ، والجُملةُ صفةٌ لـ﴿كِتَابٌ﴾.

قولُه: (أن تُبلِّغَه) أي: من تبليغِهِ.

قولُه: (أن تُكذَّبَ) فيه.

قولُه: (تذكِرَةٍ) بالجرِّ، عطفٌ على محلِّ: ﴿تُنذِرَ﴾.

قولُه: (أي: القُرآنَ) أي: أوامرَهُ ونواهيَهُ؛ إذِ المرادُ الإنزالُ من السَّماءِ، وقيل: يعُمُّ القُرآنَ والسُّنَّةَ.

قولُه: (أي: اللهِ) الأظهَرُ: ﴿ربِّكُم﴾.

﴿قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾، بالتاء والياء: تتّعظون. وفيه إدغام التاء في الأصل في الذال، وفي قراءة بسكونها، وما: زائدةٌ لتأكيد القِلّة.

٤ ـ ﴿وكَم﴾: خبريّةٌ مفعولٌ ﴿مِن قَرْيةٍ﴾ أُريدَ أهلُها ﴿أهلَكْناها﴾: أردنا إهلاكها، ﴿فجاءَها بأسُنا﴾: عذابُنا ﴿بَياتًا﴾: ليلاً ﴿أو هُم قائلُونَ﴾: نائمون بالظهيرة! والقيلولة: استراحةٌ نصفَ النهار، وإن لم يكن معها نوم، أي: مرّةً جاءها ليلاً ومرّةً نهارًا، ٥ ـ ﴿فما كانَ دَعْواهُم﴾: قولَهم ﴿إذ جاءَهُم بأسُنا، إلاّ أن قالُوا: إنّا كُنّا ظالِمِينَ﴾.

٦ ـ ﴿فلَنَسألَنَّ الَّذِينَ أُرسِلَ إلَيهِم﴾ أي: الأممَ عن إجابتِهم الرُّسلَ وعملِهم فيما بلغهم،..........

قولُه: (بالتَّاءِ) أي: الخطابِ، غيرُ ابنِ عامرٍ على خلافٍ في تشديدِ الذَّالِ وتخفِيفِها[1] كما سبقَ.

وقولُه: (والياء) لم يقرَأْ أحدٌ بالياءِ فقط، نعَم قرأ ابنُ عامرٍ بالياءِ والتَّاءِ معاً على الأصلِ، بناءً على أنَّ الخطابَ بعدُ مع النَّبيِّ ﷺ، فقولُه: (فيه) راجعٌ إلى الأوَّلِ لا إليهما كما يوهِمُ.

وقولُه: (وفي قِرَاءةٍ بسُكُونهَا) سهوٌ آخرُ، والصَّوابُ: بتخفيفِها، وهو لحفصٍ وحمزةَ والكِسائيِّ[2].

قولُه: (لتَأكِيدِ القِلَّة) أي: يتَّعظُون اتِّعاظاً قليلاً، وقيل: المرادُ بالقِلَّةِ العدَمُ لعَدمِ المنفعَةِ.

قولُه: (مفعُولٌ) منصُوبٌ على شريطةِ التَّفسيرِ؛ أي: كثيراً من القُرى.

قولُه: (أَرَدْنَا إهلاكَهَا) بالعذابِ لمخالفةِ الرُّسُلِ، أو أهلكناها بالخِذلانِ.

قولُه: (ليلاً) أي: بائتينَ ليلاً كقومِ لوطٍ، مصدَرٌ وقعَ مَوقعَ الحالِ، وما بعدَه عطفٌ عليه، فإنَّه حالٌ من (القيلولة) أي: الضُّحى؛ أي: قائلينَ نصفَ النَّهارِ كقومِ شُعَيبٍ، وكلا الوَقتَينِ وقتُ غفلَةٍ واستراحَةٍ، فالعذابُ فيهما أفظَعُ.

قولُه: (قولَهم) أو دعاءَهم واستغاثتَهُم؛ أي: لم يكُنْ دعاءَهم إلَّا هذا القولُ لعلمِهم بأن ليسَ الحينُ حينَ دعاءٍ ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ جازَ نصبُهُ بالخبرِ، ورفعُ ﴿أَنْ قَالُوا﴾ بالاسميَّةِ، ويجوزُ العكسُ، وهو الأظهَرُ؛ لوجُوبِ تقدِيمِ الفاعِلِ في نحوِ: ضربَ موسَى عيسَى، لكنَّ نظائرَهُ يدُلُّ على الأوَّلِ نحوُ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [النمل: ٥٦] و﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ [الجاثية: ٢٥] ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ [الحشر: ١٧].

قولُه: (أي: الأُمَمَ) فـ﴿أُرسِلَ﴾ مسندٌ إلى الجارِّ والمجرورِ.

قولُه: (فيمَا بلَغَهُم) بالتَّخفيفِ؛ أي: في حكمٍ وصلَ إليهم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٨)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٦٧).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٨)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٦٧).

﴿ولَنسأَلَنَّ المُرسَلِينَ﴾ عن الإبلاغ، ٧ ـ ﴿فلَنَقُصَّنَّ علَيهِم بِعِلمٍ﴾: لَنُخبرَنّهم عن عِلم بما فَعلوه، ﴿وما كُنّا غائِبينَ﴾ عن إبلاغِ الرُّسل والأُممِ الخالية فيما عملوا، ٨ ـ ﴿والوَزنُ﴾ للأعمال أو لصحائفها بميزان له لسان وكِفّتانِ كما ورد في حديث كائنٌ ﴿يَومَئِذٍ﴾ أي: يومَ السُّؤال المذكور ـ وهو يوم القيامة ـ ﴿الحَقُّ﴾: العدل صِفة «الوزنُ»، ﴿فمَن ثقُلَتْ مَوازِينُهُ﴾ بالحسنات ﴿فأُولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾: الفائزون، ٩ ـ ﴿ومَن خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾ بالسيّئات ﴿فأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم﴾ بتصييرها إلى النار ﴿بِما كانُوا بِآياتِنا يَظلِمُونَ﴾: يجحدون.

قولُه: (عن الإِبْلاغِ) أي: إبلاغِ رسالتِهم، أو عمَّا أُجِيبُوا به، والمرادُ من هذا السُّؤالِ توبِيخُ الكفَرةِ وتقريعُهُم، والمنفِيُّ في قولِهِ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ﴾ [القصص: ٧٨] سؤالُ الاستِعلامِ، أو للقِيامةِ مواقفُ.

قولُه: (لنُخبِرَنَّهم) أي: الرُّسلَ والمرسَلَ إليهم.

قولُه: (عن عِلمٍ) أي: إخباراً صادِراً عن علمٍ، أو بمعلُومِنا منهم.

قولُه: (الخَالِيةِ) الظَّاهرُ خلُوُّ الكَلامِ عن هذا القَيدِ، أو الخاليةِ بالنِّسبةِ إلى القيامَةِ لا بالنِّسبةِ إلى زمنِ الخطابِ.

قولُه: (للأَعْمَالِ) بتقلِيبِها أجساماً.

قولُه: (أو لصَحَائِفِها) وعليه الجمهُورُ، وقيل: لأصحَابِها.

قولُه: (كِفَّتانِ) ينظُرُ إليه الخلائقُ إظهاراً للمَعْدَلةِ وقطعاً للمعذِرةِ، كما يسألُهُم عن أعمَالِهم، فتَعترِفُ بها ألسنَتُهم، وتشهَدُ بها جوارحُهُم.

قولُه: (بالحَسَناتِ) قال البيضَاويُّ[1]: ﴿موازِينُهُ﴾ حسناتُهُ، أو ما يوزَنُ به حسَناتُهُ، وجمعُهُ باعتبَارِ اختِلافِ الموزونَاتِ، أو بقَدْرِ الوَزنِ، فهو جمعُ موزُونٍ أو ميزانٍ.

وقالَ الصَّفويُّ: ﴿موازِينُهُ﴾ أي: أعمالُهُ مُطلقاً؛ أي: جميعُ أعمالِهِ حسنةً أو سيِّئةً، ولا تخصُّها بالحسَناتِ كما خصَّها الزَّمخشريُّ[2]؛ فإنَّه خلافُ الظَّاهِرِ، بل غلطٌ، فتأمَّل، فإنَّه دقِيقٌ، وكلامُ الشَّيخِ بالحملِ على الثَّاني حقِيقٌ.

قولُه: (يجحَدُونَ) أي: بالإنكارِ موضعَ التَّصْديقِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ٨٩).

١٠ ـ ﴿ولَقَد مَكَّنّاكُم﴾ ـ يا بني آدم ـ ﴿في الأرضِ، وجَعَلْنا لَكُم فِيها مَعايِشَ﴾، بالياء: أسبابًا تعيشون بها جمع مَعِيشة ـ ﴿قَلِيلاً ما﴾ لتأكيد القِلّة ﴿تَشكُرُونَ﴾ على ذلك ـ ١١ ـ ﴿ولَقَد خَلَقْناكُم﴾ أي: أباكم آدم، ﴿ثُمَّ صَوَّرْناكُم﴾ أي: صوّرناه وأنتم في ظهره، ﴿ثُمَّ قُلْنا لِلمَلائكةِ: اسجُدُوا لِآدَمَ﴾ سُجودَ تحيّة بالانحناء. ﴿فَسَجَدُوا إلاّ إبلِيسَ﴾ أبا الجِنّ كان بين الملائكة، ﴿لَم يَكُنْ مِنَ السّاجِدِينَ﴾.

١٢ ـ ١٣ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ ألاّ﴾ ـ زائدةٌ ـ ﴿تَسجُدَ إذْ﴾: حينَ ﴿أمَرتُكَ؟ قالَ: أنا خَيرٌ مِنهُ. خَلَقتَنِي مِن نارٍ، وخَلَقتَهُ مِن طِينٍ. قالَ: فاهبِطْ مِنها﴾ أي: من الجنّة، وقيل: من السماوات ـ ﴿فما يَكُونُ﴾: ينبغي ﴿لَكَ أن تَتَكَبَّرَ فِيها ـ فاخرُجْ﴾ منها. ﴿إنَّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ﴾: الذليلين. ١٤ ـ ﴿قالَ: أنظِرْنِي﴾:...

قولُه: (يا بَنِي آدَمَ) أي: من سُكناها وزرعِهَا والتَّصرُّفِ فيها والتَّمليكِ والقُدرةِ.

قولُه: (بالياءِ) احتِرازًا من قراءةٍ شاذَّةٍ بالهمزةِ تشبيهاً بما الياءُ فيه زائِدةٌ كصحائف.

قولُه: (عَلى ذلِكَ) أي: على ما صَنعتُ إليكم.

قولُه: (آدَمَ) طيناً غير مصوَّرٍ.

قولُه: (أي: صوَّرنَاهُ) نزَّل خلقَه وتصويرَهُ منزلَةَ خلقِ الكلِّ وتصويرِهِ؛ لأنَّه أبُو البَشرِ.

قولُه تعالى: (﴿مِنَ السَّاجِدِينَ﴾) أي: ممَّن سجَدُوا لآدَمَ.

قولُه: (زائِدةٌ) أي: أن تسجُدَ كما في «ص» وجُوِّزَ أن يكونَ معناهُ: ما حملَكَ على أن لا تسجُدَ، ويمكنُ: ما منعَكَ عن طاعَتِي بأن لا تسجُدَ؟.

وقولُه تعالى: (﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾) جوابٌ من حيثُ المعنَى استؤنِفَ به استِبعاداً لأن يكونَ مثلُهُ مأمُوراً بالسُّجودِ لمثلِهِ، فهذا إنكَارٌ واعتِراضٌ على اللهِ، وكُفرٌ به أورثَهُ العُجبَ والتَّكبُّرَ، ومعارَضَةَ النَّصِّ الجليِّ بالقِياسِ العَقليِّ.

قولُه: (من السَّماوَاتِ) وقيل: من منزِلتِكَ، أو من الهيئةِ الملكيَّةِ.

قولُه: (﴿فَمَا﴾ يَنبَغِي) وما يصِحُّ، وما يستَقِيمُ.

قولُه: (الذَّليلِينَ) أي: ممَّن أهانَهُ اللهُ لكِبْرِه، وفي الحديثِ: «مَن تواضَعَ للهِ رفعَهُ اللهُ، ومَن تكبَّرَ وضعَهُ اللهُ» رواهُ البيهقِيُّ[1].

---

(١) رواه القطيعي في «جزء الألف دينار» (٢٧٥)، والقضاعي في «مسنده» (٣٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٩٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

=

أَخِّرني ﴿إِلَى يَومِ يُبعَثُونَ﴾ أي: الناسُ.

١٥ ـ ﴿قالَ: إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ﴾. وفي آية أُخرى: «إِلَى يَومِ الوَقتِ المَعلُومِ» أي: وقت النفخة الأُولى. ١٦ ـ ﴿قالَ: فبِما أغوَيتَنِي﴾ أي: بإغوائك لي، والباء: للقسم، وجوابه ﴿لَأَقعُدَنَّ لَهُم﴾ أي: لبَنِي آدمَ ﴿صِراطَكَ المُستَقِيمَ﴾ أي: على الطريق المُوصل إليك، ١٧ ـ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِن بَينِ أيدِيهِم ومِن خَلفِهِم وعَن أيمانِهِم وعَن شَمائِلِهِم﴾ أي: من كُلّ جِهة، فأمنعُهم عن سلوكه ـ قال ابن عبّاس: ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلاّ يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى ـ ﴿ولا تَجِدُ أكثَرَهُم شاكِرِينَ﴾: مُؤمنينَ.

قولُه: (أَخِّرْنِي) أي: فلا تُمِتنِي، أو لا تعجِّل عقوبَتِي. قال بعضُ العارِفِين: لو كان موفَّقاً لقالَ: انظُرْ إليَّ.

قولُـه: (أي: النَّـاسُ) والأَولـى: الخلـقُ؛ يعنِـي: الضَّميرُ على مـا دلَّ عليه المعنَـى، إذ ليس فـي اللَّفظِ ما يعُـودُ عليه.

قولُه: (وفِي آيَةٍ أُخرَى) يعنِي: هذهِ الآيةُ تقتَضِي الإجابةَ إلى سُؤالِهِ ظاهِراً، لكنَّه محمُولٌ على ما جاءَ مقيَّداً، وفي إسعافِهِ إليه ابتِلاءُ العِبادِ.

قولُه: (بإغوَائِك) يعنِي: ﴿ما﴾ مصدَريَّةٌ.

قولُه: (أي: لبَنِي آدَم) ترصُّداً بهم كما يقعُدُ القُطَّاع للسَّائرةِ.

قولُه: (عَلى الطَّرِيقِ) يعنِي: نصبُ ﴿صراطَ﴾ على الحذفِ والإيصالِ.

قولُه: (ولا يستَطِيعُ) وعنه: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قِبَلِ الآخِرَة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من قِبَلِ الدُّنيا، ويحتمِلُ العكسَ ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ من جهةِ حسَناتِهم وسيِّئاتِهم.

قولُه: (لئلَّا يَحُولَ) قيل: ولم يقل: من تحتِهِم؛ لأنَّ الإتيانَ منه مُوحِشٌ، قلتُ: هو عدوٌّ مبينٌ ما يبالِي من الإيحاشِ، فالوجهُ أن يقالَ: لتكبُّرِه واستعلائِهِ لا سيَّما وقد مُنِعَ من جهةِ العلُوِّ، ويمكنُ أن يُقالَ: هو لا يريدُ إلَّا اغترارَهُم لا توحُّشَهم.

قولُه: (مُؤمِنِينَ) وإنَّما قالَه ظنًّا لقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠] الآيةَ.

= وروى ابن ماجه (٤١٧٦)، وأحمد في «مسنده» (١١٧٢٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (١١٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٧٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «من يتواضع لله درجة يرفعه الله به درجة، ومن يتكبر على الله درجة يضعه الله به درجة».

قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٤٩) (١٢٦): إسناد ابن ماجه حسن.

١٨ ـ ﴿قَالَ: اخرُجْ مِنها مَذْؤُومًا﴾، بالهمز: مَعِيبًا أو ممقوتًا، ﴿مَدحُورًا﴾: مُبعَدًا عن الرحمة ـ ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنهُم﴾: منَ الناس، واللام: للابتداء أو موطِّئة للقسم، وهو ﴿لَأَملَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُم أجمَعِينَ﴾ أي: منك بذُرّيّتك ومن الناس. وفيه تغليب الحاضر على الغائب، وفي الجملة معنى جزاء «مَن» الشرطيّة، أي: مَن تبعك أُعذّبه ـ ١٩ ـ ﴿و﴾ قال: ﴿يا آدَمُ، اسكُنْ أنتَ﴾: تأكيد للضمير في «اسكُنْ» ليُعطف عليه ﴿وزَوجُكَ﴾ حواءُ بالمدّ ﴿الجَنّةَ، فكُلا مِن حَيثُ شِئتُما، ولا تَقرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ بالأكل منها ـ وهي الحِنطة ـ ﴿فتكُونا مِنَ الظّالِمينَ﴾.

٢٠ ـ ﴿فوَسْوَسَ لَهُما الشَّيطانُ﴾: إبليسُ ﴿لِيُبدِيَ﴾: يُظهِرَ ﴿لَهُما ما وُورِيَ﴾ ـ فُوعِلَ من المُواراة ـ ﴿عَنهُما مِن سَوءاتِهِما، وقالَ: ما نَهاكُما رَبُّكُما عَن هذِهِ الشَّجَرَةِ إلاّ﴾ كراهةَ ﴿أن تَكُونا مَلَكَينِ﴾ ـ وقُرئ بكسر اللام ـ ﴿أو تَكُونا مِنَ الخالِدِينَ﴾ أي: وذلك لازم عن الأكل منها كما في آية أُخرى:.....

قولُه: (بالهَمزِ) من ذأمَهُ إذا ذمَّهُ، وقُرئ: «مذوماً» كمَسُولٍ في مسؤول، من ذامَه[1] ذمَّه، وقُرِئ: «مذموماً».

قولُه: (مُبعَداً) أو مطرُوداً.

قولُه: (أو موطِّئةٌ) وهو الصَّحيحُ، وهي اللّامُ الدَّاخلةُ على أداةِ شرطٍ.

قولُه: (وهُو) الصَّوابُ وجوابُه، إذ سُمِّيَتْ موطِّئةً لأنَّها وطَّأتِ الجوابَ للقسمِ؛ أي: مهَّدَته له، وهو سادٌّ مسَدَّ جوابِ الشَّرطِ، فقولُهُ: (وفِي الجُمْلَة... إلخ) غيرُ مُحتاجٍ إليه.

قولُه: (﴿و﴾ قَالَ) الأحسنُ: ﴿و﴾ قلنَا؛ لورُودِهِ في آيةٍ أُخرَى.

قولُه: (بالأَكلِ) أو مُطلَقاً مبالَغةٌ.

قولُه: (وهيَ الحِنْطَةُ) تقدَّمَ الخلافُ فيه.

وقولُه تعالى: (﴿فتَكُونَا﴾) أي: تصِيرَا، يحتمِلُ الجزمَ على العطفِ، والنَّصبَ على الجوابِ.

قولُه: (إبلِيْسُ) أي: فعَلَ الوسوَسَةَ لأَجلِهِما، وهي حديثٌ يلقِيهِ في القلبِ.

قولُه: (لِيُظهِرَ) واللَّامُ للعاقِبَةِ أو للغَرَضِ.

قولُه: (فُوعِلَ) أي: ماضٍ مجهُولٌ.

قولُه: (من الموَارَاةِ) للمبالَغةِ؛ بمعنَى: السَّترِ والتَّغطيَةِ.

وقولُه تعالى: (﴿مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾) أي: عوراتِهِما، و﴿مِن﴾ بيَانٌ لـ﴿ما﴾.

---

(١) «ذآمه»: ليس في (م).

«هَل أدُلُّكَ علَى شَجَرةِ الخُلدِ ومُلكٍ لا يَبلَى»؟ ٢١ـ ﴿وقاسَمَهُما﴾ أي: أقسم لهما بالله ﴿إنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ﴾ في ذلك.

٢٢ـ ﴿فدَلّاهُما﴾: حطّهما عن منزلتهما ﴿بِغُرُورٍ﴾ منه، ﴿فلَمّا ذاقا الشَّجَرةَ﴾ أي: أكلا منها ﴿بَدَتْ لَهُما سَوءاتُهُما﴾ أي: ظهر لكُلّ منهما قُبُلُه وقُبُلُ الآخَر ودُبُرُه ـ وسُمِّي كُلّ منها سوءة لأنّ انكشافه يسوء صاحبَه ـ ﴿وطَفِقا يَخصِفانِ﴾: أخذا يُلزقان ﴿علَيهِما مِن وَرَقِ الجَنّةِ﴾ ليستترا به، ﴿وناداهُما رَبُّهُما: ألَم أنهَكُما عَن تِلكُما الشَّجرةِ، وأقُلْ لَكُما: إنَّ الشَّيطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: بيِّن العداوة؟ استفهام تقرير. ٢٣ـ ﴿قالا: رَبَّنا، ظَلَمْنا أنفُسَنا﴾ بمعصيتنا، ﴿وإن لَم تَغفِرْ لَنا وتَرحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ﴾.

٢٤ـ ﴿قالَ: اهبِطُوا﴾ أي: آدمُ وحواءُ بما اشتملتما عليه من ذُرّيّتكما، ﴿بَعضُكُم﴾: بعض الذرّيّة ﴿لِبَعضٍ عَدُوٌّ﴾ مِن ظُلم بعضهم بعضًا، ﴿ولَكُم في الأرضِ مُستَقَرٌّ﴾: مكانُ استقرار ﴿ومَتاعٌ﴾: تمتّعٌ ﴿إلَى حِينٍ﴾ تنقضي فيه آجالكم......................................

قولُه: (أي: أقسَمَ) والمفاعَلةُ للمبالغَةِ.

قولُه: (في ذلِكَ) القَولِ، وقدَّم ﴿لَكُمَا﴾ مراعَاةً للفاصِلةِ.

قولُه: (حطَّهُما) الأظهرُ: نزَّلَهُما إلى الأكلِ من الشَّجرةِ، والحطُّ إنَّما هو إشارةٌ لا عبارةٌ.

قولُه: (منهُ) أي: بما غرَّهُما به من القسَمِ، فإنَّهُما ظنَّا أنَّ أحداً لا يحلِفُ باللهِ كاذِباً.

قولُه: (أي: أكَلا) الأحسنُ: لمَّا وَجَدا طعمَهَا أخَذا في الأكلِ منها أخذَتْهُما العُقُوبةُ وشُؤمُ المعصِيَةِ، فتهافَتَ عنهما لباسُهُما، وظهرَتْ لهُما عوراتُهُما.

قولُه: (ودبُرُه) أي: دبرُ الآخرِ.

قولُه: (يُلزِقَان) ورَقةً فوقَ ورقةٍ؛ يعني: يرقِّعانِ.

وقولُه تعالى: (﴿عَلَيهِما﴾) أي: على سوآتِهما.

قولُه: (ليَستَتِرا به) أي: بوَرقِ أشجارِ الجنَّةِ، قيل: ورقُ التِّينِ.

قولُه تعالى: (﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾) بتقدِيرِ: قائلاً.

قولُه: (أي: آدَمُ) «أي» ندائيَّةٌ لا تفسيريَّةٌ.

قولُه: (بعضُ الذُّرِّيَّةِ) الجُملةُ في موضِعِ الحالِ؛ أي: متعادينَ.

قولُه: (مكَانُ) أو استِقرارٌ.

قولُه: (آجالُكُم) المعلُومةُ.

٢٥ ـ ﴿قالَ: فِيها﴾ أي: الأرضِ ﴿تَحيَونَ وفِيها تَمُوتُونَ، ومِنها تَخرُجُونَ﴾ بالبعث، بالبناء للفاعل والمفعول.

٢٦ ـ ﴿يا بَنِي آدَمَ، قَد أنزَلْنا علَيكُم لِباسًا﴾ أي: خلقناه لكم ﴿يُوارِي﴾: يَستُرُ ﴿سَوءاتِكُم، ورِيشًا﴾ هو ما يُتجمّل به من الثياب، ﴿ولِباسَ التَّقوَى﴾: العملَ الصالح أو السمتَ الحسن، بالنصبِ: عطفٌ على «لباسًا» والرفعِ: مبتدأ خبره جملةُ ﴿ذلِكَ خَيرٌ. ذلِكَ مِن آياتِ اللهِ﴾: دلائلِ قُدرته، ﴿لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ﴾ فيؤمنون. فيه التفات عن الخِطاب إلى الغَيبة.

٢٧ ـ ﴿يا بَنِي آدَمَ، لا يَفتِنَنَّكُمُ﴾: يُضِلَّنّكم ﴿الشَّيطانُ﴾ أي: لا تتّبعوه فتُفتَتَنُوا ﴿كَما أخرَجَ أبَوَيكُم﴾ بفتنته ﴿مِنَ الجَنّةِ، يَنزِعُ﴾: حالٌ ﴿عَنهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوءاتِهِما. إنَّهُ﴾ أي: الشيطانَ ﴿يَراكُم هُوَ وقَبِيلُهُ﴾:..

قولُه: (للفَاعِلِ) حمزَةُ والكِسائيُّ[1].

قولُه: (أي: خلقْنَاهُ لكُم) ولمَّا كان بقضاءٍ سماويٍّ وأسبابٍ من السَّماءِ قال: و﴿أنزلنا﴾، أو أنزلنا أصُولَ الأشياءِ كلِّها.

قولُه: (العَمَلُ الصَّالِح) أو العفافُ، وقيل: الإيمانُ، وقيل: لباسُ الحَربِ، والأحسَنُ: خشيَةُ اللهِ.

قولُه: (بالنَّصبِ) نافعٌ وشاميٌّ، أو كِسائيٌّ[2].

قولُه تعالى: (﴿ذَلِكَ﴾) أي: إنزالُ اللِّباسِ.

قولُه: (قُدرَتِه) وفضلِه ورحمتِه.

قولُه: (فيُؤمِنُون) أو فيعرفُونَ نعمتَهُ، أو يتَّعظُونَ فيتورَّعُونَ عن القبَائحِ من كشفِ العورةِ وغيرِها.

قولُه: (بفِتنتِهِ) أي: فتنةً مثلَ إخراجِ أبوَيكُم.

قولُه: (حَالٌ) من ﴿أبَوَيكُم﴾ أو من فاعلِ ﴿أخْرَجَ﴾، وإسنادُ النَّزعِ والإخراجِ إليه للتَّسبُّبِ.

قولُه: (أي: الشَّيطَانَ) يعني: ليسَ ضميرَ الشَّأنِ، وهو الظَّاهرُ، والجُملةُ تعليلٌ للنَّهيِ، فإنَّ عدوًّا يراكَ ولا تراهُ لشَديدُ المعرفَةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٩)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٦٧).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٦٨).

جنوده ﴿مِن حَيثُ لا تَرَونَهُم﴾ للطافة أجسادهم أو عدم ألوانهم. ﴿إنّا جَعَلْنا الشَّياطِينَ أولياءَ﴾: أعوانًا وقُرناء ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ﴾.

٢٨ - ﴿وإذا فَعَلُوا فاحِشَةً﴾ كالشرك وطوافهم بالبيت عُراةً قائلين: «لا نطوف في ثياب عصَينا اللهَ فيها»، فنُهوا عنها، ﴿قالُوا: وَجَدْنا علَيها آباءَنا﴾ فاقتدَينا بهم، ﴿واللهُ أمَرَنا بِها﴾ أيضًا. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّ اللهَ لا يأمُرُ بِالفَحشاءِ. أتَقُولُونَ علَى اللهِ ما لا تَعلَمُونَ﴾ أنه قاله؟ استفهام إنكار.

٢٩ - ﴿قُلْ: أمَرَ رَبِّي بِالقِسطِ﴾: العدل، ﴿وأقِيمُوا﴾ - معطوف على معنى: «بالقِسط»، أي قال: أقسِطوا وأقيموا. أو قبله «فأقبِلُوا» مُقدَّرًا - ....

قولُه: (للَطَافةِ) وليسَ في الآيةِ دليلٌ على أنَّ الجنَّ لا يُرى أصلاً.

قولُه: (أعواناً) وأحياءً.

قولُه: (كالشِّركِ) أي: فِعلةً متناهِيةً في القُبحِ.

قولُه: (وطوَافِهِم) أي: رجالِهِم ونسائِهِم.

قولُه: (فنُهُوا) عطفٌ على: ﴿فَعَلُوا﴾.

قولُه: (فاقتَدَينَا بهِم) اعتَقَدُوا أنَّ فعلَ آبائِهِم مستندٌ إلى أمرٍ من اللهِ وشَرعٍ، أو اعتَذَرُوا واحتجُّوا بأمرَينِ؛ تقليدِ الآباءِ، والافتراءِ على اللهِ، فأعرَضَ عن الأوَّلِ لظهُورِ فسادِهِ وردَّ الثَّانيَ بقولِهِ: ﴿قل...﴾ إلخ.

قولُه: (إنكَارٍ) يتضمَّنُ النَّهيَ عن الافتراءِ على اللهِ.

قولُه: (بالعَدْلِ) وهو الوسَطُ من كلِّ أمرٍ، المتجافِي عن طرفَي الإفرَاطِ والتَّفرِيطِ.

قولُه: (مَعنَى: بالقِسطِ) في «البحر»[1]: ﴿وأَقِيمُوا﴾ معطُوفٌ على ما ينحَلُّ إليه المصدَرُ الَّذي هو ﴿القِسطُ﴾ أي: بأنْ أَقسِطُوا وأَقِيمُوا نحوَ:

لَلبسُ عبَاءةٍ وتقرَّ عَينِي[2]

أي: لَأن أَلبَسَ عباءةً وتقرَّ عَينِي.

قولُه: (مُقدَّراً) ولا مانعَ أن يُعطَفَ على: ﴿أمَرَ﴾ أو ﴿قُلْ﴾.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٥/ ٣٧).

(٢) هذا صدرُ بيت لميسون بنت بحدل الكلبية، وعجزه:

أحبُّ إليَّ من لبسِ الشفوف

انظر: «سر صناعة الإعراب» للموصلي (١/ ٢٨٤)، و«الإيضاح» للقيسي (١/ ٣٤٦)، و«المحكم» لابن سيده (٨/ ٥٣٥).

﴿وُجُوهَكُم﴾ للهِ ﴿عِندَ كُلِّ مَسجِدٍ﴾ أي: أخلِصوا له سُجودكم، ﴿وادعُوهُ﴾: اعبدوه ﴿مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشِّرك. ﴿كَما بَدَأَكُم﴾: خلقكم ولم تكونوا شيئًا ﴿تَعُودُونَ﴾ أي: يُعيدكم أحياءً يومَ القيامة، ٣٠ ـ ﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَى، وفَرِيقًا حَقَّ علَيهِم الضَّلالةُ. إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أولِياءَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرِه، ﴿ويَحسِبُونَ أَنَّهم مُهتَدُونَ﴾.

٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿يا بَنِي آدَمَ، خُذُوا زِينَتَكُم﴾: ما يستر عورتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسجِدٍ﴾: عِند الصلاة والطواف، ﴿وكُلُوا واشرَبُوا﴾ ما شِئتم ﴿ولا تُسرِفُوا. إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسرِفِينَ. قُلْ﴾ إنكارًا عليهم: ﴿مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أخرَجَ لِعِبادِهِ﴾ من اللِّباس ﴿والطَّيِّباتِ﴾: المُستلَذّاتِ.........

قولُه: (للهِ) أو: نحوَ القِبلَةِ.

قولُه: (سُجُودَكم) فالمسجِدُ مصدَرٌ ميمِيٌّ، وقيل: في كل وقت سجودٍ أو مكانه، والسُّجودُ الصَّلاةُ؛ أي: صلُّوا، أو في أيِّ مسجدٍ حضرَتْكم الصَّلاةُ.

قولُه: (من الشِّركِ) أو مخلصينَ له الطَّاعةَ، فلا تُقبَلُ عبادَةٌ إلَّا إذا كانَتْ موافِقةً للشَّريعَةِ خالِصةً.

قولُه: (أي: يُعيدُكُم) وقيل: كما بدَأَكُم من التُّرابِ تعُودُونَ إليه، وقيل: كما بدأَكُم حُفاةً عُراةً غُرْلاً تعودُونَ، وقيل: كما خلقَكُم مؤمِناً وكافراً يُعيدُكم.

قال السُّدِّيُّ[1]: معناهُ: كما خلقناكُم؛ فرِيقٌ مهتدُونَ وفريقٌ ضُلَّالٌ، كذلك تعودُونَ وتُخرَجونَ من بطُونِ أمَّهاتِكُم.

وقال النُّوريُّ: نُجرِي عليكُم في الأبدِ كما قضَينا عليكُم في الأزَلِ.

قولُه: (﴿فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾) قالَ القاضِي[2]: بمقتَضَى القضاءِ السَّابِقِ، وانتصابُهُ بفعلٍ يفسِّرُه ما بعدَهُ؛ أي: وخذَلَ، وهو اعتزالٌ تَبِعَ فيه الزَّمخشريَّ المدسِّسَ الذي تدسِيسُهُ قد يخفَى على مثلِ البيضاويِّ، ولذا حرَّمَ بعضُ العلماءِ مطالَعةَ «الكشَّاف».

فالصَّوابُ ما قالَ في «المدارك»[3]: أي: وأضَلَّ، وهو الملائِمُ لـ﴿هدى﴾ ولـحقَّتْ عليهمُ الضَّلالةُ.

قولُه: (ما شِئتُم) والأحسَنُ: ما طابَ لكُم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٤٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٦٣).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٠).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٥٦٤).

﴿مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ: هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالاستحقاق، وإن شاركهم فيها غيرهم، ﴿خَالِصَةً﴾: خاصّة بهم ـ بالرفع، والنصب: حالٌ ـ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ. كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: نبيّنها مِثلَ ذلك التفصيل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: يتدبّرون، فإنهم المنتفعون بها.

٣٣ـ ﴿قُلْ: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾: الكبائرَ كالزِّنى ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: جهرَها وسِرَّها، ﴿وَالْإِثْمَ﴾: المعصية ﴿وَالْبَغْيَ﴾ على الناس ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ هو الظلم، ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾: بإشراكه ﴿سُلْطَانًا﴾: حُجّة، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من تحريمِ ما لم يُحرِّم وغيرِه. ٣٤ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: مُدّة، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه.

قولُه: (بالاستِحقَاقِ) والأصالَةِ، هي مخلُوقةٌ لهُم، وقيل: ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾ ظَرفٌ لـ﴿آمَنُوا﴾.

قولُه: (غيرُهُم) أي: الكفَرةُ تَبعاً.

قولُه: (خاصَّةً) لا يشارِكُهُم غيرُهُم، وقيل: خالِصةً في الآخرةِ من التَّنغِيصِ والغمِّ.

قولُه: (بالرَّفعِ) نافعٌ[1] على أنَّها خبرٌ بعد خبرٍ.

قولُه: (حالٌ) مقدَّرةٌ؛ أي: من المستكِنِّ في الظَّرفِ؛ أي: للَّذينَ، والمعنى: مقدَّراً لهم الخلُوصُ.

قولُه: (المَعصِيَةَ) أي: كلَّ ذنبٍ، أو الصَّغائرَ.

قولُه: (على النَّاسِ) بالظُّلمِ والكِبْرِ، أفردَهُ بالذِّكرِ مبالَغةً.

قولُه: (هُو الظُّلْمُ) متعلِّقٌ بـ﴿الْبَغْيَ﴾ مؤكِّدٌ له معنًى.

قولُه: (حُجَّةً) ومن المحالِ إنزالُ البُرهانِ على الإشراكِ، فيكُونُ تهكُّماً واستهزاءً.

قولُه: (وغيرِهِ) من تحليلِ ما لم يُحِلَّ، والإلحادِ في صفتِهِ.

قولُه: (مدَّةٌ) وقولُه تعالى: (﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ...﴾) إلخ أي: إن انقرضَتْ مدَّتُهم أو حانَ وقتُهم لا يتأخَّرونَ ولا يتقدَّمونَ أقصرَ وقتٍ، كذا قالهُ القاضِي[2]، وحاصلُ كلامِهِ مبنيٌّ على أنَّه بمنزلَةِ المثَلِ لا يُقصَدُ من مجمُوعِ الكَلامِ، إلَّا أنَّ الوقتَ المقرَّرَ لا يتبدَّلُ ولا يتغيَّرُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٩)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٦٩).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١١).

٣٥ ـ ﴿يا بَنِي آدَمَ، إمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطيّة في «ما» المزيدة ـ ﴿يأتِيَنّكُم رُسُلٌ مِنكُم، يَقُصّونَ علَيكُم آياتِي، فمَنِ اتّقَى﴾ الشّرك ﴿وأصلَحَ﴾ عملَه ﴿فلا خَوفٌ علَيهِم ولا هُم يَحزَنُونَ﴾ في الآخِرة، ٣٦ ـ ﴿والّذِينَ كَذّبُوا بِآياتِنا، واستكبَرُوا﴾: تكبّروا ﴿عَنها﴾ فلم يُؤمنوا بها، ﴿أُولئِكَ أصحابُ النّارِ، هُم فِيها خالِدُونَ﴾.

٣٧ ـ ﴿فمَن﴾ أي: لا أحد ﴿أظلَمُ مِمّنِ افترَى علَى اللهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك والولد إليه، ﴿أو كَذّبَ بِآياتِهِ﴾: القُرآنِ؟ ﴿أُولئِكَ يَنالُهُم﴾: يُصيبهم ﴿نَصِيبُهُم﴾: حظّهم ﴿مِنَ الكِتابِ﴾ ممّا كُتب لهم في اللوح المحفوظ من الرّزق والأجل وغير ذلك. ﴿حَتّى إذا جاءَتهُم رُسُلُنا﴾: الملائكة ﴿يَتَوفّونَهُم قالُوا﴾ لهم تبكيتًا: ﴿أينَ ما كُنتُم تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ؟ قالُوا: ضَلّوا﴾: غابوا ﴿عَنّا﴾ فلم نرهم. ﴿وشَهِدُوا علَى أنفُسِهِم﴾ عِند الموت ﴿أنّهُم كانُوا كافِرِينَ﴾.

وقيلَ: قولُهُ: ﴿لَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ منقطِعٌ من الجوابِ على الاستئنافِ؛ أي: وهُم لا يستَقدِمُونَ الأجلَ؛ أي: لا يسبِقُونَه، وقريبٌ منه ما قالهُ العلّامةُ التّفتازانيُّ[1] أنّه عطفٌ على الشّرطيةِ؛ يعنِي: ويقدَّرُ بعدَه قبلَ ذلك؛ أي: قبلَ مجيءِ الأجلِ، وقيل: جمعَ بين الممكنِ والمحالِ مبالَغةً في نفيِ الممكِنِ.

قولُه: (إنْ الشّرطيّةِ) شرطٌ ذكرَهُ بحرفِ الشّكّ للتّنبيهِ على أنّ إتيانَ الرُّسلِ أمرٌ جائزٌ غيرُ واجبٍ.

قولُه: (الزّائِدَة) لتأكيدِ مَعنَى الشّرطِ، ولذلكَ أكّدَ فعله بالنُّونِ.

قولُه: (فلَم يُؤمِنُوا) أو لم يعمَلُوا.

قولُه: (وغيرِ ذلِكَ) من الأعمالِ والسّعادةِ والشّقاوَةِ.

قولُه: (المَلائِكةُ) ملكُ الموتِ وأعوانُه.

قولُـه تعالـى: (﴿أيـن ما﴾) هـو مفصُولٌ في بعـضِ المصاحِـفِ العُثمانيّـةِ، موصُـولٌ في بعضِهـا، فقَولُ البيضـاويِّ[2]: ﴿مـا﴾ وُصِلَـتْ بـ﴿أين﴾ فـي المصحَـفِ، وحقُّها الفصلُ؛ لأنّهـا موصُولةٌ. سـهوٌ؛ لأنّه خطّانِ لا يُقاسـانِ؛ خـطُّ المصحَفِ وخـطُّ العَروضِ.

قولُه: (عندَ المَوتِ) أو في القيامةِ، ولا يعارِضُ قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] لاحتِمالِ اختلافِ الزّمانِ أو اختِلافِ القائلِ.

---

(١) انظر: «مختصر المعاني» (ص: ١٦٠).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٢).

٣٨ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى لهم يوم القيامة: ﴿ادخُلُوا في﴾ جُملةِ ﴿أُمَمٍ قَد خَلَت مِن قَبلِكُم مِنَ الجِنِّ والإنسِ في النّارِ﴾: مُتعلّق بـ «ادخلوا»، ﴿كُلَّما دَخَلَت أُمّةٌ﴾ النارَ ﴿لَعَنَتْ أُختَها﴾ التي قبلها لضلالها بها. ﴿حَتّى إذا ادّارَكُوا﴾: تلاحقوا ﴿فِيها جَمِيعًا قالَتْ: أُخراهُم﴾ ـ وهم الأتباع ـ ﴿لِأُولاهُم﴾ أي: لأَجلهم وهم المتبوعون: ﴿رَبَّنا، هؤُلاءِ أَضَلُّونا. فآتِهِم عَذابًا ضِعفًا﴾: مُضعّفًا ﴿مِنَ النّارِ. قالَ﴾ تعالى: ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ومنهم ﴿ضِعفٌ﴾: عذاب مُضعّف، ﴿ولكِنْ لا تَعلَمُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ما لكُلّ فريق.

٣٩ ـ ﴿وقالَتْ أُولاهُم لِأُخراهُم: فما كانَ لَكُم علَينا مِن فَضلٍ﴾ لأنكم لم تكفروا بسببنا. فنحن وأنتم سواء. قال تعالى لهم: ﴿فذُوقُوا العَذابَ بِما كُنتُم تَكسِبُونَ﴾.

قولُه: (﴿قالَ﴾ تَعالَى) أو أحدٌ من الملائكةِ.

قولُه: (جُملَةِ) إشارةٌ إلى أنَّ: ﴿في أُمَمٍ﴾ حالٌ؛ أي: كائنِينَ في جملةِ أممٍ مصاحِبينَ لهم.

قولُه: (لضَلالتِهَا) أي: لضَلالةِ الأمّةِ بأختِهَا في الدِّينِ، وفي نسخةٍ: «لإضلالها لها» فينعَكسُ الضَّميرانِ.

قولُه: (تَلاحَقُوا) وأصلُ ﴿ادَّارَكُوا﴾ تَداركُوا.

قولُه: (وهُم الأتبَاعُ) يعنِي: آخرَهُم منزِلةً أو دخُولاً.

قولُه: (لأَجلِهِم) أي: لأجلِ أوّلِهم؛ إذِ الخطابُ معَ اللهِ لا معهُم؛ يعنِي: لِأُولاهُم دخُولاً؛ فإنَّ المتبُوعَ يدخُلُ قبلَ التَّابعِ؛ لأنّه أشدُّ جُرماً، أو آخرُ كلِّ أمّةٍ لأوّلِها، أو أهلُ آخرِ الزَّمانِ لأوّلِهم الذين شرَعوا لهُم ذلك الدِّينَ.

وقولُه تعالى: (﴿أَضَلُّونا﴾) أي: سنُّوا لنا الضَّلالَ فاقتَدَينا بهم.

قولُه: (مُضعَّفاً) لأنّهم ضلُّوا وأضلُّوا.

قولُه: (مُضعَّف) أمّا القادَةُ فبكُفرِهم وتضلِيلِهم، وأمّا الأتباعُ فبكُفرِهم وتقلِيدِهم.

قولُه: (بالتَّاء) أي: ما لكُم، أو ما لكلِّ فريقٍ منكُم من العذابِ.

قولُه: (والياءِ) الغيبةِ، شعبةُ[1].

قولُه: (بسببِنَا) هذا غيرُ مستقِيمٍ، والأظهرُ أنَّ القادةَ لمَّا سمِعُوا قولَه تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعفٌ﴾ قالُوا للسَّفِلةِ: ما لكم فضلٌ علينا، فإنَّا متساوُونَ في الضَّلالِ واستِحقاقِ العَذابِ. هذا وأُخرَى هنا بمَعنَى: آخِرَة مؤنَّثُ آخِر، مقابِلُ أُولى، لا مؤنَّثُ آخرَ بمعنَى: غيرَ، كقولِه: ﴿وِزرَ أُخرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

(قالَ تعالَى) قال؛ أي: للفَرِيقينِ، أو قال القادَةُ، أو الملائكَةُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١١٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٦٩).

٤٠ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا﴾: تكبّروا ﴿عَنها﴾ فلم يُؤمنوا بها ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُم أبوابُ السَّماءِ﴾ إذا عُرج بأرواحهم إليها بعد الموت، فيُهبَط بها إلى سِجِّين، بخِلاف المؤمن فيُفتّح له ويُصعد بروحه إلى السماء السابعة كما ورد في حديث، ﴿ولا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ، حَتَّى يَلِجَ﴾: يدخلَ ﴿الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ﴾: ثَقب الإبرة. وهو غير مُمكن، فكذا دُخولهم ـ ﴿وكَذلِكَ﴾ الجزاءِ ﴿نَجزي المُجرِمِينَ﴾ بالكُفر ـ ٤١ ـ ﴿لَهُم مِن جَهَنَّمَ مِهادٌ﴾: فِراش ﴿ومِن فَوقِهِم غَواشٍ﴾: أغطيةٌ من النار، جمع غاشية، وتنوينه عِوض من الياء المحذوفة. ﴿وكَذلِكَ نَجزي الظّالِمِينَ﴾.

٤٢ ـ ٤٣ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ﴾: مبتدأ ـ وقوله ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلاّ وُسْعَها﴾: طاقتَها من العمل: اعتراض بينه وبين خبره ـ وهو ﴿أُولئِكَ أَصحابُ الجَنَّةِ، هُم فِيها خالِدُونَ، ونَزَعْنا ما في صُدُورِهِم مِن غِلٍّ﴾: حِقد كان بينهم في الدُّنيا،........................

قولُه: (فلم يُؤمِنُوا) الأولى: عن الإيمانِ بها.

وقولُه تعالى: (﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾) أي: لأدعِيَتِهم وأعمالِهم وأرواحِهم، والتَّاء في ﴿تُفَتَّحُ﴾ لتأنيثِ الأبوابِ، والتَّشديدُ لكثرتِهَا، وقرأ أبو عمرٍو بالتَّخفِيفِ، وحَمزةُ والكِسائيُّ به وبالياءِ[1]؛ لأنَّ التَّأنيثَ غير حقِيقيٍّ، والفِعلُ مقدَّمٌ.

قولُه: (فكَذا دُخولُهم) المتوقِّفُ عليه.

قولُه: (الجزَاءِ) الفظيعِ.

قولُه: (وتنوِينُه... إلخ) أي: التَّنوينُ فيه للبَدلِ عن الإعلالِ، وهو قولُ سيبَويهِ[2]، وللصَّرفِ عندَ غيرِهِ، وتفصِيلُ هذا المبحَثِ في شَرحِ مولانا عبدِ الرَّحمنِ الجاميِّ قدَّسَ الله سرَّهُ السَّامي[3].

قولُه: (اعتِرَاضٌ) للتَّرغيبِ في اكتسابِ النَّعيمِ المقِيمِ بما يسَعُه طاقتُهُم، وللإعلامِ بأنَّ هذهِ المرتَبةَ الجليلةِ يمكنُه الوُصولُ إليها بسُهولةٍ.

قولُه: (وهُو) أي: خبرُهُ.

قولُه: (حِقدٍ) وحسَدٍ، فلم يبقَ بينهُم إلَّا التَّوادُّ. رويَ عن عليٍّ[4]: إنِّي لأَرجُو أن أكونَ أنا وعُثمانُ وطلحَةُ والزُّبيرُ منهم.

(١) انظر المصادر السابقة.

(٢) انظر: «الكتاب» (٣/ ٣٠٨).

(٣) انظر: «الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب» (ص: ١٠٩).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠١)، والطبري في «تفسيره» (١٤٦٦٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٨٢١)، وأحمد في =

﴿تَجرِي مِن تَحتِهِمِ﴾: تحتِ قُصورهم ﴿الأنهارُ، وقالُوا﴾ عند الاستقرار في منازلهم: ﴿الحَمدُ لِلهِ الَّذِي هَدانا لِهذا﴾ العمل الذي هذا جزاؤه، ﴿وما كُنّا لِنَهتَدِيَ، لَولا أنْ هَدانا اللهُ﴾ ـ حُذف جواب «لولا» لدلالة ما قبله عليه ـ ﴿لَقَد جاءَت رُسُلُ رَبِّنا بِالحَقِّ. ونُودُوا أنْ﴾ ـ مُخفَّفة أي: أنّه، أو مُفسِّرة، في المواضع الخمسة ـ ﴿تِلكُمُ الجَنَّةُ أُورِثتُمُوها بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾.

قولُه: (تحت قُصُورِهِم) أو تحتَ تصرُّفِهِم.

قولُه: (لعَمَلٍ) أو لتحصِيلِ هذا النَّعيمِ الذي صِرْنا إليه بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ.

قولُه: (علَيهِ) وقرأ ابنُ عامرٍ: «ما كنا» بغير واوٍ[1]، على أنَّها مبنيَّةٌ للأولَى.

قولُه: (أي: أنَّه) الأظهرُ: بأنَّه، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ.

وقولُه: (أو مفسِّرةٌ) لوجُودِ شَرطَيها وهما أنَّ قبلَها جملةً فـي مَعنَى القَولِ، وبَعدَها جملَةً، والمنادَاةُ منَ القَولِ، والنِّداءُ إمَّا منَ اللهِ، أو منَ الملائكةِ إذا رأوا الجنَّةَ من بعيدٍ، أو بعدَ دخُولِها، والمنادَى له بالذَّاتِ هو ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أي: أُعطيتُموها بلا سببٍ، أو ميراثُكُم من أهلِ النَّارِ، فقد وردَ: «ما مِن أحدٍ إلَّا ولـهُ منزلٌ في الجنَّةِ ومنزل في النَّار، والكافِرُ يرِثُ المؤمنَ منزلَهُ من النَّارِ، والمؤمِنُ يرثُ الكافرَ منزلَهُ من الجنَّةِ»، رواهُ ابنُ ماجه والنَّسائيُّ وغيرُهُما[2].

وفي «المدارك»[3]: سمَّاها مِيراثاً؛ لأنَّها لا تُستحَقُّ بالعَملِ، بل هي محضُ فضلِ اللهِ.

وقولُه تعالى: (﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾) أي: بسبَبِ أعمالِكُم، قالهُ القاضِي[4]، والتَّحقيقُ: أنَّ إدخالَ الجنَّةِ فضلٌ، وإدخالَ النَّارِ عدلٌ، والدَّرجاتِ والدَّركاتِ بحسَبِ الحسَناتِ والسيِّئاتِ، والخلُودَ فيهما بالنِّيَّاتِ.

= «فضائل الصحابة» (١٠٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٢١٥)، وأبو بكر بن الخلال في «السنة» (٥٥٥)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٧٧٤)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٧٩) (١١١)، والحاكم في «المستدرك» (٤٥٦٣)، ولم تأت الأسماء مجتمعة إلا في بعض الروايات.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٢٥)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١١٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٦٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٣٤١)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٥٢٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولم أقف عليه عند النسائي، وصحح إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٤٤٢).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٥٦٩).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٣).

٤٤ ـ ٤٥ ـ ﴿ونادى أصحابُ الجنّةِ أصحابَ النّارِ﴾ تقريرًا وتبكيتًا: ﴿أنْ قد وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا﴾ من الثواب ﴿حَقًّا. فهَل وَجَدتُم ما وَعَدَ﴾ كم ﴿رَبُّكُم﴾ من العذاب ﴿حَقًّا؟ قالُوا: نَعَمْ. فأذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: نادى مُنادٍ ﴿بَينَهُم﴾: بين الفريقين أسمعهم: ﴿أنْ لَعنةُ اللهِ علَى الظّالِمينَ الّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبيلِ اللهِ﴾: دِينه، ﴿ويَبغُونَها﴾ أي: يطلبون السبيل ﴿عِوَجًا﴾: مُعْوَجّة، ﴿وهُم بِالآخِرةِ كافِرُونَ﴾.

٤٦ ـ ﴿وبَينَهُما﴾ أي: أصحابِ الجنّة والنار ﴿حِجابٌ﴾: حاجز ـ قيل: هو سُور الأعراف ـ ﴿وعلَى الأعرافِ﴾ وهو سُور الجنّة ﴿رِجالٌ﴾ استوت حسناتهم وسيّئاتهم كما في الحديث، ﴿يَعرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنّة والنار ﴿بِسِيماهُم﴾: بعلامتهم ـ وهي بياض الوُجوه للمؤمنين وسوادها للكافرين، لرُؤيتهم لهم إذ موضعُهم عالٍ ـ ﴿ونادَوا أصحابَ الجَنّةِ: أنْ سَلامٌ علَيكُم﴾. قال تعالى:.............

قولُه: (مِنَ الثَّوابِ) أي: ما وعدَنا ربُّنا في الدُّنيا من الثَّوابِ في الآخرَةِ.

قولُه تعالى: (﴿نعَم﴾) الكسائيُّ بكسرِ العينِ[1].

قولُه: (مناَدٍ) قيل: إسرافِيلُ، وقيل: جبرِيلُ، وقيل: ملَكٌ غيرُ معيَّنٍ.

وقولُه تعالى: (﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾) قرأَ نافعٌ وقُنبُلٌ وأبو عَمرٍو وعاصمٌ بتخفيفِ ﴿أَنْ﴾ ورفعِ ﴿لَعْنَةُ﴾[2].

قولُه: (النَّاسَ) أي: يمنعُونَهم أو يُعرِضونَ.

قولُه: (مُعوَجَّةً) يعنِي: يطلُبُونَ لشرعِ اللهِ زيغاً، ويقولُونَ للنَّاسِ في هذا الدِّينِ كذا من الزَّيغِ والعَيبِ حتى لا يتبعَها أحدٌ.

قولُه: (وهُو سُورُ الجنَّةِ) أو على أعرافِ الحِجَابِ؛ أي: أعاليهِ.

قولُه: (استوَتْ حسَنَاتُهمْ) وهو الأصحُّ، بل الصَّحِيحُ من اثنَي عشرَ قولاً، حَكاها القُرطبيُّ[3].

قال تعالى: (﴿ونادَوا﴾) أي: أصحابُ الأعرافِ إذا نظرُوا إلى أهلِ الجنَّةِ.

قولُه: (قالَ تَعالى) يعنِي: أنّه استئنافٌ؛ كأنَّ سائلاً سألَ عن حالِ أصحابِ الأعرافِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨١)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١١٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٦٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨١)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٢١)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١١٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٦٩).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢١١) والقرطبي سرد عشرة أقوال.

﴿لَم يَدخُلُوها﴾ أي: أصحابُ الأعراف الجنّةَ، ﴿وهُم يَطمَعُونَ﴾ في دُخولها. قال الحسن: لم يُطمِعهم إلاّ لكرامةٍ يُريدها بهم. وروى الحاكم عن حُذيفةَ، قال: «بَينَما هُم كَذلِكَ إذ طَلَعَ علَيهِم رَبُّكَ، فقالَ: قُومُوا ادخُلُوا الجَنّةَ. فقَد غَفَرتُ لَكُم».

٤٧ ـ ﴿وإذا صُرِفَت أبصارُهُم﴾ أي: أصحابِ الأعراف ﴿تِلقاءَ﴾: جِهةَ ﴿أصحابِ النّارِ قالُوا: رَبَّنا، لا تَجعَلْنا﴾ في النار ﴿مَعَ القَومِ الظّالِمِينَ﴾.

٤٨ ـ ﴿ونادَى أصحابُ الأعرافِ رِجالاً﴾ من أصحاب النار، ﴿يَعرِفُونَهُم بِسِيماهُم، قالُوا: ما أغنَى عَنكُم﴾ من النار ﴿جَمعُكُم﴾ المالَ أو كثرتُكم ﴿وما كُنتُم تَستَكبِرُونَ﴾ أي: واستبكارُكم عن الإيمان؟ ويقولون لهم، مشيرين إلى ضُعفاء المسلمين: ٤٩ ـ ﴿أهؤُلاءِ الَّذِينَ أقسَمتُم لا يَنالُهُمُ اللهُ بِرَحْمةٍ﴾؟ قد قيل لهم: ﴿ادخُلُوا الجَنّةَ، لا خَوفٌ علَيكُم ولا أنتُم تَحزَنُونَ﴾. وقُرِئ: «أُدْخِلُوا» بالبناء للمفعول، «ودَخَلُوا». فجُملة النفي حال أي: مقولاً لهم ذلك.

٥٠ ـ ٥١ ـ ﴿ونادَى أصحابُ النّارِ أصحابَ الجَنّةِ: أنْ أفِيضُوا علَينا مِنَ الماءِ أو مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ من الطعام..

قولُه: (أصحَابُ الأَعرَافِ) في الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ نظرَهُم إلى أصحابِ النَّارِ لا برَغبةٍ منهم، بخِلافِ نظرِهِم إلى أصحابِ الجنَّةِ.

قولُه: (مِن أصحَابِ النَّارِ) وإنَّما يعرفُونَ ذلك بالإلهامِ، أو تعليمِ الملائكةِ، أو بالكَشْفِ.

قولُه: (عنِ الإِيمَانِ) أو عن الحقِّ، أو على الخَلقِ.

قولُه: (ويقُولُونَ لَهُم) أي: من تتمَّةِ قولِهِم للرِّجالِ.

قولُه: (إلى ضُعفَاءِ المُسلِمِينَ) الَّذين كانت الكفرةُ يحتَقِرُونَهم في الدُّنيا، ويحلِفُون أنَّ اللهَ لا يُدخِلُهُم الجنَّةَ.

قولُه: (لهُم) أي: للضُّعفاءِ؛ يعني: فقيلَ لأصحابِ الأعرافِ: ﴿ادخُلوا الجنَّةَ﴾ بفَضلِ اللهِ بعدَ أن حُبِسُوا حتَّى أبصَرُوا الفريقَينِ وعرَفُوهُم وقالوا لهم ما قالُوا.

قولُه: (ذلكَ) أي: لا خَوفٌ عليكم.

قولُه: (منَ الطَّعَامِ) كقولِهِ:

علفتُهـا تِبنـاً ومـاءً بـارِداً[1]

---

(١) شطر لا يعرف قائله وتتمته:

حتـــى شَـــتَتْ همالـــةً عيناها

﴿قالُوا: إنَّ اللهَ حَرَّمَهُما﴾: منعهما ﴿علَى الكافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَهْوًا ولَعِبًا، وغَرَّتهُمُ الحَياةُ الدُّنيا. فاليَومَ نَنساهُم﴾: نتركهم في النار ﴿كَما نَسُوا لِقاءَ يَومِهِم هذا﴾ بتركهم العملَ له، ﴿وما كانُوا بِآياتِنا يَجحَدُونَ﴾ أي: وكما جحدوا.

٥٢ ـ ﴿ولَقَد جِئناهُم﴾ أي: أهلَ مكّة ﴿بِكِتابٍ﴾: قُرآنٍ، ﴿فَصَّلْناهُ﴾ بيّنّاه بالأخبار والوعد والوعيد ﴿علَى عِلمٍ﴾: حالٌ، أي: عالمين بما فُصِّل فيه، ﴿هُدًى﴾: حال من الهاء ﴿ورَحْمةً لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ به.

٥٣ ـ ﴿هَل يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظرون ﴿إلاّ تأوِيلَهُ﴾: عاقبةَ ما فيه؟ ﴿يَومَ يأتِي تأوِيلُهُ﴾، هو يوم القِيامة، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبلُ﴾: تركوا الإيمان به:........................

أو من سائرِ الأَشربةِ ليُلائمَ الإفاضةَ؛ لأنَّها مختصَّةٌ بما له سَيلانٌ، وصرَّحَ بالأوَّلِ ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه[1]، وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الجنَّةَ فوقَ النَّار.

قولُه: (مَنَعَهُما) أي: ماءَ الجنَّةِ وطعامَها عنهم منعَ المحرَّمِ عن المكلَّفِ.

قولُه: (أي: وكَمَا جحَدُوا) فيكُونُ ﴿ما كانُوا﴾ عطفاً على: ﴿ما نَسُوا﴾، والظَّاهرُ أنَّ الكافَ في ﴿كما﴾ للتَّعليلِ، و﴿ما﴾ فيهما مصدريَّةٌ.

قولُه: (قُرآنٍ) قيل: المرادُ من الكتابِ جنسُهُ؛ أي: بكتابٍ إلهيٍّ، وهو الظَّاهرُ؛ فإنَّ الضَّميرَ في ﴿جِئْنَاهُم﴾ عامٌّ في الكفَّارِ، لا خاصٌّ بمكذِّبِي محمَّدٍ ﷺ.

قولُه: (بيَّنَّاه) أي: بيَّنَّا معانيَهُ من العقائدِ والأَحكامِ والمواعِظِ مفصَّلةً.

قولُه: (حالٌ) من فاعلِ (فصَّلْنا).

قولُه: (بمَا فصَّلَ) أو كيفَ نفصِّلُ.

قولُه: (حالٌ من الهَاءِ) أي: هاءُ ﴿فَصَّلناهُ﴾ وحقُّه التَّأخِيرُ عن ﴿رَحمةً﴾، وقيل: ﴿هُدًى﴾ و﴿رحمةً﴾ مفعُولٌ له.

قولُه: (عاقِبَةَ مَا فِيهِ) أي: ما يؤُولُ إليه أمرُ الكتابِ من تبيينِ صدقِهِ بظهُورِ ما نطقَ به من الوَعدِ والوَعِيدِ.

وقولُه تعالى: (﴿مِن قَبلُ﴾) أي: قبلَ إتيانِهِ في الدُّنيا.

قولُه: (الإيمَانَ) والعَملَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٧٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٩٠) مصرحاً عن السدي.
وأما رواية ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبري في «تفسيره» (١٤٧٥١) فغير صريحة بذلك.

﴿قد جاءَت رُسُلُ رَبِّنا بِالحَقِّ. فهَل لَنا مِن شُفَعاءَ فيَشفَعُوا لَنا، أَو﴾ هل ﴿نُرَدُّ﴾ إلى الدُّنيا ﴿فنعمَلَ غَيرَ الَّذِي كُنّا نَعمَلُ﴾: نوحِّدَ الله ونتركَ الشركَ؟ فيقال لهم: لا. قال الله تعالى: ﴿قَد خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ إذ صاروا إلى الهلاك، ﴿وضَلَّ﴾: ذهب ﴿عَنهُم ما كانُوا يَفتَرُونَ﴾ من دعوى الشريك.

٥٤ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأَرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ﴾ من أيّام الدُّنيا، أي: في قدرها لأنه لم يكن ثَمّ شمس ـ ولو شاء خلقهنّ في لمحة، والعدولُ عنه لتعليم خلقه التثبُّتَ ـ ﴿ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ﴾ هو في اللغة: سرير المُلك، ....

قولُه: (﴿أو﴾ هَل) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿نُرَدُّ﴾ عطفٌ على: ﴿لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾.

وقولُه: (﴿فَنَعْمَلَ﴾) جوابُ الاستفهامِ الثَّاني، وقُرِئ بالرَّفع[1]؛ أي: فنحنُ نعمَلُ.

قولُه: (لا) أي: ليسَ لكُم شُفعاءُ، ولا ردٌّ إلى الدُّنيا.

قولُه: (إذْ صَارُوا) بصَرفِ أعمارِهم في المعصيةِ.

قولُه: (ذهَبَ) وغابَ وبطَلَ.

قولُه: (من دَعوَى الشِّركِ) فلم تنفَعْهم آلهَتُهم.

قولُه: (من أيّامِ الدُّنيَا) أو أيّامِ الآخرةِ؛ كلُّ يومٍ ألفُ سنةٍ، نصَّ على الثَّاني مجاهِدٌ[2] والإمامُ أحمدُ[3]، وصرَّحَ كثيرٌ من السَّلفِ أنَّ المرادَ من السِّتَّةِ ما عَدا السَّبتَ.

قولُه: (أي: في قَدْرِها) أي: في قدرِ ستَّةِ أيّامٍ.

قولُه: (شَمسٌ) إذِ اليومُ المتعارَفُ عندَ أهلِ الهَيئةِ من زمانِ طلُوعِها إلى غرُوبِها، وعندَ أهلِ الشَّرعِ من الصُّبحِ إلى غرُوبِ الشَّمسِ.

قولُه: (عنهُ) أي: عن خلقِهنَّ دفعةً.

قولُه: (سريرُ المُلكِ) العرشُ: الجِسمُ المحيطُ بسائرِ الأجسامِ؛ سُمِّي به لارتفاعِه، أو للتَّشبيهِ بسريرِ المُلكِ، فإنَّ الأمُورَ والتَّدابيرَ تنزِلُ منه، وقيل: المُلكُ.

---

(١) وهي من القراءات الشاذة، انظر: «الكشاف» (٢/ ١٠٩) و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢١٨)، و«أنوار التنزيل» (٣/ ١٥) ونُسِبَتْ للحسن البصري.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٧٧٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٨٩٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٠٦).

(٣) ذكرها كذلك عنه ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٢٦).

استواءً يليق به، ﴿يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ﴾، مُخففًا ومُشدَّدًا، أي: يُغطي كُلًّا منهما بالآخر، ﴿يَطلُبُهُ﴾: يطلب كُلٌّ منهما الآخَرَ طلَبًا ﴿حَثِيثًا﴾: سريعًا ـ ﴿والشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ﴾، بالنصبِ عطفًا على «السّماواتِ»، والرفعِ مبتدأ خبرُه ﴿مُسَخَّراتٍ﴾: مُذلَّلاتٍ ﴿بِأمرِهِ﴾: بقُدرته. ﴿ألا لَهُ الخَلقُ﴾ جميعًا ﴿والأمرُ﴾ كُلّه. ﴿تَبارَكَ﴾: تعظّمَ ﴿اللهُ رَبُّ﴾: مالكُ ﴿العالَمِينَ﴾!

٥٥ ـ ﴿ادعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا﴾: حالٌ تذلُّلاً ﴿وخُفيَةً﴾:........................

قولُه: (استِوَاءً يلِيقُ بِهِ) أجمعَ السَّلَفُ على أنَّ استواءَ العَرشِ صفةٌ له بلا كَيفٍ، نؤمِنُ به ونكِلُ العِلمَ إلى اللهِ تعالى، وقالَ مالِكٌ[1]: الاستِواءُ معلُومٌ، والكيفُ مجهُولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ.

وقيل: معناهُ: استَولَى، أو استَولَى أمرُه.

قولُه: (مشدَّداً) حمزةُ والكِسائيُّ وشعبَةُ[2] للدَّلالةِ على التَّكريرِ.

قولُه: (يُغطِّي) ولم يذكُرْ عكسَهُ للعِلمِ بِهِ، ولأنَّ اللَّفظَ يحتملُهُما.

قولُه: (يطلُبُ) أي: يعقُبُه سرِيعاً، كالطَّالبِ له لا يفصِلُ بينهما شيءٌ، فـ﴿يَطلُبُهُ﴾ مجازٌ.

قولُه: (طَلَباً) صفةُ مصدرٍ محذُوفٍ، أو حالٌ من الفاعلِ بمعنَى: حاثًّا، أو المفعُولِ بمعنَى: محثُوثاً.

قولُه: (والرَّفعِ) شاميٌّ[3].

قولُه: (خبرُهُ «مُسَخَّراتٌ») بالرَّفعِ، والباقُون بنصبِ: ﴿مُسَخَّراتٍ﴾[4] على الحالِ.

قولُه: (جمِيعاً) أي: لا خالقَ إلَّا هو، أو الخلقُ كلُّه مُلكٌ له.

قولُه: (كلُّه) لا يجرِي في مُلكِه إلَّا ما يشاءُ.

قولُه: (تعظَّمَ) أو تكاثرَ خيرُهُ.

قولُه: (حالٌ) أي: هو وما بعدَهُ؛ يعني: ذوِي تضرُّعٍ وخُفيةٍ، فإنَّ الإخفاءَ دليلُ الإخلاصِ.

---

(١) رواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٠٤)، واللالكائي في «شرح الأصول» (٦٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٦٧) بلفظ قريب منه، وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٥٤): هذا القول من مالك جاء بألفاظ مختلفة وأسانيد متنوعة.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٢٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١١٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٦٩).

(٣) انظر المصادر السابقة

(٤) انظر المصادر السابقة.

سِـرًّا ـ ﴿إِنَّـهُ لَا يُحِـبُّ الْمُعتَدِينَ﴾ في الدُّعاء بالتشـدّق ورفع الصوت ـ ٥٦ ـ ﴿ولَا تُفسِـدُوا في الأرضِ﴾ بالشِّـرك والمعاصـي ﴿بَعـدَ إصلاحِهـا﴾ ببعـث الرسـل، ﴿وادعُـوهُ خَوفًـا﴾ مـن عِقابـه ﴿وطَمَعًا﴾ في رحمتـه. ﴿إِنَّ رَحْمَـةَ اللهِ قَرِيـبٌ مِـنَ الْمُحسِـنِينَ﴾: المُطيعين. وتذكيـر «قريب» المخبَرِ بـه عن «رحمة» لإضافتهـا إلى «الله».

٥٧ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي يُرسِلُ الرِّياحَ نُشُرًا بَينَ يَدَي رَحْمتِهِ﴾ أي: مُتفرّقةً قُدّامَ المطر. وفي قراءة بسكون الشين تخفيفًا، وفي أُخرى بسكونها وفتح النون: مصدرًا، ....

قولُه: (في الدُّعَاءِ) وغيرِهِ.

قولُه: (بالتَّشدُّقِ) هو التَّوسُّع في الكلامِ من غيرِ احتياطٍ واحترازٍ، كذا في «النِّهاية»(١).

قولُه: (ورفعِ الصَّوتِ) أي: الصِّياحِ، وكالإطنابِ بمثلِ مسألةِ الجنَّةِ ونعيمِها وإستبرَقِها وقُصورِها وحُورِها وأمثالِ ذلك، وتكلُّفِ السَّجعِ، وكطلبِ المُحالِ مثلَ رُتبةِ الأنبياءِ والصُّعودِ إلى السَّماءِ.

قولُه: (في رحمتِهِ) حالانِ من الفاعلِ؛ أي: خائفِينَ وطامعِينَ، أو منصُوبانِ على العلَّةِ، قيل: خوفاً من بُعدِه، وطمَعاً في قُربِهِ. والأظهرُ: خوفاً من جلالِهِ، وطمَعاً في جمالِهِ، ولو فُسِّرَ (ادْعُوا) بمَعنَى: اعبُدوا؛ لكانَ أتمَّ وأعمَّ؛ لأنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ، بل مخُّها(٢)، وتخلَّصَ الكلامُ من ظاهرِ التَّكرارِ.

قولُه: (المُطِيعِينَ) أي: في أمرِهِ ونهيِهِ.

قولُه: (لإِضَافتِهَا) يعني: اكتسَبَ المرجعُ التَّذكيرَ من المضافِ إليهِ، أو لأنَّه صفةُ محذوفٍ؛ أي: أمرٌ قريبٌ.

قولُه: (متَفرِّقةً) تفسيرُ: «نُشُرًا» فالأَولَى تقديمُه.

قولُه: (وفي قرَاءةٍ) للشَّاميِّ(٣).

قولُه: (وفي أُخرَى) حمزةُ والكِسائيُّ(٤).

قولُه: (مَصْدراً) في موقعِ الحالِ؛ بمعنَى: ناشِراتِ السَّحابِ الثِّقالِ.

---

(١) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٤٥٣).

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه الترمذي (٣٣٧١) وغيره من حديث أنس رضي الله عنه: «الدعاء مخ العبادة».

وهذا اللفظ حسنه بشواهده الشيخ شعيب في تعليقه على «مسند أحمد» (١٨٣٥٢) عند تخريجه للحديث الصحيح: «الدعاء هو العبادة».

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٣١)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١١٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٧٠).

(٤) انظر المصادر السابقة.

وفي أُخرى بسكونها وضمّ المُوحَّدة بدلَ النون، أي: مبشِّراتٍ. ومُفرد الأُولى: نَشُورٌ كرَسُول، والأخيرة: بَشِيرٌ. ﴿حَتَّى إذا أَقَلَّتْ﴾: حَمَلَتِ الرياحُ ﴿سَحابًا ثِقالاً﴾ بالمطر ﴿سُقناهُ﴾ أي: السحابَ ـ وفيه التفات عن الغَيبة ـ ﴿لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾: لا نبات به أي: لإِحيائه، ﴿فأنزَلْنا بِهِ﴾: بالبلد ﴿الماءَ، فأخرَجْنا بِهِ﴾: بالماء ﴿مِن كُلِّ الثَمراتِ ـ كَذلِكَ﴾ الإِخراجِ ﴿نُخرِجُ المَوتَى﴾ من قُبورهم بالإحياء، ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ فتؤمنون ـ ٥٨ ـ ﴿والبَلَدُ الطيِّبُ﴾: العذبُ الترابِ ﴿يَخرُجُ نَباتُهُ﴾ حسنًا ﴿بِإذنِ رَبِّهِ﴾ ـ هذا مَثَلُ المُؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها ـ ﴿والَّذِي خَبُثَ﴾ ترابُه ﴿لا يَخرُجُ﴾ نباتُه ﴿إلاّ نَكِدًا﴾: عسِرًا بمشقّة......

قولُه: (وفِي أُخرَى) عاصمٌ[١]؛ وهو تخفيفُ (بُشُر) وقد قُرِئ به[٢]، فقولُه: (أي: مبشِّراً) الظَّاهر: مبشِّراتٍ.

قولُه: (ومُفردُ الأُولَى) أي: مخفَّفاً، وكذا مثقَّلُه الَّذي للباقِينَ، ولا يخفَى أنَّ ابنَ كثيرٍ وحمزةَ والكِسائيَّ يقرؤُونَ[٣] ﴿الرِّياحَ﴾ بالإفرادِ فتأمَّل؛ لا تقعُ في التَّركيبِ الَّذي بمنزلةِ التَّلفيقِ.

قولُه: (بالمَطرِ) جمعَهُ؛ لأنَّ السَّحابَ بمعنَى: السَّحائبِ، وتذكيرُ الضَّميرِ باعتبارِ اللَّفظِ.

قولُه: (أي: لِإحيَائهِ) أو لأجلِه، أو لسقيِه، والمرادُ بالبلدِ: الأرضُ.

قولُه: (بالبَلَدِ) أو بالسَّحابِ، أو بالسَّوقِ، أو بالرِّيحِ، والباء للسَّببيَّةِ في الأخيراتِ، للظَّرفيَّةِ في الأولَى، وكذلك: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾.

وقولُه تعالى: (﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾) أي: من كلِّ أنواعِها.

قولُه: (الإِخرَاجِ) أي: إخراجِ الثَّمراتِ، أو إحياءِ البلدِ الميِّتِ.

قولُه: (فتُؤمِنُون) أي: تعلمُونَ أنَّ من قدَرَ على ذلك قدَرَ على هذا فتُؤمنُونَ بالبعثِ.

قولُه: (العذْبُ) الكريمُ.

قولُه: (حَسناً) أي: سريعاً حسناً، وهو يُفهَمُ من مقابلَتِه بقولِه: ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً﴾ [الأعراف: ٥٨].

قولُه: (ترَابُه) كالحَرَّةِ؛ وهي أرضٌ ذاتُ حجارةٍ سُودٍ، والسَّبْخةُ[٤]: أرضٌ ذاتُ نزٍّ[٥] ومِلحٍ.

قولُه: (عَسِراً) أي: بطِيئاً أو قلِيلاً عديمَ النَّفعِ، ونصبُه على الحالِ.

قولُه: (بمشَقَّةٍ) أي: بمعالجَةٍ يعرِفُها أهلُها.

---

(١) انظر المصادر السابقة.

(٢) ونسبها في «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (١/ ٢٥٥) لابن عباس والسلمي بخلاف، وعاصم بخلاف.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٣٢).

(٤) الباء تسكن وتفتح. «تاج العروس» (٧/ ٢٦٩).

(٥) النز ـ بفتح النون وكسرها ـ: ما يتَحَلَّبُ من الأرض من الماء. «مختار الصحاح» (ص: ٣٠٨).

وهذا مَثَلُ الكافر. ﴿كَذَلِكَ﴾: كما بيّنّا ما ذُكر، ﴿نُصَرِّفُ﴾: نُبيِّنُ ﴿الآياتِ لِقَومٍ يَشكُرُونَ﴾ اللهَ فيؤمنون.

٥٩ ـ ﴿لَقَدْ﴾ ـ جوابُ قسم محذوف ـ ﴿أرسَلْنا نُوحًا إلَى قَومِهِ، فقالَ: يا قَومِ اعبُدُوا اللهَ. مالَكُم مِن إلٰـهٍ غَيرِهِ﴾. بالجرِّ صفةٌ لِـ «إلٰـهٍ»، والرفعِ بدلٌ من محلّه. ﴿إنِّيَ أخافُ علَيكُم﴾ ـ إن عبدتم غيره ـ ﴿عَذابَ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

٦٠ ـ ﴿قالَ المَلَأُ﴾: الأشراف ﴿مِن قَومِهِ: إنّا لَنَراكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيّن. ٦١ ـ ٦٢ ـ ٦٣ ـ ﴿قالَ: يا قَومِ، لَيسَ بِي ضَلالَةٌ﴾ ـ هي أعمّ من الضلال، فنفيُها أبلغ من نفيه ـ ﴿ولكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ العالَمِينَ، أُبَلِّغُكُم﴾، بالتخفيف والتشديد، ﴿رِسالاتِ رَبِّي، وأنصَحُ﴾: أُريد الخيرَ ﴿لَكُم، وأعلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعلَمُونَ. أ﴾ كذّبتم ....

قولُه: (اللهَ) أو نعمَهُ.

قولُه: (بالجرِّ) كسائيٌّ[1].

قولُه: (من مَحَلِّهِ) لأنّه اسمُ ﴿ما﴾.

قولُه: (إنْ عبَدتُم) أو إن لم تُؤمِنُوا.

قولُه: (يَومُ القيَامَةِ) أو يومُ نزُولِ الطُّوفانِ.

قولُه: (الأَشرَافُ) فإنَّهم يملؤونَ العُيونَ.

قولُه: (بيِّنٍ) لأنّكَ تركتَ دينَ آبائكَ.

قولُه: (هيَ أعَمُّ) أي: شيءٌ من الضَّلالةِ.

وقولُه: (منَ الضَّلالِ) أي: البيِّنِ.

وقولُه: (﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾) أي: ثابتٌ على طريقِ الهدايَةِ.

قولُه: (بالتَّخفِيفِ) بَصريٌّ[2].

قولُه: (أكذَّبتُم) الهمزةُ للإنكارِ، والعطفُ على محذُوفٍ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٣٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١١٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٧٠).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٤١)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١١١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٧٠).

﴿وَعَجِبتُم أن جاءَكُم ذِكرٌ﴾: موعظة ﴿مِن رَبِّكُم علَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِنكُم لِيُنذِرَكُم﴾ العذابَ إن لم تُؤمنوا، ﴿ولِتَتَّقُوا﴾ اللهَ، ﴿ولَعَلَّكُم تُرحَمُونَ﴾ بها؟

٦٤ ـ ﴿فكَذَّبُوهُ، فأنجيناهُ والَّذِينَ مَعَهُ﴾ من الغرق ﴿في الفُلْكِ﴾: السفينة، ﴿وأغرَقْنا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ بالطوفان. ﴿إنَّهُم كانُوا قَومًا عَمِينَ﴾ عن الحقّ.

٦٥ ـ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلَى عادٍ﴾ الأولى ﴿أخاهُم هُودًا. قالَ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ﴾: وحِّدوه. ﴿مالَكُم مِن إلَـٰهٍ غَيرُهُ. أفلا تَتَّقُونَ﴾: تخافونه، فتؤمنون؟ ٦٦ ـ ﴿قالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَومِهِ: إنّا لَنَراكَ في سَفاهةٍ﴾: جهالة، ﴿وإنّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذِبِينَ﴾ في رسالتك.

٦٧ ـ ٦٨ ـ ﴿قالَ: يا قَومِ، لَيسَ بِي سَفاهةٌ، ولكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ العالَمِينَ، أُبلِغُكُم رِسالاتِ رَبِّي، وأنا لَكُم ناصِحٌ أمِينٌ﴾: مأمون على الرسالة...

وقولُه تعالى: (﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾) أي: مِن أن جاءَكُم.

قولُه: (موعِظَةٌ) أو رسالَةٌ.

قولُه: (اللهَ) أي: عقابَهُ أو مخالفتَهُ.

قولُه: (بهَا) أي: بالموعِظَةِ.

قولُه: (من الغَرقِ) الأصحُّ أنَّهم ثمانُونَ، رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ(١) عن ابنِ عبَّاسٍ.

قولُه: (السَّفينةِ) متعلِّقٌ بـ﴿مَعَهُ﴾ أو بـ﴿أنجَينا﴾.

قولُه: (بالطُّوفَانِ) متعلِّقٌ بـ﴿أَغْرَقْنَا﴾.

قولُه: (عن الحَقِّ) أي: عُمْيَ القُلوبِ عن معرفةِ اللهِ غيرَ مُستعبِرينَ، وأصلُه: عَمِيِينَ، فخُفِّفَ.

قولُه: (أرسَلْنا) يعنِي: ﴿أَخَاهُم﴾ عطفٌ على: ﴿نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾، و(﴿هُوداً﴾) عطفُ بيانٍ لـ﴿أَخَاهُم﴾ والمرادُ به: الواحدُ منهُم؛ كقولِهم: يا أخا العربِ، أو في النَّسبِ.

قولُه: (جهَالَةٍ) أي: متمكِّناً راسِخاً فيها، فالظَّرفُ وقعَ حالاً.

وقولُه: (﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾) أي: كامِلُ العَقلِ لأنِّي رسُولٌ.

قولُه: (مأمُونٌ) لا أكذِبُ فيها.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٠٦)، والأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٥٢).

٦٩ ـ ﴿أوَعَجِبتُم أن جاءَكُم ذِكرٌ مِن رَبِّكُم علَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِنكُم لِيُنذِرَكُم؟ واذكُرُوا إذْ جَعَلَكُم خُلَفاءَ﴾ في الأرض ﴿مِن بَعدِ قَومِ نُوحٍ، وزادَكُم في الخَلْقِ بَسْطَةً﴾: قوّة وطُولاً. وكان طويلُهم مِائَة ذراع وقصيرُهم ستّين. ﴿فاذكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾: نِعَمَه، ﴿لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾: تفوزون.

٧٠ ـ ﴿قالُوا: أجِئتَنا لِنَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ، ونَذَرَ﴾: نترك ﴿ما كانَ يَعبُدُ آباؤُنا؟ فأتِنا بِما تَعِدُنا﴾ به من العذاب، ﴿إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ في قولك. ٧١ ـ ﴿قالَ: قَد وَقَعَ﴾: وجب ﴿علَيكُم مِن رَبِّكُم رِجْسٌ﴾: عذاب ﴿وغَضَبٌ. أتُجادِلُونَنِي في أسماءٍ، سَمَّيتُمُوها﴾ أي: سمّيتم بها ﴿أنتُم وآباؤُكُم﴾ أصنامًا تعبدونها، ﴿ما نَزَّلَ اللهُ بِها﴾ أي: بعبادتها ﴿مِن سُلطانٍ﴾: حُجّة وبُرهان؟ ﴿فانتَظِرُوا﴾ العذاب. ﴿إنّي مَعَكُم مِنَ المُنتَظِرِينَ﴾ ذلك بتكذيبكم لي. فأُرسِلتْ عليهم الريحُ العَقيم.

٧٢ ـ ﴿فأنجَيناهُ﴾ أي: هودًا ﴿والَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المُؤمنين ﴿بِرَحْمَةٍ مِنّا، وقَطَعْنا دابِرَ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ ....

قولُه تعالى: (﴿إذْ جَعَلَكُمْ﴾) ﴿إذْ﴾ هنا مفعُولٌ بِهِ لـ﴿اذْكُرُوا﴾ لا ظرفٌ كما لا يخفَى.

قولُه: (أنعُمَه) تعمِيمٌ بعد تخصِيصٍ.

قولُه: (تَفُوزُون) أي: لكي يُفضِيَ بكُم ذكرُ النِّعَم إلى شُكرِها المؤدِّي إلى الفَوزِ.

قولُه: (مِنَ العَذابِ) المدلُولِ عليه بقولِه: ﴿أفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

قولُه: (وجَبَ) أو حقَّ عليكُم، أو نزَلَ عليكُم، على أنَّ المتوقَّعَ كالواقِعِ.

قولُه: (عذَابٌ) وغضَبٌ إرادةَ الانتقامِ.

قولُه: (أي: سمَّيتُم) أو في أشياءَ سمَّيتُموهَا آلهةً وليسَ فيها معنَى الإلهيَّةِ، فما هي إلَّا من موضُوعاتِكم ومختَرَعاتِكُم، أو ما هي إلَّا أسماءٌ أحدثتُمُوها، وليسَ تحتها مسمَّياتٌ.

قولُه: (أصناماً) مفعولُ: ﴿سَمَّيتُم﴾.

قولُه: (أي: بعبَادَتِها) أي: ما جعلَ اللهُ لكُم في عبادَتِها حُجَّةً ولا دليلاً.

قولُه: (العذَابَ) أي: نزولَهُ.

قولُه: (بتكذِيبِكُم) حتَّى تَروا حالَكُم وحالِي.

قولُه: (من المُؤمِنِينَ) أي: معه في الدِّينِ.

قولُه: (﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾) عليهِم.

أي: استأصلناهم، ﴿وما كانُوا مُؤمِنِينَ﴾: عطفٌ على «كذّبوا».

٧٣ ـ ٧٤ ـ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثَمُودَ﴾، بترك الصرف مُرادًا به القبيلةُ، ﴿أخاهُم صالِحًا. قالَ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ. ما لكُم مِن إلٰهٍ غَيرُهُ. قَد جاءَتكُم بَيِّنةٌ﴾: مُعجزة ﴿مِن رَبِّكُم﴾ على صدقي. ﴿هذِهِ ناقةُ اللهِ لكُم آيةً﴾: حالٌ عاملها معنى الإشارة ـ وكانوا سألوه أن يُخرجها لهم من صخرة عيّنوها ـ ﴿فذَرُوها، تَأكُلْ في أرضِ اللهِ، ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ﴾: بعقر أو ضرب، ﴿فيأخُذَكُم عَذابٌ أَلِيمٌ، واذكُرُوا إذْ جَعَلَكُم خُلَفاءَ﴾ في الأرض ﴿مِن بَعدِ عادٍ، وبَوّأَكُم﴾: أسكنكم ﴿في الأرضِ، تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِها قُصُورًا﴾ تسكنونها في الصيف، ﴿وتَنحِتُونَ الجِبالَ بُيُوتًا﴾ تسكنونها في الشتاء. ونصبُه على الحال المُقدَّرة. ﴿فاذكُرُوا آلاءَ اللهِ، ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسِدِينَ﴾.

قولُه: (استَأصَلنَاهُم) أي: أهلَكْناهُم عن آخرِهم.

قولُه: (عَطفٌ عَلى: ﴿كذَّبوا﴾) تعريضٌ بمَن آمَنَ فيهم، وتنبيهٌ على أنَّ الفارقَ بين من نجا وهَلك لعدمِ الإيمانِ.

قولُه: (بتَركِ الصَّرفِ) وقُرِئ مصرُوفاً[1] بتأويلِ الحيِّ.

قولُه: (معجِزَةٌ) ظاهرةُ الدَّلالةِ.

وقولُه تعالى: (﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾) استئنافٌ لبَيانِها، وإضافةُ النَّاقةِ إلى اللهِ لتعظِيمِها، ولأنَّها جاءَتْ من عندِه بلا وسائطَ وأسبابٍ معهُودةٍ، فإنَّها خرجَتْ من الصَّخرةِ يومَ عيدٍ بمحضَرِهم حينَ سألوا تلكَ المعجزةَ، وعَهِدوا أن يؤمنُوا بِهِ بعدَمَا تظهرُ، ولذلك كانت آيةً.

قولُه: (أو ضَربٍ) أو طَردٍ أو أذًى.

وقولُه تعالى: (﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾) جوابُ النَّهي.

قولُه: (فِي الأَرضِ) أو في مساكنِهم.

قولُه: (أسكنَكُم ﴿فِي الأَرْضِ﴾) أي: في أرضِ الحِجرِ.

وقولُه تعالى: (﴿تَتَّخِذُونَ﴾) أي: تبنُونَ القصُورَ في سهُولها، أو من سهُولةِ الأرضِ بما تصنَعُونَ منها كاللَّبِنِ والآجُرِّ.

قولُه: (ونصبُهُ) أي: لفظِ ﴿بُيُوتاً﴾؛ لأنَّ الجَبلَ ما كان بيتاً في حالِ النَّحتِ.

---

(١) وهي من القراءات الشاذة، انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٩١)، و«السراج المنير» (١/ ٤٨٨)، ونسبت لابن وثاب والأعمش.

٧٥ ـ ٧٦ ـ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾: تكبّروا عن الإيمانِ به ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: من قومه، بدل ممّا قبله بإعادة الجارّ: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِن رَبِّهِ﴾ إليكم؟ ﴿قَالُوا﴾: نعم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وكانت الناقة لها يوم في الماء ولهم يوم، فملّوا ذلك، ٧٧ ـ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ عَقَرَها قُدارٌ بأمرهم بأن قتلها بالسيف، ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَقَالُوا: يَا صَالِحُ، ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾به من العذاب على قتلها، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

٧٨ ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾: الزلزلةُ الشديدة من الأرض والصيحةُ من السماء، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾: ....

قولُه: (أي: مِن قَومِهِ) أي: الرَّعايا.

قولُه: (ممَّا قبلَهُ) أي: من ﴿قَوْمِهِ﴾ أو من ﴿الَّذِينَ﴾ بدلُ الكلِّ على الأوَّلِ، وبدلُ البعضِ على الثَّاني، فإنَّ المستضعَفينَ كثيرُونَ، والمؤمنُونَ أربعةُ آلافٍ.

قولُه: (إلَيكُم) قالوهُ على الاستِهزاءِ.

قولُه: (نعَم) يعنِي: عدَلُوا به عن الجَوابِ السَّوي الذي هو: نعَم، تَنبيهاً على أنَّ إرسالَهُ أظهَرُ من أن يشكَّ فيهِ عاقِلٌ، وإنَّما الكلامُ فيمن آمَنَ ومن كفَرَ ونحن مؤمنُونَ.

قولُه: (عَقرَهَا قُدَار) أسندَ إلى جميعِهِم فعلَ بعضِهِم للمُلابَسَةِ، أو لأنَّهُ كانَ برضاهُم أو بأمرِهِم، وقولُه تعالى: ﴿وَعَتَوْا﴾ أي: عن قَبُولِ أمرِ ربِّهم واستكبَروا عن امتثالِه، وهو ما بلَّغهُم صالِحٌ بقولِهِ: ﴿فَذَرُوهَا﴾.

وقولُه تعالى: (﴿وَقَالُوا﴾) يعنِي: حينَ قال لهُم: ولا تمسُّوها بسُوءٍ فيأخُذَكُم عذابٌ أليمٌ.

قولُه: (والصَّيحَةُ مِن السَّماءِ) فتقطَّعَتْ قُلوبهُم في صُدورِهِم، هكذا ذكرَهُ علَماءُ التَّفسيرِ فلا مُنافَاةَ بين هذا وبينَ مَا وقعَ في موضِعٍ آخرَ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣]؛ لأنَّ في عذابِهِم رجفَةً وصيحَةً فبيَّنَ في كُلِّ موضِعٍ شَيئاً.

قولُه: (﴿جَاثِمِينَ﴾... إلخ) في «الدُّرِّ»[1] المنقُولِ: مَيِّتين، وفي «المعَالِمِ»[2]: خامِدينَ ميِّتين، قيل: سقَطوا على وجوهِهِم موتَى عن آخرِهِم.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٣/ ٤٩٤).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٢٠٧).

باركين على الرُّكب ميِّتين، ٧٩ ـ ﴿فتوَلَّى﴾: أعرَضَ صالح ﴿عَنهُم، وقالَ: يا قَومِ، لَقَد أبلَغتُكُم رِسالةَ رَبِّي، ونَصَحتُ لكُم، ولكِنْ لا تُحِبُّونَ النّاصِحِينَ﴾.

٨٠ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿لُوطًا﴾، ويُبدل منه ﴿إذْ قالَ لِقَومِهِ: أتأتُونَ الفاحِشةَ﴾ أي: أدبارَ الرجال، ﴿ما سَبَقَكُم بِها مِن أحَدٍ مِنَ العالَمِينَ﴾ الإنس والجنّ؟ ٨١ ـ ﴿أإنَّكُم﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ الألف بينهما على الوجهين ـ ﴿لَتأتُونَ الرِّجالَ شَهْوةً مِن دُونِ النِّساءِ؟ بَل أنتُم قَومٌ مُسرِفُونَ﴾: متجاوزون الحلالَ إلى الحرام.

٨٢ ـ ﴿وما كانَ جَوابَ قَومِهِ إلاّ أن قالُوا: أخرِجُوهُم﴾ أي: لوطًا وأتباعه ﴿مِن قَرْيَتِكُم. إنَّهُم أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾..

وفي «المدَارِكِ»[١]: ميِّتِينَ قعُودًا، يقالُ: النَّاسُ جُثُم؛ أي: قعُودٌ لا حراكَ بهم ولا يتكلَّمونَ.

وفي «القَاموس»[٢]: جَثَمَ: لزِمَ مَكانَهُ ولم يَبرَح، أو وقعَ على صَدرِهِ، انتهى.

وأمَّا قولُه: (باركِينَ على الرُّكَبِ) فما أعرفُ أنَّهُ منقولٌ من اللُّغةِ، أو من القِصَّة.

قولُه: (يُبدَل) بدلَ الاشتمالِ؛ لأنَّهُ لا يمكِنُ أن يكونَ ظَرفاً لـ«اذكُر» من حيثُ المعنَى، أو تقديرُهُ: وأرسَلنا لُوطًا (فـ﴿إذ﴾) ظَرفٌ؛ أي: وقتَ قولِهِ لهم.

قولُه: (أي: أدبارَ) أي: إتيانَها، أو من أَتَى المرأَةَ إذا غشِيَها.

قولُه: (بتَحقِيقِ الهَمزتَينِ) والاستفهامُ للإنكارِ، وفي قراءةِ نافِعٍ وحفصٍ بالإخبارِ[٣].

قولُه: (وتَسهِيلِ الثَّانيةِ) ابنُ كَثيرٍ وأبُو عَمرٍو[٤].

قولُه: (وإدخَالِ ألِف) لأبي عَمرو، وكانَ حقُّهُ أن يقُولَ: (وتَركِهُ) أي: وتَركِ الإدخالَ ليُفهَمَ قراءَةُ ابنِ كَثيرٍ[٥].

وقولُه: (عَلى الوَجهَينِ) مرادُهُ: وجهَي التَّحقيقِ والتَّسهيلِ، لكن لا إدخالَ لأحدٍ هنا في وجهِ التَّحقيقِ.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٥٨٢).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٨٥).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٥)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٤٣)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٨٧).

(٤) انظر المصادر السابقة.

(٥) انظر المصادر السابقة.

مِن أدبارِ الرجالِ. ٨٣ ـ ﴿فأنجيناهُ وأهلَهُ إلّا امرأتَهُ، كانَتْ مِنَ الغابِرِينَ﴾: الباقينَ في العذابِ، ٨٤ ـ ﴿وأمطَرْنا علَيهِم مَطَرًا﴾ هو حِجارة السِّجّيل فأهلكتهم. ﴿فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبةُ المُجرِمِينَ﴾؟

٨٥ ـ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلَى مَدْيَنَ أخاهُم شُعَيبًا. قالَ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ. ما لَكُم مِن إلٰـهٍ غَيرُهُ. قد جاءَتكُم بَيِّنةٌ﴾: مُعجزة ﴿مِن رَبِّكُم﴾ على صِدقي. ﴿فأَوفُوا﴾: أتمُّوا ﴿الكَيلَ والمِيزانَ، ولا تَبخَسُوا﴾: تَنقُصوا ﴿النّاسَ أشياءَهُم، ولا تُفسِدُوا في الأرضِ﴾ بالكُفر والمعاصي ....

قولُه: (مِن أَدبَارِ الرِّجَالِ) أو من أدبارِ الرِّجالِ والنِّساءِ، هكذا فسَّرهُ ابنُ عبَّاسٍ[1] ومجاهدٌ[2] وقتادةُ[3]، وقيل: من الفواحشِ قالوهُ سخريةً.

قال تعالى: (﴿وأَهلَهُ﴾) أي: من آمَنَ به، وما آمنَ أحدٌ سوَى أهلِ بيتِهِ إلَّا امرأتُهُ فإنَّها كانت تُسِرُّ الكُفرَ.

قولُه: (البَاقِينَ) والتَّذكيرُ لتَغليبِ الذُّكورِ.

قولُه: (هوَ حِجَارَة) أي: نَوعاً من المطرِ عَجِيباً، وهو مبيَّنٌ بقولِه تعالى: ﴿وأمطَرنَا علَيهِم حِجَارةً من سِجِّيل﴾ [الحجر: ٧٤] وهو طينٌ طبِخَ بالنَّارِ.

قولُه: (أَرسَلنَا) و(﴿مَديَن﴾) قبيلَةٌ، أو المرادُ: إلى بلدِ مديَنَ، وكان يقالُ لشعَيبٍ: خطِيبُ الأنبياءِ؛ لحُسنِ مراجعتِهِ قومَهُ.

قولُه: (مُعجِزَة) كانت لهُ، وليسَ في القُرآنِ أنَّها ما هي.

قولُه: (أتِمُّوا) أي: آلَةَ الكَيلِ على الإضمارِ، إذ أرادَ بالكَيلِ الذي هو المصدرُ ما يكالُ به وهو المكيالُ لقولِهِ: ﴿والمِيزَان﴾، كما قالَ في سُورةِ هُودٍ: ﴿أَوفُوا المِكيَالَ والمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٥] أو أوفُوا الكَيلَ ووزنَ الميزانِ.

قولُه: (تُنقِصُوا) أي: حقوقَهُم، وإنَّما قالَ (﴿أشيَاءَهُم﴾) للتَّعميمِ تنبِيهاً على أنَّهُم كانوا يبخَسونَ الجلِيلَ والحَقِيرَ والقليلَ والكثِيرَ، وقيل: كانُوا مكَّاسِينَ لا يدعُونَ شيئاً إلا مكسُوهُ.

قولُه: (والمَعَاصِي) منها الحَيفُ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٨٣٦)، وعبد الرزاق وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٩٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٨٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥١٨).

(٣) الذي روي عن قتادة أنه قال: عابوهم والله بغير عيب أي أنهم أناس يتطهرون من أعمال السوء.

رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢١٧٢)، والطبري في «تفسيره» (١٤٨٣٨)، وعبد بن حميد وأبي الشيخ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٩٦).

﴿بَعدَ إصلاحِها﴾ ببعث الرُّسل - ﴿ذلِكُم﴾ المذكور ﴿خَيرٌ لَكُم، إن كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾ مُريدي الإِيمان فبادروا إليه - ٨٦ - ﴿ولا تَقعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ﴾: طريق، ﴿تُوعِدُونَ﴾: تُخوّفونَ الناس بأخذ ثيابهم أو المَكس منهم، ﴿وتَصُدُّونَ﴾: تَصرِفون ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: دِينه ﴿مَن آمَنَ بِهِ﴾ بتوعّدكم إياه بالقتل، ﴿وتَبغُونَها﴾: تطلبون الطريق ﴿عِوَجًا﴾ مُعْوَجّة، ﴿واذكُرُوا إذْ كُنتُم قَلِيلاً فكَثَّرَكُم، وانظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُفسِدِينَ﴾ قبلكم بتكذيبهم رسلَهم، أي: آخرُ أمرهم من الهلاك؟ ٨٧ - ﴿وإن كانَ طائفةٌ مِنكُم آمَنُوا بِالَّذِي أُرسِلْتُ بِهِ وطائفةٌ لَم يُؤمِنُوا﴾ به ﴿فاصبِرُوا﴾: انتظروا، ﴿حَتَّى يَحكُمَ اللهُ بَينَنا﴾ وبينكم بإنجاءِ المُحقِّ وإهلاك المُبطل، ﴿وهُوَ خَيرُ الحاكِمِينَ﴾: أعدلُهم.

٨٨ - ﴿قالَ المَلأُ الَّذِينَ استَكبَرُوا مِن قَومِهِ﴾ عن الإِيمان: ﴿لَنُخرِجَنَّكَ - يا شُعَيبُ - والَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنا، أَو لَتَعُودُنَّ﴾: تَرجِعُنّ ﴿فِي مِلَّتِنا﴾: ديننا..

قولُه: (ببَعْثِ الرُّسُل) الأظهرُ: الرَّسُولِ وأمرِه بالعَدلِ.

قولُه: (أي ﴿ذَلِكُم﴾ المذكُورُ) من العَملِ بما أمرَهُم به ونهاهُم عنه.

ومعنَى: «الخَيرِيَّةِ» إمَّا الزِّيادةُ مطلَقاً، أو في الإنسانيَّةِ، وحُسنِ الثَّناءِ وجمعِ المالِ؛ أي: خيرٌ لكُم في الدَّارَينِ مَنالاً ومآلاً إن كنتُم مصدِّقينَ بمآلي.

قولُه: (طَرِيق) والباءُ ظرفِيَّة، قالَ القاضِي[1]: قيل: كانُوا يجلسونَ على طرُقِ النَّاسِ.

و(﴿تُوعِدُونَ﴾) في موضعِ الحالِ و(﴿تَصُدُّونَ﴾) عطفَ على: ﴿تُوعِدُونَ﴾ وتنازَعا في ﴿من آمَنَ﴾ والعَملُ للثَّاني و﴿بِهِ﴾؛ أي: باللهِ أو بشُعَيبٍ.

قولُه: (بأَخذِ ثِيَابِهِم) غَصباً، وقيل: كانُوا يقطَعونَ الطَّرِيقَ.

قولُه: (مُعوَجَّة) أي: تطلبُونَ لسَبيلِ اللهِ عوَجاً بوَصفِها للنَّاسِ بأنَّها معوَجَّةٌ أو عوَجاً بإلقاءِ الشُّبَهِ، قَال تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾ أي: في العدَدِ والعُدَد.

قولُه: (﴿فَكثَّرَكُم﴾) بالبرَكَةِ في النَّسلِ والمالِ.

قولُه: (مِنَ الهَلاكِ) واعتبِرُوا بهم.

قولُه: (بإنجَاءِ المُحقِّ) فهو وَعدٌ للمُؤمنينَ ووعِيدٌ للكافِرينَ.

قولُه: (أعَدَلُهُم) لا حَيفَ في حكمِهِ ولا مُعقِّبَ لقضائِهِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٣).

وغَلّبوا في الخِطاب الجمعَ على الواحد لأنّ شُعيبًا لم يكن في مِلّتهم قَطُّ.

وعلى نحوه أجاب، ﴿قالَ: أَ﴾ نعود فيها، ﴿وَلَو كُنّا كارِهِينَ﴾ لها؟ استفهام إنكار. ٨٩ ـ ﴿قَدِ افتَرَينا عَلَى اللهِ كَذِبًا، إنْ عُدْنا في مِلَّتِكُم بَعدَ إذْ نَجّانا اللهُ مِنها! وما يَكُونُ﴾: ينبغي ﴿لَنا أن نَعُودَ فِيها إلاّ أن يَشاءَ اللهُ رَبُّنا﴾ ذلك فيَخذُلَنا. ﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيءٍ عِلمًا﴾ أي: وسع علمُه كُلَّ شيء ومنه حالي وحالكم. ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا. رَبَّنا، افتَحْ﴾: احكم ﴿بَينَنا وبَينَ قَومِنا بِالحَقِّ، وأنتَ خَيرُ الفاتِحِينَ﴾: الحاكمين.

٩٠ ـ ٩١ ـ ﴿وقالَ المَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَومِهِ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿لَئِنِ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿اتَّبَعْتُم شُعَيبًا إنَّكُم إذًا لَخاسِرُونَ. فأخَذَتهُمُ الرَّجْفَةُ﴾: الزلزلة الشديدة، ﴿فأصبَحُوا في دارِهِم جاثِمِينَ﴾: باركين على الركب ميّتين. ٩٢ ـ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيبًا﴾: مبتدأ خبرُه ﴿كأَنْ﴾ ـ مُخفّفةٌ واسمها محذوف ـ أي: كأنّهم ﴿لَم يَغْنَوا﴾: يُقيموا ﴿فِيها﴾: في ديارهم. ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيبًا كانُوا هُمُ الخاسِرِينَ﴾..

قولُه: (الجَمْع) أي: الَّذين آمَنُوا.

قولُه: (قَطُّ) لأنَّ الأنبياءَ لا يجوزُ عليهمُ الكُفرُ مُطلقاً.

وقولُه: (وعَلى نَحوِهِ) أي: على ذلك التَّغليبِ، ويمكنُ أن يكُونَ «عادَ» من أخَواتِ كان، بمعنَى: صارَ فلا يستَدعِي الرُّجُوعَ إلى حالِه سابِقاً.

قولُه: (استِفهَامُ إنكَارٍ) أي: كيف نعودُ ونحن كارِهونَ لها.

قولُه: (يَنبَغِي) ويصِحُّ.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: العَودَ منّا أو خذلانَنا وارتدادَنا، فإنَّهُ مصرِّفٌ للقُلوبِ، وفيه دليلٌ على أنَّ الكُفرَ بمشيئتِهِ.

قولُه: (وَسِعَ عِلمُهُ) إشارَةٌ إلى أنَّ «عِلمًا» تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعلِ.

قولُه: (كُلَّ شَيءٍ) أي: أحاطَ بما كانَ وما يكونُ.

قولُه: (لامُ قَسَم) أي: موطِّئَةٌ للقسَمِ.

قولُه: (الزَّلزَلَة) وفي سورةِ الحجِّ: ﴿فَأَخَذتهُم الصَّيحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣] ولعلَّها كانت من مبادِئِها، وفي سورَةِ الشُّعراءِ: ﴿عَذَابُ يَومِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] أي: سحابَةٌ فيها شررٌ من النَّارِ ولهَبٌ، وهي كانت قبلَها فاجتمعَ عليهم أنواعٌ من العذابِ، أو عذابُ الظُّلَّةِ مختصٌّ بأصحابِ الأيكَةِ.

التأكيد بإعادة الموصولِ وغيرِه للردّ عليهم في قولهم السابق. ٩٣ ـ ﴿فتَوَلّى﴾: أعرَض ﴿عَنهُم، وقالَ: يا قَومِ، لَقَد أبلَغتُكُم رِسالاتِ رَبِّي، ونَصَحْتُ لَكُم﴾ فلم تُؤمنوا. ﴿فكَيفَ آسَى﴾: أحزنُ ﴿علَى قَومٍ كافِرِينَ﴾؟ استفهام بمعنى النفي.

٩٤ ـ ﴿وما أرسَلْنا في قَرْيةٍ مِن نَبيٍّ﴾ فكذّبوه ﴿إلاّ أخَذْنا﴾: عاقبنا ﴿أهلَها بِالبأساءِ﴾: شِدّةِ الفقر ﴿والضَّرّاءِ﴾: المرضِ، ﴿لعَلَّهُم يَضَّرَّعُونَ﴾: يتذلّلون فيُؤمنون، ٩٥ ـ ﴿ثُمَّ بَدَّلْنا﴾: أعطيناهم ﴿مَكانَ السَّيِّئةِ﴾: العذابِ ﴿الحَسَنةَ﴾: الغِنى والصحّةَ، ﴿حَتَّى عَفَوا﴾: كثُروا، ﴿وقالُوا﴾ كُفرًا للنعمة: ﴿قَد مَسَّ آباءَنا الضَّرّاءُ والسَّرّاءُ﴾ كما مسّنا. وهذه عادة الدهر وليست بعقوبة من الله، فكونوا على ما أنتم عليه. قال تعالى: ﴿فأخَذْناهُم﴾ بالعذاب ﴿بَغْتةً﴾: فجأة، ﴿وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه قبله.

٩٦ ـ ﴿ولَو أنَّ أهلَ القُرَى﴾ المُكذِّبين ﴿آمَنُوا﴾ بالله ورُسلهم ﴿واتَّقَوا﴾ الكُفرَ والمعاصي......

قولُه: (وغَيرِهِ) من الجملَةِ الاسميَّةِ والضَّميرِ.

قولُه: (في قولِهِم السَّابِق) ﴿لئِن اتَّبعتُم شُعَيباً إنَّكُم إذًا لخاسِرُون﴾ [الأعراف: ٩٠]؛ أي: هم الخاسِرُونَ دِيناً ودُنيا لا الذين اتَّبعوهُ كما زعمُوا فإنَّهُم الرَّابحُونَ في الدَّارينِ.

قولُه: (بمَعنَى النَّفي) أي: قالَ (﴿يَا قَومِ﴾... إلخ) تأسُّفاً بهم لشدَّةِ حُزنِه عليهم، ثمَّ أنكرَ على نفسِهِ فقال: فكيفَ آسَى على قومٍ ليسُوا أهلَ حُزنٍ لاستحقاقِهِم ما نزلَ عليهم بكُفرِهِم، أو قالهُ اعتِذاراً عن عدمِ شدَّةِ حُزنِهِ عليهم، والمعنى: لقد بالَغتُ في الإبلاغِ فلم تصدِّقُوا قولي فكيفَ آسَى عليكُم؟

قولُه: (يَتذلَّلونَ) ويترُكُونَ الاستكبارَ عن الإيمانِ.

قولُه: (أعطَينَاهُم) ابتلاءً.

قولُه: (العَذَاب) أي: بدلَ ما كانُوا فيه من البلاءِ والشِّدَّة.

قولُه: (كثُرُوا) عَدداً وعُدداً.

قولُه: (فَجأَة) مصدرٌ؛ أي: هذا النَّوعَ من الأخذِ.

قولُه: (قَبلَه) أي: قبلَ مجيئِهِ.

قولُه: (المكذِّبين) أي: تلكَ القُرَى التي أرسلنا فيها رُسُلًا، أو القُرَى المدلُولِ عليها بقولِهِ: ﴿ومَا أرسلنَا في قَريَةٍ من نَبيٍّ﴾ وقيل: مكَّة وما حَولها.

قولُه: (وَرسُلِهِ) وفي نسخةٍ: «وَرُسُلِهِم».

قولُه: (الكُفرَ والمَعَاصِيَ) الأحسنُ: آمَنوا واتَّقُوا مكانَ كُفرِهِم وعصيانِهِم.

﴿لَفَتَحْنا﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿عَلَيهِم بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ﴾ بالمطر ﴿والأرضِ﴾ بالنبات، ﴿ولكِنْ كَذَّبُوا﴾ الرُّسلَ، ﴿فأَخَذْناهُم﴾: عاقبناهم ﴿بِما كانُوا يَكسِبُونَ﴾.

٩٧ ـ ﴿أفأَمِنَ أهلُ القُرَى﴾ المُكذِّبون ﴿أن يأتِيَهُم بأسُنا﴾: عذابنا ﴿بَياتًا﴾: ليلاً، ﴿وهُم نائمُونَ﴾ غافلون عنه؟ ٩٨ ـ ٩٩ ـ ﴿أوَأمِنَ أهلُ القُرَى أن يأتِيَهُم بأسُنا ضُحًى﴾: نهارًا، ﴿وهُم يَلعَبُونَ؟ أفأَمِنُوا مَكرَ اللهِ﴾: استدراجَه إيّاهم بالنعمة وأخْذَهم بغتةً؟ ﴿فلا يأمَنُ مَكرَ اللهِ إلاّ القَومُ الخاسِرُونَ﴾.

١٠٠ ـ ﴿أوَلَم يَهْدِ﴾: يتبَيَّنْ ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرضَ﴾ بالسُّكنى ﴿مِن بَعدِ﴾ هلاكِ ﴿أهلِها أنْ﴾ ـ فاعلٌ مُخفّفة واسمها محذوف ـ أي: أنّه ﴿لَو نَشاءُ أصَبْناهُم﴾ بالعذاب ﴿بِذُنُوبِهِم﴾ كما أصبنا مَن قبلهم؟ والهمزة في المواضع الأربعة للتوبيخ، والفاء والواو الداخلة عليهما للعطف..........

قولُه: (والتَّشدِيد) شَامِي[1].

قولُه: (بالنَّبَاتِ) أو لوسَّعنا عليهم الخيرَ من كُلِّ جانبٍ.

قولُه: (لَيلاً) أي: وقتَ بيتُوتَةٍ فنصَبهُ على الظَّرفِ بحذفِ المضافِ، وهو أولَى لمناسبةِ قوله: ﴿ضُحًى﴾، وإن جازَ أن يكونَ حالاً بمعنًى: بائتينَ.

قولُه: (غَافِلُونَ) والجملةُ حالٌ من ضميرِهم البارزِ.

قولُه: (نَهاراً) أو ضحوَةَ النَّهارِ، وهو أظهرُ لقولِهِ: ﴿وَهُم يَلعَبُونَ﴾ أي: من فَرطِ الغَفلةِ، أو يشتغِلونَ بما لا ينفعُهُم.

قولُه: (يتبيَّن) يعني: إنّما عُدِّي ﴿يهدِ﴾ باللّامِ؛ لأنّهُ بمعنَى يتبيَّن أو للتَّضمينِ.

قولُه: (بالسُّكنَى) أي: يخلُفونَ من خلا قبلَهُم ويرثُونَ ديارَهُم.

قولُه: (فَاعِل) أي: جملَةُ: (﴿أَن لَو نَشَاءُ﴾) فاعِل (﴿يَهدِ﴾) وفي قراءةٍ شاذَّةٍ بالنُّون[2] فهو مفعولُهُ.

قولُه: (أي: أنَّهُ) الشَّأنَ.

قولُه: (بالعَذَابِ) أو بالبلاءِ، والباءُ في ﴿بذنُوبِهِم﴾ للسَّببيَّة.

قولُه: (للعَطفِ) وإنَّما أخِّرتا لصَدارَةِ الاستفهامِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٦)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٥٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٨٨).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١١٠)، وعزوها لأبي عبد الرحمن وقتادة ويعقوب في رواية زيد، و«معالم التنزيل» (٢/ ٢١٧) وعزاها لقتادة ويعقوب.

وفي قراءة بسكون الواو في الموضع الأوّل عطفًا بـ «أوْ». ﴿وَ﴾ نحن ﴿نَطبَعُ﴾: نَختِمُ ﴿عَلَى قُلُوبِهِم، فهُم لا يَسمَعُونَ﴾ الموعظةَ سماعَ تدبُّر.

١٠١ ـ ١٠٢ ـ ﴿تِلكَ القُرَى﴾ التي مرَّ ذِكرها ﴿نَقُصُّ علَيكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿مِن أنبائها﴾: أخبارِ أهلها. ﴿ولَقَد جاءَتهُم رُسُلُهُم بالبيِّناتِ﴾: المُعجزات الظاهرات، ﴿فما كانُوا لِيُؤمِنُوا﴾ عِند مجيئهم، ﴿بِما كَذَّبُوا﴾: كفروا به ﴿مِن قَبلُ﴾ قبلِ مجيئهم، بل استمرّوا على الكُفر. ﴿كَذلِكَ﴾ الطبعِ ﴿يَطبَعُ اللهُ علَى قُلُوبِ الكافِرِينَ. وما وَجَدْنا لِأكثَرِهِم﴾ أي: أكثر الناس ﴿مِن عَهدٍ﴾ أي: وفاءٍ بعهدهم يوم أخذِ الميثاق، ﴿وإنْ﴾ ـ مُخفّفةٌ ـ ﴿وَجَدْنا أكثَرَهُم لَفاسِقِينَ﴾.

قولُه: (وفي قِراءَةٍ) للحرميَّين والشَّامي[1].

قولُه: (في المَوضِعِ الأوَّلِ) أي: من الموضِعَينِ المعرُوفَينِ بأو.

قولُه: (﴿وَ﴾ نَحنُ) إشارةٌ إلى أنَّهُ استئنافٌ منقطعٌ عمَّا قبلَهُ، ولهذا غيَّرَ الأسلُوبَ ولم يقُل: طَبَعنا.

قولُه: (أخبَارِ أهلِهَا) و﴿من﴾ للتَّبعيضِ، إذ لها أنباءٌ غيرُها ما قصَّها.

قولُه: (عندَ مَجِيئِهِم) أي: مجيءِ الرُّسلِ بها.

قولُه: (قبلَ مَجِيئِهِم) أي: الباءُ للسَّببيَّة؛ يعنِي: كُفرُهُم السَّابقَ بسببِ كفرِهِم اللَّاحقِ، وعن بعضِ السَّلفِ: المرادُ: من قبلِ يومِ أخذِ الميثاقِ، فإنَّهم أقَرُّوا باللِّسانِ وأضمَرُوا التَّكذيبَ، وهو قولُ الربيعِ بنِ أنسٍ والسُّدِّي وغيرِهما واختارَهُ ابنُ جريرٍ[2]، أو المرادُ: قبلَ رُؤيتِهم تلك المعجزَاتِ؛ يعنِي: بعدَ ما طبَعناهُم لا يمكِنُ لهم الإيمانُ بما جاءَهُم الرُّسلُ، فعلى هذا الباءُ صلَةُ: ﴿يؤمنُوا﴾.

قولُه: (الطَّبعِ) أي: الشَّديدِ.

قولُه: (أي: أكثر النَّاسِ) فالآيةُ اعتراضٌ أو لأكثَرِ الأُممِ المذكُورينَ.

قولُه: (وفَاءٍ) يحتمِلُ الجرَّ والنَّصبَ.

قولُه: (بعَهدِهِم) أو عهدِهِم مع أنبيائهِم.

قولُه: (مُخَفَّفة) أي: إنَّ الشَّأنَ علِمناهُم.

وقولُهُ: (﴿لَفَاسِقِينَ﴾) أي: خارِجينَ عن طاعَتِنا واللَّام فارِقَة، وعندَ الكوفيِّينَ ﴿إن﴾ للنَّفي واللام بمعنَى: إلَّا.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٦)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٥٢)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١١)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٨٩).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٩) إلا أن ابن جرير جعل قول السدي مختلفاً قليلًا عن قول أبي بن كعب والربيع بن أنس، والذي رجحه الطبري قول أبي بن كعب والربيع.

١٠٣ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ أي: الرُّسلِ المذكورين ﴿مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿إِلَى فِرْعَونَ وَمَلَئِهِ﴾: قومِه، ﴿فَظَلَمُوا﴾: كفروا ﴿بِهَا. فَانظُرْ: كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفسِدِينَ﴾ بالكفر مِن إهلاكهم؟ ١٠٤ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَى: يَا فِرْعَونُ، إِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ العَالَمِينَ﴾ إليكَ. فكذَّبه، فقال: أنا ١٠٥ ـ ﴿حَقِيقٌ﴾: جدير ﴿عَلَى أَن﴾ أي: بأن ﴿لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الحَقَّ﴾. وفي قراءة بتشديد الياء ـ فحقيق: مبتدأ خبره «أن» وما بعده ـ ﴿قَد جِئتُكُم بِبَيِّنَةٍ، مِن رَبِّكُم. فَأَرسِلْ مَعِيَ﴾ إلى الشام ﴿بَنِي إِسرَائِيلَ﴾. وكان استعبدَهم.

قولُه: (أي: الرُّسُل) أو الأُممِ.

قولُه: (التِّسعِ) يأتِي تفصِيلُها به في آخرِ الإسراءِ؛ يعنِي: المرادُ بها المعجِزاتُ دُونَ التَّوراةِ لنزُولِها بعدَ هلاكِ فرعَونَ.

قولُه: (كَفَروا) أي: وضَعُوا الكُفرَ بها مكانَ الإيمانِ الَّذي هو من حقِّهَا لوضُوحِها.

قولُه: (بالكُفرِ) متعلِّقٌ بـ﴿المفسِدِينَ﴾، و(مِن إهلَاكِهِم) بيانُ ﴿عاقبة﴾.

قولُه: (فقَالَ) أي: موسَى.

قولُه: (أنا) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿حَقِيقٌ﴾ خبرُ مُبتدإٍ محذوفٍ، وقيل: إنَّهُ صفةُ ﴿رَسُول﴾ أو خبرٌ بعدَ خبَرٍ.

قولُه: (جَدِيرٌ) فـ(﴿عَلَى﴾) بمعنَى: الباءِ، أو ثابتٌ فـ(على) على معناهُ، وقولهُ: إلَّا الحقَّ؛ أي: القَولَ الحقَّ.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ[1].

قولُه: (فحَقِيقٌ) أي: واجبٌ.

وقولُه: (فحَقِيق مُبتَدَأ... إلخ) والأظهرُ أنَّ ما بعدَهُ فاعلُ: ﴿حقيق﴾.

قالَ تعالى: (﴿بِبَيِّنَةٍ﴾) أي: العَصا.

قولُه: (إلى الشَّامِ) أي: الأرضِ المقدَّسَةِ التي هي وطَنُ آبائِهِم.

قولُه: (وكَانَ) أي: فرعَونُ.

قولُه: (استَعبدَهُم) واستخدَمَهُم في الأعمالِ الشَّاقَّة.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٥٦)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٨٩).

١٠٦ ـ ﴿قالَ﴾ فرعون له: ﴿إن كُنتَ جِئتَ بِآيَةٍ﴾ على دعواك ﴿فائتِ بِها، إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ فيها. ١٠٧ ـ ﴿فألقَى عَصاهُ، فإذا هِيَ ثُعبانٌ مُبِينٌ﴾: حيّة عظيمة، ١٠٨ ـ ﴿ونَزَعَ يَدَهُ﴾: أخرجها من جيبه، ﴿فإذا هِيَ بَيضاءُ﴾ ذات شُعاع ﴿لِلنّاظِرِينَ﴾ خلافُ ما كانت عليه من الأُدمة.

١٠٩ ـ ﴿قالَ المَلأُ مِن قَومِ فِرعَونَ: إنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ﴾: فائق في عِلم السِّحر ـ وفي «الشعراء» أنه من قول فرعون نفسه، فكأنّهم قالوه معه على سبيل التشاور ـ ١١٠ ـ ١١١ ـ ﴿يُرِيدُ أن يُخرِجَكُم مِن أرضِكُم. فماذا تأمُرُونَ؟ قالُوا: أرجِئْهُ وأخاهُ﴾:...........................

قولُه: (علَى دَعوَاكَ) من عِند من أرسلَكَ.

قولُه: (فيهَا) أي: في دعواكَ.

قولُه: (حيَّة عَظِيمَة) أي: ظاهِرٌ أمرُه لا يُشكُّ في أنَّه ثُعبانٌ.

قولُه: (مِن جَيبِهِ) أو من تحتِ إبطِهِ؛ يعنِي: بعدَ ما أدخَلَها فيه.

قولُه: (ذَاتُ شُعَاعٍ) غلبَ نُورَ الشَّمسِ؛ يعنِي: بيضاء بَياضاً خارِجاً عن العادةِ يجتمِعُ عليها النَّظَّارَة ثمَّ أعادَها إلى كمِّهِ فعادَتْ إلى لَونِها الأوَّلِ، هكذا قالَه مجاهِدٌ وغيرُه[1].

قولُه: (منَ الأُدمَةِ) إذ رويَ أنَّه كانَ آدَمَ شديدَ الأُدْمَةِ، وفي «القامُوسِ»[2]: الأُدمَةُ ـ بالضَّم ـ في الإنسانِ، السُّمرَةُ ـ بالضَّم ـ وهي منزلَةٌ بين البياضِ والسَّوادِ.

قولُه: (التَّشاوُر) فحكي عنه في سُورةِ الشُّعراءِ وعنهم هاهُنا، أو قالَ الملأُ بطريقِ التَّبليغِ من لسانِ فرعونَ إلى القبطِ.

وقوله: (﴿يريدُ أَن يخرِجَكُم﴾) يا معشرَ القِبطِ (﴿من أرضِكُم﴾) مصرَ (﴿فماذَا تأمُرُونَ﴾) تشيرُونَ في أمرِهِ فهو من المؤامرَةِ بمعنَى: المشاورَةِ، وجازَ أن يكونَ من الأمرِ الَّذي هو ضدُّ النَّهيِ؛ أي: أيَّ أمرٍ تأمُرونا، وعلى الوجهَينِ يُشَمُّ من كلامِهِ رائحةُ الدَّهشِ والحَيرَة.

وفي (﴿أَرجِهِ﴾) ستُّ قراءاتٍ[3] تطلَبُ من مَحلِّها مع تحقِيقِ ما فيها.

---

(١) أما ما ذكر المؤلف فهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنه، رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٩١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣٣). وأما قول مجاهد فقال: نزع يده من جيبه بيضاء من غير برص، رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٩٢٠). وذكر ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٠٩) قول ابن عباس، ثم قال: وكذا قال مجاهد وغير واحد.

(٢) انظر: «القاموس» (ص: ١٠٧٤).

(٣) والقراءات هي: بالهمز، وتركه، وبإشباع الضمة والهمز، وباختلاس الحركة، وبكسر الهاء، وإسكانها مع ترك الهمز، انظر: «الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٥٧ ـ ٦٣)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٢) (٢٢).

أَخِّرْ أمرهما، ﴿وأرسِلْ في المَدائنِ حاشِرِينَ﴾: جامعين، ١١٢ ـ ﴿يأتوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ﴾ ـ وفي قراءة «سَحّارٍ» ـ ﴿عَلِيمٍ﴾: يفضُلُ موسى في عِلم السِّحر.

١١٣ ـ ١١٤ ـ فجمعوا، ﴿وجاءَ السَّحَرةُ فِرعَونَ، قالُوا: أإنَّ﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين ـ ﴿لَنا لأَجرًا، إن كُنّا نَحنُ الغالِبِينَ؟ قالَ: نَعَمْ، وإنَّكُم لَمِنَ المُقَرَّبِينَ﴾.

١١٥ ـ ﴿قالُوا: يا مُوسَى، إمّا أن تُلقِيَ﴾ عصاك، ﴿وإمّا أن نَكُونَ نَحنُ المُلقِينَ﴾ ما معنا.

١١٦ ـ ﴿قالَ: ألقُوا﴾. أمَرَ للإذن بتقديم إلقائهم توسُّلاً به إلى إظهار الحقّ. ﴿فلَمّا ألقَوا﴾ حِبالهم وعصيّهم ﴿سَحَرُوا أعيُنَ النّاسِ﴾:..........................

قولُه: (أَخِّرْ أمرَهُمَا) أو احبِسهُما.

قولُه: (جَامِعِين) أي: رِجالاً يحشُرُونَ إليك من في مدائنِ صعيدِ مصرَ من نَواحِي مصرَ من السَّحَرَة.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ[1].

قولُه: (بتحقِيقِ الهَمزَتَينِ) ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ وحمزَةُ والكِسائِيُّ[2].

قولُه: (وتَسهِيلِ الثَّانِيةِ) أبُو عَمرو[3].

قولُه: (وإدخَالِ ألفٍ) لأبي عَمرٍو مع التَّسهِيلِ وهشامٍ مع التَّحقيقِ، وهذا معنَى قولِهِ: (عَلى الوَجهَينِ) وبقِيَ الحرميَّانِ وحفصٌ بالإخبارِ[4].

قولُه: (﴿قالَ نَعَم﴾) أي: قال فرعَونُ إنَّ لكُم أجراً.

وَقولُه: (﴿وإنَّكُم﴾) عطفٌ على محذُوفٍ سدَّ مسدَّهُ نعَم، وزيادَةً على الجوابِ لتحريضِهِم.

قولُه: (مَا مَعنَا) من الحِبالِ والعِصِيِّ خيَّرُوا مُوسَى مراعاةً للأدبِ، أو إظهاراً للجلادَةِ.

قولُه: (تَوَصُّلاً) أو كرَماً وتسامُحاً، أو ازدِراءً بهم ووُثُوقاً على اللهِ، فليسَ أمرُهُم بالإلقاءِ قبلَهُ من قبِيلِ الإباحَةِ للسِّحرِ والرِّضا بالكُفرِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٩)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٦٣)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩١).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٩)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٦٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٢).

(٣) انظر المصادر السابقة.

(٤) انظر المصادر السابقة.

صرفوها عن حقيقة إدراكها، ﴿واسترهَبُوهُم﴾: خوّفوهم حيثُ خيّلوها حيّاتٍ تسعى، ﴿وجاؤُوا بِسِحرٍ عَظِيمٍ﴾.

١١٧ ـ ﴿وأَوحَينا إلَى مُوسَى: أنْ أَلقِ عَصاكَ. فإذا هِيَ تَلقَّفُ﴾، بحذف إحدى التاءين من الأصل: تبتلعُ ﴿ما يأفِكُونَ﴾: يقلِبون بتمويههم، ١١٨ ـ ﴿فوَقَعَ الحَقُّ﴾: ثَبَتَ وظهر، ﴿وبَطَلَ ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾ من السِّحر، ١١٩ ـ ﴿فغُلِبُوا﴾ أي: فرعونُ وقومه ﴿هُنالِكَ، وانقَلَبُوا صاغِرِينَ﴾: صاروا ذليلين، ١٢٠ ـ ١٢١ ـ ١٢٢ ـ ﴿وأُلقِيَ السَّحَرةُ ساجِدِينَ، قالُوا: آمَنّا بِرَبِّ العالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وهارُونَ﴾، لعِلمهم بأنّ ما شاهدوه من العصا لا يتأتّى بالسِّحر.

قولُه: (صَرَفُوهَا) بأن خيَّلُوا إليهَا ما الحقيقَة بخلافِهِ.

وقولُه تعالى: (﴿بِسِحرٍ عَظِيمٍ﴾) أي: في فنِّهِ، رُوِيَ[1]: أنّهُم ألقُوا حبالاً غِلاظاً وخُشباً طِوالاً، كأنَّها حيَّاتٌ ملأَتِ الوَادِيَ وركِبَ بعضُها بَعضاً، قيل: خمسَةَ عشرَ ألفَ ساحِرٍ، وقيل: أكثَرُ مع كلِّ عِصِيٌّ وحبَالٌ غِلاظٌ طِوالٌ.

قالَ السُّدِّيُّ[2]: كانوا بضعَةً وثلاثينَ ألفَ رجُلٍ، ونقلَ ابنُ جرِيرٍ[3] أنّهُم سبعُونَ ألفَ سَاحِرٍ.

قولُه: (مِنَ الأَصلِ) أي: أصلُهُ تتلَقَّف، وقرأَ البزِّي: بتشديدِ التاءِ؛ أي: بإدغامِ التاءِ في التاءِ على الأصلِ في الوصلِ، وقرأَ حفصٌ على وزنِ تَمنَع من الثُّلاثِي المجَرَّد[4].

قولُه: (فَثبَتَ) أي: لظهورِ أمرِهِ.

قولُه: (منَ السِّحرِ) والمعارَضَة.

قولُه: (ذَلِيلِينَ) مبهُوتِينَ منهَزِمِينَ، أو رجَعُوا إلى المدينَةِ أذلَّاءَ مغلوبِينَ مقهورِينَ.

قولُه: (لعلمِهِم) علَّةٌ (لـ﴿أُلقِيَ﴾... إلخ) جعَلَهُم مُلقَينَ على وجوهِهِم تنبيهاً على أنَّ الحقَّ بيَدِهِم واضطرَّهُم إلى السُّجودِ بحيثُ لم يبقَ لهُم تمالُكٌ، وأبدَلُوا الثَّاني من الأوَّلِ؛ لئلا يتوهَّمَ أنَّهم أرادُوا به فرعونَ ربَّ القبطِ، وقُدِّمَ موسَى هنا؛ لأنَّه أكبرُ رتبَةً، وأُخِّرَ في موضعٍ آخَرَ؛ لأنَّ هارُونَ أكبرُ سنًّا أو مراعاةً للفاصِلَة.

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤٩٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٩٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٦٢٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٩٤١) عن أبي بزة.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٦٦)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٣).

١٢٣ - ﴿قالَ فِرعَونُ: آمَنتُمْ﴾ - بتحقيقِ الهمزتين، وإبدالِ الثانية ألفًا - ﴿بِهِ﴾: بمُوسى ﴿قَبلَ أن آذَنَ﴾ أنا ﴿لكُم؟ إنَّ هذا﴾ الذي صنعتموه ﴿لَمَكرٌ، مَكَرتُمُوهُ في المَدِينةِ لِتُخرِجُوا مِنها أهلَها. فَسَوفَ تَعلَمُونَ﴾ ما ينالكم منّي. ١٢٤ - ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُم وأرجُلَكُم مِن خِلافٍ﴾ أي: يدَ كُلّ واحد اليُمنى ورِجلَه اليُسرى، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُم أجمَعِينَ﴾.

١٢٥ - ﴿قالُوا: إنّا إلَى رَبِّنا﴾ بعد موتنا، بأيّ وجه كان، ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: راجعون في الآخِرة، ١٢٦ - ﴿وما تَنقِمُ﴾: تُنكر ﴿مِنّا إلاّ أن آمَنّا بِآياتِ رَبِّنا لَمّا جاءَتنا. رَبَّنا، أفرِغْ عَلَينا صَبْرًا﴾ عِند فِعل ما توعَّدَه بنا، لئلاّ نرجِع كُفّارًا، ﴿وتَوَفَّنا مُسلِمِينَ﴾.

١٢٧ - ﴿وقالَ المَلأُ مِن قَومِ فِرعَونَ﴾ له: ﴿أتَذَرُ﴾:........................

قولُه: (بتَحقِيقِ الهَمزَتَينِ) شُعبَة وحمزَة والكِسائيُّ[١]، وكان حقُّه أن يقولَ: وبتسهيلِ الثَّانيةِ للباقِينَ ما عدَا حفصًا فإنَّه يقرأُ بالإخبارِ، وهكذا في طه والشُّعراءِ؛ إلا أنَّ قنبلاً وافقَ حَفصاً في طهَ، وفي هذه السُّورةِ يُبْدِلُ الثَّانيةَ واوًا في الوصلِ ولا إدخالَ لأحدٍ هنا.

وقولُه: (وإبدَالِ الثَّانيةِ) صوابُه: (الثَّالثةِ)، وهو للكُلِّ.

قولُه: (بمُوسَى) أو باللهِ، والاستفهامُ فيه مَذكُوراً أو مقدَّراً للإنكارِ.

قولُه: (أنا) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿آذَنَ﴾ صيغَةُ متكَلِّمٍ من الإذنِ، لا أنَّه ماضٍ من الإيذانِ، وضميرُه لفرعَونَ.

قالَ تعالى: (﴿لمكر﴾) أي: لحيلَةٌ صنعتُمُوها أنتُم ومُوسَى في مدينةِ مصرَ قبلَ أن تخرُجُوا للميعادِ لتُخرِجُوا منها القِبطَ وتخلُصَ لكم ولبَنِي إسرائيلَ.

قولُه: (مَا يَنالُكُم) وهو تهديدٌ مجمَلٌ تفصيلِهِ ﴿لأقطِّعَنَّ﴾... إلخ.

قولُه: (رَاجِعُونَ) فلا نُبالي بوعيدِكَ.

قولُه: (عِندَ فِعْلِ مَا توَعَّده) بتشديدِ العينِ المفتوحةِ، قيل: إنَّه فعلَ بهم ما أوعدَهُم به، قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه[٢]: كانُوا أوَّلَ النَّهارِ سَحرَةً وفي آخرِه شُهداءَ، وقيل: لم يقدِرْ عليهم لقولهِ تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

قولُه: (لَهُ) لفرعَونَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٦٨)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٩٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣٨)، عن ابن عباس، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤٩٥٨) عن عبيد بن عمير، و(١٤٩٥٩) عن قتادة، و(١٤٩٦٠) عن مجاهد.

تتركُ ﴿مُوسَى وقَومَهُ لِيُفسِدُوا في الأرضِ﴾ بالدُّعاء إلى مُخالفتك، ﴿ويَذَرَكَ وآلِهتَكَ﴾؟ وكان صنعَ لهم أصنامًا صِغارًا يعبدونها، وقال: أنا ربّكم وربّها. ولذا قال: «أنا رَبُّكُمُ الأعلى». ﴿قالَ: سَنُقَتِّلُ﴾ - بالتشديد والتخفيف - ﴿أبناءَهُم﴾ المولودين، ﴿ونَستَحْيِي﴾: نستبقي ﴿نِساءَهُم﴾ كفِعلنا بهم من قبلُ، ﴿وإنّا فَوقَهُم قاهِرُونَ﴾: قادرون. ففعلوا بهم ذلك، فشكا بنو إسرائيل.

١٢٨ - ﴿قالَ مُوسَى لِقَومِهِ: استَعِينُوا بِاللهِ واصبِرُوا﴾ على أذاهم. ﴿إنَّ الأرضَ لِلهِ يُورِثُها﴾: يُعطيها ﴿مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ، والعاقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلمُتَّقِينَ﴾ الله. ١٢٩ - ﴿قالُوا: أُوذِينا مِن قَبلِ أن تأتِيَنا ومِن بَعدِ ما جِئتَنا. قالَ: عَسَى رَبُّكُم أن يُهلِكَ عَدُوَّكُم، ويَستَخلِفَكُم في الأرضِ،.........

قولُه: (وكانَ صَنعَ) وهو منقولٌ عن السُّدِّيِّ[1]، وقيل: كانَ يعبُدُ الكواكِبَ، وقيل: كان لفرعَونَ بقرةٌ يعبُدُها ويأمُرُ أن يعبُدُوا بقَرةً حَسناءَ. نقلَهُ ابنُ عبّاسٍ[2].

قولُه: (والتَّخفِيف) حرميّان[3].

قولُه: (مِن قَبلُ) ليعلمَ أنّا على ما كُنّا عليه من القهرِ والغلبَةِ، ولا يتوهَّمَ أنّه المولُودُ الذي حكمَ المنجِّمُونَ والكهَنةُ بذهابِ مُلكِنا على يَدَيه.

قولُه: (قادِرُونَ) غالبُونَ وهُم مقهُورُونَ تحت أيدِينا.

قولُه: (يُعطِيهَا) فرُبَّما يأخُذُ منهم ويعطِيكُم بسهُولَةٍ كالميراثِ، واللامُ في ﴿الأرض﴾ تحتمِلُ العهدَ والجنسَ.

قولُه: (المَحمُودَةُ) أو عاقبةُ الأمرِ بالنَّصرِ والظَّفرِ للمتَّقِينَ فثقُوا باللهِ تعالى، وقال بعضُهُم: معناهُ الآخرَةُ للمتَّقِينَ خاصَّةً، وأمَّا الدُّنيا فإنَّها بالشِّركةِ بين المسلمينَ والكفَّارِ قالَ تعالى: ﴿وتِلكَ الأيّامِ نُداوِلُها بين الناس﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قالَ تعالى: (﴿في الأَرضِ﴾) أي: في أرضِهِم ومُلكِهِم، وهو تصريحٌ بما كنَّى عنهُ أوَّلاً لمَّا رَأى أنَّهُم لم يتسَلَّوا بذلك، ولعلَّهُ أتَى بفعلِ الطَّمَعِ لعدمِ جزمِهِ بأنَّهم المستخلفُونَ بأعيانِهِم أو أولادُهم، وقد رُوِيَ[4]: أنَّ مصرَ إنَّما فُتِحَ لهُم في زمنِ داودَ عليه السَّلامُ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٧١)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٣٩٦)، وابن الجوزي في «تفسيره» (٢/ ١٤٥) عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٩٦٢).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٧٢)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٤).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٣/ ٣٠).

فيَنظُرَ: ﴿كَيفَ تَعمَلُونَ﴾ فيها؟

١٣٠ ـ ﴿ولَقَد أخَذْنا آلَ فِرعَونَ بِالسِّنِينَ﴾: بالقحط ﴿ونَقصٍ مِنَ الثَّمَراتِ، لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ﴾ يتّعظون فيُؤمنون، ١٣١ ـ ﴿فإذا جاءَتهُمُ الحَسَنةُ﴾: الخِصب والغِنى ﴿قالُوا: لَنا هذِهِ﴾ أي: نستحقّها ـ ولم يشكروا عليها ـ ﴿وإن تُصِبْهُم سَيِّئةٌ﴾: جدب وبلاء ﴿يَطَّيَّرُوا﴾: يتشاءموا ﴿بِمُوسَى ومَن مَعَهُ﴾ من المُؤمنين. ﴿ألا إنَّما طائرُهُم﴾: شُؤمهم ﴿عِندَ اللهِ﴾ يأتيهم به، ﴿ولكِنَّ أكثَرَهُم لا يَعلَمُونَ﴾ أنَّ ما يُصيبهم من عِنده.

١٣٢ ـ ﴿وقالُوا﴾ لمُوسى: ﴿مَهما تأتِنا بِهِ مِن آيةٍ لِتَسحَرَنا بِها فما نَحنُ لَكَ بِمُؤمِنِينَ﴾، فدعا عليهم، ١٣٣ ـ ﴿فأرسَلْنا عَلَيهِمِ الطُّوفانَ﴾، وهو ماء دخل بُيوتهم ووصل إلى حُلوق الجالسين سبعةَ أيام، ﴿والجَرادَ﴾ فأكلَ زرعهم وثمارهم كذلك، ﴿والقُمَّلَ﴾: السُّوسُ أو نوعٌ من القُراد فتتبّع ما تركه الجراد، ﴿والضَّفادِعَ﴾ فملأَت بُيوتهم وطعامهم، ﴿والدَّمَ﴾ في مِياههم، ....

قولُه: (فِيهَا) فيرَى ما تعملونَ من شُكرٍ وكُفرانٍ وطاعَةٍ وعصيانٍ؛ ليُجازيَكُم على أعمالِكُم.

قالَ تعالى: (﴿وَنَقصٍ من الثَّمَرَاتِ﴾) بكثرةِ العاهاتِ.

قولُه: (يَتَّعِظُون) أي: يتنبهون على أنَّ ذلك لشُؤمِ كُفرِهِم ومعاصِيهِم فيتَّعِظُون.

قولُه: (ولَم يشكُرُوا عَلَيهَا) أي: مُنْعِمَها، ولم يرَوا من فضلِ الله وبركَةِ رسُولِه.

قولُه: (شُؤمُهُم) من قبلِ اللهِ، ومن عندِهِ، قالَه ابنُ عبَّاسٍ[1].

قولُه: (دَخَلَ بُيُوتَهُم) أي: بيُوتَ القِبْطِ ولم يدخُل بيوتَ بني إسرائيلَ مع أنَّ بيوتَهُم مشتبِكَةٌ، وقيل: الجُدرِي، وقيل: الموتانُ، وقيل: الطَّاعونُ.

قولُه: (كَذَلِكَ) أي: سبعَةَ أيَّامٍ.

قولُه: (أَو نَوعٌ مِنَ القُرَادِ) هو كبارُهَا، وقيل: البراغِيثُ، وقيل: القَمْلُ ـ بفتحِ القافِ وسكُونِ الميمِ ـ وبه قرأ الحسَنُ[2].

قولُه: (في مِيَاهِهِم) دُونَ مياهِ بني إسرئِيلَ ماءٌ للمحبُوبِينَ ودماءٌ للمَحجوبِينَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٩٨٧).

(٢) وهي من القراءات الشاذة، انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٢٢٤)، و«الكشاف» (٢/ ١٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٤)، و«مفاتيح الغيب» (١٤/ ٣٤٦).

﴿آياتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾: مُبيَّنات، ﴿فاستكبرُوا﴾ عن الإيمان بها، ﴿وكانُوا قومًا مُجرِمِينَ﴾.

١٣٤ ـ ١٣٥ ـ ﴿ولَمّا وَقَعَ علَيهِم الرِّجزُ﴾: العذاب ﴿قالُوا: يا مُوسَى، ادعُ لَنا ربَّكَ بِما عَهِدَ عِندَكَ﴾ من كشف العذاب عنّا إن آمنا، ﴿لَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿كَشَفْتَ عَنّا الرِّجزَ لَنُؤمِنَنَّ لَكَ، ولَنُرسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إسرائيلَ. فلَمّا كَشَفْنا﴾ بدعاء مُوسى ﴿عَنهُمُ الرِّجزَ إلَى أجَلٍ هُم بالِغُوهُ إذا هُم يَنكُثُونَ﴾: ينقضون عهدهم، ويُصرّون على كُفرهم.

١٣٦ ـ ﴿فانتَقَمْنا مِنهُم، فأغرَقْناهُم في اليَمِّ﴾: البحر المِلح ﴿بِأَنَّهُم﴾: بسبب أنهم ﴿كَذَّبُوا بِآياتِنا، وكانُوا عَنها غافِلِينَ﴾: لا يتدبّرونها، ١٣٧ ـ ﴿وأَورَثْنا القَومَ الَّذِينَ كانُوا يُستَضعَفُونَ﴾ بالاستعباد ـ وهم بنو إسرائيل ـ ﴿مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ بالماء والشجر، صفة للأرض وهي الشام، ﴿وتَمَّتْ كَلِمةُ رَبِّكَ الحُسنَى﴾، وهي قوله «ونُرِيدُ أن نَمُنَّ على الَّذِينَ استُضعِفُوا» إلى آخره، ﴿على بَنِي إسرائيلَ بِما صَبَرُوا﴾ على أذى عدوّهم، ﴿ودَمَّرْنا﴾: أهلكنا ﴿ما كانَ يَصنَعُ فِرعَونُ وقَومُهُ﴾ من العَمارة، ﴿وما كانُوا يَعرِشُونَ﴾، بكسر الراء وضمّها: يرفعون من البُنيان.

قولُه: (مُبيَّنَاتٌ) أو منفصِلاتٌ لامتحانِ أحوالِهم إذا كان بينَ كُلِّ آيتينِ منها شهرٌ.

قولُه: (العذَابُ) أي: العذابُ المفصَّلُ، أو الطَّاعُونُ على قولِ من لم يفسِّرِ الطُّوفانَ به.

قالَ تعالى: (﴿إلى أجَلٍ﴾) أي: إلى حدٍّ من الزَّمانِ (﴿هُم بالغُوهُ﴾) فمعذَّبُونَ فيه، أو مهلَكُونَ وهو وقتُ الغرقِ أو الموتِ.

قولُه: (وهيَ الشَّامُ) ملَكَها بنو إسرائيلَ بعد الفراعنَةِ والعمالِقَةِ وتمكَّنُوا فيها.

قولُه: (وهيَ قولُه) أي: مضَتْ واتَّصلَتْ بالإنجازِ عِدَتُه إيَّاهُم بالنَّصرِ والتَّمكينِ (وهي) أي: الكلمَةُ (قولُه) قالَهُ مُجاهِد وابنُ جرير[1] (إلى آخرِهِ) يعني: إلى قولِهِ: ﴿ومَا كانُوا يحذَرُونَ﴾ [القصص: ٦].

قولُه: (أَهلَكنَا) الأَوْلَى: وخَرَّبنا.

قولُه: (وضمِّهَا) شَامِي وشُعبَة[2].

قولُه: (مِنَ البُنيَانِ) كصَرحِ هامانَ، أو يعرُشُونَ من البساتِينِ.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٧٧)، وقول مجاهد رواه الطبري في «تفسيره» (١٥٠٤٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٥١).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٧٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٤).

١٣٨ ـ ﴿وجاوَزْنا﴾: عبرْنا ﴿بِبَنِي إسرائيلَ البَحرَ، فأتَوا﴾: فمرّوا ﴿علَى قَومٍ يَعكُفُونَ﴾ ـ بضمّ الكاف وكسرها ـ ﴿علَى أصنامٍ لَهُم﴾: يُقيمون على عبادتها. ﴿قالُوا: يا مُوسَى، اجعَلْ لَنا إلـٰـهًا﴾: صنمًا نعبده، ﴿كَما لَهُم آلِهةٌ. قالَ: إنَّكُم قَومٌ تَجهَلُونَ﴾ حيثُ قابلتم نعمة الله عليكم بما قلتموه.
١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ﴿إنَّ هؤُلاءِ مُتبَّرٌ﴾: هالك ﴿ما هُم فِيهِ وباطِلٌ ما كانُوا يَعمَلُونَ. قالَ: أغَيرَ اللهِ أبغِيكُم إلـٰـهًا﴾: معبودًا ـ وأصله: أبغي لكم ـ ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُم علَى العالَمِينَ﴾ في زمانكم؟ بما ذكره في قوله:

١٤١ ـ ﴿و﴾ اذكروا ﴿إذْ أنجَيناكُم﴾ ـ وفي قراءة «أنجاكُم» ـ ﴿مِن آلِ فِرعَونَ، يَسُومُونَكُم﴾: يُكلّفونكم ويُذيقونكم ﴿سُوءَ العَذابِ﴾: أشدَّه، وهو ﴿يُقَتِّلُونَ أبناءَكُم ويَستَحيُونَ﴾: يستبقون ﴿نِساءَكُم، وفي ذلِكُم﴾ الإنجاءِ أو العذابِ ﴿بَلاءٌ﴾: ....

قولُه: (عَبَرنَا) رويَ: أنَّ مُوسَى عليه السَّلامُ عبرَ بهم يومَ عاشُوراءَ بعد مهلِكِ فرعَونَ وقومِهِ فصامُوهُ شُكراً[1].
قولُه: (وكَسرِهَا) حمزَة والكِسائيُّ[2].
قولُه: (صَنَماً) أو مِثالاً.
قولُه: (حَيثُ قَابَلتُم... إلخ) أو لأنَّ العاقِلَ لا يطلُبُ مَعبُوداً مخلوقاً لا ينفَعُ ولا يضُرُّ.
قولُه: (هَالِكٌ) يعنِي: أنَّ اللهَ يَهدِمُ دينَهُم الَّذي هُم عليه ويجعل أصنامَهُم رُضاضاً، والإشارَةُ إلى القومِ.
و(﴿ما هُم﴾) مفعُولُ ما لم يسمَّ فاعلهُ، أو مبتدأٌ قُدِّمَ عليه خبرُهُ.
وقولُه: (﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾) من عبادَتِها وإن قصَدُوا بها التَّقرُّبَ إلى اللهِ تعالى.
قولُه: (أَبغِي) أي: أطلُب.
قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) للشَّامِي[3].
قولُه: (وَهُم ﴿يُقَتِّلُونَ﴾) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ بدلٌ من: ﴿يَسُومُونَكُم﴾ مبيِّنٌ له، وفي قراءةٍ لنافعٍ بالتَّخفِيفِ[4].

---

(١) رواه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠)، وأبو داود (٢٤٤٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٨٤٨)، وابن ماجه (١٧٣٤)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٤٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.
(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٧٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٤).
(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٣)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٤).
(٤) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٤).

إنعام أو ابتلاء ﴿مِن رَّبِّكُم عَظِيمٌ﴾. أفلا تتّعظون فتنتهون عمّا قلتم؟

١٤٢ ـ ﴿وواعَدْنا﴾ ـ بألِفٍ ودونِها ـ ﴿مُوسَى ثَلاثِينَ لَيلَةً﴾ نُكلّمه عِند انتهائها بأن يصومها ـ وهي ذو القَعدة ـ فصامها، فلمّا تمّت أنكرَ خُلوفَ فمه فاستاك، فأمره الله بعشَرة أُخرى ليُكلّمه بخُلوف فِيه، كما قال تعالى: ﴿وأتمَمْناها بِعَشْرٍ﴾ من ذي الحِجّة، ﴿فتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ﴾: وقتُ وعده بكلامه إيّاه ﴿أربَعِينَ﴾: حالٌ ﴿لَيلَةً﴾: تمييز، ﴿وقالَ مُوسىَ لِأخِيهِ هارُونَ﴾ عِند ذهابه إلى الجبل للمُناجاة: ﴿اخلُفْني﴾: كنْ خليفتي ﴿في قَومِي وأصلِحْ﴾ أمرهم، ﴿ولا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المُفسِدِينَ﴾ بمُوافقتهم على المعاصي.

١٤٣ ـ ﴿ولَمّا جاءَ مُوسَى لِمِيقاتِنا﴾ أي: للوقت الذي وعدناه بالكلام فيه، ﴿وكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بلا واسطة كلامًا، يسمعه من كُلّ جِهة، ﴿قالَ: رَبِّ، أرِنِيَ﴾ نفسَك، ﴿أنظُرْ إلَيكَ. قالَ: لَن تَرانِي﴾ أي: لا تقدِر على رُؤيتي...

قولُه: (أو ابتِلاءٌ) أي: محنَةٌ.

قولُه: (ودُونَها) بصرِي[1].

قولُه: (نكلِّمُهُ) ونرسِلُ لهُ كِتاباً من عندِنا، وقيل: أمرَهُ أن يتخَلَّى ثلاثِينَ بالصَّومِ والعبادَةِ، ثمَّ أنزَلَ عليه التَّوراةَ في العَشرِ وكلَّمهُ فيها.

قولُه: (حالٌ) أي: تمَّ بالِغاً أربَعينَ.

قولُه: (أَمرَهُم) بما يجبُ أن يُصْلحَ، أو كُنْ مُصلِحاً، أو ارفُقْ بهم واحمِلْهُم على طاعةِ اللهِ.

قولُه: (بمُوَافقَتِهِم) الأَوْلى بمرافقَتِهِم.

قولُه: (أي: للوَقتِ...) إلخ واللَّامُ للاختِصاصِ؛ أي: اختُصَّ مجيئُهُ لميقاتِنَا.

قولُه: (بلا وَاسِطَة) كما يكلِّمُ الملائِكَةَ.

قولُه: (كَلَاماً...) إلخ أي: سمِعَ كَلاماً ليس من جنْسِ سماعِ كلامِ المُحدَثين، فلمَّا سمِعَ كلامَهُ اشتَاقَ إلى لقائِهِ.

قولُه: (نفسَكَ) الأَوْلى: ذاتَكَ، بأن تمكِّنَنِي من رُؤيَتِكَ.

قولُه: (لا تَقدِر) أي: في الدُّنيا، وقد وردَتْ أحاديثُ صحيحَةٌ صريحَةٌ على رؤيَةِ اللهِ في الآخرَةِ، واجتمعَتِ الأمَّةُ على ذلك سوَى المعتزِلَةِ، وحسبُهُم من الخُسرَانِ والحسرَةِ إن عاملَهُمُ اللهُ تعالى بعقيدَتِهِم وحرَمَهم من نعمَةِ لقائِه.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٥٥).

والتعبير به دون «لن أُرَى» يُفيد إمكان رُؤيته تعالى. ﴿ولكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ﴾ الذي هو أقوى منكَ. ﴿فإنِ استَقَرَّ﴾: ثَبَتَ ﴿مَكانَهُ فسَوفَ تَرانِي﴾ أي: تَثبُتُ لرؤيتي، وإلاَّ فلا طاقة لك. ﴿فلَمّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ أي: ظهر من نُوره قدرُ نِصفِ أُنمُلةِ الخِنصِر كما في حديث صحّحه الحاكم، ﴿لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، بالقصر والمدّ، أي: مدكوكًا مستويًا بالأرض، ﴿وخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾: مَغشِيًّا عليه لهول ما رأى، ﴿فلَمّا أفاقَ قالَ: سُبحانَكَ﴾: تنزيهًا لك! ﴿تُبتُ إلَيكَ﴾ من سُؤال ما لم أُومَرْ به، ﴿وأنا أوَّلُ المُؤمِنِينَ﴾ في زماني.

١٤٤ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى له: ﴿يا مُوسَى، إنِّيَ اصطَفَيتُكَ﴾: اختَرتك ﴿علَى النّاسِ﴾: أهل زمانك....

قولُه: (دُونَ (لَنْ أُرَى)) ولن أُريَكَ، ولن تنظُرَ إليَّ، تنبيهاً على أنَّهُ قاصِرٌ عن رؤيتِه لتوقُّفِها على معنًى مُعَدٍّ في الرَّائي لم يوجَدْ فيه بعد.

قولُه: (إِمكَانَ رُؤيَتِهِ) وقولُهُ: ﴿أرِنِي﴾ أيضاً دلِيلٌ عليه؛ لأنَّ طلبَ المستحِيلِ من اللهِ تعالى محالٌ من الرَّسُولِ، وخُصُوصاً ما يقتَضِي الجهلَ باللهِ تعالى.

قولُه: (صَحَّحَهُ الحَاكِمُ) وفي التِّرمذِيِّ وغيرِه ما يدلُّ على أنَّهُ مرفوعٌ عن ابنِ عبَّاسٍ[1].

قولُه: (والمدِّ) حمزَة والكِسائيُّ[2]؛ أي: أرضاً مستَوِيةً.

وقولُه: (أي: مَدكُوكاً) تفسِيرٌ للقَصرِ.

قولُه: (تَنزِيهاً) أي: أنزِّهُكَ عمَّا لا يليقُ بك.

قولُه: (في زَمَانِي) أي: أوَّلُ قومِي إيماناً، أو أنا أوَّلُ من آمنَ بأنَّكَ لا تُرَى في الدُّنيا.

قولُه: (أَهلِ زَمَانِكَ) وهارونُ وإن كان نبيًّا كان مأمُوراً باتِّباعِهِ ولم يكُنْ كلِيماً ولا صاحِبَ شَرعٍ.

---

(١) أما الموقوف عن ابن عباس رضي الله عنهما، فرواه الطبري في «تفسيره» (١٥٠٧٨)، ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٨٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٢١١)، والحاكم في «المستدرك» (٤١٠٢) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وأما حديث الترمذي فرواه (٣٠٧٤)، وأحمد في «مسنده» (١٢٢٦٠)، والطبري في «تفسيره» (١٥٠٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٥٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٨٠)، والطبراني في «الأوسط» (١٨٣٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٤٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٧٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٥).

﴿بِرِسالاتِي﴾ - بالجمع والإفراد - ﴿وبِكَلامِي﴾ أي: تكليمي إيّاك. ﴿فخُذْ ما آتيتُكَ﴾ من الفضل، ﴿وكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ﴾ لأنعُمي. ١٤٥ - ﴿وكَتَبْنا لَهُ في الألْواحِ﴾ أي: ألواح التوراة. وكانت من سِدر الجنّة أو زَبَرْجَدٍ أو زُمرُّدٍ سبعةً أو عشرة - ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحتاج إليه في الدِّين، ﴿مَوعِظةً وتَفصِيلاً﴾: تبيينًا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، بدلٌ من الجارّ والمجرور قبله. ﴿فخُذْها﴾ - قبْلَه «قلنا» مقدّرًا - ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجِدّ واجتهاد، ﴿وأْمُرْ قَومَكَ يأخُذُوا بأحسَنِها. سأُرِيكُم دارَ الفاسِقِينَ﴾: فرعونَ وأتباعِه ....

قولُه: (والإفْرَاد) الحرميّان[1] بوَحيِي، والجمعُ معناهُ: أسفارُ التَّوراةِ.

قولُـه: (لأَنعُمِـي) ولا تطلُـب ما لا طاقَةَ لَـكَ به، رويَ[2]: أنَّ سـؤالَ الرُّؤيـةِ كانَ يومَ عرفَةَ، وإعطَـاءَ التَّوراةِ يومَ النَّحرِ.

قولُه: (أي: ألوَاحِ التَّورَاةِ) وقيل: الألواحُ قبلَ نُزولِ التَّوراةِ.

قولُه: (أو زُمُرُّدٍ) وياقُوتٍ أحمَرَ.

قولُـه: (بـدَلٌ) أي: ﴿موعِظَـةً﴾ ومـا بعدَهَـا؛ أي: كتَبْنـا كلَّ شـيءٍ مـن المواعـظِ وتفصيلِ الأحـكامِ، أو مفعـولٌ له.

قولُه: (قَبْلَه) أي: قبلَ ﴿خُذهَا﴾ بعد الفاءِ.

قولُه: (قُلنَا) عَطفاً على: ﴿كتبنَا﴾ والهاءُ للألواحِ.

قال تعالى: (﴿بِأَحسَنِهَا﴾) أي: بأحسنِ ما فيها كالصَّبرِ والعفوِ بالإضافةِ إلى الانتصارِ والاقتصاصِ فأمرَهُم على طريقةِ النَّدبِ والحَثِّ على الأفضلِ، كقولِه تعالى: ﴿واتَّبِعُوا أَحسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيكُم﴾ [الزمر: ٥٥] أو بواجِباتِها، فإنَّ الواجبَ أحسنُ من غيرِه، وقيل: المرادُ من الأحسنِ الواجباتُ والمندُوباتُ فإنَّهما أحسنُ من المباحِ، وقال ابنُ عبَّاسٍ وعكرمَةُ[3]: أي: التَّكليفُ عليك يا مُوسَى أشدُّ من التَّكليفِ على قومِكَ.

ويجوزُ أن يرادَ بالأحسنِ: البالغُ في الحُسنِ مطلقاً لا بالإضافةِ، وهو المأمورُ به كقولِهم: الصَّيفُ أحرُّ من الشِّتاءِ، والعسلُ أحلى من الخلِّ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٧٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٥).

(٢) لم أقف عليه مسنداً، إلا أنه مذكور في كتب التفاسير فالماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٥٩) عزاه لابن عباس، والثعلبي والبغوي في «الكشف والبيان» (٤/ ٢٧٩)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٢٣١) للكلبي، والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٧٩) لقتادة والكلبي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥١١٦) عن عكرمة عن ابن عباس.

-وهي مصر- لتعتبروا بهم.

١٤٦ - ﴿سأصرِفُ عَن آياتِيَ﴾: دلائلِ قُدرتي من المصنوعات وغيرها، ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ﴾ بأن أخذُلَهم فلا يتفكّرون فيها؟ ﴿وإن يَرَوا كُلَّ آيةٍ لا يُؤمِنُوا بِها، وإن يَرَوا سَبِيلَ﴾: طريقَ ﴿الرُّشدِ﴾: الهُدى الذي جاء من عند الله ﴿لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾: يسلكوه،........................

قولُه: (وهيَ مِصر) نقلَ المصنِّفُ في «مُبهماتِ القُرآن»[1] عن مجاهدٍ[2]: مصيرَهُم في الآخرةِ، وعن الحسنِ[3]: جهنَّم، وقال: ذكرَ الحافظُ أبو الفضلِ العراقِي في «شرحِ ألفيَّتِهِ»[4]: قد تصحَّفتِ الرِّوايةُ الأُولى على بعضِ الكبارِ فقال: مصرَ، انتهى.

لكنْ ذكرَ البغويُّ[5] عن عطيَّةَ العوفِيِّ: أرادَ دارَ فرعَونَ وقومِهِ وهي مصرُ، يدلُّ عليه قراءَةُ قَسامَةَ بن زهَيرٍ: «سأُورِثكُم دارَ الفاسِقِين» يعنِي: فيوافِقُ قوله تعالى: ﴿وأَورَثنَاهَا بَنِي إِسرَائِيل﴾ [الشعراء: ٥٩] لكِن فيه خلافٌ تقدَّمَ أنَّهُم هم أو أولادُهُم والله أعلمُ.

وقال قتادةُ وغيرُه[6]: سأدخِلُكُم الشَّامَ فأريكُم منازِلَ القُرُونِ الماضيَةِ الذين خالَفُوا أمرَ الله لتعتَبِروا بها.

وقالَ الكلبِيُّ[7]: ما مرُّوا عليه إذا سافَرُوا من منازِلِ عَادٍ وثمُودَ والقرُونِ الذين أهلِكُوا.

قولُه: (مِنَ المَصنُوعَات) الآفاقيَّة والأنفُسيَّةِ، وقوله: (وغيرِهَا) من الأدلَّةِ النَّقليَّة والعقليَّةِ.

وقولُه تعالى: (﴿بِغَيرِ الحَقِّ﴾) صلَة ﴿يَتَكَبَّرون﴾ أي: يتكبَّرونَ بما ليس بحقٍّ وهو دينُهم الباطلُ، أو حالٌ من فاعلِه؛ فإنَّ تكبُّرَ المحقِّ على المبطلِ حقٌّ والتَّكبُّرَ على المتكبِّرِ صدقَةٌ.

قولُه: (بأن أخذُلَهم) أو أطبعَ على قُلوبِهم.

وقولُه تعالى: (﴿وإنْ يَرَوا كُلَّ آيَةٍ﴾) مُنزَلَةٍ أو معجِزَةٍ (﴿لا يؤمِنُوا بهَا﴾) لعنادِهِم.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٤٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥١١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥١١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٦).

(٤) انظر: «شرح التبصرة والتذكرة» (٢/ ١٠٤).

(٥) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٢٣٤).

(٦) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤١٠)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٢٣٤).

رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٣٦)، والطبري في «تفسيره» (١٥١٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٦) عن قتادة أنه قال: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ منازلهم.

(٧) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٢/ ٥٢٧)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٨٢).

﴿وإن يَرَوا سَبِيلَ الغَيِّ﴾: الضلالِ ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ـ ذلِكَ﴾ الصرف ﴿بِأَنَّهُم كَذَّبُوا بِآياتِنا، وكانُوا عَنها غافِلِينَ﴾. تقدَّمَ مِثلُه ـ ١٤٧ ـ ﴿والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ولِقاءِ الآخِرةِ﴾: البعث وغيره ﴿حَبِطَتْ﴾: بَطَلت ﴿أعمالُهُم﴾: ما عملوه في الدنيا من خير كصِلة رَحِم وصدقة، فلا ثواب لهم لعدم شرطه، ﴿هَل﴾: ما ﴿يُجزَونَ إلاّ﴾ جزاءَ ﴿ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾ من التكذيب والمعاصي؟

١٤٨ ـ ﴿واتَّخَذَ قَومُ مُوسَى مِن بَعدِهِ﴾ أي: بعدِ ذهابه إلى المُناجاة، ﴿مِن حُلِيِّهِم﴾ الذي استعاروه من قوم فرعون بعلّة عِرس، فبقي عِندهم، ﴿عِجلاً﴾ صاغه لهم منه السامريّ، ﴿جَسَدًا﴾: بدلٌ لحمًا ودمًا ﴿لَهُ خُوارٌ﴾ أي: صوت يسمع. انقلب كذلك بوضع التُّراب الذي أخذه من حافر فرسِ جِبريلَ في فمه،...

قولُه: (الصَّرْف) أو مصيرُهُم إلى هذه الحالةِ.

قولُه: (البَعْثِ) فيكونُ التَّقديرُ: ولقائهم الدَّارَ الآخرَةَ، فالمصدرُ مضافٌ إلى المفعُولِ.

وقولُه: (وغَيرِه) إشارةٌ إلى تفسيرِ آخرَ، وهو ما وعدَ اللهُ في الآخرَة.

قولُه: (لعَدمِ شَرطِهِ) يعني: الإيمانَ، وفيه أنَّه ليس الإيمانُ شَرطاً في صِحَّةِ نحو صلَةِ رحمٍ، وإطعامِ ضَيفٍ، وإغاثةِ ملهُوفٍ، ورحْمِ يتيمٍ، فالأولى أن يقالَ: لمجازاتِهم بها في الدُّنيا، أو المرادُ بـ«شرطِهِ» الإخلاصُ؛ يعني: عدمَ الرِّياءِ والأذَى.

قالَ تعالى: (﴿قَومُ مُوسَى﴾) أي: اتَّخذَ السَّامريُّ لهم بإعانتِهِم ورضاهُم، أو المرادُ: اتِّخاذُهُم إيَّاهُ إلهًا.

قولُه: (الَّذِي استعَارُوهُ) الظَّاهرُ: التي استعارُوها؛ لأنَّ الحُليَّ جمعُ حَلْيٍ؛ كثَدْيٍ وثُدِيٍّ[1]، وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بالكسرِ للإتباعِ، نعم قرأَ يعقُوبُ من العشرَةِ بالإفرادِ[2]، لكن يبعدُ حملُه على قراءتِهِ، وغايَةُ توجيهِ كلامِهِ أنَّه مرفُوعٌ أو منصُوبٌ على القطعِ؛ أي: الجِنسِ الَّذي، هذا وإضافَتُها إليهم؛ لأنَّها كانت في أيدِيهِم أو ملكُوهَا بعد هلاكِ أعدائِهِم.

قولُه: (لَحْماً ودَماً) الظَّاهرُ: ذا لَحمٍ ودمٍ، أو جَسداً من الذَّهبِ خالِياً من الرُّوحِ استمرَّ على كونِهِ من الذَّهبِ إلا أنَّه يدخلُ فيه الهواءُ فيصوِّتُ كالبقرِ، قيل: كانوا يسجُدُونَ حين خُوَارِهِ ويرفَعونَ رؤوسَهُم عند سُكوتِهِ.

قولُه: (مِن حَافِرِ) أي: أثَرِه.

قولُه: (في فَمِهِ) متعلِّقٌ بـ«وَضْعِ».

---

(١) انظر: «الصحاح» (٦/ ٢٣١٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٨٠)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٦).

فإن أثره الحياةُ فيما يُوضع فيه. ومفعول «اتّخذ» الثاني محذوف أي: إلـٰهًا ـ ﴿أَلَم يَرَوا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُم، ولا يَهدِيهِم سَبِيلاً﴾؟ فكيف يُتّخذ إلـٰهًا؟ ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلـٰهًا، ﴿وكانُوا ظالِمِينَ﴾ باتّخاذه ـ ١٤٩ ـ ﴿ولَمّا سُقِطَ في أَيدِيهِم﴾ أي: ندموا على عبادته، ﴿ورَأَوا﴾: علموا ﴿أَنَّهُم قَد ضَلُّوا﴾ بها ـ وذلك بعد رُجوع موسى ـ ﴿قالُوا: لَئِنْ لَم يَرحَمْنا رَبُّنا ويَغفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ﴾.

١٥٠ ـ ﴿ولَمّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَومِهِ غَضبانَ﴾ من جهتهم ﴿أَسِفًا﴾: شديد الحُزن ﴿قالَ﴾ لهم: ﴿بِئسَ ما﴾ أي: بئس خلافةً ﴿خَلَفتُمُونِيـ﴾ـها ﴿مِن بَعدِيَ﴾ خلافتكم هذه، حيث أشركتم! ﴿أَعَجِلتُم أَمرَ رَبِّكُم؟ وأَلقَى الأَلواحَ﴾: ألواح التوراة غضبًا لربّه فتكسّرت، ﴿وأَخَذَ بِرأسِ أَخِيهِ﴾ أي: بشَعره بيمينه ولِحيته بشِماله، ﴿يَجُرُّهُ إِلَيهِ﴾ غضبًا...

قولُه: (إلَهاً) تكريرٌ للذَّمِّ.

قولُه: (باتِّخَاذِهِ) لأنَّ الظُّلْمَ وضعُ الشَّيءِ في غير موضِعِه.

قولُه: (أي نَدِمُوا) كِنَايةٌ عن اشتدادِ ندامتِهم، فإنَّ النَّادِمَ يعضُّ يدهُ غمًّا فتصيرُ يدُهُ مسقُوطاً فيها؛ لأنَّ فاهُ وقعَ فيهَا و﴿سقطَ﴾ مُسنَدٌ إلى: ﴿في أيدِيهِم﴾.

قولُه: (بِهَا) أي: بعبادَةِ العجلِ، والأظهَرُ: به؛ أي: باتِّخاذِه.

قالَ تعالى: (﴿لَئِن لم يَرحَمنَا رَبُّنَا﴾) أي: بقبُولِ التَّوبةِ، أو بإنزالِها، أو بتوفيقِها.

قولُه: (والتَّاءُ) الخطابُ، حمزةُ والكِسائيُّ مع نصبِ: «رَبَّنَا» على النِّداءِ(١).

قولُه: (شَدِيدَ الحُزنِ) أو شديدَ الغضَبِ.

قولُه: (خِلافَتُكُم هذِهِ) ومعنَى: ﴿من بَعدِي﴾ أي: من بعد انطِلاقِي، أو من بعدِ ما رأيتُم منِّي من التَّوحيدِ والتَّنزيهِ.

وقولُه: (﴿أَعجِلتُم أمرَ رَبِّكُم﴾) هذا كما يقالُ لمن وَلَّى أحداً غير مستَحِقٍّ للولايَةِ: عجلْتَ أمرَ السَّلطَنَةِ؛ أي: في حالِها وأمرِها، فيكونُ من بابِ الحذفِ والإيصالِ.

قولُه: (غَضباً) أو خَوفاً من أن قصَّرَ في كفِّهم ونهيِهم، وهارونُ أكبرُ منه بثَلاثِ سِنِينَ، وكان حَمُولاً(٢) لَيِّناً، ولذلك كانَ أحَبَّ إلى بنِي إسرائيلَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٨٨)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٦).

(٢) حمولٌ: ذو حِلْم، انظر: «القاموس» (ص: ٩٨٧).

﴿قالَ﴾: يا ﴿ابنَ أُمَّ﴾ ـ بكسر الميم وفتحها، أَراد: أُمّي. وذِكرُها أعطفُ لقلبه ـ ﴿إنَّ القَومَ استَضعَفُوني، وكادُوا﴾: قاربوا ﴿يَقتُلُونَني. فلا تُشمِتْ﴾: تُفرِح ﴿بِيَ الأعداءَ﴾ بإهانتك إيّاي، ﴿ولا تَجعَلْني مَعَ القَومِ الظّالِمِينَ﴾ بعِبادة العِجل في المُؤاخذة.

١٥١ ـ ﴿قالَ: رَبِّ اغفِرْ لِي﴾ ما صنعتُ بأخي ﴿ولأخِي﴾ ـ أشرَكَه في الدعاء إرضاءً له ودفعًا للشماتة به ـ ﴿وأدخِلْنا في رَحْمتِكَ، وأنتَ أرحَمُ الرّاحِمِينَ﴾.

١٥٢ ـ قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجلَ﴾ إلـٰهًا ﴿سَيَنالُهُم غَضَبٌ﴾: عذاب ﴿مِن رَبِّهِم، وذِلَّةٌ في الحَياةِ الدُّنيا﴾ ـ فعُذّبوا بالأمر بقتل أنفسهم، وضُربتْ عليهم الذِّلّة إلى يوم القيامة. ﴿وكَذلِكَ﴾: كما جزيناهم ﴿نَجزِي المُفتَرِينَ﴾ على الله بالإشراك وغيره ـ ١٥٣ ـ ﴿والَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ، ثُمَّ تابُوا﴾: رجَعوا عنها ﴿مِن بَعدِها وآمَنُوا﴾ بالله، ﴿إنَّ رَبَّكَ مِن بَعدِها﴾ أي: التوبةِ ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

١٥٤ ـ ﴿ولَمّا سَكَتَ﴾: سكن ﴿عَن مُوسَى الغَضَبُ أخَذَ الألْواحَ﴾ التي ألقاها،............

قولُه: (بكَسرِ الميمِ) شامِيٌّ وشُعبَة وحمزَة والكِسائيُّ، وأصلهُ: أمِّي، فحذفت الياءُ اكتفاءً بالكسرَة تخفيفاً كالمنادَى المضافِ إلى الياءِ، والباقُونَ بالفتحِ زيادةً في التَّخفيفِ لطُولِه[1].

قولُه: (أعطَفُ لقَلبِهِ) أي: ليُرَقِّقَهُ عليه، وكانا أخَوينِ من أبٍ وأمٍّ، صرَّحَ به مجاهدٌ والسُّدِّي وابنُ جرير وغيرُهُم[2].

قولُه: (في المؤاخَذَةِ) أو في نسبَةِ التَّقصيرِ.

قولُه: (لإرضائهِ) أي: ترضيَةً له.

قولُه: (الذِّلَّة) وهي إخراجُهُم من ديارِهِم وهوانُهم إلى الأبدِ، وقيل: الجزيَةُ.

قولُه: (وغيرِهِ) باتِّخاذِ الولدِ والصَّاحبةِ.

قولُه: (﴿لَغَفُورٌ﴾ لَهُم) أي: وإن عظُمَ الذَّنبُ ـ كجرائمِ عبدَةِ العجلِ ـ وكثُرَ كجرَائمِ بني إسرائيل.

قولُه: (سَكَن) وقد قرئَ به؛ أي: باعتذارِ هارُونَ أو بتوبتِهِم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٥)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٨٩)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٩٤)، و«تفسير الطبري» (١٣/ ١٣١)، و«معالم التنزيل» (٢/ ٢٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٢٨) وضعف ذلك الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ١٦١) بقوله: وقيل كان أخاه لأبيه وأمه، ولم يعزه أحد ممن سبق إلى قائله.

﴿وفي نُسْخَتِها﴾ أي: ما نُسخ فيها أي: كُتب ﴿هُدًى﴾ من الضلالة ﴿ورَحْمةٌ لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِم يَرهَبُونَ﴾: يخافون. وأُدخل اللام على المفعول لتقدّمه.

١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ١٥٧ ـ ﴿واختارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي: من قومه ﴿سَبعِينَ رَجُلاً﴾ ممّن لم يعبدوا العِجل بأمره تعالى، ﴿لِمِيقاتِنا﴾ أي: للوقت الذي وعدناه بإتيانهم فيه ليعتذروا من عِبادة أصحابهم العِجلَ، فخرج بهم، ﴿فلَمّا أخَذَتهُمُ الرَّجْفةُ﴾: الزلزلة الشديدة ـ قال ابن عبّاس: لأنهم لم يُزايِلُوا قومهم حين عبدوا العِجل. قال: وهم غير الذين سألوا الرؤية وأخذتْهم الصاعقة ـ ﴿قالَ﴾ مُوسى: ﴿رَبِّ، لَو شِئتَ أهلَكتَهُم مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ خروجي بهم ليُعايِنَ بنو إسرائيل ذلك ولا يتّهموني، ﴿وإيّايَ. أتُهلِكُنا بما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا﴾؟ استفهام استعطاف، أي: لا تُعذّبنا بذنب غيرنا. ﴿إنْ﴾: ما ﴿هِيَ﴾ أي: الفِتنةُ التي وقعتْ فيها السُّفهاء ﴿إلاّ فِتنَتُكَ﴾: ابتلاؤك، ﴿تُضِلُّ بِها مَن تَشاءُ﴾ إضلاله، ﴿وتَهدِي مَن تَشاءُ﴾ هِدايته. ﴿أنتَ وَلِيُّنا﴾: مُتولّي أُمورنا. ﴿فاغفِرْ لَنا وارحَمْنا ـ وأنتَ خَيرُ الغافِرِينَ ـ واكتُبْ﴾:..........

قولُه: (على المفعُولِ) أي: ﴿لربِّهِم﴾.

وقولُه: (لتقَدُّمِهِ) أي: المفعُولِ وضَعْفِ الفعلِ بالتَّأخيرِ، أو حُذِفَ المفعولُ واللَّامُ للتَّعليلِ، والتَّقديرُ: يرهبُونَ معاصيَ اللهِ لربِّهِم، وقدِّمَ مُراعاةً للفاصلَةِ أو للاختصاصِ.

قولُه: (أي: مِن قَومِهِ) من بابِ الحذفِ والإيصالِ.

قولُه: (بأمرِهِ) متعلِّقٌ بـ﴿اختَارَ﴾.

قولُه: (لم يُزَايلُوا) أي: لم يفارِقُوا.

قولُه: (أي: قَبلِ خُرُوجِي) قال بعضُهم: ما ماتُوا ثمَّ بعد تضرُّعِ مُوسَى كُشِفَ عنهم الرِّجزُ فاطمأنُّوا، أو ماتُوا لكن أحياهُمُ الله تعالى بدُعاءِ موسَى لهم.

قوله: «قَبلِ خُرُوجِي» لا يُلائِم قوله: ﴿وإيَّايَ﴾ فالأولى ما قالَ القاضِي[1]: تمنَّى هلاكَهُم وهلاكَهُ قبلَ أن يرَى ما رأى، أو بسببٍ آخَر.

قولُه: (ابتِلاؤُكَ) حين أَوْجَدتَ في العجلِ خُوارًا فزاغُوا به.

قالَ تعالى: (﴿فاغفِر لنَا﴾) ذُنُوبَنا الماضيَةَ ﴿وارحَمنَا﴾ بأن لا توقِعَنَا بعدُ في مثلِهَا ﴿وأَنتَ خَيرُ الغَافِرِين﴾ يغفِرُ السَّيئةَ ويبدِلُها بالحسنةِ ويغفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً بلا غرضٍ ولا عِوضٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٣٦).

أوجِبْ ﴿لَنا في هذِهِ الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخِرةِ﴾ حسنة. ﴿إنّا هُدْنا﴾: تُبنا ﴿إليكَ﴾.

﴿قالَ﴾ تعالى: ﴿عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أشاءُ﴾ تعذيبه، ﴿ورَحْمتِي وَسِعَتْ﴾: عمَّت ﴿كُلَّ شَيءٍ﴾ في الدنيا. ﴿فسَأكتُبُها﴾ في الآخِرة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ويُؤتُونَ الزَّكاةَ، والَّذِينَ هُم بِآياتِنا يُؤمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ مُحمّدًا ﷺ ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكتُوبًا عِندَهُم في التَّوراةِ والإنجِيلِ﴾ باسمه وصفته، ﴿يأمُرُهُم بِالمَعرُوفِ ويَنهاهُم عَنِ المُنكَرِ، ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ﴾ ممّا حُرِّم في شرعهم،.......

قولُه: (أَوجِب) أي: أثبِتْ، وحسنةُ الدُّنيا حسنُ المعيشَةِ وتوفيقُ الطَّاعةِ، وحسنةُ الآخرَةِ: الجنَّةُ والقربةُ.

قولُه: (﴿قالَ﴾ تعالَى) أي: مجيباً له في قولِهِ: ﴿إنْ هِيَ إلا فِتنَتُكَ﴾.

قولُه: (في الدُّنيَا) حتَّى الشَّجرَ والحجرَ وحتَّى إبليسَ.

قولُه: (في الآخِرَةِ) أو فأكتبهَا كَتْبَةً خاصَّةً منكم يا بنِي إسرائيلَ، وهذا هو الأظهرُ لما بعدَهُ، ويكونُ ﴿الذين يتبعون﴾ بدَلاً من ﴿الذينَ يتَّقونَ﴾ بدلَ البعضِ أو الكلِّ، أو تقديرُهُ: هم الذين يتَّقونَ، وعلى الأوَّلِ يتعيَّنُ أن يكُونَ مبتدأً خبرُهُ: ﴿يأمُرُهُم﴾ وهو الأنسَبُ لإفادةِ عمُومِ الرَّحمةِ.

وقولُه: (﴿الأُمِّيَّ﴾) منسوبٌ إلى أمَّةِ العربِ، وهي لم تكُن تكتُبُ ولا تقرَأُ ـ يعنِي: غالباً ـ فاستُعِيرَ لمن لا يعرِفُ الكتابَةَ ولا القراءَةَ، وقيل: منسُوبٌ إلى الأمِّ؛ أي: هو كما ولدَتهُ أمُّه، وكونُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أمِّيًّا صفةُ مَدحٍ له تشهدُ بنبُوَّتهِ، وتنفِي ارتيابَ المبطلِينَ حيثُ أتى بالعُلومِ الجمَّةِ وأخبارِ القرُونِ الماضيَةِ بلا تعلُّمِ خطٍّ واستفادةٍ من كتابٍ.

وقيل: منسُوبٌ إلى أمِّ القُرَى، وهي مكَّةُ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد دَحا الأرضَ من تحتِها؛ ولأجلِ هذا سمِّيَت: أمَّ القُرَى، على ما وردَ به الخبرُ[1]، وبين ﴿الأمِّيَّ﴾ و﴿مَكتُوباً﴾ صنعَةُ طِباقٍ؛ أي: لم يكُن كاتباً، وكان مكتُوباً، كذا حقَّقَهُ الكافِيجِي شيخُ المصَنِّفِ[2].

قولُه: (باسْمِهِ وصِفَتِهِ) عن ابنِ عبَّاسٍ مرفُوعاً[3]: «اسمِي في القُرآنِ محمَّدٌ، وفي الإنجيلِ أحمَدُ، وفي التَّوراةِ أحيَد؛ لأنِّي أُحِيدُ أمَّتِي عن نارِ جهنَّمَ» أي: أميِّلُهم وأصرِفُهم عنها.

قولُه: (ممَّا حُرِّمَ في شَرعِهِم) عليهم كالشُّحومِ ولحُومِ الإبلِ، وما حرَّمُوا على أنفُسِهم من نحو البحيرَةِ.

---

(١) رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنه.

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠٨٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٠٤٥) عن عطاء وعمرو بن دينار.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٥٤٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٣١).

قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص: ٣٢٦): في إسناده وضاع.

﴿ويُحَرِّمُ علَيهِمِ الخَبائثَ﴾ من الميتة ونحوها، ﴿ويَضَعُ عَنهُم إصرَهُم﴾: ثِقلهم، ﴿والأغلالَ﴾: الشدائد ﴿الَّتِي كانَتْ عَلَيهِم﴾ كقتل النفس في التوبة وقطع أثر النجاسة. ﴿فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ منهم، ﴿وعَزَّرُوهُ﴾: وَقّروه ﴿ونَصَرُوهُ، واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أي: القُرآنَ، ﴿أُولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾.

١٥٨ ـ ﴿قُل﴾ خِطابٌ للنبيّ: ﴿يا أيُّها النّاسُ، إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيكُم جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، لا إلَـٰهَ إلاّ هُوَ، يُحيِي ويُمِيتُ. فآمِنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ، النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤمِنُ بِاللهِ وكَلِماتِهِ﴾ القُرآنِ، ﴿واتَّبِعُوهُ، لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ﴾: ترشُدون.

١٥٩ ـ ﴿ومِن قَومِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾: جماعة ﴿يَهدُونَ﴾ الناس ﴿بِالحَقِّ، وبِهِ يَعدِلُونَ﴾ في الحُكم،

١٦٠ ـ ﴿وقَطَّعْناهُم﴾: فَرّقنا بني إسرائيل ﴿اثنَتَي عَشْرَةَ﴾:..........................

قولُه: (ونَحوِهَا) كالدَّمِ ولحمِ الخنزيرِ، أو كالرِّبا والرِّشوَة.

قولُه: (ثِقَلَهم) أي: يُسقِطُ عنهم العهدَ الَّذي أُخِذَ عليهم بالعملِ بالتَّوراةِ.

قولُه: (الشَّدَائدَ) أي: التَّكاليفَ الشَّاقَّةَ التي كانت في دينِهم.

قولُه: (كقَتلِ النَّفسِ) وكتعيينِ القصاصِ في العمدِ والخطَأ، وقطعِ الأعضاءِ الخاطئةِ.

قولُه: (وقَّروهُ) أي: عظَّمُوه.

قولُه: (أي: القُرآنَ) وقوله: ﴿مَعَهُ﴾ متعَلِّقٌ بـ﴿أُنزِلَ﴾ على حذفِ مُضافٍ؛ أي: مع نبُوتهِ، ويجُوزُ أن يكُون متعلِّقاً بـ﴿اتَّبَعُوا﴾؛ أي: واتَّبعُوا النُّورَ المنزلَ مع اتباعِ النبيِّ فيكُونُ إشارةً إلى اتِّباعِ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ يعني: استقلالاً، وإلَّا ففي ضِمْنِ الكتابِ اتِّباعُ السُّنَّةِ موجودٌ أيضاً قال تعالى: ﴿ومَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهاكُم عَنهُ فانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

قولُه: (القُرآنِ) الأتمُّ الأعمُّ: بما أُنزِلَ عليه وعلى سائرِ الرُّسلِ من كُتُبِهِ ووحيِهِ ويمكنُ الاكتفاءُ بالأوَّلِ؛ لأنَّ الإيمانَ به إيمانٌ بالكُلِّ.

قولُه: (جمَاعَةٌ) المرادُ بهم: الثَّابتُونَ على الإيمانِ القائمُونَ بالحقِّ من أهلِ زمانِهِ، وقيل: مُؤمِنُوا أهلِ الكتابِ، وقيل: قومٌ وراءَ الصِّينِ رآهُم رسُولُ اللهِ ﷺ ليلةَ المعراجِ فآمنُوا به[1].

قولُه: (فرَّقنَا) أي: صيَّرنَا بني إسرائيلَ قطَعاً وفرَقاً متمَيِّزاً بعضُهم عن بعضٍ.

(١) رواه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٥٨٦) عن مقاتل.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥٢٥١) عن ابن جريج، وليس فيه أن الرسول ﷺ رآهم.

حالٌ ﴿أسباطًا﴾: بدلٌ منه، أي: قبائلَ ﴿أُمَمًا﴾: بدلٌ ممّا قبله، ﴿وأوحَينا إلَى مُوسَى إذِ استَسقاهُ قَومُهُ﴾ في التِّيهِ: ﴿أنِ اضرِبْ بِعَصاكَ الحَجَرَ﴾. فضربه، ﴿فانبَجَسَتْ﴾: انفجرتْ ﴿مِنهُ اثنَتا عَشرةَ عَينًا﴾ بعدد الأسباط ـ ﴿قَد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ﴾: سِبطٍ منهم ﴿مَشرَبَهُم ـ وظَلَّلْنا عَلَيهِمِ الغَمامَ﴾ في التِّيه من حرِّ الشمس، ﴿وأنزَلْنا عَلَيهِمِ المَنَّ والسَّلوَى﴾ ـ هما التُّرَنْجِبِينُ والطير السُّمانَى، بتخفيف الميم والقصر ـ وقلنا لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم. وما ظَلَمُونا، ولكِنْ كانُوا أنفُسَهُم يَظلِمُونَ﴾.

١٦١ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قِيلَ لَهُمُ: اسكُنُوا هذِهِ القَريَةَ﴾: بيتَ المَقدس، ﴿وكُلُوا مِنها حَيثُ شِئتُم، وقُولُوا﴾:..

قولُه: (حَالٌ) وتأنيثُهُ للحَملِ على الأُمَّةِ أو القطعَة، أو مفعُولٌ ثانٍ لـ«قطَّعَ»، فإنَّه متضمِّنٌ معنى صيَّرَ، قال البيضاويُّ[1]: قرئَ بكسرِ الشِّينِ وإسكانها، فيُوهِمُ أنَّ هاتينِ القراءتَينِ شاذَّتان، وفتحَ الشِّينِ هو المتواترُ وليس كذلك، بل اتُّفِقَ على الفتح والسُّكونِ، وأمَّا فتحُ الشينِ فقراءةٌ شاذَّةٌ عن الأعمشِ، والكسرُ روايةٌ عن المطَّوِّعِي[2].

قولُه: (بدَلٌ منهُ) أي: من اثنَي عشرَ، ولذلك جمعَ، ولو كانَ تمييزاً لأُفرِدَ.

قولُه: (أي: قَبَائلَ) الأسباطُ في بنِي إسرائيلَ كالقبائلِ في العَربِ، كذا في «الصِّحَاح»[3].

قولُه: (بدَلٌ ممَّا قبلَهُ) ومن لم يُجوِّزِ الإبدالَ من البدلِ فلا بُدَّ أن يقولَ إنَّهُ نعتٌ.

قولُه: (فضرَبَهُ) وحذَفهُ للإيماءِ على أنَّ موسَى لم يتوقَّفْ في الامتثالِ، وأنَّ ضربَهُ لم يكُنْ مؤثِّراً يتوقَّفُ عليه الفعلُ في ذاتهِ.

قولُه: (في التِّيهِ) ليقِيَهُم.

قولُه: (التُّرَنْجِبِينُ) أو شيءٌ كالتُّرَنْجِبين.

وقولُه: (السُّمَانَى) أو طيرٌ كالسُّمانَى.

قالَ تعالى: (﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾) أي: ما رجعَ ضرَرُ كُفرانِ نعمِهِم إلينا.

قولُه: (اذكُرْ) أي: هذا الزَّمانَ أو الحادثَ حين قيلَ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٣٨).

(٢) الإمام شيخ القراء مسند العصر أبو العباس الحسن بن سعيد بن جعفر العباداني المطَّوِّعي، نزيل إصطخر، إمام عارف ثقة في القراءة أثنى عليه الحافظ أبو العلاء الهمذاني ووثقه. ت: ٣٧١هـ. «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٢٦٠)، و«غاية النهاية في طبقات القراء» (١/ ٢١٣).

(٣) انظر: «الصحاح» (٣/ ١١٢٩).

أمرُنا ﴿حِطَّةٌ. وادخُلوا البابَ﴾ أي: باب القرية ﴿سُجَّدًا﴾: سُجودَ انحناء، ﴿نَغفِرْ﴾ ـ بالنون، وبالتاء مبنيًّا للمفعول ـ ﴿لكُم خَطاياكُم. سَنَزِيدُ المُحسِنِينَ﴾ بالطاعة ثوابًا. ١٦٢ ـ ﴿فبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُم قَولاً غَيرَ الَّذِي قِيلَ لَهُم﴾، فقالوا: حَبَّةٌ في شَعَرة. ودخلوا يزحفون على أستاههم، ﴿فأرسَلْنا عَلَيهِم رِجزًا﴾: عذابًا ﴿مِنَ السَّماءِ، بِما كانُوا يَظلِمُونَ﴾.

١٦٣ ـ ﴿واسأَلْهُم﴾ ـ يا مُحمّد ـ توبيخًا ﴿عَنِ القَرْيةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرةَ البَحرِ﴾:..............

قولُه: (أَمرُنَا ﴿حِطَّةٌ﴾) أي: مغفِرَة؛ يعنِي: استغفِرُوا، أو أقِرُّوا بالذَّنبِ، أو احطُط عنَّا الخَطايا.

قولُه: (سُجُودَ انحِنَاء) شُكراً للهِ تعالى على الفتحِ والإنقاذِ من التِّيهِ، ويمكنُ أن يقالَ: تواضُعاً لا تجبُّراً على خلافِ الجبَّارِين.

قولُه: (بالنُّونِ) يعني: مَبْنياً للفاعلِ، قراءَةُ غير نافعٍ وشامِيٍّ[1].

قولُه: (﴿خَطايَاكُم﴾) هذا قراءةُ أبي عَمرو، وقرأ ابنُ عامرٍ بالإفرادِ، والباقُونَ بالجمعِ المصَحَّح[2].

قولُه: (في شُعَيرَة) وفي نُسخَةٍ: «شَعرَة»، وقيل: بدَّلُوا ﴿حطَّة﴾ بحنطَةٍ استِهزاءً.

قولُه: (ودخَلُوا...) إلخ، فينبَغِي أن يقدَّرَ بعد ﴿قَولاً﴾: وفِعلاً، وقالَ أبُو البقاءِ[3]: في الكلامِ حذفٌ تقديرُهُ: فبدَّلَ الذينَ ظلمُوا بالَّذي قيل لهُم قَولاً [غيرَ الَّذي قيلَ لهُم]، ﴿فبدَّلَ﴾ يتعَدَّى إلى مفعُولٍ واحدٍ بنفسِهِ، وإلى آخرَ بالباءِ، والَّذي مع الباءِ يكون هو المترُوكُ، والذي بغيرِ باءٍ هو الموجودُ.

قولُه: (يزحَفُونَ) الزَّحفُ[4]: المشيُ على المقعَدِ مثل الصِّبيانِ، والأستاهُ جمعُ: سَتَهٍ، ويحرَّكُ بمعنَى: الاستِ، وهو الدُّبُر[5] ففي الكلامِ تجرِيدٌ.

قولُه: (عَذاباً) أي: مُقدَّراً.

قولُه: (تَوبِيخاً) أي: سلِ اليهودَ الَّذين بحضرَتكَ للتَّوبيخِ ـ بتقدِيمِ كفرِهِم وعصيانِهِم ـ والإعلامِ بما هو من عُلومِهِم الَّتي لا تُعلَمُ إلا بتعلِيمٍ أو وحيٍ، ليكونَ لك معجزةً عليهم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٥)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٩٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٩٩).

(٢) انظر المصادر السابقة.

(٣) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (١/ ٦٦).

(٤) انظر: «جمهرة اللغة» (١/ ٥٢٧).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢٤٦).

مُجاورةَ بحرِ القُلزُم ـ وهي أيلةُ ـ ما وقع بأهلها ﴿إِذْ يَعدُونَ﴾: يعتدون ﴿فِي السَّبتِ﴾ بصيد السمك المأمورين بتركه فيه، ﴿إِذْ﴾: ظرف لـ«يعدون» ﴿تأتِيهِم حِيتانُهُم يَومَ سَبتِهِم شُرَّعًا﴾: ظاهرة على الماء، ﴿ويَومَ لا يَسبِتُونَ﴾: لا يُعظّمون السبت أي: سائرَ الأيام ﴿لا تأتِيهِم﴾ ابتلاءً من الله؟ ﴿كَذلِكَ نَبلُوهُم بِما كانُوا يَفسُقُونَ﴾ ـ ولمّا صادوا السمك افترقتِ القرية أثلاثًا: ثُلث صادوا معهم، وثُلث نَهَوهم، وثُلث أمسكوا عن الصيد والنهي ـ ١٦٤ ـ ﴿وإِذْ﴾: عطف على «إذ» قبله ﴿قالَتْ أُمَّةٌ مِنهُم﴾ لم تَصِدْ ولم تَنهَ لِمَن نَهَى: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَومًا، اللهُ مُهلِكُهُم أو مُعَذِّبُهُم عَذابًا شَدِيدًا؟ قالُوا﴾: موعظتُنا ﴿مَعذِرةٌ﴾ نعتذر بها ﴿إِلَى رَبِّكُم﴾، ....

قولُه: (مجاوِرَةَ) أي: قريبةً منه.

قولُه: (وهيَ أَيلَةُ) قريةٌ بين مدينَ والطُّور على شاطئِ البحرِ، وقيل: مديَن، وقيل: طبرِيَّة.

قولُه: (مَا وقعَ) بدلٌ من: ﴿القريَةِ﴾؛ أي: سلهُم عمَّا وقعَ بأهلِها، والأظهَرُ: عن خبرِ القريَةِ وما وقعَ بأهلِها، أو عن خبرِ أهلِها، وهذا ألطَفُ.

قولُه: (يعتَدُونَ) أي: يتجاوزُونَ حُدودَ اللهِ.

قولُه: (ظَرْفٌ) أي: ﴿إِذْ﴾ الثَّانيةُ، والأُولَى ظرفٌ لـ﴿كانَتْ﴾ أو ﴿حاضِرَةَ﴾.

وقولُه تعالى: (﴿يَومَ سَبتِهِم﴾) أي: يومَ تعظيمِهِم أمرَ السَّبتِ، مصدَر سبَتَت اليهودُ: إذا عظَّمَت سَبتَها بالتَّجرُّدِ للعبادَةِ.

قولُه: (ظاهِرَةً) حالٌ من الحيتانِ.

وقولُه تعالى: (﴿كَذَلِكَ﴾) أي: مثلَ ذلك الامتحانِ الشَّديدِ نختبِرُهُم بإظهارِ السَّمكِ في اليومِ المحرَّمِ عليهم وإخفائهِ في اليومِ المحلَّلِ لهم، وقيل: ﴿كذلِكَ﴾ متَّصلٌ بما قبلَهُ؛ أي: لا تأتيهِم مثلَ إتيانِهِم يومَ السَّبتِ.

قولُه: (﴿إذ﴾ قَبلَهُ) أي: ﴿إذ يعدون﴾، فـ﴿إذ﴾ الثَّاني ظرفٌ للأوَّلِ.

وقولُه تعالى: (﴿مُهلِكُهُم﴾) أي: مُختَرِمُهم، أو معذِّبُهُم، فإنَّهُم علمُوا لكثرَةِ عدمِ نفعِ الموعظَةِ أنَّها لا تنفَعُ، فلا محالَةَ استحقُّوا سُخطَ اللهِ أو الإهلاكَ في الدُّنيا والتَّعذِيبَ في العُقبَى.

قولُه: (موعِظَتُنا) أي: قالت الفرقَةُ النَّاهِيةُ مُجيبَةً لهم، وأشارَ إلى أن رفعَ: ﴿معذِرَةٌ﴾ على أنَّها خبرُ مبتدإٍ محذُوفٍ، وقرأ[1] حفصٌ بالنَّصبِ على المصدرِ أو العلَّة؛ أي: اعتَذَرنا به معذِرةً، أو وعظناهُم معذرَةً.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٦٩)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٩٧)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٠).

لئلاّ نُنسبَ إلى تقصير في ترك النهي، ﴿ولَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ الصيد.

١٦٥ ـ ١٦٦ ـ ﴿فلَمّا نَسُوا﴾: تركوا ﴿ما ذُكِّرُوا﴾: ما وُعظوا ﴿بِهِ﴾، فلم يرجِعوا، ﴿أنجَينا الَّذِينَ يَنهَونَ عَنِ السُّوءِ، وأخَذْنا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالاعتداء ﴿بِعَذابٍ بَئِيسٍ﴾: شديد، ﴿بِما كانُوا يَفسُقُونَ، فلَمّا عَتَوا﴾: تكبّروا ﴿عَن﴾ تركِ ﴿مّا نُهُوا عَنهُ قُلْنا لَهُم: كُونُوا قِرَدةً خاسِئِينَ﴾: صاغرين. فكانوها. وهذا تفصيل لِما قبله. قال ابن عبّاس: ما أدري ما فُعل بالفرقة الساكتة؟ وقال عِكرمةُ: لم تَهلِك لأنها كرهتْ ما فعلوه، وقالت: لِمَ تعظون إلى آخره. وروى الحاكم عن ابن عبّاس أنه رَجَعَ إليه وأعجبه.

١٦٧ ـ ﴿وإذْ تأذَّنَ﴾: أعلمَ ﴿رَبُّكَ لَيَبعَثَنَّ عَلَيهِم﴾..........................

قولُه: (الصَّيدَ) إذِ اليأسُ لا يحصلُ إلّا بالإهلاكِ.

قولُه: (تركُوا) تركَ النَّاسِي.

قولُه: (وُعِظُوا) أي: ما وعظَهُم به صُلحاؤُهُم.

قولُه: (شَدِيدٍ) فعيلٍ، وفي روايةٍ عن شُعبَة على وزنِ فَيْعَل، وقرأ الشّامي بكسرِ الباءِ وسكُونِ الهمزَةِ، ونافِع على قلبِ الهمزَةِ ياءً(١).

قولُه: (وهذَا) يعنِي: ﴿فلمَّا عتَوا﴾ (تفصِيلٌ لمَا قبلَهُ) يعني: ﴿أخَذْنا﴾.

قولُه: (رجَعَ إلَيهِ) أي: إلى قولِ عكرِمَة(٢)، وقيل: إنَّ الفرقةَ السَّاكتَة أيضاً مسِخُوا، عن بعضِ السَّلفِ أنَّهم سمِعُوا منادِياً قال: كونُوا قِرَدةً(٣)، أو المرادُ: من أمرِهِم سرعَةُ التَّكوينِ، والأصحُّ: أنَّ المسخَ صُورِيٌّ ومعنَوِيٌّ، ثمَّ هلكُوا بعد ثلاثَةِ أيّامٍ، ولم يبقَ منهم نسلٌ(٤)، والعذابُ البَئِيسُ: هو المسخُ، وقيل: المسخُ معنَوِيٌّ لا صُورِي، والعذابُ غيرُ المسخِ، وهو قد كان أولًا ثمَّ كان المسخُ آخرًا.

قولُه: (أعلَمَ) تفعَّلَ من الإيذانِ بمعناهُ كالتَّوعُّدِ والإيعادِ، أو قالَ: أو أمرَ وحكَمَ، وأُجرِيَ مجرَى فعلِ القسَمِ كعَلِمَ اللهُ، وشهِدَ اللهُ، ولذلك أُجِيبَ بجوابِ القسمِ، والمعنَى: وإذ أوجَبَ ربُّكَ على نفسِهِ ليسلِّطَنَّ على اليهودِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ٩٨، ٩٩)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٦).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٥٢٧١)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٥٤)، والبيهقي في «المعرفة» (٢٠٨١٩)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٦٨)، عن عطاء.

(٤) روى مسلم (٢٦٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود وفيه: قال رجل: يا رسول الله القردة والخنازير، هي مما مسخ؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله عز وجل لم يهلك قوماً، أو يعذب قومًا، فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك».

أي: اليهودِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ بالذلّ وأخذ الجزية، فبعث عليهم سُليمانَ وبعده بُختنَصَّرَ، فقتلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية، فكانوا يؤدّونها إلى المجوس إلى أن بُعث نبيّنا ﷺ وضربها عليهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ لأهل طاعته ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

١٦٨ ـ ﴿وقَطَّعْناهُم﴾: فرّقناهم ﴿في الأرضِ أُمَمًا﴾: فِرَقًا، ﴿مِنهُمُ الصّالِحُونَ، ومِنهُم﴾ ناس ﴿دُونَ ذلِكَ﴾ الكُفّارُ والفاسقون، ﴿وبَلَوناهُم بِالحَسَناتِ﴾: بالنِّعم ﴿والسَّيِّئاتِ﴾: النِّقم، ﴿لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ﴾ عن فِسقهم.

قولُه: (بالذُّلِّ وأَخْذِ الجِزيَةِ) الأظهَرُ: بالإذلالِ وضربِ الجزيَةِ.

قولُه: (فقتَلَهُم) أي: مُقاتلِيهِم (وسَبَاهُم) أي: نساءَهُم وذرارِيهِم.

قولُه: (عَلَيهِم) أي: على من بَقِيَ منهم.

قولُه: (لمَن عَصَاهُ) أي: استمَرَّ على عصيانِهِ.

قولُه: (لأَهلِ طَاعَتِهِ) أو لمن تابَ.

قولُه: (بِهِم) أي: بالمطيعِينَ؛ أي: المؤمنينَ.

قولُه: (فَرَّقنَاهُم) في البلادِ فلا تجتمِعُ كلمَتُهم، ولا تكونُ لهم شوكَةٌ قطُّ.

قولُه: (فِرَقاً) مفعُولٌ ثانٍ؛ لأنَّ القطعَ بمعنَى التَّصييرِ، أو حالٌ.

وقولُه تعالى: (﴿مِنهُم الصَّالِحُونَ﴾) صفَةُ ﴿أُمَماً﴾ أو بدلٌ منه، وهم الذين آمَنُوا بالمدينَةِ ونظراؤُهم، كذا قالَهُ البيضاوِيُّ[1]، وهو يخالِفُ ما قَالهُ في: ﴿خلف﴾، فالأَولَى أن يُقالَ هنا: همُ الذين ثبَتُوا على الإيمانِ في كلِّ زمانٍ.

قولُه: (نَاسٌ) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿دُونَ﴾ مرفوعُ المحَلِّ بأنَّهُ صفَةُ موصُوفٍ محذوفٍ، و﴿منهُم﴾ خبرُهُ.

قولُه: (والفاسِقُونَ) تبعَ في ذكرِه البيضاوِي[2]، والأولَى تركُهُ إذِ المرادُ بـ﴿الصَّالِحُون﴾ المؤمنُونَ لا الكامِلُون في الصَّلاحِ ففيه نزغَةُ الاعتزالِ ودسيسَةُ المعتزِلي.

قولُه: (بالنِّعَم) أي: امتحَنَّاهُم بها.

قولُه: (عَن فِسْقِهِم) الأَولَى: عمَّا كانوا عليه.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٤٠).

(٢) انظر المصدر السابق.

١٦٩ ـ ﴿فخَلَفَ مِن بَعدِهِم خَلْفٌ، وَرِثُوا الكِتابَ﴾: التوراة عن آبائهم، ﴿يأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنَى﴾ أي: حُطامَ هذا الشيء الدنيّ، أي: الدنيا من حلال وحرام، ﴿ويَقُولُونَ: سَيُغفَرُ لَنا﴾ ما فعلناه. ﴿وإنْ يأتِهِم عَرَضٌ مِثلُهُ يأخُذُوهُ﴾. الجملة حال، أي: يرجون المغفرة وهم عائدون إلى ما فعلوه مُصرّون عليه، وليس في التوراة وعد المغفرة مع الإصرار.

﴿ألَم يُؤخَذْ﴾ ـ استفهام تقرير ـ ﴿عَلَيهِم مِيثاقُ الكِتابِ﴾، الإضافةُ بمعنى: «في»، ﴿ألاَ يَقُولُوا علَى اللهِ إلاّ الحَقَّ، ودَرَسُوا﴾: عطفٌ على «يؤخذ» قرؤوا ﴿ما فِيهِ﴾؟.........

قالَ تعَالى: (﴿فَخَلفَ من بَعدِهِم خَلفٌ﴾) أي: من بعدِ ذلك الجيلِ الذي فيه الصَّالحُ والطَّالحُ ﴿خلفٌ﴾ بدَلُ سَوءٍ[1]، مصدرٌ نُعِتَ به، ولذلك يقعُ على الواحدِ والجمعِ، والمرادُ به: الَّذين كانُوا في عصرِ رسُولِ اللهِ ﷺ.

قولُه: (عن آبائِهم) أو أسلافِهم يقرؤُونهَا ويقفونَ على ما فيها.

قولُه: (الدَّنيِّ) من الدُّنوِّ أو الدَّناءَةِ.

قولُه: (مِن حَلالٍ وحَرَامٍ) أو من الرُّشَا في الحُكومَةِ، وعلى تحريفِ الكلِمِ.

قولُه: (والجُملَة) أي: جُملَة ﴿وَيَقُولونَ﴾ حالٌ من فاعِلِ: ﴿وَرِثوا﴾.

قولُه: (أي يَرجُونَ المغفِرَة...) إلخ، جعلَ الزَّمخشريُّ الواو للحالِ[2] بهذا الوصْفِ الَّذي ذكَرَهُ من أنَّ الغُفرانَ شرطُهُ التَّوبَة، وهو رأيُ المعتزلَةِ، والظَّاهِرُ: أنَّ هذه الجُملَة مستأنفَةٌ، والتَّقبِيحُ ليس لرجاءِ المغفرَةِ بل لجزمِهِم بالمسامحةِ.

قولُه: (وَعدُ المَغفِرَةِ) قد يقالُ: ولا عدَمُ رجائها، ولذا قالَ البيضاويُّ[3] في قولِه تعَالى: ﴿أن لا يَقُولُوا﴾ المرادُ: توبيخُهُم على البتِّ بالمغفرَةِ مع عدمِ التَّوبَة.

قولُه: (بمَعنَى: فِي) و﴿الكِتَابِ﴾ التَّوراةِ.

وقولُه تعالى: (﴿أن لا يقولوا﴾) عطفُ بيانٍ للميثاقِ، والاستثناءُ منقطِعٌ ألبَتَّة، فإنَّ معنَى قال عليه: افتراهُ، اللَّهمَّ إلا أن يُقالَ «على» بمعنى: «في»؛ أي: في حقِّهِ تعالى فحينئذٍ يكُونُ متَّصِلاً.

قولُه: (عَطفٌ على ﴿يؤخذ﴾) حقُّهُ أن يقُولَ: على أخذَ، وتوضيحُه: أنَّهُ عطفٌ على ﴿أَلَم يُؤخَذْ﴾ من حيثُ المعنَى فإنَّهُ تقرِيرٌ؛ أي: أخذَ عليهمُ الميثاقَ ودَرسُوا، وليس من عطفِ الإخبارِ على الإنشاءِ؛ لأنَّ الهمزَةَ

---

(١) المراد أن الخلف بتسكين اللام الخلف السيء انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٠٩)

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ١٧٤).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٤١).

فلِمَ كذبوا عليه بنِسبة المغفرة إليه مع الإصرار؟ ﴿والدّارُ الآخِرةُ خَيرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الحرامَ. ﴿أفلا يَعقِلُونَ﴾ - بالياء والتاء - أنها خير، فيؤثرونها على الدنيا؟ ١٧٠ - ﴿والَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ - بالتشديد والتخفيف - ﴿بِالكِتابِ﴾ منهم، ﴿وأقامُوا الصَّلاةَ﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه، ﴿إنّا لا نُضِيعُ أَجرَ المُصلِحِينَ﴾. الجملة: خبر «الذين»، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر أي: أجرَهم.

١٧١ - ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذْ نَتَقْنا الجَبَلَ﴾: رفعناه من أصله ﴿فَوقَهُم، كأَنَّهُ ظُلَّةٌ، وظَنُّوا﴾: أيقنوا ﴿أنَّهُ واقِعٌ بِهِم﴾ ساقط عليهم بوعد الله إياهم بوقوعه، إن لم يَقبلوا أحكام التوراة.........

للإنكارِ لا لمحضِ الاستفهامِ، أو عطفٌ على: ﴿ورِثُوا﴾ و﴿ألم يؤخذ﴾ اعتراضٌ، أو الجملةُ حالٌ بتقديرِ: قد، أو بدُونِه.

قولُه: (بِنِسبةِ المغفِرَةِ) أي: حتماً لا جَوازاً.

قولُه: (الحَرامُ) أو المعاصِي؛ يعنِي: ممَّا يأخذُ هؤلاءِ.

قولُه: (والتَّاء) الخطابُ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحفصٌ على الالتفاتِ[١].

قولُه: (فَيُؤثِرُونَهَا) بالوجهَينِ.

قولُه: (والتَّخفِيفِ) شُعبَة[٢].

قولُه: (والجُملَةُ خَبرُ ﴿الذِينَ﴾) أو الخبرُ مقدَّرٌ؛ أي: لهم أجرُهم، والجملَةُ استئنافٌ فيه معنَى التَّعلِيلِ، ولذا كتبَ أربابُ الوقُوفِ وَقفاً مُطلَقاً على الصَّلاةِ[٣].

قولُه: (ووَضعُ الظَّاهِرِ مَوضِعَ المضمَرِ) تنبيهاً على أنَّ الإصلاحَ كالمانعِ من التَّضيِيعِ، وإفرادُ الإقامَةِ لإنافتِهَا[٤] على سائرِ أنواعِ التَّمسُّكاتِ، قالَهُ البيضاوِيُّ[٥].

أو لأنَّها أمُّ العباداتِ وتنهَى عن السَّيِّئاتِ.

قولُه: (رفَعنَاهُ) أي: قلَعناهُ ورفعناهُ، وأصلُ النَّتقِ: الجَذبُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٥٦)، «حجة القراءات» (ص: ٣٠١)، و«الحجة للقراء السبعة» (٣/ ٢٩٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ١٩٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٠٣)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠١).

(٣) انظر: «المكتفى في الوقف والابتدا» (ص: ٨٠)، و«القطع والائتناف» (ص: ٢٦٥).

(٤) أناف على شيء: أي أشرف، انظر: «الصحاح» (٤/ ١٤٣٧).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٤١).

ـ وكانوا أَبَوها لِثِقَلها ـ فقبلوا، وقلنا لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾: بجِدٍّ واجتهاد، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بالعمل به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

١٧٢ ـ ﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿إِذْ﴾: حينَ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ـ بدلُ اشتمال ممّا قبله بإعادة الجارّ ـ ....

قولُه: (واجتِهَادٍ) في العملِ به.

قولُه: (بالعَمَلِ بِهِ) ولا تتركُوهُ كالمنسِيِّ.

قالَ تعالى: (﴿مِن بَنِي آدَمَ﴾) أي: من هذا النَّوعِ فشملَ آدمَ، ولا بدَّ من هذا التَّأويلِ؛ لأنَّ أخذَ الميثاقِ كان من الكُلِّ، وأيضاً كان قبلَ خلقِ بنِي آدمَ، ففي الحقيقةِ إنَّما أخذَهُ من ظَهرِ آدَمَ بواسطةٍ وغير واسِطةٍ على سبيلِ التَّناسُلِ، لكن في عيسى إشكالٌ، ولعلَّهُ داخلٌ في الوسطِ ولو بوسَطٍ، هذا الَّذي خَطرَ ببالِي ولم أرَ من ذكَرَه.

قولُه: (بَدَلُ اشتِمَال) وفي البيضاويِّ[1]: بدَلُ بعضٍ.

والمحاكَمةُ بينهُما لا تليقُ بمِثلي[2]، ولكن ما لا يُدرَك كلُّهُ لا يترَكُ كلُّهُ، فأقولُ وباللهِ التَّوفيقُ وبيدِهِ أزِمَّةُ التَّحقِيقِ:

إنَّ قولَ القاضِي أظهَرُ لفظاً لظُهُورِ بعضيَّةِ الظُّهورِ، وكلامُ الشَّيخِ أدقُّ معنًى، إذ بدلُ الاشتمالِ على ما حرَّرَهُ أربَابُ الكمالِ هو أن تكون بينهُ وبين المبدَلِ منه ملابسَةٌ بحيثُ توجبُ النِّسبةُ إلى المتبُوعِ النِّسبةَ إلى الملابِسِ إجمالاً، نحوُ: أعجَبنِي زيدٌ علمهُ، حيثُ يُعلَمُ ابتداءً أنَّه يكونُ زيدٌ معجباً باعتبارِ صفاتِه لا باعتبارِ ذاتِهِ، ويتضمَّنُ نسبةُ الإعجابِ إلى زيدٍ نسبتَهُ إلى صفةٍ من صفاتِهِ إجمالاً، وكذا في: سُلِبَ زيدٌ ثوبُهُ، بخلافِ: ضرَبتُ زيداً حمارَهُ، وضربتُ زيداً غلامَهُ؛ لأنَّ نسبَةَ الضَّربِ إلى زيدٍ تامَّةٌ، ولا يلزَمُ في صحَّةِ النِّسبةِ اعتِبارُ غير زيدٍ، فيكونُ من بابِ بدَلِ الغلطِ فهذا أصلٌ ممهَّدٌ، فلنرجعْ إلى المثالِ المذكُورِ فنقُولُ أوّلاً:

إنَّ الظَّهرَ ليس بعضَ بَني آدمَ حقيقَةً بل بعضَ أعضائِهِ، ثمَّ نقولُ في الملابسَةِ: إنَّهُ لا يخفَى أنَّ نسبَةَ الأخذِ الَّذي بمعنَى الإخراجِ إلى بنِي آدمَ نسبةٌ إلى ظهورِهِم إجمالاً؛ لأنَّه يُعلَمُ ابتداءً أنَّ بني آدمَ مأخوذون لا باعتبارِ ذواتِهِم بل باعتبارِ أجسادِهِم وأعضائِهِم، ويتضمَّنُ نسبَةُ الأخذِ إليهم نسبتَهُ إلى أعضائِهِم إجمالاً، ولا شكَّ أنَّ النِّسبَةَ ليست تامَّةً؛ إذ لو قيل: وإذ أخذَ ربُّكَ من بَني آدَمَ ذرِّيَّتَهُم، ما استقامَ الكلامُ، كما لو قيل: أعجبَنِي زيدٌ، وسكتَ، ما أفادَ محلَّ الإعجابِ بخلافِ: أكلتُ الرَّغِيفَ نصفَهُ، فإنَّه لو لم يذكُرْ نصفَهُ كانت النِّسبَةُ تامَّةً، ثمَّ

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٤١).

(٢) في (م) و(ص): «المثلي»، وهي عبارة من المصنف تدل على خفض الجناح لأهل العلم، والتواضع منه رحمه الله.

﴿ذُرِّيَّاتِهِم﴾ بأن أخرج بعضهم من صُلبِ بعضٍ من صُلبِ آدمَ، نسلاً بعد نسل كنحو ما يتوالدون كالذرّ بنَعمانَ يومَ عَرَفَةَ، ونصب لهم دلائل على رُبوبيّته وركّب فيهم عقلاً، ﴿وأشهَدَهُم علَى أنفُسِهِم﴾،....

رأيتُ أبا البقاءِ صرَّحَ في «إعرابِه»[1] بأنّه بدَلُ الاشتمالِ، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الحالِ.

قولُه: (﴿ذُرِّيَّاتِهِم﴾) بالجمعِ نافعٌ وبصرِيٌّ وشاميٌّ[2].

قولُه: (بنَعْمانَ) بالفتحِ، وادٍ في طريقِ الطَّائفِ يُخرجُ إلى عرفاتٍ، قالَه الطِّيبيُّ[3].

قولُه: (يومَ عرَفَةَ) فيه إشارةٌ إلى المناسبةِ الاجتماعيَّةِ والتَّعريفيَّةِ وإكمالِ الأمُورِ الدِّينيَّة.

قولُه: (ونصَبَ لَهُم...) إلخ، هذا تلفيقٌ بين كلامِ السَّلفِ المؤيَّدِ بالأحاديثِ الصِّحاحِ وبين كلامِ الخلفِ، وبعضُ السَّلفِ وهو الحسنُ البصرِي[4]: أنَّ المرادَ بهذا الإشهادِ أنَّه خلقَهُم على فطرةِ الإسلامِ ونصبَ لهم دلائلَ التَّوحيدِ، ولظهُورِها صارَتْ بمنزلةِ أنَّه قيل لهُم: ﴿أَلَستُ بربِّكُم قالُوا بَلَى﴾ ومشَى عليه القاضِي[5]، ثمَّ قال: وقيل: لمَّا خلقَ الله آدمَ أخرجَ من ظهرِهِ ذرِّيَّةً كالذَّرِّ وأحياهُم وجعلَ لهم العقلَ والنُّطقَ وألهمَهُم ذلك؛ لحديثٍ رواهُ عمرُ رضي اللهُ عنه[6].

---

(١) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (١/ ٦٠٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٨)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٠٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠١).

(٣) انظر: «شرح المشكاة» (٢/ ٥٨٢).

(٤) روى أحمد في «مسنده» (١٦٣٠٣)، والطبري في «تفسيره» (١٥٣٥٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣١٣١)، والدارمي في «سننه» (٢٥٠٦)، وأبو بكر ابن الخلال في «السنة» (٨٨٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢٥٦٦) عن الحسن بن أبي الحسن، حدَّثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربعَ غزوات قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قَتَلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتدَّ عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناءَ المشركين؟ فقال: «إن خيارَكم أولادُ المشركين! ألا إنها ليست نسمة تُولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لِسانها، فأبواها يهوِّدانها أو ينصرانها» قال الحسن: والله لقد قال الله ذلك في كتابه، قال: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبي: تابعه يونس عن الحسن ثنا الأسود بهذا على شرط الشيخين.

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٤١).

(٦) رواه أبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٢٦)، ومالك في «الموطأ» (ص: ٨٩٨) (٢)، وأحمد في «مسنده» (٣١١)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٦٦)، والحاكم في «المستدرك» (٧٤).

قال الترمذي: هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبي: فيه إرسال.

قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم؟ قالُوا: بَلَى﴾ أنت ربّنا، ﴿شَهِدْنا﴾ بذلك. والإشهادُ لِـ ﴿أن﴾ لا ﴿يَقولُوا﴾ ـ بالياء والتاء في الموضعين ـ أي الكُفّارُ ﴿يَومَ القِيامةِ: إنّا كُنّا عَن هذا﴾ التوحيد ﴿غافِلِينَ﴾ لا نعرفه، ١٧٣ ـ ﴿أو يَقولُوا: إنَّما أشرَكَ آباؤُنا مِن قَبلُ﴾ أي: قبلنا، ﴿وكُنّا ذُرِّيَّةً مِن بَعدِهِم﴾ فاقتدَينا بهم. ﴿أفتُهلِكُنا﴾: تُعذّبنا ﴿بِما فَعَلَ المُبطِلُونَ﴾ من آبائنا بتأسيس الشِّرك؟ المعنى: لا يُمكنهم الاحتجاج بذلك، مع إشهادهم على أنفُسهم بالتوحيد، والتذكيرُ به على لسان صاحب المُعجزة قائمٌ مقامَ ذكره في النفوس. ١٧٤ ـ ﴿وكَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ﴾: نُبيِّنها مِثلَما بيّنّا المِيثاقَ ليتدبّروها ﴿ولَعلَّهُم يَرجِعُونَ﴾ عن كُفرهم. ١٧٥ ـ ١٧٦ ـ ﴿واتْلُ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿عليهِم﴾ أي: اليهودِ ﴿نَبَأَ﴾: خبرَ ﴿الَّذِي آتيناهُ آياتِنا، فانسَلَخَ مِنها﴾: خرج بكُفره كما تخرج الحيّة من جِلدها ـ وهو بَلعَمُ بنُ باعُوراءَ من عُلماء بني إسرائيل،

قولُه: (بِذَلِكَ) أي: بمضمُونِ ﴿بَلى﴾، وقيل: شَهِدنا كلامَ اللهِ تعالى، فلا يُحتاجُ حينئذٍ إلى تقديرِ: (والإشهَادُ).

قولُه: (لـ﴿أنْ﴾ لا) والأولَى: كراهَةَ ﴿أن يقولُوا﴾.

(باليَاءِ) الغيبَة أبُو عَمرو[1]؛ لأنَّ أوَّل الكَلامِ على الغيبَةِ.

قولُه: (قَبْلَنَا) أي: قَبلِ زمانِنا.

قولُه: (والتَّذكِيرُ بِهِ) ونصْبُ الأدلَّةِ على الرُّبوبيَّة.

قولُه: (في النُّفُوسِ) دَفعَ إيرادَ أنَّ اللهَ جعلَ علَّةَ أخذِ العهدِ: ألَّا يقولُوا في القيامَةِ كذلك، فالواجبُ ألَّا ينسيهُمُ اللهُ هذا العهدَ، حتَّى تكُونَ له فائدةٌ، وإلَّا فهو كأن لم يكُن.

قولُه: (نُبيِّنُهَا) أي: الآياتِ المنصُوبةَ والمتلُوَّةَ.

قولُه: (ليتدَبَّرُوهَا) أو لفوائدَ جمَّةٍ، إشارةٌ إلى أنَّ قولَه: ﴿ولَعلَّهُم يَرجِعُونَ﴾ عطفٌ على مُقدَّرٍ.

قولُه: (أي: اليَهُودِ) أو قَومِك.

قولُه: (وهوَ بلعَمُ) عليه الأكثرونَ، وكانَ عالِماً باسمِ اللهِ الأعظَمِ، وقد صحَّ عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرو: أنَّ المرادَ أميَّةُ بنُ [أبي] الصَّلتِ[2]، فقيل: مرادُ ابنِ عَمرو أنَّه يشبهُهُ في كثرَةِ علمِهِ وتتبُّعِهِ كتُبَ الأوائلِ، ومع ذلك

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٠٧)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥٤٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٣٠).

سُئل أن يدعو على مُوسى وأُهدي إليه شيء، فدعا فانقلب عليه واندلعَ لسانُه على صدره ـ ﴿فأتبعَهُ الشَّيطانُ﴾: فأدركه فصار قرينه، ﴿فكانَ مِنَ الغاوِينَ، ولَو شِئنا لَرَفعْناهُ﴾ إلى منازل العلماء ﴿بِها﴾ بأن نُوفّقه للعمل، ﴿ولكِنَّـهُ أخلَدَ﴾: سكن ﴿إلَى الأرضِ﴾ أيِ: الدنيا ومال إليها، ﴿واتَّبَعَ هَواهُ﴾ في دُعائه إليها فوضعناه.

﴿فمَثَلُه﴾: صِفتُه ﴿كَمَثَلِ الكَلبِ، إن تَحمِلْ عَلَيهِ﴾ بالطرد والزجر ﴿يَلهَثْ﴾: يَدلعْ لسانَه، ﴿أو﴾ إن ﴿تَترُكْهُ يَلهَثْ﴾..

صارَ إلى موالاةِ المشركينَ ومُناصرَتِهم، ويؤيِّدُ هذا التَّأويلَ ما رويَ عن قتادةَ[1] قالَ: هذا مثلٌ ضربَهُ اللهُ لمن عُرِضَ عليه الهُدَى فأَبَى أن يقبلَهُ وتركَهُ.

قولُه: (علَى مُوسَى) وجنُودِه فأَبَى، ثمَّ ألحُّوا فألحُّوا.

قولُه: (فانقَلَبَ) وقيل: فقبلَ الله، فبقُوا في التِّيهِ ثمَّ دعَا مُوسَى عليه فنُزِعَ عنه الإيمانُ، وقال بعضُهُم: ما يسَّرَ اللهُ لهُ الدُّعاءَ على مُوسَى لكن قالَ لهم: أخرجُوا النِّساءَ يستقبلهم، فعسى أن يَزنُوا ففعَلُوا فوَقعَ واحِدٌ من بَني إسرائيلَ في الزِّنَا فنزلَ عليهم الطَّاعُونُ فقتلَ أحَدُ علمائِهم الزَّانِيَ فكُشِفَ عنهم العذابُ، قيل: فحُسبَ من هلكَ في الطَّاعُونِ في ساعةٍ من النَّهارِ فوجدَ سبعينَ ألفاً، هكذا رواهُ ابنُ جريرٍ وابنُ عساكرٍ ومحمَّدُ بنُ إسحاقَ وغيرُهم[2].

قولُه: (فأدرَكَهُ) الأظهرُ: حتَّى لحقَهُ، وقيل: استتبَعَهُ.

وقولُه تعالى: (﴿فكَانَ من الغَاوِين﴾) فصارَ من الضَّالِّين.

قولُه: (إلى مَنازِلِ العُلمَاءِ) **وقولُه تعالى:** (﴿بِهَا﴾) أي: بسببِ تلك الآياتِ وملازمَتِها.

وقولُه: (بأَن نوفِّقَهُ) بيانُ الرَّفعِ.

قولُه: (أي: الدُّنيَا) وزخارِفِها فإنَّ جميعَ زخارِفِهَا من الأرضِ، أو إلى السُّفالَةِ[3].

قولُـه: (فـي دُعَائـهِ) أي: هواهُ إلى الدُّنيَـا بإيثارِهَا وأَخْذِ الرَّشـوَةِ واستِرْضاءِ قومِهِ وإعراضِـهِ عن مقتَضَى الآياتِ.

قولُه: (يَدْلَعْ لسَانَهُ) من شدَّةِ التَّنفُّس.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥٤٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥٤٢٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٣) السفالة ـ بالضم ـ: نقيض العلوّ، وبالفتح: النذالة. «مختار الصحاح» (ص: ١٤٩).

وليس غيره من الحيوان كذلك. وجملتا الشرط حال، أي: لاهثًا ذليلاً بكُلّ حال. والقصد التشبيه في الوضع والخِسّة بقرينة الفاء المُشعرة بترتّب ما بعدها على ما قبلها من الميل إلى الدنيا واتّباع الهوى، وبقرينة قوله: ﴿ذلِكَ﴾ المَثَل ﴿مَثَلُ القومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ـ فاقصُصِ القَصَصَ﴾ على اليهود، ﴿لَعَلَّهُم يَتَفكَّرُونَ﴾: يتدبّرون فيها فيُؤمنون ـ ١٧٧ ـ ﴿ساءَ﴾: بئس ﴿مَثَلاً القَومُ﴾ أي: مَثَلُ القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا، وأنفُسَهُم كانُوا يَظلِمُونَ﴾ بالتكذيب! ١٧٨ ـ ﴿مَن يَهدِ اللهُ فَهُوَ المُهتَدِي، ومَن يُضلِلْ فأُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ﴾.

١٧٩ ـ ﴿ولَقَد ذَرَأْنا﴾: خلقنا ﴿لِجَهنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الجِنِّ والإِنسِ، لَهُم قُلُوبٌ لا يَفقَهُونَ بِها﴾ الحقَّ، ﴿ولَهُم أعيُنٌ لا يُبصِرُونَ بِها﴾ دلائلَ قُدرة الله بصَرَ اعتبار، ﴿ولَهُم آذانٌ لا يَسمَعُونَ بِها﴾ الآياتِ والمواعظَ سماعَ تدبّر واتّعاظ. ﴿أُولئِكَ كالأنعامِ﴾ في عدم الفِقه والبصر والاستماع، ﴿بَل هُم أضَلُّ﴾ من الأنعام لأنها تطلب منافعها وتهرب من مَضارّها، وهؤلاء يُقدمون على النار مُعانَدةً. ﴿أُولئِكَ هُمُ الغافِلُونَ﴾.

قولُه: (كذلِكَ) بأن يلهَثَ دائماً وذلك لضعفِ فؤادِهِ؛ أي: مَثَلُهُ في أن وعظتَهُ أو تركتَهُ فهو على الضَّلالِ، وقلبُ الكافرِ ضعيفٌ، وقيل: لمَّا دَعا على مُوسَى خرجَ لسانُه فوقَعَ على صَدرِهِ وجعلَ يلهَثُ كالكلبِ، وقيل: انقلبَتْ صورَتُه صورَةَ الكَلبِ، ولذا قيل: يدخلُ النَّارَ في صورَةِ كلبِ أصحابِ الكهفِ، وكلبُهم يدخلُ الجنَّةَ في صُورةِ الإنسانيَّةِ.

قولُه: (علَى اليَهُودِ) أو على كفَّارِ مكَّةَ.

قولُه: (أي: مَثَلُ القَومِ) بحذفِ المُضافِ.

قولُه: (خلَقنَا) ولامُ ﴿لجهَنَّم﴾ لامُ العاقبَةِ، فإنَّ الجنَّ والإنسَ خلِقُوا للعبادةِ، ويمكِنُ أن تكونَ الألفُ واللَّامُ في الآيتينِ للعهدِ، وإليه أشارَ القاضِي بقولِهِ[1]: يعنِي: المصِرِّينَ على الكُفرِ في علمِهِ تعالى.

قولُه: (بَصَرَ اعتِبَارٍ) الأولَى: إبصارَ اعتبارٍ.

قولُه: (في عَدَمِ الفِقْهِ) أي: معرفَةِ الحقِّ.

قولُه: (والبَصَرِ) والأظهرُ: والإبصارِ للاعتبارِ.

وقولُه: (والاستِمَاعِ) أي: للتَّدبُّرِ، أو كالأنعامِ في أنَّ مشاعِرَهُم وقُوَاهُم متوجِّهَةٌ إلى أسبابِ التَّعيُّشِ مقصُورَةٌ عليها قالَ تعَالى: ﴿يَأكُلُونَ كمَا تَأكُلُ الأَنعَامُ﴾ [محمد: ١٢] لكمالِهِم في الغفلَةِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٤٣).

١٨٠ ـ ﴿و للهِ الأسماءُ الحُسنَى﴾ التِّسعةُ والتِّسعون الواردُ بها الحديثُ، والحُسنى: مُؤنّث الأحسَن. ﴿فادعُوهُ﴾: سمُّوه ﴿بِها، وذَرُوا﴾: اتركوا ﴿الَّذِينَ يُلحِدُونَ﴾، مِن: ألحَدَ ولَحَدَ: يَمِيلون عن الحقّ ﴿في أسمائِهِ﴾ حيثُ اشتقّوا منها أسماء لآلهتهم: كاللاّتِ من الله، والعُزَّى من العزيز، ومَناةَ من المنّان. ﴿سَيُجزَونَ﴾ في الآخِرة جزاءَ ﴿ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾. وهذا قبل الأمر بالقتال.

١٨١ ـ ﴿ومِمَّن خَلَقْنا أُمّةٌ يَهدُونَ بِالحَقِّ، وبِهِ يَعدِلُونَ﴾ ـ هم أُمّة مُحمّد ﷺ كما في حديثٍ ـ ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ ﴿والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾: القرآنِ من أهل مكّة ﴿سَنَستَدرِجُهُم﴾: نأخذهم قليلاً قليلاً ﴿مِن حَيثُ لا يَعلَمُونَ، وأُملِي لَهُم﴾: أُمهِلُهم. ﴿إنَّ كَيدِي مَتِينٌ﴾: شديد لا يُطاق.

١٨٤ ـ ﴿أوَلَم يَتَفَكَّرُوا﴾ فيعلموا: ﴿ما بِصاحِبِهِم﴾ مُحمّد ﴿مِن جِنّةٍ﴾: جُنونٍ، ﴿إنْ﴾: ما ﴿هُوَ إلاّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنُ الإنذار؟ ١٨٥ ـ ١٨٦ ـ ﴿أوَلَم يَنظُرُوا في مَلَكُوتِ﴾: مُلكِ..............

قولُه: (الوَارِدُ) وسيرِدُ في آخرِ الإسراءِ.

قولُه: (مؤنَّثُ الأحْسَن) أي: هي أحسَنُ الأسماءِ؛ لأنّها دالَّةٌ على مَعانٍ هي أحسَنُ المعانِي وليسَتْ منحَصِرَةً في التِّسعةِ والتِّسعِينَ، فالمرادُ بها: الألفاظُ، وقيل: الصِّفاتُ.

قولُه: (ولَحَدَ) من بابِ عَلِمَ، قراءَة حمزَة[1].

قولُه: (وهَذا) أي: اترُكُوا؛ يعنِي: إن لم يكُنْ للتَّهديدِ، ومحلُّ هذا قبلَ: ﴿سيُجزَونَ﴾.

قولُه: (مِن أَهلِ مَكَّة) وغيرهم.

قولُه: (نأخُذُهُم) أو نُدْنيهم إلى الهلاكِ، وأصلُ الاستدراجِ: الاستصعادُ والاستنزالُ درجَةً بعد درجةٍ.

وقولُه تعالى: (﴿مِن حيثُ لا يعلَمُون﴾) أي: كُلَّما جدَّدُوا معصِيةً جدَّدنا لهم نعمَةً ونُنسيهِم الاستغفارَ من الخطيئةِ والشُّكرَ على النِّعمَةِ، حتَّى يظنُّوا أنّها لطفٌ من اللهِ بهم فيزدادُوا بَطراً حتَّى تحقَّ عليهم كلمَةُ العذابِ.

قولُه: (أُمهِلُهم) ليزدادُوا ضلالاً بعد ضَلالٍ.

قولُه: (شَدِيدٌ) أي: أخذِي، وإنَّما سمَّاهُ كَيداً؛ لأنَّ ظاهرَهُ إحسانٌ وباطِنهُ خِذلانٌ.

قولُه: (بَيِّنُ الإنذَارِ) أو مُوضِحُ إنذارِهِ بحيثُ لا يخفَى على ناظرٍ.

قولُه: (مُلْكِ) أي: مُلكِها وربوبيَّتِها، وقيل: عجائبِها، والتَّاءُ للمُبالغَةِ، قيل: النَّظرِ في الملكُوتِ يورِثُ الاعتبارَ، والنَّظرُ إلى الملِكِ يسقطُ عنكَ الاشتغالَ بالأغيارِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٠٨)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٦).

﴿السَّماواتِ والأرضِ و﴾في ﴿ما خَلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ﴾ ـ بيانٌ لـ «ما» ـ فيستدلّوا به على قُدرة صانعه ووحدانيّته، ﴿و﴾ في ﴿أنْ﴾ أي: أنّه ﴿عَسَى أن يَكُونَ قَدِ اقترَبَ﴾: قرُبَ ﴿أجَلُهُم﴾ فيموتوا كُفّارًا فيصيروا إلى النار، فيُبادروا إلى الإيمان؟ ﴿فبِأيِّ حَدِيثٍ بَعدَهُ﴾ أي: القرآنِ ﴿يُؤمِنُونَ﴾؟ ﴿مَن يُضلِلِ اللهُ فلا هادِيَ لَهُ، ويَذَرُهُم﴾ ـ بالياء والنون مع الرفعِ استئنافًا، والجزمِ عطفًا على محلّ ما بعد الفاء ـ ﴿في طُغيانِهِم يَعمَهونَ﴾: يتردّدون تحيّرًا.

وقولُه: (﴿و﴾ فِي) يعنِي: عَطفٌ على: ﴿مَلكُوت﴾.

قولُه: (بَيانٌ لـ﴿مَا﴾) وتفسِيرُ ﴿مَا﴾ الَّذي بمَعنى شيءٍ بشيءٍ للإشارَةِ إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ما﴾ عام؛ أي: أيُّ شيءٍ.

ففِـي كـلِّ شـيءٍ لـهُ آيَـةٌ تـدُلُّ علـى أنَّـهُ واحِـدٌ[1]

قولُه: (ووحدَانيَّتهِ) وعِظَمِ شَأنِ مالِكِه ليظهَرَ لهم صحَّةُ ما يدعوهُم إليه.

قولُه: (﴿و﴾ في ﴿أنْ﴾) إشارةٌ إلى أنَّهُ عَطفٌ على: ﴿ملكُوت﴾.

قولُه: (أي: أنَّهُ) يعنِي: ﴿أن﴾ خفيفَةٌ من الثَّقيلةِ، واسمُه: ضميرُ الشَّأنِ، وكذا اسمُ ﴿يكُونُ﴾، وجُوِّزَ أن تكونَ مصدريَّةً (فيمُوتُوا) عطفٌ على: ﴿يكُون﴾.

قولُه: (فيُبَادِرُوا) نصبٌ على جوابِ الاستفهامِ؛ يعنِي: أوَلَم ينظُرُوا في اقترابِ آجالِهِم وتوقُّعِ حُلولِها فيُسارِعُوا إلى طلبِ الحقِّ والتَّوجُّهِ إلى ما يُنجيهِم قبلَ مُفاجأةِ الموتِ ونُزولِ العذابِ.

قولُه: (أي: القُرآنِ) يعنِي: إذا لم يؤمنُوا به وهو النِّهايةُ في البيانِ.

قولُه: (بالياءِ) التَّحتانيَّة بصرِيٌّ وكُوفيٌّ[2].

قولُه: (والجَزمِ عَطفاً على) الرَّفع، حَمزَة والكِسائِي[3].

قولُه: (مَا بَعدَ الفاءِ) كأنَّهُ قيل: من يُضللِ اللهُ لا يهدِه أحدٌ غيرُه ويذَرْهُم.

قولُه: (يَتردَّدُونَ) حالٌ من «هم».

---

(١) انظر: «ديوان أبي العتاهية» (ص: ١٢٢).

(٢) قرأ أبو عمرو وكذلك عاصم في رواية أبي بكر وحفص عن عاصم: ﴿ويذرهم﴾ بالياء والرفع، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٠٩)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٧).

(٣) أي: قرأ حمزة والكسائي: ﴿ويذرهم﴾ بالياء مع الجزم، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٠٩)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٧).

١٨٧ ـ ﴿يَسألُونَكَ﴾ أي: أهلُ مكّة ﴿عَنِ السّاعةِ﴾ القِيامة: ﴿أيّانَ﴾: متى ﴿مُرْساها؟ قُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّما عِلمُها﴾ متى تكون ﴿عِندَ رَبِّي، لا يُجَلِّيها﴾: يُظهرُها ﴿لِوَقتِها﴾ ـ اللام بمعنى: في ـ ﴿إلاّ هُوَ. ثَقُلَتْ﴾: عظُمت ﴿في السَّماواتِ والأرضِ﴾ على أهلهما لهولها، ﴿لا تأتِيكُم إلاّ بَغْتةً﴾: فَجْأة. ﴿يَسألُونَكَ، كأنَّكَ حَفِيٌّ﴾: مُبالِغ في السُّؤال ﴿عَنها﴾ حتّى علمتَها. ﴿قُلْ: إنَّما عِلمُها عِندَ اللهِ﴾ ـ تأكيدٌ ـ ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمُونَ﴾ أنَّما عِلمُها عِنده تعالى.

١٨٨ ـ ﴿قُلْ: لا أملِكُ لِنَفسِي نَفعًا﴾ أجلِبه ﴿ولا ضَرًّا﴾ أدفعه، ﴿إلاّ ما شاءَ اللهُ، ولَو كُنتُ أعلَمُ الغَيبَ﴾: ما غابَ عنّي ﴿لَاستكثَرْتُ مِنَ الخَيرِ، وما مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾.........................

قولُه: (القِيَامَة) وهي من الأسماءِ الغالِبةِ، وإطلاقُها عليها إمَّا لوقُوعِها بغتَةً أو لسُرعَةِ حِسابِها، أو لأنَّها على طُولِها عندَ اللهِ كساعَةٍ.

قولُه: (متَى) وأصلُهُ: أيُّ آنٍ تكونُ.

وقولُه تعالى: (﴿مُرسَاهَا﴾) أي: إرساؤُهَا وإثباتُهَا، نزلَت في قُريش كانوا يسألُونَ وقتَها استبعاداً لوقُوعِها.

وقولُه (﴿عندَ ربِّي﴾) يعني: استأثَرَ به لم يُطلِعْ عليه مَلَكاً مقرَّباً ولا نبيًّا مُرسلاً.

قولُه: (يُظهِرُهَا) أي: أمرَها، والمعنَى: أنَّ الخفاءَ بها مستمِرٌّ على غيرِه إلى وقتِ وقُوعِها.

قولُه: (على أَهلِهَا) وفي نُسخَةٍ: «أهلِهما» أي: من الملائكةِ والثَّقلينِ، وكأنَّه إشارَةٌ إلى الحكمَةِ في إخفائها، وقيل: ثقُلَتْ عليهما عند الوقُوعِ حتَّى انشقَّتْ وانهدمَتْ، وقيل: ثقُلَ خفاؤُها على أهلِها، وقيل: معناهُ خفيَتْ وكُلُّ خفيٍّ ثقيلٌ.

قولُه: (فجأَةً) على غفلَةٍ، ونصبُه على المصدَرِ فإنَّها نوعٌ من الإتيانِ.

قولُه: (مبَالِغٌ) أي: عالمٌ بها، فإنَّ من بالغَ في السُّؤالِ استحكمَ علمُه عنه.

قولُه: (تأكِيدٌ) ومبالغَةٌ، أو كرَّرهُ لتكرِيرِ ﴿يسألُونَكَ﴾ لما نيطَ به من هذه الزِّيادةِ.

قولُه: (عندَهُ) مختَصٌّ به.

قولُه: (أَجلِبُهُ) الأظهرُ: جَلْبَ نفعٍ ولا دَفْعَ ضُرٍّ، وهو إظهارٌ للعبُوديَّةِ والتَّبرُّءِ عن ادِّعاءِ العلمِ بالغيُوبِ.

وقولُه: (﴿إلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾) أي: من ذلك الجَلبِ والدَّفعِ فيلهِمُنِي إيَّاه ويوفِّقُني له، فالاستثناءُ متَّصِلٌ، أو لكن ﴿مَا شاءَ﴾ يصِلُ فمُنقطِعٌ.

من فقر وغيره لاحترازي عنه باجتناب المضارّ. ﴿إِنْ﴾: ما ﴿أَنا إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ بالنار للكافرين ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالجنّة ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾.

١٨٩ ـ ﴿هُوَ﴾ أي: اللهُ ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحِدةٍ﴾ أي: آدمَ، ﴿وجَعَلَ﴾: خلقَ ﴿مِنها زَوجَها﴾ حوّاء ﴿لِيَسكُنَ إِلَيها﴾ ويألفَها، ﴿فلَمّا تَغَشّاها﴾: جامعَها ﴿حَمَلَت حَملاً خَفِيفًا﴾ هو النُّطفة، ﴿فمَرَّتْ بِهِ﴾: ذهبت وجاءت لخِفّته، ....

قولُه: (مِن فَقرٍ) فلم أكُنْ غالِباً مرَّةً ومغلُوباً أُخرَى، ورابِحاً وخاسِراً في التِّجارةِ، ولعلَّ هذا باعتبارِ فهمِ المخاطبينَ وزعمِ المنكرِينَ، وإلا فاطِّلاعُ بعضِ الغيُوبِ من الأمورِ المقدَّرةِ لا توجبُ تيسيرَ عَسيرٍ وجلبَ نفعٍ ودفعَ ضُرٍّ، نزلَتْ حينَ قالت قريشٌ: ألا تعلَمُ الرُّخصَ قبلَ الغلاءِ فتشتَرِي وتربحَ، والأرضَ التي تُريدُ أن تُجدِبَ وترتحلَ إلى المخصبةِ[١].

وقيل: ﴿الغَيْبَ﴾ الأجَل و﴿الخَيرِ﴾ العَمل و﴿السُّوءُ﴾ الوَجَل، ولا شَكَّ أنَّ ﴿ما مسَّنِيَ﴾ عطفٌ على: ﴿استكثَرْتُ﴾ فما ذكرَهُ أربابُ الوقُوفِ من أنَّ بينهما مُعانقَةً غيرُ صحيحٍ.

قولُه: (للكافِرِينَ) أشارَ إلى أنَّ متعلَّقَ الـ﴿نَذِيرٌ﴾ محذُوفٌ، والمذكُورُ متعَلِّقُ البَشيرِ، أو المعنَى: وما أنا إلا عَبدٌ مرسَلٌ للإنذَارِ والبِشارَةِ لقَومٍ يؤمنُونَ، فإنَّهُم المنتفِعُونَ بهما.

قولُه: (حوَّاءَ) أي: من جسدِ آدمَ من ضِلَعٍ من أضلاعِهِ اليُسرَى.

قولُه: (يألَفَهَا) ويأنَسُ بها اطمئنانَ الشَّيءِ إلى جزئِهِ، وإنَّما ذكَّرَ الضَّميرَ ذَهاباً إلى المعنَى.

قولُه: (هوَ النُّطفَةُ) فالحملُ بمعنَى المحمُولِ، أو المعنَى: حَمْلاً خفَّ عليها ولم تلقَ منهُ ما تلقَى منه الحوامِلُ غالِباً من الأذَى.

قولُه: (ذَهبتْ وجاءَتْ) هذا يلائمُ القراءَةَ الشَّاذَّةَ[٢]: «فمَارَتْ» من المَوْرِ، وهو المجيءُ والذَّهابُ، وأمَّا على القراءةِ المتواتِرَةِ فمعناهُ: استمرَّتْ به قامَتْ وقعدَتْ.

قولُه: (لخفَّتِهِ) أي: الحملِ.

---

(١) انظر: «أسباب النزول» (ص: ٢٢٨)، وروي عن ابن عباس، في قوله: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ [الأعراف: ١٨٨]، قال: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر.
رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٩).

(٢) انظر: «تفسير السمعاني» (٢/ ٢٣٨)، و«تفسير ابن عطية» (٢/ ٤٨٦)، و«زاد المسير» (٢/ ١٧٧)، و«البحر المحيط» (٥/ ٢٤٦)، و«الدر المصون» (٥/ ٥٣٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٩/ ٤١٧)، وبعضهم عزاها لعبد الله بن عمرو بن العاص والجحدري.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ بكِبَر الولد في بطنها وأشفقا أن يكون بهيمة ﴿دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا: لَئِنْ آتَيْتَنَا﴾ ولدًا ﴿صَالِحًا﴾: سَوِيًّا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك عليه.

١٩٠ ـ ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ ولدًا ﴿صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾، وفي قراءة بكسر الشين والتنوين، أي: شَرِيكًا ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ بتسميته عبدَ الحارث، ولا ينبغي أن يكون عبدًا إلا لله، وليس بإشراك..........

قولُه: (بكِبَرِ الوَلَدِ) أي: صارَتْ ذا ثقَلٍ، وقرئَ[1] بالبناءِ للمفعُولِ؛ أي: أثقلَها حملُها.

قولُه: (وأشفَقَا) إشارةٌ إلى ما نُقِلَ أنَّ حوَّاءَ لمَّا حملَتْ أتاها إبليسُ في غيرِ صُورَتِهِ فقال لها: ما يُدريكِ ما في بطنِكِ لعلَّهُ بهيمَةٌ؟ وما يُدريكِ من أين يخرُجُ؟ فخافَتْ من ذلك وذكرَتْ لآدمَ فهمَّا منه ثمَّ عاد إليها، وقال: إنِّي من الله بمنزلَةٍ، فإن دعوتُ اللهَ أن يجعلَهُ خَلقاً مثلَكَ ويسهِّلَ عليك خروجَهُ فسمِّيهِ عبدَ الحارثِ ـ وكانَ اسمُه: حارِثاً، في المَلِكيَّة ـ ففعلَتْ، فلمَّا ولدَتْ سمَّياه: عبدَ الحارِثِ[2].

(سَوِيًّا) قد صلُحَ بدنُهُ، أو بَشراً سوِيًّا وهو الأنسَبُ للإشفاقِ المذكُورِ.

قولُه: (علَيهِ) أي: على هذا الإيتاءِ؛ يعنِي: على هذِه النِّعمَةِ المجدَّدةِ.

قولُه: (وفي قرَاءَةٍ) لنافعٍ وشُعبَةَ[3].

قولُه: (أي: شَرِيكاً) الظَّاهِر: أي شَرِكةً، بأن أشرَكا فيه غيرَهُ، أو ذوِي شِركةٍ وهم الشُّركاءُ.

قولُه: (ليسَ بإشرَاكٍ) أي: حقيقيٍّ؛ لأنَّهما ما اعتقَدا أنَّ الحارثَ ربُّهُ بل قصَدا إلى أنَّه سببُ صلاحِهِ، فسمَّاهُ الله تعالى شِرْكاً للتَّغليظِ، فإنَّ الذَّنبَ من العارفِينَ المقرَّبينَ أشدُّ وأعظَمُ، فالشِّركُ الخفيُّ منهم بمنزِلَة

---

(١) وهي من القراءات الشاذة، انظر: «الكشاف» (٢/ ١٨٦)، و«أنوار التنزيل» (٣/ ٤٥)، و«الدر المصون» (٥/ ٥٣٥) ولم يعزها أحد إلى قائلها.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥٥١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٢) عن سعيد بن جبير.

وروي بنحوه مرفوعاً، رواه الترمذي (٣٠٧٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٠١١٧)، والطبري في «تفسيره» (١٥٥١٣)، والروياني في «مسنده» (٨١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣١)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٢١٥) (٦٨٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٠٣) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ولكن الحافظ ابن كثير قد أعله من ثلاثة أوجه ذكرها في «تفسيره» (٣/ ٤٧٥).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٩)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١١١)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٤).

في العبوديّة لعِصمة آدمَ. وروى سمُرةُ عن النبيّ ﷺ قال: «لَمّا وَلَدَتْ حَوّاءُ طافَ بِها إبلِيسُ ـ وكانَ لا يَعِيشُ لَها وَلَدٌ ـ فقالَ: سَمِّيهِ عَبدَ الحارِثِ. فإنّهُ يَعِيشُ. فسَمّتْه فعاشَ، فكانَ ذلِكَ مِن وَحيِ الشَّيطانِ وأمرِهِ». رواه الحاكمُ وقال: صحيحٌ، والترمذيُّ وقال: حسن غريب. ﴿فتعالَى اللهُ عَمّا يُشرِكُونَ﴾ أي: أهلُ مكّة به من الأصنام! والجملة: مُسبَّبةٌ عطفٌ على «خلقكم»، وما بينهما اعتراض.

١٩١ ـ ١٩٢ ـ ﴿أيُشرِكُونَ﴾ به في العِبادة ﴿ما لا يَخلُقُ شَيئًا وهُم يُخلَقُونَ، ولا يَستَطِيعُونَ لَهُم﴾ أي: لعابدِيهم ﴿نَصرًا، ولاأنفُسَهُم يَنصُرُونَ﴾ بمنعها ممّن أراد بهم سوءًا من كسر أو غيره؟ والاستفهام للتوبيخ. ١٩٣ ـ ﴿وإن تَدعُوهُم﴾ أي: الأصنامَ ﴿إلَى الهُدَى لا يَتَّبِعُوكُم﴾، بالتشديد والتخفيف.

الجليّ، ويكونُ لفظُ: ﴿شركاء﴾ من إطلاقِ الجمعِ على الواحدِ، ويحتملُ أن يقالَ: إنَّهُما لمَّا فعَلا ذلك اقتدَى بهما بعضُ النَّاسِ في ذلك فسمَّوا أولادَهُم: عبدَ شَمسٍ، ونحوه، فنُسِبَ إليهما كلُّ ذلك لتسبُّبِهما، ثمَّ قالَ تعالى: ﴿فتعالى الله﴾ نَظراً إلى الحقيقةِ، وأنَّ الفعلَ منهما ومن أولادِهِما فنُسِبَ إلى الكُلِّ.

قولُه: (لعِصمَةِ آدَمَ) ولحفظِ حوَّاءَ.

قولُه: (فسَمَّتْهُ) عبدَ الحارِثِ بإذنٍ من آدَمَ ولم تعرِفْ حوَّاء أنَّه إبليسُ.

قولُه: (أي: أَهلُ مكَّةَ) وغيرُهُم.

وقولُه: (بِهِ) متعَلِّقٌ بـ﴿يُشرِكُون﴾ و(منَ الأصنَام[1]) بيانُ ﴿ما﴾.

قَالَ تعالى: (﴿وَهُم يَخلُقُون﴾) الضَّمِيرُ للأصنامِ جيءَ به على تسمِيَتِهِم إيَّاها آلهَةً.

قولُه: (أي: الأصنَامَ) فالخطابُ للمشرِكينَ؛ أي: إن تدعُوهُم إلى أن يهدُوكُم لا يتَّبعُوكُم إلى مرادِكُم ولا يجِيبُوكُم[2] كما يجيبُكُم اللهُ، أو المعنَى: وإن تدعُوا المشركينَ إلى الإسلامِ، فالخطابُ له ﷺ ومَن تبعَهُ، والأوَّلُ أوفَقُ لما بعدَهُ من قولِهِ: ﴿سَواءٌ علَيكُم﴾ ومِنْ قولِه: ﴿وإن تدعُوهُم إلى الهُدَى لا يَسمَعُوا﴾ [الأعراف: ١٩٨] الآيَة.

قولُه: (والتَّخفِيفِ) وفتحِ الباءِ، نافعٌ[3].

---

(١) في الأصول: «الأصناف» وما أثبته من المصدر.

(٢) في الأصول: «يجيبكم» والصواب ما أثبته.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٩)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١١٣)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٥).

﴿سَواءٌ عَلَيكُم أدَعَوتُمُوهُم﴾ إليه ﴿أم أنتُم صامِتُونَ﴾ عن دُعائهم، لا يتّبعوه لعدم سماعهم. ١٩٤ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ عِبادٌ﴾ مملوكة، ﴿أمثالُكُم. فادعُوهُم، فلْيَستَجِيبُوا لَكُم﴾ دُعاءكم، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ في أنها آلهة. ثمّ بيّن غايةَ عجزهم وفضلَ عابديهم عليهم، فقال: ١٩٥ ـ ﴿ألَهُم أرجُلٌ يَمشُونَ بِها، أم﴾: بل أ ﴿لَهُم أيدٍ﴾: جمع يد ﴿يَبطِشُونَ بِها؟ أم﴾: بل أ ﴿لَهُم أعيُنٌ يُبصِرُونَ بِها؟ أم﴾: بل أ ﴿لَهُم آذانٌ يَسمَعُونَ بِها﴾؟ استفهام إنكار، أي: ليس لهم شيء من ذلك، ممّا هو لكم. فكيف تعبدونهم، وأنتم أتمُّ حالاً منهم؟

﴿قُلِ﴾ لهم يا مُحمّد: ﴿ادعُوا شُرَكاءَكُم﴾ إلى هلاكي، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ، فلا تُنظِرُونِ﴾: تُمهلونِ. فإني لا أُبالي بكم. ١٩٦ ـ ﴿إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ﴾: يتولّى أموري ﴿الَّذِي نَزَّلَ الكِتابَ﴾: القُرآن، ﴿وهُوَ يَتَوَلَّى الصّالِحِينَ﴾ بحِفظه، ١٩٧ ـ ﴿والَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِهِ لا يَستَطِيعُونَ نَصرَكُم، ولا أنفُسَهُم يَنصُرُونَ﴾. فكيف أبالي بهم؟...

قولُه: (إلَيهِ) أي: إلى الهُدَى، وكذا ضميرُ (لا يتّبِعُوه).

قولُه: (تَعبُدُون) أي: تعبدُونَهُم وتسمُّونَها آلهَةً.

قولُه: (مملُوكَةٌ) مسخَّرَةٌ.

قولُه: (في أنَّهَا) الأظهرُ: في أنَّهُم.

قولُه: (إلى هَلاكِي) أي: استَعينُوا بهم في عَداوَتي.

وقولُه تعالى: (﴿ثمَّ كِيدُون﴾) أي: فبالغُوا فيما تقدرُونَ عليه من مكرُوهي أنتم وشركاؤُكُم، قرأ أبُو عَمرو بإثباتِ الياءِ وصلًا وهشامٌ مُطلَقاً، والباقُونَ بالحذفِ مُطلَقاً[1].

قولُه: (فإنِّي لا أُبَالِي) لوُثوقِي على ولايَةِ اللهِ وحفظِهِ.

قولُه: (بحفْظهِ) الظَّاهرُ: يحفَظهُم، إمَّا بالموحدةِ مصدراً أو بالتَّحتانيَّتينِ فِعلاً؛ يعنِي: ومن عادتِه تعالى أن يتولَّى الصَّالحينَ من عبادِهِ فَضلاً عن أنبيائِه، قالَ الواسطِي[2]: يتَولَّى الصَّالحينَ بالوِقايةِ ويتَولَّى الفاسِقينَ بالغوايَةِ.

قولُه: (فكَيفَ أُبالي) يعنِي: أنَّه من تمامِ التَّعليلِ لعدمِ مُبالاتهِ بهم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٩٩)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١١٤)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٨).

(٢) وانظر: «تفسير السلمي» (١/ ٢٦٠).

١٩٨ ـ ﴿وإن تَدعُوهُم﴾ أي: الأصنامَ ﴿إلَى الهُدَى لا يَسمَعُوا. وتَراهُم﴾ ـ يا مُحمّد ـ أي الأصنامَ ﴿يَنظُرُونَ إلَيكَ﴾ أي: يُقابلونك كالناظر، ﴿وهُم لا يُبصِرُونَ﴾.

١٩٩ ـ ﴿خُذِ العَفوَ﴾: اليُسرَ من أخلاق الناس، ولا تبحث عنها، ﴿وَأْمُرْ بِالعُرفِ﴾: المعروف، ﴿وأعرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ﴾ فلا تُقابلْهم بسَفَههم، ٢٠٠ ـ ﴿وإمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطيّةِ في «ما» المزيدةِ ـ ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ نَزْغٌ﴾ أي: إن يَصرِفْك عمّا أُمِرتَ به صارف ﴿فاستَعِذْ بِاللهِ﴾: جوابُ الشرط، وجواب الأمر محذوف، أي: يَدفعْه عنك. ﴿إنَّهُ سَمِيعٌ﴾ للقول ﴿عَلِيمٌ﴾ بالفِعل.

٢٠١ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إذا مَسَّهُم﴾: أصابَهم ﴿طَيفٌ﴾، وفي قراءة: «طائفٌ»، أي: شيء ألَمَّ بهم ﴿مِنَ الشَّيطانِ تَذَكَّرُوا﴾ عِقابَ الله وثوابه، ﴿فإذا هُم مُبصِرُونَ﴾ الحقَّ من غيره فيرجعون، ٢٠٢ ـ ﴿وإخوانُهُم﴾ أي: إخوان الشياطين........................

قولُه: (كالنَّاظِرِ) لأنَّهم صُوِّرُوا بصُورةِ من ينظُرُ إلى من يواجِهُه.

قولُه: (اليُسْر) أي: خُذ ما عَفا لك من أفعالِ النَّاسِ وسهُلَ، ولا تطلُبْ ما يشُقُّ عليهم من العفوِ الَّذي هو ضدُّ الجَهدِ.

قولُه: (المَعرُوفِ) المستحسَنِ من الأفعالِ.

قولُه: (فَلا تُقَابِلهُم) أي: بالمماراةِ والمكَافأةِ، وهذه الآيةُ جامعَةٌ لمكارِمِ الأخلاقِ، آمرَةٌ للرَّسُولِ ﷺ باستجماعِهَا، وقد وردَ في تفسِيرِها: «أن تصِلَ من قطعَكَ، وتُعطِي من حَرمَكَ، وتَعفُوا عمَّن ظَلَمَكَ»[1].

قولُه: (صَارِفٌ) أي: وسوَسَةٌ تحمِلُكَ على خِلافِ ما أمرتَ به كاعتِراءِ غضَبٍ وفِكْرٍ.

قولُه: (وجَوابُ الأمْرِ محذُوفٌ) يعني: هنا، وإلَّا فالأمرُ ليس لازِمَ الجوابِ.

قولُه: (للقَولِ) ومنه استعاذَتُكَ.

قولُه: (بالفِعلِ) أو يعلَمُ ما فيه صلاحُ أمرِكَ فيحمِلُكَ عليه.

قولُه: (وفي قِراءَة) أي: لغيرِ مكِّي وبَصرِي وكِسائِي[2].

قولُه: (أي: إخوَانُ الشَّيطَانِ) وفي نسخةٍ: «الشَّياطِين» فأُريدَ بالشَّيطانِ المذكُورِ سابِقاً الجنسُ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥٥٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٨)، عن أمي بن ربيعة، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٨٠): هذا مرسل وقد روي له شواهد من وجوه أُخر.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠١)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٢٠)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٥).

من الكُفّار ﴿يَمُدُّونَهُم﴾ الشياطينُ ﴿في الغيِّ، ثُمَّ﴾ هم ﴿لا يُقصِرُونَ﴾: يكُفّون عنه بالتبصُّر كما تَبَصَّرَ المتّقون، ٢٠٣ ـ ﴿وإذا لَم تأتِهِم﴾ أي: أهلَ مكّة ﴿بِآيَةٍ﴾ ممّا اقترحوا ﴿قالُوا: لَولا﴾ هلاّ ﴿اجتَبَيتَها﴾: من قِبَلِ نفسك. ﴿قُل﴾ لهم: ﴿إنَّما أتَّبِعُ ما يُوحَى إلَيَّ مِن رَبِّي﴾، وليس لي أن آتيَ من عند نفسي بشيء. ﴿هذا﴾ القُرآن ﴿بَصائرُ﴾: حُجَجٌ ﴿مِن رَبِّكُم وهُدًى ورَحمةٌ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾.

٢٠٤ ـ ﴿وإذا قُرِئَ القُرآنُ فاستَمِعُوا لَهُ وأنصِتُوا﴾ عن الكلام، ﴿لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ﴾ ـ نزلتْ في ترك الكلام في الخُطبة، وعُبّر عنها بالقُرآن لاشتمالها عليه، وقيل: في قراءة القُرآن مُطلقًا ـ..............

قولُه: (منَ الكُفَّارِ) بيانٌ لـ«إخوانُ»؛ أي: إخوانُ الشَّيطانِ الذين لم يتَّقُوا.

قولُه: (الشَّياطِينُ) بالرَّفعِ بيانُ ضميرِ الفاعلِ وضَميرِ المفعُولِ إلى الكفَّارِ، وقرأَ[1] نافعٌ من الإمدَادِ وتعبيرُ البيضاوِي[2] بـ«قرئَ» سهو قلَمٍ ومِدادٍ.

قالَ تعالى: (﴿في الغَيِّ﴾) بالتَّزيينِ والحملِ عليه.

قولُه: (﴿ثمَّ﴾ هُم) أي: الإخوانُ.

قولُه: (عنهُ) أي: عن الغيِّ، أو الشَّياطينُ لا يمسِكونَ عن إغوائِهم حتَّى يردُّوهُم.

قولُه: (ممَّا اقتَرَحُوا) أو من القُرآنِ.

قولُه: (أنشَأْتَهَا) وجمعتَهَا، أو طلبتَهَا من اللهِ.

قولُه: (حُجَجٌ) أي: بصائرُ للقُلوبِ تبصِرُ الحقَّ، وتدرِكُ الصَّوابَ.

قولُه: (نَزَلَت) وقالَ الصَّفوِيُّ: الأصحُّ نزلَتْ في تركِ التَّكلُّمِ في الصَّلاةِ، أو تركِ القراءةِ مع الإمامِ إذا جهرَ فيها، ولا شكَّ أنَّهُ يستحَبُّ الاستماعُ والإنصاتُ عند قراءةِ القُرآنِ مُطلقاً.

قولُه: (مُطلَقاً) أي: في الصَّلاةِ وغيرِها، في «المدَارِكِ»[3]: ظاهرُه وجُوبُ الاستماعِ والإنصاتِ وقتَ القراءةِ في الصَّلاةِ وغيرِها، وقيل: معناهُ إذا تلا عليكُم الرَّسولُ القُرآنَ عند نزُولِهِ فاستمِعُوا له، وجمهُورُ الصَّحابةِ رضي الله عنهم على أنَّه في استماعِ المؤتمِّ، وقيل: في استماعِ الخُطبَةِ، وقيل: فيهما وهو الأصحُّ، انتهى.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠١)، و«الحجة للقراء السبعة» (٤/ ١٢٢)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢١٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٠٦).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٤٧).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٦٢٨).

٢٠٥ ـ ﴿واذكُرْ رَبَّكَ في نَفسِكَ﴾ أي: سِرًّا ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذلُّلاً ﴿وخِيفةً﴾: خوفًا منه ﴿و﴾ فوقَ السرّ ﴿دُونَ الجَهرِ مِنَ القَولِ﴾ أي: قصدًا بينهما ﴿بِالغُدُوِّ والآصالِ﴾: أوائل النهار وأواخره، ﴿ولا تَكُنْ مِنَ الغافِلِينَ﴾ عن ذكر الله.

٢٠٦ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: الملائكةَ ﴿لا يَستكبِرُونَ﴾: يتكبّرون ﴿عَن عِبادتِهِ، ويُسَبِّحُونَهُ﴾: يُنزِّهونه عمّا لا يليق به، ﴿ولَهُ يَسجُدُونَ﴾ أي: يخصُّونه بالخُضوع والعِبادة. فكونوا مِثلهم.

قولُه: (سِرًّا) أي: قلبيًّا أو لِسانيًّا.

قولُه: (تَذَلُّلاً) ونصبُهُ وما بعدَهُ على الحاليَّةِ؛ أي: متضرِّعاً وخائفاً.

قولُه: (أوائلِ النَّهَارِ) لفَضلِ هذينِ الوقتَينِ، أو المرادُ: الدَّوامُ.

قولُه: (أي: الملائِكَةَ) والعنديَّةُ مكانَةٌ ومنزلَةٌ لا مكانٌ ومنزِلٌ، تعالى اللهُ عن ذلك.

قولُه: (فكُونُوا مِثلَهُ) أي: هم، مع كونِهم آمنِينَ من خوفِ سوءِ العاقبَةِ وعذابِهِ متوجِّهونَ إليه تعالى دائماً فأنتُم مع خوفِكُم كيف تتمادَونَ في الغفلَةِ وتعبُدونَ غيره، ولذلك شرعَ السُّجودَ لقراءَتِهِ فكأنَّ السَّاجدَ يقولُ: سمِعنَا وأطَعنا. واللهُ أعلمُ.

* * *

سُورَةُ الأَعْرَافِ

أخرج أبو الشيخ وابن حبَّان[1] عن قتادة قال: هي مكِّيَّةٌ إلَّا آيةَ: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [١٦٣]. وقال غيره: إنَّ هذا إلى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الآية: ١٧٢] مدنيٌّ. وأخرجَ غيرُ واحدٍ عن ابن عباس وابن الزبير أنَّها مكِّيَّةٌ، ولم يستثنيا شيئاً[2].

وهي مئتان وخمسُ آياتٍ في البصريِّ والشاميِّ، وستٌّ في المدنيِّ والكوفيِّ؛ فـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الآية: ١]، ﴿بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الآية: ٢٩] كوفيٌّ، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الآية: ٢٩] بصريٌّ شاميٌّ، ﴿ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الآية: ٣٨]، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية: ١٣٧] مدنيٌّ.

وكلُّها محكمٌ، وقيل: إلَّا موضعين؛ الأوَّل: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ [الآية: ١٨٣]، فإنه نُسِخَ بآية السيف، والثاني: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الآية: ١٩٩]، فإنَّه نُسِخَ بها أيضاً عند ابن زيد، وادَّعى أيضاً أنَّ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الآية: ١٩٩] كذلك. وفيما ذكر نظرٌ، وسيأتي الكلام فيه إنْ شاء الله تعالى.

ومناسبتُها لما قبلها على ما قاله الجلال السيوطيُّ عليه الرحمة: أنَّ سورةَ الأنعام لمَّا كانت لبيان الخلق، وفيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الآية: ٢]، وقال سبحانه في بيان القرون: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الآية: ٦]، وأُشيرَ إلى ذكر المرسلين، وتعدادِ الكثير منهم، وكان ما ذُكِر على وجه الإجمال = جيءَ بهذه السورة بعدَها مشتملةً على شرحه وتفصيله، فبسط فيها قصَّة آدم، وفُصِّلت قصصُ

---

(١) كذا في الأصل و(م). ولعلها تحرفت عن: أبو الشيخ بن حيان. ينظر الإتقان في علوم القرآن ١/ ٤٤، والدر المنثور ٣/ ٦٧.

(٢) أخرجه عن ابن عباس ابن الضريس ص٣٣، والنحاس في ناسخه ٢/ ٣٥٨، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل ٧/ ١٤٤ وعن ابن الزبير ابن مردويه كما في الدر المنثور ٣/ ٦٧.

المرسلين وأممهم وكيفيَّة هلاكهم أكملَ تفصيلٍ، ويصلحُ هذا أنْ يكون تفصيلاً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥]، ولهذا صدَّر السورةَ بخلقِ آدم الذي جعلَه في الأرض خليفةً، وقال سبحانه في قصَّة عاد: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩]، وفي قصَّة ثمود: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف:٧٤].

وأيضاً فقد قال سبحانه فيما تقدَّم: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]، وهو كلامٌ موجزٌ، وبسطَه سبحانه هنا بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلخ [الأعراف:١٥٦].

وأمَّا وجهُ ارتباطِ أوَّلِ هذه السورة بآخرِ الأولى؛ فهو أنَّه قد تقدَّم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٥]، وافتتحَ هذه بالأمر باتِّباع الكتاب.

وأيضاً لمَّا تقدَّم: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩]، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:١٦٤]، قال جلَّ شأنه في مفتتح هذه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ إلخ [الأعراف:٦]، وذلك من شرح التنبئة المذكورة.

وأيضاً لمَّا قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية [الأنعام:١٦٠]، وذلك لا يظهرُ إلَّا في الميزان، افتتح هذه بذكر الوزنِ، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف:٨] ثمَّ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وهو من زادت حسناته على سيئاته، ثمَّ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ﴾ وهو على العكس، ثمَّ ذكر سبحانه بعدُ «أصحابَ الأعراف»، وهم في أحد الأقوال: من استوت حسناتهم وسيئاتهم(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾﴾ سبق الكلامُ في مثله وبيانِ ما فيه، فلا حاجةَ إلى الإعادة، خلا أنَّه قيل هنا: إنَّ معنى ذلك: المصوِّر، وروي ذلك عن السُّدِّيِّ.

(١) تناسق الدرر في تناسب السور ص ٥٤-٥٥.

وأخرج البيهقيُّ وغيرُه عن ابن عباس أنَّ المعنى: أنا اللهُ أَعْلَمُ وأُفصِّل[١]. واختاره الزجَّاج[٢]، ورُوي عن ابن جبير.

وفي روايةٍ أخرى عن الحَبْر أنَّه ـ وكذا نظائرُه ـ قَسَمٌ أقسمَ الله تعالى به، وهو من أسمائه سبحانَه. وعن الضَّحَّاك أنَّ معناه: أنا الله الصادق. وعن محمد بن كعب القُرَظيِّ أنَّ الألفَ واللام من الله، والميم من الرحمن، والصَّاد من الصمد. وقيل: المرادُ به ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الانشراح: ١].

وذكر بعضُهم أنَّه ما من سورة افتتحت بـ «الم» إلَّا وهي مشتملةٌ على ثلاثةِ أمورٍ: بدء الخلق، والنهاية التي هي المعاد، والوسط الذي هو المعاش. وإليها الإشارةُ بالاشتمال على المخارج الثلاثة: الحلق، واللسان، والشفتين، وزيدَ في هذه السورة على ذلك الصاد؛ لما فيها مع ما ذُكِر من شرحِ القصص. وهو كما ترى، والله تعالى أعلم بمراده[٣].

وقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ على بعض الاحتمالات خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هو، أو ذلك كتاب.

وقوله سبحانه: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من عنده تعالى، صفةٌ له مشرِّفةٌ لقَدْرِه وقَدْرِ من أنزِل إليه ﷺ. وبني الفعلُ للمفعول جرياً على سَنَنِ الكبرياء، وإيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهورِ تعيُّنه، وهو السرُّ في تركِ ذكر مبدأ الإنزال.

والتوصيفُ بالماضي إنْ كان الكتابُ عبارةً ـ كالقرآن ـ عن القَدْرِ المشترك بين الكلِّ والجزء: ظاهرٌ. وإن كان المجموعَ؛ فلتحقُّقه جُعِلَ كالماضي.

واختارَ الزمخشريُّ[٤] ومن وافقه أنَّ المرادَ بالكتاب هنا السورة، وفيه من

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (١٦٧)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٠/ ٥٢. ولفظه عندهما: أنا الله أفصل. وذكره بلفظ المصنف أبو حيان في البحر ٤/ ٢٦٦.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٣.

(٣) قال أبو حيان في البحر ٤/ ٢٦٦ بعد أن ذكر أوجُهاً لتفسير الحروف: وهذه الأقوال في الحروف المقطعة لولا أنَّ المفسرين شحنوا بها كتبهم خلفاً عن سلف لضربنا عن ذكرها صفحاً، فإن ذكرها يدلُّ على ما لا ينبغي ذكره من تأويلات الباطنية وأصحاب الألغاز والرموز.

(٤) في الكشاف ٢/ ٦٥.

المبالغةِ ما لا يخفى إنْ قلنا: إنَّه لم يُطلق على البعض، وإذا قلنا بإطلاقه على ذلك، كما في قولهم: ثبت هذا الحكم بالكتاب، فالأمرُ واضح.

ومن الناس من جوَّزَ جعل «كتاب» مبتدأ، والجملة بعدَه خبره، على معنى: كتابٌ أيُّ كتابٍ أنزلَ إليك. ولا يخفى أنَّ الأول أولى؛ لأنَّ هذا خلافُ الأصل، وحذفُ المبتدأ أكثرُ من أن يحصى.

﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: شكٌّ، كما قال ابنُ عباس وغيره. وأصله الضيق، واستعماله في ذلك مجازٌ ـ كما في «الأساس»[1] ـ علاقتُه اللزوم، فإنَّ الشاكَّ يعتريه ضيقُ الصدر، كما أنَّ المتيقِّن يعتريه انشراحُه وانفساحُه، والقرينةُ المانعةُ هو امتناعُ حقيقة الحرج والضيق من الكتاب، وإنْ جوَّزتَها فهو كناية. وعلى التقديرين هو قد صَار حقيقةً عرفيَّةً في ذلك، كما قاله بعض المحققين.

وجوِّزَ أنْ يكون باقياً على حقيقته، لكن في الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، كخوف عدم القبول والتكذيب، فإنَّه ﷺ كان يخافُ قومَه، وتكذيبَهم، وإعراضَهم عنه، وأذاهم له. ويشهدُ لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ الآية [هود:١٢]، وللأوَّل قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧].

وقد يقال: إنَّه كنايةٌ عن الخوف، والخوفُ كما يقعُ على المكروه يقعُ على سببه.

وتوجيهُ النهي إلى الحرج بمعنى الشكِّ[2] ـ مع أنَّ المرادَ نهيُه عليه الصلاة والسلام عن ذلك ـ قيل: إمَّا للمبالغة في تنزيه ساحة الرسول ﷺ عن الشكِّ، فإنَّ النهيَ عن الشيء ممَّا يُوهم إمكانَ صدورِ المنهي عنه عن المنهي، وإمَّا للمبالغةِ في النهي، فإنَّ وقوعَ الشكِّ في صدره عليه الصلاة والسلام سببٌ لاتِّصافه ـ وحاشاه ـ به، والنهيُ عن السبب نهيٌ عن المسبَّب بالطريق البرهانيِّ، ونفيٌ له بالمرَّة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ [المائدة:٢]، وليس هذا من قبيل: لا أرينَّك

---

(١) مادة (حرج).

(٢) في الأصل و(م): الشرك. وهو خطأ. وينظر تفسير أبي السعود ٣/ ٢١٠.

هاهنا، فإنَّ النهيَ هناك واردٌ على المسبَّب، مراداً به النهي عن السببِ، فيكونُ المآل نهيَه عليه الصلاة والسلام عن تعاطي ما يُورثُ الحرجَ، فتأمَّل. اهـ.

والذي ذهبَ إليه بعضُ المحقِّقين أنَّ المرادَ نهيُ المخاطَب عن التعرُّض للحرج بطريق الكناية، وأنَّه من قبيل: لا أرينَّك هاهنا، في ذلك؛ لما أنَّ عدمَ كون الحرج في صدره من لوازم عدم كونه متعرِّضاً للحرج، كما أنَّ عدمَ الرؤية من لوازم عدم الكون هاهنا. فالنَّافي لكونه من قبيل ذلك؛ إنْ أرادَ الفرقَ بينهما باعتبار أنَّ المراد في أحدهما النهيُ عن السبب، والمراد المسبَّب، وفي الآخر بالعكس، فلا ضيرَ فيه، ولهذا عبَّر البعضُ باللزوم دون السببيَّة. وإنْ أرادَ أنَّه ليسَ من الكناية أصلاً، فباطلٌ. نعم جُوِّزَ أنْ يكونَ من المجاز. والمشهورُ أنَّ الداعي لهذا التأويل أنَّ الظاهر يستدعي نهي الحرج عن الكون في الصدر، والحرجُ مما لا يُنهَى. وله وجهٌ وجيهٌ، فليفهم.

والجملةُ على تقدير كونِ الحرج حقيقةً ـ كما يفهمه كلام «الكشاف»[1] ـ كنايةٌ عن عدم المبالاة بالأعداء.

وأيًّا ما كان فالتنوين في «حرج» للتحقير. و«من» متعلِّقةٌ بما عندها، أو بمحذوفٍ وقعَ صفةً له، أي: حرجٌ ما كائنٌ منه، والفاء تحتملُ العطفَ؛ إمَّا على مقدَّرٍ، أي: بلِّغهُ فلا يكنْ في صدرك.. إلخ، وإمَّا على ما قبلَه بتأويلِ الخبر بالإنشاء، أو عكسه، أي: تحقَّق إنزاله من الله تعالى إليك. أو: لا ينبغي لك الحرجُ. وتحتملُ الجواب، كأنَّه قيل: إذا أنزل إليك فلا يكن.. إلخ. وقال الفرَّاء: إنَّها اعتراضيَّة[2].

وقال بعضُ المشايخ: هي لترتيبِ النهي أو الانتهاء على مضمونِ الجملة إنْ كان المراد: لا يكنْ في صدرك شكٌّ مّا في حقِّيَّته، فإنَّه ممَّا يوجبُ انتفاءَ الشكِّ فيما ذكر بالكليَّة، وحصولَ اليقين به قطعاً. ولترتيب ما ذُكِرَ على الإخبار بذلك لا على نفسه، إنْ كان المراد: لا يكنْ فيه شكٌّ في كونهِ كتاباً منزلاً إليك. وللترتيبِ

---

(١) ٢/ ٦٥-٦٦.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٠.

على مضمونِ الجملة، أو على الإخبار به، إذا كانَ المراد: لا يكنْ فيكَ ضيقُ صدرٍ من تبليغه مخافةَ أنْ يكذِّبوك، أو أنْ تُقصِّر في القيام بحقِّه، فإنَّ كلًّا منهما موجبٌ للإقدام على التبليغ وزوال الخوفِ قطعاً، وإنْ كان إيجابُ الثاني بواسطةِ الأول. ولا يَخفى ما في أوسطِ هذه الشقوق من النظر. فتدبَّر.

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب المنزل، والفعل ـ قيل ـ إمَّا منزَّل منزلةَ اللازم، أو أنَّه حُذِفَ مفعولُه لإفادةِ العموم، وقد يقال: إنه حُذِف المفعول لدلالة ما سيأتي عليه.

واللامُ متعلِّقةٌ بـ «أنزل» عند الفرَّاء، وجملةُ النهي معترضةٌ بين العلة ومعلولها، وهو المعنيُّ بما نُقِلَ عنه أنَّه على التقديم والتأخير[1].

قيل: وهذا مما ينبغي التنبيهُ[2] له، فإنَّ المتقدمين يجعلونَ الاعتراضَ على التقديم والتأخير؛ لتخلُّله بينَ أجزاء كلامٍ واحد، وليس مرادهم أنَّ في الكلام قلباً.

ووجهُ التوسيط؛ إمَّا أنَّ الترتيبَ على نفسِ الإنزال، لا على الإنزال للإنذار، وإمَّا رعايةُ الاهتمام، مع ما في ذلك ـ على ما قيل ـ من الإشارة إلى كفاية كلٍّ من الإنزال والإنذار في نفي الحرج، أمَّا كفايةُ الثاني فظاهرةٌ؛ لأنَّ المخوِّفَ لا ينبغي أنْ يخافَ مَنْ يخوفُه؛ ليتمكَّن من الإنذار على ما يجب. وأما كفايةُ الأوَّل فلأنَّ كونَ الكتاب البالغ غايةَ الكمال منزلاً عليه عليه الصلاة والسلام خاصَّةً من بين سائر إخوانه الأنبياء عليهم السلام يقتضي كونَه رحيبَ الصدر غير مبالٍ بالباطل وأهله.

وعن ابن الأنباريِّ أنَّ اللام متعلِّقةٌ بمتعلَّق الخبر، أي: لا يكن الحرجُ مستقرّاً في صدرك لأجل الإنذار.

وقيل: إنَّها متعلِّقةٌ بفعل النهي، وهو الكون؛ بناءً على جواز تعلُّق الجارِّ بـ «كان» الناقصة لدلالتها على الحدثِ على الصحيح.

وقيل: يجوزُ أنْ يتعلَّق بـ «حرج»، على معنى أنَّ الحرجَ للإنذار والضيقَ له لا ينبغي أنْ يكون.

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٠.

(٢) في حاشية الشهاب ٤/١٤٧: التنبه.

وقال العلَّامةُ الثاني: إنَّه معمولٌ للطلب أو المطلوب، أعني: انتفاء الحرج. وهذا أظهرُ، لا للمنهي[1]، أي: الفعلِ الداخل عليه النهي ـ كما قيل ـ لفساد المعنى.

وأطلق الزمخشريُّ[2] تعلقه بالنهي. واعتُرِض بأنَّه لا يتأتَّى على التفسير الأول للحرج؛ لأنَّ تعليلَ النهي عن الشكِّ بما ذُكر من الإنذار والتذكير مع إيهامه لإمكان صدوره عنه ﷺ مشعرٌ بأنَّ المنهيَّ عنه ليسَ بمحذورٍ لذاته، بل لإفضائه إلى فواتِ الإنذار والتذكير، لا أقلَّ من الإيذان بأنَّ ذلك معظمُ غائلته. ولا ريبَ في فساده. وأمَّا على التفسير الثاني، فإنَّما يتأتَّى التعليلُ بالإنذار لا بتذكيرِ المؤمنين، إذ ليس فيه شائبةُ خوفٍ حتى يُجعل غايةً لانتفائه.

وأنت خبيرٌ بأنَّ كونَ المنهيِّ عنه محذوراً لذاته ظاهرٌ ظهورَ نار القِرى ليلاً على عَلَم، فلا يكاد يتوهَّم نقيضُه، والقولُ بأنَّه لا أقلَّ من الإيذان بأنَّ ذلك معظمُ غائلته. لا فسادَ فيه؛ بناءً على ما يقتضيه المقام، وإن كان بعضُ غوائله في نفس الأمر أعظمَ من ذلك، وأنَّ الآيةَ ليست نصّاً في تعليل النهي بالإنذار والتذكير ـ كما سيتَّضحُ لك قريباً إن شاء الله تعالى ـ حتَّى يتأتَّى الاعتراضُ نظراً للتفسير الثاني. سلَّمنا أنَّها نصٌّ، لكنَّا نقول: لم لا يجوز أنْ يكونَ ذلك من قَبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ الآية [الفتح: ١-٢].

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ نصب بإضمار فعله عطفاً على «تنذر»، أي: وتُذكِّرَ المؤمنين تذكيراً. ومنعَ الزمخشريُّ ـ فيما نُقِلَ عنه[3] ـ العطفَ بالنصب على محلِّ «لتنذر»، معلِّلاً بأنَّ المفعولَ له يجبُ أنْ يكونَ فاعلُه وفاعلُ المعلَّلِ واحداً حتى يجوزَ حذفُ اللام منه.

ويمكن ـ كما في «الكشف» ـ أنْ يقال: لا منعَ من أنْ يكون التذكيرُ فعلَ المنزِّل

---

(١) في حاشية الشهاب: لا للمنهي عنه.

(٢) في الكشاف ٢/ ٦٦.

(٣) نقل ذلك عنه الشهاب في الحاشية ٤/ ١٤٧، وينظر غرائب القرآن للنيسابوري ٨/ ٦٩، والكشاف ٢/ ٦٦.

الحقِّ تعالى، إلَّا أنَّه يفوتُ التقابل بين الإنذار والتذكير. نعم يَحتملُ الجرَّ بالعطف على المحلِّ، أي: للإنذارِ والتذكير، ويحتملُ الرفعَ على أنَّه معطوفٌ على «كتاب»، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو ذكرى. والفرقُ بين الوجهين ـ على ما في «الكشف» ـ: أنَّ الأول معناه: أنَّ هذا جامعٌ بين الأمرين؛ كونه كتاباً كاملاً في شأنه بالغاً حدَّ الإعجاز في حسن بيانه، وكونه ذكرى للمؤمنين يذكِّرهم المبدأ والمعاد. والثاني: يفيدُ أنَّ هذا المقيَّد بكونه كتاباً من شأنه كيتَ وكيت هو ذكرى للمؤمنين، ويكونُ من عطفِ الجملة على الجملة، فيفيدُ استقلالَه بكلٍّ من الأمرين، وهذا أولى لفظاً ومعنى.

وتخصيصُ التذكير بالمؤمنين؛ لأنَّهم المنتفعونَ به، أو للإيذانِ باختصاص الإنذار بالكافرين. وتقديمُ الإنذار لأنَّه أهمُّ بحسب المقام.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خطابٌ لكافَّة المكلَّفين. والمراد بالموصول الكتابُ المنزلُ إليه ﷺ كما روي عن قتادة، إلَّا أنَّه وُضع المُظْهَرُ موضع المُضْمَر وجُعل مُنزلاً إليهم لتأكيد وجوب الاتِّباع.

وقيل: المراد به ما يعمُّ الكتاب والسنَّة، فليس من وضعِ المظهر موضع المضمر، وإيثارُه لفائدة التعميم، وتشميمٌ من أسلوب قول الأنماريَّة: هم كالحلقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفاها(١)، وتتميمٌ لشرح الصدر، فإنَّه لمَّا شجَّع أَمَرَ الجميع باتِّباع جميع ما يرسمُه؛ ليكون أدعى لانشراح صدره عليه الصلاة والسلام ورحب ذراعه.

ولا يخفى أنَّ هذا الحملَ بعيدٌ. نعم يعمُّ السنَّةَ بأقسامِها الحكمُ بطريق الدلالة، لا بطريق العبادة.

و«من» متعلِّقةٌ بـ «أنزل» على أنَّها لابتداءِ الغاية مجازاً، أو بمحذوفٍ وقعَ حالاً من الموصول، أو من ضميره في الصِّلة.

---

(١) هو مثلٌ يضرب للقوم يجتمعون ولا يختلفون. والأنمارية هي فاطمة بنت الخُرْشُب، منجبة جاهلية. وقد قالت هذا القول جواباً لمن سألها: أيُّ بنيك أفضل؟ انظر مجمع الأمثال ٢/ ٣٩٧، وخزانة الأدب ٣/ ٣٦٤ (طبعة دار صادر)، والأعلام ٥/ ١٣٠-١٣١.

وفي التعرُّضِ لعنوان الربوبيَّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين مزيدُ لطفٍ بهم، وترغيبٌ لهم في الامتثال بما أُمِروا به، وتأكيدٌ لوجوبه إثرَ تأكيد.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الضميرُ المجرور عائدٌ إلى «ربكم»، والجارُّ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالاً من فاعل فعلِ النهي، أي: ولا تتبعوا متجاوزين ربَّكم الذي أنزلَ إليكم ما يهديكم إلى الحقِّ «أولياءَ» من الشياطين والكهَّان، بأنْ تَقبلوا منهم ما يُلْقونَه إليكم من الأباطيل؛ ليضلُّوكم عن الحقِّ بعد إذ جاءكم، ويحملُوكم على البدعِ والأهواء الزائغة.

ويجوزُ أنْ يكون الجارُّ متعلقاً بمحذوفٍ وقع حالاً من «أولياء» قُدِّم عليه لكونه نكرةً، أي: أولياءَ كائنةً غيرَه تعالى. وأنْ يكونَ متعلِّقاً بالفعل قبلَه، أي: تعدلوا عنه سبحانه إلى غيره.

ولـمَّا كان اتِّباعُ ما أنزلَه سبحانه جلَّ وعلا اتِّباعاً له عزَّ شأنُه، عقَّبَ الأمرَ السابق بهذا النهي.

وقيل: الضميرُ لـ «ما أنزل» على حذفِ مضافٍ في «أولياء» أي: لا تتبعوا من دونِ ما أُنزِل أباطيلَ أولياء، وكأنه قيل: ولا تتبعوا من دونِ دين ربِّكم دينَ أولياء. وذلك التقديرُ؛ لأنَّه لا يَحسُنُ وصفُ المنزَل بكونه دونَهم.

وجُوِّز كونُ الضميرِ للمصدر، أي: لا تتبعوا أولياء اتِّباعاً من دونِ اتِّباعِكم ما أُنزِل إليكم. وفيه بعد.

وقرأ مجاهد: «تبتغوا» بالغين المعجمة، من الابتغاء[1].

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ أي: تذكُّراً قليلاً، أو زماناً قليلاً تذكَّرونَ لا كثيراً، حيث لا تتأثرون بذلك، ولا تعملونَ بموجَبه، وتتركون الحقَّ، وتتبعون غيره. فـ «قليلاً» نعتُ مصدرٍ أو زمانٍ محذوف، أُقيم مقامَه، ونصبُه بالفعل بعده، وقُدِّم عليه للقصر.

و«ما» مزيدةٌ لتأكيد القلَّة؛ لأنَّها تفيدُها في نحو: أكلتُ أكلاً ما، فهي هاهنا قلَّة

(١) القراءات الشاذة ص ٤٢، والبحر المحيط ٤/ ٢٦٧، وزاد نسبتها لمالك بن دينار.

على قِلَّة، والظاهرُ من القِلَّة معناها. وجُوِّزَ أنْ يُراد بها العدمُ، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨].

وأجيزَ أنْ يكون «قليلاً» نعتَ مصدرٍ لـ «تتَّبعوا» أي: اتِّباعاً قليلاً. قيل: ويضعِّفُه أنَّه لا معنى حينئذٍ لقوله سبحانه: «تذكَّرون». وأمَّا النهيُ عن الاتِّباع القليل فلا يضرُّ؛ لأنه يُفهَم منه غيرُه بالطريق البرهاني.

وأنْ يكونَ حالاً من فاعل «لا تتبعوا»، و«ما» مصدريَّةٌ أو موصولةٌ فاعلٌ له، كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧] والنهيُ متوجِّهٌ إلى القيد والمقيَّد جميعاً. واعتُرِض بأنَّه لا طائلَ تحت معناه، وإنْ وُجِّه بما وُجِّه.

وأن يكون «ما» مصدريَّةً أو موصولةً مبتدأ، و«قليلاً» على معنى زماناً قليلاً خبرُه.

وقيل: إنَّ «ما» نافية، و«قليلاً» معمولٌ لما بعده، والكوفيون يجوِّزونَ عملَ ما بعدَ «ما» النافية فيما قبلَها، والمعنى: ما تذكَّرون قليلاً، فكيف تذكرون كثيراً؟ وليس بشيء.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفص: «تَذَكَّرون» بحذفِ إحدى التاءين وذالٍ مخفَّفةٍ. وقرأ ابنُ عامر: «يتذكَّرون» بياءٍ تحتيَّةٍ، ومُثنَّاة فوقيَّة، وذالٍ مخفَّفةٍ[1]، وفي طريقٍ شاذَّةٍ عنه بتاءين فوقيتين[2]. وقرأ الباقون بتاءٍ فوقيَّةٍ وذالٍ مُشدَّدةٍ على إدغام التاء المهموسةِ في الذال المجهورة.

والجملةُ ـ على ما قاله غيرُ واحد ـ اعتراضٌ تذييليٌّ مسوقٌ لتقبيحِ حال المخاطبين. والالتفاتُ ـ على القراءة المشهورة عن ابن عامر ـ للإيذانِ باقتضاءِ سوء حالهم في عدم الامتثال بالأمر والنهي صرفَ الخطاب عنهم، وحكاية جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة، ولا حجَّةَ في الآية لنفاةِ القياس كما لا يخفى.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ شروعٌ في تذكيرهم وإنذارهم ما نَزَلَ بمن قبلَهم من العذاب بسبب إعراضهم عن دين الله تعالى وإصرارهم على أباطيل أوليائهم.

---

(١) التيسير ص ١٠٨-١٠٩، والنشر ٢/ ٢٦٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٢.

و«كم» خبريَّةٌ للتكثير في محلِّ رفعٍ على الابتداء؛ والجملةُ بعدها خبرُها، و«من» سيفُ خطيب، و«قريةٍ» تمييز.

ويجوز أنْ يكون محلُّ «كم»، نصباً على الاشتغال، وضميرُ «أهلكناها» راجعٌ إلى معنى «كم» فإنَّ المعنى: قرًى كثيرة أهلكناها.

والمرادُ بإهلاكها: إرادةُ إهلاكها، مجازاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية [المائدة:٦] فلا إشكالَ في التعقيب الذي تُفهمه الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا، واعترَضَ هذا الجوابَ بعضُ المدقِّقين بأنَّ فيه إشكالاً أصوليّاً، وهو أنَّ الإرادة إنْ كانت باعتبارِ تعلُّقِها التنجيزيِّ، فمجيءُ البأس مقارنٌ لها، لا متعقِّبٌ لها وبعدها، وإنْ لم يُردْ ذلك، فهي قديمةٌ، فإنْ كان البأسُ يعقبها لزِمَ قِدَمُ العالم، وإنْ تأخَّر عنها لزمَ العطفُ بـ «ثمَّ».

وأجيبَ بأنَّ المرادَ التعلُّق التنجيزيُّ قبل الوقوع، أي: قصدنا إهلاكها. فتدبَّر.

وقيل: إنَّ المرادَ بالإهلاك الخذلانُ وعدمُ التوفيق، فهو استعارةٌ، أو مِنْ إطلاق المسبَّبِ على السبب. وإلى هذا يُشيرُ كلامُ ابن عطيَّة[1]. وتُعقِّبَ بأنَّه اعتزاليٌّ، وأنَّ الصوابَ أنْ يقال: معناه: خلقنا في أهلِها الفسقَ والمخالفة، فجاءها بأسُنا.

وقيل: المراد: حَكَمْنَا بإهلاكها فجاءها.

وقيل: الفاء تفسيريَّة، نحو: توضَّأ فغسلَ وجهه. إلخ.

وقيل: إنَّ الفاء للترتيب الذكريِّ.

وقال ابنُ عصفور: إنَّ المراد: أهلكناها هلاكاً من غير استئصال، فجاءها هلاكُ الاستئصال.

وقال الفرَّاء[2]: الفاء بمعنى الواو، أو المراد[3]: فظهرَ مجيءُ بأسنا واشتهر.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٤.

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٣٧٢.

(٣) في الأصل: والمراد، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في حاشية الشهاب ٤/ ١٤٨.

وقيل: الكلامُ على القلب، وفيه تقديمٌ وتأخير، أي: أهلكناها ﴿بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ فجاءها بأسُنا، فالإهلاكُ في الدنيا، ومجيءُ البأس في الآخرة، فيشمل الكلامُ عذابَ الدارين. ويأباه ما بعدُ إباءً ظاهراً، فإنَّه يدلُّ على أنَّ العذابَ في الدنيا. وقَدَّرَ غيرُ واحدٍ في النظم الكريم مضافاً، أي: فجاء أهلها. وجوَّز بعضُهم الحملَ على الاستخدام[(١)]؛ لأنَّ القريةَ تطلقُ على أهلها مجازاً. ومن الناس من قدَّر في الأوَّل المضاف أيضاً، مع أنَّ القريةَ تتَّصفُ بالهلاك، وهو الخراب.

والبياتُ في الأصل مصدرُ باتَ يبيتُ بيتاً وبيتةً وبياتاً وبيتوتةً، وذكر الراغبُ: أنَّ البياتَ وكذا التبييتَ: قصدُ العدوِّ ليلاً[(٢)]. وقال الليث: البيتوتة الدخول في الليل. ونصبه على الحال بتأويله ببائِتين. وجُوِّزَ أنْ يكون على الظرفيَّة، وهو خلافُ الظاهر. واحتمالُ النصب على المفعوليَّة له - كما زعم أبو البقاء[(٣)] - ممَّا لا يُلتفتُ إليه.

و«أو» للتنويع، وما بعدَها عطف على الحال، وهو في موضع الحال أيضاً، وأضمِرَت فيه الواو - كما قال ابنُ الأنباريّ - لوضوحِ المعنى، ومن أجل أنَّ «أو» حرف عطف والواو كذلك، فاستثقلوا الجمعَ بين حرفين من حروف العطف، فحَذفوا الثاني، ونُقِل ذلك عن الفرَّاء أيضاً[(٤)].

وتُعقِّبَ بأنَّ واو الحال مغايرةٌ لواو العطف بكلِّ حال، وهي قِسْمٌ من أقسام الواو كواو القَسَم، بدليل أنَّها تقعُ حيث لا يمكن أنْ يكون ما قبلَها حالاً، وكونُها للعطف يقتضي أنْ لا تقعَ إلَّا حيثُ يكون ما قبلَها حالاً حتى تعطِفَ حالاً على حال.

وقال ابن المنيِّر[(٥)]: إنَّ هذه الواو لابدَّ أن تمتازَ عن واو العطف بمزيَّة، ألَا تراها تصحبُ الجملةَ الاسميَّةَ بعد الفعليَّة، ولو كانت عاطفةً مجرَّدةً لاستقبحَ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (بيت).

(٢) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحدُ معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٣) في الإملاء ٢/ ٦٦٢.

(٤) معاني القرآن ١/ ٣٧٢.

(٥) في الانتصاف ٢/ ٦٨-٦٩.

توسُّطُها بين المتغايرين، أو لكان الأفصح خلافه، وحيث رأيناها تتوسَّطُ والكلام هو الأفصح أو المتعيِّن، علمنَا امتيازَها عن واو العطف، وإذا ثبتَ ذلك فلا غروَ في اجتماعهما، وإنْ كان فيها معنى العطف مضافاً إلى تلك الخاصيَّة، فإمَّا أنْ تُسلَبه حينئذٍ لغناء[1] العاطفة عنها، أو تستمرَّ عليه وتجامع «أو» كما تجامع الواو «لكنْ» في الفصيح لما فيها من زيادة معنى الاستدراك، وعلى هذا فالاجتماع ممكنٌ بلا كراهية، فلو قلت: سبِّح الله تعالى وأنتَ راكعٌ، أو وأنت ساجدٌ، لكانَ فصيحاً لا خبثَ فيه ولا كراهة، خلافاً لأبي حيَّان[2] مدَّعياً أنَّ النحويين نصُّوا على أنَّ الجملةَ الحاليَّة إذا دخلَ عليها حرفُ عطفٍ امتنعَ دخول واو الحال عليها، للمشابهة اللفظيَّة، فالمثال على هذا غيرُ صحيح.

وظاهرُ كلام الزمخشريِّ[3] أنَّ هذه الواو واوُ العطف في الأصل، ثمَّ استعيرتْ للحال لما فيها من الربط، فقد خرجت عن العطف واستُعمِلت لمعنًى آخر، لكنَّها أعطيت حكمَ أصلها في امتناع مجامعتها لعاطفٍ آخر، وعلى هذا ينبغي أنْ يُحمَل كلام ذينك الإمامين، وهذا مذهبٌ لهما ولمن اتَّبعهما.

وقال بعضُ النحاة: إنَّ الضمير هنا مُغْنٍ عن إضمار الواو، والاكتفاءُ به غير شاذٍّ كما قيل، بل هو أكثرُ من رمل يبرين[4] ومها[5] فلسطين. وقد نقلَ عن الزمخشريّ الرجوع إلى هذا القول[6].

والمسألةُ خلافيّة وفيها تفصيل، ففي «البديع»[7]: الاسميَّةُ الحاليَّةُ لا تخلو من أنْ تكونَ من سبب ذي الحال أو أجنبيةً، فإنْ كانت من سببه لزمَها العائد والواو، تقول: جاء زيدٌ وأبوه منطلقٌ، وخرجَ عمروٌ ويده على رأسه. إلَّا ما شذَّ من قولهم:

---

(١) في الانتصاف: لإغناء.
(٢) في البحر المحيط ٤/ ٢٦٩، وانتهى كلام صاحب الانتصاف عند قوله: ولا كراهة.
(٣) في الكشاف ٢/ ٦٧.
(٤) هو اسم قرية كثيرة النخل والعيون العذبة بحذاء الأحساء من بني سعد، وهناك الرمل الموصوف بالكثرة. معجم البلدان ١/ ٧١، ٥/ ٤٢٧.
(٥) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: وتيهاء، كما في تفسير القرطبي ١٢/ ٣٥٢.
(٦) البحر المحيط ٤/ ٢٦٩.
(٧) البديع في علم العربية لابن الأثير ١/ ١٩٥-١٩٦، والكلام من حاشية الشهاب ٤/ ١٤٩.

كلَّمتُه فوه إلى فيَّ. وإن كانت أجنبيةً لزمتها الواو، ونَابت عن العائد. وقد يُجمع بينهما نحو: قدمَ عمروٌ وبشرٌ قام إليه. وقد جاءت بلا واوٍ ولا ضمير كما في قوله(١):

ثم انتصبنا(٢) جبالُ الصُّفد(٣) مُعْرِضةٌ عن اليسارِ وعن أيماننا جُدَدُ(٤)

فإنَّ: جبالُ الصفد معرضة، حالٌ بلا واو ولا ضميرٍ.

وعن الشيخ عبد القاهر(٥) جعلُ ذلك على قسمين؛ ما يلزمه الواو مطلقاً، وهو ما إذا صُدِّرَ بضميرِ ذي الحال، نحو: جاء زيدٌ وهو يسرع؛ لأنَّ إعادةَ ضميره تقتضي أنَّ الجملةَ مستأنفةٌ؛ لئلَّا تلغو الإعادة، فإذا لم يقصد الاستئناف فلا بدَّ من الواو، وما عداه تلزمُه الواو في الفصيح، إلَّا على طريق التشبيه بالمفرد والتأويل، فإنَّه حينئذٍ قد تتركُ الواو جوازاً.

وقيل ـ ولم يُسلَّم ـ: إنَّ الضابطَ في ذلك أنَّه إذا كان المبتدأ ضميرَ ذي الحال تجبُ الواو، وإلَّا فإنْ كان الضميرُ فيما صدِّر به الجملة، سواءٌ كان مبتدأ نحو: فوه إلى فيَّ، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة:٣٦]، أو خبراً نحو:

وجدتَهُ حاضراه الجودُ والكرم(٦)

فلا يحكم بضعفه؛ لأنَّ(٧) الرابطَ في أول الجملة، وإلَّا فضعيفٌ قليل.

---

(١) هو غاسل بن غُزَيَّة الهذلي، كما في شرح أشعار الهذليين ٢/ ٨٠٧، والتمام في تفسير أشعار هذيل ص١٢١، ومعجم البلدان ٢/ ١١٣، ٣/ ٤١٣. وجاء اسم الشاعر في معجم ما استعجم ٢/ ٣٧٠، ٣/ ٨٣٦ ـ والبيت فيه ـ وفي تاج العروس (عسل): عاسل، بالعين المهملة.

(٢) جاء في مصادر التخريج عدا البديع والحاشية : انصببنا.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وحاشية الشهاب. وفي البديع: الصعد. والذي في مصادر التخريج: الصفر. وجبال الصفر موضع من تهامة.

(٤) قال البكري في معجم ما استعجم ٢/ ٣٧٠: بضم أوله، وفتح ثانيه، بعده دال مثلها. ويقال أيضاً: ذو جدد، موضع من تهامة. .

(٥) في دلائل الإعجاز ص ٢٠٢-٢٠٣، والكلام من حاشية الشهاب ٤/ ١٤٩.

(٦) هو عجز بيت للأخطل، وهو في ديوانه ص٣٩، وتمامه فيه:

إذا أتيت أبا مروان تسألـه وجدتَه حاضراه الجود والحسبُ

(٧) في (م): لكونه. وفي حاشية الشهاب ٤/ ١٥٠ والكلام منه: لكون.

وقال ابن مالك[١] وتبعه ابن هشام ونُقِل عن السكاكيّ: أنَّه إذا كانت الجملةُ الاسمية مؤكِّدةً لزمَ الضميرُ وتركُ الواو، نحو: هو الحقُّ لا شبهةَ فيه، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢][٢].

واختارَ ابن المنير أنَّ المصحِّحَ لوقوع هذه الجملةِ هنا حالاً من غير واو هو العاطفُ، إذ يقتضي مشاركة الجملةِ الثانية لما عُطِفت عليه في الحاليَّة، فيستغنَى عن واو الحال، كما أنَّك تعطفُ على المقسَم به، فتدخلُه في حكم القسم من غير واو، نحو ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الغاشية: ١-٢] وقوله سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٥-١٧] ويستغنَى عن تِكرار حرف القسم بنيابة العاطف منابَه. فليفهم[٣].

وأيًّاما كان فحاصلُ المعنى: أتاهم عذابُنا تارةً ليلاً، كقوم لوط عليه السلام، وتارةً وقتَ القيلولة، كقوم شعيب عليه السلام.

والقيلولة: مِن قال يَقيلُ، فهو قائلٌ، ويقال: قَيْلاً وقائِلةً ومَقالاً[٤] ومَقِيلاً، وهي - كما في «القاموس»[٥] - نصفُ النهار، أو هي الراحة والدَّعةُ نصفَ النهار وإن لم يكن معها نومٌ، كما في «النهاية»[٦]. واستُدِلَّ له بقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] إذ الجنَّةُ لا نوم فيها. وقال الليث: هي نومةُ نصف النهار، ودُفِعَ الاستدلالُ بأنَّ ذلك مجاز.

وإنَّما خُصَّ إنزالُ العذاب عليهم في هذين الوقتين؛ لما أنَّ نزولَ المكروه عند الغفلة والدَّعَة أفظعُ، وحكايتَه للسامعين أزجرُ وأردعُ عن الاغترار بأسبابِ الأمن والراحة.

---

(١) في شرحه على ألفيته، كما صرح بذلك الشهاب الخفاجي في الحاشية ٤/ ١٥٠. والكلام أيضاً في شرح ولده على الألفية ص١٣٦.
(٢) أوضح المسالك ص٣٣٧، ومفتاح العلوم ص٢٧٤.
(٣) الانتصاف ٢/ ٦٩.
(٤) في (م): ميقالاً.
(٥) مادة (قيل).
(٦) مادة (قيل).

وفي التعبير في الحال الأولى بالمصدر، وجعلها عينَ البيات، وفي الحال الثانية بالجملةِ الاسميَّة المفيدةِ في المشهور للثبوت، مع تقديم المسند إليه المفيدِ للتقوِّي: ما لا يَخفى من المبالغة. وكذا في وصف الكلِّ بوصفِ البيات والقيلولةِ مع أنَّ بعضَ المهلَكين بمعزلٍ منهما: إيذانٌ بكمالِ الأمن والغفلة، وفي هذا ذمٌّ لهم بالغفلة عمَّا هم بصدده. وإنَّما خُولِف بين العبارتين ـ على ما قيل ـ وبُنيتِ الحالُ الثانية على تقوِّي الحكم والدلالة على قوَّة أمرهم فيما أُسندَ إليهم؛ لأنَّ القَيلولةَ أظهرُ في إرادة الدَّعة وخفضِ العيش، فإنَّها من دأبِ المترفين والمتنعِّمين دونَ من اعتادَ الكدحَ والتعب، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم أربابُ أشرٍ وبطر.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: دعاؤهم واستغاثتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ [يونس: ١٠] وقولِ بعض العربِ فيما حكاه الخليل وسيبويه[١]: اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين. أو: ادِّعاؤهم، كما هو المشهور في معنى الدعوى.

﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ عذابُنا وشاهدوا أَمَاراته ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ جميعاً: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ أي: إلَّا اعترافَهم بظلمهم فيما كانوا عليه، وشهادتَهم ببطلانه تحسُّراً وندامةً وطمعاً في الخلاص، وهيهات ولات حينَ نجاة. وفي جعل هذا الاعتراف عينَ ذلك مبالغةٌ، على حدِّ قوله:

تَـحِـيَّـةُ بَـيْـنِـهِـم ضَـرْبٌ وَجِـيـعُ[٢]

و«دعواهم» يجوز فيه ـ كما قال أبو البقاء[٣] ـ أنْ يكون اسمَ كان، والخبرُ: «إلَّا أنْ قالوا»، وأنْ يكونَ هو الخبر، و«إلَّا أن قالوا» الاسم.

ورُجِّحَ الثاني بأنَّ جعلَ الأعرفِ اسماً هو المعروفُ في كلامهم، والمصدرُ هنا يشبهُ المضمر؛ لأنَّه لا يوصف، وهو أعرفُ من المضاف.

وأوردَ عليه أنَّ الاسمَ والخبر إذا كانا معرفتين، وإعرابُهما غير ظاهر، لا يجوزُ تقديمُ أحدهما على الآخر، فتعيَّن الأول.

---

(١) في الكتاب ٤/ ٤٠.

(٢) هو لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٥/ ٦٤.

(٣) في الإملاء ١/ ٢٦٨ (مصورة دار الكتب العلمية).

وأجيبَ عنه بأنَّ ذلك عند عدم القرينة، والقرينةُ هنا كونُ الثاني أعرفَ، وتركُ التأنيث، وأيضاً ذاك إذا لم يكن حصرٌ، فإنْ كان يلاحظُ ما يقتضيه.

ورُجِّح في «الكشف» الثاني بأنَّه الوجهُ المطابق لنظائره في القرآن. والمعنى عليه أشدُّ ملاءمةً؛ لأنَّ الفرض أنَّ قولاً آخر لم يقع هذا الموقع، فالمقصودُ الحكم على القول المخصوص بأنَّه هو الدعاء، وزِيدَ تأكيداً بإدخال أداة القصر، وليس من التقديم في شيء؛ لأنَّ حقَّ المقصور عليه التأخيرُ أبداً. فتأمَّل وتذكَّر.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ بيانٌ ـ كما قال الطبرسي(١) ـ لعذابهم الأخرويِّ إثرَ بيان عذابهم الدنيويّ، خلا أنَّه تعرَّض ـ كما قيل ـ لبيانِ مبادئ أحوال المكلَّفين جميعاً؛ لكونه أدخلَ في التهويل.

والفاء عند البعض لترتيب الأحوال الأخرويَّة على الدنيويَّة ذكراً حسبَ ترتُّبِها عليها وجوداً.

وذكر العلَّامةُ الطيبيّ أن الفاء فصيحةٌ على معنى: فما كان دعواهم في الدنيا إذْ جاءهم بأسنا إلَّا أنْ قالوا، فقطعنَا دابرَهم، ثمَّ لنحشرنَّهم فلنسألنَّهم. ووُضِعَ ـ على هذا ـ الظاهرُ موضِعَ الضمير لمزيد التقرير.

وقال في «الكشف»: لعلَّ الأوجهَ أن يُجعل هذا متعلقاً بقوله تعالى: «اتبعوا»، و«لا تتبعوا»، ويُجعل قولُه سبحانه: «وكم من قرية» إلخ معترضاً؛ حثّاً على الاعتبار بحال السابقين، ليتشمَّروا في الاتباع. اهـ.

والأمرُ عند من جعل الكلام السابق على التقديم والتأخير، وادَّعى أنَّ مجيءَ البأس في الآخرة: سهلٌ كما لا يخفى، أي: لنسألنَّ الأممَ قاطبةً أو هؤلاء قائلين: ماذا أجبتم المرسلين؟

﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ ماذا أجيبوا، والمرادُ من هذا السؤال توبيخُ الكفرة وتقريعهم.

---

(١) في مجمع البيان ٨/ ١٣.

والمنفيُّ في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ[1] لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] سؤالُ الاستعلام، فلا منافاةَ بين الآيتين. وجمعَ آخرون بينهما بأنَّ للمثبَت موقفاً وللمنفيِّ آخر.

وقال الإمام: إنَّهم لا يُسألون عن الأعمال، أي: ما فعلتم؟ ولكن يُسألون عن الدواعي التي دَعتهم إلى الأعمال، والصوارفِ التي صرَفتهم عنها، أي: لِمَ كان كذا[2]؟

وقيل: معنى ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩]: لا يعاقبُ بذنبه غيرُه.

وقيل: المرادُ من «الذين أرسل إليهم»: الأنبياء، ومن «المرسلين»: الملائكة الذين بلَّغوهم رسالات ربِّهم. وروي ذلك عن فرقد[3]، وهو كما ترى.

وقيل: لا حاجة إلى التوفيق، فإنَّ المنفيَّ هو السؤال عن الذنب لا مطلق السؤال. ورُدَّ بأنَّ عدمَ قبول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ذنبٌ، وأيُّ ذنبٍ، فسؤالُهم عنه ينافيه. وفيه نظر.

وتخصيصُ سؤال المرسلين عليهم السلام بما ذكرنا هو الذي يشهدُ به الأخبار، وتدلُّ عليه الآثار، وفي القرآن ما يؤيِّد ذلك، فقد قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩]. وتخصيصُ سؤال الذين أرسِل إليهم بما تقدَّم هو الذي جَرى عليه جماعةٌ من المفسرين.

وأخرجَ ابن أبي حاتم عن سفيان الثوريِّ أنَّه يقال للذين أرسل إليهم: هل بَلَّغكم الرسل؟ ويقال: للمرسلين: ماذا ردُّوا عليكم؟[4].

وأخرج أيضاً عن القاسمِ أبي عبد الرحمن أنَّه تلا هذه الآية فقال: يُسأل العبدُ يوم القيامة عن أربع خصال، يقول ربك: ألم أجعل لك جسداً، ففيم أبليته؟

---

(١) في الأصل و(م): يوم.
(٢) تفسير الرازي ١٤/ ٢٢.
(٣) هو فرقد السَّبَخي، والأثر أخرجه ابن أبي حاتم ٥/١٤٣٩- ١٤٤٠.

ألم أجعل لك علماً، ففيم عملتَ بما علمت؟ ألم أجعل لك مالاً، ففيم أنفقته، في طاعتي أم في معصيتي؟ ألم أجعل لك عمراً، ففيمَ أفنيته؟[(١)].

وأخرج هو وغيرُه عن طاوس أنَّه قرأ ذلك، فقال: الإمام يُسأل عن الناس، والرجل يُسألُ عن أهله، والمرأةُ تُسألُ عن بيتِ زوجها، والعبدُ يُسأل عن مالِ سيِّده[(٢)].

ولعلَّ الظاهر أنَّ سؤالَ كلٍّ من المرسلِ إليهم والمرسلين هنا عن أمرٍ يتعلَّقُ بصاحبه، ولا يأبى هذا أنَّ المكلفين يُسألون عن أمورٍ أُخر، والمواقفُ يومَ القيامة شتَّى، ويَسأل السيِّد ذو الجلال عبادَه فيها عن مقاصدَ عديدة، فطوبى لمن أخذَ بعضُده السعد فأجابَ بما ينجيه.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ قيل: أي: على الرسل حين يَكِلُون الأمرَ إلى علمه تعالى، ويقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١٠٩]، أو: عليهم وعلى المرسَل إليهم جميعاً جميعَ أحوالهم. وعن ابن عباس أنَّه ينطقُ عليهم كتابُ أعمالهم.

﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: عالمين بظواهرهم وبواطنهم. أو: بمعلومنا منهم. والباءُ على الأول للملابسة، والجارُّ والمجرور حالٌ من فاعل «نَقصُّ»، وعلى الثاني الباءُ متعلِّقٌ بـ «نَقُصّ».

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ عنهم في حالٍ من الأحوال، والمراد: الإحاطةُ التامَّةُ بأحوالهم وأفعالهم بحيثُ لا يشذُّ منها شيءٌ عن علمه سبحانه.

والجملةُ إمَّا حالٌ أو استئنافٌ لتأكيدِ ما قبلَه.

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي: وزنُ الأعمال، والتمييزُ بين الراجح منها والخفيف، والجيِّد والرديء. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفِ خبرِه. وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفتُه، أي: والوزنُ الحقُّ ثابتٌ يومَ إذ يكون السؤالُ والقصُّ، واختارَ هذا بعضٌ من المعربين.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥/١٤٣٩-١٤٤٠ (٨٢١٦)، (٨٢١٩).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٥/١٤٣٩ (٨٢١٤).
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/١٤٣٩ (٨٢١٧).

وقيل: الظاهرُ أنَّ «الحق» خبر، و«يومئذٍ» ظرف للوزن؛ لئلَّا يقعَ الفصلُ بين الصفة والموصوف.

ولعلَّ وجهَ عدم اختيار هذا أنَّ فيه إعمالَ المصدر المعرَّف، وهو قليل.

وفي «الكشف»: ليس المعنى على أنَّ الوزنَ هو الحقُّ، بل أنَّ الوزنَّ الحقَّ يكونُ يومئذٍ، ألا يرى إلى قوله سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وذكر الأصفهانيُّ في «شرح اللمع»[١] لابن جنِّي أنَّ «الحق» بدلٌ من الضمير المستترِ في الظرف. وهو وجهٌ حسنٌ، إلَّا أنَّ الأولَ رجَّحَ جانبَ المعنى. ولم يُبال بالفصل بالخبر؛ لاتِّحاده من وجهٍ بالمبتدأ، لا سيَّما والظرفُ يتوسَّعُ فيه.

وجَوَّزَ أبو البقاء[٢] أنْ يكونَ «الحق» خبرَ مبتدأ محذوف، كأنَّه قيل: ما ذلك الوزن؟ فقيل: هو الحق، أي: العدل السويّ. وأنْ يكون «الوزن» خبر مبتدأ محذوفٍ أيضاً، أي: هذا الوزن. وهو كما ترى.

وقرئ: «القسط»[٣].

والوزنُ كما قال الراغب[٤]: معرفةُ قَدْرِ الشيء، يقال: وَزَنْتُه وزناً وزِنَةً، والمتعارفُ فيه عند العامة ما يُقَدَّرُ بالقسطاس والقبَّان.

واختلف في كيفيته يومَ القيامة، والجمهور ـ كما قال القاضي ـ على أنَّ صحائفَ الأعمال هي التي توزنُ بميزانٍ له لسانٌ وكفَّتان؛ لينظر إليه الخلائق، إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، كما يُسألون عن أعمالِهم فتعترفُ بها ألسنتهم وجوارحهم[٥]. ولا تَعرُّض لهم لماهيةِ هاتيك الصحائف، والله تعالى أعلم بحقيقتها.

---

(١) ١/ ٣٠١. والأصفهاني هو علي بن الحسين بن علي الضرير، النحوي، أبو الحسن الباقولي، المعروف بالجامع. انظر معجم الأدباء ٣/ ١٦٤ وما بعدها.

(٢) في الإملاء ٢/ ٦٦٢.

(٣) أوردها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٧٦، وقرأ بها جعدة بن هبيرة كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١١٣، وعزاه للبغوي في معجمه.

(٤) في المفردات (وزن).

(٥) تفسير البيضاوي ٣/ ٣.

ويؤيِّد ذلك ما أخرجَه أحمد والترمذيُّ وابن ماجه والحاكم وصحَّحه والبيهقيُّ وغيرُهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «يصاحُ برجلٍ من أمَّتي على رؤوسِ الخلائق يوم القيامة، فينشرُ له تسعةٌ وتسعون سجلًّا، كلُّ سجلٍّ منها مدُّ البصر، فيقول سبحانه: أتنكرُ من هذا شيئاً؟ أظلمكَ كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربّ، فيقول سبحانه: أَفَلَكَ عذرٌ أو حسنةٌ؟ فيهابُ الرجل، فيقول: لا يا ربّ، فيقول جلَّ شأنه: بلى إنَّ لك عندنا حسنةً، وإنَّه لا ظلمَ عليك اليوم، فتُخْرَجُ له بطاقةٌ فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله. فيقول: يا ربّ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقال: إنَّك لا تُظْلَم. فتوضع السجلات في كفَّةٍ والبطاقةُ في كفَّةٍ، فطاشت السجلَّات، وثَقُلَت البطاقة، ولا يَثْقُلُ مع اسم الله تعالى شيءٌ»(١).

وهذه الشهادة ـ على ما قاله القرطبي(٢) نقلاً عن الحكيم الترمذي ـ ليست شهادةَ التوحيد؛ لأنَّ من شأن الميزان أنْ يوضعَ في إحدى كفتيه شيءٌ وفي الأخرى ضدُّه، فتوضع الحسناتُ في كفَّةٍ، والسيئاتُ في كفَّةٍ، ومن المستحيل أنْ يؤتَى لعبدٍ واحدٍ بكفرٍ وإيمانٍ معاً، فيستحيلُ أنْ توضعَ شهادةُ التوحيد في الميزان، أمَّا بعد الإيمان فإنَّ النطقَ بهذه الكلمة الطيبة حسنةٌ، فتوضَعُ في الميزان كسائر الحسنات. وأيَّدَ ذلكَ بقوله جلَّ وعلا في الحديث: «إنَّ لك عندنا حسنة» دونَ أن يقول سبحانه: إيماناً. وجَوَّزَ أنْ يكونَ المرادُ هذه الكلمة إذا كانت آخرَ كلامه في الدنيا.

وجَوَّزَ غيرُه أنْ تكون كلمةَ التوحيد، ومَنَعَ لزوم وضع الضِّدِّ في الكفَّة الأخرى ليلزم المحال. فتدبَّر.

وجاء في خبرٍ آخر أخرجه ابنُ أبي الدنيا والنميري في كتاب «الأعلام» عن عبد الله أيضاً قال: إنَّ لآدم عليه السلام من الله عزَّ وجلَّ موقفاً في فُسُحِ من العرش، عليه ثوبان أخضران كأنَّه نخلةٌ سحوق، يَنظرُ إلى من يُنطلَق به من ولده إلى

---

(١) مسند أحمد (٦٩٩٤)، وسنن الترمذي (٢٦٣٩)، وسنن ابن ماجه (٤٣٠٠)، ومستدرك الحاكم ١/ ٥٢٩، وشعب الإيمان للبيهقي (٢٨٣).

(٢) في التذكرة ١/ ٣١٦.

الجنَّة، ومن يُنطلَق به إلى النَّار، فبينا آدمُ على ذلك إذ نظرَ إلى رجلٍ من أمَّة محمَّدٍ ﷺ يُنطلَق به إلى النار، فينادي آدمُ عليه السلام: يا أحمد يا أحمد، فيقول عليه الصلاة والسلام: لبَّيك يا أبا البَشَر. فيقول: هذا رجلٌ من أمَّتك يُنطلَق به إلى النَّار. قال ﷺ: فأشدُّ المئزرَ، وأسرعُ في إِثْرِ الملائكة، فأقول: يا رسل ربِّي قفوا، فيقولون: نحنُ الغلاظُ الشِّدادُ الذين لا نعصي الله تعالى ما أمرنا ونفعل ما نؤمر، فإذا أيسَ النبيُّ ﷺ قبضَ على لحيته بيده اليسرى، واستقبلَ العرشَ بوجهه، فيقول: يا رب قد وعدتني أن لا تخزيني في أمَّتي، فيأتي النداءُ من قبل العرش: أطيعوا محمداً، وردُّوا هذا العبدَ إلى المقام، فيخرجُ ﷺ بطاقةً بيضاءَ كالأَنْمَلَة، فيلقيها في كفَّةِ الميزان اليمنى، وهو يقول: بسم الله، فترجحُ الحسناتُ على السيئات، فينادي المنادي: سعدَ وسعدَ جدُّه وثقلتْ موازينه، انطلقوا به إلى الجنَّة، فيقول: يا رسل ربِّي، قفوا حتى أسألَ هذا العبدَ الكريم على ربِّه، فيقول: بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهكَ وأحسنَ خلقك، من أنت؟ فقد أقلتني عثرتي ورحمتَ عبرتي، فيقول عليه الصلاة والسلام: أنا نبيُّك محمد، وهذه صلاتُك التي كنتَ تصلِّي عليَّ، وفيتُكَها أحوجَ ما تكون إليها[(١)]. اهـ.

ولعلَّ فعل مثل هذا ـ إذا صحَّ الخبر ـ مبالغةٌ في إظهار كرامة النبيِّ ﷺ على ربِّه عزَّ وجلَّ بين الأوَّلين والآخرين.

وقيل: توزنُ الأشخاص، واحتجُّوا له بما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ: «إنه ليأتي العظيمُ السمين يومَ القيامة لا يزنُ عند الله تعالى جناحَ بعوضةٍ»[(٢)].

ولا أدري على هذا ما يوضعُ في الكفة الأخرى من الميزان إذا وضعَ المذنبُ في أحدهما، وَضْعُ شخصٍ في مقابلة شخصٍ لا أراه إلَّا كما ترى، والخبر ليس نصًّا في الدعوى كما لا يخفى.

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٧١، وهو في حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (٧٩). وفي إسناده عبد الله بن واقد الحراني، وهو متروك كما في التقريب.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥) مرفوعاً.

وقيل: إنَّ هذه الأعمالَ الظاهرة في هذه النشأة بصورٍ عَرَضيَّةٍ تظهرُ في النشأة الأخرى بصورٍ جوهريَّةٍ مناسبةٍ لها في الحسن والقبح، وروي هذا عن ابن عباس ﵄ وصحَّحه غيرُ واحد، وقال: إنَّ عليه الاعتقاد، وفي الآثارِ ما يؤيِّدُه، فقد أخرجَ ابنُ عبد البرِّ عن إبراهيم النخعي قال: يُجاء بعمل الرجل فيوضعُ بكفَّة ميزانه يومَ القيامة فيخف، فيُجاء بشيءٍ أمثال الغمام، فيوضعُ في كفَّة ميزانه، فيرجحه، فيقال له: أتدري ما هذا؟ فيقول: لا، فيقال له: هذا فضلُ العلم الذي كنت تعلِّمه الناس[١]. وأخرج ابنُ المبارك[٢] عن حماد بنِ أبي سليمان بمعناه.

وقيل: الوزنُ عبارةٌ عن القضاء السويِّ والحكم العادل. واستعمال لفظ الوزن في هذا المعنى شائعٌ في اللغة والعرف بطريق الكناية، وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك، وإليه ذهبَ المعتزلة، إلَّا أنَّ منهم من جوَّزَ الوزنَ بالمعنى المتعارف عقلاً، وإنْ لم يقض بثبوتِه، كالعلَّاف وبشر بن المعتمر[٣]. ومنهم من أحالَه؛ لأنَّ الأعمالَ أعراضٌ، وهي ممَّا لا تبقى، وممَّا لا يمكنُ إعادتها. سلَّمنا بقاءَها أو إمكانَ إعادتها، لكنَّها أعراضٌ، والأعراض يمتنعُ وزنها، إذ لا توصَفُ بثقلٍ ولا خِفَّة. سلَّمنا إمكانَ وزنها، لكن لا فائدةَ في ذلك، إذ المقصودُ إنَّما هو العلمُ بتفاوتِ الأعمال، والله تعالى عالمٌ بذلك، وما لا فائدةَ فيه ففعلُه قبيحٌ، والربُّ تعالى منزَّهٌ عن فعل القبيح. وجوابهُ يعلَم ممَّا قدَّمنا.

وفسَّر هؤلاء الميزان بالعدل والإنصاف. واعترضَ الآمديُّ[٤] على ذلك بأنَّ الميزانَ موصوفٌ بالثقل والخفَّةِ، والعدلُ والإنصاف لا يوصفان بذلك، وفي الأخبار ما هو صريحٌ في أنَّ الميزانَ جسمانيٌّ، فقد أخرج الحاكم وصحَّحه[٥] عن سلمان عن النبيِّ ﷺ قال: «يوضعُ الميزانُ يومَ القيامة، فلو وزن فيه السماوات

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢٢٥).
(٢) في الزهد (١٣٨٤).
(٣) هو أبو سهل الكوفي، ثم البغدادي، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، منها: تأويل المتشابه، والرد على الجهال. توفي سنة (٢١٠هـ). السير ١٠/ ٢٠٣.
(٤) في أبكار الأفكار ٤/ ٣٤٦.
(٥) المستدرك ٤/ ٥٨٦. وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣٢٦، والسيوطي في الدر ٣/ ٧٠، وعنه نقل المصنف.

والأرض لوسع، فتقولُ الملائكة: يا رب، من[١] يزنُ هذا؟ فيقول الله تعالى: من[١] شئت من خلقي، فتقولُ الملائكة: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك».

وفي رواية ابنِ المبارك واللالكائيّ عنه قال: يوضعُ الميزان، وله كفتان لو وُضع في إحداهما السماواتُ والأرض ومن فيهنَّ لوسعه، فتقول الملائكة: من يزن هذا؟ الحديث[٢].

وأخرجَ ابن مردويه عن عائشة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله تعالى كفَّتي الميزان مثل السماوات والأرض، فقالت الملائكةُ: يا ربَّنا من تزنُ بهذا؟ فقال: أزنُ به من شئت»[٣].

وفي بعضِ الآثار: أنَّ الله تعالى كشفَ عن بصرِ داود عليه السلام فرأى من الميزان ما هاله حتى أُغميَ عليه، فلمَّا أفاق قال: يا رب من يملأ كفَّة هذا حسنات، فقال جل شأنه: يا داود إذا رضيتُ عن عبدٍ ملأتُها بشقِّ تمرةٍ تصدَّق بها.

إلى غير ذلك مما لا يُحصَى كثرةً. فالأولَى ـ كما قال الزَّجَّاج[٤] ـ اتباعُ ما جاء في الأحاديث، ولا مقتضَى للعدولِ عن ذلك.

فإنْ قيل: إنَّ المكلَّف يومَ القيامة إمَّا مؤمنٌ بأنَّه تعالى حكيمٌ مُنَزَّهٌ عن الجور، فيكفيه حكمُه تعالى بكيفياتِ الأعمال وكميَّاتها، وإمَّا منكرٌ له، فلا يسلِّم حينئذٍ أنَّ رجحان بعضِ الأعمال على بعضٍ لخصوصياتٍ راجعةٍ إلى ذوات تلك الأعمال، بل يسندُه إلى إظهار الله تعالى إيَّاه على ذلك الوجه، فما الفائدةُ في الوزن؟

أُجيب بأنَّه ينكشفُ الحالُ يومئذٍ، وتظهرُ جميعُ الأشياء بحقائقها على ما هي عليه، وبأوصافها وأحوالها في أنفسها من الحُسن والقبح وغير ذلك، وتنخلعُ عن الصور المستعارة التي بها ظهرت في الدنيا، فلا يبقى لأحدٍ ممن يشاهدُها شبهةٌ في

---

(١) في المصادر: لمن.

(٢) الزهد لابن المبارك (١٣٥٧)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٢٠٨)، وأخرجه أيضاً الآجرِّي في الشريعة (٨٩٥).

(٣) الدر المنثور ٣/ ٧٠.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٩.

أنَّها هي التي كانت في الدنيا بعينها، وأنَّ كلَّ واحدٍ منها قد ظهرَ في هذه النشأة بصورته الحقيقيَّة المستتبعة لصفاته، ولا يخطرُ بباله خلافُ ذلك. قاله بعض المحقِّقين، والله تعالى أعلم بحقيقةِ الحال.

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ تفصيلٌ للأحكام المترتِّبة على الوزن. والموازين إمَّا جمعُ ميزان، وجمعه ـ مع أنَّ المشهور الصحيح أنَّ الميزانَ مطلقاً واحدٌ ـ باعتبار تعدُّدِ الأوزان أو الموزونات، وكذا إذا قلنا بأنَّ ميزانَ كلِّ شخصٍ واحدٌ، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: كفَّةُ موازينه. وإمَّا جمعُ موزون، وإضافتُه للعهد؛ لترتُّب الفلاح على ذلك، فالمرادُ الحسنات، والجمعُ على هذا ظاهر، وكذا لو قلنا: إنَّ لكلِّ عملٍ ميزاناً.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتِّصافه بما في حيِّزِ الصلة، والجمعيَّةُ باعتبارِ معناه، كما أنَّ إفراد ضمير «موازينه» العائد إليه باعتبارِ لفظه. وما فيه من معنى البعد لما مرَّ غيرَ مرَّة، وهو مبتدأ، و﴿هُمُ﴾ إمَّا ضميرُ فصلٍ يفصلُ به بين الخبر والصفة، ويؤكِّد النسبةَ، ويفيدُ اختصاصَ المسنَد بالمسنَد إليه و﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾ ـ أي: الفائزونَ بالنجاة والثواب ـ خبر، وإمَّا مبتدأ ثان و«المفلحون» خبرُه، والجملةُ خبرُ المبتدأ الأول.

وتعريف المفلحين للدلالة على أنَّهم الناسُ الذين بلغك أنَّهم مفلحون في الآخرة، أو إشارةٌ إلى ما يعرفه كلُّ أحدٍ من حقيقة المفلحين وخصائصهم.

﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ بتضييع فطرةِ الإسلام التي ما من مولودٍ إلَّا يولدُ عليها[1]، أو فطرةِ الخير الذي هو أصلُ الجبلَّة.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾ متعلِّقٌ بـ «خسروا»، و«ما» مصدريَّة، و«بآياتنا» متعلِّقٌ بـ «يظلمون»، وقُدِّمَ عليه للفاصلة، وعَدَّى الظلمَ بالباء؛ لتضمُّنه معنى التكذيب أو الجحود. والجمعُ بين صيغتي الماضي والمضارع؛ للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلَّا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه....». وسلف ٤/ ١٤٢.

وظاهر النظم الكريم أنَّ الوزنَ ليس مختصًّا بالمسلمين، بل الكفارُ أيضاً تُوزَنُ أعمالُهم التي لا توقُّف لها على الإسلام، وإلى ذلك ذهب البعض. وادَّعى القرطبيُّ[1] أنَّ الصحيحَ أنَّه يُخفَّفُ بها عذابُهم وإنْ لم تكن راجحة، كما وردَ في حقِّ أبي طالب[2].

وذهبَ الكثيرُ إلى أنَّ الوزنَ مختصٌّ بالمسلمين، وأمَّا الكفارُ فتحبَطُ أعمالُهم كيفما كانت ـ وهو أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ـ ولا يخفَّفُ بها عنهم من العذاب شيء. وما وردَ من التخفيف عن أبي طالب فقد قال السخاويُّ: إنَّ المعتمدَ أنَّه مخصوصٌ به. وعلى هذا فلا بدَّ من ارتكاب خلاف الظاهر في الآية.

وهي على كلا التقديرين ساكتةٌ عن بيان حالِ من تساوت حسناتُه وسيئاته، وهم أهلُ الأعراف على قول، ومن هنا استَدلَّ بها بعضُهم على عدم وجود هذا القسم.

ورُدَّ بأنَّه قد يُدْرج في القسم الأول؛ لقوله سبحانه: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]، و«عسى» من الله تعالى تحقيقٌ كما صرَّحوا به. وفيه نظر.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ترغيبٌ في قَبول دعوةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام بتذكيرِ النعمِ إثرَ ترغيبٍ.

وذكر الطيبيُّ أنَّ هذا نوعٌ آخرُ من الإنذار، فإنَّه جملةٌ قسميَّةٌ معطوفةٌ على قوله سبحانه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على تقدير: قل اتبعوا، وقل والله لقد مكَّنَّاكم.

والمعنى: جعلنا لكم في الأرض مكاناً وقراراً، وقيل: أقدرناكُم على التصرُّف فيها، فهو حينئذ كنايةٌ، ورجحت هنا الحقيقة.

---

(١) في التذكرة ١/ ٣١٢-٣١٣.

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) عن العباس ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، إنَّ أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح». واللفظ لمسلم. وسيأتي عند تفسير الآية (١١٣) من سورة التوبة.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي: ما تعيشون به وتحيون من المطاعم والمشارب ونحوها، أو ما تتوصَّلونَ به إلى ذلك، وهو في الأصل مصدر عاشَ يعيشُ عَيْشاً، وعِيشَةً، ومعاشاً، ومَعيشة بوزن مَفعلة، والجمهورُ على التصريح بالياء فيها. وروي عن نافع: «معائشَ» بالهمزة[1]. وغلَّطهُ النحويون ومنهم سيبويه[2] في ذلك؛ لأنَّه لا يُهمزُ عندَهم بعد ألف الجمع إلَّا الياءُ الزائدة، كصحيفة وصحائف، وأمَّا معايش، فياؤه أصليَّةٌ هي عينُ الكلمة؛ لأنَّها من العيش، وبالغ أبو عثمان[3] فقال: إنَّ نافعاً لم يكن يدري ما العربية[4]. وتُعقِّبَ ذلك بأنَّ هذه القراءة وإن كانت شاذةً غيرَ متواترةٍ مأخوذةٌ من الفصحاء الثقات، والعربُ قد تشبِّه الأصليَّ بالزائد؛ لكونه على صورته، وقد سُمِع هذا عنهم فيما ذكر، وفي مصائب ومنائر أيضاً.

وقول سيبويه: إنها غلط. يمكنُ أنْ يرادَ به أنَّها خارجةٌ عن الجادَّة والقياس، وكثيراً ما يستعملُ الغلطَ في كتابه بهذا المعنى.

والجعل بمعنى الإنشاء والإبداع، وكلٌّ واحدٍ من الظرفين متعلِّقٌ به، أو بمحذوفٍ وقعَ حالاً من مفعوله المنكَّر، إذ لو تأخَّر لكان صفةً له، وتقديمهما على المفعول مع أنَّ حقَّهما التأخيُر عنه ـ كما قال بعض المحققين ـ للاعتناءِ بشأن المقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر، فإنَّ النفس عند تأخير ما حقُّه التقديم ـ لا سيَّما عند كون المقدَّمِ منبئاً عن منفعةِ السامع ـ تبقى مترقِّبةً لورودِ المؤخَّر، فيتمكَّنُ فيها عند الورود فضلَ تمكُّن. وأمَّا تقديمُ «اللام» على «في» فلمَا أنَّه المنبئُ عما ذُكِر من المنفعة، والاعتناءُ بشأنِه أتمُّ، والمسارعةُ إلى ذكره أهمُّ.

وقيل: إنَّ الجعلَ متعدٍّ إلى مفعولين؛ ثانيهما أحدُ الظرفين على أنَّه مستقرٌ قُدِّم على الأول، والظرفُ الآخر إمَّا لغوٌ متعلِّقٌ بالجعل، أو بالمحذوفِ الواقع حالاً من

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٢، وزاد نسبتها للأعرج.

(٢) الكتاب ٤/ ٣٥٦.

(٣) هو المازني البصري، بكر بن محمد بن عثمان ـ ويقال: بقية، وقيل: عدي ـ النحوي، إمام عصره في النحو والأدب. توفي سنة ثمان وأربعين ومئتين، أو تسع وأربعين. إنباه الرواة ١/ ٢٤٦، ووفيات الأعيان ١/ ٢٨٥.

(٤) في الأصل و(م): بالعربية، والتصويب من المنصف لابن جني شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني ١/ ٣٠٧.

المفعول الأوَّلِ كما مر. واعترض بأنَّه لا فائدةَ يعتدُّ بها في الإخبار بجعل المعايش حاصلةً لهم، أو حاصلةً في الأرض.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ تلك النعمةَ الجسيمة. وهو تذييلٌ مسوقٌ لبيان سوء المخاطبين وتحذيرهم. قال الطيبي: والتذييلُ بذلك، لأنَّ الشكرَ مناسبٌ لتمكينهم في البلاد والتصرف فيها، كما أنَّ التذكُّر في الجملة السابقة موافقٌ للتمييزِ بين اتِّباعِ دين الحقِّ ودين الباطل. وبقيَّةُ الكلام في هذه الجملة على طرز ما مرَّ في نظيرها فتذكر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ تذكيرٌ لنعمةٍ أخرى، وتأخيره عن تذكيرِ ما وقع قبله[1] من نعمةِ التمكُّن في الأرض؛ إمَّا لأنَّها فائضةٌ على المخاطبين بالذات، وهذه بالواسطة، وإمَّا للإيذانِ بأنَّ كلًّا منهما نعمةٌ مستقلَّةٌ.

والمرادُ خلق آدم عليه السلام وتصويرُه كما يقتضيه ظاهرُ العطف الآتي، لكن لمَّا كانَ مبدأً للمخاطبين؛ جُعِلَ خلقُه خلقاً لهم، ونُزِّلَ منزلتَه، فالتجوُّزُ على هذا في ضمير الجمع بجعل آدم عليه السلام كجميع الخلق لتفرُّعهم عنه، أو في الإسناد؛ إذ أسندَ ما لآدم الذي هو الأصلُ والسببُ إلى ما تفرَّع عنه وتسبَّب. وجعل بعضهم الكلامَ على تقدير المضاف[2].

وذهب الإمام[3] إلى أنه كنايةٌ عن خلقِ آدمَ عليه السلام، والمعنى: خلقنا أباكم آدمَ عليه السلام طيناً غير مصوَّرٍ، ثمَّ صوَّرناه أبدعَ تصويرٍ وأحسنَ تقويم سارٍ ذلك إليكم.

وجُوِّزَ أن يكونَ التجوُّزُ في الفعل، والمراد: ابتدأنا خلقَكم ثمَّ تصويرَكم بأنْ خلقنَا آدم ثمَّ صوَّرناه. ويعودُ هذا إلى ابتداءِ خلقِ الجنس، وابتداءُ خلقِ كلِّ جنسٍ بإيجاد أوَّل أفراده، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

---

(١) في (م): بعده، وهو خطأ، والمثبت من تفسير أبي السعود ٣/ ٢١٤. والكلام منه.
(٢) وقدَّره بعضهم: ولقد خلقنا أرواحكم ثم صوَّرنا أجسامكم، وقيل: التقدير: ولقد خلقنا أباكم ثم صورنا أباكم. البحر ٤/ ٢٧٢.
(٣) تفسير الرازي ١٤/ ٣٠.

وعلى هذين الوجهين يظهرُ وجهُ العطفِ بـ «ثمَّ» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

وزعمَ الأخفش[(١)] أنَّ «ثم» هنا بمعنى الواو، وتعقَّبه الزجاج[(٢)] بأنَّه خطأ لا يُجيزُه الخليلُ وسيبويه[(٣)]، ولا من يُوثَق بعلمه؛ لأنَّ «ثمَّ» للشيء الذي يكون بعدَ المذكور قبلَه لا غير، وإنَّما المعنى: إنَّا ابتدأنَا خلقَ آدم عليه السلام من ترابٍ، ثمَّ صوَّرناه، أي: هذا أصلُ خلقكم، ثم بعد الفراغ من أصلِكم قلنا.. إلخ.

وقيل: إنَّ «ثمَّ» لترتيب الإخبار لا للترتيب الزمانيِّ حتى يحتاجَ إلى توجيه، والمعنى: خلقناكم يا بني آدم مُضَغاً غيرَ مصوَّرةٍ، ثمَّ صورناكم بشقِّ السمع والبصر وسائر الأعضاء، كما روي عن يمان، أو: خلقناكم في أصلاب الرجال، ثمَّ صورناكم في أرحام النساء، كما روي عن عكرمة، ثمَّ نخبرُكم أنَّا قلنا للملائكة إلخ. وإلى هذا ذهب جماعةٌ من النحويين منهم عليُّ بن عيسى والقاضي أبو سعيد السيرافي وغيرهما.

وقال الطيبيُّ: يمكن أنْ تُحملَ «ثم» على التراخي في الرتبة؛ لأنَّ مقام الامتنان يقتضي أن يقال: إنَّ كون أبيهم مسجوداً للملائكة أرفعُ درجةً من خلقِهم وتصويرهم.

وفيه تلويحٌ إلى شرف العلم، وتنبيهٌ للمخاطبين على تحصيل ما فازَ به أبوهم من تلك الفضيلة، ومن ثَمَّ عَقَّبَ في «البقرة» الأمرَ بالسجود مسألةَ التحدِّي بالعلم.

وعن ابن عباس ومجاهد والربيع وقتادة والسُّدِّي أنَّ المعنى: خلقنا آدم عليه السلام، ثمَّ صوَّرناكم في ظهره، ثمَّ قلنا.. إلخ.

وقد تقدَّم الكلام في المراد بالملائكة المأمورين بالسجود، وكذا الكلام في المراد بالسجود[(٤)].

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٥١٢.
(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٣٢١.
(٣) ينظر الكتاب ١/ ٤٣٨.
(٤) في سورة البقرة، عند الآية (٣٤).

وقد ذكر بعضُ المحققين أنَّ الظاهر أنْ يقال: ثمَّ أمرنا الملائكةَ بالسجود لآدم، إلَّا أنَّه عدلَ عن ذلك؛ لأنَّ الأمرَ بالسجود كان قبلَ خلق آدم عليه السلام على ما نطقَ به قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٩]، والواقعُ بعد تصويره إنَّما هو قوله سبحانه: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وذلك لتعيين وقت السجدةِ المأمور بها قبل. والحاصلُ أنَّه سبحانه أمرهم أوَّلاً أمراً معلَّقاً، ثم أمرهم ثانياً أمراً منجَّزاً مطابقاً للأمر السابق، فلذا جعله حكايةً له، وفي ذلك ما لا يخفى من الاعتناء بشأن آدم عليه السلام.

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ أي: الملائكةُ عليهم السلام بعد القول من غير تلعثُم كلُّهم أجمعون.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناء متَّصل سواءٌ قلنا: إنَّ إبليسَ من الملائكةِ حقيقةً، أم لا؛ أما على الأول فظاهر، وأما على الثاني، فلأنَّه لما كان جنِّيّاً مفرداً مغموراً بألوفٍ من الملائكة متَّصفاً بغالب صفاتهم غُلِّبوا عليه في «سجدوا» ثم استُثني استثناءَ واحدٍ منهم.

وقيل: منقطعٌ، بناءً على أنَّه من الجنِّ، وأنَّهم ليسوا من جنس الملائكة، ولا تغليب. والأوَّل هو المختار.

وذكر قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ - أي: ممَّن سجدَ لآدم عليه السلام - مع أنَّه عُلِم من الاستثناء عدمُ السجود؛ لأنَّ المعلومَ من الاستثناء عدمُ العموم، لا عمومُ العدم، والمراد الثاني، أي: إنه لم يصدُر منه السجودُ مطلقاً لا معهم ولا منفرداً، وهذا إنَّما يفيدُه التنصيص. كذا قيل.

ونُظِرَ فيه بأنَّ التنصيصَ المذكور لا يفيدُ عموم الأحوال والأوقات، فلا يتمُّ ما ذكر.

وتحقيقُ هذا المقام على ما ذكره المولى سريُّ الدين أنْ يقال: إنَّ القوم اختلفوا في أنَّ الاستثناءَ من النفي إثباتٌ أم لا؟

فقال الشافعيُّ: نعم. فيكون نقيضُ الحكم ثابتاً للمستثنى بطريق العبارة، ويوافقه ظاهر عبارة «الهداية»[1].

---

(١) الهداية للمرغيناني ٢/ ٥٣ قال - رحمه الله - في شرح قوله في البداية: «ولو قال: ما أنت إلا حرٌّ عتق»: لأنَّ الاستثناء من النفي إثبات على وجه التأكيد كما في كلمة الشهادة. اهـ.

وذهب طائفةٌ من الحنفية إلى أنَّه بطريق الإشارة.

وذهبَ آخرون إلى أنَّ المستثنى في حكم المسكوت عنه، وإنما يُستفادُ الحكم بطريق مفهوم المخالفة.

واختار صاحبُ «البحر»[1] أنَّه منطوقُ إشارةٍ تارةً وعبارةٍ أخرى.

وإذا تقرَّرَ هذا فيمكن أنْ يقال في الجواب: إنَّ المقام لمَّا كان مقامَ التسجيل على إبليس بعدم السجود، والتشهير والتوبيخ بتلك القبيحة الهائلة، كان خليقاً بالتصريح، جديراً بالاحتياط؛ لضعف التعويل على القرينة، لائقاً بكمال الإيضاح والتقرير، فعدلَ عن طريق الحذف ـ وإنْ كان الكلامُ دالًّا على المحذوف ـ إلى منهج الذكر والتصريح به. وهذا على رأي الشافعيِّ ومن وافقه ظاهرٌ، وإليه أشار السراجُ الهندي[2] في مباحث الاستثناءِ من «شرح المغني»، وأمَّا على باقي المذاهب فالأمر أظهر؛ لأنَّ الحكمَ على المستثنى بنقيضِ حكم المستثنى منه، إمَّا بطريق الإشارة، أو بمفهوم[3] المخالفة، وعلى كلٍّ فالمقامُ يأبى الاكتفاء بمثل ذلك، ويقتضي التصريحَ بذكر الحكم.

وادَّعى مولانا ابنُ الكمال أنَّ هذه الجملةَ إنَّما جيءَ بها لانقطاع الاستثناء، وأنَّه لو كان الاستثناء متَّصِلاً يكونُ الإتيان بها ضائعاً؛ لأنَّ عدمَ كون إبليس من الساجدين يفهَمُ من الاستثناء على تقدير اتِّصاله. ولا يخفى ما فيه على من أحاط علماً بما ذكرنا.

واعترضَهُ البعضُ أيضاً بأنَّه على تقدير الانقطاع يكونُ ذلك ضائعاً أيضاً بناءً على ما ظنَّه؛ فإنَّ ثبوتَ نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى غيرُ مختصٍّ بالمتصل،

---

(١) هو ابن نجيم الحنفي، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، من مصنفاته: البحر الرائق، والأشباه والنظائر. (ت ٩٧٠هـ). التعليقات السنية على الفوائد البهية ص٢٢١، والأعلام ٣/ ٦٤. وكلامه في كتابه فتح الغفار في شرح المنار المعروف بمشكاة الأنوار ٢/ ١٢٧.

(٢) هو عمر بن إسحاق بن أحمد، أبو حفص الغزنوي، من مصنفاته: شرح الهداية المسمى بالتوشيح، والشامل في الفقه، وشرح المغني للخبازي، وغيرها. (ت ٧٧٣هـ). كشف الظنون ٢/ ١٧٤٩، والفوائد البهية ص٢٤١.

(٣) في (م): مفهوم.

ولذا لا نراهم يذكرونَ مع المستثنى المنقطع أيضاً نقيضَ حكم المستثنى منه إلَّا قليلاً، ولو تمَّ ما ذكره لوجبَ ذكرُ الخبرِ مع كلِّ منقطعٍ. فليفهم.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ للجواب عن سؤالٍ نشأ من حكاية عدمِ سجوده، كأنَّه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذ؟ وبه ـ كما قيل ـ يظهرُ وجه الالتفات إلى الغيبة، إذْ لا وجهَ لتقدير السؤال على وجه المخاطبة.

وفيه فائدةٌ أخرى؛ هي الإشعارُ بعدم تعلُّق المحكيِّ بالمخاطَبين كما في حكاية الخلق والتصوير. أي: قال الله تعالى لإبليسَ حين لم يكن من الساجدين: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ المشهورُ أنَّ «لا» مزيدةٌ، بدليل قوله سبحانه في آيةٍ أخرى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص:٧٥] وقد جاءتْ كذلك في قوله سبحانه: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ﴾ [الحديد:٢٩] أي: ليعلم، وهي في ذلك ـ كما قال غيرُ واحد ـ لتأكيدِ معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقِه.

واستُشكِلَ بأنَّها كيف تؤكِّد ثبوتَ الفعل مع إيهام نفيه؟ قال الشهاب: والذي يظهرُ لي أنَّها لا تؤكِّده مطلقاً، بل إذا صحب نفياً مقدَّماً أو مؤخَّراً، صريحاً أو غيرَ صريح، كما في ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، وكما هنا، فإنَّها تؤكِّدُ تعلُّق المنع به[١].

ومن هنا قالوا: إنَّها منبِّهةٌ على أنَّ الموبَّخ عليه تركُ السجود.

وقيل: إنَّها غيرُ زائدةٍ، بأن يكون المنعُ مجازاً عن الإلجاء والاضطرار، فالمعنى: ما اضطرك إلى أنْ لا تسجد. وجعله السكاكيُّ[٢] مجازاً عن الحمل، و«لا» قرينةٌ للمجاز، أي: ما حملك ودعاك إلى أنْ لا تسجد؟ وليس بين الجعلين كثيرُ فرق.

وجُوِّزَ أنْ يكون ذلك من باب التضمين.

وقال الراغب: المنعُ يقال في ضدِّ العطيَّة، كرجل مانع ومنَّاع، أي: بخيل، ويقال في الحماية، ومنه: مكانٌ منيعٌ، وقد مَنُع، وفلانٌ ذو مَنَعَة، أي: عزيز ممْتنعٌ

---

(١) حاشية الشهاب ٤/ ١٥٣.

(٢) في مفتاح العلوم ص٣٦٧.

على من يَرومه[1]. والمنعُ في الآية من الثاني، أي: ما حَماك عن عدم السجود.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ بالسجود، و«إذ» ظرفٌ لـ «تسجد».

وهذه الآيةُ أحدُ أدلَّة القائلين بأنَّ الأمرَ للفور؛ لأنَّه ذُمَّ على ترك المبادرة، ولولا أنَّ الأمرَ للفور لم يتوجَّه الذمُّ عليه، وكان له أنْ يُجيب بأنَّك ما أمرتني بالبدار، وسوفَ أسجد.

وأجيبَ بأنَّ الفورَ إنَّما هو من قوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] وليس من صيغة الأمر، إلَّا أنَّ بعضَهم منعَ دلالة الفاء الجزائية على التعقيب من غير تراخٍ.

وقال آخرون: إن الاستدلالَ إنَّما هو بترتُّبِ اللوم على مخالفةِ الأمر المطلق، حيث قال سبحانه: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، ولم يقل جلَّ شأنه: إذ قلت فقعوا له ساجدين. فتدبَّر.

وفي حكاية التوبيخ ها هنا بهذه العبارة، وفي سورةِ الحجر بقوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الآية: ٣٢]، وفي سورة ص بقوله سبحانه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] إشارةٌ إلى أنَّ اللعينَ أدمجَ في معصيةٍ واحدةٍ غيرَ واحدة، وقد وُبِّخ على كلٍّ من ذلك، لكن اقتَصر عندَ الحكاية في كلِّ موطنٍ على ما ذُكر فيه؛ اكتفاءً بما ذُكر في موطنٍ آخر، وإشعاراً بأنَّ كلَّ واحدةٍ من هاتيكَ المعاصي كافيةٌ في التوبيخ وبطلانِ ما ارتكبَه، وقد تُركَت حكايةُ التوبيخ رأساً في سورة البقرة، وسورة بني إسرائيل، وسورة الكهف، وسورة طه. والله تعالى أعلم بحكمةِ كلٍّ.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما تقدَّم مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكاية التوبيخ، كأنَّه قيل: فماذا قال اللعين عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هو من الأسلوب الأحمق، فإنَّ الجوابَ المطابقَ للسؤال: منعني كذا، وهذا جوابٌ عن: أيُّكما خير؟ وفيه دعوى شيءٍ بيِّنِ الاستلزام للمقصود بزعمه، ومشعرٍ بأنَّ مَنْ هذا شأنُه لا يحسنُ أن يسجدَ لمن دونَه، فكيف يحسنُ أنْ يؤمرَ به؟ فاللعينُ أوَّلُ من أسَّسَ بنيانَ التكبُّر واخترعَ القول بالحسن والقبح العقليين.

---

(١) المفردات (منع).

وقولُه تعالى حكايةً عنه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ تعليلٌ لما ادَّعاه عليه اللعنةُ من فضله عليه عليه السلام، وحاصلُه: إنِّي مخلوقٌ من عنصرٍ أشرفَ من عنصره؛ لأنَّ عنصري عُلويٌّ نيِّرٌ، قويُّ التأثير، مناسبٌ لمادة الحياة، وعنصرُه بضدِّ ذلك، والمخلوقُ من الأشرفِ أشرفُ؛ لأنَّ شرف الأصل يوجبُ شرفَ الفرع، فأنا كذلك، والأشرفُ لا يليقُ به الانقيادُ لمن هو دونه.

وقد أخطأ اللعينُ، فإنَّ كونَ النار أشرفَ من التراب ممنوعٌ، فإنَّ كلَّ عنصرٍ من العناصر الأربعِ يختصُّ بفوائدَ ليست لغيره، وكلٌّ منها ضروريٌّ في هذه النشأة، ولكلٍّ فضيلةٌ في مقامه وحاله، فترجيحُ بعضهاعلى بعض تطويلٌ بلا طائل.

على أنَّ من نظرَ إلى أنَّ الأرضَ أكثرُ منافع للخلق؛ لأنَّها مستقرُّهم وفيها معايشهم، وأنَّها متَّصِفةٌ بالرزانة التي هي من مقتضيات الحلم والوقار، وإلى أنَّ النار دونها في المنافع، وأنَّها متَّصِفةٌ بالخفَّةِ التي هي من مقتضيات الطيش والاستكبارِ والترفع = عَلِمَ ما في كلام اللعين. وأيضاً شرفُ الأصل لا يوجب شرف الفرع:

إنَّمـا الـوردُ مـن الـشـوكِ ولا يـنـبـتُ الـنرجسُ إلَّا مِـن بَـصَـلْ[1]

ويكفي في ذلك أنَّه قد يخرج الكافرُ من المؤمن.

وأيضاً قد خصَّ الشرفَ بما هو من جهة المادَّةِ والعنصر، مع أنَّ الشيء كما يَشرفُ بمادته وعنصره يشرفُ بفاعله وغايته وصورته، وهذا الشرف في آدم عليه السلام دونَه، فإنَّ الله تعالى خلقَه بيديه، ونفخَ فيه من روحه، وجعلَه خليفةً في الأرض كما قصَّ سبحانه؛ لِمَا أودعَه فيه.

وأيضاً أيُّ قبح في خدمة الفاضل للمفضول تواضعاً وإسقاطاً لحظِّ النفس، على أنَّ الخدمةَ في الحقيقة إنَّما كانت لله تعالى، وإلى هذا أشارَ ظافرُ الإسكندري[2] بقوله:

---

(١) هو من لامية ابن الوردي. ينظر شرح اللامية للقناوي الشافعي ص١١٥.

(٢) هو ظافر بن القاسم بن منصور، أبو منصور الجذامي الإسكندراني الحداد، (ت: ٥٢٩هـ). معجم الأدباء ١٢/ ٢٧، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٩٧.

أنت المرادُ بنظم كلِّ قصيدةٍ بُنيت على الأفهام في تبجيله
كسجودِ أملاك السماء لآدمٍ وسجودُهم لله في تأويله[1]

ثمَّ الظاهرُ أنَّ هذا الجوابَ من اللعين كان مع تسليم أنَّه مأمورٌ بالسجود، وحينئذٍ فخطؤهُ أظهرُ من نارٍ على علم، إذ يعودُ ذلك إلى الاعتراض على المالك الحكيم.

وقال بعضهم: إنَّه لم يسلِّم أنَّه كان مأموراً، بل أخرج نفسَه من العموم بالقياس.

واستدلَّ أهلُ هذا القول بهذا التوبيخ على أنَّه لا يجوزُ تخصيصُ النصِّ بالقياس. وأجيبَ بأنَّ هذا ليس من التخصيص، بل هو إبطالٌ للنصِّ ورفعٌ له بالكليَّة. وفيه تأمُّل.

وأخرجَ أبو نعيم في «الحلية» والديلميُّ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه ﵃ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أوَّلُ من قاسَ أمرَ الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال: أنا خيرٌ منه» إلخ. قال جعفر: فمن قاسَ أمرَ الدين برأيه قرنَهُ الله تعالى يومَ القيامة بإبليس؛ لأنَّه اتَّبعهُ بالقياس[2].

واستَدلَّ بهذا ونحوه مَنْ منع القياس مطلقاً. وأجيبَ عن ذلك بأنَّ المذمومَ هو القياسُ والرأيُ في مقابلة النصِّ، أو الذي يُعدَم فيه شرطٌ من الشروط المعتبرة، وتحقيقُ ذلك في محلِّه.

وفي الآية دليلٌ على الكون والفساد[3]؛ لدلالتها على خلق آدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة وإيجادهما، وعلى استحالة الطين والنار عما كانا عليه من الطينيَّةِ والناريَّة لمَّا تركَّبَ منهما ما تركب، وعلى أنَّ إبليس ونحوه أجسامٌ حادثةٌ، لا أرواحٌ قديمة.

---

(١) ديوان ظافر الحداد ص٢٥٦. باختلاف يسير.
(٢) الدر المنثور ٣/ ٧٢. وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٩٧.
(٣) الكون: الخروج من العدم إلى الوجود، والفساد عكسه. حاشية الشهاب ٤/ ١٥٤.

قيل: ولعلَّ إضافةَ خلق آدم عليه السلام إلى الطين، وخَلْقِه إلى النار باعتبارِ الجزء الغالب، وإلَّا فقد تقرَّر أنَّ الأجسامَ من العناصر الأربعة، وبعض الناس من وراء المنع.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما سلف، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ لترتيبِ الأمر على ما ظهرَ منه من الباطل.

وضمير «منها» قيل: للجنَّة، وكونُه من سكانها مشهور. والمرادُ بها عند بعضٍ الجنَّةُ التي يسكنُها المؤمنون يوم القيامة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّها روضةٌ بعدن، وفيها خُلِق آدم عليه السلام، وكانت على نَشَزٍ من الأرض في قول.

وأصلُ الهبوط: الانحدارُ على سبيل القهر، كما في هبوط الحجر، وإذا استعمل في الإنسان ونحوِه فعلى سبيل الاستخفاف، كما قال الراغب(١).

ولم يشترط بعضُهم فيه سوى الانتقال من شريفٍ إلى مادونَه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١] والأمرُ عليه واضحٌ وإن لم نقل: إنَّ تلك الجنة كانت على نشز.

وقيل: الضميرُ لزمرة الملائكة، أي: اخرج من زمرة الملائكة المعزَّزين، فإنَّ الخروجَ من زمرتهم هبوطٌ وأيُّ هبوط، وفي سورة الحجر: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الآية: ٣٤].

وقيل: الضمير للسماء، وإليه ذهب جماعة.

ورُدَّ بأنَّ وسوستَه لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد، فلا بدَّ أنْ يُحمَل على أحد الوجهين السابقين قطعاً، ويكون وسوسته على الوجه الأوَّل بطريق النداء من باب الجَنَّة، كما روي عن الحسن البصري.

وأجيبَ بأنَّه يحتمل أنْ يكونَ المرادُ من ذلك الجنةَ، أو زمرة الملائكة أيضاً؛ بناءً على أنَّ(٢) الأُولى ومعظمَ الثانية في السماء، أو يقال: إنَّ القصةَ وقعت في الأرض، وكانت الجنَّة فيها، وبعد العصيان حُجِب اللعينُ من السماء التي هي مقرُّه

---

(١) في المفردات (هبط).

(٢) ليست في الأصل.

ومعبده. ومعنى أمره بالخروج منها: أمرُه بقطع علائقه عنها، واتخاذِها مأوًى له بعدُ، وهذا كما تقول لمن غصبَ دارك مثلاً عند نحو القاضي: اخرجْ من داري. مع أنَّه إذ ذاك ليس فيها، تريد: لا تدخلها، واقطع علائقك عنها.

وقيل: الضميرُ للأرض، فقد رُوي أنَّه أُخرجَ منها إلى الجزائر، وأُمِر أنْ لا يدخلَها إلَّا خفيَةً. ويبعدُه[1] أنَّه لا يظهرُ للتخصيص في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ أي: فما يصحُّ ولا يستقيم ولا يليقُ بشأنك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ على هذا وجهٌ إلَّا على بُعْدٍ، وأمَّا على الأوجه السابقة فالوجهُ ظاهر؛ وهو مزيدُ شرافة المخرَج منه، وعلوُّ شأنه، وتقدُّسُ ساحته، ومن هنا يعلم أنَّه لا دلالة في الآية على جواز التكبُّر في غير ذلك عند القائلين بالمفهوم.

والجملة تعليلٌ للأمر بالهبوط، ولا يخفى لطافةُ التعبير به دونَ الخروج، في مقابلة قوله: «أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ» المشيرِ إلى ارتفاع عنصره وعلوِّ محله.

والتكبُّر ـ على ما قيل ـ كالكبر، وهو الحالةُ التي يختصُّ بها الشخصُ من إعجابه بنفسه، وذلك أنْ يرى نفسَه أكبرَ من غيره وأعظم.

والمراد بالتكبُّر ها هنا؛ إمَّا التكبُّرُ على الله تعالى، وهو أعظمُ التكبُّر، ويكون بالامتناع من قَبول الحق والإذعان له بالعبادة، وفسَّره بعضهم بالمعصية، وإمَّا التكبُّر على آدمَ عليه السلام بزعمه أنَّه خيرٌ منه وأكبرُ قَدْراً.

وقيل: المرادُ ما هو أعمُّ منه ومن التكبُّرِ على الملائكة، حيثُ زَعم أنَّ له خصوصيَّةً ميَّزتْه[2] عليهم، وأخرجته من عمومهم. وفيه تأمُّل.

وزعم البعضُ أنَّ في الآية تنبيهاً على أن التكبُّرَ لا يليقُ بأهل الجنة، فكما يُمنعُ من القرار فيها يمنعُ من دخولها بعد ذلك، وأنَّه تعالى إنَّما طردَهُ لتكبُّره، لا لمجردِ عصيانه، وهو ظاهرٌ على أحد الاحتمالات كما لا يخفى.

والظرفُ إمَّا متعلِّقٌ بما عنده، أو بمحذوفٍ وقعَ حالاً.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: وبعد فيه أيضاً ما لا يخفى. منه.

(٢) في الأصل: مزية.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ تأكيدٌ للأمر بالهبوط، متفرِّعٌ عليه[١]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ تعليلٌ للأمر بالخروج، مشعرٌ بأنَّه لتكبُّرِه، أي: إنَّك من أهل الصَّغار والهوانِ على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبُّرك.

أخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تواضعَ لله رفعَه الله تعالى، ومن تكبَّر وضعه الله عزَّ وجلَّ»[٢].

ومن حديثه رضي الله عنه: مَن تواضعَ لله تعالى رَفَعَ الله تعالى حَكَمَتَه وقال: انْتَعِشْ نَعَشَكَ اللهُ، ومَن تكبَّر وعَدَا طورَه وهصَهُ الله تعالى إلى الأرض[٣].

وقيل: المراد: من الأذلَّاء في الدنيا بالذمِّ واللعن، وفي الآخرة بالعذاب بسبب ما ارتكبَه من المعصية والتكبُّر.

وإذلالُ الله تعالى المتكبرين يومَ القيامة مما نطقت به الأخبار:

أخرج الترمذيُّ عن عمرو بن شعيب [عن أبيه] عن جدِّه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يحشرُ المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الرجال، يغشاهم الذُّلُّ من كلِّ مكانٍ، يساقونَ إلى سجنٍ في جهنم يقال له: بُولَس، يسقونَ من طينةِ الخبال؛ عصارةِ أهل النار»[٤].

وفسَّر بعضهم الصاغرَ بالراضي بالذلِّ، كما هو المشهور فيه، والمرادُ وصفه بأنَّه خسيسُ الطبع دنيء، وأنَّه رأى نفسه أكبَر من غيره وليس بالكبير. ولقد أبدعَ أبو نواس بقوله خطاباً له:

---

(١) في تفسير أبي السعود ٣/ ٢١٧ ـ والكلام منه ـ: متفرِّعٌ على علته. اهـ.

(٢) شعب الإيمان (٨١٤٠) وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (٢٥٨٨) بلفظ: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

(٣) شعب الإيمان (٨١٣٩). وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في المصنف ١٣/ ٢٧٠، وهو موقوف على عمر رضي الله عنه. قوله: حَكَمته، أي: قَدْرَه ومنزلته. وقيل: الحَكَمة من الإنسان أسفل وجهه، مستعارٌ من موضع حَكَمة اللجاك، ورَفْعُها كنايةٌ عن الإعزاز؛ لأن من صفة الذليل تنكيسَ رأسه. وقوله: انتَعِشْ نعَشَكَ الله، أي: ارتَفِعْ رَفَعَكَ الله، أو: جَبَرك وأبقاك. ينظر النهاية (حكم) والتاج (نعش). ومعنى: وَهَصَه اللهُ تعالى: رماه رمياً شديداً. النهاية (وهص).

(٤) سنن الترمذي (٢٤٩٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٦٦٧٧)، وما بين حاصرتين منهما. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

سَوْأة يا لعين أنتَ اختلست النـ ـاس غيظاً عليهم أجمعينا
تهتَ لمَّا أُمرت في سالف الدهـ ـر وفارقتَ زمرة الساجدينا
عندما قلتَ لا أطيقُ سجوداً لمثالِ خلقتَه ربُّ طينا
حسداً إذ خُلقتَ من مارجِ النا ر لمن كان مبتدا العالمينا
ثم صُيِّرتَ في القيادة تسعى يا مجير الزناة واللائطينا

وله أيضاً من أبياتٍ فيه[1]:

تاهَ على آدم في سجدةٍ وصار قوَّاداً لذريَّتِه[2]

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما مرَّ، مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ ممَّا قبلَه، كأنَّه قيل: فماذا قال اللعينُ بعد ما سمعَ ما سمع؟ فقيل: قال ﴿أَنظِرْنِي﴾ أي: أمهلني ولا تُمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: آدمُ عليه السلام وذرِّيتُه، وهو وقتُ النفخة الثانية. وأرادَ بذلك أنْ يجدَ فسحةً في الإغواء وأخذِ الثأر، ونجاةً من الموت، إذ لا موتَ بعد البعث.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما مرَّ ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ ظاهرُه إلى يوم يبعثون، حيثُ وقعَ في مقابَلة كلامِه، لكن في سورة الحجر و«ص»[3] التقييدُ بيوم الوقتِ المعلوم. واختلِفَ في المرادِ منه، فالمشهورُ أنَّه يومُ النفخةِ الأولى دونَ يوم البعث؛ لأنَّه ليسَ بيوم موتٍ، وجَوَّزَ بعضُهم أنْ يكونَ المرادُ منه يومَ البعث، ولا يلزمُ أنْ لا يموت، فلعلَّه يموتُ أوَّل اليوم ويبعثُ مع الخلق في تضاعيفه.

وفي كتاب «العرائس» عن كعبِ الأحبار أنَّ إبليسَ إنَّما يذوق طعمَ الموت يومَ الحشر. وذكرَ في كيفيَّةِ موته وقبضِ عزرائيل روحَه ما يقضى منه العجب.

ولم يرتض ذلك الفاضلُ السفاريني[4]، وقال في كتابه «البحور الزاخرة»:

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٢٥.

(٢) من قوله: ولقد أبدع أبو نواس، إلى هنا ليس في الأصل.

(٣) سورة الحجر: ٣٨، وسورة ص: ٨١.

(٤) هو محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفارينيُّ، المسند الحافظ المتقن، صاحب التآليف الكثيرة، منها: شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، وشرح نونية الصرصري، والبحور الزاخرة في علوم الآخرة (ت١١٨٨هـ). سلك الدرر ٤/ ٣١، والسحب الوابلة ٢/ ٨٣٩.

أخرجَ نعيم بن حماد في «الفتن» والحاكم في «المستدرك» عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: لا يلبثون ـ يعني الناس ـ بعدَ يأجوج ومأجوج حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها، فتجفُّ الأقلامُ، وتطوى الصحف، فلا يُقبَلُ من أحدٍ توبةٌ، ويخرُّ إبليس ساجداً ينادي: إلهي مرني أنْ أسجدَ لمن شئت، وتجتمعُ إليه الشياطين فتقول: يا سيدنا إلى من تفزع؟ فيقول: إنَّما سألتُ ربي أن يُنظِرني إلى يوم البعثِ، فأنظَرني إلى يومِ الوقت المعلوم، وقد طلعت الشمسُ من مغربها، وهذا يومُ الوقتِ المعلوم، وتصيرُ الشياطين ظاهرةً في الأرض، حتى يقول الرجل: هذا قريني الذي كان [يغويني]، فالحمد لله الذي أخزاه، ولا يزال إبليسُ ساجداً باكياً حتى تخرجَ الدابَّة، فتقتله وهو ساجد. اهـ[١].

ومنه يُعلَم أنَّ المرادَ باليوم المعلوم ما صرَّح به اللعين، وهو قبلَ يوم النفخة الأولى بكثير، وهذا قولٌ لم نرَ أحداً من المفسرين ذكره، وهو الذي ارتضاه هذا الفاضل، وقال: إنَّ الخبر في حكم المرفوع[٢]؛ لأنَّه لا يقالُ من قبل الرأي، وليس ابنُ مسعود ككعب الأحبار ممن يتلقَّى من كُتبِ أهل الكتاب.

وأنت تعلمُ أنَّه إن صحَّت نسبةُ هذا الخبر إلى ابن مسعود ينبغي أنْ لا يُعدَل إلى القول بما يخالفُه، ولكن في صحَّة نسبتِه إليه رضي الله عنه عندي تردُّدٌ.

وقيل: المرادُ به وقتٌ يعلمُ الله تعالى انتهاءَ أجله فيه، وقد أُخفيَ عنَّا وكذا عن اللعين، وأوجبَ على هذا أنْ يكونَ قبل النفخةِ الثانية.

واستدلَّ له[٣] بعضُهم بأنَّ اللعينَ كان مكلَّفاً، والمكلَّفُ لا يجوزُ أن يَعلم أجله؛ لأنه يُقدِمُ على المعصية بقلبٍ فارغ، حتى إذا قَرُبَ أجلُه تابَ، فتقبل توبته، وهذا كالإغراء على المعاصي، فيكون قبيحاً.

---

(١) ذكره مطولاً السيوطي في الدر ٣/ ٦١، وابن كثير في النهاية في الملاحم والفتن ١/ ١٣١- ١٣٤ وما بين حاصرتين منهما. وفي المستدرك ٤/ ٥٢١- ٥٢٢ قطعة منه. وأعله الحاكم بأن فيه عبد الوهاب بن الحسين، وهو مجهول. وقال ابن كثير: قال شيخنا الحافظ الذهبي: هذا حديث شبه موضوع.

(٢) كذا ذكر، وقد ورد الحديث مرفوعاً في المصادر المذكورة آنفاً.

(٣) قوله: له. ليس في الأصل.

وأُجيبَ بأنَّ مَن عَلِمَ الله تعالى من حاله أنَّه يموت على الطهارة والعصمة كالأنبياء عليهم السلام، أو على الكفرِ والمعاصي كإبليس وأشياعه، فإنَّ إعلامَه بوقتِ أجله لا يكونُ إغراءً على المعصية؛ لأنَّه لا يتفاوتُ حالُه بسبب ذلك التعريف والإعلام.

وظاهرُ النظم الكريم عندَ غير واحد أنَّ هذه إجابةٌ لدعائه كلًّا أو بعضاً، وفي ذلك دليلٌ لمن قال: إنَّ دعاءَ الكافر قد يستجاب، وهو الذي ذهب إليه الدبوسيُّ[١] وغيرُه من الفقهاء، خلافاً لما نقلَه في «البزَّازيَّة» عن البعض من أنَّه لا يجوزُ أنْ يقال: إنَّ دعاءَ الكافر مستجابٌ؛ لأنَّه لا يَعرفُ الله تعالى ليدعوه.

والفتوى على الأول؛ للظاهر، ولقوله ﷺ: «دعوة المظلوم مستجابةٌ وإنْ كان كافراً»[٢].

وحَملُ الكفر على كُفران النعمة لا كفرانِ الدين خلافُ الظاهر، ولا يلزمُ من الاستجابة المحبَّةُ والإكرام، فإنَّها قد تكونُ للاستدراج.

وقال بعضُ المحققين: الجملةُ إخبارٌ عن كونه من المنظَرين في قضاء الله تعالى من غير ترتُّبٍ على دعائه، وادَّعى أنَّ ورودها اسميَّةً مع التعرُّض لشمول ما سأله اللعينُ لِآخَرِينَ[٣] على وجهٍ يُشعر بأنَّ السائلَ تبعٌ لهم في ذلك: صريحٌ في أنَّ ذلك إخبارٌ بأنَّ الإنظار المذكور لهم[٤] أزلاً لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به إجابةً لدعائه، ويُعلَم من ذلك أيضاً أنَّ استنظارَه كان طلباً لتأخير الموت، إذ به يتحقَّقُ كونُه من جملتهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل. ولا يخلو عن حسن.

---

(١) هو أبو نصر الدبوسي. كما صرَّح به ابن عابدين في حاشيته ٢/ ١٨٥ عند بيان هذه المسألة. وهو إمامٌ كبيرٌ من أئمة الشروط، نسبته إلى دبوسية، قرية بسمرقند. الجواهر المضية ٤/ ٩٤، والفوائد البهية ص٣٦٣.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً». وأخرجه أحمد أيضاً (١٢٥٤٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافراً...».

وقد صحَّ من رواية ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب». أخرجه البخاري (٢٤٤٨)، ومسلم (١٩)، وأحمد (٢٠٧١).

(٣) في الأصل و(م): الآخرين، والمثبت من تفسير أبي السعود ٣/ ٢١٧، والكلام منه.

(٤) في تفسير أبي السعود: إخبار بالإنظار المقدَّر لهم. وهو أنسب بالسياق.

والحكمةُ في إنظاره ذلك الزمن الطويل، مع ما هو عليه عليه اللعنة من الإفساد ممَّا ينبغي أنْ يفوَّض علمها إلى خالق العباد.

وقد ذكر الشهرستانيُّ(١) عن شارح الأناجيل الأربعة صورةَ مناظرةٍ جرت بين الملائكة وبين إبليس بعد هذه الحادثة، وقد ذُكرت في التوراة، وهي أن اللعين قال للملائكة: إنِّي أسلِّم أنَّ لي إلهاً هو خالقي وموجدي، وهو خالق الخلق، لكن لي على حكمه أسئلة:

الأول: ما الحكمةُ في الخلق، لا سيَّما وقد كان عالماً أنَّ الكافرَ لا يستوجبُ عند خلقه إلَّا النار؟

الثاني: ما الفائدةُ في التكليف، مع أنَّه لا يعود إليه منه نفعٌ ولا ضررٌ، وكلُّ ما يعود إلى المكلَّفين، فهو قادرٌ على تحصيله لهم من غيرِ واسطة التكليف؟

الثالث: هب أنَّه كلفني بمعرفته وطاعته، فلماذا كلَّفني بالسجود لآدم؟

الرابع: لمَّا عصيته في ترك السجود، فلم لعنني وأوجبَ عقابي، مع أنَّه لا فائدةَ له ولا لغيره فيه، ولي فيه أعظم الضرر؟

الخامس: أنَّه لمَّا فعلت(٢) ذلك، لم سلَّطني على أولاده، ومكَّنني من إغوائهم وإضلالهم؟

السادس: لمَّا استمهلتهُ المدَّة الطويلة في ذلك، فلم أمهلني؟ ومعلومٌ أنَّ العالمَ لو كان خالياً من الشرِّ لكان ذلك خيراً.

قال شارح الأناجيل: فأوحى الله تعالى إليه من سرادقِ العظمة والكبرياء: يا إبليس، أنت ما عرفتني، ولو عرفتني لعلمتَ أنَّه لا اعتراضَ عليَّ في شيءٍ من أفعالي، فإنِّي أنا الله لا إله إلَّا أنا، لا أسأل عمَّا أفعل. اهـ.

---

(١) في الملل والنحل ١/ ١٧-١٨. والشهرستاني هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد، أبو الفتح المتكلم، من تصانيفه: الإرشاد إلى عقائد الأنام، ونهاية الإقدام في علم الكلام، وغيرها. (ت٥٤٨هـ). وفيات الأعيان ٦/ ٢٧٣، والأعلام ٦/ ٢١٥.

(٢) في الأصل و(م): فعل. والمثبت من تفسير الرازي ٢/ ٢٣٦-٢٣٧. وعنه نقل المصنف كلام الشهرستاني.

وفي السؤال السادس ما يؤيِّد القول الأول في الجملة. ولا يخفى أنَّ هذه الشبهات يصعب على القائلين بالحسن والقبح العقليين الجوابُ عنها، بل قال الإمام: إنَّه لو اجتمعَ الأوَّلون والآخرونَ من الخلائق، وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا من هذه الشبهات مَخْلَصاً وكان الكلُّ لازماً[1].

ويعجبني ما يُحكَى أن سيفَ الدولة بن حمدان خرج يوماً على جماعته فقال: قد عملتُ بيتاً ما أحسبُ أنَّ أحداً يعمل له ثانياً، إلَّا إنْ كان أبا فراس. وكان أبو فراس جالساً، فقيل له: ما هو؟ فقال: قولي:

لك جسمي تُعِلُّه فدمي لِمْ تطلُّه

فابتدرَ أبو فراس قائلاً:

قال إن كنتُ مالكاً فلي الأمر كلُّه[2]

وعلَّل الزمخشريُّ إجابتَه إلى استنظاره بأنَّ في ذلك ابتلاءَ العباد، وفي مخالفتِه أعظم الثواب، وحكمه حكمُ ما خلقَ الله تعالى في الدنيا من صنوفِ الزخارف، وأنواع الملاهي والملاذِّ، وما رَكَّبَ في الأنفس من الشهوات ليمتحنَ بها عبادَه[3].

وتعقَّبه العلَّامةُ الثاني كغيره بأنَّه مبنيٌّ على تعليل أفعالِه تعالى بالأغراض، وعدم إسنادِ خلق القبائح والشرور إليه سبحانه، مع أنَّه ليسَ بشيءٍ؛ لأنَّ حقيقةَ الابتلاء في حقِّه تعالى محالٌ، ومجازهُ لا يَدفعُ السؤال، ولأنَّ ما في متابعته من أليم العقاب أضعاف ما في مخالفته من عظيم الثواب، بل لو لم يكن له الإنظار والتمكين، لم يكن من العباد إلَّا الطاعاتُ وتركُ المعاصي، فلم يكن إلَّا الثواب، كالملائكة.

ولا يَخفى ما فيه، إلَّا أنَّ قوله بعدُ: والأولى أنْ لا يخوضَ العبدُ في أمثال هذه الأسرار، ويُفوِّضَ حقيقتَها إلى الحكيم المختار. ممَّا نقولُ به؛ لأنَّ معرفةَ ذلك في غاية الصعوبة على أرباب القال وأهل الجدال.

---

(١) تفسير الرازي ٢/ ٢٣٧.
(٢) أوردهما الثعالبي في يتيمة الدهر ١/ ٤٢-٤٣، وابن خلكان في وفيات الأعيان ٣/ ٤٠٣، وفيهما: تحله. بدل: تطلُّه. وذكرهما الصفدي في الوافي بالوفيات ٢١/ ١٩٦-١٩٧، بمثل رواية المصنف.
(٣) الكشاف ٢/ ٦٩.

هذا وإنَّما ترك التوقيتَ في هذه الآية ثقةً بما وقع في سورة الحجر و«ص»، كما ترك ذكرَ النداء والفاء في الاستنظار والإنظار؛ تعويلاً على ما ذُكر فيهما.

فإنْ قلت: لا ريبَ في أنَّ الكلامَ المحكيَّ له عند صدوره عن المتكلِّم حالةٌ مخصوصةٌ تقتضي ورودَه على وجهٍ خاصٍّ من وجوه النظم، بحيث لو أخلَّ بشيءٍ من ذلك سقطَ الكلام عن رتبة البلاغة البتَّة، فالكلامُ الواحدُ المحكيُّ على وجوهٍ شتى إن اقتضى الحالُ وروده على وجهٍ معيَّنٍ من تلك الوجوه الواردة عندَ تلك الحكاية، فذلك الوجهُ هو المطابقُ لمقتضى الحال، والبالغُ إلى رتبة البلاغة دون ما عداه من الوجوه. ونقولُ حينئذٍ: لا يخفى أنَّ استنظارَ اللعين إنَّما صدرَ عنه مرَّةً واحدةً لا غير، فمقامه إن اقتضى إظهارَ الضراعة وترتيبَ الاستنظار على ما حاق به من اللعن والطرد على نهج استدعاءِ الجبر في مقابلة الكسر، كما هو المتبادر من قوله: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩]، حسبما حكي عنه في السورتين، فما حكي عنه هاهنا يكون بمعزلٍ من المطابقة لمقتضى الحال، فضلاً عن العروج إلى معارج الإعجاز.

قلت: أجابَ مولانا شيخُ الإسلام عن هذا السؤال بعد أنْ ساقَه بأنَّ مقامَ استنظاره مقتضٍ لما ذُكر من إظهار الضراعة وترتيبِ الاستنظار على الحرمان المدلول عليه بالطَّرد والرجم، وكذا مقامُ الإنظار مقتضٍ لترتيب الإخبار بالإنظار على الاستنظار، وقد طبَّق الكلام عليه في تينكَ السورتين، ووُفِّي كلٌّ من مقامَي الحكاية والمحكيِّ جميعاً حظَّهُ، وأمَّا هاهنا فحيثُ اقتضى مقامُ الحكاية مجرَّدَ الإخبار بالاستنظار والإنظار، سيقَت الحكايةُ على نهج الإيجاز والاختصار، من غير تعرُّضٍ لكيفيَّةِ كلٍّ منهما عند المخاطبة والجواب، ولا يلزمُ أنْ لا يكونَ ذلك نقلاً للكلام على ما هو عليه ولا مطابقاً لمقتضى المقام، فالذي يجبُ اعتباره في نقل الكلام إنَّما هو أصلُ معناه ونفسُ مدلوله، وأمَّا كيفيَّةُ الإفادة فقد تُراعى وقد لا تُراعى حسب الاقتضاء، ولا يَقدحُ في أصلِ الكلام تجريدُه عنها، بل قد تُراعى عند نقله كيفيَّاتٌ لم يراعها المتكلِّمُ أصلاً، بل قد لا يَقدرُ على مراعاتها، وجميعُ المقالاتِ المحكيَّة في الآيات من ذلك القبيل، وإلَّا لما كان الكثيرُ منها معجزاً، وملاكُ الأمر في المطابقة مقامُ الحكاية، وأمَّا مقام المحكيِّ فإنْ كان مقتضاهُ موافقاً

لذلك، وُفِّيَ كلٌّ منهما حقَّه كما في السورتين، وإلَّا لا، كما فيما هنا[1]. فليفهم.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كنظائره ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الفاءُ لترتيبِ مضمون الجملة التي بعدُ على الإنظار، والباءُ إمَّا للقسم أو للسببيَّة. و«ما» على التقديرين مصدريَّةٌ، والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «أقسم».

وقيل: إنَّه على تقدير السببيَّة متعلِّقٌ بما بعدَ اللام. وفيه أنَّ لها الصدرَ على الصحيح، فلا يعملُ ما بَعدها فيما قبلَها.

وجوَّز بعضُهم كون «ما» استفهاميةً لم يحذف ألفها، وأنَّ الجارَّ متعلِّقٌ بـ «أغويتني». ولا يخفَى ضعفُه.

والإغواءُ خَلقُ الغيِّ، وأصلُ الغيِّ الفساد، ومنه غَوِيَ الفصيلُ وغَوَى: إذا بشم[2] وفسدتْ معدتُه. وجاء بمعنى الجهل من اعتقاد فاسدٍ، كما في قوله سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢] وبمعنى الخيبة، كما في قوله:

فمن يلقَ خيراً يحمدِ الناسُ أمرَه ... ومن يغوِ لا يعدَمْ على الغَيِّ لائما[3]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

واستعمِل بمعنى العذاب مجازاً بعلاقة السببيَّة. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ولا مانعَ عند أهل السنة أنْ يُراد بالإغواءِ هنا خَلْقُ الغيِّ بمعنى الضلال، أي: بما أضللتني، وهو المرويُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما. ونسبةُ الإغواء بهذا المعنى إلى الله عزَّ وجلَّ ممَّا يقتضيه عمومُ قوله سبحانه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

والمعتزلةُ يأبونَ نسبةَ مثل ذلك إليه سبحانه، وقالوا في هذا تارةً: إنَّه قولُ الشيطان، فليس بحجَّة. وأوَّلوه أخرى بأنَّ الإغواءَ النسبةُ إلى الغيِّ، كأكْفَرَه إذا نسبَه إلى الكفر. أو إنَّه بمعنى إحداث سبب الغَيِّ وإيقاعه، وهو الأمرُ بالسجود.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٢١٨.

(٢) البَشَم: التخمة. القاموس (بشم).

(٣) قائله المرقِّشُ الأصغر، وهو في المفضليات ص٢٤٧، والشعر والشعراء ١/ ٢١٥.

وقال بعضهم: إنَّ الغيَّ هنا بمعنى الخيبة، أي: بما خيبتَه من رحمتك. أو الهلاك، أي: بما أهلكته بلعنك إيَّاه وطردك له. والذي دعاهم إلى هذا كلِّه عدمُ قولهم بأنَّ الله تعالى خالقُ كلِّ شيء، وأنَّه سبحانه لا خالقَ غيره، ولم يكفِهم ذلك حتى طعنوا بأهل السنَّة القائلين بذلك، وما الظنُّ بطائفةٍ ترضى لنفسها من خفايا الشرك بما لم يسبق به إبليسُ عليه اللعنة، نعوذُ بالله سبحانه وتعالى من التعرُّض لسخطه.

نعم الإغواءُ بمعنى الترغيب بما فيه الغواية والأمرِ به ـ كما هو مرادُ اللعين من قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص:٨٢] ـ ممَّا لا يجوزُ من الله تعالى شأنه كما لا يخفى.

ثمَّ إنْ كانت الباء للقسم يكونُ المقسَم به صفةً من صفات الأفعال، وهو مما يقسَم به في العرف، وإنْ لم تُجرِ الفقهاء به أحكام اليمين. ولعلَّ القسم وقع من اللعين بهما جميعاً، فحُكي تارةً قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر.

وإنْ كانت سببيَّةً فالقسم بالعزة، أي: فبسبب إغوائك إيَّاي لأجلهم أقسم بعزتك: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لآدم عليه السلام وذريته ترصُّداً بهم كما يقعدُ القطَّاعُ للسابلة ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ الموصلَ إلى الجنَّة، وهو الحقُّ الذي فيه رضاك.

أخرج أحمد والنسائيُّ وابنُ حبان والطبرانيُّ والبيهقي في «شعب الإيمان» عن سَبْرَة بن الفاكه[١] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الشيطانَ قعدَ لابن آدم في طرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذرُ دينَك دينَ آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعدَ له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجرُ وتذرُ أرضَك وسماءك وإنَّما مثلُ المهاجر كالفرس في طِوَلِه[٢]؟. فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: هو جَهْدُ النفس والمال. فتقاتلُ فتُقتل، فتنكحُ المرأةُ، ويقسمُ المال، فعصاه

(١) المخزومي، ويقال: ابن أبي الفاكه. صحابيٌّ نزل الكوفة. الإصابة ٤/ ١٢٠.
(٢) قال السندي في حاشيته على مسند أحمد: الطِّوَل بكسر الطاء وفتح الواو، وهو الحبل الذي يُشَدُّ طرفه إلى وتد، والآخر في يد الفرس، وهذا من كلام الشيطان، ومقصوده أن المهاجر يصير كالمقيَّد في بلاد الغربة، لا يدور إلا في بيته، ولا يخالطه إلَّا بعض معارفه، فهو كالفرس في طِوَلٍ لا يدور ولا يرعى إلا بقدره، بخلاف أهل البلاد، فإنهم مبسوطون لا ضيق عليهم، واحدهم كالفرس المرسل.

فجاهد» ثم قال ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فماتَ أو وقصتهُ دابَّته فماتَ، كان حقًّا على الله تعالى أنْ يدخلَه الجنَّة»[1]. ولعل الاقتصارَ منه ﷺ على هذه المذكورات للاعتناء بشأنها، والتنبيهِ على عظم قدرِها؛ لما أنَّ المقامَ قد اقتضى ذلك، لا للحصر.

ونظيرُ ذلك ما روي عن ابن عباس وابن مسعود ﵄ وغيرهما من تفسير الصراط المستقيم بطريق مكَّة، والكلامُ من باب الكناية أو التمثيل.

ونصب الصراط إمَّا على أنَّه مفعولٌ به بتضمين «أقعُدَنَّ» معنى أَلْزَمَنَّ، أو على نزع الخافض، أي: على صراطك، كقولك: ضُرِبَ زيدٌ الظهرَ والبطنَ، أو على الظرفيَّة، وجاء نصبُ ظرف المكان المختصِّ عليها قليلاً، ومن ذلك في المشهور قوله:

لَدْنٌ بهزِّ الكفِّ يَعْسِلُ متنُه ... فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ[2]

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ أي: من الجهات الأربع التي يعتاد هجومُ العدوِّ منها، والمراد: لأسوِّلنَّ لهم ولأضلنَّهم بقدرِ الإمكان، إلَّا أنَّه شبهَ حال تسويله ووسوستِه لهم كذلك بحالِ إتيان العدوِّ لمن يعاديه من أيِّ جهةٍ أمكنته، ولذا لم يذكر الفوق والتحت، إذ لا إتيان منهما، فالكلام من باب الاستعارة التمثيليَّة، و«لأقعدنَّ لهم» - على ما قيل - ترشيحٌ لها.

وبعضهم لم يُخرج الكلامَ على التمثيل، واعتذرَ عن ترك جهة الفوق بأنَّ الرحمةَ تنزلُ منها، وعن تركِ جهة التحت بأنَّ الإتيان منها يوحشُ، والاعتذارُ عن

---

(١) مسند أحمد (١٥٩٥٨)، والمجتبى للنسائي ٦/ ٢١، وصحيح ابن حبان (٤٥٩٣)، والمعجم الكبير للطبراني (٦٥٥٨)، وشعب الإيمان للبيهقي (٤٢٤٦). وقد حسن إسناده الحافظ ابن حجر في الإصابة ٤/ ١٢٠.

(٢) البيت لساعدة بن جُؤَيَّة، وهو في الكتاب ١/ ٣٦، وشرح أشعار الهذليين ٣/ ١١٢٠، وخزانة الأدب ٣/ ٨٣. وجاء في شرح أشعار الهذليين: لذٌّ. بدل: لدن.
قال الأعلم الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص٧٣: وصف في البيت رمحاً ليِّنَ الهزِّ، فشبه اضطرابه في نفسه أو في حال هزِّه بعسَلَان الثعلب في سيره. والعَسَلان: سيرٌ سريعٌ في اضطراب، واللدن: الناعم الليِّن. ويروى: لذٌّ، أي: مستلذٌّ عند الهزِّ للينه.

الأول بما ذُكر أخرجه غيرُ واحدٍ عن ابن عباس[١] رضي الله عنهما، ورُوي أيضاً عن عكرمة والشعبيّ. والاعتذارُ عن الثاني نسبَه الطبرسيُّ[٢] إلى الحبر أيضاً. ولا يبعدُ على ذلك أنْ يكونَ الكلامُ تمثيلاً أيضاً، ويكون الفرقُ بين التوجيهين بأنَّ تركَ هاتين الجهتين على الأوَّل لعدمهما في الممثَّلِ به، وعلى الثاني لعدمهما في الممثَّل.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ «من بين أيديهم» من قبل الآخرة؛ لأنَّها مستقبلة آتيةٌ، وما هو كذلك كأنَّه بين الأيدي، و«من خلفهم» من قِبَل الدنيا؛ لأنَّها ماضيةٌ بالنسبة إلى الآخرة، ولأنَّها فانيةٌ متروكةٌ مخلَّفةٌ. و«عن أيمانهم وعن شمائلهم» من جهةِ حسناتهم وسيئاتهم[٣].

وتفسيرُ الأيمان بالحسنات والشمائل بالسيئات؛ لأنهم يجعلونَ المحبوبَ في جهة اليمين، وغيرَه في جهة الشمال، كما قال:

بُثَيْنُ أفي يُمْنَى يديك جَعَلْتِني فأفرحَ أم صيَّرتِني في شمالكِ[٤]

وقال الأصمعيُّ: يقال: هو عندنا باليمين، أي بمنزلةٍ حسنة، وبالشمال على عكس ذلك، والكلامُ على هذا يجوز أنْ يكونَ فيه مجازاتٌ أو استعاراتٌ أو كنايات.

ونظيرُ هذا ما قيل: «من بين أيديهم»: من حيث يعلمون ويقدرُون على التحرُّز عنه، و«من خلفهم»: من حيثُ لا يعلمون، و«عن أيمانهم وعن شمائلهم»: من حيثُ يتيسَّر لهم أنْ يعلموا ويتحرَّزوا، ولكن لم يفعلوا لعدم تيقُّظهم واحتياطهم، ومن حيثُ لا يتيسَّر لهم ذلك.

وقال بعضُ حكماء الإسلام: إنَّ في البدن قوًى أربعاً:

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ١٠١.

(٢) في مجمع البيان ٨/ ٢٥.

(٣) الدر المنثور ٣/ ٧٣، وهو في تفسير الطبري ١٠/ ٩٦-٩٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٤٤-١٤٤٥.

(٤) البيت لابن الدمينة، وهو في ديوانه ص١٧، وجاء فيه، وفي دلائل الإعجاز ص٩٠ وفي حاشية الشهاب ٤/ ١٥٦ ـ وعنه نقل المصنف ـ: أبيني. بدل: بثين.

القوَّة الخيالية[1] التي تجتمعُ فيها مثل المحسوسات، وموضعُها البطنُ المقدَّم من الدماغ، وإليها الإشارة بقوله: «من بين أيديهم».

والقوَّة الوهمية التي تحكم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة للمحسوسات، ومحلُّها البطنُ المؤخَّر من الدماغ، وإليها الإشارةُ بقوله: «ومن خلفهم».

والقوَّة الشهوانيَّةُ، ومحلُّها الكبد، وهو عن يمينِ الإنسان، وإليها الإشارةُ بقوله: «وعن أيمانهم».

والقوة الغضبيَّةُ، ومحلُّها القلبُ الذي هو في الشِّقِّ الأيسر، وإليها الإشارةُ بقوله: «وعن شمائلهم». والشيطانُ ما لم يستعنْ بشيءٍ من هذه القوى لا يقدرُ على إلقاء الوسوسة.

وهذا عندي نوعٌ من الإشارة كما لا يخفى[2]. وقيل غير ذلك.

وإنما عدَّى الفعلَ إلى الأوَّلين بحرف الابتداء؛ لأنَّه منهما متوجِّهٌ إليهم، وإلى الآخِرَين بحرف المجاوزة؛ فإنَّ الآتيَ منهما كالمنحرفِ عنهم المارِّ على عرضهم، ونظيره قولُهم: جلست عن يمينه.

وذكر القطبُ في بيان وجهِ ذلك ما بناه على ما قاله بعضُ حكماء الإسلام، وهو أنَّ «مِن» للاتصال، و«عن» للانفصال، وأثرُ الشيطان في قوتي الدماغ حصولُ العقائد الباطلة، كالشرك والتشبيه والتعطيل، وهي مرتسمةٌ في النفس الإنسانيَّة متَّصلةٌ بها، وفي الشهوة والغضب حصولُ الأعمال السيئةِ الشهوانيَّة والغضبيَّة، وهي تنفصلُ عن النفس وتنعدم، فلهذا أورد في الجهتين الأوليين «من» الاتصاليَّة، وفي الأخريين «عن» الانفصالية.

وقيل: خصَّ اليمين والشمال بـ «عن»؛ لأنَّ ثَمةَ ملكين يقتضيان التجاوزَ عن ذلك. وفيه نظرٌ لا يخفى.

---

(١) في الأصل و(م): الخالية. والمثبت من غرائب القرآن ٨/ ٨٦، والبحر المحيط ٤/ ٢٧٦.

(٢) وقال أبو حيان في البحر ٤/ ٢٧٦ بعد أن نقل كلام حكماء الإسلام عن الرازي في تفسيره ١٤/ ٤١: وهو بعيدٌ عن مناحي كلام العرب والمتشرعين.

وادَّعى بعضُهم أنَّ الآيةَ كالدليل على أنَّ اللعينَ لا يمكنُه أنْ يدخلَ في بدن ابن آدم ويخالطَه، إذ لو أمكنَه ذلك لذكَرَه في باب المبالغة، وحديث: «إنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدم مجرى الدم»[1] من باب التمثيل، وقد يجابُ بأنَّ التمثيلَ اقتضى عدم الذكر، فتدبَّر.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: مطيعين، وإنَّما قال ذلك ظنًّا ـ كما رُوي عن الحسن وأبي مسلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] ـ لمَّا رأى أنَّ للنفس تسعَ عشرة قوَّةً؛ الحواسُّ الظاهرة، والباطنة، والشهوة، والغضب، والقوى السبع النباتية: الجاذبةُ، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغاذية، والنامية، والمولدة، وأنها بأسرِها تدعو النفسَ إلى عالم الجسم، وأنْ ليس هناك ما يدعو إلى عالم الأرواح إلَّا قوَّة واحدةٌ، وهي العقل، وما يصنع واحدٌ من متعدِّدٍ:

أرى ألفَ بانٍ لا يقومُ لهادمٍ[2] ... فكيف ببانٍ خلفَه ألفُ هادم[3]

وعن الجبائيّ أنَّه سمعَ ذلك من الملائكة، فقاله على سبيل القطع.

وقيل: إنَّه رآه قبلُ في اللوح المحفوظ.

ووجدَ إمَّا بمعنى: صادفَ، فينصبُ مفعولاً واحداً وهو «أكثرهم»، و«شاكرين» حالٌ. وإمَّا بمعنى: علمَ فينصبُ مفعولين ثانيهما «شاكرين». والجملةُ إمَّا معطوفةٌ على المقسَم عليه، وإمَّا مستأنفةٌ، وإنَّما لم يفرِّعها على ما تقدَّم؛ لأنَّ مضمونها بمقتضى الجبلَّة أيضاً، لا بمجرَّد إغوائه، ووجهُ التعبيرِ بالأكثر ظاهر.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما مرَّ غير مرَّة ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، أو من زمرة الملائكة، أو من السماء. الخلافُ السابق.

﴿مَذْءُومًا﴾ أي: مذموماً، كما رُوي عن ابن زيد. أو: مهاناً لعيناً، كما رُوي عن ابن عباس وقتادة، وفعله ذَأَم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٩)، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صفية ﵂.

(٢) في (م): بهادم.

(٣) هو للخليع الرقي، محمد بن أحمد، من ولد عبيد الله بن قيس الرقيات، كما في معجم الشعراء للمرزباني ص٤١٠.

وقرأ الزهريُّ: «مذُوْماً» بذالٍ مضمومةٍ وواوٍ ساكنة[١]، وفيه احتمالان؛ الأوَّل: أن يكون مخفَّفاً من المهموز بنقل حركة الهمزة إلى الساكن، ثمَّ حذفِها، والثاني: أنْ يكون من ذَام بالألف، كبَاع، وكان قياسه على هذا مذيم كمَبيع، إلَّا أنَّه أُبدِلت الواو من الياء على حدِّ قولهم: مَكول في مكيل، مع أنَّه من الكيل.

ونصبهُ على الحال، وكذا قوله تعالى: ﴿مَّدْحُورًا﴾ وهو من الدحر بمعنى الطردِ والإبعاد. وجوِّزَ في هذا أنْ يكونَ صفةً.

واللام في قوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ على ما في «الدر المصون»[٢] موطِّئةٌ للقسم، و«من» شرطيَّة في محلِّ رفع مبتدأ.

وقوله عزَّ اسمه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ جوابُ القسم، وهو سادٌّ مسدَّ جواب الشرط، والخلافُ في خبرِ المبتدأ في مثل ذلك مشهور.

وجُوِّزَ أنْ تكون اللام لامَ الابتداء، و«من» موصولةٌ مبتدأ، صلتها «تبعك»، والجملة القسميَّة خبرٌ[٣].

وقرأ عصمةُ عن عاصم: «لِمَن» بكسر اللام[٤]، فقيل: إنَّها متعلِّقةٌ بـ «لأملأنَّ». ورُدَّ بأنَّ لام القسم لا يعملُ ما بَعدها فيما قبلها. وقيل: إنَّها متعلِّقةٌ بالذأمِ والدحر على التنازع وإعمالِ الثاني، أي: اخرج بهاتين الصفتين لأجل أتباعِك.

وقيل: إنَّ الجار والمجرور خبرُ مبتدأ محذوف يُقدَّرُ مؤخَّراً، أي: لِمَن اتَّبعك هذا الوعيدُ، ودلَّ عليه قولُه سبحانه: «لأملانَّ» إلخ، ولعلَّ ذلك مراد الزمخشري بقوله: إنَّ «لأملانَّ» في محلِّ المبتدأ، و«لمن تبعك» خبرُه[٥]. كما يرشدُ إليه بيانُ المعنى.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٢، والمحتسب ١/ ٢٤٣. وزاد ابن خالويه نسبتها للأعمش.
(٢) ٥/ ٢٧٣.
(٣) أي أن «لأملأن» جوابُ قسم محذوف بعد «من تبعك»، وهذه الجملة المكونة من القسم وجوابه هي خبر «مَن». البحر ٤/ ٢٧٧.
(٤) القراءات الشاذة ص٤٢.
(٥) الكشاف ٢/ ٧١.

و«منكم» بمعنى: منك ومنهم، فغلّبَ فيه المخاطب كما في قوله سبحانه: ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

ثمَّ إنّ الظاهر أنَّ هذه المخاطبات لإبليس عليه اللعنة كانت منه عزَّ وجلَّ من غير واسطة، وليس المقصود منها الإكرام والتشريف، بل التعذيب والتعنيف. وذهب الجبائيُّ إلى أنَّها كانت بواسطة بعض الملائكة؛ لأنَّ الله تعالى لا يكلِّم الكافر. وفيه نظر.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿الٓمٓصٓ﴾ الألف إشارةٌ الى الذات الأحديَّةِ، واللام إلى الذات مع صفة العلم، والميم إلى معنى محمد، وهي حقيقته، والصاد إلى صورتِه عليه الصلاة والسلام. وقد يقال: الألف إشارة إلى التوحيد، والميمُ إلى الملك، واللام بينهما واسطةٌ لتكونَ بينهما رابطة، والصادُ لكونه حرفاً كُرَيَّ الشكل قابلاً لجميع الأشكال ـ كما قال الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه[١] ـ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الأمرَ وإنْ ظهرَ بالأشكال المختلفة والصور المتعدِّدة، أوَّلُه وآخرُه سواء.

ولا يخفى لطفُ افتتاح هذه السورة بهذه الأحرف بناءً على ما ذكره الشيخُ قُدِّسَ سرُّه في «فتوحاته» من أنَّ لكلٍّ منها ما عدا الألف الأعراف، وأمَّا الألف فقد ذكر نفعنا الله تعالى ببركات علومه أنَّه ليسَ من الحروف عند من شمَّ رائحةً من الحقائق[٢]، لكن قد سمَّتهُ العامَّة حرفاً، فإذا قال المحقق ذلك فإنَّما هو على سبيل التجوُّز في العبارة[٣]. والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: ضيقٌ من حمله، فلا تسعه لِعظَمه، فتتلاشى بالفناء والوحدة والاستغراق في عين الجمع.

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليمكنك الإنذارُ والتذكيرُ، إذ بالاستغراقِ لا ترى إلَّا الحقَّ، فلا يتأتَّى منك ذلك.

---

(١) في الفتوحات المكية ١/ ٢٧٤ و٣١٣.

(٢) في الأصل: الحقيقة. والمثبت من (م) وهو الموافق للفتوحات المكية ١/ ٢٩٥.

(٣) في (م): العبادة.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ من قرى القلوب ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أفسدنا استعدادها ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ أي: بائتين على فرُشِ[١] الغفلة في ليل الشباب ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ تحتَ ظلالِ الأمل في نهار المشيب.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ هو عند كثيرٍ من الصوفيَّةِ اعتبارُ الأعمال، وذكروا أنَّ لسانَ ميزان الحقِّ هو صفةُ العدل، وإحدى كفَّتيه هو عالمُ الحسِّ، والكفَّةُ الأخرى هو عالم العقل، ﴿فَمَن﴾ كانت مكاسبُه من المعقولات الباقية، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الخيرية المقرونة بالنيَّة الصادقة ﴿ثَقُلَتْ﴾ أي: كانت ذا قدرٍ. وأفلح هو، أي: فاز بالنعيم الدائم، ﴿وَمَنْ﴾ كانت مقتنياتُه من المحسوسات الفانية، واللذَّات الزائلة، والشهوات الفاسدة، والأخلاق الرديئة ﴿خَفَّتْ﴾ ولم يُعتنَ بها، وخسرَ هو نفسه؛ لحرمانه النعيم وهلاكِهِ.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ إذ جعلناكم خلفاءَ فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ متعدِّدةً دون غيركم، فإنَّ له معيشةً واحدة؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ فيه ملكيَّةٌ وحيوانيَّةٌ وشيطانيَّةٌ، فمعيشةُ روحِه معيشةُ الملك، ومعيشةُ بدنه معيشةُ الحيوان، ومعيشةُ نفسِه الأمَّارة معيشةُ الشيطان. وله معايشُ غير ذلك، وهي معيشةُ القلب بالشهود، ومعيشةُ السِّرِّ بالكشوف، ومعيشةُ سرِّ السرِّ بالوصال.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ولو شكرتم ما رضيتم بالدون.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: ابتدأنا ذلك بخلق آدم عليه السلام وتصويرِه ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فإنَّه المظهرُ الأعظم، وفي الخبر: «خلق الله آدم على صورته»[٢] وفي رواية: «على صورة الرحمن»[٣].

﴿فَسَجَدُوا﴾ وانقادوا للحقِّ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ لنقصان بصيرته.

---

(١) في (م): فراش.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١)، وأحمد (٨١٧١).

(٣) أخرجه بهذه الرواية الحارث (٨٧٢ - بغية الباحث)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٣١٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٥١٧)، وابن خزيمة في التوحيد ص٣٨، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٠). وقد سلفت الروايتان ٢/ ٩٠- ٩١.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ أرادَ اللعينُ أنَّه من الحضرة الروحانيَّة، وأنَّ آدمَ عليه السلام ليس كذلك.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من تلك الحضرة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنَّ الكبرَ ينافيها ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الأذلاء بالميل إلى مقتضيات النفس.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ قسمٌ بما هو من صفاتِ الأفعال، ولم يكن محجوباً عنها، بل كان محجوباً عن الذات الأحديَّة ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو طريقُ التوحيد ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي: لأجتهدنَّ في إضلالهم، وقد تقدَّم ما قاله بعضُ حكماء الإسلام في ذلك، وفي تأويلاتِ النيسابوري[1] كلامٌ كثيرٌ فيه، وما قاله البعضُ أحسنه في هذا الباب.

وذكر بعضُهم لعدمِ التعرُّض لجهتَي الفوقِ والتحت وجهاً، وهو أنَّ الإتيان من الجهة الأولى غيرُ ممكنٍ له؛ لأنَّ الجهةَ العلويَّةَ هي التي تلي الروح، ويَرِدُ منها الإلهامات الحقَّةُ، والإلقاءات الملكيَّةُ، ونحو ذلك، والجهةُ السفليَّةُ يحصلُ منها الأحكام الحسيَّة، والتدابيرُ الجزئيَّةُ في باب المصالح الدنيويَّةِ، وذلك غيرُ موجبٍ للضلالة، بل قد يُنتَفعُ به في العلوم الطبيعيَّةِ والرياضيَّة. وفيه نظر.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[2] مستعملينَ ما خُلِقَ له لما خُلِق له.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ حقيراً ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ بالأنانية، ورؤيةِ غير الله تعالى، وارتكابِ المعاصي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فتبقونَ محبوسينَ في سجِّين الطبيعة، معذَّبين بنارِ الحرمان عن المراد، وهو أشدُّ العذاب، وكلُّ شيءٍ دونَ فراقِ المحبوب سهلٌ، وهو سبحانه حسبنا ونعم الوكيل.

❁ ❁ ❁

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ أي: وقلنا، كما وقع في سورة البقرة. فهذه القصَّة بتمامها معطوفةٌ على مثلها، وهو قوله سبحانه: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا﴾ على ما ذهبَ إليه غيرُ واحدٍ من المحققين. وإنَّما لم يعطفوه على ما بعد «قال»، أي: قال يا إبليس

---

(١) في غرائب القرآن ٨/ ٨٦-٨٧.

(٢) جاء في هامش (م) ما نصه: إلى هنا ربع القرآن ولله الحمد. اهـ منه.

اخرج، ويا آدم اسكن؛ لأنَّ ذلك في مقام الاستئناف والجزاء لمَا حلف عليه اللعين، وهذا من تتمَّة الامتنانِ على بني آدم والكرامة لأبيهم. ولا على ما بعد: «قلنا» لأنَّه يؤولُ إلى: قلنا للملائكة: يا آدم. وادَّعى بعضُهم أنَّ الذي يقتضيه الترتيبُ العطفُ على ما بعد: «قال»، وبيَّنه بما له وجهٌ، إلَّا أنَّه خلافُ الظاهر.

وتصديرُ الكلام بالنداء؛ للتنبيه على الاهتمام بالمأمور به، وتخصيصُ الخطاب بآدم عليه السلام للإيذان بأصالته بالتلقِّي وتعاطي المأمور به.

و«اسكن» من السُّكنى، وهو اللبث والإقامة والاستقرار، دون السكون الذي هو ضدُّ الحركة، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك وفي قوله سبحانه: ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

وتوجيهُ الخطاب إليهما في قوله تعالى: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ لتعميم التشريف، والإيذانِ بتساويهما في مباشرة المأمور به، فإنَّ حواء أسوةٌ له عليه السلام في حقِّ الأكل، بخلاف السكنى فإنها تابعةٌ له فيها، ولتعليق النهي الآتي بهما صريحاً، والمعنى: فكلا منها حيث شئتما، كما في «البقرة»، ولم يذكر ﴿رَغَدًا﴾ [البقرة: ٣٥] هنا ثقةً بما ذكر هناك.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ مبالغةٌ في النهي عن الأكل منها. وقُرئ: «هذي»(١)، وهو الأصلُ إلَّا أنَّه حذفت الياء وعُوِّضَ عنها الهاء، فهي هاءُ عوضٍ لا هاءُ سكتٍ. قال ابن جنِّي(٢): ويدلُّ على أنَّ الأصل هو الياء قولُهم في المذكَّر: ذا، والألف بدلٌ من الياء، إذ الأصلُ ذَيّ بالتشديد، بدليل تصغيره على ذَيّا، وإنَّما يصغَّرُ الثلاثي دون الثنائي كـ «ما» و«من»، فحُذِفت إحدى اليائين تخفيفاً، ثمَّ أبدلت الأخرى ألفاً؛ كراهةَ أن يشبه آخره آخر «كي».

﴿فَتَكُونَا﴾ أي: فتصيرا ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: الذين ظلَموا أنفسَهم. و«تكونا» يحتملُ الجزمَ على العطف على «تقربا»، والنصبَ على أنَّه جوابُ النهي.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: فَعَلَ الوسوسةَ لأجلهما، أو أَلْقَى إليهما الوسوسةَ، وهي في الأصل الصوتُ الخفيُّ المكرَّرُ، ومنه قيل لصوتِ الحَلْي: وسوسة، وقد

---

(١) هي قراءة ابن محيصن، كما في المحتسب ١/ ٢٤٤.

(٢) في المحتسب ١/ ٢٤٤.

كثرت فَعْلَلة في الأصوات، كهَيْنَمة، وهمهَمة، وخَشْخشَة. وتطلق على حديث النفس أيضاً، وفعلُها وَسْوَس، وهو لازمٌ، ويقال: رجل مُوَسوِسٌ، بكسر الواو ولا تُفتح، على ما قاله ابنُ الأعرابيّ. وقال غيره: يقال: مُوَسْوَسٌ - بالفتحِ - ومُوَسْوَسٌ إليه، فيكون الأول على الحذفِ[1] والإيصال.

والكلامُ في كيفيَّةِ وسوسة اللعين قد تقدَّمتِ الإشارة إليه في سورة البقرة.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي: ليظهرَ لهما، واللام إمَّا للعاقبة؛ لأنَّ الشيطانَ لم يقصد بوسوسته ذلك ولم يخطر له ببال، وإنَّما آل الأمرُ إليه، وإمَّا للتعليل على ماهو الأصلُ فيها. ولا يبعدُ أنَّه أرادَ بوسوسته أنْ يسوءهما بانكشافِ عورتيهما، ولذلك عبَّر عنهما بالسوأة، ويكون هذا مبنيَّاً على الحدس، أو العلم بالسماع من الملائكة، أو الاطِّلاع على اللوح.

قيل: وفي ذلك دليلٌ على أنَّ كشفَ العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجةٍ قبيحٌ مستهجنٌ في الطباع.

﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ أي: ما غُطِّيَ وسُتِرَ عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدُهما من الآخر، وكانت مستورةً بالنور على ما أخرجَهُ الحكيمُ الترمذيُّ وغيرُه عن وهب بن منبه[2]. أو بلباسٍ كالظفر، على ما أخرجَه ابن أبي حاتم عن السُّدِّيّ[3].

وجمع السوآت على حدِّ: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] واعتبار الأجزاء بعيدٌ.

والمتبادر من هذا الكلام حقيقتُه. وقيل: هو كنايةٌ عن إزالة الحرمة، وإسقاط الجاه.

و«ووري» بواوين ماضي وارى، كضارَبَ وضُورِب، أُبدلت ألفه واواً، فالواو الأولى فاءُ الكلمة والثانية زائدة.

---

(١) أي: على حذف: له. انظر حاشية الشهاب ٤/ ١٥٨.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٧٤، وأخرجه الطبري ١٠/ ١١٤، وإسناده إلى وهب صحيح، كما ذكر ابن كثير في تفسيره ٣/ ٣٩٨، وينظر الأصل الثالث والخمسون والمئة من نوادر الأصول.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٥٠ (٨٢٨٨).

وقرأ عبد الله: «أُوري» بالهمزة[1]؛ لأنَّ القاعدة إذا اجتمعَ واوان في أوَّل كلمةٍ، فإن تحرَّكت الثانية، أو كان لها نظيرٌ متحرِّك، وجبَ إبدالُ الأولى همزةً تخفيفاً، مثالُ الأول: أُوَيْصِل وأَوَاصِل في تصغيرِ واصِل وتكسيره[2]، ومثال الثاني: أُوْلى، أصله: وُوْلَى، فأبدِلت الأولى لمَّا تحرَّكت الثانيةُ في الجمع، وهو أُوَل، فإنْ لم يتحرَّك بالفعل أو القوة جازَ الإبدالُ وعدمُه كما هنا، قاله الشهابُ نقلاً عن النحاة[3].

وقُرِئ: «سوأتهما» بالإفراد والهمزة على الأصل. و«سوَّتهما» بإبدال الهمزة واواً، وإدغام الواو في الواو. وقُرِئ: «سَوَاتِهما» بالجمعِ وطرح حركة الهمزة على ما قبلَها وحذفها، و«سوَّاتهما» بالطرحِ وقلبِ الهمزة واواً والإدغام[4].

﴿وَقَالَ﴾ عطفٌ على «وسوس» بطريق البيان ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: الأكل منها ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ استثناءٌ مفرَّغ من المفعول لأجله بتقدير مضافٍ، أو حذفِ حرف النفي ليكون علَّة، أي: كراهةَ[5] أن تكونا، أو: لئلَّا تكونا ملكين. ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ أي: الذين لا يَموتون أصلاً، أو الذين يَخلدون في الجنَّة.

وقرأ ابنُ عباس ويحيى بن كثير: «مَلِكين» بكسر اللام[6]. قال الزجَّاج[7]: ويشهدُ لهذه القراءة قوله تعالى حكايةً عن اللعين: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

واستُدِلَّ بالآية على أفضليَّةِ الملائكة، حيثُ إنَّ اللعين قال ذلك ولم ينكَر عليه،

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٢، والبحر المحيط ٤/ ٢٧٩.
(٢) في (م): وتصغيره.
(٣) حاشية الشهاب ٤/ ١٥٨.
(٤) تنظر هذه القراءات في المحتسب ١/ ٢٤٣، والكشاف ٢/ ٧٢، والبحر المحيط ٤/ ٢٧٩، وحاشية الشهاب ٤/ ١٥٨.
(٥) في (م): كراهية.
(٦) أخرجها عنهما الطبري ١٠/ ١٠٨. وانظر البحر المحيط ٤/ ٢٧٩.
(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٣٢٦.

وارتكبَ آدمُ عليه السلام المنهيَّ عنه طمعاً فيما أشارَ إليه الشيطانُ من الصيرورة ملكاً، فلولا أنَّه أفضلُ لم يرتكبه.

وأجيبَ بأنَّ رغبتَهما إنَّما كانت في أنْ يحصلَ لهما أوصافُ الملائكة من الكمالات الفطريَّة، والاستغناءِ عن الأطعمة والأشربة ونحو ذلك، ونحن لا نمنعُ أفضليَّة الملائكةِ من هذه الأوجه، وإنَّما نمنعُ أفضليتهم من كلِّ الوجوه، والآية لا تدلُّ عليه.

وأيضاً قد يقال: إنَّ رغبتَهما كانت في الخلودِ فقط، وفي آية «طه» ما يُشير إليه، حيثُ عقَّب فيها الترغيبَ في الخلود بالأكل.

واعتُرِضَ بأنَّ رغبتهما في الخلود تستلزمُ الكفرَ؛ لما يلزمُ ذلك من إنكار البعث والقيامة، ومن ثَمَّ قال الحسنُ لعمرو بن عبيد لمَّا قال له: إنَّ آدمَ وحواءَ هل صدَّقا قول الشيطان؟: معاذَ الله تعالى، لو صدَّقا لكانا من الكافرين.

وأجيبَ بأنَّ المرادَ من الخلود طولُ المكث، والتصديقُ به ليس بكفر، ولو سُلِّم أنَّ المرادَ الدوامُ الأبديُّ فلا نسلِّم أنَّ اعتقادَ ذلك إذ ذاك كفرٌ، لأنَّ العلمَ بالموتِ والبعث بعدَه يتوقَّفُ على الدليل السمعيِّ، ولعلَّه لم يصل إليهما وقتئذٍ.

وادَّعى بعضُهم أنَّ المرادَ بالخلود الخلودُ العارضُ بعدَ الموت بدخول الجنَّة، وحينئذٍ لا إشكال، إلَّا أنَّه خلافُ الظاهر.

وعن السيد المرتضى في معنى الآية أنَّه قال: إنَّ اللعين أوهمهما أنَّ المنهيَّ عن تناول الشجرة الملائكةُ والخالدون خاصَّة دونهما، كما يقول أحدنا لغيره: ما نُهيتَ عن كذا إلَّا أنْ تكون فلاناً، يريدُ أنَّ المنهيَّ هو فلانٌ دونك[1]. وهو كما ترى.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ أقسمَ لهما، وإنَّما عبَّر بصيغةِ المفاعلة للمبالغة؛ لأنَّ من يباري أحداً في فعلٍ يجدُّ فيه، فاستعمل في لازمه.

وقيل: المفاعلة على بابها، والقَسَم وقع مِنَ الجانبين، لكنَّه اختلف متعلَّقه، فهو أقسمَ لهما على النصح، وهما أقسما له على القَبول.

---

(١) أمالي المرتضى ٢/ ٣٣٦.

وتُعقِّب بأنَّ هذا إنَّما يتمُّ لو جرَّدَ المقاسمةَ عن ذكرِ المقسَم عليه، وهو النصيحة، أمَّا حيثُ ذكر، فلا يتمُّ إلَّا أنْ يقال: سمَّى قَبول النصيحة نصيحةً للمشاكلة والمقابلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ [الأعراف:١٤٢]: إنَّه سمى التزام موسى عليه السلام الوفاءَ والحضور للميعاد ميعاداً، فأسند التعبيرَ بالمفاعلة.

وقيل: قالا له: أتقسمُ بالله تعالى إنَّك لمن الناصحين، وأقسمَ لهما، فجعلَ ذلك مقاسمةً. وعلى هذا فيكون ـ كما قال ابن المنير ـ في الكلام لفٌّ؛ لأنَّ آدمَ وحواء عليهما السلام لا يقسمان بلفظ التكلم، بل بلفظ الخطاب(١).

وقيل: إنَّه إلى التغليب أقرب. وقيل: إنَّه لا حاجةَ إليه، بأنْ يكون المعنى: حَلَفَا عليه بأنْ يقولَ لهما: إنِّي لكما لمن الناصحين.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي: حطَّهما عن درجتهما، وأنزلهما عن رتبةِ الطاعة إلى رتبة المعصية، فهو من دلَّى الدلوَ في البئر، كما قاله أبو عبيدة وغيره.

وعن الأزهريِّ(٢) أنَّ معناه: أطمعهما، وأصلُه من تدليةِ العطشان شيئاً في البئر، فلا يجدُ ما يشفي غليلَه.

وقيل: هو من الدَّالَّة، وهي الجرأةُ، أي(٣): فجرَّأهما. كما قال:

أظنُّ الحلمَ دلَّ عليَّ قومي ... وقد يُستجهَل الرجلُ الحليم(٤)

فأبدلَ أحدَ حرفي التضعيف ياء(٥).

﴿بِغُرُورٍ﴾ أي: بما غرَّهما به من القَسَم، أو متلبِّسين به، فالباء للمصاحبة، أو الملابسة، والجارُّ والمجرور حالٌ من الفاعل أو المفعول. وجعل بعضُهم الغرور مجازاً عن القَسَم؛ لأنَّه سببٌ له. ولا حاجةَ إليه.

---

(١) الانتصاف ٢/ ٧٢.
(٢) في تهذيب اللغة ١٤/ ١٧٢.
(٣) في (م): في.
(٤) هو لقيس بن زهير. انظر الأغاني ١٧/ ٢٠٦ والأمالي ١/ ٢٦١.
(٥) والأصل: دلَّلهما، فاستُثقل توالي ثلاثة أمثال فأبدل الثالث حرف لين، كقولهم: تظنَّيت في تظننت. الدر المصون ٥/ ٢٨٢.

وسببُ غرورهما على ما قاله غيرُ واحدٍ أنَّهما ظنَّا أنَّ أحداً لا يُقسِمُ بالله تعالى كاذباً. ورووا في ذلك خبراً[١]. وظاهر هذا أنَّهما صَدَّقا ما قاله، فأقدما على ما نُهيا عنه.

وذهب كثيرٌ من المحقِّقين أنَّ التصديقَ لم يوجد منهما لاقطعاً ولا ظنّاً، وإنَّما أقدما على المنهيِّ عنه لغلبةِ الشهوة، كما نجدُ من أنفسنا أنْ نُقْدِمَ على الفعل إذا زَيَّن لنا الغيرُ ما نشتهيه، وإنْ لم نعتقد أنَّ الأمرَ كما قال.

ولعلَّ كلامَ اللعين على هذا من قبيل المقدِّمات الشعريَّة أثارَ الشهوة حتى غلبت، ونُسي معها النهيُ، فوقعَ الإقدامُ من غير رويَّةٍ.

وقال القطب: يمكنُ أنْ يقال: إنَّ اللعينَ لما وَسوسَ لهما بقوله: «ما نهاكما» إلخ، فلم يقبلا منه، عَدَل إلى اليمين على ما قاله سبحانه، وقاسمهما فلم يصدِّقاه أيضاً، فعدلَ بعد ذلك إلى شيءٍ آخر، وكأنَّه أشارَ إليه سبحانه بقوله تعالى: «فدلاهما بغرور»، وهو أنَّه شغلَهما باستيفاءِ اللذَّات حتى صارا مستغرقين بها، فنُسيَ النهيُ، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥] وجعل العتابَ الآتي على ترك التحفُّظ. فتدبَّر.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: أكلا منها أكلاً يسيراً ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ قال الكلبيُّ: تهافتَ عنهما لباسُهما، فأبصرَ كلٌّ منهما عورةَ صاحبه فاستحيا.

﴿وَطَفِقَا﴾ أخذا وجَعلا، فهو من أفعال الشروع، وكسرُ الفاء فيه[٢] أفصحُ من فتحها، وبه قرأ أبو السَّمَّال[٣].

﴿يَخْصِفَانِ﴾ أي: يَرقَعان ويَلزقان ورقةً فوق ورقة، وأصلُ معنى الخصفِ الخرزُ في طاقات النِّعال ونحوها بإلصاقِ بعضها ببعض. وقيل: أصلُه الضمُّ والجمعُ.

---

(١) يشير إلى ما أخرجه الطبري في تفسيره ١٠/ ١١١-١١٢ من قول ابن عباس، وفيه قول آدم: ما حسبت أن أحداً يحلفُ بك كاذباً.

(٢) ليست في الأصل.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٢، والكشاف ٢/ ٧٣، والبحر المحيط ٤/ ٢٨٠.

﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي: على سوآتهما، أو على بدنِهما، ففي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ. وقيل: الضميرُ عائدٌ على «سوءاتهما»[١].

﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ وكان ذلك بعضُ ورق التين، على ما روي عن قتادة. وقيل: الموز.

وقرأ الزهريُّ: «يُخْصِفان» من أَخْصَفَ[٢]، وأصلُه خصف إلَّا أنَّه ـ كما قال الجَارَبَرْدِيُّ[٣] ـ نُقل إلى أخصف للتعدية، وضُمِّنَ الفعلُ لذلك معنى التصيير، فصارَ الفاعل في المعنى مفعولاً للتصيير، فاعلاً لأصل الفعل، فيكون التقدير: يُخْصِفان أنفسَهما ـ أي: يجعلان أنفسَهما خاصفين ـ عليهما من ورقِ الجنة، فحذفَ مفعول التصيير. وجَوَّزَ بعضهم كون خصفَ وأخصف بمعنى.

وقرأ الحسنُ: «يَخِصِّفان» بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصَّاد من الافتعال[٤]، وأصله يختصفان، سكِّنت التاء وأدغمت، ثمَّ كسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وقرأ يعقوب بفتحها[٥].

وقرئ: «يُخُصِّفان»[٦]، من خَصَّف المشدَّد بفتح الخاء، وقد ضُمَّتْ إتْباعاً للياء، وهي قراءةٌ عَسِرةُ النطق.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ بطريق العتاب والتوبيخ ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ تفسيرٌ للنداء، فلا محلَّ له من الإعراب، أو معمولٌ لقولٍ محذوف، أي: وقال، أو قائلاً: ألم أنهكما ﴿عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ إشارة إلى الشجرة التي نُهيا عن قربانها. والتثنيةُ لتثنيةِ المخاطب.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: وفيه ما لا يخفى. اهـ منه.

(٢) المحتسب ١/ ٢٤٥، والبحر المحيط ٤/ ٢٨٠.

(٣) هو أحمد بن الحسن الجارَبَرْدي نزيل تبريز، شرح «منهاج» البيضاوي، و«تصريف ابن الحاجب» وغيرهما. (ت ٧٤٦هـ).
طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٨، والبدر الطالع للشوكاني ١/ ٤٧.

(٤) البحر المحيط ٤/ ٢٨٠.

(٥) البحر المحيط ٤/ ٢٨٠. وقراءة يعقوب المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

(٦) هي قراءة عبد الله بن زيد كما في البحر المحيط ٤/ ٢٨٠.

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾ عطفٌ على «أنهكما»، أي: ألم أقل لكما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ظاهرُ العداوة، وهذا ـ على ما قيل ـ: عتابٌ وتوبيخٌ على الاغترار بقول العدوِّ، كما أنَّ الأوَّل عتابٌ على مخالفةِ النهي.

ولم يحك هذا القول هاهنا، وقد حُكي في سورة طه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ الآية [١١٧].

و«لكما» متعلِّقٌ بـ «عدو» لما فيه من معنى الفعل، أو بمحذوفٍ وقعَ حالاً منه.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على أنَّ مطلقَ النهي للتحريم؛ لما فيها من اللومِ الشديد مع الندم والاستغفار المفهومِ ممَّا يأتي. والأكثرون على أنَّ النهيَ هنا للتنزيه، وندمَهما واستغفارَهما على ترك الأَوْلى، وهو في نظرهما عظيمٌ، وقد يُلَامُ عليه أشدَّ اللوم إذا كان فاعلُه من المقرَّبين.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ أي: ضررناها بالمعصية، وقيل: نقصناها حظَّها بالتعرُّضِ للإخراج من الجنَّة، وحذفا حرفَ النداء مبالغةً في التعظيم؛ لما أنَّ فيه طرفاً من معنى الأمر.

﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا﴾ ذلك بعدم العقاب عليه ﴿وَتَرۡحَمۡنَا﴾ بالرِّضا علينا.

وقيل: المراد: وإن لم تَستُر علينا بالحفظ عمَّا يتسبَّبُ نقصانَ الحظِّ، وترحمنا بالتفضُّل علينا بما يكونُ عوضاً عما فاتنا.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ جوابُ قسمٍ مقدَّر دلَّ على جواب الشرط السابق على ما قيل.

واستُدِلَّ بالآية على أنَّ الصغائر يعاقبُ عليها مع اجتناب الكبائر إن لم يغفر الله تعالى.

وذهبت المعتزلةُ إلى أنَّ اجتنابَ الكبائر يوجبُ تكفيرَ الصغائر وإنْ لم يتب العبدُ منها، وجعلوا لذلك ما ذُكِر هنا جارياً على عادةِ الأولياء والصالحين في تعظيمِهم الصغيرَ من السيئات، وتصغيرِهم العظيمَ من الحسنات، فلا ينافي كونَهما مغفوراً لهما. والكثيرُ من أهل السنة جعلوه من باب هضم النفسِ؛ بناءً على أنَّ ما وقعَ كان عن نسيانٍ، ولا كبيرةَ ولا صغيرةَ معه.

وادَّعى الإمام أنَّ ذلك الإقدامَ كان صغيرةً، وكان قبلَ نبوَّة آدم عليه السلام؛ إذ لا يجوزُ على الأنبياء عليهم السلام بعد النبوَّة كبيرةٌ ولا صغيرةٌ[1]. والكلام في هذه المسألة مشهور.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما مرَّ مراراً: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ المأثورُ عن كثيرٍ من السَّلف أنَّه خِطابٌ لآدم وحواء عليهما السلام وإبليسَ عليه اللعنة، وكَرَّر الأمرَ له تبعاً لهما؛ إشارةً إلى عدم انفكاكه عن جنسهما في الدنيا، أو أنَّ الأمرَ وقع مفرَّقاً، وهذا نقلٌ له بالمعنى، وإجمالٌ له كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقيل: إنَّ الأمرَ بالنسبة إلى اللعين غيرُ ما تقدَّم، فإنَّه أمرٌ له بالهبوط من حيث وسوس.

واختار الفرَّاءُ[2] كونَه خطاباً لهما ولذريَّتهما، وفيه خطابُ المعدوم.

وقيل: إنَّه لهما فقط؛ لقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ [طه: ١٢٣]، والقصَّةُ واحدةٌ، وضميرُ الجمع لكونهما أصلَ البشر، فكأنَّهم هم. ومن الناس من قال: إنَّ مختارَ الفرَّاء[3] هو هذا.

وقيل: إنَّه لهما ولإبليس والحيَّة. واعترِض، وأجيب بما مرَّ في سورة البقرة.

والظاهرُ من النظم الكريم أنَّ آدمَ عليه السلام عاجلَه ربُّه سبحانه بالعتاب والتوبيخ على فعلِه، ولم يتخلَّل هناك شيءٌ. ونقل الأُجهوريُّ عن حُجَّة الإسلام الغزاليّ أنَّه عليه السلام لمَّا أكلَ من الشجرة تحرَّكت معدتُه لخروج الفضلة، ولم يكن ذلك مجعولاً في الجنَّة في شيءٍ من أطعمتها إلا في تلك الشجرة، فلذلك نهي عن أكلها، فجعلَ يدورُ في الجنة، فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبُه، فقال له: أيَّ شيءٍ تريدُ يا آدم؟ قال: أريدُ أن أضعَ ما في بطني من الأذى، فقال له: في

---

(١) تفسير الرازي ٣/ ٨، ١٤/ ٥٠.

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٣١.

(٣) ونص عبارة الفراء بعد ذكر الآية قال: فإنَّه خاطب آدم وامرأته، ويقال أيضاً: آدم وإبليس، وقال: «اهبطوا» يعنيه ويعني ذريَّته، فكأنه خاطبهم. . .

أيِّ مكانٍ تضعه، أعلى الفُرش أم على السُّرر، أم في الأنهار، أم تحتَ ظلال الأشجار؟ هل ترى هاهنا مكاناً يصلحُ لذلك؟ ثم أمره بالهبوط[١]. وأنا لا أرى لهذا الخبر صحَّةً.

ومثلُه ما رُوي عن محمد بن قيس قال: إنَّه عليه السلام لمَّا أكل من الشجرة ناداه ربُّه: يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتُك؟ قال: أطعمَتني حواء، فقال سبحانه: يا حواء لم أطعمتيه؟ قالت: أمرتني الحية، فقال للحيَّة: لم أمرتِها؟ قالت: أمرني إبليس، فقال الله تعالى: أمَّا أنت يا حواء فلأُدمينَّكِ كلَّ شهر كما أدميتِ الشجرة، وأما أنت يا حيَّة فأقطع رجليك فتمشين على وجهك، وسيشدخُ وجهَك كلُّ من لقيك، وأمَّا أنت يا إبليس فملعون[٢].

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال من فاعل «اهبطوا» وهي حالٌ مقارِنة أو مقدَّرة، واختارَ بعضُ المعربين كونَ الجملة استئنافيَّةً، كأنَّهم لمَّا أُمِروا بالهبوط سَألوا: كيف يكون حالنا؟ فأجيبوا بأنَّ بعضَكم لبعضٍ عدوّ.

وأمرُ العداوة على تقدير دخول الشيطان في الخطاب ظاهرٌ، وأمَّا على تقديرِ التخصيص بآدم وحواء عليهما السلام، فقد قيل: إنَّه باعتبار أنْ يُراد بهما ذريَّتهما؛ إمَّا بالتجوُّز، كإطلاق تميم على أولاده كلِّهم، أو يكتفى بذكرهما عنهم. واختارَ بعضُهم كونَ العداوة هنا بمعنى الظلم، أي: يظلمُ بعضكم بعضاً بسبب تضليل الشيطان. فليفهم.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: استقرارٌ، أو موضع استقرار، فهو إمَّا مصدرٌ ميميٌّ، أو اسم مكان.

وجُوِّز أنْ يكون اسمَ مفعولٍ بمعنى: ما استقرَّ ملككم عليه، وجاز تصرُّفكم فيه. ولا يخفى أنَّه خلافُ الظاهر، ومحتاجٌ إلى الحذف والإيصال.

واللفظُ في نفسه يَحتملُ أنْ يكون اسم زمان، إلا أنَّه غيرُ مُحتمِلٍ هنا؛ لأنَّه يتكرَّرُ مع قوله سبحانه: ﴿وَمَتَاعٌ﴾ أي: بُلْغَةٌ ﴿إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ يريد به وقتَ الموت،

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٠٤.

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٥٦٧.

وقيل: القيامة، وتجعلَ السُّكنى في القبر تمتُّعاً في الأرض. أو يقال: معنى «لكم». لجنسكم ولمجموعكم.

والظرفُ قيل: متعلِّق بـ «متاع»، أو به وبـ «مستقرٌّ» على التنازع إن كان مصدراً. وقيل: إنَّه متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «متاع».

﴿قَالَ﴾ أعيدَ للاستئناف؛ إمَّا للإيذان بعدم اتِّصال ما بعدَه بما قبله، وإمَّا لإظهار العناية بما بعدَه، وهو قوله سبحانه: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ عندَ البعث يوم القيامة.

وقرأ أهلُ الكوفة غير عاصم: «تَخْرُجون» بفتح التاء وضمِّ الراء على البناء للفاعل(١).

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ خطابٌ للناس كافَّة. واستُدِلَّ به على دخول أولاد الأولاد في الوقف على الأولاد. ولا يخفى سرُّ هذا العنوان في هذا المقام.

﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي: خلقنا لكم ذلك بأسبابٍ نازلةٍ من السماء، كالمطر الذي ينبتُ به القطن الذي يُجعَل لباساً، قاله الحسن.

وعن أبي مسلم أنَّ المعنى: أعطيناكم ذلك ووهبناه لكم، وكلُّ ما أعطاه الله تعالى لعبده فقد أنزلَه عليه من غير أنْ يكون هناك علوٌّ أو سفلٌ، بل هو جارٍ مجرى التعظيم، كما تقول: رفعتُ حاجتي إلى فلانٍ، وقصَّتي إلى الأمير، وليس هناك نقلٌ من سفلٍ إلى علوّ.

وقيل: المراد: قضينا لكم ذلك وقَسَمْناه. وقَضاياه تعالى وقِسَمُه توصَفُ بالنزول من السماء، حيث كتب في اللوح المحفوظ.

وعلى كلٍّ فالكلامُ لا يخلو عن مجاز، ويَحتمل أن يكون في المسند، وهو الظاهر، ويَحتمل أنْ يكونَ في اللباس أو الإسناد.

وقوله سبحانه: ﴿يُوَٰرِي﴾ أي: يسترُ، ترشيحٌ على بعض الاحتمالات.

---

(١) التيسير ص ١٠٩، والنشر ٢/٢٦٧. وقرأ بها أيضاً يعقوب، وابن ذكوان راوية ابن عامر.

وعن الجبّائي أنَّ الكلامَ على حقيقته، مُدَّعياً نزولَ ذلك مع آدم وحواء من الجنة حين أمِرا بالهبوط إلى الأرض، ولم نقف في ذلك على خبرٍ كستهُ الصحَّة لباساً.

نعم أخرج ابنُ عساكر بسندٍ ضعيف عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أُهبِطَ آدمُ وحواءُ عليهما السلام عريانين جميعاً عليهما ورقُ الجنة، فأصابَ آدمَ الحرُّ حتى قعد يبكي ويقول لها: يا حواء قد آذاني الحرُّ، فجاءَه جبريلُ عليه السلام بقطنٍ، وأمرَها أنْ تغزلَه، وعلَّمها وعلَّمَ آدمَ، وأمرَه بالحياكة وعلَّمه»[١]. وجاء في خبرٍ آخرَ أنَّه عليه السلام أُهبِط ومعهُ البذور، فوضعَ إبليسُ عليها يدَه، فما أصابَ يده ذهب منفعته[٢].

وفي آخر رواه ابنُ المنذر عن ابن جريج أنَّه عليه السلام أُهبِطَ معه ثمانيةُ أزواجٍ من الإبل والبقر والضأن والمعز، وبَاسِنَة، والعلاة، والكلبتان[٣]، وغريسة[٤] عنب وريحان.

وكلُّ ذلك ـ على ما فيه ـ لا يدلُّ على المدَّعى، وإنْ صلح بعضُ ما فيه لأنْ يكونَ مبدأً لما يواري.

﴿سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ أي: التي قصدَ إبليسُ عليه اللعنة إبداءَها من أبويكم حتى اضطرا إلى خصفِ الأوراق، وأنتم مستغنون عن ذلك.

ورَوى غيرُ واحدٍ أنَّ العربَ كانوا يطوفونَ بالبيت عرايا، ويقولون: لا نطوفُ بثيابٍ عصينا الله تعالى فيها، فنزلت هذه الآية[٥].

---

(١) تاريخ دمشق ٧/ ٤١٣، ٦٩/ ١٠٨، ونقله المصنف عن الدر المنثور ١/ ٥٧. وفي إسناده سعيد بن ميسرة البصري، قال فيه البخاري: منكر الحديث. وقال ابن حبان: يروي الموضوعات. وقال ابن عدي: مظلم الأمر. البداية والنهاية ١/ ١٨٨- ١٨٩.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ١/ ٨٩ عن السري بن يحيى قوله.

(٣) الباسنة، قيل: إنها آلات الصناع، وقيل: هي سكة المحراث، وليس بعربي محض. والعلاة: هي السندان. والكلبتان: ما يأخذ به الحداد الحديد المحمَّى. النهاية (بسن)، (علا)، والقاموس المحيط (كلب).

(٤) في الدر المنثور ١/ ٥٦ ـ والخبر فيه ـ: وتعريشة.

(٥) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٢٢. وأخرج الطبري ١٠/ ١٢٠ عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ

وقيل: إنَّهم كانوا يطوفون كذلك تفاؤلاً بالتعرِّي عن الذنوب والآثام. ولعلَّ ذكر قصة آدم عليه السلام حينئذٍ للإيذان بأنَّ انكشاف العورة أوَّلُ سوءٍ أصابَ الإنسان من قِبَل الشيطان، وأنَّه أغواهم في ذلك كما فَعل بأبويهم.

وفي الكشاف[1] أنَّ هذه الآية واردةٌ على سبيل الاستطراد عقيبَ ذكر بدوِّ السوآت وخصف الورق عليها[2]؛ إظهاراً للمنَّة فيما خلقَ من اللباس، ولما في العُري وكشفِ العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأنَّ التستُّر بابٌ عظيمٌ من أبواب التقوى.

﴿وَرِيشًا﴾ أي: وزينةً، أخذاً من ريش الطير؛ لأنَّه زينةٌ له.

وعطفُه على هذا من عطف الصفاتِ، فيكونُ اللباس موصوفاً بشيئين؛ مواراة السوأة، والزينة. ويحتملُ أنْ يكونَ من عطفِ الشيء على غيره، أي: أنزلنا لباسين؛ لباسَ مواراة، ولباسَ زينةٍ، فيكون ممَّا حُذِفَ فيه الموصوف، أي: لباساً ريشاً، أي: ذا ريشٍ. وتفسيرُ الريشِ بالزينة مرويٌّ عن ابن زيد. وذكرَ بعضُ المحقِّقين أنَّه مشترَكٌ بين الاسم والمصدر.

وعن ابن عباس ومجاهد والسُّدِّيِّ أنَّ المرادَ به المال، ومنه تريَّش الرجلُ، أي: تموَّل.

وعن الأخفش أنَّه الخصب والمعاش، وقال الطبرسيُّ[3]: إنَّه جميعُ ما يُحتاجُ إليه.

وقرأ عثمان رضي الله عنه: «ورياشا»[4]، وهو إمَّا مصدرٌ كاللباس، أو جمعُ ريش، كشِعْب وشِعَاب.

= ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ قال: أربع آيات نزلت في قريش، كانوا في الجاهلية لا يطوفون بالبيت إلا عراةً.

وأصل طواف أهل الجاهلية عراة أخرجه مسلم في صحيحه (١٢١٩) (١٥٢) من قول عروة بن الزبير رضي الله عنه.

(١) ٢/ ٧٤.

(٢) في الأصل: عليهما.

(٣) في مجمع البيان ٨/ ٣٧، وقول الأخفش السابق منه.

(٤) البحر المحيط ٤/ ٢٨٢.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العملُ الصالح، كما رُوي عن ابن عباس. أو خشيةُ الله تعالى، كما رُوي عن عروة بن الزبير. أو الحياء، كما رُوي عن الحسن. أو الإيمان، كما روي عن قَتادة والسُّدِّيّ. أو ما يَسترُ العورةَ، وهو اللباسُ الأوَّل، كما رُوي عن ابن زيد. أو لباسُ الحرب؛ الدرع والمِغْفَر والآلات التي يُتَّقى بها من العدو، كما روي عن زيد بن عليِّ بن الحسين رضي الله عنهم، واختارَه أبو مسلم. أو ثيابُ النسك والتواضع، كلباس الصوف والخشنِ من الثياب، كما اختاره الجبَّائيّ. فاللفظُ إمَّا مشاكلةٌ، وإمَّا مجازٌ، وإمَّا حقيقةٌ، ورفعُه بالابتداء، وخبرُه جملة: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ والرابطُ اسم الإشارة؛ لأنَّه يكون رابطاً كالضمير.

وجُوِّزَ أنْ يكون الخبر «خير»، و«ذلك» صفةُ «لباس»، وإليه ذهبَ الزَّجَّاج[1] وابنُ الأنباري وغيرهما.

واعتُرِض بأنَّ الأسماءَ المبهمة أعرفُ من المعرَّفِ باللام وممَّا أُضيفَ إليه، والنعتُ لابدَّ أنْ يساويَ المنعوتَ في رتبة التعريف، أو يكونَ أقلَّ منه. ولا يجوزُ أنْ يكون أعرفَ منه، فلذا قيل: إنَّ «ذلك» بدلٌ أو بيانٌ لا نعتٌ.

وأجيب: بأنَّ ذلك غيرُ متَّفقٍ عليه، فإنَّ تعريفَ اسم الاشارة لكونه بالإشارة الحسيَّة الخارجةِ عن الوضع؛ قيل: إنَّه أنقصُ من ذي اللام، وقيل: إنَّهما في مرتبةٍ واحدة.

وعن أبي عليٍّ - وهو غريب - أنَّ «ذلك» لا محلَّ له من الإعراب، وهو فصلٌ كالضمير[2].

وقرئ: «ولباسَ التقوى» بالنصب[3] عطفاً على «لباساً».

وقال بعض المحقِّقين: وحينئذٍ يكونُ اللباس المنزَّل ثلاثةً، أو يفسَّرُ «لباس التقوى» بلباس الحرب، أو يجعلُ الإنزالُ مشاكلةً. وذكر على القراءة المشهورة أنَّ «ذلك» إنْ كان إشارةً للِّباس المواري، فلباسُ التقوى حقيقةٌ، والإضافةُ لأدنى

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) الحجة ٤/ ١٢. وقد أشار الفارسي إلى ضعف هذا القول.

(٣) هي قراءة نافع وابن عامر والكسائي وأبي جعفر. التيسير ص ١٠٩، والنشر ٢/ ٢٦٨.

ملابسة، وإنْ كان للباس التقوى، فهو استعارةٌ مكنيَّة تخييلية، أو من قبيل: لجين الماء[1]. وعلى كلٍّ تكونُ الإشارةُ بالبعيدِ للتعظيم بتنزيلِ البُعْدِ الرُّتبي منزلةَ البعدِ الحسيِّ. فتأمَّل ولا تغفل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إنزالُ اللباس المتقدِّم كلِّه، أو الأخير ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالَّة على عظيم فضله، وعميمِ رحمته ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فيعرفونَ نعمتَه، أو: يتَّعظُون فيتورَّعون عن القبائح.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ تكريرُ النداء للإيذان بكمال الاعتناء بمضمون ما صدِّر به ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لا يوقعنَّكم في الفتنة والمحنة بأنْ يوسوسَ لكم بما يمنعُكم به عن دخول الجنَّة فتطيعوه. وقرئ: «يُفْتِنَنَّكُم» بضمِّ حرف المضارعة[2]، مِن أَفْتَنَه: حملَه على الفتنة. وقُرِئ: «يَفْتِنكم» بغير توكيد[3].

وهذا نهيٌ للشيطان في الصورة، والمراد نهيُ المخاطبين عن متابعته وفعلِ ما يقودُ إلى الفتنة.

﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: كما فتنَ أبويكم ومحنَهما بأنْ أخرجَهما منها، فوضع السبب موضعَ المسبَّب[4].

وجُوِّز أنْ يكونَ التقدير: لا يفتننَّكم فتنةً مثلَ فتنة إخراج أبويكم، أو: لا يخرجنَّكم بفتنتهِ إخراجاً مثلَ إخراجِه أبويكم.

ونسبةُ الإخراج إليه لأنَّه كان بسبب إغوائه، وكذا نسبةُ النزع إليه في قوله سبحانه: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ والجملةُ حال من «أبويكم»، أو من فاعل «أخرج». ولفظُ المضارع ـ على ما قاله القطب ـ لحكاية الحال الماضية؛ لأنَّ النزعَ السلبُ، وهو ماضٍ بالنسبة إلى الإخراج، وإنْ كان العريُ باقياً.

وقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تعليلٌ للنهي، كما هو

---

(١) أي من إضافة المشبه به للمشبه. انظر حاشية الدسوقي على مغني اللبيب ٢/ ٣٢٠.
(٢) القراءات الشاذة ص ٤٣.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٢٨٣، وحاشية الشهاب ٤/ ١٦١.
(٤) أي: أوقعهما في المحن والبلاء بسبب الإخراج. حاشية الشهاب ٤/ ١٦١.

معروفٌ في الجملة المصدَّرة بـ «إنَّ» في أمثاله، وتأكيدٌ للتحذير؛ لأنَّ العدوَّ إذا أتى من حيثُ لا يُرَى كان أشدَّ وأخوف.

والضميرُ في «إنَّه» للشيطان، وجُوِّزَ أنْ يكونَ للشأن، و«هو» تأكيدٌ للضمير المستتر في «يراكم»، و«قبيله» عطفٌ عليه، لا على البارز لأنَّه لا يصلح للتأكيد، وجُوِّزَ أن يكونَ مبتدأً محذوفَ الخبر. و«من» لابتداءِ الغاية، و«حيثُ» ظرفٌ لمكانِ انتفاء الرؤية، وجملةُ «لا ترونهم» في محل جرٍّ بالإضافة.

وعن أبي إسحاق أنَّ «حيث» موصولةٌ وما بعدُ صلةٌ لها. ولعلَّ مرادَه أن ذلك كالموصول، وإلا فلا قائلَ به غيره، كما قال أبو علي الفارسيُّ[١].

والقبيلُ الجماعة، فإنْ كانوا من أبٍ واحدٍ فهم قبيلةٌ. والمرادُ بهم هنا جنودُه من الجن.

وقرأ اليزيديُّ: «وقبيلَه» بالنصب[٢]، وهو عطفٌ على اسم «إنَّ». ويتعيَّن كون الضمير للشيطان، ولا يصحُّ كونُه للشأن ـ خلافاً لمن وَهَم فيه ـ لأنَّه لا يصلحُ العطفُ عليه، ولا يُتبَع بتابعٍ.

والقضيَّةُ مطلقةٌ لا دائمة، فلا تدلُّ على ما ذهبَ إليه المعتزلة من أنَّ الجنَّ لا يُرَون، ولا يظهرون للإنس أصلاً، ولا يتمثلون.

ويشهدُ لما قلنا ما صحَّ من رؤيةِ النبيِّ ﷺ لُمقَدَّمهم حين رامَ أنْ يشغلَه عليه الصلاة والسلام عن صلاتِه، فأَمْكَنَه الله تعالى منه، وأرادَ أنْ يربطَه إلى ساريةٍ من سواري المسجدِ، يلعبُ به صبيانُ المدينة، فذكرَ دعوةَ سليمان عليه السلام فتركه[٣]. ورؤيةُ ابن مسعود لجنِّ نصيبين[٤].

---

(١) الإغفال لأبي علي ٢/ ٢٥١-٢٥٢، وأبو إسحاق هو الزجاج، وينظر معاني القرآن له ٢/ ٣٢٩.

(٢) القراءات الشاذة ص ٤٣، والبحر المحيط ٤/ ٢٨٤.

(٣) حديث تعرُّضِ الشيطان للنبي ﷺ في صلاته أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه مسلم (٥٤٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٤) حديث رؤية ابن مسعود جنَّ نصيبين أخرجه أحمد (٤٣٨١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٣١٣-٣١٤: وفيه أبو زيد مولى عمرو بن حريث، وهو مجهول. وسيأتي الخلاف في رؤية ابن مسعود للجن ليلتئذٍ عند تفسير الآية (٢٩) من سورة الأحقاف.

وما نُقِل عن الشافعيّ ﷺ من أنَّ من زعَمَ أنَّه رآهم رُدَّت شهادتُه وعُزِّرَ لمخالفته القرآن(١)، محمولٌ ـ كما قال البعضُ ـ على زاعمِ رؤيةِ صُوَرِهم التي خُلِقوا عليها، إذ رؤيتُهم بعدَ التشكُّل الذي أقدرَهُم الله تعالى عليه مذهبُ أهلِ السنَّة، وهو ﷺ مِنْ ساداتهم.

وما نُوزع به القولُ بقدرتِهم على التشكُّل من استلزامِه رفعَ الثقة بشيءٍ؛ فإنَّ من رَأى ولو ولدَه يَحتملُ أنَّه رأى جنيًّا تشكَّل به = مردودٌ بأنَّ الله تعالى تكفَّل لهذه الأمَّة بعصمتِها عن أن يقعَ فيها ما يؤدِّي لمثل ذلك المترتِّب عليه الريبةُ في الدين، ورفع الثقة بعالم وغيره، فاستحالَ شرعاً الاستلزامُ المذكور.

وقولُ العلامة البيضاويّ بعد تعريف الجنِّ في سورتهم بما عَرَّف: وفيه دليلٌ على أنَّه ﷺ ما رآهم، ولم يقرأ عليهم، وإنَّما اتفقَ حضورُهم في بعض أوقاتِ قراءته، فسمعوها، فأخبر الله تعالى بذلك(٢) = ناشئٌ من عدم الاطّلاع على الأحاديث الصحيحة الكثيرة المصرِّحَة برؤيته ﷺ لهم، وقراءتِه عليهم، وسؤالهم منه الزادَ لهم ولدوابِّهم على كيفياتٍ مختلفة(٣).

وعندي أنَّه لا مانعَ من رؤيته ﷺ للجنِّ على صُوَرِهم التي خُلِقوا عليها، فقد رأى جبريلَ عليه السلام بصورتِه الأصليَّة مرَّتين(٤)، وليست رؤيتُهم بأبعد من رؤيته، ورؤيةُ كلِّ موجودٍ عندنا في حيِّز الإمكان، واللطافةُ المانعةُ من رؤيتهم عند المعتزلة لا توجبُ الاستحالة، ولا تمنعُ الوقوع خرقاً للعادة، وكذا تعليلُ الأشاعرة عدمَ

---

(١) أحكام القرآن للشافعي ٢/ ١٩٤-١٩٥.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ١٥٤.

(٣) يشير إلى ما أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ أنه كان يحمل مع النبي ﷺ إداوة لوضوئه وحاجته، فبينما هو يتبعه بها، فقال: «من هذا»؟ فقال: أنا أبو هريرة. فقال: «ابغني أحجاراً أستنفض بها، ولا تأتني بعظم ولا بروثة» فأتيته بأحجار أحملها في طرف ثوبي، حتى وضَعْتُها إلى جنبه، ثم انصرفت، حتى إذا فرغ مشيت، فقلت: ما بال العظم والروثة؟ قال: «هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد جنِّ نصيبين، ونعمَ الجنُّ، فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظمٍ ولا بروثة إلَّا وجدوا عليه طعاماً» وانظر فتح الباري ٧/ ١٧٢-١٧٣.

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة ﷺ.

الرؤية بأنَّ الله تعالى لم يخلق في عيون الإنس قوةَ الإدراك، لا يقتضي الاستحالةَ أيضاً؛ لجواز أنْ يخلُقَ الله تعالى في عينِ رسوله عليه الصلاة والسلام ـ الرائي له جلَّ شأنُه بعيني رأسه على الأصحِّ ليلةَ المعراج[١] ـ تلكَ القوَّةَ فيراهم، بل لا يبعد القولُ برؤية الأولياء رضي الله عنهم لهم كذلك، لكن لم أجد صريحاً ما يدلُّ على وقوع هذه الرؤية، وأمَّا رؤية الأولياء بل سائر الناس لهم متشكِّلين، فكتبُ القوم مشحونةٌ بها، ودفاترُ المؤرِّخين والقُصَّاص ملأى منها؛ وعلى هذا لا يفسَّق مُدَّعي رؤيتهم في صورهم الأصليَّة إذا كان مَظِنَّةً للكرامة، وليس في الآية أكثرُ من نفي رؤيتهم كذلك بحسب العادة.

على أنَّه يمكنُ أنْ تكون الآيةُ خارجةً مخرجَ التمثيل لدقيق مكرهم، وخفيِّ حيَلهم، وليس المقصودُ منها نفيَ الرؤية حقيقةً، ومن هذا يُعلم أنَّ القولَ بكفرِ مُدَّعي تلك الرؤيةِ خارجٌ عن الإنصاف، فتدبر.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: قرناءَ لهم مسلَّطين عليهم متمكِّنين من إغوائهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة، أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم منهم. والجملةُ إمَّا تعليلٌ آخر للنهي، وتأكيدٌ للتحذير إثرَ تأكيد، وإمَّا فذلكةٌ[٢] الحكايةِ السابقة.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ جملةٌ مبتدأةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وجُوِّزَ عطفُها على الصلة.

والفاحشةُ الفعلةُ القبيحة المتناهيةُ في القبح، والتاء إمَّا لأنَّها مجراةٌ على الموصوف المؤنَّث، أي: فعلةٌ فاحشة؛ وإمَّا للنقل من الوصفيَّة إلى الاسميَّة. والمراد بها هنا: عبادةُ الأصنام، وكشف العورة في الطواف، ونحو ذلك، وعن الفرَّاء تخصيصُها بكشف العورة.

وفي الآية ـ على ما قاله الطبرسيُّ[٣] ـ حذفٌ، أي: وإذا فعلوا فاحشةً فنُهوا

---

(١) انظر ما سلف حول اختلاف السلف في رؤية سيدنا محمد ﷺ ربَّه عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

(٢) الفذلكة: مجمل ما فُصِّل وخلاصته، وهو لفظ مولَّد. المعجم الوسيط (فذلك).

(٣) في مجمع البيان ٨/ ٣٩.

عنها ﴿قَالُوا﴾ جوابٌ للناهين ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ محتجِّين بأمرَين: تقليدِ الآباء، والافتراء على الله سبحانه.

وتقديمُ المقدَّم للإيذان بأنَّه المعوَّل عليه عندهم، أو للإشارة منهم إلى أنَّ آباءَهم إنَّما كانوا يفعلونَها بأمر الله تعالى، على أنَّ ضمير «أمرنا» ـ كما قيل ـ لهم ولآبائهم؛ وحينئذٍ يظهرُ وجه الإعراض عن الأوَّل في ردِّ مقالتهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ فإنَّ عادَته تعالى جرت على الأمر بمحاسنِ الأعمال، والحثِّ على مكارم الخصال، وهو اللائقُ بالحكمةِ المقتضية أنْ لا يتخلَّف.

وقال الإمام: لم يذكر سبحانه جواباً عن حُجَّتهم الأولى؛ لأنَّها إشارةٌ إلى محض التقليد، وقد تقرَّر في العقول أنَّه طريقةٌ فاسدةٌ؛ لأنَّ التقليدَ حاصلٌ في الأديان المتناقضة، فلو كان التقليدُ حقًّا لزمَ القول بحقيَّة الأديان المتناقضة، وإنَّه محالٌ. فلمَّا كانَ فسادُ هذا الطريق ظاهراً لم يذكر الله تعالى الجوابَ عنه(١).

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ الإعراض إنَّما هو عن التصريح بردِّه، وإلَّا فقولُه سبحانه: «إنَّ الله» إلخ متضمِّنٌ للردِّ، لأنَّه سبحانه إذا أمرَ بمحاسن الأعمال، كيفَ يُتْرَكُ أمرُه لمجرَّد اتباع الآباء فيما هو قبيحٌ عقلاً؟ والمرادُ بالقبح العقليِّ هنا نفرةُ الطبع السليم، واستنقاص العقل المستقيم، لا كونُ الشيء متعلَّقَ الذمِّ قبل ورودِ النهي عنه، وهو المتنازعُ فيه بيننا وبين المعتزلة، دون الأوَّل كما حُقِّق في الأصول، فلا دلالة في الآية على ما زعموه.

وقيل: إنَّ المذكورَ جوابَا سؤالين مترتِّبين، كأنَّه قيل لهم لمَّا فعلوها: لم فعلتم؟ فقالوا: وجدنا [عليها](٢) آباءنا، فقيل: ومن أين أخذ آباؤكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها. والكلام حينئذٍ على تقدير مضاف، أي: أمر آباءنا. وقيل: لا تقدير، والعدولُ عن أمرهم الظاهر حينئذٍ للإشارة إلى ادِّعاء أنَّ أمرَ آبائهم أمرٌ لهم. وعلى الوجهين يمتنعُ التقليد إذا قام الدليلُ على خلافه، فلا دلالةَ في الآية على المنع من التقليد مطلقاً.

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٥٦.
(٢) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي ٣/ ٧، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٢٣.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ من تمام القول المأمور به، والهمزةُ لإنكار الواقع واستقباحه والإشارة إلى أنَّه لا ينبغي أن يكون. وتوجيهُ الإنكار إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون صدورَه منه عزَّ شأنُه، مع أنَّ منهم من يقولُ عليه سبحانه ما يعلمُ عدمَ صدوره، مبالغةٌ في إنكار تلك الصورة.

ولا دليل في الآية لمن نفى القياسَ بناءً على أنَّ ما يثبت به مظنون لا معلوم؛ لأنَّ ذلك مخصوصٌ من عمومها بإجماع الصحابة ومن يعتدُّ به، أو بدليل آخر. وقيل: المرادُ بالعلم ما يشمل الظن.

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بيانٌ للمأمور به إثرَ نفي ما أسنِدَ أمرُه إليه تعالى من الأمور المنهيِّ عنها.

والقسطُ على ما قال غيرُ واحدٍ: العدلُ، وهو الوسطُ من كل شيءٍ، المتجافي عن طرفي الإفراطِ والتفريط.

وقال الراغب: هو النصيبُ بالعدل، كالنِّصفِ والنَّصفَة. ويقال: القسطُ لأخذ قسطِ غيره، وذلك جورٌ، والإقساط لإعطاء قسطِ غيره، وذلك إنصافٌ؛ ولذلك يقال: قَسَطَ الرجلُ، إذا جار، وأقسطَ، إذا عدل[1].

وهذا أولى مما قاله الطبرسيُّ من أنَّ أصلَه الميل[2]، فإنْ كان إلى جهةِ الحق فعدلٌ، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩] وإنْ كان إلى جهة الباطل فجورٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن:١٥].

والمرادُ به هنا ـ على ما نُقل عن أبي مسلم ـ جميعُ الطاعات والقُرَب. وروي عن ابن عباس والضَّحَّاك أنَّه التوحيدُ وقولُ لا إله إلا الله. ومجاهدٌ والسُّدِّيُّ وأكثرُ المفسِّرين على أنَّه الاستقامةُ والعدلُ في الأمور.

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي: توجَّهوا إلى عبادته تعالى مستقيمين غيرَ عادلين إلى غيرها ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ أي: في كلِّ وقتِ[3] سجودٍ، كما قال الجبائيُّ. أو

(١) المفردات (قسط).

(٢) وقع في مطبوع مجمع البيان ٨/ ٤٠: العدل. بدل: الميل.

(٣) في الأصل و(م): في وقت كل، والمثبت من الكشاف ٢/ ٧٥، وتفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٤/ ١٦٢، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٢٣.

مكانه، كما قال غيرُه. ف «عند» بمعنى في، والمسجدُ اسمُ زمانٍ أو مكانٍ بالمعنى اللغويّ، وكان حقُّه فتحَ العين؛ لضمِّها في المضارع، إلَّا أنَّه ممَّا شذَّ عن القاعدة. وزعم بعضهم أنَّه مصدرٌ ميميٌّ، والوقتُ مقدَّرٌ قبلَه، والسجودُ مجازٌ عن الصلاة.

وقال غيرُ واحد: المعنى: توجهوا إلى الجهة التي أمَركم الله تعالى بالتوجُّه إليها في صلاتكم، وهي جهةُ الكعبة. والأمر على القولين للوجوب.

واختار المغربيُّ أنَّ المعنى: إذا أدركتم الصلاة في أيِّ مسجدٍ فصلُّوا، ولا تؤخِّروها حتى تعودُوا إلى مساجِدكم. والأمرُ على هذا للندب، والمسجدُ بالمعنى المصطلح. ولا يخفى ما فيه من البعد.

ومثله ما قيل: إنَّ المعنى: اقصدوا[1] المسجد في وقت كلِّ صلاةٍ، على أنَّه أمرٌ بالجماعة ندباً عند بعضٍ ووجوباً عند آخرين.

والواو للعطف، وما بعده قيل: معطوفٌ على الأمر الذي ينحلُّ إليه المصدرُ مع أنْ، أي: أنْ أقسطوا. والمصدر ينحلُّ إلى الماضي والمضارع والأمر.

وقال الجرجانيُّ: إنَّه عطفٌ على الخبر السابق المقولِ لـ «قل»، وهو إنشاءٌ معنًى. وإنْ أبيتَ فالكلامُ من باب الحكاية.

وجُوِّز أن يكون هناك «قل» مقدَّراً معطوفاً على نظيره، و«أقيموا» مقولٌ له. وأنْ يكون معطوفاً على محذوفٍ تقديرُه: قل: أقبلوا وأقيموا.

﴿وَٱدْعُوهُ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ أي: الطاعة. فالدعاء بمعنى العبادة؛ لتضمُّنها له، والدين بالمعنى اللغويّ. وقيل: إنَّ هذا أمرٌ بالدعاء والتضرُّع إليه سبحانه على وجه الإخلاص، أي: ارغبوا إليه في الدعاء بعد إخلاصكم له في الدين.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أي: أنشأكم ابتداءً ﴿تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ إليه سبحانه فيجازيكم على أعمالكم، فامتثلوا أوامره. أو فأخلصوا له العبادة. فهو متَّصِلٌ بالأمر قبله.

---

(١) في (م): اقصد.

وقال الزَّجَّاج[١]: إنَّه متَّصلٌ بقوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الآية: ٢٥]. ولا يخفى بعدُه.

ولم يقل سبحانه: يعيدكم، كما هو الملائم لما قبلَه؛ إشارةً إلى أنَّ الإعادة دون البدء من غير مادَّةٍ؛ بحيثُ لو تُصوِّرَ الاستغناء عن الفاعل لكان فيها دونه[٢]، فهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] سواءٌ كانت الإعادةُ الإيجادَ بعد الإعدام بالكليَّه، أو جمعَ متفرِّق الأجزاء.

وإنَّما شبَّهها سبحانه بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرةِ عليها.

وقال قتادة: المعنى: كما بدأكم من التراب تعودونَ إليه، كما قال سبحانه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

وقيل: المعنى: كما بدأكم لا تملكونَ شيئاً، كذلك تُبعثونَ يوم القيامة.

وعن محمد بن كعب: أنَّ المرادَ أنَّ من ابتدأ الله تعالى خلقَه على الشِّقوة صارَ إليها، وإن عَمل بأعمالِ أهل السعادة، ومن ابتدأ خلقَه على السعادة صار إليها، وإنْ عمل بعمل أهل الشقاوة. ويؤيِّد ذلك ما رواه الترمذيُّ عن [عبد الله بن] عمرو بن العاص قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا يا رسول الله. فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتابٌ[٣] من ربِّ العالمين، فيه أسماءُ أهل الجنَّةِ وأسماءُ آبائهم وقبائلهم، ثم أُجْمِل[٤] على آخرهم، فلا يُزاد فيهم ولا يُنقَص منهم أبداً» ثمَّ قال للذي في شماله: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماءُ أهل النار وأسماءُ آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجْمِل على آخرهم، فلا يُزادُ فيهم ولا يُنْقَص منهم أبداً» فقال أصحابه: ففيم العملُ يا رسولَ الله إن كان أمرٌ قد فُرِغَ منه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «سدِّدوا وقاربُوا، فإنَّ صاحبَ الجنَّة يُختَم له بعمل أهل الجنَّة، وإنْ عمل أيَّ عملٍ، وإنَّ صاحب النار يُختم له بعمل أهل

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٣٣١.

(٢) أي: في الإعادة دون البدء. حاشية الخفاجي ٤/ ١٦٣.

(٣) جاء في هامش (م) مانصه: الظاهر أن هذا صادر عن طريق التمثيل. اهـ منه.

(٤) قال ابن الأثير: أجملت الحساب: إذا جمعت آحاده، وكملت أفراده، أي: أحصوا وجمعوا، فلا يزاد فيهم ولا ينقص. النهاية (جمل).

النار وإن عمل أيَّ عملٍ» ثم قال ـ أي: أشار ـ رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما، ثم قال: «فرغ ربكم من العباد، فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السعير»[(١)].

وقريبٌ من هذا ما روي عن ابن جبير من أنَّ المعنى: كما كُتب عليكم تكونون.

ورُوي عن الحبر أنَّ المعنى: كما بدأكم مؤمناً وكافراً يعيدكم يومَ القيامة، فهو كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢][(٢)]. وعليه يكون قولُه سبحانه: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ بياناً وتفصيلاً لذلك، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] بعد قوله عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾. قيل: وهو الأنسبُ بالسياق.

وذكر الطيبيُّ أنَّ هاهنا نكتةً سريَّة، وهي أنْ يقال: إنَّه تعالى قَدَّم في قوله سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ المشبَّه به على المشبَّه؛ لينبِّه العاقلَ على أنَّ قضاء الشؤون لا يخالفُ القدر والعلمَ الأزليَّ البتة، وكما رُوعي هذه الدقيقة في المفسَّر روعيت في التفسير. وزيدت أخرى عليها؛ وهي أنَّه سبحانه قدَّم مفعول «هدى» للدلالة على الاختصاص، وأنَّ فريقاً آخر ما أرادَ هدايتهم، وقرَّر ذلك بأنْ عَطَفَ عليه: «وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة»، وأبرزَه في صورة الإضمار على شريطة التفسير، أي: أضلَّ فريقاً حقَّ عليهم الضلالة. وفيه مع الاختصاص التوكيدُ كما قرَّره صاحبُ «المفتاح»؛ لتنقطعَ ريبةُ المخالف، ولا يقول: إنَّ علم الله تعالى لا أثرَ له في ضلالتهم. انتهى. وكأنَّه يشيرُ بذلك إلى ردِّ قول الزمخشريِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: تولَّوهم بالطاعة فيما أمروهم به، وهذا دليلٌ على أنَّ علم الله تعالى لا أثرَ له في ضلالهم، وأنَّهم هم الضَّالُّون باختيارهم وتوليتهم الشياطين دونَ الله تعالى[(٣)].

فجملةُ «إنَّهم اتَّخذوا» على هذا تعليلٌ لقوله سبحانه: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ

---

(١) سنن الترمذي (٢١٤١)، وأخرجه أيضاً أحمد (٦٥٦٣)، وما بين حاصرتين منهما. وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ١٤٢.

(٣) الكشاف ٢/ ٧٦، وفيه: وتَوَلِّيهم، بدل: وتوليتهم.

﴿ٱلضَّلَٰلَةُۗ﴾ ويؤيِّدُ ذلك أنَّه قُرِئ: «أنَّهم» بالفتح[١]. ويحتملُ أن تكون تأكيداً لضلالهم وتحقيقاً له.

وأنا ـ والحقُّ أحقُّ بالاتباع ـ مع القائل: إنَّ علم الله تعالى لا يؤثِّر في المعلوم، وإنَّ من علَّل الجبرَ به مبطلٌ، كيف والمتكلمون عن آخرهم قائلون: إنَّ العلمَ يتعلَّق بالشيء على ما هو عليه؟ وإنَّما الكلامُ في أنَّ قدرة الله تعالى لا أثرَ لها على زعم الضُّلَّال أصحابِ الزمخشريّ، ونحن مانعونَ لذلك أشدَّ المنع، ولا منعَ من التعليل بالاتِّخاذِ عند الأشاعرة؛ لثبوت الكسب والاختيار، ويكفي هذه المدخليَّة في التعليل. والزمخشريُّ قدَّر الفعلَ في قوله سبحانه: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ﴾: خذل، ووافقَه بعضُ الناس[٢]، وما فعلهُ الطيبيُّ هو المختارُ عند بعض المحققين؛ لظهور الملاءمة فيه، وخلوِّه عن شبهة الاعتزال.

واختير تقديره مؤخَّراً لتتناسق الجملتان، وهما عند الكثير في موضع الحال من ضمير «تعودون» بتقدير «قد»، أو مستأنفتان، وجُوِّزَ نصبُ «فريقاً» الأول، و«فريقاً» الثاني على الحال، والجملتان بعدهما صفتان لهما، ويؤيِّدُ ذلك قراءةُ أبيٍّ: «تعودون فريقين فريقاً هدى وفريقاً» إلخ[٣]، والمنصوب على هذه القراءة إمَّا بدلٌ، أو مفعول به لـ «أعني» مقدَّراً.

ولم تُلحق تاءُ التأنيث لـ «حقَّ» للفصل، أو لأنَّ التأنيثَ غيرُ حقيقيٍّ. والكلامُ على تقدير مضاف عند بعض، أي: حقَّ عليهم كلمةُ الضلالة، وهي قوله سبحانه: «ضلوا».

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾ عطفٌ على ما قبله داخلٌ معه في حيِّز التعليل أو التأكيد.

ولعلَّ الكلام من قبيل: بنو فلانٍ قتلوا فلاناً[٤]. والأوَّلُ لكونه في مقابلةِ من

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ١٩١، والبحر المحيط ٤/ ٢٨٩.

(٢) منهم البيضاوي وأبو السعود: ينظر الكشاف ٢/ ٧٦، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ١٦٣، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٢٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٢، ومعاني القران للفراء ١/ ٣٧٦، والبحر المحيط ٤/ ٢٨٨.

(٤) أي: نُسب القتل إليهم والقاتل واحدٌ منهم.

هداه الله تعالى شاملٌ للمعاند والمخطئ، والثاني مختصٌّ بالثاني، وهو صادقٌ على المقصِّر في النظر، والباذلِ غايةَ الوسع فيه.

واختُلِف في توجُّه الذمِّ على الأخير وخلودِه في النار؛ ومذهبُ البعض أنَّه معذورٌ، ولم يُفرِّقوا بين من لا عقلَ له أصلاً، ومن له عقلٌ لم يدرك به الحقَّ بعد أن لم يدع في القوس مَنْزَعاً في طلبه، فحيثُ يعذرُ الأوَّل لعدم قيام الحجَّةِ عليه يعذرُ الثاني لذلك؛ ولا يرون مجرَّدَ المالكيَّة وإطلاق التصرُّفِ حجَّةً، ولله تعالى الحجَّة البالغة.

والتزامُ أنَّ كلَّ كافرٍ معاندٌ بعدَ البعثة، وظهورِ أمر الحقِّ كنارٍ على علم، وأنَّه ليس في مشارق الأرض ومغاربِها اليومَ كافرٌ مستدلٌّ = مما لا يُقْدِمُ عليه إلَّا مسلمٌ معاندٌ، أو مسلمٌ مستدلٌّ بما هو أوهنُ من بيت العنكبوت؛ وإنَّه لأوهنُ البيوت.

وادَّعى بعضُهم أنَّ المرادَ من المعطوف عليه المعاند، ومن المعطوف المخطئُ، والظاهرُ ما قلنا. وجعلُ الجملة حاليَّةً على معنى: اتَّخذُوا الشياطينَ أولياءَ وهم يحسبون أنَّهم مهتدون في ذلك الاتِّخاذ، لا يخفى ما فيه.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ أي: ثيابَكم لمواراة عوراتكم؛ لأنَّ المستفادَ من الأمر الوجوب، والواجبُ إنَّما هو سترُ العورة.

﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ أي: طوافٍ أو صلاةٍ، وإلى ذلك ذهب مجاهد وأبو الشيخ وغيرهما.

وسببُ النزول ـ على ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنَّه كان أناسٌ من الأعراب يطوفونَ بالبيت عُرَاةً، حتى إن كانت المرأةُ لتطوفُ بالبيت وهي عريانة، فتعلِّق على سفلها سُيُوراً مثلَ هذه السيور التي تكون على وجه الحُمُر من الذباب، وهي تقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه ... وما بدا منه فلا أُحِلُّه

فأنزلَ الله تعالى هذه الآية[1].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٢٢١، وأخرجه مسلم (٣٠٢٨) بنحوه. قال القاضي أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٧٦٧: وهذه المرأة هي ضباعة بنت عامر بن قرط.

وحَمل بعضُهم الزينةَ على لباس التجمُّل؛ لأنَّه المتبادر منه، ونُسِب إلى الباقر رضي الله عنه. ورُويَ عن الحسن السبط رضي الله عنه أنَّه كان إذا قام إلى الصلاة لبسَ أجود ثيابه، فقيل له: يا ابن رسول الله ﷺ، لِمَ تلبس أجود ثيابك؟ فقال: إن الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال، فأتجمَّل لربي، وهو يقول: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فأحبُّ أن ألبس أجملَ ثيابي.

ولا يخفى أنَّ الأمر حينئذٍ لا يُحمَلُ على الوجوب، لظهورِ أنَّ هذا التزيُّن مسنونٌ لا واجبٌ.

وقيل: إنَّ الآيةَ على الاحتمال الأوَّل تشيرُ إلى سنِّيَّة التجمُّل؛ لأنها لمَّا دلَّت على وجوب أخذِ الزينة لستر العورة عند ذلك؛ فُهِم منه في الجملة حُسن التزيُّن بلبس ما فيه حُسنٌ وجمالٌ عنده.

ونَسبَ بيتُ الكذب إلى الصادق رضي الله عنه تعالى أنَّ أخذ الزينة التمشُّط[(١)]، كأنَّه قيل: تمشَّطُوا عند كلِّ صلاةٍ، ولعلَّ ذلك من باب الاقتصار على بعض أنواع الزينة، وليس المقصودُ حصرَها فيما ذكر.

ومثل ذلك ما أخرجهُ ابن عديّ وابنُ مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا زينةَ الصلاة» قالوا: وما زينةُ الصلاة؟ قال: «البسوا نعالَكم فصلُّوا فيها»[(٢)].

وأخرج ابنُ عساكر وغيره عن أنس رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في قوله سبحانه: «خذوا زينتكم» إلخ: «صَلُّوا في نعالِكم»[(٣)].

---

(١) مجمع البيان ٨/ ٤٥.

(٢) الكامل لابن عدي ٥/ ١٨٢٩ بإسناد فيه علي بن أبي علي القرشي، قال ابن عدي: وهو مجهول ومنكر الحديث. وأخرجه أيضاً ابن عدي ٦/ ٢١٧١، وابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٧٩، وفي إسناده محمد بن الفضل بن عطية. قال ابن عدي: قال يحيى بن معين: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه.
وأورده ابن أبي حاتم في العلل ١/ ١٤٩، وقال: قال أبي: هذا حديث منكر.

(٣) تاريخ دمشق ٣٦/ ٣٦٢، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ١٤٣، وابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٨٠. قال ابن الجوزي: وهذا لا يصح، ولا يعرف إلا بعباد بن جويرية، ولا يتابع عليه؛ قال أحمد والبخاري: هو كذاب.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ مما طابَ لكم. قال الكلبيُّ: كان أهلُ الجاهلية لا يأكلون من الطعام إلَّا قوتاً، ولا يأكلون دسماً في أيَّام حجِّهم، يعظِّمونَ بذلك حجَّهم، فقال المسلمون: يا رسول الله نحن أحقُّ بذلك، فأنزلَ الله تعالى الآية(١). ومنه يظهر وجهُ ذكرِ الأكل والشرب هنا.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ بتحريم الحلال، كما هو المناسبُ لسبب النزول، أو بالتعدِّي إلى الحرام، كما رُوي عن ابن زيد، أو بالإفراط في الطعامِ والشره، كما ذهب إليه كثير.

وأخرج أبو نُعيم عن عمرَ بن الخطاب ﷺ قال: إيَّاكم والبطنة من الطعام والشراب، فإنَّها مَفْسَدةٌ للجسد، مورثةٌ للسقم، مكسَلةٌ عن الصلاة، وعليكم بالقصدِ فيهما، فإنَّه أصلحُ للجسد وأبعدُ من السرف، وإنَّ الله تعالى ليبغضُ الحبرَ السمين، وإن الرجلَ لنْ يهلكَ حتى يؤثرَ شهوتَه على دينه(٢).

وقيل: المرادُ الإسراف ومجاوزةُ الحدِّ بما هو أعمُّ ممَّا ذُكر، وعُدَّ منه أكلُ الشخص كلَّ ما اشتهى، وأكلُه في اليوم مرتين؛ فقد أخرج ابنُ ماجه والبيهقيُّ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الإسراف أنْ تأكلَ كلَّ ما اشتهيت»(٣).

وأخرج الثاني وضعَّفه عن عائشة قالت: رآني النبيُّ ﷺ وقد أكلتُ في اليوم مرتين، فقال: «يا عائشة أَمَا تحبِّين أنْ يكون لك شغلٌ إلا في جوفك، الأكل في اليوم مرتين من الإسراف»(٤).

وعندي أنَّ هذا ممَّا يختلفُ باختلافِ الأشخاص، ولا يبعدُ أنْ يكون ما ذُكر من الإفراط في الطعام.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٢٢٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي (١٢٧). وأخرجه أيضاً ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٣٥٢). وانظر المقاصد الحسنة ص ٢٠٨.

(٣) سنن ابن ماجه (٣٣٥٢)، وشعب الإيمان للبيهقي (٥٧٢١). وفي إسناده نوح بن ذكوان، قال فيه أبو حاتم: ليس بشيء، وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً. ميزان الاعتدال ٤/ ٢٧٧.

(٤) شعب الإيمان (٥٦٤٠)، (٥٦٦٥).

وعُدَّ منه طبخُ الطعام بماء الورد، وطرحُ نحو المسك فيه مثلاً من غير داعٍ إليه سوى الشهوة.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ الإسرافَ المنهيَّ عنه يعمُّ ما كان في اللباس أيضاً، وروي ذلك عن عكرمة.

وأخرجَ ابنُ أبي شيبة وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: كلْ ما شئتَ والبسْ ما شئتَ ما أخطأتْكَ خصلتان، سرفٌ ومخيلة[1]. ورواه البخاري عنه تعليقاً[2]. وهو لا ينافي ما ذكرَه الثعالبيُّ وغيرُه من الأدباء أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يأكلَ ما يشتهي، ويلبسَ ما يشتهيه الناس، كما قيل:

نصحتُه نصيحةً قالت بها الأكياس
كُلْ ما اشتهيتَ والْبَسْنْ ما تشتهيه الناس[3]

فإنَّه لتركِ ما لم يُعتَدْ بين الناس، وهذا لإباحةِ كلِّ ما اعتادوه. وفي «العجائب» للكرماني[4]: قال طبيبٌ نصرانيٌّ لعليِّ بن الحسين بن واقد[5]: ليس في كتابكم من علم الطب شيءٌ، والعلم علمان؛ علم الأبدان، وعلم الأديان. فقال له: قد جمعَ الله تعالى الطبَّ كلَّه في نصف آية من كتابه. قال: وما هي؟ قال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾، فقال النصرانيُّ: ولا يؤثَرُ من رسولكم شيءٌ في الطبِّ. فقال:

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٤٠٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ قبل الحديث (٥٧٨٣).

(٣) حاشية الشهاب ٤/ ١٦٤.

(٤) هو كتاب الغرائب والعجائب لمحمود بن حمزة الكرماني الملقب بتاج القراء، له كتاب خط المصاحف، وكتاب الهداية في شرح غاية ابن مهران، وكتاب البرهان في معاني متشابه القرآن، وغيرها. كان في حدود الخمسمئة، وتوفي بعدها. وكتابه العجائب والغرائب قال السيوطي: ضمَّنه أقوالاً ـ ذكرت في معاني الآيات ـ منكرة، لا يحل الاعتماد عليها، ولا ذكرها إلَّا للتحذير منها. انظر غاية النهاية ٢/ ٢٩١، والإتقان للسيوطي ٢/ ١٢٢٥، وكشف الظنون ٢/ ١١٢٦.

(٥) هو أبو الحسن المروزي، المحدث، مولى فاتح خراسان عبد الله بن عامر بن كريز القرشي. توفي سنة (٢١١هـ). السير ١٠/ ٢١١.

قد جمعَ رسولنا ﷺ الطبَّ في ألفاظٍ يسيرة. قال: وما هي؟ قال: قوله ﷺ «المعدةُ بيتُ الداء، والحميةُ رأس كلِّ دواء، وأعطِ كلَّ بدنٍ ما عوَّدته». فقال: ما ترك كتابكم ولا نبيُّكم لجالينوس طبًّا. انتهى[(١)].

وما نسبه إلى النبيِّ ﷺ هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، ولا يصح رفعُه إلى النبي ﷺ، وفي «الإحياء» مرفوعاً: «البطنةُ أصل الداء، والحميةُ أصل الدواء، وعَوِّدُوا كلَّ جسدٍ ما اعتاد». وتعقَّبه العراقيُّ قائلاً: لم أجد له أصلاً[(٢)].

وفي «شعب الإيمان» للبيهقي و«لقط المنافع» لابن الجوزي[(٣)] عن أبي هريرة مرفوعاً أيضا: «المعدةُ حوضُ البدن والعروقُ إليها واردة، فإذا صحَّت المعدةُ صدرت العروق بالصحَّة، وإذا فسدَت المعدة صدرت[(٤)] العروق بالسقم»[(٥)].

وتعقَّبه الدارقطنيُّ[(٦)] قائلاً: لا نعرفُ هذا من كلام النبيِّ ﷺ، وإنَّما هو من كلام عبد الملك بن سعيد بن أبجر[(٧)].

وفي «الدر المنثور»: أخرج محمد الخلال عن عائشة ﵂ أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ

---

(١) ذكر هذه القصة الزمخشري في الكشاف ٢/ ٧٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٨٨، وقال: هكذا نقلت هذه الحكاية، إلا أن هذا الحديث المذكور فيها عن النبي ﷺ لا يثبت. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٦٤ عن القصة: لم أجد لها إسناداً. وعن الحديث: لم أجده. وينظر المقاصد الحسنة ص٣٨٩. وجالينوس فيلسوف يوناني، مؤلف الكتب الجليلة في صناعة الطب. قال المسعودي: كان جالينوس بعد المسيح بنحو مئتي سنة. أخبار العلماء للقفطي ص ٨٦.

(٢) الإحياء وبذيله المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأسفار لزين الدين العراقي ٣/ ٨٧.

(٣) في الطب، جعله على سبعين باباً، ثم اختصره وسماه مختار المنافع. كشف الظنون ٢/ ١٥٦٠.

(٤) في الأصل و(م): صارت. والمثبت من المصادر.

(٥) شعب الإيمان للبيهقي (٥٧٩٦) وضعفه، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤٣٤٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٨٦: وفيه يحيى بن عبد الله البابلتي، وهو ضعيف. وقال العقيلي في الضعفاء الكبير ١/ ٥١: هذا الحديث باطلٌ لا أصل له.

(٦) في العلل ٨/ ٤٣.

(٧) في الأصل و(م): أبحر. وعبد الملك بن سعيد بن أبجر من رجال مسلم، قال العجلي: كان ثقة ثبتاً في الحديث، صاحب سنة، وكان من أطبِّ الناس. تهذيب التهذيب ٢/ ٦١٢-٦١٣.

عليها وهي تشتكي، فقال لها: «يا عائشة الأزْمُ دواء، والمعدةُ بيتُ الأدواء، وعَوِّدوا البدنَ ما اعتاد»[(١)]. ولم أرَ من تعقَّبه.

نعم رأيت في «النهاية» لابن الأثير: سأل عمرُ[(٢)] الحارثَ بن كلدة: ما الدواء؟ قال: الأزْمُ. يعني الحِمية، وإمساكَ الأسنان بعضها على بعض.

نعم الأحاديثُ الصحيحةُ متضافرةٌ في ذمِّ الشبع وكثرة الأكل، وفي ذلك إرشادٌ للأمَّة إلى كلِّ الحكمة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي[(٣)]: يبغضُهم، ولا يرضى أفعالَهم. والجملةُ في موضع التعليل للنهي، وقد جَمعت هذه الآيةُ ـ كما قيل ـ أصولَ الأحكام: الأمر، والإباحة، والنهي، والخبر.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ من الثياب وكلِّ ما يُتجمَّل به ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: خَلَقَها لنفعهم من النبات كالقطن والكَتَّان، والحيوان كالحرير والصوف، والمعادن كالخواتم والدروع ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ أي: المستلَذات، وقيل: المُحَلَّلات من المآكل والمشارب، كلحم الشاة، وشحمها، ولبنها.

واستُدِلَّ بالآية على أنَّ الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجمُّلات الإباحة؛ لأنَّ الاستفهام في «مَن» لإنكار تحريمها على أبلغ وجه.

ونقل عن ابن الفرس أنَّه قال: استدَلَّ بها من أجازَ لبس الحرير والخزِّ للرِّجال[(٤)].

ورُوي عن زين العابدين رضي الله عنه أنَّه كان يشتري كساء الخزِّ بخمسين ديناراً، فإذا

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٨٠.

(٢) في الأصل و(م): عمرو، والمثبت من النهاية (أزم)، وهو الصواب، وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ينظر الإصابة ٢/ ١٧٢.

(٣) في (م): بل.

(٤) أحكام القرآن لابن الفرس ٣/ ٥٠. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٢٨٥: وقال قومٌ: يجوز لبسه مطلقاً، وحملوا الأحاديث الواردة في النهي عن لبسه على من لبسه خيلاء، أو على التنزيه. قلت [القائل ابن حجر]: وهذا الثاني ساقط؛ لثبوت الوعيد على من لبسه. اهـ. وانظر شرح النووي على مسلم ١٤/ ٣٢.

أصافَ[١] تصدَّق به، ولا يرى بذلك بأساً، ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾.

وروي أنَّ الحسينَ رضي الله عنه أصيبَ وعليه جبَّة خزٍّ، وأنَّ ابنَ عباس رضي الله عنهما لمَّا بعثَه عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه إلى الخوارج لبسَ أفضل ثيابه، وتطيَّبَ بأطيب طيبه، وركبَ أحسن مراكبه، فخرجَ إليهم فوافقهم، فقالوا: يا ابن عباس بينا أنتَ خيرُ الناس إذ أتيتَنا في لباس الجبابرة ومراكبهم. فتلا هذه الآية.

لكن رُويَ عن طاوس أنَّه قرأ هذه الآية وقال: لم يأمرهم سبحانه بالحرير ولا الديباج، ولكنَّه كان إذا طاف أحدُهم وعليه ثيابُه ضُرِبَ وانتزعت منه، فأنكر عليهم ذلك.

والحقُّ أنَّ كلَّ ما لم يقم الدليلُ على حرمته داخلٌ في هذه الزينة، لا توقُّف في استعماله ما لم يكن فيه نحو مخيلةٍ، كما أشير إليه فيما تقدَّم.

وقد رُوي أنَّه ﷺ خرجَ وعليه رداءٌ قيمتُه ألف درهم[٢].

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه يَتردَّى[٣] برداءٍ قيمته أربعُ مئة دينار، وكان يأمرُ أصحابَه بذلك، وكان محمد يلبسُ الثيابَ النفيسة، ويقول: إنَّ لي نساءً وجواري، فأزيِّنُ نفسي كي لا ينظرنَ إلى غيري.

وقد نصَّ الفقهاءُ على أنَّهُ يستحَبُّ التجمُّل لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ تعالى إذا أنعمَ على عبدٍ أحبَّ أنْ يُرى أثرُ نعمته عليه»[٤].

---

(١) أي: دخل في الصيف، والخبر بنحوه في طبقات ابن سعد ٥/ ٢١٨.

(٢) لم أقف عليه في شيءٍ من المصادر الحديثية. بل أوردته بعض كتب الفقه الحنفي، انظر العناية شرح الهداية ٨/ ٩٤، ومجمع الأنهر ٢/ ٧٩٣. وقال في الفتاوى الهندية ٥/ ٣٣٢: وفي مجموع النوازل: سُئل [أي أبو حنيفة] عن الزينة والتجمُّل في الدنيا قال: خرج رسول الله ﷺ . . . . وذكره.
ومجموع النوازل كتاب لطيف في فروع الحنَفية للإمام أحمد بن موسى الكشي المتوفى في حدود (٥٥٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١٦٠٦.

(٣) في (م): يرتدي. قال ابن منظور في اللسان (ردي): وقد تردّى به وارتدى بمعنى، أي: لبس الرداء.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٩٣٤)، والطبراني ١٨/ (٢٨١)، والبيهقي في السنن ٣/ ٢٧١ من حديث

وقيل لبعضهم: أليس عمر ﷺ كان يلبسُ قميصاً عليه كذا رقعة، فقال: فَعَلَ ذلك لحكمةٍ؛ هي أنَّه كان أميرَ المؤمنين، وعمالُه يقتدون به، وربَّما لا يكونُ لهم مالٌ فيأخذون من المسلمين. نعم كره بعض الأئمَّة لُبس المُعصفر والمُزعفر، وكرهوا أيضاً أشياءَ أخرَ تطلبُ من محالِّها.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: هي لهم بالأصالة لمزيد كرامتهم على الله تعالى، والكفرةُ وإنْ شاركوهم فيها فبالتَّبع، فلا إشكال في الاختصاص المستفادِ من اللام.

﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لا يشاركُهم فيها غيرُهم.

وعن الجبائيِّ أنَّ المعنى: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا غيرُ خالصةٍ من الهموم والأحزان والمشقَّة، وهي خالصةٌ يومَ القيامة من ذلك.

وانتصابُ «خالصة» على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور، والعاملُ فيه متعلَّقه.

وقرأ نافعٌ بالرفع(١) على أنَّه خبرٌ بعد خبر، أو هو الخبر. و«للذين» متعلِّقٌ به، قُدِّم لتأكيد الخلوص والاختصاص.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: مثلَ تفصيلنا هذا الحكم نفصِّلُ سائرَ الأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة.

وجُوِّز أن يكون هذا التشبيهُ على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] ونظائرِه مما تقدَّم تحقيقه.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: ما تزايدَ قُبحه من المعاصي. وقيل: ما يتعلَّقُ بالفروج.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدلٌ من «الفواحش»، أي: جهرَها وسرَّها. وعن

= عمران بن حصين ﷺ، وأخرج الترمذي (٢٨١٩) وأحمد (٦٧٠٨) نحوه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وانظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص ٤٣.

(١) التيسير ص١٠٩، والنشر ٢/٢٦٩.

ابن عباس رضي الله عنهما: «ما ظهرَ» الزِّنا علانية، و«ما بطنَ» الزِّنا سرّاً، وقد كانوا يَكرهونَ الأوَّل، ويفعلونَ الثاني، فنُهوا عن ذلك مطلقاً.

وعن مجاهد: «ما ظهرَ» التعرِّي في الطواف، وما بطن: الزنا.

وقيل: الأول: طوافُ الرجال بالنهار[1]، والثاني: طوافُ النساء بالليل عاريات.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي: ما يُوجِبُ الإثم، وأصله الذمُّ، فأُطلقَ على ما يوجبُه من مطلق الذنب. وذُكِر للتعميم بعد التخصيص؛ بناءً على ما تقدَّم من معنى الفواحش.

وقيل: إنَّ الإثمَ هو الخمر، كما نُقِل عن ابن عباس والحسن البصري، وذكره أهلُ اللغة كالأصمعيِّ وغيره، وأنشدوا له قول الشاعر:

نهانا رسولُ الله أن نقربَ الزِّنا ... وأنْ نشربَ الإثمَ الذي يوجبُ الوِزرا[2]

وقول الآخر:

شربتُ الإثمَ حتى ضلَّ عقلي ... كذاك الإثمُ يذهبُ بالعقول[3]

وزعم ابنُ الأنباريِّ أنَّ العربَ لم تسمِّ الخمرَ إثماً في جاهليةٍ ولا إسلام، وأنَّ الشعرَ موضوعٌ[4]. والمشهور أنَّ ذلك من باب المجازِ؛ لأنَّ الخمرَ سببُ الإثم.

وقال أبو حيان وغيره: إنَّ هذا التفسيرَ غيرُ صحيحٍ هنا، لأنَّ السورةَ مكيَّةٌ، ولم تُحرَّم الخمرُ إلَّا بالمدينة بعد أُحد[5]. وأيضاً يُحتَاجُ حينئذٍ إلى دعوى أنَّ الحصرَ إضافيٌّ. فتدبر.

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ الظلمُ والاستطالةُ على الناس، وأُفرد بالذكر بناءً على التعميم فيما قبله، أو دخوله في الفواحش للمبالغةِ في الزجر عنه.

---

(١) في الأصل و(م): بالنساء. والتصويب من البحر المحيط ٤/ ٢٩٢.

(٢) هو دون نسبة في البحر المحيط ٤/ ٢٩٢، والدر المصون ٥/ ٣٠٦، واللباب ٩/ ٩٦، وحاشية الشهاب ٤/ ١٦٥.

(٣) سلف ٢/ ٢٨٨.

(٤) وقال أبو حيان ٤/ ٢٩٢ بعد أن ذكر طرف البيت: وهو بيت موضوع مختلق، وإن صحَّ فهو على حذف مضاف، أي: موجب الإثم.

(٥) البحر المحيط ٤/ ٢٩٢.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بالبغي، لأنَّ البغيَ لا يكون إلَّا كذلك. وجُوِّزَ أن يكون حالاً مؤكِّدةً.

وقيل: جيء به ليخرجَ البغي على الغير في مقابلة بغيه؛ فإنَّه يسمى بغياً في الجملة، لكنَّه بحقٍّ. وهو كما ترى.

﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجَّة وبرهاناً. والمعنى على نفي الإنزال والسلطان معاً على أبلغ وجه، كقوله:

لا ترى الضبَّ بها ينجحرْ(١)

وفيه من التهكُّم بالمشركين ما لا يخفى.

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ بالإلحاد في صفاته، والافتراء عليه، كقولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨] ولا يخفى ما في توجيه التحريم إلى قولهم عليه سبحانه ما لا يعلمون وقوعَه دونَ ما يعلمون عدمَ وقوعه: من السرِّ الجليل.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المهلَكة ﴿أَجَلٌ﴾ أي: وقتٌ معيَّنٌ مضروبٌ لاستئصالهم، كما قال الحسن، وروي ذلك عن ابن عباس ومقاتل. وهذا ـ كما قيل ـ وعيدٌ لأهل مكة بالعذابِ النازل في أجلٍ معلوم عند الله، كما نزلَ بالأمم قبلهم، ورجوعٌ إلى الحثِّ على الاتباع بعدَ الاستطراد الذي قاله البعض. وقد روعي نكتة في تعقيبه تحريمَ الفواحش حيث ناسبه أيضاً.

وفسَّر بعضُهم الأجلَ هنا بالمدَّة المعيَّنة التي أُمهلوها لنزول العذاب، وفسَّره آخرون بوقت الموت، وقالوا: التقديرُ: ولكلِّ أحدٍ من أمةٍ، وعلى الأول لا حاجة إلى التقدير.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ الضمير ـ كما قال بعضُ المحققين ـ إمَّا للأمم المدلول عليها بـ «كلِّ أمَّةٍ»، وإمَّا لكلِّ أمة، وعلى الأول فإظهار الأجل مضافاً إلى ذلك الضمير لإفادة المعنى المقصود الذي هو بلوغُ كلِّ أمَّةٍ أجلَها الخاصَّ بها، ومجيئُه إيَّاها

---

(١) هو لعمرو بن الأحمر، وسلف ٣/ ٢٣٧، وتمامه:

لا تُفزِع الأرنبَ أهوالُها ولا ترى الضبَّ بها ينجحر

بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عموماً يفيدُه معنى الجمعية، كأنَّه قيل: إذا جاء آجالهم بأن يجيء كلٌّ واحدٍ من تلك الأمم أجلُها الخاصُّ بها. وعلى الثاني - وهو الظاهر -: فالإظهار في موقع الإضمار لزيادةِ التقرير، والإضافة لإفادة أكملِ التمييز.

وقرأ ابنُ سيرين: «آجالهم» بصيغة الجمع[1]. واستظهرها ابنُ جنِّي، وجعل الإفراد لقصد الجنسيَّة، والجنسُ من قبيل المصدر، وحسَّنه الإضافةُ إلى الجماعة[2].

والفاء قيل: فصيحةٌ، وسقطت في آية «يونس» لِمَا سنذكره إنْ شاء الله تعالى هناك[3].

والمراد من مجيء الأجل قربُه أو تمامُه، أي: إذا حانَ وقَرُب، أو انقطعَ وتمَّ.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾ قطعةً من الزمان في غاية القِلَّة. وليس المراد بها الساعةَ في مصطلح المنجِّمين، والمنقسمةَ إلى ساعةٍ مستويةٍ - وتسمَّى فلكيَّةً - هي زمانٌ مقدار خمس عشرة درجةً أبداً، ومعوجَّةٍ - وتسمَّى زمانية - هي زمانٌ مقدار نصف سدس النهار أو الليل أبداً، ويَستعملُ الأولى أهلُ الحساب غالباً، والثانيةَ الفقهاءُ وأهل الطلاسم ونحوهم، وجملةُ الليل والنهار عندهم أربعٌ وعشرون ساعةً أبداً. سواءٌ كانت الساعةُ مستويةً أو معوجَّةً، إلَّا أنَّ كلًّا من الليل والنهارلا يزيدُ على اثنتي عشرةَ ساعةً معوجَّةً أبداً، ولهذا تطولُ وتقصر، وقد تساوي الساعةَ المستوية، وذلك عند استواء الليل والنهار.

والمرادُ: لا يتأخَّرون أصلاً، وصيغة الاستفعال[4] للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٤٤، والمحتسب ١/ ٢٤٦.

(٢) ينظر المحتسب ١/ ٢٤٦. وعبارته ثمة: فأما إفرادُ الأجل فلأنه جعله جنساً، أو لأنه مصدر فأتته الجنسية من قبل المصدرية، وحسن الإفراد لإضافته أيضاً إلى الجماعة.

(٣) عند تفسير الآية (٤٩) منها.

(٤) في (م): الاستغفار.

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ أي: ولا يتقدَّمون عليه، والظاهرُ أنَّه عطفٌ على «لا يستأخرون»، كما أعربه الحوفيُّ وغيره.

واعترض بأنَّه لا يُتصَوَّر الاستقدامُ عند مجيئه، فلا فائدةَ في نفيه، بل هو من باب الإخبار بالضروريّ، كقولك: إذا قمتَ فيما يأتي لم يتقدَّم قيامُك فيما مضى.

وقيل: إنَّه معطوفٌ على الجملة الشرطيَّة لا الجزائيَّة، فلا يتقيَّدُ بالشرط، فمعنى الآية: لكلِّ أَمَّةٍ أجلٌ فإذا جاء أجلُهم لا يستأخرون عنه، ولكلِّ أُمَّة أجلٌ لا يستقدمونَ عليه.

وتعقَّبه مولانا العلامةُ السيالكوتي بأنَّه لا يخفى أنَّ فائدةَ تقييد قوله تعالى: «لا يستأخرون» فقط بالشرط غيرُ ظاهرةٍ وإنْ صحَّ، بل المتبادرُ إلى الفهم السليم ما تقدَّم، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الأجلَ كما يمتنعُ التقدُّم عليه بأقصرِ مدَّةٍ هي الساعة، كذلك يمتنعُ التأخُّر عنه، وإنْ كان ممكناً عقلاً، فإنَّ خلافَ ما قدَّره الله تعالى وعَلِمه محالٌ. والجمع بين الأمرين فيما ذُكر كالجمع بين من سَوَّف التوبةَ إلى حضورِ الموت ومن ماتَ على الكفر في نفي التوبة عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية [النساء:١٨]. ولعلَّ هذا مراد من قال: إنَّه عطفٌ على الجزاء؛ بناءً على أنْ يكون معنى قوله تعالى: «لا يستأخرون» «ولا يستقدمون»: لا يستطيعونَ تغييره، على نمط قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. وقولِهم: كلَّمته فما ردَّ عليَّ سوداءَ ولا بيضاء. فلا يَرِدُ ما قيل. وأنت خبيرٌ بأنَّ هذا المعنى حاصلٌ بذكر الجزاء بدون ذكر«ولا يستقدمون». والحقُّ العطفُ على الجملة الشرطية.

وفي «شرح المفتاح»: القيدُ إذا جُعِل جُزءاً من المعطوف عليه لم يشاركه المعطوف فيه، ومثَّل بالآية. وعليه لا محذور في العطف على «لا يستأخرون»؛ لعدم المشاركة في القيد.

وأنت تعلمُ أنَّهم ذكروا في هذا الباب أنَّ. إذا عُطف شيءٌ على شيء وسبقَه قيدٌ، يشارك المعطوفُ المعطوفَ عليه في ذلك القيد لا محالة، وأمَّا إذا عطف على

ما لحقَه قيدٌ فالشركة محتمِلة، فالعطفُ على المقيَّد له اعتباران؛ الأول: أنْ يكونَ القيدُ سابقاً في الاعتبار، والعطفُ لاحقاً فيه. والثاني: أن يكونَ العطفُ سابقاً والقيدُ لاحقاً. فعلى الأول لا يلزمُ اشتراكُ المعطوفين في القيد المذكور، إذ القيدُ جزءٌ من أجزاء المعطوف عليه، وعلى الثاني يجبُ الاشتراك؛ إذ هو حكمٌ من أحكامِ الأوَّل يجبُ فيه الاشتراك.

وبعضُهم بنى العطفَ هنا على أنَّ المرادَ بالمجيء الدنوّ، بحيثُ يمكنُ التقدُّم في الجملة، كمجيء اليوم الذي ضُرب لهلاكهم ساعةٌ منه. وليس بذاك.

وتقديمُ بيان انتفاء الاستئخار ـ كما قيل ـ لما أنَّ المقصودَ بالذات بيانُ عدم خلاصهم من العذاب، وأمَّا [ما][1] في قوله تعالى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥] من سبق السبق في الذّكر، فلما أنَّ المرادَ هناك بيانُ سرِّ تأخير إهلاكهم مع استحقاقهم له، حسبما ينبئ عنه قوله سبحانه: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣] فالأهمُّ هناك بيانُ انتفاءِ السبق.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ خطابٌ لكافَّةِ الناس، ولا يخفى ما فيه من الاهتمام بشأن ما في حيِّزه. وقد أخرج ابنُ جرير عن أبي سيَّار[2] السلميّ قال: إنَّ الله تبارك وتعالى جعلَ آدم وذريَّته في كفِّه فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ حتى بلغ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ ثم بثَّهم.

والذي ذهبَ إليه بعضُ المحقِّقين أنَّ هذا حكايةٌ لما وقع مع كلِّ قوم. وقيل: المرادُ ببني آدمَ أمَّةُ نبيِّنا ﷺ. وهو خلاف الظاهر، ويبعدهُ جمعُ الرُّسل في قوله سبحانه: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ﴾ أي: من جنسكم. والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ صفةً لـ «رسل».

و«إمَّا» هي «إنْ» الشَّرطيَّة، ضُمَّت إليها «ما» لتأكيد معنى الشرط، فهي مزيدةٌ للتأكيد فقط. وقيل: إنها تفيدُ العمومَ أيضاً، فمعنى: «إمَّا تفعلنَّ» مثلاً: إن اتَّفق

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٣/ ٢٢٥، والكلام منه.
(٢) في الأصل و(م): أبي يسار. والمثبت من تفسير الطبري ١٠/ ١٦٦، والدر المنثور ٣/ ٨٢.

منكَ فعلٌ بوجهٍ من الوجوه. ولزمت الفعلَ بعد هذا الضمِّ نونُ التأكيد، فلا تحذفُ - على ما ذهبَ إليه المبرِّدُ[١] والزجاج[٢] ومن تبعَهما - إلَّا ضرورةً، ومن ذلك قولُه:

فـإمَّـا تَـرَيْـنِـي ولـي لِـمَّـةٌ فـإنَّ الـحـوادث أَوْدَى بـهـا[٣]

ورُدَّ بأنَّ كثرة سماع الحذف تُبعدُ القول بالضرورة. ووجهُ هذا اللزوم عند بعضٍ حذار انحطاط رتبةِ فعل الشرط عن حرفه.

وقيل: إنَّ نون التوكيد لا تدخلُ الفعلَ المستقبل المحض إلَّا بعد أنْ يدخلَ على أوَّل الفعلِ ما يدلُّ على التوكيد، كـ «لام القسم» أو «ما المزيدة» ليكون ذلك توطئةً لدخول التوكيد، وعليه فأمر الاستتباع بعكسِ ما تقدَّم.

وفي الإتيان بـ «إنْ» تنبيهٌ على أنَّ إرسالَ الرسل أمرٌ جائزٌ لا واجبٌ، وهو الذي ذهبَ إليه أهل السنة. وقالت المعتزلة: إنَّه واجبٌ على الله تعالى؛ لأنَّه سبحانه بزعمهم يجبُ عليه فعل الأصلح.

وقوله سبحانه: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ صفةٌ أخرى لـ «رسل». وجُوِّزَ أنْ يكون في موضع الحال منه، أو من الضمير في الظرف، أي: يَعرضون عليكم أحكامي وشرائعي، ويخبرونكم بها ويبيِّنونَها لكم.

---

(١) في نسبة هذا الكلام للمبرد نظر، ولعله مأخوذ من قول المبرد في المقتضب ٣/ ١١-١٤ عند ذكر مواضع دخول النونين الثقيلة والخفيفة على الأفعال: ومن مواضعها الجزاء، إذا لحقت «ما» زائدة في حرف الجزاء... فمن ذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم:٢٦]، وقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ [الإسراء:٢٨]. اهـ. ولكن في كلام المبرد في غير موضع ما يدل على غير ذلك، ينظر المقتضب ٣/ ٢٩ و٢٦٥، والكامل ١/ ٣٧٨-٣٧٩، وينظر ما قاله الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة في تعليقه على المقتضب ٣/ ١٤-١٥ فهو نافعٌ إن شاء الله.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٤.

(٣) هو للأعشى ميمون بن قيس كما في ديوانه ص ٢٢١. وصدره فيه: فإن تعهديني ولي لِمَّةٌ. وذكره برواية المصنف البغدادي في الخزانة ١١/ ٤٣٠، وأشار فيه إلى رواية الديوان. وقال في شرحه: واللِّمَّة بالكسر الشعر الذي يُلِمُّ، والحوادث جمع حادثة، وأودى بها: ذهب ببهجتها وحسنها. الخزانة ١١/ ٤٣٠-٤٣٢.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ جوابُ الشرط. و«مَن» إمَّا شرطيَّةٌ، أو موصولة، و«منكم» مقدَّرٌ في نظم الكلام؛ ليرتبط الجوابُ بالشرط، والمرادُ: فمن اتَّقى منكم التكذيبَ وأصلحَ عملَه فلا خوفٌ.. إلخ. وتوحيد الضمير وجمعه لمراعاة لفظ «من» ومعناه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ منكم ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التي تُقَصُّ ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ ولم يقبلوها ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لتكذيبهم واستكبارهم. وهذه الجملة عطفٌ على الجملة السابقة، وإيرادُ الاتقاء فيها للإيذان بأنَّ مدارَ الفلاح ليس مجرَّدَ عدم التكذيب، بل هو الاتقاءُ والاجتنابُ عنه.

وإدخال الفاء في الوعد دون الوعيد؛ للمبالغة في الأول، والمسامحةِ في الثاني.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: تعمَّد الكذبَ عليه سبحانه، ونسبَ إليه ما لم يقل ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ أو كذَّبَ ما قاله جلَّ شأنه. والاستفهام للإنكار، وقد مرَّ تحقيقُ ذلك.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول، والجمعُ باعتبار المعنى، كما أنَّ الإفرادَ في الضمير المستكنِّ في الفعلين باعتبارِ اللفظ. وما فيه من معنى البعد للإيذان بتماديهم في سوء الحال، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكِر من الافتراء والتكذيب ﴿يَنَالُهُمْ﴾ أي: يصيبهم ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: مما كُتب لهم وقُدِّرَ من الأرزاق والآجال مع ظلمهم وافترائهم، لا يُحرمون ما قُدِّر لهم من ذلك إلى انقضاءِ أجلهم، فـ «الكتاب» بمعنى المكتوب، وتخصيصُه بما ذُكر مرويٌّ عن جماعةٍ من المفسِّرين.

وعن ابن عباس أنَّ المرادَ: ما قُدِّر لهم من خيرٍ أو شر. ومثله عن مجاهد.

وعن أبي صالح: ما قُدِّر من العذاب. وعن الحسن مثله.

وبعضهم فسَّر الكتابَ بالمكتوب فيه، وهو اللوحُ المحفوظ.

و«من» لابتداء الغاية، وجُوِّزَ فيها التبيين والتبعيضُ. والجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالاً من «نصيبهم»، أي: كائناً من الكتاب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ أي: ملك الموت وأعوانه ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ أي: حالَ كونهم متوفِّينَ لأرواحهم، و«حتى» غايةُ نَيلهم؛ وهي حرفُ ابتداءٍ غيرُ جارَّةٍ، بل داخلةٌ على الجملة(١)، كما في قوله:

وحتى الجيادُ ما يُقَدْنَ بأرسان(٢)

وقيل: إنَّها جارَّةٌ. وقيل: لا دلالةَ لها على الغاية. وليس بشيء.

وعن الحسن أنَّ المرادَ: حتى إذا جاءتهم الملائكةُ يحشرونهم إلى النار يومَ القيامة. وهو خلافُ الظاهر، وكأنَّ الذي دعاه إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الرسل لهم ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: أين الآلهةُ التي كنتم تعبدونها في الدنيا وتستعينونَ بها في المهمَّات ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ﴾ أي: غابوا ﴿عَنَّا﴾ لا ندري أين مكانُهم = فإنَّ هذا السؤال والجوابَ وكذا ما يترتَّبُ عليهما ممَّا سيأتي إنَّما يكونُ يوم القيامة لا محالة.

ولعلَّه على الظاهر أُريدَ بوقتِ مجيءِ الرسل وحال التوفِّي الزمانُ الممتدُّ من ابتداء المجيء والتوفِّي إلى نهاية يوم الجزاء؛ بناءً على تحقُّق المجيء والتوفِّي في ذلك الزمان، وإنْ كان حدوثهما في أوَّله فقط. أو قُصدَ بيانُ غاية سرعة وقوع البعث والجزاء، كأنهما حاصلان عند ابتداء التوفِّي.

و«ما» وُصلت بـ «أين» في المصحف العثمانيّ، وحقُّها الفصلُ لأنَّها موصولةٌ، ولو كانت صلةً لاتصلت.

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: اعترفوا على أنفسهم. وليس في النظم ما يدلُّ على أنَّ اعترافَهم كان بلفظ الشهادة، فالشهادةُ مجازٌ عن الاعتراف ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ ۝٣٧﴾ عابدين لما لا يستحقُّ العبادةَ أصلاً، حيث اتَّضح لهم حالُه.

والجملةُ يحتمل أنْ تكون استئنافَ إخبارٍ من الله تعالى باعترافهم على أنفسهم بالكفر، ويحتمل أنْ تكون عطفاً على «قالوا». وعطفُها على المقول لا يخفى ما فيه.

---

(١) في(م): الجمل.

(٢) هو عجز بيت لامرئ القيس، وصدره كما في الديوان ص ٩٣:

مطوتُ بهم حتى تكلَّ مطيُّهم

وسلف ٥/ ٣١٣.

والاستفهامُ ـ على ما ذهبَ إليه غيرُ واحد ـ غيرُ حقيقيٍّ، بل للتوبيخ والتقريع، وعليه فلا جواب، وما ذُكر إنَّما هو للتحسُّر والاعتراف بما هم عليه من الخيبةِ والخسران. ولا تعارضَ بين ما في هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]؛ لأنَّ الطوائف مختلفةٌ، أو المواقفَ عديدةٌ، أو الأحوال شتى.

﴿قَالَ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ لأولئك الكاذبين المكذِّبين يومَ القيامة، بالذات، أو بواسطةِ المَلَك ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: مع أُمَم، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: مصاحبين لأمَمٍ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني: كفارَ الأمم من النوعين، وقدَّم الجنَّ لمزيدِ شرِّهم ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ متعلِّقٌ بـ «ادخلوا»، وجُوِّزَ أنْ يتعلَّق «في أمم» به، ويحمل «في النار» على البدليَّة، أو على أنَّه صفة «أمم».

وجَوَّز بعضُ المفسِّرين أن يكون هذا إخباراً عن جعله سبحانه إيَّاهم في جملة أولئك من غير أن يكون هناك قولٌ مطلقاً، أي: إنه تعالى جعلَهم كذلك. وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ من الأمم تابعةً أو متبوعةً في النار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي: دعت على نظيرها في الدين، فتلعنُ التابعةُ المتبوعةَ التي أضلَّتها، وتلعنُ المتبوعةُ التابعةَ التي زادتْ في ضلالها. وعن أبي مسلم: يلعنُ الأتباعُ القادةَ؛ يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد، فلَعَنكم الله تعالى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ غايةٌ لما قبلَه، أي: يدخلون فوجاً فوجاً، لاعناً بعضُهم بعضاً، إلى انتهاء تلاحقهم باجتماعهم في النار. وأصلُ «اداركوا»: تداركوا، فأدغمت التاءُ في الدال بعد قلبها دالاً وتسكينها، ثمَّ اجتُلبت همزةُ الوصل.

وعن أبي عمرو أنَّه قرأ: «إدَّاركوا» بقطع ألف الوصل[1]، وهو ـ كما قيل ـ مبنيٌّ على أنه وقفَ مثلَ وقفة المستذكر، ثمَّ ابتدأ فقطع، وإلا فلا مساغَ لذلك في كلام الله تعالى الجليل.

---

(١) المحتسب ١/ ٢٤٧، والبحر المحيط٤/ ٢٩٦. وقراءة أبي عمرو المشهورة كقراءة الجماعة.

وقرئ: «إذا ادَّاركوا» بألفٍ واحدةٍ ساكنةٍ ودالٍ بعدها مشدَّدة، وفيه جمعٌ بين ساكنين، وجازَ لمَّا كان الثاني مدغماً، ولا فرقَ بين المتَّصل والمنفصل[١].

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ منزلةً، وهم الأتباعُ والسفلة ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ منزلةً، وهم القادةُ والرؤساء، أو: «قالت أُخراهم» دخولاً «لأولاهم» كذلك. وتقدُّم أحد الفريقين على الآخر في الدخول مرويٌّ عن مقاتل، واللام في «لأولاهم» للتعليل، لا للتبليغ كما في قولك: قلتُ لزيدٍ: افعل كذا؛ لأنَّ خطابَهم مع الله تعالى لا معهم، كما يدلُّ عليه قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ أي: دَعَوْنا إلى الضلال، وأمرونا به حيث سنُّوه، فاقتدينا بهم ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفاً، كما روي عن مجاهد ﴿مِّنَ النَّارِ﴾ والضِّعفُ ـ على ما قال أبو عبيد[٢]، ونصَّ عليه الشافعيُّ في الوصايا[٣] ـ مثلُ الشيءِ مرَّةً واحدةً، وعن الأزهريِّ أن هذا معنًى عرفيٌّ، والضعف في كلام العرب ـ وإليه يُرَدُّ كلام الله تعالى ـ المثلُ إلى ما زاد، ولا يقتصرُ على مثلين، بل هو غير محصورٍ[٤]. واختاره هنا غير واحد.

وقال الراغب[٥]: الضَّعفُ بالفتح مصدرٌ وبالكسر اسمٌ، كالثَّني والثِّني، وضِعْفُ الشيء هو الذي يُثنِّيه، ومتى أُضيف إلى عددٍ اقتضَى ذلك العددَ [و] مثلَه، نحو أن يقال: ضعفُ عشرة وضعف مئة، فذلك عشرون ومئتان بلا خلاف، وعلى ذلك قول الشاعر[٦]:

جزيتُكِ ضِعفَ الوُدِّ لـمَّا اشتكيتهِ ... وما إنْ جَزاكِ الضِّعفَ من أَحدٍ قبلي

---

(١) يعني بالمتصل نحوَ: «الضالِّين» و«جانّ»، وبالمنفصل أن ألف «إذا» من كلمة، والساكن الثاني من كلمة أخرى. الدر المصون ٥/ ٣١٤، وذكر القراءة أيضاً أبو البقاء في الإملاء ٣/ ٦، وأبو حيان في البحر ٤/ ٢٩٦.

(٢) كذا في الأصل و(م) ولسان العرب (ضعف) وحاشية الشهاب ٤/ ١٦٨. وجاء في تهذيب اللغة ١/ ٤٨٠ ـ وعنه نقل صاحب اللسان ـ والزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ص ٣٧٥: أبو عبيدة. وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٣٦-١٣٧، وانظر حاشية الخفاجي٣/ ٦٣.

(٣) مختصر المزني (بهامش كتاب الأم) ٣/ ١٦٠.

(٤) تهذيب اللغة١/ ٤٨٠-٤٨١.

(٥) في المفردات (ضعف). وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) هو أبو ذؤيب الهذلي. والبيت في شرح أشعار الهذليين ١/ ٨٨.

وإذا قيل: أعطهِ ضِعْفَي واحدٍ، اقتضى ذلك الواحدَ ومثليه، وذلك ثلاثة؛ لأنَّ معناه الواحدُ واللذان يزاوجانه، هذا إذا كان الضعفُ مضافاً، فإذا لم يكن مضافاً فقلت: الضعفين، فقد قيل: يجري مجرى الزوجين في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يزاوجُ الآخر، فيقتضي ذلك اثنين؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يضاعفُ الآخر، فلا يخرجان منهما. اهـ.

ونُصب «ضعفاً» على أنّه صفةٌ لـ «عذاب»، وجُوِّزَ أن يكون بدلاً منه. و«من النار» صفةُ العذاب، أو الضعف.

﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ومنهم عذابٌ ﴿ضِعْفٌ﴾ من النار؛ أمَّا القادةُ فلضلالهم وإضلالهم، وذلك سببُ الدعاء السابق، وأمَّا الأتباعُ فلذلك أيضاً عند بعض.

وكونُهم ضالِّين ظاهرٌ، وأمَّا كونُهم مُضِلِّين؛ فلأنَّ اتخاذَهم إيَّاهم رؤساءَ يصدرون عن أمرهم يزيدُ في طغيانهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

واعتُرِض بعدم اطِّرادِه؛ فإنَّ اتِّباع كثيرٍ من الأتباع غيرُ معلومٍ للقادة، إلَّا أنْ يقال: إنَّه مخصوصٌ ببعضهم.

وقيل: الأحسنُ أن يقال: إنَّ ضِعْفَ الأتباع لإعراضهم عن الحق الواضح وتولِّي الرؤساء لينالوا عرضَ الدنيا اتِّباعاً للهوى، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ:٣٢]. وفيه ما فيه.

والأَوْلَى أن يُقَال: إنَّ ذلك في الأَتباع لكفرهم وتقليدِهم. ولا شكَّ أن التقليدَ في الهوى(١) ضلالٌ يستحقُّ فاعلُه العذاب.

ونقل الراغبُ عن بعضهم في الآية أنَّ المعنى: لكلٍّ منكم ومنهم ضعفُ ما يرى الآخر، فإنَّ من العذاب ظاهراً وباطناً، وكلٌّ يُدرِك من الآخر الظاهرَ دون الباطن،

(١) في الأصل و(م): الهدى، والمثبت هو الصواب، ينظر حاشية الشهاب ٤/١٦٨.

فيُقَدِّر أنْ ليس له العذابُ الباطن. واختار أن المعنى: لكلٍّ منهم ضعفُ ما لكم من العذاب[١]. والظاهر ما عوَّلنا عليه.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨﴾ ما لكم، أو ما لكلٍّ فريقٍ، فلذا تكلمتُم بما يُشعِر باعتقادكم استحقاقَ الرؤساءِ الضِّعفَ دونَكم، فالخطابُ على التقديرين للأتباع، كما هو الظاهر.

وقيل: إنَّه على الأول للأتباع، وعلى الثاني للفريقين، بتغليبِ المخاطَبين الذين هم الأتباع على الغُيَّب الذين هم القادة.

وقرأ عاصم: «لا يعلمون» بالياء التحتية[٢] على انفصالِ هذا الكلام عمَّا قبله، بأنْ يكونَ تذييلاً لم يقصد به إدراجه في الجواب. ومَن ادَّعَى أنَّ الخطابَ للفريقين على سبيل التغليب قال: إنَّ هذه القراءةَ على انفصالِ القادة من الأتباع، إذ عليها لا يمكنُ القولُ بالتغليب، إذ لا يُغلَّبُ الغائبُ على المخاطب.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ حين سمعوا جوابَ الله تعالى لهم. واللام هنا يجوزُ أنْ تكون للتبليغ؛ لأنَّ خطابَهم لهم بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: إنَّا وإيَّاكم متساوون في استحقاقِ العذاب وسببه، وهذا مُرتَّب على كلام الله تعالى على وجه التسبُّب؛ لأنَّ إخبارَه سبحانه بقوله جلَّ وعلا: «لكلٍّ ضعفٌ» سببٌ لعلمهم بالمساواة، فالفاء جوابيَّةٌ لشرطٍ مقدَّرٍ، أي: إذا كان كذلك فقد ثبتَ أنْ لا فضلَ لكم علينا. و قيل: إنَّها عاطفةٌ على مقدَّر، أي: دعوتُم الله تعالى فسوَّى بيننا وبينكم، «فما كان» إلخ. وليس بشيء.

وأيًّاما كان فقد عنَوا بالفضلِ تخفيفَ العذاب ووحدةَ السبب.

وأمَّا ما قيل من أنَّ المعنى: ما كان لكم علينا من فضلٍ في الرأي والعقل، وقد بلغَكم ما نزلَ بنا من العذاب، فلِمَ اتَّبعتمونا؟ فكما ترى.

وقيل: المعنى: ما كان لكم علينا في الدنيا فضلٌ بسبب اتِّباعكم إيَّانا، بل

---

(١) المفردات (ضعف).

(٢) وهي قراءة شعبة الراوي عن عاصم، وقرأ الباقون: «تعلمون» بالتاء. التيسير ص١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩.

اتّباعُكم وعدمُ اتِّباعِكم سواءٌ عندنا، فاتِّباعُكم إيَّانا كان باختيارِكم دون حملِنا لكم عليه. وعليه فليس مرتَّباً على كلام الله تعالى. وجوابُه كما في الوجه الأول.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ المضاعفَ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٣٩﴾ أي: بسبب كسبكم، أو الذي تكسبونَه. والظاهرُ أنَّ هذا من كلام القادة، قالوه لهم على سبيل التشَفِّي، وترتُّبه على ما قبلَه على القول الأخير في معنى الآية في غاية الظهور.

وجُوِّزَ أنْ يكون من كلام الله تعالى للفريقين على سبيل التوبيخ. والوقف على «فضل».

وقيل: هو من مقولِ الفريقين، أي: قالت كلُّ فرقةٍ للأُخرى «ذوقوا» إلخ. وهو خلافُ الظاهر جدًّا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالَّةِ على أصول الدين وأحكام الشرع، كالأدلَّة الدالَّة على وجود الصانع ووحدته، والدالَّة على النبوَّة والمعاد، ونحوِ ذلك ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ أي: بالغُوا في احتقارها وعدم الاعتناء بها، ولم يلتفتُوا إليها، وضمُّوا أعينهم عنها، ونبذوها وراء ظهورهم، ولم يكتسُوا بحُلل مقتضاها، ولم يعملُوا به ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ أي: لأرواحهم إذا ماتوا ﴿أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما تُفتَّح لأرواح المؤمنين.

أخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقيُّ وغيرهم عن أبي هريرة ﵁ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الميت تحضرُه الملائكة، فإذا كان الرجلُ صالحاً، قال: اخرجي أيتها النفسُ الطيبة كانت في الجسد الطيِّب، اخرجي حميدةً، وأبشري برَوْحٍ وريحانٍ وربٌّ راضٍ غيرِ غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثمَّ يُعْرَجُ بها إلى السماء، فيستفتحُ لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان بن فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيِّبة كانت في الجسد الطيِّب، ادخُلي حميدةً، وأبشري برَوْحٍ وريحانٍ وربٌّ راضٍ غيرِ غضبان. فلا تزال يقال لها ذلك حتى تَنتهيَ إلى السماء السابعة. وإذا كان الرجلُ سَوءاً قال: اخرجي أيَّتها النفسُ الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرُجي ذميمةً، وأبشري بحميم وغسَّاق، وآخرَ من شكله أزواج، فلا تَزالُ يقال لها ذلك حتى تخرج، ثمَّ يُعْرَجُ بها إلى السماء، فُيستَفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان بن فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد

الخبيث، ارْجعي ذميمةً، لا تفتحُ لكِ أبوابُ السماء. فترسلُ من السماء ثم تصيرُ إلى القبر»[١]. والأخبارُ في ذلك كثيرةٌ.

وقيل: لا تُفتَّحُ لأعمالهم ولا لدعائهم أبوابُ السماء، ورُوي ذلك عن الحسن ومجاهد.

وقيل: لا تُفتَّح لأرواحهم ولا لأعمالهم، ورُوي ذلك عن ابن جريج.

وقيل: المراد لا يصعدُ لهم عملٌ، ولا تنزلُ عليهم البركة.

وكونُ السماء لها أبوابٌ تُفتَّح للأعمال الصالحة والأرواح الطيبة قد تفتَّحت له أبواب القبول؛ للنصوص الواردة فيه، وهو أمرٌ ممكنٌ أخبرَ به الصادقُ فلا حاجةَ إلى تأويله، وكونُ السماءِ كرويَّةً لا تقبلُ الخرقَ والالتئام ممَّا لا يتمُّ له دليلٌ عندنا، وظاهرُ كلام أهل الهيئة الجديدة جوازُ الخرقِ والالتئام على الأفلاك.

وزعم بعضُهم أنَّ القولَ بالأبواب لا ينافي القولَ بامتناع الخرقِ والالتئام. وفيه نظرٌ كما لا يخفى.

والتاء في «تفتَّح» لتأنيث الأبواب، والتشديدُ لكثرتِها، لا لكثرةِ الفعل؛ لعدم مناسبة المقام.

وقرأ أبو عمرو بالتخفيف، وحمزةُ والكسائيُّ به وبالياء التحتية[٢]، ورُوي ذلك عن البراء بن عازب ﷺ عن رسول الله ﷺ[٣]؛ لأن التأنيثَ غيرُ حقيقيٍّ، والفعلُ مقدَّمٌ مع وجودِ الفاصل.

وقُرِئ على البناء للفاعل ونصب الأبواب، بالتاء الفوقيَّة على أنَّ الفعلَ مُسندٌ إلى الآيات مجازاً؛ لأنَّها سببٌ لذلك. وبالياء على أنه مسندٌ إلى الله تعالى[٤].

---

(١) مسند أحمد (٨٧٦٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٣٧٨)، ومستدرك الحاكم ١/ ٣٥٢-٣٥٣، وإثبات عذاب القبر (٣٥). وهو أيضاً عند ابن ماجه (٤٢٦٢).

(٢) التيسير ص١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩. وقرأ أيضاً بالتخفيف والياء التحتية من العشرة خلف.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٨٣، وعزاه لابن مردويه.

(٤) الكشاف ٢/ ٧٨، وإتحاف فضلاء البشر ص ٢٨٣.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ يومَ القيامة ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ﴾ أي: يدخلَ ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ هو البعيرُ إذا بَزَلَ(١)، وجمعه جمال وأجمال وجِمالة، ويجمعُ الأخير على جِمَالات.

وعن ابن مسعود أنَّه سُئِل عن الجمل فقال: هو زوج الناقة. وعن الحسن أنه قال: ابنُ الناقة الذي يقوم في المِرْبد(٢) على أربع قوائم. وفي ذلك استجهالٌ للسائل، وإشارة إلى أنَّ طلبَ معنًى آخَرَ تكلُّفٌ.

والعربُ تضربُ به المثل في عِظَم الخِلقة، فكأنَّه قيل: حتى يدخلَ ما هو مَثَلٌ في عِظَمِ الجرم.

﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي: ثقبة الإبرة، وهو مثلٌ عندَهم أيضاً في ضيق المسلَك. وذلك ممَّا لا يكون، فكذا ما توقَّف عليه، بل لا تتعلَّق به القُدرة لعدم إمكانه ما دامَ العظيمُ على عِظمه والضيِّقُ على ضيقه، وهي إنَّما تتعلَّق بالممكنات الصرفة، والممكنُ الولوجُ بتصغيرِ العظيم، أو توسيع الضيِّق.

وقد كثُر في كلامهم مثلُ هذه الغاية، فيقولون: لا أفعلُ كذا حتى يشيبَ الغراب، وحتى يَبيضَّ القار، وحتى يؤوب القارظان(٣). ومرادُهم: لا أفعلُ كذا أبداً.

وقرأ ابنُ عباس وابن جبير ومجاهد وعكرمة والشعبيُّ: «الجُمَّل» بضمِّ الجيم، وفتح الميم المشدَّدة، كالقُمَّل(٤).

وقرأ عبد الكريم وحنظلة وابن عباس وابن جبير ـ في روايةٍ أخرى ـ: «الجُمَل» بالضم والفتح مع التخفيف، كنُغَر(٥).

---

(١) بزل البعيرُ يبزُلُ بزولاً: فطر نابه، أي: انشق. اللسان (بزل).

(٢) المربد: هو الموضع الذي تحبس فيه الإبل وغيرها. الصحاح (ربد).

(٣) القَرَظ: ورق السلم، والقارظ مجتنيه. والقارظان: يَذْكُر بن عَنَزة وعامر بن رُهم، وكلاهما من عنزة، خرجا في طلب القرظ فلم يرجعا. فقالوا: لا آتيك أو يؤوب القارظان. القاموس (قرظ). وانظر: فصل المقال في أمثال العرب ص٣٧٣-٣٧٤، والمستقصى في أمثال العرب ٢/ ٥٨-٥٩.

(٤) المحتسب ١/ ٢٤٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠.

(٥) المحتسب ١/ ٢٤٩.

وفي روايةٍ عن ابن عباس ﷺ أنَّه قرأ: «الجُمْل» بضم الجيم وسكون الميم، كالقفل. و«الجُمُل» بضمَّتين، كالنُّصُب. وقرأ أبو السمَّال: «الجَمْل» بفتح الجيم وسكون الميم، كالحبل[١].

وفُسِّر في جميع ذلك بالحبل الغليظ من القِنَّب[٢]. وقيل: هو حبلُ السفينة.

وقرِئ: «في سمِّ» بضمِّ السين وكسرها[٣]، وهما لغتان فيه. والفتحُ أشهر، ومعناهُ الثقبُ الصغير مطلقاً. وقيل: أصلُه ما كان في عضوٍ، كأنفٍ وأذن.

وقرأ عبد الله: «في سمِّ المخيط» بكسر الميم وفتحها[٤]، وهو والخِيَاط ما يُخَاط به، كالحِزام والمِحْزَم، والقِنَاع والمِقْنَع.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: جنسَهم، وأولئك داخلونَ فيه دخولاً أوَّليًّا. وأصلُ الجَرْم قطعُ الثمرةِ عن الشجرة. ويقال: أَجْرَمَ، صارَ ذا جرم، كأتمر وأثمر، ويستعملُ في كلامهم لاكتسابِ المكروه، ولا يَكادُ يقال للكسبِ المحمود.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراشٌ من تحتهم، وتنوينُه للتفخيم. وهو فاعلُ الظرف، أو مبتدأ، والجملة إمَّا مستأنفةٌ أو حاليةٌ. و«من» تجريديَّة، والجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوفٍ وقعَ حالاً من «مهاد»؛ لتقدمه.

﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: أغطيةٌ، جمع غاشية. وعن ابن عباس ومحمد بن كعب القرظيِّ أنها اللُّحُف.

والآية ـ على ما قيل ـ مثلُ قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] والمرادُ أنَّ النارَ محيطةٌ بهم من جميع الجوانب.

وأخرج ابن مردويه عن عائشةَ أنَّ النبيَّ ﷺ تلا هذه الآية، ثمَّ قال: «هي طبقاتٌ من فوقه، وطبقاتٌ من تحته، لا يدري ما فوقَه أكثر أو ما تحته، غيرَ أنَّه

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٣، والمحتسب ١/ ٢٤٩.
(٢) هو نوعٌ من الكتَّان. القاموس (قنب).
(٣) القراءات الشاذة ص٤٣، والبحر المحيط ٤/ ٢٩٧.
(٤) القراءات الشاذة ص٤٣.

ترفعُه الطبقاتُ السفلى، وتضعُه الطبقاتُ العليا، ويضيقُ فيما بينهما حتى يكونَ بمنزلةِ الزُّجِّ في القدح»[١].

وتنوين «غواش» عوضٌ عن الحرف المحذوف أو حركته، والكسرةُ ليست للإعراب، وهو غير منصرفٍ؛ لأنَّه على صيغة منتهى الجموع، وبعضُ العرب يعربُه بالحركات الظاهرة على ما قبل الياء؛ لجعلها محذوفةً نسياً منسيًّا، ولذا قُرئ: «غواشٌ» بالرفع[٢]، كما في قوله تعالى: «وله الجوارُ المنشآت» [الرحمن: ٢٤] في قراءة عبد الله[٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومِثْلَ ذلك الجزاء الشديد ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ عبَّر عنهم بالمجرمين تارةً، وبالظالمين أخرى، للتنبيه على أنَّهم بتكذيبهم بالآيات واستكبارهم عنها جمعوا الصفتين.

وذَكرَ الجُرْمَ مع الحرمانِ من الجنَّة، والظلمَ مع التعذيب بالنار؛ تنبيهاً على أنَّه أعظمُ الأجرام. ولا يخفى على المتأمِّل في لطائف القرآن العظيم ما في إعدادِ المهاد والغواشي لهؤلاء المستكبرين عن الآيات، ومنعهم من العروج إلى الملكوت، وتقييدِ عدم دخولهم الجنَّة بدخول البعير بخرقِ الإبرة، من اللطافة. فلْيتأمَّل.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بآياتنا، ولم يُكذِّبوا بها ﴿وَعَمِلُوا۟﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يستكبروا عنها ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ أي: ما تَقدِرُ عليه بسهولةٍ دونَ ما تضيقُ به ذَرْعاً.

والجملةُ اعتراضٌ وُسِّط بين المبتدأ وهو الموصول والخبر الذي هو جملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ للترغيبِ في اكتسابِ ما يؤدِّي إلى النعيم المقيم، ببيان سهولة مناله وتيسُّر تحصيله.

وقيل: المعنى: لا نُكلِّفُ نفساً إلا ما يثمرُ لها السَّعة، أي: جنةً عرضُها

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٨٥.
(٢) القراءات الشاذة ص٤٣، والبحر المحيط ٤/ ٢٩٨.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٩.

السماوات والأرض. وهو خلافُ الظاهر، وإن كانت الآية عليه لا تخلو عن ترغيبٍ أيضاً.

وجُوِّز أنْ يكون اسمُ الإشارة بدلاً من الموصول، وما بعده خبرُ المبتدأ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعدِ منزلتهم في الفضل والشرف.

وجُوِّزَ أيضاً أنْ تكون جملة «لا نكلِّفُ» إلخ خبرَ المبتدأ بتقدير العائد، أي: منهم.

وقوله سبحانه: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ حالٌ من «أصحاب الجنة»، وجُوِّزَ كونُه حالاً من «الجنة» لاشتماله على ضميرها أيضاً، والعاملُ فيها معنى الإضافة، أو اللام المقدَّرة.

وقيل: خبرٌ [ثانٍ] لـ «أولئك»، على رأي من جوَّزه[1]. و«فيها» متعلِّقٌ بـ «خالدون»، وقُدِّم عليه رعايةً للفاصلة.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: قلعنا ما في قلوبهم من حقدٍ مخفيٍّ فيها، وعداوةٍ كانت بمقتضى الطبيعة لأمورٍ جرت بينهم في الدنيا. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السُّدِّيِّ قال: إنَّ أهل الجنَّة إذا سيقُوا إلى الجنَّة فبلغوها، وجدُوا عند بابها شجرةً، في أصل ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فيُنزَعُ ما في صدورِهم من غلٍّ، فهو الشرابُ الطهور، ويغتسلون من الأخرى، فتجري عليهم نَضْرةُ النعيم، فلن يشعثُوا ولن يشحبوا بعدها أبداً[2].

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: بلغني أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يحبسُ أهل الجنة بعد ما يَجُوزون الصراط حتى يؤخذَ لبعضِهم من بعضٍ ظُلاماتهم في الدنيا، فيدخلون الجنَّة وليس في قلوب بعضٍ على بعضٍ غلّ»[3].

وقيل: المراد: طهَّرنَا قلوبَهم، وحفظنَاها من التحاسُد على درجات الجنَّة

---

(١) أي: على رأي مَن جوَّز أن يكون الخبر الثاني جملة، وما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٣/ ٢٢٨، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٩٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٧٨-١٤٧٩ (٨٤٧٠).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٧٨ (٨٤٦٨).

ومراتب القرب، بحيثُ لا يَحسُدُ صاحب الدرجة النازلة صاحبَ الدرجة الرفيعة. وهذا في مقابلةِ ما ذكره سبحانه من لعنِ أهلِ النار بعضَهم بعضاً.

وأيّاً ما كان فالمراد: ننزع؛ لأنَّه في الآخرة؛ إلَّا أنَّ صيغةَ الماضي للإيذان بتحقُّقه. وقيل: إنَّ هذا النزع إنَّما كان في الدنيا، والمراد عدم اتِّصافهم بذلك من أوَّل الأمر، إلَّا أنَّه عَبَّر عن عدم الاتِّصاف به مع وجودِ ما يقتضيه حسب البشريَّة أحياناً بالنزع مجازاً. ولعلَّ هذا بالنظر إلى كُمَّل المؤمنين كأصحاب رسول الله ﷺ، فإنَّهم رحماءُ بينهم، يحبُّ بعضهم بعضاً كمحبته لنفسه، أو المراد إزالتُه بتوفيق الله تعالى قبلَ الموت بعدَ أنْ كان بمقتضَى الطِّباع البشرية.

ويَحتملُ أنْ يخرَّج على الوجهين ما أخرجه غيرُ واحدٍ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال في هذه الآية: إنِّي لأرجو أنْ أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم[1].

ويقال على الثاني فيما وقعَ مما يُنبئ بظاهره عن الغلِّ: إنَّه لم يكن إلَّا عن اجتهادٍ إعلاءً لكلمة الله تعالى. ولا يخفى بُعد هذا المعنى وإنْ ساعدَه ظاهرُ الصيغة.

و«من غل» على سائر الاحتمالات حالٌ من «ما». وقوله سبحانه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حالٌ أيضاً؛ إمَّا من الضمير في «صدورهم»؛ لأنَّ المضافَ جزءٌ من المضاف إليه، والعامل معنى الإضافة أو العامل في المضاف، وإمَّا من ضمير «نزعنا» على ما قيل، والعامل الفعل. واختار بعضُهم أنَّ الجملةَ مستأنفةٌ للإخبار عن صفة أحوالهم.

والمراد: تجري من تحت غُرفِها مياهُ الأنهار زيادةً في لذَّتهم وسرورهم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٢٩٩ عن معمر عن قتادة عن علي، ومن طريقه ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٧٨ (٨٤٦٧).
وأخرجه الطبري ١٠/ ١٩٩ من رواية محمد بن ثور عن معمر به.
وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/ ١١٣ من رواية محمد بن جعفر عن أبيه عن علي.
قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٦٤ عن الطريقين: وكلاهما منقطع.
وأخرجه ابن أبي شيبة ١٥/ ٢٨١-٢٨٢ من رواية ربعي بن حراش عن علي. قال الحافظ ابن حجر: وهو متصل.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ الفوزِ العظيم والنعيم المقيم، والمراد الهدايةُ لما أدى إليه من الأعمال القلبيَّة والقالبيَّة مجازاً، وذلك بالتوفيق لها، وصرفِ الموانع عن الاتِّصاف بها.

وقيل: المرادُ من الهداية لِمَا هم فيه من النعيم مجاوزةُ الصراط إلى أنْ وصلوا إليه.

ومن الناس من جعل الإشارة إلى نزع الغلِّ من الصدور. ولا أراهُ شيئاً.

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ أي: لهذا، أو لمطلبٍ من المطالب التي هذا من جملتها ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وفَّقنا له. واللام لتأكيد النفي، وهي المسماةُ بلام الجحود. وجوابُ «لولا» محذوفٌ؛ لدلالة ما قبله عليه، وليس إيَّاه؛ لامتناع تقدُّم الجواب على الصحيح. ومفعول «نهتدي» و«هدانا» الثاني محذوفٌ؛ لظهور المراد، أو لإرادة التعميم كما أشير إليه، والجملةُ حاليَّةٌ أو استئنافيَّةٌ.

وفي مصاحف أهل الشام: «ما كنا» بدون واو، وهي قراءة ابن عامر[1]، فالجملةُ كالتفسيرِ للأولى.

وهذا القولُ من أهل الجنة لإظهار السرور بما نالوا والتلذُّذِ بالتكلُّم به لا للتقرُّب والتعبُّد؛ فإنَّ الدارَ ليست لذلك، وهذا كما ترى مَن رُزِقَ خيراً في الدنيا يتكلَّمُ بنحو هذا ولا يتمالكُ أنْ لا يقوله؛ للفرح، لا للقربة.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ جملةٌ قسميَّةٌ لم يُقصَد بها التقرُّبُ أيضاً، وهي بيانٌ لصدقِ وعد الرسل عليهم السلام إيَّاهم بالجنَّة، على ما نصَّ عليه بعض الفضلاء. وقيل: تعليلٌ لهدايتهم.

والباء إمَّا للتعدية، فهي متعلِّقة بـ «جاءت»، أو للملابسة، فهي متعلِّقةٌ بمقدَّرٍ وقعَ حالاً من الرّسل.

ولا يخفى ما في هذه الآية من الردِّ الواضح على القدريَّةِ الزاعمين أنَّ كلَّ مهتدٍ خلقَ لنفسه الهدى، ولم يخلق الله تعالى له ذلك.

---

(١) التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩.

ودونك فاعرِضْ قول المعتزلة في الدنيا: المهتدي من اهتدى بنفسه. على قول الله تعالى حكايةً عن قول الموحِّدين في مقعد صدقٍ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ واخترْ لنفسك أيَّ الفريقين تقتدي به، ولا أراكَ أيُّها العاقلُ تعدلُ بما نوَّهَ الله تعالى به قولَ ضالٍّ يتذبذبُ مع هواه وتعصُّبه.

ولما رأى الزمخشريُّ[1] هذه الآية كافحةً في وجوه قومه فسَّر الهدى باللطف الذي بسببه يخلقُ العبدُ الاهتداءَ لنفسه، وهو لعمري كلامُ من حُرِمِ اللُّطفَ، نسألُ الله تعالى العفو والعافية.

﴿وَنُودُوٓاْ﴾ أي: نادتهم الملائكةُ، وجَوَّز بعضُهم احتمالَ أنْ المناديَ هو الله، والآثارُ تؤيِّدُ الأوَّل.

﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: أيْ تلكم، على أنَّ «أنْ» مفسِّرةٌ؛ لما في النداء من معنى القول. ويجوزُ أنْ تكونَ مخفَّفةً من «أن»، وحرفُ الجرِّ مقدَّر، واسمُها ضميرُ شأنٍ محذوف، أي: بأنَّها، أو بأنَّه تلكم؛ وأوجب البعضُ الأول[2] بناءً على أنَّه يجبُ أنْ يؤنَّث ضميرُ الشأن إذا كان المسندُ إليه في الجملة المفسَّرة مؤنَّثاً، والصحيح عدمُ الوجوب على ما صرَّح به ابنُ الحاجب وابن مالك.

ومعنى البعد في اسم الإشارة؛ إمَّا لرفع منزلتها وبعدِ مرتبتها، وإمَّا لأنَّهم نودوا عند رؤيتهم إيَّاها من مكانٍ بعيد، وإمَّا للإشعار بأنَّها تلك الجنَّةُ التي وعدوها في الدنيا، وإليه يشيرُ كلام الزَّجَّاج[3].

والظاهر أنَّ «تلكم الجنة» مبتدأٌ وخبر، وقوله سبحانه: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ حالٌ من «الجنَّة»، والعاملُ فيها معنى الإشارة، ويجوز أن تكون «الجنَّة» نعتاً لـ «تلكم» أو «بدلاً»، و«أورثتموها» الخبر. ولا يجوز أنْ يكون حالاً من المبتدأ، ولا من «كم» كما قاله أبو البقاء[4]، وهو ظاهر.

---

(١) في الكشاف ٢/ ٧٩.
(٢) في الأصل و(م): الثاني. وهو خطأ. والمثبت من حاشية الشهاب ٤/ ١٧٠.
(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٣٤٠.
(٤) في الإملاء ٣/ ١٠-١١.

والتزم بعضُهم في توجيه البعد أنَّ «تلكم» خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هذه تلكم الجنة الموعودة لكم قبل. أو مبتدأ حُذِفَ خبرُه، أي: تلك الجنة التي أخبرتم عنها ـ أو وُعِدتم بها في الدنيا ـ هي هذه. ولا حاجة إليه.

والمنادى له أولاً وبالذات كونُها موروثةً لهم، وما قبلَه توطئةٌ له، والميراثُ مجازٌ عن الإعطاء، أي: أعطيتُموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة. والباء للسببيَّة، وتُجُوِّزَ بذلك عن الإعطاء إشارةً إلى أنَّ السببَ فيه ليس موجباً، وإن كان سبباً بحسب الظاهر، كما أنَّ الإرث ملكٌ بدون كسبٍ، وإنْ كان النَّسبُ مثلاً سبباً له.

والباء في قوله ﷺ ـ على ما في بعض الكتب ـ: «لن يدخل أحدكم الجنَّة بعمله»[(١)]، وكذا في قوله عليه الصلاة والسلام على ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة وجابر: «لن ينجو أحدٌ منكم بعملِه»[(٢)] = للسبب التامِّ، فلا تَعَارُض. وجُوِّزَ أنْ تكون الباءُ فيما نحن فيه للعوض، أي: بمقابلة أعمالكم.

وقيل: تلك الإشارةُ إلى منازل في الجنَّة هي لأهل النار لو كانوا أطاعوا، جعلها الله تعالى إرثاً للمؤمنين، فقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدِّيّ قال: ما من مؤمنٍ ولا كافرٍ إلَّا وله في الجنَّة والنار منزلٌ مبين، فإذا دخلَ أهلُ الجنَّة الجنَّةَ وأهلُ النَّار النَّار، ودخلوا منازلهم، رُفعت الجنة لأهل النار، فنظروا إلى منازلهم فيها، فقيل: هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله تعالى. ثم يقال: يا أهل الجنة، رِثوهم بما كنتم تعملون، فيقتسم أهل الجنة منازلهم[(٣)]. وأنت تعلم أنَّ القول بهذا الإرث الغريب لا يدفعُ الحاجةَ إلى المجاز.

وزعم المعتزلة أنَّ دخولَ الجنة بسبب الأعمال لا بالتفضُّل؛ لهذه الآية،

---

(١) أخرجه أحمد (٧٤٧٩) عن أبي هريرة بلفظ: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله». وهو عند البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦): (٧٥) من حديث أبي هريرة بلفظ: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» ولا شاهد فيه بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٦): (٧٦) من حديث أبي هريرة، و(٢٨١٧) من حديث جابر، وأخرجه البخاري (٦٤٦٣) عن أبي هريرة، ولفظه فيه: «لن ينجي أحداً منكم عملُه».

(٣) الدر المنثور ٣/ ٨٥، وهو في تفسير الطبري ١٠/ ٢٠٢.

ولا يخفى أنَّه لا محيصَ لمؤمنٍ عن فضل الله تعالى، لأنَّ اقتضاء الأعمال لذاتها دخولَ الجنة، أو إدخالَ الله تعالى ذويها فيها، ممَّا لا يكادُ يعقل، وقصارى ما يُعقل أنَّ الله تعالى تفضَّل فرتَّب عليها دخولَ الجنة، فلولا فضله لم يكن ذلك.

وأنا لا أرى أكثر جراءةً من المعتزلة في هذا الباب، ككثيرٍ من الأبواب؛ فإنَّ مآلَ كلامهم فيه أنَّ الجنة ونعيمَها الذي لا يتناهى أقطاعُهم بحقٍّ مستحَقٍّ على الله تعالى الذي لا ينتفع بشيء ولا يتضرَّر بشيءٍ، لا تفضُّل له عليهم في ذلك، بل هو بمثابة دَيْنٍ أُدِّيَ إلى صاحبه. سبحانك هذا بهتانٌ عظيم، وتكذيبٌ لغير ما خبرٍ صحيح.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بعد الاستقرار فيها كما هو الظاهر، وصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع، والمعنى: ينادي ولابدَّ كلُّ فريقٍ من أهل الجنة ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أي: مَن كان يعرفُه في الدنيا من أهلها تبجُّحاً بحالهم، وشماتةً بأعدائهم، وتحسيراً لهم، لا لمجرَّد الإخبار والاستخبار ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ على ألسنة رسله عليهم السلام من النعيم والكرامة ﴿حَقّٗا﴾ حيث نلنا ذلك ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ﴾ أي: ما وعدكم من الخزي والهوان والعذاب ﴿حَقّٗاۖ﴾ وحُذِف المفعول تخفيفاً وإيجازاً، واستغناءً بالأول.

وقيل: لأنَّ ما ساءهم من الوعودِ لم يكن بأسره مخصوصاً بهم وعدُه، كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنَّة، فإنَّهم قد وجَدوا جميعَ ذلك حقّاً، وإنْ لم يكن وعدُه مخصوصاً بهم.

وتُعقِّبَ بأنَّه لا خفاءَ في كون أصحاب الجنة مصدِّقينَ بالكلِّ، والكلُّ ممَّا يسرُّهم، فكان ينبغي أنْ يُطلق وعدهم أيضاً، فالوجه الحملُ على ما تقدم.

ونصب «حقًّا» في الموضعين على الحاليَّة، وجُوِّز أنْ يكون على أنَّه مفعولٌ ثانٍ، ويكون «وجد» بمعنى علم.

والتعبيرُ بالوعد قيل: للمشاكلة. وقيل: للتهكُّم. ومن الناس من جَوَّزَ أنْ يكون مفعولُ «وعد» المحذوفُ «نا»، وحينئذٍ فلا مشاكلة ولا تهكُّم. وأيًّا ما كان لا يستبعدُ هذا النداءُ هناك، وإن بَعُدَ ما بين الجنَّة والنار من المسافة كما لا يخفى.

﴿قَالُواْ﴾ في جواب أصحاب الجنة: ﴿نَعَمۡۚ﴾ قد وجدنا ذلك حقًّا.

وقرأ الكسائيُّ: «نَعِم» بكسر العين(١) وهي لغةٌ فيه نسبت إلى كِنانة وهذيل. ولا عبرةَ بمن أنكرهُ مع القراءةِ به، وإثباتِ أهل اللغة له بالنقل الصحيح.

نعم ما رُويَ من أنَّ عمر ﷺ سَأل قوماً عن شيءٍ فقالوا: نَعَم. فقال عمر: أمَّا النعَم فالإبل، قولوا: نَعِمَ. لا أراه صحيحاً؛ لما فيه من المخالفةِ لأصحِّ الفصيح.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ هو - على ما روي عن ابن عباس ﷺ - صاحبُ الصور عليه السلام، وقيل: مالك خازنُ النار. وقيل: ملكٌ من الملائكة غيرهما يأمرُه الله تعالى بذلك.

ورواية الإماميَّة عن الرِّضا وابن عباس أنَّه علي كرَّم الله تعالى وجهه ممَّا لم يثبت من طريق أهل السنة، وبعيدٌ عن هذا الإمام أنْ يكون مؤذِّناً وهو إذ ذاك في حظائر القدس.

﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: الفريقين، لا بين القائلين: «نعم»، كما قيل. ولا يَرِد أنَّ الظاهرَ أنْ يقال: بينهما، لأنَّه غيرُ متعيِّن.

﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ بـ «أنْ» المخفَّفة أو المفسِّرة، والمرادُ الإعلامُ بلعنةِ الله تعالى لهم زيادةً لسرور أصحاب الجنَّة، وحزنِ أصحاب النار، أو ابتداءُ لعنٍ.

وقرأ ابن كثير(٢) وابن عامر وحمزةُ والكسائيُّ «أنَّ لعنةَ الله» بالتشديد والنصب.

وقرأ الأعمشُ بكسر الهمزة(٣)، على إرادة القول بالتضمين أو التقدير، أو على الحكاية بـ «أذَّنَ»؛ لأنَّه في معنى القول، فيجري مجراه.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يصدُّون بأنفسهم عن دينه سبحانه، ويُعرِضونَ عنه. فالموصول صفةٌ مقرِّرةٌ للظالمين؛ لأنَّ هذا الإعراض لازمٌ لكلِّ ظالم.

---

(١) التيسير ص ١١٠. والنشر ٢/ ٢٦٩.
(٢) من رواية البزي عنه، وبخُلْفٍ عن قالون. انظر التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩.
(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٢٥، والبحر المحيط ٤/ ٣٠١.

وجُوِّزَ القطعُ بالرفع أو النصب، وكلاهما على الذمِّ، وأمر الوقف ظاهر. وفسَّر الإمام النسفيُّ الصدَّ هنا بمنع الغير[1]، وعليه فلا تقرير؛ والمعنى: يمنعونَ الناس عن دين الله تعالى بالنهي عنه، وإدخال الشُّبَهِ في دلائله.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبونَ اعوجاجها ويذمُّونها، فلا يؤمنون بها، أو يطلبونَ لها تأويلاً وإمالةً إلى الباطل؛ فالعوجُ إمَّا على أصله، وهو الميلُ، وإمَّا بمعنى التعويج والإمالة.

ونصبُه قيل: على الحاليَّة. وقيل: على المفعوليَّة. وجَوَّز الطبرسيُّ أنْ يكونَ نصباً على المصدرِ، كـ: رَجَعَ القهقرى، واشتملَ الصمَّاءَ، وذَكَر أنَّ العوج بالكسر يكون في الدين والطريق، وبالفتح في الخلقة، فيقال: في ساقه عَوَجٌ. بالفتح، وفي دينه عِوَجٌ. بالكسر[2].

وقال الراغب: العَوَجُ يقال فيما يُدْرك بالبصر، كالخشب المنتصب ونحوه. والعِوَج يقال فيما يدرك بفكرٍ وبصيرةٍ، كما يكونُ في أرضٍ بسيطٍ، وكالدين والمعاش. وسيأتي لذلك تتمَّة إن شاء الله تعالى[3].

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: غيرُ معترفين بالقيامة وما فيها. والجارُّ متعلِّقٌ بما بعده، والتقديمُ لرعاية الفواصل، والعدولُ عن الجملة الفعليَّة إلى الاسمية للدِّلالة على الدوام والثبات، إشارةً إلى رسوخ الكفر فيهم.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين الفريقين، كقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣]. أو بين الجنَّة والنار حجابٌ عظيم؛ ليمنعَ وصولَ أثر إحداهما إلى الأخرى، وإنْ لم يمنع وصولَ النداء. وأمورُ الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا.

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي: أعراف الحجاب، أي: أعاليه؛ وهو السورُ المضروب بينهما، جَمْعُ عُرْف، مستعارٌ من عُرْف الدابَّة والديك.

---

(١) تفسير النسفي ٢/ ٥٤، وهو على هذا القول متعدٍّ من صدَّه صدًّا، وعلى الأول لازم من صدَّ صدوداً، ينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٩) من سورة التوبة.

(٢) مجمع البيان ٨/ ٦٢.

(٣) عند تفسير الآية الأولى من سورة الكهف، وكلام الراغب في مفرداته (عوج).

وقيل: العرفُ ما ارتفعَ من الشيء، أي: أعلى موضعٍ منه؛ لأنه أشرفُ وأعرف ممَّا انخفضَ منه.

وقيل: ذاك جبلُ أحد. فقد روي عنه ﷺ: «أحدٌ يحبنا ونحبه، وإنَّه يوم القيامة يمثلُ بين الجنَّة والنار، يُحبَسُ عليه أقوامٌ يَعرفون كلًّا بسيماهم، وهم إنْ شاء الله تعالى من أهل الجنة»[(١)].

وقيل: هو الصراط. ورُوي ذلك عن الحسين بن الفضل[(٢)].

وحُكِيَ عن بعضهم أنَّه لم يفسر «الأعراف» بمكانٍ، وأنَّه قال: المعنى: وعلى معرفةِ أهل الجنة والنار ﴿رِجَالٌ﴾.

والحقُّ أنه مكانٌ، والرجال طائفةٌ من الموحِّدين، قَصَّرت بهم سيِّئاتُهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتُهم عن النار، جُعِلوا هناك حتى يُقضَى بين الناس، فبينما هم كذلك إذ اطَّلع عليهم ربُّهم، فقال لهم: قوموا ادخلوا الجنَّة، فإني غفرتُ لكم. أخرجه أبو الشيخ والبيهقي[(٣)] وغيرهما عن حذيفة.

وفي روايةٍ أخرى عنه: يَجمعُ الله تعالى الناس ثم يقولُ لأصحاب الأعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظرُ أمرك، فيقال: إنَّ حسناتِكم تجاوزت بكم النار أنْ تدخلوها، وحالت بينكم وبين الجنَّة خطاياكم، فادخلوها بمغفرتي ورحمتي[(٤)]. وإلى هذا ذهب جمعٌ من الصحابة والتابعين.

---

(١) ذكره ابن أبي زمنين في تفسيره ٢/ ١٢٥ من طريق إسحاق بن عبد الله بن الحارث عن النبي ﷺ مرسلاً. وقوله: «أحدٌ يحبنا ونحبه» أخرجه البخاري (٤٠٨٣)، ومسلم (١٣٩٣) وأحمد (١٢٤٢١) من حديث أنس رضي الله عنه.
وأخرجه أيضاً البخاري (٤٤٢٢)، ومسلم (١٣٩٢)، وأحمد (٢٣٦٠٤) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) في (م): المفضل، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل ومجمع البيان ٨/ ٦٥، وعنه نقل المصنف، والحسين بن الفضل البجلي من أئمة المفسرين، وأقواله في كتب التفسير منثورة.

(٣) في البعث والنشور له (١١٠)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٠/ ٢١٣.

(٤) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (١١١).

وقيل: هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجلَسهم الله تعالى على أعالي ذلك السور تمييزاً لهم على سائر أهل القيامة، وإظهاراً لشرفهم وعلوِّ مرتبتهم.

ورَوى الضحاك عن ابن عباس أنَّهم العباس وحمزة وعليٌّ وجعفر ذو الجناحين ﷺ، يجلسونَ على موضعٍ من الصراط، يعرفونَ محبِّيهم ببياض الوجوه، ومبغضيهم بسوادها[١].

وقيل: إنَّهم عدولُ القيامة الشاهدون على الناس بأعمالهم، وهم من كلِّ أمة. حكاه الزهريُّ[٢].

وأخرج البيهقيُّ وابن أبي حاتم وابنُ مردويه وأبو الشيخ والطبرانيُّ وغيرهم أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئِل عن أصحابِ الأعراف فقال: «هم أناسٌ قُتِلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعَهم من دخول الجنَّة معصيةُ آبائهم، ومنعَهم من دخول النَّار قتلُهم في سبيل الله»[٣].

وقيل: هم أناسٌ رضي عنهم أحدُ أبويهم دون الآخر.

وقال الحسن البصريُّ: إنَّهم قومٌ كان فيهم عُجْبٌ.

وقال مسلم بن يسار: هم قومٌ كان عليهم دَيْنٌ.

وقيل: هم أهل الفترة. وقيل: أولاد المشركين. وفي روايةٍ عن ابن عباس ﷺ أنَّهم أولاد الزِّنى، وعنه أيضاً أنَّهم مساكينُ أهل الجنة.

وعن أبي مسلم أنَّهم ملائكةٌ يُرَون في صورة الرجال، لا أنَّهم رجالٌ حقيقةً؛ لأنَّ الملائكةَ لا يوصفون بذكورةٍ ولا أنوثة.

---

(١) ذكره الذهبي في الميزان ٢/ ٣٥٢، وفي إسناده عاصم بن سليمان، قال عنه النسائي: متروك، وقال الدارقطني: كذاب، وقال ابن عدي: يعدُّ ممن يضع الحديث. وعدَّ الذهبي هذا الخبر من بلاياه. وهو يرويه عن جويبر، وهو متروك، كما أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٢٨ عزوه للزهراوي.

(٣) أخرجه البيهقي في البعث (١١٢)، وابن أبي حاتم ٥/ ١٤٨٤ (٨٤٩٨)، والطبراني في الأوسط (٣٠٥٣).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٣: رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه محمد بن مخلد الرعيني، وهو ضعيف.

وقيل وقيل، وأرجحُ الأقوال ـ كما قال القرطبيُّ ـ الأول. وجمع بعضُهم بينها بأنَّه يجوزُ أن يجلس الجميعُ ممن وردَ فيهم أنَّهم أصحابُ الأعرافِ هناك مع تفاوتِ مراتبهم، على أنَّ من هذه الأقوال ما لا يخفى تداخله.

ومن الناس من استظهرَ القول بأنَّ أصحابَ الأعراف قومٌ عَلَت درجاتُهم؛ لأنَّ المقالات الآتية وما تتفرَّعُ هي عليه لا تليقُ بغيرهم.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنَّة والنار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلامتِهم التي أعلمهم الله تعالى بها، كبياض الوجوه بالنسبة إلى أهل الجنة، وسوادِها بالنسبة إلى أهل النار. ووزنُه فِعْلَى من سام إبلَه: إذا أرسلها في المرعى معلمة، أو من: وَسَمَ، على القلب، كالجاه من الوجه، فوزنه عِفْلَى، ويقال: سِيْمَاء بالمد، وسِيمياء ككبرياء؛ قال الشاعر:

لـه سِـيْـمِـيَـاءُ مـا تَـشُـقُّ عـلـى الـبـصـر(١)

ومعرفتهم أنَّ كذا علامةُ الجنة وكذا علامة النار تكون بالإلهام، أو بتعليم الملائكة، وهذا كما روي عن أبي مجلز رضي الله عنه: قبلَ أنْ يدخلَ أهلُ الجنَّة الجنَّة، وأهلُ النار النار. واستظهره بعضهم؛ إذ لا حاجةَ بعد الدخول للعلامة، ويشعرُ كلامُ آخرين أنَّه بعده. والباء للملابسة.

﴿وَنَادَوْا﴾ أي: رجال الأعراف ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ حين رأوهم وعرفوهم ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق الدعاء والتحيَّة، أو بطريقِ الإخبار بنجاتِهم من المكاره ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ حالٌ من فاعل «نادوا»، أو من مفعوله.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ حالٌ من فاعل «يدخلوها» أي: نادوهم وهم لم يدخلوها حالَ كونهم طامعين في دخولها، مترقِّبين له، أي: لم يدخلوها وهم في وقتِ عدم الدخول طامعون. قاله بعضهم.

وفَسَّر الطمعَ باليقينِ الحسنُ وأبو عليّ، وبه فُسِّر في قوله تعالى ـ حكايةً عن إبراهيم عليه السلام ـ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ [الشعراء: ٨٢].

---

(١) هو عجز بيت لابن عنقاء الفزاري، وصدره: غلام رماه الله بالخير يافعاً.
وهو في الأمالي ١/ ٢٣٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٥٨٨، والأغاني ١٩/ ٢٠٨.

وفي «الكشاف» أنَّ جملةَ «لم يدخلوها» إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها استئنافٌ، كأنَّ سائلاً سألَ عن حال أصحاب الأعراف، فقيل له: «لم يدخلوها وهم يطمعون»، وجَوَّزَ أن يكون في محلِّ الرفع صفةً لـ «رجال»[1]. وضُعِّفَ بالفصل.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى جهتهم، وهو في الأصل مصدر، وليس في المصادر ما[2] هو على وزن تِفعال بكسر التاء غيره وغير تبيان وزلزال[3]، ثم استعمِل ظرفَ مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة.

ويجوز عند السبعة إثباتُ همزتِه وهمزة «أصحاب»، وحذفُ الأولى وإثبات الثانية[4].

وفي عدم التعرُّض لتعلُّق أنظارهم بأصحاب الجنَّة، والتعبيرِ عن تعلُّق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف، إشعارٌ ـ كما قال غيرُ واحد ـ بأنَّ التعلُّقَ الأول بطريقِ الرغبة والميل، والثاني بخلافه، فمن زعمَ أنَّ في الكلام الأوَّل شرطاً محذوفاً لم يأتِ بشيء.

﴿قَالُواْ﴾ متعوِّذين بالله سبحانه من سوءِ ما رَأوا من حالهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا تجمعنا وإيَّاهم في النار. وفي وصفهم بالظلم دونَ ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذي هو المُوجِبُ للدعاءِ إشعارٌ بأنَّ المحذورَ عندهم ليسَ نفس العذاب فقط، بل ما يؤدّي إليه من الظلم.

وفي الآية ـ على ما قيل ـ إشارةٌ إلى أنَّه سبحانه لا يجب عليه شيءٌ.

---

(١) الكشاف ٢/ ٨٢-٨٣.

(٢) في (م): وما.

(٣) من الواضح أن وزن زلزال: فعلال، فلعله سبق قلم من المؤلف رحمه الله. انظر الدر المصون ٥/ ٣٣١، وحاشية الخفاجي ٤/ ١٧٢، والكلام فيهما دون كلمة: زلزال. وانظر لسان العرب (زلل).

(٤) لهم في الهمزتين المفتوحتين إذا كانتا في كلمتين ثلاثة مذاهب:
الأول: حذف الهمزة الأولى وإثبات الثانية، وهي قراءة أبي عمرو، وقالون الراوي عن نافع، والبزي الراوي عن ابن كثير.
والثاني: جعل الثانية كالمدَّة، وهي قراءة ورش راوي نافع، وقنبل راوي ابن كثير.
والثالث: تحقيق الهمزتين، وهو مذهب الباقين. انظر التيسير ص ٣٣.

وزعم بعضهم أنَّه ليس المقصود فيها الدعاء، بل مجرَّدُ استعظام حال الظالمين.

وقرأ الأعمش: «وإذا قلبت أبصارهم»[1]. وعن ابن مسعود وسالم مثلُ ذلك.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ كرَّر ذكرَهم مع كفاية الإضمار لزيادة التقرير.

وقيل: لم يكتف بالإضمار؛ للفرق بين المراد منهم هنا، والمراد منهم فيما تقدَّم، فإنَّ المنادَى هناك الكلُّ وهنا البعض.

وفي إطلاق أصحاب الأعراف على أولئك الرجال بناءً على أنَّ مآلَهم إلى الجنَّة: دليلٌ على أنَّ عنوان الصحبة للشيء لا يستدعي الملازمة له، كما زعمه البعض.

﴿رِجَالٗا﴾ من رؤساء الكفرة، كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل حين رأوهم فيما بين أصحاب النار ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها من سوادِ الوجه، وتشويه الخلق، وزرقة العين، كما قال الجبائيُّ. أو بصورهم التي كانوا يعرفونَهم بها في الدنيا، كما قال أبو مسلم. أو بعلامتهم الدالَّة على سوء حالهم يومئذٍ، وعلى رياستهم في الدنيا، كما قيل، ولعلَّه الأولى.

وأيّاً ما كان فالجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بما عنده، ويفهم من كلام بعضهم ـ وفيه بعدٌ ـ أنَّه متعلِّقٌ بـ «نادى»، والمعنى: نادوا رجالاً يعرفونهم في الدنيا بأسمائهم وكناهم وما يُدعَون به من الصفات.

﴿قَالُواْ﴾ بيانٌ لـ «نادى»، أو بدلٌ منه ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ، ويجوزُ أنْ يراد النفي، أي: ما كفاكم ما أنتم فيه ﴿جَمۡعُكُمۡ﴾ أتباعكم وأشياعكم، أو: جمعكم المال، فهو مصدرٌ مفعوله مقدرٌ.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: واستكبارُكم المستمرُّ عن قَبول الحقِّ، أو على الخلق، وهو الأنسبُ بما بعده.

---

(١) الكشاف ٢/ ٨١، والبحر المحيط ٤/ ٣٠٣.

وقرئ: «تستكثرون» من الكثرة[١]، و«ما» على هذه القراءة تَحتملُ أنْ تكونَ اسم موصول، على معنى: ما أغنى عنكم أتباعكم والذي كنتم تستكثرونه من الأموال.

ويحتمل عندي أن تكون في القراءة السبعية كذلك[٢]، والمراد بها حينئذ الأصنام، ومعنى استكبارِهم إيَّاها: اعتقادُهم عظمَها وكبرها، أي: ما أغنى عنكم جمعُكم وأصنامكم التي كنتم تعتقدونَ كبرَها وعظمها.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ من تتمة قولهم للرجال، فهو في محل نصب مفعول القول أيضاً، أي: قالوا: ما أغنى، وقالوا: أهؤلاء.

والإشارةُ إلى ضعفاء أهل الجنَّة الذين كان الكفرة يحتقرونَهم في الدنيا، ويحلفونَ أنَّهم لا يصيبُهم اللهُ تعالى برحمةٍ وخير، ولا يدخلُهم الجنَّة، كسلمان وصهيب وبلال ﷺ، أو يفعلون ما ينبىءُ عن ذلك، كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩﴾ من كلام أصحاب الأعراف أيضاً، أي: فالْتَفَتُوا إلى أولئك المشارِ إليهم من أهل الجنَّة، وقالوا لهم: دُوموا في الجنَّة غيرَ خائفين ولا محزونين، على أكمل سرورٍ وأتمِّ كرامة.

وقيل: هو أمرٌ بأصل الدخول بناءً على أن يكون كونُهم على الأعراف وقولُهم هذا قبلَ دخول بعض أهل الجنَّةِ الجنَّةَ.

وقال غير واحد: إنَّ قوله سبحانه: «أهؤلاء» إلخ استئنافٌ، وليس من تتمَّة قول أصحاب الأعراف، والمشارُ إليهم أهلُ الجنَّة، والقائلُ هو الله تعالى، أو بعضُ الملائكة، والمقول له أهل النار في قول.

وقيل: المشارُ إليهم هم أهل الأعراف، وهم القائلون أيضاً، والمقولُ لهم أهل النار. و«ادخلوا الجنَّة» من قول أهل الأعراف أيضاً، أي: يرجعون فيخاطبُ بعضُهم بعضاً، ويقول: ادخلوا الجنَّة. ولا يخفى بعدُه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٨٢، والبحر المحيط ٤/ ٣٠٣.

(٢) أي: أن تكون «ما» موصولة.

وقيل: لمَّا عيَّرَ أصحابُ الأعراف أصحابَ النار أقسمَ أصحابُ النار أنَّ أصحابَ الأعراف لا يدخلونَ الجنَّة، فقال الله تعالى أو بعضُ الملائكة خطاباً لأهل النار: «أهؤلاء الذين أقْسَمتُم لا ينالُهم الله برحمة» اليوم، مشيراً إلى أصحاب الأعراف، ثمَّ وُجِّه الخطابُ إليهم فقيل: «ادخلوا الجنَّة» إلخ.

وقرئ: «أُدْخِلوا» و«دَخَلوا»[1] بالمزيد المجهول، وبالمجرَّد المعلوم، وعليهما فلا بدَّ أنْ يكون «لا خوفٌ عليكم» إلخ مقولاً لقولٍ محذوف وقع حالاً؛ ليتَّجه الخطاب ويرتبطَ الكلام، أي: أُدْخِلوا أو دَخَلوا الجنَّة مقولاً لهم: لا خوفٌ.. إلخ.

وقُرِئَ أيضاً: «أَدْخِلوا»[2] بأمر المزيد للملائكة، والظاهرُ أنَّها تحتاجُ إلى زيادة تقدير.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بعد أن استقرَّ بكلٍّ من الفريقين القرارُ، واطمأنَّتْ به الدار ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ﴾ أي: صبُّوا ﴿عَلَيۡنَا﴾ شيئاً ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ نستعينُ به على ما نحن فيه. وظاهرُ الآية يدلُّ على أنَّ الجنَّة فوقَ النار.

﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: أو من الذي رزقَكُموه الله تعالى من سائر الأشربة؛ ليُلائم الإفاضة. أو من الأطعمة، كما رُوي عن السُّدِّيِّ وابن زيد. ويقدَّرُ في المعطوف عاملٌ يناسبه، أو يؤوَّل العامل الأوَّل بما يلائم المتعاطفين، أو يضمَّن ما يعملُ في الثاني، أو يجعل ذلك من المشاكلة، ويكون في الآية دليلٌ على نهاية عطشهم وشدَّةِ جوعهم، وأنَّ ما هم فيه من العذاب لا يمنعُهم عن طلب أكلٍ وشرابٍ. وبهذا ردَّ موسى الكاظم رضي الله عنه ـ فيما يُروَى ـ على هارون الرشيد إنكارَه أكلَ أهلِ المحشر، محتجّاً بأنَّ ما هم فيه أقوى مانعٍ لهم عن ذلك[3].

واختلف العلماءُ في أنَّ هذا السؤال هل كان مع رجاء الحصول، أو مع اليأس منه حيث عَرفوا دوامَ ما هم فيه؟ وإلى كلٍّ ذهبَ بعضٌ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٨، والمحتسب ١/ ٢٤٩.

(٢) البحر المحيط ٤/ ٣٠٤.

(٣) لم أقف عليها بهذا السياق، وأخرج القصة الفاكهيُّ في أخبار مكة (١٣٥٦)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٤/ ٢٧٩، ولكن وقع عندهما أن القصة جرت بين هشام بن عبد الملك ومحمد بن علي بن الحسين ٨/ ١٢٧.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال؛ كأنَّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قالوا في جوابهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: منع كلًّا منهما، أو منعَهما مَنْعَ المحرَّم عن المكلَّف، فلا سبيلَ إلى ذلك قطعاً، ولا يحملُ التحريمُ على معناه الشائع؛ لأنَّ الدارَ ليست بدار تكليف.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾ الذي أمرهم الله تعالى به، أو الذي يلزمهم التديُّن به ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فلم يتديَّنوا به، أو فحرَّموا ما شاؤوا واستحلُّوا ما شاؤوا، واللهو ـ كما قيل ـ صرفُ الهمِّ إلى ما لا يحسنُ أنْ يصرف إليه، واللعبُ طلبُ الفرحِ بما لا يحسنُ أن يُطلب، وقد تقدم تفصيل الكلام فيهما، فتذكر.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ شغلتهم بزخارِفها العاجلة ومواعيدِها الباطلة، وهذا شأنُها مع أهلها قاتلها الله تعالى، تَغُرُّ وتَضرُّ وتَمرُّ.

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ نفعلُ بهم فعلَ الناسي بالمنسيِّ من عدم الاعتدادِ بهم وتركهم في النار تركاً كُلِّيّاً، فالكلامُ خارجٌ مخرجَ التمثيل، وقد جاء النسيانُ بمعنى الترك كثيراً، ويصحُّ أنْ يفسَّر به هنا، فيكون استعارةً أو مجازاً مرسلاً.

وعن مجاهد أنَّه قال: المعنى نؤخِّرهم في النار، وعليه فالظاهر أنَّ «ننساهم» من النسءِ لا من النسيان.

والفاء في قوله تعالى: «فاليوم» فصيحة، وقوله عزَّ وعلا: ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ قيل: في محلِّ النصب على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: ننساهم نسياناً مثلَ نسيانهم لقاءَ هذا اليوم العظيم الذي لا ينبغي أن يُنسى، وليس الكلامُ على حقيقته أيضاً؛ لأنَّهم لم يكونوا ذاكري ذلك حتى ينسَوه، بل شَبَّه عدمَ إخطارهم يومَ القيامة ببالهم، وعدمَ استعدادهم له بحالِ مَن عرفَ شيئاً ثم نسيه.

وعن ابن عباس ومجاهد والحسن أنَّ المعنى: كما نسُوا العملَ للقاءِ يومهم هذا. وليس هذا التقديرُ ضروريّاً كما لا يخفى.

وذهب غيرُ واحدٍ إلى أن الكاف للتعليل، متعلِّقٌ بما عنده، لا للتشبيه، إذ يَمنعُ منه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ لأنَّه عطفٌ على «ما نسوا»، وهو يستدعي أنْ يكون مشبَّهاً به النسيانُ مثله، وتشبيهُ النسيان بالجحود غيرُ ظاهر،

ومن ادَّعاه قال: المرادُ: نتركهم في النار تركاً مستمرّاً كما كانوا منكرين أنَّ الآيات من عند الله تعالى إنكاراً مستمرّاً.

وقال القطب: الجحودُ في معنى النسيان، وظاهرُ كلام كثيرٍ من المفسِّرين أنَّ كلامَ أهل الجنَّة إلى «وغرتهم الحياة الدنيا»، لا «إنَّ الله حَرَّمهما على الكافرين» فقط. وقال بعضُهم: إنَّه ذلك لا غير، وعليه فيجوزُ أنْ يكون «الذين» مبتدأ، وجملةُ «اليومَ ننساهم» خبرُه، والفاء فيه مثلُها في قولك: الذي يأتيني فله درهم، كما قيل.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ بيَّنَّا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصَّلةً، والضميرُ للكفرة قاطبةً، وقيل: لهم وللمؤمنين، والمراد بالكتاب الجنس. وقيل: للمعاصرين من الكفرة، أو منهم ومن المؤمنين، والكتابُ هو القرآن، وتنوينه للتفخيم. وقد نَظم بعضُهم ما اشتملَ عليه من الأنواع بقوله:

حلالٌ حرامٌ محكمٌ متشابهٌ ... بشيرٌ نذيرٌ قصَّةٌ عظةٌ مَثَلْ[1]

والمراد منعُ الخلوِّ كما لا يخفى.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بوجهِ تفصيله، وهو في موضع الحال من فاعل «فصَّلناه»، وتنكيره للتعظيم، أي: عالمين على أكمل وجه بذلك حتى جاء حكيماً متقناً.

وفي هذا ـ كما قيل ـ دليلٌ على أنَّه سبحانه يعلمُ بصفةٍ زائدةٍ على الذات، وهي صفةُ العلم، وليس علمُه سبحانه عينَ ذاته، كما يقولُه الفلاسفة ومن ضاهاهم، وللمناقشة فيه مجال.

ويجوزُ أنْ يكون في موضع الحال من المفعول، أي مشتملاً على علمٍ كثير.

وقرأ ابنُ محيصن: «فضلناه» بالضاد المعجمة[2]. وظاهرُ كلام البعض أنَّ الجارَّ والمجرور على هذه القراءة في موضع الحال من الفاعل، ولا يُجعلُ حالاً من المفعول، أي: فضَّلناه على سائر الكتب عالمين بأنَّه حقيقٌ بذلك. وجَوَّزَ بعضُهم أن يُجعل حالاً من المفعول على نحو ما مرَّ. وقيل: إنَّ «على» للتعليل،

---

(١) ذكره دون نسبة الإمام الجمل في الفتوحات الإلهية ٢/ ١٤٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ٤٤، والبحر المحيط ٤/ ٣٠٦، وزاد أبو حيان نسبته للجحدري.

كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥] وهي متعلِّقةٌ بـ «فضَّلناه» أي: فضَّلناه على سائرِ الكتب لأجلِ علمٍ فيه، أي: لاشتماله على علمٍ لم يشتمل عليه غيرُه منها.

وقيل: إنَّ «على» في القراءتين متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من مفعول «جئناهم» أي: جئناهم بذلك حالَ كونهم من ذوي العلم القابلينَ لفهم ما جئناهم به. فتأمَّل.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حالٌ من مفعول «فصلناه»، وجُوِّزَ أنْ يكون مفعولاً لأجله، وأن يكون حالاً من الكتاب؛ لتخصيصه بالوصف، والكلامُ في وقوع مثل ذلك حالاً مشهور.

وقُرِئ بالجرِّ على البدليَّة من «علم»، وبالرفع على إضمار المبتدأ[1]، أي: هو هدًى عظيمٌ ورحمةٌ كذلك.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لأنَّهم المقتبسونَ من أنواره، المنتفعونَ بنُوَّاره.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرُ هؤلاء الكفرةُ بعدم إيمانهم به شيئاً ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: عاقبتَه، وما يؤول إليه أمرُه من تبيُّن صدقِه بظهورِ ما أخبرَ به من الوعد والوعيد، والمرادُ أنَّهم بمنزلةِ المنتظرين وفي حكمهم، من حيثُ أنَّ ما ذُكِر يأتيهم لا محالة. وحينئذٍ فلا يقال: كيف ينتظرونَه وهم جاحدونَ غيرُ متوقِّعين له.

وقيل: إنَّ فيهم أقواماً يشكُّون ويتوقعون، فالكلامُ من قبيل: بنو فلانٍ قتلوا زيداً.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ وهو يومُ القيامة، وقيل: هو ويومُ بدر ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ أي: تركوه تركَ المنسيِّ، فأعرضوا عنه، ولم يعملوا به ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إتيان تأويله ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: قد تبيَّن أنَّهم قد جاؤوا بالحقِّ، وإنَّما فُسِّر بذلك لأنَّه الواقع هناك، ولأنه الذي يترتَّب عليه طلبُ الشفاعة المفهومُ من قوله سبحانه: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ اليوم، ويدفعوا عنَّا ما نحنُ فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ عطف على الجملة قبلَه، داخلٌ معه في حكم الاستفهام، و«من» مزيدةٌ في المبتدأ، وجُوِّزَ أن تكون مزيدةً في الفاعل بالظرف، كأنَّه قيل: هل لنا من شفعاءَ أو

(١) البحر المحيط ٤/٣٠٦.

هل نردُّ إلى الدنيا؟ ورافعُه وقوعُه موقعاً يصلحُ للاسم، كما تقول ابتداءً: هل يضرب زيدٌ، ولا يطلبُ له فعلٌ آخر يُعطف عليه، فلا يقدَّر: هل يشفع لنا شافعٌ أو نردُّ؛ قاله الزمخشريُّ[1]. وأرادَ ـ كما في «الكشف» ـ: لفظاً؛ لأنَّ الظرفَ مقدَّرٌ بجملةٍ، و«هل» ممَّا له اختصاصٌ بالفعل، والعدولُ للدَّلالة على أنَّ تمنِّي الشفيع أصلٌ، وتمنِّي الردِّ فرعٌ؛ لأنَّ تركَ الفعل إلى الاسم مع استدعاء «هل» للفعل يفيدُ ذلك، فلو قُدِّر لَفاتتْ نكتةُ العدولِ معنًى، مع الغنى عنه لفظاً.

وقرأ ابن أبي إسحاق: «أو نردَّ» بالنصب[2]، عطفاً على «فيشفعوا لنا» المنصوب في جواب الاستفهام، أو لأنَّ «أو» بمعنى: إلى أنْ، أو: حتى أنْ، على ما اختاره الزمخشريُّ إظهاراً لمعنى السببيَّة. قال القاضي[3]: فعلى الرفع المسؤولُ أحدُ الأمرين: الشفاعةُ، والردُّ إلى الدنيا، وعلى النصب المسؤول أنْ يكونَ لهم شفعاء؛ إمَّا لأحدِ الأمرين من الشفاعة في العفو عنهم والردِّ، إنْ كانت «أو» عاطفةً، وإمَّا لأمرٍ واحدٍ إذا كانت بمعنى: إلى أن؛ إذ معناه حينئذٍ: يشفعونَ إلى الردِّ، وكذا إذا كانت بمعنى: حتى أن، أي: يشفعون حتى يحصلَ الردُّ.

﴿فَنَعْمَلَ﴾ بالنصب جوابُ الاستفهام الثاني، أو معطوفٌ على «نردّ» مسبَّبٌ عنه على قراءة ابن أبي إسحاق.

وقرأ الحسنُ بنصب «نردّ» ورفع «نعمل»[4]، أي: فنحن نعمل.

﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: في الدنيا من الشرك والمعصية.

﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأسُ مالهم إلى الشرك والمعاصي ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب وفُقد ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: الذين كانوا يفترونه من الأصنام شركاء لله سبحانه وشفعاءهم يوم القيامة؛ والمراد أنَّه ظهرَ بطلانُه، ولم يفدهم شيئاً.

❁ ❁ ❁

---

(١) في الكشاف ٢/ ٨٢.
(٢) القراءات الشاذة ص ٤٤، والمحتسب ١/ ٢٥١.
(٣) هو البيضاوي، ينظر تفسيره مع حاشية الشهاب ٤/ ١٧٣.
(٤) الكشاف ٢/ ٨٢، والبحر المحيط ٤/ ٣٠٦ نقلاً عن الكشاف.

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ﴾ أي: النفس، وسُميت حواء لـملازمتها الجسم الظلمانيّ، إذ الحُوَّةُ اللونُ الذي يغلبُ عليه السواد. وبعضهم يجعلُ «آدم» إشارة إلى القلب؛ لأنَّه من الأُدمة، وهي السمرة، وهو لتعلُّقه بالجسم دونَ النفس سُمِّيَ بذلك، ولشرفِ آدم عليه السلام وجَّه النداءَ إليه، وزوجُه تبعٌ له في السُّكنى.

﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ هي عندهم إشارةٌ إلى سماءِ عالم الأرواح التي هي روضة القدس.

﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ لا حجرَ عليكما في تَلقِّي المعاني والمعارف والحكم؛ التي هي الأقوات القلبيَّةُ والفواكهُ الروحانيَّةُ.

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: شجرةَ الطبيعة والهوى التي بحضرتكما ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضعين النور في محلِّ الظُّلمة، أو الناقصين من نورِ استعدادكما.

وأوَّلَ بعضُهم الشجرةَ بشجرة المحبَّة المورقة بأنواع المحنة، أي: لا تقرباها فتَظلِما أنفسَكما؛ لِمَا فيها من احتراقِ أنانية المحبِّ، وفناءِ هويَّته في هويَّة المحبوب، ثم قال: إنَّ هذه الشجرة غرسَها الرحمن بيده لآدم عليه السلام، كما خمَّر طينتَه بيده لها.

فلم تكُ تصلحُ إلَّا له　　ولم يكُ يصلحُ إلَّا لها[1]

وإنَّ المنع كان تحريضاً على تناولها، فالمرءُ حريصٌ على ما مُنع، واختار هذا النيسابوريُّ وتكلَّفَ في باقي الآية ما تكلَّف، فإنْ أردتَه فارجع إليه[2].

﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ أي: ليُظهرَ لهما بالميل إلى شجرةِ الطبيعة ما حُجب عنهما عندَ التجرُّدِ من الأمور الرذيلة التي هي عوراتٌ عند العقل.

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ أوهمهما أنَّ في الاتِّصافِ بالطبيعة الجسمانيَّة لذَّاتٍ ملكيةً، وخلوداً فيها، أو مُلْكاً ورِياسةً على القوى بغير زوال؛ إنْ قُرِئ: «ملكين» بكسر اللام.

---

(١) هو لأبي العتاهية. انظر ديوانه (التكملة) ص ٦١٢.
(٢) غرائب القرآن ٨/ ٩٤.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزَّلهما من غُرَف القدس إلى التعلُّق بها والركون إليها ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرَّهما من كأسِ القَسَم المترعَةِ من حُميًّا ذكرِ الحبيب.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ والقليلُ منها بالنسبة إليهما كثيرٌ ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: يكتمانِ هاتيك السوآت والفواحش الطبيعيَّة بالآدابِ الحسنة والعادات الجميلة التي هي من تفاريع الآراءِ العقليَّة ومستنبطاتِ القوَّةِ العاقلةِ العلميَّة، ويخفيانِها بالحيلِ العملية.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ بما أودعتُ في عقولكما من الميلِ إلى التجرُّد وإدراكِ المعقولات ﴿عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وذلك القولُ بما أُلهم العقلُ من منافاة أحكام الوهم، ومضادَّةِ مدركاته، والوقوفِ على مخالفاته ومكابراته إيَّاه.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ بالميل إلى جهة الطبيعةِ، وانطفاءِ نورِها، وانكسارِ قوَّتها ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ بإلباسِنا الأنوارَ الروحانيَّة، وإفاضتِها علينا ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بإفاضةِ المعارفِ الحقيقيَّة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين أتلفوا الاستعدادَ الذي هو مادَّةُ السعادة، وحُرِموا عن الكمالِ التجرُّديِّ بملازمة النقصِ الطبيعيّ.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ إلى الجهة السفلى التي هي العالم الجسمانيُّ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأنَّ مطالبَ الجهةِ السفليَّةِ جزئيَّةٌ لا تحتملُ الشركة، فكلَّما حظيَ[1] بها أحدٌ حُرِم منها غيرُه، فيقعُ بينهما العداوةُ والبغضاء، بخلافِ المطالب الكليَّة.

وجمعَ الخطاب؛ لأنَّه في قوَّةِ خطاب النوع.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ وهو لباسُ الشريعة ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ يسترُ قبائحَ أوصافكم وفواحشَ أفعالكم بشعارِه ودثاره ﴿وَرِيشًا﴾ زينةً وجمالاً في الظاهر والباطن تمتازونَ به عن سائرِ الحيوانات.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: صفةُ الورع والحذر من صفات النفس ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من سائر أركانِ الشرائع، والحِميةُ رأسُ الدواء.

---

(١) في الأصل: خطى.

ويقال: لباس التقوى هو لباسُ القلبِ والروح، والسرِّ والخفيّ؛ ولباسُ الأول منها: الصدقُ في طلب المولى، ويَتوارى به سوءةُ الطمع في الدنيا وما فيها. ولباسُ الثاني محبّةُ ذي المجد الأسنى، ويتوارى به سوءةُ التعلّق بالسوى. ولباسُ الثالثِ رؤيةُ العَليِّ الأعلى، ويَتوارى به سوءةُ رؤيةِ غيره في الأُولى والأُخرى. ولباسُ الرابع: البقاءُ بهويَّة ذي القدس الأسنى، ويَتوارى به سوءةُ هويَّة ما في السماوات وما في الأرض وما تحت الثرى.

قيل: وهذا إشارةٌ إلى الحقيقة، وربَّما يقال: اللباسُ المواري للسوآت إشارةٌ إلى الشريعة، والريشُ إشارةٌ إلى الطريقة؛ لما أنَّ مدارَها على حُسن الأخلاق، وبذلك يتزيَّنُ الإنسان، ولباسُ التقوى إشارةٌ إلى الحقيقة؛ لما فيها من ترك السِّوى، وهو أكملُ أنواع التقوى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: لباسُ التقوى ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: من أنوارِ صفاته سبحانه؛ إذ التَّوَقي من صفات النفس لا يتيسرُ إلا بظهورِ تجليات صفاتِ الحقِّ. أو إنزالُ الشريعةِ والحقيقةِ مما يدلُّ على الله سبحانه وتعالى.

«لعلَّكم تذكرون»(١) عند ظهورِ تلكَ الأنوار لباسَكم الأصليَّ النوريَّ، أو تذكرونَ معرفتكم له عند أخذِ العهد، فتتمسَّكون بأذيالها اليوم.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بنزع لباسِ الشريعة والتقوى، فتحرمُوا من دخولِ الجنَّة ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ الفطريَّ النوريَّ.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ وذلك بمقتضَى البشريَّة، وقد يرونَ بواسطة النورِ الربانيِّ.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، وهو الصراطُ المستقيم ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: ذواتكم بمنعِها عن الميل إلى أحد طرفَي الإفراط والتفريط ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: مقام سجودٍ، أو وقته. والسجودُ عندهم ـ كما قاله البعضُ ـ أربعةُ أقسامٍ: سجودُ الانقياد والطاعة، وإقامةُ الوجه عنده بالإخلاص، وتركِ الالتفاتِ إلى السِّوى، ومراعاةِ موافقةِ الأمر، وصدقِ النيَّة، والامتناع عن المخالفة في جميع

(١) كذا في الأصل و(م). ونصُّ الآية: «لعلّهم يذكرون».

الأمور. وسجودُ الفناء في الأفعال، وإقامةُ الوجه عنده بأنْ لا يرى مؤثِّراً غير الله تعالى أصلاً. وسجودُ الفناء في الصفات وإقامةُ الوجه عنده؛ بأنْ لا يَكرهَ شيئاً، من غير أن يميلَ إلى الإفراط بترك الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا التفريط بالتسخُّط على المخالفِ، والتعيير له، والاستخفافِ به. وسجودُ الفناء في الذات، وإقامةُ الوجه عندَه بالغَيبة عن البقيَّة، والانطماسِ بالكليَّة، والامتناع عن إثبات الأنيَّة والإثنينية؛ فلا يَطغى بحجاب الأنيَّة، ولا يتزندقُ بالإباحة وتركِ الطاعة[1].

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بتخصيص العمل لله تعالى، أو برؤية العمل منه، أو به جلَّ شأنه ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أظهرَكم بإفاضة هذه التَّعيّنات عليكم ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه، أو كما بدأكم لطفاً أو قهراً تعودونَ إليه، فيعاملكم حسبما بدأكم.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ كما ثبتَ ذلك في علمه ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ من القوى النفسانيَّة الوهمية والتخيليَّة ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ للمناسبة التامَّة بين الفريقين ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لقوَّة سلطان الوهم.

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فأخلصوا العملَ لله تعالى، وتوكَّلوا عليه، وقوموا بحقِّ الرِّضا وتمكَّنوا في التحقُّق بالحقيقة ومراعاة حقوق الاستقامة، ولكلِّ مقامٍ مقال. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ بالإفراط والتفريط، فإنَّ العدالةَ صراطُ الله تعالى المستقيم.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: منعَ عنها وقال: لا يمكن التزين بها ﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ كعلوم الإخلاص، ومقامِ التوكُّل والرِّضا والتمكين ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الكبرى عن التلوُّن وظهورِ شيءٍ من بقايا الأفعال والصفات والذات.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ رذائل القوة البهيميَّة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ﴾ رذائل القوة السبعيَّة ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ رذائل القوَّة النطقيَّة، وكلُّ ذلك من موانع الزينة.

---

(١) في (م): الإطاعة.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ينتهون عنده إلى مبدئهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لأنَّ وقوعَ ما يخالفُ العلم محالٌ.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسِكُم، وقيل: هي العقول. وقال النيسابوريُّ: التأويل: إمَّا يأتينكم إلهاماتٌ من طريقِ قلوبكم وأسراركم، وفيه أنَّ بني آدم كلَّهم مستعدُّون لإشارات الحقِّ وإلهاماته(١).

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ في الفناء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالاستقامةِ عند البقاء ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لوصولهم إلى مقامِ الولاية.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أخفَوا صفاتِنا بصفات أنفسهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ بالاتِّصاف بالرذائل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ نارِ الحرمان ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لسوءِ ما طُبعوا عليه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأنْ قال: أكرمني اللهُ تعالى بالكرامات، وهو الذي بالكرى مات ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بأنْ أنكرَ على أولياءِ الله سبحانه، الفائزينَ من الله تعالى بالحظِّ الأوفى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ممَّا كتب لهم في لوح القضاء والقدر.

وقيل: الكتابُ الإنسانُ الكامل، ونصيبُهم منه نصيبُ الغرضِ من السهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالَّة علينا ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ ولم يلتفتُوا إليها؛ لوقوفِهم مع أنفسهم ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ فلا تعرجُ أرواحهم إلى الملكوت ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: جنَّة المعرفة والمشاهدة والقربة ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾ أي: جمل أنفسِهم المستكبرة ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي: خياط أحكام الشريعة الذي به يُخاط ما شقَّته يدُ الشقاق، وسَمُّه آداب الطريقة؛ لأنَّها دقيقةٌ جدًّا.

وقد يقال: الخياطُ إشارةٌ إلى خياط الشريعة والطريقة، وسَمُّه ما يلزمُه العمل به من ذلك، وولوجُ ذلكَ الجمل لا يمكنُ مع الاستكبارِ، بل لابدَّ من الخضوع والانقياد وترك الحظوظ النفسانيَّة، وحينئذٍ يكونُ الجملُ أقلَّ من البعوضة، بل أدقَّ من الشعرةِ، فحينئذٍ يلجُ في ذلك السَّمِّ.

---

(١) غرائب القرآن ٨/١٢٦.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ﴾ الحرمان ﴿مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: إنَّ الحرمانَ أحاطَ بهم.

وقيل: لهم من جهنم المجاهدةِ والرياضة فراشٌ، ومن فوقهم من مخالفاتِ النفس وقطع الهوى لحافٌ، فتذيبُهم وتحرق أنانيتهم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ المرحومون ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ المحرومون[1] ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من القربِ ﴿حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من البعد ﴿حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ﴾ وهو مؤذِّنُ العزَّةِ والعظمة ﴿بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضعين الشيءَ في غير موضعه.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ السالكين ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الطريق الموصلةِ إليه سبحانه. وقيل: يصدُّونَ القلبَ والروح عن ذلك ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ بأنْ يصفوها بما ينفِّر السالكَ عنها من الزيغ والميل عن الحقِّ. وقيل: يطلبونَ صرفَ وجوههم إلى الدنيا وما فيها.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: الفناء بالله تعالى، أو بالقيامة الكبرى ﴿كَٰفِرُونَ﴾ لمزيد احتجابهم بما هم فيه.

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين أهل الجنَّة، وهي جنَّةُ ثوابِ الأعمال من العباد والزهَّاد، وبين أهل النار ﴿حِجَابٌ﴾ فكلٌّ منهم محجوبٌ عن صاحبه.

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي: أعالي ذلك الحجاب الذي هو حجابُ القلب ﴿رِجَالٌ﴾ وأيُّ رجالٍ، وهم العرفاء أهلُ الله سبحانه وخاصته.

قيل: وإنَّما سُمُّوا رجالاً لأنَّهم يتصرَّفون بإذن الله تعالى فيما سواه عزَّ وجلَّ تصرُّفَ الرجال بالنساء، ولا يتصرَّفُ فيهم شيءٌ من ذلك.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ﴾ لما أُعطوا من نور الفراسة.

﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: جنة ثوابِ الأعمال ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بما مَنَّ الله تعالى عليكم به من الخلاصِ من النار.

(١) كذا في الأصل و(م). والجادة: المحرومين.

وقيل: إنَّ سلامَهم على أهل الجنَّة بإمدادهم بأسباب التزكية والتخلية، والأنوارِ القلبيَّة، وإفاضة الخيرات والبركات عليهم.

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: لم يدخل أولئك الرجال الجنَّة؛ لعدم احتياجهم إليها ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في كلِّ وقتٍ بما هو أعلى وأغلى.

وقيل: هم ـ أي أهلُ الجنَّة ـ يطمعونَ في دخول أولئك الرجال ليقتبسُوا من نورِهم، ويستضيؤوا بأشعَّة وجوهِهم، ويستأنسوا بحضورهم.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ليعتبروا ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بأنْ تحفظَ قلوبنا من الزيغ.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من رؤساء أهل النار، وإطلاقُ الرجال عليهم وعلى أصحاب الأعراف كإطلاق المسيح على الدجال اللعين، وعلى عيسى عليه السلام.

﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ إشارةٌ إلى أهل الجنَّة.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: الحياة التي أنتم فيها ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: النعيم الذي مَنَّ الله تعالى به عليكم، أو أفيضُوا علينا من العلم أو العمل؛ لننال به ما نلتم.

﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ في الأزل ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لسوءِ استعدادهم. وقيل: إنَّ الكفارَ لمَّا كانوا عبيدَ البطون، حِراصاً على الطعام والشراب، فماتُوا على ما عاشوا، وحُشروا وأدخِلوا النَّار على ما ماتوا، طلبوا الماءَ أو الطعام.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ وهو النبيُّ ﷺ الجامعُ لكلِّ شيءٍ، والمظهرُ الأعظمُ لنا ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي: أظهرنا منه ما أظهرنا ﴿عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّهم المنتفعون منه، وإن كان من جهةٍ أخرى رحمةً للعالمين.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ما يؤول إليه عاقبةُ أمره.

وقيل: الكتابُ الذي فُصِّل على علم إشارةٌ إلى البدن الإنسانيِّ المفصَّلِ إلى أعضاءٍ وجوارحَ وآلاتٍ وحواسَّ تَصلُح للاستكمال على ما يقتضيه العلمُ الإلهيُّ،

وتأويلُه ما يؤول إليه أمرُه في العاقبة من الانقلابِ، إلَّا ما لا يصلحُ لذلك عند البعث من هيئاتٍ وصورٍ وأشكالٍ تناسبُ صفاتِهم وعقائدَهم، على مقتضى قوله سبحانه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٩]، وكما قال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧] انتهى.

ويحتملُ أنْ يكونَ الكتابُ المذكورُ إشارةً إلى الآفاق والأنفس، وما يؤول إليه كلٌّ ظاهرٌ. والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ شروعٌ في بيان مبدأ الفطرة إثر بيان معاد الكفَرة، ويحتملُ أنَّه سبحانه لمَّا ذكر حال الكفَّار وأشار إلى عبادتهم غيرَه سبحانه، احتجَّ عليهم بمقدوراته ومصنوعاته جلَّ شأنه، ودلَّهم بذلك على أنَّه لا معبودَ سواه، فقال مخاطباً بالخطاب العام: «إنَّ ربكم» أي: خالقكم ومالككم «الذي خلقَ السماوات» السبع «والأرض» بما فيها، كما يدلُّ عليه ما في سورة السجدة على ما يأتي إن شاءَ الله تعالى تحقيقُه «في ستة» أوقات كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ [الأنفال:١٦] أو في مقدارِ ستَّة أيام، كقوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]، فإنَّ المتعارفَ أنَّ اليومَ من طلوع الشمس إلى غروبها، ولم تكنْ هي حينئذٍ.

نعم العرشُ ـ وهو المحدَّد على المشهور ـ موجودٌ إذ ذاك على ما يدلُّ عليه بعض الآيات، وليس بقديمٍ كما يقول من ضلَّ عن الصراطِ المستقيم، لكن ذاك ليس نافعاً في تحقُّق اليوم العرفي. وإلى حَمْلِ اليومِ على المتعارف وتقدير المضاف ذهبَ جمعٌ من العلماء، وادَّعوا ـ وهو قول عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والضَّحَّاك ومجاهد واختاره ابنُ جرير الطبري[1] ـ أنَّ ابتداءَ الخلق كان يومَ الأحد، ولم يكن في السبت خلقٌ؛ أخذاً له من السبت بمعنى القطعِ؛ لقطعِ الخلق فيه، ولتمام الخلق في يوم الجمعة واجتماعه فيه سُمِّي بذلك.

---

(١) في تفسيره ١٠/ ٢٤٥.

وأخرج ابن أبي حاتم وغيرُه عن ابن عباس أنَّه سمَّى تلك الأيام بأبو جاد وهوَّاز وحطِّي وكلمون وسعفص وقريشات[1].

وقال محمد بن إسحاق وغيره: إنَّ ابتداء الخلق في يوم السبت، وسُمِّيَ سبتاً لقطع بعض خلق الأرض فيه، على ما قال ابن الأنباريّ، أو لما أنَّ الأمرَ كأنَّه قُطِع وشُرِع فيه على ما قيل. واستُدِلَّ لهذا القول بما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله تعالى التربةَ يوم السبت، وخلقَ فيها الجبال يوم الأحد، وخلقَ الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروهَ يوم الثلاثاء، وخلق النورَ يوم الأربعاء، وخلق فيها الدوابَّ يوم الخميس، وخلقَ آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»[2].

ولا يخفى أنَّ هذا الخبر مخالفٌ للآية الكريمة، فهو إمَّا غيرُ صحيح وإنْ رواه مسلم، وإمَّا مؤوَّل.

وأنا أرى أنَّ أوَّل يومٍ وقعَ فيه الخلقُ يقال له: الأحد، وثاني يومٍ: الإثنين، وهكذا، ويوم جمع فيه الخلقَ: الجمعة، فافهم.

وإلى حَمْلِه على اللغوي وعدم التقدير ذهبَ آخرون وقالوا: كان مقدارُ كلِّ يومٍ ألفَ سنة، ورُوي ذلك عن زيد بن أرقم.

وفي خَلْقِه سبحانه الأشياءَ مدرَّجاً ـ على ما روي عن ابن جبير ـ تعليمٌ للخلق التثبُّتَ والتأنِّيَ في الأمور، كما في الحديث: «التأنِّي من الله تعالى، والعجلةُ من الشيطان»[3].

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٩١، وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.
وجاء في الأصل عند هذا الموضع ما نصه: وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق الكلام في هذه الأسماء وبيان حالها من الإعراب. منه.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٨٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٣٤١). وانظر تتمة تخريجه ثمة وكلامَ العلماء في أن الأصح أنه موقوف على كعب الأحبار.

(٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة (٨٦٨-زوائد)، وأبو يعلى (٤٢٥٦)، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٠٤ من حديث أنس بن مالك ﷺ وفي إسناده سعد بن سنان ـ ويقال: سنان بن =

وقال غير واحد: إنَّ في خلقها مدرَّجاً مع قدرته سبحانه على إبداعها دفعةً دليلٌ على الاختيار، واعتبارٌ للنُّظَّار. واعتُرض عليه بأنَّه يجوزُ أنْ يكون الفاعلُ موجباً، ويكون وجودُ المعلول مشروطاً بشرائطَ توجدُ وقتاً فوقتاً، وبأنَّ ذلك يتوقَّفُ على ثبوت تقدُّم خلق الملائكة على خلق السماوات والأرض، وليس ذلك بالمحقَّق.

وأجيبَ بأنَّ الأول مبنيٌّ على الغفلة عن قوله: مع القدرة على إبداعها دفعةً، وبيانُه: أنَّ الفاعلَ إذا كان مختاراً ـ كما يقوله أهل الحق ـ يتوقفُ وجودُ المعلول على تعلُّق الإرادة به، فهو جزء العلَّة التامَّة حينئذٍ، فيجوزُ أنْ يتخلَّفَ المعلولُ عن الفاعل لانتفاءِ تعلُّق الإرادة، فلا يلزمُ من قِدمه قِدمُ المعلول.

وأمَّا إذا كان الفاعلُ موجِباً مقتضياً لذاته فيضانَ الوجود على ما تمَّ استعدادُه، فإنْ كان المعلولُ تامَّ الاستعداد في ذاته، كالكبريت بالنسبة إلى النار، يجبُ وجوده ويمتنعُ تخلُّفه، وإلَّا لزمَ التخلُّف عن العلَّة التامَّةِ، فيلزمُ من قِدَم الفاعل حينئذٍ قدمُه، والأجرام الفلكيَّةُ من هذا القبيل عند الفلاسفة.

وإن توقَّفَ تمامُ استعدادِه على أمرٍ متجدِّدٍ، فما لم يحصل يمتنع إيجادُه، كالحطب الرطب، فإنَّه ما لم ييبس لم تحرقه النار، والحوادثُ اليوميَّةُ من هذا القبيل عندهم، ولهذا أثبتوا برزخاً بين عالمي القدم والحدوث؛ ليتأتَّى ربطُ الحوادث بالمبادىء القديمة، ففي صورة كون الفاعل موجباً مشروطاً وجودُ معلوله بشرائطَ متعاقبة يَمتنعُ الإبداع دفعةً، فإمكانُ وجودِ هذه الأشياء المنبىء عن عدم التوقُّف على شيءٍ آخر أصلاً دفعةً، مع الخلقِ التدريجيِّ المستلزم لتأخُّر وجودِ المعلول عن وجود الفاعل، لا يجامعُ الوجوبَ المستلزمَ لامتناعِ التأخُّر حينئذٍ، ويستلزمُ الاختيارَ المصحِّحَ لذلك التأخُّر كما علمت.

= سعد ـ مختلف فيه، فقد وثقه ابن معين وذكره ابن حبان في الثقات، وضعفه الدارقطني، وقال النسائي: منكر الحديث. وقال الجوزجاني: أحاديثه واهية. وقال ابن حجر: صدوق له أفراد. ينظر تهذيب الكمال ١٠/ ٢٦٦، والميزان ٢/ ١٢١، والتقريب ص١٧١.

وله شاهد عند الترمذي (٢٠١٢) من طريق عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث غريب ـ وفي بعض النسخ: حسن غريب ـ وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد المهيمن وضعَّفه من قِبَل حفظه. اهـ، وينظر تحفة الأحوذي ٦/ ١٥٣، والمقاصد الحسنة ص١٥١.

وبأنَّ الإبداعَ التدريجيَّ للأشياء عبارةٌ عن إيجاداتٍ يتعلَّقُ كلٌّ منها بشيءٍ، فيدلُّ على تعلُّقِ العلم والإرادة والقدرة بكلٍّ منها تفصيلاً، بخلاف الإيجاد الدفعيِّ لها، فإنَّه إيجادٌ واحدٌ متعلِّقٌ بالمجموع، فيدلُّ على تعلُّق ما ذُكِر بالمجموع من حيث هو مجموعٌ إجمالاً، واستوضِح ذلك من الفرق بين ضربِ الخاتم على نحو القرطاس، وبينَ أن تكتبَ تلك الكلمات، فإنَّك في الصورة الثانية تتخيَّلُها كلمةً فكلمة، بل حرفاً فحرفاً، وتريدُها كذلك، فتوقعها في الصحيفة، بخلاف الصورةِ الأولى. وهو ظاهر، فالنُّظَّار يعتبرونَ من الخلق التدريجي، ويفهمونَ شمولَ علمه سبحانه وإرادته وقدرته للأشياء تفصيلاً قائلين: سبحان من لا يَعزُبُ عن علمه مثقالُ ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء.

وأيضاً قالوا: إنَّا إذا فعلنا شيئاً تصوَّرناه أولاً، ثم اعتقدنا له فائدةً، ثم تحصلُ لنا حالٌ شوقيَّةٌ، ثم ميلانٌ نفسانيٌّ؛ هي الإرادة، ثم تنبعثُ القوَّةُ الباعثةُ للقوَّةِ المحرِّكةِ للأعضاء نحو إيجاده، فيحصلُ لنا ذلك الشيءُ، فلكلٍّ واحدٍ من تلك الأمورِ دخلٌ في وجود ذلك الشيء. ثم قالوا: فكما لابدَّ في صدور الأفعال الاختياريَّة فينا من هذه الأمور، كذلك لابدَّ في صدور الأفعال الاختياريَّة للواجب من نحو ذلك ممَّا لا يمتنعُ عليه سبحانه، فأثبتُوا له تعالى علماً وإرادة وقدرةً وفائدةً لأفعاله، واستدلُّوا على ذلك من كونه سبحانه مختاراً، فالخلقُ التدريجي لمَّا كان دالًّا على الاختيار الدالِّ على ما ذُكر صَدقَ أنَّ فيه اعتباراً للنُّظَّار.

وحاصلُ هذا أنَّ المرادَ من النُّظَّار أصحابُ النظرِ والبصيرة من العقلاء، فلا يتوقَّف ما ذُكِرَ على تَقدُّم خلق الملائكة، على أنَّ من قالَ بتقدُّم خلقِ العرش والكرسيِّ على خلقِ الأرض والسماوات قائلٌ بتقدُّم خلقِ الملائكة، بل قيل: إنَّ من الناس من قال بتقدُّم خلقِ نوعٍ من الملائكة قبل العرش والكرسيِّ، وسمَّاهم المهيمين.

وأنت تعلمُ أنَّ هذا لا يفيد؛ لأنَّ المهيمين عند هذا القائل لا يشعرونَ بسماءٍ ولا أرض، بل هم مستغرقون فيه سبحانه، على أنَّ ذلك ليس بالمحقَّق كما يقوله المعترِض أيضاً.

وقيل: إنَّ الشيء إذا حدث دفعةً واحدةً، فلعلَّه يخطرُ بالبال أنَّ ذلك الشيء إنَّما

وقعَ على سبيل الاتفاق، فإذا أُحدث شيئاً فشيئاً على سبيل المصلحة والحكمة، كان ذلك أبلغ في القدرة، وأقوى في الدلالة.

وقيل: إنَّ التعجيلَ في الخلق أبلغُ في القدرة، والتثبتَ أبلغُ في الحكمة، فأراد الله تعالى إظهارَ حكمته في خلق الأشياء بالتثبُّت، كما أظهرَ قدرته في خلق الأشياء بـ «كن».

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو في المشهور: الجسمُ المحيط بسائر الأجسام، وهو فلكُ الأفلاك، سُمِّي به إمَّا لارتفاعه، أو للتشبيه بسريرِ الملك، فإنَّه يقالُ له: عرش، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] لأنَّ الأمورَ والتدبيرات تنزلُ منه، ويكنى به عن العزِّ والسلطان والمُلك، فيقال: فلانٌ ثُلَّ عرشُه، أي: ذهبَ عزُّه ومُلْكه، وأنشدُوا قوله:

إذا ما بنو مروانَ ثُلَّت عروشُهم ... وأودَتْ كما أودَتْ إيادٌ وحميرُ[1]

وقوله:

إنْ يقتلُوك فقد ثَلَلْتَ عروشَهم ... بعيينةَ بن الحارث بن شهابِ[2]

وذكر الراغبُ أنَّ العرشَ ممَّا لا يعلمُه البشرُ إلَّا بالاسم، وليسَ هو كما تذهبُ إليه أوهامُ العامَّة، فإنَّه لو كان كذلك، لكان حاملاً له، تعالى عن ذلك. وليس كما قال قوم: إنَّه الفلك الأعلى، والكرسيُّ فلك الكواكب[3]. وفيه نظر.

والناس في الكلام على هذه الآية ونحوها مختلفون، فمنهم من فسَّر العرشَ بالمعنى المشهور، وفسَّر الاستواء بالاستقرار، وروي ذلك عن الكلبيِّ ومقاتل، ورواه البيهقيُّ في كتابه «الأسماء والصفات» برواياتٍ كثيرةٍ عن جماعةٍ من السلف، وضعَّفَها كلَّها[4].

---

(١) البيت دون نسبة في البدء والتاريخ لأبي زيد البلخي ١/ ١٦٦.

(٢) البيت لأبي ذؤاب؛ ربيِّعة بن عبيد الأسدي، وهو في المؤتلف والمختلِف ص ١٨٣، والمثل السائر ١/ ٢٨٠. وفيهما: بعتيبة، بدل: بعُيَينة.

(٣) مفردات الراغب (عرش).

(٤) الذي في الأسماء والصفات للبيهقي برقم (٨٧٣) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، فذكره. ثم قال: وأبو صالح هذا والكلبي ومحمد بن مروان =

وما رُوي عن مالكٍ ﷺ أنَّه سئل كيف استوى؟ فأطرقَ رأسَه مليّاً حتى عَلَتْه الرُّحَضاءُ[١]، ثم رفع رأسه فقال: الاستواءُ غيرُ مجهول، والكيفُ غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ثم قال للسائل: وما أظنَّك إلَّا ضالًّا، ثم أمر به فأُخرِج[٢] = ليس نصّاً في هذا المذهبِ؛ لاحتمالِ أنْ يكون المراد من قوله: غيرُ مجهول. أنَّه ثابتٌ معلومُ الثبوت، لا أنَّ معناه ـ وهو الاستقرار ـ غير مجهول. ومن قوله: والكيفُ غير معقول. أنَّ كلَّ ما هو من صفات[٣] الله تعالى لا يُدرِك العقلُ له كيفيَّةً؛ لتعاليه عن ذلك، فكَفُّ الكيف عنه مشلولةٌ.

ويدلُّ على هذا ما جاءَ في روايةٍ أخرى عن عبد الله بن وهب أنَّ مالكاً سُئِل عن الاستواءِ فأطرقَ وأخذته الرحضاء، ثم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كما وصف نفسه، ولا يقال له: كيف، وكيف عنه مرفوع، إلى آخرِ ما قال[٤].

ثم إنَّ هذا القولَ إنْ كان مع نفي اللوازم، فالأمر فيه هيِّنٌ. وإنْ كان مع القول بها ـ والعياذ بالله تعالى ـ فهو ضلالٌ وأيُّ ضلال، وجهلٌ وأيُّ جهلٍ بالملك المتعال، وما أعرفَ ما قالَه بعضُ العارفين الذين كانوا من تيار المعارف غارفين، على لسان حال العرش موجِّهاً الخطابَ إلى النبيِّ ﷺ ليلةَ المعراج، حين أشرقتْ شمسُه عليه الصلاة والسلام في الملأ الأعلى، فتضاءلَ معها كلُّ نورٍ وسراج، كما نقله الإمام القسطلانيّ[٥]، معرِّضاً بضلالِ مثل أهل هذا المذهب الثاني، ولفظه مع حذف: ولمَّا انتهى ﷺ إلى العرشِ تمسَّك بأذياله[٦]،

= كلهم متروك عند أهل العلم بالحديث، لا يحتجون بشيءٍ من رواياتهم؛ لكثرة المناكير فيها، وظهور الكذب منهم في رواياتهم. اهـ.
ولم أقف على غير هذه الرواية عند البيهقي بهذا المعنى. وانظر تفسير الخازن ٢/ ٢٣٨ وعنه نقل المصنف.

(١) هو عَرَقٌ يغسل الجلد كثرة. القاموس (رحض).

(٢) الأسماء والصفات (٨٦٧).

(٣) في (م): صفة.

(٤) الأسماء والصفات (٨٦٦)، وجوَّد الحافظ ابن حجر إسناده في فتح الباري ١٣/ ٤٠٦-٤٠٧.

(٥) في المواهب اللدنية (مع شرحه للزرقاني) ٦/ ١٠٦-١٠٨.

(٦) قال الزرقاني عند شرح هذه العبارة من المواهب ٦/ ١٠٦: قال في «سبل الرشاد»: لم يرد في أحاديث المعراج الثابتة أنه ﷺ عرج به إلى العرش... بل وصوله إلى ذروة العرش لم =

وناداه بلسان حاله: يا محمد أنت في صفاءِ وقتك، آمناً من مقتك. إلى أن قال: يا محمد أنت المرسلُ رحمةً للعالمين، ولابدَّ لي من نصيبٍ من هذه الرحمة، ونصيبي يا حبيبي أنْ تشهدَ لي[١] بالبراءة ممَّا نسبه أهْل الزور إليَّ، وتقوَّله أهل الغرور عليَّ؛ زعموا أنِّي أسع من لا مثلَ له، وأحيط بمن لا كيفيَّةَ له، يا محمد من لا حدَّ لذاته، ولا عدَّ لصفاته، كيف يكون مفتقراً إليَّ، ومحمولاً عليّ؟ إذا كان الرحمنُ اسمه، والاستواء صفته، وصفتُه متَّصِلةٌ بذاته، كيف يتَّصل بي أو ينفصل عنِّي، يا محمَّد وعزَّته لست بالقريب منه وصلاً، ولا بالبعيدِ عنه فصلاً، ولا بالمطيق له حملاً، أوجدني منه رحمةً وفضلاً، ولو محقني لكان حقّاً منه وعدلاً، يا محمد أنا محمولُ قدرته، ومعمولُ حكمته. اهـ.

وذهب المعتزلة وجماعةٌ من المتكلِّمين إلى أنَّ العرش على معناه، و«استوى» بمعنى استولى، واحتجُّوا عليه بقوله:

قد استوى بشرٌ على العراق ... من غير سيفٍ ودمٍ مهراق[٢]

وخُصَّ العرشُ بالإخبار عنه بالاستيلاء عليه؛ لأنَّه أعظمُ المخلوقات.

ورُدَّ هذا المذهب بأنَّ العربَ لا تعرف «استوى» بمعنى استولى، وإنَّما يقال: استولَى فلانٌ على كذا، إذا لم يكنْ في مُلكه، ثمَّ ملكَه واستولى عليه، والله تعالى لم يزلْ مالكاً للأشياء كلِّها ومستولياً عليها.

ونسب ذلك للأشعرية، وبالغ ابن القيِّم في ردِّهم، ثم قال: إن لام الأشعرية كنون اليهوديَّة[٣]. وهو ليس من الدين القيِّم عندي.

= يثبت في خبر صحيح ولا حسن ولا ثابت أصلاً، وإنما صحَّ في الأخبار انتهاؤه إلى سدرة المنتهى فحسب، وأما إلى ما وراءها فإنما ورد ذلك في أخبارٍ ضعيفةٍ ومنكرةٍ لا يعرج عليها.

(١) لفظة: لي، ليست في (م).

(٢) هو للأخطل، وسلف ٤/ ٣٨.

(٣) عندما قيل لهم: «قولوا حطة» [البقرة: ٥٨] فأبوا وقالوا: حنطة. ينظر شرح نونية ابن القيم ٢/ ٢٦.

وذهب الفرَّاء[١] - واختارهُ القاضي[٢] - إلى أنَّ المعنى: ثمَّ قصدَ إلى خلق العرش، ويبعدُه تعدِّي الاستواء بـ «على». وفيه قولٌ بأنَّ خلقَ العرش بعدَ خلق السماوات والأرض، وهو كما ترى.

وذهب القفَّال إلى أنَّ المراد نفاذُ القدرة، وجريانُ المشيئة، واستقامةُ الملك، لكنَّه أخرجَ ذلك على الوجه الذي ألفَه الناس من ملوكهم، واستقرَّ في قلوبهم.

قيل: ويدلُّ على صحَّة ذلك قوله سبحانه في سورة يونس: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [الآية: ٣] فإنَّ «يدبِّر الأمر» جرى مجرى التفسير لقوله: «استوى على العرش»، وسيأتي الكلام فيه إنْ شاء الله تعالى.

وذُكِر أنَّ القفال يفسِّرُ العرشَ بالملك ويقول ما يقول[٣]، واعتُرِض بأنَّ الله تعالى لم يزل مستقيمَ الملك مستوياً عليه قبل خلق السماوات والأرض، وهذا يقتضي أنَّه سبحانه لم يكن كذلك، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وأجيب بأنَّ الله تعالى كان قبل خلق السماوات والأرض مالكها، لكن لا يصحُّ أن يقال: شبعَ زيدٌ، إلا بعدَ أكلِه الطعام، فإذا فُسِّر العرشُ بالملك صحَّ أن يقال: إنه تعالى إنَّما استوى ملكه بعدَ خلق السماوات والأرض.

ومنهم من يجعل الإسنادَ مجازيًّا، ويقدِّرُ فاعلاً في الكلام، أي: استوى أمرُه، ولا يضرُّ حذفُ الفاعل إذا قامَ ما أُضيفَ إليه مقامَه، وعلى هذا لا يكون الاستواءُ صفةً له تعالى. وليس بشيء.

ومن فسَّره بالاستيلاء أرجعَه إلى صفة القدرة. ونقل البيهقيُّ[٤] عن أبي الحسن الأشعريِّ أنَّ الله تعالى فَعل في العرشِ فعلاً سمَّاه استواءً، كما فَعل في غيره فعلاً سمَّاه رزقاً ونعمةً وغيرهما من أفعاله سبحانه؛ لأنَّ «ثُمَّ» للتراخي، وهو إنَّما يكونُ في الأفعال.

---

(١) في معاني القرآن له ١/ ٢٥.

(٢) كما في مجمع البيان ٨/ ٧٥، ولعله القاضي عبد الجبار المعتزلي.

(٣) ينظر كلام القفال مع شرحه للفخر الرازي في التفسير الكبير ١٤/ ١١٥- ١١٧.

(٤) في الأسماء والصفات ٢/ ٣٠٨-٣٠٩.

وحكى الأستاذ أبو بكر بن فورك عن بعضهم أنَّ «استوى» بمعنى: علا، ولا يرادُ بذلك العلوُّ بالمسافة والتحيُّز والكون في المكان متمكِّناً فيه، ولكن يرادُ معنىً يصحُّ نسبتُه إليه سبحانه.

وهو على هذا من صفاتِ الذات. وكلمةُ «ثمَّ» تعلَّقت بالمستوى عليه، لا بالاستواء، أو أنَّها لتفاوتٍ في الرتبة. وهو قول متين.

وأنت تعلمُ أنَّ المشهورَ من مذهب السلف في مثل ذلك تفويضُ المراد منه إلى الله تعالى، فهم يقولون: استوى على العرش على الوجه الذي عناه سبحانه منزَّهاً عن الاستقرار والتمكُّن، وأنَّ تفسيرَ الاستواء بالاستيلاء تفسيرٌ مرذولٌ، إذ القائلُ به لا يَسعه أنْ يقول: كاستيلائنا، بل لابدَّ أن يقول: هو استيلاءٌ لائقٌ به عزَّ وجلَّ، فليقل من أوَّل الأمرِ هو استواءٌ لائقٌ به جلَّ وعلا.

وقد اختار ذلك السادةُ الصوفيَّة قدَّسَ الله تعالى أسرارهم، وهو أعلمُ وأسلمُ وأحكم، خلافاً لبعضهم، ولعلَّ لنا عودةً إلى هذا البحث إن شاء الله تعالى.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغطِّي سبحانه النهارَ بالليل، ولمَّا كان المغطِّي يجتمعُ مع المغطَّى وجوداً، وذلك لا يُتصوَّر هنا، قالوا: المعنى: يُلبسه مكانَه، فيصيرُ الجوُّ مظلماً بعد ما كان مضيئاً، فيكون التجوُّز في الإسناد بإسناد ما لمكان الشيء إليه، ومكانُه هو الجوُّ على معنى أنَّه مكانٌ للضوء الذي هو لازمُه، لا أنَّه مكانٌ لنفس النهار؛ لأنَّ الزمانَ لا مكانَ له. وجُوِّزَ أنْ يكون هناك استعارةٌ بأن يُجعل غشيان مكان النهار وإظلامه بمنزلة غشيانِه للنهار نفسِه، فكأنَّه لُفَّ عليه لَفَّ الغشاء، أو يُشبَّهَ تغييبُه له بطريانِه عليه بسَتْرِ اللباس للابسه[1].

وجُوِّزَ أنْ يكون المعنى: يغطِّي سبحانه الليلَ بالنهار.

ورجِّح الوجهُ الأول بأنَّ التغشيةَ بمعنى الستر، وهي أنسبُ بالليل من النهار، وبأنَّه يلزمُ على الثاني أنْ يكون الليلُ مفعولاً ثانياً، والنهارُ مفعولاً أولاً.

وقد ذكر أبو حيان[2] أنَّ المفعولين إذا تعدَّى إليهما فعلٌ، وأحدُهما فاعل من

---

(١) في الأصل و(م): للملابسة. والمثبت من حاشية الخفاجي ٤/ ١٧٤، والكلام منه.

(٢) في البحر المحيط ٤/ ٣٠٩.

حيث المعنى، يلزمُ أنْ يكون هو الأوَّلَ منهما عندهم، كما لزم ذلك في: ملَّكْتُ زيداً عمراً، ورتبةُ التقديم هي الموضِّحة لأنَّه الفاعل معنًى، كما لزم ذلك في: ضَربَ موسى عيسى، بخلاف: أعطيتُ زيداً درهماً، فإنَّ تعيُّن المفعولِ الأول لا يتوقَّفُ على التقديم.

ورجِّح الثاني بأنَّ حميد بن قيس قرأ: «يَغشى الليلَ النهارُ» بفتح الياء، ونصب «الليل»، ورفع «النهار»[1]، ويلزمُ عليها أن يكون الطالبُ النهار، والليلُ ملحقٌ به، وتوافقُ القراءتين أولى من تخالفهما.

وبأنَّ قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس:٣٧] يُعْلَمُ منه ـ على ما قاله[2] المرزوقيُّ ـ أنَّ الليلَ قبلَ النهار؛ لأنَّ المسلوخَ منه يكون قبل المسلوخ[3]، فالنهارُ بالإدراك أولى.

وبأنَّ قوله سبحانه: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: محمولاً على السرعة، ففعيل بمعنى مفعول أوفقُ بهذا الوجه، فإنَّ هذا الطلبَ من النهار أظهرُ، وقد قالوا: إنَّ ضوءَ النهار هو الهاجمُ على ظلمة الليل، وأنشدَ بعضُهم:

كأنَّا وضوءُ الصبح يستعجلُ الدُّجى ... نُطيرُ غراباً ذا قوادم جُونِ[4]

ولبعض المتأخِّرين من أبيات:

وكأنَّ الشرقَ بابٌ للدُّجى ... ما لَه خوفَ هجوم الصُّبح فتحُ[5]

وحديثُ أنَّ التَّغشيةَ أنسبُ بالليل، قيل: مُسَلَّمٌ لو كان المرادُ بالتغشية حقيقتَها، لكن ليس المرادُ ذلك، بل المراد اللحوقُ والإدراك، وهذا أنسبُ بالنهار كما علمت. والقاعدةُ المذكورة لا تخلو عن كلام، على أنَّه لا يبعدُ على ما تقرَّر أنْ يكون الكلامُ من قبيل: أعطيتُ زيداً درهماً.

---

(١) المحتسب ١/ ٢٥٣، والبحر المحيط ٤/ ٣٠٩.
(٢) في (م): قال.
(٣) الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/ ٢٠.
(٤) البيت لابن المعتز، وهو في ديوانه ص ٣٩١، والجَوْن: الأبيض، والجون أيضاً: الأسود، وجمعه جُونٌ، مختار الصحاح (جون).
(٥) هو لفتح الله بن النحاس كما في نفحة الريحانة ٢/ ٥٢١.

والقولُ بأنَّ معنى الآية أنَّه سبحانه يجعلُ الليلَ أغشى بالنهار، أي: مبيضّاً بنور الفجرِ، بناءً على ما في «الصحاح»[١] من أنَّ الأغشى من الخيل وغيرِه: ما ابيضَّ رأسُه كلُّه من بين جسدِه، كالأرخم = ممَّا لا يكادُ يقدم عليه.

وذكر سبحانه أحدَ الأمرين، ولم يذكرهما معاً، كما في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج:٦١] للعِلْم بالآخَر من المذكور؛ لأنَّه يشيرُ إليه، أو لأنَّ اللفظ يحتملُه على ما قيل.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ الليلَ والنهارَ بمعنى كلِّ ليلٍ ونهار، وهو بتعاقب الأمثال مستمرُّ الاستبدال، فيدلُّ على تغيير كلٍّ منهما بالآخر بأخصرِ عبارةٍ، من غير تكلُّفٍ ومخالفةٍ لما اشتهرَ من قواعد العربية.

وجملة «يَغْشَى» ـ على ما قاله ابنُ جنِّي[٢] ـ على قراءة حُميد حالٌ من الضمير في قوله سبحانه: «ثم استوى»، والعائد محذوف، أي: يغشى الليلَ النهارُ[٣] بأمره أو بإذنه. وقوله جلَّ وعلا: «يطلبه حثيثاً» بدلٌ من «يَغشى» إلخ للتوكيد. وعلى قراءة الجماعة حالٌ من «الليل» أي: يُغشي الليل النهار طالباً له حثيثاً، و«حثيثاً» حالٌ من الضمير في «يطلبه».

وجوَّزَ غيرُه أن تكون الجملةُ حالاً من «النهار» على تقدير قراءة حميد أيضاً.

وجوَّزَ أبو البقاء[٤] الاستئنافَ في الجملة الأولى.

وقال بعضهم: يجوز في «حثيثاً» أنْ يكون حالاً من الفاعل، بمعنى حاثّاً، أو من المفعول، أي: محثوثاً، وأنْ يكونَ صفةَ مصدرٍ محذوف، أي: طلباً حثيثاً، وإنَّما وُصِف الطلب بذلك؛ لأنَّ تعاقب الليل والنهار ـ على ما قال الإمام[٥] وغيره ـ إنَّما يحصل بحركة الفلك الأعظم، وهي أشدُّ الحركات سرعة، فإنَّ الإنسان إذا

---

(١) مادة (غشا).

(٢) في المحتسب ١/٢٥٣.

(٣) أي: بنصب الليل، ورفع النهار. كما ضبطها ابن جني في المحتسب.

(٤) في الإملاء ٣/١٧.

(٥) تفسير الرازي ١٤/١١٨.

كان في أشدِّ عَدْوِه، بمقدار رَفع رجله ووضعها يتحرَّكُ الفلكُ ثلاثة آلاف ميل، وهي ألف فرسخ.

واعتُرِض بأنَّ الفلكَ الأعظم إنْ كان هو العرش كما قالوا، فحركتُه غيرُ مسلَّمةٍ عند جمهور المحدَثين، بل هم لا يُسلِّمون حركة شيءٍ من سائر الأفلاك أيضاً، وهو الكرسيُّ والسماواتُ السبع، بل ادَّعوا أنَّ النجومَ بأيدي ملائكةٍ تسيرُ بها حيث شاء الله تعالى وكيف شاء. وقال الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه: إنَّها تجري في ثخن الأفلاك جَرْيَ السمك في الماء، كلٌّ في فلك يسبحون.

وفسَّر ـ فيما نُقِل عنه ـ قولَه سبحانه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ بـ: يجعلُه غاشياً له غشيانَ الرجل المرأةَ، وقال: ذكر سبحانه الغشيان هنا والإيلاج في آيةٍ أخرى، وهذا هو التناكحُ المعنويُّ، وجعلَه سارياً في جميع الموجودات(١). وإن صحَّ هذا فما أصحَّ قولهم: الليلةُ حبلى، وما ألطفَه، وأمر الحثِّ عليه ظاهرٌ لمن ذاق عُسيلةَ النكاح. والحاصلُ من هذا الغشيان عند من يقولُ به ما في هذا العالم من معدن ونبات وحيوان، وهي المواليدُ الثلاث، أو من الحوادث مطلقاً، ويقربُ من هذا قوله:

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبيـ ... ـرَ كرُّ الغداةِ ومرُّ العشيّ(٢)

وأنت تعلمُ أنْ لا مؤثِّر في الوجود على الحقيقة إلَّا الله تعالى.

ووجه ذكره سبحانه هذا بعد ذكره الاستواء ـ على ما نُقِلَ عن القفَّال ـ أنَّه جلَّ شأنه لمَّا أخبر العبادَ باستوائه، أخبرَ عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته، وأراهم ذلك فيما يشاهدونه؛ لينضمَّ العيانُ إلى الخبر، وتزولَ الشبهةُ من كلِّ الجهات، ولا يخفى أنَّ هذا قد يحسنُ وجهاً لذكر ذلك وما بعدَه بعد ذكر الاستواء، وأمَّا لذكره بخصوصه هناك دون تسخير الشمس والقمر فلا.

وذكر صاحبُ «الكشف» في توجيه اختيارِ صاحب «الكشاف» هنا أنَّ الغاشي هو النهار، وفي «الرعد» هو الليل، وتفسيره التغشية هناك بالإلباس، وهنا

---

(١) الفتوحات المكية ٢/ ١٧٠، ٣/ ٤١٦ (طبعة دار صادر).

(٢) هو للصلتان العبدي، كما في الشعر والشعراء ١/ ٥٠٢١، والكامل ٣/ ١١٠١، وشرح الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٢٠٩، ونسبه الجاحظ في الحيوان ٣/ ٤٧٧ للصلتان السعدي.

بالإلحاقِ[١] نظراً إلى الخلاصة ما يفهم منه وجهُ تقديم التغشية على التسخير الآتي في هذه الآية، وعكسُه في آية الرعد، حيثُ قال: والنكتةُ في ذلك أن تسخيرَ الشمسِ والقمر ذُكر هنالك من قبلُ في تعديد الآيات، فلمَّا فرغَ ذكرَ إدخالَ اللَّيل على النهار ليطابقَه، ولأنَّه أظهرُ في الآية، وأنَّ الشمسَ مسخَّرةٌ مأمورةٌ، وهاهنا جاءَ به على أسلوبٍ آخر تمهيداً لقوله سبحانه: «ادعوا ربكم»، أي: مَنْ هذه ألطافُه وآياته في شأنكم، فرجح جانبُ اللفظ على الأصل وللجمع بين القراءتين أيضاً. اهـ. فتدبَّر ولا تغفل.

وقُرئ: «يُغَشِّي» بالتشديد[٢]؛ للدَّلالة على التكرار.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: خَلقَهنَّ حالَ كونهنَّ مذلَّلاتٍ تابعاتٍ لتصرُّفه سبحانَه فيهنَّ بما شاء، غيرَ ممتنعاتٍ عليه جلَّ شأنه، كأنهنَّ مميِّزاتٍ أُمِرْنَ فانقدْنَ، فتسميةُ ذلك أمراً على سبيل التشبيه والاستعارة، ويصحُّ حملُ الأمر على الإرادة كما قيل، أي: هذه الأجرامُ العظيمة والمخلوقاتُ البديعةُ منقادةٌ لإرادته. ومنهم من حمل الأمرَ على الأمر الكلامي، وقال: إنه سبحانه أمرَ هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرَّة على الوجه المخصوص إلى حيثُ شاء. ولا مانع من أنْ يعطيها الله تعالى إدراكاً وفهماً لذلك، بل ادَّعى بعضُهم أنها مدركةٌ مطلقاً، وفي بعض الأخبار ما يدلُّ على أنَّ لبعضها إدراكاً لغير ما ذكر.

وإفرادُ الشمس والقَمر بالذكر مع دخولهما في النجوم؛ لإظهار شرفهما عليها، لما فيهما من مزيد الإشراقِ والنور، وبسيرهما في المنازل تُعرَفُ الأوقات.

وقدَّم الشمسَ على القمر رعايةً للمطابقة مع ما تقدم، وهي من البديع، ولأنَّها أسنى من القمر وأسمى مكانةً ومكاناً؛ بناءً على ما قيل من أنَّها في السماء الرابعة، وأنَّه في السماء الأولى، وليس بمسلَّم عند المحدَثين، كالقول بأنَّ نورَه مستفادٌ من نورها لاختلاف تشكُّلاته على أنحاء متفاوتةٍ، بحسب وضعه من الشمس في القرب والبعد عنها، مع ما يلحقُه من الخسوف، لا لاختلافِ التشكُّلات وحده، فإنَّه

(١) الكشاف ٢/ ٨٢ و٣٤٩.

(٢) هي قراءة أبي بكر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف. التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩.

لا يوجبُ الحكمَ بأنَّ نورَ القمر مستفادٌ من الشمس قطعاً؛ لجواز أنْ يكون نصفُه مضيئاً من ذاته، ونصفُه مظلماً، ويدور على نفسه بحركةٍ مساويةٍ لحركة فلكه، فإذا تحرَّك بعد المُحَاق يسيراً رأيناه هلالاً، ويزدادُ فنراه بدراً، ثمَّ يميلُ نصفه المظلم شيئاً فشيئاً إلى أن يَؤول إلى المُحاق.

وفي كونها مسخَّراتٍ دلالةٌ على أنَّها لا تأثيرَ لها بنفسها في شيءٍ أصلاً.

وقرأ جميعَها ابنُ عامر بالرفع على الابتداء والخبر[1]. والنصبُ بالعطف على «السماوات»، والحاليَّة، كما أشرنا إليه.

وجُوِّزَ تقديرُ: جَعَلَ، وجَعلُ «الشمس» مفعولاً أوَّلاً، و«مسخراتٍ» مفعولاً ثانياً.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ كالتذييل للكلام السابق، أي: إنَّه تعالى هو الذي خلق الأشياء، ويَدخُل في ذلك السماوات والأرض دخولاً أوَّليّاً، وهو الذي دبَّرها وصرَّفَها على حسب إرادته، ويدخلُ في ذلك ما أشيرَ إليه بقوله سبحانه: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ لا أَحَدٍ غيره، كما يؤذن به تقديمُ الظرف.

وفسَّر بعضهم «الأمر» هنا بالإرادة أيضاً، وفسَّر آخرونَ «الأمر» بما هو مقابلُ النهي، و«الخلق» بالمخلوق، أي: له تعالى المخلوقون؛ لأنَّه خلقهم، وله أنْ يأمرهم بما أراد.

واستخرج سفيانُ بن عيينة من هذا أنَّ كلامَ الله تعالى شأنه ليس بمخلوقٍ، فقال: إنَّ الله تعالى فرَّق بين الخلق والأمر، فمن جمعَ بينهما فقد كفر، يعني: من جعل الأمر الذي هو كلامُه سبحانه من جملةِ ما خلقه، فقد كفر؛ لأنَّ المخلوقَ لا يقوم إلَّا بمخلوق مثله، كذا في «تفسير الخازن»[2]، وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان أنَّ الخلقَ ما دون العرش، والأمرَ ما فوق ذلك[3]. وشاعَ عند بعضهم إطلاقُ عالم الأمر على عالم المجردات.

---

(١) التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩.
(٢) ٢/ ٢٤٠.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٩٨ (٨٥٨٧).

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: تقدَّس وتنزَّه عن كل نقصٍ، ويدخل في ذلك تنزُّهه تعالى عن نقص في الخلق أو في الأمر دخولاً أوليّاً، ففي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهما طِبقُ الحكمة، وفي غاية الكمال، ولا يقال ذلك في غيره تعالى، بل هو صفةٌ خاصَّةٌ به سبحانه كما في «القاموس»[١].

وقال الإمام: إنَّ البركة لها تفسيران؛ أحدهما: البقاءُ والثبات. والثاني: كثرة الآثار الفاضلة. فإنْ حملتَه على الأوَّل فالثابتُ الدائم هو الله تعالى، وإنْ حملته على الثاني، فكلُّ الخيرات والكمالات من الله تعالى، فهذا الثناء لا يليق إلا بحضرته جلَّ وعلا[٢].

واختار الزَّجَّاج أنَّه من البركة بمعنى الكثرة من كلِّ خير[٣]. ولم يجىء منه مضارعٌ ولا أمرٌ ولا اسمُ فاعل مثلاً.

وقال البيضاويُّ: المعنى: تعالى بالوحدانية والألوهية، وتعظَّم بالتفرُّد بالربوبية[٤]. وعلى هذا فهو ختامٌ لوحظ فيه مطلعُه[٥]. ثم حقَّق الآيةَ بما لا يخلو عن دغدغةٍ ومخالفة لما عليه سلفُ الأمة.

ثم إنَّه تعالى بعد أنْ بيَّن التوحيد، وأخبرَ أنَّه المتفردُ بالخلق والأمر، أمر عباده أنْ يدعوه مخلصين متذللين، فقال عزَّ من قائل: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الذي عرفتم شؤونه الجليلة، والمراد بالدعاء[٦] ـ كما قال غيرُ واحد ـ السؤالُ والطلب، وهو مخُّ العبادة[٧]، لأنَّ الداعيَ لا يُقْدِم على الدعاء إلَّا إذا عرف من نفسه الحاجةَ إلى ذلك المطلوب، وأنَّه عاجزٌ عن تحصيله، وعرف أنَّ ربَّه تبارك وتعالى يسمعُ الدعاء،

---

(١) مادة (برك).

(٢) تفسير الرازي ١٤/ ١٢٠.

(٣) معاني القرآن له ٤/ ٥٧.

(٤) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ١٧٤، والعبارة فيه: تعالى بالوحدانية في الألوهية، وتعظم بالتفرد في الربوبية. ومثله في تفسير أبي السعود ٣/ ٢٣٣.

(٥) أي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾.

(٦) في (م): من الدعاء.

(٧) يشير إلى حديث أنس ﷺ، أخرجه الترمذي (٣٣٧١) بلفظ: «الدعاء مخُّ العبادة».

ويعلمُ الحاجة، وهو قادرٌ على إيصالها إليه، ولا شكَّ أنَّ معرفة العبد نفسَه بالعجز والنقص، ومعرفتَه ربَّه بالقدرة والكمال، من أعظم العبادات.

وقيل: المراد منه هنا العبادة، لأنَّه عطفَ عليه «ادعوه خوفاً وطمعاً» والمعطوفُ يجبُ أن يكون مغايراً للمعطوف عليه. وفيه نظر، أما أولاً؛ فلأنَّ المغايرةَ تكفي باعتبار المتعلقات، كما تقول: ضربتُ زيداً وضربت عمراً، وأما ثانياً؛ فلأنَّها لا تستدعي حملَ الدعاء هنا على العبادة، بل حملُه على ذلك إمَّا هناك أو هنا، وأما ثالثاً؛ فلأنَّه خلاف التفسير المأثور، كما ستعلمه إن شاء الله تعالى.

﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: ذوي تضرُّعٍ، أو متضرعين، فنصبُه على الحال من الفاعل بتقديرٍ أو تأويل، وجُوِّزَ نصبُه على المصدريَّة، وكذا الكلام فيما بعد.

وهو من الضراعة، وهي الذلُّ والاستكانة، يقال: ضرع فلانٌ لفلان، إذا ذلَّ له واستكان. وقال الزَّجَّاج[١]: التضرُّع التملُّق. وهو قريبٌ ممَّا قالوا، أي: ادعوه تذلُّلاً. وقيل: التضرُّع مقابلُ الخفية. واختاره أبو مسلم، أي: ادعوه علانيةً ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: سرًّا.

أخرج ابن المبارك وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن قال: لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمَعُ لهم صوتٌ، إن كان إلَّا همساً بينهم وبين ربِّهم، وذلك أنَّه تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وأنَّه سبحانه ذكر عبداً صالحاً، فرضيَ له فعلَه، فقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣][٢].

وفي روايةٍ عنه أنَّه قال: بينَ دعوة السرِّ ودعوة العلانيةِ سبعونَ ضعفاً.

وجاء من حديث أبي موسى الأشعريِّ أنَّه ﷺ قال لقوم يجهرون: «أيُّها الناسُ اِرْبَعوا على أنفسكم، إنَّكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائباً، إنَّكم تدعون سميعاً بصيراً، وهو معكم، وهو أقربُ إلى أحدكم من عُنُقِ راحلته»[٣]. والمعنى: ارفقوا بأنفسكم وأقصِروا من الصياح في الدعاء. ومن هنا قال جمعٌ بكراهة رفع الصوت به.

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٣٤٤.
(٢) الزهد لابن المبارك (١٤٠)، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٤٨.
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤) دون قوله: «وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته». وهذه الزيادة مذكورة في رواية أحمد (١٩٥٩٩).

وفي «الانتصاف»: حَسْبُكَ في تعيُّن الإسرار فيه اقترانُه في الآية بالتضرُّع، فالإخلال به كالإخلال بالضَّراعة إلى الله تعالى، وإنَّ دعاءً لا تضرُّع فيه ولا خشوع لقليلُ الجدوى، فكذلك دعاءٌ لا خفية فيه ولا وقارَ يصحبه، وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدونَ الصراخ في الدعاء، خصوصاً في الجوامع، حتى يعظمَ اللغطُ ويشتدَّ، وتستكَّ المسامعُ وتستدَّ، ولا يدرون أنهم جمعوا بين بدعتين؛ رفع الصوت في الدعاء، وكون ذلك في المسجد[1].

وروى ابنُ جرير[2] عن ابن جريج أنَّ رفع الصوت بالدعاء من الاعتداءِ المشارِ إليه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾.

وأخرج ابنُ أبي حاتم مثلَه عن زيدِ بن أسلم[3].

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّه ممَّا لابأسَ به، ودعاءُ المعتدين الذي لا يحبُّه الله تعالى هو طلبُ ما لا يليقُ بالداعي، كرتبةِ الأنبياء عليهم السلام، والصعودِ إلى السماء، وإنَّ منه ما ذهبَ جمعٌ إلى أنَّه كفرٌ، كطلب دخول إبليس وأبي جهل وأضرابهما الجنَّة، وطلبِ نزول الوحي والتنبِّي، ونحو ذلك من المستحيلات؛ لَمَا فيه مِن طَلَبِ إكذابِ اللهِ تعالى نفسَه.

وأخرج أحمد في «مسنده» وأبو داود عن سعدِ بن أبي وقاص قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «سيكونُ قومٌ يعتدونَ في الدعاء» وحَسْبُ المرءِ أنْ يقول: اللهم إني أسألُك الجنَّة وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل، وأعوذُ بك من النار وما قرَّبَ إليها من قول وعمل، ثم قرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[4].

وفصَّل آخرون فقالوا: الإخفاءُ أفضلُ عند خوف الرياء، والإظهارُ أفضلُ عند عدم خوفه. وأولى منه القولُ بتقديم الإخفاء على الجهر فيما إذا خيفَ الرياء، أو

---

(١) الانتصاف ٢/ ٨٢.

(٢) في تفسيره ١٠/ ٢٤٩.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٠٠ (٨٥٩٨).

(٤) مسند أحمد (١٤٨٣)، (١٥٨٤)، وسنن أبي داود (١٤٨٠). وقوله: وحسب المرء... إلى آخر الحديث، من كلام سعد بن أبي وقاص ﷺ.

كان في الجهر تشويشٌ على نحو مصلٍّ، أو نائم، أو قارئ، أو مشتغلٍ بعلم شرعيٍّ، وبتقديم الجهرِ على الإخفاء فيما إذا خلا عن ذلك، وكان فيه قصدُ تعليم جاهلٍ، أو نحو إزالة وحشةٍ عن مستوحشٍ، أو طرد نحو نعاسٍ أو كسل عن الداعي نفسه، أو إدخال سرور على قلب مؤمنٍ، أو تنفير مبتدعٍ عن بدعةٍ، أو نحو ذلك، ومنه الجهرُ بالترضِّي عن الصحابة، والدعاءُ لإمام المسلمين في الخطبة، وقد سنَّ الشافعيَّةُ الجهرَ بآمين بعد الفاتحة؛ وهو دعاءٌ، ويجهرُ بها الإمام والمأموم عندهم.

وفرَّق بعضُهم بين رفع الصوت جدّاً كما يفعلُه المؤذِّنون في الدعاء بالفرج على المآذن، وبينَ رفعه بحيث يسمعُه من عنده فقال: لا بأس في الثاني غالباً، ولا كذلك الأول.

والظاهرُ أنَّ المرادَ بالمعتدين: المجاوزون ما أمروا به في كلِّ شيءٍ، ويدخلُ فيهم المعتدون في الدعاء دخولاً أوليّاً.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن جبير أنَّ المعنى في الآية: ادعوا ربكم في[1] حاجاتكم من أمرِ الدنيا والآخرة، ولا تعتدوا فتدعوا على مؤمنٍ ومؤمنةٍ بشرٍّ، كالخزي واللعن[2].

وقد اختلف العلماء في كفرِ من دعا على آخر بسلب الإيمان، أو الموتِ كافراً، وهو من أعظم أنواع الاعتداء، والمفتَى به عدمُ الكفر.

وذكروا للدُّعاء آداباً كثيرةً، منها الكونُ على طهارةٍ، واستقبالُ القبلة، وتخليةُ القلب من الشواغل، وافتتاحُه واختتامه بالتصلية على النبي ﷺ، ورفعُ اليدين نحوَ السماء، وإشراكُ المؤمنين فيه، وتحرِّي ساعاتِ الإجابة؛ ومنها يومُ الجمعة ـ عندَ كثيرٍ ـ ساعةَ الخُطبة، ويدعو فيها بقلبه، كما نصَّ عليه أفضل متأخِّري مصرِه الفاضل الطحطاوي في «حواشيه» على «الدر المختار» فيما نقلَه عنه أفقهُ المعاصرين ابنُ عابدين الدمشقي[3]، ووقت نزولِ الغيث، والإفطار، وثلث الليل الأخير، وبعدَ ختم القرآن، وغير ذلك مما هو مبسوطٌ في محلِّه.

---

(١) بعدها في (م): كل.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٩٩-١٥٠٠ (٨٥٩٢) (٨٥٩٣) (٨٥٩٦).

(٣) حاشية ابن عابدين ٢/ ١٦٤.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نهي عن سائر أنواع الإفساد، كإفساد النفوس، والأموال، والأنساب، والعقول، والأديان.

﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي: إصلاح الله تعالى لها، وخلقِها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلَّفين، وبعثَ فيها الأنبياءَ بما شرعه من الأحكام.

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: ذوي خوفٍ من الردِّ لقصوركم عن أهليَّة الإجابة، وطمعٍ في إجابته تفضُّلاً منه. وقيل: خوفاً من عقابه، وطمعاً في جزيل ثوابه.

وقال ابن جريج: المعنى خوف العدلِ، وطمع الفضل.

وعن عطاء: خوفاً من الميزان، وطمعاً في الجنان.

وأصلُ الخوف انزعاجُ القلب؛ لعدم أمن الضرر. وقيل: توقُّع مكروهٍ يحصلُ فيما بعد، والطمعُ توقُّع محبوبٍ يحصل له.

ونصبُهما على الحاليَّة، كما أشير إليه، وجُوِّز أنْ يكونَ على المفعوليَّة لأجله.

قيل: ولـمَّا كانَ الدعاءُ من الله تعالى بمكان، كرَّره وقيَّدهُ أوَّلاً بالأوصاف الظاهرة، وآخراً بالأوصاف الباطنة.

وقيل: الأمر السابقُ من قبيل بيان شرطِ الدعاء، والثاني من قبيل بيانِ فائدته.

وقيل: لا تكرار، فما تقدَّم أمرٌ بالدُّعاء بمعنى السؤال، وهذا أمرٌ بالدُّعاء بمعنى العبادة، والمعنى: اعبدوه جامعينَ في أنفسكم الخوفَ والرجاء في عبادتكم القلبيَّة والقالبيَّة. وهو كما ترى.

ومن الناس من أبقى الدعاءَ على المعنى الظاهر، وعمَّم في متعلَّق الخوف والطمع، والمعنى عنده: ادعوه وأنتم جامعون في أنفسكم الخوفَ والرجاء في أعمالكم كلِّها، وليس بشيء. والمختارُ عند جلَّة المفسِّرين ما تقدَّم.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أعمالَهم، ومن الإحسان في الدعاء أنْ يكون مقروناً بالخوف والطمع. وقد كثُر الكلام في توجيه تذكير «قريبٌ» مع أنَّه

صفةٌ مخبرٌ بها عن المؤنَّث، وقد نقلَ ابنُ هشام في ذلك وجوهاً ذاكراً ما لها وما عليها[١]:

الأوَّل: أنَّ الرحمةَ في تقدير الزيادة، والعربُ قد تزيد المضافَ، قال سبحانه وتعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] أي: سبِّح ربَّك، ألا ترى أنَّه يقال في التسبيح: سبحانَ ربِّي، ولا يقال: سبحان اسم ربي. والتقدير: إنَّ الله تعالى قريبٌ، فالخبرُ في الحقيقة عن الاسم الأعظم. وتعقَّبه بأنَّ هذا لا يصحُّ عند علماء البصرة؛ لأنَّ الأسماءَ لا تُزاد في رأيهم، وإنَّما تُزاد الحروف، ومعنى الآية عندهم: نزِّه أسماء ربِّك عمَّا لا يليقُ بها، فلا تُجرِ عليه سبحانه اسماً لا يليقُ بكماله، أو اسماً غيرَ مأذونٍ فيه، فلا زيادة.

الثاني: أنَّ ذلك على حذف مضاف، أي: إنَّ مكان رحمة الله تعالى قريبٌ، فالإخبار إنَّما هو عن المكان، وهو مذكَّرٌ، ونظير ذلك قوله ﷺ مشيراً إلى الذهب والفضة: «إنَّ هذين حرامٌ»[٢] فإنَّ الإخبارَ بالمفرد؛ لأنَّ التقدير: إن استعمال هذين، وقول حسان:

يَسقُونَ مَنْ وَرَدَ البريص عليهم بردى يصفَّقُ بالرحيقِ السَّلسلِ[٣]

فإنه بتقدير: ماء بردى، فلذا قال: يصفَّقُ بالتذكير، مع أنَّ بردى مؤنث.

وتُعقِّب بأنَّ هذا المضاف بعيدٌ جدّاً لا قريب، والأصلُ عدم الحذف، والمعنى مع تركه أحسنُ منه مع وجوده.

الثالث: أنَّه على حذف الموصوف، أي: شيءٌ قريبٌ، كما قال الشاعر:

---

(١) أفرد ابن هشام هذه المسألة في رسالة، وساقها الإمام السيوطي بطولها في الأشباه والنظائر ٥/ ٢٦٠-٢٧٢.

(٢) بعدها في الأصل: على أمتي. والحديث أخرجه أبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي ٨/ ١٦٠، وابن ماجه (٣٥٩٥)، وأحمد (٧٥٠)، (٩٣٥) من حديث علي ﵁ أن نبي الله ﷺ أخذ حريراً فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً فجعله في شماله، ثم قال: «إنَّ هذين حرامٌ على ذكور أمَّتي» ولم نقف عليه بخصوص الذهب والفضة.

(٣) ديوان حسان ص ٣٦٥، والبريص: اسم نهر بدمشق، كما رجح ذلك الزبيدي في تاج العروس (برص)، وانظر معجم البلدان ١/ ٤٠٧.

قـامـتْ تـبـكِّـيـه عـلـى قـبـره مـن لـيَ مـن بـعـدِك يـا عـامـرُ
تَـركـتـنـي فـي الـدار ذا غُـربـةٍ قـد ذَلَّ مـن لـيـس لـه نـاصِـرُ[(١)]

أي: شخصاً ذا غربة. وعلى ذلك يخرَّجُ قول سيبويه[(٢)]: قولهم: امرأةٌ حائضٌ، أي: شخصٌ ذو حيض.

وقول الشاعر أيضاً:

فـلـو أنْكِ فـي يـوم الـرخـاءِ سـألـتِـنـي طـلاقـكِ لـم أبـخـل وأنـتِ صـديـقُ[(٣)]

وتُعقِّبَ بأنه أشدُّ ضعفاً من سابقه؛ لأنَّ تذكيرَ صفة المؤنَّث باعتبار إجرائها على موصوفٍ مذكَّر محذوفٍ شاذٌّ، ينزَّهُ كلامُ الله تعالى عنه، على أنَّه لا فصاحةَ في قولك: رحمةُ الله شيءٌ قريبٌ، ولا لطافة، بل هو عند ذي الذوق كلامٌ مستهجنٌ، ونحو حائض مِنَ الصفات المختصَّة لا يحتاجُ إلى العلامة؛ لأنَّها لدفع اللبس، ولا لبس مع الاختصاص، وسيبويه وإنْ كان جواداً في مثل هذا المضمار إلَّا أنَّ الجوادَ قد يكبو، وكلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويترك، ألا تَراه كيف جوَّزَ في باب الصفة المشبهة: مررتُ برجلٍ حَسَنِ وَجْهِه، بإضافة حسن إلى الوجه، وإضافة الوجه إلى ضمير الرجل[(٤)]، وخالَفه في ذلك جميعُ البصريين والكوفيين؛ لأنَّه قد أضافَ الشيءَ إلى نفسه. وقد علمتَ أيضاً أنَّ الأصل عدم الحذف[(٥)].

الرابع: أنَّ العربَ تعطي المضافَ حكم المضاف إليه في التذكير والتأنيث إذا

---

(١) نسبهما النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٧٧، وتبعه على ذلك القرطبي في تفسيره ٨/ ٤٤٢ للأعشى. وهما دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ٧٦، والعقد الفريد ٣/ ٢٥٩، والإنصاف ٢/ ٥٠٧ و٧٦٣، وسمط اللآلي ٢/ ١٧٤.

(٢) في الكتاب ٣/ ٣٨٣.

(٣) هو دون نسبة في الزاهر ١/ ٢١٥، ومغني اللبيب ص ٤٧، وخزانة الأدب ٥/ ٤٢٦.

(٤) الكتاب ١/ ١٩٩، وعبارته ثمة: وقد جاء في الشعر: حَسَنةُ وَجْهِها، شبهوه بحسنة الوجه، وذلك رديء.

(٥) انظر الجمل للزجاجي ص ٩٨، والأشباه والنظائر ٥/ ٢٥٤، وردَّ هذا الاعتراض ابن عصفور في شرح الجمل ١/ ٥٧٣ قال: أما سيبويه فلم يُجز ذلك، بل قال: وقد جاء في الشعر: حسنة وجهها. فقصره على الشعر كما ترى. وينظر تفصيل هذه المسألة في الخزانة ٤/ ٢٩٣- ٣٠٣.

صحَّ الاستغناء عنه، وهو أمرٌ مشهورٌ، فالرحمة لإضافتها إلى الاسم الجليل قد اكتسبت ما صحَّح الإخبارَ عنها بالمذكر.

وتعقَّبه أبو علي الفارسي في «تعاليقه» على «الكتاب» بأنَّ هذا التقدير والتأويل في القرآن بعيدٌ فاسد، وإنَّما يجوزُ هذا في ضرورة الشعر.

وقال الرُّوذْرَاوَري[١]: إنَّ اكتساب التأنيث في المؤنَّث قد صحَّ بكلام من يوثق به، وأمَّا العكس فيحتاج إلى الشواهد، ومن ادَّعى الجواز فعليه البيان.

الخامس: أنَّ فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث، كرجل جريح، وامرأة جريح.

وتُعقِّبَ بأنَّه خطأٌ فاحشٌ؛ لأنَّ فعيلاً هنا ليس بمعنى مفعول، بل هو[٢] بمعنى فاعل. واعتُرِض أيضاً بأنَّ هذا لا ينقاسُ، خصوصاً من غير الثاني[٣].

السادس: أن فعيلاً بمعنى فاعل قد يشبَّه بفعيلٍ بمعنى مفعول، فيمنع من التاء في المؤنَّث، كما قد يشبِّهون فعيلاً بمعنى مفعول بفعيلٍ بمعنى فاعل، فيلحقونه التاء، فالأول كقوله تعالى: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٧٨]، ومنه الآيةُ الكريمة. والثاني كقولهم: خصلةٌ ذميمة، وصفةٌ حميدة، حملاً على قولهم: قبيحة وجميلة ولم يَتَعقَّب[٤] هذا بشيء. وتعقَّبه الروذراوريُّ بأنه مجردُ دعوى لا دليلَ عليه وإنْ قاله النحويون، ويردُ عليه أنَّ أحدَ الفعلين مشتقٌّ من لازمٍ، والآخر من متعدٍّ، فلو أجري على أحدهما حكمُ الآخر لبطلَ الفرق بين المتعدِّي واللازم إنْ كان على وجه العموم، وإنْ كان على وجه الخصوص فأينَ الدليلُ عليه؟ وفيه نظر.

---

(١) هو عبد المجيد بن أبي الفرج بن محمد، مجد الدين أبو محمد، درس بالمدرسة الظاهرية وغيرها. (ت ٦٦٧هـ). ذيل مرآة الزمان ٢/ ٤١٨، وتاريخ الإسلام ١٥/ ١٤٣.

(٢) قوله: ليس بمعنى مفعول بل هو. ليس في (م).

(٣) كذا وقع، والصواب: الثلاثي، كما في الدر المصون ٥/ ٣٤٥، فقد نقل السمين عن الكرماني أن فعيلاً هنا بمعنى مفعول، أي: مقرَّبةٌ، ثم تعقبه بأن فعيلاً بمعنى مفعول لا ينقاس، وعلى تقدير اقتياسه فإنما يكون من الثلاثي المجرد لا من غير الثلاثي، ومقرَّبة من الثلاثي المزيد.

(٤) يعني ابن هشام. ينظر الأشباه والنظائر ٥/ ٢٦٤.

السابع: أنَّ العربَ قد تخبرُ عن المضاف إليه، وتترك المضاف، كقوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] فإنَّ «خاضعين» خبرٌ عن الضمير المضاف إليه الأعناق، لا عن الأعناق، ألا ترى أنَّك إذا قلت: الأعناقُ خاضعون. لا يجوزُ؛ لأنَّ الجمع المذكر السالم إنَّما يكون من صفات العقلاء، فلا يقال: أيدٍ طويلون، ولا: كلابٌ نابحون.

وتُعقِّبَ بأنَّه لعلَّ هذا راجعٌ إلى القول بالزيادة، وقد علمت ما فيه. وقد قيل: إنَّ المرادَ بالأعناق الرؤساء والمعظَّمون. وقيل: الجماعة، كما يقال: جاء زيدٌ في عنق من الناس، أي: في جماعة.

وقال الروذراوريّ: إنَّه لو ساغ الإعراضُ عن المضاف والحكمُ على المضاف إليه لساغ أن يقال: كان صاحبُ الدرع سابغةً، ومالِكُ الدارِ متَّسعةً. وليس فليس.

الثامن: أنَّ الرحمةَ والرُّحم[1] متقاربان لفظاً، وهو واضح، ومعنًى بدليل النقل عن أئمَّة اللغة، فأعطي أحدُهما حكمَ الآخر.

وتُعقِّب بأنَّه ليس بشيء،؛ لأنَّ الوعظ والموعظة تتقاربُ أيضاً، فينبغي أن يجيزَ هذا القائلُ أن يقال: موعظةٌ نافع، وعظة حسن، وكذلك الذكر والذكرى، فينبغي أنْ يقال: ذكرى نافع، كما يقال: ذكرٌ نافع.

التاسع: أن فعيلاً هنا بمعنى النسب، فـ «قريب» معناه: ذاتُ قرب، كما يقول الخليل في حائضٍ: إنَّه بمعنى ذات حيض.

وتُعقِّبَ بأنَّه باطل؛ لأنَّ اشتمال الصفات على معنى النسب مقصورٌ على أوزانٍ خاصة، وهي فعَّال، وفَعِل، وفاعل.

العاشر: ما قاله الروذراوريّ: إن فعيلاً مطلقاً يشتركُ فيه المؤنَّثُ والمذكَّر. وتُعقِّبَ بأنَّه من أفسد ما قيل؛ لأنه خلافُ الواقع في كلام العرب، فإنهم يقولون: امرأةٌ ظريفةٌ وعليمةٌ وحليمةٌ ورحيمة، ولا يجوز التذكيرُ في شيءٍ من ذلك. ولهذا قال أبو عثمان المازني في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] إنَّ «بغيّاً»

---

(١) بضم الراء وسكون الحاء، وبضمِّهما، بمعنى الرحمة. حاشية الشهاب ٤/ ١٧٥.

فعولٌ، والأصل: بَغُوْي، ثم قلبت الواو ياءً، والضمَّة كسرةً، وأدغمت الياءُ في الياء، وأمَّا قوله:

فَـتـورُ الـقـيـام قَـطـيـعُ الـكـلام تَـفْـتَـرُّ عـن ذي غـروبٍ خَـصِـرْ[١]

فالجواب عنه من أوجه: أحدها: أنه نادر. والثاني: أنَّ أصلَه قطيعة، ثم حذف التاء للإضافة، كقوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء:٧٣]، والإضافة مجوِّزةٌ لحذف التاء، كما توجبُ حذف النون والتنوين، وقد نصَّ على ذلك غيرُ واحدٍ من القرَّاء. الثالث: أنَّه إنَّما جاز ذلك لمناسبة فَتور، لأنَّه فعول، وهو يستوي فيه المذكَّر والمؤنث.

الحادي عشر: أنَّهم يقولون في قرب النسب: قريب، وإن أُجريَ على مؤنث، نحو: فلانةٌ قريبٌ منِّي، ويفرِّقون بينه وبين قرب المسافة.

وتُعقِّب بأنه مبنيٌّ على أنْ يقال في القرب النَّسَبيّ: فلان قرابتي. وقد نصَّ جمعٌ على أنَّ ذلك خطأ، وأن الصواب أن يقال: فلانٌ ذو قرابتي، كما قال:

يَبكي الغريبُ عليه ليس يعرفُه وذو قرابته في الحيِّ مسرورُ[٢]

الثاني عشر: من تأويل المؤنَّثِ بمذكَّرٍ موافقٍ له في المعنى. واختلفَ القائلون بذلك، فمنهم من يُقَدِّر: إنَّ إحسانَ الله قريب، ومنهم من يقدر: لطف الله قريب، ومن ذلك قوله:

---

(١) في الأصل و(م): در عروب حصر. والمثبت من الأشباه والنظائر ٥/ ٢٦٦. والبيت لامرىء القيس وهو في ديوانه ص ١٥٧.
قال شارحه: فتور القيام: ليست بوثابة في قيامها، وقطيع الكلام، أي: نزرة الكلام، أي: قليلته. وقوله: تفتر، أي: تتبسم... عن ذي غروب، أي: عن ثغر ذي غروب، والغروب حدَّة الأسنان. وقوله: خصر، أي: بارد.

(٢) اختلفت المصادر في قائل هذا البيت، فهو في مجالس ثعلب ١/ ٢٢١، والأمالي ٢/ ١٨٢ دون نسبة، ونُسب في عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٣٠٥، وتاج العروس (هرم) لحريث بن جبلة، وكذا نقله الحريري في درة الغواص ص ٧٤ عن كتاب المعمرين. ونسبه الزمخشري في المستقصى ١/ ٣٠٥، والبصري في الحماسة ٢/ ٦٤ لجبلة بن الحريث. ونسبه أيضاً الحريري في درة الغوّاص ص ٧٤، والزبيدي في التاج (هرم) لعثير بن لبيد العُذري. والله أعلم.

أرى رجلاً منهم أسيفاً كأنَّما يضمُّ إلى كشحيه كفّاً مخضَّبا[1]

فأوَّل الكفَّ على معنى العضو.

وتُعقِّب بأنَّه باطل؛ لأنَّ ذلك إنَّما يقع في الشعر، وقد تقدَّم أنَّه لا يقال: موعظةٌ حسنٌ، مع أنَّ الموعظةَ بمنزلة الوعظ في المعنى، ويقاربُه في اللفظ أيضاً. وأمَّا البيتُ فنصَّ النحاة على أنَّه ضرورة، وما هذه سبيلُه لا يخرَّجُ عليه كلام الله سبحانه وتعالى، على أنَّ بعضَهم قال: إنَّ الكفَّ قد يذكَّر.

الثالث عشر: أنَّ المرادَ بالرحمة هنا المطر، ونُقِل ذلك عن الأخفش، والمطرُ مذكَّرٌ. وأُيِّد بأنَّ الرحمةَ فيما بعدُ بمعنى المطر.

واعتُرِضَ عليه من أوجه؛ أحدها: أنَّه لو كانت الرحمة الثانية هي الرحمة الأولى لم تُذْكَر ظاهرةً على ما هو الظاهر، إذ الموضع للضمير.

ثانيها: أنَّه إذا أمكنَ الحملُ على العامِّ لا يُعْدَل إلى الخاص، ولا ضرورةَ هنا إلى الحمل، كما لا يخفى.

ثالثها: أنَّ الرحمةَ التي هي المطر لا تختصُّ بالمحسنين؛ لأنَّ الله سبحانه يرزقُ الطائعَ والعاصي، وإنَّما المختصُّ في عرف الشرع هو الرحمة التي هي الغفران والتجاوزُ والثواب.

والجوابُ عن هذا بأنَّه كما جاز تخصيصُ الخطاب بالرحمة بالمعنى الشرعي بالمحسنين على سبيل الترغيب، كذلك يجوزُ تخصيصُ المطر الذي هو سببُ الأرزاق بهم ترغيباً في الإحسان = ليس بشيء عندي.

رابعها: أنَّك لو قلت: مطر الله قريب، لوجدتَ هذه الإضافة مما تمجُّها الأسماع، وتنبو عنها الطباع، بخلاف: «إن رحمة الله»، فدلَّ على أنَّه ليس بمنزلته في المعنى.

وأجيب عنه بأن مجموع «رحمة الله» استُعمل مراداً به المطر، وبأنَّ الإضافة في مطر الله إنَّما لم تحسن للعلم بالاختصاص، ولا كذلك رحمةُ الله تعالى، وهذا كما يحسنُ أنْ يقال: كلامُ الله تعالى، ولا يحسن أن يقال: قرآن الله سبحانه.

---

(١) البيت للأعشى الكبير، وهو في ديوانه ص ١٦٥.

والإنصاف أنَّ هذا القول ليس بشيءٍ كما لا يخفى على ذي ذهن طري.

وقال ابن هشام: لا بعدَ في أن يقال: إنَّ التذكير في الآية الكريمة لمجموع أمورٍ من الأمور المذكورة. واختارَ أنّه لمَّا كانا لمضافٍ يكتسبُ من المضاف إليه التذكيرَ، وكانت الرحمةُ مقاربةً للرُّحم في اللفظ، وكان «قريب» على صيغة «فعيل»، و«فعيل» الذي بمعنى فاعل قد يحمل على «فعيل» بمعنى مفعول = جاء[1] التذكير. وادَّعى أنه لا يناقضُ ما قدَّمه من الاعتراضات؛ لأنَّه لا يلزمُ من انتفاء اعتبار شيء من هذه الأمور مستقلّاً انتفاءُ اعتباره مع غيره. اهـ. ولا يخلو عن حسنٍ، سوى أنَّه إذا أُخِذ في المجموع كونُ الرحمة بمعنى المطر يفسدُ الزرع. وقد جرى في هذه الآية بحثٌ طويل بين ابن مالك والروذراوريّ[2]، وفي كلام كلٍّ حقٌّ وصواب، وفي نقل ذلك ما يورث السآمة.

وأجاب الجوهريُّ بأنَّ الرحمةَ مصدرٌ، والمصادرُ لا تجمعُ ولا تؤنَّث[3]. وهو كما ترى.

وقيل: التذكير لأنَّ تأنيث الرحمة غيرُ حقيقي. ولا يخفى بُعْدُه، لأنَّ المتضمِّنَ لضمير المؤنَّث ـ ولو كان غير حقيقيّ ـ لم يحسن تذكيرُه على المشهور.

وقيل: إنَّ «فعيلاً» هنا محمولٌ على «فعيل» الوارد في المصادر، فإنَّه للمؤنث والمذكر، كفعيل بمعنى مفعول، كالنقيض بالنون والقاف والضاد المعجمة، وهو صوتُ الرحلِ ونحوه، والضغيب بالضاد والغين المعجمة والياء المثناة من تحت والباء الموحدة، صوت الأرنب. وأنتَ تعلم أنَّ حملَه على فعيل بمعنى مفعول أولى من هذا الحمل، وهو الذي أميلُ إليه.

نعم ربَّما يُدَّعى أنَّ في ذلك إشارةً ما إلى مزيد قرب الحرمة، لكنه بعيدٌ جدّاً، وقد لا يسلَّم.

---

(١) في الأشباه والنظائر ٥/ ٢٧٢: جاز.

(٢) ذكر ملخص المناظرة بينهما الإمام السيوطي في الأشباه والنظائر ٥/ ٢٣٠-٢٥٩ فانظرها.

(٣) كذا ذكر المصنف، وإنما علل الجوهري في الصحاح (قرب) عدم تأنيث «قريب» بأنه أراد بالرحمة الإحسان، ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقياً جاز تذكيره. اهـ وينظر البحر ٤/ ٣١٣.

والذي أختارُه أنَّ «فعيلاً» هنا بمعنى فاعل، لا بمعنى مفعول كما زعم الكرمانيُّ، لَمَا مرَّتِ الإشارةُ إليه[1]، ولأنَّ الرحمة صفةُ ذاتٍ عند جمع، وصفاتُ الذات ـ سواءٌ قلنا بعينيَّتها، أو بغيريَّتها، أو بأنَّها لا ولا ـ لا يحسنُ الإخبارُ عنها بأنَّها مقرَّبة، وذلك على القولين الأخيرين ظاهرٌ، وعلى الأول أظهر.

والقول بأنَّ في ذلك ترغيباً في الإحسان حيثُ أشير إلى أنَّه كالفاعل، وقد أثَّر فيما لا يقبل التأثُّر = ممَّا لا يكادُ يسلَّم.

وأنه[2] قد حُمِل على «فعيل» بمعنى مفعول، كما حمل على ذلك في خصوصية قريب في قول جرير:

أتنفعكَ الحياةُ وأم عمرٍو ... قريبٌ لا تَزورُ ولا تُزارُ[3]

وإنَّما لم يقل: قريبةٌ، على الأصل؛ للإشارة لأرباب الأذهان السليمة إلى أنَّها قريبةٌ جدّاً من المحسنين، كما لا يخفى على المتأمِّل.

واختار بعضُهم تفسيرَ الرحمة هنا بالإحسان لمكان «المحسنين» ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ولعلَّه يعتبر شاملاً للإحسان الدنيويّ والأخروي. ووجهُ القرب ـ على ما قيل ـ وجودُ الأهليَّة بحسب الحكمة، مع ارتفاع الموانع بالكليَّة.

وفسَّرها ابنُ جبير بالثواب، والمتبادرُ منه الإحسان الأخرويّ، ووجهُ القرب عليه بأنَّ الإنسان في كل ساعةٍ من الساعات في إدبارٍ عن الدنيا، وإقبالٍ على الآخرة، وإذا كان كذلك كان الموتُ أقربَ إليه من الحياة، فلا يكون بين المحسن والثواب في الآخرة إلَّا الموت، وكل آتٍ قريب.

وجعل الزمخشريُّ[4] الآية من قبيل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ إلخ [طه: ٨٢]، أي: علَّق فيها الرحمةَ بإحسان الأعمال، كما علَّق الغفرانَ فيه بالتوبة

---

(١) في خامس الوجوه التي نقلها ابن هشام، وكلام الكرماني في شرحه على صحيح البخاري ٢٥/ ١٥٨.

(٢) عطف على قوله: أن فعيلاً هنا بمعنى فاعل.

(٣) ديوان جرير ١/ ١٣٤.

(٤) في الكشاف ٣/ ٧١.

والإيمان والعمل الصالح، فكأنَّ «من تاب وآمن» إلخ تفسيرٌ للمحسنين. وهو إشارةٌ إلى ما يزعمه قومُه من أنَّ الآية تدلُّ على أنَّ صاحب الكبيرة لا يخلُصُ من النار؛ لأنَّه ليس من المحسنين، والتخليصُ من النار بعدَ الدخول فيها رحمةٌ. وأجيبَ بأنَّ صاحبَ الكبيرة مؤمنٌ بالله تعالى ورسوله ﷺ، ومن يكونُ كذلك فهو محسنٌ، بدليل أنَّ الصبيَّ إذا بلغ ضحًى، وآمن، وماتَ قبل الظهر، فقد اجتمعت الأمَّة على أنَّه داخلٌ تحت قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:٢٦] فهو محسنٌ بمجرَّد الإيمان، والقول بأنَّ المحسنين هم الذين أتَوا بجميع أنواع الإحسان، على ما يؤذن به الآية الممثَّل بها أوَّل البحث أوَّل المسألة.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنَّه فسَّر «المحسنين» بالمؤمنين.

وعن بعضهم تفسيرُه بالداعين خوفاً وطمعاً؛ لقرينة السباق على ذلك، ونُظِرَ فيه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ عطفٌ على الجملة السابقة، أو على حديث خلق السماوات والأرض.

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «الريح» على الوحدة[1]، وهو متحمّلٌ لمعنى الجنسيَّة، فيطلق على الكثير. وخبر: «اللهمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»[2] مخرَّجٌ على قراءة الأكثرين.

﴿بُشْرًا﴾ بضمِّ الموحَّدة وسكون الشين مخفَّف «بُشُراً» بضمتين جمع بشير، كنُذُر ونذير، أي: مبشرات، وهي قراءةُ عاصم[3]. وروي عنه أيضاً: «بُشُراً» على الأصل[4].

وقُرِئ بفتح الباء على أنَّه مصدر بَشَره بالتخفيف بمعنى بَشَّره المشدَّد، والمراد: باشراتٍ، أو: للبشارة.

---

(١) التيسير ص ٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣. وهي أيضاً قراءة خلف من العشرة.

(٢) سلف ٣/ ٧١.

(٣) التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٤) المحتسب ١/ ٢٥٥ وهي خلاف المشهور عنه.

وقُرئ: «بُشرى» كحبلى، وهو مصدرٌ أيضاً من البشارة[1].

وقرأ أهل المدينة والبصرة: «نُشُراً» بضمِّ النون والشين[2]، جمع نَشور بفتح النون بمعنى ناشر، وفعول بمعنى فاعل يطَّرِدُ جمعه كذلك، كصبور وصُبُر، ولم يجعل جمع ناشر، كبازل وبُزُل؛ لأنَّ جمع فاعل على فُعُل شاذ. واختلف في معنى ناشر، ففي «الحواشي الشهابية»[3]: قيل: هو على النسب؛ إمَّا إلى النَّشْر ضد الطيِّ، وإمَّا إلى النُّشور بمعنى الإحياء؛ لأنَّ الريحَ توصف بالموت والحياة، كقوله:

إنـي لأرجـو أنْ تـمـوت الـريـح ... فـأقـعـد الـيـوم وأسـتـريـح[4]

كما يصفها المتأخِّرون بالعلَّة والمرض، ومما يَحكي النسيمَ من ذلك قولُ بعضهم في شدَّة الحرِّ:

أظـنُّ نـسـيـمَ الـروضِ مـاتَ لأنَّـه ... لـه زمـنٌ في الـروض وهـو عـلـيـل[5]

وقيل: هو فاعل من نشر، مطاوعُ أنشرَ الله تعالى الميِّتَ فنشر، وهو ناشر، كقوله:

حـتـى يـقـولَ الـنـاس مـمَّـا رأوا ... يـا عـجـبـاً لـلـمـيـت الـنـاشـرِ[6]

وقيل: ناشر بمعنى مُنشِر، أي: محيي. وقيل: فَعولٌ هنا بمعنى مفعول، كرسول ورُسُل، وقد جوَّزَ ذلك أبو البقاء[7]، إلَّا أنَّه نادرٌ مفرده وجمعه.

وقرأ ابنُ عامر: «نُشْراً» بضمِّ النون وسكون الشين[8] حيثُ وقع، والتخفيفُ في فُعُل مطَّرد.

---

(١) المحتسب ١/ ٢٥٥.

(٢) هي قراءة نافع وأبي جعفر المدنيين، وأبي عمرو ويعقوب البصريين، وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي ٨/ ١٤٥. التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٧٠.

(٣) ٤/ ١٧٦.

(٤) هو دون نسبة في البحر المحيط ٤/ ٣١٧، والدر المصون ٥/ ٣٤٨، واللسان وتاج العروس (موت) و(نشر).

(٥) هو دون نسبة في حاشية الخفاجي ٤/ ١٧٦.

(٦) هو للأعشى، وهو في ديوانه ص ١٩١.

(٧) في الإملاء ٣/ ١٩.

(٨) التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٧٠.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «نَشراً» بفتح النون[1] حيث وقع، على أنَّه مصدرٌ في موقع الحال بمعنى ناشرات، أو مفعولٌ مطلق، فإنَّ الإرسالَ والنشرَ متقاربان.

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: قُدَّام رحمته، وهو من المجاز كما نُقِل عن أبي بكر الأنباريِّ. والمرادُ بالرحمةِ كما ذهبَ إليه غالبُ المفسِّرين المطر، وسُمِّيَ رحمةً لما يترتَّبُ عليه بحسب جري العادة من المنافع، ولا يَخفى أنَّ الرحمةَ في المشهور عامَّةٌ، فإطلاقها على ذلك إن كان من حيث خصوصه مجازٌ، لكونه استعمالَ اللفظ في غيرِ ما وضع له، إذ اللفظُ لم يوضع لذلك الخاصِّ بخصوصه. وإنْ كان إطلاقُها عليه لا بخصوصه بل باعتبارِ عمومه وكونه فرداً من أفراد ذلك العامِّ، فهو حقيقةٌ؛ لأنَّه استعمالُ اللفظ فيما وُضِع له على ما بُيِّنَ في «شرح التلخيص» وغيره.

وادَّعى الشهابُ[2] إثباتَ بعض أهل اللغة كونَ المطر من معاني الرحمة، وقولُ ابن هشام في رسالته التي أَلَّفها في بيان وجهِ تذكير «قريب» المارِّ عن قريب: إنَّا لا نجدُ أهل اللغة حيثُ يتكلَّمون على الرحمة يقولون: ومن معانيها المطر، فلو كانت موضوعةً له لذكروه[3]. قُصارى ما فيه عدمُ الوجدان، وهو لا يستدعي عدم الوجود، وممَّا اشتُهر أنَّ المثبتَ مقدَّم على النافي، ومَن حَفِظَ حجَّةٌ على مَن لم يحفظ، والمقامُ ظاهرٌ في إرادة هذا المعنى.

وبيان كون الرياح مرسلةً أمام ذلك ما قيل: إنَّ الصَّبا تثيرُ السحاب، والشمالَ تجمعُه، والجنوبَ تُدِرُّه، والدبورَ تفرِّقُه. وهذه أحدُ أنواع الريح المشهورة عند العرب، وعن ابن عمر[4] ﵄ أنَّ الرياح ثمانيةٌ؛ أربعٌ منها عَذاب، وهي القاصف والعاصف والصرصر والعقيم، وأربعٌ منها رحمةٌ؛ وهي الناشرات والمبشِّرات والمرسلات والذاريات.

---

(١) التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٧٠، وقرأ بها أيضاً خلف من العشرة.

(٢) في الحاشية ٤/ ١٧٦.

(٣) الأشباه والنظائر ٥/ ٢٧١.

(٤) كذا في الأصل و(م). والصواب: ابن عمرو. وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٦/ ٣٢٣.

والريح من أعظم مِنن الله تعالى على عباده، وعن كعب الأحبار: لو حَبس الله تعالى الريحَ عن عباده ثلاثةَ أيام لأنتن أكثرُ أهل الأرض.

وفي بعض الآثار أنَّ الله تعالى خلقَ العالمَ وملأه هواءً، ولو أمسك الهواءَ ساعةً لأنتنَ ما بين السماء والأرض.

وذكر غيرُ واحدٍ من العلماء أنَّه يُكره سبُّ الريح، فقد روى الشافعيُّ عن أبي هريرةَ قال: أخذت الناسَ ريحٌ بطريق مكة، وعمرُ رضي الله عنه حاجٌّ، فاشتدَّت، فقال عمر لمن حوله: ما بلغكم في الريح؟ فلم يرجعُوا إليه شيئاً، وبلغني الذي سأل عمرُ عنه من أمرِ الريح، فاستحثثتُ راحلتي حتى أدركت عمر، وكنت مؤخَّر الناس، فقلت: يا أمير المؤمنين، أُخبرتُ أنَّك سألتَ عن الريح، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الريحُ من رَوْحِ الله تعالى، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها، واسألوا الله تعالى من خيرها، واستعيذُوا بالله سبحانه من شرها»[١]. ولا منافاةَ بين الآية وهذا الخبر، إذ ليس فيها أنَّه سبحانه لا يرسلُها إلا بينَ يدي الرحمة، ولئن سُلِّم، فهو خارجٌ مجرى الغالب، فإنَّ العذابَ بالريح نادرٌ.

وقيل: ما في الخبر إنَّما هو الإيتاء بالرحمة والإيتاء بالعذاب، لا الإرسال بين يدي كلٍّ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ﴾ غايةٌ لقوله سبحانه: «يرسل»، والإقلالُ كما في «مجمع البيان»: حملُ الشيء بأسره[٢]. واشتقاقُه من القِلَّة، وحقيقةُ أَقَلَّه كما قال بعض المحقِّقين: جعله قليلاً، أو وجدَه قليلاً، والمرادُ: ظنَّه كذلك، كأكذبه إذا جعله كاذباً في زعمه، ثم استُعمل بمعنى حَمَله؛ لأنَّ الحامل يستقلُّ ما يحملُه، أي: يَعُدُّه قليلاً، ومن ذلك قولهم: جَهد المُقِلّ، أي: الحامل.

﴿سَحَابٗا﴾ أي: غيماً، سُمِّيَ بذلك لانسحابه في الهواء، وهو اسم جنسٍ جمعيّ، يُفرَّق بينه وبين واحده بالتاء، كتمر وتمرة، وهو يذكَّر ويؤنَّث، ويُفرَد وصفُه ويجمع.

---

(١) مسند الشافعي ص ٨١-٨٢، وأخرجه أحمد (١٠٧١٤).
(٢) مجمع البيان ٨/ ٨٢.

وأهل اللغة كالجوهريِّ[١] وغيره تسمِّيه جمعاً، فلذا رُوعيَ فيه الوجهان في وصفه وضميره، وجاء في الجمع: سُحب وسحائب.

﴿ثِقَالًا﴾ من الثِّقَل، كعنب، ضدُّ الخفَّة، يقال: ثقُل، ككرم، ثِقَلاً وثَقالة فهو ثقيل، وثَقُلَ السحاب بما فيه من الماء.

﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: لأَجْله ومنفعته، أو لإحيائه، أو لسَقْيه، كما قيل.

وفي «البحر» أنَّ اللام للتبليغ كما في: قلت لك، وفرَّقَ بين: سقتُ لك مالاً، و: سقتُ لأجلك مالاً. بأنَّ الأوَّلَ معناه: أوصلتُ لك ذلك وأبلغتُكه، والثاني: لا يلزم منه وصوله إليه[٢].

والبلدُ كما قال الليث: كلُّ موضعٍ من الأرض عامرٍ أو غير عامر، خالٍ أو مسكون، والطائفةُ منه بلدةٌ، والجمعُ بلاد، وتُطلَق البلدةُ على المفازة، ومنه قول الأعشى:

وبلدةٍ مثلِ ظهر التُّرسِ موحشةٍ للجنِّ بالليل في حَافَاتها زجلُ[٣]

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي: بالبلد، أو السَّحاب، كما قال الزجَّاج[٤] وابن الأنباريّ. أو بالسَّوق أو الرياح، كما قيل.

والتذكيرُ بتأويل المذكور، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ ويحتملُ أنْ يعودَ الضمير إلى الماء، وهو الظاهر؛ لقربه لفظاً ومعنًى ـ ومطابقةُ النظائر وانفكاكُ الضمائر لابأسَ به إذا قام الدليلُ عليه ـ وحسنِ الملاءمة.

وإذا كان للبلد، فالباءُ للظرفيَّة في الثاني، وللإلصاق في الأول؛ لأنَّ الإنزال ليس في البلد، بل المُنْزَل، وجوز الظرفية أيضاً، كما في: رميتُ الصيد في الحرم، على ما علمت فيما مرَّ. وإذا كان لغيره، فهي للسببيَّة، وتشملُ القريبة والبعيدة.

﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من كلِّ أنواعها؛ لأنَّ الاستغراقَ غيرُ مراد ولا واقع،

(١) في الصحاح (سحب).
(٢) البحر المحيط ٤/ ٣١٧.
(٣) ديوان الأعشى ص ١٠٩.
(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٤٥.

وهذا أبلغُ في إظهار القدرة المرادِ. وقيل: إنَّ الاستغراقَ عرفيٌّ، والظاهر أنَّ المرادَ التكثيرُ. وجَوَّزَ بعضهم أن تكون «من» للتبعيض، وأنْ تكونَ لتبيين الجنس.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إشارةٌ إلى إخراج الثمرات، أو إلى إحياء البلد الميت، أي: كما نحييه بإحداث القوى النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات، نخرجُ الموتى من الأرض ونحييها بِرَدّ النفوس إلى موادِّ أبدانها بعد جمعِها وتطريتِها بالقوى والحواسِّ، كذا قالوا، وهو إشارةٌ ـ كما قيل ـ إلى طريقي القائلين بالمعاد الجسمانيّ؛ وهما إيجادُ البدن بعد عدمه، ثمَّ إحياؤه، وضمُّ بعض أجزائه إلى بعض على النمط السابق بعد تفرُّقها، ثم إحياؤه.

واستُظهِر الأوّل بأنَّ المتبادرَ من الآية كونُ التشبيه بين الإخراجين من كتم العدم. والثاني يحتاجُ إلى تمحُّلِ تقديرِ الإحياء، واعتبارِ جمع الأجزاء، مع أنَّه غيرُ معتَبرٍ في جانب المشبَّه به.

وجُوِّزَ أنْ يَرجع ما في الشقِّ الثاني من الإحياء بردِّ النفوس.. إلخ إلى الأول، وأنتَ تعلم أنَّه لا مانعَ من الإخراج من كتم العدم، وأدلَّة استحالةِ ذلك مما لا تقوم على ساق وقدم، إلَّا أنّ الأدلَّة النقليَّة على كلٍّ من الطريقين متجاذبةٌ، وإذا صحَّ القولُ بالمعاد الجسمانيِّ، فلا بأس بالقول بأيٍّ كان منهما.

وكون إخراج الثمرات من كتم العدم قد لا يُسلَّم، فإنَّ لها أصلاً في الجملة، على أنَّ إخراجَ الموتى عند القائلين بالطريق الأول إعادةٌ، وليس إخراجُ الثمرات كذلك؛ إذْ لم يكن لها وجودٌ قبل، نعم كونُ الأظهر أنَّ التشبيهَ بين الإخراجين ممَّا لا مريةَ فيه.

وفي «الخازن»: واختلفوا في وجه التشبيه، فقيل: إنَّ الله تعالى كما يخلقُ النباتَ بواسطةِ إنزال المطر، كذلك يحيي الموتى بواسطة إنزال المطر أيضاً، فقد روي عن أبي هريرة وابن عباس ﵃، أنَّ الناس إذا ماتوا في النفخةِ الأولى مُطِر(١) عليهم ماءٌ من تحت العرش يُدعى ماءَ الحياة أربعينَ سنةً، فينبتونَ كما ينبتُ الزرع من الماء ـ وفي رواية: أربعين يوماً فينبتون في قبورهم نبات الزرع ـ حتى إذا

(١) في (م): أمطر.

استُكملت أجسادُهم تُنفخ فيهم الروح، ثم يُلقى عليهم النوم، فينامون في قبورهم، فإذا نُفِخَ في الصور النفخة الثانية، عاشوا، ثم يحشرون من قبورهم، ويجدونَ طعمَ النوم في رؤوسهم وأعينهم، كما يجدُ النائم حين يستيقظُ من نومه، فعند ذلك يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فيناديهم المنادي: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢][١].

وأخرج غيرُ واحدٍ عن مجاهد أنَّه إذا أرادَ الله تعالى أنْ يُخرجَ الموتى أمطرَ السماء حتى تشقَّق عنهم الأرض، ثم يرسلُ سبحانه الأرواحَ، فتعودُ كلُّ روحٍ إلى جسدها، فكذلك يحيي الله تعالى الموتى بالمطر، كإحيائه الأرض[٢].

وقيل: إنَّما وقع التشبيهُ بأصل الإحياء من غير اعتبارِ كيفيَّةٍ، فيجبُ الإيمان به، ولا يلزمُنا البحثُ عن الكيفيَّة، ويفعلُ الله سبحانه ما يشاء.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ فتعلمونَ أنَّ من قَدَرَ على ذلك، فهو قادرُ على هذا من غير شبهة. والأصل: تتذكَّرون، فطُرحت إحدى التاءين.

والخطابُ قيل: للنظَّار مطلقاً. وقيل: لمنكري البعث.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي: الأرض الكريمةُ التربةِ التي لا سبِخةٌ ولا حرَّة، واستعمالُ البلد بمعنى القرية عرفٌ طارٍ، ومن قبيل ذلك إطلاقُه على مكَّة المكرمة.

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيئته وتيسيره، وهو في موضع الحال، والمرادُ بذلك أنْ يكون حسناً وافياً غزيرَ النفع؛ لكونه واقعاً في مقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ من البلاد كالسبخَة والحرَّة ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: قليلاً لا خيرَ فيه، ومن ذلك قوله:

لا تـنـجـزُ الـوعـدَ إن وَعَـدْتَ وإنْ أعـطـيـتَ أعـطـيـتَ تـافـهـاً نَـكِـدا[٣]

ونصبه على الحال، أو على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوف، وأصلُ الكلام: لا يخرجُ

---

(١) تفسير الخازن ٢/ ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٥٦، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٠٣.

(٣) البيت دون نسبة في مجاز القرآن ١/ ٢١٧، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٥٧، ولسان العرب (تفه).

نباته، فحُذفَ المضاف وأقيمَ المضاف إليه مقامَه[١]، فصارَ مرفوعاً مستتراً. وَجُوِّز أنْ يكون الأصل: ونباتُ الذي خبث.

والتعبير أولاً بالطيِّب وثانياً بالذي خَبُثَ دون الخبيث؛ للإيذان بأنَّ أصلَ الأرض أنْ تكون طيِّبةً منبتةً، وخلافُه طارٍ عارض.

وقرئ: «يُخْرَجُ نباتُه» ببناء «يخرج» لما لم يسمَّ فاعلُه، ورفعِ «نبات» على النيابة عن الفاعل[٢]. و: «يُخرِج نباتَه» ببناء «يُخْرِج» للفاعل من باب الإخراج، ونصب «نباتَه» على المفعولية، والفاعل ضميرُ البلد[٣]، وقيل: ضمير الله تعالى، أو الماء. وكذا قُرِئ في «يخرج» المنفيّ[٤]، ونصبُ «نكداً» حينئذٍ على المفعوليَّة.

وقرأ أبو جعفر: «نَكَداً» بفتحتين على زنة المصدر[٥]، وهو نصبٌ على الحال، أو على المصدريَّة، أي: ذا نَكَدٍ، أو: خروجاً نَكَداً.

وقُرئ: «نَكْداً» بالإسكان للتخفيف[٦]، ك: نَزْهٍ في قوله:

فقال لي قولَ ذي رأيٍ ومقدرةٍ   مجرّبٍ عاقلٍ نَزْهٍ عن الريبِ[٧]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التصريف البديع ﴿نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: نردِّدُ الآيات الدالَّة على القدرة الباهرة ونكرِّرها. وأصلُ التصريف: تبديل حالٍ بحال، ومنه تصريف الرياح.

---

(١) في الأصل و(م): فحذف المضاف إليه وأقيم المضاف مقامه، والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ٨٥، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ١٧٧، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٣٤.

(٢) البحر المحيط ٤/ ٣١٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٣، والقراءات الشاذة ص ٤٤.

(٤) أوردها العكبري في الإملاء ٣/ ٢١-٢٢، وذكرها صاحب النشر ٢/ ٢٧٠ من رواية الفضل عن ابن وردان عن أبي جعفر. وهي خلاف المشهور عن أبي جعفر.

(٥) النشر ٢/ ٢٧٠.

(٦) القراءات الشاذة ص ٤٤، والبحر المحيط ٤/ ٣١٩.

(٧) اختلف في نسبة هذا البيت، قال عبد القادر البغدادي في الخزانة ١/ ٣٤٣ بعد أن ذكره ضمن قصيدة: وهذا الشعر قد نسب إلى عمرو بن معد يكرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخُفاف بن ندبة. اهـ.

﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ نِعَمَ الله تعالى، ومنها تصريفُ الآياتِ. وشكرُ ذلك بالتفكر فيها والاعتبار بها، وخصَّ الشاكرين لأنَّهم المنتفعون بذلك.

وقال الطيبي: ذكرُ «لقومٍ يشكرون» بعد «لعلكم تذكَّرون» من باب الترقي؛ لأنَّ من تذكَّر آلاءَ الله تعالى عرفَ حقَّ النعمة فشكر، وهذا - كما قال غيرُ واحد - مثلٌ لمن ينجعُ فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين، ولمن لا يؤثِّر فيه شيءٌ من ذلك.

أخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أنَّ قوله سبحانه وتعالى: «والبلد الطيب» إلخ مثلٌ ضربَه الله تعالى للمؤمن[1]، يقول: هو طيِّبٌ وعملُه طيب، و«الذي خَبُث» إلخ مَثلٌ للكافر، يقول: هو خبيثٌ وعمله خبيث[2].

وأخرج ابنُ جرير عن مجاهد: أنَّ هذا مثلٌ ضربَه الله تعالى لآدمَ عليه السلام وذريَّته كلِّهم، إنَّما خُلقوا من نفسٍ واحدةٍ، فمنهم من آمن بالله تعالى وكتابه، فطابَ، ومنهم من كفرَ بالله تعالى وكتابه، فخَبُث[3].

أخرج أحمد والشيخان والنسائيُّ عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمَثَلِ غيثٍ أصابَ أرضاً، فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ قبلت الماءَ، فأنبتت الكلأ والعشبَ الكثير، وكان منها أجادبُ أمسكت الماء، فنفعَ الله تعالى بها الناس، فشربوا منها، وسقوا وزرعوا، وأصابَ منها أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسكُ ماءً، ولا تنبتُ كلأً، فذلك مَثَلُ مَن فَقِهَ في دين الله تعالى، ونفعَه ما بعثني الله تعالى به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى اللهِ تعالى الذي أُرسِلت به»[4].

وإيثارُ خصوص التمثيل بالأرض الطيبة والخبيثة استطرادٌ عَقيبَ ذكر المطر وإنزالِه بالبلد، وموازنةٌ بين الرحمتين، كما في «الكشف»، ولقربه من الاعتراض

---

(١) في (م): للمؤمنين.

(٢) نسبه السيوطي في الدر المنثور لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري ١٠/ ٢٥٨ وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٠٣- ١٥٠٤.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٤) مسند أحمد (١٩٥٧٣)، وصحيح البخاري (٧٩)، وصحيح مسلم (٢٢٨٢)، والسنن الكبرى للنسائي (٥٨١٢).

جيء بالواو في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وفيه إشارةٌ إلى معنى ما ورد في «صحيح مسلم» عن عياض المجاشعيّ ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال في خطبته عن الله عزَّ وجلّ: «إني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم»[١].

وفي «صحيح البخاريّ» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلَّا يولدُ على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه وينصرانه»[٢].

ووجهُ الإشارة قد مرَّت الإشارة إليه.

ثمَّ إنه سبحانه وتعالى عقَّبَ ذلك بما يحقِّقُه ويقرِّره من قَصص الأمم الخالية والقرون الماضية، وفي ذلك أيضاً تسليةٌ لرسوله عليه الصلاة والسلام، فقال جلَّ شأنه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وهو جوابُ قَسمٍ محذوف، أي: والله لقد أرسلنا.. إلخ، واطَّرد استعمالُ هذه اللام مع قد في الماضي - على ما قاله الزمخشريُّ[٣] - وقلَّ الاكتفاءُ بها وحدها، نحو قوله:

حلفتُ لها بالله حَلْفَةَ فاجرٍ   لنَاموا فما إنْ من حديثٍ ولاصالي[٤]

والسرُّ في ذلك أنَّ الجملةَ القسميَّةَ لا تُساقُ إلَّا تأكيداً للجملة المقسَم عليها التي هي جوابُها، فكانت مظنَّةً لتوقُّع المخاطب حصولَ المقسم عليه؛ لأنَّ القسمَ دلَّ على الاهتمام، فناسبَ ذلك إدخالَ قد، ونُقِل عن النحاة أنَهم قالوا: إذا كان جوابُ القسم ماضياً مثبتاً متصرِّفاً؛ فإمَّا أنْ يكون قريباً من الحال، فيؤتى بقد، وإلَّا أتيت[٥] باللام وحدها، فجوَّزوا الوجهين باعتبارين.

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥) واجتالتهم: أي استخفَّتهم فجالوا معهم في الضلال. النهاية (جول).

(٢) صحيح البخاري (١٣٨٥)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٦٥٨)، وسلف ٤/ ١٤٢.

(٣) في الكشاف ٢/ ١٤٨.

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٣٢. قال شارحه: الفاجر هنا الكاذب، والصالي: الذي يصطلي بالنار. يقول: لما خوَّفتني من السُّمَّار أقسمت لها كاذباً أنْ ليس منهم أحدٌ إلا نائماً.

(٥) في الأصل و(م): أثبت. والمثبت من حاشية الخفاجي ٤/ ١٧٨، والدر المصون ٥/ ٣٥٣، وانظر البحر المحيط ٤/ ٣٢٠.

ولم يُؤتَ هنا بعاطفٍ وأُتيَ به في «هود» و«المؤمنين» - على ما قال الكرمانيُّ - لتقدُّم ذكر نوح صريحاً في «هود»، وضمناً في «المؤمنين»، حيثُ ذُكِر فيها قبلُ: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [الآية: ٢٢]، وهو عليه السلام أوَّل من صنعَها، بخلاف ما هنا.

ونوح بن لمك بفتحتين - وقيل: بفتح فسكون، وقيل: مَلْكان، بميم مفتوحة ولام ساكنة ونون آخره. وقيل: لامك كهاجر - بن مُتَوشْلخ بضمِّ الميم وفتح التاء الفوقية والواو وسكون الشين المعجمة، على وزن المفعول، كما ضبطَه غيرُ واحد. وقيل: هو[1] بفتح الميم وضمِّ المثنَّاة الفوقيَّة المشدَّدة وسكون الواو ولامٍ مفتوحة وخاءٍ معجمة، ابنُ أخنوخ، بهمزةٍ مفتوحة أوَّله وخاءٍ معجمةٍ ساكنة ونونٍ مضمومة وواو ساكنة وخاء أيضاً، ومعناه في تلك اللغة على ما قيل: القراء. وقيل: خنوخ بإسقاط الهمزة. وهو إدريس عليه السلام.

أخرج ابنُ إسحاق[2] وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بُعثَ نوحٌ عليه السلام في الألف الثاني، وإنَّ آدم عليه السلام لم يمت حتى وُلِد له نوحٌ في آخر الألف الأول.

وأخرجا[3] عن مقاتل وجويبر أنَّ آدم عليه السلام حين كبر ودقَّ عظمه[4] قال: يا رب إلى متى أكدُّ وأسعى؟ قال: يا آدم حتى يولد لك ولدٌ مختون، فولدَ له نوح بعد عشرة أبطن، وهو يومئذٍ ابن ألف سنةٍ إلَّا ستين عاماً.

وبعث - على ما روي عن ابن عباس - على رأس أربعِ مئة سنة، وقال مقاتل: وهو ابنُ مئة سنة. وقيل: وهو ابنُ خمسين سنة. وقيل: وهو ابنُ مئتين وخمسين

---

(١) ليست في (م).

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: إسحاق بن بشر، كما في الدر المنثور ٣/ ٩٤ وعنه نقل المصنف، وقد أخرجه من طريقه ابن عساكر في تاريخه ٦٢/ ٢٤٣. وإسحاق بن بشر هو صاحب كتاب «المبتدأ» كذبه ابن المديني، وقال الدارقطني: كذاب متروك. توفي سنة ست ومئتين. ينظر لسان الميزان ٢/ ٤٤.

(٣) أي: إسحاق بن بشر وابن عساكر، كما في الدر المنثور ٣/ ٩٤. وهو في تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٤٢.

(٤) في تاريخ دمشق والدر المنثور: ورقَّ عظمه.

سنة، ومكث يدعو قومه تسعَ مئةٍ وخمسينَ سنة، وعاش بعد الطوفان مئتين وخمسين، فكان عمره ألفاً وأربعَ مئةٍ وخمسين سنة.

وبُعثَ ـ كما رَوى ابن أبي حاتم وابنُ عساكر عن قتادة ـ من الجزيرة[(١)]. وهو أوّل نبيٍّ عَذَّب الله تعالى قومَه؛ وقد لقيَ منهم ما لم يلقَه نبيٌّ من الأنبياء عليهم السلام.

واختلف في عموم بعثته عليه السلام ابتداءً، مع الاتِّفاق على عمومها انتهاءً، حيثُ لم يبقَ بعد الطوفان سوى من كان معه في السفينة، ولا يقدحُ القولُ بالعموم في كون ذلك من خواصِّ نبينا ﷺ؛ لأنَّ ما هو من خواصِّه عليه الصلاة والسلام عمومُ البعثة لكافَّة الثقلين، الجنِّ والإنس، وذلك مجمعٌ عليه معلومٌ من الدين بالضرورة، فيكفَّر منكره، بل وكذا الملائكة كما رجحه جمعٌ محقِّقون، كالسبكي ومن تبعهُ، وردُّوا على من خالف ذلك. وصريحُ آية ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] إذ العالم ما سوى الله تعالى، وخبرُ مسلم: «وأرسلتُ إلى الخلق كافة»[(٢)] = يؤيِّدُ ذلك، بل قال البارزي: إنه ﷺ أرسل حتى للجمادات بعدَ جعلها مدركة.

وفائدةُ الإرسالِ للمعصوم وغيرِ المكلَّف طلبُ إذعانهما لشرفِه، ودخولهما تحتَ دعوته وأتباعِه؛ تشريفاً على سائر المرسلين، ولا كذلك بعثة نوح عليه السلام. والفرق مثل الصبح ظاهر.

وهو ـ كما في القاموس[(٣)] ـ اسم أعجميٌّ صُرِف لخفَّته.

وجاء عن ابن عباس وعكرمة وجويبر ومقاتل أنَّه عليه السلام إنَّما سُمِّيَ نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه.

واختُلِف في سبب ذلك؛ فقيل: هو دعوتُه على قومه بالهلاك. وقيل: مراجعته ربَّه في شأن ابنه كنعان.

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٩٤، وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٠٤ (٨٦٢٣).
(٢) صحيح مسلم (٥٢٣): (٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) مادة (نوح).

وقيل: إنَّه مرَّ بكلبٍ مجذومٍ، فقال له: اخسأ يا قبيح، فأوحى الله إليه: أَعِبْتَني أم عبت الكلب؟

وقيل: هو إصرارُ قومه على الكفر، فكان كلَّما دعاهم وأعرضُوا بكى وناحَ عليهم.

قيل: وكان اسمه قبلُ: السكن، لسكون الناس إليه بعدَ آدم عليه السلام. وقيل: عبد الجبار.

وأنا لا أعوِّل على شيءٍ من هذه الأخبار، والمعوَّل عليه عندي ما هو الظاهرُ من أنَّه اسمٌ وُضِع له حين ولد، وليس مشتقًّا من النياحة، وأنَّه كما قال صاحب «القاموس».

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: وحده، وترك التقييد به؛ للإيذان بأنَّها العبادة حقيقةً، وأمَّا العبادة مع الإشراك فكَلَا عبادة، ولدلالة قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: مستحقٍّ للعبادة ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ عليه، وهو استئنافٌ مسوقٌ لتعليل العبادة المذكورة، أو الأمرِ بها، و«من» صلة و«غير» بالرفع ـ وهي قراءة الجمهور ـ صفةُ «إله» أو بدلٌ منه، باعتبار محلِّه الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية.

وقرأ الكسائيُّ بالجرِّ(١) باعتبار لفظه، وقُرِئ شاذّاً بالنصب على الاستثناء(٢)، وحُكم «غير» ـ كما في «المفصَّل»(٣) ـ حكمُ الاسم الواقع بعدَ إلَّا، وهو المشهورُ، أي: ما لكم إلهٌ إلَّا إيَّاه، كقولك: ما في الدار أحدٌ إلَّا زيداً، و: غيرَ زيد. و«إله» إن جُعل مبتدأ فـ «لكم» خبرُه، أو خبره محذوفٌ، و«لكم» للتخصيص والتبيين، أي: ما لكم في الوجود ـ أو في العالم ـ إلهٌ غيرُ الله تعالى.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إنْ لم تعبدوا حسبما أمرت به. وتقدير: إن لم تؤمنوا؛ لما أنَّ عبادتَه سبحانه وتعالى تستلزمُ الإيمان به، وهو أهمُّ أنواعها. وإنَّما قال عليه السلام: «أخاف» ولم يقطع؛ حنوّاً عليهم، واستجلاباً لهم بلطف.

---

(١) حيث وقع، كما في التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٧٠، وقرأ بها أيضاً أبو جعفر من العشرة.
(٢) القراءات الشاذة ص ٤٤، والبحر المحيط ٤/ ٣٢٠.
(٣) ٢/ ٨٧ (شرح المفصل لابن يعيش).

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾ هو يوم القيامة، أو يوم الطوفان؛ لأنَّه أعلم بوقوعه إن لم يمتثلوا، والجملةُ ـ كما قال شيخ الإسلام[1] ـ تعليلٌ للعبادة ببيان الصارفِ عن تركها إثرَ تعليلها ببيان الداعي إليها، ووصف اليوم بالعِظَم[2]؛ لبيان عِظَم ما يقع فيه وتكميل الإنذار.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكاية قوله عليه السلام ونصحِه لقومه، كأنَّه قيل: فماذا قالوا بعدَ ما قيل لهم ذلك؟ فقيل: قال.. إلخ.

و«الملأ» على ما قاله الفراء[3]: الجماعة من الرجال خاصَّةً، وفسَّره غيرُ واحدٍ بالأشراف الذين يملؤون القلوبَ بجلالهم، والأبصارَ بجمالهم؛ والمجالسَ بأتباعهم.

وقيل: سمُّوا ملأً؛ لأنهم مليُّون قادرونَ على ما يُرَادُ منهم من كفاية الأمور.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهابٍ عن طريق الحق. والرؤيةُ قلبيَّةٌ، ومفعولاها الضميرُ والظرف، وقيل: بصريَّةٌ. فيكونُ الظرف في موضع الحال.

﴿مُّبِينٍ ۝﴾ أي: بيِّنٍ كونُه ضلالاً.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ على طرز سابقه ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ناداهم بإضافتهم إليه استمالةً لهم نحو الحقِّ ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ نفيٌ للضَّلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه، فإنَّ التاءَ للمرَّة؛ لأنَّ مقام المبالغة في الجواب لقولهم الأحمق يقتضي ذلك، والوحدةُ المستفادة منه باعتبار أقلِّ ما ينطلق، فيرجعُ حاصل المعنى: ليس بي أقلُّ قليلٍ من الضلال فَضْلاً عن الضلال المبين، وما يتخايل من أنَّ نفيَ الماهية أبلغُ ـ فإنَّ نفيَ الشيء مع قيد الوحدة قد يكونُ بانتفاء الوحدة إلى الكثرة ـ مضمحلٌّ بما حُقِّقَ أنَّ الوحدةَ ليست صفةً مقيِّدة، بل اللفظُ موضوعٌ للجزءِ الأقل؛ وهو الواحدُ المتحقِّق مع الكثرة ودونَها، على أنَّ ملاحظةَ قيد الوحدة في العامِّ في سياق النفي مدفوعٌ، وكفاكَ: لا رجل شاهداً. فإنَّه موضوعٌ للواحد من الجنس، وبذلك فُرِّقَ بينه وبين

(١) في إرشاد العقل السليم ٤/ ٢٣٥.
(٢) في الأصل: بالعظيم.
(٣) في معاني القرآن له ١/ ٣٨٣.

أسامة، فإذا وقعَ عامًّا لا يلحظ ذلك، ولو سَلم جوازُ أنْ يقال: ليس به ضلالة، أي: ضلالةٌ واحدة، بل ضلالاتٌ متنوعة ابتداءً؛ لكن لا يجوزُ في مقام المقابلة، كما نحن فيه. قاله في «الكشف». وبه يندفعُ ما أورد على «الكشاف» في هذا المقام.

وفي «المثل السائر»[1]: الأسماء المفردةُ الواقعةُ على الجنس التي تكون بينها وبين واحدها تاءُ التأنيث متى أريد النفيُ كان استعمالُ واحِدها أبلغ، ومتى أريدَ الإثباتُ كان استعمالُها أبلغ، كما في هذه الآية. ولا يظنُّ أنَّه لما كان الضَّلالُ والضَّلالةُ مصدرين من قولك: ضلَّ يضلُّ ضلالاً وضلالةً، كان القولان سواء؛ لأنَّ الضلالةَ هنا ليست عبارةً عن المصدر، بل عن المرَّة، والنفي كما علمت.

وإنَّما بالغَ عليه السلام في النفي؛ لمبالغتهم في الإثبات، حيث جعلوه ـ وحاشاه ـ مستقرّاً في الضلال الواضح كونُه ضلالاً.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾ استدراكٌ على ما قبلَه رافعٌ لما يُتوهم منه، وذلك ـ على ما قيل ـ أنَّ القومَ لمَّا أثبتوا له الضلال أرادوا به: تركَ دين الآباء ودعوى الرسالة، فحين نَفَى الضلالةَ تُوهِّمَ منه أنَّه على دين آبائه وتَركَ دعوى الرسالة، فوقع الإخبار بأنَّه رسولٌ وثابتٌ على الصراط المستقيم استدراكاً لذلك.

وقيل: هو استدراكٌ ممَّا قبله باعتبار ما يستلزمُه من كونه في أقصى مراتب الهداية، فإنَّ رسالتَه من ربِّ العالمين مستلزمةٌ له لا محالة، كأنه قيل: ليس بي شيءٌ من الضلالة، لكنِّي في الغاية القاصية من الهداية.

وحاصلُ ذلك ـ على ما قرَّرهُ الطيبيّ ـ أنَّ «لكن» حقُّها أن تتوسَّط بين كلامين متغايرين نفياً وإثباتاً، والتغايرُ هنا حاصلٌ من حيث المعنى، كما في قولك: جاءني زيدٌ لكنَّ عمراً غاب، وفائدةُ العدول عن الظاهر إرادةُ المبالغة في إثبات الهداية على أقصى ما يمكن، كما نفى الضلالة كذلك. وسلكَ طريق الإطناب، لأنَّ هذا الاستدراكَ زيادةٌ على الجواب، إذ قوله: «ليس بي ضلالة» كان كافياً فيه، فيكون من الأسلوب الحكيم الوارد على التخلُّص إلى الدعوة على وجه الترجيع المعنويّ؛

---

(١) ٢/ ٣٤.

لأنَّه بدأ بالدعوة إلى إثبات التوحيد، وإخلاص العبادة لله تعالى، فلمَّا أرادَ إثبات الرسالة لم يتمكَّن؛ لما اعترضوا عليه من قولهم: «إنَّا لنراكَ في ضلالٍ مبين»، فانتهزَ الفرصة وأدمجَ مقصوده في الجواب على أحسن وجه، حيثُ أخرجه مخرجَ الملاطفة والكلام المنصف، يعني: دعوا نسبةَ الضلال إليَّ، وانظروا ما هو أهمُّ لكم؛ من متابعة ناصحكم وأمينكم ورسول ربِّ العالمين، ألا ترى أنَّ صالحاً عليه السلام لمَّا لم يعترضوا عليه، عقَّبَ بإثبات الرسالة إثباتَ التوحيد؛ ففي هذه الآيةِ خمسةٌ من أنواع البديع، فإذا اقتضى المقامُ هذا الإطنابَ، كان الاقتصارُ على العبارة الموجزة تقصيراً. انتهى.

ولا يخفى أنَّ هذا الاستدراك غيرُ الاستدراك بالمعنى المشهور، وقد ذكر غيرُ واحدٍ من علماء العربية أنَّ الاستدراك في «لكنَّ» أن تَنسبَ لمَا بعدها حكماً مخالفاً لما قبلَها، سواءٌ تَغايرا إثباتاً ونفياً أو لا، وفسَّرهُ صاحب «البسيط»[1] وجماعةٌ برفع ما تُوهِّم ثبوتُه. وتمامُ الكلام فيه في «المغني»[2].

واعتبارُ اللازم لتحصيل الاستدراك بالمعنى الثاني ممَّا لا يكادُ يُقبل؛ لأنَّه لا يَذهبُ وهمُ واهمٍ من نفي الضلالة إلى نفي الهداية، حتى يحتاجَ إلى تداركه. ووجَّهه بعضُهم من دون اعتبار اللازم بأنَّه عليه السلام لمَّا نفى الضلالةَ عن نفسه، فربَّما يتوهَّم المخاطبُ انتفاء الرسالة أيضاً، كما انتفى الضلالة، فاستدركه بـ «لكنّ»، كما في قولك: زيدٌ ليس بفقيهٍ لكنَّه طبيب. وأنت تعلمُ أنَّ هذا إن لم يرجع إلى ما قُرِّر أولاً فليس بشيء.

وقيل: إنه إذا انتفَى أحدُ المتقابلين يسبقُ الوهمُ إلى انتفاء المقابل الآخر، لا إلى انتفاء الأمور التي لا تعلُّقَ لها به، ولهذا يُؤَوَّلُ ما وقع في معرض الاستدراك بما يقابل الضلال مثلاً، يقال: زيدٌ ليس بقائم لكنَّه قاعد. ولا يقال: لكنَّه شاربٌ، إلا بعدَ التأويل بأنَّ الشاربَ يكون قاعداً.

---

(١) هو الإمام العالم ضياء الدين أبو عبد الله، محمد بن علي الإشبيلي، ويعرف بابن العلج، وكان ممن أقام باليمن، البحر المحيط ٨/ ٤٧، وسلف ذكره ٢/ ٣٩، وسيأتي اسمه بتمامه عند تفسير الآية (٢١) من سورة الجاثية.

(٢) مغني اللبيب ص ٣٨٣.

وقال بعضُ فضلاء الروم: النظرُ الصائبُ في هذا الاستدراكِ أنْ يكون مثلَ قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائب[1]

وقوله:

هو البدرُ إلَّا أنه البحرُ زاخراً سوى أنَّه الضرغامُ لكنَّه الوبل[2]

كأنه قيل: ليس بي ضلالةٌ وعيبٌ سوى أنِّي رسولٌ من ربِّ العالمين.

وأنت تعلم أنَّ هذا النوعَ يُقال له عندهم: تأكيدُ المدح بما يشبه الذمَّ، وهو قسمان: ما يستثنى فيه من صفة ذمٍّ منفيَّةٍ عن الشيء صفةُ مدحٍ لذلك الشيء بتقدير دخولها في صفة الذمِّ المنفيَّة، وما يثبتُ فيه لشيءٍ صفةُ مدحٍ، ويتعقَّبُ ذلك بأداة استثناء يليها صفةُ مدح أخرى لذلك. والظاهر أنَّ ما في الآيةِ من القِسم الأوَّل، إلَّا أنه غيرُ غنيٍّ عن التأويل. فتأمل.

و«من» فيها لابتداء الغاية مجازاً، متعلِّقةٌ بمحذوف وقع صفةً لـ «رسول» مؤكِّدةً ما يفيدُه التنوين من الفخامة الذاتيَّة، كأنه قيل: إنِّي رسولٌ وأيُّ رسولٍ كائن من رب العالمين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير رسالته، وتفصيلِ أحكامها وأحوالها. وجوَّزَ أبو البقاء[3] وغيره أن يكون صفةً أخرى لـ «رسول» على المعنى؛ لأنه عبارةٌ عن الضمير في «إنِّي»، وهذا كقول عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه حين بارزَ مرحباً اليهوديّ يوم خيبر:

أنا الذي سمَّتني أمِّي حيدرَه

كليثِ غاباتٍ كريهِ المَنْظَره

أُوفيهمُ بالصاع كيلَ السَّندره[4]

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١، وقد سلف ٥/ ٤٠٧.

(٢) هو لبديع الزمان الهمذاني، كما في يتيمة الدهر ٤/ ٣٤٤، ومعاهد التنصيص ٣/ ١١١، وورد دون نسبة في مفتاح العلوم للسكاكي ص ٤٢٧.

(٣) في الإملاء ٣/ ١٢٣.

(٤) ورد هذا الرجز في قصة غزوة ذي قرد في صحيح مسلم (١٨٠٧)، وسلف الأول منه ٢/ ٢٨٧.

حيث لم يقل: سمته؛ حملاً له على المعنى، لأمن اللبس.

وأوجبَ بعضهم الحملَ على الاستئناف؛ زعماً منه أنَّ ما ذكر قبيحٌ، حتى قال المازنيُّ: لولا شهرتُه لرددته. وتعقَّب ذلك الشهاب[1] بأنَّ ما ذكره المازني في صلة الموصول لا في وصف النكرة، فإنَّه واردٌ في القرآن مثل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، وقد صُرِّحَ بحسنه في كتب النحو والمعاني، على أنَّ ما ذكره في الصلة أيضاً مردودٌ عند المحققين وإن تبعه فيه ابنُ جني، حتى استرذلَ قول المتنبي:

أنـا الـذي نـظـرَ الأعـمـى إلـى أدبـي[2]

وفي «الانتصاف»[3] أنَّه حسنٌ في الاستعمال، وكلام أبي الحسن أصدقُ شاهدٍ على ما قال، وعلى حُسْنِ كلام ابن الحسين[4]، وهذا ـ كما قال الشهاب ـ إذا لم يكن الضمير مؤخَّراً، نحو: الذي قَرى الضيوفَ أنا، أو كان للتشبيه، نحو: أنا في الشجاعة الذي قتل مرحباً.

وقرأ أبو عمرو: «أبْلِغُكم» بتسكين الباء وتخفيف اللام[5]، من الإبلاغ.

وجمعَ الرسالات ـ مع أنَّ رسالةَ كلِّ نبيٍّ واحدة، وهو مصدر والأصلُ فيه أنْ لا يجمع ـ رعايةً لاختلاف أوقاتها، أو تنوُّع معاني ما أُرسِل عليه السلام به، أو أنَّه أرادَ رسالته ورسالةَ غيره ممَّن قبلَه من الأنبياء، كإدريس عليه السلام، وقد أنزل عليه ثلاثون صحيفةً، وشيث عليه السلام، وقد أُنزِل عليه خمسون صحيفة.

ووضْعُ الظاهِر موضع الضمير، وتخصيصُ ربوبيَّته تعالى له[6] عليه السلام بعد

---

(١) في حاشيته على البيضاوي ٤/ ١٨٠.

(٢) ديوان المتنبي ٤/ ٨٣، وعجزه:

وأسـمـعـت كـلـمـاتـي مـن بـه صـمـم

وانظر المحتسب لابن جني ٣/ ٣٧٥.

(٣) ٢/ ٨٥.

(٤) جاء في هامش الأصل: أبو أحمد المتنبي. اهـ منه والصواب: أبو الطيب، واسمه أحمد بن الحسين.

(٥) التيسير ص ١١١، والنشر ٢/ ٢٧٠.

(٦) في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٦ ـ والكلام منه ـ: به.

بيان عمومها للعالمين؛ للإشعار بعلَّة الحكم الذي هو تبليغُ رسالته تعالى إليهم، فإنَّ ربوبيَّته تعالى له من موجباتِ امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي: أتحرَّى ما فيه صلاحُكم بناءً على أنَّ النصح تحرِّي ذلك قولاً أو فعلاً. وقيل: هو تعريفُ وجه المصلحة، مع خلوصِ النية من شوائب المكروه. والمعنى هنا: أبلغكم أوامرَ الله تعالى ونواهيه، وأرغِّبكم في قبولها، وأحذِّركم عقابَه إن عصيتموه.

وأصل النصح في اللغة: الخلوص، يقال: نصحتُ العسلَ، إذا خلَّصته من الشمع، ويقال: هو مأخوذ من: نصحَ الرجلُ ثوبَه، إذا خاطه، شبَّهوا فعلَ الناصح فيما يتحرَّاه من صلاح المنصوح له بفعل الخياط فيما يسدُّ من خلل الثوب، وقد يستعملُ لخلوصِ المحبَّة للمنصوحِ له، والتحرِّي فيما يستدعيه حقُّه، وعلى ذلك حُمِل ما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداريّ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الدين النصيحة» قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١).

ويقال: نصحتُه ونصحتُ له، كما يقال: شكرتُه وشكرت له. قيل: وجيء باللام هنا؛ ليدلَّ الكلامُ على أنَّ الغرض ليس غيرَ النصح، وليس النصحُ لغيرهم، بمعنى أنَّ نفعَه يعودُ عليهم، لا عليه عليه السلام، كقوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُم(٢) مِّنْ أَجْرٍ﴾ [سبأ: ٤٧] وهذا مبنيٌّ على أنَّ اللامَ للاختصاص لا زائدة، وظاهرُ كلام البعض يُشعرُ بأنَّها مع ذلك زائدة. وفيه خفاء.

وصيغةُ المضارع للدلالة على تجدُّد نصحه عليه السلام لهم، كما يفصح عنه قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ عطفٌ على ما قبله، وتقريرٌ لرسالته عليه السلام، أي: أعلم من قِبَله تعالى بالوحي أشياءَ لا علمَ لكم بها من الأمور الآتية؛ فـ «من» لابتداء الغاية مجازاً، أو: أعلمُ من شؤونه

(١) صحيح مسلم (٥٥)، وسنن أبي داود (٤٩٤٤)، وسنن النسائي «المجتبى» ٧/ ١٥٦-١٥٧.
(٢) بعدها في الأصل و(م): عليه. انظر حاشية الخفاجي ٤/ ١٨٠ وعنه نقل المصنف.

عزَّ وجلَّ وقدرته القاهرة وبطشه الشديد على من لم يؤمن به ويصدِّق برسله ما لا تعلمونه؛ فـ «من» إمَّا للتبعيض، أو بيانية لـ «ما»، ولا بدَّ في الوجهين من تقدير المضاف.

قيل: كانوا لم يسمعوا بقومٍ حلَّ بهم العذاب قبلَهم، فكانوا آمنين غافلين، لا يعلمونَ ما علمه نوح عليه السلام، فهم أوَّلُ قومٍ عُذِّبوا على كفرهم.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ردٌّ لما هو منشأٌ لقولهم: «إنَّا لنراكَ في ضلالٍ مبين»، والاستفهامُ للإنكار، أي: لِمَ كان ذلك ولا داعي له؟ والواو للعطف على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلام، ويُقَدَّر عند الزمخشريِّ وأتباعِه بين الهمزة وواو العطف، كأنَّه قيل: أَستبعدتم وعجبتم(١). ومذهبُ سيبويه والجمهور أنَّ الهمزةَ من جملةِ أجزاء المعطوف، إلَّا أنَّها قُدِّمت على العاطف تنبيهاً على أصالتها في التصدير(٢). وضُعِّفَ قولُ الأوَّلين بما فيه من التكلُّفِ(٣)؛ لدعوى حذفِ الجملة، فإنْ قوبل بتقديم بعض المعطوف فقد يقال: إنَّه أسهل منه؛ لأنَّ المتجوَّز فيه أقلُّ لفظاً، وفيه تنبيهٌ على أصالة شيءٍ في شيء(٤)، وبأنَّه غيرُ مطَّردٍ في نحو: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣]؛ وتحقيقه في محلِّه.

و«أن جاءكم» بتقدير: بأن؛ لأنَّ الفعلَ السابق يتعدَّى بها.

والمراد بالذِّكر ما أُرسل به، كما قيل للقرآن ذِكر، ويفسَّر بالموعظة. و«من» للابتداء، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «جاء»، أو بمحذوفٍ وقعَ صفةً لـ «ذكر»، أي: ذكرٌ كائنٌ من مالك أموركم ومربِّيكم.

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: من جملتكم، تعرفون مولده ومنشأه، أو: من جنسكم. فـ «من» تبعيضية أو بيانية، كما قيل. و«على» متعلِّقة بـ «جاء» بتقدير مضاف، أي: على يد أو لسان رجلٍ منكم، أي: بواسطته. وقيل: «على» بمعنى «مع»، فلا حاجةَ

---

(١) الكشاف ٢/ ٨٦، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٦، وقدره البيضاوي: أكذَّبتم وعجبتم.

(٢) ينظر الكتاب ٣/ ١٨٧-١٨٨، ومغني اللبيب ص ٢٢-٢٣، والبحر المحيط ٤/ ٣٢٢.

(٣) في الأصل: التكليف، والمثبت من (م) وهو الموافق لمغني اللبيب ص ٢٣، وعنه نقل المصنف.

(٤) أي: أصالة الهمزة في التصدير. مغني اللبيب ص ٢٣.

إلى التقدير. وقيل: تعلُّقه به لأنَّ معناه: أنزل، كما يشير إليه كلامُ أبي البقاء[١]، أو لأنَّه ضُمِّن معناه. وجُوِّزَ أنْ يكون متعلِّقاً بمحذوف وقع حالاً من «ذِكْرٌ»، أي: نازلاً على رجلٍ منكم.

﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ علَّة للمجيء، أي: ليحذِّركم العذاب والعقاب على الكفر والمعاصي ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ عطفٌ على «لينذركم»، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ على ما هو الظاهر، فالمجيءُ معلَّلٌ بثلاثة أشياء، وليس من توارد العلل على معلولٍ واحد الممنوعِ، وبينها ترتُّبٌ في نفس الأمر، فإنَّ الإنذار سببٌ للتقوى، والتقوى سببٌ لتعلُّق الرحمة بهم. وليس في الكلام دلالةٌ على سببية كلٍّ من الثلاثة لما بعده، ولو أريدت السببيَّة لجيءَ بالفاء. وبعضهم اعتبرَ عطف «لتتقوا» على «لينذركم»، و«لعلَّكم ترحمون» على «لتتَّقوا» مع ملاحظة الترتُّب، أي: لتتقوا بسبب الإنذار، ولعلكم ترحمون بسبب التقوى، فليتأمَّل.

وجيء بحرف الترجِّي على عادة العظماء في وعدهم، أو للتنبيه على عزَّة المطلب، وأنَّ الرحمة منوطةٌ بفضل الله تعالى، فلا اعتماد إلا عليه.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: استمرُّوا على تكذيبه، وأصرُّوا بعد أن قال لهم ما قال، ودعاهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ من الغرق، والإنجاء في «الشعراء» من قصدِ أعداء الله تعالى وشُؤم ما أضمروه له عليه السلام[٢].

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين، وكانوا ـ على ما قيل ـ أربعين رجلاً وأربعين امرأةً. وقيل: كانوا عشرةً، أبناؤه الثلاثة، وستَّةٌ ممَّن آمنَ به عليه السلام. والفاء للسببيَّة باعتبار الإغراق، لا فصيحة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِى الْفُلْكِ﴾ أي السفينة، متعلِّقٌ بما تعلَّق به الظرفُ الواقع صلةً، أي: استقرُّوا معه في الفلك. وجوز أن يكون هو الصلة، «ومعه»

---

(١) إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٢٥.

(٢) قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الآيات: ١١٦-١١٩].

متعلق بما تعلَّق به، وأنْ يكونَ متعلِّقاً بـ «أنجينا» و«في» ظرفية، أو سببية[(١)]. وأن يكون متعلِّقاً بمحذوف وقع حالاً من «الذين» نفسه، أو من ضميره.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: استمرُّوا على تكذيبها، والمراد به ما يعمُّ أولئك الملأ وغيرَهم من المكذبين المصرِّين.

وتقديمُ الإنجاء على الإغراق؛ للمسارعة إلى الإخبار به، والإيذان بسبق الرحمة على الغضب.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: عُميَ القلوب عن معرفة التوحيد والنبُّوة والمعاد، كما رويَ عن ابن عباس، أو عن نزول العذاب بهم، كما نقل عن مقاتل. وقرئ: «عامين»[(٢)]. والأوَّلُ أبلغ؛ لأنَّه صفةٌ مشبَّهةٌ، فتدلُّ على الثبوت، وأصلُه عَمِيين فخُفِّف، وفرَّق بعضُهم بين عمٍ وعامٍ، بأنَّ الأوَّل لعَمِي البصيرة، والثاني لأعمى[(٣)] البصر، وأنشدوا قول زهير:

وأعلمُ علمَ اليومِ والأمسِ قبلَه ... ولكنَّني عن علم ما في غدٍ عمي[(٤)]

وقيل: هما سواءٌ فيهما.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ متعلِّقٌ بمضمر معطوفٍ على «أرسلنا» فيما سبق، وهو الناصبُ لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: وأرسلنا إلى عادٍ أخاهم.

وقيل: لا إضمار، والمجموعُ معطوفٌ على المجموع السابق، والعاملُ الفعل المتقدم.

وغَيَّر الأسلوبَ لأجل ضمير «أخاهم»، إذ لو أتى به على سَنَن الأول عادَ الضميرُ على متأخِّرٍ لفظاً ورتبةً.

---

(١) أي: بسبب الفُلك، كقوله ﷺ: «إن امرأة دخلت النار في هرة». أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) (٢٢٤٣) عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم.

(٢) القراءات الشاذة ص ٤٤، والكشاف ٢/ ٨٦.

(٣) في (م): لعمى، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في حاشية الخفاجي ٤/ ١٨٠، والكلام منه.

(٤) ديوان زهير ص ٢٩، وفيه: وأعلم ما في اليوم. بدل: وأعلم علم اليوم.

و«عاد» في الأصل اسمٌ لأبي القبيلة، ثمَّ سُمِّيت به القبيلة، أو الحيُّ، فيجوزُ فيه الصرف وعدمُه، كما ذكره سيبويه[١].

وقوله تعالى: ﴿هُودًا﴾ بدلٌ من «أخاهم» أو عطفُ بيانٍ له. واشتهر أنَّه اسمٌ عربي، وظاهر كلام سيبويه أنَّه أعجميٌّ[٢]، وأُيِّدَ بما قيل: إنَّ أوَّلَ العرب يعرب.

وهو هود بن شالخ بن أرفَخْشَد بن سام بن نوح، وعليه محمدُ بن إسحاق[٣]. وبعض القائلين بهذا قالوا: إنَّ نوحاً ابنُ عم أبي عاد. وقيل: ابن عَوْص بن إِرَم بن سام بن نوح، وقيل: ابنُ عبد الله بن رباح بن الخُلُود[٤] بن عاد بن عَوْص بن إرَم بن سام بن نوح عليه السلام.

ومعنى كونه عليه السلام أخاهم أنَّه منهم نسباً، وهو قولُ الكثير من النسَّابين، ومن لا يقول به يقول: إنَّ المراد صاحبُهم، وواحدٌ في جملتهم، وهو كما يقال: يا أخا العرب.

وحكمةُ كون النبيِّ يُبعَث إلى القوم منهم أنَّهم أفهمُ لقوله من قول غيره، وأعرفُ بحاله في صدقه وأمانته وشرفِ أصله.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا قال لهم حين أُرسل إليهم؟ فقيل: قال.. إلخ.

ولم يُؤتَ بالفاء، كما أُتي بها في قصَّة نوح؛ لأنَّ نوحاً كان مواظباً على دعوة قومه غيرَ مؤخِّرٍ لجوابِ شبهتهم لحظةً واحدة، وهودٌ عليه السلام لم يكن مبالغاً إلى هذا الحدِّ، فلذا جاء التعقيبُ في كلام نوح، ولم يجئ هنا.

وذكر صاحبُ «الفرائد» في التفرقة بين القصَّتين: أنَّ قصةَ نوحٍ عليه السلام ابتداء كلام، فالسؤالُ غير مقتضَى الحال، وأما قصَّة هود فكانت معطوفةً على قصَّة

(١) في الكتاب ٣/ ٢٥٢.
(٢) الكتاب ٣/ ٢٣٥.
(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٦٩.
(٤) في مطبوع البحر ٤/ ٣٢٣: بن رياح بن الجلود.

نوح، فيمكن أن يقع في خاطر السامع: أقال هودٌ ما قال نوحٌ أم قال غيرَه؟ فكان مظنَّة أنْ يسألَ: ماذا قال لقومه؟ فقيل: قال.. إلخ.

وقيل: اختير الفصلُ هنا لإرادة استقلال كلٍّ من الجمل في معناه، حيثُ إنَّ كفرَ هؤلاء أعظمُ من كفر قوم نوح من حيثُ إنهم علموا ما فعل الله تعالى بالكافرين وأصرُّوا، وقومُ نوحٍ لم يعلموا، ويدلُّ على علمهم بذلك ما سيأتي في ضمن الآيات. وفيه نظر.

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحدَه، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فإنَّه استئنافٌ جارٍ مجرى البيانِ للعبادة المأمور بها والتعليلِ لها، أو للأمرِ،كأنَّه قيل: خُصُّوه بالعبادة، ولا تشركوا به شيئاً، إذ ليسَ لكم إلهٌ سواه. وقُرِئ: «غير» بالحركات الثلاث كالذي قبل[1].

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ إنكارٌ واستبعادٌ لعدم اتقائهم عذابَ الله تعالى بعد ما علموا ما حلَّ بقوم نوحٍ عليه السلام.

وقيل: الاستفهامُ للتقرير، والفاء للعطف، وقد تقدَّم الكلام فيه آنفاً.

وفي سورة هود: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الآية:٥١] ولعلَّه عليه السلام ـ كما قال شيخُ الإسلام ـ خاطبَهم بكلٍّ منهما، واكتفي بحكايةِ كلٍّ منهما في موطنٍ عن حكايته في موطنٍ آخر، كما لم يُذكر هنا ما ذُكِر هناك من قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود:٥٠]، وقِسْ على ذلك حالَ بقيَّة ما ذُكر وما لم يذكر من أجزاء القصَّة، بل حالَ نظائره في سائر القصص، لاسيَّما في المحاورات الجارية في الأوقات المتعددة[2].

وقال غير واحد: إنَّما قيل ها هنا: «أفلا تتقون»، وفيما تقدَّم من مخاطبة نوحٍ عليه السلام قومَه: «إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم»؛ لأنَّ هؤلاء قد علموا بما حلَّ بغيرهم من نظرائهم، ولم يكن قبلَ واقعة قوم نوح عليه السلام واقعةٌ.

---

(١) ينظر ما سلف ص١٧٣ من هذا الجزء.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٨.

وقيل: لأنَّ هؤلاء كانوا أقربَ إلى الحقِّ وإجابةِ الدعوة من قوم نوحٍ عليه السلام، وهذا دون «إني أخاف عليكم» إلخ في التخويف، ويُرشِدُ إلى ذلك ما تقدَّم مع قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ حيث قيَّد هنا الملأَ المعاندَ بمن كفر، وأطلقَ هناك، وقد صرَّحوا بأنَّ هذا الوصف لأنَّه لم يكن كلُّهم على الكفر، بل من أشرافهم من آمنَ به عليه السلام، كمرثد بن سعد الذي كان يكتمُ إيمانه، ولا كذلك قومُ نوحٍ، ومن آمنَ به عليه السلام منهم لم يكن من الأشراف، كما هو الغالب في أتباع الرسل عليهم السلام.

وقيل: إنَّه وقتَ مخاطبة نوحٍ عليه السلام لقومه لم يكونوا آمنوا؛ بخلاف قوم هود، ومثلُه ـ كما قال الشهاب[1] ـ يحتاج إلى نقل.

واعترضَ المولى بهاء الدين على تلك التفرقةِ بين القومين بأنه قد جاء في سورة المؤمنين وصفُ قوم نوح بما وصف به قوم هود هنا، فكيف تتأتَّى هذه التفرقة.

وأجيبَ بأنَّ الوصفَ هناك محمول على أنَّه للذمِّ لا للتمييز، وإنَّما لم يذمّ هاهنا للإشارة إلى التفرقة.

وقال الطيبيُّ: يمكن أن يقال: إنَّ الوصفَ هنا للذمِّ أيضاً، ومقتضى المقام يقتضي ذمَّهم لشدَّة عنادِهم، كما يدلُّ عليه جوابهم بما حكاه الله تعالى من قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي: متمكِّناً في خفَّة عقلٍ، راسخاً فيها، حيثُ فارقْتَ دينَ آبائك ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ حيثُ ادعيتَ الرسالة، وهو أبلغ من «كاذباً»، كما مرَّت الإشارةُ إليه ـ والظنُّ إمَّا على ظاهره، كما قال الحسن والزجَّاج[2]. وإمَّا بمعنى العلم، كما قيل ـ وذلك لأنَّهم قالوا ما قالوا مع كونه عليه السلام معروفاً بينهم بضدِّ ذلك، ولا يقتضي ذمَّ قوم نوحٍ عليه السلام، وحيث اقتضى في سورة المؤمنين ذمَّهم ذمَّهم؛ لأنَّهم قالوا كما قصَّهُ سبحانه وتعالى هناك: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٥].

---

(١) في حاشيته ٤/ ١٨١.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٣٤٧.

وقال بعضهم: إنَّ الظاهرَ أنَّ ما نُقِل هنا عن قوم نوحٍ عليه السلام مقالتُهم في مجلس، أو مقالةُ بعضهم، وما نُقِل في سورة المؤمنين مقالتُهم في مجلسٍ آخر، أو مقالةُ آخرين، فرُوعي في المقامين مقتضى كلٍّ من المقالتين.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام مستعطفاً لهم، ومستميلاً[١] لقلوبهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ أي: شيءٌ منها، فضلاً عن تمكُّني فيها كما زعمتم ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ والرسالةُ من قِبله تعالى تقتضي الاتِّصاف بغاية الرشد والصدق.

ولم يصرِّح عليه السلام بنفي الكذب؛ اكتفاءً بما في حيِّز الاستدراك. وقيل: الكذبُ نوعٌ من السفاهة، فيلزم من نفيها نفيُه.

و«من» لابتداء الغاية مجازاً، وهي متعلِّقةٌ بمحذوف وقعَ صفةً لـ «رسول»، مؤكِّدةً لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتيَّة بالفخامة الإضافيَّة.

وقوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ على طرز ما في قصة نوح عليه السلام.

وقرأ أبو عمرو: «أُبْلِغُكم». بالتخفيف[٢] من الإفعال.

﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ معروفٌ بالنصح والأمانة، مشهورٌ بين الناس بذلك، فما حقِّي أن أُتَّهم بشيء مما ذكرتموه؛ وعلى هذا لا يقدَّرُ للوصفين متعلِّق، ويحتمل تقديرهما، أي: ناصحٌ لكم فيما أدعوكم إليه، أمينٌ على ما أقولُ لكم لا أكذبُ فيه. وعلى الأول ـ كما قال الطيبيّ ـ فالجملة مستأنفةٌ وقعت معترضةً، وعلى الثاني حاليةٌ.

وفي العدول عن الفعليَّة إلى الاسميَّة ما لا يخفى، ولعل التعبيرَ بها هنا وبالفعلية فيما تقدَّم، لتجدُّد النصح من نوحٍ دونَ هود عليهما السلام.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ الكلامُ فيه كالكلام في سابقه. وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام مَن يشافههم من الكفرة بالكلمات الحمقاء بما حكي عنهم، والإعراضِ عن مقابلتهم بمثل كلامهم = كمالُ النصح والشفقة، وهضم النفس، وحسن المجادلة، وفي حكاية ذلك تعليمٌ للعباد كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضُّون عنهم ويُسبِلُونَ أذيالهم على ما يكون منهم.

---

(١) في (م): أو مستميلاً.

(٢) التيسير ص ١١١، والنشر ٢/ ٢٧٠.

وفي الآية دلالةٌ على جواز مدح الإنسان نفسَه للحاجة إليه.

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ شروعٌ في بيان ترتيب أحكام النصح والأمانة والإنذار وتفصيلها. و«إذ» ـ على ما يُفهم من كلام البعض، وصرَّح به آخرون ـ ظرفٌ منصوب بـ «آلاء» المحذوف هنا بقرينة ما بعدَه؛ لتضمُّنه معنى الفعل.

واختارَ غيرُ واحدٍ تبعاً للزمخشريِّ[1] أنَّه مفعولٌ لـ «اذكروا»، أي: اذكروا هذا الوقت المشتملَ على هذه النعم الجسام، وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت دونَ ما وقعَ فيه، مع أنَّه المقصود بالذات؛ للمبالغة في إيجاب ذكره، ولأنَّه إذا استُحضِر الوقتُ كان هو حاضراً بتفاصيله، وهذا مبنيٌّ على الاتساع في الظرف، أو أنه غيرُ لازمٍ للظرفيَّة، على خلاف المشهور عند النحويين.

والواو للعطف، وما بعدَه قيل: معطوفٌ على قوله تعالى: «اعبدوا». ولا يخفى بُعْدُه.

وقال شيخ الإسلام: لعلَّه معطوفٌ على مقدَّر، كأنَّه قيل: لا تعجبوا من ذلك، أو تدبَّروا في أمركم، واذكروا إذ جعلكم خلفاء[2].

﴿مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: في مساكنهم، أو في الأرض، بأنْ جعلكم ملوكاً، فإنَّ شداد بن عاد ممَّن ملكَ معمورةَ الأرض، فالإسناد على هذا مجاز، وفي ذكر نوح ـ على ما قيل ـ إشارةٌ إلى رفع التعجُّب، يعني: هذا الذي جئتُ به ليس ببدع، فاذكروا نوحاً وإرسالَه إلى قومه، وإلى الوعيد والتهديد، أي: اذكروا إهلاكَ قومه لتكذيبهم رسولَ ربهم.

﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: الإبداع والتصوير، أو في المخلوقين، أي: زادكم في الناس على أمثالكم ﴿بَصْۜطَةً﴾ قوةً وزيادةَ جسم، قال الكلبيُّ: كانت قامةُ الطويل منهم مئة ذراع، وقامةُ القصير ستين ذراعاً.

وأخرج ابنُ عساكر عن وهب أنه قال: كانت هامةُ الرجل منهم مثلَ القبَّة العظيمة، وعينُه يفرِّخُ فيها السباع.

---

(١) في الكشاف ٢/ ٨٧.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٩.

وأخرج عبدُ بن حميد عن قتادة أنَّه قال: ذُكِرَ لنا أنَّهم كانوا اثني عشر ذراعاً[(١)].

وعن الباقر ﷺ: كانوا كأنَّهم النخلُ الطوال، وكان الرجلُ منهم يأتي الجبلَ، فيهدمُ منه بيدِه القطعةَ العظيمة.

وأخرج عبد الله بن أحمد وابنُ أبي حاتم عن أبي هريرة: إنْ كانَ الرجلُ منهم ليتَّخِذُ المِصْراع[(٢)] من الحجارة، لو اجتمعَ عليه خمسُ مئةٍ من هذه الأمَّة لم يستطيعوا أنْ يقلُّوه، وإنْ كان أحدُهم ليُدخِلُ قدَمه في الأرضِ فتدخلُ فيها[(٣)].

وعن بعضهم أنَّ أحدَهم كان أطولَ من سائر الخلق بمقدار ما يمدُّ الإنسان يدَه فوق رأسه باسطاً لها، فطولُ كلٍّ منهم قامةٌ وبسطة. وهذا أقربُ عند ذوي العقول القصيرة عن إدراك طول يد القدرة.

وأخرج إسحاق بن بشر وغيره عن ابن عباس ﷺ أنَّ هوداً عليه السلام كان أصبحَهم وجهاً، وكان في مثل أجسامهم، أبيض جَعْداً، بادي العَنْفَقَة، طويلَ اللحية صلى الله تعالى عليه وسلم[(٤)].

ونصب «بسطةً» على أنَّه مفعولٌ به للفعل قبلَه، وقيل: تمييز. و«في الخلق» متعلِّقٌ بالفعل، وجَوَّزَ أبو البقاء تعلُّقه بمحذوفٍ وقع حالاً من «بسطة»[(٥)].

﴿فَاذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمهُ سبحانه وتعالى، وهي جمع «إِلْي» بكسرٍ فسكون، كحِمْل وأحمال، أو «أُلْي» بضمٍّ فسكون، كقُفْل وأقفال، أو «إِلًى» بكسرٍ ففتحٍ مقصور، كمِعًى وأمعاء، أو بفتحتين مقصوراً، كقفا وأقفاء، وبهما ينشدُ قول الأعشى:

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٩٦.
(٢) المصراع: هو أحد جُزأَي الباب، وهما مصراعان إلى اليمين وإلى اليسار. المعجم الوسيط (صرع).
(٣) الدر المنثور ٣/ ٩٦، وأخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٧٩٨ (١٥٨٣٧).
(٤) الدر المنثور ٣/ ٩٥، وقوله: بادي العنفقة، العنفقة: هي شعرات من مقدمة الشفة السفلى، ورجل بادي العنفقة: إذا عري موضعها من الشعر. اللسان (عنفق).
(٥) إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٢٨.

أبـيـضُ لا يَـرهـبُ الـهُـزال ولا يـقـطـعُ رحـمـاً ولا يـخـونُ إِلَا[١]

وقيل: إنَّ ما في البيت إِلَّا المشددة، لكنَّها خُفِّفَتْ، ومعناها العهدُ. وفيه بعد.

وهذا تكريرٌ للتذكير؛ لزيادة التقرير، وتعميمٌ إثر تخصيص، أي: اذكروا الآلاء التي من جملتها ما تقدَّم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: لكي يفضي بكم ذكرُ النعم إلى شكرها الذي من جملته العملُ بالأركان والطاعةِ المؤدِّي إلى النجاة من الكروب، والفوز بالمطلوب، وهذا لأنَّ الفلاحَ لا يترتَّب على مجرَّد الذكر.

ومن الناس من فسَّر ذكرَ الآلاء بشكرِها، وأمرُ الترتُّبِ عليه ظاهر.

﴿قَالُوٓاْ﴾ مجيبين عن تلك النصائح العظيمة المتضمِّنة للإنذار على ما أشيرَ إليه: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ أي: لنخُصَّه بالعبادة ﴿وَنَذَرَ﴾ أي: نترك ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأوثان. وهذا إنكارٌ واستبعادٌ لمجيئه عليه السلام بذلك، ومنشؤُه إنهماكُهم في التقليد والحبِّ لما أَلِفُوه، وأَلْفَوا عليه أسلافَهم.

ومعنى المجيء، إمَّا مجيئه عليه السلام من مكانٍ كان يتحنَّثُ فيه، كما كان رسولُ الله ﷺ يفعلُ بحراء قبل المبعث، أو مجيئه من السماء، أي: أنزلت علينا من السماء، ومرادُهم التهكُّم والاستهزاء، وجاء ذلك من زعمهم أنَّ المرسلَ من الله تعالى لا يكون إلَّا مَلَكاً من السماء. أو هو مجازٌ عن القصدِ إلى الشيء والشروع فيه، فإنَّ جاء، وقام، وقعد، وذهب ـ كما قال جماعة ـ تستعملُها العرب لذلك تصويراً للحال، فتقول: قعد يفعلُ كذا، وقام يشتمني، وقعد يقرأ، وذهبَ يسبُّني.

ونصب «وحده» على الحاليَّة، وهو عند جمهور النحويين، ومنهم الخليل وسيبويه[٢]: اسمٌ موضوعٌ موضعَ المصدر، أعني: إيحاداً[٣]، الموضوع موضعَ الحال، أعني: مُوْحَداً.

---

(١) ديوان الأعشى ص ٢٨٥.

(٢) في الكتاب ١/ ٣٧٣.

(٣) في (م): إيحاد.

واختلفَ هؤلاء فيما إذا قلت: رأيتُ زيداً وحدَه مثلاً، فالأكثرون يُقدِّرون: في حال إيحادٍ[١] له بالرؤية، فيجعلونه حالاً من الفاعل، والمبرِّد يقدِّره في حالِ أنَّه مفردٌ بالرؤية، فيجعلُه حالاً من المفعول.

ومنع أبو بكر بن طلحة[٢] جَعْلَه حالاً من الفاعل، وأوجبَ كونه حالاً من المفعول لا غير؛ لأنَّهم إذا أرادوا الحالَ من الفاعل قالوا: رأيتُه وحدي، ومررتُ به وحدي، كما قال الشاعر:

والذئبَ أخشاه إن مررتُ به وحدي وأخشى الرياحَ والمطرا[٣]

وهذا الذي قاله في البيت صحيحٌ، ولا يمتنعُ من أجله أنْ يأتي الوجهان المتقدِّمان في: رأيتُ زيداً وحدَه، فإنَّ المعنى يصحُّ معهما.

ومنهم من يقول: إنَّه مصدرٌ موضوعٌ موضعَ الحال، ولم يوضع له فعلٌ عند بعضهم.

وحكى الأصمعيُّ: وَحَدَ يحِدُ.

وذهب يونس وهشام في أحد قوليه إلى أنَّه منتصبٌ انتصابَ الظروف، فـ: جاء زيدٌ وحدَه، في تقدير: جاءَ على وحدِه، ثمَّ حُذفَ الجارُّ، وانتصبَ على الظرف، وقد صُرِّح بـ «على» في كلام بعض العرب. وإذا قيل: زيدٌ وحده، فالتقدير: زيدٌ موضع التفرُّدِ، ولعلَّ القائل بما ذُكر يقول: إنَّه مصدرٌ وضِع موضع الظرف، وعن البعض أنَّه في هذا منصوب بفعلٍ مضمر، كما يقال: زيدٌ إقبالاً وإدباراً.

هذا خلاصةُ كلامهم في هذا المقام، وإذا أحطت به خبراً فاعلم أنَّ: «نعبد الله وحده» في تقدير: موحدين إياه بالعبادة، عند سيبويه، على أنَّه حالٌ من الفاعل، والحاء في موحِدين مكسورةٌ. وعلى رأي ابن طلحة موحَداً هو، والحاءُ مفتوحة،

---

(١) في الأشباه والنظائر للسيوطي ٧/ ١٧٢ (والكلام منه): إيحادي، بياء المتكلم.
(٢) هو عبد الله بن طلحة الأندلسي، اليابري، نحويٌّ أصوليٌّ فقيه، قرأ عليه الزمخشري بمكة كتاب سيبويه، وشَرَح رسالة ابن أبي زيد، وردَّ على ابن حزم. مات سنة (٥١٨هـ). العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٥/ ١٨٢، وبغية الوعاة ٢/ ٤٦.
(٣) البيت للربيع بن ضبع الفزاري كما في الكتاب ١/ ٨٩، وخزانة الأدب ٧/ ٣٨٤.

وهو من أَوْحَدَ الرباعيّ. والتقدير على رأي هشام: نعبدُ الله تعالى على انفرادٍ، وهو من وَحَدَ الثلاثي، والمعنى في التقادير الثلاثة لا يختلفُ إلَّا يسيراً، والكلام الذي هو فيه متضمِّنٌ للإيجاب والسلب، وله احتمالاتٌ نفياً وإثباتاً، وتفصيلُ ذلك في رسالةِ[1] مولانا تقي الدين السبكي المسمَّاة بـ «الرفدة في معنى وحده»[2]. وفيها يقول الصفديُّ:

خلِّ عنك الرَّقدة وانتبه للرِّفدة
تجنِ منها علماً فاقَ طعمَ الشُّهدة[3]

وأراد بـ «ما» في قوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ العذابَ المدلولَ عليه بقوله تعالى: «أفلا تتقون».

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ بالإخبار بنزوله. وقيل: بالإخبار بأنَّك رسولُ الله تعالى إلينا، وجوابُ «إن» محذوفٌ؛ لدلالة المذكور عليه، أي: فأتِ به.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾ أي: وجبَ وثبت. وأصلُ استعمال الوقوع في نزول الأجسام، واستعمالُه هنا فيما ذكر مجازٌ من إطلاق السبب على المسبَّب، ويجوزُ أنْ يكون في الكلام استعارةٌ تبعيَّة، والمعنى: قد نزلَ عليكم.

واختار بعضُهم أنَّ «وقع» بمعنى قُضِيَ وقُدِّر؛ لأن المقدرات تضافُ إلى السماء، وحرف الاستعلاء على ذلك ظاهر.

وفي «الكشف» أنَّ الوقوع بمعنى الثبوت، وحرف الاستعلاء إمَّا لأنَّه ثبوتٌ قويٌّ آكَدَ ما يكون وأوجبه، أو لأنَّه ثبوتٌ حسيٌّ لأمرٍ نازلٍ من علو، وعذابُ الله تعالى موصوفٌ بالنزول من السماء، فتدبر.

والتعبيرُ بالماضي لتنزيل المتوقَّع منزلةَ الواقع، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

---

(١) بعدها في (م): في.
(٢) وساق السيوطي هذه الرسالة بتمامها في الأشباه والنظائر ٧/ ١٧١-١٨٢، وهي مطبوعة مفردة في دار البلاغة، بيروت. والله أعلم.
(٣) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي ٣/ ٤٣٠.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: مِن قِبَلِ مالِكِ أمركم سبحانه وتعالى. والجارُّ والمجرور قيل: متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالاً مما بعد، والظاهر أنَّه متعلِّقٌ بالفعل قبله، وتقديمُ الظرف الأول عليه، مع أنّ المبدأ متقدِّمٌ على المنتهى ـ كما قال شيخ الإسلام ـ للمسارعة إلى بيان إصابة المكروه لهم، وكذا تقديمُهما على الفاعل، وهو قوله تعالى: ﴿رِجْسٌ﴾، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخَّر، ولأنَّ فيه نوعَ طولٍ بما عُطِفَ عليه من قوله تعالى: ﴿وَغَضَبٌ﴾ فربَّما يُخِلُّ تقديمُهما بتجاوبِ النظم الكريم[1].

والرجسُ: العذاب، وهو بهذا المعنى في كلِّ القرآن عند ابن زيد[2]، من الارتجاس، وهو والارتجاز بمعنى، حتى قيل: إن أصلَه ذلك، فأُبدِلت الزاي سيناً كما أبدلت السين تاءً في قوله:

أَلَا لَحَى الله بني السِّعلات
عمرَو بنَ يربوع شرارَ النات
ليسوا بأعفافٍ ولا أكيات[3]

فإنَّه أرادَ: الناس وأكياس. وأصلُ معناه: الاضطراب، ثمَّ شاع فيما ذكر؛ لاضطرابِ من حلَّ به، وعليه فالعطف في قوله:

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٢٣٩.
(٢) أخرجه عنه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥١١ (٨٦٦٠).
(٣) جاء الرجز في المصادر بروايات متعددة، وهو لعلباء بن أرقم كما في النوادر لأبي زيد ص ١٠٤، والجمهرة ٣/ ٣٣، ولسان العرب (نوت)، وشرح شواهد شرح الشافية ص٤٦٩-٤٧٠.
وذكره دون نسبة أبو علي القالي في الأمالي ٢/ ٦٨، وابن جني في سر صناعة الإعراب ١/ ١٥٥. وأورده الطبري في تفسيره ١٢/ ٥٢٢ ـ طبعة محمود شاكر ـ بمثل رواية المصنف.
قال العلامة محمود شاكر في تعليقه على تفسير الطبري: قوله: ليسوا بأعفاف، هكذا جاء في المطبوعة والمخطوطة، ورواية أبي زيد وغيره: ليسوا أعفاء. وهي القياس، جمع عفيف. وكأن أعفاف جمع عف. وقد أجمعوا على أنهم لم يجمعوا «عفًّا»، أو يكون كما جمع شريف على أشراف في غير المضعف.

إذا سنةٌ كانت بنجدٍ محيطةً وكان عليهم رجسُها وعذابُها[(١)]

للتفسير.

والغضب عند كثيرٍ بمعنى إرادة الانتقام.

وعن ابن عباس أنَّه فسَّر الرجسَ باللعنة، والغضبَ بالعذاب، وأنشدَ له البيت السابق، وفيه خفاء.

والذاهبونَ إلى ما تقدَّم إنَّما لم يفسِّروه بالعذاب؛ لئلَّا يتكرَّر مع ما قبله، ولا يبعد أنْ يُفَسَّر «الرجسُ» بالعذاب، والغضبُ باللعن والطرد، على عكس ما نُسِب إلى ابن عباس رضي الله عنهما، ويكون في الكلام حينئذٍ إشارةٌ إلى حالهم في الأولى والأخرى. ويمكنُ إرجاع ما ذكره الكثير من المفسِّرين إلى هذا، وإلا فالظاهر أنَّه لا لطافة في قولك: وقع عليهم عذابٌ وإرادةُ انتقام. على ظاهر كلامهم. وأيًّاما كان، فالتنوينُ للتفخيم والتهويل.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ إنكارٌ واستقباحٌ لإنكارهم مجيئه عليه السلام، داعياً لهم إلى عبادة الله تعالى وحدَه، وتركِ ما كان يعبدُ آباؤهم من الأصنام.

والأسماء عبارةٌ عن تلك الأصنام الباطلة، وهذا كما يقال لما لا يليق: ما هو إلَّا مجرد اسم. والمعنى: أتخاصمونني في مسمياتٍ وضعتم لها أسماءً لا تليقُ بها، فسميتموها آلهةً من غير أنْ يكون فيها من مصداق الإلهية شيء ما؛ لأنَّ المستحقَّ للمعبوديَّة ليس إلَّا من أوجدَ الكلَّ، وهي بمعزلٍ عن إيجادِ ذرَّةٍ، وإنها لو استحقَّت لكان ذلك بجعله تعالى، إمَّا بإنزال آيةٍ، أو نصبِ حجَّة، وكلاهما مستحيل، وذلك قوله تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ أي: حجَّة ودليل، وحيثُ لم يكن ذلك في حيِّز الإمكان تحقَّق بطلانُ ما هم عليه.

والذمُّ الذي يُفهمه الكلام متوجِّهٌ إلى التسمية الخالية عن المعنى، المشحونةِ

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٢٠، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٩٦ وعزاه للطستي عن ابن عباسٍ؛ في جوابه عن سؤالات نافع بن الأزرق، وسيشير إلى ذلك المصنف قريباً، وهو في مسائل نافع بن الأزرق (٢٨٤).

بمزيد الضلالة والغواية والافتراء العظيم، وقيل: إنَّهم سمَّوها خالقةً، ورازقةً، ومُنزلةَ المطر، ونحو ذلك.

والضميرُ المنصوب في «سميتموها»: راجعٌ لـ «أسماء»، وهو ـ على ما قيل ـ المفعولُ الأول، والمفعولُ الثاني محذوفٌ حسبما أشير إليه.

وقيل: المفعولُ الأول محذوفٌ، والضمير هو المفعول الثاني، والمراد: سميتُم أصنامَكُم بها.

وقيل: المرادُ من «سمَّيتموها» وصفتموها، فلا حاجةَ له إلى مفعولين.

وحملُ الآية على ما ذُكِر أوَّلاً في تفسيرها هو الذي اختارهُ جمعٌ. وجوَّزَ بعضُهم أنْ يكون الكلامُ على حذف مضاف، أي: أتجادلونني في ذوي أسماء. وادعى آخرون جوازَ أنْ يكون فيه صنعة الاستخدام(١).

واستدلَّ بالآية من قال: إن الاسم عينُ المسمَّى، ومن قال: إنَّ اللغات توقيفيَّة، إذ لو لم تكن كذلك لم يتوجَّه الإنكار والإبطال بأنَّها أسماء مخترعة لم يُنزِل الله تعالى بها سلطاناً. ولا يخفى عليك ما في ذلك من الضعف.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزولَ العذاب الذي طلبتموه بقولكم: «فأتنا بما تعدنا» لمَّا وضح الحق وأنتم مصرُّون على العناد والجهالة ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾ لنزوله بكم.

والفاء في «فانتظروا» للترتيب على ما تقدَّم، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ فصيحةٌ، أي: فوقعَ ما وقع، فأنجيناه ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي: متابعيه في الدين ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ عظيمةٍ لا يقادر قدرها ﴿مِّنَّا﴾ أي: من جهتنا.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوف وقع نعتاً لـ «رحمة» مؤكِّداً لفخامتها على ما تقدَّم غير مرة.

﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ كنايةٌ عن الاستئصال، والدابر: الآخر، أي: أهلكناهم بالكليَّة ودمَّرناهم عن آخرهم. واستدلَّ به بعضُهم على أنَّه لا عقب لهم.

---

(١) الاستخدام: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ عطفٌ على «كذبوا» داخلٌ معه في حكم الصلة، أي: أَصَرُّوا على الكفر والتكذيب، ولم يرعووا عن ذلك أصلاً.

وفائدة هذا النفي عند الزمخشريِّ التعريضُ بمن آمن منهم[1]. وبيانه ـ على ما قال الطيبيُّ ـ: أنَّه إذا سمعَ المؤمنُ أنَّ الهلاكَ اختصَّ بالمكذِّبين، وعلم أنَّ سبب النجاةِ هو الإيمان، تزيدُ رغبتُه فيه، ويعظمُ قدرُه عنده، ونظيرُه في اعتبارِ شرف الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ الآية [غافر: ٧].

وقال بعضُهم: فائدةُ ذلك بيانُ أنَّه كان المعلومُ من حالهم أنَّه سبحانه لو لم يهلكهم ما كانوا ليؤمنوا، كما قال جلَّ شأنه في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ﴾ [يونس: ١٣] فهو كالعذر عن عدم إمهالهم والصبر عليهم.

وسرُّ تقديم حكاية الإنجاء على حكاية الإهلاك يعلم ممَّا تقدَّم.

وقصتهم ـ على ما ذكره السُّدِّيُّ ومحمد بن إسحاق وغيرهما ـ أنَّ عاداً قومٌ كانوا بالأحقاف، وهي رمالٌ بين عُمَان وحضرموت، وكانوا قد فشوا في الأرض كلِّها، وقهروا أهلَها، وكانت لهم أصنامٌ يعبدونَها، وهي صداء، وصَمُود، والهباء، فبعثَ الله تعالى إليهم هوداً عليه السلام نبيًّا، وهو من أوسطِهم نسباً، وأفضلهم حسباً، فأمرهم بالتوحيد والكفِّ عن الظلم، فكذَّبوه وازدادوا عتوّاً وتجبُّراً، وقالوا: من أشدُّ منَّا قوَّةً؟ فأمسكَ الله عنهم المطرَ ثلاثَ سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناسُ إذ ذاك إذا نزلَ بهم بلاءٌ، طلبوا رفعَه من الله تعالى عندَ بيته الحرام؛ مسلمهم ومشركهم، وأهلُ مكَّةَ يومئذٍ العمالقة، أولادُ عمليق بن لاوذ بنِ سام بن نوح، وسيِّدُهم معاوية بنُ بكر، وكانت أمُّه كهلدة[2] من عاد.

فجهزت عادٌ إلى الحرم من أماثلهم سبعين رجلاً، منهم قَيْل بن عنز[3]، ولقيم بن هزال، ولقمان بن عاد الأصغر. ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٨٨.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ووقع عند الطبري في تاريخه ١/ ٢١٩، وفي تفسيره ١٠/ ٢٧٠، وعند ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٣٦ وغيرها: كلهدة.

(٣) في تاريخ الطبري ١/ ٢١٩، و البداية والنهاية ١/ ٢٩٥: عتر.

وجلهمة خالُ معاوية بن بكر، فلمَّا قدموا مكَّة نزلُوا على معاوية، وكان خارجاً من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم، إذ كانوا أخوالَه وأصهاره، فأقاموا عنده شهراً، يشربون الخمرَ، وتغنِّيهم قينتانِ لمعاوية، اسمُ إحداهما وردة، والأخرى جرادة، ويقال لهما الجرادتان على التغليب، فلمَّا رأى طولَ مقامهم وذهولَهم باللهو عمَّا قدموا له، شقَّ ذلك عليه، وقال: هلك أصهاري وأخوالي، وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحيي أنْ يكلِّمهم خشيةَ أن يظنُّوا به ثقلَ مقامهم عنده، فشكا ذلك لقينتيه، فقالتا: قل شعراً نغنيهم به، ولا يدرون من قاله، لعلَّ ذلك أن يحرِّكهم. فقال:

ألا يا قَيْلُ ويحكَ قم فهينم[1] لعلَّ الله يسقينا[2] غماما
فتُسقى أرضُ عادٍ إنَّ عاداً قد امسَوا ما يُبينونَ الكلاما
من العطشِ الشديد فليس نرجو به الشيخَ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخيرٍ فقد أمست نساؤهم عيامى[3]
وإنَّ الوحشَ تأتيهم جهاراً ولا تخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهارَكمُ وليلَكمُ التماما
فقُبِّحَ وفدُكم من وفدِ قومٍ ولالُقُّوا التحيةَ والسلاما

فلما غنَّتا بذلك قال بعضهم لبعض: يا قوم إنَّما بعثكم قومكم يتغوَّثون بكم من البلاء الذي نزلَ بهم، وقد أبطأتم عليهم، فادخُلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم، فقال مرثد بن سعد: والله لا تُسْقَون بدعائكم، ولكن إنْ أطعتم نبيَّكم وأَنَبْتُم إلى ربِّكم سُقيتم، فأظهر إسلامَه عند ذلك وقال:

عصت عادٌ رسولَهُمُ فأمسَوا عطاشاً ما تبلُّهم السماءُ
لهم صنمٌ يقال له صَمودٌ يقابله صداءٌ والهباءُ
فبَصَّرَنا الرسولُ سبيلَ رشدٍ فأبصَرْنا الهدى وخلا العماءُ

---

(١) الهينمة: الكلام الخفي لا يفهم. وهانمه بحديث: ناجاه. انظر اللسان (هنم).

(٢) في تفسير الطبري ١٠/ ٢٧١، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٦، والبداية والنهاية ١/ ٢٩٥: يصبحنا.

(٣) العيمة: شهوة اللبن والعطش، عام يَعيم ويَعام عَيْماً وعيمة، فهو عيمان، وهي عيمى. القاموس (عيم).

وإنَّ إلــه هــودٍ هُــوْ إلــهــي عــلــى الله الــتــوكُّــلُ والــرجــاءُ

فقالوا لمعاوية: احبس عنا مَرْثَداً فلا يقدمنَّ معنا مكَّة، فإنَّه قد اتَّبعَ دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكَّة يستسقون، فخرجَ مرثد من منزل معاوية حتى أدركهم قبلَ أنْ يدعوا بشيءٍ ممَّا خرجوا له، فلما انتهى إليهم، قام يدعو الله تعالى ويقول: اللهمَّ سؤلي وحدي، فلا تدخلني في شيءٍ مما يدعوك به وفدُ عاد، وكان قَيْلٌ رأسَ الوفد، فدعا وقال: اللهمَّ اسقِ عاداً ما كنتَ تسقيهم، وقال القوم: اللهمَّ أعطِ قَيْلاً ما سألك، واجعل سؤلنا مع سؤله، فأنشأ الله تعالى سحائبَ ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثمَّ نادى منادٍ من السماء: يا قيل، اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب ما شئت، قيل: وكذلك يفعلُ الله تعالى بمن دعاه إذ ذاك، فقالَ قَيْلٌ: اخترتُ السوداءَ فإنَّها أكثرهنَّ ماء، فناداه منادٍ: اخترتَ رماداً رِمْدداً[1]، لا تبقي من آل عادٍ أحداً، وساقَ الله تعالى تلك السحابةَ بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى خرجت عليهم من وادٍ يقال له المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا، فجاءتهم منها ريحٌ عقيم، وأوَّل من رأى ذلك امرأةٌ منهم يقال لها: مهدر[2]، ولما رأته صَعقت، فلمَّا أفاقت قالوا: ما رأيت، قالت: رأيتُ ريحاً فيها كشهب النار، أمامَها رجالٌ يقودونها. فسخَّرها الله تعالى عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّام حسوماً، فلم تدع منهم أحداً إلَّا أهلكته، واعتزلَ هودٌ عليه السلام ومن معَه في حظيرةٍ، ما يصيبُهم من الريح إلَّا ما تلينُ به الجلود، وتلتذُّ الأنفس.

ثمَّ إنَّه عليه السلام أتى هو ومن معه مكَّة، فعبدوا الله تعالى فيها إلى أنْ ماتُوا.

وقبرُه عليه السلام قيل: هناك في البقعة التي بينَ الركن والمقام وزمزم. وفيها ـ كما أخرج ابنُ عساكر عن عبد الرحمن بن سابط ـ قبورُ تسعةٍ وسبعينَ نبيّاً، منهم أيضاً نوح وشعيب وصالح وإسماعيل عليهم السلام[3].

---

(١) في الأصل و(م): رمدا، والمثبت من المصادر. والرِّمْدد، بالكسر: المتناهي في الاحتراق والدقة. النهاية (رمد).

(٢) كذا في الأصل و(م)، وجاء في تاريخ الطبري ١/ ٢٢٢، ومطبوع تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٧: مهدد. وفي تفسير الطبري ١٠/ ٢٧٤، وبعض نسخ ابن كثير ـ كما أشار محققه ـ: مهد.

(٣) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٨٨.

وأخرج البخاريُّ في «تاريخه» وابن جرير وغيرهما عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّ قبره عليه السلام بحضرموت في كثيبٍ أحمر، عند رأسه سدرةٌ[1].

وأخرج ابنُ عساكر عن ابن أبي العاتكة[2] قال: قبلةُ مسجد دمشق قبرُ هود عليه السلام. وعُمِّر كما أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة ﷺ أربعَ مئةٍ واثنتين وسبعين سنة[3]. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات ـ على ما قاله القوم ﷺ ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي سماوات الأرواح ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الأبدان ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وهي ستة آلاف سنة، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، وهي من لدن خلق آدم عليه السلام إلى زمان النبي ﷺ، وهي في الحقيقة من ابتداءِ دور الخفاء، إلى ابتداء الظهور، الذي هو زمانُ ختم النبوة وظهور الولاية ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو القلبُ المحمديُّ بالتجلِّي التام، وهو التجلِّي باسمه تعالى الجامع لجميع الصفات. وللصوفية عدَّةُ عروشٍ نبهنا عليها في كتابنا «الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب» وتمامُ الكلام عليها في «شمس المعارف»[4] للإمام البوني قدِّس سرُّه[5].

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ﴾ أي: ليل البدن «النهار» أي: نهار الروح ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾ بالتهيُّؤ والاستعداد لقبوله باعتدال مزاجه ﴿حَثِيثًا﴾ أي: سريعاً. ﴿وَٱلشَّمْسَ﴾ أي: شمس الروح. ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: قمر القلب. ﴿وَٱلنُّجُومَ﴾ أي: نجوم الحواسِّ ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ الذي هو الشأنُ المذكور في قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

---

(١) التاريخ الكبير ١/ ١٣٥، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٦٨-٢٦٩، وأخرجه أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٦/ ١٣٨.

(٢) عثمان بن أبي العاتكة، أبو حفص الدمشقي القاص، توفي سنة (١٥٢هـ). التهذيب ٣/ ٦٢.

(٣) الدر المنثور ٣/ ٩٧.

(٤) ص ٢٨٧-٢٩٠.

(٥) هو أحمد بن علي بن يوسف، أبو العباس، توفي سنة (٦٦٢هـ). انظر ترجمته في كشف الظنون ص ١٠٦٢، وهدية العارفين ١/ ٩٠، وجامع كرامات الأولياء ١/ ٣٠٦.

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي: اعبدوه ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إشارة إلى طريق الجلوة والخلوة، أو ادعوه بالجوارح والقلب، أو بأداء حقِّ العبوديَّة ومطالب حق الربوبيَّة، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين عما أمروا به بترك الامتثال، أو الذين يطلبون منه سواه.

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض البدن ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بالاستعداد ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ لئلَّا يلزم إهمال إحدى صفتي الجلال والجمال.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ أي: رياحَ العناية. ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: تجلياته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ حملت ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بأمطار المحبة ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ﴾ قلبٍ ﴿مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ ماءَ المحبة ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من المشاهدات والمكاشفات ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ القلوبَ الميتة من قبور الصدور ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أيام حياتكم في عالم الأرواح، حيثُ كنتم في رياض القدس وحياض الأنس.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وهو ما طابَ استعداده ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ حسناً غزيراً نفعُه ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ وهو ما ساءَ استعداده ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ لا خير فيه.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أي: نوحَ الروح ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ من القلب وأعوانه، والنفس وأعوانها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ كالقلب وأعوانه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وهو سفينةُ الاتِّباع ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في بحار الدنيا ومياه الشهوات ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن طريق الوصول ورؤيةِ الله تعالى.

وعلى هذا المنوال يُنسج الكلام في باقي الآيات.

ولمولانا الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه في هؤلاء القوم ونحوهم كلامٌ تقفُ الأفكار دونَه حسرى، فمن أراده فليرجع إلى «الفصوص»(١) يرَ العجبَ العجاب، والله تعالى الهادي إلى سبيل الرشاد.

❁ ❁ ❁

---

(١) منع كثير من العلماء نظر العوامّ في كتب ابن عربي؛ لما فيها من الألفاظ الموهمة التي تحتاج إلى تأويل، والله أعلم.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ عطفٌ على ما سبق من قوله تعالى: «وإلى عادٍ أخاهم» موافقٌ له في تقديم المجرور على المنصوب، و«ثمود» قبيلةٌ من العرب كانت مساكنُهم الحِجْر، بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وسمِّيت باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر[١] بن إرم بنِ سام بن نوح، وقيل: ابن عاد بن عوص بن إرم إلخ، وهو المنقولُ عن الثعلبيّ[٢].

وقال [أبو] عمرو بن العلاء: إنَّما سمُّوا بذلك لقلَّة مائهم[٣]، فهو من ثمدَ الماء إذا قلَّ، والثمد[٤] الماءُ القليل. ووردَ فيه الصرفُ وعدمُه؛ أمَّا الأولُ فباعتبارِ الحيِّ، أو لأنَّه لما كان في الأصل اسماً للجدِّ أو للقليل من الماء كان مصروفاً؛ لأنَّه عَلَمٌ مذكَّرٌ، أو اسمُ جنس، فبعد النقل حَكى أصلَه. وأمَّا الثاني فباعتبارِ أنَّه اسمُ القبيلة، ففيه العلميَّةُ والتأنيث.

وصالحٌ عليه السلام من ثمود، فالأخوَّة نسبيَّةٌ، وهو على ما قال محيي السنة البغوي[٥]: ابن عبيد بن آسف بن ماشح[٦] بنِ عبيد بن حاذر[٧] بن ثمود[٨]، وهو أخو طسم وجديس فيما قيل.

---

(١) في (م): عامر، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في تفسير البغوي ٢/ ١٧٣، والكشاف ٢/ ٨٩، وتفسير البيضاوي ٣/ ١٦، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٤١.
وجاء في المحبر ص ٣٨٤، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٨٢، وتاريخ الطبري ١/ ٢٢٦، وغيرها: جاثر.

(٢) والذي في مطبوع عرائس المجالس ص ٦٨: ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٧٤، وتفسير الرازي ١٤/ ١٦١، وزاد المسير ٣/ ٢٢٣، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٤) بسكون الميم، ويحرك. القاموس (ثمد).

(٥) في تفسيره ٢/ ١٧٤.

(٦) في مطبوع تفسير البغوي: ماسح، بالسين والحاء المهملتين، وكذا وقع في عرائس المجالس ص ٦٨، وجاء في تهذيب الأسماء واللغات ـ طبعة دار الفيحاء، ١/ ٥٨٠ ـ نقلاً عن الثعلبي: ماشج. وكذا وقع في تاريخ الطبري ١/ ٢٢٦.

(٧) وقع في تاريخ الطبري، وتفسير البغوي: خادر، وفي مطبوع عرائس المجالس ص ٦٨: حاذر، وفي تهذيب الأسماء واللغات: جاذر، وفي نسخة كما ذكر محققه: جادر. ورجح أبو حيان في البحر ٤/ ٣٢٧: جائر. وانظر التعليق التالي.

(٨) قال أبو حيان في البحر المحيط ٤/ ٣٢٧: هو صالح بن آسف بن كاشح بن أروم بنِ

وقال وهب: هو ابنُ عبيد بن جابر بن ثمود بن جابر بن سام بن نوح، بُعِثَ إلى قومه حين راهقَ الحلم، وكان رجلاً أحمرَ إلى البياض، سبط الشعر، فلبثَ فيهم أربعين عاماً.

وقال الشاميّ[١]: إنَّه بعث شابّاً، فدعا قومه حتى شَمِطَ وكَبِر، ونقل النوويُّ[٢] أنه أقام فيهم عشرين سنة، ومات بمكَّة وهو ابنُ ثمانٍ وخمسين سنة.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ قد مرَّ الكلام في نظائره.

﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ﴾ أي: آيةٌ ومعجزةٌ ظاهرةُ الدلالة، شاهدةٌ بنبوَّتي، وهي من الألفاظ الجارية مجرى الأَبْطَح والأَبْرَق في الاستغناء عن ذكر موصوفاتها حالةَ الإفراد والجمع. والتنوينُ للتفخيم، أي: بينةٌ عظيمةٌ.

﴿مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ صفةً لبيِّنةٍ على ما مرَّ غير مرَّة، أو بـ «جاءتكم» و«من» لابتداء الغاية مجازاً، أو للتبعيض إن قُدِّرَ: من بيِّنات ربِّكم.

والمرادُ بهذه البينة الناقة، وليس هذا الكلام منه عليه السلام أوَّلَ ما خاطبهم به إثر الدعوة إلى التوحيد، بل إنَّما قاله بعدما نصحَهم وذكَّرهم بنعم الله تعالى، فلم يقبلوا كلامَه وكذَّبوه، كما ينبىءُ عن ذلك ما في سورة هود.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ استئنافٌ نحويٌّ مسوقٌ لبيان البينة والمعجزة، وجُوِّزَ أنْ يكون استئنافاً بيانيّاً جواباً لسؤالٍ مقدَّرٍ، تقديره: أين هي؟

= ثمود... هكذا نسبه الشريف النسابة الجواني، وهو المنتهى إليه في علم النسب. ووقع في بعض التفاسير بين صالح وآسف زيادة أب، وهو عبيد، فقالوا: صالح بن عبيد بن آسف ونقصٌ في الأجداد، وتصحيف جائر بقولهم: عابر. اهـ.

(١) هو محمد بن يوسف بن علي الشامي الصالحي، نزيل القاهرة، من مؤلفاته: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد. قال الكتاني في الرسالة المستطرفة: وهي من أحسن كتب المتأخرين في السيرة النبوية وأبسطها، انتخبها من أكثر من ثلاثمئة كتاب. اهـ.
وله أيضاً: عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان، والفوائد المجموعة في بيان الأحاديث الموضوعة، وغيرها. توفي سنة (٩٤٢هـ). انظر شذرات الذهب ١٠/ ٣٥٣-٣٥٥، والرسالة المستطرفة ص١٩٩-٢٠٠، والأعلام للزركلي ٧/ ١٥٥.

(٢) في تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٥٨١.

وعلى التقديرين لا محلَّ للجملة من الإعراب. وجوِّزَ أنْ يكون بدلاً من «بينة» بدلَ جملةٍ من مفردٍ؛ للتفسير، ولا يخفى بُعده.

وإضافةُ الناقة إلى الاسم الجليل لتعظيمها، كما يقال: بيتُ الله، للمسجد. بيدَ أنَّ الإضافة فيه لأدنى ملابسة، ولا كذلك ما نحن فيه، أو لأنَّها ليست بواسطة نتاجٍ معتادٍ، وأسبابٍ معهودة ـ كما سيتضح إنْ شاء الله تعالى لك ـ ولذلك كانت آيةً وأي آية.

وقيل: لأنَّها لم يملكها أحدٌ سواه سبحانه.

وقيل: لأنَّها كانت حُجَّة الله على قوم صالح.

وانتصاب «آية» على الحالية من «ناقةٍ»، والعاملُ فيها معنى الإشارة، وسمَّاه النحاةُ العامل المعنويَّ، و«لكم» بيانٌ لمن هي آيةٌ له، كما في: سُقْيًا لك، فيتعلَّق بمقدَّر.

وجوز أن يكون «ناقة» بدلاً من «هذه»، أو عطفَ بيانٍ له، أو مبتدأً ثانياً، و«لكم» خبراً، فـ «آية» حينئذٍ حالٌ من الضمير المستتر فيه، والعامل هو أو متعلقه.

﴿فَذَرُوهَا﴾ تفريعٌ على كونها آيةً من آيات الله تعالى. وقيل: على كونها ناقةً له سبحانه، فإنَّ ذلك ممَّا يوجبُ عدمَ التعرُّضِ لها، أي: فاتركوها ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ العشب، وحُذِف للعلم به. والفعلُ مجزومٌ لأنَّه جوابُ الأمر.

وقرأ أبو جعفر في روايةٍ عنه: «تأكلُ» بالرفع[1]، فالجملة حالية، أي: آكلة. والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بما عنده، أو بالأمر السابق، فهما متنازعان فيه[2].

وأضيفت الأرضُ إلى الله سبحانه قطعاً لعذرِهم في التعرُّض، كأنَّه قيل: الأرضُ أرض الله تعالى، والناقةُ ناقة الله تعالى، فذروا ناقةَ الله تأكل في أرضه، فليست الأرضُ لكم، ولا ما فيها من النبات من إنباتكم، فأيُّ عذرٍ لكم في منعها؟

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٠، والبحر المحيط ٤/ ٣٢٨. والقراءة المشهورة عنه كقراءة الجمهور.

(٢) قوله: فيه، ليس في (م).

وعدم التعرُّض للشرب؛ للاكتفاء عنه بذكر الأكل. وقيل: لتعميمه له أيضاً، كما في قوله:

علفتُها تبناً وماءً بارداً[1]

وقد ذكر ذلك في قوله[2] سبحانه: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهى عن المسِّ الذي هو مقدِّمةُ الإصابة بالشرِّ الشامل لأنواع الأذى، مبالغةً في الزجر، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بالفعل، والتنكير للتعميم، أي: لا تتعرَّضوا لها بشيءٍ ممَّا يسوءُها أصلاً، كالطرد والعقر وغير ذلك.

وقيل: الجار والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من فاعل الفعل، والمعنى: لا تمسُّوها مع قصد السوء بها فضلاً عن الإصابة، فهو كقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣].

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ منصوبٌ في جواب النهي، والمعنى: لا تجمعوا بين المسِّ وأخذ العذاب إياكم. والأخيرُ وإنْ لم يكن من صنيعهم حقيقةً، لكن لتعاطيهم أسبابَه كأنَّه من صنيعهم.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي: خلفاء في الأرض، أو خلفاء لهم. قيل: ولم يقل: خلفاء عادٍ، مع أنَّه أخصرُ؛ إشارةً إلى أنَّ بينهما زماناً طويلاً.

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ أي: أنزلكم، وجعل لكم مباءةً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض الحِجْر بين الحجاز والشام.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون في سهولها مساكنَ رفيعةً، فـ «من» بمعنى «في» كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]

---

(١) سلف ٥/ ٢٩١.
(٢) في (م): بقوله.

ويجوزُ أنْ تكون ابتدائيةً أو تبعيضيةً، أي: تعملون القصورَ من مادَّةٍ مأخوذةٍ من السهل، كاللبِن والآجرِّ المتَّخَذَيْنِ من الطين.

والجار والمجرور ـ على ما قال أبو البقاء[1] ـ يجوز أن يتعلق بمحذوف وقع حالاً مما بعده، وأنْ يكون مفعولاً ثانياً لـ «تتخذون»، وأنْ يكون متعلِّقاً به وهو متعدٍّ لواحدٍ.

والسهلُ خلاف الحَزْن، وهو موضعُ الحجارة والجبال.

والجملةُ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفيَّة التبوئة، فإنَّ هذا الاتخاذ بإقداره سبحانه.

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ﴾ أي: تنجُرونها، والنحتُ معروفٌ في كلِّ صلب، ومضارعُه مكسور الحاء، وقرأ الحسن بالفتح لحرف الحلق[2]، وفي «القاموس»[3] عنه أنَّه قرأ: «تنحاتون» بالإشباع كينباع.

وانتصابُ «الجبال» على المفعولية. وقولُه سبحانه: ﴿بُيُوتًا﴾ نُصِبَ على أنَّه حالٌ مقدَّرةٌ منها؛ لأنَّها لم تكن حالَ النحت بيوتاً، كـ : خِطْتُ الثوبَ جُبَّةً، والحاليَّة ـ كما قال الشهاب[4] ـ باعتبار أنها بمعنى: مسكونة، إنْ قيل بالاشتقاق فيها.

وقيل: انتصابُ «الجبال» بنزع الخافض، أي: من الجبال. ويرجِّحه أنَّه وقعَ في آية أخرى كذلك[5]، ونصب «بيوتاً» على المفعولية. وجُوِّزَ أنْ يضمَّنَ النحتُ معنى الاتخاذ، فانتصابُهما على المفعوليَّة.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم اتخذوا القصورَ في السهول ليصيِّفوا فيها، ونحتُوا من الجبال بيوتاً ليشتُّوا فيها. وقيل: إنَّهم نحتوا الجبالَ بيوتاً لطول أعمارهم، وكانت الأبنية تَبلى قبلَ أنْ تبلَى أعمارهم.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٣٢-٣٣.

(٢) القراءات الشاذة ص ٤٤، وزاد نسبتها للأعرج.

(٣) مادة (نحت). وأوردها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٤.

(٤) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٤/ ١٨٤.

(٥) في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمَه التي أنعم بها عليكم ممَّا ذُكر، أو جميعَ نعمِه، ويدخل فيها ما ذُكر دخولاً أوليًّا. وليس المراد مجردَ الذكر باللسان كما علمت.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ فإنَّ حقَّ آلائه تعالى أنْ تُشْكَرَ ولا يُغْفَلَ عنها، فكيف بالكفر؟

والعِثيُّ الإفساد، فـ «مفسدين» حالٌ مؤكِّدة، كما في ﴿وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي: الأشرافُ الذين عتوا وتكبَّروا، والجملة استئنافٌ كما مرَّ غيرَ مرة.

وقرأ ابنُ عامر: «وقال» بالواو[1]، عطفاً على ما قبلَه من قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ إلخ.

واللام في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ أي: عُدُّوا ضعفاءَ أذلَّاءَ، للتبليغ كما في: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدلٌ من الموصول بإعادة العامل بدَل الكلِّ من الكل، كقولك: مررت بزيدٍ بأخيك، والضميرُ المجرور راجعٌ إلى قومه.

وجُوِّز أن يكون بدلَ بعضٍ من كلٍّ، على أنَّ الضميرَ للذين استضعفوا، فيكون المستضعفونَ قسمين؛ مؤمنين وكافرين، ولا يخفى بعدُه.

والاستفهام في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ للاستهزاء؛ لأنَّهم يعلمون أنهم عالمونَ بذلك، ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر، كما حكى سبحانه عنهم بقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ فإنَّ الجواب الموافقَ لسؤالهم: نعم، أو: نعلمُ أنَّه مرسلٌ منه تعالى؛ ومن هنا قال غيرُ واحدٍ: إنَّه من الأسلوب الحكيم، فكأنَّهم قالوا: العلمُ بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه، ولا شبهةَ تَدْخُلُه؛ لوضوحه وإنارته، وإنَّما الكلامُ في وجوبِ الإيمان به، فنخبرُكم أنَّا به مؤمنون.

---

(١) التيسير ص ١١١، والنشر ٢/ ٢٧٠.

واختار في «الانتصاف»[١] أنَّ ذلك ليس إخباراً عن وجوب الإيمان به، بل عن امتثال الواجب، فإنَّه أبلغُ من ذلك، فكأنَّهم قالوا: العلمُ بإرساله وبوجوب الإيمان به لا نُسألُ عنه، وإنَّما الشأن في امتثال الواجبِ والعمل به، ونحن قد امتثلنا.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ استئنافٌ كما تقدم، وأعيدَ الموصولُ مع صلته مع كفاية الضمير إيذاناً بأنَّهم قالوا ما قالوه بطريقِ العتوِّ والاستكبار.

﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾ عدولٌ عن مقتضى الظاهر أيضاً، وهو: إنَّا بما أرسلَ به كافرون، وفائدته ـ كما قالوا ـ الردُّ لما جعلَه المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلَّماً، كأنهم قالوا: ليس ما جعلتموه معلوماً مسلَّماً من ذلك القبيل.

وقال في «الانتصاف»[١]: عدلوا عن ذلك حذراً ممَّا في ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحدونَها. وليس هذا موضعَ التهكُّم ليكون كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧] فإنَّ الغرضَ إخبارُ كلٍّ واحدٍ من المؤمنين والمكذِّبين عن حاله، فلذا خلَّصَ الكافرونَ قولَهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر وغلوّاً في الإصرار.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أي: نحروها. قال الأزهريُّ: أصلُ العقرِ عند العرب قطعُ عرقوبِ البعير، ثم استعملَ في النحرِ؛ لأنَّ ناحر البعير يعقرُه ثمَّ ينحرُه[٢]. وإسنادُه إلى الكلِّ مع أنَّ المباشِر البعضُ مجازٌ لملابسة الكلِّ لذلك الفعل؛ لكونه بين أظهرهم، وهم متَّفِقون على الضلال والكفر، أو لرضا الكلِّ به، أو لأمرهم كلِّهم به، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩].

وقيل: إنَّ العقرَ مجازٌ لغويٌّ عن الرضا بالنسبة إلى غير فاعله، وليس بشيءٍ.

﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: استكبروا عن امتثاله، وهو ما بلَّغهم صالحٌ عليه السلام من الأمر السابق، فالأمرُ واحدُ الأوامر. وجوِّزَ أنْ يكون واحدَ الأمور، أي: استكبروا عن شأن الله تعالى ودينه، وهو بعيد.

(١) الانتصاف ٢/ ٩١.
(٢) تهذيب اللغة ١/ ٢١٥.

وأوجب بعضهم على الأول أن يُضمَّن «عَتَوا» معنى التولِّي، أي: تولَّوا عن امتثال أمره عاتين، أو معنى الإصدار، أي: صَدَر عتوُّهم عن أمر ربهم وبسببه؛ لأنَّه تعالى لما أمرَهم بقوله: «فذروها» إلخ ابتلاهم، فما امتثلوا، فصاروا عاتين بسببه، ولولا الأمر ما ترتَّب العقرُ، والداعي للتأويل بتولَّوا أو صَدَر أنَّ عتا لا يتعدَّى بـ «عن»، فتعديتُه به لذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: ٨٢] وبعضُهم لا يقول بالتضمين؛ بناءً على أنَّ عتا بمعنى استكبرَ كما في «القاموس»(١)، وهو يتعدى بـ «عن»، فافهم.

﴿وَقَالُواْ﴾ مخاطِبين له عليه السلام بطريق التعجيز والإفحام على زعمهم الفاسد: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب، وأُطلِق للعلم به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فإنَّ كونَك منهم يقتضي صدقَ ما تقول من الوعد والوعيد.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ قال الفرَّاء والزجَّاج: أي الزلزلةُ الشديدة(٢).

وقال مجاهدٌ والسدِّيُّ: هي الصيحة.

وجمع بين القولين بأنَّه يحتملُ أنَّه أخذتهم الزلزلةُ من تحتهم، والصيحةُ من فوقهم.

وقال بعضهم: الرجفةُ خفقانُ القلب واضطرابُه حتى ينقطع.

وجاء في موضعٍ آخر: «الصيحة»(٣)، وفي آخر: «بالطاغية»(٤). ولا منافاةَ بين ذلك كما زعم بعضُ الملاحدة، فإنَّ الصيحةَ العظيمةَ الخارقة للعادة حصل منها الرجفة لقلوبهم، ولعظَمها وخروجِها عن الحدِّ المعتاد تسمَّى: الطاغية؛ لأنَّ الطغيانَ مجاوزةُ الحدِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ﴾ [الحاقة: ١١].

أو يقال: إن الإهلاك بذلك بسبب طغيانهم، وهو معنى «بالطاغية».

وهذا الأخذُ ليس إثرَ ما قالوا ما قالوا، بل بعدَ ما جرى عليهم ما جرى من مبادي العذاب في الأيام الثلاثة، كما ستعلمُه إنْ شاء الله تعالى، والفاء لا تأبى ذلك.

---

(١) مادة (عتو).

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٤، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥١.

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

(٤) في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾ هامدينَ موتى لا حَرَاكَ بهم، وأصلُ الجثوم: البروكُ على الركب.

وقال أبو عبيدة: الجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للإبل، فجثومُ الطير هو وقوعُه لاطئاً بالأرض في حال سكونه بالليل.

و«أصبح» يحتملُ أنْ تكون تامَّة، فـ «جاثمين» حالٌ، وأنْ تكون ناقصةً، فـ «جاثمين» خبر، والظرفُ على التقديرين متعلِّقٌ به. وقيل: هو خبر، و«جاثمين» حالٌ. وليس بشيءٍ؛ لإفضائه إلى كون الإخبار بكونهم في دارهم مقصوداً بالذات.

والمرادُ من الدار البلد، كما في قولك: دارُ الحرب ودار الإسلام. وقد جمع في آية أخرى[1]، بإرادة مَنزل كلٍّ واحدٍ الخاصِّ به.

وذكر النيسابوريُّ[2] أنّه حيثُ ذكرت الرجفة وُحِّدتِ الدار، وحيثُ ذكرت الصيحة جمعت؛ لأنَّ الصيحةَ كانت من السماء، كما في غالب الروايات، لا من الأرض، كما قيل، فبلوغُها أكثر وأبلغ من الزلزلة، فقُرن كلٌّ منهما بما هو أليقُ به، فتدبر.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بعد أن جرى عليهم ما جرى ـ على ما هو الظاهرُ ـ مغتمّاً متحسِّراً على ما فاتهم من الإيمان متحزِّناً عليهم.

﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بالترغيب والترهيب، ولم آلُ جهداً، فلم يُجدِ نفعاً، ولم تقبلوا منِّي.

وصيغة المضارع في قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، أي: شأنُكم الاستمرارُ على بغض الناصحين وعدواتهم.

وخطابُه عليه السلام لهم كخطابِ رسول الله ﷺ قتلى المشركين حين أُلقُوا في قليب بدر، حين نادى: «يا فلان يا فلان» بأسمائهم «إنّا وجدنَا ما وعدنا ربُّنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعدَ ربكم حقًّا؟»[3] وذلك مبنيٌّ على أنَّ الله تعالى يردُّ أرواحَهم إليهم فيسمعونَ، وذلك مما خُصَّ به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

(٢) في غرائب القرآن ٨/ ١٦٧.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٤)، وأحمد (١٤٠٦٤) عن أنس رضي الله عنه.

ويحتملُ أنَّه عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التحزُّن والتحسُّر، كما تخاطب الديار والأطلال.

وجُوِّز عطفُ «فتولَّى» على «فأخذتهم الرجفة»، فيكون الخطابُ لهم حين أشرفوا على الهلاك، لكنَّه خلافُ الظاهر.

وأبعدُ من ذلك ما قيل: إنَّ الآيةَ على التقديم والتأخير، فتقديرها: فتولَّى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم، ولكن لا تحبون الناصحين، فأخذتهم الرجفةُ فأصبحوا في دارهم جاثمين.

وقصةُ ثمود ـ على ما ذكر ابنُ إسحاق وغيره ـ أنَّ عاداً لمَّا هلَكوا عَمِرتْ ثمودُ بعدها، واستُخلفوا في الأرض، وعُمِّروا حتى جَعل أحدُهم يبني المسكن من المدر، فينهدمُ والرجل حيٌّ، فلما رأوا ذلك اتَّخذوا من الجبال بيوتاً، وكانوا في سَعةٍ من معاشهم، فعتوا في الأرض، وعبدُوا غيرَ الله تعالى، فبعثَ الله تعالى إليهم صالحاً، وكانوا قوماً عرباً، وكان صالحٌ عليه السلام من أوسطهم نسباً، وبُعِثَ إليهم وهو شابٌّ، فدعاهم إلى الله تعالى حتى شَمِط وكَبِر، ولم يتَّبِعه منهم إلَّا قليلٌ مستضعفون، فلمَّا ألحَّ عليهم بالدعاء والتخويف سألوه أنْ يريهم آيةً تُصَدِّقُ ما يقول، فقال لهم: أيَّةَ آيةٍ تريدون؟ فقالوا: تخرج غداً معنا إلى عيدنا ـ وكان لهم عيدٌ يخرجون فيه بأصنامهم ـ فتدعو إلهك، وندعوا آلهتنا، فإن استجيبَ لك اتَّبعناك، وإن استجيبَ لنا اتبعتنا. فقال لهم صالح: نعم. فخرجوا وخرج معهم، فدعوا أوثانهم، وسألوها أنْ لا يستجاب لصالح في شيءٍ ممَّا يدعو به.

ثم قال جُنْدَع بن عمرو بن حراش[1] ـ وهو يومئذٍ سيِّد ثمودٍ ـ: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة ـ لصخرةٍ منفردةٍ ناحيةَ الحِجْر، يقال لها: الكاثِبة ـ ناقةً مخترجةً ـ أي: تشاكل البُخْت، أو مخرجة على خلقةِ الجمل ـ جوفاءَ وبراء، فإنْ فعلتَ صدَّقناك وآمنا بك. فأخذَ عليهم صالح مواثيقَهم: لئن فعلتُ لتصدقُنِّي ولتؤمنُنَّ بي، قالوا: نعم. فصلى ركعتين، ودعا ربَّه، فتمخَّضتِ الصخرة تمخُّضَ النَّتُوج بولدها،

---

(١) كذا في الأصل و(م) وتفسير البغوي ٢/ ١٧٥. وجاء في تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٧، وعرائس المجالس ص ٦٨، والبداية والنهاية ١/ ٣١١: جواس.

فانصدعت عن ناقة عشراءَ وجوفاءَ وبراءَ كما وَصفوا، لا يَعلم ما بينَ جنبيها إلّا الله تعالى عِظَماً، وهم ينظرون، ثمَّ نَتَجَتْ ولداً مثلها في العِظَم، فآمن به جُنْدَع ورَهْطٌ من قومه، وأرادَ أشرافهم أنْ يؤمنوا به، فمنعَهم ذؤاب بنُ عمرو[1] بن لبيد، والحبابُ صاحب أوثانهم، ورباب بن صعر[2] كاهنهم.

فلمَّا خرجَت الناقة قال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. فمكثت الناقةُ ومعها سَقْبها[3] في أرضهم، ترعى الشجر، وتشربُ الماء، وكانت تَرِدُه غبّاً، فإذا كان يومُها وضعتْ رأسها في بئرٍ في الحِجْر يقال له الآن: بئرُ الناقة، فما ترفع رأسها حتى تشربَ كلَّ ما فيها. ثم ترفعُ رأسها وتتفحَّجُ[4] لهم، فيحلبون ما شاؤوا من اللبن، فيشربون ويدَّخرون، ثم تصدرُ من غير الفجِّ الذي وَردت منه، لا تقدرُ تصدرُ من حيث تردُ؛ لضيقه عنها، حتى إذا كان الغد يومهم، فيشربون ما شاؤوا، ويدَّخرون ما شاؤوا ليوم الناقة، ولم يزالوا في سَعة ورغد.

وكانت الناقةُ تَصِيفُ إذا كان الحرُّ بظهر الوادي، فتهربُ منها مواشيهم، وتهبط إلى بطن الوادي في حرِّه وجدبه، وتشتو في بطن الوادي، فتهربُ مواشيهم إلى ظهره في بردٍ وجدب، فأضرَّ ذلك بمواشيهم؛ للأمر الذي يريدُه الله تعالى بهم والبلاء والاختبار، فكبر ذلك عليهم، فعتَوا عن أمر ربِّهم، فأجمعوا على عقرها.

وكانت امرأتان من ثمود، يقال لإحداهما: عُنيزة بنت غنم بن مجلز[5]، وتكنى بأمِّ غنم، وكانت امرأةَ ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزاً مسنَّةً ذات بناتٍ حسان،

---

(١) كذا في الأصل و(م). وتفسير الطبري ١٠/ ٢٨٧، وعرائس المجالس ص ٦٩، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٠، ووقع في تفسير البغوي ٢/ ١٧٦، والبداية والنهاية ١/ ٣١١: ذؤاب بن عمر.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ووقع في تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٧، وعرائس المجالس ص ٦٩، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٠: صمعر. وفي تفسير البغوي: صمغر.

(٣) السَّقْب: ولد الناقة. لسان العرب (سقب).

(٤) أي: تفرج ما بين رجليها للحلب. حاشية الخفاجي ٤/ ١٨٥.
والفحج كما في اللسان (فحج): تباعد ما بين أوساط الساقين في الإنسان والدابة.

(٥) في عرائس المجالس: مخلد.

وذات مالٍ من إبلٍ وبقرٍ وغنم. ويقال للأخرى: صدوق[١] بنت المختار[٢]، وكانت جميلةً غنيَّةً ذاتَ مواشٍ كثيرة، وكانت من أشدِّ الناس عداوةً لصالح عليه السلام، وكانتا تحبَّان عقرَ الناقة لمَا أضرَّت من مواشيهما، فدعت صدوقُ رجلاً يقال له: الحباب، لعقر الناقة، وعرضت عليه نفسَها إنْ هو فعل، فأبى، فدعت ابنَ عمٍّ لها يقال له: مِصْدَع بن مَهْرج، وجعلت له نفسَها إنْ هو فعل، فأجابَها إلى ذلك، ودعت عنيزة أم غنم قُدَار بن سَالف، وكان رجلاً أحمرَ أزرقَ قصيراً، يزعمون أنه لزنْيَةٍ ولم يكن لسالف، لكنَّه وُلِد على فراشه، فقالت: أعطيك أيَّ بناتي شئتَ على أنْ تعقر الناقة، وكان عزيزاً منيعاً في قومه، فرضي، وانطلقَ هو ومصدع، فاستغويا غواةَ ثمود، فاتَّبعهم سبعة، فكانوا تسعةَ رهط، فانطلقوا ورصدوا الناقة، حتى صدرت عن الماء، وقد كمن لها قُدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدعٌ في أصل أخرى، فمرَّت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم به عضلةَ ساقها، وخرجت أم غنم، فأمرت إحدى بناتها، وكانت من أحسن الناس وجهاً، فسفرت عن وجهها؛ ليراها قُدار، ثم حثَّته على عقرها، فشدَّ على الناقة بالسيف، فكشفَ عن عرقوبها[٣]، فخرَّت ورغت رَغَاةً واحدة، فتحدَّر سَقْبها من الجبل[٤]، ثمَّ طعن قُدَار في لبَّتها، فنحَرها، فخرجَ أهل البلدة فاقتسموا لحمها.

فلمَّا رأى سَقْبها ذلك انطلق هارباً، حتى أتى جبلاً منيعاً[٥]، يقال له: قارة، فرغا ثلاثاً.

---

(١) كذا في الأصل و(م) وعرائس المجالس، ونسخة كما في هامش البداية والنهاية ١/ ٣١٣. وفي بقية المصادر: صدوف.

(٢) كذا في الأصل و(م). وفي المصادر: بنت المحيَّا.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والبداية والنهاية ١/ ٣١٣، وفي عرائس المجالس ص ٧١، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥١٥، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٧: فكشف عرقوبها. ووقع في تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٢، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٤١: فكسف.
ورجح العلامة محمود شاكر في تعليقه على تفسير الطبري ١٢/ ٥٣٤: فخشف، وذكر أنها جاءت غير منقوطة في النسخة الخطية، وأن معنى الخشف: الشدخ. والله أعلم.

(٤) والسياق كما في المصادر: ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها، ثم طعن. . .

(٥) في تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٢: منيفاً.

وكان صالحٌ عليه السلام قال لهم: أدركوا الفصيلَ عسى أنْ يدفع عنكم العذاب، فخرجوا في طلبه، فرأوه على الجبل، وراموه فلم ينالوه، وانفجَّت[1] الصخرةُ بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: لكلِّ رَغوةٍ أجلُ يوم ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وعن ابن إسحاق أنَّه تبع السقب من التسعة أربعةٌ، وفيهم مصدع، فرماه بسهمٍ فأصاب قلبه، ثمَّ جرَّ برجله فأنزله، وألقوا لحمه مع لحم أمه.

وقال لهم صالح: انتهكتم حرمةَ الله تعالى، فأبشروا بعذابه ونقمته. فكانوا يهزؤون به، ويقولون: متى هو، وما آيته؟ فقال: تصبحون غداً ـ وكان يوم الخميس ـ ووجوهكم مصفرَّة، وبعد غدٍ ووجوهكم محمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودَّة، ثم يُصبِّحكم العذابُ. فهمَّ أولئك الرهط بقتله، فأتوه ليلاً، فدمغتهم الملائكةُ بالحجارة، فلمَّا أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح، فوجدوهم قد رُضِخوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتَهم، ثمَّ همُّوا به، فمنعَ عنه عشيرته، ثمَّ لمَّا رأوا العلامات طلبوه ليقتلوه، فهرب ولحقَ بحيٍّ من ثمود يقال لهم: بنو غنم، فنزل على سيِّدهم واسمه نفيل، ويكنى بأبي هدب، فطلبوه منه، فقال: ليس لكم إليه سبيل، فتركوه، وشغلَهم ما نزل بهم.

ثمَّ خرج عليه السلام ومن معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين.

ولمَّا كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنَّطوا بالصَّبِر[2]، وتكفَّنوا بالأنطاع[3]، فأتتهم صيحةٌ من السماء، فتقطَّعت قلوبُهم وهلكوا جميعاً، إلَّا جاريةً مقعدةً، يقال

---

(١) بتشديد الجيم بعد الفاء، أي انشقت. حاشية الشهاب ٤/ ١٨٥. ووقع في عرائس المجالس ص ٧٢، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٧: وانفجرت.

(٢) تحنطوا من الحنوط، وهو ما يطيب به الميت، والصبِر، بكسر الباء: صمغ مرٌّ، وإنما تحنطوا به لئلا تأكلهم الهوام والسباع. حاشية الشهاب ٤/ ١٨٥.

(٣) جمع نِطَع، بكسر النون، وفتح الطاء، وقد تسكَّن، وهو بساط من الجلد، كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل، يقال: علي بالسيف والنطع، وكسا بيت الله بالأنطاع. انظر حاشية الشهاب ٤/ ١٨٥، والمعجم الوسيط (نطع).

لها: ذريعة بنت سلف[1]، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام، فأطلقَ الله تعالى رجليها بعد أن عاينت العذاب، فخرجت مسرعةً حتى أتت وادي القرى، فأخبرتهم الخبرَ، ثمَّ استسقت ماء فسقيت، فلمَّا شربت ماتت.

وكان رجلٌ منهم يقال له: أبو رغالٍ ـ وهو أبو ثقيف ـ في حرم الله تعالى، فمنعه الحرمُ من عذابِ الله تعالى، فلمَّا خرجَ أصابَه ما أصابهم، فدفن ومعه غصنٌ من ذهب.

ورويَ أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ بقبره فأخبر بخبره، فابتدرَه الصحابة ﵃ بأسيافهم، فحفروا عنه، واستخرجوا ذلك الغصن[2].

وروي أنَّه عليه السلام خرجَ في مئةٍ وعشرين من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخانَ ساطعاً، فعلم أنَّهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسَ مئة دار. وروي أنَّه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال: إنَّ صالحاً لمَّا نجا هو والذين معه قال: يا قوم إنَّ هذه دارٌ قد سخط الله تعالى عليها وعلى أهلها، فاظعنوا والحَقوا بحرم الله تعالى وأمنه، فأهلُّوا من ساعتهم بالحجِّ، وانطلقوا حتى وردوا مكَّة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، فتلكَ قبورُهم في غربيِّ الكعبة.

---

(١) اضطربت المصادر في اسمها. انظر عرائس المجالس ص ٧٣، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٨، وانظر تعليق العلامة محمود شاكر على تفسير الطبري ١٢/ ٥٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٨٨) من حديث عبد الله بن عمرو، ولفظه: فابتدره الناس فاستخرجوا الغصن. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٦٥: وأمَّا لفظ: «فبحثوا عنه بأسيافهم» فأخرجه عبد الرزاق في تفسيره [١/ ٢٣٢] عن معمر مرسلاً. اهـ.
وذكر ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٤٣ حديث أبي داود، ثم نقل عن شيخه المزي أنه قال: وهو حديث حسن عزيز.
ثم قال: قلت: تفرد بوصله بُجير بن أبي بجير، وهو شيخٌ لا يعرف إلا بهذا الحديث، قال يحيى بن معين: ولم أر أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية، قلت: وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، ممَّا أخذه من الزاملتين. قال شيخنا أبو الحجاج [وهو المزي] بعد أن عرضت عليه هذا: وهذا محتمل، والله أعلم. انتهى كلام ابن كثير.

وروى ابن الزبير عن جابر أنَّ نبينا ﷺ لمَّا مرَّ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخلنَّ أحدٌ منكم القريةَ، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلَّا أنْ تكونوا باكين، أنْ يصيبَكم مثل الذي أصابهم»(١).

وذكر محيي السنَّة البغوي أنَّ المؤمنين الذين مع صالحٍ كانوا أربعة آلاف، وأنه خرجَ بهم إلى حضرموت، فلمَّا دخلَها مات عليه السلام، فسميت لذلك حضرموت، ثم بنى الأربعة آلاف مدينةً يقال لها: حاضوراء، ثمَّ نقلَ عن قومٍ من أهل العلم أنَّه توفي بمكَّة وهو ابنُ ثمانٍ وخمسين سنة(٢). ولعله المعول عليه.

وجاء أنَّ أشقى الأولين عاقرُ الناقة، وأشقى الآخرين قاتلُ عليٍّ كرمَ الله تعالى وجهَه، وقد أخبر ﷺ بذلك علياً رضي الله عنه(٣). وعندي أنَّ أشقى الآخِرين أشقى من أشقى الأولين، والفرق بينهما كالفرق بين عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والناقة. وقد أشارت الأخبار بل نطقت بأنَّ قاتلَ الأمير كان مستحلًّا قتله، بل معتقداً الثوابَ عليه، وقد مدحَه أصحابُه على ذلك، فقال عمران بن حطَّان(٤) غضب الله تعالى عليه:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها ... إلَّا ليبلغَ من ذي العرش رضوانا
إنـي لأذكرُه يوماً فأحسِبه ... أوفى البريَّة عند الله ميزانا(٥)

---

(١) أورده أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره ٤/ ٢٥٧، وفيه بدل ابن الزبير: أبو الزبير، وزاد بعده: «أما بعد، لا تسألوا رسولكم الآيات... إلخ» وهذه الزيادة أخرجها أحمد في مسنده (١٤١٦٠) من طريق أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه. والقسم الأول أخرجه البخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. ولعل جعله من حديث جابر وهم من الثعلبي رحمه الله.

(٢) تفسير البغوي (على هامش تفسير الخازن) ٢/ ٢٦٠.

(٣) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٤٨٥)، والطبراني في الكبير (٧٣١١) من حديث صهيب. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٣٦: وفيه رشدين بن سعد، وقد وثق، وبقية رجاله ثقات. اهـ. وله شاهد من حديث علي وعمار بن ياسر. انظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص ٦٥، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٨٨).

(٤) السدوسي البصري، كان من شعراء الخوارج ودعاتهم، وكان من القعدة، لأن عمره طال فضعف عن الحرب، فاقتصر على الدعوة والتحريض، وكان قبل أن يفتن مشتهراً بطلب العلم والحديث، فروى عن عائشة وأبي موسى الأشعري وابن عباس، ثم ابتلي فضلَّ. (ت ٨٤هـ). الأغاني ١٨/ ١٠٩-١٢٠، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٤-٢١٦.

(٥) خزانة الأدب ٥/ ٣٥١، وشعراء الخوارج - جمع إحسان عباس - ص ١٤٧.

ولله درُّ من قال:

يا ضربةً من شقيٍّ أَوْرَدَتْه لظى ... فسوف يلقى بها الرحمنَ غضبانا
كأنَّه لم يُرِد شيئاً بضربته ... إلا ليصلَى غداً في الحشر نيرانا
إنِّي لأذكرُه يوماً فألعنُه ... كذاك ألعن عمران بن حطانا[١]

وكون فعله كان عن شبهةٍ تنجيه؛ ممَّا لا شبهةَ في كونه ضرباً من الهذيان، ولو كان مثلُ تلك الشبهةِ منجياً من عذاب مثل هذا الذنب، فليفعل الشخصُ ما شاء. سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

وقد ضُربت بقُدار عاقرِ الناقة الأمثال، وما ألطف قول عمارة اليمني[٢]:

لا تعجبا لقُدار ناقة صالح ... فلكلِّ عصر ناقةٌ وقُدار[٣]

وفي هذه القصَّة رواياتٌ أُخَرُ، تركناها اقتصاراً على ما تقدَّم؛ لأنه أشهر.

﴿وَلُوطًا﴾ نصب بفعلٍ مضمر، أي: أرسلنا، معطوف على ما سبق، أو به من غير حاجةٍ إلى تقدير، وإنما لم يذكر المرسل إليهم على طرز ما سبق وما لحق؛ لأن قومَه ـ على ما قيل ـ لم يُعهَدوا باسمٍ معروف يقتضي الحالُ ذكرَه عليه السلام مضافاً إليهم، كما في القصص من قبل ومن بعد.

وهو ابن هاران بن تارخ، وابنُ إسحاق ذكرَ بدل تارخ[٤] آزر، وأكثرُ النسَّابين على أنَّه عليه السلام ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ورواه في «المستدرك»[٥] عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

---

(١) البيتان الأولان لبكر بن حماد التاهرتي من قصيدة طويلة، ذكرها ـ باختلاف يسير ـ السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ١/ ٢٨٨-٢٨٩، وعنه البغدادي في الخزانة ٥/ ٣٥٢-٣٥٣. والبيت الأخير هو للقاضي أبي الطيب الطبري، كما في المصدرين السابقين.

(٢) هو أبو محمد، عمارة بن علي بن زيدان الحكمي المَذْحِجي، الشاعر الفقيه، من مؤلفاته: أخبار اليمن، والنكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، (ت ٥٦٩هـ)، وفيات الأعيان ٣/ ٤٣١، والأعلام للزركلي ٥/ ٣٧.

(٣) النكت العصرية لعمارة ص ٦٣-٦٥، والروضتين ١/ ٣٩٦.

(٤) في العرائس ص ١٠٥، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ١٥٣: تارَح، بالمهملة. وفيهما أن تارح هو آزر.

(٥) ٢/ ٥٦١.

وأخرج ابنُ عساكر عن سليمان بن صرد أنَّ أبا لوطٍ عليه السلام عمُّ إبراهيم عليه السلام[١].

وقيل: إن لوطاً كان ابن خالة إبراهيم، وكانت سارة زوجتُه أختَ لوطٍ.

وكان في أرض بابل من العراق مع إبراهيم، فهاجر إلى الشام، ونزل فلسطين، وأنزل لوطاً الأردن، وهو كُورةٌ[٢] بالشام، فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، وهي بلدةٌ بحمص.

وأخرج إسحاقُ بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس قال: أُرسِل لوطٌ إلى المؤتفكات، وكانت قرى لوطٍ أربع مدائن: سدوم، وأمورا، وعامورا، وصبوير، وكان في كلِّ قريةٍ مئة ألف مقاتل، وكانت أعظم مدائنهم سدوم، وكان لوطٌ يسكنُها، وهي من بلاد الشام ومن فلسطين مسيرةُ يومٍ وليلة[٣].

وهذا اللفظ ـ على ما قال الزجَّاج[٤] ـ اسمٌ أعجميٌّ غيرُ مشتقٍّ؛ ضرورةَ أنَّ العجميَّ لا يشتقُّ من العربيّ، وإنما صُرِف لخفته بسكونِ وسطه.

وقيل: إنَّه مشتقٌّ من لطتُ الحوضَ: إذا ألزقتُ عليه الطين، ويقال: هذا ألوَطُ بقلبي من ذلك، أي: ألصقُ به، ولاطَ الشيء: أخفاه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرفٌ لـ «أرسلنا» كما قال غير واحد. واعتُرِضَ بأنَّ الإرسال قبلَ وقت القول، لا فيه كما تقتضيه هذه الظرفية. ودُفِع بأنَّه يعتبر الظرف ممتدّاً، كما يقال: زيدٌ في أرض الروم، فهو ظرفٌ غير حقيقي، يُعتَبر وقوعُ المظروفِ في بعض أجزائه، كما قرره القطب.

وجُوِّز أن يكون «لوطاً» منصوباً بـ «اذكر» محذوفاً، فيكون من عطف القصَّة على القصة، و«إذ» بدلٌ من «لوط» بدل اشتمال؛ بناءً على أنَّها لا تلزم الظرفية. وقال

---

(١) تاريخ دمشق ٥٠/ ٣٠٨.
(٢) في الأصل و(م): الكرة. والتصويب من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٤. وعنه نقل المصنف. والكورة بالضم: المدينة والصقع. القاموس (كور).
(٣) الدر المنثور ٣/ ١٠٠، وتاريخ ابن عساكر ٥٠/ ٣٠٩.
(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٢.

أبو البقاء[١]: إنَّه ظرف الرسالة محذوفاً، أي: واذكر رسالةَ لوطٍ إذ قال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ استفهامٌ على سبيل التوبيخ والتقريع، أي: أتفعلونَ تلك الفعلة التي بلغت أقصى القبح وغايتَه.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: ما عملها أحدٌ قبلكم في زمنٍ من الأزمان، فالباء للتعدية كما في «الكشاف»، من قولك: سبقته بالكرة، إذا ضربتَها قبله، ومنه ما صحَّ من قوله ﷺ: «سبقَك بها عكاشة»[٢].

وتعقَّبهُ أبو حيَّان بأن معنى التعدية هنا قلقٌ جدًّا؛ لأنَّ الباءَ المعدِّيَة في الفعل المعدَّى إلى واحد تجعلُ المفعولَ الأول يفعلُ ذلك الفعل بما دخلت عليه الباء، فهي كالهمزة، فإذا قلت: صككتُ الحجرَ بالحجرَ، كان معناه: أصككْت الحجرَ الحجرَ، أي: جعلت الحجرَ يصكُّ الحجرَ، وكذلك: دفعتُ زيداً بعمروٍ عن خالد، معناه: أدْفَعْتُ زيداً عمراً عن خالد، أي: جعلت زيداً يدفعُ عمراً عن خالدٍ، فللمفعول الأوَّل تأثيرٌ في الثاني، ولا يصحُّ هذا المعنى فيما ذُكر إلَّا بتكلُّفٍ[٣]. فالظاهرُ أنَّ الباء للمصاحبة، أي: ما سبقَكم أحدٌ مصاحباً وملتبساً بها.

ودُفِع بأنَّ المعنى على التعدية، ومعنى سبقتُه بالكرة: أسبقْتُ كرتي كرتَه، لأنَّ السبق بينهما، لا بين الشخصين أو الضربين، وكذا في الآية، ومثله يُفهَم من غير تكلُّف.

وقال القطب الرازي: إنَّ المعنى: سبقتُ ضربَه الكرة بضربي الكرة، أي: جعلت ضربي الكرةَ سابقاً على ضربه الكرة. ثم استَظْهَر جَعْلَ الباء للظرفية لعدم احتياجِه إلى ما يحتاجه جَعْلُها للتعدية، أي: ما سبقكم في فعل الفاحشة أحدٌ. ولعلَّ الأمر كما قال.

و«من» الأولى صلةٌ لتأكيد النفي، وإفادةِ معنى الاستغراق، والثانية للتبعيض، والجملةُ مستأنفةٌ استئنافاً نحويّاً، مسوقةٌ لتأكيد النكير، وتشديد التقريع والتوبيخ.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٣٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٢. والحديث أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) مطوَّلاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) البحر المحيط ٤/ ٣٣٣-٣٣٤.

وجُوِّزَ أن يكون بيانيًا، كأنَّه قيل: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقَكم بها أحدٌ، فلا تفعلوا ما لم تُسبَقوا إليه من المنكرات؛ لأنَّه أشد.

ولا يُتوهَّم أنَّ سببَ إنكار الفاحشة كونُها مخترعةً، ولولاه لَمَا أُنكرت، إذ لا مجالَ له بعد كونها فاحشة.

ووجهُ كون هذه الجملة مؤكِّدة للنكير أنَّها مؤذنةٌ باختراع السوء، ولاشكَّ أنَّ اختراعَه أسوأ، إذ لا مجالَ للاعتذار عنه، كما اعتذروا عن عبادتهم الأصنام مثلاً بقولهم: إنَّا وجدنا آباءنا.

وجوَّز أبو البقاء[1] كونَ الجملة في موضع الحال من المفعول أو الفاعل، والنيسابوريُّ[2] جوَّز كونَها صفةً للفاحشة على حدِّ:

ولـقـد أَمُـرُّ عـلـى الـلـئـيـم يـسـبُّـنـي[3]

ورُدَّ بأنَّ الفاحشةَ هنا متعيِّنةٌ دون اللئيم.

وكيفما كان، فالمراد من نفي سبق أحدٍ بها إيَّاهم كونُهم سابقين بها كلَّ أحدٍ ممن عداهم من العالمين، لا مساواتهم الغيرَ بها، فقد أخرج البيهقي وغيره عن عمرو بن دينار قال: ما نزا ذكرٌ على ذَكرٍ حتى كان قومُ لوط[4].

والذي حملهم على ذلك ـ كما أخرج ابن عساكر وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنَّهم كانت لهم ثمارٌ في منازلهم وحوائطهم، وثمارٌ خارجةٌ على ظهر الطريق، وأنهم أصابهم قحطٌ وقلَّةٌ من الثمار، فقال بعضهم لبعض: إنَّكم إن منعتم ثمارَكم هذه الظاهرة من أبناء السبيل كان لكم فيها عيش، قالوا: بأيِّ شيءٍ نمنعُها؟ قالوا: اجعلوا سُنَّتكم أنْ تنكحوا من وجدتم في بلادكم غريباً، وتغرِّموه أربعةَ دراهم، فإنَّ الناسَ لا يظهرون ببلادكم إذا فعلتم ذلك، ففعلوه واستحكَم فيهم[5].

---

(١) في الإملاء ٣/ ٣٤.

(٢) في غرائب القرآن ٨/ ١٧٠.

(٣) عجزه: فمضيت ثُمَّت قلت لا يعنيني. وسلف عند تفسير الآية (١٠٧) من سورة المائدة.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي ٤/٣٥٨.

(٥) تاريخ ابن عساكر ٥٠/ ٣١٣، وذكره الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٦٢.

وفي بعض الطرق أنَّ إبليس عليه اللعنة جاءهم عند ذكرهم ما ذكروا في هيئة صبيٍّ أجمل صبيٍّ رآه الناس، فدعاهم إلى نفسه، فنكحوه ثم جرؤوا على ذلك[١].

وجاء من رواية ابن أبي الدنيا عن طاوس أنَّ قومَ لوط إنَّما أتوا أولاً النساء في أدبارهنَّ، ثم أتوا الرجال.

وفي قوله: «من العالمين» دونَ: من الناس، مبالغةٌ لا تخفى.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ يحتملُ الاستئناف البيانيَّ والنحويّ، وهو مبيِّنٌ لتلك الفاحشة، والإتيان هنا بمعنى الجماع. وقرأ ابن عامر وجماعةٌ: «أئنكم» بهمزتين صريحتين، ومنهم من قرأ بتليين الثانية بغير مدٍّ، ومنهم من مدَّ[٢]، وهو حينئذٍ تأكيدٌ للإنكار السابق، وتشديدٌ للتوبيخ.

وفي الإتيان بـ «إنَّ» واللام مزيدُ تقبيحٍ وتقريع، كأنَّ ذلك أمرٌ لا يتحقَّقُ صدوره عن أحدٍ، فيؤكَّدُ تأكيداً قويّاً، وفي إيراد لفظ «الرجال» دون الغلمان والمردان ونحوهما ـ كما قال شيخ الإسلام ـ مبالغةٌ في التوبيخ[٣]، كأنه قال: لتأتون أمثالكم.

﴿شَهْوَةً﴾ نصب على أنَّه مفعول له، أي: لأجل الاشتهاء لا غير، أو على الحالية، بتأويل: مشتهين، وجُوِّز أنْ يكون منصوباً على المصدرية، وناصبه «تأتون»؛ لأنَّه بمعنى: تشتهون.

وفي تقييد الجماع الذي لا ينفكُّ عن الشهوة بها إيذانٌ بوصفهم بالبهيمية الصرفة، وأنْ ليس غرضُهم إلَّا قضاءُ الشهوة. وفيه تنبيهٌ على أنَّه ينبغي للعاقل أنْ يكون الداعي [له][٤] إلى المباشرة طَلَبَ الولد، وبقاء النوع، لا قضاء الشهوة.

---

(١) المستدرك ٢/ ٥٦٢، وتاريخ ابن عساكر ٥٠/ ٣١٣.

(٢) قرأ بهمزة واحدة نافع وأبو جعفر وحفص. وقرأ بتحقيق الهمزتين ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف وروح عن يعقوب. وقرأ بتسهيل الثانية بغير مدٍّ ابن كثير ورويس، ومع مدٍّ أبو عمرو. انظر التيسير ص ٣٢، ١١١. والنشر ١/ ٣٧٠-٣٧٢.

(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٥.

(٤) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٤/ ١٨٦، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٤٥.

وجُوِّز أنْ يكون المراد الإنكار عليهم، وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة القذرة الخبيثة، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: متجاوزين النساء اللاتي هنَّ محلُّ الاشتهاء عند ذوي الطباع السليمة، كما يؤذن به قوله سبحانه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ فالجارُّ والمجرور في موضع الحال من ضمير «تأتون». وجُوِّز أنْ يكون حالاً من «الرجال» على ما قاله أبو البقاء[1] أي: تأتونهم منفردين عن النساء. وأنْ يكون في موضع الصفة لـ «شهوة»، على ما قيل. واستبعد تعلُّقه به.

و«بل» للإضراب، وهو إضرابٌ انتقاليٌّ عن الإنكار المذكور إلى الإخبار بما أدَّى إلى ذلك؛ وهو اعتيادُ الإسراف في كلِّ شيءٍ، أو إلى بيان استجماعِهم للعيوب كلها.

ويحتمل أنْ يكون إضراباً عن غير مذكور، وهو ما توهَّموه من العذر في ذلك، أي: لا عذر لكم فيه، بل أنتم قومٌ عادتكم الإسراف والخروجُ عن الحدود، وهذا في معنى ذمِّهم بالجهل كما في سورة النمل[2]، إلَّا أنَّه عبَّر بالاسم هنا وبالفعل هناك؛ لموافقة رؤوس الآي المتقدِّمة في كلٍّ. والله تعالى أعلم بأسرار كلامه.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: المستكبرين منهم المتصدِّين للعقد والحلِّ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ استثناء مفرغ من أعمِّ الأشياء، أي: ما كان جوابَهم شيءٌ من الأشياء إلَّا قولُهم، أي: لبعضِهم الآخرين المباشرين للأمور، أو: ما كان جوابَ قومه الذين خاطَبهم بما خاطبهم شيءٌ من الأشياء إلَّا قولُ بعضهم لبعض معرضين عن مخاطبته عليه السلام: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ أي: لوطاً ومن معه ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي: بلدتكم التي اجتمعتم[3] فيها وسكنتم بها. والنظم الكريم من قبيل:

تحيةُ بينهم ضربٌ وجيعُ[4]

(١) في الإملاء ٣/ ٣٥-٣٦.
(٢) في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الآية: ٥٥].
(٣) في (م): أجمعتم.
(٤) سلف ٥/ ٦٤.

والقصدُ منه نفي الجواب على أبلغ وجه، لأنَّ ما ذكر في حيِّز الاستثناء لا تعلُّق له بكلامه عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها، ووسمِهم بما هو أصلُ الشرِّ كلِّه. ولو قيل: وقالوا أخرجوهم، لم يكن بهذه المثابة من الإفادة.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ تعليلٌ للأمر بالإخراج. ومقصودُ الأشقياء بهذا الوصف السخريةُ بلوطٍ ومن معه، وبتطهُّرهم من الفواحش، وتباعُدهم عنها، وتنزُّههم عما في المحاش، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة، كما يقولُ الشُّطَّار من الفسقة لبعض الصُّلحَاء إذا وعظهم: أخرجوا عنَّا هذا المتقشِّفَ، وأريحونا من هذا المتزهِّد.

وقُرِئ برفع «جواب»[(١)] على أنَّه اسمُ كان، و«إلَّا أن قالوا» إلخ خبر، قيل: وهو أظهر، وإن كان الأوَّل أقوى في الصناعة، لأنَّ الأعرفَ أحقُّ بالاسمية. وقد تقدَّم ما ينفعُك هنا فتذكَّر.

وأيًّاما كان فليس المراد أنَّهم لم يصدر عنهم في مقابلة كلام لوطٍ عليه السلام ومواعظه إلَّا هذه المقالةُ الباطلة، كما ينساق إلى الذهن، بل أنَّه لم يصدر عنهم في المرَّة الأخيرة من مرَّات المحاورات الجارية بينه عليه السلام وبينهم إلَّا هذه الكلمة الشنيعة، وإلَّا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثيرٌ من التُّرَّهات كما حُكي عنهم في غير موضع من الكتاب الكريم، وكذا يقال في نظائره.

قيل: وإنَّما جيء بالواو في: «وما كان» إلخ دون الفاء كما في «النمل» و«العنكبوت»؛ لوقوع الاسم قبلُ هنا، والفعل هناك، والتعقيب بالفعل بعد الفعل حسنٌ، دون التعقيب به بعد الاسم. وفيه تأمُّل.

ولعلَّ ذكر «أخرجوهم» هنا، و﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ في «النمل» [الآية:٥٦] إشارةٌ إلى أنَّهم قالوا مرَّةً هذا وأخرى ذاك، أو أنَّ بعضاً قال كذا، وآخر قال كذا.

وقال النيسابوريُّ: إنما جاء في «النمل»: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ ليكون تفسيراً لهذه

---

(١) هي قراءة الحسن كما في البحر المحيط ٤/ ٣٣٤.

الكناية. وقيل: إنَّ تلك السورة نزلت قبل الأعراف، وقد صرَّح في الأولى وكنى في الثانية. اهـ[١]. ولعلَّ ما ذكرناه أولى، فتأمَّل.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي: من اختصَّ به واتَّبعه من المؤمنين، سواءٌ كانوا من ذوي قرابته عليه السلام أم لا؟ وقيل: ابنتاه ريثا ويغوثا[٢].

وللأهل معانٍ، ولكلٍّ مقام مقال، وهو عند الإمام الأعظم ﷺ في باب الوصية: الزوجةُ؛ للعرف، ولقوله سبحانه: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ [طه: ١٠]، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩] فتُدْفَعُ الوصية لها إنْ كانت كتابيَّةً أو مسلمةً وأجازتِ الورثة. وعند الإمامين أهلُ الرجل كلُّ من في عياله ونفقته غير مماليكه وورثته.

وقولهما - كما في «شرح التكملة»[٣] - استحسانٌ، وأيَّده ابن الكمال بهذه الآية؛ لأنَّه لا يصحُّ فيها أنْ يكون بمعنى الزوجة أصلاً؛ لقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فإنه استثناءٌ من «أهله»، وحينئذٍ لا يصحُّ الاستثناء، وأنت تعلم أنَّ الكلامَ في المطلق على القرينة، لا في الأهل مطلقاً.

واسمُ امرأته عليه السلام: واهلة، وقيل: والهة.

﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: بعضاً منهم، فالتذكير للتغليب ولبيان استحقاقها لما يستحقُّه المباشرون للفاحشة، وكانت تُسِرُّ الكفر وتوالي أهله، فهلكت كما هلكوا. وجُوِّزَ أن يكون المعنى: كانت مع القوم الغابرين، فلا تغليب.

والغابرُ بمعنى الباقي، ومنه قول الهذليّ:

فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ[٤]

---

(١) غرائب القرآن ٨/ ١٧٢.

(٢) في تاريخ الطبري ٢/ ٢٩٩: ريثا ورعزيا. وفي البداية والنهاية ١/ ٤١٦: أريثا ودغوثا.

(٣) قال حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٦٣٣: وجمع حسام الدين الرازي صاحب الخلاصة ما شذ من نظم مختصر القدوري من المسائل المنثورة في المختصرات، كالجامع الصغير ومختصر الطحاوي والإرشاد وموجز الفرغاني في مجلد سماه تكملة القدوري، ورتبه على ترتيب كتابه وأبوابه من غير تكرار مسألة إلا ما صعب ذكره بدون إعادة ذكره... ثم شرح هذه التكملة كالقدوري. فلعله الذي أشار إليه المصنف.

(٤) صدر بيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في شرح أشعار الهذليين ١/ ٨، وعجزه:

وإخال أني لاحقٌ مستتبع

ويجيء بمعنى الماضي والذاهب، ومنه قول الأعشى: في الزمن الغابر(١). فهو من الأضداد كما في «الصحاح»(٢) وغيره، ويكون بمعنى الهالك أيضاً.

وفي بقاء امرأته مع أولئك القوم روايتان، ثانيتُهما أنه عليه السلام أخرجها مع أهله، ونهاهم عن الالتفات، فالتفتتْ هي فأصابها حجرٌ فهلكت. والآيةُ هنا محتملةٌ للأمرين. والحسن وقتادة يفسِّران الغبورَ هنا بالبقاء في عذاب الله تعالى. وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمَّةٌ لهذا الكلام.

والجملة استئنافٌ وقع جواباً نشأ عن الاستثناء، كأنَّه قيل: فما كان حالها؟ فقيل: كانت من الغابرين.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: نوعاً من المطر عجيباً. وقد بيَّنه قوله سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

وفي «الخازن» أنَّ تلك الحجارة كانت معجونةً بالكبريت والنار(٣).

وظاهرُ الآية أنَّه أمطرَ عليهم كلهم. وجاء في بعض الآثار أنَّه خُسِف بالمقيمين منهم، وأُمطِرت الحجارةُ على مسافريهم وشُذَّاذهم، حتى إنَّ تاجراً منهم كان في الحرم، فوقفت له حجرٌ أربعين يوماً، حتى قضى تجارته وخرج من الحرم، فوقعَ عليه.

وفرِّق بين مَطَرَ وأَمْطَرَ، فعن أبي عبيدة(٤) أنَّ الثلاثيَّ في الرحمة، والرباعيَّ في العذاب، ومثله عن الراغب(٥).

وفي «الصحاح»(٦) عن أناسٍ أنَّ مطرت السماء وأمطرت بمعنًى.

---

(١) وتمامه كما في ديوانه ص ١٩٥:

عضَّ بما أبقى المواسي له ... من أمِّه في الزمنِ الغابر

(٢) مادة (غبر).

(٣) تفسير الخازن ٢/ ٢٦١.

(٤) كذا في الأصل و(م)، وتفسير الخازن ٢/ ٢٦١، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٦. ووقع في الدر المصون ٥/ ٣٧٤، وحاشية الشهاب ٤/ ١٨٧: عن أبي عبيد.

(٥) في المفردات (مطر).

(٦) مادة (مطر).

وفي «القاموس»: لا يقال: أمطرهم الله تعالى، إلَّا في العذاب[1]. وظاهر كلام «الكشاف» في «الأنفال» الترادف كما في «الصحاح»، لكنه قال: وقد كثُر الإمطار في معنى العذاب[2]. وذكر هنا أنه يقال: مطرتهُم السماء، ووادٍ ممطور، ويقال: أمطَرتْ عليهم كذا، أي: أرسلتهُ إرسال المطر[3].

وحاصل الفرق ـ كما في «الكشف» ـ ملاحظةُ معنى الإصابة في الأول، والإرسال في الثاني، ولهذا عُدِّي بـ «على».

وذكر ابن المنير أنَّ مقصود الزمخشريِّ الردُّ على من يقول: إنَّ مطرت في الخير، وأمطرت في الشر، ويتوهَّمُ أنها تفرقةٌ وضعيَّةٌ، فبيَّنَ أن أمطرتْ معناه: أرسلت شيئاً على نحو المطر، وإن لم يكن إيَّاه، حتى لو أرسل الله تعالى من السماء أنواعاً من الخير لجاز أنْ يقال فيه: أمطرت السماء خيراً، أي: أرسلته إرسال المطر، فليس للشرِّ خصوصيَّةٌ في هذه الصيغة الرباعية، ولكن اتفق أنَّ السماءَ لم ترسل شيئاً سوى المطر إلَّا وكان عذاباً، فظُنَّ أنَّ الواقع اتفاقاً مقصودٌ في الوضع، وليس به. انتهى[4].

ويعلم منه ـ كما قال الشهاب[5] ـ أنَّ كلام أبي عبيدة وأضرابه مؤوَّلٌ، وإن رُدَّ بقوله تعالى: ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فإنَّه عنى به الرحمة.

ولا يخفى أنَّه لو قيل: إنَّ التفرقة الاستعمالية إنَّما هي بين الفعلين دون متصرّفاتهما، لم يتأتَّ هذا الردُّ، إلا أنَّ كلامهم غيرُ صريح في ذلك، ولعلَّ البعضَ صرَّح[6] بما يخالفه. ثمَّ إنَّ «مطراً» إمَّا مفعولٌ به أو مفعولٌ مطلق.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: مآل أولئك الكافرين المقترفين لتلك الفعلة الشنعاء.

---

(١) القاموس (مطر).

(٢) الكشاف ٢/ ١٥٥، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ...﴾ [الآية: ٣٢].

(٣) الكشاف ٢/ ٩٣.

(٤) الانتصاف ٢/ ٩٣.

(٥) في حاشيته ٤/ ١٨٧.

(٦) في (م): صرح.

وهذا خطابٌ لكلِّ من يتأتَّى منه التأمُّل والنظر؛ تعجيباً من حالهم، وتحذيراً من أفعالهم.

وقد مكث لوطٌ عليه السلام فيهم ـ على ما في بعض الآثار ـ ثلاثين سنةً يدعوهم إلى ما فيه صلاحُهم، فلم يجيبوه، وكان إبراهيم عليه السلام يركبُ على حماره فيأتيهم وينصحهم، فيأبونَ أن يقبلوا، فكان يأتي بعدَ أن أيس منهم فينظر إلى سدوم، ويقول: سدوم أيُّ يومٍ لك من الله تعالى سدوم؟! حتى بلغ الكتاب أجلَه، فكان ما قصَّ الله تعالى على نبيه ﷺ. وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل ذلك.

ثم إنَّ لوطاً عليه السلام ـ كما أخرج إسحاقُ بن بشر وابنُ عساكر عن الزهريّ ـ لمَّا عُذِّب قومُه لحق بإبراهيم عليه السلام، فلم يزل معه حتى قبضَه الله تعالى إليه(١).

وفي هذه الآيات دليلٌ على أنَّ اللواطة من أعظم الفواحش، وجاء في خبر أخرجَه البيهقيُّ في «الشعب» عن أبي هريرة رضي الله عنه وصحَّحه الحاكمُ عن النبي ﷺ قال: «لعن الله تعالى سبعةً من خلقه فوقَ سبع سماوات، فردد لعنةً على واحد منها ثلاثاً، ولعَنَ بعدُ كلَّ واحدٍ لعنةً لعنة، فقال: «ملعونٌ ملعونٌ ملعونٌ من عَمل عمل قوم لوط» الحديث(٢).

وجاء أيضاً: «أربعةٌ يصبحون في غضب الله تعالى، ويمسون في سخط الله تعالى» وعدَّ منهم من يأتي الرجل(٣).

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٥٠/ ٣٢٦.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٤٧٢)، والطبراني في الأوسط (١٤٩٧)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٤٣٤.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٧٢: وفيه محرز بن هارون، ويقال: محرر. وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حديثه. وبقية رجاله رجال الصحيح.
وأخرجه ابن عدي ٧/ ٢٥٨٦، والحاكم ٤/ ٣٥٦ لكن من طريق هارون أخي محرز، وسكت عنه ولم يُصححه كما ذكر المصنف، وقال الذهبي في التلخيص: هارون ضعفوه.
وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٢٤٩: كلاهما واه، لكن محرز قد حسَّن له الترمذي ومشَّاه بعضهم، وهو أحسن حالاً من أخيه هارون.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٨٥٨)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٣٣، والبيهقي في الشعب (٥٣٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

=

وأخرج ابنُ أبي الدنيا وغيره عن مجاهد ﷺ أنَّ الذي يعملُ ذلك العملَ لو اغتسلَ بكلِّ قطرةٍ من السماء وكلِّ قطرةٍ من الأرض، لم يزل نجساً(١). أي: إنَّ الماء لا يزيلُ عنه ذلك الإثم العظيم الذي بعَّده عن ربِّه، والمقصودُ تهويل أمر تلك الفاحشة.

وألحقَ بها بعضهم السِّحاق، وبدا أيضاً في قوم لوط عليه السلام، فكانت المرأةُ تأتي المرأة، فعن حذيفة ﷺ: إنَّما حقَّ القولُ على قوم لوط عليه السلام حين استغنى النساءُ بالنساء، والرجالُ بالرجال(٢).

وعن أبي حمزة: قلت لمحمد بن عليّ: عذَّب الله تعالى نساءَ قوم لوطٍ بعمل رجالهم؟ فقال: الله تعالى أعدلُ من ذلك، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء(٣).

وآخرون إتيانَ المرأة في عجيزتها، واستدلَّ بما أخرجَ غيرُ واحدٍ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال على المنبر: سلوني. فقال ابن الكواء: تؤتى النساءُ في أعجازهنّ؟ فقال كرَّم الله تعالى وجهه: سفلت سفل الله تعالى بك، ألم تسمع قوله تعالى: «أتأتون الفاحشة» الآية(٤).

ولا يخفى أنَّ ذلك لا يتمُّ إلا بطريق القياس، وإلَّا فالفاحشةُ في الآية مبيَّنةٌ بما علمتَ، نعم جاء في آثارٍ كثيرة ما يدلُّ على حرمة إتيان الزوجة في عجيزتها. والمسألةُ كما تقدَّم خلافيَّة، والمعتمدُ فيها الحرمة.

ولا فرق في اللواطة بين أنْ تكون بمملوكٍ أو تكون بغيره.

= قال المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٢٤٩: رواه الطبراني والبيهقي من طريق محمد بن سلام الخزاعي ـ ولا يعرف ـ عن أبيه عن أبي هريرة، وقال البخاري: لا يتابع على حديثه. وقال ابن عدي: وعندي أن أنكر شيء لمحمد بن سلام هذا الحديث.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٠٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٥٤)، والبيهقي في الشعب (٥٤٦٠).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٥٠)، والبيهقي في الشعب (٥٤٦٣).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٢٥٣، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥١٧ (٨٦٩٤)، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ١٩٨.

واختلفوا في كفر مستحلِّ وطءِ الحائض ووطء الدبر. وفي «التتارخانية» نقلاً عن «السراجية»: اللواطةُ بمملوكه أو مملوكته أو امرأته حرامٌ، إلَّا أنَّه لو استحلَّه لا يكفر، وهذا بخلاف اللواطة بأجنبيٍّ، فإنَّه يكفر مستحلُّها قولاً واحداً. وما ذكر مما يُعْلَمُ ولا يُعلَّمُ كما في «الشرنبلالية»[1]، لئلَّا يتجرَّأ الفسقةُ عليه بظنِّهم حلَّه.

واختلفَ في حدِّ اللواطة، فقال الإمام: لا حدَّ بوطءِ الدبر مطلقاً، وفيه التعزير، ويُقتلُ من تكرَّر منه، على المفتَى به، كما في «الأشباه»[2]. والظاهر ـ على ما قاله البيري[3] ـ أنَّه يُقتَل في المرَّة الثانية؛ لصدق التكرار عليه.

وقال الإمامان: إنْ فعلَ في الأجانب حُدَّ كحدِّ الزنا، وإنْ في عبده أو أمته أو زوجته بنكاحٍ صحيح أو فاسدٍ، فلا حدَّ إجماعاً، كما في «الكافي» وغيره، بل يعزَّر في ذلك كلِّه ويقتل من اعتاده[4].

وفي «الحاوي القدسي»: وتكلَّموا في هذا التعزير: من الجَلْد، ورَمْيِه من أعلى موضع، وحَبْسِه في أنتن بقعةٍ، وغير ذلك، سوى الإخصاء والجَبِّ، والجلدُ أصح. وفي «الفتح»: يعزَّرُ ويسجنُ حتى يموتَ أو يتوب[5].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: حدُّ اللواطةِ القتلُ للفاعل والمفعول. ورواه مرفوعاً[6].

---

(١) حاشية الشرنبلالي على الدرر والغرر ٢/ ٦٦.

(٢) لابن نجيم ص ٣٩٧.

(٣) هو إبراهيم بن حسين بن أحمد بن بيري، مفتي مكة، أحد أكابر فقهاء الحنفية، له حاشية على الأشباه والنظائر سماها عمدة ذوي البصائر، وشرح الموطأ رواية محمد بن الحسن، وشرح تصحيح القدوري، وغيرها. توفي سنة (١٠٩٩هـ). خلاصة الأثر ١/ ١٩-٢٠، والأعلام ١/ ٣٦.

(٤) انظر بدائع الصنائع ٩/ ١٨٤، وفتح القدير ٤/ ١٥٠، وحاشية ابن عابدين ٤/ ٦٧.

(٥) فتح القدير لابن الهمام ٤/ ١٥٠.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، وابن ماجه (٢٥٦١)، والترمذي (١٤٥٦)، والنسائي في الكبرى (٧٢٩٧)، وأحمد (٢٧٣٢) من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به».
قال الترمذي في العلل الكبير ٢/ ٦٢٢: سألت محمداً (يعني البخاري) عن حديث عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس، فقال: عمرو بن أبي عمرو صدوق، ولكن روى عن عكرمة مناكير، ولم يذكر في شيءٍ من ذلك أنه سمع من عكرمة.
=

وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه سُئل: ما حدُّ اللوطيّ؟ فقال: يُنظر أعلى بناءٍ في القرية، فيلقى منه منكَّساً، ثم يتبعُ بالحجارة[1].

قال في «الفتح»: وكأنَّ مأخذ هذا أنَّ قوم لوطٍ أهلكوا بذلك، حيث حُمِلت قُراهم، ونُكِّست بهم، ولا شكَّ في إتباع الهدم بهم وهم نازلون[2].

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّه رَجم لوطيّاً[3]، وهو أشبهُ شيءٍ بما قصَّ الله تعالى من إهلاك قوم لوط عليه السلام بإمطار الحجارة عليهم.

وصحَّحوا أنها لا تكون في الجنّة لأنَّه سبحانه استقبحَها، وسمَّاها فاحشةً، والجنَّةُ منزَّهةٌ عن ذلك.

وفي «الأشباه» أنَّ حرمتها عقليَّة، فلا وجودَ لها في الجنة، وقيل: سمعيَّة فتوجد[4]، أي: فيمكن أن توجد. وكأنَّه أرادَ بالحرمة هنا القُبح إطلاقاً لاسم السبب على المسبب، أي: إنَّ قبحَها عقليٌّ، بمعنى أنَّه يدركُ بالعقل وإن لم يَرِد به الشرع. وليس هذا مذهبَ المعتزلة كما لا يخفى.

ونقل الجلال السيوطيُّ عن ابن عقيل الحنبليّ قال: جرت هذه المسألة بين أبي علي بن الوليد المعتزلي[5] وبين أبي يوسف القزويني[6]، فقال ابن الوليد:

= واستنكر النسائي هذا الحديث، كما ذكر الحافظ في التلخيص ٤/ ٥٤.
ونقل الذهبي في الميزان ٣/ ٢٨٢ عن ابن معين قال: عمرو بن أبي عمرو ثقة ينكر عليه حديث عكرمة عن ابن عباس... فذكره.
وانظر تخريجه في نصب الراية ٣/ ٣٣٩ وما بعدها.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩/ ٥٢٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٣٢.
وصحح الحافظ ابن حجر إسناده في الدراية ٢/ ١٠٣.

(٢) فتح القدير ٤/ ١٥٢.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٥٣٠، والبيهقي في الكبرى ٨/ ٢٣٢، وفي الشعب (٥٣٩٠).

(٤) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٢١٨.

(٥) هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الوليد، أبو علي، شيخ المعتزلة، الداعية إلى مذهبهم (ت: ٤٧٨هـ). الوافي بالوفيات ٢/ ٨٤-٨٥، والأعلام ٥/ ٣١٥.

(٦) هو عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار، شيخ المعتزلة، وداعيتهم، له تفسير في القرآن نحو ثلاث مئة مجلد، (ت: ٤٨٨هـ). الوافي بالوفيات ١٨/ ٤٣٣-٤٣٤، والأعلام ٤/ ٧.

لا يمنع أن يجعل ذلك من جملة اللذاتِ في الجنة، لزوال المفسدة، لأنَّه إنما مُنِع في الدنيا لما فيه من قَطْع النسل، وكونه محلًّا للأذى، وليس في الجنة ذلك، ولهذا أبيح شربُ الخمر، لما ليس فيه من السكر والعربدة وزوال العقل، بل اللذَّةُ الصِّرفة، فقال أبو يوسف: الميلُ إلى الذكور عاهةٌ، وهو قبيحٌ في نفسه؛ لأنَّه محلٌّ لم يخلق للوطء، ولهذا لم يُبَح في شريعةٍ؛ بخلاف الخمر. فقال ابن الوليد: هو قبيحٌ وعاهةٌ؛ للتلويث بالأذى، ولا أذى في الجنة، فلم يبق إلَّا مجرد الالتذاذ. انتهى[1].

وأنا أرى أنَّ إنكارَ قبح اللواطة عقلاً مكابرةٌ، ولهذا كانت الجاهليةُ تعيِّر بها، ويقولون في الذمِّ: فلانٌ مصفِّرُ استِه[2]. ولا أدري هل يرضى ابنُ الوليد لنفسِه أن يؤتى في الجنَّة أم لا، فإن رضي اليوم أنْ يؤتى غداً، فغالب الظنِّ أنَّ الرجل مأبونٌ[3]، أو قد أَلِفَ ذلك، وإنْ لم يرض لزمه الإقرار بالقبح العقلي. وإن ادَّعى أنَّ عدمَ رضائه لأنَّ الناس قد اعتادوا التعيير به، وذلك مفقودٌ في الجنة، قلنا له: يلزمك الرضا به في الدنيا إذا لم تعيَّر ولم يطَّلع عليكَ أحدٌ، فإن التزمَه، فهو كما ترى، ولا ينفعه ادِّعاءُ الفرق بين الفاعل والمفعول، كما لا يخفى على الأحرار.

وصرَّحوا بأنَّ حرمةَ اللواطةِ أشدُّ من حرمة الزنا؛ لقبحها عقلاً وطبعاً وشرعاً. والزنا ليس بحرام كذلك، وتزولُ حرمته بتزويجٍ وشراء؛ بخلافها، وعدمُ الحدِّ عند الإمام لا لخفَّتها، بل للتغليظ؛ لأنَّه مطهِّرٌ على قول كثير من العلماء، وإن كان خلافَ مذهبنا.

وبعض الفسقة اليوم - دمَّرهم الله تعالى - يهوِّنون أمرَها ويتمنَّون بها، ويفتخرون بالإكثار منها، ومنهم من يفعلُها أخذاً للثأر، ولكن من أين؟ ومنهم من يحمد الله

---

(١) حاشية ابن عابدين ٤/ ٢٨، ونقلها عن ابن عقيل الصفديُّ في الوافي بالوفيات ٢/ ٨٤-٨٥، وابن كثير في البداية والنهاية ١٢/ ١٢٩ (طبعة دار المعارف).

(٢) انظر مجمع الأمثال ١/ ٢٥١-٢٥٢، وتاج العروس (صفر).

(٣) أي: متَّهم؛ أَبَنَ الرجلَ، يأبُنُه، ويأبِنُه أبناً: اتهمه وعابه، يقال: فلانٌ يؤبنُ بخيرٍ وبشرٍّ، أي: يُزَنُّ به، فهو مأبون.

سبحانه عليها، مبنيّةً للمفعول، وذلك لأنهم نالوا الصدارة بأعجازهم نسأل الله تعالى العفوَ والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

واعلم أنَّ للِّواطةِ أحكاماً أخر، فقد قالوا: إنَّه لا يجبُ بها المهر، ولا العدَّة في النكاح الفاسد، ولا في المأتيِّ بها لشبهة، ولا يحصلُ بها التحليل للزوج الأول، ولا تثبتُ بها الرجعة، ولا حرمةُ المصاهرة عند الأكثر، ولا الكفارةُ في رمضان في رواية، ولو قُذِفَ بها لا يحدُّ ولا يلاعن، خلافاً لهما في المسألتين كما في «البحر» أخذاً من «المجتبى»[١]. وفي «الشرنبلالية»[٢] عن «السِّراج»: يكفي في الشهادة عليها عدلان لا أربعة، خلافاً لهما أيضاً.

❀ ❀ ❀

هذا ولم أقف للسادة الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارهم على ما هو من باب الإشارة في قصَّة قوم لوطٍ عليه السلام. وذكرَ بعضهم في قصَّة قوم صالح عليه السلام بعد الإيمان بالظاهر: أنَّ الناقة هي مركَبُ النفسِ الإنسانية لصالح عليه السلام، ونسبتُها إليه سبحانه لكونها مأمورةً بأمره عزَّ وجلَّ، مختصَّةً به في طاعته وقربه. وما قيل: إنَّ الماء قُسِم بينها وبينهم؛ لها شِرْبُ يوم ولهم شرب يوم، إشارةٌ إلى أنَّ مشربهم من القوة العاقلة العمليَّة، ومشربَه من القوة العاقلة النظريَّة. وما روي أنَّها يومَ شربها كانت تتفحَّج فيُحلَبُ منها اللبن حتى تملأ الأواني إشارةٌ إلى أنَّ نفسه تَستخرجُ بالفكر من علومه الكليَّة الفطريَّة العلومَ النافعةَ للناقصين من علوم الأخلاق والشرائع. وخروجُها من الجبل خروجها من بدنِ صالح عليه السلام.

وقال آخرون: إنَّ الناقةَ كانت معجزةَ صالحٍ عليه السلام، وذلك أنَّهم سألوه أنْ يُخرِج لهم من حجارة القلب ناقةَ السرِّ، فخرَجت فسقيت سرَّ السرِّ، فأعطت بلد القالب من القوى والحواس لبنَ الواردات الإلهية، ثم قال لهم: ﴿فَذَرُوهَا﴾ ترتفع في رياض القدس وحياض الأنس ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ من مخالفات الشريعة ومعارضات الطريقة ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذابُ الانقطاع عن الوصول إلى الحقيقة.

---

(١) البحر الرائق ٥/ ١٨.

(٢) حاشية الشرنبلالي على الدرر والغرر ٢/ ٦٦.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ أي مستعدِّين للخلافة ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض القلب ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا﴾ وهي المعاملات بالصدق ﴿قُصُورًا﴾ تسكنون فيها ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ﴾ وهي جبال أطوار القلب ﴿بُيُوتًا﴾ هي مقاماتُ السائرين إلى الله تعالى.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهي الأوصاف البشرية والأخلاق الذميمة ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ من أوصاف القلب والروح ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ ليدعو إلى الأوصافِ النورانيَّة.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ بسكاكين المخالفة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ لضعف قلوبهم وعدم قوَّة علمهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ موتى لا حراك بهم إلى حظيرة القدس.

وذكر البعضُ أنَّ الناقةَ والسقب صورتا الإيمان بالله تعالى، والإيمان برسوله عليه السلام، وقد ظهرا بالذات وبالواسطة من الحجر الذي تشبههُ قلوبُ القوم، وعقرُهم للناقة من قبيلِ ذبح يحيى عليه السلام للموت الظاهر في صورةِ الكبش يومَ القيامة[(١)].

وفي ذلك دليلٌ على أنَّهم من أسوأ الناس استعداداً، وأتمهم حرماناً، ويدلُّ على سوءِ حالهم أنَّ الشيخَ الأكبر قدِّس سره لم ينظمهم في «فصوص الحكم» في سلك قوم نوحٍ عليه السلام حيثُ حكم لهم بالنجاة على الوجه الذي ذكره، وكذا لم ينظم في ذلك السلك قومَ لوطٍ عليه السلام، وكأنَّ ذلك لمزيدِ جهلهم وبعدهم عن الحكمة، وإتيانهم البيوتَ من غير أبوابها، وقذارتِهم ودناءة نفوسهم.

والذي عليه المتشرِّعون أنَّ أولئك الأقوام كلَّهم حصبُ جهنم لا ناجيَ فيهم، والله تعالى أحكم الحاكمين.

❁ ❁ ❁

(١) لم يثبت ذبح يحيى للموت في صورة كبش يوم القيامة، وإنما هو قول لبعض الصوفية، وحديث ذبح الموت أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وينظر فتح الباري ١١/ ٤٢٠، والتذكرة للقرطبي ص٤٣٨.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ عطفٌ على ما مرَّ. والمرادُ: أرسلنا إلى مدين.. إلخ. ومدين ـ وسُمِع: مديان ـ في الأصل عَلَمٌ لابن إبراهيم الخليل عليه السلام، ومنع صرفه للعلميَّة والعُجمة، ثم سُمِّيت به القبيلة. وقيل: هو عربيٌّ اسم لماءٍ كانوا عليه، وقيل: اسم بلد، ومنع صرفه للعلميَّة والتأنيث، فلابدَّ من تقدير مضافٍ حينئذٍ ـ أي: أهل مدين، مثلاً ـ أو المجاز. والياءُ على هذا عند بعض زائدة، وعن ابن برِّي: الميمُ زائدةٌ؛ إذ ليس في كلامهم: فَعْيَل، وفيه: مَفْعَل.

وقال آخرون: إنَّه شاذٌّ، كمريم، إذ القياسُ إعلالُه كمَقَام. وعند المبرِّد[1] ليس بشاذ، قيل: وهو الحقُّ لجريانه على الفعل.

وشعيب قيل: تصغير شَعْب، بفتحٍ فسكون: اسمُ جبل، أو شِعْب، بكسرٍ فسكون: الطريقُ في الجبل. واختير أنَّه وُضِع مرتجلاً هكذا.

والقول بأنَّ القولَ بالتصغير باطلٌ؛ لأنَّ أسماءَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوزُ تصغيرها: فيه نظر، لأنَّ الممنوعَ التصغيرُ بعدَ الوضع، لا المقارن له، ومُدَّعي ذلك قد يدَّعي هذا.

وهو على ما وُجِد بخطِّ النووي في «تهذيبه»[2]: ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام. وقيل: ابن ميكيل بن يشجر بن لاوي بن يعقوب. وبعضهم يقول: ميكائيل، بدل ميكيل، ونُقِل ذلك عن خطِّ الذهبيِّ في «اختصار المستدرك»[3]. وآخر يقول: ملكاني[4]، بدله.

وذكر أنَّ أُم ميكيل بنتُ لوطٍ عليه السلام.

وأخرج ابنُ عساكر من طريق إسحاق بن بشر عن الشرقيّ ابن القُطامي[5] ـ وكان

---

(١) في المقتضب ١/ ١٠٨.

(٢) ١/ ٥٧٥، وفيه وفي عرائس المجالس ص ١٦٧: ميكائيل، بدل: ميكيل.

(٣) ١/ ٥٦٨.

(٤) في مطبوع الإتقان ٢/ ١٠٦٦ (والكلام منه): ملكاين.

(٥) هو الوليد بن الحصين، والشرقيّ لقبه، والقطامي لقب والده، كان عالماً بالنسب، وافر الأدب، ضمَّ المنصورُ إليه المهديَّ ليأخذ من أدبه. توفي نحو (١٥٥هـ). ميزان الاعتدال ٢/ ٢٦٨، والأعلام ٨/ ١٢٠.

نسَّابةً ـ أنَّ شعيباً هو يثروب بالعبرانية، وهو ابن عَيفاء بن يَوْبَب ـ بمثناةٍ تحتيَّةٍ أوله، وواو وموحدتين، بوزن جعفر ـ بن إبراهيم عليه السلام[1]، وقيل: في نسبهِ غيرُ ذاك.

وكان النبيُّ ﷺ ـ كما أخرج ابنُ عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ إذا ذكر شعيبٌ يقول: «ذلك خطيبُ الأنبياء» لحسن مراجعته قومَه[2]. أي: محاورته لهم، وكأنَّه ـ كما قيل ـ عنى عليه الصلاة والسلام ما ذُكر في هذه السورة كما يعلم بالتأمُّل فيه.

وبُعثَ رسولاً إلى أمَّتين: مدين، وأصحاب الأيكة، قال السدِّيُّ وعكرمة رضي الله عنهما: ما بَعثَ الله تعالى نبيّاً مرتين إلَّا شعيباً، مرَّةً إلى مدين، فأخذهم الله تعالى بالصيحة، ومرَّة إلى أصحاب الأيكة، فأخذهم الله تعالى بعذابِ يوم الظلة.

وأخرج ابن عساكر في «تاريخه» من حديث عبد الله بن عمرو[3] مرفوعاً «أنَّ قوم مدين وأصحابَ الأيكة أمَّتان، بعثَ الله تعالى إليهما شعيباً». وهو ـ كما قال ابنُ كثير ـ غريبٌ، وفي رفعه نظرٌ. واخْتَارَ أنَّهما أمَّة واحدة، واحتجَّ له بأنَّ كلًّا منهما وُعِظ بوفاء الميزان والمكيال[4]. وهو يدلُّ على أنَّهما واحدة، وفيه ما لا يخفى.

---

(١) الدر المنثور ٣/ ١٠٢، ولم أقف عليه في تاريخ دمشق، فلعله في الجزء الساقط، انظر المخطوط-نشرة دار البشير-٨/ ٦٦، والمطبوع ٢٣/ ٧٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٠٢ مطولاً، وعزاه لإسحاق بن بشر وابن عساكر، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٤٢٩ وعزاه لإسحاق بن بشر، وإسحاق بن بشر متروك، ولم نقف عليه في المطبوع من تاريخ ابن عساكر، ولكنه أخرجه ١٠/ ٦٠ عن أبي إدريس الخولاني عن النبي ﷺ، مرسلاً.
وأخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٣٢٧ من طريق ابن إسحاق عن يعقوب بن أبي سلمة عن النبي ﷺ مرسلاً. وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٥٦٨ من طريق ابن إسحاق عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) في الأصل و(م): عمر. والمثبتُ من المصادر.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ١٥٩. والحديث أورده ابن كثير أيضاً في البداية والنهاية ١/ ٤٣٩ ثم قال: حديث غريب، وفي رجاله من تكلم فيه، والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل. اهـ. ولم نقف على الخبر في تاريخ ابن عساكر.

ومن الناس من زعم أنَّه عليه السلام بُعثَ إلى ثلاث أمم، والثالثة أصحابُ الرسِّ.

والقولُ بأنَّه عليه السلام كان أعمى لا عكَّاز له[1] يعتمدُ عليه، بل قد نصَّ العلماءُ ذوو البصيرة على أنَّ الرسول لابدَّ أن يكون سليماً من منفِّرٍ، ومثَّلوه بالعمى والبرص والجذام، ولا يَرِد بلاءُ أيوب، وعمى يعقوب ـ بناءً على أنَّه حقيقيٌّ ـ لطروِّه بعد الإنباء، والكلامُ فيما قارنه، والفرقُ أنَّ هذا منفِّرٌ بخلافه فيمن استقرَّت نبوَّته. وقد يقال: إن صحَّ ذلك، فهو من هذا القبيل.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية إرساله إليهم، كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ مرَّ تفسيره.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: معجزةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ من مالك أموركم. ولم تذكر معجزتُه عليه السلام في القرآن العظيم، كما لم تذكر أكثرُ معجزات نبينا ﷺ والأنبياءِ عليهم السلام فيه.

والقولُ بأنَّه لم يكن له عليه السلام معجزةٌ غلطٌ؛ لأنَّ الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ لترتيب الأمر على مجيء البينة ـ واحتمالُ كونها عاطفةً على «اعبدوا» بعيدٌ وإن كانت عبادة الله تعالى موجِبةً للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخسُ ـ فكأنه قيل: قد جاءتكم معجزةٌ شاهدةٌ بصحَّة نبوَّتي، أوجبتْ عليكم الإيمان بها، والأخذَ بما أمرتكم به، فأوفوا.. إلخ.

ولو ادعى مدَّعِ النبوَّةَ بغيرِ معجزة لم تقبل منه؛ لأنَّها دعوى أمرٍ غير ظاهر، وفيه إلزامٌ للغير، ومثل ذلك لا يُقبل من غير بينة.

ومن الناس من زعم أنَّ البينة نفس شعيب، ومنهم من زعم أنَّ المرادَ بالبينة الموعظة، وأنها نفس «فأوفوا» إلخ. وليس بشيء كما لا يخفى.

وقال الزمخشريُّ: إنَّ من معجزاته عليه السلام ما روي من محاربة عصا موسى عليه السلام التنينَ حين دفع إليه غنمه، وولادةُ الغنم الدُّرْعَ[2] خاصَّة حين وعدَه أنْ

(١) أي: للقول بأنه كان أعمى.

(٢) بضم الدال المهملة وسكون الراء والعين المهملتين، جمع أَدْرَع أو دَرْعاء، وهي ما اسودَّ رأسه وابيضَّ سائره من الغنم والخيل. حاشية الشهاب ٤/ ١٨٨.

يكون له الذُّرْع من أولادها، ووقوع عصا آدم عليه السلام على يده في المرات السبع. وغير ذلك من الآيات؛ لأن هذه كلها كانت قبل أنْ يستنبأ موسى عليه السلام، فكانت معجزاتٍ لشعيب[١]. اهـ.

وفيه نظر؛ لأنَّ ذلك متأخِّرٌ عن المقاولة، فلا يصحُّ تفريعُ الأمر عليه، ولأنَّه يحتمل أن يكون كرامةً لموسى عليه السلام، أو إرهاصاً لنبوَّته، بل في «الكشف» أنَّ هذا متعيِّنٌ؛ لأنَّ موسى أدرك شعيباً عليه السلام بعد هلاك قومه، ولأنَّ ذلك لم يكن معرضَ التحدِّي.

وزَعْمُ الإمام أنَّ الإرهاصَ غيرُ جائزٍ عند المعتزلة، ولهذا جعلَ[٢] ذلك معجزةً لشعيب عليه السلام[٣] = نظر فيه الطيبيُّ بأنَّ الزمخشريَّ قال في «آل عمران» في تكليم الملائكة عليهم السلام لمريم: إنه معجزةٌ لزكريا أو إرهاصٌ لنبوَّة عيسى عليهما السلام[٤].

والمرادُ بالكيل ما يكال به مجازاً، كالعيش بمعنى ما يعاش به، ويؤيِّده أنَّه قد وقع في سورة هود ﴿ٱلْمِكْيَالَ﴾ [الآية: ٨٤]، وكذا عطف «الميزان» عليه هنا، فإنَّ المتبادرَ منه الآلة، وإنْ جاز كونُه مصدراً بمعنى الوزن، كالميعاد بمعنى الوعد. وقيل: إنَّ الكيلَ وما عُطِف عليه مصدران، والكلام على الإضمار، أي: أوفوا آلة الكيل والوزن.

﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا تنقصوهم، يقال: بخسه حقَّه، إذا نقصه إيَّاه، ومنه قيل للمكس[٥]: البخس، وفي أمثالهم: تحسبُها حمقاء وهي باخس، أي: ذات بخس[٦]. وتُعدَّى إلى مفعولين، أولهما: «الناس»، والثاني: ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي: الكائنة في المبايعات من الثمن والمبيع، وفائدة التصريح بالنهي عن النقص بعد الأمر بالإيفاء تأكيدُ ذلك الأمر وبيانُ قبح ضدِّه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٣.

(٢) أي: الزمخشري.

(٣) تفسير الرازي ١٤/ ١٧٣.

(٤) الكشاف ١/ ٤٢٩.

(٥) مكس في البيع يمكِسُ: إذا جبى مالاً، والمكسُ: النقص، والظلم. القاموس (مكس).

(٦) أراد أنها تبخس الناس حقوقهم. مجمع الأمثال ١/ ١٢٣.

وقد يراد بالأشياء الحقوق مطلقاً، فإنَّهم كانوا مكَّاسين لا يَدَعون شيئاً إلا مكسوه.

وقد جاء عن ابن عباس ﵄ أنَّهم كانوا قوماً طغاةً بُغاةً، يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالَهم، وكانوا إذا دخلَ عليهم الغريب يأخذون دراهمه الجياد، ويقولون: دراهمُك هذه زيوف، فيقطعونَها، ثمَّ يشترونَها منه بالبخس.

وروي أنَّهم يعطونَه أيضاً بدلها زيوفاً، فكأنه لمَّا نُهوا عن البخس في الكيل والوزن، نهوا عن البخس والمكس في كلِّ شيءٍ.

قيل: ويدخلُ في ذلك بخسُ الرجل حقَّه من حسن المعاملة والتوقير اللائق به، وبيانِ فضله على ما هو عليه للسائل عنه. وكثيرٌ ممَّن انتسبَ إلى أهل العلم اليومَ مبتلونَ بهذا البخس، وليتهم قنعوا به، بل جَمعوا حشفاً وسوءَ كِيلَة[1]، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وبدأ عليه السلام بذكر هذه الواقعة ـ على ما قال الإمام ـ لأنَّ عادةَ الأنبياء عليهم السلام أنَّهم إذا رأوا قومَهم مقبلين على نوعٍ من أنواع المفاسد إقبالاً أكثرَ من إقبالهم على سائرِ الأنواع، بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع، وكان قومُه عليه السلام مشغولين[2] بالبخس والتطفيف أكثر من غيره.

والمرادُ من الناس ما يعمُّهم وغيرَهم، أي لا تبخسوا غيرَكم، ولا يبخس بعضُكم بعضاً.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالجَور، أو به وبالكفر. ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ﴾ أي: إصلاح أمرها، أو أهلها بالشرائع. فالإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله بحذف المضاف، والفاعل الأنبياء وأتباعهم. وجُوِّزَ أنْ لا يُقَدَّرَ مضافٌ، ويعتبرَ التجوُّز في النسبة الإيقاعيَّة؛ لأنَّ إصلاحَ من في الأرض إصلاحٌ لها. وأنْ تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى الفاعل على الإسناد المجازيِّ للمكان، وأن تكون على معنى

---

(١) الكِيلة: فِعْلَة من الكيل، وهي تدلُّ على الهيئة والحالة، نحو: الرِّكبة والجِلسة. والحشف: أردأ التمر. يضرب مثلاً لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين. مجمع الأمثال ١/ ٢٠٧.

(٢) في تفسير الرازي ١٤/ ١٧٣: مشغوفين، بدل: مشغولين.

«في» أي: بعد إصلاح الأنبياء فيها. ويأبى الحملَ على الظاهر لأن الإصلاحَ يتعلَّقُ بالأرض نفسِها كتعميرها وإصلاح طرقها: «لا تفسدوا في الأرض».

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان، وتركِ البخس والإفساد، أو إلى العمل بما أمرَهم به ونهاهم عنه، وأيّاً كان، فإفراد اسم الإشارة وتذكيرُه ظاهرٌ.

ومعنى الخيريَّة إمَّا الزيادة مطلقاً، أو في الإنسانية وحسن الأحدوثة[1]، وما يطلبونَه من التكسُّب والتربُّح؛ لأنَّ الناس إذا عرفوهم بالأمانة رغبوا في معاملتهم ومتاجرتهم. وقيل: ليس المراد من «خير» هنا معنى الزيادة؛ لأنَّه ليس للتفضيل، بل المعنى: ذلكم نافعٌ لكم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ قيل: المرادُ بالإيمان معناه اللغوي، وتخصُّ الخيريَّةُ بأمر الدنيا، أي: إنْ كنتم مصدِّقين لي في قولي.

ومثلُ هذا الشرط ـ على ما قال الطيبيُّ ـ إنَّما يجاءُ به في آخر الكلام للتأكيد.

ويُعلَمُ من هذا أنَّ شعيباً عليه السلام كان مشهوراً عندهم بالصدق والأمانة، كما كان نبيُّنا ﷺ مشهوراً عند قومه بالأمين.

وقال بعض الذاهبين إلى ما ذُكر: إنَّ تعليقَ الخيريَّة على هذا التصديق بتأويل العلم بها، وإلَّا فهو خيرٌ مطلقاً.

وقال القطبُ الرازي: إنَّ ذلك ليس شرطاً للخيريَّة نفسِها، بل لفعلهم، كأنه قيل[2]: فأتُوا به إن كنتم مصدِّقين بي. فلا يَرِدُ أنَّه لا توقفَ للخيريَّة في الإنسانية على تصديقهم به.

وقيل: المرادُ به مقابل الكفر، وبالخيريَّة ما يشملُ أمر الدنيا والآخرة، أي: ذلكم خيرٌ لكم في الدارين، بشرطِ أن تؤمنوا. وشُرِطَ الإيمانُ، لأنَّ الفائدةَ من حصولِ الثواب مع النجاة من العقاب ظاهرةٌ مع الإيمان، خفيَّةٌ مع فقدِه؛ للانغماس في غمرات الكفر.

---

(١) الأحدوثة هنا الذكر الجميل، حاشية الخفاجي ٤/ ١٨٩.
(٢) وقع في الأصل سقط من هنا إلى آخر الجزء الثامن من تجزئة المصحف.

وبنى بعضُهم نفعَ ترك البخس ونحوه في الآخرة على أنَّ الكفارَ يُعذَّبون على المعاصي، كما يعذَّبون على الكفر، فيكونُ التركُ خيراً لهم بلا شبهة. لكن لا يخفى أنَّه إذا فُسِّرَ الإفساد في الأرض بالإفساد فيها بالكفر لا يكونُ لهذا التعليق على الإيمان معنىً كما لا يخفى، وإخراجه من حيِّز الإشارة بعيدٌ جدّاً.

وزعم الخياليُّ[1] أنَّ الأظهر أنَّ «ذلكم خير لكم» معترضةٌ، والشرط متعلِّقٌ بما سبق من الأوامر والنواهي. وكأنَّه التزمَ ذلك لخفاء أمر الشرطيَّة عليه. وقد فرَّ من هرَّةٍ ووقع في أسد، وهرب من القَطْرِ ووقفَ تحت الميزاب، فاعتبروا يا أولي الألباب.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ أي: طريق من الطرق الحسيَّة ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي: تخوِّفون مَنْ آمن بالقتل، كما نُقِلَ عن الحسن وقتادة ومجاهد. وروي عن ابن عباس أنَّ بلادَهم كانت يسيرةً، وكان الناس يمتارون منهم، فكانوا يقعدون على الطريق، ويخوِّفونَ الناس أنْ يأتوا شعيباً، ويقولون لهم: إنَّه كذَّاب فلا يفتنكم عن دينكم.

ويجوزُ أنْ يكون القعودُ على الصراط خارجاً مخرج التمثيل، كما فيما حكي عن قول الشيطان: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] أي: ولا تقعدوا بكلِّ طريقٍ من طرق الدين كالشيطان، وإليه يشيرُ ما رُوي عن مجاهد أيضاً. والكليَّةُ ـ مع أنَّ دين الله الحقَّ واحدٌ ـ باعتبار تشعُّبه إلى معارف وحدود وأحكام، وكانوا إذا رأوا أحداً يشرعُ في شيءٍ منها منعوه بكلِّ ما يمكن من الحيل.

وقيل: كانوا يقطعون الطريقَ، فنُهوا عن ذلك. وروي ذلك عن أبي هريرة وعبد الرحمن بن زيد. ولعلَّ المراد به ما يَرجعُ إلى أحد القولين الأوَّلين، وإلَّا ففيه خفاءٌ وإن قيل: إنَّ في الآية عليه مبالغةً في الوعيد وتغليظِ ما كانوا يرومونه من قطع السبيل.

---

(١) هو أحمد بن موسى، شمس الدين، من تصانيفه: حاشية على شرح السعد على العقائد النسفية، وحواشي على أوائل شرح التجريد، (ت: ٨٦٢هـ). الفوائد البهية ص ٧٦، والأعلام ١/ ٢٦٢.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الطريقِ الموصلةِ إليه، وهي الإيمان، أو السبيلِ الذي قعدوا عليه، فوضع المظهرَ موضعَ المضمر بياناً لكلِّ صراطٍ، دلالةً على عِظم ما يصدون عنه[١]، وتقبيحاً لما كانوا عليه.

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ مفعول «تصدون» على إعمال الأقرب، لا «توعدون»، خلافاً لما يوهمه كلامُ الزمخشريّ[٢]، إذ يجب عند الجمهور في مثل ذلك حينئذٍ إظهارُ ضمير الثاني، ولا يجوزُ حذفه إلَّا في ضرورة الشعر، فيلزم أنْ يقال: تصدونهم، وإذا جعل «تصدُّون» بمعنى تُعْرِضون، يصيرُ لازماً، ولا يكون ممَّا نحن فيه.

وضمير «به» لله تعالى، أو لكلِّ صراطٍ، أو سبيل الله تعالى؛ لأنَّ السبيلَ يُذكَّر ويؤنَّث، كما قيل.

وجملة «توعدون» وما عطف عليه في موضع الحال من ضمير «تقعدوا»، أي: موعدين وصادِّين. وقيل: هي على التفسير الأول استئنافٌ بيانيٌّ، والأظهر ما ذكرنا.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتطلبون لسبيل الله تعالى عوجاً بإلقاء الشُّبه، أو بوصفها للناس بما ينقصُها، وهي أبعدُ من[٣] شائبة الاعوجاج.

وهذا إخبارٌ فيه معنى التوبيخ، وقد يكون تهكُّماً بهم، حيثُ طَلبوا ما هو محالٌ، إذ طريقُ الحقِّ لا يعوجّ.

وفي الكلام ترقٍّ، كأنه قيل: ما كفاكم أنكم توعدونَ الناس على متابعة الحقِّ،وتصدُّونهم عن سبيل الله تعالى، حتى تَصِفونَه بالاعوجاج ليكون الصدُّ بالبرهان والدليل.

---

(١) في (م): تصدق عليه. والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ١٨٩، وتفسير أبي السعود ٤/ ٣٤٧.

(٢) حيث إنه ـ بعد أن أعاد ضمير «به» على «كل صراط» مع تفسيره بكل منهاج من مناهج الدين ـ قدر المعنى: تُوعدون مَن آمن به وتصدون عنه؛ قال الشهاب: وهذا تقديرٌ للمفعول المحذوف لا دلالةٌ على إعمال الفعل الأول، وإلا لكان المختار: تصدونهم. ينظر الكشاف ٢/ ٩٤، وحاشية الشهاب ٤/ ١٨٩.

(٣) في تفسير أبي السعود ٣/ ٢٤٧: وهي أبعد شيءٍ من...

وعلى ما رويَ عن أبي هريرة وابن زيد جاز أن يُرادَ بـ «تبغونَها عوجاً» عيشُهم في الأرض، واعوجاج الطريق عبارةٌ عن فواتِ أمنها.

وذكر الطيبيُّ أنَّ معنى هذا الطلب حينئذٍ معنى اللام في قوله سبحانه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، وعلى سائر الأوجه في الكلامِ الحذفُ والإيصال.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ عددكم ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ فوفَّر عددَكم بالبركة في النسل، كما روي عن ابن عباس. وحكي أنَّ مدين بنَ إبراهيم تزوَّج بنتَ لوط، فولدت، فرمى الله تعالى في نسلها البركةَ والنماء، فكثروا وفَشوا.

وجوَّزَ الزجَّاجُ أن يكون المعنى: إذ كنتم مقلِّين فقراءَ فجعلَكم مكثرين موسرين، أو: كنتم أقلَّةً أذلَّةً فأعزَّكم بكثرة العَدد والعُدد[١].

و«إذ» مفعول «اذكروا»، أو ظرفٌ لمقدَّرٍ، كالحادث أو النعم، أي: اذكروا ذلك الوقتَ أو ما فيه ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: آخِرَ أمرِ مَن أفسدَ قبلَكم من الأمم، كقوم نوح وعاد وثمود، واعتبروا بهم.

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من الشرائع والأحكام ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ به، أو لم يفعلوا الإيمان ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ خطابٌ للكفار ووعيدٌ لهم، أي: تربَّصوا لتَروا حكمَ الله تعالى بيننا وبينكم، فإنَّه سبحانه سينصرُ المحقَّ على المبطل، ويظهرُه عليه، أو هو خطابٌ للمؤمنين وموعظةٌ لهم، وحثٌّ على الصبر واحتمال ما كانَ يلحقُهم من أذى المشركين إلى أنْ يحكمَ الله تعالى بينَهم، وينتقمَ لهم منهم.

ويجوز أنْ يكون خطاباً للفريقين، أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، وليصبر الكفَّار على ما يسوءُهم من إيمان من آمن منهم، حتى يحكم، فيميزَ الخبيثَ من الطيب.

والظاهرُ الاحتمال الأول، وكأنَّ المقصود: إنَّ إيمان البعض لا ينفعُكم في دفع بلاءِ الله تعالى وعذابه.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٥.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٧﴾ إذ لا معقِّب لحكمِه ولا حيفَ فيه، فهو في غاية السداد.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤال ينساق إليه المقال، كأنه قيل له: فماذا قالوا له عليه السلام بعدما سمعوا منه هذه المواعظ؟ فقيل: قال أشراف قومه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام، غيرَ مكتفين بمجرَّد الاستعصاء، بل بالغين من العتوِّ مبلغاً عظيماً: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ بغضاً لكم، ودفعاً لفتنتكم المترتبة على المُساكنة والجوار.

والتأكيدُ القَسَميُّ للمبالغة والاعتناء بالحكم، و«معك» متعلقٌ بالإخراج لا بالإيمان، ونسبةُ الإخراج إليه عليه السلام أولاً وإلى المؤمنين ثانياً؛ للتنبيه على أصالته عليه السلام في ذلك، وتبعيَّتهم له فيه، وتوسيطُ النداء باسمه العليِّ بين المعطوفين؛ لزيادة التقرير والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطُّغيان.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ عطفٌ على جواب القسم، أي: واللهِ ليكونَنَّ أحدُ الأمرين البتَّةَ؛ الإخراجُ أو العَوْدُ، على أن المقصِدَ الأهمَّ هو العودُ، وإنما ذكر الأول لمجرد القسر والإلجاء كما يُفصِحُ عنه عدم تعرُّضه عليه السلام بجواب الإخراج.

والمتبادر من العَود: الرجوعُ إلى الحالة الأولى، وهذا ممَّا لا يمكن في حقِّ شعيب عليه السلام، لأن الأنبياء عليهم السلام؛ معصومون عما دون الكفر بمراتب. نعم هو ممكن في حقِّ مَنْ آمن به، فإسنادُه إليه عليه السلام من باب التغليب، قيل: وقد غُلِّب عليه المؤمنون هنا كما غُلِّب هو عليهم في الخطاب، فيكون في الآية حينئذٍ تغليبان.

وقال غيرُ واحدٍ: إنَّ «تعود» بمعنى تصير، كما أثبته بعضُ النحاة واللغويين، فلا يستدعي العودَ إلى حالة سابقة، وعلى ذلك قولُه:

فإن لم تكُ الأيام تحسِنُ مرَّةً إليَّ فقد عادت لهنَّ ذنوب[1]

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي كما في أمالي القالي ٢/ ١٤٩، والعقد الفريد ٣/ ٢٧١، والخزانة ١٠/ ٤٣٤، ونسب في الأصمعيات ص٩٩ لغُريقة بن مسافع العبسي. وروايته في المصادر: فإن تكن الأيام أَحْسَنَّ مرة.

فكأنهم قالوا: لنخرجنَّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرُنَّ مثلَنا، فحينئذٍ لا إشكالَ ولا تغليب، وكذا يقال فيما بَعْدُ، وهو حسنٌ، ولا يأباه: ﴿إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الآية: ٨٩] لاحتمال أن يقال بالتغليب فيه، أو يقال: إن التنجيةَ لا يلزمُ أن تكون بعد الوقوع في المكروه، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٨٣] وأمثالِه؟.

وقال ابنُ المنير[1]: على احتمال تسليم استعمال العَوْد بمعنى الرجوع إلى أمرٍ سابق، يجاب بأنه على نهج قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فإنَّ الإخراج يستدعي دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه، وهو غيرُ متحقِّقٍ في المؤمن والكافر الأصليَّين، لكن لمَّا كان الإيمانُ والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله تعالى العبدَ ميسَّرًا لكل واحدٍ منهما، متمكِّنًا منه لو أراده، عبَّر عن تمكُّنِ المؤمن من الكفر، ثم عدوله عنه إلى الإيمان اختياراً بالإخراج من الظلمات إلى النور توفيقًا من الله تعالى له ولطفاً به، وبالعكس في حقِّ الكافر، ويأتي نظيرُ ذلك في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]، وهذا من المجاز المعبَّرِ فيه عن السَّبب بالمُسَبَّب، وفائدةُ اختياره في هذه المواضع تحقيقُ التمكُّن والاختيار؛ لإقامة حجَّة الله تعالى على عباده.

وقيل: إنَّ هذا القول كان جارياً على ظنِّهم أنه عليه السلام كان في ملَّتهم؛ لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم، أو أنه صدَرَ عن رؤسائهم؛ تلبيساً على الناس، وإيهاماً لأنه كان على دينهم، وما صدر عنه عليه السلام في أثناء المحاورة وقع على طريق المشاكلة.

وذكر الشهاب احتمالاً آخر في الجواب: وهو أن الظاهر أنَّ العودَ هو المقابلُ للخروج إلى ما خرج منه وهو القرية، والجار والمجرور في موضع الحال، أي: ليكُنْ منكم الخروجُ من قريتنا، أو العودُ إليها كائنين في ملَّتنا، فينحَلُّ الإشكال من غير حاجةٍ إلى ما تقدَّم[2]. ولا يخفى بُعْدُه.

---

(١) في الانتصاف ٢/ ٩٥.

(٢) حاشية الشهاب ٤/ ١٩٠.

وإنما لم يقولوا: أو لنعيدنَّكم، على طريقة ما قبله؛ لما أنَّ مرادَهم أن يعودوا بصورةِ الطواعية حَذَرَ الإخراج عن الوطن باختيار أهون الشَّرَّين، لا إعادتهم بسائر وجوهِ الإكراه والتعذيب.

ومن الناس من زعم أن «تعودُنَّ» لا يصلح أن يكون جواباً للقسم؛ لأنَّه ليس فعلَ المُقْسِم، وجَعَل ما أشرنا إليه أولاً[1] في بيان المعنى مخلِّصًا من ذلك، وهو باطلٌ؛ لأنه يقتضي أن القَسَم لا يكون على فعل الغير، ولم يقل أحدٌ به، وقد شاع نحو: والله ليُضرَبَنَّ زيدٌ، من غير نكير. وعُدِّيَ العود بـ «في» إيماءً إلى أن الملَّة لهم بمنزلة الوعاء المحيط بهم.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كنظائره، أي: قال شعيبٌ عليه السلام ردًّا لمقالتهم الباطلة، وتكذيباً لهم في أَيمانهم الفاجرة: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ على أنَّ الهمزة لإنكار الوقوع ونفيهِ، والواو للعطف على محذوفٍ، وقد يقال لها في مثل هذا الموضع: واو الحال أيضاً، و«لو» هي التي يُؤتى بها لبيان ما يفيدُه الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفيِّ على كل حالٍ مفروضٍ من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدِها منه وأشدِّها منافاةً له؛ ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوتُه أو انتفاؤه مع ما عداه من الأحوال بطريقة الأولويَّة، والكلامُ هاهنا في تقدير: أنعودُ فيها لو لم نكن كارهين، ولو كنَّا كارهين غير مبالين بالإكراه؟! فالجملةُ في موضع الحال من ضمير الفعل المقدَّر، والمآل: أنعودُ فيها حال عدم الكراهة؟! إنكاراً لما تفيدُه كلمتُهم الشنيعة بإطلاقها من العَوْد على أيِّ حالةٍ، غير أنه اكتُفي بذكر الحالة التي هي أشدُّ الأحوال منافاةً للعود، وأكثرُها بعداً منه؛ تنبيهاً على أنها هي الواقعة في نفس الأمر، وثقةً بإغنائها عن ذِكْر الأولى إغناءً واضحاً؛ لأن العود الذي تعلَّق به الإنكار حين تحقَّقَ مع الكراهة على ما يوجبه كلامُهم، فلَأَن يتحقَّقَ مع عدمها أولى، وهذا بعضٌ ممَّا ذكره شيخُ الإسلام في هذا المقام، وقد أطنب فيه الكلامَ، وأتى بالنقض والإبرام، فارجع إليه، وقد جوَّز أن يكون الاستفهام باقيًا على حاله[2].

---

(١) في (م): أولى.

(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٤٨-٢٤٩.

وجعل بعضُهم الهمزة بمعنى كيف، ووجَّه التعجبَ إلى العود، أي: كيف نعود فيها ونحن كارهون لها؟! وتقديرُ فعل العود لقوةِ دلالة الكلام عليه أولى من تقدير فعل الإعادة كما فعل الزمخشري[(١)].

وفي «التيسير» تقديرُ فعل الإخراج، أي: تخرجوننا من غير ذنبٍ، ونحن كارهون لمفارقة الأوطان؟! وقد وجِّه بأنَّ العودَ مفروغٌ عنه لا يُتصور من عاقل، فلا يكون إلا الإخراج. ولا يخفى ضعفُ هذا التقدير.

وذكر أبو البقاء[(٢)] أن «لو» هنا بمعنى إنْ؛ لأنها للمستقبل، وجوَّز أن تكون على أصلها، وما أشار إليه شيخ الإسلام في هذا المقام أبعدُ مغزى، فليتأمَّل.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ عظيماً لا يُقادَرُ قَدْرُه ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ التي هي الشِّرك، وزَعَمْنا كما زعمتُم أن لله سبحانه ندًّا، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ وعلمنا بطلانَها، وأن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وجوابُ الشرط محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه، أي: إن عُدْنا في ملَّتكم فقد افترينا، واستُشكل ذلك بأنَّ الظاهر فيما إذا كان الجواب مثل ما ذُكِرَ أن يتعلَّق ظهورُه والعلم به بالشرط، نحو: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، وإن أكرمتني اليوم فقد أكرمتُك أمس، والمقصودُ هنا تقييدُ الافتراء بالعَوْد، ولفظُ «قد» وصيغةُ الماضي يمنعانه.

والجوابُ ما أشار إليه الزمخشريُّ: من أنه من باب الإخراج لا على مقتضى الظاهر، وإيثار «قد» والماضي الدالَّين على التأكيد؛ إمَّا لأنه جوابُ قسم مقدَّر، أو لأنه تعجُّب على معنى: ما أكذَبنا إن عُدْنا.. إلخ، ووجه التعجُّب أن المرتدَّ أبلغُ في الافتراء من الكافر؛ لأن الكافر مفترٍ على الله تعالى الكذبَ حيث يزعمُ أن لله سبحانه ندًّا ولا نِدَّ له، والمرتدُّ مثلُه في ذلك، وزائدٌ عليه حيث يزعم أنه قد تبيَّن له ما خفيَ عليه من التمييز بين الحق والباطل[(٣)].

---

(١) في الكشاف ٢/ ٩٦، والتقدير عنده: أتُعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ومع كوننا كارهين.

(٢) في إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٣٩.

(٣) نقله المصنف بواسطة الشهاب الخفاجي ٤/ ١٩١، وانظر الكشاف ٢/ ٩٧.

والحملُ على التعجُّب على ما في «الكشف» أولى؛ لأن حذف اللام ضعيفٌ.

وجوَّز أبو حيان تبعاً لابن عطية[١] أن يكون الفعل المذكور قَسَماً، كما يقال: برئتُ من الله تعالى إن فعلتُ كذا، وكقول مالكِ الأشتر[٢] النَّخَعيِّ:

أبقيتُ وَفْرِي وانحرفتُ عن العُلا ... ولقيتُ أضيافي بوجهِ عَبُوسِ
إن لم أشنَّ على ابن هندٍ غارةً ... لم تَخْلُ يوماً من ذهاب نفوسِ[٣]

وهذا نوعٌ من أنواع البديع، وقد ذكره غير واحد من أصحاب البديعيَّات، ومَثَّله عِزُّ الدين الموصليُّ بقوله:

برئتُ من سَلَفي والشُّمُّ من هِمَمي ... إنْ لم أدِنْ بتقًى مبرورة القَسَم[٤]

والباعُونية بقولها[٥]:

لا مَكَّنتني المَعالي من سِيَادتها ... إن لم أكن لهمُ من جملة الخَدَم

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ أي: ما يصحُّ لنا وما يقع، فـ «يكون» تامةٌ، وقد يأتي ذلك بمعنى: ما ينبغي وما يليقُ ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ في حال من الأحوال، أو وقتٍ من الأوقات.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ أي: إلا حالَ أو وقتَ مشيئة الله لعَودنا. والتعرُّضُ لعنوان الرُّبوبية؛ للتصريح بأنه المالكُ الذي لا يُسأل عمَّا يفعل.

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٣٤٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢٨، وحاشية الشهاب ٤/ ١٩١.
(٢) في الأصل و(م): مالك بن الأشتر، وهو وهم تابع فيه المصنفُ ابنَ حجة الحموي في خزانة الأدب ص١٤٥، ومالك: هو ابن الحارث، ولقب بالأشتر لأن رجلاً ضربه على رأسه، فسالت الجراحة على عينه فشترتها. انظر معجم الشعراء للمرزباني ص٢٦٣.
(٣) البيتان في الأمالي لأبي علي القالي ١/ ٨٥، وديوان الحماسة بشرح المرزوقي ١/ ١٤٩، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ص١٤٥، والبحر ٤/ ٣٤٣، وحاشية الشهاب ٤/ ١٩١. وروايته في المصادر: بقَّيت، بدل: أبقيت. والوفر: المال الكثير.
(٤) البيت في خزانة الأدب لابن حجة الحموي ص١٤٨.
(٥) هي عائشة بنت يوسف الباعوني، والبيت من بديعية لها على هامش خزانة الأدب لابن حجة ص٣٤٨.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فهو سبحانه يعلم كلَّ حكمةٍ ومصلحة، ومشيئتُه على موجَبِ الحكمة، فكلٌّ ما يقع مشتمِلٌ عليها، وهذا إشارة إلى عدم الأمن من مكر الله سبحانه، فإنه لا يأمَنُ مكر الله إلا القومُ الكافرون، وفيه من الانقطاع إلى الله تعالى ما لا يخفى، ويؤكِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ فإنَّ التوكُّل عليه سبحانه إظهارُ العجز والاعتمادُ عليه جلَّ شأنه. وإظهارُ الاسم الجليل للمبالغة، وتقديمُ المعمول لإفادة الحصر.

وفي الآية دلالةٌ على أن لله تعالى أن يشاءَ الكفرَ.

وادعى شيخُ الإسلام[1] أن المرادَ استحالةُ وقوع ذلك، كأنَّه قيل: وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله تعالى العودَ، وهيهاتَ ذلك، ولا يكاد يكون، كما يُنبئُ عنه التعرُّض لعنوان الرُّبوبية، وقولهم: «بعد إذ نجَّانا الله منها»؛ فإنَّ تنجيته تعالى إياهم منها من دلائل عدم مشيئته سبحانه لعَودهم فيها، وفرَّعَ على قوله تعالى: «وسع» إلخ - بعد أن فسَّره بما فسَّره - مُحاليةَ مشيئته[2] العود، لكن لطفًا. وهو وجهٌ في الآية، ولعل ما ذهبتُ إليه فيها أولى.

ولا يَرِدُ على تقدير العود مفعولاً للمشيئة أنه ليس لذِكْر سعة العلم بَعْدُ حينئذٍ كبيرُ مَعنًى، بل كان المناسبُ ذكرَ شمول الإرادة، وأن الحوادث كلَّها بمشيئة الله تعالى = لما لا يخفى، ولا يُحتاج إلى القول بأن ذلك منه عليه السلام ردٌّ لدعوى الحصر باحتمال قِسْمٍ ثالث، والزمخشريُّ بنى «تفسيره» على عقيدته الفاسدة من وجوب رعاية الصلاح والأصلح، وأن الله تعالى لا يمكن أن يشاءَ الكفر بوجهٍ؛ لخروجه عن الحكمة، واستدلَّ بقوله سبحانه: «وسع» إلخ، وردَّه ابنُ المنير[3] بأنَّ موقع ما ذُكِرَ الاعترافُ بالقصور عن علم العاقبة والاطلاع على الأمور الغائبة، ونظير ذلك قولُ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ [الأنعام: ٨٠] فإنه عليه السلام لمَّا ردَّ الأمر إلى المشيئة - وهي مُغَيَّبة - مَجَّدَ اللهَ تعالى بالانفراد بعلم الغائبات. انتهى.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٥١.

(٢) في الأصل: مشيئة، والمثبت من (م).

(٣) في الانتصاف ٢/ ٩٦.

وإلى كون المراد من الاستثناء التأبيد ذهب جعفر بنُ حَرْب(١) والزجَّاج(٢) أيضًا، وجعلوا ذلك كقول الشاعر:

إذا شاب الغرابُ أتيتُ أهلي وصار القارُ كاللبن الحليب(٣)

وأنت خبيرٌ بأن ذلك مخالف للنصوص النقلية والعقلية، وللعبارة والإشارة، وقال الجبائيُّ والقاضي(٤): المرادُ بالمِلَّة: الشريعةُ، وفيها ما لا يرجع إلى الاعتقاد، ويجوز أن يَتعبَّدَ اللهُ تعالى عبادَه به، ومفعولُ المشيئة العَود إلى ذلك، أي: ليس لنا أن نعود إلى مِلَّتكم إلا أن يشاء الله تعالى عَوْدَنا، بأن يتعبَّدَنا بها، وينقلَنا إليها، وينسخَ ما نحن فيه من الشريعة.

وقيل: المرادُ: إلا أن يشاء الله تعالى أن يُمكِّنَكم من إكراهنا ويُخلِّي بينكم وبينه، فنعود إلى إظهار مِلَّتكم مُكرَهين، وقُوِّيَ بسبق: «أَوَلو كنَّا كارهين».

وقيل: إن الهاء في قوله تعالى: «فيها» يعود إلى القرية لا المِلَّة، فيكون المعنى: إنَّا سنخرج من قريتكم ولا نعود فيها إلا أن يشاء الله بما يُنجزه لنا من الوعد في الإظهار عليكم والظَّفَر بكم، فنعود فيها.

وقيل: إنَّ التقدير: إلا أن يشاء الله أن يردَّكم إلى الحق، فنكون جميعاً على ملَّةٍ واحدة.

ولا يخفى أن كلَّ ذلك مما يُضحك الثَّكلى، وبالجملة الآيةُ ظاهرة فيما ذهب إليه أهلُ السنة، وسبحان من سدَّ باب الرُّشد عن المعتزلة.

---

(١) في الأصل و(م): جعفر بن الحارث، وهو خطأ.
وجعفر بن حرب: هو أبو الفضل الهمذاني المعتزلي، كان من نُسَّاك القوم، من تصانيفه: كتاب متشابه القرآن، وكتاب الأصول. توفي سنة (٢٣٦هـ). سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٤٩.
وقد نقل قوله هذا الطبرسي في مجمع البيان ٩/ ١١٨.

(٢) في نسبة هذا القول للزجاج وهم لعل المصنف تابع فيه الشهاب الخفاجي ٤/ ١٩١، فقد ذكر الزجاج في كتابه معاني القرآن ٢/ ٣٥٦ قول أهل السنة ونصره، وذكر قول المعتزلة ونقضه بما لا يحتمل التأويل.

(٣) البيت في الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ص٥٩، وروضة العقلاء لابن حبان ص١٥٨، ومجمع البيان ٩/ ١١٨.

(٤) نقل قوليهما الطبرسي في مجمع البيان ٩/ ١١٩، والقاضي هو عبد الجبار المعتزلي.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ إعراضٌ عن مفاوضتهم إِثْرَ ما ظهر من عتوِّهم وعنادهم، وإقبالٌ على الله تعالى بالدعاء.

والفتحُ بمعنى الحكم والقضاء لغةٌ لِحِمْيَر أو لِمُرَاد، والفتَّاح عندهم: القاضي، والفُتاحةُ بالضم: الحكومة، وأخرج ابنُ أبي حاتم[1] عن السُّدِّي أنه قال: الفتحُ: القضاء، لغةٌ يمانية. وأخرج البيهقيُّ وجماعةٌ عن ابنِ عباس قال: ما كنتُ أدري ما قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ﴾ حتى سمعتُ ابنةَ ذِي يَزَن، وقد جرى بيني وبينها كلامٌ [تقول]: تعال[2] أُفاتِحْكَ. تريد: أُقاضيك[3].

و«بيننا» منصوبٌ على الظرفية، والتقييدُ بالحقِّ لإظهار النَّصَفة. وجُوِّز أن يكون مجازًا عن البيان والإظهار، وإليه ذهب الزجَّاج[4]، ومنه فتحُ المشكِل: لبيانه وحَلِّه؛ تشبيهاً له بفتح الباب وإزالةِ الأغلاق حتى يوصَل إلى ما خلفها. و«بيننا» - على ما قيل - مفعول به بتقدير: ما بيننا.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: الحاكمين؛ لخلوِّ حكمك عن الجَور والحَيف، أو: المُظهرين؛ لمزيد علمك وسَعَة قدرتك. والجملةُ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ عطفٌ على «قال الملأ» إلخ، والمرادُ من هؤلاء الملأ: يحتمِلُ أن يكون أولئك المستكبرين، وتغيير الصِّلة لِمَا أنَّ مناط قولهم السابقِ هو الاستكبار، ويكون هذا حكايةً لإضلالهم بعد حكاية ضلالهم على ما قيل، ويحتمِلُ أن يكون غيرَهم ودونهم في الرتبة، شأنُهم الوساطةُ بينهم وبين العامة، والقيامُ بأمورهم حسبما يراه المستكبرون، أي: قالوا لأهل مِلَّتهم تنفيرًا لهم، وتثبيطاً عن الإيمان بعد أن شاهدوا صلابةَ شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين فيه، وخافوا أن يفارقوهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ ودخلتُم في ملَّته وفارقتم ملَّةَ آبائكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: مغبونون؛ لاستبدالكم الضلالةَ بالهدى،

---

(١) عزاه إليه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٠٣.
(٢) في (م): فقالت، بدل: تعال.
(٣) الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ١٦٥، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٠/ ٣٢٠، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٢٣، وما بين حاصرتين من المصادر.
(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٥٨.

ولفوات ما يحصُلُ لكم بالبَخْس والتطفيف، فالخسرانُ على الأول استعارةٌ، وعلى الثاني حقيقة.

وإلى تفسير الخاسرين بالمغبونين ذهب ابنُ عباس. وعن عطاء تفسيرُه بالجاهلين، وعن الضحَّاك تفسيره بالعَجَزة[1].

و«إذاً» حرفُ جواب وجزاء معترضٌ ـ كما قال غير واحدٍ ـ بين اسم إنَّ وخبرها، وقيل: هي إذا الظرفيةُ الاستقبالية، وحُذِفت الجملة المضاف إليها، وعُوِّض عنها التنوينُ، وردَّه أبو حيان[2] بأنه لم يقله أحدٌ من النحاة.

والجملة جوابٌ للقسم الذي وطَّأته اللامُ، بدليل عدم الاقتران بالفاء، وسادَّةٌ مسَدَّ جواب الشرط، وليست جواباً لهما معاً كما يُوْهِمُه كلامُ بعضهم؛ لأنه ـ كما قيل ـ مع مخالفته للقواعد النَّحْوية، يلزمُ فيه أن يكون جملة واحدة لها محلٌّ من الإعراب ولا محلَّ لها، وإن جاز باعتبارين.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة كما قال الكلبيّ. وفي «سورة هود»: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [٩٤] أي: صيحةُ جبريل عليه السلام، ولعلها كانت من مبادي الرجفة، فأُسند إهلاكُهم إلى السبب القريب تارةً، وإلى البعيد أخرى.

وقال بعضهم: إن القصةَ غيرُ واحدةٍ؛ فإنَّ شعيبًا عليه السلام بُعِثَ إلى أُمَّتين: أهل مَدْين، وأهل الأيكة، فأُهلكت إحداهما بالرجفة، والأخرى بالصَّيحة.

وفيه أنه إنما يتم لو لم يكن هلاكُ أهل مَدْين بالصيحة، والمرويُّ عن قتادة أنهم الذين أُهلكوا بها، وأن أهل الأيكة أُهلكوا بالظُّلَّة.

وجاء في بعض الآثار أن أهل مَدْين أُهلكوا بالظُّلَّة والرجفة؛ فقد رُوي عن ابن عباس وغيره في هذه الآية أنَّ الله تعالى فتح عليهم باباً من جهنم، فأرسل عليهم حرًّا شديداً فأخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظلٌّ ولا ماء، فكانوا يدخلون الأسرابَ فيجدونها أشد حرًّا من الظاهر، فخرجوا إلى البرِّية، فبعث الله تعالى سحابةً فيها

(١) في (م): بالفجرة، وهو تحريف، والمثبت موافق لما في تفسير البغوي ٢/ ١٨٢، والبحر المحيط ٤/ ٣٤٥.

(٢) في البحر المحيط ٤/ ٣٤٥.

ريحٌ طيبة فأظلَّتهم، فوجدوا لها برداً، فنادى بعضُهم بعضاً حتى اجتمعوا تحتها رجالهم وصبياهم، فألهَبَها عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرضُ، فاحترقوا كما يحترق الجرادُ المقليُّ، وصاروا رماداً.

ويُشْكِل على هلاكهم جميعاً نساءً ورجالًا ما نُقل عن [أبي][1] عبد الله البَجَليِّ قال: كان أبو جادَ، وهوَّزُ، وحُطِّي، وكَلَمُن، وسَعْفَص، وقُرِشَت، ملوكَ مدين، وكان مَلِكُهم في زمن شعيب عليه السلام كَلَمُن، فلما هلك يومَ الظُّلة رثته ابنته[2] بقولها:

كَلَمُنْ قد هَدَّ رُكْني ... هُلْكُهُ وَسْطَ المَحَلَّهْ
سيِّدُ القوم أتاه الـ ... ـحَتْفُ ناراً تحت ظُلَّهْ
جُعِلَتْ نارًا عليهم ... دارُهُم كالمُضْمَحِلَّهْ

اللهمَّ إلا أن يقال: إنها كانت مؤمنةً فنجتْ، وقد يقال: إن هذا الخبرَ مما ليس له سندٌ يعوَّل عليه.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ تقدَّم نظيرُه.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا﴾ استئنافٌ لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم: «لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا»، والموصول مبتدأٌ خبره قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ أي: لم يقيموا في دارهم، وقال قتادة: المعنى: كأنْ لم يعيشوا فيها مستغنين، وذكر غيرُ واحدٍ أنه يقال: غَنِيَ بالمكان يَغْنَى غِنًى غُنياناً: إذا أقام به دهراً طويلاً، وقيَّده بعضُهم بالإقامة في عيش رغد.

وقال ابنُ الأنباريِّ[3] كغيره: إنه من الغِنَى ضدِّ الفقر كما في قول حاتم:

غَنِينا زماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى ... فكلًّا سقاناه بكأسِهما الدَّهر
فما زادنا بغياً على ذي قرابةٍ ... غِنانا ولا أزرى بأحسابِنا الفقرُ[4]

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير الطبري ١٠/ ٣٢٤، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٢.

(٢) في تفسير الطبري ١٠/ ٣٢٤ أن الأبيات لأخت كلمن، وما في تفسير البغوي ٢/ ١٨٢، والبحر المحيط ٤/ ٣٤٦ موافق لما ذكره المصنف.

(٣) نقله عنه بواسطة الشهاب الخفاجي ٤/ ١٩٢.

(٤) البيتان في الديوان ص٥١، غير أن البيت الأول جاء صدره لبيت، وعجزه لآخر، وهما في الأغاني ١٧/ ٣٨٦ بمثل رواية المصنف.

وعلى هذا تفسير قتادة، وردَّ الراغب غَنِيَ بمعنى أقام إلى هذا المعنى، فقال: غَنِيَ بالمكان: طال مقامه فيه مستغنيًا به عن غيره[١].

وقولُ بعضهم في بيان الآية: إنهم استؤصلوا بالمرة، بيانٌ لحاصل المعنى.

وفي بناء الخبر على الموصول إيماءٌ إلى أن علةَ الحكم هي الصِّلة، فكأنه قيل: الذين كذَّبوا شعيباً هلكوا ـ لتكذيبهم إياه ـ هلاكَ الأبد ويُشعر ذلك هنا بأن مصدِّقيه عليه السلام نجوا نجاةَ الأبد، وهذا مرادُ من قال بالاختصاص في الآية، وقيل: إنه مبنيٌّ على أن مثل هذا التركيب كما يفيد التقوِّيَ قد يفيد الاختصاص، نحو: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ [الرعد: ٢٦] والقرينةُ عليه هنا أنه سبحانه ذكر فيما سبق المؤمنين والكافرين، ولم يذكر هنا إلا هلاكَ المكذِّبين، ويرجع حاصل المعنى بالآخرة إلى أنهم عُوقبوا بتوعُّدهم السابق بالإخراج، وصاروا هم المخرَجين من القرية إخراجًا لا دخول بعدَه دون شعيب عليه السلام ومن معه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ استئنافٌ آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير، واستفادةُ الحصر هنا أوضحُ من استفادته فيما تقدَّم، أي: الذين كذَّبوه عليه السلام عُوقبوا بقولهم: «لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون»، فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدِّين؛ لتكذيبهم، لا المتَّبعون له عليه السلام، المصدِّقون إياه عليه السلام، وبهذا القصر اكتُفي عن التصريح بالإنجاء، كما وقع في سورة هود من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ إلخ [الآية: ٩٤].

وفي «الكشاف»: أن في هذا الاستئناف، وتكرير الموصول والصلة، مبالغةٌ في ردِّ مقالة الملأ لأشياعهم، وتسفيهٌ لرأيهم، واستهزاءٌ بنصحهم لقومهم[٢]، واستعظامٌ لما جرى عليهم[٣]. وأنتَ تعلم أن في استفادة ذلك كله من نفس هذه الآية خفاءٌ، والظاهرُ أن مجموع الاستئنافين مُؤْذِنٌ به.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (غني).

(٢) في (م): بقومهم.

(٣) الكشاف ٢/ ٩٧.

وبيَّن الطِّيبيُّ ذلك بأنه تعالى لما رتَّب العقاب بأَخْذ الرَّجفة وتَرْكِهم هامدين لا حَرَاك بهم على التكذيب والعناد، اتَّجه لسائلٍ أن يسأل: إلى ماذا صار مآل أمرهم بعد الجُثوم؟ فقيل: «الذين كذبوا شعيبًا كأن لم يغنوا فيها» أي: إنهم استُؤْصلوا، وتلاشت جسومهم كأَنْ لم يقيموا فيها، ثم سأل: أَخُصِّص الدمار بهم أم تعدَّى إلى غيرهم؟ فقيل: «الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين» أي: اختصَّ بهم الدمار، فجُعِلت الصلةُ الأولى ذريعةً إلى تحقيق الخبر، كقوله(١):

إنَّ التي ضربَتْ بيتًا مهاجِرَةً بكوفةِ الجُند غالَتْ وُدَّها غُوْلُ

وكذلك بُولغ في الإخبار عن دمار القوم، وجِيءَ بتَقَوِّي الحكم والتخصيص، وجُعلت الصِّلةُ الثانية علةً لوجود الخبر، وجاء تسفيهُ الرَّأي من الردِّ عليهم بعين ما تلفَّظوا به في نُصْح قومِهم، والاستهزاءُ من الإشارة إلى أنَّ ما جعلوه نصيحةً صار فضيحةً، وانعكس الحال الذي زعموه.

ويُستفاد عِظَمُ الخسران من تعريف الخبر بلام الجنس، وأما استعظامُ ما جرى فمن قوله سبحانه: «كأن لم» إلخ، وكذا من مجموع الكلام.

ولا يخفى أنَّ القول بالاستئناف البيانيِّ في الجملتين، وجَعْلَ الصِّلة الأولى ذريعةً إلى تحقيق الخبر، ليس بشيء، وقد ذكر غيرُ واحدٍ أنَّ هذا الاستئناف من غير عطفٍ جارٍ على عادة العرب في مثل هذا المقام؛ فإنَّ عادتَهم الاستئنافُ كذلك في الذمِّ والتوبيخ، فيقولون: أخوكَ الذي نَهَبَ مالَنا، أخوكَ الذي هتكَ سِتْرنا، أخوكَ الذي ظلَمنا.

وجوَّزَ أبو البقاء(٢) أن يكون الموصول الثاني بدلاً من الضمير في «يَغْنَوا»، وأن يكون في محلِّ نصبٍ بإضمار أعني، وأن يكون الأول مبتدأ، والخبرُ «الذين كذبوا شعيبًا كانوا»، و«كأن لم يغنوا» حالٌ من الضمير في «كذَّبوا»، وأن يكون الأولُ صفةً لـ: «الذين كفروا»، أو بدلاً منه، وعلى الوجهين يكون «كأن لم» إلخ حالاً. وما اخترناه هو الأولى كما هو ظاهر، فليُتَدَبَّر.

---

(١) هو عبدة بن الطبيب، وقد سلف البيت ٤/ ٣١٧.
(٢) في إملاء ما منَّ به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٣/ ٤١-٤٢.

وقوله سبحانه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ تقدَّم الكلامُ على نظيره، بَيْد أنَّ هذا القولَ يحتملُ أن يكون تأنيباً وتوبيخاً لهم.

وقوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ إنكارٌ لمضمونه، أي: لقد أَعذرتُ إليكم في الإبلاغ والنَّصيحة، والتَّحذير ممَّا حلَّ بكم، فلم تسمعوا قولي، ولم تصدِّقوني، «فكيف آسى»أي: لا آسى عليكم؛ لأنَّكم لستُم أحقَّاء بالأسى: وهو الحزن، كما في «الصحاح» و«القاموس»[1]، أو شدَّةُ الحزن، كما في «الكشاف» و«مجمع البيان»[2].

ويحتمِلُ أن يكون تأسُّفاً بهم؛ لشدة حُزْنه عليهم، وقوله سبحانه: «فكيف» إلخ إنكارٌ على نفسه لذلك، وفيه تجريدٌ والتفاتٌ على ما قيل؛ حيث جرَّدَ عليه السلام من نفسه شخصاً، وأنكر عليه حزنَه على قوم لا يستحقُّونه، والتفَتَ عن الخطاب إلى التكلُّم.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ الظاهر أنه ليس من الالتفات والتجريد في شيء؛ فإنَّ «قال» يقتضي صيغة التكلُّم، وهي تنافي التجريد، وإنما هو نوعٌ من البديع يُسمَّى الرجوعَ ـ وهو العَودُ على الكلام السابق بالنَّقض ـ لأنه إذا كان «قد أبلغتُكم» تأسُّفاً ينافي ما بعدَه، فكأنه بدا له، ورجع عن التأسُّف مُنكِراً لفعله الأول، وقد جاء ذلك كثيراً في كلامهم، ومن ذلك قول زهير:

قِفْ بالدِّيار التي لم يَعْفُها[3] القِدَمُ بَلَى وغيَّرها الأرواحُ والدِّيَمُ[4]

والنكتةُ فيه[5] الإشعارُ بالتَّوَلُّه والذُّهول من شدَّة الحيرة؛ لعظم الأمر، بحيث لا يُفرِّقُ بين ما هو كالمتناقض من الكلام وغيره.

---

(١) الصحاح والقاموس (أسى).
(٢) الكشاف ٢/ ٩٧، ومجمع البيان ٩/ ١٢٠.
(٣) في الأصل و(م): تعفها، وهو تصحيف.
(٤) البيت في ديوانه بشرح أبي العباس ثعلب ص١٤٥. والأرواح: جمع ريح، والديم: جمع ديمة: وهي مطر يدوم مع سكون يومًا أو يومين.
(٥) الضمير عائد إلى الرجوع الذي هو نوع من أنواع البديع. انظر حاشية الشهاب ٤/ ١٩٣.

وابن حجَّة لا يُفرِّق بين هذا النوع ونوع السَّلب والإيجاب[(١)]، وكأنَّ منشأ ذلك اعتمادُه في النوع الأخير على تعريف أبي هلال العسكريِّ له[(٢)]، ولو اعتمد على تعريف إمام الصِّناعة ابنِ أبي الإصبع[(٣)] لما اشتَبَه عليه الفرقُ.

وعلى الاحتمالين؛ في قوله سبحانه: «على قوم» إلخ إقامةُ الظاهر مقامَ الضمير؛ للإشعار بعدم استحقاقهم التأسُّفَ عليهم؛ لكفرهم.

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب: «فكيف إيسَى»[(٤)] بكسر الهمزة وقلب الألف ياءً، على لغة من يكسرُ حرفَ المضارعة، كقوله:

قَعِيدَكِ أَنْ لا تُسْمِعِينِي مَلامةً ولا تَنْكَئِي جُرحَ الفؤاد فَيِيْجَعَا[(٥)]

وإمالةِ الألف الثانية.

هذا ثم إنَّ شعيبًا عليه السلام بعد هلاك من أُرسل إليهم نزل مع المؤمنين به بمكة حتى ماتوا هناك، وقبورُهم ـ على ما رُوي عن وهب بن مُنَبِّه ـ في غربيِّ الكعبة بين دار النَّدوة وباب بني سهم.

---

(١) انظر كلام ابن حجة عن الرجوع في خزانة الأدب ص٦٥، وقد سماه: الاستدراك، وانظر كلامه عن السلب والإيجاب في الكتاب نفسه ص٣٦١، وقارنه بتعريف العسكري وابن أبي الإصبع.

(٢) عرف العسكري السلب والإيجاب في كتاب الصناعتين ص٤٢١ بقوله: هو أن تبني الكلام على نفي الشيء من جهة، وإثباته من جهة أخرى، أو الأمر به في جهة، والنهي عنه في جهة، وما يجري مجرى ذلك.

(٣) عرف ابن أبي الإصبع السلب والإيجاب في كتابه بديع القرآن ص١١٦ بمثل ما عرفه به أبو هلال العسكري، ولكنه عرفه في تحرير التحبير ـ فيما نقله عنه ابن حجة في الخزانة ص٣٦١ ـ بقوله: هو أن يقصد المادح أن يفرد ممدوحه بصفة مدح لا يشركه فيها غيره، فينفيها في أول كلامه عن جميع الناس، ويثبتها لممدوحه بعد ذلك.

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٤٥، والكشاف ٢/ ٩٧.

(٥) البيت لمتمم بن نويرة، وهو في المفضليات ص٢٦٩.

وقوله: قعيدك: كقولهم: نَشَدْتُكِ، وأصله الحافظ، ويقال: قعيدكَ اللهَ، أي: أُذكِّركَ اللهَ الحافظَ لك. وقوله: لا تنكئي، من قولهم: نكأتُ القرحة: إذا قشرتها. وقوله: فييجعا: هي لغة بني تميم، يقولون: وجِعَ يِيجع، ووَجِل يِيجل، وقد وصفها ابن الأنباري في شرحه على المفضليات ٢/ ٨٠ بقوله: وهي شر اللغات. ثم بين علة رداءتها. وانظر شرح التبريزي على المفضليات ٣/ ١١٨٤.

وأخرج ابنُ عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: في المسجد الحرام قبران، ليس فيه غيرُهما: قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام، أما قبر إسماعيل ففي الحِجْر، وأما قبر شعيب فمقابل الحجر الأسود[١]. ورَوَى عنه أيضًا أنه عليه السلام كان يقرأ الكتبَ التي أنزلها الله[٢] على إبراهيم عليه السلام[٣].

ومن الغريب ما نقل الشِّهاب أن شعيبًا اثنان، وأنَّ صهرَ موسى عليهما الصلاة والسلام من قبيلةٍ من العرب تُسمَّى عَنَزَة. وعَنَزَة: ابنُ أسد بن ربيعة بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان، وبينَه وبين من تقدَّم دهرٌ طويل[٤]، فتبصَّر، والله تعالى أعلم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ إشارةٌ إجماليةٌ إلى بيان أحوال سائر الأمم المذكورة تفصيلاً، وفيه تخويفٌ لقريش وتحذيرٌ، و«من» سيفُ خطيبٍ جيء بها لتأكيد النفي، وفي الكلام حذفُ صفةِ «نبي»، أي: كُذِّبَ، أو: كَذَّبَه أهلُها.

﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، و«أخذنا» في موضع نصبٍ على الحال من فاعل «أرسلنا»، وفي الرَّضيِّ[٥] أن الماضي الواقع حالاً إذا كان بعد «إلَّا» فاكتفاؤه بالضمير من دون الواو، وقد كَثُر نحو: ما لقيتُه إلا أكرمني؛ لأنَّ دخول إلا في الأغلب الأكثر على الاسم، فهو بتأويل: إلا مُكرِمًا لي، فصار كالمضارع المثبَت، وما في هذه الآية من هذا القَبِيل، وقد يجيءُ مع الواو و«قد»، نحو: ما لقيتُه إلا وقد أكرمني، ومع الواو وحدَها نحو: ما لقيتُه إلا أكرمني؛ لأنَّ الواو مع «إلَّا» تدخل في خبر المبتدأ، فكيف بالحال، ولم يُسمَعْ فيه «قد» من دون الواو، وقال المُراديُّ في «شرح الألفيَّة»: إن الحال المصدَّرَة بالماضي المثبَتِ إذا كان تاليًا لـ «إلَّا»، يلزَمُها الضمير والخُلوُّ من الواو، ويمتنعُ دخول «قد»، وقوله[٦]:

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٢٣/ ٧٩.

(٢) في (م): التي كان الله تعالى أنزلها.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٢٣/ ٧٨.

(٤) حاشية الشهاب ٤/ ١٩٣.

(٥) شرح الرضي على الكافية ٢/ ٤٦.

(٦) هو قيس بن الخطيم، والبيت في ديوانه ص٤٩.

متى يأتِ هذا الموتُ لم تُلْفَ حاجةٌ لنفسي إلَّا قد قضيتُ قضاءها

نادرٌ، وقد نصَّ على ذلك الأشمونيُّ[١] وغيرُه أيضاً، والظاهر أنَّ امتناعَ «قد» بعد «إلا» ـ فيما ذُكِر ـ إذا كان الماضي حالاً، لا مطلقاً، وإلا فقد ذكر الشهابُ[٢] أن الفعلَ الماضي لا يقعُ بعد «إلا» إلا بأحد شرطين: إما تقدُّم فعلٍ كما هنا، وإما مع «قد»، نحو: ما زيدٌ إلا قد قام، ولا يجوز: ما زيدٌ إلا ضَرَب.

ويُعلم ممَّا ذكرنا أن ما وقع في غالب نسخ «تفسير» مولانا شيخ الإسلام من أنَّ الفعل الماضي لا يقعُ بعد «إلا» إلا بأحد شرطين: إما تقدير «قد» كما في هذه الآية، أو مقارَنةِ «قد» كما في قولك: ما زيدٌ إلا قد قام[٣]، ليس على ما ينبغي، بل هو غلطٌ ظاهر كما لا يخفى.

والمعنى فيما نحن فيه: وما أرسلنا في قريةٍ من القُرى المهلَكَة نبيًّا من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كوننا آخذين أهلَها ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: بالبُؤْس والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالضُّرِّ والمرض، وبذلك فسَّرهما ابنُ مسعود، وهو معنى قول من قال: «البأساءُ» في المال، و«الضراء» في النفس، وليس المرادُ أن ابتداءَ الإرسال مقارِنٌ للأخذ المذكور، بل إنه مستتبعٌ له غيرُ منفَكٍّ عنه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: كي يتضرَّعوا ويخضعوا، ويتوبوا من ذنوبهم، وينقادوا لأمر الله تعالى.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾ عطفٌ على «أخذنا»، داخلٌ في حكمه. ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ التي أصابتهم؛ لما تقدَّم ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ وهي السَّعةُ والسلامة. ونُصب «مكانَ» ـ كما قيل ـ على الظَّرفية، و«بَدَّل» متضمِّنٌ معنى أعطى الناصبِ لمفعولين، وهما هنا: الضميرُ المحذوف و«الحسنة»، أي: أعطيناهم الحسنةَ في مكان السيئة، ومعنى كونها في مكانها أنها بدلٌ منها.

وقال بعضُ المحقِّقين: الأظهرُ أن «مكانَ» مفعولٌ به لـ «بدَّلنا» لا ظرفٌ،

---

(١) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المطبوع مع حاشية الصبان ٢/ ١٦٩.
(٢) في الحاشية ٤/ ١٩٣.
(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٥٢.

والمعنى: بدَّلنا مكانَ الحال السيئةِ الحالَ الحسنةَ، فالحسنةُ هي المأخوذة الحاصلةُ في مكان السيئة المتروكةِ، والمتروك هو الذي تصحَبُه الباءُ في نحو: بدَّلتُ زيدًا بعمرٍو.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كَثُروا ونَمَوا في أنفسهم وأموالهم، وبذلك فسَّره ابن عباس وغيرُه، من: عفا النباتُ، وعفا الشَّحم والوَبَر: إذا كثُرت، ومنه قولُه ﷺ: «أَحْفُوا الشوارب وأَعْفُوا اللِّحى»[1]، وقولُ الحُطَيئة:

بـمُـسـتـأسِـدِ الـقُـرْيـانِ عـافٍ نـبـاتُـه ... تُساقِطني والرَّحْلَ من صوتِ هدهد[2]

وقوله:

ولـكـنـا نُـعِـضُّ الـسـيـفَ مـنـهـا ... بـأَسْوُقِ عـافـيـاتِ الـشَّـحـم كُـوْمِ[3]

وتفسيرُ أبي مسلم[4] له بالإعراض عن الشكر ليس بيانًا للمعنى اللغويِّ، كما لا يخفى.

«وحتى» هذه الداخلةُ على الماضي ابتدائيةٌ لا غائيةٌ عند الجمهور، ولا محلَّ للجملة بعدَها، كما نقل ذلك الجلالُ السُّيوطي في «شرح جمع الجوامع» له عن بعض مشايخه، وأما زعمُ ابن مالك أنها جارَّةٌ غائية، وأَنْ مضمرةٌ بعدها على تأويل المصدر، فغلَّطه فيه أبو حيان وتبعَه ابنُ هشام، فقال: لا أعرفُ له في ذلك سلفًا،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٩٢)، ومسلم (٢٥٩) (٥٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) ساقه المصنف مساق البيت الواحد، فقوله: بمستأسد القريان... هو صدر بيت عجزه:

فَـنُـوَّاره مـيـل إلـى الـشـمـس زاهـره

وقوله: بمستأسد: استأسد النبت: إذا طال وأتم. والقريان: مجاري الماء إلى الرياض، واحدها: قَرِيٌّ. ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت ص١٨٠.

وقوله: تساقطني... عجز بيت صدره:

وكـادت عـلـى الأطـواء أطـواءِ ضـارجٍ

وقوله: تساقطني، أي: تسقطني. ديوانه ص١٥٥.

(٣) البيت للبيد، وهو في ديوانه بشرح الطوسي ص١٠٥.

وقوله: عافيات الشحم، أي: كثيراته، وأعضَّه السيفَ: إذا ضربه به، وكوم: عظام الأسنمة.

(٤) هو الأصفهاني، وقوله في مجمع البيان ٩/ ١٢٣.

وفيه تكلُّفُ إضمارٍ من غير ضرورة[1]. ولا يُشكِلُ عليه، ولا على من يقول: إن معنى الغاية لازمٌ لحتى ولو كانت ابتدائية = أنَّ الماضي لمضيِّه لا يصلحُ أن يكون غايةً لما قبلُ؛ لتأخُّرِ الغاية عن ذي الغاية؛ لأن الفعلَ وإن كان ماضيًا، لكنه بالنسبة إلى ما صار غايةً له مستقبَلٌ، فافهم.

﴿وَقَالُوا۟﴾ غير واقفين على أنَّ ما أصابهم من الأمرين ابتلاءٌ منه سبحانه: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا﴾ كما مسَّنا ﴿ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ وما ذلك إلا من عادة الدَّهر، يعاقِبُ في الناس بين الضَّرَّاء والسَّرَّاء، ويُداولهما بينهم، من غير أن يكون هناك داعيةٌ إليهما، أو تبعةٌ تترتَّبُ عليهما، وليس هذا كقول القائل:

ثمانيةٌ عمَّت بأسبابها الورى ... فكلُّ امرئ لا بدَّ يلقى الثمانيهْ
سرورٌ وحزنٌ واجتماعٌ وفرقةٌ ... وعُسْر ويُسْر ثم سُقْم وعافيهْ[2]

كما لا يخفى. ولعلَّ تأخيرَ «السَّرَّاء» للإشعار بأنها تعقُبُ الضرَّاء، فلا ضيرَ فيها.

﴿فَأَخَذْنَـٰهُم﴾ عطفٌ على مجموع «عَفَوا وقالوا» أو على «قالوا»؛ لأنه المسبَّب عنه، أي: فأخذناهم إثْرَ ذلك ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ بشيءٍ من ذلك، ولا يُخطرون ببالهم شيئًا من المكاره. والجملةُ حالٌ مؤكِّدةٌ لمعنى البغتة، وهذا أشدُّ أنواع الأخذ، كما قيل:

وأنكأُ شيءٍ يَفْجَؤكَ البَغْتُ[3]

وقيل: المرادُ بعدم الشعور: عدمُ تصديقهم بإخبار الرسل عليهم السلام بذلك، لا خُلُوُّ أذهانهم عنه ولا عن وقته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ

(١) مغني اللبيب ص١٧٤.

(٢) البيتان للحسين بن عبد الرحيم الكلابي المعروف بابن أبي الزلازل، وهما في معجم الأدباء ١٠/ ١٢٠، والمحاضرات في الأدب لليوسي ١/ ٩٣ باختلاف ألفاظ البيت الأول.

(٣) عجز بيت ليزيد بن ضَبَّةَ الثقفي، كما في اللسان (بغت)، وغريب الحديث للحربي ٢/ ٦١٥، وهو دون نسبة في جمهرة اللغة ١/ ٢٥٥، وتهذيب اللغة ٨/ ٩٨، وتمامه:

ولكنهم بانوا ولم أدرِ بغتةً ... وأنكأُ شيءٍ حين يَفْجؤك البغتُ

﴿بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]. ولا يخفى ما فيه من الغفلة عن معنى الغفلة وعن محلِّ الجملة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: القرى المهلَكة المدلول عليها بقوله سبحانه: «في قرية»، فاللامُ للعهد الذِّكريِّ، والقريةُ وإن كانت مفردةً لكنها في سياق النفي، فتُساوي الجمعَ.

وجُوِّز أن تكون اللامُ للعهد الخارجيِّ إشارةً إلى مكة وما حولها. وتُعقِّب ذلك بأنه غيرُ ظاهرٍ من السياق، ووُجِّه بأنه تعالى لما أخبر عن القرى الهالكة بتكذيب الرسل، وأنهم لو آمنوا سَلِموا وغَنِموا، انتقل إلى إنذار أهل مكةَ وما حولها مما وقَعَ بالأمم والقرى السابقة.

وجوَّز في «الكشاف» أن تكون للجنس[1]، والظاهر أن المرادَ حينئذٍ ما يتناول القرى المرسَلَ إلى أهلها من المذكورة وغيرها، لا ما يتناولُ[2] قرًى أُرسل إليها نبيٌّ وأخذ أهلها بما أخذ وغيرَها كما قيل؛ لإباء ظاهر ما في حيِّز الاستدراك الآتي[3] عنه.

﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: بما أُنزل على أنبيائهم ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ أي: ما حرَّم الله تعالى عليهم، كما قال قتادة، ويدخل في ذلك ما أرادوه من كلمتهم السابقة.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليسَّرنا عليهم الخيرَ من كلِّ جانب، وقيل: المراد بالبركات السماوية المطرُ، وبالبركات الأرضية النباتُ، وأيًّاما كان ففي «فتحنا» استعارةٌ تبَعيةٌ، ووجهُ الشَّبه بين المستعار منه والمستعار له الذي أشرنا إليه سهولةُ التناول، ويجوز أن يكون هناك مجازٌ مرسلٌ، والعلاقةُ اللُّزوم، ويمكن أن يتكلَّفَ لتحصيل الاستعارة التمثيلية.

وفي الآية ـ على ما قيل ـ إشكالٌ: وهو أنه يفهم بحسب الظاهر منها أنه لم

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٨.

(٢) في (م): لا ما لا يتناول، والمثبت من الأصل، وهو الصواب. ينظر حاشية الشهاب ٤/ ١٩٥.

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ وإرادة وقوع التكذيب والأخذ في القرى التي لم يرسل إليها نبيٌّ بعيدة. ينظر حاشية الشهاب ٤/ ١٩٥.

يفتح عليهم بركات من السماء والأرض، وفي سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الآية: ٤٤]، وهو يدلُّ على أنه فتح عليهم بركات من السماء والأرض، وهو معنى قوله سبحانه: ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لأنَّ المراد منها الخِصْب والرخاءُ، والصحة والعافية؛ لمقابلة ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وحَمْلُ فتح البركات على إدامته أو زيادته عُدولٌ عن الظاهر، وغيرُ ملائم لتفسيرهم الفتحَ بتيسير الخير، ولا المطرِ والنبات.

وأجاب عنه الخياليُّ بأنه ينبغي أن يُراد بالبركات غيرُ الحسنة، أو يُراد: آمنوا من أول الأمر، فنجَوا من البأساء والضَّرَّاء، كما هو الظاهر، والمراد في سورة الأنعام بالفتح ما أُريد بالحسنة هاهنا، فلا يُتوهَّم الإشكال. انتهى.

وأنت خبيرٌ بأنَّ إرادة: آمنوا من أول الأمر إلى آخره، غيرُ ظاهرة، بل الظاهر أنهم لو أنهم آمنوا بعد أن ابتُلُوا ليسَّرنا عليهم ما يسَّرنا مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضُها من السماء كإمطار الحجارة، وبعضُها من الأرض كالرَّجفة، وبهذا ينحلُّ الإشكال؛ لأن آيةَ «الأنعام» لا تدلُّ على أنه فتح لهم هذا الفتح كما هو ظاهرٌ لتاليها، وما ذُكر من أنَّ المراد بالفتح هناك ما أُريد بالحسنة هاهنا، إن كان المراد به أنَّ الفتح هناك واقعٌ موقعَ إعطاء الحسنة بدل السيئة هنا، حيث كان ذِكْر كلٍّ منهما بعد ذِكْر الأَخذ بالبأساء والضَّرَّاء، وبعدَه الأخذُ بغتةً، فربما يكون له وجهٌ، لكنه وحدَه لا يُجدي نفعًا، وإن كان المرادُ به أن مدلولَ ذلك العامِّ المرادِ به التكثيرُ هو مدلولُ الحسنة، فلا يخفى ما فيه، فتدبَّر.

وقيل: المراد بالبركات السماويَّة والأرضيَّة: الأشياءُ التي تُحمَد عواقبها، ويسعَدُ في الدارين صاحبُها، وقد جاءت البركةُ بمعنى السعادة في كلامهم، فلْتحمَل هنا على الكامل من ذلك الجنس، ولا يُفتح ذلك إلا للمؤمن، بخلاف نحو المطر والنبات، والصحة والعافية، فإنه يُفتح له وللكافر أيضاً استدراجاً ومكراً، ويتعيَّنُ هذا الحمل ـ على ما قيل ـ إذا أُريد من «القرى» ما يتناول قرًى أُرسل إليها نبيٌّ وأخذ أهلها بما أخذ وغيرَها.

وقيل: البركات السماويَّة إجابةُ الدعاء، والأرضيَّة قضاءُ الحوائج، فلْيُفهم.

وقرأ ابنُ عامر: «لفتَّحنا» بالتشديد[١].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ أي: ولكن لم يؤمنوا ولم يتَّقوا، وقد اكتُفي بذِكْر الأول لاستلزامه الثاني، وللإشارة إلى أنه أعظمُ الأمرين.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾ من أنواع الكفر والمعاصي التي من جملتها قولُهم السَّابق.

والظاهر أن هذا الأخذَ والمتقدِّمَ في قوله سبحانه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ واحدٌ، وليس عبارةً عن الجَدْب والقحط كما قيل؛ لأنهما قد زالا بتبديل الحسنة مكانَ السيئة، وحَمْلُ أحد الأخذين على الأَخْذ الأخرويِّ والآخر على الدنيويِّ بعيدٌ.

ومَنْ ذهب إلى حمل «أل» على الجنس على الوجه الأخير فيه يَلزمه أن يَحمل «كذَّبوا فأخذناهم» على وقوع التكذيب والأَخْذ فيما بينهم، ولا يخفى بُعْدُه.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الهمزةُ لإنكار الواقع واستقباحه، وقيل: لإنكار الوقوع ونفيه، وتُعُقِّب بأن ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ إلخ [الآية: ٩٩] يأباه.

والفاءُ للتعقيب مع السبب، والمراد بـ «أهل القرى»: قيل: أهلُ القرى المذكورة، على وضع المظهَر موضع المضمَر؛ للإيذان بأنَّ مدار التوبيخ أَمْنُ كلِّ طائفة ما أتاهم من البأس، لا أمنُ مجموعِ الأمم، وقيل: المرادُ بهم أهل مكة وما حواليها ممن بُعث إليه نبيُّنا ﷺ، وهو الأَولى عندي، وإلى ذلك ذهب مُحيي السُّنة[٢].

والعطفُ على القولين على «فأخذناهم بغتة»، لا على محذوفٍ ويُقدَّر بما يناسب المقامَ، كما وقع نحو ذلك في القرآن كثيراً، وأمر صدارة الاستفهام سهلٌ، وقوله سبحانه: «ولو أن أهل القرى آمنوا» إلخ اعتراضٌ توسَّط بينهما؛ للمسارعة إلى بيان أنَّ الأَخْذَ المذكور ممَّا كسبته أيديهم نظراً للأول، ولأنه يؤيِّد ما ذُكِر من أن الأَخذ بغتةً ترتَّبَ على الإيمان والتقوى[٣]، ولو عكس لانعكس الأمر نظراً للثاني، ولو

(١) التيسير ص١٠٢، والنشر ٢/ ٢٥٨.
(٢) تفسير البغوي ٢/ ١٨٣.
(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: ترتب على أضداد الإيمان والتقوى، كما في حاشية الشهاب ٤/ ١٩٦.

جُعِلت اللامُ فيما تقدَّم للجنس أَكَّد هذا الاعتراضُ المعطوفَ والمعطوفَ عليها، وشملَهما شمولاً سواءً، على ما في «الكشف».

ولم يُجعل العطفُ على «فأخذناهم» الأقرب؛ لأنه لم يُسَقْ لبيان القرى وقصة هلاكها قصداً كالذي قبله، فكان العطفُ عليه دونه أنسبُ، وهذا إذا أُريد بـ «القرى» القرى المدلول عليها بما سَبَق، وأما إذا أُريد بها مكة وما حولها، فوجهُ ذلك أظهر؛ لأنَّ منشأ الإنكار ما أصاب الأممَ السالفة، لا ما أصاب أهلَ مكة ومَنْ حولها من القحط وضيق الحال.

وربما يقال: إذا كان المراد بـ «أهل القرى» في الموضعين أهلَ مكة وما حولها، يكون العطفُ على الأقرب أنسب، والمعنى: أَبَعْدَ ذلك الأَخْذ لمن استكبر وتعزَّز وخالف الرُّسل عليهم السلام، وشيوعِه والعلم به، يأمَنُ أهلُ القرى المشاركون لهم في ذلك ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابُنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: وقت بياتٍ، وهو مرادُ من قال: ليلاً، وهو مصدر بات، ونصبُه على الظرفية بتقدير مضاف، ويجوز أن يكون حالاً من المفعول، أي: بائتين، وجُوِّز أن يكون مصدر بَيَّتَ، ونصبه على أنه مفعولٌ مطلق لـ «يأتيهم» من غير لفظه، أي: تبييتاً، أو حالٌ من الفاعل بمعنى مبيِّتاً بالكسر، أو من المفعول بمعنى مبيَّتين بالفتح، واختار غيرُ واحد الظرفيةَ؛ ليناسب ما سيأتي.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ حالٌ من ضميرهم البارز أو المستتر في «بياتاً»؛ لتأويله بالصِّفة كما سمعت، وهو حالٌ متداخلةٌ حينئذ.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إنكار بعد إنكارٍ؛ للمبالغة في التوبيخ والتشديد، ولم يُقصَد الترتيب بينهما، فلذا لم يُؤت بالفاء.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «أوْ» بسكون الواو(١)، وهي لأحد الشيئين، والمراد التَّرديدُ بين أن يأتيَهم العذابُ بياتاً، وما دلَّ عليه قولُه سبحانه: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ أي: ضحوة النهار، وهو في الأصل ارتفاع الشَّمس، أو شروقها وقتَ ارتفاعها، ثم استُعمل للوقت الواقع فيه ذلك، وهو أحد ساعات النهار

(١) التيسير ص١١١، والنشر ٢/ ٢٧٠.

عندهم، وهي: الذُّرور، والبُزوغ، والضُّحى، والغَزالة، والهاجِرَة، والزَّوال، والدُّلوك، والعَصْر، والأَصيل، والصُّبُوب[١]، والحُدُور، والغروب، وبعضهم يُسميها: البُكور، والشُّروق، والإشراق، والرَّأْد، والضُّحى، والمُتُوع[٢]، والهاجِرَة، والأَصيل، والعَصْر، والطَّفَلُ، والحُدُور، والغروب[٣]، ويكون ـ كما قال الشهاب[٤] ـ متصرِّفًا إن لم يُرَد به وقتٌ من يوم بعينه، وغيرَ متصرِّف إن أُريد به ضحوةُ يوم معين، فيلزم النصبَ على الظرفية، وهو مقصور، فإن فُتح مُدَّ، وقد عَدُّوا لفظ الضحى مما يُذَكَّر ويؤنَّث.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: يلهون من فَرْط الغفلة، وهو مجاز مرسَلٌ في ذلك، ويحتمِلُ أن يكون هناك استعارةٌ، أي: يشتغلون بما لا نفع فيه، كأنَّهم يلعبون.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ تكريرٌ لمجموع الإنكارين السابقين جمعاً بين التفريق؛ قصداً إلى زيادة التحذير والإنذار، وذكر جمعٌ من جِلَّة المحققين أنه لو جُعل تكريرًا له ولما سلف من غرَّة أهل القرى السابقة أيضاً، على معنى أن الكلَّ نتيجةُ الأمن من مكر الله تعالى، لجاز، إلا أنه لمَّا جُعل تهديداً للموجودين كان الأنسبُ التخصيص، وفيه تأمُّل.

والمكر في الأصل: الخداع، ويطلق على الستر، يقال: مَكَرَ الليل، أي: ستر بظلمته ما هو فيه، وإذا نُسب إليه سبحانه فالمراد به استدراجُه العبدَ العاصيَ حتى يُهلكه في غفلته؛ تشبيهاً لذلك بالخِداع، وتجوز هذه النسبةُ إليه سبحانه من غير مشاكَلَةٍ، خلافًا لبعضهم، وهو هنا إتيانُ البأس في الوقتين والحالين المذكورين.

وهل كان تبديلُ مكان السيئة الحسنةَ المذكورُ قبلُ مكراً واستدراجاً، أو ملاطفةً ومزاوجةً[٥]؟ فيه خلافٌ، والكلُّ محتملٌ.

---

(١) تحرفت في الأصل و(م) إلى: الصنوت، والمثبت موافق لما في الكشكول ١/ ٣٤٧، والكلام منه.

(٢) تحرفت في الأصل و(م) إلى: المنوع، بالنون.

(٣) ينظر الأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب ص٥٦ وما بعدها، والمخصص لابن سيده ٩/ ٥١-٥٩.

(٤) حاشية الشهاب ٤/ ١٩٦.

(٥) تحرفت في الأصل و(م) إلى: مراوحة. وجعلُها ملاطفةً ومزاوجة هو ما ذهب إليه
=

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم، فأضاعوا فطرةَ الله التي فطر الناس عليها، والاستعدادَ القريبَ المستفادَ من النظر في الآيات.

والفاء هنا متعلّق ـ كما قال القطب الرازيُّ وغيره ـ بمقدَّر، كأنه قيل: فلما آمنوا خسروا، فلا يأمَنُ.. إلخ. وقال أبو البقاء[١]: إنَّها للتنبيه على تعقيب العذاب أَمْنَ مكرِ الله تعالى، وقد يقال: إنها لتعليل ما يُفهِمُه الكلامُ من ذمِّ الأمن واستقباحه، أو يقال: إنَّها فصيحةٌ، ويقدَّر ما يستفاد من الكلام شرطاً، أي: إذا كان الأمنُ في غاية القبح، فلا يرتكبُه إلا من خَسِرَ نفسَه.

واستدلَّت الحنفية بالآية على أن الأمنَ من مكر الله تعالى ـ وهو كما في «جمع الجوامع»[٢]: الاسترسالُ في المعاصي اتكالاً على عفو الله تعالى ـ كفرٌ، ومثلُه اليأس من رحمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وذهبت الشافعية إلى أنهما من الكبائر؛ لتصريح ابن مسعود رضي الله عنه بذلك[٣]، وروى ابنُ أبي حاتم، والبزّار عن ابن عباس أنه ﷺ سُئل: ما الكبائر؟ فقال: «الشركُ بالله تعالى، واليأسُ من رَوْح الله، والأمنُ من مَكْر الله، وهذا أكبر الكبائر»[٤]. قالوا: وما ورد من أنَّ ذلك كفرٌ، محمولٌ على التغليظ، وآية ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ﴾ إلخ كقوله تعالى: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ [النور: ٣]، و: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢] في قولٍ.

= الزمخشري في الكشاف ٢/ ١٩ حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ في الصحة والسعة وصنوف النعمة؛ ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء كما يفعل الأب المشفق بولده؛ يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى طلباً لصلاحه. اهـ.

(١) في إملاء ما منَّ به الرحمن، على هامش الفتوحات الإلهية ٣/ ٤٢.

(٢) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٤/ ١٩٧، والكلام ليس في جمع الجوامع، وإنما هو في شرح الجلال المحلي عليه ٢/ ١٥٩ (المطبوع مع حاشية البناني).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٩٧٠١)، والطبري في تفسيره ٦/ ٦٤٨.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٩٣١، ومسند البزار (١٠٦ - كشف). قال ابن كثير عند تفسير الآية (٣١) من سورة النساء: وفي إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً، فقد روي عن ابن مسعود نحو ذلك، وهو صحيح إليه بلا شك.

وقال بعض المحقِّقين: إن كان في الأمن اعتقادُ أن الله تعالى لا يقدِرُ على الانتقام منه، وكذا إذا كان في اليأس اعتقادُ عدمِ القدرة على الرحمة والإحسان، أو نحو ذلك، فذلك مما لا ريب في أنه كفرٌ، وإن خلا عن نحو هذا الاعتقاد، ولم يكن فيه تهاونٌ وعدمُ مبالاةٍ بالله تعالى، فذلك كبيرةٌ، وهو كالمحاكمة بين القولين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي: يَخلُفون مَنْ خلا قبلَهم من الأمم، والمراد بهم كما رُوي عن السُّدِّي: المشركون، وفُسِّروا بأهل مكة ومَنْ حولها، وعليه لا يبعُدُ أن يكون في الآية إقامةُ الظاهر مقام الضمير إذا كان المراد بـ «أهل القرى» سابقًا أهل مكة وما حولها.

وتعديةُ فعل الهداية باللام؛ لأنها ـ كما رُوي عن ابن عباس ومجاهد ـ بمعنى التَّبيين، وهو ـ على ما قيل ـ إمَّا بطريق المجاز أو التَّضمين، أو لتنزيله منزلةَ اللازم، كأنَّه قيل: أَغفِلوا ولم يَفعَل الهدايةَ لهم ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بجزاء ذنوبهم، كما أصبنا مَنْ قبلهم؟! وإذا ضُمِّن «أصبنا» معنى أهلكنا لا يحتاج إلى تقدير مضاف.

و«أنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، واسمها ضميرُ شأن مقدَّرٌ، وخبرُه الجملةُ الشرطيةُ، والمصدر المؤوَّلُ فاعلُ «يهد»، ومفعولُه على احتمال التضمين محذوفٌ، أي: أَوَلم يتبيَّن لهم مآل أمرِهم، أو نحو ذلك، وجُوِّز أن يكون الفاعلُ ضميرَ الله تعالى، وأن يكون ضميراً عائداً على ما يُفهم ممَّا قبل، أي: أَوَلم يهد لهم ما جرى على الأمم السابقة.

وقرأ [أبو][1] عبد الرحمن السُّلَميُّ، وقتادة، ورُوي عن مجاهد، ويعقوب: «نَهْد» بالنون[2]، فالمصدر حينئذٍ مفعولٌ، ومن الناس من خصَّ اعتبار التضمين أو المجاز بهذه القراءة، واعتبار التنزيل منزلة اللازم بقراءة الياء، وفيه بحثٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ جملةٌ معترضةٌ تذييليَّةٌ، أي: ونحن شأننا وسُنَّتنا أن نطبعَ على قلب مَنْ لم نُرد منه الإيمانَ؛ حتى لا يتَّعظ بأحوال مَنْ قبلَه،

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م).

(٢) انظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٠، ومجمع البيان للطبرسي ٩/ ١٢٩.

ولا يلتفتَ إلى الأدلة، ومن أراد من «أهل القرى» فيما تقدَّم أهلَ مكة جعله تأكيداً لما نُعي عليهم من الغرَّة والأمن والخسران، أي: ونحن نطبع على قلوبهم، فلذلك اقتفَوا آثار مَنْ قبلهم، ولم يعتبروا بالآيات، وأمِنُوا من البيَات لمستخلفيهم حذو النَّعل بالنَّعل.

وجُوِّز عطفُه على مقدَّر دلَّ عليه قوله تعالى: «أوَلم يهد» وعطفُه عليه أيضاً، وهو وإن كان إنشاءً إلا أنَّ المقصود منه الإخبارُ بغفلتهم وعدمِ اهتدائهم، أي: لا يهتدون، أو يغفلون عن الهداية، أو عن التأمُّل والتفكُّر، ونطبع.. إلخ.

وجُوِّز أن يكون عطفاً على «يرثون»، واعتُرض بأنه صلةٌ، والمعطوف على الصِّلة صلةٌ، ففيه الفصل بين أبعاض الصلة بأجنبيٍّ، وهو «أن لو نشاء» سواءٌ كان فاعلاً أو مفعولاً.

ونقل أبو حيان[1] عن ابن[2] الأنباريِّ أنه قال: يجوز أن يكون معطوفاً على «أصبنا» إذا كان بمعنى نُصِيب، فوُضِع الماضي موضعَ المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]، أي: إن يشأ، يدلُّ عليه: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠]، فجَعَلَ «لو» شرطية بمعنى إنْ، ولم يجعَلْها التي هي لِمَا كان سيقَعُ لوقوع غيره، وجعَلَ «أصبنا» بمعنى نُصِيب، وقد يرتكب التأويل في جانب المعطوف، فيؤوَّل «نطبَعُ» بـ: طبعنا.

وردَّ الزمخشريُّ[3] هذا العطفَ بأنه لا يُساعد عليه المعنى؛ لأنَّ القوم كانوا مطبوعًا على قلوبهم، موصوفين بصفةِ مَنْ قبلَهم من اقتراف الذُّنوب والإصابة بها، وذلك يؤدِّي إلى خلوِّهم عن هذه الصفة، وأن الله تعالى لو شاء لاتَّصفوا بها.

وتعقَّبه ابن المنير[4] بأنه لا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع ولا بدَّ، وهم وإن كانوا كفَّاراً، ومقترفين للذُّنوب، فليس الطَّبع من لوازم الاقتراف البتَّةَ؛ إذ

(١) في البحر المحيط ٤/ ٣٥١.
(٢) سقط لفظ: ابن، من (م).
(٣) في الكشاف ٢/ ٩٩.
(٤) في الانتصاف ٢/ ٩٩.

هو التمادي على الكفر، والإصرارُ والغلوُّ في التصميم، حتى يكون الموصوف به مأيوساً من قبوله للحقِّ، ولا يلزم أن يكون كلُّ كافر بهذه المثابة، بل[1] إن الكافر يهدَّد لتماديه على الكفر بأن يطبَعَ الله تعالى على قلبه فلا يؤمن أبداً، وهو مقتضى العطف على «أصبنا»، فتكون الآيةُ قد هدَّدتهم بأمرين: الإصابة بذنوبهم، والطبعِ على قلوبهم، والثاني أشدُّ من الأول، وهو أيضاً نوع من الإصابة بالذنوب والعقوبة عليها، ولكنَّه أنكى أنواع العذاب، وأبلغُ صنوف العقاب، وكثيراً ما يُعاقب الله تعالى على الذنب بالإيقاع في ذنبٍ أكبر منه، وعلى الكفر بزيادة التَّصميم عليه والغُلوِّ فيه، كما قال سبحانه ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، كما زادت المؤمنين إيمانًا إلى إيمانهم، وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسبٌ لِمَا كان سبباً فيه وجزاء عليه، فثوابُ الإيمان إيمانٌ، وثواب الكفر كفرٌ، وإنما الزمخشريُّ يُحاذِر من هذا الوجه دخولَ الطبع في مشيئة الله تعالى، وذلك عنده محالٌ؛ لأنه ـ بزعمه ـ قبيحٌ، والله سبحانه عنه متعالٍ.

وفي «التقريب» نحو ذلك؛ فإنه نَظَر فيما ذكره الزمخشريُّ بأن المذكور كونُهم مذنبين دون الطبع، وأيضاً جاز أن يُراد: لو شئنا زدنا في طبعهم، أو لأَدَمْناه[2].

والحقُّ ـ كما قال غير واحدٍ من المحققين ـ أن منعَه من هذا العطف ليس بناءً على أنه لا يوافق رأيَه فقط، بل لأنَّ النظم لا يقتضيه؛ فإنَّ قوله سبحانه: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾ أي: سماعَ تفهُّم واعتبار، يدل على أنهم مطبوعٌ على قلوبهم؛ لأن المراد استمرارُ هذه الحال، لا أنه داخلٌ في حكم المشيئة؛ لأن عدمَ السماع كان حاصلاً، ولو كان كذلك لوجب أن يكون منفيًا، وأيضاً التحقيقُ لا يناسب الغرض، و: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١] يدلُّ على أن حالَهم منافيةٌ للإيمان، وأنه لا يجيءُ منهم البتَّةَ، وأيضاً إدامة الطبع أو زيادتُه لا يصلح عقوبةً للكافرين، بل قد يكون عقوبةَ ذنب المؤمن كما ورد في الصحيح[3]، وما يُورد

---

(١) في الأصل و(م): بلى، والمثبت موافق لما في الانتصاف، وحاشية الشهاب ٤/ ١٩٨، والكلام منه.

(٢) في (م): لأمناه.

(٣) يريد ما أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٤) (٢٣١) من حديث حذيفة بن اليمان مرفوعاً: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أُشربها نُكت فيه نكتة سوداء،

من الدَّغدغة على هذا ممَّا لا يُلتفت إليه.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ جملةٌ مستأنَفَةٌ جارية مجرى الفذلكة ممَّا قبلها، منبئةٌ عن غاية غواية الأمم المذكورة، و«تلك» إشارة إلى قرى الأمم المحكيَّة من قوم نوح وعاد وثمود وأضرابهم، واللامُ للعهد، وجُوِّز أن تكون للجنس. وهو مبتدأ، و«القرى» صفتُه، والجملة بعده خبرٌ.

وجوَّز الزمخشريُّ أن تكون «تلك» مبتدأً، و«القرى» خبره، والجملة خبرٌ بعد خبر على رأي من يرى جواز كون الخبر الثاني جملةً، وأن تكون الجملةُ حالاً، وإفادة الكلام بالتقييد بها[1].

واعترضَه في «التقريب» بأنه جعل شرطَ الإفادة التقييدَ بالحال، وعلى تقدير كونِ ذلك خبراً بعد خبر ينتفي الشرطُ، إلا أن يريد: تلك القرى المعلومة حالُها أو صفتُها، على أن اللام للعهد، لكنه يوجب الاستغناءَ عن اشتراط إفادته بالحال. انتهى.

وفيه أنَّ حديثَ الاستغناء ممنوع؛ فإنَّ المعنى ـ كما في «الكشف» ـ على التقديرين مختلفٌ؛ لأنه إذا جُعل حالاً يكون المقصود تقييدَه بالحال كما ذكره الزَّجاج في نحو: هذا زيدٌ قائماً، إذا جُعل قيداً للخبر؛ إذ[2] الكلامُ إنما يكون مع مَنْ يَعْلم أنه زيد، وإلا جاء الإحالة؛ لأنه يكون زيداً قائماً كان أوْ لا[3]، وإذا جعل

= وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبادًا كالكوز مُجخِّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه».

ونحوه ما أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وقال: حسن صحيح، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(١) الكشاف ٢/ ٩٩.

(٢) في الأصل و(م): إن، والمثبت موافق لما في الشهاب ٤/ ١٩٩، والكلام منه.

(٣) في الأصل و(م): لأنه يكون زيدٌ. . .، والمثبت هو الصواب، ويوضح المعنى كلام الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٦٣، قال: إذا قلت: هذا زيد قائماً، فإن كنت تقصد أن تخبر من لم يعرف زيداً أنه زيد لم يجز أن تقول: هذا زيد قائماً؛ لأنه يكون زيداً ما دام قائماً، فإذا زال عنه القيام فليس بزيد، وإنما تقول ذاك للذي يعرف زيداً، والمعنى: انتبه لزيد في حال قيامه، وأشير لك إلى زيد في حال قيامه.

خبرًا بعد خبر، فـ «تلك القرى» على أسلوب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] على أحد الوجوه[١]، و«نقصُّ» خبرٌ ثانٍ تفخيماً على تفخيم، حيث نبَّه على أنَّ لها قصصاً وأحوالاً أخرى مطويَّة.

وقال الطِّيبي: إنَّ الحال لما كانت فضلةً كان الإشكالُ قائماً في عدم إفادة الخبر، فأُجيب بأنها ليست فضلةً من كلِّ وجه، وأمَّا الخبرُ فلا عجب من كونه كالجزء من الأول، كما في قولك: هذا حلوٌ حامض، وهذا بمنزلته.

وفيه أن عَدَّ ما نحن فيه من ذلك القبيل حامضٌ ومستغنًى عنه بالحلو، ومثلُه ـ بل أدهى وأمرُّ ـ الجواب بأنه لما اشترك الخَبران[٢] في ذات المبتدأ كفى إفادةُ أحدهما.

وصيغةُ المضارع للإيذان بعدم انقضاء القصَّة بعد، و«من» للتبعيض، أي: بعض أخبارها التي فيها عظةٌ وتذكير.

وتصديرُ الكلام بذِكر القرى، وإضافةُ الأنباء ـ أي: الأخبار العظيمة الشأن ـ إليها، مع أنَّ المقصود أنباءُ أهلها وبيانُ أحوالهم حسبما يؤذن به قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ لما ذكره شيخ الإسلام من أن حكايةَ هلاكهم بالمرَّة على وجه الاستئصال بحيث يشملُ أماكنهم أيضًا بالخسف بها والرجفة، وبقائها خاويةً معطَّلةً = أهولُ وأفظع[٣].

والباء في قوله تعالى: «بالبينات» متعلِّقةٌ إما بالفعل المذكور على أنها للتعدية، وإما بمحذوفٍ وقع حالاً من فاعله، أي: متلبِّسين بالبينات، على معنى أن رسولَ كلِّ أمة من الأمم المهلَكة الخاصَّ بهم جاءهم بالمعجزات البينة الجمَّة، لا أنَّ كل رسولٍ جاء ببينةٍ واحدة، وما ذكروه من أنَّ مقابلةَ الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد على الآحاد لا يقتضي ـ كما قال المولى المدقِّقُ أبو القاسم السمرقنديُّ في تعليقاته على «المطوَّل» ـ أن يلزم في كل مقابلةٍ مقارنةُ الواحد للواحد؛ لأنَّ انقسام

---

(١) يعني أن «أل» في «القرى» من باب التعظيم. ينظر الدر المصون ٥/ ٣٩٧-٣٩٨.

(٢) في (م): الحلوان، وهو تحريف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ١٩٨/٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٥٥.

الآحاد على الآحاد كما يجوز أن يكون على السَّواء يجوز أن يكون على التفاوت، مثلاً إذا قيل: باع القوم دوابَّهم، يُفهم أن كلًّا منهم باع ما لَه من دابة، ويجوز أن تتعدَّد دابةُ البعض، ولهذا قيل: في قوله سبحانه: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]: إن غسل يدي كلِّ شخص ثابتٌ بالكتاب، والمقام هنا يقتضي ما ذكرناه؛ فإن الجملةَ مستأنفةٌ مبيِّنة لكمال عتوِّهم وعنادهم.

وقوله عزَّ شأنُه: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ بيانٌ لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي، لا لعدم استمرار إيمانهم، ونظيرُ ذلك: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وترتيبُ حالهم هذه على مجيء الرسل بالبينات بالفاء؛ لما أنَّ الاستمرار على فعلٍ بعد ورود ما يوجب الإقلاعَ عنه يعدُّ بحسب العنوان فعلاً جديداً، وصنعًا حادثًا، كما في: وعظتُه فلم ينزجر، ودعوتُه فلم يجبْ، واللام لتأكيد النفي، أي: فما صحَّ وما استقام لقومٍ من أولئك الأقوام في وقت من الأوقات ليؤمنوا، بل كان ذلك ممتنعاً منهم إلى أن لقوا ما لقوا؛ لغاية عتوِّهم، وشدةِ شكيمتهم في الكفر والطغيان.

ثم إن كان المحكيُّ آخرَ حالِ كلِّ قوم منهم فالمراد بعدم إيمانهم هو إصرارُهم على ذلك بعد اللُّتيَّا والتي، وبما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ تكذيبُهم من لدن مجيء الرسل عليهم السلام إلى وقت الإصرار والعناد، وهذا معنى كلام الزَّجَّاج(١): فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية تلك المعجزات بما كذَّبوا قبل رؤيتها، يعني أول ما جاؤوهم فاجؤوهم بالتكذيب، فأتوا بالمعجزات، فأصرُّوا على التكذيب. وإلى هذا ذهب الحسن أيضاً.

وإنما لم يُجعل ذلك مقصوداً بالذات كالأول، بل جُعل صلةً للموصول المحذوف عائدُه، أي: الذي كذَّبوه، إيذاناً بأنه بيِّنٌ في نفسه، وإنما المحتاجُ إلى البيان عدمُ إيمانهم بعد تواتر البينات الباهرة، وتظاهُرِ المعجزات الظاهرة التي كانت تضطرُّهم إلى القَبول لو كانوا من ذوي العقول، والموصول الذي تعلَّق به الإيمان والتكذيب إيجاباً وسلباً عبارةٌ عن جميع الشرائع التي جاء بها كلُّ رسول، أصولها وفروعِها.

---

(١) نقله المصنف بواسطة الشهاب الخفاجي ٤/ ١٩٩.

وإن كان المحكيُّ جميعَ أحوالِ كلِّ قوم منهم، فالمراد ـ على ما قيل ـ بما ذُكر أولاً كفرُهم المستمرُّ من حين مجيء الرسل عليهم السلام إلى آخر أمرهم، وبما أشير إليه آخراً تكذيبُهم قبل مجيئهم، فلا بدَّ من جعل الموصول عبارةً عن أصول الشرائع التي لا تقبل التبدُّلَ والتغيُّر، واجتمعت الرسل قاطبةً عليها، ودَعَوا الأمم إليها: كلمة التوحيد ولوازمها.

ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء الرسل: أنهم كانوا يسمعونَها من بقايا مَنْ قبلهم فيكذِّبونها، لا أنَّ العقلَ يرشد إليها ويحكم بها ويخالفونه، ثم كانت حالُهم بعد مجيء الرسل إليهم كحالهم قبلُ، كأنْ لم يُبعث إليهم أحد.

وتخصيص التكذيب وعدم الإيمان بما ذُكر من الأصول؛ لظهور حال الباقي بدلالة النصِّ؛ فإنهم حين لم يؤمنوا بما اجتمعت عليه كافةُ الرسل، فلأَنْ لا يؤمنوا بما تفرَّد به بعضُهم أولى، وعدمُ جعل هذا التكذيب مقصوداً بالذات؛ لما أنه ليس مدارَ العذاب، بل مدارُه التكذيب بعد البعثة كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وإنما ذُكر ما وقع قبلها بياناً لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

وقيل: المراد بما أُشير إليه آخرًا تكذيبُهم الذي أُمروه يوم الميثاق، ورُوي ذلك عن أبيٍّ بن كعب، والربيع، والسُّدِّي، ومقاتل، واختاره الطبري(١).

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم(٢)، وغيرُهما عن مجاهد أنَّ الآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] فالمعنى: ما كانوا لو أهلكناهم ثم أحييناهم ليؤمنوا بما كذَّبوا قبل إهلاكهم، وعلى هذا فالمرادُ بالموصول جميعُ الشرائع أصولها وفروعها، وفيه من المبالغة في إصرارهم وعتوِّهم ما لا يخفى، إلا أنه في غاية الخفاء.

وأيًّاما كان فالضمائر الثلاثةُ متوافقةٌ في المرجع، وقيل: ضمير «كذبوا» راجع إلى أسلافهم، والمعنى: فما كان الأبناء ليؤمنوا بما كذَّب به الآباء، ولا يخفى ما فيه من التعسُّف.

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣٣٦-٣٣٨.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٣٣٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٣٠.

وذهب الأخفش إلى أنَّ الباء سببيةٌ، و«ما» مصدرية، والمعنى عليه ـ كما قيل ـ: فما كانوا ليؤمنوا الآن ـ أي: عند مجيء الرسل ـ لما سبق منهم من التكذيب الذي أَلِفوه وتمرَّنوا عليه قبل مجيئهم، أو: لم يؤمنوا قطُّ، واستمرُّوا على تكذيبهم؛ لما حصل منهم من التكذيب حين مجيء الرسل.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطَّبع الشديد المحكم ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ أي قلوبهم، فوضَعَ المظهَرَ موضع المضمَر؛ ليدلَّ على أن الطبع بسبب الكفر، وإلى هذا يشير كلام الزجَّاج[1]، وصرَّح به بعضُهم، ويجوز ـ ولعلَّه الأولى ـ أن يراد بالكافرين ما يشمل المذكورين وغيرَهم، وفي ذلك من تحذير السامعين ما لا يخفى.

وإظهارُ الاسم الجليل بطريق الالتفات؛ لتربية المهابة وإدخال الرَّوعة.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي: أكثر الأمم المذكورين، و«وجد» متعدِّيةٌ لواحد، واللام متعلِّقةٌ بها، كما في قولك: ما وجدتُ لزيد مالاً، أي: ما صادفتُ له مالاً ولا لقيتُه، أو بمحذوف ـ كما قال أبو البقاء[2] ـ وقع حالاً من قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ لأنه في الأصل صفةٌ للنكرة، فلما قُدِّمت عليها انتصبت حالاً، و«من» مزيدةٌ للاستغراق.

وجُوِّز أن تكون «وجد» عِلْميةً، والأول أظهر.

والكلام على تقدير مضاف، أي: ما وجدنا وفاءَ عهدٍ كائن لأكثرهم؛ فإنَّهم نقضوا ما عاهدوا عليه الله تعالى عند مساس البأساء والضَّراء قائلين: لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين، وإلى هذا ذهب قتادة. وتخصيصُ هذا الشأن بأكثرهم ليس لأنَّ بعضَهم كانوا يوفون بالعهد، بل لأنَّ بعضَهم كانوا لا يَعهدون ولا يوفون.

وقيل: المراد بالعهد ما وقع يومَ أخذ الميثاق، ورُوي ذلك عن أبيٍّ بن كعب وأبي العالية. وقيل: المراد به ما عَهِدَ الله تعالى إليهم من الإيمان والتقوى بنصب

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٦١.
(٢) في الإملاء ٣/ ٤٣.

الدلائل والحجج وإنزالِ الآيات. وفسَّره ابنُ مسعود بالإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٧٨]. وقيل: هو بمعنى البقاء، أي: ما وجدنا لهم بقاءً على فطرتهم، والمراد بالأكثر في الكلِّ الكلُّ.

وذهب كثير من الناس إلى أن ضمير «أكثرهم» للناس، وهو معلومٌ لشهرته، والجملة إلى: «فاسقين» اعتراضٌ؛ لأنَّه لا اختصاصَ له بما قبله، لكن لعمومه يؤكِّده، وعلى الأول تتميمٌ[(١)]، على ما نصَّ عليه الطِّيبيُّ وغيره.

﴿وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ أي: أكثرَ الأمم، أو أكثر الناس، أي: عَلِمناهم، كقولك: وجدتُ زيدًا فاضلاً. وبين «وجد» هذه و«وجد» السابق على المعنى الأول فيه الجناسُ التامُّ المماثل.

و«إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، وضميرُ الشأن محذوف، ولا عمل لها فيه؛ لأنها ملغاةٌ على المشهور، وتعيَّن تفسير «وجد» بعَلِمَ الناصبة للمبتدأ والخبر؛ لدخولها عليها[(٢)]، فقد صرَّح الجمهور أنها لا تدخل إلا على المبتدأ، أو على الأفعال الناسخة، وخالف في ذلك الأخفش فلا يرى ذلك، وجَوَّز دخولَها على غيرهما. وذهب الكوفيون إلى أنَّ «إنْ» نافيةٌ[(٣)]. واللامُ في قوله سبحانه: ﴿لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾ اللامُ الفارقة.

وعند الكوفيين أنَّ «إنْ» نافية، واللامُ بمعنى إلا، أي: ما وجدنا أكثرهم إلا خارجين عن الطاعة، ويدخل في ذلك نقضُ العهد.

وذكر الطِّيبيُّ أنه إذا فُسِّر الفاسقون بالناكثين يكون في الآية الطَّرْد والعكس: وهو أن يُؤتى بكلامين يُقرِّر الأولُ بمنطوقه مفهومَ الثاني وبالعكس، وهو كقوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ

(١) هو أن يؤتى في كلام لا يوهم غير المراد بفضلة تفيد نكتةً. الإتقان ٢/ ٨٧١.

(٢) في (م): عليهما، وهو خطأ. ومعنى لدخولها عليها، أي: لدخول «إن» المخففة على وجد. ينظر حاشية الشهاب ٤/ ٢٠٠، والكلام منه.

(٣) قوله: وذهب الكوفيون...، كذا وقعت هذه الجملة هنا، وهو سبق قلم من المصنف رحمه الله.

جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ [النور: ٥٨] فمنطوقُ الأمر بالاستئذان في الأوقات الثلاثة خاصةً مقرِّرٌ لمفهوم رفع الجُناح فيما عداها، وبالعكس، وكذا قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وهذا النوعُ من الإطناب يقابله في الإيجاز نوع الاحْتِباك[1].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ أي: أرسلناه عليه السلام بعد الرسل أو بعد الأمم، والأول متقدِّم في قوله سبحانه: «ولقد جاءتهم رسلهم»، والثاني مدلولٌ عليه بـ «تلك القرى»، والاحتمالُ الأول أولى.

والتصريحُ بالبَعدية مع «ثم» الدالةِ عليها، قيل: للتنصيص على أنها للتراخي الزمانيّ؛ فإنها كثيرًا ما تستعمل في غيره، وقيل: للإيذان بأن بَعْثَه عليه السلام جرى على سنن السُّنة الإلهية من إرسال الرسل تَتْرى.

و«من» لابتداء الغاية، وتقديم الجارِّ والمجرور على المفعول الصريح؛ لما مَرَّ مراراً من الاعتناء بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر.

وقوله سبحانه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالاً من مفعول «بعثنا»، أو صفةً لمصدره، أي: بعثناه عليه السلام ملتبساً بها، أو بعثناه بعثًا ملتبساً بها، وأُريد بها الآياتُ التسع المفصَّلة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو عَلَم شخصٍ، ثم صار لقباً لكلِّ مَنْ مَلَك مصر من العمالقة، كما أنَّ كسرى لقبُ مَن مَلَكَ فارس، وقيصر لقبُ من ملك الروم، والنجاشيَّ لقبُ من ملك الحبشة، وتُبَّع لقبُ من ملك اليمن، وقيل: إنه من أول الأمر لقبٌ لمن ذُكر، واسمه الوليد بنُ مصعب بن الرَّيَّان، وقيل: قابوس، وكنيتُه أبو العباس، وقيل: أبو مرَّة، وقيل: أبو الوليد، وعن جماعة أن قابوساً والوليدَ اسمان لشخصين: أحدُهما فرعون موسى، والآخر فرعونُ يوسف عليهما السلام.

---

(١) الاحتباك: هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول. كما في قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] أي: عملاً صالحاً بسيئ، وآخر سيئاً بصالح. الإتقان ٢/ ٨٣١- ٨٣٢ و٨٧٠.

وعن النقَّاش[1] وتاج القرَّاء[2] أن فرعونَ موسى هو والد الخَضِر عليه السلام! وقيل: ابنُه! وذلك من الغرابة بمكان.

ويُلقَّب به كلُّ عاتٍ، ويقال فيه: فُرْعُون كزُنْبُور، وحكى ابن خَالَويه عن الفرَّاء ضمَّ فائه وفتحَ عينه، وهي لغةٌ نادرة، ويقال فيه: فُرَيع كزُبَير، وعليه قولُ أميةَ بن [أبي] الصلت:

حَيٍّ داودَ وابنَ عادٍ وموسى وفُرَيعٌ بنيانه بالثِّقالِ[3]

وقيل: هو فيه ضرورةُ شعرٍ. ومُنِع من الصَّرف لأنه أعجميٌّ، وحكى أبو الخطَّاب بن دحية في «مروج البحرين» عن أبي النَّصر القُشَيريِّ في «التيسير» أنه بلغة القِبْط: اسمٌ للتِّمساح، والقول بأنه لم ينصرف لأنه لا سَمِيَّ له، كإبليس عند من أَخَذه من أبلَسَ، ليس بشيء.

وقيل: هو وأضرابُه السابقة أعلامُ أشخاصٍ، وليست من عَلَم الجنس؛ لجمعها على فراعنة وقياصرة وأكاسرة، وعَلَم الجنس لا يُجمع، فلا بدَّ من القول بوضعٍ خاص لكلٍّ من تطلق عليه. وتُعقِّب بأنه ليس بشيء؛ لأن الذي غرَّه قولُ الرَّضي[4]: إنَّ عَلَم الجنس لا يُجمع؛ لأنه كالنكرة شاملٌ للقليل والكثير لوضعه للماهية، فلا حاجةَ لجمعه. وقد صرَّح النحاةُ بخلافه، وممن ذَكر جمعَه السُّهيليُّ في «الروض الأُنف»[5]، فكأنَّ مراد الرضيِّ أنه لا يطَّرد جمعُه، وما ذكره تعسُّف نحن في غنًى عنه.

﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشراف قومه، وتخصيصُهم بالذكر مع عموم بعثته عليه السلام لقومه كافةً؛ لأصالتهم في تدبير الأمور، واتِّباع غيرِهم لهم في الورود والصُّدور.

---

(١) نقله عنه السهيلي في التعريف والإعلام ص١٠٤.
(٢) هو محمود بن حمزة الكرماني، صاحب «لباب التفاسير» المعروف بكتاب «العجائب والغرائب». ينظر الإتقان ٢/ ١٢٢٥، والأعلام ٦/ ١٦٨.
(٣) ديوانه ص٤٤٤، وما بين حاصرتين سقط من الأصل و(م).
(٤) نقله المصنف عنه بواسطة الشهاب الخفاجي ٤/ ٢٠٠، والمسألة في شرح الرضي على الكافية ٣/ ٣٦٦-٣٦٧.
(٥) الروض الأنف ١/ ١٧١.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي: بالآيات، وأصلُ الظلم: وضعُ الشيء في غير موضعه، وهو يتعدَّى بنفسه لا بالباء، إلا أنه لمَّا كان هو والكفر من وادٍ واحد عُدِّي تعديتَه، أو هو بمعنى الكفر مجازاً أو تضميناً، أو هو مضمَّن معنى التكذيب، أي: ظلموا كافرين بها أو مكذِّبين بها، وقولُ بعضهم: إن المعنى: كفروا بها مكانَ الإيمان الذي هو من حقِّها؛ لوضوحها، ظاهرٌ في التضمين، كأنه قيل: كفروا بها واضعين الكفر في غير موضعه، حيث كان اللائقُ بهم الإيمان.

وقيل: الباء للسببية، ومفعول «ظلموا» محذوفٌ، أي: ظلموا الناس بصدِّهم عن الإيمان، أو أنفسَهم ـ كما قال الحسن والجبائيُّ[١] ـ بسببها، والمراد الاستمرارُ على الكفر بها إلى أن لقوا من العذاب ما لقوا.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: آخرُ أمرهم، ووضعُ «المفسدين» موضع ضميرهم؛ للإيذان بأن الظلم مستلزمٌ للإفساد، والفاء لأنه كما أنَّ ظلمَهم بالآيات مستتبعٌ لتلك العاقبة الهائلة، كذلك حكايتُه مستتبع للأمر بالنظر إليها. والخطابُ إما للنبيِّ ﷺ، أو لكلٍّ من يتأتَّى منه النظر، و«كيف» ـ كما قال أبو البقاء وغيره ـ خبر «كان»[٢]، قُدِّم على اسمها لاقتضائه الصَّدارة، والجملةُ في حيِّز النصب بإسقاط الخافض كما قيل[٣]، أي: فانظر بعين عقلك إلى كيفية ما فعلنا بهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ كلامٌ مبتدأ مسوقٌ لتفصيل ما أُجمل فيما قبله: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾ أي: إليكم، كما يُشعر به «قد جئتكم» أو: إليك، كما يشعر به «فأرسل». ﴿مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: سيِّدِهم ومالكِ أمرهم.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ جوابٌ لتكذيبه عليه السلام المدلول عليه بقوله سبحانه: «فظلموا بها».

و«حقيق» صفةُ «رسول»، أو خبرٌ بعدَ خبر، وقيل: خبرُ مبتدأ محذوف، أي: أنا حقيق، وهو بمعنى جدير، و«على» بمعنى الباء كما قال الفرَّاء[٤]، أو بمعنى

---

(١) نقله المصنف عنه بواسطة الطبرسي في مجمع البيان ٩/ ١٣٦.
(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٣-٤٤.
(٣) قوله: كما قيل، ليس في الأصل.
(٤) في معاني القرآن ١/ ٣٨٦.

حريص[(١)] و«على» على ظاهرها. قال أبو عُبيدة[(٢)]: أو بمعنى واجب. واستُشكل بأن قولَ الحق هو الواجب على موسى عليه السلام لا العكس، والكلام ظاهر فيه، وأُجيب بأن أصلَه: «حقيق عليَّ» ـ بتشديد الياء كما في قراءة نافع ومجاهد[(٣)] ـ «أن لا أقول» إلخ، فقُلب لأمن الالتباس، كما في قول خِدَاش بن زهير[(٤)]:

كَذَبتُم وبيتِ الله حتى تُعالِجوا ... قَوادِمَ حربٍ لا تَلينُ ولا تَمْري
وتلحقُ خيلٌ لا هوادةَ بينها ... وتشقى الرماحُ بالضَّياطِرَة الحُمْرِ[(٥)]

وضُعِّف بأن القلبَ سواء كان قلبَ الألفاظ بالتقديم والتأخير، كخرَقَ الثوبَ المسمارُ، أم قلب المعنى فقط كما هنا = إنما يَفْصُح إذا تضمَّن نكتةً كما في البيت، وهي فيه: الإشارة إلى كثرة الطَّعن حتى شقيت الرماحُ بهم؛ لتكسُّرها بسبب ذلك، وقد أفصح عن هذا المتنبي بقوله:

والسيفُ يشقى كما تشقى الضلوعُ به ... وللسيوفِ كما للناس آجال[(٦)]

وبأنَّ[(٧)] بين الواجب ومن يجب عليه ملازمةً، فعبَّر عن لزومه للواجب بوجوبه على الواجب، كما استفاض العكس، وليس هو من الكناية الإيمائية كقول البُحتريِّ:

أَوَما رأيتَ الجودَ ألقى رَحْلَه ... في آل طلحةَ ثم لم يتحَوَّلِ[(٨)]

---

(١) جاء على هامش الأصل ما نصه: أي تضمينًا. اهـ منه.
(٢) في مجاز القرآن ١/ ٢٢٤.
(٣) قراءة نافع في التيسير ص١١١، والنشر ٢/ ٢٧٠، وأخرجها عن مجاهد أبو الشيخ كما في الدر المنثور ٣/ ١٠٥.
(٤) في (م): خراش، وهو تحريف.
(٥) البيتان في ديوان خداش ص٧٩. والضياطرة جمع ضَيْطار: وهو الجبان العظيم الخَلْق الذي لا يحسن حمل السلاح. معجم مقاييس اللغة ٢/ ١٠٢.
(٦) ديوان المتنبي ٣/ ٣٩٩، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٠١، وصدره في الديوان: +=+القاتلُ السيفَ في جسم القتيل به، وفيه الشاهد أيضاً.
(٧) عطف على قوله: وأجيب بأن أصله...، وينظر حاشية الشهاب ٤/ ٢٠١.
(٨) ديوانه ٣/ ١٧٤٥، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٠١، ورواية الديوان: المجد، بدل الجود.

وقول ابن هانئ[١]:

فـمـا جـازَه جـودٌ ولا حـلَّ دونـه ولـكـن يـسـيرُ الـجـود حيث يـسـيـر

بل هو تجوُّزٌ فيه مبالغةٌ حسنة.

وبأن[٢] ذلك من الإغراق في الوصف بالصدق: بأن يكون قد جعل قولَ الحق بمنزلة رجل يجبُ عليه شيء، ثم جعل نفسَه ـ أي: قابليَّتَه لقول الحقِّ وقيامه به ـ بمنزلة الواجب على قول الحق، فيكون استعارةً مكنيَّة وتخييليَّة، والمعنى: أنا واجبٌ على الحق أن يسعى في أن أكون قائلَه والناطقَ به، فكيف يُتصوَّر مني الكذبُ؟

واعترضه القطب الرازيُّ وغيره بأنه إنما يتمُّ لو كان هو حقيقاً على قول الحق، وليس كذلك، بل على قوله الحق، وجَعْلُ قوله الحقَّ بحيث يجب عليه أن يسعى في أن يكون قائلَه لا معنى له.

وأُجيب بأن مبنى ذلك على أن المصدرَ المؤوَّلَ لا بدَّ من إضافته إلى ما كان مرفوعاً به، وليس بمسلَّم؛ فإنه قد يُقطع النظر عن ذلك، وقد صرَّح بعضُ النحاة بأنه قد يكون نكرةً، نحو: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ [يونس: ٣٧] أي: افتراءً، وهاهنا قد قُطع النظر فيه عن الفاعل؛ إذ المعنى: حقيقٌ عليَّ قولُ الحق، وهو محصَّل مجموع الكلام، فلا إشكال.

وذكر ابن مِقْسم[٣] في توجيه الآية على قراءة الجمهور ـ وادَّعى أنه الأَولى ـ أن «على أَنْ لا أقول» متعلِّق بـ «رسول» إن قلنا بجواز إعمال الصفة إذا وُصفت، وإن لم نقل به ـ وهو المشهور ـ فهو متعلِّق بفعل يدلُّ عليه، أي: أُرسلت على أن لا أقول.. إلخ.

---

(١) هو أبو نواس الحسن بن هانئ، والبيت في ديوانه ص ٣٢٨، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٠١.

(٢) عطف على قوله: وأجيب بأن أصله...

(٣) أبو بكر، محمد بن الحسن بن مِقْسَم البغدادي العطار، شيخ القراء، صنف في التفسير والمعاني، وطُعن عليه بأن عمد إلى حروف تخالف الإجماع فأقرأ بها، فأُنكر عليه، واستتيب بحضرة الفقهاء والقراء، فتاب عن ذلك. له كتاب: الأنوار في علم القرآن، وكتاب اختياره في القراءات. توفي سنة (٣٥٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٠٥-١٠٦.

والأولى عندي كونُ «على» بمعنى الباء، ويؤيِّده قراءةُ أبيٍّ «بأن لا أقول»[1]، وقرأ عبد الله: «أن لا أقول» بتقدير الجارِّ[2]، وهو على أو الباء، وقد[3] يقدَّر «عليَّ» بياءٍ مشددة.

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ استئنافٌ مقرِّر لما قبله، ولم يكن هذا وما بعدَه من جواب فرعون إثر ما ذُكر هاهنا، بل بعد ما جرى بينهما من المحاورات التي قصَّها الله تعالى في غير ما موضع، وقد طوى ذكرها هنا للإيجاز، و«من» متعلِّقة إما بـ «جئتُكم» على أنها لابتداء الغاية مجازاً، وإما بمحذوف وقع صفةً لـ «بينة» مفيدةً لفخامتها الإضافية، مؤكِّدةً لفخامتها الذاتية المستفادة من التنوين التفخيميِّ كما مرَّ غير مرَّة، وإضافة اسم الربِّ إلى ضمير المخاطبين بعد إضافته فيما قبلُ إلى العالمين؛ لتأكيد وجوب الإيمان بها، وذُكر الاسم الجليل الجامع في بيان كونه جديرًا بقول الحقِّ عليه سبحانه تهويلاً لأمر الافتراء عليه تعالى شأنُه، مع الإشارة إلى التعليل بما ليس وراءه غايةٌ.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ أي: خلِّهم حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدَّسة التي هي وطن آبائهم، وكان عدوُّ الله تعالى والقبطُ قد استعبدوهم بعد انقراض الأسباط، يستعملونَهم ويكلِّفونهم الأفاعيل الشاقَّة، كالبناء وحمل الماء، فأنقذهم الله تعالى بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسفُ عليه السلام مصرَ واليوم الذي دخل فيه موسى عليه السلام ـ على ما رُوي عن وهب ـ أربعُ مئة سنة.

واستعمالُ الإرسال بما أُشير إليه ـ على ما يظهر من كلام الراغب[4] ـ حقيقةٌ، وقيل: إنه استعارةٌ من إرسال الطيرِ من القفص تمثيليةٌ أو تبعيَّة، ولا يخفى أنه ساقطٌ عن وَكْر القبول. والفاءُ لترتيب الإرسال أو الأمرِ به على ما قبلَه من رسالته عليه السلام ومجيئه بالبيِّنة.

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٣٥٥.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٦، وزاد نسبتها للأعمش.
(٣) بعدها في (م): تقدم.
(٤) في مفردات ألفاظ القرآن (رسل).

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فما قال فرعون؟ فقيل: قال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ من عند من أرسلك كما تدَّعيه ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ أي: فأحضرها عندي، ليثبُتَ بها صدقُك في دعواك، فالمغايرةُ بين الشرط والجزاء مما لا غبار عليه، ولعل الأمر غنيٌّ عن التزام ذلك؛ لحصوله بما لا أظنُّه يخفى عليك.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ في دعواك؛ فإنَّ كونَك من جملة المعروفين بالصدق يقتضي إظهارَ الآية لا محالة.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ وكانت ـ كما روى ابنُ المنذر وابن أبي حاتم ـ من عوسَج[١]. ورُوي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنها كانت من لوز.

وأخرج عَبْد بن حُميد وأبو الشَّيخ عن قتادة أنه قال: ذُكر لنا أنها عصا آدم عليه السلام، أعطاها لموسى مَلَكٌ حين توجَّه إلى مدين، فكانت تضيءُ له بالليل، ويضرب بها الأرض بالنهار فيخرجُ له رزقُه، ويهشُّ بها على غنمه[٢].

والمشهور أنها كانت من آسِ الجنة، وكانت لآدم عليه السلام ثم وصلت إلى شعيب فأعطاه إيَّاها. وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ اسمَها مأشا.

﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾ أي: حيَّةٌ ضخمة طويلة. وعن الفراء[٣] أن الثعبان هو الذَّكَر العظيم من الحيَّات، وقال آخرون: إنه الحيَّةُ مطلقًا، وفي «مجمع البيان»[٤] أنه مشتقٌّ من ثَعَبَ الماء: إذا انفجر، فكأنه سُمِّي بذلك لأنه يجري كعنق الماء إذا انفجر.

﴿مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: ظاهرٌ أمره، لا يُشكُّ في كونه ثعباناً، فهو إشارة إلى أن الصيرورةَ حقيقيةٌ لا تَخْييلية[٥].

وإيثارُ الجملة الاسمية؛ للدلالة على كمال سرعة الانقلاب، وثباتِ وصف الثُّعبانية فيها، كأنَّها في الأصل كذلك.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٣٢، وانظر الدر المنثور ٣/ ١٠٦.
(٢) الدر المنثور ٣/ ١٠٥.
(٣) في معاني القرآن ١/ ٣٨٧.
(٤) ٩/ ١٣٣.
(٥) في (م): لا تخيلية.

ورُوي عن ابن عباس والسُّديِّ أنه عليه السلام لما ألقاها صارت حيةً صفراء شعراء، فاغرةً فاها، بين لَحييها ثمانون ذراعاً، وارتفعت من الأرض بقَدْرِ ميل، وقامت على ذنبها واضعةً لَحيها الأسفل في الأرض ولَحيها الأعلى على سور القصر، وتوجَّهت نحو فرعون لتأخذَه، فوثب عن سريره هارباً وأحدث. وفي بعض الروايات أنه أحدث في ذلك اليوم أربع مئة مرة، وفي أخرى أنه استمرَّ معه داء البَطَن حتى غَرِق.

وقيل: إنها أخذت قبةَ فرعون بين أنيابها، وأنها حملت على الناس فانهزموا مزدحمين، فمات منهم خمسةٌ وعشرون ألفًا، فصاح فرعونُ: يا موسى، أنشُدُك بالذي أرسلك أن تأخذَها، وأنا أُؤمن بك وأُرسل معك بني إسرائيل، فأخذَها فعادت عصاً كما كانت.

وعن مَعْمَر أنها كانت في العِظَم كالمدينة، وقيل: كان طولُها ثمانين ذراعاً، وعن وهب بن مُنَبِّه أن بين لَحييها اثني عشر ذراعاً.

وعلى جميع الروايات لا تعارضَ بين ما هنا وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٣١]، بناءً على أن الجانَّ هي الحيَّةُ الصغيرة؛ لما قالوا: إنَّ القصة غيرُ واحدة، أو أنَّ المقصود من ذلك تشبيهُها في خفَّة الحركة بالجانِّ، لا بيانُ جثَّتها، أو لما قيل: إنها انقلبت جانًّا وصارت ثعباناً، فحُكيت الحالتان في آيتين، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقُ ذلك.

والآيةُ من أقوى أدلة جواز انقلاب الشيء عن حقيقته، كالنُّحاس إلى الذهب؛ إذ لو كان ذلك تخييلاً لبطل الإعجاز، ولم يكن لذكر «مبينٌ» معنًى مبينٌ، وارتكابُ غير الظاهر غيرُ ظاهر، ويدلُّ لذلك أيضاً أنه لا مانع في القدرة من توجُّه الأمر التكوينيِّ إلى ما ذُكر وتخصيص الإرادة له.

والقولُ بأنَّ قلب الحقائق محالٌ، والقدرةُ لا تتعلَّق به، فلا يكون النحاسُ ذهباً = رصاصٌ مموَّه، والحقُّ جواز الانقلاب؛ إما بمعنى أنه تعالى يخلُق بدلَ النحاس ذهباً على ما هو رأي المحقِّقين، أو بأن يسلب عن أجزاء النحاس الوصفَ الذي صار به نحاساً، ويخلق فيه الوصفَ الذي يصير به ذهباً على ما هو رأي بعض

المتكلمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات، والمحالُ إنما هو انقلابُه ذهبًا مع كونه نحاساً؛ لامتناع كون الشيء في الزمن الواحد نحاساً وذهباً، وعلى أحد هذين الاعتبارين توكَّأ أئمةُ التفسير في أمر العصا.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: أخرجَها من جيبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢]، أو من تحت إبْطه؛ لقوله سبحانه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢]، والجمع بينهما ممكنٌ في زمان واحد، وكانت اليدَ اليمنى كما صُرِّح به في بعض الآثار.

﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: بيضاء بياضاً نورانيًّا خارجاً عن العادة يجتمع عليه النُّظَّار؛ فقد رُوي أنه أضاء له ما بين السماء والأرض، وجاء في رواية أنه أَرى فرعونَ يدَه، وقال عليه السلام: ما هذه؟ فقال: يدُك، ثم أدخلَها جيبَه وعليه مِدْرَعة صوفٍ، ونزعها فإذا هي بيضاء بياضًا نورانيًّا غلب شعاعُه شعاعَ الشمس.

وقيل: المعنى: بيضاءُ لأجل النُّظَّار، لا أنها بيضاءُ في أصل خلقتها؛ لأنه عليه السلام كان آدمَ شديدَ الأُدْمة، فقد أخرج البخاريُّ[1] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «وأمَّا موسى فآدَمُ، جسيم[2]، سَبْطٌ، كأنه من رجال الزُّطِّ»، وعنى عليه الصلاة والسلام بالزُّطِّ جنساً من السُّودان والهنود.

ونصَّ البعضُ على أن ذلك البياض إنما كان في الكفِّ، وإطلاقُ اليد عليها حقيقةٌ، وفي «القاموس»[3]: اليَدُ: الكفُّ، أو من أطراف الأصابع إلى الكتف[4]، وأصلُها يَدْيٌ بدليل جمعها على أيدي، ولم تُرَدَّ الياء[5] عند الإضافة إلى الضمير؛ لما تقرَّر في محله، وجاء في كلامهم: يَدٌّ بالتشديد، وهو لغةٌ فيه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: الأشراف منهم، وهم أهل مشورته ورؤساءُ

(١) في صحيحه (٣٤٣٨).
(٢) تحرفت في الأصل و(م) إلى: جثيم. والمثبت من البخاري.
(٣) مادة (يدي).
(٤) تحرفت في الأصل و(م) إلى: الكف، والمثبت من القاموس.
(٥) في الأصل و(م): اليد، والمثبت هو الصواب.

دولته: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾ أي: مبالِغٌ في علم السِّحر ماهرٌ فيه. ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: من أرض مصر.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ١١٠﴾ أي: تُشيرون في أمره، كما فسَّره بذلك ابن عباس، فهو من الأمر بمعنى المشاورة، يقال: آمَرتُه فآمَرني، أي: شاورتُه فأشار عليَّ، وقيل: من الأمر المعهود. و«ماذا» في محلِّ نصبٍ على أنه مفعول لـ «تأمرون» بحذف الجارِّ، أي: بأيِّ شيء تأمرون؟ وقيل: «ما» خبر مقدَّم، و«ذا» اسمٌ موصول مبتدأ مؤخَّر، أي: ما الذي تأمرون به؟

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أَخِّر أمرَهما وأصدِرهما عنك، ولا تعجل في أمرهما حتى ترى رأيك فيهما. وقيل: احبِسهما، واعتُرض بأنه لم يثبتْ منه الحبس، وأُجيب بأن الأمر به لا يوجب وقوعَه. وقيل عليه أيضاً: إنه لم يكن قادراً على الحبس بعد أن رأى ما رأى، وقوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] في «الشعراء» كان قبل هذا. وأُجيب بأن القائلين لعلهم لم يعلموا ذلك منه.

وقال أبو منصور(١): الأمرُ بالتأخير دلَّ على أنه تقدَّم منه أمرٌ آخر وهو الهمُّ بقتله، فقالوا: أخِّره ليتبيَّن حالُه للناس. وليس بلازمٍ كما لا يخفى.

وأصل «أَرْجِهْ»: أرجِئْه بهمزةٍ ساكنة وهاء مضمومةٍ دون واو، ثم حُذفت الهمزةُ وسكِّنت الهاء؛ لتشبيه المنفصل بالمتَّصل، وجُعِل «جِهْ و» كإِبْل في إسكان وسطه(٢)، وبذلك قرأ أبو عمرو، وأبو بكرٍ، ويعقوب على أنه من أرجأتُ(٣)، وكذلك قراءة ابن كثير، وهشام عن ابن(٤) عامر: «أرجِئْهُو» بهمزة ساكنة وهاء

---

(١) في تأويلات أهل السنة ٢/ ٢٧٠.

(٢) قال الشهاب ٤/ ٢٠٣: وقوله ـ أي البيضاوي ـ: «جه و» أي: لفظ «جه» بكسر الهاء غير مشبعة مع واو العطف، كإِبِل بكسرتين، فيجوز تسكينه للتخفيف. والمنفصل والمتصل: المراد به ما كان من الكلمة وغيره، لا في الخط.

(٣) قرأ أبو عمرو ويعقوب: «أرجئهُ» بالهمز وضم الهاء، وكذا قرأ ابن كثير وهشام ولكن بوصل الهاء المضمومة بواو. وقرأ أبو بكر: «أَرْجِهْ» وهي قراءة حفص وحمزة.

(٤) في الأصل و(م): وهشام وابن عامر، والمثبت هو الصواب، وينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٠٢.

متصلة بواو الإشباع. وقرأ نافع في رواية ورش وإسماعيل، والكسائيُّ: «أرجِهِي» بهاء مكسورةٍ بعدها ياءٌ، من أرجيتُ، وفي رواية قالون[١]: «أرجِهِ» بحذف الياء؛ للاكتفاء عنها بالكسرة.

وقرأ ابنُ عامر برواية ابن ذكوان: «أرجِئْهِ» بالهمزة وكسر الهاء[٢].

وقد ذكر بعضُهم أن ضمَّ الهاء وكسرَها، والهمزَ وعدَمَه لغتان مشهورتان، وهل هما مادَّتان، أو الياء بدلٌ من الهمزة، كتوضَّأتُ وتوضَّيت؟ قولان.

وطُعن في القراءة على رواية ابن ذكوان، فقال الحوفيُّ: إنها ليست بجيدةٍ، وقال الفارسيُّ[٣]: إن ضمَّ الهاء مع الهمزة لا يجوز غيرُه، وكسرُها غلطٌ؛ لأن الهاء لا تُكسر إلا بعد ياءٍ ساكنة أو كسرة.

وأُجيب ـ كما قال الشِّهاب[٤] ـ عنه بوجهين: أحدهما أنَّ الهمزةَ ساكنةٌ، والحرفُ الساكن حاجزٌ غيرُ حصين، فكأنَّ الهاءَ وَلِيت الجيمَ المكسورةَ، فلذا كُسرت، والثاني: أن الهمزة عرضةٌ للتغيير كثيراً بالحذف، وإبدالِها ياءً إذا سُكِّنت بعد كسرة، فكأنَّها وَلِيت ياءً ساكنة، فلذا كُسرت. وأُورد على ذلك أبو شامة أن الهمزةَ تعدُّ حاجزًا، وأن الهمزةَ لو كانت ياءً كان المختار الضمَّ نظرًا لأصلها. وليس بشيء بعد أن قالوا: إن القراءةَ متواترةٌ، وما ذُكر لغةٌ ثابتة عن العرب.

هذا واستُشكل الجمعُ بين ما هنا وما في «الشعراء»؛ فإنَّ فيها: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [٣٤-٣٥]، وهو صريحٌ في أن ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾ إلى ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ كلامُ فرعون، وما هنا صريحٌ في نسبة قول ذلك للملأ، والقصةُ واحدة، فكيف يَختلف القائلُ في الموضعين؟ وهل هذا إلا منافاة؟

---

(١) بعدها في (م): أن.

(٢) القراءات السابقة مذكورة في التيسير ص١١١، والنشر ١/ ٣١١-٣١٢، ما عدا رواية إسماعيل ـ وهو ابن جعفر ـ عن نافع، فقد ذكرها البيضاوي في تفسيره ـ مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٠٢ ـ وعنه نقل المصنف. وهي في السبعة لابن مجاهد ص٢٨٧.

(٣) في الحجة للقراء السبعة ٤/ ٥٨.

(٤) في الحاشية ٤/ ٢٠٣.

وأُجيب بأنه لا منافاةَ؛ لاحتمالين: الأول أن هذا الكلامَ قاله فرعونُ والملأُ من قومه، فهو كوقع الحافر على الحافر، فنقل في «الشُّعراء» كلامه، وهنا كلامهم. والثاني: أن هذا الكلامَ قاله فرعون ابتداءً، ثم قاله الملأ إمَّا بطريقِ الحكاية لأولادهم وغيرهم، وإما بطريق التَّبليغ لسائر الناس، فما في «الشُّعراء» كلامُ فرعون ابتداءً، وما هنا كلامُ الملأ نقلاً عنه.

واختار الزمخشريُّ أن ما هنا هو قولُ الملأ نقلاً عن فرعون بطريق التَّبليغ لا غير؛ لأنَّ القوم لما سمعوه خاطَبوا فرعونَ بقولهم: أرجِهْ، إلخ[1]، ولو كان ذلك كلامَ الملأ ابتداءً لكان المطابقُ أن يجيبوهم بأرجِئُوا، ولا سبيل إلى أنه كان نقلاً بطريق الحكاية؛ لأنَّه حينئذٍ لم يكن مؤامرةً ومشاورةً مع القوم، فلم يتَّجه جوابُهم أصلاً، فتعيَّنَ أن يكون بطريق التبليغ، فلذا خاطبوه بالجواب.

بقي أن يقال: هذا الجوابُ بالتأخير في «الشُّعراء» كلامُ الملأ لفرعون، وهاهنا كلامُ سائر القوم، لكن لا منافاةَ؛ لجواز تطابُقِ الجوابين. وقولُ شيخ الإسلام[2]: إن كون ذلك جواب العامَّة يأباه أنَّ الخطابَ لفرعون، وأنَّ المشاورة ليست من وظائفهم = ليس بشيء؛ لأنَّ الأمر العظيم الذي تُصيب تبِعَتُه أهلَ البلد يشاوِرُ فيه الملكُ الحازِمُ عوامَّهم وخواصَّهم، وقد يجمعُهم لذلك ويقول لهم: ماذا ترون، فهذا أمرٌ لا يُصيبني وحدي؟ وربَّ رأي حسنٍ عند من لم يُظَنَّ به، على أن في ذلك جمعًا لقلوبهم عليه وعلى الاحتفال بشأنه، وقد شاهدنا أنَّ الحوادثَ العِظَامَ يُلتَفَتُ فيها إلى العوامِّ، وأمرُ موسى عليه السلام كان من أعظمِ الحوادث عند فرعون بعد أن شاهَدَ منه ما شاهَدَ.

ثم إنهم اختلفوا في قوله تعالى: «فماذا تأمرون» فقيل: إنه من تتمَّة كلامِ الملأ، واستظهَرَه غيرُ واحدٍ؛ لأنَّه مسوقٌ مع كلامهم من غيرِ فاصلٍ، فالأنسبُ أن

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ١٠٢ احتمالاً مع الاحتمالين الآخرين، ثم أشار إلى ترجيحه بقوله: والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ إلخ. وينظر حاشية الشهاب ٤/ ٢٠٢.

(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٥٩.

يكون من بقيَّة كلامهم، وقال الفرَّاء، والجُبَّائيُّ[1]: إن كلامَ الملأ قد تمَّ عند قوله سبحانه: «يريد أن يُخرِجَكم من أرضكم»، ثم قال فرعونُ: «فماذا تأمرونَ؟ قالوا: أرجِهْ»، وحينئذٍ يحتمِلُ ـ كما قال القطب ـ أن يكون كلامَ الملأ مع فرعون، وخطابُ الجمع في «يخرجَكم» إما لتفخيم شأنه، أو لاعتباره مع خدَمِه وأعوانه، ويَحتمِلُ أن يكون مع قوم فرعون، والمشاورةُ منه. ثم قال: وإنَّما التزموا هذا التعسُّفَ ليكون مطابقًا لما في «الشعراء» في أن قوله: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ من كلام فرعون، وقوله: ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ كلامُ الملأ، لكنْ ما ارتفعتِ المخالفةُ بالمرَّة؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم﴾ كلامُ فرعون للملأ، وفي هذه السورة ـ على ما وجَّهوه ـ كلامُ الملأ لفرعون، ولعلَّهم يحملونه على أنه قالَه لهم مرَّةً، وقالوه له أُخرى. انتهى[2].

ويمكن أن يقال: إنَّ الملأ لمَّا رأَوا من موسى عليه السلام ما رأَوا قال بعضُهم لبعض: إنَّ هذا لساحرٌ عليمٌ يريد أن يُخرِجَكم من أرضكم، فماذا تُشيرون؟ وما تستحسنون في أمره؟ ولمَّا رآهم فرعونُ أنَّهم مهتمُّون من ذلك قال لهم تنشيطًا لهم، وتصويبًا لما هم عليه ـ قبل أن يُجيب بعضُهم بعضًا بما عنده ـ مثل ما قالوه فيما بينهم، فالتفتوا إليه وقالوا: أرجه وأخاه، فحكى سبحانه هنا مشاورةَ بعضهم لبعض وعَرْضَ ما عندهم أولَ وهلة قبل ذِكْره فيما بينهم، وحكى في «الشعراء» كلامَه لهم ومشاورتَه إياهم التي هي طِبْق مشاورةِ بعضهم بعضًا المحكيَّةِ هنا، وجوابَهم له بعد تلك المشاورة، وعلى هذا لا يدخُلُ العوامُّ في الشورى، ويكون هاهنا أبلغَ في ذمِّ الملأ. فليُتدبَّر. والله تعالى أعلم بأسرار كلامه.

﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ أي: البلاد، جمع مدينة، وهي من مَدَنَ بالمكان كنصر: إذا أقام به، ولكون الياء زائدةً ـ كما قال غير واحد ـ تُقلَبُ همزةً في الجمع. وأُريد بها مطلقُ المدائن، وقيل: مدائنُ صعيد مصر.

---

(١) قول الفراء في معاني القرآن له ١/ ٣٨٧، وقول الجبائي نقله الطبرسي في مجمع البيان ٩/ ١٤١.

(٢) الكلام في حاشية الشهاب ٤/ ٢٠٢.

﴿حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ أي: رجالاً يجمعون السَّحَرة، وفسَّره بعضُهم بالشُّرَط: وهم أعوانُ الولاة؛ لأنَّهم يجعلون لهم علامةً، ويقال للواحد: شُرْطيّ بسكون الراء نسبةً للشُّرطة، وحكى في «القاموس» فتحَها أيضاً[(١)]، وفي «الأساس»[(٢)] أنه خطأ؛ لأنه نسبةٌ إلى الشُّرَط الذي هو جمع.

ونصَبَ الوصفَ على أنه صفةٌ لمحذوفٍ، ومفعولُه محذوفٌ أيضًا كما أُشير إليه، وقد نصَّ على ذلك الأجهوريُّ.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ أي: ماهرٍ في السِّحر، والفعل مجزومٌ في جواب الطلب.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «سحَّار»، وجاء فيه الإمالة وعدمُها[(٣)]، وهو صيغةُ مبالغة، وفسَّره بعضُهم بأنَّه الذي يُديم السِّحرَ، والساحرُ مَنْ[(٤)] يكون قد سحَرَ في وقتٍ دون وقت، وقيل: الساحر هو المبتدئ في صناعة السِّحر، والسَّحَّار هو المنتهَى الذي يُتعَلَّم منه ذلك.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد ما أَرسَل إليهم الحاشرين، وإنما لم يصرِّح به للإيذان بمسارعةِ فرعون بالإرسال، ومبادرةِ الحاشرين والسَّحَرة إلى الامتثال.

واختُلف في عِدَّتهم: فعن كعب أنهم اثنا عشر ألفًا، وعن ابن إسحاق: خمسة عشر ألفًا، وعن أبي ثمامة: سبعة عشر ألفًا، وفي رواية: تسعة عشر ألفًا، وعن السُّدِّي: بضعة وثلاثون ألفًا، وعن [ابن][(٥)] أبي بَزَّة أنهم سبعون ألفًا، وعن محمد بن كعب: ثمانون ألفًا. وأخرج أبو الشيخ عن ابن جُرَيج[(٦)] قال: السَّحرةُ

---

(١) القاموس (شرط).

(٢) مادة (شرط).

(٣) التيسير ص١١٢، والنشر ٢/ ٢٧٠.

(٤) بعدها في (م): أن.

(٥) ما بين حاصرتين سقط في الأصل و(م)، وأثبتناه من تفسير الطبري ١٠/٣٥٨، والدر المنثور ٣/ ١٠٦.

(٦) تحرف في الأصل و(م) إلى: ابن جرير، والتصحيح من تفسير الطبري ١٦/١٠٨، والدر المنثور ٣/ ١٠٦، وعنه نقل المصنف هذه الأخبار.

ثلاثُ مئة من الفيُّوم[1] وثلاثُ مئة من العَرِيش، ويشكُّون في ثلاث مئة من الإسكندرية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا سبعين ساحرًا، وقد أَخذوا السِّحرَ من رجلين مجوسيَّين من أهل نينوى مدينةِ يونس عليه السلام. ورُوي نحو ذلك عن الكلبيِّ. والظاهرُ عدمُ صحَّته؛ لأنَّ المجوسيَّة ظهرت من زَرادِشْت على المشهور، وهو إنما جاء بعد موسى عليه السلام.

واسمُ رئيسهم ـ كما قال مقاتل ـ شمعون، وقال ابن جُرَيج: هو يوحنَّا، وقال ابن الجوزي[2] نقلاً عن علماء السِّيَر: إن رؤساءهم سابور، وعاذور[3]، وحطحط، ومصفى.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، ولذا لم يُعطف، كأنه قيل: فماذا قالوا له عند مجيئهم إيَّاه؟ فقيل: «قالوا» إلخ. وهذا أولى مما قيل: إنه حالٌ من فاعل «جاؤوا» أي: جاؤوا قائلين: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ أي: عوضًا وجزاء عظيمًا ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝١١٣﴾ والمقصودُ من الإخبار إيجابُ الأجر واشتراطُه، كأنهم قالوا: بشرط أن تجعل لنا أجرًا إن غَلَبنا.

ويحتمل أن يكون الكلامُ على حذف أداة الاستفهام، وهو مطَّرد، ويؤيِّد ذلك قراءةُ ابن عامر[4] وغيره: «أَئنَّ» بإثبات الهمزة، وتوافُقُ القراءتين أولى من تخالفهما، ومن هنا رجَّح الواحديُّ[5] هذا الاحتمال.

وذِكْرُ الشرط لمجرَّد تعيين مناط ثبوت الأجر، لا لتردُّدهم في الغَلَبة، وقيل: له. وتوسيطُ الضمير وتحليةُ الخبر باللام للقصر، أي: كنَّا نحن الغالبين لا موسى، عليه السلام.

---

(١) تحرفت في الأصل و(م) إلى: قومه، وتحرفت في الدر المنثور ٣/ ١٠٦ إلى قرم. والمثبت من تفسير الطبري ١٠٨/١٦، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٩٥.
(٢) في زاد المسير ٣/ ٢٤١.
(٣) في (م): عازور.
(٤) في (م): أنه قرأ ابن عامر، والقراءة مذكورة في التيسير ص١١٢، والنشر ١/ ٣٧٢.
(٥) كما في تفسير الرازي ١٤/ ٢٠٠، والدر المصون ٥/ ٤١٣-٤١٤.

﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إنَّ لكم لأجرًا ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عطفٌ على مقدَّر هو عينُ الكلام السابق الدالِّ عليه حرفُ الإيجاب، ويُسمَّى مثلُ هذا عطفَ التلقين، ومن قال: إنه معطوفٌ على السابق أراد ما ذكرنا، والمعنى: إنَّ لكم لأجرًا، وإنكم مع ذلك لمن المقرَّبين، أي: إني لا أقتصرُ لكم على العطاء وحدَه، وإنَّ لكم معه ما هو أعظمُ منه وهو التقريب والتعظيم؛ لأنَّ من أُعطي شيئًا إنما يتهنَّأ به ويغتبِطُ إذا نال معه الكرامةَ والرِّفعة، وفي ذلك من المبالغة في التَّرغيب والتحريض ما لا يخفى، ورُوي عن الكلبيِّ أنه قال لهم: تكونون أولَ من يدخلُ مجلسي، وآخر من يخرج عنه.

﴿قَالُوا۟﴾ استئنافٌ كنظيره السابق ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ ما تُلقي أولاً ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ لما نُلقي أولاً، أو: الفاعلين للإلقاء أولاً. خيَّروه عليه السلام بالبَدْء بالإلقاء؛ مراعاةً للأدب، ولذلك ـ كما قيل ـ مَنَّ الله تعالى عليهم بما مَنَّ، أو إظهارًا للجلادة، وأنه لا يختلفُ عليهم الحال بالتقديم والتأخير، ولكنْ كانت رغبتُهم في التقديم كما يُنبئ عنه تغييرُهم للنظم بتعريف الخبر، وتوسيطِ ضمير الفصل، وتوكيدِ الضمير المستتر، والظاهرُ أنه وقع في المحكيِّ كذلك بما يُرادفه.

وقول الجلال السيوطيِّ: إن الضميرَ المنفصل إما أن يكون فصلاً أو تأكيدًا، ولا يمكنُ الجمع بينهما؛ لأنه على الأول لا محلَّ له من الإعراب، وعلى الثاني له محلٌّ كالمؤكَّد = وهم كما لا يخفى.

وفرَّق الطيبيُّ بين كون الضمير فَصْلاً وبين كونه توكيدًا بأنَّ التوكيد يرفَعُ التجوُّز عن المسند إليه، فيلزم التخصيصُ من تعريف الخبر، أي: نحن نُلقي البتةَ لا غيرُنا، والفصل يخصِّصُ الإلقاءَ بهم؛ لتخصيص المسند بالمسند إليه، فيَعْرى عن التوكيد، وتحقيقُ ذلك يُطلب من محلِّه.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام وثوقًا بشأنه، وتحقيرًا لهم، وعدمَ مبالاة بهم: ﴿أَلْقُوا۟﴾ أنتم ما تُلقون أولاً.

وبما ذكرنا يُعلَم جواب ما يقال: إن إلقاءهم معارضةٌ للمعجزة بالسِّحر، وهي كفر، والأمر به مثلُه، فكيف أمرَهم وهو هو؟ وحاصل الجواب: أنه عليه السلام علم أنهم لابدَّ وأن يفعلوا ذلك، وإنما وقع التخييرُ في التقديم والتأخير كما صرَّح

به في قوله سبحانه في آية أخرى: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه:٦٥]، فجوَّز لهم التقديمَ لا لإباحةِ فعلهم بل لتحقيرهم، وليس هناك دلالةٌ على الرِّضا بتلك المعارضة.

وقد يقال أيضًا: إنه عليه السلام إنما أَذِن لهم ليُبطِلَ سحرَهم، فهو إبطالٌ للكفر بالآخرة، وتحقيقٌ لمعجزته عليه السلام، وعلى هذا يُحمل ما جاء في بعض الآثار من أنهم لمَّا قالوا ما قالوا سمع موسى عليه السلام مناديًا يقول: بل ألقوا أنتم يا أولياءَ الله تعالى، فأوجَسَ في نفسه خِيْفةً من ذلك حتى أُمر عليه السلام، وسيجيء إن شاء الله تعالى تحقيقُ ذلك.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ ما ألقَوا، وكان مع كلٍّ واحد منهم حبلٌ وعصا ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيَّلوا إليها ما الحقيقةُ بخلافه، ولذا لم يقل سبحانه: سحروا الناسَ، فالآيةُ على حدِّ قوله جل شأنه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أرهبوهم إرهابًا شديدًا، كأنهم طلبوا إرهابَهم.

﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ في بابه، يُروى أنهم ألقَوا حبالاً غِلاظًا، وخشبًا طوالاً، فإذا حيَّاتٌ كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركبُ بعضُها بعضًا. وفي بعض الآثار أن الأرضَ كان سعتُها ميلاً في ميل، وقد امتلأت من الحيَّات والأفاعي، ويقال: إنهم طَلَوا تلك الحبال بالزِّئبق، ولوَّنوها، وجعلوا داخل العِصيِّ زئبقًا أيضًا وألقَوها على الأرض، فلما أثَّر حرُّ الشمس فيها تحرَّكت والتَوى بعضُها على بعض حتى تخيَّل للناس أنها حيَّات.

واستَدل بالآية من قال كالمعتزلة: إن السِّحر لا حقيقةَ له، وإنما هو مجرَّد تخييل. وفيه أنهم إنْ أرادوا أنَّ ما وقع في القصَّة من السِّحر كان كذلك فمسلَّم، والآية تدلُّ عليه، وإن أرادوا أن كلَّ سحرٍ تخييلٌ فممنوع، والآية لا تدلُّ عليه.

والذي ذهب إليه جمهور أهل السُّنة أن السحرَ أقسامٌ، وأن منه ما لا حقيقة له، ومنه ما له حقيقةٌ، كما يشهد بذلك سحرُ اللَّعين لَبيد بن الأعصم اليهوديِّ رسولَ الله ﷺ(١)، وسحرُ يهود خيبر ابنَ عمر رضي الله عنهما حين ذهب ليَخرُص تمرهم(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩): (٤٣).

(٢) أخرج البخاري (٢٧٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما فَدَعَ أهل خيبر عبد الله بن عمر =

وذكروا أنه قد يصل السِّحر إلى حدِّ المشي على الماء، والطيران في الهواء، ونحو ذلك، وترتُّبُ ذلك عليه كترتُّب الشِّبع على الأكل، والرِّيِّ على الشُّرب، والإحراق على النار، والفاعلُ الحقيقيُّ في كلِّ ذلك هو الله تعالى.

نعم قال القرطبيُّ: أجمع المسلمون على أنه ليس من السِّحر ما يفعل الله تعالى عندَه إنزالَ الجراد والقمل والضفادع، وفَلْق الحجر، وقَلْب العصا، وإحياء الموتى، وإنطاقَ العجماء، وأمثال ذلك من آيات الرسل عليهم الصلاة والسلام[1].

ومن أنكر حقيقتَه استدلَّ بلزوم الالتباس بالمعجزة، وتُعقِّب بأن الفرقَ مثل الصُّبح ظاهر.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بواسطة الملك كما هو الظاهر ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ التي علمتَ من أمرِها ما علمتَ. و«أن» تفسيريَّةٌ؛ لتقدُّم ما فيه معنى القول دون حروفه، وجُوِّز أن تكون مصدريةً، فالمصدرُ مفعول الإيحاء.

والفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فصيحةٌ، أي: فألقاها فصارت حيةً، فإذا هي.. إلخ، وإنما حُذف للإيذان بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء، وبغاية سرعة الانقلاب، كأن لَقْفَها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء، وصيغةُ المضارع لاستحضار الصورةِ الغريبة.

واللَّقْفُ كاللَّقفان: التناولُ بسرعة، وفسَّره الحسن هنا بالسَّرْط والبَلْع، والإفك: صرف الشيء وقلبُه عن الوجه المعتاد، ويُطلق على الكذب ـ وبذلك فسَّره ابن عباس ومجاهد ـ لكونه مقلوبًا عن وجهه، واشتهر ذلك فيه حتى صار حقيقة.

= قام عمر خطيبًا فقال: إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال: نُقرُّكم ما أقركم الله، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك، فعُدي عليه من الليل، ففُدعت يداه ورجلاه، وليس لنا هناك عدو غيرهم، هم عدونا وتهمتنا، وقد رأيت إجلاءهم. وساق الحديث بتمامه.

وقال الخطابي في أعلام الحديث ٢/ ١٣٢٩: قلت: إنما اتهم أهلَ خيبر بأنْ سحروا عبد الله ففُدعت يداه ورجله.

وانظر تعليق الحافظ على هذا الحديث في الفتح ٥/ ٣٢٧-٣٢٨.

(١) تفسير القرطبي ٢/ ٢٨٧. وتتمة كلامه: فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون، ولا يفعله الله عند إرادة الساحر.

و«ما» موصولة أو موصوفة، والعائد محذوفٌ، أي: ما يأفكونه ويكذبونه، أو مصدرية وهي مع الفعل بمعنى المفعول، أي: المأفوك؛ لأنه المتلقَّف.

وقرأ الجمهور: «تلَقَّفُ» بالتشديد وحَذْف إحدى التاءين[1].

﴿فَوَقَعَ﴾ أي: ظهر وتبيَّن كما قال الحسن ومجاهد والفراء[2]. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وهو أمرُ موسى عليه السلام.

وفسَّر بعضهم «وقع» بثبت على أنه قد استُعِير الوقعُ للثبوت والحصول، أو للثبات والدوام؛ لأنه في مقابل «بطل»، والباطلُ زائل، وفائدةُ الاستعارة ـ كما قيل ـ الدلالةُ على التأثير؛ لأنَّ الوقع يستعمل في الأجسام، وقيل: المرادُ من «وقع الحقّ» صيرورةُ العصا حيةً في الحقيقة، وليس بشيء.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: ظهر بطلانُ ما كانوا مستمرِّين على عمله.

﴿فَغُلِبُوا۟﴾ أي: فرعونُ وقومه ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المجمع العظيم ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: صاروا أذلَّاء، أو رجعوا إلى المدينة كذلك، فالانقلابُ إمَّا مجازٌ عن الصيرورة، والمناسبةُ ظاهرة، أو بمعنى الرجوع، فـ «صاغرين» حال. ورُجِّح الأولُ بقوله سبحانه: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ لأنَّ ذلك كان بمحضرٍ من فرعون قطعًا. وجُوِّز رجوعُ ضمير «غلبوا» و«انقلبوا» على الاحتمال الأول إلى «السَّحرة» أيضًا، وتُعقِّب بأنهم لا ذلَّة لهم، والحملُ على الخوف من فرعون، أو على ما قبل الإيمان، لا يخفى ما فيه.

والمرادُ من «أُلقي السحرة» إلخ أنهم خرُّوا ساجدين، وعُبِّر بذلك دونه تنبيهًا على أن الحق بَهَرهم، واضطرَّهم إلى السجود بحيث لم يبق لهم تمالك، فكأنَّ أحدًا دفعهم وألقاهم، أو أنَّ الله تعالى ألهمهم ذلك وحملَهم عليه، فالمُلقي هو الله تعالى بإلهامه لهم حتى ينكسر فرعونُ بالذين أراد بهم كسر موسى عليه السلام، وينقلِبَ الأمرُ عليه. ويحتمل أن يكون الكلامُ جاريًا مجرى التمثيل؛ مبالغةً في

---

(١) التيسير ص١١٢، والنشر ٢/ ٢٧١، وقرأ حفص: «تَلْقَفُ».

(٢) في معاني القرآن ١/ ٣٩١.

سرعة خرورهم وشدَّته، وإليه يشير كلامُ الأخفش، وجُوِّز أن يكون التعبيرُ بذلك مشاكلةً لما معه من الإلقاء، إلا أنه دون ما تقدَّم.

يُروى أنَّ اجتماع القوم كان بالإسكندرية، وأنه بلَغَ ذنب الحيَّة من وراء البحر، وأنها فَتَحت فاها ثمانين ذراعًا، فابتلعت ما صنعوا واحدًا بعد واحد، وقصدت الناسَ، ففزِعُوا ووقع الزِّحام، فمات منهم لذلك خمسة وعشرون ألفًا، ثم أخذها موسى عليه السلام، فعادت في يده عصًا كما كانت، وأعدم الله تعالى بقدرته تلك الأجرامَ العظام، ويحتمل أنه سبحانه فرَّقها أجزاء لطيفةً، فلما رأى السَّحرة ذلك عرفوا أنه من أمر السماء وليس من السحر في شيء، فعند ذلك خرُّوا سجَّدًا.

والمتبادر من السجود حقيقتُه، ولا يبعُدُ أنهم كانوا عالمين بكيفيَّته، وقيل: إن موسى وهارون عليهما السلام سجدا شكرًا لله تعالى على ظهور الحقِّ، فاقتدَوا بهما وسجدوا معهما، وحَمْلُ السجود على الخضوع ـ أي: أنهم خضعوا لمَّا رأوا ما رأوا ـ خلافُ الظاهر الذي نطقت به الآثارُ من غير داعٍ إلى ارتكابه.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ، وجوَّز أبو البقاء كونَه حالاً من ضمير «انقلبوا»[(١)]، وليس بشيء، وقيل: هو حالٌ من «السَّحرة»، أو مِنْ ضميرهم المستتر في «ساجدين»، أي أنهم أُلقوا ساجدين حال كونهم قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ أي: مالكِ أمرهم والمتصرِّف فيهم.

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ بدلٌ مما قبل، وإنما أبدلوا لئلا يُتَوهَّم أنهم أرادوا فرعون، ولم يقتصروا على موسى عليه السلام؛ إذ ربما يبقى للتوهُّم رائحةٌ؛ لأنه كان ربَّى موسى عليه السلام في صغره، ولذا قُدِّم هارونُ في محلٍّ آخر[(٢)]؛ لأنه أدخلُ في دفع التوهُّم، أو لأجل الفاصلة، أو لأنه أكبر سنًّا منه، وقُدِّم موسى هنا؛ لشرفه، أو للفاصلة، وأما كون الفواصل في كلام الله تعالى لا في كلامهم، فقد قيل: إنه لا يضرُّ.

---

(١) الإملاء ٣/ ٥١.

(٢) وهو قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

ورُوي أنهم لما قالوا: «آمنا بربِّ العالمين»، قال فرعون: أنا ربُّ العالمين، فقالوا ردًّا عليه: «ربِّ موسى وهارون».

وإضافةُ الربِّ إليهما كإضافته إلى «العالمين»، وقيل: إنَّ تلك الإضافة على معنى الاعتقاد، أي: الربِّ الذي يعتقدُ ربوبيَّتَه موسى وهارون، ويكون عدمُ صدقِهِ على فرعون بزعمه أيضًا ظاهرًا جدًّا، إلا أن ذلك خلافُ الظاهر من الإضافة.

ويُعلم مما قدَّمنا سِرُّ تقديم السجود على هذا القول. وقال الخازن في ذلك: إنَّ الله تعالى لما قذف في قلوبهم الإيمانَ خرُّوا سجَّدًا لله تعالى على ما هداهم إليه وألهمهم من الإيمان، ثم أظهروا بذلك إيمانَهم، وقيل: إنهم بادروا إلى السجود؛ تعظيمًا لشأنه تعالى؛ لما رأوا من عظيم قدرته، ثم إنهم أظهروا الإيمانَ[1].

ومَنْ جَعَل الجملة حالاً قال بالمقارنة، فافهم.

وأول من بادر بالإيمان ـ كما رُوي عن ابن إسحاق ـ الرؤساءُ الأربعة الذين ذكرهم ابنُ الجوزيِّ، ثم اتبعتهم السَّحرة جميعًا.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ منكرًا على السَّحرة، موبِّخًا لهم على ما فعلوه: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: بربِّ موسى وهارون، أو بالله تعالى؛ لدلالة ذلك عليه، أو بموسى عليه السلام، قيل: لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ [الشعراء: ٤٩] فإنَّ الضمير فيها له عليه السلام؛ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ إلخ [الشعراء:٤٩].

والمقصودُ من الجملة الخبرية التوبيخ؛ لأن الخبر إذا لم يُقصد به فائدتُه ولا لازمُها تولَّد منه بحسب المقام ما يناسبُه، وهنا لمَّا خاطبهم الجبَّار بما فعلوا مخبرًا لهم بذلك، مع ظهور عدمِ قَصْد إفادة أحد الأمرين ـ والمقامُ هو المقام ـ أفادَ التوبيخَ والتقريع.

ويجوز أن تقدَّر فيه الهمزةُ بناءً على اطِّراد ذلك، والاستفهامُ للإنكار؛ بمعنى

(١) تفسير الخازن ٢/ ٢٧٢.

أنه لا ينبغي ذلك، ويؤيد ذلك قراءةُ حمزة، والكسائيِّ، وأبي بكر عن عاصم، وروح عن يعقوب: «أآمنتم» بهمزتين محقَّقتين، وتحقيقُ الأولى وتسهيل الثانية بينَ بينَ مما قُرِئ به أيضًا[1].

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: قبل أن آمرَكم أنا بذلك، وهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩]، لا أنَّ الإذنَ منه ممكنٌ في ذلك.

وأصلُ «آذن»: أأذن بهمزتين، الأولى للتكلُّم، والثانيةُ من صلب الكلمة، قلبت ألفًا لوقوعها ساكنةً بعد همزة.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الصَّنيع ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ لَحيلةٌ احتلتُمُوها أنتم وموسى، وليس مما اقتضى الحالُ صدورَه عنكم لقوة الدليل وظهورِ المعجزة، وهذا تمويهٌ منه على القبط؛ يريهم أنهم ما غُلبوا ولا انقطعتْ حجَّتُهم، قيل: وكذا قوله: «قبل أن آذن لكم».

﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: في مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد. أخرج ابنُ جرير وأبو الشَّيخ عن ابن مسعود وناسٍ من الصحابة قال: التقى موسى عليه السلام وأميرُ السَّحرة، فقال له موسى: أرأيتَكَ إن غلبتُك، أتؤمنُ بي وتشهد أنَّ ما جئتُ به حقٌّ؟ فقال الساحر: لآتينَّ غدًا بسحرٍ لا يغلبُه سحرٌ، فوالله لئن غلبتني لأومننَّ بك، ولأشهدنَّ أنك حقٌّ. وفرعونُ ينظر إليهم[2]. وهو الذي نشأ عنه هذا القول.

﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: القبط، وتخلُصَ لكم ولبني إسرائيل.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ عاقبةَ ما فعلتُم، وهذا وعيدٌ ساقَهُ بطريق الإجمال للتهويل، ثم عقَّبه بالتفصيل فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: من كلِّ جانب عضوًا مغايرًا للآخر، كاليد من جانب والرجل من آخر، والجارُّ في موضع الحال، أي: مختلفةً. والقولُ بأن «مِنْ» تعليليةٌ متعلِّقة بالفعل، أي: لأجل خلافكم، بعيدٌ.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ تفضيحًا لكم، وتنكيلاً لأمثالكم.

---

(١) التيسير ص١١٢، والنشر ١/ ٣٦٨-٣٦٩.

(٢) الدر المنثور ٣/ ١٠٧، وهو في تفسير الطبري ١٠/ ٣٦٢.

والتصليبُ مأخوذ من الصَّلب: وهو الشدُّ على خشبة أو غيرها، وشاع في تعليق الشخص بنحو حبل في عنقه ليموت، وهو المتعارفُ اليوم، ورأيتُ في بعض الكتب أن الصَّلب الذي عناه الجبَّار هو شدُّ الشخص من تحت الإبطين وتعليقُه حتى يهلك، وهو كقطع الأيدي والأرجل أولُ من سَنَّه فرعون على ما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]، وشَرَعه الله تعالى لقطَّاع الطريق؛ تعظيمًا لجرمهم، ولهذا سماه سبحانه محاربةً لله ولرسوله.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: إلى رحمته سبحانه وثوابه عائدون إن فعلتَ بنا ذلك، فياحبَّذاه.

أخرج ابن أبي حاتم[2] عن ابن جُبير أنَّ السحرة حين خرُّوا سجَّدًا رأوا منازلَهم تُبنى لهم. وأخرج عن الأوزاعيِّ أنهم رُفعت لهم الجنةُ حتى نظروا إليها[3].

ويحتمل أنهم أرادوا: إنَّا ولا بدَّ ميِّتون، فلا ضيرَ فيما تتوعَّدُنا به، والأجل محتومٌ لا يتأخَّر عن وقته:

ومَن لَمْ يَمُتْ بالسيفِ ماتَ بغيره تعدَّدَتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ[4]

ويحتمل أيضًا أن المعنى: إنَّا جميعًا ننقلب إلى الله تعالى فيحكم بيننا:

إلى ديَّان يوم الدِّين نمضي وعند الله تجتمعُ الخصومُ[5]

وضميرُ الجمع على الأول للسَّحرة فقط، وعلى الثالث لهم ولفرعون، وعلى الثاني يحتمل الأمرين.

﴿وَمَا تَنقِمُ﴾ أي: ما تكره، وجاء في الماضي نَقَمَ ونَقِمَ على وزن ضرَبَ وعلِمَ. ﴿مِنَّآ﴾ معشرَ مَنْ آمن ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وذلك أصلُ المفاخر، وأعظمُ المحاسن. والاستثناءُ مفرَّغ، والمصدر في موضع المفعول به، والكلامُ على حدِّ قوله:

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣٦٣.
(٢) في تفسيره ٥/ ١٥٣٦.
(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٣/ ١٠٧.
(٤) البيت لابن نباتة السعدي، وهو في ريحانة الألبَّا للخفاجي ١/ ٤٤٤، وخلاصة الأثر ٤/ ٤٠٧.
(٥) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص٣٥٤.

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ ضيوفَهم تُعاب بنسيانِ الأحبَّةِ والوطن[(١)]

وقيل: إن «تنقِمُ» مضارعُ نَقَمَ[(٢)] بمعنى عاقب، يقال: نقِمَ منه نَقْمًا، وتِنِقَّاماً، وانتقم: إذا عاقبه، وإلى هذا يشير ما رُوي عن عطاء، وعليه فيكون «أَنْ آمنَّا» في موضع المفعول له، والمراد على التقديرين حسمُ طمعِ فرعون في نَجْعِ تهديده إياهم، ويحتمل أن يكون على الثاني تحقيقًا لما أشاروا إليه أولاً مِن الرحمة والثواب.

ثم أعرضوا عن مخاطبته وفَزعوا، والتجؤوا إليه سبحانه، وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أي: أَفِضْ علينا صبرًا يغمرنا كما يُفرَغ الماء، أو صُبَّ علينا ما يُطهِّرنا من الآثام، وهو الصبرُ على وعيد فرعون، فـ «أفرِغْ» على الأول استعارةٌ تبعيَّة تصريحية، و«صبرًا» قرينتُها، والمراد: هَبْ لنا صبرًا تامًّا كثيرًا، وعلى الثاني يكون «صبرًا» استعارةٌ أصليَّة مكنيَّة، و«أفرِغْ» تخييلية.

وقيل: الكلامُ على الأول كالكلام على الثاني، إلا أن الجامعَ هناك الغمرُ وهاهنا التطهير. وليس بذاك، وإنْ جَلَّ قائلُه.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ أي: ثابتين على ما رزقتنا من الإسلام، غير مفتونين من الوعيد.

عن ابن عباس والكلبيِّ والسدِّي أنه فَعَلَ بهم ما أَوْعَدَهم به، وقيل: لم يقدِرْ عليه لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. وأجاب الأوَّلون عن ذلك بأن المرادَ الغلبةُ بالحجَّة، أو في عاقبة الأمر ونهايته. وهذا لا ينافي قتلَ البعض.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ مخاطبين له بعدَما شاهدوا من أمر موسى عليه السلام ما شاهدوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ أي: أتتركُه ﴿وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرض مصر؟! والمراد بالإفساد ما يشمل الدينيَّ والدنيويَّ، ومفعولُ الفعل محذوفٌ للتعميم، أو أنه منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أو يُقدَّر: يفسدوا الناسَ بدعوتهم إلى دينهم

---

(١) البيت دون نسبة في خزانة الأدب لابن حجة ص٤١٩، ومعاهد التنصيص ٣/ ١٠٩.
(٢) كضرب وعلم. القاموس (نقم).

والخروج عليك. أخرج ابن جرير[١] عن ابن عباس قال: لمَّا آمنتِ السحرةُ اتَّبع موسى عليه السلام ستَّ مئة ألفٍ من بني إسرائيل.

﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطفٌ على «يفسدوا» المنصوب بأن، أو منصوبٌ على جواب الاستفهام كما يُنصب بعد الفاء، وعلى ذلك قول الحطيئة:

ألم أكُ جارَكم ويكونَ بيني وبينَكم المودَّةُ والإخاءُ[٢]

والمعنى: كيف يكون الجمع بين تركِكَ موسى عليه السَّلام وقومَه يفسدون في الأرض وتركِهم إياكَ.. إلخ؟ أي: لا يمكنُ وقوعُ ذلك.

وقرأ الحسن ونُعيم بنُ ميسرة بالرفع[٣] على أنه عطفٌ على «تذر»، أو استئنافٌ، أو حال بحذف المبتدأ، أي: وهو يذرُك؛ لأنَّ الجملة المضارعيةَ لا تقترن بالواو على الفصيح. والجملةُ على تقدير الاستئناف معترضةٌ مؤكِّدة لمعنى ما سبق، أي: تذرُه وعادتُه تركُكَ؟ ولا بدَّ من تقدير «هو» على ما قال الطِّيبيُّ، كما في احتمال الحال؛ ليدلَّ على الدوام، وعلى تقدير الحالية تكونُ مقرِّرةً لجهة الإشكال.

وعن الأشهب أنه قرأ بسكون الراء[٤]، وخرَّج ذلك ابنُ جِنِّي[٥] على أنه تُرِكت الضمةُ للتخفيف، كما في قراءة أبي عمرو: «يأمُرْكم» [النساء: ٥٨] بإسكان الراء استثقالاً[٦] للضمة عند توالي الحركات[٧]، واختاره أبو البقاء[٨]. وقيل: إنه عطفٌ على ما تقدَّم بحسب المعنى، ويقال له في غير القرآن: عطف التوهُّم، كأنه قيل: يُفسدوا ويذرْك[٩]، كقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣٧١.

(٢) ديوان الحطيئة ص٩٨، والرواية فيه: ألم أك مسلمًا.

(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٤٥، وتفسير الطبري ١٠/٣٦٦، والبحر المحيط ٤/ ٣٦٧.

(٤) المحتسب ١/ ٢٥٧، والبحر المحيط ٤/ ٣٦٧، والأشهب هو العقيلي.

(٥) المحتسب ١/ ٢٥٧.

(٦) في الأصل و(م): استقلالاً، والمثبت من المحتسب.

(٧) اختلفت الرواية عن أبي عمرو بين إسكان للراء، واختلاس للضمة فيها، وتفصيل مذهبه في النشر ٢/ ٢١٢-٢١٣.

(٨) الإملاء ٣/ ٥٢.

(٩) أي كأنه توهَّم جزم «يُفسدوا» في جواب الاستفهام؛ فعطف عليه بالجزم. الدر المصون ٥/ ٤٢٣.

﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ أي: معبوداتك؛ يُروى أنه كان يعبد الكواكبَ، فهي آلهتُه، وكان يعتقد أنها المربيةُ للعالم السفليِّ مطلقًا، وهو ربُّ النوع الإنسانيِّ، وعن السدِّي أن فرعونَ كان قد اتَّخذ لقومه أصنامًا، وأمرهم بأن يعبدوها تقرُّبًا إليه، ولذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقيل: إنه كانت له بقرةٌ يعبدُها، وكان إذا رأى بقرةً حسنةً أمر قومَه بعبادتها، ولذلك أخرج السامريُّ لبني إسرائيل عجلاً. وهو رواية ضعيفةٌ عن ابن عباس.

وقال سليمان التَّيْمي: بلغني أنه كان يجعلُ في عنقه شيئًا يعبدُه، وأمرُ الجمعِ عليه يحتاج إلى عناية.

وقرأ ابن مسعود، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ، والشعبيُّ: «وإلاهتك» كعبادتك لفظًا ومعنى[(١)]، فهو مصدرٌ. وأخرج غير واحد عن ابن عباس أنه كان ينكر قراءةَ الجمع بالجمع، ويقرأُ بالمصدر، ويقول: إنَّ فرعون كان يُعبَدُ ولا يَعبُدُ[(٢)]، ألا ترى إلى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] ومن هنا قال بعضهم: الأقربُ أنه كان دهريًّا منكرًا للصانع.

وقيل: الإلاهةُ اسمٌ للشمس، وكان يعبُدُها؛ وأنشد أبو عليٍّ:

وأعجَلْنا الإلاهَةَ أن تؤوبا[(٣)]

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كما كنَّا نفعل بهم ذلك من قبل؛ ليعلمَ أنَّا على ما كنَّا عليه من القهر والغلبة، ولا يَتوهَّم أنه المولود الذي حكم المنجِّمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٥، وتفسير الطبري ١٠/ ٣٦٩، والمحتسب ١/ ٢٥٦. ولم نقف عليها عن الشعبي.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٣٦٨.

(٣) نُسِب لعتيبة بن الحارث اليربوعي كما في تهذيب اللغة ٦/ ٢٢٤، ومعجم البلدان ١/ ٢٢٣، ونُسب أيضاً لبنته أم البنين مية بنت عتيبة كما في تفسير الطبري ١٠/ ٣٦٩، ومعجم البلدان ٥/ ١٨، واللسان (أله)، وصدره:

تروَّحنا من اللَّعْباء عَصْرًا

وقرأ ابنُ كثير ونافعٌ: «سنَقْتُلُ» بالتخفيف[١]. والتضعيفُ كما في موَّتَتِ الإبلُ.

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۝١٢٧﴾ أي: غالبون كما كنا، لم يتغيَّر حالُنا، وهم مقهورون تحت أيدينا. وكأنَّ فرعونُ قد انقطع طمعُه عن قتل موسى عليه السلام، فلم يَعِدِ الملأَ بقتله؛ لما رأى من علوِّ أمره وعظيمِ شأنه، وكأنه لذلك لم يَعِدْ بقتل قومه أيضًا.

والظاهرُ ـ على ما قيل ـ أن هذا من فرعون بيانٌ لأنهم لا يقدرون على أن يفسدوا في الأرض، وإيذانٌ بعدم المبالاة بهم، وأنَّ أمرَهم فيما بعدُ كأمرهم فيما قبل، وأن قتلَهم عبثٌ لا ثمرةَ فيه، وذكر الطِّيبيُّ أنه من الأسلوب الحكيم، وإن صدر من الأحمق، وأن الجملةَ الاسميةَ كالتذييل لما قبلها، فافهم.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ تسليةً لهم حين تضجَّروا مما سمعوا بأسلوبٍ حكيم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على ما سمعتُم من الأقاويل الباطلة ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ أي: أرض مصر، أو الأرض مطلقًا، وهي داخلة فيها دخولاً أوليًّا. ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ الذين أنتم منهم.

وحاصلُه أنه ليس الأمر كما قال فرعون: «إنا فوقهم قاهرون»؛ فإن القهرَ والغلبةَ لمن صبرَ واستعان بالله، ولمن وعدَه اللهُ تعالى توريثَ الأرض، وأنا ذلكم الموعودُ الذي وعدَكم الله تعالى بالنُّصرة به، وقَهْرَ الأعداء، وتوريثَ أرضهم. وقوله: «والعاقبة» إلخ تقريرٌ لما سبق.

وقرأ أبيٌّ وابن مسعود: «والعاقبةَ» بالنصب[٢] عطفًا على اسم «إن».

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قوم موسى له عليه السلام: ﴿أُوذِينَا﴾ من جهة فرعون ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة، يعنون بذلك قتلَ الجبَّار أولادَهم قبل مولده وبعده، إذ قيل له: يُولد لبني إسرائيل غلامٌ يسلبُكَ ملكَكَ، ويكونُ هلاكُكَ على يديه.

﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ أي: رسولاً، يعنون به ما توعَّدهم به من إعادة قتل الأبناء، وسائر ما كان يفعل بهم ـ لعداوة موسى عليه السلام ـ من فنون الجَوْر والعذاب.

---

(١) التيسير ص١١٢، والنشر ٢/٢٧١.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٥.

وقيل: إنَّ نفسَ ذلك الإيعاد إيذاءٌ. وقيل: جُعِل إيعادُه بمنزلة فعلِه؛ لكونه جبارًا. وقيل: أرادوا الإيذاءَ بقتل الأبناء قبل مولد موسى عليه السلام وبعد مولده.

وقيل: المراد ما كانوا يُستعبدون به ويُمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن. وتُعقِّب بأن ذلك ليس مما يَلحقهم بواسطة موسى عليه السلام، فليس لذِكْره كثيرُ ملاءمةٍ بالمقام.

والظاهر أنه لا فرقَ بين الإتيان والمجيء، وأن الجمعَ بينهما لمجرَّد التفنُّن والبعد عن التكرار اللفظيِّ؛ فإنَّ الطباعَ مجبولةٌ على معاداة المُعادات، ولذلك جيء بـ «أنْ» المصدرية أولاً، وبـ «ما» أختها ثانيًا.

وذكر الجلال السيوطيُّ في الفرق بينهما: أن الإتيان يستعملُ في المعاني والأزمان، والمجيء في الجواهر والأعيان. وهو غيرُ ظاهرٍ هنا إلا أن يُتكلَّف، ونَقَل عن الراغب في الفرق بينهما: أن الإتيانَ هو المجيءُ بسهولة، فهو أخصُّ من مطلق المجيء[1]. وهو كسابقه هنا أيضاً.

وهذا منهم جارٍ مجرى التحزُّن؛ لعدم الاكتفاء بما كنى لهم عليه السلام[2]. لفرط ما عَرَاهم، وفظاعةِ ما اعتراهم، والمقامُ يقتضي الإطناب؛ فإنَّ شأن الحزين الشاكي إطالةُ الكلام رجاء أن يُطفئ بذلك بعضَ الأُوام[3].

وقيل: هو استبطاءٌ منهم لما وعدهم عليه السلام من النجاة والظَّفَر.

والأولُ أولى؛ فقوله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الذي فعل بكم ما فعل، وتوعَّدكم بما توعَّدَ ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ أي: يجعلَكم خلفاء ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرضِ مصر = تصريحٌ بما كنى عنه، وتوكيدٌ للتسلية على أبلغ وجهٍ، وفيه إدماجُ معنى: من عادى أولياءَ الله تعالى فقد بارزه بالمحاربة، وحُقَّ له الدمارُ والخَسار.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (أتى)، والإتقان للسيوطي ١/ ٦٢٢- ٦٢٣.

(٢) يعني في قوله: «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده» فقد كان ذلك تسليةً لهم بالكناية عن أن ملك القبط سينقل إليهم. حاشية الشهاب ٤/ ٢٠٧.

(٣) الأوام: حرارة العطش. أساس البلاغة: (أوم).

و«عسى» في مثله قطعٌ في إنجاز الموعود والفوز بالمطلوب، ونصَّ غيرُ واحدٍ على أن التعبير به للجري على سَنَنَ الكرماء، وقيل: تأدُّبًا مع الله تعالى، وإن كان الأمرُ مجزومًا به بوحي وإعلامٍ منه سبحانه وتعالى.

وقيل: إن ذلك لعدم الجزم منه عليه السلام بأنهم المستخلَفون بأعيانهم أو أولادهم، فقد رُوي أن مصر إنما فتحت في زمن داود عليه السلام. وتعقِّب بأنه لا يُساعده قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]؛ فإن المتبادِرَ استخلافُ المستضعفين أنفسِهم، لا استخلافُ أولادِهم، والمجاز خلافُ الأصل. نعم المشهور أنَّ بني إسرائيل بعد أن خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر لم يَرْجِعوا إليها في حياته.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَيَنظُرَ﴾ أي: يرى أو يعلم ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أحسنًا أم قبيحًا، فيجازيكم حسبما يظهرُ منكم من الأعمال = إرشادٌ لهم إلى الشكر، وتحذيرٌ لهم عن الوقوع في مهاوي الكفر.

وقيل: فيه إشارة إلى ما وقع منهم بعد ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ شروعٌ في تفصيل مبادي الهلاك الموعود به، وإيذانٌ بأنهم لم يُمهَلوا حتى تحوَّلوا من حال إلى حال، إلى أن حلَّ بهم عذابُ الاستئصال. وتصديرُ الجملة بالقسم لإظهار الاعتناء بمضمونها.

والمراد بـ «آل فرعون» أتباعُه من القِبط، وإضافةُ الآل إليه وهو لا يضاف إلا إلى الأشراف؛ لما فيه من الشرف الدنيويِّ الظاهر، وإن كان في نفس الأمر خسيسًا، وعن الخطيب أن المرادَ فرعونُ وآلُه[(١)].

و«السنين» جمعُ سَنَة، والمراد بها عامُ القحط، وقد غلبت في ذلك حتى صارت كالعَلَم له؛ لكثرة ما يُذكر ويؤرَّخ به، ولا كذلك العام الخصب، ولامُها واوٌ أو هاء، وقد اشتقوا منها فقالوا: أَسْنَتَ القومُ: إذا قُحطوا، وقلبوا اللام تاءً؛ ليفرِّقوا بين ذلك وقولهم: أسنى القومُ: إذا لبثوا في موضعٍ سنةً، قال المازنيُّ: وهو شاذٌّ لا يقاس عليه، وقال الفرَّاء: توهَّموا أن الهاءَ أصيلةٌ؛ إذ

(١) انظر تفسير الرازي ١٤/ ٢١٤.

وجدوها أصليَّة فقلبوها تاء، وجاء: أصابتنا سُنَيَّة حمراء، أي: جدب شديد، فالتصغير للتعظيم.

وإجراءُ الجمع مجرى سائر الجموع السالمة المعربة بالحروف هو اللغةُ المشهورة، واللغة الأخرى إجراءُ الإعراب على النون لكن مع الياء خاصة، فيُسلَك فيه مسلك «حين» في الإعراب بالحركات الثلاث مع التنوين عند بني عامر، وبنو تميم لا ينوِّنون تخفيفًا، وحينئذٍ لا تُحذف النون للإضافة، وعلى ذلك جاء قول الشاعر[1]:

دعانيَ مِنْ نجدٍ فإنَّ سنينَه لعبْنَ بنا شِيبًا وشيَّبننا مُردا

ومنه قولُه ﷺ: «اللهمَّ اجعلها عليهم سنينًا كسنينِ يوسف»[2]، وجاء في رواية أخرى: «اللهم أعنِّي عليهم بسنينَ كسني يوسف»[3]، وهو على اللغة المشهورة.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بكثرة عاهاتِ الثمار، وخروج اليسير منها، حتى لا تحمل النخلةُ ـ كما رُوي عن رجاء بن حَيْوة ـ إلا بُسْرةً واحدة. وكان القحطُ ـ على ما أخرج عَبْد بن حُمَيد وغيره عن قتادة ـ في باديتهم وأهل ماشيتهم، والنقصُ في أمصارهم وقُراهم.

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول»، وابنُ أبي حاتم[4] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أخذ الله تعالى آلَ فرعون بالسِّنين يَبِس كلُّ شيء لهم، وذهبت مواشيهم، حتى يَبِس نيلُ مصر، فاجتمعوا إلى فرعون وقالوا له: إن كنتَ كما تزعمُ فائتنا في نيل مصر بماءٍ، فقال: غدوةً يُصَبِّحكم الماء، فلما خرجوا من عنده قال: أيَّ شيء صنعتُ؟! أنا لا أقدر على ذلك، فغدًا يكذبونني، فلما كان جوف الليل قام واغتسل، ولبس مِدْرعةَ صوفٍ، ثم خرج حافيًا حتى أتى النيلَ، فقام في بطنه

---

(١) هو الصِّمَّة بن عبد الله القشيري، والبيت في الخزانة للبغدادي ٨/ ٥٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧٥٤)، وأبو عوانة ٢/ ٢٨٣ من حديث أبي هريرة، غير أن في المسند: «سنين كسنين»، وعند أبي عوانة: «سنيناً كسني»، وينظر شرح الألفية لابن عقيل ١/ ٦٥.

(٣) أخرجه البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) (٢٩٥) من حديث أبي هريرة بلفظ: «اللهم اجعلها عليهم سنين...».

(٤) في تفسيره ٥/ ١٥٤٢.

وقال: اللهمَّ إنك تعلم أني أعلم أنك تقدِرُ على أن تملأ نيلَ مصر ماءً، فاملأه ماء، فما علم إلا بخرير الماء يُقبل، فخرج، وأقبل النيل مُتْرَعًا بالماء؛ لِمَا أراد الله تعالى بهم من الهَلَكة. وهذا إن صحَّ يدلُّ على أن الرجل لم يكن دَهْريًّا منكرًا[1] للصانع كما قال البعض.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: لكي يتَّعظوا فيتركوا ما هم عليه، أو لكي يذكُروا اللهَ تعالى فيتضرَّعوا له ويلتجئوا إليه رغبةً فيما عنده، وقيل: لكي يتذكَّروا أن فرعونَ لو كان إلهًا لدفَعَ ذلك الضرَّ.

وعن الزجَّاج[2] أنهم إنما أُخِذوا بالضرَّاء؛ لأنَّ أحوال الشدةِ ترقِّقُ القلوبَ، وترغِّبُ فيما عند الله تعالى، ألا ترى قولَه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]؟.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ إلخ بيانٌ لعدم تذكُّرهم وتماديهم في الغيِّ، والمراد بـ «الحسنة» كما يُفهمه ظاهر كلام البعض: الخِصْب والرخاء، وفسَّرها مجاهدٌ بالرخاء والعافية، وبعضهم بأعمَّ من ذلك، أي: إذا جاءهم ما يستحسنونه ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: إنا مستحقُّوها بيُمْنِ الذات.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: ضَيْقَة وجَدْب، أو جدبٌ ومرض، أو عقوبةٌ وبلاء ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: يتشاءموا بهم ويقولوا: ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم.

وأصل إطلاق التطيُّر على التشاؤم ـ على ما قال الأزهريُّ[3] ـ أنَّ العربَ كانت تزجر الطيرَ، فتتشاءم بالبارح، وتتيمَّنُ بالسَّانح، وفي المثل: مَنْ لي[4] بالسَّانح بعد البارِحِ[5]؟ قال أبو عُبيدة: سأل يونسُ رؤبةَ وأنا شاهدٌ عن السَّانح والبارح، فقال:

---

(١) في (م): نافيًا.

(٢) معاني القرآن ٢/ ٣٦٨.

(٣) ينظر تهذيب اللغة ١٤/ ١١ وما بعدها.

(٤) في (م): إلى. وهو تحريف.

(٥) مجمع الأمثال ٢/ ٣٠١. قال الميداني: وأصل المثل أن رجلاً مرت به ظباء بارحة، والعرب تتشاءم بها، فكره الرجل ذلك، فقيل له: إنها ستمر بك سانحة، فعندها قال: من لي بالسانح بعد البارح؟ يضرب مثلاً في اليأس عن الشيء.

السَّانح: ما ولَّاك ميامِنَه، والبارح: ما ولَّاك مياسِرَه، وقيل: البارح: ما يأتي من جهة الشمال، والسَّانح: ما يأتي من جهة اليمين، وأنشدوا:

زجرتَ لها طيرَ الشِّمال فإنْ يكنْ هواكَ الذي تَهْوَى يُصِبْكَ اجتنابُها[١]

ثم إنهم سمَّوا الشؤمَ طيرًا وطائرًا، والتشاؤمَ تطيُّرًا، وقد يطلقون الطائر على الحظِّ والنصيب خيرًا أو شرًّا، حتى قيل: إن أصلَ التطيُّر تفريقُ المال وتطييرُه بين القوم، فيطيرُ لكلِّ أحدٍ نصيبُه من خيرٍ أو شر، ثم غلبَ في الشر.

وفي الآية إغراقٌ في وصفهم بالغباوة والقساوة؛ فإنَّ الشدائد ترقِّق القلوب، وتذلِّل العرائك، وتُزيل التماسُكَ، لاسيَّما بعد مشاهدة الآيات، وقد كانوا بحيث لم يؤثِّر فيهم شيء منها، بل ازدادوا عتوًّا وعنادًا.

وتعريفُ «الحسنة» وذِكرُها بأداة التحقيق ـ كما قال غير واحد ـ لكثرةِ وقوعها، وتعلُّقِ الإرادة بإحداثها بالذات؛ لأن العنايةَ الإلهيةَ اقتضت سبقَ الرحمة وعمومَ النعمة قبل حصول الأعمال، وتنكيرُ السيئة وذِكرُها بأداة الشكِّ؛ لندورها وعدم تعلُّق الإرادة بإحداثها إلا بالتبع؛ فإنَّ النِّقمة بمقتضى تلك العناية إنما تُستحقُّ بالأعمالَ.

والزمخشريُّ بيَّنَ «الحسنة» بالخِصْب والرخاء، ثم قال في تعليل ما ذكر: لأنَّ جنس الحسنة وقوعُه كالواجب؛ لكثرته واتساعه، وأما السيئة فلا تقع إلا في النُّدرة، ولا يقع إلا شيء منها[٢]. وقال صاحب «الكشف»: ذلك إشارةٌ إلى أن التعريف للعهد الخارجيِّ التقديريِّ[٣]، بدليل أنه ذُكر في مقابلة قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾. وقوله: لأن الجنس.. إلخ، أي: جنس الخِصْب والرخاء، وفيه مبالغةٌ، أي: لكثرة الوقوع، كأنَّ الجنس كلَّه واجبُ الوقوع، ولهذا لا يزال يتكاثر حتى يستغرقَ الجنس. وقوله: وأما السيئة.. إلخ في مقابلة ذلك دليل بيِّن على إرادة هذا المعنى، فلا تخالُف بين كلاميه، ولم يُرِدْ

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ص٧٠، وصدر البيت فيه:
زجرت لها طير السَّنيح فإن تصب

(٢) الكشاف ٢/١٠٦.

(٣) في (م): التقريري، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٤/٢٠٨.

بالجنس العهدَ الذهنيَّ، وهذا مرادُ صاحب «المفتاح»[١]، وبه يندفع ما توهَّمه صاحب «الإيضاح»[٢]. انتهى. وفيه تعريض بشيخه الطِّيبيِّ حيث حمل الجنسَ على العهد الذهنيِّ، وقال ما قال، والبحثُ طويلُ الذَّيل، فليُطلب من شروح «المفتاح» و«شرح التلخيص» للعلامة الثاني[٣] وحواشيه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ مسوقٌ من قِبَله تعالى لردِّ مقالتهم الباطلة، وتحقيق للحقِّ في ذلك، وتصديرُه بكلمة التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي: ليس شؤمهم إلا عند الله، أي: من قبله وحكمه، كما قال ابن عباس. وقال الزجَّاج[٤]: المعنى: ليس الشؤم الذي يلحقُهم إلا الذي وُعِدوا به من العقاب عنده، لا ما ينالُهم في الدنيا. وقال الحسن: إن المعنى: ألا إنَّ ما تشاءموا محفوظٌ عليهم حتى يجازيهم الله تعالى به يوم القيامة.

وفسَّر بعضُهم الطائرَ هنا بالحظِّ، أي: إنَّما حظُّهم وما طار إليهم من القضاء والقدر بسبب شؤمهم عند الله.

وقرأ الحسن: «إنما طَيْرَهم»[٥]؛ وهو اسمُ جمعِ طائر على الصحيح؛ لأنه على أوزان المفردات، وقال الأخفش: هو جمعٌ له، ورُوي عن قُطْرب أن الطير يكون واحدًا وجمعًا، وكذا الطائر، وأنشد ابنُ الأعرابي:

كأنه تَهْتانُ يومٍ ماطرِ ... على رؤوسٍ كرؤوس الطائرِ[٦]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ ذلك، فيقولون ما يقولون. وإسنادُ عدم العلم إلى أكثرهم للإشعار بأنَّ بعضَهم يعلم ولكن لا يعمل بمقتضى علمه.

﴿وَقَالُواْ﴾ شروعٌ في بيان بعضٍ آخرَ مما أُخِذوا به من فنون العذاب التي هي في

---

(١) مفتاح العلوم ص٢٤١.
(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ١/ ٨٩.
(٣) هو السعد التفتازاني.
(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٩.
(٥) القراءات الشاذة ص٤٥.
(٦) الرجز في مجمع البيان ٩/ ١٥٤، والأول في لسان العرب (قطر)، وجاء بعده:
من الربيع دائم التقاطر

أنفسها آياتٌ بيِّنات، وعدمِ ارعوائهم عمَّا هم عليه من الكفر والعناد، أي: قالوا بعدما رأوا ما رأوا من العصا والسِّنين ونقصِ الثمرات: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ﴾.

كلمة «مهما» مما اختُلف فيها: فقيل: هي كلمة برأسها، موضوعةٌ لزيادة التعميم. وقيل: هي مركَّبة من مه: اسمُ فعلٍ للكفِّ، إما باقٍ على معناه، أو مجرَّدٌ عنه، و«ما» الشرطية. وقال الخليل: أصلها ما ما على أنَّ الأُولى شرطية، والثانية إبهامية متصلة بها؛ لزيادة التعميم، فقُلبت ألفُ «ما» الأولى هاء؛ فرارًا من بشاعة التكرار. وأسلمُ الأقوال ـ كما قال غير واحد ـ القولُ بالبساطة.

وفي «حاشية التسهيل» لابن هشام: ينبغي لمن قال بالبساطة أن يكتب مهمى بالياء، ولمن قال: أصلُها ما ما أن يكتبها بالألف(١)، وفي «الشرح»: وكذا إذا قيل: أصلها مه ما. وتعقَّب ذلك الشُّمُنِّي(٢) بأن القائلين بالأصلين المذكورين متفقون على أن مهما أصلٌ آخر، فما ينبغي في كَتْب آخرها على القول الأول ينبغي على القول الثاني. وفيه نظر.

وهي اسمُ شرطٍ لا حرفٌ على الصحيح، ومحلُّها الرفع هنا على الابتداء، وخبرها إما الشرط، أو الجزاء، أو هما، على الخلاف، أو النصبُ على أنها مفعولٌ به لفعل يفسِّره ما بعدُ، أي: أيَّ شيء تحضره لدينا تأتنا به.

ومن الناس من جوَّز مجيئها في محل نصب على الظرفية، وشدَّد الزمخشري الإنكار عليه في «الكشاف»(٣)، وذكر ابن المنير أنه غرَّ القائلَ بظرفيَّتها كلامُ الخليل، أو شبهها بمتى ما(٤). وخالف ابنُ مالك في ذلك، وقال: إنه مسموع عن العرب، كقوله(٥):

وإنك مهما تُعْطِ بطنَكَ سُؤْلَه ... وفرجَكَ نالا مُنتهى الذمِّ أجمعا

---

(١) وصحح ابن هشام في المغني ص٤٣٦ أنها بسيطة، لا مركبة من «مه» و«ما» الشرطية، ولا من «ما» الشرطية و«ما» الزائدة مع إبدال ألف الأولى هاء دفعاً للتكرار.
(٢) حاشية الشمني على مغني اللبيب ٢/ ٩٣.
(٣) ٢/ ١٠٧.
(٤) الانتصاف ٢/ ١٠٧.
(٥) هو حاتم الطائي، والبيت في ديوانه ص٦٨.

ويوافقه ـ كما قال الشهاب ـ استعمالُ المنطقيِّين لها بمعنى كلَّما، وجعلُها سورَ الكُلِّية؛ فإنها تفيد العمومَ كما صرَّحوا به، وليس من مخترعاتهم كما تُوُهِّم[١].

وأنت تعلم أن كونها هنا ظرفًا مما لا ينبغي الإقدام عليه بوجهٍ؛ لإباء قوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ عنه؛ لأنه بيانٌ لـ «مهما» وليس بزمانٍ.

وتسميتُهم إيَّاها آيةً من باب المجاراة لموسى عليه السلام والاستهزاء بها، مع الإشعار بأن هذا العنوان لا يؤثِّر فيهم، وإلا فهم ينكرون كونَها آيةً في نفس الأمر، ويزعمون أنها سحر كما يُنبئ عنه قولهم: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾.

والضميران المجروران راجعان إلى «مهما»، وتذكيرُ الأول لرعاية جانب اللفظ؛ لابهامه، وتأنيثُ الثاني للمحافظة على جانب المعنى؛ لأنه إنما رُجِع إليه بعد ما بُيِّنَ بـ «آية»، وادعى ابنُ هشام أن الأَولى عَوْدُ الضمير الثاني إلى «آية»[٢]، ولعله راعى القربَ، والذاهبُ إلى الأول راعى أن «آية» مسوقةٌ للبيان، فالأَولى رجوعُ الضمير على المفسَّر المقصود بالذات، وإن كان المآل واحدًا، أي: لتسحر بتلك الآية أعينَنا، وتُشَبِّه علينا.

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: بمصدِّقين لك ومؤمنين بنبوَّتك أصلاً.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ عقوبةً لجرائمهم، لاسيما قولهم هذا ﴿الطُّوفَانَ﴾ أي: ما طاف بهم، وغشي أماكنَهم وحروثَهم من مطرٍ أو سيل، فهو اسمُ جنسٍ من الطواف، وقيل: إنه في الأصل مصدرٌ كنقصان، وهو اسمٌ لكل شيء حادثٍ يحيط بالجهات ويعمُّ، كالماء الكثير، والقتل الذَّرِيع، والموت الجارف، وقد اشتهر في طوفان الماء، وجاء تفسيره هنا بذلك في عدة روايات عن ابن عباس، وجاء عن عطاء ومجاهد تفسيرُه بالموت، وأخرج ذلك ابنُ جرير وغيره عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا[٣].

وعن وهب بن منبِّه أنه الطاعونُ بلغة اليمن، وعن أبي قِلابة أنه الجدريُّ، وهم أول من عُذِّبوا به، وهذان القولان ينجرَّان إلى الخبر المرفوع.

---

(١) حاشية الشهاب ٤/ ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) مغني اللبيب ص٤٣٥.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٣٨٠، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٥٤٤. وفي إسناده يحيى بن يمان والحجاج بن أرطاة، وهما ضعيفان، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهو حديث غريب.

﴿وَالْجَرَادَ﴾ هو المعروف، واحده جرادة، سُمي به لجرده ما على الأرض، وهو جندٌ من جنود الله تعالى يسلِّطه على من يشاء من عباده.

وأخرج أبو داود، وابنُ ماجه، والطبراني، وغيرهم عن أبي زهير النُّميري مرفوعًا النهيَ عن مقاتلته معلَّلاً بما ذُكر(١)، وذكر البيهقيُّ(٢) أن ذلك ـ إنْ صحَّ ـ مرادٌ به إذا لم يتعرَّض لإفسادِ المزارع، فإذا تعرَّض له جاز دفعُه بما يقع به الدفع من القتال والقتل، أو أُريد به الإشارة إلى تعذُّر مقاومته بذلك.

وأخرج أبو داود ومن معه عن سلمان قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثرُ جنود الله تعالى، لا آكلُه ولا أُحرِّمه»(٣). وزَعْمُ أنه مخلوقٌ من ذنوب ابن آدم مؤوَّلٌ.

﴿وَالْقُمَّلَ﴾ بضم القاف وتشديد الميم، قيل: هو الدَّبَى: وهو الصغار من الجراد، ولا يُسمَّى جرادًا إلا بعد نباتِ أجنحته، ورُوي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدِّي.

وقيل: هو القِرْدان جمع القُراد المعروف، وقيل: صغار الذَّرِّ، وعن حَبيب بن أبي ثابت أنها الجُعْلان، وعن ابن زيد قال: زعم بعضُ الناس أنها البراغيث، وعن سعيد بن جبير أنها السُّوس: وهي الدابة التي تكون في الحنطة وغيرها، ويُسمَّى قَمْلاً بفتح فسكون، وبذلك قرأ الحسن(٤).

﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ جمع ضفدع كزِبْرِج(٥)، وجعفر، وجُنْدَب، ودرهم ـ وهذا أقلُّ أو مردود ـ: الدابة المائية المعروفة.

﴿وَالدَّمَ﴾ معروف، وتشديدُ داله(٦) لغةٌ.

---

(١) المعجم الكبير ٢٢/ (٧٥٧)، ونسبة الحديث لأبي داود وابن ماجه وهم من المصنف رحمه الله، ينظر الدر المنثور ٣/ ١٠٩. والحديث قال عنه ابن كثير عند تفسير هذه الآية: غريب جدًا.

(٢) في شعب الإيمان ٧/ ٢٣٢.

(٣) سنن أبي داود (٣٨١٣)، وسنن ابن ماجه (٣٢١٩)، والمعجم الكبير الطبراني ٦/ ٦١٢٩.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٥.

(٥) الزبرج: الزينة من وشي أو جوهر، والذهب، والسحاب الرقيق فيه حمرة. القاموس: (زبرج).

(٦) كذا في الأصل و(م)، والصواب: ميمه، كما في القاموس (دم).

ورُوي أن موسى عليه السلام لما رأى من فرعون وقومه العنادَ والإصرار دعا وقال: يا ربِّ، إن فرعون علا في الأرض، وإن قومَه قد نقضوا العهدَ، ربِّ فخُذْهم بعقوبة تجعلُها عليهم نقمةً، ولقومي عظةً، ولمن بعدهم آيةً وعبرة، فأرسل الله تعالى عليهم المطرَ ثمانية أيام في ظلمة شديدة لم يستطع أحدٌ لها أن يخرج من بيته، فدخل الماءُ بيوتَهم حتى قاموا فيه إلى تَرَاقيهم، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيل منه قطرةٌ، وكانت مشتبكةً في بيوتهم، وفاض الماء على أرضهم وركد، فمنعهم من الحرث والتصرُّف، ودام ذلك الماءُ عليهم سبعةَ أيام من السبت إلى السبت، فقالوا: يا موسى، ادعُ لنا ربَّك يكشفْ عنَّا ذلك، ونحن نؤمنُ بك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربَّه، فكشف عنهم، فنبت من العشب والكلأ ما لم يُعهَدْ مثلُه قَبْلَه، فقالوا: ما كان هذا الماءُ إلا نعمةً علينا، فلم يؤمنوا، فبعث الله تعالى عليهم الجرادَ فأكل زروعَهم وثمارهم، وأبوابَهم، وسقوفهم، وثيابهم، وأمتعتهم، حتى أكل مسامير الحديد التي في الأبواب، ولم يصب بني إسرائيل من ذلك شيءٌ، فعجُّوا وضجُّوا إلى موسى عليه السلام، وقالوا له كما قالوا أولاً، فخرج عليه السلام إلى الصحراء، فأشار بعصاه نحو المشرقِ والمغرب، فرجع إلى النواحي التي جاء منها ـ وقيل: جاءت ريحٌ فألقته في البحر ـ فلم يؤمنوا، فسلَّط الله تعالى عليهم القُمَّلَ، فأكل ما أبقى الجرادُ، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلدِه فيمصُّه، وإذا أراد أن يأكل طعامًا امتلأ قملاً.

وقال ابن المسيّب: ابتُلوا بالسوس، فكان الرجل منهم يخرج بعشرة أَجْرِبةٍ إلى الرَّحى، فلا يَرِدُ إلا بثلاثةِ أقفزةٍ منها، وأخذ حواجِبَهم وأشفارَ عيونهم وسائرَ شعورهم، وفعل في جلودهم ما يفعلُه الجدريُّ، ومنعهم النومَ والقَرار، ففزعوا إلى موسى عليه السلام فرُفِعَ عنهم، فقالوا: قد تحقَّقنا الآن أنك ساحرٌ، فأرسل الله تعالى عليهم الضفادعَ، فامتلأت بيوتُهم وأفنيتُهم وأمتعتهم وآنيتهم منها، فلا يكشفُ أحدٌ إناءً إلا وجدَها فيه، وكان الرجلُ يجلس في الضفادع فتبلغُ إلى حلقه، فإذا أراد أن يتكلَّم يشبُّ الضفدع فيدخل في فيه؛ وكانت تشبُّ في قدورهم، فتفسد عليهم طعامهم، وتطفئُ نيرانَهم، وإذا اضطجع أحدهم ركِبَتْه حتى تكون عليه ركامًا، فلا يستطيع أن ينقلب، وإذا أراد أن يأكل سبقته إلى فيه، ولا يعجِنُ عجينًا

إلا امتلأ منها، ففزعوا إليه عليه السلام وتضرَّعوا، فأخذ عليهم العهودَ والمواثيق، ودعا، فكشف اللهُ تعالى عنهم ذلك، فنقضوا العهدَ، فأرسل الله تعالى عليهم الدَّمَ، فسال النِّيلُ عليهم دمًا عَبِيطًا، وصارت مياهُهم دماءً، فكان فرعونُ يَجمع بين القبطيِّ والإسرائيليِّ في إناءٍ واحد، فيكون ما يلي الإسرائيليَّ ماءً، وما يلي القبطيَّ دمًا، ويقومان إلى الجرَّة فيها الماءُ، فيخرُجُ للقبطيِّ دمٌ وللإسرائيليِّ ماءٌ، حتى إن المرأة من آل فرعون تأتي المرأةَ من بني إسرائيل، فتقول لها: اسقيني ماءً، فتصبُّ لها من قِرْبتها، فيصير في الإناء دمًا، حتى كانت تقول: اِجعليه في فيكِ، ثم مُجِّيه في فيَّ، فتفعلُ ذلك فيصير دمًا.

وقال ابنُ أسلم: إنَّ الدم الذي سُلِّط عليهم كان الرُّعاف.

﴿ءَايَٰتٍ﴾ حالٌ من الأشياء المتقدمة ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبيَّنات، لا يشكُّ عاقلٌ أنها آياتٌ إلهية، لا سحرٌ كما يزعمون، أو مميَّزًا بعضُها من بعض، منفصلةً بالزمان؛ لامتحان أحوالهم، وكان بين كلِّ اثنين منها شهرٌ، وكان امتدادُ كل واحدةٍ منها شهرًا، كما أخرج ذلك ابنُ المنذر عن ابن عباس.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كانت الآياتُ التسعُ في تسعِ سنين، في كلِّ سنة آيةٌ[1].

وأخرج أحمد في «الزهد» وغيرُه[2] عن نَوْفٍ الشاميِّ قال: مكثَ موسى عليه السلام في آل فرعون بعد ما غَلَبَ السَّحرةَ عشرين سنةً يُريهم الآياتِ: الجرادَ والقُمَّل، إلخ، فأَبَوا أن يُسلموا. وفي رواية أبي الشَّيخ عن ابن عباس أنه مكثَ عليه السلام بعد أن غَلَب أربعين سنةً يُريهم ما ذُكر[3].

ورأيتُ في مسامرات الشيخ ابن العربي قدِّس سرُّه أنَّ موسى عليه السلام مكث يُنذِر آلَ فرعون ستةَ عشر شهرًا، إلى أن أُغرقوا فأُدخلوا نارًا، ولم ينتفعوا بما رَأَوا من الآيات.

---

(١) الدر المنثور ٣/ ١١١.
(٢) أخرجه كذلك ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/١٥٤٩، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٥٠.
ونوف الشامي: هو ابن أبي فضالة البكالي.
(٣) الدر المنثور ٣/ ١١٠.

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الإيمان بها، ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ جملةٌ معترضة مقرِّرةٌ لمضمون ما قبلها.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ أي: العذابُ المذكور على التفصيل، كما رُوي عن الحسن وقتادة ومجاهد. و«لمّا» لا تُنافي التفصيلَ والتكرير، كما لا يخفى.

وعن أبي عبد الله رضي الله عنه أنه أصابهم ثلجٌ أحمرُ لم يَرَوه قبلُ، فهلك منهم كثيرٌ[1].

وعن ابن جُبَير أنه الطَّاعون، وقد ورد إطلاقُه عليه في حديث أسامة بن زيد المرفوع، وهو: «الطاعونُ رِجْزٌ أُرسل على طائفةٍ من بني إسرائيل - أو على مَنْ كان قبلَكم - فإذا سمعتُم به في أرضٍ فلا تَقْدَموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجُوا فِرارًا منه»[2].

وأخرج ابنُ أبي حاتم[3] عن ابن عباس قال: أَمَر موسى عليه السلام بني إسرائيل فقال: ليذبَحْ كلٌّ منكم كبشًا، ثم ليخضِبْ كفَّه في دمه، ثم ليضرِبْ على بابه. ففعلوا، فقال القِبْطُ لهم: لِمَ تجعلون[4] هذا الدمَ على أبوابكم؟ قالوا: إنَّ الله تعالى يريد أن يُرسل عليكم عذابًا، فنسلمُ وتهلكون. قال القِبْط: فما يَعرفُكم الله تعالى إلا بهذه العلامة؟ قالوا: هكذا أمرنا نبيُّنا، فأصبحوا وقد طُعِن من قوم فرعون سبعون ألفًا، فأمسَوْا وهم لا يتدافنون.

والمعنى على الأول: أنهم كلَّما وقع عليهم عقوبةٌ من العقوبات المذكورة ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى﴾ في كلِّ مرَّة. وعلى[5] القول بأنَّ المراد بالرجز غيرُ ما تقدَّم: أنه لمَّا وقع عليهم الثلجُ المُهلِكُ، أو الطاعون الجارفُ، قالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بعهده سبحانه عندكَ، وهو النبوةُ كما قال أبو مسلم[6]، فـ «ما»

---

(١) مجمع البيان ٩ (تتمته)/ ٦. وأبو عبد الله: هو جعفر الصادق رحمه الله تعالى.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨) (٩٢).

(٣) في تفسيره ٥/ ١٥٥٠، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٣/ ١١١.

(٤) في الأصل و(م): تجعلوا، والمثبت من الدر المنثور.

(٥) في (م): على. ولا يستقيم المعنى بها.

(٦) نقل قوله الطبرسي في مجمع البيان ٩ (تتمته)/ ٦.

مصدريَّةٌ. وسميت النبوةُ عهدًا ـ كما قال العلامةُ الثاني ـ لأنَّ الله تعالى عهد إكرام الأنبياء عليهم السلام بها، وعهدوا إليه تحمُّل أعبائها، أو لأنَّ لها حقوقًا تُحفَظ كما تُحفَظ العهود، أو لأنَّها بمنزلة عهدٍ ومنشور منه جلَّ وعلا.

أو: بالذي عهد إليك أن تدعُوَه به، فيجيبك كما أجابك في آياتك، فـ «ما» موصولةٌ، والجارُّ والمجرور صلةٌ لـ «ادع»، أو حالٌ من الضمير فيه، يعني: ادع الله تعالى متوسِّلاً بما عهِدَ عندك.

ويحتمل أن تكون الباءُ للقسم الاستعطافيِّ، كما يقال: بحياتك افعل كذا، فالمرادُ استعطافُه عليه السلام لأنْ يدعُوَ، وأن تكون للقسم الحقيقيِّ، وجوابُه: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ الذي وقع علينا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: أقسمنا بعهد الله تعالى عندَك، «لئن كشفتَ» إلخ.

وخلاصةُ ما ذكروه في الباء هنا أنَّها إما للإلصاق، أو للسببيَّة، أو للقَسَم بقِسْمَيه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي: إلى حدٍّ من الزمان هم واصلون إليه ولا بدَّ، فمعذَّبون فيه أو مهلَكون، وهو وقتُ الغرق كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أو الموت كما رُوي عن الحسن، والمراد: أنجيناهم من العذاب إلى ذلك الوقت، ومن هنا صحَّ تعلُّقُ الغاية بالكشف، ولا حاجةَ إلى جعل الجارِّ والمجرور متعلِّقًا بمحذوفٍ وقع حالاً من «الرِّجز»، خلافًا لزاعمه.

وقيل: المرادُ بالأجَل ما عيَّنوه لإيمانهم.

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: ينقضون العهدَ، وأصلُ النَّكث: فَلُّ طاقات الصُّوف المغزول؛ ليغزل ثانيًا، فاستُعير لنقض العهد بعد إبرامه.

وجوابُ «لمَّا» فعلٌ مقدَّر يُؤْذِن به «إذا» الفجائيةُ، لا الجملةُ المقترنة بها، وإن قيل به فتساهلٌ، أي: فلمَّا كشفنا عنهم ذلك فاجؤوا بالنَّكث من غير توقُّف وتأمُّل. كذا قيل، وعليه فكلا الاسمين، أعني: «لمَّا» و«إذا» معمولٌ لذلك الفعل، على أنَّ الأولَ ظرفُه، والثاني مفعولُه. قاله[1] العلامة، والداعي لذلك المحافظةُ على

(١) في الأصل: قال، وهو خطأ، ينظر حاشية الشهاب ٤/ ٢١٠.

ما ذهبوا إليه من أنَّ ما يلي كلمةَ «لمَّا» من الفعلين يجبُ أن يكون ماضيًا لفظًا أو معنى، إلا أنَّ مقتضى ما ذكروا من أنَّ إذْ وإذا المفاجأة في موقعِ المفعول به للفعل المتضمِّنين هما إياه = أن يكون التقدير: فاجؤوا زمانَ النكثِ أو مكانَه.

وقد يقال أيضًا: تقدير الفعل تكلُّفٌ مستغنًى عنه؛ إذ قد صرَّحوا بأنَّ لمَّا تُجاب بإذا المفاجأة الداخلةِ على الجملة الاسمية، نعم هم يذكرون ما يوهم التقدير، وليس به، بل هو بيانُ حاصل المعنى وتفسيرٌ له، فتدبَّر.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ أي: فأردنا الانتقامَ منهم، وأُوِّل بذلك ليتفرَّع عليه قولُه سبحانه: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾، وإلا فالإغراقُ عينُ الانتقام، فلا يصحُّ تفريعه عليه. وجوِّز أن تكون الفاءُ تفسيريةً، وقد أثبتها البعضُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود: ٤٥] إلخ، وحينئذٍ لا حاجةَ إلى التأويل.

﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي: البحر، كما رُوي عن ابن عباس والسُّدي ﷺ. ويقع على ما كان مِلحًا زُعاقًا، وعلى النهر الكبير العذبِ الماءِ، ولا يُكسَّر، ولا يُجمع جمعَ السلامة. وقال الليث: هو البحر الذي لا يُدرك قعرُه. وقيل: هو لجَّة البحر. وهو عربي في المشهور، وقال ابنُ قتيبة: إنه سريانيٌّ، وأصله - كما قيل - يما، فعُرِّب إلى ما ترى.

والقولُ بأنه اسمٌ للبحر الذي غرِقَ فيه فرعونُ غريقٌ في يَمِّ الضعف.

﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تعليلٌ للإغراق، يعني أن سببَ الإغراق وما استوجَبوا به ذلك العقاب هو التكذيبُ بالآيات العظام، وهو الذي اقتضى تعلُّق إرادة الله تعالى به تعلُّقًا تنجيزيًّا، وهذا لا ينافي تفريعَ الإرادة على النكث؛ لأنَّ التكذيب هو العلَّة الأخيرةُ والسببُ القريب، ولا مانع من تعدُّد الأسباب، وترتُّب بعضها على بعض. قاله الشهاب[١]، ونور الحقِّ ساطعٌ منه.

وقال شيخُ الإسلام[٢]: الفاء وإن دلَّت على ترتُّب الإغراق على ما قبلَه من النكث، لكنه صرَّح بالتعليل؛ إيذانًا بأن مدارَ جميع ذلك تكذيبُ آيات الله تعالى

---

(١) حاشية الشهاب ٤/ ٢١٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٦٦.

وما عُطِفَ عليه، ليكون ذلك مَزْجَرةً للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرةِ على يد رسول الله ﷺ. انتهى. وفيه مناقشةٌ لا تخفى.

﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ الضميرُ المجرور للآيات، والغفلةُ مجازٌ عن عدم الذِّكر والمبالاة، أي: بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم مبالاتهم بها وتفكُّرِهم فيها، بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية، وإلا فالمكذِّبُ بأمرٍ لا يكون غافلاً عنه؛ للتَّنافي بين الأمرين، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ شاهد مثلَها لا ينبغي له أن يكذِّب بها مع علمِهِ بها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الضميرَ للنِّقمة، وأُريد به الغرقُ كما يدلُّ عليه ما قبله، وعليه فيجوز أن تكون الجملةُ حاليةً بتقدير قد، ولا مجاز في الغفلة حينئذٍ، والأولُ أَولى كما لا يخفى.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالاستعبادِ وذبح الأبناء، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالةِ على استمرار الاستضعاف وتجدُّدِه، والمرادُ بهم بنو إسرائيل، وذُكروا بهذا العنوان إظهارًا لكمال اللُّطف بهم، وعِظَمِ الإحسان إليهم، حيث رُفِعوا من حضيض المذلَّة إلى أوج العزَّة، ولعل فيه إشارةً إلى أن الله سبحانه عند القلوب المنكسرة.

ونُصب «القوم» على أنه مفعولٌ أول لـ «أورثنا»، والمفعولُ الثاني قوله سبحانه: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ أي: جميع جهاتها ونواحيها، والمرادُ بها ـ على ما رُوي عن الحسن وقتادة وزيد بن أسلم ـ أرضُ الشام، وذكر محيي السُّنة البغويُّ[1] أنها أرضُ الشام ومصر، وفي رواية أنها أرضُ مصر التي كانت بأيدي المستضعفين، وإلى ذلك ذهب الجُبَّائيُّ[2]، ورواه أبو الشيخ عن الليث بن سعد[3]، أي: أورثنا المستضعَفين أرضَ مستضعِفيهم ومُلكهم.

ومعنى توريثهم إيَّاها ـ على القول بأنهم لم يدخلوها بعد أن خَرجُوا منها مع موسى عليه السلام ـ: إدخالُها تحت مُلكهم، وعدمُ وجود مانعٍ لهم عن التصرُّف

(١) في تفسيره ٢/ ١٩٤.
(٢) كما في مجمع البيان ٩ (تتمته)/ ٨.
(٣) كما في الدر المنثور ٣/ ١١٣.

فيها، أو تمكينُ أولادهم فيها، وذلك في زمن داود وسليمان عليهما السلام، ولا يخفى أنه خلافُ المتبادر، كما مرت الإشارة إليه. على أنَّ أرض مصر بعد أن فُتحت في زمن داود عليه السلام لم يكن لبني إسرائيل تمكُّنٌ فيها واستقرارٌ، وإنما كان مُلكٌ وتصرُّف، وكان التمكُّن في الأرض المقدَّسة، والسَّوقُ ـ على ما قيل ـ يقتضي ذِكْر ما تمكَّنوا فيه لا ما ملكوه.

وأقول: قد يقال: المرادُ بالأرض هنا وفيما تقدَّم من قوله سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: الأرضُ المقدَّسة التي طلب موسى عليه السلام من فرعون بني إسرائيل ليذهب بهم إليها؛ فإنها موطنُ آبائهم، فيكون موسى عليه السلام قد وَعَدهم هلاكَ عدوِّهم المانعِ لهم من الذهاب إليها، وجَعْلَ الله تعالى إياهم خلفاءَ فيها بعد آبائهم وأسلافهم، أو بعد مَنْ هي في يده إذ ذاك من العمالقة، ثم أخبر سبحانه هنا أنَّ الوعد قد نَجَزَ، وقد أهلكنا أعداء أولئك الموعودين، وأورثناهم الأرضَ التي مَنَعوهم عنها، ومكَّنَّاهم فيها، وفي ذلك حصولُ بغية موسى عليه السلام. وما أَلطفَ توريثَ الأبناء مساكنَ الآباء!

﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخِصْب وسَعَة الأرزاق، أو بذلك وبكونها مساكنَ الأنبياء عليهم السلام والصالحين، وذلك ظاهرٌ على تقدير أن يُراد بـ «مشارق الأرض ومغاربها» الشامَ ونواحيها؛ فقد أخرج ابنُ أبي شيبة عن أبي أيُّوبٍ الأنصاريِّ قال: لَيهاجِرنَّ الرعدُ والبرق والبركاتُ إلى الشام[1].

وأخرج ابن عساكر عن ضَمْرة بن ربيعة قال: سمعتُ أنه لم يُبعث نبيٌّ إلا من الشام، فإن لم يكن منها أُسري به إليها[2].

وأخرج أحمد[3] عن عبد الله بن حَوَالة[4] الأزديِّ أنه قال: يا رسول الله، خِرْ

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/(١٢٥٠٧). وفيه: والركاب، بدل والبركات، وقد جاء بلفظ البركات عند السيوطي في الدر المنثور ٣/١١٢.
(٢) تاريخ دمشق ١/١٦٤.
(٣) في المسند (١٧٠٠٥).
(٤) تحرفت في الأصل و(م) إلى: خوالة.

لي بلدًا أكونُ فيه، قال: «عليكَ بالشام؛ فإنَّه خِيرةُ الله تعالى من أرضه؛ يجتبي إليه خِيرتَه من عباده».

وأخرج ابنُ عساكر عن واثِلةَ بن الأسقع قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالشام؛ فإنَّها صفوةُ بلادِ الله تعالى، يُسْكِنُها خَيرتَه من عباده»(١).

وأخرج الحاكم وصحَّحه، عن عبد الله بن عمر ﵄ قال: يأتي على الناس زمانٌ لا يبقى فيه مؤمنٌ إلا لَحِقَ بالشام(٢).

وجاء من حديث أحمد، والترمذيِّ، والطبرانيِّ، وابنِ حبَّان، والحاكم أيضًا وصحَّحه(٣)، عن زيد بن ثابتٍ أنه ﷺ قال: «طُوبى للشام»، فقيل له: ولم؟ قال: «إنَّ ملائكةَ الرحمن باسطةٌ أجنحَتَها عليها».

والأحاديثُ في فضل الشام كثيرةٌ، وقد جمعها غيرُ واحدٍ، إلا أنَّ في الكثير منها مقالاً، وسببُ الوضع كان قويًّا.

وهو اسمٌ لأحد الأقاليم العرفية، وفي «القاموس» أنها بلادٌ عن مَشأمة القِبلة، وسُمِّيت بذلك لأنَّ(٤) قومًا من بني كنعان تشاءموا إليها، أي: تياسَروا، أو سُمِّي بِسامِ بن نوح؛ فإنَّه بالشين بالسُّريانية، أو لأنَّ أرضَها شاماتٌ بيضٌ، وحُمْرٌ، وسودٌ، وعلى هذا لا تُهمَز.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن أبي الأغبش(٥) - وكان قد أدركَ أصحابَ النبيِّ ﷺ - أنه سُئل عمَّا بُورك من الشام، أين مبلغُ حَدِّه؟ فقال: أولُ حدوده عريشُ مصر،

---

(١) تاريخ دمشق ١/ ١٢٠.
(٢) المستدرك ٤/ ٥٠٤.
(٣) مسند أحمد (٢١٦٠٧)، وسنن الترمذي (٣٩٥٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، والمعجم الكبير للطبراني (٤٩٣٣)، وصحيح ابن حبان (٧٣٠٤)، والمستدرك ٢/ ٢٢٩.
(٤) في القاموس (شأم): وسميت لذلك أو لأن...
(٥) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور ٣/ ١١١، والصواب: الأغيَس بالمثناة التحتية، والسين المهملة، فليس هناك من يسمى أبا الأغبش، وأبو الأغيَس: هو عبد الرحمن بن سلمان الخولاني، الشامي، الحمصي. يُنظر تهذيب الكمال ١٧/ ١٥٠. والخبر لم نقف عليه في مطبوع تفسير ابن أبي حاتم، واقتصر السيوطي في عزوه على ابن عساكر، وهو في تاريخه ١/ ١٩٦، وجاء الاسم فيه على الصواب.

والحدُّ الآخر طَرَفُ الثنيَّة، والحدُّ الآخر الفراتُ، والحدُّ الآخرُ جَبَلٌ[1] فيه قبرُ هود النَّبيِّ عليه السلام.

وليس المراد بها ما هو متعارفُ الناس اليوم، أعني دمشق، نعم هي داخلة فيها، وقد تكلَّمنا على حدودها بأبسَطَ من هذا في «حواشينا على شرح مختصر السَّمَرْقَندية لابن عصام».

وقد وَلِعَ الناسُ في دمشق مدحًا وذمًّا، فقال بعضُهم:

تجنَّبْ دمشقَ ولا تَأْتِها … وإنْ شاقَكَ الجامعُ الجامعُ

فَسُوق الفُسُوق بها نافِقٌ … وفَجْرُ الفُجُور بها طالِعُ[2]

وقال آخر:

دمشقُ غدتْ جنةً للوَرَى … زَهَا وصَفا العيشُ في ظلِّها

وفيها لدى النَّفس ما تَشتهي … ولا عيبَ فيها سوى أهلِها

وقال آخرُ في الشام، ولعلَّه عَنَى متعارَفَ الناس:

قيل لي ما يقول في الشام حَبْرٌ … شامَ مِنْ بارقِ الهَنَا ما شَامَهْ

قلتُ ماذا أقول في وصفِ أرضٍ … هي في وَجْنَةِ المحاسن شامَه[3]

وأنا أقول: إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي، ونعوذُ بالله تعالى من اتِّباع الهوى.

والموصولُ صفةُ المشارق والمغارب، وقيل: صفةُ الأرض، وضعَّفه أبو البقاء[4] بأنَّ فيه العطفَ على الموصوف قبل الصِّفة، وهو نظيرُ قولك: قام أمُّ هندٍ وأبوها العاقلةِ، وجُوِّز أن يكون المفعولَ الثاني لـ «أورثنا»، أي: الأرضَ التي، فعَلَى هذا يكون نصبُ المشارق وما عُطِف عليه بـ «يُستضعَفون» على معنى:

---

(١) في الأصل و(م) والدر: جعل، والمثبت من تاريخ دمشق.

(٢) البيتان في نفح الطيب ٢/ ٤٠٦.

(٣) البيتان لأبي العباس المقري صاحب نفح الطيب، كما في خلاصة الأثر ١/ ٣٠٦، وهما في نفح الطيب ١/ ٦٠ باختلاف في عجز البيت الأول.

(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٧.

يُستضعَفون فيها. وأن يكون المشارق منصوبةً بـ «يستضعفون»، و«التي» صفةٌ كما في الوجه الأول، والمفعولُ الثاني لـ «أورثنا» محذوفٌ، أي: الأرضَ أو المُلك، ولا يخفى بُعْدُه، وأنَّ المتبادِرَ هو الأول.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: مضَتْ عليهم واستمرَّت، من قولهم: مضى على الأمر: إذا استمرَّ. والمراد من الكلمة وعدُه تعالى لهم بالنَّصر والتمكين على لسان نبيِّهم عليه السلام، وهو قوله السابق: «عسى ربكم أن يهلك عدوكم» إلخ. وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّه الوعدُ الذي يُؤذِنُ به قولُه سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. وقيل: المراد بها علمُه تعالى الأزليُّ، والمعنى: مضى واستمرَّ عليهم ما كان مقدَّرًا من إهلاك عدوِّهم وتوريثِهم الأرض.

و«الحسنى» تأنيثُ الأحسن، صفةٌ للكلمة، ووُصِفت بذلك لما فيها من الوعد بما يُحبُّون ويستحسنون.

وعن الحسن أنه أُريد بالكلمة عِدَتُه سبحانه وتعالى لهم بالجنة، ولا يخفى أنه يأباه السِّباق والسِّياق.

والتفتَ من التكلُّم إلى الخطاب في قوله سبحانه: «ربُّك» ـ على ما قال الطِّيبيُّ ـ لأنَّ ما قبلَه من القَصص كان غيرَ معلومٍ له ﷺ، وأما كونُه جلَّ شأنُه منجِزًا لما وعَدَ، ومُجْرِيًا لما قضى وقدَّر، فهو معلومٌ له عليه الصلاة والسلام. وذَكَر في «الكشف» أنه أدمج في هذا الالتفات أنه ستتمُّ كلمةُ ربك في شأنك أيضًا.

وقرأ عاصمٌ في رواية: «كلمات» بالجمع[1]؛ لأنَّها مواعيد. والوصفُ بـ «الحسنى» لتأويله بالجماعة، وقد ذكروا أنه يجوز وصفُ كلِّ جمعٍ بمفردٍ مؤنَّث، إلا أنَّ الشائع في مثله التأنيثُ بالتاء، وقد يؤنَّث بالألف كما في قوله سبحانه: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: بسبب صَبْرهم على الشدائد التي كابَدوها من فرعون وقومه، وحسبُك بهذا حاثًّا على الصبر، ودالًّا على أنَّ من قابَلَ البلاءَ بالجَزَع وَكَلَه الله تعالى

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٥، والبحر المحيط ٤/ ٣٧٦.

إليه، ومن قابَلَه بالصَّبر ضَمِن الله تعالى له الفَرَج. وأخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن الحسن قال: لو أنَّ الناسَ إذا ابتُلُوا من قِبَل سلطانهم بشيء صبروا ودَعَوا الله تعالى لم يلبثوا أن يرفَعَ الله تعالى ذلك عنهم، ولكنهم يفزَعُون إلى السَّيف، فيُوكلون إليه، ثم تلا هذه الآية[1]. وفي رواية أخرى عنه قال: ما أُوتيتْ بنو إسرائيل ما أُوتيتْ إلا بصبرهم، وما فزِعَتْ هذه الأمةُ إلى السيف قطُّ فجاءت بخير.

وأقول: قد شاهدنا الناسَ سنةَ الألف والمئتين والثمان والأربعين قد فزعوا إلى السَّيف، فما أغناهم شيئًا، ولا تمَّ لهم مرادٌ، ولا حُمِد منهم أمرٌ، بل وقعوا في حَرَّة رُجَيلة[2]، ووادي خَدِبَّات[3]، وأمِّ حَبَوْكَر[4]، ورُموا ـ لعَمْرُ الله ـ بثالثة الأثافيِّ[5]، وقُصَّ من جناح عِزِّهم القُدَامى والخَوَافي[6]، ولم يعلموا أن عيش المُضِرِّ حُلْوُهُ مرٌّ مَقِر[7]، وأن الفَرَج إنما يُصطاد بشباك الصَّبر.

وما أحسن قول الحسن: عجبت ممن خَفَّ كيف خَفَّ وقد سمع قوله سبحانه! وتلا الآية.

ويعلم منها أن التحزُّن لا ينافي الصبر؛ لأن الله سبحانه وصف بني إسرائيل به مع قولهم السابق لموسى عليه السلام: «أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا».

---

(١) الدر المنثور ٣/ ١١٣-١١٤، وأخرجه أيضاً ابن سعد ٧/ ١٦٤-١٦٥، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٥١.

(٢) تحرفت في الأصل و(م) إلى رحيلة. وحرة رُجَيْلة ورجلاء: إذا كانت كثيرة الحجارة، يشتد المشي فيها. مجمع الأمثال ٢/ ٣٧٢.

(٣) من أمثالهم: وقعوا في وادي خدبات، أي: شدائد منكرة، وهو مثل يضرب في هلاك القوم بالحوادث. الأمثال لأبي عبيد ص٣٣٩، والمستقصى للزمخشري ٢/ ٣٧٩.

(٤) وهذا أيضاً من أمثالهم، وقد تحذف كلمة أم، فيقال: وقعوا في حبوكر، وأصل الحبوكر: الرمل يضل فيه، وهو مثل يضرب لمن وقع في داهية عظيمة. مجمع الأمثال ٢/ ٣٦١.

(٥) ومن أمثالهم: رماه الله بثالثة الأثافي، يضرب لمن رمي بداهية عظيمة. مجمع الأمثال ١/ ٢٨٧.

(٦) القدامى: المتقدم من ريش الجناح، والخوافي: ما خفي خلف القدامى. مجمع الأمثال ٢/ ٢٠٤.

(٧) المضر: الذي له ضرائر، والمقر: الشديد المرارة، يضرب لمن كان له كفاف، فطلب عيشًا أرفع وأنفع، فوقع فيما يتعبه. مجمع الأمثال ٢/ ٤١.

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أي: خرَّبنا وأهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ في أرض مصر من العمارات والقصور، أي: دمَّرنا الذي كان هو يصنعه فرعون، على أن «ما» موصولة، واسم «كان» ضميرٌ راجع إليها، وجملةُ «يصنع فرعون» من الفعل والفاعل خبر «كان»، والجملة صلةُ الموصول، والعائد إليه محذوفٌ.

وجُوِّز أن يكون «فرعون» اسم «كان»، و«يصنع» خبر مقدَّم، والجملة الكونية صلةُ «ما»، والعائد محذوف أيضًا. وتعقَّبه أبو البقاء[1] بأن «يصنع» يصلُح أن يعمل في «فرعون»، فلا يقدَّر تأخيرُه كما لا يُقدَّر تأخيرُ الفعل في قولك: قام زيد. وفيه غفلةٌ عن الفرق بين المثال وما نحن فيه، وهو مثل الصُّبح ظاهر.

وقيل: «ما» مصدرية، و«كان» سيفُ خطيب، والتقدير: ما يصنع فرعون.. إلخ، وقيل: «كان» كما ذكر، و«ما» موصولة اسمية، والعائد محذوفٌ، والتقدير: ودمرنا الذي يصنعه فرعون.. إلخ، أي: صَنَعه، والعدول إلى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار الصورة.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ من الجنَّات، أو: ما كانوا يرفعونه من البنيان، كصَرْح هامان، وإلى الأول يُشير كلام الحسن، وإلى الثاني كلام مجاهد.

وقرأ ابنُ عامر وأبو بكر هنا وفي «النحل» [٦٨]: «يعرُشون» بضم الراء، والباقون بالكسر[2]، وهما لغتان فصيحتان، والكسر ـ على ما ذكر اليَزيديُّ وأبو عُبيدة ـ أفصح[3].

وقُرئ في الشواذِّ: «يغرسون» من غرس الأشجار، وفي «الكشاف» أنَّها تصحيف[4]. وليس به.

❊ ❊ ❊

---

(١) في إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٨.

(٢) التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٢٧١.

(٣) قول اليزيدي ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ١١٠، وأما أبو عبيدة فقد اقتصر في مجاز القرآن ١/ ٢٢٧ على قوله: مجازه: يبنون، ويعرِش ويعرُش لغتان. وعريش مكة: خيامها.

(٤) الكشاف ٢/ ١١٠.

هذا، ومن باب الإشارة في الآيات ما وجدتُه لبعض أرباب التأويل من العارفين: أن العصا إشارةٌ إلى نفسه التي يتوكَّأ عليها، أي: يعتمد في الحركات والأفعال الحيوانية، ويهشُّ بها على غنم القوة البهيميَّة السليمة، ورق الملكات الفاضلة، والعادات الحميدة من شجرة الفكر، وكانت بتقدُّسها منقادةً لأوامره، مرتدعةً عن أفعالها الحيوانية إلا بإذنه كالعصا، وإذا أرسلها عند الاحتجاج على الخصوم صارت كالثعبان تلقَفُ ما يأفكون من الأكاذيب، ويُظهرون من حبال الشبهات، وعصا المغالطات، فيغلبهم ويقهرهم، وأن نَزْعَ اليد إشارةٌ إلى إظهار القدرة الباهرة الساطعة منها أنوار الحق.

وجعل بعضُهم فرعون إشارةً إلى النفس الأمَّارة، وقومَه إشارةً إلى صفاتها، وكذا السحرة وموسى إشارة إلى الروح، وقومه بنو إسرائيل العقل والقلب والسر، وعلى هذا القياسُ.

وأوَّلَ النيسابوري «الطوفان» بالعلم الكثير، و«الجراد» بالواردات، و«القُمَّل» بالإلهامات، و«الضفادع» بالخواطر، و«الدم» بأصناف المجاهدات والرياضات[1]، وهو كما ترى.

وقد ذكر غير واحدٍ أن السِّحر كان غالبًا في زمن موسى عليه السلام، فلهذا كانت معجزتُه ما كانت، والطب كان غالبًا في زمن عيسى عليه السلام، فلهذا كانت معجزتُه من جنس الطبِّ، والفصاحة كانت غالبًا في زمن نبيِّنا ﷺ، والتفاخُرُ بها أشهر من قِفا نَبْكِ[2]، فلهذا كانت معجزتُه القرآن، وإنما كانت معجزةُ كلِّ نبيٍّ من جنس ما غَلَبَ على زمانه ليكون ذلك أَدْعى إلى إجابة دعواه.

❁ ❁ ❁

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ شروعٌ بعد انتهاء قصَّة فرعون في قصَّة بني إسرائيل، وشَرْح ما أحدثوه بعد أن مَنَّ الله تعالى عليهم بما مَنَّ، وأراهم من الآيات ما أراهم، تسليةً لرسول الله ﷺ عما رآه من اليهود بالمدينة؛ فإنهم جَرَوا معه على

---

(١) غرائب القرآن ٩/ ٣٩.

(٢) صدر معلقة امرئ القيس، وهو كما في الديوان ص٨:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدَّخول فحومل

دأبِ أسلافهم مع أخيه موسى عليه السلام، وإيقاظًا للمؤمنين أن لا يغفلوا عن محاسبةِ أنفسهم، ومراقبةِ نِعَم الله تعالى عليهم؛ فإن بني إسرائيلَ وقعوا فيما وقعوا لغفلتهم عما مَنَّ الله تعالى به عليهم.

و«جاوز» بمعنى جاز، وقُرئ: «جوَّزنا» بالتشديد[1]، وهو أيضًا بمعنى جاز، فعُدِّي بالباء، أي: قطعنا البحر بهم، والمراد بـ «البحر» بحر القُلْزم، وفي «مجمع البيان»[2] أنه نيل مصر، وهو ـ كما في «البحر»[3] ـ خطأ.

وعن الكلبيِّ أن موسى عليه السلام عَبَرَ بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه، فصاموه شكرًا لله تعالى.

﴿فَأَتَوْا﴾ أي: مرُّوا بعد المجاوزة ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ قال قتادة: كانوا من لخم، اسم قبيلة، يُنْسَبون ـ كما صحَّحه ابن عبد البرِّ ـ إلى لخم بن عدي بن عمرو بن سبأ[4]، وقيل: كانوا من العمالقة الكنعانيين الذين أُمِرَ موسى عليه السلام بقتالهم.

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ أي: يواظبون على عبادتها ويلازمونها، وكانت ـ كما أخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جُرَيج ـ تماثيل بَقَر من نحاس، وهو أولُ شأن العجل[5]، وقيل: كانت من حجارة، وقيل: كانت بقرًا حقيقة.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «يعكِفون» بكسر الكاف[6].

﴿قَالُوا﴾ عندما شاهدوا ذلك: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ مثالاً نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ الكاف متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفة لـ «إلهًا»، و«ما» موصولة، و«لهم»

---

(١) وهي قراءة الحسن وإبراهيم وأبي رجاء ويعقوب. القراءات الشاذة ص٤٥، والبحر المحيط ٤/ ٣٧٧.

(٢) مجمع البيان ٩ (تتمة)/ ١٠.

(٣) البحر المحيط ٤/ ٣٧٧.

(٤) نقله المصنف عن الشهاب الخفاجي ٤/ ٢١١، وعزاه الشهاب لكتاب النسب لابن عبد البر، ولعله يعني به كتاب «الإنباه على قبائل الرواة» وقد ذكر فيه ابن عبد البر هذا القول وغيره، ولكنه لم يصحح أيًّا منها.

(٥) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٤. وأخرجه أيضاً الطبري ١٠/ ٤٠٩.

(٦) التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٢٧١.

صلتها، و«آلهة» بدلٌ من الضمير المستتر فيه، والتقدير: اجعل لنا إلهًا كائنًا كالذي استقرَّ هو لهم.

وجوَّز أبو البقاء[(١)] أن تكون «ما» كافَّة للكاف، ولذا وقع بعدها الجملةُ الاسمية، وأن تكون مصدرية، و«لهم» متعلِّق بفعل، أي: كما ثبت لهم.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ تعجَّب عليه السلام من قولهم هذا بعدما شاهدوه من الآية الكبرى والبيِّنة العُظمى، فوصفَهم بالجهل على أتمِّ وجه؛ حيث لم يَذكر له متعلَّقًا ومفعولاً؛ لتنزيله منزلةَ اللازم، أو لأن حذفَه يدلُّ على عمومه، أي: تجهلون كلَّ شيء، فيدخل فيه الجهلُ بالربوبية بالطريق الأَولى، وأكّد ذلك بـ «إنَّ»، وتوسيط «قوم»، وجَعْلِ ما هو المقصود بالإخبار وصفًا له، ليكون ـ كما قال العلامة ـ كالمتحقِّق المعلوم. وهذه ـ كما ذكر الشهاب[(٢)] ـ نكتةٌ سَرِيَّةٌ في الخبر الموطِّئ لادِّعاء أن الخبر لظهور أمره وقيامِ الدليل عليه كأنه معلومٌ متحقِّق، فيفيد تأكيدَه وتقريره، ولولاه لم يكن لتوسيط الموصوف وجهٌ من البلاغة.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: القوم الذين يعكُفون على هذه الأصنام ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أي: مدمَّر مُهْلَكٌ، كما قال ابن عباس. ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من الدِّين، يعني: يدمر الله تعالى دينَهم الذي هم عليه على يدي، ويُهلِك أصنامَهم ويجعلها فتاتًا.

﴿وَبَٰطِلٌ﴾ أي: مضمحِلٌّ بالكلية، وهو أبلغ من حمله على خلافِ الحق. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: ما استمرُّوا على عمله من عبادتها، وإن قَصَدوا بذلك التقرُّب إلى الله تعالى، والمرادُ[(٣)] أن ذلك لا ينفعُهم أصلاً، وحملُ «ما كانوا يعملون» على الأصنام لأنها معمولةٌ لهم خلافُ[(٤)] الظاهر جدًّا، والجملةُ تعليل لإثبات الجهل المؤكَّد للقوم.

وفي إيقاع اسم الإشارة ـ كما في «الكشاف»[(٥)] ـ اسمًا لـ «إنَّ»، وتقديم خبر

---

(١) في الإملاء ٣/ ٦٠.

(٢) في الحاشية ٤/ ٢١١.

(٣) في (م): وأن المراد.

(٤) في الأصل: على خلاف.

(٥) الكشاف ٢/ ١١٠.

المبتدأ من الجملة الواقعة خبرًا لها، وَسْمٌ لعَبَدة الأصنام بأنهم هم المعرَّضون للتَّبَار، وأنه لا يعدوهم البتَّة، وأنه لهم ضربةُ لازب؛ ليُحَذِّرهم عاقبةَ ما طلبوا، ويبغِّضَ إليهم ما أحبُّوا. ووَجْهُ ذلك ـ على ما في «الكشف» ـ أن اسم الإشارة بعد إفادة الإحضار وأكملِ التمييز يفيد أنهم أحقَّاءُ بما أخبر عنه به بواسطة ما تقدَّم من العكوف، والتقديم يؤذنُ بأن حال ما هم فيه ليست غير التَّبار، وحال عملهم ليست إلا البطلان، فهم لا يَعْدونهما، فهما لهم ضربةُ لازب.

وجوَّز أبو البقاء[1] أن يكون «ما هم فيه» فاعلَ «متبَّر»؛ لاعتماده على المسند إليه، وهو في نفسه مساوٍ لاحتمال أن يكون «ما هم فيه» مبتدأ و«متبَّر» خبر له، أو أرجح منه، إلا أن المقام ـ كما قال القطب وغيره ـ اقتضى ذلك[2]، فليُفهم.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ قيل: هذا هو الجواب، وما تقدَّم مقدمةٌ له وتمهيد، ولعله لذلك أُعيد لفظ «قال».

وقال شيخ الإسلام: هو شروعٌ في بيان شؤون الله تعالى الموجبةِ لتخصيص العبادة به سبحانه بعد بيان أنَّ ما طلبوا عبادتَه مما لا يمكن طلبُه أصلاً؛ لكونه هالكًا باطلاً أصلاً، ولذلك وسَّط بينهما «قال» مع كون كلٍّ منهما كلام موسى عليه السلام[3].

وقال الشهاب: أُعيد لفظ «قال» مع اتحاد ما بين القائلين لأن هذا دليلٌ خطابيٌّ بتفضيلهم على العالَمين، ولم يستدلَّ بالتمانع العقلي؛ لأنهم عوامٌّ[4]. انتهى.

وفي إقامة برهان التمانع على الوثنية القائلين: إنما نعبُدُهم ليقرِّبونا إلى الله زلفى، والمجيبين إذا سُئلوا: من خلق السماوات والأرض؟[5] بـ: خلقهنَّ الله = خفاءٌ، والظاهر إقامتُه على التنويه كما لا يخفى.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٦٠.

(٢) أي: جعل «متبر» خبراً مقدماً، و«ما هم فيه» مبتدأ مؤخراً لاقتضاء المقام الحصر المستفاد من التقديم.

(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٦٨.

(٤) حاشية الشهاب ٤/ ٢١٢.

(٥) قوله: «إنما نعبدهم ليقربونا...» من الآية (٣) من سورة الزمر، وقوله: «من خلق السموات والأرض» من الآية (٣٨) من سورة الزمر.

والاستفهام للإنكار، وانتصاب «غير» على أنه مفعول «أبغيكم»، وهو على الحذف والإيصال، والأصل: أبغي لكم، وعلى ذلك يُخرَّج كلامُ الجوهريِّ، وإن كان ظاهره أن الفعل متعدٌّ لمفعولين[1]. و«إلهًا»[2] تمييز، وجوَّز أبو البقاء[3] أن يكون مفعولاً به لـ «أبغي»، و«غير» صفة له قُدِّمت فصارت حالاً، وأيًّا ما كان فالمقصودُ هنا اختصاصُ الإنكار بغيره تعالى دون إنكار الاختصاص، والمعنى: أغيرَ المستحقِّ للعبادة أطلبُ لكم معبودًا؟!

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ أي: عالمي زمانكم، أو جميع العالمين، وعليه يكون المرادُ تفضيلَهم بتلك الآيات، لا مطلقًا حتى يلزم تفضيلُهم على أمة محمد ﷺ، وأما الأنبياء والملائكة عليهم السلام فلا يدخلون في المفضَّل عليهم بوجه، بل هم خارجون عن ذلك بقرينة عقلية. والجملةُ حالية مقرِّرة لوجه الإنكار، أي: والحال أنه تعالى خصَّ التفضيل بكم، فأعطاكم نعمًا لم يُعطِها غيرَكم.

وفيه تنبيهٌ على ما صنعوا من سوء المعاملة والمقابلة، حيث قابلوا التفضُّلَ بالتفضيل، والاختصاصَ بأن قصدوا أن يشركوا به أخسَّ مخلوقاته، وهذا الاختصاصُ مأخوذٌ من معنى الكلام، وإلا فليس فيه ما يفيد ذلك، وتقديمُ الضمير على الخبر لا يفيده، وإن كان اختصاصًا آخر على ما قيل، أي: هو المخصوصُ بأنه فضَّلكم على مَنْ سواكم، وجوَّز أبو البقاء كونَ الجملة مستأنفة[4].

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ بإهلاكهم وتخليصكم منهم، و«إذ» إما مفعولٌ به لـ «اذكروا» محذوفًا بناء على القول بأنها تخرُجُ عن الظرفية، أي: اذكروا ذلك الوقت، ويكون ذلك كنايةً عن ذكر ما فيه، وإما ظرفٌ لمفعول «اذكروا» المحذوف، أي: اذكروا صنيعنا معكم في ذلك الوقت، وهو تذكيرٌ من جهته تعالى بنعمتِهِ العظيمة.

---

(١) يعني قوله في الصحاح: (بغى): بغيتُكَ الشيءَ: طلبتُه لك.
(٢) تحرفت في (م) إلى: والهاء.
(٣) في الإملاء ٣/ ٦١.
(٤) المصدر السابق.

وقُرئ: «نجَّيناكم» من التنجية(١)، وقرأ ابنُ عامر: «أنجاكم»(٢)، فيكون من مقولِ موسى عليه السلام. وقال بعضُهم: إنه على قراءة الجمهور أيضًا كذلك، على أنَّ ضمير «أنجينا» لموسى وأخيه عليهما السلام، أو لهما ولمن معهما، أو له وحدَه عليه السلام مشيرًا بالتعظيم إلى تعظيم أمر الإنجاء، وهو خلافُ الظاهر، وقيل: إنه من كلام الله تعالى تتميمًا لكلام موسى عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾(٣) [طه: ٥٣]، وهو كالتفسير لقوله سبحانه: «وهو فضلكم».

وقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: يُوْلُونكم ذلك ويكلِّفونكم إياه، إما استئنافٌ بيانيّ، كأنه قيل: ما فُعل بهم؟ أو: ممَّ أُنجوا؟ فأُجيب بما ذكر، وإما حالٌ من ضمير المخاطبين، أو من «آل فرعون»، أو منهما معًا؛ لاشتماله على ضميرهما.

وقوله عزَّ اسمه: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ بدلٌ من «يسومونكم» مبيِّن له، ويحتمل الاستئنافَ أيضًا.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء أو سوء العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾ نعمةٌ أو محنة، وقيل: المراد به ما يشمَلُهما. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: مالك أموركم ﴿عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ لا يُقادَرُ قَدْره. وفي الآية التفاتٌ على بعض ما تقدم.

ثم إن هذا الطلب لم يكن ـ كما قال محيي السُّنة البغويُّ(٤) ـ عن شكٍّ منهم بوحدانية الله تعالى، وإنما كان غرضُهم إلهًا يعظِّمونه ويتقرَّبون بتعظيمه إلى الله تعالى، وظنوا أن ذلك لا يضرُّ بالديانة، وكان ذلك لشدَّة جهلهم كما أَذِنت به الآيات. وقيل: إن غرضَهم عبادةُ الصنم حقيقةً، فيكون ذلك ردةً منهم. وأيًّاما كان، فالقائل بعضُهم لا كلُّهم.

---

(١) البحر ٤/ ٣٧٩.
(٢) التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٢٧١.
(٣) جاء في الأصل و(م) لفظة: هو، في بداية الآية، وهي مقحمة في هذا الموضع. وقراءة «مهادًا» التي ساقها المصنف قرأ بها غير الكوفيين، وقرأ الكوفيون: «مهدًا». انظر التيسير ص١٥١، والنشر ٢/ ٣٢١.
(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٩٤.

وقد اتفق في هذه الأمة نحو ذلك؛ فقد أخرج الترمذيُّ وغيره[(١)] عن أبي واقد الليثيِّ، أن رسول الله ﷺ خرج في غزوة حُنَين، فمرَّ بشجرةٍ للمشركين كانوا يعلِّقون عليها أسلحَتَهم، ويعكُفُون حولَها، يقال لها: ذاتُ أنواط، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله - وفي رواية: «الله أكبر»[(٢)] - هذا كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ والذي نفسي بيده، لتركبنَّ سُنَنَ من كان قبلكم».

وأخرج الطبراني وغيره من طريق كثير بن عبد الله بن [عمرو بن] عوف[(٣)]، عن أبيه، عن جدِّه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ عام الفتح ونحن ألفٌ ونيِّف، ففتح الله تعالى مكة وحنيناً، حتى إذا كنَّا بين حُنَين والطائف [مررنا] في أرض فيها سِدْرة عظيمة كان يُناط بها السِّلاحُ، فسُمِّيت ذات أنواط، فكانت تُعبَدُ من دون الله، فلما رآها رسول الله ﷺ صَرَف عنها في يومٍ صائفٍ إلى ظلٍّ هو أدنى منها، فقال له رجل: يا رسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «إنها السّنن، قلتم - والذي نفسُ محمد بيده - كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾». وفي هذا الخبر تصريحٌ بأن القائل رجلٌ واحد، ولعل ذلك كان عن جهل يُعذَرُ به، ولا يكون به كافرًا، وإلا لأمره ﷺ بتجديد الإسلام، ولم يُنقل ذلك فيما وقفتُ عليه.

والناسُ اليوم قد اتَّخذوا من قبيل ذاتِ الأنواط شيئًا كثيرًا لا يحيط به نطاقُ الحصر، والآمِرُ بالمعروف أعزُّ من بِيض الأَنُوق، والامتثالُ بفرض الأمر منوطٌ بالعَيُّوق[(٤)]، والأمر لله الواحد القهار.

---

(١) سنن الترمذي (٢١٨٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد (٢١٨٩٧).

(٢) هي عند أحمد (٢١٩٠٠).

(٣) المعجم الكبير ١٧/ (٢٧) وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٥٤، وكثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني ضعيف فيما ذكر الحافظ في التقريب. وما بين حاصرتين ساقط من الأصل و(م)، والدر المنثور ٣/ ١١٤، وعنه نقل المصنف.

(٤) العَيُّوق: نجم أحمر مضيء، يتلو الثُّرَيَّا لا يتقدمها. القاموس: (عوق).

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ رُوي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر: إنْ أهلَكَ الله عدوَّهم أتاهم بكتابٍ فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعونُ سأل موسى عليه السلام ربَّه الكتاب، فأمَرَه أن يصوم ثلاثين، وهو شهر ذي القعدة، فلما أتمَّ الثلاثين أنكر خلوفَ فمه، فتسوَّك، فقالت الملائكة: كنَّا نشمُّ من فيك رائحةَ المسك، فأفسدتَه بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرةَ أيام من ذي الحجة.

وأخرج الدَّيلميُّ عن ابن عباس[1] يرفعه: «لما أَتى موسى عليه السلام ربَّه عز وجل، وأراد أن يكلِّمه بعد الثلاثين وقد صام ليلهنَّ ونهارهنَّ، كَرِه أن يكلِّم ربه سبحانه وريحُ فمه ريحُ فمِ الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضَغَه، فقال له ربه: لم أفطرتَ؟ وهو أعلم بالذي كان، قال: أي ربِّ، كرهتُ أن أكلِّمك إلا وفمي طيِّب الريح، قال: أَوَما علمتَ يا موسى أن ريحَ فم الصائم عندي أطيبُ من ريح المسك؟ ارجعْ فصم عشرةَ أيام ثم ائتني، ففعل موسى عليه السلام الذي أمره ربُّه، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾.

والتعبيرُ عنها بالليالي ـ كما قيل ـ لأنها غُرَرُ الشهور.

وقيل: إنه عليه السلام أمرَه الله تعالى أن يصوم ثلاثين يومًا، وأن يعمل فيها بما يقرِّبُه من الله تعالى، ثم أُنزلت عليه التوراة [في العشر][2] وكلِّم فيها. وقد أُجمل ذِكْر الأربعين في «البقرة»، وفُصِّل هنا.

و«واعدنا» بمعنى وعدنا، وبذلك قرأ أبو عمرو ويعقوب[3]، ويجوز أن تكون الصيغةُ على بابها بناءً على تنزيل قَبول موسى عليه السلام منزلة الوعد، وقد تقدَّم تحقيقه.

---

(١) في مسند الفردوس (٥٣٠٩) وهو قطعة من حديث طويل جدًّا أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٦٣)، وأبو يعلى (٢٦١٨). وقال ابن كثير عند تفسير الآية (٣٩) من سورة طه: وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم، وسمعت شيخنا المزي يقول ذلك أيضاً.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٣/ ٢٦٩، وعنه نقل المصنف.

(٣) التيسير ص٧٣، والنشر ٢/ ٢١٢.

و«ثلاثين» ـ كما قال أبو البقاء[١] ـ مفعولٌ ثانٍ لـ «واعدنا» بحذف المضاف، أي: إتمامَ ثلاثين ليلة أو إتيانها.

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ من قبيل الفذلكة لما تقدَّم، وكأن النكتةَ في ذلك أن إتمام الثلاثين بعشرٍ يحتمل المعنى المتبادر، وهو ضمُّ عشرة إلى ثلاثين لتصير بذلك أربعين، ويحتمل أنها كانت عشرين فتمَّت بعشرة ثلاثين، كما يقال: أتممتُ العشرة بدرهمين على معنى أنها لولا الدرهمان لم تصِرْ عشرة، فلدَفْع توهُّم الاحتمال الثاني جيء بذلك.

وقيل: إن الإتمام بعشر مطلقٌ، يحتمل أن يكون تعيينُها بتعيين الله تعالى، أو بإرادة موسى عليه السلام، فجيء بما ذُكِر ليفيد أن المراد الأول، وقيل: جيء به رمزًا إلى أنه لم يقع في تلك العشر ما يوجب الجبر.

والميقاتُ بمعنى الوقت، وفرَّق جمعٌ بينهما بأن الوقت مطلقٌ، والميقات وقت قُدِّر فيه عملٌ من الأعمال، ومنه مواقيت الحج.

ونصبُ «أربعين» قيل: على الحالية، أي: بالغًا أربعين، وردَّه أبو حيان بأنه على هذا يكون معمولاً للحال المحذوف لا حالاً[٢]، وأُجيب بأن النحويين يطلقون الحكم الذي للعامل لمعموله القائمِ مقامَه، فيقولون في: زيدٌ في الدار: إن الجارَّ والمجرور خبر، مع أن الخبر إنما هو متعلَّقه. وتُعقِّب بأنَّ الذي ذكره النحاة في الظرف دون غيره، فالأحسنُ أنه حال بتقدير معدودًا. وفيه أن دعوى تخصيص الذِّكر في الظرف خلافُ الواقع كما لا يخفى على المتتبِّع، وأنَّ ما زعمه أحسنَ مما تقدم يرِدُ عليه ما يَرِدُ عليه.

وقيل: إنه تمييزٌ. وقيل: إنه مفعولٌ به بتضمين «تم» معنى بلَغَ. وقيل: إن «تمَّ» من الأفعال الناقصة، وهذا خبره! وهو خبرٌ غريب.

وقيل: إنه منصوب على الظرفية. وأُورد عليه أنه كيف تكون الأربعين ظرفًا للتمام، والتمام إنما هو بآخرها، إلا أن يُتجوَّز فيه؟

---

(١) في إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٦١.

(٢) البحر المحيط ٤/ ٣٨٠.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين توجَّه إلى المناجاة حسبما أُمر به: ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ اسم أعجميٌّ عبراني لم يقع في كلام العرب بطريق الأصالة، ويُكتب بدون ألف، وهو هنا بفتح النون على أنه مجرور بدلاً من «أخيه»، أو بيانًا له، أو منصوب مفعولاً به لمقدَّر، أعني: أعني.

وقُرئ شاذًّا بالضم[1] على أنه خبر مبتدأ محذوف هو: هو، أو منادى حُذِف منه حرف النداء، أي: يا هارون.

﴿ٱخْلُفْنِى﴾ أي: كن خليفتي ﴿فِى قَوْمِى﴾ وراقِبْهم فيما يأتون وما يَذَرون.

واستخلافُه عليه السلام لأخيه مع أنه عليه السلام كان نبيًّا مرسلاً مثله؛ قيل: لأن الرياسة كانت له دونه، واجتماعُ الرياسةَ مع الرسالة والنبوة ليس أمرًا لازمًا كما يرشد إلى ذلك سَبْر قصص أنبياء بني إسرائيل، وذكر الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه في «فتوحاته» أن هارون ذُكر له أنه نبيٌّ بحكم الأصالة، ورسول بحكم التبعيَّة، فلعلَّ هذا الاستخلاف من آثار تلك التبعيَّة، وقيل: إن هذا كما يقول أحدُ المأمورين بمصلحة للآخر إذا أراد الذهاب لأمر: كُنْ عوضًا عنِّي، على معنى: ابذُلْ غايةَ وسعك، ونهايةَ جهدك، بحيث يكون فعلُك فعل شخصين.

﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم، أو: كن مصلحًا، على أنه منزَّل منزلةَ اللازم من غير تقدير مفعول. وعن ابن عباس أنه يريد الرفق بهم والإحسان إليهم، وقيل: المراد: اِحمِلْهم على الطاعة والصلاح.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: ولا تتَّبع سبيلَ مَن سلَكَ الإفسادَ بدعوةٍ وبدونها، وهذا من باب التوكيد كما لا يخفى.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي: لوقتنا الذي وقَّتناه، أي: لتمام الأربعين، واللامُ للاختصاص، كما في قوله سبحانه: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وهي بمعنى «عند» عند بعض النحويين.

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ١١١ غير منسوبة.

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ من غير واسطةٍ بحرف وصوت، ومع هذا لا يشبِهُ كلامَ المخلوقين، ولا محذورَ في ذلك كما أوضحناه في الفائدة الرابعة، وإلى ما ذُكر ذهب السلف الصالح.

وقد أخرج البزار، وابنُ أبي حاتم، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كلَّم الله تعالى موسى يوم الطور كلَّمه بغير الكلام الذي كلَّمه يوم ناداه، فقال له موسى: يا ربِّ، أهذا كلامُك الذي كلَّمتني به؟ قال: يا موسى: أنا كلَّمتُك بقوةِ عشرة آلاف لسان، ولي قوةُ الألسُن كلها وأقوى من ذلك، فلمَّا رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى، صِفْ لنا كلام الرحمن، فقال: لا تستطيعونه، ألم تَرَوا إلى صوتِ الصواعق الذي يُقبل في أحلى حلاوة، سمعتُموه؟ فذاك قريب منه، وليس به»(١).

وأخرج ابن المنذر، وابنُ أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه عن أبي الحُوَيرث عبدِ الرحمن بن معاوية قال: إنما كلَّم الله تعالى موسى بقَدْر ما يطيقُ من كلامه، ولو تكلَّم بكلامه كلِّه لم يُطِقْه شيء(٢).

وأخرج جماعة عن كعب قال: لما كلَّم الله تعالى موسى كلَّمه بالألسنة كلِّها، فجعل يقول: يا ربِّ، لا أفهم، حتى كلَّمه آخرَ الألسنة بلسانه بمثل صوته. الخبرَ(٣).

وأخرجوا عن ابن كعب القُرَظيِّ أنه قال: قيل لموسى عليه السلام: ما شبَّهتَ كلام ربك مما خلَقَ؟ فقال عليه السلام: بالرعدِ الساكن(٤).

---

(١) كشف الأستار (٢٣٥٣)، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٥٧-١٥٥٨، والحلية ٦/ ٢١٠، والأسماء والصفات (٦٠١). وضعفه البيهقي؛ لأن فيه الفضل بن عيسى الرقاشي، وقد جرحه أحمد والبخاري، وقال عنه الحافظ في التقريب: منكر الحديث، وقد رُمي بالقدر.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٥٨، ولم أقف عليه في مطبوع المستدرك، وقد نسبه له السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٥، وعنه نقل المصنف هذه الآثار.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٧/ ٦٩٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٥٥٨، والطبراني في الأوسط (٩٩١).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٧/ ٦٩٠، وزاد السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٥ نسبته إلى ابن المنذر.

وأخرج الدَّيلميُّ عن أبي هريرة مرفوعًا: «لما خرج أخي موسى إلى مناجاة ربِّه كلَّمه ألفَ كلمةٍ ومئتي كلمة، فأول ما كلَّمه بالبربرية»[(١)].

ونُقل عن الأشعريِّ أن موسى عليه السلام إنما سمعَ الكلامَ النفسيَّ القائم بذات الله تعالى، ولم يكن ما سمِعَه مختصًّا بجهة من الجهات، وحملُه على السماع بالفعل مشكلٌ مع الأخبار الدالَّة على خلافه، والظاهر أن ذلك إن صحَّ نقلُه فهو قولٌ رجع عنه إلى مذهب السلف الذي أبان عن اعتقاده له في «الإبانة»[(٢)].

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ﴾ أي: ذاتَك أو نفسك، فالمفعول الثاني محذوفٌ لأنه معلوم، ولم يصرِّح به تأدُّبًا.

﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ مجزومٌ في جواب الدعاء. واستُشكل بأن الرؤية مسبَّبة عن النظر، متأخِّرة عنه، كما يريك ذلك النظرُ إلى قولهم: نظرتُ إليه فرأيتُه، ووجهُهُ أن النظر: تقليبُ الحَدَقة نحو الشيء؛ التماسًا لرؤيته، والرؤية: الإدراك بالباصرة بعد التقليب، وحينئذٍ كيف يُجعل النظر جوابًا لطلب الرؤية مسبَّبًا عنه وهو عكس القضية؟ وأُجيب بأن المراد بالإراءة ليس إيجادَ الرؤية، بل التمكُّن منها مطلقًا، أو بالتجلِّي والظهور، وهو مقدَّم على النظر وسببٌ له، ففي الكلامِ ذِكْر الملزوم وإرادةُ اللازم، أي: مكِّنِّي من رؤيتك، أو تجلَّ لي فأنظرَ إليك وأراك.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بياني، كأنه قيل: فماذا قال ربُّ العزَّة حين قال موسى عليه السلام ذلك؟ فقيل: قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: لا قابلية لك لرؤيتي وأنت على ما أنتَ عليه، وهو نفيٌ للإراءة المطلوبة على أتمِّ وجه.

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ استدراكٌ لبيان أنه عليه السلام لا يطيقُ الرؤية، والمرادُ من «الجبل» طور سيناء كما ورد في غير ما خبر، وفي «تفسير الخازن» وغيره أن اسمه زَبِير بزاي مفتوحة، وباء موحدة مكسورة، وراء مهملة، بوزن أمير[(٣)].

﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ ولم يُفتِّته التجلِّي ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ إذا تجلَّيتُ لك.

---

(١) الحديث في مسند الفردوس (٥٣٠٤) من مسند ابن عباس، وليس من مسند أبي هريرة، وهو عند السيوطي في الدر ٣/ ١١٥ بمثل ما عند المصنف.

(٢) انظر الإبانة ص٢٢.

(٣) تفسير الخازن ٢/ ٢٨٤.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر له على الوجه اللائقِ بجنابه تعالى بعد جعله مدرِكًا لذلك ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: مدكوكًا متفتِّتًا، والدكُّ والدقُّ أَخَوان، كالشكِّ والشقِّ.

وقال شيخنا الكوراني: إن الجبل مندرجٌ في الأشياء التي تسبِّحُ بحمد الله بنصِّ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] المحمولِ على ظاهره عند التحقيق، المستلزمِ لكونه حيًّا مدرِكًا حياة وإدراكًا لائقين بعالمه ونشأته.

وقيل: هذا مَثَلٌ لظهور اقتداره سبحانه، وتعلُّق إرادته بما فعل بالجبل، لا أن ثَمَّ تَجلِّيًا، وهو نظير ما قرِّر في قوله تعالى: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، من أن المراد أن ما قضاه سبحانه وأراد كونَه يدخلُ تحت الوجود من غير توقُّف، لا أن ثمةَ قولاً.

وتعقَّبه صاحب «الفرائد» بأن هذا المعنى غيرُ مفهوم من الآية؛ لأنَّ «تجلَّى» مطاوعُ جلَّيته، أي: أظهرتُه، يقال: جلَّيته فتجلَّى، أي: أظهرتُه فظهر، ولا يُقدَّر: تجلَّى اقتدارُه؛ لأنه خلاف الأصل، على أن هذا الحملَ بعيدٌ عن المقصود بمراحل.

وأخرج أحمد، وعَبْد بن حُمَيد، والترمذيُّ والحاكم وصححاه، والبيهقيُّ، وغيرهم من طرق عن أنس بن مالك، أن النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾ إلخ، قال: «هكذا ـ وأشار بأصبعيه، ووضع طرفَ إبهامه على أنملة الخنصر. وفي لفظ: على المفصل الأعلى من الخنصر ـ فساخ الجبل»(١).

وعن ابن عباس أنه قال: ما تجلَّى منه سبحانه للجبل إلا قدرُ الخنصر، فجعله ترابًا.

وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التي يُسلك فيها طريق التسليم، وهو أسلم وأحكم، أو التأويل بما يليقُ بجلال ذاته تعالى.

---

(١) مسند أحمد (١٢٢٦٠) و(١٣١٧٨)، وسنن الترمذي (٣٠٧٤) وقال: حديث حسن غريب صحيح، والحاكم ٢/ ٣٢٠-٣٢١ و٥٧٧. وقال: صحيح على شرط مسلم.

وقرأ حمزة والكسائي: «دَكَّاء» بالمد[١]، أي: أرضًا مستوية، ومنه قولهم: ناقة دَكَّاء، للتي لم يرتفع سَنامها.

وقرأ يحيى بنُ وثاب: «دُكًّا» بضم الدال والتنوين[٢]، جمع دَكَّاء، كحُمْر وحمراء، أي: قِطَعًا دُكًّا، فهو صفةُ جمعٍ.

وفي «شرح التسهيل» لأبي حيان أنه أُجري مجرى الأسماء، فأجري على المذكَّر.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ أي: سقط من هول ما رأى، وفرَّق بعضُهم بين السقوط والخُرور بأن الأول مطلق، والثاني سقوطٌ له صوت كالخَرير.

﴿صَعِقًا﴾ أي: صاعقًا وصائحًا من الصَّعْقة، والمراد أنه سقط مغشيًّا عليه عند ابن عباس والحسن ﷺ، وميِّتًا عند قتادة. رُوي أنه بقي كذلك مقدار جمعة، وعن ابن عباس أنه عليه السلام أخذته الغَشْية عشيَّة يوم الخميس يوم عرفة إلى عشيَّة يوم الجمعة.

ونقل بعض القصَّاصين أن الملائكة كانت تمرُّ عليه حينئذ، فيلكزونَه بأرجُلِهم ويقولون: يا ابنَ النساء الحُيَّض، أطمعتَ في رؤية ربِّ العزة! وهو كلامٌ ساقط لا يعوَّل عليه بوجه؛ فإن الملائكة عليهم السلام مما يجب تبرئتُهم من إهانة الكليم بالوَكْز بالرِّجل والغضِّ في الخطاب.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ بأن عاد إلى ما كان عليه قبلُ، وذلك بعَوْد الروح إليه على ما قال قتادة، أو بعود الفهم والحسِّ على ما قال غير واحد[٣].

والمشهور أن الإفاقة: رجوع العقل والفهم إلى الإنسان بعد ذهابهما عنه بسببٍ من الأسباب، ولا يقال للميت إذا عادت إليه روحُه: أفاق، وإنما يقال ذلك للمغشيِّ عليه، ولهذا اختار الأكثرون ما قاله الحَبْر[٤].

---

(١) التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٢٧١.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٥.

(٣) في (م): غيره.

(٤) يعني ابن عباس ﷺ، حيث ذهب إلى أنه سقط مغشيًّا عليه، لا ميتًا كما قال قتادة. على أن القرطبي ذكر في تفسيره ٩/ ٣٢٥ أن قتادة قال بمثل قول ابن عباس.

﴿قَالَ﴾ تعظيمًا لأمر الله سبحانه: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك من مشابهة خلقك في شيء، أو من أن يثبُتَ أحدٌ لرؤيتك على ما كان عليه قبلَها، أو من أن أسألك شيئًا بغير إذنٍ منك.

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الإقدامِ على السؤال بغير إذن، وقيل: من رؤية وجودي، والميل مع إرادتي.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ بعظمتِكَ وجلالك، أو بأنه لا يراك أحدٌ في هذه النشأة فيثبُتَ، على ما قيل. وأراد ـ كما قال الكورانيُّ ـ أنه أولُ المؤمنين بذلك عن ذوقٍ مسبوقٍ بعين اليقين في نظره. وقيل: أراد أول المؤمنين بأنه لا يجوزُ السؤال بغير إذنٍ منك.

واستدلَّ أهلُ السُّنة المجوِّزون لرؤيته سبحانه بهذه الآية على جوازها في الجملة، واستدلَّ بها المعتزلةُ النُّفاة على خلاف ذلك، وقامت الحرب بينهما على ساق، وخلاصةُ الكلام في ذلك أن أهل السُّنة قالوا: إن الآية تدلُّ على إمكان الرؤية من وجهين:

الأول: أن موسى عليه السلام سألها بقوله: «رب أرني» إلخ، ولو كانت مستحيلةً؛ فإن كان موسى عليه السلام عالمًا بالاستحالة فالعاقلُ، فضلاً عن النبيِّ مطلقًا، فضلاً عمن هو مِنْ أولي العزم، لا يسأل المُحال ولا يطلبُه، وإن لم يكن عالمًا بذلك لزم أن يكون آحادُ المعتزلة ومن حصَّل طرفًا من علومهم أعلمَ بالله تعالى، وما يجوز عليه وما لا يجوز، من النبيِّ الصَّفيِّ، والقول بذلك غايةُ الجهل والرُّعونة، وحيث بطَلَ القول بالاستحالة تعيَّنَ القول بالجواز.

والثاني: أنَّ فيها تعليقَ الرؤية على استقرار الجبل، وهو ممكنٌ في نفسه، وما عُلِّقَ على الممكن ممكنٌ.

واعترض الخصومُ الوجهَ الأول بوجوه: الأول: أنا لا نُسلِّم أن موسى عليه السلام سأل الرؤية، وإنما سأل العلم الضروريَّ به تعالى، إلا أنه عبَّر عنه بالرؤية مجازًا؛ لما بينهما من التلازم، والتعبيرُ بأحد المتلازمين عن الآخر شائعٌ في

كلامهم، وإلى هذا ذهب أبو الهُذَيل العلَّاف[1]، وتابَعَه عليه الجبائيُّ وأكثر البصريين.

الثاني: أنَّا سلَّمنا أنه لم يسأل العلم، بل سأل الرؤية حقيقة، لكنَّا نقول: إنه سأل رؤية عَلَمٍ من أعلام الساعة، بطريق حذفِ المضاف وإقامة المضاف إليه مقامَه، فمعنى «أرني أنظرْ إليك»: أرني أنظرْ إلى عَلَمٍ من أعلامك الدالَّةِ على الساعة، وإلى هذا ذهب الكعبيُّ والبغداديون.

الثالث: أنا سلَّمنا أنه سأل رؤية الله تعالى نفسَه حقيقةً، ولكن لم يكن ذلك لنفسه عليه السلام، بل لدفع قومه القائلين: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وإنما أضاف الرؤية إليه دونهم ليكون منعُه أبلغَ في دفعهم ورَدْعهم عما سألوه؛ تنبيهًا بالأعلى على الأدنى، وإلى هذا ذهب الجاحظ ومتَّبعوه[2].

الرابع: أنا سلَّمنا أنه سأل لنفسه، لكن لا نسلِّم أن ذلك ينافي العلم بالإحالة؛ إذ المقصودُ من سؤالها إنما هو أن يعلمَ الإحالةَ بطريق سمعيٍّ مضافٍ إلى ما عنده من الدليل العقلي؛ لقصد التأكيد، وذلك جائز كما يدلُّ عليه طلبُ إبراهيم عليه السلام إراءةَ كيفية إحياء الموتى، وقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وإلى ذلك ذهب أبو بكر الأصمّ.

الخامس: أنا سلَّمنا أن سؤالَ الرؤية ينافي العلمَ بالإحالة، لكنَّا نلتزمُ القولَ بعدم العلم، وهو غيرُ قادحٍ في نبوَّته عليه السلام؛ فإن النبوَّةَ لا تتوقَّفُ على العلم بجميعِ العقائد الحقَّة، أو جميعِ ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز، بل على ما يتوقَّفُ عليه الغرضُ من البعثة والدعوة إلى الله تعالى، وهو وحدانيَّته، وتكليفُ عبادِه بالأوامر والنواهي تحريضًا لهم على النَّعيم المُقيم، وليس امتناعُ الرؤيةِ من هذا القبيل، ويؤيدُ ذلك أنه سأل وقوعَ الرؤية في الدنيا، وهي غيرُ واقعةٍ عندنا وعندكم. ونُسِبَ هذا القولُ إلى الحسن منَّا، وهو غريبٌ منه.

السادس: أنا سلَّمنا العلم بالإحالة، لكن لا نسلِّم امتناعَ السؤال، وإنما يمتنعُ

---

(١) في الأصل و(م): أبو الهذيل بن العلاف، والمثبت هو الصواب. ينظر السير ١١/ ١٧٣.
(٢) انظر هذه الأقوال وما سبق في المواقف بشرح الإيجي ٨/ ١١٧ وما بعدها.

أن لو كان محرَّمًا في شَرْعه، لم لا يجوز أن لا يكون محرَّمًا؟

السابع: أنا سلَّمنا الحُرْمة، لكن لا نُسلِّم أن ذلك كبيرةٌ، لم لا يجوز أن يكون صغيرة؟ وهي غيرُ ممتنعةٍ على الأنبياء عليهم السلام.

وتكلموا على الوجه الثاني من وجهين:

الأول: أنا لا نسلِّم أنه علَّقَ الرؤيةَ على أمرٍ ممكن؛ لأن التعليقَ لم يكن على استقرار الجبل حالَ سكونه، وإلا لوُجِدت الرؤية ضرورةَ وجود الشرط؛ لأن الجبل حالَ سكونه كان مستقرًّا، بل على استقراره حالَ حركته، وهو محالٌ لذاته.

والثاني: أنَّا وإن سلَّمنا أن استقرار الجبل ممكنٌ، لكن لا نسلِّم أن المعلَّقَ بالممكن ممكن؛ فإنَّه يصحُّ أن يقال: إن انعدمَ المعلولُ انعدمَ العلَّة، والعلَّة قد تكون ممتنعةَ العدم مع إمكان المعلول في نفسه، كالصِّفات بالنسبة إلى الذات عند المتكلمين، والعقلِ الأولِ بالنسبة إليه تعالى عند الحكماء، فيجوز أن تكون الرؤيةُ الممتنعة متعلِّقة بالاستقرار الممكن، والسرُّ في جواز ذلك أن الارتباطَ بين المعلَّق والمعلَّق عليه إنما هو بحَسَبِ الوقوع، بمعنى أنه إن وقَعَ عدمُ المعلولِ وقع عدمُ العلَّة، والممكنُ الذاتيُّ قد يكون ممتنعَ الوقوعِ كالممتنع الذاتي، فيجوز التعليق بينهما، وليس الارتباط بينهما بحسَب الإمكان، حتى يلزم من إمكان المعلَّق عليه إمكانُ المعلَّق.

ثم إنَّا وإن سلَّمنا دلالةَ ما ذكرتموه من الوجهين على جوازِ الرؤية، فهو معارَض بما يدلُّ على عدم الجواز؛ فإنَّ «لن» في الآية لتأبيد النفي وتأكيده، وأيضًا قول موسى عليه السلام: «تبتُ إليك» دليلُ كونه مخطئًا في سؤاله، ولو كانت الرؤيةُ جائزةً لما كان مخطئًا.

والزمخشريُّ ـ عامَلَه الله تعالى بعدله ـ زعم أن الآيةَ أبلغُ دليلٍ على عدم إمكان الرؤية[1]، وذكر في «كشافه» ما ذكر، وقال[2]: ثم اعْجَبْ من المتَّسمين بالإسلام، المسمَّين بأهل السنة والجماعة كيف اتَّخذوا هذه العظيمةَ مذهبًا، ولا يغرَّنك

(١) نقل قوله في المواقف بشرح الإيجي ٨/ ١١٩.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٥-١١٦.

تستُّرُهم بالبَلْكَفة[١]؛ فإنه من منصوبات أشياخهم، والقولُ ما قال بعضُ العدلية فيهم:

وجماعةٍ سمَّوا هواهم سنَّةً لجماعةٌ حُمُرٌ لَعَمْري مُوْكَفَهْ
قد شبَّهوه بخلقِهِ وتخوَّفوا شنعَ الورى فتستَّروا بالبَلْكَفَهْ

وأُجيب عن قولهم: إنه عليه السلام إنما سأل العلمَ الضروريَّ، بأنه لو كانت الرؤيةُ بمعنى العلم الضروريِّ لكان النظر المذكورُ بعدُ أيضًا بمعناه، وليس كذلك؛ فإن النظر الموصول بـ «إلى» نصٌّ في الرؤية لا يحتمل سواه، فلا يُترك للاحتمال.

وفي «شرح المواقف»[٢] أن طلب العلمِ الضروريِّ لمن يخاطِبُه ويناجيه غيرُ معقول، وأُورد عليه أنَّ المراد هو العلم بهويَّته الخاصة، والخطابُ لا يقتضي إلا العلمَ بوجه، كمن يخاطبُنا من وراء الجدار، والمراد بالعلم بالهوية الخاصَّة انكشافُ هويته تعالى على وجهٍ جزئيٍّ، بحيث لا يمكنُ عند العقل صِدْقُه على كثيرين كما في المرئيِّ بحاسَّة البصر، ولا شكَّ في كونه ممكنًا في حقه تعالى؛ لأنه قادرٌ على أن يخلق في العبد علمًا ضروريًا بهويَّته الخاصَّة على الوجه الجزئيِّ بدون استعمال الباصرة كما يخلق بعده، وفي عدم لزومه الخطاب؛ فإنه يقتضي العلمَ بالمخاطبِ بأمور كلية يمكن صِدْقها على كثيرين عند العقل، وإن كانت في الخارج منحصرةً في شخص واحد، فهو من قبيل التعقُّل.

وبهذا التحرير يُعلم رصانةُ الإيراد، ودَفْعُ ما أُورد عليه، ويظهر منه ركاكةُ ما قاله الآمديُّ من أنَّ حمل الرؤية على العلم يلزمُ منه أن يكون موسى عليه السلام غيرَ عالم بربه؛ لئلَّا يلزم تحصيلُ الحاصل، ونسبةُ ذلك إلى الكليم من أعظم الجهالات = لأنا نقول: العلم بالهويَّة الخاصَّة ـ على ما ذكرنا ـ ليس من ضروريات النبوَّة ولا المكالمة كما لا يخفى. نعم يأبى هذا الحملَ التعديةُ كما علمت، ويُبعده الجوابُ بـ «لن تراني ولكنِ انظُر» إلخ، كما هو ظاهر، وإن تكلَّف له الزمخشريُّ[٣]

(١) البلكفة: نحت كالبسملة، أي القائلين بأن الرؤية بلا كيف. حاشية الشهاب ٤/٢١٦.
(٢) شرح المواقف ٨/١١٨، وانظر حاشية المولى حسن جلبي الفناري عليه.
(٣) في الكشاف ٢/١١٢-١١٤.

بما تمجُّه الأسماع. وقيل: إنه لو ساغ هذا التأويلُ لساغ مثلُه في ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، لتساوي الدلالة، وهو ممتنعٌ بالإجماع، و«جهرة» لا يزيد على كون النظر موصولاً بـ «إلى».

وأُجيب عن قولهم: إنما سألَه أن يُريه عَلَمًا من أعلام الساعة بأنه لا يستقيم؛ لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه خلافُ الظاهر من غير دليل.

ثانيها: أنه أجيب بـ «لن تراني»، وهو إن كان محمولاً على نفي ما وقع السُّؤال عنه من رؤيةِ بعض الآيات فهو خلف؛ فإنه قد أراه سبحانه أعظم الآيات وهو تَدَكْدُكُ الجبل، وإن كان محمولاً على نفي الرؤية لزم أن لا يكون الجوابُ مطابقًا للسؤال.

ثالثها: أن قوله سبحانه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ إن كان محمولاً على رؤية الآية فهو محالٌ؛ لأن الآيةَ ليست في استقرارِ الجبل، بل في تَدَكْدُكِهِ، وإن كان محمولاً على الرؤية لا يكون مرتبطًا بالسؤال، فإذن لا ينبغي حملُ ما في الآية على رؤيةِ الآية.

وعن قولهم: إن الرؤيةَ وقعت لدَفْع قومه، بأنَّ ذلك خلافُ الظاهر من غيرِ دليل، وكونُ الدليل أَخْذ الصَّعْقة ليس بشيء، وأيضًا كان يجبُ عليه ـ عليه السلام ـ أن يبادِرَ إلى رَدْعهم وزَجْرهم عن طلب ما لا يليق بجلال الله تعالى كما قال: «إنكم قوم تجهلون» عند قولهم: «اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة».

وقولُهم: إن المقصود ضمُّ الدليل السمعيِّ إلى العقليِّ، ليس بشيء؛ إذ ذلك كان يمكن بطلبِ إظهار الدليل السمعيِّ له من غير أن يطلب الرؤيةَ مع إحالتها، وقصته تقدَّم الكلام فيها.

وما ذكروه في الوجه الخامس ظاهرٌ ردُّه من تقرير الوجه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما أهلُ السنة، وحاصلُه أنه يلزمُهم أن يكون الكليم عليه السلام دون آحاد المعتزلة عِلمًا، ودون من حصَّل طرفًا من الكلام في معرفة ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز، وهذه كلمةٌ حمقاءُ، وطريقةٌ عوجاء لا يسلُكها أحدٌ من العقلاء؛ فإنَّ

كون الأنبياء عليهم السلام أعلمَ ممَّن عَدَاهم بذاته تعالى وصفاته العُلا مما لا ينبغي أن ينتطِحَ فيه كبشان.

وكونُ الرؤية في الدنيا غيرَ واقعةٍ عند الفريقين؛ إنْ أُريد به أنها غيرُ ممكنةِ الوقوع، فهو أولُ المسألة، وإن أُريد أنها ممكنةٌ لكنها لا تقع لأحد، فلا نسلِّم أنه أجمع على ذلك الفريقان، أما المعتزلةُ فلأنهم لا يقولون بإمكانها، وأما أهلُ السنة فلأنَّ كثيرًا منهم ذهب إلى أنها وقعت لنبيِّنا ﷺ ليلةَ الإسراء، وهو قول ابن عباس[١]، وأنس[٢]، وغيرِهما، وقولُ عائشة ﵂: مَنْ زعم أن محمدًا - ﷺ - رأى ربَّه فقد أعظَمَ على الله سبحانه الفِرْية[٣] = مدفوعٌ، أو مؤوَّل بأن المراد: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربَّه[٤] في نوره - أعني النورَ الشعشعاني الذي يَذهب بالأبصار، وهو المشار إليه في حديث: «لأحرقَتْ سُبحاتُ وجههِ ما انتهى إليه بصرُه»[٥] - فقد أعظمَ الفِرْية، ومن هذا يُعلم ما في احتمال إرادةِ عدم الوقوع، مع قَطْع النظر عن الإمكان وعدمه.

وقولهم: إنه يجوزُ أن لا يكون ذلك الطلبُ محرَّمًا في شرعه، فلا يمتنع، يَرِدُ عليه أن دليلَ الحرمةِ ظاهر؛ فإنَّ طلبَ المحالِ لو لم يكن حرامًا في شرعه عليه السلام لما بالغ في التشنيع على قومِه حين طلبوا ما طلبوا، على أنَّا لو سلَّمنا أنه ليس بحرامٍ يقال: إنه لا فائدةَ فيه، وما كان كذلك فمنصبُ النبوةِ منزَّه عنه، ومن هذا يُعلم ما في قولهم الأخير.

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٥٦)، ومسلم (١٧٦)، غير أن فيهما أن النبي ﷺ رآه بقلبه. وقد أخرجه الترمذي (٣٢٧٩) من غير تقييد برؤية القلب، والصحيح أن يحمل هذا الإطلاق على التقييد الوارد في الروايات الصحيحة. وانظر الكلام على ذلك في المسند عند الرقم (٢٥٨٠).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٤ لابن مردويه، وعزاه ابن كثير في تفسيره ٥/ ١١ إلى البزار، وقال عقبه: هذا غريب.
قلنا: وعلى احتمال صحته فهو محمول على أنه رآه بقلبه. وانظر كلام ابن كثير في تفسيره ٧/ ٤٤٨.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٢٢٧)، والبخاري (٣٢٣٤)، ومسلم (١٧٧).

(٤) قوله: رأى ربه، سقط من (م).

(٥) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﵁، وسلف عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة الأنعام.

وأُجيب عن قولهم: إن المعلَّق عليه هو استقرارُ الجبل حالَ حركته، بأنهم إن أرادوا أن الشرطَ هو الاستقرارُ حالَ وجود الحركةِ مع الحركة، فهو زيادةُ إضمارٍ، وتركٌ لظاهر اللفظ من غير دليل، فلا يصحُّ، وإن أرادوا أن الشرطَ هو الاستقرارُ في الحالة التي وُجدت فيها الحركةُ بدلاً عن الحركة، فلا يخفى جوازُه، فكيف يُدَّعى أنه محالٌ لذاته؟

وبعضهم قال في الردِّ: إن المعلَّق عليه استقرارُ الجبل بعد النظر، بدليل الفاء، وحين تعلَّقت إرادةُ الله تعالى بعدم استقراره عَقِيب النظرِ استحال استقرارُه وإن كان بالغير، فعدَلَ عن القول بالمحالِ بالذات إلى القولِ بالمحالِ بالغير؛ لأن الغرضَ يتمُّ به أيضًا. وتعقَّبه السيالكوتي وغيرُه بأنه ليس بشيء؛ لأن استقرارَ الجبل حين تعلُّقِ إرادتِهِ تعالى بعدم استقراره أيضًا ممكنٌ بأن يقع بدَلَه الاستقرارُ، إنما المحالُ استقرارُه مع تعلُّقِ إرادته سبحانه بعدم الاستقرار. ولبعض فضلاء الروم هاهنا كلامٌ نقله الشهاب[1] لا تغرَّنَّك قَعْقَعَتُه؛ فإن الظواهر لا تُترك لمجرَّد الاحتمال المرجوح.

وأجيب عن قولهم: لا نسلِّم أن المعلَّق بالممكن ممكنٌ.. إلخ، بأن المراد بالممكن المعلَّقِ عليه الممكنُ الصِّرْف، والخالي عن الامتناع مطلقًا، ولا شكَّ أن إمكانَ المعلول فيما امتنع عدمَ علَّته ليس كذلك، بل التعليق بينهما إنما هو بحسَب الامتناع بالغير؛ فإنَّ استلزامَ عدم الصفات وعدمِ العقل الأول عدمَ الواجب من حيث إنَّ وجود كلٍّ منهما واجبٌ، وعدمُهُ ممتنعٌ بوجود الواجب، وأما بالنظر إلى ذاته مع قَطْع النظر عن الأمور الخارجة فلا استلزام؛ بخلاف استقرار الجبل؛ فإنه ممكنٌ صِرْف غيرُ ممتنع لا بالذات ولا بالعَرَض كما لا يخفى، على أن بعضهم نظر في صحَّة المثال لغةً، وإن كان فيه ما فيه.

وما قيل: إنه ليس المقصودُ في الآية بيانَ جواز الرؤية وعدمِ جوازها؛ إذ هو غير مسؤول عنه، بل المقصودُ إنما هو بيانُ عدمِ وقوعها، وعدَمُ الشرط متكفِّل

---

(١) قال الشهاب الخفاجي ٤/ ٢١٥: ويحتمل أن يكون حين إلقائه (أي اللفظ) إليه قرينةٌ حاليةٌ أو مقالية دالة على التعليق باستقرار الجبل المقيد بالحركة، ولا تكون تلك القرائن منقولة إلينا، ومجملات كتاب الله من هذا القبيل، كما حققه بعض علماء الروم.

بذلك = كلامٌ لا طائل تحته؛ إذ الجوازُ وعدمُ الجواز من مستتبعات التعليق بإجماع جهابذة الفريقين.

وما ذكروه في المعارضة من أن «لن» تفيد تأبيد النفي غيرُ مسلَّم، ولو سُلِّم فيحتمل أن ذلك بالنسبة إلى الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] فإن إفادة التأبيد فيه أظهرُ، وقد حملوه على ذلك أيضًا؛ لأنهم يتمنَّونه في الآخرة للتخلُّص من العقوبة، ومما يهدي إلى هذا أن الرؤيةَ المطلوبة إنما هي الرؤيةُ في الدنيا، وحقُّ الجواب أن يطابقَ السؤال.

وقد ورد عنه ﷺ ما يدلُّ على أن نفي الرؤية مقيَّد لا مطلق، فليُتَّبَع بيانُه عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول»، وأبو نعيم في «الحلية» عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ﴾ إلخ، فقال: «قال الله تعالى: يا موسى، إنه لا يراني حيٌّ إلا مات، ولا يابسٌ إلا تَدَهْدَه، ولا رطبٌ إلا تفرَّق، وإنما يراني أهلُ الجنة الذين لا تموت أعينُهم، ولا تبلى أجسادُهم»(١).

وهذا ظاهرٌ في أن مطلوب موسى عليه السلام كان الرؤية في الدنيا، مع بقائه على حالته التي هو عليها حين السؤال من غير أن يعقبها صَعْق؛ لأن قوله عزَّ وجل: «إنه لن يراني حيٌّ» إلخ، لا ينفي إلا الرؤيةَ في الدنيا مع الحياة، لا الرؤيةَ مطلقًا، فمعنى «لن تراني» في الآية: لن تراني وأنت باقٍ على هذه الحالة، لا لن تراني في الدنيا مطلقًا، فضلاً عن أن يكون المعنى: لن تراني مطلقًا لا في الدنيا ولا في الآخرة.

نعم إن هذا الحديث مخصَّصٌ بما صحَّ مرفوعًا وموقوفًا أنه ﷺ رأى ربَّه ليلة

---

(١) نوادر الأصول ص١٤٢، والحلية ١٠/ ٢٣٥ من طريق الحكيم الترمذي. وقد كان الأجدر بالمصنف أن لا يورد مثل هذا الحديث، فضلاً عن أن يحتج به في مثل هذه المسألة، ويجعله بيانًا من النبي ﷺ فيها، ثم يتكلَّف ـ فيما سيرد ـ في الجمع بينه وبين ما صح من الأحاديث؛ إذ إن في إسناده محمد بن رِزام الأبلي البصري، وهو متهم بوضع الحديث، وقال الدارقطني: يحدث بالأباطيل. وسلف الحديث عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة الأنعام.

الإسراء مع عدم الصَّعْق[١]، ولعل الحكمة في اختصاصِه ﷺ بذلك أنَّ نشأته عليه الصلاة والسلام أكملُ نشأة وأعدَلُها صورةً ومعنًى؛ لجامعيَّته ﷺ للحقائق على وجه الاعتدال، وهي فيه متجاذبة، ومقتضى ذلك الثباتُ بإذن الله تعالى، ومع ذلك فلم يقع له التجلِّي إلا في دار البقاء، فاجتمَعَ مقتضى الموطن مع مقتضى كمال اعتدال النشأة، وقد يقال أيضًا على سبيل التنزُّل: لو سلَّمنا دلالةَ «لن» على التأبيد مطلقًا لكان غايةُ ذلك انتفاءَ وقوع الرؤية، ولا يلزم منه انتفاءُ الجواز، والمعتزلةُ يزعمون ذلك.

وقولهم: قولُه عليه السلام: «تبتُ إليك» يدلُّ على كونه مخطئًا، ليس بشيء؛ لأن التوبة قد تطلق بمعنى الرجوع وإن لم يتقدَّمها ذنبٌ، وعلى هذا فلا يبعُدُ أن يكون المراد من «تبت إليك» أي: رجعتُ إليك عن طلب الرؤية.

وذكر ابنُ المنير[٢] أن تسبيحَ موسى عليه السلام لِمَا تبيَّن له من أن العلم قد سبَقَ بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، والله تعالى مقدَّس عن وقوع خلافِ معلومه، وأما التوبةُ في حق الأنبياء عليهم السلام فلا يلزم أن تكون عن ذنب؛ لأن منزلتَهم العَلِيَّة تُصان عن كلِّ ما يحطُّ عن مرتبة الكمال، وكان عليه ـ عليه السلام ـ نظرًا إلى علوِّ شأنه أن يتوقَّف في سؤال الرؤية على الإذن، فحيث سأل من غير إذنٍ كان تاركًا الأَولى بالنسبة إليه، وقد ورد: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين[٣]. وذكر الإمامُ الرازيُّ نحو ذلك[٤].

وقال الآمديُّ: إن التوبة وإن كانت تستدعي سابقيَّة الذنب إلا أنه ليس هناك ما يدلُّ قطعًا على أن الذنبَ في سؤاله، بل جاز أن تكون التوبةُ عما تقدَّم قبل

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٢٥٨٠) عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي تبارك وتعالى». وانظر التعليق عليه في المسند، وكلام الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٠٨-٦٠٩.

وقد سبق تخريج الموقوف عن الصحابة في ذلك ص ٣٣٣.

(٢) في الانتصاف ٢/ ١١٥.

(٣) هذا من كلام أبي سعيد الخراز أحد كبار الصوفية المتوفى سنة ٢٨٠، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥/ ١٣٧، وانظر كشف الخفاء ١/ ٤٢٨.

(٤) تفسير الرازي ١٤/ ١٣٤.

السؤال مما يعدُّه هو عليه السلام ذنبًا، والداعي لذلك ما رأى من الأهوالِ العظيمة من تَدَكْدُك الجبل، على ما هو عادةُ المؤمنين الصُّلحاء من تجديد التوبة عمَّا سلف إذا رأوا آية وأمرًا مَهُولاً.

وذكر أن قوله عليه السلام: «وأنا أول المؤمنين» ليس المرادُ منه ابتداءَ الإيمان في تلك الحالة، بل المراد به إضافةُ الأولية إليه لا إلى الإيمان، ولعلَّ المراد من ذلك الإخبارِ الاستعطافُ لقَبول توبته عليه السلام عمَّا هو ذنبٌ عنده، وأراد بـ «المؤمنين» قومَه، على ما رُوي عن مجاهد.

وما يشير إليه كلامُ الزمخشريِّ من أن الآية أبلغُ دليل على عدم إمكان الرؤية[١] لا يخفى ما فيه على من أحاط خُبْرًا بما ذكرناه.

ومن المحقِّقين من استند في دلالةِ الآية على إمكانها بغير ما تقدَّم أيضًا، وهو أنه تعالى أحالَ انتفاءَ الرؤية على عَجْزِ الرائي وضَعْفِه عنها، حيث قال له: «لن تراني»، ولو كانت رؤيتُه تعالى غيرَ جائزة لكان الجواب: لستُ بمرئيٍّ، ألا ترى لو قال: أرني أنظر إلى صورتك ومكانك لم يحسُنْ في الجواب أن يقال: لن ترى صورتي ولا مكاني، بل الحسنُ: لست بذي صورةٍ ولا مكان؟

وقال بعضُهم بعد أن بيَّن كونَ الآية دليلاً على أن الرؤية جائزةٌ في الجملة ببعض ما تقدم: ولذلك ردَّه سبحانه بقوله: «لن تراني» دون: لن أُرى، و: لن أُرِيَكَ، و: لن تنظر إليَّ؛ تنبيهًا على أنه عليه السلام قاصرٌ عن رؤيته تعالى؛ لتوقُّفها على معدٍّ في الرائي، ولم يوجد فيه بعد، وذلك لأنَّ لن أُرى يدلُّ على امتناع الرؤية مطلقًا، ولن أُرِيَكَ يقتضي أن المانع من جهته تعالى، وليس في لن تنظر تنبيهٌ على المقصود؛ لأن النظر لا يتوقف على معدٍّ، وإنما المتوقَّف عليه الرؤيةُ والإدراك.

وعلَّل النيسابوريُّ[٢] عدمَ كون الجواب: لن تنظر إليَّ، المناسبِ لـ «أَنظُرْ إليك»، بأن موسى عليه السلام لم يطلب النظرَ المطلق، وإنما طلب النظرَ الذي معه الإدراكُ، بدليل «أرني».

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١١٥.

(٢) في غرائب القرآن ٩/ ٤٥.

وانتصر بعضُهم للمعتزلة بأن لهم أن يقولوا: إن طلبَ الإراءة متضمِّن لطلب رفع الموانع من الرؤية، وإيجاد ما تتوقَّف هي عليه؛ لأن معنى ذلك: مكِّني من الرؤية، والتمكينُ إنما يتمُّ بما ذُكر من الرفع والإيجاد، وكان الظاهرُ في ردِّ هذا الطلب: لن أُمكِّنكَ من رؤيتي، لكن عدَلَ عنه إلى «لن تراني» إشارةً إلى استحالة الرؤية وعدمِ وقوعها بوجهٍ من الوجوه، كأنه قيل: إن رؤيتَكَ لي أمرٌ محال في نفسه، وتمكيني إنما يكون من الممكن، ولو لم يكن المرادُ ذلك، بل كان المرادُ: إنك لا قابليةَ لك لرؤيتي، لكان لموسى عليه السلام أن يقول: يا رب أنا أعلمُ عدم القابلية، لكنِّي سألتُك التمكين، وهو متضمِّن لسؤال إيجادها؛ لأنها مما تتوقَّف الرؤية عليه، فعلى هذا لا يكون الجوابُ مفيدًا لموسى عليه السلام، ولا مقنعًا له، بخلافه على الأول، فيكون حينئذٍ هو المتعيِّن. فإن قيل: القابليةُ وعدمُ القابلية من توابعِ الاستعدادِ وعدمِ الاستعداد، وهما غير مجعولين. قلنا: هذا ـ على ما فيه من الكلامِ العريض والنزاعِ الطويل ـ مستلزمٌ لمطلوبنا من امتناعِ الرؤية كما لا يخفى على مَنْ له أدنى استعدادٍ لفهم الحقائق.

وأُجيب بأن طلبَ التمكين من شيء إنما يتضمَّن طلب رَفْع الموانع التي في جانب المطلوبِ منه فقط على ما هو الظاهر، لا مطلقًا بحيث يشملُ ما كان في جانب المطلوبِ منه وما كان في جانب الطالب، ويُرشد إلى ذلك أن قولك: لم يُمَكِّنِّي زيدٌ من قتل عَمرو ـ مثلاً ـ ظاهر في أنه حالَ بينك وبين قَتْله، مع تهيُّئك له وارتفاعِ الموانع التي من قِبَلك عنه، فكأنَّ موسى عليه السلام لما كلَّمه ربُّه هاج به الشوقُ إلى الرؤية كما قال الحسن، لا أن[1] عدوَّ الله إبليسَ غاصَ في الأرض حتى خرج من بين قدميه، فوسوس إليه: إنَّ مكلِّمَك شيطان، فعند ذلك سألها ـ كما قال السُّدي، وأعوذ بالله من اعتقاده ـ فذَهَلَ عن نفسه وما فيها من الموانع، فلم يخطُرْ بباله إلا طلبُ رفع الموانع عنها من قِبَل الربِّ سبحانه، فنبَّهه جلَّ شأنه بقوله: «لن تراني» على وجودِ المانع فيه عن الرؤية، وهو الضعفُ عن تحمُّلها، وأراه ضعفَ مَنْ هو أقوى منه عن ذلك بدكِّ الجبل عند تجلِّيه له، ففائدةُ الاستدراك على هذا أن يتحقَّق عنده عليه السلام أنه أضعفُ من أن يقوم لتجلِّي الرؤية وهو على ما هو

---

(١) تحرفت في (م) إلى: لأن.

عليه، ويمكن أن تكون التوبةُ منه عليه السلام بعد أن أفاق من هذه الغفلة، وحينئذٍ لا شكَّ أن الجواب بـ «لن تراني» إلخ مفيدٌ مقنع.

هذا، وذكر بعض المحقِّقين أن حاصلَ الكلام في هذا المقام أنَّ موسى عليه السلام كان عالمًا بإمكان الرؤية ووقوعِها في الدنيا لمن شاء الله تعالى من عباده عقلاً، والشروطُ التي تُذكر لها ليست شروطًا عقلية، وإنما هي شروطٌ عادية، ولم يكن عالمًا بعدم الوقوع مع عدم تغيُّرِ الحال حتى سمع ذلك من الربِّ المُتعال، وليس في عدم العلم بما ذُكر نقصٌ في مرتبته عليه السلام؛ لأنه من الأمور الموقوفةِ على السمع، والجهلُ بالأمور السمعية لا يعدُّ نقصًا؛ فقد صحَّ أن أعلمَ الخلق على الإطلاق نبيَّنا ﷺ سُئل عن أشياء فقال: «سأسألُ جبريل» عليه السلام، وأن جبريل عليه السلام سُئل فقال: «سأسألُ ربَّ العزَّة»[1]، وقد قالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وأن الآيةَ لا تصلحُ دليلاً على امتناع الرؤية على ما يقولُه المعتزلة، بل دلالتُها على إمكانها في الجملة أظهرُ وأظهر، بل هي ظاهرةٌ في ذلك دون ما يقولُه الخصوم.

وما رواه أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير «لن تراني»: إنه لا يكونُ ذلك أبدًا، لا حجَّة لهم فيه؛ لأنه غيرُ وافٍ بمطلوبهم، مع أن التأبيدَ فيه بالنسبة إلى عدمِ تغيُّرِ الحال، كما يدلُّ عليه الخبر المرويُّ عنه سابقًا، وكذا ما رواه عنه أبو الشيخ؛ إذ فيه: يا موسى إنه لا يراني أحد فيحيا. قال موسى: ربِّ أن أراك ثم أموتَ أحبُّ إليَّ من أن لا أراكَ ثم أحيا[2].

وما ذكره الزمخشريُّ عن الأشياخ أنهم قالوا: إنه تعالى يُرى بلا كيف[3]، هو المشهور.

---

(١) ينظر حديث ابن عمر في صحيح ابن حبان (١٥٩٩)، وحديث جبير بن مطعم عند أحمد (١٦٧٤٤). ونقل ابن مفلح في الآداب الشرعية ٢/ ٦١ عن الإمام أحمد قوله في رواية المروذي: ليس كل شيء ينبغي أن يتكلم فيه، وذكر أحاديث النبي ﷺ كان يسأل فيقول: «لا أدري حتى أسأل جبريل».

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٨.

(٣) الكشاف ٢/ ١١٦.

ونقل المناوي أن الكمال بن الهُمام سُئل عما رواه الدارقطنيُّ وغيرُه عن أنس من قوله ﷺ: «رأيتُ ربي في أحسن صورة»[(١)] بناء على حمل الرؤية على الرؤية في اليقظة، فأجاب بأن هذا حجابُ الصورة[(٢)]. انتهى، وهو التجلِّي الصُّوري الشائع عند الصوفية، ومنه عندهم تجلِّي الله تعالى في الشجرة لموسى عليه السلام، وتجلِّيه جلَّ وعلا للخلق يوم يُكشَفُ عن ساق، وهو سبحانه وإن تجلَّى بالصورة لكنه غيرُ متقيِّد بها، والله من ورائهم محيط، والرؤيةُ التي طَلَبها موسى عليه السلام غيرُ هذه الرؤية، وذكر بعضُهم أن موسى كان يرى الله تعالى، إلا أنه لم يعلم أنَّ ما رآه هو هو، وعلى هذا الطِّرْز يُحمل ما جاء في بعض الروايات المطعونِ بها: «رأيتُ ربي في صورة شابٍّ»، وفي بعضها زيادةُ: «له نعلانِ من ذهب[(٣)]»، ومن الناس من حَمَلَ الرؤيةَ في رواية الدارقطنيِّ على الرؤيةِ المنامية، وظاهرُ كلام السيوطيِّ[(٤)] أن الكيفيةَ فيها لا تضرُّ، وهو الذي سمعتُه من المشايخ قدَّس الله تعالى أسرارهم، والمسألةُ خلافيةٌ.

وإذا صحَّ ما قاله المشايخُ وأفهمَه كلامُ السيوطيِّ فأنا ولله تعالى الحمدُ قد رأيتُ ربي منامًا ثلاث مرات، وكانت المرةُ الثالثة في السنة السادسة والأربعين والمئتين والألف بعد الهجرة، رأيتُه جلَّ شأنه وله من النور ما له[(٥)] متوجِّهًا جهة

---

(١) كتاب الرؤية للدارقطني (٢٤٧)، ولفظه: «أتاني ربي عز وجل البارحة في منامي في أحسن صورة...».
وباللفظ الذي ساقه المصنف أخرجه الدارقطني كذلك في الرؤية (٢٤١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وهو حديث ضعيف اضطرب فيه الرواة، وقد فُصِّل القول في علله في «المسند» (٣٤٨٤)، فانظره ثمة.

(٢) فيض القدير ٤/ ٦.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٥/ (٣٤٦)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٩)، ونقل ابن الجوزي عقبه قول مهنّا: سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن هذا الحديث، فحوَّل وجهه عني، قال: هذا حديث منكر. وكذلك أورده الشوكاني في الفوائد المجموعة ص٤٤٧، وحكم بوضعه، وقال: في إسناده وضاع وكذاب ومجهول. وقد فصَّل الشيخ عبدالرحمن المعلِّمي حال رواته في تعليقه عليه، فانظره ثمة.

(٤) في تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك، مطبوع ضمن الحاوي للفتاوي ٢/ ٤٥٠.

(٥) في الأصل: ما هو.

المشرق، فكلَّمني بكلماتٍ أُنسيتُها حين استيقظتُ، ورأيتُ مرةً في منام طويل كأني في الجنة بين يديه تعالى، وبيني وبينه سترٌ حَبِيكٌ بلؤلؤ مختلفِ ألوانُه، فأمر سبحانه أن يُذهب بي إلى مقام[1] عيسى عليه السلام، ثم إلى مقام محمد ﷺ، فذُهب بي إليهما، فرأيتُ ما رأيت، ولله تعالى الفضل والمِنَّة.

ومنهم من حمل الصورةَ على ما به التميُّزُ[2]، والمراد بها ذاتُه تعالى المخصوصةُ المنزَّهة عن مماثلة ما عداه من الأشياء، البالغة إلى أقصى مراتبِ الكمال، وما ذكره من البيتين لبعض العَدْلية فهو في ذلك عُثَيثة تقرِمُ جلدًا أملسًا[3]، والقولُ ما قاله تاجُ الدين السُّبكي فيهم:

عجبًا لقوم ظالمين تلقَّبوا ... بالعَدْل ما فيهم لَعَمْري معرفهْ
قد جاءهم من حيث لا يدرونه ... تعطيلُ ذاتِ الله مع نفي الصِّفهْ
وتلقَّبوا عَدْلِيَّة قلنا نعم ... عَدَلُوا بربِّهمُ فحسبهمُ سَفَهْ[4]

وقال ابن المنير[5]:

وجماعةٍ كفروا برؤيةِ ربهم ... هذا ووعد الله ما لن يُخْلِفَه
وتلقَّبوا عَدْلِيَّة قلنا أجل ... عَدَلوا بربِّهمُ فحسبهمُ[6] سَفَه
وتنعَّتوا الناجين كلَّا إنهم ... إن لم يكونوا في لَظَى فعلى شَفَه

وبعد هذا كلِّه نقول: إن الناس قد اختلفوا في أن موسى عليه السلام هل رأى ربَّه بعد هذا الطلبِ أم لا؟ فذهب أكثرُ الجماعة إلى أنه عليه السلام لم يَرَهُ لا قبل

---

(١) في الأصل: مكان.
(٢) في الأصل: التمييز.
(٣) العُثَيْثَةُ: تصغير عُثَّة: وهي دابة صغيرة تقع في الجلد فتفسده، والقَرْم: الحزُّ. وقوله: عثيثة تقرم جلداً أملساً: مثل يضرب للرجل المَهِين يقع في الرجل الشريف، وكذلك للرجل يجتهد أن يؤثِّر في الشيء فلا يقدر عليه، وكذلك عند احتقار الرجل واحتقار كلامه. جمهرة الأمثال للعسكري ٢/ ٥٤-٥٥، ومجمع الأمثال ٢/ ٢٩.
(٤) ذكرها الشهاب في حاشيته ٤/ ٥٢.
(٥) في الانتصاف ٢/ ١١٦.
(٦) تحرفت في (م) إلى: فحسبوهم.

الصَّعق ولا بعدَه، وقال الشيخُ الأكبر قدس سره: إنه رآه بعد الصَّعق، وكان الصعقُ موتًا، وذكر قدِّس سرُّه أنه سأل موسى عن ذلك فأجابه بما ذُكر! والآية عندي غيرُ ظاهرةٍ في ذلك.

وإلى الرؤية بعد الصَّعق ذهب القطبُ الرازيُّ في تقرير كلام للزمخشريِّ[1]؛ إلا أن ذلك على احتمال أن تفسَّر بالانكشاف التامِّ الذي لا يحصُل إلا إذا كانت النفس فانيةً مقطوعةَ النظر عن وجودها، فضلاً عن وجود الغير؛ فإنه قال: إنَّ موسى عليه السلام لمَّا طلب هذه المرتبةَ من الانكشاف، وعبَّر عن نفسه بأنا، دلَّ على أن نظَرَه كان باقيًا على نفسه، وهي لا تكون كذلك إلا متعلِّقةً بالعلائق الجِسمانيَّة، مشوبةً بالشوائب المادِّية، لا جرم منَعَ عنه هذه المرتبةَ، وأُشير إلى أنَّ منعَها إنما كان لأجل بقاء أنا وأنت في قوله: «أرني» و«لن تراني»، ثم لمَّا لم يُرد حرمانَه عن حصولِ هذه المرتبة - مع استعداده وتأهُّله لها - عُلِّم طريقَ المعرفة بقوله سبحانه: «ولكن انظُرْ إلى الجبل»؛ فإنَّ الجبل مع عدم تعلُّقه لمَّا لم يطِقْ نظرةً من نظرات التجلِّي فموسى عليه السلام مع تعلُّقه كيف يُطيق ذلك؟! فلما أدرك الرمزَ خرَّ صعقًا مغشيًّا عليه، متجرِّدًا عن العلائق، فانيًا عن نفسه، فحصَلَ له المطلوبُ، فلما أفاق عَلِمَ أن طلب الرؤية في تلك الحالة التي كان عليها كان سوءَ أدبٍ، فتاب عنه.

وذهب الشيخ إبراهيم الكورانيُّ إلى أنه عليه السلام رأى ربَّه سبحانه حقيقةً قبل الصَّعق، فصَعِقَ لذلك، كما دُكَّ الجبل للتجلِّي، وأيَّده بما أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «لما تجلَّى الله تعالى لموسى عليه السلام كان يُبصِرُ دبيبَ النمل على الصَّفا في الليلة الظَّلْماء من مسيرة عشرة فراسخ»[2]. وبما أخرجه عن أبي مَعْشَر أنه قال: مكث موسى عليه السلام أربعين ليلةً لا ينظُرُ إليه أحدٌ إلا مات من نور ربِّ العالمين[3].

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٦.

(٢) الدر المنثور ٣/ ١١٩. وأخرجه أيضاً القاضي عياض في الشفا ١/ ٣٨٠ (بشرح الشهاب الخفاجي)، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: في صحته نظر، ولا يخلو رجال إسناده من مجاهيل. اهـ. قلنا: وفي إسناده أيضاً الحسن بن أبي جعفر الجفري، وهو ضعيف.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٢٠. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٥٥٨ من طريق أبي معشر عن أبي الحويرث، قوله.

وجمَعَ بين هذا وبين قوله ﷺ: «إنَّ الله تعالى أعطى موسى الكلامَ، وأعطاني الرؤيةَ، وفضَّلني بالمقام المحمودِ والحوضِ المورود»[١]، بأنَّ الرؤيةَ التي أعطاها لنبيِّنا ﷺ هي الرؤيةُ مع الثباتِ والبقاء من غير صعقٍ، كما أن الكلامَ الذي أعطاه موسى كذلك؛ بخلاف رؤيةِ موسى عليه السلام؛ فإنها لم تُجمَعْ له مع البقاء، وعلى هذا فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام في حديث الدجَّال: «إنه لن يرى أحدٌ منكم ربَّه حتى يموتَ»[٢] هو: أن أحدًا لا يراه في الدنيا مع البقاء، ولا يُجمَعُ له في الدنيا بينهما، وفسَّر الآيةَ بما لا يخلو عن خفاء.

والذاهبون إلى عدم الرؤية مطلقًا يجيبون عمَّا ذَكَره من حديث أبي هريرة وخبر أبي مَعْشَر بأنَّ الثاني ليس فيه أكثرُ من إثبات سُطوعِ نور الله تعالى على وجهِ موسى عليه السلام، وليس في ذلك إثباتُ الرؤية؛ لجواز أن يُشرقَ نورٌ منه تعالى على وجهه عليه السلام من غير رؤيةٍ؛ فإنه لا تلازمَ بين الرؤية وإشراقِ النور، وبأنَّ الأول ليس نصًّا في ثبوت الرؤيةِ المطلوبة له عليه السلام؛ لأنها ـ كما قال غيرُ واحدٍ ـ عبارةٌ عن التجلِّي الذاتيِّ، ولله تعالى تجلِّياتٌ شتَّى غيرُ ذلك، فلعل التجلِّي الذي أشار إليه الحديثُ ـ على تقدير صحَّته[٣] ـ واحدٌ منها، وقد يُقطَع بذلك؛ فإنه سبحانه تجلَّى عليه ـ عليه السلام ـ بكلامه واصطفائه وقُرْبِه منه على الوجه الخاصِّ اللائقِ به تعالى، ولا يبعُدُ أن يكون هذا سببًا لذلك الإبصار، وهذا أولى ممَّا قيل: إنَّ اللام في «لموسى» للتعليل، ومتعلَّق «تجلَّى» محذوفٌ، أي: لما تجلَّى الله تعالى للجبل لأجلِ إرشادِ موسى كان عليه السلامُ يُبصِرُ بسببِ إشراق بعضِ أنواره تعالى عليه حين التجلِّي للجبل ما يُبصِرُ:

تضوَّعَ مسكًا بطنُ نَعْمانَ إذ مشَتْ ... به زينبٌ في نسوةٍ خَفِراتِ[٤]

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٦٠٠)، وابن الجوزي في الموضوعات (٥٥١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وقال عَقبه: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، والمتهم به محمد بن يونس وهو الكُديمي، وكان وضاعًا للحديث.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٧٢)، ومسلم ٤/ ٢٢٤٥ عقب (٢٩٣١) (١٦٩)، من حديث عمر بن ثابت الأنصاري عن بعض أصحاب النبيِّ ﷺ.

(٣) وهو ضعيف كما أسلفنا، ووقع في (م): صحة.

(٤) البيت لمحمد بن عبد الله النميري، وهو في الأغاني ٦/ ١٩٣، والكامل للمبرد ٢/ ٦٢٩، وفيهما: نسوة عطرات. وخفرات، من الخَفَر: وهو شدة الحياء. الصحاح: (خفر).

فالحقُّ الذي لا ينبغي المحيصُ عنه أنَّ موسى عليه السلام لم يحصُلْ له ما سألَ في هذا الميقات، والذي أقطعُ به أنه نال مقامَ قربِ النوافل والفرائض الذي يذكره الصُّوفية بالمعنى الذي يذكُرونه كيفما كان، وحاشا لله من أن أُفضِّل أحدًا من أولياء هذه الأمة ـ وإن كانوا هم هم ـ على أحدٍ من أنبياء بني إسرائيل، فضلاً عن رسلهم مطلقًا، فضلاً عن أُولي العزم منهم.

❁ ❁ ❁

وقد ذكر بعضُ العارفين من باب الإشارة في هذه الآيات أنَّ الله تعالى واعَدَ موسى عليه السلام ثلاثين ليلةً للتخلُّص من حجاب الأفعال والصِّفات والذات، كلُّ عشرةٍ للتخلُّص من حجابٍ، واختِيْرت العشرةُ؛ لأنَّها عددٌ كامل، كما تقدَّم الكلامُ عليه عند قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، لكن بقيتْ منه بقيةٌ ما خلَصَ عنها، واستعمالُ السِّواك في الثلاثين الذي نطقَتْ به بعضُ الآثار إشارةٌ إلى ذلك، فضمَّ إلى الثلاثين عشرةً أخرى؛ للتخلُّص من تلك البقيَّة.

وجاء أنه عليه السلام أُمِرَ بأن يتقرَّبَ إليه سبحانه بما يتقرَّب به في ثلاثين، وأُنزِلت عليه التوراةُ في العشرة التي ضُمَّت إليها لتكملَ أربعين، وهو إشارةٌ إلى أنه بلغ الشهودَ الذاتيَّ التامَّ في الثلاثين بالسلوك إلى الله تعالى، ولم يبقَ منه شيءٌ، بل فنيَ بالكليَّة، وفي العشرة الرابعة كان سلوكُه في الله تعالى حتى رُزِقَ البقاءَ بعد الفناء بالإفاقة، قالوا: وعلى هذا ينبغي أن يكون سؤالُ الرؤية في الثلاثين، والإفاقة بعدَها، وكان التكليمُ في مقام تجلِّي الصِّفات، وكان السؤالُ عن إفراط شوقٍ منه عليه السلام إلى شهودِ الذات في مقام فناء الصِّفات مع وجود البقيَّة.

و﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ إشارةٌ إلى استحالة الاثنينيَّة وبقاء الأنيَّة في مقام المشاهدة، وهذا معنى قول من قال: رأيتُ ربِّي بعين ربِّي.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ إشارةٌ إلى جبل الوجود، أي: انظُرْ إلى جبل وجودِك ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ وهو من باب التعليق بالمُحال عندهم[1].

---

(١) في (م): عنده.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: متلاشيًا لا وجودَ له، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ عن درجة الوجود ﴿صَعِقًا﴾ أي: فانيًا، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ بالوجود الموهوبِ الحقَّانيِّ ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أن تكون مرئيًّا لغيرِكَ، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عن ذنب البقيَّة، أو رجعتُ إليك بحسب العلم والمشاهدة؛ إذ ليس في الوجود سواكَ، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بحسب الرُّتبة، أي: أنا في الصفِّ الأول من صفوفِ مراتب الأرواح الذي هو مقامُ أهلِ الوحدة.

وقد يقال: إن ﴿مُوسَىٰ﴾ إشارةٌ إلى موسى الرُّوح، ارتاض أربعين ليلةً لتظهَرَ منه ينابيعُ الحكمة، وقال ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ القلبِ: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ من الأوصافِ البشرية، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ذاتَ بينِهم على وَفْق الشريعة وقانون الطَّريقة، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من القوى الطبيعية.

ولمَّا حصَلَ الروحُ على بِساط القُرب بعد هاتيك الرياضة، وتتابعتْ عليه في روضات الأُنس كاساتُ المحبةِ، غرَّد بلبلُ لسانه في قفصِ فم وجودِه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فقال له: هيهاتَ ذاكَ، وأين الثُّريا من يد المتناوِل؟ أنتَ بَعْدُ في بُعْدِ الاثنينية، وحجابِ جبلِ الأنانيَّة، فإن أردتَ ذلك فخلِّ نفسَكَ وائتني:

وجانِبْ جنابَ الوصل هيهاتَ لم يكن … وها أنتَ حيٌّ إن تكنْ صادقًا مُتِ
هو الحبُّ إن لم تقضِ لم تقضِ مأْرَبا … من الحبِّ فاختَرْ ذاكَ أو خلِّ خلَّتي

فهانَ عليه الفناءُ في جانب رؤية المحبوب، ولم يعزَّ لديه كلُّ شيء إذ رأى عزَّة المطلوب، ونادى:

فقلتُ لها رُوحي لديكِ وقبضُها … إليكِ ومن لي أن تكون بقبضتي
وما أنا بالشاني الوفاة على الهوى … وشأني الوفا تأبى سواه سَجِيَّتي(١)

فبذل وجودَه، وأعطى موجودَه، فتجلَّى ربُّه لجبل أنانيَّتِه، ثم مَنَّ عليه برؤيته، وكان ما كان، ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، وطَفِئ المصباحُ إذ طلع الصباح، وصدَحَ هزارُ الأُنس في رياض القُدْس بنغم:

---

(١) البيتان واللذان قبلهما لابن الفارض من تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك، وهي في ديوانه ص٥٦.

ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا سرٌّ أرقُّ من النسيم إذا سرى
وأباح طَرْفي نظرة أمَّلْتُها فغدوتُ معروفًا وكنت منكَّرا
فدهشتُ بين جلاله وجماله وغدا لسانُ الحال عنِّي مخبِرا[1]

هذا والكلامُ في الرؤية طويل، وقد تكفَّل علمُ الكلام بتحقيق ذلك على الوجه الأكمل، والذي علينا إنما هو كشفُ القناع عمَّا يتعلَّق بالآية، والذي نظنُّه أنَّا قد أدَّينا الواجبَ، ويكفي من القلادة ما أحاط بالجِيْد، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤاله على ما اقتضته الحكمةُ، كأنه قيل: إنْ منعتُكَ الرؤيةَ فقد أعطيتُكَ من النعم العظام ما أعطيتُك، فاغتنِمْه، وثابر على شكرِه.

﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ أي: اخترتُكَ، وهو افتعالٌ من الصَّفوة بمعنى الخِيار، والتأكيدُ للاعتناء بشأن الخبر.

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الموجودين في زمانك. وهذا كما فُضِّل قومُه على عالمي زمانهم في قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ أي: بأسفار التوراة. وقرأ أهلُ الحجاز، ورَوْحٌ: «برسالتي»[2].

﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ أي: بتكليمي إياكَ بلا واسطة. أو الكلامُ على حذفِ مضاف، أي: بإسماعِ كلامي. والمرادُ فضَّلتُكَ بمجموعِ هذين الأمرين، فلا يرِدُ هارون عليه السلام لأنه لم يكن كليمًا، على أنَّ رسالتَه كانت تبعيةً أيضًا، وكان مأمورًا باتباع موسى عليه السلام، وكذلك لا يرِدُ السبعون الذين كانوا معه عليه السلام في هذا الميقات في قولٍ؛ لأنهم وإن سمعوا الخطاب إلا أنهم ليس لهم من الرِّسالة شيءٌ، على أن المقصودَ بالتكليم، الموجَّه إليه الخطابُ، هو موسى عليه السلام دونهم.

---

(١) الأبيات لابن الفارض، وهي في ديوانه ص١٦٩-١٧٠.
(٢) التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٢٧٢.

وبتخصيصِ الناس بما علمتَ خرجَ النبيُّ ﷺ، فلا يرِدُ أن مجموعَ الرسالة والتكليم بغير واسطةٍ وُجِدَ له عليه الصلاة والسلام أيضًا على الصَّحيح، على أنَّا لو قلنا بأنَّ التكليم بغيرِ واسطةٍ مخصوصٌ به عليه السلام من بين الأنبياء لا يلزمُ منه تفضيلُه من كلِّ الوجوه على غيره كنبيِّنا عليه الصلاة والسلام، فقد يُوجَدُ في الفاضل ما لا يوجَدُ في الأفضل، وإنما كان الكلامُ بلا واسطةٍ سببًا للشَّرف بناءً على العرف الظاهر، وقد قالوا: شتان بين من اتخَذَه الملكُ لنفسه حبيبًا، وقرَّبه إليه بلُطْفه تقريبًا، وبين من ضَرَبَ له الحجابَ والحُجَّابَ، وحال بينه وبين المقصود بوَّابٌ ونُوَّاب، على أن من ذاق طعمَ المحبةِ ولو بطرفِ اللسان يعلم ما في تكليم المحبوب بغيرِ واسطةٍ من اللطف العظيم والبرِّ الجسيم، وكلامُه جلَّ شأنُه لموسى عليه السلام في ذلك الميقات كثيرٌ على ما دلَّت عليه الآثار، وقد سبق لك ما يدلُّ على كمِّيته من حديث أبي هريرة(١).

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول»، والبيهقيُّ من طريق جُوَيْبِر، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الله تعالى شأنُه ناجى موسى عليه السلام بمئة ألفٍ وأربعين ألفَ كلمةٍ في ثلاثة أيام، فلما سمع كلامَ الآدميين مَقَتَهم؛ لِمَا وقع في مسامعه من كلام الربِّ عزَّ وجل، فكان فيما ناجاه أن قال: يا موسى، إنه لم يتصنَّع المتصنِّعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرَّبْ إليَّ المتقرِّبون بمثل الورع عما حرَّمتُ عليهم، ولم يتعبَّدِ المتعبِّدون بمثل البكاء من خشيتي. فقال موسى: يا ربِّ وإلهَ البريَّة كلِّها، ويا مالكَ يومِ الدين، ويا ذا الجلال والإكرام، ماذا أعددتَ لهم، وماذا جَزَيتهم؟ قال: أمَّا الزاهدون في الدنيا فإني أبيحهم جنَّتي حتى يتبوَّؤوا فيها حيث شاؤوا، وأما الورعون عما حرَّمتُ عليهم فإذا كان يوم القيامة لم يبقَ عبدٌ إلا ناقشتُه الحساب وفتَّشتُ عمَّا في يديه إلا الورعون، فإني أُجِلُّهم وأُكرمهم، وأُدخلُهم الجنةَ بغير حسابٍ، وأما الباكون من خشيتي فأولئك لهم الرفيقُ الأعلى لا يشاركهم فيه أحدٌ»(٢).

---

(١) تقدم ص٣٣٣ من هذا الجزء.

(٢) نوادر الأصول ص٢٤١، وشعب الإيمان (١٠٥٢٧). وأورده مختصرًا ابن كثير في تفسير الآية ١٦٤ من سورة النساء، وقال عقبه: وهذا إسناد ضعيف؛ فإن جويبرًا ضعيف، والضحاك لم يدرك ابن عباس رضي الله عنه.

وأخرج آدم بنُ أبي إياس في «كتاب العلم» عن ابن مسعود قال: لما قرَّبَ الله تعالى موسى نجيًّا أبصَرَ في ظلِّ العرش رجلاً، فغبَطَه بمكانه، فسأله عنه، فلم يُخبره باسمه، وأخبَرَه بعمله، فقال له: هذا رجلٌ كان لا يحسُدُ الناسَ على ما آتاهم الله تعالى من فضله، برًّا بالوالدين، لا يمشي بالنميمة، ثم قال الله تعالى: يا موسى، ما جِئتَ تطلبُ؟ قال: جئتُ أطلبُ الهدى يا رب. قال: قد وجدتَ يا موسى، فقال: ربِّ اغفر لي ما مضى من ذنوبي، وما غَبَرَ، وما بين ذلك، وما أنتَ أعلم به منِّي، وأعوذُ بك من وسوسة نفسي، وسوء عملي، فقيل له: قد كُفيتَ يا موسى. قال: يا ربِّ أيُّ العمل أحبُّ إليك أن أعملَه؟ قال: اذكرني يا موسى. قال: ربِّ، أيُّ عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: ربِّ، أيُّ عبادك أغنى؟ قال: الذي يقنع بما يُؤتى. قال: ربِّ، أيُّ عبادك أفضل؟ قال: الذي يقضي بالحقِّ ولا يتَّبع الهوى. قال: ربِّ، أيُّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يطلبُ علمَ الناس إلى علمه، لعلَّه يسمع كلمةً تدلُّه على هدًى، أو تردُّه عن ردى. قال: ربِّ، أيُّ عبادك أحبُّ إليك عملاً؟ قال: الذي لا يكذِبُ لسانُه، ولا يزني فرجه، ولا يفجُرُ قلبُه. قال: ربِّ، ثم أيٌّ على أَثَر هذا؟ قال: قلبٌ مؤمنٌ في خُلق حَسن. قال: ربِّ، أيُّ عبادك أبغضُ إليك؟ قال: قلبٌ كافرٌ في خُلق سيِّئ. قال: ربِّ، ثم أيٌّ على أَثَر هذا؟ قال: جِيفةٌ بالليل بطَّال بالنهار[1].

وأخرج البيهقيُّ في «الأسماء والصفات»، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم وصحَّحه، عن أبي سعيد الخدريِّ، عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا ربِّ علِّمني شيئًا أذكُرك به وأدعوكَ به؟ قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا ربِّ، كل عبادك يقول هذا. قال: قل: لا إله إلا الله. قال: لا إله أنتَ يا ربِّ، إنما أريد شيئًا تخصُّني به. قال: يا موسى، لو أنَّ السماوات السبعَ وعامرَهنَّ غيري، والأرضين السبعَ في كفَّةٍ، ولا إله إلا الله في كفَّة مالت بهنَّ لا إله إلا الله»[2].

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٧.

(٢) الأسماء والصفات (١٨٥)، ومسند أبي يعلى (١٣٩٣)، وصحيح ابن حبان (٦٢١٨)، ومستدرك الحاكم ١/ ٥٢٨. وهو من طريق دراج أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد. قال أبو داود فيما نقله الحافظ ابن حجر في التهذيب ١/ ٥٧٤ في ترجمة دراج: أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبي الهيثم عن أبي سعيد.

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» عن أبي هريرة قال: لما ارتقى موسى طورَ سينا رأى الجبَّارُ في أصبعه خاتمًا، فقال له: هل مكتوبٌ عليه شيءٌ من أسمائي أو كلامي؟ قال: لا. قال: فاكتبْ عليه: «لكلِّ أجلٍ كتاب»(١).

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن العلاء بن كثير قال: إنَّ الله تعالى قال: يا موسى، أتدري لم كلَّمتُك؟ قال: لا يا ربِّ. قال: لأني لم أخلقْ خلقًا تواضَعَ لي تواضُعَك(٢).

وللقُصَّاص أخبارٌ كثيرة موضوعةٌ في أسئلة موسى عليه السلام ربَّه، وأجوبتِه جلَّ شأنُه له، لا ينبغي لمسلمٍ التصديقُ بها.

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي: أعطيتُكَ من شرف الاصطفاء ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ أي: معدودًا في عِدادهم؛ بأن يكون لك مساهمةٌ كاملةٌ فيهم، وحاصلُه: كن بليغَ الشكر؛ فإنَّ ما أنعمتُ به عليكَ من أجلِّ النعم.

أخرج ابنُ أبي شيبة(٣) عن كعب أنه قال: قال موسى عليه السلام: يا ربِّ، دلَّني على عملٍ إذا عملتُه كان شكرًا لك فيما اصطنعتَ إليَّ، قال: يا موسى، قل: لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. قال: فكأنَّ موسى أراد من العمل ما هو أنهَكُ لجسمه مما أُمِرَ به، فقال له: يا موسى، لو أن السماواتِ السبعَ. الخبرَ، وهو في معنى ما في خبر أبي سعيد.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاجون إليه من الحلال والحرام، والمحاسن والقبائح، على ما قال الرازيُّ(٤) وغيرُه.

وما أخرجه الطبرانيُّ، والبيهقيُّ في «الدلائل»(٥) عن محمد بن يزيد الثقفيِّ

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٨. وقوله: «لكل أجل كتاب» جزء من الآية (٣٨) من سورة «الرعد».
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٨.
(٣) في المصنف ٦/ ٦٠.
(٤) تفسير الرازي ١٤/ ٢٣٧.
(٥) المعجم الكبير ١٨/ (٨٧٨)، ودلائل النبوة ٦/ ٤٧٦.

قال: اصطحَبَ قيس بنُ خَرَشة[١] وكعب الأحبار، حتى إذا بلغا صِفِّين وقف كعبٌ، ثم نظر ساعة، ثم قال: ليُهراقنَّ بهذه البقعة من دماء المسلمين شيء لا يُهراق ببقعة من الأرض مثلُه، فقال قيس: ما يُدريك؟ فإنَّ هذا من الغيب الذي استأثَرَ الله تعالى به. فقال كعب: ما من الأرض شبرٌ إلا مكتوبٌ في التوراة التي أنزلَ اللهُ تعالى على موسى ما يكونُ عليه وما يخرجُ منه إلى يوم القيامة[٢] = ظاهرٌ في أنَّ «كل شيء» أعمُّ مما ذُكر. ولعلَّ ذِكْر ذلك من باب الرَّمز، كما ندَّعيه في القرآن.

﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدلٌ من الجارِّ والمجرور، أي: كتبنا له كلَّ شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام. وإلى هذا ذهبَ غيرُ واحدٍ من المعربين، وهو مشعرٌ بأن «من» مزيدةٌ لا تبعيضيَّة، وفي زيادتها في الإثبات كلامٌ. قيل: ولم تُجعل ابتدائيةً حالاً من «موعظة»، و«موعظة» مفعولٌ به؛ لأنه ليس له كبيرُ معنى، ولم تجعل «موعظة» مفعولاً له، وإن استوفى شرائطَه؛ لأنَّ الظاهر عطف «تفصيلاً» على «موعظة»، وظاهرٌ أنه لا معنى لقولك: كتبنا له من كلِّ شيء لتفصيل كلِّ شيء، وأما جعْلُه عطفًا على محلِّ الجارِّ والمجرور فبعيدٌ من جهة اللفظ والمعنى.

والطِّيبي اختار هذا العطف، وأنَّ «من» تبعيضيةٌ، و«موعظة» وحدَها بدلٌ، والمعنى: كتبنا بعضَ كلِّ شيء في الألواح، من نحو السُّور والآيات وغيرِهما موعظةً، وكتبنا فيها تفصيلَ كلِّ شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرام ونحو ذلك، وفي ذلك اختصاصُ الإجمال والتفصيل بالموعظة؛ للإيذان بأن الاهتمامَ بها أشدُّ، والعنايةَ بها أتمُّ - ولكونها كذلك كثر مدحُ النبيِّ ﷺ بالبشير النذير - وإشعارٌ بأن الموعظة ممَّا يجبُ أن يُرجع إليه في كل أمرٍ يذكَّرُ به، ألا يُرى إلى أن أكثر الفواصل التنزيلية والردودِ على هذا النمط، نحو ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وإلى سورة الرحمن كيف أُعيدَ فيها ما أُعيد؟ وذلك ليستأنفَ السامعُ به ادِّكارًا واتِّعاظًا[٣]، ويجدِّد تنبيهًا واستيقاظًا. وأنتَ تعلم أن البُعدَ الذي أشرنا إليه باقٍ على حاله.

---

(١) هو القيسي من بني قيس بن ثعلبة، ذكره الحافظ في الإصابة ٨/ ١٨١.

(٢) أورده الحافظ في الإصابة ٨/ ١٨١، وقال عقبه: رجاله ثقات، لكن في السند انقطاع، ورجل لم يسمَّ.

(٣) في الأصل: وإيقاظًا.

وقوله سبحانه: «لكلِّ شيء» إما متعلِّقٌ بما عنده، أو بمحذوف ـ كما قال السَّمين ـ وقع صفةً له[١].

واختُلف في عدد الألواح، وفي جوهرها ومقدارها وكاتبها: فقيل: كانت عشرةَ ألواح، وقيل: سبعة، وقيل: لوحين ـ قال الزجَّاج[٢]: ويجوز أن يقال في اللغة للوحين ألواح ـ وأنها كانت من زُمُرُّد أخضر، أمر الربُّ تعالى جبريلَ عليه السلام فجاء بها من عدن، ورُوي ذلك عن مجاهد، وأخرج أبو الشيخ عن ابن جُرَيج قال: أُخبِرتُ أن الألواحَ كانت من زَبَرْجَد[٣]. وعن سعيد بن جُبَير قال: كانوا يقولون: إنها كانت من ياقوتة، وأنا أقول: إنها كانت من زُمُرُّد[٤].

وأخرج ابنُ أبي حاتم وغيره عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جدِّه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الألواح التي أُنزلت على موسى كانت من سِدْرِ الجنة، كان طولُ اللوح اثني عشر ذراعًا»[٥].

وعن الحسن أنها كانت من خشبٍ نزلت من السماء، وأن طولَ كلٍّ عشرةُ أذرع. وقيل: أَمَرَ الله تعالى موسى عليه السلام بقطعها من صخرةٍ صمَّاء ليَّنها له، فقطعها بيده، وسقفها بأصابعه.

ولا يخفى أن أمثالَ هذا يحتاج إلى النقل الصحيح، وإلا فالسكوتُ أَولى؛ إذ ليس في الآية ما يدلُّ عليه، والمختار عندي أنها من خشبِ السِّدر إن صحَّ السندُ إلى سلسلة الذهب.

والمشهور عن ابن جُرَيج أن كاتبَها جبريلُ عليه السلام، كتبها بالقلم الذي كتب به الذِّكر، والمرويُّ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وخلقٍ كثير أن الله تعالى كتبها بيده. وجاء أنها كُتبت وموسى عليه السلام يسمعُ

---

(١) الدر المصون ٥/ ٤٥٢.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٥.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٢٠.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٣.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٣. وزاد السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٢٠ نسبته إلى أبي الشيخ وابن مردويه.

صَرِيفَ الأقلام التي كُتبت بها، وهو المأثور عن الأمير كرَّم الله تعالى وجهه.

وجاء عن ابن عمر ﷺ أنه قال: خلق الله تعالى آدمَ بيده، وخلق جنةَ عَدْنٍ بيده، وكتب التوراة بيده، ثم قال لأشياء: كوني، فكانت.

وأخرج عبد بن حُمَيد عن وَرْدان أبي[1] خالد قال: خلق الله تعالى آدم بيده، وخلق جبريلَ بيده، وخلق القلم بيده، وخلق عرشَه بيده، وكتب الكتاب الذي عنده لا يطَّلع عليه غيرُه بيده، وكتب التوراة بيده. وهذا كلُّه من قبيل المتشابه.

وفي بعض الآثار أنها كُتبت قبل الميقات، وأُنزلت ـ على ما قيل ـ وهي سبعون وِقْر بعير، يُقرأ الجزءُ منه في سنة، لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى، ويُوشَع، وعُزَير، وعيسى عليهم السلام.

ومما كُتب فيها ـ كما أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس ـ ذِكْرُ النبيِّ ﷺ، وذِكْرُ أُمته، وما ادَّخر لهم عنده، وما يسَّر عليهم في دينهم، وما وسَّع عليهم فيما أحلَّ لهم[2]، حتى إنه جاء أنَّ موسى عليه السلام عجِبَ من الخير الذي أعطاه الله تعالى محمدًا ﷺ وأمَّته، وتمنَّى أن يكون منهم.

وأخرج ابن مَرْدويه، وأبو نُعَيم في «الحلية»[3]، وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كان فيما أعطى الله تعالى موسى في الألواح: يا موسى لا تُشرك بي شيئًا، فقد حقَّ القولُ منِّي: لتلفَحَنَّ وجوهَ المشركين النارُ، واشكر لي ولوالديك أقِكَ المتالف، وأُنسِئْكَ في عمرك، وأُحيكَ حياةً طيبةً، وأقلبْكَ إلى خير منها، ولا تقتلِ النفسَ التي حرم الله تعالى إلا بالحقِّ فتضيق عليك الأرضُ برُحْبها، والسماءُ بأقطارها، وتبوءَ بسخطي والنار، ولا تحلفْ باسمي كاذبًا ولا آثمًا؛ فإني لا أُطهِّر ولا أُزكِّي من لم ينزِّهْني ويعظِّم

(١) في الأصل و(م): بن، وكذا في الدر المنثور ٣/ ١٢١، والمثبت من السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (٣٩٩)، والإبانة لابن بطة (٢٣٠)، ووردان روى عنه عوف الأعرابي، وترجمته في التاريخ الكبير للبخاري ٨/ ١٨٠.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٣.

(٣) الحلية ٣/ ٢٦٥-٢٦٦ وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٣٣، وأخرجه أيضاً ابن عساكر ٦١/ ١٢٨.

أسمائي، ولا تحسدِ الناسَ على ما أعطيتُهم من فضلي، ولا تَنْفَس عليهم[1] نعمتي ورزقي؛ فإنَّ الحاسدَ عدوٌّ نعمتي، رادٌّ لقضائي، ساخطٌ لِقِسْمتي التي أقسم بين عبادي، ومن يكون كذلك فلستُ منه وليس منِّي، ولا تشهدْ بما لم يَعِ سمعُكَ، ويحفَظْ عقلُكَ، ويعقِدْ عليه قلبُكَ؛ فإني واقفٌ أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة، ثم سائلُهم عنها سؤالاً حثيثًا، ولا تزنِ، ولا تسرقْ، ولا تزنِ بحليلة جارِكَ فأحجُبَ عنك وجهي، وتغلقَ عنكَ أبوابُ السماء، وأَحِبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك، ولا تذبحنَّ لغيري؛ فإني لا أقبلُ من القُربان إلا ما ذُكر عليه اسمي، وكان خالصًا لوجهي، وتفرَّغْ لي يومَ السبت، وفرِّغْ لي نفسَك وجميعَ أهلِ بيتكَ». ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى جعل السبتَ لموسى عليه السلام عيدًا، واختار لنا الجمعةَ فجعلَها عيدًا».

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدٍّ وحزمٍ. قاله ابنُ عباس رضي الله عنهما.

والجملةُ على إضمار القول عطفًا على «كتبنا»، وحذفُ القولِ كثيرٌ مطَّرد، والداعي لهذا التقدير ـ كما قال العلامةُ الثاني ـ رعايةُ المناسبة لـ «كتبنا له»؛ لأنه جاء على الغَيبة، ولو كان بدلَه كتبنا لك لم يحتجْ إلى تقدير. وأما حديثُ عطف الإنشاء على الإخبار فلا ضيرَ فيه؛ لأنه يجوز إذا كان بالفاء.

وقيل: هو بدلٌ من قوله سبحانه: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ وضُعِّف بأن فيه الفصلَ بأجنبيٍّ، وهو جملة «كتبنا» المعطوفةُ على جملة «قال»، وهو تفكيكٌ للنظم.

والضميرُ المنصوب لـ «الألواح»، أو لـ «كل شيء»؛ فإنه بمعنى الأشياء، والعمومُ لا يكفي في عَود ضمير الجماعة بدون تأويله بالجمع، وجُوِّز عودُه للتوراة بقرينة السِّياق، والقائلُ بالبَدَلية جعله عائدًا إلى الرسالات.

والجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالاً من الفاعل، أي: ملتبسًا بقوة، وجُوِّز أن يكون حالاً من المفعول، أي ملتبسةً بقوة براهينها، والأول أوضحُ. وأن يكون صفةَ مفعولٍ مطلق، أي: أخذًا بقوة.

---

(١) في الأصل و(م): عليه. والمثبت من المصادر، ونَفِسَ عليه، كفرح: حسده. القاموس: (نفس).

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ﴾ أي: أحسنها، فالباءُ زائدةٌ كما في قوله:

سودُ المَحاجِرِ لا يَقْرأنَ بالسُّورِ[(١)]

ويَحتمِلُ أن تكون الباءُ أصليةً، وهو الظاهرُ، وحينئذٍ فهي إمَّا متعلِّقةٌ بـ «يأخذوا» بتضمينه معنى يعملوا، أو هو من الأخذ بمعنى السِّيرة، ومنه: أَخَذَ أخذَهم، أي: سار سِيْرتَهم، وتخلَّقَ بأخلاقهم[(٢)] كما نقول، وإمَّا متعلِّقةٌ بمحذوف وقع حالاً.

ومفعولُ «يأخذوا» محذوفٌ، أي: أنفسَهم كما قيل، والظاهرُ أنه مجزومٌ في جوابِ الأمر، فيحتاجُ إلى تأويل؛ لأنه لا يلزَمُ من أَمْرِهم أخذُهم، أي: إنْ تأمُرْهم ويوفِّقهم الله تعالى يأخذوا، وقيل: بتقدير لام الأمر فيه، بناءً على جواز ذلك بعد أمرٍ من القول، أو ما هو بمعناه كما هنا.

وإضافةُ أفعل التفضيل هنا عند غيرِ واحد كإضافته في: زيدٌ أحسنُ الناس، وهي على المشهور محضَةٌ على معنى اللام، وقيل: إنَّها لفظيةٌ، ويوهم صنيعُ بعضهم أنَّها على معنى في[(٣)]، وليس به. والمعنى: بأحسن الأجزاء التي فيها، ومعنى أحسنيَّتها: اشتمالُها على الأحسن، كالصَّبر؛ فإنَّه أحسنُ بالإضافة إلى الانتصار، أي: مُرْهُم يأخذوا بذلك على طريقة الندب والحثِّ على الأفضل، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ [الزمر: ٥٥]. أو المعنى: بأحسن أحكامها، والمرادُ به الواجباتُ؛ فإنَّها أحسنُ من المندوبات والمباحات، أو هي والمندوباتُ على ما قيل؛ فإنَّها أحسنُ من المباحات.

وقيل: إنَّ الأحسنَ بمعنى البالغ في الحسن مطلقًا لا بالإضافة، وهو المأمورُ به، ومقابلُهُ المنهيُّ عنه، وإلى هذا يشيرُ كلامُ الزجَّاج حيث قال: أُمِرُوا بالخير ونُهُوا عن الشَّر، وعُرِّفوا ما لهم وما عليهم، فقيل: «وأْمُرْ قومك» إلخ[(٤)]. فأفعل نظيرُه في قولهم: الصَّيف أحرُّ من الشتاء؛ فإنَّه بمعنى: الصيفُ في حرِّه أبلغُ من

---

(١) عجز بيت للراعي النميري، وصدره: هنَّ الحرائرُ لا ربَّاتُ أَحْمِرَةٍ، وهو في ديوانه ص١٢٢.

(٢) في (م): بخلائقهم.

(٣) قوله: بعضهم، يعني به البيضاوي، حيث قال: «بأحسنها» أي: بأحسن ما فيها. فكأن هناك مَن توهَّم من هذه العبارة أن الإضافة على معنى «في». ينظر حاشية الشهاب ٤/ ٢١٧.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٣٧٥.

الشتاء في برده؛ إذ تفضيلُ حرارة الصيف على حرارة الشتاء غيرُ مرادةٍ بلا شبهة، ويقال هنا: المأمورُ به أبلغُ في الحُسْن من المنهيِّ عنه في القبح.

وتفصيل ما في المقام على ما ذكره الدماميني في «تعليقه على المصابيح»[(١)]، ونقله عنه الشهاب[(٢)]: أن لأفعل أربع حالات:

إحداها وهي الحالة الأصلية: أن يدلَّ على ثلاثة أمور: الأول: اتِّصاف من هو له بالحدث الذي اشتقَّ منه، وبهذا كان وصفًا، الثاني: مشاركة مصحوبه في تلك الصفة، الثالث: مزيةُ موصوفه على مصحوبه فيها، وبكلٍّ من هذين الأمرين فارق غيره من الصفات.

وثانيتها: أن يخلع عنه ما امتاز به من الصفات، ويتجرَّد للمعنى الوصفي.

وثالثتها: أن تبقى عليه معانيه الثلاثة، ولكن يخلع عنه قيد المعنى الثاني ويخلفه قيدٌ آخر، وذلك أن المعنى الثاني وهو الاشتراك كان مقيَّدًا بتلك الصفة التي هي المعنى الأول، فيصير مقيدًا بالزيادة التي هي المعنى الثالث، ألا ترى أن المعنى في قولهم: العسل أحلى من الخلِّ: أن للعسل حلاوةً، وأن تلك الحلاوة ذاتُ زيادة، وأن زيادة حلاوة العسل أكثرُ من زيادة حموضة الخلِّ؟ وقد قال ذلك ابنُ هشام في «حواشي التسهيل»، وهو بديعٌ جدًّا.

ورابعتها: أن يخلع عنه المعنى الثاني وهو المشاركة، وقَيْدَ المعنى الثالث وهو كون الزيادة على مصاحبه، فيكون للدلالة على الاتِّصاف بالحدث، وعلى زيادةٍ مطلقة لا مقيَّدة، وذلك في نحو: يوسفُ أحسنُ إخوته. انتهى.

وعدم اشتراك المأمور به والمنهيِّ عنه في الحسن المراد مما لا شبهة فيه، وإن كان الحسن مطلقًا ـ كما في «البحر»[(٣)] ـ مشتركًا؛ فإن المأمور به أحسن من حيث الامتثالُ وترتُّبُ الثواب عليه، والمنهيُّ عنه حسنٌ باعتبار الملاذِّ والشهوة.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والكتاب سماه العلائي في هدية العارفين ٦/ ١٨٥: المصابيح في شرح الجامع الصحيح للبخاري، وسماه الزركلي في الأعلام ٦/ ٥٧: مصابيح الجامع، وسماه البغدادي في خزانة الأدب ٢/ ٦٧: تعليق المصابيح على الجامع الصحيح.

(٢) في الحاشية ٤/ ٢١٧، ولم يصرح الخفاجي باسمه.

(٣) البحر المحيط ٤/ ٣٨٨.

وقال قُطْرُب كما نقله عنه محيي السُّنة: المعنى: يأخذوا بحَسَنها، وكلها حَسَن[1]. وهو ظاهر في حمل أفعل على الحالة الثانية.

وقيل: المعنى: يأخذوا بها، و«أحسن» صلة. وليس له من القبول عائد.

وقال الجُبَّائيُّ: المراد: يأخذوا بالناسخ دون المنسوخ.

وقيل: الأخذُ بالأحسن هو أن تُحمل الكلمة المحتَمِلة لمعنيين أو لمعان على أشبه محتَمِلاتها بالحقِّ، وأقربها للصَّواب.

ولا ينبغي أن يُحمَلَ الأخذ على الشروع، كما في قولك: أخذ زيد يتكلم، أي: شرع في الكلام، والأحسن على العقائد، فيكون المراد أمرهم ليشرعوا بالتحلِّي بالعقائد الحقَّة، وهي لكونها أصولَ الدين، وموقوفة عليها صحةُ الأعمال، أحسنُ من غيرها من الفروع، وهو متضمِّنٌ لأمرهم بجميع ما فيها كما لا يخفى = فإنَّ أَخَذَ بالمعنى المَعنِيِّ من أفعال الشروع ليس هذا استعمالَها المعهود في كلامهم، على أنَّ فيه بَعْدُ ما فيه.

ومِثْلُ هذا كونُ ضمير «أحسنها» عائدًا إلى «قوة» على معنى: مُرْهم يأخذوها بأحسن قوة وعزيمة، فيكون أمرًا منه سبحانه أن يأمرهم بأخذها، كما أمره به ربه سبحانه، إلا أنه تعالى اكتفى في أمره عن ذكر الأحسن بما أشار إليه التنوين = فإنَّ ذلك خلاف المأثور المنساق إلى الفهم، مع أنَّا لم نجد في كلامهم: أحسن قوة.

ومفعول «يأخذوا» عليه محذوفٌ كما في بعض الاحتمالات السابقة، غير أنه فرقٌ ظاهر بين ما هنا وما هناك.

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ توكيدٌ لأمر القوم بالأخذ بالأحسن، وبعثٌ عليه على نهج الوعيد والترهيب، بناء على ما رُوي عن قتادة وعطيةَ العَوفيِّ من أن المراد بـ «دار الفاسقين»: دار فرعون وقومه بمصر.

ورأى بصريةٌ، وجُوِّز أن تكون علميَّة، والمفعول الثالث محذوفٌ، أي: سأريكم إيَّاها خاويةً على عروشها؛ لتعتبروا وتَجِدُّوا ولا تَهاونوا في امتثال الأمر، ولا تعملوا أعمال أهلها ليحلَّ بكم ما حلَّ بهم.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٠.

وفيه التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب، وحسَّنَ موقعَه قصدُ المبالغة في الحثِّ. وفي وضع الإراءة موضع الاعتبار إقامةُ السَّبب مقام المسبَّب مبالغةً أيضًا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

وفي وضع «دار الفاسقين» موضع أرض مصر الإشعارُ بالعِلِّيَّة، والتنبيهُ على أن يحترزوا ولا يستنُّوا بسنَّتهم من الفسق، والسين للاستقبال؛ لأن ذلك قبل الرجوع إلى مصر كما في «الكشف».

وقال الكلبيُّ: المراد بـ «دار الفاسقين»: منازل عاد وثمود، والقرون الذين هلكوا. وعن الحسن وعطاء أن المراد بها جهنَّم.

وأيًّا ما كان فالكلامُ على النهج الأول أيضًا، ويجوز أن يكون على نهج الوعد والترغيب بناءً على ما رُوي عن قتادة أيضًا من أن المراد بـ «دار الفاسقين»: أرضُ الجبابرة والعمالقة بالشام؛ فإنها مما أُبيح لبني إسرائيل وكتب لهم، حسبما ينطق به قوله عز وجل: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

ومعنى الإراءة: الإدخال بطريق الإيراث، ويؤيده قراءةُ بعضهم: «سأورثكم»[1]، وجُوِّز على هذا أن يراد بالدار مصر، وفي الكلام ـ على هذه القراءة وإرادة أرض مصر من الدار ـ تغليبٌ؛ لأن المعنى: سأورِّثك وقومَك أرضَ مصر، ولا يصحُّ ذلك عليها إذا أُريد من الدار أرضُ الجبابرة، بناءً على أن موسى عليه السلام لم يدخلها، وإنما دخلَها يوشَعُ مع القوم بعد وفاته عليه السلام، ويصحُّ بناءً على القول بأن موسى عليه السلام دخلها ويوشَعُ على مقدِّمته، وجُوِّز اعتبارُ التغليب على القراءة المشهورة أيضًا.

وقرأ الحسن: «سأُوريكم»[2] بضم الهمزة، وواو ساكنة، وراء خفيفة مكسورة، وهي لغة فاشيةٌ في الحجاز، والمعنى: سأبيِّنُ لكم ذلك وأُنوِّره، على أنه من أَوْرَيتُ الزَّنْد، واختار ابنُ جنِّي[3] في تخريج هذه القراءة ـ ولعلَّه الأظهر ـ أنها على الإشباع، كقوله:

---

(١) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ إلى قسامة بن زهير وابن عباس.
(٢) القراءات الشاذة ص٤٥-٤٦.
(٣) في المحتسب ١/٢٥٨.

مـن حـيـثـمـا سـلـكـوا أدنـو فـأنـظُـورُ[(١)]

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ مسوقٌ ـ على ما قال شيخ الإسلام[(٢)] ـ لتحذيرهم عن التكبُّر الموجِبِ لعدم التفكُّر في الآيات التي كتبت في ألواح التوارة المتضمِّنة للمواعظ والأحكام، أو ما يعُمُّها وغيرَها من الآيات التكوينية التي من جملتها ما وُعِدوا إراءتَه من دار الفاسقين. ومعنى صَرْفهم عنها: منعُهم بالطبع على قلوبهم، فلا يكادون يتفكَّرون فيها، ولا يعتبرون بها؛ لإصرارهم على ما هم عليه من التكبُّر والتجبُّر، كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، أي: سأطبع على قلوب الذين يَعُدُّون أنفسهم كبراءَ، ويرون أنَّ لهم ارتفاعًا في العالم السُّفلي، ومزيَّةً على الخلق، فلا ينتفعون بآياتي، ولا يغتنمون مغانم آثارها، فلا تسلكوا مسلَكهم فتكونوا أمثالَهم.

وقيل: هو جواب سؤالٍ مقدَّرٍ ناشئ من الوعد بإدخال أرض الجبابرة والعمالقة، على أنَّ المراد بالآيات ما تُلي آنفًا ونظائرُه، وبالصَّرف عنها: إزالةُ المتكبِّرين عن مقام معارضتها وممانعتها؛ لوقوع أخبارها وظهورِ أحكامها وآثارها بإهلاكِهم على يد موسى أو يُوْشَع عليهما السلام، كأنَّه قيل: كيف نرى[(٣)] دارَهم وهم فيها؟ فقيل لهم: سأُهلكُهم، وإنَّما عَدَل إلى الصَّرف ليزدادوا ثقةً بالآيات واطمئنانًا بها.

وعلى هذين القولين يكونُ الكلامُ مع موسى عليه السلام، والآيةُ متعلِّقةٌ إما بقوله سبحانه: «سأريكم» وإمَّا بما تقدَّمه على الوجه الذي أُشير إليه آنفًا.

وجوَّز الطِّيبيُّ كونَها متَّصلةً بقوله تعالى: «وأمر» إلخ، على معنى أن[(٤)] الأمر كذلك، وأما الإراءة[(٥)] فإني سأصرفُ عن الأخذ بآياتي أهلَ الطَّبع والشَّقاوة.

---

(١) البيت لإبراهيم بن هَرْمَة، وصدره كما في ديوانه ص٢٣٩: وأنني حيثما يُشْرِي الهوى بصري.

(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٧١-٢٧٢.

(٣) في (م): ترى، والمثبت من الأصل، وجاء في تفسير أبي السعود: يرون.

(٤) قوله: أن، ليس في (م).

(٥) في (م): الإرادة، ولم تجود في الأصل، والمثبت هو الصواب.

وقيل: الكلامُ مع كافري مكة، والآية متَّصلةٌ بقوله عزَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ الآية [١٠٠]، وإيرادُ قصَّة موسى عليه السلام وفرعون للاعتبار، أي: سأصرفُ المتكبِّرين عن إبطال الآيات وإن اجتهدوا، كما فعل فرعونُ فعاد عليه فعلُه بعكس ما أراد.

وقيل: إن الآيةَ - على تقدير كونِ الكلام مع قوم رسول الله ﷺ - اعتراضٌ في خلال ما سَبَقَ؛ للاعتبار، ومن حقِّ مَنْ ساق قصةً له أن يُنبِّه على مكانه كلما وجدَ فرصةَ التمكُّن منه.

وتقديم الجارِّ والمجرور على المفعول الصَّريح لإظهار الاعتناء بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر، مع أن في المؤخَّر نوعَ طولٍ يخلُّ تقديمُه بتجاوبِ أطراف النَّظم الجليل.

واحتجَّ بالآية بعضُ أصحابنا على أن الله تعالى قد يمنع عن الإيمان ويصدُّ عنه، وهو ظاهرٌ على تقدير أَنْ يُراد بالصَّرف المنعُ عن الإيمان، وليس بمتعيِّن كما علمت. وقد خاض المعتزلة في تأويلها، فأوَّلوها بوجوهٍ ذكرها الطبرسيُّ[(١)].

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إما صلةٌ للتكبُّر على معنى: يتكبَّرون ويتعزَّزون بما ليس بحقٍّ، وهو دينهم الباطل، وظلمُهم المفرِطُ، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعله، أي: يتكبَّرون ملتبسين بغير الحقِّ، ومآلُه: يتكبَّرون غيرَ محقِّين؛ لأن التكبُّر بحقٍّ ليس إلا لله تعالى، كما في الحديث القدسي الذي أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه: «الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمن نازعني في واحدٍ منهما قذفتُه في النَّار»[(٢)].

وقيل: المراد أنهم يتكبَّرون على من لا يتكبَّر، كالأنبياء عليهم السلام؛ لأنه الذي يكونُ بغير حقٍّ، وأما التكبُّر على المتكبِّر فهو بحقٍّ، لما في الأثر: التكبُّر

(١) في مجمع البيان ٩/ ٢١-٢٢.

(٢) سنن أبي داود (٤٠٩٠)، وأخرجه أحمد (٧٣٨٢)، وابن ماجه (٤١٧٤). وهو عند مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، بنحوه.

على المتكبِّر صدقةٌ[١]. وأنت تعلمُ أنَّ هذا صورةُ تكبُّرٍ لا تكبُّرٌ حقيقةً، فلعلَّ مرادَ هذا القائل أنَّ التقييد بما ذُكر لإظهار أنهم يتكبَّرون حقيقةً.

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ عطفٌ على «يتكبَّرون» داخلٌ معه في حكم الصِّلة، والمرادُ بالآية إما المنزلةُ، فالمرادُ برؤيتها مشاهدتُها، والإحساسُ بها بسماعها، أو ما يعمُّها وغيرَها من المعجزات، فالمراد برؤيتها مطلقُ المشاهدة المنتظِمَةِ للسماع والإبصار.

وفسَّر بعضُهم الآياتِ فيما تقدَّم بالمنصوبة في الآفاق والأنفس، والآيةَ هنا بالمنزلةِ أو المعجزةِ؛ لئلا يتوهَّم الدَّوْر على ما قيل، فليُفهم.

وجُوِّز أن يكون عطفًا على «سأصرفُ» للتعليل، على منوال قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ١٥] على رأي صاحب «المفتاح»[٢].

وأيًّا ما كان فالمرادُ عمومُ النفي، لا نفيُ العموم، أي: كفروا بكلِّ آيةٍ آية.

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ أي: طريقَ الهدى والسَّداد ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: لا يتوجَّهون إليه، ولايسلكونَه أصلاً؛ لاستيلاء الشَّيطنة عليهم.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: «الرَّشَد» بفتحتين[٣]، وقُرئ: «الرَّشَاد»[٤]. وثلاثُها لغاتٌ كالسُّقْم، والسَّقَم، والسَّقَام، وفرَّقَ أبو عمرو ـ كما قال الجُبَّائيُّ ـ بين الرُّشْد والرَّشَد بأن الرُّشْد بالضمِّ: الصَّلاحُ في الأمر، والرَّشَد بالفتح: الاستقامةُ في الدِّين، والمشهورُ عدمُ الفرق.

---

(١) لم نقف عليه مسندًا، ولا منسوبًا لأحد، وقد أورده العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٧٤، وقال: نقل القاري عن الرازي أنه كلام، ثم قال: لكن معناه مأثور. اهـ. وقد نقل ابن الملقن في طبقات الأولياء ص١١٢ قول بشر الحافي: التكبر على المتكبر من التواضع.

(٢) قال السكاكي في مفتاح العلوم ص٢٧٨: يحتمل عندي أنه أخبر تعالى عما صنع بهما، وأخبر عما قالا، كأنه قال: نحن فعلنا إيتاء العلم، وهما فعلا الحمد تفويضًا، استفادت (يعني الواو في «وقالا») ترتب الحمد على إيتاء العلم إلى فهم السامع.

(٣) وكذلك قرأ بها خلف. التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٣٧٢.

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ لعليٍّ ﵁.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾ أي: طريقَ الضَّلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: يختارونه لأنفسهم مسلكًا مستمرًّا لا يكادون يعدِلون عنه؛ لموافقته لأهوائهم، وإفضائه بهم إلى شهواتهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكورُ من التكبُّر، وعدمِ الإيمان بشيء من الآيات، وإعراضهم عن سبيل الهدى، وإقبالهم التامّ إلى سبيلِ الضَّلال حاصلٌ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنَّهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدَّالَّة على بطلان ما اتَّصفوا به من القبائح، وعلى حقِّيَةِ أضدادها ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ غيرَ معتدِّين بها، فلا يتفكَّرون فيها، وإلا لما فعلوا ما فعلوا من الأباطيل.

وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يكون «ذلك» إشارةً إلى الصَّرف، وما فيه من البحث يُدفَع بأدنى عنايةٍ كما لا يخفى على من مدَّت إليه العنايةُ أسبابَها.

وأيًّا ما كان فاسم الإشارة مبتدأٌ، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَعَ خبرًا عنه كما أشرنا إليه. وقيل: محلُّ اسم الإشارة النصبُ على المصدر، أي: سأصرِفُهم ذلك الصَّرفَ بسبب تكذيبهم بآياتنا، وغفلتهم عنها. ولا مانعَ من كون العامل «أصرفُ» المقدَّم؛ لأنَّ الفاصِلَ ليس بأجنبيٍّ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: لقائهم الدارَ الآخرة، على أنه من إضافة المصدر إلى المفعول وحذف الفاعل، أو لقائهم ما وعدَه الله تعالى في الآخرة من الجزاء، على أنَّ الإضافة إلى الظرف على التوسُّع، والمفعولُ مقدَّر كالفاعل، ومحلُّ الموصول في الاحتمالين الرفعُ على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ خبرُه، أي: ظهر بطلانُ أعمالهم التي كانوا عملوها من صلة الأرحام وإغاثة الملهوفين بعد ما كانت مرجوَّةَ النفع على تقدير إيمانهم بها، وحاصلُه أنهم لا ينتفعون بأعمالهم، وإلا فهي أعراضٌ لا تَحبَطُ حقيقةً.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي: لا يجزَون يوم القيامة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي: إلا جزاءَ ما استمرُّوا على عمله من الكفر والمعاصي. وتقديرُ هذا المضاف لظهور أن المُجْزى ليس نفسَ العمل. وقيل: إنَّ أعمالَهم تظهرُ في صور ما يُجزون به، فلا حاجةَ إلى التقدير. وهذه الجملةُ مستأنفةٌ، وقيل: هي الخبرُ، والجملةُ السابقةُ في موضع الحال بإضمار قد.

واحتجَّت الأشاعرةُ ـ على ما قيل ـ بهذه الآية على فساد قول أبي هاشم: إن تاركَ الواجب يستحقُّ العقابَ وإن لم يصدر عنه فعل الضِّدِّ؛ لأنها دلَّت على أنه لا جزاءَ إلا على عمل، وتركُ الواجب ليس به.

وأجاب أبو هاشم بأني لا أسمِّي ذلك العقابَ جزاءً.

ورُدَّ بأن الجزاءَ ما يجزي ـ أي: يكفي ـ في المنع عن المنهيِّ عنه، والحثِّ على المأمور به، والعقابُ على ترك الواجب كافٍ في الزَّجر عن ذلك الترك، فكان جزاءً.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد ذهابه إلى الجبل لمناجاة ربه سبحانه ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ جمع حَلْيٍ، كثَدْيٍ وثُدِيٍّ: وهو ما يُتَّخذ للزينة، ويُتحلَّى به من الذهب والفضة. والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «اتَّخذ»، كـ «من بعده» من قبله، ولا ضيرَ في ذلك؛ لاختلاف معنى الجارَّين؛ فإنَّ الأول للابتداء، والثاني للتبعيض، وقيل: للابتداء أيضًا، وتعلُّقه بالفعل بعد تعلُّق الأول به واعتبارِه معه. وقيل: الجارُّ الثاني متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالاً مما بعده؛ إذ لو تأخَّر لكان صفةً له.

وإضافةُ الحُليِّ إلى ضمير القوم لأدنى ملابسةٍ؛ لأنها كانت للقِبط، فاستعاروها منهم قُبيل الغرق، فبقيت في أيديهم، وقيل: إنها على ما يتبادَرُ منها، بناءً على أنَّ القوم مَلَكوها بعد أن ألقاها البحرُ على السَّاحل بعد غرق القِبْط، أو بعد أن استعاروها منهم وهلكوا. قال الإمام: رُوي أنه تعالى لمَّا أراد إغراقَ فرعون وقومِه لعِلْمِه أنَّه لا يؤمنُ أحدٌ منهم، أمَرَ موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يستعيروا حُلِيَّ القِبْط؛ ليخرجوا خلفَهم لأجل المال، أو لتبقى أموالُهم في أيديهم[(١)].

واستُشكل ذلك بكونه أمرًا بأخذ مال الغير بغير حقٍّ، وإنما يكون غنيمةً بعد الهلاك، مع أنَّ الغنائم لم تكن حلالاً لهم؛ لقوله ﷺ: «أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهنَّ أحدٌ قبلي: أُحلَّتْ لي الغنائمُ» الحديث[(٢)]. على أن ما نقل عن القوم في سورة «طه» من قولهم: ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [الآية: ٨٧] يقتضي عدم الحِلِّ أيضًا.

---

(١) تفسير الرازي ٣/ ٧٠.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٢٦٤)، والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وأُجيب بأنَّ لك[١] أن تقول: إنهم لمَّا استعبدوهم بغير حقٍّ، واستخدموهم، وأخذوا أموالَهم، وقتلوا أولادَهم، ملَّكهم الله تعالى أرضَهم وما فيها، فالأرضُ لله تعالى يُورِثُها من يشاءُ من عباده، وكان ذلك بوحي من الله تعالى لا على طريق الغَنيمة، ويكون ذلك على خلاف القياس، وكم من الشَّرائع مثلُه. والقولُ المحكيُّ سيأتي إن شاء الله تعالى ما فيه.

وهذه الجملةُ ـ كما قال الطِّيبيُّ ـ عطفٌ على قوله سبحانه: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ عطفَ قصَّةٍ على قصَّة.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «حِلِيِّهم» بكسر الحاء إتباعًا لكسرِ اللام[٢]، كدِلِيٍّ، وبعضٌ: «حَلْيِهم»[٣] على الإفراد.

وقوله سبحانه: ﴿عِجْلًا﴾ مفعولُ «اتَّخذ» بمعنى صاغ وعمل، أُخِّر عن المجرور لما مرَّ آنفًا. وقيل: إنَّ «اتَّخذ» متعدٍّ إلى اثنين، وهو بمعنى صيَّر، والمفعول الثاني محذوفٌ، أي: إلهًا.

والعجل: ولد البقر خاصَّةً، وهذا كما يقال لولد الناقة: حُوَار، ولولد الفرس: مُهْر، ولولد الحمار: جَحْش، ولولد الشاة: حَمَل، ولولد العنز: جَدْي، ولولد الأسد: شِبْل، ولولد الفيل: دَغْفَل، ولولد الكلب: جَرْو، ولولد الظَّبي: خِشْف، ولولد الأُرْوِيَّة[٤]: غُفْر، ولولد الضَّبُع: فُرْعُل، ولولد الدبِّ: دَيْسَم، ولولد الخِنزير: خِنَّوْص، ولولد الحيَّة: حِرْبِش، ولولد النَّعام: رَأْل، ولولد الدجاجة: فرُّوج، ولولد الفأر: دَرْص، ولولد الضَّبِّ: حِسْل، إلى غير ذلك، والمرادُ هنا ما هو على صورةِ العجل.

وقوله تعالى: ﴿جَسَدًا﴾ بدلٌ من «عجلاً»، أو عطفُ بيانٍ، أو نعتٌ له بتأويل متجسِّدًا، وفُسِّر ببدنٍ ذي لحمٍ ودم، قال الراغبُ[٥]: الجسد كالجسم، لكنَّه أخصُّ

---

(١) في (م): ذلك.
(٢) التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٢٧٢.
(٣) وهي قراءة يعقوب. النشر ٢/ ٢٧٢.
(٤) الأُرْوِيَّة، بالضم والكسر: أنثى الوعول. القاموس المحيط (روي).
(٥) في مفردات ألفاظ القرآن (جسد).

منه، وقيل: إنه [لا][(١)] يقال لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه، ويقال أيضًا لما له لونٌ، والجسمُ لما لا يَبينُ له لونٌ كالهواء، ومن هنا ـ على ما قيل ـ قيل للزَّعفران: الجِسَاد، ولِمَا أُشبعَ صبغُه من الثياب: مُجْسَد، وجاء المُجْسَد أيضًا بمعنى الأحمر، وبعضٌ فسَّر الجسد به هنا فقال: أي: أحمرُ من ذهب.

﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ هو صوتُ البقر خاصَّةً، كالثُّغاء للغنم، واليُعار للمعز، والنَّبِيْب للتَّيس، والنباح للكلب، والزَّئير للأسد، والعُوَاء والوَعْوَعَة للذئب، والضُّباح للثعلب، والقُبَاع للخِنْزير، والمُوَاء للهرة، والنَّهِيق والسَّحِيل للحمار، والصَّهيل والضَّبْح والقَبْع[(٢)] والحَمْحَمَة للفرس، والرُّغاء للناقة، والصَّئِيُّ[(٣)] للفيل، والبُغَام[(٤)] للظَّبي، والضَّغِيب[(٥)] للأرنب، والعِرَار للظَّلِيم، والصَّرْصَرة للبازيِّ، والغقغقة[(٦)] للصقر، والصَّفير للنَّسر، والهَدِير للحمام، والسَّجْع للقُمْريِّ، والسَّقْسَقة للعصفور، والنَّعِيق والنَّعِيب للغراب، والصُّقاعُ[(٧)] والزُّقاء للدِّيك، والقَوْقاء والنَّقْنَقة[(٨)] للدجاجة، والفَحِيح للحية، والنَّقِيق للضفدع، والصَّيءُ[(٩)] للعقرب والفأرة، والصَّرِير للجراد، إلى غير ذلك.

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصل و(م)، والمثبت من مفردات ألفاظ القرآن (جسد)، والعين للخليل ٦/ ٤٧، وهذا قوله.

(٢) تحرفت في الأصل و(م) إلى: القنع. قال في تاج العروس (قبع): القَبْع: صوت يردُّه الفرس من منخريه إلى حلقه، ولا يكاد يكون إلا نفارًا، أو شيء يتقيه ويكرهه.

(٣) تحرفت في الأصل و(م) إلى الصني. والتصحيح من تهذيب اللغة ١٢/ ٢٦٤، والصحاح (صأي).

(٤) في الأصل: التغمم، وفي (م): البتغم. والمثبت هو الصواب؛ يقال: بَغَم الظَّبي، يَبْغَم، بُغَامًا وبُغُومًا. انظر الفرق لقُطْرُب ص١٦٠، والصحاح (بغم)، والمخصص لابن سيده ٨/ ٢٦.

(٥) تحرفت في الأصل و(م) إلى الضعيب، بالعين المهملة. والمثبت من الفرق لقطرب ص١٦١، والمخصص ٨/ ٧٨.

(٦) تحرفت في الأصل إلى: القعقعة. وفي (م) إلى: العقعقة، والمثبت من تهذيب اللغة ١٦/ ٢٩، والمخصص ٨/ ١٣٣.

(٧) تحرفت في الأصل و(م) إلى: الصقاء، والمثبت من المخصص ٨/ ١٣٥، وفقه اللغة ص١٩٧.

(٨) تحرفت في الأصل إلى: التقيقة، وفي (م) إلى: النقيقة، والمثبت من الفرق لقطرب ص١٦٥، وفقه اللغة ص١٩٧.

(٩) وكذلك يقال: الصَّئِيُّ، كما يقال للفيل. انظر: العين ٧/ ١٧٥، والفرق لقطرب ص١٦١، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٦٤، وفقه اللغة ص١٩٧.

وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنه قرأ: «جُؤَار» بجيم مضمومةٍ وهمزةٍ[(١)]، وهو الصَّوت الشَّديد، ومثلُه الصِّياح والصُّراخ.

والجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوفٍ وقع خبرًا مقدَّمًا، و«خوار» مبتدأٌ، والجملةُ في موضع النَّعت لـ «عجلاً».

رُوي أن السامريَّ لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار حيًّا، وذكر بعضُهم في سرِّ ذلك أن جبريل عليه السلام لكونه الرُّوح الأعظم سَرَتْ قوةٌ منه إلى ذلك التراب أثَّرت ذلك الأثرَ بإذن الله تعالى لأمرٍ يريدُه عز وجل، ولا يلزم من ذلك أَنْ يحيا ما يطؤه بنفسه عليه السلام؛ لأنَّ الأمر مربوطٌ بالإذن، وهو إنما يكون بحسَبِ الحِكَم التي لا يعلَمها إلا الحكيم الخبير، فتدبَّر.

وإلى القول بالحياة ذهب كثيرٌ من المفسرين، وأُيِّد بأن الخُوار إنما يكون للبقر لا لصورته، وبأنَّ ما سيأتي إنْ شاء الله تعالى في سورة «طه» كالصَّريح فيما دلَّ عليه الخبر.

وقال جمعٌ من مفسِّري المعتزلة: إنَّ العجلَ كان بلا روحٍ، وكان السامريُّ قد صاغَه مجوَّفًا، ووضع في جوفه أنابيبَ على شكلٍ مخصوص، وجعلَه في مهبِّ الرِّيح، فكانت تدخُلُ في تلك الأنابيب، فيُسمَعُ لها صوتٌ يشبه خُوارَ العجل، ولذلك سُمي خوارًا. وما في «طه» سيأتي إن شاء الله تعالى الكلامُ فيه.

واختُلف في هذا الخوار؛ فقيل: كان مرَّةً واحدةً، وقيل: كان مرَّاتٍ كثيرة، وكانوا كلَّما خار سجدوا له، وإذا سكتَ رفعوا رؤوسَهم، وعن السُّدِّي أنه كان يخورُ ويمشي، وعن وَهْبٍ نفيُ الحركة، والآيةُ ساكتةٌ عن إثباتها، وليس في الأخبار ما يعوَّل عليه، فالتوقُّفُ عن إثباتِ المشي أَولى، وليست هذه المسألةُ من المهمَّات.

وإنَّما نُسب الاتِّخاذُ إلى قوم موسى عليه السلام وهو فعل السامريِّ؛ لأنهم رَضُوا به، وكثيرًا ما يُنسب الفعل إلى قوم مع وقوعه من واحد منهم، فيقال: قتل بنو فلان قتيلاً، والقاتل واحدٌ منهم.

---

(١) الكشاف ٢/١١٨، ونسبها ابن خالويه ص٤٦ إلى أبي السّمال.

وقيل: لأنَّ المراد اتِّخاذهم إيَّاه إلهًا، فالمعنى: صيَّروه إلهًا وعَبَدوه، وحينئذٍ لا تجوُّزَ في الكلام؛ لأنَّ العبادة له وقعتْ منهم جميعًا، قال الحسن: كلُّهم عبدوا العجلَ إلا هارون عليه السلام، واستثنى آخرونَ غيرَه معه.

وعلى القول الأول قيل: لابدَّ من تقدير: فعبدوه؛ ليكون ذلك مصبَّ الإنكار؛ لأنَّ حرمةَ التصوير حدثَتْ في شرعنا على المشهور، ولأنَّ المقصودَ إنكارُ عبادته.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تقريعٌ لهم، وتشنيعٌ على فَرْط ضلالهم، وإخلالهم بالنَّظر، أي: ألم يروا أنه لا يقدِرُ على ما يقدِرُ عليه آحادُ البشر من الكلام وإرشاد السبيل بوجهٍ من الوجوه، فكيف عَدَلوه بخالقِ الأجسام والقوى والقُدَر. وجعلَه بعضُهم تعريضًا بالإله الحقِّ، وكلامِه الذي لا ينفَدُ، وهدايته الواضحة التي لا تُجحَد، وقيل: إنه تعريضٌ بالله تعالى، وبكلامه مع موسى عليه السلام وهدايته لقومه.

﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ تكرارٌ لجميع ما سلف من الاتِّخاذ على الوجهِ المخصوص المشتمل على الذمِّ(١)، وهو من باب الكناية على أسلوب:

أن يَرى مُبْصِرٌ ويسمَعَ واعِ(٢)

أي: أقدَموا على ما أقدَموا عليه من الأمر المنكَر.

﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ، أي: إنَّ دأبَهم قبل ذلك الظلمُ، ووضعُ الأشياء في غير موضعها، فليس ببِدْعٍ منهم هذا المنكر العظيم، وكرَّر الفعل

---

(١) في هذا إشارة إلى أنه متعد لمفعولين، ذكر الأول، وقدر الثاني، أي: اتخذوه إلهًا. انظر حاشية الشهاب ٤/ ٢١٩.

(٢) البيت للبحتري من قصيدة يمدح بها المعتز بالله بن المتوكل على الله، ويعرِّض بالمستعين بالله أحمد بن المعتصم. وصدره كما في الديوان ٢/ ١٢٤٤: شَجْوُ حُسَّاده وغيظُ عِداهُ.
يقول: إن محاسن الممدوح وفضائله يكفي في معرفة أنها سببٌ لاستحقاقه الإمامة دون غيره أن يقع عليها بصر ويعيها سمع، فحسَّاده وأعداؤه يتمنون أن لا يكون في الدنيا من له عين يبصر بها وأذن يسمع بها، كي يخفى استحقاقه للإمامة. فجعل مطلق الرؤية كناية عن رؤية محاسنه وآثاره، ومطلق السماع كناية عن سماع أخباره، فهذا نوع من الكناية تَذْكُر فيه الفعلَ وفي نفسك له مفعول مخصوص قد عُلم مكانه إما بجَرْيِ ذكرٍ أو دليلِ حالٍ، وينظر تفصيل هذه المسألة في دلائل الإعجاز ص١٥٥- ١٥٦، والإيضاح في علوم البلاغة ١/ ١٠٤.

ليبنيَ عليه ذلك. وقيل: الجملةُ في موضع الحال، أي: اتَّخذوه في هذه الحالة المستمرَّة لهم.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا كما رُوي عن ابن عباس ﵄، وجعلَه غيرُ واحدٍ كنايةً عن شدَّةِ الندم وغايته؛ لأنَّ النادمَ إذا اشتدَّ ندمُه عضَّ يده غمًّا، فتصيرُ يدُه مسقوطًا فيها، وأصلُه: سَقَطَ فُوه ـ أو عضُّه ـ في يده، أي: وقع، ثم حُذف الفاعلُ وبُني الفعلُ للمفعول به، فصار سُقط في يده، كقولك: مُرَّ بزيد.

وقرأ ابنُ السَّميفع: «سَقَطَ» بالبناء للفاعل على الأصل(١).

واليدُ على ما ذُكر حقيقة. وقال الزجَّاج: معناه: سقط النَّدم في أنفسهم(٢)، وجعل القطب ذلك من باب الاستعارة التمثيلية، حيث شبَّه حالَ النَّدم في النفس بحال الشَّيء في اليد في التحقيق والظُّهور، ثم عبَّر عنه بالسُّقوط في اليد، ولا لُطْفَ للاستعارة التصريحية فيه.

وقال الواحديُّ: إنه يقال لما حصلَ وإن لم يكن في اليد: وقَعَ في يده، وحصَلَ في يده مكروهٌ، فيُشَبَّه ما يحصُل في النفس وفي القلب بما يُرى بالعين.

وخُصَّت اليد لأنَّ مباشرةَ الأمور بها، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، أو لأنَّ الندم يظهرُ أثرُه بعد حصوله في القلب في اليد؛ لعضِّها، والضَّربِ بها على أُختها، ونحو ذلك، فقد قال سبحانه في النادم: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ [الكهف: ٤٢]، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ [الفرقان: ٢٧].

وقيل: من عادة النادم أن يُطأطئَ رأسَه، ويضَعَ ذقنَه على يده بحيث لو أزالها سقَطَ على وجهه، فكأنَّ اليدَ مسقوطٌ فيها. و«في» بمعنى على.

---

(١) البحر ٤/ ٣٩٤، ونسبها ابن خالويه ص٤٦ لليماني.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٨، وفيه: سقط الندم في أيديهم. وكذا نقله عنه الزمخشري وابن الجوزي وأبو حيان والنسفي في تفاسيرهم، وما ذكره المصنف هو شرح لكلامه، فقد قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ١١٨ إثر كلام الزجاج: أي: في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن كان محالاً أن يكون في اليد، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويُرى في النفس.

وقيل: هو من السِّقاط: وهو كثرةُ الخطأ. وقيل: من السَّقِيط: وهو ما يَغْشى الأرضَ بالغَدَوات شِبْه الثلجِ لا ثباتَ له، فهو مثَلٌ لمن خسِرَ في عاقبته، ولم يحصُل على طائلٍ من سعيه.

وعدَّ بعضُهم «سقط» من الأفعال التي لا تتصرَّف، كنعم وبئس.

وقرأ ابنُ أبي عَبْلة: «أُسْقِط» على أنه رباعيٌّ مجهول[1]، وهي لغةٌ نقلَها الفرَّاءُ والزجَّاج[2].

وذكر بعضُهم أنَّ هذا التركيبَ لم يُسمع قبل نزول القرآن، ولم تعرفْه العربُ، ولم يوجد في أشعارهم وكلامهم، فلذا خفي على الكثير وأخطؤوا في استعماله، كأبي حاتم، وأبي نُوَاس، وهو العالم النِّحرير[3]، ولم يعلموا ذلك، ولو علموه لسُقِط في أيديهم.

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي: تبيَّنوا ضلالَهم باتِّخاذهم العجلَ وعبادته تبيُّنًا كأنَّهم قد أبصروه بعيونهم.

قيل: وتقديمُ ذِكْر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخِّرًا عنها للمسارعة إلى بيانه، والإشعارِ بغاية سرعته، كأنه سابقٌ على الرؤية.

وقال القطب في بيان تأخُّر تبيُّنِ الضَّلال عن الندم مع كونه سابقًا عليه: إنَّ الانتقال من الجزم بالشيء إلى تبيُّن الجزم بالنقيض لا يكون دفعيًّا في الأغلب، بل إلى الشكِّ، ثم الظنِّ بالنقيض، ثم الجزم به، ثم تبيُّنه، والقومُ كانوا جازمين بأنَّ ما هم عليه صوابٌ، والندمُ عليه ربما وقع لهم في حال الشكِّ فيه، فقد تأخَّر تبيُّنُ الضَّلال عنه. انتهى. فافهم ولا تغفَلْ.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزالِ التوبة المكفِّرة ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوُزِ عن خطيئتنا.

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٣٩٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٣، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٨.

(٣) ينظر ما أخطأا فيه في هذه المسألة في الدر المصون ٥/ ٤٦٢.

وتقديمُ الرحمة على المغفرة مع أنَّ التخليةَ حقُّها أن تقدَّم على التَّحلية؛ قيل: إمَّا للمسارعة إلى ما هو المقصودُ الأصليُّ، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالرحمة مطلقُ إرادةِ الخير بهم، وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفِّرة لذنوبهم.

واللام في «لئن» موطِّئة للقسم، أي: والله لئن.. إلخ، واللامُ في قوله سبحانه: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝١٤٩﴾ لجوابِ القَسَم، كما هو المشهور.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «تَرْحمنا»، و«تَغْفر لنا» بالتاء الفوقية، و«ربَّنا» بالنَّصب على النداء[1].

وما حُكي عنهم من النَّدامة والرؤية والقولِ كان بعد رجوع موسى عليه السلام من الميقات، كما ينطِقُ به ما سيأتي إن شاء الله تعالى في «طه»، وقُدِّم ليتَّصِلَ ما قالوه بما فعلوه.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ﴾ ممَّا حدَثَ منهم ﴿أَسِفًا﴾ أي: شديد الغضب كما قال أبو الدرداء، ومحمد القُرَظيُّ، وعطاء، والزجَّاج[2]. أو حزينًا على ما رُوي عن ابن عباس، والحسن، وقتادة رضي الله عنهم.

وقال أبو مسلم: الغضبُ والأسفُ بمعنًى، والتكريرُ للتأكيد.

وقال الواحديُّ: هما متقاربان، فإذا جاءك ما تكره ممَّن هو دونَك غضبتَ، وإذا جاءك ممَّن هو فوقَك حزنتَ، فعلى هذا كان موسى عليه السلام غضبانَ على قومه باتِّخاذهم العجلَ، حزينًا لأنَّ الله تعالى فتنَهم، وقد أخبرَه سبحانه بذلك قبل رجوعه.

ونصَبَ الوصفين على أنَّهما حالان مترادفان، أو متداخلان؛ بأن يكون الثاني حالاً من الضمير المستتر في الأول، وجوَّزَ أبو البقاء[3] أن يكون بدلاً من الحال الأولى، وهو بدلُ كلٍّ لا بعضٍ كما تُوُهِّم.

---

(١) التيسير ص١١٣، وزاد في النشر ٢/ ٢٧٢ نسبتها لخلف.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٨.

(٣) في إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٦٤.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ خطابٌ إما لعَبَدة العجل، وإما لهارون عليه السلام ومن معه من المؤمنين، أي: بئسما فعلتُم بعد غَيبتي، حيثُ عبدتُم العجلَ بعد ما رأيتُم منِّي من توحيد الله تعالى، ونفي الشُّركاء عنه سبحانه، وإخلاصِ العبادة له جلَّ جلاله، أو: بئسما قمتُم مقامي حيث لم تُراعوا عَهْدي، ولم تكفُّوا العَبَدةَ عمَّا فعلوا بعدما رأيتُم مني من حَمْلهم على التوحيد، وكفِّهم عما طَمَحَتْ نحوَه أبصارُهم من عبادة البقر حين قالوا: «اجعَلْ لنا إلهًا كما لهم آلهةٌ».

وجُوِّز أن يكون[1] الخطابُ للفريقين، على أنَّ المراد بالخلافة الخلافةُ فيما يعمُّ الأمرين اللذين أُشير إليهما.

ولا تكرار في ذكر «من بعدي» بعد «خلفتموني»؛ لأنَّ المراد: من بعد ولايتي وقيامي بما كنتُ أقوم؛ إذ بعديَّتُه على الحقيقة إنَّما تكون ـ على ما قيل ـ بعد فراقِهِ الدُّنيا.

وقيل: إنَّ «من بعدي» تأكيدٌ من باب: رأيتُه بعيني، وفائدتُه تصويرُ نيابة المستخلِف، ومزاولة سيرته، كما أن هنالك تصوير الرؤية وما يتَّصل بها.

و«ما» نكرةٌ موصوفةٌ مفسِّرة لفاعل «بئس» المستكِنِّ فيه، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ، أي: بئس خلافةً خلفتمونيها من بعدي خلافتُكم، والذمُّ فيما إذا كان الخطاب لهارون عليه السلام ومَنْ معه من المؤمنين ليس للخلافة نفسها، بل لعدم الجَرْي على مقتضاها، وأما إذا كان للسامريِّ وأشياعِه فالأمر ظاهر.

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: أعجِلتُم عمَّا أمركم به ربُّكم، وهو انتظار موسى عليه السلام حالَ كونهم حافظين لعهده وما وصَّاهم به، فبنيتُم الأمرَ على أنَّ الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجِعْ إليكم، فحدَّثتُم أنفسَكم بموتي فغيَّرتُم.

رُوي أنَّ السامريَّ قال لهم حين أخرَجَ لهم العجلَ، وقال: إنَّ هذا إلهكم وإله موسى: إن موسى لن يرجعَ، وإنه قد مات. ورُوي أنهم عدُّوا عشرين يومًا بلياليها، فجعلوها أربعينَ، ثم أحدثوا ما أحدثوا.

---

(١) بعدها في (م): على.

والمعروف تعدِّي «عَجِلَ» بـ «عن»، لا بنفسه، فيقال: عَجِل عن الأمر: إذا تركَه غيرَ تامٍّ، ونقيضُه: تمَّ عليه، وأعجَلَه عنه غيرُه، وضمَّنوه هنا معنى السَّبق، وهو كنايةٌ عن الترك، فتعدَّى تعديَتَه، ولم يُضمَّن ابتداءً معنى الترك لخفاء المناسبة بينهما وعدمِ حُسْنها. وذهب يعقوبُ[(١)] إلى أن السَّبق معنى حقيقيٌّ له من غير تضمين. والأمر واحدُ الأوامر.

وعن الحسن أن المعنى: أعجِلتُم وعدَ ربِّكم الذي وعدكم من الأربعين. فالأمر عليه واحدُ الأمور. والمرادُ بهذه الأربعين ـ على ما ذكره الطِّيبيُّ ـ غيرُ الأربعين التي أشار الله تعالى إليها بقوله سبحانه: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وسيأتي تتمةُ الكلام في ذلك قريبًا إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ أي: وضَعَها على الأرض، كالطَّارح لها، ليأخُذَ برأس أخيه مما عَراه من فَرْط الغَيْرة الدينية، وكان عليه السلام شديدَ الغضب لله سبحانه؛ فقد أخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم أنه عليه السلام كان إذا غضب اشتعلَتْ قَلَنْسُوتُه نارًا[(٢)].

وقال القاضي ناصرُ الدِّين: أي: طرَحَها من شدةِ الغضبِ وفَرْط الضَّجْرة حميَّةً للدِّين، ثم نَقَل أنه انكسر بعضُها حين ألقاها[(٣)].

واعترَضَ عليه أفضلُ المتأخرين شيخُ مشايخنا صبغةُ الله أفندي الحَيْدريُّ بأنَّ الحميَّةَ للدِّين إنما تقتضي احترامَ كتاب الله تعالى، وحمايتَه أن يلحَقَ به نقصٌ أو هوانٌ، بحيث تنكسر ألواحُه، ثم قال: والصَّواب أن يقال: إنه عليه السلام لفَرْط حميَّته الدينية وشدَّة غضبِه لله تعالى لم يتمالَكْ ولم يتماسك أن وقعت الألواح من

---

(١) هو ابن السكيت، وكلامه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥١، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٢١، وعنه نقل المصنف.

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٢٧، ونسبه إلى أبي الشيخ. والخبر لو صح سنده فظاهره ظاهر البطلان، وفيه احتمال إرادة المجاز، وأنه من باب المبالغة في وصف شدة غضب موسى عليه السلام.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٢١.

يده بدون اختيارٍ، فنزَّل ترك التحفُّظِ منزلةَ الإلقاء الاختياريِّ، فعبَّر به تغليظًا عليه عليه السلام؛ فإنَّ حسناتِ الأبرار سيِّئاتُ المقرَّبين. انتهى.

وتعقَّبه العلامةُ صالح أفندي المَوصليُّ عليه الرحمةُ بأنَّه لا يخفى أنَّ هذا الإيراد إنَّما نشأَ من جعل قول القاضي: حميَّةً للدِّين، مفعولاً له لـ: طَرَحها، وهو غيرُ صحيح؛ فقد صرَّح في أوائل تفسيره لسورة «طه»[1] بأن الفعل الواحد لا يتعدَّى لعلَّتين، وإنَّما هو مفعولٌ له لـ: شدَّة الغضب وفَرْط الضَّجْرة، على سبيل التنازُع، والتوجيهُ الذي ذُكر للآية هو ما أراده القاضي، وتفسيرُه الإلقاء بالطَّرح لا ينافي ذلك على ما لا يخفى. اهـ.

وأقول: أنتَ تعلمُ أنَّ كونَ هذا التوجيه هو ما أراده القاضي غيرُ بيِّنٍ ولا مبيِّن، على أنَّ حديث كون التعبير بالإلقاء تغليظًا عليه عليه السلام منحطٌّ عن درجة القَبول جدًّا؛ إذ ليس في السِّباق ولا في السِّياق ما يقضي بكون المقام عتاب موسى عليه السلام ليُفتى بهذا التَّغليظ نظرًا إلى مقامه ﷺ، بل المقامُ ظاهرٌ في الحطِّ على قومه، كما لا يخفى على مَنْ له أدنى حظٍّ من رفيع النَّظر، والذي يراه هذا الفقيرُ ما أشرنا إليه أوَّلاً، وحاصلُه أن موسى عليه السلام لما رأى من قومه ما رأى غضِبَ غضبًا شديدًا حميَّةً للدِّين، وغيرةً من الشِّرك بربِّ العالمين، فعجَّلَ في وَضْع الألواح لتَفْرُغَ يدُه فيأخُذَ برأس أخيه، فعبَّر عن ذلك الوضع بالإلقاء تفظيعًا لفعل قومه، حيث كانت معاينته سببًا لذلك، وداعيًا إليه، مع ما فيه من الإشارة إلى شدَّة غيرته، وفَرْط حميَّته، وليس في ذلك ما يُتَوَهَّم منه نوعُ إهانةٍ لكتابِ الله تعالى بوجهٍ من الوجوه، وإنكسارُ بعض الألواح حصَلَ من فعلٍ مأذونٍ فيه، ولم يكن غرضَ موسى عليه السلام، ولا مرَّ بباله، ولا ظنَّ ترتُّبَه على ما فعل، وليس هناك إلا العَجَلةُ في الوضع، الناشئةُ من الغَيْرة لله تعالى، ولعلَّ ذلك من باب: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

واختلفت الرواياتُ في مقدار ما تكسَّر ورُفِع، وبعضُهم أنكر ذلك، حيث إنَّ ظاهر القرآن خلافُه. نعم أخرج أحمدُ وغيره، وعبد بن حُميد، والبزَّار، وابنُ

(١) تفسير البيضاوي ٦/ ١٨٩.

أبي حاتم، وابن حبان، والطبرانيُّ، وغيرهم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحَمُ الله تعالى موسى، ليس المُعايِنُ كالمُخبَرِ، أخبَرَه ربُّه تبارك وتعالى أنَّ قومَه فُتِنوا بعدَه فلم يُلق الألواح، فلمَّا رآهم وعايَنَهم ألقى الألواح، فتكسَّر منها ما تكسَّر»(١). فتأمَّل ولا تغفل.

وما رُوي عن ابن عباس أنَّ موسى عليه السلام لمَّا ألقى الألواح رُفِعَ منها ستةُ أسباعٍ، وبقي سُبُع(٢)، وكذا ما رُوي عن غيره نحوُه = منافٍ لما رُوي فيما تقدَّم من أنَّ التوراة نزلت سبعين وِقْرًا، يُقرأ الجزءُ منه في سنة، لم يقرأها إلا أربعةُ نفرٍ: موسى، ويُوشَع، وعُزَير، وعيسى عليهم السلام. وكذا لما يُذكر بعدُ من قوله تعالى: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [١٥٤] فإنَّ الظاهر منه العهد. والجوابُ بأن الرفعَ لما فيها من الخطِّ دون الألواح خلافُ الظاهر، والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي: بشعرِ رأس هارون عليه السلام؛ لأنَّه الذي يؤخَذُ ويُمسَكُ عادةً، ولا ينافي أخذَه بلحيته كما وقع في سورة «طه»، أو أُدخِل فيه تغليبًا.

﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ ظنًّا منه عليه السلام أنَّه قصَّر في كفِّهم، ولم يتمالك لشدَّة غضبه وفَرْط غيظِه أَنْ فعل ذلك، وكان هارون أكبَرَ من موسى عليهما السلام بثلاث سنين، إلا أنَّ موسى أكبَرُ منه مرتبةً، وله الرسالةُ والرياسةُ استقلالاً، وكان هارون وزيرًا له، وكان عليه السلام حمولاً، ليِّنًا جدًّا، ولم يقصِدْ موسى بهذا الأخذ إهانَتَه والاستخفافَ به، بل اللومَ الفعليَّ على التقصير المظنون بحكم الرِّياسة وفَرْط الحميَّة.

والقولُ بأنه عليه السلام إنَّما أخَذَ رأسَ أخيه ليسارَّه، ويستكشفَ منه كيفيةَ الواقعة، ممَّا يأباه الذوق كما لا يخفى على ذَوِيه، ومثلُه القولُ بأنَّه إنما كان لتسكين هارون؛ لما رأى به من الجَزَع والقلق.

---

(١) مسند أحمد (٢٤٤٧)، وكشف الأستار عن زوائد البزار (٢٠٠)، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٧٠، وصحيح ابن حبان (٦٢١٤)، والمعجم الكبير للطبراني (١٢٤٥١). وأخرجه كذلك الحاكم ٢/ ٣٢١.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٥٦، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٧٠، وفيه أنها رفعت إلا سدسها.

وقال أبو علي الجُبَّائيُّ: إنَّ موسى عليه السلام أجرى أخاه مجرى نفسه، فصنَعَ به ما يصنَعُ الإنسانُ بنفسه[١] عند شدَّة الغضب. وقال الشيخ المفيد من الشِّيعة: إن ذلك للتألُّم من ضلال قومه، وإعلامِهم على أبلغ وجهِ عِظَمَ ما فعلوه، لينزجروا عن مثله. ولا يخفى أنَّ الأمر على هذا من قبيل:

غيري جَنَى وأنا المعاقَبُ فيكم فكأنَّني سبَّابة المتندِّم[٢]

ولعلَّ ما أشرنا إليه هو الأولى.

وجملة «يجرُّه» في موضع الحال من ضمير «موسى»، أو من «رأس»، أو من «أخيه»؛ لأنَّ المضاف جزءٌ منه، وهو أحدُ ما يجوز فيه ذلك، وضعَّفه أبو البقاء[٣].

﴿قَالَ﴾ أي: هارون مخاطبًا لموسى عليه السلام؛ إزاحةً لظنِّه: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ بحذفِ حرف النداء؛ لضيق المقام.

وتخصيصُ الأمِّ بالذِّكْر[٤] مع كونهما شقيقين ـ على الأصحِّ ـ للترقيق، وقيل: لأنها قامت بتربيته، وقاست في تخليصه المخاوفَ والشدائد.

وقيل: إن هارون عليه السلام كانت آثارُ الجمال والرحمة فيه ظاهرةً كما يُنبئُ عنه قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، وكان موردُه ومصدرُه ذلك، ولذا كان يلهَجُ بذِكْر ما يدلُّ على الرحمة، ألا ترى كيف تلطَّفَ بالقوم لما قدموا على ما قدموا، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟ [طه: ٩٠]، ومن هنا ذَكَر الأم ونسب إليها؛ لأنَّ الرحمة فيها أتمُّ، ولولاها ما قدرتْ على تربية الولد وتحمُّلِ المشاقِّ فيها، وهو منزعٌ صوفيٌّ كما لا يخفى.

واختُلف في اسم أُمِّهما عليهما السلام: فقيل: لخيانة بنتُ يصهر بن لاوي، وقيل: يوخابَذْ، وقيل: يارخا، وقيل: يازخت، وقيل غير ذلك، ومن النَّاس من زعم

---

(١) في الأصل و(م): به، بدل: بنفسه، والمثبت من مجمع البيان ٩ (تتمة)/ ٣٠، والكلام منه.

(٢) البيت لمحمد بن شرف القيرواني، شبه نفسه بسبابة المتندم؛ لأنها أول شيء يتألم في المتندم. انظر الإيضاح في علوم البلاغة ١/ ٢١١، وخزانة الأدب ٢/ ٤٦٣-٤٦٤.

(٣) في الإملاء ٣/ ٦٤.

(٤) تحرفت في (م) إلى: بالمذكر.

أنَّ لاسمها ﷺ خاصيَّةً في فتح الأقفال، وله رياضةٌ مخصوصةٌ عند أرباب الطَّلاسم والحروف، وما هي إلا رهبانيَّةٌ ابتدعوها، ما أنزل الله تعالى بها من كتاب.

وقرأ ابنُ عامر، وحمزةُ، والكسائيُّ، وأبو بكرٍ عن عاصم هنا وفي «طه» [٩٤]: «ابنَ أمِّ» بالكسر، وأصله: ابن أمِّي، فحُذِفت الياءُ اكتفاءً بالكسرة تخفيفًا، كالمنادى المضاف إلى الياء، وقرأ الباقون بالفتح زيادةً في التخفيف، أو تشبيهًا بخمسة عشر[1].

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾ الذين فعلوا ما فعلوا ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي: استذلُّوني وقهروني، ولم يُبالوا بي لقلَّة أنصاري ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ وقاربوا قتلي حين نهيتُهم عن ذلك، والمراد أنِّي بذلتُ وسعي في كفِّهم، ولم آلُ جهدًا في منعهم.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي: فلا تفعل ما يشمَتُون بي لأجله؛ فإنهم لا يعلمون سِرَّ فعلك، والشماتة: سرورُ العدوِّ بما يصيبُ المرءَ من مكروه.

وقرئ: «فلا تَشمُتْ بي الأعداءُ» بفتح حرف المضارعة، وضمِّ الميم[2]، ورفعِ «الأعداء» - حطَّهم الله تعالى - وهو كنايةٌ عن ذلك المعنى أيضًا على حدِّ: لا أرينَّك هاهنا.

والمراد من الأعداء القومُ المذكورون، إلا أنه أُقيم الظاهرُ مقامَ ضميرهم، ولا يخفى سِرُّه.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي: لا تجعلني معدودًا في عِدادهم، ولا تَسلُكْ بي سلوكَكَ بهم في المعاتبة، أو: لا تعتقدني واحدًا من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظُلمهم، فالجَعْل مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩].

---

(١) التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٢٧٢. وانظر تفسير البيضاوي ٤/ ٢٢١، والحجة للقراء السبعة ٤/ ٨٩ وما بعدها.

(٢) كذا نقل المصنف عن الشهاب الخفاجي ٤/ ٢٢١، والمذكور في كتب التفسير وكتب القراءات الشاذة: «تَشْمَتْ» بفتح التاء والميم، و: «تَشْمِتْ» بفتح التاء وكسر الميم. ينظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص٤٦، والمحتسب ١/ ٢٥٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٤٣-٣٤٤، والبحر المحيط ٤/ ٣٩٦، والدر المصون ٥/ ٤٦٩.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكاية الاعتذار، كأنَّه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام عند اعتذار أخيه؟ فقيل: قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما فعلتُ بأخي قبل جليَّة الحال. وحسناتُ الأبرار سيِّئاتُ المقرَّبين. ﴿وَلِأَخِى﴾ إن كان اتَّصف بما يعدُّ ذنبًا بالنسبة إليه في أمر أولئك الظَّالمين، وفي هذا الضمِّ ترضيةٌ له عليه السلام، ورفعٌ للشماتة عنه.

والقولُ بأنَّه عليه السلام استغفرَ لنفسه ليُرضيَ أخاه ويُظهِرَ للشَّامِتين رضاه؛ لئلَّا تتمَّ شماتَتُهم به، ولأخيه؛ للإيذان بأنه محتاجٌ إلى الاستغفار حيث كان يجب عليه أن يقاتِلَهم = لي فيه توقُّفٌ لا يخفى وجهُهُ.

﴿وَأَدْخِلْنَا﴾ جميعًا ﴿فِى رَحْمَتِكَ﴾ الواسعة بمزيد الإنعام علينا، وهذا ما يقتضيه المقابلةُ بالمغفرة، والعدولُ عن: ارحمنا، إلى ما ذُكِر.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ فلا غَرْوَ في انتظامنا في سِلْك رحمتك الواسعة في الدنيا والآخرة. والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلَه، وادعى بعضُهم أنَّ فيه إشارةً إلى أنه سبحانه استجابَ دعاءه، وفيه خفاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: بقوا على اتِّخاذه واستمرُّوا عليه كالسامريِّ وأشياعه، كما يُفصح عنه كونُ الموصول الثاني عبارةً عن التائبين، فإنَّ ذلك صريحٌ في أنَّ الموصولَ الأولَ عبارةٌ عن المُصِرِّين.

﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ أي: سيلحقُهم ويصيبُهم في الآخرة جزاءَ ذلك ﴿غَضَبٌ﴾ عظيمٌ لا يُقادَرُ قَدْرُه، مستتبعٌ لفنون العقوبات؛ لعظم جريمتهم، وقُبح جريرتهم.

﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: مالكهم، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «ينالُهم»، أو بمحذوف وقع نعتًا لـ «غضب» مؤكِّداً لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، أي: كائنٌ من ربِّهم.

﴿وَذِلَّةٌ﴾ عظيمةٌ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي على ما أقول: الذِّلَّة التي عَرَتهم عند تحريق إلهِهم ونسفِه في اليَمِّ نسفًا، مع عدم القدرة على دفع ذلك عنه. وقيل: هي ذِلَّة الاغتراب التي تُضرَبُ بها الأمثالُ، والمسكنةِ المنتظِمَةِ لهم ولأولادهم جميعًا، والذلَّة التي اختُصَّ بها السامريُّ من الانفراد عن الناس، والابتلاء بـ «لا مِساس».

ورُوي أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك، وإذا مسَّ أحدَهم أحدٌ غيرُهم حُمَّا جميعًا في الوقت، ولعلَّ ما ذكرناه أولى، والرواية لم نَرَ لها أثرًا. وإيرادُ ما نالَهم بالسِّين للتغليب.

وقيل - وإليه يشير كلامُ أبي العالية -: المرادُ بهم التائبون، وبالغضب ما أُمِرُوا به من قتل أنفسهم، وبالذلَّة إسلامُهم أنفسَهم لذلك، واعترافُهم بالضَّلال. واعتُذر عن السين بأنَّ ذلك حكايةٌ عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبرَه بافتتانِ قومه واتِّخاذهم العجلَ؛ فإنه قال له: «سينالهم غضبٌ» إلخ، فيكون سابقًا على الغضب. وجُعلَ الكلامُ جوابَ سؤال مقدَّرٍ، وذلك أنه تعالى لما بيَّن أن القوم ندِموا على عبادتهم العجلَ بقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ والندم توبةٌ، ولذلك عقَّبوه بقولهم: «لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا»، وذَكَرَ عتابَ موسى لأخيه عليهما السلام، ثم استغفارَه، اتَّجه لسائلٍ أن يقول: يا ربِّ إلى ماذا يصيرُ أمرُ القوم وتوبتهم، واستغفارُ نبيِّ الله تعالى؟ وهل قَبِلَ الله تعالى توبتَهم؟ فأجاب: «إنَّ الذين اتَّخذوا العجلَ سينالهم غضبٌ» أي: نعَمْ قبل توبة موسى وأخيه، وغفر لهما خاصَّةً. وكان من تمام توبة القوم أن الله سبحانه أمرَهم بقتل أنفسهم، فسلَّموها للقتل، فوضع الذين اتَّخذوا العجل موضعَ القوم؛ إشعارًا بالعِلِّيَّة.

وتُعقِّب بأن سياقَ النظم الكريم وكذا سِبَاقُه نابٍ عن ذلك نبوًّا ظاهرًا، كيف لا وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ ينادي على خلافه؛ فإنَّهم شهداءُ تائبون، فكيف يمكن وصفُهم بعد ذلك بالافتراء؟ وأيضًا ليس يَجْزي الله تعالى كلَّ المفترين بهذا الجزاء الذي ظاهرُهُ قهرٌ، وباطنه لطفٌ ورحمةٌ، إلا أن يقال: يكفي في صحَّة التشبيه وجودُ وجهِ الشَّبَه في الجملة، ولابدَّ من التزام ذلك على الوجه الذي ذكرناه أيضًا.

وما ذُكِر في تحرير السؤال والجواب مما تمجُّه أسماع ذوي الألباب.

وقال عطيَّة العوفيُّ: المرادُ سينال أولادَ الذين عبدوا العجلَ، وهم الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وأُريد بالغضب والذِّلَّة ما أصاب بني النَّضير وقُريظة من القتل والجَلاء، أو ما أصابَهم من ذلك، ومن ضَرْب الجِزْية عليهم. وفي الكلام

على هذا حذفُ مضافٍ وهو الأولادُ، ويحتمِلُ أن لا يكون هناك، وهو من تعيير الأبناء بما فعل الآباءُ، ومثله في القرآن كثير.

وقيل: المرادُ بالموصول المتَّخِذون حقيقةً، وبالضَّمير في «ينالُهم» أخلافُهم، وبالغضب الغضبُ الأخرويُّ، وبالذِّلَّة الجزيةُ التي وضَعَها الإسلامُ عليهم، أو الأعمُّ منها؛ ليشمل ما ضَرَبَه بُختنصَّر عليهم.

وتُعقِّب ذلك أيضًا بأنه لا ريب في أن توسيط حالِ هؤلاء في تضاعيف بيان حال المتَّخذين من قبيل الفصل بين الشجر ولِحَائه.

والمرادُ بـ «المفترين»: المفترون على الله تعالى، وافتراءُ أولئك عليه سبحانه قولُ السامريِّ في العجل: هذا إلهكم وإله موسى، ورضاهم به، ولا أعظَمَ من هذه الفرية، ولعلَّه لم يَفْتَرِ مثلَها أحدٌ قبلَهم ولا بعدَهم.

وعن سفيان بن عُيَينة أنه قال: كلُّ صاحبِ بدعةٍ ذليلٌ، وتلا هذه الآية.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أيَّ سيئةٍ كانت؛ لعموم المغفرة، ولأنَّه لا داعيَ للتَّخصيص ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ عنها ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد عملها، وهو تصريحٌ بما تقتضيه «ثم».

﴿وَآمَنُوا﴾ أي: واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضاه وبه تمامُه من الأعمال الصالحة، ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا كالطائفة الأولى، وهو عطفٌ على «تابوا»، ويحتمِلُ أن يكون حالاً بتقدير قد. وأيًّاما كان فهو ـ على ما قيل ـ من ذكر الخاصِّ بعد[1] العامِّ للاعتناء به؛ لأنَّ التوبة عن الكفر هي الإيمان، فلا يقال: التوبةُ بعد الإيمان، فكيف جاءت قبله؟

وقيل: حيث كان المراد بالإيمان ما تدخُلُ فيه الأعمال يكون بعد التوبة.

وقيل: المرادُ به هنا التصديقُ بأنَّ الله تعالى يغفرُ للتائب، أي: ثم تابوا وصدَّقوا بأن الله تعالى يغفِرُ لمن تابَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد التوبة المقرونة بما لا تُقبَلُ بدونه، وهو

(١) تحرفت من (م) إلى: بعدم.

الإيمان. ولم يجعَل الضميرَ للسَّيِّئات؛ لأنَّه ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ لا حاجةَ له بعد قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾، لا لأنَّه يحتاجُ إلى حذفِ مضافٍ ومعطوف، [أي:][1] من عملها والتوبةِ عنها؛ لأنَّه لا معنى لكونه من بعدها إلَّا ذلك.

﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنوبهم وإن عظُمَت وكثُرَت، ﴿رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ مبالغٌ في إفاضة فنون الرَّحمة عليهم.

والموصولُ مبتدأٌ، وجملة «إن ربك» إلخ خبرٌ، والعائدُ محذوفٌ، والتقديرُ عند أبي البقاء[2]: لغفورٌ لهم، رحيمٌ بهم.

والتعرُّض لعنوان الرُّبوبية مع الإضافة لضميره عليه الصلاة والسلام للتَّشريف، وقيل: الخطابُ للتائب، ولا يخفى لطفُ ذلك أيضًا.

وفي الآية إعلامٌ بأنَّ الذنوبَ، وإن جلَّت وعظُمت، فإنَّ عَفْوَ الله تعالى وكَرَمَه أعظمُ وأجلُّ، وما ألطفَ قول أبي نُواس[3] غَفَرَ الله تعالى له:

يا ربِّ إن عظُمَت ذنوبي كثرةً ... فلقد علمتُ بأنَّ عفوَكَ أعظمُ

إن كان لا يرجوكَ إلا محسنٌ ... فبمن يلوذُ ويستجِيرُ المجرِمُ

وممَّا يُنسب للإمام الشافعي رضي الله عنه[4]:

ولمَّا قسا قلبي وضاقَتْ مذاهبي ... جعلتُ الرَّجا ربي لعفوك سُلَّما

تعاظَمَني ذنبي فلمَّا قرنتُه ... بعفوِكَ ربي كان عفوكَ أعظما

ويعجبني قولُ بعضهم، وما أولى هذا المذنبَ به:

أنا مذنبٌ أنا مخطئٌ أنا عاصي ... هو غافرٌ هو راحمٌ هو عافي

قابلتُهنَّ ثلاثةً بثلاثةٍ ... وستغلبَنْ أوصافُه أوصافي

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٤/ ٢٢٢، والكلام منه.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٦٨.

(٣) ديوانه ص٥٨٧.

(٤) ديوانه ص٧٨.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ شروعٌ في بيان بقيةِ الحكاية إثر ما بيَّنَ تحزُّبَ القوم إلى مُصِرٍّ وتائبٍ، والإشارةُ إلى ما لكلٍّ منهما إجمالاً، أي: ولما سكن[1] عنه الغضبُ باعتذار أخيه وتوبةِ القوم، وهذا صريحٌ في أنَّ ما حُكي عنهم من النَّدم وما يتفرَّع عليه، كان بعد مجيء موسى عليه السلام.

وقيل: المرادُ: ولما كُسِرت سَوْرةُ غضبهِ عليه السلام وقلَّ غيظُه باعتذار أخيه فقط، لا أنَّه زال غضبُه بِالكليَّة، لأنَّ توبةَ القوم ما كانت خالصةً بعدُ.

وأصل السكوت قطعُ الكلام، وفي الكلام استعارةٌ مكنيَّةٌ، حيث شبَّه الغضبَ بشخصٍ ناهٍ آمرٍ، وأثبتَ له السكوتَ على طريق التخييل، وقال السَّكاكيُّ[2]: إنَّ فيه استعارةً تبعيَّةً، حيث شبَّه سكونَ الغضب وذهابَ حدَّته بسكوت[3] الآمرِ الناهي، والغضبُ قرينتُها. وقيل: الغضبُ استعارةٌ بالكناية عن الشخص الناطق، والسكوت استعارةٌ تصريحيَّةٌ لسكون هَيَجانه وغلَيانه، فيكون في الكلام مكنيَّة قرينتُها تصريحيَّة لا تخييليَّة. وأيًّا ما كان ففي الكلام مبالغةٌ وبلاغةٌ لا يخفى علوُّ شأنهما.

قال الزجَّاج: مصدر سكَتَ الغضبُ: السَّكْتَة، ومصدر سكَتَ الرجلُ: السُّكوتُ[4]. وهو يقتضي أن يكون سكتَ الغضبُ فِعْلاً على حِدَةٍ.

وقيل - ونُسِبَ إلى عكرمة -: إن هذا من القَلْب، وتقديرُه: ولما سكَتَ موسى عن الغضب. ولا يخفى أن السكوتَ كان أجمَلَ بهذا القائل؛ إذ لا وجهَ لما ذكره.

وقرأ معاويةُ بن قُرَّة: «سكن»، والمعنى على ذلك ظاهرٌ، إلا أنه على قراءة الجمهور أعلى كعبًا عند كلِّ ذي طبعٍ سليم، وذوقٍ صحيح، وقُرِئ: «سُكِّتَ» بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعلُه، والتشديدُ للتعدية[5]، و«أُسكِتَ»[6] بالبناء لذلك أيضًا على أن المسكِتَ هو الله تعالى، أو أخوه، أو التائبون.

---

(١) في (م): سكت.

(٢) ينظر مفتاح العلوم ص٣٨٩-٣٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٤/ ٢٢٢.

(٣) في (م): بسكون، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في الحاشية.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٩ والكلام من حاشية الشهاب ٤/ ٢٢٢.

(٥) القراءتان في القراءات الشاذة ص٤٦.

(٦) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٤/ ٣٩٨.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾أي: فيما نُسِخَ فيها وكتب، ففُعْلة بمعنى مفعول كالخطبة، والنَّسخ: الكتابةُ، والإضافةُ بيانيَّةٌ، أو بمعنى في، وإلى هذا ذهب الجُبَّائيُّ وأبو مسلم[١] وغيرهما، وقيل: معنى منسوخة: ما نُسخ فيها من اللَّوح المحفوظ، وقيل: النَّسخ هنا بمعنى النقل، والمعنى: فيما نقل من الألواح المنكسرة.

ورُوي عن ابن عباس، وعمرو بن دينار أن موسى عليه السلام لما أَلقى الألواح فتكسَّر منها ما تكسَّر صام أربعين يومًا، فردَّ عليه ما ذَهب في لوحين، وفيهما ما في الأول بعينه، فكأنه نُسِخَ من الأول.

﴿هُدًى﴾ أي: بيانٌ للحقِّ عظيمٌ، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ جليلةٌ بالإرشاد إلى ما فيه الخيرُ والصَّلاح ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: يخافون أشدَّ الخوف.

واللامُ الأولى معلَّقةٌ بمحذوفٍ وقَعَ صفةً لما قبله، أو هي لام الأَجْل، أي: هدى ورحمةً لأَجْلهم، والثانيةُ لتقوية عمل الفعل المؤخَّر، كما في قوله سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٢]، أو هي أيضًا لامُ العِلَّة، والمفعول محذوفٌ، أي: يرهبون المعاصي لأجل ربِّهم، لا للرِّياء والسُّمعة. واحتمالُ تعلُّقها بمحذوفٍ، أي: يخشعون[٢] لربهم، كما ذهب إليه أبو البقاء[٣]، بعيدٌ.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ تتمةٌ لشرح أحوال بني اسرائيل، وقال البعض: إنَّه شروعٌ في بيان كيفيةِ استدعاء التوبة، وكيفيةِ وقوعها.

و«اختار» يتعدَّى إلى اثنين، ثانيهما مجرورٌ بـ «من»، وقد حُذِفت هنا وأُوصِلَ الفعلُ، والأصل: من قومه، ونحوُه قولُ الفرزدق[٤]:

ومِنَّا الذي اخْتِير الرجالَ سماحةً وجودًا إذا هبَّ الرِّياحُ الزَّعازعُ

وقولُ[٥] الآخر:

---

(١) نقله عنهما الطبرسي في مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٣٣.

(٢) تحرفت في (م) إلى: يخشون.

(٣) في إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٦٨.

(٤) ديوانه ١/ ٤١٨.

(٥) تحرفت في (م) إلى: وقوله.

فقلت له اخترها قَلُوصًا سمينةً ونابًا عِلابًا مثل نابك في الحيا[(١)]

وقوله سبحانه: ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ مفعولٌ أول لـ «اختار» على المختار، وأُخِّر عن الثاني لما مرَّ مرارًا، وقيل: بدلُ بعضٍ من كلٍّ، ومنعَه الأكثرون بناءً على أنَّ المبدَلَ منه في نية الطَّرح، والاختيارُ لا بدَّ له من مختارٍ ومختار منه، وبالطَّرح يسقطُ الثاني، وجوَّزه أبو البقاء[(٢)] على ضعفٍ، ويكون التقدير: سبعين منهم، وقيل: هو عطفُ بيانٍ.

﴿لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ ذهب أبو عليٍّ، وأبو مسلم[(٣)]، وغيرُهما من مفسِّري السُّنة والشِّيعة إلى أنه الميقات الأول، وهو الميقات الكلاميُّ، قالوا: إنه عليه السلام اختار لذلك من اثني عشر سِبْطًا، من كلِّ سِبطٍ ستة، حتى تتامُّوا اثنين وسبعين، فقال عليه السلام: ليتخلّفْ منكم رجلان، فتشاحُّوا، فقال: لمن قعَدَ منكم مثلُ أجر من خرج، فقعَدَ كالب ويوشع.

ورُوي أنه لم يصب إلا ستين شيخًا، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار من الشبَّان عشرةً، فاختارهم، فأصبحوا شيوخًا. وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين، ولم يتجاوزوا الأربعين، فذهب عنهم الجهل والصِّبا.

فأمرهم موسى عليه السلام أن يصوموا، ويتطهَّروا، ويُطهِّروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طُور سيناء، فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود الغَمام حتى تغشَّى الجبلَ كلَّه، ودنا موسى ودخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، فدَنَوا، حتى إذا دخلوا الغَمام وقعوا سجَّدًا، فسمعوه وهو سبحانه يكلم موسى يأمره وينهاه، افعل ولا تفعل، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤيةَ، فوَعَظَهم وكان ما كان.

وذهب آخرون ـ وهو المرويُّ عن الحسن ـ إلى أنه غيرُ الميقات الأول، قالوا:

---

(١) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص٥، ومعاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٥، وتفسير الطبري ١٠/ ٤٧٤، والدر المصون ٥/ ٤٧٣، واللباب لابن عادل ٩/ ٣٣١، وجاء في هذه المصادر: علينا، بدل: علاباً. وفي بعضها: ونابٌ. وصدره في الديوان: فقلت لربِّ الناب خذها ثنية. والقلوص: الفتية من الإبل، والناب: المسنَّة.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٦٨.

(٣) نقل قولهما الطبرسي في مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٣٤.

إن الله سبحانه أَمَرَ موسى عليه السلام أن يأتيه في أناسٍ من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار من اختاره، فلما أَتَوا الطُّور قالوا ما قالوا. ورُوي ذلك عن السُّدي. وعن ابن إسحاق أنه عليه السلام إنما اختارهم ليتوبوا إلى الله تعالى، ويسألوه التوبةَ على مَنْ تركوا وراءهم من قومهم. ورجَّح ذلك الطِّيبيُّ مدَّعيًا أن الأولَ خلافُ نظم الآيات وأقوال المفسرين:

أما الأولُ: فلما قال الإمام[1]: إنه تعالى ذكر قصةَ ميقات الكلام وطلبِ الرؤية، ثم أتبعها بقصَّة العجل وما يتَّصل بها، فظاهرُ الحال أن تكون هذه القصةُ مغايرةً للمتقدمة؛ إذ لا يليقُ بالفصاحة ذِكْرُ بعض القصَّة، ثم النَّقلِ إلى أخرى، ثم الرجوع إلى الأولى، وإنه اضطرابٌ يصانُ عنه كلامه تعالى. وأيضاً ذكر في الأولى خرورَ موسى عليه السلام صَعِقًا، وفي الثانية قوله بعد أَخْذ الرَّجْفة: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾. وأيضًا لو كانت الرَّجْفة بسبب طلبِ الرؤية لقيل: أَتُهلِكُنا بما قال السفهاء؟ وضمَّ إليه الطِّيبيُّ أنه تعالى حيث ذكر صاعقَتَهم لم يذكُرْ صعقَ موسى عليه السلام، وبالعكس، فدلَّ على التغاير.

وأما الثاني: فلِمَا نُقِل عن السُّدي مما ذكرناه آنفًا.

وتعقَّبَ ما ذُكر في الترجيح أولاً صاحبُ «الكشف» بأنَّ الإنصاف أن المجموعَ قصةٌ واحدة في شأن ما مَنَّ على بني إسرائيل بعد إنجائهم من تحقيق وعد إيتاء الكتاب، وضَرْبِ ميقاته، وعبادةُ العجل، وطلبُ الرؤية كان في تلك الأيام، وفي ذلك الشأن، فالبعض مربوطٌ بالبعض، بقي إيثار هذا الأسلوب وهو بَيِّن؛ لأنَّ الأول في شأن الامتنان عليهم وتفضيلهم، كيف وقد عطف «واعدنا» على «أنجيناكم»؟ وقد بيَّنَ أنه تبيينٌ للتفضيل، وتعقيبُ حديثِ الرؤية مستطرِدٌ للفرق بين الطلبين عندنا، وليُلقِمَهم الحَجَر عند المعتزلة. والثاني في شأن جنايتهم ـ بعد ذلك الإحسان البالغ ـ باتخاذ العجل[2]. والملاحةُ والافتراقُ من لوازم النظم.

وتعقَّب ما ذُكِر فيه ثانيًا بأنَّ قول السُّدي وحدَه لا يصلح ردًّا، كيف وهذا

---

(١) في تفسيره ١٥/١٧، ويعني بالأول: نظم الآيات.

(٢) قوله: باتخاذ العجل، ليس في الأصل.

يخالفُ ما نقله محيي السُّنة[١] في قوله سبحانه: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ أنَّهم كانوا له وزراءَ مطيعين، فاشتدَّ عليه ـ عليه السلام ـ فَقدُهم، فرحمَهم، وخاف عليهم الفوتَ؟ وأين ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ [البقرة: ٥٥] من الطاعة وحسن الاستيزار؟!

قال: ثم الظاهر من قوله تعالى ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ [النساء: ١٥٣] أنَّ اتِّخاذَ العجل متأخِّر عن مقالتهم تلك، خلاف ما نُقل عن السُّدِّي، والحملُ على تراخي الرُّتبة لابدَّ له من سندٍ، كيف ولا ينافي التراخي الزماني؟ فلا بدَّ من دليل يخصُّه به.

هذا وقد اعترف المفسِّرون في سورة «طه» بأنه اختار سبعينَ لميقات الكلام، ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [الآية: ٨٣]، وما اعتذر عنه الطِّيبيُّ بأنَّ اختيار السبعين كان مرَّتين، وليس في النقل أنهم كانوا معه عند المكالمة وطلبِ الرؤية، فظاهرٌ للمنصف سقوطُه. انتهى.

وذكر القطب في توهين ما نُقل عن السُّدِّي بأنَّ الخروجَ للاعتذار إن كان بعد قتلهم أنفسَهم ونزول التوبة، فلا معنى للاعتذار، وإن كان قبل قتلهم فالعجبُ من اعتذارٍ ثمرتُه قتلُ الأنفس! ثم قال: ولا ريبَ أن قصةً واحدةً تتكرَّر في القرآن يُذكر في سورةٍ بعضُها، وفي أخرى بعضٌ آخرُ، وليس ذلك إلا لتكرارِ اعتبار المعتبرين بشيء من تلك القصة، فإذا جاز ذِكْر قصةٍ في سورٍ متعدِّدةٍ في كلِّ سورةٍ شيءٌ منها، فلمَ لا يجوز ذلك في مواضعَ من سورةٍ واحدةٍ لتكرُّر الاعتبار؟!. اهـ. وهو ظاهرٌ في ترجيح ما ذهَبَ إليه الأولون.

وأنا أقول: إنَّ القول بأنَّ هذا الميقاتَ هو الميقاتُ الأولُ ليس بعاطلٍ من القول، وبه قال جمعٌ كما أشرنا إليه، وكلامُنا في «البقرة» ظاهرٌ فيه. إلا أن الإنصاف أن ظاهرَ النظم هنا يقتضي أنه غيرُه، وما ذكره صاحبُ «الكشف» لا يقتضي أنه ظاهرٌ في خلافه.

وإلى القول بالغَيرية ذهب جلٌّ من المفسرين؛ فقد أخرج عَبْد بن حُميد من طريق أبي سَعْد، عن مجاهد أنَّ موسى عليه السلام خرج بالسَّبعين من قومه يدعون الله

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٣.

تعالى، ويسألونَه أن يكشِفَ عنهم البلاءَ، فلم يستجب لهم، فعلم موسى أنهم أصابوا من المعصية ما أصاب قومُهم. قال أبو سعد: فحدَّثني محمد بنُ كعب القُرَظيُّ أنه لم يستجب لهم من أجل أنهم لم ينهَوهم عن المنكر، ولم يأمروهم بالمعروف[(١)].

وأخرج عَبْد بن حُميد عن الفَضْل بن عيسى بن أخي الرَّقاشيِّ أن بني إسرائيل قالوا ذات يوم لموسى عليه السلام: ألستَ ابنَ عمِّنا ومِنَّا، وتزعمُ أنك كلَّمتَ ربَّ العزَّة؟ فإنَّا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً. فلما أبَوا إلا ذلك أوحى الله تعالى إلى موسى أنِ اخْتَر من قومك سبعين رجلاً، فاختار سبعين خيرة، ثم قال لهم: اخرجوا، فلما برزوا جاءهم ما لا قِبَل لهم به، الخبرَ[(٢)]. وهو ظاهرٌ في أنَّ هذا الميقاتَ ليس هو الأول. نعم إنه مخالفٌ لما رُوي عن السُّدي، لكنهما متَّفقان على القول بالغَيريَّة.

ويوافق السديَّ في ذلك الحسنُ أيضًا، فليس هو متفرِّدًا بذلك كما ظنَّه صاحب «الكشف»، وما ذكره من مخالفة كلام السديِّ لما نقله محيي السُّنة في حيِّز المنع.

وقوله: وأين[(٣)] ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ [البقرة: ٥٥].. إلخ، يظهر جوابُه ممَّا ذكرناه في «البقرة» عند هذه الآية من الاحتمالات، والقولُ بأنَّ الخيار كان مرَّتين غيرُ بعيدٍ، وبه قال بعضُهم.

وما ذكره القطب من الترديد في الخروج للاعتذار، ظاهرُ بعضِ الروايات عن السُّدي يقتضي تعيُّنَ الشقِّ الأول منه؛ فقد أخرج ابنُ أبي حاتم عنه أنه قال: انطلق موسى إلى ربِّه فكلَّمَه، فلما كلَّمه قال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٣]، فأجابه موسى بما أجابه، فقال سبحانه: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ﴾ الآية [طه: ٨٥] فرجَعَ موسى إلى قومه غضبانَ أسِفًا، فأبى الله تعالى أن يقبل توبتَهم إلا بالحال التي كرِهوا، ففعلوا، ثم إنَّ الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيَه في ناسٍ من بني إسرائيل يعتذرون من عبادة العجل، فوعَدَهم موعدًا، فاختار موسى سبعينَ رجلاً، إلخ. وهو كما ترى ظاهرٌ فيما قلناه.

---

(١) الدر المنثور ٣/ ١٢٨، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٠/ ٤٧٢.

(٢) الدر المنثور ٣/ ١٢٨.

(٣) تحرفت في (م) إلى: فإنا، والعبارة سلفت ص٣٩٢.

والقولُ بأنه لا معنى للاعتذار بعد قتل أنفسِهم ونزول التوبة، أُجيب عنه بأن المعنى يَحتمِل أن يكون طلبًا لزيادة الرِّضى، واستنزال مزيدِ الرحمة، ويَحتمِل أن يكونوا أُمِروا بذلك تأكيدًا للإيذان بعِظَم الجناية، وزيادة فيه، وإشارة إلى أنه بلغ مبلغًا في السُّوء لا يكفي في العفو عنه قتلُ الأنفس، بل لا بدَّ فيه مع ذلك الاعتذار، ويمكن أن يقال: إنه كان قبل قتلهم أنفسَهم، والسِّرُّ في أنهم أُمِروا به أن يعلموا أيضًا عِظَم الجِناية على أتمِّ وجهٍ بعدم قَبوله، والله تعالى أعلم.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الصَّاعقةُ، أو رجفةُ الجبل، فصَعِقوا منها، والكثيرُ على أنهم ماتوا جميعًا ثم أحياهم الله تعالى، وقيل: غشي عليهم ثم أفاقوا. وذلك لأنهم قالوا: لن نُؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً، على ما في بعض الروايات، أو ليتحقَّقَ عند القائلين ذلك من قومهم مزيدُ عظمته سبحانه، على ما في البعض الآخر منها، أو لمجرَّد التأديب على ما في خبر القُرَظيِّ[1].

والظاهر أن قولَهم: «لن نؤمن» إلخ صدَرَ منهم في ذلك المكان، لا بعد الرُّجوع كما قيل، ونقلناه في «البقرة»، وحينئذٍ يبعُدُ - على ما قيل - القولُ بأنَّ هذا الميقاتَ هو الميقاتُ الأولُ، لأنَّ فيه طلبَ موسى عليه السلام الرؤيةَ بعد كلامِ الله تعالى له من غير فصلٍ، على ما هو الظاهرُ، فيكونُ هذا الطلبُ بعده، وبعيدٌ أن يطلبوا ذلك بعد أن رأوا ما وقَعَ لموسى عليه السلام.

وما أخرجه ابنُ أبي الدُّنيا وابنُ جريرٍ وغيرُهما عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنه قال: لمَّا حضَرَ أجلُ هارون أَوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أن انطلِقْ أنت وهارون وابنَه إلى غارٍ في الجبل، فإنَّا قابضو روحه، فانطلقوا جميعاً، فدخلوا الغار، فإذا سريرٌ فاضطجع عليه موسى، ثم قام عنه، فقال: ما أحسَنَ هذا المكان يا هارون! فاضطجع عليه هارون، فقُبِض روحه، فرجع موسى وابنُ أخيه إلى بني إسرائيل حَزِينَين، فقالوا له: أين هارون؟ قال: مات. قالوا: بل قتلتَه، كنتَ تعلمُ أنَّا نحبُّه. فقال لهم: ويلكم! أَقتُلُ أخي وقد سألتُه اللهَ تعالى وزيرًا؟! ولو أني أردت قتلَه أكان ابنهُ يدَعني؟! قالوا: بلى، قتلتَه حسدًا، قال:

---

(١) سلف ص٣٩٢.

فاختاروا سبعين رجلاً، فانطلق بهم، فمرِضَ رجلان في الطريق، فخطَّ عليهما خطًا، فانطلق هو وابنُ هارون وبنو إسرائيل حتى انتهَوا إلى هارون، فقال: يا هارون، من قتلَكَ؟ قال: لم يقتلني أحدٌ، ولكني متُّ، قالوا: ما تُعصَى يا موسى، ادعُ لنا ربَّك يجعلْنا أنبياءَ، فأخذتهم الرجفةُ، فصَعِقوا وصَعِق الرجلان اللذان خُلِّفوا، وقام موسى عليه السلام يدعو ربَّه، فأحياهم الله تعالى، فرجَعُوا إلى قومهم أنبياء[1] = لا يكاد يصِحُّ فيما أرى؛ لتَضافُر الآثار بخلافه، وإباءِ ظواهر الآيات عنه.

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ عرضٌ للعفو السابق؛ لاستجلاب العفو اللَّاحق، يعني: إنَّك قدرتَ على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على إهلاكهم، وبإغراقهم في البحر، وغيرهما، فترحَّمتَ عليهم ولم تهلكهم، فارحَمهم الآن كما رحمتَهم من قبل جرياً على مقتضى كَرَمِك. وإنما قال: ﴿وَإِيَّىٰٓ﴾ تسليماً منه وتواضعاً.

وقيل: أراد بقوله: «من قبل» حين فرَّطوا في النهي عن عبادة العجل، وما فارقوا عبَدَتَه حين شاهدوا إصرارهم عليها، أي: لو شئتَ إهلاكهم بذنوبهم إذ ذاك وإيَّايَ أيضاً حين طلبتُ منك الرؤية ـ وقيل: حين قتل القِبطيّ ـ لأهلكتَنا.

وقيل: هو تَمَنٍّ منه عليه السلام للإهلاك جميعًا بسبب محبَّته أن لا يرى ما رأى من مخالفتهم له مثلاً، أو بسبب آخر. وفيه دغدغة.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ من العِناد وسوء الأدب، أو من عبادة العجل.

والهمزةُ إما لإنكار وقوع الإهلاك ثقةً بلطفِ الله عز وجل كما قال ابنُ الأنباريِّ، أو للاستعطاف كما قال المبرِّد، أي: لا تهلكنا.

وأيًّاما كان فهو من مقُول موسى عليه السلام كالذي قبله. وقولُ بعضهم: كان ذلك قالةَ بعضهم، غيرُ ظاهرٍ، ولا داعيَ إليه، والقول بأنَّ الداعيَ إليه[2] ما فيه من

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٤٧٠، وهو من طريق عمارة بن عبد السلولي عن علي رضي الله عنه. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا أثر غريب جدًا، وعمارة بن عبد هذا لا أعرفه.

(٢) قوله: إليه، سقط من (م).

التضجُّر الذي لا يليقُ بمقام النُّبوة لا يخفى ما فيه، ولعلَّ مرادَ القائل بذلك أن هذا القولَ من موسى عليه السلامُ يُشبِه قولَ أحدِ السَّبعين، فكأنه قاله[١] على لسانهم؛ لأنَّهم الذين أُصيبوا بما أصيبوا به دونه، فافهم.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبلَه، واعتذارٌ عمَّا وقع منهم، و«إنْ» نافيةٌ، وهي للفتنة المعلومة من السِّياق، أي: ما الفتنةُ إلا فتنتُك، أي: محنتُك وابتلاؤك حيث أسمعتَهم كلامَك، فطمِعُوا في رؤيتك، واتَّبعوا القياسَ في غير محلِّه، أو أوجدتَ في العجل خُوارًا فزاغوا به.

أخرج ابنُ أبي حاتم عن راشد بن سَعْد، أن الله تعالى لما قال لموسى عليه السلام: إنَّ قومَك اتَّخذوا عجلاً جسدًا له خوار، قال: يا ربِّ فمن جعل فيه الروحَ؟ قال: أنا. قال: فأنتَ أضللتَهم يا رب، قال: يا رأسَ النبيِّين، يا أبا الحكماء، إنِّي رأيتُ ذلك في قلوبهم فيسَّرتُه لهم[٢]. ولعل هذا إشارة إلى الاستعدادِ الأزليِّ الغير المجعول.

وقيل: الضمير راجعٌ إلى الرَّجفة، أي: ما هي إلا تشديدُك التعبُّد والتكليف[٣] علينا بالصبر على ما أنزلتَه بنا، ورُوي هذا عن الرَّبيع وابن جُبَير وأَبي العالية.

وقيل: الضميرُ لمسألة الإراءة، وإنْ لم تُذْكر.

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لحكم الفتنة، وقيل: حالٌ من المضاف إليه أو المضاف، أي: تُضِلُّ بسببها من تشاء إضلالَه بالتجاوز عن الحدِّ، أو باتباع المَخايل[٤]، أو بنحو ذلك، وتهدي من تشاء هداه، فيَقْوَى إيمانُه بها. وقيل: المعنى تصيبُ بهذه الرجفةِ من تشاءُ، وتصرِفُها عمَّن تشاء، وقيل: تُضِلُّ بترك الصبر على فتنتك وتركِ الرِّضا بها مَنْ تشاء عن نيل ثوابِك ودخولِ جنَّتك، وتهدي بالرِّضا لها والصَّبر عليها مَنْ تشاء، وهو كما ترى.

(١) في الأصل: قال، والمثبت من (م).
(٢) أورده السيوطي في الدر ٣/ ١٢٩.
(٣) في (م): التكلف.
(٤) المخايل: الظنون، مفردها: مَخِيلة. القاموس: (خيل).

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي[1]: القائمُ بأمورنا الدُّنيوية والأُخروية لا غيرُك، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما يترتَّبُ عليه مؤاخذتُك ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بإفاضة آثارِ الرحمة الدنيوية والأُخروية علينا.

والفاءُ لترتيب الدعاء على ما قبلَه من الولاية؛ لأنَّ من شأن من يلي الأمور ويقومُ بها دفعَ الضُّرِّ وجلب النَّفع، وقدَّم طلبَ المغفرة على طلب الرحمة؛ لأن التَّخلية أهمُّ من التَّحلية، وسؤالُ المغفرة لنفسه عليه السلام في ضمن سؤالها لمن سألها له ممَّا لا ضيرَ فيه، وإنْ لم يصدُرْ منه نحو ما صدَرَ منه، كما لا يخفى.

والقولُ بأنَّ إقدامَه عليه السلام على أن يقول: «إنْ هي إلا فتنتُك» جرأةٌ عظيمةٌ، فطلبَ من الله تعالى غفرانَها والتجاوزَ عنها = ممَّا يأباه السَّوق عند أرباب الذَّوق، ولا أظنُّ أن الله تعالى عدَّ ذلك ذنباً منه ليستغفرَه عنه، وفي ندائه السَّابق ما يؤيِّد ذلك.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ إذ كلُّ غافرٍ سواك إنما يغفِرُ لغرضٍ نفسانيٍّ، كحبِّ الثناء، ودَفْع الضَّرر، وأنت تغفِرُ لا لطلبِ عوضٍ ولا غرضٍ، بل لمحضِ الفضل والكرم. والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبل، وتخصيصُ المغفرة بالذِّكر لأنها الأهمُّ. وفسَّر بعضُهم ما ذكر بغفران السَّيئة وتبديلها بالحسنة؛ ليكون تذييلاً لـ «اغفِرْ» و«ارحَمْ» معاً.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾ أي: أَثبِتْ وأقسِم لنا ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ التي عَرانا فيها ما عرَانا ﴿حَسَنَةً﴾ حياةً طيبةً وتوفيقاً للطاعة. وقيل: ثناءً جميلاً. وليس بجميل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ المراد: اِقبل وِفادَتَنا، ورُدَّنا بالمغفرةِ والرَّحمة.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: واكتُبْ لنا أيضاً في الآخرة حسنةً، وهي المثوبةُ الحسنى والجنة، قيل: إنَّ هذا كالتأكيدِ لقوله: «اغفِرْ» و«ارحم».

﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تُبنا إليك، من هادَ يَهُود: إذا رجع وتاب، كما قال:

إنـي امـرؤٌ مـمـا جـنـيـتُ هـائـد[2]

---

(١) بعدها في (م): أنت.

(٢) الزاهر لأبي بكر الأنباري ٢/ ٢١٤، والمحرر الوجيز ١/ ١٠٧، والصحاح واللسان (هود)، والدر المصون ٥/ ٤٧٦، ورواية المصادر عدا الدر: إن امرؤ من مدحه هائد.

ومن كلام بعضهم:

يـا راكِـبَ الـذَّنـب هُـدْ هُـدْ   واسـجُـدْ كـأنـك هُـدْهُـدْ[(١)]

وقيل: معناه مالَ.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «هِدْنا» بكسر الهاء[(٢)]، من هاد يهيد: إذا حرّك، وأخرج ابنُ المنذر وغيره عن أبي وجزة السَّعديِّ أنه أنكر الضمَّ، وقال: والله لا أعلمُه في كلام أحدٍ من العرب، وإنما هو هِدْنا بالكسر، أي: مِلْنا[(٣)]. وهو محجوجٌ بالتواتر، وجُوِّز على هذه القراءة أن يكون الفعلُ مبنيًّا للفاعل والمفعول، بمعنى: حرَّكْنا أنفسَنا، أو: حرِّكْنا غيرُنا، وكذا على قراءة الجماعة، والبناءُ للمفعول عليها على لغةِ مَنْ يقول: عُوْدَ المريضُ، ولا بأس بذلك إذا كان الهود بمعنى الميل، سوى أنَّ تلك لغةٌ ضعيفة، وممَّن جوَّز الأمرين على القراءتين الزمخشريُّ[(٤)]، وتعقَّبه السَّمينُ[(٥)] بأنه متى حصَلَ الالتباسُ وجب أن يُؤْتى بحركة تُزيله، فيقال: عِقْتُ: إذا عاقَكَ غيرُك، بالكسر فقط، أو الإشمام، إلا أن سيبويه[(٦)] جوَّز في نحو قيل الأوجهَ الثلاثةَ من غير احترازٍ.

والجملةُ تعليلٌ لطلبِ المغفرة والرحمة، وتصديرُها بحرفِ التحقيق لإظهار كمال النَّشاط والرَّغبة في مضمونها.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى له بعد دعائه؟ فقيل: قال: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ أي: شأني أُصيب بعذابي مَنْ أشاء تعذيبَه من غير دخلٍ لغيري فيه.

---

(١) لم نقف على قائله، وهو في الكشاف ٢/ ١٢١.

(٢) البحر المحيط ٤/ ٤٠١.

(٣) الدر المنثور ٣/ ١٣٠، وأخرجه بنحوه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٧٧، وذكر القراءة عنه ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦، وأبو حيان ٤/ ٤٠١، وتحرف: وجزة في الأصل و(م) إلى: وجرة.

(٤) في الكشاف ٢/ ١٢٢.

(٥) في الدر المصون ٥/ ٤٧٧.

(٦) في الكتاب ٤/ ٣٤١-٣٤٢.

وقرأ الحسنُ وعَمرو الأسواريُّ[1]: «مَنْ أساءَ» بالسِّين المهملة، ونُسبت إلى زيد بنِ عليٍّ رضي الله عنهما[2]، وأنكر بعضُهم صحَّتها[3].

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: شأنُها أنَّها واسعةٌ تبلغُ كلَّ شيء، ما من مسلمٍ ولا كافرٍ ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلِّبٌ في الدُّنيا بنعمتي.

وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع، ونسبة السَّعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذانٌ بأنَّ الرحمةَ مقتضى الذات، وأمَّا العذابُ فمقتضى معاصي العباد. والمشيئةُ معتبرةٌ في جانب الرحمة أيضاً، وعدمُ التَّصريح بها، قيل: تعظيماً لأمر الرحمة، وقيل: للإشعار بغاية الظُّهور، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فإنه متفرِّع على اعتبار المشيئة، كما لا يخفى، كأنَّه قيل: فإذا كان الأمر كذلك، أي: كما ذُكِرَ من إصابة عذابي وسَعَة رحمتي لكلٍّ من أشاء، فسأُثبتُها إثباتاً خاصاً ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: الكفر والمعاصي إما ابتداءً أو بعد الملابسة ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة عليهم في أموالهم. وقيل: المعنى: يُطيعون الله ورسولَه ﷺ، والظاهرُ خلافُه.

وتخصيصُ إيتاء الزكاة بالذِّكر مع اقتضاء التقوى له للتَّعريض بقوم موسى عليه السلام؛ لأن ذلك كان شاقًّا عليهم؛ لمزيد حبِّهم للدنيا، ولعل الصلاةَ إنما لم تُذكَر مع إنافتها على سائر العبادات وكونِها عمادَ الدين، اكتفاءً منها بالاتقاء الذي هو عبارةٌ عن أداء الواجبات بأَسْرها، وتركِ المنهيَّات عن آخرها.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا﴾ كلِّها، كما يفيدُه الجمعُ المضاف ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ إيمانًا مستمرًّا من غير إخلال بشيء منها.

---

(١) في (م): الأسود، وهو تحريف. وعمرو: هو ابن فائد الأسواري.

(٢) البحر ٤/ ٤٠٢، وزاد أبو حيان نسبتها لطاوس، ونسبت لبعضهم في القراءات الشاذة ص٤٦، والكشاف ٢/ ١٢٢، والدر المصون ٥/ ٤٧٧. ونقل صاحب القراءات الشاذة عن الحسن أنه قرأ بالشين كذلك.

(٣) نقل أبو حيان في البحر ٤/ ٤٠٢ عن أبي عمرو الداني قوله: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاوس، وعمرو بن فائد رجل سوء. قال أبو حيان: وللمعتزلة تعلُّقٌ بهذه القراءة من جهة إنفاذ الوعيد، ومن جهةِ خَلْقِ المرء أفعالَه.

وتكريرُ الموصول مع أنَّ المرادَ به عينُ ما أُرِيد بالموصول الأول دون أن يقال: ويؤمنون بآياتنا، عطفاً على ما قبلَه كما سلك في سابقه؛ قيل: لِمَا أُشير إليه من القَصْر بتقديم الجارِّ والمجرور، أي: هم بجميع آياتنا يؤمنون، لا ببعضها دون بعض، وفيه تعريضٌ بمَنْ آمنَ ببعضٍ وكفر ببعضٍ، كقوم موسى عليه السلام.

واختُلف في توجيه هذا الجواب: فقال شيخ الإسلام[1]: لعلَّ الله تعالى حين جعل توبةَ عَبَدَةِ العجل بقتلهم أنفسَهم ـ وكان الكلام الذي أطمَعَ السبعين في الرؤية في ذلك ـ ضمَّن موسى عليه السلام دعاءه التخفيف والتيسير حيث قال: «واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة» أي: خصلةً حسنةً عاريةً عن المشقَّة والشدَّة؛ فإنَّ في القتل من العذاب الشديد ما لا يخفى، فأجابه سبحانه بأن «عذابي أُصيب به من أشاء»، وقومُك ممَّن تناولَتْه مشيئتي، ولذلك جعلتُ توبتَهم مَشُوبةً بالعذاب الدنيويِّ، «ورحمتي وسعَتْ كلَّ شيء»، وقد نالَ قومَك نصيبٌ منها في ضمن العذاب الدنيويِّ، وسأكتبُ الرحمةَ خالصةً غيرَ مشوبةٍ بالعذاب الدنيويِّ كما دعوتَ لمن صفتُهم كيت وكيت لا لقومك؛ لأنَّهم ليسوا كذلك، فيكفيهم ما قُدِّر لهم من الرحمة، وإن كانت مقارنةَ العذابَ.

وعلى هذا فموسى عليه السلام لم يُستَجَبْ له سؤالُه في قومه، ومَنَّ الله تعالى بما سألَه على مَنْ آمن بمحمدٍ ﷺ. وفي بعض الآثار أنه عليه السلام لما أُجيب بما ذُكر قال: أتيتُكَ يا ربِّ بوفدٍ من بني إسرائيل، فكانت وِفادَتنا لغيرنا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: دعا موسى ربَّه سبحانه، فجعَلَ دعاءه لمن آمَنَ بمحمدٍ عليه الصَّلاة والسلام واتَّبَعه. وفي رواية أخرى رواها جمعٌ عنه: سأل موسى ربَّه مسألةً، فأعطاها محمدًا ﷺ. وتلا الآيةَ[2]. لكن لا يخفى أنَّ ما قرَّره هذا الشيخ بعيدٌ.

وقال صاحب «الكشف» في ذلك: كأنه لـمَّا سأل موسى عليه السلام لنفسه ولقومه خيرَ الدارين أُجيب بأنَّ عذابي لغير التائبين إن شئتُ، ورحمتي الدُّنيويةُ تعمُّ التائبَ وغيرَه، وأمَّا الجمعُ بين الرحمتين فهو للمستعدِّين، فإن تاب مَنْ دعوتَ لهم وثبتوا كأعقابهم نالتْهم الرحمةُ الخاصَّةُ الجامعةُ، وأثَّرَ فيهم دعاؤُك، وإن داوموا

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٧٨.

(٢) أخرج الأولى الحاكم ٢/ ٣٢٢، والثانية البزار (٢٢١٣- كشف).

على ما هم فيه بَعُدُوا عن القَبول، والغرضُ ترغيبُهم على الثبات على التوبة والعمل الصالح، وتحذيرُهم عن المعاودة عمَّا فرَطَ منهم، مع التخلُّص إلى ذِكْر النبيِّ الأُمِّيِّ[1] ﷺ والحثِّ على اتِّباعه أحسنَ تخلُّصٍ وحثٍّ يُحيِّر الألباب، ويُبدي للمتأمِّل فيه العجبَ العُجاب، وإلى بعض هذا يُشير كلامُ الزمخشريِّ[2].

وقال العلامة الطِّيبيُّ في توجيهه: إنّ هذا الجواب واردٌ على الأسلوب الحكيم، وقوله سبحانه: «عذابي» إلخ، كالتمهيد للجواب، والجوابُ «فسأكتبها» إلخ، وذلك أنَّ موسى عليه السلام طلب الغُفران والرَّحمة والحسنة في الدارين لنفسه ولأُمَّته خاصَّةً بقوله: «واكتب لنا»، وعلَّله بقوله: «إنَّا هُدْنا إليك»، فأجابه الربُّ سبحانه بأنَّ تقييدَكَ المطلَقَ ليس من الحكمة؛ فإنَّ عذابي من شأنه أنه تابعٌ لمشيئتي، فأمَّتُك لمَّا[3] تعرَّضوا لِمَا اقتضت الحكمةُ تعذيبَ من باشَرَه لا ينفعُهم دعاؤك لهم، وإنَّ رحمتي من شأنها أن تعُمَّ في الدنيا الخلقَ، صالحَهم وطالحهم، مؤمنهم وكافرَهم، فالحسنةُ الدنيويةُ عامةٌ، فلا تختصُّ بأمَّتك، فتخصيصُها تحجيرٌ للواسع، وأما الحسنةُ الأُخروية فهي للموصوفين بكذا وكذا، وجعل «سأكتبها» كالقول بالموجِبِ؛ لأنَّه عليه السلام طلب ما طلب، وجعَلَ العلةَ ما جعَلَ، فضمَّ الله تعالى ما ضمَّ، يعني أنَّ الذي يوجِبُ اختصاصَ الحسنتين معاً هذه الصفاتُ المتعدِّدة، لا التوبةُ المجرَّدة، ثم ذكَرَ أنَّ ترتيبَ هذا على ما قبلَه بالفاء على منوالِ قوله تعالى جواباً عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيٓ﴾: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4] [البقرة: ١٢٤] وأُيِّد هذا التقريرُ بما رُوي عن الحسن وقتادة: وسعت رحمتُهُ في الدنيا البرَّ والفاجرَ، وهي يوم القيامة للمتقين خاصةً. انتهى ما أُريدَ منه.

وما ذكره من حديث التحجُّر في القلب منه شيءٌ؛ فإنَّ الظاهر أن ما في دعاء موسى عليه السلام ليس منه، وإنَّما التحجُّر في مثل ما أخرجه أحمد وأبو داوود عن

(١) قوله: الأمي، سقط من (م).
(٢) الكشاف ٢/ ١٢٢.
(٣) في (م): لو، وهو تصحيف.
(٤) في (م): ﴿قَالَ لَا يَنَالُ...﴾.

جُنْدُب بن عبد الله[١] البَجَليِّ قال: جاء أعرابيٌّ، فأناخ راحِلَتَه، ثم عقَلَها وصلَّى خلف رسول الله ﷺ، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا تُشرِك في رحمتنا أحداً. فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «لقد حظَرتَ رحمةً واسعةً؛ إن الله خلق مئةَ رحمةٍ، فأنزل رحمةً يتعاطَفُ بها الخلقُ جِنُّها وإنسُها وبهائمُها، وعنده تسعةٌ وتسعون»[٢].

وأنا أقول[٣]: إنَّ موسى عليه السلام إنَّما طلب على أبلغ وجهِ المغفرةَ والرحمةَ الدنيويةَ والأخرويةَ له ولقومه، وتعليلُ ذلك بالتوبة ممَّا لا شكَّ في صحَّته، ولا يُفهم من كلامه عليه السلام أنه طَلَب للقوم كيف كانوا، وفي أيِّ حالةٍ وُجِدوا، وعلى أيِّ طريقةٍ سلَكوا؛ فإنَّ ذلك مما لا يكاد يقَعُ ممَّن له أدنى معرفةٍ بربِّه، فضلاً عن مثله عليه السلام، وإنَّما هذا الطلبُ لهم من حيث إنهم تائبون راجعون إليه عزَّ شأنُه، ولا يبعُدُ أن يقال باستجابةِ دعائه بذلك، بل هي أمرٌ مقطوعٌ به بالنسبة إليه ﷺ، وكيف يُشَكُّ في أنه غُفِر له ورُحِم، وأُتي خيرَ الدارين وهو هو؟! وأما بالنسبة إلى قومه فالظاهرُ أنَّ التائب منهم أُوتي خيرَ الآخرة؛ لأنَّ هذه التوبةَ إن كانت هي التوبة بالقتل فقد جاء عن الزُّهري أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى بعد أن كان ما كان: ما يحزُنُك؟ أمَّا من قُتِل منكم فحيٌّ يُرزَق عندي، وأما مَنْ بقي فقد قبِلتُ توبتَه. فسُرَّ بذلك موسى وبنو إسرائيل، وإن كانت غيرها فمن المعلوم أن التوبةَ تُقبل بمقتضى الوعد المحتوم، وخيرُ من قُبِلت توبتُه في الآخرة كثير، وأما خيرُ الدنيا فقد نطَقَت الآياتُ بأنَّ القوم غَرْقى فيه، ويكفي في ذلك قولُه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

وحينئذٍ فيمكن أن يُقال في توجيه الجواب: إنه سبحانه لما رأى من موسى عليه السلام شدَّة القلق والاضطراب، ولهذا بالغ في الدعاء خشيةً من حلول[٤] غضبه

---

(١) تحرف في الأصل إلى: عن أبي عبد الله، وفي (م) إلى: عن عبد الله.

(٢) مسند أحمد (١٨٧٩٩)، وسنن أبي داود (٤٨٨٥). وقوله: «لقد حظرت...» له شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٠١٠)، وقوله: «إن الله خلق مئة رحمة...» له شاهد من حديث أبي هريرة كذلك عند البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

(٣) بعدها في (م): قد يقال.

(٤) تحرفت في (م) إلى: طول.

تعالى على من يُشفق عليه من ذلك = سكَّن جلَّ شأنُه روعتَه، وأجاب طِلْبته بأسلوبٍ عجيب، وطريقٍ بديع غريب، فقال سبحانه له: «عذابي» الذي تخشى أن تُصيب بعضُ نِباله التي أرميها بيد جلالي عن قِسِيِّ إرادتي مَنْ دعوتَ له «أُصيب به من أشاء»، فلا يتعيَّنُ قومُك الذين تخشى عليهم ما تخشى لأنْ يكونوا غرضاً له بعد أن تابوا من الذَّنب وتركوا فعله، «ورحمتي وسعت كلَّ شيء» إنساناً كان أو غيره، مطيعاً كان أو غيره، فما من شيء إلا وهو داخلٌ فيها، سابحٌ في تيَّارها، أو سائح في فَيافيها، بل ما من معذَّب إلا ويرشح عليه ما يرشح منها، ولا أقلَّ مِنْ أني لم أعذِّبه بما هو أشدُّ[1] مما هو فيه مع قدرتي عليه، فطِبْ نفساً، وقَرَّ عيناً، فدخولُ قومِك في رحمةٍ وسعت كلَّ شيء، ولم تضِقْ عن شيء، أمرٌ لا شكَّ فيه، ولا شبهة تعتريه، كيف وقد هادوا إليَّ، ووَفَدوا عليَّ؟ أفترَى أنِّي أضيِّقُ الواسعَ عليهم، وأوجِّه نِبالَ الخَيبة إليهم، وأردُّهم بخُفَّي حُنَين، فيرجع كلٌّ منهم صفرَ الكفَّين؟ لا أُراني أفعل، بل إني سأرحمُهم، وأُذهب عنهم ما أهمَّهم، وأكتُبُ الحظَّ الأوفر من رحمتي لأخلافهم الذين يأتون آخرَ الزمان، ويتَّصفون بما يُرضيني، ويقومون بأعباء ما يُراد منهم، وإلى ذلك الإشارة بقوله سبحانه: «فسأكتُبُها للذين يتقون» إلخ.

ولعلَّ تقديمَ وصفِ العذاب دون وصف الرحمة ليفرغ ذهنه عليه السلام ممَّا يخاف منه، مع أنَّ في عكس هذا الترتيب ما يوجبُ انتشارَ النظم الكريم، ووصفُ أخلافهم بما وُصِفوا به لاستنهاض هِمَمِهم إلى الاتصاف بما يمكن اتِّصافُهم به منه، أو إلى الثبات عليه، ولم يصرِّح في الجواب بحصول السؤال بأن يقال: قد أُوتيتَ سؤالَكَ يا موسى مثلاً؛ اختياراً لما هو أبلغ فيه.

وهذا الذي ذكرناه، وإن كان لا يخلو عن شيء، إلا أنه أَولى من كثير ممَّا وقفنا عليه من كلام المفسرين، وقد تقدَّم بعضُه. وأقول بعد هذا كلِّه: خيرُ الاحتمالات ما تشهَدُ له الآثار، وإذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي، فتأمَّل.

والسين في «سأكتبها» يَحتمِل أن تكون للتأكيد، ويَحتمِل أن تكون للاستقبال، كما لا يخفى وجهُه على ذَوِي الكمال.

---

(١) في (م): بأشد.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الذي أرسله الله تعالى لتبليغ الأحكام ﴿النَّبِيَّ﴾ أي: الذي أنبأ الخلقَ عن الله تعالى، فالأول تُعتبر فيه الإضافة إلى الله تعالى، والثاني تُعتبر فيه الإضافة إلى الخلق، وقدَّم الأول عليه لشرفه، وتقدُّمِ إرسال الله تعالى له على تبليغه، وإلى هذا ذهب بعضُهم، وجعلوه[1] إشارةً إلى أنَّ «الرسولَ» و«النبيَّ» هنا مرادٌ بهما معناهما اللغويُّ؛ لإجرائهما على ذاتٍ واحدة، كما أنهما كذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

وفسَّر في «الكشاف» «الرسولَ» بالذي يُوحى إليه كتابٌ، و«النبيَّ» بالذي له معجزةٌ[2]، ويُشير إلى الفرق بين الرسول والنبيِّ بأنَّ الرسول مَنْ له كتابٌ خاصٌّ، والنبيّ أعمُّ.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ أكثر الرسل لم يكونوا أصحابَ كتابٍ مستقلٍّ كإسماعيل، ولوط، وإلياس ويونس[3] عليهمُ السلام، وكم، وكم، ثم قال: والتحقيقُ أنَّ النبيَّ: هو الذي يُنبىء عن ذاته تعالى وصفاته، وما لا تستقلُّ العقول بدِرايته ابتداءً بلا واسطةِ بشر، والرسولُ: هو المأمورُ مع ذلك بإصلاح النَّوع، فالنُّبوةُ نُظِر فيها إلى الإنباء عن الله تعالى، والرسالةُ إلى المبعوث إليهم، والثاني وإن كان أخصَّ وجودًا، إلا أنَّهما مفهومان مفترقان، لهذا لم يكن: «رسولاً نبيًّا» مثل: إنسان حيوان. اهـ.

وفيه مخالَفةٌ بيِّنة لما ذُكر أولاً، ولا حَجْر في الاعتبار. نعم ما ذكره[4] مدفوعٌ بأن الفرقَ المذكورَ مع تغايُرِ المفهومين على كلِّ حال مِنْ عُرْف الشرع والاستعمال، وأما في الوضع والحقيقة اللغوية فهما عامَّان، وقد ورد في القرآن بالاستعمالين، فلا تعارضَ بينهما. ولا يَرِد أن ذِكْر النبيِّ العامِّ بعد الخاصِّ لا يفيد، والمعروفُ في مثل ذلك العكسُ، ولا يخفى أنَّ المراد بهذا الرسولِ النبيِّ نبيُّنا ﷺ.

---

(١) تحرفت في (م) إلى: وجعلوا.
(٢) الكشاف ٢/ ١٢٢.
(٣) قوله: ويونس، سقط من (م).
(٤) في (م): ذكروه.

﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ أي: الذي لا يكتُبُ ولا يقرأ، وهو ـ على ما قال الزجّاج[1] ـ نسبةٌ إلى أُمة العرب؛ لأنَّ الغالبَ عليهم ذلك. وروى الشيخان وغيرُهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أُمة أُمِّية، لا نكتُب ولا نحسُبُ»[2]. أو إلى أُمِّ القرى؛ لأنَّ أهلَها كانوا كذلك، ونُسب ذلك إلى الباقر رضي الله عنه. أو إلى أُمِّه، كأنه على الحالة التي ولدته أُمه عليها.

ووُصِف عليه الصلاة والسلام بذلك تنبيهًا على أن كمال علمِه مع حاله إحدى معجزاته ﷺ، فهو بالنسبة إليه ـ بأبي هو وأمي، عليه الصلاة والسلام ـ صفةُ مدح، وأما بالنسبة إلى غيره فلا، وذلك كصفة التكبُّر، فإنها صفةُ مدحٍ لله عزَّ وجلَّ وصفةُ ذمٍّ لغيره.

واختُلف في أنه عليه الصلاة والسلام هل صدَرَ عنه الكتابة في وقتٍ أم لا؟ فقيل: نعم صدرت عنه عامَ الحُدَيبية، فكتب الصُّلح، وهي معجزةٌ أيضاً له ﷺ، وظاهرُ الحديث يقتضيه[3]، وقيل: لم يصدُر عنه أصلاً، وإنما أُسندت إليه في الحديث مجازاً، وجاء عن بعض أهل البيت رضي الله عنهم أنه ﷺ كان تَنطِقُ له الحروفُ المكتوبة إذا نظَرَ فيها، ولم أَرَ لذلك سندًا يعوَّل عليه، وهو ﷺ فوق ذلك.

نعم أخرج أبو الشيخ من طريق مجالد[4] قال: حدَّثني عَوْن بنُ عبد الله بن عُتْبة، عن أبيه قال: ما مات النبيُّ ﷺ حتى قرأ وكتَبَ، فذكرتُ هذا الحديثَ للشعبيِّ، فقال: صدَقَ، سمعتُ أصحابنا يقولون ذلك[5].

وقيل: «الأُمي» نسبةٌ إلى الأَمِّ بفتح الهمزة بمعنى القَصْد؛ لأنه المقصودُ، وضمُّ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٨١.

(٢) صحيح البخاري (١٩١٣)، وصحيح مسلم (١٠٨٠) (١٥)، وأخرجه أحمد في مسنده (٥٠١٧).

(٣) يشير إلى حديث البراء بن عازب عند البخاري (٢٦٩٩)، ومسلم (١٧٨٣): (٩٢)، وفيه: فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، الحديث. وينظر التلخيص الحبير ٣/ ١٢٦- ١٢٨.

(٤) تحرفت في (م) إلى: مجاهد.

(٥) الدر المنثور ٣/ ١٣١، وأخرجه البيهقي في السنن ٧/ ٤٢ وقال: حديث منقطع وفي رواته جماعة من الضعفاء والمجهولين.

الهمزة من تغيير النَّسَب، ويؤيده قراءةُ يعقوب: «الأَمِّيِّ» بالفتح[١]، وإن احتَمَلت أن تكون من تغيير النَّسب أيضاً.

والموصول في محلِّ جرٍّ، بدلٌ من الموصول الأول، وهو إما بدلُ كلٍّ على أنَّ المرادَ منه هؤلاء المعهودين، أو بعضٍ على أنَّه عامٌّ، ويقدَّر حينئذٍ منهم، وجُوِّز أن يكون نعتاً له، ويَحتمِل أن يكون في محلِّ نصبٍ على القطع وإضمارِ ناصبٍ له، وأن يكون في محلِّ رفعٍ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقيل: على أنه مبتدأٌ خبرُه جملةُ «يأمرهم»، أو «أولئك هم المفلحون»، وكلاهما خلافُ المتبادِر من النظم.

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا﴾ باسمه ونعُوته الشريفة، بحيث لا يشكُّون أنَّه هو، ولذلك عُدِلَ عن أن يقال: يجدون اسمَه أو وصفَه مكتوباً.

﴿عِندَهُمۡ﴾ ظرفٌ لـ «مكتوباً» الواقع حالاً، أو لـ «يجدون»، وذُكر لزيادة التقرير، وأنَّ شأنه عليه الصلاةُ والسلام حاضرٌ عندَهم لا يغيبُ عنهم أصلاً.

﴿فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ اللذَين يَعتدُّ بهما بنو إسرائيل سابقاً ولاحقاً، وكأنَّه لهذا المعنى اقتَصَر عليهما، وإلا فهو ﷺ مكتوبٌ في الزَّبور أيضًا.

أخرج ابنُ سعد، والدارِميُّ في «مسنده»، والبيهقيُّ في «الدلائل»، وابنُ عساكر عن عبد الله بن سلام قال: صفةُ رسول الله ﷺ في التوراة: يا أيُّها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً، ومبشِّراً، ونذيراً، وحِرْزاً للأُمِّيين، أنتَ عبدي ورسولي، سمَّيتُك المتوكِّل، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يَجزي بالسيئةِ مثلَها[٢]، ولكن يعفو ويصفحُ، ولن يقبضَه الله تعالى حتى يقيمَ به الملَّةَ العوجاء، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح أعيناً عُمْياً، وآذاناً صُمًّا، وقلوباً غُلْفاً[٣]. ومثلُه من رواية البخاريِّ وغيره عن عبد الله بن عَمرو بن العاص[٤].

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٤٠٣، وهي من الشواذ، وقد نسبت القراءة كذلك لليماني وابن رومي، ينظر: القراءات الشاذة ص٤٦، والمحتسب ١/ ٢٦٠.

(٢) قوله: مثلها، سقط من (م).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٦٠-٣٦١، ومسند الدارمي (٦)، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٧٦، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣/ ٣٨٨.

(٤) صحيح البخاري (٢١٢٥)، وأخرجه أحمد (٦٦٢٢).

وجاء من حديثٍ أخرجه ابنُ سَعْد وابنُ عساكر[(١)] من طريق موسى بن يعقوب الزَّمْعي[(٢)] عن سَهْلٍ مولى خَيْثمة[(٣)]، قال: قرأتُ في الإنجيل نعتَ محمدٍ ﷺ أنَّه لا قصيرٌ ولا طويل، أبيض ذو ضفيرتين، بين كتفيه خاتمٌ، لا يقبل الصَّدقة، ويركبُ الحمارَ والبعير، ويحلُب الشَّاة، ويلبَس قميصاً مرقوعاً، ومن فعَلَ ذلك فقد برئ من الكِبْر، وهو يفعل ذلك، وهو من ذرِّيَّة إسماعيل، اسمه أحمد.

وجاء من خبرٍ أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل»[(٤)] عن وَهْب بن منبِّه قال: إنَّ الله تعالى أوحى في الزَّبور: يا داود، إنَّه سيأتي من بعدِك نبيٌّ اسمهُ أحمدُ ومحمد، لا أغضَبُ عليه أبداً، ولا يعصيني أبداً، وقد غفرتُ له قبل أن يعصيَني ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وأُمَّته مرحومةٌ، أَعطيتُهم من النوافل مثلَ ما أعطيتُ الأنبياء، وافترضتُ عليهم الفرائضَ التي افترضتُ على الأنبياء والرُّسل، حتى يأتوني يوم القيامة ونورُهم مثلُ نور الأنبياء، وذلك أنِّي افترضتُ عليهم أن يتطهَّروا لي لكلِّ[(٥)] صلاةٍ كما افترضتُ على الأنبياء قبلهم، وأمرتُهم بالغُسْل من الجَنابة كما أمرتُ الأنبياء قبلَهم، وأمرتُهم بالحجِّ كما أمرتُ الأنبياء قبلَهم، وأمرتُهم بالجهاد كما أمرتُ الرسل قبلَهم، يا داودُ، إني فضَّلتُ محمداً وأمَّتَه على الأمم كلِّهم، أعطيتُهم ستَّ خصالٍ لم أُعطِها غيرَهم من الأمم: لا أؤاخِذُهم بالخطأ والنسيان، وكلُّ ذنبٍ ركبوه على غيرِ عمدٍ إذا استغفروني منه غفرتُه، وما قدَّموا لآخرتهم من شيء طيبةً به أنفسُهم عجَّلتُه لهم أضعافاً مضاعفةً، ولهم عندي أضعافٌ مضاعفةٌ وأفضلُ من ذلك، وأعطيتُهم على المصائب إذا صبروا وقالوا: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون الصلاةَ والرحمةَ والهدى إلى جنات النَّعيم، فإن دَعَوني استجبتُ لهم، فإمَّا أن يروه عاجلاً، وإمَّا أن أصرِفَ عنهم سوءاً، وإما أن أدَّخره لهم في الآخرة، يا داود، من لقيَني من أُمة محمد يشهد أن لا إله إلا أنا، وحدي لا شريك لي،

---

(١) الطبقات الكبرى ١/ ٣٦٣، وتاريخ دمشق ٣/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٢) في الأصل و(م) والدر المنثور ٣/ ١٣٤: الربعي، وهو تحريف. وموسى بن يعقوب هذا قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق، سيئ الحفظ.

(٣) في الطبقات: عتيبة، وفي تاريخ دمشق: عثيمة.

(٤) دلائل النبوة ١/ ٣٨٠-٣٨١.

(٥) في (م): إلى كل.

صادقاً بها، فهو في جنَّتي وكرامتي، ومَنْ لقيَني وقد كذَّب محمداً، وكذَّب بما جاء به، واستهزأ بكتابي، صببتُ عليه في قبره العذاب صبًّا، وضربتِ الملائكة وجهَهُ ودُبُره عند منشره في قبره، ثم أُدخِلُه في الدَّرْك الأسفل من النار.

إلى غير ذلك من الأخبار الناطقة بأنَّه ﷺ مكتوبٌ في الكتب الإلهية.

والظَّرفان متعلِّقان بـ «يجدونه»، أو بـ «مكتوباً». وذِكْر الإنجيل قبلَ نزوله من قبيل ما نحن فيه من ذِكر النبيِّ ﷺ والقرآنِ الكريم قبل مجيئهما.

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، وهو ـ على ما قيل ـ متضمِّنٌ لتفصيل بعضِ أحكام الرحمة التي وعَدَ فيما سبق بكَتْبها إجمالاً؛ إذ ما أشارَتْ إليه المتعاطفات من آثارِ الرحمة الواسعة، وجُوِّز كونُه في محلِّ نصبٍ على أنه حالٌ مقدَّرة من مفعول «يجدونَه»، أو من «النَّبيّ»، أو من المستكِنِّ في «مكتوباً»، وقيل: هو مفسِّر لـ «مكتوباً»، أي: لِمَا كُتب، والمراد بـ «المعروف»؛ قيل: الإيمان، وقيل: ما عُرف في الشريعة، والمراد بـ «المنكر» ضدُّ ذلك.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ فُسِّر الأول بالأشياء التي يستطيبُها الطَّبع كالشُّحوم، والثاني بالأشياء التي يستخبِثُها كالدَّم، فتكونُ الآية دالَّةً على أنَّ الأصل في كلِّ ما تستطيبُه النفسُ ويستلذُّه الطبع الحِلُّ، وفي كلِّ ما تستخبثُه النفس ويكرهُه الطبعُ الحرمةُ إلا لدليل منفصلٍ.

وفسَّر بعضُهم الطيِّب بما طاب في حكم الشرع، والخبيثَ بما خبُثَ فيه، كالرِّبا والرِّشوة. وتُعقِّب بأنَّ حالَ[1] الكلام حينئذٍ: يُحلُّ ما يحكم بحلِّه، ويحرِّم ما يحكم بحرمته، ولا فائدةَ فيه. وردُّوه بأنه يفيد فائدةً وأيَّ فائدةٍ؛ لأنَّ معناه أنَّ الحلَّ والحرمةَ بحكم الشرع لا بالعقل والرأي.

وجوَّز بعضُهم كونَ الخبيث بمعنى ما يُستخبَث طبعاً، أو ما خبُثَ شرعاً، وقال: كالدم أو الرِّبا، ومثَّل للطيِّب بالشحم، وجعلَ ذلك مبنيًّا على اقتضاء التحليلِ سَبْقَ التحريم، والشحم كان محرَّماً عند بني إسرائيل، وعلى اقتضاء التحريم سَبْقَ التحليل، وجعل الدم وأخيه مما حرم على هذا؛ لأنَّ الأصل في الأشياء الحِلُّ،

(١) قوله: حال، ليس في (م).

ولا يرد: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة:٢٧٥]؛ لأنَّه لردِّ قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾، أو لأنَّ المراد إبقاؤه على حِلِّه؛ لمقابلته بتحريم الرِّبا، ودُفِع بهذا ما تُوُهِّم من عدم الفائدة.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾ أي: يخفِّفُ عنهم ما كُلِّفوه من التكاليف الشاقَّة، كقَطْع موضع النجاسة من الثوب(١)، أو منه ومن البدن، وإحراق الغنائم، وتحريم السَّبت، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعيُّن القِصاص في العمد والخطأ من غير شَرْع الدِّيَة، فإنه وإن لم يكن مأموراً به في الألواح، إلا أنه شُرع بعدُ تشديداً عليهم على ما قيل.

وأصلُ الإصر: الثِّقل الذي يأصِرُ صاحبَه عن الحِراك، و«الأغلال» جمع غُلٍّ بضم الغين: وهي في الأصل ـ كما قال ابنُ الأثير(٢) ـ الحديدةُ التي تَجمع يد الأسير إلى عنقه، ويقال لها: جامعة أيضاً، ولعلَّ غيرَ الحديد إذا جُمِع به يدٌ إلى عنُقٍ يقال له ذلك أيضاً، والمراد منهما هنا ما علمتَ، وهو المأثور عن كثير من السَّلف، ولا يخفى ما في الآية من الاستعارة، وجُوِّز أن يكون هناك تمثيلٌ.

وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلِّي لبِسوا المُسُوح، وغَلُّوا أيديَهم إلى أعناقهم، وربما ثقَبَ الرجلُ ترقوته وجعل فيها طرفَ السلسلة، وأوثقَها على السارية يحبِسُ نفسَه على العبادة. وعلى هذا فـ«الأغلال» يمكن أن يراد حقيقتُه.

وقرأ ابنُ عامر: «آصارهم» على الجمع(٣). وقُرِئَ(٤): «أصرهم» بالفتح على المصدر، وبالضَّم على الجمع أيضاً(٥).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ أي: صدَّقوا برسالته ونبوَّته.

---

(١) تحرفت في (م) إلى: الثواب.

(٢) في النهاية: (غلل).

(٣) التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٢٧٢.

(٤) تحرفت في (م) إلى: وقرأ.

(٥) القراءات الشاذة ص٤٦، وقد نسب ابن خالويه قراءة الضم إلى المعلى عن عاصم، وأوردهما أبو حيان في البحر ٤/ ٤٠٤ من غير نسبة.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عظَّموه ووقَّروه كما قال ابنُ عباس ﷺ، وقال الراغبُ[١]: التعزيرُ: النُّصرة مع التعظيم، والتعزيرُ الذي هو دون الحدِّ يرجع إليه، لأنَّه تأديبٌ، والتأديبُ نصرةٌ؛ لأنَّ أخلاق السوء أعداء، ولذا قال في الحديث: «انصُرْ أخاكَ ظالماً أو مظلوماً». فقيل: كيف أنصُره ظالماً؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «تكفُّه عن الظُّلم»[٢]. وأصله عند غير واحدٍ: المنع، والمرادُ: منعوه حتى لا يقوى عليه عدوٌّ. وقُرئ: «عَزَرُوه» بالتخفيف[٣].

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه في الدِّين. وعطفُ هذا على ما قبلَه ظاهرٌ على ما رُوي عن الحَبْر، وكذا على ما قاله الجمعُ؛ إذ الأولُ عليه من قبيل دَرْء المفاسد، وهذا من قبيل جَلْب المصالح، ومن فسَّر الأول بالتعظيم مع التقوية أخذاً من كلام الراغب قال هنا: نَصَرُوه لي، أي: قصدوا بنصره وجهَ الله تعالى وإعلاءَ كلمته، فلا تكرار خلافاً لمن توهَّمه.

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآنُ، وعبَّر عنه بالنُّور لظهوره في نفسهِ بإعجازه، وإظهاره لغيره من الأحكام، وصدقِ الدَّعوى، فهو أشبَه شيء بالنور الظاهر بنفسه والمظهِرِ لغيره، بل هو نورٌ على نور.

والظرفُ إمَّا متعلِّقٌ بـ «أُنزِل»، والكلامُ على حذف مضافٍ، أي: مع نبوَّته، أو إرساله عليه السلام؛ لأنَّه لم ينزل معه، وإنَّما نزَلَ مع جبريل عليه السلام، نَعَم استنباؤه أو إرسالُه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به. وإما متعلقٌ بـ «اتَّبعوا» على معنى: شاركوه في اتباعه، وحينئذٍ لم يحتجْ إلى تقديرٍ، وقد يعلَّق به على معنى: اتَّبعوا القرآن مع اتِّباعهم النبيَّ ﷺ؛ إشارةً إلى العمل بالكتاب والسنة. وجُوِّز أن يكون في موضع الحال من ضمير «اتَّبعوا»، أي: اتَّبعوا النورَ مصاحبين له في اتِّباعه، وحاصلُه ما ذكر في الاحتمال الثاني، وأن يكون حالاً مقدَّرةً من نائب فاعل «أُنزل».

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (عذر).

(٢) أخرجه أحمد (١١٩٤٩)، والبخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٦ والمحتسب ١/ ٢٦١.

وفي «مجمع البيان» أن «مع» بمعنى على، وهو متعلِّق بـ «أُنزل»[1]، ولم يشتهِر ورودُ[2] ذلك. وقال بعضُهم: هي هنا مرادفةٌ لعند، وهو أحدُ معانيها المشهورة، إلَّا أنه لا يخفى بُعدُه، وإن قيل: حاصلُ المعنى حينئذٍ: أُنزل عليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المنعُوتون بتلك النُّعوت الجليلةِ ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ أي: همُ الفائزون بالمطلوب، لا المتَّصِفون بأضداد صفاتهم. وفي الإشارة إشارةٌ إلى عِلِّيَّة تلك الصفاتِ للحُكم، وكافُ البُعد للإيذان ببُعد المنزلة، وعلوِّ الدرجة في الفضل والشَّرف.

والمراد بالموصول[3] المخبَرِ عنه بهذه الجملة عند ابن عباسٍ رضي الله عنهما اليهود الذين آمنوا برسول الله ﷺ، وقيل: ما يعمُّهم وغيرَهم من أُمته عليه الصَّلاة والسلام المتَّصِفين بعنوان الصِّلَة إلى يوم القيامة، والاتِّصافُ بذلك لا يتوقَّف على إدراكه ﷺ كما لا يخفى، وهو الأَولى عندي.

وادَّعى بعضُهم أنَّ المراد من الموصول في قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعنى الأعمُّ أيضاً، وجعلَه ابنُ الخازن قولَ جمهور المفسِّرين[4]، وفيه ما فيه، وممَّا يَقضي منه العَجَبَ كونُ المراد منه اليهود الذين كانوا زمن موسى عليه السلام.

والجملة متفرِّعة على ما تقدَّم من نعوته ﷺ الجليلة الشأن، وقيل: على كَتْب الرحمة لمن مرَّ، وذكَر شيخُ الإسلام أنها تعليمٌ لكيفية اتِّباعه عليه الصلاة والسلام، وبيان علوِّ رتبة متَّبعيه، واغتنامهم مغانم الرحمة الواسعة في الدارين، إثرَ بيان نعوته الجليلة، والإشارةِ إلى إرشاده عليه الصلاة والسلام إيَّاهم بما في ضمن «يأمرهم» إلخ، وجعَلَ الحصرَ المدلول عليه بقوله سبحانه: «أولئك هم المفلحون» بالنسبة إلى غيرهم من الأمم، قال: فيدخُل فيهم قومُ موسى دخولاً أوليًّا حيث لم

---

(١) مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٤١.

(٢) تحرفت في (م) إلى: وروي.

(٣) في (م): من الموصول.

(٤) تفسير الخازن ٢/ ٢٩٧.

ينجوا عمَّا في توبتهم من المشقَّة الهائلة[١]. وهو مبنيٌّ على ما سلَكَه في تفسير الآيات من أولِ الأمر، ولا يصفو عن كَدَر.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لمَّا حكي ما في الكتابين من نُعوته ﷺ وشرفِ من يتَّبِعُه على ما عرفتَ، أُمِرَ عليه الصلاة والسلام بأن يصدَعَ بما فيه تبكيتٌ لليهود الذين حرَّموا اتباعَه، وتنبيهٌ لسائر الناس على افتراء مَنْ زعمَ منهم أنَّه ﷺ مرسلٌ إلى العرب خاصَّةً، وقيل: إنه أَمْر له عليه الصَّلاة والسلام ببيان أنَّ سعادة الدارين المشار إليهما فيما تقدَّم غيرُ مختصَّة بمن اتَّبعه من أهل الكتابين، بل شاملةٌ لكلِّ من يتَّبِعه كائناً من كان، وذلك ببيان عمومِ رسالته ﷺ، وهي عامَّة للثَّقلين كما نطقت به النصوصُ، حتى صرَّحوا بكفر منكرِه، وما هنا لا يأبى ذلك، والمفهومُ فيه غيرُ معتبرٍ عند القائل به؛ لفقد شَرْطه.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في موضع نصبٍ بإضمار أعني أو نحوه، أو رَفْعٍ على إضمار هو، وجُوِّز أن يكون في موضع جرٍّ على أنه صفةٌ للاسم الجليل، أو بدلٌ منه، واستبعَدَ ذلك أبو البقاء[٢] لما فيه من الفَصْل بينهما، وأُجيب بأنه مما ليس بأجنبيٍّ، وفي حكم ما لا يكونُ فيه فصلٌ، ورجح الأول بالفخامة؛ إذ يكون عليه جملةً مستقلةً مؤذِنةً بأنَّ المذكورَ علمٌ في ذلك، أي: اذكر مَنْ لا يخفى شأنُه عند الموافق والمخالف. وقيل: هو مبتدأٌ خبرهُ ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وهو على الوجوه الأُوَل بيانٌ لما قبلَه، وجعلَه الزَّمخشريُّ[٣] مع ذلك بدلاً من الصِّلة، وقد نصَّ على جواز هذا النحو سيبويه[٤]، وذكر العلامةُ أن سوقَ كلامه يشعر بأنَّه بدلُ اشتمالٍ، ووجه البيان أنَّ مَنْ ملك العالم عُلْوِيَّه وسُفْلِيَّه هو الإله، فبينهما تلازمٌ يُصحِّحُ جعلَ الثاني مبيِّناً للأول، وليس المراد بالبيان الإثباتَ بالدليل حتى يقال: الظاهرُ العكسُ؛ لأنَّ الدليلَ على تفرُّده سبحانه بالألوهية ملكه للعالم بأسره، مع أنَّه يصحُّ أنْ يُجعل دليلاً عليه أيضاً، فيقال: الدليلُ على أنَّه

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٨٠، وقوله: فيدخل فيهم. . .، أي: في غيرهم من الأمم. .
(٢) في إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٧٣.
(٣) في الكشاف ٢/ ١٢٣.
(٤) أي كون البدل بياناً. انظر حاشية الشهاب ٤/ ٢٢٦.

جلَّ شأنُه المالكُ المتصرِّفُ في ذلك انحصارُ الأُلوهيَّة فيه، إذ لو كان إلهٌ غيرُه لكان له ذلك.

واعترض أبو حيَّان القول بالبَدَلية بأنَّ إبدال الجمل من الجمل غير المشترِكة في عاملٍ لا يُعرف[1]، وتُعقِّب بأنَّ أهل المعاني ذكروه، وتعريفُ التابع بكلِّ ثانٍ أُعرِب بإعراب سابقه[2] ليس بكلِّيٍّ.

وقوله سبحانه: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ لزيادةِ تقرير إلهيَّته سبحانه، وقيل: لزيادة تقرير اختصاصِه تعالى بذلك، وله وجهٌ وجيهٌ.

والفاءُ في قوله عزَّ شأنه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لتفريعِ الأمر على ما تقرَّر من رسالته ﷺ، وإيرادُ نفسِه الكريمة عليه الصَّلاة والسلام بعنوان الرِّسالة على طريق الالتفات إلى الغَيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال، ووصفُ الرَّسول بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ لمدحِه، ولزيادةِ تقرير أمْرِه، وتحقيقِ أنَّه المكتوبُ في الكتابين.

﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما أُنزل عليه وعلى سائر الرُّسل عليهم السَّلام من كتبه ووحيه. وقُرئ: «وكلمته»[3] على إرادة الجنس، أو القرآن، أو عيسى عليه السلام كما رُوي ذلك عن مجاهد، تعريضاً باليهود، وتنبيهاً على أنَّ مَنْ لم يؤمن به عليه السلام لم يُعتبر إيمانُه، والإتيانُ بهذا الوصف لحَمْل أهل الكتابين على الامتثال بما أُمروا به، والتصريحُ بالإيمان بالله تعالى للتنبيه على أنَّ الإيمانَ به سبحانه لا ينفكُّ عن الإيمان بكلماته، ولا يتحقَّقُ إلا به. ولا يخفى ما في هذه الآية من إظهار النَّصَفة، والتفادي عن العصبيَّة للنفس، وجعلوا ذلك نكتةً للالتفاتِ، وإجراءِ هاتيك الصِّفات.

﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: في كلِّ ما يأتي وما يَذَر من أمور الدِّين.

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٤٠٥.

(٢) في الأصل: تابعه، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في الشهاب الخفاجي ٤/ ٢٢٧، وعنه نقل المصنف.

(٣) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ إلى مجاهد، وزاد نسبتها إلى عيسى أبو حيان في البحر ٤/ ٤٠٦.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾ علَّةٌ للفعلين، أو حالٌ من فاعلَيهما، أي: رجاءَ لاهتدائكم إلى المطلوب، أو راجين له، وفي تعلُّقه بهما إيذانٌ بأنَّ من صدَّقَه ولم يتَّبِعْه بالتزام شَرْعه فهو بعدُ في مَهامِهِ الضَّلالة.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: بني إسرائيل. ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعةٌ عظيمةٌ ﴿يَهْدُونَ﴾ للناس ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: محقِّين، على أنَّ الباء للملابسة، والجارُّ والمجرور في موضعِ الحال، أو: بكلمةِ الحقِّ على أن الباء للآلة، والجارّ لغوٌ. ﴿وَبِهِۦ﴾ أي: بالحق ﴿يَعْدِلُونَ ١٥٩﴾ في الأحكام الجارية فيما بينهم، وصيغةُ المضارع في الفعلين للإيذان بالاستمرار التجدُّديِّ.

واختُلف في المراد منهم: فقيل: أُناسٌ كانوا كذلك على عهد موسى ﷺ، والكلامُ مسوقٌ لدَفْع ما عسى يُوهِمُه تخصيصُ كَتْب الرحمة والتقوى والإيمانِ بالآيات بمتَّبعي رسول الله ﷺ من حرمان أسلاف قوم موسى من كلِّ خيرٍ، وبيان أنَّ كلَّهم ليسوا كما حُكِيت أحوالُهم، بل منهم الموصوفون بكيتَ وكيت، وصيغةُ المضارع لحكاية الحال الماضية، واختار هذا شيخُ الإسلام[(١)].

ولا يبعُدُ عندي أن يكون ذلك بياناً لِقِسْم آخرَ من القوم مقابلٍ لمَا ذكره موسى عليه السلام في قوله: «أتهلِكُنا بما فعل السُّفهاء منَّا»، فيه تنصيصٌ على أنَّ من القومِ مَنْ لم يفعل.

وقيل: أناسٌ وُجِدوا على عهد نبيِّنا ﷺ موصوفون بذلك، كعبد الله بن سلَام وأضرابه. ورجَّحه الطِّيبيُّ بأنه أقربُ الوجوه، وذلك أنَّه تعالى لما أجاب عن دعاء موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ إلخ، ثم أمر رسولَ الله ﷺ أن يصدَعَ بما فيه تبكيتٌ لليهود، وتنبيهٌ على افترائهم فيما يزعمونه في شأنه عليه الصلاة والسلام مع إظهار النَّصَفة، وذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ﴾ إلخ، وقوله سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ إلخ، عقَّبَ ذلك بقوله عزَّ شأنه: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ إلخ، والمعنى أنَّ بعضَ هؤلاء الذين حكينا عنهم ما حكينا آمَنوا وأنصَفوا من أنفسِهم، يهدون الناسَ إلى أنَّه عليه الصَّلاة

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٨١.

والسلام الرسولُ الموعودُ، ويقولون لهم: هذا الرسولُ النبيُّ الأُميُّ الذي نجِدُه مكتوباً عندنا في التوراة والإنجيل، ويعدِلون في الحُكم ولا يجورون، ولكنَّ أكثرهم ما أنصفوا، وألبَسوا الحقَّ بالباطل، وكتموه، وجاروا في الأحكام، فيكونُ ذِكر هذه الفرقة تعريضاً بالأكثر.

واعترِض بأنَّ الذين آمنوا من قوم موسى على عهد رسول الله ﷺ كانوا قليلين، ولفظ «أُمَّة» يدلُّ على الكثرة، وأيضاً إنَّ هؤلاء قد مرَّ ذِكْرهم فيما سلف.

وأُجيب بأنَّ لفظ الأُمَّة قد يُطلق على القليل، ولاسيَّما إذا كان له شأنٌ، بل قد يُطلق على الواحد إذا كان كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، وبأنَّ ذِكْرهم هنا لما أُشير إليه من النُّكتة لا يأبى ذِكْرهم فيما سلف لغير تلك النُّكتة، وتكرارُ الشيء الواحد لاختلاف الأغراض سنةٌ مشهورةٌ في الكتاب، على أنه قد قيل: إنَّهم فيما تقدَّم قد وُصِفوا بما هو ظاهرٌ في أنَّهم مهتدون، وهنا قد وُصِفوا بما هو ظاهرٌ في أنهم هادون، فيحصُلُ من الذِّكرين أنَّهم موصوفون بالوصفين. نعم يبقى الكلامُ في نكتة الفَصْل، ولعلها لا تخفى على المتدبِّر.

وقيل: هم قومٌ من بني إسرائيل وُجِدوا بين موسى ونبيِّنا محمد عليهما الصَّلاة والسلام، وهم الآن موجودون أيضاً؛ فقد أخرج ابنُ جريرٍ وغيرُه(١) عن ابن جُرَيج أنه قال: بلغني أنَّ بني إسرائيل لما قَتلوا أنبياءهم وكفروا، وكانوا اثني عَشر سِبطاً، تبرَّأ سبطٌ منهم ممَّا صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله أن يُفرِّق بينهم وبينهم، ففتَح الله تعالى لهم نفقاً في الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصِّين، فهم هنالك حنفاء، يستقبلون قِبْلتَنا، وإليهم الإشارة كما قال ابنُ عباس بقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]. وفَسَّر «وعد الآخرة» بنزول عيسى عليه السلام، وقال: إنَّهم ساروا في السرب سنةً ونصفاً.

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٥٠١-٥٠٢، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور ٣/ ١٣٦ إلى ابن المنذر وأبي الشيخ.

وذكر مقاتل ـ كما روى أبو الشَّيخ ـ أنَّ الله تعالى أجرى معهم نهراً، وجعل لهم مصباحاً من نورٍ بين أيديهم، وأنَّ أرضَهم التي خرجوا إليها يجتمع فيها الهوامُّ والبهائم والسِّباع مختلطين، وأنَّ النبيَّ ﷺ أتاهم ليلةَ المِعراج ومعه جبريلُ عليه السَّلام، فآمنوا به، وعلَّمَهم الصَّلاة[١].

وعن الكلبيِّ والضحَّاك والرَّبيع أنه عليه الصَّلاة والسَّلام علَّمَهم الزكاةَ وعشرَ سورٍ من القرآن نزلتْ بمكةَ، وأمرَهم أن يُجَمِّعوا ويتركوا السَّبتَ، وأَقرَؤوه سلامَ موسى عليه السَّلام، فردَّ النبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ السَّلامَ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن السُّدِّي أنه قال: بينكم وبينهم نهرٌ من رملٍ يجري[٢].

وضعَّف هذه الحكاية ابنُ الخازن[٣]، وأنا لا أراها شيئاً، ولا أظنُّكَ تجدُ لها سنداً يعوَّل عليه ولو ابتغيتَ نفقاً في الأرض أو سلماً في السَّماء[٤].

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات:

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ دون رؤيتي على ما يقولُه نفاةُ الرؤية. ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ بالتمكين ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ بالاستقامة في القيام بحقِّ العبودية التي لا مقام أعلى منها:

لا تَدْعُني إلا بيا عبدَها فإنَّه أشرفُ أسمائي[٥]

وبالشكر تزدادُ النِّعم كما نطق بذلك الكتاب.

---

(١) أورده السيوطي في الدر ٣/ ١٣٦.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٨٨).

(٣) تفسير الخازن ٢/ ٣٠٠.

(٤) جاء على هامش الأصل حاشية نصُّها: وقد سئلت اليهود، فأنكروا هذا التفصيل، وزعموا أن أحد عشر سبطاً منهم ونصف سبط منهم ذهبوا زمن داود عليه السلام من بيت المقدس، ولا يدرون إلى الآن أين ذهبوا. والله تعالى أعلم. اهـ منه.

(٥) أورده القرطبي في تفسيره ١/ ٣٤٩، واليوسي في زهر الأكم ١/ ١٥٧ دون نسبة.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ﴾ أي: أظهرنا نقوشَ استعدادِه في ألواح تفاصيل وجودِه: من الرُّوح، والقلب، والعقل، والفِكْر، والخيال، فظهَرَ فيها ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزمٍ؛ لتكون من ذَوِيْه، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: أكثرها نفعاً، وهي العزائم ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: عاقِبَة الذين لا يأخذون بذلك.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهم الذين في مقام النَّفس، فيكون تكبُّرهم حجاباً لهم عن آيات الله تعالى، وأما المتكبِّرون بالحقِّ، وهم الذين فَنِيَتْ صفاتُهم، وظهرتْ عليهم صفاتُ مولاهم، فليسوا بمحجوبين، ولا يعدُّ تكبُّرهم مذموماً؛ لأنه ليس تكبُّرَهم حقيقةً، وإنما حظُّهم منه كونُهم مظهراً له.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حيث حُجِبوا بصفاتهم وأفعالهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ فلا تُقرِّبُهم شيئاً.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ صنَعَه لهم السَّامريُّ، وكان من قومٍ يعبدون العجلَ، أو ممَّن رآهم، فوقَعَ في قلبه لسوءِ استعداده حبُّه، وأضمَرَ عبادته، واختار صياغتَه من حُلِيِّهم ليكون ميلُهم إليه أتمَّ؛ لأن قلب الإنسان يميلُ حيث مالُه، سيَّما إذا كان ذهباً أو فضَّة، وكثيرٌ من الناس اليومُ عبيدُ الدِّرهم والدِّينار، وهما العجلُ المعنويُّ لهم، وإن لم يسجدوا له، وأكثرُ الأقوال أنَّ ذلك العجلَ صار ذا لحمٍ ودمٍ، وإليه الإشارةُ بقوله سبحانه: ﴿جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ وفي كلام الشيخ الأكبر قُدِّسَ سرُّه أنه صار ذا روحٍ بواسطةِ التراب الذي وَطِئه الروحُ الأمين، ولم يُصرِّح بكونه ذا لحمٍ ودمٍ(١).

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي: ذَهَل من شدَّة الغضب عنها، وتجافَى عن حكم ما فيها، ونسيانُ ما يُستحسَن من الحِلْم مثلاً عند الغضب مما يجدُه كلُّ أحدٍ من نفسه. ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ ظنًّا أنه قصَّر في كفِّهم. ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ ناداه بذلك لغَلَبة الرَّحمة عليه(٢).

---

(١) الفتوحات المكية، الباب الأربعون في معرفة منزل مجاور لعلم جزئي من علوم الكون وترتيبه.

(٢) من قوله: «وألقى الألواح»، إلى هنا، كذا ورد في الأصل و(م) في غير موضعه، وظاهر أنه ليس من التفسير الإشاري، وسيرد تفسيرها إشاريًّا في موضعه.

وتأويلُ ذلك في الأنفُس على ما قاله بعضُ المؤوِّلين أنَّ سامريَّ الهوى بعد توجُّه موسى الروحِ لميقات مكالمة الحقِّ اتَّخذ من حُلْي زينة الدنيا ورُعونات البشرية التي استعارها بنو إسرائيل صفاتِ القلب من قِبْط صفاتِ النفس معبوداً يتعجَّلون إليه، له خُوار يدعو[1] الخلقَ به إلى نفسه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بما ينفعُهم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ إلى الحقِّ.

﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ حيث عدَلوا عن عبادة الحقِّ إلى عبادة غيره في نظرهم.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندِموا عند رجوع موسى الروحِ ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بجذبات العناية ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بأن يستُرَ صفاتِنا بصفاته سبحانه وتعالى ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ رأسَ مالِ هذه النَّشأة من[2] الاستعداد.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وهم الأوصافُ الإنسانية ﴿غَضْبَـٰنَ﴾ مما عبدَتْ صفاتُ القلب عجلَ الدُّنيا، ﴿أَسِفًا﴾ على ما فاتَ لها من عبادة الحقِّ ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ حيثُ لم تَسِيروا سَيري ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ بالرُّجوع إلى الفاني من غير أمره تعالى؟

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي: ما لاحَ له من اللوائح الرَّبَّانية عند استيلاء الغضب الطبيعيِّ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ وهو القلبُ ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ قسراً[3].

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ ناداه بذلك مع أنَّه أخوه من أبيه ـ وهو عالَمُ الأرواح[4] ـ وأُمِّه وهو عالَمُ الخَلْق؛ لأنَّهما في عالَم الخلق.

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾ أي: الأوصافَ البشرية ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ عند غيبَتك ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ يُزيلون مني حياةَ استعدادي بالكُلية ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ وهم هم، وهذا ما يقتضيه مقامُ الفَرْق.

---

(١) في (م): يدعون.
(٢) في (م): وهو.
(٣) قوله: قسراً ليس في الأصل، والمثبت من (م).
(٤) في (م): الأمر.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ بسَتْرِ صفاتِنا ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ بإفاضة الصِّفات الحقَّة علينا ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنَّ كلَّ رحمةٍ فهو شعاعُ نورِ رحمتك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: عِجْلَ الدُّنيا إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو عذابُ الحجاب ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ باستعباد هذا الفاني المُدْني لهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾الذين يفترون على الله تعالى، فيُثبتون وجوداً لما سواه.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟﴾ رجعوا إليه سبحانه وتعالى بمجاهدة نفوسِهم وإفنائها ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ فيستُرُ صفاتِهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ فيُفيض عليهم من صفاته.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ الربانية ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ إرشادٌ إلى الحقِّ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾يخافون لحسن استعدادهم.

ويقال في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾: إنَّ موسى عليه السلامُ اختار سبعين رجلاً من أشرافِ قومه ونُجبائهم أهل الاستعداد والصَّفاء، والإرادة والطَّلب والسُّلوك.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: رجفةُ البَدَن التي هي من مبادئ صَعْقةِ الفناء عند طَرَيان بوارق الأنوار، وظهور طوالع تجليات الصِّفات من اقشعرار الجسد وارتعاده.

وكثيرًا ما تعرِضُ هذه الحركةُ للسَّالكين عند الذِّكر، أو سماع القرآن، أو ما يتأثَّرون به، حتى تكاد تتفرَّق أعضاؤهم، وقد شاهدنا ذلك في الخالديِّين[١] من أهل الطريقة النقشبندية، وربَّما يعتريهم في صلاتهم صياحٌ معه، فمنهم من يستأنِفُ صلاتَه لذلك، ومنهم مَنْ لا يستأنِف[٢].

---

(١) تحرفت في (م) إلى: الخالدين، ويعني بالخالديين أتباع الشيخ خالد بن حسن الكردي الشهير بالحضرة، خاتمة أئمة الطريقة النقشبندية بالشام، المتوفى بها سنة (١٢٤٢هـ)، وهو شيخ المصنف رحمه الله. ينظر فهرس الفهارس ١/ ٣٧٣.

(٢) قوله: يستأنف، ليس في الأصل، والمثبت من (م).

وقد كثُرَ الإنكار عليهم، وسمعتُ بعضَ المنكرين يقول: إن كانت هذه الحالةُ مع الشُّعور والعقل فهي سوءُ أدبٍ، ومبطلةٌ للصلاة قطعاً، وإن كانت مع عدم شعورٍ وزوال عقلٍ فهي ناقضةٌ للوضوء، ونراهم لا يتوضؤون!

وأُجيب بأنَّها غيرُ اختياريةٍ مع وجودِ العقل والشعور، وهي كالعطاس والسُّعال، ومن هنا لا تنقض الوضوء، ولا تبطلُ الصَّلاة، وقد نصَّ بعضُ الشافعية أن المصلِّي لو غَلَبه الضَّحك في الصلاة لا تبطُلُ صلاته، ويعذَرُ بذلك[١]، فلا يبعُدُ أن يلحَقَ ما يحصُلُ من آثار التجلِّيات الغير الاختيارية بما ذُكر، ولا يلزم من كونه غيرَ اختياريٍّ كونُه صادراً من غير شعورٍ؛ فإن حركةَ المرتعش غيرُ اختيارية مع الشعور بها، وهو ظاهرٌ، فلا معنى للإنكار. نعم كان حضرةُ مولانا الشَّيخ خالد قُدِّس سرُّه يأمر من يعتريه ذلك من المريدين بالوضوء واستئنافِ الصَّلاة؛ سدًّا لباب الإنكار.

والحقُّ أن ما يعتري هذه الطائفةَ غيرُ ناقضٍ للوضوء؛ لعدم زوال العقل معه، لكنَّه مبطلٌ للصلاة؛ لما فيه من الصِّياح الذي يظهَرُ به حرفان، مع أمورٍ تأباها الصلاة، ولا عذرَ لمن يعتريه ذلك إلا إذا ابتُلي به، بحيث لم يخلُ زمنٌ من الوقت يسَعُ الصلاة بدونه، فإنه يُعذَرُ[٢] حينئذٍ، ولا قضاء عليه إذا ذهب منه ذلك الحال، كمن به حكَّة لا يصبِرُ معها على عدم الحكِّ.

وقد نصَّ الجدُّ[٣] عليه الرحمةُ في «حواشيه على شرح الحضرميَّة» للعلامة ابن حجر في صورة من ابتُلي بسعالٍ مزمنٍ على نحو ذلك، ثم قال: فرع: لو ابتُلي بذلك، وعلم من عادته أن الحمَّام يسكِّنُه عنه مدةً تسعُ الصلاة وجب عليه دخوله حيث وجَدَ أُجرةَ الحمَّام فاضلةً عما يُعتبر في الفطرة[٤]، وإن فاتته الجماعةُ وفضيلةُ أول الوقت. انتهى.

---

(١) جاء على هامش الأصل ما نصه: وفي التحفة التقييد بما إذا قل عرفاً، فلا تغفل. اهـ منه.

(٢) بعدها في الأصل: عنه.

(٣) هو نجم الدين أبو عبد الله حسين بن علي بن حسن العشاري، ولد وتعلم في بغداد، وغلب عليه الفقه حتى كان يسمى الشافعي الصغير، كان عالماً فاضلاً شاعراً، وهو جد الآلوسي لأُمِّه، من مصنفاته: الأبحاث الرفيعة في الرد على الشيعة، وتعليقات على شرح جمع الجوامع للمحلي، توفي سنة (١١٩٥هـ). سلك الدرر ٢/ ٦٩، هدية العارفين ٥/ ٣٢٨، الأعلام ٢/ ٢٤٨.

(٤) أي: زكاة الفطر.

نعم ذكر رحمه الله تعالى في الفعل الكثير المبطِل للصَّلاة، وهو ثلاثةُ أفعال، أنه لو ابتُلي بحركة اضطرارية نشأ عنها عملٌ كثير فمعذورٌ، وقال أيضاً: إنه لا يضرُّ الصوتُ الغير المشتمِلِ على النطق بحرفين متواليين من أنف أو فمٍ، وإن اقترنَتْ به همهمةُ شفتي الأخرس، ولو لغير حاجةٍ، وإن فَهِم الفَطِن كلاماً، أو قصَدَ محاكاةَ بعض أصوات الحيوانات إن لم يقصِدِ التلاعب، وإلا بطَلَت.

وينبغي التحرِّي في هؤلاء القوم؛ فإنَّ حالَهم في ذلك متفاوتٌ، لكنَّ أكثرَ ما شاهدناه على الطِّرْز الذي ذكرناه، وتمامُ الكلام في هذا المقام يُطلب من الكتب الفقهية.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰيَ﴾ وذلك من شدَّة غلبة الشَّوق، و«لو» هذه للتمنِّي.

﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ بعذاب الحجاب والحرمان ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ من عبادة العجل؟

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ لا مدخل فيها لغيرك، وهذا مقتضى مقام تجلِّي الأفعال.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبَ صفاتِنا وذواتِنا كما غفرتَ ذنوبَ أفعالنا ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ بإفاضة أنوار شهودك ورفع حجاب الأنية بوجودك.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهي حسنةُ الاستقامة بالبقاء بعد الفناء. ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ حسنةَ المشاهدة.

والكلامُ في بقية الكلام لا يخفى على مَنْ له أدنى ذوق، خلا أنَّ بعضَهم أوَّل العذابَ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ بعذابِ الشوق المخصوص الذي يُصيب أهلَ العناية من الخواصِّ، وهو الرَّحمة التي لا يُكتَنَهُ كُنْهُهَا، ولا يُقْدَرُ قَدْرها، وإنَّها لأعزُّ من الكبريت الأحمر، وأهلُ الظاهر يرونَه بعيداً، والقوم يقولون: نراه قريباً.

وقالوا: «الأُمِّي»: نسبة إلى الأُمِّ، لكن على حدِّ أحمريّ، وقيل للنبي ﷺ ذلك لأنَّه أُمُّ الموجودات، وأصلُ المكوَّنات[1]، واختير هذا اللفظُ لما فيه من الإشارة

---

(١) في (م): المكنونات.

إلى الرحمة والشَّفقة، وهو الذي جاء رحمةً للعالمين، وإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام لأشفَقُ على الخلق من الأُمِّ بولدها؛ إذ له ﷺ الحظُّ الأوفَرُ من التخلُّق بأخلاق الله تعالى، وهو سبحانه أرحمُ الراحمين، وذكروا أنَّ أَتباعَه من حيث النبوَّة الخواصُّ، ومن حيث الأُمِّية خواصُّ الخواصِّ، ومن حيث الرسالة هؤلاء المذكورون كلُّهم والعوامُّ، نسأل الله تعالى أن يوفِّقنا لاتِّباعه ﷺ في سائر شؤونه.

❁ ❁ ❁

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي: قومَ موسى عليه السلام، لا الأُمة المذكورة كما يوهمُه القربُ.

و«قطع» يُقرأ مشدَّداً ومخفَّفاً[1]، والأولُ هو المتواتر، ويتعدَّى لواحدٍ، وقد يُضمَّن معنى صيَّر فيتعدَّى لاثنين، فقوله تعالى: ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ حالٌ أو مفعولٌ ثان، أي: فرَّقناهم معدودين بهذا العدد، أو صيَّرناهم اثنتي عشرةَ أُمةً يتميَّز بعضُها عن بعض.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَسْبَاطًا﴾ ـ كما قال ابنُ الحاجب في «شرح المُفصَّل» ـ بدلٌ من العدد، لا تمييز له، وإلا لكانوا ستةً وثلاثين، وعليه فالتمييز محذوفٌ، أي: فرقةً أو نحوه، قال الحوفي: إنَّ صفةَ التمييز أُقيمت مقامَه، والأصل فرقةً أسباطاً، وجُوِّز أن يكون تمييزاً لأنه مفردٌ تأويلاً، فقد ذكروا أن السِّبط مفرداً ولدُ الولد، أو ولدُ البنت، أو الولد، أو القطعة من الشيء، أقوالٌ ذكرها ابنُ الأثير[2]، ثم استُعمِل في كلِّ جماعة من بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، ولعلَّه تسميةٌ لهم باسم أصلِهم، كتميم، وقد يُطلق على كلِّ قبيلة منهم أسباطٌ أيضاً، كما غلَبَ الأنصارُ على جمعٍ مخصوصٍ، فهو حينئذٍ بمعنى الحيِّ والقبيلة، فلهذا وقعَ موقعَ المفرد في التمييز، وهذا كما ثُنِّيَ الجمعُ في قول أبي النَّجم[3] يصفُ رَمكَة تعوَّدت الحرب:

---

(١) قرأ بالتخفيف أبو حيوة فيما ذكر ابن خالويه ص٤٦، وهي رواية المفضل عن عاصم فيما ذكر القرطبي ٩/ ٣٦٠، وقراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

(٢) في النهاية في غريب الحديث (سبط).

(٣) هو الفضل بن قدامة، من عِجْل، وهو من رُجَّاز الإسلام الفحول المقدَّمين، وفي الطبقة الأولى منهم، بقي إلى أيام هشام بن عبد الملك، وله معه أخبار. الشعر والشعراء ٢/ ٦٠٣، ومعجم الشعراء للمرزباني ص١٨٠، والأغاني ١٠/ ١٥٠.

تـبـقَّـلـتْ فــي أول الـتـبـقُّـل بـيـن رمـاحَـي مـالـكٍ ونَـهْـشَـل[(١)]

وتأنيثُ «اثنتي» مع أنَّ المعدود مذكَّر، وما قبل الثلاثة يجري على أصل التأنيث والتذكير، لتأويل ذلك بمؤنَّثٍ، وهو ظاهرٌ مما قرَّرنا.

وقرأ الأعمشُ وغيرُه: «عَشِرة» بكسر الشين، ورُوي عنه فتحُها أيضاً، والكسر لغةُ تميم، والسُّكون لغةُ الحجاز[(٢)].

وقوله سبحانه: ﴿أُمَمًا﴾ بدلٌ بعدَ بدلٍ من «اثنتي عشرة»، لا من «أسباط» على تقدير أن يكون بدلاً، لأنَّه لا يُبْدَل من البدل، وجُوِّز أن يكون بدلاً منه إذا لم يكن بدلاً؛ ونعتاً إن كان كذلك، أو لم يكن.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ حين استولى عليهم[(٣)] العطشُ في التِّيه ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ تفسير لفعل الإيحاء، فـ«أَنْ» بمعنى أي، وجوَّز أبو البقاء[(٤)] كونَها مصدريَّةً.

---

(١) ديوان أبي النجم ص١٧٥-١٧٦. وقبلهما: كُوْمَ الذُّرى من خول المخول، وبعدهما: يدفع عنها العِزُّ جهل الجُهَّل.
وقوله: تبقلت: أي: رعت البقل. والبيتان يفخر فيهما أبو النجم، ويذكر أن الموضع الذي جاءت بنو عجل ترعى فيه إبلها، كان الجميع قد تحاموا الرعي فيه بسبب ما جرى بين بني مالك ونهشل من حروب، أما قومه فلعزهم رعوا ذلك الموضع ولم يخافوا هذين الحيين. الأغاني ١٠/ ١٥٢.
وأما قول المصنف: يصف رمكة ـ وهي الفرس، أو البرذون التي اتخذت للنسل ـ فغير صحيح في تأويل البيتين، تابع فيه المصنف من نقل عنه من شراح شواهد التفسير. قال البغدادي في الخزانة ٢/ ٣٩٤-٣٩٥: زعم بعض شراح شواهد التفسير أن هذا البيت في وصف رمكة مرتاضة اعتادت ممارسة الحروب، حتى تحسب أرض الحرب روضة تتبقَّل فيها، ولا يخفى أن هذا كلام من لم يقف على سياق هذا البيت ولا سباقه، مع أن هذا الزاعم أورد غالب الأرجوزة، ولم يتفهم المعنى!.
(٢) البحر المحيط ٤/ ٤٠٦، وزاد نسبة القراءة بالكسر إلى أبي حيوة وطلحة بن مصرف، وبالكسر والفتح معاً إلى ابن وثاب وطلحة بن سليمان.
(٣) تحرفت في (م) إلى: عليه.
(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٧٣.

﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ أي: انفجرت كما قال ابن عباس، وزعم الطبرسيُّ[1] أنَّ الانبجاس خروجُ الماء بقلَّة، والانفجار خروجُه بكثرة، والتعبير بهذا تارةً وبالأخرى أخرى باعتبار أولِ الخروج وما انتهى إليه.

والعطفُ على مقدَّر ينسحب عليه الكلامُ، أي: فضرب فانبجست، وحذف المعطوف عليه لعدم الإلباس، وللإشارة إلى سرعة الامتثال، حتى كأنَّ الإيحاء وضَرْبه أمرٌ واحد، وأن الانبجاس بأمر الله تعالى، حتى كأنَّ فِعْلَ موسى عليه السَّلام لا دخلَ له فيه. وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ هذه الفاء ـ على ما قرِّر ـ فصيحةٌ، وبعضُهم يقدِّر شرطاً في الكلام: فإذا ضربتَ فقد انبجسَتْ ﴿مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾، وهو غيرُ لائق بالنَّظم الجليل.

﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ﴾ أي: سبطٍ، والتعبيرُ عنهم بذلك للإيذان بكثرة كلٍّ واحد من الأسباط، و«أناس» إما جمعٌ أو اسمُ جمعٍ، وذكر السَّعد أنَّ أهل اللغة يسمُّون اسم الجمع جمعاً، و«علم» بمعنى عرَفَ الناصب مفعولاً واحداً، أي: قد عرف.

﴿مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ أي: عينَهم الخاصَّة بهم، ووجهُ الجمع ظاهرٌ.

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾ أي: جعلنا ذلك بحيث يُلقي عليهم ظلَّه ليَقيهم من حرِّ الشمس، وكان يسيرُ بسَيْرهم، ويسكُنُ بإقامتهم.

﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ أي: الترنجبين والسُّمانى، فكان الواحدُ منهم يأخُذُ ما يكفيه من ذلك.

﴿كُلُواْ﴾ أي: قلنا، أو قائلين لهم: كلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ أي: مستلَذَّاته، و«ما» ـ موصولةً كانت أو موصوفة ـ عبارةٌ عن المنِّ والسَّلوى.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ عطفٌ على محذوفٍ للإيجاز والإشعار بأنَّه أمرٌ محقَّق غنيٌّ عن التصريح، أي: فظلموا بأن كفروا بهذه النِّعم الجليلة، وما ظلمونا بذلك، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ بالكفر؛ إذ لا يتخطَّاهم ضَررُه، وتقديمُ المفعول لإفادة القصر الذي يقتضيه النفيُ السَّابق، وفي الكلام من التهكُّم والإشارةِ إلى تماديهم على ماهم فيه ما لا يخفى.

---

(١) في مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٤٦.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ معمولٌ لـ : اذكُر، وإيراد الفعل هنا مبنيًّا للمفعول جرياً على سنن الكبرياء، مع الإيذان بأنَّ الفاعل غنيٌّ عن التصريح به، أي: اذكر لهم وقتَ قولنا لأسلافهم: ﴿ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ القريبةَ منكم، وهي بيتُ المقدس، أو أريحاء، والنصبُ مبنيٌّ على المفعولية، كسكنتُ الدار، أو على الظرفية اتِّساعاً. والتعبير بالسُّكنى هنا للإيذان بأنَّ المأمور به في «البقرة» الدخولُ بقصد الإقامة، أي: أقيموا في هذه القرية.

﴿وَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أي: مطاعمها وثمارها، أو منها نفسِها على أنَّ «من» تبعيضيَّةٌ، أو ابتدائية. ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: من نواحيها من غير أن يزاحمَكم أحدٌ، وجيء بالواو هنا وبالفاء في «البقرة» لأنَّه قيل هناك: ﴿وَٱدْخُلُواْ﴾ [الآية: ٥٨]، فحسُنَ ذِكْرُ التعقيب معه، وهنا: «اسكنوا»، والسُّكْنى أمر ممتدٌّ، والأكل معه لا بعدَه، وقيل: إنه إذا تفرَّع المسبَّب على السبب اجتمعا في الوجود، فيصحُّ الإتيان بالواو والفاء، وفيه أنَّ هذا إنما يدلُّ على صحة العبارتين، وليس السُّؤال عن ذلك.

وذكر ﴿رَغَدًا﴾ هناك [البقرة: ٣٥] لأنَّ الأكل في أول الدُّخول يكونُ ألذَّ، وبعد السُّكنى واعتيادِه[1] لا يكونُ كذلك، وقيل: إنه اكتفَى بالتعبير بـ «اسكُنوا» عن ذِكْره؛ لأنَّ الأكل المستمرَّ من غير مزاحِم لا يكونُ إلا رغداً واسعاً، وإلى الأول ذهب صاحبُ «اللباب»[2]، ويَرِدُ على القولين أنه ذكر ﴿رَغَدًا﴾ مع الأمر بالسُّكنى في قصَّة آدم عليه السلام، ولعلَّ الأمر في ذلك سهلٌ.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ مرَّ الكلامُ فيه في «البقرة» [الآية: ٥٨]، غيرَ أنَّ ما فيها عكسُ ما هنا في التقديم والتأخير، ولا ضيرَ في ذلك، لأنَّ المأمور به هو الجمعُ بين الأمرين من غير اعتبارِ الترتيب بينهما، وقال القطب: فائدةُ الاختلاف التَّنبيهُ على حُسْن تقديم كلٍّ من المذكورين على الآخر؛ لأنه لمَّا كان المقصودُ منهما تعظيمَ الله تعالى، وإظهارَ الخشوع والخضوع، لم يتفاوت الحالُ في التقديم والتأخير.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ جزمٌ في جواب الأمر.

---

(١) تحرفت في (م) إلى: واعتباره.

(٢) اللباب لابن عادل ٩/ ٣٥٤.

وقرأ نافعٌ، وابنُ عامر، ويعقوب: «تُغفَر» بالتاء والبناء للمفعول، و«خطيئاتُكُمْ» بالجمع والرَّفع غير ابن عامر؛ فإنه وحَّد، وقرأ أبو عَمرو: «خطاياكم» كما في سورة البقرة[1]، وبيَّن القطبُ فائدة الاختلاف بين ما هناك وما هنا على القراءةِ المشهورة بأنها الإشارةُ إلى أنَّ هذه الذنوب سواءٌ كانت قليلةً أو كثيرةً فهي مغفورةٌ بعد الإتيان بالمأمور به.

وطَرْح الواو هنا من قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه الزيادة تفضُّلٌ محضٌ ليس في مقابلة ما أُمِروا به كما قيل، والمراد أنَّ امتثالَهم جازاه الله تعالى بالغفران وزاد عليه، وتلك الزيادةُ فضلٌ محضٌ منه تعالى، فقد يَدْخُل في الجزاء صورةً لترتُّبِه[2] على فعلهم، وقد يخرُجُ عنه؛ لأنَّه زيادةٌ على ما استحقُّوه، ولذا قُرِنَ بالسِّين الدالَّة على أنه وعدٌ وتفضُّلٌ، ومفعولُ «نزيد» محذوفٌ، أي: ثواباً.

وزيادةُ «منهم» في قوله تعالى شأنه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ لزيادة البيان، أي: بدَّل الذين ظلموا من هؤلاء بما أُمروا به من التوبة والاستغفار؛ حيث أعرضوا عنه، ووضعوا موضعَه ﴿قَوْلًا﴾ آخر مما لا خيرَ فيه ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ وأُمروا بقوله. و«غير» نعتٌ للقول، وصرَّح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها تحقيقاً للمخالفة، وتنصيصاً على المغايرة من كلِّ وجه.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إثرَ ما فعلوا ما فعلوا من غير تأخير ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذاباً كائناً منها، وهو الطاعون في رواية. ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ أي: بسببِ ظلمهم المستمرِّ السابق واللاحق، وهذا بمعنى ما في «البقرة» [الآية: ٥٩]؛ لأنَّ ضميرَ «عليهم» لـ «الذين ظلموا»، والإرسال من فوق إنزالٌ، والتصريحُ بهذا التعليل لما أنَّ الحكم ها هنا مرتَّب على المضمَرِ دون الموصول بالظلم كما في «البقرة»، وأما التعليل بالفسق بعد الإشعار بعلِّيَّة الظلم هناك فللإيذان بأنَّ ذلك فسقٌ وخروجٌ عن الطاعة، وغلوٌّ في الظلم، وأن تعذيبَهم بجميع ما ارتكَبوا من القبائح كما قيل.

---

(١) التيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢١٥ و٢٧٢.

(٢) في الأصل: لترتيبه، والمثبت من (م)، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٢٨، والكلام منه.

وقال القطب في وجه المغايرة: إنَّ الإرسال مشعِرٌ بالكثرة، بخلاف الإنزال، فكأنَّه أنزَلَ العذابَ القليل، ثم جعَلَه كثيراً، وإن الفائدةَ في ذكر الظُّلم والفِسْق في الموضعين الدلالةُ على حصولهما فيهم معاً.

وقد تقدَّم لك في وجوه المغايرة بين آية «البقرة» وهذه الآية ما ينفعُكَ تذكُّرُه، فتذكَّر.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ عطفٌ على اذكر المشار إليه فيما تقدَّم آنفًا[1]، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، وضميرُ الغَيبة لمن بحضرته عليه الصلاة والسلام من نسل اليهود، أي: واسأل اليهودَ المعاصرين لك سؤالَ تقريعٍ وتقريرٍ[2] بتقدُّم تجاوزهم لحدودِ الله تعالى، والمرادُ إعلامُهم بذلك؛ لأنَّهم كانوا يُخفونه، وفي الاطِّلاع عليه مع كونه عليه الصَّلاة والسَّلام ليس ممَّن مارس كتُبَهم أو تعلَّمه من علمائهم ما يقضي بأنَّ ذلك عن وحي، فيكونُ معجزةً شاهدةً عليهم.

﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: عن خبرِها وحالها وما وقع بأهلها من ثالثة الأثافيِّ، والمراد بالسؤال عن ذلك ما يعمُّ السؤال عن النفس وعن الأهل، أو الكلامُ على تقدير مضاف، والمراد: عن حال أهل القرية، وجُوِّز التجوُّزُ فيها. وهي عند ابن عباس وابن جُبَير أَيْلَة: قريةٌ بين مَدْيَن والطُّور. وعن ابن شهاب: هي طَبَرِية. وقيل: مَدْين. وهي رواية عن الحَبْر. وعن ابن زيد أنَّها مَقْنا بين مَدْين وعَيْنونا[3].

﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: قريبةً منه، مُشْرِفةً على شاطئه.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يظلمون ويتجاوزون حدودَ الله تعالى بالصيد يوم السبت، أو بتعظيمه، و«إذ» بدلٌ من المسؤول عنه بدلَ اشتمالٍ، أو ظرفٌ للمضاف المصدر[4]، قيل: واحتمالُ كونه ظرفاً لـ «كانت» أو «حاضرة» ليس بشيء؛ إذ لا فائدةَ بتقييد الرُّكون أو الحضور بوقت العدوان، وضمير«يَعْدون» للأهل المقدَّر، أو المعلوم من الكلام، وقيل: إلى «القرية» على سبيل الاستخدام.

---

(١) يعني المقدر عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟...﴾. حاشية الشهاب ٤/ ٢٢٨.
(٢) هو الحمل على الإقرار، سواء كان بالاستفهام، أو بنحو: أسألكم عن كذا. قاله الشهاب.
(٣) ويقال: هي عين أُنا، وأُنا: وادٍ على الساحل بين الصلا ومدين. معجم البلدان ٤/ ١٨٠.
(٤) كذا في الأصل و(م)، والصواب: المقدَّر، وهو: أهل. ينظر حاشية الشهاب ٤/ ٢٢٩.

وقُرِيء: «يَعَدُّون»[١] بمعنى يعتدون، أُدغِمت التاء في الدال، ونُقلت حركتُها إلى العين. و: «يُعِدُّون»[٢] من الإعداد، حيث كانوا يعدون آلات الصَّيد يوم السبت وهم منهيُّون عن الاشتغال فيه بغير العبادة.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرف لـ «يَعْدُون»، أو بدلٌ بعد بدلٍ، وإلى الأول ذهبَ أكثرُ المعربين، وهو الأولى؛ لأنَّ السؤال عن عدوانهم أبلغُ في التقريع.

و«حيتان» جمعُ حوتٍ، أُبدِلت الواو ياءً لسكونها وانكسار ما قبلَها، كنون ونينات لفظاً ومعنى، وإضافتُها إليهم باعتبار أنَّ المراد الحيتان الكائنة في تلك الناحية التي هم فيها. وقيل: للإشعار باختصاصها بهم؛ لاستقلالها بما لا يكاد يوجد في سائر أفراد الجنس من الخواصِّ الخارقة للعادة. ولا يخفى بعدُه.

﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ ظرف لـ «تأتيهم»، أي: تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السبت، وهو مصدر سَبَتَتِ اليهودُ: إذا عظَّمت يومَ السبت بترك العمل، والتفرُّغ للعبادة فيه. وقيل: اسمٌ لليوم، والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه.

ويؤيد الأولَ قراءةُ عُمَر بن عبد العزيز: «يوم إسباتهم»[٣]، وكذا النفي الآتي.

﴿شُرَّعًا﴾ أي: ظاهرةً على وجه الماء كما قال ابن عباس ﵄، قريبةً من الساحل، وهو جمعُ شارعٍ، من شرع عليه: إذا دنا وأشرَفَ، وفي الشَّرع معنى الإظهار والتبيين، وقيل: حيتان شُرَّع: رافعةٌ رؤوسَها، كأنه جعل ذلك إظهاراً وتبييناً. وقيل: المعنى: متتابعةً، ونُسِب إلى الضحَّاك. والظاهرُ أنها ظاهرةٌ، وهو نصبٌ على الحال من الحيتان.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: لا يُراعون أمرَ السبت، وهو على حدِّ قوله:

على لاحِبٍ لا يُهتَدَى بمنارِهِ[٤]

إذ المقصودُ انتفاءُ السبت والمراعاة.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٦، والمحتسب ١/ ٢٦٤، والبحر ٤/ ٤١٠.

(٢) الكشاف ٢/ ١٢٥، والبحر ٤/ ٤١٠.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٦٣.

(٤) صدر بيت لامرئ القيس، وقد سلف ١/ ٤٥٧.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه: «لا يُسْبِتون» بضمِّ حرف المضارعة، من أسبت: إذا دخل في السَّبت، كأصبح: إذا دخل في الصَّباح. وعن الحسن أنه قرأ: «لا يُسْبَتون» على البناء للمفعول[١]، بمعنى لا يدخلون في السبت، ولا يُؤْمرون فيه بما أُمروا به يومَ السبت. وقرئ: «لا يَسْبُتون» بضمِّ الباء[٢].

والظرفُ متعلِّق بقوله سبحانه: ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: لا تأتيهم يومَ لا يسبتون كما كانت تأتيهم يومَ السبت؛ حذراً من صيدهم؛ لاعتيادها أحوالَهم، وأنَّ ذلك لمحضِ تقدير العزيز العليم، وتغييرُ السَّبْك حيث قدَّمَ الظرف على الفعل ولم يعكس؛ لِمَا أنَّ الإتيانَ يوم سَبْتهم مَظِنَّةٌ ـ كما قيل ـ لأَنْ يقال: فماذا حالُها يوم لا يَسبِتُون؟ فقيل: «يوم لا يَسبِتُون لا تأتيهم».

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: نعاملُهم معاملةَ المختبِرين لهم؛ ليظهر منهم ما يظهر، فنؤاخِذَهم به. وصيغةُ المضارع لحكاية الحال الماضية؛ لاستحضار صورتها والتعجيبِ منها، والإشارةُ إما إلى الابتلاء السابق، أو إلى الابتلاء المذكور بعدُ كما مرَّ غير مرَّةٍ، وقيل: الإشارةُ إلى الإتيان يوم السبت، وهي متَّصلةٌ بما قبلُ، أي: لا تأتيهم كذلك الإتيان يومَ السبت، والكافُ في موضع نصبٍ على الحال عند الطَّبرسي[٣]، وجُوِّز أن يكون متعلقاً بمحذوفٍ وَقَعَ صفةً لمصدر مقدَّر، أي: إتيانًا كائناً كذلك، وجملةُ«نبلوهم» استئنافٌ مبنيٌّ على السُّؤال عن حكمة اختلاف حال الحيتان بالإتيان تارةً وعَدمِه أخرى.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: بسبب فِسْقِهم المستمرِّ في كلِّ ما يأتون ويَذَرون، وهو متعلِّق بما عندَه. وتعلُّق «إذ يعدون» بـ «نبلوهم»، و«بما» بـ «يعدون»، على معنى: نبلوهم وقتَ العدوان بالفِسْق، ممَّا لا ينبغي تخريجُ كتابِ الله تعالى الجليل عليه.

﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ عطفٌ على «إذ يعدون»، مسوقٌ لبيان تماديهم في العدوان، وعدمِ

(١) قراءة علي والحسن في القراءات الشاذة ص٤٧، والبحر ٤/ ٤١١.
(٢) البحر ٤/ ٤١١.
(٣) في مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٤٨، وقد أورده احتمالاً، ورجح كونها في موضع نصب بـ «نبلوهم».

انزجارهم عنه بعد العِظات والإنذارات. قال العلَّامتان الطِّيبيُّ والتفتازانيُّ: ولا يجوز أن يكون معطوفاً على «إذ تأتيهم» وإن كان أقربَ لفظًا؛ لأنه إمَّا بدلٌ أو ظرفٌ، فيلزَمُ أن يدخُلَ هؤلاء القائلون في حكم أهل العدوان، وليس كذلك، وهذا ـ على ما قيل ـ على تقدير الظرفية ظاهرٌ، وأمَّا على تقدير الإبدال فلأنَّ البدلَ أقربُ إلى الاستقلال، واستُظهِرَ في بيان وجه ذلك أنَّ زمانَ القول بعد زمان العدوان، ومغايرٌ له، واعتبارُ كونه ممتدًّا كسنةٍ مثلاً يقع فيه ذلك كلُّه تكلُّفٌ من غير مقتضٍ، والقولُ بأن العطفَ على ذاك يُشعر أو يوهم أنَّ القائلين من العادين في السبت لا من مطلق أهلِ القرية، فيه ما فيه.

﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: جماعةٌ من صُلَحائهم الذين لم يألوا جُهداً في عِظَتهم حين يئسوا من احتمال القَبول لآخرين لم يُقلعوا عن التَّذكير رجاءَ النفع والتأثير: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مستأصِلُهم بالكلِّية، ومطهِّرٌ وجهَ الأرض منهم، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون الاستئصال بالمرَّة.

وقيل: مهلكُهم في الدنيا، أو معذِّبُهم في الآخرة؛ لعدم إقلاعهم عمَّا هم عليه من الفِسق. والترديدُ لمنع الخلوِّ على هذا.

وإيثارُ صيغة اسم الفاعل في الشِّقَّين للدّلالة على تحقُّق كلٍّ من الإهلاك والتعذيب وتقرُّرِهما البتَّةَ، كأنَّهما واقعان، وإنَّما قالوا ذلك مبالغةً في أنَّ الوعظ لا ينجَعُ فيهم؛ إذ المقصودُ: لا تَعِظوا، أو: أتَعِظون، فعَدَل عنه إلى السُّؤال عن السبب؛ لاستغرابه، لأنَّ الأمر العجيبَ لا يُدرَى سببُه. أو سؤالاً عن حكمةِ الوعظ ونفعِهِ. وقيل: إنَّ هذا تقاوُلٌ وقع بين الصُّلحاء الواعظين، كأنه قال بعضُهم لبعض: لم نَشتغِلُ بما لا يُفيد؟ ويَحتمِل على كِلا القولين أنَّ ذلك صدَرَ من القائل بمحضرٍ من القوم، فيكون متضمِّنًا لحثِّهم على الاتِّعاظ؛ فإنَّ بتَّ القول بهلاكهم أو عذابهم ممَّا يُلقي في قلوبهم الخوفَ والخشيةَ.

وقيل: قائلو ذلك المعتدون في السبت، قالوه[1] تهكُّماً بالنَّاصحين المخوِّفين لهم بالهلاك والعذاب، وفيه بعدٌ كما ستقفُ عليه قريبًا إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (م): قالوا.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: المقولُ لهم ذلك: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ أي: نعِظُهم معذرةً إليه تعالى، على أنه مفعول له، وهو الأنسَبُ بظاهر قولهم: «لم تعِظُون». أو: نعتذِرُ معذرةً، على أنه مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوفٍ. وقيل: هو مفعولٌ به للقول، وهو ـ وإن كان مفردًا ـ في معنى الجملة؛ لأنه الكلامُ الذي يُعتَذَر به.

والمعذرةُ في الأصل بمعنى العُذْر: وهو التنصُّلُ من الذَّنب، وقال الأزهريُّ: إنه بمعنى الاعتذار[1]، وعدَّاه بـ «إلى» لتَضْمينه معنى الإنهاء والإبلاغ. وفي إضافة الربِّ إلى ضمير المخاطبين نوعُ تعريضٍ بالسائلين، وهذا الجوابُ على القولين الأوَّلين ظاهرٌ، وعلى الأخير؛ قيل: إنه من تلقِّي السائل بغير ما يترقَّب، فهو من الأسلوب الحكيم.

وقرأ مَنْ عدا حفص والمفضَّل: «معذرةٌ» بالرفع[2] على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: موعظتُنا معذرةٌ إليه تعالى حتى لا نُنسَبَ إلى نوعِ تفريطٍ في النَّهي عن المنكر.

﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ عطفٌ على «معذرة»، أي: ورجاءَ أنْ يتَّقوا بعضَ التُّقاة؛ فإنَّ اليأس المحقَّق لا يحصُلُ إلا بالهلاك. قال شيخُ الإسلام: وهذا صريحٌ في أن القائلين: «لم تعظون» إلخ ليسوا من الفرقة الهالكة، وإلا لوجَبَ الخطاب[3]. اهـ. وقد يُوجَّه ذلك على ذلك القول بأنَّه التفاتٌ أو مشاكلةٌ؛ لتعبيرهم عن أنفسهم في السؤال[4] بـ «قوم»، وإما لجعله باعتبار غير الطائفة القائلين، إلا أنَّ كلَّ ذلك خلافُ الظاهر.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: تركوا ما ذكَّرهم به صلحاؤهم تَرْكَ الناسي للشيء، وأعرضوا عنه إعراضًا كلِّيًّا، فـ «ما» موصولةٌ. وجُوِّز أن تكون مصدريةً، وهو خلافُ الظاهر.

والنسيانُ مجازٌ عن التَّرك، واستُظهِرَ أنَّه استعارةٌ، حيث شبَّه التركَ بالنِّسيان بجامع عدمِ المبالاة، وجُوِّز أن يكون مجازًا مرسلاً؛ لعلاقة السَّببية. ولم يُحمَلْ

---

(١) تهذيب اللغة ٢/ ٣٠٦.

(٢) التيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢٧٢، ولم نقف على من نسب القراءة للمفضل.

(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ٣٨٥.

(٤) في الأصل: بالسؤال، والمثبت من (م).

على ظاهره ـ كما قال بعضُ المحققين ـ لأنَّه غيرُ واقعٍ، ولأنَّه لا يُؤاخَذُ بالنسيان، ولأنَّ التركَ عن عمدٍ هو الذي يترتَّبُ عليه إنجاءُ الناهين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ إذ لم يمتثلوا أمرَهم، بخلاف ما لو نسوه، فإنَّه كان يلزَمُهم تذكيرُهم.

وظاهرُ الآية ترتُّبُ الإنجاء على النسيان، وهو في الحقيقة مرتَّب على النسيان والتَّذكير، وما في حيِّز الشَّرط مشيرٌ إليهما، فكأنَّه قيل: فلما ذكَّر المذكِّرون، ولم يتذكَّر المعتدون، وأعرضوا عمَّا ذُكِّروا به، أنجينا الأولين وأخذنا الآخرين.

وعنوانُ النهي عن السُّوء شاملٌ للذين قالوا: «لم تعظون» إلخ، وللمقول لهم ذلك، أما شمولهُ للمقول لهم فواضحٌ، وأما شمولُه للقائلين فلأنَّهم نَهَوا أيضًا، إلا أنَّهم رأَوا عدمَ النفع، فكفُّوا، وذلك لا يضرُّهم، فقد نصُّوا على أنه إذا عَلِم الناهي حالَ المنهيِّ، وأن النهيَ لا يؤثِّر فيه سقَطَ عنه النهيُ، وربَّما وجب التركُ ـ على ما قال الزمخشريُّ ـ لدخوله في باب العَبَث، ألا ترى أنك لو ذهبتَ إلى المكَّاسين القاعدين على الطُّرق لأَخْذ أموالِ الفقراء وغيرهم بغير حقٍّ لِتعظَهم وتكُفَّهم عمَّا هم عليه، كان ذلك عَبَثًا منك، ولم يكن إلا سببًا للتلهِّي بك[1].

ولم يُعرِض أولئك كما أعرض هؤلاء؛ لعدم بلوغهم في اليأس كما بلغ إخوانُهم، أو لفَرْط حِرْصهم وجِدِّهم في أمرهم، كما وصف الله تعالى رسولَه ﷺ بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦].

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا أدري ما فعلت الفرقةُ الساكتة، وعَنَى بهم القائلين، ومنشأُ قوله هذا ـ كما نطقت به بعض الروايات ـ أنه سَمِعَ قولَه تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، وقولَه جل وعلا: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: بالاعتداء ومخالفة الأمر، ولم يَغُصْ رضي الله عنه مع أنه الغوَّاص، فقال له عكرمة: جعلني الله فداكَ، ألا تراهم كيف أنكروا وكرهوا ما القومُ عليه، وقالوا ما قالوا؟ وإن لم يقل الله سبحانه: أنجيتُهم، لم يقل: أهلكتُهم. فأعجَبَه قولُه، وأمر له

(١) الكشاف ٢/ ١٢٦.

بِبُرْدَين، وقال: نجت الساكتةُ[١]. ونسَبَ الطبرسيُّ إليه ﷺ قولين آخرين في الساكتة: أحدُهما: القول بالتوقُّف، وثانيهما: القولُ بالهلاك، وبه قال ابنُ زيد، ورُوي عن أبي عبد الله ﷺ[٢]، فالمأخوذُ حينئذٍ الساكتون والظالمون.

﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ أي: شديد، وفسَّره الحَبْر بما لا رحمةَ فيه، ويرجع إلى ما ذُكِر، وهو فَعِيل إما وصفٌ، أو مصدر، كالنكير، وصف به مبالغةً، والأكثرون على كونه وصفًا، من بَؤُسَ يَبْؤُسُ بأسًا: إذا اشتدَّ. وقال الراغب: البؤس والبأس والبأساء: الشدَّة والمكروه، إلا أنَّ البؤسَ في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النكاية[٣].

وقرأ أبو بكر: «بَيْأَس» على فَيْعَل كضَيْغَم، وهو من الأوزان التي تكون في الصِّفات والأسماء، والياءُ إذا زِيْدت في المصدر هكذا تُصَيِّره اسمًا أو صفةً، كصَقْل وصَيْقَل[٤]، وعينُه مفتوحةٌ في الصحيح، مكسورةٌ في المعتلِّ كسيِّد، ومن هنا قيل في قراءة عاصم في روايةٍ عنه: «بَيْئِسٍ» بكسر الهمزة: إنها ضعيفةٌ روايةً ودرايةً، ويخفِّفُها أنَّ المهموز أخو المعتل.

وقرأ ابنُ عامر: «بِئْسٍ» بكسر الباء وسكون الهمزة، على أنَّ أصلَه بَئِسٍ بباءٍ مفتوحةٍ وهمزة مكسورة، كحَذِر، فسُكِّن للتخفيف، كما قالوا في كَبِدٍ: كِبْد، وفي كَلِمة: كِلْمة، وقرأ نافع: «بِيسٍ» بقلب الهمزة ياء كما قُلبت في ذيب[٥]؛ لسكونها وانكسارِ ما قبلَها. وقيل: إنَّ هاتين القراءتين مخرَّجتان على أنَّ أصل الكلمة بِئسَ التي هي فعلُ ذمٍّ، جُعلت اسمًا كما في قيلٍ وقالٍ[٦]، والمعنى: بعذابٍ مذمومٍ مكروه.

---

(١) أخرجه بنحوه مطولاً عبد الرزاق ١/ ٢٤٠، والطبري ١٠/ ٥١٥- ٥١٦.

(٢) مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٥٢.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: (بؤس).

(٤) الصيقل: شحَّاذ السيوف وجَلَّاؤها. القاموس: (صقل).

(٥) القراءات في التيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢٧٢، عدا قراءة: «بَيْئِس» بكسر الهمزة فإنها شاذة. ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٠، والبحر ٤/ ٤١٣، والدر المصون ٥/ ٤٩٨.

(٦) وقد وردت هاتان الكلمتان في حديث المغيرة بن شعبة عند أحمد (١٨١٩٢)، والبخاري (٦٤٧٣)، ومسلم (٥٩٣) و(١٤) [٣/ ١٣٤١]، وفيه: وكان ينهى عن قيلٍ وقالٍ. وانظر الحجة للفارسي ٤/ ١٠٠.

وقُرئ: «بَيِّس» كريِّس وكيِّس على قلب الهمزة ياءً، ثم إدغامها في الياء، وقيل: على أنه من البُؤسِ بالواو، وأصلُه بَيْوِس كمَيْوِت، فأُعِلَّ إعلالَه. و: «بَيْسٍ» على التخفيف كهين. و: «بائِس» بزنَة اسم الفاعل، أي: ذو بأسٍ وشدَّة. وقُرئ غيرُ ذلك، وأوصل بعضُهم ما فيه من القراءات إلى ستٍّ وعشرين[1].

وتنكيرُ العذاب للتفخيم والتهويل.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ متعلِّقٌ بـ «أخذنا» كالباء الأولى، ولا ضيرَ فيه؛ لاختلافهما معنىً، أي: أخذناهم بما ذُكِر من العذاب بسبب فسقهم المستمرِّ، ولا مانعَ من أن يكون ذلك سببًا للأخذ كما كان سببًا للابتلاء[2]، وكذا لا مانع من تعليله بما ذُكِر بعد تعليله بالظلم الذي في حيِّز الصلة؛ لأنَّ ذلك ظلمٌ أيضًا، ولم يكتف بالأول لما لا يخفى.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ أي: تكبَّروا ﴿عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: تركِ ذلك، ففي الكلام تقديرُ مضافٍ؛ إذ التكبُّر والإباءُ عن المنهيِّ عنه لا يُذَمُّ.

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ صاغرين أذِلَّاء، مُبعَدين عن كلِّ خير، والأمرُ تكوينيٌّ لا تكليفيٌّ؛ لأنه ليس في وسعهم حتى يُكلَّفوا به، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] في أنه يَحتمِل أن يكون هناك قولٌ، وأن يكون الغرضُ مجرَّد التمثيل.

والظاهرُ أن الله تعالى أوقع بهم نَكالاً في الدنيا غيرَ المسخ، فلم يُقلعوا عمَّا كانوا عليه، فمسَخَهم قردةً، وجُوِّز أن يكون المرادُ بالعذاب البَئيس هو المَسْخ، وتكون هذه الآية تفصيلاً لما قبلها.

رُوي عن ابن عباس أن اليهود إنما افتُرِضَ عليهم اليومُ الذي افتُرِضَ عليكم،

---

(١) قراءة: «بَيِّس» نسبها القرطبي ٩/ ٣٦٨ إلى نصر بن عاصم، وقراءة «بَيْس» نسبها الفارسي في الحجة ٤/ ٩٩، وأبو حيان في البحر ٤/ ٤١٣ إلى خارجة عن نافع، وطلحة بن مصرف، وقراءة: «بائس» نسبها أبو حيان ٤/ ٤١٣ إلى أبي رجاء عن علي ﷺ، والقراءات الثلاث من الشواذ، وانظر ما ورد من قراءات أخر في المصادر السابقة، وفي التذكرة لابن غلبون ٢/ ٤٢٧، وجامع البيان لأبي عمرو الداني ٢/ ٦٦، واللباب ٩/ ٣٦٢ وما بعدها.

(٢) تحرفت في (م) إلى: للابتداء.

وهو يومُ الجمعة، فخالفوا إلى يوم السبت واختاروه، فحُرِّم عليهم الصَّيد فيه، وابتُلُوا به، فكانت الحيتانُ تأتيهم يوم السبتِ شُرَّعًا بِيْضًا سِمانًا، حتى لا يُرى الماءُ من كَثْرتها، فمكثوا ما شاء الله تعالى لا يصيدون، ثم أتاهم الشيطان فقال: إنَّما نُهيتُم عن أخذها يوم السبت، فاتَّخذوا الحياضَ والشَّبكات، فكانوا يَسُوقون الحيتان إليها فيه، ثم يأخُذُونَها يوم الأحد.

وفي رواية أنَّ رجلاً منهم أخذ حوتًا، فحَزَمَه بخيطٍ، ثم ضرب له وتدًا في الساحل وربَطَه به، وتركه في الماء، فلما كان الغدُ جاء فأخَذَه وأكلَه، فلاموه على ذلك، فلما لم يأتِهِ العذابُ أَخَذَ في السبت القابل حوتين، وفعل ما فعل، ولم يُصِبْه شيءٌ، فلما رأوا أن العذاب لا يعاجِلُهم تَجاسَروا، فأخذوا، ومَلَّحوا، وباعوا، وكانوا نحوًا من اثني عشر ألفًا، أو من سبعين ألفًا، فصار أهلُ القرية أثلاثًا كما قصَّ الله تعالى، فقال المسلمون للمعتدين: نحنُ لا نُساكِنُكم، فقسموا القريةَ بجدارٍ، للمسلمين بابٌ، وللمعتدين بابٌ، وكانت القصَّة في زمن داود عليه السلام، فلعَنَهم، فأصبح المسلمون ذاتَ يومٍ ولم يخرج من المعتدين أحدٌ، فقالوا: إنَّ لهؤلاء لشأنًا، لعلَّ الخمر غلبَتْهم، فعَلَوا على الجدار، فإذا القومُ قردة، ففتحوا البابَ ودخلوا عليهم، فعرفت القردةُ أنسابَها من الإنس، ولم تعرف الإنسُ أنسابَهم منها، فجعلت تأتي إلى نسيبها، فتَشَمُّ ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهكم؟ فتقول القِرَدةُ برأسها: نعم، ثم ماتوا بعد ثلاثٍ[١].

وعن قتادة أن الشُّبَّان صاروا قردةً، والشيوخ خنازير.

وعن مجاهد أنه مُسِخَت قلوبُهم، فلو يوفَّقوا لفهم الحقِّ.

وأخرج ابنُ جريرٍ[٢] وغيرُه عن الحسن قال: كان حوتًا حرَّمه الله عليهم في يومٍ، وأحلَّه لهم فيما سوى ذلك، فكان يأتيهم في اليوم الذي حرَّمه الله تعالى عليهم كأنَّه المخاض، ما يمتنع من أحدٍ، فجعلوا يهمُّون ويُمسِكون ـ وقلَّ ما رأيتَ أحدًا أكثرَ الاهتمامَ بالذَّنب إلا واقَعَه ـ حتى أخذوه، فأكلوا ـ واللهِ ـ أَوْخَمَ أَكْلةٍ

---

(١) أخرجه بنحوه مطولاً عبد الرزاق ١/ ٢٤٠، والطبري ١٠/ ٥١٥.
(٢) في تفسيره ١٠/ ٥٢٣.

أكلَها قومٌ، أثقلَها خِزْيًا في الدنيا، وأطولَها عذابًا في الآخرة، وايمُ الله تعالى ما حوتٌ أخَذَه قومٌ فأكلوه أعظمَ عند الله تعالى من قتلِ رجل مؤمن، ولَلْمؤمنُ أعظمُ حرمةً عند الله سبحانه من حوتٍ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل موعِدَ قومِ الساعة ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

وأخرج عَبْد بنُ حُمَيد عن عكرمة، أنه كان على شاطئ البحر الذي هم عندَه صنمان من حجارةٍ مستقبلان الماء، يقال لأحدهما: لقيم، وللآخر: لقمانة، فأوحى الله تعالى إلى السَّمك أن حُجَّ يوم السبت إلى الصَّنمين، وأوحى إلى أهل القرية: إني قد أمرتُ السَّمك أن يَحُجُّوا إلى الصَّنمين يوم السبت، فلا تتعرَّضوه فيه، فإذا ذهب اليومُ فشأنكم به فصيدوه، فابتُلي القومُ، ووقع منهم ما مُسِخوا به قردةً[1]. وفي القلب من صحَّة هذا الأثر شيءٌ، ولعلَّه لا صحَّة له، كما لا يخفى على من يعرف معنى الحجِّ من المصلِّين.

ويشبه هذين الصَّنمين عين حوّلان[2] قرب جزيرة الحَدِيثة من العراق، وهي قريبةٌ من شاطئ الفرات، فإنَّ السمك يزورُها في أيام مخصوصةٍ من السَّنة، حتى يُخَيَّل أنه لم يبق في بطن الفرات حوتٌ إلا قُذِف إليها، فيصيدُ أهلُ ذلك الصُّقْع منه ما شاء الله تعالى، وينقلونَه إلى الجزائر والقرى القريبة منهم، كآلوس، وجُبَّة، وعانات، وهِيْت، ثم ينقَطع فلا ترى سمكةً في العين بعد تلك الأيام إلى مثلها من قابِل، وسبحان الفعَّال لما يريد.

واستدلَّ بعضُ أهل العلم بقصة هؤلاء المعتدين على حرمةِ الحِيَل في الدِّين، وأَيَّد ذلك بما أخرجه ابنُ بطَّة[3] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٣٨ مطولاً.

(٢) في (م): حق لان، وجاء عليها حاشية نصها: قوله: عين حق لان إلخ كذا بالأصل، ونص في مسودة المؤلف مطموسة، لا يعلم هل هي حقلان، أو عفلان، أو لا، فحرر. اهـ.

(٣) هو أبو عبد الله، عبيد الله بن محمد، العُكبَريُّ الحنبلي، شيخ العراق، صاحب كتاب الإبانة، إمام، عابد، فقيه، محدِّث، لكنه ذو أوهام. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ١٥: ومع قلة إتقان ابن بطة في الرواية، فكان إمامًا في السنة، إمامًا في الفقه، صاحب أحوال وإجابة دعوة. اهـ. توفي سنة (٣٨٧هـ). السير ١٦/ ٥٢٩.

ما ارتكبَ اليهودُ، فتستحِلُّوا محارم الله تعالى بأدنى الحِيَل»[١].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ منصوبٌ بمضمرٍ معطوف على قوله سبحانه: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾.

و«تأذَّن» تفعَّل من الإذن، وهو[٢] بمعنى آذَنَ، أي: أعلم، والتفعُّل يجيءُ بمعنى الإفعال، كالتوعُّد والإيعاد، وإلى هذا يَؤُوْل ما رُوي عن ابن عباس من أنَّ المعنى: قال ربُّك. وفسَّره بعضُهم بعَزَمَ، وهو كنايةٌ عنه، أو مجازٌ؛ لأن العازم على الأمر يُشاور نفسَه في الفعلِ والترك، ثم يجزِمُ، فهو يطلُبُ من النفس الإذنَ فيه.

وفي «الكشف»: لو جُعل بمعنى الاستئذان دون الإيذان، كأنَّه يطلبُ الإذنَ من نفسه، لكان وجهًا، وحيثُ جُعِلَ بمعنى عَزَم، وكان العازم جازمًا فُسِّر عَزَم بجَزَم وقضَى، فأفاد التأكيد، فلذا أُجري مجرى القسم وأُجيب بما يُجاب به، وهو هنا: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ وجاء: عزمتُ عليك لَتفعلنَّ[٣]، ولا يرِدُ على هذا أنه مقتضٍ[٤] لجواز نسبة العزم إليه تعالى، وقد صُرِّح بمنع ذلك؛ لأنَّ المنع مدفوعٌ، فقد ورد: «عَزْمةً من عَزَمات الله تعالى»[٥].

﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: اليهود، لا المعتدين الذين مُسِخوا قردةً؛ إذ لم يَبْقوا كما علمتَ، ويحتمل عود الضَّمير عليهم بناءً على ما رُوي عن الحسن، والمراد حينئذٍ هم وأخلافُهم، وعودُه إلى اليهود والنصارى ليس بشيء، وإن ورد عن مجاهد. والجارُّ متعلِّقٌ بـ «يبعثنَّ» على معنى: يُسلِّط عليهم البتَّة.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ﴾ أي: إلى انتهاء الدنيا، وهو متعلق بـ «يبعث»، وقيل:

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٩٣ بإسناد ابن بطة، وقال بعده: وهذا إسناد جيد.
(٢) قوله: وهو، ليس في الأصل.
(٣) يشير إلى قول عمر رضي الله عنه لمعاوية عندما وجد منه ريح طيب في الحج: عزمت عليك لَتَرْجِعَنَّ فلَتَغْسِلنَّه. أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٣٢٩، وينظر حاشية الشهاب ٤/ ٢٣١.
(٤) في الأصل و(م): مقتضي، والمثبت هو الجادة. وينظر حاشية الشهاب ٤/ ٢٣١.
(٥) جزء من حديث معاوية بن حَيْدة في بيان زكاة الإبل، وفيه: «ومن منعها فإنا آخذوها منه وشطر إبله، عزمة من عزمات ربنا» أخرجه أحمد (٢٠٠١٦)، وأبو داود (١٥٧٥)، والنسائي في المجتبى ٥/ ٢٥. قال السندي في حاشيته على المسند في معنى قوله ﷺ: «عزمة. . . .»: أي: حقًّا من حقوقه، وواجبًا من واجباته.

بـ «تأذَّن»، وليس بالوجه. ولا يصحُّ ـ كما لا يخفى ـ تعلُّقه بالصِّلة في قوله سبحانه:

﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ يُذيقُهم ويُوليهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ كالإذلال، وضَرْبِ الجِزية، وعدمِ وجود مَنَعة لهم، وجَعْلِهم تحتَ الأيدي، وغير ذلك من فنون العذاب، وقد بعثَ الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه الصَّلاة والسلام بخت نصَّر، فخرَّب ديارَهم، وقتل مقاتِلَتَهم، وسبى نساءهم وذراريهم، وضَرَبَ الجِزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدُّونها إلى المجوس، حتى بعث النبيُّ ﷺ، ففعل ما فعل، ثم ضرب الجِزية عليهم، فلا تزالُ مضروبةً إلى آخر الدَّهر، ولا ينافي ذلك رفعُها عند نزول عيسى عليه الصَّلاة والسلام؛ لأنَّ ذلك الوقت ملحقٌ بالآخرة لقُربِهِ منها، أو لأنَّ معنى رَفْعِهِ عليه السلام إيَّاها عنهم أنه لا يَقبَلُ منهم إلا الإسلام، ويُخيِّرهم بينه وبين السيف، فالقومُ حينئذٍ إما مسلمون، أو طُعْمةٌ لسيوفهم، فلا إشكال، وما يحصُلُ لهم زمن الدجَّال ـ مع كونه ذلًّا في نفسه ـ غمامةُ صيفٍ، على أنهم ليسوا يهود حين التبعيَّة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن شاء سبحانه أن يعاقبه في الدنيا ومنهم هؤلاء، وقيل: في الآخرة، وقيل: فيهما. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ لمن تاب وآمن.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ أي: فرَّقنا بني إسرائيل، أو صيَّرناهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وجعلنا كلَّ فرقةٍ منهم في قطر من أقطارها، بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم، تكملةً لإدبارهم حتى لا يكون لهم شوكةٌ، وهذا من مغيَّبات القرآن، كالذي تضمنته الآيةُ قبلُ، وقوله سبحانه: ﴿أُمَمًا﴾ إما مفعولٌ ثانٍ لـ «قطَّعنا»، وإما حالٌ من مفعوله.

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ وهم ـ كما قال الطبريُّ ـ من آمن بالله تعالى ورسوله، وثَبَتَ على دينه قبل أن يُبْعث عيسى عليه الصَّلاة والسلام[1]. وقيل: هم الذين أدركوا النبيَّ ﷺ وآمنوا به، ونُسِب ذلك إلى ابن عباس ومجاهد.

وقيل: هم الذين وراء الصِّين. وهو عندي وراء الصِّين.

والجارُّ متعلِّق بمحذوفِ خبرٍ مقدَّم، و«الصالحون» مبتدأ، وجُوِّز أن يكون فاعلاً للظرف. والجملةُ في موضع النصب صفة لـ «أُمم» على الاحتمالين، وجُوِّز أن

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٥٣٤.

تكون في موضع الحال، وهي بدل من «أمم» على الاحتمال الثاني، وأن تكون صفةَ موصوفٍ مقدَّر هو البدل على الأول، أي: قومًا منهم الصالحون.

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي منحطُّون عن أولئك الصالحين، غيرَ بالغين منزلَتَهم في الصلاح، وهم الذين امتثلوا بعض الأوامر وخالفوا بعضًا مع كونهم مؤمنين، وقيل: هم الكَفَرة منهم، بناءً على أن المراد بالصلاح الإيمان، وقيل: المراد بهم ما يشمل الكَفَرة والفَسَقة.

والجارُّ متعلِّقٌ بمحذوفِ خبرٍ مقدَّم، و«دون» على ما ذكره الطبرسي(١) مبتدأ، إلا أنه بقي مفتوحًا لتمكُّنه في الظرفية مع إضافته إلى المبنيِّ، ومثله على قول أبي الحسن ﴿بَيْنَكُمْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، أو المبتدأ محذوفٌ، والظرفُ صفتُه، أي: ومنهم أُناسٌ أو فرقةٌ دون ذلك، ومن المشهور عند النُّحاة أن الموصوفَ بظرفٍ أو جملة يطَّرد حذفُه إذا كان بعضَ اسمٍ مجرورٍ بـ«من» أو «في» مقدَّم عليه، كما في: منَّا أقام ومنَّا ظَعَن، ومَحَطُّ الفائدة الانقسامُ، أي أنَّ هؤلاء منقسمون إلى قسمين. ومن الناس من تكلَّف في مثل هذا التركيب لجَعْل الظرف الأول صفةَ محذوفٍ وجَعْل الظرف الثاني خبرًا؛ لِمَا ظنَّه داعيًا لذلك، وليس بشيء.

والإشارة للصالحين، وقد ذكروا أنَّ اسم الإشارة المفرد قد يستعمل للمثنَّى والمجموع، وقد مرَّت الإشارة إليه، وقيل: أُشير به إلى الصَّلاح، كما يقتضيه ظاهرُ الإفراد، ويُقدَّرُ حينئذٍ مضافٌ وهو «أهل» مثلاً.

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾ الخِصْب والعافية ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الجَدْب والشِّدَّة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: يتوبون عمَّا كانوا عليه مما نُهُوا عنه.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: المذكورين، وقيل: الصالحين ﴿خَلْفٌ﴾ أي: بدل سَوْء، مصدرٌ نُعِتَ به، ولذلك يقع على الواحد والجمع، وقيل: هو اسم جمعٍ، وهو مراد مَنْ قال: إنه جمعٌ، وهو شائع في الشَّر، ومنه: سكتَ ألفًا ونطق خلفًا(٢).

والخَلَف بفتح اللام في الخير، وادَّعى بعضُهم الوضعَ لذلك.

---

(١) في مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٥٣.

(٢) مجمع الأمثال ١/ ٣٣٠، وجاء في شرحه: الخَلْف: الرديء من القول وغيره، ونصب ألفًا على المصدر، أي: سكت ألفَ سكتةً، ثم تكلم بخطأ.

وقيل: هما بمعنًى، وهو مَن يخلُفُ غيرَه، صالحًا كان أو طالحًا، ومن مجيء الساكن في المدح قولُ حسان[١]:

لنا القدمُ الأُولى إليك وخَلْفُنا لأوَّلنا في طاعة الله تابعُ

ومن مجيء المتحرك في الذمِّ قولُ لَبيد[٢]:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيتُ في خَلَفٍ كجلد الأجرب

وعن البصريين أنه يجوز التحريكُ والسكونُ في الرديء، وأمَّا الجيِّد فبالتحريك فقط، ووافَقَهم أهلُ اللغة إلا الفرَّاء وأبا عبيدة[٣]، واشتقاقُه إما من الخلافة، أو من الخُلُوف: وهو الفساد والتغيُّر، ومنه خُلُوف فم الصَّائم.

وقال أبو حاتم: الخَلْف بالسكون: الأولاد، الواحدُ والجمع فيه سواءٌ، والخَلَف بالفتح: البَدَل، ولدًا كان أو غريبًا.

والأكثرون على أنَّ المراد بهؤلاء الخَلْف: الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، وحينئذٍ لا يصحُّ تفسير الصالحين بمن آمن به عليه الصَّلاةُ والسلام، والظاهرُ أنهم من اليهود، وعن مجاهد أنهم النصارى، وليس بذاك.

﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: التوراةَ، والوراثةُ مجازٌ عن كونها في أيديهم، وكونِهم واقفين على ما فيها بعد أسلافهم.

وقرأ الحسن: «وُرِّثوا» بالضمِّ والتشديد مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعلُه[٤]. والجملةُ على القراءتين في موضع الصفة لـ «خَلْف».

وقوله سبحانه: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتهم إيَّاه، وقال أبو البقاء: حالٌ من الضمير في «ورثوا»[٥]، واستظهره بعضُهم، ويكفي مقارنتُه لبعض زمان الوِراثة لامتداده.

---

(١) ديوانه ص٣١٠.

(٢) ديوانه ص١٥٣.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٩، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٣٢.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٧، والبحر المحيط ٤/ ٤١٦.

(٥) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٧٨.

والعَرَض: ما لا ثباتَ له، ومنه استعارَ المتكلِّمون العَرَض لمقابِلِ الجَوْهر. وفي «النهاية»: العَرَض بالفتح: متاعُ الدُّنيا وحُطامُها[1]. وقال أبو عُبَيدة: هو غيرُ النَّقدين من متاعها، وبالسُّكون: المال والقِيَم.

و«الأدنى» صفةٌ لمحذوفٍ، أي: الشيء الأدنى، والمراد به الدُّنيا، وهو من الدنوِّ؛ للقرب بالنسبة إلى الآخرة، وكونُها من الدناءة خلافُ الظاهر ـ وإن كان ذلك ظاهرًا فيها ـ لأنه مهموزٌ، والمراد بهذا العرض: ما يأخذونَه من الرِّشا في الحكومات، وعلى تحريف الكلام.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ولا يؤاخِذُنا الله تعالى بذلك، ويتجاوزُ عنَّا. والجملةُ عطفٌ على ما قبلَها، واحتمالُ الحالية يحتاجُ إلى تقديرِ مبتدأ من غير حاجةٍ ظاهرة، والفعلُ مسندٌ إلى الجارِّ والمجرور، وجُوِّز أن يكون مسندًا إلى ضمير «يأخذون».

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ﴾ في موضع الحال، قيل: من ضمير «يقولون»، والقولُ بمعنى الاعتقاد، أي: يرجون المغفرةَ وهم مُصِرُّون على الذنب، عائدون إلى مثله، غيرَ تائبين عنه. وقيل: من ضمير «لنا»، والمعنى على نحو ذلك، والأول أظهر. والقول بأن تقييد القول بذلك لا يستلزمُ تقييدَ المغفرة به، والمطلوب الثاني، والثاني متكفَّلٌ = لا يخلو عن نَظَر.

واختار الحَلبيُّ[2] والسَّفاقُسيُّ أن الجملة مستأنفةٌ، لا لأنَّ الجملة الشرطية لا تقعُ حالاً؛ إذ وقوعُها ممَّا لا شكَّ في صحَّته، بل لأنَّ في القول بالحالية نزعةٌ اعتزاليةٌ، ولا يخفى أن الأمر وإن كان كذلك إلا أنَّ الحالية أبلغُ؛ لأنَّ رجاءهم المغفرةَ في حالٍ يضادُّها أوفقُ بالإنكار عليهم، فافهم.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الميثاق المذكور في التوراة، فالإضافةُ على معنى في، ويجوزُ أن تكون اختصاصيةً على معنى اللام، ويؤولُ المعنى إلى ما ذُكِر، و«أل» في «الكتاب» للعهد.

---

(١) النهاية (عرض).

(٢) في الدر المصون ٥/ ٥٠٤.

وقوله سبحانه: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ عطفُ بيانٍ للميثاق، وقيل: بدلٌ منه، وقيل: إنَّه مفعولٌ لأجله، وقيل: إنه متعلِّق بـ «ميثاق» بتقدير حرف الجرِّ، أي: بأن لا يقولوا، وجُوِّز في «أن» أن تكون مصدرية، وأن تكون مفسِّرة لـ «ميثاق»، لأنه بمعنى القول، وفي «لا» أن تكون ناهيةً، وأن تكون نافيةً، واعتبار كلٍّ مع ما يصحُّ معه مفوَّضٌ إلى ذهنك.

والمراد من الآية توبيخُ أولئك الورثة على بَتِّهم القولَ بالمغفرة مع إصرارهم على ما هم عليه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم وُبِّخوا على إيجابهم على الله تعالى غفرانَ ذنوبهم التي لا يزالون يعودون إليها ولا يتوبون منها، وجاء البتُّ من السِّين؛ فإنها للتأكيد كما نصَّ عليه المحقِّقون.

وقد عرَّض الزمخشريُّ ـ عامَلَه الله تعالى بَعْدِلِه ـ في تفسير هذه الآية بأهل السنة، وزعم أنَّ مذهبَهم هو مذهبُ اليهود بعينه[1]، حيث جوَّزوا غفرانَ الذنب من غير توبةٍ، ونقل عن التوراة: من ارتكب ذنبًا عظيمًا فإنه لا يُغفر له إلا بالتوبة.

وأنت تعلمُ أن اليهود أكَّدوا القول بالغُفران، وأهلُ السُّنة لا يَجْزِمون بالغُفران في المطيع، فضلاً عن العاصي، بما هو حقُّ الله تعالى، فضلاً عمَّن عصاه سبحانه فيما هو من حقوق العباد، فالموجبون على الله تعالى وإن كان بالنسبة إلى التائب أقربُ إليهم، فهل ما ادَّعاه إلَّا من قبيل ما جاء في المثل: رَمَتْني بدائها وانسلَّتْ[2]؟!

وما نقله عن التوراة إن كان استنباطًا من الآية، فلا تدلُّ ـ على ما في «الكشف» ـ إلا على تحريفهم ما في التوراة من نعتِ النبي ﷺ، وآيةِ الرَّجم، ونحوِ ذلك من تسهيلاتهم على الخاصَّة، وتخفيفاتهم على العامَّة، يأخذون الرِّشا بذلك، والتقوُّلُ على الله عظيمةٌ، وإن كان قد قرأ التوراةَ التي لم تُحرَّف، وأنها هي، تعيَّن الحملُ على الشِّرك بقواطعَ من كتاب الله تعالى الكريم، أو يكون ذلك لهم، وهذا لهذه الأمة المرحومة خاصَّةً، وقد سلَّم هو نحوًا منه في قوله سبحانه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[3].

---

(١) وعبارته في الكشاف ٢/١٢٨: والذي عليه المجبرة هو مذهب اليهود بعينه.

(٢) مثل يضرب لمن يُعيِّر صاحبه بعيب هو فيه. مجمع الأمثال ١/٢٨٦.

(٣) جزء من الآية (٣١) من سورة الأحقاف، والآية (٤) من سورة نوح، والزمخشريُّ إنما تكلم =

وقد أطبق أهلُ السنة على ذمِّ المتمنِّي على الله، ورَوَوا عن شدَّاد بن أوسٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الكيِّس من دان نفسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله تعالى»[1].

ومن هنا قيل: إن القوم ذُمُّوا بأكلهم أموالَ الناس بالباطل، وإتباعِ أنفسِهم هواها، وتمنِّيهم على الله سبحانه، ووُبِّخوا على افترائهم على الله في الأحكام التي غيَّروها وأخذوا عَرَضَ هذا الأدنى على تغييرها، فكأنه قيل: ألم يُؤخَذْ عليهم الميثاقُ المذكورُ في كتابهم أن لا يقولوا على الله تعالى في وقتٍ من الأوقات إلا الحقَّ الذي تضمَّنه الكتابُ؟ فلِمَ حكموا بخلافه، وقالوا: هو من عند الله ـ وما هو من عند الله ـ ليشتروا به ثمنا قليلاً؟ وفيه مع مخالفته لما رُوي عن الحَبْر مخالفةٌ للظاهر.

وقرأ الجَحْدريُّ: «أن لا تقولوا»[2] بالخطاب على الالتفات.

﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِۗ﴾ أي: قرؤوه، فهم ذاكرون لذلك، وهو عطفٌ على «ألم يُؤخذ» من حيث المعنى، وإن اختلفا خبرًا وإنشاءً؛ إذ المعنى: أُخِذَ عليهم ميثاقُ الكتاب ودَرَسوا . . إلخ.

وجُوِّز كونُه عطفًا على «لم يُؤخذ»، والاستفهامُ التقريريُّ داخلٌ عليهما، وهو خلافُ الظاهر، أو على «ورثوا»، وتكون جملة «ألم يُؤخذ» معترضةً، وما قبلها حالية، أو يكون المجموع اعتراضًا كما قيل، ولا مانع منه، خلا أنَّ الطبرسيَّ نقل عن بعضهم تفسير «درسوا» على هذا الوجه من العطف بـ : تركوا وضيَّعوا[3]، وفيه بعدٌ.

= عن ذلك عند تفسير قوله تعالى في الآية (١٠) من سورة إبراهيم: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، وأورد ما جاء في كتاب الله مما يتعلق بالمسألة، ومنه ما أورده المصنف.

(١) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وفيه أبو بكر بن أبي مريم؛ قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف، وكان قد سُرِق بيته فاختلط. قلنا: ومع ذلك قال الترمذي عقب الحديث: هذا حديث حسن.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٧، والبحر ٤/ ٤١٧.

(٣) مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٥٧.

وقيل: إن الجملة في موضع الحال من ضمير «يقولوا» بإضمار قد، أي: أُخِذ عليهم ميثاقُ الكتاب بأن لا يقولوا على الله إلا الحقَّ الذي تضمَّنه كتابُهم في حال دراستهم ما فيه وتذكُّرهم له. وهو كما ترى.

وقرأ السُّلَميُّ: «ادَّارسوا» بتشديد الدال وألف بعدها[1]، وأصلُه تدارسوا، فأُدغمت التاء في الدال، واجتُلبت لها همزةُ الوصل.

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى ويخافون عقابَه، فلا يفعلون ما فعل هؤلاء.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ فتعلَّموا ذلك، ولا تستبدلوا الأدنى المؤدِّي إلى العذاب بالنعيم المقيم، وهو خطابٌ لأولئك المأخوذ عليهم الميثاق، الآخذين لعَرَض هذا الأدنى.

وفي الالتفات تشديدٌ للتَّوبيخ، وقيل: هو خطابٌ للمؤمنين، ولا التفاتَ فيه.

وقرأ جمعٌ بالياء على الغَيبة، وبالتاء قرأ نافعٌ وابنُ عامر وابنُ ذَكوان وأبو جعفر وسَهْل ويعقوبُ وحفصٌ[2].

وهذه الآيةُ ظاهرةٌ في التوبيخ على الأخذ، وجعل بعضُهم قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾ إلخ توبيخًا على ذلك القول، ففي الآية ما هو من قبيل ما فيه اللفُّ والنَّشر.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: يتمسَّكون به في أمور دينهم. يقال: مَسَكَ بالشيء وتمسَّك به بمعنًى.

قال مجاهد وابنُ زيد: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلَّام وأصحابه، تمسَّكوا بالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام، فلم يُحرِّفوه، ولم يكتُموه، ولم يتَّخِذوه مأكلةً.

وقال عطاء: هم أمةُ محمد ﷺ. والمراد من «الكتاب» القرآنُ الجليل الشأن.

---

(١) المحتسب ١/ ٢٦٧، وزاد أبو حيان ٤/ ٤١٧ نسبتها إلى علي ﵁.

(٢) التيسير ص١٠٢، والنشر ٢/ ٢٥٧، ولم نقف على من نسب هذه القراءة إلى سهل.

وقرأ أبو بكر وحمَّاد: «يُمْسِكون»[(١)] بالتخفيف من الإمساك، وابنُ مسعود: «استمسكوا»[(٢)]، وأبيٌّ: «مَسَّكوا»[(٣)]، وفي ذلك موافقةٌ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولعل التغيير في المشهور للدلالة على أن التمسُّك أمرٌ مستمرٌّ في جميع الأزمنة، بخلاف الإقامة؛ فإنها مختصَّة بالأوقات المخصوصة، وتخصيصُها بالذِّكر من بين سائر العبادات مع دخولها في التمسُّك بالكتاب؛ لإنافتها عليها[(٤)]؛ لأنها عمادُ الدين.

ومحلُّ الموصول إمَّا الجرُّ عطفًا على «الذين يتقون»، وقولُه تعالى: «أفلا تعقلون» اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبله، والاعتراضُ قد يُقرَنُ بالفاء، كقوله:

فاعلم فعِلْمُ المرءِ ينفعُهُ   أَنْ سوفَ يأتي كلُّ ما قُدِرا[(٥)]

وإمَّا الرفعُ على الابتداء، والخبرُ قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾، والرابطُ إمَّا الضميرُ المحذوف كما هو رأي جمهور البصريين، أي: أجرَ المصلحين منهم، وإمَّا الألفُ واللام كما هو رأي الكوفيين؛ فإنها كالعوض عن الضمير، فكأنه قيل: مُصْلِحيهم، وإمَّا العموم في «المصلحين»؛ فإنه ـ على المشهور ـ من الروابط، ومنه: نِعْم الرجلُ زيدٌ، على أحد الأوجه، أو وُضِعَ الظاهرُ موضع المضمر بناءً على أنَّ الأصل: لا نُضِيع أجرهم، إلا أنه غُيِّرَ لِمَا ذُكِر تنبيهًا على أن الصَّلاح كالمانع من التضييع؛ لأن التعليق بالمشتقِّ يُفيد عِلِّيَةَ مأخذ الاشتقاق، فكأنَّه قيل: لا نضيع أجرَهم لصلاحهم[(٦)].

---

(١) التيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢٧٣، ولم نقف على من نسب هذه القراءة إلى حماد.

(٢) البحر المحيط ٤/ ٤١٨، والدر المصون ٥/ ٥٠٩.

(٣) قراءة أُبيٍّ هذه في الكشاف ٢/ ١٢٨، غير أن أبا حيان في البحر ٤/ ٤١٨، والسمين في الدر ٥/ ٥٠٩، وابن عادل في اللباب ٩/ ٣٧٤ نسبوا إليه أنه قرأ: «تمسَّكوا».

(٤) أي: لشرفها على سائر العبادات. انظر تفسير أبي السعود ٣/ ٢٨٨، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٣٣.

(٥) البيت في معاهد التنصيص ١/ ٣٧٧، وسلف ١/ ٤٢٨.

(٦) كذا في الأصل و(م)، وفي حاشية الشهاب ٤/ ٢٣٣ ـ ومنه أخذ المصنف ـ: تنبيهًا على أن الإصلاح كالمانع... لا نضيع أجرهم؛ لإصلاحهم. اهـ. وهو الأقرب.

وقيل: الخبر محذوفٌ، والتقدير: والذين يمسِّكون بالكتاب مأجورون أو مثابون. وقوله سبحانه: «إنا لا نضيع» إلخ حينئذٍ[١] اعتراضٌ مقرِّر لما قبله.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ عطفٌ على ما قبلُ بتقدير: اذكر.

والنَّتقُ: الرفع كما رُوي عن ابن عباس، وإليه ذهب ابنُ الأعرابيِّ. وعن أبي مسلم أنه الجَذْب، ومنه نتقتُ الغَرْبَ[٢] من البئر. وعن أبي عُبيدة أنه القَلْع[٣]. وما رُوي عن الحَبْر أوفَقُ بقوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤]، وعلى القولين الأخيرين يُضمَّن معنى الرفع ليتطابق الآيتان.

والمراد بـ «الجبل» الطور، أو جبلٌ غيرُه، وكان فرسخًا في فرسخ كمعسكر القوم، فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام لما توقَّفوا عن أخذ التوارة وقَبولها إذ جاءتهم جملةً مشتملة على ما يستثقلونَه، فقلَعَه من أصله ورَفَعَه عليهم.

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي: غمامة أو سقيفةٌ، وفُسِّرت بذلك مع أنها كلُّ ما علا وأظلَّ لأجل حرف التشبيه؛ إذ لولاه لم يكن لدخوله وجه.

و«فوق» ظرفٌ لـ «نتقنا»، أو حالٌ من «الجبل» مخصِّصةٌ ـ على ما قيل ـ للرَّفع ببعضِ جهات العلوِّ، والجملةُ الاسمية بعدُ في موضع الحال أيضًا، أي: مشابهًا ذلك.

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي: تيقَّنوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: ساقطٌ عليهم إن لم يقبلوا؛ فإنَّهم كانوا يُوْعَدون بذلك بهذا الشرط، والصادقُ لا يتخلَّفُ ما أَخبر به، لكن لمَّا لم يكن المفعولُ واقعًا لعدم شرطه أَشبَهَ المظنونَ الذي قد يتخلَّف، فلهذا سُمِّي ذلك ظنًّا.

وقيل: تيقَّنوا ذلك؛ لأنَّ الجبل لا يثبُتُ في الجوِّ. واعتُرِض بأنَّ عدمَ ثبوته فيه لا يقتضي التيقُّنَ؛ لأنَّه على جَرْي العادة، وأمَّا على خَرْقها فالثابتُ الثبوتُ،

---

(١) قوله: حينئذ، ليس في (م).

(٢) الغَرْب: الدلو العظيمة. الصحاح (غرب).

(٣) عزاه لأبي عبيدة الطبرسي في مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٥٨، والرازي ١٥/ ٤٥، والقرطبي ٢/ ١٦٤، وجاء في مجاز القرآن تفسير «نتقنا» بـ: رفعنا.

والواقعُ عدمُ الوقوع، ويكونُ ذلك كرَفْعه فوقَهم ووقوفِهِ هناك حتى كان ما كان منهم.

والحقُّ أن المتيقَّن لهم الوقوعُ إن لم يقبلوا؛ لكونه المعلَّق عليه؛ ففي الأثر أنَّ بني إسرائيل أَبَوا أن يقبلوا التوراةَ، فرُفِع الجبلُ فوقهم، وقيل: إن قبلتُم، وإلا ليَقعنَّ عليكم، فوقَعَ كلٌّ منهم ساجدًا على حاجِبِه الأيسرِ وهو ينظُرُ بعينه اليمنى إلى الجبل فَرَقًا من سقوطه ـ فلذلك لا ترى يهوديًّا يسجُدُ إلا على حاجبه الأيسر، ويقولون: هي السجدةُ التي رُفعت عنَّا بها العقوبةُ ـ وامتثلوا ما أُمروا به. ولا يقدح في ذلك احتمالُ الثبوت على خَرْق العادة، كما لا يقدح فيه عدمُ الوقوع إذا قبلوا، ألا ترى إلى أنه يُتيقَّن احتراقُ ما وقع في النار مع إمكان عدمه كما في قصَّة الخليل عليه الصلاة والسلام؟

وذهب الرُّمَّانيُّ والجُبَّائي[1] إلى أن الظنَّ على بابه، والمراد: قَوِيَ في نفوسهم أنه واقعٌ، واختاره بعضُ المحقِّقين.

والجملةُ مستأنَفَةٌ، وجُوِّز أن تكون معطوفةً على «نتقنا»، أو حالاً بتقدير قد، كما قال أبو البقاء[2].

﴿خُذُواْ﴾ أي: وقلنا: خذوا، أو قائلين: خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجِدٍّ وعزمٍ على تحمُّل مشاقِّه. والجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالاً من الواو، والمرادُ: خذوا ذلك مجدِّين.

﴿وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ أي: اعملوا به، ولا تتركوه كالمنسيِّ، وهو كنايةٌ عن ذلك، أو مجاز.

وقرأ ابنُ مسعود: «وتَذَكَّروا». وقُرئ: «واذَّكَّروا»[3] بمعنى وتَذَكَّروا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ بذلك قبائحَ الأعمال، ورذائلَ الأخلاق، أو راجين أن تنتظموا في سِلْك المتقين.

---

(١) نقل قولهما الطبرسي في مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٥٨.
(٢) في إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٨٠.
(٣) الكشاف ٢/ ١٢٩، والبحر المحيط ٤/ ٤٢٠. وقراءة: «واذَّكَّروا» نسبها أبو حيان للأعمش.

وجُوِّز أن يراد بـ «ما آتيناكم» الآيةُ العظيمة، أعني: نَتْقَ الجبلِ، أي: خذوا ذلك إن كنتم تطيقونَه، كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ﴾ [الرحمن: ٣٣]، واذكُروا ما فيه من القدرةِ الباهرة والإنذار، وعلى هذا فالمراد من نَتْق الجبل إظهارُ العجز لا غير، والكلامُ نظير قولك لمن يدَّعي الصُّرَعة والقوَّة بعد ما غلبتَه: خُذْه منِّي. وحاصلُه: إن كنتم تطلبون آيةً قاهرةً وتقترحُونَها، فخذوا ما آتيناكم إن كنتُم تُطيقونَه. ولا يخفى أنَّ ذلك خلافُ الظَّاهر، والآثار على خلافه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ منصوبٌ بمضمرٍ على طِرْز ما سلف في نظائره، وهو معطوفٌ على ما قبل، مسوقٌ لإلزام اليهود بمقتضى الميثاق العامِّ؛ فإنَّ منهم من أشرك فقال: عُزيرٌ ابن الله، عزَّ اسمُه، بعد إلزامهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاجِ عليهم بالحُجَج السمعيَّة والعقلية، ومَنْعِهم عن التقليد.

وبعضُهم جوَّز أن يكون تذييلاً؛ تعميمًا بعد التخصيص، وإظهارًا لتمادي هؤلاء اليهود في الغيِّ بعد أخذ الميثاق الخاصِّ المدلول عليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾؛ لقوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ في سورة البقرة [الآية: ٦٣]، وعليه فلا عطفَ، وهو أظهرُ من التذييل نظرًا إلى ظاهر اللفظ، وأولى منه إذا خُصَّ العامُّ بالمشركين كما قيل.

وقد يقال: إنَّ الآية مسوقةٌ لبيان أخذ ميثاقٍ سابقٍ من جميع الخلق مؤمِنِهم وكافرهم قبل هذه النَّشأة بما هو أهمُّ الأمور، والأصلُ الأصيل لجميع التكليفات، على وجهٍ خالٍ ممَّا يشبه الإكراه، متضمِّنٍ لإلزامِ المشركين المعاصرين له ﷺ، ورفعِ احتجاجهم ما كانوا، بعد الإشارة إلى أَخْذ ميثاقٍ من قوم مخصوصين في هذه النشأة على وجهٍ هو أشبَهُ الأشياء بالإكراه بما الظاهرُ فيه أنَّه من الأعمال؛ لأن القوم إذ ذاك كانوا مُقِرِّين بالربوبية، بل بها وبرسالة موسى عليه السلام، فلم يكن حاجةٌ إلى نَتْق الجبل فوقهم لذلك.

ولو قال قائل: إنَّ ذِكْر ذلك خلال الآيات المتعلِّقة باليهود من باب الاستطراد، والمناسبةُ فيه ظاهرةٌ، لم يَبْعُد، لكنَّ الأولَ هو الذي جَرَى عليه أكثرُ متأخِّري المفسِّرين.

أي: واذكُر لهم أو للناس إذ أَخَذَ ربُّك ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ المرادُ بهم الذين وُلِدَ لهم، مؤمنين كانوا أو كفَّارًا، نسلاً بعد نسل، سوى مَنْ لم يُولد له بسببٍ من الأسباب. وتخصيصُهم بأسلاف اليهود الذين أشركوا بالله تعالى حيث قالوا ما قالوا، ممَّا لا يكاد يُلتَفتُ إليه.

وإيثارُ الأَخْذِ على الإخراج للإيذان بشأن المأخوذ إذ ذاك؛ لما فيه من الإنباء والاجتباء والاصطفاء، وهو السببُ في إسناده إلى اسم الربِّ بطريق الالتفات، مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي، وإضافتُه إلى ضميره عليه الصَّلاة والسلام للتشريف.

وقيل: إنَّ إيثار الأَخْذ على الإخراج لمناسبةِ ما تضمَّنته الآيةُ من الميثاق؛ فإنَّ الذي يُناسِبُه هو الأخذُ دون الإخراج، والتعبيرُ بالربِّ لِمَا أنَّ ذلك الأَخْذَ باعتبار ما يتبَعُه من آثار الرُّبوبية.

واستأنس بعضُهم بمغايرةِ أسلوب هذا الكلام بما فيه من الالتفات لما قبلَه من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾، ولما بعدَه من قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ = لكونه استطراديًا.

وقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدلٌ من «بني آدم»، بدلَ البعض من الكلِّ بتكرير الجارِّ، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وقيل: بدلَ اشتمالٍ، وإليه ذهب أبو البقاء[١]، وبيَّنه بعضُهم بأنَّ بدل الاشتمال ما يكون بينَه وبين المبدَلِ منه ملابسةٌ بحيث توجب النسبةُ إلى المتبوع النسبةَ إلى التابع إجمالاً، نحو: أعجبني زيدٌ علمُه؛ فإنَّه يُعلم ابتداءً أن زيدًا معجِبٌ باعتبار صفاته لا باعتبار ذاته، وتتضمَّن نسبةُ الإعجابِ إليه نسبَتَه إلى صفةٍ من صفاته إجمالاً، ونسبةُ الأخذ الذي هو بمعنى الإخراج هنا إلى بني آدم نسبةٌ إلى ظهورهم إجمالاً؛ لأنه يُعلم ابتداءً أنَّ بني آدم ليسوا مأخوذين باعتبار ذواتهم، بل باعتبار أجسادهم وأعضائهم، وتتضمَّن نسبةُ الأَخذ إليهم نسبتَه إلى أعضائهم إجمالاً، وادَّعى أنَّ القولَ به أولى من القول ببدل البعض؛ لأنَّ النسبةَ إلى المبدَلِ

(١) في إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٨٠-٨١.

منه الكلِّ تكون تامَّةً، وتحصُلُ بها الفائدةُ بدون ذِكْر البدل، نحو: أكلت الرغيفَ نصفَه؛ فإنَّ النسبةَ تامةٌ لو لم يذكر النِّصف، ولا شكَّ أنَّ النسبةَ هنا ليست تامةً بدون ذِكْر البدل، وأيضًا إنَّ الظُّهور ليس بعضَ بني آدم حقيقةً، بل بعضُ أعضائهم، ولا يخفى ما في ذلك من النظر.

و«من» في الموضعين ابتدائيةٌ، وفيه مزيدُ تقريرٍ؛ لابتنائه على البيان بعد الإبهام، والتفصيلِ غِبَّ[1] الإجمال، قيل: وتنبيهٌ على أنَّ الميثاقَ قد أُخذ منهم وهم في أصلاب الآباء ولم يُستودَعوا في أرحام الأمَّهات.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مفعولُ «أخذ»، أُخِّر عن المفعول بواسطة الجارِّ؛ لاشتماله على ضميرٍ راجع إليه، فيلزَمُ بالتقديم رجوعُ الضمير إلى متأخِّرٍ لفظًا ورتبةً، وهو لا يجوز إلا في مواضعَ ليس هذا منها، ولمراعاة أصالته ومنشئيَّته، ولِمَا مرَّ غير مرَّةٍ من التشويق إلى المؤخَّر.

وقرأ نافعٌ، وأبو عمرٍو، وابنُ عامر، ويعقوبُ: «ذُرِّياتِهم»[2]، والمرادُ أولادُهم على العموم.

ومَن خصَّ «بني آدم» بأسلافِ اليهود على ما مرَّ خصَّ هذا بأخلافهم، وفيه ما فيه[3].

والإشكالُ المشهورُ، وهو أنَّ كلَّ الناس يصدُقُ عليه بنو آدم وذريَّتُه، فيتَّحِدُ المُخرَجُ والمُخرَجُ منه، مدفوعٌ بظهورِ أنَّ المرادَ إخراجُ الفروع من الأصول حسب ترتُّب الوِلادِ، ولا يتوقَّفُ التخلُّص عنه على القول بذلك التخصيص.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أشهد كلَّ واحدٍ من أولئك الذُّرية المأخوذين من ظهور آبائهم على أنفسهم، لا على غيرهم، تقريراً لهم بربوبيَّته سبحانه وتعالى

(١) أي: بعدَ. معجم متن اللغة (غبب).
(٢) التيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢٧٣.
(٣) قال أبو السعود في تفسيره ٣/ ٢٨٩ في بيان ذلك: وتخصيصهما باليهود سلفًا وخلفًا، مع أن ما أريد بيانه من بديع صنع الله تعالى عز وجل شامل للكل كافة = مُخِلٌّ بفخامة التنزيل وجزالة التمثيل.

التامَّةِ، قائلاً لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: مالكِ أمرِكم ومربِّيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحدٍ مدخلٌ في شأنٍ من شؤونكم.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ أي: على أنفسنا بأنك ربُّنا، لا ربَّ لنا غيرُك. والمراد: أَقرَرْنا بذلك. وجاء أنَّ القاضيَ شُرَيح[1] قال لمُقِرٍّ عنده: شَهِدَ عليك ابنُ أختِ خالتك[2]. ومن هنا قال الجلالُ السُّيوطيُّ[3]: إنَّ هذه الآيَةَ أصلٌ في الإقرار.

و«بلى» حرفُ جوابٍ، وألفُها أصليةٌ عند الجمهور، وقال جمعٌ: الأصل بل، والألفُ زائدةٌ، وبعضُ أولئك يقول: إنَّها لتأنيث الكلمة، كالتاء في ثُمَّتَ ورُبَّت؛ لأنها أُمِيلت، ولو لم تكن للتأنيث لكانت زائدةً لمجرَّدِ التكثير، كألف قبعثرى، وتلك لا تُمال، وتختصُّ بالنفي فلا تقع إلا في جوابه، فتفيد إبطالَه، سواءٌ كان مجرَّداً أو مقروناً بالاستفهام، حقيقيًّا كان أو تقريريًّا، وقد أَجْرَوا النَّفيَ مع التقرير مجرى النَّفي المجرَّد في ردِّه ببلى كما في هذه الآية، ولذلك قال ابنُ عباس وغيرُه: لو قالوا: نعم، لكَفَروا. ووجهُه أنَّ نعم تصديقٌ للمخبِر بنفيٍ أو إيجاب، ولذلك قال جماعةٌ من الفقهاء: لو قال: أليس لي عليك ألفٌ؟ فقال: بلى، لزمته، و: نعم، لا. وقال آخرون: تلزَمُه فيهما، وجَرَوا فيه على مقتضى العُرف لا اللغة.

ونازَعَ السُّهيليُّ وجماعةٌ في المحكيِّ عن الحَبْر وغيرِه متمسِّكين بأن الاستفهامَ التقريريَّ موجِبٌ، ولذلك امتنع سيبويه[4] من جَعْل أم متَّصلةً - على ما قيل - في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٢]؛ فإنَّها لا تقع بعد الإيجاب، وإذا ثبَتَ أنه إيجابٌ فنعم بعد الإيجاب تصديقٌ له.

---

(١) كذا في الأصل و(م).
(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٥٣٠١).
(٣) في الإكليل في استنباط التنزيل ص١٣١.
(٤) في الكتاب ٣/ ١٧٣.

قال ابنُ هشام[١]: ويُشكِلُ عليهم أنَّ بلى لا يُجاب بها الإيجاب، وذلك متَّفَقٌ عليه، ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ [الزمر: ٥٩] متقدِّم فيه ما يدلُّ على النفي، لكن وقع في الحديث ما يقتضي أنَّها يُجاب بها الاستفهامُ المجرَّد؛ ففي «صحيح البخاري» أنه ﷺ قال لأصحابه: «أترضَونَ أن تكونوا رُبع أهل الجنة؟» قالوا: بلى[٢]. وفي «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: «أنتَ الذي لقيتَني بمكة؟» فقال له المُجيب: بلى[٣]. وليس لهؤلاء أن يحتجُّوا بذلك؛ لأنه قليلٌ، فلا يتخرَّجُ عليه التنزيل. انتهى.

وأجاب البدر الدّمامينيُّ[٤] بأنه لا إشكال في الحقيقة؛ فإنَّ هؤلاء راعَوا صورةَ النفي المنطوق به، فيُجاب ببلى حيث يُراد إبطال النفي الواقع بعد الهمزة، وجوَّزوا الجوابَ بنعم على أنه تصديقٌ لمضمون الكلام جميعِه؛ الهمزةِ ومدخولها، وهو إيجابٌ كما سلف، ودعواه الاتفاقَ مناقَشٌ فيها، أمَّا إنْ أراد الإيجابَ المجرَّد من النفي بالمرَّة فقد حكى الرَّضيُّ[٥] الخلافَ فيه، وذكر أنَّ بعضَهم أجازَ استعمالَها بعدَه تمسُّكاً بقوله:

وقد بَعُدتْ بالوصل بيني وبينَها ... بلى إنَّ من زار القبورَ لَيَبعُدا[٦]

وإن أراد ما هو الأعمُّ حتى يشمَلَ التقريرَ المصاحِبَ للنفي فالخلافُ فيه موجودٌ مشهورٌ، ذكره هو في حرف النون. انتهى.

---

(١) في المغني ص١٥٤. واعتراض السهيلي مذكور فيه.

(٢) صحيح البخاري (٦٦٤٢)، وأخرجه أحمد (٤٢٥١)، وهو من حديث عبد الله بن مسعود، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٢١) (٣٧٧)، غير أن جوابهم فيه: نعم.

(٣) صحيح مسلم (٨٣٢)، وأخرجه أحمد (١٧٠١٩)، وهو حديث طويل في قصة إسلام عمرو بن عَبَسة رضي الله عنه.

(٤) في شرحه على مغني اللبيب ١/ ٢٣٦.

(٥) في شرحه على الكافية ٤/ ٤٢٨.

(٦) قال البغدادي في الخزانة ١١/ ٢١٢ عند شرحه له: وهذا البيت لم أعرفه، ولم أنظره إلا في هذا الشرح، والله أعلم، وجاء في شعر الطُّهويّ:

فلا تبعَدنْ يا خيرَ عمرو بن جُندب ... بلى إنَّ من زار القبور ليبعدا

قلنا: وهذا البيت الذي نسبه إلى الطهوي أورده ابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٧٨٤ من غير نسبة.

ولا يخفى أنَّ البيتَ شاذٌّ كما صرَّح به الرضيُّ(١)، والمذكور في بحث النون أنَّ جماعةً من المتقدِّمين والمتأخِّرين منهم الشَّلَوْبِين قالوا: إنه إذا كان قبل النفي استفهامٌ، فإن كان على حقيقته، فجوابُه كجوابِ النفي المجرَّد، وإن كان مراداً به التقريرُ، فالأكثرُ أن يُجاب بما يُجاب به النفيُ رَعْياً للفظِه، ويجوز عند أمن اللَّبْس أن يُجابَ بما يُجابُ به الإيجاب رَعْياً لمعناه، وعلى ذلك قول الأنصار للنبيِّ ﷺ: نعم، وقد قال لهم: «ألستُم تَرَون لهم ذلك؟»(٢) وقولُ جحدر(٣):

أليسَ الليلُ يجمع أُمَّ عمرٍو ... وإيَّانا فذاك بنا تَداني
نعم وأرى الهلالَ كما تراه ... ويعلُوها النهارُ كما عَلاني(٤)

وعلى ذلك جرى كلامُ سيبويه، وقال ابنُ عصفور: أَجْرتِ العربُ التقرير في الجواب مجرى النفي المحضِ وإن كان إيجاباً في المعنى، فإذا قيل: ألم أُعطِكَ درهماً؟ قيل في تصديقِه: نعم، وفي تكذيبِه: بلى، وذلك لأنَّ المقرَّرَ قد يوافِقُك فيما تدَّعيه، وقد يُخالفُك، فإذا قال: نعم، لم يُعلم هل أراد: نعم لم تُعطني على اللفظ، أو: نعم أعطيتَني على المعنى، فلذلك أجابوه على اللفظ، ولم يلتفتوا إلى المعنى.

وأما نعم في بيت جحدر فجوابٌ لغير مذكورٍ، وهو ما قرَّره اعتقادُه من أنَّ الليل يجمعُه وأُمَّ عمرٍو، وجاز ذلك لأَمنِ اللَّبْس؛ لعلمه أنَّ كلَّ أحدٍ يعلم أنَّ الليل يجمعُه مع أُمِّ عمرٍو، أو هو جوابٌ لقوله: وأرى الهلال، قُدِّم عليه.

وأما قولُ الأنصار فجاز لأَمْن اللَّبْس؛ لأنَّه قد عُلِم أنهم يريدون: نعم يُعرف لهم ذلك، وعلى هذا يُحمل استعمالُ سيبويه لها بعد التقرير. انتهى.

---

(١) وقد ذكر أنه شاذٌّ لاستعمال «بلى» فيه لتصديق الإيجاب.
(٢) لم نقف على من أخرجه، وقد أورده ابن هشام في المغني ص٢٠٣ ـ وعنه نقل المصنف ـ ولم يعزه إلى مصدر.
(٣) هو جحدر بن مالك من بني حنيفة، كان لصًّا فتاكاً شجاعاً، سجنه الحجاج، فقال جحدر قصيدة طويلة يتشوق فيها إلى أهله وبلاده، ومنها البيتان الآتيان، وقد أوردها السيوطي في شرح شواهد المغني ١/ ٤٠٧-٤٠٩، والبغدادي في شرح شواهد المغني ٣/ ٢٠٨-٢١٠، وساقا قصة جحدر مع الحجاج.
(٤) البيتان منسوبان إلى جحدر في الأمالي ١/ ٢٨١، والمغني ص٤٥٣، والخزانة ١١/ ٢٠١، ونسبهما ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٤٤٢ إلى المَغْلُوط.

والأحسن أن تكون نعم في البيت جواباً لقوله: فذاك بنا تَداني.

ثم قال ابنُ هشام[١]: ويتحرَّر على هذا أنه لو أُجِيب «ألست بربكم؟» بنعم، لم يكفِ في الإقرار؛ لأنَّه سبحانه وتعالى أَوجَبَ في الإقرار بما يتعلَّق بالرُّبوبية ما لا يَحتمل غيرَ المعنى المراد من المُقِرِّ، ولهذا لا يدخل في الإسلام بقوله: لا إلهُ إلا الله، برفع إلهُ؛ لاحتماله لنفي الوحدة، ولعلَّ ابنَ عباس رضي الله عنهما إنما قال: إنهم لو قالوا: نعم، لم يكن إقراراً وافياً، وجوَّز الشَّلوبين أن يكون مرادُه رضي الله عنه أنهم لو قالوا: نعم جواباً للملفوظ على ما هو الأفصح، لكان كفراً؛ إذ الأصلُ تطابُقُ السؤال والجواب لفظاً، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ التكفيرَ لا يكون بالاحتمال[٢].

والكلامُ عند جمعٍ تمثيلٌ لخلقه تعالى الخلقَ جميعاً في مبدأ الفِطْرة مستعدِّين للاستدلال بالأدلَّة الآفاقية والأنفسية المؤدِّية إلى التوحيد، كما نطق به قولُه ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولَد على الفِطْرة» الحديث[٣]، مبنيٌّ على تشبيهِ الهيئةِ المنتزَعةِ من تعريضه سبحانه وتعالى إياهم لمعرفة ربوبيَّته ووحدانيَّته بعد تمكينهم منها بما رَكَزَ فيهم من العقول والبصائر ونَصَبَ لهم في الأفاق والأنفس من الدلائل تمكيناً تامًّا، ومِنْ تمكُّنِهم منها تمكُّناً كاملاً، وتعرُّضهم لها تعرُّضاً قويًّا = بهيئة منتزعة من حملِهِ تعالى إيَّاهم على الاعتراف بها بطريق الأمر، ومن مسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثُمٍ أصلاً، من غير أن يكون هناك أَخْذٌ وإشهادٌ، وسؤالٌ وجواب، ونظيرُ ذلك - في قول - ما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. ومن ذلك سائرُ ما يُحكى عن الحيوان والجماد، كقوله:

شكا إليَّ جَمَلي طُول السُّرى ... مهلاً رويداً فكلانا مُبتلى[٤]

وقوله:

امتلأ الحوضُ وقال قَطْني ... مهلاً رويداً قد ملأتَ بطني[٥]

---

(١) في المغني ص٤٥٤.
(٢) انظر المسألة مبسوطة في خزانة الأدب ١١/ ٢٠١ وما بعدها، وقد أخذ المصنف عنه كثيراً مما أورده فيها.
(٣) أخرجه أحمد (٧١٨١)، والبخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) (٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) سلف عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.
(٥) سلف عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

وجعلوا قولَه سبحانه وتعالى: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ من تلوين الخطاب، وصَرْفَه عن رسول الله ﷺ إلى معاصريه من اليهود تشديداً في الإلزام، أو إليهم وإلى متقدِّميهم بطريق التغليب، وهو مفعولٌ له لما قبله من الأخذ والإشهاد، أو لمقدَّر يدلُّ عليه ذلك، والمعنى على ما يقول البصريُّون: فَعَلْنا ما فَعَلْنا كراهةَ أن تقولوا، وعلى ما يقول الكوفيُّون: لئلَّا تقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عند ظهور الأمر، وإحاطةِ العذاب بمن أشرك: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي: وحدانيَّة الربوبيَّة ﴿غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ لم نُنَبَّه عليه.

وإنما لم يَسَعْهم هذا الاعتذارُ حينئذٍ ـ على ما قيل ـ لأنَّهم نُبِّهوا بنَصْب الأدلة، وجُعِلوا متهيِّئين تهيُّؤاً تامًّا لتحقيق الحقِّ، وإنكارُ ذلك مكابرةٌ، فكيف يمكنُهم أن يقولوا ذلك؟

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ في ذلك اليوم: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: إنَّ آباءنا هم اخترعوا الإشراكَ، وهم سَنُّوه من قبل زماننا، ﴿وَكُنَّا﴾ نحن ﴿ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ لا نهتدي إلى سبيلِ التوحيد. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ أي: أتؤاخذُنا، فتهلكُنا اليومَ بالعذاب ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ من آبائنا المُضِلِّين؟ لا نراكَ تفعل.

و«أو» لمنع الخُلُوِّ دون الجمع، وفعلُ القول عطفٌ على نظيره.

وقرأهما أبو عمرو بالياء على الغَيبة[1]؛ لأنَّ صدرَ الكلام عليها، ووجهُ قراءةِ الخطاب ما علمتَ.

وقال البعضُ: إن ذاك لقول الربِّ تعالى: «ربكم»، وإنما لم يسعِ القومَ هذا القولُ لأنَّ ما ذُكر من استعدادهم يُضيِّق عليهم المسالكَ إليه؛ إذ التقليدُ عند قيامِ الدَّلائل والقدرة على الاستدلال بها ممَّا لا مساغَ إليه أصلاً.

هذا والذي عليه المحدِّثون والصوفيةُ قاطبةً أنَّ الله تعالى أخذ من العباد بأسرهم ميثاقاً قاليّاً قبل أن يظهروا بهذه البنيةِ المخصوصة، وأنَّ الإخراجَ من الظُّهور كان قبلُ أيضاً؛ فقد أخرج أحمدُ، والنسائيُّ، وابنُ جرير، وابنُ مَرْدويه، والحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال:

---

(١) التيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢٧٣.

«إنَّ الله تعالى أخذ الميثاقَ من ظهر آدم بنَعْمان يومَ عرفة، فأخرج من صُلْبه كلَّ ذُرِّيَّة ذرَأها، فنثرَها بين يديه كالذَّرِّ، ثمَّ كلَّمهم قِبَلاً: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى، شَهِدنا»(١).

وأخرج مالك في «الموطأ»، وأحمد، وعَبْد بنُ حُميد، والبخاري في «التاريخ»، وأبو داود، والترمذيُّ وحسَّنه، والنَّسائيُّ، وابنُ جرير، وخلقٌ كثير، عن مسلم بن يسار الجُهَنيِّ أنَّ عمر بنَ الخطاب ﵁ سُئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلخ، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ سُئل عنها فقال: «إنَّ الله تعالى خلقَ آدم، ثم مسَحَ ظهرَه بيمينه، فاستخرج منه ذُرِّيَّةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة، وبعمل أهلِ الجنَّة يعملون، ثم مسَحَ ظهرَه، فاستخرج منه ذُرِّيَّةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للنار، وبعمل أهل النارِ يعملون»، فقال الرجل: يا رسول الله، ففيمَ العملُ؟ فقال: «إذا خُلِقَ العبد للجنة استعمَلَه بعمل أهل الجنة، حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل الجنة، فيُدخلَه الله الجنةَ، وإذا خُلِق العبدُ للنار استعمَلَه بعمل أهل النار، حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل النار، فيُدخلَه النار»(٢).

والبيضاويُّ حمَلَ الآيةَ في «تفسيره» على التمثيل(٣)، وكذا في «شَرْحه للمصابيح»، وذكر فيه أنَّ ظاهر حديث عمر ﵁ لا يُساعد ذلك، ولا ظاهرُ الآية؛ لأنَّه سبحانه وتعالى لو أراد أن يَذْكر أنه استخرَجَ الذُّرية من صُلْب آدم دفعةً واحدةً،

---

(١) مسند أحمد (٢٤٥٥)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٢٧)، وتفسير الطبري ١٠/ ٥٤٧، والمستدرك للحاكم ٢/ ٥٤٤، والأسماء والصفات للبيهقي (٤٤١). ورجح ابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٠٢ كونه موقوفاً على ابن عباس.
ونَعْمان: واد بجنب عرفة بين مكة والطائف، كما في حاشية الشهاب ٤/ ٢٣٥، وقوله قِبَلاً: أي: عِيَاناً. مفردات ألفاظ القرآن (قبل).

(٢) الموطأ ٢/ ٨٩٨-٨٩٩، والمسند (٣١١)، والتاريخ الكبير ٨/ ٩٧، وسنن أبي داود (٤٧٠٣)، وسنن الترمذي (٣٠٧٥)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٢٦)، وتفسير الطبري ١٠/ ٥٥٣. قال ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٣: هذا الحديث منقطع بهذا الإسناد؛ لأن مسلم بن يسار هذا لم يلق عمر ﵁، وبينهما في هذا الحديث نعيم بن ربيعة [وكذا أخرجه أبو داود (٤٧٠٤)، وهي رواية التاريخ الكبير] وهو أيضاً مع هذا الإسناد لا تقوم به حجة، ومسلم بن يسار هذا مجهول. . . ، لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها، من حديث عمر وغيره.

(٣) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٤/ ٢٣٤.

لا على توليدِ بعضهم من بعض على مرِّ الزمان، لقال: وإذ أخذ ربُّك من ظهرِ آدمَ ذُرِّيَّته، والتوفيقُ بينهما أن يقال: المرادُ من «بني آدم» في الآية آدمُ وأولادُه، وكأنه صار اسماً للنَّوع، كالإنسان والبَشَر، والمراد بالإخراج توليدُ بعضهم من بعض على مرِّ الزمان، واقتصر في الحديث على ذِكْر آدم اكتفاءً بذِكْر الأصل عن ذِكْر الفرع، وقولُه عليه الصَّلاة والسلام في الحديث: «مسَحَ ظهرَ آدم» يَحتمِلُ أن يكون الماسحُ المَلَكُ الموكَّل على تصوير الأجنّة وتخليقها وجمع موادها، وأُسند إلى الله تعالى لأنه الآمر، كما أُسند التوفِّي إليه في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، والمتوفِّي لها هو المَلَك لقوله تعالى: ﴿تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨]، ويحتمل أن يكون الماسحُ هو الله تعالى، ويكون المسحُ من باب التمثيل، وقيل: هو من المِسَاحة بمعنى التقدير، كأنه قال: قدَّر ما في ظهره من الذُّرية. انتهى كلامُه.

وقال بعضُهم: ليس المعنى في الحديث أنه تعالى أخرج الكلَّ من ظهر آدم عليه السلام بالذات، بل أخرَجَ من ظهره أبناءه الصّلبيَّة، ومن ظهورهم أبناءهم الصّلبيَّة، وهكذا إلى آخر السلسلة، لكن لما كان المُظهَر الأصليُّ ظهرَه عليه الصَّلاة والسلام، وكان مساقُ الحديث بيانَ حال الفريقين إجمالاً من غير أن يتعلَّق بذِكْر الوسائط غرضٌ علميٌّ، نَسَبَ إخراجَ الكلِّ إليه، وأمَّا الآيةُ الكريمة فحيث كانت مسوقةً للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله ﷺ، وبيانِ عدم إفادةِ الاعتذار بإسناد الإشراك إلى آبائهم، اقتضى الحالُ نسبةَ إخراجِ كلِّ واحدٍ منهم إلى ظهرِ أبيه، من غير تعرُّضٍ لإخراج الأبناء الصّلبيَّة لآدم عليه السلام من ظهرِه قطعاً، وعدَمُ بيانِ الميثاق في الخبر العُمَريِّ ليس بياناً لعدمه، ولا مستلزِماً له. اهـ.

وأنتَ تعلم أن التأويلَ الذي ذكره البيضاويُّ يأبى عنه كلَّ الإباء حديثُ ابن عباس رضي الله عنهما، وأنَّ ما ذكره البعضُ من أن مساقَ الحديث بيانُ حال الفريقين إجمالاً يأباه ظهورُ عدمِ كون السؤال عن حالهما ليُساقَ الحديثُ لبيانه؛ فإنَّ الظاهر أنَّ الصحابيَّ إنما سأَلَه ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ عما أشكلَ عليه من معنى الآية: أن الإشهاد هل هو حقيقةٌ أم على الاستعارة؟ فلمَّا أجابه ﷺ بما عرف منه ما أرادَه سكتَ؛ لأنَّه كان بليغاً، ولو أشكَلَ عليه من جهة أخرى لكان الواجبُ بيانَ تلك الجهة، وكذا فَهِمَ الفاروقُ رضي الله عنه.

ومن هنا يُعلم أنَّ قولَ الإمام[١]: إنَّ ظاهر الآية يدلُّ على إخراج الذُّرِّية من ظهر بني آدم، وليس فيها ما يدلُّ على أنهم أُخرجوا من صُلْب آدم، ولا ما يدلُّ على نفيه، إلا أنَّ الخبرَ دلَّ عليه، فيثبُتُ خروجُهم من آدم بالحديث، ومن بنيه بالآية = لا يُطابِقُ سياقَ الحديث كما لا يخفى.

وقال الشيخ شهاب الدِّين التُّوْرِبِشْتيُّ[٢]: إنما جدَّ كثيرٌ من أهل العلم في الهرب عن القول في معنى الآية بما يقتضيه ظاهرُ خبر الحَبْر لمكان قوله سبحانه: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾، فقالوا: إن كان هذا الإقرارُ عن اضطرار، حيث كُوشِفوا بحقيقة الأمر، وشاهدوه عينَ اليقين، فلهم ذلك اليوم أن يقولوا: شَهِدنا يومئذٍ، فلما زال عنَّا علمُ الضَّرورة ووُكِلْنا إلى آرائنا كان منَّا مَنْ أصاب، ومنَّا مَنْ أخطأ. وإن كان عن استدلال، ولكنهم عُصِموا عنده من الخطأ، فلهم أيضاً أن يقولوا: أُيِّدنا يومَ الإقرار بتوفيقٍ وعصمةٍ، وحُرِمناهما من بعدُ، ولو أُمْدِدنا بهما أبداً لكانت شهادتُنا في كلِّ حينٍ كشهادتنا في اليوم الأول، فيتعيَّنُ حينئذٍ أن يرادَ بالميثاق ما ركَّبَ الله تعالى فيهم من العقول، وآتاهم من البصائر؛ لأنها هي الحجَّة البالغة، والمانعة عن قولهم: «إنا كنا» إلخ؛ لأن الله تعالى جعَلَ الإقرارَ والتمكُّنَ من معرفة ربوبيَّته ووحدانيَّته سبحانه حجَّةً عليهم في الإشراك، كما جعل بعثَ الرسول حجةً عليهم في الإيمان بما أَخبر عنه من الغيوب. انتهى.

وحاصلُه أنه لو لم تُؤَوَّل الآيةُ بما ذُكِر يلزمُ أن لا يكونوا مَحْجوجين يوم القيامة بما ذُكِر[٣]، وقد أُجيب عنه باختيار كلٍّ من الشِّقَّين ورَفْع محذُوره:

---

(١) تفسير الرازي ١٥/ ٥١-٥٢.

(٢) هو أبو عبد الله، فضل الله بن حسن، من أهل شيراز، محدث، فقيه، له كتب بالفارسية والعربية، منها: الميسر في شرح مصابيح السنة للبغوي، ومطلب الناسك في علم المناسك، ترجم له السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٣٤٩، وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٧١٩ أنه حنفي، وتابعه جلُّ من ترجم له بعده، غير أن محققي الطبقات ذكرا أنهما لم يجدا له ترجمة في كتب طبقات الحنفية المطبوعة. توفي سنة (٦٦١هـ). انظر ديوان الإسلام لابن الغزي ٢/ ١٩، ومعجم المؤلفين ٢/ ٦٢٥، والأعلام ٥/ ١٥٢.

(٣) قوله: بما ذكر. سقط من (م).

أما الأولُ: فبأَنْ يقال إذا قالوا: شهدنا يومئذٍ فلمَّا زال علمُ الضرورة ووُكِلْنا إلى آرائنا كان كذا: أيها الكذَّابون، متى وُكِلْتُم إلى آرائكم؟ ألم نُرسل رسُلَنا تترى ليوقظوكم عن سِنَة الغفلة؟

وأما الثاني: فبأن يقال: إن هذا مشتركُ الإلزام؛ فإنه إذا قيل لهم: ألم نمنَحْكم العقولَ والبصائر؟ فلهم أن يقولوا: فإذا حُرِمنا اللطفَ والتوفيقَ فأيُّ منفعةٍ لنا في العقل والبصيرة؟

وذكر محيي السُّنة[1] في جواب أنه كيف تلزَمُ الحجةُ ولا أحَدَ يَذْكُر ذلك الميثاقَ؟ أن الله تعالى قد أوضَحَ الدلائلَ على وحدانيته، وصِدْقِ رسله فيما أَخبروا به، فمن أنكَرَه كان معانداً، ناقضاً للعهد، ولزمَتْه الحجَّة، ونسيانُه وعدمُ حفظه لا يُسقط الاحتجاجَ بعد إخبار المخبِرِ الصَّادق.

ولا يخفى ما فيه، ولهذا أجاب بعضُهم بأنَّ قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ إلخ ليس مفعولاً له لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ وما يتفرَّع عليه من قولهم: «بلى شهدنا» حتى يجب كونُ ذلك الإشهاد والشهادة محفوظاً لهم في إلزامهم، بل لفعلٍ مضمرٍ ينسحِبُ عليه الكلامُ، والمعنى: فعَلْنا ما فَعَلْنا من الأمر بذِكْر الميثاق وبيانِهِ كراهةَ أن تقولوا، أو لئلَّا تقولوا أيُّها الكَفَرة يوم القيامة: إنا كنَّا غافلين عن ذلك الميثاق، لم نُنَبَّه عليه في دار التكليف، وإلا لعمِلْنا بموجبه. هذا على قراءة الجمهور، أمَّا على القراءة الأخرى فهو مفعولٌ له لنفس الأمر المضمرِ العاملِ في «إذ أخذ»، والمعنى: اذكُر لهم الميثاقَ المأخوذَ منهم فيما مضى؛ لئلَّا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه، أو بتقليد الآباء. ثم قال: هذا على تقدير كون «شهدنا» من كلام الذُّرية، وهو الظاهر، فأمَّا على تقدير كونه من كلام الله تعالى فهو العامل في «أن تقولوا»، ولا محذورَ أصلاً، والمعنى: شهدنا قولَكم هذا لئلَّا تقولوا يوم القيامة.. إلخ، لأنَّا نردُّكم ونكذِّبُكم حينئذٍ. انتهى.

ولا يخفى أنَّ ما ذكره أولاً من تعلُّق «أن» وما بعدها بفعل مضمرٍ ينسحِبُ عليه

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢١٣.

الكلامُ، أو بنفس الفعل المضمر العاملِ في «إذ»، واضحٌ في دفع السؤال الذي أشرنا إليه، وإنه لَعَمْري في غاية الحُسْن، إلا أنَّ الظاهر تعلُّقه بالإشهاد وما يتفرَّع عليه، وأرى الجوابَ مع عدمِ العدول عنه لا يخلو عن العدول عنه.

ويُؤيِّد ما ذَكَره ثانياً من كون «شهدنا» من كلام الله تعالى، وكونه العاملَ، ما أخرجَه ابنُ عبدالبَرِّ في «التمهيد» من طريق السُّدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس ﷺ، وعن مرَّة الهمداني عن ابن مسعود وناسٍ من الصحابة[1] أنهم قالوا في الآية: لمَّا أخرجَ الله تعالى آدم من الجنَّة قبل تهبيطه من السَّماء مسَحَ صفحةَ ظهرِه اليمنى، فأخرج منه ذُرِّيَّةً بيضاءَ مثلَ اللؤلؤ كهيئة الذَّرِّ، فقال لهم: ادخُلوا الجنةَ برحمتي، ومسَحَ صفحةَ ظهرِه اليسرى، فأخرج منه ذُرِيةً سوداءَ كهيئة الذَّرِّ، فقال: ادخُلوا النارَ ولا أبالي، فذلك قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]، ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١] ثم أخذ منهم الميثاقَ، فقال: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى. فأعطاه طائفةٌ طائعين، وطائفةٌ كارهين على وجهِ التقيَّة، فقال هو والملائكة: ﴿شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الحديثَ. وفيه مخالفة لما رُوي عن الحَبْر أولاً من أنَّ الأخذَ كان بنَعْمانَ؛ إذ هو ظاهرٌ في كون ذلك بعد الهبوط، وهذا ظاهرٌ في كونه كان قبلُ.

وفي بعض الأخبار ما يقتضي أنه كان إذ كان عرشُه سبحانه على الماء؛ فقد أخرج عَبْد بنُ حُميد، والحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول»، والطبرانيُّ، وأبو الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه، عن أبي أُمامة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «خلَقَ الله تعالى الخَلْقَ، وقضى القضيةَ، وأخذ ميثاقَ النبيِّين وعرشُه على الماء، فأخذ أهلَ اليمين بيمينه، وأخذ أهلَ الشمال بيده الأخرى ـ وكلتا يدي الرَّحمن يمينٌ ـ فقال: يا أصحابَ اليمين، فاستجابوا له، فقالوا له: لبيكَ ربَّنا وسَعْدَيك، قال: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى. قال: يا أصحاب الشمال، فاستجابوا له، فقالوا

(١) التمهيد ١٨/٥٨-٨٦. قال ابن كثير عند تفسير الآية (٣٣) من سورة البقرة: هذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة.

له: لبيكَ ربَّنا وسَعْدَيك، قال: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى، فخلَطَ بعضَهم ببعضٍ»[(١)].

وذَكَر بعضُهم أنه كان بالهند حيث هَبَطَ آدم عليه السلام، وآخرون أنه كان في موضع الكعبة، وأنَّ الذرية المُخْرَجة من ظهر آدم عليه السلام كالذرِّ أحاطتْ به، وجعل المحلَّ الذي شغلته إذ ذاك حَرَماً. وليس لهذا سندٌ يعوَّل عليه.

والتوفيقُ بين هذه الروايات مشكلٌ، إلا أن يقال بتعدُّد أَخْذ الميثاق، وإليه ذهب السادةُ الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارهم، لكن يُشْعِرُ كلامُهم باختلاف النَّوع، فقد قال بعضهم: رأيتُ مَنْ يستحضر قبلَ ميثاقِ «ألستُ» ستةَ مواطن أخرى ميثاقية. فذكرتُ ذلك لشيخنا ﷺ، فقال: إنْ قصَدَ القائلُ بالحضرات الستة التي عرفَها قبل ميثاقِ «ألست» الكلياتِ فمسلَّم، وأما إن أراد جملةَ الحضرات الميثاقية التي قبل «ألستُ» فهي أكثر من ذلك، ويعلم من هذا ما في قولهم: لا أَحَدَ يذكُر ذلك الميثاقَ على وجه السَّلب الكُلِّيِّ من المنع.

وقد رُوي عن ذي النُّون أيضاً وقد سُئل عن ذلك: هل تذكُره؟ أنه قال: كأنَّه الآن في أذني. وقال بعضُهم مستقرباً له: إنَّ هذا الميثاقَ بالأمس كان، وأشار فيه أيضاً إلى مواثيقَ أُخَرَ كانت قبلُ. ويمكن أن يقال: مرادُهم من تلك السالبة: لا أحدَ من المشركين يذكُر ذلك الميثاقَ، لا: لا أحدَ مطلقاً.

وذكر قطب الحقِّ والدين العلامةُ الشِّيرازيُّ في التوفيق بين الآية والخَبَر العمريِّ كلاماً ارتضاه الفحولُ، وتلقَّوه بالقَبول، وحاصلُه: أن جوابَ النبيِّ ﷺ إذ سُئل عن الآية من قَبِيل أسلوب الحكيم، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام سُئل عن بيان الميثاق الحاليِّ، فأجاب ببيانِ الميثاق المقاليِّ على ألطفِ وجه.

وبيانُه أنه سبحانه كان له ميثاقان مع بني آدم: أحدُهما تهتدي إليه العقولُ، من نَصْب الأدلة الباعثة على الاعتراف الحاليِّ. وثانيهما: المقاليُّ الذي لا يهتدي إليه

---

(١) نوادر الأصول ص٨، والمعجم الكبير للطبراني (٧٩٤٣) وفيه جعفر بن الزبير؛ كذَّبه شعبة، وقال البخاري: تركوه. الميزان ١/ ٤٠٦. وانظر مشكل الحديث لابن فورك ص٤٤٠-٤٤١.

العقل، بل يتوقَّفُ على توقيفِ واقفٍ على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء عليهم السلام، فأراد النبيُّ ﷺ أن يُعلِّم الأمةَ ويخبِرَهم عن أنَّ وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقاً آخر أزليًّا، فقال ما قال مِنْ مَسْح ظهر آدم عليه السلام في الأزل، وإخراج الذُّرية؛ ليُعرف منه أن هذا النسل الذي يخرج فيما[1] لا يزال من أصلاب بني آدم هو الذرُّ الذي أُخرج في الأزل من صلب آدم، وأُخذ منه الميثاقُ المقاليُّ الأزليُّ، كما أُخذ منهم فيما[1] لا يزال بالتدريج حين أُخرجوا الميثاقُ الحاليُّ اللايزاليُّ.

وهو حسنٌ كما قالوا، لكن ينبغي أن يُحمل الأزلُ فيه ولا يزال على المجاز؛ لأنَّ خروجَ النسل محدودٌ بيوم القيامة، وعلى القول بعدم انقطاعه بعدَه هو خاصٌّ بالسعداء على وجهٍ خاصٍّ كما عُلِم في محلِّه، والأمر حادثٌ لا أزليٌّ، وإلا لزِمَ خرقُ إجماع المسلمين، والتدافعُ بين الآية، وكان الله تعالى ولم يكن معه شيء.

ونُقل عن الخلخاليِّ أنه شمَّر عن ساقه في دفع ذلك، فقال: المخاطَبون هم الصُّور العلمية القديمة التي هي ماهيات الأشياء وحقائقُها، ويسمُّونها الأعيان الثابتةَ، وليست تلك الصُّور موجودةً في الخارج، فلا يتعلَّقُ بها بحسب ذلك الثبوت جَعْل، بل هي في ذواتها غيرُ محتاجةٍ إلى ما يجعلها تلك الصور، وهي صادرةٌ عنه تعالى بالفيض الأقدس، وقد صرَّحوا بأنها شؤونات واعتباراتٌ للذَّات الأحدي، وجوابُهم بقولهم: بلى، إنما هو بألسنةِ استعداداتهم الأزلية، لا بالألسنة التي هي بعد تحقُّقها في الخارج. انتهى.

وهو مبنيٌّ على الفرق بين الثبوت والوجود، وفيه نزاعٌ طويل، لكنَّا ممَّن يقول به، والله لا يستحيي من الحقِّ، ومن هنا انقدَحَ لبعض الأفاضل وجهٌ آخرُ في التوفيق بين الآية والحديث، وهو أنَّ المراد بالذرِّية المستخرجة من صلب آدم عليه السلام وبنيه هو الصورُ العلميَّة، والأعيان الثابتة، وأن المرادَ باستخراجها هو تجلِّي الذات الأحديّ وظهورُه فيها، وأن نسبَةَ الإخراج إلى ظهورهم باعتبار أنَّ تلك الصور إذا وُجِدت في الأعيان كانت عينَهم، وأن تلك المقاولةَ حاليةٌ استعدادية

---

(١) في الأصل و(م): في. والمثبت من كليات أبي البقاء ص١١١ عند ضربه أمثلةً لأسلوب الحكيم.

أزلية، لا قاليةٌ لا يَزَالية حادثة، وهذا هو المراد بما نقل الشيخُ العارف أبو عبد الرحمن السُّلمي في «الحقائق» عن بُنان[1] حيث قال: أوجدَهم لديه في كون الأزل ثم دعاهم، فأجابوا[2] سِراعاً، وعرَّفهم نفسَه حين لم يكونوا في الصورة الإنسيةِ، ثم أخرجهم بمشيئته خلقاً، وأودعهم في صلب آدم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلخ، فأخبر أنه خاطَبَهم وهم غيرُ موجودين إلا بوجوده لهم، إذ كانوا واجدين للحقِّ في غير وجودهم لأنفسهم[3]، وكان الحقُّ بالحق في ذلك موجوداً، ثم أنشد السُّلميُّ لبعضهم:

لو يسمعون كما سمعتُ كلامَها ... خرُّوا لعزةَ ركعاً وسجودا[4]

انتهى.

ولا يخفَى أنَّ هذا التوفيق بعيدٌ بمراحل عن ذوق أرباب الظاهر؛ لمخالفته لظواهر الأخبار، والمتبادِرِ من الآثار، وما نُقِل عن بنان فيه[5] وهو أول كلامه: انتخبهم للولاية، واستخلصَهم للكرامة، وجعل لهم فسوحاً في غوامض غيب الملكوت. وبعده ما ذكر، وشمولُه لسائر الخلق سعيدِهم وشقيِّهم لا يخلو عن بُعْدٍ.

وذكر الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه[6] أن الله تعالى أبدع المبدَعات، وتجلَّى بلسان الأحدية في الربوبية، فقال: ألست بربكم؟ والمخاطَبُ في غاية الصغاء، فقالوا: بلى. فكان كمثل الصَّدا؛ فإنّهم أجابوه به، فإن الوجودَ المحدَثَ خيالٌ منصوبٌ، وهذا الإشهادُ كان إشهادَ رحمةٍ؛ لأنه سبحانه ما قال لهم: وحدي؛ إبقاءً عليهم

---

(١) جاء في مطبوع حقائق التفسير للسلمي ١/ ٢٥٠: ابن بنان. وهو أبو الحسين بن بنان، من جلَّة مشايخ مصر، صحب أبا سعيد الخرَّاز. طبقات الصوفية للسلمي ص٣٨٩. أما بنان فهو ابن محمد الحمال، واسطي الأصل، نشأ ببغداد، وسمع الحديث، وسكن مصر، وبها توفي سنة (٣١٦هـ)، قال السلمي: وهو من جلة المشايخ. طبقات الصوفية للسلمي ص٢٩١.

(٢) في الأصل و(م): فأجابهم، والمثبت من حقائق التفسير.

(٣) في الحقائق: إذ كانوا غير واجدين للحق إلا بإيجاده لهم في غير وجودهم لأنفسهم.

(٤) البيت لكُثيِّر عزَّة، وهو في ديوانه ص١١٣.

(٥) أي: في الحقائق، وفيه: ابن بنان، كما أسلفنا.

(٦) في الفتوحات المكية، الباب الخامس في معرفة أسرار «بسم الله الرحمن الرحيم».

لما علم أنهم يشركون به ـ تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ـ بما فيهم من الحظِّ الطبيعيِّ، وبما فيهم من قَبول الاقتدار الإلهيِّ، وما يعلمه إلا قليل.

وأنتَ تعلم أن محقِّقي المفسرين اعتبروا الوحدانيةَ في الإشهاد وكذا في الشهادة، كما مرَّت الإشارةُ إليه، ونطقت الآثارُ به، ومن ذلك ما أخرجه عبد الله بنُ أحمد بن حنبل في زوائد «المسند»، والبيهقيُّ، وابنُ عساكر، وجماعة عن أبيِّ بن كعب أنه قال في الآية: جمعَهم جميعاً، فجعلَهم أرواحاً في صورهم، ثم استنطَقَهم، فتكلَّموا، ثم أَخَذَ عليهم العهدَ والميثاق، وأشهدَهم على أنفسهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى. قال: فإني أُشهِدُ عليكم السماوات السبع وأُشهد عليكم أباكم آدمَ أن تقولوا يوم القيامة: إنا لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا ربَّ غيري، ولا تُشركوا بي شيئاً، إني سأُرسل إليكم رُسُلي يُذكِّرونكم عهدي وميثاقي، وأُنزل عليكم كتبي. قالوا: شَهِدنا بأنك ربُّنا وإلهنا، لا ربَّ لنا غيرُك، ولا إله لنا غيرُك، فأقرُّوا، ورفع عليهم آدم ينظر إليهم، فرأى الغنيَّ والفقير، وحسَنَ الصورة، ودون ذلك، فقال: يا ربِّ لولا سويتَ بين عبادك، قال: إني أحببتُ أن أُشكَرَ(١).

وبهذا يندفعُ ما يقال: إن إقرارَ الذراري بربوبيَّته سبحانه لا يُنافي الشركَ؛ لأنَّ المشركين قائلون بربوبيته سبحانه كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

والمعتزلة ينكرون أَخْذَ الميثاق القاليِّ المشار إليه في الأخبار، ويقولون: إنها من جملة الآحاد، فلا يلزمُنا أن نتركَ لها ظاهرَ الكتاب، وطعنوا في صحَّتها بمقدِّمات عقليةٍ مبنية على قواعدَ فلسفية على ما هو دأبُهم في أمثال هذه المطالب:

قالوا أولاً: إنَّ أَخْذَ الميثاقِ لا يمكنُ إلا من العاقل، فوجب أن يتذكَّر الإنسان في هذا العالم ذلك الميثاقَ؛ إذ لا يجوز للعاقل أن ينسى مثلَ هذه الواقعة العظيمة نسياً كليًّا، فحيث نسي كذلك دلَّ على عدم وقوعها، وبنحو هذا الدليل بطَلَ التناسُخُ.

---

(١) المسند (٢١٢٣٢)، والقضاء والقدر للبيهقي (٦٦)، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧/ ٣٩٦.

وأُجيب بأنَّ العلمَ إنما هو بخلقِ الله تعالى، فجاز أن لا يخلقه لحكمةٍ عَلِمها، ودليلُ بطلان التناسخ ليس منحصراً بما ذُكر؛ فقد استدلُّوا أيضاً على بطلانه بلزوم أن يكون للبدن نفسان، كما بيَّنه الإمام في «المباحث المَشْرقية»، وأن يكون عددُ الهالكين مساوياً لعدد الكائنين، والطوفانات[1] العامة تأبى هذا التساوي.

على أنه يمكن أن يُجاب بالفرق بين التناسخ وبين ما نحن فيه، وذلك أنَّا إذا كنَّا في أبدان أخرى، وبقينا فيها سنين، امتنع في مجرى العادة نسيانُ أحوالها، وأما أخذُ الميثاق فإنما حصَلَ بأسرع[2] زمانٍ، فلم يبعُدْ حصولُ النسيان فيه.

وبعضُهم أجاب بأن النسيانَ وعدم التذكُّر هنا لبُعد الزمان. واعتُرِض بأنَّ أهل الآخرة يعرفون كثيراً من أحوال الدنيا، كما نطقت بذلك الآياتُ والأخبار، اللهمَّ إلا أن يُقال: إن ذلك خصوصيةُ الدار.

وقالوا ثانياً: إن تلك الذريةَ المأخوذةَ من ظهر آدم عليه السلام لا بدَّ أن يكون لكلِّ واحد منها قدرٌ من البنية حتى يحصُلَ فيه العلمُ والفهم، فمجموعُها لا تحويه عَرْصَةُ الدنيا، فيمتنعُ حصولُه في ظهر آدم ليؤخَذَ ثم يُرَدَّ.

وأجيب بأنه مبنيٌّ على كون الحياة مشروطةً بالبنية المخصوصة كما هو مذهب الخصوم، والبرهانُ قائمٌ على بطلانه كما تقرَّر في الكلام، فيجوز أن يخلق الله تعالى الحياةَ في جوهرٍ فردٍ، وتلك الذريةُ المخرجَةُ كانت كالذرِّ، وهو قريبٌ من الجوهر، وكونُ المجموع لا تحويه عَرْصَةُ الدنيا غيرُ مسلَّم، وإن كان الأخذ في السماء قبل هبوط آدم عليه السلام فالدائرةُ واسعةٌ، وإن كان إذ كان العرشُ على الماء فالدائرةُ أوسعُ، ولا مانع إذا كان في الأرض أن يكون اجتماعُ الذرِّ متراكماً بينها وبين السماء، وإنه لفضاءٌ عظيم وإن صغُرَتْ قاعدتُه، وإن اعتبر أن الإنسانَ عبارةٌ عن النفس الناطقة، وأنها جوهرٌ غير متحيِّزٍ ولا حالٌّ فيه، لم يحتَجْ إلى الفضاء، إلا أن فيه ما فيه.

---

(١) في (م): والطوفات.
(٢) في (م): في أسرع.

وقالوا ثالثاً: إنه لا فائدةَ في أخذ الميثاق، لأنهم لا يصيرون بسببه مستحقِّين للثواب والعقاب، على أنهم أدون حالاً من الأطفال، والطفلُ لا يتوجَّه عليه التكليفُ، فكيف يتوجَّه على الذرِّ؟

وأُجيب بأن فائدةَ الأخذ غيرُ منحصرةٍ في الاستحقاق المذكور، بل يجوز أن تكون لإظهار كمال القدرة لمن حضر من الملائكة، أو إقامة الحجة يوم القيامة كما يقتضيه قول البعض في الآية، وكونُهم إذ ذاك أدونُ حالاً من الأطفال في حيِّز البطلان، كما لا يخفى على مَنْ هو أدون حالاً من الأطفال.

وقالوا رابعاً: إنه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وقال جلَّ وعلا: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥-٦]، وكونُ أولئك الذرّ أَناسيَّ ينافي كونَ الإنسان مخلوقاً مما ذُكر.

وأُجيب بأن الإنسان في هذه النشأة مخلوقٌ من ذلك، ولا يلزمُ منه أن يكون في تلك النشأة كذلك، على أنَّ الله تعالى لا يُعجِزُه شيء.

وبالجملة ينبغي للمؤمن أن يُصدِّق بذلك الأخذ؛ فقد نطَقَتْ به الأخبار الصادرةُ من منبع الرسالة، ولا يلتفت إلى قولِ من قال: إنها متروكةُ العمل لكونها من الآحاد؛ فإن ذلك يؤدي إلى سدِّ بابٍ كبير من الفتوحات الغيبية، ويحرِمِ قائلَه من عظيم المِنَح الإلهية.

وقد روى البيهقيُّ في «المدخل» عن الشافعي أنه قال: الذين لقيناهم كلُّهم يثبتون خبرَ واحدٍ عن واحدٍ عن النبيِّ ﷺ، ويجعلونه سنةً حُمِدَ مَن تَبِعَها، وعِيْبَ من خالَفَها، وقال: من خالف هذا المذهبَ كان عندنا مفارقاً لسبيل أصحاب رسول الله ﷺ وأهل العلم بعدَهم، وكان من أهل الجهالة[1].

وفي «جامع الأصول» عن رَزِين، عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ قال: «لا أعرفنَّ[2] الرجلَ منكم يأتيه الأمر من أمري أنا أمرتُ به أو نهيت عنه، وهو

(١) لم نقف عليه في المطبوع من المدخل، وانظر معرفة السنن والآثار ١/١٢٨.
(٢) تحرفت في (م) إلى: لأعرفن.

متَّكئٌ في أريكته، فيقول: ما ندري ما هذا، عندنا كتابُ الله وليس هذا فيه». الحديث[١].

ولا ينبغي البحثُ عن كيفية ذلك؛ فإنه من العلوم المسكوتِ عنها، المحتاجة إلى كشف الغطاء، وفيض العطاء.

ومن ذلك ما أخرجَه الجَنَديُّ[٢] في «فضائل مكة»، وأبو الحسن القطَّان، والحاكم، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» وضعَّفه، عن أبي سعيد الخدري قال: حججنا مع عمر رضي الله عنه، فلما دخل الطواف استقبل الحَجَر، فقال: إني أعلم أنك حَجَرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ قبَّلَكَ ما قبلتُكَ. ثم قبَّله. فقال له عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه: يا أميرَ المؤمنين، إنه يضرُّ وينفعُ[٣]. قال: بِمَ؟ قال: بكتاب الله عزَّ وجل. قال: وأين ذلك من كتاب الله؟ قال: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآيةَ إلى قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ﴾، وذلك أن الله عزَّ شأنُه خلَقَ آدم عليه السلام، ومسَحَ على ظهره، فأخرَجَ ذرِّيتَه، فقرَّرهم بأنه الربُّ وأنهم العبيدُ، وأخذ عهودَهم ومواثيقَهم، وكتَبَ ذلك في رَقٍّ، وكان لهذا الحَجَر عينان ولسان، فقال له: افتحْ فاكَ، ففتحَ فاهُ، فألقَمَه ذلك الرَّقَ، فقال: اشهَدْ لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة، وإني أشهَدُ لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُؤتى يومَ القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلِمُه بالتوحيد»، فهو يا أمير المؤمنين يضرُّ وينفع. فقال عمر رضي الله عنه: أعوذُ بالله تعالى أن أعيشَ في قومٍ لستَ فيهم يا أبا الحسن[٤].

---

(١) جامع الأصول (٦٩). والحديث أخرجه كذلك أحمد (٢٣٨٦١)، وأبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣).

(٢) هو المفضل بن محمد بن إبراهيم الجَنَدي، مؤرخ يماني الأصل، (ت ٣٠٨هـ). لسان الميزان ٢/ ١٤٠، والأعلام ٧/ ٢٨٠.

(٣) في الأصل: ينفع ويضر. والمثبت من (م).

(٤) المستدرك للحاكم ١/ ٤٥٧، وشعب الإيمان للبيهقي (٤٠٤٠)، وفيه أبو هارون العبدي؛ قال البيهقي عقب الحديث: أبو هارون العبدي غير قوي، وقال الذهبي في التلخيص: أبو هارون ساقط. ونقل أبو الحسن بن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤/ ٣٢ عن حماد بن زيد قوله فيه: كان أبو هارون كذاباً، يروي بالغداة شيئاً، وبالعشي شيئاً.

قيل: ومن هنا يُعلم معنى قوله ﷺ: «الحَجَر يمينُ الله تعالى في أرضه»[١]. والكلام في ذلك شهير.

هذا ومن الناس من ذكر أنَّ الناس بعد أن قالوا: بلى، منهم من سجَدَ سجدتين، ومنهم من لم يسجُدْ أصلاً، ومنهم من سجد مع الأوَّلين السجدةَ الأولى ولم يسجد الثانية، ومنهم من عكس، فالصنفُ الأول هم الذين يعيشون مؤمنين ويموتون كذلك، والثاني هم الذين يعيشون كفاراً ويموتون كذلك، والثالثُ هم الذين يعيشون مؤمنين ويموتون كفاراً، والرابع هم الذين يعيشون كفاراً ويموتون مؤمنين. انتهى. وهو كلامٌ لم يشهد له كتابٌ ولا سنةٌ، فلا يعوَّل عليه.

ومثلُه القول بأن بعضاً من القائلين: بلى، قد مَكَرَ بهم[٢] إذ ذاك، حيثُ أظهر لهم إبليس في ذلك الجمع، وظنوا أنه القائل: ألستُ بربكم؟ فعنَوه بالجواب، وأولئك هم الأشقياء، وبعضاً تجلَّى لهم الربُّ سبحانه، فعرفوه وأجابوه، وأولئك هم السُّعداء. وهذا عندي من البطلان بمكان، والذي ينبغي اعتقادُه أنهم كلَّهم وجَّهوا الجوابَ لربِّ الأرباب. نعم ذهب البعضُ إلى أن البعضَ أجابوا كرهاً، واستدلُّوا له ببعض الآثار السالفة، وذهب أهلُ هذا القول إلى أنَّ أطفال المشركين في النار، ومن قال: إنهم في الجنة ذهب إلى أنهم أقرُّوا عند أخْذ الميثاق اختياراً، فيدخلون الجنةَ بذلك الإقرار، والله سبحانه أرحمُ الراحمين.

وإسناد القول في الآية ـ على بعض الأقوال فيها ـ إلى ضمير الجَمْع إنما هو باعتبار وقوعه من البعض؛ فإنَّ وقوعَه من الكلِّ باطلٌ بداهةً، ومثلُ هذا واقعٌ في الآيات كثيراً.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٢٩٣)، وابن عدي في الكامل ١/ ٣٤٢، ومن طريقه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٩٤٤)، وفيه إسحاق بن بشر الكاهلي؛ قال ابن عدي والدارقطني: هو في عداد من يضع الحديث.
وله طريق أخرى عند ابن عساكر ٥٢/ ٢١٧ غير أن فيها أبا علي الأهوازي، وهو متهم. وله شاهد لا يفرح به من حديث عبد الله بن عمرو أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٩٤٥)، وفيه عبد الله بن المؤمل؛ شبه المتروك، أحاديثه مناكير. وانظر كلام الذهبي عن الحديث في السير ١٩/ ٥٢٢-٥٢٣، وانظر تعليق الشيخ شعيب الأرنؤوط عليه.

(٢) في (م): منهم، وهو تصحيف.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: ذلك التفصيلَ البليغَ المستتبعَ للمنافع الجليلة نُفَصِّلها لا غير ذلك.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ عمَّا هم عليه من الإصرار على الباطل نفعلُ التفصيل المذكور. وقيل: المعنى: ولعلَّهم يرجعون إلى الميثاق الأول، فيذكرونه ويعملون بمقتضاه، نفعل ذلك.

وأيًّا ما كان فالواو ابتدائية كالتي قبلَها، وجُوِّزَ أن تكون عاطفةً على مقدَّر، أي: ليقفوا على ما فيها من المرغِّبات والزواجر، أو ليظهَرَ الحقُّ، ولعلَّهم يرجعون. وقيل: إنها سيفُ خطيبٍ.

❁ ❁ ❁

هذا، ومن باب الإشارة في الآيات(١):

قالوا: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: عن أهل قريةِ الجسد، وهم الرُّوح، والقلب، والنفس الأمَّارة وتوابعُها.

﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: مشرفةً على شاطئ بَحْر البشرية.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدودَ الله تعالى يوم يُحرِّم عليهم تناولَ بعضِ الملاذِّ النفسانية، والعادي من أولئك الأهل إنَّما هو النفسُ الأمَّارة؛ فإنَّها في مواسم الطاعات والكفِّ عن الشهوات، كشهر رمضان مثلاً، حريصةٌ على تناول ما نُهِيَتْ عنه، والمرءُ حريصٌ على ما مُنِعَ.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ وهي الأمور التي نُهُوا عن تناولها ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ الذي أُمِروا بتعظيمه ﴿شُرَّعًا﴾ قريبةَ المأخذ ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ بأن لا يتهيَّأ لهم ما يريدونه.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نعامِلُهم معاملةَ من يختبرُهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فِسْقِهم المستمرِّ طبعاً.

قال بعضُهم: ما كان ما قصَّ الله تعالى إلا كحال الإسلاميين من أهل زماننا في

---

(١) قوله: في الآيات، سقط من (م).

اجتماع أنواعِ الحظوظ النفسانية؛ من المطاعم، والمشارب، والملاهي، والمناكح، ظاهرةً في الأسواق والمحافل، في الأيام المعظَّمة كالأعياد، والأوقات المباركة كأوقات زيارة مشاهد الصالحين المعلومةِ المشهورةِ بين الناس.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ وهي القلبُ وأتباعه، للأمة الواعظة وهي الروح وأتباعُها: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ وهم النفسُ الأمارةُ وقواها ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ على فعلهم.

﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: نعِظُهم معذرةً إليه تعالى، وذلك أنَّا خُلقنا آمرينَ بالمعروف، ناهين عن المنكر، فنريد أن نقضيَ ما علينا؛ ليظهَرَ أنَّا ما تغيَّرنا عن أوصافنا. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لأنَّهم قابلون لذلك بحسب الفطرة، فلا نيأسُ من تقواهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ لغلبة الشِّقوة عليهم ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهم الروح والقلب وأتباعهما؛ فإنهم كلُّهم نُهُوا عن ذلك، إلا أن بعضَهم ملَّ، وبعضَهم لم يملَّ.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد، وهو عذابُ حِرْمان قَبول الفيض ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب تماديهم على الخروج عن الطاعة.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: أَبَــوا أن يــتــركــوا ذلــك ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: جعلنا طباعَهم كطِباعهم، وذلك فوقَ حرمان قَبول الفيض.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أقسَمَ ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: قيامَتِهم. ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ وهو التجلِّي الجَلاليُّ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وهو عذابُ القهر، وذلُّ اتِّباع الشهوات.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ أي: فرَّقنا بني إسرائيل الروح ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض البدن. ﴿أُمَمًا﴾ جماعاتٍ. ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ أي: الكاملون في الصلاح، كالعقل، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فيه، كالقلب. ومن جعَلَ القلبَ أكملَ من العقل عكَسَ الأمر. ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ تجلياتِ الجمال والجلال ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بالفناء إلينا.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ وهي النفسُ وقواها ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو ما ألهمَ الله تعالى العقلَ والقلب ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ وهي: الشهوات الدَّنِيَّة، واللذَّات الفانية، ويجعلون ما ورثوه ذريعةً إلى أخذ ذلك ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ ولا بدَّ؛ لأنَّا واصلون كاملون.

وهذا حالُ كثيرٍ من متصوِّفة زماننا؛ فإنهم يتهافتون على الشهوات تهافتَ الفَراش على النار، ويقولون: إن ذلك لا يضرُّنا؛ لأنا واصلون.

وحُكي عن بعضهم أنه يأكلُ الحرامَ الصِّرْف، ويقول: إن النفيَ والإثباتَ يَدفع ضَرَرَهُ، وهو خطأٌ فاحش، وضلال بيِّن، أعاذنا الله تعالى وإياكم من ذلك.

وأعظمُ منه اعتقادُ حِلِّ أكلِ مثل الميتة من غير عذرٍ شرعيٍّ لأحدهم، ويقول: كلٌّ منَّا بحرٌ، والبحر لا ينجُسُ. ولا يدري هذا الضالُّ أن مَنْ يعتقدُ ذلك أنجسُ من الكلب والخنزير.

ومنهم مَنْ يَحكي عن بعض الكاملين المكمَّلين من أهل الله تعالى ما يؤيِّد به دعواه، وهو كذبٌ لا أصلَ له، وحاشا ذلك الكامل[1] مما نُسِب إليه حاشاه.

﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾ أي: إنهم مُصِرُّون على هذا الفعل القبيح.

﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الوارد فيما ألهمَه الله تعالى العقلَ والقلب ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ فكيف عَدَلوا عنه؟ ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ ممَّا فيه رشادُهم. ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ المشتمِلَةُ على اللذَّات الروحانية ﴿خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ﴾ عرضَ هذا الأدنى.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: يتمسَّكون بما ألهمَهُ الله تعالى العقلَ والقلبَ من الحِكَم والمعارف. ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يألوا جُهداً في الطاعة. ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ منهم، وأجرُهم متفاوتٌ حسبَ تفاوتِ الصَّلاح، حتى إنه لَيَصِلُ إلى ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ.

﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾ وهو جبلُ الأمر الربانيِّ والقهر الإلهي ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ غمامةٌ عظيمة. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ إن لم يقبلوا أحكامَ الله سبحانه.

---

(١) في الأصل: الكمال، والمثبت من (م).

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وعزيمة ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من الأسرار ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تنتظمون في سِلْك المتقين على اختلافِ مراتب تَقْواهم.

والكلامُ على قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلخ من هذا الباب يُغني عنه ما ذكرناه خلالَ تفسيره من كلام أهلِ الله تعالى، قدَّس الله تعالى أسرارهم، خلا أنه ذكر بعضُهم أن أول ذرةٍ أجابَتْ بـ «بلى» ذرَّةُ النبيِّ ﷺ، وكذا هي أولُ مجيبٍ من الأرض لمَّا خاطَبَ الله سبحانه السماوات والأرض بقوله جلَّ وعلا: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وكانت من تربة الكعبة، وهي أولُ ما خُلِقَ من الأرض، ومنها دُحِيت كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكان يقتضي ذلك أن يكون مَدْفِنه ﷺ بمكة، حيث كانت تربتُه الشريفةُ منها ـ وقد رووا أن المرء يُدفن حيث كانت تربتُه[(١)] ـ ولكن قيل: إن الماءَ لما تموَّج رمَى الزَّبَد إلى النواحي، فوقعت ذرَّة النبيِّ ﷺ إلى ما يحاذي مَدْفِنَه الكريم بالمدينة. ويُستفاد من هذا الكلام أنه عليه الصلاة والسلام هو الأصل في التكوين، والكائناتُ تَبَعٌ له ﷺ.

قيل: ولكون ذرَّته أُمَّ الخليقة سُمِّي أُمِّيًّا.

وذكر بعضُهم أن الباءَ لكونه أولَ حرفٍ فَتَحت الذرةُ به فمها حين تكلَّمت لم تزل الأطفالُ في هذه النشأة ينطقون به في أول أمرِهم، ولا بِدْعَ؛ فـ «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة»[(٢)].

قيل: ولعِظَم ما أودع الله سبحانه وتعالى في الباء من الأسرار افتتح الله تعالى به كتابه، بل افتتح كلَّ سورةٍ به؛ لتقدُّم البسملة المفتتحة به على كلِّ سورةٍ ما عدا «التوبة»، وافتتاحُها بـ «براءة»، وأولُ هذه اللفظة الباءُ أيضاً. ولكون الهمزة ـ وتُسمَّى

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦٥٣١) من حديث ابن عباس، وفي إسناده عمر بن عطاء بن وراز؛ وهو ضعيف كما في الميزان ٣/ ٢١٣، وأخرجه كذلك ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣١٠) من حديث ابن مسعود، وضعفه، وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٤٠٠ موقوفاً على عطاء الخراساني. وأورد ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٣٧٣-٣٧٤ ما جاء في ذلك من أحاديث.

(٢) سلف تخريجه ص٤٥٤ من هذا الجزء. وهذا القول لا شاهد عليه من كتاب ولا سنة، فضلاً عن أن يشهد له هذا الحديث أو يدل عليه.

ألفاً ـ أولَ حرفٍ قَرَعَ أسماعَهم في ذلك المشهد كان أولَ الحروف، لكنه لم يظهر في البسملة لسرٍّ أشرنا إليه أول الكتاب، والله تعالى الهادي إلى صَوْب الصَّواب.

❁ ❁ ❁

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ عطفٌ على المضمر العامل في «إذ أخذ» واردٌ على نمط الإنباء عن الحَوْر بعد الكَوْر[1]، أي: واقرأ على اليهود، أو على قومك كما في «الخازن»[2].

﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: خبره الذي له شأن وخطر، وهو ـ كما روى ابنُ مردويه وغيره من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ بلعم بن باعوراء[3]، وفي لفظ: بلعام بن باعر، وكان من الكنعانيين. وفي رواية عنه، وعن أبي طلحة أنه من بني إسرائيل.

وأخرج ابنُ عساكر[4] عن ابن شهاب أنه أُمية بنُ أبي الصَّلْت.

وأخرج أبو الشيخ عن الحَبْر أَنه رجلٌ من بني إسرائيل له زوجة تدعى البسوس، وفي رواية أخرى أخرجها ابنُ أبي حاتم عنه أنه النعمان بنُ صَيْفي الراهب[5].

وكونه إسرائيليًّا أنسبُ بالمقام كما لا يخفى، والأشهر أنه بلعام أو بلعم، وكان قد أُوتي علماً ببعض كتب الله تعالى، ودون ذلك في الشهرة أنه أمية، وكان قد قرأ بعضَ الكتب.

---

(١) أي: النقصان بعد الزيادة، وقيل: فساد الأمور بعد صلاحها، وأصله من نقض العمامة بعد لفها. النهاية في غريب الحديث (حور).
وقد أخرج أحمد (٢٠٧٧١) وغيره من حديث عبد الله بن سرجس أن النبي ﷺ استعاذ من الحور بعد الكور.

(٢) تفسير الخازن ٢/ ٣١١.

(٣) وأخرجه كذلك ابن أبي حاتم (٨٥٤٧).

(٤) تاريخ دمشق ٩/ ٢٨٥-٢٨٧ وفيه قصة طويلة.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (٨٥٤٤)، وفيه: هو صيفي بن الراهب. وجاء عند الطبرسي في مجمع البيان ٩ (تتمة)/ ٦٥: أبو عامر بن النعمان بن صيفي الراهب؛ والذي ذكره أهل السير في اسمه أنه أبو عامر عبد عمرو ـ ويقال: عمرو ـ بن صيفي بن النعمان، وكان يقال له: الراهب لما سيذكره المصنف قريباً، فسماه النبيُّ ﷺ: الفاسقَ، وهو والد الصحابي المشهور حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة. الاستيعاب ٣/ ٩٢، والإصابة ٢/ ٢٨٩. وانظر ما سيورده المصنف قريباً من قصته مع النبي ﷺ.

﴿فَانسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: من تلك الآيات انسلاخَ الجِلْد من الشاة، والمراد أنه خرج منها بالكلِّية بأن كفر بها، ونَبَذها وراءَ ظهره.

وحقيقةُ السَّلخ: كشط الجلد وإزالتُه بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكلِّ شيءٍ فارق شيئاً على أتمِّ وجه: انسلَخَ منه، وفي التعبير به ما لا يخفى من المبالغة، واستأنس بعضُهم بهذه الآية لأنَّ العلم لا يُنزع من الرجال حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنۡهَا﴾، ولم يقل عزَّ شأنه: فانسلخَتْ منه.

﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: لحقه وأدركه ـ كما قال الراغب ـ بعد أن لم يكن مدركاً له، لسبقه بالإيمان والطاعة[1]. وقال الجوهريُّ[2] يقال: أَتْبَعْتُ القوم: إذا سبقوكَ فلحقتَهم، وكأنَّ المعنى: جعلتُهم تابعين لي بعدما كنتُ تابعاً لهم، وفيه حينئذٍ مبالغةٌ في اللُّحوق؛ إذ جُعل كأنه إمامٌ للشيطان والشيطانُ يتبعُه، وهو من الذمِّ بمكان، ونظيرُه في ذلك قوله:

وكان فتى من جندِ إبليس فارتقى ... به الحالُ حتى صارَ إبليس من جنده[3]

وصرَّح بعضُهم بأن معناه: استتبَعَه، أي: جعلَه تابعاً له، وهو ـ على ما قيل ـ متعدٍّ لمفعولين حُذف ثانيهما، أي: أَتْبَعَه خطواته.

وقرئ: «فاتَّبَعه» من الافتعال[4].

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥﴾ فصار من زمرة الضالِّين الراسخين في الغواية بعد أن كان مهتدياً.

---

(١) المفردات (تبع).
(٢) في الصحاح (تبع).
(٣) البيت في ثمار القلوب للثعالبي ص٦٩ من غير نسبة، ونسبه الرازي في تفسيره ١٨/ ١١٧ إلى الخوارزمي، ونسبه في الصواعق المرسلة ص٢٢٥ إلى الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني، وروايته عندهم:

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى ... بي الحال حتى صار إبليس من جندي

ويتلوه في بعض المصادر:

فلو ماتَ قبلي كنت أُحْسِنُ بعده ... طرائقَ فسق ليس يُحسنُها بعدي

(٤) قرأ بها الحسن وطلحة بخلاف عنه. البحر المحيط ٤/ ٤٢٣، والدر المصون ٥/ ٥١٥.

وكيفيةُ ذلك على القول بأنه بلعام: أنَّ موسى عليه السلام لمَّا قصَدَ حرب الجبَّارين أتى قومُ بلعام إليه، وكان عنده اسمُ الله تعالى الأعظم، فقالوا له: إنَّ موسى رجل حديد، وإن معه جنوداً كثيرة، وإنه قد جاء ليخرجنا من أرضنا، فادع الله تعالى أن يردَّه عنَّا. فقال: ويلَكم نبيُّ الله ومعه الملائكة والمؤمنون، فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم منَ الله تعالى ما أعلم؟! وإني إن فعلتُ ذهبتْ دنيايَ وآخرتي. فألحُّوا عليه، فقال: حتى أؤامِرَ ربي، فأُتي في المنام وقيل له: لا تفعَلْ، فأخبر قومَه، فأهدَوا له هديةً فقبِلَها، ولم يزالوا يتضرَّعون إليه حتى فتنوه، فجعل يدعو على موسى عليه السلام وقومِه، إلا أنَّ الله تعالى جعل يصرفُ لسانَه إلى الدعاء على قومِهِ نفسِه، فقالوا له: يا بلعام، أتدري ما تصنعُ؟ إنك لتدعو علينا! فقال: هذا أمرٌ قد غلبَ الله تعالى عليه، فاندَلَع لسانُه ووقع على صدرِه، فقال: يا قوم، قد ذهبت مني الدنيا والآخرة، ولم يبقَ إلا المكرُ والحيلة، جَمِّلوا النساءَ، وأرسلوهنَّ، وأمُروهنَّ أن لا يمنعنَ أنفسهنَّ؛ فإنَّ القوم سَفَرٌ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره الزنا، وإنْ هم وقعوا فيه هلَكوا، ففعلوا ذلك، فافتُتِنَ زمري بنُ شلوم رأسُ سِبْط شمعون بن يعقوب بامرأة منهنَّ تسمَّى كستى بنت صور، فنهاه موسى عليه السلام عن الفاحشة، فأبى، وأدخلَها قُبَّته وزنى بها، فوقع فيهم الطاعون حتى هلك منهم سبعون ألفاً، ولم يرتَفعْ حتى قتلَهما فنحاص بن العيزار بن هارون، وكان غائباً أول الأمر.

وعن مقاتل أنَّ ملك البَلْقاء قال له: ادْعُ الله على موسى، عليه السلام. فقال: إنه من أهل ديني، ولا أدعو عليه، فنَصَبَ له خشبةً ليصلِبَه عليها، فدعا بالاسم الأعظم أن لا يُدخِلَ الله موسى المدينةَ، فاستُجيب له، ووقع بنو إسرائيل في التِّيه، فقال موسى: يا رب بأي ذنب هذا؟ فقال سبحانه: بدعاء بلعام، فقال: ربِّ كما سمعتَ دعاءَه عليَّ، فاسمَعْ دعائي عليه، فدعا اللهَ جلَّ شأنه أن ينزعَ عنه الاسم الأعظم والإيمان، فنزع اللهُ عنه المعرفةَ، وسلَخَه منها، فخرجت من صدره كحمامة بيضاء.

ورُدَّ هذا بأن التيه كان روحاً وراحةً لموسى عليه السلام، وإنما عُذِّب به بنو إسرائيل، وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام، على أنَّ في الدعاء بسلبِ الإيمان مقالاً[1].

---

(١) أورد الخازن في تفسيره ٢/ ٣١٢-٣١٣ هذا الإشكال، وهو أنه كيف يجوز لموسى عليهِ

وأنا أعجب لِمَ لم يدعُ هذا الشقيُّ بالاسم الأعظم الذي كان يعلَمُه على ملك البَلقاء ليخلُصَ من شرِّه، ودعا على موسى عليه السلام؟! ما هي إلا جهالةٌ سوداء.

وجاء في كلام أبي المعتمر أنه كان قد أُوتي النبوةَ، ويردُّه أنَّ الأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم الكفرُ عند أحدٍ من العقلاء، وكأنَّ مرادَه من النبوة ما أُوتِيَه من الآيات، وذلك كقوله ﷺ: «مَنْ حفظ القرآنَ فقد طوى النبوَّةَ بين جَنْبيه»(١).

وأخرج ابنُ المنذر عن مالك بن دِينار أنه كان من علماء بني إسرائيل، وكان موسى عليه السلام يُقدِّمُه في الشدائد ويكرمه(٢)، ويُنعِم عليه، فبعثه إلى ملك مَدْيَنَ يدعوهم إلى الله تعالى، وكان مجابَ الدعوة، فترَكَ دين موسى عليه السلام واتَّبع دينَ الملك(٣). وهذه الروايةُ عندي أولى مما تقدَّم بالقَبول.

وأما على القول بأنه أُميَّة فهو أنه كان قد قرأ الكتبَ القديمة وعلِمَ أنَّ الله تعالى مرسلٌ رسولاً، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول، فاتفقَ أن خرج إلى البحرين، وتنبَّأَ رسولُ الله ﷺ، فأقام هناك ثماني سنين، ثم قدِمَ فلقي رسولَ الله ﷺ في جماعة من أصحابه، فدعاه إلى الإسلام، وقرأ عليه سورةَ «يس»، حتى إذا فرغ منها وثَبَ أميةُ يجرُّ رجليه، فتبعته قريشٌ تقول: ما تقول يا أُمية؟ فقال: أشهد أنه على الحقِّ. قالوا: فهل تتَّبعه؟ قال: حتى أنظُرَ في أمرِه، فخرج إلى الشام، وقدم بعد وقعة بدرٍ يريدُ أن يُسلم، فلما أُخبر بها ترَكَ الإسلام، وقال: لو كان نبيًّا ما قَتَل ذَوِي قرابته، فذهب إلى الطائف ومات به، فأتت أخته الفارعةُ إلى رسول الله ﷺ، فسألها عن وفاته، فذكرت له أنه أنشد عند موته:

كلُّ عيشٍ وإن تطاوَلَ دهرا ... صائرٌ مرةً إلى أن يزولا
ليتني كنتُ قبل ما قد بدا لي ... في قلال الجبال أرعى الوُعُولا

= السلام - مع علو منصبه في النبوة - أن يدعو على إنسان بالكفر بعد الإيمان، أو يرضى له بذلك؟ ثم أجاب رحمه الله عن ذلك بأجوبة أولها وأهمها: منع صحة هذه القصة، لأنها من الإسرائيليات، ولا يلتفت إلى ما يسطره أهل الأخبار إذا خالف الأصول.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٩٤٤)، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٥٢ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) تحرفت في (م) إلى: يكرهه.

(٣) الدر المنثور ٣/ ١٤٦، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٨.

إنَّ يومَ الحساب يومٌ عظيم ... شابَ فيه الصغيرُ يوماً ثقيلا[١]

ثم قال لها عليه الصَّلاة والسلام: «أنشديني من شعر أخيك»، فأنشدَتْه:

لك الحمدُ والنَّعماءُ والفضلُ ربَّنا ... ولا شيءَ أعلى منك جَدّاً وأمجدُ

مليكٌ على عرش السماء مهيمنٌ ... لعزَّته تعنو الوجوهُ وتسجُدُ

من قصيدةٍ طويلة أَتَتْ على آخرها[٢]، ثم أنشدته قصيدتَه التي يقول فيها:

وقَفَ الناسُ للحساب جميعاً ... فشقيٌّ معذَّبٌ وسعيدُ[٣]

والتي فيها[٤]:

عند ذي العرش يُعرضون عليه ... يعلمُ الجهرَ والسِّرار الخفيَّا

يوم يأتي الرحمنُ وهو رحيمٌ ... إنه كان وعدُه مَأْتِيَّا

ربِّ إن تعفُ فالمعافاةُ ظني ... أو تعاقِبْ فلم تعاقِبْ بَرِيَّا

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أخاكَ آمَنَ شعرُه وكفَرَ قلبُه»[٥]. وأنزل الله تعالى الآية.

وأما على القول بأنه النعمانُ[٦]، فهو أنه كان قد ترهَّبَ في الجاهلية ولبِسَ المُسُوحَ، فقدم المدينةَ فقال للنبيِّ ﷺ: ما هذا الذي جئتَ به؟ فقال عليه الصلاة

---

(١) ديوان أمية ص٩٦-٩٧.

(٢) القصيدة في ديوانه ص٣٨ وما بعدها.

(٣) جاء هذا البيت في ديوانه ص ٦٠ مفرداً، وأورده الطبرسي في مجمع البيان ٩ (تتمة)/ ٦٥ على أنه من قصيدة لأمية، كما ذكر المصنف.

(٤) القصيدة في ديوانه ص١٥٥-١٥٦.

(٥) أخرج القصَّة ابن عساكر في تاريخه ٩/ ٢٨٢ عن سعيد بن المسيب مرسلة. وأخرج كذلك في تاريخه ٩/ ٢٧٢ قول النبي ﷺ فيه: «آمن شعره وكفر قلبه» من حديث ابن عباس ﵁، وضعف سنده العجلوني في كشف الخفاء ١/ ١٩، وكذلك أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٧، وله شاهد عند مسلم (٢٢٥٥) من حديث عمرو بن الشريد، ولفظه: «فلقد كاد يسلم في شعره». ومن حديث أبي هريرة عند مسلم كذلك (٢٢٥٦) (٣) أن رسول الله ﷺ قال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

(٦) انظر ما سلف قريباً من التعليق على اسمه.

والسلام: «الحنيفيةُ دينُ إبراهيم» عليه السلام. قال: فأنا عليها، فقال عليه الصَّلاة والسلام: «لستَ عليها، ولكنَّك أدخلتَ فيها ما ليس منها». فقال: أماتَ اللهُ تعالى الكاذبَ منَّا طريداً وحيداً. ثم خرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا السلاح، ثم أتى قيصَرَ، وطلب منه جنداً ليُخرِجَ النبيَّ ﷺ من المدينة، فمات بالشام طريداً وحيداً[1].

وأما على القول بأنه زوجُ البَسُوس، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رجلٌ أُعطي ثلاثَ دعوات مستجابات، وكانت له امرأةٌ تدعى البسوس له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدةً. قال: فما الذي تريدين؟ قالت: ادعُ الله تعالى أن يجعلني أجملَ امرأةٍ في بني إسرائيل. فدعا الله تعالى، فجعلها أجملَ امرأةٍ فيهم، فلما علِمَتْ أن ليس فيهم مثلُها رغبَتْ عنه، وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله تعالى أن يجعلها كلبةً، فصارت كلبةً، فذهبت دعوتان، فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرارٌ، قد صارت أُمُّنا كلبةً يُعيِّرنا الناس بها، فادعُ الله تعالى أن يردَّها إلى الحال التي كانت عليها، فدعا فعادت كما كانت، فذهبت الدعواتُ الثلاثُ فيها[2]. ومن هنا يقال: أشأَمُ من البسوس.

وفي «الخازن» أن البسوس اسمٌ لذلك الرجل[3]، وليس بشيء.

وهذه الروايةُ لا يساعد عليها نظمُ القرآن الكريم كما لا يخفى. والذي نعرفه أن البسوس التي يُضرب بها المثلُ هي بنتُ منقذ التميمية خالةُ جسَّاس بن مرة بن ذُهْل الشَّيباني قاتل كُلَيب، وفي قصَّتها طولٌ، وقد ذكرها الميدانيُّ[4] وغيرُه.

وعن الحسن وابن كَيْسان أن المراد بهذا الذي أُوتي الآيات فانسلخ منها منافقو أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبيَّ ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ولم يؤمنوا به ﷺ إيماناً صحيحاً، ويُبعِدُ ذلك إفرادُ الموصول.

---

(١) قصته مذكورة في سيرة ابن هشام ١/ ٥٨٤-٥٨٥، وسبل الهدى والرشاد ٣/ ٦١١-٦١٢.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٥/١٦١٧-١٦١٨، وفي إسناده أبو سعد الأعور سعيد بن المرزبان، وهو ضعيف.

(٣) تفسير الخازن ٢/ ٣١٣.

(٤) في مجمع الأمثال ١/ ٣٧٤.

وعن قتادة أن هذا مَثَلٌ لمن عُرِض عليه الهدى واستعدَّ له، فأعرض عنه وأبى أن يقبَلَه، وفيه بعدٌ، ومخالفةٌ للروايات المشهورة.

وأوهنُ الأقوال عندي قولُ أبي مسلم: إن المراد به فرعونُ، والمرادُ بالآيات الحُجَجُ والمعجزات الدالَّةُ على صِدْق موسى عليه السلام، وكأنه قيل: واتل عليهم نبأَ فرعونَ إذ آتيناه الحججَ الدالَّة على صدق موسى عليه السلام، فلم يقبَلْها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان ما ذُكِر من الانسلاخ وما يتبَعُه، وضمير «رفعناه» لـ «الذي»، وضميرُ «بها» للآيات، والباءُ سببية، ومفعولُ المشيئة محذوفٌ هو مضمون الجزاء، كما هو القاعدة المستمرة، أي: لو شئنا رَفْعَه لرفعناه إلى منازل الأبرار بسبب تلك الآيات والعمل بما فيها، وقيل: الضمير المنصوبُ للكفر المفهومِ من الكلام السابق، أي: لو شئنا لأزلنا الكفرَ بالآيات، فالرفعُ من قولهم: رفَعَ الظلمَ عنَّا، وهو خلافُ الظاهر جدًّا، وإن رُوي عن مجاهد، ومثله ـ بل أبعدُ وأبعدُ ـ ما نُقِلَ عن البَلْخيِّ والزجَّاج من إرجاع ضمير «بها» للمعصية[1].

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: رَكَن إلى الدُّنيا ومالَ إليها، وبذلك فسَّره السُّدي وابن جبير. وأصلُ الإخلاد اللزومُ للمكان، من الخلود، ولما في ذلك من المَيْل فُسِّر به، وتفسيرُ «الأرض» بالدنيا؛ لأنها حاويةٌ لملاذِّها وما يُطلب منها. وقال الراغب: المعنى: ركَنَ إلى الأرض ظانًّا أنه مخلَّدٌ فيها[2]. وفسَّر غيرُ واحد «الأرض» بالسَّفالة[3].

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في إيثار الدنيا، وأعرض عن مقتضى تلك الآيات الجليلة.

---

(١) كذا حكى المصنف عن البلخي والزجاج، وما نقله عنهما الطبرسي في مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٦٦ ـ وعنه أخذ الآلوسي رحمه الله فتصرف في عبارته ـ لا يؤدي المعنى الذي أفاده كلام المصنف، بل إن ما حكاه الطبرسي مطابق لما ذكره الزجاج في بيان معنى الآية، فقد قال في معاني القرآن ٢/ ٣٩١: أي: ولو شئنا أن نحول بينه وبين المعصية لفعلنا.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (خلد).

(٣) السُّفالة بالضم: نقيض العلو، وبالفتح: النَّذَالة. الصحاح: (سفل)، وانظر حاشية الشهاب ٤/ ٢٣٦.

وفي تعليق الرفع بالمشيئة، ثم الاستدراك عنه بفعل العبد، تنبيهٌ - كما قال ناصرُ الدين - على أن المشيئةَ سببٌ لفعله المؤدِّي إلى رفعه، وأن عدَمَه دليلُ عدمها دلالةَ انتفاء المسبَّب على انتفاء سببه، وأن السبب الحقيقيَّ هو المشيئة، وأن ما نشاهدُه من الأسباب وسائطُ معتبرةٌ في حصول المسبَّب من حيثُ إنَّ المشيئةَ تعلَّقت به كذلك، وكان من حقِّه - كما قال - أن يقول: ولكنه أعرَضَ عنها، فأوقع موقِعَه ما ذُكر مبالغةً؛ لأنَّه كنايةٌ عنه، والكناية أبلغُ من التصريح، وتنبيهاً على ما حمَلَه عليه، وأن حبَّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة(١).

وما ألطَفَ نسبةَ إتيان الآيات والرفع إليه تعالى، ونسبةَ الانسلاخَ والإخلاد إلى العبد، مع أن الكلَّ من الله تعالى؛ إذ فيه من تعليم العباد حُسْنَ الأدب ما فيه، ومن هنا قال ﷺ: «اللهم إنَّ الخير بيديك، والشرُّ ليس إليك»(٢).

والزمخشريُّ(٣) لما رأى أنَّ ظاهر الآية مخالفٌ لمذهبه، دالٌّ على وقوع الكائنات بمشيئة الله تعالى، أخلَدَ إلى التأويل، فجعل المشيئةَ مجازاً عن سببها، وهو لزومُ العمل بالآيات، بقرينةِ الاستدراك بما هو فعلُ العبد المقابِلُ للزوم الآيات وهو الإخلادُ إلى الأرض، أي: ولو لزِمَها لرفعناه، وهو من قبيل نَزْع الخفِّ قبل الوصول إلى الماء، والمصيرِ إلى المجاز قبل أوانه؛ لجواز أن يكون «لو شئنا» باقياً على حقيقته، و«أخلد إلى الأرض» مجازاً عن سببه الذي هو عدمُ مشيئة الرفع بل الإخلاد، ولم يعتمد على عكازته؛ لفوت المقابلة حينئذٍ(٤).

وفي «الكشف» أن حمل المشيئةِ على ما هي مسبَّبة عنه في زعمه ليس أولى من حمل الإخلاد على ما هو مسبَّبٌ عنه في زعمنا، كيف وقولُه سبحانه وتعالى: «ولو شئنا» استدراكٌ لقوله: «فانسلخ منها»؟ على أن الإخلاد هو الميل، والإرادة والميل ونحوهما من المعاني ليست من أفعال العباد بالاتفاق. نعم الجزمُ المقارنُ من فعل

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٣٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٠٣)، ومسلم (٧٧١) (٢٠١) من حديث علي ﷺ، في سياق حديث طويل فيما كان يدعو به ﷺ في الصلاة.

(٣) في الكشاف ٢/ ١٣٠-١٣١.

(٤) أي: لأن الاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ﴾ لا يلائمه ويعني بالاعتماد على عكازته: حَمْلَ المشيئة على مشيئة القسر والإلجاء. حاشية الشهاب ٤/ ٢٣٧.

القلب فعلُ القلب عندهم، ثم قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ [الأعراف:١٧٩] يؤكِّدان ما عليه أهلُ السنة أبلغَ تأكيد، ولكن الزمخشريَّ لا يعبأ بذلك(١).

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ وهو الحيوان المعروف، وجمعُه أكلُب وكِلاب وكلابات كما قال ابنُ سِيْدَه(٢)، وكَلِيب كعبيد، وهو قليل، ويُجمَع أكلب على أكالب.

وبه يُضربُ المثل في الخَساسة؛ لأنه يأكُلُ العَذِرة، ويرجعُ في قيئه، والجيفةُ أحبُّ إليه من اللحم الغريض(٣)، نعم هو أحسن من الرجل السَّوء، ومما يُنسَبُ إلى الشافعي:

لَيتَ الكلاب لنا كانت مجاوِرةً ... وليتنا ما نرى ممَّن نرى أحداً
إنَّ الكلابَ لتهدا في مرابضها ... والناسُ ليس بهادٍ شرُّهم أبداً

وفي «شعب الإيمان» للبيهقي عن الفقيه منصور أنه كان يُنشِدُ لنفسه(٤):

الكلبُ أحسن عشرةً ... وهو النهايةُ في الخساسَهْ
ممَّن ينازِعُ في الرِّيا ... سةِ قبل أوقات الرِّياسَهْ

والمَثَل بمعنى الصفة، كما قال غير واحد، فصفتُه كصفة الكلب. وقيل: المراد أنه كالكلب في الخِسَّة.

﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ أي: شددتَ عليه وطردتَه ﴿يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ على حاله ﴿يَلْهَث﴾ أي: أنه دائمُ اللَّهَث على كلِّ حال، واللهثُ: إدْلاعُ اللسان بالنفس الشديد، وذلك طبعٌ في الكلب، لا يقدر على نَفْض(٥) الهواء المتسخِّن وجلبِ

---

(١) جاء على هامش (م) ما نصه: لطافته لا تخفى على إنسان. اهـ منه.
(٢) المخصص ٨/ ٧٩.
(٣) جاء على هامش (م) ما نصه: هو بالغين المعجمة: ما لان من اللحم، أي: الطري.
(٤) شعب الإيمان (٨٢٦٤). والفقيه منصور هو أبو الحسن، منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي، المصري، إمام الشافعية في زمانه، كان فقيهاً، متصرفاً في كل علم، شاعراً مجوداً، أصله من رأس العين المشهورة بالجزيرة، ثم قدم مصر وأقام بها، من مصنفاته: «الواجب»، و«المستعمل»، توفي سنة (٣٠٦هـ). معجم الأدباء ١٩/ ١٨٥، ووفيات الأعيان ٥/ ٢٨٩، وطبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٤٧٨.
(٥) في الأصل و(م): نغض، والمثبت من تفسير أبي السعود ٣/ ٢٩٣، ومنه أخذ المصنف.

الهواء البارد بسهولةٍ؛ لضعف قلبه وانقطاع فؤادِه، بخلاف سائر الحيوانات؛ فإنها لا تحتاجُ إلى النفَسِ الشديد، ولا يلحقُها الكرب والمضايقة إلا عند التعب والإعياء.

وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية بأن يقال: فصار مَثَلُه كمثل.. إلخ؛ للإيذان بدوام اتِّصافه بتلك الحالة الخسيسة، وكمال استمرارِه عليها، والخطابُ في فِعْلَي الشرط لكلِّ أحدٍ ممن له حظٌّ من الخطاب؛ فإنه أدخَلُ في إشاعة فظاعة حاله.

والجملتان الشرطيتان؛ قيل: لا محلَّ لهما من الإعراب؛ لأنهما تفصيلٌ لما أُجمل في المَثَل، وتفسيرٌ لما أُبهم فيه ببيان وجهِ الشَّبَه على منهاج قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] إثرَ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾(١).

وقيل: إنهما في محلِّ النصبِ على الحاليَّةِ من «الكلب» بناءً على تحوُّلهما إلى معنى التسوية، كما تحوَّل الاستفهام إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، كأنه قيل: لاهثاً في الحالين، والجملةُ الشرطية كما قدَّمنا تقعُ حالاً مطلقاً، وقال صاحب «الضوء»(٢): إنها لا تكاد تقعُ كذلك بتمامها، بل إذا أُريد وقوعها حالاً جُعِلت خبراً عن [ضمير] ذي الحال، نحو: جاءني زيدٌ وهو إن تسألْه يُعطِك، فتُجعل جملةً اسميةً مع الواو؛ لأنَّ الشرط لصدارته لا يكاد يرتبط بما قبلَه إلا أن يكون هناك فضلُ قوة.

نعم يجوز إذا أخرجتَها عن حقيقتها، سواءٌ عُطِف عليها النقيضُ ـ وحينئذٍ يجبُ ترك الواو، كما فيما نحن فيه ـ أو لم يُعطف، وحينئذٍ يجبُ الواو؛ لئلا يحصل الالتباسُ بالشرط الحقيقيِّ، نحو: آتيك وإن لم تأتني.

---

(١) تعقب الشهاب الخفاجي هذا القول في حاشيته ٤/ ٢٣٧ قائلاً: وفيه نظر؛ لأن التمثيل في الخسة، لا في اللهث وعدمه، فتدبر.

(٢) لعله «ضوء المصباح» لتاج الدين محمد بن محمد الأسفراييني المتوفى سنة (٦٨٤هـ)، وهو شرح لكتاب المصباح في النحو للمطرزي، وذكره أبو حيان في البحر عن بعض شراح كتاب المصباح، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٤/ ٢٣٧، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

والتشبيه: قيل: من تشبيه المفرد بالمفرد، وقيل ـ وعليه كثيرٌ من المحقِّقين ـ: إنه تشبيهٌ للهيئة المنتزعة مما عرَاه بعد الانسلاخ من سوء الحال، واضطرام القلب، ودوام القلق والاضطراب، وعدم الاستراحة بحال من الأحوال = بالهيئة المنتزعة مما ذُكر في حال الكلب، وجاء ـ وقد أشرنا إليه سابقاً ـ أن بلعام لما دعا على موسى عليه السلام خرج لسانُه، فتدلَّى على صدره، وجعل يلهَثُ كالكلب إلى أن هلَكَ، فوجهُ الشَّبَه إما عقليٌّ أو حسيٌّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى وصفِ الكلب، أو المنسلِخِ من الآيات، وما فيه من الإيذان بالبُعْد؛ لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ.

﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يريد ـ كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أهلَ مكة، كانوا يتمنَّون هادياً يهديهم، وداعياً يدعوهم إلى طاعة الله تعالى، ثم لما جاءهم من لا يشكُّون في صدقه وأمانته كذَّبوه، وأعرضوا عن الآيات، ولم يؤمنوا بها. أو اليهود كما قال غير واحد، حيث قرؤوا نعتَ النبيِّ ﷺ في التوراة، وذِكْرَ القرآن المعجز وما فيه، فصدَّقوه، وبشَّروا الناسَ باقتراب مَبْعثه، وكانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فانسلخوا من حكم التوراة. أو الأعمَّ من هؤلاء وهؤلاء من كلٍّ من اتَّصف بهذا العنوان كما في «الخازن»(١)، وبه أقول، ويدخل اليهود في ذلك دخولاً أوَّليًّا.

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ القصص: مصدرٌ سُمِّي به المفعولُ كالسَّلَب، واللامُ فيه للعهد، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إذا تحقَّق أنَّ المَثَل المذكور مَثَل هؤلاء المكذِّبين فاقصُصْ ذلك عليهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ فينزجرون عمَّا هم عليه من الكفر والضَّلال.

والجملةُ في موضع الحال من ضمير المخاطب، أو في موضع المفعول له، أي: فاقصص راجياً لتفكُّرهم، أو رجاءً لتفكُّرهم.

﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان كمال قُبْحِ المكذِّبين بعد البيان السابق، و«ساءَ» بمعنى بئس، وفاعلُها مضمَرٌ، و«مثلاً» تمييزٌ مفسِّر له، ويُستغنى بتذكير

---

(١) تفسير الخازن ٢/ ٣١٦.

التمييز وجمعِهِ وغيرِهما عن فعل ذلك بالضمير، وأصلُها التعدي لواحدٍ، والمخصوصُ بالذمِّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وحيثُ وجب صِدْقُ الفاعلِ والتمييزِ والمخصوصِ على شيء واحدٍ، والمَثَل مغايرٌ للقوم، لزِمَ تقديرُ محذوفٍ من المخصوص ـ وهو الظاهرُ ـ أو التمييزِ، أي: ساء مثلاً مَثَلُ القوم، أو: ساء أهلُ مثل القوم.

وفي «الحواشي الشهابية»[١] أنه قُرئ بإضافة «مَثَل» بفتحتين و«مِثْل» بكسر فسكون لـ «القوم» ورفعه[٢]، فـ «ساء» للتعجب، وتقديرُها على فَعُل بالضم، كقَضُوَ الرجل، و«مثل القوم» فاعل، أي: ما أسوأهم! والموصولُ في محل جرٍّ صفة «القوم»، أو هي بمعنى بئس، و«مثل» فاعل، والموصولُ هو المخصوص في محل رفعٍ بتقدير مضاف، أي: مثل الذين.. إلخ.

وقدَّر أبو حيان في هذه القراءة تمييزاً[٣]، وردَّه السَّمينُ[٤] بأنه لا يُحتاج إلى التمييز إذا كان الفاعل ظاهراً، حتى جعلوا الجمع بينهما ضرورة، وفيه ثلاثةُ مذاهب: المنعُ مطلقاً، والجواز كذلك، والتفصيل: فإن كان مغايراً[٥] جاز، نحو نعم الرجل شجاعاً زيدٌ، وإلا امتنع.

وبعضُهم يجعل المخصوصَ محذوفاً، وفي كونه ما هو خلاف.

وإعادة «القوم» موصوفاً بالموصول مع كفاية الضمير، بأن يقال: ساء مثلاً مثَلُهم؛ للإيذان بأنَّ مدار السوء ما في حيِّز الصلة، وليربط قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ به؛ فإنه إما معطوفٌ على «كذَّبوا» داخلٌ معه في حكم

(١) ٤/ ٢٣٨.

(٢) قراءة: «مَثَلُ القومِ» نسبها ابن خالويه ص٤٧، والقرطبي ٩/ ٣٨٩ لعاصم الجحدري والأعمش، وزاد أبو حيان في البحر ٤/ ٤٢٥ نسبتها إلى الحسن وعيسى بن عمر، وقراءة: «مِثْلُ القومِ» نسبها أبو حيان ٤/ ٤٢٦ إلى الجحدري.

(٣) البحر ٤/ ٤٢٦ وقد أجاز أبو حيان هذا الوجه، ولكنه استحسن في هذه القراءة أن تكون ساء للتعجب كما تقدم شرحه في كلام الشهاب.

(٤) في الدر المصون ٥/ ٥١٩.

(٥) أي: مغايراً للفظ، ومفيداً فائدة جديدة. الدر المصون ٥/ ٥١٩.

الصلة، بمعنى: جمعوا بين أمرين قبيحين: التكذيب وظلمهم أنفسَهم خاصَّة، أو منقطعٌ عنه، بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم؛ فإنَّ وبالَها لا يتخطَّاها.

وأيًّا ما كان ففي ذلك لمحٌ إلى أنَّ تكذيبَهم بالآيات متضمِّنٌ للظلم بها، وأنَّ ذلك أيضاً معتبرٌ في القصر المستفاد من التقديم.

وصرَّح الطِّيبيُّ والقطب وغيرُهما أن الجملة على تقدير الانقطاع تذييلٌ وتأكيدٌ للجملة التي قبلها، ويُشعر كلامُ بعضهم أن تقديمَ المفعول على الوجه الأول لرعاية الفاصلة، وعلى الوجه الثاني للإشارة إلى التخصيص، وأنَّ سبب ظلمهم أنفسَهم هو التكذيبُ، وفيه خفاءٌ كما لا يخفى.

هذا، ثم إن هذه الآيات مما ترمي علماء السَّوء بثالثة الأثافيِّ، وقد ذكر مولانا الطِّيبيُّ طيَّبَ الله ثراه أن من تفكَّر في هذا المَثَل وسائر الأمثال المضروبة في التنزيل في حقِّ المشركين والأصنام؛ من بيت العنكبوب والذباب، تحقَّقَ له أن علماء السَّوء أسوأُ وأقبحُ من ذلك، فما أنعاه من مَثَلٍ عليهم وما هم فيه من التهالُك في الدنيا مالِها وجاهِها، والركون إلى لذَّاتها وشهواتها من متابعة النفس الأمَّارة، وإرخاء زمامها في مرامها! عافانا الله تعالى والمسلمين من ذلك.

ونُقل عن مولانا شيخ الإسلام شهابِ الدين السُّهْرَوَرْدِي[(١)] أنه كتب إلى الإمام فخر الدين الرازيِّ تغمَّدهما الله تعالى برضوانه: من تعيَّنَ في الزمان لنشر العلم عظُمت نعمةُ الله تعالى عليه، فينبغي للمتيقِّظين الحُذَّاق من أرباب الديانات أن يمدُّوه بالدعاء الصالح، ليُصفِّي الله تعالى موردَ علمه بحقائق التقوى، ومصدرَه من شوائب الهوى؛ إذ قطرةٌ من الهوى تكدِّر بحراً من العلم، ونوازعُ الهوى المركون في النفوس المستصحبة إياه من مَحْتِدِها من العالم السفلي إذا شابَتِ العلمَ حطَّته من أوجِهِ، وإذا صفَتْ مصادرُ العلم ومواردُه من الهوى أمدَّته كلماتُ الله تعالى التي ينفَدُ البحرُ دون نفادِها، ويبقى العلمُ على كمال قوته، وهذه رتبةُ الراسخين في

---

(١) هو أبو حفص وأبو عبد الله، عمر بن محمد بن عبد الله القرشي، التيمي، البكري، ثم البغدادي، الصوفي، ولد في رجب سنة (٥٣٩هـ)، انتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعاء الخلق إلى الله، صنف «عوارف المعارف»، شرح فيه أحوال الصوفية، توفي ببغداد أول ليلة من سنة (٦٣٢هـ). السير ٢٢/ ٣٧٣.

العلم، لا المترسِّمين به، وهم ورثةُ الأنبياء عليهم السلام، كَرَّ عَمَلُهم على عِلْمِهم، وتناوبَ العمل والعلم فيهم حتى صفَتْ أعمالُهم، ولطفت وصارت مسامرات سرية، ومحاورات روحية، وتشكَّلت الأعمالُ بالعلوم لمكان لطافتها، وتشكَّلت العلومُ بالأعمال لقوة فعلها وسرايتها إلى الاستعدادت، وفي اتِّباع الهوى إخلادٌ إلى الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، فتطهيرُ نور الفكرة عن رذائل التخيُّلات، والارتهانِ بالموهومات التي أورثت العقولَ الصِّغار، والمداهنةِ للنفوس القاصرة، هو من شأن البالغين من الرجال، فتصحب نفوسُهم الطاهرةُ الملأَ الأعلى، فتسرحُ في ميادين القدس، فالنزاهةَ النزاهةَ من محنة حُطام الدنيا، والفرارَ الفرارَ من استحلاء نظر الخلق وعقائدهم، فتلك مصارعُ الأدوان، وطالبُ الرفيق الأعلى مكلَّم محدَّث، والتعريفاتُ الإلهية واردةٌ عليه؛ لمكان علمه بصورة الابتلاء، واستئصالِه شأفةَ الابتلاء بصدق الالتجاء، وكثرةِ وُلُوجه في حريم القرب الإلهي، وانغماسِه مع الأنفاس في بحار عين اليقين، وغسله تَفَثَ دلائل البرهان بنور العيان، فالبرهان للأفكار لا للأسرار. إلى آخر ما قال، ويالَها من موعظةٍ حكيم، ونصيحةِ حميم[1]، نسأل الله تعالى أن يهدينا لما أشارت إليه.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ تذييلٌ، وتأكيد لما تضمَّنته القصَّةُ السابقة على ما يشير إليه كلامُ بعضهم.

وقال آخر: إنه تعالى لما أمر نبيَّه ﷺ بأن يَقُصَّ على أولئك الضالِّين قَصَصَ أخيهم؛ ليتفكَّروا ويتركوا ما هم عليه، عقَّب ذلك بتحقيق أن الهدايةَ والضلالة من جهته سبحانه وتعالى، وإنما العظةُ والتذكير من قبيل الوسائط العادية في حصول الاهتداء؛ لكونها دواعي إلى صرف المكلَّف اختيارَه نحو تحصيله حسبما نِيْطَ به خلق الله تعالى إياه.

والمرادُ بهذه الهداية ما يوجبُ الاهتداء قطعاً، لا لأنَّ حقيقتَها الدلالةُ الموصلةُ إلى البغية كما يوهمه كلام بعض الأصحاب، بل لأنَّها الفردُ الكامل من حقيقة

---

(١) قوله: حكيم ونصيحة حميم، ليست في الأصل، والمثبت من (م).

الهداية التي هي الدلالةُ إلى ما يوصل؛ لإسنادها إلى الله تعالى، وتفريعِ الاهتداء عليها، ومقابلتِها بالضلال وما معه، ولا يخفى أن الهداية بهذا المعنى يلزَمُها الاهتداءُ، فيكونُ الإخبار باهتداء مَنْ هداه الله تعالى ـ على ما قيل ـ على حدِّ الإخبار في:

.... شِـعْـري شِـعْـري[1] ....

وهو يفيدُ تعظيمَ شأن الاهتداء، وأنه في نفسه كمالٌ جسيم، ونفعٌ عظيم، وأنه كافٍ في نيل كلِّ شرف في الأولى والعُقبى.

واختار بعضُ المحقِّقين أنه ليس المقصودُ مجرَّدَ الإخبار بما ذُكر ليتوهَّم عدمُ الإفادة بحسب الظاهر، ويُصار إلى توجيهه بذلك، بل هو قصرُ الاهتداء على مَنْ هداه الله تعالى حسبما يقضي به تعريفُ الخبر، فالمعنى: مَنْ يخلق فيه الاهتداء فهو المهتدي لا غير، كائناً من كان. ولا يخلو عن حُسْن، إلا أنه قد يقال: إن الأول أوفقُ بالمقابل.

وإفرادُ المهتدي رعايةً للفظ «مَن»، وجمع الخاسرين رعايةً لمعناها؛ للإيذان بأن الحقَّ واحدٌ، وطرق الضلال متشعِّبةٌ.

وفي الآية تصريحٌ بأنَّ الهدى والضلالَ من الله تعالى، فسبحان من أضلَّ المعتزلة.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مقرِّر لمضمون ما قبلَه بطريق التذييل، والذَّرْء بالهمزة: الخَلْق، وبذلك فسَّره ابنُ عباس رضي الله عنهما وغيره، أي: واللهِ تعالى لقد خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وهم المصِرُّون على الكفر في علمه سبحانه وتعالى. واللامُ للعاقبة عند الكثير، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨] وقولِ الشاعر:

لـه مَـلَـكٌ يـنـادي كـلَّ يـوم   لِـدُوا لـلـموت وابـنُـوا لـلـخراب[2]

---

(١) جزء من بيت لأبي النجم العجلي، وهو: أنا أبو النجم وشعري شعري، وسلف ٧/ ٣١٠.

(٢) البيت في خزانة الأدب ٩/ ٥٣٠ من أبيات منسوبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعجزه صدر بيت لأبي العتاهية، عجزه كما في ديوانه ص٣٣: فكلكمُ يصير إلى ذهاب.

وفي «الكشاف»[(١)] أنهم جُعلوا لإغراقهم في الكفر وشدة شكائمهم فيه، وأنه لا يتأتَّى منهم إلا أفعالُ أهلِ النار، مخلوقين للنار، دلالةً على توغُّلهم في الموجبات، وتمكُّنهم فيما يؤهِّلُهم لدخولها، وأشار إلى أن ذلك تذييلٌ لقصة اليهود بعد ما عَدَّ من قبائحهم، تسليةً لرسول الله ﷺ، كأنه قيل: إنهم من الذين لا ينجَعُ فيهم الإنذار، فدعهم واشتغل بأمر نفسك ومَنْ هو على دينك في لزوم التوحيد.

والآية ـ على ما قال ـ من باب الكناية الإيمائية عند القطب قُدِّس سرُّه، ويُفهِمُ كلامُه أن الذي دعا الزمخشريَّ إلى ذلك لزومُ كونِ الكفر مراداً لله تعالى إذا أُريد الظاهر، وهو خلافُ مذهبه، وأنتَ تعلمُ أن الكثير من أهل السنة تأوَّلوا الآيةَ بحمل اللام على ما علمت؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]؛ فإنَّ تعليلَ الخلق بالعبادة يأبى تعليلَه بجهنَّم ودخولها.

نعم ذهب ابنُ عطيةَ[(٢)] منَّا إلى الحَمْل على الظاهر، وكونِ اللام للتعليل.

وادعى أناسٌ أن التأويل مخالفٌ للأحاديث الواردة في الباب، كبعض الأحاديث السابقة في آية أَخْذِ الميثاق، وما أخرجه الإمام أحمدُ في «مسنده» عن عبد الرحمن بن قتادة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق آدمَ ـ عليه السلام ـ ثم أخَذَ الخلقَ من ظهره، فقال: هؤلاء في الجنة ولا أُبالي، وهؤلاء في النار ولا أُبالي». قال قائل: فعلى ماذا العملُ؟ قال: «على موافقة القَدَر»[(٣)]. وما أخرجه محيي السُّنة عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: أدرك النبي ﷺ جنازة صبيٍّ من صبيان الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله طُوبى له، عصفورٌ من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «وما يُدريك؟ إنَّ الله تعالى خلق الجنةَ، وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلقَ النار، وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»[(٤)]. إلى غير ذلك.

وإلى هذا ذهب الطِّيبيُّ، وأيَّده بما أيَّده، وادعى أن فائدةَ القَسَم التنبيهُ على قَلْع شُبَهِ مَنْ عسى أن يتصدَّى لتأويل الآية، وتحريف النصِّ القاطع، ونقل عن الإمام أن

(١) الكشاف ٣/ ١٣١.
(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٩.
(٣) مسند أحمد (١٧٦٦٠).
(٤) تفسير البغوي ٢/ ٢١٧. وأخرجه كذلك أحمد (٢٥٧٤٢)، ومسلم (٢٦٦٢) (٣١).

الآية حجَّةٌ لصحَّة مذهب أهل السُّنة في مسألة خَلْق الأعمال وإرادة الكائنات؛ لأنه سبحانه وتعالى صرَّح بأنه جلَّ وعلا خلق كثيراً من الجن والإنس لجهنم، ولا مزيدَ لبيان الله تعالى.

ولا يخفى أن الحمل على الظاهر مخالفٌ لظاهر الآية التي ذكرناها، وفي الكتاب الكريم كثيرٌ مما يوافِقُها، على أن التعليل الحقيقيَّ لأفعاله تعالى يمنع عنه في المشهور الإمامُ الأشعريُّ وأصحابُه.

وقال بعضُ الجِلَّة: المراد بالكثير: الذين حقَّت عليهم الكلمةُ الأزليةُ بالشَّقاوة، ولكن لا بطريق الجبر، من غير أن يكون من قِبَلهم ما يؤدي إلى ذلك، بل لعلمه سبحانه وتعالى بأنهم لا يصرفون اختيارَهم نحو الحق أبداً، بل يُصرُّون على الباطل من غير صارفٍ يلويهم، ولا عاطفٍ يَثْنيهم من الآيات والنُّذُر، فبهذا الاعتبار جُعل خلقُهم مغيًّا بجهنم، كما أن جمع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطريِّ للعبادة، وتمكُّنِهم التامِّ منها، جَعَل خلقَهم مغيًّا بها كما نطق به قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. انتهى.

وعندي أنه لا محيصَ من التأويل في هذا المقام، فتدبَّر ولا تغفل.

ثم إن الجارَّ الأول متعلِّقٌ بما عندَه، وتقديمُه على المفعول الصريح لما في توابعه من نوعِ طولٍ يؤدي توسيطُه بينهما وتأخيرُه عنها[1] إلى الإخلال بِجَزالة النظم الجليل، والجارُّ الثاني متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَعَ صفةً لـ «كثير».

وتقديمُ «الجنِّ» لأنهم أعرفُ من الإنس في الاتصاف بما ذُكر من الصفات، وأكثر عدداً، وأقدمُ خلقاً، ولا يُشْكل أنهم خُلِقوا من النار، فلا يشقُّ عليهم دخولُها ولا يضرُّهم شيئاً؛ لأنا نقول في دفع ذلك على عِلَّاته: خَلْقُهم من النار بمعنى أن الغالبَ عليهم الجزءُ الناريُّ لا يأبى تضرُّرَهم بها؛ فإنَّ الإنس خُلِقوا من الطين، ويتضرَّرون به، ويوضح ذلك أن حقيقةَ النار لم تبقَ فيهم على ما هي عليه قبل خلقهم منها، كما أن حقيقةَ الطين لم تبقَ في الإنس على ما هي عليه قبل خلقهم منها، على أن المخلوقَ من نار هو البدنُ، والمعذَّب هو الروح، وليست مخلوقةً

---

(١) في (م): يؤدي توسيطه بما بينهما وتأخيره عنهما، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٩٥، والكلام منه.

منها، وعذابُ الروح في قالب ناريٍّ معقولٌ كعذابها في قالبٍ طينيٍّ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ في محلِّ النصب على أنه صفةٌ أخرى لـ «كثير»، وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ في محلِّ الرفع على أنه صفةٌ لـ «قلوب» مبيِّنةٌ لكونها غيرَ معهودةٍ، مخالفةً لسائر أفراد الجنس، فاقدةً لما ينبغي أن يكون، أو هي مؤكِّدةٌ لما يُفيده تنكيرُها وإبهامُها من كونها كذلك.

وأُريد بالقلب اللطيفةُ الإنسانية، وبالفقه الفهمُ، وهو المعنى اللغويُّ له، يقال: فَقِه بالكسر، أي: فهم، وفَقُه بالضم: إذا صار فقيهاً، أي: فَهِماً، أو عالماً بالفقه بالمعنى العرفيِّ المبيَّن في كتب الأصول.

والفعلُ هنا متعدٍّ، إلا أنه حُذِفَ مفعولُه للتعميم، أي: لهم قلوبٌ ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئاً مما شأنُه أن يُفهم، فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحقِّ ودلائله دخولاً أوليًّا، وكذا الكلامُ في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، فيقال: المراد لا يبصرون بها شيئاً من المبصَرات، فيندرج فيه الشواهدُ التكوينية الدالةُ على الحقِّ اندراجاً أوليًّا، وكذا يقال في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ حيثُ يراد: لا يسمعون بها شيئاً من المسموعات، فيتناولُ الآيات التنزيلية على طرْزِ ما سلف. وأمر الوصفية في الأخيرين مثلُه في الأول.

والمرادُ بالإبصار والسماع المنفيَّين: ما يختصُّ بالعقلاء من الإدراك على ما هو وظيفة الثَّقَلين، لا ما يتناولُ مجرَّد الإحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الأنعام، وجاء في كلامهم نحو: فلانٌ لا يسمع الخَنَا[1]، أي: لا يعتني به، ولا يصرِفُ سمعَه إليه ولا يقبلُه، ومن ذلك قولُ الشاعر:

وعوراءِ الكلامِ صَمَمْتُ عنها ... وإني لو أشاءُ لها سميعُ[2]

---

(١) الخنا: الفحش. الصحاح (خنا).

(٢) البيت لعبد الله بن مُرَّة العِجْلي كما في حماسة البحتري ص٢٧٢، من بيتين ثانيهما:

وبادرةٍ وَزَعْتُ النفسَ عنها ... إذا تَيِقَتْ من الغضب الضُّلوعُ

والعوراء: الكلمة القبيحة. والبيت كذلك في الطبري ١٠/ ٥٩٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٠. وانظر تعليق الشيخ محمود شاكر على تفسير الطبري ١٣/ ٢٧٩-٢٨٠، وقد استفدنا من إحالته على الحماسة.

وفي إعادةِ الخبرِ في الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بدون ذلك، بأن يقال: وأعينٌ لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بها = ما لا يخفى من تقرير سوءِ حالهم. وكذا في إثباتِ المشاعر الثلاثة لهم، ثم وصفِ كلٍّ بما وُصِفَ به دون سلبِها عنهم ابتداءً، بأن يقال: ليس لهم قلوبٌ يفقهون بها، ولا أعينٌ يبصرون بها، ولا آذانٌ يسمعون بها = ما لا يخفى ـ على ما قيل ـ من الشهادة بكمال رُسُوخهم في الجهل والغِواية.

وتفسيرُ الآية على هذا الوجه، واعتبارُ حذف المفعول لما ذكرنا في الأفعال الثلاثة هو الذي اختاره بعضُ المحقِّقين؛ لما فيه من الإفصاح بكُنْهِ حالهم على ما أشار إليه، واختار بعضُهم التخصيصَ، أي: لا يفقهون الحقَّ ودلائلَه، ولا يبصرون ما خلَقَ الله تعالى إبصارَ اعتبارٍ، ولا يسمعون المواعظَ والآياتِ سماعَ تأمُّلٍ وتفكُّر.

وأيًّا ما كان فالمرادُ أنهم لم يَصْرِفوا ما خُلِقَ لهم لما خُلِقَ له، فكأنَّهم خُلقوا كذلك، ولو أُرِيدت الحقيقةُ لم يتوجَّه الذمُّ، ولم تقم الحجَّةُ، ومن ادَّعاها قال: إن ذلك بسبب إفاضة الحكيم حسب الاستعداد الأزليِّ الغيرِ المجعول، فالذمُّ بذلك لدلالته على سوء الاستعداد؛ لأنه كالأثر له، وبالجملة لا تقومُ الآيةُ دليلاً للجبر الصِّرف، ولو ضُمَّ إليها ما قبل.

والجبرُ المتوسِّط مما قال به أهلُ الحقِّ، وهو لبنٌ خالصٌ أُخرج من بين فَرْث ودمٍ، وحاصلُه عند بعض المشايخ أن العبد مختارٌ مجبورٌ باختياره، ولعلَّ كلامَ حجَّة الإسلام الغزاليِّ حيثُ قال من كلام طويل: فإن قلتَ: إني أجدُ في نفسي أني إن شئتُ الفعلَ فعلتُ، وإن شئتُ التركَ تركتُ، فيكونُ فِعْلي حاصلاً بي لا بغيري. أجبنا وقلنا: هَبْ أنَّك وجدتَ من نفسك ذلك، إلا أنَّا نقول: وهل تجدُ من نفسك أنكَ إن شئتَ أن تشاء شئتَ، وإن شئتَ أن لا تشاءَ لم تشأ؟ ما أظنُّك تقول ذلك، وإلا لذهَبَ الأمر فيه إلى ما لا نهايةَ له، فلا مشيئتُكَ بك، ولا حصولُ فعلكَ بعد حصول مشيئتك بك، وإنما أنتَ مضطرٌّ في صورةِ مختارٍ. انتهى = يرجع إلى ما ذكرنا، وقد استوفينا الكلامَ في هذا البحث في كتابنا «الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية» وهو لَعَمْري من مشكلات المباحث التي سأل عنها الإيرانيون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بالأوصاف المذكورة ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: في انتفاء الشعور على الوجه المذكور، وقيل: في أن مشاعرَهم متوجِّهة إلى أسباب التعيُّش، مقصورةٌ عليها، وكأن وجهَ الشَّبَه مدركٌ مما قبلُ، فتكون الجملةُ كالتأكيد له، فلذا فُصلت عنه.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام؛ لأنها تدرِكُ ما من شأنها أن تدرِكَه من المنافع والمضارِّ، فتَجْهَد في جلبها وسلبها غايةَ ما يمكِنُها، وهؤلاء ليسوا كذلك؛ حيث لم يُميِّزوا بين المنافع والمضارِّ، بل يعكسون الأمرَ، فيتركون النعيم، ويُقْدِمون على العذاب الأليم.

وقيل: لأنها إذا زُجِرت انزَجَرتْ، وإذا أُرشِدت إلى طريقٍ اهتدت، وهؤلاء لا يهتدون إلى شيء من الخيرات.

وقيل: لأنَّها لم تُعْطَ قدرةً على تحصيل الفضائل، وهؤلاء أُعطوا ولم ينتفعوا بما أُعطوا. ولأنها وإن لم تكن مطيعةً لم تكن عاصيةً، وهؤلاء عصاةٌ، فهم أسوأُ حالاً منها.

وقال بعضهم: لأنها تعرفُ صاحِبَها، وتذكُرُه وتطيعُه، وهؤلاء لا يعرفون ربَّهم، ولا يذكرونَه، ولا يطيعونه.

وبالجملة كونُ هؤلاء أضلَّ مما لا شك فيه، ووجوهُ ذلك كثيرةٌ، ولا تَنافي بين الخبرين، كما لا يخفى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المنعوتون بما ذُكر من مِثْلية الأنعام والشَّرِّية منها ﴿هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ أي: الكاملون في الغفلة عمَّا فيه صلاحُهم، وقال عطاء: عما أَعَدَّ الله تعالى لأوليائه[1] من الثواب، ولأعدائه من العقاب.

وجعل بعضُهم هذه الجملةَ كالبيان للجملة قبلَها، فلذا فُصِلتْ عنها.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قيل: تنبيهٌ للمؤمنين على كيفية ذِكْره تعالى، وكيفية المعاملة مع المُخِلِّين بذلك، الغافلين عنه سبحانه وتعالى وعما يليق بشأنه عزَّ شأنُه،

---

(١) في الأصل: عما أعد لأولياء الله تعالى، والمثبت من (م) والبحر ٤/ ٤٢٨، وعنه نقل المصنف.

إِثْرَ بيان غفلتهم التامَّة، وضلالَتِهم الطامَّة، وسيأتي إن شاء الله تعالى وجهٌ آخر لذِكْر ذلك.

والمراد بـ «الأسماء» ـ كما قال حُجَّة الإسلام الغزالي[1] وغيرُه ـ الألفاظُ المصوغةُ الدالَّةُ على المعاني المختلفة، و«الحسنى» تأنيثُ الأحسن أفعلُ تفضيل، ومعنى ذلك أنها أحسنُ الأسماء وأجلُّها؛ لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

وقيل: المرادُ بالأسماء الصفاتُ، ويكون من قولهم: طار اسمُه في البلاد، أي: صيتُه ونعتُه.

والجمهورُ على الأول؛ لقوله عزَّ اسمه: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ لأنه إمَّا من الدعوة بمعنى التسمية، كقولهم: دعوتُه زيداً، أو بزيد، أي: سمَّيتُه، أو من الدعاء بمعنى النداء، كقولهم: دعوتُ زيداً، أي: ناديتُه، وعلى التقديرين إنما يلائم ظاهراً المعنى الأول على ما قيل.

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ أي: يميلون وينحرفون فيها عن الحقِّ إلى الباطل، يقال: ألحد: إذا مال عن القَصْد والاستقامة، ومنه لَحْدُ القبر؛ لكونه في جانبه، بخلاف الضَّريح، فإنه في وسطه.

وقرأ حمزةُ هنا وفي «فصلت»[2]: «يَلْحَدون» بالفتح من الثلاثيِّ، والمعنى واحدٌ، وروى أبو عُبَيدة عن الأحمر[3] أن أَلْحَدَ بمعنى: مارى وجادَلَ، ولَحَدَ بمعنى: مال وانحرَفَ.

واختار الواحديُّ قراءة الجمهور، قال: ولا يكاد يُسمع: لَاحِد بمعنى ملحد.

والإلحاد في أسمائه سبحانه: أن يُسمَّى بما لا توقيفَ فيه، أو بما يُوهم معنى فاسداً، كما في قول أهل البدو: يا أبا المكارم، يا أبيضَ الوجه، ياسخيُّ، ونحو ذلك، فالمراد بالترك المأمور به الاجتنابُ عن ذلك، وبـ «أسمائه» ما أطلقوه عليه

---

(١) في المقصد الأسنى ص٢٧.

(٢) وكذلك قرأ في «النحل». التيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢٧٣، والحجة للفارسي ٤/ ١٠٨.

(٣) هو علي بن المبارك، وقيل: ابن الحسن، شيخ العربية، تلميذ الكسائي، ناظر سيبويه مرة، توفي بطريق مكة سنة (١٩٤هـ). السير ٩/ ٩٢-٩٣.

تعالى وسمَّوه به على زعمهم، لا أسماؤه تعالى حقيقةً، وعلى ذلك يُحمل تركُ الإضمار، بأن يُقال: يلحدون بها، وما قيل: إنه أُرِيد بـ «الأسماء» التسمياتُ فلذا تُرِكَ الإضمارُ، ليس بشيء.

ومن فسَّر الإلحاد في الأسماء بما ذُكر ذهب إلى أن أسماء الله تعالى توقيفيةٌ يُراعى فيها الكتابُ والسنةُ والإجماع، فكلُّ اسمٍ وَرَدَ في هذه الأصول جاز إطلاقُه عليه جلَّ شأنُه، وما لم يَرِدْ فيها لا يجوز إطلاقُه وإن صحَّ معناه، وبهذا صرَّحَ أبو القاسم القشيريُّ في «مفاتيح الحُجَج ومصابيح النهج».

وفي «أبكار الأفكار»[1] للآمديِّ: ليس مأخذُ جواز تسميات الأسماء الحسنى دليلاً عقليًا، ولا قياساً لفظيًا، وإلا لكان تسميةُ الربِّ تعالى فقيهاً عاقلاً مع صحَّة معاني هذه التسميات في حقِّه ـ وهي العلمُ والفقه ـ أولى من تسميته سبحانه وتعالى بكثيرٍ مما يُشكل ظاهرُه، بل مأخَذُ ذلك إنما هو الإطلاق والإذن من الشارع، فكلُّ ما ورد الإذنُ به منه جوَّزناه، وما ورد المنعُ منه منعناه، وما لم يُوجَدْ فيه إطلاقٌ ولا منعٌ فقد قال بعضُ أصحابنا بالمنع منه، وليس القولُ بالمنع مع عدم ورودِه أولى من القول بالجواز مع عدم وروده؛ إذ المنعُ والجوازُ حكمان، وليس إثباتُ أحدهما مع عدم الدليل أولى من الآخر، بل الحقُّ في ذلك هو الوقفُ، وهو أنَّا لا نحكمُ بجوازٍ ولامنعٍ، والمتَّبَعُ في ذلك كلِّه الظواهرُ الشرعية، كما هو المتَّبَعُ في سائر الأحكام[2]، وهو أن يكون ظاهراً في دلالته وفي صحَّته، ولا يشترطُ فيه القطعُ كما ذهب إليه بعضُ الأصحاب؛ لكون المنع والجواز من الأحكام الشرعية، والتفرِقَةُ بين حكم وحكم في اشتراط القطع في أحدهما دون الآخر تحكُّم لا دليلَ عليه. انتهى.

وأنتَ تعلم أن المشهور التفرقةُ بين الأحكام الأصولية الاعتقادية والأحكام الفرعية العملية، كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى قريباً.

وخلاصةُ الكلام في هذا المقام أن علماء الإسلام اتَّفقوا على جواز إطلاق

---

(١) أبكار الأفكار ٢/ ٥٠١.

(٢) في أبكار الأفكار: والمتبع في ذلك من الظواهر الشرعية ما هو المتبع في سائر الأحكام.

الأسماء والصفات على الباري تعالى إذا ورد بها الإذنُ من الشارع، وعلى امتناعه إذا ورد المنعُ عنه، واختلفوا حيث لا إذن ولامنعَ في جواز إطلاق ما كان سبحانه وتعالى متَّصفاً بمعناه، ولم يكن من الأسماء الأعلام الموضوعة في سائر اللغات؛ إذ ليس في جواز إطلاقها عليه تعالى محلُّ نزاعٍ لأحد، ولم يكن إطلاقُه موهماً نقصاً، بل كان مشعراً بالمدح، فمنعه جمهورُ أهل الحقِّ مطلقاً؛ للخطر، وجوَّزه المعتزلةُ مطلقاً، ومال إليه القاضي أبو بكر؛ لشيوع إطلاق نحوِ خُدا وتنكري[1] من غير نكير، فكان إجماعاً. ورُدَّ بأن الإجماع كافٍ في الإذن الشرعيِّ إذا ثبت.

واعترضَه أيضاً إمامُ الحرمين بأنه قولٌ بالقياس، وهو حجةٌ في العَمَليَّات، والأسماءُ والصفاتُ من العِلميَّات[2]، وروى بعضُهم عنه التوقُّفَ.

وذكر في «شرح المواقف»[3] أن القاضي أبا بكر ذهب إلى أن كلَّ لفظٍ دلَّ على معنًى ثابتٍ لله تعالى جاز إطلاقُه عليه إذا لم يكن موهماً لما لا يليقُ بذاته تعالى. ثم قال: وقد يقال: لا بدَّ مع نفي ذلك الإيهام من الإشعار بالتعظيم حتى يصحَّ الإطلاقُ بلا توقُّف، وجعل مذهب المعتزلة غيرَ مذهبه، والمشهور ما ذكرناه.

وفصَّل الغزاليُّ قُدِّس سرُّه، فجوَّز إطلاق الصفة: وهو ما دلَّ على معنًى زائدٍ على الذات، ومنعَ إطلاقَ الاسم: وهو ما يدلُّ على نفس الذات، محتجًّا بإباحة الصِّدق واستحبابِه، والصفةُ لتضمُّنها النسبة الخبريَّةَ راجعةٌ إليه، وهي لا تتوقَّفُ إلا على تحقُّق معناها، بخلاف الاسم، فإنه لا يتضمَّنُ النسبةَ الخبريةَ، وأنه ليس إلا للأبوين أو من يجري مجراهما.

وأُجيب بأن ذلك حيث لا مانعَ من استعمال اللفظ الدالِّ على تلك النسبة، والحظرُ قائم، وأين الترابُ من ربِّ الأرباب؟

---

(١) خُدا: باللغة الفارسية والكردية، وتنكري ـ وفي (م): تكري ـ: باللغة التركية. انظر معجم الألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدّى شير ص٥١-٥٢، والمعجم الذهبي لمحمد ألتونجي ص٢٣٤.

(٢) تحرفت في (م) إلى: العمليات.

(٣) شرح المواقف ٨/ ٢١٠.

واختار جمعٌ من المتأخِّرين مذهبَ الجمهور، قالوا: فيُطلقُ ما سُمع على الوجه الذي سُمع، ولا يتجاوزُ ذلك إلا في التعريف والتنكير، سواءٌ أَوْهَمَ كالصبور والشكور والجبَّار والرَّحيم، أو لم يُوهم كالقادر والعالم، والمراد بالسمعيِّ ما ورد به كتابٌ، أو سنةٌ صحيحة، أو إجماع؛ لأنه غير خارجٍ عنهما في التحقيق، بخلافِ الضعيفة، والقياس أيضاً إن قلنا: إن المسألة من العِلْميات، أما إن قلنا: إنها من العَمَليات فالسنةُ الضعيفة كالحسنة، إلا الواهية جدًّا، والقياسُ كالإجماع.

وأطلق بعضُهم المنعَ في القياس، وهو الظاهرُ؛ لاحتمال إيهام أحدِ المترادِفَين دون الآخر، وجعل بعضُهم من الثابت بالقياس المترادفات من لغة أو لغات، وليس بذاك، ومن الثابت بالإجماع الصانعُ والموجود والواجب والقديم، قيل: والعلَّةُ. وقيل: الصانعُ والقديم مسموعان كالحنَّان والمنَّان.

ونصَّ بعضُ المحققِّين على أنه يُمنع إطلاق غير المضاف إذا كان مرادفاً للمضاف المسموع قياساً، كما يُمنع إطلاق ما ورد على وجه المُشاكلة والمجاز، وأنه لا يكفي ورودُ الفعل والمصدرِ ونحوهما في صحة إطلاق الوصف، فلا يُطلق الحارثُ، والزارع، والرامي، والمستهزئ، والمُنزل، والماكر، عليه سبحانه وتعالى، وإن جاءت آياتٌ تشعر بذلك.

هذا ومن الناس مَن قال: إن الألفاظَ الدالَّةَ على الصفات ثلاثةُ أقسام:

الأول: ما يدلُّ على صفات واجبةٍ، وهو أصنافٌ: منها[1]: ما يصحُّ إطلاقُه مفرداً لا مضافاً، نحو: الموجود والأزليّ والقديم وغيرها. ومنها: ما يصحُّ إطلاقُه مفرداً ومضافاً إلى ما لا هُجْنَةَ فيه[2]، نحو: الملك والمولى والربّ والخالق. ومنها: ما يصحُّ مضافاً غير مفردٍ، نحو: يا مُنشئَ الرُّفات، ومُقِيل العَثَرات.

والثاني: ما يدلُّ على صفاتٍ ممتنعة نحو اليد والوجه والنزول والمجيء، فلا يصحُّ إطلاقُه البتَّةَ، وإن ورد به السمعُ كان التأويلُ من اللوازم.

---

(١) قوله: منها، ليس في الأصل، والمثبت من (م).
(٢) الهجنة: العيب والقبح. المعجم الوسيط (هجن).

والثالث: ما لا يدلُّ على صفات واجبةٍ ولا ممتنعة، بل يدلُّ على معانٍ ثابتة، نحو المكر والخداع وأمثالهما، فلا يصحُّ إطلاقُه إلا إذا ورد التوقيفُ، ولا يقال: يا مكّار، يا خدّاع، البتّة، وإن كان مذكوراً ما يدلُّ عليه، كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤]. انتهى، ولا يخفى ما فيه.

وذكر الطِّيبيُّ أن الحقَّ الاعتمادُ في الإطلاق على الإطلاق على التوقيف، وأن كلَّ ما أَذِن الشارع أن يُدْعى به الله عزَّ اسمُه، سواءٌ كان مشتقًّا أو غير مشتقٍّ، فهو اسمٌ، وكلّ ما نُسِب إليه سبحانه وتعالى من غير ذلك الوجه، سواء كان مؤوَّلاً أو غير مؤوَّلٍ، فهو اسمٌ، وكلُّ ما نُسِب إليه سبحانه وتعالى من غير ذلك الوجه، سواء كان مؤوَّلاً أو غير مؤوَّلٍ، فهو وصفٌ. وجعل الحييَّ وصفاً، والكريم اسماً، وادعى أنه يقال: يا كريم، ولايقال: يا حييُّ، مع ورود اللفظين فيه سبحانه وتعالى فيما أخرجه أبو داود، والترمذيُّ من حديث سلمان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الله تعالى حييٌّ كريم، يستحي إذا رفع العبدُ يدَه أن يردَّها صفراً حتى يضع فيها خيراً»[(١)]، وذكر أن التعريف في الأسماء للعهد، وأنه لا بدَّ من المعهود؛ لأنه سبحانه وتعالى أمر بالدعاء بها، ونهى عن الدعاء بغيرها، وأوعد على ذلك.

وروى الشيخان وغيرُهما من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «إنَّ لله تعالى تسعةً وتسعين اسماً، من حفِظَها دخل الجنة». وفي رواية: «أحصاها»، وفي أخرى: «إن لله تعالى تسعةً وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً»[(٢)]. وأُتي فيه بالفذلكة والتأكيد لئلا يُزاد على ما ورد.

وجاءت معدودةً في بعض الروايات بقوله عليه الصلاة والسلام: «هو الله لا إله هو، الرحمنُ، الرحيم، الملك، القدُّوس، السلامُ، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبَّار، المتكبِّر، الخالق، البارئ، المصوِّر، الغفَّار، القهَّار، الوهَّاب، الرزَّاق،

---

(١) سنن أبي داود (١٤٨٨)، وسنن الترمذي (٣٥٥٦)، وأخرجه كذلك ابن ماجه (٣٨٦٥)، والخطيب في تاريخ بغداد ٨/ ٣١٧. قال الترمذي: حديث حسن غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه. قلنا: يشير بذلك إلى ما رواه أحمد (٢٣٧١٤) موقوفاً على سلمان رضي الله عنه.
وقوله: «حتى يضع فيها خيراً»، لم يرد عند أبي داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) صحيح البخاري (٧٣٩٢)، وصحيح مسلم (٢٦٧٧) (٥) و(٦)، وأخرجه كذلك أحمد (٧٥٠٢). والروايتان اللتان ذكرهما المصنف أوردهما مسلم.

الفتَّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعِزُّ، المذِلُّ، السميع، البصير، الحَكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العليُّ، الكبير، الحفيظ، المُقِيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحقُّ، الوكيل، القويُّ، المتين، الوليُّ، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحيُّ، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المُتعالي، البَرُّ، التواب، المنتقم، العفوُّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسِطُ، الجامع، الغنيُّ، المغني، المانع، الضارُّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصَّبور»[١].

ونُقل عن أهل البيت ﭬ غيرُ ذلك، وأخذوها من القرآن[٢]، وجاء أيضاً عندنا ما يخالفُ هذه الروايةَ في بعض الأسماء[٣].

وذكر غيرُ واحدٍ من العلماء أن هذه الأسماء منها ما يرجع إلى صفةٍ فعليةٍ، ومنها ما يرجع إلى صفة نفسية، ومنها ما يرجع إلى صفة سلبية، ومنها ما اختُلف في رجوعه إلى شيء مما ذُكر وعدمِ رجوعه، وهو الله تعالى، والحقُّ أنه اسمٌ للذَّات، وهو الذي إليه يرجع الأمر كلُّه، ومن هنا ذهب الجلُّ إلى أنه الاسم الأعظم.

وتنقسم قسمةً أخرى إلى ما لا يجوز إطلاقه على غيره سبحانه وتعالى، كالله والرحمن، وما يجوز كالرحيم والكريم، وإلى ما يباح ذِكْره وحدَه، كأكثرها، وإلى ما لا يباح ذِكْره كذلك كالمميت والضارِّ؛ فإنه لا يقال: يا مميت، يا ضارُّ، بل يقال: يا محيي يا مميت، يا نافع يا ضارُّ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧) من حديث أبي هريرة، وقال عقبه: هذا حديث غريب، ثم أشار إلى أنه لا يعلم حديثاً ذكرت فيه هذه الأسماء بإسناد صحيح.

(٢) أخرجها أبو نعيم فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٤٨، عن محمد بن جعفر، عن أبيه جعفر الصادق رحمهما الله تعالى.

(٣) من ذلك ما أخرجه ابن ماجه (٣٨٦١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٠) من حديث أبي هريرة، وانظر الروايات التي قبله والتي بعده.

والذي أراه أنه لا حصر لأسمائه ـ عزَّت أسماؤه ـ في التسعة والتسعين، ويدلُّ على ذلك ما أخرجه البيهقيُّ عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أصابه همٌّ، أو حزنٌ، فليقل: اللهمَّ إني عبدُك، وابنُ عبدك، وابنُ أَمَتِكَ، ناصيتي في يدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك، سمَّيت به نفسَك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآنَ ربيع قلبي، ونور صدري، وذهاب هَمِّي، وجلاء حُزْني». الحديثَ[1]، وهو صريحٌ في عدم الحصر لمكان «أو» و«أو».

وحكى محيي الدين النوويُّ[2] اتفاق العلماء على ذلك، وأنَّ المقصود من الحديث الإخبار بأنَّ هذه التسعة والتسعين مَنْ أحصاها دخل الجنة، وهو لا ينافي أن له تعالى أسماء غيرها غير موصوفة بذلك. ونقل أبو بكر بنُ العربيِّ عن بعضهم أن له سبحانه وتعالى ألفَ اسمٍ، ثم قال: وهذا قليلٌ[3]، وهو كما قال. وعن بعضهم أنها أربعةُ آلاف، وعن بعض الصوفية أنها لا تكاد تحصى.

والمختار عندي عدمُ توقُّف إطلاق الأسماء المشتقَّة الراجعة إلى نوع من الصفات النفسيَّة والفعليَّة، وكذا الصفات السلبية، عليه تعالى على التوقيف الخاص، بل يصحُّ الإطلاق بدونه، لكن بعد التحرِّي التامِّ، وبذلِ الوسع فيما هو نصٌّ في التعظيم، والتحفظِ إلى الغاية عمَّا يُوهم أدنى أدنى نقصٍ ـ معاذ الله تعالى ـ في حقِّه سبحانه؛ لأنَّا مأذونون بتعظيم الله تبارك وتعالى في الأقوال والأفعال، ولم يُحَدَّ لنا حَدٌّ فيه؛ فمتى كان في الإطلاق تعظيمٌ له عزَّ وجل كان مأذوناً به، والتكليفُ منوطٌ بالوسع، ولا يكلف الله نفساً إلا وُسْعها، فبعد بذل الوُسْع في التعظيم يرتفع الحرج.

وحديثُ الحظر الذي يذكرونه يستدعي أن لا يصحَّ إلا إطلاق ما ثبتَ تواتراً إطلاقُه عليه جلَّ وعلا شأنُه، أو اجتمعت الأمةُ على إطلاقه؛ لأنَّ الثبوتَ فيما عدا ذلك ظنيٌّ، والحظر فيه يقينيٌّ، والأسماء المتقدمة آنفاً لم يوجد في كثير من

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (٣٧١٢).

(٢) شرح صحيح مسلم ١٧/ ٥.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٣٤، ونقله عنه المصنف بواسطة النووي في شرح مسلم.

الروايات ذِكْرها، وهي مشهورة من حديث الترمذيِّ، وقد قال: إنه حدثنا به غيرُ واحدٍ عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديثه، وهو ثقةٌ عند أهل الحديث. وأنتَ تعلم أن هذا القدرَ لا يثبُتُ به اليقينُ، بل ولا بمثله ومثله، على أنه عدَّ بعضُ أهل البيت كما في «الدر المنثور»[1]، وكذا غيرُهم ـ كما لا يخفى على المتتبِّع ـ للتسعة والتسعين ما يخالف هذا العدد، وسندُ ذلك الخبرِ وإن لم يكن في المتانة كسند هذا، إلا أنه لا أقلَّ يورث الشُّبهة، اللهمَّ إلا أن يقال: حصل الإجماعُ على ما في حديث الترمذي دون ما في حديث غيره المخالفِ له، لكن لم أقف على من حكى ذلك.

ثم إن هذه الأسماء المأخوذةَ مما ذكرنا لا مانع من الدعاء بها، ومن إجرائها أخباراً عنه سبحانه وتعالى، أو أوصافاً له جلَّ شأنه، وكلُّها حسنى، وتسميتُها بذلك من جهة أنها ـ بالمعنى المراد منها بالنسبة إليه تعالى ـ مختصَّةٌ به جلَّ وعلا اختصاصَ الاسم، ولا تطلق على غيره بالمعنى المراد منها حال إطلاقها على الله تعالى، وإنما تُطلق على الغير بمعنى آخر ليس بينه وبين ذلك المعنى إلا كما بين السواد والبياض؛ فإن بينهما غايةَ البعد الذي لا يتصوَّر أن يكون بُعْدٌ فوقَه، لكنهما متشاركان في العَرَضية واللونية والمُدْركية بالبصر، وأمورٍ أُخَر سوى ذلك، وبهذا لا يعدُّ البياض مماثلاً للسواد أو بالعكس؛ لأن المماثلة عبارةٌ عن المشاركة في النوع والماهية، وهي مفقودة هنا، وكذا هي مفقودة بين العلم مثلاً الذي يُوصف الله تعالى به والعلم الذي يُوصف غيرُه سبحانه وتعالى به، ولا يعلم حقيقةَ ذلك وماهيتَه إلا الله تعالى، كما لا يعرف حقيقةَ الله تعالى إلا الله تعالى في الدنيا والآخرة.

نعم لو قال قائل: لا أعرف إلا الله تعالى، صدق، ولكن من جهة أخرى.

ونهايةُ معرفة العارفين العجزُ عن المعرفة، ومعرفتُهم بالحقيقة أنهم لا يعرفونه، فاذا انكشف لهم ذلك فقد عَرَفوا، وبلغوا المنتهى الذي يمكن في حقِّ الخلق من معرفته سبحانه وتعالى.

وهذا الذي أشار إليه الصديق الأكبر ﵁ حيث قال: العجز عن دَرْك الإدراك

---

(١) الدر المنثور ٣/ ١٤٨.

إدراك. بل هو الذي عناه سيدُ البشر ﷺ بقوله: «لا أُحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك»[١] فإنه عليه الصلاة والسلام أراد: إني لا أُحيط بمحامدك وصفاتِ إلهيَّتك، وإنما أنتَ المحيطُ به وحدَك، لا أني أعرفُ منك ما لا أستطيعُ التعبيرَ عنه بلساني.

وتفاوتُ درجات الأَنبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكةِ والأولياء في المعرفة إنما هو بالوقوف على عجائب آياته في ملكوت السماوات والأرض، وخلق الأرواح والأجساد، وحينئذٍ يتفاوتون في معرفة الأسماء والصفات، ومعرفةُ أن زيداً عالمٌ مثلاً ليست كمعرفة تفاصيل علومه كما لا يخفى.

ولا يَرِدُ على ما ذكرنا من الاختصاص أنه يأباه تقسيمُهم أسماءه تعالى إلى مختصٍّ كالرحمن، وغير مختصٍّ كالرحيم؛ لأن مرادَهم بالمختصِّ: ما اعتُبر في مفهومه المطابقيِّ ما يمنع الإطلاقَ على الغير، وقد نصَّ البيضاويُّ[٢] على أن معنى الرحمن: المنعمُ الحقيقيُّ البالغ في الرحمة غايَتَها، وذلك لا يَصْدُقُ على غيره تعالى، فلذا لا يوصف به غيرُه. وبغير المختصِّ: ما لم يُعتبر في مفهومه ذلك، بل اعتُبِر فيه معنًى عامٌّ، فيطلق لذلك على الله تعالى وعلى غيره، لكن حالَ إطلاقِه عليه تعالى يُراد الفردُ الكامل من ذلك المفهوم، الذي لا يليق ولا يمكن أن يثبُتَ إلا لله عزَّ وجلَّ.

وقد يقال: لا فرق بين الأسماء المشتقة التي يوجَد في الغير مبدأُ اشتقاقها في الجملة، من حيث إن اعتبار ذلك الوجود يقتضي عدمَ الاختصاص، واعتبار الوجود على أتمِّ وجهٍ وأكمله يقتضي الاختصاصَ من غير تفرقةٍ بين اسم واسم، إلا أنَّا حكمنا بالاختصاص في بعض وبعدمه في آخر لأمرٍ آخر، كالاستعمال وعدم الاستعمالِ، وإذنِ الشارع وعدم إذنه، فلا يأبى ما قلناه أيضاً.

نعم اعتبارُ الاختصاص بالله تعالى في الأسماء المذكورة في الآية لا يتأتَّى فيها بناءً على أن تقديمَ الخبر يفيدُ الاختصاص أيضاً، فيكونُ المعنى: لله لا لغيره

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣١٢)، ومسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) في تفسيره مع حاشية الشهاب ١/ ٦٩.

الأسماءُ التي تختصُّ به[1] تعالى ولا تُطلق على غيره، ويَؤُول ذلك إلى أن الأسماء المختصَّة به سبحانه وتعالى مختصَّةٌ به جلَّ وعلا، وهو مما لا فائدةَ فيه، وحينئذٍ لا بدَّ إما من حمل الأسماء على الصفات كما قال البعض، ومعنى «الحُسنى»: الكاملة من كلِّ وجهٍ، أي: لله تعالى لا لغيره الصفاتُ الكاملة؛ لأن صفات غيرِه سبحانه وتعالى كيفما كانت ناقصةٌ، لا أقلَّ من أن العدم محيطٌ بطرفيها، ومعنى «فادعوه بها» إلخ: سَمُّوه بما يُشتقُّ منها، أو نادوه بذلك، وذروا الذين يميلون عن الحقِّ في صفاته فيسمُّون بها غيرَه، أو يدعون معتقدين الشِّرْكة، ودَعُوهم وإلحادَهم. وإما من ارتكاب ضَرْب من التجوُّز.

وما ذكره الطيبيُّ من أن التعريف في «الأسماء» للعهد، إلى آخر ما قاله[2]، مما لا أظنُّك في مِرْية من ركاكته، فتأمل.

وجُوِّز أن يراد بالإلحاد العدول عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة، كما قالوا: وما الرحمن؟ إنا لا نعرف إلا رحمن اليمامة. وعليه فالمراد بالترك الاجتنابُ كما أُريد أولاً، وبـ «الأسماء» أسماؤه تعالى حقيقةً، فالمعنى: سمُّوه تعالى بجميع أسمائه، واجتنبوا إخراجَ بعضها من البين.

وأن يراد به إطلاقُها على الأصنام، واشتقاقُ أسمائها منها، كاللات من الله تعالى، والعزى من العزيز، فالمراد من «الأسماء» أسماؤه تعالى حقيقةً، والإظهار في موضع الإضمار مع التجريد عن الوصف في الكلِّ؛ للإيذان بأنَّ إلحادَهم في نفس الأسماء من غير اعتبار الوصف.

والمراد بالترك: الإعراضُ، وعدم المبالاة بما فعلوا؛ ترقُّباً لنزول العقوبة فيهم عن قريب، كما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ فإنه استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال مقدَّر، كأنه قيل: لم لا نبالي؟ فقيل: لأنه سينزل بهم عقوبة، وتَشْتَفون عن قريب، والمعنى على الأمر بالاجتناب: اجتنبوا إلحادَهم كيلا يُصيبَكم ما يصيبهم؛ فإنه سينزل بهم عقوبة ذلك.

---

(١) في الأصل: يختص بها، والمثبت من (م).

(٢) سلف كلامه ص٤٩٧.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ قيل: بيانٌ إجماليٌّ لحال مَنْ عدا المذكورين من الثَّقَلين الموصوفين بما ذُكر من الضلال على أتمِّ وجهٍ، وهو عند جمعٍ من المحقِّقين ـ على ما ظهر للعلامَّة الطِّيبيِّ ـ عطفٌ على جملة «ولقد ذرأنا».

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَهْدُونَ﴾ إلخ إذا أُخِذَ بجملته وزبدته كان كالمقابل لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ إلى ﴿هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾، وكلتا الآيتين كالنشر لقوله عزَّ شأنه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾، وهو كالتذييل لحديث الذي أُوتي آيات الله تعالى والأسماءَ العظام فانسلخ منها.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ اعتراضٌ لمناسبة حديث الأسماء حديث أسماء الله تعالى العظام التي أوتيها ذلك المنسلِخُ كما في بعض الروايات، وقد يُعلَّق بقوله عزَّ شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ باعتبار أنه كالتنبيه على أن الموجِبَ لدخولهم جهنَّم هو الغفلةُ عن ذكر الله تعالى وعن أسمائه الحسنى، وأربابُ الذوق والمشاهدة يجدون ذلك من أرواحهم؛ لأنَّ القلبَ إذا غفل عن ذِكْر الله تبارك وتعالى، وأقبل على الدنيا وشهواتها، وقع في نار الحرص، ولا يزال يهوي من ظلمة إلى ظلمة حتى ينتهي إلى دركات الحِرْمان، وبخلاف ذلك إذا انفتح على القلب بابُ الذكر، فإنه يقع في جنة القناعة، ولا يزال يترقَّى من نور إلى نور حتى ينتهي إلى أعلى درجات الإحسان.

و«مَن» إما نكرةٌ موصوفة، أو بمعنى الذي، والمراد: بعضُ مَن خلقنا ـ أو: بعضٌ ممن خلقنا ـ طائفةٌ جليلةٌ كثيرة يهدون الناس ملتبسين بالحقِّ، أو يهدونهم بكلمة الحقِّ، ويدلُّونهم على الاستقامة، وبالحقِّ يحكمون في الحكومات الجارية فيما بينهم ولا يجورون فيها.

أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن ابن جُرَيج أنه قال: ذُكر لنا أنَّ النبي ﷺ قال: «هذه أُمتي». وأخرج عن قتادة أنه قال: بلغنا أن نبيَّ الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أُعطي القوم بين أيديكم مثلَها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]»[(١)].

---

(١) الخبران في تفسير الطبري ١٠/ ٦٠٠.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الربيع قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أُمتي قوماً على الحقِّ حتى ينزل عيسى ابنُ مريم» عليه السلام[(١)].

وروى الشيخان عن معاوية والمغيرة بن شعبة قالا: قال رسول الله ﷺ: «لا تزالُ من أمتي أمةٌ قائمة بأمر الله، لا يضرُّهم من خَذَلَهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك»[(٢)].

واستدلَّ الجُبَّائيُّ بالآية على صحة الإجماع في كل عصرٍ، سواءٌ في ذلك عصرُ النبيِّ ﷺ والصحابة ﷺ وغيره؛ إذ لو اختصَّ لم يكن لذِكْره فائدةٌ؛ لأنه معلومٌ، وعلى أنه لا يخلو عصرٌ عن مجتهد إلى قيام الساعة؛ لأن المجتهدين هم أربابُ الإجماع.

قيل: وهو مخالفٌ لما رُوي من أنه لا تقومُ الساعة إلا على أشرار الخلق[(٣)]، و«لا تقوم الساعةُ حتى لا يقال في الأرض: الله»[(٤)]، وأُجيب بأن ذلك الزمان ملحَقٌ بيوم القيامة؛ لمعانقته له، والمراد عدم خلوِّ العصر عن مجتهد فيما عداه، وقيل: المراد من الخبرين الإشارة إلى غَلَبة الشرِّ، فلا ينافي وجودَ النَّزْر من أهل ذلك العنوان، والواحدُ منهم كافٍ، وهو حينئذٍ الأمةُ.

والاقتصارُ على نعتهم بهداية الناس؛ للإيذان بأن اهتداءهم في أنفسهم أمرٌ محقَّقٌ، غنيٌّ عن التصريح.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ولم تنفعهم هدايةُ الهادين، كأهل مكة وغيرِهم، واقتصر بعضُهم على الأولين، والعمومُ أولى.

وإضافةُ الآيات إلى ضمير العظمة لتشريفها، واستعظامِ الإقدامِ على تكذيبها.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٢٣.

(٢) حديث معاوية ﷺ عند البخاري (٧١)، ومسلم [٣/ ١٥٢٤] (١٠٣٧) (١٧٤)، وأخرجه كذلك أحمد (١٦٩٣١).
وحديث المغيرة ﷺ عند البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١)، وأخرجه كذلك أحمد (١٨١٣٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٣٥)، ومسلم (٢٩٤٩) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١٣٨٣٣)، ومسلم (١٤٨) من حديث أنس ﷺ.

والموصولُ في محل الرفع على أنه مبتدأٌ خبرُه جملة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي: سنستدنيهم البتَّةَ إلى الهلاك شيئاً فشيئاً، وجُوِّز أن يكون في محل النَّصْب بفعلٍ محذوفٍ يفسِّره المذكورُ.

والاستدراجُ: استفعالٌ من الدرجة، بمعنى النَّقل درجةً بعد درجةٍ من سُفْل إلى عُلْوٍ، فيكونُ استصعاداً، أو بالعكس فيكون استنزالاً، وقد استعمله الأعشى في قوله:

فلو كنتَ في جُبٍّ ثمانين قامةً ورُقِّيتَ أسبابَ السماء بسلَّمِ
لَيستدرجَنْك القولُ حتى تَهِرَّه وتعلمَ أني عنكم غيرُ مفحَمِ[1]

في مطلق معناه، وقال بعضهم: هو استفعالٌ مِن دَرَجَ، إما بمعنى صَعِدَ، ثم اتُّسع فيه فاستُعمل في كلِّ نقل تدريجيٍّ، سواءٌ كان بطريق الصعود، أو الهبوط، أو الاستقامة، وإما بمعنى مشى مشياً ضعيفاً، ومنه دَرَجَ الصبيُّ، وإما بمعنى طوى، ومنه: أَدْرَجَ الكتابَ، ثم استُعير لطلب كلِّ نقل تدريجيٍّ من حال إلى حال من الأحوال الملائمة للمنتقل، الموافقةِ لهواه.

واستدراجُه تعالى إياهم بإدرار النعم عليهم مع انْهماكهم في الغيِّ، ولذا قيل: إذا رأيتَ الله تعالى أنعم على عبده وهو مقيمٌ على معصيته فاعلم أنه مستدرَجٌ، وهذا يمكن حملُه على الاستصعاد باعتبار نظرهم وزعمهم أن مواتَرةَ النِّعم أَثَرةٌ من الله تعالى، وهو الظاهر، وعلى الاستنزال باعتبار الحقيقة؛ فإن الجِبِلَّة الإنسانية في أصل الفِطْرة سليمةٌ متهيِّئة لقَبول الحقِّ؛ لقضية: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرة»[2]، فهو في بقاع التمكُّن على الهدى والدين، فإذا أخلد إلى الأرض، واتَّبع الشهوات، وارتكب المعاصي والسيِّئات، ينزل درجةً درجة إلى أن يصير أسفل السافلين.

وأيًّا ما كان، فليس المطلوب إلا تدرُّجهم في مدارج المعاصي إلى أن يَحِقَّ عليهم كلمةُ العذاب الأخرويِّ أو الدنيويِّ ـ على ما قيل ـ على أفظع حال وأشنعها،

(١) ديوان الأعشى ص١٧٣. والجب: البئر، واستدرجه: خدعه وأدناه، أو أتلفه حتى تركه يدرج على الأرض، وتهره: تكرهه. أي: لئن خرقت الأرض أو طرت في الفضاء ليبلغنك قولي، وليتركنك تدرج على الأرض حتى تكره الكلام، وتعلم أني غير عاجز عن الانتقام.
(٢) سلف تخريجه ص٤٥٤ من هذا الجزء.

وإدرارُ النِّعم وسيلةٌ إلى ذلك ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ أنه كذلك، بل يحسبون أنه أَثَرةٌ من الله تعالى، وقيل: لا يعلمون ما يُراد بهم.

والجارُّ والمجرور متعلِّق بمضمرٍ وقع صفةً لمصدر الفعل المذكور، أي: سنستدرجُهم استدراجاً كائناً من حيث لا يعلمون.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أُمهِلُهم، والواو للعطف، وما بعدَه معطوفٌ على «سنستدرجهم»، غيرُ داخلٍ في حكم السين؛ لما أنَّ الإمهالَ ليس من الأمور التدريجية، كالاستدراج الحاصل في نفسه شيئاً فشيئاً، بل هو مما يحصُلُ دفعةً، والحاصلُ بطريق التدريج آثارُه وأحكامُه ليس إلا، ويُلَوِّح بذلك تغييرُ التعبير بتوحيد الضمير، مع ما فيه من الافتنان المنبئ عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام؛ لابتنائه على تجديد القصة والعزيمة، وجعلَه غيرُ واحدٍ داخلاً في حكمها، ولا يخفى التوجيه حينئذٍ.

وقيل: إنه كلامٌ مستأنَفٌ، أي: وأنا أُملي لهم، فالخروج من ذلك الضمير إلى ضمير المتكلم المفرد شبيهُ الالتفات، واستُظهر أنه من التلوين.

وما قيل: إنَّ هذا للإشعار بأن الإمهالَ بمحض التقدير الإلهيِّ، وذاك للإشارة إلى أنَّ الاستدراجَ بتوسُّط المدبرات، ليس بشيء؛ لمكان ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾[1] [آل عمران: ١٧٨].

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ تقرير للوعيد، وتأكيدٌ له، والمتينُ: من المتانة بمعنى الشِّدة والقوة، ومنه المَتْن: للظهر، أو اللحم الغليظ في جانبي الصُّلب، وفسَّر ابن عباس رضي الله عنهما الكيدَ بالمَكْر، وفسَّره بعضُهم بالاستدراج والإملاء مع نتيجتهما، وتسميتُه كيداً لِمَا أنَّ ظاهرَه لطفٌ وباطنَه قهرٌ، وبعضُهم بنفس الأخذ فقط، فتسميتُه حينئذٍ بذلك؛ قيل: لكون مقدِّماته كذلك، وقيل: لنزوله بهم من حيث لا يشعرون، وأيًّا ما كان فالمعنى: إنَّ كيدي قويٌّ، لا يُدافَعُ بقوة ولا حيلة.

والآيةُ حجَّةٌ لأهل السنة في مسألة القضاء والقدر.

---

(١) ومبنى هذا القول ـ فيما قال أبو السعود ٣/ ٢٩٨ ـ دلالة نون العظمة على الشركة، قال: وأنى ذلك؟! وإلا لاحترز عن إيرادها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، بل إنما إيرادها في أمثال هذه الموارد بطريق الجريان على سنن الكبرياء.

وادعى بعضُ المفسِّرين أنها نزلت في المستهزئين من قريش، أمهَلَهم الله تعالى ثم أخذهم في يوم بدر.

ثم إنه سبحانه وتعالى لما بالغ في تهديد الملحِدِين المعرضين، الغافلين عن آياته والإيمانِ برسوله عليه الصلاة والسلام، عقَّب ذلك ـ على ما قيل ـ بالجواب عن شبهتهم، وإنكار عدم تفكُّرهم، فقال عزَّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ فالهمزةُ للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدَّر يستدعيه السياق والسباق، والخلافُ في مثل هذا التركيب مشهورٌ، وقد تقدَّمت الإشارةُ إليه.

و«ما» ـ كما قال أبو البقاء[1] ـ تحتمل أن تكون استفهاميةً إنكاريَّةً في محلِّ الرفع بالابتداء، والخبر «بصاحبهم»، وأن تكون نافيةً اسمُها «جِنَّة»، وخبرُها «بصاحبهم»، وجُوِّز أن تكون موصولةً، وفيه بعدٌ.

والجِنَّة مصدر كالجِلْسة: بمعنى الجنون، وليس المراد به الجِنَّ كما في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٦]؛ لأنه يحتاج إلى تقدير مضاف، أي: مَسِّ جِنَّة، أو تخبُّطها، والتنكير للتقليل والتحقير.

والتفكُّر: التأمُّل، وإعمالُ الخاطر في الأمر، وهو من أفعال القلوب، فحكمُه حكمُها في أمر التعليقِ. ومحلُّ الجملة على الوجهين النصبُ على نَزْع الخافض، ومحلُّ الموصول نصبٌ على ذلك في الوجه الأخير.

أي: أَكَذَّبوا ولم يتفكروا في أيِّ شيء من جنونٍ مّا كائن بصاحبهم الذي هو أعظم الهادين بالحق، وعليه أُنزلت الآيات؟ أو: في أنه ليس بصاحبهم شيء من جِنَّة حتى يؤدِّيهم التفكُّر في ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحة نبوَّته، فيؤمنوا به وبما أُنزل عليه من الآيات. أو: في الذي بصاحبهم من جِنَّة بزعمهم ليعلموا أن ذلك ليس من الجِنَّة في شيء فيؤمنوا.

واختار الطبرسيُّ[2] أن الكلام قد تمَّ عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ أي: أكذَّبوا ولم يتفكروا في أقواله وأفعاله؟ أو: أَوَلم يفعلوا التفكُّر؟ ثم ابتُدِئ فقيل: أيُّ

(١) في إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٨٣.
(٢) في مجمع البيان ٩ (تتمة)/ ٧٤.

شيء بصاحبهم من جِنَّةٍ مّا، على طريقة الإنكار والتعجيب والتبكيت، أو قيل: ليس بصاحبهم شيء منها.

والمراد بـ «صاحبهم»: رسولُ الله ﷺ، والتعبيرُ عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذلك لتأكيد النكير وتشديدِه؛ لأنَّ الصُّحبة مما يُطْلِعُهم على نزاهته ﷺ عن شائبةٍ مما[1] ذُكر.

والتعرُّض لنفي الجنون عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح استحالة ثبوته له؛ لِمَا أنَّ التكلُّم بما هو خارقٌ لا يصدُرُ إلا عمَّن به مسٌّ من الجِنَّة كيفما اتَّفق؛ من غير أن يكون له أصلٌ، أو عمَّن له تأييد إلهيٌّ يُخبِرُ به عن الغيوب، وإذ ليس به عليه الصلاة والسلام شيءٌ من الأول تعيَّن الثاني.

وأخرج ابنُ جرير وغيره عن قتادة قال: ذُكر لنا أن نبيَّ الله ﷺ قام على الصَّفا، فدعا قريشاً فَخِذاً فَخِذاً: يا بني فلان؛ يحذِّرهم بأسَ الله تعالى ووقائعَه إلى الصباح، حتى قال قائلُهم: إن صاحبَكم هذا لمجنون، بات يُهَوِّتُ حتى أصبح، فأنزل الله تعالى الآية[2]. وعليه فالتصريحُ بنفي الجنون للردِّ على عظيمتهم الشنعاء عند مَنْ له أدنى عقل، والتعبيرُ بـ «صاحبهم» واردٌ على مشاكلة كلامهم، مع ما فيه من النُّكتة السالفة.

وذكر بعضُهم في سبب النزول أنهم كانوا إذا رأوا ما يعرِضُ له ﷺ من بُرَحاء الوحي قالوا: جُنَّ. فنزلت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ تقرير لما قبلَه، وتكذيبٌ لهم فيما يزعمونه حيث تبيَّن فيه حقيقةُ حاله ﷺ، أي: ما هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا مبالغٌ في الإنذار، مظهِرٌ له غايةَ الإظهار.

ثم لما كان أمرُ النبوة مفرَّعاً على التوحيد ذكر سبحانه ما يدلُّ عليه، فقال جلَّ شأنُه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو مسوقٌ للإنكار والتوبيخ

---

(١) في تفسير أبي السعود ٣/ ٢٩٨ (والكلام منه): ما، بدل: مما

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٦٠٢، وقوله: يهوِّتُ أي: يصيح، وأصله: حكاية صوت، وهو أن يقول: ياه، ياه، وهو نداء الداعي من بعد. الصحاح: (هيت)، وحاشية الشهاب ٤/ ٢٤٠.

بإخلالهم بالتأمُّل بالآيات التكوينية إثر مانَعَى عليهم مانَعَى، والهمزةُ هنا كالهمزة فيما قبل، والواو للعطف على مقدَّر كما تقدم، أو على الجملة المنفية بـ «لم»، والملكوت: الملك العظيم. أي: أَكَذَّبوا، ولم يتفكَّروا فيما ذُكر، ولم ينظروا نظَرَ تأمُّلٍ واستدلال فيما يدلُّ على كمال قدرة الصانع، ووحدة المبدع، وعِظَم[1] شأن المالك، ليظهر لهم صحةُ ما يدعوهم إليه ذاك الرسولُ الكريم ﷺ؟

وكأن التعبيرَ بالنظر هنا دون التفكُّر الذي عبَّر به فيما قبلُ للإشارة إلى أن الدليل هنا أوضح منه فيما تقدَّم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على «ملكوت»، وتخصيصُه بالسماوات والأرض لكمال ظهور عِظَم المُلك فيهما، وأن يكون عطفاً على المضاف هو إليه، فيكون منسحباً على الجميع، والتعميمُ لاشتراك الكلِّ في [الدلالة على] عِظَم[2] الملك في الحقيقة.

و«من شيء» بيانٌ لـ «ما»، وفي ذلك تنبيهٌ على أن الدلالةَ على التوحيد غيرُ مقصورة على السماوات والأرض، بل كلُّ ذرةٍ من ذرات العالم دليلٌ على توحيده:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحدُ[3]

وهذا أمر متفقٌ عليه عند العقلاء، نعم منهم من جعل وجهَ الدلالة الحدوثَ، وهو الذي عليه معظمُ المتكلِّمين، ومنهم من جعل وجهها الإمكانَ، وهو الذي عليه الفلاسفةُ، واختاره بعضُ المتكلمين، ورجَّح الأول قطبُ عصره الشيخُ خالد المجدِّدي قُدِّس سرُّه في «تعليقاته على حواشي عبد الحكيم على الخيالي»[4] فارجع إليها.

---

(١) في (م): وعظيم.
(٢) في الأصل: عظيم، والمثبت من (م)، وتفسير أبي السعود ٣/ ٣٩٩، والكلام وما بين حاصرتين منه.
(٣) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٠٤، وسلف ١/ ٢٧١.
(٤) هو الشيخ خالد النقشبندي، سلفت ترجمته، وتعليقاته هذه حاشية علقها على هامش نسخة عبد الحكيم السيالكوتي حين درَّسها في بلدته، ثم جمعت بعد هجرته إلى الشام، وكُتب عليه: تعليقات. انظر معجم المطبوعات ص ٨١٣، والأعلام ٢/ ٢٩٤.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطفٌ على «ملكوت»، فهو معمولٌ لـ «ينظروا»، لكن لا يُعتبر فيه ـ بالنظر إليه ـ أنه للاستدلال بناءً على ما قالوا: إنَّ قيد المعطوفِ عليه لا يلزم ملاحظتُه في المعطوف، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك.

و«أن» مخفَّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وخبرها «عسى» مع فاعلها الذي هو «أن يكون»، وخبرُ ضمير الشأن لا يُشترط فيه الخبرية، ولا يحتاج إلى التأويل كما نصَّ عليه المحقِّقون، فلا معنى للمناقشة في ذلك. واسم «يكون» أيضاً ضميرُ الشأن، والخبر «قد اقترب أجلُهم»، ولم يجعلوا هذا من باب التنازع؛ لأن تنازُعَ كان وخبرَها مما لم يُعهد، لا لأن ذلك خلافُ الأصل لما فيه من الإضمار قبل الذِّكر؛ لأن ذلك لازمٌ على جعل الاسم ضميرَ الشأن، ولا ضير في كلٍّ، وأمرُ التكرار فيما ذكرنا سهلٌ، فلا يُرتكب له خلافُ المعهود، خلافاً للقطب الرازي.

وجوَّز أبو البقاء[1] أن تكون «أن» مصدريةً، وتُعقِّب بأنها لا تُوصل إلا بالفعل المتصرِّف، و«عسى» ليست كذلك.

والمعنى: أَوَلم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقُّع حلولها، فيسارعوا إلى طلب الحقِّ، والتوجُّه إلى ما يُنجِيهم قبل مغافصة[2] الموت ومفاجأته، ونزول العذاب، فالمرادُ بـ «أجلهم» أجل موتهم، وجُوِّز أن يكون عبارةً عن الساعة، والإضافةُ إلى ضميرهم لملابستهم لها من جهة إنكارهم إياها وبحثهم عنها.

وقولُه جلَّ وعلا: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ قطعٌ لاحتمال إيمانهم رأساً، ونفيٌ له بالكلية بعد إلزام الحجَّة والإرشاد إلى النظر، والباء متعلِّقة بـ «يؤمنون»، وضميرُ «بعده» للقرآن على ما ذهب إليه غالبُ المفسِّرين، وهو معلومٌ من السياق.

والحديثُ بمعنى الكلام، فلا دليل في الآية لمن يزعم حدوثَ القرآن، وقيل: ولئن سلَّمنا كونَه دليلاً يُراد من القرآن الألفاظ، وهي محدَثَةٌ على المشهور، والمعنى: إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو النهاية في البيان، فبأيِّ كلامٍ يؤمنون بعدَه؟

---

(١) إملاء ما منّ به الرحمن ٣/ ٨٤.

(٢) غافصت الرجل: أخذته على حين غرة. الصحاح: (غفص).

وقيل: الضميرُ للآيات على حذف المضاف المفهوم من «كذّبوا»، والتذكيرُ باعتبار كونها قرآناً، أو بتأويلها بالمذكور، أو إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، والمعنى: أَكَذَّبوا بالآيات ولم يتفكروا فيما يُوجب تصديقَها من أحواله عليه الصلاة والسلام، وأحوال المصنوعات، فبأيِّ حديث بعدَ تكذيبها يؤمنون؟ وفيه بُعدٌ.

وقيل: إنه يعود على[1] الرسول ﷺ بتقدير مضاف أيضاً، أي: بعد حديثه يؤمنون وهو أصدق الناس.

وقيل: المراد: بعدَ هذا الحديث. وقيل: بعد الأجل، أي: كيف يؤمنون بعد انقضاء أجلهم؟

وجعل الزمخشريُّ ذلك مرتبطاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ إلخ ارتباطَ التسبُّب عنه، والضمير للقرآن، كأنه قيل: لعلَّ أجلَهم قد اقترب، فما بالُهم لا يبادرون [إلى] الإيمان بالقرآن قبل الموت؟ وماذا ينتظرون بعد وضوح الحقِّ؟ وبأيِّ حديثٍ أحقَّ منه يريدون أن يؤمنوا[2]؟.

وتقديرُ ما قُدِّر عند صاحب «الكشف» ليس لأنه لا بد من تقديره ليستقيم الكلام، بل للتنبيه على معنى الاستبطاء الذي في ضمن «أيّ»، وأنه ليس بعد هذا البيان الواضح أمرٌ يُنتَظَر.

وقوله عزَّ شأنه: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ استئنافٌ مقرِّر لما قبلَه، مبنيٌّ على[3] الطبع على قلوبهم، والمراد استمرار النفي، لا نفي الاستمرار.

وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ بالياء والرفع على الاستئناف، أي: وهو يذرهم، وقرأ غيرُ واحدٍ بنون العظمة على طريقة الالتفات، أي: ونحن نذرهم[4]، وقرأ حمزة والكسائيُّ بالياء والجزم عطفاً على محلِّ الجملة الاسمية

---

(١) في الأصل: إلى، والمثبت من (م).

(٢) الكشاف ٢/ ١٣٣-١٣٤، وما بين حاصرتين منه.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٠ ـ والكلام منه ـ: منبئ عن، وهو الصواب.

(٤) هي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وأبي جعفر، والتي قبلها قراءة أبي عمرو وعاصم ويعقوب. التيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٣.

الواقعة جوابَ الشرط، كأنه قيل: من يضلل اللهُ لا يهدِهِ أحدٌ ويَذَرْهم، ويحتمل أن يكون ذلك تسكيناً للتخفيف، كما قُرِئَ: «يشعرْكم» [الأنعام:١٠٩]، و«ينصرْكم» [الملك:٢٠][(١)]، وقد رُوي الجزمُ مع النون عن نافع وأبي عمرو في الشواذِّ[(٢)]، وتخريجُه على أحد الاحتمالين.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَعْمَهُونَ ۝١٨٦﴾ حال من مفعول «يذرهم»، والعَمَهُ: التردُّد في الضلال، والتحيرُّ، أو أن لا يعرفَ حجَّة، وإفرادُ الضمير في حيِّز النَّفي رعايةً للفظ «من»، وجمعُه في حيِّز الإثبات رعايةٌ لمعناها؛ للتنصيص على شمول النفي والإثبات للكلِّ كما قيل.

❀ ❀ ❀

هذا، ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ إشارةٌ إلى من ابتُلي بالحَوْر بعد الكَوْر، بأن سَلَكَ حتى ظهر له ما ظهر، ثم رجع من الطريق لسوء استعداده، وغلبة الشقاوة ـ والعياذُ بالله تعالى ـ عليه، وفي التعبير بـ «انسلخ» ما لا يخفى.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ إلى حظيرة[(٣)] القُدْس، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مال إلى أرض الطبيعة السُّفلية، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في إيثار السِّوَى.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ في أخسِّ أحواله ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ بالزَّجر ﴿يَلْهَثْ﴾ يُدْلِعُ لسانَه مع التنفُّس الشديد ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أيضاً. والمراد أنه يلهثُ دائماً، وكأنه إشارةٌ إلى أن هذا المنسلخ لا يزال يُطلِقُ لسانَه في أهل الكمال، سواء زُجِرَ عن ذلك أو لم يُزْجَرْ.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وهم مظاهر القهر ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا

---

(١) قرأ بهما أبو عمرو، وروي عنه اختلاس حركة الضمة كذلك، وإشباعها، انظر التيسير ص٧٣، والنشر ٢/ ٢١٢-٢١٣.

(٢) قراءة نافع رواها عنه خارجة، وقد أوردها أبو حيان في البحر المحيط ٤/ ٤٣٣، وأما قراءة أبي عمرو فلم أقف على من نسبها إليه.

(٣) في الأصل: حضيرة وحظيرة القدس: الجنة. القاموس المحيط (حظر).

يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الأسرار ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الحُجَجَ الكونية ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الآيات التنزيلية، فهم صمٌّ بكم عمي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ليس لهم همٌّ إلا الأكل والشُّرب ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ منها؛ لأنهم لا ينزجرون إذا زُجِروا، ولا يهتدون إذا أُرشِدوا.

ومما يُستبعَدُ من طريق العقل ما نقله الإمام الشعرانيُّ عن شيخه عليٍّ الخوَّاص قُدِّس سرُّه أنَّ البهائم مكلَّفون محتجًّا بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]، مع قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، وبما ورد عنه ﷺ: «إنه ليؤخَذُ للشاة الجمَّاء من الشاة القرناء»(١)، وهذا وإن كان في الشاة لكن لا قائل بالفرق، ونقَلَ عنه القولَ بأن كلَّ ما في الوجود من حيوانٍ ونبات وجماد حيٌّ درَّاك.

ثم قال: فقلتُ له: فهل تشبيهُ الحقِّ تعالى مَنْ ضلَّ من عباده بالأنعام بيانٌ لنقص الأنعام عن الإنسان، أم لكمالها في العلم بالله تعالى؟ فقال رضي الله عنه: لا أعلم، ولكني سمعتُ بعضَهم يقول: ليس تشبيهُهم بالأنعام نقصاً، وإنما هو لبيانِ كمال مرتبتها في العلم بالله عزَّ وجل حتى حارت فيه، فالتشبيهُ في الحقيقة واقعٌ في الحيرة لا في المُحَارِ فيه، فلا أشدَّ حيرةً من العلماء بالله تعالى، فأعلى ما يصل إليه العلماءُ في العلم بربهم سبحانه وتعالى مبتدأُ البهائم الذي لم تنتقل عن أصله، وإن كانت منتقلة في شؤونه بتنقُّل الشؤون الإلهية؛ لأنها لا تثبُتُ على حال، ولذلك كان مَنْ وصفَهم سبحانه وتعالى من هؤلاء القوم أضلَّ سبيلاً من الأنعام؛ لأنَّهم يريدون الخروجَ من الحَيْرة من طريق فكرهم ونظرهم، ولا يمكن لهم ذلك، والبهائمُ علمت ذلك ووقفت عنده، ولم تطلب الخروجَ عنه لشدَّة علمها بالله تعالى. وذكر أنها ما سُمِّيت بهائمَ إلا لأنَّ أمرَها قد أُبهم على غالب الخلق، فلم يعرفوه كما عرفه أهل الكشف. انتهى.

وهو كلامٌ يورث المؤمنَ به حسداً للبهائم! نفعنا الله تعالى بها! وأعاذنا من الحسد.

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٧٢٠٤)، ومسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي يُدبِّر كلَّ أمرٍ باسمٍ منها، ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ حسبَ المراتب، وأعلاها الدعاءُ بلسان الفعل، وهو التحلِّي بمعانيها بقَدْر ما يُتصوَّر في حقِّ العبد، وذلك حظُّ المقرَّبين منها.

وذكر حجَّة الإسلام الغزاليُّ[١] قُدِّس سرُّه أن حظوظَهم من معاني أسمائه تعالى ثلاثة:

الأول: معرفتُها على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى يتَّضح لهم حقائقُها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ، وينكشف لهم اتصافُ الله تعالى بها انكشافاً يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصلِ للإنسان بصفاته الباطنةِ التي يدرِكُها بمشاهدة باطنِهِ لا بإحساس ظاهره، وكم بين هذا وبين الاعتقاد المأخوذ من الآباء والمعلِّمين تقليداً، والتصميم عليه، وإن كان مقروناً بأدلة جَدَلية كلامية.

الثاني: استعظامُهم ما يُكشَف لهم من صفات الجلال والكمال على وجهٍ ينبعث منه شوقُهم إلى الاتصاف بما يُمكِنهم من تلك الصفات؛ ليقربوا بها من الحق قُرْباً بالصفة لا بالمكان، فيأخذوا من الاتصاف بها شبهاً بالملائكة المقرَّبين عند الله تعالى، والخلوُّ من هذا الشوق لا يكون إلا لأحدِ أمرين: إما لضعف المعرفة، وإما لكون القلب ممتلئاً بشوق آخر مستغرقاً به.

والثالث: السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات، والتخلُّق بها، والتحلِّي بمحاسنها، وبذلك يصير العبد ربَّانيًّا، رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة، شبيهاً بهم، وحينئذٍ لا يؤثِّر القربُ والبعدُ في إدراكه، بل لا يقتصر إدراكُه على ما يتصوَّر فيه ذلك، ويكون مقدَّساً عن الشهوة والغضب، فلا تكون أفعالُه بمقتضاهما، بل الداعي إليها حينئذٍ طلبُ التقرُّب إلى الله تعالى، ولا يلزم من هذا إثباتُ المماثلة بين الله سبحانه وتعالى وبين العبد، وقد قال جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ لأن المماثلةَ هي المشاركةُ في النوع والماهية لا مطلقُ المشاركة، فالفرسُ الكيِّس ـ وإن كان بالغاً في الكياسة ما بلغ ـ لايكون مماثلاً للإنسان؛ لمخالفته له بالنوع، وإن شابَهَهُ بالكياسة التي هي عارضةٌ خارجة عن المقوِّمات للإنسانية.

(١) في المقصد الأسنى ص٤٥ وما بعدها.

وأنت تعلم بأدنى التفاتٍ أنه لا يُتصوَّر الشركةُ بين الله تعالى الحيِّ العليم المريدِ القادر المتكلِّم السميع البصير، وبين العبد المتَّصفِ بالحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر، إلا في إطلاق الاسم لا غير، والكلام في خبر: «لا زال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل» إلخ[١] يستدعي الخوض في بحرٍ لا ساحل له، فخذ ما آتيناك، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يطلبون معانيها من غيره سبحانه وتعالى، ويضيفونها إليه، وهؤلاء ممَّن ذرأهم سبحانه وتعالى لجهنَّم ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإلحاد.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وهم المرشِدون الكاملون ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كالمنكرين على هؤلاء الأمة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّا نستدرجُهم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أُمهِلُهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ أَخْذي ﴿مَتِينٌ﴾ شديد.

وقد جرت عادةُ الله تعالى في المنكرين على أوليائه أن يأخُذَهم أشدَّ أَخْذٍ، وقد شاهدنا ذلك كثيراً، نعوذ بالله تعالى من مَكْرِه.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهي الآياتُ التكوينية، وقد تقدَّم معنى «الملكوت»، وهو في اصطلاح الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارهم: عبارةٌ عن عالم الغيب المختصِّ بالأرواح والنفوس، وفسَّروا الملك بعالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية، كالعرش، والكرسيِّ، وغيرهما، وكل جسم يتركَّب من الاستقصاءات.

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ إذ لا هاديَ سواه سبحانه:

إلى الماء يسعى من يغصُّ بلقمةٍ ... إلى أين يسعى مَنْ يغصُّ بماء[٢]

﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتردَّدون؛ لأن استعدادَهم يقتضي ذلك. والله تعالى الموفِّقُ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت في خزانة الأدب ٨/ ٥١٢، وفيه: بريقه، بدل: بلقمة، وفي زهر الأكم في الأمثال والحكم ١/ ١٥٦، وفيه: بأكله، بدل: بلقمة. وسلف ٢/ ١٦٦.

ثم لما تقدَّم ذِكْر اقتراب أجلهم عقَّبه سبحانه بذِكْر سؤالهم عن الساعة، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ وقيل: هو استئنافٌ مسوقٌ لبيان بعض طغيانهم وضلالهم.

والساعةُ في الأصل: اسم لمقدارٍ قليل من الزمان غيرِ معيَّن، وهي عند المنجِّمين جزءٌ من أربعة وعشرين جزءاً من الليل والنهار، وتنقسم إلى معوجَّة ومستوية.

وتطلق في عرف الشرع على يوم موت الخلق، وعلى يوم قيام الناس لربِّ العالمين، وفسَّروها بيوم القيامة، ولعل المرادَ منه أحدُ ذَيْنِك اليومين، وإن كان المشهورُ فيه اليومَ الآخر، والظاهر أن المسؤول عنه اليومُ الأول، وإليه ذهب الزجَّاج[(١)]، والساعةُ في ذلك من الأسماء الغالبة، ووجهُ إطلاقها عليه ـ وكذا على وقت القيامة ـ ظاهرٌ إن أُريد زمانُ الموت، أو زمانُ القيام بدون ملاحظة الامتداد؛ لظهور أنه قدرٌ يسيرٌ في نفسه، وإن أُريد الزمان الممتدُّ فإطلاقها عليه إما لمجيئه بغتةً كما قيل، أو لأنه يدهش من يأتيهم، فيقلّ عندهم، أو يقلِّلُ ما قبله، أو لأنه على طوله قَدْرٌ يسير عند الله تعالى، أو لسرعةِ حسابه، وجُوِّز أن يكون تسميتُه بذلك من باب التسمية بالضدِّ تمليحاً، كما يسمى الأسود كافوراً.

والسائلُ عن ذلك أُناس من اليهود، فقد أخرج ابنُ إسحاق وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال حمل بن أبي قشير وسموأل بن زيد لرسول الله ﷺ: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًّا كما تقول، فإنا نعلمُ متى هي؟ وكان ذلك امتحاناً منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها، فأنزل الله تعالى الآية[(٢)].

وذهب بعضٌ إلى أن السائل قريش؛ فقد أخرج عَبْد بن حُميد، وابنُ جرير عن قتادة أن قريشاً قالوا: يا محمدُ، أَسِرَّ إلينا متى الساعة لما بيننا وبينك من القرابة؟ فنزلت[(٣)].

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٣.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٦٩، وفيها: جبل بن أبي قشير، وشمويل بن زيد، وأورده أبو حيان في البحر ٤/ ٤٣٣ وجاء فيه اسم الأول: حسل بن أبي بشير، والثاني كما في سيرة ابن هشام.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٦١١.

وقوله سبحانه: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ بفتح همزة «أيّان»، وقرأ السُّلميُّ بكسرها[١]، وهي لغةٌ فيها، وهي ظرفُ زمان متضمِّنٌ لمعنى الاستفهام، ويليها المبتدأ أو الفعلُ المضارعُ دون الماضي، بخلاف متى؛ حيث يليها كلاهما.

والتحقيقُ أنها بسيطةٌ مرتجلةٌ، وقيل: اشتقاقُها من أيّ، وهي فَعْلان منه؛ لأن معناها: أيَّ وقت، وأيَّ فعل، وأيّ من أويت بمعنى رجعت؛ لأن باب طويت وشويت أضعافُ باب حييت ووعيت، ولقربه منه معنى؛ لأن البعض آوٍ إلى الكلِّ ومستند إليه. وأصله على هذا أوى، فقُلبت الواو ياءً وأُدغمت في الياء، فصار أيًّا، وإنما لم تجعل «أيان» فعلالاً من أين؛ لأنها ظرفُ زمانٍ، وأين ظرفُ مكان، ومن الناس من زعم أن أصلها أيَّ أوان، أو أيَّ آن، وليس بشيء.

وتعقَّب في «الكشف» حديثَ الاشتقاق من أيّ بأنه مخالفٌ لما ذكره الزمخشريُّ في «سورة النمل»: ولو سُمِّيَ به لكان فعالاً من آن يئين، ولا يصرف[٢]. ثم قال: والوجهُ ماذكره هناك؛ لأن الاشتقاق في غير المتصرِّفة لا وجهَ له. ثم إنه ليس اشتقاقُه من أيّ أولى من اشتقاقه من الأين بمعنى الحينونة؛ لأن أيّان زمان، وكأنه غرَّه الاستفهامُ، وليس بشيء؛ لأنه بالتضمين كما في متى ونحوه، وكذلك اشتقاقُ أيّ من أويت لا وجهَ له، إلا أنَّ الأظهر أنه يجوز الصرفُ وعدمُه كما في حمار قبان[٣]. اهـ.

وأُجيب بأن ما ذُكر أمر قدَّروه للامتحان، وليُعلم حكمُها إذا سُمِّي بها، فلا ينافي ما ذكره الزمخشريُّ، وكذا لا ينافي التحقيقَ، فتأمل.

وأيًّا ما كان فهي في محل الرفع على أنها خبرٌ مقدَّم، و«مرساها» مبتدأ مؤخَّر، وهو مصدر ميميٌّ من أرساه: إذا أثبتَه وأقرَّه، أي: متى إثباتُها وتقريرُها، ولا يكاد يستعمل الإرساء إلا في الشيء الثقيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، ومنه مرساة السفن، ونسبتُه هنا إلى الساعة باعتبار تشبيه المعاني

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/٢٦٨.

(٢) الكشاف ٣/١٥٦.

(٣) من أمثالهم: أذلُّ من حمار قَبَّان، وهو دويِّبَّة صغيرة لازقة بالأرض، ذات قوائم كثيرة. المستقصى في أمثال العرب ١/ ١٣٣.

بالأجسام، وجوَّز بعضُهم أن يكون اسمَ زمان، ولا يَرِدُ عليه أنه يلزم أن يكون للزمانِ زمانٌ ـ وفي جوازه خلافُ الفلاسفة ـ لأنه يؤوَّل بـ : متى وقوع ذلك؟

والجملة: قيل: في محلِّ النصب على المفعولية به لقولٍ محذوف وقع حالاً من ضمير «يسألونك»، أي: يسألونك قائلين: أيَّان مرساها؟ وقيل: في محلِّ الجرِّ على البدلية عن «الساعة»، والتحقيقُ عند بعضٍ[(١)] جِلَّة المحقِّقين أن محلها النصبُ بنزع الخافض؛ لأنها بدلٌ من الجارِّ والمجرور لا من المجرور فقط.

وفي تعليق السؤال بنفس الساعة أولاً، وبوقت وقوعها ثانياً تنبيهٌ على أن المقصدَ الأصليَّ من السؤال نفسُها باعتبار حلولها في وقتها المعيَّن، [لا وقتها][(٢)] باعتبار كونه محلًّا لها، وما في الجواب، أعني قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ مخرَّجٌ على ذلك أيضاً، أي: إن علمَها بالاعتبار المذكور عنده سبحانه لا غير، فلا حاجة إلى أن يقال: إنما علمُ وقتِ إرسائها عنده عزَّ وجلَّ، وبعضُهم حيث غفل عن النكتةِ المشار إليها حَملَ النظمَ الجليل على حذف المضاف، وإليه يشير كلامُ أبي البقاء[(٣)].

ومعنى كون ذلك عنده عزَّ وجلَّ خاصَّةً: أنه استأثر به حيث لم يخبِرْ أحداً به، من ملك مقرَّب أو نبيٍّ مرسل. والتعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ؛ قيل: للإيذان بأن توفيقَه عليه الصلاة والسلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والإرشاد، وهو أولى مما سنشير إليه إن شاء الله تعالى.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ بيانٌ لاستمرار خفائها إلى حين قيامها، وإقناطٌ كليٌّ عن إظهار أمرها بطريق الإخبار.

والتجليةُ: الكشفُ والإظهار، واللام لامُ التوقيت، واختُلف فيها: فقيل: هي بمعنى في، وقال ابنُ جِنِّي: هي بمعنى عند، وقال الرضيُّ[(٤)]: هي اللامُ المفيدة

---

(١) قوله: بعض، ليس في الأصل، والمثبت من (م).
(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٠، والكلام منه.
(٣) في إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٨٥.
(٤) في شرحه على الكافية ٣/ ٣١٢.

للاختصاص، وهو على ثلاثة أضرب: إما أن يختصَّ الفعل بالزمان لوقوعه فيه، ك: كتبتُ لغرَّة كذا، أو لوقوعه بعده، نحو: لخمسٍ خَلَون، أو قبله، نحو: لليلةٍ بقيت، ومع الإطلاق يكون الاختصاصُ لوقوعه فيه، وإلا فحسب القرينة، وفسَّرها هنا غير واحد بفي.

والمعنى: لا يَكْشِفُ عنها ولا يُظْهِرُ للناس أمرَها الذي تسألون عنه إلا الربُّ سبحانه بالذات، من غير أن يشعر به أحدٌ من المخلوقين، فيتوسَّط في إظهاره لهم، لكن لا بأن لا يخبرهم بوقتها كما هو المسؤول، بل بأن يُقيمَها فيعلموها على أتمِّ وجهٍ.

والجارُّ والمجرور متعلِّق بالتجلية، وهو قيدٌ لها بعد ورود الاستثناء، كأنه قيل: لا يجلِّيها إلا هو في وقتها، إلا أنه قُدِّم للتنبيه من أول الأمر على أن تجلِّيها ليس بطريق الإخبار بوقتها، بل بإظهار عينها في وقتها الذي يسألون عنه.

وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ ـ كما قبلَه ـ مقرِّرٌ لما سبق، والمراد: كبُرت وعظُمت على أهلهما حيث لم يعلموا وقتَ وقوعها. وعن السدِّيِّ أنَّ من خفي عليه علمُ شيء كان ثقيلاً عليه.

وعن قتادة أن المعنى: عظُمت على أهل السماوات والأرض، حيث يُشفقون منها، ويخافون شدائدَها. وفي رواية أخرى عنه أن المراد: ثقُل علمُها عليهم فلا يعلمونها، ويرجع إلى ما ذُكر أولاً.

وقيل: المعنى: ثقُلت عند الوقوع على نفس السماوات حتى انشقَّت، وانتثرت نجومُها، وكوِّرت شمسُها، وعلى نفس الأرض حتى سُيِّرت جبالُها، وسجِّرت بحارُها، وكان ما كان فيها، وإلى ذلك يشير ما رُوي عن ابن جُرَيج، وعليه فلا يحتاج إلى تقدير مضاف.

وكلمةُ «في» على سائر الأوجه استعارةٌ منبِّهة على تمكُّن الفعل كما لا يخفى.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: إلا فجأةً على حين غفلة.

أخرج الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «لَتقومَنَّ الساعةُ وقد نَشَر رجلان ثوبَهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومَنَّ الساعةُ وقد انصرفَ

الرجل بلبن لِقْحَتِه، فلا يَطْعَمُه، ولتقومَنَّ الساعةُ وهو يُلِيْطُ حوضَه، فلا يسقي فيه، ولتقومَنَّ الساعةُ وقد رفع أكلتَه إلى فيه فلا يَطْعَمُها»[١].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالمٌ بها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما أخرجه عنه ابن المنذر وغيرُه، فـ «حفيٌّ» فعيلٌ من حفي عن الشيء: إذا بحث عن تعرُّف حاله. وذكر بعضُهم أن الحفاوةَ في الأصل: الاستقصاءُ في الأمر للاعتناء به، قال الأعشى[٢]:

فـإن تـسـألـوا عـنِّـي فـيـارُبَّ سـائـلٍ ... حَفيٌّ عن الأعشى به حيث أَصْعَدا

ومنه إحفاءُ الشارب، وتطلق أيضاً على البِرِّ واللُّطف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

والمعنى المراد هنا متفرِّع على المعنى الأول؛ لأن مَنْ بحث عن شيء وسأل عنه استحكم علمُه به، فأُريد به لازمُ معناه مجازاً أو كناية، وعُدِّي الوصف بـ «عن» اعتباراً لأصل معناه، وهو السؤال والبحث، وقيل: لأنَّه ضُمِّن معنى الكشف، ولولا ذلك لعُدِّي بالباء. وجوَّز أبو البقاء[٣] أن تكون «عن» بمعنى الباء، وروي عن الحَبْر وابن مسعود أنهما قرأا بهما[٤].

والجملةُ التشبيهية في محل نصبٍ على أنها حالٌ من مفعول «يسألونك»، أي: مشبَّهاً حالُك عندهم بحال مَنْ هو حفيٌّ.

وقيل: إن «عنها» متعلِّق بـ «يسألونك»، والجملةُ التشبيهية معترضةٌ، وصلة «حفيٌّ» محذوفةٌ، أي: بها، أو بهم بناءً على ما قيل: إن حَفِيَ من الحفاوة بمعنى الشفقة؛ فإن قريشاً قالوا له عليه الصلاة والسلام: إن بيننا وبينك قرابةً، فقل لنا متى

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٦)، وصحيح مسلم (٢٩٥٤)، وأخرجه أحمد (٨٨٢٤). قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث: ألاط حوضه: إذا مدره، أي: جمع حجارة، فصيرها كالحوض، ثم سد ما بينها من الفرج بالمدر ونحوه لينحبس الماء، هذا أصله، وقد يكون للحوض خروق فيسدها بالمدر قبل أن يملأه.

(٢) ديوانه ص١٨٥.

(٣) إملاء ما من به الرحمن ٣/ ٨٦.

(٤) قراءة ابن عباس في المحتسب ١/ ٢٦٩، وقراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص٤٧.

الساعة؟ ورُوي ذلك عن قتادة وتَرْجُمان القرآن أيضاً، والمعنى عليه أنهم يظنون أنَّ عندك علمَها لكن تكتُمُه، فلشفقتك عليهم طلبوا منك أن تخصَّهم به، وتعلُّقُ «عن» على هذا الوجه بمحذوفٍ ـ كتخبرهم وتكشف لهم عنها ـ بعيدٌ.

وقيل: هو من حفي بالشيء: إذا فرِحَ به، ورُوي ذلك عن مجاهد والضحَّاك وغيرهما، والمعنى: كأنك فَرِحٌ بالسؤال عنها تُحبُّه، و«عن» على هذا متعلِّقةٌ بـ «حفي» كما قيل؛ لتضمُّنه معنى السؤال، والكلامُ ـ على ما قال شيخُ الإسلام ـ استئنافٌ مسوقٌ لبيان خطئهم في توجيه السؤال إلى رسول الله ﷺ بناءً على زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام عالم بالمسؤول عنه، أو أنَّ العلم بذلك من مقتضيات الرسالة، إثرَ بيان خطئهم في أصل السؤال بإعلام بيانِ المسؤول عنه(١).

وفي «الانتصاف» في توجيه تكرير «يسألونك»: أنَّ المعهود في أمثال ذلك أن الكلام إذا بُني على مقصدٍ، واعترض في أثنائه عارضٌ، فأريد الرجوع لتتمة المقصد الأول، وقد بَعُدَ عهدُه، طَرى ذِكْره لتتَّصل النهايةُ بالبداية، وهنا لما ابتدأ الكلام بقوله سبحانه: «يسألونك عن الساعة أيَّان مُرْساها»، ثم اعتَرَض ذِكْر الجواب بـ «قل» إلى «بغتة»، أُريد تتمَّة سؤالهم عنها بوجهٍ من الإنكار عليهم، وهو المضمَّنُ في قوله سبحانه: «كأنك حفيٌّ عنها»، وهو شديدُ التعلُّق بالسؤال، وقد بَعُدَ عهدُه، فطرى ذِكْرُهُ لِيَليه تمامُه، ولا تراه أبداً يطرى إلا بنوع من الإجمال، ومن ثَمَّ لم يذكر المسؤول عنه وهو الساعة اكتفاءً بما تقدَّم.

ثم لما كرَّر جلَّ وعلا السؤال لهذه الفائدة كرَّرَ الجواب أيضاً مجمَلاً، فقال عزَّ من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾(٢). ومنه يُعلم وجهُ ذِكْر الاسم الجليل هنا.

وذكر المحقِّقُ الأولُ أنه عليه الصلاة والسلام أُمر بإعادة الجواب الأول تأكيداً للحكم، وتقريراً له، وإشعاراً بعلَّته على الطريقة البرهانية بإيراد اسم الذاتِ المنبئ عن استتباعِها لصفات الكمال التي من جملتها العلمُ، وتمهيداً للتعريض بجهلهم بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٠.
(٢) الانتصاف ٢/ ١٣٤.

وزعم الجبائيُّ أن السؤال الأول كان عن وقتِ قيام الساعة، وهذا السؤالُ كان عن كيفيتها وتفصيل ما فيها من الشدائد والأحوال، قيل: ولذلك خُصَّ جوابُه باسم الذات؛ إذ هو أعظمُ الأسماء مهابةً، وإلى ذلك ذهب النيسابوريُّ[1]، ونُقل عن الإمام[2] وغيره، ولا أرى لهم مستنداً في ذلك.

ومفعول العلم ـ على ما يشير إليه كلامُ بعضهم ـ محذوفٌ، أي: لا يعلمون ما ذُكر من اختصاص علمِها به تعالى، فبعضُهم يُنكرها رأساً، فلا يسأل عنها إلا متلاعباً، وبعضُهم يعلم أنها واقعةٌ البتَّةَ، ويزعم أنك واقفٌ على وقت وقوعها، فيسأل جهلاً، وبعضُهم يزعم أن العلم بذلك من مقتضيات الرسالة، فيتَّخذ السؤالَ ذريعةً إلى القدح فيها، والواقفُ على جَلِيَّة الحال ويسأل امتحاناً ملحَقٌ بالجاهلين؛ لعدم عمله بعلمه هذا.

وإنما أَخفى سبحانه أمرَ الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك؛ فإنه أدعى إلى الطاعة، وأزجَرُ عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاصِّ للإنسان كذلك، ولو قيل بأن الحكمة التكوينية تقتضي ذلك أيضاً لم يَبْعُد.

وظاهرُ الآيات أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم وقتَ قيامها. نعم عَلِمَ عليه الصلاة والسلام قُرْبَها على الإجمال، وأَخبر ﷺ به؛ فقد أخرج الترمذيُّ ـ وصحَّحه ـ عن أنس مرفوعاً: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين». وأشار بالسَّبَّابة والوسطى[3]، وفي الصحيحين[4] عن ابن عمر مرفوعاً أيضاً: «إنما أجلُكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس».

وجاء في غير ما أثر أنَّ عمر الدنيا سبعةُ آلاف سنة، وأنه عليه الصلاة والسلام بُعِثَ في آخر الألف السادسة، ومعظم الملَّة في الألف السابعة.

---

(١) في غرائب القرآن ٩/ ٩٩.
(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٨٢.
(٣) سنن الترمذي (٢٢١٤)، وأخرجه أحمد (١٢٢٤٥)، والبخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) (١٣٤).
(٤) صحيح البخاري (٥٠٢١)، ولم نقف عليه في صحيح مسلم، وأخرجه كذلك أحمد (٥٩١١).

وأخرج الجلال السيوطيُّ عدةَ أحاديث في أنَّ عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وذكر أن مدَّة هذه الأمة تزيد على ألف سنة، ولا تبلغ الزيادةُ عليها خمس مئة سنة، واستدلَّ على ذلك بأخبارٍ وآثار ذكرها في رسالته المسماة بـ «الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف»[1]، وسمَّى بعضُهم لذلك هذه الألف الثانية بالمخضرمة؛ لأن نصفَها دنيا ونصفَها الآخر أُخرى، وإذا لم يظهر المَهْديُّ على رأس المئة التي نحن فيها ينهدِمُ جميع ما بناه كما لا يخفى على من راجعه، وكأني بك تراه منهدماً.

ونقل السَّفارينيُّ عن الفلاسفة أنهم زعموا أن تدبير العالم الذي نحن فيه للسنبلة، فإذا تمَّ دورها وقع الفسادُ والدثور في العالم، فإذا عاد الأمر إلى الميزان تجتمع المواد ويقدَّر النُّشور والعَود.

وقال البَكريُّ: إن سلطان الحَمَل عندهم اثنا عشر ألف سنة، وسلطان الثور دونه بألف، وهكذا ينقُصُ ألفٌ ألفٌ إلى الحوت، فيكون سلطانُه ألفَ سنة، ومجموع ذلك ثمانيةٌ وسبعون ألف سنة، فإذا كَمُلت انقضى عالمُ الكون والفساد، ونقل ذلك عن هرمس، وادعى أنه قال: إنه لم يكن في حكم الحَمَل والثور والجوزاء على الأرض حيوانٌ، فلما كان حكم السَّرَطان تكوَّنت دوابُّ الماء وهوامُّ الأرض، ولما كان حكم الأسد تكوَّنت الدوابُّ ذوات الأربع، ولما كان حكم السُّنبلة تولَّد الإنسانان الأوَّلان: آدمانوس، وحوانوس.

وزعم بعضُهم أن مدةَ العالم مقدارُ قطع الكواكب الثابتة لدرج الفلك، والكوكبُ منها يقطع البرج في زعمه في ثلاثة آلاف سنة، فذلك ستٌّ وثلاثون ألف سنة. انتهى.

ولا يخفى على من اطَّلع على كتب الأرصاد والزِّيجات أن الأدوار عندهم ثلاثةٌ: أكبر، وأوسط، وأصغر، ويُسمُّونها التسييرات، وهي على السوية في جميع البروج، فالدور الأكبر ما يكون فيه قطعُ كلِّ درجة بمئة سنة، والأوسط ما يكون فيه قطع كلِّ درجة بعشر سنين، والأصغر ما يكون فيه قطعُ كلِّ درجة بسنة، وعندهم

(١) وهي موجودة ضمن كتاب الحاوي للفتاوي ٢/ ١٦٨.

دورٌ أعظم، ويُسمُّونه أيضاً التسيير الأعظم، وهو ما يكون فيه قطعُ كلٍّ درجة بألف سنة، والتسيير اليوم في الميزان، وقد مضى منه أربعُ درجات، وستٌّ وخمسون دقيقة، وإحدى وثلاثون ثانية، واثنتا عشرة ثالثة، وإذا اعتُبرت مدةُ ذلك من نقطة رأس الحَمَل إلى هنا بلغت مئة ألف سنة، وأربعاً وثمانين ألف سنة، وتسع مئة وثلاثاً وأربعين سنة، وأن مدَّة حركة الثوابت ـ على ما نُقل عن بطليموس[1] ـ في كلِّ برج ألفان ومئة واثنتان وستون سنة، وثمانية أشهر، وستة عشر يوماً، وتسع عشرة ساعة، وإذا ضُرب ذلك في اثني عشر عدَّة البروج خرج مدةُ قطعها الفَلَك كلَّه، وهو أقل مما ذكره بكثير، ولعل المراد بدور البرج ما أُريد بسلطانه من حكم تأثيره، والتأثيرُ العاديُّ ـ على ما يُفهم من كتب القوم ـ بحكم الأصالة للبرج، وهو الذي يُفيض على الكوكب النازل فيه.

وكلُّ ذلك مما لم يُنزل الله تعالى به سلطاناً، والحقُّ الذي لا ينبغي المحيصُ عنه القولُ بحدوث العالم حدوثاً زمانيًّا، ولا يَعلم أوَّلَه إلا الله تعالى. وكذلك عمر الدنيا، وأولُ النشأة الإنسانية، ومدَّة بقائها في هذا العالم، وقدر زمان لُبْثها في البرزخ، كلُّ ذلك لا يعلمُه إلا الله تعالى، وجميعُ ما ورد في هذا الباب أمورٌ ظنية لا سندَ يعوَّلُ عليه لأكثرها، ووراء هذا أقوالٌ لأهل الصين وغيرهم هي أدهى وأمرُّ مما تقدَّم.

وبالجملة: الباقي من عمر الدنيا عند من يقول بفنائها أقلّ قليل بالنسبة إلى الماضي من ذلك، والله تعالى أعلمُ بحقيقة ما هنالك.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا أملك لأجلِ نفسي جلبَ نفعٍ ما، ولا دفعَ ضررٍ ما.

والجارُّ والمجرور ـ كما قال أبو البقاء[2] ـ إمَّا متعلِّقٌ بـ «أملك»، أو بمحذوف وقع حالاً من «نفعاً». والمرادُ: لا أملك ذلك في وقت من الأوقات.

---

(١) هو العالم اليوناني الفلكي بطليموس القلوذي صاحب المجسطي وغيره. طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص٣٥، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٦٧.

(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٨٦.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا وقتَ مشيئته سبحانه بأن يمكِّنَني من ذلك؛ فإنني حينئذٍ أملكُه بمشيئته، فالاستثناء متَّصلٌ، وفيه دليلٌ ـ كما قال الشيخ إبراهيم الكُورانيُّ ـ على أن قدرةَ العبد مؤثِّرة بإذن الله تعالى ومشيئته.

وقيل: الاستثناءُ منقطع، أي: لكن ما شاء الله تعالى من ذلك كائنٌ، وفيه على هذا من إظهار العجز ما لا يخفى، والكلامُ مسوقٌ لإثبات عَجْزه عن العلم بالساعة على أتمِّ وجهٍ. وإعادةُ الأمر لإظهار العناية بشأن الجواب، والتنبيهِ على استقلاله ومغايرته للأول.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ الذي من جملته ما بين الأشياء من المناسبات المصحِّحة عادةً للسَّببية والمسبَّبية، ومن المباينات المستتبِعة للمدافعة والمُمانعة، ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لحصَّلتُ كثيراً من الخير الذي نِيْطَ بترتيب الأسباب ورفع الموانع.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: السوء الذي يمكنُ التَّفَصِّي عنه بالتوقِّي عن موجباته، والمدافعة بموانعه، وإن كان منه ما لا مَدْفَعَ له، وكأنَّ عدم مسِّ السوء من توابع استكثار الخير في الجملة، ولذا لم يسلك في الجملة الثانية مسلكَ الجملة الأُولى، والاستلزامُ في الشرطية لا يلزمُ أن يكون عقليًّا وكليًّا، بل يكفي أن يكون عاديًّا في البعض. وقد حكم غيرُ واحدٍ أنه في الآية من العاديِّ، وبذلك دفع الشِّهاب ما قيل: إن العلم بالشيء لا يلزم منه القدرةُ عليه[1]، ومنشؤه الغفلةُ عن المراد.

وحَمْلُ «الخير» و«السوء» على ما ذُكر هو الذي ذهب إليه جِلَّة المحقِّقين، وفسَّر بعضُ الأول بالربح في التجارة، والفوز بالخصب، والثاني بضدِّ ذلك، بناءً على ما رُوي عن الكلبيِّ أن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا تخبِرُنا بالسِّعر الرخيص قبل أن يغلو؛ فنشتري فنربح، وبالأرض التي تريد أن تُجدِبَ فنرتحل منها إلى ما قد أخصب، فنزلت.

وعن ابن عباس ﵄ تفسيرُ الأول بالربح في التجارة، والثاني بالفقر.

وقيل: الأول: الجواب عن السؤال، والثاني: التكذيب.

---

(١) حاشية الشهاب ٤/ ٢٤٣.

وقيل: الأول: الاشتغال بدعوة من سَبَقت له السعادةُ، والثاني: النَّصَبُ الحاصلُ من دعوة من حقَّت عليه كلمةُ العذاب.

وقيل ـ ونُسب إلى مجاهد وابن جُرَيج ـ: المراد من «الغيب» الموت، ومن «الخير» الإكثار من الأعمال الصالحة، ومن «السُّوء» ما لم يكن كذلك.

وقيل غير ذلك، والكلُّ كما ترى، ومنها ما لا ينبغي أن يُخرج عليه التنزيل.

وقدَّم ذِكْر «الخير» على ذكر «السُّوء» لمناسبة ما قبلُ، حيث قدَّم فيه ذِكْر النفع على ذِكْر الضُّرِّ، وسلك في ذكرهما هناك كذلك مسلك الترقِّي على ما قيل؛ فإن دفع المضارِّ أهمُّ من جلب المنافع.

وذكر النيسابوريُّ[1] أن أكثر ما جاء في القرآن إذ يؤتى بالضرِّ والنفع معاً تقديم لفظ الضرِّ على النفع، وهو الأصل؛ لأن العابد إنما يعبُدُ معبودَه خوفاً من عقابه أولاً، ثم يعبُدُه طمعاً في ثوابه ثانياً، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦]، وحيث تقدَّم النفعُ على الضرِّ كان ذلك لسَبْق لفظِ تضمَّن معنى نفع كما في هذه السورة؛ حيث تقدَّم آنفاً لفظُ الهداية على الضلال[2] في قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ﴾ إلخ [١٧٨]، وفي «الرعد» تقدَّم ذِكْر الطوع في قوله سبحانه: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [١٥] وهو نفعٌ، وفي «الفرقان» تقدَّم العَذْب في قوله جلَّ وعلا: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [٥٣] وهو نفع، وفي «سبأ» تقدَّم البسط في قوله تبارك اسمُه: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[3] وليُقَسْ على هذا غيرُه.

وابن جُرَيج يفسِّر النفع هنا بالهدى، والضرَّ بالضلال، وبه تَقْوَى نكتةُ التقديم التي اعتبرها هذا الفاضلُ فيما نحن فيه كما لا يخفى.

---

(١) في غرائب القرآن ٩/١٠١.

(٢) في الأصل: الضلالة.

(٣) كذا نقل المصنف عن النيسابوري، وليس في «سبأ» آية بهذا السياق، وإنما هو سياق آية «الرعد» (٢٦)، وآية «الروم»: (٣٧)، و«الزمر» (٥٢)، وأما «سبأ»: فسياق الآية (٣٦) منها: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وهي كسابقاتها في صحة الاستدلال بها على ما ذكر.

واستُشكلت هذه الآيةُ مع ما صحَّ أنه ﷺ أخبرنا بالمغيَّبات الجَمَّة، وكان الأمر كما أَخْبَرَ، وعُدَّ ذلك من أعظم معجزاته عليه الصَّلاة والسلام، واختُلف في الجواب؛ فقيل: المفهومُ من الآية نفيُ علمه عليه الصَّلاة والسلام إذ ذاك بالغيب المفيد لجَلْب المنافع ودفع المضارِّ التي لا علاقةَ بينها وبين الأحكام والشرائع، وما يعلمُه ﷺ من الغيوب ليس من ذلك النوع، وعدمُ العلم به ممَّا لا يَطعنُ في منصبه الجليل عليه الصلاة والسلام.

وقد أخرج مسلم عن أنس وعائشة رضي الله عنهما أنه ﷺ مرَّ بقوم يُلَقِّحون، فقال عليه الصَّلاة والسلام: «لو لم تفعلوا لصَلُحَ»، فلم يفعلوا، فخرج شِيْصاً، فمرَّ بهم ﷺ فقال: «ما لقحتم؟» قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1].

وفي رواية أخرى له أنه عليه الصلاة والسلام قال حين ذُكر له أنه صار شِيْصاً: «إن كان شيء من أمر دنياكم فشأنكم، وإن كان من أمر دينكم فإليَّ»[2].

وقد عُدَّ عدمُ علمه ﷺ بأمر الدنيا كمالاً في منصبه؛ إذ الدنيا بأسرها لا شيء عند ربه.

وقيل: المراد نفيُ استمرار علمه عليه الصلاة والسلام الغيبَ، ومجيءُ كان للاستمرار شائعٌ، ويُلاحظ الاستمرارُ أيضاً في الاستكثار وعدم المسِّ.

وقيل: المرادُ بالغيب وقتُ قيام الساعة؛ لأنَّ السؤال عنه، وهو عليه الصلاة والسلام لم يعلَمْه، ولم يُخبرْ به أصلاً، وحينئذٍ يفسَّر «الخير» و«السوء» بما يلائمُ ذلك، كتعليم السائلين، وعدم الطعن في أمر الرسالة من الكافرين.

وقيل: «أل» في «الغيب» للاستغراق، وهو عليه الصلاة والسلام لم يعلم كلَّ غيب؛ فإن من الغيب ما تفرَّد الله تعالى به، كمعرفة كُنْهِ ذاته تبارك وتعالى، وكمعرفة وقتِ قيام الساعة على ما تدلُّ عليه الآية.

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٦٣).

(٢) لم نقف على هذه الرواية عند مسلم، وأخرجها أحمد من حديث أنس (١٢٥٤٤)، ومن حديث عائشة (٢٤٩٢٠).

وفي «لباب التأويل» للخازن في الجواب عن ذلك أنه يحتملُ أن يكون هذا القولُ منه عليه الصلاة والسلام على سبيل التواضع والأدب، والمعنى: لا أعلم الغيب إلا أن يُطلعني الله تعالى عليه ويقدِّرَه لي، ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يُطلعه الله تعالى على الغيب، فلما أطلعه أخبَرَ به، أو يكون خرَجَ هذا الكلامُ مخرجَ الجواب عن سؤالهم، ثم بعد ذلك أظهره الله تعالى على أشياء من المغيَّبات [فأخبر عنها]؛ ليكون ذلك معجزةً له، ودلالة على صحة نبوَّته ﷺ. انتهى[1]. وفيه تأمُّل، وكلامُ بعض المحقِّقين يشير إلى ترجيح الأول.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ على ذلك: ما أنا إلا عبدٌ مرسَل للإنذار والبِشارة، وشأني حيازةُ ما يتعلَّق بهما من العلوم، لا الوقوفُ على الغيوب التي لا علاقة بينها وبينهما، وقد كشفتُ من أمر الساعة ما يتعلَّق به الإنذار؛ من مجيئها لا محالةَ واقترابِها، وأما تعيينُ وقتها فليس مما يستدعيه الإنذار، بل هو مما يقدَحُ فيه؛ لما مرَّ من أن إبهامَه أدعى إلى الطاعة، وأزجَرُ عن المعصية، وتقديمُ النذير لأن المقامَ مقامُ الإنذار.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾ أي: يصدِّقون بما جئتُ به. والجارُّ إما متعلِّق بالوصفين جميعاً، والمؤمنون ينتفعون بالإنذار كما ينتفعون بالتبشير، وإما متعلِّق بالأخير، ومتعلَّق الأول محذوفٌ، أي: نذيرٌ للكافرين، وحُذِف ليطهر اللسان منهم.

وأراد بعضُهم من الكافرين: المستمرِّين على الكفر، ومِنْ مقابِلهم: الذين يؤمنون في أيِّ وقت كان، وحينئذٍ في الآية ترغيبٌ للكفرة في إحداث الإيمان، وتحذيرٌ عن الإصرار على الكفر والطغيان.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ استئنافٌ لبيان ما يقتضي التوحيد الذي هو المقصدُ الأعظم، وإيقاعُ الموصول خبراً لتفخيم شأن المبتدأ، أي: هو سبحانه ذلك العظيمُ الشأن الذي خلقكم جميعاً وحدَه من غير أن يكون لغيره في ذلك مدخلٌ أصلاً.

﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام على ما نصَّ عليه الجمهورُ. ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي: من جنسها كما في قوله سبحانه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ

(١) تفسير الخازن ٢/ ٣٢٣، وما بين حاصرتين منه.

أَزْوَٰجًا﴾ [الشورى:١١]، فـ «من» ابتدائية، والمشهور أنَّها تبعيضيةٌ، أي: من جسدها؛ لما يُروى أنه سبحانه خلق حواء من ضِلَع آدم اليسرى، والكيفيةُ مجهولةٌ لنا، ولا يُعجِزُ اللهَ تعالى شيء.

والفعلُ معطوف على صلة الموصول، داخلٌ في حكمها، ولا ضير في تقديم مضمونه على مضمون الأول وجوداً؛ لما أن الواو لا تستدعي الترتيب فيه، وهو إما بمعنى صيَّر، فقولُه سبحانه: ﴿زَوْجَهَا﴾ مفعولُه الأول، والثاني هو الظرف المقدَّم، وإما بمعنى أنشأ، والظرفُ متعلِّقٌ به، قُدِّم على المفعول الصريح لِمَا مرَّ مراراً، أو بمحذوفٍ وقع حالاً من المفعول.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ علَّة غائيَّة للجعل، أي: ليستأنس بها ويطمئنَّ إليها، والضمير المستكِنُّ للنفس، وكان الظاهر التأنيث لأن النفس من المؤنَّثات السماعية، ولذا أُنِّثت صفتُها، إلا أنه ذُكِّر باعتبار أن المراد منها آدم، ولو أُنِّث على الظاهر لَتُوُهِّم نسبةُ السكون إلى الأنثى، والمقصود خلافُه، وذكر الزمخشريُّ أن التذكير أحسنُ طباقاً للمعنى[(١)]، وبيَّنه في «الكشف» بأنه لما كان السكون مفسَّراً بالميل، وهو متناولٌ للميل الشهواني الذي هو مقدمة التغشِّي، لا سيَّما وقد أُكِّد بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾، والتغشِّي منسوبٌ إلى الذَّكر لا محالة = كان الطباقُ في نسبته أيضاً إليه، وإن كان من الجانبين، وفيه إيماءٌ إلى أن تكثير النوع علةُ المؤانسة كما أن الوحدة علَّة الوحشة، وأيضاً لما جُعل المخلوق أولاً الأصلَ كان المناسبُ أن يكون جعل الزوج لسكونه بعد الاستيحاش لا العكس؛ فإنه غيرُ ملائم لفظاً ومعنى، لكن ذكر ابنُ الشِّحنة أن النفس إذا أُريد بها الإنسان بعينه فمذكَّر، وإن كان لفظُه لفظ مؤنَّث، وجاء: ثلاثة أنفس، على معنى: ثلاثة أشخاص، وإذا أُريد بها الروح فهي مؤنَّثة لا غير، وتصغيرُها نفيسة، فليفهم.

والضميرُ المنصوب من «تغشَّاها» للزوج، وهو بمعنى الزوجة مؤنَّث، والتغشِّي كنايةٌ عن الجماع، أي: فلما جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي: محمولاً خفيفاً، وهو الجنين عند كونه نطفةً أو علقة أو مضغة؛ فإنه لا ثِقَلَ فيه بالنسبة إلى ما بعد ذلك من الأطوار، فنصب «حملاً» على أنه مفعول به، وهو بفتح الحاء: ما كان في

(١) الكشاف ٢/ ١٣٦.

بطنٍ أو على شجرٍ، وبالكسر خلافُه، وقد حُكي في كلٍّ منهما الكسرُ والفتح. وجُوِّز أن يكون هنا مصدراً منصوباً على أنه مفعولٌ مطلق، وأن يُراد بالخِفَّة عدمُ التأذِّي، أي: حملت حملاً خفَّ عليها، ولم تلقَ منه ما تلقى بعضُ الحوامل من حملهنَّ من الكَرْب والأذيَّة.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمرَّت به كما قرأ به ابنُ عباس والضحَّاك، والمراد: بقيت به كما كانت قبلُ، حيث قامت وقعدت، وأخذت وتركت، وهو معنًى لا غبار فيه، والقولُ بأنه من القلب ـ أي: فاستمرَّ بها حملُها ـ من القلب عند النقَّاد.

وقرأ أبو العالية وغيره: «مَرَتْ» بالتخفيف، فقيل: إنه مخفَّف مرَّت، كما يقال: ظَلْتُ في ظَلَلْتُ، وقيل: هو من المِرْية، أي: الشكِّ، أي: شكَّت في أمر حملها.

وقرأ ابنُ عَمرو والجَحْدريُّ: «فمارت»، من مارَ يَمُورُ: إذا جاء وذهب، فهي بمعنى قراءة الجمهور، أو هي من المِرْية كقراءة أبي العالية، ووزنه فاعلت، وحُذفت لامُه للساكنين[1].

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذات ثِقَل بكبر الحمل في بطنها، فالهمزة فيه للصَّيرورة، كقولهم: أَتْمَر وأَلْبَن، أي: صار ذا تمرٍ ولبن، وقيل: إنها للدخول في زمان الفعل، أي: دخلت في زمان الثِّقَل، كأصبح: دخل في الصباح، والأول أظهر. والمتبادِرُ من الثِّقَل معناه الحقيقيُّ، والتقابل بينه وبين المعنى الأول للخفَّة ظاهرٌ، وقد يُراد به الكرب ليقابل الخفَّة بالمعنى الثاني، لكن المتبادِر في الموضعين المعنى الحقيقيُّ.

وقرئ: «أُثقِلت» بالبناء للمفعول[2]، والهمزة للتعدية، أي: أثقلها حملُها.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾ أي: آدمُ وحواءُ عليهما السلام لمَّا خافا عاقبة الأمر، فاهتمَّا به، وتضرَّعا إليه عز وجل.

---

(١) القراءات السالفة في القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/ ٢٦٩-٢٧٠، والبحر ٤/ ٤٣٩، ولم يذكرها جميعاً غير أبي حيان في البحر. وقد تحرف ابن عَمرو ـ وهو عبد الله ـ إلى ابن عُمر في الأصل و(م).

(٢) القراءات الشاذة ص٤٨، والبحر ٤/ ٤٤٠.

﴿رَبَّهُمَا﴾ أي: مالكَ أمرِهما، الحقيقَ بأن يُخَصَّ به الدعاءُ. وفي هذا إشارةٌ إلى أنهما قد صدَّرا به دعاءهما، وهو المعهود منهما في الدعاء، ومتعلَّق الدعاء محذوفٌ؛ لإيذان الجملة القَسَمية به، أي: دَعَواه تعالى أن يؤتيَهما صالحاً، ووعدا بمقابلته الشكرَ على سبيل التوكيد القَسَميِّ، وقالا، أو قائلين: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: نسلاً من جنسنا سويًّا، وقيل: ولداً سليماً من فساد الخِلْقة، كنقص بعض الأعضاء ونحو ذلك، وعليه جماعة.

وعن الحسن: غلاماً ذكراً، وهو خلاف الظاهر.

﴿لَنَكُونَنَّ﴾ نحن، أو نحن ونسلُنا ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ الراسخين في الشكر لك على إيتائك، وقيل: على[1] نعمائك التي من جملتها هذه النعمة.

وجُوِّز أن يكون ضمير «آتيتنا» لهما ولكلِّ مَنْ يتناسل من ذرِّيتهما، وليس بذاك.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ وهو ما سألاه أصالةً من النسل، أو ما طلباه أصالةً واستتباعاً من الولد وولد الولد ما تناسلوا، ﴿جَعَلَا﴾ أي: النسلُ الصالح السَّوِيُّ، وثنَّى الضميرَ باعتبار أن ذلك النسلَ صنفان: ذكر وأنثى، وقد جاء أن حواء كانت تلد في كلِّ بطن كذلك. ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله سبحانه وتعالى ﴿شُرَكَآءَ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ من الأولاد؛ حيث أضافوا ذلك إليهم.

والتعبير بـ «ما» لأن هذه الإضافة عند الولادة، والأولادُ إذ ذاك ملحَقون بما لا يعقل.

وقيل: المراد بالموصول ما يعمُّ سائر النِّعم؛ فإن المشركين يَنسِبون ذلك إلى آلهتهم.

ووجهُ العدول عن الإضمار ـ حيث لم يقل: شركاء فيه ـ على الوجهين ظاهر، وإسنادُ الجَعْل إلى النسل على حدِّ: بنو تميم قتلوا فلاناً[2].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ تنزيهٌ فيه معنى التعجُّب، والفاءُ لترتيبه على ما فصِّل من قدرته سبحانه، وآثارِ نعمته الزاجرةِ عن الشِّرك، الداعيةِ إلى التوحيد.

---

(١) في الأصل: أو على، بدل: وقيل على.
(٢) يعني: وحقيقة الأمر أن القاتل بعضهم لا كلهم.

وضميرُ الجمع لأولئك النسل الذين جعلوا لله تعالى شركاءَ، وفيه تغليبُ المذكَّر على المؤنَّث، وإيذانٌ بعِظَم شِرْكهم، والمرادُ بذلك إما التسميةُ، أو مطلقُ الإشراك، و«ما» إما مصدريةٌ، أي: عن إشراكهم، أو موصولة، أو موصوفة، أي: عما يشركون به تعالى.

وهذه الآيةُ عندي من المُشكِلات، وللعلماء فيها كلامٌ طويل ونزاع عريض، وما ذكرناه هو الذي يشير إليه كلام الجُبَّائيِّ، وهو مما لا بأس به بعد إغضاء العين عن مخالفته للمرويَّات، سوى تثنيةِ الضمير تارةً وجَمْعِه أخرى، مع كون المرجع مفرداً لفظاً، ولم نجد ذلك في الفصيح.

واختار غيرُ واحد أن في «جعلا» و«آتاهما» بعدُ مضافاً محذوفاً، وضميرُ التثنية فيهما لآدم وحواء على طرْز ما قبل، أي: جعل أولادُهما فيما آتى أولادَهما من الأولاد، وإنما قدَّروه في موضعين، ولم يكتفوا بتقديره في الأول وإعادة الضمير من الثاني على المقدَّر أولاً؛ لأنَّ الحذف لم تقُمْ عليه قرينةٌ ظاهرة، فهو كالمعدوم، فلا يحسُنُ عَوْدُ الضمير عليه. والمراد بالشرك فيما آتى الأولاد تسميةُ كلٍّ واحد من أولادهم بنحو عبد العُزَّى وعبد شمس. واعتُرِض:

أولاً: بأن ما ذكر من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامَه، إنما يُصار إليه فيما يكون للفعل ملابسةٌ ما بالمضاف إليه أيضاً بسرايته إليه حقيقةً أو حكماً، ويتضمن نسبتُه إليه صورةً مزيةً يقتضيها المقام، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية [الأعراف:١٤١]؛ فإن الإنجاء منهم ـ مع أن تعلُّقه حقيقةً ليس إلا بأسلاف اليهود ـ قد نُسِبَ إلى أخلافهم بحكم سرايته إليهم؛ توفيةً لمقام الامتنان حقَّه، وكذا يقال في نظائره، وهنا ليس كذلك؛ إذ لا ريب في أن آدم وحواء عليهما السلام بريئان من سراية الجَعْل المذكور إليهما بوجهٍ من الوجوه، فلا وجهَ لإسناده إليهما صورةً.

وثانياً: بأن إشراكَهم بإضافة أولادهم بالعبودية إلى أصنامهم من لازم اتخاذ تلك الأصنام آلهة، ومتفرِّعٌ له، لا أمرٌ حدث عنهم لم يكن قبل، فينبغي أن يكون التوبيخُ على هذا دون ذلك.

وثالثاً: بأنَّ إشراك أولادهما لم يكن حين آتاهما الله تعالى صالحاً، بل بعده بأزمنةٍ متطاولة.

ورابعاً: بأنَّ إجراء «جعلا» على غير ما أُجري عليه الأول، والتعقيب بالفاء، يوجب اختلالَ النظم الكريم.

وأجيب عن الأول: بأن وجهَ ذلك الإسنادِ الإيذانُ بتركهما الأَولى - حيث أقدما على نظم أولادهما في سلك أنفسهما، والتزما شكرَهم في ضمن شكرهما، وأقسما على ذلك قبل تعرُّف أحوالهم - ببيان أن إخلالهم بالشكر الذي وعداه وعداً مؤكَّداً باليمين بمنزلة إخلالهما بالذات في استيجاب الحِنْث والخُلْف، مع ما فيه من الإشعار بتضاعُفِ جنايتهم ببيان أنهم بجعلهم المذكور أوقعوهما في ورطة الحِنْث والخُلْف، وجعلوهما كأنهما باشراه بالذات، فجمعوا بين الجِناية مع[1] الله تعالى والجِناية عليهما عليهما السلام.

وعن الثاني: بأن المقام يقتضي التوبيخَ على هذا؛ لأنَّه لما ذكر ما أنعم سبحانه وتعالى به عليهم من الخلق من نفسٍ واحدة وتناسُلِهم، وبَّخَهم على جهلهم، وإضافتهم تلك النعمَ إلى غير معطيها، وإسنادِها إلى مَنْ لا قدرَةَ له على شيء، ولم يذكر أولاً أمراً من أمور الألوهية قصداً حتى يوبَّخوا على اتخاذ الآلهة.

وعن الثالث: بأن كلمة «لما» ليست للزمان المتضايق، بل الممتدِّ، فلا يلزم أن يقع الشرطُ والجزاء في يوم واحد، أو شهر، أو سنة، بل يختلف ذلك باختلاف الأمور، كما يقال: لما ظهر الإسلامُ طَهُرت البلادُ من الكفر والإلحاد.

وعن الرابع: بما حرَّره صاحب «الكشف» في اختيار هذا القول، وإيثاره على القول بأن الشرك راجعٌ لآدم وحواء عليهما السلام، وليس المتعارف، بل ما نُقل من تسمية الولد عبد الحارث[2] وهو أن الظاهر أن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ خطابٌ لأهل مكَّة، وأنه بعد ما خُتمت قصةُ اليهود بما خُتمت

---

(١) في تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٤ (والكلام منه): على، بدل: مع.

(٢) وردت في تسمية آدم وحواء ابنهما عبد الحارث أخبار تنظر في تفسير الطبري ١٠/ ٦٢٣- ٦٢٨، وقال ابن كثير: وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب. وينظر تتمة كلامه عند تفسير هذه الآية فإنه تحقيق جيد.

تسليةً وتشجيعاً للنبيِّ ﷺ، وحملاً له على التثبُّت والصبر اقتداءً بإخوته من أُولي العزم عليه وعليهم الصلاةُ والسلام، لاسيَّما مصطفاه وكليمه موسى عليه السلام؛ فإن ما قاساه من بني إسرائيل كان شديد الشَّبَه بما كان يقاسيه ﷺ من قريش، وذُيِّلت بما يقتضي العطفَ على المعنى الذي سيق له الكلام أولاً، أعني قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ = وقع التخلُّص إلى ذِكْر أهل مكة في حاقِّ موقعه، فقيل: «والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم» وذكرِ سؤالهم عما لا يعنيهم، فلما أُريد بيان أن ذلك مما لا يهمُّكم، وإنما المهمُّ إزالةُ ما أنتم عليه منغمسون فيه من أوضار الشِّرك والآثام مَهَّدَ له: «هو الذي خلقكم» مضمَّناً معنى الامتنان والمالكية المقتضِيَين للتوحيد والعبودية، ثم قيل: «فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء»، أي: جعلتُم يا أولادَهما، ولقد كان لكم في أبويكم أسوةٌ حسنة في قولهما: «لئن آتيتنا صالحاً لنكوننَّ من الشاكرين».

وكأنَّ المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ: فلما آتاهما صالحاً، ووَفَيَا بما وعدا به ربَّهما من القيام بموجب الشكر، خالفتُم أنتم يا أولادهما، فأشركتُم وكفرتُم النعمة.

وفي هذا الالتفات، ثم إضافةِ فعلهم إلى الأبوين على عكس ما جعل ـ من خلق الأب، وتصويره في معرض الامتنان ـ متعلِّقاً بهم = إيماءٌ إلى غاية كفرانهم وتماديهم في الغيِّ، وعليه ينطبقُ قوله سبحانه: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ثم قال: فظهر أن إجراء «جعلا له» على غير ما أُجري عليه الأول والتعقيبَ بالفاء لا يوجبُ اختلالَ النظم، بل يوجب التئامَه. اهـ.

والإنصافُ أن الأسئلة قويةٌ، والآيةُ على هذا الوجه من قبيل اللُّغز.

وعن الحسن وقتادة أن ضمير «جعلا» و«آتاهما» يعودُ على النفس وزوجِها من ولد آدم، لا إلى آدم وحواء عليهما السلام، وهو قول الأصمِّ، قال: ويكون المعنى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: خلق كلَّ واحدٍ منكم من نفس واحدة، وخلق لكلِّ نفسٍ زوجاً من جنسها، فلما تغشَّى كلَّ نفسٍ زوجُها حملتْ حملاً خفيفاً، وهو ماءُ الفحل، فلما أثقلت بمصير ذلك الماءِ لحماً ودماً وعظماً دعا الرجلُ والمرأةُ ربَّهما: «لئن آتيتنا صالحاً» أي: ذَكَراً سويًّا «لنكوننَّ من

الشاكرين»، وكانت عادتُهم أن يئدوا البنات، «فلما آتاهما» أي: فلما أعطى الله تعالى الأبَ والأمَّ ما سألاه «جعلا له شركاء»، فسمَّيا عبدَ اللّات، وعبد العُزَّى، وغير ذلك. ثم رجعت الكناية في قوله سبحانه وتعالى: «فتعالى الله عما يشركون» إلى الجميع، ولا تعلُّق للآية بآدم وحواء عليهما السلام أصلاً. ولا يخفى أن المتبادِرَ من صدرها آدم وحواء، ولا يكاد يُفهم غيرُهما رأساً.

نعم اختار ابنُ المنير ما مآلُه هذا في «الانتصاف»، وادَّعى أنه أقربُ وأسلم مما تقدَّم، وهو أن يكون المرادُ جنسَي الذكر والأنثى، ولا يُقصَد معيَّن من ذلك، ثم قال: وكأنَّ المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ: هو الذي خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجَكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهنَّ، فلما تغشَّى الجنسُ الذي هو الذكر الجنسَ الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيتَ وكيت. وإنما نَسَبَ هذه المقالَة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحِّدون؛ لأن المشركين منهم، فجاز أن يضاف الكلامُ إلى الجنس، على طريقة: قتل بنو تميم فلاناً، وإنما قَتلَه بعضُهم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧][1]، إلى غير ذلك.

وتُعقِّب بأن فيه إجراءَ جميع ألفاظ الآية على الأوجه البعيدة.

وعن أبي مسلم أن صدر الآية لآدم وحواء كما هو الظاهر، إلا أن حديثَهما ما تضمَّنه قولُه سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وانقطع الحديثُ، ثم خصَّ المشركين من أولاد آدم بالذِّكر، ويجوز أن يُذكَر العمومُ ثم يُخصَّ البعضُ بالذِّكر، وهو كما ترى.

وقيل: يجوز أن يكون ضميرُ «جعلا» لآدم وحواء كما هو الظاهر، والكلامُ خارجُ مخرجَ الاستفهام الإنكاريِّ، والكنايةُ في «فتعالى» إلخ للمشركين، وذلك أنهم كانوا يقولون: إنَّ آدم ـ عليه السلام ـ كان يعبُدُ الأصنامَ، ويشركُ كما نُشرك، فردَّ عليهم بذلك، ونظيرُ هذا أن يُنعِمَ رجلٌ على آخر بوجوهٍ كثيره من الإنعام، ثم يقال لذلك المنعِم: إن الذي أنعمتَ عليه يقصدُ إيذاءك وإيصالَ الشرِّ إليك، فيقول:

---

(١) الانتصاف ٢/ ١٣٦.

فعلتُ في حقِّه كذا وكذا، وأحسنتُ إليه بكذا وكذا، ثم إنه يُقابلني بالشرِّ والإساءة؟! ومرادُه أنه بريءٌ من ذلك، ومنفيٌّ عنه.

وقيل: يحتملُ أن يكون الخطابُ في «خلقكم» لقريش، وهم آلُ قُصيٍّ؛ فإنهم خُلقوا من نفسِ قصيٍّ، وكان له زوجٌ من جنسه عربية قرشية، وطلبا من الله تعالى الولدَ، فأعطاهما أربعةَ بنين، فسمَّياهم عبدَ مناف، وعبدَ شمس، وعبد العُزَّى، وعبدَ الدَّار - يعني بها دارَ الندوة - ويكون الضمير في «يشركون» لهما ولأعقابهما المقتدين بهما، وأيّد ذلك بقوله في قصة أم مَعْبَد:

فيا لقصيٍّ ما زوى اللهُ عنكمُ ... به من فخارٍ لا يُبارى وسُؤددِ[1]

واستبعد ذلك في «الكشف» بأن المخاطبين لم يُخلقوا من نفسِ قصيٍّ، لا كلُّهم ولا جلُّهم، وإنما هو مجمِّع قريش، وبأن القول بأن زوجه قرشيةٌ خطأٌ؛ لأنها إنما كانت بنتَ سيِّد مكة من خُزاعة، وقريش إذ ذاك متفرِّقون ليسوا في مكة، وأيضاً من أين العلم أنهما وعدا عند الحمل أن يكونا شاكرين لله تبارك وتعالى، ولا كُفْرانَ أشد من الكفر الذي كانا فيه، وما مَثَلُ من فسَّر بذلك إلا كمن عمَّر قصراً فهدم مِصْراً، وأما البيتُ فإنما خُصَّ فيه بنو قصيٍّ بالذكرِ لأنهم ألصقُ برسول الله ﷺ، أو لأنه لما كان سيِّدَهم وأميرَهم شمل ذِكْره الكلَّ شمولَ فرعون لقومه، ومعلومٌ أن الكلَّ ليسوا من نسل فرعون. اهـ.

وأُجيب عن قوله: من أين العلم.. إلخ، بأنه من إعلام الله تعالى إن كان ذلك هو معنى النظم، ومنه يُعلم أن كون زوجته غير قرشية في حيِّز المنع. نعم في كون قصي - وهو أحدُ أجداد رسول الله ﷺ - كان مشركاً مخالفةٌ لِمَا ذهب إليه جمعٌ من أن أجدادَه عليه الصلاة والسلام كلَّهم غير مشركين.

وقيل: إن ضمير «له» للولد، والمعنى: أنهما طلبا من الله تعالى أمثالاً للولد الصالح الذي آتاهما. وقيل: هو لإبليس، والمعنى: جعلا لإبليس شركاء في

(١) الكشاف ٢/ ١٣٧، وقصة مروره ﷺ في طريق الهجرة على أم معبد، وسماع أبيات هذا أحدُها، أخرجها الطبراني في الكبير (٣٦٠٥)، والحاكم ٣/ ٩-١٠، والبغوي في شرح السنة (٣٧٠٤).

اسمه؛ حيث سَمَّيا ولدَهما بعبد الحارث. وكلا القولين ردَّهما الآمديُّ في «أبكار الأفكار»، وهما لعَمْري أوهنُ من بيت العنكبوت، لكني ذكرتُهما استيفاءً للأقوال.

وذهب جماعةٌ من السلف كابن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيّب وغيرِهم إلى أن ضمير «جعلا»[١] لآدم وحواء عليهما السلام، والمرادُ بالشِّرك بالنسبة إليهما غيرُ المتبادِر، بل ما أشرنا إليه آنفاً[٢]، إلا[٣] أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تخلُّصٌ إلى قصَّة العرب وإشراكهم الأصنام كما قال السدي، فهو من الموصول لفظاً، المفصول معنى، ويوضح ذلك ـ كما قيل ـ تغييرُ الضمير إلى الجمع بعد التثنية، ولو كانت القصةُ واحدةً لقيل: يشركان، وكذلك الضمائر بعدُ، وأيّد ذلك بما أخرجه أحمد، والترمذيُّ ـ وحسَّنه ـ، والحاكم ـ وصحَّحه ـ عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ولدت حواءُ طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال لها: سَمِّيه عبد الحارث، فإنه يعيش، فسمَّته بذلك، فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمرِه»[٤]. وأراد بالحارث نفسَه؛ فإنه كان يُسمَّى به بين الملائكة. ولا يُعدُّ هذا شركاً بالحقيقة على ما قال القطب؛ لأن أسماء الأعلام لا تفيدُ مفهوماتها اللغوية، لكن أُطلق عليه الشركُ تغليظاً، وإيذاناً بأن ما عليه أولئك السائلون عمَّا لا يعنيهم أمرٌ عظيم لا يكاد يحيط بفظاعته عبارةٌ.

وفي «لباب التأويل»[٥] أن إضافةَ عبدٍ إلى الحارث على معنى أنه كان سبباً لسلامته، وقد يطلق اسمُ العبد على ما لا يرادُ به المملوك، كقوله:

وإنـي لـعـبـدُ الـضَّـيـف مـا دام ثـاويـاً[٦]

---

(١) بعدها في (م): يعود.

(٢) يعني: تسميتها الولد عبد الحارث، وينظر ما سلف ص٥٣٣.

(٣) في (م): إلى.

(٤) مسند أحمد (٢٠١١٧)، وسنن الترمذي (٣٠٧٧)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٥٤٥، وإسناده ضعيف، وقد أورده الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية وبيَّن أنه معلول من ثلاثة أوجه ذكرها مفصلة، وأنه لا يصح تفسير الآية على أن الجاعل آدم وحواء، وانظر كلامه فإنه نفيس.

(٥) تفسير الخازن ٢/ ٣٢٥.

(٦) صدر بيت للمقنع الكندي، وعجزه كما في الحماسة البصرية ٢/ ٣١، والأمالي ٢/ ١١٠، وديوان الحماسة بشرح المرزوقي ٣/ ١١٨٠: وما شيمةٌ لي غيرها تشبه العبدا.

ولعل نسبةَ الجعل إليهما مع أن الحديث ناطقٌ بأن الجاعل حواءُ لا هي وآدم؛ لكونه عليه السلام أقرَّها على ذلك، وجاء في بعض الروايات التصريحُ بأنهما سمَّياه بذلك.

وتعقَّب هذا القولَ بعضُ المدقِّقين بأن الحديث لا يصلحُ تأييداً له؛ لأنه لم يَرِدْ مفسِّراً للآية، ولا إنكارَ لصدور ذلك منهما عليهما السلام؛ فإنه ليس بشرك، نعم كان الأَولى بهما التنزُّه عن ذلك، وإنما المنكرُ حملُ الآية على ذلك مع ما فيه من العدول عن الظاهر، لا سيَّما على قراءة الأكثرين: «شركاء» بلفظ الجمع، ومِنْ حَمْل «فتعالى» إلخ على أنه ابتداءُ كلامٍ، وهو راجعٌ إلى المشركين من الكفار، والفاء فصيحةٌ. وكونُه منقولاً عن السلف معارَضٌ بأن غيرَه منقولٌ أيضاً عن جمع منهم. انتهى.

وقد يقال: أخرج ابنُ جرير[1] عن الحَبْر أنَّ الآية نزلت في تسمية آدم وحواء ولدَيهما بعبد الحارث، ومثلُ ذلك لا يكاد يقال من قِبَل الرأي، وهو ظاهرٌ في كون الخبر تفسيراً للآية، وارتكابُ خلافِ الظاهر في تفسيرها مما لا مخلَصَ عنه كما لا يخفى على المنصف. ووجهُ جمع «شركاء» زيادة في التغليظ؛ لأن مَن جوَّز الشِّركَ جوَّز الشركاء، فلما جَعَلا شريكاً فكأنهما جَعَلا شركاء، وحَمْلُ «فتعالى» إلخ على الابتداء مما يستدعيه السِّياق والسِّباق، وبه صرَّح كثيرٌ من أساطين الإسلام، والذاهبون إلى غير هذا الوجه نزرٌ قليل بالنسبة إلى الذاهبين إليه، وهم دونهم أيضاً في العلم والفضل، وشتَّان ما بين دندنة النَّحل وألحان معبد، ومن هنا قال العلامة الطِّيبيُّ: إن هذا القولَ أحسنُ الأقوال، بل لا قول غيرُه، ولا معوَّل إلا عليه، لأنه مقتبسٌ من مشكاة النبوة وحضرة الرسالة ﷺ، وأنتَ قد علمتَ مني أنه إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي، وأُراه قد صحَّ[2]، ولذلك أحجم كُمَيتُ قلمي عن الجَرْي في ميدان التأويل كما جرى غيرُه، والله تعالى الموفِّقُ للصَّواب.

وقرأ نافع وأبو بكر: «شِرْكاً» بصيغة المصدر[3]، أي: شركة، أو ذوي شركة، وهم الشركاء.

---

(١) في تفسيره ١٠/ ٦٢٤.

(٢) بل هو ضعيف كما أسلفنا.

(٣) التيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٣.

﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ به تعالى ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي: ما لا يقدر على أن يخلق شيئاً من الأشياء أصلاً، ومن حقِّ المعبود أن يكون خالقاً لعابده لا محالة، وعنى بـ «ما» الأصنامَ، وإرجاعُ الضمير إليها مفرداً لرعاية لفظها، كما أن إرجاع ضمير الجمع إليها من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ لرعاية معناها، وإيرادُ ضمير العقلاء مع أن الأصنام مما لا يعقل إنما هو بحسَب اعتقادهم فيها، وإجرائهم لها مجرى العقلاء، وتسميتهم لها آلهةً.

والجملةُ عطفٌ على «لا يخلق»، والجمعُ بين الأمرين لإبانة كمال منافاة حال ما أشركوه لما اعتقدوه فيه، وإظهارِ غايةِ جهلهم، وعدمُ التعرُّض للخالق للإيذان بتعيُّنه والاستغناءِ عن ذكره تعالى.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: الأصنام ﴿لَهُمْ﴾ أي: للمشركين الذين عبدوهم ﴿نَصْرًا﴾ أي: نصراً مّا إذا أحزَنَهم أمرٌ مهمٌّ وخَطْبٌ ملمٌّ.

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ إذا اعتراهم حادثةٌ من الحوادث، أي: لا يدفعونها عن أنفسهم. وإيراد النصر للمشاكلة، وهو مجازٌ في لازم معناه، وهذا لتأكيدِ العجز والاحتياجِ المنافِيَين لاستحقاق الألوهية، ووُصِفوا فيما تقدَّم بالمخلوقية لكونهم أهلاً لها، ولم يوصفوا هنا بالمنصورية لأنهم ليسوا أهلاً لها.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ بيانٌ لعجزهم عمَّا هو أدنى من النصر المنفيِّ عنهم وأيسرُ، وهو مجرَّد الدلالة على البُغْية، والإرشاد إلى طريق حصولها من غير أن تحصل للطالب.

والخطابُ للمشركين بطريق الالتفات بدلالة ما بعدُ، وفيه إيذانٌ بمزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت، أي: وإن تدعوا الأصنامَ أيُّها المشركون إلى أن يرشدوكم إلى ما تُحصِّلون به المطالب، أو تنجون به من المكاره، لا يتَّبعوكم إلى مرادكم، ولا يجيبوكم، ولا يقدرون على ذلك.

وقرأ نافع: «يَتْبَعوكم» بالتخفيف(١).

---

(١) التيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٤.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ استئنافٌ مقرِّر لمضمون ما قبله، ومبيِّنٌ لكيفية عدم الاتباع، أي: مستوٍ عليكم في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتُكم؛ فإنه لا يتغيَّر حالُكم في الحالين كما لا يتغيَّر حالُهم بحكم الجمادية.

وكان الظاهر الإتيان بالفعل فيما بعد «أم»؛ لأنَّ ما في حيِّز همزة التسوية مؤوَّلٌ بالمصدر، لكنه عدل عن ذلك للإيذان بأن إحداث الدعوة مقابَلٌ باستمرار الصُّمَات، وفيه من المبالغة ما لا يخفى.

وقيل: إنَّ الاسمية بمعنى الفعلية، وإنما عدل عنها لأنها رأسُ فاصلةٍ. وفيه أنه لو قيل: تصمتون، تمَّ المراد.

وقيل: إنَّ ضمير «تدعوا» للنبيِّ ﷺ والمؤمنين، أو له عليه الصلاة والسلام وجُمِعَ للتعظيم، وضميرُ المفعولين للمشركين، والمراد بـ «الهدى» دينُ الحق، أي: إنْ تدعوا المشركين إلى الإسلام لا يتَّبعوكم، أي: لم يُحصِّلوا ذلك منكم، ولم يتَّصفوا به.

وتُعقِّب بأنه مما لا يساعدُه سباق النظم الكريم وسياقُه أصلاً، على أنه لو كان كذلك لقيل: عليهم، مكان «عليكم»، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]؛ فإنَّ استواء الدعاء وعدمه إنما هو بالنسبة إلى المشركين لا بالنسبة إلى الداعين؛ فإنهم فائزون بفضل الدعوة، ولعل رواية ذلك عن الحسن غيرُ ثابتة، والطبرسيُّ حاطبُ ليل(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تقريرٌ لما قبله من عدم اتِّباعهم لهم، والدعاءُ إما بمعنى العبادة تسميةً لها بجزئها، أو بمعنى التسمية، كـ: دعوتُه زيداً، ومفعولاه محذوفان، أي: إن الذين تعبدونهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أو تسمُّونهم آلهةً من دونه سبحانه وتعالى ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: مماثلةٌ لكم من حيث إنها مملوكة لله تعالى، مسخَّرة لأمره، عاجزةٌ عن النفع والضرِّ كما قال الأخفش.

وتشبيهُها بهم في ذلك مع كون عجزها عنهما أظهرَ وأقوى من عجزهم إنما هو

(١) وقد أورد الرواية عن الحسن في مجمع البيان ٩(تتمة)/ ٨٥.

لاعترافهم بعجز أنفسهم، وزعمهم قدرتها عليهما؛ إذ هو الذي يدعوهم إلى عبادتها والاستعانة بها.

وقيل: يحتمل أنهم لما نحتوا الأصنامَ بصور الأناسيِّ قال لهم سبحانه: إن قُصارى أمرهم أن يكونوا أحياءَ عقلاء أمثالكم، فلا يستحقُّون عبادتكم كما لا يستحقُّ بعضُكم عبادةَ بعض، فتكون المِثْليَّة في الحيوانية والعقل على الفرض والتقدير؛ لكونهم بصورة الأحياء العقلاء.

وقرأ سعيد بن جُبير: «إنِ الذين تدعون» بتخفيف «إنْ»، ونصب «عباداً أمثالَكم»[(١)]، وخرَّجها ابنُ جِنِّي[(٢)] على أنَّ «إنْ» نافية عملتْ عمل «ما» الحجازية، وهو مذهب الكسائيِّ وبعضِ الكوفيين.

واعتُرض أولاً: بأنه لم يثبت مثلُ ذلك، وثانياً: بأنه يقتضي نفي كونهم عباداً أمثالهم، والقراءةُ المشهورة تُثبتُه، فتتناقضُ القراءتان.

وأُجيب عن الأول: بأن القائل به يقول: إنه ثابتٌ في كلام العرب، كقوله:

إنْ هو مستولياً على أحد إلا على أضعف المجانينِ[(٣)]

وعن الثاني: بأنه لا تناقضَ؛ لأن المشهورة تُثبت المِثْلية من بعض الوجوه، وهذه تنفيها من كلِّ الوجوه، أو من وجه آخر؛ فإنَّ الأصنام جمادات مثلاً، والداعين ليسوا بها.

وقيل: إنها إنْ المخفَّفةُ من الثقيلة، وإنها على لغة مَنْ نَصَبَ الجزئين بها، كقوله:

إذا اسوَدَّ جنحُ الليل فلتأتِ ولتكنْ خطاكَ خِفافاً إنَّ حرَّاسَنا أُسداً[(٤)]

في رأي، ولا يخفى أنَّ إعمال المخفَّفة ونصبَ جُزأيها كلاهما قليلٌ ضعيف،

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٨، والبحر المحيط ٤/ ٤٤٤.

(٢) في المحتسب ١/ ٢٧٠.

(٣) البيت في خزانة الأدب ٤/ ١٦٦ من غير نسبة.

(٤) البيت في المغني لابن هشام ص٥٥، ونقل البغدادي في شرح شواهده نسبته إلى عمر بن أبي ربيعة، وكذلك نسبه أبو حيان في البحر ٤/ ٤٤٤، وهو ليس في ديوانه.

ومن هنا قيل: إنها مهملةٌ، وخبر المبتدأ محذوفٌ، وهو الناصب لـ «عباداً»، و«أمثالكم» على القراءتين نعتٌ لـ «عباد» عليهما أيضاً.

وقرئ: «إنَّ» بالتشديد، و«عباداً» بالنصب على أنه حال من العائد المحذوف، و«أمثالُكم» بالرفع على أنه خبر «إنَّ»، وقرئ به مرفوعاً في قراءة التخفيف ونصب «عباد»، وخرِّج ذلك على الحالية والخبرية أيضاً[1].

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ تحقيقٌ لمضمون ما قبلَه بتعجيزهم وتَبْكيتهم، أي: فادعوهم في رفع ضرٍّ أو جلب نفع ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ في زعمكم أنَّهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ إلخ تَبْكيتٌ إثر تبكيت، مؤكِّدٌ لما يفيده الأمر التعجيزيُّ من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالكلية.

وقيل: إنه على الاحتمال الأول في المماثلة كرٌّ على المِثْلية بالنقض؛ لأنهم أَدْوَنُ منهم[2]، وعبادةُ الشخص مَنْ هو مثلُه لا تليق، فكيف مَنْ هو دونه؟! وعلى الاحتمال الثاني فيها عَوْدُ الضمير على الفرض المبنيِّ على[3] المثلية بالإبطال، وعلى قراءة التخفيف وإرادة النفي تقريرٌ لنفي المماثلة بإثبات القصور والنقصان.

ووجّهَ الإنكار إلى كلٍّ واحد من تلك الآلات الأربع على حِدَة تكريراً للتبكيت، وتثنية للتقريع، وإشعاراً بأن انتفاء كلٍّ واحدة منها بحيالها كافٍ في الدلالة على استحالة الاستجابة.

وليس المراد أنَّ من لم يكن له هذه لا يستحقُّ الألوهية، وإنما يستحقُّها من كانت له، ليلزم إما نفيُ استحقاق الله تبارك وتعالى لها، أو إثبات ذلك له كما ذهب إليه بعض المجسِّمة واستَدلَّ بالآية عليه = بل مجرَّد إثبات العجز، ومن ذلك يُعلم نفي الاستحقاق.

ووصفُه الأرجل بالمشي بها للإيذان بأن مدار الإنكار هو الوصف، وإنما وُجِّه

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٤٤٥، والدر المصون ٥/ ٥٤١.

(٢) لفظ: منهم، لم يرد في الأصل، والمثبت من (م).

(٣) في (م): عليه.

إلى الأرجل لا إلى الوصف بأن يقال: أيمشون بأرجلهم، لتحقيق أنها حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائر الأرجل فهي ليست بأرجل في الحقيقة، وكذا الكلام فيما بعدُ من الجوارح الثلاثة الباقية.

وكلمةُ «أم» في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ منقطعةٌ، وما فيها من الهمزة لما مرَّ من التبكيت، وبل للإضراب المفيد للانتقال من فنٍّ منه بعد تمامه إلى آخر منه لِمَا تقدَّم[1]، والبطشُ: الأخذ بقوَّة.

وقرأ أبو جعفر: «يبطُشون» بضم الطاء[2]، وهو لغةٌ فيه.

والمعنى: بل ألهم أيدٍ يأخذون بها ما يريدون، أو يدفعون بها عنكم؟

وتأخير هذا عما قبله ـ كما قال شيخُ الإسلام[3] ـ لما أن المشي حالُهم في أنفسهم، والبطش حالُهم بالنسبة إلى الغير، وأما تقديمُ ذلك على قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ مع أن الكلَّ سواء في أنها من أحوالهم بالنسبة إلى الغير، فلمراعاة المقابلة بين الأيدي والأرجل، ولأن انتفاء المشي والبطش أظهرُ، والتبكيتُ به أقوى، وأما تقديمُ الأعين على الآذان فلأنها أشهر منها، وأظهر عيناً وأثراً، وكون الإبصار بالعين والسماع بالأذن جارٍ على الظاهر المتعارف.

واستَدلَّ بالآية من قال: إن الله تعالى أودع في بعض الأشياء قوةً بها تؤثِّر إذا أذِنَ الله تعالى لها، خلافاً لمن قال: إن التأثير عندها لا بها، وزعم أن ذلك القول قريبٌ إلى الكفر، وليس كما زعم، بل هو الحقُّ الحقيقُ بالقَبول.

﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ﴾ أمرٌ له ﷺ بأن يُناصِبَهم المحاجَّة، ويُكرِّر عليهم التبكيت بعد أن بيَّن أن شركاءهم لا يقدرون على شيء أصلاً، أي: ادعوا شركاءكم واستعينوا بهم عليَّ ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم، وبالغوا في ترتيب

---

(١) في (م): مما تقدم. وجاء في تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٦ (والكلام منه): إلى فن آخر منه لِمَا ذكر من المزايا.

(٢) النشر ٢/ ٢٧٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٦.

ما تقدرون عليه من مبادي المَكْر والكيد، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ فلا تمهلوني ساعةً بعد ترتيب مقدِّمات الكيد؛ فإني لا أُبالي بكم أصلاً.

وياء المتكلم في الفعلين مما لم يثبتوها خطًّا، وقرأ أبو عمرٍو بإثبات ياء «كيدون» وصلاً، وحذفها وقفاً، وهشام بإثباتها في الحالين، والباقون بحذفها فيهما[1]. وفي «هود»: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [الآية: ٥٥] بإثبات الياء مطلقاً عند الجميع، وأما ياء «فلا تنظرون» فقد قال الأجهوريُّ: إنهم حذفوها لا غير[2].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تعليلٌ لعدم المبالاة المنفهم من السوق انفهاماً جليًّا، و«أل» في «الكتاب» للعهد، والمراد منه القرآن، ووصفُه سبحانه بتنزيل الكتاب للإشعار بدليل الولاية، وكأنه وضَعَ: «نزَّلَ الكتاب» موضع: أرسلني رسولاً، ولا شكَّ أن الإرسال يقتضي الولاية والنصرة، وقيل: إن في ذلك إشارةً إلى علة أخرى لعدم المبالاة، كأنه قيل: لا أُبالي بكم وبشركائكم؛ لأنَّ وليِّيَ هو الله تعالى الذي نزل الكتاب الناطقَ بأنه وليِّي وناصري، وبأنَّ شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلاً عن نصركم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، أي: ومن عادته جلَّ شأنه أن ينصُر الصالحين من عباده ولا يخذُلَهم.

وقال الطِّيبيُّ: إنما خُصَّ اسمُ الذَّات بتنزيل الكتاب وجُعلت الآية تعليلاً؛ للدلالة على تفخيم أمر المنزَّل، وأنه الفارقُ بين الحقِّ والباطل، وأنه المجلِّي لظلمات الشرك، والمُفحِمُ لألسن أرباب البيان، والمعجز الباقي في كلِّ أوان، وهو النور المبين، والحبلُ المتين، وبه أصلح الله تعالى شؤون رسوله ﷺ؛ حيث كمَّل به خُلُقه، وأقام به أَوَدَه، وأفسد به أباطيل المُعطِّلة، ومن ثَمَّ جِيء بقوله سبحانه وتعالى: «وهو» إلخ كالتذييل والتقرير لما سبق، والتعريض بمن فقد الصلاح بالخذلان والمَحْق، والمعنى: إن وليِّيَ الذي نزَّل الكتاب المشهورَ الذي تعرفون

(١) التيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٥، وقد اختلف عن هشام، فما ذكره المصنف هو رواية الحلواني عنه، وروى الداجوني عنه كقراءة أبي عمرو.

(٢) ذكر ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٧٥ أن يعقوب أثبتها في الحالين.

حقيقَتَه، ومِثْلُه يتولَّى الصالحين ويخذل غيرَهم. ولا يخفى أن ما ذُكر أولاً في أمر الوصفية أنسبُ بالمقام، وأمرُ التذييل ممَّا لا مِرْية فيه.

وهذه الآية مما جرَّبتُ المداومةَ عليها للحفظ من الأعداء، وكانت وِرْدَ الوالد عليه الرحمةُ في الأسحار، وقد أمره بذلك بعضُ الأكابر في المنام.

والجمهورُ على تشديد الياء الأولى من «وليِّي» وفتح الثانية، ويُقرأ بحذفها في اللفظ؛ لسكونها وسكون ما بعدها، وبفتح الأولى ولا ياء بعدها، وحذف الثانية من اللفظ تخفيفاً[(١)].

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: تعبدونهم، أو تدعونهم من دونه سبحانه وتعالى للاستعانة بهم عليَّ حسبما أمرتُكم به ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ في أمرٍ من الأمور، ويدخل في ذلك الأمرُ المذكور دخولاً أوليًّا، وجُوِّز الاقتصارُ عليه. ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ إذا أُصيبوا بحادثة.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إلى أن يهدوكم إلى ما تُحصِّلون به مقاصدَكم مطلقاً، أو في خصوص الكيد المعهود، ﴿لَا يَسْمَعُوا۟﴾ أي: دعاءكم، فضلاً عن المساعدة والإمداد، وهذا أبلغ من نفي الاتِّباع، وحملُ السماع على القَبول ـ كما في: سمِعَ اللهُ لمن حمده كما زعمَه بعضُهم ـ ليس بشيء.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ بيانٌ لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السَّمع، وبهذا ـ على ما قيل ـ تمَّ التعليلُ لعدم المبالاة، فلا تكرار أصلاً، وقال الواحديُّ: إن ما مرَّ للفرق بين من تجوزُ عبادتُه وغيرِه، وهذا جوابٌ ورد لتخويفهم له ﷺ بآلهتهم.

والرؤية بصريةٌ، وجملةُ «ينظرون» في موضع الحال من المفعول الراجع للأصنام، والجملةُ الاسمية حالٌ من فاعل «ينظرون»، والخطابُ لكلِّ واحد من المشركين، والمعنى: وترى الأصنام رأيَ العين يشبهون الناظر إليك، ويُخيَّل لك أنهم يبصرون؛ لما أنهم صُنع لهم أعينٌ مركَّبة بالجواهر المتلألئة، وصُوِّرت بصورة مَنْ قلبَ حدقَتَه إلى الشيء ينظرُ إليه، والحالُ أنهم غيرُ قادرين على الإبصار.

---

(١) النشر ٢/ ٢٧٤.

وتوجيهُ الخطاب إلى كلٍّ واحدٍ من المشركين دون الكلِّ من حيث هو كلٌّ كالخطابات السابقة؛ للإيذان بأن رؤيةَ الأصنام على الهيئة المذكورة لا يتسنَّى للكلِّ معاً، بل لكلٍّ من يواجهها.

وذهب غيرُ واحد إلى أن الخطاب في «تراهم» لكلِّ واقفٍ عليه، وقيل: للنبيِّ ﷺ، وضميرُ الغَيبة على حاله، أو للمشركين على أن التعليل قد تمَّ عند قوله تعالى: «لا يسمعوا»، أي: وترى المشركين ناظرين إليك والحالُ أنهم لا يبصرونك كما أنتَ عليه، أو لا يبصرون الحجَّة كما قال السُّديُّ ومجاهد.

ونُقل عن الحسن أن الخطاب في «وإن تدعوهم» للمؤمنين على أن التعليل قد تمَّ عند قوله سبحانه وتعالى: «ينصرون»، أي: وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الإسلام لا يتلفتوا إليكم، ولا يقبلوا منكم، وعلى هذا يحسُنُ تفسير السَّماع بالقَبول، وجَعْلُ «وتراهم» خطاباً لسيِّد المخاطبين بطريق التجريد.

وفي الكلام تنبيهٌ على أنَّ ما فيه عليه الصلاة والسلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجَلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين.

وجوَّز بعضُهم أن تكون الرؤيةُ عِلْمية، وما كان في موضع الحال يكون في موضع المفعول الثاني، والأول أَولى.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: ما عفا وسهل وتيسَّر من أخلاق الناس، وإلى هذا ذهب ابن عمر، وابن الزُّبير، وعائشة، ومجاهد ﷺ، وغيرُهم، وأخرجه ابنُ أبي الدنيا عن إبراهيم بن أدهم مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ[1]، والأخذُ مجاز عن القَبول والرضا، أي: ارضَ من الناس بما تيسَّر من أعمالهم، وما أتى منهم وتسهَّل من غير كُلْفة، ولا تطلب منهم الجهدَ وما يشقُّ عليهم حتى لا ينفروا، ومن ذلك قوله:

خذي العفو مني تستديمي مودَّتي ولا تنطقي في سَوْرتي حين أغضبُ[2]

(١) مكارم الأخلاق (٢٤)، وهو مرسل.

(٢) البيت في الأغاني ٢٠/ ٣٦٢، ونسبه إلى أسماء بن خارجة الفزاري، ونسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ١١ إلى شريح بن الحارث القاضي، وفي ٤/ ٧٧ إلى أبي الأسود الدؤلي، غير أن أبا الفرج قال عن نسبته لأبي الأسود: وليس ذلك بصحيح.

وجُوِّز أن يُراد بـ «العفو» ظاهرُه، أي: خذ العفو عن المذنبين، والمراد: ٱعف عنهم، وفيه استعارةٌ مكنيةٌ؛ إذ شبَّه العفوَ بأمرٍ محسوس يُطلب فيؤخذ، وإلى هذا ذهب جمعٌ من السلف، ويشهد له ما أخرجه ابنُ جرير، وابن المُنْذر، وغيرُهما عن الشَّعبيِّ قال: لما أنزل الله تعالى: «خذ العفو» إلى آخره قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريلُ؟» قال: لا أدري، حتى أسأل العالم، فذهب ثم رجع، فقال: إن الله تعالى أمرَكَ أن تعفوَ عمن ظلمك، وتعطي من حَرَمَك، وتَصِلَ من قطَعَك[١]. وأخرج ابنُ مَرْدويه عن جابر نحو ذلك[٢]. ولعل زُبدة الحديث مفسِّرة لزبدة الآية، وإلا فالتطبيقُ مشكلٌ كما لا يخفى. وتكلَّف القُطب لتطبيق ألفاظه على ألفاظها، وفيه خفاء.

وعن ابن عباس: المرادُ بـ «العفو»: ما عفى من أموال الناس، أي: خذ أيَّ شيء أتوكَ به، وكان هذا قبل فرض الزَّكاة.

وقيل: العفوُ: ما فضَلَ عن النفقة من المال، وبذلك فسَّره الجوهريُّ[٣]، وإليه ذهب السُّدي؛ فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه قال: نزلت هذه الآيةُ، فكان الرجل يُمسك من ماله ما يكفيه، ويتصدَّق بالفَضْل، فنسَخَها الله تعالى بالزكاة.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف المستحسن من الأفعال؛ فإن ذلك أقرب إلى قَبول الناس من غير نكير.

وفي «لباب التأويل» أن المراد: وَأْمُر بكلِّ ما أمرك الله تعالى به وعرفتَه بالوحي. وقال عطاء: المراد بـ «العُرف»: كلمة لا إله إلا الله[٤]. وهو تخصيصٌ من غير داع.

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٤٣ من طريق سفيان بن عيينة عن رجل قد سماه، ومن طريق سفيان عن أُميٍّ الصَّيْرفي، وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٣٨ من طريق سفيان عن أُميٍّ عن الشعبي. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا مرسل على كل حال، وقد روي له شواهد من وجوه أخر. اهـ قلنا: وقوله: أن تعفو عمن ظلمك... إلخ له شاهد من حديث عقبة بن عامر ﷺ عند أحمد (١٧٤٥٢).

(٢) أورده ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٥٣.

(٣) يعني: فسر عَفْو المال بما ذكر، لا العفو مطلقاً. الصحاح: (عفو).

(٤) تفسير الخازن ٢/ ٣٢٨.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ١٩٩﴾ أي: ولا تكافئ السفهاءَ بمثل سَفَههم، ولا تُمارِهم، واحلم عليهم، وأَغْضِ على ما يسوءُك منهم.

وعن السُّديِّ أن هذا أمرٌ بالكفِّ عن القتال، ثم نسخ بآيته. ولا ضرورةَ إلى دعوى النسخ في الآية كما لا يخفى على المتدبِّر.

وقد ذكر غيرُ واحدٍ أنه ليس في القرآن آيةٌ أجمعُ لمكارم الأخلاق من هذه الآية، وزبدتُها كما قالوا: تحرِّي حسنِ المعاشرة مع الناس، وتوخِّي بذلِ المجهود في الإحسان إليهم، والمداراة منهم، والإغضاء عن مساويهم وجعلوا نحو ذلك زبدةَ الخبر، إلا أن القرآن مادتُه عامةٌ، و[الحديثُ القدسيُّ][1] مادته خاصة، وقد عِلمَ كلُّ أناسٍ مشربَهم.

ولا يخفى حسنُ موقع هذا الأمر بعد ما عدَّ من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يُطاقُ حملُه، وإذا قيل بأن «الجاهلين» موضوعٌ موضع ضمير أولئك المشركين - حيث إن الكلامَ فيهم - تسجيلاً عليهم بعدم الارعواء، وإقناطاً كليًّا منهم = التأمت أطراف الكلام غايةَ الالتئام.

هذا وعن ابن زيد أنه لـمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «كيف يا ربِّ، والغضب؟» فنزل قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾[2] النزغُ والنسغ والنخس بمعنى، وهو: إدخالُ الإبرة أو طرف العصا أو ما يشبه ذلك في الجلد. وعن أبي زيد[3] أنه يقال: نزغتُ ما بين القوم: إذا أفسدتَ ما بينهم. وقال الزجَّاج[4]: هو أدنى حركة تكون من الشيطان ووسوسته[5]. والمعنى الأول هو المشهور، وإطلاقه على وسوسة الشيطان مجازٌ؛

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٤/ ٢٤٧، والكلام منه، والمراد بالحديث القدسي ما سلف من خبر الشعبي.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٤٦.

(٣) في الأصل و(م): ابن زيد، والمثبت من تهذيب اللغة ٨/ ٩٨ و١٣/ ١٧٧، وتفسير الرازي ١٥/ ٩٧، واللسان والتاج (نزغ).

(٤) معاني القرآن ٢/ ٣٩٦.

(٥) في (م): ومن الشيطان وسوسته.

حيث شبَّه وسوستَه إغراءً للناس على المعاصي، وإزعاجاً، بغرز السائق ما يسوقه. وإسنادُ الفعل إلى المصدر مجازيٌّ كما في جدَّ جدُّه.

وقيل: النزغ بمعنى النازغ، فالتجوُّز في الطرف، والأول أبلغُ وأولى. أي: إما يحملنَّك من جهة الشيطان وسوسةٌ ما على خلاف ما أُمرت به من اعتراء غضب أو نحوه ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فاستجِرْ به، والتجئ إليه سبحانه وتعالى في دفعه عنك، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمع على أكمل وجهٍ استعاذتَك قولاً، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ يعلم كذلك تضرُّعَك إليه قلباً في ضمن القول أو بدونه، فيعصمُك من شرِّه، أو: سميع، أي: مجيبُ دعاءك بالاستعاذة، عليمٌ بما فيه صلاحُ أمرك، فيحمِلُك عليه، أو: سميعٌ بأقوال مَنْ آذاك، عليمٌ بأفعاله، فيجازيه عليها.

والآيةُ على ما نصَّ عليه بعضُ المحقِّقين من باب: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فلا حجَّةَ فيها لمن زعم عدمَ عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من وسوسة الشيطان وارتكاب المعاصي.

وفي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينُه من الجنِّ وقرينُه من الملائكة». قالوا: وإيَّاكَ يا رسول الله؟ قال: «وإيَّايَ، إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم، فلا يأمُرُني إلا بخير»[(١)].

وقال آخرون: إن نَزْغَ الشيطان بالنسبة إليه ﷺ مجازٌ عن اعتراء الغضب المُقلِقِ للنفس، وفي الآية حينئذٍ زيادةُ تنفيرٍ عن الغضب، وفَرْطُ تحذيرٍ عن العمل بموجبه، ولذا كرَّرَ ﷺ النهيَ عنه كما جاء في الحديث[(٢)].

وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويلٌ لذلك، وتنبيهٌ على أنه من الغوائل التي لا يُتخلَّص من مضرَّتها إلا بالالتجاء إلى حَرَمِ عصمته عزَّ وجل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ استئنافٌ مقرِّر لما قبله من الأمر ببيان أنَّ الاستعاذة سنَّةٌ مسلوكة للمتقين، والإخلالُ شِنْشِنةُ الغاوين[(٣)]، أي: إن الذين اتَّصفوا بتقوى الله

---

(١) صحيح مسلم (٢٨١٤)، وأخرجه أحمد (٣٦٤٨).

(٢) وهو ما أخرجه أحمد (١٠٠١١) والبخاري (٦١١٦) ـ واللفظ له ـ من حديث أبي هريرة ﷺ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني. قال: «لا تغضب». فردد مراراً، قال: «لا تغضب».

(٣) أي: عادتهم وطبيعتهم. القاموس (شنن).

تعالى ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: لَمَّةٌ منه، كما روي عن ابن عباس. وتنوينُه للتحقير، والمراد: وسوسةٌ ما، وهو اسمُ فاعل من طاف بالشيء: إذا دار حولَه، وجعل الوسوسة طائفاً للإيذان بأنها وإن مسَّتْ لا تؤثِّر فيهم، فكأنها طافت حولَهم ولم تصل إليهم. وجُوِّز أن يكون من طاف طَيْفُ الخيال: إذا ألَمَّ في المنام، فالمراد به الخاطر. وذهب غيرُ واحدٍ إلى أن المراد بالطائف الغضبُ.

وقرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوب: «طيف»[1] على أنه مصدر، أو تخفيف من طيِّف من الواويِّ أو اليائيِّ، كهيِّن وليِّن.

والمراد بـ «الشيطان»: الجنس لا إبليس فقط، ولذا جُمع ضميره فيما سيأتي.

﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي: ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، أو: الاستعاذةَ به تعالى، والالتجاء إليه سبحانه وتعالى، أو: عداوة الشيطان وكيده.

﴿فَإِذَا هُم﴾ بسبب ذلك التذكُّر ﴿مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ مواقعَ الخطأ ومناهجَ الرُّشد، فيحترزون عما يُخالف أمرَ الله تعالى، وينجون عما لا يُرضيه سبحانه وتعالى، والظاهرُ أن المراد من الموصول من اتَّصف بعنوان الصِّلة مطلقاً.

وقال بعضُ المحقِّقين: إن الخطاب في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ إلخ إما أن يكون مختصًّا برسول الله ﷺ كما هو الظاهر، فالمناسب أن يراد بالمتقين: المرسلون من أُولي العزم، أو يكون عامًّا على طريقة: «بشِّر المشَّائين [في الظلم] إلى المساجد بالنور التامِّ يومَ القيامة»[2]، أو خاصًّا يرادُ به العامُّ، نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١]، فالمتقون حينئذٍ الصالحون من عباد الله تعالى. انتهى.

ولا يخفى أنَّ الملازمةَ في الشرطية الأولى في حيِّز المنع، والعمومُ هو المتبادِرُ على كلِّ حال.

---

(١) التيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٥.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣) من حديث بريدة الأسلمي، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وأخرجه ابن ماجه (٧٨١) من حديث أنس بن مالك. وما بين حاصرتين من مصادر التخريج.

وزعم بعضُهم أن المراد بالمتقين المنسوب إليهم المسُّ: غيرُ الأنبياء عليهم السلام، وجعَلَ الخطاب فيما سبق خاصًّا بالسيد الأعظم ﷺ، وادَّعى أن النزغ أولُ الوسوسة، والمسّ لا يكون إلا بعد التمكُّن، ثم قال: ولذا فصَل الله سبحانه وتعالى بين النبيِّ عليه الصلاة والسلام وغيره من سائر المتقين، فعبَّر في حقِّه عليه الصلاة والسلام بالنزغ، وفي حقِّهم بالمسِّ، وقد يقال: إن اهتمامَ الشيطان في الوسوسة للكامل أكمَلُ من اهتمامه في الوسوسة لمن دونه، فلذا عبَّر أولاً بالنزغ، وثانياً بالمسِّ.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي: إخوانُ الشياطين الذين لم يتقوا، وذلك معنى الأخوَّة بينهم، وهو مبتدأ، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾ خبره، والضمير المرفوع للشياطين، والمنصوبُ للمبتدأ، أي: تعاونهم الشياطين في الضَّلال، وذلك بأن يزيِّنوه لهم، ويحملوهم عليه، والخبرُ على هذا جارٍ على غير مَنْ هو له، وفي أنه هل يجب إبراز الضمير، أو لا يجب في مثل ذلك، خلافٌ بين أهل القريتين كالصِّفة المختلفِ فيها بينهم، وقيل: إن الضميرَ الأول للإخوان، والثاني للشياطين، والمعنى: وإخوانُ الشياطين يمدُّون الشياطين بالاتِّباع والامتثال، وعلى هذا يكون الخبر جارياً على مَنْ هو له، والجارُّ والمجرور متعلِّق بما عنده، وجُوِّز أن يكون في موضع الحال من الفاعل أو من المفعول.

وقرأ نافع: «يُمِدُّونهم» بضمِّ الياء وكسر الميم، من الإمداد، والجمهورُ على فتح الياء وضمِّ الميم(١).

قال أبو عليٍّ في «الحجَّة»(٢) بعد نقل ذلك: وعامَّة ما جاء في التنزيل مما يُحمد ويستحبُّ: أَمْدَدْتُ على أفعلتُ، كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢]، ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦]، وما كان بخلافه على مَدَدْتُ قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]. وهكذا يتكلمون بما يدلُّ على أن الوجهَ فتحُ الياء كما ذهب إليه الأكثر، ووجه قراءة نافع أنه مثل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١٠].

---

(١) التيسر ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٥.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٤/ ١٢٢-١٢٣.

وقرأ الجَحْدري: «يُمادُّونهم»[1] من باب المفاعلة، وهي هنا مجازية، كأنهم كان الشياطينُ يعينونهم بالإغراء وتهوينِ المعاصي عليهم، وهؤلاء يعينون الشياطينَ بالاتِّباع والامتثال.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ أي: لا يُمسكون ولا يكفُّون عن إغوائهم حتى يردُّوهم بالكلِّية، فهو من أقصر: إذا أقلَعَ وأمسَكَ، كما في قوله:

سما لك شوقٌ بعدما كان أقصرا[2]

وجُوِّز أن يكون الضمير للإخوان، ورُوي ذلك عن ابن عباس والسُّدي، وإليه ذهب الجُبَّائي، أي: ثم لا يكفُّ هؤلاء عن الغيِّ ولا يقصرون كالمتقين.

وجُوِّز أيضاً أن يراد بالإخوان الشياطين، وضمير الجمع المضاف إليه أولاً، والمفعول ثانياً، والفاعل ثالثاً، يعود إلى «الجاهلين» في قوله سبحانه وتعالى: «وأعرض عن الجاهلين»، أي: وإخوانُ الجاهلين ـ وهم الشياطينُ ـ يمدُّون الجاهلين في الغيِّ، ثم لا يُقْصِر الجاهلون عن ذلك، والخبر على هذا أيضاً جارٍ على ما هو له، كما في بعض الأوجه السابقة، والأول أولى؛ رعايةً للمقابلة.

وقرأ عيسى بن عمر: «يَقْصُرون» بفتح الياء وضمِّ الصاد[3]، من قَصَرَ، وهو مجازٌ عن الإمساك أيضاً.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ من القرآن عند تراخي الوحي، كما رُوي عن مجاهد وقتادة والزجَّاج، أو بآيةٍ مقترحةٍ كما رُوي عن ابن عباس والجُبائي وأبي مسلم.

﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: هلَّا جمعتَها ولفَّقتها من عند نفسك افتراءً، أو هلَّا أخذتَها من الله تعالى بطلبٍ منه، وهو تهكُّم منهم، لعنَهم الله تعالى.

ومما ذكرنا يُعلم أن لـ «اجتبى» معنيين: جمَعَ وأخَذَ، ويختلف المرادُ حسب

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧١.

(٢) صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه كما في ديوانه ص٥٦:

وحلَّت سُليمى بطنَ قَوٍّ فَعَرْعَرا

وقوّ وعرعر: موضعان.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٨.

الاختلاف في تفسير الآية، وعن عليِّ بن عيسى أنَّ الاجتباء في الأصل الاستخراجُ، ومنه جبايةُ الخَراج، وقيل: أصلُه الجمع، من جَبيتُ الماء في الحوض: جمعته، ومنه قيل للحوض: جابِيَة؛ لجمعه الماء، وإلى هذا ذهب الراغبُ(١)، وفي «الدر المصون»: جبى الشيء: جمعَه مختاراً، ولذا غلَبَ اجتبيتُه بمعنى اخترتُه(٢).

وقال الفراء: يقال: اجتبيتُ الكلام، واختلقتُه، وارتجلتُه: إذا افتعلتَه من قِبَل نفسك(٣). وكذا اخترعتُه عند أبي عُبيدة(٤)، وقال أبو زيد(٥): هذه الأحرف تقولُها العرب للكلام يبتديه الرجلُ لم يكن أعدَّه قبل ذلك في نفسه. ومَنْ جعل الأصل شيئاً لا يُنكِر الاستعمالَ في الآخر مجازاً كما لا يخفى.

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ من غير أن يكون لي دخلٌ ما في ذلك أصلاً، على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتِّباع ما يُوحى إليه بتوجيه القَصْر إلى نفس الفعل بالنسبة إلى مقابله الذي كلَّفوه إياه عليه الصلاة والسلام، لا على معنى تخصيص اتِّباعه ﷺ بما يُوحى إليه بتوجيه القصر بالقياس إلى مفعولٍ آخر كما هو الشائع في موارد الاستعمال، كأنه قيل: ما أفعلُ إلا اتباعَ ما يُوحى إليَّ منه تعالى دون الاختلاف والاقتراح. وفي التعرُّض لعنوان الرُّبوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لايخفى.

﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى القرآن الجليل المدلولِ عليه بـ «ما يُوحى إليَّ» ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بمنزلة البصائر للقلوب، بها تُبصر الحقَّ وتُدرك الصواب، أو حججٌ بيِّنة، وبراهينُ نيِّرةٌ تُغني عن غيرها، فالكلام خارجٌ مخرجَ التشبيه البليغ، وقد

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن: (جبى).

(٢) الدر المصون ٥/ ٥٥١.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٦٥٦، ومجمع البيان ٩/ ٩١، والكلام منه، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٢.

(٤) في تفسير الطبري: عبيد.

(٥) في الأصل و(م): ابن زيد، والمثبت من تفسير الطبري ١٠/ ٦٥٦، ومجمع البيان ٩/ ٩١، وعنه نقل المصنف.

حقّقتُ ما فيه على الوجه الأتم في «الطراز المذهب»، أو فيه مجازٌ مرسل؛ حيث أطلق المسبَّب على السبب.

وجُوز أن تكون البصائر مستعارةً لإرشاد القرآن الخلقَ إلى إدراك الحقائق، و«هذا» مبتدأ، و«بصائر» خبرُه، وجُمع خبرُ المفرد لاشتماله على آيات وسور جُعِلَ كلٌّ منها بصيرةً.

و«من» متعلِّقة بمحذوف وقَعَ صفةً لـ «بصائر» مفيدةً لفخامتها، أي: بصائرُ كائنةٌ منه تعالى، والتعرُّض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد وجوب الإيمان بها.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ عطفٌ على «بصائر»، وتنوينُهما للتفخيم، وتقديمُ الظرف عليهما وتعقيبُهما بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ - كما قال شيخ الإسلام - للإيذان بأن كون القرآن بصائرَ متحقِّقٌ بالنسبة إلى الكلِّ، وبه تقومُ الحجَّةُ على الجميع، وأما كونُه هدى ورحمةً فمختصٌّ بالمؤمنين؛ إذ هم المقتبسون من أنواره، والمقتطفون من نُوَّارِه[1].

وهذا مخالفٌ لما يُفهمه كلامُ البعض من أن الثلاثةَ للمؤمنين؛ فقد قال النيسابوريُّ في «التفسير»: إن البصائر لأصحاب عَيْن اليقين، والهدى لأرباب علم اليقين، والرحمة لغيرهم من الصالحين المقلِّدين على أتم وجهٍ، والجميعُ لقوم يؤمنون[2]. وذكر نحو ذلك الخازنُ، وادَّعى أنه من اللطائف[3]، وهو خلاف الظاهر، بل لا يكاد يسلم، وهذه الجملةُ على ما يظهر من تمام القول المأمور به.

واحتجَّ بالآية من لم يُجوِّز الاجتهادَ للنبيِّ ﷺ، وفيه نظر.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ إرشاد إلى طريق الفوز بما أُشير إليه من المنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن.

والاستماعُ معروفٌ، واللام: جُوِّز أن تكون أَجْلية، وأن تكون بمعنى إلى، وأن تكون صلةً، أي: فاستمعوه.

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٣٠٩.
(٢) غرائب القرآن ٩/ ١١١.
(٣) تفسير الخازن ٢/ ٣٣٠.

والإنصات: السكوت، يقال: نصت ينصت، وأنصت وانتصت: إذا سكت، والاسم: النُّصتة بالضم، ويقال ـ كما قال الأزهري[(١)] ـ: أنصَتَه وأنصَتَ له: إذا سكتَ له، واستمع لحديثه، وجاء أنصتُّه: إذا أسكتَّه. والعطفُ للاهتمام بأمر القرآن.

وعُلِّل الأمر بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ أي: لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أقصى ثمراته.

والآيةُ دليلٌ لأبي حنيفة ﷺ في أن المأموم لا يقرأ في سرِّية ولا جهرية؛ لأنها تقتضي وجوب الاستماع عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها، وقد قام الدليلُ في غيرها على جواز الاستماع وتركه، فبقي فيها على حاله في الإنصات للجهر، وكذا في الإخفاء؛ لعلمنا بأنه يقرأ، ويؤيِّد ذلك أخبارٌ جمَّة؛ فقد أخرج عَبْد بن حُميد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه» عن مجاهد قال: قرأ رجل من الأنصار خلف رسول الله ﷺ في الصلاة، فنزلت ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ إلخ[(٢)].

وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه صلَّى بأصحابه، فسمع أُناساً يقرؤون خلفَه، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا؟ أما آن لكم أن تعقلوا؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ كما أمركم الله تعالى[(٣)].

وأخرج ابنُ أبي شيبة عن زيد بن ثابت قال: لا قراءةَ خلف الإمام[(٤)].

وأخرج أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جُعِلَ الإمامُ ليُؤتَمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا»[(٥)].

وأخرج أيضاً عن جابر أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ كان له إمامٌ فقراءتُه له قراءة»[(٦)].

---

(١) في تهذيب اللغة ١٢/ ١٥٥.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٨٧٣١)، وسنن البيهقي ٢/ ١٥٥.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٦٥٩.
(٤) مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٣٧٦.
(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٣٢٦. وأخرجه أحمد (٨٨٨٩)، والبخاري (٧٢٢)، ومسلم (٤١٤)، وقوله: «وإذا قرأ فأنصتوا» ليس في حديث البخاري ومسلم، وانظر التعليق عليه في مسند أحمد.
(٦) مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٣٧٧. وأخرجه كذلك أحمد (١٤٦٤٣)، وابن ماجه (٨٥٠).

وهذا الحديثُ إذا صحَّ وجب أن يُخصَّ عمومُ قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقولِهِ ﷺ: «لا صلاةَ إلا بقراءة»[١]، على طريقة الخصم مطلقاً، فيخرجُ المقتدي، وعلى طريقتنا أيضاً؛ لأن ذلك العموم قد خُصَّ منه البعضُ، وهو المُدْرِكُ في الركوع إجماعاً، فجاز التخصيصُ بعده بالمقتدي بالحديث المذكور، وكذا يُحمل قولُه عليه الصلاة والسلام للمسيء صلاتَه: «فكبِّر، ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن»[٢] على غير حالةِ الاقتداء؛ جمعاً بين الأدلة، بل قد يقال: إن القراءةَ ثابتةٌ من المقتدي شرعاً؛ فإن قراءة الإمام قراءةٌ له، فلو قرأ لكان له قراءتان في صلاة واحدة، وهو غيرُ مشروع.

بقي الكلامُ في تصحيح الخبر، وقد رُوي من طرق عديدة مرفوعاً عن جابر رضي الله عنه، عنه عليه الصلاة والسلام، وقد ضُعِّف، واعترف المضعِّفون لرفعه كالدارقطنيِّ والبيهقيِّ وابن عَدِيٍّ بأن الصحيح أنه مرسلٌ[٣]؛ لأن الحفَّاظ كالسُّفيانَين، وأبي الأحوص، وشعبة، وإسرائيل، وشَرِيك، وجرير، وأبي الزُّبير، وعبد بن حُمَيد[٤]، وخلقٍ آخرين رووه عن موسى بن أبي عائشة، عن عبد الله بن شدَّاد، عن النبيِّ ﷺ، فأرسلوه، وقد أرسله مرةً أبو حنيفة رضي الله عنه، وحينئذٍ لنا أن نقول: المرسل حجةٌ عند أكثر أهل العلم، فيكفينا فيما يرجع إلى العمل على رأينا، وعلى طريق الإلزام أيضاً بإقامة الدليل على حُجِّية المرسل أيضاً، وعلى تقدير التنزُّلِ عن حجِّيته فقد رفعه الإمام بسندٍ صحيح؛ وروى محمد بن الحسن في «موطئه»[٥] قال: أنبأنا أبو حنيفة، حدَّثنا أبو الحسن موسى بنُ أبي عائشة، عن

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٧٦)، ومسلم (٣٩٦) (٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد (٩٦٣٥)، والبخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) سنن الدارقطني ٢/ ١١١، وسنن البيهقي ٢/ ١٥٩، والكامل ٧/ ٢٤٧٧. وقاله أيضاً الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٤٦٢. والكلام من فتح القدير لابن الهمام ١/ ٢٣٩.
(٤) كذا وقع في الأصل و(م): وجرير وأبي الزبير وعبد بن حميد، وهو خطأ، ووقع في فتح القدير: وجرير وعبد الحميد، وهو خطأ أيضاً، والصواب: وجرير بن عبد الحميد، كما في سنن الدارقطني وسنن البيهقي وموضح أوهام الجمع والتفريق، كما أن ذكر أبي الزبير هنا وهم من المصنف رحمه الله.
(٥) موطأ محمد (١١٧).

عبد الله بن شدَّاد، عن جابر بن عبد الله، عن النبيِّ ﷺ قال: «من صلَّى خلف إمام فإنَّ قراءةَ الإمام له قراءة».

وقولُهم: إن الحفاظَ الذين عدّوهم لم يرفعوه، غيرُ صحيحٍ؛ فقد قال أحمد بنُ مَنِيع في «مسنده»: أخبرنا إسحاق الأزرق، حدَّثنا سفيان وشريك، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبد الله بن شدَّاد، عن جابر، عن رسول الله ﷺ: «مَنْ كان له إمامٌ فقراءةُ الإمام له قراءة». ثم قال: وحدثنا جَرِير، عن موسى، عن عبد الله، عن النبيِّ ﷺ. فذكره ولم يذكر جابراً. ورواه عبد بن حُمَيد قال: حدَّثنا أبو نُعيم، حدَّثنا الحسن بنُ صالح، عن أبي الزُّبير، عن جابر، عن النبيِّ ﷺ، فذكره[(١)].

وإسنادُ حديث جابر الأول على شرط الشيخين، والثاني على شرط مسلم[(٢)]، فهؤلاء سفيان، وشَرِيك، وجَرِير، وأبو الزُّبير رفعوه بالطرق الصحيحة، فبطَلَ عدُّهم فيمن لم يرفعه، ولو تفرَّد الثقة وجب قبولُه؛ لأن الرفع زيادةٌ، وزيادةُ الثقة مقبولة، فكيف ولم ينفرد؟ والثقةُ قد يسند الحديثَ تارةً ويرسلُه أخرى.

وأخرجه ابن عَدِيٍّ[(٣)] عن الإمام رضي الله عنه في ترجمته، وذكر فيها قصَّة، وبها أخرجه أبو عبد الله الحاكم قال: حدثنا أبو محمد بنُ بكر بنِ محمد بن حَمْدان الصَّيْرفي، حدثنا عبد الصَّمد بن الفضل البَلْخيُّ، حدثنا مكيُّ بن إبراهيم، عن أبي حنيفة، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبد الله بن شدَّاد بن الهاد، عن جابر بن

---

(١) مسند عبد بن حميد (١٠٥٠)، ورواه أحمد (١٤٦٤٣) عن أسود بن عامر، عن الحسن بن صالح، عن أبي الزبير به، وجاء في إسناده عند عبد بن حميد بين الحسن بن صالح وأبي الزبير: جابر الجعفي، وهو الصواب، وكذا أخرجه ابن ماجه (٨٥٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١٢٧، والدارقطني (١٢٥٤) من طرق عن الحسن بن صالح، عن جابر الجعفي، عن أبي الزبير به، وجابر الجعفي ضعيف، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) كذا ذكر المصنف، ولعل كلامه هذا مبني على إيراده الحديث الثاني دون ذكر جابر الجعفي في إسناده، وقد بيَّنا أن الصواب وجوده فيه، وذكر ابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٠٧ أن هذا معروف بجابر الجعفي عن أبي الزبير، يرويه عنه الحسن بن صالح، إلا أن بعضهم رواه عن الحسن بن صالح عن ليث وجابر. قلنا، وليث هو ابن أبي سليم، وهو ضعيف أيضاً، وقد أخرجه الدارقطني (١٢٥٣) وقال: ليث وجابر ضعيفان.

(٣) في الكامل ٧/ ٢٤٧٧.

عبد الله، أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى ورجلٌ خلفَه يقرأ، فجعل رجلٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ ينهاه عن القراءة في الصلاة، فلما انصرف أقبل عليه الرجلُ، قال: أتنهاني عن القراءة خلف رسول الله ﷺ؟! فتنازعا حتى ذكرا ذلك للنبيِّ ﷺ فقال ﷺ: «مَنْ صلَّى خلف إمام فإن قراءةَ الإمام له قراءة»[١].

وفي رواية لأبي حنيفة[٢] أن ذلك كان في الظهر أو العصر، وهي أن رجلاً قرأ خلف رسول الله ﷺ في الظهر أو العصر، فأومأ إليه رجلٌ فنهاه، فلما انصرف قال: أتنهاني. الحديثَ. نعم إن جابراً روى منه محلَّ الحكم فقط تارةً، والمجموع تارةً، ويتضمَّن ردَّ القراءة خلف الإمام؛ لأنه خرج تأييداً لنهي ذلك الصحابي عنها مطلقاً في السرية والجهرية، خصوصاً في رواية أبي حنيفة أن القصة كانت في السرية، لا إباحة فعلِها وتركها.

فيعارضُ ما رُوي في بعض روايات حديث: «ما لي أُنازع في القرآن» أنه قال: «إن كان لا بدَّ[٣] ففي الفاتحة»[٤]، وكذا ما رواه أبو داود والترمذيُّ عن عبادة بن الصامت قال: كنَّا خلف رسول الله ﷺ في صلاة الفجر، فقرأ رسول الله ﷺ، فثقلت عليه القراءة، فلما فرغ قال: «لعلكم تقرؤون خلف إمامكم؟» قلنا: نعم، قال: «لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب؛ فإنه لا صلاةَ لمن لا يقرأ بها»[٥].

ويقدَّم لتقدُّم المنع على الإطلاق عند التعارض، ولقوة السَّند؛ فإن حديث المنع أصحُّ، فبطل ردُّ المتعصبين، وتضعيفُ بعضهم لمثل الإمام الأعظم رضي الله عنه، مع تضييقه في الرواية إلى الغاية، حتى إنه شرَطَ التذكُّر لجوازها بعد علم الراوي أنَّ ذلك المرويَّ خطُّه، ولم يشترط الحفاظ هذا، ولم يوافقه صاحباه، على أن الخبر

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع من المستدرك، وقد رواه البيهقي في سننه ٢/ ١٥٩ عن شيخه أبي عبد الله الحاكم.

(٢) مسند أبي حنيفة بشرح القاري ص٣٠٩.

(٣) في (م): إنه لا بد.

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة أحمد (٧٢٧٠)، وأبو داود (٨٢٦)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٤١، وابن ماجه (٨٤٨)، ولم نقف على من ذكر الزيادة التي أوردها المصنف غير ابن الهمام في فتح القدير ١/ ٢٣٩، وعنه نقل المصنف، وفيه: «فالفاتحة» بدل: «ففي الفاتحة».

(٥) سنن أبي داود (٨٢٣)، وسنن الترمذي (٣١١)، وأخرجه كذلك أحمد (٢٢٦٧١).

قد عُضِدَ بروايات كثيرةٍ عن جابر غيرِ هذه، وإن ضُعِّفَت، وبمذاهب الصحابة أيضاً كابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وابن مسعود.

وأخرج محمد عن داود بن قَيْس بن عَجْلان أن عمر رضي الله عنه قال: ليت في فم الذي يقرأ خلف الإمام حجراً[١]، ورَوى مثلَ ذلك عن سعد بن أبي وقاص[٢].

ورُوي عن عليٍّ كرم الله وجهه_ إلا أن فيه مقالاً_أنه قال: من قرأ خلف الإمام فقد أخطأ الفِطْرة[٣]. وقال الشعبيُّ: أدركتُ سبعين بدريًّا كلُّهم يمنعون المقتدي عن القراءة خلف الإمام. وقد ادعى بعضُ أصحابنا إجماع الصحابة رضي الله عنهم على ذلك، ولعل مرادَه بذلك إجماع كثير من كبارهم، وإلا ففيه نظر، وكونُ مراده الإجماع السكوتي ليس بشيء أيضاً.

وذهب قوم إلى أن المأمومَ يقرأ إذا أسرَّ الإمام القراءة، ولا يقرأ إذا جهر، وهو قول عُروة بن الزُّبير، والقاسم بن محمد، والزهري، ومالك، وابن المبارك، وأحمد، وإسحاق، ورُوي عن ابن عمر رضي الله عنه، وحجَّتهم _ فيما قيل _ أن الآية تدلُّ على الأمر بالاستماع لقراءة القرآن، والسنةُ تدلُّ على وجوب القراءة خلف الإمام، فحملنا مدلولَ الآية على صلاة الجهر، ومدلول السنة على صلاة السرِّ جمعاً بين الدلائل.

وقال آخرون: إنما يقرأ في السرِّية؛ لأنه لا يقال له: مستمع، واعتُرض بأنه وإن سلَّمنا أنه لا يقال له ذلك، لكن لا نسلِّم أنه لا يقال له: منصت، مع علمه بالقراءة، وبأنَّا لا نسلِّم دلالةَ السنة على وجوب القراءة خلف الإمام، ودون إثبات ذلك خَرْط القَتاد، على أن الحزم العمل بأقوى الدليلين، وليس مقتضى أقواهما إلا المنع.

ومن هنا ضُعِّف ما يُروى عن محمد بن الحسن رحمه الله تعالى أنه يستحسن قراءةَ الفاتحة على سبيل الاحتياط مخالفاً لما ذهب إليه الإمام وأبو يوسف من

---

(١) موطأ محمد (١٢٧).
(٢) موطأ محمد (١٢٦).
(٣) أخرجه الدارقطني في السنن (١٢٥٥).

كراهة القراءة؛ لما في ذلك من الوعيد، والحقُّ أن قوله كقولهما؛ فقد قال في «كتاب الآثار» بعدما أسند إلى علقمة بن قَيْس أنه ما قرأ قطُّ فيما يُجهر به، ولا فيما لا يُجهر به: وبه نأخذ، فلا نرى القراءةَ خلف الإمام في شيء من الصلاة يُجهر فيه أو لا يجهر فيه، ولا ينبغي أن يقرأ خلفه في شيء منها، وذكر في «موطئه» نحو ذلك[1].

وقال السَّرخسيُّ[2]: تفسدُ صلاة القارئ خلفَ الإمام في قول عدَّة من الصحابة رضي الله عنهم، ومنهم ـ فيما قيل ـ سعد بنُ أبي وقَّاص؛ وفي روايةِ المُزَنيِّ عن الشافعي رضي الله عنه أنه يقرأ في الجهرية والسرية، وفي رواية البُوَيطي أنه يقرأ في السِّرية «أمَّ القرآن»، ويضمُّ السورةَ في الأوليين، ويقرأ في الجهرية «أمَّ القرآن» فقط، والمشهور عند الشافعية أنه لا سورة للمأموم الذي يسمع الإمامَ في جهرية، بل يستمع، فإن بَعُدَ بأن لم يسمع، أو سمع صوتاً لا يميِّز حروفَه، أو كانت سريةً، قرأ في الأصح.

وسببُ النزول لم يكن القراءةَ في الصلاة، بل أمر آخر؛ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا يتكلَّمون في الصلاة، فنزلت[3]، وحاصلُها النهيُ عن التكلُّم لا عن القراءة.

ومن الناس من فسَّر القرآن بالخطبة، والأمرُ بالاستماع إما للوجوب أو للندب، وعندنا الإنصاتُ في الخطبة فرضٌ على تفصيل في المسألة، وأخرج غيرُ واحد عن مجاهد أن الآية في الصلاة والخطبةِ يوم الجمعة.

وفي كلام أصحابنا ما يدلُّ على وجوب الاستماع في الجهر بالقرآن مطلقاً؛ قال في «الخلاصة»: رجلٌ يكتب الفقه وبجنبه رجلٌ يقرأ القرآن، فلا يمكنُه استماعُ القرآن، فالإثم على القارئ، وعلى هذا لو قرأ على السطح في الليل جهراً والناس نيامٌ يأثم، وهذا صريحٌ في إطلاق الوجوب، وعُلِّل ذلك بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

و«إذا» هنا للكلية، وغالبُ الشرطيات القرآنية المؤدَّاة بها كليةٌ.

---

(١) موطأ محمد ١/ ٤١٠.

(٢) في المبسوط ١/ ١٩٩.

(٣) سنن البيهقي ٢/ ١٥٥.

هذا والمراد من الاستماع في الآية المعنى المتبادِرُ منه، وقال الزجّاج: المراد منه القَبول والإجابة[١]، وهو بهذا المعنى مجازٌ كما نصَّ عليه في «الأساس»[٢]، ومنه: سمع الله لمن حمده، و: سمع الأمير كلامَ فلان، ورجَّح ذلك العلامة الطِّيبيُّ؛ قال: وهذا أوفقُ لتأليف النظم الكريم سابقاً ولاحقاً، وأجمعُ للمعاني والأقوال؛ فإنه تعالى لما ذَكَر تعريضاً أن المشركين إنما استهزؤوا بالقرآن، ونبذوه وراءهم ظِهْريًّا؛ لأنهم فقدوا البصائر، وعَدِموا الهدايةَ والرحمة، وأن حالهم على خلاف المؤمنينَ = أمَرَ المؤمنين بما هو أزيد من مجرَّد الاستماع، وهو قَبوله، والعملُ بما فيه، والتمسُّك به، وأن لا يجاوزه، مرتِّباً للحكم على تلك الأوصاف، ولذلك قيل: «إذا قُرِئ القرآن» وضعاً للمُظهَر موضع المضمَر؛ لمزيد الدلالة على العِلِّية، يعني: إذا ظهر أيها المؤمنون أنَّكم لستم مثلَ هؤلاء المعاندين فعليكم بهذا الكتاب الجامعِ لصفات الكمال، الهادي إلى الصراط المستقيم، المُوصِل إلى مقام الرحمة والزُّلفى، فاستمعوه، وبالغوا في الأخذ منه والعمل بما فيه؛ ليحصُلَ المطلوب، ولعلَّكم ترحمون، ويدخُلُ في هذا وجوبُ الإنصات في الصلاة بطريق الأَولى؛ لأنها مقامُ المناجاة والاستماع من المتكلم، وعلى هذا الإنصاتُ عند تلاوة الرسول ﷺ. اهـ.

ويُعلم منه أن الخطاب في الآية للمؤمنين، بل هو نصٌّ في ذلك. وقال بعضُهم: إن الخطابَ فيها للكفار، وذلك أن كون القرآن بصائرَ وهدى ورحمةً لا يظهر إلا بشرطٍ مخصوص، وهو أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام إذا قرأ عليهم القرآنَ عند نزوله استمَعُوا له وأنصَتُوا؛ ليقفوا على معانيه ومزاياه، فيعترفوا بإعجازه، ويستغنوا بذلك عن طلب سائر المعجزات. وأُيِّد هذا بقوله سبحانه وتعالى في آخر الآية: «لعلكم ترحمون» بناءً على أن ذلك للترجِّي، وهو إنما يُناسب حالَ الكفار لا حال المؤمنين الذين حصَلَ لهم الرحمةُ جزماً في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. وأجيب بأن هذه الرحمة المرجوّة غيرُ تلك الرحمة، ولئن سُلِّم كونُها إياها فالإطماعُ من الكريم واجبٌ، فلم يبقَ فرقٌ.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٣٩٨.
(٢) أساس البلاغة: (سمع).

وفي بناء الفعل للمفعول إشارةٌ إلى أنَّ مدارَ الأمر القراءةُ من أيِّ قارئ كان.

وفي الآية من الدّلالة على تعظيم شأن القرآن ما لا يخفى، ومن هنا قال بعض الأصحاب: يستحبُّ لمريد قراءته خارج الصلاة أن يلبَسَ أحسن ثيابه، ويتعمَّم، ويستقبل القِبْلة تعظيماً له، ومثلُه في ذلك العلم، ولو قرأ مضطجعاً فلا بأس؛ إذ هو نوعٌ من الذِّكر، وقد مدح سبحانه ذاكِريه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويضمُّ رجليه عند القراءة ولا يمدُّها؛ لأنه سوءُ أدب. ولو قرأ ماشياً، أو عند النَّسْج ونحوه من الأعمال، فإن كان القلبُ حاضراً غيرَ مشتغلٍ لم يُكره، وإلا كُره، ولا يقرأ وهو مكشوفُ العورة، أو كان بحضرته مَنْ هو كذلك، وإن كانت زوجته، وكَرِه بعضُهم القراءةَ في الحمَّام والطريق. قال النوويُّ: ومذهبُنا لا تُكره فيهما، وتُكره في الحُشِّ، وبيت الرَّحى وهي تدورُ عند الشَّعبي، وهو مقتضى مذهبنا(١).

والكلامُ في آداب القراءة وما ينبغي للقارئ طويلٌ، وفي «الإتقان» قَدَر له قدراً من ذلك(٢)، فإن كان عندك فارجع إليه.

والجملةُ على ما يدلُّ عليه كلامُهم يحتمل أن تكون من القولِ المأمور به، ويحتمل أن تكون استئنافاً من جهته تعالى.

قيل: وعلى الأول فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ عطفٌ على «قل»، وعلى الثاني فيه تجريدُ الخطاب إلى رسول الله ﷺ، وهو عامٌّ لكل ذِكْر؛ فإن الإخفاء أدخَلُ في الإخلاص، وأقربُ من القَبول.

وفي بعض الأخبار: يقول الله تعالى: «مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَنْ ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منه»(٣). وقال الإمام(٤): المراد بالذِّكر في نفسه أن يكون عارفاً بمعاني الأذكار التي يقولُها بلسانه، مستحضراً لصفات الكمال والعزِّ والعظمة والجلال، وذلك لأنَّ الذِّكر باللسان عارياً عن الذِّكر بالقلب كأنه عديمُ الفائدة، بل ذَكَر جمعٌ أن الذِّكر اللسانيَّ الساذج لا ثوابَ فيه أصلاً، ومن أتى

---

(١) المجموع ٢/ ١٧٨ والتبيان في آداب حملة القرآن ص٨٢-٨٣.
(٢) الإتقان ١/ ٣٢٤.
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة ﷺ، وقد سلف ٣/ ٤١.
(٤) تفسير الرازي ١٥/ ١٠٦.

بالكلمة الطيِّبة غيرَ ملاحِظٍ معناها، أو جاهلاً به، لا يعدُّ مؤمناً عند الله تعالى.

وقيل: الخطابُ لمستمعِ القرآن، والذِّكر القرآن، والمراد أمْرُ المأموم بالقراءة سرًّا بعد فراغ الإمام عن قراءته، وفيه بُعْدٌ ولو التزم قول الإمام.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ في موضع الحال بتأويل اسم الفاعل، أي: متضرِّعاً وخائفاً، أو بتقدير مضاف، أي: ذا تضرُّع وخِيْفة، وكونُه مفعولاً لأجله غيرُ مناسب، وجوَّز بعضُهم كونَ ذلك مصدراً لفعل من غير المذكور، وليس بشيء، وأصل «خيفة»: خوفة.

و«دون» في قوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ صفةٌ لمعمولِ حالٍ محذوفة، أي: ومتكلِّماً كلاماً دون الجهر؛ لأنَّ «دون» لا تتصرَّف على المشهور، والعطف على «تضرعاً»، وقيل: لا حاجةَ إلى ما ذُكر، والعطفُ على حاله، والمراد: اذكره متضرِّعاً ومقتصداً. وقيل: إنَّ العطف على قوله تعالى: «في نفسك»، لكن على معنى: اذكره ذِكْراً في نفسك، وذِكْراً بلسانك دون الجهر.

والمراد بـ «الجهر» رفعُ الصوت المُفْرِط، وبما دونه نوعٌ آخر من الجهر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو أن يُسمِعَ نفسَه، وقال الإمام[1]: المراد أن يقع الذِّكر متوسِّطاً بين الجهر والمُخافتة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠].

ويُشعر كلامُ ابن زيد أن المراد بـ «الجهر» مقابِلُ الذِّكر في النفس، والآيةُ عنده خطابٌ للمأموم المأمور بالإنصات، أي: اذكر ربَّك أيُّها المنصِت في نفسك، ولا تجهر بالذِّكر.

﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ جمعُ غَدْوةٍ كما في «القاموس»، وفي «الصحاح»: الغُدُوُّ نقيضُ الرَّواح، وقد غدا يغدو غُدُوًّا[2].

وقوله تعالى: «بالغدو»، أي: بالغدوات، جمع غدوة: وهي ما بين صلاة الغَداة وطلوع الشمس، فعبَّر بالفعل عن الوقت، كما يقال: أتيتُك طلوعَ الشمس، أي: وقتَ طلوعها، وهو نصٌّ في أن الغدوَّ مصدرٌ لا جمع، وعليه فقد يُقدَّرُ معه

(١) تفسير الرازي ١٥/١٠٦.
(٢) القاموس والصحاح: (غدو).

مضافٌ مجموعٌ، أي: أوقات الغدوِّ؛ ليطابق قولَه سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْأَصَالِ﴾ وهو ـ كما قال الأزهريُّ ـ جمع أُصُل، وأُصُل جمع أَصِيل[1]، أعني: ما بين العصر إلى غروب الشمس، فهو جمعُ الجمع، وليس للقلَّة، وليس جمعاً لأصيل؛ لأن فعيلاً لا يُجمع على أفعال، وقيل: إنه جمعٌ له؛ لأنه قد يُجمع عليه، كيمين وأيمان، وقيل: إنه جمعٌ لـ «أُصُل» مفرداً، كعنق، ويُجمع على أُصْلان أيضاً. والجار متعلق بـ «اذكر».

وخُصَّ هذان الوقتان بالذِّكر؛ قيل: لأن الغدوةَ عندها ينقلبُ الحيوان من النوم الذي هو كالموت إلى اليقظة التي هي كالحياة، والعالَم يتحوَّل من الظُّلمة التي هي طبيعةٌ عَدَمية إلى النور الذي هو طبيعةٌ وجودية، وفي الأصيل الأمرُ بالعكس.

أو لأنهما وقتا فراغٍ، فيكون الذِّكر فيهما ألصَقُ بالقلب.

وقيل: لأنهما وقتان يتعاقب فيهما الملائكةُ على ابن آدم.

وقيل: ليس المراد التخصيص، بل دوامُ الذِّكر واتصالُه، أي: اذكر كلَّ وقت.

وقرأ أبو مِجْلَز لاحِقُ بن حُمَيد السَّدُوسي: «والإيصال»[2]، وهو مصدر آصَلَ: إذا دخل في الأصيل، وهو مطابق لغدوّ بناءً على القول بإفراده ومصدريته، فتذكَّر.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾ عن ذِكْر الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم ملائكةُ الملأ الأعلى، فالمراد من العِنْدية: القُرْب من الله تعالى بالزُّلفى والرضا، لا المكانية؛ لتنزُّه الله تعالى عن ذلك، وقيل: المرادُ: عند عرش ربك.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يؤدُّونها حسبما أُمروا به. ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: ينزِّهونه عما لا يليق بحَضْرة كبريائه على أبلغ وجهٍ.

---

(١) كذا نسب المصنف للأزهري، والذي في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٤٠: والأصيل: هو العشي، وهو الأُصُل... وجمع أصيل العشي: آصال. والذي نقله المصنف عن الأزهري قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٣٩، ونسبه في اللسان (أصل) إلى الزجاج، وانظر الصحاح ومقاييس اللغة وتاج العروس (أصل).

(٢) القراءات الشاذة ص٤٨.

﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ أي: ويخصُّونه بغاية العبودية والتذلُّل، لا يُشْركون به غيرَه جلَّ شأنُه، وهو تعريضٌ بمن عَدَاهم من المكلفين كما يدلُّ عليه تقديم «له»، وجاز أن يُؤخذ من مجموع الكلام كما آثره العلامة الطِّيبي؛ لأنه تعليلٌ للسابق، على معنى: ائتوا بالعبادة على وجه الإخلاص كما أُمرتم، فإن لم تأتوا بها كذلك فإنَّا مغنون عنكم وعن عبادتكم، إنَّ لنا عباداً مُكْرَمين من شأنهم كذا وكذا، فالتقديمُ على هذا للفاصلة.

ولما في الآية من التعريض شُرِع السجود عند هذه الآية؛ إرغاماً لمن أبى ممن عُرِّض به.

قيل: وقد جاء الأمر بالسجدة لآيةٍ أُمر فيها بالسجود؛ امتثالاً للأمر، أو حُكي فيها استنكافُ الكَفَرة عنه؛ مخالفةً لهم، أو حُكي فيها سجودُ نحو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ تأسِّياً بهم، وهذا من القِسْم الثاني باعتبار التعريض، أو من القِسْم الأخير باعتبار التَّصريح.

وكان ﷺ يقول في سجوده لذلك كما روى ابنُ أبي شيبة عن ابن عمر: «اللهم لك سجد سَوَادي، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعُني، وعملاً يرفعُني»(١).

وأخرج أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ وصحَّحه عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يقول في سجود القرآن بالليل مراراً: «سجَدَ وجهي للذي خلقَه، وشقَّ سمعَه وبصرَه بحوله وقوَّته، فتبارك الله أحسنُ الخالقين»(٢).

وجاء عنها أيضاً: «ما من مسلم سجد لله تعالى سجدةً إلا رفعَه الله تعالى بها درجةً، أو حطَّ عنه بها خطيئةً، أو جمعَهُما له كِلْتَيهما»(٣).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٣٠.

(٢) مسند أحمد (٢٤٠٢٢)، وسنن أبي داود (١٤١٤)، وسنن الترمذي (٥٨٠)، وليس فيها قوله: «فتبارك الله أحسن الخالقين». وقد أخرج هذه الزيادة الحاكم في المستدرك ١/ ٢٢٠.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن ٢/ ٣٢١، وأخرج أحمد في مسنده (٢٢٣٧٠)، ومسلم (٤٨٨) نحوه من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وأخرج مسلم، وابن ماجه، والبيهقيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدم السجدةَ فسجد اعتزَلَ الشيطانُ يبكي، يقول: يا ويله، أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرتُ بالسجود فأبيتُ فلي النار»(١).

واستُدلَّ بالآية على أن إخفاءَ الذِّكر أفضلُ، ويوافِقُ ذلك ما أخرجه أحمد من قوله ﷺ: «خيرُ الذِّكر الخَفِيُّ»(٢). وهي ناعية على جهلة زماننا من المتصوِّفة ما يفعلونه مما يُستقبح شرعاً وعقلاً وعرفاً، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي الروح ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي القلبُ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليميلَ إليها ويطمئنَّ؛ فكانت الروحُ تشمُّ من القلب نسائمَ نفحات الألطاف.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامَعَها، وهو إشارةٌ إلى النكاح الرُّوحاني، والصوفية يقولون: إنه سائرٌ في جميع الموجودات، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت.

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ في البداية بظهورِ أدنى أثرٍ من آثار الصفات البشرية في القلب الروُّحاني.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ كبُرت وكثُرت آثارُ الصِّفات ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ لأنهما خافا من تبدُّل الصفات الرُّوحانية النورانية بالصفات النَّفسانية الظُّلمانية: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ للعبودية ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ بحسَب الفِطْرة من القوى ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: جعل أولادُهما لله تعالى شركاءَ فيما آتى أولادَهما، فمنهم عبد البطن، ومنهم عبد الخَمِيصة، ومنهم عبد الدِّرهم والدينار.

---

(١) صحيح مسلم (٨١)، وسنن ابن ماجه (١٠٥٢)، وسنن البيهقي ٢/ ٣١٢. وأخرجه أحمد (٩٧١٣).

(٢) مسند أحمد (١٤٧٧) من حديث سعد بن أبي وقاص. وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة، وهو ضعيف كثير الإرسال فيما قال الحافظ ابن حجر في التقريب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كائناً ما كان ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في العَجْز وعدمِ التأثير ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ إلى أيِّ أمرٍ كان ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في نسبة التأثير إليهم.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ استفهامٌ على سبيل الإنكار، أي: ليس لهم أرجلٌ يمشون بها، بل بالله عزَّ وجل؛ إذ هو الذي يُمشيهم، وكذا يقال فيما بعد.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ إن استطعتم.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ حافِظِي ومتولِّي أمري ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مَنْ قام به في حال الاستقامة.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الحقَّ ولا حقيقَتَك؛ لأنهم عُمْي القلوب في الحقيقة، والضميرُ للكفار.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: السَّهل الذي يتيسَّر لهم، ولا تكلِّفْهم ما يشقُّ عليهم ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بالوجه الجميل ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلا تكافئهم بجهلهم.

عن جعفر الصَّادق ﵁: ليس في القرآن آيةٌ أجمعُ لمكارم الأخلاق من هذه الآية. قيل: وذلك لقوة دلالتِها على التوحيد؛ فإنَّ مَنْ شاهد مالكَ النواصي وتصرُّفه في عباده، وكونهم فيما يأتون ويَذَرون به سبحانه وتعالى لا بأنفسهم، لا يشاقُّهم ولا يداقهم في تكاليفهم، ولا يغضب في الأمر والنهي، ولا يتشدَّد، ويحلم عنهم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ بالشُّهود والحضور؛ فإنَّك ترى حينئذ أن لا فِعْل لغيره سبحانه، وهذا إشارة إلى ما يَعْتري الإنسان أحياناً من الغضب، وإيماءٌ إلى علاجه بالاستعاذة.

قال بعضُهم: إن الغضبَ إنما يَهِيجُ بالإنسان إذا استقبَحَ من المغضوب عليه عملاً من الأعمال، ثم اعتقد في نفسه كونَه قادراً وفي المغضوبِ عليه كونَه عاجزاً، وإذا انكشَفَ له نورٌ من عالَم العقل عرف أن المغضوبَ عليه إنما أقدَمَ على ذلك العمل لأنَّ الله تعالى خلَقَ فيه داعيةً، وقد سبقت عليه الكلمةُ الأزلية، فلا سبيل له

إلى تركه، وحينئذٍ يتغيَّر غضبُه. وقد ورد: من عرفَ سرَّ الله تعالى في القَدَر هانت عليه المصائب، فالاستعاذةُ بالله تعالى في المعنى: طلبُ الالتجاء إليه باستكشاف ذلك النور.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشِّرك ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: لَمَّةٌ منه، بنسبة الفعل إلى غيرِه سبحانه وتعالى ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ مقامَ التوحيد ومشاهدة الأفعال من الله تعالى ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فعاليةَ الله تعالى لا الشيطان، ولا فاعلَ غيرُه سبحانه في نظرهم.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي: إخوان الشياطين من المحجوبين ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ الشياطين ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾ وهو نسبةُ الفعل إلى السِّوى. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عن العِناد والمِراء والجَدَل.

و﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: جمعتَها من تِلْقاء نفسِك.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ لأني قائمٌ به لا بنفسي.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: للقرآن بآذانكم الظاهرة ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ بحواسِّكم الباطنة. وجوِّز أن يكون ضمير «له» للربِّ سبحانه، أي: إذا قرئ القرآنُ فاستمعوا للربِّ جلَّ شأنه؛ فإنه المتكلِّم والمخاطِبُ لكم به.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالسَّمع الحقيقيِّ، أو برحمة تجلِّي المتكلِّم في كلامه بصفاته وأفعاله.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ بأن تتحلَّى بما يمكنُ التحلِّي به من صفات الله تعالى، وقيل: هو على حدِّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ حسب اختلافِ المقام ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ أي: دون أن يظهر ذلك منك، بل تكونُ ذاكراً به له ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي: وقتَ ظهورِ نور الرُّوح، ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي: وقت غَلَبات صفات النفس ﴿وَلَا تَكُن﴾ في وقتٍ من الأوقات ﴿مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن شهود الوَحْدة الذاتية.

وقال بعضُ الأكابر: إن قوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ إشارة إلى أعلى المراتب، وهو حِصَّة الواصلين المشاهِدِين، وقوله

سبحانه وتعالى: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ إشارةٌ إلى المرتبة الوسطى، وهي نصيبُ السائرين إلى مقام المشاهدة، وقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ إيماءٌ إلى مرتبة النازلين من السالكين، وفي ذكر الخوف إشعارٌ باستشعار هيبة الجلال كما قال:

أَشْتاقُهُ فإذا بدا أَطْرَقْتُ من إجلالهِ
لا خِيْفَةً بل هَيْبَةً وصيانةً لجمالهِ[1]

وذكروا أنَّ حال المبتدئ والسالك منوطةٌ برأي الشيخ؛ فإنه الطبيبُ لأمراضِ القلوب، فهو أعرفُ بالعلاج، فقد يرى له رفْعَ الصوتِ بالذِّكر علاجاً؛ حيث توقف قطع الخواطر وحديث النفس عليه.

وفي «عوارف المعارف» للسَّهرَوَرْديّ قدس سرُّه: لا يزالُ العبد يردِّدُ هذه الكلمةَ على لسانه مع مُواطأة القلب حتى تصير متأصِّلةً فيه، مُزيلةً لحديث النفس، وينوب معناها في القلب عنه، فإذا استولت الكلمةُ، وسَهُلت على اللسان، تشرَّبَها القلبُ، ويصير الذِّكر حينئذٍ ذِكْر الذات، وهذا الذِّكر هو المشاهدةُ والمُكاشفة والمعاينة، وذاك هو المقصدُ الأقصى من الخَلْوة، وقد يحصُلُ ما ذُكِر بتلاوة القرآن أيضاً إذا أكثَرَ التلاوةَ، واجتهد في مُواطأةِ القلب مع اللسان، حتى تجري التلاوةُ على اللسان، وتقوم مقامَ حديث النفس، فيدخل على العبدِ سهولةٌ في التلاوة والصَّلاة. اهـ.

ونُقل عنه أيضاً ما حاصلُه: أن بنيةَ العبدِ تحكي مدينةً جامعة، وأعضاؤه وجوارحُه بمثابة سكَّان المدينة، والعبد في إقباله على الذِّكر كمؤذِّن صعِدَ منارةً على باب المدينة يقصِدُ إسماعَ أهل المدينة الأذان، فالذَّاكر المحقّق يقصد إيقاظَ قلبه، وإنباء أجزائه وأبعاضه بذِكْر لسانه، فهو يقولُ ببعضه، ويسمعُ بكلِّه، إلى أن تنتقل الكلمةُ من اللسان إلى القلب فيتنوَّر بها، ويظفَر بجدوى الأحوال، ثم ينعكسُ نورُ القلب على القالب، فيتزيَّن بمحاسن الأعمال. اهـ.

---

(١) البيتان في مرقاة المفاتيح ١٠/ ٢٨٧ من غير نسبة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الفانون، الباقون به سبحانه وتعالى، أربابُ الاستقامة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لعدم احتجابهم بالأنانية، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ بنفيها ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ بالفناء التامِّ وطَمْسِ البقية، والله تعالى هو الباقي ليس في الوجود سواه.

انتهى بعون الله تعالى الجزء التاسع من روح المعاني
ويليه إن شاء الله الجزء العاشر ويبدأ
بسورة الأنفال

(سورة الأعراف)

(مكيّة وهي مائتان وخمس آيات بصري وست كوفيّ ومدنيّ)

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ قال (الزجاج): المختار في تفسيره ما قال (ابن عباس) رضي الله عنهما: أنا الله أعلم وأفصل ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ صفته والمراد بالكتاب السورة ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ شك فيه، وسُمي الشك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (سورة الأعراف مكِّية، وهي مائتان وخمس آيات بصريّ وستّ كوفي ومدني)، وكلماتها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة، وحروفها أربعة عشر ألفًا وثلاثمائة وعشرة أحرف.

قوله: (الزجاج) هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمّد النّحوي، كان من أهل العلم بالأدب والدِّين المتين وصنّف كتابًا في معاني القرآن الكريم وأخذ الأدب عن المبرّد وثعلب رحمهما الله تعالى، وكان يخرط الزجاج ثم تركه واشتغل بالأدب، فنُسِب إليه. توفي يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة سنة عشر، وقيل: سنة إحدى عشرة، وقيل: سنة ستّ عشرة وثلاثمائة ببغداد رحمه الله تعالى.

قوله: (ابن عباس) بن عبد المطلب بن هاشم أبو العباس الهاشمي الصحابي ابن الصحابي المكِّي ابن عمّ رسول الله ﷺ، كُني بابنه العباس وهو أكبر أولاده، وكان يقال لابن عباس: حبر الأُمّة والبحر لكثرة علمه، دعا له رسول الله ﷺ بالحكمة وحنّكه بريقه حين وُلد وهم في الشعب، وقال ابن مسعود: نِعْم ترجمان

حرجًا **(لأن الشاك ضيق الصدر حرجه)** كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه أي

القرآن ابن عباس. وعاش ابن عباس بعد ابن مسعود نحو خمس وثلاثين سنة تشدّ إليه الرحال ويُقصد من جميع الأقطار، ومشهور في الصحيحين تعظيم عمر بن الخطاب لابن عباس واعتداده به وتقديمه مع حداثة سنة، وعاش بعده ابن عباس نحو سبع وأربعين سنة يُقصد ويُستفاد ويُعتمد، وهو أحد العبادلة الأربعة: ابن عمر، وابن عباس، وابن عمرو بن العاص، وابن الزبير. وكان ابن عباس أحد الستة من الصحابة الذين هم أكثرهم رواية عن رسول الله ﷺ، وهم: أبو هريرة، ثم ابن عمر، ثم جابر، وابن عباس، وأنس، وعائشة رضي الله تعالى عنهم. رُوِي لابن عباس عن النبيّ ﷺ ألف حديث وستّ مائة حديث وستّون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على خمسة وتسعين، وانفرد البخاري بمائة وعشرين، ومسلم بتسعة وأربعين. رَوى عنه ابن عمر وأنس وأبو الطفيل وأبو أُمامة بن سهيل، وروى عنه خلائق لا يُحصون من التابعين. وُلِد ابن عباس عام الشّعب في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، فتوفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: ابن عشر، وهو ضعيف، وقيل: ابن خمس عشرة، ورجّحه أحمد بن حنبل وغيره. وتوفي بالطائف سنة ثمان وستّين، قاله الواقدي وابن أبي شيبة وأحمد بن حنبل وابن نمير. وقيل: سنة تسع، وقيل: سنة سبعين، وحكى ابن الأثير قولًا أنه سنة ثلاث وسبعين، وضعّفه وهو غريب ضعيف أو باطل، وصلّى عليه محمّد ابن الحنفية، وقال: اليوم مات ربّانيّ هذه الأُمّة، ومناقبه كثيرة مشهورة رضي الله تعالى عنهما.

قوله: (لأن الشاك ضيق الصدر حرجه)، أي الصدر لمّا فسَّر الحرج بالشكّ، ومن المعلوم أن لفظ الحرج ليس حقيقةً فيه، فتعيّن كونه مجازًا فيه احتاج إلى بيان العلاقة بين المعنى الأصليّ والمجازي أن الحرج من لوازم الشكّ، واللفظ المستعمل في الملزوم مع عدم إمكان إرادة المعنى الأصلي مجازًا؛ إذ لا يمكن هٰهنا إرادة الحرج، إذ لا معنى لتحرّج القلب من نفس الكتاب، أو من نفس إنزاله، أو من نفس استناد إنزاله إلى الله تعالى، فإنّ كل ذلك يتمثّل في القلب ويرتسم فيه، فلا يحرج من الجزم بكونه منزّلًا من عند الله تعالى، وإنّما المتصوّر أن يحرج القلب من عدم التيقّن بكونه منزّلًا من عند الله تعالى، فإن الشكّ في

لا شك في أنه منزّل من الله **(أو حرج منه بتبليغه)** لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأذى ولا ينشط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم، **(والنهي متوجّه إلى الحرج وفيه من المبالغة ما فيه)**، والفاء للعطف أي هذا الكتاب أنزلته إليك فلا يكن بعد إنزاله حرج في صدرك. واللام في ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ متعلّق بـ ﴿أُنزِلَ﴾ أي أنزل إليك لإنذارك به، أو بالنهي لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وكذا إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار به لأن صاحب اليقين **(جسور)** متوكل على ربه ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل النصب

الحكم لا يستقرّ في قلبه أحد طرفي النسبة فيضيق قلبه منه، ومَنْ في قوله: منه سببيّة، أي لا يمكن في قلبك حرج بسببه، وضمير منه يرجع إلى الإنزال المُسنَد إليه تعالى المدلول من قوله: أنزلناه. **قوله: (أو حرج منه بتبليغه)**، فحينئذ يكون الحرج عل أصل معناه، ويُقدّر المضاف، فإنّ الحرج حقيقةً لا يختصّ بالأجسام والضيق المكاني. **قوله: (والنهي متوجّه إلى الحرج، وفيه من المبالغة ما فيه)** مع أنّ الحرج ليس مما يُؤمر ويُنهى بالكون في الصدر أو عدم الكون فيه، والنهي من باب التهييج والإلهاب ليداوم على اليقين ويزيد فيه؛ كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: الآية ٩٤]، وقيل: المراد نهي أُمّته عن الشكّ؛ لأن الأمر والنهي إنما يتعلّقان بمن له شعور وعزيمة على الفعل والتّرك، والحرج ليس كذلك، إلّا أنه لما قصد المبالغة في نهي المخاطَب عن كونه في حرجٍ عبّر عن عدم كونه في حرج بعدم كون الحرج في صدره على طريق ذكر اللازم وإرادة الملزوم، فإنّ الكناية أبلغ من الصريح، فإنّ قولك: لا أرينك هٰهنا أبلغ من أن يقال: لا تكوننّ هٰهنا، ولا تحضرنّ فيه، فإنّ عدم كون المخاطب في ذلك المكان ملزوم رؤية المتكلّم إيّاه فيه، فعبّر عن الأول بالثاني لكون نهي المتكلّم عن نفسه عن رؤية المخاطب فيه أبلغ في نهي المخاطَب عن الحضور فيه، لكون النهي الأول كالبيِّنة للثاني، ولا شكّ أن إثبات الشيء ببيِّنة أبلغ من مجرّد الإثبات، ومثله في الأمر قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: الآية ١٢٣]، فإنّ ظاهره أمر الكفار بأن يجدوا في المؤمنين غلظة، والمراد أمر المؤمنين بأن يغلظوا على الكفار، ولمّا كان وجدان الكفّار غلظة في المؤمنين لازمًا لغلظة المؤمنين عليهم، وكان طلب المؤمنين اللازم أبلغ من طلب الملزوم عبّر عن غلظة المؤمنين عليهم بذلك. **قوله: (جسور)** في

بإضمار فعلها أي لتنذر به وتذكر تذكيرًا، فالذكرى اسم بمعنى التذكير، أو الرفع بالعطف على ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي هو كتاب وذكرى للمؤمنين، **(أو بأنه خبر مبتدأ محذوف، أو الجر بالعطف على محل** ﴿لِتُنذِرَ﴾) أي للإنذار وللذكرى.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي القرآن والسنة ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ أي ولا تتولوا من دونه شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره و﴿قَلِيلٗا﴾ نصب بـ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكرون تذكرًا قليلًا. و«ما» مزيدة لتوكيد القلّة (**«يتذكرون» شاميّ**).

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾

﴿وَكَم﴾ مبتدأ ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ تبيين والخبر ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ **(أي أردنا إهلاكها)** كقوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: لآية ٦] ﴿فَجَآءَهَا﴾ جاء أهلها ﴿بَأۡسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى بائتين، يقال: بات بياتًا حسنًا ﴿أَوۡ

مختار الصِّحاح: جَسِر على كذا أقدم، يجسر ـ بالضم ـ جسارة ـ بالفتح ـ وتجاسر أيضًا، والجسور ـ بالفتح ـ المِقدم. اهـ. **قوله: (أو بأنه خبر مبتدأ محذوف)**، أي هو ذكرى عطفًا على جملة هو كتاب، فيكون كل من الحكمين مستقلاً بخلاف ما إذا جُعل عطفًا على كتاب، فإنّ المعنى أنه جامع بين كونه كتابًا وتذكيرًا. **قوله: (أو الجرّ بالعطف على محل** ﴿لِتُنذِرَ﴾)، فإنّ الفعل فيه منصوب بأن المضمرة بعد لام كي، فانسبك منهما المصدر، فكأنه قيل للإنذار والتذكير، فإنّ ذكرى اسم مصدر بمعنى التذكير.

قوله: («يتذكرون») بياء قبل التاء مع تخفيف الذال **(شاميّ)** أي ابن عامر الشاميّ. والباقون بتاء فوقية واحدة بلا ياء قبلها، وخفّف الذال حفص وحمزة والكسائي وخلف على أصلهم. والباقون بالتشديد.

قوله: (أي أردنا إهلاكها) قدّر الإرادة لدلالة قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ على تقديرها؛ إذ لو لم تقدّر لزم أن يكون مجيء البأس بعد الإهلاك وعقيبه، وليس كذلك، بل الأمر بالعكس.

﴿هُمْ قَآئِلُونَ﴾ حال معطوفة على ﴿بَيَٰتًا﴾ كأنه قيل: فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين. وإنما قيل: ﴿هُمْ قَآئِلُونَ﴾ بلا «واو» ولا يقال: «جاءني زيد هو فارس» بغير واو، لأنه لما عطف على حال قبلها حذفت الواو استثقالًا لاجتماع حرفي عطف، لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل. وخصّ هذان الوقتان لأنهما وقتا الغفلة فيكون نزول العذاب فيما أشد وأفظع. وقوم لوط عليه السلام أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب عليه السلام وقت القيلولة. وقيل: ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلًا أي ليلًا وهم نائمون أو نهارًا وهم قائلون.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ **(دعاؤهم وتضرّعهم)** ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ لما جاءهم أوائل العذاب ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك. و﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ اسم «كان» و﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ الخبر ويجوز العكس ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أرسل مسند إلى إليهم أي فلنسألن المرسل إليم وهم الأمم عما أجابوا به رسلهم ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيبوا به.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم وعما وجد منهم **(ومعنى السؤال التوبيخ)** والتقريع **(والتقرير إذا فاهوا)** بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم.

قوله: (دعاؤهم وتضرّعهم)، فإنّ الدَّعوى قد تجيء بمعنى الدعاء والتضرّع، ومنه ما حكاه الخليل: اللّهمّ أشركنا في صالح دعوى المسلمين، أي في صالح دعائهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ [الأنبياء: الآية ١٥]، والمعنى لم يكن دعاؤهم ربّهم إلّا هذا القول لعلمهم بأن ليس الحين حين دعاء.

قوله: (ومعنى السؤال التوبيخ)... الخ. جواب عمّا يقال: المقصود من السؤال أن يُخبر المسؤول عن كيفيّة أعماله، وقد أخبر الله تعالى عنهم أنّهم كانوا يقرّون بأنهم كانوا ظالمين، فما فائدة هذا السؤال؟ وتقرير الجواب أنهم لمّا أقرّوا

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَالْوَزْنُ﴾ أي وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها وهو مبتدأ وخبره ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم يسأل الله الأمم ورسلهم فحذفت الجملة وعوض عنها التنوين ﴿الْحَقُّ﴾ أي العدل صفته (ثم قيل: توزن **صحائف الأعمال**) بميزان (له لسان وكفتان

بأنهم كانوا ظالمين مقصّرين سُئِلوا بعد ذلك عن سبب ظلمهم وتقصيرهم تقريعًا وتوبيخًا، وكذلك الرُّسل يُسألون مع العلم بأنهم لا يصدر منهم التقصير البتّة يظهر عدم تقصيرهم في تبليغ ما حملوه من الرسالة، ويلحق التقصير كلّه بالأُمّة، فيتضاعف إكرام الله تعالى للرسل لظهور براءتهم من جميع مُوجبات التقصير، ويتضاعف الخزي والإهانة في حقّ الكفار. **قوله: (إذا فاهوا)** أي تكلّموا، يتعلق بقوله: (والتقرير)، يعني إذا تكلَّموا بألسنتهم، فكان تقرير الاستحقاق الوعيد. اهـ محشّي رحمه الله.

قوله: (ثم قيل: تُوزن **صحائف الأعمال**)... الخ. في تفسير وزن الأعمال قولان: الأوّل ما ورد في الخبر أنّ الله تعالى ينصب ميزانًا له لسان وكفّتان يوم القيامة يُوزن به أعمال العباد خيرها وشرّها، إمّا بأن تصوّر أعمال المؤمنين بصورة حسنة، وتصوّر أعمال الكافر بصورة قبيحة، فتُوزن تلك الصورة أو توزن الصحف التي كتبت فيها أعمال العباد. والقول الثاني، وهو قول مجاهد والضحاك والأعمش أنّ المراد من الميزان العدل والقضاء وكثير من المتأخرين ذهبوا إلى هذا القول، وحَمْل لفظ الوزن على هذا المعنى شائع في اللغة، فإنّ العدل في الأخذ والإعطاء لا يظهر له أثر إلّا بالكيل والوزن في الدنيا، فلم يبعد جعل الوزن كناية عن العدل بأن يذكر وزن الأعمال، ويُراد القضاء بالعدل في أمر المُجازاة عليها، ويعبّر عن القضاء بالعدل بالوزن لكون الوزن طريقًا لظهور العدل، ويقوّي ذلك أن الرجل إذا لم يكن له قدر ولا قيمة عند غيره، يقال: إنّ فلاناً لا يقيم لفلان وزنًا، قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٥].

قوله: (له لسان) في لسان العرب: لسان الميزان عَذَبَتُه. اهـ. وأيضًا فيه: العَذَبَة الخَيْط الذي يرفع به الميزان. اهـ. **قوله:** (وكفتان) بكسر الكاف وفتحها. اهـ مختار الصّحاح. وفي لسان العرب: كفّة الميزان الكسر فيها أشهر، وقد حُكِي فيها

إظهارًا للنصفة) وقطعًا للمعذرة. وقيل: هو عبارة عن القضاء السويّ والحكم العادل والله أعلم بكيفيته ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع ميزان أو موزون أي فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات أو ما توزن به حسناتهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ هم الكفّار فإنه لا إيمان لهم ليعتبر معه عمل فلا يكون في ميزانهم خير فتخف موازينهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يجحدون فالآيات الحجج والظلم بها وضعها في غير موضعها أي جحودها وترك الانقياد لها ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، أو مكنّاكم فيها وأقدرناكم على التصرّف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرهما. **(والوجه تصريح الياء)** لأنها أصلية بخلاف صحائف فالياء فيها زائدة، **(وعن نافع)** أنه همز تشبيهًا بصحائف ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ مثل ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: الآية ٤٢].

الفتح وأباها بعضهم. اهـ. **قوله: (إظهارًا للنُّصفة)** وقطعًا للمعذرة بيان لحكمة الوزن، وقوله: النُّصفة، في المصباح: أنصفت الرجل إنصافًا عاملته بالعدل والقسط، والاسم النَّصَفة ـ بفتحتين ـ. اهـ

قوله: (والوجه تصريح الياء) وعليه الجمهور. **قوله: (وعن نافع)**... الخ. ورُوِي عن نافع: معائش بالهمزة، فقال النحويّون: إنه غلط؛ لأنه لا يهمز عندهم بعد ألف الجمع إلا الياء الزائدة، كصحيفة وصحائف. وأمّا معايش، فياؤه أصليّة في عين الكلمة؛ لأنها من العيش، حتى قال أبو عثمان: إنّ نافعًا لم يكن يدري العربية، وردّ هذا بأن العرب قد تشبه الأصلي بالزائد لكونه على صورته، وقد سمع عنهم هذا في مصائب ومناير ومعايش؛ فالمغلط هو الغالط، والقراءة، وإنْ كانت شاذّة غير متواترة مأخوذة عن الفُصحاء الثقات. وأمّا قول سيبويه: إنها غلط، فإنه عنى أنها خارجة عن الجادّة والقياس، وهو كثير ما يستعمل الغلط في كتابه بهذا المعنى، وإلى ما ذكر أشار المصنّف رحمة الله عليه. اهـ شهاب. وفي غيث النفع

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم آدم عليه السلام طينًا غير مصوّر ثم صوّرناه بعد ذلك دليله ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم عليه السلام ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ «ما» رفع أي أيّ شيء منعك من السجود؟ «ولا» زائدة بدليل ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [صَ: الآية ٧٥]، ومثلها ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: الآية ٢٩] أي ليعلم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فيه دليل على أن الأمر للوجوب، والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وتحقيره أصل آدم عليه السلام ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ وهي جوهر نوراني ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وهو ظلماني وقد أخطأ الخبيث بل الطين أفضل **(لرزانته)** ووقاره ومنه الحلم والحياء والصبر وذلك دعاه إلى التوبة والاستغفار، وفي النار **(الطيش)** والحدة والترفع وذلك دعاه إلى الاستكبار. والتراب عدة الممالك، والنار عدة المهالك. والنار مظنّة الخيانة والإفناء، والتراب **(مئنة)** الأمانة والإنماء، والطين يطفىء النار ويتلفها، والنار لا تتلفه. وهذه فضائل غفل عنها إبليس حتى زلّ بفاسد من المقاييس. وقول نافي

في القراءات السبع: معايش هو بالياء من غير همز ولا مدّ لكل القرّاء، وشذّ خارجة فرواه عن نافع بالهمز وهو ضعيف جدًا، بل جعله بعضهم لحنًا؛ لأنه جمع معيشة وأصلها مفعلة بكسر العين ثم نُقلت حركة الياء إلى العين تخفيفًا، فالميم زائدة لأنها من العيش والياء أصلية متحرّكة، فلا تُقلب في الجمع همزة، نحو مكايل ومبايع. أمّا لو كانت زائدة أصلها في الواحد السكون لهمزتها في الجمع نحو سفائن وصحائف ومدائن؛ لأن مفرده فعيلة والياء فيه زائدة ساكنة، وكذا تهمز في الجمع إذا كان موضع الياء ألف أو واو زائدتان نحو عجائز ورسائل؛ لأن الواحد عجوز ورسالة. اهـ.

قوله: (لرزانته) الرَّزانة الوَقار. اهـ مختار الصِّحاح. **قوله: (الطَّيش)** الخفّة. اهـ مختار الصحاح. **قوله: (مَئِنّة)** أي مَظِنّة.

القياس: أول مَن قاس إبليس قياس. على أن القياس عند مثبته مردود عند وجود النص وقياس إبليس عناد للأمر المنصوص. وكان الجواب لـ ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ أن يقول: «منعني كذا» وإنما قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لأنه قد استأنف قصة وأخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم عليه السلام وبعلة فضله عليه فعلم منها الجواب ـ كأنه قال: منعني من السجود فضلي عليه، **(وزيادة عليه وهي)** إنكار الأمر واستبعاد أن يكون **(مثله)** مأمورًا بالسجود **(لمثله)**، إذ سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو من السماء لأنه كان فيها وهي مكان المطيعين والمتواضعين. والفاء في ﴿فَٱهْبِطْ﴾ جواب لقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي إن كنت تتكبّر فاهبط ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح لك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصى ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ من أهل **(الصغار والهوان)** على الله وعلى أوليائه، يذمّك كل إنسان ويلعنك كل لسان لتكبّرك، وبه علم أن الصغار لازم للاستكبار.

﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ أمهلني إلى يوم البعث وهو وقت النفخة الأخيرة ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ إلى النفخة الأولى. وإنما أجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء، وفيه تقريب لقلوب الأحباب أي هذا بري بمن يسيئني فكيف بمن يحبني! وإنما جسره على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال علمه بحلم ذي الجلال.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أضللتني **(أي فبسبب إغوائك)** إياي. والباء تتعلق بفعل القسم المحذوف تقديره فبسبب إغوائك أقسم،

قوله: (وزيادة عليه) أي على الجواب. **قوله: (وهي)** الزيادة إنكار الأمر، أي أمر الله سبحانه وتعالى إبليس بالسجود. **قوله: (مثله)** أي إبليس عليه اللّعنة. **قوله: (لمثله)** أي آدم على نبيِّنا وعليه الصّلاة والسّلام.

قوله: (الصّغار) ـ بالفتح ـ الذُّلّ. **قوله: (الهَوان)** نقيض العزّ.

قوله: (أي فبسبب إغوائك) إشارة إلى أن الباء سببية، وما مصدريّة.

(أو تكون الباء للقسم) أي فأقسم بإغوائك ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لأعترضن لهم على طريق الإسلام مترصدًا للرد متعرضًا للصد كما يتعرض العدو على الطريق (ليقطعه) على (السابلة). وانتصابه على الظرف كقولك «ضرب زيد الظهر» أي على الظهر. وعن طاوس أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل قدري فقال له (طاوس): تقوم (أو تقام). فقام الرجل فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفقه منه ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ وهو يقول أنا أغوي نفسي.

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشككهم في الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في الدنيا ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ من قبل الحسنات ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ من قبل السيئات وهو جمع

قوله: (أو تكون الباء للقسم) ولا يقسم إلا بما هو عظيم الشأن وجليل القدر، والإغواء لكونه من صفات الله تعالى الفعلية صحّ أن يقسم به، كأنه قيل: بقدرتك ونفاذ سلطانك فيّ لأقعدنّ لهم على الطريق المستقيم الذي يسلكونه إلى الجنة بأن أُزيِّن لهم الباطل وما يكسبونه من المأثم، ويدلّ على كونها قسمية قوله تعالى في سورة صٓ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [صٓ: الآية ٨٢]. **قوله:** (ليقطعه) أي الطريق.

قوله: (السابِلة) أبناء السبيل. **قوله:** (طاوس) بن كيسان، أبو عبد الرحمٰن الخولاني اليماني التابعي، أحد الأعلام من أبناء الفرس، كان أعلم التابعين بالحلال، أخذ عن عائشة ﷺ وطائفة.اهـ دستور الأعلام. وفي تهذيب الأسماء: كان يسكن الجَنَد ـ بفتح الجيم والنون ـ بلدة معروفة باليمن، هو من كبار التابعين والعلماء الفُضلاء الصالحين. سمع ابن عباس وابن عمرو وابن عمر وجابر وأبا هريرة وزيد بن ثابت وابن أرقم وعائشة ﷺ. روى عنه ابنه عبد الله الصالح ابن الصالح ومجاهد وعمرو بن دينار وخلائق من التابعين، واتّفقوا على جلالته وفضيلته ووفور علمه وصلاحه وحفظه وتثبيته. قال عمرو بن دينار: ما رأيت أحدًا قطَ مثل طاوس. توفي بمكّة في سابع ذي الحجّة سنة ستّمائة، هذا قول الجمهور. وقال الهيثم بن عدي وأبو نعيم: سنة بضع عشر ومائة، والمشهور الأوّل، وقالوا: وكان له بضع وسبعون سنة رحمة الله تعالى عليه.اهـ. قال الصاغاني: والاختيار أن يكتب الطاوس علمًا بواو واحدة كداود. **قوله:** (أو تقام) بغير إرادتك.

شمال يعني ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الأغلب. وعن (**شقيق**): ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي فيقول لا تخف فإن الله غفور رحيم (**فاقرأ** ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾) [طه: الآية ٨٢]. ومن خلفي فيخوفني (**الضيعة**) على (**مخلفي**) فاقرأ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: الآية ٦] وعن يميني فيأتيني من قبل الثناء فاقرأ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: الآية ٨٣] وعن شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فاقرأ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: الآية ٥٤] ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة، وقال في الأولين: «من» لابتداء الغاية وفي الأخيرين «عن» لأن «عن» تدلّ على الانحراف ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ مؤمنين قاله ظنًّا فأصاب لقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: الآية ٢٠] أو سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى إياهم.

قوله: (شقيق) بن إبراهيم البلخي من مشائخ خراسان له لسان في التوكّل حسن الكلام فيه، صاحَبَ إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه الطريق وهو أستاذ حاتم الأصمّ، وكان قد خرج إلى بلاد التّرك للتجارة وهو حدث، فدخل إلى بيت أصنامهم، فقال لعالمهم: إنّ هذا الذي أنت فيه باطل، ولهذا الخلق خالق ليس كمثله شيء رازق كل شيء، فقال له: ليس يوافق قولك فعلك، فقال له شقيق: كيف قال زعمت أن لك خالقًا قادرًا على كل شيء وقد تغيّبت إلى هٰهنا تطلب الرزق؟ قال شقيق: فكان سبب زهدي كلام التركي، فرجع وتصدّق بجميع ما يملك وطلب العلم، وكانت وفاته سنة ثلاث وخمسين ومائة رحمة الله تعالى عليه، ذكره ابن الجوزيّ في الشذور، وفي دستور الأعلام بمعارف الأعلام شقيق بن إبراهيم البلخي، أبو علي الزاهد شيخ خراسان، سافر مرّة وفي صحبته ثلاثمائة مريد، وهو شيخ حاتم الأصمّ.اهـ.

قوله: (فاقرأ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾)، أي فادع هذه الوسوسة بهذه الآية لأنها تدلّ على أنّ الغفران منوط بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، فمَنْ ليس له هذا المجموع كيف يأمن.

قوله: (الضَّيعة) أي إيضاع. **قوله: (مُخَلَّفي)** مخلف الرجل مَنْ يخلف بعده؛ كالأولاد والأقارب.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ من الجنة أو من السماء ﴿مَذْءُومًا﴾ معيبًا من ذأمه إذا ذمه (والذأم والذم) العيب ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا من رحمة الله. واللام في ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ موطئة للقسم وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط ﴿مِنكُمْ﴾ منك ومنهم فغلب ضمير المخاطب ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَـٰٓـَٔادَمُ﴾ وقلنا يا آدم بعد إخراج إبليس من الجنة ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ اتخذها مسكنًا ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾ فتصيرا ﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ وسوس إذا تكلّم كلامًا خفيًا يكرره وهو غير متئد، ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال موسوس بالفتح ولكن موسوس له وموسوس إليه وهو الذي يُلقى إليه الوسوسة. ومعنى وسوس له فعل الوسوسة لأجله ووسوس إليه ألقاها إليه ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ليكشف لهما ما ستر عنهما من عوراتهما. وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور، وأنه لم يزل مستقبحًا في الطباع والعقول. فإن قلت: ما للواو المضمومة في ﴿وُۥرِىَ﴾ لم تقلب همزة كما في «أو يصل» تصغير واصل وأصله «وويصل» فقلبت الواو همزة كراهة لاجتماع الواوين؟ قلت: لأن الثانية مدة كألف «واری» فكما لم يجب همزها في «وعد» لم يجب في ﴿وُۥرِىَ﴾ وهذا لأن الواوين إذا تحركتا ظهر فيهما من الثقل ما لا يكون فيهما إذا كانت الثانية ساكنة، وهذا مدرك بالضرورة فالتزموا إبدالها في موضع الثقل لا في غيره. وقرأ (عبد الله) «أورى» بالقلب ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ

قوله: (والذأم) من المهموز العين، **(والذمّ)** من المضاعف.

قوله: (عبد الله) بن مسعود، هو أبو عبد الرحمـٰن عبد الله بن مسعود بن غافل ـ بالغين المعجمة والفاء ـ ابن حبيب، وأُمّه أُمّ عبد بنت عبد ودّ بن سواء أسلمت وهاجرت، فهو صحابي ابن صحابية. أسلم عبد الله قديمًا حين أسلم

﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ (إلا كراهة أن تكونا) ملكين تعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الغذاء. (وقرىء ﴿مَلِكَيْنِ﴾) لقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: الآية ١٢٠] ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ وأقسم لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وأخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة لأنه لما كان منه القسم ومنهما التصديق فكأنهما من اثنين.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرّهما به من القسم بالله وإنما يخدع المؤمن بالله.

سعيد بن زيد قبل عمر بن الخطاب بزمان، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأُحدًا والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد، وشهد اليرموك وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنّة، وهو صاحب نعل رسول الله ﷺ كان يُلبسه إيّاها إذا قام، فإذا خلعها وجلس جعلها ابن مسعود في ذراعه، وكان كثير الولوج على رسول الله ﷺ والخدمة له، وكان يُعرف بصاحب السواد والسواك والنعل. رُوِي له عن رسول الله ﷺ ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثًا، اتفق البخاري ومسلم منها على أربعة وستّين، وانفرد البخاري بأحد وعشرين، ومسلم بخمسة وثلاثين. توفي سنة ثنتين وثلاثين، وقيل: سنة ثلاث وثلاثين، وهو ابن بضع وستّين سنة رضي الله تعالى عنه.

قوله: (إلا كراهة أن تكونا) إشارة إلى أنه استثناء مفرغ من أعمّ المفعول له، أي ما نهاكما لأمرٍ ما إلّا كراهة أن تكونا ملكين، بتقدير المضاف عند البصريّين، وقدّره الكوفيّون: إلا أن تكونا وأوهمهما الخبيث بهذا الكلام أنكما إن أكلتما منها تكونان بمنزلة الملائكة، أو تكونان من الخالدين، فرغّبهما في أكلها طمعًا لحصول أحد الأمرين لهما، وقيل: أو هنا بمعنى الواو؛ لأن الترغيب في مجموع الأمرين أدخل في حصول غرض الخبيث من الوسوسة. **قوله: (وقرىء ﴿مَلِكَيْنِ﴾)** بكسر اللام قارئه ابن عباس والحسن والضحاك ويحيىٰ ابن أبي كثير والزهري وابن حكيم عن ابن كثير، وهذه القراءة شاذّة.

وعن (ابن عمر) ﷺ: من خدعهما بالله انخدعنا له ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ وجدا

قوله: (ابن عمر) أي عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنهما القريشي العدويّ المدنيّ الصحابي الزّاهد، أمُّه وأمّ أخته حفصة زينب بنت مظعون بن حبيب الجمحي. أسلم مع أبيه قبل بلوغه وهاجر قبل أبيه، وأجمعوا على أنه لم يشهد بدرًا لصغره، وقيل: شهد أُحدًا، وقيل: لم يشهدها، وثبت في الصحيحين عنه أنه قال: عُرِضت على النبيّ ﷺ عام أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يُجِزْني، وعُرِضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني، وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وشهد غزوة مؤتة واليرموك وفتح مصر وفتح أفريقيّة، وثبت في صحيح البخاري عن ابن عمر، قال: أوّل يوم شهدته يوم الخندق، وكان شديد الاتّباع لآثار رسول الله ﷺ حتى أنه ينزل منازله ويصلّي في كلّ مكان صلّى فيه ويُبرك ناقته في مبرك ناقته، ونَقلوا أن النبيّ ﷺ نزل تحت شجرة، فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تَيْبس. رُوِي له عن رسول الله ﷺ ألف حديث وستّمائة حديث وثلاثون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على مائة وسبعين، وانفرد البخاري بأحد وثمانين، ومسلم بأحد وثلاثين. رَوى عنه أولاده الأربعة: سالم وحمزة وعبد الله وبلال وخلائق لا يُحصون من كبار التابعين وغيرهم، ومناقبه كثيرة مشهورة، بل قلّ نظيره في المتابعة لرسول الله ﷺ في كل شيء من الأقوال والأفعال وفي الزهادة في الدنيا ومقاصدها والتطلّع إلى الرئاسة وغيرها، وكان ابن عمر كثير الصّدقة، فربما تصدّق في المجلس الواحد بثلاثين ألفًا. قال نافع: كان ابن عمر إذا اشتدّ عجبه بشيء من ماله تقرّب به إلى الله تعالى، وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه، فربما لزم أحدهم المسجد، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحال الحسنة أعتقه، فيقول له أصحابه: إنّهم يخدعونك، فيقول: مَنْ خدعنا بالله انْخَدعنا له، وكان ابن عمر يسرد الصوم، وهو أحد الصحابة السّاردين للصوم، منهم عمر وابنه وأبو طلحة وحمزة بن عمرو وعائشة، واعلم أنّ ابن عمر أحد الستّة الذين هم أكثر الصحابة روايةً عن النبيّ ﷺ، وهم ستّة: أبو هريرة، ثم ابن عمر، ثم أنس، وابن عباس، وجابر، وعائشة؛ وهو أحد العبادلة الأربعة، ومناقب ابن عمر وأحواله كثيرة مشهورة. توفي ابن عمر بمكّة سنة ثلاث وسبعين بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر، وقيل: بستّة أشهر، وقال يحيىٰ بن بكير:

طعمها آخذين في الأكل منها وهي (**السنبلة أو الكرم**) ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ ظهرت لهما عوراتهما (**لتهافت اللباس عنهما**) وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر. وقيل: كان لباسهما من جنس الأظفار أي كالظفر بياضًا في غاية اللطف واللين فبقي عند الأظفار تذكيرًا للنعم وتجديدًا للندم ﴿وَطَفِقَا﴾ وجعلا يقال: طفق يفعل كذا أي جعل ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ يجعلان على عورتهما من ورق التين أو (**الموز**) ورقة فوق ورقة ليستترا بها (**كما يخصف النعل**).

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ هذا عتاب من الله وتنبيه على الخطأ. ورُوِيَ أنه قال لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ألم يكن لك فيما (**منحتك**) من شجر الجنة (**مندوحة**) عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى ولكن ما ظننت أن أحدًا يحلف بك كاذبًا قال: فبعزّتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا بكدّ يمين وعرق جبين، فأهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد و(**داس**) و(**ذرى**) و(**طحن**) و(**عجن**) و(**خبز**) ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

توفي ابن عمر بمكّة بعد الحجّ، ودُفِن بالمحصب. قال: وبعض الناس يقول: بفخّ، وفخّ ـ بالخاء المعجمة ـ موضع بقرب مكّة.

قوله: (السنبلة) من الحنطة معروفة. **قوله:** (أو الكرم) وزان فلس: العنب. **قوله:** (لتهافت اللّباس عنهما) التهافت التساقط ويخصّ بما يُكره. **قوله:** (الموز) فاكهة معروفة الواحد موزة، مثل تمر وتمرة، وهو الطَّلح.اهـ مصباح. **قوله:** (كما يخصف النعل) أي يخرز طرفه، أي طاقه وجلده فوق أخرى. في المصباح: خصف الرجل نعله خصفًا من باب ضرب خصاف، وهو فيه كرقع الثوب.اهـ. وأيضًا فيه: خرزت الجلد خرزًا من باب ضرب وقتل، وهو كالخياطة في الثياب.اهـ.

قوله: (منحتك) أي أعطيتك. **قوله:** (مندوحة) أي سعة وكفاية. **قوله:** (داس) الرجل الحنطة يدوسها دوسًا ودياسًا مثل الدّراس، ومنهم من ينكر كونه الديّاس من كلام العرب، ومنهم من يقول: هو مجاز، وكأنه مأخوذ من داس الأرض دوسًا إذا شدّد وطأه عليها بقدمه.اهـ. **قوله:** (ذرّى) في المصباح: ذرّيت الطعام تذريةً إذا خلصته من تبنه.اهـ. **قوله:** (عجن) من باب ضرب. **قوله:** (طحن) من باب نفع. **قوله:** (خبز) من باب ضرب.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فيه دليل لنا على المعتزلة لأن الصغائر عندهم مغفورة ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ الخطاب لآدم وحواء بلفظ الجمع لأن إبليس هبط من قبل، ويحتمل أنه هبط إلى السماء ثم هبطوا جميعًا إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال أي متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار أو موضع استقرار ﴿وَمَتَـٰعٌ﴾ وانتفاع بعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى انقضاء آجالكم. وعن **(ثابت البناني)**: لما أهبط آدم عليه السلام وحضرته الوفاة وأحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها: خلّي ملائكة ربي فإنما أصابني ما أصابني فيك. فلما تُوفي غسلته الملائكة بماء وسدر وترًا وحنطته وكفنته في وتر من الثياب وحفروا له قبرًا **(ودفنوه بسرنديب)** بأرض الهند وقالوا لبنيه: هذه سنتكم بعده.

قوله: (ثابت) بن أسلم **(البُناني)** ـ بضمّ الموحدة ونونين مخفّفان ـ أبو محمد البصري، ثقة عابد مات سنة بضع وعشرين بعد المائة، وله ستّ وثمانون. **قوله: (ودفنوه بسَرَنْدِيب)** بأرض الهند. في أخبار الدول وآثار الأُول: دفنوه في جبل أبي قبيس في مكانٍ يقال له: غار الكبرى، فلم يزل آدم عليه السلام في ذلك الغار حتى كان زمن الغرق فاستخرجه نوح وحمله في تابوت معه في السفينة، فلمّا خرج ردَّه إلى مكانه، وقيل: ذهب به إلى بيت المقدس، ويؤيّد ذلك ما ذكره في إتحاف الأَخِصَّاء: أنّ قبر آدم في بيت المقدس، رأسه عند مسجد إبراهيم عليه السلام، ورجلاه عند الصخرة الشريفة، وبينهما ثمانية عشر ميلًا، فإذا كان يوم القيامة أقامه الله تعالى على رجليه ثم يحشر ذرّيته إليه، ويقول الله تعالى: يا آدم إليك حشرت ذرّيتك لكرامتك عليّ. وقيل: دُفِن في مسجد الخَيْف بمنًى، وقيل: دُفِن في مشارق الفردوس عند قرية هي أوّل قرية كانت في الأرض، وعاشت حوّاء بعده سنة واحدة ثم ماتت ودُفنت مع زوجها، وقيل: دُفِنت بجدّة. اهـ. وأيضًا فيها: سرنديب جزيرة في بحر كند بأقصى بلاد الصّين، وهي ثمانون فرسخًا في مثلها، وبها معدن الذهب والفضة ومغاص اللؤلؤ، وبها الجبل الذي أُهبط عليه آدم عليه

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ في الأرض ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للثواب والعقاب (﴿تَخْرُجُونَ﴾ **حمزة وعلي**) ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ جعل ما في الأرض منزلًا من السماء لأن أصله من الماء وهو منها ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ يستر عوراتكم ﴿وَرِيشًا﴾ لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته أي أنزلنا عليكم لباسين: لباسًا يواري سوءاتكم ولباسًا يزيّنكم ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ ولباس الورع الذي يقي العقاب وهو مبتدأ وخبره الجملة وهي ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر، (**أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ صفة للمبتدأ و﴿خَيْرٌ﴾ خبر المبتدأ كأنه قيل: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ المشار إليه**) خير، أو (﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾) خبر مبتدأ محذوف أي وهو لباس التقوى أي ستر العورة لباس المتقين، ثم قال ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ وقيل: ولباس أهل التقوى من الصوف والخشن. ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ﴾ (**مدنيّ وشاميّ**) وعلي عطفًا على ﴿لِبَاسًا﴾ أي وأنزلنا عليكم لباس

السلام وبها أثر قدمه مغموسة في الحجر، ويُرى كل ليلة في هذا الجبل مثل البرق من غير سحاب وغيم، ولا بدّ له كل يوم من مطر يغسل موضع قدم آدم عليه السلام. اهـ.

قوله: (﴿تَخْرُجُونَ﴾) بفتح التاء وضمّ الراء مبنيًّا للفاعل (**حمزة وعليّ**) الكسائي، وكذا ابن ذكوان. والباقون بضمّ التاء وفتح الراء مبنيًّا للمفعول. **قوله:** (**أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ صفة للمبتدأ و﴿خَيْرٌ﴾ خبر المبتدأ**)... الخ. أي ويجوز أن يكون اسم الإشارة صفة للمضاف إلى المعرّف باللام، وقد تقرّر أن حقّ الموصوف أن يكون أخصّ من الصفة أو مساويًا لها بناءً على أنه المقصود بالنسبة، ولا يجوز أن يكون المقصود أقلّ رتبةً من غير المقصود، واسم الإشارة أخصّ من المُعرّف باللام؛ فبالأَوْلى أن يكون أخصّ من المضاف إلى المعرّف باللام، فكيف يكون صفة له؟ أشار إلى الجواب عنه بقوله: (**كأنه قيل: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ المشار إليه**)، وتقريره أنّ اسم الإشارة هٰهنا في تأويل المشار إليه أو المذكور، فجاز أن يقع صفة للمضاف إلى المُعرّف باللام. **قوله:** (﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ﴾) بنصب السين (**مدنيّ**) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. (**وشاميّ**) أي ابن عامر الشامي

التقوى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالّة على فضله ورحمته على عباده يعني إنزال اللباس ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه، وهذه الآية واردة على سبيل (الاستطراد) عقيب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها إظهارًا للمنّة فيما خلق من اللباس، ولما في (العري) من الفضيحة وإشعارًا بأن التستر من التقوى.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ لا يخدعنكم ولا يضلنكم بأن لا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حال أي أخرجهما نازعًا لباسهما بأن كان سببًا في أن نزع عنهما. والنهي في الظاهر للشيطان وفي المعنى لبني آدم أي لا تتبعوا الشيطان فيفتنكم ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ عوراتهما ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن والحديث ﴿يَرَىٰكُمْ هُوَ﴾ تعليل لنهي وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو (المداجي) يكيدكم من حيث لا تشعرون ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ وذريته أو وجنوده من الشياطين وهو عطف على الضمير ﴿يَرَىٰكُمْ﴾ المؤكد بـ ﴿هُوَ﴾، ولم يعطف عليه لأن معمول الفعل هو المستكن دون هذا البارز وإنما يعطف على ما هو معمول الفعل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ قال (ذو النون): إن

وعليّ الكسائي، والباقون بالرفع. **قوله: (الاستطراد)** سَوْق الكلام على وجه يلزم منه كلام آخر، وهو غير مقصود بالذّات، بل بالعرض. اهـ التعريفات للسيد الشريف. **قوله: (العُرْي)** في لسان العرب: العري خلاف اللّبس، عَري من ثوبه يَعْرى عُرْيًا فهو عارٍ. اهـ.

قوله: (المداجي) في مختار الصحاح: **المُداجاة المداراة**، يقال: داجاه إذا داراه، كأنه ساتره العداوة. اهـ. **قوله: (ذو النون)**، هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري، كان أوحد وقته علمًا وورعًا وحالًا وأدبًا وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك رضي الله تعالى عنه، وذكر ابن يونس عنه في تاريخه: أنه كان حكيمًا فصيحًا، وكان أبوه نوبيًا، وسُئِل عن سبب توبته، فقال: خرجت من مصر إلى بعض القرى فنمت في الطريق في بعض الصحاري، ففتحت عينيّ فإذا أنا

كان هو يراك من حيث لا تراه فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه وهو الله (**الكريم**) الستّار الرحيم (**الغفّار**) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه دلالة خلق الأفعال.

بقُنْبُرة[١] عمياء[٢] سقطت من وكرها على الأرض، فانشقّت الأرضُ فخرج منها سكرجتان إحداهما ذهب والأخرى فضّة، وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا، فقلت: حسبي قد تبت ولزمت الباب إلى أن قبلني، وكان قد سعوا به إلى المتوكّل فاستحضره من مصر، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكّل وردّه مُكرَّمًا، وكان المتوكّل إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكي، ويقول: إذا ذكر أهل الورع فحيّ هلا بذي النون، وكان رجلًا نحيفًا تعلوه حمرة ليس بأبيض اللّحية وشيخه في الطريقة شقران العبّاد، ومحاسن الشيخ ذي النون كثيرة، وتوفي في ذي القعدة سنة خمس وأربعين، وقيل: ستّ وأربعين، وقيل: ثمان وأربعين ومائتين رضي الله تعالى عنه بمصر، ودُفن بالقرافة الصغرى وعلى قبره مشهد مبنيّ.

قوله: (الكريم) أي كثير الجود والعطاء الذي لا ينفذ عطاؤه ولا يفنى خزائنه، وهو الكريم المطلق. وقيل: المتفضّل بلا مسألة ولا وسيلة، وقيل: المتجاوز الذي لا يستقصي في العقاب ولا يستحصي في العتاب، وقيل: هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على المتمنّي، ولا يبالي كم أعطى ولمن أعطى، وإذا رفعت الحاجة إلى غيره لا يرضى، ويقول: إنّ لنا للآخرة والأُولى، وقيل: المقدّس عن النقائص الموصوف بالنفائس.

قوله: (الغفّار) أي الذي يستر العيوب، وإن كانت كثيرة، والذنوب وإنْ كانت كبيرة في الدنيا بإسبال السَّتْر عليها، وفي العُقبى بترك المُعاتبة والمعاقبة لها، وهو لزيادة بنائه أبلغ من الغفور. وقيل: المبالغة في الغفار باعتبار الكمّية، وفي الغفور باعتبار الكيفية، وأصل الغفر السّتر، فهو من أسماء الأفعال.

---

(١) قنبره بهندى ابابيل. ١٢ منه عمّ فيضهم.
(٢) إذا صاح القنبر قال: إلـهي العن مبغض آل محمد. ١٢ جمل.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ ما يبالغ في قبحه من الذنوب وهو طوافهم بالبيت **(عُراة)** وشركهم ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ أي إذا فعلوها اعتذروا بأن آبائهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها حيث أقرنا عليها إذ لو كرهها لنقلنا عنها وهما باطلان، لأن أحدهما تقليد للجهال والثاني افتراء على ذي الجلال ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾ **(إذ المأمور به لا بد أن يكون حسنًا وإن كان فيه على مراتب على ما عُرف في أصول الفقه)** ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ.

قوله: (عُراة) جمع عارٍ. **قوله: (إذ المأمور به لا بدّ أن يكون حسنًا، وإنْ كان فيه)** أي المأمور به في الحسن **(على مراتب على ما عُرف في أصول الفقه)** في شرح مرقاة الوصول المسمّى بمرآة الأُصول، (ولا بدّ له) أي للمأمور به من الحسن لا بمعنى كونه صفة الكمال كالعلم أو موافقًا للغرضِ كالعدل، أو ملائمًا للطبع كالجلاوة، فإنّ ذلك يُدْرَك بالعقل ورد به الشرع أم لا بالاتّفاق، بل (بمعنى كونه) أي المأمور به (متعلّق المدح) عاجلًا في الدّنيا، (و) متعلق الثواب آجلًا في العقبى، أي كون الفعل بحيث يستحقّ فاعله في حكم الله تعالى المدح والثواب، فإنّ هذا هو محلّ النزاع. (قال الأشاعرة): هو أي الحسن بهذا المعنى (موجب الأمر) أي أثره الثابت به، فالفعل أمر به فحسن، لا أنه حسن، فأمر به والحاكم به، أي بالحسن والمُوجب له هو الشرع[1]، ولا دخل للعقل فيه، (وإنما العقل آلة بفهم الخطاب) الشرعي (ومنّا) أي من الحنفيّة (مَنْ وافقهم) أي الأشاعرة في هذا الرأي، (و) قالت (المعتزلة): الحسن (مدلوله) أي الأمر بمعنى أنه ثابت قبله، وهو دليل عليه، فالفعل عندهم حسن، فأمر به على عكس ما عند الأشاعرة (والحاكم) بالحسن والمُوجب له (العقل) بمعنى أنه يقتضي المأمور به شرعًا، وإنْ لم يرد، كما أنهم يحكمون بوجوب الأصلح على الله تعالى عنه علوًّا كبيرًا، ولا دخل للشرع في الحكم، (بل الشرع مبين) للحسن في البعض الذي لا يُدرك العقل فيه الحسن ابتداءً، فإنه ربما يظهر أنه

---

(١) أي مقصور على الشرع، وهو السمع. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

مقتضى العقل الحاكم عند خفاء الاقتضاء، وإنْ لم يظهر وجه اقتضائه كما في وظائف العبادات، وما في وجوب صوم آخر رمضان، ونحو ذلك. (ومنّا) أي من الحنفية؛ كالشيخ أبي منصور وكثير من مشائخ العراق (مَنْ وافقهم) لا مطلقًا، بل (في إيجاب المعرفة)، فإنهم قالوا؛ العقل حاكم بوجوب معرفة الله تعالى، حتى قالوا بوجوب الإيمان على الصبي العاقل. قال صاحب الكشف: هذا ليس بصحيح؛ لأن الإيجاب على الصبي مخالف لظواهر النصوص وظواهر الآيات. (وقيل) القائل صاحب الميزان: (مدلوله) أي الحسن مدلول الأمر، كما ذهب إليه المعتزلة، لكن لا مطلقًا، بل (في المفهوم) أي فيما يفهم العقل حسنه؛ كالإيمان، وأصل العبادات والعدل والإحسان (موجبه) أي الحسن أثر الأمر كما ذهب إليه الأشاعرة، لا مطلقًا أيضًا، بل (في غيره) أي غير المفهوم كأكثر الأحكام الشرعية، وأدلّة كلّ مِنَ المذاهب مسطورة في المطوّلات، فلا حاجة إلى إيرادها. (والمختار) عندنا (أنه مدلوله مطلقًا)، أي سواء كان في المفهوم أو غيره (لحكمة الآمر، فإنه) تعالى حكيم لا يأمر إلا بما هو حسن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: الآية ٩٠]. واعلم أنّ إفادة ما ذكر هٰهنا وما تُرِك من الأدلّة على المختار حسن المأمور به بالمعنى المتنازَع فيه في غاية الإشكال، فلا علينا أن نطوي عن الاشتغال بها كشحَ المقال. (والحاكم) بالحسن (هو الشرع) كما هو رأي الأشاعرة (و) ليس (العقل) مجرّد آلة فهم الخطاب، بَل (هو يعرفه) أي الحسن (في بعض) من الأُمور (الحسنة قبل السمع) متعلّق بيعرفه، وكذا قوله: (بلا كسب) كحسن الصدق النافع، (أو به) كحسن الكذب (النافع) ويعرفه (في) بعض (آخر بعده) أي بعد السمع كأكثر أحكام الشرع. واعلم أن المتنازعين في الحسن متنازعون في القُبْح أيضًا، وإنما تركنا القبح واقتصرنا على الحسن؛ لأن الكلام في حسن المأمور به، وقد علم حكم القُبْح منه. وأمّا أقسامه، فستأتي في مباحث النهي إن شاء الله تعالى. (فالمأمور به) أي إذا كان الحسن مدلول الأمر مطلقًا لا موجبه، فالمأمور به (إمّا حسن لحسن في نفسه) أي يتّصف بالحسن باعتباره حسن ثابت في ذاته، سواء كان لعينه أو لجزئه، بخلاف الحسن لغيره، فإنه يتّصف بحسن ثبت في غيره، فظهر أنّ المراد بالمعنى في قول الجمهور: أمّا حسن لمعنى في نفسه هو الحسن لا أمر آخر حتى يحتاج إلى تكلّف ارتكبه صاحب

....

التنقيح. (حقيقته) بأن لا يكون فيه شبه الحسن لغيره، (فأمّا أن لا يقبل) ذلك الحسن (سقوط التكليف) وهو إلزام ما فيه كلفة، وفي اختياره على قول فخر الإسلام: أمّا أن لا يقبل سقوط هذا الوصف يعني وصف الحسن فائدتان: الأُولى دفع ما يرد إليه أنه لا يلزم[١] من جواز سقوط الإقرار بالإكراه سقوط حسنه حتى لو صبر، فقتل كان مأجور. الثانية: أن التكليف مطلقًا أعمّ من التكليف بنفس الموصوف بالحسن، كما في الصلاة، ومن التكليف بالسعي في حصوله، كما في التصديق، فإنه كيف أو انفعال لا اختيار[٢] في حصوله بنفسه مع ورود الأمر به؛ (كالتصديق) في الإيمان وهو التصديق المنطقيّ المُعبّر عنه في الفارسية: بگرويدن وراست گوئي داشتن، وحاصله الإذعان والقبول لوقوع النسبة أو لا وقوعها وتسميته[٣] تسليمًا زيادة[٤] التوضيح للمقصود وجعله مغايرًا للتصديق المنطقي وهم، وحصوله للكفار ممنوع، ولو سلم في البعض يكون كفره باعتبار جحوده باللّسان واستكباره عن إظهار الإذعان، ثم لا يخفى أنه لا يحتمل سقوط التكليف به في حالٍ من الأحوال، فإقرار المنافق ليس إيمانًا في نفس الأمر، وعندنا إذا علمناه. وأمّا إجراء أحكام الإسلام على الإقرار، فلخفاء التصديق (أو يقبله) أي سقوط التكليف؛ كالإقرار باللّسان، فإنه يسقط حال الإكراه؛ لأن الأصل هو التصديق وهو قلبيّ ليس اللّسان معدنه، وقيام السيف يدلّ على عدم تبدّله، لكن ترك متمكّنه من غير عذر يدلّ على فواته، فلا يكون مؤمنًا، ولو عند الله تعالى لا المصدق الغير المتمكّن، ولو كان نادرًا، ولا المتمكّن عند الإجبار على الإقرار والإنكار، فإنّ الإكراه المُلجيء لا يعدم الاختيار، بل يفسده، والإسلام مما يثبت بالشبهة؛ لأنه يَعْلو ولا يُعلى عليه، فيكفي فيه الاختيار الفاسد. (والصلاة) فإنها تسقط بعذر الجنون والإغماء والحيض والنفاس، وهي وإنْ شاركته في احتمال السقوط، لكن بينهما فرق من وجهين أشار إلى الأول بقوله: (لكنها دونه) أي الصلاة أدنى من الإقرار؛ إذ ليست ركنًا مثله لا حقيقة، وهو

---

(١) أنه لا يلزم بيان ما؛ لأن مَنْ محذوفة من أنّ المفتوحة قياسًا بالاتّفاق كالحذف من المفاعيل. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٢) صفة كيف أو انفعال. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٣) منصوب بواو مع. ١٢ حامدي.

(٤) مفعول للتسمية. ١٢ حامدي.

....

ظاهر، ولا إلحاقًا؛ إذ لا تدلّ عليه عدمًا، كالإقرار حال الاختيار، ولا وجودًا إلّا على هيئةٍ مخصوصة، وسرّه أنّ كمال الإيمان في الإنسان بالجمع بين باطنه وظاهره كما هو مجموع من روحه وجسده، فتعيّن لذلك فعل اللّسان؛ لأنه الموضوع للبيان، ولذا جعل رأس الشكر الحمد لا عمل سائر الأركان، وأشار إلى فرق الثاني بقوله: (وتسقط) أي الصلاة (بأعذار) كما سبق، (و) يسقط (هو) أي الإقرار (بعذر) واحد وهو الإكراه، (أو) حسن لحسن في نفسه، لكن لا حقيقةً (بل حكمًا؛ كالصوم) فإنه ليس بحسن في ذاته حقيقة؛ إذ فيه تجويع النفس ومنع نعَم الله عن مملوكه مع النصوص المُبيحة لها، وإنما يحسن بواسطة حسن قهر النفس الأمّارة بالسوء التي هي أعدى أعداء الإنسان زجرًا لها عن ارتكاب العصيان، (والزكاة) فإنّها أيضًا ليست بحسنة في ذاتها حقيقة؛ لأن فيها إضاعة المال، وإنما حَسُنَت بواسطة حسن دفع حاجة الفقير والإحسان إليه، (والحجّ) فإنه في نفسه قطع للمسافة إلى أمكنة مخصوصة وزيارة لها بمنزلة السفر للتجارة وزيارة البلدان، وإنما حسن بواسطة زيارة البيت الشريف بتشريف الله تعالى إيّاه، لكن هذه الوسائط لا تُخرجها عن أن تكون حسنة لعينها؛ لأنّ النفس وإنْ كانت بحسب الفطرة محلّاً للخير والشرّ، إلّا أنها للمعاصي أقبل وإلى الشهوات أمْيَل، حتى كأنّها بمنزلة أمر جبليّ بمنزلة الإحراق للنار، فبالنظر إلى هذا المعنى لا يحسن قهرها؛ إذ لا قبح في الاضّطراري، والفقير إنما يستحقّ الإحسان من جهة الرحمٰن لا من جهة فقره، والبيت لا يستحق الزيارة والتعظيم لنفسه؛ لأنه بيت كسائر البيوت، فسقط حسن قهر النفس ودفع الحاجة وزيارة البيت عن درجة الاعتبار، وصار كل من الصوم والزكاة والحجّ حسنًا لمعنى في نفسه من غير واسطة وعبارة خالصة بمنزلة الصلاة، ولهذا جُعِلت حسنة لحسن في نفسها شبيهة بالحسن لحسن في غيره بدون العكس، وإنما قلنا: إنّ الوسائط هذه الأُمور دون الشهوة والحاجة وشرف المكان؛ لأن الواسطة ما يكون حسن الفعل لأجل حسنها، وظاهر أن نفس الحاجة والشهوة والشرف ليس كذلك، فإنْ قيل: لا تغاير في الخارج بين تلك الوسائط وبين الزكاة والصوم والحجّ، قلنا: لو سلم فيكفي التغاير الذهني، فليتأمّل. (وحكمه) أي حكم الحسن لحسن في نفسه حقيقيًا كان أو حكميًا (عدم سقوط إلا بالأداء) أو بسبب (عروض ما يسقطه) مثل الحيض والنفاس

....

للصلاة والصوم (بعينه) احتراز عن الحسن لحسن في غيره؛ كالوضوء والسعي، فإنه يسقط بسقوط الغير ويبقى ببقائه، كما سيأتي. فإن قيل: المراد بالساقط إنْ كان ما ثبت في الذمّة بالسبب يصح قوله أو عروض ما يسقط بعينه؛ لأنه قد يسقط بعد الوجوب بالعوارض الحادثة في الوقت، ولكن لا وجه لإيراده في هذا الموضع؛ لأنه في بيان حسن ما ثبت بالأمر، وإنْ كان المراد به ما ثبت بالأمر، وهو وجوب الأداء لا يستقيم قوله أو عروض ما يسقط بعينه؛ لأن وجوب الأداء بعد ما ثبت لا يسقط بعارض، أُجيب بأن الصلاة قد تسقط بعارض الحيض والنفاس بعد ما ثبت وجوب أدائها بالأمر، فإنّ الخطاب يتوجّه عند ضيق الوقت بحيث لا يسع غير الوقتيّة ثم تسقط عنها إذا حاضت أو نفست في آخر الجزء كما سبق في مباحث المقيد بالوقت.

(وأمّا حسن لحسن في غيره، فأمّا أن يتأدّى ذلك) الغير (بنفس المأمور به) من غير احتياج إلى فعل آخر؛ (كالجهاد) فإنه ليس بحسن لذاته، لأنه تخريب البلاد وتعذيب العباد، وإنما حَسُن لِمَا فيه من إعلاء كلمة الله تعالى، (وصلاة الجنازة) فإنها ليست بحسنة في ذاتها؛ لأنها بدون الميت عبث، وعلى الكافر قبيحة، وإنما حَسُنت لما فيه من قضاء حقّ الميت، (وهذا) الضرب من الحسن لحسن في غيره شبيه (بالأوّل) أي الحسن لحسن في نفسه. وجه المشابهة أنّ مفهوم الجهاد هو القتل والضرب ونحوهما، وهو ليس بمفهوم إعلاء كلمة الله تعالى، لكن لا مغايرة بينهما في الخارج والإعلاء حسن بمعنى في نفسه، فما يتّحد به يكون شبيهًا به، وكذا الحال في صلاة الجنازة، فإن قيل لِمَ شبه هذا بالأول ولم يشبه الحكمي منه بهذا، قلنا: لأنه لا جهة هٰهنا لارتفاع الوسائط وصيرورتها في حكم العدم بخلافها ثمّة، (أو لا يتأدّى ذلك) الغير (بها) أي بنفس المأمور به، بل يحتاج إلى فعل آخر (كالوضوء) فإنه في ذاته تبرّد وإضاعة ماء، وإنما حسن بكونه وسيلة إلى الصلاة (والسعي) إلى الجمعة، فإنه في نفسه تعب، وإنما حسن لكونه وسيلة إلى أداء الجمعة ثم الصلاة لا تتأدّى بالوضوء ولا الجمعة بالسعي، بل بفعل مقصود بعد حصول كل واحد منهما، **«وحكمه»** أي حكم الحسن لحسن في غيره (وجوبه بوجوب الغير الذي) هو الواسطة (وسقوطه به) أي سقوط وجوبه بسقوط وجوب ذلك الغير حتى لو أسلم الكفار يسقط وجوب الجهاد معهم، وإنْ بقي مع البالغين، ولو بغى مسلم أو قطع الطريق

....

يسقط وجوب الصلاة عليه، ولو حاضت يسقط الوضوء، ولو مرض أو سافر يسقط وجوب السّعي. (والأمر المطلق) عن قرينته يدل على الحسن لحسن في نفسه أو غيره (يقتضي الضرب الأوّل)، وهو ما لا يحتمل السقوط (من) القسم (الأوّل) وهو الحسن لحسن في نفسه (لاقتضاء الكمال) أي كمال الأمر، وهو المطلق (الكمال) أي كمال حسن المأمور به، (ثم التكليف). اعلم أنّ ما لا يُطاق على ثلاث مراتب أدناها ما يمتنع لعلم الله تعالى بعدم وقوعه أو لإرادته ذلك، ولا نزاع في وقوع التكليف به فضلًا عن الجواز، فإنّ مَنْ مات على كفره يُعدّ عاصيًا إجماعًا وأقصاها ما يمتنع لذاته كقلب الحقائق وجمع الضدَّيْن أو النقيضين، والإجماع منعقد على عدم وقوع التكليف به والاستقراء أيضًا شاهد على ذلك، والآيات ناطقة به، والمرتبة الوسطى ما أمكن في نفسه، لكن لم يقع متعلّقًا لقدرة العبد أصلًا؛ كخلق الجسم، أو عادة كالصعود إلى السماء، وهذا هو محل النزاع، ولهذا قلت: ثم التكليف أي طلب تحقيق الفعل والإتيان به لا على قصد التعجيز وإظهار عدم القدرة (بما لا يقدر عليه المأمور) مطلقًا (مُحال). أمّا عقلًا، فلأن طلب حصول المحال لا يليق من الحكيم المُتعال، فإنْ قيل: هذا يمنع الوقوع فقط. قلنا: بل الجواز أيضًا، لأنّا لا نمنع الوجوب بمقتضى الحكمة والوعد والفضل، كما لا نمنع الإيجاب بتخلّل الاختيار. وأمّا نقلًا؛ فلقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦] ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحَجّ: الآية ٧٨] وغير ذلك، وكلّ ما أخبر الله تعالى بعدم وقوعه يستحيل وقوعه، وإلّا أمكن كذبه وإمكان المحال محال، فظهر أنه ليس دليلًا على عدم الوقوع فقط، وإذا كان التكليف بالمحال محالًا؛ (فلا بدّ له) أي للمأمور (من قدرة) لا بمعنى الاستطاعة المقارنة للفعل، فإنها علّة تامّة، بل بمعنى سلامة الأسباب والآلات المفسّرة بقدرة (بها يتمكّن) المأمور (من أداء ما لَزِمه)، وإنما قال: (بلا حرج غالبًا) ليخرج الحجّ بلا زاد وراحلة، فإنه نادر، وبلا راحلة فقط كثير. وأمّا بهما، فغالب. (وهي) أي القدرة المفسّرة بما ذكر (شرط لوجوب الأداء لا الأداء نفسه لوجوده) أي الأداء (قبلها) أي قبل القدرة المفسّرة كحجّ الفقير والزكاة قبل الحول، فلو كانت شرطًا للأداء لما تقدم عليها، (ولا شرط لنفس

....

الوجوب؛ لأنه) أي الوجوب نفسه (جبريّ)[١] غير محتاج إلى القدرة، ولذا يتحقّق في النائم والمُغمى عليه إذا لم يؤدّ إلى الحرج ولا قدرة ثمّه، فإنْ قيل: نفس الوجوب لا ينفكّ عن التكليف المُستلزم للقدرة، فكيف ينفكّ عن لازمه؟ قلنا: عدم الانفكاك ممنوع، ولو سلم فمعنى استلزام التكليف للقدرة أنّ الله تعالى لا يأمر العبد إلّا بما يستطيعه عند إرادة إحداثه، فهذه القدرة لا تلزم التكليف مطلقًا، بل حالئذ[٢]، وهي القدرة نوعان: النوع الأول أدنى ما ذكر من قدرة يتمكّن بها من أداء ما لزمه بلا حرج غالباً، (ويسمّى) هذا النوع الممكنة، لكونه وسيلة إلى مجرّد التمكّن والاقتدار على الفعل من غير اعتبار يسر زائد، وهو أي هذا النوع شرط لوجوب أداء كلّ واجب (مطلقًا) بدنيًا كان أو ماليًا وحسنًا لنفسه (أو لغيره)، ولذا ـ أي لكونه شرطًا لوجوب الأداء مطلقًا ـ (لم يلزم ذكر الأداء) في الجزء (الأخير) من الوقت إذا حدث فيه الأهلية، فإنّ الأداء فيه ممتنع، فلو وجب لأدّى إلى التكليف بما لا يُطاق. (قلنا) في جوابه أنه إنما يؤدّي إلى ذلك التكليف إذا كانت بالأداء في ذلك الجزء من الوقت، وهو ممنوع، بل التكليف إنما هو بالأداء مطلقًا، وذلك يتصوّر بوقوع الشروع في الوقت، فإنه (إذا شرع في الوقت يكون) الفعل (أداء)، وإن تمّ بعد الوقت كما سبق، (أو) نقول: سلّمنا أنّ التكليف بالأداء فيه، لكن (لزومه) أي لزوم الأداء ليس لكونه مطلوبًا في نفسه حتى يلزم التكليف بما لا يطاق، بل لزومه (لخلفه) وهو القضاء، فإنّ بعض الأحكام قد يجب أداؤه ثم يخلفه خلفه للعجز عنه، كالوضوء للتيمّم، وكمن حلف على مسّ السماء أو تحويل الحجر ذهبًا، ووجود القدرة بالنظر إلى الخلف الذي هو القضاء كافي. (والجواب) المشهور (بأن) شرط وجوب الأداء ليس إلّا (القدرة بمعنى سلامة الأسباب وهي موجودة) هٰهنا (وكذا) الجواب المشهور (بأنّ القضاء) ليس مبنيًا على وجوب الأداء حتى يلزم ما ذكرتم، بل هو (مبنيّ على نفس الوجوب)، فما يكون سببًا لنفس الوجوب يكون سببًا للقضاء والجزاء الأخير صالح للأوّل؛ لأن نفس الوجوب جبري، كما سبق، فيكون صالحًا

---

(١) أي منسوب إلى جبر الله؛ لأن نفس الوجوب جبر من الله تعالى، بلا اختيار من العبد، لأنه سبب ولا اختيار للمكلّف في السبب. ١٢ حامدي.

(٢) أي حال إرادة إحداث الفعل. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

للثاني أيضًا (ضعيف) خبر الجواب. أمّا ضعف الجواب الأوّل، فلأن الوقت الصالح للأداء من جملة الأسباب، فإذا انتفى الصلاحية لا تبقى السلامة. وأمّا ضعف الجواب الثاني، فلأن وجوب القضاء للتكليف، فلو بنى على مجرّد نفس الوجوب وليس القدرة شرطًا له لوقع التكليف بدون شرطه وهو باطل، فليتأمل. (و) النوع (الثاني أقصاه) أي أعلى ما ذكر من القدرة، (ويُسمّى هذا) النوع (الميسرة) لتحصيلها اليُسُر بعد الإمكان، فهي زائدة على الشرط المَحْض اشترطت لوجوب بعض الواجبات كرامةً من الله تعالى وفضلًا، ولذا اشترطت في أكثر الواجبات المالية لكون أدائها أشقّ على النفس عند العامّة، (وبقاؤه) أي بقاء النّوع الثاني (شرط لبقاء الواجب) في الذمّة (لئلّا ينقلب اليسر عسرًا) اعترض عليه أولًا بأنه يؤدّي إلى فوت أداء الزكاة فيما إذا أخّر أداءها خمسين سنة، ثم هلك المال حيث لا يجب عليه شيء، وثانيًا بأنّا لا نسلم أنه يلزم من عدم اشتراط بقائها انقلاب اليسر عسرًا، بل إنما يلزم ثبوت أحد اليسرين، وهو النّماء مثلًا دون الآخر، وهو البقاء، فإنّ حصول القدرة الميسّرة يُسر وبقاؤها يُسرٌ آخر، وأُجيب عن الأوّل بالتزام الفوات في صورة هلاك المال، (ولا محذور في ذلك)؛ لأنه فوّت بهذا الحبس على أحد ملكًا ولا يدًا، بل المال حقّه ملكًا ويدًا، وإنما حقّ الفقير في أن يعين محلًاّ للصّرف إليه، ولصاحب المال الخيار في اختيار محل الأداء، فلعلّه حبس هذا المحلّ ليؤدّي من محلّ آخر، فلا يضمن ألّا يرى أنّ منع المشتري الدار عن الشفيع حتى صار بحرًا، ومنع المولى العبد المديون عن البيع أو العبد الجاني عن أولياء الجناية (من غير اختيار الأرش) حتى هلك لا يوجب الضّمان. وعن الثاني بأنّ معنى انقلاب اليُسر عسرًا أنه وجب بطريق إيجاب القليل من الكثير يسرًا وسهولة، فلو أوجبناه على تقدير الهلاك لو جنب بطريق الغرامة والتضمين فيصير عسرًا، وليس المراد أن نفس اليسر يصير عسرًا، فإنه مُحال عقلًا، وإنما يصير اليسير عسيرًا وبالعكس (دون) بقاء النّوع (الأوّل) فإنه ليس شرطًا لبقاء الواجب؛ (إذ) المفتقر إلى حقيقة هذه القدرة وبقائها هو حقيقة الأداء، (والتمكّن من الأداء) والاقتدار عليه (يستغني عن البقاء) أي بقاء القدرة، بل يكفي مجرّد إمكانها وتوهّمها، وذلك لأنّ القدرة المُمكنة كما كانت شرطًا للتمكّن من الفعل وإحداثه كانت شرعًا محضًا ليس فيه معنى العلّة، فلم يشترط

....

بقاؤها لبقاء الواجب؛ إذ البقاء غير الوجود، وشرط الوجود لا يلزم أن يكون شرطًا للبقاء، كالشهود في النكاح شرطٌ للانعقاد لا البقاء بخلاف الميسرة، فإنها شرطٌ فيه معنى العلّة؛ لأنها غيّرت صفة الواجب من العسر إلى اليسر، فأثرت فيه وأوجبته بصفة اليسر، فيشترط دوامها نظرًا إلى معنى العلّيّة؛ لأن هذه العلّة مما لا يمكن بقاء الحكم بدونها؛ إذ لا يتصوّر بدون اليسر، فلهذا اشترط بقاء القدرة الميسرة دون المُمكنة، مع أن ظاهر النظر يقتضي أن يكون الأمر بالعكس؛ إذ الفعل لا يتصوّر بدون الإمكان، ويتصوّر بدون اليسر. (ولذا) أي ولذلك الاستغناء (قيل) القائل فخر الإسلام ومَنْ تبعه: (لم يشترط) أي بقاء القدرة (للقضاء) بدليل أنّ في النفس الأخير من العمر يلزمه تدارك ما فات من الصلاة والصيامات والحجّ وغيرها، وظاهر أنه ليس بقادرٍ على تداركها، ولا يلزم منه تكليف ما لا يُطاق؛ لأن هذا ليس ابتداء تكليف، بل بقاء التكليف الأوّل على ما هو المختار أنّ القضاء إنما هو بالسبب الأوّل، وليس ذلك كالجزء الأخير من الوقت في حقّ الأداء؛ لأنه إنما اعتبر ليظهر أثره في خلفه كما سبق، ولا خلف للقضاء، كذا قالوا، وفيه بحث، ثم إنه فرع على اشتراط بقاء القدرة الميسرة لبقاء الواجب وعدم اشتراط بقاء الممكنة له، بقوله: (فلا تبقى الزكاة والعشر والخراج بهلاك المال النامي)، فإنّ كلّ واحد منها لمّا وجب بالقدرة الميسّرة انتفى بانتفائها. أمّا الزكاة، فلأنها تجب بالنّماء الذي يحصل به يسر الأداء، فإنّ النصاب لمّا لم يغيّر الواجب من العسر إلى اليسر؛ لأن إيتاء الخمسة من المائتين وإيتاء واحد من الأربعين سواء في اليسر لم يعد من القدرة الميسّرة، بل جعل من شرائط الأهليّة كالعقل والبلوغ أو شرط وجوب الأداء؛ لأن حسن الإغناء لا يتحقّق غالبًا إلّا بالمعنى الشرعيّ. فإنْ قيل: فينبغي أن لا تسقط الزكاة بهلاك النصاب، قلنا: إنما تسقط لفوات القدرة الميسّرة التي هي وصف النّماء، لا لفوات الشرط الذي هو النصاب، ولهذا لا تسقط بهلاك بعض النصاب، مع أن الكلّ ينتفي بانتفاء البعض، ومن هذا ظهر فائدة تقييد المال بالنامي. وأمّا العشر، فلأنّ الله تعالى خصّه بالخارج من الأرض الذي هو نماؤها، وأوجب قليلًا من الكثير؛ إذ القدرة على أداء العشر تستغني عن تسعة الأعشار، وذلك دليل اليسر. وأمّا الخراج، فقد خصّه الله تعالى بنماء الأرض، وهو الخارج حتى لو كانت الأرض سبخة لا يجب عليه،

....

وكذا إذا لم يحصل الخارج بأن زرعها ولم يخرج شيء. وأمّا إذا تمكّن من الزراعة وتركها، فيجب عليه لوجود الخارج تقديرًا؛ لأن التقصير من جهته، فكأنه عسر على نفسه كالاستهلاك في الزكاة بخلاف العشر، فإنه إنما يجب بالخارج تحقيقًا، وإنما كان كذلك لأنّ الواجب في الخراج غير جنس الخارج، فأمكن القول بوجوب الخراج مع انعدام الخارج تحقيقًا بخلاف العشر، فإنّ الواجب فيه جزء من الخارج، فلا يمكن إيجاب جزء من الخارج بدون الخارج، وبقوله: (بخلاف الحجّ وصدقة الفطر) فإنّ كلاًّ منهما لمّا وجب بالقدرة المُمكنة لم يشترط بقاؤها لبقائه. أمّا الحجّ، فلأنه وجب بالزّاد والراحلة، وهما من الممكنة؛ لأن غالِبَ التمكّن بهما؛ إذ بدون الزّاد نادر، وبدون الراحلة، وإنْ كان كثيرًا لكنه ليس بغالب، وإنما لم يُعتبر توهّم القدرة بالمشي وغيره فيه كما اعتُبر توهّم الامتداد في وقت الصّلاة، مع أن هذا أقرب منه؛ لأن اعتباره هٰهنا يفضي إلى التلف، ولا خلف حتى يظهر أثره فيه، بخلاف وقت الصلاة. وأمّا صدقة الفطر، فلأنها تجب بنصاب فاضل عن الحاجة الأصليّة، وإن لم يتم حتى لو ملك من ثياب البذلة ما يفضل عنها، أو ملك نصابًا ليلة الفطر يلزمه صدقة الفطر، واعتبار النصاب ليس لليسر، بل ليصير المخاطَب به غنيًّا، فيكون إهلالًا للأغنياء؛ لقوله عليه السلام: «اغنوهم عن المسألة»، وإنما اليسر بالنماء وهو غير معتبر هٰهنا. اهـ بحروفه. وفي حاشية للعلامة الأزميري ﷺ: قوله: (ولا بدّ له من الحسن) اعلم أن قضية لزوم الحسن للمأمور به إيجابًا أو ندبًا من قضايا الشرع لا من قضايا اللغة؛ لأن صيغة الأمر قد تتحقّق في القبيح أيضًا؛ كالكفر والظلم والسّفه. ألا يرى أنّ السلطان الجائر إذا أمر إنسانًا بالزنى والسرقة والقتل بغير حقّ كان أمرًا حقيقة لغويّة حتى إذا خالفه المأمور يقال: خالف أمر السلطان، إلّا أن الشارع لمّا كان حكيمًا لا يفعل إلا لحكمة وفائِدة ولا يأمر بالفحشاء، قالوا: لا بدّ من الحسن في أمره، ثم اختلفوا في أن الحسن من مُوجبات الأمر، أو من مقتضياته كما سيأتي بيانه، ولا بدّ أوّلًا من معرفة معاني الحسن حتى يظهر محلّ النزاع، قالوا: الحسن والقُبح يُطلقان على أربعة معاني: الأول كون الشيء صفة كمال ونقصان؛ كالعلم والجهل وأفعال الله تعالى وأوصافه تتّصف بهذا المعنى. والثاني: كونه ملائمًا للغرض ومنافرًا له؛ كالعدل والظلم. والثالث: كونه متعلّق الثواب والعقاب في

....

الآخرة. والرابع: كونه متعلّق المدح والذّم في الدنيا في حكم الله تعالى. والأوّلان يثبتان بالعقل بالاتفاق ورد به الشرع أو لا. والثالث يثبت بالنّقل بالاتّفاق؛ إذ لا مدخل للعقل فيه، واختلفوا في الرابع، والشارح جعل الثالث مع الرابع معنى واحدًا كما في التوضيح، وجعله محلاً للنّزاع، ولما ورد عليه أن يكون المأمور به متعلّق الثواب والعقاب في الآخرة ممّا لا نزاع في ثبوته بالنقل لعدم مدخليّة العقل فيه، وإنما النزاع في الرابع جعلنا كلاّ منهما معنًى مستقلاً ليتّضح محل النزاع.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن الأشاعرة وبعض أصحابنا منهم شمس الأئمّة ذهبوا إلى أن الحسن بالمعنى المنازَع فيه من مُوجبات الأمر، بمعنى أن الحسن ثابت بالأمر ويُعرف به لا بمعنى أنه ثابت العقل، والأمر دليلٌ عليه؛ ولهذا قالوا: الفعل أمر به فحسن، بناء على أن لا حَظّ للعقل فيه أصلًا عندهم، وإنّما يُوجبه الأمر ويُثبته لا العقل، وإنما العقل آلة لمعرفة الأمر المُوجب له، وإليه أشار الشارح رحمه الله بقوله: والحاكم به والمُوجب له هو الشرع ولا دخل للعقل فيه، وإنما العقل آلة لفهم الخطاب الشرعيّ، أي لا آلة لفهم حسن المأمور به نفسه، فكان العقل عندهم مهدرًا في حقّ إيجاب حسن المأمور به، وفي حقّ كونه آلة لمعرفة حسنه، ومعتبرًا في حقّ فهم الأمر المُوجب لحسنه، وإليه أشار فخر الإسلام أيضًا، فإنه قال: أولًا عرف حسنه بكونه مأمورًا لا بالعقل نفسه؛ إذ العقل غير موجب بحال، ثم قال في باب بيان العقل: ليس بمهدر بالكلّيّة، بل هو معتبر في إثبات الأهليّة بكونه آلة لفهم الخطاب الشرعي، هذا ما ظهر من كلام الشارح. لكن قال في التقرير: إنّ إثبات الأهليّة بالعقل واعتبار العقل في فهم الخطاب الشرعي هو مختار فخر الإسلام لا الأشاعرة، والأشاعرة على إهدار العقل بالكلّيّة. وقالت المعتزلة وجماعة من أصحاب الشافعي رضي الله عنه: إنّ الحسن مقتضى الأمر، أي لازمه المقدَّم، بمعنى أنه ثابت بالعقل قبل ورود الأمر، وإنّما الأمر دليلٌ عليه، ولهذا قالوا: الفعل حسن، فأمر به والحاكم بالحسن والمُوجِب له هو العقل عندهم، بمعنى أنه يحكم بلزوم الأمر بالفعل على الشارع لكونه أصلح لمعرفة حسنه كما يحكم عليه بوجوب الأصلح للعباد، بناءً على أن حسن الشيء يقتضي المأمور به، وإن لم يرد به الأمر ولا دخل للشرع في الحكم عندهم أصلًا، بل الشرع إذا ورد فيما أدرك العقل حسنه ابتداء؛

....

كالإيمان يكون مؤكّدًا لما أدركه العقل من الحسن، وإذا ورد فيما لا يُدرك العقل حسنه ابتداءً يكون مظهر لمقتضى العقل الحاكم لخفاء اقتضائه؛ كمقادير العبادات، وهذا ما قال في الكشف أنّ الحسن والقُبح ضربان: ضربٌ عُلِم بالعقل كحسن العدل والصدق النافع وشكر النّعمة وقُبح الظلم والكذب الضارّ وكفران النّعمة. وضربٌ عُرِف بالسَّمع؛ كحسن مقادير الأعمال وقبح الزنى وشرب الخمر، وسبيل السمع إذا ورد بموجب العقل أن يكون وروده مؤكّدًا لما في العقل، وهو مذهب المعتزلة، وإليه ذهب كثيرٌ من أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه سيّما العراقيون منهم، فكان العقل عندهم موجبًا لحسن المأمور به قبل ورود الأمر به، إلّا أنّ إيجابه في النّوع الأوّل ظاهر قبل ورود الأمر، فكان الأمر مؤكّدًا له، وفي النوع الثاني خفي، فكان الأمر مزيلًا لخفائه مظهرًا لمقتضاه من الحسن. وقول الشارح: لا مطلقًا بل في إيجاب المعرفة؛ يُشعر بأن هذه الفرقة من أصحابنا لم يوافقوهم إلّا في إيجاب معرفة الله تعالى. قلت: بل وافقوهم أيضًا في الحكم بحسن العدل والصّدق النافع وإنقاذ الغرقى والحرقى؛ كما في شرح البزدوي. وقوله: حتى قالوا بوجوب الإيمان، ذكر الإمام نور الدين في الكفاية: أنّ وجوب الإيمان بالعقل مرويّ عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه، وذكر الحاكم الشهيد في المنتقى عن أبي يوسف عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لا عُذْر لأحد في الجهل بخالقه لما يرى من خلق السمٰوات والأرض وخلق نفسه. أمّا في الشرائع، فمعذور حتى تقوم عليه الحجّة. ورُوِي أنه قال: لو لم يبعث الله تعالى رسولًا لوجب على الخلق معرفته بعقولهم، قال: وعليه مشائخنا من أهل السنّة والجماعة، حتى قال الشيخ أبو منصور في الصبيّ العاقل: أنه يجب عليه معرفة الله تعالى، وهو قول أكثر مشائخ العراق؛ لأنه إنما أوجب على العاقل البالغ لكمال عقله بحيث يقدر على الاستدلال، فإذا بلغ عقل الصبي هذا المبلغ يجب عليه الاستدلال أيضًا، وحمل هؤلاء قوله عليه السلام: «رُفِع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يحتلم» الحديث، على الشرائع. وفي الكشف: هذا القول مُوافق لقول المعتزلة من حيث الظاهر، أي في إيجاب الإيمان على الصبيّ العاقل سوى أنهم يجعلون نفس العقل مُوجبًا، وهؤلاء يقولون: الموجب هو الله والعقل معرّف لإيجابه، والصحيح ما اختاره فخر الإسلام في البزدوي؛ لأن الإيجاب

....

على الصبيّ مخالف لظاهر النص. أقول الفرق بين ما اختاره فخر الإسلام وبين قول هؤلاء مشكل؛ لأن حاصل ما اختاره فخر الإسلام: أن حسن المأمور به، إنما يثبت بالأمر ويُعرف به، ولا مدخل للعقل في إثباته ومعرفته، إلّا كونه آلة لمعرفة الخطاب الشرعي، كما سبق، وكذا حاصل قول هؤلاء؛ فإن قيل: الفرق أنّ هؤلاء يُوجبون الإيمان على الصبيّ العاقل دون فخر الإسلام. قلنا: إنّ فخر الإسلام قائلٌ بذلك أيضًا؛ لأن سبب إيجابهم عليه فهمه الخطاب بعقله، وهذا مما لم ينكره فخر الإسلام، بل هو قائلٌ به أيضًا، فالفرق بينهما مشكل. ثم الظاهر من كلام الشارح أنّ مذهب صاحب الميزان العقل مُوجب بحسن الشيء وقبحه مثل مذهب المعتزلة، لكن قال في التقرير: إنّ أصحابنا لم تقل بكون العقل مُوجبًا أصلًا، تأمّل قوله: (وأدلّة كل من المذاهب مسطورة) احتجّت الأشاعرة بوجوه، منها أن العقل منهدر بالكلّية لا عِبْرة له أصلًا بدون السمع؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥]، ولقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥]؛ فلو كان العقل حجّة بدون السمع لما نفى العذاب قبل البعثة، ولكانت حجّة قبل البعثة قائمة في حقّهم، فلا عِبْرة إلا بالسمع. قلنا: لا نصّ في الشرع على أنّ العقل مهدر بالكلّية، وغير الشرع لغوٌ عندكم، فإهدار العقل بالعقل لغو وتناقض، ولا دليل لهم في الآية؛ لأنه يجوز أن يكون المراد بالتعذيب المذكور فيها التعذيب الدنيوي بطريق الاستئصال، أي قَطْع نسلهم بالكلّية لا الأُخرويّ، ولو سلم أنه الأُخرويّ لكن نفيه لا ينافي استحقاقه المُعتبر في مفهوم الواجب، فإنّ المُعتبر في مفهومه الاستحقاق للتعذيب بالتّرك لا التعذيب بالفعل، والمراد بالرسول فيها هو رسول العقل؛ لأن العقل رسول من الله تعالى إلى الخلق كافّة، فكان معناها حتى نبعث العقل على ما فسّره الإمام النّسفي، ويحتمل أن يخصّص عمومها، فيكون معناها: وما كنا معذّبين في الأعمال التي لا سبيل للعقل إليها حتى نبعث رسولًا كما فسّره بعض مشايخنا. ومنها: أنّ الأفعال كلّها متساوية ليس في شيءٍ منها جهة محسنة أو مقبحة في نفسه أو في صفته، حتى يُدرك بالعقل، وإلا لزم قيام العرض بالعرض، وذلك باطل، فالحسن ما حسّنه الشرع، والقبيح ما قبّحه الشرع. أُجيب عنه بوجوه: الأول: إن أردتم بالقيام الاتّصاف به بحيث يصير أحدهما منعوتًا

....

ومحلّاً، والآخر ناعتًا وحالًا، فلا نسلم امتناعه، فإنه واقع نحو هذه الحركة سريعة وتلك بطيئة، وإن أردتم به أن العرض لا يقوم بعرضٍ آخر، بل لا بدّ له من جوهر يقوم العرضان به، فالقيام بهذا المعنى لا يلزم على تقدير كون الحسن أو القبح لذات الفعل أو لصفة الجواز أن يكون صفة للفعل ثابتًا له، ولا يكون تابعًا له في التخيير، بل يكون تابعًا للجوهر الذي يقوم به الفاعل كالفاعل؛ إذ لا بدّ من فاعل يتقوّم به الفعل والحسن، وإن أردتم به معنًى آخر، فلا بدّ من بيانه. الثاني: أنّ الحسن أمرٌ اعتباريّ لا وجود له في الأعيان، فقيامه بالفعل لا بدّ أن يكون من باب قيام العرض بالعرض. فإن قيل: إنّ نقيضه لا حسن أمر عدميّ، وإلا لما صدق على المعدوم أنه ليس بحسن ضرورةَ أن الوجودي يقتضي محلّاً موجودًا، فيكون الحسن أمرًا موجودًا في الخارج لا معدومًا، وإلا لزم ارتفاع النقيضين. قلنا: إن الصدق على المعدوم لا يقتضي العدميّة لجواز أن يكون مفهومًا كلّيًا يصدق على موجود وعلى معدوم؛ كاللّاممتنع الصادق على الواجب والمعدوم المُمكن. والحاصل أن عدميّة صورة النفي موقوفة على كون ما دخل عليه حرف النفي وجوديًا بدليل أن اللامعدوم وجودي، فلو أثبت وجودية ما دخل عليه حرف النفي، أعني الحسن لعدميّة صورة النفي لزم الدور. (الثالث): أنه مشترك الإلزام لأن الحسن الشرعي الذي أثبتم أيضًا عرض، فيلزم من اتّصاف العقل به قيام العرض بالعرض.

فإن قلتم: إنّ الحسن الشرعيّ أمرٌ اعتباريّ ثبت باعتبار الشارع. قلنا: إنّ الحسن العقلي أيضًا أمرٌ اعتباري، كما عرفت. ومنها: أن فعل العبد إن كان لازم الصدور عنه فاضّطراريّ، وإلّا فإن افتقر إلى مرجح، فإنْ كان ذلك المرجح لازم الصدور عنه فاضّطراريّ أيضًا، وإلّا احتاج إلى مرجّح آخر؛ فتسلسل المرجّحات وهو باطل، وإن لم يفتقر إلى مرجّح، بل يصدر عنه تارة ولا يصدر أخرى مع تساوي الحالين من غير تجدّد أمر من الفاعل، فهو اتّفاقي والاضّطراري والاتّفاقي لا يوصف إنْ بالحسن والقبح عقلًا بالاتّفاق. حاصله أن لا اختيار للعبد في فعله، بل كل أفعاله اضّطراريّ أو اتّفاقي، فلا يوصف بالحسن والقبح عقلًا أُجيب عنه بوجوه:

الأول: إنّا نجد تفرقة ضروريّة بين حركة الآخذ وحركة المرتعش، بأن الأُولى اختيارية، والثانية اضّطرارية، فيكون دليلكم في مقابلة الضرورة، فلا يسمع ورد بأن

....

المعلوم ضرورةً، وهو وجود القدرة لا تأثيرها، فلا يكون دليلنا في مقابلة الضرورة. الثاني: أنه يجري بعينه في فعل الباري، فيلزم أن لا يكون مختارًا في فعله، وهو باطل وردّ بأن مرجح فاعليّته تعالى هو إراداته القديمة، فلا يحتاج إلى مرجّح متجدّد؛ إذ علّة الاحتياج إلى المرجّح عندنا هو الحدوث. الثالث: أنه يلزم أن لا يُوصف بحسن ولا قُبح شرعًا، لأنهما يكونان بالتكليف عندكم، والتكليف بغير المختار غير واقع عندكم، فلا يتّصف بهما، وردّ بأن وجود القدرة وكون الفعل مقدورًا له كافٍ في اتّصافه بالحسن الشرعي، بلا حاجة إلى تأثيرها، ونحن لا نُنكر وجود القدرة، وإنما نُنكر تأثيرها ووجودها كافٍ في التكليف، فكذا في الاتّصاف بالحسن والقُبح الشرعيّين. الرابع: إنّا نختار أنه يحتاج إلى مرجّح، وهو الاختيار، وسواء قلنا يجب الفعل عنده أو لا يجب، يكون اختياريًّا؛ إذ لا معنى للاختياريّ. أمّا ما يترجح بالاختيار حاصله أنّ الوجوب بالاختيار لا ينافي الاختيار، وردّ بأنّ ذلك المرجّح لا يكون اختيار العبد، وإلا لزم التسلسل، فيكون اختياره تعالى فيبطل استقلال العبد في فعله فيقبح التكليف، لأن مجرّد القدرة لا يكفي في صحة التكليف عندكم، وإذا بطل التكليف لا يتّصف بالحسن والقُبح. الخامس: وهو أقواها الذي اختاره صاحب التوضيح مبنيًا على المقدّمات الأربع المشهورة، وهو لازم الصدور؛ لأن كل ممكن يجب صدوره عند تمام علّته، ولا يلزم منه الاضطرار المانع عن اتّصافه بالحسن والقبح؛ لأنّ اختيار العبد داخل في العلّة التامّة ضرورةً لأنه لا يجوز أن تكون العلة التامّة بأسرها موجودات محضة، وإلا لزم انتفاء الواجب أو قدم الحادث؛ لأن تلك الموجودات لا بدّ أن تستند إلى واجب قطعًا للتسلسل، فإن لم ينتفِ شيء من تلك الموجودات أصلًا يلزم قدمها ضرورةً دوام المعلول بدوام علّته، وإن انتفى شيءٌ منه يلزم انتفاء الواجب ولا معدومات محضة؛ لأن المعدوم لا يكون علّة للموجود ولا مركبة منهما؛ لأنها لو كانت مركّبة منهما لزم أن لا يكون وجود جميع تلك الموجودات التي كانت جزء من العلّة التامّة مستلزمًا لوجود ذلك الحادث ضرورةً توقفه على المعدومات أيضًا لكونها جزء من العلّة التامّة واللازم باطل لما تحقّق وتقرّر أنه كلّما وجد جميع الموجودات التي يفتقر إليها وجود زيد مثلًا يوجد زيد البتّة من غير توقّف على عدم شيءٍ مّا؛ إذ لو توقف على عدم شيء ولنفرضه عدم عمرو

....

مثلًا، فإمّا أن يتوقّف على عدمه السابق أو عدمه اللاحق، وكلاهما باطلان. أمّا الأوّل، فلأن عدمه السابق قديم، فيلزم قدم زيد أيضًا ضرورةَ تحقّق جميع ما يتوقّف عليه وجوده من الموجودات أو المعدومات في الأزل. أمّا المعدومات، فظاهر. وأمّا الموجودات، فلاستنادها إلى الواجب بالذّات. وأمّا الثاني، فلأن عدمه اللاحق، أعني عدمه بعد وجوده لا يمكن إلّا بزوال شيء مما يتوقّف عليه وجوده، فلذلك الجزء الذي حدث عدم عمرو بزواله إمّا أن يكون موجودًا محضًا أو معدومًا محضًا أو مركبًا منهما، ولا يجوز أن يكون زواله بزوال الموجود المَحض لاستلزامه انتفاء الواجب، كما في القسم الأوّل، بل بزوال المعدوم المحض أو بزوال المركّب من الموجود والمعدوم، وزوال المعدوم لا يتصوّر إلّا بزوال عدمه، وزوال العدم وجود، ولنفرضه وجود بكر فيكون وجود زيد بعد تحقّق مجموع ما يتوقّف عليه من الموجودات موقوفًا على وجود بكر ضرورةَ توقّفه على عدم عمرو الموقوف على زوال جزء علّته الموقوف على وجود بكر هذا خلف؛ لأنّ ما فرضناه مجموع الموجودات التي يتوقّف عليها وجود زيد لا يكون مجموعًا ضرورةَ بقاء بكر الموجود، فإذا ثبت بطلان كون العلّة التامّة بحادث موجودات محضة، أو معدومات محضة، أو مركّبة منهما؛ فلا بدّ أن يدخل فيها أمر لا موجود ولا معدوم غير مخلوق أصلًا، وهو المسمّى بالحال عندهم، وهو القصد والاختيار، فيكون الفعل حينئذٍ واجبًا بالاختيار عند تمام علّته، والوجوب بالاختيار لا ينافي الاختيار، بل يحقّقه، فلا يكون اضّطراريًا.

فإن قيل: ننقل الكلام إلى ذلك الاختيار، فإنْ كان لازم الصدور عن العبد يكون الفعل اضّطراريًا، وإن لم يكن لازم الصدور عنه، بل قد يصدر وقد لا يصدر يلزم الترجيح بلا مرجّح في صدور الاختيار عنه. قلنا: إنه غير لازم الصدور، وبطلان الترجيح بلا مرجح من الفاعل المختار ممنوع، وإنّما المُحال هو الترجيح بلا مرجح، بمعنى وجود الممكن بلا موجود ولا إيجاد، وذلك غير لازم هٰهنا؛ إذ لا وجود للاختيار، بل أمر لا موجود ولا معدوم، وهو أمرٌ اعتباريّ لا يحتاج إلى الخلق والإيجاد، وقد يُجاب عنه بأنه لازم الصدور من العبد لكن لا يلزم منه كون الفعل اضّطراريًا؛ لجواز أن يكون المرجّح المُوجب للاختيار اختيارٌ آخر إلى غير

....

النهاية لجواز التسلسل في الأمور الاعتبارية، فيكون الاختيار أيضًا واجبًا بالاختيار، أو يكون اختيار الاختيار عينه، فلا يتسلسل. واحتجّت المعتزلة بقصة إبراهيم على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام حين قال لأبيه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: الآية ٧٤]، وكان ذلك قبل الوحي، ولو لم يكن العقل حجّة مُوجبة لكانوا معذورين، لا في ضلالٍ مبين. قلنا: سلّمنا ذلك، ولكنه لا يلزم منه كون العقل مُوجبًا بنفسه حاكمًا بذاته، لجواز كفاية كونه آلة لإدراك الحسن في إسقاط العذر، وفي بعض شروح المختصر: أن النزاع بين الأشاعرة والمعتزلة لفظي؛ لأن المعتزلة أرادوا بالحسن ما يكون موافقًا للغرض ولا نزاع في كونه عقليًا والأشاعرة أرادوا بمعنى ما يستحقّ فاعله المدح ولا نزاع للمعتزلة في كونه شرعيًا، وفيه نظر؛ لأنهم صرّحوا أن نزاعهم في هذا المعنى فيكون معنويًا. قوله: (والمختار عندنا)، حاصلة التوسّط، فإنّ المعتزلة أفرطوا في جعل العقل حاكمًا حتى أوجبوا الإيمان على الصبي العاقل، وأهل الفطرة والأشاعرة فرّطوا في تعطيل العقل وإهداره حتى أبطلوا إيمان الصبي العاقل، وتوسّط أصحابنا وقالوا: إنّ للعقل مدخلًا في معرفة حسن بعض الأشياء وقبحها قبل ورود الشرع، وليس بحاكم، بل الحاكم هو الله تعالى. قوله: (إنه مدلوله مطلقًا) أي ثابت للمأمور به قبل ورود الأمر، سواء كان ممّا فهمه العقل أو لا، والأشاعرة قالوا: إنه ثابت بالأمر لا قبله. قوله: (لحكمة الآمر)؛ فإن قيل: إذا كان لحكمة الآمر، فكيف يصح تقسيمه إلى حسن بعينه وحسن لغيره، والحسن لغيره لا يكون لعينه، والحسن لحكمة الآمر حسن لغيره. قلنا: إن كونه مأمورًا به من الحكيم دليلٌ على اتّصافه بالحسن لا موجب له، فلا يمنع أن يكون حسنه الذي دلّ عليه بكون الآمر حكيمًا لعينه ولغيره. قوله: (ما ذكر هٰهنا) أعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: الآية ٩٠]، ووجه الإشكال فيه أنه إنما أفاد حسن العدل لكونه مأمورًا به، وقد تقدّم آنفًا أن حسن العدل بمعنى الموافق للغرض، لا بمعنى المتنازع فيه. قوله: (فلا علينا) أي فلا بأس علينا، فكان اسم لا محذوفًا لعدم اللّبس، كما هو المشهور. قوله: (بل هو يعرفه) من المعرفة، ويجوز أن يكون من التعريف. قوله: (إمّا حسن لمعنًى في نفسه)، قال في التقرير: معنى قولهم: حسن لمعنًى في نفسه، أنّ اتّصافه بالحسن إنما هو بالنظر إلى ذات المأمور به مع قطع النظر

....

عن الأُمور الخارجية عنه، كما يقال: إنّ الدار حسنة في نفسها، أي مع قطع النظر عن الأُمور الخارجية، وتحقيقه أن العقل لو كان موجبًا لمعرفة الحسن لدلّ عليه حين النظر في المأمور، وإن فرض عدم كونه مأمورًا به بأمرٍ صادر عن الحكيم؛ كالإيمان مثلًا، فإنه إذا نظر العقل في ماهيّته وجدها شكرًا للمُنعم بتوحيده وتصديقًا له وغير ذلك من محاسنه، فلو فرضنا أنه لا يكون مأمورًا به لكان حسنًا، والحسن لمعنًى في غيره هو ما يكون على خلاف ذلك؛ كالجهاد مثلًا، فإنه تخريب البلاد وقتل العباد، وإذا جرّد العقل النظر إليه قد لا يجده حسنًا إنْ لم يكن مأمورًا به، وكذا الغسل من الجنابة في أيّام الشتاء في البلاد الباردة بالماء البارد. فإن قيل: هذا البيان يستقيم على القول المختار عندنا. وأمّا مذهب الأشاعرة ومَنْ معهم منّا من أن الحسن ثابت بالأمر لا قبله، فما معنى قولهم: حسن لمعنًى في نفسه؟ فالجواب: معناه أنّ الحكيم أمر به مستقلاً بذاته من غير أن يكون بواسطة غيره، أو أن يكون واسطة لغيره، والحسن لمعنًى في غيره على خلاف ذلك، وهو أنّ الشارع أمر به لا مستقلاً بذاته، بل باعتبار أنه واسطة لغيره أو غيره واسطة له، وقيل: معنى الحسن لنفسه عند الأشعري كون الفعل مأمورًا به، فتكون كل المأمورات حسنة لمعنًى في نفسها بهذا المعنى، فلا يتمشّى التقسيم المذكور عنده. قوله: (إلى تكلّف ارتكبه صاحب التنقيح)، قال: والمأمور به في صفة الحسن نوعان: حسن لمعنًى في نفسه، وحسن لغيره؛ وذلك الغير لا بدّ أن يكون حسنًا لعينه قطعًا للتسلسل، وهو إمّا أن يكون جزء ذلك الفعل أو خارجًا عنه، والجزء إمّا صادق على الكلّ؛ كالعبادة تصدق على الصلاة، وهي جزؤها؛ كالإنسان بالنسبة إلى زيد. والحسن لمعنًى في نفسه يعمّ الحسن لعينه، والحسن لجزئه والخارج إمّا صادق على ذلك الفعل نحو الجهاد إعلاء كلمة الله، فالجهاد حسن لكونه إعلاء، والإعلاء خارج عن مفهوم الجهاد. وإمّا غير صادق؛ كالوضوء حسن للصلاة، والصلاة لا تصدق على الوضوء، هذا ما ذكره. ولما ورد على قوله: إن الحسن لمعنًى في نفسه يعمّ الحسن لعينه والحسن لجزئه أنّ هذا إنما يصح في الحسن لجزئه ضرورةَ أن جزء الشيء معنى كائن فيه، ولا يصح في الحسن لعينه؛ إذ ليس ذات الشيء معنًى فيه. أجاب عنه بوجهين: أحدهما أنّ إطلاق الحسن لمعنًى في نفسه على الحسن لعينه إنما هو اصطلاح، ولا مَشاحة في الاصطلاح،

....

وكأنه تغليب باعتبار أن عامّة الأشياء يكون حسنها باعتبار الأجزاء. وثانيهما: أن الحسن لعينه هو الفعل المطلق؛ كالعبادة مثلًا، وهو لا يوجد إلّا في ضمن جزئيّاته الموجودة، وبحثنا في تلك الجزئيّات المعلوم وجودها حسًّا، وهي لا تكون حسنة إلّا لمعنًى في نفسها، أو حسنة لغيرها، ولمّا حمل الشارح قولهم حسن لمعنًى في نفسه على ما ذكره لم يرد عليه ذلك، ولا حاجة إلى ما تكلّف من الجوابين. قوله: (فإمّا أن لا يقبل) شروع في تقسيم الحسن لحسن في نفسه وحسن في غيره، والجملة هٰهنا أن المأمور به في باب صفة الحسن ينقسم إلى نوعين: وحسن لحسن في نفسه وحسن لحسن في غيره، والأوّل ينقسم إلى ما لا يقبل السقوط بحال، وإلى ما يقبله، وإلى ما يكون حسنًا في نفسه ومشابهًا لما حسن لحسن في غيره. والثاني ينقسم إلى ما يتأتّى ذلك الغير بنفس المأمور به، وإلى ما لا يتأتّى به، وهٰهنا قسمٌ آخر، وهو ما حسن لحسن في شرطه بعدما كان حسنًا لحسن في نفسه؛ كالصلاة والزكاة وشرطهما هو القدرة على الأداء، وعدّ هذا القسم في شروح البزدوي من أقسام الحسن لغيره؛ لأن الشرط يُغاير المشروط وسمّوه قسمًا جامعًا لكونه جامعًا للحسن لعينه ولغيره. قوله: (وفي اختياره على قول فخر الإسلام) قال فخر الإسلام: الحسن لمعنًى في نفسه ثلاثة أضرب: ضربٌ لا يقبل سقوط هذا الوصف بحال، وضرب يقبله، وضرب يلحق بهذا القسم، لكنه مُشابه لما حسن لمعنًى في غيره. . . إلى آخره. والمراد بالوصف وصف الحسن، واعترض عليه بأنّ حسن الإقرار في حالة الإكراه حتى لو صبر وقتل كان شهيدًا مأجورًا، فكيف يكون حسنه ساقطًا بالإكراه، وإنما يسقط به وجوبه، ولا يلزم من سقوط وجوبه سقوط حسنه؛ لأن عدم الوجوب لا يستلزم عدم الحسن؛ كالمندوب، على أنّا لا نسلم أنّ وجوبه ساقط. وأُجيب عنه بأنه لا يلزم من كون الصابر عليه شهيدًا إبقاء حسن الإقرار؛ لأنه لو سقط حسنه لا يلزم منه إباحة ضدّه وهو إجراء كلمة الكفر، بل بقي ذلك حرامًا كما كان، إلّا أنّ الترخص ثبت رعايةً لحقّ نفسه، فإذا صبر حتى قُتل كان شهيدًا بناءً على بقاء حرمة إجراء كلمة الكفر لا على بقاء حسن الإقرار، ولما ورد على هذا الجواب أنّ سقوط أصل الإقرار بالإكراه إنّما كان لرعاية حقّ نفسه، ولا مدخل له في سقوط حسنه أعرض عنه المصنّف كصاحب التنقيح إلى لفظ التكليف، فإنه كما سقط الإقرار

....

حالة الإكراه سقط التكليف به أيضًا. فإن قيل: إن القابل من شرطه أن يوجد مع المقبول والإقرار والتكليف به؛ إذا سقط لم يكن موجودًا. قلنا: إن السقوط وصف اعتباريّ، واشتراط القابل مع المقبول وجودًا إذا كان المقبول وصفًا وجوديًا، ومنه ظهر الجواب عمّا يتوهّم أنّ بقاء الحسن مع سقوط أصل الإقرار محال؛ لأن بقاء الحال بدون المحل مُحال، فإنّ العرض لا يقوم بدون المحلّ، وجهه أنّ ذلك في الوصف الحقيقي والحسن لما كان وصفًا اعتباريًا لا يقتضي محلاً موجودًا يقوم به حقيقة. قوله: (إنّ التكليف مطلقًا أعمّ)، أي لفظ التكليف مع قطع النظر عن وقوعه في هذين الموضعين أعمّ من المعنيين، وإلّا فلفظ التكليف في قوله: لا يقبل سقوط التكليف بمعنى التكليف بالسعي لا أعمّ منه، ومن المعنى الأوّل. وفي قوله: أو يقبله على عكس هذا الأعمّ أيضًا. قوله: (فإنه كيف أو انفعال) إنّ فسّر الصورة الحاصلة في الذّهن يكون كيفًا، وإن فسّر بانتقاش النفس بتلك الصورة يكون انفعالاً.
اعلم أنّ المراد بالتصديق المُعتبر في الإيمان ليس مجرّد معرفة نسبة الصدق إلى محمّد عليه الصّلاة والسّلام، أو إلى قوله: ووقوعها في القلب من غير إذعان وقبول، فإنّ كثيرًا من الكفّار يعرفون صدقه ويقع في قلوبهم نسبة صدقه يقينًا ولا يصدّقونه عنادًا واستكبارًا، كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٤٦]، ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: الآية ١٤]، بل المراد به إذعان تلك النسبة وقبولها واطمئنان النفس بها بترك التكبّر والعناد، بحيث يصحّ أن يطلق عليه اسم التسليم، كما صرّح به الغزالي، لكنهم اختلفوا في أن هذا التصديق هل هو من قبيل الأفعال الاختياريّة أو من قبيل العلوم والإدراكات التي هي من مقولة الكيف أو الانفعال؛ فذهب بعضهم إلى الأوّل مستدلّاً بأنّ العلم حاصل للمعاندين من الكفار دون التصديق المُعتبَر في الإيمان، وبأنّ الإيمان مأمورٌ به، والمأمور به لا بدّ وأن يكون فعلًا اختياريًا، والعلم ليس بفعل، بل كيف أو انفعال، وحصولهما ليس باختياريّ، بل تحصيلهما اختياريّ، وبأنّ الإيمان عبارة عن القبول والتسليم، وهو فعل لا عِلم. وعلى هذا القول يقع التكليف بنفس التصديق، كما في الصلاة بلا حاجة إلى جعله للسعي، ثم فسّر بعضهم ذلك الفعل الاختياريّ المُعبّر عنه بالتصديق بربط القلب بالاختيار على ما علم من جملة المؤمن به، وبعضهم بنسبة الصدق إلى

....

المُخبر بالاختيار، وقالوا: إنّ كلاًّ من الرّبط والنسبة الاختياريّتين أمرٌ كسبيّ من قبيل الفعل، ولهذا يُثاب عليه. وذهب بعضهم إلى الثاني، ثم اختلفت هذه الفرقة إلى فرقتين: فرقة ذهبت إلى أنه نوع من التصديق المنطقي الذي قسم العلم إليه وإلى التصوّر في أوائل كتب المنطق، وهو التصديق الخاص المقيّد بقيود؛ كالكسب والاختيار وترك الجحود والتصديق المنطقي أعمّ منه، وفرقة أخرى ذهبت إلى أنه عين الصدق المنطقيّ لا نوع منه، واختاره أكثر المحقّقين مستدلّين بأنّا لا نفهم من لفظ التصديق في اللغة والعُرف إلّا نسبة الصدق إلى المخبر، ولا نفهم من تلك النسبة أيضًا إلّا إذعانها وقبولها وإدراكها بالقلب من غير أن يتصوّر هناك فعل وتأثير من القلب أصلًا. ولا شكّ أنّ هذا كيفيّة للنفس قد تحصل بالكسب والاختيار، وقد تحصل بدونهما؛ فغاية الأمر أنه يشترط في التصديق المُعتبر في الإيمان أن يكون تحصيله بالكسب والاختيار على ما هو قاعدة كون الشيء مأمورًا به. وأمّا كون هذا فعلًا وتأثيرًا من النفس لا كيفيّة لها، وكون الاختيار معتبرًا في مفهومه حتى يكون نوعًا خاصًّا من التصديق المنطقي؛ فممنوع. كيف وأنّ لفظ التصديق إنما يُطلق على ما يُعتبر في الإيمان بالمعنى المُعتبَر في اللغة؟ إذ الأصل عدم النقل والاختيار غير مُعتبر في معناه اللغوي قطعًا، فإن قيل: الإيمان في الشرع هو التصديق بأُمور مخصوصة، وفي اللغة: هو التصديق المطلق، فيكون من المنقولات الشرعية. قلنا: هذا ليس نقلًا من معنًى لغويّ إلى معنًى آخر، بل معناه في اللغة والشرع واحد، وهو المُعبّر عنه في الفارسية: بگر ويدن، غاية الأمر بيان الفرق بينهما باعتبار متعلّقهما إلا بأصل المعنى، فيكون متعلّقه في اللغة عامًّا وفي الشرع خاصًّا. وأمّا ما قيل إنّ الإيمان مأمورٌ به، فيكون فعلًا اختياريًّا. قلنا: ممنوع؛ إذ كثيرًا ما يكون العلم مأمورًا به أيضًا، نحو: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محَمَّد: الآية ١٩]، وكذا ما قيل: إنّ العلم حاصل للكافر المُعاند دون الإيمان، فيكون فعلًا ممنوع أيضًا؛ إذ لا يلزم من حصول مطلق العلم للكافر حصول التصديق المُعتبَر في الإيمان له، وباقي الأبحاث ذكرناها في شرحنا على ما رتّبنا في الكلام.

إذا عرفت هذا، فالشارح أشار بقوله: إنه كيف انفعال إلى أن التصديق المُعتبَر في الإيمان من مقولة العلم لا الفعل، ثم صرّح بأنه عين التصديق المنطقيّ المعتبر فيه

....

الإذعان والقبول، لا مجرّد نسبة الصدق في القلب. ثم أشار إلى ردّ مَنْ ذهب إلى أنه عبارة عن التسليم والقبول الذي هو من مقولة الفعل بقوله وتسميته تسليمًا زيادة توضيح للمقصود؛ وذلك لأن المقصود من الإيمان هو تسليم ما جاء به والانقياد إليه، ولفظ التسليم دلّ عليه ثم أشار إلى ردّ مَنْ ذهب إلى أنه نوعٌ خاصّ من التصديق المنطقي، بقوله: وجعله مغايرًا للتصديق المنطقي وَهْم، فإن قيل: لو لم يكن مغايرًا له لزم حصول الإيمان في الكافر، فأجاب بمنع حصول التصديق المنطقيّ في الكافر، وعلى تقدير حصوله لبعض الكفّار لا يلزم منه حصول الإيمان لهم لوجود الجحود باللّسان طوعًا واستكبارًا، فإن قيل: قد صرّح أولًا بأنه عين التصديق المنطقيّ، وقوله: يكون كفره باعتبار جحوده باللّسان واستكباره، يُشعر بأنّه غيره، وأنه نوعٌ خاصٌّ منه باعتبار هذا القيد. قلنا: لا يلزم من اعتبار هذا القيد كونه نوعًا خاصًّا منه؛ لجواز أن يكون هذا القيد شرطًا خارجيًّا. قوله: (في حالٍ من الأحوال) أي حال الإكراه وحال الطَّوع حتى لو تبدّل التصديق بضدّه في حال منهما لكان كافرًا. قوله: (وقيام السيف) إشارة إلى أنّ المراد بالإكراه المُعتبر في إسقاط الإقرار هو الإكراه بالقتل أو بالقطع. قوله: (عدم تبدّله) أي التصديق. قوله: (متمكّنه) أي الإقرار. قوله: (على فواته) أي التصديق؛ لأن الإقرار دليلٌ عليه قائمٌ مقامه لكونه أمرًا باطنًا تعذّر الوقوف عليه، فكان تركه بغير عذر دليلًا عليه؛ لأن انتفاء الدليل انتفاءُ المدلول. قوله: (لا المصدّق الغير المتمكّن، ولو كان نادرًا) معطوف على متمكّنه، أي لا يدلّ المصدق الغير المتمكّن من الإقرار على فوات التصديق، فيكون مؤمنًا. قال فخر الإسلام: ومَنْ لم يصادف وقتًا يتمكّن فيه من البيان، وكان مختارًا في التصديق كان مؤمنًا إن تحقّق ذلك، انتهى. وقال في التقرير: قيّد بكونه مختارًا احترازًا عن التصديق حالة اليأس، فإنه لا ينفع أصلًا. وقوله: أن يحقّق ذلك؛ لأن التصديق الاختياريّ مع عدم التمكّن من الإقرار وما يقوم مقامه في غاية الندرة، فأشار الشارح إلى هذا بقوله: ولو كان نادرًا، لكنه ترك الاختيار لظهوره. وقوله: ولا المتمكّن عطف على الغير المتمكّن، أي لا يدلّ ترك المصدق المتمكّن من الإقرار عند الإجبار على الإقرار على فوات التصديق، بل يحكم بإسلامه؛ كالكافر أجبر على الإسلام فأقرّ، فإنه يُحكم بإسلامه عندنا ذمّيًا أو حربيًا، وكذا المسلم لو أُكره على

....

الإنكار فأنكر، فإنه لا يُحكم بكفره، فإنّ الإكراه المُلجيء لا يعدم الاختيار بل يفسده، فإجبار الكافر على الإقرار والمسلم على الإنكار لا يعدم اختيارهما، وإن أفسده، والاختيار الفاسد معتبر في الإسلام؛ لأنه يعلو ولا يُعلى، فيكفي فيه الاختيار الفاسد.

واعلم أنّ مذهب المحقّقين مِنْ أصحابنا أنّ الإيمان هو التصديق والإقرار ليس جزءٌ منه، وإنما هو شرط إجراء الأحكام الشرعيّة عليه حتى أنّ من صدّق بقلبه ولم يُقِرّ بلسانه مع تمكّنه منه كان مؤمنًا عند الله تعالى غير مؤمن في أحكام الدنيا، أي لا يجري عليه أحكام الإسلام في الدنيا. وقال كثير من أصحابنا ومن الفقهاء: إنّ الإيمان هو مجموع التصديق والإقرار، واستدلّوا عليه بظواهر النصوص من قوله عليه الصّلاة والسّلام: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلـه إلّا الله» الحديث. وقوله عليه الصّلاة والسلام: «أُمِرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـه إلّا الله» إلى غير ذلك، إلّا أنهم لما تقنطوا السقوط الإقرار مع بقاء كون الرجل مؤمنًا، قالوا: إنّ التصديق ركنٌ أصليّ لا يحتمل السقوط أصلًا، حتى لو تبدّل بضدّه طوعًا أو كرهًا كان كافرًا، والإقرار ركن مُلحق بالتصديق في كونه ركنًا لكونه دالّا عليه، ويقبل السقوط بعذر الإكراه المُلجيء حتى لو تبدّل بضدّه لم يكن كافرًا؛ لأن اللّسان ليس معدن التصديق، والأصل هو التصديق؛ فاللّسان ليس معدن الأصل، فاشتغاله بضدِّه لا يدلّ على الكفر، واختار رحمه الله مذهب الأكثر، كما هو الظاهر في مواضع من كتابه، لكن اعترض بعض المحقّقين على دليلهم بأن تلك النصوص تدلّ على أنّ الإيمان هو الإقرار وحده؛ إذ ليس فيه ذكر التصديق، وهو خلاف ما عليه أهل السنّة، ويستلزم أن يكون المنافقون مؤمنين، فيكون متروك الظاهر، وخبر الواحد المتروك الظاهر، وكذا المشهور المتروك الظاهر لا يفيد الركنية في الأُمور القطعيّة. واستدلّ على مذهب المحقّقين بأنّ الإيمان في اللغة والعُرف هو التصديق فقط، ولا تعلّق له باللسان، فإطلاقه على غير التصديق إخراج عن معناه الحقيقيّ، وبأنّ الشيء لا يوجد إلّا مع ركنه، وكلّ مَنْ آمن موصوف بالإيمان على التحقيق من حين آمن إلى أن مات، بل إلى الأبد، فيكون مؤمنًا بوجود الإيمان وقيامه به حقيقة، ولا وجود للإقرار حقيقةً في كل لحظة، بل يكفي وجوده مرّة في عمره؛ فدلّ أنه مؤمن لما معه

....

من التصديق القائم من التصديق القائم بقلبه الدائم بتجدّد أمثاله، أو لبقاء الأعراض، لكن الله أوجب الإقرار ليكون شرطًا لإجراء أحكام الدنيا؛ إذ لا وقوف للعباد على ما في القلب، فلا بدّ لهم من دليل ظاهر ليمكّنهم بناء الأحكام عليه والنصوص معاضدة لهذا القول أيضًا؛ كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢]، ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: الآية ١٠٦]، وقوله عليه الصّلاة والسّلام: «ثبت قلبي على دينك». قوله: (إذ ليست ركنًا مثله) أي ليست الصلاة ركنًا من الإيمان، مثل الإقرار أشار به إلى أن الأعمال خارجة عن الإيمان لا داخلة فيه، كما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. قوله: (إذ لا تدلّ عليه عدمًا)؛ إذ يلزم من ترك الصلاة اختيارًا عدم الإيمان بخلاف الإقرار، كما عرفت. قوله: (إلّا على هيئة مخصوصة) أي إلّا كائنة على هيئة مخصوصة؛ كالصلاة بجماعة، فإنه يحكم بوجود إيمان مَنْ صلّى بالجماعة لكونها من خصائص هذه الأُمّة بخلاف الصّلاة منفردًا، فإنها لا تدلّ على وجود الإيمان. قوله: (وسرّه)، أي سرّ دخوله الإقرار في الإيمان دون الأعمال، حاصله أنّ الإيمان وصف للإنسان، يقال: إنه مؤمن والإنسان مركّب من الروح والبدن والتصديق عمل الروح القائم في القلب، فجعل عمل شيء من البدن أيضًا داخلًا فيه تحقيقًا لكمال اتّصاف الإنسان بالإيمان ظاهرًا وباطنًا، وتطبيقًا بين الصفة والموصوف في التركيب وتعين فعل اللّسان؛ لأنه المتعيّن لبيان ما في الباطن بحسب الوضع، ولهذا جعل الحمد الذي هوْ فعل اللّسان رأس الشكر، فكان الإيمان مركّبًا من الدال والمدلول. قوله: (لا حقيقةً بل حكمًا)، وإنما جعل هذا القسم مقابلًا للقسمين المذكورين نظرًا إلى أنه لا ينقسم إلى ما لا يقبل السقوط، وما يقبله، بل كلّه يقبل السقوط. واعلم أن للحسن لعينه درجات أعلاها حسن التصديق، فإنه لا يسقط بحال، ثم حسن الإقرار؛ لأنه وإن كان ركنًا، إلّا أنه يحتمل السقوط، ثم حسن الصلاة لأنها حسنة لعينها بحيث لا تشبه الحسن لغيره، إلّا أنها تحتمل السقوط وليست بركن من الإيمان؛ كالإقرار، فكانت دونه ثم حسن الصوم والزكاة والحجّ، فإنّها مع احتمال السقوط وعدم ركنيّتها تشبه الحسن لمعنًى في غيره، وتحقيقه أن حسن كلّ مِنْ هذه الثلاثة بالغير، إلّا أنه لا اعتبار بحسن ذلك الغير، حتى أنه في حكم العدم، فصار كلّ منها كأنه حسن لا بواسطة أمر، فجعل بهذا الاعتبار من قبيل الحسن لمعنًى في

....

نفسه، فصار هٰهنا مقامان: أحدهما أن هذه الأفعال ليست حسنة في نفسها، بل بواسطة أُمور يعرف العقل أنها المطلوبة بالأمر والمتّصف بالحسن. وثانيهما أنه لا عِبْرة بهذه الوسائط، وأنها في حكم العدم حتى كان المقصود بالأمر هو نفس الأفعال التي ورد الأمر بها. أمّا الأوّل، فلأن الصوم في نفسه تجويع النفس والإضرار بها ومنع نِعَم الله عن عباده مع إباحتها لهم، وإنما تَحْسُن بواسطة حسن قهر النفس. والزكاة في نفسها إضاعة المال، وإنما تحسن بواسطة حسن دفع حاجة الفقير، والحجّ في نفسه قطع للمسافة إلى أمكنة مخصوصة، وزيارة بمنزلة السفر للتجارة وزيارة البلدان والأماكن، وإنما يحسن بواسطة زيارة البيت الشريف المضاف إلى الله تعالى حيث يقال: بيت الله، ففيه تعظيم له. وأمّا الثاني، فهو ما أشار إليه بقوله: لكن هذه الوسائط لا تُخرجها عن أن تكون حسنة لعينها، إلى قوله: بمنزلة الصلاة، وقيل: إنّ هذه الوسائط لم تُعتبر هٰهنا؛ لأنه لا دخل فيها لقدرة العبد واختياره، فلم يجعل الحسن باعتبارها، بل باعتبار نفس الأفعال المطلوبة، واعترض عليه بأنّ هذه الوسائط لا شكّ في كونها باختيار العبد، نعم لو كانت الوسائط نفس الحاجة وشهوة النفس وشرف الأمكنة لكانت مما لا دخل فيه لقدرة العبد، لكنها ليست كذلك. وأُجيب بأنّ قهر النفس ودفع الحاجة وزيارة البيت نفس الصوم والزكاة والحجّ، فكيف تكون وسائط حسنها، وإنما الوسائط هي الحاجة والشهوة وشرف المكان والاختيار للعبد فيها، وردّ بأنّ الواسطة ما يكون حسن الفعل لأجل حسنها، وظاهر أنّ نفس الزيارة والحاجة والشهوة ليست كذلك، ولهذا قال: إنّ الوسائط هي القهر والدّفع والزيارة المخصوصة، ولا خفاء في أنها ليست نفس الصَّوم والزكاة والحجّ، ولو سلم اتّحادهما في الخارج، فلا خفاء في تغايرهما في الذّهن، وهو كافٍ هٰهنا. أقول: فيه نظر؛ لأن كلًّا من القهر والدفع والزيارة لا حسن فيها باعتبار وجودها في الذهن، وإنما يعرض الحسن باعتبار وجودها في الخارج، وإذا اتّحدا في الخارج فكيف يصح أن تكون واسطة باعتبار وجودها في الذهن؛ إذ لا حسن باعتبار وجودها في الذهن حتى تكفي المغايرة فيه، ولعلّه أشار بالتأمّل إلى هذا، فالجواب منع اتّحادهما في الخارج. قوله: (وعبادة خالصة بمنزلة الصلاة) إشارة إلى منشأ حسن الأُمور المذكورة، أعني كونها عبادة؛ كما في الصلاة، فإن قيل: إنها إذا كانت عبادة

....

خالصة مثل الصلاة، فلِمَ لم يجعل حسنها بجزئها بدون المشابهة بالحسن في غيره، كما في الصلاة؟ فالجواب عنه بوجهين: أحدهما أنّ كونها عبادة خالصة لا يقتضي كون العبادة جزء منهما؛ لجواز أن تكون خارجة عنها صادقة عليها، كيف لا وأن العبادة ليست جزء من مفهوم الصوم والزكاة والحجّ بخلاف الصلاة، فإنّ العبادة جزءٌ منها؛ وذلك لأن هذه الأفعال إنما هي عبادة بالنسبة إلى الوسائط، وذاتي الشيء لا يكون بالإضافة إلى شيءٍ آخر، وكون الصلاة عبادة ليس بالنسبة إلى شيءٍ آخر، بل هي عبادة في نفسها، فتكون ذاتيّة لها. والثاني: أن الوسائط المذكورة وإنْ جُعِلت معدومة إلّا أن تصوّر وجودها جعل الأُمور المذكورة شبيهة بالحسن لغيرها بخلاف الصلاة؛ إذ لا واسطة فيها أصلًا، فإن قيل: يجوز أن يكون حسن الصلاة بواسطة استحقاق الله تعالى العبادة، ولهذا لا تحسن هي لغير الله تعالى، فيكون حسنًا بالواسطة لا لعينها، أُجيب بأنّ هذا لا ينافي كون حسنها لعينها، بل يؤكّده. ألا ترى أنّ الإيمان بالله تعالى حسن لعينه بخلاف الإيمان بغير الله، وكذا الكفر بالله تعالى قبيحٌ لعينه، وبالجبت والطاغوت حسن لعينه؛ فالمتّصف بالحسن هو الأفعال المُضافة التي ورد الأمر بها من الإيمان بالله والصلاة لا الأفعال المُطلقة عن الإضافة، فمعنى قولهم: إنّ الإيمان والصلاة والصوم والزكاة حسنة لعينها أو لغيرها أنّ هذه الأفعال مضافة إلى الله تعالى حسنة لعينها أو لغيرها؛ فالإضافة إلى الله تعالى مما لا دخل لها في جعل الحسن لعينها أو لغيرها، إلّا أنّ بعض الأفعال حسنها بالنظر إلى نفس الفعل المضاف إلى الله تعالى؛ كالإيمان والصلاة، وبعضها بالنظر إلى الغير بأن يكون المقصود الأصلي بالأمر ذلك الغير، لا نفس الفعل المضاف؛ كالوضوء والجهاد، وبعضها بالنظر إلى نفس الأفعال المضافة، لكنها تشبه بالحسن للغير؛ كالصوم والزكاة والحجّ، فإنها حسنة لعينها لعدم اعتبار الواسطة المذكورة، وتشبّه بالحسن لغيره بالنظر إلى تصوّر الواسطة. فإن قيل: إنّ الوسائط المذكورة، وإن اعتُبرت معدومة، لكن كونها عبادة خارج عنها كما عرفت، فكيف يكون حسنها لعينها، مع أن الحسن لعينه إمّا لذاته أو لجزئه ولم يوجد شيءٌ منهما؟ قلنا: الحسن لعينه نوعان: نوعٌ يكون حسنه لذاته أو لجزئه مع قطع النظر عن كونه عبادة ومأمورًا به؛ كالإيمان، فإنه حسن في ذاته مع قطع النظر عن كونه عبارة ومأمورًا به؛ وكالصلاة، فإنها حسنة

....

لجزئها مع قطع النظر عن كونها عبادة، فإنّ الركوع والسجود حسن في نفسه مع قطع النظر عن كونه مأمورًا به، وكونها حسنة بكونها عبادة أيضًا لا ينافي ذلك، ونوعٌ يكون حسنه باعتبار كونه عبادة ومأمورًا به؛ كما في الصوم والزكاة والحجّ، فلا يضرّ خروج العبادة عنها في كونها حسنة لعينها، بمعنى النوع الثاني. قوله: (فإنه يسقط بسقوط الغير، فإن قيل): إن الوضوء يسقط عدم وجدان الماء بعينه وتألّم عضو الوضوء، وكذا السعي إلى الجمعة يسقط أشياء بعينها، وإنّ الحيض والنفاس يسقطان الصلاة بواسطة إسقاط الطهارة. قلنا: سقوط الوضوء لعدم الماء وتألّم العضو ممنوع، بل الوجوب ثابت إلّا أنه يخرج عن العهدة بالخلف، وهو التيمّم. ولا نسلم أنّ الحيض والنفاس يسقطان الصلاة بواسطة إسقاط الطهارة، بل تسقط بهما الصلاة لفوات الأهليّة شرعًا، فتسقط الطهارة بناءً عليه؛ وهذا لأنّ الحدث الدائم لا ينافي وجوب الطهارة بالإجماع. قوله: (بعد الوجوب) كالصلاة تسقط بعد وجوبها بدخول الوقت بالعوارض، وكذا بعد دخول الشهر. قوله: (أُجيب) هذا باختيار الشقّ الثاني، وأجاب عنه صاحب التحقيق باختيار الشقّ الأوّل بأنّ المراد منه ما ثبت بالسبب، إلّا أن السبب لما عُرِف بالأمر صحّت إضافة ما ثبت به إلى الأمر بواسطة، كما صحّت إضافة ما ثبت بالمقتضى اسم مفعول إلى المقتضي اسم فاعل. قوله: (وأما حسن لحسن في غيره)، قال فخر الإسلام: والذي حَسُن لمعنًى في غيره ثلاثة أضرب أيضًا: ضربٌ منه ما حَسُن لمعنًى في غيره، وذلك الغير قائم بنفسه مقصودًا لا يتأدّى بالذي قبله بحال. وضربٌ منه ما حسُن لمعنًى في غيره، لكن ذلك الغير يتأدّى بنفس المأمور به، فكان شبيهًا بالذي حَسُن لمعنًى في نفسه. وضربٌ منه ما حَسُن لحُسن في شرطه بعد ما كان حسنًا لمعنًى في نفسه أو ملحقًا به، وهذا يسمّى جامعًا. أمّا الضرب الأوّل، فمثل السعي إلى الجمعة، بأنه ليس بفرض مقصود، وإنما حسن لإقامة الجمعة؛ وكالوضوء، إنما حسن لإقامة الصلاة. وأمّا الضرب الثاني، فالجهاد وصلاة الجنازة إنما صارا حسنين لمعنى كفر الكافر وإسلام الميت، وذلك معنًى منفصل عن الصلاة والجهاد، وإنّما عدل عنه المصنّف وقدّم الضرب الثاني لكونه وجوديًا، ولأنه أقرب إلى الحسن لعينه، لكونه مشابهًا له واقتصر على ما ذكره في الإجمال، وصرّح بأنّ المراد بالغير هو إعلاء كلمة الله تعالى وقضاء حقّ الميت لا ما

....

ذكره في التفصيل؛ لأنّ كفر الكافر وإسلام الميت ليس مما يتأدّى بنفس المأمور به، وهو الجهاد وصلاة الجنازة؛ لأن الكفر قائم بالكافر، والإسلام بالميت، والجهاد بالمجاهد، والصلاة بالمصلّي؛ ولأنه لا معنى لقوله: وذلك معنى منفصل عنها؛ لأن المقام ليس مقام بيان انفصالهما عنهما، بل مقام بيان عدم انفصالهما بمعنى تأدّيهما بنفس المأمور به، لأن مراده بالانفصال وعدمه عدم التأدّي بنفس المأمور به، والتأدّي ولهذا تركه واقتصر على التأدّي وعدمه. قوله: (فما يتّحد به) أي في الخارج، يعني أنّ الاتّحاد الخارجيّ يصحّح مشابهته بالأول، والمغايرة الذهنية تصحّح الواسطة على ما ذكره في الحكمي من الأول، وفيه ما فيه. قوله: (بهذا) أي بالأول حاصله أن نحو الجهاد وصلاة الجنازة جعل من الحسن لغيره شبيهًا لعينه، ولم يجعل نحو الصوم والزكاة والحجّ كذلك، بل جعل حسنًا لعينه شبيهًا لغيره، مع أن حسن كلّ منهما بالواسطة. وحاصل الجواب أنّ الوسائط في نحو الصوم والزكاة والحجّ جُعِلت كالعدم ولا جهته هٰهنا لارتفاع الوسائط وصيرورتها كالعدم، فكان حسن هذا لغيره شبيهًا لعينه، وحسن ذلك على عكسه. قوله: (أو لا يتأدّى ذلك الغير) عبارة فخر الإسلام هكذا، وذلك الغير قائمٌ بنفسه مقصودًا لا يتأدّى بالذي قبله، والمراد بالغير هو الصلاة والجمعة، فإنهما لا يتأدّيان بالوضوء والسعي، وإنّما أعرض عنه المصنّف؛ لأن المراد بالقيام بنفسه أن لا يتأدّى بالإتيان بالمأمور به، بل يفتقر إلى إتيان به على حدّه، وكذا مراد صاحب التنقيح بقوله: فلذلك الغير إمّا منفصل عن المأمور به أنْ لا يتأدّى بالإتيان بالمأمور به لا ما لا يفتقر في التحيّز والإشارة إلى التبعيّة للغير، كما في الجواهر؛ لأن الصلاة عرض لا يصح قيامها بهذا المعنى. قوله: (والأمر المطلق عن قرينة تدلّ).اهـ. قال فخر الإسلام: والأمر المطلق في اقتضاء صفة الحسن يتناول الضرب الأوّل من القسم الأوّل؛ لأن كمال الأمر يقتضي كمال صفة المأمور به، وكذلك كونه عبادة يقتضي هذا المعنى، ويحتمل الضرب الثاني بدليل، انتهى. واختلفوا في تفسيره، فقال بعضهم: المراد بالضرب الأول ما لا يحتمل السقوط أصلًا، وبالقسم الأوّل الحسن لعينه مطلقًا حقيقةً أو حكمًا، وقال بعضهم: المراد بالضرب الأول الحسن لعينه، وبالقسم الأول هو التقسيم الأوّل من تقسيم المأمور به إلى الحسن لمعنًى في نفسه، وإلى حسن لمعنًى في غيره،

....

فالمصنّف اختار التفسير الأوّل كما ترى، وترك قوله: وكذلك كونه عبادة يقتضي هذا المعنى؛ لأن هذا المعنى، أي كمال الحسن، ليس من مقتضى كونه عبادة، بل من مُوجبه، فإن قيل: فلِمَ لَمْ يقل وكونه عبادة يُوجب هذا المعنى أيضًا، كما قال في التنقيح: قلنا: لأن المقصود بيان أن مقتضى الأمر ما هو من أقسام الحسن، لا بيان موجب كونه عبادة، فقال: إنّ مقتضى الأمر المطلق هو الضرب الأوّل من القسم الأوّل من أنواع الحسن؛ فعلم منه أنّ ما عدا الضرب الأوّل المفسّر بالتفسير المذكور هو مقتضى الأمر المقيّد بقرينة تدلّ على حسن المأمور به، ولهذا ترك قول فخر الإسلام، ويحتمل الضرب الثاني؛ لكونه معلومًا، فكان الحسن لمعنًى في غيره كالجهاد، وما يحتمل السقوط كالإقرار والصلاة وما يشبه الحسن لغيره من الحسن لمعنًى في نفسه؛ كالصوم والزكاة من مقتضيات الأمر المقيّد بالقرينة؛ ففي الجهاد دلّ الدليل على كونه حسنًا لغيره، وفي الإقرار والصلاة دلّ على احتمال السقوط، وفي الصوم والزكاة على كونها شبيهة بالحسن لغيره. والحاصل أنّ مشائخنا اختلفوا في مقتضى الأمر المطلق عن القرينة الدالّة على حسن المأمور به لعينه أو لغيره، فذهب بعضهم إلى أنّ مقتضاه الحسن لغيره، مستدلّا بأنّ الحسن فيه ضرورة حكمة الأمر، والضرورة تندفع بالأدنى، وهو الحسن لغيره، فلا يُصار إلى الأعلى. وذهب الجمهور إلى أنّ مقتضاه الحسن لعينه مستدلّين بأنّ المطلق ينصرف إلى الكامل، وكمال الأمر يقتضي كمال صفة المأمور به، وهو ما يكون حسنًا لعينه. فإنْ قيل: لو كان مقتضى الأمر المُطلق كمال حسن المأمور به، وهو ما لا يحتمل السقوط أصلًا لزم أن لا يجوز ظُهر المقيم الغير المعذور إذا أدّاه في بيته يوم الجمعة قبل فوت الجمعة، كما قال الشافعي وزُفَر؛ لأن أمر ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٩] يقتضي حسن المأمور به، وهو الجمعة حسنًا لعينه، ولا يحتمل السقوط أصلًا، مع أنه يجوز عندنا، وأن لا ينتقض ظُهر المعذور الذي أدّاه في بيته يوم الجمعة ثم حضر الجمعة مع الإمام، كما قال الشافعي ﵀؛ لأن المعذور غير مخاطَب بالجمعة، فأمر المطلق اقتضى في حقّه فرضيّة الظهر، فإذا أدّاه لم ينتقض لكونه مقتضى الأمر المُطلق، فالجواب أنه لا خلاف في أن الأمر المُطلق يقتضي كمال حسن المأمور، وإنّ الصحيح المقيم مأمورٌ بالسعي إلى الجمعة، ولكن الشأن في معرفة كيفيّة الأمر

....

بالجمعة في قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٩]، أهو بطريق النسخ كما قلتم، أم بطريق التقرير كما قلنا؟ لا سبيل إلى ما قلتم؛ لأنه بعد فوات الجمعة يصلّي الظهر، وليس ذلك قضاء عن الجمعة؛ لأنه لا يصلح قضاءً لها لاختلافهما اسمًا ومقدارًا وشروطًا، ولو سلم صلاحيتها لقضاء الجمعة، فالجمعة لا تقضى بالإجماع، فثبت أن أداء الظهر بعد فوات الجمعة عَوْدٌ إلى الأصل، وثبت أنّ قضية قوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٩] إقامة الجمعة مقام الظهر، فصار الأمر بالجمعة مقرّر للظهر لا ناسخًا له، إلّا أن الأمر في حقّ الغير المعذور حتم دون حقّ المعذور، فإنه رخّص له أن لا يقيمها مقام الظهر، فلو صلّى الصحيح المقيم الظهر في بيته يوم الجمعة صح؛ لأنه فرض وقته ولم يُنسخ بالجمعة، كما في حقّ المعذور، لأنهما سواء في كَوْن الظهر مشروع الوقت في حقِّهما، وإن اختلفا في وجوب الفعل وعدم وجوبه، ولهذا يأثم الصحيح المقيم بأداء الظهر وترك الجمعة، وإنْ كان ما صلّاه فرض الوقت؛ لأنه منهيٌّ عنه، والنهي لغيره لا يمنع المشروعيّة، ولا يأثم المعذور لعدم وجوب الجمعة في حقّه لسقوطها عنه رخصة، لئلّا يلزم الحرج بالسعي إليها، وسقطت عنه رخصة، فلو صلّى الظهر في بيته ثم حضر الجمعة مع الإمام انتقض ظهره، لئلّا يعود على موضوعه بالنقض، فإنها سقطت عنه رخصة لدفع الحرج، فلو لم تجر جمعته بعدما حضر وصلّى مع الإمام اختيارًا للعزيمة كان فيه إثبات الحرج، ولهذا ينتقض ظهره. قوله: (ثم التكليف) شروع في بحث التكليف بما لا يُطاق، وقد فصّله في التنقيح بعنوان الفصل لكثرة مباحثه؛ ولأن القدرة التي هي مَناط التكليف ليست من أقسام المأمور به، بل من شرطه، ومورد القسمة في أقسام الحسن هو المأمور به في صفة الحسن، فلا وجه لدرجه في الأقسام المذكورة، وإنما تركه المصنّف وعطف بكلمة ثم التي للتراخي إشارة ما ذكره فخر الإسلام أنّ مِنْ ضروب الحسن لغيره ضربًا ثالثًا سمّي الجامع وهو ما يكون حسنًا لحسن في شرطه بعدما كان حسنًا لمعنى في نفسه، وهو القدرة التي يتمكّن العبد بها من أداء ما لزمه. قوله: (اعلم أنّ ما لا يطاق). اهـ. واعلم أنّ كلمات القوم هـٰهنا مختلفة جدًّا، فلا بدّ أن يعلم أوّلًا مراتب ما لا يُطاق، فنقول: ما لا يُطاق على ثلاث مراتب أدناها ما يمكن في نفسه، ومن العبد ويمتنع لعلم الله تعالى بعدم وقوعه أو لإرادته ذلك، أو لإخباره

....

به ولا نزاع في وقوع التكليف به فضلًا عن الجواز، فإنّ مَنْ مات على كفره، ومَنْ أخبر الله تعالى بعدم إيمانه؛ كأبي جهل يُعدّ عاصيًا بالإجماع، ولو لم يقع التكليف بالإيمان لم يكن عاصيًا، واللازم باطل بالإجماع، فكذا الملزوم. وإنّما النزاع في هذه المرتبة في كونه مما يطاق أو مما لا يطاق، فالمانعون يجعلونه مما يُطاق بالنظر إلى إمكانه من العبد وفي نفسه، فيكون مراتب ما لا يطاق اثنتين لا ثلاثًا، والمجوّزون يجعلونه ممّا لا يُطاق بالنظر إلى امتناعه. الحاصل من تعلّق عِلْمه تعالى وإرادته، فتكون مراتب ما لا يُطاق عندهم ثلاثًا، وأقصاها ما يمتنع لذاته؛ كقلب الحقائق وجمع الضدَّيْن أو إعدام القديم، ولا نزاع في عدم جواز التكليف به فضلًا عن وقوعه، واستدلّوا عليه بالإجماع وشهادة الاستقراء وبالنصوص، نحو قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦]، وبأنه لو صحّ التكليف بالممتنع لذاته، لكان الممتنع لذاته مستدعٍ للحصول، واللازم باطل. أمّا المُلازمة، فلأن معنى التكليف طلب حصول المكلّف به من المكلّف. وأمّا بطلان اللازم، فلأن الممتنع لذاته لا يتصوّر وقوعه وطلب حصوله فرع تصوّر وقوعه؛ إذ لا يمكن طلب حصول المجهول، فإذا انتفى تصوّر وقوعه انتفى طلبه أيضًا، وإنما لا يتصوّر وقوعه لأنه لو تصوّر لتصوّر مُثبتًا، واللازم باطل؛ لأنه يلزم منه تصوّر الأمر على خلاف ماهية تنافي ثبوته، وإلّا لم يكن ممتنعًا لذاته، فما يكون ثابتًا فهو غير ماهية الممتنع لذاته، فإن قيل: لو لم يتصوّر المُمتنع لذاته لامتنع التصديق بإحالة اجتماع النقيضين، لأنّ التصديق بصفة الشيء فرع تصوّر الشيء. قلنا: إنّا لا ندّعي انتفاء تصوّره مطلقًا، بل انتفاء تصوّره مثبتًا، ولا يلزم من انتفاء تصوّر الخاص انتفاء مطلق التصوّر والتصديق باستحالة اجتماع النقيضين، إنما يستدعي تصوّره مطلقًا لا تصوّره مثبتًا، وقد نتصوّره منفيًا بمعنى أنه ليس لنا شيء موهوم أو محقّق يصدق عليه اجتماع النقيضين ونحكم عليه بالحكم الثبوتي، أعني أنه محال، وهذا التصوّر ليس تصوّر وقوعه، فإن قيل: الممتنع لذاته قد يتصوّر ثبوته ذهنًا؛ لأنا نحكم عليه بالحكم الثبوتي بأنه معدوم، وثبوت الشيء للشيء فرع ثبوت ذلك الشيء، وما ليس بثابت في الخارج، فهو ثابت في الذهن، وثبوته في الذهن كافٍ في طلبه. قلنا: إنّ الممتنع لذاته هو الوجود الخارجي، ولا يتصوّر ثبوته في الخارج، والمتصوّر هو الثبوت في

....

الذهن، وليس بمُحال؛ فلا يكون مما نحن فيه. فإن قيل: كيف يصح دعوى الاتّفاق في عدم جواز التكليف بالممتنع لذاته، وقد قال في شرح المقاصد: إنّ كلام كثير من المحقّقين يدلّ على أنّ التكليف بالمُمتنع لذاته كجمع النقيضين جائز، بل واقع شرعًا، فإنّ الله تعالى أمر أبا جهل بأن يصدقه ويؤمن في جميع ما يُخبر عنه، ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن، فقد أمره بأن يصدقه، وذلك جمع بين النقيضين؛ هكذا ذكره نقلًا عن إمام الحرمين. ثم قال نقلًا عن الإمام الرازي: إنّ الأمر بتحصيل الإيمان مع حصول العلم بعدم الإيمان أمرٌ بجمع الوجود والعدم؛ لأن وجود الإيمان يستحيل أن يحصل مع العلم بعدم الإيمان. أُجيب عنه تارة بأنّا لا نسلم أنّ ما ذكره عن الإمامين يدلّ على أنّ المكلّف به هو الجمع بين التصديق وعدمه، بل تحصيل الإيمان، وهو مُمكن في نفسه ومن العبد بحسب أصله، وإن امتنع بالنظر إلى علمه تعالى وإرادته وإخباره بأنه لا يؤمن، فيكون التكليف به جائزًا، بل واقعًا بالاتفاق، وأخرى بأنّ الإيمان في حقّ مثل أبي لهب وأبي جهل هو التصديق بما عدا هذا الإخبار، وفي كلّ من الجوابين بحث. أمّا في الأوّل، فلأن الكلام فيمن وصل إليه هذا الخبر، أعني أنه لا يؤمن، وكُلِّف بالتصديق به على التعيين، فيلزم الجمع بين التصديق والتكذيب بالضرورة. اللّهمّ إلّا أن يقال: إنه يجوز أن لا يخلق الله تعالى العلم بالتصديق لأبي لهب ونحوه، فلا يلزم اجتماع التصديق والتكذيب. نعم إنّ خلق العلم بالعلم ضروري عادي، فيلزم أن يكون من المرتبة الوسطى، وهو يستلزم وقوع التكليف بالمرتبة الوسطى مع أنه غير واقع، وإنْ جاز على ما سنذكره. وأمّا في الثاني، فلأنه يستلزم اختلاف حقيقة الإيمان بالنسبة إلى بعض الأشخاص، وقد يُجاب عن أصل الإشكال، فإنه ليس المراد بالاتفاق اتّفاق جميع العلماء، بل اتّفاق أكثرهم؛ كما صرّح به الفاضل الحليمي، والمرتبة الوسطى ما أمكن في نفسه غير ممكن من العبد لعدم وقوعه متعلّقًا لقدرة العبد أصلًا؛ كخلق الأجسام، أو عادةً؛ كالصعود إلى السماء وحمل الجبل، وهذا هو الذي وقع النّزاع في جواز التكليف به بمعنى طلب تحقيق الفعل والإتيان به واستحقاق العقاب على تركه لا على قصد التعجيز وإظهار عدم الاقتدار على الفعل، كما في التحدّي بمعارضة القرآن. فقال الأشعري والماتريديّ: يجوز التكليف به عقلًا لجواز أن يخلق الله تعالى فيه قدرة على ذلك

....

الفعل على خلاف العادة، ومنعه المعتزلة لقبحه عقلًا قياسًا على الشاهد، فإنّ مَنْ كلّف الأعمى بنقط المصاحف، والزَّمِن بالمشي، وعبده بالطيران إلى السماء يُعدّ سفيهًا. قلنا: قياس الغائب على الشاهد فاسد، كيف والمكلّف حكيمٌ مطلق، فإن قيل: تكليف الجماد ليس بأبعد منه الجواز أن يخلق الله تعالى فيه الحياة والعلم والقدرة، مع أنهم قالوا: تكليف الجماد لا خلاف في امتناعه. قلنا: إنّ شرط التكليف الفهم، ولا فهم للجماد حين هو جماد؛ (لأن الجمادية تضادّ الفهم).
أقول: هذا القول من الأشعريّ مشكل مع قوله: إنّ العقل مهدرٌ بالكلّيّة؛ إذ لا حكم للعقل أصلًا عندهم كما مرّ، فكيف بقوله: يجوز التكليف به عقلًا؟ ثم النزاع في هذه المرتبة في الجواز؛ إذ لا نزاع في عدم وقوعه بالإجماع، وما نُقِل عن الأشعريّ من وقوع التكليف بما لا يُطاق محمولٌ على المرتبة الأُولى؛ لأنها من قبيل ما لا يُطاق عنده. قوله: (ولا نزاع في وقوع التكليف به)، وإنما النزاع فيه في كونه مما يطاق أو مما لا يطاق، فذهبت الأشاعرة إلى أنه مما لا يُطاق بالنظر إلى امتناعه بتعلّق عِلمه وإرادته تعالى بعدمه، وبالنظر إلى أصلهم من أنّ القدرة الحادثة لا تأثير لها أصلًا، وأنها غير سابقة على الفعل، بل معه، والتكليف لا بدّ أن يكون مقدَّمًا على الفعل، فيكون مقدَّمًا على ما مع الفعل أيضًا، فلا قدرة وقت التكليف. وذهب جمهور الماتريديّة إلى أنه مما يُطاق بالنظر إلى إمكانها من العبد في نفسها مع قطع عن تعلّق علم الله تعالى وإرادته وبناءً على أصلهم من أن علم الله تعالى وإرادته لا يجعلان نقيض متعلّقهما ممتنعًا أصلًا؛ لأن العلم تابع للمعلوم عندهم والإرادة تابعة للعلم التابع للمعلوم، والله تعالى إنما يريد على وفق علمه، والمعلوم فيما نحن فيه هو عدم الإيمان باختيارهم، فكذا المراد، فلا امتناع في الإيمان. فإن قيل: الاستطاعة مع الفعل أيضًا عندنا، فلا قدرة حين التكلف، فيكون مما لا يُطاق. قلنا: المُعتبر عندنا في صحة التكليف هو القدرة بمعنى سلامة الأسباب والآلات، وهذه القدرة توجد قبل الفعل. فإن قيل: نعم، إلّا أنّ التكليف بدون القدرة الحقيقية التي هي مع الفعل محال لامتناع الفعل بدونها. قلنا: امتناع التكليف بدونها ممنوع مع وجود القدرة بمعنى سلامة الأسباب، ولو سلم لكن انتفاء القدرة الحقيقيّة وقت التكليف ممنوع بناءً على أن القدرة الحقيقية صالحة للضدَّيْن عندنا، حتى أنّ القدرة على الإيمان هي

....

بعينها القدرة على الكفر، فالكافر قادرٌ على الإيمان قدرة حقيقيّة. فإن قيل: يلزم أن تكون القدرة الحقيقية قبل الفعل، والمذهب أنها مع الفعل. قلنا: كونها قبل الفعل بمعنى صحة تعلّقها به بدل ضدّه، أي لو لم تتعلّق بضدّه لصحّ تعلّقها به لا ينافي كونها مع الفعل، بمعنى أنها توجد وقت حدوث الفعل وتتعلّق به تعلّق الكسب بالمكسوب. قوله: (والإجماع متعقد) أي إجماع الأكثر وإلّا فقد حُكِي عن إمام الحرمين والرازي أن التكليف بالممتنع لذاته جائز وواقع كالتكليف بإيمان نحو أبي لهب كما ذكرناه، واستدلّ المانعون بالإجماع والنصوص والعقل كما ذكرناه، واستدلّ المجوّزون بوجهين: أحدهما لو لم يجز لم يقع؛ لأن الوقوع مسبوق بالإمكان، لكنه وقع لأن العاصي كلّف بالفعل مع أنه ممتنع لعلمه تعالى بعدم وقوعه؛ ولأن الكافر مكلّف بالإيمان مع أنه يمتنع منه الإيمان لعلمه تعالى وإرادته وإخباره بأنه لا يؤمن، ولأن مَنْ مات قبل تمكّنه من الفعل مكلّف به، مع أنه يمتنع منه لموته قبله، وكذا مَنْ نسخ عنه قبل تمكّنه منه مكلّف به مع امتناعه منه لنسخه قبله، ولأن المكلّف لا قدرة له على الفعل وقت التكليف لكون الاستطاعة مع الفعل والتكليف قبل وجود الفعل لاستحالة التكليف بإيجاده الموجود، فيكون التكليف قبله تكليف بالمحال لعدم قدرته عليه وقت التكليف؛ ولأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، فلا يكون مقدورًا للعبد وإلّا لزم وقوع مقدور واحد بقدرة قادرَيْن، وهو محال، فكان التكليف به تكليفًا بالمحال. أُجيب عنه بوجهين: الأول: لا نسلم أن تكليف العاصي بالطاعة والكفار بالإيمان، ومَنْ مات أو نُسِخ عنه قبل التمكّن بالفعل تكليف بالممتنع بالذات؛ لأنّ الطاعة والإيمان والفعل يمكن تصوّر وقوعها من المكلّف بحسب ذواتها، وإن امتنع صدورها منه بالنظر إلى علمه تعالى وإرادته وإخباره ونسخ المكلّف به وموت المكلّف قبل التمكّن، فلا يكون شيءٌ منها في محل النّزاع؛ لأن النزاع في الممتنع لذاته ومدار صحة التكليف قبل القدرة الحقيقية التي تكون مع الفعل على وجود القدرة بمعنى سلامة الآلات والأسباب كما تقدم، وكون الفعل مخلوقًا لله تعالى لا ينافي كون ذلك الفعل مقدورًا للعبد أيضًا بالقدرة الكاسبة، والأمر كذلك لأن كلّ فعل اختياري للعبد مقدور لله تعالى بالقدرة المؤثّرة، وللعبد بالقدرة الكاسبة، فلا يكون تكليفًا بالمحال. والثاني: أنّ الأمر لو كان على ما ذكرتم لزم أن يكون جميع

....

التكليف تكليفًا بالمحال، واللازم باطل. أمّا استلزام الوجهين الأخيرين، فلأن القدرة الحقيقيّة في الجميع، وأنّ الكل مخلوق لله تعالى. وأمّا الوجوه الباقية، فلأنه لو وجب كل ما علم الله تعالى وقوعه، وامتنع كلّ ما علم الله عدم وقوعه لكانت الأفعال كلّها إمّا واجبة أو ممتنعة، والتكليف بهما محال إمّا بالممتنع؛ فلكونه ممتنعًا بالذات، وإمّا بالواجب فلأن التكليف بإيجاد ما يجب وجوده محال. والحاصل أن الممكن لا يجب وجوده بالذات، ولا يمتنع بالذات بتعلق علمه تعالى وإرادته، وثانيهما أنه لو لم يجز لم يقع لكنه وقع، فإنه كلّف أبا جهل بالإيمان وهو تكليف بجمع النقيضين كما تقدم عن الإمامين، وأجيب عنه بوجهين كما ذكرناه. قوله: (وهذا هو محل النزاع)، لا يخفى عليك أن الظاهر من التلويح أنّ النزاع في هذه المرتبة في الوقوع وعدمه، حيث قال: ما لا يطاق إمّا أن يكون ممتنعًا لذاته؛ كإعدام القديم والإجماع منعقد على عدم وقوع التكليف به، وإمّا أن يكون ممتنعًا لغيره بأن يكون ممكنًا في نفسه، لكن لا يجوز وقوعه من المكلّف لانتفاء شرط أو وجود مانع؛ فالجمهور على أن التكليف به غير واقع خلافًا للأشعري، انتهى. فإنّ المراد بالممتنع لغيره هو المرتبة الوسطى لا الأقصى، وهو ظاهر، ولا الأدنى لأنه ذكره بعد هذه، ولأنه لا خلاف في وقوع التكليف بها، وهذا مخالف لما في شرح المقاصد، فإنّه صرَّح فيه بأنّ النزاع في المرتبة الوسطى إنما هو في الجواز لا في الوقوع؛ إذ الوقوع منفيّ قطعًا، وهو الظاهر من المواقف أيضًا حيث قال: نحن نجوّزه وإن لم يقع بالاستقراء ويمنعه المعتزلة، وبه صرّح المولى الخيالي. قوله: (ولهذا) أي ولكون محل النزاع ما لم يكن متعلّقًا لقدرة العبد. قلت: ثم التكليف بما لا يقدر عليه المأمور، ولم أقل ثم التكليف بما لا يُطاق على ما وقع في كثير من الكتب إشعارًا بمحلّ النزاع؛ لأن لفظة ما لا يقدر عليه المأمور أدلّ عليه. قوله: (لا على قصد التعجيز) كما في التحدّي بمعارضة القرآن، بقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣]، فإنّ الأمر فيه للتعجيز لا للتكليف؛ إذ لا نزاع في عدم جوازه. قوله: (بما لا يقدره) أي بما لا يقع متعلّقًا لقدرة المأمور أصلًا أو عادة. قوله: (محال) أي غير جائز على ما هو النزاع؛ إذ لا نزاع في عدم الوقوع كما ذكرنا، ولهذا عمّم الدّليل الذي ذكره بعدم الجواز، حيث قال: بل الجواز أيضًا. ثم

....

الظاهر منه أنّ عدم جواز التكليف بالمرتبة الوسطى مما ذهب إليه أصحابنا، والظاهر من المواقف وغيره أنّ عدم الجواز هو قول المعتزلة فقط، وأصحابنا مع الأشعري في القول بجوازه. قوله: (فلأن طلب حصول المحال) أي المحال من العبد بأن يقع متعلّقًا لقدرته أصلًا، أو عادة لا في نفسه، بل هو ممكن في نفسه. قوله: (لا يليق) اهـ. إذ لو كلّف به يلزم الترك بالضرورة لعدم تعلّق قدرته، فيستحقّ العقاب بترك ما كلّف به، وذلك لا يليق بالحكمة والفضل، وما لا يليق بالحكمة سفه، فالتكليف به سفه. قوله: (هذا) أي الدليل المذكور يمنع وقوع التكليف؛ لأن الترك إنما يلزمه وقوع التكليف لا جوازه. قوله: (لا تمنع الوجوب بمقتضى الحكمة) يعني أن عدم جواز تكليف ما لا يطاق بالمرتبة الوسطى عند المعتزلة مبني على أنه يجب على الله ما هو أصلح لعباده، ولا خفاء في أن عدم تكليف ما لا يطاق أصلح، فيكون واجبًا، فيكون التكليف ممتنعًا، وعند أصحابنا مبنيٌّ على أنه لا يليق بالحكمة والفضل أن يكلّف عباده بما لا يُطيقونه، وما لا يليق بالحكمة والفضل سفه وهو قبيح لا يجوز صدوره عن الحكيم المُتعال، وما لا يجوز صدوره عنه يجب تركه، فيجب ترك التكليف به بمقتضى حكمته وفضله. والحاصل أنّ بين وجوب الترك، ولو بمقتضى حكمه وبين عدم جواز فعله مُلازمة. قوله: (كما لا تمنع الإيجاب) يعني أنّا نقول: إنّ المعلوم يجب وجوده عند وجود جميع ما لا بدّ منه، فيجب إيجاده على الله تعالى، وهذا قول بالإيجاب على الله إلّا أنه إيجاب بالاختيار، فلا تمنعه؛ لأن إرادة الله تعالى واختياره داخل في تلك الجملة، فيجب عليه تعالى إيجاده باختياره. قوله: (وكلّ ما أخبر الله تعالى بعدم وقوعه) دفع لما يقال: إنّ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحَجّ: الآية ٧٨] دليلٌ على عدم الوقوع لا على عدم الجواز توضيحه أنه مما أخبر الله تعالى بعدم وقوعه، وكلّ ما أخبر الله تعالى بعدم وقوعه، فوقوعه محال لأنه يلزم من فرض وقوعه محال، وهو إمكان كذبه تعالى، وكلّ ما يلزم من فرض وقوعه محال فهو محال، فوقوع ما أخبر الله بعدمه محال، فلا يجوز التكليف به؛ ففي كلامه حذف صغرى القياس الأوّل، وكبرى الثاني، وفيه نظر؛ لأن كلّية الكبرى ممنوع، وإنما يصدق لو كان لزوم المحال له لذاته. أمّا لو كان لعارض،

....

كإخباره تعالى بعدمه، فلا تصدق كلّيته لجواز أن يكون هو ممكنًا في نفسه ومنشأ لزوم المحال هو ذلك العارض. قوله: (وإذا كان التكليف بالمحال) من العبد بأن لم يقع متعلّقًا لقدرته أصلًا أو عادة. قوله: (أي للمأمور) لو قال: أي للتكليف من قدرة المأمور، لكان أوْلى. قوله: (المقارنة للفعل) أي توجد حال حدوث الفعل بمعنى الحاصل بالمصدر وتتعلق به حال حدوثه لا قبله، خلافًا للمعتزلة؛ فإنهم قالوا: إنها توجد قبل الفعل وإلّا لما كان الكافر مكلّفًا بالإيمان، ولأن القدرة بهذا المعنى، أي الحقيقة، يلزمها كون الفعل محتاجًا إليها في وجوده، وكونها مع الفعل يلزمه أن يستغني الفعل عنها وقت وجوده، فتنافى اللازمان، وذلك يستلزم تنافي الملزومين أيضًا، فبين مفهوم القدرة وبين كونها مع الفعل منافاة، ولأنها لو لم تكن قبل الفعل يلزم إمّا قدم العالم أو حدوث قدرة الله تعالى ضرورةَ عدم انفكاك أحدهما عن الآخر. والجواب عن الأول: أنّا لا نسلم تلك الملازمة بناءً على جواز التكليف بما لا يُطاق، كما هو رأي الأشعري، ولو سلم أنه لا يجوز لكن صحة التكليف تعتمد على القدرة بمعنى سلامة الآلات والأسباب، لا على القدرة الحقيقية، ولو سلم أنها تعتمد عليها لكن لا نسلم لزوم وجودها حقيقةً وقت التكليف، لِمَ لا يكفي توهّم وجودها، ولو سلّم لزوم وجودها حقيقةً. لكن لا نسلّم انتفاءها وقت التكليف به بناءً على ما رُوِيَ عن أبي حنيفة وأصحابه أنّ القدرة الحقيقية صالحة للضدَّيْن، حتى أنّ القدرة على الكفر هي بعينها تصلح للإيمان أيضًا بدل الكفر، فتلك الصلاحية تصحّح التكليف، فالكافر حال كفره قادر على الإيمان قدرة حقيقية، فيكون مكلّفًا به. فإن قيل: كيف يصح تعلّقها بالإيمان بدل الكفر، مع أنها توجد ابتداءً إلا وقت حدوث الكفر، وتعلّقت به في ذلك الوقت لا قبله حتى يصح تعلّقها بالإيمان بدل الكفر؟ قلنا: إنها وإن لم توجد إلّا وقت حدوث الكفر، إلّا أنه لم يجب الكفر بها لدخول الاختيار فيها، فإذا لم يجب الكفر بها صح تعلّقها بالإيمان بدل الكفر. فإن قيل: قد تحقّق في محلّه أنّ المعلول يجب وجوده عند تمام علّته والفرض أنّ القدرة الحقيقية عبارة عن جملة ما يتوقّف عليه، فيجب وجود الكفر عندنا. قلنا: نعم إلّا أنّ الوجوب الحاصل من هذه الجملة هو الوجوب بالاختيار، وهو لا يقتضي الوجوب بالذّات، فيمكن التخلّف عنها وعن الثاني بأنا لا نسلّم أن الفعل حال حدوثه مستغني

....

عن القدرة، بل يحتاج إليها وما يتوهم من لزوم إيجاد الموجود ممنوع؛ إذ لم يوجد قبل هذا الإيجاد، بل وُجِد بهذا الإيجاد. وعن الثالث بأنّ كلامنا في قدرة العبد لا في قدرة الله حتى يلزم ما ذكرتم، بل قدرة الله تعالى قديمة ولها تعلّقات حادثة، واستدل أصحابنا بوجوه:

الأول: أنها علّة تامّة، فلو كانت قبل الفعل لزم تخلّف العلّة التامّة عن المعلول. الثاني: أنها عرض، والعرض لا يبقى زمانين، ولو كانت قبله لانعدمت حال الفعل، فيلزم وجود المقدور بدون القدرة. الثالث: أنها لو كانت قبله لكان الفعل قبل زمان وقوعه مقدورًا، فيلزم أن يكون وقوعه قبله مقدورًا، لكنه محال؛ لأنه يلزم من فرض وقوعه قبله أن يكون الفعل موجودًا ومعدومًا معًا، لأنه معدوم قبل وقوعه، وأنْ لا تكون الحالة التي فرضناها سابقة عليه، بل مقارنةً له، وهٰهنا أبحاث ذكرناها في الكلام. قوله: (فإنها علّة تامّة)، فلا تكون قبل الفعل، فلا تكون مَناطًا للتكليف، وفي تعريف هذه القدرة اختلاف كثير ذكرناه في الكلام. قوله: (بل بمعنى سلامة الأسباب) قال في البزدويّ: وهذا فضلٌ من الله تعالى ومنّة عندنا خلافًا للمعتزلة، فإنه عندهم واجب كما عُرف في مسألة الأصلح، واعترض عليه بأنّ هذا الكلام من فخر الإسلام يدلّ على جواز التكليف بدون هذه القدرة عنده، كما هو مذهب الأشعريّة، وما ذكره في بعض مصنّفاته يدلّ على خلافه، فإنّه قال في بعض مصنّفاته: إنّ القدرة بمعنى سلامة الآلات جعلت شرطًا لازمًا للتكليف عدلًا وحكمة كما هو مذهب عامّة أهل السنّة.

وأُجيب عنه تارةً بالتوفيق بينهما بأنّ مراده بما في البزدوي أنّ إعطاء هذه القدرة التي يصير العبد بها أهلًا للتكليف فضلٌ من الله ومنّة؛ لأنه لا يجب على الله تعالى شيء، وبناء التكليف على هذه القدرة واشتراطها فيه عدل وحكمة، كإعطاء العقل، فإنه فضل ومنّة من الله تعالى، وبناء صحة الخطاب عليه واشتراط في صحة الخطاب عدل وحكمة وأخرى بصرف اسم الإشارة إلى اشتراط القدرة دون إعطائها، وبيان كون اشتراطها فضلًا ومِنَّة من الله تعالى أنّ جواز التكليف مبنيّ على القدرة الحقيقيّة التي بها يوجد الفعل إلا أنها لم تسبق الفعل، بل قارنته، والتكليف لا بدّ وأن يوجد قبل الفعل نقل الحكم عنها إلى سلامة الآلات والأسباب التي

....

تحدث هذه القدرة بها عند إرادة الفعل عادةً، فشرطت لصحة التكليف سلامة الآلات والأسباب، مع أن التكليف صحيح بدونها بناءً على توهم وجود القدرة الحقيقيّة عند الفعل فضلًا ومنّة من الله تعالى. هذا والمصنّف رحمه الله لم يذكر أنّ اشتراط هذه القدرة هل هو فضل من الله تعالى ومنّة أو حكمة وعدل إشارة إلى جواز الأمرين. قوله: (بها يتمكن المأمور) أي سواء كان المأمور به حسنًا لعينه أو لغيره حتى أجمعوا أن الطهارة لا تجب على العاجز عنها ببدنه بأن لم يقدر على استعمال الماء ولم يجد مَنْ يستعين به، بل يتيمّم. وأمّا إنْ وجد مَنْ يستعين به، فهل يجوز له التيمّم؟ ففي المبسوط: أنه لا يجوز، وفي قاضيخان: إنْ كان المعين حرًّا أو امرأته جاز له التيمّم في قول أبي حنيفة رحمه الله، لأنه لا يجب عليهما الإعانة له، وإنْ كان مملوكه اختلف المشائخ على قول أبي حنيفة، والفرق على أحد القولين أنّ العبد وجب عليه الإعانة له، فكان بمنزلة بدنه بخلاف الحرّ، ومن هذا قالوا: إنْ كان المُعين يعينه ببدل ويقدر عليه لا يجوز له التيمّم عند الكلّ. قوله: (من أداء ما لزمه) أي لزمه بهذا الأمر لا قبله، تأمّل. قوله: (ليخرج الحجّ) أي ليخرج بقيد غالبًا، يعني إنما قيّد بالغالب لأنه قد يتمكّن من أداء ما لزمه بلا حرج بدون الزّاد والراحلة، وقد يتمكّن منه بلا حرج بدون راحلة فقط، فينقض اشتراط الزّاد والراحلة في الحجّ، وإذا قيّد بالغالب خرج هاتان الصورتان؛ لأن إحداهما نادرة، والأخرى كثيرة لا غالبة، وإنما الغالب بلا حرج هو التمكّن منه بهما، والفرق بين الغالب والكثير أنّ كل ما ليس بكثير نادر، وليس كلّ ما ليس بغالب نادرًا، بل قد يكون كثيرًا، واعتبر بالصحة والمرض والجذام، فإنّ الأول غالب، والثاني كثير، والثالث نادر. قوله: (إذا لم يؤدِّ إلى الحرج) بأن لم يكن الفائت أكثر من صلاة يومٍ وليلة. قوله: (عدم الانفكاك) ممنوع، أي عدم انفكاك نفس الوجوب عن التكليف ممنوع؛ لأن التكليف عبارة عن طلب إيقاع الفعل من العبد، وهو صفة المكلّف الآمر، ونفس الوجوب عبارة عن لزوم الفعل في ذمّة المكلّف، وهو صفة الفعل ولا تلازم بين الصفتين؛ لأن نفس الوجوب يلزم بسببه كدخول الوقت والتكليف يلزم عند تحقّق وجوب الأداء. قوله: (فمعنى استلزام التكليف للقدرة). اهـ.

....

حاصله أن المراد بالقدرة التي كانت لازمة للتكليف هي القدرة الحقيقيّة التي مع الفعل لكن لا مطلقًا، بل باعتبار وجودها عند إرادة العبد إحداث الفعل، فهذا المعنى يتحقّق في النائم والمغمى عليه، وإنما المنتفي عنهما هو القدرة بمعنى سلامة الآلات والأسباب، ويوضح هذا الجواب ما ذكره في الكشف أن جواز التكليف مبني على القدر الحقيقية إلا أنها لمّا لم تسبق الفعل والتكليف لا بدّ وأن يكون قبله نقل الحكم عنها إلى القدرة بمعنى سلامة الآلات والأسباب، فاشتراط القدرة بمعنى سلامة الآلات والأسباب، مع أن التكليف صحيح بدونها بناءً على توهم وجود القدرة الحقيقية عند وجود الفعل فضلٌ من الله تعالى ومنّة على عباده.

قوله: (وحسنًا لنفسه أو لغيره) ذكره بالواو إشارة إلى أنه تفسير آخر لمطلقًا، تأمّل.

قوله: (لم يلزم زفر الأداء) قال: إذا صار أهلًا للتكليف في آخر الوقت بأن أسلم أو بلغ أو طهرت أو أفاق فيه لا يجب عليه أداء الصلاة لعدم قدرته عليه حقيقة لفوات الوقت الذي هو من ضرورات القدرة، وما قيل أن القدرة التي هي شرط التكليف، وإن لم توجد حقيقة، لكن يحتمل أن توجد باحتمال امتداد الوقت، كما وقع لسليمان عليه السلام، وتوهّم القدرة كافٍ لصحة التكليف ممنوع؛ لأن ما يكفي توهّمه هو القدرة الحقيقيّة لا القدرة بمعنى سلامة الآلات والأسباب، بل لا بدّ من وجودها حقيقةً وإلّا لجاز التكليف بالحجّ بتوهّم الزاد والراحلة، ويصوم الشيخ الفاني بتوهّم القدرة عليه وبالركوع والسجود والقيام بتوهم زوال المرض واللازم باطل فكذا الملزوم، وردّ بأن توهّم هذه القدرة إنما لا يكفي إذا كان المطلوب منه عين ما كلّف به. أمّا إذا كان المقصود غير ما كُلّف به، فهو كافٍ لصحته وهٰهنا المقصود هو الخلف، فيكفي توهّم القدرة فيه. وحاصل ما ذكره المصنّف رحمه الله من الجواب أنّا لا نسلّم أنّ الوجوب في ذلك الجزء يؤدي إلى التكليف بما لا يُطاق، وإنما يُؤدّي إليه أنْ لو كلّف بالأداء في ذلك الجزء، وليس كذلك، ولو سلم ذلك، ولكن لزوم الأداء فيه ليس لكونه مطلوبًا لعينه، بل لكونه مطلوبًا لخلفه وهو القضاء، فلا يلزم التكليف بما لا يطاق، وهذا لأن بعض الأحكام يكلّف به لخلفه كالوضوء يكلف به للتيمّم عند عدم القدرة على استعمال الماء، وكمن حلف ليمسنّ السماء فإنه ينعقد اليمين موجبة للبرّ لتصوّره عقلًا باحتمال القدرة عليه، ثم

....

يحنث للعجز عنه ويلزمه خلفه وهو الكفارة. والحاصل أنّ القدرة على نوعين: حقيقية، وهي مع الفعل. وبمعنى سلامة الآلات والأسباب، وهي مناط التكليف ومتقدمة على الفعل، وهذا النوع على نوعين: أحدهما يصير الفعل به غالب الوجودِ ظاهر التحقيق عادةً كمن أدرك سِعةً في الوقت مع كونه أهلًا لأداء الصلاة، وهذا النوع يظهر أثره في لزوم الأداء لعينه، بمعنى أنه يأثم بترك الأداء. والثاني: يصير الفعل به في حيّز الجواز عقلًا، وإنْ كان يندر وقوعه، وهذا النوع يظهر أثره في لزوم الأداء لخلفه لا لعينه. قوله: (إنما هو بالأداء مطلقًا) أي سواء أتمّ في الوقت أو بعده، كما هو مقتضى الجواب الأوّل، أو سواء كان مطلوبًا لنفسه أو مطلوبًا لخلفه، كما هو مقتضى الجواب الثاني. قوله: (فإذا انتفى الصلاحية لا تبقى السلامة). قلت: فيه نظر؛ لأنه إن أراد انتفاء الصلاحية للخلف فممنوع، وإنْ أراد انتفاءها للأصل فمسلم ولا يضرّ؛ لأنّ المقصود هٰهنا إيجاب الخلف، فيشترط سلامة آلات الخلف لا سلامة آلات الأصل، كما في الكشف حيث قال: إذا كان المطلوب من التكليف عين ما كلّف به لا يكفي فيه توهّم القدرة التي بمعنى سلامة الآلات والأسباب، وإذا كان المطلوب منه خلفه فتوهّم تلك القدرة كافٍ لصحة التكليف؛ كالأمر بالوضوء إذا كان المقصود منه حقيقة الوضوء لا يصح إلّا عند وجود الماء حقيقةً. وأمّا إذا كان المطلوب منه خلفه وهو التيمّم فتوهّم الماء، وإن كان بعيدًا كافٍ لصحة الأمر به ليظهر أثره في حقّ خلفه، ويشترط أثره في حق خلفه، ويشترط حينئذ سلامة الآلات الخلف؛ لأنه هو المقصود لا سلامة آلات الأصل، وفي مسألتنا المقصود من هذا التكليف إيجاب خلفه لا حقيقة الأداء، فيشترط سلامة الآلات في حقّ الخلف وهو القضاء، لا سلامة آلات الأصل وهو الأداء، انتهى. قوله: (فليتأمّل) لعلّه إشارة إلى أنه لو أراد بالقدرة القدرة بمعنى العلّة التامّة، فالملازمة ممنوعة. وإنْ أراد القدرة بمعنى سلامة الآلات والأسباب، فالملازمة مسلمة، وبطلان اللازم ممنوع، كيف وأنّ التكليف لا يحتاج إلى القدرة بمعنى سلامة الآلات، وإنما شرطت هذه القدرة فضلًا من الله ومِنّة على عباده، كما تقدّم عن الكشف. قوله: (أي أعلى ما ذكر) لأنها شرط فيه معنى العلّة بخلاف الأُولى، فإنها شرط محض. قوله: (لتحصيلها اليسر) أي يسر الأداء على العبد بعد

....

ثبوت الإمكان إشارة إلى تحقيق ما قالوا أنّ القدرة الميسّرة مغيّرة صفة الواجب إلى اليسر، يعني ليس مرادهم أنها تجعل الواجب متّصفًا بصفة اليسر بعد أنْ كان واجبًا بصفة العسر، بل مرادهم أنها تجعل الواجب ابتداءً مما يتّصف بصفة اليسر بعد إمكان وجوبه بدون صفة اليسر بالقدرة الممكنة تيسيرًا للأمر على عباده فضلًا ومنّة، فكانت هذه القدرة مغيّرة للواجب من الإمكان إلى اليسر. قوله: (فهي زائدة على الشرط المحض) أي الذي ليس فيه معنى العلّة، فلم يشترط بقاؤها لبقاء الواجب؛ إذ البقاء غير الوجود، وشرط الوجود لا يلزم أن يكون شرط البقاء كالشهود في النّكاح شرط للانعقاد دون البقاء بخلاف اليسر. قوله: (في أكثر الواجبات المالية) كالنماء في الزكاة، والخارج في العشر والخراج. قوله: (حيث لا يجب عليه شيء) يحتمل أن يتعلق بيؤدّي، فتكون الحيثيّة للتعليل، لكن الأوْلى حينئذ أن يقول حيث لم يبق عليه واجب، ويحتمل أن يتعلق بهلك، فتكون للتقييد وعلى التقدير فالاعتراض معارضة. قوله: (في صورة هلاك المال) احتراز بالهلاك عن الاستهلاك بأن ينفق في حاجته أو استبدل مال التجارة بغير مال التجارة بأن ينوي في البدل عدم التجارة عند استبدال السائمة بسائمة من جنسها أو من غير جنسها أو بغير سائمة دراهم أو عروض، فإنّ هذه الصور كلّها استهلاك يلزمه ضمان الزكاة؛ لأن اشتراط بقاء القدرة الميسرة إنّما كان نظرًا للمكلّف، وقد خرج بالتعدّي عن استحقاق النظر له فلم يسقط الوجوب عنه، ولأنا نجعل القدرة الميسرة باقية تقديرًا زجرًا على المتعدّي وردًّا لما قصده من إسقاط الحقّ الواجب عن نفسه، ونظراً للفقير، ثم سقوط الزكاة في صورة الهلاك عندنا. وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: يضمن إذا هلك بعد التمكّن من الأداء بعد الحول بأنْ ظفر بمن يدفع إليه الصدقة من الفقراء والساعي، وبالتمكّن من الأداء تقرّر الواجب في الذمّة، فلا يسقط بالعجز بعده، كما في صدقة الفطر والحجّ وديون العباد، ولأنه منعه بعد كونه مطالبًا بالخطاب فصار كالاستهلاك. قلنا: إنّ الواجب ليس في الذمّة، بل جزء من النصاب تحقيقًا للتيسير المُعتبر في الزّكاة، وعملًا بكلمة الظرف في قوله عليه السلام: «في أربعين شاة شاة» فيسقط بهلاك محلّه كدفع العبد المستحقّ بالدَّيْن أو الجناية، فإنه إذا لم يدفعه المولى إلى صاحب الدَّيْن وولّي الجناية فهلك في يد

....

المولى لم يجب إقامة غيره مقامه ولا عليه ضمانه، بخلاف صدقة الفطر والحجّ وديون العباد، فإنها في الذمّة، وبخلاف أداء القيمة فإنّها وإنْ لم تكن جزءًا من المحل، لكنّها جائزة للإذن بالاستبدال، ومجرّد التأخير بعد توجّه الخطاب بعد الحول سواء طالبه الفقير بالأداء أو لم يُطالبه ليس باستهلاك لا حقيقة، وهو ظاهر، ولا حكمًا بأن استبدل مال التجارة بغيره؛ لأن المصرف ليس بفقير معين، فللمالك أن يصرف إلى مَنْ شاء مِنَ الفقراء في أيّ وقت شاء. وأما تأخيره بعد طلب الساعي، ففيه خلاف. قيل: يضمن لكونه متعيّنًا، وقيل: لا يضمن؛ إذ لا تفويت فيه على أحد لا ملكًا ولا يَدًا، ولأنه يجوز أنه منعه لاختيار الأداء في وقتٍ آخر، قيل: وهو الأصح والأشبه بالفقه؛ لأن الساعي وإن تعيَّن لكن للمالك رأي في اختيار محل الأداء بين العين والقيمة، ثم القيمة شائعة في محالّ كثيرة، والرأي يستدعي زمانًا، فالحبس لذلك. قوله: (ولا محظور في ذلك) قال صاحب التلميح: هذا الجواب فاسد؛ إذ لا محظور هٰهنا أقوى من إبطال حقّ الفقير، غايته أن الفقير غير معين بالشخص، بل المصرف جنس الفقير، وعدم تفويت الملك واليد لا يستلزم عدم تفويت الحقّ، وإليه أشار بقوله: وإنما حقّ الفقير في أن يعين محلاً للصرف إليه، يعني أنه فوّت تعيين الفقير مصرفًا لمحلّ الأداء، وهو المال، والفرق بين محلّ الأداء ومحل الصرف أنَّ محل الأداء هو عين المال أو قيمته، ومحلّ الصرف هو الفقر. قوله: (في اختيار محل الأداء) يعني يختار عين الشاة من أربعين شاة مثلًا أو قيمتها. قوله: (هذا المحل) أي العين، وقوله: من محل آخر، أي من القيمة أو لعله حبسه ليؤدّي إلى من يشاء من المصرف أيِّ وقتٍ شاء. قوله: (من غير اختيار الإرش) أي أرش الجناية. قوله: (من الكثير) متعلّق بالقليل أو الإيجاب. قوله: (فإنه محال عقلًا) لامتناع انقلاب الماهيّة. قوله: (فإنه ليس شرطًا لبقاء الواجب) أي الواجب بالقدرة الممكنة، يعني أن بعض الواجب يجب بالقدرة الميسّرة؛ كالزكاة والعشر والخراج، وبعضها بالقدرة المُمكنة كالحجّ أو صدقة الفطر، فبقاء القدرة الميسّرة شرط لبقاء تلك الواجبات لما مرّ بخلاف الممكنة، فإنّ بقاءها ليس شرطًا لبقاء ما يجب بها حتى لو ملك الزّاد والراحلة ثم مات قبل أن يقدر ثانيًا يأثم لبقاء الواجب في ذمّته؛ لأن بقاءه يستغني عن حقيقة

....

تلك القدرة وبقائها؛ إذ المفتقر إلى حقيقة تلك القدرة وبقائها هو نفس أداء الواجب دفعًا لضرورة التكليف بما لا يُطاق. وأمّا التمكّن من أداء الواجب، فلا يفتقر إلى حقيقتها وبقائها، بل يكفي إمكانها أو توهّمها، فتوهّم الزاد والراحلة بعد زوالها كافٍ في بقاء الواجب، بخلاف توهّمها قبل أن يوجد أصلًا، حتى لم يجب الحجّ على مَنْ لم يملك الزّاد والراحلة أصلًا، باعتبار توهّمها. قوله: (وذلك) أي كفاية توهّم القدرة المُمكنة بعد زوالها. قوله: (إذ البقاء غير الوجود)، ولهذا صحّ إثبات الوجود ونفي البقاء بأن يقال: وجد ولم يبق. قوله: (لأن هذه العلة).اهـ. فيه إشارة إلى دفع ما يقال: إن بقاء الحكم قد يستغني عن بقاء العلّة استغناء المشروط عن بقاء الشرط، فينبغي أن لا يشترط دوام القدرة الميسّرة لدوام الواجب، وحاصل الدّفع أنّ ذلك فيما أمكن البقاء بدون العلّة كالرَّمَل في الحجّ، فإنه زوال علّة التشجيع على الكفار، فبقي الحكم إلى الآن. وأمّا إذا لم يمكن، فبقاء العلّة شرط لبقاء الواجب، كما فيما نحن فيه؛ لأن اليسر لا يبقى بدونها، فإذا زالت زال اليسر أيضًا، فلم يبق الواجب واجبًا لأنه لم يشرع إلا بذلك الوصف، هكذا نُقِل عنه في الحاشية. وفيه نظر؛ لأن التفرقة بين ما يبقى بعد زوال العلّة وبين ما لا يبقى من الحكم غير ظاهر، والأصل عدم الفرق، والأَوْلى في الدّفع أن يقال: قياس العلّة على الشرط قياس مع الفارق، والأصل زوال الحكم عند زوال العلّة؛ لأن الحكم ملزوم لوجود العلّة، ووجود الملزوم بدون اللازم مُحال بخلاف المشروط مع الشرط، وزوال علّة الرَّمل في الطواف مع بقائه ممنوع، فإنّ النبيّ ﷺ رَمَل في حجّة الوداع ولا تذكر النعمة إلّا مِنْ بعد الخوف ليشكر عليها، وقد أمرنا الله بذكر نِعَمِهِ وما أمرنا بذكرها إلّا لنشكرها، ويجوز أن يثبت الحكم بعلل متبادلة، فحين غلبة المشركين كان علّة الرَّمَل إيهام المشركين قوّة المؤمنين والتشجيع عليهم، وعند زوال ذلك يكون علّته تذكّر نِعْمة الأمْن، لا يقال: كيف يصح هذا مع أنه لو استهلك المال في باب الزكاة لا يسقط عنه الزكاة، بل يلزمه الضمان، فقد زالت العلّة وبقي الحكم؟ لأنّا نقول: لا نسلم زوال المال، بل جعل موجودًا تقديرًا زجرًا له. قوله: (لم يشترط أي بقاء القدرة للقضاء) استدلّوا على اختصاص القدرة المُمكنة بالأداء بوجهين: أحدهما أن القضاء إنما يجب لبقاء الواجب بالنصّ، وبقاء

....

الواجب غير مشروط ببقاء القدرة المُمكنة، فالقضاء غير مشروط ببقائها ما دام الواجب باقيًا. وثانيهما: أنه يلزم في النفس الأخير من العمر قضاء جميع المتروكات من الصلاة والصوم والحجّ وغيرها مع عدم القدرة عليها قطعًا، فلو كان بقاؤها شرطًا لما يلزم قضاء هذه المتروكات. فإن قيل: لو لم يشترط ذلك للقضاء لزم التكليف بما لا يُطاق. أجاب عنه بقوله: إنّ هذا ليس ابتداء تكليف، بل بقاء التكليف الأوّل على المختار من أن القضاء إنما يجب بما يجب به الأداء من النصّ، لا بنصّ جديد، وإلّا فلا بدّ من اشتراط القدرة المُمكنة فيه كاشتراطها للأداء لئلّا يلزم التكليف بما لا يُطاق. فإن قيل: لا فرق في اشتراط القدرة بين وجود الأداء ووجوب القضاء؛ لأن الأداء إذا كان مطلوبًا بنفسه تشترط فيه حقيقة القدرة، وإذا كان مطلوبًا لغيره يشترط فيه توهّم القدرة، ففي النفس الأخير إنما قالوا بوجوب قضاء المتروكات بناءً على توهم امتداد الوقت فيه ليظهر أثره في الخلف، كما في الجزء الأخير من الوقت. أجاب عنه بأن ذلك ليس كالجزء الأخير من الوقت في حقّ الأداء؛ لأن الجزء الأخير منه إنما اعْتُبِر ليظهر أثره في الخلف، وهو القضاء، ولا خلف للقضاء، وفيه بحث؛ لأن المؤاخذة الأُخرويّة ووجوب الإيصاء يجوز أن يكون خلفًا عن القضاء، كما أنّ القضاء خلف عن الأداء. ألا ترى أن الميت تبقى عليه الواجبات المتروكات في حقّ بقاء الإثم والمؤاخذة في الآخرة، مع أنّ الموت عجز كلّي؟ قلت: ولقائلٍ أن يمنع كون المؤاخذة الأُخرويّة ووجوب الإيصاء خلفًا عن القضاء. قوله: (أمّا الزكاة، فلأنها) اهـ. يعني أمّا عدم بقاء الزكاة بهلاك المال النامي عندنا، فلأنها إنما تجب بالقدرة الميسّرة، والقدرة الميسّرة ما تغيّر الواجب من العسر إلى اليُسْر بالمعنى الذي تقدَّم ذكره، ولا يحصل التغيير إلا بالنَّماء لا بالنصاب؛ لأن إيتاء الخمسة من المائتين وإيتاء واحد من الأربعين الذي بعد المائتين سواء في اليُسْر؛ لأن المدفوع ربع العشر في كل حال، وإذا لم يكن النصاب مغيّرًا للواجب لم يعد من القدرة الميسرة، بل من القدرة المُمكنة التي هي شرط وجوب الأداء عند بعضهم، ولهذا لا يشترط بقاؤه لبقاء الواجب، ويردّ عليه أنّ التمكّن من أداء الزكاة لا يتوقّف على النّصاب، بل يكفي ملك قدر ما يؤدّي، فكيف يكون وجود النصاب من شرائط

....

النصاب وراجعة إلى القدرة الممكنة على أنها عبارة عن سلامة الآلات، والنصاب ليس منها؟ وكذا قال الأكثرون أنه من شرائط أهليّة الوجوب كالعقل والبلوغ، واستدلّوا عليه بالنقل والعقل. أمّا النقل، فلقوله عليه السلام: «لا صدقة إلا عن ظهر غنًى»، فإنه لنفي الوجوب لا لنفي الوجود؛ إذ كثيرًا ما توجد الصدقة من الفقير، فالغنى ليس إلّا شرط الوجوب. وأمّا العقل، فلأن الزكاة إغناء للفقير ولا يصير المرء أهلًا للإغناء إلا بالغنى، كما لا يصير أهلًا للتملك إلا بالملك. فإن قيل: إنّ المُعتبر في الزكاة ليس الإغناء الشرعي، بل الإغناء عن السؤال لدفع حاجة الفقير، وهذا لا يتوقّف على الغنى الشرعي، وهو ملك النصاب. أُجيب عنه: بأنّ المراد أنّ الإغناء لصفة الحسن يتوقّف على الغنى الشرعيّ غالبًا؛ لأن الغالب من حال الفقير عدم الصبر على شدائد الفقر والجزع على مكائد الحاجة، فلا بدّ في أهلية الإغناء المأمور به ووجوبه من الغنى الشرعي لئلّا يؤدّي إلى الجزع المذموم غالبًا. وأمّا من آثر الغير على نفسه مع احتياجه من غير جزع، فنادر؛ فلا يُعتبر به في الشرع. ثم الغنى الشرعي يحصل بكثرة المال ولا حدّ للكثرة تعرف به وأحوال الناس فيه مختلفة، فمنهم مَنْ يحصل له الغنى بمال يسير، ومنهم مَنْ يحصل بكثير، فقدّر الشرع له حدًّا وهو النصاب زائدًا على الأهلية الأصليّة الحاصلة بالعقل والبلوغ. قوله: (فإن قيل: فينبغي).اهـ. منشأه كون النّصاب من شرائط أهلية الوجوب، لا من القدرة الميسّرة، وحاصل الجواب أنّ سقوط الزكاة إنما هو لفوات القدرة الميسّرة بفوات النصاب؛ لأن النّماء يفوت بفوات النصاب الذي هو من شرط الأهليّة أو من القدرة الممكنة على الخلاف السابق. قوله: (ولهذا) أي ولكون سقوط الزكاة لفوات القدرة الميسّرة لا تسقط الزكاة بهلاك بعض النصاب، بل تبقى في حصة الباقي لبقاء النّماء فيه. فإن قيل: إنّ كمال النصاب شرط في الابتداء لوجوب الأهليّة، فلِمَ لَمْ يشترط كماله في البقاء حتى وجبت الزكاة في حصة الباقي بعد هلاك بعض النّصاب؟ قلنا: إنّ كمالها إنما شرط لوجوب الأهليّة، وما هو شرط لوجوب الأهلية لا يُشترط بقاؤها لبقاء الواجب. قوله: (ظهر فائدة تقييد المال) يعني لو لم يقيد به لتوهّم أن المراد بهلاك المال هلاك النّصاب. قوله: (وأمّا الخراج).اهـ.

....

اعلم أنّ الخراج على نوعين: خراج مقاسمة، وهو يتعلق بعين الخارج؛ كالعشر، ويكون الواجب فيه شيئًا معيّنًا من الخارج، وليس لذلك الشيء حدّ معيّن، بل الإمام مُخيّر في تقديره بربع الخارج أو خُمسه أو سُدسه أو سُبعه أو نصفه حين فتح بلده وضرب على أراضيهم شيئًا من الخارج. وخراج وظيفة، وهو يتعلق بالتمكّن من الانتفاع بالأرض لا بعين الخارج، ويكون الواجب فيه شيئًا في الذمّة بتوظيف الإمام على كلّ جريب، ولا يزاد على ما وضعه عمر رضي الله تعالى عنه على أرض السواد لكل جريب، ولا بدّ أن تكون الأرض صالحة للزراعة في النوعين حتى لو كانت سبخة أو انقطع ماؤها أو غلب عليها الماء، لا خراج فيها أصلًا، وكذا لو أصاب الزّرع آفة سمٰويّة لا خراج فيها أصلًا لعدم النَّماء التقديري في بعض السنة، وقد شرط بقاؤه في جميع السنّة لبقاء الواجب كما في الزكاة. وقيل: سقوط الخراج بإصابة الزّرع آفة فيما إذا لم يبق من السنة مقدار ما يتمكّن من الزراعة ثانيًا في تلك السنة، وأما إذا بَقِيَ من المدّة قدر ذلك، فلا يسقط؛ لأنه عطلها، كما إذا تمكّن من الزراعة وتركها بلا مانع، فإنه يجب عليه الخراج الموظّف لوجود الخارج تقديرًا؛ لأن التقصير لمّا كان من جهة جعل الخارج في حكم الموجود زجرًا له، والخراج الموظّف يتعلق بالتمكّن من الانتفاع لا بعين الخارج، وقد وجد التمكّن فلا يسقط بتقصيره؛ لأنه جناية لا يصلح سببًا للتخفيف، والمراد بالخراج في قوله: لأنّ الواجب في الخراج غير جنس الخارج هو الخراج الموظّف لا المقاسمة؛ لأن الواجب في المقاسمة لا بدّ وأن يكون من جنس الخارج؛ لأنها تتعلق بعين الخارج حقيقةً كالعشر. قوله: (لأن غالب التمكّن بهما) يعني أن الحجّ إنما وجب بنفس التمكّن والاستطاعة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧]، إلّا أنّ الاستطاعة لا تحصل غالبًا إلّا بالزاد والرَّاحلة، فأسند الوجوب إليهما، وكان اشتراطهما لثبوت أدنى تمكّن من الحجّ لا لليسر؛ إذ اليُسْر لا يقع إلا بخدم ومراكب وأعوان، وهذه الأشياء ليست بشرط بالإجماع، فثبت أنّ الزّاد والراحلة للتمكّن لا لليسر، فلم يشترط بقاؤها لبقاء الواجب، والمراد بغالب التمكّن بهما هو التمكّن بهما بدون الحرج، وإنما اعْتُبِر الغالب احترازًا عن التمكّن بدون الحرج بلا زاد وراحلة، وعن التمكّن بدون الحرج

....

بلا راحلة، فإن الأوّل نادر، والثاني كثير لا غالب، فلا يرد النقص بهما على اشتراط الزّاد والراحلة في القدرة الممكنة في الحجّ. فإن قيل: لِمَ لَمْ يعتبر هنا توهّم القدرة بالسفر بالمشي والكسب في الطريق كما اعْتُبِر في الصلاة بتوهّم امتداد الوقت مع أنه أقرب إلى الوقوع، فتكون هذه القدرة مُمكنة والزّاد والراحلة ميسّرة، فيكون وجوبه بالقدرة الميسّرة مع أنه لم يشترط بقاؤها لبقاء الواجب. قلنا: نعم، إلّا أن في ذلك حرجًا يفضي إلى التلف، وهو مدفوع بالنصّ، وإنما اعْتُبِر ذلك في الصلاة للخلف، وهو القضاء لا للأداء نفسه، ولا خلف للحجّ؛ لأنه غير مؤقّت بوقتٍ معيّن، بل متى أتى فهو أداء فيكون وجوبها بالممكنة لا الميسرة، وإلى هذا أشار بقوله: وإنما لم يعتبر توهّم القدرة. اهـ.

قوله: (وأمّا صدقة الفطر، فلأنها تجب بنصاب فاضل عن الحاجة أصلية). فإن قيل: قد تقرّر في محلّه أن سبب صدقة الفطر هو رأس يمونه ويلي عليه لا النصاب، وإنما النّصاب شرط حتى قالوا: إنّه لو عجل صدقة الفطر قبل النصاب، ثم ملك النصاب صح: لأنّ السبب هو الرأس وقد وجد حين الأداء، فلا يلزم تقدم الحكم على السبب، وإنما يلزم تقدّمه على الشرط وهو جائز، والحكم إنما يجب بسببه لا بشرطه، فكيف يصح قوله: تجب بنصاب. قلنا: إن الرأس سبب لنفس الحكم وهو صدقة الفطر والنصاب لوجوب أدائه وشرط له، والمراد بالحاجة الأصلية مسكنه وثيابه وأثاث بيته وفرسه وسلاحه وعبيده الخدم وحوائج عياله ودينه الحاصل وقت الوجوب أو قبله لا بعده.

وأمّا الكتب، فكتب التفسير والعقائد والفقه والمصحف الواحد لا تعتبر نصابًا وما عداها يعتبر نصابًا، ولو كان له داران يسكنها والدار الأخرى لا يسكنها تعتبر قيمتها في غنى الفطر حتى لو كانت قيمتها مائتي درهم يجب عليه صدقة الفطر. قوله: (ما يفضل عنها) أي عن الحاجة الأصلية. قوله: (أو ملك نصابًا ليلة الفطر) ولم يوجد حولان الحول وهو محقّق للنّماء. قوله: (واعتبار النصاب ليس الميسر حتى) يجب بالقدرة الميسّرة، ويردّ عليه أن القدرة الميسّرة يجب بقاؤها لبقاء الواجب، ولم يجب بقاؤها هٰهنا، انتهى كلام العلّامة الأزميريّ رحمه الله.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وبما هو حسن عند كل عاقل فكيف يأمر بالفحشاء ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ **(وقيل: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود** ﴿وَادْعُوهُ﴾) واعبدوه (﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾) أي الطاعة مبتغين بها وجهه خالصًا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم، احتجّ عليه في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق، والمعنى أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم المسلمون ﴿وَفَرِيقًا﴾ أي أضلّ فريقًا ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ وهم الكافرون ﴿إِنَّهُمُ﴾ إن الفريق الذين حقّ عليهم الضلالة

قوله: (وقيل: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾، أي اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود). وقال القاضي البيضاوي: توجّهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها، أو أقيموها نحو القبلة عند كل مسجد في وقت كل سجود أو مكانه وهو الصلاة، أو في أي مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم، هذا لفظه. ففي الآية دليل على فرضيّة القيام في الصلاة والتوجّه فيها نحو القبلة وأدائها في المسجد وعدم اختصاصه بمسجد مَا على حسب التوجيهات. وقوله تعالى: (﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾) أي اعبدوا الله حال كونكم مخلصين، ففيه دليل على اشتراط النية في العبادات سيّما في الصلاة على ما ذكر في تنبيه أبي اللّيث. والمشهور في ذلك بين الفقهاء قوله عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيّات»، أي إنما ثواب الأعمال بالنيات، لكن لمّا فات الثواب فات الجواز أيضًا في العبادات المقصودة كالصلاة بخلاف الوضوء، فإنه إذا فات الثواب يبقى وسيلة إلى الصلاة، فلا يشترط فيه النيّة. وعند الشافعي رحمه الله: يقدر حكم الأعمال بالنيّة، وهو يشتمل الجواز والثواب، فلا يجوز عبادة ما بدون النيّة ولا ثواب له أيضًا بدونها، فيشترط النيّة في الوضوء، وذلك معروف في علم الأصول. اهـ التفسيرات الأحمدية.

﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أنصارًا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ والآية حجة لنا على أهل الاعتزال في الهداية والإضلال.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

(﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ **لباس زينتكم** ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ **كلما صليتم**). وقيل: الزينة (**المشط**) والطيب، والسنّة أن يأخذ الرجل أحسن هيئاته للصلاة لأن الصلاة مناجاة الرب فيستحب لها التزيّن والتعطّر كما يجب التستر والتطهّر

قوله: (﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ لباس زينتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ كلّما صلّيتم)، هذه هي الآية التي استدلّ بها على وجوب ستر العورة في الصلاة؛ وذلك لأنّ المراد من الزينة الثياب الموارى للعورة، والمراد من المسجد هو الصلاة إنْ كان بمعنى غير العلم كما هو رأي صاحب الهداية، حيث قال: وستر عورته؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: الآية ٣١]، أي ما يُواري عورتكم عند كل صلاة، هذا لفظه وإليه مال الإمام الزاهد رحمه الله، وكذا الفقيه أبو اللّيث في تنبيهه، وإنْ كان بمعنى العلم يقدر قوله: للصلاة والطواف، كما قال الشيخ الأجلّ القاضي البيضاوي وهو: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٣١] أي ثيابكم لمواراة عورتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: الآية ٢٩] لطواف أو صلاة. ومن السنّة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة، وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة، هذا كلامه. وإنما قال: لطواف لأنهم كانوا يطوفون عُراة، فنهاهم الله تعالى عنه، والمراد من قوله: ومن السنّة أن يأخذ... إلى آخره، أنّ الزِّينة لمّا كانت في معنى الثياب، وكان الأمر للوجوب كان المفهوم من الآية وجوب السّتر في الصلاة، فلم يعبره بلفظ الزينة دون اللّباس، فقال للإشعار بأخذ اللّباس الحسنة في الصلاة، وحينئذ يستقيم قوله، وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة، فاندفع ما توهّم من كلامه من كون الأمر للوجوب والندب جميعًا، فافهم وأنصف. اهـ التفسيرات الأحمديّة. **قوله: (المشط)** في المصباح: مشطت الشعر مشطًا من بابي قتل وضرب سرّحته والتثقيل مبالغة، وامتشطت المرأة مشطت شعرها والمشط الذي يمتشط به ـ بضمّ الميم ـ وبميم تكسر، وهو القياس؛ لأنه آلة،

﴿وَكُلُوا﴾ من اللحم و(**الدسم**) ﴿وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بالشروع في الحرام أو في مجاوزة (**الشبع**) ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وعن ابن عباس ﵄: كُل ما شئت، واشرب ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف و(**مخيلة**). وكان (**للرشيد**) طبيب نصراني حاذق فقال لعليّ بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان. فقال له عليّ: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهو قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فقال النصراني: ولم يروِ عن رسولكم شيء في الطب فقال: قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة وهي قوله ﵇: «المعدة بيت الداء و(**الحمية**) رأس كل دواء وأعطِ كل بدن ما عودته» فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيّكم (**لجالينوس**) طبًّا. ثم استفهم إنكارًا على محرم الحلال بقوله:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ من الثياب وكل ما يتجمل به ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي أصلها يعني القطن من الأرض و(**القز**) من الدود ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ والمستلذات من المآكل والمشارب. وقيل: كانوا إذا أحرموا حرموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غير

والجمع أمْشاط.اهـ. **قوله: (الدَّسَم)** الوَدك من لحم وشحم. **قوله: (الشِّبَع)** بفتح الباء وسكونها تخفيف. **قوله: (مَخِيلة)** أي كبر. **قوله: (للرشيد)** هارون أبي جعفر ابن المهدي محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس استُخلف بعهد من أبيه عند موت أخيه الهادي ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة. **قوله: (الحِمْية)** في مختار الصِّحاح: حميت المريض الطعام حِمْية وحِمْوة ـ بكسر أوّلها ـ.اهـ. **قوله: (لجالينوس)** في غياث اللغات: جالينوس نام حكيمى ست واين معرب گالينوس ست كه بوا، ومعدوله باشداز رساله معربات.اهـ.

قوله: (القز) في المصباح: القزّ معرب. قال الليث: هو ما يعمل منه الإبريسم، ولهذا قال بعضهم: القزّ والإبريسم مثل الحنطة والدّقيق.اهـ.

خالصة لهم لأن المشركين شركاؤهم فيها ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشركهم فيها أحد. ولم يقل للذين آمنوا ولغيرهم لينبّه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة والكفار تبع لهم. ﴿خَالِصَةً﴾ بالرفع: **(نافع)** فـ ﴿هِىَ﴾ مبتدأ خبره ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ و﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ظرف للخبر، أو ﴿خَالِصَةً﴾ خبر ثانٍ أو خبر مبتدأ محذوف أي **(فهي)** خالصة، و**(غيره)** نصبها على الحال من الضمير الذي في الظرف الذي هو الخبر أي هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها يوم القيامة ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نميّز الحلال من الحرام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا شريك له.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ **(«ربي» حمزة)** ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما تفاحش قبحه أي تزايد ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ سرّها وعلانيتها ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي شرب الخمر أو كل ذنب ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ والظلم والكبر ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ **(متعلّق بالبغي)**. ومحل ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجة النصب كأنه قال حرم الفواحش وحرم الشرك **(«ينزل» بالتخفيف: مكيّ وبصريّ، وفيه تهكم)** إذ لا يجوز أن ينزل برهانًا على أن

قوله: (نافع) المدني هو نافع بن عبد الرحمٰن بن أبي نُعَيْم مولى جعونة بن شعوب الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب أصله من أصفهان ويكنى بارُوَيْم. وقيل: أبا حسن، وقيل: أبا عبد الرحمٰن، وتوفي بالمدينة سنة تسع وستين ومائة. **قوله: (فهي)** أي لفظ هي. **قوله: (وغيره)** أي غير نافع ﷺ.

قوله: («ربّي») بإسكان الياء **(حمزة)** بن حبيب بن عُمارة الكوفيّ، ويُكنى أبا عمارة، وتوفي بحُلوان في خلافة أبي جعفر سنة ستّ وخمسين، ويلزم من سكونها وصلًا حذفها في اللفظ لاجتماعها بالساكن بعدها، والباقون بالفتح. **قوله: (متعلّق بالبغي)** مؤكّد له معنًى؛ لأن البغي لا يكون إلّا بغير الحقّ. **قوله: («ينزل» بالتخفيف)** أي بإسكان النون وتخفيف الزاي **(مكّي)** أي ابن كثير المكّي، **(وبصريّ)** أي أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب البصري، وليس من السبعة. والباقون بفتح النون وتشديد الزاي. **قوله: (وفيه تهكّم)** واستهزاء.

يشرك به غيره ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (وإن تتقولوا عليه) وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقت معين يأتيهم فيه عذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا، وهو وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قيد بساعة لأنها أقل ما يستعمل في الإمهال ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هي «إن» الشرطية ضمّت إليها «ما» مؤكدة لمعنى الشرط، لأن «ما» للشرط (ولذا لزمت فعلها) النون الثقيلة أو الخفيفة ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ يقرءون عليكم كتبي وهو في موضع رفع صفة لـ ﴿رُسُلٌ﴾ وجواب الشرط ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الشرك ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل منكم ﴿(فَلَا خَوْفٌ) عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أصلًا ﴿فَلَا خَوْفُ﴾ (يعقوب).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ منكم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ﴾ تعظموا عن الإيمان بها ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ فمن أشنع ظلمًا ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ ممن تقوّل على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله ﴿أُولَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ما كتب لهم من الأرزاق والأعمار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

قوله: (وإن تتقوّلوا عليه) في مختار الصِّحاح: تقوّل عليه كذب. اهـ.

قوله: (ولذا لزمت فعلها) النون لئلا ينحطّ رتبة فعل الشرط عن حرفه.

قوله: (﴿فَلَا خَوْفُ﴾) حيث وقع بفتح الفاء وحذف التنوين مبنيًّا على الفتح (يعقوب).

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه. و«حتى» غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له وهي «حتى» التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية وهي ﴿إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ يقبضون أرواحهم وهو حال من الرسل أي متوفيهم و«ما» في ﴿قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ﴾ في خط المصحف موصولة بـ ﴿أَيۡنَ﴾ وحقها أن تكتب مفصولة لأنها موصولة، والمعنى أين الآلهة الذين تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليذبوا عنكم ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا عنا فلا نراهم ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة التي هي لتحقيق الخبر.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ﴾ أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار: ادخلوا ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ في موضع الحال أي كائنين في جملة أُمم مصاحبين لهم ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ مضت ﴿مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ من كفار الجن والإنس ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلّق بـ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ﴾ النار ﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ شكلها في الدين أي التي ضلّت بالاقتداء بها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ أصله تداركوا أي تلاحقوا واجتمعوا في النار، فأبدلت التاء دالًا وسكنت للإدغام ثم أُدخلت همزة الوصل ﴿جَمِيعٗا﴾ حال ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ منزلة وهي الأتباع والسفلة ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ منزلة وهي القادة والرؤوس: ومعنى ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ لأجل أولاهم لأن خطابهم مع الله لا معهم ﴿رَبَّنَا﴾ يا ربنا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا﴾ مضاعفًا ﴿مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ للقادة بالغواية والإغواء وللأتباع بالكفر والاقتداء ﴿وَلَٰكِن (لَّا تَعۡلَمُونَ)﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب. ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (أبو بكر) أي لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر.

قوله: (﴿لَّا تَعۡلَمُونَ﴾) بالغيب (**أبو بكر**) شعبة بن عياش بن سالم الكوفي، توفي سنة أربع وتسعين ومائة. والباقون بالخطاب إمّا للسائلين وإمّا لأهل الدنيا.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ (**عطفوا هذا الكلام على قول الله**) تعالى للسفلة ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وأنا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بكسبكم وكفركم وهو من قول القادة للسفلة. ولا وقف على ﴿فَضْلٍ﴾ أو من قول الله لهم جميعًا والوقف على ﴿فَضْلٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنة إذ هي في السماء، أو لا يصعد لهم عمل صالح ولا تنزل عليهم البركة، أو لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين إلى السماء، (**وبالتاء مع التخفيف: أبو عمرو وبالياء معه: حمزة وعلي**). ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ حتى يدخل البعير في (**ثقب**) الإبرة أي لا يدخلون الجنة أبدًا لأنه علقه بما لا يكون. (**والخياط والمخيط**) ما يُخاط به وهو الإبرة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزاء (**الفظيع**) الذي وصفنا ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

قوله: (عطفوا هذا الكلام على قول الله) أي رتّبوه عليه بمعنى أنّ القادة لمّا سمعوا قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] قالوا للسفلة فما لكم فضل علينا.

قوله: (وبالتاء) الفوقية (**مع التخفيف أبو عمرو**) البصريّ (**وبالياء معه**) أي مع التخفيف (**حمزة وعليّ**) الكسائي، والباقون بالتاء الفوقيّة والتشديد، ومن خفّف سكن الفاء ومَنْ شدّد فتح. **قوله: (ثقب)** مثل فلس ومثال قفل لغة بمعنى خرق. **قوله: (والخياط والمخيط)** وزان لحاف وملحف وإزار ومئزر. **قوله: (الفظيع)** الشنيع. في مختار الصّحاح: فَظُع الأمر من باب ظرف، فهو فظيع، أي شديد فظيع شنيع جاوز المقدار. اهـ.

أي الكافرين بدلالة التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية جمع غاشية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طاقتها والتكليف إلزام ما فيه كلفة أي مشقة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ والخبر ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ والجملة خبر ﴿الَّذِينَ﴾، و﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ اعتراض بين المبتدأ والخبر ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ (حقد) كان بينهم في الدنيا فلم يبق بينهم إلا التواد والتعاطف، (وعن علي رضي الله عنه):

قوله: (حقد) في المصباح: الحقد الانطواء على العداوة والبغضاء. اهـ.

قوله: (وعن عليّ رضي الله تعالى عنه)... الخ. هذا يدلّ على أنه كان ذلك بمقتضى الطباع البشريّة فيهم، لكنه نزع بتوفيق الله. وقيل: الأَوْلى أن يُراد عدم اتّصافهم بذلك من أوّل الأمر، وما وقع إنّما كان عن اجتهاد لإعلاء كلمة الله وخصّ هؤلاء لما جرى في خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه بينهما ومحاربة طلحة والزبير رضي الله تعالى عنهما في وقعة الجمل، وهذا حديث أخرجه ابن سعد والطبري من رواية معمر عن قتادة كلاهما عن عليّ رضي الله تعالى عنه بسند منقطع، وأخرجه ابن أبي شيبة عن ربعي بسند متّصل؛ كما قاله ابن حجر رحمه الله تعالى. اهـ شهاب.

قوله: (عليّ) بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ القرشيّ الهاشمي ابن عمّ رسول الله ﷺ، واسم أبي طالب عبد مناف، وقيل: اسمه كنيته، واسم هاشم عمرو، وأُمّ عليّ فاطمة بنت أسد بن هاشم، وكنيته أبو الحسن أخو رسول الله ﷺ وصهره على ابنته فاطمة سيّدة نساء العالمين، وأبو السِّبطين، وهو أوّل هاشميّ بين هاشميّين وأوّل خليفة من

....

بني هاشم، وكان عليّ أصغر من جعفر وعقيل وطالب، وهو أوّل الناس إسلامًا في قول كثير من العلماء على ما نذكره، وهاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وأُحدًا والخندق وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا تبوك، فإنّ رسول الله ﷺ خلفه على أهله، وله في الجميع بلاءٌ عظيم وأثرٌ حسن، وأعطاه رسول الله ﷺ اللّواء في مواطن كثيرة بيده منها يوم بدر، وفيه خلاف، ولمّا قُتِل مصعب بن عُمير يوم أُحد، وكان اللّواء بيده دفعه رسول الله ﷺ إلى عليّ وآخاه رسول الله ﷺ مرّتين، فإنّ رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين ثم آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وقال لعليّ في كلّ واحدة منها: «أنت أخي في الدنيا والآخرة».

إسلامه رضي الله تعالى عنه: أنبأنا أبو جعفر عبيد الله بن أحمد بن عليّ بإسناده إلى يونس بن بكير عن ابن إسحٰق، قال: ثم إنّ عليّ بن أبي طالب جاء بعد ذلك بيوم، يعني بعد إسلام خديجة وصلاتها معه، قال: فوجدهما يصلّيان، فقال عليّ: يا محمّد، ما هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وإلى عبادته وكفر باللات والعزّى»، فقال له عليّ: هذا أمرٌ لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمرًا حتى أحدّث أبا طالب، فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سرّه قبل أن يستعلن أمره، فقال له: «يا عليّ، إنْ لم تُسلم فاكتم»، فمكث عليّ تلك الليلة، ثم إنّ الله أوقع في قلب عليّ الإسلام فأصبح غاديًا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه، فقال: ماذا عرضت عليّ يا محمّد؟ فقال له رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزّى وتبرأ من الأنداد»، ففعل عليّ وأسلم ومكث عليّ يأتيه سرًّا خوفًا من أبي طالب، وكتم عليّ إسلامه، وكان ممّا أنعم الله به على عليّ أنه رُبّي في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام. قال يونس عن ابن إسحٰق: قال: حدّثني عبد الله بن أبي نجيح قال: رواه عن مجاهد، قال: أسلم عليّ وهو ابن عشر سنين. أنبأنا إبراهيم بن محمد بن مهران الفقيه وغير واحد بإسنادهم إلى أبي عيسى محمّد بن عيسى الترمذي بن محمد بن حميد بن إبراهيم بن المختار، عن شعبة، عن أبي بلخ، عن ابن عباس، قال: أوّل مَنْ أسلم عليّ. ومثله رَوى مقسم عن ابن عباس، واسم أبي بلخ يحيىٰ بن أبي سليم، قال: وحدّثنا أبو عيسى، حدّثنا

....

إسمٰعيل بن موسى، حدّثنا علي بن عباس، عن مسلم الملائيّ عن أنس بن مالك قال: بُعِث النبيّ ﷺ يوم الاثنين وأسلم عليّ يوم الثلاثاء. قال: وحدّثنا محمد بن عيسى، حدّثنا محمد بن بشار وابن مثنّى، قالا: حدّثنا محمد بن جعفر، حدّثنا شعبة، عن عمرو بن مرّة، عن أبي حمزة رجل من الأنصار عن زيد بن أرقم قال: أوّل مَنْ أسلم عليّ، قال عمرو بن مرّة: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي، فأنكره وقال: أوّل مَنْ أسلم أبو بكر وأبو حمزة اسمه طلحة بن زيد. أنبأنا أبو الفضل بن أبي الحسن بن أبي عبد الله المخزومي بإسناده عن أحمد بن عليّ، حدّثنا أبو هشام الرفاعي، حدّثنا محمد بن فضيل، حدّثنا الأجلح عن سلمة بن كُهَيْل عن حبّة بن جوين عن عليّ قال: لم أعلم أحدًا من هذه الأمّة عَبَد الله قبلي، لقد عبدته قبل أن يعبده أحد منهم خمس سنين أو سبع سنين، رواه إسماعيل بن إبراهيم بن بسام عن سعيد بن صفوان عن الأجلح نحوه، أنبأنا عبد الله بن أحمد الطوسي الخطيب بإسناده عن أبي داود الطيالسي، حدّثنا شعبة، حدّثنا سلمة بن كهيل، عن أبي صادق، ، عن حبّة العرني، قال: سمعت عليًا يقول: أنا أوّل مَنْ صلّى مع النبيّ ﷺ. وأنبأنا أبو الطيّب محمد بن أبي بكر بن أحمد المعروف بكلى الأصبهاني كتابةً، وحدّثني به عثمان بن أبي بكر بن جلدك الموصلي عنه، أخبرنا أبو علي الحدّاد، أنبأنا أحمد بن عبد الله بن إسحٰق، أنبأنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدّثنا ابن عبد الأعلى الصنعاني، حدّثنا عبد الرزّاق، حدّثنا الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن عكيم الكندي، عن سلمان الفارسي قال: أوّل هذه الأُمّة ورودًا على نبيِّها إسلام عليّ بن أبي طالب. رواه الديري عن عبد الرزاق عن الثوري عن قيس بن مسلم. أنبأنا ذاكر بن كامل الخفّاف، أنبأ الحسن بن محمد بن إسحٰق بن إبراهيم الباقرجي، أنبأنا أبو طاهر محمد بن علي بن محمد بن يوسف المقري العلّاف، أنبأنا أبو علي مخلد بن جعفر بن مخلد الباقرجي، حدّثنا محمد بن جرير الطبريّ، حدّثنا عبد الأعلى بن واصل، حدّثنا إسحٰق بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن الأسود، عن محمد بن عبيد الله بن عبد الرحمٰن بن مسلم عن أبيه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد صلّت الملائكة عليَّ وعلى عليٍّ سبع سنين»، وذاك أنه لم يصلِّ مع رجلٍ غيره. أنبأنا يحيىٰ بن

....

محمود بن سعد، حدّثنا الحسن بن أحمد قراءةً عليه وأنا حاضرٌ أسمع، أنبأنا أحمد بن عبد الله أبو نعيم، أنبأنا أبو القاسم الطبراني، حدّثنا العباس بن الفضل الإسقاطي، حدّثنا عبد العزيز بن الخطاب، حدّثنا علي بن غراب، عن يوسف بن مهيب، عن أبي بُرَيْدة، عن أبيه قال: خديجة أوّل مَنْ أسلم مع النبيّ ﷺ، ثم عليّ. وقال أبو ذرّ والمقداد وخباب وجابر وأبو سعيد الخدري وغيرهم: إنّ عليًّا أوّل مَنْ أسلم بعد خديجة وفضله هؤلاء على غيره، قاله أبو عمر. ورَوى معمر، عن قتادة عن الحسن وغيره قال: أوّل مَنْ أسلم عليّ بعد خديجة، وهو ابن خمس عشرة سنة. وسُئِل محمّد بن كعب القرظي عن أوّل مَنْ أسلم عليّ أو أبو بكر؟ قال: سبحان الله عليٌّ أوّلهما إسلامًا، وإنّما اشتبه على الناس لأنّ عليًّا أخفى إسلامه عن أبي طالب، وأسلم أبو بكر وأظهر إسلامه، وقد ذكرنا حديث عفيف الكندي في أنّ أوّل مَنْ أسلم عليّ في ترجمته، وقال أبو الأسود تيم بن عروة: إنّ عليًّا والزبير أسلما وهما ابنا ثمان سنين، قال أبو عمرو: ولا أعلم أحدًا يقول بقوله هذا، وقد قال جماعة غير من ذكرنا أنّ عليًّا أوّل مَنْ أسلم، وقيل: أبو بكر، والله أعلم.

هجرته رضي الله تعالى عنه: أنبأنا عبيد الله بن أحمد بإسناده عن يونس بن بكير، عن ابن إسحٰق قال: وأقام رسول الله ﷺ ـ يعني بعد أن هاجر أصحابه إلى المدينة ـ ينتظر مجيء جبريل عليه السلام وأمره له أن يخرج من مكّة بإذن الله له في الهجرة إلى المدينة حتى إذا اجتمعت قريش فكّرت بالنبيّ، وأرادوا برسول الله ﷺ ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام وأمره أن لا يبيت في مكانه الذي يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجىٰ ببُرْدٍ له أخضر، ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه. قال ابن إسحٰق: وتتابع الناس في الهجرة، وكان آخر مَنْ قدم المدينة من الناس ولم يُفتن في دينه عليّ بن أبي طالب، وذلك أنّ رسول الله ﷺ أخره بمكّة وأمره أن ينام على فراشه وأجّله ثلاثًا، وأمره أن يؤدّي إلى كلّ ذي حقٍّ حقّه ففعل، ثم لحق برسول الله ﷺ. أنبأنا محمد بن القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي إجازةً، أنبأنا أبي، أنبأنا أبو الأعز قراتكين بن الأسعد، حدّثنا أبو محمد الجوينيّ، حدّثنا أبو حفص بن

....

شاهين، حدّثنا أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني، حدّثنا أحمد بن يوسف، حدّثنا أحمد بن يزيد النخعي، حدّثنا عبيد الله بن الحسن، حدّثني معاوية بن عبد الله بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جدّه عن أبي رافع (ح) قال عبيد الله بن الحسن: وحدّثني محمد بن عبيد الله بن عليّ بن أبي رافع عن أبيه عن جدّه عن أبي رافع في هجرة النبيّ ﷺ قال: وخلّفه النبيّ ﷺ - يعني خلّف عليًّا - يخرج إليه بأهله وأمره أن يؤدّي عنه أمانته ووصايا مَنْ كان يوصي إليه، وما كان يُؤتمن عليه مِنْ مال فأدّى علي أمانته كلّها، وأمره أن يضطجع على فراشه ليلة خرج، وقال: «إنّ قريشًا لم يفقدوني ما رأوك»، فاضطجع على فراشه، وكانت قريش تنظر إلى فراش النبيّ ﷺ فيرون عليه عليًّا، فيظنّونه النبيّ ﷺ، حتى إذا أصبحوا رأوا عليه عليًّا، فقالوا: لو خرج محمد لخرج بعليّ معه، فحبسهم الله بذلك عن طلب النبيّ حين رأوا عليًّا، وأمر النبيّ ﷺ عليًّا أن يلحقه بالمدينة، فخرج عليّ في طلبه بعدما أخرج إليه أهله يمشي اللّيل ويكمن النهار حتى قَدِم المدينة، فلمّا بلغ النبيّ ﷺ قدومه قال: «ادعوا لي عليًّا»، قيل: يا رسول الله لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبيّ ﷺ، فلمّا رآه اعتنقه وبكى رحمةً لِمَا بقدمَيْه من الورم، وكانتا تقطران دمًا، فتفل النبيّ ﷺ في يديه ومسح بهما رجليه ودعا له بالعافية، فلم يشتكهما حتى استشهد رضي الله تعالى عنه.

شهودهُ رضي الله تعالى عنه بدرًا وغيرها: أنبأنا أبو جعفر بن السمين بإسناده إلى يونس بن بكير، عن أبي إسحٰق في تسمية مَنْ شهد بدرًا مِنْ قريش ثم مِنْ بني هاشم، قال: وعليّ بن أبي طالب وهو أوّل مَنْ آمن به، وأجمع أهل التاريخ والسند على أنه شهد بدرًا وغيرها من المشاهد، وأنه لم يشهد غزوة تبوك لا غير؛ لأن رسول الله ﷺ خلفه على أهله. أنبأنا أبو عبد الله محمد بن محمد بن سرايا الفقيه وغير واحد بإسنادهم إلى محمّد بن إسماعيل، حدّثنا أحمد بن سعيد، حدّثنا أبو عبد الله، حدّثنا إسحٰق بن منصور السلولي، حدّثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحٰق قال: سأل رجل البراء، وأنا أسمع: أشهد عليّ بدرًا؟ قال: بارَزَ وظاهر. أخبرنا يحيىٰ بن محمود، أنبأنا عمّ جدي أبو الفضل جعفر بن عبد الواحد الثقفي، أنبأنا أبو طاهر عمّ والدي وأبو الفتح قالا: أنبأنا أبو بكر بن زادان، حدّثنا

....

أبو عروبة، حدّثنا أبو رفاعة، حدّثنا محمد بن الحسن يُعرف بالهُجيمي، حدّثنا أبو عوانة عن الأعمش عن الحكم بن مصعب بن سعد عن سعد، قال: لقد رأيته ـ يعني عليًا ـ يفلق بالسيف هامَ المشركين، يقول:

شحشح الليل كأني جنى

أنبأنا أبو أحمد عبد الوهاب بن عليّ الأمين، أنبأنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سليمان، أنبأنا أبو الفضل أحمد بن الحسن بن صرون وأبو طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد الباقلاني كلاهما إجازةً، قالا: أنبأنا أبو الحسن بن أحمد بن شاذان، قال: قُرىء على أبي محمد الحسن بن محمد بن يحيىٰ بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب قال جدّي أبو الحسين يحيىٰ بن الحسن بن جعفر، قال: كتب إليّ محمد بن علي ومحمد بن يحيىٰ يخبراني عن محمد بن الجيد، حدّثنا حصين بن جنارة، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب قال: لقد أصابت عليًا يوم أُحد ستّ عشرة ضربة كل ضربة تُلزمه الأرض، فما كان يرفعه إلّا جبرئيل عليه السلام، قال: وحدّثنا جدّي، حدّثنا بكر بن عبد الوهاب، حدّثنا محمد بن عمر، حدّثنا إسمٰعيل بن عياش الحمصي، عن يحيىٰ بن سعيد، عن ثعلبة بن أبي مالك، قال: كان سعد بن عبادة صاحب راية رسول الله ﷺ في المواطن كلّها، فإذا كان وقت القتال أخذها عليّ بن أبي طالب. أنبأنا أبو محمد بن القاسم بن عليّ بن الحسين بن هبة الله الحافظ، أنبأنا أبي، أنبأنا أبو الحسين بن الفراء وأبو غالب وأبو عبد الله، أنبأنا البناء قالوا: حدّثنا أبو جعفر بن المسلمة، أنبأنا أبو طاهر المخلص، حدّثنا أحمد بن سليمان، حدّثنا الزبير بن بكّار، قال: وله ـ يعني لعليّ بن أبي طالب ـ يقول أسيد بن أبي إياس بن زنيم، وهو يحرّض مشركي قريش على قتله ويُعيّرهم:

في كل مجمع غاية أخزاكم جذع أبر على المذاكي القرح
لله درّكم ألما تنكروا قد ينكر الحيّ الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الذي أفناكم ذبحًا وقتله قعصة لم تذبح
أعطوه خرجًا واتّقوا بضريبة فعل الذّليل وبيعة لم تربح

....

أيـن الـكـهـول وأيـن كـل دعـامـةٍ في المعضلات وأين زين الأبطح
أفـنـاهـم قـعـصًـا وضـربًـا يـفـري بالسيف يعمل حدّه لم يصفح

أنبأنا أبو الفضل المنصور بن أبي الحسن المديني بإسناده عن أحمد بن علي بن المثنّى، حدّثنا أبو موسى، حدّثنا محمد بن مروان العقيلي، عن عمارة بن أبي حفصة عن عكرمة، قال: قال عليّ: لمّا تخلّى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أُحُد نظرت في القتلى، فلم أرَ رسول الله ﷺ فقلت: والله ما كان ليفرّ وما أراه في القتلى، ولكن الله غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيّه، فما في خير من أن أقاتل حتى أُقتل، فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم فأفرجوا لي، فإذا برسول الله ﷺ بينهم. أنبأنا أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله الدمشقي، أنبأنا أبو العشائر محمد بن الخليل القيسي، أنبأنا أبو القاسم عليّ بن محمد بن عليّ بن أبي العلاء المصيصيّ، أنبأنا أبو محمد عبد الرحمٰن بن عثمان بن القاسم، أنبأنا أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد بن أبي ثابت، حدّثنا يحيىٰ بن أبي طالب، أنبأنا زيد بن الحباب، حدّثنا الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: لمّا كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللّواء، فلمّا كان من الغد أخذه عمر، وقيل: محمد بن مسلمة، فقال رسول الله ﷺ: «لأدفعنّ لوائي لرجل لا يرجع حتى يفتح الله عليه»، فصلّى رسول الله ﷺ صلاة الغداة، ثم دعا باللّواء، فدعا عليًّا وهو يشتكي عينيه، فمسحهما ثم دفع إليه اللّواء، ففتح قال: فسمعت عبد الله بن بريدة يقول: حدّثني أبي أنه كان صاحب مرحب ـ يعني عليًّا ـ وأخباره في حروبه كثيرة لا نطوّل بذكرها.

علمه رضي الله تعالى عنه: رَوَى عليّ عن النبيّ ﷺ فأكثر، ورَوَى عنه بنوه الحسن والحسين ومحمد وعمرو وعبد الله بن مسعود وابن عمر وابن عباس وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير وأبو موسى الأشعري وأبو سعيد الخدري وأبو رافع وصُهيب وزيد بن أرقم وجابر بن عبد الله وأبو أُمامة وأبو سُرَيْحة حُذيفة بن أسيد وأبو هريرة وسفينة وأبو جحيفة السّوائي[1] وجابر بن سمرة

(١) بضمّ المهملة والمد. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

وعمرو بن جديث وأبو ليلى والبراء بن عازب وعمارة رؤيبة وبشر بن سحيم وأبو الطفيل وعبد الله بن ثعلبة بن صعير[1] وجرير بن عبد الله وعبد الرحمٰن بن أشيم وغيرهم من الصحابة. وروى عنه من التابعين: سعيد بن المسيّب ومسعود بن الحكم الزرقي وقيس بن أبي حازم وعُبيدة السّلماني وعلقمة بن قيس بن الأسود بن يزيد وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى والأحنف بن قيس وأبو عبد الرحمٰن السلمي وأبو الأسود الديلي وزر بن حُبَيْش وشريح بن هانىء والشعبي وشقيق وخلق كثير غيرهم. أنبأنا يحيىٰ بن محمود، أنبأنا زاهر بن طاهر، أنبأنا محمد بن عبد الرحمٰن، أنبأنا أبو سعيد محمد بن عبد الرحمٰن، أنبأنا أبو سعد محمد بن بشر بن العباس، أنبأنا أبو الوليد محمد بن إدريس الشامي، حدّثنا سويد بن سعيد، أنبأنا عليّ بن مسهر، عن الأعمش، عن عمرو بن قرّة، عن أبي البحتري عن عليّ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى اليمن ويسألوني عن القضاء ولا عِلْم لي به، قال: «ادْنُ»، فدنوت فضرب بيده على صدري ثم قال: «اللّهمّ ثبّت لسانه واهْدِ قلبه»، فلا والذي فَلَق الحبّة وبرأ النّسمة ما شككت في قضاء بين اثنين بعدُ. أنبأنا زيد بن الحسن بن زيد أبو اليمن الكندي وغيره كتابةً قالوا: أنبأنا أبو منصور زُرَيق، أنبأنا أحمد بن عليّ بن ثابت، أنبأنا محمد بن أحمد بن رزق، أنبأنا أبو بكر بن مكرم بن أحمد بن مكرم القاضي، حدّثنا القاسم بن عبد الرحمٰن الأنباريّ، حدّثنا أبو الصّلت الهرويّ، حدّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمَنْ أراد العِلْم فليأتِ بابه» رواه غير أبي معاوية عن الأعمش، وكان أبو معاوية يحدّث به قديمًا ثم تركه. ورَوى شعبة عن أبي إسحٰق، عن عبد الرحمٰن بن يزيد، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود قال: كنّا نُحدَّث أن أقضى أهل المدينة عليّ بن أبي طالب، وقال سعيد بن المسيّب: ما كان أحد من الناس يقول: سلوني، غير عليّ بن أبي طالب. وروى يحيىٰ بن معين، عن عبدة بن سليمان، عن عبد الملك بن سليمان، قال: قلت لعطاء: أكان في

(١) بالمهملتين مصغّرًا. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

أصحاب محمّد ﷺ أعلم من عليّ؟ قال: لا والله، لا أعلمه. وقال ابن عباس: لقد أُعطي عليّ تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العُشْر العاشر. وقال سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص لعبد الله بن عيّاش بن أبي ربيعة: يا عمّ لِمَ كان صغو الناس إلى عليّ؟ قال: يا ابن أخي، إنّ عليًّا كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البَسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والصِّهر لرسول الله ﷺ، والفقه في السنّة، والنَّجدة في الحرب، والجُود بالماعون. ورَوى ابن عُيينة، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب قال: كان عمر يتعوّذ من معضلة ليس لها أبو حسن. وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إذا ثبت لنا الشيء عن عليّ لم نعدل عنه إلى غيره. وروى يزيد بن هارون، عن قطر، عن أبي الطفيل قال: قال بعض أصحاب النبيّ ﷺ: لقد كان لعليّ من السوابق، قالوا: إنّ سابقة منها بين الخلائق لوسعتهم خيرًا، وله في هذا أخبار كثيرة نقتصر على هذا منها، ولو ذكرنا ما سأله الصحابة مثل عمر وغيره رضي الله عنهم لأطلنا.

زهده وعدله رضي الله تعالى عنه: أنبأنا أبو أحمد عبد الوهاب بن عليّ الأمين، أنبأنا أبو القاسم هبة الله بن عبد الواحد، أنبأنا أبو طالب بن غيلان، أنبأنا أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد المزني، حدّثنا محمد بن المسيّب، قال: سمعت عبد الله بن حنيف يقول: قال يوسف بن أسباط: الدنيا دار نعيم الظالمين، قال: وقال عليّ بن أبي طالب؛ الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئًا فليصبر على مخالطة الكلاب. أخبرنا أبو ياسر عبد الوهاب بن هبة الله، أنبأنا أبو غالب بن البنا، أنبأنا محمد بن أحمد بن محمد بن حسنون النرسي، حدّثنا محمد بن إسماعيل بن العباس إملاءً، حدّثنا أحمد بن علي الرقيّ، أخبرنا القاسم بن عليّ بن أبان، حدّثنا سهل بن صقير، حدّثنا يحيىٰ بن هشام الغسّاني، عن عليّ بن جزء قال: سمعت أبا مريم السلولي يقول: سمعت عمار بن ياسر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعليّ بن أبي طالب: «يا عليّ، إنّ الله عزّ وجلّ قد زيَّنك بزينة لم يتزيّن العباد بزينة أحبّ إليه منها: الزُّهد في الدنيا، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئًا ولا تنال الدنيا منك شيئًا، ووهب لك حبّ المساكين ورضوا بك إمامًا ورضيت بهم أتباعًا، فطوبى لمن أحبّك وصدق فيك، وويلٌ لمن أبغضك وكذّب عليك. فأمّا الذين

....

أحبّوك وصدّقوا فيك، فهم جيرانك في دارك ورفقاؤك في قصرك. وأمّا الذين أبغضوك وكذّبوا عليك، فحقّ على الله أن يوقفهم موقف الكذّابين يوم القيامة».
أنبأنا عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد، أنبأنا أبو غالب بن البنّا، أنبأنا أبو محمد الجوهري، أنبأنا أبو الفضل عبيد الله بن عبد الرحمٰن الزهري، حدّثنا حمزة بن القاسم الإمام، حدّثنا الحسين بن عبيد الله، حدّثني إبراهيم - يعني الجوهري - حدّثنا المأمون هو أمير المؤمنين، حدّثنا الرشيد، حدّثنا شريك بن عبد الله، عن عاصم بن كليب، عن محمد بن كعب القرظي، قال: سمعت عليّ بن أبي طالب يقول: رأيتني وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار، ورواه حجاج الأصبهانيّ وأسود عن شريك، فقال: أربعين ألف دينار، ورواه حجاج عن شريك فقال: أربعين ألفًا، لم يُرِد بقوله أربعين ألفًا زكاة ماله، وإنما أراد الوقوف التي جعلها صدقةً كان الحاصل من دَخْلِها صدقة هذا العدد، فإنّ أمير المؤمنين عليًا رضي الله تعالى عنه لم يدخر مالًا، ودليله ما نذكره من كلام ابنه الحسن رضي الله تعالى عنهما في مقتله أنه لم يترك إلّا ستمائة درهم اشترى بها خادمًا. أخبرني أبو محمد بن أبي القاسم الدمشقي، أنبأنا أبي، أنبأنا أبو محمد هبة الله بن سهل الفقيه، أنبأنا جدّي أبو المعالي عمر بن محمد بن الحسين قال: وأنبأنا أبي، وأنبأنا زاهر، أنبأنا أبو بكر أحمد بن الحسين، قالا: حدّثنا أبو عبد الله الحافظ، حدّثنا أبو قتيبة سالم بن الفضل الآدمي بمكّة، حدّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه قال: سمعت أبا نعيم قال: سمعت سفيان يقول: ما بنى عليّ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، وإن كان ليؤتى بحبوته من المدينة في جراب. أنبأنا السيّد أبو الفتوح حيدر بن محمد بن زيد العلويّ الحسيني، أنبأنا أبو محمد عبد الله بن جعفر الدورستي بالموصل، أنبأنا النقيب الطاهر أبو عبد الله أحمد بن علي بن المعمر الحسيني، أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار، أنبأنا أبو طاهر محمد بن عليّ بن محمد بن يوسف، أنبأنا أبو بكر بن مالك، أنبأنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا مسعر، عن أبي بحر عن شيخ لهم قال: رأيت على عليّ عليه السلام إزارًا غليظًا، قال: اشتريته بخمسة دراهم، فمن أربحني فيه درهمًا بعته، قال: ورأيت معه دراهم مصرورة، فقال: هذه بقية

....

نفقتنا من ينبع. وحدّثنا عبد الله بن أحمد، حدّثنا محمد بن يحيىٰ الأزدي، حدّثنا الوليد بن القاسم، حدّثنا مطير بن ثعلبة التميمي أبو النواز بياع الكرابيس قال: أتاني عليّ بن أبي طالب ومعه غلام له، فاشترى مني قميص كرابيس فقال لغلامه: اختر أيّهما شئت، فأخذ أحدهما وأخذ عليّ الآخر فلبسه ثم مدّ يده، فقال: اقطع الذي يفضل من قدر يدي، فقطعه وكفّه ولبسه وذهب.

أنبأنا عبد الله بن أحمد الخطيب، أنبأنا أبو الحسين بن طلحة النعال إجازةً إن لم يكن سماعًا، أنبأنا أبو الحسين بن بشران، حدّثنا إسماعيل بن محمد بن الصفّار، حدّثنا يحيىٰ بن آدم، حدّثنا جعفر بن زياد الأحمر، عن عبد الملك بن عمير قال: حدّثني رجل من ثقيف قال: استعملني عليّ بن أبي طالب على مدرج سابور، فقال: لا تضربنّ رجلًا سوطًا في جباية درهم، ولا تتبعن لهم رزقًا ولا كسوة شتاءً ولا صيفًا ولا دابّة يعتملون عليها، ولا تقيمنّ رجلًا قائمًا في طلب درهم. قلت: يا أمير المؤمنين إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك، قال: وإن رجعت ويحك، إنما أُمرنا أن نأخذ منهم العفو، يعني الفضل وزهده وعدله رضي الله تعالى عنه لا يمكن استقصاء ذكرهما، فلنقتصر على هذا.

فضائله رضي الله عنه:

أنبأنا أبو العباس أحمد بن عثمان بن أبي علي الدزداري بإسناده إلى الأستاذ أبي الإسحٰق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي المفسّر قال: رأيت في بعض الكتب أنّ رسول الله ﷺ لمّا أراد الهجرة خلف عليّ بن أبي طالب بمكّة لقضاء ديونه وردّ الودائع التي كانت عنده، وأمره ليلة خرج إلى الغار، وقد أحاط المشركون بالدار أن ينام على فراشه، وقال له: «اتّشح ببُرْدي الحضرمي الأخضر، فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء الله تعالى»، ففعل ذلك، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام إني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيّما يُؤثر صاحبه بالحياة، فاختارا كلاهما الحياة، فأوحى الله عزّ وجلّ إليهما: أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يَفْديه بنفسه ويُؤْثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فنزلا

....

فكان جبريل عند رأس عليّ وميكائيل عند رجليه، وجبريل ينادي: بخ بخ، مَنْ مثلك يا ابن أبي طالب، يُباهي الله عزّ وجلّ به الملائكة؛ فأنزل الله عزّ وجلّ على رسوله وهو متوجّه إلى المدينة في شأن عليّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠٧]. أنبأنا أبو محمد عبد الله بن عليّ بن سويدة التكريتي، أنبأنا أبو الفضل أحمد بن أبي الخير الميهني قراءةً عليه، قال: أنبأنا أبو الحسن عليّ بن أحمد بن مثنويه، قال أبو محمد: وأنبأنا أبو القاسم بن أبي الخير الميهني والحسين بن الفرحان السمناني، قالا: أنبأنا عليّ بن أحمد، أنبأنا أبو بكر التميمي، أنبأنا أبو محمد بن حبان، حدّثنا محمّد بن يحيى بن مالك الصبي، حدّثنا محمد بن سهل الجرجاني، حدّثنا عبد الرزّاق، حدّثنا عبد الوهاب بن مجاهد، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٤]، قال: نزلت في عليّ بن أبي طالب كان عنده أربعة دراهم، فأنفق بالليل واحدًا وبالنهارًا واحدًا، وفي السرّ واحدًا وفي العلانية واحدًا، ورواه عفان بن مسلم عن وهيب عن أيوب عن مجاهد عن ابن عباس مثله. أنبأنا إسمٰعيل بن عليّ وإبراهيم بن محمد وغيرهما بإسنادهم إلى محمد بن عيسى بن سورة قال: حدّثنا قتيبة، حدّثنا حاتم بن إسمٰعيل، عن بكير بن مسمار، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية سعدًا فقال: ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب؟ قال: أمّا ما ذكرت ثلاثًا قالهنّ رسول الله ﷺ فلن أسبّه لأن يكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حُمُر النّعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول لعليّ وخلفه في بعض مغازيه فقال له عليّ: يا رسول الله، تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أمَا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلا إنه لا نبوّة بعدي». وسمعته يقول يوم خيبر: «لأعطينّ الراية رجلًا يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله»، قال: فتطاولنا لها، فقال: «ادعوا لي عليًا»، فأتاه وبه رمد فبصق في عينَيْه ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه وأُنزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٦١]، فدعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحُسينًا فقال: «اللّهمّ هؤلاء أهلي». قال: وحدّثنا محمد بن عيسى، حدّثنا سفيان بن وكيع، حدّثنا أبي عن

....

شريك، عن منصور، عن ربعيّ بن خراش، حدّثنا عليّ بن أبي طالب بالرَّحبة، قال: لمّا كان يوم الحُدَيْبية خرج إلينا ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو وأُناس من رؤساء المشركين، فقالوا: خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقّائنا وليس بهم فقه في الدِّين، وإنما خرجوا فرارًا من أموالنا وضياعنا، فارْدُدْهم إلينا، فقال النبيّ ﷺ: «يا معشر قريش، لتنتهن أو ليبعثنّ الله عليكم مَنْ يضرب رقابكم بالسّيف على الدِّين، قد امتُحِن قلبه على الإيمان»، قالوا: مَنْ هو يا رسول الله؟ فقال أبو بكر: مَنْ هو يا رسول الله؟ وقال عمر: مَنْ هو يا رسول الله؟ قال: «خاصف النَّعل»، وكان قد أعطى عليًّا نعلًا يخصفها، قال: ثم التفت إلينا عليّ فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كذب عليَّ متعمّدًا فليتبوّأ مقعده من النار». قال: وحدّثنا محمد بن عيسى، حدّثنا عيسى بن عثمان أخا يحيىٰ بن عيسى الرَّملي، حدّثنا الأعمش، عن عدي بن ثابت، عن زرّ بن حبيش، عن عليّ قال: لقد عهد إليّ النبيّ ﷺ أن لا يحبك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق. قال: وحدّثنا محمد بن عيسى، حدّثنا محمد بن يسار ويعقوب بن إبراهيم وغير واحد قالوا: حدّثنا أبو عاصم عن أبي الجراح قال: حدّثني جابر بن صبح، قال: حدّثني شراحيل عن أُمّ عطية قالت: بعث رسول الله ﷺ جيشًا فيهم عليّ قالت: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللّهمّ لا تمتني حتى تُرِيني عليًّا». أنبأنا أبو منصور مسلم بن عليّ بن محمد بن السبخي، أنبأنا أبو البركات بن خميس، أنبأنا أبو نصر بن طوق، أنبأنا أبو القاسم بن المرجي، أنبأنا أبو يعلى الموصلي، حدّثنا سعيد بن مطرف الباهلي، حدّثنا يوسف بن يعقوب الماجشون، عن أبي المنذر، عن سعيد بن المسيّب، عن عامر بن سعد، عن سعد أنّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنه لا نبيّ بعدي». قال سعيد: فأحببت أن أشافه بذلك سعدًا فلقيته فذكرت له ما ذكرني عامر، فقلت: أنت سمعته؟ فأدخل يديه في أُذنيه، وقال: نعم، وإلا فاستكتا. أنبأنا أبو بكر مسمار بن عامر بن العويس البغدادي، أنبأنا أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن الطلابة، أنبأنا أبو القاسم عبد العزيز بن عليّ بن أحمد بن الحسين الأنماطي، أنبأنا أبو طاهر المخلص، حدّثنا محمد بن هارون الحضرمي أبو حامد، حدّثنا أبو هشام محمد بن

....

يزيد بن رفاعة، حدّثنا محمد بن فضيل، حدّثنا الأعمش، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لمّا كان يوم الطائف دعا رسول الله ﷺ عليًّا فناجاه طويلًا فقال بعض أصحابه: لقد أطال نجوى ابن عمّه، قال ـ يعني رسول الله ﷺ ـ: «ما أنا انتجيته، ولكن الله انتجاه». أنبأنا إبراهيم بن محمد وغير واحد بإسنادهم إلى أبي عيسى الترمذي، حدّثنا قتيبة بن سعيد، حدّثنا جعفر بن سليمان الضبعي، عن يزيد الرشك، عن مطرف بن عبد الله، عن عمران بن حصين قال: بعث رسول الله ﷺ جيشًا واستعمل عليهم عليّ بن أبي طالب، فمضى في السَّرية فأصاب جارية، فأنكروا عليه فتعاقد أربعة من أصحاب النبيّ ﷺ، فقالوا: إذا لقينا رسول الله أخبرناه بما صنع عليّ، وكان المسلمون إذا رجعوا من سفر بدؤوا برسول الله ﷺ، فسلّموا عليه ثم انصرفوا إلى رحالهم، فلمّا قدمت السرية فسلّموا على رسول الله ﷺ فقال أحد الأربعة: يا رسول الله، ألم تر إلى عليّ بن أبي طالب صنع كذا وكذا، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم قام الثاني فقال مثل مقالته، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم قام الثالث فقال مثل مقالته فأعرض عنه، ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا، فأقبل إليهم رسول الله ﷺ والغضب في وجهه فقال: «ما تريدون من عليّ؟ ما تريدون من عليّ؟ ما تريدون من عليّ؟ إنّ عليًّا منّي وأنا من عليّ، وهو وليّ كلّ مؤمن بعدي». أنبأنا أبو جعفر عبيد الله بن أحمد بإسناده عن يونس بن بكير، عن ابن إسحٰق قال: حدّثني يحيىٰ بن عبد الله بن أبي عمرة، عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن ركانة، قال: إنما وجد جيش عليّ الذين كانوا معه باليمن لأنهم حين أقبلوا خلف عليهم رجلًا وتعجّل إلى رسول الله ﷺ يُخبره الخبر، فعمد الرجل فكسا كل رجلٍ منهم حلّة، فلما دنوا خرج عليّ يستقبلهم، فإذا عليهم الحلل، فقال عليّ: ما هذا؟ قالوا: كسانا فلان، قال: فما دعاك إلى هذا قبل أن تقدم على رسول الله فيصنع ما شاء، فنزع الحُلل عنهم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ شكوه لذلك، وكان أهل اليمن قد صالحوا رسول الله ﷺ، وإنما بعث عليًّا على جزية موضوعة. أنبأنا أبو الفرج محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي العلاء الواسطي وأبو عبد الله الحسين بن أبي صالح فناخسرو الدَّيلمي التكريتي وغيرهما بإسنادهم إلى محمد بن إسماعيل، حدّثنا قتيبة، حدّثنا يعقوب بن

....

عبد الرحمٰن، عن أبي حازم قال: أخبرني سهل بن سعد أنّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينّ الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله»، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيّهم يُعطاها، قال: «أين عليّ بن أبي طالب»؟ قالوا: يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه» فأتى فبصق في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن له وجع، فأعطاه الراية، فقال عليّ: يا رسول الله، أُقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: «لتغد على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمُر النِّعم». أنبأنا أبو الفضل بن أبي عبيد الله الفقيه بإسناده إلى أبي يعلى أحمد بن عليّ، أنبأنا القواريريّ، حدّثنا يونس بن أرقم، حدّثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، قال: شهدت عليًا في الرَّحبة يناشد الناس: أنشد الله مَنْ سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خمّ: «مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه»، لمّا قام قال عبد الرحمٰن: فقام اثنا عشر بدريًا، كأني أنظر إلى أحدهم عليه سراويل، فقالوا: نشهد أنّا سمعنا رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خمّ: «ألست أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجي أمّهاتهم»؟ قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: «مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه». وقد رُوِي مثل هذا عن البراء بن عازب، وزاد: فقال عمر بن الخطاب: يا ابن أبي طالب أصبحت اليوم وليّ كل مؤمن. أنبأنا الحسن بن محمد بن هبة الله، أنبأنا أبو العشائر محمد بن الخليل القيسي، أنبأنا أبو القاسم عليّ بن محمد بن علي أبي العلاء المصيصيّ، أنبأنا أبو محمد عبد الرحمٰن بن عثمان بن القسم بن أبي نصر، حدّثنا خيثمة بن سليمان بن حَيْدرة أبو الحسن الأطرابلسيّ، حدّثنا محمد بن الحسين الحبيبي، حدّثنا أبو حذيفة، حدّثنا سفيان، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن ابن ظالم قال: جاء رجل إلى سعيد بن زيد ـ يعني ابن عمرو بن نفيل ـ فقال: إنّي أحببت عليًا حبًا لم أحبّه أحدًا، قال: أحببت رجلًا من أهل الجنّة، ثم إنه حدّثنا قال: كنّا مع رسول الله ﷺ على حِراء، فذكر عشرة في الجنّة: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن مالك وعبد الله بن مسعود. قال: وحدّثنا خيثمة، حدّثنا أبو عبيدة

....

السري بن يحيىٰ، حدّثنا قبيصة، حدّثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله قال: كنّا مع النبيّ ﷺ في سور بالمدينة فقال: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنّة»، فجاء أبو بكر فهنّيناه، ثم قال: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنّة»، فجاء عمر فهنّيناه، قال: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنّة»، قال: ورأيت رسول الله ﷺ يصغي رأسه من تحت السعف ويقول: «اللّهمّ إن شئت جعلته عليًّا»، فجاء عليّ فهنّيناه. أنبأنا أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد وغيره قالوا بإسنادهم إلى أبي عيسى الترمذي، حدّثنا يوسف بن موسى القطّان البغدادي، حدّثنا علي بن قادم، حدّثنا علي بن صالح بن حيّ، عن حكيم بن جبير، عن جميع بن عمير التيمي، عن ابن عمر قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فجاء عليّ فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تُؤاخ بيني وبين أحد، فقال رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة». أنبأنا أبو الفضل الفقيه المخزومي بإسناده إلى أحمد بن عليّ، أنبأنا أبو خيثمة، حدّثنا محمد بن عبد الله الأسدي، حدّثنا سفيان، عن زبيد، عن شهر بن حوشب، عن أُمّ سلمة أنّ النبيّ ﷺ جلّل عليًّا وفاطمة والحسن والحسين كساءً، ثم قال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، اللّهمّ أذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرًا»، قالت أُمّ سلمة: قلت: يا رسول الله، أنا منهم؟ قال: «إنك على خير». وأنبأنا غير واحد بإسنادهم إلى محمد بن عيسى، حدّثنا خلاد بن أسلم البغدادي، حدّثنا النّضر بن شُميل، حدّثنا عوف، عن عبد الله بن عمرو بن هند الحلي، قال: قال عليّ: كنت إذا سألت رسول الله ﷺ أعطاني، وإذا سكت ابتدأني. قال: وحدّثنا محمد بن عيسى، حدّثنا نصر بن عليّ الجهضمي، حدّثنا عليّ بن جعفر بن محمد، أخبرني أخي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه عليّ بن الحسين، عن أبيه عن جدّه عليّ بن أبي طالب أنّ رسول الله ﷺ أخذ بيد حسن وحُسين وقال: «مَنْ أحبّني وأحب هذين وأباهما وأُمّهما كان معي في درجتي يوم القيامة». قال: وحدّثنا محمد بن عيسى، حدّثنا قُتيبة، حدّثنا جعفر بن سليمان، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدريّ، قال: كنا نعرف المنافقين نحن معاشر الأنصار ببغضهم عليّ بن أبي طالب. أنبأنا المنصور بن أبي الحسن الفقيه بإسناده إلى أبي يعلى،

....

حدّثنا الحسن بن حماد، حدّثنا مسهر بن عبد الملك ثقةً، حدّثنا عيسى بن عمرو، عن السديّ، عن أنس بن مالك أنّ النبيّ ﷺ كان عنده طائر فقال: «اللّهمّ ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر»، فجاء أبو بكر فردَّه، ثم جاء عثمان فردَّه، فجاء عليّ فأذن له. ذِكْر أبي بكر وعثمان في هذا الحديث غريب جدًّا، وقد رُوِي من غير وجه عن أنس، ورواه غير أنس من الصحابة. أنبأنا أبو الفرج الثقفي، أنبأنا الحسين بن عيسى، حدّثنا الحسن بن أحمد وأنا حاضر أسمع، أنبأنا أحمد بن عبد الله الحافظ، حدّثنا محمد بن إسحٰق بن إبراهيم الأهوازي، حدّثنا الحسن بن عيسى، حدّثنا الحسن بن السُميدع، حدّثنا موسى بن أبي أيوب، عن شعيب بن إسحاق، عن أبي حنيفة، عن مسعر، عن حماد، عن إبراهيم، عن أنس قال: أُهدي إلى النبيّ ﷺ طير، فقال: «اللّهمّ ائتني بأحب خلقك إليك»، فجاء عليّ فأكل معه، تفرّد به شُعيب عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه. أنبأنا محمد بن أبي الفتح بن الحسن النقّاش الواسطي، حدّثنا أبو روح عبد المعز بن محمد بن أبي الفضل البزار، أنبأنا زاهر بن طاهر السحامي، أنبأنا أبو سعيد الكنجرودي، أنبأنا الحاكم أبو أحمد، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عمرو بن الحسين الأشعري بحمص، حدّثنا محمد بن مصفّى، حدّثنا حفص بن عمر المعري، حدّثنا موسى بن سعد البصريّ، قال: سمعت الحسن يقول: سمعت أنس بن مالك يقول: أُهدي لرسول الله ﷺ طير، فقال: «اللّهمّ ائتني برجل يحبّه الله ويحبه رسوله»، قال أنس: فأتى عليّ فقرع الباب، فقلت: إنّ رسول الله ﷺ مشغول وكنت أحبّ أن يكون رجلًا من الأنصار، ثم إنّ عليًا فعل مثل ذلك، ثم أتى الثالث فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس أدخله، فقد عَنَيْته»، فلما أقبل قال: «اللّهمّ والِ، اللّهمّ والِ»، وقد رواه عن أنس غير واحد حميد الطويل، وأبو الهندي، ويغنم بن سالم - يغنم بالياء تحتها نقطتان، والغين المعجمة والنون وآخره ميم وهو اسم مفرد.

خلافته رضي الله تعالى عنه:

أنبأنا عد الوهاب بن هبة الله بإسناده إلى عبد الله بن أحمد، حدّثني أبي، حدّثنا أسود بن عامر، حدّثني عبد الحميد بن أبي جعفر - يعني الفراء - عن

....

إسرائيل، عن أبي إسحٰق، عن زيد بن تبيع، عن عليّ قال: قيل: يا رسول الله، مَنْ يُؤَمّر بعدك؟ قال: «إن تُؤَمّروا أبا بكر تجدوه أمينًا زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة، وإن تُؤمّروا عمر تجدوه قويًّا أمينًا لا يخاف في الله لومة لائم، وإن تُؤمّروا عليًّا ولا أراكم فاعلين تجدوه هاديًا مهديًّا يأخذ بكم الصراط المستقيم». أنبأنا عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر، أنبأنا أبو غالب محمد بن الحسن الباقلاني إجازةً، أنبأنا أبو عليّ بن شاذان، أنبأنا عبد الباقي بن قانع، حدّثنا محمد بن زكريا العلائي، حدّثنا العبّاس بن بكار، عن شريك، عن سلمة، عن الصنابحي، عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنت بمنزلة الكعبة، تُؤْتى ولا تأتي، فإن أتاك هؤلاء القوم فسلَّموها إليك ـ يعني الخلافة ـ فاقبل منهم، وإن لم يأتوك فلا تأتهم حتى يأتوك». أنبأنا يحيىٰ بن محمود، أنبأنا الحسن بن أحمد قراءةً عليه وأنا حاضر، أنبأنا أبو نعيم، أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد بن الحسن، حدّثنا عبد الله بن محمد، حدّثنا إبراهيم بن يوسف الصيرفي، حدّثنا أبو الصيرفي، عن يحيىٰ بن عروة المرادي، قال: سمعت عليًّا رضي الله تعالى عنه يقول: قُبِض النبيّ ﷺ وأنا أرى أني أحقّ بهذا الأمر، فاجتمع المسلمون على أبي بكر، فسمعت وأطعت، ثم إن أبا بكر أُصيب فظننت أنه لا يعدلها عني، فجعلها في عمر، فسمعت وأطعت، ثم إن عمر أُصيب فظننت أنه لا يعدلها عني، فجعلها في ستّة أنا أحدهم، فولّوها عثمان، فسمعت وأطعت، ثم إن عثمان قُتِل فجاؤوا فبايعوني طائعين غير مُكرهين، ثم خلعوا بَيْعتي، فوالله ما وجدت إلّا السيف أو الكفر بما أنزل الله عزّ وجلّ على محمّد ﷺ. أخبرنا ذاكر بن كامل بن أبي غالب الخفاف وغيره إجازةً، قالوا: أخبرنا أبو غالب بن البنا، أخبرنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن محمد الأنبوسي، أنبأنا أبو القاسم عبد الله بن عثمان بن يحيىٰ بن حنيقا، أنبأنا أبو محمد إسماعيل بن عليّ بن إسماعيل الخطيّ، قال: استخلف أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه وبُويع له بالمدينة في مسجد رسول الله ﷺ بعد قتل عثمان في ذي الحجّة من سنة خمس وثلاثين، قال: وحدّثنا إسماعيل الخطيّ، حدّثنا إسحٰق بن إبراهيم بن أبي حسان الأنماطي، حدّثنا هشام بن عمار، حدّثنا محمد بن عيسى بن القاسم بن سميع القرشي، حدّثنا محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ذيب، عن الزهري، عن ابن

....

المسيّب، قال: لما قُتِل عثمان جاء الناس كلّهم إلى عليّ يهرعون أصحاب محمد وغيرهم كلّهم يقول أمير المؤمنين عليّ: حتى دخلوا عليه داره، فقالوا: نبايعك فمُدَّ يدك، فأنت أحقّ بها، فقال عليّ: ليس ذاك إليكم، إنما ذاك إلى أهل بدر، فمَنْ رَضِيَ به أهل بدر فهو خليفة، فلم يبقَ أحد إلّا أتى عليًّا، فقال: فقالوا: ما نرى أحدًا أحقّ بها منك، فمُدَّ يَدَكَ نبايعك، فقال: أين طلحة والزُّبير؟ فكان أوّل مَنْ بايعه طلحة بلسانه وسعد بيده، فلمّا رأى عليّ ذلك خرج إلى المسجد فصعد المنبر، فكان أوّل مَنْ صعد إليه فبايعه طلحة وتابعه الزبير وأصحاب النبيّ ﷺ ورضي عنهم أجمعين. أنبأنا أبو محمد بن أبي القاسم الدمشقيّ إجازةً، أنبأنا أبي، أنبأنا أبو القاسم عليّ بن إبراهيم ابن رشا بن نظيف، حدّثنا الحسن بن إسماعيل، حدّثنا أحمد بن مروان، حدّثنا محمد بن موسى بن حماد، حدّثنا محمد بن الحارث عن المدائنيّ قال: لما دخل عليّ بن أبي طالب الكوفة دخل عليه رجل من حكماء العرب، فقال: والله يا أمير المؤمنين لقد زِنْت الخلافة وما زانَتْك، ورفعتها وما رفعَتْك، وهي كانت أحوج إليك منك إليها. أنبأنا أبو ياسر بن أبي حبّة بإسناده إلى عبد الله بن أحمد، قال: حدّثنا سفيان بن وكيع، حدّثنا قبيصة، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن أبي وائل، قال: قلت لعبد الرحمٰن بن عوف: كيف بايعتم عثمان وتركتم عليًّا؟ فقال: ما ذنبي قد بدأت بعليّ فقلت: أُبايعك على كتاب الله وسنّة نبيِّه وسيرة أبي بكر وعمر، قال: فقال: فيما استطعت، قال: ثم عرضتها على عثمان فقبلها، ولمّا بايعه الناس تخلّف عن بيعته جماعة من الصحابة منهم ابن عمر وسعد وأُسامة وغيرهم، فلم يلزمهم بالبيعة، وسُئِل عليّ عمّن تخلّف عن بيعته؟ فقال: أُولئك قعدوا عن الحقّ ولم ينصروا الباطل، وتخلّف عنه أهل الشام مع معاوية، فلم يُبايعوه وقاتلوه. أنبأنا أبو القاسم محمد بن سعد بن يحيىٰ بن بوش كتابة، أنبأنا أبو طالب عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن يوسف، أنبأنا أبو محمد الجوهري، أنبأنا أبو الحسين محمد بن المظفّر بن موسى الحافظ، أنبأنا محمد بن الحسن بن ظازاد الموصلي، حدّثنا عليّ بن الحسين الخواص، عن عفيف بن سالم، عن قطر بن خليفة، عن أبي الطفيل، عن أبي سعيد، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ فانقطع شِسْعه فأخذها عليّ

....

يُصلحها، فمضى رسول الله ﷺ فقال: «إنّ منكم رجلًا يُقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله»، فاستشرف لها القوم، فقال رسول الله ﷺ: «لكنه خاصف النعل»، فجاء فبشّرناه بذلك، فلم يرفع به رأسًا، كأنه شيء قد سمعه من النبيّ ﷺ. أنبأنا أرسلان بن بعان الصوفي، حدّثنا أبو الفضل أحمد بن طاهر بن سعيد بن أبي سعيد الميهني، أنبأنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي، أنبأنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو جعفر محمد بن علي بن دُحيم الشيبانيّ، حدّثنا الحسين بن الحكم الحيريّ، حدّثنا إسماعيل بن أبان، حدّثنا إسحٰق بن إبراهيم الأزدي، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فقلنا: يا رسول الله أمرتنا بقتال هؤلاء، فمع مَنْ؟ فقال: «مع عليّ بن أبي طالب معه يُقتل عمّار بن ياسر». قال: وأخبر الحاكم، أنبأنا أبو الحسن علي بن ممشاد العدل، حدّثنا إبراهيم بن الحسين بن ديرك، حدّثنا عبد العزيز بن الخطّار، حدّثنا محمد بن كثير، عن الحارث بن حصيرة، عن أبي صادق، عن محنف بن سليم، قال: أتينا أبا أيوب الأنصاري، فقلنا: قاتلتَ بسيفك المشركين مع رسول الله ﷺ ثم جئت تُقاتل المسلمين؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ بقتل النّاكثين والقاسطين والمارقين. وأنبأنا أبو الفضل بن أبي الحسن بإسناده عن أبي يعلى، حدّثنا إسماعيل بن موسى، حدّثنا الربيع بن سهل، عن سعيد بن عبيد، عن عليّ بن ربيعة، قال: سمعت عليًّا على منبركم هذا يقول: عهد إليّ رسول الله ﷺ أن أُقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين. أنبأنا أبو غانم محمد بن هبة الله بن محمد بن أبي جرادة الحلبي، قال: حدّثني عمي أبو المجد عبد الله بن محمد بن أبي جرادة، أنبأنا أبو الحسن عليّ بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة، حدّثنا أبو الفتح عبد الله بن إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل بن سعيد بحلب، حدّثنا الأستاذ أبو النمر الحارث بن عبد السلام بن زغبان الحمصي، حدّثنا أبو عبد الله الحسين بن خالويه، أنبأنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي سعيد البزّار، حدّثنا محمد بن الحسن موسى الكوفيّ، حدّثنا أبو نعيم، حدّثنا عبد الله بن حبيب، أخبرني أبي قال: قال ابن عمر حين حضره الموت: ما أجد في نفسي من الدنيا إلا أني لم أُقاتل الفئة الباغية.

....

وقال أبو عمرو: رُوِي من وجوه عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن عمر أنه قال: ما آسى على شيء إلّا أني لم أُقاتل مع عليّ بن أبي طالب الفئة الباغية.

وقال الشعبي: ما مات مسروق حتى تاب إلى الله تعالى من تخلّفه عن القتال مع عليّ، ولعليّ رضي الله تعالى عنه في قتال الخوارج وغيرها آيات مذكورة في التواريخ قد أتينا على ذكرها في الكامل في التاريخ.

مقتله وإعلامه أنه مقتول رضي الله تعالى عنه:

أنبأنا نصر الله بن سلامة بن سالم الهيتمي، أنبأنا القاضي أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأُرمويّ، أنبأنا أبو الغنائم عبد الصمد بن علي المأمون، أنبأنا عليّ بن عمر الحافظ، حدّثنا أبو الحسن عليّ بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن يحيى بن زاهر بن يحيى الرازي بالبصرة، حدّثني أحمد بن محمد بن زياد القطان الرازي، حدّثنا عبد الله بن زاهر بن يحيىٰ، حدّثنا أبي، عن الأعمش، عن زيد بن أسلم، عن أبي سنان الدُّؤليّ، عن عليّ قال: حدّثني الصادق المصدوق ﷺ قال: «لا تموت حتى تُضرب ضربة على هذه، فتخضب هذه» وأومأ إلى لحيته وهامته «ويقتلك أشقاها، كما عقر ناقة الله أشقى بني فلان من ثمود» نسبه إلى جدّه الأدنى، قال عليّ بن عمر: هذا حديث غريب من حديث الأعمش عن زيد بن أسلم عن أبي سنان عن عليّ تفرّد به عبد الله بن زاهر عن أبيه. قلت: قد رواه عبد الله بن جعفر عن زيد بن أسلم، أنبأنا به أبو الفضل الطبري بإسناده إلى أبي يعلى عن القواريري، عن عبد الله بن جعفر، عن زيد، عن أبي سنان أتمّ من هذا.

أنبأنا أبو الفضل المخزومي بإسناده، عن أحمد بن عليّ قال: حدّثنا إسحٰق بن إسرائيل، عن سنان، عن عبد الملك بن أعين، عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبيه، عن عليّ قال: أتاني عبد الله بن سلام وقد وضعت رجلي في الغرز، فقال لي: لا تقدم العراق، فإني أخشى أن يصيبك فيها ذباب السيف، قال عليّ: وأيم الله لقد أخبرني به رسول الله ﷺ، فقال أبو الأسود: فما رأيت كاليوم قطّ محارب يخبر بذا عن نفسه. قال: وأنبأنا أحمد بن عليّ، أنبأنا أبو خيثمة،

....

حدّثنا جرير، عن الأعمش، عن سلمة بن كُهَيْل، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن عبد الله بن سبع قال: خطبنا عليّ بن أبي طالب فقال: والذي فَلَق الحبّة وبرأ النسمة لتخضبنّ هذه من هذه، يعني لحيته من دم رأسه، فقال رجل: والله لا يقول ذلك أحدٌ إلا أبرنا عترته، فقال: أذكر الله وأنشد أن يقتل مني إلّا قاتلي.

أنبأنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كُليب، أنبأنا أبو الخير المبارك بن الحسين بن أحمد العسال المقريّ الشافعي، حدّثنا أبو محمد الخلال، حدّثنا أبو الطيّب محمد بن الحسين النحّاس بالكوفة، حدّثنا علي بن العباس البجلي، حدّثنا عبد العزيز بن منيب المروزي، حدّثنا إسحٰق - يعني ابن عبد الملك بن كيسان - حدّثني أبي، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال عليّ - يعني للنبيّ ﷺ -: إنك قلت لي يوم أُحد حين أُخّرت عني الشهادة واستشهد من استشهد أنّ الشهادة من ورائك، «فكيف صبرك إذا خضبت هذه من هذه بدم»؟ وأهوى بيده إلى لحيته ورأسه، فقال عليّ: يا رسول الله أما إن تثبت لي ما أثبتَ، فليس ذلك من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والكرامة.

وأنبأنا أبو المنصور بن أبي الحسن بإسناده إلى أحمد بن علي بن المثنى، أنبأنا سويد بن سعيد، حدّثنا راشد بن سعد، عن يزيد بن عبد الله بن أُسامة بن الهاد، عن عثمان بن صُهيب، عن أبيه قال: قال عليّ: قال لي رسول الله ﷺ: «مَنْ أشقى الأوّلين»؟ قلت: عاقر النّاقة، قال: «صدقت»، قال: «فمَنْ أشقى الآخرين»؟ قلت: لا عِلْم لي يا رسول الله، قال: «الذي يضربك على هذا» وأشار بيده إلى يافوخه، وكان يقول: وددت أنه قد انبعث أشقاكم، «فخضب هذه من هذه» يعني لحيته من دم رأسه.

أنبأنا أبو ياسر بن أبي حبّة، أنبأنا أبو غالب بن البنّا، حدّثنا محمد بن أحمد بن محمّد بن حسنون، أنبأنا أبو القاسم موسى بن عيسى بن عبد الله السرّاج، حدّثنا عبد الله بن أبي داود، حدّثنا إسحٰق بن إسماعيل، حدّثنا إسحٰق بن سليمان، عن قطر بن خليفة، عن أبي الطفيل أن عليًّا جمع الناس للبيعة، فجاء عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي، فردَّه مرّتين، ثم قال علي: ما يحبس أشقاها،

....

فوالله ليخضبنّ هذه من هذه، ثم تمثّل:

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيك
ولا تجزع من القتل إذا حلّ بواديك

أنبأنا أبو ياسر إجازةً، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي، أنبأنا أبو محمد الجوهري، أنبأنا أبو عمرو بن حيويه، أنبأنا أحمد بن معروف، حدّثنا الحسين بن فهم، حدّثنا محمد بن سعد، حدّثنا خالد بن مخلد ومحمد بن الصّلت، حدّثنا الربيع بن المنذر، عن أبيه، أن محمد ابن الحنفية قال: دخل علينا ابن ملجم الحمّام وأنا وحسن وحسين جلوس في الحمّام، فلمّا دخل كأنهما اشمأزا منه، وقالا: ما جرّأك تدخل علينا؟ قال: فقلت لهما: دعاه عنكما، فلعمري ما يريد منكم أحشم من هذا، فلمّا كان يوم أُتِيَ به أسيرًا، قال ابن الحنفية: ما أنا اليوم بأعرف به مني يوم دخل علينا الحمّام، فقال عليّ: إنه أسير، فأحسنوا نُزُله وأكرموا مثواه، فإن بقيت قتلت أو عفوت، وإن متُّ فاقتلوه ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين.

أنبأنا أبو أحمد عبد الوهاب بن عليّ الأمين وغير واحد إجازةً، قالوا: أنبأنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سليمان، أنبأنا أبو الفضل بن خيرون وأبو طاهر أحمد بن الحسن الباقلاني كلاهما إجازةً، قالا: أنبأنا أبو علي بن شاذان، قال: قرىء على أبي محمد الحسين بن محمد بن يحيىٰ بن الحسن بن أبي جعفر بن عبيد الله بن الحسن بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب قال: حدّثنا جدّي أبو الحسين يحيىٰ بن الحسن، حدّثنا سعيد بن نوح، حدّثنا أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن، حدّثنا عبد الجبّار بن العبّاس، عن عثمان بن المغيرة، قال: لمّا دخل شهر رمضان جعل عليّ يتعشّى ليلة عند الحسن وليلة عند الحُسين وليلة عند عبد الله بن جعفر لا يزيد على ثلاث لقم، ويقول: يأتي أمر الله وأنا خميص، وإنما هي ليلة أو ليلتان. قال: وأنبأنا جدّي، حدّثنا زيد بن علي، عن عبيد الله بن موسى، حدّثنا الحسن بن كثير، عن أبيه قال: خرج عليّ لصلاة الفجر، فاستقبله الأوز يَصُحْن في وجهه، قال: فجعلنا نطردهنّ عنه، فقال: دعوهنّ فإنهنّ نوائح، وخرج فأُصيب، وهذا يدلّ على أنه علم السَّنَة والشهر والليلة التي يُقتل فيها، والله أعلم.

....

أنبأنا الخطيب أبو الفضل عبد الله بن أحمد، أنبأنا النقيب طراد بن محمد إجازةً إنْ لم يكن سماعًا، أنبأنا أبو الحسين بن بشران، أنبأنا الحسين صفوان، أنبأنا عبد الله بن أبي الدنيا، حدّثني عبد الرحمـٰن بن صالح، حدّثنا عمرو بن هاشم الحسيني، عن حكاب، عن أبي عَوْن الثقفيّ، عن أبي عبد الرحمـٰن السّلمي، قال: قال لي الحسين بن عليّ: قال لي عليّ: سنح لي الليلة رسول الله ﷺ في منامي، فقلت: يا رسول الله، ما لقيت من أُمّتك من الأود[1] واللّدد[2]، قال: ادع عليهم، قلت: اللّهمّ أبدلني بهم مَنْ هو خيرٌ لي منهم، وأبدلهم مَنْ هو شرٌّ مني؛ فخرج فضربه الرجل، كذا في هذه الرواية الحسين بن عليّ، وإنما هو الحسن.

أنبأنا عبد الوهاب بن هبة الله بن عبد الوهاب إذنًا، أخبرنا أبو بكر الأنصاري، أخبرنا أبو محمد الجوهريّ، أنبأنا أبو عمر بن حيويه، أنبأنا أحمد بن معروف، أنبأنا الحسين بن فهم، أنبأنا محمد بن سعد قال: انتدب ثلاثة نفر من الخوارج: عبد الرحمـٰن بن ملجم المرادي، وهو من حِمْيَر وعداده في بني مراد، وهو حليف بني حبلة من كندة، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمر بن بكير التميمي؛ فاجتمعوا بمكّة وتعاهدوا وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة عليّ بن أبي طالب، ومعاوية، وعمرو بن العاص، ويريحوا العباد منهم، فقال ابن ملجم: أنا لكم بعليّ، وقال البرك: أنا لكم بمعاوية، وقال عمرو بن بكير: أنا أكفيكم عمرو بن العاص؛ فتعاهدوا على ذلك وتعاقدوا عليه وتواثقوا أن لا ينكص منهم رجل عن صاحبه الذي سُمّي له ويتوجّه له حتى يقتله أو يموت دونه، فاتّعدوا بينهم ليلة سبع عشرة من رمضان، ثم توجّه كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه، فقَدِم عبد الرحمـٰن بن ملجم الكوفة، فلقي أصحابه من الخوارج، فكاتمهم ما يريد، وكان يزورهم ويزورونه، فزار يومًا نفرًا من بني تيم الرباب،

(١) قوله: الأود، في القاموس: أوِدَ كفرِحَ يَأْوَدُ أَوَدًا اعْوَجَّ، انتهى. ١٢ منه عمّ فيضهم.
(٢) قوله: اللّدد، في المصباح: لَدَّ يَلُدُّ لَدَدًا من باب تَعِبَ اشتدّت خصومته، فهو ألدّ، انتهى. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

فرأى امرأة منهم قطام بنت سخبة بن عديّ بن عامر بن عوف بن ثعلبة بن سعد بن ذهل بن الرباب، وكان عليّ قتل أباها وأخاها بالنهروان، فأعجبته فخطبها، فقالت: لا أتزوّجك حتى تسني[1] لي، فقال: لا تسأليني شيئًا إلّا أعطيتك، فقالت: ثلاثة آلاف وقتل عليّ بن أبي طالب، فقال: والله ما جاء بي إلى هذا المِصْر إلّا قتل عليّ، وقد أعطَيْتك ما سألت، ولقي ابن ملجم شبيب بن بجرة الأشجعي، فأعلمه ما يريد ودعاه إلى أن يكون معه فأجابه إلى ذلك، وظلّ ابن ملجم تلك اللّيلة التي عزم فيها أن يقتل عليًا في صبيحها يناجي الأشعث بن قيس الكندي في مسجده حتى يطلع الفجر، فقال له الأشعث: فضحك الصبح، فقام ابن ملجم وشبيب بن بجرة فأخذا أسيافهما ثم جاءا حتى جلسا مقابل السدّة التي يخرج منها عليّ، قال الحسن بن عليّ: فأتيته سحيرًا فجلست إليه فقال: إني بتّ الليلة أوقظ أهلي، فملكتني عيناي وأنا جالس، فسنح لي رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ما لقيت من أُمتك من الأود واللّدد، فقال لي: ادع الله عليهم، فقلت: اللّهمّ أبدلني بهم خيرًا منهم، وأبدلهم بي شرًّا لهم مني، ودخل ابن التيّاح المؤذّن على ذلك، فقال: الصلاة، فقام يمشي ابن التيّاح بين يديه وأنا خلفه، فلمّا خرج من الباب نادى: أيّها الناس الصلاة الصلاة، كذلك كان يَصْنع كل يوم يخرج ومعه درّته يُوقظ الناس، فاعترضه الرجلان، فقال بعض مَنْ حضر: ذلك ببريق السيف، وسمعت قائلًا يقول: لله الحكم يا عليّ لا لك، ثم رأيت سيفًا ثانيًا فضربا جميعًا، فأمّا سيف ابن ملجم فأصاب جبهته إلى قرنه، ووصل إلى دماغه.

وأما سيف شبيب، فوقع في الطاق، فسمع عليّ يقول: لا يفوتنّكم الرجل، وشدّ الناس عليهما من كل جانب. فأمّا شبيب فأفلت، وأُخذ ابن ملجم فأُدخل على عليّ فقال: أطيبوا طعامه وألِينوا فراشه، فإنْ أعِشْ فأنا وليّ دمي عفو أو

(١) في لسان العرب يقال: سَنَيْت الباب وسَنَوْته إذا فتحته، وأيضًا فيه: سَنَّيْت الشيءَ والأمر إذا فتحتَ وجهه، وأيضًا فيه: يقال: سَنَيْتُ الشيءَ إذا فتحته وسَهَّلْته وتسنّى لي كذا، أي تيَسَّرَ وَتَأتّى وتَسَنّى الشيء علاه.اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

قصاص، وإن أمُتْ فألحقوه بي أخاصمه عند ربّ العالمين، فقالت أُمّ كلثوم بنت عليّ: يا عدوّ الله أقتلت أمير المؤمنين؟ قال: ما قتلت إلّا أباكِ، قالت: والله إني لأرجو أن لا يكون على أمير المؤمنين بأس، قال: فلِمَ تبكين إذًا؟ ثم قال: والله لقد سممته شهرًا ـ يعني سيفه ـ فإن أخلفني أبعده الله وأسحقه. وبعث الأشعث بن قيس ابنه قيس الأشعث صبيحة ضُرِب عليّ، فقال: أي بني، انظر كيف أصبح أمير المؤمنين، فذهب فنظر إليه ثم رجع، فقال: رأيت عينيه داخلتين في رأسه، فقال الأشعث: عيني دميغ وربّ الكعبة، قال: ومكث عليّ يوم الجمعة والسبت وبقي ليلة الأحد لإحدى عشرة بقيت من شهر رمضان من سنة أربعين، وتوفي رضوان الله عليه، وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، وكُفِّن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، قالوا: وكان عبد الرحمٰن بن ملجم في السجن، فلمّا مات عليّ ودُفِن بعث الحسن بن عليّ إلى ابن ملجم فأخرجه من السجن ليقتله، فاجتمع الناس وجاؤوا بالنفط والبواري والنار، وقالوا: نحرقه، فقال عبد الله بن جعفر وحسين بن علي ومحمد ابن الحنفيّة: دعونا حتى نشفي أنفسنا منه، فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه، فلم يجزع ولـم يتكلّم، فكحل عينيه بمسمار محمّى، فلم يجزع وجعل يقول: إنك لتكحل عينيّ عمك بمملول وممض، وجعل يقرأ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العَلق: الآية ١] حتى أتى على آخر السورة، وإن عينيه لتسيلان، ثم أمر به فعُولج عن لسانه ليقطعه فجزع، فقيل له: قطعنا يديك ورجليك وسمَلْنا عينيك يا عدوّ الله فلم تجزع، فلمّا صرنا إلى لسانك جزعت، قال: ما ذاك من جزع إلّا أني أكره أن أكون في الدنيا فواقًا لا أذكر الله، فقطعوا لسانه ثمّ جعلوه في قوصرة فأحرقوه بالنار، والعباس بن عليّ يومئذ صغير، فلم يستأن به بلوغه، وكان ابن ملجم أسمر أبلج في جبهته أثر السجود.

أنبأنا عمر بن محمد بن طبرزد، أنبأنا أبو القاسم بن السمرقندي، أنبأنا أبو بكر بن الطبري، أنبأنا أبو الحسين بن بشران، أنبأنا أبو علي بن صفوان، حدّثنا ابن أبي الدنيا، حدّثني هارون بن أبي يحيىٰ عن شيخ من قريش أنّ عليًا لمّا ضربه ابن ملجم قال: فُزْت وربّ الكعبة.

....

أنبأنا عبد الوهاب بن أبي منصور بن سكينة، أنبأنا أبو الفتح أحمد بن عبد الباقي بن سلمان، أنبأنا أحمد بن الحسين بن خيرون وأحمد بن الحسن الباقلاني كلاهما إجازةً، قالا: أنبأنا أبو عليّ بن شاذان، قال: قُرِىء على أبي محمّد الحسن بن محمد بن يحيىٰ العلويّ، حدّثني جدّي، حدّثنا أحمد بن محمد بن يحيىٰ، حدّثني إسمٰعيل بن أبان الأزدي، حدّثني فضيل بن الزبير، عن عمرو ذي مرّ قال لمّا أُصيب عليّ بالضربة دخلت عليه وقد عصب رأسه، قال: قلت: يا أمير المؤمنين أرِني ضربتك، قال: فحلّها، فقلت: خدش وليس بشيء، قال: إني مفارقكم، فبكَتْ أُمّ كلثوم من وراء الحجاب، فقال لها: اسكتي، فلو ترين ما أرى لَمَا بكيت، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، ماذا ترى؟ قال: هذه الملائكة وفود والنبيّون، وهذا محمّد ﷺ يقول: يا عليّ البشر، فما تصير إليه خير مما أنت فيه، هذه أُمّ كلثوم هي ابنة علي زوج عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، البرك: بضمّ الموحدة وفتح الراء، وبجرة بفتح الباء والجيم، قاله ابن ماكولا، والذي ضبطه أبو عمر بضمّ الباء وسكون الجيم.

أنبأنا عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر الخطيب، أنبأنا أبو سعد المطرز وأبو علي الحدّاد إجازةً، قالا: أنبأنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حدّثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدّثنا محمد بن عبد الله بن أحمد، حدّثنا محمد بن بشر أخي خطاب، حدّثنا عمر بن زُرارة الحدثي، حدّثنا الفياض بن محمد الرقيّ، حدّثنا عمرو بن عبس الأنصاري، عن أبي محتف، عن عبد الرحمٰن بن حبيب بن عبد الله، عن أبيه قال: لمّا فرغ عليّ من وصيّته قال: أقرأ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم لم يتكلم إلّا بلا إلٰه إلّا الله حتى قبضه الله رحمة الله ورضوانه عليه، وغسله ابناه وعبد الله بن جعفر، وصلّى عليه الحسن ابنه وكبّر عليه أربعًا، وكُفِّن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، ودُفِن في السَّحر، قيل: إنّ عليًا كان عنده مسك فضل من حنوط رسول الله ﷺ أوصى أن يحنط به، واختلفوا في عمره، فقال محمد ابن الحنفية: سنة الجحاف حين دخلت سنة إحدى وثمانين هذه لي خمس وستّون سنة، وقد جاوزت سنّ أبي، قال: وكان سنّه يوم قُتل ثلاثًا وستّين سنة. قال الواقدي: وهذا أثبت عندنا، وقال أبو بكر الرقيّ: توفي

....

عليّ وهو ابن سبع وخمسين سنة، وقيل: توفي وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وكانت خلافته خمس سنين إلّا ثلاثة أشهر، وقيل: أربع سنين وتسعة أشهر وستّة أيّام، وقيل: ثلاثة أيام، قال محمد بن عليّ الباقر: كان عليّ آدم مقبل العَيْنين عظيمها ذا بطن أصلع ربعة لا يخضب، وقال أبو إسحٰق السبيعي: رأيته أبيض الرأس واللِّحية، وكان ربما خضب لحيته، وقال أبو رجاء العطاردي: رأيت عليًّا ربعة ضخم البطن كبير اللِّحية قد ملأت صدره أصلع شديد الصلع. وقال محمد بن سعد عن أبي نعيم الفضل بن دُكين عن رزام بن سعد الضبي، قال: سمعت أبي ينعت عليًّا قال: كان رجلًا فوق الربعة، ضخم المنكبين، طويل اللِّحية، وإن شئت قلت: إذا نظرت إليه قلت آدم، إن تبيَّنته من قريب قلت: أن يكون أسمر أدنى من أن يكون آدم. وقال محمد بن سعد: حدّثنا عفان بن مسلم، حدّثنا أبو عوانة، عن مغيرة، عن قدامة بن عتاب قال: كان عليّ ضخم البطن، ضخم مشاش المنكب، ضخم عضلة الذّراع، دقيق مستدقّها، ضخم عضلة الساق، دقيق مستدقّها، قال: ورأيته يخطب في يوم من الشتاء عليه قميص وإزار قطريان معتم بشيء مما ينسج في سوادكم. وقال ابن أبي الدنيا: حدّثني أبو هريرة، حدّثنا عبد الله بن داود، حدّثنا مدرك أبو الحجاج قال: رأيت عليًّا يخطب، وكان من أحسن الناس وجهًا، وقيل: كان كأنما كُسِر ثم جُبِر، لا يغيّر شَيبه، خفيف المشي، ضحوك السنّ، وبالجملة فمناقبه عظيمة كثيرة، فلنقتصر على هذا القدر منها ومَنْ يريد أكثر من هذا، فقد جمعنا مناقبه في كتاب جامع لها، والحمد لله ربّ العالمين ورثاه الناس فأكثروا، فمِنْ ذلك ما قاله أبو الأسود الدُّؤلي وبعضهم يرويها لأُمّ الهيثم بنت العريان النخعيّة:

ألا يا عين وَيْحك أسْعِدينا ... ألا تبكي أمير المؤمنينا
تبكي أُمّ كلثوم عليه ... بعبرتها وقد رأت اليقينا
ألا قل للخوارج حيث كانوا ... فلا قرّت عيون الشامتينا
أفي الشهر الحرام فَجِعْتُمونا ... بخير الناس طرًّا أجمعينا
قتلتم خير مَنْ ركب المطايا ... فذلّلها ومَنْ ركب السَّفينا
ومَنْ لَبِس النِّعال ومَنْ حذاها ... ومَنْ قرأ المَثاني والمبينا

....

وكلّ مناقب الخيرات فيه وحبّ رسول ربّ العالمينا
لقد علمت قريشًا حيث كانوا بأنك خيرها حَسَبًا وديناً
إذا استقبلت وجه إلى حسينٍ رأيت البدر راقَ الناظرينا
وكنّا قبل مقتله بخيرٍ نرى مولى رسول الله فينا
يُقيم الحقّ لا يَرْتاب فيه ويَعْدِل في العِدَا والأقربينا
وليس بكاتم علمًا لديه ولم يخلق من المتجبّرينا
كان الناس إذْ فقدوا عليًّا نعام حار في بلدٍ سنينا
فلا تشمت معاوية بن حربٍ فإن بقيّة الخلفاء فينا

وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب فيه أيضًا:

ما كنتُ أحْسَب أنّ الأمرَ منصرف عن هاشمٍ ثم منها عن أبي حسن
البرّ أوّل مَنْ صلّى القبلة وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وآخر الناس عهدٌ بالنبيّ ومَنْ جبريل عونٌ له في الغسل والكفن
مَنْ فيه ما فيه لا تمترون به وليس في القوم ما فيه من الحسن

وقال إسمٰعيل بن محمد الحميري:

سائل قريشًا به إن كنت زاعمه مَنْ كان أثبتها في الدِّين أوتادا
من كان أقدم إسلامًا وأكثرها علمًا وأطهرها أهلًا وأولادا
مَنْ وحّد الله إذ كانت مكذّبة تدعو من الله أوثانًا وأندادا
مَنْ كان يُقدم في الهيجاء إن نكلوا عنها وإن يبخلوا في أزِمّة جادا
مَنْ كان أعدلها حكمًا وأبسطها كفًّا وأصدقها وعدًا وإيعادا
إن يصدقوك فلن يعدو أبا حسن إن أنت لم تلق للأبرار أحسادا
إن أنت لم تلق أقواماً ذو صلف وذا عناد لحقّ الله جحّادا

ومدائحه ومراثيه كثيرة رضي الله تعالى عنه، فلنقتصر على هذه ففيه كفاية، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. اهـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، وفي تهذيب الأسماء.

إني لأرجو أن أكون أنا **(وعثمان وطلحة والزبير)** منهم.

روى عليّ رضي الله تعالى عنه خمسمائة حديث وستّة وثمانين حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على عشرين، وانفرد البخاري بتسعة ومسلم بخمسة عشر. اهـ.

قوله: (وعثمان) بن عفان بن أبي العاص بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشيّ الأُمويّ، يجتمع هو ورسول الله ﷺ في عبد مناف، يُكنى أبا عبد الله، وقيل: أبا عمرو، وقيل: كان يُكنى أوّلًا بابنه عبد الله وأُمّه رقيّة بنت رسول الله ﷺ، ثم كُنّي بابنه عمرو وأُمّه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، فهو ابن عمّة عبد الله بن عامر، وأُمّ أروى البيضاء بنت عبد المطّلب عمّة رسول الله ﷺ، وهو ذو النورَيْن وأمير المؤمنين. أسلم في أوّل الإسلام، دعاه أبو بكر إلى الإسلام فأسلم، وكان يقول: إني لرابع أربعة في الإسلام.

أخبرنا أبو جعفر بإسناده إلى يونس بن بكير، عن ابن إسحٰق قال: فلمّا أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه عاد إلى الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ، وكان أبو بكر رجلًا مؤلفًا لقومه محببًا سهلًا، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشرّ، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعِلْمه وتجاربه وحُسْن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام مَنْ وَثَق به مِنْ قومه ممّن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه فيما بلغني الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان. وطلحة بن عبيد الله، وذكر غيرهم، فانطلقوا ومعهم أبو بكر حتى أتوا رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن وأنبأهم بحقّ الإسلام، فآمنوا فأصبحوا مقرّين بحقّ الإسلام، فكان هؤلاء الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام فصلّوا وصدقوا، ولمّا أسلم عثمان زوّجه رسول الله ﷺ بابنته رقيّة، وهاجرا كلاهما إلى أرض الحبشة الهجرتين، ثم عاد إلى مكّة وهاجر إلى المدينة، ولمّا قَدِم إليها نزل على أوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت، ولهذا كان حسّان يحبّ عثمان ويبكيه بعد قتله، قاله ابن إسحٰق. وتزوّج بعد رقيّة أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ، فلمّا توفّيت قال رسول الله ﷺ: «لو إنْ لنا ثالثة لزوَّجناك».

....

أخبرنا أحمد بن عثمان بن أبي علي، قال: أخبرنا أبو رشيد عبد الكريم بن أحمد بن منصور، حدّثنا أبو مسعود سليمان بن إبراهيم بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو بكر بن مردويه الحافظ، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن إسحٰق المفسّر المقرىء، حدّثنا محمد بن إبراهيم بن مردويه، حدّثنا علي بن أحمد بن بسطام، أخبرنا سهل بن عثمان، حدّثنا النضر بن منصور العنزي، حدّثنا أبو المحبوب عقبة بن علقمة، قال: سمعت عليّ بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنّ لي أربعين بنتًا زوّجت عثمان واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهنّ واحدة»، ووُلِد لعثمان ولد من رقيّة اسمه عبد الله، فبلغ ستّ سنين وتوفي سنة أربع من الهجرة، ولم يشهد عثمان بدرًا بنفسه؛ لأن زوجته رقيّة بنت رسول الله ﷺ كانت مريضة على الموت، فأمره رسول الله ﷺ أن يقيم عندها، فأقام وتوفيت يوم ورد الخبر بظفر النبيّ ﷺ والمسلمين بالمشركين، لكن رسول الله ﷺ ضرب له بسهمه وأجره، فهو كمن شهدها، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنّة.

أخبرنا الخطيب أبو الفضل عبد الله بن أبي نصر، قال: أخبرنا نصر بن أحمد أبو الخطاب إجازةً إنْ لم يكن سماعًا، أخبرنا أحمد بن طلحة بن هارون، أخبرنا أحمد بن سليمان، حدّثنا يحيىٰ بن جعفر، حدّثنا عليّ بن عاصم، حدّثني عثمان بن غياث، حدّثني أبو عثمان النَّهْدي، عن أبي موسى الأشعري، قال: كنت مع رسول الله ﷺ في حديقة بني فلان والباب علينا مغلق إذ استفتح رجل، فقال النبيّ ﷺ: «يا عبد الله بن قيس، فافتح له الباب وبشّره بالجنّة»، فقمت ففتحت الباب فإذا أنا بأبي بكر الصدّيق فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ، فحمد الله ودخل فسلّم وقعد، ثم أغلقت الباب، فجعل النبيّ ﷺ ينكت بعودٍ في الأرض فاستفتح آخر، فقال: «يا عبد الله بن قيس، قم فافتح الباب وبشّره بالجنّة»، فقمت ففتحت فإذا أنا بعمر بن الخطاب، فأخبرته بما قال النبيّ ﷺ. فحمد الله ودخل فسلّم وقعد وأغلقت الباب، فجعل النبيّ ﷺ ينكت بذلك العود في الأرض إذ استفتح الثالث الباب، فقال النبيّ ﷺ: «يا عبد الله بن قيس قم فافتح الباب له وبشّره بالجنّة على بلوى تكون»، فقمت ففتحت الباب فإذا أنا

....

بعثمان بن عفان، فأخبرته بما قال النبيّ ﷺ، فقال: الله المُستعان وعليه التّكلان. ثم دخل فسلّم وقعد.

أخبرنا أبو منصور بن مكارم، أخبرنا أبو القاسم نصر بن أحمد بن صفوان. أخبرنا أبو الحسن عليّ بن أحمد بن السراج، أخبرنا أبو طاهر هبة الله بن إبراهيم بن أنس، أخبرنا أبو الحسن عليّ بن عبيد الله بن طوق، أخبرنا أبو جابر زيد بن عبد العزيز بن حيان، حدّثنا محمد بن عبد الله بن عمّار، حدّثنا المعافى بن عمران، عن سعيد بن الحجّاج، عن الحرّ بن الصياح، قال: سمعت عبيد الله بن الأخنس قال: قَدِم سعيد بن زيد هو ابن عمرو بن نفيل، فقال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر في الجنّة، وعمر في الجنّة، وعثمان في الجنّة، وعليّ في الجنّة، وطلحة في الجنّة، والزُّبير في الجنّة، وعبد الرحمٰن بن عوف في الجنّة، وسعد في الجنّة» والآخر لو شئت سمّيته ثم سمّى نفسه، قال: وحدّثنا المعافى بن عمران، حدّثنا سفيان، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن أبي طالب، عن سعيد بن زيد أنّ رجلًا قال له: أحببت عليًا حبًا لم أحبّه شيئًا قطّ، قال: أحسنت أحببت رجلًا من أهل الجنّة، قال: وأبغضت عثمان بغضًا لم أبغضه شيئًا قطّ، قال: أسأت، أبغضت رجلًا من أهل الجنّة، ثم أنشأ يحدث، قال: بينما رسول الله ﷺ على حِراء ومعه أبو بكر وعُمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير، قال: «اثبت حِراء ما عليك إلّا نبيّ أو صدّيق أو شهيد».

أخبرنا أحمد بن عثمان بن أبي عليّ، أخبرنا أبو رشيد عبد الكريم بن أحمد بن منصور، أخبرنا أبو مسعود سليمان بن إبراهيم بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو بكر بن مردويه، حدّثنا أحمد بن عبد الله بن أحمد، حدّثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدّثنا بشر بن موسى، حدّثنا سعيد بن منصور، حدّثنا أبو الأحوص، عن إبراهيم الأسدي، عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: قال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا عثمان ما قدَّمت وما أخّرت وما أسْرَرْت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة».

....

أخبرنا أبو الفرج يحيىٰ بن محمود الثقفيّ، أخبرنا الحسن بن أحمد وأنا حاضر أسمع، أخبرنا أحمد بن عبد الله الحافظ، حدّثنا أبو بكر بن الخلاد، حدّثنا الحارث بن أبي أُسامة (ح) قال أبو نعيم: وحدّثنا عبد الله بن الحسن بن بندار، حدّثنا محمد بن إسماعيل الصائغ، قالا: حدّثنا روح بن عبادة، حدثنا سعيد بن قتادة عن أنس، قال: صعد النبيّ ﷺ أُحدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف الجبل فقال: «اثبت نبيّ وصدّيق وشهيدان».

أخبرنا أبو البركات الحسن بن محمّد بن هبة الله الشافعي الدمشقي، أخبرنا أبو العشائر محمد بن خليل القيسي، أخبرنا أبو القاسم علي بن محمد بن علي المصيصيّ، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمٰن بن عثمان بن القاسم، حدّثنا أبو الحسن خيثمة بن سليمان بن حَيْدرة الأطرابلسي، حدّثنا أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد بن سليمان البنّا بصنعاء، حدّثنا إبراهيم بن أحمد اليمامي، حدّثنا يزيد بن أبي حكيم، حدّثنا سفيان الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣]، قال: نزلت في عَشرة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود.

أخبرنا أبو محمد الحسن بن عليّ بن أبي القاسم الحسين بن الحسن الأسديّ، أخبرنا جدّي أبو القاسم قال: قرأت على أبي القاسم عليّ بن محمد المصيصيّ، أخبرنا أبو نصر محمد بن أحمد بن هارون بن موسى بن عبد الله الغسّاني، أخبرنا أبو الحسن خيثمة بن سليمان بن حَيْدرة، حدّثنا هلال بن العلاء، حدّثنا أبي وعبد الله بن جعفر قالا: حدّثنا عبد الله بن عمر، عن زيد بن أبي أنيسة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم قال: حدّثنا أبو سهلة مولى عثمان قال: قلت لعثمان يوم الدار: قاتِل يا أمير المؤمنين، وقال عبد الله: قاتِل يا أمير المؤمنين، قال: لا والله لا أُقاتل، وعدني رسول الله ﷺ أمرًا فأنا صائرٌ إليه. قال: وحدّثنا هلال، حدّثنا أبي، حدّثنا إسحٰق الأزرق، حدّثنا أبو سفيان، عن الضحّاك بن مزاحم، عن النزّال بن سبرة الهلالي، قال: قلنا لعليّ:

....

يا أمير المؤمنين فحدّثنا عن عثمان بن عفان، فقال: ذاك امرؤٌ يُدعى في الملأ الأعلى ذا النورين، كان ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه، ضمن له بيتًا في الجنّة.

أخبرنا إسماعيل بن عبيد وإبراهيم بن محمد وغيرهما بإسنادهم إلى محمد بن عيسى، قال: حدّثنا أبو هشام الرّفاعي، حدّثنا يحيى بن اليمان، عن شيخ من بني زُهرة، عن الحارث بن عبد الرحمٰن بن أبي ذياب، عن طلحة بن عبيد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبيّ رفيق، ورفيقي ـ يعني في الجنّة ـ عثمان». قال: وحدّثنا محمد بن عيسى، حدّثنا أبو زرعة، حدّثنا الحسن بن بِشْر، حدّثنا الحَكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: لمّا أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكّة، قال: فبايع الناس، قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنّ عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله»، فضرب بإحدى يديه على أخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم.

قال: وحدّثنا محمد بن عيسى، حدّثنا محمد بن بشار، حدّثنا عبد الوهاب الثقفي، حدّثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني أن خُطباء قامت في الشام فيهم رجال من أصحاب النبيّ ﷺ، فقام آخرهم رجل يقال له مرّة بن كعب، فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت ذَكَر الفتن فقربها، فمرّ رجل مقنّع في ثوب، فقال: «هذ يومئذٍ على الهدى»، فقمت إليه فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: نعم. ورُوِي نحو هذا عن ابن عمر، قال: وحدّثنا محمد بن عيسى، حدّثنا أحمد بن إبراهيم الدّورقي، حدّثنا العلاء بن عبد الرحمٰن العطار، حدّثنا الحارث بن عمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر قال: كذا نقول ورسول الله ﷺ حيّ وأبو بكر وعمر وعثمان، فقيل في التفضيل، وقيل في الخلافة.

أخبرنا أبو ياسر بإسناده عن عبد الله بن أحمد، حدّثني أبي، حدّثني أبو قطن، حدّثنا يونس، عن ابن أبي إسحٰق، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن، قال: أشرف عثمان من القصر وهو محصور، فقال: أنشد بالله مَنْ

....

سمع رسول الله ﷺ يوم حِراء إذ اهتزّ الجبل فركله[١] برجله ثم قال: «اسكن حِراء، ليس عليك إلا نبيّ أو صدّيق أو شهيد» وأنا معه، فانتشد له رجال، ثم قال: أنشد بالله مَنْ شَهِد رسول الله ﷺ يوم بَيْعة الرضوان إذ بعثني إلى المشركين إلى أهل مكّة، قال: «هذه يدي وهذه يد عثمان»، فبايع لي، فانتشد له رجال قال: أنشد بالله مَنْ شهد رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يوسع لنا هذا البيت في المسجد ببيت له في الجنّة»، فابتعته من مالي، فوسعت به في المسجد، فانتشد له رجال ثم قال: وأنشد بالله مَنِ شهد رسول الله ﷺ يوم جيش العسرة قال: «مَنْ ينفق اليوم نفقة متقبّلة»، فجهّزت نصف الجيش من مالي، فانتشد له رجال، قال: وأنشد بالله مَنْ شهد رومة يباع ماؤها من ابن السبيل فابتعتها من مالي فأبحتها ابن السبيل؟ فانتشد له رجال. قال: وحدّثنا عبد الله، حدّثنا أبيّ، حدّثنا عبد الصمد، حدّثنا القاسم، يعني ابن الفضل، حدّثنا عمرو بن مرّة، عن سالم بن أبي الجعد قال: دعا عثمان ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم عمّار بن ياسر، فقال: إني سائلكم وإني أحبّ أن تصدقوني، نشدتكم بالله أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ كان يُؤْثر قريشًا على سائر الناس، ويُؤثر بني هاشم على سائر قريش؟ فسكت القوم، فقال عثمان: لو أن بيدي مفاتيح الجنّة لأعطيتها بني أُميّة حتى يدخلوا من عند آخرهم، فبعث إلى طلحة والزبير، فقال عثمان: ألا أُحدّثكم عنه ـ يعني عمّارًا ـ أقبلت مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي نتمشّى في البطحاء حتى أتى على أبيه وأُمّه يعذّبون، فقال أبو عمّار: يا رسول الله، الدهر هكذا؟ فقال له النبيّ ﷺ: «اصبر»، ثمّ قال: «اللّهمّ اغفر لآل ياسر، وقد فعلتَ». قال: وحدّثنا أبي، حدّثنا حجّاج، حدّثنا ليث، حدّثني عقيل، عن ابن شهاب، عن يحيىٰ بن سعيد بن العاص أنّ سعيد بن العاص أخبره أنّ عائشة زوج النبيّ ﷺ وعثمان حدّثاه أن أبا بكر استأذن على النبيّ ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابسٌ مِرْط عائشة، فأذن له وهو كذلك، فقضى إليه حاجته ثم انصرف ثم استأذن عمر فأذن له، وهو على تلك الحال، فقضى إليه حاجته ثم انصرف قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس وقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك» فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت، قالت عائشة: يا رسول الله لم أرك

(١) أي رفسه، ١٢. أي ركضه برجله، ١٢.

....

فزعت لأبي بكر ولا عمر كما فزعت لعثمان، قال رسول الله ﷺ: «إنّ عثمان رجلٌ حيي، وإني خشيت إن أذنت على تلك الحال أن لا يبلغ إليّ حاجته». وقال اللّيث: قال جماعة الناس: ألا أستحي، ممّن تستحي منه الملائكة.

خـلافته:

أخبرنا مسمار بن عمر بن العويس وأبو الفرج محمد بن عبد الرحمٰن الواسطي وغير واحد قالوا بإسنادهم إلى محمد بن إسماعيل، قال: حدّثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا أبو عوانة، عن حصين، عن عمرو بن ميمون، قال: رأيت عمر قبل أن يُصاب بأيّام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان، وعثمان بن حنيف فقال: كيف فعلتما؟ أتخافا أن تكونا حمّلتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: حمّلناها أمرًا هي له مطيقة، وذكر قصة قتل عمر رضي الله تعالى عنه، قال: فقالوا له: أوْصِ يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أجد أحدًا أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النّفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمّى عليًّا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمٰن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمرة سعد فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيّكم ما أُمِّرَ فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة، وقال: أوصى الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأوّلين أن يُعرف لهم حقّهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوّؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يُقبل مِنْ مُحسنهم، وأن يُغضى عن مُسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا، فإنهم ردء الإسلام وجباة[1] المال وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم، وأُوصيه بالأعراب خيرًا، فإنهم أُصل العرب ومادّة الإسلام، وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويردّ على فقرائهم. وأُوصيه بذمّة الله وذمّة رسوله، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل مِنْ ورائهم ولا يكلّفوا إلا طاقتهم؛ فلمّا قُبِض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلّم عبد الله بن عمر وقال: يستأذن عمر بن الخطاب، فقال ـ يعني عائشة ـ: أدخلوه، فأُدخل، فوُضِع هنالك مع صاحبيه، فلما فُرِغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمٰن: اجعلوا

(١) في المصباح: جبيت المال والخراج أجبيته جِباية: جمعته، انتهى. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

أمركم إلى ثلاثة منكم، قال الزبير: قد جعلت أمري إلى عليّ، وقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلتُ أمري إلى عبد الرحمٰن، فقال عبد الرحمٰن: أيّكما يبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه، فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمٰن: أفتجعلونه إليّ والله عليّ أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالا: نعم، فقال: بيد أحدهما، فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمّرتك لتعدلنّ ولئن أمّرت عثمان لتسمعنّ ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك. فلمّا أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه وبايع له عليّ وولج أهل الدار فبايعوه، وبُويع عثمان بالخلافة يوم السبت غرّة المحرَّم سنة أربع وعشرين بعد دفن عمر بن الخطاب بثلاثة أيّام، قاله أبو عمر.

قُتِل عثمان رضي الله تعالى عنه بالمدينة يوم الجمعة لثمان عشرة أو سبع عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة، قاله نافع. وقال أبو عثمان النّهدي: قُتل في وسط أيّام التشريق. وقال ابن إسحٰق: قُتل عثمان على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرًا واثنتين وعشرين يومًا من مقتل عمر بن الخطاب، وعلى رأس خمس وعشرين من متوفّى رسول الله ﷺ. وقال الواقدي: قُتل يوم الجمعة لثمان ليالٍ خلت من ذي الحجة يوم التروية سنة خمس وثلاثين. وقد قيل إنه قُتل يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجّة. وقال الواقدي: حصروه تسعة وأربعين يومًا، وقال الزبير: حصروه شهرين وعشرين يومًا.

أخبرنا عبد الوهاب بن هبة الله بإسناده إلى عبد الله بن أحمد، حدّثني أبي، حدّثنا إسحٰق بن عيسى الطبّاع، عن أبي معشر، قال: وقُتل عثمان يوم الجمعة لثمان عشرة مضت من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يومًا، وقيل: كانت إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرًا وأربعة عشر يومًا، قال: وحدّثنا عبد الله، حدّثني أبي، حدّثنا عثمان بن أبي شيبة، حدّثنا يونس، عن أبي اليعفور العبدي، عن أبيه، عن أبي سعيد مولى عثمان بن عفان، أن عثمان أعتق عشرين مملوكًا ـ يعني وهو محصور ـ ودعا بسراويل فشدّها عليه

....

ولم يلبسها في جاهليّة ولا إسلام، وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ البارحة في المنام ورأيت أبا بكر وعمر، وقالوا لي: اصبر، فإنك تقطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه، فقُتل وهو بين يديه.

أخبرنا إبراهيم بن محمد وغير واحد بإسنادهم إلى أبي عيسى، قال: حدّثنا محمود بن غيلان، حدّثنا حجير بن المثنّى، حدّثنا اللّيث بن سعد، عن معاوية بن صالح، عن ربيعة بن يزيد، عن عبد الله بن عامر، عن النّعمان بن بشير، عن عائشة أنّ النبيّ ﷺ قال: «يا عثمان، إنّه لعل الله يقمصك قميصًا، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم».

وأخبرنا أحمد بن عثمان بن أبي عليّ، أخبرنا أبو رشيد عبد الكريم بن أحمد بن منصور، أخبرنا أبو مسعود سليمان، أخبرنا أبو بكر بن مردويه، أخبرنا أبو علي بن شاذان، حدّثنا عبد الله بن إسحٰق، حدَّثنا محمد بن غالب، حدّثنا الفضل بن جُبير الورّاق، حدّثنا خالد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنّ النبيّ ﷺ قال لعثمان: «تُقتل وأنت مظلوم وتقطر قطرة من دمك على فسيكفيكهم الله»، قال: فإنها إلى الساعة لفي المصحف، ولما حُصِر عثمان وطال حصره والذين حصروه هم من أهل مصر والبصرة والكوفة ومعهم بعض أهل المدينة أرادوه على أن ينزع نفسه من الخلافة فلم يفعل، وخافوا أن تأتيه الجيوش من الشام والبصرة وغيرهما، ويأتي الحجّاج فيهلكوا فتسوّروا عليه فقتلوه رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وقد ذكرنا كيفيّة قتله وخلافته وجميع فتوحه وأحواله وما نقموا عليه حتى حصروه ومَن الذي حرّض الناس على الخروج عليه في كتاب الكامل في التاريخ، فلا نرى أن نطول بذكره هٰهنا، ولمّا قُتل دُفِن ليلًا وصلّى عليه جبير بن مطعم، وقيل: حكيم بن حزام، وقيل: المسور بن مخرمة، وقيل: لم يصلّ عليه أحد مُنِعوا من ذلك، ودُفِن في حُشّ[1] كوكب بالبقيع، وكان عثمان قد اشتراه وزاده في البقيع وحضره عبد الله بن الزبير وامرأتاه أُمّ البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية ونائلة بنت الفرافصة الكلبية،

---

(١) وحُشّ كَوْكَبٍ موضع من المدينة المنوّرة. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

فلمّا دلوه في القبر صاحت ابنته عائشة، فقال لها ابن الزبير: اسكتي وإلا قتلتك، فلمّا دفنوه قال لها: صيحي الآن ما بدا لك أن تصيحي.

أخبرنا أبو ياسر بن أبي حبة بإسناده إلى عبد الله بن أحمد، حدّثني عثمان بن أبي شيبة، حدّثنا جرير، عن جرير، عن أُمّ موسى قالت: كان عثمان من أجمل الناس، وقيل: كان ربعة لا بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، رقيق البشرة، كبير اللّحية، أسمر اللّون، كثير الشعر، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، كان يصفّر لحيته ويشدّ أسنانه بالذهب، وكان عمره اثنتين وثمانين سنة، وقيل: ستّ وثمانون سنة، قاله قتادة. وقيل: كان عمره تسعين سنة، ورثاه كثير من الشعراء، قال حسان بن ثابت:

مَنْ سرّه الموت صرفاه لا مزاج له فليأتِ مأدبة في دار عثمانا
ضحّوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحًا وقرآنا
صبرًا فدى لكم أُمي وما وَلدت قد ينفع الصبر في المكروه أحيانا
لتسمعنّ وشيكًا في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

وزاد فيها بعض أهل الشام أبياتًا لا حاجة إلى ذكرها، ومنها:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان بين عليّ وابن عفّانا

وإنما زادوا فيها تحريضًا لأهل الشام على قتال عليّ ليقوى ظنّهم أنه هو قتله، وقال حسّان أيضًا:

إن تمس دار بني عفان مُوحشةً باب صريع وباب محرق خَرِبِ
فقد يصادف باغي الخير حاجته فيها ويأوي إليها الجود والحسب

وقال القاسم بن أُميّة بن أبي الصّلت:

لعمري لبئس الذبح ضحيتم به خلاف رسول الله يوم الأضاحيا

ورثاه غيرهما من الشعراء، فلا نطول بذكره، أخرجه الثلاثة. اهـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، وفي تهذيب الأسماء.

....

رُوِيَ لعثمان رضي الله تعالى عنه مائة حديث وستّة وأربعون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على ثلاثة، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بخمسة.

قوله: (وطلحة) بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لُؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النّضر بن كِنانة، أبو محمد القرشيّ التيميّ، وأُمّه الصعبة بنت عبد الله بن مالك الحضرميّة، يُعرف بطلحة الخير وطلحة الفياض، وهو من السابقين الأوّلين إلى الإسلام، دعاه أبو بكر الصدّيق إلى الإسلام، فأخذه ودخل به على رسول الله ﷺ، فلمّا أسلم هو وأبو بكر أخذهما نوفل بن خُوَيْلد بن العدويّة فشدّهما في حبلٍ واحد ولم يمنعهما بنو تَيْم، وكان نوفل أشدّ قريش، فلذلك كان أبو بكر وطلحة يسمّيان القرينان. وقيل: إنّ الذي قرنهما عثمان بن عبيد الله أخو طلحة، فشدّهما ليمنعهما عن الصلاة وعن دينهما، فلم يُجيباه فلم يرعهما إلّا وهما مطلقان يصلّيان، ولمّا أسلم طلحة والزبير آخى رسول الله ﷺ بينهما بمكّة قبل الهجرة، فلمّا هاجر المسلمون إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بين طلحة وبين أبي أيوب الأنصاري، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة وأحد أصحاب الشورى، ولم يشهد بدرًا؛ لأنه كان في الشام، فقدِم بعد رجوع رسول الله ﷺ من بدر، فكلّم رسول الله ﷺ في سهمه، فقال: «لك سهم»، قال: وأجري؟ قال: «وأجرك»، فقيل: كان في الشام تاجرًا، وقيل: بل أرسله رسول الله ﷺ ومعه سعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسّسان الأخبار ثم رجعا إلى المدينة، وهذا أصحّ؛ ولولا ذلك لم يطلب سهمه وأجره، وشهد أُحُدًا وما بعدها من المشاهد، وبايع بيعة الرضوان، وأبلى يوم أُحد بلاءً عظيمًا، ووقى رسول الله ﷺ بنفسه واتّقى عنه النّبْل بيده حتى شُلّت أصبعه وضرب ضربة على رأسه وحمل رسول الله ﷺ على ظهره حتى صعد الصخرة.

أخبرنا أبو الفرج بن أبي الرجاء الأصبهاني إجازةً بإسناده إلى أبي بكر بن أبي عاصم، حدّثنا الحسن بن عليّ، حدّثنا سليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، أخبرني أبي، عن جدّي، عن موسى بن طلحة، عن

....

أبيه طلحة، قال: سمّاني رسول الله ﷺ يوم أُحد طلحة الخير، ويوم العَسرة طلحة الفياض، ويوم حُنين طلحة الجود.

أخبرنا إبراهيم بن محمد بن مهران الشافعي وغير واحد بإسنادهم إلى أبي عيسى محمد بن عيسى قال أبو سعيد الأشج: حدّثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحٰق، عن يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جدِّه عبد الله بن الزبير، عن الزبير قال: كان على رسول الله ﷺ يوم أُحد درعان، فنهض إلى الصخرة فلم يستطع، فأقعد تحته طلحة، فصعد النبيّ ﷺ حتى استوى على الصخرة، قال: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أوجب طلحة»، قال: وحدّثنا أبو سعيد الأشجّ، حدّثنا أبو عبد الرحمٰن بن منصور العنزي اسمه النّضر، عن عقبة بن علقمة اليشكري، قال: سمعت عليّ بن أبي طالب يقول: سَمِعَت أذني رسول الله ﷺ يقول: «طلحة والزبير جاراي في الجنّة».

أخبرنا أبو بكر ممشاد بن عمر بن العويس البنّاء، أخبرنا أبو العباس أحمد بن أبي غالب الطلابة، أخبرنا أبو القاسم عبد العزيز بن علي بن أحمد بن الحسين الأنماطي، أخبرنا أبو طاهر المخلص، حدّثنا عبد الله بن محمد البغوي، حدّثنا داود بن رشيد، حدّثنا مكّيّ بن إبراهيم، حدّثنا الصّلت بن دينار، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على رجليه، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

أخبرنا أبو الفضل المنصور بن أبي الحسن بن أبي عبد الله الطبري بإسناده عن أبي يعلى، عن أبي كُرَيْب، حدّثنا يونس بن بكير، عن طلحة بن يحيىٰ، عن موسى وعيسى ابني طلحة، عن أبيهما أنّ أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابيّ جاء يسأله عمّن قضى نحبه مَنْ هو؟ قال: فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إني اطّلعت من باب المسجد وعليّ ثياب خضر، فلما رآني رسول الله ﷺ قال: «أين السّائل عمّن قضى نحبه»؟ قال الأعرابيّ: أنا يا رسول الله، قال: «هذا مَنْ قضى نحبه». وقُتِل طلحة يوم الجمل، وكان شهد ذلك اليوم محاربًا لعليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، فزعم

....

بعض أهل العلم أن عليًّا دعاه، فذكره أشياء من سوابقه على ما قال للزبير، فرجع عن قتاله، واعتزل في بعض الصفوف، فرُمِيَ بسهم في رجله، وقيل: إنّ السَّهم أصاب ثغرة نحره، فمات. رماه مروان بن الحكم.

رَوى عبد الرحمٰن بن مهدي، عن حماد بن زيد، عن يحيىٰ بن سعيد، قال: قال طلحة يوم الجمل:

ندمت ندامة الكسعيّ لما   شربت رضى بني جرم برغمي

اللّهمّ خذ لعثمان مني حتى يرضى، وإنما قال ذلك لأنّه كان شديدًا على عثمان رضي الله تعالى عنهما. وقال عليّ: لمّا بلغه مسير طلحة والزبير وعائشة منيت بأربعة: أدهى الناس وأسخاهم طلحة، وأشجع الناس الزبير، وأطوع الناس في الناس عائشة، وأكثر الناس غنًى يعلى بن منبه، والله ما أنكروا عليّ شيئًا منكرًا ولا استأثرت بمال ولا مِلت بهوى، وإنهم يطلبون حقًّا تركوه، ودمًا سفكوه، ولقد ولّوه دوني، وإن كنت شريكهم في الإنكار لما أنكروه، وما تبعة عثمان إلا عندهم بايعوني ونكثوا بيعتي، وما استبانوا فيّ حتى يعرفوا جوري من عدلي، وإني لراضٍ بحجّة الله عليهم وعلمه فيهم، وإني مع هذا لداعيهم ومعذر إليهم فاقبلوه، فالتوبة مقبولة والحقّ أوْلى ما انصرف إليه، وإن أبَوْا أعطيتهم حدّ السيف وكفى به شافيًا من باطل وناصرًا.

ورُوِيَ عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة وعثمان والزُّبير ممّن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحِجر: الآية ٤٧].

وكان سبب قتل طلحة أنّ مروان بن الحكم رماه بسهم في ركبته، فجعلوا إذا أمسكوا فم الجرح انتفخت رجله، وإذا تركوه جرى، فقال: دعوه، فإنما هو سهمٌ أرسله الله تعالى، فمات منه. وقال مروان: لا أطلب بثأري بعد اليوم، والتفت إلى أبان بن عثمان فقال: قد كفيتك بعض قَتَلة أبيك. ودُفِن إلى جانب الكلا، وكانت وقعة الجمل لعشرٍ خلون من جمادى الآخرة سنة ستّ وثلاثين، وكان عمره ستّين سنة، وقيل: اثنتان وستّون سنة، وقيل: أربع وستّون سنة، وكان آدم حسن الوجه

....

كثير الشّعر ليس بالجعد القطط ولا السبط، وكان لا يغيّر شيبه، وقيل: كان أبيض يضرب إلى الحُمرة، مربوعًا إلى القصر أقرب، رحب الصدر، عريض المنكبين، إذا التفت التفت جميعًا، ضخم القدمين. قال الشعبي: لمّا قُتِل طلحة ورآه عليّ مقتولًا جعل يمسح التراب عن وجهه، وقال: عزيزٌ عليّ أبا محمد أن أراك مجندلًا تحت نجوم السماء، ثم قال: إلى الله أشكو عجري وبجري، وترحّم عليه، وقال: ليتني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة، وبكى هو وأصحابه عليه، وسمع عليّ رجلًا ينشد:

فتى كان يُدْنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

فقال: ذاك أبو محمد طلحة بن عبيد الله رحمه الله. قال سفيان بن عُيَيْنة: كانت غلّة طلحة كل يوم ألفًا وافيًا. قال الواقدي: والوافي وزنه وزن الدينار هي وزن دراهم فارس التي تعرف بالبغليّة.

وروى حماد بن سلمة، عن عليّ بن زيد، عن أبيه أنّ رجلًا رأى في منامه أن طلحة بن عبيد الله قال: حوّلوني عن قبري، فقد آذاني الماء، ثم رآه أيضًا حتى رآه ثلاث ليال، فأتى ابن عباس فأخبره فنظروا فإذا شقّه الذي يلي الأرض قد اخضرّ من نزّ الماء، فحوّلوه، فكأني أنظر إلى الكافور في عينيه لم يتغيّر إلا عقيصته، فإنها مالت عن موضعها، فاشتروا له دارًا من دور أبي بكر بعشرة آلاف درهم، فدفنوه فيها.

أخبرنا عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر، أخبرنا أبو الخطّاب بن نضر إجازةً إنْ لم يكن سماعًا، حدّثنا محمد بن أحمد بن رزق، حدّثنا مكرم بن أحمد القاضي، حدّثنا سعيد بن محمد أبو عثمان الأنجدابي، حدّثنا إبراهيم بن الفضل بن أبي سويد، حدّثنا حماد بن سلمة، حدّثنا عليّ بن زيد، عن سعيد بن المسيّب أنّ رجلًا كان يقع في عليّ وطلحة والزبير، فجعل سعد بن مالك ينهاه ويقول: لا تقع في إخواني، فأبى فقام سعد فصلّى ركعتين ثمّ قال: اللّهمّ إنْ كان مسخطًا لك فيما يقول فأرني فيه آفة واجعله للناس آية، فخرج الرجل فإذا هو ببختيّ يشق الناس، فأخذه بالبلاط فوضعه بين كركرته والبلاط فسحقه حتى قتله، فأنا رأيت الناس

....

يتبعون سعدًا ويقولون: هنيئًا لك أبا إسحٰق أُجيبت دعوتك، أخرجه الثلاثة[١].اهـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، وفي تهذيب الأسماء.

رُوِيَ لطلحة عن رسول الله ﷺ ثمانية وثلاثون حديثًا، واتّفقا منها على حديثين، وانفرد البخاري بحديثين، ومسلم بثلاثة.اهـ.

قوله: (والزبير) بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قُصَيّ بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤيّ القرشيّ الأسديّ، يُكنى أبا عبد الله، أُمّه صفية بنت عبد المطّلب عمّة رسول الله ﷺ، فهو ابن عمّة رسول الله ﷺ وابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبيّ، وكانت أُمّه تكنيه أبا الطاهر بكنية أخيها الزبير بن عبد المطّلب، واكتنى هو بأبي عبد الله بابنه عبد الله، فغلبت عليه وأسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، قاله هشام بن عروة. وقال عروة: أسلم الزبير وهو ابن اثنتي عشرة سنة، رواه أبو الأسود عن عروة. وروى هشام بن عروة عن أبيه أنّ الزبير أسلم وهو ابن ستّ عشرة سنة، وقيل: أسلم وهو ابن ثماني سنين، وكان إسلامه بعد أبي بكر رضي الله تعالى عنه بيسير، كان رابعًا أو خامسًا في الإسلام، وهاجر إلى الحبشة وإلى المدينة، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود، لما آخى بين المهاجرين بمكّة، فلمّا قدم المدينة وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين سلمة بن وقش.

أخبرنا أبو ياسر عبد الوهاب بن أبي حبّة بإسناده إلى عبد الله بن أحمد، قال: حدّثني أبي، أخبرنا زكرياء بن عدي، أخبرنا علي بن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن مروان ولا إخاله يتّهم علينا قال: أصاب عثمان الرعاف سنة الرعاف حتى تخلّف عن الحجّ وأوصى فدخل عليه رجل من قريش، فقال: استخلف، قال: وقالوه؟ قال: نعم، قال: مَنْ هو؟ قال: فسكت، ثم دخل عليه رجل آخر فقال مثل ما قال الأول وردَّ عليه نحو ذلك، قال: فقال عثمان: الزبير بن العوام؟ قال: نعم، قال: أمَا والذي نفسي بيده إنْ كان لأخيرهم ما علمت وأحبّهم إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) أي: ب د ع، ١٢.

....

أخبرنا أبو الفداء إسماعيل بن عبيد الله وغير واحد بإسنادهم إلى أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، قال: حدّثنا هناد، أخبرنا عبدة عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير قال: جمع لي رسول الله ﷺ أبويه يوم قُرَيْظة، فقال: «بأبي وأمّي».

قال: وأخبرنا أبو عيسى، أخبرنا أحمد بن منيع، أخبرنا معاوية بن عمرو، وأخبرنا زائدة، عن عاصم، عن زرّ، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبيٍّ حواريًّا، وحواريّ الزبير بن العوام»، ورُوِي عن جابر نحوه، وقال أبو نعيم: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب لمّا قال: «مَنْ يأتينا بخبر القوم؟» قال الزبير: أنا، قالها ثلاثًا، والزبير يقول: أنا. قال: وأخبرنا أبو عيسى، أخبرنا قتيبة، أخبرنا حمّاد بن زيد، عن صخر بن جُويرية، عن هشام بن عروة، قال: أوصى الزبير إلى ابنه عبد الله صبيحة الجمل فقال: ما مني عضو إلّا قد جُرِح مع رسول الله ﷺ، حتى انتهى ذلك إلى فرجه، وكان الزبير أوّل مَنْ سلَّ سيفًا في الله عزّ وجلّ، وكان سبب ذلك أنّ المسلمين لمّا كانوا مع النبيّ ﷺ بمكّة وقع الخبر أن النبيّ ﷺ قد أخذه الكفار، فأقبل الزبير يشقّ الناس بسيفه والنبيّ ﷺ بأعلى مكّة، فقال له: «ما لك يا زبير؟» قال: أُخبرتُ أنك أُخِذْت، فصلّى عليه النبيّ ﷺ ودعا له ولسيفه، وسمع ابن عمر رجلًا يقول: أنا ابن الحواري، قال: إن كنت ابن الزبير، وإلّا فلا. وشَهِد الزبير بدرًا، وكان عليه عمامة صفراء معتجرًا بها، فيقال: إنّ الملائكة نزلت يومئذ على سيما الزُّبير، وشهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ أُحدًا والخندق والحُديبية وخيبر والفتح وحُنَيْنًا والطائف، وشَهِد فتح مصر وجعله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في الستّة أصحاب الشورى الذين ذكرهم للخلافة بعده، وقال: هم الذين توفّي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة.

أخبرنا أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ، قال: أخبرنا أبو العشائر محمد بن خليل بن فارس القيسيّ، أخبرنا أبو القاسم

....

عليّ بن محمد بن عليّ المصيصيّ، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمٰن بن عثمان بن القاسم بن أبي نصر، أخبرنا أبو خيثمة بن سليمان بن حَيْدرة، أخبرنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي، أخبرنا محمد بن الصباح، أخبرنا إسماعيل بن زكرياء، عن النضر أبي عمر الجزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ لمّا انتفض حراء قال: «اسكن حراء، فما عليك إلا نبيّ وصدّيق وشهيد»، وكان عليه النبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وعبد الرحمٰن وسعد وسعيد بن زيد.

أخبرنا عبد الوهاب بن هبة الله بن عبد الوهاب بإسناده، عن عبد الله بن أحمد، حدّثني أبي، أخبرنا سفيان، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيىٰ بن عبد الرحمٰن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير بن العوام، عن أبيه قال: لمّا نزلت ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: الآية ٨]، قال الزبير: يا رسول الله، وأيّ النعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «أمَا إنه سيكون»، قيل: كان للزبير ألف مملوك يؤدّون إليه الخراج، فما يدخل إلى بيته منها درهمًا واحدًا، كان يتصدّق بذلك كلّه، ومدحه حسان ففضّله على الجميع، فقال:

أقام على عهد النبيّ وهَدْيه ... حواريه والقول بالفعل يَعْدِلُ
أقامَ على منهاجه وطريقه ... يوالي وليّ الحقّ والحقّ أعدل
هو الفارس الشهور والبطل الذي ... يصول إذا ما كان يوم محجل
وإنّ امرءًا كانت صفيّة أُمّه ... ومن أسد في بيته لمرفل
له من رسول الله قربى قريبة ... ومن نصرة الإسلام مجدٌ مؤثّل
فكم كربة ذبّ الزبير بسيفه ... عن المصطفى والله يعطي ويُجْزل
إذا كشفت عن ساقها الحرب حشّها ... بأبيض سباق إلى الموت يرفل
فما مثله فيهم ولا كان قبله ... وليس يكون الدهر ما دام يذبل

وقال هشام بن عروة: أوصى إلى الزبير سبعة من أصحاب النبيّ ﷺ، منهم: عثمان، وعبد الرحمٰن بن عوف، والمقداد، وابن مسعود وغيرهم، وكان يحفظ

....

على أولادهم مالهم ويُنفق عليهم من ماله، وشهد الزبير الجمل مقاتلًا لعليّ، فناداه عليّ ودعاه، فانفرد به وقال له: أتذكر إذ كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ فنظر إليّ وضحك وضحكت، فقلت أنت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال: ليس بمزه، ولتقاتلنّه وأنت له ظالم، فذكر الزبير ذلك، فانصرف عن القتال، فنزل بوادي السباع، وقام يصلّي، فأتاه ابن جرموز فقتله، وجاء بسيفه إلى عليّ فقال: إنّ هذا سيف طالما فرّج الكرب عن رسول الله ﷺ، ثم قال: بشّر قاتل ابن صفيّة بالنار، وكان قتله يوم الخميس لعشرٍ خلون من جمادى الأُولى من سنة ستّ وثلاثين، وقيل: إنّ ابن جرموز استأذن على عليّ فلم يأذن له، وقال للآذن: بشّره بالنار، فقال:

أتيت عليًّا برأس الزبير … أرجو لديه به الزلفة
فبشّر بالنار إذ جئته … فبئس البشارة والتحفة
وسيّان عندي قتل الزبير … وضرطة عنز بذي الجحفة

وقيل: إن الزبير لما فارق الحرب وبلغ صفوان أتى إنسان إلى الأحنف بن قيس، فقال: هذا الزبير لقد لقي بصفوان، فقال الأحنف: ما شاء الله كان قد جمع بين المسلمين حتى ضرب بعضهم حواجب بعض بالسيوف، ثم يلحق بيته وأهله، فسمعه ابن جرموز وفضالة بن حابس ونفيع بن غواة من تميم، فركبوا فأتاه ابن جرموز من خلفه فطعنه طعنة خفيفة وحمل عليه الزبير وهو على فرس له يقال له ذو الخمار، حتى إذا ظنّ أنه قاتله نادى صاحبه، فحملوا عليه فقتلوه، وكان عمره لمّا قُتِل سبعًا وستّين سنة، وقيل: ستًّا وستين سنة، وكان أسمر ربعة، معتدل اللّحم، خفيف اللِّحية، وكثير من الناس يقولون: إن ابن جرموز قتل نفسه لمّا قال عليّ: بشّر قاتل ابن صفيّة بالنار، وليس كذلك، وإنما عاش بعد ذلك حتى وُلِّي مصعب بن الزبير البصرة، فاختفى ابن جرموز، فقال مصعب: ليخرج فهو آمن أيظنّ أني أقيّده بأبي عبد الله، يعني أباه الزبير، ليس سواء، فظهرت المعجزة بأنه من أهل النار لأنه قتل الزبير رضي الله تعالى عنه، وقد فارق المعركة وهذه معجزة ظاهرة، أخرجه الثلاثة. اهـ.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (حال مَن «هم» في ﴿صُدُورِهِم﴾ **والعامل فيها معنى الإضافة)** ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ لما هو وسيلة إلى هذا الفوز العظيم وهو الإيمان (﴿وَمَا كُنَّا﴾) «ما كنا» بغير «واو»: **(شامي على أنها جملة موضحة)** للأولى ﴿لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ **(اللام لتوكيد النفي)** أي وما كان يصح أن نكون

قوله: (حال مَن هم في ﴿صُدُورِهِم﴾) لما تقرّر من أن انتصاب الحال من المضاف إليه جائز إذا كان المضاف جزء من المضاف إليه. **قوله: (والعامل فيها معنى الإضافة)**، هكذا ذكره أبو البقاء. وفي إعراب السمين: لا كما ذكره أبو البقاء من أنّ العامل هو معنى الإضافة، بل العامل في الحال هو العامل في المضاف، وإنْ كانت الحال ليست منه؛ لأنهما لمّا كانا متضايفين وكانا مع ذلك شيئًا واحدًا ساغ ذلك. اهـ. وقال العلّامة شيخ زاده: ويكون العامل في الحال هو العامل في المضاف، وجاز ذلك، وإنْ لم يكن الحال من هيئات المضاف بناءً على أن المضاف والمضاف إليه لمّا كانا بمنزلة شيء واحد صارت هيئة المضاف إليه كأنها من هيئات المضاف، قال مقاتل في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣]، وذلك أنّ أهل الجنّة لمّا انتهوا إلى باب الجنّة إذا هم بشجرة ينبع من أصل ساقها عينان، فيميلون إلى إحداهما فيشربون منها، فيخرج الله منهم ما كان في أجوافهم من غلّ وقذر فيطهّر أجوافهم بذلك، وهو الشراب الطهور المذكور في قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢١]، ثم يميلون إلى العين الأخرى فيغتسلون منها، فيطيّب الله تعالى أجسامهم من كل دَرَن، وجرت عليهم النضرة؛ فلا تشعث رؤوسهم ولا تتغيّر وجوههم ولا تشحب، أي لا تتغيّر أجسادهم، ثم يبشّرهم خَزَنة الجنّة قبل أن يدخلوها فيُنادونهم أنّ تلك الجنّة أورثتموها بما كنتم تعملون، فلما استقرّوا في منازلهم، قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: الآية ٤٣] أي لدينه ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣]. اهـ.

قوله: (﴿وَمَا كُنَّا﴾**)** بغير واو **(شامي)** أي ابن عامر الشاميّ، والباقون بإثباتها. **قوله: (على أنها جملة موضحة)** أي جارية مجرى التفسير؛ لقوله: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: الآية ٤٣]، وكمال اتّصال إحدى الجملتين بالأخرى يمنع العطف. **قوله: (اللام لتوكيد النفي)** اختيار لمذهب الكوفيّين، فإنّهم ذهبوا في مثله إلى أنّ

مهتدين لولا هداية الله، وجواب «لولا» محذوف (دلّ عليه ما قبله ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾) فكان لطفًا لنا وتنبيهًا على الاهتداء فاهدينا، يقولون ذلك سرورًا بما نالوا وإظهارًا لما اعتقدوا ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ «أن» مخففة من الثقيلة واسمها محذوف، والجملة بعدها خبرها تقديره ونودوا بأنه تلكم الجنة. والهاء ضمير الشأن، (أو بمعنى) أي كأنه قيل لهم تلكم الجنة ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ (أعطيتموها) وهو حال من ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ والعامل فيها ما في ﴿تِلْكَ﴾ من معنى الإشارة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سمّاها ميراثًا لأنها لا تستحق بالعمل بل هي محض فضل الله وعده على الطاعات كالميراث من الميت ليس بعوض عن شيء بل هو صلة خالصة. وقال

لام الجحود مع ما بعدها واقعة موقع خبر كان، ويزعمون أنّ الفعل المنصوب بعد اللام لا بإضمار أن بعد اللام، وأنّ اللام زائدة لتأكيد النفي، وعند البصريّين: خبر كان محذوف، ولام الجحود متعلّق بذلك الخبر المحذوف، وينتصب الفعل الواقع بعد اللام بإضمار أن، والتقدير: وما كنّا مريدين للاهتداء لولا هداية الله لنا موجودة، وتقدير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣] وما كان الله مريدًا لإضاعة إيمانكم، أي أعمالكم، التي هي ثمرات إيمانكم. **قوله: (دلّ عليه ما قبله)** وهو ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ [الأعرَاف: الآية ٤٣]، والتقدير: ولولا هداية الله لنا موجودة ما اهتدينا.

قوله: (﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾) جواب قسم مقدّر والباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعرَاف: الآية ٤٣] يجوز أن تكون للتعدّية، وأن تكون للحال، أي جاؤوا ملتبسين بالحقّ. **قوله: (أو بمعنى)** أي لأن المناداة من القول.

قوله: (أعطيتموها) يعني أن الميراث مجاز عن الإعطاء، فإن قيل: هذه الآية تدلّ على أن العبد يدخل الجنّة بعمله، وقد قال عليه الصّلاة والسّلام: «لن يدخل أحدكم الجنّة بعمله، وإنما تدخلونها برحمة الله تعالى وفضله»، فما وجه التوفيق بينهما؟ فالجواب: أنّ العمل لا يوجب دخول الجنّة لذاته، وإنما يوجبه من حيث إنّ الله تعالى جعله بفضله علامة عليه ووعد بذلك في مقابلته، ولمّا كان الموفّق للعمل الصالح هو الله تعالى كان دخول الجنّة في الحقيقة ليس إلّا بفضل الله تعالى.

(الشيخ أبو منصور) رحمه الله: إن المعتزلة خالفوا الله فيما أخبر ونوحًا عليه السلام وأهل الجنة والنار و(إبليس)، لأنه قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: الآية ٩٣] وقال (نوحًا) عليه السلام: (﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾) [هود: الآية ٣٤]، وقال أهل الجنة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وقال أهل النار: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٢١] وقال (إبليس ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾).

قوله: (الشيخ أبو منصور) محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، كان من كبار العلماء، كان يقال له إمام الهدى، له كتاب التوحيد، وكتاب المقالات، وكتاب ردّ أوائل الأدلّة للكعبيّ، وكتاب بيان وَهْم المعتزلة، وكتاب تأويلات القرآن، وهو كتاب لا يُوازيه فيه كتاب، بل لا يُدانيه شيء من تصانيف مَنْ سبقه في ذلك الفنّ، وله كتب شتّى. مات رحمه الله تعالى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بعد وفاة أبي الحسن الأشعري بقليل، وقبره بسمرقند، وكذا وجدته بخطّ شيخنا أبي الحسن علي الحنفي ورأيت بخطّ شيخنا قطب الدين عبد الكريم سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة رحمه الله. اهـ الجواهر المضيئة.

قوله: (نوحًا) اسم أعجمي، والمشهور صرفه، وقيل: يجوز صرفه وترك صرفه، قال الإمام الثعلبي في كتابه العرايس: هو نوح بن ملك بن متوشلح بن أخْنُوخ بن يَرْد بن مهلائيل بن قينان بن أنُوش بن شيث بن آدم على نبيِّنا وعليهم الصّلاة والسّلام. أرسله الله تعالى في ولد قابيل ومَنْ تابعهم مِنْ ولد شيث، قال ابن عباس: وكان بطنان من ولد آدم أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صِباحًا وفي النساء دمامة، وكان نساء السهل صباحًا وفي رجالهنّ دمامًا، فكثرت الفاحشة في أولاد قابيل، وكانوا قد كثروا في طول الأزمان وأكثروا الفساد، فأرسل الله تعالى إليهم نوحًا على نبيِّنا وعليه الصّلاة والسّلام، وهو ابن خمسين سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز ويحذّرهم ويخوّفهم، فلم ينزجروا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ [نوح: الآيتان ٥،٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم: الآية ٥٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٤٦﴾ [الذاريات:

....

الآية ٤٦]، ولما طال دعاؤه لهم وإيذاؤهم له وتماديهم في غيِّهم سأل الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلّا مَنْ قد آمن، فلما أُخبر أنه لم يبقَ في الأصلاب ولا في الأرحام مؤمن دعا عليهم، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: الآية ٢٦] إلى آخرها، فأمره الله تعالى باتّخاذ السفينة، فقال: يا ربّ، وأين الخشب؟ فقال: اغرس الشجر، فغرس الساج وأتى على ذلك أربعون سنة، وكفّ عن الدعاء عليهم وأعقم الله أرحام نسائهم فلم يولد لهم ولد، فلمّا أدرك الشجر أمره الله تعالى بقطعه وتجفيفه وصنعه الفلك، وأعلمه كيف يصنعه وجعل بابه في جَنْبه، وكان طول السفينة ثمانين ذراعًا وعرضها خمسين وسَمْكها إلى السماء ثلاثين ذراعًا، والذراع إلى المنكب. وعن ابن عباس: أنّ طولها ستّمائة وستّون ذراعًا، وعرضها ثلاثمائة وثلاثون ذراعًا، وسمكها ثلاثة وثلاثون ذراعًا، وأمر الله تعالى أن يحمل فيها مِنْ كل زوجين اثنين من الحيوان وحشرها الله تعالى إليه من البرّ والبحر. قال مجاهد وغيره: كان التنّور الذي ابتدأ الفوران منه في الكوفة، ومنها ركب نوح السفينة. وقال مقاتل: هو بالشام بقرية يقال لها عَيْن الوَرْدة قريب من بعلبك. وعن ابن عباس: أنه بالهند، قالوا: وأوّل ما حمل في السفينة من الدواب الذرة، وآخره الحمار، وجعل السّباع والدواب في الطبقة السفلى، والوحوش في الطبقة الثانية، والذرّ والآدميّين في الطبعة العليا. قيل: كان الآدميُّون الذين في السفينة سبعة: نوح وبنوه سام وحام ويافث وأزواج بنيه، وقيل: ثمانية، وقيل: عشرة، وقيل: اثنان وسبعون، وقيل: ثمانون من الرجال والنساء، حكاه ابن عباس. وعن ابن عباس: أنّ الماء ارتفع حين سارت السفينة على أطول جبل من الأرض خمسة عشر ذراعًا، قال: وطافت السفينة بأهلها الأرض كلّها في ستّة أشهر، ثم استقرّت على الجوديّ وهو جبل بأرض الموصل، وكان ركوبهم السفينة لعشرٍ خلون من رجب ونزلوا منها يوم عاشوراء من المحرم، وبنى هو ومَنْ معه في السفينة حين نزلوا البناء بتاقردى من أرض الجزيرة، ولمّا حضرته الوفاة وصّى إلى ابنه سام، وكان سام قد وُلِد قبل الطوفان بثمان وتسعين سنة، ويقال: إنه كان بكره، وقيل: كان نوح أطول الأنبياء عمرًا، ولم ينقص له قوّة والناس بعده من ذرّيته، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصّافات: الآية ٧٧].

....

قوله: (إبليس) عدوّ الله، قال الجوهري وغيره: كنيته أبو مُرّة، واختلف العلماء في أنه من الملائكة مِنْ طائفة يقال لهم: الجنّ أم ليس من الملائكة، وفي أنه اسم عربيّ أم عجميّ، والصحيح أنه من الملائكة، وأنه عجميّ. قال الإمام أبو الحسن الواحدي: قال أكثر أهل اللغة والتفسير: سُمِّي إبليس لأنه أبلس من رحمة الله تعالى، أي آيِس والمبلس المكتئب الحزين الآيِس، قال: وعلى هذا هو عربيّ مشتق، قالَ: وقال ابن الأنباريّ: لا يجوز أن يكون مشتقًّا من أبْلَس؛ لأنه لو كان مشتقًّا لصرف كما أن إسحٰق إذا كان عربيًّا مأخوذًا من أسحقه الله إسحٰقًا انصرف، فلو كان إبليس مشتقّ لصرف كإكليل وبابه، فلما لم يصرف دلّ على أنه عجميّ، والعجميّ ليس مشتقًّا.

وقال ابن جرير: إنما لم يُصرف، وإن كان عربيًّا لقلّة نظيره في كلام العرب فشبّهوه بالأعجميّ، وهذا الذي قاله ابن جرير يبطل بباب إفعيل، فإنه مصروف كلّه إلا إبليس، قال الواحديّ: والاختيار أنه ليس بمشتقّ لإجماع النحويّين على أنه مُنِع الصرف للعجمة والمعرفة، قال: واختلفوا في أنه من الملائكة، فرُوِيَ عن طاوس ومجاهد عن ابن عباس أنه كان من الملائكة، وكان اسمه عزازيل، فلما عصى الله لعنه الله وجعله شيطانًا مريدًا وسمّاه إبليس، وبهذا قال ابن مسعود وابن المسيّب وقتادة وابن جريج وابن جرير، واختاره الزجاج وابن الأنباريّ، قالوا: وهو مستثنى من جنس المستثنى منه، قالوا: وقول الله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: الآية ٥٠] أي طائفة من الملائكة يقال لهم: الجنّ، وقال الحسن وعبد الرحمٰن بن زيد وشَهْر[1] بن حَوْشب: ما كان من الملائكة قطّ، والاستثناء منقطع والمعنى عندهم أنّ الملائكة وإبليس أُمروا بالسجود، فأطاعت الملائكة إلا إبليس الأمْرَ بالسجود، والصحيح أنه من الملائكة لأنه لم يُنقل أن غير الملائكة أُمِر بالسجود، والأصل في الاستثناء أن يكون من جنس المُستثنى منه، والله أعلم. وأما إنظاره إلى يوم الدِّين؛ فزيادة في عقوبته وتكثير معاصيه وعواتبه نسأل الله الكريم اللّطف وخاتمة الخير.

---

(١) بفتح الشين وسكون هاء وراء. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ «أن» مخففة من الثقيلة أو مفسرة وكذلك ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب ﴿حَقًّا﴾ حال ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا﴾ وتقديره وعدكم ربكم فحذف «كم» لدلالة ﴿وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ عليه. وإنما قالوا لهم ذلك (**شماتة**) بأصحاب النار واعترافًا بنعم الله تعالى ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ (**وبكسر العين**) حيث كان: (**عليّ**) ﴿فَأَذَّنَ

قــولــه: (﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾)، أي إغواءكم وجواب الشرط دلّ عليه ولا ينفعكم نصحي. اهـ جلالين. **قوله**: (﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾) أضللتني، أي فبسبب إغوائك إيّاي والباء يتعلّق بفعل القسم المحذوف، وتقديره: فبسبب إغوائك نقسم أو تكون الباء للقسم، أي فأقسم بإغوائك.

قوله: (شماتة) وهي الفرح ببلية العدوّ، فإنّ أصحاب النار كانوا يؤذون المؤمنين ويعيّرونهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطفّفين: الآية ٢٩] إلى قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطفّفين: الآية ٣٤] تشفيًا لقلوبهم وزيادة تعذيب للكفار. قيل: في وجه تيسر المناداة والمكالمة بين أهل الجنّة والنار أن الجنّة عالية وجهنّم سافلة متسفّلة، فيكون أهل الجنّة مشرفين على أهل النار مع أن بُعْد ما بين الجنّة لا يعلم مقداره إلّا الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصّافات: الآية ٥٥]، فأمكن لهم تقريع أهل النار وتحسيرهم بقولهم: هل وجدتم ما وعد ربّكم من سعادة مَنْ أطاعه وعقوبة مَنْ عصاه، فإنّ كل واحد منهما كان يحزنهم أشدّ الحزن ويُوقعهم في الحسرة، فأطلق عليه الوعد؛ لأنه يستعمل في الخير والشرّ، مع أنّ بعضه هو الخير الجليل في حقّ المؤمنين. **قوله**: (**وبكسر العين**) حيث كان (عليّ) الكسائي، والباقون بالفتح وهما لغتان لما رُوِي أنّ عمر رضي الله تعالى عنه سأل قومًا على شيء، فقالوا: نعم بفتح العين، فقال: إنما النّعم الإبل، قالوا: نعم بكسر العين والفتح لغة أهل الحجاز وعامّة العرب.

مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ نادى منادٍ وهو ملك يسمع أهل الجنة والنار ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ («أنّ لعنة» مكيّ وشاميّ) وحمزة وعلي.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مفعول ثانٍ لـ «يبغون» أي ويطلبون لها الاعوجاج والتناقض ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالدار الآخرة ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ (وَبَيْنَهُمَا)﴾ وبين الجنة والنار أو بين الفريقين ﴿ حِجَابٌ﴾ وهو السور

قوله: (أنّ لعنة) بتشديد أن ونصب التاء، (مكّي) أي ابن كثير المكّي برواية البزيّ، وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بزّة المؤذّن المكّي برواية البزيّ، وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بزّة المؤذن المكّي يُكنى أبا الحسن ويُعرف بالبزيّ، توفي بمكّة بعد سنة أربعين ومائتين، واختلف عن قنبل، وهو محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن خالد بن سعيد بن جرحة المكّي يُكنى أبا عمرو ويلقّب قنبلًا وتوفي بمكّة بعد سنة ثمانين ومائتين، وهو يروي القراءة عن ابن كثير المكّي، فروى عنه بإسكان النون مخفّفة ورفع لعنة وبتشديد النون ونصب لعنة، (وشاميّ) أي ابن عامر الشامي وحمزة وعليّ الكسائيّ. والباقون بتخفيف النون ورفع التاء.

قوله: (﴿وَبَيْنَهُمَا﴾)... الخ. اختلف الناس في حقّية الأعراف، وهذه الآيات ناطقة بها، وهو المختار عندنا، ومعنى الآية: وبينهما، أي بين الجنّة والنار، أو بين أهلهما حجاب مضروب، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ [الحديد: الآية ١٣]. ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: الآية ٤٦] أي أعراف الحجاب، يعني أعاليه رجال يعرفون كلاًّ من أصحاب الجنّة والنار بسيماهم، أي بعلامة منهم مثل بياض الوجوه أو سوادها بالإلهام أو التعليم، وهؤلاء الرجال إمّا أعالي المسلمين أو أدانيهم.

وقال الإمام الزاهد: إن الأعراف تلّ من المسك الأبيض، وعليه رجال يشهدون في سبيل الله أو يموتون في طلب العلم من غير رضاء الوالدين فيُحبسون بشومة العقوق عن دخول الجنّة إلّا بعد مدّة. وقال ابن مسعود: هم قوم اسْتَوت

المذكور في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: الآية ١٣] ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ على

حسناتهم وسيّئاتهم، فلا يُسرعون إلى الجنّة والنار. وقال صاحب المدارك: رجالٌ من أفاضل المسلمين أو من آخرهم دخولًا في الجنّة لاستواء حسناتهم وسيّئاتهم، أو مَنْ لم يَرْضَ عنه أحد أبويه أو أطفال المشركين. وقال الخيالي أيضًا: إن أهلها قيل الذين ماتوا في زمان فترة من الرُّسل، أو أطفال المشركين، أو مَنِ اسْتوى حسناته مع سيّئاته. وقال القاضي: طائفة من الموحّدين قصَّروا في العمل، فيُحبسون بين الجنّة والنار، حتى يقضي الله فيهم ما يشاء. وقيل: قومٌ علت درجاتهم كالأنبياء والشهداء وخيار المؤمنين وعلمائهم، أو الملائكة يُرَوْن في صورة الرجال. وفي الحسيني عن الشعبي: أنهم عبّاس وحمزة وعليّ وجعفر الطيّار رضي الله تعالى عنهم، وعلى كل حال فهو حقّ بلا شبهة لا يَشُكّ فيها إلّا منافق، واعترف بها صاحب الكشاف أيضًا مع أنه من المعتزلة، غاية الأمر أنها ليست دار القرار والخلد. ثم قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ﴾ [الأعراف: الآية ٤٦]، أي نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنّة بالتسليم والتحيّة، ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٦] أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنّة مع طمعهم إيّاها أن كان أهلها مِنْ أصاغر أهل الجنّة، أو لم يدخل أصحاب الجنّة الجنّة الآن مع طمعهم أن كان المراد به أفاضلهم؛ فعلى الأوّل حال من الفاعل، أعني الواو. وعلى الثاني من المفعول، أعني الأصحاب على ما في البيضاوي، ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٤٧] أي أبصار أصحاب الأعراف إلى أصحاب النار، قالوا: نعوذ بالله ربّنا ﴿لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٧]، وفيه إشارة إلى أن صارفًا يصرف أبصارهم بإذن الله لينظروا فيستعيذوا ويوبّخوا. وقال الإمام الزاهد: إنّ الملائكة يصرفون أبصارهم بإذن الله تعالى، وإنه دليلٌ على استجابة دعاء المؤمن يوم القيامة، فكيف لا يُستجاب في الدنيا. ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٤٨]، أعني الكَفَرة الذين يستحقرون في الدنيا فقراء المؤمنين، ويظنّون أنهم يدخلون الجنّة للأموال دون الفقراء المؤمنين، فقالوا لهم ما أغنى عنكم يا أيها الكفرة جمعكم، أي اجتماعكم وكثرتكم أو جمعكم المال، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٨] عن الحقّ أو الخلق، أهؤلاء الفقراء المؤمنون الذين أقسمتم في الدنيا في شأنهم أنهم لا ينالهم

أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار (وهي) أعاليه جمع عرف، استعير من (عُرف الفرس وعُرف الديك) ﴿رِجَالٌ﴾ من أفاضل المسلمين أو من آخرهم دخولًا في الجنة لاستواء حسناتهم وسيئاتهم، أو مَن لم يرض عنه أحد أبويه أو أطفال المشركين ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من زمرة السعداء والأشقياء ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلامتهم. قيل: سيما المؤمنين بياض الوجوه (ونضارتها). وسيما الكافرين سواد الوجوه و(زرقة العيون) ﴿وَنَادَوْا﴾ أي أصحاب الأعراف ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أنه سلام أو أي سلام وهو تهنئة منهم لأهل الجنة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي أصحاب الأعراف ولا محل له لأنه استئناف كأن سائلًا سأل أصحاب الأعراف فقيل: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها أوله محل وهو صفة لـ ﴿رِجَالٌ﴾.

الله برحمة، ثم التفتوا إلى الفقراء المؤمنين، فقالوا لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٩]، وهذا على أن يكون أهل الأعراف أراذلهم، وقيل؛ لما عيّر أصحاب الأعراف أهل النار أقسموا أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنّة، فقال الله تعالى وبعض الملائكة لهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: الآية ٤٩]، ادخلوا يا أهل الأعراف الجنّة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٩]؛ هذا كلّه ذُكِر في البيضاوي خاصّة. وفي الحسيني: أنّ فقراء المؤمنين بلال وصهيب وعمار وغيرهم، وأنّ الكفار المتكبّرين: أبو جهل وعاص بن وليد وغيرهم، هذا ما فيه. اهـ التفسيرات الأحمديّة.

قوله: (وهي) أي الأعراف. **قوله:** (عُرف الفرس وعُرف الدِّيك) في المصباح: عُرف الدِّيك لحمة مستطيلة في أعلى رأسه يشبه به بَظْر الجارية، وعُرْف الدابّة الشعر النابت في محدّب رقبتها. اهـ. وأيضًا فيه الدّيك ذكر الدجاج، والجمع ديوك ودِيَكة، وزان عنبة. اهـ. وأيضًا فيه البظر لحمة بين شفري المرأة، وهي القلفة التي تقطع في الختان، والجمع بظور وأبظر مثل فلس وفلوس وأفلس، والجمع أشفار. اهـ. **قوله:** (نضارتها) في المصباح: نضر الوجه بالضمّ نضارة حسن، فهو نضير. اهـ. **قوله:** (زرقة العيون) في المصباح: الزّرقة من الألوان والذكر أزرق، والأنثى زرقاء، والجمع زرق مثل أحمر وحمراء وحمر، ويقال للماء الصافي أزرق، والفعل زرق من باب تعب. اهـ.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أبصار أصحاب الأعراف، وفيه أن صارفًا يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ﴿تِلْقَآءَ﴾ ظرف أي ناحية ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاستعاذوا بالله و(فزعوا إلى رحمته) أن لا يجعلهم معهم ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من رؤوس الكفرة ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ المال أو كثرتكم واجتماعكم و«ما» نافية ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ واستكباركم على الحق وعلى الناس ثم يقولون لهم:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبر مبتدأ مضمر تقديره أهؤلاء هم الذين ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ حلفتم في الدنيا، والمشار إليهم فقراء المؤمنين (كصهيب وسلمان الفارسي) ونحوهما ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ جواب ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ وهو داخل في صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تقديره أقسمتم عليهم بأن لا ينالهم الله برحمة أي لا يدخلهم الجنة يحتقرونهم لفقرهم. فيقال لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ وذلك بعد أن نظروا إلى الفريقين وعرفوهم بسيماهم وقالوا ما قالوا ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

قوله: (فزعوا إلى رحمته) في المصباح: فزعت إليه لجأت، وهو مفزع أي ملجأ. اهـ.

قوله: (كصهيب) بن سنان، أبو يحيىٰ الرومي، أصله من النَّمر، يقال: كان اسمه عبد الملك، وصهيب لقب صحابي شهير مات بالمدينة سنة ثمان وثلاثين في خلافة عليّ، وقيل غير ذلك. اهـ تقريب.

قوله: (وسلمان الفارسي) بكسر الراء وتسكن، الصحابي أوّل مشاهده مع رسول الله ﷺ الخندق، ولم يتخلّف عن مشهد بعدها، وكان من فُضَلاء الصحابة وزهّادهم وعلمائهم وذوي القرب من رسول الله ﷺ، ونقلوا اتّفاق العلماء على أنّ

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ أن مفسرة. وفيه دليل على أن الجنة فوق النار ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ **(من غيره)** من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، أو أريد: أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة **(كقولك)**:

علفتها تبنًا وماءًا باردًا

سلمان الفارسي عاش مائتين وخمسين سنة، وقيل: ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل: أدرك وصيّ[1] عيسى ابن مريم. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ ستّون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم على ثلاثة، ولمسلم ثلاثة. توفي بالمدائن في أوّل ستّ وثلاثين، وقيل: سنة خمس وثلاثين.

قوله: (من غيره) من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، فإنّ الأصل في الإفاضة أن تُستعمل في الماء وما يجري مجراه من المائعات، فلمّا عطف ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٠] على قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٠] بكلمة أو كان المطلوب إفاضة أحد الأمرين اللذين يتعلق بهما فعل الإفاضة، فناسب أن يحمل ما رزقكم على المرزوق الكائن من جنس الأشربة، وإن حمل على ما هو من جنس الأطعمة يكون الكلام من قبيل ما حُذِف فيه المعطوف مع بقاء العاطف، ويكون التقدير: أفيضوا علينا شيئًا يسيرًا من الماء، وألقوا علينا شيئًا يسيرًا ممّا رزقكم الله من الطعام والفاكهة، ومثله كثير في كلام العرب. **قوله: (كقولك)** وفي نسخة صحيحة: كقوله:

علفتها تبنًا وماءً باردًا

أي علفتها تبنًا وأسقيتها ماءً باردًا، وضمير علفتها للدابّة، وتمامه:

حتى شتت هَمالةً عيناها

وشتت يُروى له بدله بدت، ومعناهما واحد، هكذا في الإسعاف. وقال العلاّمة شيخ زاده رحمه الله: يقال: شتوت بموضع كذا إذا أقمت به في

---

(١) وفي الإصابة في معرفة الصحابة يقال: إنه أدرك عيسى ابن مريم، وقيل: بل أدرك وصيّ عيسى، انتهى. وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة قال أبو نعيم كان سلمان من المعمّرين، يقال: إنه أدرك عيسى ابن مريم، وقرأ الكتابين. ١٢ منه عمّ فيضهم.

أي وسقيتها. وإنما سألوا ذلك مع يأسهم عن الإجابة لأن المتحيّر ينطق بما يفيد وبما لا يفيد ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو تحريم منع كما في (﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾) [القصص: الآية ١٢] وتقف هنا إن رفعت أو نصبت ما بعده ذمًّا، وإن جررته وصفًا للكافرين فلا.

د﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فحرموا وأحلّوا ما شاءوا أو دينهم: عيدهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ اغترّوا بطول البقاء ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ نتركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (**أي كنسيانهم وجحودهم**).

الشتاء. اهـ. وهمالة من هملت العين إذا صبّت دمعها ونصبه على التمييز، والبيت من الرجز. قال العيني في شواهده الكبرى: هو مشهور بين العوامّ، ولم أرَ مَنْ عزاه وكذا رواه النحّاة قاطبةً وسائر المُحَشِّين، وكذا العلّامة الشيرازي والفاضل اليمني وأوردوا صدره في الذاريات عجزًا وأنشد صدرًا له غيره، هكذا:

لما حططت الرحل عنها واردًا علفتها تبنًا وماءً باردًا

قوله: (﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾) تحريم مَنْع لا تحريم شرع، أي منعناه أن يرضع ثديًا غير ثدي أُمّه، فكان لا يقبل ثدي مرضع حتى أهمّهم ذلك، والمراضع جمع مرضع، وهي المرأة التي تُرضع، أو جمع مرضع وهو موضع الرّضاع، يعني الثدي، أو الرضاع، كذا أورده المصنّف رحمة الله عليه في تفسير سورة القصص.

قوله: (**أي كنسيانهم وجحودهم**) إشارة إلى أن كلمة ما في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ [الأعراف: الآية ٥١] مصدريّة مجرورة المحل عطفًا على أختها المجرورة بالكاف التي هي محل النصب على أنّها صفة مصدر محذوف، أي ننساهم كنسيانهم لقاء يومهم هذا، وكونهم منكرين أنّ الآيات من عند الله تعالى.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ ميزنا حلاله وحرامه ومواعظه وقصصه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ **(عالمين)** بكيفية تفصيل أحكامه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حال من منصوب ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ كما أن ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من مرفوعة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ تركوه وأعرضوا عنه ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي تبين وصح أنهم جاءوا بالحق فأقرّوا حين لا ينفعهم ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ جواب الاستفهام ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ **(جملة معطوفة على جملة قبلها داخلة معها)** في حكم الاستفهام كأنه قيل: فهل لنا من شفعاء، أو هل نرد؟ **(ورافعه)** وقوعه موقعًا يصلح للاسم كقولك **(ابتداء)** «هل

قوله: (عالمين) يعني أن على علم حال من فصلنا، ونكر علمًا للتعظيم. **قوله: (جملة معطوفة على جملة قبلها)**، وهي قوله: ﴿لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٣]، وهي مبتدأ وخبر ومن زائدة؛ لأن الكلام منفيّ معنى. اهـ. وإن لزم عطف الجملة الفعلية على الاسميّة على أن هل يستدعي الفعليّة، كأنه عطف الفعلية على مثلها، وفائدة العدول إظهار القصد إلى توخّي الشفعاء، وأنه أهمّ شيء عنه، قال صاحب المفتاح: هل ادّعى للفعل من الهمزة فترك الفعل معه يكون أدخل في الإنباء عن استدعاء المقام عدم التجدّد، ومن ثمّ أدخل من الاستغراقيّة على الشفعاء. اهـ ط. اهـ محشي رحمه الله. **قوله: (داخلة)** صفة بعد صفة **(معها)** أي الجملة الأُولى. اهـ محشي رحمه الله. **قوله: (ورافعه)**... الخ. وهو إشارة إلى أن العامل في رفع المضارع معنوي، وهو ما ذكره. اهـ محشي. **قوله: (ابتداء)** يعني ابتداء في الكلام؛ لأن الابتداء صالح لأن يقع فيه الاسم والفعل المضارع، وأما الماضي لما انتفى استحقاقه الأعراف انتفى ما هو مبنيٌّ عليه، وهو استحقاقه الرفع. اهـ. ط. اهـ. محشي رحمه الله.

يضرب زيد»، أو عطف على تقدير: هل يشفع لنا شافع أو هل نرد ﴿فَنَعْمَلَ﴾ جواب الاستفهام أيضًا ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يعبدونه من الأصنام.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٥٤)﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أراد السمٰوات والأرض وما بينهما وقد فصلها في «حم السجدة» أي من الأحد إلى الجمعة لاعتبار الملائكة شيئًا فشيئًا، وللإعلام بالتأني في الأمور، ولأن لكل عمل يومًا، ولأن إنشاء شيء بعد شيء أدلّ على عالم مدبر مريد يصرّفه على اختياره ويجريه على مشيئته ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ استولى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أضاف الاستيلاء إلى العرش وإن كان سبحانه وتعالى مستوليًا على جميع المخلوقات، لأن العرش أعظمها وأعلاها. وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة باطل، لأنه تعالى كان قبل العرش ولا مكان وهو الآن كما كان، لأن التغير من صفات الأكوان. والمنقول عن **(الصادق)** و**(الحسن**

قوله: (الصادق) أي جعفر بن محمد الصادق، هو الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الهاشمي المدني الصادق، أُمّه أمّ فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه. روى عن أبيه والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق ونافع وعطاء ومحمد بن المنكدر والزهري وغيرهم. روى عنه محمد بن إسحٰق ويحيىٰ الأنصاري ومالك والسفيانان وابن جريج وشعبة ويحيىٰ القطّان وآخرون، واتّفقوا على إمامته وجلالته وسيادته. قال عمرو بن أبي المِقْدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمتُ أنه من سلالة النبيّين. قال البخاري رحمة الله عليه في تاريخه: وُلِد جعفر سنة ثمانين، وتوفي سنة ثمان وأربعين ومائة رحمه الله. **قوله: (الحسن)** هو الإمام المشهور المجمع على جلالته في كل فنّ، أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار التابعي البصري ـ بفتح الباء وكسرها ـ الأنصاري، أدرك من

وأبي حنيفة ومالك) ﷺ، أن الاستواء معلوم، والتكييف فيه مجهول، والإيمان به واجب، والجحود له كفر، والسؤال عنه بدعة. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ («يغشي») (حمزة وعلي وأبو بكر). أي يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ حال من الليل أي سريعًا. والطالب هو الليل كأنه لسرعة مضيّه يطلب النهار ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ أي وخلق الشمس والقمر والنجوم ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ حال أي مذللات (﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ شاميّ) ﴿وَٱلشَّمْسَ﴾ (مبتدأ والباقية معطوفة عليها والخبر ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾) ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هو أمر تكوين. ولما ذكر أنه خلقهن مسخرات بأمره قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي هو الذي خلق الأشياء وله الأمر ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ كثر خيره أو دام برّه (من البركة النّماء) أو من البروك الثبات ومنه البركة ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أصحاب رسول الله ﷺ مائة وثلاثين، مناقبه كثيرة مشهورة. توفي سنة عشر ومائة رحمه الله. **قوله:** (وأبي حنيفة) هو الإمام البارع النعمان بن ثابت رضي الله تعالى عنهما، وُلِد سنة ثمانين من الهجرة، وتوفي ببغداد سنة خمسين ومائة رحمه الله. **قوله:** (ومالك) بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر الأصبحي، أبي عبد الله المدني الفقيه إمام دار الهجرة رأس المتّقين وكبير المثبتين. مات سنة تسع وسبعين ومائة، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين. وقال الواقدي: بلغ تسعين سنة رحمه الله. **قوله:** («يغشي») بفتح الغين وتشديد الشين من غشي المضاعف (حمزة وعليّ) الكسائي (وأبو بكر) عن عاصم. والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين من أغشى. **قوله:** (﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾) برفع الشمس وما عطف عليها، ورفع مسخّرات (شاميّ) أي ابن عامر الشامي، والشمس (مبتدأ والباقية معطوفة عليها والخبر ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾)، وقرأ الباقون بالنصب، والنصب في مسخرات بالكسرة، فوجهه أنه عطف على السمٰوات، ومسخّرات حال من هذه المفاعيل. **قوله:** (من البركة النّماء) أو من البروك الثّبات، ومنه البركة. في مختار الصّحاح: البِرْكة[1] الحوض، والجمع البِرَك. قيل: سمّيت بذلك لإقامة الماء فيها، وكل شيء ثبت وأقام فقد بَرَك، والبَرَكة النّماء والزيادة. اهـ.

---

(١) بركة الماء معروفة، والجمع بُرَك، مثل سِدْرة وسُدَر. اهـ مصباح. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ نصب على الحال أي ذوي تضرّع وخفية، والتضرّع تفعل من الضراعة وهي (**الذل**) أي تذللًا و(**تملقًا**). قال ﷺ: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنما تدعون سميعًا قريبًا إنه حكم أينما كنتم». عن (**الحسن**): بين دعوة السر والعلانية سبعون (**ضعفًا**). ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره. وعن (**ابن جريج**): الرافعين أصواتهم بالدعاء. وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة. وقيل: هو (**الإسهاب**)

قوله: (الذُّل) في مختار الصِّحاح: الذُّلّ ضدّ العزّ، وقد ذلّ يَذِلّ ـ بالكسر ـ ذُلًّا وذِلَّة ومَذَلَّة فهو ذليل وهم أذِلاء وأذِلّة والذِّل ـ بالكسر ـ اللّين وهو ضدّ الصعوبة، يقال: دابّة ذلول بيِّنة الذِّلّ، وهنّ دواب ذُلُل وأذِلّة وتذلّل له أي خضع. اهـ باختصار. **قوله: (تملّقًا)** في مختار الصِّحاح: تملّقه وتملّق له تملّقًا وتِمْلاقًا ـ بالكسر ـ أي تودّد إليه وتلطّف به. اهـ. **قوله: (الحسن)** البصري التابعي رضي الله تعالى عنه. **قوله: (ضعفًا)** أي مثلًا، أي من الثواب.

قوله: (ابن جريج) وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بجيم مكرّرة الأُولى مضمومة، القريشي الأُمويّ وهو من تابعي التابعين، سمع طاوسًا وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي مليكة ونافعًا مولى ابن عمر ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري والزهري وخلائق من التابعين وغيرهم. روى عنه الأنصاري وهو شيخه تابعيّ، والأوزاعي والثوري وابن عُيَيْنة واللّيث وابن عليّة ويحيىٰ القطّان والأُمويّ ووكيع وخلائق لا يحصون. قال أحمد بن حنبل: أوّل مَنْ صنّف الكتب **ابن جريج**، وقال عبد الرزّاق: كنت إذا رأيت ابن جريج يصلّي علمت أنه يخشى الله عزّ وجلّ، وأقوال أهل العلم من السلف والخلف والثناء عليه وذِكْر مناقبه أكثر من أن تُحصر. توفي سنة خمسين ومائة، وهذا قول الأكثرين، وقيل: سنة إحدى وخمسين. وقيل: تسع وأربعين، وقيل: سنة ستّين، وقد جاوز المائة رحمه الله.

قوله: (الإسهاب) أي الإطناب. اهـ محشي رحمه الله. وفي مختار الصِّحاح: أسهب أكثر الكلام، فهو مُسْهَب ـ بفتح الهاء ـ ولا يقال بكسر الهاء، وهو نادر. اهـ. وفي حاشية تفسير البيضاوي للعلامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب:

في الدعاء. (وعن النبيّ ﷺ): «سيكون قوم (يعتدون) في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل» ثم قرأ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ أي بالمعصية بعد الطاعة، أو بالشرك بعد التوحيد، أو بالظلم بعد العدل ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ حالان أي خائفين من الرد طامعين في الإجابة، أو من النيران وفي الجنان، أو من الفراق وفي التلاق، أو من غيب العاقبة وفي ظاهر الهداية، أو من العدل وفي الفضل ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (ذكر قريب) على تأويل الرحمة بالرحم أو

الإسهاب معناه الإفراط في التطويل، وفي رفع الصوت بالدعاء اختلاف، منهم مَنْ كرهه مطلقًا، ومنهم مَنْ قَبِله مطلقًا، ومنهم مَنْ فضّل، فقال: عند موت الرياء الإخفاء أفضل، فإن لم يخفه فالإظهار أفضل، وفي الانتصاف حسبك في تعيين الإسرار في الدعاء اقترانه بالتضرّع في الآية؛ فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإنّ دعاء لا تضرّع ولا خشوع فيه لقليل الجدوى، وكذا ما لا يصحبه الوقار وكثيرًا ما ترى الناس يعتمدون الصياح في الدعاء خصوصًا في الجوامع ولا يدرون أنهم جمعوا بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء وفي المسجد، وربما حصلت للعوامّ حينئذ رقّة لا تحصل مع الخفض، وهي شبيهة بالرقّة الحاصلة للنساء والأطفال خارجة عن السنّة وسمت السلف الوارد في الآثار. اهـ. **قوله:** (وعن النبيّ ﷺ). . . الخ. رواه أبو داود وأحمد في مسنده. **قوله:** (يعتدون) أي يجاوزون.

قوله: (ذكر قريب) مع أن القاعدة في فعيل بمعنى فاعل أن لا يستوي فيه المذكّر والمؤنّث، كما أن القاعدة في فعيل بمعنى مفعول أن يستويا فيه وقريب بمعنى فاعل أُسند إلى ضمير المؤنّث وهي الرحمة، فينبغي أن تلحق به علامة التأنيث إلّا أنه ذكر لتأويل الرحمة بالرحم ـ بضم الراء وسكون الحاء وضمّهما بمعنى الرحمة ـ قال تعالى: ﴿وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ [الكهف: الآية ٨١].

الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف أي شيء قريب، **(أو على تشبيهه لفعيل الذي هو بمعنى مفعول)**، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي، أو للإضافة إلى المذكر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ («**الريح» مكيّ وحمزة وعلي**) ﴿بُشْرًۢا﴾ («**نشرًا» حمزة وعلي**). مصدر نشر، وانتصابه إما لأن أرسل ونشر متقاربان فكأنه قيل نشرها نشرًا، وإما على الحال أي منشورات («﴿بُشْرًۢا﴾» **عاصم تخفيف** «بشرًا») جمع

قوله: (أو على تشبيهه لفعيل الذي بمعنى مفعول) فإنه يستوي فيه المذكّر والمؤنث كجريح وأسير وقتيل، كما شبّه ذلك به، أي الفعيل الذي بمعنى مفعول بالفعيل الذي بمعنى فاعل، فقيل: قتلاء وأُسراء، أي فجمع قتيل وأسير على قتلاء وأُسراء. قال العلاّمة التفتازاني رحمه الله: من القاعدة في فعيل بمعنى مفعول أن يستوي فيه المذكّر والمؤنث، وأن يجمع على فعلى كجَرْحَى وقتلى لا على فُعلاء، وفي الذي بمعنى فاعل أن لا يستوي فيه، وأن يجمع على فُعلاء ككرماء ورُحماء، فيجوز أن يكون الاستواء في القريب على التشبيه بما هو بمعنى مفعول، كما أن الجمع في قُتلاء وأُسراء على التشبيه بما هو بمعنى فاعل. اهـ. كما جمع كريم ورحيم على كُرماء ورُحماء، أو على أنه بزنة المصدر الذي هو النقيض بالنون والقاف والظاء المعجمة، وهو صوت المحامل والرحال، والضغيب وهو صوت الأرنب، والمصدر يلزمه الإفراد والتذكير في جميع الأحوال، فحُمل ما يوازنه عليه.

قوله: («**الريح**») بإسكان الياء التحتيّة ولا ألف بعدها على الإفراد (**مكّي**) أي ابن كثير المكّي (**وحمزة وعليّ**) الكسائي، والباقون بفتح الياء وألف بعدها على الجمع. **قوله:** («**نشرًا**») بالنون المفتوحة وسكون الشين (**حمزة وعليّ**) الكسائي. **قوله:** (﴿بُشْرًۢا﴾) بالباء الموحدة المضمومة وإسكان الشين (**عاصم تخفيف بشرًا**)

«بشير»، لأن الرياح تبشر بالمطر (**«نشر» شامي تخفيف «نشرًا»**) كرسل ورسل وهو قراءة الباقين جمع «نشور» أي ناشرة للمطر ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أمام نعمته وهو الغيث الذي هو من أجلّ النعم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ حملت ورفعت، واشتقاق الإقلال من القلّة لأن الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلًا ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء جمع سحابة ﴿سُقْنَٰهُ﴾ الضمير للسحاب على اللفظ ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلًا ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ - ميت - لأجل بلد ليس فيه مطر ولسقيه (﴿مَّيِّتٍ﴾ **مدني وحمزة وعلي وحفص**) ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ بالسحاب أو بالسوق وكذلك ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيؤديكم التذكر إلى الإيمان بالبعث إذ لا فرق بين الإخراجين، لأن كل واحد منهما إعادة الشيء بعد إنشائه.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الأرض الطيبة الترب ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بتيسيره وهو موضع الحال كأنه قيل: يخرج نباتة حسنًا وافيًا لأنه واقع في مقابلة ﴿نَكِدًا﴾ ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ صفة للبلد أي والبلد الخبيث ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ أي نباته فحذف للاكتفاء ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ هو الذي لا خير فيه وهذا مثل لمن (**ينجع**) فيه الوعظ وهو المؤمن ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك وهو الكافر، وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر مثل المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نرددها ونكررها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليتفكروا فيها ويعتبروا بها.

بضمّتين. **قوله: (نشر)** بالنون مضمومة وإسكان الشين (**شامي**) أي ابن عامر الشامي (**تخفيف نشرًا**) بضمّتين. **قوله:** (﴿مَّيِّتٍ﴾) بتشديد الياء التحتية (**مدني**) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. (**وحمزة وعليّ وحفص**) عن عاصم، والباقون بالتخفيف.

قوله: (**ينجع**) أي يؤثر.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أرسل وهو ابن خمسين سنة وكان نجارًا، وهو (نوح بن لمك) بن (متوشلخ) بن أخنوخ وهو اسم إدريس عليه السلام ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ («غيره» علي. فالرفع على المحل كأنه قيل: ما لكم إلـه غيره فلا تعبدوا معه غيره، والجرّ على اللفظ) ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي الأشراف و(السادة) ﴿مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي بين في ذهاب عن طريق الصواب، والرؤية رؤية القلب ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ ولم يقل ضلال كما قالوا (لأن الضلالة أخصّ من الضلال) فكانت أبلغ في نفي

قوله: (نوح بن لمك) ـ بفتحتين ـ ولامك كهاجر أبو نوح على نبيِّنا وعليه الصّلاة والسّلام. **قوله:** (متوشلخ) بوزن المفعول في المشهور، وقيل: هو بفتح الميم وضمّ المثناة الفوقية المشدّدة وسكون الواو وشين معجمة ولام مفتوحة ثم خاء معجمة. **قوله:** («غيره») بخفض الراء وكسر الهاء بعدها (عليّ) الكسائي، وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة. والباقون برفع الراء وضمّ الهاء على النعت أو البدل من موضع إلـه لأن مَنْ مزيدة فيه وموضعه رفع إمّا بالابتداء أو بالفاعلية، كما قال المصنف: (فالرفع على المحل، كأنه قيل: ما لكم إلـه غيره فلا تعبدوا معه غيره، والجرّ على اللّفظ) أي على النعت أو البدل من إلـه لفظًا.

قوله: (السادة) جمع سيّد. **قوله:** (لأن الضلالة أخص من الضلال) يعني أنهما وإن جاءا في اللغة بمعنًى واحد، كالمِلال والمَلالة، إلّا أن مقابلة الضلالة بالضلال ونفيها عند قصد المبالغة في الهداية يدلّ على أنّ المراد به المرّة والتاء للوحدة فيكون بعضًا من جنس الضّلال، (وهو الفرد الواحد) ويأوّل معناه إلى أقلّ ما يُطلق عليه اسم الضلال، وهذا معنى كونه أخصّ ولا يبعد تفسيره بالأقلّ فردًا،

الضلال عن نفسه كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال. (ثم استدرك لتأكيد نفي الضلالة، فقال): ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأن كونه رسولًا من الله مبلغًا لرسالاته في معنى كونه على الصراط المستقيم فكان في الغاية القصوى من الهدى.

وظاهر أنّ نفيه أبلغ من نفي الجنس المحتمل للكثرة. **قوله**: (ثم استدرك لتأكيد نفي الضلالة، فقال)... الخ. في الكشاف: فإن قلت: كيف وقع قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ﴾ [الأعراف: الآية ٦١] استدراكًا للانتفاء عن الضلالة؟ قلت: كونه رسولًا من الله مبلّغًا رسالاته ناصحًا في معنى كونه على الصّراط المستقيم، فصحّ لذلك أن يكون استدراكًا للانتفاء عن الضّلالة، فقيل عليه معنى الاستدراك أن يقع للمخالف في الجملة السابقة وَهم، فيتدارك ذلك الوَهم بإزالته، فلمّا نفى الضلالة عن نفسه، فربّما يُتوهّم المخاطَب انتفاء الرسالة أيضًا كما انتفى الضلالة، فاستدركه بلكن كما في قولك: زيد ليس بفقيه لكنه طبيب. وأمّا جوابه بأنّ إثبات الرسالة في معنى الاهتداء، وإثبات الاهتداء استدراك لنفي الضلالة، ففيه بعد؛ لأنه لما نفى الضلالة لم يذهب وَهم وَاهم إلى نفي الاهتداء أيضًا حتى يحتاج إلى تداركه، ويمكن أن يقال: إذا لم يسلك طريقًا فلا اهتداء ولا ضلال، وقال النّحرير متعقّبًا له: إنْ كان القصد إلى مجرّد كون لكن يتوسّط بين كلامَيْن متغايرَيْن نفيًا وإثباتًا، فوجه السؤال والجواب ظاهر. وأمّا إذا أُريد بالاستدراك رفع التوهّم الناشىء من الكلام السابق على ما هو المشهور، وعلى ما قاله المصنّف رحمه الله تعالى، معنى الاستدراك أنّ الجملة التيْ يسوقها أولًا يقع فيها وَهْم للمخاطب، فيتدارك ذلك الوَهْم بإزالته؛ كقولك: زيد ليس بفقيه ولكنه طبيب، ففي الكلام إشكال؛ لأن نفي الضلالة ليس مما يقع فيه نفي كونه رسولًا وعلى صراط مستقيم، وما في الكتاب غير وافٍ بحلّه، بل تَرْك ما ذكره من التأويل أوْلى؛ إذ يمكن ربما يتوهم المخاطَب عند نفي الضّلالة انتفاء الرّسالة أيضًا، لكن توهّم انتفاء الهداية مما لا وجه له؛ إذ من البعيد أن يقال: نفي الضلالة ربما يُوهم نفي سلوك الطريق المستقيم، وحيث لا سلوك لا هداية كما لا ضلالة، والظاهر أنّ المصنّف رحمه الله لم يقصد سوى أنه عند نفي أحد المتقابلين قد سبق الوهم إلى انتفاء المقابل الآخر لا إلى انتفاء الأُمور التي لا تعلّق لها به، فأوّل ما وقع في معرض الاستدراك بما يقابل الضلال، مثلًا يقال: زيد ليس بقائم لكنه قاعد، ولا يقال: لكنه شارب، إلا بعد التأويل بأن الشارب يكون

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ ما أوحي إليّ في الأوقات المتطاولة أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والبشائر والنظائر. («أبلغكم» **أبو عمرو**). وهو كلام مستأنف بيان لكونه رسول رب العالمين ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وأقصد صلاحكم بإخلاص. يقال نصحته ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة. وحقيقة النصح إرادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك أو النهاية في

قاعدًا، وقد قيل: إنّ القوم لما أثبتوا له الضلالة أرادوا به ترك دين الآباء ودعوى الرّسالة، فهو حين نفى الضلالة توهّم منه أنه على دين آبائه وترك دعوى الرسالة، فوقع الإخبار بأنه رسول وثابت على الصراط المستقيم استدراكًا لذلك، ولا خفاء في أنّ هذا ليس كلام الكتاب.اهـ. وما ذكره تحقيق بديع، لكن المذكور في العربية كما نقله صاحب المغني أنّ للنُّحاة في الاستدراك ولزومه لها قولين، فقيل: الاستدراك أن تُنسب لما بعدها حكمًا مخالفًا لما قبلها سواء تغايرا إثباتًا ونفيًا أوْ لا، وقيل: هو رفع ما يتوهّم ثبوته، وهو التحقيق كما يشهد به مَنْ تتبّع موارد الاستعمال، وما ذكره أوّلًا مخالف للقولين، إلّا أن يرجع إليه بضرب من التأويل. وقال بعض المتأخّرين من علماء الروم: النظر الصائب في الاستدراك هنا أن يكون مثل قوله: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم... الخ. وقوله:

سوى أنه الضِّرْغام لكنه الوبل

أي ليس بي ضلالة وعيب، لكني رسول من ربّ العالمين، فليتأمّل.

ومحصل كلام المصنّف رحمه الله تعالى أنها واقعة بين متغايرين بحسب التأويل، وهي تفيد التأكيد في مثله، كما صرّح به النحاة، فلا يرد السؤال الذي أورده بعضهم هنا، وهو فإن قيل: لا فائدة في الاستدراك؛ لأن نفي الضلالة يستلزم الهدى. قلنا: المراد من الهدى الهداية الكاملة، ونفي الضلالة لا يستلزمها إثبات.اهـ شهاب ﷺ. **قوله: («أبلغكم»)**[1] بإسكان الباء وتخفيف اللام (**أبو عمرو**) البصري، والباقون بفتح الباء وتشديد اللام.

---

(١) ينقل بلغ إلى باب الأفعال. ١٢ منه عمّ فيضهم.

صدق العناية ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي من صفاته يعني قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم ﴿أَن جَآءَكُمْ﴾ من أن جاءكم ﴿ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ على لسان رجل منكم أي من جنسكم، وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوّة نوح عليه السلام ويقولون: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين يعنون إرسال البشر ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ليحذركم عاقبة الكفر ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ ولتوجد منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فنسبوه إلى الكذب ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعين رجلًا وأربعين امرأة وقيل تسعة: بنوه (**سام وحام ويافث**)، وستة ممن آمن به ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يتعلق بمن معه كأنه قيل: والذين صحبوه في الفلك ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق. يقال: أعمى في البصر و(**عم**) في البصيرة.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ وأرسلنا إلى عاد وهو عطف على ﴿نُوحًا﴾ ﴿أَخَاهُمْ﴾ (**واحدًا منهم**) من قولك: «يا أخا العرب» للواحد منهم. وإنما جعل واحدًا منهم

قوله: (سام وحام ويافث) الثلاثة بمنع الصرف للعلمية والعجمة. **قوله:** (عم) أصله عَمِي على وزن خضر فأُعِلَّ كإعلال قاض، قال أهل اللغة: يقال: رجل عم.

قوله: (واحدًا منهم) أي من قبيلة عاد، وعاد في الأصل اسم الأب الكبير، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، فسُمِّيت به القبيلة، واتّفقوا على أنّ هودًا ما كان أخاهم في الدِّين، واختلفوا في أنه هل كانت هناك قرابة أوْ لا؟ قال الكلبي: إنه كان واحدًا من تلك القبيلة، وقال آخرون: إنه ما كان من تلك القبيلة إلّا أنه لمّا كان من جملة بني آدم لا من الملائكة والجنّ نسب إليهم بالأخوة،

(لأنهم عن رجل منهم أفهم) فكانت الحجة عليهم ألزم ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لـ ﴿أَخَاهُمْ﴾ وهو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (وإنما لم يقل ﴿فَقَالَ﴾ كما في قصة نوح عليه السلام) لأنه على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

وكذلك ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وإنما وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح (**لأن في أشراف قوم هود من آمن به**) منهم مرثد بن سعد فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح عليه السلام مؤمن ﴿إِنَّا

والمعنى أنّا بعثنا إلى عاد واحدًا من جنسهم وهو البشر ليكون أنسهم به وفهمهم كلامه أكمل، قيل: إنّ هود اسم عربي وفيه بحث؛ لأنه حُكِي أنّ أهل اليمن تزعم أن يَعرُب بن قحطان بن هود هو أوّل مَنْ تكلّم بالعربية، وبه سمّيت العرب عربًا، فعلى هذا يكون هود أعجميًا اسم رجل، وإنما صُرِف لما ذكر في أخواته من نحو لوط ونوح. **قوله: (لأنهم عن رجل منهم أفهم)** عن رجل متعلّق بما في أفعل التفضيل من أصل الفعل وهو الفهم، ومنهم صفة رجل، ومن التفضيلية محذوفة. والمعنى أنهم أشدّ فهمًا لكلام صدر عن رجل هو من أفرادهم منهم لكلام صدر عن رجل ليس منهم.

قوله: (وإنما لم يقل، ﴿فَقَالَ﴾ كما في قصة نوح) على نبيّنا (**وعليه السلام**)... الخ. إشارة إلى الفرق بين ما ذُكِر من قصة نوح وهود على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام، حيث قيل في الأول، فقال: وفي الثاني قال بغير عاطف، وهو أنه أُشير في الأوّل إلى أن دعوة نوح على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام لم تتأخر عن إرساله، وأنه باشر الدّعوة قبيل الإرسال، وفي الثاني جعل الكلام جواب سائل. اهـ شيخ زاده رحمه الله.

قوله: (لأن في أشراف قوم هود من آمن به)... الخ. **فعلى هذا** ما ورد في سورة المؤمنين: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: الآية ٢٤]... الخ.

﴿لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ في خفة (حلم) و(سخافة) عقل حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر. وجعلت السفاهة ظرفًا مجازًا (يعني أنه متمكن فيها غير منفك عنها) ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ادعائك الرسالة.

في وصف نوح على نبيِّنا وعليه الصّلاة والسلام محمول على أنه هناك للذمّ لا للتمييز، وإنما لم يذمّ هٰهنا للإشارة إلى التفرقة بين قوم نوح وقوم هود على نبيِّنا وعليهما الصّلاة والسلام، ولو حمل الوصف على الذمّ هنا وفرّق بأن مقتضى المقام ذمّ قوم هود لشدَّة عنادهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: الآية ٦٦] مع كونه معروفًا بينهم بالحلم والرشد، وذمّ قوم نوح في سورة المؤمنون لعنادهم لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٢٤، ٢٥] لِمَا فيه من فرط العناد، ثم إنه قيل: إنّ الظاهر أنّ ما نُقِل هنا عن قوم نوح صلّى الله على نبيِّنا وعليه وسلّم مقالتهم في مجلس أو مقالة بعضهم، وما نُقِل في سورة المؤمنون مقالتهم في مجلسٍ آخر أو مقالة بعض آخر، فرُوعِيَ في المقامَيْن مقتضى كلّ من المقالتَيْن، ثم إنّ شدَّة عناد مَنْ عاند مِنْ قوم هود صلّى الله على نبيِّنا وعليه وسلم لا تنافي قرب جملتهم من جملة قوم نوح، حيث آمَنَ بعض أشرافهم دون أشراف قوم نوح صلّى الله تعالى على نبيِّنا وعليه وسلّم، فإن قلت: قوله: إذا كان من أشراف قومه مَنْ آمن يقتضي أنّ قوم نوح على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام ليسوا كذلك، وهو ينافي قوله في تفسير قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [هُود: الآية ٥٨] أنه آمن معه أربعون رجلًا وأربعون امرأة، وقوله تعالى: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هُود: الآية ٣٦]، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هُود: الآية ٤٠]. قلت: هؤلاء لم يكونوا من السادات كما هو المعتاد في أتباع الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام، وقيل: إنه وقت مخاطبة نوح صلّى الله على نبيِّنا وعليه وسلّم لقومه لم يكونوا آمنوا بخلاف قوم هود ومثله يحتاج إلى النقل.اهـ شهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (حِلْم) بالكسر بمعنى العقل. **قوله:** (سخافة) بالفتح بمعنى رقّة العقل. **قوله:** (يعني أنه متمكّن فيها غير منفكّ عنها) حيث لم يقل سفيهًا وجعله متمكّنًا فيها تمكّن الظرف في المظروف.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾

ما أدعوكم إليه ﴿أَمِينٌ﴾ على ما أقول لكم. وإنما قال هنا ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ لقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي ليقابل الاسم الاسم، وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام مَن ينسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضلّ الناس وأسفههم، أدب حسن وخلق عظيم، وإخبار الله تعالى ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضّون عنهم ويسلبون أذيالهم على ما يكون منهم.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي خلفتموهم في الأرض أو في مساكنهم. و«إذ» مفعول به وليس بظرف أي اذكروا وقت استخلافكم ﴿مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ طولًا وامتدادًا فكان أقصرهم ستين ذراعًا (**وأطولهم مائة ذراع** ﴿بَصْۜطَةً﴾: **حجازي وعاصم وعلي**)

قوله: (وأطولهم مائة ذراع) قال المجلي رحمه الله في سورة الفجر: إنّ طويلهم كان أربعمائة ذراع. اهـ. والمراد بالأذرع في جميع الأقوال أذرعهم، وكان رأس الواحد منهم قدر القبّة العظيمة، وكانت عينه بعد موته تفرخ فيها الضباع[1]. اهـ من الخطيب. وعبارة الكاذروني في سورة الفجر: وكان طول الطويل منهم خمسمائة ذراع، وطول القصير ثلاثمائة ذراع بذراع نفسه. اهـ. **قوله:** (﴿بَصْۜطَةً﴾) بالصاد (**حجازيّ**) إذا اجتمع أهل مكّة والمدينة قيل: حجازي، أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة، وابن كثير المكّيّ (**وعاصم وعليّ**) الكسائي، والباقون بالسين. وعبارة الإتحاف في سورة البقرة: واختلف في ﴿وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة:

---

(١) وهي سَبُعٌ كالذئب. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿فَاذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ في استخلافكم وبسطة (أجرامكم) وما سواهما من عطاياه. (وواحد الآلاء) «إلى» (نحو «إنى» و«آناء») ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الآية ٢٤٥] هنا، و﴿فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: الآية ٦٩] بالأعراف، فالدّوري عن أبي عمرو وهشام وخلف عن حمزة وكذا رُويس وخلف بالسين فيهما على الأصل، وأفقههم اليزيدي والحسن، واختلف عن قنبل والسوسي وابن ذكوان وحفص وخلاد، فأمّا قنبل فابن مجاهد عنه بالسين، وابن شنبوذ عنه بالصاد. أمّا السوسي، فابن حبش عن ابن جرير عنه بالصاد فيهما، وكذا روى ابن جمهور عن السوسي، وروى سائر الناس عنه السين فيهما، وهو في الشاطبية وغيرها. وأمّا ابن ذكوان فالمطوعي عن الصوري والشذاي عن الرملي عن ابن ذكوان بالسين فيهما، وروى زيد والقباب عن الرمليّ وسائر أصحاب الأخفش عنه الصاد فيهما إلّا النقّاش، فإنه روى عنه السين هنا والصاد في الأعراف، وبه قرأ الداني على عبد العزيز بن محمد، وبالصاد فيهما قرأ على سائر شيوخه في رواية ابن ذكوان، ولم يذكر وجه السين فيهما عن الأخفش إلّا فيما ذكر، ولم يقع ذلك للداني تلاوةً، وكذا في النشر قال فيه: والعجب كيف عوّل عليه ـ أي على السين ـ الشاطبي، ولم يكن من طرقه، ولا من طرق التيسير، وعدل عن طريق النقّاش الذي لم يذكر في التيسير غيرها، وهذا الموضع مما خرج فيه عن التيسير وطرقه، فليُعلم. وأمّا حفص، فالوليّ عن الفيل وذرعان كلاهما عن عمرو عن حفص بالصاد فيهما، وروى عبيد عنه بالسين فيهما، ونصّ له على الوجهين المهدويّ وابن شريح وغيرهما. وأمّا خلّاد فابن الهيثم من طريق ابن ثابت عنه بالصاد فيهما، وروى ابن نصر عن ابن الهيثم والنقّاش عن ابن شاذان كلاهما عن خلّاد بالسين فيهما، وعن ابن محيصين الخلف فيهما أيضًا، والباقون بالصاد فيهما. قال أبو حاتم: وهما لغتان، ورسمهما بالصاد تنبيهًا على البدل. اهـ.

قوله: (أجرامكم) في المصباح: الجرم ـ بالكسر ـ الجسد، والجمع أجرام مثل حمل وأحمال. **قوله: (وواحد الآلاء)** إلَى ـ بكسر ففتح ـ مقصور كعنب وأعناب، أو بكسر الهمزة وسكون اللام كحمل وأحمال. **قوله: (نحو إنى وآناء)** في المصباح: الأناء على أفعال هي الأوقات، وفي واحدها لغتان إنى ـ بكسر الهمزة والقصر ـ وأنى وزان حمل. اهـ.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

ومعنى المجيء في ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ أن يكون لهود عَلَيْهِ السَّلَامُ مكان معتزل عن قومه (يتحنث) فيه كما يفعل رسول الله ﷺ (بحراء) قبل المبعث، فلما أُوحي إليه جاء قومه يدعوهم ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه حبًّا لما نشئوا عليه ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بنا.

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ﴾ أي قد نزل ﴿عَلَيۡكُم﴾ جعل المتوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع كقولك لمن طلب إليك بعض المطالب «قد كان» ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ﴾ عذاب ﴿وَغَضَبٌۖ﴾ سخط ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات لأنكم تسمون الأصنام آلهة وهي خالية عن معنى الألوهية ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ حجة ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ ذلك.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي من آمن به ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ الدابر الأصل أو الكائن خلف الشيء، وقطع دابرهم استئصالهم وتدميرهم

قوله: (يتحنث) أي يتعبّد. **قوله:** (بحراء) بكسر الحاء المهملة وتخفيف الراء وبالمد، وحُكي فتحها والقصر وهو مصروف إن أُريد المكان وممنوع إن أُريد البقعة، فهي أربعة: التذكير والتأنيث والمدّ والقصر، وكذا حكم قباء وقد نظم بعضهم أحكامهما في بيت فقال:

حرا وقبا ذكر وأنثهما معًا ... وَمُدَّ أو قصر واصرفن وامنع الصرفا

وحِرا جبل بينه وبين مكّة نحو ثلاثة أميال على يسار الذاهب إلى منى.

عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ فائدة نفي الإيمان عنهم مع إثبات التكذيب بآيات الله الإشعار بأن الهلاك خصّ المكذبين. وقصتهم أن عادًا قد تبسطوا في البلاد ما بين (عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام) يعبدونها (صُداء وصمود والهَباء)، فبعث الله إليهم هودًا فكذبوه فأمسك القطر عنهم ثلاث سنين. وكانوا إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج منه عند بيته الحرام (فأوفدوا إليه ـ قيل) ابن عنز ونعيم بن هزال ومرثد بن سعد ـ وكان يكتم إيمانه بهود عليه السلام وأهل مكة إذ ذاك (العماليق) أولاد عمليق بن لاوز بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر، فنزلوا عليه (بظاهر مكة) فقال لهم مرثد: لن تسقوا حتى تؤمنوا بهود فخلفوا مرثدًا وخرجوا فقال قيل:

قوله: (عُمان) وزان غراب موضع باليمن وعمان فعال بالفتح والتشديد بلدة بطرف الشام من بلاد البلقاء. اهـ مصباح. **قوله:** (حضرموت) بُلَيْدة من اليمن بقرب عدن. اهـ مصباح. **قوله:** (وكانت لهم أصنام) يعبدونها. **قوله:** (صُداء) بالضم (وصمود) بالفتح (والهَباء) كافي شعر مرثد بن سعد بن عفير حيث قال لهم:

صنم يقال له صَمود يقابله صُداء والهَباء

قوله: (فأوفدوا إليه)... الخ. في الخازن: فلمّا قحطت عاد وقلّ عنهم المطر، قالوا: أجهزوا منكم وفدًا إلى مكّة يستسقوا لكم، فإنكم قد هلكتم، فبعثوا قيل بن عِنْزٍ ونُعَيْم بن هَزال من هذيل، وعقيل بن صندين بن عاد الأكبر، ومَرْثَد بن سعد بن عفير، وكان مسلمًا يكتم إسلامه، وجهلمة بن الخيبري خال معاوية بن بَكر سيّد العماليق، ولقمان بن عاد؛ فانطلق كلّ رجل من هؤلاء القوم ومعه جماعة من قومه، فبلغ عدد وفد عاد سبعين رجلًا. اهـ. **قوله:** (قَيْل) ـ بفتح القاف وسكون الياء ـ عَلَم وهو السيّد الذي يُسمع قوله، وأصله قيول وأُعِلّ إعلال ميتُ وأطلق على كل ملك من حمير. **قوله:** (العَماليق)[1] في مختار الصِّحاح: العَمَاليق والعَمالقة قوم من ولد عِمْليق[2] بن إرم بن سام بن نوح على نبيِّنا وعليه الصّلاة والسّلام، وهم أُمم تفرّقوا في البلاد. اهـ. **قوله:** (بظاهر مكّة)

---

(١) بفتح العين وكسر اللام. اهـ قنويّ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٢) بكسر العين وسكون الميم وكسر اللام مع المدّ. اهـ قنوي. ١٢ منه عمّ فيضهم. وكقنديل. اهـ قاموس. ١٢ منه عمّ فيضهم.

اللهم اسقِ عادًا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله سحابات ثلاثًا بيضاء وحمراء وسوداء، ثم **(ناداه منادٍ من السماء)**: يا قيل اختر لنفسك ولقومك، فاختار السوداء على ظن أنها أكثر ماء فخرجت على عاد من وادٍ لهم فاستبشروا وقالوا: ﴿(هَٰذَا عَارِضٌ) مُّمْطِرُنَا﴾، فجاءتهم منها **(ريح عقيم)** فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وأرسلنا إلى ثمود. **(وقرىء)** ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ بتأويل الحي أو باعتبار الأصل لأنه اسم أبيهم الأكبر، ومنع الصرف بتأويل القبيلة، وقيل: سميت ثمود لقلّة مائها **(من الثمد)** وهو الماء القليل وكانت مساكنهم **(الحجر)** بين الحجاز والشام ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آية ظاهرة شاهدة على صحة نبوّتي فكأنه قيل: ما هذه البينة؟ فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ وهذه إضافة تخصيص وتعظيم لأنها بتكوينه تعالى بلا صلب ولا رحم ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ حال من الناقة والعامل معنى الإشارة في ﴿هَٰذِهِۦ﴾ كأنه قيل: أشير إليها آية ولكم بيان لمن هي له آية وهي ثمود لأنهم عاينوها ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي الأرض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تأكل في أرض ربها من نبات ربها فليس عليكم **(مؤنتها)** ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ ولا

خارجًا عن الحرم. اهـ. كشاف. **قوله: (ناداه منادٍ من السماء)**... الخ. قيل: كان كذلك يفعل الله مَنْ دعاه إذ ذاك. **قوله:** (﴿هَٰذَا عَارِضٌ﴾) أي سحاب عرض في أُفق السماء ﴿مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤]، أي ممطر إيانا. **قوله: (ريح عقيم)** لا مطر فيها.

وقوله: (وقرىء) قارئه الأعمش والحسن البصري ﷺ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودٍ﴾ [الأعراف: الآية ٧٣] بكسر الدال منوّنة.

قوله: (من **الثَّمْد**) بسكون الميم وفتحها. **قوله: (الحجر)** ـ بكسر الحاء ـ اسم أرض معروف. **قوله: (مؤنتها)** في المصباح: المُؤْنة الثقل، وفيها لغات

تضربوها ولا تعقروها ولا تطردوها إكرامًا لآية الله ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ ونزلكم، والمباءة المنزل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ غرفًا للصيف ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ للشتاء، و﴿بُيُوتًا﴾ حال مقدرة نحو «خط هذا الثوب قميصًا» إذ الجبل لا يكون بيتًا في حال النحت ولا الثوب قميصًا في حال الخياطة ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ رُوِيَ أن عادًا لما أهلكت **(عمرت)** ثمود بلادها **(وخلفوها)** في الأرض **(وعمروا)** أعمارًا طوالًا، فنحتوا البيوت من الجبال خشية الانهدام قبل الممات، وكانوا في سعة من العيش فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحًا وكانوا قومًا عربًا وصالح من أوسطهم نسبًا، فدعاهم إلى الله فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون فأنذرهم، فسألوه أن يخرج من صخرة بعينها ناقة **(عشراء)** فصلّى ودعا

إحداها على فعولة بفتح الفاء وبهمزة مضمومة، والجمع مؤونات على لفظها، ومأنت القوم أمأنهم مهموز بفتحتين، واللغة الثانية مئنة بهمزة ساكنة. قال الشاعر:

أميرنا مؤنته خفيفة

والجمع مُؤَن، مثل غرفة وغُرف، والثالثة مونة بالواو، والجمع مُوَن، مثل سورة وسُوَر، يقال: منها مانه يمونه من باب قال. اهـ.

قوله: (عمرت) بتخفيف الميم من العمارة، ولا يجوز تشديدها إلّا إذا كانت من العمر. **قوله: (وخلفوها)** بتخفيف وفتح اللام، أي صاروا خلفًا عنهم. **قوله: (وعمّروا)** مجهول مشدّد الميم من العمر. **قوله: (عشراء)** كعلماء التي أتى عليها عشرة أشهر بعد طروق الفحل.

ربه (**فتمخضت تمخض النتوج**) بولدها فخرجت منها ناقة كما شاءوا فآمن به (**جندع**) ورهط من قومه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ («وقال» شامي) ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ للذين استضعفهم رؤساء الكفار ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من «الذين استضعفوا» بإعادة الجار، وفيه دليل على أن البدل حيث جاء كان في تقدير إعادة العامل، والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ راجع إلى قومه وهو يدلّ على أن استضعافهم كان مقصورًا على المؤمنين، أو إلى «الذين استضعفوا» وهو يدلّ على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ قالوه على سبيل السخرية ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ وإنما صار هذا جوابًا لهم لأنهم سألوهم عن العلم بإرساله أمرًا معلومًا مسلمًا كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به لا شبهة فيه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فوضعوا ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ موضع أرسل به ردًا لما جعله المؤمنون معلومًا مسلمًا ﴿فَعَقَرُوا۟

قوله: (فتمخّضت) بالمعجمة أي تحرّكت (تمخض النتوج)[1] أي كحركة الحاملة بولدها. **قوله:** (جُنْدُع) بن عَمرو سيّد الثمود.

قوله: (وقال) بزيادة واو للعطف، قيل: قال (شامي) أي ابن عامر الشاميّ، والباقون بغير واو اكتفاءً بالرّبط المعنوي.

(١) النّتوج: الناقة التي أدركت الوقت الذي تنتج فيه.اهـ شيخ زاده رحمه الله. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿ٱلنَّاقَةَ﴾ أسند العقر إلى جميعهم وإن كان العاقر (قدار) بن سالف لأنه كان برضاهم. وكان قدار أحمر أزرق قصيرًا كما كان فرعون كذلك. وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا علي، أشقى الأولين عاقر ناقة صالح وأشقى الآخرين قاتلك» ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وتولوا عنه واستكبروا وأمر ربهم ما أمر به على لسان صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أو شأن ربهم وهو دينه ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ﴾ في بلادهم أو مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ميتين قعودًا. يقال: (الناس جثم) أي قعود لا حراك بهم ولا يتكلمون.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ لما عقروا الناقة ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾ عند فراقه إياهم ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الآمرين بالهدى لاستحلاء الهوى والنصيحة (منيحة تدرأ) الفضيحة، ولكنها (وخيمة) تورث (السخيمة). رُوِيَ أن عقرهم الناقة كان (يوم الأربعاء) فقال صالح: تعيشون بعده ثلاثة أيام، تصفرّ وجوهكم أول يوم، وتحمرّ في الثاني، وتسود في الثالث، ويصيبكم العذاب في

قوله: (قدار) بضمّ القاف والذال المعجمة وفي آخره راء مهملة. اهـ كمالين. وذكره في تاج العروس من جواهر القاموس وغيره بالدال المهملة. **قوله:** (الناس جثم) في لسان العرب: جثم الإنسان والطائر والنّعامة والخِشْف والأرنب واليربوع يجثِمْ جَثْمًا وجُثومًا فهو جاثم لزم مكانه، فلم يبرح، أي تلبَّدَ بالأرض، وقيل: هو أن يقع على صدره.

قوله: (منيحة) في المصباح: منحه منحًا من بابي نفع وضرب أعطيته، والاسم المنيحة. اهـ. **قوله:** (تدرأ) أي تدفع. **قوله:** (وخيمة) أي ثقيلة. **قوله:** (السّخيمة) الحِقْد والضغينة. **قوله:** (يوم الأربعاء) ممدود وهو بكسر الباء ولا نظير له في المفردات، وإنما يأتي وزنه في الجمع، وبعض بني أسد يفتح الباء، والضمّ لغة قليلة فيه. اهـ مصباح.

الرابع وكان كذلك. رُوِيَ أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فلما علم أنهم هلكوا رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿(وَلُوطًا) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي واذكر لوطًا («وإذ» **بدل منه**) ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أتفعلون السيئة المتمادية في القبح ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ ما عملها قبلكم والباء للتعدية ومنه قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «سبقك بها **(عكاشة)**» ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ «من» زائدة

قوله: (﴿وَلُوطًا﴾). . . الخ. وهو وإنْ كان واردًا في قصة لوط، ولكن قد عَلِمْنا من ضابطة الأُصول أنّ شرائع مَنْ قبلنا يلزمنا إذا قصّ الله ورسوله من غير إنكار، وهذا قد قصّ الله بها مِرارًا من غير إنكار، فيلزمنا؛ فيدلّ على حُرْمة اللّواطة، ولا حدّ فيها عندنا على أحد، ولكن يجب التعزير، فقيل: بالإحراق، وقيل: بالإغراق، وقيل: بالإلقاء من الأعلى وإتباع الأحجار من فوقه، وهكذا اختلف الصحابة فيه، وقال أبو يوسف ومحمد والشافعي رَحِمَهُمُ اللهُ: يجب فيها حدّ الزّنا؛ لأنها مثله في الحُرمة والشهوة وسفح الماء، ونحن نقول: إنه قياس في اللغة، وهو مردود وتفصيله في كتب الأُصول، وهكذا الحال في اللّواطة من الأجنبيّة. وأمّا اللّواطة من المنكوحة ومملوكته، فحكمها الحرمة عندنا بدون التعزير.اهـ التفسيرات الأحمديّة. **قوله: (وإذ بدل منه)** أي بدل اشتمال.

قوله: (عُكاشة) بضمّ العين وتشديد الكاف وقد تخففت، وهو ابن محصن الأسدي ـ بكسر الميم ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنّة مِنْ أُمّتي زمرة هم سبعون ألفًا يضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»، فقام عكاشة بن محصن الأسدي، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ اجعله منهم»، فقام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة»، والضمير للدعوة.اهـ تفتازاني رَحِمَهُ اللهُ. وقال العلّامة علي القاري في شرح المشكاة: لعلّ وجه الامتناع من الدعاء أن لا ينفتح هذا الباب المتفرّع عليه الاكتفاء. قال ابن الملك: لأنه لم يُؤْذَن له في المجلس بالدّعاء إلا الواحد، وفيه حثّ على المسارعة إلى الخيرات وطلب دعاء الصالحين؛ لأن في التأخير آفات. وقيل: كان الرجل منافقًا، فأجابه عليه

لتأكيد المنفي وإفادة معنى الاستغراق ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «من» للتبعيض وهذه جملة مستأنفة أنكر عليهم أولًا بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ ثم وبّخهم عليها فقال: أنتم أول من عملها.

السلام بكلام محتمل ولم يصرّح بأنك لست منهم لحسن خلقه، انتهى. وقيل: قد يكون سبق عكاشة بوحي، ولم يحصل ذلك للآخر. وقال القاضي عياض: إن الرجل الثاني لم يكن ممّن يستحق تلك المنزلة، ولا كان بصفة أهلها بخلاف عكاشة، وفي شرح الطيبي قال الشيخ: وقد ذكر الخطيب البغدادي أنه قال في كتابه في الأسماء المبهمة، يقال: إنّ هذا الرجل هو سعد بن عبادة، فإنْ صحّ هذا بطل قول مَنْ زعم أنه منافق.اهـ. وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة: عكاشة بن محصن بن حرثان بن قيس بن مرّة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدي حليف بني عبد شمس، يُكنى أبا محصن، كان من سادات الصحابة وفُضلائهم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وأبلى فيها بلاءً حسنًا، وانكسر في يده سيف فأعطاه رسول الله ﷺ عرجونًا أو عودًا، فعاد في يده سيفًا يومئذ شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتل في الردّة، وهو عنده، وكان ذلك السيف يسمّى العون، وشهد أُحدًا والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وبشّره رسول الله ﷺ أنه ممّن يدخل الجنّة بغير حساب، وقُتِل في قتال أهل الردّة في خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه قتله طليحة(١) بن خويلد الأسدي الذي ادّعى النبوّة، قُتل هو وثابت(٢) بن أقرم يوم بزاخة(٣)، هذا قول أهل السِّيَر والتواريخ، وكان عكاشة يوم توفي النبيّ ﷺ ابن أربع وأربعين سنة، وكان من أجمل الرجال. روى عنه أبو هريرة وابن عباس أخرجه الثلاثة عكاشة ـ بتخفيف الكاف وتشديدها ـ وحرثان ـ بضم الحاء المهملة وسكون الراء وبالثاء المثلثة وبعد الألف نون ـ.

---

(١) قال في الإصابة: إن طُلَيْحة عاد إلى الإسلام. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٢) قتله طُليحة. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٣) بضمّ الباء وتخفيف الزاي وبالخاء المعجمة، موضع كانت به وقعة للمسلمين في خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه، كذا في لسان العرب. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ ـ أئنكم لتأتون الرجال ـ بيان لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ والهمزة مثلها في ﴿أَتَأْتُونَ﴾ للإنكار. (﴿إِنَّكُمْ﴾) على الإخبار: (مدني وحفص). يقال: أتى المرأة إذا غشيها ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له أي للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة، ولا ذم أعظم منه لأنه وصف لهم بالبهيمية ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لا من النساء ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء فمن ثَمّ أسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي لوطًا ومَن آمن معه يعني ما أجابوه بما يكون جوابًا عما كلّمهم به لوط من إنكار الفاحشة، ووصفهم بصفة الإسراف الذي هو أصل الشر، ولكنهم جاءوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومَن معه من المؤمنين من قريتهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يدّعون الطهارة ويدعون فعلنا الخبيث عن ابن عباس رضي الله عنهما: عابوهم بما يتمدح به ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ ومَن يختصّ به من ذويه أو من المؤمنين ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الباقين في العذاب، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث وكانت كافرة موالية لأهل (سدوم)، ورُوِيَ أنها التفتت فأصابها حجر فماتت.

قوله: (﴿إِنَّكُمْ﴾) بهمزة واحدة على الإخبار (مدني) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني (وحفص). والباقون بهمزتين على الاستفهام، فابن كثير ورُويس بتسهيل الثانية بلا ألف، وأبو عمرو بالتسهيل مع الألف. والباقون بالتخفيف بلا ألف، ولهشام وجهٌ ثانٍ وهو التحقيق مع الألف.

قوله: (سدوم) بفتح السين والدال مهملة ومعجمة، كما ذكره الأزهري وغيره قرية قوم لُوط، سُمِّيت باسم رجل. اهـ شهاب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وأرسلنا عليهم نوعًا من المطر عجيبًا قالوا: أمطر الله عليهم الكبريت والنار. وقيل: خسف بالمقيمين منهم وأمطرت حجارة على مسافريهم. وقال (أبو عبيدة): أمطر في العذاب ومطر في الرحمة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ وأرسلنا إلى مدين وهو اسم قبيلة ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه) وكانوا أهل

قوله: (أبو عبيدة) ـ بضم العين المهملة وإثبات الهاء في آخره ـ مَعْمر ـ بفتح الميمين بينهما عين مهملة وفي آخره الراء ـ ابن المُثنّي ـ بضم الميم وفتح الثاء المثلثة وتشديد النون المفتوحة وفي آخره ياء مثنّاة من تحتها ـ بخلاف القاسم بن سلام، فإنه أبو عبيد بغير هاء، وكان أبو عبيدة معمر بن المثني من كبار أئمّة اللغة، وهو مذكور فيمن كان يعتقد مذهب الخوارج من أهل الأهواء، قال أبو منصور الأزهري في أوّل تهذيب اللغة: ذكر أبو عُبيد القاسم بن سلّام أن أبا عبيدة تَيْمي من تَيْم قريش، وأنه مولى لهم، قال: وكان أبو عبيد توثقه ويكتب الرواية عنه في كتبه، قال: ولأبي عبيدة كتب كثيرة في الصفات والغرائب، وكتب أيامَ العرب ووقائعها، وكان الغالب عليه الشعر والغريب وأخبار العرب، وكان مُخِلاً بالنَّحو كثير الخطأ في مقاييس الإعراب، ومتّهمًا في رأيه مقرّ بنشر مثالب العرب جامعًا لكل غِثّ وسمين، فهو مذموم من هذه الجهة غير موثوق به، هذا كلام الأزهري. وقال الإمام أبو جعفر النحّاس في أوّل كتابه صناعة الكتاب: توفي أبو عبيدة سنة عشر ومائتين، ويقال: إحدى عشرة، وقد قارب المائة.

قوله: (يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه) أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا يقول:

(بخس) للمكاييل والموازين ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ (أي معجزة) وإن لم تذكر في القرآن ﴿فَأَوۡفُواْ

«ذاك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه، والمراجعة مفاعلة من الرجوع، وهي مجاز عن المحاورة، يقال: راجعه القول، وإنما عنى النبيّ ﷺ ما ذكر في هذه السورة، كما يُعلم بالتأمّل فيه. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله: (بخس)** أي نقص. **قوله: (أي معجزة)** لأنه إنما أمَرَ قومه بعبادة الله تعالى ونهاهم عن عبادة غيره بمقتضى رسالته إليهم، فلا بدّ له أن يدّعي النبوّة، ومِنَ المعلوم أنّ مُدّعي النبوّة لا بدّ له من إظهار المعجزة، وإلا لكان متنبئًا؛ فهذه الآية دلّت على أنه حصلت له معجزة دالّة على صدقه. وأمّا أن تلك المعجزة من أيّ الأنواع كانت، فليس في القرآن دلالة عليه كما لم يحصل في القرآن دلالة على كثير من معجزات نبيّنا ﷺ. قال صاحب الكشاف: ومِنْ معجزات شُعيب أنه حين دفع إلى موسى غنمه دفع إليه عصًا فتلك العصا صارت تنّينًا دافعًا عن غنمه، بأن ابتلعت التنين الكائن في المرعى، ومن معجزاته أيضًا ولادة الغنم الدُّرع خاصّة حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها، والدرع ـ بضم الدال المهملة وسكون الراء والعين المهملتين ـ جمع أدرع، وهو من الخيل والشياه ما اسودّ رأسه وابيضّ سائر جسده، والأُنثى درعاء مثل أحمر حمراء حمر، ووقوع عصا آدم عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام على يده في المرّات السّبع وغير ذلك من الآيات، فهذه كلّها كانت قبل نبوّة موسى عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسلام، فكانت معجزات لشعيب على نبيّنا وعليه الصّلاة والسلام؛ لأن المعجزة ما يكون مسبوقًا بدعوى الرسالة، وهذا الكلام مبنيّ على أصل مختلف فيه بين أصحابنا وبين المعتزلة، وذلك أنه يجوز عندنا أن يظهر الله تعالى على يد مَنْ سيصير نبيًّا ورسولًا في المستقبل أنواع الخوارق، ويسمّى ذلك إرهاصًا، وعند المعتزلة: لا يجوز ذلك؛ فالأحوال التي حكاها صاحب الكشاف من قبيل الإرهاصات لنبوّة موسى عندنا، وعند المعتزلة: معجزات لشعيب لما أن الإرهاص لا يجوز عندهم، واعترض عليه بأنّ ما رُوِيَ من الأحوال متأخّر عن هذه المقالة، فكيف يصحّ من شعيب أن يقول في حقّها: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ﴾ [الأعراف: الآية ٧٣] بلفظ الماضي، وباحتمال كونها كرامة لموسى وإرهاصًا لنبوّته، بل هو المتعيّن لأنه قد رُوِي أنّ موسى عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام، إنما أدرك شعيبًا بعد

﴿ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أتموهما والمراد (﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ ووزن الميزان، أو يكون الميزان) كالميعاد (بمعنى المصدر) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا حقوقهم (بتطفيف) الكيل ونقصان الوزن، وكانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعتهم. «وبخس» يتعدى إلى مفعولين وهما الناس وأشياءهم تقول: (بخست) زيدًا حقّه أي نقصته إياه ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ بعد الإصلاح فيها أي لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء والأولياء. وإضافته كإضافة ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: الآية ٣٣] أي بل مكركم في الليل والنهار ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الإنسانية وحسن (الأحدوثة) ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين لي في قولي.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ بكل طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ مَن آمن بشعيب بالعذاب ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن العبادة ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بالله وقيل: كانوا يقطعون الطرق. وقيل: كانوا (عشارين) ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ (وتطلبون لسبيل الله)

هلاك قومه؛ ولأن ذلك لم يكن في معرض التحدّي. **قوله:** (﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾) بمعنى المِكْيال (ووزن الميزان) بتقدير مضاف، هو مصدر (أو يكون الميزان) مصدرًا ميميًا بمعنى الوزن كالميعاد بمعنى الوعد، (بمعنى المصدر). **قوله:** (بتطفيف) أي نقص. **قوله:** (بخست) بابه قطع. **قوله:** (الأُحْدوثة) بوزن الأُعْجوبة ما يتحدّث به. اهـ مختار الصِّحاح. والأُحدوثة هٰهنا الذِّكر الجميل، وقد ورد ذلك في كلام العرب، وإنْ قال الرضا: إنها تختصّ بما لا يحسن، كما بيّناه في حواشيه. اهـ شهاب رحمه الله.

قوله: (عشارين) في مختار الصِّحاح: عَشَرهم يَعْشُر بالضمّ عُشْرًا بضم العين أخذ عُشْرَ أموالهم، ومنه العاشر والعَشّار بالتشديد. اهـ. **قوله:** (وتطلبون لسبيل الله) إشارة إلى أنه على الحذف والإيصال.

﴿عِوَجًا﴾ أي تصفونها للناس بأنها سبيل (معوجة) غير مستقيمة لتمنعوهم عن سلوكها. ومحل ﴿تُوعِدُونَ﴾ وما عطف عليه النصب على الحال أي لا تقعدوا موعدين وصادّين عن سبيل الله وباغين عوجًا ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ «إذ» مفعول به غير ظرف أي واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلًا (عددكم) ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ الله و(وفر) عددكم. وقيل: إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم كقوم نوح وهود ولوط عليهم السلام.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ﴾ فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ﴾ أي بين الفريقين بأن ينصر المحقّين على المبطلين ويظهرهم عليهم وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم، أو هو (حثّ) للمؤمنين على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم، أو هو خطاب للفريقين أي ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، والكافرون على ما يسوءهم من إيمان مَن آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأن حكمه حق وعدل لا يخاف فيه (الجور).

قوله: (مُعْوجة) في مختار الصّحاح: اعْوَجّ الشيء اعوجاجًا فهو مُعْوَجّ بوزن مُحْمَرّ وعصًا مُعْوَجَّة أيضًا. اهـ. **قوله:** (عددكم) العدد ـ بالفتح ـ معروف وبالضم عدّة، وهو ما يُعَدّ للنوائب من مال وسلاح وغيره. **قوله:** (وفر) في لسان العرب: وفّر الشيء وَفْرًا وفِرَة ووفّره كَثّره. اهـ.

قوله: (حثّ) في مختار الصّحاح: حثّه على الشيء من باب ردّ واستحثّه، أي حضّه. اهـ. **قوله:** (الجور) في مختار الصّحاح: **الجَوْر** المَيْل عن القصد وبابه قال يقول جار عن الطريق، وجار عليه في الحكم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم وإما عودكم في الكفر ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الهمزة للاستفهام والواو للحال تقديره أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ومع كوننا كارهين قالوا: نعم. ثم قال شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ وهو قسم على تقدير حذف اللام أي والله لقد افترينا على الله كذبًا إن عدنا في ملّتكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ خلصنا الله. فإن قلت: كيف قال شعيب ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ والكفر على الأنبياء عليهم السلام محال؟ قلت: أراد عود قومه إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئًا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ وما ينبغي لنا وما يصح ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ إلا أن يكون سبق في مشيئته أن نعود فيها إذ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى خيرها وشرّها ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز أي هو عالم بكل شيء فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول وقلوبهم كيف تتقلب ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد الإيقان ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي احكم و(الفتاحة) الحكومة والقضاء بالحق بفتح الأمر المغلق فلذا سُمي فتحًا، ويسمي أهل عمان القاضي فتاحًا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتباعه لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على

قوله: (الفتاحة) بالضمّ.

الإيفاء والتسوية. وجواب القسم الذي وطأته اللام في ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ﴾ وجواب الشرط ﴿إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ (فهو سادّ مسدّ الجوابين).

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ ميتين ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ مبتدأ خبره ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ لم يقيموا فيها. (غني بالمكان) أقام ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ مبتدأ خبره ﴿كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ لا من قالوا لهم إنكم إذًا لخاسرون وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص كأنه قيل: الذين كذبوا شعيبًا هم المخصوصون بأن أهلكوا كأن لم يقيموا في دارهم، لأن الذين اتبعوا شعيبًا قد أنجاهم الله، الذين كذبوا شعيبًا هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه فهم الرابحون، وفي التكرار مبالغة واستعظام لتكذيبهم ولما جرى عليهم.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ بعد أن نزل بهم العذاب ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾ أحزن ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ اشتدّ حزنه على قومه، ثم أنكر على نفسه فقال: كيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم، أو أراد لقد أعذرت لكم في الإبلاغ والتحذير مما (حلّ) بكم فلم تصدقوني فكيف آسى عليكم.

قوله: (فهو سادّ مسدّ الجوابين) أي جواب القسم وجواب الشرط، أي جواب للقسم بدليل عدم اقترانه بالفاء ومغن عن جواب الشرط، فكأنه جوابه لإفادته معناه وسدّه مسدّه، لا أنّه جواب لهما معًا، فإنه مع مخالفته القواعد النحويّة يلزم فيه أن يكون جملةً واحدةً لها محل من الإعراب، ولا محل لها، وإنْ جاز باعتبارين. اهـ شهاب رحمه الله.

قوله: (غَني بالمكان) بابه صَدِي.

قوله: (حلّ) في مختار الصحاح: حلّ يَحُلُّ بالضم حُلولًا، أي نزل. اهـ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ يقال لكل مدينة قرية، وفيه حذف أي فكذّبوه ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ (بالبؤس) والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الضرّ والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيّهم، أو هما نقصان النفس والمال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ليتضرّعوا ويتذلّلوا ويحطوا أردية الكبر ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء، والمحنة: (الرخاء) والسعة والصحة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم من قولهم: «عفا النباب» إذا كثر، ومنه قوله ﷺ: «و(اعفوا) اللحى» ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي قالوا هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضرّاء والسراء وقد مسّ آباءَنا نحو ذلك وما

قوله: (بالبؤس) في لسان العرب: البؤس الشدّة والفقر. اهـ. **قوله: (الرخاء)** بالفتح والمدّ سعة العيش. **قوله: (اعفوا)** بفتح الهمزة اللُّحىٰ بالضمّ والكسر جمع لحية، أي وفروها وأكثروا شعرها، **رواه البخاري ومسلم** عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنّ النبيّ ﷺ كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها، قال الطيبيّ: هذا لا ينافي قوله عليه السلام: «اعفوا اللّحى لأن المنهيّ هو قصها كفعل الأعاجم، أو جعلها كذنب الحمام، والمراد بالإعفاء التوفير منها كما في الرواية الأخرى، والأخذ من الأطراف قليلًا لا يكون من القصّ في شيء، انتهى. وعليه سائر شرّاح المصابيح من زين العرب وغيره، وقيّد الحديث في شرح الشرعة بقوله: إذا زاد على قدر القبضة، وجعله في التنوير من نفس الحديث، وزاد في الشرعة: وكان يفعل ذلك في الخميس أو الجمعة ولا يتركه مدة طويلة، وفي النهاية شرح الهداية: واللِّحية عندنا طولها بقدر القبضة ـ بضم القاف ـ وما وراء ذلك يجب قطعه، رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه كان يأخذ من اللِّحية من طولها وعرضها، أورده أبو عيسى في جامعه، وقال: مِنْ سعادة الرجل خفّة لحيته، انتهى. وقوله: يجب بمعنى ينبغي، والمراد به أنه سنّة مؤكّدة قريبة إلى الوجوب، وإلّا فلا يصح على إطلاقه. وقال ابن الملك: تسوية شعر اللِّحية سنّة، وهي أن يقصّ كل شعرة أطول من غيرها يستوي جميعها، وفي

هو بعقوبة الذنب فكونوا على ما أنتم عليه ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ (فجأة) ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

واللام في ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إشارة إلى أهل القرى التي دلّ عليها ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ كأنه قال: ولو أن أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بدل كفرهم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك مكان ارتكابه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ (﴿لفتّحنا﴾ شاميّ) ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أراد المطر والنبات أو لآتيناهم بالخير من كل وجه ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ الأنبياء ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بكفرهم وسوء كسبهم، ويجوز أن تكون اللام للجنس.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يريد الكفار منهم ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلًا (أي وقت بيات)، يقال: بات بياتًا ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم

الإحياء: قد اختلفوا فيما طال من اللّحية، فقيل: إن قبض الرجل على لحيته وأخذ ما تحت القبضة، فلا بأس به، وقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين وكرهه الحسن وقتادة ومن تبعهما، وقالوا: تركها عافية أحبّ لقوله عليه السلام: «اعفوا اللّحى»، لكن الظاهر هو القول الأوّل، فإنّ الطول المُفرط يشوّه الخلقة، ويطلق ألسنة المغتابين بالنسبة إليه، فلا بأس للأخذ عنه على هذه النيّة، كذا أفاده العلّامة علي القاري في شرح مشكاة المصابيح في باب الترجّل في الفصل الثاني. **قوله:** (فِجأة) بالكسر وفُجاءة بالضم والمدّ، وفَجاءة بالفتح والمدّ أيضًا.اهـ مختار الصِّحاح. وفي لغة وزان تمرة.اهـ. وقال العلّامة القنوي الفصيح فيها فتح الفاء وسكون الجيم بعدها همزة بلا ألف على وزن بغتة.اهـ.

قوله: (﴿لفتّحنا﴾) بتشديد التاء (شامي) أي ابن عامر الشاميّ، والباقون بالتخفيف.

قوله: (أي وقت بيات) على أن يكون بمعنى البيتوتة ومنصوبًا على الظرفية

﴿بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نهارًا. والضحى في الأصل ضوء الشمس إذا أشرقت. والفاء والواو في ﴿أَفَأَمِنَ﴾ و﴿أَوَ أَمِنَ﴾ حرفا عطف دخل عليهما همزة الإنكار، والمعطوف عليه ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه. وإنما عطفت بالفاء لأن المعنى فعلوا وصنعوا فأخذناهم (فجأة)، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ﴿بَيَاتًا﴾ وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى («أوْ أمن» شاميّ وحجازي) على العطف بـ «أو» والمعنى إنكار الأمن من أحد هذين الوجهين من إتيان العذاب ليلًا أو ضحى، فإن قلت: كيف دخل همزة الاستفهام على حرف العطف وهو ينافي الاستفهام؟ قلت: التنافي في المفرد لا في عطف جملة على جملة لأنه على استئناف جملة بعد جملة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يشتغلون بما لا (يجدي) عليهم.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾

﴿أَفَأَمِنُوا﴾ تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ أخذه العبد من حيث لا يشعر. وعن (الشبلي) قدّس الله روحه العزيز: مكره بهم تركه إياهم

بتقدير المضاف. **قوله:** (أوْ أمن) بسكون الواو على أنّ أو حرف عطف للتقسيم، (شاميّ) أي ابن عامر الشاميّ، (وحجازيّ) إذا اجتمع أهل مكّة والمدينة قيل: حجازيّ، أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة، وابن كثير المكّيّ، والباقون بفتحها على أنّ واو العطف دخلت عليها همزة الإنكار وورش[1] على أصله في نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها وحذفها. **قوله:** (يُجْدِي) أي ينفع.

قوله: (الشبلي) الزاهد المشهور شيخ التصوّف وصاحب الأحوال الفقيه المالكي أبو بكر دُلف بن جحدر وحيد عصره حالًا وعلمًا صحب الجُنيد ومَنْ في عصره، عاش سبعًا وثمانين سنة، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وقبره ببغداد.

---

(١) هو عثمان بن سعيد المصري يروي عن نافع المدني ﷺ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

على ما هم عليه. وقالت ابنة **(الربيع بن خُثَيم)** لأبيها: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ قال: يا بنتاه إن أباك يخاف البيات أراد قوله: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ (﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ **إلا الكافرون**) الذين خسروا أنفسهم حتى صاروا إلى النار.

قوله: (الربيع بن خُثَيم) ـ بضم المعجمة وفتح المثلثة ـ ابن عائذ بن عبد الله الثوري، أبو يزيد الكوفي ثقة عابد مُخَضْرم[1]، قال له ابن مسعود ﷺ: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك، مات سنة إحدى، وقيل: ثلاث وستّين.

قوله: (﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ إلا الكافرون)... الخ. في التفسيرات الأحمدية: في مسألة أنّ الأمن من عذاب الله كفر، قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: الآية ٩٩] ج ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٩]، يعني أفأمِنَ أهل القرى من قرية شُعيب ولوط وسائر النبيّين من مكر الله، وهو أن يأتيهم عذابنا وإهلاكنا في غفلة منه وقت الفجر أو البيات، فلا يأمنه إلّا القوم الخاسرون، فقد يُفهم من هذه الآية أنّ الأمْن من مكر الله، أي مِن استدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب خسران، أي كفران، فلا يأمن منه إلّا القوم الكافرون، ثم كما أن الأمن من مكر الله كفرٌ كذلك الإياس من رحمة الله كفر؛ لأنه قال في سورة يوسف حكايةً عن قول يعقوب عليه وعلى نبيِّنا الصّلاة والسّلام لبنيه: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٧]، هكذا ذكره التفتازاني في شرحه للعقائد، والظاهر أنه إنما تمسّك بهاتين الآيتين باعتبار أنّ النصّ لا يختصّ بمورده، وإلّا فالآيتان وردتا في قصّة شعيب عليه وعلى نبيِّنا الصّلاة والسلام وغيره من النبيّين مع قومهم وقصّة يوسف عليه وعلى نبيِّنا الصّلاة والسّلام وإخوته مع أبيهم، فاندفع ما يتوهّم أن الآيتين في باب الأمن والإياس في حقّ الدنيا، فكيف يصح التمسّك بهما في حقّ الآخرة؛ وذلك لأن النصّ قد بقي عامًّا بين أن يكون في الدنيا أو في الآخرة، ومن هذا قيل: إنّ الإيمان دائرٌ بين الخوف والرجاء، لا أنه مجرّد خوف حتى يكون آيسًا من رحمته؛ لأنه كفر بالنصّ ولا أنه مجرّد رجاء حتى يكون آمنًا من عذابه؛ لأنه

---

(١) مَنْ أدرك الجاهلية والإسلام. ١٢.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يبيّن ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ مرفوع بأنه فاعل ﴿يَهْدِ﴾ «وأن» مخففة من الثقيلة أي أو لم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن، وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين، (وإنما عدي فعل الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين) ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستأنف أي ونحن نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الوعظ.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًاۖ﴾ [هود: الآية ٧٢] في أنه مبتدأ وخبر وحال، أو تكون ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ صفة ﴿تِلْكَ﴾ و﴿نَقُصُّ﴾ خبرًا والمعنى: تلك القرى المذكور من قوم نوح إلى قوم شعيب نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عند مجيء الرسل بالبينات ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ﴾ بما كذبوا من آيات الله من قبل مجيء الرسل، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولًا حين جاءتهم الرسل أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين على تتابع الآيات، واللام لتأكيد النفي. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع الشديد ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لما علم منهم أنهم يختارون الثبات على الكفر ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ﴾ الضمير للناس على

أيضًا كفر بالنصّ، فينبغي أن يكون في رجاء أن يكون أكمل أهل الجنّة، وفي خوف أنه لعلّه يدخل النار حتى يكون مؤمنًا، هكذا قالوا. اهـ.

قوله: (وإنما عدّى فعل الهداية باللام) مع أن فعل الهداية يتعدّى إلى مفعوله الأوّل بنفسه؛ (لأنه بمعنى التبيين).

الإطلاق يعني أن أكثر الناس نقضوا عهد الله وميثاقه في الإيمان، (والآية اعتراض)، أو للأمم المذكورين فإنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرّ ومخافة لئن أنجيتنا لنؤمنن ثم أنجاهم نكثوا ﴿وَإِن﴾ وإن الشأن والحديث ﴿وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ لخارجين عن الطاعة، والوجود بمعنى العلم بدليل دخول «إن» المخففة واللام الفارقة، (ولا يجوز ذلك) إلا في المبتدأ والخبر والأفعال الداخلة عليهما.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ الضمير للرُّسُل في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ أو للأمم ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ فكفروا بآياتنا، أجرى الظلم مجرى الكفر لأنهما من وادٍ واحد ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] أو فظلموا الناس بسببها حين آذوا مَن آمن، أو لأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلمًا حيث وضعوا الكفر غير موضعه وهو موضع الإيمان ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ حيث صاروا مغرقين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ﴾ يقال لملوك مصر «الفراعنة» كما يقال لملوك فارس «الأكاسرة»، وكأنه قال: يا ملك مصر ـ واسمه قابوس أو الوليد بن مصعب بن الريان ـ ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليك. قال فرعون: كذبت. فقال موسى:

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي أنا حقيق على قول الحق أي واجب عليّ قول الحق أن أكون قائله والقائم به.

قوله: (والآية اعتراض) أي قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا﴾ إلى قوله: ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٠٢] اعتراض إنْ كان الضمير في قوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٠٠] للناس، وإنْ كان الضمير للأُمم المذكورين فلا يكون اعتراضًا، بل يكون من تتمّة الكلام السابق، وهذا تصريحٌ بأنّ الاعتراض لا يجب أن يتوسّط بين الكلامين، بل قد يقع في آخر الكلام. **قوله: (ولا يجوز ذلك)** أي دخول أنْ المخفّفة.

(«حقيق عليّ») نافع أي واجب عليّ ترك القول على الله إلا الحق أي الصدق، وعلى هذه القراءة تقف على ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعلى الأول يجوز الوصل على جَعْل ﴿حَقِيقٌ﴾ وصف الرسول، و«علي» بمعنى الباء كقراءة (أُبيّ) أي إني رسول (خليق) بأن لا أقول، أو يعلق «على» بمعنى الفعل في الرسول أي إني رسول حقيق (جدير) بالرسالة أرسلت على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بما يبين رسالتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فخلهم يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم. وذلك أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما تُوفي غلب فرعون على نسل (الأسباط) واستعبدهم فأنقذهم الله بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان

قوله: («حقيق عليّ») بفتح الياء مشدّدة دخل حرف الجرّ على ياء المتكلّم فقُلِبت ألفها ياء وأُدغمت فيها وفتحت نافع. والباقون بالألف لفظًا على أن على التي هي حرف جرّ دخلت على أن. **قوله:** (أُبيّ) بن كعب السيّد القارىء الأنصاري الخزرجيّ النجاريّ، له كنيتان إحداهما أبوالمنذر كناه بها رسول الله ﷺ، والثانية أبو الطفيل كناه بها عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه، أي بابنه الطفيل. شَهِد العقبة الثانية في السبعين من الأنصار رضي الله تعالى عنهم، وشهد بدرًا وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ مائة حديث وأربعة وستّون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم على ثلاثة، وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بسبعة. روى عنه جماعة من الصحابة، منهم أبو أيوب، وابن عباس، وأبو موسى الأشعري وآخرون، ومن التّابعين ابنه الطفيل وسويد بن غَفْلة وزرّ بن حُبَيْش وعبد الرحمٰن بن الأسود وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى وآخرون، ثبت في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ قرأ على أُبيّ بن كعب سورة: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البيّنة: الآية ١]، وقال: أمرني الله عزّ وجلّ أن أقرأ عليك، وهي منقبة عظيمة لأُبيّ لم يشاركه فيها أحد من الناس. وفي كتاب الترمذي وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «أقْرأُ أمتي أُبيّ بن كعب». توفي أُبيّ رضي الله تعالى عنه بالمدينة، ودُفِن بها قبل سنة ثلاثين في خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه، وهذا هو الصحيح. **قوله:** (خليق) أي جدير. **قوله:** (جدير) أي لائق. **قوله:** (الأسباط) في مختار الصّحاح: الأسْباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب، انتهى. وقال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ

بين اليوم الذي دخل يوسف عليه السلام مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام (﴿مَعِىَ﴾ حفص).

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ من عند من أرسلك ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فأتني بها لتصحّ دعواك ويثبت صدقك فيها ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى عليه السلام ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ ﴿إِذَا﴾ هذه للمفاجأة وهي من ظروف المكان بمنزلة «ثمة» و«هناك» ﴿ثُعْبَانٌ﴾ حية عظيمة ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر أمره. رُوِيَ أنه كان ذكرًا (**فاغرًا**) فاه بين (**لحييه**) ثمانون ذراعًا، وضع لحيه الأسفل في الأرض والأعلى على (**سور القصر**)، ثم توجّه نحو فرعون (**فهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك**)، وحمل على الناس فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا قتل بعضهم بعضًا، فصاح فرعون: يا موسى خذه وأنا أومن بك فأخذه موسى فعاد عصًا.

﴿أَسْبَاطًا﴾ [الأعراف: الآية ١٦٠] الأسباط أولاد الولد جمع سبط، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدًا، هم أولاد يعقوب على نبيّنا وعليه الصّلاة والسلام. **قوله:** («بـ ﴿مَعِىَ﴾) بفتح ياء معى (حفص) والباقون بالإسكان.

قوله: (**فاغرًا**) بالفاء والغين المعجمة والراء المهملة، بمعنى فاتح. **قوله:** (**لَحْيَيه**) اللَّحْي بفتح اللام العظم الذي عليه الأسنان. **قوله:** (**سور القصر**) بمعنى أعلى حائط. **قوله:** (**فهرب**) في مختار الصّحاح: الهَرب الفرار وقد هَرَب يَهْرُبُ هَرَبًا مثل طَلَب يَطْلُب طلبًا. اهـ.

قوله: (**وأحدث**) أي استطلق بطنه في ثيابه حتى علم به جلساؤه، (**ولم يكن أحدث قبل ذلك**) ذكر في الوسيط: أنه قام به بطنه في ذلك اليوم ولم يستمسك بطنه بعد ذلك حتى هلك. نقل صاحب التيسير عن وهب: أنّ موسى وهارون على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام لمّا دخلا دار فرعون ووقفا بين يديه لقّن الله تعالى موسى دعوةً دعا بها، فقال: لا إله إلّا الله الحليم الكريم سبحان ربّ السمٰوات السبع وربّ العرش العظيم والحمد لله ربّ العالمين، اللّهمّ إني أدرأُ بك في نحره

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي فإذا هي بيضاء **(للنظارة)**، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضًا عجيبًا خارجًا عن العادة يجمع الناس للنظر إليه. رُوِيَ أنه أرى فرعون يده وقال: ما هذه؟ فقال: يدك ثم أدخلها في جيبه ونزعها فإذا هي بيضاء غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم **(شديد الأدمة)**.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠﴾

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾ عالم بالسحر ماهر فيه قد خيل إلى الناس العصا حية والآدم أبيض. وهذا الكلام قد (عزي) إلى فرعون في سورة «الشعراء» وأنه قال للملأ، وهنا عزي إليهم فيحتمل أنه قد قاله هو وقالوه هم فحُكي قوله ثَمّة وقولهم هنا، أو قاله ابتداء فتلقنه منه الملأ فقالوه لأعقابهم ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ﴾ يعني مصر ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ تشيرون من آمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي، وهو من كلام فرعون قاله للملأ لما قالوا له ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم﴾.

وأعوذ بك من شرِّه وأستعينك عليه، فاكْفِنِيه بما شئت؛ فتحوّل ما في قلب موسى من الخوف أمْنًا، وتحوّل ما في قلب فرعون من الأمْن خوفًا، فمَنْ دعا بهذا الدعاء وهو خائف أمّنه[1] الله ونفّس كربته وخفّف عنه كُرَب الموت.

قوله: (للنظارة) في مختار الصحاح: النُّظّارة مشدّدًا القوم ينظرون إلى شيء.

قوله: (شديد الأدمة) وهي السُّمْرة.

قوله: (عزي) أي نسب من باب عدى ورمى.

---

(١) في تاج العروس: قد أمِنهُ كسمع، وأمّنه تأمِينًا وأتمنه واسْتَأْمَنَه بمعنًى واحد. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾﴾

(﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ﴾ **بسكون الهاء: عاصم وحمزة**) أي أخر واحبس أي أخر أمره ولا تعجل، أو كأنه همّ بقتله فقالوا: أخّر قتله واحبسه ولا تقتله ليتبين سحره عند الخلق ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ جامعين ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾﴾ (**«سحار» حمزة وعلي**).

قوله: (﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ﴾ **بسكون الهاء عاصم وحمزة**) عبارة الإتحاف: وقرأ ﴿أرجئه﴾ هنا، وفي الشعراء بهمزة ساكنة ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبو بكر من طريق أبي حمدون ونفطويه وافقهم ابن محيصين واليزيدي والحسن والباقون بغير همز فيهما، وهما لغتان. يقال: أرجأت أرجيته، أي أخّرته كتوضّأت وتوضيت. والحاصل من اختلافهم في الهمز وهاء الكناية فيها ستّ قراءات متواترة: ثلاثة مع الهمز، وثلاثة مع تركه، فأوّلها قراءة قالون وابن وردان من طريق ابن هارون وهبة الله: ﴿أَرۡجِهِ﴾ [الأعراف: الآية ١١١] بكسر الهاء مختلسة بلا همز، ثانيها قراءة ورش والكسائي وابن جماز وابن وردان من طريق ابن شبيب وخلف في اختياره: «أرجهي» بإشباع كسرة الهاء بلا همز. ثالثها: قراءة عاصم من غير طريق نفطويه وأبي حمدون عن أبي بكر وحمزة: «أرجه» بسكون الهاء بلا همزة وافقهما الأعمش. وأمّا الثلاثة التي مع الهمز؛ فأوّلها قراءة ابن كثير وهشام من طريق الحلواني: «أرجئهو» بضم الهاء مع الإشباع والهمز وافقهما ابن محيصين. الثانية: قراءتي أبي عمرو وهشام من طريق الداجوني وأبي بكر من طريق أبي حمدون ونفطويه ويعقوب: «أرجئه» باختلاس ضمّة الهاء مع الهمز وافقهم اليزيدي والحسن. الثالثة: قراءة ابن ذكوان: «أرجئه» بالهمز واختلاس كسرة الهاء؛ فلهشام وجهان: اختلاس ضمّة الهاء وإشباعها كلاهما مع الهمز، ولأبي بكر وجهان أيضًا: ترك الهمز مع إسكان الهاء والهمز مع اختلاس ضمّتها؛ ولابن وردان وجهان: ترك الهمز مع اختلاس كسرة الهاء ومع إشباعها. اهـ. **قوله**: (**«سحّار»**) بتشديد الحاء وفتحها وألف بعدها على وزن فعال للمبالغة (**حمزة وعليّ**) الكسائي، وأمال الدوري عن الكسائي، والباقون بألف بعد السين وكسر الحاء خفيفة كفاعل من غير إمالة.

أي يأتوك بكل ساحر عليم مثله في (**المهارة أو بخير منه**).

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ﴾ يريد فأرسل إليهم فحضروا ﴿قَالُوٓاْ (إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ **بهمزة واحدة على الخبر وإثبات الأجر العظيم حجازي وحفص**). ولم يقل «فقالوا» لأنه على تقدير سؤال سائل ما قالوا إذ جاءوه؟ فأجيب بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ (**لجعلًا**) على الغلبة. والتنكير للتعظيم كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر عظيم ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ (نَعَمۡ﴾ إن لكم لأجرًا ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ عندي فتكونون أول مَن يدخل وآخر مَن يخرج، وكانوا ثمانين ألفًا أو سبعين ألفًا أو (**بضعة**) وثلاثين ألفًا.

قوله: (المهارة) الحذق في الشيء. اهـ مختار الصحاح. **قوله:** (**أو بخير منه**) تفسير لقراءة «سحار».

قوله: (﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ **بهمزة واحدة على الخبر وإثبات الأجر العظيم حجازي**) إذا اجتمع أهل مكّة والمدينة قيل: حجازيّ، أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. وابن كثير المكّي (**وحفص**) عن عاصم، والباقون بهمزتين على الاستفهام، وهم على أصولهم، فالبصري يسهل ويدخل وهشام يحقّق ويدخل من غير خلاف. والباقون يحقّقون بلا إدخال. **قوله:** (**لجعلًا**) في مختار الصحاح: الجُعل ـ بالضم ـ ما جُعِل للإنسان من شيء على فعل، وكذا الجَعالة بالكسر، والجَعِيلة أيضًا، انتهى. **قوله:** (﴿نَعِمۡ﴾) قرأ عليّ الكسائي بكسر العين، والباقون بالفتح. **قوله:** (**بِضْعة**) في المصباح: بضع في العدد بالكسر، وبعض العرب يفتح، واستعماله من الثلاثة إلى التسعة. وعن ثعلب: من الأربعة إلى التسعة يستوي فيه المذكّر والمؤنّث، فيقال: بضع رجال وبضع نسوة، ويُستعمل أيضًا من ثلاثة عشر إلى تسعة عشر، لكن تثبت الهاء في بضع مع المذكّر وتُحذف مع المؤنث؛ كالنّيف، ولا يُستعمل فيما زاد على العشرين، وأجازه بعض المشايخ، فيقول: بضعة وعشرون رجلًا وبضع وعشرون امرأة، وهكذا قاله أبو زيد. وقالوا: على هذا معنى البضع والبضعة في العدد وقطعة مبهمة غير محدودة. اهـ.

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ لما معنا، وفيه دلالة على أن رغبتهم في أن يلقوا قبله حيث أكد ضميرهم المتصل بالمنفصل وعرف الخبر ﴿قَالَ﴾ لهم موسى عليه السلام ﴿أَلْقُواْۖ﴾ (تخييرهم إياه أدب حسن) راعوه معه كما يفعل المتناظرون (قبل أن يتحاور) الجدال، وقد (سوغ لهم) موسى ما رغبوا فيه (ازدراء) لشأنهم وقلّة مبالاة بهم واعتمادًا على أن المعجزة لن يغلبها سحر أبدًا ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أروها بالحيل (والشعوذة) وخيلوا إليهم ما الحقيقة بخلافه. رُوِيَ أنهم ألقوا حبالًا غلاظًا وخشبًا طوالًا فإذا هي أمثال الحيات قد ملأت الأرض وركب بعضها بعضًا ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ (وأرهبوهم إرهابا شديدا) كأنهم استدعوا رهبهم بالحيلة ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في باب السحر أو في عين مَن رآه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ ـ (﴿تلقف﴾) ـ تبتلع ﴿تَلْقَفُ﴾ (حفص) ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية

قوله: (تخييرهم إياه أدب حسن) قال المشايخ: ولمراعاتهم للأدب رُزِقوا السعادة الأبديّة. قوله: (قبل أن يتحاور) والتحاور التجاوُب. اهـ مختار الصِّحاح. قوله: (سوغ لهم) في مختار الصِّحاح: سوّغ له تسويغًا، أي جوّزه. اهـ. قوله: (ازدراء) أي تحقيرًا. قوله: (والشعوذة) خفّة في اليد وأُخَذٌ كالسحر يُرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين. اهـ قاموس. وفيه: الأُخْذَةُ بالضم رقية كالسِّحر. اهـ. قوله: (وأرهبوهم إرهابا شديدا)... الخ. يعني أن الاسترهاب بمعنى الإرهاب البليغ، فالطلب مجاز في المبالغة والزيادة؛ لأن المطلوب من شأنه أن يهتمّ به ويبالغ فيه، وإليه أشار المصنّف رحمة الله عليه بقوله: كأنهم... الخ.

بسكون اللام وتخفيف القاف من لقف يلقف كعلم يعلم، يقال: لقفتُ الشيء أخذته بسرعة فأكلته أو ابتلعته، . والباقون بفتح اللام وتشديد القاف من تلقّف يتلقّف، والأصل تتلقّف بتاءين فحُذِفت إحداهما، وقرأ

يعني ما يأفكونه أي يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزورونه، أو (إفكهم) تسمية للمأفوك بالإفك، رُوِيَ أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال، ورفعها موسى فرجعت عصًا كما كانت، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرقها أجزاء لطيفة قالت السحرة: لو كان هذا سحرًا لبقيت حبالنا وعِصِّينا.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ فحصل وثبت ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من السحر ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ أي فرعون وجنوده والسحرة ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ **(وصاروا أذلّاء مبهوتين)** ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ وخرّوا سجدًا لله كأنما ألقاهم ملقٍ لشدّة خرورهم، أو لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا فكانوا أول النهار كفارًا سحرة وفي آخره شهداء **(بررة)**.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ هو بدل مما قبله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ (﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ **على الخبر: حفص. وهذا توبيخ منه لهم. وبهمزتين: كوفي غير حفص. فالأولى همزة الاستفهام ومعناه الإنكار والاستبعاد)** ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾

البزي في الوصل بتشديد التاء، والباقون بالتخفيف. **قوله:** (إفكهم) بفتح الهمزة مصدر إفكه، بمعنى قلبه.

قوله: **(وصاروا أذلّاء مبهوتين)** أي الانقلاب مجاز عن الصيرورة لظهور المناسبة بينهما، وأذلّاء جمع ذليل. **قوله:** (بَرَرة) جمع البارّ.

قوله: (﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ **على الخبر: حفص. وهذا توبيخ منه لهم. وبهمزتين: كوفي غير حفص. فالأولى همزة الاستفهام ومعناه الإنكار والاستبعاد)** عبارة الإتحاف: وأمّا «آءمنتم» هنا وطه والشعراء، فالقرّاء فيها على أربع مراتب:

(الأولى): قراءة قالون والأزرق والبزي وأبي عمرو وابن ذكوان وهشام من طريق الحلواني والداجوني من طريق زيد وأبي جعفر بهمزة محققة، وأخرى

قبل إذني لكم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ إن صنعكم هذا الحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا إلى الصحراء لغرض لكم

مسهّلة وألف بعدها في الثلاث، وللأرزق فيها ثلاثة البدل، وإن تغيّر الهمز كما مرّ، ولم يبدل أحد عنه الثانية ألفًا، فقول الجعبري وورش على بدله بهمزة محقّقة، وألف بدل عن الثانية، وألف أخرى بدل عن الثالثة، ثم تُحذف إحداهما للساكنين تعقبه في النشر، ثم قال: ولعلّ ذلك وَهْم من بعضهم حيث رأى بعض الرواة عن ورش يقرؤها بالخبر، فظنّ أن ذلك على وجه البدل، وليس كذلك؛ بل هي رواية الأصبهاني، ورواية أحمد بن صالح ويونس وأبي الأزهر كلّهم عن ورش يقرؤونها بهمزة كحفص، فمن كان من هؤلاء يرى المدّ لما بعد الهمز عدّ ذلك، فيكون مثل آمنوا، إلّا أنه بالاستفهام وأبدل وحذف، انتهى. ونقله في الأصل وأقرّه على عادته، قال: فظهر أن مَنْ يقرأ عن ورش بهمزة واحدة إنما يقرأ بالخبر.

(المرتبة الثانية): لورش من طريق الأصبهاني وحفص ورُويس بهمزة محقّقة بعدها ألف في الثلاث، وهي تحتمل الخبر المَحْض والاستفهام، وحذف الهمزة اعتمادًا على قرينة التوبيخ.

(المرتبة الثالثة): لقنبل، وهو يفرق بين السور الثلاث فهنا أبدل همزتها الأُولى واوًا خالصة حالة الوصل؛ واخْتُلِف عنه في الهمزة الثانية، فسهّلها عنه ابن مجاهد وحقّقها مفتوحة ابن شنبوذ. وأمّا إذا ابتدأ، فبهمزتين ثانيتهما مسهّلة كرفيقه البزي وأمّا طَهَ والشعراء فسبق، ويأتي الحكم فيهما إن شاء الله تعالى.

(المرتبة الرابعة): لهشام، فيما رواه عنه الداجوني من طريق الشذائي وأبي بكر وحمزة والكسائي ورَوح وخلف بهمزتين محقّقتين وألف بعدهما من غير إدخال ألف بينهما في الثلاث، ولم يختلفوا في إبدال الثالثة ألفًا؛ لأنها فاء الكلمة أُبدلت لسكونها بعد فتح، وذلك أنّ أصل هذه الكلمة: أأأمنتم بثلاث همزات: الأُولى للاستفهام الإنكاري، والثانية همزة أفعل، والثالثة فاء الكلمة؛ فالثالثة يجب قلبها ألفًا على القاعدة، والأُولى محقّقة ليس إلّا غير أن حمزة إذا وقف يسهّلها بين بين في وجه لكونها ح من المتوسط بغيره المفصل. وأمّا الثانية، ففيها الخلاف، ولم يدخل أحد من القرّاء ألفًا بين الهمزتين في هذه الكلمة لئلّا يجتمع أربع

وهو أن تخرجوا من مصر (**القبط**) وتسكنوا بني إسرائيل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد أجمله ثم فصله بقوله:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ من كل شق طرفا ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو أول مَن قطع من خلاف وصلب ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ فلا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته، أو إنا جميعًا يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله، أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر وهو الإيمان (ومنه قوله):

(ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب)

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي اصبب صبًّا (**ذريعًا**). والمعنى هب لنا برًّا واسعًا وأكثره علينا حتى يفيض علينا و(**يغمرنا كما يفرغ الماء**) إفراغًا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام.

متشابهات. اهـ. **قوله:** (القبط) في مختار الصِّحاح: القبط بوزن السِّبْط أهل مصر، وهم بَنْكُها، أي أصلها. اهـ.

قوله: (ومنه قوله) أي قول النابغة الذبياني: (**ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم، بهن فُلُول**) جمع فَلّ وهو كسر في حدّ السيف (**من قراع الكتائب**) القراع الضّراب، والكتائِب جمع كتيبة، وهي الجيش، والمعنى إذا لم يكن فيهم عيب إلا الشجاعة، وهي من أخصّ أوصاف المدح، فلا عَيْب فيهم. **قوله:** (**ذريعًا**) أي واسعًا. **قوله:** (**يغمرنا**) في القاموس: غمره الماء غمرًا واغتمره غطّاه. اهـ. **قوله:** (**كما يفرغ الماء**) إشارة إلى أنّ قولهم: أفرغ استعارة تبعيّة، وصبرًا قرينة شبه إنزال الصبر وإكثاره عليهم إفراغ الماء في الفيضان والغمر؛ لأن إفراغ الماء هو صبّه بالكلّية من الإناء، فيكون غامرًا لما يُصَبّ عليه، ثم قيل: أفرغ بدل أنزل، وأكثر على الاستعارة التبعية.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر بالاستعلاء فيها وتغيير دين أهلها لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفر ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ عطف على ﴿لِيُفْسِدُوا۟﴾ قيل: صنع فرعون لقومه أصنامًا وأمرهم أن يعبدوها تقرّبًا إليه كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ويقولون ليقربونا إلى الله (زلفى)، ولذلك ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: الآية ٢٤] ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيبًا للملإ ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ (﴿سَنُقَتِّلُ﴾ **حجازي**) أي سنعيد عليهم قتل الأبناء ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، ولئلّا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي تحدث المنجمون بذهاب ملكنا على يده (**فيثبطهم**) ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ﴾ قال لهم ذلك حين جزعوا من قول فرعون سنقتل أبناءهم تسلية لهم ووعدًا بالنصر عليهم ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ اللام للعهد أي أرض مصر أو للجنس فيتناول أرض مصر تناولًا أوليًا ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾ فيه تمنيته إياهم أرض مصر ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط. وأُخْلِيَتْ هذه الجملة عن الواو لأنها جملة مستأنفة بخلاف قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ لأنها معطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قَالَ

قوله: (زلفى) قربة. **قوله:** (﴿سَنُقَتِّلُ﴾) بفتح النون وإسكان القاف وضمّ التاء مخفّفة (**حجازي**) إذا اجتمع أهل مكّة والمدينة قيل: حجازيّ، أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة، وابن كثير المكّي. والباقون بضمّ النون وفتح القاف وكسر التاء مشدّدة للتكثير، لتعدّد المحال.اهـ. **قوله:** (**فيثبطهم**) في مختار الصّحاح: ثبّطه عن الأمر تثبيطًا شغله عنه.اهـ.

﴿ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى إلى أن استنبىء وإعادته عليهم بعدلك، وذلك اشتكاء من فرعون واستبطاء لوعد النصر ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم **(على حسب ما يوجد منكم. وعن عمرو بن عبيد)** أنه دخل على **(المنصور)** قبل الخلافة وعلى مائدته **(رغيف)**

قوله: (على حسب ما يوجد منكم) في لسان العرب: الحَسَب والحَسْب قدر الشيء، كقولك: الأجر بحسَب ما علمت وحَسْبه. اهـ.

قوله: (عمرو بن عبيد) بن عبيد بن باب ـ بموحدتين ـ التميمي مولاهم، أبو عثمان البصري المعتزليّ المشهور، كان داعية إلى بدعة اتّهمه جماعة مع أنه كان عابدًا. مات سنة ثلاث وأربعين أو قبلها بعد المائة.

قوله: (المنصور) أبو جعفر عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وأمّه سلامة البربرية أُمّ ولد، وُلِد سنة خمس وتسعين وأدرك جدّه ولم يَرْوِ عنه، ورَوى عن أبيه وعن عطاء بن يسار وعنه ولده المهدي وبُويع بالخلافة بعهدٍ من أخيه ـ يعني السفاح ـ أبا العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم، وكان المنصور فحلَ بني العباس هَيْبةً وشجاعةً وحزمًا ورأيًا وجبروتًا جَمّاعًا للمال تاركًا للّهو واللعب، كامل العقل جيّد المشاركة في العلم والأدب، فقيه النفس، قَتَل خلقًا كثيرًا حتى استقام ملكه، وهو الذي ضَرَب الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه على القضاء ثم سجَنَه فمات بعد أيّام، وقيل: إنه قتله بالسمّ لكونه أفتى بالخروج عليه، وكان فصيحًا بليغًا مفوّهًا خليقًا للإمارة، وكان غايةً في الحِرْص والبخل، فلُقِّب أبا الدوانيق لمحاسبة العُمّال والصُّنَّاع على الدوانيق والحبّات، وكانت وفاته في سنة ثمان وخمسين بالبطن في ذي الحجّة، ودُفِن بين الحَجون وبين بئر ميمون.

قوله: (رغيف) في مختار الصِّحاح: الرّغيف من الخبز، والجمع أرْغِفَة ورُغُف ورُغْفان. اهـ.

أو رغيفان، وطلب المنصور زيادة لعمرو فلم توجد فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال: قد بقي ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ سني القحط وهن سبع سنين، والسنة من الأسماء الغالبة كالدابة و(**النجم**) ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قيل: السنون لأهل (**البوادي**) ونقص الثمرات للأمصار ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ ليتعظوا فينبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر، ولأن الناس في حال الشدة (**أضرع خدودًا**) و(**أرق أفئدة**). وقيل: عاش فرعون أربعمائة سنة لم يرَ مكروهًا في ثلاثمائة وعشرين سنة، ولو أصابه في تلك المدة (**وجع**) أو (**جوع**) أو حمى لما ادعى الربوبية.

قوله: (النَّجم) في مختار الصِّحاح: النَّجم الكوكب والنجم الثُّريّا، وهو اسم لها علم كزيد وعمرو، فإذا قالوا: طلع النجم يريدون الثريا، وإن أخرجت منه الألف واللام تنكّر. اهـ. **قوله: (البوادي)** جمع البادية. اهـ مصباح. **قوله: (أضرع)** في المصباح: ضرع له يضرع ـ بفتحتين ـ ضراعة ذلّ وخضع فهو ضارع، وضرع ضرعًا فهو ضرع من باب تعب لغة. اهـ. **قوله: (خدودًا)** في المصباح: الخدّ جمعه خدود، وهو من المحجر إلى اللِّحى من الجانبين. اهـ. وأيضًا فيه: الحجر مثال مجلس ما ظهر من النّقاب من الرجل والمرأة من الجفن الأسفل، وقد يكون من الأعلى، وقال بعض العرب: هو ما دار بالعين من جميع الجوانب، وبدا من البرقع، والجمع المحاجر. اهـ. **قوله: (أرقّ)** في المصباح: رقّ الشيء يرقّ من باب ضرب خلاف غلظ، فهو رقيق. اهـ. **قوله: (أفْئِدة)** في المصباح: الفؤاد القلب، وهو مذكّر، والجمع أفْئِدَةٌ. اهـ. **قوله: (وجع)** في المصباح: وجع فلانًا رأسُه أو بطنُه تجعل الإنسان مفعولًا والعضوَ فاعلًا، وقد يجوز العكس، وكأنه على القلب لفهم المعنى يوجَع وجَعًا من باب تَعِب، فهو وجِعٌ أي مريض متألّم، ويقع الوَجَع على كل مرض وجمعُه أوْجاعٌ مثل سبب وأسباب ووُجاع أيضًا بالكسر، مثل جبل وجبال، وقوم وَجِعُون ووَجْعى مثل مَرْضى ونساء وجِعات ووجاعى، وربما قيل: أوجعه رأسه بالألف والأصل وجعه ألم رأسه وأوجعه ألم رأسه لكنه حذف للعلم به، وعلى هذا فيقال: فلان موجوع، والأجود موجوع الرأس، وإذا قيل: زيد يوجَع رأسَه بحذف المفعول انتصب الرأسُ، وفي نصبه قولان: قال الفراء:

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الصحة و(الخصب) ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي هذه التي نستحقها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ (جدب) ومرض ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ أصله «يتطيروا» فأُدغمت التاء في الطاء لأنها من طرف اللسان وأصول (الثنايا) ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ تشاءموا بهم وقالوا هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابتنا. وإنما دخل («إذا») في الحسنة وعُرفت الحسنة و(«إن») في السيئة ونُكرت السيئة، لأن جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ سبب خيرهم وشرّهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه ومشيئته والله هو الذي قدر ما يصيبهم من الحسنة والسيئة ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: الآية ٧٨]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ أصل «مهما» ما ما، فما الأولى للجزاء ضمت إليها «ما» المزيدة المؤكدة (للجزاء) في قولك «متى» ما تخرج أخرج ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ [النساء: الآية ٧٨]، ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف: الآية ٤١] إلا أن الألف قلبت هاء استثقالًا لتكرير المتجانسين وهو المذهب

وجعت بطنَك مثل رَشِدتَ أمركَ؛ فالمعرفة هنا في معنى النَّكرة، وقال غير الفراء: نصبُ البطن بنزع الخافض، والأصل وجعت من بطنك ورشِدتَ في أمرك؛ لأن المفسّرات عند البصريّين لا يكون إلا نكرات، وهذا على القول بجعل الشخص مفعولًا واضح. أمّا إذا جعل الشخص فاعلًا والعضو مفعولًا، فلا يحتاج إلى هذا التأويل.اهـ. **قوله:** (جوع) في المصباح: جاع الرجل جَوْعًا والاسم الجوع بالضمّ.اهـ. وفي مختار الصّحاح: الجُوْع ضد الشّبَع.اهـ.

قوله: (الخصب) بالكسر ضدّ الجَدْب. **قوله:** (جدب) الجَدْب هو المحَلْ وزنًا ومعنى، وهو انقطاع المطرُ ويبس الأرض.اهـ مصباح. **قوله:** (الثّنايا) جمع ثنيّة. **قوله:** (إذا) أداة التحقيق. **قوله:** (إن) حرف الشكّ.

قوله: (للجزاء) أي للشرط لأنهم يسمّون الشرط جزاء.

(السديد) البصري، وهو في موضع النصب بـ ﴿تَأْتِنَا﴾ أي أيما شيء تحضرنا تأتنا به، و﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ تبيين لـ ﴿مَهْمَا﴾ والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ و﴿بِهَا﴾ راجع إلى ﴿مَهْمَا﴾ إلا أن الأول ذكر على اللفظ والثاني أنّث على المعنى لأنها في معنى الآية، وإنما سمّوها آية اعتبارًا لتسمية موسى أو قصدوا بذلك الاستهزاء.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ (**ما طاف بهم**) وغلبهم من مطر أو سيل. قيل: (**طفا**) الماء فوق حروثهم وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يرون شمسًا ولا قمرًا ولا يقدر أحد أن يخرج من داره. وقيل: دخل الماء في بيوت القبط حتى قاموا في الماء (**إلى تراقيهم**)، فمن جلس (**غرق**) ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة، أو هو (**الجدري**) أو (**الطاعون**) ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعهم

قوله: (السديد) أي الصواب. في لسان العرب: السديد والسّداد الصواب من القول. وفي المصباح: السَّداد ـ بالفتح ـ الصواب من القول والفعل، وأسدّ الرجل بالألف جاء بالسّداد، وسدّ يسدّ من باب ضرب سدودًا أصاب في قوله وفعله، فهو سديد. اهـ.

قوله: (ما طاف بهم)... الخ. يعني هو فعلان اسم جنس من الطواف، وقيل: إنه في الأصل مصدر كنقصان، وهو اسم لكل شيء حادث يحيط بالجهات ويعمّ كالماء الكثير والقتل الذريع والموت الجارف، قاله أبو إسحٰق. وقد رُوِي عن النبيّ ﷺ تفسيره بالموت لكنه اشتهر في طوفان الماء، وهو معروف. وقيل: هو اسم جنس واحده طوفانة. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله: (طفا)** أي علا بابه عدا وسما. **قوله: (إلى تراقيهم)** التّراقي جمع تِرْقوة أعلى الصّدر، أي واصلًا إلى تراقيهم. في المصباح: التّرقوة وزنها فعلوة ـ بفتح الفاء وضم اللام ـ وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبَيْن، والجمع التراقي. قال بعضهم: ولا تكون التّرقوة لشيءٍ من الحيوانات إلّا للإنسان خاصّة. اهـ. **قوله: (غَرق)** من باب طَرِب. **قوله: (الجدري)** بفتح الجيم وضمّها، وأمّا الدال فمفتوحة فيهما: قروح تنفط عن الجلد ممتلئة ماء، ثم تنفتح وصاحبها جدير مجدّر، ويقال: أوّل من عذّب به قوم فرعون. اهـ مصباح. **قوله: (الطاعون)** الموت من الوباء. اهـ مصباح

وثمارهم وسقوف بيوتهم وثيابهم ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ وهي (الدبا) وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها، أو (البراغيث، أو كبار القردان) و(الضفادع) وكانت تقع في طعامهم وشرابهم حتى إذا تكلم الرجل تقع في فيه (﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي الرعاف). وقيل: مياههم انقلبت دمًا حتى إن القبطي والإسرائيلي إذا اجتمعا على إناء فيكون ما (يلي) الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دمًا. وقيل: سال عليهم (النيل) دمًا ﴿ءَايَٰتٍ﴾ حال من الأشياء المذكورة ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبينات ظاهرات (لا يشكل) على عاقل أنها من آيات الله أو مفرقات بين كل آيتين شهر ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان بموسى ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ العذاب الأخير وهو الدم، أو العذاب المذكور واحدًا بعد واحد ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ «ما» مصدرية أي

ومختار الصِّحاح. **قوله: (الدبا)** وزان عصا الجراد يتحرّك قبل أن تنبت له أجنحة. اهـ مصباح. وفي مختار الصحاح: الدَّبَا الجراد قبل أن يطير[1]، الواحدة دَباة. اهـ. **قوله: (البراغيث)** في مختار الصِّحاح: البُرغوث ـ بضم الباء ـ معروف. اهـ. وفي الصِّحاح: البرغوث واحد البراغيث. . اهـ. **قوله: (أو كبار القُرْدان)** بضم القاف وسكون الراء المهملة جمع القراد. في المصباح: القراد مثل غراب ما يتعلّق بالبعير ونحوه، وهو كالقمل للإنسان، الواحد قرادة، والجمع قردان، مثل غربان. اهـ. وقيل: القمل هي صغار الذر، وقيل: هو بمعنى القمل بفتح فسكون، كما قُرِىء به أيضًا. **قوله: (الضفادع)** جمع الضفدع ـ بكسرتين ـ الذَّكر، والضفدعة الأُنثى، وناس يقولونه: بفتح الدال، وأنكره الخليل. **قوله: (الرُّعاف)** الدم يخرج من الأنف. اهـ مختار الصِّحاح. **قوله: (يلي)** الولي مثل فلس القرب. اهـ مصباح. **قوله: (النِّيل)** بالكسر نهر مصر. اهـ قاموس. **قوله: (لا يشكل)** في المصباح: أشكل الأمر ـ بالألف ـ التبس. اهـ.

(١) لكونها لم ينبت لها أجنحة بعد. ١٢ منه عمّ فيضهم.

بعهده عندك (وهو النبوّة)، والباء تتعلق بـ ﴿ٱدۡعُ﴾ أي ادع الله لنا متوسلًا إليه بعهده عندك ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ إلى حد من الزمان ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ (**لا محالة**) فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ جواب ﴿لَمَّا﴾ (**أي فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث ولم يؤخروه**).

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾) هو ضد الإنعام كما أن العقاب هو ضد الثواب ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ هو البحر الذي لا يدرك قعره، أو هو (**لجة البحر**) ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم لأن المنتفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾

قوله: (**وهو النبوّة**) وسمّيت النبوّة عهدًا؛ لأن الله تعالى عهد إكرام الأنبياء عليهم الصّلاة والسلام بها، وعهدوا إليه تحمّل أعباءها، أو لأن لها حقوقًا تُحفظ كما تُحفظ العهود، أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله. **قوله:** (**لا محالة**) أي لا بدّ. **قوله:** (**أي فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث**) أي بادروه (**ولم يؤخّروه**) عن ابتداء وقوع الكشف مبنيّ على محافظة ما ذهبوا إليه من أن ما يلي كلمة لمّا من الفعلين يجب أن يكون ماضيًا لفظًا أو معنى؛ فجواب لما بالحقيقة هو هذا الفعل المقدّر، وكِلَا الاسمين - أعني لمّا وإذا - معمول له، ولما ظرفية، وإذا مفعول به، والنّكث النقض، وأصله من نكث الصوف ليغزل ثانيًا، فاستُعِير لنقض العهد بعد إحكامه وإبرامه، كما في خيوط الأكسية إذا نكثت بعدما أُبرمت، وهذا من أحسن الاستعارات.

قوله: (﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾) فأردنا الانتقام منهم. اهـ بيضاوي. قوله: فأردنا الانتقام لمّا كان الانتقام عين الإغراق أوّله به ليتفرّع عليه، أو الفاء مفسّرة له عند مَنْ أثبتها. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله:** (**لجة البحر**) في مختار الصّحاح: لجّة الماء

أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلّة فكرهم فيها ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام (﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ **يعني أرض مصر والشام**) ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة الأرزاق وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هو قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩]، أو ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: الآية ٥]. والحسنى تأنيث الأحسن صفة الكلمة (و«**على**» صلة «**تمت**») أي مضت عليهم واستمرت من قولك تمّ عليّ الأمر إذا مضى عليه ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم وحسبك به حاثًّا على الصبر ودالّا على أن مَن قابل البلاء (**بالجزع وكله الله إليه**)، ومَن قابله بالصبر (**ضمن**) الله له (**الفرج**) ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمارات وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعون من الأبنية (**المشيدة**) في السماء كصرح هامان وغيره. (**وبضم الراء: شامي وأبو بكر**). وهذا آخر قصة فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله.

ـ بالضم ـ معظمه، وكذا اللُّجّ ومنه بحر لُجّيٌّ. اهـ. **قوله:** (﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ **يعني أرض مصر والشام**)، وأراد بمشارقها ومغاربها جميع جهاتها ونواحيها. **قوله:** (﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾) أي ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين (**ملك فرعون**) ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: الآية ٦] (**أرض مصر والشام**) ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: الآية ٦] يخافون من المولود الذي يذهب ملكهم على يديه. **قوله:** (**وعلى صلة تمت**) أي على بني إسرائيل متعلق بقوله: ﴿وَتَمَّتْ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧]. **قوله:** (**بالجزع**) في مختار الصِّحاح: **الجَزَع** ضدّ الصبر، وبابه طرب. **قوله:** (**وكله الله إليه**) في المصباح: وكلته إلى نفسه من باب وعد، ولولا لم أقم بأمره ولم أُعِنْه. اهـ. **قوله:** (**ضمن**) في مختار الصِّحاح: ضَمِنَ الشيء ـ بالكسر ـ ضَماناً كَفَل به، فهو ضامن وضمين. اهـ. **قوله:** (**الفرج**) بفتحتين **قوله:** (**المُشَيَّدة**) المرتفعة. **قوله:** (**وبضم الراء: شامي**) أي ابن عامر الشاميّ، (**وأبو بكر**) شُعْبة عن عاصم، والباقون بالكسر.

ثم أتبعه قصة بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من فرعون ومعاينتهم الآيات العظام ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر وغير ذلك، ليتسلى رسول الله ﷺ **(مما رآه من بني إسرائيل بالمدينة)**.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

(وجاوزوه) ﴿بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ رُوِيَ أنهم **(عبر بهم)** موسى **(يوم عاشوراء بعدما أهلك الله فرعون وقومه)** فصاموه شكرًا لله ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ فمرّوا

قوله: (مما رآه من بني إسرائيل بالمدينة)، فإنهم جروا على دَأب أسلافهم مع موسى عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسلام.

قوله: (وجاوزوه). . . الخ. البحر بحر القلزم، وأخطأ مَنْ قال إنه نيل مصر، كما في البحر.اهـ شهاب. **قوله: (عبر بهم)** أي جاوز بهم البحر. **قوله: (يوم عاشوراء)** عاشر المحرّم. **قوله: (بعدما أهلك الله فرعون وقومه)** هذا صريح في أنّ عُبُور موسى وقومه بعد هلاك فرعون وقومه، لكن الآية المذكورة في سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٦٥، ٦٦] صريح في أنّ عبور موسى وقومه قبل هلاك فرعون وقومه، اللّهمّ إن يلتزم أن عبور موسى وقومه على البحر كان مرّتين: مرّة قبل هلاك فرعون، وهو مدلول الآية في سورة الشعراء وسورة يونس. ومرّة بعد هلاكهم، وهو مدلول الرواية المذكورة، فتأمّل. وفي حاشية تفسير البيضاوي للعلامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب: قيل: يحتمل أن تكون البعدية رتبية، فإنّ عبور الجمّ الغفير البحر العميق من غير أن يبتلّ قدم أحد أعظم آية من هلاك فرعون وقومه، وهو دَفْعٌ لما ورد عليه وعلى الكشاف من أنه وقع في سورة الشعراء: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٦٥، ٦٦]، وهو صريح في أن عبور موسى صلّى الله على نبيّنا وعليه وسلّم وقومه قبل هلاك فرعون، وكلام المصنّف رحمه الله في سورة البقرة يدلّ عليه، ولذا قيل: إنّ عبور موسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام وقومه البحر وقع مرّتين: مرّة قبله ومرّة بعده، فتأمّل. وفي حاشيته للعلامة القنوي: وما نطق به النصّ الكريم عبوره بهم قبل مَهْلك فرعون

عليهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يواظبون على عبادتها وكانت (تماثيل) بقر. (وبكسر الكاف: حمزة وعلي). ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ صنمًا نعكف عليه ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها. و«ما» كافة للكاف ولذلك وقعت الجملة بعدها. قال يهودي لعلي ﷺ: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجفّ ماؤه. فقال: قلتم ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ ولم تجفّ أقدامكم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني عبدة تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك من (التبار) ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي يتبر الله ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي. وفي إيقاع ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسمًا لـ «إن» وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرًا لها (وَسْم) لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرّضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتة ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ما عملوا من عبادة الأصنام باطل مضمحل ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبودًا ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حال أي على عالمي زمانكم.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ («أنجاكم» شاميّ) ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يبغونكم شدة العذاب من سام السلعة إذا طلبها، وهو استئناف لا محل له، أو حال من

وأمّا بعده، فلا دلالة النصّ عليه ولا الإشارة إليه، ولعلّ لهذا عرَض المصنّف، فقال: رُوِيَ.اهـ. **قوله:** (تماثيل) أي صُوَر. **قوله:** (بكسر الكاف حمزة وعليّ) الكسائي، والباقون بالضم.

قوله: (التَّبار) ـ بالفتح ـ الهلاك.اهـ مختار الصِّحاح. **قوله:** (وَسْم) أي علامة.

قوله: (أنجاكم) بألف بعد الجيم من غير ياء ولا نون، (شاميّ) أي ابن عامر الشامي، والباقون بياء ونون بعد الجيم وألف بعدهما.

المخاطبين، أو من ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ («يقتلون» نافع) ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي في الإنجاء أو في العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾ (نعمة أو محنة) ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾لإعطاء التوراة ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ رُوِيَ أن موسى عليه الصلاة والسلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يومًا وهي شهر ذي القعدة، فلما أتمّ الثلاثين أنكر (خُلوف فيه) فتسوك، فأوحى الله إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ ما وقت له من الوقت وضربه له ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نصب على الحال أي تم بالغًا هذا العدد، ولقد أجمل ذكر الأربعين في «البقرة» وفصلها هنا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ هو عطف بيان ﴿لِأَخِيهِ﴾ ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم ﴿وَأَصْلِحْ﴾ (ما يجب أن يصلح) من أمور بني إسرائيل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ومَن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه.

قوله: (يَقْتُلون) بفتح الياء وإسكان القاف وضمّ التاء مخفّفة (نافع)، والباقون بضمّ الياء وفتح القاف وكسر التاء مشدّدة. **قوله:** (نعمة أو محنة)؛ لأن البلاء بمعنى الابتلاء والاختبار، وهو يكون بكلٍّ منهما، وفيه لفّ ونشر مرتّب. اهـ شهاب. وقال العلّامة شيخ زاده رحمه الله: فإن البلاء يُطلق على كلّ واحدة منهما، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٨] وفيه لفّ ونشر، فإنّ البلاء النّعمة على تقدير أن تكون الإشارة إلى الإنجاء والمحنة على تقدير أن تكون إلى العذاب. اهـ.

قوله: (خُلوف فيه) ـ بضمّ الخاء ـ تغيّر رائحة الفمّ. **قوله:** (ما يجب أن يصلح) على أن يقدّر له مفعول.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له وحددنا. ومعنى اللام الاختصاص أي اختصّ مجيئه لميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بلا واسطة ولا كيفية. ورُوِيَ أنه (كان يسمع الكلام من كل جهة. وذكر **الشيخ في التأويلات**) أن موسى عليه السلام سمع صوتًا دالّا على كلام الله تعالى، وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمعه صوتًا تولّى تخليقه من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسبًا لأحد من الخلق، وغيره يسمع صوتًا مكتسبًا للعباد فيفهم منه كلام الله تعالى، فلما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ ثاني مفعولي ﴿أَرِنِىٓ﴾ محذوف أي أرني ذاتك أنظر إليك يعني مكنّي من رؤيتك بأن تتجلّى لي حتى أراك («أرْني» **مكيّ. وبكسر الراء مختلسة: أبو عمرو، وبكسر الراء مشبعة: غيرهما**) وهو دليل لأهل السنّة على جواز الرؤية، فإن موسى عليه السلام اعتقد أن الله تعالى يُرَى حتى سأله واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ بالسؤال بعين فانية بل بالعطاء والنوال بعين باقية، وهو دليل لنا أيضًا لأنه لم يقل لن أرى ليكون نفيًا للجواز، ولو لم يكن مرئيًا لأخبر بأنه ليس بمرئي إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿(وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ) فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ بقي على

قوله: (**كان يسمع الكلام من كلّ جهة**) المراد بالسّماع من كل جهة عدم اختصاص ما سمعه بجهة من الجهات. **قوله:** (**وذكر الشيخ**) أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريديّ (**في التأويلات**) أي في كتاب تأويلات القرآن، وهو كتاب لا يُوازيه فيه كتاب.

قوله: (أرْني) بإسكان الراء (مكّي) أي ابن كثير المكّي (**وبكسر الراء مختلسة أبو عمرو**) البصري (**وبكسر الراء مشبعة**) أي بالكسرة الكاملة (**غيرهما**). واتفقوا على إسكان يائه.

قوله: (﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾)، والجبل قيل: جبل زبير - بزاي معجمة مفتوحة وباء موحدة مكسورة وراء مهملة - بوزن أمير، اسم هذا الجبل؛ كما في

حاله ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ وهو دليل لنا أيضًا لأنه علّق الرؤية باستقرار الجبل وهو ممكن، وتعليق الشيء بما هو ممكن يدلّ على إمكانه كالتعليق بالممتنع يدلّ على امتناعه، والدليل على أنه ممكن قوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ ولم يقل «اندكّ» وما أوجده تعالى كان جائزًا أن لا يوجد لو لم يوجده لأنه مختار في فعله، ولأنه تعالى ما آيسه عن ذلك ولا عاتبه عليه ولو كان ذلك محالًا لعاتبه كما عاتب نوحًا عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: الآية ٤٦] حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي ظهر وبان ظهورًا بلا كيف. قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: معنى التجلّي للجبل ما قاله (**الأشعري**) إنه تعالى خلق في الجبل حياة وعلمًا ورؤية حتى رأى ربه، وهذا نصّ في إثبات كونه مرئيًا، وبهذه الوجزة يتبين جهل منكري الرؤية وقولهم بأن موسى عليه السلام كان عالمًا بأنه لا يرى ولكن طلب قومه أن يريهم ربه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: الآية ٥٥] فلطلب الرؤية ليبين الله تعالى أنه ليس بمرئي باطل إذ لو كان كما زعموا لقال أرهم ينظروا إليك ثم يقول له: لن يروني. ولأنها لو لم تكن جائزة لما أخر موسى عليه السلام الرد عليهم بل كان يرد عليهم وقت قرع كلامهم سمعه لما فيه من التقرير على الكفر، وهو عليه السلام بعث لتغييره لا لتقريره، ألا ترى أنهم لما قالوا له: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ لم يمهلهم بل ردّ عليهم من ساعته بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مدكوكًا

القاموس. والمشهور أنه الطّهور. اهـ شهاب. وعبارة القاموس: الزبير كأمير الجبل الذي كلَّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام. اهـ.

قوله: (**الأشعريّ**) أي أبو الحسن عليّ الأشعري، وهو صاحب الأُصول والقائم بنصرة مذهب السنّة، وإليه تنسب الطائفة الأشعريّة وشهرته تُغني عن الإطالة في تعريفه. توفي سنة نيّف وثلاثين وثلاثمائة، وقيل: سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وقيل: سنة ثلاثين فجأة، والأشعري ـ بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح العين المهملة وبعدها راء ـ هذه النِّسْبة إلى أشعر، واسمه نَبْت بن أُدد بن زيد بن يشجب، وإنما قيل له أشعر؛ لأن أُمّه ولدته والشعر على بدنه، هكذا قاله السمعاني، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مصدر بمصدر بمعنى المفعول كضرب الأمير (**والدقّ والدكّ**) أخوان. («**دكاء**» **حمزة وعلي**). أي مستوية بالأرض لا (**أكمة**) فيها وناقة دكاء لا (**سنام**) لها ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ حال أي سقط مغشيًّا عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من صعقته ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من السؤال في الدنيا ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك، وبأنك لا تعطي الرؤية في الدنيا مع جوازها. وقال (**الكعبي والأصمّ**): معنى قوله: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أرني آية أعلمك بها بطريق الضرورة كأني أنظر إليك ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ لن تطيق معرفتي بهذه الصفة ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ فإني أظهر له آية، فإن ثبت الجبل لتجليها و﴿ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ فسوف تثبت لها وتطيقها. وهذا فاسد لأنه قال: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ولم يقل «إليها» وقال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ولم يقل لن ترى آيتي وكيف يكون معناه لن ترى آيتي وقد أراه أعظم الآيات حيث جعل الجبل دكًّا؟

قوله: (والدقّ والدكّ) أخوان، أي نظيران، ومعناهما واحد. **قوله:** («دكّاء») بالمدّ والهمز من غير تنوين بوزن حمراء (**حمزة وعليّ**) الكسائي، والباقون بالتنوين بلا مدّ ولا همز. **قوله:** (أكمة) في المصباح: الأكمة تلّ، وقيل: شرفة كالرابية، وهو ما اجتمع من الحجارة في مكانٍ واحد، وربما غلظ، وربما لم يغلظ، والجمع أكم وأكمات، مثل قصبة وقصب وقصبات، وجمع الأكم آكام مثل جبل وجبال، وجمع الآكام أُكُم ـ بضمّتين ـ مثل كتاب وكتب، وجمع الأُكُم آكام، مثل عنق وأعناق. اهـ.

قوله: (سَنام) ـ بالفتح ـ في لسان العرب: سَنام البعير والناقة أعلى ظهرها، والجمع أسْنِمَةٌ. اهـ.

قوله: (الكعبي) البلخي المتكلّم رأس الكعبية من المعتزلة وصاحب التصانيف والمقالات، أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود، وكان من مقالاته أنّ الله سبحانه وتعالى ليست له إرادة، وأنّ جميع أفعاله واقعة منه بغير إرادة ولا مشيئة منه لها، وله اختيارات في عِلْم الكلام. توفي مستهلّ شعبان سنة سبع عشرة وثلاثمائة، والكعبي ـ بفتح الكاف وسكون العين المهملة وبعدها باء موحدة ـ هذه النسبة إلى بني كعب، والله سبحانه وتعالى أعلم. **قوله:** (**والأصمّ**) أي وأبو بكر الأصمّ من المعتزلة.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اخترتك على أهل زمانك «برسالتي» (هي أسفار التوراة «برسالتي»: حجازي) ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ و(بتكليمي إياك) ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ أعطيتك من شرف النبوّة والحكمة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم. قيل: خرّ موسى صعقًا (يوم عرفة)، وأعطي التوراة (يوم النحر). ولما كان هارون وزيرًا وتابعًا لموسى تخصص الاصطفاء بموسى عليه السلام.

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾ الألواح التوراة جمع لوح وكانت عشرة ألواح. وقيل: سبعة وكانت من (زمرد).

قوله: (هي أسفار التوراة) أي كتب التوراة ومجلّداتها وألواحها، وهو جمع سفر، وهو الكتاب. يقال: سفره أي كتبه، فتكون الرسالة عبارة عن نفس الشيء المُرسَل به إلى الغير، فينبغي أن يقدّر المضاف، أي بتبليغ رسالته. **قوله: (برسالتي)** بغير ألف بعد اللام على التوحيد **(حجازيّ)** إذا اجتمع أهل مكّة والمدينة قيل: حجازي، أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وابن كثير المكي. والباقون بإثبات الألف على الجمع. **قوله: (بتكليمي)** أي الكلام هنا مصدر على أصله، لا اسم اللفظ. **قوله: (إيّاك)** أي المفعول في النَّظم الجليل محذوف. **قوله: (يوم عرفة)** تاسع ذي الحجة عَلَم لا يدخلها الألف واللام، وهي ممنوعة من الصرف للتأنيث والعلمية. اهـ مصباح. **قوله: (يوم النَّحر)** عاشر ذي الحجّة يوم الأضحى؛ لأن البُدن تُنحر فيه. اهـ لسان العرب.

قوله: (زمرّد) في المصباح: الزمرّد ـ مثقل الراء مضمومة والذال معجمة ـ هو الزَّبرجد، قال ابن قُتيبة: والدال المهملة تصحيف، وحُكي في البارع عن الأصمعيّ: الصواب بذال معجمة الواحدة زمرّدة. اهـ. وفي مختار الصِّحاح: الزمرّد بضم الزاي والراء وتشديدها الزّبرجد، وهو معرب. اهـ. وفي القاموس: الزُّمُرُّد بالضمات وشدّ الراء الزبرجد معرب. وقال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله

وقيل: من (**خشب**) نزلت من السماء فيها التوراة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ في محل النصب على أنه مفعول «كتبنا» ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (**بدل منه**) والمعنى كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام.

وقيل: أنزلت التوراة وهي سبعون (**وقر بعير**) لم يقرأها كلها إلا أربعة نفر: موسى و(**يوشع**) وعزير وعيسى ﴿فَخُذْهَا﴾ فقلنا له خذها عطفًا على «كتبنا» والضمير للألواح أو ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ لأنه في معنى الأشياء ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة فعل (**أولي العزم**) من الرسل ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ (**أي فيها ما هو حسن وأحسن**)

الوهاب: زمرّد بضم الزاي المعجمة والميم والراء المهملة، وعن الأزهري: فتح الراء وبالذال المعجمة آخره، وهو غير الزبرجد، كما هو معلوم عند أهله. اهـ. وفي تاج العروس: (الزمرد بالضمّات وشدّ الراء هو الزبرجد) هكذا في الصحاح، (وهو معرب) قال ابن قتيبة: داله مهملة وصوّب الأصمعي الإعجام، ونقله في البارع وصححه، وقال بعض بالوجهين، وعن الأزهريّ فتح الراء أيضًا. قال التيفاشي في كتاب الأحجار: قال الفرّاء في كُتُبه: إن الزبرجد تعريب الزمرّد، وليس كذلك، بل الزبرجد نوعٌ آخر من الحجارة. وقال ابن ساعد الأنصاري: وقيل: إن معدنه بالقرب من معدن الزمرّد. قال شيخنا: وهذا نصّ في المغايرة، وقال: وفرّق جماعة آخرون بأن الزمرّد أشد خضرةً من الزبرجد، والله أعلم، انتهى. **قوله: (خشب)** في مختار الصحاح: جمع الخَشَبة خَشَب ـ بفتحتين ـ وخُشُب ـ بضمّتين ـ وخُشْب كقفل وخُشْبان كغفران. اهـ. وفي المصباح: الخشب معروف الواحد خشبة، والخشب ـ بضمّتين وإسكان الثاني ـ تخفيف مثله، وقيل: المضموم جمع المفتوح، كالأُسُد بضمتين جمع أسد بفتحتين. **قوله: (بدل منه)** أي من الجار والمجرور، يعني: أن كل شيء في محل النصب على أنه مفعول كتبنا وموعظة وتفصيلًا بدل منه، فتكون كلمة مَنْ فيه مزيدة لا تبعيضيّة. **قوله: (وقر بعير)** في المصباح: الوِقْر بالكسر حَمْل البغل والحمار، ويُستعمل في البعير. اهـ. **قوله: (يوشع)** ـ بضمّ التحتية وفتح الشين ـ ابن نون. **قوله: (أولي العزم)** ذوي الثَّبات والصبر على الشدائد. **قوله: (أي فيهما ما هو حسن وأحسن)**. . . الخ. إشارة إلى جواب ما يقال من أنه تعالى لمّا تعبّد بكلّ ما في التوراة وجب أن يكون

كالقصاص والعفو و(الانتصار) والصبر، فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب كقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: الآية ٥٥]، ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه وهي مصر، ومنازل عاد وثمود والقرون المهلكة كيف (أقفرت) منهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكّل بكم مثل نكالهم أو جهلهم.

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ عن فهمها. قال (ذو النون) قدّس الله روحه: أبى الله أن يكرم قلوب الباطلين بمكنون حكمة القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ يتطاولون على الخلق و(يأنفون) عن قبول الحق. وحقيقته التكلّف للكبرياء التي اختصّت بالباري

الكلّ حسنًا، وقوله: ﴿يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥] يقتضي أن يكون فيها ما ليس بأحسن، وأنه لا يجوز الأخذ به، وهو متناقض، وأجاب عنه بأنّ ما في التوراة من التكاليف متفاوت منه ما هو أحسن، ومنه ما هو حسن؛ كالقصاص والعفو والانتصار والصبر، وكل واحد منها وإنْ كان مشروعًا حسنًا في حكم التّوراة إلّا أنه تعالى أمرهم بطريق النّدب أن يأخذوا بالأفضل، فإنه أكثر ثوابًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزُمَر: الآية ٥٥]، وقوله: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزُمَر: الآيتان ١٧، ١٨]، ولا يرد أن يقال: إنه تعالى لمّا أمر بالأحسن، فقد مَنَع عن الأخذ بالحسن، وذلك يقدح في كونه حسنًا؛ لأنّا نقول: إنما أمرهم بالأخذ بالأحسن على طريق النّدب، فيزول التناقض والإشكال. **قوله:** (الانتصار) أي الانتقام. **قوله:** (أقفرت) أي خلت فينكل بهم مثل نكالهم. في مختار الصِّحاح: نكّل به تنكيلًا، أي جعله نَكالًا وعِبْرة لغيره. اهـ.

قوله: (ذو النون) المصري، أبو الفَيْض ثوبان بن إبراهيم. **قوله:** (يأنفون) في المصباح: أنِفَ من الشيء أنفًا من باب تعب، والاسم الأنفة مثل قصبة، أي

عزّت قُدرته ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هو حال أي يتكبرون غير محقين لأن التكبّر بالحق لله وحده ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ طريق صلاح الأمر وطريق الهدى. (**«الرَّشَد»: حمزة وعلي**). وهما كالسقم والسقم ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾ الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ ومحل ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرفع أي ذلك الصرف ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ غفلة عناد وإعراض لا غفلة سهو وجهل ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هو من إضافة المصدر إلى المفعول به أي ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ خبر ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهو تكذيب الأحوال بتكذيب الإرسال.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ وإنما نسبت إليهم مع أنها كانت (عواري) في أيديهم لأن الإضافة تكون لأدنى ملابسة، وفيه دليل على أن مَن حلف أن لا يدخل دار فلان فدخل دارًا استعارها يحنث، على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم. وفيه دليل على أن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها، نعم المتخذ هو السامري ولكنهم رضوا به فأسند الفعل إليهم. (والحلي) جمع «حلى» وهو اسم ما يتحسن به من الذهب والفضة («حليهم»: حمزة وعلي للاتباع) ﴿عِجْلًا﴾ مفعول «اتخذ» ﴿جَسَدًا﴾ بدل منه أي بدنًا ذا لحم ودم كسائر الأجساد ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ هو صوت

استنكف وهو الاستكبار. اهـ. قوله: («الرَّشَد») بفتح الراء والشين (حمزة وعليّ) الكسائي، والباقون بضمّ الراء وإسكان الشين، وهما لغتان كالسُّقْم والسَّقَم.

قوله: (عواري) في القاموس: العاريّة ـ مشدّدة وقد يخفّف ـ والعارة ما تداولوه بينهم، والجمع عَوَارِيُّ ـ مشدّدة ومخفّفة ـ. اهـ. قوله: (والحلي) بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء وقد تُكسر الحاء، جمع حَلْي بفتح الحاء وسكون اللام. [illegible] بكسر الحاء واللام وتشديد الياء مكسورة [illegible] الكسائي [illegible] أي لإتباع الحاء لكسرة اللام كدليّ وعصيّ، جمعَيْ دلو وعصا

البقر والمفعول الثاني محذوف أي إلـهًا. ثم عجب من (عقولهم السخيفة) فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ حين اتخذوه إلـها ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل حتى لا يختاروه على مَن ﴿(لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ) مِدَادًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] (لكلماته) ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾) [الكهف: الآية ١٠٩] كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبيل الحق (بما أركز) في العقول من الأدلة وبما أنزل في الكتب. ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ إلـها فأقدموا على هذا الأمر المنكر ﴿وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ ولما اشتد ندمهم على عبادة العجل. وأصله أن من شأنه من اشتد ندمه أن يعضّ يده غمًّا فتصير يده مسقوطًا فيها لأن فاه وقع فيها

أصلهما دلو وعصو، وقُلِبت الواو الأخيرة ياءً لوقوعها طرفًا بعد ضمّة، فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقُلِبت الواو ياء وأُدغمت وكُسِرت عين الكلمة، وإنْ كانت مضمومة في الأصل لتصحّ الياء، ثم لك بعد ذلك فيه وجهان: تَرْك الفاء على ضمّها واتّباعها للعين في الكسرة، وهذا مطرد في كل جمع على فعول من معتلّ اللام سواء كانت لامه واوًا كما في عصيّ ودليّ، أو ياءً كما في حليّ وثديّ في جمع حَلْي وثَدْي أصلهما حلوى وثدوى نحو فلوس في جمع فلس، وقرأ يَعقوب بفتح الحاء وسكون اللام وتخفيف الياء إمّا مفرد أريد به الجمع، أو اسم جمع مفرده حلية كقمح وقمحة. والباقون بضمّ الحاء وكسر اللام وتشديد الياء مكسورة جمع حلى كفلس وفلوس، والأصل حلوى، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قُلِبت الواو ياءً وأُدغمت في الياء وكُسِرت عين الكلمة. **قوله:** (عقولهم السّخيفة) في لسان العرب: السَّخْف والسُّخْف والسخافة رقّة العقل، سَخُف ـ بالضم ـ سخافة فهو سخيف، ورجل سخيف العقل بيِّن السَّخَف، وهذا من سخفة عقلك والسَّخْف ضَعْف العقل. اهـ. **قوله:** (﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾) أي ماؤه ﴿مِدَادًا﴾ هو ما يُكتب به (لكلماته) الدالّة على حكمه وعجائبه بأن تكتب به لنفد البحر في كتابتها. **قوله:** (بما أركز) في المِصْباح: ركزت الرمح ركزًا من باب قتل أثبته بالأرض فارتكز. اهـ.

وسقط مسند إلى في أيديهم وهو من باب الكناية. وقال (الزجاج): معناه سقط الندم في أيديهم أي في قلوبهم وأنفسهم كما يقال: «حصل في يده مكروه» وإن استحال أن يكون في اليد تشبيهًا لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ وتبينوا ضلالهم تبينًا كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ («لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا» حمزة وعلي). وانتصاب ﴿رَبَّنَا﴾ (على النداء) ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ﴾ من الطور ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل ﴿غَضْبَانَ﴾ حال من ﴿مُوسَىٰ﴾ ﴿أَسِفًا﴾ حال أيضًا أي حزينًا ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ قمتم مقامي وكنتم خلفائي ﴿مِن بَعْدِي﴾ والخطاب لعبدة العجل من السامري و(أشياعه)، أو لهارون ومَن معه من المؤمنين، ويدلّ عليه قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ والمعنى بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله، (وفاعل «بئس» مضمر يفسره «ما خلفتموني») والمخصوص بالذم محذوف

قوله: (الزجّاج) هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد النَّحوي. **قوله:** («لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا») بتاء الخطاب في الفعلين (حمزة وعليّ) الكسائي، وانتصاب ربّنا أي نصب الباء من ربّنا (على النداء). والباقون بياء الغيب فيهما ورفع ربّنا **على** أنه فاعل.

قوله: (أشياعه) أي أتباعه. في المصباح: الشِّيعة الأتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمرٍ فهم شيعة، ثم صارت الشيعة نبزًا[1] لجماعة مخصوصة، والجمع شِيَع مثل سدرة وسدر، والأشياع جمع الجمع. اهـ. **قوله:** (وفاعل «بئس» مضمر يفسّره «ما خلفتموني»)، فإنّ الفاعل في باب نعم وبئس إذا كان مضمرًا يجب أن يفسّره بنكرة موصوفة، أو بما، وفسّر هٰهنا بقوله: ما خلفتموني، ولا يجوز أن

---

(١) أي لقبًا. ١٢ مصباح

تقديره بئس (خلافة) خلفتمونيها من بعدي (خلافتكم). ومعنى ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ بعد قوله: ﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾ من بعد ما رأيتم مني من توحيد الله ونفي الشركاء عنه، أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وأكفهم عن عبادة البقرة حين قالوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف ﴿أَعَجِلۡتُمۡ﴾ أسبقتم بعبادة العجل ﴿أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ وهو إتياني لكم بالتوراة بعد أربعين ليلة. وأصل العجلة طلب الشيء قبل حينه. وقيل: عجلتم بمعنى تركتم (وألقى الألواح) (ضجرًا) عند استماعه حديث العجل غضبًا لله، وكان في نفسه شديد الغضب وكان هارون ألين منه جانبًا، ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى، فتكسرت فرفعت ستة أسباعها وبقي سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي هدى ورحمة ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ (بشعر رأسه) غضبًا عليه حيث لم يمنعهم من عبادة العجل ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ عتابًا عليه لا (هوانًا) به وهو حال من موسى ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾ (بني الابن مع الأم على الفتح كـ «خمسة عشر» وبكسر الميم: حمزة وعلي وشامي)، لأن أصله أُميّ فحذف الياء اجتزاء

يكون ما خلفتموني فاعل بئس؛ لأن فاعله يجب أن يكون معرّفًا باللام، أو مضافًا إلى المعرّف باللام، وهو ليس واحدًا منهما، فتعيّن أن يكون الفاعل مضمر أو لا يضمر الفاعل فيه إلّا بشرط التفسير ومفسّره قوله: ما خلفتموني. **قوله:** (خلافة) بالنصب تفسير لما. **قوله:** (خلافتكم) هو المخصوص بالذمّ. **قوله:** (ضجرا) في مختار الصِّحاح: الضَّجَر القَلَق من الغمّ وبابه طَرِب، فهو ضَجِر ورجل ضجور. اهـ. **قوله:** (بشعر رأسه)؛ لأنه الذي يُمْسك ويُؤْخذ. **قوله:** (هواناً الهوان) نقيض العِزّ. **قوله:** (بني الابن مع الأم على الفتح كخمسة عشر) أي كتركيبها تركيب خمسة عشر بالشّبه اللفظي عندهم، فعلى هذا ليس ابن مضافًا لأُمّ، بل مركّب معها، ومذهب الكوفيّين أن ابن مضاف لأُم، وأمّ مضافة للياء قُلِبت الياء ألفًا تخفيفًا، فانفتحت الميم؛ كقوله: يا بنت عمّا لا تلومي واهجعي، ثم حذفوا الألف وبقيت الفتحة دالّة عليها، [illegible] الكسائي [illegible] أي ابن عامر الشامي، وكذا أبو بكر شعبة عن عاصم كسر بناء عند البصريّين لأجل ياء المتكلّم. والباقون بفتحها على جعل الاسمين اسمًا واحدًا، وبُنِيَا على الفتح كما تقدّم.

عنها بالكسرة، (وكان ابن أمه وأبيه). وإنما ذكر الأم لأنها كانت مؤمنة ولأن ذكرها أدعى (إلى العطف) ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ أي إني (لم آل) جهدًا في كفّهم بالوعظ والإنذار ولكنهم استضعفوني وهمّوا بقتلي (﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾) الذين عبدوا العجل أي لا تفعل بي ما هو أمنيتهم من الاستهانة بي والإساءة إلي ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي قرينًا لهم بغضبك علي. فلما اتضح له عذر أخيه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ ليرضي أخاه وينفي الشماتة عنه بإشراكه معه في الدعاء، والمعنى اغفر لي ما فرط مني في حق أخي ولأخي إن كان فرط في حسن الخلافة ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ عصمتك في الدنيا وجنتك في الآخرة ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلـهًا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هو ما أمروا به من قتل أنفسهم توبة ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ خروجهم من ديارهم فالغربة تذلّ الأعناق أو ضرب الجزية عليهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ الكاذبين على الله (ولا فِرية) أعظم من قول السامري «هذا إلـهكم وإلـه موسى».

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾ رجعوا إلى الله ﴿مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي السيئات أو التوبة

قوله: (وكان ابن أمه وأبيه) على الأصح. **قوله:** (إلى العطف) أي الرحمة ورقّة القلب. **قوله:** (لم آل) من باب عدا، أي لم أقصّر. في القاموس: ألى ألْوًا وأُلُوًّا وأُليًا وألّا وائتلى قصّر. اهـ. **قوله:** (﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾) يقال: شمّت به شماتة من باب علم يعلم إذا فرح ببليّة أصابت عدوّه، ثم ينقل إلى باب الأفعال للتعدية، وشماتة العدوّ أشدّ من كل بليّة. قال الشاعر:

والـمـوت دون شـمـاتـة الأعـداءِ

قوله: (ولا فِرْية) الفِرْية ـ بالكسر ـ بمعنى الكذب.

﴿لَغَفُورٌ﴾ لستور عليهم محاء لما كان منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ منعم عليهم بالجنة. و«إن» مع اسمها وخبرها خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل وغيرهم عظم جنايتهم أولًا، ثم أردفها بعظم رحمته ليعلم أن الذنوب وإن عظمت فعفوه أعظم.

ولما كان الغضب لشدته كأنه هو الآمر لموسى بما فعل قيل:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ وقال الزجاج: معناه سكن **(وقرىء به)** ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ **(وفيما نسخ منها)** أي كتب **(فعلة بمعنى مفعول)** كالخطبة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ **(دخلت اللام)** لتقدم المفعول وضعف عمل الفعل فيه باعتباره.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ **(أي من قومه)** فحذف الجار وأوصل الفعل ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ قيل: اختار من اثني عشر سبطًا من كل سبط ستة فبلغوا اثنين وسبعين رجلًا

قوله: (وقرىء به) قرأ بها معاوية بن قرّة. **قوله: (وفيما نسخ منها)** أي من الألواح المنكسرة مبنيّ على ما رُوي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لمّا ألقى موسى الألواح تكسّرت، فصام أربعين يومًا، فأعاد الله الألواح وفيها نقش ما في الأولى، وعلى قول مَنْ قال إن الألواح لم تنكسر وأخذها موسى بعينها بعدما ألقاها يكون معنى ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٤] المكتوب فيها. **قوله: (فعلة بمعنى مفعول)** حاصله أنّ نسخة فعلة بمعنى مفعولة، أي منسوخة. **قوله: (دخلت اللام)**... الخ. هذه لام التقوية الدّاخلة على المعمول المقدَّم.

قوله: (أي من قومه) اختار يتعدّى إلى اثنين إلى أوّلهما بنفسه، وإلى ثانيهما بحرف الجرّ، يقال: اخترت زيدًا من الرّجال ثم يتّسع ويُحذف الجار ويُوصل الفعل

فقال: ليتخلف منكم رجلان فقعد (كالب) و(يوشع) ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ لاعتذارهم عن عبادة العجل ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾ بما كان منهم من عبادة العجل ﴿وَإِيَّٰيَۖ﴾ لقتلي القبطي ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ أتهلكنا عقوبة بما فعل الجهال منا وهم أصحاب العجل ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ ابتلاؤك وهو راجع إلى قوله: ﴿قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ [طه: الآية ٨٥]، فقال موسى: هي تلك الفتنة التي أخبرتني بها أو هي ابتلاء الله تعالى عباده بما شاء، ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥] ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ بالفتنة ﴿مَن تَشَآءُ﴾ من علمت منهم اختيار الضلالة ﴿وَتَهۡدِي﴾ بها ﴿مَن تَشَآءُ﴾ من علمت منهم اختيار الهدى ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ مولانا القائم بأمورنا ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ وأثبت لنا واقسم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ عاقبة وحياة طيبة وتوفيقًا في الطاعة ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الجنة ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ تبنا إليك وهاد إليه يهود إذا رجع وتاب والهود جمع هائد وهو التائب. ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾ من صفته أني ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ أي لا أعفو عنه ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ أي من صفة رحمتي أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر إلا وعليه أثر رحمتي في الدنيا ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ أي هذه الرحمة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك من أمة محمد ﷺ ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بجميع كتبنا ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ لا يكفرون بشيء منها.

بنفسه، وقد يُحذف المفعول الثاني رأسًا، فيقال: اخترت زيدًا وقومه مفعول ثان وسبعين أوّلهما، والتقدير: واختار موسى سبعين رجلًا من قومه، والاختيار افتعال من لفظ الخير كاصطفى من الصفوة، يقال: اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره، قيل: وفيه دليل على أنّ كلّهم لم يعبدوا العجل. **قوله: (كالب)** بفتح اللام. **قوله: (يوشع)** ـ بضم التحتية وفتح الشين ـ ابن نون.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي نوحي إليه كتابًا مختصًا به وهو القرآن ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ صاحب المعجزات ﴿ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ أي يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (**بخلع الأنداد**) وإنصاف العباد ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عبادة الأصنام وقطيعة الأرحام ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة (**كالشحوم**) وغيرها، أو ما طاب في الشريعة مما ذُكر اسم الله عليه من الذبائح (**وما خلا كسبه من السحت**) ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ ما **يستخبث كالدم والميتة ولحم الخنزير وما أُهِلّ لغير الله به**)، أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة (**ونحوهما من المكاسب الخبيثة**) ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ هو الثقل الذي

قوله: (**بخلع الأنداد**) أي بترك الشركاء في العبادة. **قوله**: (**كالشحوم**) جمع شحم مثل فلس وفلوس. **قوله**: (**وما خلا كسبه من السُحت**) في مختار الصِّحاح: السُّحت ـ بسكون الحاء وضمّها ـ الحرام. اهـ. **قوله**: (﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ ما **يستخبث كالدم والميتة ولحم الخنزير وما أُهِلَ لغير الله به**) أي ذُبح على اسم غيره تعالى، والإهلال رفع الصوت، وكانوا يرفعونه عند الذِّبح لآلهتهم. اهـ جلالين. أو ما خبث في الحكم؛ كالربا والرشوة مثلثة. اهـ قاموس. (**ونحوهما من المكاسب الخبيثة**)، وفيه دليل على حُرْمة ما سوى السَّمك من حيوان البحر؛ لأن كلّها خبيث، فيكون ردًّا على الشافعي رحمه الله في حلّية جميع حيوان البحر، كذا في الهداية. اهـ التفسيرات الأحمدية. **قوله**: (﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾) أي الثّقل والتكاليف الشاقّة التي كانت عليهم، مثل الغلّ، والأظهر أنهما جميعًا عبارتان عن التكاليف الشاقّة، كما هو رأي القاضي البيضاوي، والأكثرون على الفرق بينهما، فقال صاحب الكشاف: والإصر مثل لثقل تكليفهم، نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم، والأغلال مثل لِمَا كان في شرائعهم من الأشياء الشاقّة،

(**يأصر**) صاحبه أي يحبسه عن (**الحراك**) لثقله، والمراد التكاليف الصعبة كقتل النفس في توبتهم وقطع الأعضاء الخاطئة. («آصارهم» **شامي على الجمع** ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ هي الأحكام الشاقة نحو: (**بت القضاء بالقصاص**)

نحو بتّ القضاء بالقصاص عمدًا كان أو خطأ من غير شرع الدِّية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللَّحم، وتحريم السبت. وعن عطاء: كانوا بني إسرائيل إذا قاموا للصلاة لبسوا المسوح وغلّوا أيديهم إلى أعناقهم، وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة، هذا لفظه. وذكر صاحب المدارك: قطع الأعضاء الخاطئة من الإصر، وزاد في الأغلال ظهور الذنوب على الأبواب، وجعل صاحب الحُسينيّ قطع العضو والثوب من الإصر، وقتل النفس والقصاص وإحراق الغنيمة من الأغلال. وذكر الإمام الزاهد فرضيّة الصلاة في اللّيل والزكاة بربع المال وتحريم السبت من الإصر، وقطع الأعضاء الخاطئة من الأغلال، وقال أيضًا: إنّ ما قال الشافعي رحمه الله تعالى في موت ما ليس له دم سائل يفسد الطعام، وقليل النجاسة يمنع جواز الصّلاة يؤدي إلى إثبات الأغلال والآصار وإبطال مِنّة الله تعالى، هذا كلامه. ومرجع كل ذلك إلى جعل الإصر أشدّ من الأغلال تارة، وعكسه أخرى، وزاد بعضهم: وجوب خمسين صلاة في يوم وليلة، واقتصار جواز الصلاة في المسجد، وحرمة الجماع في أيّام الصوم بعدَ العَتْمة، وحُرمة الطعام بعد النَّوم، وإحراق المستقبل من الصدقات أيضًا، ومجازاة الحسنة بحسنة لا بعشر حسنات من الأغلال، هكذا ذكر بعض أهل الأُصول وقالوا: إنّ وضع هذه الآصار والأغلال عنّا يسمّى رخصة مجازًا؛ إذ الأصل ساقط لم يبق مشروعًا أصلًا، فلم يكن في الحقيقة إلا نسخًا، فهو من أتمّ نوعي المجاز من أنواع الرخصة، هذا لفظهم. والمقصود هنا هو بيان تحريم الخبائث ووضع الإصر والأغلال. اهـ التفسيرات الأحمديّة. **قوله: (يأصر)** بابه ضرب. **قوله: (الحراك)** بحاء مكسورة وراء مهملة الحركة. **قوله: («آصارهم»)** بفتح الهمزة ومدّها وفتح الصاد وألف بعدها (**شاميّ**) أي ابن عامر الشاميّ (**على الجمع**). والباقون بكسر الهمزة والقصر وإسكان الصاد بلا ألف على الإفراد اسم جنس. **قوله:** (بَتّ) أي قطع (**القضاء بالقصاص**) أي تعيّن القضاء بالقصاص في

(عمدًا) كان أو خطأ من غير شرع الديّة، (وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب)، وإحراق (الغنائم) وظهور الذنوب على أبواب البيوت، و(شبهت بالغُلّ) للزومها لزوم الغلّ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظموه أو منعوه من العدو حتى لا يقوى عليه عدو ـ وأصل العزر المنع ومنه التعزير لأنه منع عن معاودة القبيح كالحد فهو المنع ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي القرآن «ومع» متعلق بـ ﴿ٱتَّبَعُواْ﴾ أي واتبعوا القرآن المنزّل مع اتباع النبيّ والعمل بسنته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل خير والناجون من كل شيء.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد ﷺ إلى كافة الإنس و(كافة) الجن ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ﴿إِلَيْكُمْ﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في محل النصب بإضمار أعني وهو نصب على المدح ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدل من الصلة وهي ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكذلك ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وفي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيان للجملة قبلها لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة، وفي ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ بيان لاختصاصه بالإلهية إذ لا يقدر

القتل، وقد أورد عليه أنه ينافي ما ذكره في قوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥]، من تفسيره بالعفو عن القصاص على طريقة الندب، وجمع بأنه كان مأمورًا به في الألواح أوّلًا ثم تعيّن عليهم القصاص تشديدًا عليهم جزاءً لما صدر عنهم. **قوله:** (عمدًا) بابه ضرب. **قوله:** (وقرض) أي قطع (موضع النجاسة من الجلد[1]) أي من البدن (والثوب) بالمِقْراض. **قوله:** (الغنائم) جمع غنيمة. **قوله:** (شُبّهت بالغلّ) الغلّ ـ بالضم ـ طوق من حديد يُجعل في العنق، والجمع أغلال مثل قفل وأقفال. اهـ مصباح.

قوله: (كافة) أي جميع.

---

(١) قال المحقّق التفتازاني في تفسير الجلد: كالخفّ والفرو. ١٢ منه عمّ فيضهم.

على الإحياء والإماتة غيره ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي الكتب المنزلة ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولم يقل فآمنوا بالله وبي بعد قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ (لتجري عليه الصفات) التي أُجريت عليه، ولما في الالتفات من (مزية) البلاغة، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبيّ الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته (كائنًا من كان ـ أنا أو غيري ـ إظهارًا للنصفة وتفاديًا) من العصبية لنفسه.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي يهدون الناس محقين أو بسبب الحق الذي هم عليه ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون. قيل: هم قوم وراء (الصين) آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج، أو هم (عبد الله بن سلام) و(أضرابه).

قوله: (لتجري عليه الصّفات) التي أُجريت عليه، فإن الضمير لا يُوصف ولا يُوصف به. **قوله:** (مزْية) في لسان العرب: المَزِية في كل شيء التَّمام والكمال، والمِزْية الفضيلة. اهـ باختصار. **قوله:** (كائنًا) حال عامله معنى الإشارة في هذا الشخص، واسمه الضمير العائد إليه وخبره (مَن كان) على أن مَنْ موصوفة بكان للإبهام، أي شخص كان بمعنى أيّ شخص حصل ووجد، وكان تامّة، وهذه الكلمة جرت مجرى المثل في التعميم حتى لا يغيّر لفظ كائنًا عن الإفراد نظرًا إلى الخبر، وإنْ كان مرجع الضمير جمعًا نحو: أيّها العلماء كائنًا مَنْ كان، قالوا: وهذا حال فيه معنى الشرط، أي إن كان هذا وإنْ كان ذلك (ـ أنا أو غيري ـ) بدل من هذا الشخص (إظهارًا) مفعول له ليُعْلَم. اهـ تفتازاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ. **قوله:** (للنصفة) في المصباح: أنصفت الرجل إنصافًا عامَلْته بالعدل والقسط، والاسم النّصفة بفتحتين، لأنك أعطيته من الحقّ ما تستحقّه لنفسك. اهـ. **قوله:** (تفاديًا) في لسان العرب: تفادى فلان من كذا إذا تحامى وانزوى عنه. اهـ.

قوله: (الصين) بلد معروف. **قوله:** (عبد الله بن سلام) بن الحارث الإسرائيليّ الأنصاري، ثم الخزرجيّ الصحابي، كنيته أبو يوسف. رُوِي له عن رسول الله ﷺ خمسة وعشرون حديثًا، اتّفقا على حديث، وانفرد البخاري بآخر.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ وصيّرناهم قطعًا أي فرقًا وميّزنا بعضهم من بعض ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ كقولك اثنتي عشرة قبيلة، (**والأسباط أولاد الولد جمع سبط**) وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدًا (**من ولد يعقوب** عليه السلام). نعم (**مميز ما عدا العشرة**) مفرد فكان ينبغي أن يُقال اثني عشر سبطًا، (**لكن المراد وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة**) وكل قبيلة أسباط لا سبط فوضع «أسباط» موضع «قبيلة» ﴿أُمَمًا﴾ بدل من ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ أي وقطعناهم أُممًا لأن كل أسباط كانت أُمة عظيمة وكل واحدة

توفي سنة ثلاث وأربعين بالمدينة، ومناقبه كثيرة مشهورة. **قوله:** (أضرابه) أي أمثاله.

قوله: (**والأسباط أولاد الولد جمع سبط**) كحمل وأحمال. **قوله:** (**من ولد يعقوب عليه**) وعلى نبيِّنا (**الصلاة والسلام**). في مختار الصحاح: الولد يكون واحدًا وجمعًا، وكذلك الوُلْد بوزن القُفْل، وقد يكون الوُلْد **جمع** وَ**لَد** كأسَد وأُسْد.اهـ. وفي المصباح: الولد ـ بفتحتين ـ كل ما ولده شيء، ويُطلق على الذَّكر والأُنثى والمثنّى والمجموع فعل بمعنى مفعول، وهو مذكّر، وجمعه أولاد، والولد وزان قفل لغة فيه، وقيس تجعل المضموم جمعَ المفتوح، مثل أُسْد **جمع** أسَد.اهـ. **قوله:** (**مميز ما عدا العشرة**) أي مميّز أحد عشر إلى تسعة عشر.

قوله: (**لكن المراد وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة**)... الخ. أي جوَّز أن يكون أسباطًا تمييزًا له بناء على أنّ كل فرقة من الفرق المنقطعة من بني إسرائيل ليس سبطًا واحدًا، بل أسباطًا؛ لأن السبط ولد الولد، فلو قيل: قطعناهم اثني عشر سبطًا، لكان المعنى: اثني عشر ولد، وليس المراد ذلك؛ بل المراد اثنتا عشرة قبيلة أسباطًا، فحذف ما هو المميّز حقيقةً، وهو القبيلة، وأُقيم صفته وهو أسباطًا مقامه، وأُعرب بإعرابه. والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وهو تعالى لمّا أخرجهم من أرض مصر وأدخلهم البريّة جعلهم اثنتي عشرة فرقة

كانت (توَم) خلاف ما توَمه الأخرى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فضرب ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ فانفجرت ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ هو اسم جمع (غير تكسير) ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ وجعلناه ظليلًا عليهم في (التيه) ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وقلنا لهم ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم (النعم) ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكن كانوا يضرّون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ واذكر إذ قيل لهم ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ

قبائل شتّى ليكون أمر كل سبط متعرّفًا من جهة رئيسهم، فيخفّ الأمر على موسى عليه السلام فيما يحتاج إليه من تعرّف أحوالهم ويسهل عليه جمعهم، ويعلم كل فريق مرجعهم في أُمورهم، وانحصار الفرق في اثنتي عشرة فرقة لأنهم كانوا من اثني عشر رجلًا من أولاد يعقوب على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام؛ فأنعم الله سبحانه وتعالى عليهم بهذا التقطيع والتمييز لتنتظم أحوالهم، ولئلا يتحاسدوا فيقع فيهم الهَرج والمَرَج.

قوله: (توَم) في المصباح: أمّه أمًّا من باب قتل قصده. اهـ. **قوله:** (غير تكسير) بدليل عَوْد الضمير المفرد إليه وتصغيره على لفظه، ولأن فعالًا بالضمّ ليس من صِيَغ الجمع، وما يقال في كتب اللغة: إنّ رخالًا ـ بالضمّ ـ جمع رخل ـ بكسر الخاء ـ وهي الأُنثى من ولد الضأن، فمبنيّ على أنهم يعنون بالجمع ما يعمّ اسم الجمع، كما يقولون: إنّ ركبًا جمع راكب. اهـ تفتازاني رحمه الله.

قوله: (التّيه) ـ بكسر التاء ـ المفازة. اهـ مصباح. **قوله:** (النّعم) جمع نِعمة.

﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ﴾ («تُغفَر لكم» مدني وشامي «خطيئاتكم» مدني «خطاياكم» أبو عمرو «خطيئتكم» شامي) ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾ ولا تناقض بين قوله: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ في هذه السورة وبين قوله في سورة «البقرة» ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ﴾ [البقرة: الآية ٨٥] لوجود الدخول والسكنى. وسواء قدموا الحطّة على دخول الباب أو أخروها فهم جامعون بينهما. وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ موعد بشيئين بالغفران وبالزيادة، وطرح الواو لا يخل بذلك لأنه استئناف مرتّب على قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وكذلك (زيادة منهم) زيادة بيان و﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ و﴿أَنزَلۡنَا﴾ و﴿يَظۡلِمُونَ﴾ و﴿يَفۡسُقُونَ﴾ من وادٍ واحد.

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾ واسأل اليهود ﴿عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ (أيلة) أو مدين (وهذا السؤال للتقريع)

قوله: (تُغفَر لكم) بالتأنيث مَبْنيًا للمفعول (مدني) أي نافع المدنيّ، وكذا أبو جعفر المدنيّ، وليس من السبعة. (وشاميّ) أي ابن عامر الشامي، وكذا يعقوب البصري. والباقون بالنون مبنيًا للفاعل («خطيئاتكم») بجمع السلامة ورفع التاء على النيابة عن الفاعل، (مدني) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وكذا يعقوب البصري («خطاياكم») على وزن عطاياكم بجمع التكسير مفعولًا لتغفر (أبو عمرو) البصري («خطيئتكم») بالإفراد ورفع التاء (شاميّ) أي ابن عامر الشاميّ. والباقون بجمع السلامة وكسر التاء نصبًا على المفعوليّة. **قوله:** (زيادة منهم) أي لفظ منهم.

قوله: (أيلة) ـ بفتح الهمزة وسكون الياء ـ قرية بين مِدْين والطور، وفي بعض النسخ: إيْلِياء ـ هي بالمدّ والتخفيف ـ اسم مَدِينَةِ بيت المقدس، وقد تشدد الياء الثانية وتقصر الكلمة. في فتح القدير: واختلف أهل التفسير في هذه القرية، أيّ قرية هي؟ فقيل: أيلة، وقيل: طَبَرِيّة، وقيل: مِدْين، وقيل: إيلياء، وقيل: قرية من قرى ساحل الشام.اهـ. **قوله:** (وهذا السؤال للتقريع) والتوبيخ، أي ليس المقصود

بقديم كفرهم ﴿ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة منه ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ إذ يتجاورون حد الله فيه وهو اصطيادهم في يوم السبت وقد نهوا عنه ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ في محل الجرّ بدل من ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ والمراد بالقرية أهلها كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت وهو من بدل الاشتمال ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ منصوب بـ ﴿يَعْدُونَ﴾ أو بدل بعد بدل ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ جمع حوت أبدلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ ظاهرة على وجه الماء جمع شارع حال من الحيتان، والسبت مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد، والمعنى إذ يعدون في تعظيم اليوم وكذا قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه يوم تعظيمهم أمر السبت ويدلّ عليه ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ و﴿يَوْمَ﴾ ظرف ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بفسقهم.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ معطوف على ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ وحكمه كحكمه في الإعراب ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ جماعة من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعدما ركبوا (الصعب) والذلول في موعظتهم لآخرين (لا يقلعون) عن وعظهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وإنما قالوا ذلك لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ـ معذرةً ـ (أي موعظتنا إبلاء عذر إلى الله) لئلّا ننسب في

من السؤال استعلام ما لم يعلمه السائل؛ لأنه عليه الصّلاة والسّلام قد عَلِم هذه القصة من قِبَل الله تعالى بالوحي، بل المقصود بهذا السؤال تقريع اليهود على إقدامهم على الكفر والمعاصي قديمًا، وأن إصرارهم على الكفر بمحمّد ﷺ وإنكار نبوّته ومُعجزاته ليس شيء قد حدث منهم في زمانه، بل إصرارهم على الكفر كان حاصلًا لأسلافهم في قديم الزّمان.

قوله: (الصَّعْب) خلاف السَّهْل نقيض الذلول. اهـ لسان العرب. **قوله:** (لا يقلعون) الإقلاع عن الأمر الكفّ عنه، يقال: أقلع عمّا كان عليه وأقلعت عنه الحمّى. اهـ مختار الصّحاح. **قوله:** (أي موعظتنا إبلاء عذر إلى الله) أبليت فلانًا

النهي عن المنكر إلى (**التفريط** ﴿مَعۡذِرَةً﴾ **حفص**) على أنه مفعول له أي وعظناهم للمعذرة ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ ولطمعنا في أن يتقوا.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾

﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ أي أهل القرية (**لما تركوا**) ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ من العذاب الشديد ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الراكبين للمنكر والذين قالوا لم تعظون من الناجين، فعن (**الحسن**): نجت فرقتان وهلكت فرقة وهم الذين أخذوا الحيتان ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ شديد. يقال: بؤس يبؤس بأسًا إذا اشتدّ فهو بئيس. («**بئس**»: **شامي** «**بيس**» **مدني** «**بيئس**» **على وزن فيعل**: **أبو بكر غير حماد**) ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾.

عذرًا، أي بيّنت فيما بيني وبينه بما لا لَوْم عليّ بعد. اهـ محشي رحمه الله. **قوله**: (**التفريط**) أي التقصير. **قوله**: (﴿مَعۡذِرَةً﴾) بالنصب (**حفص**) عن عاصم. والباقون بالرفع خبر مبتدأ محذوف، أي موعظتنا، أو هذه معذرَة.

قوله: (**لما تركوا**)... الخ. يعني قوله تعالى: ﴿نَسُواْ﴾ [الأعراف: الآية ٥١] استعارة تبعيّة شبّه تركهم عمدًا لما وُعِظُوا به بترك مَنْ تركه سهوًا ونسيانًا، فأطلق عليه اسم النّسيان استعارة تصريحيّة، فاشتقّ منه نسوا وصير إلى المجاز لتعذّر الحمل على الحقيقة. **قوله**: (**الحسن**) البصري التابعي رضي الله تعالى عنه. **قوله**: («**بئس**») بكسر الباء وهمزة ساكنة بعدها على أنه صفة على وزن فَعِل أصله بَئِس - بفتح الباء وكسر الهمزة - فخفّف، كما في كبد وكتف، بأن قيل: كِبْد وكِتْف. (**شاميّ**) أي ابن عامر الشامي («**بيس**») بكسر الباء الموحدة وياء ساكنة بعدها من غير همز مثل عيس على قلب الهمزة ياء، أو على أنه فعل الذمّ نُقِل إلى الاسميّة فوُصِف به. (**مدني**) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدنيّ، وليس من السبعة. («**بيئس**») بياء مفتوحة ثم ياء ساكنة ثمّ همزة مفتوحة (**على وزن**) ضَيْغم صفة على وزن (**فيعل، أبو بكر**) شعبة بن عياش عن عاصم (**غير حماد**) بن زياد، فإنه رُوِي عنه بفتح الباء وكسر الهمزة وياء ساكنة على وزن رئيس وصف على فعيل كشديد للمبالغة، وبه قرأ الباقون.

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي جعلناهم قردة (أذلاء) مبعدين. وقيل: فلما عتوا تكرير لقوله ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ والعذاب البئيس: هو المسخ. قيل: صار الشبان قردة والشيوخ خنازير وكانوا يعرفون أقاربهم ويبكون ولا يتكلمون، والجمهور على أنها ماتت بعد ثلاث. وقيل: بقيت وتناسلت.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أعلم (**وأُجري مجرى فعل القسم**)، ولذا أُجيب بما يُجاب به القسم وهو قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي كتب على نفسه ليسلطن على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ﴾ من يوليهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۗ﴾ فكانوا يؤدّون الجزية إلى (**المجوس**) إلى أن بعث محمد ﷺ فضربها عليهم فلا تزال مضروبة عليهم (**إلى آخر الدهر**) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِۖ﴾ للكفار ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمؤمنين.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًاۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفرّقناهم فيها فلا تخلو بلد عن فرقة ﴿(أُمَمًاۖ) مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة أو الذين وراء الصين ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ

قوله: (أذلاء) جمع ذليل.

قوله: (**وأُجري مجرى فعل القسم**) من حيث دلالته على تأكيد الخبر المؤذن به. **قوله:** (المجوس) جِيْل معروف. **قوله:** (**إلى آخر الدّهر**) هذا لا ينافيه نزول عيسى على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام ورفع الجزية؛ لأنه مِنْ أشراط الساعة المُلحقة بأُمور الآخرة.

قوله: (﴿أُمَمًاۖ﴾) مفعول ثانٍ أن جعل قطع بمعنى صيّر، أو حال إن بقي على أصل معناه، ومنهم الصالحون صفة لأُممًا أو بدل منه، فيكون مفعولًا ثانيًا، أو حالًا من مفعول قطعناهم، أي فرّقناهم حال كونهم منهم الصالحون. **قوله:**

ذَٰلِكَ﴾ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه وهم (الفسقة) ومحل ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الرفع وهو صفة لموصوف محذوف أي ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (بالنعم والنقم والخصب) والجدب ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينتهون فينيبون.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين «خلف» وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ، (والخلْف بدل السوء بخلاف الخلَف فهو الصالح) ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ووقفوا على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم ولم يعملوا بها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هو حال من الضمير في ﴿وَرِثُوا۟﴾ والعرض: المتاع (أي حطام هذا الشيء الأدنى) يريد الدنيا وما يتمتع به منها وهو من الدنو بمعنى القرب لأنه عاجل قريب، والمراد ما كانوا يأخذونه من (الرشا) في الأحكام على تحريف (الكلم) وفي قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ تخسيس وتحقير ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا، والفعل مسند إلى الأخذ أو إلى الجار والمجرور أي لنا ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الواو للحال أي يرجون المغفرة وهم مصرّون عائدون إلى مثل فعلهم غير تائبين ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (أي الميثاق المذكور في الكتاب) ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي أخذ عليهم الميثاق في كتابهم أن لا يقولوا على الله إلا الصدق، وهو عطف بيان لـ ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ وقرءوا ما في الكتاب وهو عطف على ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾ لأنه تقرير فكأنه قيل: أخذ عليهم

(الفَسَقة) جمع فاسق، **قوله:** (بالنِّعم والنِّقم) لأنهما مما يُختبر بهما. **قوله:** (الخصب) ـ بالكسر ـ ضدّ الجَدْب، أي القَحْط.

قوله: (والخلْف) بسكون اللام (بدل السوء بخلاف الخلَف) بفتح اللام (فهو الصالح). **قوله:** (أي حطام هذا الشيء الأدنى) الحطام ـ بالضم ـ المتكسّر من اليبس، والمراد حقارته. **قوله:** (الرّشا) بضمّ الراء وكسرها جمع رشوة. **قوله:** (الكلم) جمع كلمة. **قوله:** (أي الميثاق المذكور في الكتاب) إشارة إلى أن الإضافة

ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الرشا والمحارم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ـ أفلا يعقلون ـ أنه كذلك (وبالتاء: مدني وحفص).

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ (بِٱلْكِتَٰبِ)﴾ «يمْسكون» أبو بكر) والإمساك والتمسيك والتمسك الاعتصام والتعلّق بشيء ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خصّ الصلاة مع أن التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة لأنها (عماد الدين) و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ والخبر ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ (أي إنا لا نضيع أجرهم). وجاز أن يكون مجرورًا عطفًا على ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ و﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ اعتراض.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ واذكروا إذا قلعناه ورفعناه كقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: الآية ٦٣] ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ هي كل ما أظلّك من

على معنى في. **قوله:** (وبالتاء) أي بتاء الخطاب (مدني) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، (وحفص) عن عاصم، وكذا ابن عامر الشاميّ وسهل ويعقوب، وليسا من السبعة. والباقون بياء الغيبة.

قوله: («يمْسكون») بسكون الميم وتخفيف السين من أمسك، وهو متعدٍّ، فالمفعول محذوف، أي دينهم أو أعمالهم (﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾) والباء للحال، أو الآلة (أبو بكر) عن عاصم. والباقون بالفتح والتشديد من مسك بمعنى تمسّك، فالباء للآلة، كهي في تمسّكت بالحبل. **قوله:** (عماد الدين) في لسان العرب: العِماد والعَمود الخشبة التي تُقيم عليها البيت.اهـ. وأيضًا فيه: العماد: ما أُقيم به.اهـ. **قوله:** (أي إنا لا نضيع أجرهم) يعني أن الخبر الجملة لا بدّ فيها من رابط يربطها بالمبتدأ، وذلك الرابط الاسم الظاهر الموضوع موضع الضمير، فإنّ مقتضى الظاهر أن يقال: إنّا لا نضيّع أجرهم، إلّا أنه وضع المصلحين موضع الضمير تنبيهًا على أنه تعالى لا يضيّع أجرهم لأجل إصلاحهم.

(سقيفة) أو سحاب ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ وعلموا أنه (**ساقط عليهم**)، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخًا في فرسخ. وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم. فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل منهم ساجدًا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل (**فرقًا**) من سقوطه، فلذلك لا ترى يهوديًا يسجد على حاجبه الأيسر ويقولون هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة، وقلنا لهم ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٖ﴾ وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي ولا تنسوه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي واذكر إذ أخذ ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ بدل من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ والتقدير: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم إخراجهم من أصلاب آبائهم ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ (**هذا من باب التمثيل**)، ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلّة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم التي ركبها فيها وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ مفعول له أي فعلنا ذلك من نصب الأدلّة الشاهدة على صحتها العقول، كراهة أن يقولوا ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لم ننبّه عليه.

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ﴾ أو كراهة أن يقولوا ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ فاقتدينا بهم لأن نصب الأدلّة على التوحيد وما نبّهوا عليه قائم معهم فلا

قوله: (**سقيفة**) في المصباح: السقيفة الصفة، وكل ما سُقف في جناح وغيره. اهـ. **قوله:** (**ساقط عليهم**) إشارة إلى أن الباء بمعنى على كما في إن تأمنه بقنطار، وهو أحد معانيها. **قوله:** (**فرقًا**) أي خوفًا.

قوله: (**هذا من باب التمثيل**) ومعنى التمثيل تشبيه الحال بالحال.

عذر لهم في الإعراض عنه والاقتداء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي كانوا السبب في شركنا **(لتأسيسهم)** الشرك وتركه سنة لنا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ لهم (﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ **عن شركهم نفصلها**). إلى هذا ذهب المحققون من أهل التفسير، منهم **(الشيخ أبو منصور والزجاج والزمخشري)**، وذهب جمهور المفسرين إلى أن الله

قوله: (لتأسيسهم) في المصباح: أسّسته تأسيسًا جعلت له أساسًا. اهـ. وأيضًا فيه: أُسّ الحائط ـ بالضمّ ـ أصله وجمعه آساس، مثل قفل وأقفال، وربما قيل: أساس مثل عُسّ وعِساس، والأساس مثله، وجمعه أُسُس، مثل عَناق وعُنق. اهـ.

قوله: (﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن شركهم نفصلها) عبارة تفسير الكشاف: (﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾) وإرادة إن رجعوا عن شركهم نفصّلها. اهـ.

قوله: (الشيخ أبو منصور) محمد بن محمد بن محمود الماتريديّ رحمه الله.

قوله: (والزجّاج) هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد النَّحوي.

قوله: (والزمخشري) هو محمود بن عمر، أبو القاسم جار الله الزمخشري نسبةً إلى زمخشر، قرية من قرى خُوارزم، كان إمام عصره بلا مدافع، نحويًا ذكيًا، فقيهًا مناظرًا بياتيًا متكلّمًا مناظرًا أديبًا شاعرًا مفسّرًا من أكابر الحنفيّة، حنفي المذهب، معتزليّ المعتقد، له في العلوم آثار ما ليست لغيره من أهل العصر، ومِنْ تصانيفه: الكشاف في التفسير، والفائق في اللغة في تفسير الحديث، وأساس البلاغة في اللغة، وربيع الأبرار، ومتشابه أسامي الرواة، والنصائح الكبار، والنصائح الصغار، والرائض في علم الفرائض، والمفصّل في النَّحو، والأُنموذج، والمفرد، وشرح أبيات سيبويه، وشقائق النعمان وغير ذلك. وُلِد سنة (٤٦٧) سبع وستين وأربعمائة، ومات سنة (٥٣٨) ثمان وثلاثين وخمسمائة. ذكر السمعاني أن زمخشر ـ بفتح الزاي وسكون الخاء بينهما ميم مفتوحة وبعد الخاء شين معجمة ـ قرية كبيرة من قرى خُوارزم، مثل بليدة، وقال: المشهور منها محمود بن عمر بن محمد بن عمر، أبو القاسم، كان يُضرَب به المثل في الأدب والنَّحو، بقية

تعالى أخرج ذريّة آدم من ظهر آدم (مثل الذر) وأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجابوه بـ ﴿بَلَىٰ﴾. قالوا: وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أخرج الله من ظهر آدم ذريته وأراه إياهم كهيئة الذر وأعطاهم العقل وقال: هؤلاء ولدك آخذ عليهم الميثاق أن يعبدوني. قيل: كان ذلك قبل دخول الجنة بين مكة والطائف. وقيل: بعد النزول من الجنة. وقيل: في

الأفاضل الكبار وصنّف التصانيف في التفسير والأحاديث واللغة وظهر له جماعة أصحاب، وكانت ولادته بزمخشر في رجب سنة ٤٦٧، وتوفي بجرجانية خوارزم ليلة عرفة سنة ٥٣٨، انتهى. وفي بُغْية الوعاة: كان كثير الفضل، غاية في الذكاء وجودة القريحة، مُتْقِنًا في كل علم، معتزليًا قويًّا في مذهبه، مُجاهِرًا به، حنفيًا، وَرَدَ بغداد غير مرّة وأخذ الأدب عن أبي الحسن عليّ بن المظفّر النيسابوريّ وأبي نعيم الأصبهاني، وجاور بمكّة وتلقّب بجار الله وفخر خوارزم أيضًا، وأصابه خراج في رجله فقطعها، وصَنَع عوضَها رجلًا من خشب، وكان إذا مشى ألقى عليها ثيابه الطوال، فيظنّ أنه أعرج، انتهى. وفي مرآة الجنان في حوادث سنة ٥٣٨: فيها توفي العلّامة اللغويّ النحويّ المفسّر المعتزليّ أبو القاسم محمود الزمخشري، كان مُتْقنًا في التفسير والحديث والنَّحو واللغة والبيان، إمام عصره في فنونه، وله التصانيف الكبيرة البديعة الممدوحة، عدّ بعضهم منها ثلاثين، انتهى. وذكر العلّامة السيوطي في البغية، من تصانيفه: المُسْتَقْصَى في الأمثال، وأطواق الذهب، وشرح مشكلات المفصل، والكلم النوابغ، والقسطاس في العروض، والأحاجي النَّحويّة وغير ذلك مما مرّ. وذكر العلّامة القاري رحمه الله منها: المنهاج في الأُصول، والرسالة الناصحيّة، ومقدّمة الأدب، ورؤوس المسائل في الفقه، وصميم العربية، وديوان التمثيل، والأمالي، ومعجم الحدود والمياه والأماكن والجبال، وضالّة الناشد، وقال: هو حنفي الفروع معتزلي الأُصول له دسائس خُفِيَت على أكثر الناس، فلهذا حرّم بعض فقهائنا مطالعة تفسيره لِمَا فيه من سوء تعبيره في تأويله وتغييره. اهـ. وأفاد العلَّامة الفهّامة الأفندي داده جونكي في حاشيته على شرح السَّعد في التصريف: قال العلّامة أكمل الدين في شرح الكشاف: أنه قد تاب من مذهب الاعتزال، وصنّف النصائح الصغار ونصائح الكبار بعد توبته من الاعتزال، انتهى.

قوله: (مثل الذرّ) أي النمل.

الجنة. (والحجة للأولين أنه قال: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ ولم يقل من ظهر آدم، ولأنا لا نتذكر ذلك فأنى يصير حجة).

قوله: (والحجَة للأولين أنه قال: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ﴾، ولم يقل من ظهر آدم؛ ولأنا لا نتذكّر ذلك، فأنى يصير حجَة) قال العلّامة التفتازاني: وما ورد في الحديث الصحيح من إخراج الذرّيَّة من ظهر آدم لا ينافي ذلك؛ لأن بني آدم من ظهر آدم، فالمخرج من ظهورهم مُخرج من ظهره. اهـ. وفي تفسير الخازن: **فإن قلت**: إذا كان المختار في تفسير هذه الآية هو مذهب جمهور المفسّرين من السلف في ذلك، وأنّ الله أخرج الذُّرّيّة من ظهر آدم لأخذ الميثاق عليهم، كما ورد في الحديث أيضًا، فكيف يُحمل تفسير ألفاظ هذه الآية على هذا القول؟

قلت: قد صحّ الحديث بأنّ الله مسح ظهر آدم فأخرج ذرّيته وأخذ عليهم الميثاق، ولا مُنافاة بين الآية والحديث، كما تقدم في تفسير ألفاظ الآية من أن الله أخرج ذُرِّيّة آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض، كما في الخارج، وكلّهم بأجمعهم من ظهر آدم الذي هو أصلهم، فبهذا الطريق أمكن الجمع بين الآية والحديث؛ إذ ليس في معنى ألفاظ الآية ما يدلّ على بطلان ذلك ونفيه، وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته، فوجب المصير إليه والأخذ به جمعًا بين الآية والحديث. وحَكى الواحديّ عن صاحب النّظم أنّه قال: ليس بين قوله عليه الصّلاة والسّلام أنّ الله مسح ظهر آدم، فأخرج منه ذرّيته، وبين الآية اختلاف بحمد الله؛ لأنه تعالىٰ إذا أخرجهم من ظهر آدم فقد أخرجهم من ظهور ذرّيته، لأن ذرّية آدم ذرّيّة كذرّية بعضهم من بعض، قال: وتحصل الفائدة بهذا الفصل بأنه تعالى ثبت الحجّة على كل منفوس ممن بلغ ومَنْ لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم، وزاد على مَنْ بلغ منهم الحجّة بالآيات والدّلائل التي نصبها بالرسل المنفذة إليهم مبشّرين ومنذرين وبالمواعظ، وقال غيره: فائدة أخذ الميثاق عليهم في القدم أنّ مَنْ مات منهم صغيرًا أُدخل الجنّة بإقراره بالميثاق الأوّل، وهذا على قول مَنْ يقول: إنّ أطفال المشركين يدخلون الجنّة إذا ماتوا صغارًا، فأمّا مَنْ لا يحكم لهم بالجنّة، فإنه يقول: مَنْ كان مِنْ أهل الشقاوة مِنَ الذُّرِّيّة السوداء، وإنما أقرّوا بالمعرفة كرهًا، فلم يُغْنِ عنهم ذلك شيئًا، ومَنْ بلغ وعَقِل لم يُغْنِ عنه إقراره بالميثاق الأوّل شيئًا حتى يؤمن ويصدّق عند بلوغه وعقله بأنّ الله ربّه وخالقه،

....

ويصدّق رُسُله فيما جاؤوا به من عنده، وإنما فعل ذلك لئلّا يقول الكفّار: إنّا كنّا عن هذا الميثاق أو الإيمان بأن الله ربّنا غافلين، أو لئلّا يقول أخلافهم: إنما أشرك آباؤنا ونحن نسير على آثارهم، ظنًّا منهم أنّ الحق ما كانوا عليه.

فإن قلت: إنّ ذلك الميثاق لا يذكره أحد اليوم، فكيف يكون حجّة عليهم اليوم؟ أو فكيف يذكرونه يوم القيامة حتى يحتجّ عليهم به؟

قلت: لما أخرج الذرّيّة من صلب آدم ركّب فيهم العقول وأخذ عليهم الميثاق، فلما أُعيدوا إلى صلب آدم بَطُل ما ركّب فيهم، فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق، لاقتضاء الحكمة الإلـهيّة نسيانهم له، ثم ابتدأهم بالخطاب على ألسنة الرُّسل عليهم الصّلاة والسّلام وأصحاب الشرائع، فقام ذلك مقام الذِّكر؛ إذ الدار دار تكليف وامتحان، ولو لم ينسوه لانْتَفَت المِحْنة والابتلاء والتكليف، فقامت الحجّة عليهم لإمدادهم بالرُّسل وإعلامهم بجريان أخذ الميثاق عليهم، وبذلك قامت الحجّة عليهم أيضًا يوم القيامة لإخبار الرسل إيّاهم بذلك الميثاق في الدنيا، فمن أنكره كان مُعانِدًا ناقضًا للعهد، ولزمتهم الحجّة ولم تسقط الحجّة عنهم بنسيانهم، وعدم حفظهم بعدم إخبار الصادق صاحب الشّرع والمعجزات الباهرات. اهـ بحروفه.

وفي التفُسيرات الأحمدية: وقد ذكر الإمام الزّاهد هـٰهنا في تفسير الآية كلامًا طويلًا، حاصله أنه قيل: لا ميثاق وقت آدم، إنما هو الآن على المكلّفين، وقيل: إنما هو للكافر فقط، وقيل: للمسلم فقط، وقيل: لهما، ولكن المسلم أجاب طَوْعًا والكافر كُرْهًا، والكلّ غلط، والصحيح أنه أخذ الميثاق من الكلّ، وأجاب الكلّ بطوع واختيار واستنطقهم وجعلهم سامعين عاقلين، وليس ذلك بعجب؛ فصدَّقوا بقلوبهم وأقرّوا بلسانهم، وأشهد عليهم السمٰوات السبع والأرضين السبع والملائكة، وأشهد عليهم آدم، فهو حقّ غايته أنه لم يذكره أحد من المؤمنين والكافرين، ولا يضرّ ذلك؛ لأن الدنيا دار تعب ومِحْنة، ولو كانوا ذاكرين لذلك العهد لارتفع الابتلاء؛ ولأن الله لم يكتفِ بذلك العهد، بل جدَّده في كل عصر على ألْسِنة الرُّسل، فمَنْ قَبِله نفعه العهد الأوّل، ومَنْ لا فلا؛ والدليل على إقرارهم

(«ذرياتهم» مدني وبصري وشامي «أن يقولوا» «أو يقولوا»: أبو عمرو).

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ على اليهود ﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ هو عالم من علماء بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، وعلى تصديقهم قوله تعالى: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، والدليل على تعميم الميثاق قوله تعالى: ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [آل عِمران: الآية ١٠٦]، فإنه يدلّ على أن الكفار كلّهم آمنوا يوم الميثاق، وكفروا بعد، وإلّا لكان مختصًا بالمرتدّين، وإنما لم يبقوا على الإيمان في الدار الدنيا، وإن أقرُّوا قبله لأنّ الخلق في الدنيا إنما هو على موافقة علمه الأزليّ، فأحدث كما علم، وإنما جاز استرقاق أطفال الكَفَرة ونحوه، وإن لم يوجد منهم الكفر؛ لأنّ ذلك بحكم الله يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد. وأما أحكامهم في الآخرة، فتوقف فيه الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه واختلف فيه غيره، وإنما يحلّ أخذ الجزية من الكفار ومناكحة أهل الكتاب؛ لأن عدمه موقوف على الإيمان الابتدائي، ولم يوجد منهم، هذا حاصل ما فيه. وقد ذكر الإمام فخر الإسلام البزدوي وغيره في بحث الأهليّة: أنّ الآدمي يُولد وله ذمّة صالحة للوجوب بناءً على عهد الميثاق، ولكنه لمّا لم يصلح للأداء قبل البلوغ لم يجب عليه؛ لأن المقصود من الوجوب الأداء، وهذا أهليّة وجوب، ثم بعدها أهليّة أداء، وهي نوعان: كاملة وقاصرة، وهكذا سرد الكلام إلى آخره، وفيه تفصيل لا يليق بهذا المختصر، والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ.

قوله: («ذرياتهم») بإثبات الألف بعد الياء التحتية مع كسر التاء على الجمع، **(مدني)** أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. **(وبصري)** أي أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب البصري، وليس من السبعة. **(وشاميّ)** أي ابن عامر الشامي. والباقون بحذف الألف ونصب التاء الفوقيّة على الإفراد. **قوله:** («أن يقولوا») يوم **(أو يقولوا)** إنما بياء الغيب فيهما **(أبو عمرو)**، والباقون بتاء الخطاب فيهما.

وقيل: هو (بلعم) بن باعوراء أُوتي علم بعض كتب الله ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ فخرج من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينًا له ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فصار من الضالين الكافرين. رُوِيَ أن قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى ومَن معه فأبى فلم يزالوا به حتى فعل وكان عنده اسم الله الأعظم.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿بِهَا﴾ بتلك الآيات ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا ورغب فيها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في إيثار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ أي تزجره وتطرده ﴿يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ غير مطرود (﴿يَلْهَث﴾) والمعنى فصفته التي هي مثل في الخسّة و(الضعة) كصفة الكلب في أخسّ أحواله وأذلّها وهي حال دوام اللهث به، سواء حمل عليه أي شدّ عليه و(هيج) فطرد، أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه، وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا حرّك، أما الكلب فيلهث في الحالين فكان مقتضى الكلام أن يُقال: ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته، فوضع هذا التمثيل موضع فحططناه أبلغ حط. ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلًا دائم الذلّة لاهثًا في الحالين. وقيل: لما دعا بلعم على موسى خرج لسانه فوقع على صدره وجعل

قوله: (بلعم) بفتح الموحدة بزنة أرقم، ابن باعورا ـ بالموحدة والألف المقصورة في آخره ـ. اهـ كمالين.

قوله: (﴿يَلْهَث﴾) يدلع[1] لسانه، أي يُخرجه. **قوله:** (الضعة) بفتح الضاد وكسرها. في المصباح: وضع في حسبه بالبناء للمفعول، فهو وضيع، أي ساقط لا قدر له، والاسم الضِّعَة بفتح الضاد وكسرها. **قوله:** (هيج) في المصباح: هاجَ

---

(١) في القاموس: دلع لسانه كمَنَع، أخرجه كأدلعه. ١٢ منه عمّ فيضهم.

يلهث كما يلهث الكلب. وقيل: معناه هو ضالّ وعظ أو ترك. وعن (عطاء): مَن علم ولم يعمل فهو كالكلب (ينبح) إن طرد أو ترك ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ من اليهود بعد أن قرؤوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة وذكر القرآن المعجز وما فيه وبشروا الناس باقتراب مبعثه ﴿فَٱقْصُصِ (ٱلْقَصَصَ)﴾ أي قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو سيرته.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِيۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي مثل القوم فحذف المضاف، وفاعل ﴿سَآءَ﴾ مضمر أي ساء المثل مثلًا. وانتصاب ﴿مَثَلًا﴾ على التمييز ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبُواْ﴾ فيدخل في حيّز الصلة أي الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم، أو منقطع عن الصلة أي وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب، وتقديم المفعول به للاختصاص أي وخصّوا أنفسهم بالظلم لم يتعد إلى غيرها. ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِيۖ﴾ حمل على اللفظ ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي ومن يضلله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ حمل على المعنى، ولو كان الهدي من الله البيان كما قالت المعتزلة، لاستوى الكافر والمؤمن إذ البيان ثابت في حق الفريقين فدلّ أنه من الله تعالى التوفيق والعصمة والمعونة، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن.

الشيء هَيَجانًا وهِيَاجًا ـ بالكسر ـ ثار وهجته يتعدّى ولا يتعدّى، وهيَّجته بالتثقيل مبالغة. اهـ. **قوله:** (عطاء) بن أبي رَباح، كان من أجلّاء الفقهاء وتابعي مكّة وزُهّادها، سمع جابر بن عبد الله الأنصاريّ وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وخلقًا كثيرًا من الصحابة رضوان الله عليهم. ورَوَى عنه عمرو بن دينار والزهري وقتادة ومالك بن دينار والأعمش والأوزاعي وخلق كثير رحمهم الله، وإليه وإلى مجاهد انتهت فتوى مكّة في زمانهما. توفي سنة خمس عشرة ومائة رضي الله تعالى عنه. **قوله:** (ينبح) في مختار الصحاح: نبح الكلب من باب ضرب وقطع نبيحًا أيضًا ونُباحًا ـ بضم النون وكسرها ـ وربما قالوا: نبح الطَّير. اهـ. **قوله:** (﴿ٱلْقَصَصَ﴾) مصدر بمعنى اسم المفعول.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ هم الكفار من الفريقين المعرضون عن تدبّر آيات الله، والله تعالى علم منهم اختيار الكفر فشاء منهم الكفر وخلق فيهم ذلك وجعل مصيرهم جهنم لذلك. ولا تنافي بين هذا وبين قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] لأنه إنما خلق منهم للعبادة من علم أنه يعبده، وأما مَن علم أنه يكفر به فإنما خلقه لما علم أنه يكون منه. فالحاصل أن مَن علم منه في الأزل أنه يكون منه العبادة خلقه للعبادة، ومَن علم منه أن يكون منه الكفر خلقه لذلك، وكم من عام يراد به الخصوص! وقول المعتزلة بأن هذه لام العاقبة أي لما كان عاقبتهم جهنم جعل كأنهم خلقوا لها فرارًا عن إرادة المعاصي عدول عن الظاهر ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحق ولا يتفكرون فيه ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الرشد ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الوعظ ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم الفقه، والنظر: الاعتبار والاستماع للتفكر ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام لأنهم كابروا العقول وعاندوا الرسول وارتكبوا الفضول، فالأنعام تطلب منافعها و(تهرب) عن مضارها وهم لا يعلمون مضارهم حيث اختاروا النار، وكيف يستوي المكلّف المأمور والمخلي المعذور؟ فالآدمي روحاني شهواني سماوي أرضي، فإن غلب روحه هواه فاق ملائكة السمٰوات، وإن غلب هواه روحه فاقته بهائم الأرض ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ التي هي أحسن الأسماء لأنها تدلّ على معانٍ حسنة؛ فمنها ما يستحقه بحقائقه كالقديم قبل كل شيء، والباقي بعد كل شيء، والقادر على كل شيء، والعالم بكل شيء، والواحد الذي ليس كمثله شيء، ومنها ما تستحسنه الأنفس لآثارها كالغفور والرحيم والشكور والحليم، ومنها ما يوجب

قوله: (تهرب) في مختار الصِّحاح: الهرَب الفرار، وقد هَرَب يَهْرُب هَرَبًا مثل طلب يَطْلُب طَلَبًا. اهـ.

التخلّق به كالفضل والعفو، ومنها ما يوجب مراقبة الأحوال كالسميع والبصير والمقتدر، ومنها ما يوجب الإجلال كالعظيم والجبار والمتكبر ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فسمّوه بتلك الأسماء ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ (واتركوا تسمية الذين) يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه نحو أن يقولون: يا سخي يا رفيق، لأنه لم يسم نفسه بذلك. ومن الإلحاد تسميته بالجسم والجوهر والعقل والعلّة («يلحدون») حمزة لحد وألحد مال ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ للجنة لأنه في مقابلة ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ في أحكامهم. قيل: هم العلماء (والدعاة) إلى الدين، وفيه دلالة على أن إجماع كل عصر حجة ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ (سنستدنيهم) قليلًا قليلًا إلى ما يهلكهم ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يراد بهم وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع (انهماكهم) في الغي، فكلما جدّد الله عليهم نعمة ازدادوا (بطرًا) وجددوا معصية فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانّين أن ترادف النعم (أثرة) من الله تعالى وتقريب وإنما هو (خذلان) منه وتبعيد، وهو استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ عطف على ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ وهو غير داخل في حكم السين أي أمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أخذي شديد.

قوله: (واتركوا تسمية الذين) إشارة إلى أنّ فيه مضافًا مقدّرًا، وهو تسمية بقرينة المقام. **قوله:** («يلحدون») بفتح الياء من لَحَدَ ثلاثيًا حمزة، والباقون بضمّ الياء وكسر الحاء من ألحد.

قوله: (والدّعاة) جمع الدَّاعي. **قوله:** (سنستدنيهم) الاستدناء استفعال من الدنوّ، وهو القُرب، أي سنقرّبهم. **قوله:** (انهماكهم) في المصباح: انهمك في الأمر انهماكًا جدَّ فيه ولجّ فهو منهمك. اهـ. **قوله:** (بطرًا) أي فخرًا وتكبّرًا. **قوله:** (أثرة) في القاموس: الأُثْرَة ـ بالضم ـ المَكْرُمة المتواترة. اهـ. **قوله:** (خذلان) في مختار الصِّحاح: خَذَله يخذُله ـ بالضمّ ـ خِذْلانًا ـ بكسر الخاء ـ ترك عَوْنه ونصرته.

سمّاه كيدًا لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان.
ولما نسبوا النبيّ ﷺ إلى الجنون نزل:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد عليه السلام و«ما» نافية بعد وقف أي أو لم يتفكروا في قولهم، ثم نفى عنه الجنون بقوله ما بصاحبهم ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ منذر من الله (موضح إنذاره) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾ نظر استدلال ﴿فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملكوت الملك العظيم ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ «أن» مخففة من الثقيلة وأصله «وأنه عسى»، والضمير ضمير الشأن وهو في موضع الجرّ بالعطف على ﴿مَلَكُوتِ﴾، والمعنى أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى ﴿أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ ولعلهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل مفاجأة الأجل وحلول العقاب ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو متعلق بـ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن قبل الفوت؟ وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق؟ وبأي حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا؟

[redacted]

لا يهده أحد ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ والرفع على الاستئناف أي وهو يذرهم. **الباقون: بالنون)** ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون. ولما سألت اليهود أو قريش عن الساعة متى تكون نزل.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ وهي من الأسماء الغالبة **(كالنجم للثريا)**. وسُميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة **(أو لسرعة حسابها، أو لأنها عند الله على طولها)** كساعة من الساعات عند الخلق ﴿أَيَّانَ﴾ متى واشتقاقه، من «أي» **(فعلان منه)** لأن معناه أي وقت ﴿مُرْسَاهَا﴾ إرساؤها **(مصدر)** مثل المدخل بمعنى الإدخال، أو وقت إرسائها أي إثباتها، والمعنى متى يرسيها الله ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي علم وقت إرسائها عنده قد **(استأثر)** به لم يخبر به أحدًا من ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت لذلك ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ **(لا يظهر أمرها)** ولا يكشف خفاء علمها إلا

لا يهده أحد، ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ **والرفع)** أي رفع الراء **(على الاستئناف وهو يذرهم)** أبو عمرو وعاصم ويعقوب. **(الباقون)** أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة، وابن كثير المكّي وابن عامر الشاميّ **(بالنون)** ورفع الراء على الاستئناف.

قوله: (كالنَّجم للثريَا) في المصباح: إذا أطلقت العرب النَّجم أرادوا الثريّا، وهو علم عليها بالألف واللام. اهـ. **قوله: (أو لسرعة حسابها)**، فأُطلقت على ذلك اليوم بهذا الاعتبار. **قوله: (أو لأنها عند الله على طولها)**... الخ. أي سُمِّيت بذلك لذلك، وفرّق بين الوجوه بأن مبنى الأوّل أنها اسم لزمان قيام الناس، لا للزمان المديد، ومبنى غيره على أنها اسم لزمان ممتدّ. اهـ شهاب. **قوله: (فعلان منه)** زيدت الألف والنون على أي فصار أيان. **قوله: (مصدر)** ميميّ. **قوله: (استأثر)** أي انفرد. **قوله: (لا يظهر أمرها)** إشارة إلى أن التَّجلية إظهار الشيء، والتجلّي ظهوره، وقدّر المضاف في قوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٧] لأنه

هو وحده ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كل مَن أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة، ويتمنى أن يتجلّى له علمها وشقّ عليه خفاؤها، وثقل عليه أو ثقلت فيها لأن أهلها يخافون شدائدها وأهوالها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (فُجاءة) على غفلة منكم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ (كأنك عالم بها) وحقيقته كأنك بليغ في السؤال عنها، لأن مَن بالغ في المسألة عن الشيء و(التنقير) عنه استحكم علمه فيه. وأصل هذا التركيب المبالغة، ومنه (إحفاء الشارب)، أو ﴿عَنْهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي يسألونك عنها كأنك حفي أي عالم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وكرر ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ و﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ للتأكيد ولزيادة ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة، منهم (محمد بن الحسن) رحمه الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه المختص بالعلم بها.

تعالى قد كشف وأظهر نفس قيام الساعة بدلائل قطعيّة ونصوص متعاضدة، وليس المنفي إلا إظهار أمرها في حقّ وقتها وتعيينه، والمعنى لا يعلم الوقت الذي فيه يحصل قيام الساعة إلّا الله سبحانه وتعالى. **قوله:** (فُجاءة) بالضم والمدّ، وفي لغة: وزان تمرة. اهـ مصباح.

قوله: (كأنك عالمٌ بها)... الخ. لما ورد أن يقال: لو كان الحفي بمعنى العالم، لوجب أن يُعدّى بالياء، فكيف قيل: حفي عنها؟ أجاب عنه: بأنّ الحفاوة لمّا كان أصل معناه الاستقصاء في السؤال كان معنى السؤال ملحوظًا في معناها الكنائي فعدّى تعديته، وقيل: إنما يرد الإشكال على تقدير أن تكون عنها متعلّقة بقوله: حفي، وليس كذلك، بل هي متعلّقة بيسألونك. وقوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٧] معترض بينهما وصلة حفي محذوفة، وتقدير الكلام: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بها. اهـ شيخ زاده رحمه الله. **قوله:** (التنقير) أي البحث. **قوله:** (إحفاء الشارب) في المصباح: أحفى الرجل شاربه بالغ في قصّه، وأحفاه في المسألة بمعنى ألحّ وألْحَفَ. اهـ. وأيضًا فيه: الشارب الشعر الذي يسيل على الفمّ. اهـ.

قوله: (محمد بن الحسن) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، صاحب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنهما، مات بالريّ سنة تسع وثمانين ومائة، وهو ابن ثمانٍ وخمسين سنة.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ هو إظهار للعبودية وبراءة عما يختصّ بالربوبية من علم الغيب أي أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي **(اجتلاب)** نفع ولا دفع ضرر كالمماليك إلا ما شاء مالكي من النفع لي والدفع عني ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أي لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسّني شيء منها، ولم أكن غالبًا مرة ومغلوبًا أخرى في الحروب. وقيل: الغيب الأجل، والخير العمل، والسوء **(الوجل)**. وقيل: لاستكثرت لاعتددت من **(الخصب)** للجدب. والسوء الفقر وقد ردّ. ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ إن أنا إلا عبد أرسلت نذيرًا وبشيرًا، وما من شأني أن أعلم الغيب. واللام في ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يتعلّق بالنذير والبشير لأن النذارة والبشارة إنما ينفعان فيهم، أو بالبشير وحده والمتعلّق بالنذير محذوف أي إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هي نفس آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ حواء خلقها من جسد آدم **(من ضلع من أضلاعه)** ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ ليطمئن ويميل لأن الجنس إلى الجنس أميل خصوصًا إذا كان بعضًا منه، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه **(بضعة)** منه. وذكر ﴿لِيَسۡكُنَ﴾ بعدما

قوله: (اجتلاب) في القاموس: جلبه يجلبه جَلْبًا وجَلَبًا واجتلبه ساقه من موضع إلى آخر. اهـ. **قوله: (الوَجَل)** الخوف. **قوله: (الخِصْب)** ضدّ الجدب، أي القَحْط.

قوله: (من ضلع من أضلاعه) أي من عظم جنبه، أي من ضلعه الأيسر، ولذا كان كلّ إنسان ناقصًا ضلعًا من الجانب الأيسر، فجهة اليمين أضلاعها ثمانية عشر، وجهة اليسار سبعة عشر. **قوله: (بضعة)** البضعة ـ بالفتح ـ القطعة من

أنّث في قوله: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ وخلق منها زوجها ذهابًا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خفّ عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض (الحبالى) من حملهن من الكرب والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ فمضت به إلى وقت (ميلاده من غير إخداج. والإزلاق)، أو حملت حملًا خفيفًا يعني النطفة فمرّت به فقامت به وقعدت ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ (حان) وقت ثقل حملها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذي هو (الحقيق) بأن يُدعى ويلتجأ إليه فقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ لئن وهبت لنا ولدًا سويًّا قد صلح بدنه أو ولدًا ذكرًا لأن الذكورة من الصلاح ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك. والضمير في ﴿ءَاتَيْتَنَا﴾ و﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لهما ولكل مَن يتناسل من ذريتهما.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السويّ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ (أي جعل أولادهما له شركاء) على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وكذلك ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي آتى أولادهما دليله ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير، وآدم وحواء بريئان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله

اللَّحم، وعامّة ما هو مِنْ هذا القبيل بالكسر، كالكسرة والقطعة. اهـ تفتازاني رحمه الله.
قوله: (الحبالى) جمع حُبْلى. **قوله:** (ميلاده) مصدر. **قوله:** (من غير إخداج) في الصِّحاح: خدجت الناقة تخدج خِداجًا، فهي خادج، والولد خديج إذا ألْقَت ولدها قبل تَمام الأيام، وإنْ كان تامّ الخلق، وأخدجَت الناقة إذا جاءت بولدها ناقص الخلق، وإنْ كانت أيّامه تامّة، فهي مخدج، والولد مخدج. اهـ. **قوله:** (والإزلاق) في الصِّحاح: ازلقت الناقة أسقطت. اهـ. **قوله:** (حان) أي قَرُب. **قوله:** (الحقيق) أي اللّائق.

قوله: (أي جعل أولادهما له شركاء) احتراز عن نسبة إثبات الشركاء لله إلى آدم وحوّاء، وإنْ كان بمعنى تسمية ولدهم بعبد الحارث اتّباعًا لأمر إبليس المسمّى في الملائكة بالحارث، على ما نقل أحمد بن حنبل والترمذي عن سَمُرة بن جندب، أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما حملت حواء وطاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمِّيه عبد الحارث، فسمَّته فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»، فإن قيل: الإشراك فيما آتاهما الله ليس إشراكًا على الحقيقة؛ لأن

تسميتهم أولادهم بعبد العزى و(بعبد مناف وعبد الدار) وعبد شمس ونحو ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمٰن وعبد الرحيم، أو يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ وهم آل قصي أي هو الذي خلقكم من نفس واحدة (قصي)، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار. والضمير في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك. («شِركًا» مدني وأبو بكر) أي ذوي شرك وهم الشركاء.

معناه في حقّ الأولاد أيضًا تسميتهم أولادهم بعبد العزّى وعبد مَناة وعبد شمس، والأعلام لا يُقصد بها مفهوماتها الأصليّة، والحديث صريح في أنّ المراد آدم وحوّاء، وتقدير المضاف لا يُصار إليه إلّا عند الحاجة، وكلمة لما لا يستقيم على هذا التقدير؛ لأن إشراك أولادهما لم يكن حين آتاهما الله تعالى صالحًا، بل بعده بأزمنة متطاولة. قلنا: إشراكهما بالله ولو بمعنى تسمية الولد بعبد الحارث اتباعًا لأمر الشيطان مرجوح، وإنْ لم يكن محظورًا على أنهم لا يخلون الأعلام المضافة عن إيماء إلى المعاني الأصلية وملاحظة لها، وهذا القدر من الحاجة كافٍ في تقدير المضاف، والحديث من باب الآحاد، ولم يَرِد في معرض البيان، وليست كلمة لما للزمان المتضايق، بل الممتدّ، فلا يلزم أن يقع مضمون الشرط والجزاء في يوم واحد أو شهر أو سنة، بل يختلف ذلك باختلاف الأُمور. تقول: لمّا ظهر الإسلام طهرت البلاد عن دَنَس الشِّرك والإلحاد، ولمّا ركب السلطان قمع آثار الشرور والفساد، على أنّ تسمية ولد بعبد الحارث جعل شريك لا شركاء، إلّا بتأويل وعدول عن الظاهر، وكذا جعل؛ فتعالى الله عمّا يشركون غير متعلّق بهذا الإشراك، بل تخلّصًا إلى حال المشركين خلاف الظاهر. اهـ تفتازاني رحمه الله. **قوله:** (بعبد مناف) مَناف اسم صنم. **قوله:** (عبد الدار) وهي دار النّدوة المعروفة. **قوله:** (قُصي) مصغّر اسم رجل. اهـ لسان العرب. وفي القاموس: كسُمَيّ قُصَيّ بن كلاب اسمه زيدًا. اهـ. **قوله:** («شِركًا») بكسر الشين وإسكان الراء وتنوين الكاف من غير همز اسم مصدر، أي ذوي شِرْك، أي إشراك (مدنيَ) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، (وأبو بكر) شعبة بن عياش عن عاصم. والباقون بضمّ الشين وفتح الراء وبالمدّ والهمز بلا تنوين، جمع شريك.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني الأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أجريت الأصنام مجرى أُولي العلم بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة، والمعنى أيشركون مالًا يقدر على خلق شيء وهم يخلقون لأن الله خالقهم، أو الضمير في ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ للعابدين أي أيشركون ما لا يخلق شيئًا وهم مخلوقو الله فليعبدوا خالقهم، أو للعابدين والمعبودين وجمعهم كأُولي العلم تغليبًا للعابدين ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما (**يعتريها**) من الحوادث كالكسر وغيره بل (**عبدتهم**) هم الذين يدفعون عنهم.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ إلى ما هو هدى و(**رشاد**) أو إلى أن يهدوكم أي وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم وطلبتكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. لا («**يتْبَعوكم**» **نافع**) ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ عن دعائهم في أنه لا فلاح معهم ولا يجيبونكم، والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية لرؤوس الآي ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي مخلوقون مملوكون أمثالكم ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ لجلب نفع أو دفع ضرّ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فليجيبوا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنهم آلهة. ثم أبطل أن يكونوا عبادًا أمثالهم فقال:

قوله: (يعتريها) يُصيبها. **قوله:** (عبدتهم) العَبَدة جمع عابد.

قوله: (رشاد) الرَّشاد ضدّ الغيّ. **قوله:** («يتْبَعوكم») بسكون التاء وفتح الباء الموحدة (**نافع**) المدنيّ، والباقون بفتح التاء مشدّدة وكسر الموحدة، وهما لغتان؛ ولهذا جاء في قصة آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَمَن تَبِعَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٨]، وفي موضع آخر: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ﴾ [طه: الآية ١٢٣]، وقيل: تبعه بمعنى اقتفى أثره واتّبعه بالتشديد، بمعنى اقتدى به.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ مشيكم ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ يتناولون بها ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي فلم تعبدون ما هو دونكم ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعًا أنتم وشركاؤكم. (وبالياء: يعقوب وافقه أبو عمرو في الوصل) ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فإني

قوله: (وبالياء) في الحالَيْن (يعقوب) البصريّ، وليس من السبعة. (وافقه أبو عمرو) البصري، (في الوصل) لا في الوقف. عبارة تفسير النّيسابوري: ﴿كيدوني﴾ بالياء في الحالين سهل ويعقوب وابن شبنوذ عن قنبل وافق أبو عمرو ويزيد وإسمٰعيل والحلواني عن هشام في الوصل.اهـ. وفي الإتحاف: وأثبت الياء في ﴿كيدوني﴾ وصلًا أبو عمرو وهشام من طريق الداجوني وأبو جعفر، وفي الحالين قنبل من طريق ابن شنبوذ وهشام من طريق الحلواني ويعقوب.اهـ. وفي غيث النفع: ﴿ثم كيدوني﴾ قرأ البصري بإثبات الياء وصلًا لا وَقْفًا، وهشام بإثباتها في الحالَيْن. والباقون بحذفها فيهما، وإنما لم نذكر الخلاف الذي ذكره الشاطبي فيها لهشام، حيث قال:

وكيدوني في الأعراف حجّ ليحملا

بخلف وتبعه على ذلك كثير؛ لأنه يبعد أن يكون الخلاف لهشام فيها من طريقه وطريق أصله، بل لم يثبت من طرق النّشر إلّا في حالة الوقف خاصّة. قال المحقّق فيه: ورَوَى بعضهم عنه، أي عن هشام، الحذف في الحالَيْن، ولا أعلمه نصًّا من طرق كتابنا لأحد من أئمّتنا، ثم قال: وكِلَا الوجهين ـ يعني الحذف والإثبات ـ صحيحان عنه، أي عن هشام، نصًّا وأداءً حالة الوقف. وأمّا حالة الوصل، فلا آخذ بغير الإثبات من طرق كتابنا.اهـ. فإن قلت: مستنده قول صاحب التيسير فيه لما تكلم على زوائد سورة الأعراف في آخرها وفيها محذوفة: «ثم كيدون» فلا وأثبتها في الحالين هشام بخلاف عنه. قلت: هذا لا دليل فيه؛ لأن الداني كثير ما يذكر الخلاف على سبيل الحكاية، وإنْ كان هو لا يأخذ به، وليس من طرقه، وهذا منه ويدلّ على ذلك قوله في المفردات بعد أن ذكر الخلاف له،

لا أُبالي بكم وكانوا قد خوفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك. (وبالياء **يعقوب**).

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ﴾ ناصري عليكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أوحى إليّ وأعزني برسالته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ومن سنته أن ينصر الصالحين من عباده (**ولا يخذلهم**) ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ مـن دون الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ (**يشبهون الناظرين**) إليك

وبالإثبات في الوصل والوقف آخذ. وقوله في جامع البيان: وبه قرأت على الشيخين أبي الفتح وأبي الحسن من طريق الحلواني عنه، بل يدلّ عليه كلامه في التيسير، فإنه قال فيه في باب الزوائد: وأثبت ابن عامر في رواية هشام الياء في الحالَيْن، في قوله تعالى: «ثم كيدوني» في الأعراف، فجزم بالإثبات ولم يحكِ خلافه، ومن المعلوم المقرّر أنّ العلماء يعتنون بتحقيق المسائل في أبوابها أكثر من اعتنائهم بذلك إذا ذكروها استطرادًا تتميمًا للفائدة، فربّما يتساهلون اتكالًا على ما تقدّم، أو ما سيأتي لهم في الباب، فثبت من هذا أنّ الخلاف لهشام حالة الوصل عزيز، وإنما الخلاف حالة الوقف، لكن لا ينبغي أن يقرأ به من طريق القصد، وأصله: وبالإثبات في الحالين قرأت على شيخنا رحمه الله، وقال في مقصورته: كيدون حلواني، روى زيادة في حالتيه عن هشام، وقرأ. اهـ.

قوله: (**وبالياء**) في الحالين (**يعقوب**) البصري، وليس من السبعة.

قوله: (**ولا يخذلهم**) في مختار الصحاح: خذله يخذُله بالضمّ خِذْلانًا ـ بكسر الخاء ـ ترك عَوْنه ونصرته. اهـ. **قوله:** (**يشبهون الناظرين**) من باب الأفعال، أي يُشابهونهم، يعني أنّ قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٨] استعارة تبعيّة شبّه مقابلة الأصنام له عليه السلام بنظرها إليه، أي يخيّل إليك أنهم ينظرون؛ لأنّ لها أعينًا مصنوعة مركّبة بالجواهر وهم غيرُ ناظرين ومبصرين في الحقيقة، وكون الضمير المنصوب في ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٨] للأصنام يستدعي أن يكون

لأنهم صوّروا أصنامهم بصورة من قلب **(حدقته)** إلى الشيء ينظر إليه ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ المرئي.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

(﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾) هو ضد الجهد **(أي ما عفا لك)** من أخلاق الناس وأفعالهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله ﷺ: («**يسروا ولا تعسروا**») ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ بالمعروف والجميل من الأفعال، أو هو كل خصلة يرتضيها العقل ويقبلها الشرع ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عليهم، وفسّرها جبريل ﷺ بقوله: **(صِل مَن قطعك)** وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك. **(وعن الصادق)** أمر الله نبيّه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

المنصوب في تدعوهم أيضًا للأصنام، فيكون الضمير المرفوع للمشركين، والمعنى: أيّها المشركون إن تدعوا أصنامكم إلى أن يهدوكم ولا يسمعوا دعاءكم.
قوله: (حدقته) في المصباح: حَدَقة العين سوادَها. اهـ.

قوله: (﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾) هو ضدّ الجهد، **(أي ما عفا لك)**... الخ. أي العفو مصدر عفا بمعنى تسهّل وتيسّر وأُريد به ما يتيسّر، وخذ بمعنى اقبل وارْضَ مجازًا، أي ارْضَ منهم ما تيسّر من أخلاقهم وأفعالهم ولا تدقّق وتشدّد، والجهد بمعنى المشقّة.

قوله: **(يسّروا)** من اليُسْر ضدّ العسر، أي يسّروا على الناس بذكر ما يؤلّفهم لقبول الموعظة والتعليم **(ولا تُعسّروا)** قال العلقميّ: ذكر تأكيدًا، وإلّا فالأمر بالشيء نهي عن ضدّه؛ ولأنه لو اقتصر على اليُسْر صدق على مَنْ أبى به مرّة، وبالعُسْر بعض أوقاته، فلمّا قال: ولا تعسّروا انتفى العُسْر في كلّ الأوقات؛ رواه الإمام أحمد وغيره عن أنس رضي الله تعالى عنه. **قوله:** **(صِلْ مَنْ قطعك)** بأن تفعل معه ما تعدُّ به واصلًا من نحو تودّد.

قوله: **(وعن الصادق)** هو الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، الهاشمي المدني الصادق ﷺ.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ **(وإما ينخسنك منه نخس)** أي بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ولا تطعه. والنزغ: النخس كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. وجعل النزغ نازغًا كما قيل جد جده، أو أريد بنزغ الشيطان **(اعتراء الغضب)** كقول **(أبي بكر)** ﷺ: إن لي شيطانًا يعتريني ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لنزغه ﴿عَلِيمٌ﴾ بدفعه.

قوله: (وإمّا ينخسنك منه نخس) من باب قتل، وهو إدخال الإبرة وطرف العصا وما يشبهه في الجلد، كما يفعله السائق لحثّ الدواب، شبّه وسوسته للناس إغراءً لهم على المعاصي وإزعاجًا بغرز السائق ما يسوقه، يعني أنّ قوله تعالى: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٠] استعارة تبعيّة شبّه إغراء الشيطان الناس على المعاصي بوسوسته بالنَّزغ والغرز، واسْتُعِير له اسم النَّزغ ثم اشتقّ منه ينزغنك، وإلّا فليس هناك نزغ وغرز. **قوله: (اعتراء الغضب)** أي عروضه. في تاج العروس شرح القاموس: فلان تعروه الأضياف وتعتريه، أي تغشاه. اهـ.

قوله: (أبي بكر) الصدِّيق الأكبر خليفة رسول الله ﷺ، عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر، مَنْ يُحْصي مناقبه ويحيط بفضائله غير الله عزّ وجلّ. رُوِيَ للصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ مائة حديث واثنان وأربعون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على ستّة، وانفرد البخاري بأحد عشر، ومسلم بحديث، وسبب قلّة رواياته مع تقدُّم صحبته وملازمته النبيّ ﷺ أنه تقدَّمت وفاته قبل انتشار الأحاديث واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها، وكان النبيّ ﷺ يُكرمه ويُجلّه ويُعرّف أصحابه مكانه ويُثني عليه في وجهه، واستخلفه في الصلاة، ومناقبه غير مُنحصرة أجمعت الأُمّة على صحة خلافته وقدَّمته الصحابة رضي الله تعالى عنهم لكونه أفضلهم وأحقّهم بها من غيره، وحديث بَيْعته مشهور في الصحيحين معروف، وقد قال عليّ رضي الله تعالى عنه: قدّم رسول الله ﷺ أبا بكر يصلّي بالناس، وأنا حاضر غير غائب، وصحيح غير مريض، ولو شاء أن يقدِّمني لقدَّمني، فرضينا لدُنْيانا مَنْ رَضِيَه الله ورسوله لدِيننا. مات في جمادى الأُولى آخر يوم الاثنين سنة ثلاث عشرة، والصحيح أنه توفي وله ثلاث وستون سنة كرسول الله ﷺ، وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ («طيف» مكي وبصري وعلي أي لمة منه مصدر من قولهم «طاف به الخيال يطيف طيفًا». وعن أبي عمرو:) هما واحد وهي الوسوسة. وهذا تأكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأن عادة المتقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان (وإلمام) بوسوسته ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ ما أمر الله به ونهى عنه ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ فأبصروا (السداد) ودفعوا وسوسته. وحقيقته أن يفرّوا منه إلى الله فيزدادوا بصيرة من الله بالله.

﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس فإن الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ أي يكونون مددًا لهم فيه (ويعضدونهم «يُمدُّونهم» من الإمداد:

قوله: («طيْف») بياء ساكنة من غير ألف ولا همزة على وزن ضَيْف (مكّيّ) أي ابن كثير المكّي (وبصريّ) أي أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب البصري، وليس من السبعة. (وعليّ) الكسائي، والباقون بألف وهمزة مكسورة من غير ياء اسم فاعل من طاف يطوف، (أي لمَة منه) بفتح اللام من لمّ به إذا جاءه، أي عارضه من جهة الشيطان، والذي من جهته لا يكون إلّا الوسوسة، وطيف الشيطان لمّته وهو الخاطر الشيطاني، وطيف الخيال الصورة المتمثّلة في محل القوّة المتخيّلة، والأصل أنّ الخيال اسم بمعنى التخيّل وارتسام الصورة المذكورة في محلّها وطيْفها نزولها فيه، فالطيف (مصدر من قولهم: طاف به الخيال) أي ألمّ به ونزل (يطيف طيْفًا) والطائف ما دار حول الشيء.

قوله: (وعن أبي عمرو) بن العلاء البصري، أحد القرّاء السبعة كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر، وهو في النَّحو في الطبقة الرابعة من عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكان أبو عمرو رأسًا في حياة الحسن البصري مقدّمًا في عصره. توفي سنة أربع وخمسين ومائة بالكوفة. **قوله:** (إلْمام) أي نزول. **قوله:** (والسّداد) بالفتح، وهو الصواب.

قوله: (ويعضدونهم) في مختار الصِّحاح: عَضَده من باب نصر أعانه. اهـ. **قوله:** («يمدّونهم») بضمّ الياء وكسر الميم (من الإمداد،

مدني) ﴿ثُمَّ (لَا يُقْصِرُونَ)﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصرّوا ولا يرجعوا، وجاز أن يراد بالإخوان الشياطين ويرجع الضمير المتعلّق به إلى الجاهلين والأول أوجه، لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا. وإنما جمع الضمير في «إخوانهم» والشيطان مفرد لأن المراد به الجنس.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ (مقترحة) ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا اخترتها أي (اختلقتها) كما اختلقت ما قبلها ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ ولست بمقترح لها ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا القرآن دلائل تبصركم وجوه الحق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

فنزل ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ (ظاهره وجوب الاستماع والانصات وقت قراءة القرآن) في الصلاة وغيرها.

مدني) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. وقرأ الباقون بفتح الياء وضمّ الميم من مدّ. **قوله:** (﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾) من أقصر إذا أقلع وأمسك، وقُرِىء: «يقصرون» من قصر، وهو مجاز عن الإمساك أيضًا. اهـ شهاب. وفي فتح القدير: قرأ عيسى بن عمر: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٢] بفتح الياء وضمّ الصاد وتخفيف القاف. اهـ.

قوله: (مقترحة) أي مطلوبة. **قوله:** (اختلقتها) في مختار الصِّحاح: اختلقه وتخلّقه افتراه. اهـ.

قوله: (ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن)... الخ. قال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب: اختلف في سبب نزولها على وجه يبنى عليه معناها، فقال الجَصّاص: سببها كما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنّ النبيّ ﷺ قرأ في الصلاة وقرأ معه أصحابه، فخلطوا عليه؛ فنزلت. وكذا رَوى الشعبي وغيره، وهي تدلّ للحنفيّة في أنه لا يقرأ في سرّية ولا جهرية؛ لأنها

وقيل: معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له.

تقتضي وجوب الاستماع عند قراءة القرآن في الصّلاة وغيرها، وقد قام الدّليل في غيرها على جواز الاستماع وتركه، فبقي فيها على حالة في الإنصات للجهر، وكذا في الإخفاء لعِلْمنا بأنّه يقرأ وإنْ لم نسمعه، وقال مالك ﷺ: ينصت في الجهرية، ويقرأ في السرّية؛ لأنه لا يقال له مستمع، وقال الشافعي ﷺ: يقرأ في الجهريّة والسرّية في رواية المزني، وفي رواية البُويطيّ: أنه يقرأ في السرِّية أُمّ القرآن ويضمّ السورة في الأُوليين، ويقرأ في الجهريّة أُمّ القرآن فقط، وسبب نزول الآية كما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنهم كانوا يتكلّمون في الصلاة، فنزلت؛ فالنهي إنما هو التكلّم لا عن القراءة، وكون الاستماع خارج الصلاة مستحبًّا متفق عليه. اهـ.

وفي التفسيرات الأحمديّة: استدلّ بها بعض علماء الحنفيّة في أن ترك القراءة للمؤتمّ فرض؛ وذلك لأنّ الله تعالى أمر باستماع القرآن والإنصات عند قراءة القرآن مطلقًا، سواء كان في الصلاة أو في غيرها، ولكن لمّا كان عامّة العلماء غير قائلين بوجوب الاستماع خارج الصلاة، بل باستحبابه، وكان الآية ردّ على رجل من الأنصار يقرأ خلف رسول الله ﷺ في الصلاة على ما في الحُسينيّ، وكان جمهور الصحابة على أن الآية في استماع المؤتمّ خاصة، وقيل: في الخطبة، والأصح أنه فيهما جميعًا، على ما في المدارك ثبت أنّ القرآن واجب الاستماع في الصلاة وكمال ذلك لا يكون إلا بالسكوت، لا بالقراءة الخفيّة؛ لأنه لما أوجب الإنصات للاستماع في الصلاة أوجبه بكماله، وذلك فيما قلنا لا فيما قاله الشافعي رحمة الله عليه أنّ المؤتمّ يقرأ الفاتحة خلف الإمام سرًّا، ومن جملة حججه استدلاله بقوله تعالى فيما بعد: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٥] بأنه أمر للمؤتمّ بقراءة القرآن سرًّا خلف الإمام على وجه كما ذكره القاضي البيضاوي في تفسيره، والجواب أنه عند الأكثرين محمول على غيره، كما سيأتي تفصيله. ومن مشهور أدلّته المذكورة في كتب أصولنا قوله عليه الصّلاة والسّلام: «لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب»، فإنه محكم فلا يعارضه الآية المحتملة للمعاني، والجواب إن سلَّمنا أنّ لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب، ولكنّا نقول: قراءة الإمام للفاتحة كأنه قراءة المؤتم إيّاها، وأيضًا قد رَوَى مالك: «لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب والسورة»، فإيجاب الفاتحة على المؤتمّ دون السورة ترك العمل بما رواه الإمام مالك ﷺ، وهذا حجّة

وجمهور الصحابة ﷺ على أنه في استماع (المؤتم). وقيل: في استماع الخطبة. وقيل: فيهما وهو الأصح.

إلزام عليه، لا يقال: إنّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٤] لمّا كان عامًّا بين الصّلاة وخارجها، فاختصاصه في حقّ الصلاة و(المؤتم) تخصيص للعام، فيكون مخصوص البعض، وهو ظنّيٌّ؛ فكيف يتمسّك به لأنه لمّا كان ظنيًّا خرج عن الفرضية، بمعنى أنه لا يكفر جاحده، فبقي الوجوب، وهو كالفرض في حقّ العمل. وكذا لا يقال: إنه ينبغي أن يقرأ المؤتمّ في صلاة الظهر والعصر؛ إذ لا جهر فيهما حتى يفوت الاستماع، وذلك لأنه رُوِي أنّ المشروع في أوّل الإسلام هو الجهر في جميع الصلاة، ثم سقط في الصلاتين بعذر، وبَقِيت أحكامه جميعًا على حالها، وله نظائر كثيرة.

وكذا لا يقال: إنّ الآية إنما نزلت في حقِّ مَنْ يتكلّمون في الصلاة على ما في الكشاف والبيضاوي، فيوجب الإنصات عن كلام الدّنيا لا عن قراءة القرآن؛ لأن النص مطلق عن ذلك، فلا يخصّ بمورده. وكذا لا يقال: إنّ معناه عند البعض إذا تلا عليكم الرّسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له، على ما صرّح به صاحب المدارك على وجه؛ لأنه لا يخلو عن الظنّ بالمقصود لعموم اللفظ.

غاية ما في الباب أنّ الآية لمّا احتملت هذه الوجوه كان الاستدلال بقوله عليه السّلام: «مَنْ كان له إمام فقراءة الإمام قراءة له»، كما تمسّك به صاحب الهداية أوضح من الاستدلال بهذه الآية، ومجال الاختلاف في المسألة بالغ أقصاه حتى أوجب أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه الوعيد على القارىء، والشافعي رضي الله تعالى عنه: على التارك، فإن رأيت الطائفة الصوفية والمشائخ الحنفية تراهم يستحسنون قراءة الفاتحة للمؤتمّ كما استحسنه محمّد رحمه الله أيضًا احتياطًا فيما رُوي عنه. اهـ بحروفها.

وفي الدرّ المختار شرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان رضي الله تعالى عنه: (والمؤتمّ لا يقرأ مطلقًا) ولا الفاتحة في السرّية اتّفاقًا وما نُسِب لمحمد ضعيف، كما بسّطه الكمال، (فإن قرأ كُرِه تحريمًا)، وتصح في الأصح. وفي درر البحار عن مبسوط جواهر زاده: أنها تفسد ويكون فاسقًا،

....

وهو مرويّ عن عدّة من الصحابة، فالمنع أحوط، بل يستمع إذا جهر وينصت إذا أسرّ؛ لقول أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: كنّا نقرأ خلف الإمام فنزل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٤]، انتهى. وفي حاشيته للعلامة الشيخ محمد أمين الشهير بابن العابدين المسمّاة ردّ المحتار على الدرّ المختار. قوله: (ولا الفاتحة بالنصب) معطوف على محذوف تقديره: لا غير الفاتحة ولا الفاتحة، وقوله في السرّية: يعلم منه نفي القراءة في الجهرية بالأَولى، والمراد التعريض بخلاف الإمام الشافعي، وبردّ ما نُسِب لمحمّد. قوله: (اتّفاقًا) أي بين أئمّتنا الثلاثة. قوله: (وما نُسِب لمحمّد) أي من استحباب قراءة الفاتحة في السرّية احتياطًا. قوله: (كما بسطه الكمال) حاصله أنّ محمدًا قال في كتابه الآثار: لا نرى القراءة خلف الإمام في شيء من الصلوات يجهر فيها أو يسرّ، ودعوى الاحتياط ممنوعة، بل الاحتياط ترك القراءة؛ لأنه العمل بأقوى الدليلَيْن، وقد رُوي الفساد بالقراءة عن عدّة من الصحابة، فأقواهما المنع. قوله: (أنها تفسد) هذا مقابل الأصحّ. قوله: (وهو) أي الفساد المفهوم من تفسد. قوله: (مرويّ عن عدّة من الصحابة) قال في الخزائن وفي الكافي: ومنع المؤتمّ من القراءة مأثور عن ثمانين نفرًا من كبار الصحابة منهم المرتضى والعبادلة، وقد دوّن أهل الحديث أساميهم. قوله: (وينصت إذا أسرّ)، وكذا إذا جهر بالأولى. قال في البحر: وحاصل الآية أنّ المطلوب بها أمران الاستماع والسكوت، فيعمل بكلّ منهما، والأوّل يخصّ الجهرية، والثاني لا؛ فيجري على إطلاقه، فيجب السكوت عند القراءة مطلقًا.اهـ بحروفها. وفي حاشيته للعلامة الطحطاوي: قوله: (والمؤتمّ لا يقرأ) ودعوى أنّ الاحتياط في القراءة خلفه ممنوعة، بل الاحتياط تركها؛ لأن العمل بأقوى الدليلَيْن. وقد رُوِي عن عدّة من الصحابة فساد الصلاة بالقراءة خلفه، فأقواهما المنع بجرّ. قوله: (ولا الفاتحة في السرّية) تفسيرًا للإطلاق، ورُوِي عن محمّد استحسانها في السرّية، وهو ضعيف كما أفاده الشارح بقوله: وما نُسِب. . . الخ. فالحقّ أنّ قول محمّد كقولهما، كما في الفتح. قوله: (كُرِه تحريمًا) إنما لم يطلقوا اسم الحُرْمة عليها لِمَا عُرِف مِنْ أصلهم أنهم لا يُطْلِقونها إلّا إذا كان الدليل قطعيًّا. قوله: (وتصحّ في الأصحّ)، ورُوِي عن عدّة من الصحابة فسادها، كما في

....

الزاهدي والظهيريّة، وعن ابن مسعود ﷺ: أنه يملأ فمه ترابًا. وعن الشعبي: أدركت سبعين بدريًا كلّهم قالوا: لا يقرأ خلف الإمام، كما في الكرمانيّ. قوله: (وفي درر البحار) مقابل الأصحّ. قوله: (ويكون فاسقًا) الظاهر أنّ ذلك عند الاعتياد؛ لأنه صغيرة، ولا يفسق بمرّة. قوله: (وهو) أي الفساد المأخوذ من تفسد. قوله: (وينصت إذا أسرّ) تبع في هذا صاحب النهر، وفي البحر: الإنصات لا يخصّ الجهريّة، فظاهره أنه يعمّ السرّية والجهريّة. قوله: (فنزل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ﴾)... الخ. أفاد أنّ الآية نزلت في الصلاة، وهو قول أهل التفسير، ومنهم مَنْ قال: نزلت في الخطبة، ولا تنافي بينهما؛ لأنهم إنما أُمِرُوا بهما فيها لِمَا فيها من قراءة القرآن كافي، والعِبْرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، ولذا وجب الاستماع لقراءته خارج الصلاة أيضًا.اهـ بحروفها. وفي الدرّ المختار: يجب الاستماع للقراءة مطلقًا؛ لأن العبرة لعموم اللفظ. انتهى. وفي حاشيته ردّ المحتار. قوله: (يجب الاستماع للقراءة مطلقًا) أي في الصلاة وخارجها؛ لأن الآية وإنْ كانت واردة في الصلاة على ما مرّ، فالعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، ثم هذا حيث لا عذر، ولذا قال في القنية: صبي يقرأ في البيت وأهله مشغولون بالعمل يُعْذرون في ترك الاستماع إن افتتحوا العمل قبل القراءة، وإلّا فلا؛ وكذا قراءة الفقه عند قراءة القرآن، وفي الفتح عن الخلاصة: رجل يكتب الفقه وبجنبه رجل يقرأ القرآن، فلا يمكنه استماع القرآن، فالإثم على القارىء، وعلى هذا لو قرأ على السطح والناس نيام يأثم.اهـ. أي لأنه يكون سببًا لإعراضهم عن استماعه، أو لأنه يؤذيهم بإيقاظهم، تأمّل. وفي شرح المنية: والأصل أنّ الاستماع للقرآن فرض كفاية؛ لأنه لإقامة حقّه بأن يكون ملتفتًا إليه غير مضيّع، وذلك يحصل بإنصات البعض، كما في ردِّ السلام حين كان لرعاية حقّ المسلم كفى فيه البعض عن الكلّ، إلا أنه يجب على القارىء احترامه بأن لا يقرأه في الأسواق ومواضع الاشتغال، فإذا قرأه فيها كان هو المضيّع لحرمته، فيكون الإثم عليه دون أهل الاشتغال دفعًا للحرج، وتمامه في ط ـ يعني حاشية الطحطاوي على الدرّ المختار ـ ونقل الحموي عن أستاذه قاضي القضاة يحيىٰ الشهير بمنقاري زاده أنّ له رسالة حقّق فيها أنّ استماع القرآن فرض عين.اهـ بحروفها. وعبارة حاشية

....

الطحطاوي: رجل يكتب الفقه وبجنبه رجل يقرأ القرآن ولا يمكنه استماع القرآن، فالإثم على القارىء، ولو قرأ على السطح في اللّيل جهرًا والناس نيام يأثم. الصبيّ إذا كان يقرأ القرآن وأهله يشتغلون بالأعمال، ولا يستمعون إنْ كانوا شرعوا في العمل قبل قراءته لا يأثمون، ولا أثموا بحر، ولو كان القارىء في المكتب واحدًا يجب على المارّين الاستماع، وإنْ كانوا أكثر ويقع الخلل في الاستماع لا يجب عليهم ويكره للقوم أن يقرؤوا القرآن جملةً لتضمّنها ترك الاستماع والإنصات. وقيل: لا بأس به، كذا في القنية. وهذا لا يظهر إلّا إذا لم يكن هناك مستمع غيرهم، وإلّا لا يكره لما قالوا: إنّ الاستماع فرض كفاية؛ لأنه لإقامة حقه من الالتفات إليه وعدم إضاعته، وذلك يحصل بإنصات البعض، كما في ردّ السلام حيث كان لرعاية حقّ المسلم كفى فيه البعض عن الكلّ، ويجب على القارىء احترامه بأن لا يقرأ في الأسواق ومواضع الاشتغال، فإنْ قرأ فيها كان هو المضيّع لحُرْمته، فيكون الإثم عليه دون أهل الاشتغال دفعًا للحرج في إلزامهم ترك اشتغالهم المحتاج إليها، وكذا لو قرأ عند مَنْ يستغلّ بالتدريس أو بتكرار الفقه؛ لأنه إذا أُبيح ترك الاستماع لضرورة المعاش الدنيويّ، فلأن يُباح لضرورة الأمر الدّيني أوْلى، فيكون الإثم على القارىء، هذا إذا سبق الدَّرس على القراءة. أمّا إذا كان ابتداء القراءة قبل الدّرس، فالإثم على المتأخّر، والفرق بين هذا وبين موضع الاشتغال حيث يكون الإثم على القارىء وإن ابتدأ قبل أخذهم في أعمالهم بأنّ تلك المواضع مُعدَّة لهم يَعْسُر عليهم الاشتغال عنها، بخلاف الدَّرْس. اهـ شرح المنية. اهـ بحروفها.

وفي تيسير الوصول إلى جامع الأُصول عن جابر، قال: «مَنْ صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأُمّ القرآن، فلم يصلّ إلّا وراء الإمام» أخرجه مالك والترمذي. اهـ. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، انتهى.

وفي عمدة القاري شرح البخاري قال بعضهم: استدلّ مَنْ أسقط قراءة الفاتحة عن المأموم مطلقًا، يعني أَسَرّ الإمام أو جهر، كالحنفيّة بحديث: «مَنْ صلّى خلف الإمام فقراءة الإمام قراءة له»، لكنّه حديث ضعيف عند الحفّاظ، وقد استوعب طرقه، وعلّله الدارقطني وغيره.

....

قلت: هذا الحديث رواه جماعة من الصحابة، وهم جابر بن عبد الله، وابن عمر، وأبوسعيد الخدري، وأبو هريرة، وابن عباس، وأنس بن مالك رضي الله تعالى عنهم؛ فحديث جابر أخرجه ابن ماجة عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان له إمام، فإنّ قراءة الإمام له قراءة»، وحديث ابن عمر أخرجه الدارقطني في سننه عنه عن النبيّ ﷺ قال: «مَنْ كان له إمام فقراءته له قراءة»، وحديث أبي سعيد أخرجه الطبراني في الأوسط عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان له إمام فقراءته له قراءة»، وحديث أبي هريرة أخرجه الدارقطني في سننه من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا نحوه سواء، وحديث ابن عباس أخرجه الدارقطني أيضًا عنه عن النبيّ ﷺ قال: «يكفيك قراءة الإمام خافَتَ أو جهر»، وحديث أنس أخرجه ابن حبان في كتاب الضعفاء عن غنيم بن سالم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان له إمام، فقراءة الإمام له قراءة».

فإن قلت: في حديث جابر بن عبد الله جابر الجعفر، وهو مجروح كذّبه أبو حنيفة ﷺ، وفي حديث أبي سعيد إسماعيل بن عمرو بن نجيح وهو ضعيف، وحديث ابن عمر موقوف، وقال الدارقطني: رفعه وهم، وحديث ابن عباس عن أحمد هو حديث منكر، وقال الدارقطني: حديث أبي هريرة ﷺ لا يصح عن سهيل، وتفرّد به محمد بن عبادة، وهو ضعيف. وفي حديث أنس غنيم بن سالم قال ابن حبان: هو مخالف الثقات في الروايات، فلا تعجبني الرواية عنه، فكيف الاحتجاج؟!

قلت: أمّا حديث جابر، فله طرق أخرى يشدّ بعضها بعضًا، منها طريق صحيح، وهو ما رواه محمد بن الحسن في الموطأ عن أبي حنيفة، قال: أخبرنا الإمام أبو حنيفة، حدّثنا أبو الحسن موسى بن أبي عائشة، عن عبد الله بن شداد، عن جابر عن النبيّ عليه السلام: «مَنْ صلّى خلف الإمام، فإنّ قراءة الإمام له قراءة».

فإن قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطني في سننه، ثم البيهقي عن أبي حنيفة مقرونًا بالحسن بن عمارة، وعن الحسن بن عمارة وحده بالإسناد المذكور،

....

ثم قال: هذا الحديث لم يُسنده عن جابر بن عبد الله غير أبي حنيفة، والحسن بن عمارة وهما ضعيفان، وقد رواه سفيان الثوري وأبوالأحوص وشعبة وإسرائيل وشريك وأبو خالد الدالاني وسفيان بن عيينة وغيرهم عن أبي الحسن بن أبي عائشة عن عبد الله بن شدّاد عن النبيّ عليه السلام مرسلًا، وهو الصواب.

قلت: لو تأدّب الدارقطني واستحى لما تلفّظ بهذه اللفظة في حقّ أبي حنيفة، فإنه إمام طبق على علمه الشرق والغرب، ولمّا سُئِل ابن معين عنه، فقال: ثقة مأمون ما سمعنا أحدًا ضعّفه، هذا شعبة بن الحجاج يكتب إليه أن يحدّث إليه، وشعبة شعبة. وقال أيضًا: كان أبو حنيفة ﷺ من أهل الدِّين والصدق، ولم يتهم بالكذب، وكان مأمونًا على دين الله صدوقًا في الحديث، وأثنى عليه جماعة من الأئمّة الكبار مثل عبد الله بن المبارك، ويُعَدّ من أصحابه، وسفيان بن عُيَيْنة وسفيان الثوري وعبد الرزاق وحماد بن زيد ووكيع، وكان يفتي برأيه، والأئمّة الثلاثة: مالك والشافعي وأحمد وآخرون كثيرون، فقد ظهر لك من هذا تحامل الدارقطني عليه وتعصّبه الفاسد، وليس له مقدار بالنسبة إلى هؤلاء حتى يتكلّم في إمام متقدّم على هؤلاء في الدِّين والتقوى والعلم وبتضعيفه إيّاه مستحقّ هو التضعيف، أفلا يرضى بسكون أصحابه عنه؟! وقد رُوِي في سننه أحاديث سقيمة ومعلولة ومُنكرة وغريبة وموضوعة، ولقد روى أحاديث ضعيفة في كتب الجهر بالبسملة واحتجّ بها مع علمه بذلّك حتى بعضهم استحلفه على ذلك، فقال: ليس فيه حديث صحيح، ولقد صدق القائل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه والقوم أعداءٌ له وخصوم

إلى هنا عبارة عُمْدة القاري شرح البخاري.

وقال العلّامة العيني رحمه الله: في شرح الهداية بعد هذا الشعر وفي المثل السائر: البحر لا يكدره وقوع الذباب، ولا ينجسه ولوغ الكلاب، وحديث أبي حنيفة حديث صحيح. أمّا أبو حنيفة وأبو الحسن موسى بن أبي عائشة الكوفي من الثقات الأثبات ومن رجال الصحيحَيْن، وعبد الله بن شداد من كبار الثالثة وثقاتهم، انتهى بحروفه.

....

وفي عمدة القاري شرح البخاري: وأمّا قوله: وقد رواه سفيان الثوري... إلى آخره، فلا يضرّنا؛ لأن الزيادة من الثقة مقبولة، ولئن سلّمنا، فالمرسل عندنا حجّة.

وجوابنا عن الأحاديث التي قالوا في أسانيدها ضعف؛ لأن الضعف يتقوّى بالصحيح ويقوّي بعضها بعضًا. وأمّا قوله: في بعضها هو موقوف، فالموقوف عندنا حجّة؛ لأن الصحابة عدول، ومع هذا رُوِيَ منع القراءة خلف الإمام عن ثمانين من الصحابة الكرام منهم المرتضى والعبادلة الثلاثة وأساميهم عند أهل الحديث، فكان اتّفاقهم بمنزلة الإجماع، فمِنْ هذا قال صاحب الهداية من أصحابنا: وعلى ترك القراءة خلف الإمام إجماع الصحابة، فسمّاه إجماعًا باعتبار اتّفاق الأكثر، ومثل هذا يسمّى إجماعًا عندنا، وذكر[1] الشيخ الإمام عبد الله ابن يعقوب الحارثي السُّبَذْموني في كتاب كشف الأسرار: عن عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه، قال: كان عشرة من أصحاب النبيّ ﷺ ينهون عن القراءة خلف الإمام أشد النهي: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعثمان بن عفان، وعليّ بن أبي طالب، وعبد الرحمـٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم.

قلت: روى عبد الرزاق في مصنّفه: أخبرني موسى بن عقبة أنّ رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا ينهون عن القراءة خلف الإمام، انتهت.

وأيضًا فيها: فإن قلت: أخرج البيهقي من حديث الجريري عن أبي الأزهري، قال: سُئِل ابن عمر عن القراءة خلف الإمام، فقال: إني لأستحي من ربّ هذه البنية أن أصلّي صلاة لا أقرأ فيها بأُمّ القرآن.

---

(١) قوله الشيخ الإمام عبد الله ابن يعقوب، أي: عبد الله بن محمد بن يعقوب بن الحارث بن الخليل الحارثي السبذموني ـ بضم السين أو فتحها وفتح الباء الموحدة وسكون الذال المعجمة وضمّ الميم، وفي آخرها نون ـ نسبة إلى قرية من قرى بخارى المعروف بالأستاذ، كان مُكثرًا من الحديث، وله كتاب كشف الآثار في مناقب أبي حنيفة، ومصنف مسند أبي حنيفة ولما أملى مناقب أبي حنيفة كان يشمل عليه أربعمائة مشتمل، وله تصانيف. المتوفى سنة ٣٤٠ أربعين وثلاثمائة. ١٢ ح عمّ فيضهم.

....

قلت: هذه معارضة باطلة، فإنّ إسناد ما ذكره منقطع، والصحيح عن ابن عمر عدم وجوب القراءة خلف الإمام.

فإن قلت: قوله عليه الصّلاة والسلام: «قراءة الإمام قراءة له» معارض لقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾ [المُزمّل: الآية ٢٠]، فلا يجوز تركه بخبر الواحد.

قلت: جعل المقتدي قارئًا بقراءة الإمام، فلا يلزم التّرك، أو نقول: إنه خصّ منه المقتدي الذي أدرك الإمام في الركوع، فإنه لا تجب عليه القراءة بالإجماع، فتجوز الزيادة عليه حينئذ بخبر الواحد، انتهت.

وأيضًا فيها: ومما يؤيّد ما ذهب إليه أصحابنا ما أخرجه أبو داود من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جُعِل الإمام ليُؤْتَمّ به» بهذا الخبر وزاد: «وإذا قرأ فأنصتوا»، ورواه النسائي وابن ماجة والطحاوي، وهذا حجّة صريحة في أن المقتدي لا يجب عليه أن يقرأ خلف الإمام أصلًا على الشافعيّ في جميع الصلوات، وعلى مالك في الظهر والعصر.

فإن قلت: قد قال أبوداود عقيب إخراجه هذا الحديث: وهذه الزيادة ـ يعني: «إذا قرأ فأنصتوا» ـ ليست بمحفوظة الوهم من أبي خالد عندنا، وأبو خالد أحد رواته، واسمه سليمان بن حيان ـ بفتح الحاء وتشديد الياء آخر الحروف ـ وهو من رجال الجماعة، وقال البيهقي في المعرفة: أجمع الحفّاظ على خطأ هذه اللفظة، وأسند عن ابن معين في سننه الكبرى، قال في حديث ابن عَجْلان وزاد: «وإذا قرأ فأنصتوا» ليس بشيء، وكذا قال الدارقطني في حديث أبي موسى الأشعري: «وإذا قرأ الإمام فأنصتوا» وقد رواه أصحاب الحفّاظ عنه منهم هشام الدَّسْتَوائيّ وسعيد وشعبة وهُمام وأبو عوانة وأبان وعديّ بن أبي عمارة، ولم يقل واحد منهم: «وإذا قرأ فأنصتوا»، قال: وإجماعهم يدلّ على وَهْمه. وعن أبي حاتم: ليست هذه الكلمة محفوظة، إنما هي من مغاليط ابن عَجْلان.

قلت: لي في هذا كلّه نظر. أمّا ابن عجلان، فإنه وثّقه العجلي وابن وفى الكمال ثقة كثير الحديث، وقال الدارقطني: إنّ مسلمًا أخرج له في صحيحه.

....

قلت: أخرج له الجماعة البخاري مستشهدًا، وهو محمد بن عجلان المدني، فهذا زيادة ثقة فتُقبل، وقد تابعه عليها خارجة بن مصعب ويحيىٰ بن العلاء، كما ذكره البيهقي في سننه الكبير. وأمّا أبو خالد، فقد أخرج له الجماعة كما ذكرنا. وقال إسحٰق بن إبراهيم: سألت وكيعًا عنه، فقال: وأبو خالد ممّن يسأل عنه، وقال أبو هشام الرفاعي: أبو خالد الأحمر الثقة الأمين، ومع هذا فلم ينفرد بهذه الزيادة، وقد أخرج النسائي كما ذكرنا هذا الحديث بهذه الزيادة من طريق محمد بن سعد الأنصاري، ومحمد بن سعد وثّقه يحيىٰ بن معين، وقد تابع ابن سعد هذا أبو خالد، وتابعه أيضًا إسمٰعيل بن أبان كما أخرجه البيهقي في سننه، وقد صحّح مسلم هذه الزيادة من حديث أبي موسى الأشعري، ومن حديث أبي هريرة وقال أبو بكر لمسلم حديث أبي هريرة، يعني: «إذا قرأ فأنصتوا»، قال: هو عندي صحيح، فقال: لِمَ لا تضعه هٰهنا؟ قال: ليس كل شيء صحيح وضعته هٰهنا، وإنما وضعت هٰهنا ما أجمعوا عليه، وتوجد هذه الزيادة أيضًا في بعض نسخ مسلم عقيب الحديث المذكور، وفي التمهيد بسنده عن ابن حنبل أنه صحّح الحديثين - يعني حديث أبي موسى وحديث أبي هريرة - والعجب من أبي داود أنه نَسَب الوهم إلى أبي خالد، وهو ثقة بلا شكّ، ولم ينسبه إلى ابن عَجْلان، وفيه كلام، ومع هذا أيضًا فابن خزيمة صحّح حديث ابن عجلان، انتهت. هذا والتفصيل فيها إن شئت، فارجع إليها.

وقال العلّامة العينيّ رحمه الله في شرح الهداية: وهذا مسلم جبل من جبال أئمّة الحديث وأهل النقل قد حكم بصحّة هذا الحديث، وردّ بهذا كلام البيهقي وأمثاله، انتهى.

وقال العلّامة علاء الدين علي رحمة الله عليه: ذكر البيهقي باب مَن قال لا يقرأ خلف الإمام على الإطلاق حديث الحسن بن صالح عن جابر، وليث بن أبي سليم عن أبي الزبير عن جابر، قال ﷺ: «مَنْ كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، ثم قال: جابر الجعفي وليث لا يحتجّ بهما.

قلت في مصنّف ابن أبي شيبة: ثنا مالك بن إسمٰعيل، عن حسين بن صالح، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبيّ ﷺ قال: «مَنْ كان له إمام فقراءته له

....

قراءة»، وهذا سند صحيح، وكذا رواه أبو نعيم عن الحسن بن صالح، عن أبي الزبير، ولم يذكر الجعفي، كذا في أطراف المزي، وتوفّي أبو الزبير سنة ثمان وعشرين ومائة، ذكره الترمذي. وعمرو بن عليّ والحسن بن صالح وُلد سنة مائة، وتوفي سنة سبع وستّين ومائة، وسماعه من أبي الزبير مُمكن، ومذهب الجمهور أنّ مَنْ أمكن لقاءه لشخص ورَوى عنه فروايته محمولة على الاتّصال، فيُحْمل على أنّ الحسن سمعه من أبي الزبير مرّة بلا واسطة، ومرّة أخرى بواسطة الجعفي وليث، انتهى.

وأيضًا قال: الصحيح عن جابر أن المؤتمّ لا يقرأ مطلقًا، كما صرَّح به البيهقي أوّلًا، وقال ابن أبي شَيْبة في المصنّف: حدَّثنا وكيع، عن الضحاك بن عثمان، عن عبيد الله بن مقسم، عن جابر قال: لا تقرأ خلف الإمام، وهذا سند صحيح متّصل على شرط مسلم، انتهى.

وأيضًا قال عن ابن مسعود بسند صحيح: أنه لا قراءة خلف الإمام مطلقًا، ورواه ابن مسعود عن النبيّ ﷺ، قال البزار: حدَّثنا محمد بن بشار وعمرو بن عليّ قالا: حدَّثنا أبو أحمد، أنا يونس بن أبي إسحٰق، عن أبيه، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كانوا يقرؤون خلف النبيّ عليه السلام، فقال: «خلطتم عليّ القرآن»، وهذا سند جيّد، ثم ذكر البيهقي عن ابن عمر قال: «من صلّى وراء الإمام كفاه قراءة الإمام»، ثم قال: هذا هو الصحيح من قوله، وقد رُوِي عنه بخلافه، ثم ذكر بسنده أنه سُئِل عن القراءة خلف الإمام، فقال: إني لأستحي من رب هذه البنية أن أصلّي صلاة لا أقرأ فيها بأُمّ القرآن.

قلت: المشهور عنه عدم وجوب القراءة خلف الإمام، وقد ذكر البيهقي بعد هذا من طريقين عنه ما يدلّ على ذلك، وروى عبد الرزّاق في مصنّفه عن الثوري، عن ابن ذكوان، عن زيد بن ثابت وابن عمر كانا يقرءان خلف الإمام، ورُوِي أيضًا عن هشام بن حسان، عن أنس بن سيرين: سألت ابن عمر: أقرأ مع الإمام؟ فقال: إنك لضخم البطن، يكفيك قراءة الإمام. ورُوِي أيضًا: أنا داود بن قيس، عن زيد بن أسلم أنّ ابن عمر كان ينهى عن القراءة خلف الإمام، انتهى.

....

وفي شرح الموطأ للإمام محمد للعلّامة علي القاري كَلَلله: (أخبرنا مالك، حدّثنا نافع، عن ابن عمر أنّه كان إذا سُئِل: هل يقرأ أحد مع الإمام؟ قال: إذا صلّى أحدكم مع الإمام فحسبه قراءة الإمام)، أي يكفيه وظاهره المنع عن قراءة المأموم، كما يشير إليه قوله: (وكان ابن عمر لا يقرأ مع الإمام) أي مطلقًا على ما هو الظاهر، وهذا يؤيّد مذهبنا، انتهى.

وأيضًا فيه: (قال محمد: لا قراءة خلف الإمام فيما جهر فيه، ولا فيما لم يجهر بذلك جاءت الآثار)، أي أكثر الأخبار (وهو قول أبي حنيفة) أي وأصحابه الأخيار. وفي شرح الهداية لابن الهمام: قال محمد في الآثار في القراءة خلف الإمام بعدما أسند إلى علقمة بن قيس: أنه ما قرأ قطّ فيما يجهر فيه وفيما لا يجهر فيه، وبه نأخذ لا نرى القراءة خلف الإمام في شيء من الصلاة يجهر فيه أو لا، انتهى.

وقال العلّامة علاء الدين علي كَلَلله في أحكام القرآن للطحاوي: حدَّثنا أحمد بن داود، أنا يوسف بن عدي، حدَّثنا عبيد الله بن عمرو، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس قال رسول الله ﷺ ثلاثًا: «أتقرأون والإمام يقرأ»؟ فقالوا: إنا لنفعل، فقال: «لا تفعلوا»، ثم ذكر البيهقي عن عليّ ما يدلّ على القراءة خلف الإمام، ثم قال: وفي كل ذلك دلالة على ضعف ما رُوِي عن عليّ بخلافه بأسانيد لا تسوى ذكرها لضعفها.

قلت: الصواب أن يقال: لا تساوي، ثم المرويّ عن عليّ منع القراءة خلف الإمام، ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه، فقال: حدَّثنا محمد بن سليمان الأصبهاني، عن عبد الرحمن ابن الأصبهاني، هو ابن عبد الله، عن ابن أبي ليلى، عن عليّ قال: مَنْ قرأ خلف الإمام فقد أخطأ الفطرة، ومحمد ابن الأصبهاني قال الذهبي: صدوق، وقال أبو حاتم: قوله يحتجّ به، وقال في الكاشف: أخرج له الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقوّاه ابن حبان وباقي السند على شرط الصحيح، وقد جاء لمحمد ابن الأصبهاني في ذلك متابعة، فروى الدارقطني في سننه من طريق عبد العزيز بن محمد، حدَّثنا قيس، عن عبد الرحمن ابن الأصبهاني فذكره بسنده،

....

وهذا الأثر وإن اضطرب سنده لكنه من هذا الوجه لا بأس به، وروى عبد الرزاق في مصنّفه عن داود بن قيس، عن محمد بن عَجْلان، قال: قال عليّ: مَنْ قرأ مع الإمام فليس على الفطرة[١]، قال: وقال ابن مسعود: مُلِيء فوه ترابًا، قال: وقال عمر بن الخطّاب: وددت[٢] أنّ الذي يقرأ خلف الإمام في فيه حجر[٣]، وقال صاحب التمهيد: ثبت عن عليّ وسعد وزيد بن ثابت أنّه لا قراءة مع الإمام لا فيما أسرّ ولا فيما جهر، وروى عبد الرزاق عن الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود، قال: وددتّ أنّ الذي يقرأ خلف الإمام مُلِيء فوه ترابًا، وعن معمر عن أبي إسحٰق أنّ علقمة قال: وددت الذي يقرأ خلف الإمام مليء فوه ـ أحسبه قال: ترابًا ـ أو رضفًا[٤]، وقال ابن أبي شيبة: حدَّثنا الأحمر عن الأعمش عن إبراهيم قال: أوّل ما أحدثوا القراءة خلف الإمام، وكانوا لا يقرؤون، ثم ذكر البيهقي عن ابن مسعود أنه قرأ خلف الإمام في الظهر والعصر.

قلت: في سنده شريك هو القاضي، قال البيهقي في باب الرجل يأخذ حقّه ممن يمنعه: لم يحتجّ به أكثر أهل العلم بالحديث، وقال في باب مَنْ زرع في أرض غيره بغير إذنه: كان يحيىٰ القطان لا يروى عنه ويضعّف حديثه جدًّا، وقد مرّ عن ابن مسعود خلاف هذا، وجاء أيضًا عنه بسند صحيح أنه لا قراءة خلف الإمام. قال ابن أبي شيبة: حدَّثنا أبو الأحوص، عن منصور، عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: أقرأ خلف الإمام؟ فقال: إنّ في الصلاة شغلًا وسيكفيك قراءة الإمام، ثم ذكر البيهقي أنّ ابن عباس ممّن رُوِيَ عنه القراءة خلف الإمام.

---

(١) في عمدة القاري شرح البخاري: أي إذ ليس على شرط الإسلام، وقيل: ليس على السنّة. اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٢) في الموطأ للإمام أحمد: أن عمر بن الخطاب قال: ليت في فم الذي يقرأ خلف الإمام حجرًا. اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٣) أي ليمنعه عن القراءة، أو أراد زجره بهذه العبارة، كذا في شرح الموطأ للإمام أحمد للعلامة علي القاري رحمه الله. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٤) في المصباح: الرّضف الحجارة المُحمّاة، الواحدة رضفة، مثل تمر وتمرة. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

قلت: رُوِي عنه خلاف هذا، قال الطحاوي في أحكام القرآن: حدَّثنا إبراهيم بن أبي داود، حدَّثنا أبو صالح عبد الغفار بن داود الحرّاني، حدَّثنا حماد بن مسلمة، عن أبي جمرة: قلت لابن عباس: أقرأ والإمام بين يديّ؟ قال: لا، ثم ذكر البيهقي أنّ أبا الدرداء وجابرًا منهم.

قلت: قد جاء عنهما خلاف هذا، فذكر البيهقي في باب مَنْ قال لا يقرأ حديث جابر: «مَنْ كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، ثم قال: الصحيح أنه من قول جابر، ثم ذكر حديث أبي الدرداء: «ما أرى الإمام إذا أمّ القوم إلّا قد كفاهم»، ثم حُكِي عن الدارقطني أنه قال: الصواب أنه من قول أبي الدرداء، انتهى.

وفي فتح القدير: قد رُوِي من طرق عديدة مرفوعًا عن جابر بن عبد الله عنه عليه الصّلاة والسّلام، وقد ضعّف واعترف المضعّفون رفعه، مثل الدارقطني والبيهقي وابن عدي بأن الصحيح أنه مرسل؛ لأن الحفّاظ كالسفيانين وأبي الأحوص وشعبة وإسرائيل وشريك وأبي خالد الدالاني وجرير وعبد الحميد وزائدة وزهير رَوَوْهُ عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شدّاد عن النبيّ ﷺ فأرسلوه، وقد أرسله مرّة أبو حنيفة رحمه الله كذلك.

فنقول: المرسل حجّة عند أكثر أهل العلم، فيكفينا فيما يرجع إلى العمل على رأينا، وعلى طريق الإلزام أيضًا بإقامة الدليل على حجّية المرسل، وعلى تقدير التنزّل على حجيّته فقد رفعه أبو حنيفة رحمه الله بسند صحيح. روى محمد بن الحسن في موطئه: أخبرنا أبو حنيفة رحمه الله، حدَّثنا أبو الحسن موسى بن أبي عائشة، عن عبد الله بن شدّاد، عن جابر رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَنْ صلّى خلف الإمام، فإن قراءة الإمام له قراءة». وقولهم: إنّ الحفّاظ الذين عدوهم لم يرفعوه غير صحيح، قال أحمد بن منيع في مسنده: أخبرنا إسحٰق الأزرق، حدَّثنا سفيان وشريك عن موسى بن أبي عائشة، عن عبد الله بن شدّاد، عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، قال: وحدّثنا جرير، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبد الله بن شدّاد، عن

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هو عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (متضرعًا وخائفًا) ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ

النبيّ ﷺ فذكره، ولم يذكر عن جابر، ورواه عبد الحميد، حدَّثنا أبو نعيم، حدَّثنا الحسن بن صالح، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبيّ ﷺ فذكره، وإسناد حديث جابر الأوّل صحيح على شرط الشيخين، والثاني على شرط مسلم؛ فهؤلاء سفيان وشريك وجرير وأبو الزبير رفعوه بالطرق الصحيحة، فبطل عدّهم فيمن لم يرفعه، ولو تفرّد الثقة وجب قبوله؛ لأن الرفع زيادة، وزيادة الثقة مقبولة، فكيف ولم يتفرّد؟ والثقة قد يسند الحديث تارة ويرسله أخرى. انتهى هذا. والتفصيل فيه إن شئت فارجع إليه.

وأيضًا فيه: إن حديث المَنْع: «مَنْ كان له إمام» أصح، فبطل ردّ المتعصّبين وتضعيف بعضهم لمثل أبي حنيفة مع تضعيفه في الرواية إلى الغاية، انتهى باختصار.

وفي شرح الموطأ للإمام محمد رحمه الله للعلّامة علي القاري عليه رحمة الله الباري، قال محمد: أخبرنا داود بن قيس، قال محمد: حدَّثنا عمر بن محمد بن زيد، عن موسى بن سعد بن زيد بن ثابت يحدّثه عن جدّه، أي زيد بن ثابت الأنصاري كاتب الوحي وأعلم الصحابة بالفرائض ومن أجلّاء أئمّة القراءات بالمدينة سنة خمس وأربعين أنه (قال: من قرأ خلف الإمام فلا صلاة له)، أي كاملة، وقيل صحيحة، انتهى بحروفه.

وأيضًا فيه وفي غيره نقلًا عن ابن الهمام: لا يخفى أن الاحتياط في عدم القراءة خلف الإمام؛ لأن الاحتياط هو العمل بأقوى الدليلَيْن، وليس مقتضى أقواهما القراءة، كيف وقد رُوِيَ عن عدَّة من الصحابة فساد الصلاة بالقراءة خلفه، فأقواهما المَنْع. انتهى.

قوله: (متضرعًا وخائفًا) أي هو حال بتأويله باسم الفاعل، وأصل خيفة خوفة، فوقعت الواو ساكنة إثر كسرة فقُلِبت ياء، فهو واويّ من الخوف. **قوله:**

﴿ٱلْقَوْلِ﴾ (ومتكلّمًا كلامًا) دون الجهر لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ لفضل هذين الوقتين. وقيل: المراد إدامة الذكر باستقامة الفكر. ومعنى بالغدو بأوقات الغدو وهي الغدوات، (﴿وَٱلْآصَالِ﴾ جمع أُصُل والأصل جمع أصيل وهو العشي) ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مكانة ومنزلة لا مكانًا ومنزلًا يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يتعظمون عنها ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه عما لا يليق به ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره والله أعلم.

(ومتكلّمًا كلامًا). . . الخ. أي هو صفة لمعمول حال محذوفة. **قوله:** (﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾) جمع غدوة، وهي ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. **قوله:** (﴿وَٱلْآصَالِ﴾ جمع أُصُل) بضمّتين (والأصل جمع أصيل) فهو جمع الجمع. **قوله:** (وهو العشيّ) في المصباح: العشيّ قيل: ما بين الزوال إلى الغروب، ومنه يقال للظهر والعصر: صلاتا العشيّ، وقيل: هو آخر النهار، وقيل: العشيّ من الزوال إلى الصباح، وقيل: العشي والعشاء من صلاة المغرب إلى العتمة.

هذا آخر ما أردنا تعليقه على سورة الأعراف، اللّهمّ يسّر لنا الإتمام ببركة خاتم الأنبياء عليه وعلى آله وعلى سائر الأنبياء وآلهم أفضل الصلاة والسلام.